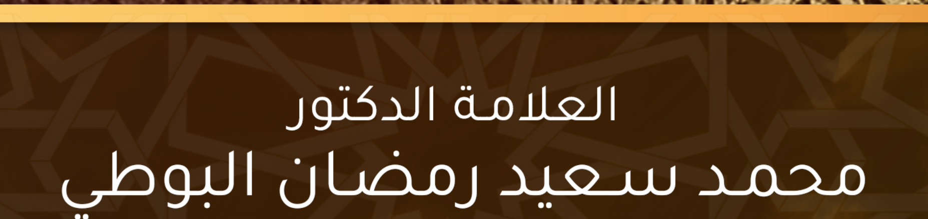


الموسوعة المنبرية

تتضمن أكثر من خمسمائة خطبة جمعة
مصنفة حسب الموضوعات والمناسبات

جمع وإعداد فريق
موقع نسيم الشام



العلامة الدكتور
محمد سعيد رمضان البوطي

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي بنعمته الصالحات، والصلاة والسلام على سيد السادات سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .. وبعد

بعد تتبع بيانات وإحصائيات موقع نسيم الشام .. تبين أن إقبال المتصفحين يزداد على الزاوية التي تنشر فيها خطب الجمعة للإمام الشهيد البوطي[1]. ومن خلال الأصداء التي تصل إلى بريد الموقع تدرك أن الموقع قد غدا مرجعاً أساسياً لكثير من الخطباء والدعاة في مشارق الأرض ومغاربها، يتزودون من معين خطب الشيخ بمادة علمية ثرة لخطبهم ودروسهم، هي خلاصة عقود من العطاء الذي فتح الله تعالى به على الإمام الشهيد البوطي رحمه الله تعالى. وهذا ما دفع بنا إلى إصدار هذه الموسوعة، تسهيلاً للوصول إلى الموضوع الذي يبتغون.

تتضمن هذه الموسوعة: (٥٠٠ خطبة جمعة معنونة)، تتناول شتى الجوانب في الحياة العملية، وتعالج الكثير من المشكلات المعاصرة، وتسلط الضوء على كثير من المكائد والشبهات التي ينبغي أن يحذر منها الناس، وتتحدث عن سائر المناسبات التي تتوازعها أيام العام. وهي الموضوعات التي يعنى بها عادة خطباء المنابر والدعاة في دروسهم.

وقد تم تصنيف الخطب التي تحتويها هذه الموسوعة إلى أبواب، وكل باب من هذه الأبواب تم تفريعه إلى أقسام.

---

[1] ما زال في الجعبة من الخطب مما لم ينشر بعد الكثير؛ من عام ٢٠٠٣ إلى عام ٢٠٠٧ ننشرها تباعاً في كل جمعة بعون الله تعالى.

فباب السلوك والتزكية يتضمن خطباً تتوازعها أقسام كثيرة. وهي: التوبة والعبودية والحب والإخلاص والدعاء والذكر والأخلاق وتزكية النفس والشكر والرضى والموت والمراقبة والدنيا ...إلخ

وباب المناسبات، يتضمن خطباً تتوازعها أقسام عدة. وهي: شهر رمضان والمولد وذكرى الهجرة والأعياد وعاشوراء والنصف من شعبان والإسراء والمعراج وليلة القدر والحج ويوم عرفة.. إلخ

وباب القضايا الفكرية، يتضمن خطباً تتوازعها أقسام عدة. أبرزها: التربية، الحضارة، الغرب.. إلخ. وهكذا دواليك .. باب خطب الفتن والابتلاءات، باب في خطب قضايا الساعة، وباب في خطب الدعوة إلى الله، وباب في خطب السنن الإلهية، وباب في خطب القضايا والمشكلات الاجتماعية..

ومراعاة الترتيب الزمني لتاريخ الخطبة هو الضابط المعتمد في ترتيب الخطب ضمن الأقسام.

ومنذ أن وفقنا الله تعالى لإنشاء هذا الموقع عام ٢٠٠٨، وحتى تاريخ استشهاده الإمام الشهيد ٢٠١٣/٣/٢١ واظبنا على نشر خطبه بلا انقطاع، ومنذ الأسبوع الأول بعد استشهاده، شرعنا بنشر خطبة أسبوعياً من تاريخ ١٩٨٠[1].. والموسوعة التي بين أيديكم تتضمن كل الخطب التي نشرناها على الموقع منذ انطلاقه إلى اليوم وعلى مدى ١٠ سنوات.

وأسأل الله تعالى أن يتقبل من كل من ساهم بهذه الموسوعة على مدى السنوات الماضية، وأن يكرم كل من سجّل هذه الخطب صوتاً، وفرغها نصاً، وترجمها محبة، وأرشفها غيرة، ونشرها حرصاً، وصنفها موسوعة، ودققها تحرياً للإتقان .. أسأله سبحانه بمحبته لعباد الصالحين أن يكرم الجميع بنعيم الدنيا والآخرة وكفاية همهما، وأن يرحم من ارتحل منهم إلى جواره الكريم، ويبارك بمن ثبت واستمر على عمله الدؤوب، آمين.

عن فريق العمل

محمود محمد توفيق رمضان البوطي

الأحد: ٢٠١٨/١٠/٢٨ الموافق: ١٨/ صفر / ١٤٤٠

(١) جل خطب الإمام الشهيد مسجلة ومحفوظة منذ عام ١٩٨٠ إلى عام ٢٠١٣

الفهرس

الدعاء ٣٠٠

الذكر ٣٣٧

الأدب مع الصحابة ٣٩٧

الأخلاق ٤١٠

آفات النفس ٤٩٦

الدنيا ٥٤٧

قسوة القلب ٥٨٤

شكر النعمة والفرح بالمنعم ٦١٢

الرضى ٦٣٥

الموت ٦٤٩

الأسرة والمجتمع ٩٩٢

قضايا فكرية ١٠٢١

إسلاميات ١٠٢٢

الحضارة ١١٧٨

التربية ١٢٥٠

الجهاد ١٤٥٨

القرآنيون ١٤٨٦

المناسبات ١٤٩٢

الهجرة ١٤٩٣

عاشوراء.. ١٥٣٢

المولد النبوي... ١٥٤٣

رجب ١٦١٠

الإسراء والمعراج ١٦٢١

ليلة النصف من شعبان.. ١٦٤٢

رمضان ١٦٧٩

ليلة القدر ١٧٧٤

عيد الفطر ١٧٨٩

العشر من ذي الحجة ١٨٢٠

يوم عرفة ١٨٣٨

الحج ١٨٥٦

عيد الأضحى ١٩١٩

الاستسقاء ١٩٤٣

مناسبات متفرقة ٢٠٣٢

الفتن والابتلاءات ٢٠٧٠

التحذير من الفتن ٢٠٧١

الفتن ... أسباب وعلاج ٢٠٩٩

الحكمة من الفتن ٢١٥٦

منظمة التعاون الإسلامي ٢٣٨٠

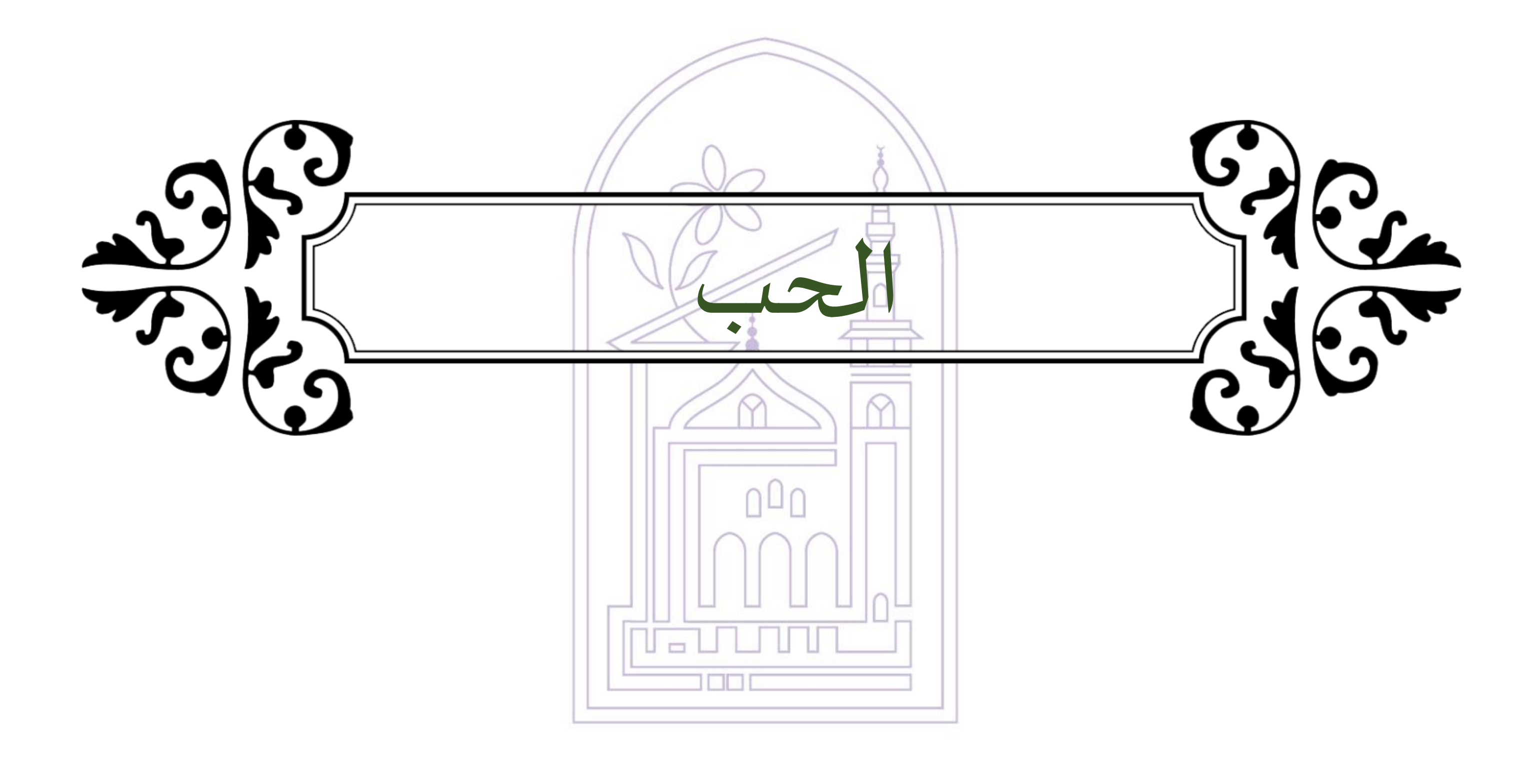
الإسلام والسياسة ٢٤٠٠

الحمد لله ثم الحمد لله الحمد حمداً يوافي نعمه ويكافئ مزيده، يا ربنا لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك ولعظيم سلطانك، سبحانك اللهم لا أحصي ثناءاً عليك أنت كما أثنيت على نفسك، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله وصفيه وخليله خير نبي أرسله، أرسله الله إلى العالم كله بشيراً ونذيراً. اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد صلاةً وسلاماً دائمين متلازمين إلى يوم الدين، وأوصيكم أيها المسلمون ونفسي المذنبة بتقوى الله تعالى.

أما بعدُ فيا عبادَ الله:



السلوك والتزكية



الحب

١- كيف يفيض قلبك حباً لله ومخافة منه | ١٩٨٤/٠٣/٠٢

فإنك تسألني يا أخي المسلم، وتشكو إليَّ أنّكَ مؤمنٌ بالله سبحانهُ وتعالى، ولكنَّكَ تبحثُ عن أقصرِ طريقٍ إلى أن يفيضَ قلبُكَ حبّاً لله، وأن يفيضَ فؤادُكَ هذا مخافةً منهُ في الوقتِ ذاته، فكيفَ السّبيلُ إلى ذلك؟

أقولُ بكلمةٍ جامعةٍ مختصرة، إذا تذكّرتَ فضلَ اللهِ عليك فاضَ قلبُكَ حبّاً للهِ سبحانهُ وتعالى، وإذا تذَّكرتَ موقفكَ بينَ يديه فاضَ قلبُكَ خشيةً منَ اللهِ تعالى.

فتذكَّر دائماً عظيمَ فضلِ اللهِ سبحانهُ وتعالى عليك ليمتلئَ قلبُكَ حبّاً له، وتذكّر دائماً وقفتكَ العظيمةَ بينَ يديه، وأنتَ مقبلٌ عليها ما في بالكَ ريب، ليمتلئَ فؤادُكَ خشيةً منَ اللهِ سبحانهُ وتعالى.

ولا يسيرُ المؤمنُ إلى الله إلا بقدمينِ منَ الحبِّ والخوفِ معاً، فإن أحبَّ ولم يَخَفِ اللهَ سبحانهُ وتعالى لم يَصِلْ، وإن خافَ الله سبحانهُ وتعالى ولم يُحِبَّه، تقطّعتْ بهِ السُّبُلُ أيضاً.

تذكَّر فضلَ الله عليك، تساءَل من الذي يُنعِمُ عليك بالنِّعَمِ الظّاهرةِ والخفيّة؟ منِ الذي يُحيطُكَ بالعناية؟ منِ الذي يرعاكَ في نومك؟ ويرعاكَ في يقظتكْ؟

منِ الذي يجعلُكَ إذا مشيت تمشي باستقامة؟ وإذا جلستَ تجلسُ بطمأنينة؟ وإذا مضغتَ الطّعامَ مضغتهُ على الوجهِ السّويّ؟ وإذا ابتلعتهُ لم تختنق به؟ وإذا نزلَ الطّعامُ إلى معدتك، تفاعلتِ المعدةُ مع هذا الطّعامِ على الوجهِ الذي يريحُكْ؟ وعلى الوجهِ الذي يُمِدُّكَ صحّةً إثرَ صحّة؟

منِ الذيُ يُمَتِّعُكَ بِنعيمِ الرُّقاد؟ ومنِ الذي يُمَتِّعُكَ براحةِ اليقظةِ بعدَ ذلك؟ منِ الذي يجعلُكَ بعيداً عنِ الأخطارِ التي تُحدِقُ بك، وما أكثرها وأنتَ لا تتنبَّهُ إليها، وقصارى ما في هذا، عليكَ أن تذكُرَ قولَ الله عزَّ وجلّ: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾، يحفظونَ العبدَ حفظاً آتياً من أمرِ اللهِ سبحانهُ وتعالى، ولئن لم تكن ترى هؤلاءِ الحفظة، فإنَّ بوسعكَ أن تراهم بعقلك، وأن تراهم ببصيرتك، وكم قلنا في مثلِ هذه المناسبات: إنَّ الإنسانَ ينفعلُ بطاقاتهِ وملكاتِه التي وهبهُ اللهُ إيّاها، ولا

يفعلُها، فهوَ لا يدري كيفَ أكرمهُ اللهُ عزَّ وجلَّ بقدراته، لأنّهُ ليسَ صاحبَ هذه القُدُرات، وغداً ستذهبُ هذه القُدرات إذا انتهت وظيفتُها وحانَ أن يأخذَ صاحبُ الأمانةِ أمانته، ولا تعلمُ كيفَ ذهبت منكَ هذه الطّاقاتُ كلُّها.

ما أغربَ أمرَ الإنسان عندما يسألُ كيفَ أحبُّ اللهَ عزَّ وجلّ؟ وهذا الإنسانُ نفسُه إن شعرَ أنَّ رجلاً من النّاسِ أكرمهُ بِنعمةٍ عابرة، غبر حياتهُ كلّها وهو يحمدهُ على هذه النّعمة، إذا ذكرهُ وذكرها اهتزَّ قلبهُ حبّاً لذلكَ الرّجل.

ومولاك؟ الذي أنعمَ عليكَ بالخلقِ أولاً، وأنعمَ عليكَ بمددِ استمرارِ هذا الوجودِ ثانياً، ورعاكَ ولا رعايةَ الأمِّ لطفلها، تحتاجُ إلى معرفةِ سبيلٍ لكي تسلكهُ فتصلَ منهُ إلى حبّكَ له.

الطّفلُ معذور إن هو لم يعلم أنَّ أمّهُ هي التي ترعاه، لأنّهُ لا يملكُ عقلاً، ولكنَّ الإنسانَ السّويَّ الرّشيدَ العاقل ليسَ معذوراً عندما يرى نفسَهُ كطفلٍ صغيرٍ يعيشُ في مهدٍ من كرمِ اللهِ سبحانهُ وتعالى ورعايته. نعم، تذكّر دائماً فضلَ اللهِ عزَّ وجلَّ عليك، وتذكّر وأنتَ تمشي كيفَ يقوّمُ اللهُ عزَّ وجلّ جذعكَ فلا تترنّحُ وتقع، وتذكّر والطّعامُ ممدودٌ على مائدتهِ بينَ يديك كيفَ هيَّءَ اللهُ عزَّ وجلَّ لكَ هذا كلّه، وتذكّر وأنتَ تمدُّ يدكَ إلى شرابك وإلى طعامك وأنتَ تتكلّمُ وتأكلُ وتشربُ وتركضُ وتتيقّظ، تذكّر من الذي يفعلُ كلَّ هذا بك، يمتلئ قلبُكَ حبّاً للمنعمِ الذي هوَ اللهُ سبحانهُ وتعالى.

فإذا أردتَ أن تتوّجَ حبّكَ هذا بالخوفِ منه، والخشيةِ من عظمته، فتذكّر، تذكّر سلسلةً منَ المواقفِ أنتَ قادمٌ عليها ولا ريب، تذكّر أولاً ضجعةَ الموت، عندما تمتدُّ على فراشه، وقد نفضتَ يديكَ من دنياك، وذاكَ هوَ معنى قولِ اللهِ عزَّ وجلّ: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾، في تلكَ السّاعة تصغرُ الدّنيا التي طالما كنتَ تعظّمها في عينك، ويَعظُمُ الإلهُ العظيم الذي طالما كنتَ تنساهُ في تقلّباتك، ولكن لا هذا التّعظيم يفيدُكَ آنذاك، ولا ذلكَ التّحقير يفيدُكَ آنذاك.

وإنّما عليكَ أن تعلمَ الآن وقائعَ تلكَ السّاعة، ومشاعرها التي ستنتابك، تذكّر بعدَ ذلكَ الموت والرّقادَ في القبر. ألم تقف يوماً ما على شفيرِ قبرٍ وقد حُملتِ الجنازة إلى مقرّها الأخير؟ ألم تمعن بعينيك بالميّت وهم يسللونهُ من تابوتهِ ويمدّونهُ في لحده؟ وليسَ معهُ من كلِّ ما جمعَ فأوعى إلا كفنُه؟ ماذا ينتابُكَ في

تلكَ السّاعة؟ ألا تتقزّزُ تلكَ السّاعة منَ الدّنيا والمعاصي والشّهواتِ التي تعكف عليها؟ ألا تشعر بأنَّ بينكَ وبينَ هذه الحفرة ربّما ساعات أو دقائق؟

ثمَّ تذكّر بعدَ ذلك اليقظةَ الثّانية، نعم اليقظةَ الثّانية، والموت ليسَ نهايةَ النّهايات، وإنما هي المرحلةُ إلى تلكَ اليقظةِ الكبرى، تذكّر في ذلكَ قولَ الله عزَّ وجلّ: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾.

تذكّر ذلكَ المشهدَ العظيم الذي يقولُ عنهُ ربّنا سبحانهُ وتعالى: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَنَراهُ قَرِيبًا يَوْمَ تَكُونُ السَّماءُ كَالْمُهْلِ وَتَكُونُ الْجِبالُ كَالْعِهْنِ ولا يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ وَصاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ كَلاَّ إِنَّها لَظى﴾. تذكّر ذلكَ اليوم الذي أنتَ مقبلٌ عليهِ ولا ريب.

ثمَّ تذكّر وقفةَ الحساب أمامَ اللهِ سبحانهُ وتعالى، وتلكَ هي الوقفةُ العظمى، تذكّر في ذلكَ قولَ اللهِ عزَّ وجلّ: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، أما وقفتَ أمامَ هذه الآيةِ العظيمةِ على صغرها وعلى إيجازها يوماً؟ ﴿فَوَرَبِّكَ﴾، يُقسِمُ اللهُ عزَّ وجلّ: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ﴾: الصّالحَ والطّالح، الفاسقَ والعدل ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، نعم.

يقولُ رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم: ﴿لا تزولُ قدما عبدٍ يومَ القيامة حتّى يُسأَلَ عن أربع: عن عمرهِ فيمَا أفناه، وعن علمهِ ما عملَ به، وعن مالهِ من أينَ اكتسبه، وعن جسدهِ فيمَ أبلاه﴾. لتُسألَنَّ يا أخي المسلم عن هذه الأمورِ الأربعة، فاسأل نفسكَ عنها قبلَ أن يسألكَ عنها ربُّنا سبحانهُ وتعالى.

اذكر ذلكَ المشهد ثمَّ اذكر بعده: السّيرَ على الصّراط بعدَ الحساب، الصّراط وما أدراكَ ما الصّراط؟ يقولُ عنهُ رسولنا صلّى اللهُ عليه وسلّم: ﴿ثمَّ ينصبُ الصّراط على متن جهنم، وإنّهُ لأدقُّ منَ الشّعرةِ وأحدُّ منَ السّيف﴾ ويطلب منك أن تمر على هذا الطريق، فهل جرّبتَ ذاتَ يومٍ أن تمرَّ على هذا الطّريق؟ فهل جرّبتَ ذاتَ يومٍ أن تمرَّ على حافّةِ سطحِ بناء ولم تترنّح؟ فكيفَ بكَ إذا دعيتَ أن تسيرَ على طريقٍ هكذا يصفهُ رسولُ الله فيما اتّفقَ عليهِ الشّيخان؟ ﴿أدقُّ من الشّعرةِ وأحدُّ منَ السّيف﴾، ولكنّهُ يتّسع قدرَ ما كانَ يضيّقُ العبدُ على نفسهِ في الدّنيا ابتغاءَ مرضاةِ الله عزَّ وجل.

فانظرِ اليوم كم تضيِّقُ على نفسك في طريقكَ إلى الشهواتِ والأهواء من أجلِ أن ترضيَ ربّك ولو كانَ ذلكَ على حسابِ شهواتك؟ بمقدارِ ما تضيّقُ اليومَ على نفسكَ في سبيلِ أن يرضى عنكَ مولاك، يوسّعُ اللهُ سبحانهُ وتعالى من ذلكَ الطّريقِ الضيّقِ غداً.

وإذا مرَّ المؤمنُ على هذا الطّريق وهو يحملُ زاده الذي كانَ قد نهضَ به في دارِ الدّنيا، على أساسٍ من حبِّ الله عزَّ وجلَّ وخوفه، قالت لهُ النّارُ بكلامٍ فصيحٍ بيّن: جز يا مؤمن، جز يا مؤمن فإنَّ نورَ إيمانكَ قد أطفأَ لهبي.

ألا يكفي هذا كلّه من أجلِ أن يمتلئَ قلبُكَ حبّاً للهِ أولاً، ثمَّ مخافةً منهُ ثانياً يا أخي المسلم؟

تذكّرِ المنعم وانظر منِ الذي يكرمك بجلائلِ النّعم؟ ومنِ الذي يفيضُ عليك بالمكارمِ الخفيّةِ والظّاهرة، واذكر قولَ الله عزَّ وجلّ: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾، تذكّر هذا وكن دائماً على ذُكرٍ من ذلك، فإنَّ النّفوسَ جُبلت على حبِّ من أحسنَ إليها.

ثمَّ تذكّر: مراحلَ حياتكَ التي أنت مقبلٌ عليها، فوالله: ما فكّرَ إنسانٌ في هذا وذاك وهو متجرّدٌ عنِ العصبيّاتِ والأهواء، إلا وامتلأَ قلبهُ حبّاً للهِ ومخافةً منه، وهذا هو خيرُ عونٍ لهُ في الطّريقِ ألا يعصيَ الله، وإذا عصى اللهَ أن يسرعَ فيتوبَ إليه، وإذا تابَ إليهِ عاهدهُ ألا يعودَ إلى تلك المعاصي أبداً، أقولُ قولي هذا وأسألُ اللهَ سبحانهُ وتعالى أن يملأَ قلبي وقلوبكم حبّاً للهِ عزَّ وجلّ وخشيةً منه، فاستغفروهُ يغفر لكم.

إذا تذكرت فضل الله عليك فاض قلبك حباً لله سبحانه وتعالى، وإذا تذكرت موقفك بين يديه فاض قلبك خشية من الله تعالى. تساءل من الذي ينعم عليك بالنعم الظاهرة والخفية؟ من الذي يحيطك بالعناية؟ من الذي يرعاك في نومك؟ ويرعاك في يقظتك؟

٢- السبيل للوصول إلى محبة الله | ١٩٨٩/٠٢/١٧

تحدّثنا منذُ بضعةِ أسابيع عن حبِّ اللهِ سبحانهُ وتعالى وعن ضرورتهِ وأثرهِ في حياةِ الإنسان، ومنذُ ذلكَ اليوم والكثيرُ من الإخوةِ يسأل: عن السّبيلِ الذي ينبغي أن يسلكهُ الإنسانُ للوصولِ إلى حبِّ اللهِ عزَّ وجلّ.

السّبيلُ إلى حبِّ اللهِ سبحانهُ وتعالى كثير، ولكن لعلَّ من أهمِّ هذه السُّبُلِ وأقصرها: الثّقةُ باللهِ سبحانهُ وتعالى، ثقةُ الإنسانِ باللهِ عزَّ وجلّ هي المفتاحُ إلى دخولِ محبّةِ اللهِ عزَّ وجلَّ في القلب، فمن كانَ مؤمناً باللهِ سبحانه ولكنَّ فؤادهُ كانَ فارغاً من الثّقةِ باللهِ عزَّ وجلّ، فلا سبيلَ إلى دخولِ حبِّ اللهِ عزَّ وجلَّ إلى فؤاده. وما حقيقةُ الإيمانِ باللهِ عندَ هذا الإنسانِ إلا كحقيقةِ شارةٍ يضعُها الإنسانُ على صدره وهو ليسَ أكثرَ من شعار، والشّعارَ لا يقدّمُ ولا يؤخّرُ -كما تعلمون- في حياةِ الإنسان.

أما الإيمانُ الحقيقيُّ باللهِ عزَّ وجلّ فلا شكَّ أنَّ من أولى ثمراتهِ الثّقةُ باللهِ سبحانهُ وتعالى، والثّقة هي أساسُ التّوكُّل، فمن وثقَ باللهِ توكّلَ عليه، ومن لم يثق بالله لم يجد سبيلاً للتوكّلِ على اللهِ عزَّ وجلّ.

ومن أينَ تأتي ثقةُ الإنسانِ باللهِ عزَّ وجلّ؟ تأتي من تعميقِ الإيمانِ العقليِّ باللهِ عزَّ وجلّ، ومن تثبيتِ غراسِ هذا الإيمانِ في الوعي، فمن وعى إيمانهُ باللهِ وعلمَ معنى إيمانهِ بالحيِّ القيّوم القابضِ الباسط الواحدِ في قدرتهِ وتصرّفاتهِ وفي كلِّ ما يمكنُ أن تراهُ في الكونِ من حركاتٍ وسكونٍ ونفعٍ وضرٍّ وغيرِ ذلك، من وعى إيمانهُ هذا باللهِ عزَّ وجلَّ ثمَّ سمعَ كلامَ اللهِ سبحانهُ وتعالى وهو يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾، ووعى قولهُ عزَّ وجلَّ: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾. ووقفَ وقفةَ تأمّلٍ عندَ قولهِ عزَّ وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾. إذا آمنَ ذلكَ الإيمانَ الواعي ووقفَ بتدبّرٍ عندَ هذا الكلامِ الثّاني: وثقَ ثقةً تامّةً بأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لن يقدِّمَ لهُ إلا خيراً، ولن يأمرَهُ إلا بخير، ولن ينهاهُ عن شرّ، من هنا تأتي الثّقة باللهِ عزَّ وجلّ.

أولاً: من تعميقِ معنى إيمانِكَ بالحيِّ القيّومِ الواحدِ الأحد.

ثانياً: بالوقوفِ أمامَ القراراتِ الإلهيّةِ التي تحدّثَ فيها اللهُ عن نفسهِ وذاتهِ العليّة ووصفَ ذاتَهُ بالرّحمةِ لك وبالرّعايةِ لشأنك، وبأنّهُ لا يأمركَ إلا بما فيهِ خيرك، ولا ينهاكَ إلا عمّا بهِ ضرُّك، ويطمأنك أنَّ جهالتك لا يمكنُ أن تتناقضَ مع هذه الحقيقةِ أبداً لأنّكَ الجاهلُ الذي لا تستشفُّ شيئاً من حقائقِ الغيب، ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾.

إذا وثقتَ باللهِ عزَّ وجلَّ هذه الثّقة أدركتَ أنَّ اللهَ عزَّ وجلّ لن يعاملكَ إلا برحمتهِ ولن يقدِّمَ لكَ إلا ما فيهِ خيرُك، فكانَ ذلكَ أساساً لتوكّلكَ على اللهِ سبحانهُ وتعالى.

وانظر إلى كلامِ الله وهو يتحدّثُ عن طائفةٍ من عباده، انظر إلى هذا الكلام وتبيّن من خلالهِ ماذا فعلت الثّقةُ بأنفسهم: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى الله وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا﴾. طمأنينةٌ لا قلقَ يحتوشها إطلاقاً، وانظر إلى هذا الكلامِ الآخر بل إلى هذا التّساؤلِ العجيب يحرّكُ في كيانِ الإنسانِ نياطَ هذه الثّقةِ إن وُجِدَت هذه الثّقة، انظر إلى قولِ اللهِ عزَّ وجلّ: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾؟ استفهامٌ عجيب في اللطفِ الذي يحتوشه وفي الرّحمةِ التي تتصاعد من أعماقِ هذا الكلام، ليقلِ النّاسُ ما شاؤوا وليتهدد المشركونَ وأعداءُ المسلمينَ عبادَ اللهِ فيما أرادوا، وليلوّحوا بالقوى التي امكنتهم ووُضعَت في أيديهم، هم إلى من يركنون؟ وبمن يؤمنون؟ وبمن يثقون؟ باللهِ عزَّ وجلّ، واللهُ ألا يكفي عبده، ألا يكفيه كلَّ شبحٍ من أشباحِ المخاوف؟ ألا يكفيهِ كلَّ همٍّ من الهمومِ وكلَّ غمٍّ من الغموم؟ بلى والله. ولكنّهُ يكفي من ركنَ إلى الله، ومن وثقَ بالله، ومن علمَ أنَّ مولاهُ هو الله، نعم: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾.

هذه الثّقة ما أتصوَّرُ إيماناً باللهِ عزَّ وجلَّ حقيقيّاً يوجد بدونِ أن تتجلّى هذه الثّقةُ ثمرةً له، هذه الثّقة تريحُ أعصابك، تطمئن قلبك، تزيدُكَ حبّاً لخالقكَ عزَّ وجلّ، لأنّك لا تغلق بالك بأسباب أوامرِ الله، لا تقولُ: لماذا أمرنيَ اللهُ بهذه الأوامرِ الثّقيلةِ عليّ؟ ما الفائدة؟ ثقتُكَ بالله تمتصُّ كلَّ هذا الكلام.

لا يمكن أن تجدَ شدّةً من خلالِ نهيٍ نهاكَ اللهُ عزَّ وجلَّ عنه، ثقتُكَ بالله لا تجعلُكَ تتساءَلُ متأففاً: لماذا حجزنيَ اللهُ عن شهوتي؟ عن رغبتي؟ ثقتُكَ بالله تصدُّكَ عن هذا التّساؤلِ وهذا الاضطّرابِ والقلق.

ثقتُكَ بالله وأنتَ تنتظرُ أن يسعدكَ بالزّوج، بالمال، بما تشاءُ من مقوّماتِ الحياةِ الطّبيعيّةِ الفطريّة، يجعلُكَ تطمَئنُّ إلى أنَّ كلَّ هذا سيأتي في ميقاته محدّد، وما ثمنُ إتيانهِ وإسعادِ اللهِ إيّاكَ به إلا حسنُ ثقتِكَ بالله عزَّ وجلّ، ثمَّ صبرك إلى أن يأتيَ الميقات، ومن ثمَّ فإنَّ هذه الثّقة تقدَحُ زناد الحبِّ في قلبك، لأنّكَ لا تجدُ خيراً أتاكَ إلا وأنتَ تعلمُ أنّهُ أتاك من مولاكَ الذي لا مولى لكَ من دونه. وما ترى من ضُرٍّ فاتكَ وابتعدَ عنكَ وحُميتَ عنهُ إلا وتعلم أنَّ الذي أبعدَ عنكَ هذا السّوء هو مولاك.

ولا تجدُ من خيرٍ يطوفُ بحياتك، أو شعورٍ من السّعادة يفيضُ بهِ فؤادُك إلا وتعلم أنَّ مولاكَ هو الذي متَّعكَ بهذا الشّعور. شعورُكَ بهذا المعنى، ربطُكَ لهذه الظّواهرِ كلّها بمولاكَ عزَّ وجلَّ هو الذي يزيدُكَ حبّاً للهِ سبحانهُ وتعالى.

أمّا من كانَ إيمانهُ باللهِ جسداً لا روح فيه شبحاً لا حركةَ فيه، فإنَّ هذا الإيمانَ من الطّبيعيِّ أنّهُ لا يحقّقُ الثّقة التي ينبغي أن تكونَ أساساً للتّوكّلِ والحبّ.

وإذا لم توجد هذه الثّقة فما أكثرَ ما يضطربُ الإنسانُ في حياته، وما أكثرَ ما يهيجُ ويموج، وما أكثرَ ما يقفُ موقفَ المتسائلِ بل الثّائر على قرارِ اللهِ وأوامره: لماذا أمرني بكذا؟ لماذا نهاني عن كذا؟ لماذا حرَّمَ عليَّ الخبائث؟ لعلّها ليست خبائث، لماذا حرَّمَ عليَّ الخمرة؟ لماذا؟ أسئلةٌ لا نهايةَ لها لأنَّ جهلَ العبدِ لا نهايةَ له.

ولقد سمعتُ صباحَ هذا اليومِ كلاماً من إنسانٍ متخصص، أنَّ النّاسَ في الغربِ اكتشفوا اليوم أنَّ الخنزيرَ يصابُ بداءِ الكَلَب كالكلابِ تماماً، وأنَّ عدداً كبيراً من النّاس أصابَهُم داءُ الكَلَب، استيقظَ الغربيّونَ إلى هذه الحقيقةِ اليوم، وقُتِلَ في العامِ الماضي أو قتَلَ النّاسُ في العامِ الماضي مئاتِ الخنازير خوفاً من أن يكونَ هذا الدّاءُ قد سرى إليهم، وإذا سرى هذا الدّاءُ إلى الحيوان، واحتكَّ هذا الحيوانُ بالإنسانِ، فإنَّ هذا الدّاءَ يستشري في بلدٍ ثانٍ، وإذا استشرى بينَ النّاس صارَ كجريانِ النّارِ في الهشيم. لو كانَ هؤلاءِ النّاسِ عندهم ثقة باللهِ عزَّ وجلّ الذي حرَّمَ عليهم لحمَ الخنزير لامتصّت هذه الثّقةُ التّساؤلاتِ كلّها، ولأغنتهم عن أن يقعوا في هذه النّهاياتِ، ولعلموا أنَّ مولاهم في علومهم وفي حضاراتهم وفي كلِّ نفعٍ وضرّ يوجدُ في هذا الكون مولاهمُ الرّحيمُ بهم الرّؤوفُ بهم يحذّرهم من أكلِ هذا اللحمِ وينعتهُ لهم بأنّهُ خبيث.

نعم. إذاً لما اضطربوا، ولما وقعوا في هذه التّجربة، ولكن انظر إلى النّهاية، انظر إلى العبد، عندما يتيهُ عن مولاه يشرد، وعندما يشرد أينَ يقع؟ يقعُ في المهالك، يقعُ في مهلكةٍ لا آفاقَ لها ولا حدود لأنّهُ ضلَّ عن مولاه، لأنّهُ تاهَ عمّن كانَ يرشده، ذلك، صدقَ اللهُ القائلُ في محكمِ تبيانه: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾.

نحنُ عزتنا، مجدنا، سعادتنا، نشوتنا، معينُ ذلكَ كلّه نسبتُنا إلى الله، نسبتُنا إلى اللهِ الذي هو مولانا والذينَ نحنُ عبيدُه. أمّا أولئك انظروا إلى شرودهم، انظروا إلى ضياعهم، يخوضون في الظّلام، ولقد كانوا في غنىً عن هذا كلّه لو أنّهم أمسكوا بالمصباح، وما هو المصباح؟ رحمةُ الله. وأين تتجلّى رحمةُ الله؟ في شرعه، في نَبيِّهْ، في بيانه، في الكلامِ الذي أوضحهُ لنا ونحنُ بأمسِّ الحاجةِ إليه. هل يمكنُ لإنسانٍ وثقَ برحمةِ الله، ووثقَ بحبِّ اللهِ لعبده ثمَّ رأى آثارَ هذه الثّقةِ في حياته ألّا يحبَّ الله؟! أقولُ قولي هذا وأستغفرُ اللهَ العظيم، فاستغفروهُ يغفر لكم...

٣- السبيل إلى الحُبِّ الذي تفتقر إليه الأمة | ١٩٩٤/١١/٢٥

إن أركان هذا الدين القويم تتأسس وتوجد في كيان الإنسان بواسطة العلم، وأداة العلم في كيان الإنسان إنما هو العقل والتفكير، ومن هنا فقد كان العقل هو رأس مال الإنسان في طريقه إلى معرفة الله عز وجل، وكان العلم هو أعظم كنز يعتمد عليه الإنسان في طريقه هذا، وكلكم قرأ كتاب الله سبحانه وتعالى ووقف عند الآيات التي يعظم الله عز وجل فيها من شأن العلم، وحسبكم من ذلك قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ قُلْهَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ وقوله عز وجل: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾.

وما يكاد بيان الله عز وجل ينبه عقولنا إلى برهان ساطع من براهين وجوده إلا ويربط فاعلية هذا البرهان بالعلم وبالإدراك كقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ هذا عن السبيل إلى استقرار أركان الاسلام في كيان الانسان.

أما الدافع الذي يحمل الإنسان على السلوك طبق ما أمر الله سبحانه وتعالى، والالتزام بالنهج الذي اختطه الله سبحانه وتعالى لعباده، فإن أساس ذلك شيء آخر، هو حب العبد لله سبحانه وتعالى وتعظيمه لخالقه ومولاه عز وجل، ومن هنا ندرك أن لكل من العلم والحب لله عز وجل وظيفة لا يقوم أحدهما مقام الآخر أبداً:

أما وظيفة العلم فهي مجرد الإدراك، ويقين العقل بوجود الله ووحدانيته وعظيم إبداعه لهذا الكون، وأعتقد أننا إن وقفنا عند هذا الحد فلسوف نجد أن معظم الناس مؤمنون ومسلمون باليقين المهيمن في قلوبهم، ولا تستطيع أن تستثني من هذا إلا أولئك الذين اهتزت منهم المدارك والعقول، فسقطت مسؤولياتهم بسبب أنهم لا يملكون في أدمغتهم رشداً وإدراكاً.

أما من عرف حقيقة هذه الدنيا، ومن أكرمه الله عز وجل بشيء من المعرفة وأصولها، فلا بد أن يكون ممن يؤمن في سريرته بالله سبحانه وتعالى، ولكن المهم ليس هذا، ليس المهم أن يدرك الإنسان بعقله أن له صانعاً، وإنما المهم أن يتفاعل كيانه مع هذا الإدراك، وأن يدين بعد هذا اليقين بمعنى العبودية لله

عز وجل، وإلا فإن الله سبحانه وتعالى قد وصف المارقين ووصف الكافرين والجاحدين بأنهم مؤمنون ومستيقنون وذلك عندما قال: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾.

وما أكثر الذين يؤمنون اليوم وتستيقن عقولهم بوجود الله عز وجل ووحدانيته، ولكنهم بألسنتهم يستنكرون ويجحدون للسبب ذاته الذي يقوله لنا الله عز وجل، وهو التباهي والعلو واللجوء إلى مقتضيات العصبية في الكيان والذات، وهاهنا يكمن الداء الوبيل فما علاجه؟

علاجه الحب، علاجه أن يوجد في كيان الإنسان معنى محبة العبد لربه وخالقه، ثم أن يتوَّج هذا الحب بالتعظيم لله سبحانه وتعالى، وعندئذٍ يتغلب شعور الحب هذا على دوافع الكبرياء والعصبية والفخار، وتتحطم هذه المشاعر الحيوانية كلها ويتغلب عليها معنى حب العبد لربه وتعظيمه لخالقه، وهذا هو السبيل الأوحد لنجاح الإنسان في الامتحان الذي خلقه الله له في هذه الحياة الدنيا.

إن معنى قوله عز وجل ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ هذا الابتلاء لا تستطيع أن تؤدي حقوقه بواسطة العلم أبداً، على إن العلم شرطٌ كما قلت لثبوت أركان الإسلام في كيان الإنسان، أما هذا الابتلاء الذي خلقنا الله عز وجل لنخترق حجبه إلى الله، فلا يمكن أن ينجح الإنسان فيه إلا بسلاح آخر، بعد تحقق العلم، ألا هو حب العبد لربه وخالقه عز وجل.

إن الذين يفقده هؤلاء التائهون عن الله، إن في مشرقنا العربي والإسلامي أو في بقاع الغرب عموماً، هؤلاء الذين تاهوا عن الله لم يتيهوا عنه لأن شرائح العلم قاصرة في حياتهم، ولأن عقولهم لم تدرك وجود الله عز وجل، لا أبداً.. ليس هذا هو السبب، وإنما السبب أن قلوبهم فارغة عن محبة خالقهم ومولاهم، ومن ثم هي فارغة عن تعظيم هذا الخالق سبحانه وتعالى، ولما فرغت أفئدتهم عن محبة الله كان لابد أن تمتلئ بمحبة أشياء أخرى، كان لابد أن تمتلئ بمحبة ما تدعو إليه الغرائز، وما تدعو إليه الأهواء والعصبيات، فهذا هو الذي حجزهم عن الله سبحانه وتعالى.

كثيرون هم أيها الأخوة الذين إن ناقشْتهم أقصوا الحديث معك وقالوا إنهم مؤمنون بالله عز وجل، ولكنك تنظر إلى سلوك أحدهم فتجده غريق آثامه، وتجده ضحية أمواج من الصراعات التي تتناوشه عن يمين ويسار، هي صراعات غرائزه شهواته أهوائه، ربما تجده واحداً من المدمنين، ربما واحداً من السُكارى

ربما تجده واحداً من ممن يرعى النوادي الليلية، إذا أقبل الظلام في كل ليلة، وربما تجده واحداً من الذي ابتلاه الله عز وجل بمكائد في التجارة، وأنواع من الغش والخديعة للناس، وهو يعلم أنه مخطئ، وهو يعلم أنه منحرف، العقل معه، والعلم سلاح بيده، ولكن العقل ما أفاده، والعلم ما أفاده، وذلك لأنه افتقد الدواء الذي لابد أن يستعمله بعد ذلك، لأن قلبه فارغ من محبة الله سبحانه وتعالى.

وأنا أعلم أن في أصقاعنا العربية والإسلامية القريبة منا والبعيدة عنا، أناساً كان من الممكن أن يكونوا المثل الأعلى في السلوك الإسلامي كان من الممكن أن يكونوا أساتذة المسلمين في التوجيه إلى الله عز وجل، ولكنك تنظر إلى الواحد منهم فتجده صريع شهواته وأهوائه، تجده غريقاً في إدمانه وفي مسكراته أيضاً، ترى ما السبب وما الدواء؟ السبب ما قد قلته لكم، والدواء هو أن نطرق الباب الذي إذا فتح لنا دخلنا من أرجائه إلى حقيقة محبة العبد لله عز وجل، والذي إن سلكناه وصلنا إلى معنى تعظيم العبد لله سبحانه وتعالى.

وانظروا أيها الأخوة في هذه الآية التي ما رأيت أخطر منها في كتاب الله قط، مما يخاطب الله به المؤمنين – لا الكافرين ولا الجاحدين – ما رأيت أخطر منها قط ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ هذا الكلام خاطب الله به من أعلنوا إيمانهم بالله عز وجل ذلك لأن الإنسان كثيراً ما يؤمن بالله عن طريق عقله، لكنه يزيغ عن سبيل الله عن طريق قلبه، وتلك هي المصيبة الكبرى.

والابتلاء الأطم والأخطر في هذه الحياة هي أن يملك الإنسان قلبه فيجعله محباً لله عز وجل حتى يستطيع بهذا الحب أن يندفع إلى صراط الله عز وجل، ولا ينحرف إلى الطرق التي تقتنصه الشياطين إليها بواسطة حب آخر.

قليلون هم أيها الأخوة الذين يدركون هذه الثغرة الخطيرة في حياة المسلمين، بل ما أكثر الذين يتفلسفون عن الإسلام وحقائق الإسلام ومبادئ الإسلام والمكفرات في الإسلام والبدع وما يتعلق بالسنة كلاماً عقلانياً جافاً، حتى إذا وصلوا إلى حافة الحديث عن القلب وحب الله وحب الأغيار تقاصر

كلامهم، وسكتوا عند ذلك؛ لأنهم ليسوا من هذا الوادي في شيء أبداً، والنتيجة أيها الأخوة أننا ننظر ونجد أناساً.. أما ألسنتهم فتخوض كلاماً عجيباً في وصف الإسلام ودقائقه وحقائقه، وأما سلوكاتهم فأبعد ما يكون عن السير الذي يعبِّر عن حب صاحبه لله عز وجل.

وأنتم ترون هذا التهديد الرباني.. هو ليس تهديداً لعقول تزيغ، لأن العقل لن يزيغ بعد أن يهديه الله أبداً، ولكنه تهديدٌ لأصحاب قلوب جعلوا من أفئدتهم أوعيةً لحب الزوجة، لحب المال، لحب الشهوات لحب العشيرة التي ينتمي إليها أو القوم الذين ينتسب إليهم، لحب التجارة لحب المساكن لحب هذه الأهواء. هذه الآية تتهدد هؤلاء ونحن المعرّضون لهذا كله.

وكأني بكم تسألون فما العلاج؟ وما هو السبيل إلى أن تفيض أفئدتنا حباً لله عز وجل؟

سبيل ذلك بينٌ أيها الأخوة في كتاب الله وفي سنة رسول الله، ولم يكن يوماً ما معقداً أبداً، سبيل ذلك أن تكثر من ذكر الله عز وجل، وأول خطوات الذكر أن يكون قلبك يقظاً إلى مراقبة الله، وكمال الذكر أن يكون لسانك جنداً مع قلبك في مراقبة الله عز وجل، محبة الله تتحقق بأن تتدبر عن طريق ذكره بنعمه وآلائه وعظيم إحسانه وكامل قدرته، وما من إنسان أدرك مدى فضل الله عليه وتبين النعم التي لا تحصى التي تفد إليه كما قال عز وجل، ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ ما من إنسان فكر في هذا وأطال التفكير، إلا واتجه قلبه بالحب إلى الله، جبلت النفوس على حب من أحسن إليها.

فإذا راقبت الله وتدبرت صفاته وعشت مع هذه الصفات التي هي صفات الكمال في ذات الله، تُوّج حبك لله بالتعظيم وبالمهابة وبالإجلال، هذا السير على هذا الطريق هو الذي يضمن لك أن يفيض قلبك حباً لله، ومن ثم يطرد هذا الحب حب الآخرين وحب الأغيار، وتكون عندئذٍ ممن قال الله عنهم: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ أشد حباً لله.

هذا المنهج ما اسمه أيها الأخوة؟ لا تسألني عن الاسم وإنما اسألني عن المسمى، سمه بما شئت، قل هو الطريق الوجداني إلى الله اسم سليم، قل: هو علم السلوك إلى علام الغيوب هو اسم سليم، قل: هو سبيل الإحسان كما سماه جبريل عندما سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه. هو اسم صحيح. سمه التصوف كما سماه المتأخرون مادام المسمى هذا هو، فإنها تسمية صحيحة ولا مشاحة في الاصطلاحات،

وبالكلام إنما المهم أن تكون خطواتك التي تحقق بواسطتها المسمى سليمة، أن تذكر الله عز وجل وتتخذ لنفسك ورداً من تذكر الله عز وجل، وتكون مظهراً لقوله عز وجل: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾

اتخذ لنفسك المنهاج إلى ذلك خالياً أو مع أخوة من أصحابك وإخوانك، نفذ ما كان الصحابة يفعلونه عندما كان الواحد منهم يجد نفسه مع ثلة من الصحابة يقول أحدهم: تعالوا بنا نؤمن ساعة، يجلسون ليذكروا الله بأفانين من الذكر لو حدثتكم عن سبلها لضاق الوقت عن ذلك، ولكن إياكم أن تتصوروا أن السبيل إلى هذا مرتبط في هذا العصر بطريق؛ يأخذ البيعة عن طريقه مريد على شيخ، ليس هذا حتماً لذلك أبداً، فما كانت الطرق بمعناها التقليدي المألوف شرطاً للسلوك إلى الله أبداً، ما كان الطريق بمعناه التقليدي ارتباط مريد بشيخ يسلّكه إلى الله عز وجل ما كان ذلك شرطاً لما يسمى بعلم السلوك أو الإحسان أو التصوف بشكل من الأشكال، وما أذكر أنني أخذت طريقاً على شيخ، وكم في الناس ربانيون وصلوا لله عز وجل، وما أخذوا طريقاً على شيخ لا سيما في هذا العصر الذي آلت فيه المشيخة إلى حرفة، وآلت المشيخة فيه إلى وسيلة لطرق باب الدنيا، لا أنت في غنىً عن ذلك كله. اسلك السبيل الذي كان يسلكه أصحاب رسول الله التابعون ومن بعدهم، ولكن إياك أن تترك قلبك هذا وعاءً تتسرب إليه محبة الأغيار، فتهلك عندئذٍ وتكون من شر الهالكين، وإياك أن تصغي إلى من يهولون من شأن هذا الطريق، فلا والله لا يستطيع الإنسان أن يأخذ العبرة من حياة إنسانٍ تفلسف كثيراً في الحديث عن الإسلام، ثم كان هو أول التائهين في السلوك إلا من هؤلاء الذين يحذّرونك عن طرق إن سميناه التصوف فالتصوف أو السلوك فالسلوك أو الإحسان فالإحسان.

انظر إلى أحدهم إنه لقادر أن يفلسف لك الحديث عن الإسلام من الصباح إلى المساء، ولكن انظر بعد ذلك وراقب سلوكه هل تجد له عيناً تدمع خشية من الله، هل تجده يلتجئ إلى الله في ساعة يتيه فيها عن الناس جميعاً ليناجي الله بقلب واجف، وليحدثه بقلب وفؤاد محب، هو أبعد ما يكون عن ذلك، هو أبعد ما يكون عن ذلك، بل أسألك راقبه في بكوره وآصاله وغدوه ورواحه في كل الأوقات هل تجده يمد يده هكذا بتضاؤل وصغار ليدعو، لن تجده يفعل هذا أبداً، هذا هو الإسلام الذي أصبح حديث العقل

وأصبح ترجمانه الفلسفة والكلام الذي لا يدفعه إلى سلوك، حتى إذا رأيت وبحثت عن السلوك رأيت الدنيا هي التي تهيمن، ورأيت وسائل كثيرة من أسباب اللهو والابتعاد عن الله سبحانه وتعالى هي التي تتسرب.

ليت شعري لماذا لا يستطيع أولئك المتفلسفون أن يعالجوا الداء الوبيل الذي يستشري في بلادهم، من مدمنات استشرت – وياليت أن التعبير يستطيع أن يضع ويحجم مقدار هذا الاستشراء – لماذا لا يستطيعون أن يعالجوا ذلك؟ لماذا لا يستطيعون أن ينتشلوا شبابهم من وأدة هذه الموبقات؟ لماذا؟

لأن الترجمان أو اللغة التي تنجح في هذا الطريق لا يملكونها، اللغة التي تنجح في هذا السبيل هي لغة القلب لغة الفؤاد الملتاع، لغة الحب. ومن لم يملك هذه اللغة يأتي كلامه ثقيلاً على الأسماع لا يمكن أن يفيد شيئاً، وهذه عبرة كافية، وهذا دليل كاف أيها الأخوة. ولتعلموا أن السبيل الأوحد للدعوة إلى الله أن يملك الإنسان بعد رشده العلمي والعقلي قلباً يتوهج بحب الله سبحانه وتعالى وتعظيمه، فمن ملك هذا القلب اخترق السدود، ولتعلموا أن السبيل الذي يجمع شمل هذه الأمة أن تكون نبضات الإسلام لا فكراً عقلانياً في الدماغ، وإنما حباً يهيمن على الفؤاد، ولتعلموا أن السبيل الذي يجعل هذه الأمة تعتز بدينها ومن ثم تصبح المثل الأعلى للآخرين، هو هذا الحب الذي تفتقده هذه الأمة، كما قال محمد إقبال في عصر من العصور قال ذلك وهو يتحرق على الإسلام الذي كان يفيض به الشرق في يوم ما كان إسلاماً يتوهج بنار الحب، ولكنه غدا اليوم عبارة عن ثلج بارد لا تترجمه إلا الفلسفات الكلامية. أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجدد وقود إسلامنا في أفئدتنا حباً وتعظيماً لله فاستغفروه يغفر لكم.

٤- عندما يغدو الحب شركاً خفي | ١٩٩٧/٠٣/٠٧

رأيت حكمةً لابن عطاء الله السكندري، يقول فيها: (ما أحببت شيئاً إلا كنت له عبداً، وهو عز وجل لا يريد أن تكون عبداً لغيره)، وقد علمتم أن حكم ابن عطاء الله هذه أجمعت الأمة على أنها قبسٌ مقبسٌ من كتاب الله سبحانه وتعالى وسنة رسوله المصطفى صلى الله عليه وسلم، ثم هي أثرٌ من آثار شهود هذا العالم الرباني لمولاه وخالقه عز وجل.

ووجد من قال من العلماء: لعل الصلاة لو جازت بقراءة غير القرآن، لجازت الصلاة بقراءة حكم ابن عطاء الله. رأيته يقول: (ما أحببت شيئاً إلا كنت له عبداً، وهو عز وجل لا يريد أن تكون عبداً لغيره)، وتأملت فوجدت أن هذا الكلام ترجمة دقيقة لنهي القرآن بل لنهي الله سبحانه وتعالى في قرآنه في آياتٍ كثيرةٍ عن الشرك بالله سبحانه وتعالى.

والشرك ليس محصوراً في أن يتخذ الإنسان آلهة من دون الله عز وجل يبايعها ويدين لها بالولاء والسجود مع الله سبحانه وتعالى، كما كان دأب المشركين العرب قبل بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل الشرك له معنى أوسع من ذلك بكثير، وإلا لما صح قول الله سبحانه وتعالى ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾

وهذا يعني أن هنالك من يؤمنون بالله، ويعملون عملاً صالحاً، ولكنهم يشركون مع الله سبحانه وتعالى غيره، وهؤلاء يقيناً ليسوا هم المشركون التقليديون الذين تعلمون، وهذا هو أيضاً معنى قول الله عز وجل: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾، وهذا ينطبق على أمثالنا وعلى كثيرٍ من الناس الذين زعموا أنهم آمنوا بالله عز وجل وآمنوا بوحدانيته وعاشوا في ظلال توحيده.

ما معنى الشرك الذي يحذرنا الله عز وجل منه؟ معناه أن يزاحم محبة الله في فؤادك حب أي شيءٍ سواه، هذا هو الشرك الخفي الخطير. أن يزاحم محبة الله سبحانه وتعالى في فؤادك محبة أي شيءٍ سواه، فمن أحب نفسه وبلغ بحبه درجة الكبرياء ودرجة العصبية والأنانية، فقد أشرك بالله عز وجل، أشرك مع

الله ذاته، وجعل من نفسه إلهاً لذاته؛ اتخذ من هواه إلهاً لنفسه، ومن أحب ماله.. تجارته.. داره حباً جعله ينافس حب الله سبحانه وتعالى فقد أشرك بالله عز وجل، ذلك لأن الذي يحب شيئاً ما فهو عبده كما يقول ابن عطاء الله. ذلك لأنه لابد أن يخضع لهذا المحبوب، ولابد أن يدين له بالولاء، ولا بد أن يتبعه اتباعاً أعمى كما يقولون، ومن ثم فقد جعله شريكاً مع الله سبحانه وتعالى.

ومن أحب أولاده هذا الحب المنافس لحب الله عز وجل أو أحب أهله أو زوجه هذا الحب المنافس لحب الله سبحانه وتعالى، فقد أشرك مع الله سبحانه وتعالى غيره، ولو أننا نظرنا إلى قلوبنا وفحصنا مشاعرها الخفية لرأينا في أنفسنا مصداق قول الله عز وجل: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾.

وهنا يجدر بنا أن نقف أمام هذا المعنى الجليل الذي ينبهنا إليه ابن عطاء الله رحمه الله تعالى: ما أحببت شيئاً إلا كنت له عبداً هل هنالك شك في هذا؟ إذا كان حبك للشيء لذاته، فلا بد أن يستعبدك هذا الشيء، ودرجات الاستعباد متفاوتة، هذه حقيقة لا شك فيها، والله عز وجل لا يريد منك هذا، يريد أن تكون عبداً له فقط. والدليل على ذلك تلك الآيات الكثيرة التي يحذرك الله فيها من أن تشرك مع الله غيره، ومعنى أن تشرك مع الله غيره أي أن يكون قلبك مكاناً لمحبة غير الله سبحانه وتعالى، حتى ولو كان على أساس الشركة، هذا هو الشرك. وهذا يُذكرنا بقول الله عز وجل وكم نتذكر هذه الآية ونستشهد بها: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلّهِ﴾. هذا هو المقياس الذي يميز الموحد الحقيقي عن المشرك مع الله سبحانه وتعالى.

إلا أن الإنسان قد يتساءل مستشكلاً فيقول: ولكن الإنسان مطبوعٌ على أن يحب كل ما قد يحتاج إليه؟ بل هو مطبوع بغريزته على أن يحب الأهل والأولاد والزوجة والأصدقاء. أ لم يقل الله عز وجل ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾. فكيف يمكن للإنسان أن يخالف غريزته أو أن يثور على فطرةٍ فطره الله سبحانه وتعالى عليها؟

والجواب عن هذا: أن الإنسان إذا عرف الله سبحانه وتعالى حق المعرفة اتجه قلبه بالولاء له دون غيره، واتجه فؤاده بالحب له دون محبة سواه، إذا عرف الله بصفاته الكاملة، وبآلائه التي لا تحصى.. ومن ثم فإنه يحب كثيراً وكثيراً من الأشياء من غير الله عز وجل، ولكنه إنما يحبها لأنها توصله إلى الله سبحانه

وتعالى، هو يحب المال بعد أن أحب الله لأنه يرى فيه مطيةً يتبلغ بها ويصل بها إلى كل ما يرضي الله عز وجل.

هو يحب الزوجة والأهل والأولاد لكنه إنما يحبهم ليجعل منهم رأس مال جهادي يبني من خلال رأسماله هذا الأسرة التي أمر الله بها، ومن ثم يتحبب إلى الله عز وجل برعاية هذه الأسرة التي أقامه الله عز وجل قيِّماً عليها، يتقرب ويتحبب إلى الله برعاية أولاده وتربيتهم.

يحب أصدقاءه ومن يلوذون به، ولكنه في هذه الحالة لا يحبهم مع الله وإنما يحبهم في سبيل الله، يحبهم لكي يكون حبه لهم مظهراً لأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر وتقديم النصيحة لهم كلما اقتضت المناسبة، ثم هو يحبهم لأنهم مثله يعرفون الله، ولأنهم مثله يتقربون إلى الله عز وجل فبينهم وبينه رحم، رحمٌ يتمثل في معرفة الله عز وجل ويتمثل في السير على صراط الله سبحانه وتعالى.

وخلاصة القول أن هنالك حباً مع الله وهنالك حبٌ في سبيل الله، أما الحب مع الله فهو الشرك الذي يحذر الله عز وجل منه وهو المعني بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ﴾. الحب مع الله ينافس محبة الله عز وجل، وصورة ذلك كثيرة وواضحة ولا داعي إلى ضرب الأمثلة.

أما الحب في سبيل الله فهو ذروة التوحيد، الحب في الله.. إذا أحب العبد ربه سبحانه وتعالى أصبح عبداً له وحده، ثم إنه ينظر فيجد أنه لا بد أن يتخذ سبيلاً إلى رضا الله إلى محبة الله إلى تنفيذ أوامر الله إلى النهوض بالواجبات التي أمر الله عز وجل بها، وينظر فيجد أن هنالك وسائط ووسائل لا بد من اتخاذها سيراً إلى مرضاة الله عز وجل فهو يبحث عنها في سبيل وصوله إلى الله، وإذا عثر عليها أحبها لأنها توصله إلى الله، وتعلق بها لأنها المطية التي اختارها الله عز وجل له، لكي يتبلغ بها في طريقه إلى الله سبحانه وتعالى.

تماماً كالإنسان الذي أحب مطيةً أكرمه الله عز وجل بها، إنه لا يحبها لذاتها، ولكنه يحبها لأنه يتبلغ بها إلى أهدافه، لأنه يتوسل بها للوصول إلى أغراضه وأمانيه، والمؤمن له هدف واحد في هذه الحياة كلها أن يصل إلى مرضاة الله وأن يكرمه الله سبحانه وتعالى بالمغفرة والرضا، ولا شك في أن لذلك سبلاً والمال

من جملة السبل، والأهل والأولاد من جملة السبل، والأصدقاء من جملة السبل، وربما كانت الزعامة من جملة السبل. فمن اتخذها مطايا إلى الله فبحبه لله أحبهم، وتلك هي ذروة التوحيد، ومن نسي الله في جنبها وأعرض عن الله والتفت إلى هذه الأمور فقد أحبها مع الله، وهو المعني بالشرك الذي يحذر الله عز وجل منه.

هذه خلاصة ما يعنيه ابن عطاء الله: (ما أحببت شيئاً إلا وكنت له عبداً وهو عز وجل لا يريد أن تكون عبداً لغيره). فاللهم اجعلنا عبيداً لك واللهم اجعل علاقتنا بالأغيار وسيلةً إليك وطريقاً لبلوغ مرضاتك.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.



٥- لهذا نتقلب في مجتمع دجلٍ ونفاق | ٢٢/٠٩/٢٠٠٠

لقد أوجز الله سبحانه وتعالى في بيانه القديم والقويم قصة هذه الأسرة الإنسانية وواجب الناس اتجاها في آية واحدة، هي صدر سورة النساء في كتاب الله سبحانه وتعالى وذلك إذ يقول عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾.

أوضح البيان الإلهي في هذه الآية الموجزة الجامعة أن هذه الخليقة التي تملأ رحب الأرض أسرة، أسرةٌ تفرعت وتكاثرت من أبوين، ثم أوضح هذا البيان الإلهي أن نسيج العلاقة السارية ما بين أفراد هذه الأسرة إنما يتمثل في الود والألفة والحب، فتلك هي خميرة سعادة المجتمع الإسلامي والإنساني العام. ثم يوضح البيان الإلهي في نهاية هذه الآية واجب الناس أمام هذا الوضع الإجتماعي الذي أبدعه الله سبحانه وتعالى، إنه رعاية هذا النسيج، رقابة صلة هذا الود أن تنمو ولا تتراجع، أن تزداد اتصالاً وقوةً ولا تتقطع، هكذا يقرر بيان الله سبحانه وتعالى.

هذه الخليقة التي تنتشر في شرق هذه الأرض وغربها وشمالها وجنوبها أسرة واحدة، وقد شاء الله عز وجل أن تكون صلة ما بين أفراد هذه الأسرة متمثلةً في مشاعر الود، في مشاعر الحب والألفة، ثم أمر الله عباده أن يكونوا رقباء على هذه المشاعر، وأن لا يعكروا صفوها وأن لا يسيئوا إليها.

إذن أيها الإخوة المجتمع الإنساني لا ينهض إلا على دعامة رئيسية واحدة ألا وهي دعامة الحب، إذا قامت هذه الدعامة صافية عن الشوائب والزغل سعد المجتمع، وإذا لم تتحقق هذه الدعامة صافية عن الشوائب والزغل شقي المجتمع، ثم إن شقاء المجتمع يتفاوت صعوداً وهبوطاً حسب واقع هذا النسيج تقدماً وتأخراً. هكذا يقرر بيان الله سبحانه وتعالى.

ولكن فما الذي يحمي نسيج هذا الحب من التراجع؟ ما الذي يحمي صلة ما بين أفراد هذا المجتمع صلة الود والألفة؟ ما الذي يحمل هذه الألفة من العكر الذي يتسرب إليها؟

الذي يحمي هذه المشاعر شيء واحد، هو أن تكون هذه المشاعر موصولةً بمعين حب آخر ألا وهو بمعين حب العبد لربه سبحانه وتعالى، فإذا ما اتجهت أفئدة هذه الخليقة أجمع إلى محبة بارئها وخالقها والإله المنعم والمتفضل عليها وازدهر هذا الحب من العبد للرب سبحانه وتعالى، فإن مشاعر الود التي يمتد نسيجها ما بين الأفراد تظل صافية، وترفض العكر، وترفض الدخيل.

فلا يوجد من يتظاهر بالحب ليتسرب بمشاعر العداوة والبغضاء من وراء ذلك.

لا يوجد من يتبسم ويمثل من نفسه إنساناً ودوداً محباً، ولكن شعوره يفيض بالحقد والكيد والحسد

لا يوجد من يمثل من نفسه إنساناً ودوداً يرعى الإنسانية ويسهر على حقوقها، ولكن لعابه يسيل على المغانم والمكاسب فهو يخدع إخوانه هنا وهناك، يخدعهم باسم الحب، وباسم رعاية حقوق الإنسان، يخدعهم هنا وهنا وهناك ليبتزهم وليستخدمهم وليجعل منهم عبيداً له وإن لم تكن هذه العبودية معلنة.

ما الضمانة أن لا يتربص الإنسان بأخيه الإنسان بهذا الشكل؟ ما الضمانة أن لا يخدع الإنسان صاحبه بالابتسامة الكاذبة ثم إنه يهيء من وراء ذلك أسباب دماره وشقوته؟.

الضمانة أن يكون نسيج هذا الحب كله منبثقاً ونابعاً من معين حب آخر، ألا وهو حب هؤلاء العباد جميعاً لمولاهم وخالقهم الذي يخاطبهم بهذا الكلام ويقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ . عندما يتحقق معين هذا الحب بين ثلة من أفراد المجتمع الإنساني، ولنفرض أنهم ثلة تتمثل في أهل حي، تتمثل في عشرات الأفراد فقط، فلا يمكن إلا أن يسري هذا الحب النابع من قلوبهم لمولاهم، لابد أن يسري إلى أفرادهم جميعاً، ولابد أن تتفرع منه صلة قربى وصلة حب تتنامى فيما بينهم تحت مظلة هذا الحب الإلهي الرباني. وكلما كثر المجتمع الذي يتحقق فيه هذا الشرط أيضاً تتنامى صلة هذه القربى ويتنامى نسيج هذا الحب فيما بينهم كبر المجتمع أو صغر.

ولكن عندما يغيب حب الله سبحانه وتعالى من أفئدة العباد ما الذي يحتل هذه الأفئدة؟ الذي يحتلها حب الذات حب العصبية، حب الغرائز حب المال حب الشهوات والأهواء، ومن ثم فلا بد لهؤلاء الأفراد أن يتنافسوا وأن يتسابقوا إلى هذه الأشياء التي استعمرت أفئدتهم بعد أن غاب عنها حب الله

سبحانه وتعالى، والذي يحصل بعد هذا أن القوي في مضمار هذا التنافس يتغلب على الضعيف، يتغلب عليه في ميزان الخداع والنفاق والكذب والدجل، وأما المستضعفون فيقعون بين سنابك هذا السباق. ومجتمعنا الإنساني اليوم مثالٌ فريدٌ فذٌ على هذا الذي أقول، مجتمعنا الإنساني اليوم مجتمع دجلٍ ونفاقٍ وخداع وختل.

ما أكثر ما تسمع شعارات رعاية حقوق الإنسان، وما أكثر ما تسمع كلام المتفلسفين عن هذه الحقوق من أقصى العالم المتمدين إلى أقصاه، ولكن اخترق هذه الشعارات وانظر إلى العمل الخفي، وانظر إلى السلوك الواقعي لتجد أن هؤلاء الذين يرفعون هذه الشعارات وحوشٌ كوحوش الغابات، بل أستغفر الله وحوش الغابات منضبطة بغريزة، منضبطة بحاجة ماسة لبقاء الذات أما هؤلاء فإن وحشيتهم الضارية تتنزه عنها وحشية السباع.

انظروا إلى هذا العالم الذي يتخبطه ظلام الظلمات وظلام الظلم أنى التفت وأنى أبصرت، تجد قوةً مهيمنة مسيطرة لا تزيد نسبتها على أحد عشر بالمئة من سكان العالم، تجد هذه القوة هذه الفئة القليلة تستعبد وتستعمر وتبتز وتمتص خيرات المستضعفين الآخرين، تقوم الحروب هنا وهنا وهناك ولا تهدئ، تنبثق الفتن هنا وهنا وهناك ولا تنام، يخيل إليك أن هذه الفتن تنبثق بشكلٍ ذاتي من أماكنها، ولكنك إن نظرت بحصافة رأي ولا تحتاج إلى حصافة كبيرة، تعلم أن هذه القوى المسيطرة التي لا تزيد نسبتها على أحد عشر من سكان العالم هي التي تنفخ في نيران تلك الفتن، هي التي تهيج تلك الحروب، هي التي تدير رحى القتل ولكن بطريقة خفية مدروسة غير معلنة.

الشركات العالمية التي تمضي في انتاج الأسلحة لها طريقها في استثارة الحروب والفتن حتى تسوق أسلحتها، وأمريكا تبارك هذا العمل كله، حتى لها نسبةٌ كبيرةٌ من هذه الأرباح التي تجنيها من وراء دماء الشعوب البريئة.

الفتن التي تهتاج هنا وهنا وهناك خُطط لها، الناس الذين فرحوا بالأمس بأن نهضة اقتصادية ازدهرت فيما بينهم، ثم إن هذه الفرحة تحولت إلى حزن اليوم لأنهم لم يملكوا أن يتمموا فرحتهم بهذا النهج الإقتصادي المزدهر، إذا بهذا الوضع الاقتصادي قد اختنق، لم يختنق بشكلٍ ذاتي ولكن القوى التي تتحدث

عن حقوق الإنسان هي التي فعلت هذا، وظلام المستقبل القريب أخطر من ظلمات الواقع التي تعاني منها الإنسانية اليوم في العالم كله. ما السبب؟

السبب أنه لم يوجد حصنٌ يقي ويحفظ نسيج الحب الذي قضى الله وشاء أن يمتد بين أفراد المجتمع الإنساني، نسيج هذا الحب لا يتم إلا بحراسة، حراسة هذا الحب تتمثل في أن تعود الأفئدة كلها إلى معين الحب، تتمثل في أن تعود هذه الأفئدة كلها فتغرف من معين حبها لله عز وجل، فإذا ذاقت الإنسانية متمثلة في أفرادها جميعاً محبة الله، صفت علاقة الحب فيما بين أفرادهم، وهيهات ثم هيهات أن يكون الحب مجرد أقنعة كاذبة مدجلة مزيفة ثم يكون من تحت هذه الأقنعة التربص والظلم والدجل والحال التي تعاني منها الإنسانية اليوم.

أجل مصيبتنا أيها الإخوة أن نسيج الحب الإنساني وهو رأس مال السعادة الإنسانية، يحتاج إلى رقابة، يحتاج إلى حصن، هذا الحصن غير موجود، وليس ثمة إلا حصن واحد هو حب العبد للرب. لو أن هؤلاء المسيطرون على العالم الذين يتحدثون آناً عن العولمة، وآناً عن النظام العالمي الجديد، لو أن مشاعرهم استيقظت على قبسٍ من حب الله عز وجل لا والله لما كاد منهم كائد للإنسانية التي من حولهم، ولاختفى الدجل، ولاختفى الكذب، ولاختفى الخداع والختل والنفاق، ولكن محبة الله غابت، ومن ثم فإن رقابة الله غابت، وهكذا تقلص الحب ونسيجه بين أفراد الناس وتحول إلى تربص، وتحول إلى وحشية يتربص من خلالها القوي بالضعيف.

وأخيراً ما موقف العقل أمام هذا الواقع أيها الإخوة؟ موقف العقل من هذا الذي أقوله لكم موقف الخادم.

في حياة الإنسان أمران عظيمان: العقل والحب. أيهما خادم للآخر؟ العقل هو الخادم للحب وليس العكس.

أنت تستعمل عقلك من أجل أن تعلم ذاتك، ومن أجل أن تعلم مولاك وخالقك، ومن أجل أن تعلم المجتمع الذي تعيش فيه، ومن أجل أن تعلم كيف يسعد المجتمع فرداً وجماعة، هذا هو عمل العقل فإذا أدرك العقل ذلك انتهت مهمة العقل الخادم وجاءت مهمة القلب المحب، ولكننا في هذا العصر

نتكس الأمر نجعل من العقل الوسيلة والغاية، أما الحب فالحديث عنه يأتي بعد مراحل ومراحل. ماذا يفيدني العقل إذا اتخذت منه غايةً ولم أتجاوزه إلى هذا الذي شرحته لكم الآن؟

العقل مصباح كما قد قلت بالأمس وأنت عندما تمسك بالمصباح لتدخل داراً مظلمة في جنح ليلٍ مظلم، إنما تستعمل المصباح لترى سبيلك إلى هذه الدار، ولتعلم موطئ قدمك فيها، ولتعلم كيف تتعامل مع أسباب سعادتك داخل هذه الدار، فإذا تبين كل شيء فإنك ستتجاوز المصباح إلى الغاية. من هو هذا المجنون الذي يضع عينيه أمام المصباح يعبده لذاته لا لشيء آخر؟! العقل هو هذا المصباح، من لم يهتد بالعقل إلى معرفة الله فهو مجنونٌ بعقله، من لم يهتد بعقله إلى معرفة ذاته عبداً لله فهو مجنون في عقله، من لم يهتد بعقله إلى أن ترياق سعادة المجتمع إنما هو نسيج هذا الحب فهو مجنونٌ بعقله، ومن لم يعلم أن نسيج هذا الحب لا ينمو ولا يتألق إلا إذا كان موصولاً النسب بمعين من حب الله عز وجل من لم يستعمل عقله لهذا فهو مجنونٌ بعقله.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يبصرنا بالمعنى العظيم لهذه الآية التي افتتح البيان الإلهي بها سورة النساء ونسأله عز وجل أن يبصرنا بمعنى قوله سبحانه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

٦- هل يكون الحب داءً ودواءً بآن واحد؟ | ٢٠٠٨/٠٥/٠٢

إن السر في صلاح المجتمعات التي صَلُحَتْ إنما هو الحب والسر في فساد المجتمعات التي فَسَدَتْ وشقيت إنما هو الحب، بالحب يتحول الإنسان إلى ملك يمشي على الأرض، بالحب يتحول إلى غيريٍّ ينسى حظوظ نفسه ويؤثر الآخرين عليها بدلاً من أن يستأثر بها، وبالحب يتحول الإنسان إلى مجرم سفاك للدماء يأخذ الحقوق من أصحابها ويستلب الأوطان من ذويها ويستمرئ الظلم في الأرض، وهكذا دل التاريخ ودلت حقائق الكون على هذا الذي ينبغي ألا نتيه عنه، ولكن كيف يتم ذلك؟

كيف يكون الحب داءً ودواءً بآن واحد؟ كيف يكون الحب سلماً للرقي وأداةً للهبوط والسقوط في وقت واحد؟ إليكم الجواب عن هذا السؤال يا عباد الله، لا شك أن قلب الإنسان ملك لبارئه وخالقه فإذا توجه القلب، قلب الإنسان، بالحب إلى من فطره وسواه وأبدعه في أحسن تقويم، إذا توجه قلب الإنسان بالحب إلى الإله الذي كرمه وفضله على كثير من المخلوقات كما قال في محكم تبيانه، إذا توجه قلب الإنسان بالحب إلى هذا الذي فطر هذا الكون وسخره لخدمة الإنسان، إذا وجه الإنسان قلبه لحب هذا الإله نسي هذا المحب ذاته في ضرام محبته لله عز وجل ومن ثم نسي حظوظه، نسي شهواته وأهواءه، نسي عصبياته واستكباره، نسي الأنا التي تهتاج بين جوانحه والتي تتحقق منها الكبرياء المهلكة، نسي ذلك كله في غمار حبه لمن أبدعه وسواه وأخرجه في أحسن تقويم، فإذا رَبَّى هذا الحب الإنسانَ هذه التربية أصبح مؤثراً للآخرين على نفسه بدلاً من أن يكون مستأثراً، أصبح خادماً لعباد الله عز وجل بدلاً من أن يستخدمهم ويستغلهم، أصبح هذا الإنسان أداة خير لعباد الله عز وجل جميعاً، أصبح هذا الإنسان مضحياً بحظوظه مضحياً برغائبه وشهواته في سبيل الإله الذي أحبه، في سبيل الإله الذي مَحَضَهُ وده، في سبيل الإله الذي ينبض قلبه حباً خالصاً له لا لغيره ولا لأي شيءٍ سواه ومن ثم يصبح الإنسان أداة سعادة لنفسه وأداة سعادة لإخوانه الذين يعيش بين ظهرانيهم.

أما إذا توجه قلب الإنسان بالحب لذاته، بالحب للأنا أو الأنانية الكامنة بين جوانحه فإن هذا الحب يوقظ مشاعر العصبية في كيانه، يوقظ مشاعر الاستكبار في نفسه، يوقظ مشاعر العرقية ومشاعر الأنانية

التي لها أنواع مختلفة شتى ومن ثم يصبح مستأثراً لنفسه بدلاً من أن يؤثر الآخرين، يصبح أنانياً بدلاً من أن يصبح غيرياً ومن ثم يضحي بكل شيء في سبيل حظوظ نفسه، يضحي بمصالح الآخرين في سبيل أهوائه، في سبيل شهواته ورغائبه، وهكذا يا عباد الله، حب يصعد بالإنسان إلى قمة السعادة والخير وحب آخر يهبط بالإنسان وبالمجتمع الإنساني إلى أسوء دركات الشقاء، هذا هو الجواب عن السؤال الذي قد يخطر في البال، ومن هنا نبَّهَنَا بيان الله عز وجل إلى أن الإيمان العقلاني لا فائدة منه إن لم يتوج بالحب، لمن؟ لبارئ هذا الكون، لصاحب هذا القلب، لمالك الإنسان ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ﴾.

ومن هنا أوضح لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن المؤمن لا يتكامل إيمانه إلا إذا كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأحب إليه من نفسه التي بين جنبيه، ألم يقل ذلك لأبي بكر الصديق رضي الله عنه، كم وكم تساءل سائلون: لماذا هذه الشدة وهذا الاشتراط العسير لكي يبلغ الإنسان ذروة الإيمان، أن يحب الله ورسوله أكثر مما يحب نفسه، نعم لأنك إن لم تحب الله عز وجل أكثر مما تحب نفسك فلسوف تضحي بإيمانك وبحبك لله في سبيل نفسك، في سبيل حظوظها، في سبيل استكبارك، في سبيل شهواتك وأهوائك وهذا ما يجري اليوم في الكون.

إذاً لابد لكي يكون الإنسان مؤمناً بالله عز وجل الإيمان الذي يرقى به فرداً ومجتمعاً إلى قمة السعادة أن يوجه قلبه بالحب إلى بارئه الذي فطره، إلى مولاه الذي خلقه سؤال آخر قد يقفز إلى ذهن كثير منكم عندما يسمع هذا الكلام، قد يقول أفلا يكفي إدراك الحقيقة، ومكان ذلك الدماغ والعقل، سائقاً للإنسان إلى درب السعادة وقمة الهداية والتوفيق؟

لا يا عباد الله، الإدراك العقلاني مهما قوي ومهما وصل إلى ذروة اليقين لا يقود صاحبه إلى سلوك، إذاً ما فائدة الإيمان؟ دور الإيمان كدور المصباح المثبت في مقدمة العربة، أرأيتم إلى المصباح الذي يشع في الليل المظلم في مقدمة العربة التي تسوقها ما هو دوره؟ دور هذا المصباح أنه يريك الطريق كما هو معوجاً معبداً أو غير معبد مستقيماً أو غير مستقيم ثم إن دور المصباح يقف عند هذا الحد، المصباح لا يحرك العربة ولا يقودها، إن الذي يحرك العربة إنما هو الوقود الذي في داخلها، الذي يحركك في الطريق إلى

مرضاة الله إنما هو وقود الحب، والذي يقودك في الطريق إلى مرضاة الشيطان والنفس والهوى إنما هو الحب أيضاً،

أما العقيدة الجاثمة في الرأس مهما كانت صحيحة ودقيقة فإن دورها أنها تريك الطريق السليم سليماً، تريك الحق حقاً وتريك الضلالة ضلالة، ثم إنك لابد من وقود يحركك إلى ما تريد، هذا هو الجواب عن هذا السؤال يا عباد الله، ألا ترون في فجاج الكون كم وكم يعج بمستشرقين، بأناس عرفوا الله كما عرفناه لكنهم لم يحركوا ساكناً إلى مرضاة الله لأن الوقود الذي بين جوانحهم إنما يخدم رغائبهم إنما يخدم شهواتهم، لأن الحب الموجود بين جوانحهم حب هابط وليس حباً صاعداً إلى الله سبحانه وتعالى.

هذا المعنى الذي ينبغي أن أقوله لكم وينبغي أن أكرره على مسامعي ومسامعكم ينبغي أن يَحْفِزَنَا إلى البحث عن وقود هذا الحب إلامَ يتجه؟ أفيتجه إلى أهوائنا وشهواتنا ورغائبنا أم يتجه إلى الله، إلى صاحب هذا القلب، يتجه إلى الإله الذي كرمنا، إلى الإله الذي أغرقنا في بحارٍ من النعم التي لا تتوقف؟ أغلب الظن أنا إن تساءلنا هذا السؤال فلسوف نعلم الجواب المخيب والمؤلم، الجواب هو أن حبنا في أغلب الأحيان وبالنسبة لأكثر الناس إنما هو متمحض لرغائبنا وشهواتنا وأهوائنا فهو ذلك الحب الهابط الذي يزج المجتمعات إلى الشقاء إلى ضرام الفساد، وإذا عرفنا أننا نعاني من هذا الداء فتعالوا نسرع ونبادر إلى استعمال الدواء، لا سبيل يا عباد الله لصلاح المجتمعات الإسلامية، وأنا أتحدث عن المجتمعات الإسلامية، إلا إذا طَهُرَتْ قلوبُ من فيها من قادة وشعوب من شوائب الحب للذات، من شوائب الحب للأهواء والشهوات واتجهت بالحب إلى بارئنا، إلى خالقنا، إلى من كرمنا، إلى من لا تنقطع نعمه عنا ولا لحظة واحدة، فإذا عالجنا أنفسنا وإذا طهرنا قلوبنا من محبة الأغيار وجعلنا محبة الله هي المتغلبة صلحت مجتمعاتنا ولا داعي إلى كثير من الفلسفة والتخطيطات النظرية التي يتجادل حولها الناس.

وكأني بكم تسألون: فما السبيل إلى أن نطهر أوعية قلوبنا من المحبة المهلكة والمفسدة للفرد والمجتمع ونتوجه بها إلى مولانا وخالقنا فنمحضه حبنا؟ كيف السبيل إلى ذلك؟ السبيل إلى ذلك ميسور يا عباد الله ولعلي أشرت إلى ذلك في خطبة مرت، تقول القاعدة الإنسانية التي لا شذوذ فيها: جُبِلَتْ النفوس على حب من أحسن إليها فاسألوا أنفسكم من هو المحسن الأوحد في الكون؟ من الذي ينيمك إذا تمددت مساءً على فراشك للرقاد؟ من الذي يوقظك إذا أخذت حظك الكافي من الرقاد؟ من الذي

يطهرك من السموم عندما تدخل الحمام؟ من الذي أرسل إليك هذا الماء نقياً طاهراً مطهرا؟ من الذي أكرمك عندما تجلس على مائدة الطعام بهذه الألوان من الأطعمة التي جعلها الله مناسبة لكيانك، إن هي إلا نتيجة سماء أمطرت وأرضٍ أنبتت وأنعام سخرها الله لك لحوماً وألبانا؟ إذا نظرت إلى نفسك في المرآة ورأيت العافية تتضرج في كيانك سائل نفسك من الذي يكرمك بالعافية من فرقك إلى قدمك؟ سائل نفسك من الذي جَمَّلَ وجهك بالفكر المهيمن في كيانك، ولو أن الفكر غاب عن الإنسان لأصبح جماله مظهراً من مظاهر القبح أمام الآخرين، سل نفسك وأنت تسير في طريقك من الذي يجعل قامتك معتدلة لا تترنح ذات اليمين ولا ذات اليسار؟ ستعلم الجواب أنه الله، أنه المنعم الأوحد، ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾، إذا علمت هذا تفجرت ينابيع محبة الله عز وجل بين جوانحك، ثم إن هذا الحب بذوره موجودة في قلب المؤمن والفاجر، في قلب المؤمن والملحد، بذور هذا الحب موجودة منذ أن فطرنا الله سبحانه وتعالى وأخرجنا من بطون أمهاتنا، فإما أن تتعهد هذه البذور بالسقيا فتنبت وتهيمن وإما أن تعرض عنها فتكون أنت المسؤول عما قد فعلته بنفسك، هذا هو الجواب عن هذا السؤال أيها الإخوة.

فإذا شكونا بعد اليوم من السوء الذي يسري وينتشر في مجتمعاتنا، ومظاهر السوء كثيرة وأنواع الفساد شتى، فلتعلموا أن سبب ذلك الحب، الحب الهابط، الحب الذي يسقط بالإنسان من علياء الفطرة الإيمانية الإنسانية إلى درك الشقاء، فلنبادر إلى الدواء، فلنعالج الحب الداء بالحب الدواء، فلنعالج حب أهوائنا وشهواتنا بالحب الذي ينبغي أن يتغلب عليه ألا وهو حب مولانا وخالقنا سبحانه، الناس الذين يدخلون في كل يومٍ ذرافات ووحداناً إلى دين الله في ربوع الغرب ما الذي يقودهم؟ أتظنون أن الذي يقودهم إلى الإيمان هو العقل الهادي؟ لا، عقولهم أدركت الحقائق منذ أمدٍ بعيد إنما الذي يقودهم ويوجههم إلى الإيمان هو الحب، حب الله عز وجل الذي أعتقهم من حب السوى، من حب الأغيار، وصدق عليهم قوله الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾. أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم

٧- حبٌّ بحب | ٢٠٠٩/٠٣/١٣

تعالوا بنا في هذا اليوم المبارك من هذا الشهر الأغر نقف على مشاهد من تأثر المصطفى صلى الله عليه وعلى آله وسلم بذكريات وقف عليها سواء كانت حلوة أو مرة، تعالوا نتأمل فيما فعلت بنفسه هذه الذكريات وما بعثت بين جوانحه من الشجو، ﴿يروي الشيخان البخاري ومسلم أن المصطفى صلى الله عليه وعلى آله وسلم عندما عاد من غزوة تبوك ووصل إلى ديار ثمود قال لأصحابه: لا يمرَّنَّ أحدٌ منكم بديار القوم الذين أهلكهم الله عز وجل إلا باكين خاشعين أن يصيبكم مثل ما قد أصابهم، وقنَّع رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه بردائه ومرَّ مسرعاً حتى تجاوز الديار﴾، ﴿وروى الشيخان أيضاً أنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم عندما قفل عائداً من غزوة تبوك ووصل إلى مشارف المدينة المنورة ولاحت أمامه بيوتٌ من بيوتها ولاح أمامه جبل أحد الأشم قال عليه الصلاة والسلام: هذه طابة وهذا أحد جبل يحبنا ونحبه﴾، ﴿وروى مسلم في صحيحه أنه صلى الله عليه وسلم عندما علم أن يوم عاشوراء، العاشر من محرم، هو اليوم الذي أنجى الله عز وجل فيه سيدنَا موسى من فرعون أمر بصيامه﴾.

هذا ما فعلته الذكريات بين جوانح المصطفى صلى الله عليه وعلى آله وسلم والسر في ذلك يا عباد الله أن الحادثة تقع وتمر ولكن كلاً من الزمان والمكان يحتضنها، تبقى هذه الحادثة موجودة في طي المكان كما تبقى موجودة أيضاً في طي الزمان، إن لم يرها البصر المثبت في الوجه رأتها البصيرة المثبتة في القلوب، هذه حقيقة لا مرية فيها، فإذا كان الزمان والمكان عندما عادا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحادثة التي وقعت ومرَّ عليها عهد بعيد أو قريب فأثارت بين جوانحه هذا الشجو سواء تمثل في خوف من الله أو تمثل في حنين وحب فماذا عسى أن يفعل بين جوانحنا هذا الزمان الذي استدار اليوم وعاد يحمل إلينا حادثة الرحمة الإلهية التي أكرم الله سبحانه وتعالى بها عبادَهُ أجمع يوم ولادة المصطفى صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

أعود فأقول إذا كان الزمان والمكان الذي أعاد كل منهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حادثة مرت فأثارت بين جوانحه ما أثارت من الشجو والمشاعر التي حدثتكم عن طرف منها ماذا عسى أن

يفعل بنا هذا الزمن الذي استدار اليوم وعاد وها نحن نستقبله يحمل إليها حادث الرحمة الإلهية المتمثلة في مولد المصطفى صلى الله عليه وعلى آله وسلم؟ هل أنا بحاجة إلى أن أجيب عن هذا السؤال؟

لعلنا جميعاً نعلم أن الجواب بدهي ولكن لابد لذلك من شرط هو في الواقع جامع مشترك بين ما اهتز له شعور المصطفى صلى الله عليه وسلم وبين ما ينبغي أن تهتز له مشاعرنا الجامع المشترك هو الحب، الحب هو الذي جعل المصطفى صلى الله عليه وسلم يقول: هذا أُحُد جبل يحبنا ونحبه، الحب هو الذي جعل المصطفى أكاد أقول يتغزل بذلك الجبل، إنه ليس حب ذلك الجبل تلك الحجارة والصخور ولكن حب أولئك الذين استشهدوا فاحتضنهم سفح ذلك الجبل الأشم، الحب هو الذي فعل ما فعل بمشاعر المصطفى صلى الله عليه وسلم والحب هو الذي جعل بصيرته ترى الحادثة وكأنها تقع آنذاك، الحب هو الذي رفع الحجب عن الماضي وقد مرت عليه سنوات وبصرته وكأنه واقع حاضر اليوم، وإذا وُجِدَ مثل هذا الحب بين جوانحنا لحبيبنا المصطفى صلى الله عليه وعلى آله وسلم فلابد أن تطوف بنفوسنا المشاعر ذاتها ولابد أن نتبين هذا الحدث العظيم الجليل الذي يجسد رحمة الله سبحانه وتعالى بعباده أجمع والمتمثل في ولادة المصطفى صلى الله عليه وسلم وما أعقبها من بعثة، وما أعقبها من نشر هذه الحنفية السمحاء التي بُعِثَ بها سائر الرسل والأنبياء.

فتعالوا يا عباد الله نتلمس مكان الحب لحبيبنا المصطفى صلى الله عليه وسلم، دعوني أقل لكم إن الإيمان العقلاني وحده لا يكفي بل أقول إن الإيمان العقلاني وحده لا ينجي صاحبه يوم المعاد، لابد من أن يتحول الإيمان العقلاني المثبت يقيناً في الفكر والعقل إلى حب وتعظيم ومهابة في القلب، الإنسان بقطع النظر عن قفصه الجسدي مؤلف من حقيقتين اثنتين، عقلٍ به يدرك وقلبٍ به يحب ويعظم ويبجل أو يبغض ويكره، والرحيل إلى الله عز وجل لا يمكن أن يتم على نحوٍ يرضيه إلا بجناحين اثنين، جناح اليقين العقلي بحقائق هذا الدين العظيم وجناح الحب، الحب لمولانا وخالقنا عز وجل ومن ثم الحب لمن أحبه الله عز وجل وابتعثه رحمة للعالمين محمدٍ صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فإذا تحققت مشاعر هذا الحب فإن الاحتفال والاحتفاء بذكرى مولد المصطفى صلى الله عليه وسلم يصبح انفعالاً قسرياً ولا يكون فعلاً اختيارياً.

أرأيت إن كان فؤادك قد هيمنت عليه مشاعر الحب لرسولك، مشاعر الحنين إليه والشوق إلى المجالس التي اكتحلت بها أعين أصحابه ثم رأيت نفسك أمام الزمن الذي يحمل في طياته هذا الحدث الأغر هل تستطيع أن تُنِيْمَ مشاعر الشجو بين جوانحك؟! هل تستطيع أن تُنِيْمَ مشاعر الحنين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في نفسك؟! لن يكون لك إلى ذلك من سبيل قط، فكيف إذا وقفت على أحاديث يتكلم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم بل يعبر فيها المصطفى صلى الله عليه وسلم عن شوقه إليك، عن اشتياقه إلى إخوانه الذين لم يرهم، ألا تبادله حباً بحب؟!

﴿روى الإمام مالك في موطئه وغيره أن المصطفى صلى الله عليه وسلم دخل قبيل وفاته إلى البقيع فسلم على أهل البقيع ثم قال: وددت لو أني رأيت إخواننا، قال له أحد أصحابه ألسنا إخوانك يا رسول الله؟ قال: بل أنتم أصحابي وإخواني الذين لم يلحقوا بعد وسأكون فرطاً لهم على الحوض، قال قائل منهم أو تعرفهم يا رسول الله؟ كيف تستقبل من لم تر؟ قال: أرأيتم لو أن رجلاً له خيول غرٌّ محجلة وسط خيول دهمٍ بهمٍ، أي سوداء، أفكان يعرفها؟ قالوا نعم قال: فأنا أعرفهم غراً محجلين من آثار الوضوء﴾، ها أنت ترى كيف أن المصطفى صلى الله عليه وسلم يحن إلى إخوانه وعبر عن هذا الحنين ببليغ كلامه، وإني لأسأل الله عز وجل أن يجعلني ويجعلكم جميعاً من إخوانه الذي اشتاق إليهم، أفلا نبادله حنيناً بحنين؟! أفلا نبادله شوقاً بشوق؟! وإذا رأينا أن الزمن قَدَّمَ لنا مجدداً هذه الهدية المطوية في كيانه، كيان هذا الزمن، وأعاد إلينا الحدث الأجل يوم ولادة المصطفى صلى الله عليه وسلم أفلا تهتاج وتضاعف مشاعر الحنين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين جوانحنا، وإذا اهتاجت هذه المشاعر فهل من سبيل إلى أن لا نعبر عنها بألسنتنا إذاً لاختنق الإنسان، لابد من أن يتحدث عن شجوه، لابد من أن يتحدث عن حنينه إلى المصطفى صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ولكن الحب يا عباد الله سائق يسوق إلى ما يرضي المحبوب، الحب حادٍ ولكنه يحدو بنا إلى ما يرضي الله ورسوله، الحب لا يمكن أن يحمل صاحبه على الشرود عن صراط المحبوب، محبوبنا الله ومن ثم فإن محبوبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، الحب لا يمكن أن يحمل المحب على أن يبدل ويغير، الحب يجعلنا مصداق قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾.

ولقد حدثتكم عن الشطر الأول من ذلك الحديث المبشر ولكني أمسكت عن الشطر الثاني فلأذكره لكم لكي نحاذر أن لا نقع فيما حذر منه رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، يقول صلى الله عليه وسلم في الشطر الثاني من هذا الحديث: ﴿ألا ليزادن رجال عن حوضي كما يزاد البعير الضال، أي ليطردن رجال عن حوضي كما يطرد البعير الضال وقع بين مجموعة جمال، فأقول ألا هلم ألا هلم فيقال إنك لا تدري كم بدلوا من بعدك فأقول فسحقاً فسحقاً فسحقا﴾، عباد الله وصيتي التي أخاطب بها نفسي وأخاطب بها كل أخ في الله، كل أخٍ في الإنسانية، أخاطبكم بها جميعاً ألا نبدل، ألا نغير، أن نظل حُرَّاساً للنهج التي تركنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه، ألا نشرد عن هذا النهج إلى اليمين أو إلى الشمال، أن نتمثل تحذير ربنا عز وجل إذ يقول: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ إن كنا حُرَّاساً على النهج الذي تَرَكَنَا عليه رسول الله لم نبدل ولم نغير على الرغم من الدواعي والمغريات الكثيرة المتنوعة فإني أستطيع أن أبشر نفسي وأبشركم بأن الوقوف أمام الله عز وجل وبين يديه يحمل بشارة العفو والمغفرة.

أسأله سبحانه وتعالى أن يوفقنا ويوفق هذه الأمة قادة وشعوباً على التمسك بحبل الله، على التمسك بما أمر الله عز وجل والانتهاء عن كل ما قد نهى الله عز وجل عنه وهي أقل ما تفرضه علينا ضريبة الحب لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وليس حبُنا له إلا فرعاً عن شجرة حبِّنا لمولانا وخالقنا جل جلاله، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم فاستغفروه يغفر لكم

٨- بالحب والشكر تدوم النعم | ٢٠١٠/٠١/٢٢

أرأيتم إلى إنسان يعاني من ظمأ يلتفت يمنة ويسرة فلا يجد جرعة ماءٍ يروي بها ظمأه، ويفتش في أنحاء داره وزواياها عن قطرة ماءٍ أو جرعة شراب فلا يعثر على شيءٍ مما يبحث عنه، واستمر به الحال كذلك حتى كاد الظمأ يُقَطِّعَ كبدَه، وفيما هو كذلك إذ طلع عليه إنسان أقبل في لهفةٍ إنسانيةٍ عارمة إليه، ومَدَّت يده إليه بكأسٍ تشفّ عن ماءٍ عذبٍ فرات، أخذ الكأس وشربها، وشعر بالري بعد الظمأ المحرق، وشعر بلذة هذه النعمة بعد أن كان محروماً منها، هل من ريب في أن هذا الإنسان الذي عانى من ظمئه ما عانا سيتوهج قلبه بالحب لهذا الذي أنجده بالشراب بعد أن أحرق الظمأ قلبه؟ ما أظن أن فينا من يرتاب في هذه الحقيقة، فكيف إذا أجرى هذا الإنسان الكريم المتلهف، كيف إذا أجرى له في داره جدولاً من الماء العذب الفرات يسري في أنحائها، يشرب من مائه كلما ظمئ، ويغتسل بالماء كلما احتاج إلى ذلك، ويغسل ما اتسخ من ثيابه وأدواته، ويتمتع برؤية الماء العذب الفرات يسري في أنحاء داره، هل من شك في أن هذا الإنسان الذي كان قلبه يحترق ظمأً سيفيض الآن بالحب لهذا الذي أنجده بالماء؟ وجلَّ الإله القائل: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾

هذه حقيقة لا يرتاب فيها أحد –يا عباد الله– فكيف إذا كان هذا المتكرِّم، إذا كان هذا المعطي هو الرحمن الذي لا يجود على أسرة بماءٍ في جدول، وإنما يجود على الإنسانية كلِّها، يجود على عباد الله أجمع، يغيثهم من بعدما قنطوا أو كادوا أن يقنُطوا، وجل الإله القائل: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ ﴿وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ قفوا بنا أمام هذه الكلمة ﴿وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾، ينشرها بين الناس جميعاً، ينشرها بين فئاتهم على اختلافها، على اختلاف المذاهب، على اختلاف النعم، ينشر رحمته بين الطائعين وبين العصاة، مائدته عامرة، أبوابها مفتحة، ﴿وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾، هل من شكٍّ في أن الإنسان الذي يرى هذا المتكرِّم المتفضِّل الذي يروي عباده من ظمأ، ويكرمهم بعد يأس، وينزل عليهم من بركات سمائه، ويفجر لهم من ينابيع أرضه، ويجعل الأرض ممرعة بالخضرة والرياحين والنعم للإنسان ولأنعامه، هل من شكٍّ في أن قلب الإنسان لا بد أن يتوجه إلى هذا المعطي بالحب؟ هل من ريب في أن

الذي يتلقى هذه المكرمة كلَّها هل من ريب في أن قلبه سيصبح وعاءً لحب هذا المنعِم المتفضِّل ولا سيما وفضله لا يفرق بين فئة وأخرى ﴿كُلّاً نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾

بالأمس كاد أن يطوف اليأس بالقلوب إذ رأينا الأيام تتوالى، ورائحة الصيف تعود إلى قُرِّ الشتاء، ثم نظرنا فوجدنا أن اليأس تحول إلى النقيض، ووجدنا أن الكرم الرباني الحاني يقبل على عباده ليبطل اليأس الذي كان يطوف بنفوسهم، ويحيله لا إلى أمل، بل إلى بشارة متحقِّقة، كانت الأنهر جافة أو تكاد تكون جافة، وها هي اليوم فياضة ممرعة، وها هي اليوم تعيد ذكرى أيام بردى يوم كان هذا النهر مضرب المثل للشام وأهله، ويوم كان هذا النهر عقداً يتألق في جيد الشام، ها نحن نرى الماضي كيف عاد، وها نحن نرى أن النعمة التي كادت أن تغرب أو تغيب لقد عادت، فمن الذي أعادها يا عباد الله؟ هل من علم ورثه الإنسان اعتصر السحب فتحول اليأس إلى بشارة؟! معاذ الله، من ذا الذي يقول هذا؟ هل من طبيعة عادت فاصطلحت مع عباد الله عز وجل؟! هل من طبيعة شعرت بنبضات الرحمة للناس الذين يعانون من ظمأ؟ للأرض التي تعاني من جدب؟ للأنعام التي تبحث في مراعيها عن عروق خضراء؟! لا يا عباد الله، لا تحجبوا أنفسكم عن العقول التي متّعكم الله عز وجل بها، لا تحجبوا كياناتكم عن الفطرة التي متعنا الله عز وجل بها، فطرة الإيمان ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾

إنه الله سبحانه وتعالى أكرمنا وأعطانا ورزقنا، رزقنا من السماء الرزق الذي سيتحوّل إلى رزقٍ يتفجّر ينابيع من الأرض، ويتحوّل إلى رزقٍ يخضرُّ به وجه الأرض ألواناً وأشكالاً كما قال الله سبحانه وتعالى، فما الذي بقي يا عباد الله؟ بقي أن نكون مثالاً لذلك الظمآن الذي توهج قلبه بالحب لمن أنجده بكأس من الماء البارد على ظمأ، بقي أن نكون مثالاً لذاك الذي أُجْرِيَ جدولٌ من الماء في داره، فكان يشرب منه كلما ظمئ، ويتمتع بمرآه، وكان يغتسل به كلما احتاج إلى ذلك، ينبغي أن تتوهج قلوبنا نحن من بابٍ أولى لهذا الذي أكرمنا بالعطاء، رزقنا من السماء

كيف يكون الشكر يا عباد الله؟ يكون الشكر أولاً بأن تفيض قلوبنا حُباً لهذا الإله، الإيمان الأعزل إذا لم يُتَوَّجْ بحُبٍّ لا يقدِّم ولا يؤخِّر

بالأمس القريب أو البعيد أكرمنا الله أيضاً بعد انقطاع للأمطار، وبعد يأسٍ كاد أن يسريَ إلى القلوب، أكرمنا الله بالماء النمير وبالثلوج الكثيرة، قلت وقال غيري أيضاً: ينبغي ألا نبدلَ نعمة الله كفراً، ينبغي أن نتوبَ إلى الله، فلا نبني أعشاش المحرمات والمعاصي على الأنهر الفياضة بعطاء الله سبحانه وتعالى، ونظرنا فلم نجد الاستجابة، أجل لم نجد استجابة، لماذا؟ أَمِنْ أجل أنهم غير مؤمنين بالله؟ لا هم مؤمنون يا عباد الله، هؤلاء الذين يستخدمون نعمة الله فيما يسخطه مؤمنون بالله، لكنهم محرومون من حُبِّ هذا الإله، والإيمان الأعزل بالله عز وجل أشبه ما يكون بمصباح العربة التي تريد أن تقودها، هو أمر ضروري يريك الطريق كما هو معبداً أو معوجاً، نعم لكنّ المصباحَ لا يحرك السيارة، لا يمكن أن يقودها، إنما الذي يحرك العربة وقودها، والوقود الإيماني الذي يوجه الإنسان إلى الالتزام بأوامر الله والانتهاء عن نواهيه إنما هو وقود الحُبِّ، ما أكثر المستشرقين الذين يؤمنون بالله، ولربما يملكون من الأدلة على وجوده ووحدانيته أكثر مما نملك، ولكنهم لا ينقادون لأوامره، وإنما ينقادون لرعوناتهم ولرغائبهم، ما السبب؟ السبب أن إيمانهم عقلي أعزل، أما قلوبهم ففارغة عن محبة هذا الإله الذي آمنوا به، ومن ثم فإن قلوبهم فياضة بحُبِّ الأغيار، بحُبِّ الشهوات والأهواء، وهكذا فالإيمان بالله عز وجل لا يقود صاحبه بدافع عقلاني مجرد إلى السلوك، ولكن الحبَّ عندما يُتَوَّجُ بالإيمان هو الذي يقود إلى الالتزام بأوامر الله، الحبُّ هو الذي يقرب البعيد، الحبُّ هو الذي يلين الحديد، الحبُّ هو الذي يجعل الأمر العسير يسيراً وسهلاً.

وكأني بكم تتساءلون: فكيف السبيل إلى أن نطهِّر أفئدتنا من حُبِّ الأغيار ونملأها بحُبِّ مولانا الذي يتفضل علينا بجلائل النعم التي لا تحصى؟ كيف السبيل إلى أن نكون مثل ذلك الظمآن الذي توهج قلبه بالحبِّ لمن قدَّم له كأس الماء بعد أن كاد قلبُه يحترق بنيران الظمأ؟ السبيل إلى ذلك -أيها الإخوة- سبيل مفتوح ميسَّر، اربطوا النعم بالمنعم، اربطوا النعم التي تهمي إليكم بالمتفضِّل الذي أرسلها، انظروا إلى رسائل الحب التي تأتيكم من الله عز وجل، لا تحبسوا أنفسكم في أقطارها، اربطوا هذه الرسائل بمرسلِها، أنت تتمتع بالعافية من فرقك إلى قدمك، ألا تتساءل من الذي يمتِّعك بها؟ أنت تُقبِل في المساء إلى مضجعك، وتتمدد لتستقبل نعمة الرقاد، فمن الذي يقول لك: لبيك، ها هي ذي نعمة الرقاد تسري في أوصالك؟ من؟ وإذا أخذت حظَّك من الرقاد من الذي يعيد إليك الحياة بعد أن طُوِيَتْ عنك؟ من الذي إذا جلست إلى المائدة كَوَّنَ لك هذه الأطعمة، وقدم لك منها المذاق الذي يفيدك؟ إن هو إلا سماء

أمطرت، وأرض أنبتت، وأنعام سخرها الله لك لحوماً وألباناً، ألا تعشق هذا الإله عندما تربط نعمه به، عندما تربط الرسائل التي تأتيك منه بالمرسِل ألا وهو الله عز وجل؟ لا يمكن للإنسان وهو إنسان إلا أن يحب المنعِم المتفضِّل عليه، فإذا أحبَّ الإنسان ربه انقاد لأمره، إذا أحب الإنسان مولاه عن طريق ربط نعمه به لا يمكن أن يبني الأعشاش المحرمة على المياه الغامرة التي يكرمنا الله عز وجل بها، لا يمكن أن يمارس ما يسخط الله عن طريق النعم التي تأتي من عند الله سبحانه وتعالى

عباد الله؛ هذه النعمة التي أسداها الله عز وجل إلينا، هذه الأنهار الفياضة بعد أن كانت ذكرى جافة ينبغي أن تستثير كوامن الحبِّ لمولانا وخالقنا، ألا فاعلموا أن هذا الحبَّ إذا تفجرت ينابيعه في قلوبنا حُلَّتْ مشكلاتنا كلها، ولا تسألوني عن كيف ولا عن هذه المشكلات، ولكن التاريخ الماضي ينبئكم عن ذلك كله، ويضع أمامكم الدليل على ذلك كله

يا عباد الله، أصحاب رسول الله فاضت عقولهم بالإيمان بالله، لكن الذي سيَّرَهم في طريق مرضاة الله إنما هو الحبّ، السلف الصالح الذين جاءوا من بعد أصحاب رسول الله، والذين أدوا رسالة الإسلام كما أمر الله فتحوا مغاليق الشرق والغرب، لم يفتحوها بمجرد العقول المؤمنة، ولكنهم فتحوا هذه المغاليق بالقلوب التي عشقت الله سبحانه وتعالى، ألسنا أحفاد أولئك السلف؟ ألسنا نتمتع بهذه القلوب التي كانوا يتمتعون بها؟ ألسنا عبيداً لذلك الإله الذي يكرمنا كما أكرمهم، يعطينا كما أعطاهم؟ فلا تبدلوا نعمة الله كفراً، فإنكم إن فعلتم ذلك تقلصت النعمة مرة أخرى، ولربما ابتلينا بالحرمان مرة ثانية.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

٩- طاعة الله وطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم | ٢٠١٠/٠١/٢٩

من الحقائق البدهية التي لا تغيب عن فكر أي إنسان مسلم أن مبنى الإسلام وأساسَهُ إنما هو على طاعة الله وطاعة رسوله، ومن الأمور البدهية التي ينبغي ألا تغيب عن بال أي مسلم أن بين طاعة الله وطاعة رسوله تلازماً دائماً، فلا تنفصل طاعة الله عن طاعة رسوله، ولا تنفصل طاعة رسول الله عن طاعة الله سبحانه وتعالى، وصدق الله القائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ وصدق ربنا القائل: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ وصدق الله القائل: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾.

ولكن فلنتساءل: ما المراد بطاعة الله ورسوله؟ ليس المراد بطاعة الله ورسوله كما قد يتصور البعض أداء عبادات مألوفة معروفة ومحدودة كالصلاة والصيام والحج ونحو ذلك، وإنما تتمثل طاعة الله وطاعة رسوله بالعمل الصالح الذي يكرر بيان الله عز وجل الأمر به، والانتهاء عن الفساد والإفساد الذي كم وكم يحذر الله سبحانه وتعالى منه، فطاعة الله عز وجل تتمثل في كل عمل يصلح الأمة الإنسانية، والابتعاد عن الفساد والإفساد، بعد أن أقامنا الله عز وجل على الصلاح في كل ما يتعلق بحياتنا ومعيشتنا ﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا﴾

طاعة الله عز وجل تتمثل إذاً في كل ما يصلح الإنسانية جمعاء

طاعة الله عز وجل تتمثل في ألا يجعل التاجر من خداع الناس ومن غشهم في المعاملة وفي السلعة التي يتاجر بها أساساً وموردا لرزقه

طاعة الله سبحانه وتعالى تتمثل في أن يكون الطبيب أميناً على أرواح الناس، فلا يتاجر بأجسادهم، ولا يتاجر بأرواحهم في سبيل جمع المزيد من المال

طاعة الله سبحانه وتعالى تتمثل في أن يكون المزارع أميناً على أقوات الناس، فلا يُجَمِّل مزروعاته وأغذيته التي يقدمها للناس، لا يُجَمِّلُها في أعينهم بالسموم والمبيدات المهلكة، ليجعل من طعمها سبباً لموتهم وأمراضهم وهلاكهم

طاعة الله سبحانه وتعالى تتمثل في أن يكون أصحاب المطاعم أمناء على حياة الناس وعلى صحة كل واحدٍ منهم، فلا يقدموا للآكلين عندهم الأطعمة التي يترفعون هم عن أكلها، لا يقدموا للآكلين في مطاعمهم اللحوم الفاسدة، الأغذية المحرمة

طاعة الله سبحانه وتعالى تتمثل في أن يكون أصحاب المواشي في البادية أمناء على أول قوت يُقَدَّمُ للناس ألا وهو السمن، لا يستقدموا أكياس الشحوم الحيوانية بعد قليل عندما يأتي موسم الربيع ليمزوجها بأغذية الناس، ثم يقدموها لهم سبباً للأمراض والهلاك من أجل أن يملؤوا جيوبهم بمزيد من المال .

أأزيدكم أمثلة يا عباد الله! كلكم يعلم معنى قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، تلك هي الصالحات، وكلكم يعلم معنى قول الله عز وجل: ﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا﴾، كلكم يعلم ذلك، ولكن ترى لماذا لا يستجيب هؤلاء الناس وهم مسلمون وفيهم الكثير ممن يَغْشَون المساجد، ويصلون ويؤدون الصلوات في أوقاتها، ويذهبون حجاجاً إلى بيت الله الحرام، ولكنهم لا ينقادون لهذا الذي نقول، لا يصغون السمع إلى الابتعاد عن الفساد والإفساد، لا يصغون السمع إلى هذا العمل الصالح الذي أمر الله عز وجل به؟

لو نظرنا إلى المجتمع وإلى القائمين بشؤونه من تجار وأطباء ومزارعين وأصحاب المواشي وغيرهم لوجدنا أن الجميع إلا من رحم ربك عاكفين على الإفساد، عاكفين على تقديم أسباب الفساد والهلاك والأمراض الوبيلة لإخوانهم في الإنسانية وفي الله سبحانه وتعالى، لماذا لا يصغون السمع؟ الجواب أيها الإخوة ما قد قلته لكم بالأمس، ولا بد أن أعود فأكرره اليوم، هؤلاء الناس اعتمدوا على شطرٍ واحدٍ من الإيمان، ألا وهو ذلك الذي يستقر يقيناً في العقل، وافتقدوا الشطر الثاني ألا وهو العاطفة التي ينبغي أن تهيمن على القلب، المتمثلة في حُبّ الله وحُبّ رسوله، المتمثلة في تعظيم الله وتعظيم رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، هؤلاء مؤمنون بعقولهم، لكن قلوبهم فارغة عن محبة الله عز وجل، والقلب مرآة –

أيها الإخوة- لا يمكن أن يفرغ من انعكاس شيءٍ ما إليه بالحب والتعظيم، فإن فرغ القلب عن محبة الله لا بد أن تستبق إليه محبة الشهوات، محبة الأهواء، محبة المال، محبة المناصب، لا بد أن تحتل القلب محبةُ هذه الأشياء، ومن ثم تكون قيادة الإنسان بيد هذه الشهوات والأهواء، ولا يستطيع الإيمان العقلي الأعزل أن يقودهم على ما يرضي الله سبحانه وتعالى

هذا هو الداء يا عباد الله، وقد حدثتكم بالأمس عن الوسيلة التي ينبغي أن نتبعها لنحقق محبة الله ومحبة رسوله بين جوانحنا من أجل أن تطرد محبةُ الله محبةَ الأغيار، وأنا اليوم أؤكد لكم هذا المعنى، وأضيف إليه شيئاً لم أقله بالأمس، ألا وهو محبة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، من أحب الله لا بد أن يحب رسوله، بينهما تلازم لا ينفكّ، ونحن إنما نتبع أوامر الله عن طريق الإصغاء إلى رسوله، أوامر الله جاءتنا عن طريق واحد، ومن خلال نافذةٍ لا ثاني لها، ألا وهي رسول الله صلى الله عليه وسلم، متمثلاً في أقواله، متمثلاً في أفعاله، متمثلاً في أخلاقه، ولذلك أمرنا بيان الله عز وجل بتعظيم رسوله، أمرنا ربنا سبحانه وتعالى بالأدب مع مصطفاه وحبيبه، وصدق الله القائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ما معنى ﴿لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي لا تسرعوا بالحكم في الأمر قبل أن يحكم به رسول الله، لا تسرعوا بالحديث عن أي شيءٍ ما قبل أن تصغوا إلى ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ﴾ هكذا يأمرنا ربنا سبحانه وتعالى بأن نذهب في احترام حبيبه وتوقيره وتعظيمه ومحبته إلى درجة ألا نجهر بأصواتنا فوق صوته، لا بل ينبغي أن نخفض أصواتنا عن صوت المصطفى صلى الله عليه وسلم، الحديث موجه لأصحابه الذين كانوا يعايشونه ويجالسونه، لكنه أمر لنا أيضاً بتوقير المصطفى وبمحبته وتعظيمه والأدب معه، وحسبكم أن ربنا عز وجل يأمرنا بالصلاة عليه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾

إذا هيمنت محبة الله عز وجل على القلب وهيمنت محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم على الفؤاد عن طريق دراسة سيرته والوقوف على معالم حياته طردت محبةُ الله ومحبةُ رسوله محبةَ الشهوات والأغيار من القلب، وهيمنت عندئذٍ هذه المحبة الربانية التي تتمثل في فرعين: محبة الله ورسوله، هيمنت على القلب، ومن ثم لا يمكن للإنسان أن ينقاد لشهواته التي تغلب حب الله عليها، لا يمكن أن ينقاد لأهوائه، المال

يضعه تحت قدميه في سبيل طاعة الله وطاعة رسوله، التجارة يجعلها خاضعة في سبيل الله، الطبيب يجعل طبه عبادة يتقرب بها إلى الله، أصحاب الأغذية والمطاعم يجعلون من أعمالهم هذه قربى يتقربون بها إلى الله، لا بدافع الإيمان العقلي الأعزل، وإنما بدافع الحب لله ورسوله

يا عباد الله انظروا إلى سيرة المصطفى تجدون أن الله عز وجل جهزه بصفات وأخلاق تجعل الإنسان السوي في طبعه يعشقه، أجل، لماذا؟ من أجل أن ييسر ربنا سبيل محبته صلى الله عليه وسلم، ومن ثم ييسر سبيل اتباعه، ييسر سبيل الانقياد لأوامره وصدق الله القائل: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ صفة صاغ رب العالمين نبيه المحبوب عليها من أجل ماذا؟ من أجل أن ييسر لنا أصحابَ القلوب الإنسانية الطبيعية سبيلَ التعلق برسول الله، سبيل محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن ثم يتيسر لنا سبيل الانقياد لأمره وإتباع وصاياه التي أوصانا بها

ترى هل سنتّجه بقلوبنا إلى محبة الله ورسوله؟ ترى هل نأمل من إخواننا في الإنسانية الذين يتاجرون على حساب الإفساد في المجتمع، على حساب أرواح الناس، على حساب مصالح الناس، من أجل أن يملؤوا صناديقهم المالية بالأموال المكدسة وغداً سيودعونها إلى غير لقاء، ترى هل سيعالجون أمراضهم هذه؟ هل سيطهرون قلوبهم من حب الشهوات والأهواء، ويغالبون بها محبة الله عز وجل ورسوله؟ إذن سيصلح المجتمع، إذن ستختفي مظاهر الفساد والإفساد، وإذن لن نسمع الأحداث التي تقشعر لها الأبدان من ألوان من الغش وألوان من الخداع وأنواع من الإساءة لمصالح الناس، لأرواح الناس

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل قلوبنا وقلوب إخواننا مليئة بحب الله ورسوله، وأسأله عز وجل أن ييسر لنا جميعاً سبل ذلك.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

١٠- الحب داء ودواء | ٢٠١٠/٠٦/٢٥

هل سمعتم عن عُقَارٍ خلقه الله سبحانه وتعالى هو داء للإنسان ودواء له في وقت واحد، لقد خلق الله سبحانه وتعالى هذا العقار، إنه الحب.

الحب جعله الله سبحانه وتعالى دواءً لمشكلات ومصائب الإنسان وجعله في الوقت ذاته داءً يتسبب عنه الكثير من مصائب تتوضع في كيان الإنسان.

إذا اتجه القلب بالحب إلى الرغائب والشهوات الدنيوية، إذا اتجه القلب بالحب إلى العصبية للذات وللنفس، إذا اتجه القلب بالحب إلى رغبات الأهواء، الرئاسة، الشهرة، جمع كنوز المال فإن الحب في هذه الحالة يغدو داءً وبيلاً من أخطر الأدواء التي تتوضع في كيان الإنسان فرداً ومجتمعاً.

أما إن تَوَجَّهَ الحب في فؤاد الإنسان إلى خالق الإنسان عز وجل، إلى الإله الذي بيده حياة الإنسان، بيده نفعه وضره، إلى الإله الذي يتقلب الإنسان أياً كان في بحر متلاطم الأمواج من نعمه التي لا تُحْصَى، أما إن وجَّهَ الإنسانُ قلبَهُ بالحب إلى إلهه هذا فالحب عندئذٍ دواءٌ ناجع، دواءٌ لكل المصائب التي يعاني منها الإنسان فرداً أو مجتمعاً.

ولقد أنبأنا بيان الله سبحانه وتعالى عن هذين الأثرين المتناقضين للحب، أنبأنا بيان الله سبحانه وتعالى عن الحب عندما يكون داءً وحذَّرَ منه أيَّمَا تحذير، وأنبأنا عن الحب عندما يكون دواءً وأمَرَنَا أن نتحقق به يقول الله سبحانه وتعالى وهو يوضح لنا وظيفة الحب عندما يكون داءً وعندما يحذِّرُنَا الله سبحانه وتعالى منه، يقول: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾

أرأيتم كيف ينبِّهُنَا الله عز وجل إلى الداء الكامن في الحب عندما يتجه الإنسان بحبه إلى ما ليس أهلاً لحبه.

أرأيتم كيف يحذِّرُ البيان الإلهي الإنسانَ من أن ينقاد إلى هذا البلاء الوخيم، إلى هذه المصيبة بل إلى سلسلة المصائب التي تتفرع عن هذا الداء؟

أما الحب الدواء فيلفت البيان الإلهي أنظارنا إليه قائلاً ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلّهِ﴾ ثم يؤكد هذا ببيان أدقَّ بل أكثرَ تفصيلاً ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ فهذا هو الحب الذي يكون دواءً لمشكلات المسلمين أياً كانت اجتماعية أو فردية

عباد الله: تعالوا – بعد هذا البيان الإلهي الذي كم وكم تاهَ المسلمون عنه لاسيما في هذه العصور – تعالوا نتبين مشاكلنا الراسخة في كياناتنا، إنها مشكلات كثيرة يضيق الوقت عن استعراضها وتفصيل الحديث عنها

مشكلات تتمثل في تشرذم هذه الأمة وتفرقها. مشكلات تتمثل في افتقارها عن غنى وما كانت يوماً ما فقيرة قط. مشكلات تتمثل في الضعف الذي توضَّعَ في كيانها، وما كانت هذه الأمة في يومٍ من الأيام إلا مضرب المثل للقوة. مشكلات تتمثل في الذل بعد العز، وكلنا يعلم أن تاريخ هذه الأمة ينتشي بالعزة التي متَّعَهَا الله سبحانه وتعالى بها. هذه المشكلات – يا عباد الله – ما أكثر ما نتلاقى للحديث عنها ولتجاذب الآراء بحثاً عن علاجاتها.

كم وكم تحققت في سبيل البحث عن هذه المصائب وعلاجاتها ندواتٌ وكم تلاقى الناس في مؤتمرات، وكم وُضِعَتْ خطط ورُسِمَتْ سبل في سبيل التخلص من هذه الأمراض المتوضعة في كيان أمتنا الإسلامية جمعاء.

ولكن كل هذه الجهود لم تثمر، ولم تعد جهود المسلمين على اختلافها إلا بالخيبة وهي حقيقة ما ينبغي أن نتجاهلها.

الندوات التي عُقِدَتْ، المؤتمرات التي أقيمت، الخطط التي رُسِمَتْ في سبيل التخلص من هذه المصائب التي توضعت في كيان هذه الأمة انتهت دون أن نجد لها أي ثمرة.

ما السبب يا عباد الله.



السبب أننا عدنا نفحص إيماننا بالله عز وجل على مستوى عقلاني فقط، أنحن مؤمنون بالله؟ نعم نحن موقنون يقيناً عقلانياً بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، أنحن موقنون بشرائع الله عز وجل وأحكامه؟ نعم نحن موقنون بذلك كله، بحثنا عن مكان الإيمان في عقولنا ولكنا لم نبحث عن مكان هذا الإيمان في قلوبنا، لم نبحث عن مكان هذا الإيمان في أفئدتنا التي هي مكان للعواطف الإنسانية الدافعة والرادعة والممجدة

وكان ينبغي أن نعلم أن العقيدة لابد أن تستقر في العقل، نعم، ولكنها لا تقود صاحبها إلى تنفيذ أوامر الله عز وجل إلا بعد أن تتحول من يقينٍ عقلاني إلى وهجٍ من الحب مهيمنٍ على القلب.

لم نفحص قلوبنا ولم نتساءل عن الحب المهيمن في أفئدتنا، ولو أننا تفحصنا هذا الحب المهيمن في أفئدتنا وتساءلنا عن الاتجاه الذي يتجه إليه هذا الحب لرأينا أن إيماننا العقلاني صاعدٌ إلى الأعلى أما الحب المهيمن على أفئدتنا وقلوبنا فهابطٌ إلى الأدنى.

لو تفحصنا الحب الذي يهيمن على أفئدتنا والوجهة التي يتجه إليها لرأينا أنه متعلق بالدنيا وما أكثر أنواع ما نسيمه الدنيا

لرأينا أن حبنا متعلق بالمال وجمعه، متعلق بالشهرة، متعلق بالرئاسة، متعلق بالعصبية للذات، متعلق بالأهواء والشهوات الجانحة

لو أننا فحصنا أفئدتنا كما فحصنا عقولنا لنعود فنقول نحن – والله الحمد – مؤمنون بالله عز وجل لعلمنا سبب الداء الذي نعاني منه ولعلمنا مصدر المصائب المتسلسلة والمتوضعة في كيان هذه الأمة.

ما أكثر ما يُسَخَّرُ الإسلامُ له يا عباد الله لا بدافع من يقيننا العقلي وإنما بدافع من الحب الأرضي الهابط المهيمن على قلوبنا

انظروا كم يُسَخَّرُ الإسلام لأهداف دنيوية، كم يُسَخَّرُ الإسلام لرغائبنا وأهوائنا وشهواتنا وملاذنا المهيمنة حباً على أفئدتنا وقلوبنا ولكن الإسلام لا يُسَخَّرُ لذاته، يُسَخَّرُ لكل شيء إلا أن يُسَخَّرَ لذاته

هل سبب ذلك أننا غير مؤمنين بالله؟! لا

نحن – ولله الحمد – مؤمنون وأستطيع أن أقول إن ملياراً ونصف مليار بل أكثر من سكان هذه البسيطة مؤمنون إيماناً عقلانياً بالله ومصطبغون اصطباغاً عقلانياً بنعمة الإسلام لله سبحانه وتعالى

ولكن ماذا عسى أن يفيد اليقين العقلي إن لم يكن هنالك وقود الحب يدعم هذا اليقين العقلي

ماذا يفيد اليقين العقلي السائر ذات اليمين إذا الحب يقود صاحبه ذات اليسار

لن يفيد. هذا هو باختصار الداء الذي نعاني منه يا عباد الله

وعندما يتحول الإيمان العقلاني الذي نتمتع به – ولله الحمد يقينا في عقولنا – إلى عاطفة من الحب لله عز وجل في أفئدتنا عندئذٍ تُحَلُّ كل المشكلات التي نعاني منها، عندئذٍ يتحول الخصام بين القادة والحكام إلى وئام، عندئذٍ يتحول التشرذم والتفرق إلى وحدة راسخة في كيان هذه الأمة، عندئذٍ يغيب الفقر وتعود هذه الأمة إلى ما كانت عليه من قبل من الغنى الذي ملَّكَها الله سبحانه وتعالى إياه، عندئذٍ يغيب الضعف بل الذل المسيطر بل المهيمن على كيانات هذه الأمة لتعود إلى سابق عزها، لتعود إلى تالِدِ مجدها عن طريق سُلَّمٍ واحد ألا وهو سُلَّمُ الحب

الحب – أيها الإخوة – هو الذي يجمع من شتات، الحب لله، الحب الذي هو الجذع ولا يكون الحب جذعاً تتفرع عنه الأغصان الكثيرة إلا إذا كان حباً لمن أوجدنا، إلا إذا كان حباً لمن تنتسب أرواحنا إليه، إلا إذا كان حباً لمن كان منه المبتدأ وإليه الانتهاء، إلا إذا كان حباً لذاك الذي تصلنا منه تباعاً وباستمرار رسائل حبه

عندما تهيمن محبة هذا الإله على قلوبنا يغيب التشرذم ويحل محله الاتحاد، يغيب الخصام ويحل محله الحب والوداد، يغيب الفقر ويحل محله الغنى، يغيب الذل، يغيب الضعف، تغيب المهانة وتلْبَسُ هذه الأمة مرة أخرى كسوةَ العز وتتوَّجُ بتاج المجد

هذه هي الحقيقة، هذا هو دواؤنا وذلك هو داؤنا.

داؤنا أننا توجهنا بأفئدتنا إلى محبة الشهوات، محبة الأهواء، محبة المصالح الآنية المارَّةِ الماضية، إلى محبة الذات، إلى محبة الشهرة، إلى محبة الكراسي

ما الذي فرّقَ هذه الأمة؟ ما الذي جعلها تغيب عن إنسانيتها؟ ما الذي جعلها تستخذي للعدو الذي جعله الله عز وجل مضرباً للذل، جعله الله سبحانه وتعالى مضرباً للمهانة؟ ما الذي جعل هذه الأمة تستخذي لهذا العدو؟ ما الذي جعلها تُغَيَّبُ عن إنسانيتها

لأن الحب المهيمن على أفئدة أكثر هذه الأمة متجهٌ إلى الأسفل، متجهٌ إلى الهابط، متجهٌ إلى الأغيار، إلى الأغيار نعم

في حين أن العقل ينبئ القلب أن الذي هو قمين بحبك هو الله، الذي يطعمك ويسقيك هو الله، الذي يعافيك من سائر الآلام والأسقام هو الله، الذي أضحك وأبكى هو الله، الذي إذا وقعت في مصيبة من المصائب والتفتَّ يميناً وشمالاً لن تجد من ينجدك من مصيبتك إلا الله، هذا ما يقوله العقل للقلب

ولكن أفئدة كثيرٍ منا سكرى، سكرى بالشهوات، سكرى بالأهواء، سكرى بالرغائب الذاتية ومن أجل هذا حلَّ الخصام فيما بيننا محلَّ الوداد وحلَّتْ المهانة والمذلة محل العزة وحل الغياب عن الإنسانية التي ينبغي أن تتقطع أفئدتنا لها في غزة وفي فلسطين غاب كل ذلك.

لماذا؟ لأن حباً أهم هيمن على قلوبنا ألا وهو حب الذات.

إذاً أعود فأقول أيها الإخوة – ولا أحب أشرد بكم بحديثي هذا عن الخلاصة التي ينبغي أن نعلمها لعلنا نتخذ منها دواءً لأمراضنا.

الحب الذي هو الدواء ينبغي أن نركن إليه وينبغي أن نستبدله بالحب الذي هو الداء والذي من أجله توضعت مصائب كثيرة وكثيرة في مجتمعاتنا وفيما بيننا.

فهل عسيتم أن تجعلوا إيمانكم بالله عز وجل إيماناً عقلانياً يهيمن يقيناً في القلب وإيماناً عاطفياً يهيمن بالحب والتعظيم على الفؤاد.

هل عسيتم أن تبايعوا الله لا مبايعة إيمان عقلي بل مبايعة حبٍّ قبل أن يذهب الأوان وقبل أن تنطوي الفرصة نحن عائدون، نحن راجعون إلى مولانا وخالقنا سبحانه وتعالى وعما قريب سنقف بين يديه ولسوف تتبخر كل هذه الرغائب التي تتجه اليوم أفئدتنا بالحب إليها ولن نجد أمامنا إلا شيئاً واحداً هو

الذي ينجينا إن تمسكنا به اليوم ألا وهو الارتباط العاطفي حباً وتعظيماً ومهابةً وخوفاً بالله سبحانه وتعالى.

أقول قولي هذا واستغفر الله العظيم



١١- قصة الداء والدواء في تاريخ هذه الأمة | ٢٠١١/٠٢/٠٤

إنما صلح أمر هذه الأمة في الأمس الدابر بالحب، وإنما فسد أمرها فيما بعد أيضاً بالحب.

صلح أمرها بالأمس عندما توجهت بأفئدتها إلى محبة العزيز الباقي، ثم فسد أمرها عندما توجهت هذه الأمة بأفئدتها إلى الدنيء الفاني. هذه خلاصة لحقيقة يجب على كل عاقل أياً كان أن يدركها، وها أنا أضعكم أمام بعض التفصيل لهذه الحقيقة يا عباد الله.

عندما أكرم الله عز وجل هذه الأمة بخاتم الرسل والأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم وأقبل أفراد هذه الأمة إليه يصغون إلى حديثه ويتأملون في الوحي المنزل عليه من عند الله وآمنوا بالله عز وجل إلهاً واحداً لا شريك له وأيقنوا أن القرآن كلام الله تنزل خطاباً من الله لعباده أقبلوا إلى كلام الله يصغون إليه ويتدبرونه، تأملوا في كلامه وهو يخاطبهم قائلاً:

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾ [الحديد: ٢٠] أي الزراع.

﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

تأملوا في وصايا رسول الله وهو يعرفهم على قصة رحلتهم في هذه الحياة الدنيا ويعرفهم على حقيقتها، أصغَوا إليه وهو يقول فيما يرويه ابن ماجه وأحمد الحاكم من حديث عبد الله بن مسعود: ﴿مالي وللدنيا، وإنما أنا كراكب قال – أي نام وقت الظهيرة – تحت شجرة ثم تركها ومضى﴾

أصغوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أمسك بيد عبد الله بن عمر يقول له: ﴿كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل﴾.

عندئذٍ نفضوا أفئدتهم من محبة هذه الدنيا الفانية التي عرَّفهم الله على حقيقتها وغدت أفئدتهم فارغة مطهرة، ثم إنهم أصغوا إلى بيان الله عز وجل وهو يعرِّفُهم على خالقهم الأجلّ، تعرفوا على الله عز وجل

من خلال صفاته محسناً، عفوَّاً، غفوراً، كريماً، لطيفاً، رازقاً، خالقاً، بارئاً. تأملوا في النعم التي يغدقها الله عليهم من يمين وشمال دون إحصاء، تأملوا في رسائل الحب التي ترد إليهم من الله عز وجل ففاضت قلوبهم – بعد أن فرغت من محبة الأغيار – فاضت بمحبة الله، فاضت بمحبة العزيز الباقي ومن ثم لم يستطع الأعداء الذين أحاطوا بهذه الأمة من سائر الأطراف لم يستطيعوا أن يسكروها بسكر الشهوات والأهواء، لم يستطيعوا أن يسكروها وأن يرشوها بالذهب والليالي الحمراء أو الصفراء، لم يستطيعوا أن يجتذبوهم إلى الكمائن المرصودة لهم بأي خطة وبأي وسيلة من الوسائل.

وهكذا أقبلت هذه الأمة ترد عدوان المعتدين من سائر الأطراف بسلاحين اثنين يا عباد الله، أما أولهما ففي اليد وهي العدة التي أمر الله عز وجل بإعدادها وأما الثانية – وهي السلاح الأعتى – فهي الحب الذي هيمن لله عز وجل على قلوبهم. لم يستطع الأعداء أن ينالوا منها أي منال، لم يستطع الأعداء أن يجدوا فيها نقطة ضعف ليستغلوها، وبوسعكم أن تجدوا مشاهد كثيرة لهذه الحقيقة التي أقولها لكم في كثير من المواقع لاسيما في موقعة القادسية.

ثم ما الذي تم بعد ذلك؟ خَلَفَ من بعد أولئك الناس خَلْفٌ هيمنت محبة الدنيا على قلوبهم، حُجِبوا عن الإصغاء إلى كلام الله على الرغم من أنه يُتْلَى بين ظهرانيهم، حُجِبُوا عن تعريف الله سبحانه وتعالى لحقيقة رحلتهم في هذه الحياة الدنيا وسيرهم إلى الله سبحانه وتعالى ومن ثم فقد حُمِّلُوا من حياتهم أثقالاً توانت منهم الحركة والنشاط وأحاط بهم الأعداء فعرفوا نقطة الضعف في كيانهم وشموا رائحة محبة الدنيا المهيمنة على قلوبهم ومن ثم غزوا أفئدتهم بهذه الوسيلة، غزوا أفئدتهم بالشهوات وبالأهواء ومن ثم كانت العاقبة التي تعلمون.

هذه حقيقة – يا عباد الله – ينبغي ألا ننساها، ينبغي أن يتبينها كل عاقل أياً كانت نحلته وأياً كان مذهبه.

عباد الله: لابد من الفكر، ولا يستطيع أحد أن يبخس حقه، ولابد من الاعتماد على العقل، ولا يمكن لأحد أن يتجاهل نوره، ولكن فلتعلموا أن العقل نور يدل على الطريق ولكنه لا يُحَرِّك، العقل في كيان الإنسان يدل ولكنه لا حَرِّك، إنما الذي يحرك في كيانه الوقود، والوقود الذي يحرك الأمة إنما ذاك

الذي يهيمن على القلب، إنما هو وقود الحب، فانظر إلى أي جهة يتجه هذا الوقود، هذا الحب، إلى الأعلى أم إلى الأدنى.

خَلَفَ من بعد أولئك الناس، خَلَفَ من بعد تلك الأمة خَلْفٌ تعلقت أفئدتهم بالدنيء الفاني وحُجِبُوا عن العزيز الباقي ألا وهو الله سبحانه وتعالى.

نعم، العقول مؤمنة، وما أكثر ما تتحدث عن الدلائل الكثيرة على وجود الله ووحدانيته ولكن هل سمعتم أن ضياء السيارة هو الذي يحركها؟ الوقود هو الذي كان ولا يزال يحرك. وقود القلب معدوم، الوقود إنما يتجه إلى محبة الأغيار.

عباد الله: وُجِدّتُ في مؤتمرات كثيرة إسلامية متنوعة، ولتمنيت لو أن وُجِدّتُ في مؤتمر يتحدث عن هذه الحقيقة، يتحدث عن قصة الداء والدواء في تاريخ هذه الأمة ولكني ما وَجَدّتُ ذلك.

كل ما تتلاقى عليه الندوات والمؤتمرات إنما هو حديث عن الفكر وحركية الفكر والتسابق إلى الآراء المتنوعة والاجتهادات المختلفة، أما هذا القلب الذي ينبغي أن يُعَالَجَ فلتمنيت أن لو عُقِدَ مؤتمر لمعالجة هذا الأمر ولما.

إنني أتمنى أن تتلاقى أمتنا العربية والإسلامية في أصقاعها المختلفة على معالجة آلام الأفئدة، على معالجة الحقيقة التي يكمن فيها كل من الداء والدواء، أتمنى أن يوجَدَ مؤتمر يدور على محورٍ من تحليل كلام الله عز وجل القائل:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ. وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٦].

أتأملتم في هذا الكلام، إنه ينطوي على القصة التي يتحدث عنها، مثل لرجل حقيقي ولأمرٍ واقعي: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا﴾

آتاه الله العلوم وحشا عقله بالإدراكات الكثيرة ﴿فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ - بهذه العلوم - وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ﴾

ما الذي جعله يخلد إلى الأرض؟ ليس العقل، ليس العقل والفكر هو الذي جعله يخلد إلى زينة الأرض، إلى شهواتها وأهوائهما، إنما هو القلب الذي فاض بحب الفاني، إنما هو القلب الذي فاض بحب الأغيار، هذا هو معنى كلام الله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾

يحدثنا الله نبأ هذا الإنسان لكي نعلم متى يقع الإنسان في الكمائن المهلكة والمشقية ومتى يرقى الإنسان إلى صعيد السعادة القصوى.

يا ابن آدم، يقول الله عز وجل لنا من خلال هذا الذي نسمعه من خلال بيان الله عز وجل: اجعل الدنيا في علاقتك بها كعلاقة السيد بالخادم، اجعلها خادماً لك، كن في علاقتك بالدنيا كذاك الذي يرقى بقدميه على السُّلَّمِ ليصعد إلى أهدافه ومبتغياته، لا تجعل الدنيا محبوبك المهيمن على عرش فؤادك، اجعل فؤادك لربك، اجعل هواك لخالقك عندئذٍ ستُحَلُّ المشكلات كلها وسَتُحَلُّ المعضلات أجمع، هذه حقيقة أيها الإخوة بيَّنَهَا لنا كتاب الله وشرحها لنا تاريخنا الغابر السابق ويوضحها لنا تاريخنا الحاضر.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم فاستغفروه يغفر لكم.



١٢- الحب في حياة الإنسان داء ودواء | ٢٠١١/١٠/١٤

إن الحب في حياة الإنسان هي الجرثومة التي تفتك بسعادته ومقومات عيشه فرداً ومجتمعاً ودولة، والحب هو الدواء الشافي وهو المصل الواقي من تلك الآفات كلها أيضاً، وهكذا فإن الحب في حياة الإنسان داء ودواء. ولكن متى يكون الحب داءً ومتى يكون دواءً؟

أحسب يا عباد الله أن الإجابة عن هذا السؤال من الأهمية بمكان، فلنستوعب جواب ذلك مستخلَصاً من كتاب الله ومستخلصاً من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم.

يكون الحب في حياة الفرد والمجتمع والدولة داءً فتاكاً وجرثومة مهلكة عندما يتوجه الإنسان بالحب لذاته، ومعنى توجه الإنسان بالحب إلى ذاته أن يحب في ذاته أهواءها ورغائبها وغرائزها الحيوانية، وأن يحب في ذاته رغائبها ومبتغياتها وعصبيتها للذات أو للجماعة التي تعتز بها وتنتمي إليها. عندما يتوجه الإنسان بالحب لذاته من خلال هذه الرغائب والشهوات التي ذكرتها لكم يكون الحب جرثومة فتاكة ويكون داءً وبيلاً، كيف ولماذا؟

ذلك لأن رغائب الناس مختلفة ولأن مصالحها الذاتية الآنية متعارضة وربما متناقضة، ولأن غذاءها العصبي متناقض ومختلف ومن ثم فلا بد أن تتصادم الرغبات ولابد أن تتصادم الأهواء والشهوات والعصبيات ومن ثم فلابد أن يتحول التصادم إلى صراع ولابد أن يتحول الصراع إلى عداء وخصومات وحروب، ودونكم فتأملوا في حياة الأمم السابقة هل نُكِبَتْ بالعداوات والنكبات والحروب المختلفة إلا لهذا النوع من الحب الذي كان جرثومة فتاكة في حياتها؟ فهذا هو الحب الداء، وهذا هو الحب الذي يشكل جرثومة في حياة الإنسان فرداً ومجتمعاً ودولة.

والآن ما هو الحب الدواء؟ ما هو الحب الذي يكون مصلاً واقياً من عقابيل تلك الجرثومة يا عباد الله؟

الحب الدواء هو أن تتجه يا ابن آدم بحبك إلى الواحد الفرد الذي هو أهل لحبك، أن تتجه بحبك إلى من ﴿خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاء رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٧-٨]

الحب الدواء هو أن تعرف ربوبية مولاك من خلال معرفة عبوديتك الضارعة لإلهك هذا.

ولكن كأنكم تقولون: فما السبيل إلى ذلك؟ ما السبيل إلى أن أنعتق من ذلك الحب الذي هو داء وبيل وجرثومة فتاكة لأعلو إلى هذا الصعيد وأتعامل مع هذا الحب المستعد؟ نعم، إليكم بيان السبيل إلى ذلك في هذه الكلمات الموجزة التي تليق بهذا الموقف.

عباد الله: إن الإنسان إذا استثنينا منه هذا القفص الجسدي مُرَكَّبٌ من حقيقتين اثنتين؛ من الروح الهابطة إليه من الملأ الأعلى، ومن الغرائز الحيوانية التي ابتلى اللهُ عز وجل الإنسانَ بها، وصدق الله سبحانه وتعالى إذ يقول: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾ [آل عمران: ١٤]. هذه الحقيقة ينبغي أن نعلمها أولاً.

إذاً الروح حقيقة مختلفة عن الغرائز الحيوانية، عن النفس التي تحتضن شهواتها وأهواءها كما نشعر جميعاً، الروح هبطت إليك يا ابن آدم من الملأ الأعلى، الروح منتسبة إلى مولاها وبارئها جل جلاله، وصدق الله القائل للملائكة: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ -أي في آدم- مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩].

ومن ثم فإن روحك التي تخفق بين جوانحك تظل تحن إلى العالم العلوي الذي أُهْبِطَتْ منه، تظل تعاني من الشوق إلى إلهها الذي تنتسب إليه، تظل تعلن عن حبها لإلهها الذي تنتسب إليه، لكن لماذا لا نشعر بهذا الحنين؟

سِرُّ ذلك يا عباد الله أن هياج النفس الأمارة بالسوء، أن هياج الغرائز الحيوانية التي تبحث عن مبتغياتها في كيان الإنسان تظل تعلن عن رغائبها وتثبت هذه الرغائب في لوحة الشعور الإنساني، وإذا رأت حنين الروح إلى العالم العلوي صادرت الأهواءُ الغريزية، الأهواءُ المنحطة صادرت هذه المشاعر الروحية لحسابها. فأنت تشعر بالحنين يُخَيَّلُ إليك أنه حنين إلى الدون وإلى الأرض وما فيها، تشعر بالحب يُخَيَّلُ إليك من مصادرة الأهواء التي بين جوانحك لصوت الروح يُخَيَّلُ إليك أنه حبٌّ لعصبياتك، لأهوائك،

لمشاعرك، نعم. من أجل هذا فإننا نشعر برغائب الجسد بل برغائب الغرائز الحيوانية صباح مساء ونرى كيف أنها تدفعنا إلى رغائبها ونرى كيف أن العصبية الذاتية والجماعية وهي لون من ألوان الاستكبار تحفز بكل منا إلى تحقيق ما يطلب، صوت الروح خَفِيٌّ في ضرام هذا الصياح الذي نسمعه للغرائز الحيوانية المختلفة. هذا هو السبب في أننا لا نتبين حنين الروح إلى عالمها الذي أُهْبِطَتْ منه.

حسناً فما العلاج الذي به نقف وجهاً لوجهٍ أمام الروح ونتبين نشيدها ونتبين حنينها ونتبين محبوبها الذي تخفق حباً إليه؟ ما السبيل؟

سبيل ذلك يا عباد الله — وأقوله لي، لنفسي أولاً ولكل منكم ثانياً — سبيل ذلك الإكثار من ذكر هذا الإله الذي من ابتداؤنا وإليه انتهاؤنا، وأنا لا أعني بالذكر المعنى التقليدي الذي قد يقفز إلى أذهانكم ولكني أعني بالذكر هذا المعنى الذي أقول والذي أرجو أن يثبت في أذهان كلٍّ منا ثم أن يستقر في قلبه.

أعني بالذكر أن نتبين أن هاتين العينين المبصرتين إن هما إلا هدية نزلتا إليك من هذا الإله الخالق.

أن نتبين أن هذا السمع الذي تتمتع به إن هو إلا هدية هبطت إليك من لدن مولاك وخالقك.

أن تتبين أن العقل الذي تتمتع به والذي جعله الله زينة لوجهك ولتقاسيم وجهك إن هو إلا هدية أنزلها الله سبحانه وتعالى عليك.

أن تتبين وأنت تجلس على مائدة الطعام أن كل هذه الألوان إن هي إلا نتيجة وحصيلة أمطار هبطت ونباتات فُجِّرَتْ وأنعام سخَّرها الله لك ضروعاً ولحماً، تلك هدية أخرى من قبل الله سبحانه وتعالى لك.

ذكر الله أن تنظر إلى الدنيا التي من حولك على اختلاف أشكالها وتنوع لوحاتها فتعلم أنها صنعة ذلك الإله الحكيم، الحكيم فيما صنع الرحيم فيما أبدع.

ذكر الله جل جلاله أن تنظر إلى نباتات الأرض واخضرارها والرياحين التي ترسل عبقها إلى أنفك أن تعلم أنها هدية الله إلى عينيك وأنفك.

أن تتأمل في الزهور — وما أكثر تنوعها وما أعجب ألوانها — والورود فتعلم أنها رسائل حبٍّ من الله إليك، أن تتبين هذا دائماً.

ذكر الله – إذا أُبْتَ مساءً إلى فراشك وتمددت تنتظر نعمة الرقاد أن تعلم أن هذا الرقاد هدية من خالقك الذي أبدعك وصورك وأكرمك.

ذكر الله – إذا أخذت حظك من الرقاد وآبت إليك الروح وأنت نشيط بعد الكد والتعب – أن تعلم أن هذه اليقظة هدية من الله أرسلت إليك.

ذكر الله – إذا دخلت الحمام – أن تعلم أن هذا الذي نقَّاكَ الله عز وجل منه من الدرن ومن الأرجاس إن هو إلا هدية الله لك.

أن تعلم أن هذا الماء الطاهر المطهر إن هو إلا هدية الله سبحانه وتعالى لك.

هذا ما أعنيه بالذكر. فإذا عاش أحدنا وهو يربط هذه المظاهر بكرم الله ويعلم أنها رسائل حب وتكريم من الله عز وجل لك ما الذي يحصل؟ يخفت صوت الغرائز الحيوانية ويخبو ضرام الشهوات النفسية ويعلو صوت الروح، يعلو حنين الروح إلى بارئها. ستنصت إلى روحك فتسمع نشيد الحب لكن لمن نشيد الحب؟ لا للغرائز، لا للعصبيات، لا للمال، لا للشهوات والأهواء ولكنه نشيد الحب لمن فطرك، لمن أبدعك، لمن كرَّمك وصدق الله القائل: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٠].

هذا ما أعنيه بذكر الله، هذا هو العلاج يا عباد الله. كم نحن بحاجة إلى هذا العلاج، وما أيسر أن نستعمله، ما أيسر أن نمزق الحجاب الكثيف القائم بيننا وبين صوت الروح، هذه الروح التي هبطت إلينا من الملأ الأعلى وذلك عن طريق ربط نعم الله بالمنعم. كم وكم يحدثنا ربنا عن السمع والأفئدة ويقول: ﴿قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٨].

لماذا لا نشكره، بل أقول لماذا لا نتذكر هذه الحقيقة؟

عباد الله: الإنسان مفطور على محبة من خلق، الإنسان مفطور على محبة إلهه، ذلك لأن الإنسان مفطور على محبة الجمال والإحسان والعظمة، وهل هنالك عوامل للحب غير هذه العوامل الثلاثة؟

من هو الجميل الأوحد الذي ينبغي أن يتعلق القلب بجماله؟ هو الله.

من هو المحسن الأوحد الذي ينبغي أن نَعْنَوَ لإحسانه؟

من هو العظيم الأوحد الذي ينبغي أن يفيض القلب منا تعظيماً له؟ هذا هو العلاج.

وإذا رأيتم من الناس من يعرض عن هذا العلاج في مراحل حياته، كثيرون هم الذين يعرضون ويصغون إلى أصوات الغرائز والشهوات النفسانية المختلفة، لكن ما أسرع ما ينقضي الشباب وما أسرع ما تنقضي الكهولة وما أسرع ما تجد أن هذا الإنسان قد دخل في مدارج الشيخوخة عندئذٍ تذبل الشهوات ويخبو ضرامها بطبيعة الحال سواء ذكر الله أم لم يذكره، ينظر هذا الإنسان في هذه الحال إلى كيانه ويصغي السمع فلا يكاد يسمع ما كان يهتاج بين جوانحه من الرغبة في تحقيق الغرائز والشهوات والعصبيات والأهواء وجمع المال من هنا وهناك، أين هذا الصوت الذي كنت أسمعه؟ لا يوجد أي صوت. أين هذا الهياج الذي كنت أخضع لسلطانه؟ لا شيء الآن.

ويصغي السمع وإذا بصوت الروح قد أصبح جلياً، لماذا؟ لأن الضجيج انتهى. يصغي السمع هذا الإنسان الذي دخل في مدارج الشيخوخة فيصغي السمع إلى روحه التي تقول: أنا إنما أعشق المآل، أنا إنما هبطت من العالم العلوي الذي سأعود إليه، أنا حبيبي هو الله، وعندئذٍ تنظر إلى هذا الإنسان الذي دخل في مراحل الشيخوخة وقد آب إلى الله وقد أمسك بالسبحة وأخذ يذكر الله وأخذ يتوب إلى الله، لماذا؟ لأن ضرام الشهوات توقفت ولأن الأهواء سكتت ومن ثم ظهر صوت الروح، ظهر حنين الروح إلى بارئها.

أسأل الله أن يجعلنا نصغي السمع إلى أرواحنا هذه قبل أن تحيق بنا الشيخوخة، قبل أن ندخل في مدارج الشيخوخة.

أسألك اللهم أن تلهمنا ذكرك، وأسألك اللهم أن تجعلنا ممن يربط نعمك بذاتك العلية حتى نعشقك.

آمنا بأنك أنت الجميل الأوحد فما ينبغي أن نعشق إلا هذا الجميل الواحد.

آمنت بأنك المحسن الأوحد فما ينبغي أن نحب إلا هذا المحسن الأوحد.

آمنا أنك أنت العظيم الأوحد.

أسأل الله أن يرزقني وإياكم نعمة لذة حبه، معرفته، الشوق إليه.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.



١٣- منطق الحب | ٢٠١٢/٠٢/٠٣

ورد في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رُؤِيَ يوم الاثنين صائماً فسئل عن ذلك فقال: ذلك يوم ولدت فيه. يحتفل المصطفى صلى الله عليه وسلم بذكرى أجلِّ نعمة أنعم الله عز وجل بها عليه، إذ جعل يوم ولادته يوم رحمة مهداة إلى العالم أجمع، ومن ثم جعل يوم بعثته يوم هداية للعالم أجمع.

وقد جعل المصطفى صلى الله عليه وسلم من شكره لله عز وجل موضوعاً لاحتفائه بهذه الذكرى، وشاء أن يترجم شكره لله سبحانه وتعالى بشغل ذلك اليوم كله – يوم الاثنين المتكرر – بعبادة غير منقطعة، ولا يتأتى ذلك إلا بالصوم، فكان احتفاله صلى الله عليه وسلم بذكرى ولادته – شكراً لله عز وجل – كان احتفاله بذلك عن طريق عبادة تقرب بها إلى الله، وجعل ترجمة هذه العبادة شغل ذلك اليوم كله بعبادة مستمرة ألا وهي الصوم.

ولكن تعالوا نتساءل يا عباد الله أكان حبيبنا المصطفى صلى الله عليه وسلم مندفعاً إلى هذا الاحتفاء المتكرر بدافع من القناعة العقلية أم كان مسوقاً على ذلك بسائق من الحب والوجدان؟ الجواب يا عباد الله أنه إنما كان منساقاً إلى ذلك بدافع من الحب، بدافع من المشاعر الوجدانية المهيمنة على قلبه، ذلك لأن اليقين العلمي مهما هيمن على العقل لا سلطان له على الفؤاد ولا يملك أن يقود الإنسان إلى أي عمل.

العلم يظهر للعقل حقيقة ويبين له الفرق بين تلك الحقيقة وأضدادها من أنواع الباطل ثم إنه يتركه كذلك، أي إن العلم أشبه ما يكون بالمصباح المثبت في مقدمة العربة، المصباح يظهر الطريق إن كان معوجاً أو مستقيماً ولكنه لا يدفع العربة إلى السير. الذي يقود الإنسان بعد المعرفة إنما هو الحب، ومكان الحب الفؤاد كما أن مكان العلم العقل، وإنما اندفع المصطفى صلى الله عليه وسلم للاحتفاء بذكرى ولادته عندما رُؤِيَ صائماً وسئل فأجاب إنما اندفع إلى ذلك بسائق من وهج الحب المهيمن على كيانه، الذي دفعه إلى أن يشغل ذلك اليوم بشكر الله وإلى أن يحتفي ذلك اليوم من صباحه إلى مسائه بحمد الله

عز وجل وإن أن يتعامل مع نبضات قلبه المحب. هذه الحقيقة كم وكم تغيب عن كثير من الناس لاسيما في هذا العصر يا عباد الله.

نحن لا ينقصنا – نحن المسلمين – في هذا العصر اليقين المعتمد على الدلائل العلمية التي تثبت حقائق العقيدة الإسلامية والإيمانية بالله، ولعلنا نملك اليوم من هذه البراهين ما لم يكن يملكها الأولون من أجدادنا ومن رجال السلف من قبل.

لا تنقصنا المعارف وقد حُشِيَتْ عقولنا بالكثير والكثير منها ولكن الذي ينقصنا إنما هو نبضات الحب الذي يسوق، الحب الذي يقود هذا هو الذي ينقصنا يا عباد الله. ويقول الإمام الشاطبي في حديث له مفرقاً بين سلطان العقل الهادي وسلطان الحب القائد فيقول: إن المحب يعمل ببذل كل المجهود شوقاً إلى المحبوب فيسهل عليه الصعب ويقرب له البعيد وتفنى منه القوى وهو يرى أن لم يوف بعهد الحب، وهو يرى أنه لم يشكر المحبوب الشكر اللائق الذي ينبغي أن ينهض به.

نعم الحب هو الذي يقرب لك البعيد وهو الذي يسهل الصعب وهو الذي يجعلك تذيب حشاشتك وتذيب إمكاناتك وأنت تتمنى لو كنت تملك المزيد من ذلك دون أن تشعر بالألم الذي تنفقه في سبيل حبك، وما علمت يا عباد الله أن في الدنيا ألماً ينبعث بلذة متعايشة معه إلا ألم الحب، ليس في الكون ألم تنبعث منه اللذة التي تقاوم ذلك الألم فتغلبه إلا ألم الحب، ولقد قالوا – وفي ذلك عبرة وأي عبرة – أن والد قيس أشفق على ابنه مما رأى من حاله التي تنتابه والآلام التي تأخذه ولا ترده شوقاً إلى محبوبته، فمضى به إلى بيت الله الحرام وأمره أن يقف عن الملتزم وأن يلتصق به وقال له: ادع الله أن يحررك من حب ليلى، فرفع يديه قائلاً: اللهم زدني حباً لها وزدني كلفاً بها.

نعم هذا ما يفعله الحب، الحب هو الذي يقود، والحب هو الذي يسوق، والحب هو الذي يجعلك تلتذ بالألم الذي تتقلب فيه، ولكن انظر من هو هذا المحبوب الذي يستأهل منك هذا الألم؟ لن تجد محبوباً يستأهل منك هذا الألم إلا ذاك المحبوب الذي رآه رسول الله، لن تجد محبوباً تقدم له حياتك كلها قرباناً وتقدم له إمكاناتك كلها له ضحية في سبيل مرضاته إلا واحداً لا ثاني له ألا وهو ذلك الذي خلقك وصورك فأحسن صورتك، هداك، رزقك، متعك، نعم، ورحم الله من قال:

أنت القتيل بأيّ من أحببته فاختر لنفسك في الهوى من تصطفي

لقد اختار رسول الله صلى الله عليه وسلم محبوبه الأوحد، وقد قال لنا ربنا عز وجل: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾ [الأحزاب: ٢١].

فلماذا لا نقتدي برسول الله؟ ولماذا لا تهتاج منا الحشاشة حباً لإلهنا، حباً لمولانا وخالقنا.

عباد الله أعود فأقول: إن المرض الذي تعاني منه الأمة الإسلامية اليوم هو فراغ هذه الأمة من الحب ولوعة الحب، الحقيقة العقلانية لا تقدم ولا تؤخر شيئاً، إنما الذي يصلح الفساد ويُقَوِّمُ الاعوجاج وينهض بالأمة إنما هو لوعة الحب، لوعة الحب لا يستطيع أن ينكرها أحد. والذكريات يا عباد الله انفعالات قسرية وليست أفعالاً اختيارية، فليست الاحتفالات بالذكريات المختلفة مما يدخل في التكاليف حتى يثور النقاش حول هذا، أيجوز الاحتفال بالذكرى أم لا يجوز الاحتفال، أيجوز الاحتفال بذكرى مولد رسول الله أم لا، وكأن مشاعر الاحتفال عبارة عن أعمال اختيارية، الأمر ليس كذلك. مشاعر الاحتفالات بالذكرى انفعالات قسرية، كل إنسان راجع نفسه يعلم هذه الحقيقة.

كم من معلمة زمانية تحتضن عهوداً عزيزة عليك، إذا مر بك زمان من هذه الأزمنة وأنت ترى هذا الزمان الذي أقبل إليك فاح منه عبق عهد قديم عزيز عليك قد مضى ولسوف تشعر باللواعج تهتاج بين جوانحك أتستطيع أن تصدها، تشعر بالحنين يهيمن على كيانك أتستطيع أن تسكته، تشعر باللوعة تحرق فؤادك أتستطيع أن تبرد لظاها؟ لا تستطيع.

وكذلك كم عهود مكانية تحتضن ذكريات عزيزة عليك، يمر بك مكان من هذه الأمكنة أو تمر به، تنظر إليه وإذا بك أمام مسقط رأسك، أمام الدار التي ولدت فيها، أمام ترتع صباك، هل تستطيع أن تفصل قلبك عن مشاعر هذا الحنين الذي يستبد بك؟ من قال إن الاحتفال بالذكريات أياً كانت عمل إرادي يخضع للجواز أو عدم الجواز، يخضع للحرمة أو لعدم الحرمة، إنه الحب يا هذا، هو الحب. انظروا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد عاد بعد غياب لبضعة أشهر إلى اليرموك عاد إلى المدينة المنورة، لما أشرف على بيوتات المدينة نظر إليها قائلاً: «هذه طابة» ثم التفت إلى أحد الذي يستقبله عن يمينه قال: «وهذا أحد جبل يحبنا ونحبه»، ما الذي هَيَّجَ قلب المصطفى صلى الله عليه وسلم حتى يتغزل بأحد

ويقول عنه: ﴿جبل يحبنا ونحبه﴾، مكان، جاثم في مكانه، مجموعة صخور، أتربة، أحجار، لماذا حَنَّ رسول الله إلى هذه الأحجار وإلى هذه الصخور؟ لأنها تحتضن معلمة عزيزة على القلب، لأنها تحتضن عهداً من العهود العزيزة على الفؤاد، لأن سفح ذلك الجبل يحتضن كثيراً من أصحاب رسول الله الذين قضوا نحبهم في سبيل الله سبحانه وتعالى. هذا حنينه صلى الله عليه وسلم إلى مكان جاثم جامد فكيف بالحنين — حنين أمة المصطفى صلى الله عليه وسلم التي هُدِيَتْ بسر المصطفى وبسر بعثته، التي عرفت الله سبحانه وتعالى بفضله. عندما يمر بهذه الأمة مثل هذا الزمان، ألا تفوح من هذه الأيام التي تمر بنا روائح عهد عزيز على قلوبنا، عزيز غالٍ على أفئدتنا يا عباد الله؟

الجواب: أما الإنسان الذي فرغ قلبه من الحب فهو لا يعي من هذا الكلام الذي أقوله شيئاً، وينكر هذا الذي أقول لأنه لا يتعامل إلا مع قرارت العقل، وأما من احتضن قلبه حباً لخالقه عز وجل ومن ثم احتضن قلبه حباً لحبيبه المصطفى صلى الله عليه وسلم فلابد أن يستبد به الحنين إلى رسول الله ولابد أن يستبد به الشوق إلى صاحب هذه الذكرى، شهر ربيع يفوح به عبق من أقدس ما يمكن أن تهتاج له مشاعر أمة المصطفى صلى الله عليه وسلم.

والآن يا عباد الله تعالوا نتساءل أين هي دلائل استمرارنا على العهد، أين هي دلائل استجابتنا لوصايا رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ إنني إن أجبت عن هذا السؤال لابد أن أزج نفسي وأزجكم في خجل ممض، في آلام كاوية، ولكن لا بأس إن كانت هذه الآلام تحمل لنا درساً وتوقظنا من سبات، لقد حنَّ رسول الله إلينا عندما وقف قبل وفاته بأشهر في البقيع قائلاً: «وددت لو أني رأيت إخواننا قال له أحد أصحابه: ألسنا إخوانك؟ قال: بل أنتم أصحابي وإخواني أولئك الذين لم يلحقوا بعد».

أين هم الذين يبادلون حنين رسول الله الحنين؟ أنظر يا عباد الله عن يمين وشمال فلا أجد — في الغالب — إلا انصرافاً عن التجاوب مع حنين رسول الله صلى الله عليه وسلم، إلا نسياناً لهذا الإقبال القلبي المحب منه إلينا، ألا ترون ذلك؟! رسول الله صلى الله عليه وسلم ترك من ورائه لنا وصايا حارة غالية وأهاب بنا ألا نضيعها، قال لنا: «لا تباغضوا، لا تدابروا، لا تحاسدوا، كونوا عباد الله إخوانا» ونظرنا فوجدنا لسان الحال يقول على ألسن كثير من المسلمين: بل سنتباغض، بل سنتدابر، بل سنتداعى ولسنا من وصاياك التي تقولها لنا في شيء، ألا ترون لسان الحال يلهج بهذا المقال؟

رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ﴿المؤمنون بعضهم لبعض كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً﴾ والحديث متفق عليه، وأنظر فأجد لسان حال كثيرٍ من المسلمين يقول: بل إننا سنجعل من هذا الجسد الواحد للمؤمنين قطعاً متدابرة متعادية تهتاج كل قطعة منها لتدمير القطعة الأخرى، هذا قرارنا وهذا ما سنفعله.

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿ألا لا ترجعوا بعدي كفاراً — أو ضُلاَّلاً — يضرب بعضكم رقاب بعض﴾ وأنظر فأجد كثيراً من المسلمين من حولنا يقولون للمصطفى صلى الله عليه وسلم من وراء سور القرون المتطاولة بل قرارنا الذي اتخذناه أن نتعادى فيضرب بعضنا رقاب بعض. رسول الله يحن إلينا ونحن مدبرون عنه معرضون ومتناسون لحنينه، رسول الله يوصينا ويأمرنا ويحذرنا ولسان حالنا يقول: بل قرارنا الذي اتخذناه ينبع من رؤيتنا ولا ينبع من وصاياك، ولقد سمعت من يقولها بلسان رأسه لا بلسان حاله، يقول: إن وصايا محمد صلى الله عليه وسلم لا تصلح لهذا العهد، ولكأن رسول الله لا يعلم ما الذي يصلح أمته وما الذي لا يصلحها، ولكأننا أدرى من رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يصلحنا،

رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لنا: ﴿كونوا عباد الله إخوانا﴾ كونوا يا عباد الله إخواناً متعاونين، وأنظر إلى النساء اللائي رُمِّلْن وإلى الأطفال الذين يُتِّمْن وإلى الدموع التي تختلط بالدماء البريئة الزكية وأنظر إلى هؤلاء وهؤلاء وهم يهرعون إلى ما يسمى بمنظمة التعاون الإسلامي ألا هل من عون تقدمونه لنا، ألا هل من سبيل تنتصرون لمظلوم تضربون به على يد الظالم؟ ولكنه لا يجدون إلا أصداء تتجاوب مع صيحاتهم

لقد أسمعت لو ناديت حياً ولكن لا حياة لمن تنادي

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم فاستغفروه يغفر لكم.

١٤- بلاؤنا من الحب ودواءنا في الحب | ٢٠١٣/٠١/٢٥

إن المشكلات التي تعصف بالمجتمعات الإسلامية اليوم، كثيرة متنوعة وليست الأزمة التي تمر بنا إلا واحدة من هذه المشكلات، وإنما العاصم منها شيء واحد، هو شيوع الألفة وامتداد جسور وشبكات المودة بين أفراد المجتمعات الإسلامية، تلك هي الضمانة الوحيدة التي تعصم مجتمعاتنا الإسلامية من المشكلات المتنوعة المختلفة أياً كانت وأياً كان مصدرها، ولكن الألفة بين أفراد المجتمع الإسلامي، وامتداد شبكة الود والحب بين أفراد هذا المجتمع لا يتحقق شيء من ذلك إلا عن طريق البذور التي ينبغي أن تستقر في طوايا نفس كل إنسان مؤمن بالله عز وجل، أرأيتم إلى الثمرة هل تينع إلا في أغصانها، أرأيتم إلى الغصن من الشجرة هل ينبت إلا من جذعه، لا بد من الجذع، وجذع المحبة التي تتفرع عنه محبة الناس بعضهم لبعض، وتتفرع منه المودة السارية شبكة بين الأفراد إنما هو جذع محبة العبد لمولاه وخالقه الأوحد جل جلاله، ومن ثم محبة العبد لمحمد صلى الله عليه وسلم الذي اصطفاه الله عز وجل من خلقه والذي جعله خاتم الرسل وأفضل الأنبياء جميعاً.

هذا هو الشرط الذي لا بد منه لتنامي الألفة بين أفراد المجتمعات الإسلامية ولامتداد شبكة الود والحب فيما بين أفرادهم، فإن غاب هذا الشوق إن غاب جذع محبة العبد لله عز وجل ومن ثم لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم غابت محبة الناس بعضهم لبعض، وهي حقيقة لا ريب فيها، وحلت في محل ذلك محبة الإنسان لنفسه تلك التي يعبر عنها بالأنانية، يفيض القلب عندئذ بمحبة الإنسان لذاته، ومن ثم فحدّث عن اهتمامه بذاته ولا حرج، وحدث عن التضحيات التي يقدمها قرابيناً لمحبته لذاته ولأنانيته ولا حرج، إن مثل هذا الإنسان مستعد لأن يضحي بالدنيا كلها بالناس جميعهم إن أتيح له ذلك في سبيل حبه لذاته.. ما العاصم من ذلك؟ العاصم من ذلك أن يينع في القلب جذع محبة العبد للرب جل جلاله، ومن ثم جذع محبة العبد للمصطفى صلى الله عليه وعلى آله وسلم ومن هنا فرض الله سبحانه وتعالى على عباده إلى جانب الإيمان العقلاني بالله واحداً فرداً صمداً وبجانب الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم رسولاً ونبياً، ألزم الله عز وجل عباده إلى جانب ذلك بالحب.

انظروا إلى قوله عز وجل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلّهِ﴾ [سورة البقرة: ١٥٦]

وتأملوا في قول المصطفى صلى الله عليه وعلى آله وسلم: ﴿لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين﴾. قال ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم تبليغاً للأمانة التي أمره الله أن يبلغها الناس؛ لا تغذية لذاته وحباً لأنانيته. معاذ الله.

عباد الله: عندما ينظر أحدكم إلى المجتمعات الإسلامية المترامية في جنبات الأرض فيجد كيف أنها شردت عن العهد وابتعدت عن الميثاق، عندما ننظر فنجد أن الهرج والمرج راح يسود فيما بين أفرادها بدلاً من الوداد والحب، وعندما نجد أنهم أعرضوا عن وصايا الله عز وجل، واتجهوا مسرعين إلى تنفيذ أهوائهم ورغائبهم النفسية فلتعلموا أنه لن يتسرب إلى مكمن اليقين بالله في عقولهم شك بعد إيمان أبداً، لن يتسرب إلى مكمن الإيمان بالله في عقولهم ريب أبداً، إذاً ما الذي حصل؟ الذي حصل أن حباً غاب واستبدل به حبٌ آخر غابت عن أفئدتهم محبة الله عز وجل ومن ثم محبة رسوله المصطفى صلى الله عليه وسلم وإذا فرغ القلب من محبة الله غزته محبة الأغيار، غزته محبة الشهوات والأهواء والمال وما إلى ذلك، ومن ثم فإن هؤلاء الناس يصبحون ضحايا للحب الهابط بعد أن أسعدهم الله عز وجل بالحب العالي السامي المرتفع ولذلك فإن مولانا عز وجل يخاطبنا مبيناً أن المسلمين إذا آل بهم الأمر إلى هذا الذي أصف، فإن الله عز وجل يستبدل بهم أناساً آخرين لا يعانون من هذا المرض الذي يعانون منه. ما المرض؟

الحب الهابط بدلاً من الحب المتسامي. تأملوا في قوله جل جلاله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤].

لم يقل: فسوف يأتي الله بقومٍ أكثر يقيناً منكم، لم يقل: فسوف يأتي الله بقوم يملكون أدلةً ناصعةً قويةً على الإيمان بعد شكٍ داهم أفئدتهم وعقولهم لا، لأن المرض ليس عبارة عن شك بعد يقين، وإنما المرض الحب والحب كما يكون دواءً يكون داء، المرض أن محبة الله غابت محبة المصطفى صلى الله عليه وسلم غابت عن القلوب ومن ثم هيمنت على الأفئدة محبة الأهواء محبة الشهوات محبة العصبيات محبة المال والدولار. هذا هو الذي هيمن، ومن ثم فإنك تستطيع أن تقول إن هؤلاء الناس اتخذوا من لأنفسهم

آلهةً أخرى من دون الله عز وجل، وإن لم تتوج هذه الآلهة بالإعلان وبالإقرار. ألا وهي آلهة الشهوات الأهواء المال المناصب العصبية. هذه حقيقة ينبغي أن نعلمها.

أيها الأخوة: ربما كان فيكم من يقول: لكن المحبة انفعال قسري وليس فعلاً اختيارياً فأنى للإنسان أن يقود إلى نفسه الانفعال القسري الذي لا قبل له بجذبه إليه ولا رده عنه. كيف السبيل إلى الحب وهو أمر انفعالي؟

نقول في الجواب: نعم الحب انفعال قسري وليس فعل اختياري لكن الله عز وجل عندما أمرنا أن نوجه أفئدتنا إلى محبته أمرنا أن نسلك السبيل إلى ذلك، ألا ولتعلموا أن من سلك السبيل إليه لا بد أن يعشق مولاه وخالقه. من عرف الله أحبه، من عرف الله حقاً عشقه. صحيح أن المحبة انفعال قسري لرسول الله صلى الله عليه وسلم وليست فعلاً اختيارياً لكن الله عز وجل عندما أمرنا بالسبيل الموصل إلى حبه ولم يأمرنا مباشرة بالانفعال القسري، أمرنا أن نعلم من هو محمد عليه الصلاة والسلام، أمرنا أن نتعرف على سيرته على حياته، أمرنا أن نتبين أخلاقه السامية التي صاغها الله عز وجل في مظهرها وحقائقها وأنا لا أرتاب في أن من عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم عرفه من خلال درايته الإنسانية الموضوعية، ولم يتعرف عليه من خلال عينين عصبّهما بعصائب سوداء، لم يتعرف على رسول الله صلى الله عليه وسلم من خلال استكبار وبغضاء سلفاً، كل من عرف سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم بطريقة موضوعية سلط نبراس عقله على سيرته صلى الله عليه وسلم لا بد أن يعشق رسوله، وآية ذلك أن أصحاب رسول الله رضوان الله عليهم كانوا قبل أن يدخل الإيمان في طوايا قلوبهم، بل في طوايا عقولهم يقيناً كانوا مثالاً المنابذة والتشرذم، كانوا مثال العداوة تسري فيما بينهم قبائل وأفراد فإلى ما آل أمرهم بعد الإسلام؟ غاب التشرذم.. غابت العداوة والبغضاء وتحولوا إلى مضرب المثل في الألفة والحب. أليس كذلك. ما الذي دعاهم إلى هذا؟ أهو اليقين العقلي وحده؟ لا.. الشيء الذي جمعهم من نثار، وألف بين قلوبهم إنما هو الحب. حبهم العجيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم عرفوه فأحبوه.

ورد في الصحيح أن رجلاً أقبل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أضناه النحول فقال له المصطفى صلى الله عليه وسلم: ﴿ما الذي آل بك إلى ما أرى. فقال: يا رسول الله علمت أنه إذا قام

الناس غداً لرب العالمين ستكون لك مرتبتك في العليين، ولن يتاح لإنسان مثلي أن يراك، فأنا أعاني اليوم من همّ ذلك اليوم. قال له المصطفى صلى الله عليه وسلم: (أنت مع من أحببت﴾

ولعلكم تعلمون وقد ذكرت ذلك منذ حين أن أعرابياً جاء إلى رسول الله قال له: ﴿متى الساعة يا رسول الله قال: ما أعددت لها. قال: ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام ولكني أحب الله ورسول. قال له المصطفى صلى الله عليه وسلم: أنت مع من أحببت﴾.

أأزيدكم برهاناً على الشيء الذي رفع قيمة أصحاب رسول الله إلى ما تعلمون. أأزيدكم برهاناً على قلب واحد الذي آلت إليه القلوب التي كانت متخاصمة متعادية بعد بعثة رسول الله: خطف زيد بن الدثنة مع ثلة من أصحابه من قبل مشركي مكة وأخذوا به ليقتلوه ثأراً لبعض قتلى المشركين يوم بدر، ولما جيء به ليقتل. قال له أبو سفيان وكان مشركاً آنذاك: أنشدك الله يا زيد أتحب أنك الآن في أهلك آمناً وأن محمداً هنا بيننا في مكانك. قال: والله لا أحب أن محمداً يشاك بشوكة وأنا بين أهلي.

هذا ما يفعله الحب هذا ما يحققه الحب من المعجزات والخوارق، إذا وجد الحب غابت كل المشكلات، وإذا غاب الحب حل الحب الهابط في مكان ذلك فتنبعت وظهرت سائر المشكلات على تنوعها واختلافها.

عباد الله: تلمسوا مكان محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم بين جوانحنا، لا سيما في هذا اليوم الأغر، لا سيما في هذا الشهر المبارك هل تشعرون بهذه المحبة، هل تجدون في أفئدتكم لوعة اشتياق إلى رسول الله. إذاً فاهنؤوا أن يفرج الله ما نحن فيه. نعم محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تخفى بقطع النظر عن الامتثال. من أجلّ الدلائل على محبة العبد للرب أن تهتاج بين مشاعره مشاعر الشوق إلى رسول الله في الذكريات الزمانية والمكانية، وما أكثر هذه الذكريات. المحب إذا فاحت رائحة ذكرى مولد رسول الله في نفسه بمثل هذه المناسبة، انتشت منه النفس وطرب منه العقل؛ ذلك لأن هذه الذكرى أيقظت لديه كوامن الحب الكامن بين جوانحه لرسول الله. ويا عجباً لمن لا يؤمن لأثر الذكريات في إثارة لواعج الحب، أثر الذكريات واحد وإن تلوع المحبوب.

أرأيتم إلى ذاك الذي تحدث الركبان وتحدث التاريخ عن حبه لليلى، ماذا صنع عندما مرّ بالدار التي كانت محبوبته تسكن فيها، ماذا صنع ألم يتطوح بين جدران تلك الدار ألا تعلمون ذلك أليس هو القائل:

أمر على الديار ديار ليلى أقبل ذا الجدار وذا الجدار

وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديار

أياً كان المحبوب لا بد أن يترك هذا المحبوب معنىً للذكرى في قلبه، من رأى ذكريات المصطفى في مكان أقام فيه اهتاجت بين جوانحه مشاعر الشوق إليه. من مر بساعة من الساعات التي تعيده إلى يوم ميلاد رسول الله وبعثته اهتاجت مشاعر الشوق إليه، إذا مر بحديث رسول الله الذي رواه مالك وآخرون وهو من أصح الأحاديث، إذا وقف أمام قول رسول الله وهو يتشوق إلينا – أجل يتشوق إلى إخوانه قائلاً: ﴿وددت لو أني رأيت أخواني – ظن أصابه أنه يتشوق إليهم– قالوا له: ألسنا إخوانك؟ قال: بل أنتم أصحابي إخواني الذين لم يلحقوا بعد﴾.

أيها الإخوة: انظروا كيف اهتاجت مشاعر الذكرى بين جوانح رسول الله. لمرأى صخور.. جبل ألوان من الصخور والأتربة. عاد من إحدى الغزوات ولما دنا من المدينة المنورة رأى جبل أحد. فنظر إليه قائلاً: هذا أحد جبلٌ يحبنا ونحبه. ما معنى هذا الكلام؟ ما معنى هذا التغزل من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ الذكرى؛ لأن هذا الجبل الأصم – نعم هو أصم – لكنه على الرغم من ذلك يحتضن من أصحاب رسول الله الكثير والكثير يحتضن حمزة يحتضن مصعب بن عمير يحتضن الكثير والكثير. إذاً فلا بد أن تهفو نفس رسول الله بالحب إلى ذلك الجبل.

أتريدون أدلة أكثر من هذا؟ بقي أن أقول لكم شيئاً واحداً: الذي فرغ قلبه من الحب من حب رسول الله لن يفهم هذا المنطق الذي أقوله لكم، لا لأن المنطق ينأى عنه، ولكن لأنه لم يذق طعم هذا الحب، وأسأل الله لهؤلاء الإخوة أن يذيقهم لوعة الحب التي أذاقنا الله عز وجل إياه، أسأل الله أن يذيقهم عذوبة هذا العذاب.

أيها الأخوة ليس في الكون عذاب يتمتع بالعذوبة إلا شيء واحد عذاب الحب، عذاب الحب هو الذي يجمع لك بين العذوبة والعذاب وما أهنأ هذا الحب عندما يكون لرسول محمدٍ صلى الله عليه وآله وسلم.





الإخلاص

١٥- عندما يكون الإسلام جسداً لا روح فيه | ١٩٨٩/٠٥/١٩

إذا كانَ من المعلوم أنَّ الإنسانَ مكوَّنٌ من جسدٍ وروح، وأنَّ الجسدَ إنّما يفيدُ ويحقّقُ جدواهُ بواسطةِ الرّوح، فإذا لم تكنِ الرّوحُ ساريةً في أوصالِ هذا الجسدِ كانَ وجودهُ أشبهَ بالعدم. إذا كانت هذه الحقيقةُ معروفةً لنا جميعاً فإنّنا نقول: إنَّ الدّينَ الذي ابتعثَ اللهُ بهِ رسُلَهُ وأنبياءهُ إلى البشرِ عامّةً أشبهُ ما يكون بهذا الكيانِ الإنسانيّ.

هذا الدّين يتكوّنُ هو الآخر من جسدٍ وروح: أمّا الجسد: فهو يتألّفُ من مجموعةِ الشّرائعِ والأوامرِ والنّواهي والآدابِ السّلوكيّة التي أمرَ اللهُ عزَّ وجلَّ بها. وأمّا روحُ الإسلام: فهو الإخلاصُ لوجهِ اللهِ سبحانهُ وتعالى.

لا فرقَ بينَ الدّينِ والكيانِ الإنسانيِّ في هذا النّطاقِ قط، كما أنَّ الإنسانَ مؤلّفٌ من جسدٍ وروح، فكذلكمُ الدّين مؤلّفٌ هو الآخر من جسدٍ وروح. جسدُ هذا الدّين: الأعمالُ التي يؤدّيها الإنسانُ من فرائضَ وواجباتٍ ومندوبات، والنّواهي التي يبتعدُ الإنسانُ عنها من مكروهاتٍ ومحرّمات. ولكنَّ روحَ هذا الجسد إنّما تتمثّلُ في الإخلاص لوجهِ اللهِ سبحانهُ وتعالى. فإذا فُقِدَ الإخلاص من القلب، عادتِ الأعمالُ التي يؤدّيها الإنسانُ أشبهَ بجسدِ جاثمٍ هناكَ لا حراكَ بهِ ولا فائدةَ منه، بل هو عبءٌ على أهلهِ وذويه.

أريدُ أن نتبيّنَ هذا المعنى بدقّةٍ يا عبادَ الله، حتّى لا نُخدَعَ بظواهرِ الأعمالِ عن بواطنِ السّرائرِ والإخلاصِ الذي هو منها كالرّوح.

كثيرونَ هم الذينَ يصلّونَ كثيراً ربّما ويسعونَ ذاهبينَ آيبينَ في أنشطةٍ وسلوكاتٍ إسلاميّة، ولكن لو نظرتَ إلى أعماقِ أعماقِ ما استقرَّ في نفوسِ هؤلاءِ النّاس، لرأيتَ الهوى هو القائدَ والسّائق، ولرأيتَ النّفسَ الأمّارة هي التي تتحكّمُ خُفيةً. هذه النّفسُ الأمّارةُ التي يُعَبَّرُ عنها اليومَ على ألسنةِ كثيرٍ من النّاسِ "بالمزاج". فإذا كانَ سلوكُ الإنسانِ وإسلامهُ مظاهرَ وأنشطةً شكليّة، ولكنَّ هذه المظاهرَ والأنشطة منفصلةٌ عن روحها، ألا وهو الإخلاصُ للهِ عزَّ وجلّ. فماذا عسى أن تجديَ هذه الحركات؟ وماذا عسى أن تجديَ الأقوالُ بل الأفعال؟

قليلٌ من القولِ أو العمل يكفي ويفيد إن كانَ هذا القليلُ ينبضُ بحرقةِ الإخلاصِ لوجهِ اللهِ سبحانهُ وتعالى. والكثيرُ الكثيرُ من الأعمالِ لا يفيدُ شيئاً ويذهبُ أدراجَ الرّياح إذا كانت نبضاتُ الإخلاص خفيّةً فيهِ غيرَ واضحة، ينبغي أن نعلمَ هذه الحقيقةَ جيّداً.

ألم يقلِ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾؟ ألم يقلِ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾؟ ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً﴾. تلكَ هيَ الإشارةُ إلى الجسدِ من الإسلام، ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾. وتلكَ هي الإشارةُ إلى روحه ألا وهوَ الإخلاص، بحيثُ يطردُ هذا الإخلاصُ أيَّ شركةٍ في تلكَ الطّاعةِ والعبادة.

ما أكثرَ الذين يَزِنُوْنَ أعمالَهم أو أعمالَ غيرهمُ الإسلاميّةِ بميزان، ويظنّونَ أنّهُ ميزانُ دينٍ وإسلام. ولكنَّ أحدهم لو رجعَ إلى قرارةِ نفسه وإلى أعماقِ قلبه، لرأى أنَّ هذا الميزانِ عبارةٌ عن مزاج. يصبغُ ما يروقُ لنفسه بصبغةِ الجمالِ واللياقةِ والموافقة، فهو الدينُ الحقُّ وهوَ المنهجُ السّديد، ويصبغ ما لا يتّفقُ مع مزاجه ونفسهِ وهواه بصبغةِ المخالفةِ والشّذوذ.

وهكذا فإنَّ الحاكمَ الخفيَّ على السّلوكِ والعمل، سواءٌ كانَ سلوكَهُ هو أو سلوكَ غيره إنّما هو المزاجُ أيِ الهوى، وهذا أمرٌ خفيّ، خفيٌّ جدّاً. من الذي يشعرُ به؟ يشعرُ بهِ أولئكَ الذينَ يحرسونَ أنفسهم ليلَ نهار، يتّهمونَ مشاعرهم في كلِّ آن، يقفونَ أمامَ قولِ اللهِ عزَّ وجلّ: ﴿إنَّ النّفسَ لأمّارةٌ بالسّوء﴾. ولذلكَ فإنَّ أحدهم يرمقُ نفسه من خلالِ نظرةِ اتّهام، هؤلاءِ همُ الذينَ يستطيعونَ أن يتحرّروا عن سلطانِ أمزجتهم، همُ الذينَ يستطيعونَ أن يتحرّروا من قيادةِ أهوائهم وإلا وقعوا في مغبّةِ قولِ اللهِ عزَّ وجلّ: ﴿أفرأيتَ من اتّخذَ إلههُ هواهُ وأضلّهُ اللهُ على علمٍ﴾. هو يؤمنُ بإله، ويدينُ لهذا الإلهِ بولاء، وربّما كانَ اسمُ هذا الإله على لسانِه أو في تصوّرِهِ اسمهُ اللهُ الواحدُ الأحد. ولكنّهُ يجعلُ من الحقيقةِ الخفيّةِ التي تهيمنُ على إيمانهِ هذا: النّفسَ الأمّارةَ بالسّوء، المزاج كما يقولون.

مزاجي إنّما يحدو بي ويأمرني أن أحصرَ الدّينَ في حجٍّ إلى بيتِ اللهِ الحرامِ يتكرّرُ كلَّ عام. هكذا يقولُ لي المزاج. إذاً الدّينُ هاهنا يكمن، والقربُ إلى اللهِ بهذا الطّريقِ يتحقّق. تلكَ هي الصّورةُ الظّاهرة وذلكَ

هو الجسد. ولكن أينَ الرّوح؟ الرّوحُ مفقودة، والموجودُ في مكان هذه الرّوح إلهٌ آخر هو النّفسُ الأمّارة: المزاج.

شخصٌ آخر يحلو لهُ من الإسلامِ أن يمسك بيدِهِ مسبحة وأن يكرّرَ ألفاظاً تقليديّةٌ صباحَ مساء، وأن يجعلَ نفسهُ أمامَ الغادينَ والرّائحينَ في إطارٍ هو ذكرُ الله، في إطارٍ يقولُ إنّهُ ذاكرٌ اللهَ عزَّ وجلّ. هكذا الإسلامُ في مزاجه وهذا هو معنى الدّين فيما يحلو له، ولكنّكَ تنظرُ إلى أنواع أخرى من السّلوكِ في حياتك، وإذا بهذه الأنواعِ غريبةٌ عن الإسلامِ غربةً تامّة. إذا نزلَ إلى السّوق وعافس الدّرهمَ والدّينار وتقلّبَ في أسواقِ التّجارةِ والبيعِ والشّراء فالدّينُ بعيدٌ كلَّ البعدِ آنَذاك. وإذا حانت لهُ صفقةٌ رابحةٌ فما أيسرَ أن يضعَ بينهُ وبينَ الدّينِ حجاباً آنذاك، لأنَّ المزاجَ يقولُ له: الدّينُ ذكرٌ وحركاتٌ وعبادة، أمّا التّجارة فالقرارُ فيها لرغبةِ النّفس، القرارُ فيها للهوى، هكذا يتصوّرُ هذا الإنسان.

أناسٌ آخرونَ فاضت أفئدتهم كراهيةً، أو حقداً أو ضغينةً أو اشمئزازاً من إنسانٍ من النّاسِ أو جهةٍ ما من الجهاتِ بحكمٍ من المزاج، بحكمٍ من الرّغبةِ النّفسيّة، الدّينُ الحقُّ تحتَ سلطانِ هذا المزاج أن يخضعَ لمشاعرِ حقده، ولمشاعرِ ضغينته، ولمشاعرِ أهوائهِ هذه. هكذا يكونُ الدّينُ الحقّ.

وما أكثرَ الأمثلة وما أطولَ أعدادها.. ولكن إذا كانَ الإنسانُ لا يستطيعُ أن يشخّصَ هذا الدّاءَ في كيانِ صاحبه، أفلا يستطيعُ الإنسانُ أن يشخّصَ سلطانَ هذا المزاجِ في كيانه؟ بلى، بلى والله. كيفَ لا والرّبُّ عزَّ وجلَّ يقول: ﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾.

أنا عندما أتظاهرُ بالغيرةِ على دينِ اللهِ عزَّ وجلّ من خلالِ غضبةٍ أصبُّها على كيانِ إنسانٍ ما، أستطيعُ أن أجزمَ وأن أعلم: أهيَ غضبةٌ نابعةٌ من مزاجِ هوىً أم هيَ غضبةٌ هابطةٌ من أمرِ اللهِ عزَّ وجلّ؟ لئن كانَ أصحابي من حولي لا يعرفون ولكنّي أنا أعرف، إنني أعرفُ بكلِّ سهولة إلا إذا كنتُ أمضي حياتي في جنباتِ الأرضِ سكران، لا أستطيعُ أن أعودَ حتّى إلى نفسي فأحاسبَ خلجاتها وأتصوّرَ حركاتها، ومنذا الذي يعيشُ حياتهُ كلّها سكران؟

أيها النّاس إنَّ كثرةَ الطّاعاتِ ولو كانت تشكّلُ جبالاً عاليةً راسية ستذهبُ يومَ القيامةِ أدراجَ الرّياح إن لم تكن راسخةً على جذورٍ أصيلةٍ هي الإخلاصُ للهِ عزَّ وجلّ. والإخلاصُ لله يطردُ من النّفسِ كلَّ

مزاج، ويبعدُ عن الكيانِ كلَّ هوىً، ويطهّرُ النّفسَ من كلِّ حظٍ من حظوظِ الشّيطان. وإذا النّفس – بعدَ أن تهيمنَ عليها روحُ الإخلاصِ لوجهِ اللهِ عزَّ وجلَّ – نفسٌ مستسلمةٌ مطمئنّة، وهي التي يناجيها اللهُ عزَّ وجلَّ إذا حانَ حَينُ الإنسان ودنا أجَلُه، يقول: ﴿ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾.

ذلكَ هو الجهادُ الأعظمُ الذي أمرَنا بهِ اللهُ إذا قال: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾. ينطلقُ من تطهيرِ القلبِ وتطهيرِ النّفسِ وإبعادها عن الأمزجة وجعلِها تسيرُ على صعيدٍ طاهرٍ مطهَّرٍ لا يحكمهُ إلا كتابُ الله، ولا يقيّدهُ إلا سنّةُ رسولِ الله صلى اللهُ عليهِ وسلّم، وإن عزَّ على هذا الإنسانِ أن يعلمَ ماذا يقولُ كتابُ الله وماذا تقولُ سنّةُ رسولِ الله، فما أيسرَ أن يعودَ إلى من عُرِفوا بالمعرفةِ والعلمِ الدّقيق ثمَّ عُرِفوا بالإخلاصِ للهِ عزَّ وجلّ، أولئكَ الذينَ لا يبيعونَ دينهم بدنياهم ولا بدنيا غيرهم، أولئكَ الذين باعوا الدّنيا كلّها من أجلِ الرّحيلِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ برضىً من اللهِ سبحانهُ وتعالى عنهم. فالجاهلُ يرجعُ إلى هؤلاء العلماء، والعالِم يرجعُ إلى كتابِ اللهِ وسنّةِ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلّم، وإذا سارَ الإنسانُ على هذا الخطِّ من الجهادِ لقيَ اللهَ وهو عنهُ راضٍ وإن رحلَ إليهِ بعملٍ يسير، وإن رحلَ إليهِ بطاعاتٍ قليلةٍ جدّاً الإخلاصُ غداً يضخّمها. أمّا الأمزجةُ والأهواء فإنّها غداً تُطيرُها.

أقولُ قولي هذا وأستغفرُ اللهَ العظيم فاستغفروهُ يغفر لكم...

١٦- ظاهر الإثم وباطنه.. وأثرهما على المجتمع الإسلامي | ١٩٩٢/١١/٠٦

إنَّ المعاصيَ التي حرّمها اللهُ سبحانهُ وتعالى وحذَّرَ منها عبادهُ تنقسمُ إلى قسمينِ اثنين: معاصٍ ظاهرةٌ تتلبَّسُ بالجوارحِ وتنحطُّ على الأعضاءِ ويراها الإنسانُ بحواسِّه. ومعاصٍ أخرى مكمنُها القلبُ ومركزُها النّفسُ ولا يستطيعُ الإنسانُ أن يتبيّنها بحاسّة.

فأمّا القسمُ الأوّلُ: فهوَ الذي سمّاهُ اللهُ سبحانهُ وتعالى في محكمِ كتابهِ ظاهرَ الإثم. وأمّا القسمُ الثّاني: فهوَ الذي سمّاهُ اللهُ سبحانهُ وتعالى باطنَ الإثم. وقد أمرَنا باجتنابِ كلا القسمينِ فقال: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾، ولكن أيُّهما أخطر؟ وأيُّهما الذي يضربُ بجذورهِ في كيانِ الإنسانِ حتّى يصبحُ منَ العسيرِ امتلاخُهُ واقتلاعُه؟

أمّا المعاصي الظّاهرةُ التي تتمركزُ على الأعضاءِ وتبرزُ في سلوكِ الإنسانِ الظّاهريِّ فهوَ أخفُّ هذينِ القسمين، وأيسرُهُما على صعيدِ المعالجة، وهذا هوَ القسمُ الذي يغلبُ أن لا تكونَ لهُ جذوراً خفيّة، وإنّما مردُّهُ إلى ما وصفَ اللهُ سبحانهُ وتعالى الإنسانَ بهِ منَ الضّعف، إذ قالَ عزَّ وجلّ: ﴿وخُلِقَ الإنسانُ ضعيفا﴾، فما أيسرَ على الإنسانِ الذي انزلقَ في معصيةٍ من معاصي الحواسِّ والأعضاء، ما أيسرَ إذا صحا من معصيتهِ أن يستغفرَ اللهَ ويتوبَ إليه، وما أسرعَ أن يتوبَ اللهُ سبحانهُ وتعالى عليك، كيفَ لا وهوَ القائل: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾؟ وهوَ القائلُ أيضاً: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

وأمّا النّوعُ الثّاني من المعاصي وهوَ ذلكَ الذي يكونُ خفيّاً ويتوضّعُ – كما يقولُ الأطبّاءُ – فيتمركزُ في طوايا القلبِ فهذا هوَ النّوعُ الخطيرُ الذي يصعبُ علاجُه، بل يصعبُ الاستيقاظُ منه. بمقدارِ ما يسهلُ على العاصي أن يستيقظَ من معاصيهِ الظّاهرةِ عندما تبتعدُ نشوتُها عنهُ فإنّهُ يعسرُ على الإنسانِ أن يستيقظَ من معاصيهِ الباطنةِ لأنَّ نشوتَها لا تزايلُه، ولأنَّ آثارَها لا تفارقُه، ولأنَّ سكرَها ممتدّ. ومن هنا كانَت هذهِ المعاصي أخطر، ومن هنا كانَ باطنُ الإثمِ أوغلَ في إبعادِ صاحبهِ عن صراطِ اللهِ سبحانهُ

وتعالى وزجّهِ في مخاطرِ الإلحادِ والفسوق، بل ربّما كانت الخطورةُ الكبرى أنّها تهيِّئُ لهُ خاتمةً سيِّئةً في نهايةِ عُمُره.

هذهِ المعاصي الباطنةُ التي تحدَّثَ البيانُ الإلهيُّ عنها كثيراً في محكمِ كتابهِ وحذَّرَ منها كثيراً تتمثّلُ في الكِبر، تتمثَّلُ في العصبيّةِ والاعتدادِ بالذّات، تتمثّلُ في الحقدِ على الآخرين، تتمثّلُ في الحسد، تتمثَّلُ في حبِّ الجاهِ والسّمعةِ والمكانة، تتمثَّلُ في حبِّ الدّنيا بكلِّ أنواعِها، والدّنيا كشجرةٍ ذاتُ أغصانٍ لا تكادُ تحصى. ويضيقُ الوقتُ عن عدِّ وإحصاءِ هذهِ الأغصان، تلكَ هيَ المعاصي الخفيّةُ الباطنة.

والمجتمعُ الذي ابتعدَ عن صراطِ اللهِ عزَّ وجلَّ وانحطَّ في الموبقاتِ، إذا تأمّلنا ونظرنا فإنّنا سنلاحظُ أنَّ التّيّارَ الذي يزجّهُ في هذهِ الموبقاتِ لا يتمثَّلُ في معاصٍ ظاهريّةٍ فقط، لا.. بلِ التّيّارُ الخفيُّ والحقيقيُّ يتمثَّلُ في هذهِ المعاصي الباطنة: عصبيّةُ الإنسانِ لذاته، عصبيّةُ الإنسانِ لآرائهِ التي تصبحُ جزءاً من ذاته، كبرياؤه، عنادُه، حقدهُ كما قلت، حَسَدُه، إلى آخرِ ما هنالِك، هوَ الذي يفتُّ في عضُدِ المجتمعِ الإسلاميّ، هوَ الذي يجعلهُ أنكاثاً ويمنعُ وسائِلَ الألفةِ مهما كانت قويّةً من أن تعملَ عملَها في حياةِ هذا المجتمع.

إنَّ الإنسانَ يستطيعُ أن يحدِّثَ عدداً منَ الذينَ يرتكبونَ المعاصيَ الظّاهرةَ ويقعونَ في اللهوِ الذي انحطَّت نفوسهم إليهِ يستطيعُ أن يلتقيَ بهم ويذكِّرَهم باللهِ، ويذكّرهم بالمخافةِ منَ الله، وإذا بقلوبهم تتّجهُ إليه، وإذا بعيونهم تهمي منها الدّموع، وإذا بهم يتألّمونَ لمعاصيهم، ويتساءلونَ الواحدَ إثر الآخر، ما السبيلُ إلى أن أعودَ إلى اللهِ وأرى اللهَ عزَّ وجلَّ راضياً عنّي؟ وما أيسرَ أن تدعوهم إلى وفاقٍ ووئامٍ لأنَّ القلوبَ نظيفة، وإنّما البلاءُ كامنٌ في أعضاء، في معاصٍ ظاهرةٍ تلبست بها الأعضاءُ عن سائقِ ضعفٍ لا عن استكبارٍ على اللهِ عزَّ وجلّ. ولكن جرّب أن تلتقيَ مع ثلّةٍ منَ النّاس، كلٌّ يزهى بعصبيّتِهِ وانتمائه، كلٌّ يُضمِرُ في نفسهِ كبرياءَهُ التي يعبّرُ عنها ويترجمُها بالطّريقةِ التي يشاء، قد تُتَرجَمُ الكبرياء بطريقةٍ دينيّةٍ، وقد تترجَمُ بطريقةٍ منَ النُّصحِ والإرشادِ وما إلى ذلك، وقد تُتَرجّمُ بطرائِقَ أخرى، جرّب أن تلقى هؤلاءِ النّاسِ ثمَّ تذكِّرَهم بالله، ثمَّ تذكّرهم كيفَ حذّرَ اللهُ عزَّ وجلَّ من باطنِ الإثم، وكيفَ كانَ يقولُ سيِّدُنا إبراهيم: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾، حاول أن تجرِّبَ نصيحتَكَ بينَ هؤلاءِ النّاس، ماذا ستجد؟ ستجدُ كلاً منهم قد سدَّ عليكَ منافذَ الطّريق، وقامَ كلٌّ منهم فجعلَ من نفسهِ مرشِداً أكثرَ من إرشادك، ومذكِّراً أكثرَ ممّا تذكِّر، وأدخلَ في كلامِكَ العيوب، وربّما سَخِرَ ممّا تقول. ومهما حاولتَ لن تجِدَ

سبيلاً إلى علاج، لأنّكَ لا تملكُ أن تعالِجَ إلا هذهِ المعاصي الظّاهرة، أمّا أن تدخُلَ إلى القلوبِ فتجتثَّ أمراضَها فما أعسرَ عليكَ ذلك.

فانظروا أيّها الإخوةُ إلى هذينِ الواقِعَينِ اللّذَينِ لا أتخيَّلُ الفرقَ بينهما بوهم، ولكنّي أجسّدهُما واقعاً يتبيّنهُ كلُّ إنسان، لو أنَّ إنساناً اتّجهَ إلى ثلّةٍ من هؤلاءِ العاصينَ المنحرِفينَ فذكَّرهم باللهِ خلالَ دقائق، أدنى ما يمكنُ أن نقولهُ منَ الوصولِ إلى التّأثيرِ إليهم: أن يعترفوا بأنّهم آثمون، وأن يعترفوا بأنّهم مخطئون، وهذا أدنى معاني التّأثيرِ الذي سيؤثِّرُ كلامُكَ بهم على أساسه، والمظنون أنَّ مثلَ هذا النُّصحِ سيوصلُهم إلى خيرٍ من ذلِكَ أيضاً، ولن يوقفَهم عندَ هذا الحدِّ أبداً. ولكن عندما تلتقي بأناسٍ هيمنت هذهِ الأمراضُ على نفوسهم وقلوبهم فهيهاتَ هيهاتَ أن يلقى نُصحُكَ أيَّ أذنٍ صاغيةٍ منهم، وأينَ هيَ الأذنُ التي يمتدُّ سلطانُها منَ الطّبلةِ الصُّماخيةِ إلى القلب؟ والقلبُ قد صُفِّحَ بهذهِ الأمراضِ التي أحدِّثكم عنها.

فإذا عرفنا ذلكَ فلتعلموا أنَّ الخيرَ الذي حقّقهُ اللهُ عزَّ وجلَّ للرّعيلِ الأوّلِ من هذهِ الأمّة، الخير الذي قيّضهُ اللهُ عزَّ وجلَّ بما يشبهُ الخوارقَ والمعجزاتِ لأصحابِ رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم، والثّمراتُ الإيمانيّةُ التي تحقّقت في حياتهم أُلفةً وحُبّاً ووحدةً وقوّةً وعزّاً لم تكن بسببِ أنَّ هؤلاءِ الصّحابةَ ارتقوا إلى صعيدِ العِصمة، لا، بل كانوا مثلَكم ومثلَ سائرِ البشرِ خطّائين، ﴿كلُّ بني آدمَ خطّاء – هكذا يقولُ رسولُ الله – وخيرُ الخطّائينَ التّوّابون﴾.

إذاً ما سرُّ هذهِ البركةِ التي هيمنت على حياتهم؟ فوحّدتهم وجمعت شملهم وحققّت دعائمَ القوّةِ والعزّةِ في حياتهم؟ السّرّ: أنَّ قلوبَهم صفت من الشّوائب، السِّرّ: أنّهم عالجوا أنفسهم ضدَّ ما سمّاهُ اللهُ سبحانهُ وتعالى باطنَ الإثم، السِّرّ: أنّهم ساروا في منهجٍ من مداواةِ قلوبِهم حتّى انتهَوا من هذهِ المداواةِ إلى تحريرِ قلوبِهم من

حبِّ الدّنيا وغوائلِها، إلى تحريرِ أنفسهم منَ الكِبرِ والعناد، إلى تحريرِ أنفسهم من العصبيّةِ للذّات، إلى تحريرِ قلوبِهم منَ الحقدِ والضّغائنِ والسّخائمِ ضدَّ الآخرين، فرقّت قلوبهم، وتحوّلت إلى مرآةٍ تلألأَ عليها حبُّ اللهِ والخوفُ منَ اللهِ سبحانهُ وتعالى. فما الذي يصدُّهم عن أن يجتمعوا؟ وأن يتآلفوا؟ وأن يصبحوا يداً واحدةً في السّرّاءِ والضّرّاء؟

قد يصدرُ من بعضٍ منهم معاصٍ تتعلَّقُ بالجوارح، ولكنَّ الأهمَّ من هذا أنَّ قلوبَهم طَهُرَت وأصبحت مثالاً للقلبِ السّليمِ الذي تحدَّثَ عنهُ سيِّدُنا إبراهيم على نبيِّنا وعليهِ الصّلاةُ والسّلامُ في دعائه. هذا هوَ السِّرّ، وهذا هوَ الفارقُ العظيمُ بيننا وبينَ أصحابِ رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم.

وقد يسألُ الواحدُ منكم: ما المنهجُ الذي اتّبعوهُ حتّى وصلوا إلى ذلكَ الشّأوِ البعيد؟ ليسَ هنالكَ منهجٌ مرسومٌ في حياتهم، ذلكَ لأنَّ المناهجَ سواءٌ منها ما يتعلَّقُ بالاجتهادِ الشّرعيّ، أو ما يتعلَّقُ منها بروايةِ الحديث، أو ما يتعلَّقُ منها بتطهيرِ القلوب. هذهِ المناهِجُ رُسِمت وكُتِبت فيما بعد، أمّا أصحابُ رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فكانوا تنفيذيّين، كانوا عمليِّينَ في حياتهم، لم يكن متّسعٌ لديهم لأن يكتبوا ثمَّ يرصدوا ثمَّ يتعلّموا ثمَّ يطبِّقوا..

تلقَّوا هذا كلَّهُ من رسولِ الله، من كتابِ اللهِ عزَّ وجلّ، وطبّقوهُ رأساً أكثرَ من ذكرِ اللهِ عزَّ وجلَّ في البُكورِ والآصال، كلَّما التقت ثلّةٌ من صحابةِ رسولِ اللهِ قالوا: تعالوا بنا نؤمن ساعة، جلسوا يذكرونَ اللهَ عزَّ وجلّ، كلّما لقيَ إنسانٌ صاحِبَه، ثمَّ التقى معهم ثالث، كلٌّ كانَ يتصوَّرُ أنَّ صاحِبَهُ خيرٌ منهُ فكانوا يتداعَونَ إلى مجلسٍ يجلسونَهُ فكانَ يدعو الواحدُ منهم ويؤمِّنُ الباقون، ثُمَّ يدعو الثّاني فيُؤمِّنُ الباقون، ثُمَّ يدعو الثّالثُ فيُؤمِّنُ وهكذا في سلسلةٍ دائريّةٍ متواصلة. ولم يأخذوا طريقةً من شيخ، ولم يبايعوا شيخاً باسمِ التّصوُّف، ولكنَّهم طبّقوا المضمونَ قبلَ أن يقفوا أمامَ المصطلحات، فكانَ هذا هوَ السِّرَّ الذي جعلَ منهم أولئكَ الرِّجالَ العِظام، أولئِكَ الرِّجالَ الكِبار: صفاءُ السّريرةِ أيُّها الإخوة.

أمّا نحنُ اليومَ فإنّنا نُزهى بالحديثِ عنِ الظّواهرِ والمظاهرِ والأُطُر، ولكنّنا عن تنظيفِ قلوبِنا التي رانت عليها العفونةُ معرضون، ولو أنّنا كشفنا عن طوايا أفئدتِنا هذهِ لرأيناها عشّاً للكبرياء، لرأيناها –واللهِ الذي لا إلهَ إلا هو– عشّاً للعصبيّة، للذّاتِ والرّأيِ الذّاتيّ، لرأيناها عشّاً لحبِّ الكبرياءِ والرّئاسةِ والمجدِ والزّعامة، لرأيناها عشّاً لحبِّ المال، ولحبِّ الجاه، لرأيناها عشّاً للحقدِ على الآخرين، ومنِ الآخرون؟ مسلمونَ أيضاً.. وعندما نحدِّثُ هؤلاءِ النّاسِ بالإكثارِ من ذكرِ الله، وبالسّيرِ على المنهجِ الذي سارَ عليهِ صحابةُ رسولِ الله، وبتخليةِ القلبِ عنِ الضّغائنِ والأمراض، ثمَّ تحليتِها بحبِّ اللهِ والخوفِ منَ الله، قالوا أو قالَ أحدهم: إنّها رائحةُ تصوُّفٍ أشمُّها من هذا الكلام، واتّجهوا بالهجومِ الصّاعقِ على هذا المنهجِ كلِّه، وحجّتهم في ذلكَ اصطلاح، اسم: (التّصوُّف).

ولو أنَّ قلوبَنا كانت طاهرة، ولو أنَّ قلوبَنا كانت نظيفةً لتجاوَزنا الاسم، ولأخذنا المضمون، المضمونَ الذي تمسَّكَ بهِ أصحابُ رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ولطبّقناهُ في حياتِنا. سمِّهِ احساناً، سمِّهِ تربيةً، سمِّهِ تزكيةً، سمِّهِ سلوكاً إلى اللهِ سبحانهُ وتعالى، لا مُشاحّةَ في الاصطلاح، ولكن من مظاهرِ السّوءِ الذي رانَ على حياتِنا أنّنا نتهارجُ بأسماء، ومن أجلِ مصطلحات، ونضيِّعُ الجوهرَ الثَّمينَ الذي أمرنا بهِ اللهُ عزَّ وجلَّ.

المهمّ: أن تتحوَّلَ قسوةُ قلبي إلى رقّة، اسلكِ الطّريقَ الذي تشاءُ بشرطِ أن يكونَ موزوناً بميزانِ شريعةِ اللهِ عزَّ وجلَّ وسمِّهِ ما تشاء، المهمُّ أن يتحوَّلَ قلبُكَ من نموذجٍ للقسوةِ كما كانَ قلبُ عمرَ بنِ الخطّاب يُضرَبُ بهِ المثل، إلى قلبٍ في غايةِ الرِّقّةِ كما آلَ إليهِ قلبُ عُمَرَ بنِ الخَطّابِ فيما بعد واسلُكِ السّبيلَ الذي تشاء.

ألا ترونَ كيفَ كانَ عُمَرُ في جاهليّتهِ مَضرِبَ المثلِ في القسوةِ والغِلظةِ والفظاظة؟ ثمَّ إلامَ آلَ أمره؟ كانَ يصلّي في القومِ صلاةَ الفجرِ ولما تلا قولَ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ خرَّ مغشيّاً عليهِ وحُمِلَ إلى داره، وكانَ يعودُهُ النّاسُ خلالَ ثلاثةِ أيّام. المهم: أن يؤولَ حالُكَ إلى مثلِ حالِ عُمر واسلُكِ الطّريقَ الذي تشاء. المهمّ: أن يُصبحَ هؤلاءِ المسلمونَ متآلفينَ متحابّينَ كما وصفَ رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم: «ألا أنبِّئكم بأقربكم منّي مجالساً يومَ القيامة؟ أحاسِنُكم أخلاقاً، الموطّؤونَ أكنافاً، الذينَ يألفونَ ويؤلَفون». ولا واللهِ لا سبيلَ إلى ذلكَ إلا طهارةُ هذا القلب، اسلُك الطّريقَ الذي تشاءُ وسمِّهِ ما تشاءُ على أن يكونَ طريقاً لا يخالفُ هديَ الله، ولا يخالفُ سنّةَ رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم.

هذا هوَ الدّواءُ الذي أخذَ الصّحابةُ أنفسهم بهِ فتحقّقت لهم معجزاتُ التّأييد، أمّا نحنُ فصحيحٌ أننّا أوغلنا في المعاصي، ولكنَّ علاجَ هذهِ المعاصي الظّاهرةِ يسير، تضميدٌ يسيرٌ للجراحِ يوقِفُ النّزيف. ولكنَّ الأشكلَ والأخطرَ هوَ أن تكتشِفَ السّرطانَ الخفيّ، وأن تبعثَ بدواءٍ إلى مكمنِ هذا السّرطان، هذا هوَ واقعُنا نحنُ المسلمين.. والبلاءُ الأطمُّ فوقَ هذا وذاكَ أنَّ في المسلمينَ الذينَ يريدونَ ويتمنّونَ أن تكونَ لهمُ الرّيادةُ الإسلاميّة من يحاربونَ هذا النّهج، ومن يحاربونَ السّيرَ على صراطِ اللهِ سبحانهُ وتعالى بحثاً عن تزكيةِ النّفس. ألا ترون؟ ألا تسمعون؟

أقولُ قولي هذا وأستغفرُ اللهَ العظيم...



١٧- الصدق مع الله يكون بتعلم دينه | ١٩٩٣/٠٩/٢٤

جاءني منذ يومين من حدثني أن بعض الإذاعات الأجنبية القريبة منا أو البعيدة تتحدث بأحاديث تبشيرية عن المسيحية والمسيح ونحو ذلك.. وترد من خلال ذلك على عقائد الإسلام. وشكى إليَّ هذا الانسان أنه قد أصغى إلى كلام شوش عليه عقيدته، وأدخل شيئاً من الريب والتشويش والشكوك في يقينه بالإسلام وعقائد الإسلام، ولا أحب أن أحدثكم عن الكلام الذي قلته له والحوار الذي جرى بيننا، ولكنني أحب أن ألفت نظركم إلى مشكلة هي من أسوءِ وأخطر المشكلات التي تحيق بالمسلمين في هذا العصر.

ليست المشكلة متمثلة بوجود من يبشر بعقائد أخرى غير الاسلام ثم يتهجم من خلال ذلك على حقائق الإسلام ويقينياته، وهذا شيء متوقع وأمر مفترض. العالم مليء بمن يعادون هذا الدين، ومليءٌ بالجنود المتهيئين للاستجابة لهؤلاء الذين يعادون بأي وسيلة من الوسائل إذا أخذوا أجورهم على ذلك، ولكنّ المصيبة تتمثل في أن لا يكون لدى المسلمين ذخرٌ ثقافيٌ من إسلامهم، تلك هي المصيبة.

هنالك كثير وكثير ممن يحاولون أن يُدخلوا الريب والشكوك في دين الله سبحانه وتعالى هنالك، من يزعم أن القرآن حق، ولكن يجب أن نؤول القرآن وأن نمضي به حسب تقلب الظروف والأحوال، وأن نجعل لتطور الظروف أساساً لتفسير كتاب الله سبحانه وتعالى.

وهنالك – بناءً على هذا – من يقول: إن الربا الذي حرمه الله سبحانه وتعالى إنما كان الربا الذي يؤخذ من فقراء؛ يقترضون قروضاً استهلاكية من أجل أن يصلِوا به إلى ضرورات معيشتهم، ولكن القروض الكثيرة الآن هي قروض تجاريةٌ إنتاجية، فالظرف الذي حرم فيه الربا غير هذا الظرف إذاً ينبغي أن نتجاوز حرمة الربا إلى إباحته.

وهنالك من يقول: إن الله إنما حرّم شرب الخمر لكثرة من كانوا يتطوحون في الطرقات وهم سكارى فكانوا يسيئون بذلك إلى الناس وإلى المارة، أما الآن وقد أصبح شرب الخمر في أماكن مُعدة وفي بيوتهم

الخاصة، وقد انتفى ذلك المحظور الذي من أجله حُرم الخمر، فينبغي أن نتجاوز هذه المسألة إلى الصفح وإلى إعلان الإباحة.

وهنالك من يقول: إن الحجاب إنما كان مفروضاً على المرأة بسبب أنها لم تكن في ظرف يحملها على أن تشارك الرجل في العمل والصناعة وغير ذلك.. أما الآن وقد فرض عليها الظرف والزمن ومقتضى الحضارة التي نعيشها أن تشترك المرأة مع الرجل في سائر الميادين وسائر الأعمال، فقد أصبح الحجاب عثرةً في طريق هذه الضرورة، إذاً ينبغي أن نتجاوز ذلك الحكم إلى غيره.

وهنالك من يقول: إن الجهاد إنما كان مشروعاً إذ لم تكن هناك مؤسساتٌ دوليةٌ ترعى حقوقَ الشعوب وترعى حقوق الأمم والدول، أما وقد قامت اليومَ هذه المؤسسات الدولية التي تسهر على حقوق الشعوب، فلم تعد حاجة بعد ذلك إلى الجهاد وهكذا..

هنالك من يفتح السبيل إلى هذا بكلمة واحدة، وهي أن القرآن ينبغي أن نجعل الظرف والزمن هما المتحكمان في فهمه، لا أن نجعل اللغة العربية وحدها هي الأساس، ومن منطلق هذا الكلام يتبدل كل ما في القرآن من أحكام. ولا شك أنه السبيل المخطط للوصول بالمسلمين إلى حالة لا إسلام فيها، لا موضوعاً ولا شكلاً وأخيراً ولا اسماً.

أنا لا أعجب من أن يكون هنالك من يتربصون بالإسلام المكائد، وغبيٌّ كل الغباء ذاك الذي لا يتصور هذا لا سيما في هذا العصر. ولكن المشكلة والمصيبة الكبرى أن نعود إلى المسلمين فنجد أن الغالبية العظمى منهم لا يفقهون من إسلامهم شيئاً. يأتي من يشككهم في عقائدهم كذاك الذي أصغى إلى إذاعة تبشيريةٍ بعد منتصف الليل من إذاعة أجنبية في الإذاعات الكثيرة، وليس له علم بعقائده وإسلامه، سمع لأول مرة من يتهم الإسلام ومن يبرئ العقائد الأخرى، فماذا نتوقع من إنسانٍ انتمى إلى الإسلام بكلمة لا معنى لها، ولم يحاول أن يفقه من هذه الكلمة أيَّ معنى، ولم يحاول أن يفهم عقائد الإسلام فضلاً عن أن يفهمَ أدلة هذه العقائد، شيءٌ طبيعي إذا سمع اللغو المتمثل في تبشير المبشرين وفؤاده فارغٌ من فهم معنى الإسلام وحقيقته.. شيءٌ طبيعي أن يعلق بذهنه هذا الذي يسمع ثم أن يعود من وراءه بريبٍ وشكوك.

الإنسان الذي لم يفقه شيئاً عن الربا وحقيقته والظرف الذي حرَّمَ اللهُ فيه الربا أيام نزول آيات التحريم، ولم يصغ إلى شيءٍ من هذه الآيات الجامعة العامة، وسمع لأول مرةٍ من يقول: إن الله إنما حرم ذلك الربا الذي كان يتمثل في اضطرار الفقير إلى الاقتراض ثم في استغلال الغنيِّ ضرورتَه إذ يحمّله آصاراً من الفائدة إثر الفائدة إثر الفائدة؛ شيءٌ طبيعي أن يعلق بذهنه هذا الوهم، لأنه لأول مرة يسمع شيئاً عن الربا وعلّة تحريمه.

شيءٌ طبيعي بالنسبة للإنسان الذي لم يعلم دلائل الحجاب التي هي مبثوثة في كتاب الله وفي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يعلم الحكمة من مشروعية هذا الحجاب، شيءٌ طبيعي لهذا الانسان الجاهل إذا سمع هذا اللغو الخادع عن الحجاب أن يتأثر به وأن يقول لعل هذا الكلام صحيح. فالمرأة اليوم غير المرأة بالأمس إنها مضطرة إلى أن تخرج وتشارك الرجل في كل الميادين والساحات.

شيءٌ طبيعي بالنسبة للإنسان الذي قال أنا مسلم، لكنه لم يتعلم من إسلامه شرو نقير، أن يتخطّفه الدجالون من كل حدب وصوب.

وهكذا فالمصيبة كما تلاحظون ليست مصيبة وجود أعداء للإسلام، هذا ليس شيئاً جديداً وليس أمراً بديعاً في حياتنا، ذلك هو واقع التاريخ بالأمس ومن قبل الأمس واليوم وغداً. دين الله سبحانه وتعالى كان ولا يزال يتربص به أعداء الله. من هم الذين يقول الله عز وجل عنهم: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾. ألم يكرر البيان الإلهي هذا.

إذاً ليس شيئاً غريباً أن يوجد أعداءٌ للإسلام والسعيُ إلى تطهير الأرض من أعداء الإسلام سعي في غير طائل وعمل يتناقض مع سنة الله سبحانه وتعالى في الكون. أليس هو القائل: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾. وفيم يأمر الله بالدعوة وفيم يأمر الله بالحوار لو لم يكن العا لم مليئاً بالجاهلين بالإسلام وبالمعادين للإسلام، إذاً هذا ليس شيئاً غريباً، وما ينبغي أن نتوقع خلافه، إنما الشيءُ الغريب حقاً أن نجد أنفسنا أمام جيلٍ من المسلمين يزعمون أنهم مسلمون ولا يعلمون من إسلامهم شيئاً.

مسلمون ويعيشون في العراء ينتظرون من يتخطفهم ومن يصطادهم بسهام التشويش والرِيَب، السبيل إلى أن نتخلص من هؤلاء الأعداء أن نتحصن في حصوننا التي تنادينا بلسان الحال أن تعالوا فاجلسوا في هذه الحصون. وما هي هذه الحصون؟ إنها دراسة هذا الدين. إنها تعلم الإسلام. إنها معرفة هذا الإسلام.

ما من إنسان توَّجَ إيمانَه الفكري أو العاطفي لله بتاج العلم – بمجمل هذا الدين لا أقول بتفاصيله – إلا وجعله الله في حرز حريز وفي حصنٍ حصين ضد كل هذه الشبهات والرِيَب التي تطوف بنا أو التي تتسابق إلى آذاننا.

ولكن.. أين هم الذين يتعلمون الدين الذي يزعمون أنهم يعانقونه؟! قلت بالأمس أكثر هؤلاء المسلمين لو سألتهم ماذا يعلمون من إسلامهم لأجابوا وبكل فخر: إنهم غير متخصصين بالإسلام، متخصصون بفنون أخرى ربما بالطب ربما بالهندسة ربما بالعلوم بالكيمياء بالفيزياء ربما بالحقوق وبالقوانين، وربما قال لك إنه منصرفٌ إلى تجارة أو إلى زراعة أو إلى صناعة.. هكذا يجيبون. وكأن الإسلام اختصاصٌ قائمٌ بين هذه الاختصاصات، وكأنَّ الله قد قال لنا عندما فتحنا أبصارنا وبصائرنا على هذا العالم: انظروا فاختاروا لأنفسكم اختصاصاً من هذه الاختصاصات إما أن يكون طباً أو فلسفةً أو تاريخاً أو قانوناً أو محاماةً أو علماً من العلوم الكونية أو إسلاماً أو إسلاماً!!

أي أحمق من المسلمين يفهم أن الإسلام هكذا، الإسلام هو القاعدة الواسعة التي يجتمع كل المسلمين عليها؛ يصطبغون بها يملؤون عقولهم فهماً لحقائق الإسلام، ثم ينطلقون بعد ذلك إلى اختصاصاتهم. الإسلام أشبه ما يكون بهذا المعصم الجامع لهذه الأصابع، والاختصاصات هي هذه الأصابع المتفرعة عن هذا المعصم، ولكن في الحمقى اليوم من يريدون أن يتصوروا الإسلام الجامع الذي هو أشبه بالمعصم يريدون أن يجعلوا منه إصبعاً بين هذه الأصابع.

ماذا نتوقع من مسلمين بهذا الشكل عندما نجد أن الغرب والشرق وغيرهم يجنّدون أنفسهم وعقولهم وأموالهم ويجندون العملاء بالأموال التي ينثرونها هنا وهناك في سبيل الكيد لهذا الدين، وأصحاب هذا الدين جهلاء لا يعلمون منه شيئاً، وأصحاب هذا الدين بدلاً من أن يتحصنوا بحصونه العلمية يتناثرون وينتشرون في العراء هنا وهناك ليَتَصيَّدهم هؤلاء الناس، ثم يأتي من يقول لي إن إذاعة أجنبية تكيد للإسلام

وتتحدث عن المسيحية أو اليهودية ربما أو أي دين آخر من خلال الهجوم على الإسلام العظيم. ما هذه الغيرة الجوفاء الحمقاء التي لا معنى لها قط!!

نحن اليوم بحاجةٍ أمام هذه المكائد الكثيرة إلى أن نصدق مع الله؛ وسبيل الصدق مع الله هو أن نفقه إسلامنا، نفهمه فهماً حقيقياً، فإذا فهمنا الإسلام بعقائده وبمجمل تشريعاته وأحكامه فهيهات ثم هيهات للغو الباطل أن يتسرب شيء منه إلى أذنٍ أو إلى فؤادٍ أو عقل. لا يمكن أن يتم هذا بشكل من الأشكال، ولكن الدنيا هي التي استحوذت علينا، أتقنا السعي اللاهث إلى إتقان الفنون التي نحن نختص بها بكل فخر، ولم نتقن أبداً السعي إلى ما قد خلقنا اللهُ من أجله وهو معرفة هذا الدين، ولو أننا عرفنا الدين وفقهناه كما أمر الله سبحانه وتعالى وكما أمرنا سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إذاً لرأينا أن الدنيا كلها لو تحولت إلى أقلام تهذي هجوماً على الإسلام وإلى ألسنةٍ تتخرص هجوماً على الإسلام لسوف نجد أن المسلمين من هذا كله يقفون في مَكانةِ الثُريا، لا تستطيع كل هذه المكائد ولا يستطيع شيءٌ من هذا اللغوِ أن يتسامى إلى مكانتهم الباسقة إطلاقاً. أسأل الله سبحانه وتعالى أن يرزقنا الصدق في إسلامنا كما قد رزقنا الصدق في حب دنيانا.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

١٨- العبرة بالصدق وعدمِ الصّدقِ لا بكثرةٍ أو قلّة | ١٩٩٥/٠١/٠٦

إنَّ في كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ آياتٍ كثيرةٍ يعدُ اللهُ عزَّ وجلَّ فيها عبادهُ بأن يكرمهم بأجلِّ معاني القوّةِ وبأسمى حقائقِ النّصرِ، إن هم ساروا على صراطهِ والتزموا أوامرهُ ووصاياهُ وتمسّكوا بهديه.

ولقد مرَّ عهدٌ ارتابَ فيهِ كثيرٌ منَ النّاسِ بكثيرٍ من هذهِ الوعودِ، لمّا رأوا أنَّ في المسلمينَ كثرةً كاثرة لا يزالونَ يعتزّونَ بالإسلام، ولا يزالونَ ينتمونَ إلى دينِ اللهِ عزَّ وجلَّ، ولكنّهم مهزومون، معذّبون، مغلوبون، لا يتأتّى منهم أن يصلوا إلى ثمرةِ أيِّ جهد، فكانَ الإنسانُ إذا مرَّ على قولِ اللهِ سبحانهُ وتعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾، وجدَ كثيراً منَ المرتابينَ في هذا الكلام.. وكم عانَيتُ من جدلٍ مع شبابٍ يسمعونَ مثلَ هذا الوعدِ الرّبّانيِّ ثمَّ ينظرونَ إلى واقعِ المسلمينَ الذي يناقضُ هذا الوعدَ فيعبّرونَ عن ريَبهم وشكوكهم.

ولكن ما أجلَّ حِكمَ اللهِ سبحانهُ وتعالى؛ إنَّ الفتنَ والمصائبَ لها وجهانِ اثنان: وجهٌ يريكَ مظهرَ المأساةِ ومظهرَ النّكبةِ والضّرّاء، ووجهٌ آخرُ يريكَ في هذهِ الفتنِ والمصائبِ الدّرسَ والعِبَر، وجهٌ آخر ترى من خلالهِ الإجابةَ عن هذهِ الأسئلة، وجهٌ آخرُ يزيلُ ويزيلُ هذهِ الشّكوكَ والرّيَب.

ولذلك.. فإنَّ الفتنَ والمصائب – على الرّغمِ من أنّنا نسألُ اللهَ أن يعافيَنا منها – لا تخلوا من حكمٍ باهرة، ومن أجلِّ هذهِ الحكم: أنّها توقظُ هؤلاءِ المرتابينَ منَ الذينَ يتساءلونَ عن وعدِ اللهِ لماذا لم يطبَّق؟ أجل من حولنا كثيرٌ منَ المسلمينَ هُزموا في معاركَ ولا يزالونَ يُهزَمون، لم يستطيعوا أن ينالوا حظوتهم، ولم يتحقَّقِ الوعدُ الذي وعدهمُ اللهُ عزَّ وجلَّ به.

ولكن ها نحنُ ننظرُ إلى مسلمينَ آخرينَ يختلفونَ عن أولئكَ المسلمين، مسلمونَ صدقوا ما عاهدوا اللهَ عليه، مسلمونَ وضعوا مُتعَ الدّنيا كلَّها في الأمنِ قبلَ الاضطرابِ والحرب، وضعوا مُتعَ الدّنيا كلَّها تحتَ أقدامهم، ووضعوا رضى اللهِ عزَّ وجلَّ نصبَ أعينهم.. مسلمونَ وجعلوا مقياسَ حياتهم في التّحرُّكِ وفي السّيرِ عملَ أصحابِ رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم، ها هوَ ذا ربُّنا عزَّ وجلَّ يرينا من خلالِ واقعِ

هؤلاءِ المسلمينَ مصداقَ قولهِ عزَّ وجلّ: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، ويرينا من خلالِ واقعهم مصداقَ قولهِ عزَّ وجلَّ: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾، ويرينا من خلالِ واقعهم صداقَ قولهِ عزَّ وجلّ: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ، وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾. أما آنَ إذاً للمرتابِ أن يتعالى فوقَ ريبته؟ أما آنَ للشّابِّ المتشكِّكِ أن يتحرَّرَ من شكوكه؟!

عندما تنظرُ إلى أولئكَ المسلمينَ لا تنظر إلى انتماءاتهم، بل انظر إلى مظاهرِ مصداقيّةِ الإسلامِ في سلوكهم.. عندما تنظرُ إلى المسلمينَ الذينَ تفيضُ بهم هذهِ الدّنيا ويملؤونَ رحبَ هذهِ الأرض، لا تنظر إلى اعتزازِ الانتماءِ في كلامهم، ولكنِ انظر إلى صلةِ السّلوكِ والقربى بينم وبينَ رسولهم سيّدنا محمَّدٍ صلّى اللّهُ عليهِ وسلَّم. عندما تتأمّلُ من خلالِ واقعِ المسلمينَ في هذهِ النّقاطِ التي ألفتُ النّظرَ إليها ستجدُ أنَّ هؤلاءِ المسلمينَ يصدقُ عليهم قولُ رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم في الحديثِ المشهورِ المعروف: ﴿بل أنتم كثير، لكنّكم غثاءٌ كغثاءِ السّيل﴾.

ما قيمةُ مليارِ مسلمٍ إذا كانَ هذا المليارُ غثاء؟ ما قيمةُ هذهِ الحشودِ منَ المسلمينَ إذا كانت عقولهم مفتونةً بذيلِ الغرب؟ إذا كانَ سلوكهم خاضعاً لعاداتِ الغرب؟ إذا كانت أخلاقهم أخلاقَ الشّاردينَ عن دينِ اللهِ سبحانهُ وتعالى؟ ما قيمةُ إسلامِ هؤلاءِ المسلمين؟

هؤلاءِ المسلمونَ قد يفيدهم إسلامهم يومَ القيامةِ مغفرةً ورحمةً ولطفاً منَ اللهِ عزَّ وجلّ، ولكنَّ هذا الإسلامَ بهذا الشّكلِ لا يفيدُ المسلمينَ في دارِ الدّنيا عندما يسألونَ اللهَ أن يحقِّقَ لهمُ الوعدَ الذي قطعهُ على نفسهِ لهم، وهذا كلامٌ دقيقٌ اعقلوه، المسلمُ الذي يؤمنُ باللهِ وكتابهِ بعقله، ولكنّهُ مستسلمٌ بسلوكهِ لتيّاراتِ الانحراف، إذا ماتَ وهوَ مسلمٌ ربّما يفيدهُ إسلامهُ مغفرةً كلّيّةً أو جزئيّةً يومَ القيامة، لكنَّ هذا الإسلامَ بهذا الشّكلِ لا يفيدُ صاحبَهُ في دارِ الدّنيا، ليسوا همُ الذينَ قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ عنهم: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

ليست هنالكَ في ميزانِ اللهِ كثرةٌ ولا قلّة، الكثرةُ والقلّةُ شيءٌ ترصدهُ أعيننُا نحن، شيءٌ نفقههُ نحنُ بموازين رؤيتِنا الشّكليّة، هذهِ أمّةٌ كثيرةُ العدد، عظيمةُ العُدد، يرهبُ جانبُها، هكذا نتصوّرُ وندلي بالأحكامِ بناءً على هذهِ الرّؤية. وتلكَ حفنةٌ قليلةٌ منَ النّاسِ قليلةُ العددِ، قليلةُ العُدَد، لا يُؤبَهُ بها، منَ المعقولِ ومنَ المنطقِ أن تُبتَلعَ في ساعةٍ واحدةٍ من ليلٍ أو نهار. هذا المقياسُ غيرُ موجودٍ في قانونِ اللهِ سبحانهُ وتعالى، ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾. بل إنَّ اللهَ سبحانهُ وتعالى إذا تجلّى على عبادهِ بالرّضى بعدَ صبرهم وصدقِ إيمانهم، فإنَّ تجلّيَ اللهِ هذا يجعلُ منهم ربّما في فترةٍ قصيرةٍ سادةَ العالَم، ولا نعلمُ كيفَ يتمُّ ذلك.

أقولُ هذا أيُّها الإخوة لكي نأخذَ العبرَ ممّا يجري في العالَمِ من حولنا، ومن نظرَ إلى الوقائعِ بعينِ العبرةِ استفادَ من أضرارِها ومن فوائدِها، عندما نجدُ الرّزايا ندركُ أسبابَ هذهِ الرّزايا ونرى من خلالِ ذلكَ ما يزيدُ إيماننا وما يحملُنا على أن نصلِّحَ سيرَنا ونصححَ أخطاءنا. وإذا وجدنا أمامَنا مظاهرَ السّرّاء، مظاهرَ لطفِ اللهِ ونصره، نأخذُ من ذلكَ أيضاً العبرةَ وندركُ صدقَ وعدِ اللهِ سبحانهُ وتعالى.

ويا عجباً كيفَ لا يعتبرُ المسلمونَ هنا بهذا الواقعِ الذي يجري لدى بعضِ إخوةٍ لنا منَ المسلمينَ هناكَ، ونحنُ نعاني من مشكلتِنا؛ مشكلةِ أرضِنا المقدّسةِ التي اغتُصِبَت؟ لماذا لا نعتبر؟ أهيَ –تلكَ الحفنةُ القليلة– أولى بأن تنتصرَ أم هذهِ الدّولُ والأممُ الكثيرةُ التي تُحدِقُ بهذهِ الحفنةِ التي اغتصبت حقوقَنا أولى بأن تنتصر؟ إن أخذنا أو راعَينا قانونَ الكثرةِ والقلّة، وقانونَ كثرةِ العَددِ والعُدد، ثمَّ نظرنا إلى هذا النّصرِ العجيبِ الذي نراهُ الآنَ وإلى هذهِ السّاعة، إذاً فنحنُ أولى بأن نذوقَ لذّةَ هذا النّصرِ في بلادِنا لو أنَّ مقياسَ الأمرِ كانَ كثرةً وقلّة. ولكنّي قلتُ لكم: إنَّ ميزانَ اللهِ لا ينظرُ لا إلى كثرةٍ ولا إلى قلّة، ولكن ينظرُ إلى الصّدقِ وعدمِ الصّدقِ؛ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾، أنا مسلم، إذاً ينبغي أن أكونَ صادقاً معَ الله. أنا مؤمن، إذاً لا ينبغي أن يكذّبَ سلوكي لساني. أنا ملتزمٌ بأوامرِ الله، إذاً ينبغي أن يكونَ واقعي مصداقاً لهذهِ الدّعوى التي أدّعيها. فهل كانَ سلوكُنا مطابقاً لألسنتنا؟ كلُّكم يعلمُ الجوابَ أيُّها الإخوة.

وأنا أقولُ وأقسمُ باللهِ عزَّ وجلّ: لو أنّنا جعلنا سلوكَنا في هذهِ الحياةِ خاضعاً لأمرِ ربِّنا، خاضعاً لسلطانِ دينِنا، فإنَّ اللهَ سبحانهُ وتعالى يكرِمنا بمثلِ هذا النّصر، وإنَّ اللهَ سبحانهُ وتعالى يعيدُ لنا الأمانةَ التي استُلِبَت منّا، ويعيدُ لنا مقدّساتِنا التي لا تزالُ بينَ ماضغَي الاغتصاب.

ولكن سَلُوا أنفسكم: أينَ نحنُ من هذا الواقعِ أيُّها الإخوة؟ ما الذي جعلَ أولئكَ النّاسَ ينتصرونَ ذلكَ النّصرَ الذي أذهلَ العلمَ كلّه؟ بل وأيُّ نصر، نصرٌ حطَّم سلطان تلكَ الدّولةِ الباغيةِ وبدأَ يذيبُها، ولا تدري إلى أيِّ مدىً سيسيرُ الذّوبان. ما الذي جعلَ ذلك؟ ما هيَ هذهِ القوّةُ الهائلةُ التي لا توجدُ إطلاقاً؟ لماذا لا نعتبر؟ لماذا لا يكونُ إسلامُنا كإسلامِ أولئكَ النّاس؟ لماذا لا يكونُ التزامُنا بدينِ اللهِ في أسرِنا، في أولادِنا، في أنفسِنا، كالتزامِ أولئكَ الآخرين؟ وربُّنا يقولُ لنا: ها أنا ذا أعدكم، ها أنا ذا معكم، لن أتخلّى عنكم. لماذا نعرضُ عن كلامِ اللهِ عزَّ وجلّ؟ وكتابُ اللهِ مليءٌ بما يذكِّرُ النّاسي، ويوقظُ الغافل: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ۝ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ۝ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾. هذا كلامُ اللهِ عزَّ وجلّ..

ولكنّ بدلاً من أن نصغيَ إلى هذا الكلامِ ونظرَ إلى تلكَ العبرةِ التي تتراءى للعالَمِ كلِّهِ أمامنا من بعيد، بدلاً عن ذلكَ نتفرَّقُ أوزاعاً، وكلُّ فئةٍ تتخيَّلُ سبيلَ السِّلمِ الذي ينبغي أن تمدّهُ جسراً بينها وبينَ هذا العدوِّ المغتصب، كلُّ فئةٍ تقدِّرُ لنفسها، وتفكِّرُ على طريقتِها، كيفَ تقيمُ سِلماً آمناً بينَ هذا العدوّ، والعدوُّ ينظرُ إلى هذهِ الفئةِ ثمَّ إلى هذهِ ثمَّ إلى هذهِ وكأنَّ الكلَّ ينتظرُ دوره، لماذا أيُّها الإخوة؟

عندما ندركُ أنَّ هذا كلامُ اللهِ وأنَّ هذهِ هيَ سياسةُ اللهِ – إن جازَ التّعبير – معَ عبادهِ الصّالحينَ الصّادقين، ومعَ عبادهِ الذينَ لم يصدقوا بعد، عندئذٍ سيكونُ سيرُنا على نهجٍ آخر، لن نهونَ ونستسلمَ للسّلمِ المهينِ كما قلتُ لكم بالأمس، ولسوفَ يكونُ سلمُنا هوَ السِّلمَ المنزَّلَ من عندِ الله، المشروعَ بيدِ اللهِ سبحانهُ وتعالى، ذلكَ السِّلمُ الذي تجتمعُ عليهِ الأمّةُ كلُّها، يجتمعُ عليها المعنيّونَ بهذا الأمرِ كلِّه، ذلكَ السِّلمُ الذي لا يتمُّ إلا بعدَ أن تعودَ الحقوقُ كلُّها إلى أصحابِها.

عندما نكونُ مسلمينَ يكونَ هذا نهجَنا، لن نسعدَ بالغوغاء، ولن نسعدَ بالعنف، وليسَ هذا سبيلَنا لأنَّ اللهَ لم يأذن لنا بذلك، ولكنَّنا عندما نسيرُ في طريقِ السّلمِ إنّما يخطِّطهُ لنا الله، السِّلمُ الذي ندعوا إليهِ والذي نحنُ رسلةُ في العالَمِ كلِّهِ هوَ ذاكَ الذي شرعهُ اللهُ لنا، وهوَ الذي يثمرُ سعادةَ الدّنيا كلِّها. الفرقُ أيُّها الإخوةُ بينَ السّلمِ الذي شرعهُ اللهُ والسِّلمِ الذي تدعوا إليهِ ساسةُ الغربِ هوَ التّالي:

السِّلمُ الذي شرعهُ اللهُ ثمرتهُ أمنٌ وطمأنينةٌ للأسرةِ الإنسانيّةِ كلِّها. أمّا السِّلمُ الذي يدعو إليهِ ساسةُ الغربِ والشّرقِ هنا وهناكَ فهوَ سِلمٌ يخدمُ تلكَ المصالحَ فقط. وانظروا إلى فرقِ ما بينَ السّلمَين؛ نحنُ روّادُ ذلكَ السّلمِ العالميِّ الذي يعطي الأمنَ والطّمأنينةَ للأسرةِ الإنسانيّةِ كلِّها، ولن يكونَ ذلكَ إلا بالقيودِ والشّروطِ التي شرعَها الله. أمّا أولئكَ الذينَ يتاجرونَ بكلماتِ السِّلمِ فهُم لا يبحثونَ عنِ السِّلمِ لذاته، وإنّما يبحثونَ عنهُ لأنَّ مصالحهمُ الخاصّةَ بهم والتي لا تعنينا قطُّ إنّما تتحقَّقُ من وراءِ ذلكَ السّلمِ الملوَّنِ باللونِ الذي يبتغون.

أسألُ اللهَ سبحانهُ وتعالى أن يجعلَ من أحداثِ هذهِ الدّنيا عبرةً لنا، وأسألُ اللهَ عزَّ وجلَّ أن يجعلَ من ثمارِها ما يعيدُ إلينا وحدَتنا، وما يعيدُ إلى هذهِ الأمّةِ تضامنَها واعتزازها بما قد أكرمها اللهُ سبحانهُ وتعالى بهذا الدّينِ حتّى لا تسيرَ إلا طبقَ النّهجِ المرسومِ الذي شرعَ الله..

أقولُ قولي هذا وأستغفرُ اللهَ العظيم...



١٩- لهذا ظهرت المشكلات .. وما أيسر أن تذوب | ١٩٩٧/١٠/١٠

إن المشكلات التي تحيق بالمسلمين اليوم كثيرةٌ ومتنوعة، يعلم ذلك كل مسلم، ولا داعي لأن يحصيها الإنسان ويتحدث عنها الواحدة تلو الأُخرى. إن من أبرز هذه المشكلات: هذه الفرقة التي حاقت بالأمة الإسلامية الواحدة.

وإن من أبرز هذه المشكلات: هذه الفتن التي استشرت داخل الأمة الإسلامية الواحدة. وقد كان الإسلام ولا يزال خير حصنٍ يقي المسلمين مغبة هذه الفتن.

وإن من أبرز هذه المشكلات: تقاعس المسلمين عن واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والوقوف في وجه المحرمات التي نهى الله عز وجل عنها كما قلت لكم في الأسبوع الماضي.

وإن من أبرز هذه المشكلات: انتشار الوسائل والسبل الهدامة للفكر الإسلامي وللمجتمع الإسلامي وللقيم الإسلامية باسم الإسلام وبقناعٍ من الإسلام كما تعرفون وتعلمون ولا داعي إلى أن أفصل.

هذه من أبرز المشكلات التي يذكرها كل منا ومن وراءها ذيول كثيرة من المشكلات التي تتسرب إلى واقع الأمة الإسلامية في هذا العصر.

وكثيرون هم الذين يقومون ويقعدون بالبحث عن أسباب هذه المشكلات أو بالتساؤل عن العلاج الذي يمكن أن يتغلب عليها أو يحلها في حياة المسلمين، ولكن هؤلاء المسلمين الذين يتسائلون ويبحثون وينبشون عن الأسباب والعلاج يرجعون من بحوثهم بدون طائل، حتى غدا تساؤلهم مشكلة أخرى من بين هذه المشكلات، ذلك لأن في المسلمين من يتصور اليوم أن الإسلام لا يقوى على هذه المشكلات ومن ثم فهو عاجز عن إنجاد المسلمين ورفعهم إلى المستوى اللائق بحياة المسلمين.

فما سبب هذه المشكلات وما علاجها أيها الإخوة؟

بكلمة بسيطة جامعة سبب هذه المشكلات اختفاء عنصر الإخلاص لله سبحانه وتعالى في الأفئدة والقلوب، ومن ثم فعلاج هذه المشكلات والسبيل الأوحد للقضاء عليها هو رجوع جذوة الإخلاص إلى الأفئدة وهيمنة سر الإخلاص على قلوب وأفئدة المسلمين.

ومن سوء حظ المسلمين أو لعله من المشكلات أيضاً التي ينبغي أن نتبه إليها في واقع المسلمين أن المسلمين اليوم يستصغرون أموراً هي من الأهمية والخطورة بمكان، ويستعظمون أموراً هي من التفاهة بالواقع بمكان، يحتقرون أموراً كثيرة وهي من أهم الأمور التي نبه إليها كتاب الله عز وجل ونبّه إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم، يحتقرون الحديث عن الإخلاص ويعرضون عن هذا الموضوع كلياً وكأن الحديث عن الإخلاص ودواعي الإخلاص والعلاجات التي تحقق الإخلاص في القلوب، كأنها مهمة المتصوفة أو كأنها مهمة الذين أعرضوا عن واجب القيام بالأعمال الإسلامية والوظائف الحركية المختلفة.

أُصغي السمع جيداً إلى الذين يقومون ويقعدون بالبحث عن خلفيات هذه المشكلات وأسبابها، فلا أكاد أسمع من ألسنة هؤلاء الناس كلمة واحدة عن الإخلاص، ولا أكاد أرى أن أياً منهم يتنبه إلى أن هنالك فراغاً في حياة المسلمين وفي أفئدتهم، ألا وهو فراغ هذه الأفئدة عن سر الإخلاص لله سبحانه وتعالى.

يفرضون الأسباب المختلفة لهذه المشكلات، ويتكلفون في البحث عن العلاجات المتنوعة لحل هذه المشكلات وهم عن هذا السبب الخطير الهام غافلون ومعرضون، وكأنهم لم يقرأوا كتاب الله سبحانه وتعالى، ولكأنهم لم يقفوا على الأحاديث الكثيرة التي يُهيب فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمسلمين، أن يجعلوا من الإخلاص زادهم في كل معترك زادهم كل ما ادلهم عليهم خطب، لكأنهم لم يقرأوا قول الله عز وجل: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ – لكأنهم لم يقفوا عند هذا القيد الكبير– مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أو لكأنهم لم يقرأوا قول الله عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلا صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾.

وهذه الجملة تفسيرٌ بيّن وواضح لمعنى الإخلاص، إعراضهم عن هذا العلاج ونسيانهم لهذا الدواء يبرز جوهر هذه المشكلة وسببها، لو كانوا يشعرون بأهمية الإخلاص لوقفوا عند هذا الكلام ووقفوا عند كلام سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿إن الله طيبٌ لا يقبل إلا طيباً﴾، ولا أعلم فرقاً بين الإخلاص والصدق وكلٌ منهما يُهيب كتاب الله المسلمين أن يعودوا إليهما ويجعلوا منهما مقياس تحركات المسلمين جميعاً.

الصدق هو الإخلاص والإخلاص هو الصدق: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ أي كونوا في جملة الصادقين، وكونوا مثلهم في الصدق في تعاملكم مع الله سبحانه وتعالى، ومن لم يتفق لسانه مع قلبه فما هو بصادق، ومن ثم فما هو بمخلص لله سبحانه وتعالى.

لو كان المسلمون مخلصين لله، حطموا من طريقهم إلى الله عز وجل نوازع شهواتهم وأهوائهم وحظوظهم وسلكوا إلى الله عز وجل طريقاً صافياً عن الشوائب لما عانى المسلمون من مشكلة هذا التشرذم الذي يعانون منه، وهل وقع بهم هذا التشرذم إلا لأنهم تفرقوا اتباعاً ولحاقاً بحظوظهم، لكلٍ حظ ولكلٍ غاية ولكلٍ سبيل يريد أن يصل إليه، ولما تفرقت بهم السبل جعل الله سبحانه وتعالى وحدتهم تشرذماً وتفرقاً.

لو كانوا مخلصين لله لاجتمعت أهدافهم في هدف واحد ومن ثم لاتحدوا.

لو كان الإخلاص لوجه الله عز وجل مهيمناً على أفئدة المسلمين الذين يتحركون على ساحة الإسلام، لو كان الإخلاص لله عز وجل مهيمناً على قلوبهم لما وجدت هذه الفتن، ولما استشرت، ولما دارت رحى المصائب على المسلمين باسم الإسلام، ولما انتهكت حرمات المسلمين باسم الإسلام، ومن ثم لما أُتيح لأعداء الله عز وجل أن يرقصوا رقصة فرح ما مثلها في التاريخ أبداً لما أُتيح لهم ذلك.

لو كان الإخلاص لدين الله موجوداً لما وجد هذا بشكل من الأشكال أيها الإخوة.

لو تحقق الإخلاص لوجه الله سبحانه وتعالى في أعمال العاملين وفي سلوك السالكين وفي أنشطة الحركيين، لو وجد هذا الإخلاص لوجه الله عز وجل في أعمالهم المختلفة إذاً لما تسربت وسائل للتربص

بالإسلام وللعدوان على الإسلام باسم الإسلام، لما وجدنا فرصة سانحة لمن يريد أن يتقنع بقناع الإسلام ثم يدخل إلى ساحة الإسلام فيحطم الإسلام من داخلها إطلاقاً.

لو وجد الإخلاص لدين الله سبحانه وتعالى لحميّت الثغور ولسدت المنافذ، ولما استطاع أبداً هؤلاء الذين يتقنعون بقناع الغيرة على دين الله عز وجل أن يحملوا أسلحةً باسم الإسلام ويُحطموا الإسلام، إن باسم القراءة المعاصرة، وإن باسم الدعوة إلى تجديد الإسلام وفقهه، وإن باسم الدعوة إلى نبذ السنة والاكتفاء بكلام الله سبحانه وتعالى. ها هم هؤلاء يسرحون ويمرحون وما أكثر من يؤخذ بكلامهم وما أكثر من يُخدع بحديثهم ما السبب؟

السبب أن الذين يشتغلون للإسلام وأن الذين يتحركون بأنشطة الإسلام ليسوا مخلصين لدين الله سبحانه وتعالى، لكلٍ هدفٌ يبتغيه ولكلٍ غاية يرمي إليها، والإسلام هو المطية الذلول لهؤلاء جميعاً.

لو كان الإخلاص لدين الله عز وجل متوفراً لكانت الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى حيّةً نابضة على كل لسان من ألسن هؤلاء المؤمنين المسلمين الذين يتحركون في ساحة العمل الإسلامي، ومن ثم لاتجهت هذه الدعوات إلى الله، ولاتجهت سهام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى أفئدة سائر الجانحين وسائر الشاردين على اختلاف مستوياتهم من أعلى القمم إلى أدناها، ولدخلت هذه الكلمات في قلوبهم مؤثرة نابضة، ولاهتاجت بين جوانحهم مشاعر الإيمان بالله سبحانه وتعالى.

ولكن لما غاض الإخلاص لله سبحانه وتعالى واختفى هذا الإخلاص، وظهر في مكان ذلك الأهداف الأخرى، كلٌ يسعى كما قلت لكم إلى هدفه، ما أكثر الذين يبتغون من وراء الإسلام ومطيته جمع المال وإدخار الكنوز، وهاهم هؤلاء يجمعون ويدخرون، يجمعونها باسم الإسلام، يجمعونها باسم العمل الإسلامي، كثيرون الذين يتخذون من الإسلام مطية ويالها من مطية تُحقق كل غاية؛ يبتغون من وراء هذه المطية زعامة، يبتغون من وراء هذه المطية سيادةً ورئاسة، ويصلون إلى مبتغياتهم أو لا يصلون، وما أكثر وما أكثر الأهداف المختلفة كلها مختفية تحت مظهر الإسلام وتحت الدعوة الحركية إلى دين الله عز وجل.

ومن أخطر الأهداف الأخرى رعونات النفس والشهوة التي تهتاج بالإنسان دافعةً إياه إلى التغلب على الخصوم، وإلى التغلب على الآخرين أياً كان الهدف وأياً كانت الوسيلة.

هذه الغايات لما حلت محل الإخلاص في أفئدة المسلمين ظهرت هذه المشكلات وكم كانت مشكلات بسيطة وما أيسر أن تذهب هذه المشكلات وتذوب في ضرام الصدق مع الله والإخلاص لدين الله سبحانه وتعالى.

أيها الإخوة هذه مشكلة المسلمين اليوم لا داعي لأن نوجع رؤوسنا بوضع الفلسفات العميقة التي تستثير جدلاً متطاولاً، لاكتشاف المشكلات وأسبابها ولاكتشاف العلاج الخطير يحتاج إلى عبقرية ما مثلها عبقرية، ينسون الباب الموصد والمفتاح أمامنا موجود، لا يحتاج إلا إلى أن نعرف مكان هذا المفتاح ونحركه، فإذا بالباب قد تفتّح وإذا بالمشكلات قد ذهبت. ننسى البسيط البسيط الذي أمرنا الله عز وجل به ونتلهى بالعمق الذي لا يوصلنا إلى شيء، وهذه هي مشكلة المشكلات أن ننسى المهم الذي أمرنا الله به ونضعه في خانة المحقرات.

ذكر الله عز وجل هل تجدون من يتحدث عن أهمية ذكر الله عز وجل كوسيلة لتطهير القلوب من الرعونات؟ لا تجد من هؤلاء الذين ينشطون للأعمال الحركية المختلفة من يلتفت إلى ما يسمى بذكر الله أو إلى حديث القرآن عن ذكر الله، وكما قلت لكم، لكأن فيهم من يتصور أن هذا شأن العوام من الناس، وأن هذا شأن الذين يتسلون بمجالس الذكر لأنهم بعيدون عن القيام بالوظائف والواجبات ذات الأهمية القصوى، وكلكم يقرأ الآيات الكثيرة والكثيرة التي تُهيب بالمسلمين أن يجعلوا سدى ولحمة حياتهم ذكر الله سبحانه وتعالى.

أمر عظيم وخطير وُضع في زاوية المحقرات: الإخلاص لدين الله قرأت في كثير وكثيراً من المقالات والكتابات التي يتحدث فيها أصحابها عن ما حاق بالمسلمين من مشكلات، وعن الأسباب الكامنة ورائها، ورأيت هؤلاء الكاتبين يبحثون عن الحلول ونظرت إلى كلامٍ يوجع الرأس وأحاديث معقدة، ولكأن الكاتب يريد أن يصور للقارئين مدى ذكائه ومدى عمقه عندما ينخر عباب الأمر ليصل إلى عمق عمقه،

وأعود من هذا الذي يوجع الرؤوس بدون طائل، تمنيت لو أني رأيت واحداً من هؤلاء الكاتبين يقول في آخر كلامه أو في لأول كلامه أو بمعرض حديث إننا بعيدون عن الإخلاص لدين الله.

يا هؤلاء الناس ابحثوا عن مكمن الإخلاص لله بين جوانحكم هل تجدونه؟ ابحثوا ونقبوا واجلسوا ساعة قدسية من النقد الذاتي وراقبوا أنفسكم هل تنبض قلوبكم بالحرقة على دين الله ولا شيء غير دين الله وغير رضا الله سبحانه وتعالى أم إن أهدافكم الخفية الخفية في قلوبكم تتجه إلى أماني وأغراض دنيوية متنوعة أخرى.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يكرمنا بفضلٍ منه بنعمة الإخلاص لوجهه وأن يطهر قلوبنا من الأغيار وحب الأغيار.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.



٢٠- الإخلاص المنشود وتَغَيُّر الفتاوى والأحكام | ١٩٩٩/٠٦/١١

كثيرون هم الشباب الذين يسألون في تحرق عن السبيل في غرس الإخلاص لله سبحانه وتعالى في قلوبهم، يتحرقون سائلين عن السبيل الذي يجعلهم إن استمسكوا بدين الله لا يتمسكون به إلا لوجه الله عز وجل، وإن هرعوا إلى أداء الواجبات لا يهرعون إلى ذلك إلا لوجه الله عز وجل، وإن ابتعدوا عن المحرمات لا يبتعدون عنها إلا لوجه الله.

والغريب العجيب أيها الإخوة أن الذين يشغلهم هذا السؤال ويتحرقون لمعرفة هذا الدواء هم هذه الطبقة، الشباب الذين ربما كانوا إلى الأمس القريب شاردين عن صراط الله سبحانه وتعالى، وقلما أجد أناساً لهم قدم راسخة في الالتزام بدين الله عز وجل أو لهم مرتبة الإرشاد والتوجيه والتعليم في دين الله عز وجل؛ قلما رأيت واحداً من هؤلاء يسأل عن العلاج الذي به يتحقق الإخلاص لله سبحانه وتعالى.

وإنكم لتعلمون أن الدين أشبه ما يكون بجسد، روحه الإخلاص لله، فإذا وجد العمل الذي يرضي الله ولم يوجد الإخلاص فإنه لا شك ولا ريب أشبه ما يكون بجسدٍ ميت، ولو أنكم تدبرتم كلمة الإخلاص والأمر بها في كتاب الله عز وجل لرأيتم شيئاً عجباً، فما أكثر أن ينبه بيان الله عز وجل الإنسان إلى ضرورة أن يخلص دينه لله عز وجل والآيات التي تأمر بذلك كثيرة: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ ولا أريد أن استعرض الآيات الكثيرة والكثيرة التي ينبه الله الإنسان فيها إلى أن العمل لا جدوى منه إذا لم يكن متوجاً بالإخلاص. فحق لهؤلاء الإخوة أن يسألوا عن السبيل الذي به يتحقق الإخلاص لله عز وجل، حتى لا تهدر أعمالهم.

والجواب باختصار هو: أن الدنيا بمقدار ما تقبل إلى نفس الإنسان مهيمنة عليه يتضاءل الإخلاص ويغيب، وبمقدار ما تغيب الدنيا عن القلب والنفس وتهون على الإنسان فإن الإخلاص يهيمن ويتضح

ويفرض نفسه، فهما كفتين إن رجحت الواحدة طاشت الأخرى. ما الذي يجعل الإنسان غائباً عن أن يكون عمله لله؟

شيء واحد.. أن تهفو نفسه إلى الدنيا والدنيا ليست محصورة في درهم ودينار كما يظن بعض الناس، الدنيا كل ما عدا الله سبحانه وتعالى، كل ما شغلك عن الله فهو دنيا، الدنيا المال الذي تهفو نفس الإنسان إليه، والدنيا الرئاسة التي تهفو نفوس كثير من الناس إليها، والدنيا الزعامة، والدنيا ثناء الناس، والدنيا التخوف من نقد الناس، والدنيا عبارة عن المنافسة على أهواء النفس وحظوظها من عصبيات وما إلى ذلك.. فكل ما أشغلك عن مولاك فهو الدنيا.

إذن كانت هذه الدنيا بكل هذه الأنواع مهيمنة على النفس فهيهات أن يتحقق الإخلاص لله، قد يصلي لكن دنياه تجعل صلاته مصطبغةً بأهدافه الدنيوية، قد يحج ولكن دنياه تجعل حجه مصبوغاً بغاياته وشهواته الدنيوية، قد يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويقف في الناس موقف المرشدين، وقد يكون من العلماء الذين تنتشر كلماتهم ومؤلفاتهم في العالم الإسلامي، ولكنه إنما يفعل ذلك من أجل هذه الدنيا التي تهيمن عليه، إذاً فالسبيل أو السبب الذي يحجب الإنسان عن الإخلاص لله عز وجل هيمنة الدنيا على قلبه، إذا هيمنت الدنيا على قلبه حجبته عن الله وعن محبته له وعن الخوف منه، فكان عمله كله وإن كان في الظاهر ديناً فقد أصبح مصطبغاً بغاياته الدنيوية.

تريد أن تكون مخلصاً لله؟ قطع قلبك من الدنيا وأسبابها، واسلك السبل المتنوعة التي تجعل الدنيا بعيدة عن فؤادك وحبك، حاول أن تزيد من محبة الله عز وجل في قلبك، أكثر من مراقبة الله، أكثر من تذكر نعم الله عز وجل، عش مع اليقين أن هذه النعم لم تأتك إلا من عند واحد لا ثاني له ألا وهو الله عز وجل، تنبه وتأمل أن الناس كلهم لن ينفعوك شيئاً إن أرادوا أن ينفعوك، ولن يضروك إن أرادوا جميعاً أن يضروك، إنما النافع واحد والضار واحد، تذكر هذا الذي يقوله رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لن بنفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك﴾. فإذا تأملت في هذا وظللت تراقب الله وأنت تتأكد من هذه الحقائق وتغذيها بتلاوة كتاب الله والإكثار من ذكر الله عز وجل، تغيب الدنيا عن كيانك، ويتقلص سلطانها عن فؤادك، ويهيمن بدلاً عن ذلك حبك لله، ويقينك

بأن الله هو وحده الفعال، ومن ثم فإنك إن نظرت يميناً أو شمالاً لن تجد في الكون إلا الله، أي لن تجد فعالاً إلا الواحد الأحد ألا وهو الله عز وجل. كل ما في الكون صور وأشباح تتحرك بتحريك الله.

فمن هو هذا الذي تجعل عملك لوجهه؟ من هو هذا الذي تجعل صلاتك من أجله؟ من هو هذا الذي تجعل علومك وإرشادك وتوجيهاتك من أجله؟ إذا عرفت أن النافع هو الله، وأن الضار هو الله، وأن المحي هو الله، وأن المميت هو الله، وأن الذي يحرك الناس ذاهبين آيبين واحدٌ لا ثاني له هو الله عز وجل. من هو هذا العاقل بعد هذا الذي يعبد الله للناس، وقد علم أن الناس أصفارٌ على اليسار لا تفيد شيئاً؟ أجل هذا هو السبيل الذي به يستقر الإخلاص، ومن ثم يشعر الإنسان بلذة صلاته إذا صلى، بلذة عبادته إذا عبد الله سبحانه وتعالى.

وأنا بمقدار ما أتفائل خيراً عندما أجد هؤلاء الشباب الذين أقبلوا إلى الله من جديد يسألون متحرقين عن السبيل إلى الوصول إلى الإخلاص، بمقدار ما أتفائل خيراً لهذه الأمة بسبب هذه الأسئلة المتكاثرة أشعر بأساً وألم من وجه آخر أنني أجد التنبه إلى الإخلاص والبحث عن الإخلاص والنظر في أهمية الإخلاص قد حُجب عنه كثير من المسلمين التقليديين، أجل أقول التقليديين وفيهم كثرة من العلماء، وفيهم كثرة من الموجهين والمرشدين، وفيهم كثرة من الذين يتخذون من أنفسهم مركز القيادة في دين الله عز وجل، صغار شبابنا متحرقين بحثاً عن الإخلاص، والكثير من قادتهم المرشدون الموجهون وعلماء الدين قد وضعوا الإخلاص ظهرياً وراء أبصارهم، وعانقوا أعمالاً هي كما قلت لكم كجسد لا روح فيه، فالله المستعان أن يحقق التفاؤل من وراء هذا الوجه الأول الأبيض لا من خلال هذا الوجه الأسود الثاني.

يسوؤني أيها الإخوة أن أجد أن مظاهر الأعمال الإسلامية كثيرة بل متكاثرة، ولكني أنظر فإذا بهذه الأعمال الإسلامية المختلفة قد حولت إلى خدم وحشم للمصالح الدنيوية وربما السياسية؛ لا التي يرعاها الساسة لا، بل التي يرعاها من يتحدثون عن الإسلام والذين يقودون الناس إلى الإسلام، أجل أنظر إلى الأنشطة العلمية إلى الفتاوى إلى كثيرٍ من المواقف أجد أن هذه الأنشطة العلمية التي تتم باسم الله إنما تستخدم بمهانة من أجل المصالح الدنيوية أو السياسية المختلفة المتنوعة، والله المستعان أن يلطف بهذه الأمة ويصلح حالها.

منذ سنوات ورحى القتال الغير شرعي، الغير مقدس، الغير مبرر، تدور رحى هذا القتال على برءاء آمنين صبية أطفال نساء باسم الجهاد، وبحثنا ذات اليمين وذات الشمال عن العلماء الذين تقبل كلماتهم لينطلقوا ببيان موحد يوضحون فيه حكم الله جل جلاله في هذا الأمر، فلم نسمع لأي منهم همساً، وكم وكم طُلب منهم، سكتوا.. لماذا؟ لأن المصلحة تقتضي السكوت، ولأن هذا لا يريد أن يغضب جماعته، وذاك لا يريد أن يزج نفسه في خطر، والآخر له إتاوة لا يريد أن تنقطع إتاوته، فليقع الناس في هذه المتاهات ما شاؤوا، وعلينا أن نصمت لأن المصلحة الدنيوية والسياسية لا تتفق مع النطق بهذا الحق.

وبالأمس القريب ما لا يقل عن خمسين عالماً انطلقوا إلى بيان واحد من فم واحد يقولون كفاكم قتالاً، لا يجوز هذا القتال، أغمدوا أسلحتكم، إن هذا ليس جهاداً في سبيل الله... لا الصمت الذي استمر خلال تلك السنوات كان لله، ولا الحديث الذي انبثق من أفواههم بالأمس القريب كان لله، المصلحة أسكتت، والمصلحة أنطقت وأين هو التوجه إلى استرضاء الله؟ أين هي المصلحة التي تترجم بطرق باب رضا الله سبحانه وتعالى؟ أجل..

إن كان السبب الذي جعل هذا القتال اليوم حراماً لأن هؤلاء الناس الذين يُقتلون ويُذبحون مسلمون، فإن الأمر لم يختلف، كانوا في السنوات الماضية أيضاً كذلك. وإن كان هذا القتل الذي استحر والذي سالت بسببه أنهر من الدماء كان مباحاً خلال كل تلك السنوات لأن الذين يقتلون ويلاحقون بالقتل لم يكونوا ينفذون حكم الله، فهم اليوم كذلك هم اليوم كذلك، هم هم لم يختلفوا. ما الذي حصل؟

إنه التكتيك السياسي، إنه استخدام الدين استخدام شرع الله سبحانه وتعالى من أجل المصالح، من أجل استرضاء الجماعة، من أجل استرضاء هذه الفئة، بالأمس كان هنالك خطر من مثل هذا الكلام، بالأمس لو بثت هذه الفتوى إذاً لكان في ذلك نوع من غضب الجماعة على هذا الإنسان الذي هو منهم، أما اليوم فقد اتفق الجماعة أن يبدلوا التكتيك، إذاً فليقل دين الله عز وجل: إن ما كان بالأمس جائزاً قد أصبح اليوم محرماً

أين هو الإخلاص لدين الله؟

أين هو المقياس الذي لا يتمثل لا في رضى زيد ولا في رضى عمر لا في رضى قائد لا في رضى مقود ولا في جمع مال ولا في بذل مال ولا في استرضاء جماعة ولا في استرضاء فئة أو حزب وإنما يتمثل في السعي إلى بلوغ رضا الله عز وجل.

ليت أن هذا السؤال الذي تنفث به أفواه شباب متحرقين على الإخلاص، ليت أنه يشغل بال أولئك الآخرين.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يعيدنا إلى معين الإخلاص لله سبحانه وتعالى وأسأله عز وجل إذا سرنا على صراطه أن يقطعنا عن الأغيار وألا يضع نصب أعيننا إلا رضى الله الواحد القهار.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.



٢١- رأس مال المسلم (القلب السليم) | ١٦/٠٧/١٩٩٩

أحدثكم اليوم عن رأس مالٍ خفيفٍ لا يرهق الإنسان المسلم حمله، لا يكلفه كثر من العبادات، ولا يكلفه قياماً بالأسحار، ولا كثيراً من الأوراد والأذكار... ومع ذلك فإذا وُفّق الإنسان بحمل هذه العدة الخفيفة اليسيرة في رحلته إلى الله سبحانه وتعالى فلسوف يفوز بسعادة العقبى، ولسوف يكرمه الله عز وجل برضوانه.

أتعلمون ما هي هذه العدة، أو ما هو هذا رأس المال اليسير والخفيف حمله؛ والعظيم أثره؟

إنه القلب السليم، إذا أتيح للإنسان أن يطهر قلبه من الأحقاد ومن الضغائن ومن الغل الذي حذر منه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن يجعل قلبه وعاءً سليماً يتجه به إلى الله سبحانه وتعالى في حياته التي يعيشها، فذلك هو رأس مال المسلم الذي يغنيه عن كثير من الأتعاب وعن كثير من العبادات.

وآية هذا الذي أقول لكم، أو مقياس القلب السليم: هو أن تنظر.. فإذا وجدت أن سلامة قلبك تتغلب على الأحقاد التي يقتضيها إيذاء الذين يؤذونك، وجرح الذين يجرحونك، وانتقاص الذين ينتقصونك رأيتك تتمتع بقلب سليم يتغلب بياضه على سواد الأحقاد، يتغلب بياضه على سواد البغضاء والغل، إذا رأيت نفسك ممتعاً في هذه الصفة فإني أهنئك أن طريقك إلى سعادة العقبى معبد.

كلكم يعلم أيها الإخوة الدعاء الذي كان يدعو به خليل الله سيدنا ابراهيم على نبينا وعليه الصلاة والسلام، لم يدع الله سبحانه وتعالى أن يوفقه إلى كثير من الطاعات والعبادات، لم يسأل الله سبحانه وتعالى أن يكرمه بمالٍ وفير وكثيرٍ حتى ينفقه ذات اليمين وذات الشمال. وإنما قال: ﴿لَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾. القلب السليم ماذا يعني أيها الإخوة؟ يعني أن يكون قلب هذا الإنسان قد طهره الإيمان طهرته عبودية الله عز وجل، فتسامى هذا القلب على الإيذاء

الذي يمكن أن يناله من الناس؛ الشتائم التي يمكن أن يصيبه رشاشها من هذا أو هذا أو ذاك؛ يبقى هذا القلب أبيض نقياً، كلما تسربت إليه نقطة سوداء زوبتها عبوديته لله عز وجل فعاد أبيض نقياً سليماً، هذا هو القلب السليم. وإن لدعاء سيدنا ابراهيم لبلاغة ولدلالة كبرى على أن الله سبحانه وتعالى يوم القيامة إنما يصطفي أولئك الذين سامحوا وغفروا وواجهوا إيذاءات الناس كلها بهذا القلب السليم.

وانظروا أيها الإخوة إلى نصائح ربنا سبحانه وتعالى في محكم تبيانه كم وكم يكررها، من مثل قوله عز وجل: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ۚ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ ثم قال: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ فاللهم اجعلنا من أصحاب هذا الحظ العظيم.

ويكفي أيها الإخوة أن أضعكم أمام هذا المشهد الأخاذ: أوذي سيدنا أبو بكر في ابنته، وأنتم تعلمون من هي ابنته العفيفة الحصان التي أكرم الله سبحانه وتعالى رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم بها، آذاه رجلٌ أخذ ينقل ما يردده المنافقون في حقها، وهو مسطح، وهو رجل فقير كان يجري عليه أبو بكر جراية من مال، فلما سمع بما يقوله مسطح من ترديده لأقاويل المنافقين أقسم أن يقطع رفده عنه، أن يقطع جرايته هذه عنه، فأنزل الله عز وجل عليه قوله – اسمعوا بقلوبكم: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ﴾ لا يأتل؛ أي لا يقسم ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

ما أظن أن مؤمناً بالله يقف أمام هذا العتاب الذي يعاتب الله به أبا بكر الصديق في أمر، ما أظن أن فيكم من أوذي مثل الأذى الذي ناله في ابنته إطلاقاً، ومع ذلك يدعو أبو بكر إلى سلامة القلب، يدعو الله سبحانه وتعالى يدعو أبا بكر إلى سلامة القلب، يدعوه إلى أن يواجه الأذى مهما بلغت شدته بالصفح، وأن لا يجعل قلبه وعاءً لنقطة سوداء أو ضغينة أو غل. انظروا وعودوا إلى هذا الكلام: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾ ثم انظروا كيف ربط الله عز وجل عفوك وصفحك عن أخيك بعفوه وصفحه، ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾. قال أبو بكر: بلى والله أحب، أعاد إليه جرايته وزاد منها، وكان كلما رأى مسطحاً قام إليه وقال: مرحباً بمن عاتبني فيه ربي.

أيها الإخوة لا أريد أن أطيل وخير الكلام ما قل ودل، كل من رأى منكم أنه ينوء بحمل الطاعات الكثيرة ولا يستطيع أن يحمل سيراً إلى الله أعباء العبادات الوفيرة، فليمعن النظر في قلبه، وليحاول أن يطهر قلبه من السخائم والأحقاد والضغائن، وليعامل الناس الأقربين منهم والأباعد لا سيما الأرحام، لا سيما الأقارب بسلامة القلب، ذلك لأن الرحلة إلى الله عز وجل شاقة، ولكن هاهنا دواء إن استعملته تحول الشاق إلى أمر يسير، وتحول الطريق الطويل إلى مسافةٍ قصيرةٍ جداً. ولإن قال الله عز وجل: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إلا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إلا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ فكونوا من أصحاب هذا الحظ العظيم أيها الإخوة.

ثم انظروا كل منكم لينظر إلى حاله إذا رأى نفسه متعبداً متبتلاً، يقوم الليل، يكثر من الذهاب إلى الحج، ولكن كلما أوذي من زيد من الناس فاض قلبه حقداً عليه، كلما شعر بجرح انتابه من كلمة قالها زيد من الناس فاض قلبه سواداً من الضغينة عليه، فليعلم أنه على خطر كبير من علاقته بالله عز وجل، العبادة لا تغني، الحج المتكرر لا يفيد، لو كان ذلك كله مفيداً لتحول دعاء سيدنا ابراهيم إلى ذلك، ولسأل الله أن يوفقه للإكثار من العبادات والصلوات والحج والزكاة ونحو ذلك... لكن ذلك كله لا يغني مع سواد القلب، وإذا قصر الإنسان في ذلك كله فما أيسر أن يغفر الله عز وجل للإنسان عندما يكون قلبه نقياً سليماً، ونحن ندعو من وراء سيدنا ابراهيم بما دعى به ربه فنقول: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ * يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.

اللهم متعنا بالقلب السليم اللهم اجعل قلوبنا بيضاء نقية لا تعرف سبيلاً لحقد لا تعرف سبيلاً لضغينة إطلاقاً.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

٢٢- يكفيك العمل القليل | ٢٠٠٠/٠٨/١٨

أنا أصغي السمع جيداً بين الحين والآخر إلى الأحاديث الكثيرة التي تنطلق من أفواه المتكلمين الدعاة إلى دين الله سبحانه وتعالى عن الإسلام وأهميته، وعن الأفكار الإسلامية التي ينبغي أن تُتخذ سلاحاً في وجه المتربصين بالدين، وفي وجه الذين يتآمرون عليه بالخطط الواردة وغيرها... أُصغي السمع فأجد أن المجتمعات الإسلامية مليئة بحمد الله تعالى من الأحاديث التي تُلقى في محاضرات والتي تُلقى في ندوات وفي مؤتمرات، والتي تُؤلف فيها كتبٍ ومؤلفات.. كلها تتناول الحديث عن عظمة الإسلام وأهميته، وعن المشكلات التي تطوف بالعالم الإسلامي، والتي تترصد كبد الإسلام، وأُصغي السمع إلى خطط توضع وإلى علاجات تُرسم وإلى واجباتٍ تذكر.

ولكني لم أجد مرةً واحداً من هؤلاء يغوص وهو يتحدث عن الإسلام ومشكلاته، والعلاجات التي ينبغي أن يهرع إليها المسلمون، لم أجده يتحدث عن العلاجات القلبية وعن المشكلات القلبية التي هي المعين للإصلاح إذا بحثنا عن الصلاح، والتي هي معين الفساد ومصدره إذا أردنا أن نتفحص أسباب أمراضنا ومنطلق أدوائنا. لم أجد من يتحدث مثلاً عن أهمية الإخلاص لله سبحانه وتعالى، وكم وكم أصغيت السمع لعلي أسمع فلم أجد أحد لا في ندوات عُولج هذا البحث ولا في مؤتمرات ولا في كتابات ولا في ندوات.

أصغيت السمع جيداً لعلي أصغي إلى من يهيب بالمسلمين أن يزهدوا بالدنيا كما كان يهيب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمسلمين، وما أكثر الأحاديث التي نبه المصطفى صلى الله عليه وسلم إلى أهمية الزهد في حياة المسلمين فلم أجد من عرّج على هذا الموضوع بكلمة.

حاولت أن أصغي السمع جيداً فأقف على من يتحدث من هؤلاء جميعاً عن الأمراض الباطنة الأمراض القلبية التي تتمثل في الكبر في العناد في العصبية للذات والعصبية للمذهب والعصبية للأفكار.

لم أجد من يتحدث عن الأحقاد، عن الضغائن، عن أهمية الحب في الله عز وجل لم أجد من يتحدث في هذا قط، وإنما الكل يُهرع إلى الحديث عن الظواهر. ما هي المشكلات التي تبدو على مسرح

العالم الإسلامي؟ ما هي الخطوات الظاهرة التي تبعث على التباهي والتي تبعث على الاعتداد بالذات والتي تبعث على مدح الإنسان بنفسه وعلى اعتداده بآماله؟ هذا كل ما أراه.

وأنا أقول إن المكتبات التي يذخر بها العالم الإسلامي تفيض بالكتب الإسلامية، وأنا أعلم أن معظم القراء هم أولئك الذين يُهرعون إلى التقاط الكتب الإسلامية، لكن لا الذين يكتبون تهمهم هذه الموضوعات الأساسية، ولا الذين يقرأون يبحثون في هذه الكتب عن هذه الأساسيات التي كان السلف الصالح يجعل منها مدخلاً إلى كل كتبٍ تتحدث عن الإسلام.

اقرأوا أي كتابٍ في حديث رسول الله تجدون باب الإخلاص في مقدمة أحاديث هذا الكتاب.

اقرأوا أي مرجعٍ من المراجع الإسلامية التي خطتها أيدي رجال السلف الصالح تجدون أن الحديث عن القلوب ومكامنها وأمراضها وعلاجاتها وكيفية تطهير القلوب من السخائم هي الأساس الذي يوضع لسائر البحوث الإسلامية التي تأتي بعد ذلك.

أما اليوم فأقرأ ما يمكن أن تجده من المؤلفات الحديثة تجدها مبعثرة عن هذه الأساسيات، تجد الباحث يقفز فوقها إلى الحديث عن المظاهر، إلى الحديث عن المشكلات الفوقية، الخطط الوافدة إلينا من الغرب، والخطط التي ينبغي أن تُرسم من المسلمين للتصدي لتلك الخطط، المرأة ومشكلاتها في العالم الإسلامي وكيف ينبغي أن نكتب ونتحدث ونتهجم على أولئك الذين يتربصون بالمرأة المسلمة، المجتمع الإسلامي وكيف ينبغي أن يتوج بالحكم بما أنزل الله، والأمور الاقتصادية التي ينبغي أن تتحول من أحكامها الوضعية إلى ما قد أمر الله، كل هذا أمر سليم وجيد، لكن ذلك كله فروعٌ عن أساس، وإن لم نبدأ بالأساس فلن نستطيع أن نحقق شيئاً من هذه الخطط التي نتحدث عنها ونكررها. وها نحن نتحدث فأين هي النتائج؟

وها نحن نكتب.. وها نحن نلقي المحاضرات.. وها نحن نجتمع في ندوات ومؤتمرات.. لكن على هذا النهج السطحي دون أن نعود إلى هذه القلوب التي إليها علاج مشكلاتنا، والتي إليها علاج تفرقنا، والتي إليها علاج الاجتماع على كلمة واحدة لإصلاح أمورنا، لا نبدأ من هذا المنطلق ومن ثم فإن كل الجهود التي تُبذل وهي جهود سليمة، ولكن نظراً إلى أنه بناءٌ لا ينهض على أساس، فإن هذا البناء لا يمكن أن يكنّ صاحبه ولا يمكن أن يحميه أيضاً من الأخطار الوافدة إليه بشكل من الأشكال.

كنت الساعة كشأني في كثيرٍ من الأحيان أعود وأعيد النظر في كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القلوب ورعايتها وأمراضها وعن الإخلاص لدين الله سبحانه وتعالى، وقفت على هذا الحديث.. ولكم وقفت عليه ومررت عنه، ثم عدت إليه ومررت عنه، والتفت يميناً وشمالاً فلم أجد من يحفل بهذا الحديث وأمثاله، بل وجدته غريباً في مجتمعاتنا الإسلامية في هذا العصر، روى الحاكم في مستدركه على شرط الشيخين من حديث معاذ رضي الله عنه قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما أرسلني إلى اليمن سألته أن يوصيني فقال لي: ﴿أخلص دينك لله يكفك العمل القليل﴾.

هذا معاذ رضي الله عنه يقف مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في ساعة يودعه فيها إلى مهمة كلفه رسول الله صلى الله عليه وسلم بها، يقول له معاذ: أوصني. ومعنى ذلك أن المطلوب منه عليه الصلاة والسلام في هذه الدقائق القصيرة أن يقول له كلمات موجزة تحمل في ثناياها معاني أساسية، تحمل في ثناياها معاني جامعة لكل شوارد هذا الدين، فقال له هذه الكلمة الجامعة: ﴿أخلص دينك لله يكفك العمل القليل﴾، ومضى معاذ بهذه الوصية لا يحتاج لأكثر منها.

وهذا شأن أصحاب رسول الله رضوان الله عليهم، لم يتفلسفوا كثيراً أيها الإخوة، لم يقرأوا كتباً كثيرة في الحديث عن خطط رُسمت كيف تُنفذ، وفي الحديث عن مواجهات لخطط واردةٍ كيف ينبغي أن يتكتك المسلمون للوقوف في وجهها إطلاقاً، ما احتاجوا إلى شيء من هذا لكنهم احتاجوا إلى أن تشبعوا بهذا الكلام الجامع الموجز المختصر المفيد. ﴿أخلص دينك لله يكفك العمل القليل﴾.

أين هم الذين يعقدون مؤتمراً حول هذا المعنى؟ يعقدون ندوةً حول استخراج المعان الكثيرة والكثيرة من هذا الحديث؟ أين هي المحاضرات التي تُلقى في تفسير هذا المبدأ الذي يوصي به رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذً في ساعة قدسية يودعه فيها إلى غير لقاء، ذلك الموقف هو الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿يا معاذ لعلك لن تراني بعد هذا العام أبداً ولعلم إن عدت أن تمر بمسجدي هذا وقبري﴾.

نعم أين هم الذين يتحدثون في هذا؟ هذا مع العلم بأن أمراضنا تتمثل في غياب الإخلاص لله عن قلوبنا وأن دوائنا الأول يتمثل في ضرورة السعي إلى استعمال هذا الترياق هذا العلاج الإخلاص لله سبحانه وتعالى.

انظروا إلى حركات المسلمين وسكناتهم وأقوالهم وأفعالهم، وحاولوا أن تتحسسوا وأن تتبينوا ما وراء هذه الأفعال لن تجدوا مظاهر إخلاص وإنما هي دوافع إلا من رحم ربك دوافع إلى رغبة دنيوية، دوافع إلى رئاسة، دوافع إلى زعامة، دوافع إلى مال، دوافع إلى انتصارٍ سياسي في معركة سياسية، ربما ترتفع شعارات إسلامية أو غير إسلامية ليس المهم الشعار، المهم ما استكنّ في القلب نعم.

وآية هذا أيها الإخوة أن الإنسان الذي يُخلص لله سبحانه وتعالى تفوح رائحة الإخلاص من سلوكه، يكون رباني السلوك، يقوم قبل أن يُأذن للفجر يقف بين يدي مولاه وخالقه ليطرد النوم من عينيه وليتحرر من النعاس الذي كان قد هيمن عليه، يجافي جنبه عن مضجعه كما قال سبحانه وتعالى؛ يقف راكعاً ساجداً مناجياً ثم يجلس مستغفراً، فإذا أُذن للفجر هُرع إلى مسجدٍ قريب أو بعيد يُصلي مع الجماعة الأولى.

العاملون في حقل الإسلام المخلصين لدين الله هكذا يكون شأنهم.

ولكن انظر وتأمل – وأنا لا أقول انظر وتأمل لنتجسس على حال أناس سترهم الله – ولكن على كل منا أن يعود إلى واقع نفسه وأن يكون نصوحاً لأخيه في الله سبحانه وتعالى، تجد أننا بمقدار ما نتحدث عن الأخطار التي تُحيق بالعالم الإسلامي وبمقدار ما نتكلم عن الخطط التي ينبغي أن ترسم للوقوف في وجه هذه الخطط وأربابها، بمقدار ما ننشط في هذا المسعى بمقدار ما نتكاسل في هذا الجانب الآخر.

إذا أُذن للفجر أكون في ساعة أذوق فيها ألذ ساعات الرقاد، وإذا كنت ممن يتباهى أنه من السباقين إلى أداء فرائض الله أقوم قبل طلوع الشمس فأسرع فأتوضأ وأصلي ركعات أسابق فيها الشمس قبل أن تتطلع، ثم إني أعود بعد ذلك إلى مضجعي إلى ما شاء الله، هذا هو واقعنا، فإذا علا النهار وعاد النشاط خرجت أتحدث عن الإسلام وأتحدث عن بقية الكلام الذي كنا نتحدث عنه بالأمس.

عندما نكون في مؤتمرات عن الإسلام – وأن أصف لكم واقعاً أيها الإخوة – ربما كان بين هؤلاء الناس ثلة قليلة جداً ممن يراقبون قلوبهم ويتذوقون طعم الإخلاص لله في نفوسهم، يبحثون عن مكانٍ يتخذونه مسجداً في ذلك الفندق الذي ينزلون فيه، ويتداعون إلى الالتقاء في ذلك المكان في الفندق عند صلاة الفجر. كم عدد الذين يجتمعون؟ يذهب الواحد منهم إلى هذا المسجد يلتفت يميناً وشمالاً فلا يجد إلا ثلاثة أو أربعة أو خمسة نعم، أين هم أقطاب الإسلام؟ أين هم الذين جاؤوا قد رسموا خططاً عظيمةً في الوقوف في وجه الخطط التي تتربص بدين الله عز وجل؟ أين هم البلغاء أصحاب البيان الرائع الذين يُسخرون بيانهم للحديث عن الإسلام؟ إنهم يغطون في رقادٍ لذيذ في تلك الساعة. أجل هذا هو واقعنا. فإذا علا النهار وتجاوزت الساعة التاسعة رأيت كلاً يُهرع إلى القاعة التي يجتمع فيها المتكلمون كلٌ يتأبط حقيبته ويحمل أوراقه ويحمل ما قد هيأه من بحوثٍ ومداخلات ومناقشات.

صورة أيها الإخوة والله لا أبالغ، والله إني لأرسم الواقع، والله عز وجل يرى، ورسول الله صلى الله عليه وسلم هو القائل: ﴿تُعرض أعمالكم علي فما وجدت من خيراً حمدت الله عليه وما وجدت من شرٍ استغفرت الله لكم﴾. نعم يرى رسول الله ما يُريه الله من واقعنا، ورسول الله يقول: ﴿أخلص دينك لله يكفك العمل القليل﴾، لن تحتاج إلى خطط كثيرة، لن تحتاج.. سيعينك الله.

أرأيتم إلى المسلمين الذين يبلغ عددهم ما يزيد عن المليار أجل، هم ثلث هذا العالم تقريباً اليوم، لو أن الثلث من هؤلاء المسلمين أخلصوا دينهم لله ووضعوا في مغرس أفئدتهم حب الله، تعظيم الله، المهابة من الله اضطراح كل شيء مما سوى الله ورائهم ظهرياً، والله الذي لا إله إلا هو لرأيتم أن الحضارة الغربية بكل روادها قد ذابت، ولرأيتم أن الله قد خيب خطط هؤلاء المخططين، ولرأيتم أن العولمة بكل سهامها قد ارتدت إلى أصحابها، والله الذي لا إله إلا هو..

ولكن الله ينظر فيرى أن كثيراً من المسلمين اتخذوا من الإسلام مطية ذلولاً لهم، هذا من أجل جمع مزيد من المال، هذا من أجل تحقيق مزيد من الرفاهية، هذا من أجل الوصول إلى سدة الرئاسة والزعامة التي يحلم بها، هذا من أجل أن ينتصر لمذهبه ولفكره السياسي الذي يُقنع بقناع الإسلام، والقلة القليلة التي تضيع بين السنابك هي التي تخلص لله سبحانه وتعالى.

أعود فأقول أيها الإخوة عودوا إلى مفاتيح كتب الحديث، عودوا إلى فواتح الكتب التي اختطتها يد السلف الصالح عن الإسلام تجدون أن المنطلق أن الأساس أن الروح أن أول ما ينبغي أن يعرفه الإنسان هي أمور القلب هي الإيمان، هي التصديق، هي الإخلاص، هي الزهد في الدنيا، هي الزهد في كل ما سوى الله، هي حب الله، تعظيم الله، الخوف من الله ثم ينطلق الإسلام بعد هذا إلى الأعضاء والألسن والأقلام وما إلى ذلك.

أسأل الله أن يصلح حالنا، أسأل الله عز وجل أن يُصلح قلوبنا ليهدي أعضائنا وألسنتنا وأقلامنا.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.



٢٣- نعوذ بالله أن نعبد الله على حرف | ٢٠٠١/١١/١٦

إن المؤمن بالله حقاً هو ذاك الذي يمارس عبوديته لله عز وجل في السراء والضراء، يكون عبداً لله عز وجل في السراء بالشكر الدائم لله عز وجل، ويكون عبداً له في الضراء بالصبر والالتجاء الدائم والدائب إلى الله عز وجل، والمؤمن الحق هو ذاك الذي لا يبارح باب مولاه وخالقه في كل الأحوال، وفي كل التقلبات، يظل ملتصقاً باب الله مترامياً على أعتابه، إن كان في سراء يدعوه عز وجل أن لا يفقده الخير الذي أكرمه به، وأن يبقي له السعادة التي متعه بها، وإن كان في ضراء دعاه سبحانه وتعالى أن يكشف عنه ضره، والدعاء مظهر من أهم مظاهر العبودية لله عز وجل ولا ينفك الإنسان في كل أحواله عن الاحتياج إلى دعائه سبحانه وتعالى،

ومن المهم أيها الإخوة أن نعلم أن هناك فرقاً كبيراً بين الطلب وبين الدعاء، الطلب يصدر من ذاك الذي يتجه بطلبه إلى ند، يوجه طلبه إليه بناء على شرط اشترطه، أما الدعاء فهو ما يتعالى من العبد إلى الرب من مظاهر الإعلان عن ذله وافتقاره واحتياجه إلى مولاه وخالقه، بل من دلائل رضاه في كل الأحوال عن مولاه وخالقه، رضاه عن كل ما يفد إليه من ربه، هذا هو الدعاء، فرق كبير بين الطلب الذي قد يطلبه الإنسان، وبين الدعاء الذي يتجه به العبد إلى مولاه وخالقه، الدعاء كما ورد في الصحيح هو العبادة، وفي رواية هو (مخ العبادة) أي لب العبادة، والعبد لا يدعو ربه على حرف، أي على شرط، ولا يتجه إلى مولاه وخالقه في حالة دون أخرى.

بل العبد الصادق في عبوديته لله عز وجل يوطن نفسه، أن يظل عبداً لله، متمسكناً على باب الله عز وجل، إن أعطاه أو منعه، إن قبله أو رفضه، هكذا يكون العبد الصادق في عبوديته لله سبحانه وتعالى، أما ذاك الذي إن نظر فوجد أن النعم تهوي عليه من كل جانب، وأن الخير موفور بين يديه، اتجه إلى الله عز وجل بالرضا والشكر والقبول، أما إن وجد أن الخير قد ابتعد عنه وأن البؤس قد طاف به تبرم، وأعرض وتناسى

عبوديته لله عز وجل، فهذا إنسان يعبد نفسه، ولا يعبد مولاه وخالقه سبحانه وتعالى، وانظروا إلى قوله عز وجل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾

نعوذ بالله عز وجل أن نكون من هذا الصنف، نعوذ بالله عز وجل أن نكون ممن يعبد الله على حالة دون أخرى، وهذا معنى قوله على حرف أي على طرف، نحن أيها الإخوة عبيد لله في كل الأحوال، نلتجئ إليه كما التجأنا إليه صبيحة هذا اليوم، ليسقينا، لينجدنا، ليكرمنا، فإن أعطى فذاك شأنه، وتلك صفة من صفاته، وإن منعنا أو حرمنا فنحن عبيده على كل الأحوال، لن نبارح بابه.

ولسوف نعلن عن رضانا عن قضائه وقدره، دعائنا ليس مشروط بشرط، دعائنا دعاء العبد إذ يتقرب به إلى ربه وليس طلباً، وليس طلب ذاك الذي يتجه بطلبه، ويلحق طلبه بشرط أو بشروط، نعم نحن في كل الأحوال مملوكون لله سبحانه وتعالى، إن أعطانا فذالك ظننا به، وإن حرمنا أو منعنا أو طردنا فلن نلتجئ بعد ذالك إلا إلى بابه، نفر منه إليه ونعوذ من سخطه برحمته، ليس لنا باب غير بابه، سنظل عبيداً أوفياء لعبوديتنا لله عز وجل، فلا يقولن قائل ربما انتظر وانتظر أن يجد استجابة للدعاء الذي اتجهت به ثلة من عباد الله إليه فلم يجد مظهر استجابة فتبرم وقال: أين هي استجابة الله عز وجل لنا؟ وأين هي ثمرة التجائكم إلى الله عز وجل؟. لا يقولن قائل هذا.

أولاً: هذا شئننا بالنسبة لمولانا وخالقنا، وقد قال العلماء الدعاء مطلوب لذاته، أي على العبد أن يعلن عن فقره وحاجته وعن مسكنته دائماً، وفي كل الأحوال، ذالك لأن الدعاء يظهر هوية الداعي، يظهر هوية العبد، ويبين أنه حقاً عبد مملوك لله عز وجل، أرأيت إلى الذي يصف نفسه بالعبودية ويعلن عن هويته هذه، عندما يكرمه الله بالعطاء، ثم يعرض عنه ويتأبى على حكمه، عندما يبتليه الله عز وجل بالمحن أو بالمنع، هذا ولله عز وجل ابتلاءات يريد أن يتجلى صدق الصادقين، مع الله عز وجل، نحن شئننا أن نلتجئ إلى الله، ونملك حسن ظننا الدائم بالله، ولنا ثقتنا التي لا حد لها بحكمة الله وبرحمته وكرمه، فإن أعطى فذلك تفضل وإحسان، وإن منع فلحكمة والمنع من الله عطاء، تلك هي حقيقة نؤمن بها، وهذا هو شئننا مع الله سبحانه وتعالى.

أذكر أيها الإخوة أن مجلساً ضمني قبل سنوات، طويلة مع ثلة من الناس، وكان فيهم شاردون تائهون، من هؤلاء الذين كان يقال عنهم ماركسيون، كنت أنصح وكنت أذكر بالله، فقال أحدهم مستخفاً: كم هي المدة التي يمكن أن ننتظرها إن التجأنا إلى الإسلام؟ وإن تمسكنا بمبادئه، خلال أي مدة من الزمن نتحول من التخلف إلى التقدم ومن الفقر إلى الغنى ومن الهوان إلى العز؟ قلت له: إن كنت تشترط على الله سبحانه وتعالى، بإقبالك إليه فإن الله ليس بحاجة إلى إقبالك، ولله عز وجل أن يحرمك ويحرم عباده جميعاً، وأن يبتليهم بكل أنواع الشدائد و﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾.

أما إن كنت تعلم أنك عبد وأنك المملوك له وأنه ربك وعزمت على أن تتجه إليه عبداً في كل الأحوال وفي كل الظروف والتقلبات فأنا على يقين من أن الله سيكرمك، وإني لأسألك – قلت له – إنك إنسان شيوعي المذهب، هل سألت قادتك كم هي السنوات التي ينبغي أن أخلص لهذا المذهب إلى أن يتحقق الهدف الذي نسعى إليه ونصل إلى الفردوس المفقود الذي نبتغيه؟ أنا أعلم أنك لن تسأل هذا السؤال قادتك، لأن الشيوعية دين، والخاضع لهذا الدين لا يسأل، ونحن مصطبغون بدين حق، لنا مولانا الذي نحن عبيده، نوقن بما وعد ولا نشترط عليه تنفيذ ما وعد، هذه حقيقة أيها الإخوة، وينبغي أن تكون ماثلة أمام أبصارنا، ومع ذلك فدأبنا الدعاء ولن نبرح باب الله عز وجل، ندعوه تلك هي وظيفتنا أعطينا أم لم نعطى، تلك هي وظيفتنا، أما ربنا سبحانه وتعالى فهو يعلم، وهو أحكم الحاكمين، ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾.

أقول قولي هذا وأسأل الله العظيم أن يغفر لنا ذنوبنا، وأن يصلح أعمالنا، وأن يرزقنا صدق العبودية له.

٢٤- الإخلاص لله سبحانه وتعالى | ٢٠١١/١١/٢٥

قلت لكم بالأمس إن الإنسان إذا عرف ربه أحبه وإذا أحبه أحب عباده، وأقول لكم اليوم مضيفاً: إن الإنسان إذا عرف ربه أحبه وإذا أحبه أخلص له في توجهه إليه وفي انقياده إلى الأوامر التي وجهها إليه. أحدثكم اليوم عن هذه الثمرة العظمى من ثمرات معرفة العبد لمولاه وخالقه سبحانه وتعالى.

الإخلاص – يا عباد الله – الإخلاص لله عز وجل يعني أن يقبل المسلم إلى الالتزام بأوامر الله والانتهاء عن نواهيه لا يبتغي بذلك إلا بلوغ مرضاته واتقاء سخطه، ذلكم هو باختصار معنى الإخلاص لله سبحانه وتعالى، وهذا يعني أن من أقبل إلى الله عز وجل بكثير من الصلاة وبكثير من الصيام وبكثير من الحج والمناسك ولكن قلبه كان فارغاً عن هذا الإخلاص لله سبحانه وتعالى فلن يرى عاقبة عباداته هذه إلا ما قد وصف الله إذ قال: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُوراً﴾ [الفرقان: ٢٣].

من أجل هذا يركز البيان الإلهي مكرراً ومؤكداً على ضرورة الإخلاص لله عز وجل، يقول: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥]. ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَّهُ دِينِي﴾ [الزمر: ١٤]. ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: ٢].

وكلما كرر ونبه إلى ضرورة الإيمان بالله عز وجل والالتزام بأوامره قيَّدَ ذلك بضرورة الإخلاص لوجهه وحذر من أن هذا الإخلاص إذا غاب لابد أن يُزَجَّ صاحبه في لون من ألوان الشرك، وصدق الله القائل: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦].

وإنك لتنظر في كتاب الله وتتأمل فتجد أنهما كفتان من صفتين لا ثالث لهما، إما أن يكون الإنسان صادقاً في إيمانه بالله وإقباله إلى أوامره فهو المخلص له، وإما أن يغيب الصدق والإخلاص إذاً هو النفاق، هكذا يبين لنا كتاب الله سبحانه وتعالى.

عباد الله: إننا عندما ننظر إلى الفتن التي تجتاح المسلمين في بلادهم لأي سبب من الأسباب، من ذلك هذا الذي نمر به في هذه المرحلة التي نراها ونتقلب فيها، هذه الفتن من شأنها أن تمحص المنافقين

وأن تميزهم من المؤمنين المخلصين الصادقين مع الله عز وجل، وقد ورد عن المصطفى صلى الله عليه وسلم أنه قال: ﴿لا تكرهوا الفتن فإن فيها حصادَ المنافقين﴾.

إذا ادلهمت الفتنة استيقظ الإنسان إلى غاياته، إلى مصالحه الذاتية، فإن كان قلبه خالصاً عن هيمنة الإيمان لله والإخلاص لله عز وجل سعى لاهثاً يبحث عن مغانمه وغاياته ورغائبه ومصالحه الشخصية، وجعل من هذه المصالح والمغانم والغايات قائداً في حياته، وجعل من دين الله عز وجل تابعاً ذليلاً لمصالحه تلك. تأملوا تجدون مصداق هذا الذي أقوله لكم يا عباد الله.

وأما الإنسان الذي هيمن الصدق على قلبه والذي دخل الإخلاصُ لله عز وجل في شغاف فؤاده فلا يذكر أثناء وجود الفتن أياً كان نوعها إلا ما يرضي الله سبحانه وتعالى، يجعل من مغانمه وغاياته الشخصية ومصالحه الذاتية ضحية لتنفيذ أوامر الله، يجعل من ذلك كله أرضاً يدوسها سعياً إلى بلوغ مرضاة الله سبحانه وتعالى.

والآن تعالوا ننظر إلى مصداق هذا الذي أقوله لكم، بل هذا الذي رُوِيَ عن المصطفى صلى الله عليه وسلم ﴿لا تكرهوا الفتن فإن فيها حصادَ المنافقين﴾.

ننظر إلى مجتمعنا العربي الإسلامي فنجد مسلمين يتسابقون إلى بناء المساجد ويتبارون في رفع المآذن، وتنظر إلى هؤلاء المسلمين، إنهم مسلمون ويرسلون عن طريق كل حدب وصوب الأسلحة المتنوعة المختلفة إلى عصابات من أجل أن يستحر القتل بين المؤمنين الأشقاء، ومن أجل أن تتحول المودة والوئام إلى عداوة وخصام.

مسلمون وتنظر فتجد أنهم يبعثون عبر الأنفاق الخفية المختلفة مئات الملايين من الأموال ليتقاسمها المِسْتَأْجَرُون على القتل والتخريب والتقطيع والإحراق.

مسلمون وتنظر فلا تكاد عيناك تصدق ما ترى، وتصغي السمع فلا تكاد أذناك تصدقان ما تسمع.

مسلمون ويطرقون بالذل والمهانة أبواب العدو – عدو الله وعدوهم، عدو المؤمنين – يناشدونهم التدخل، يناشدونهم أن يأتوا فيتربعوا على كراسي الحكم والقيادة والولاية، يناشدونهم أن تكون إليهم حلول المشكلات.

مسلمون ويلاحقهم بيان الله سبحانه وتعالى في قرآنه ناصحاً، موصياً، آمراً، محذراً يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاء مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ١١٨].

يلاحقهم بيان الله موصياً، ناصحاً، آمراً، ناهياً يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: ١].

يلاحقهم بيان الله عز وجل محذراً يقول: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً * الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ العِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً﴾ [النساء: ١٣٨-١٣٩].

يلاحقهم بيان الله مكرراً مؤكداً ولكنك تنظر فتجد أن هؤلاء المسلمين معرضين متناسين لبيان الله الذي يناشدهم ويلاحقهم، تنظر فتجدهم مستكبرين على أوامر الله، مستكبرين على وصاياه ونصائحه، يصرون إصرارهم على أن تكون الولاية لهؤلاء الأعداء – أعداء الله أولاً وأعداء عباد الله المؤمنين بالله ثانياً – يصرون إصرارهم على أن تكون الولاية لهم من دون المؤمنين.

هذا الذي أقوله لكم ثمرة ماذا؟ ثمرة غياب الإخلاص لوجه الله سبحانه وتعالى.

ليست العبرة في ميزان الله عز وجل يا عباد الله بأن يتحرك لساني بكلمات الإسلام وشعاراته، وليست العبرة بأن يتحرك كياني بتطبيق مبادئ الإسلام صلاة، صوماً، حجاً إلى آخر ما هنالك ولكن العبرة بما في هذا القلب، العبرة بالإخلاص الذي ينبغي أن يحتضنه الفؤاد. لما غاب الإخلاص لله وتحول الإسلام إلى كلمات تتردد على الألسن غابت حقيقة الإيمان من القلوب وأصبحت صبغة كاذبة تصطبغ بها الألسن فكان هذا الذي ترون مما لا يكاد تصدقه العين إن رأت، ومما لا يكاد تصدقه الآذان إن سمعت، نعم يا عباد الله.

أما نحن – لا أقول الذين أقامنا الله فوق هذه الأرض المقدسة بل أقول – أما نحن الذين اجتبانا الله عز وجل وأقامنا من الدنيا كلها فوق هذه الأرض المقدسة فلن نخون العهد، لقد قال كل واحد منا بلسانه وقال ذلك بقلبه قبل لسانه: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف:١٩٦].

عهد قطعناه على أنفسنا تجاه الله عز وجل، لن نخون العهد، لن نرجع عن هذا العهد ما حيينا، سنلقى الله وقلوبنا تخفق بهذا الذي آمنا به وعاهدنا الله عليه وألسنتنا تردد ذلك.

لا، لن نخون العهد، لن نتخذ من أعداء الله وأعدائنا أولياء لنا نذل لهم، أرضنا المباركة، شامنا التي باركها الله سنكون حراساً لها، لن ندع شبراً منها تتدنس بعدو من أعداء الله عز وجل يأتي من وراء البحار ليستذلنا وليدنس أرضنا التي باركها الله قبل أن ننتشي ببركتها. نحن الذين اجتبانا الله عز وجل وأقامنا من الدنيا فوق هذه الأرض المباركة، سنكون حراساً لدينه.

أول سلاح نمارسه في حراسة دينه أتعلمون ما هو؟ هو سلاح الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأعظم به من سلاح ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

لسوف نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر في أبهاء الأمراء والحكام، وهذا ما نفعله، لسوف نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر في قاعات السلاطين وأمام كراسي الحكام، وهذا ما نفعله اليوم، وهذا ما أمرنا به الله عز وجل.

ومن هنا فإن دولتنا الإسلامية تولد اليوم من جديد، وإني أقولها — وأنا أعلم أن في الناس من يفرح وينتشي بما أقول وفيهم من يتميز غيظاً بهذا الذي أقول: إنها دولة إسلامية يا عباد الله، ولسوف يعلن دستورها عن مزيد من هذه الهوية الإسلامية لهذه الأمة، ولسوف نكون رقباء، ولسوف نكون حراساً لدين الله عز وجل ما حيينا، هذا هو جهادنا، هكذا أقامنا الله سبحانه وتعالى، وإننا لنأمل أن نكون ممن قال الله عز وجل عنهم: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

ندعو إلى الله لا من مستوى فوقيٍّ أبداً أبداً، لا نباهى بعلمٍ تفضلنا أو زدنا به على من ندعوهم إلى الله عز وجل، بل ندعو إلى الله، نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر وكلنا يقين بأن هذا الذي ندعوه ربما أصبح غداً خيراً مني ومن كثيرٍ من الدعاة إلى الله عز وجل.

أنا أدعو إلى الله نعم ولكنني أخشى من مكر الله ﴿فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

أقامني الله آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر لكن ما أدري إلام تنتهي نفسي به إليه وأي المنزلقات أجدها أمامي هل أستطيع أن أنجو منها أم لا؟ أدعو إلى الله وأنا أحذر على نفسي من التيه بعد الرشد، أدعو إلى الله التائهين وأنا أتصور أن هذا التائه ربما كان غداً خيراً مني، وما أكثر ما رأينا، ما أكثر ما رأينا أناساً عاشوا صدر شبابهم تائهين عن الرشد ثم أصبحوا في مقدمة الربانيين من عباد الله، وهل نسيتم من كان بشرٌ الحافي، وهل نسيتم من كان الفضيل بن عياض، وما أكثر الناس الذين يعيدون سيرة بلعام بن باعوراء، دعا وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر معتزاً معتداً بثقافة إسلامية ورثها في يوم من الأيام ثم إن الكبر زجه في حالة من التيه والبعد عن الله، ونظر وإذا هو يطأطئ الرأس لولاية أعداء الله عز وجل له.

تلك هي سنة الله، نسير في غمار هذه الحقيقة حراساً لأرضنا المباركة، حراساً لديننا، آمرين بالمعروف، ناهين عن المنكر بالصراحة وبالحكمة اللتين أمرنا بهما الله عز وجل، لا نوقف ألسنتنا عن هذه الوظيفة أمام أكبر القادة والحكام – وهذا ما نفعله، وهذا ما يجب على كل مسلم أن يفعله – إن سُئِلْنَا عن الجهاد فهذا هو جهادنا، وإن سُئِلْنَا عن حراسة الأرض والعرض والدين فهذه هي حراستنا، وإن سُئِلْنَا عن الشرف الذي نتمتع به فإنما هو شرف حراسة هذه الأرض المباركة من أن تدنسها قدم إنسان أعلن عن عداوته لله وعداوته لعباد الله عز وجل.

لا، لن ندع العدو المشترك يدخل فيما بيننا ليكون هو الحكم علينا، لا، لن نفعل ذلك. على هذا نعيش، وبهذا المبدأ نموت، وعلى هذا المنهج نلقى الله سبحانه وتعالى، وموعدنا وموعد الذين آثروا التيه وآثروا الذل وآثروا الإعراض عن وصايا الله عز وجل ومد اليد – يد الهوان والذل – إلى أعدائهم وأعداء مولاهم وخالقهم، موعدنا معهم يوم يقوم الناس لرب العالمين. عندئذٍ، سوف ترى إذا انجلى الغبار هذه هي الحقيقة التي ينبغي أن نعلمها، أجل سوف ترى إذا انجلى الغبار أفرس تحتك أم حمار. أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.



٢٥- الخلاص هو الذي ننشده اليوم | ٢٠١٢/٠٤/٢٧

إن الله لا ينظر إلى صور الطاعات والعبادات والأعمال الصالحة إذ تتجلى في مظاهر عباده المؤمنين وإنما ينظر الباري سبحانه وتعالى إلى جذور هذه الأعمال والطاعات، ينظر إلى جذورها المستكنة في طوايا القلوب والتي تمثل القصود التي دفعت أصحاب تلك الأعمال إلى تنفيذ ما فعلوا، هذا ما ينظر إليه ربنا سبحانه وتعالى، فإن علم أن القصد المستكن في طوايا قلب هذا الإنسان العامل المقبل على الطاعات وعلى الأعمال الصالحة إنما يتمثل في استنزال رضا الله سبحانه وتعالى من عليائه صافياً عن الشوائب، نقياً عن الأدران، خالياً عن الأهداف والرغائب الأخرى، حقق الله له ثمرات أعماله في الدنيا وأجزل له الأجر على ذلك في العقبى يوم يقوم الناس لرب العالمين، وأما إن علم الله عز وجل أن بواعثه وقصوده المستكنة في طوايا قلبه إنما تتمثل برغائب دنيوية، بمال يريد أن يقتنصه، بمناصب يريد أن يمتطي السُّلَّمَ إليها، بأهداف سياسية يريد أن ينالها فإن الله عز وجل يمحو أعمالها كلها ويجعله مصداق قوله سبحانه: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُوراً﴾ [الفرقان: ٢٣].

وهذا الذي أقوله لكم هو الذي يعبر عنه البيان الإلهي في كثير من آي كتابه المبين بالإخلاص، من مثل قوله: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء﴾ [البينة: ٥].

والآيات التي تقرن الدين سلوكاً بالإخلاص قصداً آيات كثيرةٌ في كتاب الله عز وجل: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: ١٤].

ودعوني يا عباد الله أضعكم أمام طائفة من الأمثلة تفرق بين الإخلاص المستكن في طوايا القلوب والذي يطلع عليه مولانا وخالقنا عز وجل ذاك الذي يعلم السر وأخفى، تعالوا نستعرض طائفة من الأمثلة تبين لنا الفرق بين هاتين الحالتين، رجل مدين وقد حان وقت السداد، نظر فوجد الدائن يقبل إليه من بعيد، ترك محله وهُرِعَ إلى أقرب مسجد وراح يمارس سلسلة من النوافل يصليها ابتغاء أن يتخلص من الدائن الذي حان وقت سداده، والرجل مليء يستطيع أن يوفي حقه، هذه عبادة، أفينظر مولانا وخالقنا إلى مظهرها أم ينظر إلى الجذور المستكنة في طوايا نفس المصلي؟ ينظر إلى الجذور، ولذلك فإن هذا العمل

عبادة في الظاهر لكنه ليس كذلك في ميزان الخالق سبحانه وتعالى. عامل في معمل – يشتغل في معمل – أذن للظهر، ترك عمله واعتبر أنه متجه إلى أداء صلاة الظهر – وذلك حق بل واجب – أقبل إلى الميضئة فأطال الوضوء ما طاب له أن يطيل ثم أقبل إلى الصلاة فأطالها ركعات وركعات، ولما انتهى انتحى مكاناً ظليلاً وراح يقرأ ما يشاء من الأوراد، وربما يقرأ بعضاً من القرآن، هذا العمل في الظاهر عباده لكن أفينظر الله عز وجل إلى صورتها أم ينظر إلى القصد المستكن في أعمال فاعلها؟ مولانا يعلم السر وأخفى، ينظر إلى القصد المستكن من ثم فإن هذا الإنسان لا يُجزى لا الجزاء الأوفى ولا دون الأوفى، ولعله ممن يصدق عليه قول الله عز وجل: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُوراً﴾ [الفرقان: ٢٣].

رجل من هؤلاء الناس الذين تعلقت الهواية السياسية بأنفسهم، يريد أن يسلك أي سبيل للوصول إلى أهدافه السياسية، نظر فوجد أن الناس من حوله يتأثرون بالعاطفة الدينية وأن جلهم ملتزمون يُؤخذون بحديث الدين والدعوة إلى الدين والحديث عن مشاريع تطبيق القيم والمبادئ الإسلامية، يتخذ من عواطف هؤلاء الناس أقصر طريق إلى ما يبتغي ويتخذ من حديثه معهم ووعوده لهم سلماً ليصل إلى ما يبتغيه من أهدافه السياسية، هذا الإنسان لاشك أنه في مظهره داعٍ إلى الله يتحدث عن أوامر الله ويحذر عن نواهيه ويظهر الغيرة على حرمات الله ولكن أفينظر الله عز وجل إلى كلماته وإلى صورته وأعماله؟ لا بل ينظر إلى القصد المستكن في طوايا قلبه. أأزيدكم على هذه الأمثلة أيها الإخوة؟ أحسب أننا جميعاً نعلم الفرق بين الصورتين، الإخلاص لله سبحانه وتعالى هو الروح الذي إن وجد سرت في الأعمال الصالحة والعبادات والمبرات كلها، ورحم الله ابن عطاء الله السكندري القائل: الأعمال صور قائمة وأرواحها وجود سر الإخلاص فيها.

ولعلكم تسألون: فما السبيل إلى أن نطهر قلوبنا من الشوائب والأدران والأهداف المنافية للإخلاص؟ ما السبيل إلى أننا إن أقبلنا إلى الله عز وجل لا نخلط قصدنا إليه بفائدة دنيوية، برغبة من رغائب النفس، بشهوة من شهوات أهوائها؟ السبيل إلى ذلك يا عباد الله أن نوقظ مشاعر محبتنا لله عز وجل، وأقولها باختصار.

أولاً: إذا هيمنت محبة الله عز وجل على قلب المؤمن طردت هذه المحبة من قلبه كل ما سوى الله، طردت من قلبه الدنيا، طردت من قلبه المال والدرهم والدينار، طردت من قلبه أهدافه السياسية التي يبتغي

إليها وأصر على أن يجعل السياسة خادماً لدين الله لا أن يجعل من الدين خادماً للسياسة. ولكن كأني بكم تسألون فكيف السبيل إلى أن نوقظ محبتنا لله عز وجل بين الجوانح؟

أقول أيها الإخوة باختصار – وهذا ما أدعو إليه نفسي، وهذا ما أعالج به نفسي الأمارة بالسوء – سبيل ذلك أن نربط دائماً النعم التي تفد إلينا من الله بالمنعم، وأنتم تعلمون أنه ما من لحظة في حياة الإنسان إلا وهو يستقبل نعمة وفدت إليه من رب العالمين، كلكم يعلم أنه في كل لحظة من لحظات أعمارنا نستقبل رسائل الحب من الله عز وجل ممثلة في هذه النعم، المصيبة أننا إذ نستقبل هذه النعم نجعل منها حجاباً دون رؤية المنعم، نذكر النعمة وننسى المنعم، لا نذكره، سبيلنا إلى إيقاظ جذوة المحبة لله بين جوانحنا أن نربط نعم الباري سبحانه وتعالى بذاته العلية، دعوني أضعكم أمام صورة، وأرجو أن تكون هذه الصورة نموذجاً نطبقه، جاء وقت المساء وجاءت ساعة الامتداد على الفراش لأرقد وتمددت على الفراش أستقبل نعمة الرقاد، ينبغي أن أتذكر هذه النعمة من أين تأتي، من الذي يرسلها إلي لتهدأ أعصابي بعد تعب وبعد شدة؟ هو الله، أربط هذه النعمة بالمنعم، وأقول بين يدي رقادي ما كان يقول رسول الله ولا أطيل. واستيقظت وعادت الراحة وعاد النشاط إلى الجسم، من الذي أيقظني يا أخي؟ من الذي أعادني إلى هذه الحياة التي كنت أتمتع بها؟ هو الله، تذكر ذلك، قل: الحمد لله الذي أحياني بعد ما أماتني وإليه النشور.

دخلت الحمام، اذكر من الذي ينجيك من هذه السموم، من الذي يطهرك لا منها بل من عقابيلها أيضاً، من؟ هو الله عز وجل أليس كذلك. خرجت من الحمام ووقفت أمام الميضأة، نظرت إلى هذه المادة العجيبة التي تسمى الماء، لو كان لها لون، لو كانت لها رائحة لما استطاعت أن تنفذ مهمتها وخدمتها لك، ولكن انظر إلى حقيقتها وإلى الصفات التي أقامها الله فيها لكي تكون أداة لتطهيرك، لو حرمت من هذا الماء ثمانياً وأربعين ساعة ستتأ لم ولسوف تتقزز من نفسك.

جلست على مائدة الطعام، انظر إلى هذا الطعام ألواناً من أين انبعثت هذه الألوان، من السماء التي أمطرت ومن الأرض التي أنبتت ومن الأنعام ضروعاً وألباناً ولحوماً، هل هنالك مهما تفنن الناس في الأطعمة مصدر آخر؟ من أين جاءت هذه الأطعمة ووضعت بين يديك، من الذي سخر لك سماءه التي

أمطرت وأرضه التي أنبتت، من الذي سخر لك الأنعام لحوماً وألباناً؟ إنه الله، اذكر، كلما جاءتك نعمة اربطها بالمنعم.

وقفت أمام المرآة وتأملت في العافية التي يكرمك الله عز وجل بها اربطها بالمنعم.

أيها الإخوة: والله الذي لا إله إلا هو إن لم تمسخ إنسانية الإنسان إلى شيء آخر وعاش يربط النعم بالمنعم لسوف يعشق الله سبحانه وتعالى. فإذا تفجرت مشاعر حبك لله بين جوانحك بهذه الطريقة التي هي أبسط وأيسر طريقة لذكر الله سبحانه وتعالى فإن قلبك يصبح ملكاً لمولاك وخالقك وإن محبة الله تهيمن على قلبك، من هذا الذي يستطيع أن يتسرب إلى قلبك ليشاركك في محبة الله؟ لا الدنيا تستطيع ذلك ولا أهدافك السياسية تستطيع سبيلاً إلى ذلك نهائياً، هذه هي الحقيقة وهذا هو الدواء يا عباد الله.

مشكلاتنا كلها تحل، مصائبنا كلها تزول، يعود فيجتمع الشمل، نعم تزول الخصومات بهذا الدواء الذي أقوله لكم، بهذا الدواء الذي أحدثكم عنه، لكن يا أيها الإخوة إن مصيبة المصائب أننا نتعامل مع الشرائع الشكلية التي خاطبنا الله عز وجل بها ولكننا لا نتعامل مع الجذور، لا نتعامل مع القصود، لا نراقب أنفسنا، أفنقصد فيما نسلك إليه مرضاة الله؟ أفنهدف في أعمالنا المختلفة المتنوعة استنزال رضا الله سبحانه وتعالى؟ تلك هي المصيبة. وأحسب أن كثيراً من المسلمين اليوم يتعاملون مع الله عز وجل من خلال شعارات الإسلام، يتعاملون مع الله عز وجل من خلال التقاليد التي تسمى عبادات، هي ليست عبادات وإن كانت في أصلها عبادات لها جذور في القلب، نعم، ومن هنا رأينا من يغير ويبدل في شرع الله عز وجل، من هنا رأينا من يجعل من عملية الفتوى أداة خادماً ذليلاً للمصالح السياسية، للألوان السياسية المتقلبة. ألا ترون. من هنا ننظر فنجد هنالك من يتلاعب بشرع الله كما يتلاعب هؤلاء الرياضيون بالكرة ويتقاذفونها فيما بينهم، لست مبالغاً.

بالأمس في عام ٢٠٠٦ بالضبط وفي شهر آب بالضبط أحد الدعاة الكبار قام يتكلم في مؤتمر وفي مناسبة قام فقال: إن على حكام المسلمين وملوكهم في أقطار الأرض كلها أن يطهروا فلسطين من بحرها إلى نهرها من اليهود، واليوم أسمعه وأمثاله يقول: إن إسرائيل أصبحت حقيقة واقعة ومن ثم فإن علينا أن نعالج هذه المشكلة على ضوء كونها أمراً واقعاً.

أنظر فأجد من يفتي بالأمس بحرمة الربا بأشكاله التي حرمها الله عز وجل وأسمعه وأمثاله اليوم وإذا بهم يقولون: بل إن الحرمة زالت وأصبح المحرم بالأمس مباحاً اليوم. ما المصيبة أيها الأخوة؟ مصيبة هذا الذي أقوله لكم. لو أن الإخلاص وجد لاسترحنا جميعاً، ولن يوجد الإخلاص إلا إذا هيمنت محبة الله على قلوبنا، لو هيمنت هذه المحبة على قلوبنا لرأينا الأسرة الإنسانية تحولت إلى مثالٍ عالٍ لقول الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠].

إذاً لن نجد من يغمض عينيه عن قول الله عز وجل: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً﴾ [النساء: ٩٣].

لن نجد أيها الإخوة من يغمض عينيه عن كلام رسول الله القائل: ﴿من خرج من أمتي على أمتي يضرب برها وفاجرها ولا يتحاشى مؤمنها ولا يفي بذي عهدها فليس مني﴾.

ترى لو أن محبة الله عز وجل هيمنت على قلوبنا أفنعمي أبصارنا عن كلام رسول الله هذا وهو حديث صحيح لا إشكال فيه؟ أفنعمي أبصارنا عن كلام الله هذا وبدلاً من أن ننغض الرأس لننفذ شرع الله عز وجل نرسل المال ونرسل الأسلحة ونجند المرتزقة ونقول لهم اضربوا عن يمين وشمال ودون أي ضابط ودون أي نظر إلى شرع الله وميزانه.

الإخلاص يا عباد الله هو الذي ننشده اليوم وأسأل الله عز وجل ألا يميتنا إلا ونعمة الإخلاص مهيمنة على قلوبنا حتى نجد من هذا الإخلاص شفيعاً لنا إذا وقفنا بين يديه.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

٢٦- الإخلاص... تلك القيمة القرآنية المنسية اليوم | ٢٠١٢/١٠/٠٥

كلمة قدسية ذات دلائل محورية في كتاب الله سبحانه وتعالى غدت اليوم منسية وغريبة لاسيما في مجال الناشطين لأعمال الدعوة الإسلامية لاسيما في مجال أولئك الحاملين لهموم إقامة المجتمع والدولة الإسلامية، هذه الكلمة القدسية الهامة في كتاب الله عز وجل هي كلمة الإخلاص التي نقرؤها مكررة في كتاب الله سبحانه وتعالى والتي يبرز لنا بيان الله مدى أهميتها وينبهنا إلى أنها عنوان خفي يضمن قبول الطاعة التي يتقرب بها الإنسان إلى الله وأنها الروح التي تسري في أعمال الإنسان المؤمن فتجعلها تنبض بمعاني القبول وتجعلها تسري بإقامة العلاقة الإنسانية السليمة والسامية بين الناس بعضهم مع بعض، تلك هي الكلمة القدسية التي أعود فأقول: إنها غدت اليوم غريبة بل منسية في كثير من مجتمعاتنا لاسيما تلك التي تنشط لأعمال الدعوة الإسلامية، ولكن ما هو الإخلاص يا عباد الله؟ الإخلاص بكلمة موجزة يعني الصدق مع الله عز وجل.

وبعبارة أخرى: الإخلاص لله عز وجل هو أن تبتغي في عملك غاية واحدة لا ثانية لها قط هي بلوغ مرضاة الله عز وجل دون أن تمتزج هذه الغاية بأي غاية تشركها، هذا هو الإخلاص وهذه هي الحقيقة التي إن غابت تحولت أعمالنا كلها إلى أشكال لا مضمون فيها، إلى رموز لا معنى لها، ولعلكم ترون وتلاحظون هذه المغبة أو هذه الآفة لغياب معنى أو حقيقة هذه الكلمة القدسية، ما أكثر المظاهر التي يُفْتَرَض أنها طاعات يتقرب بها إلى الله تتأمل وتنظر فلا تجد لها مضموناً، وما أكثر الطاعات التي يفترض أن مضمونها إنما هو التوجه إلى الله عز وجل لاستنزال رضاه ورحمته وقبوله ولكنك تتأمل فتجد أن مضمون هذه الطاعات إنما هو الرغبة في تحقيق شهوة، الرغبة في تحقيق هوى من الأهواء، الرغبة في التنفيس عن حقد أو ضغينة، الرغبة في تغذية عصبية من العصبيات، تلك هي الطاعة في صورتها وهذا هو مضمونها.

أو ربما تجد أن الطاعات التي شرعها الله عز وجل والأوامر التي خاطبنا بها تجد أن يد العبث تعثو بها، تُغَيِّرُ منها وتبدل لحاقاً بالسياسة المطلوبة، لحاقاً بالمصالح الآنية التي يحلم بها أصحابها وهذا ما قد عنيته بالأمس عندما قلت: إن الإسلام في عصر السلف كان هو الحاكم على السياسة أما اليوم فقد

غدت السياسة هي الحاكم على الإسلام، يُوَجَّهُ الإسلام اليوم حسبما تقتضيه الرعونات السياسية، كل ذلك يا عباد الله إنما كان من نتيجة مصيبة واحدة هي غياب هذا السر، الإخلاص لوجه الله سبحانه وتعالى، وأقول لكم بهذه المناسبة: لقد دُعِيتُ في حياتي إلى كثير من الندوات والمؤتمرات واستجبت لِجُلِّهَا أو أكثرها ولكني لا أذكر أن المؤتمرين الداعين فكَّرُوا يوماً ما أن يجعلوا من مسألة الإخلاص عنواناً لمؤتمراتهم أو جزءاً من البحوث والتدخلات التي تسري إلى أبحاثهم ولقاءاتهم لا، ذلك لأن هذه الندوات والمؤتمرات إنما يبتغى بها المظهر والشكل والتسابق إلى النتائج والإخلاص شيء خفي، لا فائدة ترجى من عقد مؤتمر يُنْفَقُ عليه وتكون حصيلته البحث في شيء اسمه الإخلاص، هذه حقيقة ينبغي أن نتبينها بل هي تمثل المصيبة الكبرى التي نعاني منها.

لو أن الإخلاص لوجه الله عز وجل تم إذاً لما وجدنا أنفسنا وقد أُلْجِئْنَا إلى هذه المحنة التي نعاني منها، لو أن الإخلاص لوجه الله عز وجل تم في لقاءاتنا وعلاقاتنا ومجتمعاتنا وعلاقتنا مع الجوار إذاً لغابت هذه المصيبة قط، ألا ترون أننا نُغْزَى اليوم باسم الجهاد في سبيل الله، ألا ترون أن هذه الكلمة تتكرر على أسماعكم كثيراً، جهادٌ في سبيل الله وحصيلته أن القتل يُسْتَحَر بالمؤمنين بالله، أن القتل يستحر بعباد الله عز وجل البرآء الآمنين، جهاد في سبيل الله وحصاده الدمار والإفساد وقد أمر الله عز وجل بإصلاح الفساد، ترى لماذا نرى مظهر هذا التلاعب بالقيم الإسلامية ومبادئ هذا الدين، أين الاسم من المسمى؟ لماذا؟ لأن الإخلاص غائب ولأن التعامل إنما هو مع العناوين ولأن المبتغى من التعامل مع العناوين أمور دنيوية، تغذية لأحقاد، تغذية لعصبيات، تحقيق لسياسات، هذه هي الحقيقة ولكن أفكان لذلك كله أن يوجد لو أن حقيقة الإخلاص الذي تدل عليه هذه الكلمة القدسية لو وجدت هذه الحقيقة في طوايا القلوب؟! لا يا عباد الله.

والآن تعالوا نتساءل: ما السبيل إلى أن نغرس في كينونتنا ووجودنا نعمة الإخلاص لله عز وجل وقد عرفتم معناها؟ لكي أجيب عن هذا السؤال أذكركم بما قد قلت في تعريفه: الإخلاص هو صدق التعامل مع الله أو هو أن لا تبتغي في طاعاتكم التي تنفذ بها أمر الله عز وجل إلا غاية واحدة ألا وهي استنزال رضوان الله عز وجل لك، إذاً مكان الإخلاص إنما هو القلب، لأن القصد لا يستكن إلا في القلب وإن الصدق لا يوجد إلا في طوايا الفؤاد، ولكن القلب تتسابق إليه نوازع وشرور كثيرة شتى، القلب مطمع

للشهوات والأهواء، القلب مطمع للعصبيات والرعونات، القلب مطمع للأحقاد والضغائن كل ذلك يحاول أن يستعمر القلب ويحتل جنباته، فإذا سبقت هذه الأسباب واحتلت زوايا القلب لم يبق فيه مكان للقصد الذي يبتغى به وجه الله، لم يبق في القلب مكان للصدق مع الله عز وجل لأن القلب استُعْمِرَ ومن ثم تتحقق الطاعات مظاهر وأشكالاً ولكن الذي يقودها هذا الذي استَعْمَرَ الفؤاد والقلب، الذي يقودها الأحقاد، الذي يقودها الضغائن، الذي يقودها الشهوات والأهواء، أما كتاب الله الذي ينادي ثم ينادي ويكرر يلفت النظر إلى ضرورة أن نجعل من الإخلاص مضموناً لطاعاتنا، روحاً لعباداتنا فالناس في شعل شاغل عن ذلك ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

فاعبد الله ولا تشرك به شيئاً، الباري سبحانه وتعالى ترجم هذا الإخلاص بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾ [الكهف: ١١٠].

الناس في شغل شاغل عن هذا النداء، لو كان الإخلاص موجوداً إذاً لتلاقت الصور مع المضمون ومن ثم لتحقق المطلوب ولتجلى الله سبحانه وتعالى علينا بالرحمة، أعود فأقول: كيف السبيل إلى أن نتحقق بالإخلاص؟ قلت أن المشكلة هي أن الشهوات والأهواء والعصبيات والرعونات تكون في كثير من الأحيان هي السباقة إلى احتلال القلب، فإذا أردت أن تجعل الصدق مع الله جعل له مكاناً في القلب لا تجد، وإذا أردت أن تجعل من قصدك السليم في طاعاتك مكاناً في قلبك لا تجد، ما السبيل؟

السبيل يا عباد الله هو شيء واحد، أن تلجأ إلى وسيلة لا ثاني لها، تطرد بها هذه الآفات التي استعمرت فؤادك، أتعلمون ما هي هذه الوسيلة التي تستطيع بها أن تنقي قلبك من هذه الآفات وأن تطهره لاستقبال مقاصد الإخلاص؟ إنه الحب، محبة الله سبحانه وتعالى، ولكنك ستسأل فمن أين أستطيع أن آتي بمحبة الله عز وجل؟ الوقت يضيق عن إجابة مفصلة ولكني أضعكم أمام ثلاثة أسباب إن تحققنا بها فاضت أفئدتنا حباً لله سبحانه وتعالى.

السبب الأول: أن نتذكر أن المحسن الأوحد في حياتك يا ابن آدم إنما هو الله، تذكَّر هذه الحقيقة وتفاعل معها دائماً، سائل نفسك من الذي يجعل الأنفاس الصاعدة والهابطة مستمرة على نهجها السليم،

سائل نفسك من الذي يطعمك ويسقيك، يجعلك لا تغص باللقمة تضعها في فيك، يجعلك لا تغص بالجرعة من الشراب تضعها في فمك، من ذا الذي ينيمك إذا اضطجعت، من ذا الذي يوقظك إذا انتهت حاجتك إلى الرقاد، من ذا الذي يطهرك من الآفات إذ تدخل الحمام، من الذي سخر لك سماءه وأرضه وأنعامه، من الذي ذلل لك الحيوانات ولولا أنه ذللها لما استطاعت قرية واحدة أن تروض حيواناً من هذه الحيوانات ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٧١-٧٢]

من الذي أكرمك بفاكهة الشتاء التي تناسب شتاءك؟ من الذي يكرمك بفاكهة الربيع تلك التي تناسب ربيعك؟ من الذي يكرمك بفاكهة الصيف التي تتناسب مع حرارة صيفك اللاهب وتفاعله مع حاجاتك؟ من هذا الذي جعل لك من الأرض رزقاً في ظاهرها ونعمة في باطنها؟ من؟ أليس هو الله، هل من شك وريب في ذلك، سخر لك هذه المكونات كلها لك أنت، والقاعدة تقول أن الإحسان يستعبد الإنسان، ولاشك أنك إن عرفت أن الله سبحانه وتعالى هو المحسن إليك لابد أن تحبه ولابد أن يتجه قلبك بالحب له، لكن فكر وأدم هذا التفكير تجد أن فؤادك قد اتجه بالحب إلى الله.

العامل الثاني: هو حب الإنسان لنفسه، أليس هذا من الأمور البدهية، هل من ريب في أن كلاً منا يحب نفسه ويحاول أن يجمع الوسائل التي تضمن بقاءه آمناً مطمئناً معافى، أليس كذلك؟ فمن هو الذي يحقق لك هذه الأمنية، من الذي يجعلك في مأمنٍ من الرزايا، من الآفات، من هو هذا الذي يبعد الجراثيم التي تفيض بها الدنيا بل تفيض بها الأجواء التي من حولك، من هو هذا الذي أقام في كيانك سراً لا يعلمه لا الأطباء ولا غير الأطباء وإنما يعبرون عنه بلغز لا يستطيعون أن يشرحوه ألا وهو المناعة، من هو الذي غرس في كيانك المناعة؟ أليس هو الله؟ فمن أحب نفسه أحب الله الذي يحمي نفسه من الآفات.

العامل الثالث: أنك تنظر وتتأمل فتعلم يقيناً وأنت مؤمن بالله، أنت مؤمن بوحدانية الله تعلم أن الله يحبك، إن تأملت علمت ذلك، لولا أن الله أحبك ما رزقك معرفته، لولا أن الله أحبك ما شرح صدرك للتوجه إليه بالعبادة، لولا أن الله عز وجل أحبك لما آمنت به إلهاً واحداً فرداً صمداً، لولا أن الله أحبك ما سخر لك سماواته وأرضه، أليس كذلك؟ أرأيت إلى هذا الإله الذي يحبك ألا تبادله حباً بحب؟!

كيف يتأتى للإنسان أن يتبين دلائل محبة الله له — وما أكثرها وما أجلَّها – ثم يعرض عن هذا الإله الذي أحبه فلا يبادله حباً بحب؟ لا يتأتى ذلك.

وحب الله لنا يا عباد الله أسبق من حبنا له، نعم أسبق من حبنا له، ولقد رووا أن امرأة متعبدة كانت تخدم في منزل، استيقظ صاحب المنزل على صوتها وهي تدعو ربها في السجود في جوف الليل قائلة: اللهم إني أسألك بحبك لي أن تكرمني وأن تغفر لي إلى آخر ما كانت تدعو به، فاستعظم الرجل كلامها هذا وانتظر حتى إذا انتهت من صلاتها قال لها: لا يا ابنتي، قولي أسألك بحب لك، وما أدراك أنه يحبك، قالت له يا سيدي لولا حبه لي ما أيقظني في هذه الساعة، لولا حبه لي ما أوقفني بين يديه، لولا حبه لي ما أنطقني بهذه النجوى، نعم ونحن نقول: اللهم لولا حبك لنا ما جمعتنا في رحابك، لولا حبك لنا ما حببت إلينا الإيمان، ما زينته في قلوبنا، ما كرهت إلينا الكفر والفسوق والعصيان، أفلا نبادل الله عز وجل حباً بحب يا عباد الله، هذا هو العلاج الثالث.

وسائل ثلاث إذا تعاملنا معها استطعنا أن نطرد بهذا الحب وأن نكنس كل ما قد احتل قلبنا من الأهواء والشهوات والعصبيات والرعونات ونحو ذلك، وإذا القلب نقي طاهر وإذا القلب وعاء طاهر لأقدس حب ألا وهو حب الله سبحانه وتعالى، وإذا أحببت الله بعد أن أحبك فأنا أهنئك وأبشرك بأنني وأنت مغفور لنا وأن الله عز وجل لن يحاسبنا بل سيجعلنا داخلين في شفاعة حبه لنا وحبنا له. يقول الإمام الغزالي: إن رجلاً من الصالحين رأى امرأة تدهش بالبكاء قائلة: والله لقد سئمت هذه الحياة ولو أني رأيت من يبيعني الموت لاشتريته شوقاً إلى الله عز وجل، قال لها الرجل: أفموقنة أنت بأن لك عملاً صالحاً تلقين به الله، قالت: لا ولكني أحبه أفرأيت أنه يعذبني وأنا أحبه؟ لا.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم فاستغفروه يغفر لكم



٢٧- لهذا السبب تحول المسلمون إلى غثاء | ١٩٩٣/٠١/٢٢

طالما استوقفتني فقرةٌ في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم المشهور المتداول ولا سيما في هذه الأيام على ألسن كثير من الناس وفي أسماعهم، وهو قوله صلى الله عليه وسلم: ﴿ستداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها" قالوا أمن قلةٍ نحن يا رسول الله يومئذ؟ قال: "بل أنتم كثير ولكنكم غثاءٌ كغثاء السيل﴾ هذه هي الجملة التي استوقفتني من كلام سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث، ﴿ولكنكم غثاءٌ كغثاء السيل﴾ لماذا يكون المسلمون وهم مسلمون ﴿غثاءً كغثاء السيل﴾؟ وما المطلوب منهم أكثر من أن يكونوا مسلمين وقد وصفهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنهم مسلمون وأنهم كثير إذاً فما ينبغي وهم مسلمون أن يكونوا غثاءً كغثاء السيل!.

ولقد تأملت على الرغم من هذا الإشكال الذي طاف بذهني طويلاً، رأيت إلى واقعنا الذي نعيشه فرأيته يشكل مصداقاً دقيقاً لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا، فالمسلمون على الرغم من أنهم اليوم كثير كما تعلمون قد أصبحوا غثاءً كغثاءِ السيل أي كفقاقيع السيل التي تربو عليه؛ يظنه الناظر شيئاً عظيماً وخطيراً، ولكنه فقاقيع فارغة. هذا الواقع يجسد تماماً كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولكن الإنسان يظل يسأل فلماذا آلت هذه الكثرة الكاثرة من المسلمين إلى ما يشبه فقاقيع سيلٍ جارف؟ لماذا ننظر إلى فئات المسلمين وهم شتى، كلهم يتجمل بالانتماء إلى الإسلام، ولكنهم جميعاً معرضون في الحقيقة والواقع عن الإسلام؟

في المسلمين علماءٌ ودعاةٌ إلى الله سبحانه وتعالى، والقلة القليلة منهم هي التي ترعى دين الله عز وجل حقاً، وأكثر هذه الفئة إنما تسعى لخدمة نفسها عن طريق الإسلام، لا تبالي أن تغير ما تشاء أن تغيره من أحكام الله سيراً وراء أهواء نفسها، وسيراً وراء مقتضى مزاجها ورعوناتها، هنالك دعاةٌ إلى الله عز وجل ولكن هؤلاء الدعاة لا يبالون أبداً أن يجعلوا من الإسلام الواحد الذي هو دين الله الواحد إسلامات كثيرة، وليتها كانت إسلامات متعاونة متضامنة، بل يحوّلون هذا الدين الواحد إلى أديانٍ متخاصمة متهارجة؛ يُكفِّر الواحد منهم الآخر. وهكذا تجد أن الزعامة هي التي تسعى سعيها تسخيراً

للدين من أجلها أو الأهواء المختلفة الأخرى، وتنظر إلى الأغنياء من هذه الأمة وهم مسلمون تمتلئ بهم المساجد وتجدهم يهرعون في مواسم الحج إلى بيت الله العتيق، ولكنهم عندما يجمعون المال لا يبالون من أي سبيل جمعوه، أمن سبيلٍ مُحَرَّم أم من سبيل أحله الله، وإذا عادوا لينفقوه لم يبالوا في السبيل الذي ينفقونه فيه أهو سبيلٌ أحلّه الله أم حرّمه. المهم أن يكون السبيل الأول والثاني متفقاً مع الهوى ومتفقاً مع الشهوات والأهواء والأمزجة، والدين يمكن أن يُسيَّر في الطريق الذي يشاؤون.

وننظر إلى كثير ممن يرعون أمر هذه الأمة، وممن وكل الله سبحانه وتعالى إليهم حماية أمنها وطمأنينتها وأوطانها ونفوسها، فنجد أن البلاء إثر البلاء يطوف بأشخاص المسلمين وبأوطانهم وبأراضيهم، وهؤلاء الذين حمَّلهم الله مسؤولية أن يجتمعوا فيتضامنوا فيَردوا الأخطار عن هؤلاء المسلمين نجدهم في غفلة عن ذلك كله ونجدهم يطوفون حول مصالحهم الشخصية وحدها، ولكنك تنظر إلى هؤلاء وهؤلاء وأولئك.. وإذا الكل منتسبٌ إلى الإسلام، الكل منتمٍ إلى دين الله عز وجل، وهكذا فعلاً أصبحوا تماماً كما وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم فقاقيع فارغة كالفقاقيع التي تربوا على وجه سيل ذاهب.

والسؤال الذي كنت إلى أمدٍ قريبٍ أطرحه على نفسي: ما الذي جعل هؤلاء المسلمين في الظاهر غير مسلمين في الحقيقة والباطن؟ ونحن لا نملك أن نقضي بهذا. ولكنهم كما وصف رسول الله غثاء. ما الذي أحالهم إلى هذا وهم مسلمون؟

لقد هُديتُ أيها الأخوة إلى الجواب الذي لا ثاني له لقد بصّرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح أن هذا الدين الذي شرّفنا الله به ينهض على ثلاث دعائم لابد منها: الإسلام والإيمان والإحسان، فإذا فُقِدت دعامة من هذه الدعائم الثلاث تهاوت ثمارُ هذا الدين ولم يؤتِ هذا الإسلام أُكله أبداً، فلو أن إسلاماً وُجِد وليس معه إيمان لا قيمة له، ولو أن إيماناً وُجد ولكن لم يُتوّج بتاج الإسلام لا قيمة له، ولو أن إسلاماً وإيماناً وُجِدا ولم يُتوّجا بتاج الإحسان فلا قيمة لهذا الإسلام والإيمان إلا في دار الدنيا والأحكام القضائية بين الناس فقط.

وما هو الإحسان؟ حتى نتبين هل نتمتع به نحن اليوم أم لا، سُئِل رسول الله في هذا الحديث عن الإحسان فقال: ﴿أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك﴾ أي أن ترقى في شعورك بعبوديتك

لله، وفي يقينك بأُلوهية الله سبحانه وتعالى وسلطانه إلى درجةٍ كلما نظرتَ يميناً أو شمالاً رأيت الله بعين بصيرتك أمامك، فإذا سألته لم تشعر بينك وبينه حجاب من شيء من المكونات وإذا وقفت في صلاةٍ بين يديه لم تشعر أن بينك وبينه أي حجاب، وإذا عُدت إلى منزلك وجالست أهلك وأولادك لم تجد أو لم تشعر أنك غبت عن الله سبحانه وتعالى قط؛ ذلك لأن سلطانه قد هيمن على كيانك. هذا هو الإحسان.

عندما عرفت هذا الذي يقوله رسول الله، أدركت الجواب عن هذا اللغز الذي طالما فكرت فيه، وعرفت أن مصيبة المسلمين اليوم أنهم لا يتمتعون بالإحسان، لو كنت وأنا الداعي إلى الله عز وجل أتمتع بهذه الدعامة الثالثة التي هي الإحسان أنّا ذهبت، ومهما قلت، وكيفما صنعت أجد عظمة الله أمامي وأجدني أتعامل مع الله الرقيب على لساني، والرقيب على أفعالي، والرقيب على نبضات قلبي، فإنه لا يمكن في هذه الحالة أن تحكم عليّ رعونات نفسي ولا شهوات كياني، ولا يمكن أبداً أن أجعل من عصبيتي قائداً لدين الله سبحانه وتعالى، ولا بد أن أُجَمِع الأمة الإسلامية الواحدة تحت مظلة الوحدة خلال دعوتي إلى دين الله سبحانه وتعالى، كما كان يفعل أصحاب رسول الله الذين تمتعوا بهذه الدعامة الثالثة التي هي الإحسان.

لو كنت أتمتع بهذا المعنى الذي هو ركنٌ أساسي من أركان هذا الدين لما استطاع الغنى أن يحجبني عن الله الذي أغناني، لما استطاع المال ولو بلغ مئات المليارات أن يُطغيني، ولما استطاع أن يبتليني بمعنىً من معاني الشح، ذلك لأنني أرى المغني أمامي؛ أرى الله عز وجل رقيباً، وأرى ينبوع الغنى في يديه الكريمتين، فهيهات أن يكون المال أكثر من سبيلٍ لمزيد حبي لله عز وجل، ومن ثم فهيهات أن يكون المال سبباً لأكثر من مزيدٍ من التضحية بالمال، وبكل شيء في سبيل رضى الله سبحانه وتعالى.

لو كنت أتمتع بالإحسان هذا الذي عرّفه لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لرأيتني وأنا العالم الذي أفتي الناس في أمور الحلال والحرام، أجدني في كل كلمة أنطق بها من أجل أن أصدر فتوى أقف أمام قيوم السماوات والأرض يراقب كلامي، فهيهات هيهات أن أخون دين الله من أجل شهوة نفس أو من أجل رعونة أو من أجل مزاج أو من أجل مذهب أتعصب له، هيهات. ذلك لأنني أرى الله أمامي من خلال هذا الإحسان الذي هو الركن الثالث من أركان هذا الدين، ولكننا لا نتمتع بهذه الثمرة التي يحققها

الإحسان، نحن نعاني كما ذكرت لكم من نقيض ذلك، السبب أننا افتقدنا الركن الثالث الذي هو الإحسان، وركنّا إلى مظهر الانتماء إلى الإسلام، نحن مسلمون ولم يكلفنا الإسلام أكثر من الشهادتين، ونقول إننا مؤمنون والإيمان خفي لا يلاحقك في تحقيقه قاضٍ ولا حاكم، ومن ثَمّ فلا يُطّلع عليه إلا الله سبحانه وتعالى، والإحسان هو غذاء الإيمان، والإيمان أيضاً غذاء للإحسان، وبينهما تفاعلٌ مستمر.

كثيرون هم الذين ذكّرتهم في مناسبات شتى بهذا المعنى، ولكن البلاء الأطم أنني فوجئت من كثيرٍ من هؤلاء وهم مسلمون باستهزاءٍ بهذا الكلام بسخرية من هذا الأمر، وكم قال منهم قائل: وماذا عسى أن يفيدنا كثرة الذكر وحمل المسابح ونحن نعاني من مصائب تحتاج إلى فكر؟ تحتاج إلى تخطيط؟! وكأن هؤلاء الأخوة إنما يناقشون الله لا يناقشونني.

إن ربنا عندما وصف النخبة الطاهرة من عباده إنما وصفهم بأوصاف الإحسان ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ ثم قال: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ ذلكم هو الإحسان وطريقه وتلك هي النتائج. ويقول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ وبماذا وصفهم بادئ ذي بدء؟ ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ وما الخشوع؟ إنه الإحسان. ﴿أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ﴾ نعم. ووصف المؤمنين في مكان آخر: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾

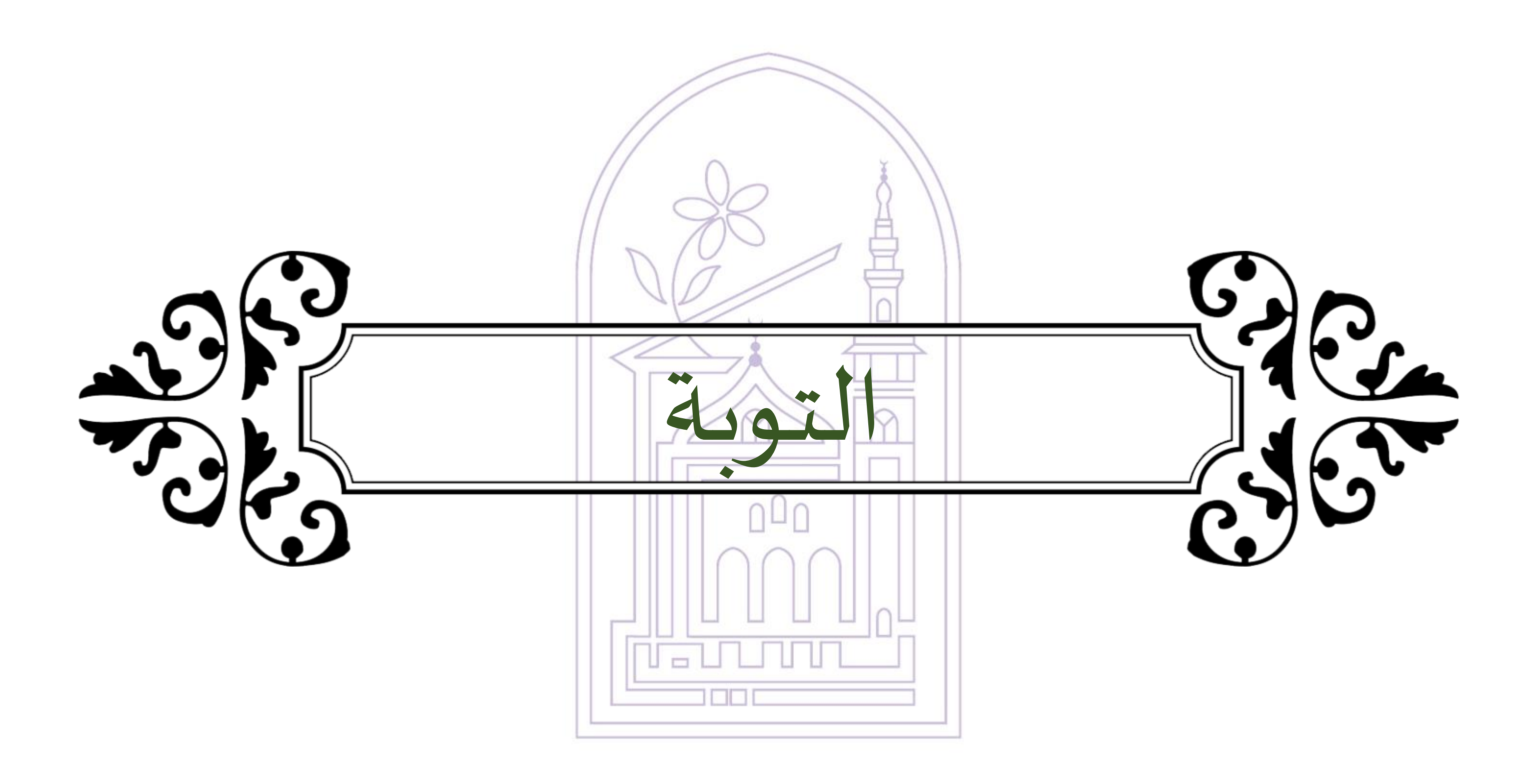
ونبهنا إلى طريق الإحسان وأجاب من يقول: فكيف السبيل إلى أن أعبد الله وكأني أراه؟ قال له من خلال خطابه لرسوله: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ هذا التبتل مع كثرة ذكر الله هو الذي يملأ كيانك بمعنى الإحسان، وكم كرر وأعاد البيان الإلهي هذا المعنى، وإلا فما معنى كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما﴾ وما معنى كلامه في الحديث الآخر وهو وإن كان ضعيفاً إلا أن الأول بمعناه: ﴿لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به﴾ كيف يكون هذا؟ كيف السبيل وأين هم الذين برهنوا على أن أهوائهم وقفت خادماً لما جاءهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم؟

أيها الأخوة نحن اليوم كما وصف رسول الله غثاءٌ كغثاء السيل، وهذا الواقع لا يرتاب فيه أحد، ولكن الأهم من أن نعلم مصداق كلام رسول الله أن نعلم الداء الذي أصابنا حتى كنا نحن المظهر الذي

يجسد كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم، نحن فقدنا الركن الثالث من أركان هذا الدين، ألا وهو الإحسان الإحسان، والإحسان كما علمتم كلكم يعرف معناه، ولو أن الأغنياء فينا رجعوا إلى قلوبهم، ولو أن الجماعات الإسلامية وكثيراً – لا كل — من الدعاة إلى الله عز وجل رجعوا إلى قلوبهم لعلموا أنهم قد فقدوا الإحسان، أجل قد فقدوا الإحسان، ومرة أخرى أقول: بعد أن فقدنا هذا المعنى الرباني، فقدنا الإحسان. ما فائدة التخطيط؟ بوسعي أن أخطط وبوسعك أن تجتمع معي على هذا التخطيط، وليس المهم في أن نمسك بقلم ونخط به على ورق، المهم أن نجعل من هذا التخطيط فعلاً. فما القوة التي تحيل الخط على ورق إلى فعلٍ نافذ؟ الإحسان. والإحسان غير موجود.

قال لي واحد من هؤلاء الأغنياء المترفون في مجلسٍ ضمنا قال متمجلقاً: لم أسمع خطيباً من خطباء الجمعة يتكلم عن مصيبةٍ البوسنة والهرسك، لم أسمع واحداً من الخطباء يتحدث عن هذه المصيبة، ونظرت إليه وكدت أن أفتح ساحة نقاش وجدل بيني وبينه، ولكني رأيت إني مندفعاً إلى هذا بانتصار ذاتي فصمت. قلت لنفسي: ترى لو أن الخطباء تكلموا عن البوسنة والهرسك وندبوك إلى أن تذهب إلى هناك فتترك تجارتك وأرضك وأموالك لمدة ثلاثة أشهر أكنت فاعلاً ذلك؟ لا والله الذي لا إله إلا هو قط. إذاً ما الفائدة التي تنتظرها من أن يحدثك الخطيب عن البوسنة والهرسك؟ أمن أجل أن تخرج وقد أرضيت غرورك الإيماني أنك قد أرضيت الله بأنك قد هززت الرأس حماساً لما قد سمعت، ومن هو الذي تتعامل معه؟ إنه ربٌ لا يُخدع إنه الله سبحانه وتعالى، مصيبة البوسنة والهرسك نتيجةٌ لأخطائنا نتيجة لبعدنا عن الله. وقلت: بالأمس إنها دخانٌ متصاعدٌ من نار فلا تشغلنك صورة الدخان، بل انظر إلى النار بسبب أي موجب اضطرمت، وإن كنت ذا بصيرة فعلاً فأقبل إلى هذه النار فأطفئها من حيث وُلِدت يذهب الدخان كله بدداً.

عجبي من أناس ضلوا سبيلهم إلى الله ملأوا بيوتهم بشغلٍ شاغلٍ عن الله بلهوٍ لا أريد أن أتحدث عن أصنافه، يستقدمون اللهو من أقصى غرب العالم ليحشوه في بيوتهم، ثم إنه يتألم من أن الخطباء لا يتكلمون عن البوسنة والهرسك، أفقد وصلت بنا مصائبنا إلى درجة أن نتجمل بجراحاتنا، أن نتجمل بآلامنا نجعل من آلامنا وجراحاتنا ومصائبنا رأس مالٍ لتفاخرٍ بأنا مسلمون دون أن يكلفنا ذلك جهداً، دون أن يكلفنا ذلك عملاً.



التوبة

٢٨- مآل الشاردين | ٢٠١٠/٠٨/٠٦

إن الشاردين عن صراط الله سبحانه وتعالى والمبتعدين عن أوامره والموغلين في المعاصي الآثام ينقسمون إلى فريقين اثنين.

أما الفريق الأول منهما فمغلوب على أمره، يكره المعصية ولكن نفسه تدفعه إليها، يكره الانحراف ولكن ضعفه يتغلب عليه، ولربما وقع تحت ضعف كينونته النفسية فارتكب كثيراً من الموبقات وارتكب كثيراً من المحرمات ولكنه في كل الأحوال يعلم أنه شارد عن صراط الله ومتألمٌ لعدم استجابته لأوامر الله وكأن لسان حاله يقول: اللهم إني ما عصيتك حين عصيتك استكباراً على حكمك ولكنه الضعف الذي ركبته في كياني.

هذا الفريق من الناس مآله – يا عباد الله الصفح والمغفرة. هذا الفريق هم الذي خاطبهم الله سبحانه بقوله: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]

مآل هذا الفريق من الناس مهما ابتعد عن صراط الله سبحانه وتعالى ومهما أوغل في المعاصي والآثام مآله أن يجذبه الله عز وجل إليه، وكأنه يقول: أما آنَتْ رجعتك إلي! أما آن أن تعلم أن مصيرك إلي! يعيده الله عز وجل بلطف منه وإكرام وإحسان إلى صراطه وهديه.

وما أظن – يا عباد الله – أن في هذا الفريق الذي وصفت حاله لكم ما أظن أن فيه واحداً انتهى من حياته الدنيوية هذه ورحل إلى الله وهو غير مغفور له. هؤلاء هم الذين يخاطبهم الله بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾

ولكم سمعنا في العصور المتصرمة ورأينا في حياتنا المعاصرة أناساً ساروا أشواطاً كثيرةً في حياتهم تائهين عن أوامر الله عز وجل، شاردين يتبعون أهواءهم، يستجيبون لرعوناتهم وتنظر فجأة وإذا هو بعد حين قد

أصبح من خيرة عباد الله التائبين، من أفضل عباد الله الملتزمين لأوامره والمستقيمين على صراطه، تلك هي سنة رب العالمين وإنه لمظهر عظيم من مظاهر لطف الله. دعوني أذكِّرَكُم بنماذج من هذا الفريق.

بشر الحافي أمير من أمراء البصرة كان مضرب المثل في اللهو والقصف وكانت داره تساهر الليل إلى لمعة الفجر واللهو والغناء والقصف لا يهدأ كل ذلك من داره.

في ليلة من الليالي طرق الباب طارق، خرجت جارية من جواري القصر، فتحت الباب وإذا بها أمام رجل رث الهيئة يثير مظهره الاشمئزاز، سألها قائلاً أصاحب هذه الدار حرٌّ أم عبد فاستضحكت وصفقت الباب في وجهه وقالت مجنون لا يعلم أمير البصرة يسأل أهو حرٌّ أم عبد. عادت إلى سيدها وهي تضحك، سألها ما الخبر، قالت: يا سيدي الأمر كيت وكيت. قفز بشر إلى الباب والتفت يمنة ويسرة ووجد الرجل الذي وصفته الجارية على بعد فشد نفسه إليه حافياً حتى أدركه، أمسك بيده وقال له: أنت طرقت الباب؟ قال: نعم. قال: ماذا قلت؟ قال: لا شيء، سمعت هذا القصف واللهو فسألت صاحب هذه الدار حرٌّ أم عبد، قالت بل هو حرٌّ قلت: نعم نعم هذا ليس شأن العبيد. دخلت الهداية في تلك اللحظة إلى قلب بشر، أمسك بيده وقال: يا هذا أشهدك أمام الله أني عبد ولسوف أبقى عبداً ولسوف يلقاني الله عبداً. اصطلح مع الله حافياً وبقي حافياً.

في لمحة واحد كان الصلح لماذا؟ لأن انحراف بشر لم يكن عن استكبار، لم يكن عن تخطيط وتعمدٍ وسبق إصرار، كان استجابة لضعفه، كان استجابة لرعوناته.

الفضيل بن عياض كان مضرب المثل في السوء، كان شأنه اللصوصية، كان لِصَّاً، كان قاطع طريق، وكانت له خليلة يختلف إليها بين الحين والآخر ولكنه لم يكن يوغل في هذه المعاصي استكباراً على الله بل لعله كان يعلم ويتأ لم.

ذات ليلة تَسَوَّرَ جداراً، علم أن هنالك فرصة لاستلاب شيء من المال من الدار، تسور الجدار بعد هزيع طويل من الليل والناس نيام، فلما أراد أن ينقلب إلى داخل الدار سمع صوتاً يقطع صمت الليل يقرأ هذه الآية.

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦]

دخلت أسرار هذه الآية في قلب الفضيل وصاح وهو يقف فوق ذلك الجدار قائلاً: بلى يا ربي لقد آن، لقد آن وتحول عائداً، اغتسل واصطلح مع الله.

وكم وكم في التاريخ من أمثال الفضيل وأمثال بشر وأمثال عبد الله بن المبارك، وكم في الناس المعاصرين اليوم من أمثال هؤلاء الذين ذكرت لكم أخباركم. لكن من هم؟ إنهم الذين دفعتهم رعوناتهم النفسية، أهواؤهم، دفعهم ضعفهم، دفعتهم غرائزهم البشرية إلى ارتكاب ما ارتكبوا ولم يستطيعوا أن يتغلبوا على أهوائهم فلحقتهم رحمة الله عز وجل وأحاط بهم لطفه.

أما الفريق الثاني ففريق يخطط للمعصية ويرتكبها متعمداً بسبق إصرار، يرتكب المعصية مستخفاً بمن حرمها، مستهيناً بمن شرع الشرائع والأحكام. هذا الفريق أيها الإخوة يختلف شأنه اختلافاً كبيراً عن الفريق الأول.

إن أردت أن تُذَكِّرَ لم يقل لك أنت محق ولكني ضعيف ادع الله لي وإنما يقول: أنا مؤمن بهذا الذي أسير عليه، أنا متحرر من الماضي العتيق، متجه إلى الحداثة، متجه إلى الحضارة، أنا لا يملك أحد من الناس أمري، أفعل ما شئت. يرتكب ولكنه يرتكب ذلك مبرراً، يعصي الله عز وجل ولكنه يعصيه مستخفاً بأوامر الله عز وجل مستهيناً بأحكامه. هؤلاء هم الذين عناهم الباري سبحانه وتعالى بقوله: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً. وَأَكِيدُ كَيْداً. فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً﴾ [الطارق: ١٥-١٧]

إنهم هم المعنيون بقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤]

إنهم هم المعنيون بقول الله عز وجل: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥]

أرأيتم إلى كتاب الله كيف تحدث عن الفريق الأول طمأنه بأن المعاصي بالنسبة له لن تحجزه عن رحمة الله، ومتى كانت معاصي الإنسان سبباً لشقائه يوم الديَّان.

أما الفريق الثاني، هذا الفريق الذي يرتكب المعصية مستهيناً بها، هذا الذي يرتكب المعصية مستخفاً بأمر الله، مستخفاً بكتاب الله عز وجل، يخطط للمعصية، يخطط لها في حق نفسه ولربما في حق غيره أيضاً، لا يقبل نصح الناصحين، لا يقبل تذكرة المذكِّرين، هؤلاء هم الذين يعنيهم البيان الإلهي في هذا الذي ذكرت، وهنالك آيات أخرى تذيب تزلزل الفؤاد. ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً. وَأَكِيدُ كَيْداً. فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً﴾

هؤلاء لن تصادفهم رحمة الله لأنهم هاربون منها وإنما يصدق عليهم قول الله عز وجل: ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٤]

الخزي عدم الوصول إلى المطلوب. كم وكم من أناس حقدوا على دين الله وشرعه فخططوا للقضاء عليه، قُضِيَ عليهم قبل أن يُقْضَى عليه، والتاريخ أكبر شاهد على ذلك يا عباد الله، نحن الآن من أي الفريقين.

أرجو وأسأل الله عز وجل ألا نكون من هؤلاء الشاردين الذين وقعوا ضحية ضعفهم، وقعوا ضحية رعوناتهم وأهوائهم وألا نكون من الفريق المستكبر على الله سبحانه وتعالى، أرجوا أن نكون ممن قال الله عنهم: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٢]

نحن لسنا مبرئين من المعاصي، كيف وقد قال رسول الله: «كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون»

نحن نخطئ في الليل والنهار ولكن ربنا غفور، وإني لأسأل الله عز وجل أن يجعلنا من الفريق الذي يظل يجاهد نفسه ليسمو بنفسه إلى صعيد الالتزام بأوامر الله، إلى صعيد التحلي بشرع الله سبحانه وتعالى. نحاول أن نسمو بأنفسنا إلى هذا الصعيد ونحن نعلم أن لا حول لنا ولا قوة، نخاطب الله قائلين: اللهم إنا تبرأنا إليك من أوهام حولنا وقوتنا فسدد اللهم خطانا، يَسِّرْ اللهم سبيلنا إلى السير على صراطك والالتزام بأوامرك. ولا تزال بقية من عباد الله الصالحين سائرين على النهج القويم لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون. أقول قولي هذا وأستغفر الله

٢٩- كيف يمكن لأي يد أن تلوث بركة هذه الأرض المباركة | ٢٠١٠/١١/١٩

إن المصيبة الفادحة لا تكمن في المعاصي إذ يرتكبها الإنسان أو تعيش أو تشيع في المجتمع فقد علمتم أن الله سبحانه وتعالى نعت نفسه بالتواب وعلمتم أن الله هو القائل: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

وإنما تكمن المصيبة الكبرى في أن تشيع المعاصي في المجتمع أو أن يصطبغ بها الأفراد مع الاستهانة بها ومع عدم الالتفات إلى خطورتها ومع عدم التنبه إلى ضرورة التوبة منها ومع عدم الالتفات إلى النتائج الخطيرة والابتلاءات الكبرى التي قد يبتلي الباري سبحانه وتعالى مثل هذا المجتمع على أعقابها. تلك هي المصيبة الفادحة التي ينبغي أن نتبينها حتى نتوقى من الوقوع فيها. وإنها لسُنَّةٌ أخرى أو قانون آخر من القوانين التي أعلنها الله عز وجل في محكم تبيانه.

حدَّثَنَا عن أمم ارتكبوا المعاصي وشاعت ألوان من المعاصي في مجتمعاتهم فأخذهم الله عز وجل ببعض الابتلاءات ليستيقظوا وليتنبهوا ولتسوقهم تلك الابتلاءات إلى الإنابة إلى الله فلم يلتفتوا إلى شيء من ذلك وأعرضوا عن الرسالة التي أرسلها الله عز وجل إليهم منذراً ومحذراً فحاق بهم العقاب الكبير. تأملوا في قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ. فَلَوْلا إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢-٤٣].

هكذا يبين الله عز وجل لنا سبب هلاك بعض الأمم. لم يكن السبب مجرد العصيان ولكن السبب كان الاستخفاف بالعصيان وعدم التنبه إلى الرسالة المحذرة التي وصلتهم من عند الله عز وجل متمثلة في ألوان من المصائب كالتي نعاني منها اليوم. وتأملوا في قوله عز وجل وهو يوضح مصداق هذا القانون: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٦].

تلك هي حيثية إهلاك تلك الأمة التي يتحدث عنها البيان الإلهي.

ولقد أنبأنا بيان الله عز وجل عن آياتٍ أرى اللهُ سبحانه وتعالى عن طريق كليمه موسى فرعونَ وملأه وقومَه، نبَّههم الله من خلال تلك الآيات إلى ضرورة اليقظة، إلى ضرورة الإنابة والتوبة إلى الله فأعرضوا واستخفوا، وانظروا كيف يعبر الله بل البيان الإلهي عن استخفافهم: ﴿وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٢]. فكان عاقبة هذا الاستكبار العذاب الأطم: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاَتٍ فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٣].

أيضاً لم يستيقظوا، استيقظوا لكن الاستكبار حال بينهم وبين الإنابة إلى الله وعندئذٍ كانت العاقبة كما تعلمون، نبذهم في اليم وأغرقهم في ذلك العذاب الواصب.

عباد الله: إننا نعلم جميعاً أسباب هذه المصيبة التي تطل علينا من سماء الله عز وجل، ليس فينا من يجهل الأسباب الكامنة وراء هذا الغضب الإلهي الذي يتراءى لنا من سمائه ولا ينبع لنا من أرضه، ما أظن أن فينا من يجهل هذا السبب لاسيما الذين يكمنون وراء هذه الأسباب، ولكن الابتلاء الخطير هو هذا الذي أقوله لكم. هنالك من يستكبر على هذا الذي يذكرنا الله عز وجل به، هنالك من يستخف بهذه الرسالة الإلهية التي يخاطبنا بها والتي تحمل بين طياتها النذير الخطير، نعم إنها مصيبة فادحة لا أذكر أننا ابتلينا بمثلها في شامنا هذه قط ولكنها مع ذلك هي مقدمة، مقدمة لمصيبة أطم ولغضب إلهي أشد.

ليست المصيبة — مرةٌ أخرى أقول لكم — كامنةً في معصية تزل بها الأقدام فكلنا ضعفاء وكلنا معرضون للمعاصي، ليست المصيبة كامنةً في أن ينحرف المجتمع لسبب ما إلى بعض الانحرافات، فالمجتمع هو الفرد المتكرر والناس أيّاً كانوا ضعفاء كما وصفهم بيان الله سبحانه وتعالى، لكن المصيبة الكبرى التي تطل علينا من سماء الله عز وجل تكمن في الإعراض عن التوبة، تكمن في الاستكبار على الرجوع إلى الله سبحانه وتعالى، تكمن في الاستخفاف بهذه المصيبة ومحاولة عدم الاعتراف بها إلى هذا اليوم، هذا هو الشيء المخيف يا عباد الله وهذا ما ينبغي أن نحذره وما ينبغي أن نعود به إلى أنفسنا فإن وجدنا أننا من هؤلاء الذين يستخفون بعقابيل المعاصي فلنسرع بالإنابة والتوبة إلى الله عز وجل ولنذكِّرْ إخواننا، أقاربنا الذين يلوذون بنا بضرورة التذلل والإنابة إلى الله سبحانه وتعالى وعندئذٍ يرتفع البلاء.

المعصية التي يُساق إليها الإنسان بسائق من الضعف لا تحجب الإنسان عن رحمة الله بل لعلها تسوقه إلى رحمة الله، وصدق من قال: معصية أورثت ذلاً وانكساراً خيرٌ من طاعةٍ أورثت عزاً واستكباراً.

إنني أقول أيها الإخوة اعتماداً على سُنَّةٍ قرأتُها ولعلكم تقرؤونها في كتاب الله عز وجل، أقول: إن هذه المصيبة التي نعاني منها اليوم والتي هي جديدة في نوعها ستبقى بل هي متجهة إلى الاستفحال وإلى الاتساع إن لم نعالجها معالجة عامة بتوبة صادقة وإنابة إلى الله سبحانه وتعالى.

المعاصي، كل المسلمين متعرضون لها، أصحاب رسول الله تعرضوا للمعصية. في عهد عمر أمير المؤمنين ثاني خلفاء المسلمين وقع قحط في عام من الأعوام يسمى عام الرمادة، خرج عمر بن الخطاب بوصفه أمير المؤمنين مع أصحاب رسول الله جميعاً يستسقون ولاذوا وتوسلوا بعم رسول الله العباس فماذا قال العباس عم رسول الله؟ قال – وهو يجأر إلى الله متذللاً بالدعاء والتضرع – اللهم إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب ولا يكشف البلاء إلا التوبة وها هي ذي أيدينا ممتدة إليك باعترافنا بالذنب وها هي ذي نواصينا بين يديك بالتوبة فاسقنا، نحن تائبون، نحن راجعون إليك. قالها عم رسول الله، قالها أمير المؤمنين عمر، قالها كل أصحاب رسول الله. لما رجعوا إلى الله ولما أعلنوا التوبة والإنابة أمام باب الله عز وجل سُقُوا في مساء ذلك اليوم وامتدت السقيا وامتد كرم الله عز وجل ولم ينقطع.

واليوم لا يقولن قائل – أيها الإخوة – تعالوا نتداعى إلى الاستسقاء، لا يقولن قائل هذا، حسبنا هذا الكلام. إننا إن استجبنا لهذا التداعي وقمنا بما أمرنا الله عز وجل به من الاستسقاء دون توفر لشروط هذا الاستسقاء لن تتحقق الاستجابة. إذا لم نقدم بين يدي هذا الاستسقاء أمام الله توبةً صادقة على كل المستويات ورداً للمظالم فإن الاستسقاء لا يفيد بل ربما كان سبباً لشماتة الشامتين ممن لا يؤمنون ولا يثقون بأن الله عز جل هو الرزاق وأن الأسباب جند من جنود الله عز وجل.

ومع ذلك فإنني أبشركم بأن شامنا هذه مكلوءة بعناية الله، وكيف لا تكون مكلوءة وقد نجَّ الله إليها أنبياءه: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١].

هو سيدنا إبراهيم ولوط. هذه الأرض هي هذه الأرض التي أنتم فيها. شامنا هذه مكلوءة بعناية الله، ومهما وفدت إلينا الخطط عن يمين وشمال من أجل امتلاخ هذا الدين من هذه البلدة فلسوف تبوء

تلك الخطط وأربابها بالخذلان. وإنني أحدثكم عن وجهٍ من أحد وجهين للحركة التصحيحية التي تعود ذكراها في هذه الأيام. لهذه الحركة التصحيحية وجه سياسي ووجه آخر ديني، وأكثر الناس يعلمون وجهها الأول السياسي، وأنا محدثكم عن الوجه الآخر الديني.

في لقاء من اللقاءات التي كتبها الله عز وجل لي مع رئيسنا الراحل – رحمه الله – جاءت المناسبة للحديث عن هذه الحركة – الحركة التصحيحية – فقال: إن الذي دفعني إلى القيام بهذه الحركة إنما هو شيء واحد، حماية معتقد هذه الأمة ودينها مما كان يراد لهما، فلقد كانت الشيوعية على الأبواب وإن هي إلا خطوات وسيعلن الإتباع للإلحاد والشيوعية ولكن الله سخَّرَنِي فقمت بما قمت به حمايةً لدين هذه الأمة ومعتقداتها الإسلامية، ثم قال لي: وهذه محاضر الجلسات خير شاهد على هذا الذي أقوله لك.

إذاً بالأمس وُجِدَ من تربص بدين هذه الأمة ولكن يداً ربانية جاءت فأبعدت شبح هذا الخطر عن أرضنا المباركة، واليوم اليد الإلهية الحانية موجودة، هذه اليد ستدفع عنها الخطر ومن ثم فالأرض التي وصفها الله بالمباركة كيف يمكن لأي يد أن تلوث بركتها؟!



أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

٣٠- وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ | ٢٠١١/٠١/٢٨

إن المعصية بحد ذاتها لا تحجب العبدَ عن مولاه عز وجل ولا تقصيه عن رحمته ومغفرته قط، ولكن الذي يحجب العبدَ العاصيَ عن رحمة مولاه ومغفرته إنما هو العكوف على المعصية دون أن يلتفت إلى التوبة منها، إنما هو العكوف على المعصية مستمرئاً لها، مبرراً لها، مستخفاً بشأنها وبنهي الله عز وجل عنها، ذلك هو الذي يحجب العبدَ عن رحمة مولاه سبحانه وتعالى. وأنتم تعلمون وتقرؤون قول الله عز وجل: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]. ألا تلاحظون أنها دعوة من الله عز وجل للناس جميعاً على اختلاف فئاتهم وعلى تفاوت مستوياتهم، دعوة من الله جميعاً لهم إلى التوبة والإنابة من المعاصي والأوزار.

أما عامة الناس من دون الرسل والأنبياء فإنكم جميعاً تعلمون أنه ليس فيهم – مهما كانت درجته من الاستقامة – ليس فيهم معصوم عن الأوزار والمحرمات. من منا لم تزل به القدم في مهاوي المعصية وأودية الأوزار؟ من منا لم تتغلب عليه شهواته في يومٍ من الأيام بل في كثير من الأحيان. ومن هنا فإن الله يعلن عن بابه المفتوح للرحمة والمغفرة، إنه باب التوبة، يعلن عن ذلك قائلاً: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

أما الرسل والأنبياء – ونحن نعلم أنهم معصومون من الأوزار – فإنما توبتهم من التقصير – الذي يشعرون به في أداء حقوق الربوبية في أعناقهم، وإنه لتقصير شامل حتى للرسل والأنبياء. مَنْ مِنَ الناس استطاع أن يؤديَ حقوق نعمه؟ مَنْ مِنَ الرسل والأنبياء فضلاً عن عامة الناس استطاع أن يؤديَ حق العافية السارية في كيانه؟ مَنْ مِنَ الرسل والأنبياء فضلاً عن عامة الناس ذاك الذي استطاع أن يؤديَ حقَّ العينين اللتين يبصر بهما؟ مَنْ مِنَ الناس أيّاً كان استطاع أن يؤديَ حق العقل الذي يفكر به؟ إنه تقصير شامل للناس جميعاً. ومِنْ هنا جاءت الدعوة إلى الناس جميعاً: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

عباد الله: أقولها لكم بحق: إني لأخجل من الله عز وجل عندما أسمعه يدعوني ويدعو أمثالي من عباده إلى الإنابة والتوبة، إلى المغفرة، إلى الرحمة مهما كانت الأوزار كثيرة والمعاصي وفيرة ثم لا ألتفت إلى نداءه، عندما أسمعه يقول في الحديث القدسي: ﴿يا عبادي إنكم تخطئون في الليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم﴾.

عندما أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يخبر عن ربه عز وجل قائلاً: ﴿إن الله يبسط يديه بالنهار ليتوب مسيء الليل ويبسط يديه بالليل ليتوب مسيء النهار﴾

أنظر إلى نفسي وإلى إخواني في العبودية لله وإذا بنا – أو بجُلِّنا – معرضون عن هذا النداء المحبب، معرضون عن هذه الدعوة الربانية، يدعونا الله عز وجل إلى مائدة مغفرته وكأنه دلاَّل يدعونا إلى الرحمة، إلى المغفرة والصفح، يدعونا إلى ساحة غفرانه والناس بين عاكفٍ على لهوه وبين مستمرئ لمعاصيه وبين مستمر في شروده عن الله عز وجل يلاحقه نداء الله فلا يلتفت إليه. أفلا يخجلنا هذا يا عباد الله؟

تعالوا يا أيها الإخوة، تعالوا نصطلح مع الله، وليس اصطلاحنا مع الله متوقفاً على العصمة، وهل لنا أن نكون معصومين ولقد قال المصطفى صلى الله عليه وسلم: ﴿كل بني آدم خطاء﴾. هل لنا أن نكون معصومين عن الأوزار وربنا عز وجل يقول: ﴿وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً﴾ [النساء: ٢٨].

ولكننا نستطيع أن نصطلح مع الله بأيسر من ذلك، نستطيع أن نصطلح مع الله عز وجل بأن نُقْبِلَ إليه بالتوبة، بأن نُقْبِلَ إليه بالإنابة. إن ربنا الغفور الرحيم اللطيف الودود لم يشترط لمرضاته عنا أن نكون معصومين، ولكنه اشترط شيئاً واحداً، أن نتوب كلّما تقلبنا في غمار المعاصي، بل هو يعلن عن محبته لهؤلاء التوابين: ﴿إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

ومتى يكون الإنسان تواباً يا عباد الله، وأنتم تعلمون أن كلمة تواباً مبالغة من تائب؟ متى يكون الإنسان تواباً إلى الله؟ إذا كان كثير الشرود عن الله، يكون كثير الشرود عن الله؟ نعم لكنه كلما شرد عن الله تذكَّرَ عبوديته لله فآب إليه قائلاً: رب ها أنا قد عدت إليك. رُبَّما شرد ثانية وثالثة لكن كلما شرد نادته عبوديته أن ارحل إلى الله، يعود إلى الله سبحانه وتعالى تائباً آيباً، بل اسمعوا هذا الكلام الرباني المحبَّب الودود: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ. هَذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ [ق: ٣١-٣٢].

لمن؟ ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ. مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ وَجَاء بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ. ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ. لَهُم مَّا يَشَاؤُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٢-٣٥]. ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ. هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾

أَوَّابٍ هذه مبالغة من آيب، وآيب بمعنى راجع. متى يكون العبد رجّاعاً إلى الله يا عباد الله؟ إذا كان كثير الشرود عن الله. ربنا يطلب منّا هذا فقط، يطلب منا إذا شردنا أن نؤوب إلى الله بتوبة صادقة، وإذا عدنا فشردنا ثم عدنا فشردنا أن نؤوب إلى الله عز وجل بتوبة صادقة يكون العبد فيها مخلصاً في توبته مع الله.

عباد الله: تعالوا أدعو نفسي وأدعوكم جميعاً إلى أن نصطلح مع الله عز وجل على هذا الأساس الذي يطلبه الله منا، لا يطلب منا مزيداً على ذلك، أمن العسير عليكم إذا وجدتم أنفسكم في ساعة تغلّبَتْ فيها عليكم شهواتُكُم وأهواؤُكم أن تلتفتوا إلى الله بتوبة، أن تلتفتوا إلى الله بعودة؟ هذا ما يطلبه الله عز وجل منا.

عباد الله: رأيت في محكم بيان الله عز وجل آياتٍ يعلن الله عز وجل فيها عن حبه للمحسنين، شاقني أن أعلم صفات هؤلاء المحسنين في كتاب الله، لعلي أستطيع أن أبلغ شأوهم، لعلي أستطيع أن أرقى إلى درجاتهم أو إلى قريبٍ من درجاتهم، ولكن ماذا رأيت في كتاب الله عز وجل وهو يصف هؤلاء المحسنين؟

بعد أن قال: ﴿وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]. وصفهم فقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

هؤلاء هم المحسنون. ظننتُ أن المحسنين أولئك الذين ارتفعت درجاتهم في مرقاة العبودية لله فأصبحوا من أولئك الصدّيقين والربّانيين، وإذا برحمة الله عز وجل أوسع، أوسع وأوسع من ذلك. المحسنون الذين يصفهم بيان الله هم: ﴿الَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ﴾.

إذاً يمكن أن يرتكبوا المعاصي بل يمكن أن يرتكبوا الفواحش أيضاً، ولكنهم ما إن تصحُوا عبوديتهم بين جوانحهم إلى الحقيقة حتى يؤوبوا ويتوبوا إلى الله، وإذا بهم يسمعون كلام الله عز وجل: ﴿وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ﴾ تعالوا نحاول أن نكون من هؤلاء المحسنين بصدق التوبة إلى الله، بصدق الإنابة إلى الله.

عباد الله أقول لكم شيئاً: إنَّ العبد المؤمنَ الصادقَ في إيمانه إذا زلَّتْ به القدمُ ووقع في معصية انتابه من ذلك شعورٌ كشعور الذي لدغته حيةٌ رقصاء فيهْرَعُ ويهربُ من هذا الشعور إلى الإنابة والتوبة إلى الله عز وجل. العبد المؤمن ليس معصوماً، لكنَّه إذا ارتكب المعصية انتابه كشعور الذي لدغته حية ويقبل إلى الله عز وجل وإذا به يسمع نداء الله يقول له: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: ٨٢].

نعم. أما الفاسق، أما الفاجر الذي يوغل في المعاصي فهو في أحسن الأحوال ينتابه عندما يرتكب المعصية تلو المعصية كشعور الإنسان الذي تنحط على أنفه ذبابة من هنا أو من هناك فيطيرها بيده يميناً أو شمالاً ثم يعود إلى شأنه.

هكذا وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم حال المؤمن الصادق في إيمانه – قد يرتكب المعصية – وحال الفاجر المستمرئ للمعصية، هكذا وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم.

إننا لا نطمع أن نكون معصومين من الأوزار، كيف وقد أثقلتنا أوزارُنا الكثيرة، ولكننا نطمع أن نكون من أولئك المحسنين الذين وصفهم الله في محكم تبيانه.

ينبغي أن يكون وقع المعصية علينا – ونحن الذين غُمِرْنَا في رحمات الله وفي مظاهر فضله وإحسانه وكرمه وجوده – أن يكون شعورنا كشعور الذي لدغته الحيّة. إن كان هذا شأننا فأنا أعِدُ نفسي وأعِدُكم بأن مغفرة الله عز وجل هي الموعد القريب، وإنَّ صفح الله سبحانه وتعالى هو الذي سنفاجَئ بل وسنُبَشَّرُ به.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم فاستغفروه يغفر لكم.



٣١- التوبة إلى الله مفتاح الحل | ٢٠/٠٥/٢٠١١

ينبغي أن نعلم جميعاً أن المعاصي أياً كانت لا تحجب الإنسان عن مولاه وخالقه ولا تقطع عنه أمل الرحمة والمغفرة قط، إنما الذي يحجب الإنسان عن مولاه وخالقه أن يعكف على المعصية ثم يستمرئها ولا يلتفت إلى نداء الله الذي يلاحقه قائلاً: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

مهما ارتكب الإنسان الأوزار ولكنه كان يصغي السمع إلى نداء الله الذي يدعو العصاة إلى التوبة وكان يتوجه جهد استطاعته إلى باب الإنابة إلى الله فإن المعاصي لا تضره ولا تحجبه عن مولاه وخالقه.

وإذا أحب الله عز وجل العبد أو أحب أمةً ترتكب المعاصي وتوغل في ارتكاب الخطايا فإن الله عز وجل يسوقها إلى التوبة بعصي المصائب والابتلاءات، هذه سنة رب العالمين تجاه العصاة الذين أحبهم الله عز وجل، يسوقهم إلى التوبة بعصي المصائب والابتلاءات المختلفة، فإن هم تابوا إلى الله عز وجل وإن هم جددوا البيعة معه عز وجل فإن الله سبحانه وتعالى يغفر الذنوب جميعاً وإن كل عاصٍ يصبح كيوم ولدته أمه. هكذا يربي الباري عز وجل عباده عندما يوغلون في المعاصي ويستمرؤونها ثم ينسون التوبة والإنابة إلى الله عز وجل، وصدق الله القائل: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ. وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ. لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٦٥-٦٧].

هذا الذي أقوله لكم سنة من سنن رب العالمين في عباده، ومن ثم فأنا أتوجه إلى نفسي أولاً ثم أتوجه إلى كل واحد منكم ومن أمتنا في هذه الشام المباركة ثانياً أدعو نفسي وأدعوكم جميعاً – على اختلاف الفئات وعلى اختلاف الدرجات – إلى توبة صادقة إلى الله سبحانه وتعالى، والخيط الذي بيننا وبين الله عز وجل ليس خيطاً واهياً، إنه خيط مصيري به نلقى الله عز وجل، هو إيماننا به إلهاً واحداً لا شريك له، هو يقيننا بأننا عباده الذين لا نتحرك إلا في قبضته وليس لنا من مصير إلا إليه، ما الذي بقي أذاً؟ بقي

أن نُهْرَعَ إلى باب التوبة والإنابة فنتوب صادقين إلى الله عز وجل من سائر الذنوب والآثام، وأخطر هذه الذنوب تلك التي فيها إهدار لحقوق العباد، والوقت لا يتسع لأنواع هذه الحقوق وأنواع الإهدار التي تستنزل غضب الرب سبحانه وتعالى، إن حقوق الله مبنية على المسامحة يا عباد الله أما حقوق العباد فمبنية على المشاحة لا يغفرها الله عز وجل إلا بعد أن تودَّى هذه الحقوق أو بعد أن تشيع المسامحة بين المستلبين لها وبين أصحابها.

وأقول بحق: إذا تبنا إلى الله عز وجل، وأظن أننا أو أكثرنا قد تاب في هذه الفترة العصيبة إلى الله عز وجل، هذا ما أظنه وأرجوا ألا يكون ظني مخالفاً، أعتقد أن الكثيرين منا على اختلافهم قد توجهوا إلى الله وقد أعلنوا إما بينهم وبين الله أو على ملأ أعلنوا التوبة والإنابة إلى الله سبحانه وتعالى، إذاً فاستبشروا بأن هذه الأزمة قد هبت لترحل وأنها قد آذنت بالانصراف – هذه حقيقة – ذلك لأنها لم تقبل إلينا إلا وهي عصا من عصي الرحمة الإلهية المتمثلة في تأديب الله عز وجل عباده، المتمثلة في إيقاظه لهم إلى الإنابة إلى الله عز وجل.

والتوبة – يا عباد الله – ليست مهمة خاصة بفئة من الناس دون أخرى كما يتصور البعض، سيد التائبين رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحسبكم أن تقفوا أمام الله عز وجل: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

كلنا مقصرون في أداء حقوق الربوبية، كلنا تائهون، نفوسنا المتسلطة علينا، شيطاننا المسلط علينا، كل ذلك شاء الله عز وجل أن يجعله سبباً للأخطاء، سبباً للوقوع في بعض المعاصي، ولكن كل من تاب وآب إلى الله عز وجل لقي رباً كريماً مجيباً، وحسبكم أن تصغوا السمع إلى قوله سبحانه: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ. هَذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ [ق: ٣١-٣٢] لمن؟ ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ [ق: ٣٢].

وأواب هذه صيغة مبالغة من آيب وآيب بمعنى راجع، أي هذا ما توعدين لكل رجاع إلى الله، ولن يكون الإنسان رجاعاً إلى الله إلا إذا كان كثير الشرود عن الله سبحانه وتعالى.

وبعد – يا عباد الله – فدعوني أُذَيِّل هذه التذكرة التي أتوجه بها إلى نفسي أولاً وإليكم جميعاً ثانياً، دعوني أُذَيِّل هذه التذكرة بالسؤال التالي: تُتَّهَمُ سورية اليوم بأنا ضالعة في إهدار حقوق الإنسان، وأنا لا أبرئ سورية ولا غير سورية من عامة الناس وقادتهم من الولوغ في الأخطاء، ها أنتم تسمعون أن الله عز وجل أن يكون الإنسان خطاءً، ﴿كل بني آدم خطاء﴾ كما يقول رسول الله وخير الخطائين التائبون، فأنا لا أبرئ سورية ولا غير سورية من الوقوع في الخطأ لكن دعونا نتساءل: أسورية هي التي أقبلت يوم ١٦ يناير من عام واحد وتسعين وتسعمائة وألف إلى العراق بأعتى الأسلحة المدمرة الحديثة متجهة بالقصف إلى مراكز الحياة المدنية والتجارية والاجتماعية ومقارِّ الأعمال والعمال والمدارس والمشافي والمساجد والكنائس وإلى ضواحي المدن وإلى أكواخ الأرياف تقصفها جميعاً بأعتى الأسلحة ابتغاء القضاء على البنية التحتية لها والقضاء على وجودها الإنساني والحضاري، حتى كان عدد الذين استحرهم القتل في أسبوع واحد هو الأسبوع الأخير من الحرب العراقية كما قررت جمعيات الهلال الأحمر ومنظمات حقوق الإنسان، كان عدد الذين استحرهم القتل في أسبوع واحد مائة وثلاثة عشر ألف قتيل، ستون بالمائة منهم أطفال.

ترى أسورية هي التي فعلت ذلك؟ لئن كانت سورية هي الضالعة في هذا فوالله ينبغي أن تُسَاقَ إلى أعتى المحاكم الإنسانية لتلقى جزاءها العدل فيما أقدمت عليه، ولكنكم جميعاً تعلمون والعالم كله يعلم أن الذي فعل ذلك كله هو الوحش الأمريكي ذو الأنياب الناقعة المتطاولة بين شقيه، ذو المخالب السوداء المنبسطة فوق كفيه، هذا الوحش هو الذي أقدم على ذلك، وها هو ذا يتمرس ويتمرن ليعلم كيف يجلس فوق كرسي القضاء، وما إخاله أصبح قادراً على إتقان الجلوس فوق هذا الكرسي، إنه بمخالبه هذه وبأنيابه الناقعة هذه يتهم هؤلاء وهؤلاء وأولئك بالضلوع في إهدار حقوق الإنسان، هذه الحقيقة ينبغي أن أُذَيِّلَ خطابي هذا وأقول:

إذا طاول الأرض السماءَ سفاهة ... وفاخرت الشهبَ الحصى والجنادل

فيا موت ذُرْ إن الحياة ذميمة ... ويا نفس جِدِّي إن دَهْرَكِ هازلُ

وغفراً يا ربي على استشهادي بالشعر في مثل هذا الموقف لأن بلاغة الكلام مطابقة الكلام لمقتضى الحال، ولم أجد شيئاً يوافق مقتضى الحال سوى هذا الذي ختمت به حديثي. أقول قولي هذا وأستغفر الله.



٣٢- مفتاح الحل الرجوع إلى الله | ٢٠١٢/٠٥/٢٥

قضى الله سبحانه وتعالى ألا يُمتِّع عباده المؤمنين بنعمة العصمة التامة من الذنوب والآثام حاشا الرسل والأنبياء على الرغم من أنه خاطبهم بالشرائع الآمرة والناهية المحرضة والمنذرة، ولله في ذلك حكمة يضيق هذا الوقت عن بيانها، ولعلنا سنعود إليها في فرصة أخرى. ولكن الذي يغني عن نعمة العصمة التي منعها الإنسان المؤمن بالله عز وجل حاشا الرسل والأنبياء التوبة إلى الله عز وجل يُهْرَعُ إليها العاصي كلما زلت به القدم، كلما تغلبت عليه نفسه الأمارة بالسوء، كلما سيطرت عليه رعوناته فارتكب من المعاصي والأوزار ما حملته نفسه الأمارة عليه.

التوبة إلى الله عز وجل بصدق مع الذل والضراعة وإعلان صدق العبودية والمسكنة لله عز وجل، ذلك يقوم مقام العصمة لأن الله سبحانه وتعالى يغفر للتائب اللاجئ إلى الله عز وجل بذل الضراعة والمسكنة معاصيه كلها، وصدق رسول الله القائل: ﴿التائب من الذنب كمن لا ذنب له﴾.

ولكن الذي هو أخطر من ارتكاب المعاصي العكوف عليها مع الرضا عنها، الذي هو أخطر من ارتكاب المعصية أن يقبل إليها الإنسان وهو راضٍ عن عمله، وهو يبرر إقدامه على هذا المنكر الذي لا يرضى الله سبحانه وتعالى عنه. هذا أخطر وأشد من المعصية ذاتها.

المعاصي التي تُرْتَكَبُ بسائق من الضعف ممحوة في نهاية الأمر، لابد أن تكون التوبة مغتسلاً طاهراً لها، ولكن المعصية عندما ترتكب مع التبرير لها ومع العكوف عليها والرضا عنها تلك هي المصيبة الكبرى التي يحجب الإنسان أمامها عن رحمة الله عز وجل وصدق الله القائل عن هذا النوع من الناس: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠].

من هم الذين يقول ربنا عنهم هذا الكلام؟ هم الذين يستمرئون المعصية ويقررون الدوام عليها ويفلسفونها ويبررون سلوكهم السائر نحوها. أما المعصية التي ترتكب بسائق من الضعف فهي تلك التي

قال الله عز وجل عنها وعن أصحابها في محكم تبيانه: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

عباد الله: مجتمعاتنا الإسلامية مغموسة في كثيرٍ من الأوزار والمعاصي والموبقات، مجتمعاتنا الإسلامية – على اختلاف الفئات التي فيها، على تفاوت الطبقات التي فيها – حُمِّلَتْ أو تَحَمَّلَتْ كثيراً من الأوزار التي حذر الله سبحانه وتعالى منها ونهى عنها، ولا أريد أن أُفَصِّلَ الحديث عن أنواع هذه المعاصي فتخيلوا هذه الأنواع واعلموا أنها كلها موجودة، بيوتنا مليئة بظلمات المعاصي إلا من رحم ربك، مكاتبنا مليئة بالمعاصي إلا ما رحم ربك، معسكراتنا مليئة بالمعاصي إلا ما رحم ربك، وأنا أتحدث عن واقع ينبغي أن أذكره بين يدي مفتاح الحل والرجوع إلى ساحةٍ بل واحةٍ وارفة من رحمة الله عز وجل.

وإني لأقول لكم وأنا موقن بأن هذا البلاء الذي يمر بنا إنما هو رسائل إيقاظ آتية من عند الله سبحانه وتعالى، يوقظنا مولانا من خلالها برحمة غامرة إلى أن نستيقظ إلى واقعنا وننظر إلى حالنا ونقف ساعة قدسية من نقد الذات ومن اتهام النفس على كل المستويات ثم نقبل إلى الله عز وجل نعلن التوبة الصادقة النابعة من طوايا قلوب عضها الألم وانتابتها حرقة الندم مع التذلل والانكسار والضراعة لمولانا وخالقنا عز وجل، هذا البلاء الذي نمر به ليس إلا إيقاظاً إلى هذا المعنى الذي يريد منا ربنا سبحانه وتعالى أن ننتبه إليه فنهرع جميعاً على كل المستويات سراً قبل الجهر إلى محراب الذل والعبودية لله، نضرع إليه بانكسار، بذل، نعلن التوبة الصادقة بين يديه، نعلن العزم على الاستقامة على صراطه ونهجه، ولسوف تجدون أن البلاء قد امحى وأن المصيبة قد آلت إلى أثرٍ بعد عين، نعم، ألم تقرؤوا قول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ * فَلَوْلا إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢-٤٣]. أي هلا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا.

إياكم يا عباد الله أن تكونوا من هذا الفريق، إياكم أن تكونوا من أولئك الذين قست قلوبكم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعكفون عليه من المعاصي والأوزار، فإن البلاء يذهب ولكن سرعان ما يعود، هكذا كُلِّفْتُ أن أقول لكم وأنذركم، البلاء سيذهب يا عباد الله ولكن المطلوب من عباد الله – وقد أيقظهم الله عز وجل بإقبال هذا البلاء ثم رحمهم بصرفه – مطلوب منهم أن يتوبوا، مطلوب منهم أن يؤوبوا،

مطلوب منهم أن يضعوا عبوديتهم لله موضع التنفيذ، وعندما أقول هذا الكلام أوجهه لمجتمعنا بكل فئاته، وأنا أول من أذكر نفسي بهذا الواجب ثم إني أخاطب به كل الفئات وممن أخاطب بهم هؤلاء الذين يُسَمَّون الإرهابيين أو يُسَمَّون المسلحين أو ما إلى ذلك أقول لهم كما أقول لكل الفئات إن بيننا وبينكم جامعاً مشتركاً وأظن أن هذا الجامع المشترك لا يتفاوت فيه فئات ولا يغيب فيه فئات دون أخرى، إنه الإيمان بالله بقطع النظر عن الولوغ في المعاصي، أعتقد أن بيننا وبينكم جامعاً من هذا الإيمان بالله، فإن لم يكن فلعله جامع الإنسانية، فإن لم يكن فلعله جامع المروءة والنخوة والشرف، المهم أن بيننا وبين كل فئات المجتمع ولاسيما هؤلاء الذين يُسمَّون الإرهابيين أو المسلحين أو القتلة أو نحو ذلك.

أقول لهم ما أقول لكل الفئات: انطلقوا إلى تصرفاتكم من اتهام أنفسكم أولاً، لعلي مخطئ، لعلي آثم، لعلي متنكب عن جادة الصواب، ولكي أعلم أأنا متنكب عن هذه الجادة أم لا لابد أن أستشير ولابد أن أستعين ولابد أن أجلس جلسة قدسية أتأمل فيها وأفكر أعود فيها إلى عقلي لا إلى مزاجي، لا إلى رعوناتي، أقول لنفسي ولكم ولهؤلاء الإخوة: أما الأمزجة والرعونات فهي انفعالات قسرية وليست أفعالاً إرادية، إن كان مزاجك يكره نظاماً أو يحبه، إن كان مزاجك يكره قادةً أو يحبهم فالحب والكراهية ليس فيهما مقياس خير ولا شر، وقديماً قالوا: إنما يأسى على الحب النساء، وإنما المقياس كامن في الرجوع إلى ما يقرره العقل وما يقرره الإدراك، أنا أقول هذا لنفسي وأقول لسائر الإخوة، للقائمين بالأمر، لكل الفئات، أمزجتنا حدِّثْ عنها ولا حرج، لا حرج فيما تتدلل وتدعونا إليه الأمزجة، هي انفعالات تعبر عن نفسها آناً بالكراهية وآناً بالحب وما على المحبين ولا الكارهين من سبيل.

أما السلوك فينبغي أن ينبثق من قرار العقل، هل عدتم إلى العقل وتساءلتم — وإن أمزجتكم توحي إليكم كراهية النظام وضرورة العمل على إنهائه — هل سألتم عقولكم عن البديل الذي أعددتموه؟ وهل أجابكم العقل وبيَّنَ لكم البديل الذي أُعِدَّ؟ أعتقد أنكم لم تفكروا في البديل قط وإنما تفكرون فقط بتهديم هذا النظام القائم وإلغائه، وأقول لكم بعبارة أوضح وأجلى: إنكم تقاسمتم مع أعدائنا وأعدائكم المهمة، التزمتم بالتهديم وإلغاء النظام والتزم الأعداء بالبديل، وهاهم قد رسموا البديل بل وضعوه بل قرروه وأصدروا لا أقول تقريراً بل أصدروا قراراً به، صدر القرار في إسرائيل ثم أُرْسِل فوُقِّعَ عليه في البيت الأبيض، هم كلَّفوا أنفسهم بالبديل أما أنتم فقد تكلفتم بالإلغاء، وأنا أقول أيها الإخوة: ما هو هذا البديل، أعود

إلى عقلي وأسأله ما البديل، البديل الذي وقعْتُ عليه، ولحسن الحظ أنني أضع يدي على صورة من هذا القرار لا التقرير، قرار، إن البديل يتكون من ثلاث مراحل، المرحلة الأولى إلهاب ما يسمى الفوضى الخلاقة القاتلة، أجل القاتلة، هذه تتمة الشعار، إلهاب وإيقاد الفوضى الخلاقة القاتلة.

المرحلة الأولى تسعير الحرب الطائفية اللاهبة، المرحلة الأولى مرحلة النجدة التي تفد إلينا بها ملائكة أوروبا لينقذونا من هذه الحرب اللاهبة وليعيدوا الأمن والسلام والطمأنينة ولكن بثمن، ما هو الثمن؟ تقسيم سورية التي كانت إلى اليوم دولة واحدة إلى أربعة دويلات، واحدة في الساحل، وثانية في الشمال، وأخرى في الوسط، ورابعة في الجنوب، وأنا لا أريد أن أذكر الأسماء التي سُمِّيَ بها كل دويلة من هذه الدويلات، هذا ما يقوم به أولئك، أقول لهؤلاء الإخوة وهذا ما تقومون به أنتم عوضاً عنهم.

أيها الإخوة أقول لنفسي ولكم ولكل أخٍ عاقل: أفأنتم غداً ستكونون سعداء بهذا الذي فعلتموه خدمة لأعدائنا وأعدائكم جميعاً؟ أفأنتم ستكونون سعداء بالتاريخ الذي يكتب ويتحدث عن المخالب العربية التي استُخدِمَتْ واستُعمِلَتْ لتقسيم سوريا وتحويلها إلى أثر بعد عين؟ أأنتم على استعداد لأن تستقبلوا لعنات الأجيال وهم يقرؤون التاريخ؟ لا أعتقد يا عباد الله، أبداً لا أعتقد. بيننا وبينكم جامع مشترك لا يمكن أن يذوب، إنه الإيمان بالله حتى وإن كان راقداً بين جوانحكم ولكن بوسعكم أن توقظوه، بيننا وبينكم جامع ينبعث ويتفرع عن الإيمان بالله، هو الإنسانية، بيننا وبينكم جامع مشترك هو النخوة، الشرف، المروءة، الكرامة، كل ذلك يمنعكم من أن تتقاسموا المهمة بهذا الشكل، تتحملون مهمة التهديم وعليهم هم مهمة وضع البديل، وهذا هو البديل وُضِعَ وقد قرأته، ويقول القرار في آخره هذه العبارة: وهذا كله في متناول يدنا اليوم.

أقول هذا لأدعو نفسي ولأدعوكم جميعاً بكل فئاتنا إلى توبة صادقة إلى الله، إلى عودٍ حميدٍ إلى رحاب العبودية لله. نحن عبيد مهما تقلبت بنا الأيام ومهما قفزت بنا الرعونات سنظل عبيداً لله ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً﴾ [مريم: ٩٣].

مصيرنا الوقوف بين يدي الله عز وجل، الإنسان يُخْدَع، الإنسان يُغْرَى بكثير من العوامل، كلٌّ منا يُعَرَّض لذلك ولكن العقل يعيد صاحبه إلى الرشد، العقل يعيد صاحبه إلى الحمى، أقولها مرة أخرى من

منطلق الحب، مرة أخرى من منطلق الشفقة على أنفسنا وعلى إخواننا ثم على هذه الأرض التي ائتمننا الله عليها، من منطلق الغيرة على هذه الدولة القدسية التي ائتمننا الله عليها، ما ينبغي أن نخون الأمانة، ما ينبغي أن نصبح مخالب لأعدائنا جميعاً، يا عباد الله أوبوا إلى الله لاسيما في هذه الأيام التي تناديكم أن أوبوا وتوبوا فباب التوبة مفتوح، باب القبول من الله لكم مفتوح، رجب وما أدراك ما رجب، أول شهر من أشهر الحرم ما أحلى فيه الرجوع إلى الله، ما أحلى فيه الرجوع إلى الخالق، ما أحلى فيه الرجوع إلى مولانا عز وجل،

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.



٣٣- لطائف قرآنية | ٢٠١٢/٠٦/٠٨

فتعالوا بنا اليوم يا عباد الله نتفيأ ظلال ألطاف قرآنية أخاذة بعيداً عن دخان الأحداث ومشكلاتها وذيولها. والألطاف القرآنية ومشاهدها كثيرة ومتنوعة في تأثيراتها على النفوس، ولكني إنما أقصد منها في موقفي هذا تلك الألطاف التي تتضمن – فيما تتضمنه – عتاباً رقيقاً لطيفاً ولكنه في الوقت ذاته حارٌّ وحادٌّ، عتاب يبعث الإنسان على الخجل وعلى الحياء من الله سبحانه وتعالى مهما كان محجوباً عنه بحجب الآثام والذنوب والملهيات والمنسيات، أريد يا عباد الله أن نقف معاً على بعض هذه الألطاف القرآنية ونتبين ما تفعله في النفس الإنسانية التي لم تُمْسَخْ فطرتها بعد، تأملوا على سبيل المثال في هذه الآية التي كم وكم اهتدى بمصباحها أناس تائهون، وكم وكم جُذِبَ بالخجل من الله عز وجل عند سماعها أناس شاردون عاكفون على اللهو والفواحش، إنها قول الله عز وجل: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

تأملوا في هذا الاستفهام الرقيق العاتب ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾

أي إلى متى أرخي العنان وأفتح أمامكم الطريق لتنالوا رغائبكم ولتتقلبوا في شهواتكم، ألم يأن لكم أن تشبعوا من دنياكم وأن تلتفتوا إليَّ؟ ألم يأن لكم ذلك؟ أجل، كان ممن هُدِيَ إلى الله – وكان تائهاً ضالاً – بهذه الآية الفضيل بن عياض، وكان ممن هُدِيَ بها – وكان إلف لهو وقعيد أهواء وشهوات – عبد الله بن المبارك وآخرون.

ولكني يا عباد الله أريد أن أقف بكم على مشهد آخر من مشاهد هذه الألطاف القرآنية في كتاب الله عز وجل، هو مشهد أصدقكم أنني ما مررت به أثناء تلاوتي لكتاب الله إلا واستوقفني هذا المشهد واهتاجت بين جوانحي مشاعر من الخجل، مشاعر من الحياء من الله عز وجل، وأحسب أن هذا الذي يطوف بنفسي ينبغي أن يطوف بذهن كل إنسان مثلي مؤمن بالله عز وجل، اسمعوا هذا البيان العاتب:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاء مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾ [الكهف: ٥٠].

أعيد، وتأملوا بآذان قلوبكم: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاء مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾

أسجدت الملائكة – تكريماً لا عبادةً – لكم، وأمرت إبليس وكان معهم أن يسجد لكم وكرمتكم وخلقتكم على عيني فاستكبر إبليس قائلاً: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

طردته من أجلكم أنتم، طردته تكريماً لكم، أفيكون جزائي لديكم أن تعرضوا عني، أن تعرضوا عمن كرمكم، عمن أسجد ملائكته لكم، وتتخذوا من عدوكم وعدوي ولياً لكم من دوني، أفهكذا يكون الحق ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاء مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾.

ألا ترون إلى هذا العتاب الآخاذ يا عباد الله؟ ألا تشعرون بالأسى والخجل والحياء يهتاج كل ذلك بين جوانح كل واحد منا وكأن كُلاًّ منا يقول لا يا رب أنا ما اتخذت الشيطان ولياً من دونك لكنه الضعف هو الذي جعلني أنقاد لوحي شهواتي وأهوائي وقد كانت السلاح الأول في يد هذا الشيطان الذي أعلن عداوته للإنسان، نعم. هذه حقيقة ينبغي أن نتبينها. عندما نتلوا هذه الآية لا أظن أن فيها من يتلوها بفكر مستيقظ وقلب نابض إلا ويذيبه الخجل من مولاه وخالقه عز وجل. كنت ذات يوم أتلو هذه الآية على بعض المسامع وأبين ما تحمله في طواياها من هذا العتب الرقيق وما ينبغي أن يهتاج بين جوانحنا عندما نصغي إلى هذا الكلام الرباني العاتب الأخاذ وإذا بأحدهم ينبري ليقول: إن عصر العلم عصر قانون التطور قد أسدل ستاراً صفيقاً على قصة آدم وخلق الله له من تراب وهذه المسألة كلها، ولما كدت أن أفتح أمامه ملف الحديث العلمي عن نظريات التطور المتناسخة التي ينسخ اللاحق منها السابق بدءاً من النظرية اللامركية الأولى التي نسختها الداروينية ثم الداروينية التي نسختها الداروينية الحديثة ثم الداروينية الحديثة التي نسختها اليوم الحيرة التي يعاني منها عقل الإنسان الغربي، قبل أن أبدأ بهذا الحديث إذا بنداء يهمس في سري يقول دعك من هذا التفصيل، واصل تلاوة كلام الله واقرأ الآية التي تليها، قرأت، ما هي؟

﴿مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً﴾ [الكهف: ٥١].

ردٌّ رباني تنزل على محمد صلى الله عليه وسلم قبل خمسة عشر قرناً ليتلقاه الناس بعد ثلاثة عشر قرناً، أجل أعرضت عن ذلك التفصيل ووقفت أمام الحقيقة العلمية المثلى، قلت: أنتم تعتزون بأنكم رجال علم ومن ثم فأنتم لا تتعاملون مع الغيب والغيبيات وإنما تتعاملون مع دليل التجربة والمشاهدة المادية أليس كذلك؟ وأنتم تتهمون المؤمنين بالله بأنهم غيبيون بعيدون عن إدراك الحقائق العلمية، قلت: فما لكم تغرقون في يمٍّ بل مستنقع من الغيبيات عندما تتحدثون عن كيفية خلق السموات والأرض، هل شاهدتم ذلك؟ يقول الخالق: ﴿مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، من أين لكم أن الكون إنما وجد عن طريق الانفجار الأعظم أو الأصغر أو الغاز السديمي أو .. أو أي شيء آخر، ما لكم تسبحون في مستنقع من الغيبيات التي لا يرفدها علم وأنتم الذين طلقتم الغيبيات وتزوجتم دليل التجربة والمشاهدة لا غير، ثم إنكم متى اشتركتم مع الخالق سبحانه وتعالى فتبينتم كيف خُلِقَ الإنسان وكيف تطور من حيوان أقل شأناً ثم تطور بعد ذلك ثم تطور إلى أن آل إلى حالته هذه، أفكنتم تشاهدون ذلك المخلوق إذ كان يتطور في تلك القرون المتصرمة السابقة أم إنه حديث غيب وأنتم تغمضون مع العين العقل أيضاً، ربكم يقول: ﴿مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً﴾

ما كنت لأتخذ الذين يضلون الناس باسم العلم شركاءَ أو معينين لي في خلق الإنسان. قلت: أنا لن أتحدث عن النظريات وكيف تناسخت ولكني أنقل لك كلام الخالق سبحانه وتعالى فأتني بجواب على ما يقوله الخالق، أنت رجل علم، رجل العلم ينبغي ألا يلتفت إلى الغيب والغيبيات، وهل كفرتم بالله إلا لأنكم ابتعدتم عن الغيب والغيبيات؟ إذاً ينبغي أن تسجنوا أنفسكم في سجن التجربة والمشاهدة المادية، متى جربتم ومتى شاهدتم خلق السموات والأرض؟ متى جلستم مع الله — إن جاز التعبير — لتكونوا شركاء معه بل عوناً له في خلق الإنسان؟! صدق الله، ما أعجز كتاب الله عز وجل، والله إني لأرى أن كلمة الإعجاز تتقاصر عن سمو كتاب الله عز وجل، يبدأ البيان بقصة آدم وإسجاد الله الملائكة له وقد علم أنه سيأتي مع القرون الآتية من ينطق بهذا الهراء باسم العلم فأتبع ذلك الحديث هذا الرد ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ

اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاء مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾ [الكهف: ٥٠].

إذاً يلتفت البيان الإلهي إلى من يريد أن يرد على قصة آدم وخلق الله له وإسجاد الملائكة له بنظريات التطور التي يفرحون بها كما يفرح الأطفال باللعب تتقلب في أيديهم، يقول بعد ذلك مباشرة: ﴿مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً﴾ [الكهف: ٥١].

عباد الله: هذا هو كتابنا، إنه كتاب ربنا سبحانه وتعالى، هل تتصورون أن ابن آدم تشرف في حياته هذه بشيء أعز وأجل وأبقى من هذا الخطاب الذي سما الله عز وجل الإنسان به إلى مستوى مناجاته له، لا أعتقد، ليس في الدنيا ولا في الآخرة نعيم بل مكرمة أكرم الله عز وجل بها الإنسان كهذه المكرمة إذ جعله أهلاً لمناجاته، جعله أهلاً لمخاطبته، فيا عجباً لمن يعيش حياته هذه كلها وهو في شغل شاغل عن الخطاب الرباني الذي يلاحقه، يا عجباً للإنسان الذي يقضي حياته عاماً إثر عامٍ إثر عامٍ وعما قريبٍ سيقضي نحبه وكتاب الله يناديه أن التفت إليَّ، أن أقبل إليَّ، اسمع نداء الله لك، اسمع تحببه لك، اسمع، ولكنه يعرض، اللهم لا تجعلنا من هؤلاء الذين أعرضوا عن كتابك، اللهم اجعلنا ممن سعدوا بكتابك في الدنيا ودخلوا في الشفاعة به يوم العقبى، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

٣٤- حاجتنا إلى التوبة والالتجاء إلى الله | ٢٠١٢/٠٧/٢٧

يجب على كل مؤمن بالله عز وجل أن يعلم أن الله عز وجل هو خالق كل شيء، وهذا يعني أن الله هو القيوم على كل شيء لأن خالق الشيء لابد أن يكون هو القيوم عليه، وهذا يعني أن لا نافع ولا ضار في الكون كله إلا واحد لا ثاني له هو هذا الخالق الذي هو قيوم السموات والأرض، ولكن يجب أيضاً أن يعلم المؤمن إلى جانب هذه الحقيقة أن الله عز وجل قضى أن يعيش الإنسان من كونه هذا في عالم الأسباب، في سلسلة من عالم الأسباب جعلها الواسطة إلى أهدافه، إلى غاياته، إلى حاجاته ومبتغياته، تلك سنة من السنن التي قضى بها الله سبحانه وتعالى.

فإذا توجه الإنسان يبتغي تحقيق معايشه ورزقه كان المطلوب منه بما تقضي به الشريعة الإسلامية أن يتوسط إلى ذلك الأسباب التي شاءها الله عز وجل من فلاحة وزراعة وبناء وتجارة ونحو ذلك، وإذا اهتم بذاته بجسمه وبصحته وعافيته كان الواجب عليه فيما تقضي به الشريعة أن يتلمس الأسباب التي قضى الله سبحانه وتعالى بها لذلك من طعام وشراب ومأوى وعلاجات للتخلص من الأمراض والآفات ونحوها، وإذا شاءت الأمة أن تحصن نفسها ضد العدو الطامع بها وأن تحمي حقوقها وأوطانها وقيمها فالمطلوب منها فيما تقضي به الشريعة الإسلامية أن تهيء العدة والعدد لذلك وأن تجمع سائر الوسائط والأسباب العلمية التي لابد منها لذلك.

ذلك هو المبدأ الاعتقادي الذي يجب أن نعتقده وهذه هي السنة الربانية التي ألزم الله عز وجل عباده بها إذ أقامهم كما قلت لكم من هذا الكون في عالم من الأسباب المتنوعة الكثيرة. ولكن يجب أن نعلم يا عباد الله أن هذه الأسباب التي أقامنا الله عز وجل في عالمها وأمرنا بالتوسط بها إلى مبتغياتنا إن هي إلا أسباب شكلية ليست لها أي فاعلية، إن هي إلا جند من جنود الله سبحانه وتعالى، أمرك الله سبحانه وتعالى أن تقبل إلى الطعام والشراب لتحمي بدنك وجسمك من الآفات ولكنه يحذرك من أن تتوهم أن الطعام هو الذي يشبع أو أن الماء هو الذي يروي، يأمرك بالطعام والشراب ولكنه ينبهك إلى أن الذي يشبعك هو الله والذي يرويك هو الله سبحانه وتعالى، يأمرك الله عز وجل بالبحث عن العلاج والدواء

لرد آفات الأمراض ولكنه يؤكد لك أن الشافي هو الله والدواء لا دخل له في الشفاء قط، كذلكم الأمة التي تحصن حقوقها وأوطانها وقيمها ضد طمع الطامعين وضد عدوان المعتدين يجب عليها أن تمارس هذه الوسائل وأن تجمع هذه العدة والعدد ولكن ينبغي أن تعلم يقيناً أن الذي يحمي الأمة إنما هو الله وأن الذي يبعد آفات العداوة والعدوان إنما هو الله سبحانه وتعالى، وتأملوا يا عباد الله في كلام الله عز وجل كيف يأمرنا بأن نجمع بين هاتين الضرورتين فلي حياتنا الاعتقادية والسلوكية، إنه يدعونا إلى أن نسير في فجاج الأرض بحثاً عن الرزق، بحثاً عن وسائل العيش والرزق، فهو يقول: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

ولكنه يقول لك في الوقت ذاته: ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ [العنكبوت: ١٧].

هو يقول: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

يأمرنا بالإعداد ولكنه يقول في الوقت ذاته: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٠].

ويقول في الوقت ذاته: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكِّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

أرأيتم يا عباد الله إلى هذه الحقيقة ذات الشطرين يجب أن نتبه إليهما، المعتقد أن الله هو الناصر، هو النافع وهو الضار وفي الوقت ذاته يدعونا ربنا عز وجل إلى أن نتعامل بالأسباب التي جعلها جنوداً مجندة مسخرة لنا ثم نبهنا إلى أن هذه الأسباب إن هي إلا جند من جنود الله ليست فيها فاعلية لا تضر ولا تنفع ولكنكم مطلوبون بأن تمارسوا هذه الأسباب.

ما الذي أبتغيه من هذا الكلام الهام الذي قلته الآن؟ الذي أبتغيه يا عباد الله أن نتساءل ونحن الآن ننظر فنجد أن وضعنا كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بكل دقة: ﴿ستداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، قالوا أمن قلة يا رسول نحن يومئذٍ؟ قال: لا بل أنتم كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل﴾.

ها هي الأمم أحاطت بنا فعلاً إحاطة عدوان كما تحيط الأكلة بالمائدة بقصعتها نعم. أما الأسباب المادية، أما العدة والعدد فأعتقد أننا ما قصرنا في جمع ما نستطيع أن نجمعه منها، ما قصرنا في شيء من

ذلك، ولكننا نعلم، وإن لم نكن نعلم من قبل فها نحن الآن علمنا أن هذه العدد لا تفيد وأن هذه العدة لا تغني، يجب أن نلجأ إليها كما أمر الله ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم﴾ ولكن قد علمنا أن النافع هو الله وأن الضار هو الله وأن الذي ينتصر لنا هو الله عز وجل فهل تعاملنا مع هذا السلاح الثاني، أما السلاح الأول وهو سلاح المادة، العدة فأعتقد أننا قد مارسنا من ذلك ما نستطيع، ولكن العدة الأخرى التي هي وحدها مكمن النصر أو الخذلان والتي هي وحدها معين النصر أو الخذلان، هل تعاملنا مع هذا الجانب الثاني، مع هذه العدة الثانية؟ أعتقد أننا مقصرون كل التقصير.

إذا علمنا أن الناصر هو الله وأن الفاعلية بيد الله عز وجل فقط وأن الشفاء ليس بيد الدواء والطبيب وإنما بيد طبيب الأطباء، بيد الله، وإذا علمنا أن السلاح مهما كان ليس هو الذي ينصر ولكن خالق السلاح ومستعمليه هو الذي ينصر فهل تعاملنا مع هذه الحقيقة؟ لعلكم تسألون كيف السبيل إلى أن نتعامل مع هذه الحقيقة؟ السبيل معلوم ويا خيبة من لا يعلم هذا السبيل، السبيل أن نتجه إلى الله ونطرق بابه، إذا كان ربنا يقول لنا: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٠] يقول: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

إذاً فالمطلوب أن نُهْرَعَ إلى باب الله وباب الله مفتوح، نُهرع إلى باب الله، ماذا نصنع؟ نتضرع، نجأر إليه بالشكوى، نعلن عن ذل عبوديتنا له، نفتتح ذلك كله بالتوبة، بالإنابة إلى الله، بأن نصطلح مع الله عز وجل، بأن نقوم ما اعوج من علاقة ما بيننا وبينه ونصلح ما فسد من علاقة ما بيننا وبينه على كل المستويات، على مستوى القادة، على مستوى الجنود في معسكراتهم، على مستوى الموظفين في دوائرهم، على مستوى الناس في بيوتهم. نحن صلتنا بيننا وبين الله عز وجل هي العبودية، العبودية منا له والربوبية منه إلينا. هكذا نتعامل أيها الإخوة مع هذا العلاج الأوحد، الضراعة، الالتجاء إلى الله عز وجل، ألم تعودوا إلى كتاب الله وتتبينوا كم وكم يلح البيان الإلهي على عباده بضرورة التضرع إلى الله، بضرورة الالتجاء إليه في الشدائد. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ [الأعراف: ٩٤]. لعل هنا بمعنى التعليل أي أملاً في أن يتضرعوا.

ويقول: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أي تلك هي سنن الله ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢] ﴿فَلَوْلا إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ﴾ [الأنعام: ٤٣] لماذا لا يتضرعون،

لماذا يبتلي الله عز وجل عباده المؤمنين – أقول المؤمنين به – لماذا يبتليهم بين الحين والآخر بالمصائب إن في أبدانهم أو في بلدانهم أو في أي نوعٍ من أنواع المصائب؟ من أجل أن تنبهم من غفلة، من أجل أن توقظهم من رقاد، من أجل أن تجعلهم يلتفتون إلى مولاهم فيصطلحوا معه ويتوبون ويؤوبون إليه، والآفة الكبرى أن تبتلى الأمة بالمصيبة ثم تستمر المصيبة ثم تستمر دون أن تلتفت هذه الأمة إلى مولاها وخالقها، دون أن تستيقظ إلى أن هذه المصيبة ليست إلا أجراس خطر تقرع مسامعهم أو تقرع على أفئدتهم.

نعم، هما علاجان يا عباد الله، أما الأول فشكلي ويجب أن نأخذ أنفسنا به، الوسائل والأسباب المادية، العلاج الثاني وهو محور النصر أو الهزيمة هو التعرف على الله، هو أن نتعرف على الله عز وجل، لم نتعرف عليه في الرخاء فلنتعرف عليه في الشدة، يقلنا نعم، سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن بحاجة إلى أن يستغفر من ذنبه، كان معصوما ومع ذلك كان المثل الأعلى في هذا الذي أقوله لكم، عندما هاجر مارس كل الوسائل المادية التي تخطر في بالكم والتي قد لا تخطر في بالكم من أجل أن ينجح في هجرته من مكة إلى المدينة كأنه لا يعتمد إلا على هذه الوسائل، فلما أداها كما أمر الله عز وجل ألقى هذه الوسائل وراءه ظهرياً ووضع فكره وقلبه وكيانه أمام شهود الله عز وجل والدليل على ذلك أن المشركين عندما أحدقوا في الغار الذي كان به هو وأبو بكر رضي الله عنه وقال له أبو بكر: لو أن أحداً منهم نظر إلى أسفل قدمه لرآنا، قال له: ﴿ما ظنك باثنين الله ثالثهما﴾.

هما علاجان، في غزوة بدر وسيلة من الوسائل المادية إلا نفذها، استشار أيه هو الموقع الذي ينبغي أن نتخذه، هذا هو المكان الاستراتيجي الأفضل أم هذا، حتى إذا أنفذ ذلك قضى ليلة الجمعة، الخميس مساء إلى فجر الجمعة وهو يضرع إلى الله، وهو يلتجئ إلى الله أن ينصره ويقول: ﴿اللهم إن تخذل هذه العصابة فلن تُعْبَدَ في الأرض بعد اليوم﴾ نعم، في غزوة الأحزاب أرأيتم كيف مارس الأسباب المادية؟ كلف أصحابه جميعاً بحفر الخندق – سبب مادي من أهم الأسباب المادية – حتى إذا أنفذ هذه الوسيلة وغيرها كانت العمليات الحربية التي مارسها رسول الله هو وأصحابه في جنح الليالي المظلمة داخل الخندق هو الابتهال إلى الله، هو التضرع إلى الله سبحانه وتعالى، نعم يا عباد الله، استجاب ربنا أم لا، استجاب لهذا العلاج الثاني.

أما العلاج الأول فتطبيق لأمر شكلي أمرنا به الله سبحانه وتعالى، نعم الناس الذين جاؤوا من بعد، هذه البلدة التي منيت بغزو الصليبيين وبقيت هذه الأرض تحت آثار الصليبيين ما يقارب ثلاثة قرون، كيف كانت الوسيلة يا عباد الله لتطهيرها من دنس الصليبيين؟ كانت الوسيلة الحقيقية هذه الضراعة إلى الله، هذا الالتجاء إلى الله، وها هو ذا محمود زنكي المشهور بنور الدين الشهيد – أسأل الله عز وجل أن يوفق ناساً من الناس يجددون ضريحه – سلوه، سلو تلميذه صلاح الدين كيف كانت الوسيلة التي بها استنزلوا النصر من عند الله؟ التوبة، الإنابة على كل المستويات ثم الضراعية المستمرة على باب الله سبحانه وتعالى، حقيقة أيها الإخوة لا شذوذ فيها، حقيقة داخلة فيها معنى العلة بكلا شطريها السلبي والإيجابي كما يقول الفلاسفة، عندما وجد التضرع والالتجاء إلى الله مع التمسك بالأسباب كان النصر وكان التطبيق لقول الله: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥].

وعندما وجد الخذلان ووجد الإعراض وسكر من سكر بالنعم وأسباب الترف وما إلى ذلك كما كان في بلاد الأندلس في قرطبة وغرناطة ونحوها كان الخذلان، نعم. هذه الحقيقة أقولها لكم، وخير مناسبة أذكر نفسي وأذكر هذه الأمة بكل فئاتها بهذا العلاج الثاني، خير مناسبة إنما هو هذا الشهر المبارك، شهر الإنابة إلى الله، شهر الرجوع إلى الله عز وجل.

كلنا أيها الإخوة عصاة، ليس فينا معصوم، وأنا أول المقصرين في جنب الله، أنا أول العاصين المقصرين في جنب الله، ها أنا ذا أعلن توبتي، أعلن إنابتي إلى الله وها أنا ذا أعاهد الله على أن أستقيم في بقية ما كان لي من أيام في هذه الحياة الدنيا على صراط الله القويم فما لكم لا تتوبون إلى الله يا ناس، ما لكم لا تؤوبون إلى الله، ما لإخواننا في القيادة، ما لإخواننا في الجيش الذي نعتز به، ما لهم لا يضيفون إلى بطولاتهم في النهار رهبانيتهم في الليل، ما لهم لا يضيفون إلى بطولتهم التي نعتز بها في النهار عبوديتهم لله عز وجل في الليل، ما لنا لا نجدد العهد مع الله. أقولها لكم وأنا الضامن بأن الفرج آتٍ، لا أعني الفرج آتٍ بعد حين، سيأتي الفرج قريباً بإذن الله ولكن الله ينتظر منا هذه الأوبة، فهل عسيتم أن تؤوبوا إلى الله على كل المستويات، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.



٣٥- يفرح الله بتوبة عباده وفي عباده من يبغضهم ذلك | ٢٠١٢/١٢/٢٨

هما مولدان متجاوران زمنياً، أما أحدهما فمولد سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام، وقد تم الاحتفال به منذ يومين كما تعلمون، وأما الثاني فهو مولدنا سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم الذي سيحتفل العالم الإسلامية به بعد أيام، ومما لا ريب فيه أن بعثة كلٍّ من هذين النبيين والرسولين موئل رحمة للعالم أجمع، ألم تقرؤوا قول الله سبحانه وتعالى عن بعثة محمد صلى الله عليه وسلم خطاباً له: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

أو لم تقرؤوا قوله سبحانه وتعالى عن عيسى بن مريم على لسان جبريل: ﴿قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْراً مَّقْضِيّاً﴾ [مريم: ٢١].

هما رحمتان، رحمة أنزلها الله عز وجل على عباده ببعثة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ورحمة أخرى أنزلها الله عز وجل على عباده بولادة وبعثة سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام، على أن رحمات الله عز وجل كثيرة وموئلها كثير لا يُعَدُّ، ولقد أحسن رجال الدين المسيحي في بلادنا صنعاً عندما جعلوا احتفالاتهم بذكرى مولد سيدنا عيسى التجاءً إلى الله وتضرعاً بين يديه أن يزيح عن بلدتنا هذه، هذه المصيبة وأن يعيد نعمة الأمن والسلام إلى ربوع شامنا هذه، أجل، لقد أحسنت صنعاً إذ جعلت الاحتفال بهذه المناسبة العظيمة يُتَرْجَم إلى التضرع والالتجاء والتذلل على أعتاب الله سبحانه وتعالى.

كما أحسنت البابوية الفاتيكانية صنعاً أيضاً عندما سخَّرت موعظتها السنوية العظمى التي توجهها إلى العالم، سخَّرتها لدعوة العالم بمؤسساته وقادته للتوجه متعاونين بجد لإنهاء هذه المجزرة التي تدور رحاها على هذا البلد الآمن المطمئن الذي لم يظلم أحداً ولم يسئ إلى دولة ولا إلى جماعة، كان ولا يزال يحتضن أولي النكبات، كان ولا يزال يحتضن أولي المصائب، أجل.

عباد الله: إن الفاتيكان يمثل معظم العالم المسيحي ومع ذلك فقد تذكرت بابوية الفاتيكان النسب الساري بين الرسل والأنبياء، وصدق رسول الله القائل: ﴿الأنبياء إخوة لعلات﴾. توجهت البابوية إلى الشقيق ومن ثم توجهت إلى أتباع هذا الشقيق بل إلى أتباع سيدنا محمد وسيدنا عيسى على نبينا وعليه

الصلاة والسلام، اتجهت إلى هذا الشقيق وأتباعه بقلوب دامية وبأسى يؤثر، ولعله دليل من الأدلة الناطقة بصدق المشاعر التي اصطبغت بها موعظة الفاتيكان في هذا العصر.

وأما منظمة التعاون الإسلامي فإنه تمثل العالم الإسلامي أجمع، تمثل الدول الإسلامية من أقصاها إلى أقصاها. ذلك ما فعلته البابوية الفاتيكانية. أقول لكم يا عباد الله: أما منظمة التعاون الإسلامي فهي مؤسسة تمثل العالم الإسلامي أجمع بل الدول الإسلامية جمعاء. الفاتيكان استشعر الأسى الذي يطوف بالعالم الإسلامي والذي يطوف بقلب من قلوب العالم الإسلامي - وهو سورية - فوجه عظته العالمية الكبرى إلى العالم أجمع لينهض بجدٍّ وصدق لإنهاء هذه المجزرة، فماذا صنعت منظمة التعاون الإسلامي وهي تمثل العالم الإسلامي لا العالم المسيحي؟ إنها كما تعلمون تغطُّ في رقاد عميق وليت أنه كان كرقاد أهل الكهف، إنها محجوبة عن كل ما يجري هنا، إنها لا تسمع أنين الثكالى، ولا تسمع آهات اليتامى، ولا تتصور الدماء المنهمرة في الشوارع والساحات والميادين وليس ثمة من يحدثها ومن ثم لا يخطر ببالها أن تتحدث عن الأبنية التي خُرِّبَتْ، عن المزارع التي حُرِّقَتْ، عن الأموال التي نُهِبَتْ، ها هي ذي تصمت كما قلت لكم ولا صمت الموتى، لماذا أقول أهل الكهف. رابطة العالم الإسلامي رابطة، أين هي الرابطة يا عباد الله وقد تمزق العالم الإسلامي والعالم العربي في قلبه شرَّ ممزق، أين السعي إلى ربط الأخ بأخيه، إلى جمع الإخوة المسلمين تحت مظلة الإخاء التي دعا إليها مولانا وخالقنا في قرآنه إذ قال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠].

ولكني أقول لكم يا عباد الله: دعوا الدنيا كلها، دعوا الأسباب أجمع، على الرغم من ما نرى من فرق عجيبٍ وغريبٍ ما كنا نتوقعه، دعوا الأسباب وارحلوا إلى المسبب، عودوا إلى الإله الذي ابتلانا بهذه المصيبة، اربطوا آمالكم به واعلموا أن الله سبحانه وتعالى الذي شاء أن يبتلينا بهذه المصيبة منذ عامين إلا قليلاً إنما أراد من ذلك أن يوقظنا من سبات، إنما أراد من ذلك أن يعيدنا لنصطلح على صراطه ونهجه، ألا ولتعلموا أن لكل جلال يظهر جمالاً يختفي في داخله، ألا ولتعلموا أن لكل جلال من المصائب جمالاً من الرحمات، ولسوف تجدون هذه الرحمات عما قريب، ولكنها منوطة بشيء واحد قلتها وأعود فأقولها، منوطة بالتوبة يا عباد الله، منوطة بالاصطلاح مع الله يا عباد الله، منوطة بأن نعود فنتذكر هوياتنا التي ينبغي أن نرحل بها هي إلى الله سبحانه وتعالى عما قريب، قلتها - لا أقول بالأمس - قلتها قبل أن تطل

هذه المصيبة علينا، ذكَّرْت بطائفة من المعاصي أوغلنا فيها، وذكَّرْت نفسي وكل من شرفهم الله بالمقام فوق هذه الأرض المباركة بضرورة التوبة، بضرورة الإقلاع عن المعصية، وإنني لأقول لكم: إن هذه المصيبة فيما أرى وأرجو الله أن تكون رؤيتي صائبة قد آتت قدراً كبيراً من ثمارها.

كثيرون هم الذين كانوا تائهين بالأمس قد استقاموا على صراط الله اليوم، كثيرون الذين كانوا غافلين يتقلبون في حمئة الشهوات والأهواء بالأمس إنهم اليوم يتجهون إلى مولاهم وخالقهم بالتوبة والإنابة، وأسأل الله عز وجل المزيد من هذا التوجه إلى الله عز وجل.

ولا أزال أقول، لا أزال أوجه هذه التذكرة القلبية المنبعثة والله يشهد من مشاعر حب، من مشاعر شفقة، من مشاعر مودة وغيرة، أتوجه إلى قادة هذه الأمة، إلى جيش هذه الأمة، إلى المسؤولين في هذه الأمة، إلى شتى فئات هذه الأمة أدعوهم وأدعو نفسي قبلهم إلى التوبة، إلى الإنابة، إلى الاصطلاح مع الله سبحانه وتعالى.

بالأمس قلت في هذا المكان: ليس بين أن ينال هذا الجيش الباسل الذي يؤدي واجبه النوعي في هذه البلدة وبين أن ينال أعلى الرتب في رضوان الله سوى أن يتوج بطولته بالتوبة، سوى أن يتوج بطولته بتنفيذ ما أناط الله بكيانه وعنقه من الواجبات، سوى أن يلتزم بأوامر الله وينتهي عن نواهيه جهد الاستطاعة، قلت هذا والعجب الذي لا ينتهي أن في الناس ناساً ضاقوا ذرعاً بهذا الكلام وكأنهم يحبون أن يبقى العاصي عاصياً وأن يبقى التائه تائهاً وأن يبقى الشارد شارداً، وكأنهم يرغبون ويتمنون أن لو لم تبلغهم نداءات الله عز وجل القائل: ﴿تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحاً﴾ [التحريم: ٨].

ربنا يدعوا عباده إلى التوبة وفي الناس ناس يضعون ما بين نداء الله وآذان هؤلاء التائهين الحجب، لماذا يا إخوتنا، لماذا أيها الإخوة؟ لماذا تضنون على واحدٍ مثلي أن يرحل إلى الله بمثوبة واحد واحد فقط هداه الله بسبب تذكرة ذكَّره بها فقال ممن قال عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك مما طلعت عليه الشمس أو غربت، وفي رواية خير لك من حمر النعم». عباد الله أصدقكم الكلام: عندما أتلقى عن طريق الهاتف أو بشكل مباشر حديثاً لإنسان يعرفني على نفسه

وغصة البكاء في حلقه يخبرني أن كان تهائهاً ثم اهتدى، يخبرني أن كان يخب في ظلمات الجهل والجاهلية ثم ارعوى، هل تعلمون كم هي الفرحة التي تغمر كياني.

والله الذي لا إله إلا هو لو سيقت إلي كنوز الدنيا كلها بكل ما فيها من متع لن تبلغ فرحتها فرحة هذا الكلام إذ يلغني عن طريق هاتف أو بشكل مباشر حديثاً عن إنسان واحد هداه الله عز وجل بتذكرة سخرني الله عز وجل بها، لا أقول عشرات بل أقول واحد. يا ناس لماذا تضنون عليَّ أن يثيبني الله عز وجل بهذا الثواب العظيم، لماذا تضنون عليَّ أن أكون واحداً ممن قال عنهم رسول الله ﴿لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً إلى آخر الحديث﴾.

وأنا أعلم أن فرحتي هذه إنما هي جزء من فرحة رب العالمين التي عبَّر عنها رسول الله في الحديث المتفق عليه، أجل المتفق عليه برواية عبد الله بن مسعود وأن بن مالك قال: ﴿لله أفرح بتوبة عبده من رجل نزل بأرض دُويَّةٍ مُهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه فوضع رأسه فنام نومة فاستيقظ وقد ذهبت راحلته، قام يطلبها حتى اشتد عليه الحر واشتد عليه العطش فقال: أرجع إلى المكان الذي كنت فيه فأنام حتى أموت، ورجع وامتد ووضع رأسه على ساعده ثم استيقظ وإذا راحلته عنده عليها طعامه وشرابه، يقول رسول الله: فالله أشد فرحاً بتوبة العبد من فرح هذا براحلته﴾.

وأقول من القيادة، من الجيش، من المسؤولين، انظروا يا عباد الله كم يفرح الله بأوبتكم إليه، كم يفرح الله بعودتكم إليه، كم يفرح الله باصطلاحكم معه، ألا فانضووا تحت رحمة الله بالتعرف على الله، تعرف على الله في الرخاء يعرفك في الشدة، أقولها اليوم وسأقولها غداً وأحتسب أجري في ذلك عند الله راجياً أن يكتبني ممن قال عنهم: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣]



العبودية

٣٦- الحرز العاصم للشباب من كيد الشيطان | ١٩٨٥/٠٥/٠٣

في كتابِ اللهِ سبحانهُ وتعالى مشهدانِ اثنان، أحدهما يدخلُ الهلعَ في الفؤاد ويتصوّرُ معهُ الإنسانُ أنّهُ يعيشُ من هذه الدّنيا في فلاةٍ قد أحاطت به فيها شياطينُ الإنسِ والجنّ، فلا مفرَّ لهُ منهم ولا مخلصَ ولا ملاذ، ولا يمكنُ لهُ أن ينجوَ من هذا المكانِ وهذا السّجنِ الذي أُحيطَ بهِ فيه.

المشهدُ الثّاني يصوّرُ لنا الحصنَ الواقي الذي يجدهُ الإنسانُ أنّا ذهب وأنّا ارتحلَ وأقام يجدهُ تلقاءهُ يناديهِ بلسانِ الحال أنْ أقبِلْ واطمئنَّ في داخلِ هذا الحصن فليسَ عليكَ من شرٍّ بعدَ ذلك ولن يطوفَ حولكَ من خطر.

أمّا المشهدُ الأوّل فيمثّلُهُ قولُ اللهِ سبحانهُ وتعالى على لسانِ إبليس: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ۞ ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ لو وقفنا عندَ هذا الكلام الذي ينقلهُ لنا بيانُ اللهِ عزَّ وجلّ عن حقدِ إبليس وما التزمَ به لتصوّرنا أنَّ أحداً من البشر لا منجاةَ لهُ من شرِّ هذا المخلوق الذي ألزمَ نفسهُ بإغواءِ عبادِ اللهِ سبحانهُ وتعالى، وربّما استيأسَ الإنسان أمامَ هذه الصّورةِ المخيفة من النّجاةِ والفلاح، ولكنَّ اللهَ سبحانهُ وتعالى لم يتركنا للغوِ إبليس وإن أرادَ اللهُ عزَّ وجلَّ منّا أن نخافَ وأن نقدّرَ الأمرَ حقَّ قدره، ولكنَّ كرمَ اللهِ عزَّ وجلّ عظيم، ولطفهُ عميم، فهو سبحانهُ وتعالى لم يتركنا لوعيدِ إبليسَ هذا.

إليكم المشهدَ الثّاني الذي يقولُ فيهِ اللهُ سبحانهُ وتعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ۞ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾، هذا الكلامُ الإلهيُّ بدّدَ تلكَ المخاوفَ العظيمة، وهذا الوعدُ الرّبّانيُّ سحقَ ذلكَ الوعيدَ القميء، وعيدَ إبليس.

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ ذلكَ هو الحصن، حصنٌ يراهُ الإنسانُ تلقاءهُ في كلِّ زمانٍ ومكان، مفتّحُ الأبواب، يقولُ لهُ بلسانِ الحالِ بل ربّما بلسانِ المقال: إن كنتَ تخافُ ضراوةَ الشّياطين الذين يحدقونَ بك عن يمينٍ ويسارٍ ومن فوقٍ وتحت، فأقبل إلى هذا الحصن فإنَّ أحداً لن يستطيعَ أن يمتدَّ إليكَ بأيِّ سوء، ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾، هذه الكلمةُ العظيمةُ القدسيّة يجبُ أن نقفَ

عندها قليلاً يا عبادَ الله، فإنَّ فيها الدّواء لكلِّ مريض، وإنَّ فيها العلاج لكلِّ ذي شكوى، وإنَّ فيها الملاذ لكلِّ من أُحيطَ به.

قد يقولُ قائل ما معنى قولهِ عزَّ وجلّ: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾؟ أليسَ البشرُ كلّهم عبادَ الله أليسَ المؤمنُ والكافرُ والفاسقُ والملحد كلّهم عباداً للهِ عزَّ وجلّ؟ إذاً ينبغي أن يكونَ المعنى: كلُّ من كانَ عبداً للهِ حقيقة فإنَّ الشيطانَ ليسَ لهُ عليهِ سلطان، ولكنَّ الأمرَ ليسَ كذلك، فما أكثر من يتصيّدهمُ الشّيطانُ من عبادِ اللهِ تعالى، وما أكثرَ من يهلكون في شَرَكِ الشيطان ومصيدتهِ من عبادِ اللهِ تعالى، إذاً ما معنى قوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾؟

معنى هذه الآيةُ العظيمة؟ إنَّ كلَّ من تحقّق بمعنى العبوديّةِ لي، إنَّ كلّ من وضعَ عبوديّتهُ لي موضعَ التّنفيذِ من حياته، أقرَّ بها واعترفَ بها، وتطامن لها، وكسا نفسهُ بردائها، هذا الإنسانُ لن تطولهُ يمينُ شيطانٍ ولن يقعَ في شَرَكِ إبليسَ أبداً. كيفَ يتحقّقُ الإنسانُ بمعنى عبوديّتهِ للهِ عزَّ وجلّ؟ كلُّ النّاسِ عبيدٌ لله آمنوا بذلكَ أم جحدوا، ولكنَّ اللهَ عزَّ وجلّ يعد أولئكَ الّذينَ اعترفوا بهذه العبوديّة واصطبغوا بها ووضعوها موضعَ التّنفيذ يلجؤونَ إلى اللهِ بتضرّع وتذلّل كلّما نابهم مكروه، أو كلّما رأوا خطراً كادَ أن يداهمهم أو يطوفَ بهم، يلتجؤونَ إلى اللهِ سبحانهُ وتعالى معترفين بمملوكيّتهم له، موقنين بذلّهم ومالكيّةِ اللهِ عزَّ وجلّ لهم، هؤلاءِ النّاس آمِنون تحتَ مظلّةِ العنايةِ الإلهية، هؤلاءِ النّاس مطمئنون في حصنِ الأمنِ الإلهيّ.

هذا هو معنى قولهِ عزَّ وجلّ: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾. انظر إلى قوله: ﴿إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾، تتّبعهُ أولاً ثمَّ إنَّ اللهِ يسلّطهُ عليكَ ثانياً، لولا أنّكَ تخطو الخطوةَ الأولى محالٌ أن يمكّنهُ اللهُ من أن يخطوَ خطوةً واحدةً إليك، فحصّن نفسكَ ضدَّ اتّباعه، وحصّن نفسكَ ضدَّ الإصغاءِ إليهِ وضدَّ الميلِ إليه وانظر كيفَ ينجيكَ اللهُ سبحانهُ وتعالى من أحابيله.

هذا الكلام يجدرُ أن يتأمّلهُ بدقّة آناءَ اليلِ وأطرافَ النّهار، أولئكَ الشّباب الذينَ ما زالوا يسألون ويشكون: نحنُ مؤمنون بالله، موقنون بشرعه ونحبُّ الاستقامةَ على صراطه، ولكنّا ضعفاء لا نستطيعُ

الثّبات، ولابدَّ أن نجدَ أنفسنا بينَ الحينِ والآخر وقد انحرفنا وقد تخطّفتنا شياطينُ الإنسِ والجنّ، ماذا نصنع؟ تلكَ هي الشّكوى التي ينفثُ بها كثيرٌ من الشّبابِ في هذا العصر.

العلاجُ أمامكَ يا أخي، الدّواءُ موضوعٌ بينَ يديك، الدّواءُ كلّه مطويٌّ في هذه الآيةِ العظيمة: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾. وقد ألزمَ اللهُ ذاته أن ينفّذَ هذا الوعد عندما قال: ﴿هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾.

المهمُّ أن تتفتَ إلى هذا البيان وأن تتأمّله وأن تتدبّره، وأن تستعملَ العلاجَ الذي وضعهُ اللهُ عزَّ وجلَّ بينَ يديك، أنتَ تشكو من ضعفك، وتشكو منَ الشّهواتِ والأهواء والشّياطينِ الّذين يحاولونَ أن يتخطّفوك، فهل وضعتَ عبوديّتكَ للهِ موضعَ التّنفيذ؟ هل التجأتَ إلى هذا الحصنِ ذي الأبوابِ المفتّحة؟ أغلبُ الظّن أن لا لم تضع عبوديّتكَ للهِ موضعَ التّنفيذ، الإيمانُ في تصوّرك مجرّدُ حركة، مجرّدُ نشاط، مجرّدُ سعيٍ هكذا وهكذا، لا، أنتَ ضعيفٌ لا تملكُ أن تتحرّك ولا أن تنشط ولا أن تفعلَ شيئاً، ولكنَّ اللهَ ملّككَ شيئاً واحداً هو أن تعلنَ عن إرادتك، رغبتك في أن يهديك الله، في أن يعصمك الله، في أن لا تنحرفَ ولا تعوجّ، فإذا رأى اللهُ عزَّ وجلّ منكَ الإرادةَ الصّادقةَ إلى الاتّجاهِ إليه حصّنك، ولكنَّ هذه الإرادةَ أيضاً لا تكفي لا بدَّ أن تكسى هذه الإرادةُ ثوبَ العبوديّة.

لابدَّ أن تعبّرَ عن إرادتك بدعاءٍ واجف، ببكاءٍ خاشع، بتذلّلٍ إلى اللهِ عزَّ وجلّ، وقد أعلمتَ بينَ يديه أنّكَ لا تملكُ حولاً ولا قوّة، لا تملكُ من أمرِ نفسكَ شيئاً، أنتَ ريشةٌ في مهبِّ الرّياح، ولكنّكَ تحبُّ أن يعصمكَ الله، تحبُّ أن تكونَ مستقيماً، فليسَ أمامكَ وهذه هي الحال سوى الالتجاءِ إليه، سوى التّضرّعِ إلى بابه والتّمرّغِ عندَ أعتابه، هل فعلتَ ذلك؟ لو أنّكَ فعلت هذا بينَ كلِّ صباحٍ ومساء لرأيتَ ضعفكَ قد تبدّلَ قوّة، ولرأيتَ هذه البيداء التي أحيطَ بكَ فيها واحتوشت من حولكَ فيها السّباعُ الضّارية لرأيتَ نفسكَ انتقلتَ من حيثُ لا تشعر إلى إلى حصنٍ آمنٍ مطمئن، ولكنَّ أكثرَ الشّباب لا يعلمونَ من الإسلام إلا الحركة كأنّهُ نظامٌ يؤدّيهِ الإنسانُ بقوله وبطاقته، وهذا وهمٌ باطل.

الإسلام تاجهُ العبوديّة، روحهُ العبوديّة، نبضاتُ القوّةِ فيهِ تتمثّلُ في العبوديّة، والعبوديّة هي أن يصبرَ الإنسانُ بينَ يدي مولاه لا بينَ يدي أحدٍ آخر، أن يصبغَ الإنسانُ نفسهُ بصبغةِ الذّل والضّراعة، يتألّم ويظهرُ شكواهُ لله، ويشكو أنَّ الشّياطينَ تلاحقه، وأنّهُ لا يجدُ مفرّاً منهم.

نادهِ ولسوفَ يجيبك، ادعهُ ولسوفَ يستجيبُ لك ويحقّقُ رجاءَك، وإنَّ اللهَ عزَّ وجلّ إذا وعد لا يمكنُ أن يخلفَ وعده، إنَّ اللهَ لا يخلفُ الميعاد وهو القائل: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ﴾، اللهمَّ اجعلنا من عبادك الذين عصمتهم من شياطينك، اللهمَّ حصّنّا بحصنِ العبوديّةِ لكَ يا ربَّ العالمين، فاستغفروهُ يغفر لكم..



٣٧- من هو أغنى الناس؟ | ١٩٨٩/٠٦/١٦

هل علمتم من هو أغنى النّاس؟ كثيرونَ هم السُّذّجُ الذينَ يتصوّرون أنَّ أغنى النّاسِ من وضعَ يدهُ على كنوزٍ من المال، أو ارتقى فتبوّءَ عرشاً من العزّةِ والسّلطان.

ولكن لو تأمّلَ الإنسانُ بعقل، وأدركَ بوعيٍ وفكرٍ لعلمَ أنَّ أغنى النّاسِ غنيَّ هوَ من عرفَ ربّهُ فلاذَ بهِ في كلِّ حال، والتجأَ إليهِ في كلِّ الظّروفِ والأحوال، هذا هو أغنى النّاس، وهذا هو أعلى النّاسِ درجةً وشأناً.

الإنسانُ في واقعهِ وفي حقيقةِ أمرهِ فقيرٌ لا يمكنُ أن يتحوَّلَ إلى غنيّ، لأنَّ ذاتَ الإنسانِ قائمٌ على معنى العبوديّة، والعبوديّةُ مظهرٌ من مظاهرِ الفقرِ بينهما تلازمٌ دائم، فالعبدُ دائماً فقير، والفقيرُ المُطلَقُ عبدٌ دائماً، ولكنَّ هذا الإنسانَ الفقيرَ يتحوّلُ بينَ النّاسِ وبالنّسبةِ إليهم إلى أغنى الأغنياء عندما يعرفُ ربّه، وعندما يمدُّ بينهُ وبينَ ربّهِ جسوراً من الالتجاءِ ومنَ الطّلبِ والرّجاء، هذا الإنسانُ هو الذي يصدقُ عليهِ قولُ اللهِ عزَّ وجلّ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾.

لو أنَّ الإنسانَ وقفَ عندَ هذه الآيةِ بدقّةٍ ودراية ثمَّ نظرَ إلى نفسهِ فوجدَ أنَّ اللهَ أكرمهُ بأن عرّفهُ على ذاتهِ العليّةِ لرقصَ فرحاً ولسَكِرَ طرباً، ولأصابهُ ما أصابَ عُتبةَ الغلام يومَ رأتهُ رابعة وهو طَرِبٌ جذلان، قد أخذَ منهُ الطّربُ مأخذهُ في الطّريق، قالت لهُ رابعةُ: ما بالُكَ يا عتبة؟ ما الذي حصل؟ قالَ لها: كيفَ لا أفرح وكيفَ لا أطرَب وقد نسبنيَ اللهُ إلى ذاته، فأصبحَ مولايَ وأصبحتُ عبداً له؟ هذا هو الغنيّ، هذا هو الغنيُّ الذي يمكنُ أن يُشارَ إليهِ بالبنانِ بمعنى الغِنى الحقيقيّ. من الذي يغنيكَ من فقرٍ غيرُ الله؟ من الذي يكشفُ عنكَ الضُّرَّ غيرُ الله؟ من الذي إذا ابتُليتَ بأ لمٍ وضيقٍ في الصّدر كشفَ ذلكَ كلّهُ عنكَ غيرُ الله؟ من الذي أضحكَ وأبكى غيرُ الله؟ من الذي أماتَ وأحيا غيرُ الله؟ من الذي إذا مرضتَ عافاكَ من كلِّ الأسقامِ والآلام غيرُ الله؟

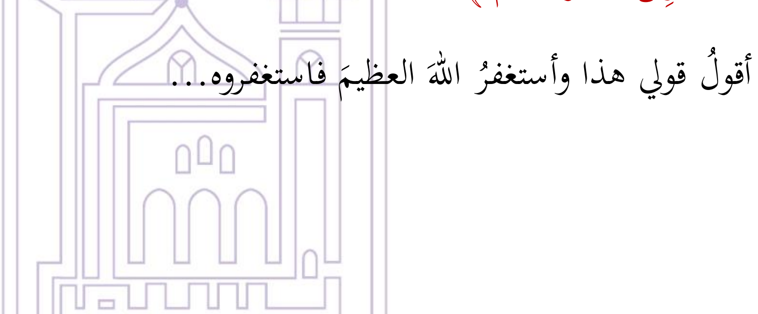
فإذا عُذتَ بهذا الإله، وإذا انتسبتَ إليه وصحّت نسبةُ عبوديّتُكَ له، تحوّلتَ من أفقرِ الفقراءِ إلى أغنى الأغنياء.

وعندما قالَ اللهُ عزَّ وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾، ألمحَ البيانُ الإلهيُّ في هذه الآيةِ العجيبةِ العظيمة إلى النّافذة الوحيدة التي يتخلّصُ بها الإنسانُ من الفقرِ وينتقلُ إلى الغنى، ما هي؟ هي أن تلوذَ بالغنيِّ المطلق، هي أن تنتسبَ إلى هذا الغنيِّ المُطلق، إذا مددتَ يديكَ لا تمدّهما إلا إلى هذا الغنيِّ المُطلق، إذا وضعتَ الأملَ بينَ جوانحك لا تمدُّ جسورَ الأملِ من قلبكَ إلا إلى هذا الغنيِّ المُطلق، إذا فاضَ قلبُكَ حبّاً ما ينبغي أن يسريَ هذا الحبّ إلا للغنيِّ المُطلَق، إذا شعرَ قلبُكَ بخوفٍ ورعبٍ ما ينبغي أن تكونَ جذورُ هذه المخافةِ إلا من الغنيِّ المُطلَق.

هذه كلماتٌ لا أراني بحاجةٍ إلى شرحٍ لها. واللبيب يدركُ أبعادَ كلِّ ما أقول، ويَسعَدُ بالتّحقّق من معاني ما أقول.

أسألُ اللهَ سبحانهُ وتعالى أن يجعَلَنا ممّن صحّت نسبةُ عبوديّتهم إليه، وأن يدخلنا بكرمهِ وجوده في هذا الفريقِ الذي قالَ عنهم: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾. وأن لا يجعلنا ممّن قالَ عنهم بعدَ ذلك: ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾.

أقولُ قولي هذا وأستغفرُ اللهَ العظيمَ فاستغفروه...



٣٨- واصبروما صبرك إلا بالله | ١٩٩٠/٠٢/٠٩

كلّما تأمّلتُ في صراطِ الاستقامةِ على دينِ اللهِ عزَّ وجلّ ورأيتُهُ محفوفاً بلهيبِ الشّهواتِ والأهواءِ والمغرياتِ من شتّى الجوانبِ وتأمّلتُ في الجهد الذي ينبغي أن يتحمّلهُ المسلمُ في هذا العصر لاسيّما الشّابُّ الذي عاهدَ مولاهُ وخالقَهُ على الاستقامةِ على هذا الصّراط. كلّما تأمّلتُ في هذا الصّراطِ والجهدِ الذي ينبغي أن يتحمّلهُ المسلمُ في هذا العصر للثباتِ عليه، تذكّرتُ قولَ رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم في الحديثِ الصّحيح الذي يقولُ فيهِ لأصحابه: ﴿فإنَّ وراءكم أيّاماً، الصّبرُ فيهنَّ كالقبضِ على الجمر، للرّجلِ منهم أجرُ خمسينَ منكم﴾. قالَ أحدهم: منهم أم منّا يا رسولَ الله؟ قالَ: ﴿بل منكم لأنّكم تجدونَ على الحقِّ أعواناً ولا يجدون﴾.

لا شكَّ أنَّ المسلمَ الذي يستقيمُ على صراطِ اللهِ في هذا العصرِ، لا سيّما الشّابُّ الذي تفورُ الغرائزُ بينَ جوانحه، والذي يرى نيرانَ الشّهواتِ تتأجّجُ عن يمينِهِ وشماله، ويبقى ثابتاً مستقيماً على صراطِ اللهِ عزَّ وجلّ. لا أشكُّ في أنَّ مثلَ هذا الإنسان يدخلُ فيما قالهُ المصطفى صلى اللهُ عليهِ وسلّم، ويرقى إلى الرّتبةِ التي تحدّثَ عنها.

ولكنّي أتساءَلُ أيضاً: ما العزاء؟ وكيفَ السّبيلُ إلى أن يخفَّ ألمُ الصّبرِ عن هؤلاءِ النّاسِ في هذا العصر؟ ألم يقل المصطفى عليهِ الصّلاةُ والسّلام في الحديثِ الذي يرويهِ ابنُ ماجه والإمامُ أحمد: ﴿وإنّهُ ليسيرٌ على من يسّرهُ اللهُ عليه﴾؟ فكيفَ السّبيلُ إلى أن يتيسّرَ الصّبرُ أمامَ هؤلاءِ المسلمين الذينَ عرفوا اللهَ فبايعوه، والذينَ عرفوا اللهَ فأحبّوه، وعرفوهُ فامتلأت أفئدتهم مخافةً منه؟

السّبيلُ أيّها الإخوة واضح، والأمرُ كما قالَ المصطفى عليهِ الصلاةُ والسّلام: (﴿وإنّهُ ليسيرٌ على من يسّرهُ اللهُ عليه﴾. وإنَّ في هذه الكلمةِ لعزاءً وأيَّ عزاءٍ لكلِّ إنسانٍ يشعرُ بآلامِ سيرهِ على صراطِ اللهِ سبحانهُ وتعالى، ولكنَّ الدّواءَ لا يفيدُ إلا إن استعملهُ الإنسان، ولا يغني عن صاحبه شيئاً إلا إن هرع المريض إليه، أما أن لا يكون من الناس رجوع إلى الدواء، فلا شك عندئذ أن الدواء لا الدواء يفيد ولا الطبُّ يغني عن المريضِ شيئاً.

السّبيل: التّضرّعُ إلى الله، الالتجاءُ إلى اللهِ سبحانهُ وتعالى. وهذا جزءٌ من الدّواءِ الذي وصفهُ لنا اللهُ عزَّ وجلَّ في محكمِ تبيانه، أمّا أساسُ الدّواءِ فالثّقةُ باللهِ عزَّ وجلّ، الثّقة هي مصدرُ الشّفاء، والثّقة هي مفتاحُ حلِّ المشكلات. والثّقةُ باللهِ: ثمرةُ الإيمانِ باللهِ سبحانهُ وتعالى. فمن آمنَ باللهِ عزَّ وجلَّ حقَّ الإيمان: كانَ جديراً بهِ أن يثقَ بوعدِ اللهِ عزَّ وجلّ، واللهُ سبحانهُ وتعالى يقول: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾، وهذا وعدٌ قاطعٌ من اللهِ عزَّ وجلّ. ويقول: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾. وإنّها لحقيقةٌ معروفة في حياتنا الدّنيا فضلاً عن الآخرة.

أرأيتم إلى المريض الذي ذهب إلى الطّبيب، فحصهُ، ثمَّ شخّصَ مرضهُ ثمّ كتبَ لهُ الدّواء فأمرهُ بالحميةِ التي حملهُ عليها. هذا المريض بمقدارِ ما يكونُ واثقاً بالطّبيبِ وعلمهِ وبراعتهِ، يخفُّ عليهِ التّعبُ من الحمية والصّبرُ على تجرّعِ الدّواء. وبمقدارِ ما تكونُ ثقتهُ بالطّبيبِ ضعيفة تكونُ الحميةُ عليهِ شديدة، ويكونُ تجرّعُ الدّواءِ عليهِ عسيراً. حقيقةٌ نعرُفها جميعاً. إذا أيقنَ المريضُ أنَّ طبيبَه علمَ مرضهُ جيّداً ووقعَ على الدّواءِ الشّافي يقيناً، وأدركَ الأطعمةَ التي ينبغي أن يبتعدَ عنها يقيناً فإنَّ الحميةَ تخفُّ على هذا الإنسان. فكيفَ إذا كانَ الأمرُ معَ اللهِ عزَّ وجلّ؟ كيفَ إذا كانَ طبيبُك هوَ اللهُ سبحانهُ وتعالى؟ آمنتَ به، ووثقتَ به، وعلمتَ أنَّ هذا الكلامَ كلامُه وأنَّ الوعدَ وعدُه، فإنَّ الصّبرَ يهون. لأنّكَ تعلم أنَّ الصّبرَ في حقّك ليسَ أكثرَ من دفعٍ لأقساطِ الثّمن، وإذا تكاملَ دفعُ الثّمن فإنَ اللهَ عزَّ وجلَّ يهبُكَ المُثمَن ويعطيكَ ما قد صبرتَ من أجلهِ في الدّنيا قبلَ الآخرة.

وقد أوضحَ اللهُ عزَّ وجلَّ لنا هذا المعنى بعِبرٍ وبعظات وبحوادثَ يطولُ سردُها لو أردنا أن نلفتَ النّظرَ إليها. ولكن حسبُنا أن نضعَ أمامَ أعيننا مثالَ الأمثلة، وعبرةَ العبر: قصّةُ سيّدنا يوسُف عليهِ الصّلاةُ والسّلام، ولأمرٍ ما أفاضَ البيانُ الإلهيُّ في تفسيرِ هذه القصّة. منذا الذي حُمِّلَ من الشّبابِ في سبيلِ اللهِ في هذا العصرِ أو قبلَ هذا العصرِ كما حُمِّلَهُ يوسفَ عليهِ الصّلاةُ والسّلام؟ سُجِنَ وهو شابٌّ يافع وهو بريء، وصبر، وثبتَ على صبره، واحتسبَ الأمرَ عندَ ربّه إذ كانَ واثقاً باللهِ عزَّ وجلّ. انتقلَ من ذلكَ الابتلاءِ إلى ابتلاءٍ أشدّ: راودتهُ امرأةُ العزيز – أجملُ النّساءِ في ذلكَ العصر – عن نفسه، وغُلِّقَتُ الأسبابُ

وهُيِّئَتِ الأسباب فصبر، وما أشدَّ الصبرَ في مثلِ هذه الحال، وإنّما أعانهُ على الصّبرِ ثقتُهُ بربّه، بعدَ خجلهِ من ربّه وبعدَ خوفهِ منهُ عزَّ وجلَّ.

نقلهُ اللهُ عزَّ وجلَّ إلى ابتلاءٍ آخر: سُجنَ مرّةً أخرى وهو بريء لم يفعل شيئاً ولبثَ في السّجنِ ما شاءَ اللهُ أن يلبث، صبرَ واحتسبَ عندَ اللهِ عزَّ وجلّ، ثمَّ ماذا كانت النّتيجة؟ قفوا أمامَ هذه النّتيجةِ التي يرسمها لنا بيانُ اللهِ سبحانهُ وتعالى عندما تعرّفَ إخوةُ يوسُفَ عليهِ وما كانَ لهم أن يعرفوه: ﴿قَالُواْ أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾، هذه عصارةُ القصّة، وهذا هو رصيدُها: ﴿إنّهُ من يتّقِ ويصبر فإنَّ اللهَ لا يضيعُ أجرَ المحسنين﴾. وما كانَ سيّدُنا يوسفُ بدعاً من الرّجال، وإنّما كانَ نموذجاً لسنّةِ اللهِ سبحانهُ وتعالى في عباده، أنقذهُ اللهُ من السّجن، زوّجهُ من تلكَ التي راودتهُ عن نفسه، بوّأهُ اللهُ عزَّ وجلَّ عرشَ مصر، أعادَ اللهُ عزَّ وجلَّ عليهِ شملَ أهلهِ وأبويه وذهبت عبرةً مع الزّمن.

ولكنَّ الأمرَ يحتاج إلى إيمانٍ باللهِ عزَّ وجلَّ أوّلاً. أقلُّ المراتبِ كما يؤمنُ المريض بطبِّ طبيبه، يحتاجُ إلى ثقةٍ باللهِ سبحانهُ وتعالى. أقلُّ المراتب كما يؤمنُ المريض بعبقريّةِ طبيبه، ثمَّ إنَّ الأمرَ يحتاجُ إلى ثباتٍ على ما أمرَ بهِ اللهُ سبحانهُ وتعالى. ألم يقل اللهُ عزَّ وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

وقد يقولُ قائلٌ: وأنّى لي بالصّبر؟ وكيفَ لي بالصّبرِ وأنا لا أطيقُه؟ يأتيكَ الجوابُ عن هذا في الآيةِ الأخرى: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللّهِ﴾، وربّما تشعرُ بمظهرٍ من مظاهرِ التّناقضِ في هذا الكلام، ولكنَّ الكلامِ متناسق. اصبر، ولكن ليسَ معنى صبرك أن تخلقَ شيئاً لا تملكه، أي اعزم على الصّبر ومن اللهِ سبحانهُ وتعالى إعطاءَ القوّة. فهل عزمتَ تجدَ ثمرةَ صبرك؟ وهل عجزَ إنسانٌ عن أن يعزم؟

أيّها النّاس: إنَّ أحبولة الشّيطانِ في هذا العصر واحدةٌ لا ثانيَ لها، إنّما تتمثّلُ هذه الأحبولة في المغريات، في الشّهوات، في الأهواء. هذه الأحبولة هي التي يمسكُ بها كلُّ محترفي الغزو الفكريّ ضدَّ الإسلام، والغزوَ الفكريَّ تحوّلَ من محاولة عقليّة إلى محاولةٍ غرائزيّة، وأنَّ المسلمَ اليومَ يبتغى أن يُصطادَ من غريزتهِ لا من عقله، فكيفَ السّبيلُ إلى ذلك؟ ونحنُ نعلمُ أنَّ الغريزةَ إنّما رُكِّبت في كيانِ الإنسان، وكلٌّ منّا

يشعرُ بها. الرّبُّ الذي أودعَ بينَ جوانحكَ هذه الغريزةَ هو الذي يملكُ أن يطفِئ لهيبها حينَ يشاء. والسّبيلُ إلى ذلكَ أن تستنجدَ بربّك، وأن تلوذَ به، وأن تتضرّعَ إليه، ثمَّ أن تعزمَ بينَ يديهِ على الصّبر قائلاً: اللهمَّ إنّي لا أملكُ إلا أن أعزم، لا أملكُ إلا أن أقصد، ولكنّي أنتظرُ أن تخلقَ الصّبرَ بينَ جوانحي كما خلقتَ نيرانَ هذه الغرائز في نفسي وكياني. واللهُ عزَّ وجلَّ على كلِّ شيءٍ قدير.

وذلكَ هو البرهان الذي أشارَ إليهِ البيانُ الإلهيُّ في الحديثِ عن سيّدنا يوسفَ إذ قال: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾. برهانٌ وضعهُ اللهُ بينَ أيدي النّاسِ جميعاً، كلُّ من شاءَ استطاعَ أن يجعلَ منهُ حصناً يقي بهِ نفسه.

أسألُ اللهَ سبحانهُ وتعالى بالمسلمينَ جميعاً الثّباتَ على دينِ اللهِ في هذا العصر. وأسألُ اللهَ سبحانهُ وتعالى أن يبعدَ عنّا وعنهم شباكَ أولئكَ الذينَ يحاولونَ أن يصطادوا إسلامَ المسلمينَ بأسوأِ الوسائلِ القذرةِ في هذا العصر: ألا وهي نيرانُ الشّهواتِ والأهواء، وإنَّ اللهَ غالبٌ على أمرهِ ولكنَّ أكثرَ النّاسِ لا يعلمون.

أقولُ قولي هذا وأستغفرُ اللهَ العظيم...



٣٩- رسول الله يتحدث عن واقعنا اليوم | ١٩٩٠/١٠/٠٥

حديث صحيح معروف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يكاد يبارح مخيلتي في هذه الأيام بأي مناسبة من المناسبات، ولا شك أن لذلك لَحكمة، هذا الحديث هو قول رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي من خوارق النبوة التي أكرمه الله عزَّ وجل بها، وجعله يطل من خلالها على غيب مجهول: ﴿تداعى إليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، قالوا أمن قلة يا رسول الله يومئذ، قال: بل أنتم كثير، لكنكم غثاء كغثاء السيل، وسيقذفن الله سبحانه وتعالى في قلوبكم الوهن، قالوا: ما الوهن يا رسول الله؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت﴾

هذا الحديث كما قلت لكم لا يبارح مخيلتي، أكاد أقول في ليل أو نهار، وأنظر إلى الدنيا التي من حولنا، وإذا بهذا الحديث قد فُصّل كالثوب الذي فصّله خياط ماهر على قدر صاحبه، ﴿تداعى إليكم الأمم﴾، ستنهال عليكم من كل جانب، ومن كل حدب وصوب، طامعين فيكم، يسيل لعابهم على ثرواتكم، على أموالكم، على كل ما أكرمكم الله سبحانه وتعالى به، يُحْدِقون بكم كما يُحْدقُ الآكلون الجائعون على قصعة طعام، وهل هنالك تشبيه لواقعنا أدق من هذا التشبيه؟ وهل هنالك تجسيد للمعنى الذي يعيشه المسلمون اليوم أدق وأعجب من هذا التجسيد؟ ولقد عجب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا فرق ما بينهم وبيننا، إنهم ينظرون إلى الدنيا من خلال بشريتهم، ومن خلال تحرك أفكارهم الإنسانية، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر إلى مقبلات الأيام من خلال ما يريه الله عزَّ وجل إياه، من خلال ما يقفز فوق التصورات العقلية، ويقفز فوق القوانين البشرية الخاضعة للعادة والنواميس المعروفة، ولذلك قالوا متعجبين: ﴿أمن قلة نحن يا رسول الله يومئذ؟﴾، لم يكون هذا فيما نعلم من أسباب إلا لأن المسلمين قلة، قال عليه الصلاة والسلام: ﴿بل أنتم كثير﴾، وهذا الأمر العجيب أنتم كثير، أنتم تزيدون آن ذلك على المليار، والمليار ليس بقليل يا عباد الله، «بل أنتم كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل، وسينزعنَّ الله الرهبة منكم من قلوب أعدائكم، وسيقذفنَّ في قلوبكم الوهن»، ولما سألوه عن الوهن أجابهم قائلاً: حب الدنيا وكراهية الموت.

هذا هو واقعنا اليوم المسلمون كثيرٌ وكثيرٌ جداً، ولو كانت القوة بالعدد لاكتسح هذا العدد شرق العالم وغربه، ولكن الأمر ليس بالكم، ولكن الأمر خاضعٌ لحقيقةٍ جذريةٍ تتجاوز الكم والكيف المعروفين في مقياس الفكر البشري؛ بل أنتم كثير ولكنكم غثاء، هذا حالنا اليوم، المسلمون غثاء كغثاء السيل وأبحث في ذهني ومخيلتي عن أي مثال آخر أبلغ مما وصف رسول الله فلا أجد، أرأيتم إلى الغثاء، تلك الفقاقيع الرابية المتعالية عندما ينحط السيل في وادٍ كثيرِ الحجارة وكثير التضاريس، أرأيتم إلى هذه الفقاقيع كيف تربو وكيف تصَّاعد حتى إن الناظر إليها يُخيل أنه طوفان جارف، ولكن ما هي إلا لمسة من يد لهذه الفقاقيع حتى تهمد وتنتهي وتذوب، وإذا بهذا الطوفان لا شيء، هكذا وصفنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من وراء أسوار الأجيال والقرون، هكذا وصف مليار من المسلمين أو يزيد، بأنهم كغثاء السيل، والمهم الذي يشغل بالي هو التساؤل: لماذا كان المسلمون رغم قلتهم يخيفون أعداء الله عزَّ وجل وتفيض الرهبة منهم في قلوب الآخرين، بينما لا تغني كثرتهم اليوم عنهم، ما الذي جعلهم بالأمس – وهم قلة – أقوياء في قلوب أعدائهم، وما الذي جعلهم اليوم – وهم كثرة – كغثاء السيل كما قال رسول الله؟

إن لكل شيء سبباً، ولابد أن لهذه الظاهرة سبباً، وليت أن المسلمين وقفوا من هذا الحديث أمام هذه المفارقة ليعلموا ما هو السبب؟ ما المنعطف الذي فصل المسلمين بين واقعين متناقضين؟

هذا المنعطف أيها السادة إنما هو حقيقة واحدة لا ثاني لها، كان إسلام المسلمين القلة في الأرض قائماً على جذور العبودية الواجبة الصادقة لله عزَّ وجل، كانت أنظمة الإسلام، وكانت تحركات المسلمين، وكانت العلوم الإسلامية، كل ذلك كانت أفكاراً تربوا على جذعٍ من العبودية الواجبة لله عزَّ وجل، وكان جذع هذه العبودية ملئ قلوب أولئك المسلمين، ومن ثمَّ فقد انعكست حقائق هذه العبودية رهبة إلى قلوب أعدائهم، وإذا تجلى الله سبحانه وتعالى على عباده بالصفة التي يشاء انعكست هذه الصفة على الآخرين كما يشاء الله عزَّ وجل ويريد، ولهذا مقياس ينأى عن مقاييس الأغبياء الذين سجنوا أنفسهم في موازين من الحركات المادية التي لا تزيد على حلقة خاتم في بيداء الله الواسعة وفي كونه الفسيح الأرجاء.

أما اليوم فإسلامنا عبارة عن أغصان من العلوم، أجل من العلوم، ومن الأنظمة، ومن الأقاويل، ومن الادعاءات ومن الحركات، ولكن هذه الأغصان لا تتصل بجذور من العبودية قط، القلوب فارغة من حقائق العبودية لله، القلوب خامدة، النار التي كانت تتقد فيها بالأمس نار الهيبة من الله، نار التعظيم

لله، نار المخافة من الله، نار التوحيد لله سبحانه وتعالى، هذه النيران خمدت وآلت بالقلوب إلى حفنة رماد، ريح تأتي بها وريح تأخذ، ماذا بقي من إسلامنا اليوم؟

بقي من إسلامنا مظاهر، إن تركت تلك الجذور فإن هذه المظاهر ليست سوى قشور، قشور من الكلمات، قشور من الأحاديث المدبجة المجملة المنسقة، مظاهر من العلوم والكلمات والحركات، والذهاب من هنا إلى هناك، أشياء تخدع، وتصورات تجعل الإنسان الساذج يتصور أن بيننا وبين أن نعود إلى أمجادنا السابقة شروى نقير، ولكن الأمر ليس كذلك، نحن في هذا كمن يراوح في مكانه ؛ بل ليت أننا نراوح في أمكنتنا، نحن نعود القهقرى في الوقت الذي نتمشدق فيه بشعارات الإسلام نتكلم فيه بألفاظ الإسلام، نتحدث عن أحكام الحلال والحرام و حقيقةٌ قدسية بَدَهية لا ريب فيها إذا انبثت حقائق العبودية من علوم الإسلام، آلت هذه العلوم إلى ما يشبه جسداً لا روح فيه، آلت هذه العلوم إلى تمثال لا حراك فيه، فماذا عسى أن تفيدنا هذه العلوم التي تحولت من حياتنا الإسلامية إلى مجرد تماثيل، أين نحن أيها الأخوة من حقائق الإيمان بالله؟ من حقائق اليقين بأن كل شيء بيد الله عزَّ وجل؟

أين نحن من قول الله عزَّ وجل: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدُيرٌ﴾، لا تحدثني عن العلوم التي تزخر بها المكتبات، لكن حدثني عن القلوب التي تحتضن الإيمان الحقيقي بهذا القرار الرباني، ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ﴾، ما من ضر يصيب المسلمين إلا وأصابهم بسوء بدر منهم، ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ (، أين هي القلوب التي تحتضن الإيمان بهذه الحقيقة إيمان اصطباغ إيمان نبضات حية حتى تكون تحركاتهم نابعة من يقينهم هذا؟!

هل هم فعلاً يؤمنون أن كل حركة تتم في مجتمعاتهم إنما تأتيهم من قبل الله عزَّ وجل الله بتخطيط دقيق مباشر؟ هل هناك من يثق وثوقاً تاماً، بأنه ما من نكبة تنزل بالمسلمين إلا ووراء تلك النكبة سبب اقتضاهم أن يكون أهلاً لاستقبالها؟ من ذا الذي يؤمن اليوم بهذه الحقيقة إيماناً حقيقياً؟ كثيراً ما يقول لي بعض الإخوة إن على سبيل الاستكبار أو سبيل التعجب: (نراك تكرر في كل وقت الحديث عن العبودية لله، وتذكر الناس بالعبودية لله، وتعيد كل أمر إلى العبودية لله، وتعيد كل مشكلة إلى افتقادنا لمعنى العبودية لله، ولكن ماذا أصنع وتلك هي الحقيقة؟ ماذا أصنع إن كان افتقارنا اليوم افتقاراً إلى شيء واحد هو هذه

العبودية الواجبة لله عزَّ وجل، ولكن الشيء الذي يؤسف أكثر من افتقارنا إلى هذه العبودية أننا عندما نتكلم عنها لا ندرك حقيقتها.

كثيرون هم الذين يتصورون أن العبودية أن يطأطئ الإنسان رأسه، وأن يتحلى بمظهر من الذل في طريقه وهو يمشي، أو أن يحمل سُبحة يجلس معها إلى القبلة يذكر الله سبحانه وتعالى متبذلاً، ليست هذه هي العبودية، العبودية مكانها في القلب، ولا مكان لها على الظواهر والجسد أبداً، العبودية إشعار الفؤاد أن صاحب هذا الفؤاد مملوك من فرقه إلى قدمه لله، العبودية استشعار الإنسان أن هذا الكون كله بيد خالقه، ولئن رأى أنه يتحرك بيد أناسيّ، فهو يعلم علماً يقينياً أن كل هؤلاء الذين يتحركون أو يحركون جنود لله عزَّ وجل ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ﴾.

العبودية لله عزَّ وجل أن يرى الإنسان إلى أحداث الدنيا بعينه وعقله منصرفٌ إلى من يحرك هذه الأحداث بمقدار ما تريه عيناه أحداث الدنيا والأشخاص الذاهبين والآيبين بها، يرى قلبُه رب العالمين سبحانه وتعالى وهو يحرك هؤلاء وهؤلاء، العبودية لله عزَّ وجل أن يتحرك الإنسان تحت سلطان يقينه، لا يأتيه ريب من بين يديه ولا من خلفه، أن الضار هو الله، وأن النافع هو الله، وأن المحيي هو الله، وأن المميت هو الله، أن المعزَّ بعد ذل هو الله، وأن المذلَّ بعد عز هو الله، من ثم فهو إذا سمع نداء الله عزَّ وجل يقول ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ هرع قائلاً: (لبيك اللهم لبيك)، أين هم الذين يصطبغون بهذه العبودية ممن يتكلمون في الإسلام؟ ممن يتحدثون عن أحكام الإسلام؟ ممن يذهبون ويعودون ويحركون نشاطاً تحت مظلة الإسلام، كل هذا لا يجدي، إنما الذي يجدي ينبوعٌ ثرٌ ينبغي أن يتفجر من سويداء القلب، هذا الينبوع هو ما نبتغيه، ومن ثم آلت كثرتنا إلى قلة، وآل غنانا إلى فقر، وآل عزنا إلى ذل، وحق فينا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿بل أنتم كثير، لكنكم غثاء كغثاء السيل. وسينزعن الله الرهبة منكم من قلوب أعدائكم، -وقد نزعت- وسيقذفن الله سبحانه وتعالى في قلوبكم الوهن – وقد قذف-، ولما سئل عن الوهن قال: حب الدنيا وكراهية الموت﴾

اللهم اجعل مصيبتنا هذه عبرة حتى تتحول النِقمة إلى نعمة، ورُبَّ إنسان أمكنه أن يقلب النِقمة إلى نعمة إن هو استفاد منها، وإن هو أخذ العبرة، وإن هو أخذ الدرس واصطلح من وراء ذلك مع الله.



٤٠- سر العبادة في معناها لا مظهرها | ١٩٩٨/٠٣/٢٧

إن السر في العبادة لا يكون في صورها ومظاهرها، وإنما يكمن في معانيها، ومعاني العبادة سرٌ يصل ما بينها وبين فؤاد الإنسان الذي يتقرب بها إلى الله سبحانه وتعالى.

للعبادات كلها صورٌ وأشكال يمكن أن تكون هذه الصور والأشكال تقرباً إلى الله ويمكن أن تكون تقرباً وزلفى إلى غاية من الغايات الدنيوية. أما أسرار هذه العبادات أي معاني العبودية لله سبحانه وتعالى فيها هذه المعاني التي إنما تتجلى بقصد المتعبد ودوافعه التي تسري به إلى مرضاة الله سبحانه وتعالى فلا تكون إلا قربى لله عز وجل ولا تكون إلا صافية عن الشوائب. ولعل هذا من معنى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أجسادكم﴾ وفي رواية: ﴿ولا إلى أعمالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم﴾.

ليس معنى هذا الحديث الصحيح أن الإنسان إذا صفى قصده وخلصت نيته لم يبال الله سبحانه وتعالى بتقصيره في أداء العبادات كما قد يظن بعض الواهمين، ولكن المعنى أن العبادة إذا كانت شكلاً ومظهراً فارغين من السر الذي هو مبعث القبول فإن الله سبحانه وتعالى لا يبالي بهذه العبادة، ويرميها بوجه صاحبها، يلقيها كالثوب الخَلق كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكن عندما تكون هذه العبادة التي تحققت فيها أركانها وشروطها الشكلية مقرونة بصفاء القصد، مقرونة بسر التقرب إلى الله عز وجل فتلك هي العبادة المبرورة التي يتقبلها الله سبحانه وتعالى، وهذا ينطبق على سائر القربات والعبادات ومنها الحج إلى بيت الله الحرام.

كثيرون هم الذين يتسابقون ويتزاحمون على أسباب الحج إلى بيت الله الحرام، يؤدون هذه الشعيرة بمظهرها وشكلها، وربما يصلون من وراء ذلك إلى مغانم يبحثون عنها، هذا هو المظهر وهذا هو الشكل، وليست القيمة لا في المظهر ولا الشكل أبداً، وإنما القيمة في سر هذه العبادة وسر العبادة أن يكون الإنسان مندفعاً إليها ابتغاء غرض واحد لا ثاني له ألا وهو تحقيق مرضاة الله سبحانه وتعالى، التقرب إلى الله عز وجل، عندما يكون هذا هو الدافع يكون عندئذٍ القبول، ولكن كيف يتبين الدافع الحقيقي؟ ومتى

يظهر أن سعي الإنسان حاجاً إلى بيت الله الحرام إنما هو ابتغاء تحقيق شعور العبودية لله سبحانه وتعالى؟ ومتى تكون العلامات والدلائل ناطقةً بأن سعي هذا الإنسان إلى الحج إنما هو لهدفٍ دنيويٍ ولغرض ماديٍ، ومن ثم فإن الله سبحانه وتعالى يرمي عبادته في وجهه كما يرمى الثوب الخَلق؟

عندما ننظر فنجد أن طريق هذا الحاج إلى بيت الله الحرام خالٍ من الشوائب نظيف من المحرمات، فهذا دليلٌ من الأدلة على أن سعيه إنما هو ابتغاء مرضاة الله سبحانه وتعالى، أما إن نظرنا فوجدنا أن طريقه المسلوك إلى هذا الحج مليءٌ بالمحرمات، مليءٌ بالانحرافات، مليءٌ بالتجاوزات، فذلك دليلٌ ناطق على أن هذا الإنسان ليس له من عبادته إلا هذا المظهر إلا هذا الشكل، أما التقرب إلى الله عز وجل فذلك شيءٌ لا علاقة له به.

عندما يجد الإنسان نفسه مضطراً إلى أن يحج إلى بيت الله الحرام أن يقدم الرشوة تلو الرشوة ثم لا يبالي فيفعلها أو يقدمها فذلك دليلٌ على أن زغلاً قد تدخل في قصده ونيته ذلك لأنه لو ابتغى وجه الله في ذلك لعلم أن المال الذي يدفعه يحمله من الأوزار أكثر ما يعود به من الأجور عندما يعود من حجه لبيت الله الحرام إلى داره. وما أكثر الذين يجعلون من هذه الأعمال المحرمة جسوراً وطرقاً للحج إلى بيت الله الحرام. لا يمكن أن يكون هذا الإنسان منطوياً في دوافعه القلبية على نية سليمة أبداً، ما من مسلمٍ إلا ويعلم أن الرشوة من أشد المحرمات بل هي من الكبائر كما قال العلماء، وليس هنالك مسلم لا يعلم هذه الحقيقة.

ثم إن الله سبحانه وتعالى لم يلزم الإنسان بالحج إلا عندما يكون مستطيعاً، والاستطاعة هي الاستطاعة البدنية والمالية والاستطاعة الدينية أيضاً، فالمرأة التي توفي عنها زوجها وهي لا تزال تمر في مدة العدة أو الإحداد ما ينبغي أن تفكر في الحج إلى بيت الله الحرام، لأنها ليست مستطيعة، لأنها قد فقدت الاستطاعة الدينية، لا يجوز للمرأة وهي في هذه المدة خلال الأربعة أشهر والعشرة أيام بعد وفاة زوجها لا يجوز لها أن تخرج من دارها إلا لضرورة أو حاجة ماسّة، عندما تلح هذه المرأة وأمثالها إلى ضرورة أن تحج لأنها متشوقةٌ إلى أن ترى بيت الله الحرام ثم لا تبالي بمن يُحذر، فلنعلم أنها ليست مندفعةً في ذلك لمرضاة الله، وإنما هي مندفعة في ذلك إلى هوى يطوف بنفسها. كذلكم أصحاب الرغبات المتنوعة المختلفة الكثيرة ولا نريد أن نضرب الأمثلة فالأمثلة كثيرة.

لقد عاد الحج إلى بيت الله الحرام مثابة لمغنم مادي، عاد الحج إلى بيت الله مثابة الاستئناس مع الرفقة والأصحاب، عاد نزهة كما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، عاد الحج إلى بيت الله الحرام سبيلاً من سبل الشهرة وسبيلاً من سبل تعريف الناس بالذات، عاد الحج إلى بيت الله الحرام سبيلاً من سبل الاتصال بجهات عبر جهات، وما أكثر الأهداف الدنيوية المتنوعة التي زاحمت القصد إلى مرضاة الله سبحانه وتعالى.

وبالأمس قلنا إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ﴿إنّ الله طيبٌ لا يقبل إلا طيباً﴾، الإنسان الذي اكتسب مالاً من طريقٍ محرم ولا أتحدث عن الشبهة، المال الذي اختلط فيه الحلال والحرام ولم يتبين صاحبه الحلال من الحرام، هذا المال المشبوه لا أتحدث عنه وكلنا ابتلينا بذلك، ولكني أتحدث عن إنسانٍ جنى المال من طريقٍ محرم كله محرم، لا يجوز لهذا الإنسان أن يعتبر نفسه مالكاً لهذا المال، هو ليس مالكاً له، هو كمن وضع يده على مالٍ مغصوب، فليس له أن ينفق منه على أهله لأن الإنسان لا ينفق على أهله إلا مما يملك، ليس له أن ينفق منه على أولاده، ليس له أن يقول سأزكي منه لأنك تزكي من مالك الذي تملك، ليس له أن يقول سأحج به إلى بيت الله الحرام، لأن الإنسان عندما يحج يجب أن يعطي نفقة حجه من المال الذي يملك، أما المال الذي جناه الإنسان من طريق محرم فإنه لا يملك شيئاً من هذا المال إطلاقاً، وكم قلنا وكررنا إن عليه أن يعيد هذا المال إلى صاحبه أو إلى أصحابه، فإن تعسر أو تعذر ذلك ولم يتأتى له أن يعيد هذا المال إلى صاحبه إذاً فحكمه كحكم المال الضائع. المال الضائع إذا لم نجد سبيلاً لإعادته إلى أصحابه يوضع في مصالح المسلمين، لا على وجه التصدق ولا على وجه التمنن، ولكنه مالٌ ضائعٌ كان ينبغي أن يعاد إلى أصحابه فلم نتمكن إذاً نضعه في مصالح المسلمين.

لا يجوز لإنسان جنى مالاً من حرام أن يتصور أنه سيطهر هذا المال الحرام غداً بأن يحج به إلى بيت الله الحرام، أي رقية شيطانية هذه، دين الله عز وجل كان ولا يزال قائماً على العلم، قائماً على الفقه، ﴿من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين﴾ حتى يعلم كيف يتصرف، ثم إن الإنسان المتحرق للحج إلى بيت الله الحرام يطرق باب مرضاة الله عز وجل فإذا وجد أن السبل المشروعة قد سدت في وجهه، فليعلم أن الله سبحانه وتعالى سيكرمه بهذا الأجر كله إن بقي في دويرة أهله وهو يشهد الله عز وجل لو استطاع لحج، إنما الأعمال بالنيات، وله من الفرص السانحة ما يجعله يفوز بأجر الحج ذاته إن كان مخلصاً في

قصده لله سبحانه وتعالى، والله سبحانه وتعالى كريمٌ ورحيمٌ وعادل لا يفتح الفرص للتقرب إلى الله لأناسٍ دون أناس، إذا فتح الفرصة فتحها للجميع. الذين أتيح لهم أن يذهبوا حجاجاً إلى بيت الله الحرام فتحت أمامهم فرصة الحج والذين لم يتمكنوا من ذلك فُتحت أمامهم فرصة أخرى مشابهة.

هذه الأيام التي ستأتي عما قريب والتي ينبغي أن نستقبلها الاستقبال المناسب، العشر الأول من شهر ذي الحجة، أليست فرصة ذهبيةً ليفوز الإنسان بها بمثل الأجر الذي يفوز به الحاج؟ أليست هي الليالي التي أقسم الله عز وجل إذ قال: ﴿وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ﴾ قال جمهور الصحابة والتابعين سلفاً وخلفاً: إن هذه الليالي التي أقسم بها ربنا سبحانه وتعالى هي العشر الأولى من ليالي شهر ذي الحجة، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخاري من حديث عبد الله بن عباس: «ما من أيامٍ العملُ الصالحُ فيهنّ أحب إلى الله من هذه الأيام، قال أحد الصحابة: حتى الجهاد في سبيل الله يا رسول الله؟ قال: حتى الجهاد في سبيل الله إلا رجلٌ خرجَ بنفسهِ ومالهِ فلم يعد من ذلك بشيء».

معنى هذا الكلام أن العمل الصالح في هذه الأيام خيرٌ من الحج، لأنه إذا كان خيراً من الجهاد المبرور في سبيل الله فلا شك أنه خيرٌ من الحج أيضاً. الحج الذي لم يفرضه الله عليك، لأن الاستطاعة التامة الكاملة الدينية والدنيوية لم تتحقق عندئذٍ يصبح الحج نافلة، العمل الصالح تنتهز القيام به في هذه الأيام بمثابة الحج بل إن أجره يعلو عن الحج إلى بيت الله الحرام.

فمن كان مخلصاً لله في قصده لم يبالي عندما لم يتح له أن يذهب حاجاً إلى بيت الله الحرام، وعندما يجد الزحام لا يحاول أن يتجاوز الحد المشروع في سعيه، لا يطرق الأبواب هنا وهنا وهنا، لا يوسط هذا وهذا وذاك، لا يدفع لهذا ولذاك، ما ينبغي أن يدفع رشوة أو على طرق أخرى من أجل أن يفوز هو الآخر بالحج، هذا الذي يقع أيها الإخوة مما تعرفون ومما لا ينبغي أن أقوله ليس عملاً خالصاً لله سبحانه وتعالى. أسأل الله سبحانه وتعالى أن يطهر قلوبنا من الشوائب وأن يجعل أعمالنا كلها خالصةً لوجهه الكريم. أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

٤١- الصلاة .. الصلاة .. الصلاة .. | ٢٠٠١/٠٢/٠٩

أرأيتم إلى الطعام كيف جعل الله سبحانه وتعالى الفاطر الحكيم منه غذاءً للجسد، به تبقى وظيفته وبه تشتد قوته وبه تتحقق فاعليته وبه تستمر حياته ... فكذلكم الصلاة، جعل الله سبحانه وتعالى منها غذاءً للروح، بالصلاة تنشط الروح وتقوى، بالصلاة تمتد فيها الحياة، بالصلاة تنتعش الروح وتصح وتقوى. هما غذاءان .. غذاءٌ أكرم الله عز وجل به الإنسان لجسده من دونه يموت الجسد ويتحول أنكاثاً، وغذاء آخر لروحه هو الصلاة؛ بدون هذا الغذاء تموت الروح وتيبس وتتحول إلى وجودٍ شكليٍ تافه لا معنى له.

هذه الصلاة أيها الإخوة قبل أن تكون تكليفاً خاطب الله عز وجل به عباده هي تشريف شرفهم الله سبحانه وتعالى بها ورفع أقدارهم بها إلى أعلى الرتب والدرجات.

أرأيتم إلى الرب سبحانه وتعالى عندما يدعو عباده إلى أن يدخلوا في حضرته فيقفوا بين يديه ويخاطبوه ويناجوه فيرد على خطابهم، أرأيتم إلى هذه الدعوة أهي تشريفٌ أم تكليف؟ إنها تشريفٌ عظيم وعظيم جداً قبل أن تكون تكليفاً. إنني أنظر إلى الداعي حين يدعوني إلى الوقوف بين يدي الله عز وجل بين الساعة والأخرى، وأتأمل في هذه الدعوة وأنظر إلى بُعدي عن الله عز وجل والحُجب الكثيفة التي تتمثل في الغفلات، في المعاصي، في الابتعاد عن الله عز وجل، ومع ذلك يدعوني داعي الله عز وجل إلى الوقوف بين يديه، وإلى الدخول إلى حضرته مخترقاً كل هذه الحواجز، عندما أتصور هذا الشرف الرباني ينبغي أن أذوب خجلاً من الله.

ومن أنا في عالم الله سبحانه وتعالى حتى أدعى إلى المثول بين يديه؟ وحتى أناجيه وأخاطبه؟ يرتفع بي الباري عز وجل إلى مستوى خطابه، إلى مستوى الوقوف بين يديه؟ تأملوا هذا المعنى العظيم أيها الإخوة. أجل هي تكليف من أعظم التكاليف ولكنها قبل ذلك تشريف من أجلِّ ما شرّف الله عز وجل به عباده المؤمنين.

وانظروا أيها الإخوة تلك هي الحكمة من أن الله عز وجل لم يُخاطب بهذا الشرف ولم يدعم إلى رحابه إلا عندما أصبحوا مؤمنين، لم يخاطب الله عز وجل بهذه الصلاة غير المؤمنين، لأم يقل عز وجل:

﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ لماذا؟ لأن الذين لم يشرفوا بالإيمان بعد ليس لهم شرف الدخول إلى رحاب الله عز وجل، ليس لهم شرف المثول بين يدي الله سبحانه وتعالى.

إذا عرفنا هذه الحقيقة أيها الإخوة تعالوا نتساءل: كيف يتأتى لمن آمن بالله ولمن أسلم ذاته لله سبحانه وتعالى ولمن عرف نفسه عبداً لله وعرف الله سبحانه وتعالى إلهاً له وقيوماً عليه، كيف يتأتى له أن يُعرض عن هذا الشرف؟ كيف يتأتى له أن يُعرض عن هذا التكليف الذي شرفنا الله سبحانه وتعالى به؟ عندما تكون مؤمناً بعبوديتك لله موقناً بربوبية الله الذي يملك الكون كله منه المبدأ وإليه المنتهى، عندما تكون مؤمناً بذلك ثم تجد أن الله عز وجل تقديراً منه لك وتشريفاً منه لك يدعوك إلى رحابه، يدعوك إلى حضرته لتخاطبه بما تريد ولتطلب منه ما تريد، وليبادلك وهو الإله القوي العزيز ليبادلك حواراً بحوار. كيف يتأتى منك أن تعرض عن دعوته؟ كيف يتأتى منك أن لا تلبيه بكل كيانك وبكل شراشرك؟ كيف يتأتى منك وأنت مؤمن بذاتك عبداً ومؤمن بالله رباً! كيف يتأتى إذا دعاك أن تعرض عن دعوته وأن تصم أذنيك عن الاستجابة لتكليفه وأمره وتشريفه؟! لا يمكن لا يتأتى هذا بشكلٍ من الأشكال.

ومع ذلك فإننا لنقول دائماً: إن الإنسان ضعيف، ولنتذكر في هذا قول الله عز وجل: ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ ربما تكاثرت عليه أعباء الكسل، تواردت عليه أعباء الغرائز، الرغبات والشهوات المختلفة التي تصده عن الاستجابة لأمر ربه فدعاه ذلك كله إلى الإعراض، دعاه ذلك كله إلى الكسل إلى نسيان قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾. ولكن هل يتأتى لهذا الإنسان أن يتجاوز هذا الحد وأن يُغالي في ابتعاده عن الله عز وجل فيضيف إلى الإعراض ويضيف إلى ما يفعله من التجاهل لنداء الله سبحانه وتعالى. هل يتأتى لهذا المؤمن أن يضيف إلى ذلك النهي عن الصلاة؟ أنت تعرض عن الصلاة لكسلك لتثاقلك للحواجز الشهوانية التي تشدك إلى الخلف وتجعلك تعرض عن شرف الدعوة الربانية لك، كل هذا يمكن أن يفسر أو يُؤول على أنه من مظاهر الضعف الذي أشار إليه بيان الله عز وجل، ولكن كيف يتأتى منك أن تنهى عبداً من عباد الله عز وجل عن الصلاة، وأنت مؤمن بكلام الله عز وجل، وأنت موقن بما قاله الله عز وجل في محكم تبيانه: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى، عَبْدًا إِذَا صَلَّى، أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى، أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى، أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى، أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾.

مؤمنٌ يضيف إلى إعراضه نهي المؤمنين بالله عن استجابة دعوة الله عز وجل! هذا لا يتأتى أيها الإخوة بحالٍ من الأحوال أبداً، ماذا يصنع بنفسه هذا الذي يمنع المؤمنين من النهوض إلى الاستجابة لأمر الله، من استجابة دعوة الله للدخول إلى رحابه؟! ماذا يصنع عندما يجد نفسه وقد صنف هو ذاته في قائمة من قال الله عز وجل عنهم: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى، عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾. إنه أبو جهل الذي كان ينهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصلاة قرب الكعبة ويتهدده على ذلك ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى﴾ تمنعه حتى وإن كان على الهدى! تمنعه وإن كان يعلم الناس الرشد ويأمرهم بالتقوى! يا هذا: ألا تعلم أن الله يرى، يرى ما تصنع يكفي أنك معرض عن الصلاة بدلاً من أن تلجئ إلى الله وتستغفره وتسأله أن يتغمد معصيتك وأن يغفر لك ذنبك وأن يبدل ضعفك قوةً، بدلاً عن ذلك تنشر موقفك هذا بين الآخرين وتصد عباد الله المؤمنين عن الصلاة!؟

مجتمعٌ فيه من يعرض عن الصلاة، ربما تغلبت على انحرافاته مغفرة الله، والله غفورٌ وتواب، ولكن مجتمع فيه من يعرض عن الصلاة وفيه من ينهى عن الصلاة ويأمر بترك الصلاة لا يمكن إلا أن يكون مجتمعاً خاسراً، لا يمكن أن ينهض من كبوته إن وقع في كبوة، لا يمكن أن يتغلب على عدو إن واجهه عدو، ينبغي أن يصلح نفسه مثل هذا المجتمع.

أيها الإخوة انظروا إلى قول الله عز وجل إذ يقول: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ استعينوا بالصبر والصلاة، نستعين بالصلاة لماذا؟ لكل شيء؛ إن طاف بكم بلاء استعينوا بالصلاة يرتفع البلاء، إن وقعتم في مغبة خسران استعينوا بالصلاة، يتحول الخسران إلى ربح، إن وقعتم في تخلف يتمثل في ضعف، عدوٍ يتهددكم استعينوا بالصلاة، فإن الصلاة تقويكم من ضعف، تعطيكم الغلبة، تنصركم على أعدائكم، ولذلك ذكر الله عز وجل عباده عامة بهذه الصلاة، ثم ذكر على وجه الخصوص أولئك الذين يقفون في الخنادق ليدافعوا عن أمتهم وليواجهوا عدوهم إذا صادفهم، يوجه إليهم هذه التذكرة بصورة خاصة لأنهم في الموقع الذي يتضاعف واجب إقبالهم إلى الله عز وجل ماذا يقول؟ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

ولقد علمتم أن الصلاة هي أول أنواع الذكر وأقدس أنواع ذكر الله سبحانه وتعالى، ربط مقابلة المؤمنين للعدو بهذا الدواء وبهذا العلاج. فكم وكم هو خطر أن يكون الذين يقفون في الخنادق أو

المعسكرات ويترقبون عدواً ربما يطمع في أرضهم وبلادهم ليقوموا بواجب الدعوة بل بواجب الحماية بواجب الدفاع عن الحقوق والمقدسات. انظروا كم هو خطر أن يكون هؤلاء الناس من المعرضين عن ذكر الله عز وجل وأشد من ذلك خطراً أن يكون هؤلاء الناس أنفسهم الذين يمنعون المقبلين إلى الله عز وجل لصلاة يؤدونها أو لعبادة ينهضون بها أو لاستجابة لشرف دعوة دعاهم الله سبحانه وتعالى إليها.

هذا هو الخيط الأول الذي يجسد إيمان المؤمنين والذي يصل ما بينهم وبين الله فإذا انقطع هذا الخيط ما الذي بقي أيها الإخوة ما هو مصداق إسلام المسلم ما هو مصداق إيمان المؤمن بالله سبحانه وتعالى؟

أسأل الله سبحانه وتعالى أن لا يحرمنا من الاستجابة لهذا الشرف - كما قلت لكم هو تشريفٌ قبل أن يكون تكليفاً، ويعلم ذلك من ينهض إلى النوافل بعد الفروض، من يكثر النوافل من الصلاة بعد الفروض يعلم ذلك. ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى: "وما يزال العبد يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها ولإن سألني لأعطينه ولإن دعاني لأجيبنّه"

اللهم اجعلنا من هؤلاء، اللهم لا تبعد عنا شرف الاستجابة لدعوتك لدخول حماك يا رب العالمين وأصلح حال أمتنا جمعاء يا مولانا يا رب العالمين.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

٤٢- شجرة الإسلام | ٢٠٠٨/٠٤/١١

إن الإسلام الذي شرَّفنا الله سبحانه وتعالى به بدءاً من فجر هذه الخليقة أشبه ما يكون بشجرة باسقة، أما جذورها فتتمثل في مشاعر العبودية الواجفة لله سبحانه وتعالى، وأما جذعها الظاهر وأغصانها الظاهرة فيتمثل ذلك كلُّه في الانقياد لأوامر الله سبحانه وتعالى من عبادات وأوامر ونواهيَ عامة، وأما ثمارها فتتمثل في السعادة التي قيضها الله سبحانه وتعالى لهذه الشجرة متمثلة في سعادة الفرد والمجتمع، متمثلة في القوة بعد الضعف والنصر بعد الهزيمة والغنى بعد الفقر والاتحاد بعد التشرذم والتفرق، وانظروا إلى هذا المثال كيف يبرزه ويجسده لنا كتاب الله سبحانه وتعالى إذ يقول ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ، تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [ابراهيم:٢٥].

إذاً فالإسلام جذورٌ من العبودية الواجفة لله وجذع ثم أغصانٌ من الانضباط بأوامر الله سبحانه وتعالى كلها وثمرة من السعادة وعد الله سبحانه وتعالى بها المسلمين الذين يمثلون هذه الشجرة، ونحن يا عباد الله عندما نتأمل في معنى العبادة والعبودية قد نتساءل عن الفرق بينهما، ما الفرق بين العبودية والعبادة لله عز وجل؟ أما العبودية فحالٌ يصطبغ بها الإنسان شعوراً تتمثل في أقصى درجات الذل، ولكن لمن، لقيوم السموات والأرض، تتمثل في المشاعر الربانية إذ تهيمن على فؤاد الإنسان، فالعبودية إذاً حالٌ خفيةٌ ضاربةٌ بجذورها في الفؤاد، أما العبادة فسلوك اختياري يمارسه الإنسان انقياداً لأوامر الله سبحانه وتعالى وانقياداً للنواهي التي حذره الله سبحانه وتعالى منها، هذا هو باختصار فرق ما بين العبودية والعبادة، إذا عرفنا يا عباد الله هذا الفرق بينهما فقد آن لنا أن نعلم أن العبادة الحقيقية المقربة إلى الله سبحانه وتعالى لا يمكن أن تتحقق إلا إذا كانت موصولة بجذور من العبودية ضاربةٍ بها في باطن القلب، أما عندما تكون العبادة في كيان الإنسان منفصلة عن هذه العبودية التي هي جذور هذه الشجرة فإن مظاهر العبادة لا يمكن أن تقرب أصحابها إلى الله شروى نقير، ولقد وقفت يا عباد الله على آيات ينعت فيها ربنا سبحانه وتعالى رسوله بالعبودية وتساءلت هلا نعته بالرسالة التي ابتعثه الله عز وجل بها، هلا نعته الله عز وجل بالنبوة التي ميَّزَه الله عز وجل بها؟ ولكني رأيته كلما أراد أن ينوه بمكانة حبيبه المصطفى نعته بوصف

العبودية ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾ [الفرقان:١] ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾ [الإسراء:١] ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ [البقرة: ٢٣]

ونظرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأيته لا ينتشي إذ يصف نفسه بوصف إلا عندما يصف ذاته بالعبودية لله عز وجل، ومهما تلقى من الله عز وجل مظاهر النصر والتأييد فإنه يزداد تطامناً واصطباغاً بهذه الحال يا عباد الله، حال العبودية لله سبحانه وتعالى، ألا تذكرون يوم فتح الله سبحانه وتعالى عليه مكة وطاف بالبيت الحرام سبعاً ثم وقف يخطب الناس بعد أن أثنى على الله سبحانه وتعالى بما هو أهله قائلاً: الحمد لله الذي نصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده، نصر عبده، لم يقل نصر رسوله، عباد الله حدثتكم بهذه المقدمة من أجل أن تتلمس جميعاً مكان هذه الجذور من هذه الشجرة المقدسة الباسقة من قلوبنا، التربة التي ينبغي أن تضرب جذور العبودية في أقصاها إنما هي تربة القلب.

أين هي مشاعر العبودية، ولا أقول العبادة السلوكية، لله سبحانه وتعالى بين جوانحنا؟ أرجو أن أكون مخطئاً إن قلت لكم أكثرنا يعاني من قلوبٍ فارغة، وأكثرنا يتمثل الإسلام في حياته كما لو كان شجرة قد أثبتت على ظاهر من الأرض ليس فيها جذور تمخر عباب الأرض، هل يُنتظَرُ بهذه الشجرة إلا الذبول ثم الانمحاق؟ هذه هي حالنا إن لم نتدارك هذا النقص ونكمل شجرة الإسلام التي متَّعَنَا الله سبحانه وتعالى بها، أرأيتم إلى الازدواج الذي تعاني منه مجتمعاتنا الإسلامية ولا يبرأ منها إلا قلةٌ فيما أحسب؟ إن سبب هذا الازدواج فقد جذور هذه الشجرة الإيمانية في القلوب، تنظر إلى المصلين في المساجد وإذا هم كثرة، بل لعلهم يتكاثرون مع الأيام، وتتأمل في مظاهر الصيام في موسمه الرمضاني فتجد مظاهره متألقة في الأسواق وفي المساجد وربما في البيوت أيضاً، وتنظر إلى الحجيج وإذا بأعداده يتكاثر عاماً إثر عام.

ولكن تأمل في الإسلام الذي ينبغي أن يهيمن على الأسواق وإذا هو غائب، تأمل في الإسلام الذي ينبغي أن يهيمن على العلاقات الشخصية بين الإنسان وأخيه الإنسان وإذا الإسلام عن هذه العلاقة غائب، تأملوا في حياة الأسرة أفرادها بعضهم مع بعض وإذا الإسلام في أكثر الأحيان عن هذه الأسرة غائب، وإذا كنتم في شك مما أقول فانظروا إلى المشكلات التي يفور بها قصر العدل، هي مشكلات بين مسلمين ومسلمين، ولربما بحثت عن هؤلاء المسلمين فلم تجدهم إلا في المساجد، ولربما تتبعت سيرة الواحد

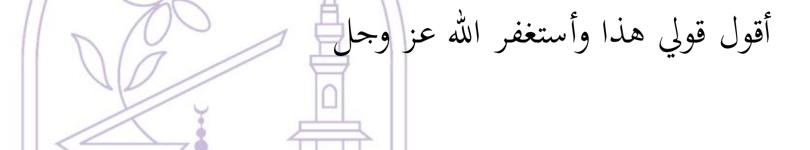
منهم فوجدته يغشى مجالس الذكر ومجالس العلم وما إلى ذلك، يا سبحان الله من أين جاء هذا الازدواج وقد علمنا أن الإسلام ليس محصوراً في صلاة وصومٍ وحجٍّ وزكاة، الإسلام له سلطانه النافذ على الحياة الإنسانية كلِّها، ألم يأمرنا الله عز وجل أن نقول: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٢] أي كل تقلباتي في الحياة ينبغي أن أتوجه بها إلى رب العالمين سبحانه وتعال.

إذاً لماذا أَجِدُنِي ملتزماً بالإسلام إذ تحين أوقات الصلاة وأُهْرَعُ إلى المساجد لأدائها مع الجماعة؟ لماذا أكون واحداً ممن تتألق مظاهر الصيام في شكلهم وتحركاتهم في شهر رمضان؟ لماذا أكون واحداً من المتسابقين إلى بيت الله الحرام في موسم كل حج؟ حتى إذا دخلتُ عراك العلاقات المالية ودخلت السوق من الصباح إلى المساء حُجِبْتُ عن الإله الذي كنت أركع وأسجد له، لماذا؟ السبب أن عباداتنا السلوكية لم تتصل بجذور مستقرة في أعماق هذه الأفئدة، أفئدتنا هي التربة التي ينبغي أن تستقر فيها جذور هذه الشجرة الإيمانية التي حدثنا عنها بيان الله عز وجل، عندما يكون قلبيَ خالياً من مشاعر الذل والعبودية والمملوكية لله سبحانه وتعالى ومن ثم يكون شعوري خالياً عن مراقبة الله عز وجل لي فما أيسر أن أرضيَه، فيما أتصور، بركعات أُؤديها وبصيام أصبر عليه وبحج أذرع الطريق ما بين بيتي وبين بيت الله الحرام ذاهباً آيباً، ماذا يكلفني ذلك هذه العبادة مقطوعة عن جذورها لن تقربنا إلى الله يا عباد الله، لابد لكي تحيا هذه العبادة، لكي تسري فيها روحها، لابد من أن تكون لها جذور، الشجرة لا تحيا بدون جذور، والجذور، جذور هذه الشجرة، كما قلت لكم هي العبودية لله عز وجل.

لما آل الإسلام في حياة مجتمعاتنا الإسلامية وأكثر المسلمين إلى هذه المظاهر السلوكية دون أن تكون لها جذور ضاربة في أعماق الأفئدة أصبحنا نتصور الإسلام فكراً، وما أكثر ما يُنعَتُ الإسلام بالفكر، وما أكثر ما ينعت الدعاة إلى الله بالمفكرين، المفكرين الإسلاميين، تأملوا من أين جاءت هذه الكلمة، من أين جاء هذا اللقب للإسلام والداعين إلى الله عز وجل، هل سمعتم هذا اللقب قبل مئة وخمسين عاماً أو قبل مئة عام؟ لا، هل سمعتم باسم الفكر الإسلامي والمفكر الإسلامي قبل مئتين، قبل ثلاث مئة، قبل أربعمائة، قبل ستمائة عام؟ إطلاقاً، لأن الإسلام ليس فكراً منبعثاً من هذا الدماغ وإنما الإسلام شجرة جذورها القلب، والقلب مكمن لمشاعر العبودية لله سبحانه وتعالى، عندما تضرب جذور هذه الشجرة في فؤادي وتستقر في حنايا هذا الفؤاد فإنني سأتحول إلى إنسان يراقب الله في كل حال، عندما أذهب إلى

السوق أجِدُنِي عابداً لله في سوقي، عندما أذهب إلى مدرستي أو جامعتي معلماً أو متعلماً أجدني عابداً لله عز وجل في جامعتي، عندما أجدني ذا علاقة بيني وبين إخوةٍ لي في الله عز وجل أو آخرين من خارج الدائرة الإسلامية أجدني في محراب العبودية لله عز وجل، عندما أدخل داري في المساء وأجلس مع أهلي وزوجي أجدني عدت إلى محراب العبودية لله سبحانه وتعالى، نحن بحاجة يا عباد الله إلى أن نتفقد جذور هذه الشجرة التي عبَّر الله عز وجل بها عن شجرة الإسلام، أسأل الله عز وجل أن يجعل قلوبنا أوعية لجذور هذه الشجرة ألا وهي العبودية الواجفة لله عز وجل، إن لم نصطبغ بها اليوم فلسوف نصطبغ بها عند رحيلنا من هذه الحياة، لسوف نصطبغ بها عندما نمتد على فراش الموت ونجد ملك الموت يستلب روحنا شيئاً فشيئاً سنعلم عندئذٍ أننا عبيد واجفون أذلاء لله عز وجل، فلنصطبغ اليوم بهذه الحقيقة قبل أن يفوت الأوان فلا يفيدنا الاصطباغ بها عندما نرحل إلى الله عز وجل.

أقول قولي هذا وأستغفر الله عز وجل



٤٣- حقيقة العبودية وجوهرها | ٢٠٠٨/٠٦/٢٠

إن أول واجب ينبغي للإنسان أن ينهض به هو التعرف على ذاته وهويته، ومن المعلوم أن هوية الإنسان تتمثل في كونه عبداً لمن قد خلقه وأنشأه في أحسن تقويم، فإذا عرف الإنسان هويته عبداً مملوكاً لله عز وجل فالمرحلة الثانية هي أن يتبين وظيفته في هذه الحياة الدنيا، وإنما الوظيفة التي أقام الله عز وجل الإنسان عليها تتلخص في أن يمارس عبوديته لله عز وجل بسلوكه الاختياري كما قد فُطِرَ عبداً له بواقعه الاضطراري، تلك هي وظيفة الإنسان وهي منبثقة عن هويته التي ينبغي أن يتبينها ويتعرف عليها، ولكن كيف ينهض الإنسان بممارسة عبوديته لله عز وجل بسلوكه الاختياري؟ الجواب عن هذا يا عباد الله أن هذه الممارسة تتلخص في أمرين اثنين لا ثالث لهما هما الصبر عند الابتلاء وشكر الله سبحانه وتعالى عند الرخاء، بهما يرقى الإنسان إلى مرضاة الله سبحانه وتعالى وبهما يحقق الإنسان هويته ويمارس عبوديته لله سبحانه وتعالى بسلوكه الاختياري.

ولنتأمل يا عباد الله كيف يركز بيان الله سبحانه وتعالى كثيراً على هذين الأمرين اللذين يؤول إليهما ممارسة عبودية الإنسان لله سبحانه وتعالى، يقول عز من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠] ويقول: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠] ويقول: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧] وهذا الكلام، الدعوة إلى الصبر، مكرور في كتاب الله عز وجل بمناسبات شتى.

أما الشكر فلنصغ إلى نماذج من ذلك في بيان الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ، فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة:١٥١-١٥٢] ويقول في مكان آخر: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣] ويقول: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [ابراهيم: ٧] هما إذاً صبر وشكر بهما يحقق

الإنسان هويته وبالنهوض بهما يتحقق بالوظيفة التي أقامه الله عز وجل عليها وهي ممارسة العبودية لله عز وجل بعمله وسلوكه الاختياري كما قد خُلِقَ عبداً له بواقعه الاضطراري.

من هنا يا عباد الله شاء الله عز وجل أن تكون الحياة التي يتقلب الإنسان في غمارها مزيجاً من الشدة والرخاء، مزيجاً من المصائب والنعم، لماذا؟ لأن المناخ الذي يتجلى فيه صبر الإنسان ويتجلى فيه شكره لله سبحانه وتعالى لابد أن يكون فيه أسباب لهذا الصبر وأن تكون فيه أسباب للشكر أيضاً، فلو أن الحياة التي نعيشها اليوم كانت نعيماً لا توجد شوائب فيه إذاً لما كان هنالك معنى للصبر الذي هو أحد المظهرين لممارسة العبودية لله، ولو كانت هذه الحياة ابتلاءات وسلسلة من المصائب فقط لما كان هنالك مناخ لظهور الشكر أيضاً.

ولكن الحكمة الإلهية اقتضت أن يعاني الإنسان في حياته الدنيا هذه مرة آلام المصائب والمحن وأن يتلقى آناً آخر والمنح والنعم من الله سبحانه وتعالى، وانظروا إلى قوله عز وجل: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥] ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً﴾ [الفرقان: ٢٠] ، ينبغي أن نتبين هذا يا عباد الله بين يدي النتيجة التي سنصل إليها، ولأمر ما شاء الله عز وجل أن يكون أجر الصابرين متميزاً عن أجر الشاكرين وشاء الله سبحانه وتعالى أن يعد الصابرين في هذه الحياة الدنيا أن ينالوا أجرهم بدون حساب، وأنتم تعلمون أن من نوقش الحساب عُذِّبَ يوم القيام ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠] لماذا؟ ما السبب في هذا التفاوت بين الصبر والشكر؟

السبب يا عباد الله أنه لا يتأتى الشكر لله عز وجل إلا على أساس من الصبر، بدون الصبر لا يتحقق الشكر، أما الصبر عند الابتلاءات فمن الممكن أن ينفرد الصبر عن الشكر، يوجد الصبر عن الابتلاء ويغيب الشكر، أما الصبر فلا بد أن يكون موجوداً في الحالين، ولعلكم تتصورون أن الشكر الذي ينبغي أن يصطبغ به الإنسان هو الكلمات التقليدية التي يرددها بعض الناس على أفواههم، نحمد الله، نشكر الله إلى آخر ما هنالك من هذه الكلمات التقليدية التي ينطق بها الناس في المناسبات، لا أيها

الإخوة، الشكر ليس كذلك، ولو كان الشكر كلمات تتردد على الألسن لما قال الله عز وجل: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾.

الشكر الذي أمرنا الله به والذي به يتحقق جانب من جانبي عبودية الإنسان لله عز وجل هو أن يوظف الإنسان النعم التي أغدقها الله عز وجل عليه للوظيفة التي خُلِقَ من أجلها، هذا هو الشكر، متعك الله بالعافية، الشكر على العافية أن تجند عافيتك وتوظفها للمهمة التي خُلِقْتَ من أجلها، أكرمك الله بالمال الوفير، أكرمك الله سبحانه وتعالى بالدار العامرة وبالنعم البازخة، شكر الله عز وجل على ذلك أن تجند المال وأن تجند سائر النعم الملحقة به للوظيفة التي خلقت من أجلها، ولا يتأتى لك أن تنهض بالشكر بهذا المعنى إلا على أساسٍ من الصبر، الإنسان الذي أكرمه الله عز وجل بنعمة المال الوفير يجد أبواباً كثيرة قد تفتحت أمامه إلى المتع وإلى قطف الشهوات والأهواء المختلفة، بوسعه أن يسلك هذه الأبواب كلها إلى متعه المتنوعة ولكن خطاب الله عز وجل يقول له لا ينبغي لك أن تدخل إلى متعك من هذه الأبواب كلها، لك إلى ذلك باب واحد هو هذا الذي شرعه الله سبحانه وتعالى.

إذاً فشكري لله عز وجل على نعمة المال يقتضيني أن أصوم عن المتع المحرمة والتي أستطيع أن أصل إليها بالمال، شكري لله عز وجل على نعمة المال يقتضيني أن أبتعد عن ألوان من الرفاهية وألوان من المبتغيات والشهوات كلها يمنعني الله سبحانه وتعالى من الوصول إليها ويفتح إلى متعتي باباً واحداً هو الباب الذي شرعه الله عز وجل لي، كذلكم نعمة العافية، كذلكم سائر النعم، نعمة المناصب والرتب لا يمكن للإنسان أن يشكر الله سبحانه وتعالى عليها إلا على أساسٍ أو إلى دهليز من الصبر الذي ينبغي أن يمارسه، ومن هنا كان لابد للإنسان من الصبر بين يدي الشكر وكان لابد للإنسان من الصبر أمام الابتلاءات المختلفة التي قد يبتلينا الله سبحانه وتعالى بها، الشيء الأخير الذي ينبغي أن أصل إليه وهو المحور في حديثي إليكم هو أن الإنسان يعود إلى نفسه وقد كُلِّفَ بالصبر فيجد نفسه ضعيفة، أنى له أن يصبر وهو المخلوق الذي وصفه الله عز وجل بقوله: ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً﴾ [النساء: ٢٨]، ويأتي

بيان الله متناغماً مع هذا الشعور الذي يشعر به الإنسان إذ يقول له: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧].

أترون أن بين هاتين الجملتين تناقضاً؟ معاذ الله، يقول الله لي ﴿وَاصْبِرْ﴾، ثم إن الله عز وجل يؤيد شعوري الذي أتجه به إلى مولاي وخالقي، أنا ضعيف لا يتأتى مني الصبر فيقول لي: ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ أجل ولكن هل التجأت إلى من بيده صبرك؟ هل طرقت باب من بيده تحويلك من مستوى الضعف والعجز إلى مستوى القوة والقدرة؟ هل طرقت باب الله سبحانه وتعالى واستنجدت به فلم ينجدك؟ هذا معنى قوله عز وجل: ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾، هنا يا عباد الله يصل الإنسان إلى روح العبودية بل إلى جوهر العبودية لله سبحانه وتعالى، جوهر العبودية أن يشعر الإنسان أنه لا شيء، جوهر العبودية أن يشعر الإنسان أنه ضعيف لا يتأتى منه شيء إن هو اعتمد على ذاته ومن ثم فإن ضعفه لابد أن يسوقه إلى باب مولاه وخالقه، لابد أن يسوقه للالتجاء إلى الله سبحانه وتعالى، يقول له يا رب أمرتني وأنا عاجز ونهيتني وأنا عاجز وأمرتني بالسير إلى مرضاتك وأنا لا أستطيع أن أخطو خطوة إلى هذه الغاية فهلا أنجدتني، هلا أبدلت ضعفي قوة يا رب العالمين، عند هذا الالتجاء تأتيه النجدة من الله سبحانه وتعالى.

عباد الله الإنسان عندما يعود إلى ذاته هو اللاشيء بكل معنى الكلمة، فإذا التجأ إلى الله وإذا جعل من التجائه إلى الله ورداً يتكرر تحول من اللاشيء وأصبح كل شيء بمعونة الله عز جل، أصبح كل شيء بمنحة من الله سبحانه وتعالى تستمر، أصبح كل شيء بالقدرة التي يمتعك الله سبحانه وتعالى بها، هذا هو جوهر العبودية التي ينبغي أن يصطبغ به كلٌ منا وانظروا يا عباد الله كيف يكرر الإنسان هذا المعنى الذي هو روح العبودية وجوهرها كل يوم خمس مرات إذ يقف بين يدي الله عز وجل يخاطبه قائلاً: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ عزمٌ وعهد من العبد لله، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ إعلان عن العجز، إعلان عن الضعف وإعلان للحاجة التي تقود الإنسان إلى رحاب الله عز وجل، أنا أستعين

بك يا رب، ها أنذا عاهدتك على أن أسير على النهج الذي أمرت وأن أطبق كل ما شرعت وأن أنتهي عن كل ما قد حذرت ولكن أنىَّ لي ذلك إن لم تُعِنِّي ومن ثم فأنا أستعين بك يا رب العالمين.

الثمرة التي أريد أن أنتهي إليها يا عباد الله من هذه الرحلة المتسلسلة إلى هذه الغاية هي أننا قد ننظر فنجد أن عقبات كثيرة تقف بيننا وبين بلوغ مرضاة الله عز وجل، عقبات متنوعة يضيق المقام عن ذكرها، قد نتبين ونحن نلتفت يميناً ويساراً أن هنالك مصائب تطوف من حولنا، أن هنالك ابتلاءات مادية اقتصادية أخلاقية متنوعة، هنالك ضغوطات تمارس علينا ولعلنا نسمع الشكوى منها صباح مساء، هذا هو شأن الإنسان عندما يعود إلى ذاته محجوباً عن مولاه وخالقه، ما السبيل إلى تذويب هذه العقبات؟ ما السبيل إلى الترفع على هذه المصائب المتنوعة المختلفة؟ ما الطريق الذي يجعلنا نترفع فوق هذه التحديات؟ ألا فلتعلموا أنه سبيل واحد هو الالتجاء إلى الله سبحانه وتعالى، قولوها للمسلمين جميعاً، قولوها لكل من وقف أمام مرآة هويته وعرف نفسه عبداً مملوكاً لله سبحانه وتعالى على اختلاف مستوياتهم، قولوا التجئوا إلى الله بانكسار وبذل واجعلوا من التجائكم ورداً دائماً تعبرون به عن عبوديتكم بل تغذون بذلك عبوديتكم لله سبحانه وتعالى وانظروا كيف تزول العقبات وكيف تضمحل المصائب وكيف تزول التحديات كلها، ربنا سبحانه وتعالى موجود وهو الذي يقول لك استنجد به أنجدك، التجئ إلي أحقق لك ما تبغي.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم فاستغفروه يغفر لكم.

٤٤- تكريم الله للإنسان وعاقبة ذلك | ٢٠٠٨/٠٦/٢٧

عجيب شأن ابن آدم مع مولاه وخالقه عز وجل، متعه الله سبحانه وتعالى بسلسلة من المكرمات وهو معرض عنها وعن شكر الله سبحانه وتعالى عليها، عاكف على الاستجابة لرغائبه وأهوائه إلا من رحم ربك، خلقه الله سبحانه وتعالى بيديه كما قال في محكم تبيانه، أسجد له ملائكته أجمع، بثَّ فيه الروح التي نسبها إلى ذاته العلية، أعلن عن إكرام الله سبحانه وتعالى له وعن تميزه عن سائر المخلوقات بهذا التكريم المعلن عنه وصدق الله إذ قال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٠].

سخر له المكونات التي من حولها وجعلها خدماً لمصالحه ورغائبه، ثم إنه فوق ذلك كله سما به إلى مستوى أهلية الخطاب له فخاطبه عز من قائل بكلام الله، بكلامه الذي أنزله إليه عن طريق الرسل والأنبياء فماذا كانت عاقبة هذه السلسلة من المكرمات التي أغدقها الله على هذا المخلوق الإنسان وماذا كان موقفه من الإله الذي كرمه بها وأنعم بها عليه؟ إنه بقي عاكفاً على رغائبه معرضاً عن ذكره منصرفاً عن شكر نعمائه ناسياً وصاياه وأوامره التي يخاطبه بها، ومرة أخرى أقول: إلا من رحم ربك، إنما يصدق هذا على الكثرة التي قال الله عز وجل عنهم: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

يهيب الله عز وجل به بعد هذا التكريم كله أن يذكره ولا ينساه، أن يشكر نعمه التي أغدقها عليه، أن يستجيب لوصاياه التي يخاطبه بها، يخاطبه بذلك متحبباً آناً ومنذراً ومهدداً آناً ومع ذلك فإن هذا الإنسان العجيب في شأنه يظل عاكفاً على رغائبه معانقاً أهواءه وشهواته، منصرفاً عن وصايا الله وأوامره، يخاطبه الله متحبباً يقول: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ، فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة:١٥١-١٥٢].

ولكن الإنسان يظل معرضاً، يخاطبه مهدداً ومنذراً، يقول: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى، قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً، قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾ [طه: ١٢٦]، أليس عجيباً شأن هذا الإنسان يا عباد الله؟! وإنك لتنظر بالمقابل إلى الجمادات بأنواعها وإلى النباتات على اختلافها وإلى الحيوانات المتنوعة التي تسبح في أرض الله أو الطيور التي تسبح في فضاء الله سبحانه وتعالى فتجد كلاً عاكفاً على صلاته وتسبيحه، تجد كلاً منصرفاً إلى تسبيح الله وحمده وإلى العكوف على الوظيفة التي أقامه الله عز وجل عليها وصدق الله القائل ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤] وصدق الله القائل: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ [النور: ٤١].

ذلكم هو شأن الإنسان المكرم عند الله وهذا هو شأن الجمادات والنباتات والحيوانات التي سخرها الله خادماً لبني الإنسان، أليس في هذا يا عباد الله ما يخجل؟ أليس في هذا يا عباد الله ما يثير العجب الذي أحدثكم عنه؟! ولا يقولن فيكم قائل جمادات وتسبح بحمد الله! جمادات لا تعي وتعبد الله! نباتات، حيوانات عجماوات تقول إنها عاكفة على تسبيح الله! نعم صدق الله الذي أعلن عن ذلك وكذب من خالف، أيها الإخوة إنها حقيقة علمية قبل أن تكون حقيقة دينية تلك التي ألْفِتُ أنظاركم إليها، خلق الله الإنسان وأمره بشكره وذكره والتحقق بالعبودية له وجعل وسيلته إلى ذلك هذا العقل والفكر اللذين جهزه الله بهما فلا يتخيلن أحد أن كل المخلوقات الأخرى لابد لكي تعرف مولاها وخالقها ولكي تدين له بالعبودية من أن تتمتع بهذه الوسيلة ذاتها، وسيلة العقل وسيلةٌ شاءها الله للإنسان أما الجمادات الخاضعة لسلطان الله والعاكفة على تسبيح الله عز وجل فلها إلى ذلك أداة أخرى إلى جانب العقل الذي ميَّزَنَا الله به، النباتات، الحيوانات الماضية على تنفيذ وظائفها التي خُلِقَتْ لأدائها العاكفة على تسبيح الله سبحانه وتعالى لها إلى ذلك وسيلة أخرى غير وسيلة العقل والنطق اللذين متعنا الله سبحانه وتعالى بهما.

ألم تقرؤوا في الصحيح، في صحيح البخاري نبأ خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم في مثل هذا اليوم؟ أقبلت إليه امرأة، وكان يخطب صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة مستنداً إلى جذعٍ مثبت في جدار

المسجد، أقبلت تستأذنه في أن تصنع له منبراً عن طريق غلام لها نجار فقال لها: إن شئت، وبعد أيام وُضِعَ لرسول الله منبر ذو ثلاث درجات، أقصي ذلك الجذع إلى مكان بعيد في المسجد، وذات يوم ورسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب سمع كل من في المسجد أزيزاً ينبعث من جوف ذلك الجذع كأنه صوت الناقة العشراء أي الحامل التي أوشكت أن تضع مولودها، نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم من المنبر ومضى إلى ذلك الجذع فاستلمه وعانقه إلى أن هدأ ما به وكل من في المسجد كانوا شهوداً على ذلك، أتقولون إنه جذع جامد لا يعي ولا يفقه؟ من قال هذا؟ ربما كان الإنسان أقسى قلباً من كثير من النباتات والحيوانات، وصدق الله القائل ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤].

أجل يا عباد الله إنه لشيء مخجل يطوف هذا الخجل شعوراً في كياني ينبغي أن يطوف خجلاً بكيان كل واحدٍ منكم، أقول لكم شيئاً آخر لا أنقله عن طريق شهادة أناس بل أنا الشاهد على ذلك، أمام غرفة نومي في المنزل الذي أسكن فيه شجرة كبيرة، صباح كل يوم بعد الفجر تتجمع بين أغصان هذه الشجرة طيورٌ بأعداد كبيرة وكثيرة تؤدي وردها في ترنيمة جماعية عجيبة لا تفتأ إلى أن تشرق الشمس، فإذا أشرقت الشمس وانتشرت أشعتها في الآفاق تفرقت هذه الطيور ما بين يمين وشمال كل إلى شأنه، أنظر إلى هذه الوظيفة، إلى هذا الورد، إلى هذه العبادة التي تلتقي إليها هذه الحيوانات فوق هذه الشجرة التي أراها أمامي بعد بزوغ الفجر إلى طلوع الشمس وألتفت يميناً وشمالاً فأرى ابن آدم ما بين راقد يغط في رقاده وما بين إنسان ساهر الليل طويلاً على شهواته وأهوائه وأمام إنسان يتقلب في رغائبه ورعوناته.

يا هذا أنت الإنسان المكرم عند الله! أنت الإنسان المبجل على عين الله! أنت الإنسان الذي ميزك الله بخطابه تعرض عنه! وتتناسى فضله! لا عندما يتحبب إليك تستجيب لتحببه ولا عندما ينذر ويحذر تستجيب خائفاً لإنذاره، ما هذه القسوة، قارن بين وضعك وبين هذه الحيوانات التي تراها، عباد الله آية في كتاب الله ينبغي لكل منكم إذا قرأها أن يذوب خجلاً من الله سبحانه وتعالى وهي آية سجدة سنقرأها ونسبح الله سبحانه وتعالى على أعقابها ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ

وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ﴾ [الحج: ١٨] ثم قال: ﴿وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨].

رددوا هذه الآية، لا حظوا كيف أن الله عز وجل أعلن أن كل الكائنات تسجد لله عز وجل سجود عبادة، سجود تقديس، سجود تسبيح، كل؛ النجوم الجبال الشجر الدواب كلها، لما وصل إلى هذا المخلوق الإنسان قال: ﴿وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ [الحج: ١٨] لماذا؟ ألأن الله عز وجل ابتلاك بما ابتلاك به من شهوات وأهواء ولكنه قبل ذلك غرس بين جوانحك فطرة الإيمان به، فطرة الحنين إليه، فطرة الحب له ثم إنه خاطبك وبَيَّنَ لك السبيل الذي به تستطيع أن تتعالى فوق رعوناتك وتستطيع أن تتحرر عن شهواتك وأهوائك فأبيت إلا استجابة للشيطان الذي طرده الله عز وجل من رحمته في سبيلك!

اللهم إنا نسألك أن تجذبنا إليك بجاذب الحب وأن تأخذنا إليك من أنفسنا، نسألك اللهم أن تستلبنا من رعوناتنا وأن تستلبنا من أهوائنا وشهواتنا، وأن لا تجعل نعمك التي أغدقتها علينا حجاباً بيننا وبينك يا رب العالمين، أيها الإخوة زبدة هذا الكلام الذي أقوله لكم أن نرجع الآن بعد هذا اللقاء، بعد هذا المجلس في هذا اليوم الأغر المبارك وقد جددنا العهد مع الله على كل المستويات بالنسبة لكل الفئات، جددنا العهد مع الله أن نكون أكثر استجابة لنداء الله من الحيوانات في أدغالها ومن الطيور في أعشاشها وعلى أغصانها، أن نكون أكثر استجابة لأمر الله سبحانه وتعالى من النباتات والجمادات لعل الله يصلح شأننا.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

٤٥- فَفِرُّوا إلى الله | ٢٠٠٨/١١/١٤

إننا جميعاً بحمد الله عز وجل نعلم ونعتقد أن الله واحد لا شريك له وأنه الفعال لما يريد، ليس معه شريك في ذاته ولا في صفاته. وإننا جميعاً بين الحين والآخر نتلو قول الله عز وجل: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ وندرك من هذه الآية العظيمة التي نرددها في المناسبات أن الله عز وجل هو لا غيره القائم بأمر السموات والأرض المدبر لشؤون الكون كله، حتى إذا أقبلنا إلى الدنيا وشؤونها نتعامل معها نسينا هذه العقيدة التي هي ملئ عقولنا وملئ قلوبنا وحُجِبْنَا عن هذا اليقين المهيمن علينا بالأسباب الظاهرة، حُجِبْنَا عن ذلك بهذه الأدوات التي استخدمها الله عز وجل لكونه، ننسى المسبب ونتذكر الأسباب و لا نتعامل إلا مع الأسباب وهذه ثنائية خطيرة يا عباد الله في كيانات أكثرنا نحن المسلمين، عقيدة سليمة من حيث الإيمان والفكر النظريين وغياب عن هذه الحقيقة عند التعامل مع الدنيا وأسباب المعيشة والرزق وعند التعامل مع المصائب الاحتياجات.

تُنْتَقَصُ أوطاننا وتستلب حقوقنا وننظر فلا نتذكر إلا الأيدي التي تعبث ولا نرى إلا الأسباب التي جعلها الله عز وجل خدماً لقضائه وحكمه وأمره. تُحْتَبَسُ الأمطار ويمر الشتاء أو يكاد والأرض لا تزال جافة قاحلة فننسى المسبب الذي نؤمن به عندما نقرأ قول الله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ ونقول إنها دورة ثلاثينية اقتضت الطبيعة أن تفاجئنا بهذا الجفاف أو هو خرق لطبقة الأوزون تشكلت عنها هذه الظاهرة أو هو احتباس حراري أو نحو ذلك وننسى أن هذا كله خدم بيد مولانا القيوم الذي يدير مملكته الكونية هذه كما يشاء. هذه مصيبة ينبغي أن نتحرر منها إن صدقنا بإيماننا بقيومية الله سبحانه وتعالى.

كيف السبيل يا عباد الله إلى أن نتحرر من هذه الثنائية وأن يكون تعاملنا مع الحياة ومع تقلبات الدنيا منطبقاً كل الانطباق مع إيماننا بألوهية الله وحده، مع إيماننا بأنه هو، لا غيره، قيوم السموات والأرض؟ سبيل ذلك، بعد الإيمان الراسخ في العقل والكيان، أن نتساءل عمن أرسل إلينا هذه الحاجات

التي نشعر بها، وأن نتساءل عن المصدر التي جاءتنا منه هذه الابتلاءات، نتساءل عن المصدر الذي جاءتنا عن طريقه هذه المصائب ولسوف نعلم أن مصدر ذلك كله إنما هو الله عز وجل، هو الذي وضعنا أمام حاجاتنا المعيشية وهو الذي يبتلينا عندما يشاء أن يبتلينا بما يشاء من المصائب ونحوها من الرزايا، فإذا عرفنا مصدر ذلك كله وعرفنا أنه الله فإن المنطق يقول لنا لن يرفع المصائب التي جاءت إلا من أرسلها ولن يحقق الاحتياجات التي وضعنا أمامها إلا من قد ابتلانا بها ولسوف نجد أنفسنا أمام هذا البيان الإلهي المقتضب العظيم الذي يذكرنا بهذه الحقيقة ألا وهو قول الله عز وجل: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ ففروا من البلايا التي تطوف بكم إلى من أرسلها إليكم، فروا من المصائب التي تتهددكم أو تتسلل إلى دياركم فروا منها إلى من ابتلاكم بها، وعندما تتأملون لن تجدوا إلا يداً واحدة هي التي تتحكم بالكون كله، ومن هنا فإن الذي عرف عبوديته لله وعلم أن الله عز وجل هو المتحكم بناصية الكون، عندما يرى المصائب التي تحيط به إنما يفر منها إلى من أرسلها إليه، عندما يرى النكبات التي تتقرب منه لا يفر منها إلا إلى ذلك الإله الذي ابتلاه بها.

ويا عجباً يا عباد الله، إن الإنسان عندما يتعامل مع مصالحه الدنيوية لا يتورط في هذه الثنائية قط بل يتعامل دائماً مع المصدر ولا يقيم وزناً للأسباب الشكلية، هل سمعتم عن إنسان جاءته جائزة مالية طرق بابه بها ساعي البريد فلما خرج واستلم الجائزة من ساعي البريد أخذ يقبل يديه ويرى أنه هو الذي أنعم عليه بها وهو الذي تفضل عليه بهذه الجائزة، هل في الناس الحمقى أو السذج من يفعل ذلك؟ إنه يعلم أن ساعي البريد وسيلة وسبب أما فكره فيذهب إلى تلك المؤسسة التي أرسلت إليه هذه الجائزة أو إلى ذلك الثري الذي أكرمه بها وإن نظر إلى هذا الساعي نظرة شكرٍ ونظرة تقدير لأنه الواسطة والسبب.

هل في الناس من إذا رأى السيارة تنهب الطريق متجهة إلى مكان ما يعطي الفاعلية للأجهزة الداخلة فيها والمولد الذي يتحرك في مقدمتها أو مؤخرتها؟ هل هنالك من السذج من يعطي الفاعلية للمقود الذي يتجه ذات اليمين آناً وذات الشمال آناً؟ لا أيها الإخوة، ليس في الناس أياً كانت مستوياتهم العقلية من

يتعامل مع هذه الأسباب التافهة وينسى المسبب، ينسى الإنسان الذي يجلس خلف المقود ويحرك السيارة كما يشتهي ويريد.

فلماذا تختفي هذه الثنائية في معاملتنا الدنيوية، في مصالحنا المختلفة وتتجلى الثنائية بشكل مخيف بل ربما مرعب عندما نتعامل مع الله عز وجل؟ في مثل هذا المكان نذكر ونردد قول الله عز وجل: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ وأغلب الظن أننا نعلم معنى الحي القيوم، نتلوا قول الله تعالى: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾، فإذا خرجنا إلى السوق وإذا خرجنا إلى شؤوننا وأعمالنا حُجِبْنَا عن الحي القيوم ووجدنا أمامنا الأسباب الشكلية ولربما ذهب تقديرنا إليها إلى درجة أن نؤلِّهَهَا في بعض الأحيان.

يا عباد الله، هذه الثنائية مصيبة مهلكة ينبغي أن نتحرر منها وينبغي أن يهيمن إيماننا بالله عز وجل الجاثم في عقولنا، ينبغي إن يهيمن على سلوكنا. نعم التعامل مع الأسباب أمر أخلاقي وأدب نتعامل به مع الله، أقامنا الله في عالم الأسباب إذن نتأدب مع الله عز وجل ونتعامل مع ما قد جعله سبباً لمعايشنا ولكنا في الوقت ذاته نعلم أن المسبب هو كل شيء، نعلم أن المصطفى ﷺقال: لم يشكر الله من لم يشكر الناس﴾.

الوسائل التي جعلها الله عز وجل خادماً لأمره، خادماً لقضائه وحكمه نتعامل معها من منطلق أخلاقي مع الله ومن منطلق أدبي نتأدب بتعاملنا معها مع الله سبحانه وتعالى ولكن ما ينبغي أن تحجبنا الأسباب ساعة واحدة عن المسبب. ما النتيجة التي أريد أن أصل بكم إليها يا عباد الله؟ النتيجة هي أنا إذا علمنا أن المصائب التي قد تطوف بنا، ونسأل الله العفو والعافية، إذا علمنا أنها آتيةٌ من قيوم السموات والأرض فلسوف نطرق بابه ونلتجئ إليه ونستنزل رحمته بنا وصفحه عنا من سمائه وننظر وإذا بالجواب قد جاء وإذا برحمة الله عز وجل قد نَسَخَتْ ذلك الشؤم ومحت تلك المصيبة.

إذا وجدنا أن عدواً يحاول أن ينتقص من أرضنا أو أن يستلب من حقوقنا أو يثير فتنة ما فيما بيننا فينبغي أن نعلم أن الذي ابتلانا بها إنما هو الله، ينبغي أن نعلم أن الذي يتعامل معنا على أساس هذا إنما هو قيوم السموات والأرض إذاً ينبغي أن نفر إلى الله عز وجل من هذا الابتلاء، نفر إلى الله بالالتجاء

إليه، نفر إلى الله بإصلاح حالنا معه، نفر إلى الله بالتوبة، نفر إلى الله بالرجوع إلى الذات ومحاسبتها، كم من معصية اقترفناها، كم من لَهْوٍ انغمسنا في بحاره ويَمِّهِ، نعود إلى الله تائبين وإذا بهذا الابتلاء قد طوي وزال، وهذا لا يعني ألا نتعامل مع الأسباب بل نقاوم المعتدي ونقاوم العدو الشرس ونغلق باب الفتنة بالوسائل المادية كلها ولكن علينا أن نعلم أن ذلك كله إنما هو تعامل مع الله، خُلُقٌ نتعامل على أساسه مع الله وأدب مع الله من خلال تعاملنا مع أسبابه أما الحقيقة فهي ماثلة ملء عقولنا وقلوبنا تجسد حقيقة قول الله عز وجل: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، بخالقيته أوجد وبأمره حرك ونشط ودبر، لا الخلق بيد المخلوقات ولا التدبير بيد أحد من الناس، ألا له له لا لغيره له الخلق والأمر، نتعامل مع الدنيا ومع أسبابها وملء عقولنا وقلوبنا قوله عز وجل: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾، هذا يدعونا إلى أن نتجلبب دائماً بذل العبودية لله وأن نعلم أن مصدر الخير والشر كله إنما هو الله سبحانه وتعالى ومن ثم نفر إليه ولسوف نسمع إن بآذاننا أو ببصائرنا قوله تعالى: لبيك.

بهذا المعنى ننتهي ونتحرر من هذه الثنائية التي ابتلينا بها في هذا العصر، ولما تحرر أسلافنا من هذه الثنائية وكان إيمانهم العقلاني متناغماً ومنسجماً مع سلوكهم في الدنيا مع الخير والشر، مع المنح والمحن أكرمهم الله ورد عنهم غوائل المعتدين وفتح أمام نوافذ الفتوحات يميناً وشمالاً، شرقاً وغرباً. عباد الله اذكروا التاريخ وادرسوه وعودا إلى العبرة التي ينبغي أن نجتثها من هذا التاريخ الأغر، تاريخنا العربي الإسلامي المبين.

أذكركم بمثال واحد، وما أكثر الأمثلة التي على هذه الشاكلة، محمد الفاتح واحد من أبرز خلفاء بني عثمان، الخلفاء العثمانيين وهو الذي فتح الله على يديه القسطنطينية مصداق كلام رسول الله لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش، كيف فتحها؟ لم يعان من هذه الثنائية التي نعاني منها، جنَّد كل الوسائل والأسباب المادية علماً منه بأن الله استخدمها إذاً ينبغي أن يكون أديباً مع الله فيستخدمها، استخدم كل الوسائل والأسباب التي يضيق الوقت عن بيانها وشرحها ولما استنفد ذلك كله وقام بكل ما قد أمره الله به من تجنيد الوسائل المادية اتجه إلى باب الله يطرقه بذلٍ ومسكنة وضراعة

وافتقار، دخل عليه ياوَرَهُ، خادمه أو مستشاره، في جنح الليلة الحساسة ليلة الفتح وإذا هو في خبائه ساجد ليس بين جبهته وتراب الأرض أي فاصل يمرغ رأسه وجبينه في تراب الأرض وهو يجأر إلى الله بالشكوى، يجأر إلى الله عز وجل يستنزل نصره، يناديه لقد نفذت أمرك يا مولاي جندتُ كل الوسائل التي استخدمتَها وأمرتني باستخدامها ولكن أعلم أن الفتح بيدك وأن النصر أنت ربه والأمر كله إليك، بيد الخلق وبيدك الأمر، وقف الياوَرُ وقفة العسكري أمام القائد ينتظر فراغه من صلاته وسجوده.

بهذا فتح الله عز وجل على ذلك الرعيل القسطنطينية، أمران اثنان التعامل مع الأسباب، وهو في الظاهر مع الأسباب وفي الباطن تعامل مع المسبب ولجوء إلى الله، التجأ إلى الله عز وجل وجنده كلهم كانوا معه في هذا وكل الذين كانوا معه في ذلك الفتح كلهم كانوا ألسن التجاء إلى الله عز وجل، ما أشبه الليلة بالبارحة، العدو يتربص بنا والابتلاءات تطوف بنا عن يمين وشمال وامتحان الله عز وجل يقول لنا ماذا ستصنعون، هل تنفذون أمر الله القائل: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ إذاً ستجدون معجزات النصر والتوفيق أم إنكم ستتعاملون مع الأسباب وتنسون المسبب، ستتعاملون مع المظاهر الدنيوية وتنسون من بيده الخلق والأمر؟

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل عقولنا المؤمنة بالله متفقة مع سلوكنا الذي يتعامل مع الدنيا والحياة وأسأله سبحانه أن ينزل علينا نصره وتأييده وتوفيقه بعد تجنيد الأسباب والوسائل المادية كلها بل قبلها أيضاً بصدق الالتجاء إلى الله، بصدق التعامل مع الله، بصدق الاستقامة على دين الله سبحانه وتعالى إذاً سنجد أن مصائبنا قد طويت عنا ولسوف نجد أن سماءنا ستمطر وأن أرضنا ستنبت وأن نعمنا ستزداد.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

٤٦- التحقق بمشاعر العبودية لله عز وجل | ٢٠٠٩/٠٢/٢٧

لقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه الحاكم وغيره أنه قال: ﴿إن أمتي هذه أمة مرحومة وإنها مغفور لها﴾، ففي الناس من سمعوا هذا الحديث وأمثاله من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير فجعلوا منه متكأً للتحرر من سائر الضوابط الدينية وجعلوا منه معتمداً للإعراض عن كل ما قد أمر به الله سبحانه وتعالى وعن كل ما قد نهى الله عز وجل عنه وإذا وجد هؤلاء من يذكرهم بأمر من أوامر الله أو يحذرهم من الوقوع في بعض المعاصي التي حرمها الله سبحانه وتعالى ارتفعت أصواتهم بالنكير وقالوا لم تضيقون واسعاً ولم تملؤون قلوب الناس بالخوف والرعب وإن الله سبحانه وتعالى غفور رحيم يغفر الذنوب كلها، فما حقيقة هذا الموقف من الدين يا عباد الله وكيف يمكن أن يُفْهَمَ كلام رسول الله هذا بل كيف ينبغي أن يُفْهَمَ كلام الله عز وجل القائل: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣].

وها أنا أجيب يا عباد الله عن هذه المشكلة بما يوضح استهتار هؤلاء الذين يتدللون على الله سبحانه وتعالى ويستمرئون التوغل في المعاصي والمحرمات اعتماداً على الأمل بأن الله يغفر الذنوب جميعاً، الإنسان أحد شخصين؛ إما أن يكون ممن قد فاضت مشاعر قلبه بالعبودية لله سبحانه وتعالى فأدرك بقطع النظر عن سلوكه أنه عبدٌ مملوكٌ لبارئه الأوحد جل جلاله وإما أن يكون هذا الإنسان قد فرغ قلبه من مشاعر العبودية الله عز وجل أو رقدت هذه المشاعر رقدة الموت بين جوانحه وعندئذٍ لابد أن يمتلئ القلب بنقيض مشاعر العبودية لله ونقيض ذلك إنما هو الاستكبار، لابد أن يكون مصير الإنسان في هذه الدنيا إلى واحدة من هاتين النهايتين، إما أن يكون معترفاً وموقناً بهويته عبداً ذليلاً مملوكاً لله عز وجل وبأن مآله الوقوف بين يديه أو أن يكون قلبه فارغاً عن هذا الشعور ومن ثم لابد أن تحتل فيه الكبرياء، فأما الأول، أما الإنسان الذي عرف نفسه عبداً مملوكاً لله سبحانه وتعالى فإن الأمر في حقه كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن أمتي هذه أمة مرحومة وإنها مغفور لها ولكن كيف!

هذا العبد الذي فاض قلبه شعوراً بعبوديته لله عز وجل لن يكون معصوماً، نفسه الأمارة بالسوء موجودة بين جوانحه والرعونات تهتاج في نفسه والشيطان الذي ابتلى الله به عباده يوسوس ليل نهار ومن ثم لابد أن يقع في أخطاء ولابد أن يرتكب بين الحين والآخر ذنباً من الذنوب ولكن من أين تأتيه الرحمة ومن أين تأتيه المغفرة؟ إذا أذنب العبد ذنباً استيقظت مشاعر عبوديته لله بعد ذلك واهتاجت بين جوانحه بسبب ذلك مشاعر الندم والأسى فأقبل إلى الله عز وجل مستغفراً آيباً معلناً عن ضعفه يستغفر الله عز وجل ويستصفحه ومن ثم فإن الله يغفر له ولربما ارتكب الذنب ثانية وثالثة ولكن عبوديته في كل مرة تقوده إلى الاستغفار وإلى الأوبة إلى الله عز وجل ومن ثم فلسوف يجد رباً غفوراً رحيماً.

ولقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديثُ القدسي الذي يقول فيه الله عز وجل: ﴿أذنب عبدٌ ذنباً فقال أي رب لقد أذنبت ذنباً فاغفر لي ذنبي، قال الله عز وجل: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به، ثم أذنب ذنباً ثانياً فقال أي رب لقد أذنبت ذنباً فاغفر لي ذنبي، قال الله عز وجل: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به، ثم إنه أذنب ذنباً ثالثاً قال ربي لقد أذنبت ذنباً فاغفر لي ذنبي، قال الله عز وجل: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به فليفعل عبدي ما يشاء فقد غفرت له﴾، ما معنى هذا؟ معنى هذا الذي يقوله الله في الحديث القدسي أن هذا العبد كلما ارتكب ذنباً ثارت مشاعر الندم بين جوانحه وآب إلى ربه يستغفره ويتوب إليه والله غفور تواب ومن ثم فإن مآل هذا العبد إذا رحل إلى الله أن يكون قد غُفِرَتْ له ذنوبه وغُسِلَتْ عنه أدرانه كلها وهذا معنى قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ، هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ [قّ:٣١-٣٢]، وكلمة أواب مبالغة من آيب أي راجع، هذا ما توعدون لكل رجَّاعٍ إلى الله ولا يكون الإنسان رجَّاعاً إلى الله إلا بعد أن يكون كثير الشرود عن الله سبحانه وتعالى.

وهذا ما عناه البيان الإلهي في حوارٍ نقرؤه في كتاب الله عز وجل مع إبليس الذي آل على نفسه أن يغوي هذا العبد، هذا الإنسان الذي كرمه الله عز وجل عليه: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ، ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾

[الأعراف:١٦-١٧]، ولكن فبماذا أجابه الله عز وجل، ونقرأ هذا في أكثر من موقع في كتاب الله عز وجل: ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ، إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر:٤١-٤٢].

فما معنى قوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾، الملحدون من عباد الله والمسْتَهْتَرُون المستَكْبِرون على الله أيضاً من عباد الله، أفيدخل هؤلاء الناس جميعاً في رحمة الله! لا ليس هذا هو معنى الآية وإنما معنى قوله سبحانه: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾، أي إن الذين تحققوا بمشاعر العبودية لي ستكون عبوديتهم حصناً لهم ضد وساوسك، ضد تآمرك عليهم، ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾، ذلك لأن الذي تحقق بمشاعر العبودية لله عز وجل ربما عصى الله ولكن عبوديته لابد أن تقوده إلى التوبة، كلما عصى الله قادته عبوديته بصدق إلى الإنابة والتوبة إلى الله عز وجل ومن ثم فإن الشيطان يخسأ وإن العبد ينال حظوة كبرى من رحمة الله عز وجل ومغفرته فهذا هو الفريق الأول وعنهم يتحدث المصطفى صلى الله عليه وسلم إذ يقول: ﴿إن أمتي هذه أمة مرحومة مغفور لها﴾ وعنهم يقول الله عز وجل: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣].

أما ذاك الذي رقدت مشاعر العبودية لله بين جوانحه ولم تستيقظ أو عُدِمَتْ هذه المشاعر بين جوانحه لابد في هذه الحالة من أن يفيض قلبه بنقيض ذلك، ونقيض العبودية لله إنما هو الاستكبار على الله عز وجل، فهذا الإنسان إن كان من المؤمنين بالله وسمع مثل هذا الحديث أو سمع مثل هذه الآية التي يبشر الله عز وجل فيها عباده بالمغفرة والرحمة جعل من هذه الآية وذلك الحديث غذاءً لكبريائه، جعل من ذلك مبرراً لمعاصيه وراح يتقلب في لهوه وعصيانه وهو مرفوع الرأس، يبرر ذلك ويجعل من كلام المصطفى متكئاً للإمعان في عمله الانحرافي الشارد عن صراط الله عز وجل ولعله يقول مثل ذلك الذي وصفه لنا بيان الله عز وجل: ﴿وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنْقَلَباً﴾ [الكهف: ٣٦]. نعم هؤلاء لا يمكن أن

يكونوا هم المعنيين بقول المصطفى صلى الله عليه وسلم إن أمتي هذه مرحومة، هؤلاء لا يمكن أن يكونوا هم المعنيين بقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

عباد الله لقد تدبرت كتاب الله من أوله إلى آخره فما وجدته يُيْئس العصاة من رحمة الله بل يبشرهم بمغفرة الله ولكني تأملت في حال المستكبرين فما وجدت في كتاب الله آيةً إلا وهي تنذر المستكبرين بمقت الله عز وجل وسخطه ولم أجد في شيء من آي الكتاب المبين ما يبين أن المستكبر ربما غفر الله سبحانه وتعالى له، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [لأعراف:١٤٦]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠].

أرأيتم يا عباد الله إلى الفرق بين عبدٍ يحمل هويته عبداً مملوكاً ذليلاً لله عز وجل يرحل بها إلى الله إن الله سيغفر ذنوبه كلها، عبوديته تكون شافعاً له عند الله سبحانه وتعالى، هذه حقيقة يبشرنا الله عز وجل بها، السبب أن العبد لا يمكن إلا أن يجعل من عبوديته مغتسلاً لدرن المعاصي التي تورط فيها، هذا شأنه وهذه حاله، وإذا دنا الموت من هذا العبد فلسوف يرحل إلى الله وهو ممتلئ انكساراً وذلاً لقيوم السموات والأرض، يعلن عن ضعفه وعن عجزه ويعلن أنه ما عصى الله حين عصاه استكباراً على أمره ولكن لسابقة سبق بها قضاؤه ومن ثم يجد أمامه رباً غفوراً رحيماً يصفح عن الذنوب، أما الذي يرحل إلى الله وهو مستكبر معاند فحتى لو أطاع الله، حتى لو أنه كان يؤدي الأوامر الشكلية من صلاة وصيام وصدقة فإن استكباره يذيب كل هذه الطاعات التي يمارسها، ذلك لأن القلب متناقض مع الظاهر الذي رحل به إلى الله عز وجل وإن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أشكالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وإلى أعمالكم، هذا ما ينبغي أن تقولوه لمن يعرض عن أوامر الله ويستخف بحرمات الله عز وجل مردداً الآيات والأحاديث

التي تدل على أن الله سبحانه وتعالى غفور رحيم تواب ولربما رأيته يثور على الذين يُذَكِّرُون بمقت الله عز وجل وسخطه.

أقول قولي هذا وأسأله الله عز وجل أن يجعل من عبوديتنا الضارعة له سبباً للمغفرة وأن يجعل من هذه العبودية شفيعاً لنا بين يديه يوم القيامة أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.



٤٧- أساس العبادة العبودية.. فأين نحن منها؟ | ٢٠٠٩/٠٤/١٠

صح عن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه قال: ﴿ستداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، قالوا أمن قلة نحن يا رسول الله يومئذ؟ قال: بل أنتم كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل وسَيَنْزِعَنَّ الله الرهبة منكم من قلوب أعدائكم وسيقذفن في قلوبكم الوهن قال قائل ما الوهن؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت﴾، في الناس يا عباد الله من استشكل هذا الحديث، قال قائلهم لماذا يكونون غثاء كغثاء السيل وهم مسلمون بكلام المصطفى صلى الله عليه وسلم وشهادته؟ لماذا يكون المسلمون غثاء كغثاء السيل وإن المساجد لتغص بهم ركعاً سجداً مصلين وإن البيت الحرام على اتساعه يغص بالطائفين والحاجين والمعتمرين وإنهم ليقبلون على صيام رمضان في كل عام وإنهم ليقبلون إلى كثير من الطاعات وفي مقدمتها تلاوة كتاب الله سبحانه وتعالى؟ فما الجواب عن هذا الاستشكال أيها الإخوة؟

الجواب أن هؤلاء الذين وصفهم رسول الله بأنهم غثاء كغثاء السيل يتصفون من الدين بعباداته ولكن عباداتهم هذه ليس لها جذور من العبودية مهيمنة على كياناتهم الداخلية، هذا هو الجواب باختصار، ولربما قال قائل وهل من فرق بين العبادة والعبودية؟ نعم هناك فرق كبير بينهما وما أحرى المسلمين اليوم أن يتبينوا هذا الفرق، أما العبادة فكسوة يتحلى بها الجسم وتظهر على أعضاء الإنسان من صلاة، من ركوع وسجود، من تسابق إلى الحج، من تطوافٍ حول بيت الله وسعي بين الصفا والمروة، من تلاوة لكتاب الله عز وجل، تلك هي العبادة وهي كسوة يتحلى بها الجسم وتظهر على الأعضاء، أما العبودية فغذاء يناله الكيان الإنساني الداخلي، غذاء للقلب، غذاء للنفس، غذاء للمشاعر، هذا الغذاء يتمثل في عظيم المهابة لله عز وجل، يتمثل في الانكسار الدائم والدائب على باب الله سبحانه وتعالى، يتمثل في التذلل والالتصاق الدائم على أعتاب الله سبحانه وتعالى، تلك هي العبادة وهذه هي العبودية.

وإنكم لتلاحظون من هذا الذي قلت أن علاقة العبودية في الكيان الداخلي للإنسان من العبادة التي تتجلى على أعضائه وظاهره أشبه ما تكون هذه العلاقة بعلاقة الروح من الجسد، المسلمون اليوم ربما

كانوا فعلاً يتسابقون إلى الطاعات والعبادات الكثيرة ولربما وجدنا أن المساجد تفيض بهم مصلين راكعين ساجدين، وإننا لنجد أن عدد الحجيج يزداد كل عام عن العام الذي سبق، والمقبلون إلى كتاب الله المتفننون في إخراجه مصاحف متنوعة والمتفننون في تلاوته والمتفننون في الإصغاء إليه والطرب لسماعه هؤلاء كثر ولكنها العبادة التي لا حَظَّ إلا للجسد منها فأين هي العبودية يا عباد الله؟ أين هو التذلل على أعتاب الله عز وجل؟ أين هي المهابة تفيض بها قلوب هؤلاء العابدين؟ إذا وجدت العبادة منبتة ومنفصلة عن جذور العبودية المهيمنة على النفس والقلب فما أكثر ما يتصيدُ العبادةَ الاستكبارُ يستكبر بها على الناس، ما أكثر ما يتصيد العبادةَ العجبُ يُعْجَبُ بعباداته وطاعاته على الأقران، على الآخرين، ما أكثر ما يتصيد العبادةَ المصالحُ الشخصية التي يبتغي بها الإنسان لنفسه، ما أكثر ما يوظف الإنسان في هذه الحالة عباداته لمصالحه، لأهوائه، لمبتغياته، للرئاسة، للشهرة، لما تعلمون من المنافع الدنيوية الأخرى، ولكن عندما تتحقق العبودية مهيمنة على النفس يتكون من ذلك سياج يحمي العبادة من هذا الاصطياد، يحمي العبادة من أن تُوَجَّهَ إلى غير الله سبحانه وتعالى.

وانظروا يا عباد الله كيف نَبَّهَنَا كتابُ الله عز وجل إلى الفرق بين العبادة والعبودية، حدَّثَنَا عن طائفة من الرسل والأنبياء وأوليائه الصالحين ثم أثنى عليهم قائلاً: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ﴾ [الانبياء: ٧٣]، فتلك هي العبادة ثم لفت النظر إلى العبودية فقال: ﴿وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ [الانبياء: ٧٣]، لا تتوهموا أن الكلمة فيها تكرار فمعاذ الله أن يكون في كتاب الله تكرار لا معنى له، ﴿وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ أي وكانت عباداتهم تلك من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة ونحوها كانت مؤسسة على العبودية لله عز وجل فذلك هو معنى قوله: ﴿وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾، والمزية كل المزية إنما تتمثل في هذه الجملة الأخيرة من آخر هذه الآية ﴿وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾، فمن أجل هذا يصف رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين في هذه العصور المتأخرة بهذا الذي ترون وإنه لرسم دقيق للواقع، المسلمون كثر كما تعلمون وهم ينتشرون في أصقاع الأرض كلها ولكنهم كما قال عليه الصلاة والسلام غثاء كغثاء السيل.

فما العلاج بعد أن عرفنا الفرق بين العبادة والعبودية؟ العلاج أيها الإخوة أن نؤسس عباداتنا المرئية الظاهرة التي نحمل بها أعضاءنا وجسومنا، العلاج أن نؤسس ذلك كله على حقيقة العبودية التي لا مركز لها إلا القلب ولا وجود لها إلا في الكيان الداخلي من الإنسان، عبوديتك لله إنما هي علاقة بينك وبين ربك لا يراها أحدٌ إلى الله سبحانه وتعالى أما العبادة فظاهرة تتعامل بها مع الناس وما أكثر ما تتصيدها المصالح المختلفة المتنوعة كما قد قلت لكم، وإذا أردنا أن نتمثل حقيقةً مجسدةً تمثل وتجسد لنا هذه العبودية التي تنقص المسلمين في هذا العصر فلننظر إلى حياة محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم ولننظر إلى مظاهر الثناء من الله سبحانه وتعالى عليه، ألم تسائلوا أنفسكم يوماً لماذا قال الله عز وجل: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾ [الإسراء: ١] هلا قال سبحان الذي أسرى بنبيه، برسوله؟ ركَّز على العبودية وطوى الحديث عن النبوة والرسالة، لأن عبودية رسول الله صلى الله عليه وسلم التي كان يمارسها ذلاً، انكساراً التجاءً إلى الله عز وجل أسمى في الحقيقة من نبوته ورسالته،

ألا تسائلون أنفسكم أين هو مكان النشوة والزهو في كيان المصطفى صلى الله عليه وسلم يوم أكرمه الله عز وجل بالنصر الفريد المؤزر إذ أكرمه فتح مكة، دخل مكة، كما تعلمون، من أعلى قمم النصر، لماذا لم يُزْهَ كما يُزْهَى عادة القادة والحكام والملوك في مثل هذه الحال؟ لماذا لم تأخذه النشوة؟ لماذا لم يأمر بأن تُبْنَى أقواس النصر لكي تكون ترجماناً لنشوته ولكي تكون ترجماناً للسرور المهيمن على كيانه؟ نظرنا فوجدنا أن المصطفى صلى الله عليه وسلم في تلك الحالة كان يتصف بنقيض ذلك كله، ما رؤِيَ عليه الصلاة والسلام في ساعة من الساعات، ولا أقول في يوم من الأيام، هو أكثر تذللاً وانكساراً وتضاؤلاً منه في ذلك اليوم الذي كان يدخل مكة فاتحاً من أعلى قمم النصر، كان كما رُوِيَ في الصحيحين قد قوَّس رأسه على ظهر راحلته وأدنى رأسه من عنق راحلته حتى إن عثنونه، هذه الشعرات تحت الشفة السفلى، ليكاد يمس واسطة رحله من شدة ما قوس ظهره ومن شدة ما تذلل لله جل جلاله، كان يتلو في تلك الساعة سورة الفتح ويترنم بها، ولما دخل مكة وطاف بالبيت ونظر إلى أولئك الذي كم وكم ناصبوه العداء، كم وكم أوذي منهم في سبيل الله، نظر إلى أولئك الذين هاجر وطنه ومسقط رأسه بسببهم، نظر إليهم وهم واجمون خائفون، لم تطف نشوة الظفر والنصر برأسه لأن العبودية لله حالت بينه

وبين ذلك، كانت النشوة التي تطوف برأسه نشوة الذل لمولاه وخالقه، كانت النشوة التي تأخذ بكيانه نشوة الانكسار والضراعة على أعتاب مولاه وخالقه، ظهر ذلك وتجسد في الكلمات التي افتتح بها خطابه أمام المشركين: لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده، عبده؛ لم يقل نصر نبيه، لم يقل نصر رسوله، ونصر عبده وأعز جنده،

هذه هي العبودية يا عباد الله التي تنقصنا والتي ينبغي أن نتلمس مكانها من أفئدتنا وأسرارنا ونفوسنا، فإذا أردتم أن تتبينوا كيف السبيل إلى ذلك فاجعلوا من نبيكم المصطفى صلى الله عليه وعلى آله وسلم قائداً وإماماً لكم في هذا كله.

كيف تتحقق العبودية أساساً وجذوراً للعبادة؟ يتحقق ذلك بشيئين اثنين؛ الإكثار من ذكر الله سبحانه وتعالى، وأعود فأقول لكم مثنى وثلاث ليس المراد بالذكر ترديد اللسان لكلمات ربما كانت مقطوعة ومفصولة عن الجنان وإنما المراد بالذكر تَذَكُّرُ القلب، أن يتذكر القلب علاقته بالخالق جل جلاله، أن تتذكر أنك مملوك لمن فطرك، أن تتذكر أنك تتحرك في قبضة من قد خلقك، أن تتذكر أن بداءتك منه ونهايتك إليه، أن تتذكر أن كل ما تتمتع به من مِيَزٍ وأعطياتٍ تميَّزْتَ وتمتعْتَ بها أنت أيها الإنسان، لا تملك شيئاً منها، لا تفعل شيئاً منها إنما أنت منفعل بها، ذكاؤك، فكرك، لسانك الذي تنطق به، قوتك، عافيتك، رُوَاؤُك كل ذلك أعطيات لا تدري كيف دَلَفَتْ إليك ولن تدري كيف تتسلل عنك وتغيب عنك، عندما تمعن تفكيراً في هذه الحقيقة تعيش معنى وحدانية الله، تعيش معنى صمدية الله سبحانه وتعالى، تعيش معنى أنك عبدٌ مملوك لا يتأتى من شيء وإنما أنت كائن تتحرك في قبضة الله كما قُلْتُ، عندما تدرك هذه الحقيقة تصطبغ بذل العبودية لله ويفيض قلبك شعورٌ بتعظيم الله، شعورٌ بالمخافة من الله، شعورٌ بالحاجة الدائمة في رخائك وشدتك، في أمنك وطمأنينتك وخوفك، في كل الأحوال أنت محتاج إلى الانكسار والتضرع على أعتاب الله عز وجل، هنا تتفجر مشاعر العبودية لله عز وجل بين جوانحك.

وإذا رحل الإنسان أيها الإخوة إلى الله عز وجل بقلب يفيض عبودية لله عز وجل وانكساراً وضراعةً له فلسوف تكون عبوديته شافعاً للكثير من تقصيراته ولسوف تكون عبوديته بديلاً عن الكثير من أخطائه، إذا رحل الإنسان بهذه العبودية فإن قليلاً من العبادات والطاعات تكفي، ولكن إذا رحلت إلى الله وأنت تتمتع وتُزْهَى بالكثير من صلاتك، بالكثير من حجك، بالكثير الكثير من صيامك وبالمرات الكثيرة التي تحصيها على الله عز وجل في قراءة كتابه دون أن يكون ذلك كله مؤسساً على معنى العبودية لله عز وجل فإنك ستكون من رحلتك إلى الله على خطر، العبادة لا تكفي، وعندما يكون المسلمون كثرة كبيرة من الناس وليس لهم من صفات إسلامهم إلا العبادة يرفعون أعلامها وشعاراتها فوق رؤوسهم فإن مآلهم إلى ما قد وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم، أن يكونوا غثاءً كغثاء السيل، أسأل الله سبحانه وتعالى أن يكرمنا بذلك العبودية له وأن يجعل عبوديتنا له شفيعنا بين يديه عندما يحاسبنا على التقصير، عندما يحاسبنا على الأخطاء والنسيان.

أقول قولي هذا واستغفر الله العظيم فاستغفروه يغفر لكم.

٤٨- شجرة الإسلام الباسقة | ٢٠٠٩/٠٥/٢٢

بوسعنا أن نتصور الإسلام شجرة باسقة يانعة مثمرة، أما جذورها الضاربة في طوايا الأرض فتتمثل في هيمنة مشاعر العبودية لله عز وجل على طوايا النفس والفؤاد، وأما جذعها فإنما يمثلها العقيدة الإسلامية الواحدة والموحِّدَة، والتي لا مجال للخلاف فيها، وأما أغصانها فهي تلك الأحكام والشرائع السلوكية والمبادئ الأخلاقية المتنوعة، وأما ثمارها فهي السعادة التي وعد الله سبحانه وتعالى بها كل من تشرف بهذا الإسلام، وكل من هيمنت عقائده الإيمانية على عقله يقيناً، وعلى قلبه وجداناً وحباً، هذه الحقيقة جسَّدَها لنا بيان الله عز وجل في هذه الصورة، وقد صدق ربنا القائل في محكم تبيانه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ، تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٥]. هذه خلاصة البنيان الإسلامي بدءاً من جذوره الخفية في طوايا الكيان والنفس عبودية لله عز وجل، وانتهاءً بثمار السعادة التي وعد الله عز وجل بها عباده المؤمنين.

وإذا عرفنا هذه الحقيقة – يا عباد الله – فبوسعنا أن نعلم أن عبودية الإنسان لله عز وجل هي معين التزاماته بأحكام الشريعة والمبادئ الإسلامية المتمثلة في العقائد والأخلاقيات وغيرها، هيمنةُ سلطان العبودية على الإنسان هي مصدر الالتزام بأوامر الله عز وجل، وهي مصدر الانتهاء عن النواهي التي حذَّرَنَا منها بيان الله عز وجل، وإذا هيمنت حقيقة العبودية لله عز وجل على نفس الإنسان أيّاً كان اصطبغت أعماله كلها – حتى ما نحسبه منها من الأعمال الدنيوية المختلفة – بحقيقة العبودية لله عز وجل، وتحولت إلى عبادة يتقرب بها هذا الإنسان إلى الله سبحانه وتعالى.

فإذا ساقت الأقدار هذا الإنسان الذي هيمنت مشاعر العبودية لله على كيانه الداخلي، إذا ساقته إلى فلاحة الأرض وحراثتها واستخراج الخيرات منها، فإن عمله الدائب هذا يصبح عبادة من أجلّ العبادات إلى الله، ولا يلاحظ من خلال نشاطه في هذا الذي وجَّهَتْه الأقدار إليه إلا أن يستنزل رضا الله

سبحانه وتعالى من خلال كدِّه وجهده، وإذا ساقته الأقدار إلى إشادة مصانعَ وإنشاء صناعاتٍ فإنه إنما يتجه بالبناء الذي شاده وبالصناعة التي أقامها إلى هذا الذي يرضي الله سبحانه وتعالى، تغيب عن مشاعره فكرة الأرباح الدنيوية، تغيب عن مشاعره فكرة الأهواء والحظوظ النفسية المختلفة، ذلك لأن سلطان العبودية المهيمن على كيانه الداخلي يقوده إلى حيث رضا الله سبحانه وتعالى، ويحجبه عن حظوظ نفسه المختلفة، وإذا ساقت الأقدار هذا الإنسان إلى وظائف مختلفة، وإلى رتب حكومية متفاوتة، فإنه ينسى في عمله الذي ينهض به معنى المهنة التي يمارسها، ويُحْجَبُ عن حظوظه النفسية التي هو بصددها، ولا يتصور إلا أنه إنما وُظِّفَ لهذا العمل من قبل مولاه وخالقه سبحانه وتعالى، العمل الإداري الذي أنيط به له مظهر وكلنا يعرفه ويتبينه ويعلم حدوده، ولكنّ له مضموناً أيضاً، ومضمون هذا العمل إنما تعرِّفه وتحدده مشاعر عبوديته لله سبحانه وتعالى.

إذا عاد هذا الإنسان أياً كان مستواه في العمل الوظيفي أو الإداري الذي يمارسه إنما يسأل نفسه: ماذا صنعت في هذا اليوم من الأعمال التي تقربني إلى الله؟ هل تنكبتُ الجادة وفعلتُ شيئاً لا يرضي الله عز وجل؟ لقد أنيطت بي مهمة قدسية تتمثل في رعاية هذه الأمة، تتمثل في نقلها إلى المستوى الذي ينبغي أن تتبوأه والذي ارتضاه الله سبحانه وتعالى لها، ترى هل فعلتُ ما أملك في هذا السبيل؟ ترى هل إذا عدت إلى الله عز وجل أستطيع أن أجعل من خدماتي هذه شفيعاً بين يدي تقصيري أمام الله سبحانه وتعالى؟ ترى إذا تخطّفني الموت عما قريب ترى هل أستطيع أن أجعل من المهام – التي هي بحسب الظاهر دنيوية – عباداتٍ تنبض بها مشاعر عبوديتي لله سبحانه وتعالى تلكم هي وظيفة العبودية في كيان الإنسان، وهذا ما تفعله العبودية توجيهاً في حياة الإنسان وفي صبغ الأعمال أيّاً كانت بصبغة العبادة والتقرب إلى الله سبحانه وتعالى.

ومن المعلوم – يا عباد الله – أن عبودية الإنسان للإنسان هي أبلغ مظهر من مظاهر الشقاء والضيم، ولكن عبودية الإنسان لله سبحانه وتعالى هي النشوة التي لا يمكن أن تعلوها نشوة مسعدة،

شعور الإنسان بأنه منسوب إلى الله بالعبودية له مبعث سعادة ما بعدها سعادة، شعور الإنسان بذل عبوديته لله عز وجل يجعله ينتشي ولا كنشوة السكير بسكره.

انظروا – أيها الإخوة – إلى كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة، انظروا إلى كلماته التي افتتح بها خطابه وقد أحدق المشركون به، قال: ﴿لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده﴾، أنا أستطيع أن أتبين مدى النشوة التي كانت تطوف برأس رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد نسي نبوته ورسالته وتذكر عبوديته لله سبحانه وتعالى ونسب نفسه في تلك الساعة إلى الله بنسب العبودية له.

تأملوا في قوله صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله عنها، وقد جاءت تقول له: لماذا تتعب نفسك كل هذا القدر في قيام الليل حتى تتورم قدماك وقد غفر الله لك ما تقدم وما تأخر؟ أجابها قائلاً: ﴿أفلا أكون عبداً شكوراً﴾، كان بوسعه أن يقول: أفلا أكون شاكراً، لكنها نشوة العبودية جعلته يطرب لهذه الكلمة: ﴿أفلا أكون عبداً شكوراً﴾ وعندما تحدث البيان الإلهي عن رسوله محمد صلى الله عليه وسلم بمناسبة المكرمة التي أكرمه الله بها، مكرمة الإسراء ثم المعراج، ماذا قال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾ [الإسراء: ١]، ولو كانت هنالك صفة ترضي المصطفى صلى الله عليه وسلم، وتبعث السعادة في كيانه أجلّ من هذه الكلمة لاستبدل البيان الإلهي تلك الكلمة بهذه، ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣]

ولكن كأني بكم تسألون: ما معنى عبودية الإنسان لله عز وجل؟ أو ما معنى شعور الإنسان بالعبودية لله عز وجل؟ معنى هذه العبودية – أيها الإخوة – أن يستشعر الإنسان منتهى الذل لمن هو أهل لهذا الذل، وأن يستشعر الإنسان منتهى المملوكية لمن هو المالك ألا وهو الله سبحانه وتعالى، لذلك الإله الحي القيوم، هذه هي حقيقة عبودية الإنسان لله سبحانه وتعالى، وإذا حُجِبَ الإنسان عن هذه الحال، حال العبودية التي تهيمن على طوايا النفس، فإن الإسلام يغدو في كيان هذا الإنسان مجرد أفكار، مجرد رؤى، مجرد نقاشات، مجرد مواقف من مثل هذا الموقف الذي أقف به أمامكم، والأفكار الإسلامية ما كانت لتأتي بأي حقيقة قط، الأفكار الإسلامية وحدها دون أن تتصل بجذور العبودية لله عز وجل لا تفعل

شيئاً، ولعلكم ترون دلائل ذلك في كثير من مجتمعاتنا الإسلامية، إسلام الفكر لا يحقق شيئاً، هذا الإسلام الذي يتمثل في ألسنة ذَلِقَة، وفي بيانات سامية، وفي مؤلفات تُصَدَّرُ وتسَوَّق ذات اليمين وذات الشمال، هذا كله إذا لم يكن متّصلاً بهذا الذي أحدثكم عنه، إذا لم يكن متّصلاً بوقود العبودية لله عز وجل، لا يمكن لهذه الأفكار مهما كَثُرَتْ ومهما كانت صائبة ومنطقية لا يمكن أن تفعل في كيان أصحابها شيئاً.

وهنا لا بد أن ألفتَ نظركم إلى شيء يجب أن نتبينه، ولعله يدخل في شعار من الشعارات التي يُحَارَبُ بها الإسلام بشكل خفي، كلمة فوجئنا بها في هذا العصر تلتصق بالإسلام والإسلاميات والإسلاميين دون أن نجد فيما مضى ذكراً لهذا الكلمة أو لهذه النسبة، هذه الكلمة هي (الفكر الإسلامي، الأفكار الإسلامية، المفكر الإسلامي، المفكرون الإسلاميون)، هل سمعتم بهذه الكلمة في القرون التي خلت؟ ما أظن أن فيكم من سمعها، لماذا تُرَوَّجُ هذه الكلمة؟ هنالك خطة، وأنا المسؤول عن البرهان عليها، هي أن يستقر شيئاً فشيئاً في أذهان وتحولت إلى دين الناس أن الإسلام إن هو إلا أفكار بشرية تكاثرت ثم تكاثرت، ثم إنها تناسقت، ثم إنها اصطبغت بصبغة الدين، وهكذا فالدين في عقائده وشرائعه ليس وحياً من عند الله لعباده، وإنما هو رؤى وأفكارٌ تجمعت ثم تناسقت ثم ترسخت، هذا هو المقصد من ترويج هذه الكلمة، ولكم قُدِّمْتُ في مؤتمرات ومناسبات باسم المفكر الإسلامي.

وأعود فأقول لكم: الإسلام عبودية لله سبحانه وتعالى، ثم إن شجرة الإسلام تنبثق من هذه الجذور، عقائده تمثل جذعه، أغصانه تمثل شرائعه، ثماره تمثل الوعد الذي قطعه الله على ذاته العلية بإسعاد كل من يتمسك بهذه المبادئ، هي شرعة الله، هي الشرف الذي شرفنا به الله عز وجل عن طريق رسله وأنبيائه الذين أتوا مع الزمن.

اللهم لا تحرمنا نعمة العبودية لك، اللهم إذا أُبْنَا إليك اجعل من عبوديتنا الضارعة لك شفيعاً بين يدي تقصيرنا يا ذا الجلال والإكرام.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.



٤٩- حافظوا على الصلاة | ٢٠٠٩/٠٦/٠٥

أرأيتم إلى جنودٍ ينتشرون في فلاةٍ واسعة الأرجاء، وينتشرون هنا وهناك في كل أطرافها وقد أنيطت بهم مهمة خطيرة، مما لا شك فيه أن نجاحهم في المهمة التي أنيطت بهم رهن بشبكة الاتصال بينهم وبين قائدهم الأعلى القابع في غرفة عملياته، فإن كانت شبكة الاتصال هذه موفورة وموجودة فإن ضمان نجاحهم في المهمة التي أنيطت بهم موجودٌ ومتحقق، وإلا فلا شك أن عاقبة أمرهم الخيبة بل ربما الهلاك، ونحن إنما نريد أن نتحدث هنا عن شبكة الاتصال التي ينبغي أن تكون سارية بين عباد الله عز وجل في الأرض ومولاهم وخالقهم الذي لا يحده زمان ولا مكان، إن وجدت هذه الشبكة، وتحققت الصلة من جرَّائها بين عباد الله عز وجل ومولاهم وخالقهم تحقق لهم النصر، وتحققت لهم السعادة، وأكرمهم الله عز وجل بالأمن والرخاء في عاجل دنياهم وآجل أخراهم، وأما إن انقطعت مما بينهم وبين الله هذه الشبكة فلا ريب أن مآلهم إلى الخسران.

ولكن ما هذه الشبكة يا عباد الله؟ إنها شيءٌ واحد، هو الصلاة التي كم وكم يُذَكِّرُنَا بها بيان الله سبحانه وتعالى في محكم تبيانه، وكم وكم يحدثنا عن خطورة هذه الشبكة ومدى أهميتها، وإنا لنقرأ جميعاً كتاب الله عز وجل، وتمر بنا الآيات الكثيرة التي ينبهنا الله عز وجل من خلالها إلى أهمية هذا الركن، بل أهمية هذه الشبكة التي تصل بين عباد الله عز وجل المتناثرين في الأرض وبين مولاهم وخالقهم جل جلاله، ألا يكفي من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً﴾ [النساء: ١٠٣] أم ألا يكفي قول الله عز وجل: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥] بل أما يكفي من ذلك كله قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤] أقم الصلاة لكي تكون فاتحةَ ذكرك لي، أقم الصلاة لكي تكون فاتحةَ ذكري لك، وأعتقد أننا لسنا بحاجة إلى أن نستعرض سائر الآيات المذكّرة بضرورة سريان هذه الشبكة بيننا وبين مولانا وخالقنا سبحانه وتعالى.

عباد الله، إن كنت أعجب لشيء فإنه ليشتد عجبي ممن يزعم أنه مؤمن بالله، ويزعم أنه معظم لله عز وجل وحرماته، وأنه محب لله سبحانه وتعالى، فإذا ذُكِّرَ بهذه الشبكة، شبكة الوصل بينه وبين الإله الذي يزعم أنه يحبه ويجله ويعظمه، إذا ذُكِّرَ بها أعرض عنها، بل أعرض عنها أيما إعراض، بل ربما دعا الآخرين أيضاً إلى أن يعرضوا عنها، يا عجباً..

نبينا محمد صلى الله عليه وسلم هو قدوتنا، هو الذي يقول: ﴿جُعِلَتْ قرة عيني في الصلاة﴾، كيف يوجد مسلم مؤمن صادق في إيمانه بالله عز وجل، ثم تكون قرة عينيه في الابتعاد عن الصلاة، في الركون إلى ما يلهيه عن الصلاة؟ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فيما صح عنه لبلال مؤذنه رضي الله عنه: ﴿أرحنا بها يا بلال﴾، وننظر فنجد أن في المسلمين كثيرين إذا دُعُوا إلى الصلاة شعروا بالتعب والجهد، ومن ثَمَّ يفرون من الصلاة إلى الراحة التي يتصورونها الراحة.

هذا ما أعجب له – يا عباد الله – كيف أكون محباً لمولاي وخالقي ويدعوني مولاي هذا إلى حضوره، إلى حضرته، إلى محاورته ثم لا أستجيب؟ يدعوني الله سبحانه وتعالى إلى حضوره حباً بي، إكراماً لي، عندما أكون متمتعاً بِذَرَّةٍ من الحب لهذا المولى ينبغي أن أقول بكل مشاعري، بكل عواطفي: لبيك يا مولاي، كم أنت حفي بي إذ لم تحجبني عنك وإذ دعوتني إلى الوقوف بين يديك، كم هي سعيدة تلك اللحظة بل كم هي باعثة للنشوة تلك الدقائق التي أقف فيها بين يدي الله عز وجل أخاطبه قائلاً: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:١/٥]، أدعوه قائلاً: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:١/٦].

ويأتي الجواب وإن لم أسمعه بإذني، يأتيني الجواب من مولاي وخالقي: حباً وكرامة، سأعينك على ما قد عزمت عليه من التوجه إلي بالعبادة، سأهديك إلى سواء صراطي المستقيم، ولسوف أسعدك عن طريق الالتزام بهذه الصراط في دنياك التي تتقلب فيها، وفي الغد الذي أنت ستقبل إليه. كيف يدعوني الخالق إلى رحابه ثم أعرض عنه، ثم أبتعد عن هذه الدعوة وأنا أزعم أنني مؤمن به، أزعم أنني معتز بإسلامي؟ هذا شيءٌ عجيب يا عباد الله.

شيءٌ آخر ينبغي أن نتذكره جميعاً، إذا قام الناس غداً لرب العالمين ما إجازة المرور التي تجعل من موقف الحساب أمراً سهلاً ليِّناً بين يدي الله؟ إجازة مرورك هذه الصلاة، ما الإجازة؟ إجازة المرور التي تجعلك تسير على صراط الله عز وجل كالبرق الخاطف آمناً مطمئناً لا تخشى لهب النيران المتصاعد من حولك؟ إنها الصلاة، ما السيما التي تجعلك أمام الله سبحانه وتعالى ذا حقيقة لا ريب فيها، هي أنك عبد من عباد الله الطائعين له، هي أنك عشت حياتك في الدنيا وأنت متجه إلى الله بذل العبودية له؟ ما السيما التي تبرز هويتك هذه غداً عندما يدعى الإنسان إلى السجود فلا يتأتى له ﴿وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾ [القلم:٦٨/٤٣] ما السيما التي تبرز هويتك أنك كنت في دار الدنيا ذاك الذي يقف بين يدي الله راكعاً ساجداً ملتجئاً مصلياً متعبداً؟ إنها الصلاة، إنها الصلاة يا عباد الله، ألم تقرؤوا قول الله سبحانه وتعالى ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾[الفتح:٤٨/٢٩] قال العلماء: هذه السيما تكون يوم القيامة، بمقدار ما يكون العبد منتشياً في سجوده على الأرض المتربة لله سبحانه وتعالى يناجيه دون أن يراه، يحن إلى مولاه وهو محجوب عنه، تكون هذه السيما متلألئة على وجهه يوم القيامة، تكون هذه السيما هي عنوان مغفرة الله سبحانه وتعالى له مهما كان مقصراً، ألم تسمعوا كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح، وهو يؤكد أنه سيستقبل إخوانه الذين لم يرهم يوم القيامة على الحوض، قيل له: أو تعرفهم يا رسول الله؟ لم ترهم كيف تعرفهم؟ قال: ﴿أرأيتم لو أن رجلاً له خيل غرٌّ محجلة وسَطَ خيول دهم بهم أفكان يعرفها؟ قالوا: نعم. قال: فأنا أعرفهم غُرّاً محجلين من آثار الوضوء﴾، هذا الوضوء الذي هو التمهيد إلى الصلاة، هذا الوضوء الذي هو التهيؤ للوقوف بين يدي الله سبحانه وتعالى.

أعود فأقول: يا عجباً لمن يزعم أنه مسلم حقاً، وأنه مؤمن بالله حقاً، وأنه محبٌّ لله، معظم لله كيف يفر من دعوة الله له إلى رحابه؟ كيف يفر من إكرام الله له إذ يدعوه إلى الوقوف بين يديه، يقول له: تعالى ناجني، كلمني أكلمك، أذكرني أذكرك.

عباد الله، هذه الشبكة حافظوا عليها، إن تمت المحافظة التامة عليها فاعلموا أننا أمة منتصرة، فاعلموا أننا أمة يكرمها الله بجمع الشمل، فاعلموا أننا أمة يكرمها الله بالقوة والغلبة، شبكة الاتصال هي الصلاة، ينبغي ألا تُحْرَمَ منها مؤسسة، ينبغي ألا تحرم منها دائرة مدنية أو غير مدينة أو عسكرية، صلة ما بيننا وبين الله هي الصلاة، صلة القربى التي نأمل أن تكون شفيعاً لنا ونحن مقصرون، آثامنا كثيرة، صلة القربى التي نأمل أن تكون شفيعاً لنا بين يدي الله عز وجل هي هذه الصلاة.

أقول قولي هذا واستغفر الله العظيم.



٥٠- علامات التوجه إلى الله سبحانه وتعالى والإقبال إليه | ٢٠٠٩/٠٩/٠٤

دأب الناس على أن يتبينوا مدى توجه الناس إلى الله سبحانه وتعالى وإقبالهم إليه من خلال ازدحام المساجد بالمصلين وإقبالهم إليها في أمسيات هذا الشهر المبارك ومع فجر كل يوم منه فإن وجدوا هذه الظاهرة وإن وجدوا المساجد مزدحمة بالمصلين الراكعين الساجدين فهموا من ذلك أن الناس مقبلون إلى الله مستقيمون على صراط الله عز وجل بعيدون عن مطارح التيه والضلال والغفلات، ولا شك أن العبادات إذ يُقْبِلُ إليها الإنسان مظهر من مظاهر القرب من الله سبحانه وتعالى ولكن العبادات لا تقرب الإنسان إلى الله عز وجل إلا إذا تحققت نتائجها وظهرت ثمراتها وآثارها، ونتائج العبادات على اختلافها أياً كانت إنما هي ظهور الصلاح في المجتمع وغياب الفساد وأسبابه منه فإذا وُجِدَتْ مظاهر العبادات وفاضت المساجد بالمصلين، بالراكعين الساجدين القائمين ولكن بقي الفساد مستشرياً وبقيت مظاهر الصلاح غائبة فإن هذه العبادات لا تقرب أصحابها إلى الله شروى نقير.

أ لم تقرؤوا قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ [البقرة: ٢٠٤]، يعجبك قوله ويشهد الله عن طريق عباداته، عن طريق مظاهر إقباله إلى الله ولكن الله عز وجل يقول بعد ذلك: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ [البقرة: ٢٠٤]، لماذا! جاء التعليل بعد ذلك ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]. أ لم تسمعوا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول فيما رواه الطبراني من حديث عبد الله بن عباس: «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعدا».

عباد الله لئن كان في الناس من يجعل من امتلاء المساجد في هذا الشهر بالمصلين، بالراكعين الساجدين مقياساً على صلاح المجتمع وقرب الناس إلى الله عز وجل فإنني أعتقد أن المقياس غير ذلك، المقياس هو أن ننظر فنجد أن التوجه إلى الصلاح يزداد مع الزمن والأيام وأن مظاهر الفساد بأشكاله وأنواعه المختلفة تضمر ولا تزال تضمر، هذا هو الدليل على تقرب عباد الله عز وجل إن في هذا الشهر

أو في غيره إلى الله سبحانه وتعالى، عندما أنظر فأجد أن الرشوة قد اختفت بكل أنواعها ما بين الراشي والمرتشي، هذا البلاء الذي شَلَّ فاعليات القانون وشَلَّ فاعليات الشرائع عندما أجد أن هذه الرشوة قد اختفت من تعامل الناس بعضهم مع بعض أستطيع أن أدرك أن هؤلاء الناس يتقربون إلى الله زلفى وأن الله سبحانه وتعالى يقبل منهم طاعاتهم وعباداتهم، عندما أنظر فأجد أن الغش قد غاب وأن التجار قد أقلعوا عن عمليات الغش وما أكثرها مع المستهلكين وأن الغش قد غاب مما بين المشترين والبائعين عندئذٍ أستطيع أن أدرك أن هؤلاء الناس يتقربون إلى الله عز وجل بقربات مقبولة وأن صلواتهم مقبولة وأنهم عندما يُهْرَعون إلى المساجد تُسَجَّلُ أعمالهم بالقبول غداً عند الله سبحانه وتعالى.

عندما أنظر إلى المشافي العامة فأجد أن الأطباء المناوبين يعكفون على خدمة المرضى وقد أقلعوا عن حظوظهم وما أكثر الحظوظ في مثل تلك الحالات وعندما أنظر إلى الممرضين ذكوراً وإناثاً فأجدهم قد وقفوا ساعات عملهم على خدمات المرضى بإخلاص وبصدق يقفون جهودهم ساعاتهم في تلك الليالي على خدمة المرضى وقد أقلعوا عن حظوظ أنفسهم وأقلعوا عن التلاقي الخفي الذي قد يكونوا فيما بينهم أستطيع أن أدرك أن هؤلاء الناس يتقربون إلى الله بقربات مقبولة وأن صلواتهم مقبولة عند الله سبحانه وتعالى.

عندما أنظر إلى المزارعين وإلى الذين يستنبتون المزروعات أتأمل فيهم فأجدهم قد أقلعوا عن تغذية نباتاتهم التي يستنبتونها بالمسموم التي تجعل هذه المزروعات جميلة تتألق في أعين الناظرين ولكنها تسري بالسموم المهلكة إلى بطون الآكلين، عندما أجد أن هؤلاء المزارعين والمستنبتين للمزروعات قد أقلعوا عن هذا العمل الذي يغضب الله سبحانه وتعالى أستطيع أن أدرك أن صلواتهم مقبولة وأن قرباتهم مقبولة وأنها محفوظة لهم يوم يقوم الناس لرب العالمين.

عندما أنظر إلى أصحاب المداجن فأجد أنهم قد أقلعوا عن نفخ الفراريج بالأغذية الهرمونية كما تعلمون، هذه الأغذية المهلكة التي تنشر السموم وما أكثرها وما أخطرها في بطون الآكلين، عندما أجد

أن الخوف من الله عز وجل جعلهم يقلعون عن هذا الأمر أستطيع أن أدرك أن قرباتهم مقبولة وأن قيامهم في هذا الشهر المبارك مقبول ومأجور وأن الله سبحانه وتعالى لن يضيع لهم عملاً.

عندما أنظر إلى أصحاب المال الوفير، إلى أصحاب الغنى الواسع وأتأمل في حالهم وإذا بهم يعكفون على تَبَيُّنِ حقوق الله سبحانه وتعالى في هذه الأموال، سرعان ما يتبينونها ويحسبونها ثم يقبلون بها إلى أصحابها الفقراء المعوزين الذين جعلهم الله عز وجل وكلاء عنه في قبض هذه القربات وفي استلام هذه الحقوق، هو حق الله سبحانه وتعالى ولكن الله عز وجل جعل الوكالة في ذلك لعباده الفقراء المعوزين.

عندما أنظر فأجد أن هؤلاء الأغنياء الذين فاض لديهم المال حتى لكاد العد لا يستطيع العد أن يحصيه عندما أنظر فأجد أنهم يلتفتون إلى حق الله في هذه الأموال، عندما أنظر فأجد أنهم يُقَدِّمُون هذا الحق بالغاً ما بلغ إلى أصحابه أستطيع أن أستبشر وأقول إن المجتمع بقضه وقضيضه يتجه إلى مرضات الله سبحانه وتعالى وإن صلواتهم لمقبولة وإن ركوعهم وسجودهم كل ذلك مأجور ومقبول عند الله سبحانه وتعالى.

حق الله في الأموال أيها الإخوة حق خطير خطير، عندما لا يخرجه صاحبه من ماله ويعطيه لمن وكلهم الله عز وجل بقبضه عنه فإن الله عز وجل يجعل من هذا الحق سماً ناقعاً لمن يعكف على استلام هذا الحق واغتصابه من أصحابه وعدم الرجوع به إلى من أمر الله سبحانه وتعالى أن يعاد إليهم هذا المال، ألم تسمعوا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله جعل في أموال الأغنياء بالقدر الذي يسع فقراءهم وإن الفقراء إذا جُهِدُوا فجاعوا أو عروا إنما يكون ذلك بما يفعله أغنياؤهم وإن الله محاسبهم على ذلك حساباً شديداً». أرأيتم إلى هذا الكلام الدقيق يا عباد الله: إن الله جعل في أموال الأغنياء بالقدر الذي يسع فقراءهم، أي لئن نظرت فوجدت أن الفقر يزداد فاعلم أن أموال الفقراء لم تتلف، لا تزال موجودة ولكنها موجودة في أيدي أناس آخرين أموال الفقراء موجودة في أيدي الأغنياء وإن لله حكمة وأيَّ حكمة في ذلك، جعل أموال الفقراء في جيب الأغنياء لكي يكون الفقراء فتنة وابتلاء للأغنياء ولكي يكون الأغنياء فتنة وابتلاء للفقراء.

عندما أنظر فأجد أن هذه المقاييس التي حدثتكم عنها تنبؤ أن الفئات المختلفة في مجتمعاتنا تتجه في أنشطتها إلى الأعمال الصالحة إلى خدمات المجتمع المختلفة، تتجه إلى تنفيذ ما أمر الله عز وجل به الرسل عندما قال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً﴾ [المؤمنون: ٥١]، هذا هو العمل الصالح، العمل الصالح أن تخدم المجتمع، أن تخدم أمتك فلا تكون سبباً لبلاء يسري إليها، لا تكون أنشطتك التجارية والاجتماعية المختلفة سبباً لبلاء تنشره وتنثره في صفوف عباد الله سبحانه وتعالى، عندما أنظر فأجد أن فئات المجتمع قد اتجهوا إلى هذا الذي ذكرته لكم، متجهين إلى الصلاح الذي أمر الله عز وجل به مبتعدين عن أولئك الذي أخرجهم الله عز وجل من دائرة الرضا عنهم عندما قال عنهم: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ [البقرة: ٢٠٤] لماذا؟ قال: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥].

توجه في حياتك إلى الإصلاح والصلاح وابتعد عن الفساد والإفساد قليل من العبادات يكفيك، أما إذا أوغلت في الفساد والإفساد في سبيل حظوظ نفسك فإنك لو ملأت طباق الأرض عبادات لا يقبلها الله منك غداً.

أقول قولي هذا واستغفر الله العظيم فاستغفروه يغفر لكم.

٥١- الصلوات الخمس هي المغتسل من رجس الآثام والأوزار |

٢٠٠٩/١٠/٠٩

إنكم لتعلمون أن كل واحد منا يتعرض في تقلباته المختلفة للأوساخ والأقذار المتنوعة، سواءٌ منها ما تحمله إليه الرياح من الغبار والأتربة، وسواءٌ منها ما كان مصدره الإنسانَ ذاته، فما المغتسل الذي ينبغي أن يُهْرَعَ إليه كلما وجد نفسه قد ابتلي بشيء من هذه الأوساخ؟ المغتسل الذي يُهْرَعُ إليه الإنسان كما تعلمون هو هذا الماء الطهور الذي ينجدنا الله عز وجل به وصدق الله القائل: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ﴾ [لأنفال: ١١]، وقد عَلِمَ الله عز وجل أن الإنسان يتعرض دائماً لهذه الأوساخ المختلفة، فجعل نعمة الماء وفيرة وكثيرة يراها الإنسان من حوله أنّى تقلَّبَ ونظر.

والإنسان أيضاً يا عباد الله عندما يخوض غمار هذه الحياة الدنيا بمختلف أعمالها وأنشطتها لا بد أن يصيبه رشاش كثير من المعاصي، لا بد أن يصيبه رشاش كثير من الأوزار، فما المغتسل الذي هيَّأه ربنا الرحمن الرحيم من أجل أن يتخلص الإنسان من رجس آثامه وأوزاره بعد أن أكرمنا بالماء الذي يتخلص به أحدنا من رجس الأتربة والغبار والأقذار المادية؟ إنه الصلوات الخمس المكتوبة، هذا هو المغتسل الذي ينجدنا الله سبحانه وتعالى به.

ولماذا كانت خمس صلوات في اليوم والليلة؟ ذلك لأن الإنسان دائماً كلما خاض غمار هذه الدنيا، ولا بد أن يخوض غمارها، سيجد أنه قد أصيب برشاش بعضٍ من الذنوب، ومن ثم فقد كانت رحمة الله عز وجل له بالمرصاد، يدخل وقت الصلاة فيُهْرَعُ إليها، ويقبل إلى الله عز وجل بأدائها على النحو الذي أمر، وإذا بصحيفته السوداء عادت بيضاء، وإذا بثقل الأوزار قد ذاب من كاهله، فإذا عاد إلى سوقه ومخاضته وأصابه رشاش من الأوزار ثانية عاد إلى الصلاة في الميقات الثاني، وإذا بهذه الصلاة هي الأخرى طهرته، وأعادت صحيفته الملوثة إلى البياض والطهر، هذا هو المغتسل الذي ينبئ عن مدى رحمة الله عز وجل بعباده، هيأه الله عز وجل لنا كي نمحوَ آثار رشاش المعاصي التي قد نتعرض لها، وقد صح عن رسول

الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه مسلم وغيره أنه صلى الله عليه وسلم قال: ﴿أرأيتم لو أن نهراً غمراً بباب أحدكم يغتسل منه في اليوم خمس مرات أكان يبقى عليه درن؟ قالوا: لا يا رسول الله، قال: فكذلكم الصلوات الخمس تمحو آثام العبد وأخطاءه﴾

بل إن الصلوات الخمس من شأنها أنها تمحو المعاصي التي تستوجب الحد ما لم تكن هذه المعاصي متعلقة بحقوق العباد، وقد صح فيما رواه الشيخان ﴿أن رجلاً دخل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد قبل الصلاة، فأسر إليه أنه قد ارتكب موجب حد، فأعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسكت عنه، ثم عاد ثانية يذكر له ذلك، فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسكت عنه، ولما أقيمت الصلاة وصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه عاد الرجل يُذَكِّرُ رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قال، فقال له صلى الله عليه وسلم: أرأيت أنك عندما خرجت من بيتك أ لم تتوضأ فتحسن وضوءك؟ أ لم تشهد معنا الصلاة؟ قال: بلى، قال: فقد غفر الله لك ذنبك﴾ هذا هو دور الصلاة في حياة الإنسان يا عباد الله،

بل أقول لكم شيئاً آخر: ما أكثر الذين ابتلوا في حياتهم بأمراضٍ شتى نفسية مختلفة، ما أكثر الذين ابتلوا بالكآبة فكان دواؤهم الذي انتشلهم من هذا المرض هو الإقبال إلى الصلاة، ما أكثر الذين تقلبوا في أمراضٍ نفسيةٍ مختلفة، ولكن صلتهم بالله جعلتهم يُهْرَعُون إلى الوقوف بين يدي الله عز وجل، فكانت صلاتهم خير دواء لأمراضهم المختلفة، وما أكثر المصائب التي طرقت أبواب كثيرٍ من المجتمعات، مصائب مختلفة، من ذلك القحط واحتباس الأمطار، كان الشيء الذي رفع هذا البلاء عنهم، وأعادهم إلى أمن الطمأنينة ورغد العيش هذه الصلوات الخمس.

ولماذا لا تكون الصلوات الخمس بهذه المثابة؟! إنها –يا عباد الله – في الصورة والمظهر تكليف، ولكنها في الحقيقة استضافة وتشريف، فإذا استجبت لاستضافة الله سبحانه وتعالى، ووقفت بين يديه حامداً ثم مثنياً ثم مستعيناً ثم داعياً أن يهديك وأن يكلأك بعين عنايته أتتوقع ألا يقول الله لك: لبيك يا عبدي؟! أتتوقع أن يصرفك من ضيافته دون إكرام وهو ربٌ كريم؟! فيا عجباً –يا عباد الله – يا عجباً

لجسومٍ لا تعرف لذة الصلاة والوقوف بين يدي الله! ويا عجباً لجباهٍ لم تذق لذة السجود لوجه الله سبحانه وتعالى.

لقد قلت لكم، وأؤكد: إن الصلاة في ظاهرها تكليف، ولكنها في الحقيقة استضافة من الله وتشريف، فلماذا نجد قِطَاعاً كثيرة من المسلمين قد قَطَعُوا أنفسهم عن استضافة الله عز وجل؟! لماذا نجدهم قد أعرضوا عن نداء الله عز وجل يستضيفهم؟! أليس هذا أمراً عجيباً يا عباد الله؟.

مسلمون؟! ولو كانوا غير مسلمين لزال العجب، مسلمون يقرؤون كتاب الله عز وجل ويرددون قوله: ﴿إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً﴾ [النساء: ١٠٣] ويسمعون أو يقرؤون قوله: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤]، ويقرؤون قوله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه: ١٣٢]، ومع ذلك يستضيفني الله عز وجل للوقوف بين يديه، أُعرِض؟! أُعرِض عن استضافته لي؟! شيءٌ لا يتصوره العقل قط.

ثم إن البيان الإلهي يضعنا أمام صور مرعبة ومخيفة لمصير الإنسان يوم القيامة، ذاك الذي كان في دنياه معرضاً عن هذه الصلاة، عن هذه الاستضافة، يقطع نفسه وربما يقطع الآخرين عنها، اسمعوا قول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ، خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾ [القلم:٤٢-٤٣]، اسمعوا قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ، إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ، وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ، تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ، كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ، وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ [القيامة :٢٢-٢٧]، أي إذا بلغت الروح التَّرْقُوَة، وقيل، أليس من راق؟ أليس من طبيب يعيد الروح إلى مكانها من الجسد؟ ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ، وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ، وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ، وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ، إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ، فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّى، وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [القيامة:٢٦-٣٢].

لاحظوا -يا عباد الله- كيف قرن البيان الإلهي الكفر بترك الصلاة، ولم يتحدث عن عبادةٍ غيرها؛ لأن الإنسان إذا آب إلى ربه بصلاة تامة غفر الله له بقية ذنوبه، أما إذا آب إلى الله معرضاً عن الصلاة

قد قطع نفسه عن استضافة الله عز وجل، فمآله هذا الذي يقوله الله عز وجل: ﴿فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّى، وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [القيامة: ٣١-٣٢].

يا عجباً للمسلم الذي يعلم أنه عما قريب بعد حين طال الحين أو قصر سيتمدد على فراش الموت، ولسوف يدخل عليه ملك الموت، ولسوف يراه بعينيه، ولسوف تنطوي قواه كلها لتؤول إلى لا شيء، ولسوف يجد نفسه كتلة من العبودية لله، ولكن فات الأوان، فاتت الفرصة، أنا أعلم أنني صائرٌ إلى هذا، لماذا لا أصطلح مع مولاي وربي؟! لماذا لا أستجيب لاستضافته؟! ولماذا لا أُيَسِّرُ السبيل للناس كي يستجيبوا لهذه الاستضافة التي يدعوهم الله عز وجل إليها؟! وقد قال المصطفى صلى الله عليه وسلم فيما صح عنه: ﴿أعطيت خمساً لم يعطهن أحدٌ من قبلي –ثانية منهن– وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة في مكان فليصلِّ﴾.

إن أدركتك الصلاة في السوق فلتصلِّ لأن الله يأمرنا أن نؤدي الصلوات في مواقيتها، إن أدركتك الصلاة في مقهىً فقم وصلِّ، إن أدركتك الصلاة في مطعم، إن أدركتك الصلاة في قارعة الطريق وسمعت المؤذن يقول: الله أكبر، قل بلسان حالك أو بلسان قولك: لبيك اللهم لبيك.

عباد الله، أنا مكلف بأن أخبركم عن نذير ينطوي في هذا الشتاء القادم، إن لم نصطلح مع مولانا وخالقنا فلسوف يكون شتاءً قاسياً، ولسوف نعاني من انقطاع المطر واحتباسها ما لم نشهده في سنوات خلت، أنا أقول هذا، والحب يوجب علي ذلك، الغيرة على أمتي وعلى بلدي توجب عليَّ ذلك، فلنصطلح مع الله قبل فوات الأوان.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم.

٥٢- العبودية اضطرار لا اختيار | ٢٠١٠/٠٧/١٦

لقد بيَّنَ البيان الإلهي للإنسان بعبارة واضحة قاطعةٍ الوظيفة التي كُلِّفَ بالنهوض بها في حياته الدنيا هذه وذلك عندما قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ. مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨] إذاً فالوظيفة التي خُلِقَ الإنسان للنهوض بها إنما هي عبادة الله سبحانه وتعالى وهي إنما تنبثق من شعور الإنسان بعبوديته ومملوكيته لله عز وجل.

ولكن الإنسان لن يقتنع بهذه الوظيفة التي يقول له الله عز وجل إنه قد كُلِّفَ بها ما لم يعد فيتعرف على ذاته، ما لم يعد فيتعرف على نفسه، عندئذٍ بوسعه أن يؤمن بهذه الوظيفة ويخضع لسلطانها، وكيف السبيل – يا عباد الله – إلى أن يتعرف الإنسان على نفسه كي يدرك الوظيفة التي حُمِّلَهَا ولكي ينهض بها بعد ذلك.

يعرف الإنسان نفسه عندما يقف أمام مرآة ذاته ويتأمل طويلاً في المزايا التي متعه الله عز وجل بها، عندما يتأمل في مزية السمع والبصر والحواس المختلفة ثم يتأمل في الفكر والعقل اللذين يتميز بهما عن سائر الحيوانات الأخرى ثم يتأمل في القوة المودعة في كيانه ثم في العافية التي تسري في أوصاله، عندما يتأمل الإنسان في هذه المزايا بوسعه أن يعلم عندئذٍ أنه مملوكٌ وليس مالكاً ومن ثم بوسعه أن يعلم أنه عبدٌ وعليه أن يؤدي حقوق العبودية لمن هو عبد له. كيف؟

أنا عندما أتأمل في هذه المزايا التي أتمتع بها لابد أن أسأل نفسي أأنا فاعل لها أم أنا منفعل بها، هل أنا فاعل لها؟ أنا الذي مَتَّعْتُ نفسي بهذه المزايا وأنا الذي أحرسها كي لا تشرد عني وكي تبقى رفيقي إلى الممات أو إلى الأبد.

أم أنا لست فاعلاً لها وإنما أنا منفعل بها أي أنني استقبلتها من حيث لا أدري ثم توضَّعَتْ هذه المزايا في كياني كما لا أعلم ثم إني أصبحت أتمتع بها دون أن أدري المصدر الذي جاءت إليَّ هذه المزايا منه، إنك إن تأملت في هذا علمتَ – يا ابن آدم – أنك منفعل بهذه المزايا ولست فاعلاً لها.

فتحتَ عينيك على هذه الدنيا وإذا أنت تتمتع بالسمع والبصر، تتمتع بالذاكرة وبالعقل، ونظرتَ فإذا بالقوة تسري في كيانك من حيث لا تعلم وتأملت وإذا بالعافية تسري في كيانك من فرقك إلى قدمك من حيث لا تعلم، وتنظر وإذا بغدٍ قريبٍ يأتي وقد ودَّعَتْكَ هذه المزايا كلها، ستجهل بعد علم ولسوف تنسى بعد تذكر وذكرى، ولسوف تتحول القوة الكامنة في كيانك إلى ضعف ولتنظر إلى الشباب الذي تتباهى به وإذا هو يتقلص عنك رويداً رويدا وإذا به يودعك ليحل محله المشيب وأنت لا تملك استبقاء هذه المزايا في كيانك قط بل أنت لا تعلم كيف وجدت في كيانك.

إذاً أنت منفعل بهذه الصفات يا ابن آدم، أي إنك بالعبارة العلمية الدقيقة شاشة استقبال، أنت جهاز استقبال يستقبل الصور والألوان المتعددة ويستقبل التحركات المتنوعة الهادفة وغير الهادفة. أنت هكذا، أنت جهاز استقبال لا أكثر، فإذا علمت أنك كذلك أنك جهاز استقبال أفلا يحملك عقلك على أن تسأل عن جهاز الإرسال الذي يتم الإرسال منه إلى شاشة كيانك فتتمتع بهذه المزايا من حيث لا تدري، تأمل في جهاز الإرسال وفكر تجد أن مصدر الإرسال هو ذاك الخالق الذي قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]

تأمل فلسوف تجد أن المصدر الذي يتم الإرسال منه إليك بالعقل هو الله، المصدر الذي يتم إرسال العافية منه إليك المصدر هو الله، المصدر الذي ينجدك بالتذكر والفكر هو الله، المصدر الذي ينجدك بالقوة هو الله عز وجل، وآية ذلك أنك عندما استقبلت هذه المزايا لم يكن لك أي دورٍ في استقبالها، وعندما تتمتع بها ليس لك أي دورٍ في كيفية التمتع بها، وغداً عندما ترحل عنك لتبقى شاشة كيانك صافية عن الألوان والصور والحركات لا تستطيع أن تستبقي شيئاً من ذلك في كيانك.

ألست جهاز استقبال يا ابن آدم؟ وإذا قلتَ نعم أفما ينبغي أن تسأل من أي جهاز إرسال تفد إليَّ هذه المزايا؟ اسأل عقلك ولسوف يجيبك مستعيناً بكل العلوم القديمة والحديثة بأن مصدر هذا الإرسال إنما هو الله عز وجل. فإذا عرفت ذلك تحققت بمعرفة هويتك، علمتَ أنك مملوك لهذا الذي يرسل إليك مزاياه ولسوف تتقلص عنك عما قريب، عندئذٍ تعلم أنك عبدٌ.

وما هي وظيفة العبد؟ وظيفة العبد أن يضع عبوديته موضع التنفيذ لمن هو عبد له، ألا يكفي العقل لينبهك إلى هذا يا ابن آدم، إن لم يكن العقل كافياً فاسمع كلام الخالق الذي يذكرك بهذا: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤] وأنت لا دور لك إلا الاستقبال.

اسمع كلامه في مكان آخر ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً﴾ [الحج: ٥] ألا يكفي هذا يا ابن آدم من أجل أن تعلم هويتك ومن أجل أن تعلم إذاً وظيفتك، أنت عبدٌ لم أنت ملك يده، أنت مملوك لهذا ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاء رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٧-٨]

أرسل إليك هذه المزايا كلها وليس لك أي دورٍ في استقبالها ولن يكون غداً أي دورٍ في استبقائها بشكل من الأشكال. هنا يعلم الإنسان وظيفته ويتجاوب عندئذٍ مع قوله سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] أي إنما حَمَّلْتُهُمْ وظيفةً واحدة هي أن يعلموا عبوديتهم لي ومن ثم عليهم أن يضعوا هذه العبودية لله موضع التنفيذ، لا يستبدلون بالعبودية استكباراً، لا يستبدلون بالمملوكية امتلاكاً وهمياً، هذه هي الوظيفة التي كُلِّفَ الإنسان بها.

عندما تعلم يا ابن آدم هويتك وتعلم هذه الحقيقة هل يساورك شك أو ريب في هذه الوظيفة التي ينبغي أن تنهض بها؟ ما أخالك ترتاب في ذلك قط.

ربما سمعتَ بعض المغفلين يقول: هل الله بحاجة إلى أن أعبده؟ إذا كان إلهاً حقاً فما أغناه عن أن أكون عبداً له، ومن الذي قال لك – يا أيها المغفل – أنك إنما أمرْتَ بأن تدين له بالعبادة والعبودية لكي تُكَمِّلَ نقصاً في ذاته؟! من الذي قال لك أن الله عز وجل قبل أن يخلقك كان بحاجة إلى أن يوجدك لكي تعبده لكي تكمل ألوهيته؟

إنما يأمرك بالعبادة والعبودية لكي يكون سلوكك منسجماً مع واقعك، هكذا يقول المنطق والعلم، أرأيت إلى إنسان خُلِقَ قَزْمَاً وعاش قَزْمَاً أفيحسن به أن يرتدي ألبسة المَرَدَةِ الطوال؟ وإذا طمع وطمح إلى أن يلبس ثياب المَرَدَةِ الطوال فإن عقل كل عاقل يزدريه وينتقصه، يقول له العقل: انسجم في سلوكك مع

نفسك، لو كنت مارداً من الرجال لكان يليق بك أن ترتدي ثياب المردة الطوال ولكنك كما تعلم قزم، عِشْ حياة الأقزام وارتد ثياب الأقزام ولا تتجاوز حدود الأقزام. تلك هي وظيفة العبد، نحن جميعاً يا عباد الله مملوكون لله عز وجل، نتحرك ولكن في قبضته، نقوى ولكن بسلطانه، نعتز ولكن بأمره، لا تستطيع أن توجد في كيانك إلا ما قد أوجده الله فيك.

فمن أنت إذاً، أنت شاشة الاستقبال التي حدثتكم عنها، أنت هذا الإنسان الذي توضعت في كيانه هذه المزايا ولم يعلم من أين جاءت وغداً سيودعها ولا يستطيع أن يستبقي منها شيئاً، أفيليق بهذا الإنسان أن يستكبر! أفيليق بهذا الإنسان أن يقول لا بل أنا حر، أنا لست عبداً لأحد أنا أتصرف كما أشاء، ألزم نفسي بما أريد وأبتعد عما لا أريد.

من أنت – يا أخي – حتى تقول هذا الكلام، أرني جرأتك وبقاءك واستمرارك على هذه الدعوى لا اليوم – والله يمدك بقوته – لا اليوم – والله يكرمك بالفكر والتدبر والتأمل – أرني حريتك وقدرتك هذه عندما تمتد على فراش الموت وعندما تشم رائحته تدنو إليك وعندما يدخل عليك ملك الموت من حيث لا تدري – أجل ستراه بعيني رأسك – أرني تلك الساعة حريتك التي تزعمها اليوم، أرني تلك الساعة قدرتك على الدفاع عن حريتك فيما تريد أن تفعل وفيما تريد أن تدع وفيما تريد أن تتصرف به.

إن كنت قادراً على أن تَثْبُتَ على هذه الحالة اليوم في تلك الساعة فهنيئاً لك حريتك التي تدعيها، ولكنك تعلم وأعلم أنك ستكون آنذاك كتلةً من ضعف، كتلة ضعف، كتلة ذل ومهانة، فيا عجباً للإنسان يعلم أنه صائرٌ إلى هذا المصير لماذا لا يتهيأ له.

يعلم الإنسان أن صائرٌ إلى هذه النهاية ومع ذلك يتحدى مولاه وخالقه عندما شرع وأمر ووصف، يتحداه في وصاياه لأنه حر، لو كنت حراً لكنت أنت الذي غرس هذه المزايا في كيانك ولكنت أن القادر على استبقائها لديك.

لو كنت حراً لأبقيت شبابك المتألق في كيانك ولما تركته يودعك إلى غير رجعة، لو كنت حراً لاستبقيت قوتك في كيانك، لكنك تعلم أنها ودائع استودعها الله عز وجل لديك. ألم تقتنع بعد – يا أخي الإنسان – أنك مملوك! فابحث عن مالكك الذي أنت في قبضته، ألم تقتنع بعد أنك عبد! فابحث

عن مولاك الذي أنت مملوك وعبد له، إذا عرفت هذا انسجمت كل الانسجام مع قوله عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ. مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨].

والعبادة سلوك في الطريق الذي شرع الله ولكن السلوك لا يتأتَّى إلا بعد وجود العبودية والعبودية شعور يهيمن على الكيان يشعرك أنك مملوك، يشعرك أنك في قبضةِ مولاك، يشعرك أنك تتحرك تحت سلطانه ويسعدك هذا الشعور أيما سعادة. ولسوف تجد هذا الشعور هو رفيقك عندما يدنو منك الموت، هو صديقك عندما تنتقل من رحاب هذه الدنيا إلى الحياة البرزخية التي تنتظرك.

أسأل الله عز وجل أن يبقي لي ولك هذا الرفيق في الساعة النكراء التي نعيش فيها وأي غربة إلا من هوياتنا الحقيقية.

أقول قولي هذا واستغفر الله العظيم.



٥٣- كيف يمارس الإنسان عبوديته لله عز وجل | ٢٠١٠/٠٧/٢٣

قلت لكم بالأمس في الأسبوع الماضي إن الإنسان إذا عرف نفسه عرف ربه، يعرف نفسه متمتعاً بصفاتٍ كثيرة متنوعة متعددة ولكنه لا يملك منها شيئاً، ينفعلٌ بها ولا يفعل شيئاً منها، وردت إليه هذه الصفات دون إرادة منه ولا حكم وستودعه هذه الصفات أيضاً دون إرادة منه ولا حرية أو حكم.

إذاً هو جهاز استقبال يستقبل هذه الصفات المختلفة، وهل يتأتّى أن يوجَدَ جهاز استقبال بدون جهاز إرسال؟! من المرسل للصفات التي تتمتع بها من علم وعقل ونطقٍ وإرادةٍ وعافيةٍ وسمعٍ وبصرٍ وحسٍّ، إنها تأتي إليك من جهاز الإرسال وجهاز الإرسال مصدره الله عز وجل، عندما يعلم الإنسان هذه الحقيقة يدرك أنه عبد لمن هو بيده، لمن هو بسلطانه، وعندئذٍ لابد أن يصطبغ بصبغة العبودية لله عز وجل.

هذا ما قلته لكم بالأمس، ولكن تعالوا نتابع كيف يمارس الإنسان عبوديته وقد أيقن أنه عبدٌ لله عز وجل، أيقن أنه جهاز استرسال يستقبل من عند الله عز وجل ما يتمتع به من صفات، كيف يمارس أحدنا عبوديته لله؟ يمارسها بطريقتين اثنتين لابد منهما؛ أولاهما الصبر والأخرى الشكر.

والصبر لا يتحقق إلا في المناخ المناسب له، والمناخ المناسب للصبر هو الابتلاءات والمصائب المتنوعة الكثيرة. بدون أن يتلقى الإنسان ابتلاءات متنوعة شتى، بدون أن يُفاجَأَ بمصائب لا معنى للصبر، وأما مناخ الشكر فهو النعم والمنح الكثيرة التي تفد إلى الإنسان من جهاز الإرسال من عند الله سبحانه وتعالى. وهل يتأتّى للإنسان أن يشكر الله عز وجل بدون أن يتلقى نعمه.

ومن هنا كانت الدنيا – يا عباد الله – مزيجاً من المصائب والنعم، مزيجاً من اللذائذ والآلام، مزيجاً من المنح والمحن، من أجل أن يؤدي الإنسان الذي عرف ربه عبوديته لهذا الخالق يصبر عند الابتلاءات ويشكر الشكر الذي عرَّفَهُ بيان الله عز وجل عند النعم وعند الآلاء، ولكن كيف السبيل إلى أن يصبر الإنسان والله يقول في محكم تبيانه: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللّهِ﴾ [النحل: ١٢٧] يا عجباً، يقول لي الله ﴿وَاصْبِرْ﴾ ثم يقول في الوقت ذاته ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللّهِ﴾.

معنى هذا الكلام إذا أردت أن تصبر التجئ إلى الله، اعرض ضعفك أمام الله عز وجل، تضرع على أعتاب الله، قل له مولاي لا حول لي ولا قوة إلا بك، ابتليتني بالمصائب والآلام وأنا لا أريد أن أعصيك، أنا أريد أن أصبر ولكن أنت الذي تُصَبِّرُنِي، لا سبيل إلى ذلك إلا أن ترسل إليَّ نعمة التصبير حتى أصبر على اللأواء، حتى أصبر على الشدائد، هذا معنى قوله عز وجل: ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللّهِ﴾ إي إذاً فالتجئ إلى الله لكي يُصَبِّرَك.

وانظروا – يا عباد الله – إلى قدوتنا وأسوتنا ألا وهو رسول الله، أول عبد اعتز بعبوديته لله عز وجل، واجهته المصائب، واجهته الرزايا والآلام، وتعالوا أحدثكم عن نموذج من هذه المصائب، توفي عمه أبو طالب وقد كان سنداً له وكان الذي يمنعه من أذى المشركين فصبر، وما هي إلا أشهر مرَّتْ حتى توفيت زوجته خديجة وقد كانت وزير صدق له، وقد كانت أنيسه في الوحشة وكانت تقدم له العون المادي والمعنوي في طريق دعوته إلى الله.

ثم جاءت المصيبة الأدهى، لم يعد يستطيع أن يحرك فمه بكلمة دعوة، استشاط أذى المشركين له وأحيط به بعد وفاة عمه أبي طالب.

والمصيبة الرابعة أنه أراد أن يتجه إلى الطائف لعله يجد هنالك من يسمع كلامه، لعله يجد من يتسع صدره لحديثه ودعوته ولكن الطائف خيبت آماله، ردته على أعقابه كما تعلمون، ها هي ذي المصائب تترى واجهها محمد فكيف مارس عبوديته لله من خلال هذه المصائب؟ مارسها عن طريق كثرة الالتجاء إلى الله، كثرة التضرع إلى الله، معلناً أنه عاجز إن لم يعنه الله عز وجل على الصبر، معلناً أنه لا يملك حولاً ولا قوة.

كان يشكو، ولكنه لم يكن يشكو شكوى ضجر، لم يكن يشكو شكوى احتجاج على الله، لا، معاذ الله، إنما كان يُعَبِّرُ بشكواه عن عجزه، عن فاقته، عن ذل عبوديته لله عز وجل. انظروا إلى كلامه وقد مرت به هذه المصائب الأربع: ﴿اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس، أنت رب العباد، أنت رب المستضعفين﴾، أنت ربي إلى أن قال بعد ذلك: ﴿إن لم بك عليَّ غضبٌ فلا

أبالي﴾ إذاً لم تكن شكواه تعبيراً عن احتجاج ولكنها كانت إظهاراً لعبوديته لله سبحانه وتعالى وإظهاراً لفاقته وعجزه.

وقد جعل الله عز وجل من مصطفاه أسوة لنا، قدوة، فلنقتدي بحبيبنا محمد عندما تنوشنا المصائب وتطوف بنا الرزايا، فلنجد سبيلاً إلى الصبر التجئوا إلى الله، اطرقوا باب الله تجدون أن الله عز وجل ينجدنا بنعمة الصبر.

ولكن الأمر الأهم من هذا سنة من سنن الله ألزم الله عز وجل بها ذاته العلية، كلما عانى الإنسان المؤمن بالله الذي وضع عبوديته لله موضع التنفيذ، كلما عانى من شدة في حياته أو مصيبةٍ طافت به فواجهها بالصبر، واجهها بالتجمل لابد أن يكرمه الله إلى جانب العسر باليسر، وانظروا في هذا إلى قوله سبحانه وهو يخاطب رسوله: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً. إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾ [الشرح: ٥-٦]

لم يقل إن بعد العسر يسراً لا، قال: ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾ إلى جانب العسر ستجد اليسر، لكن هذا لمن، لمن اتجه إلى الله عز وجل، لمن فرَّ إلى المصائب التي تنوشه إلى باب الله سبحانه وتعالى، يعلن عن ضراعته ويعلن عن مسكنته وذله، وتلك هي وظيفة الإنسان في هذه الحياة، ألم يقل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] والعبادة سلوك، والعبادة التي هي سلوك لا تتحقق إلا بعد أن يصطبغ الإنسان بذل العبودية لله سبحانه وتعالى.

كانت هذه الحالة هي دأب رسول الله. ولو أنكم درستم سيرته وهو رئيس دولة وهو إمام المسلمين وهو أفضل الأنبياء عند الله وهو حبيب الله عز وجل وهو ذاك الذي قال الله له ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨] ومع ذلك فلم يكن يُرَى رسول الله ﷺ إلا وهو متصاغر متذلل على أعتاب الله، لم يكن يُرَى رسول الله إلا وهو ملتصق باب الله يستنجد فضله، يستنزل رحمته، يستنزل قدرته وهو رئيس دولة، وهو إمام المسلمين يا عباد الله. هذه الحقيقة ينبغي أن نعلمها وأن نتبينها. مصائب المسلمين اليوم كثيرة وإنكم لتعلمونها والزمن لا يتسع لعدها ولا لحصرها

ولكن ما الذي ينجي المسلمين من هذه المصائب، دَعْكُمْ من الوسائل والأسباب المادية، هذا شيء أمر الله بإعداده لكن لا خير فيه إذا اعتمد الإنسان عليه وحده

ما السبيل الذي به نتخلص من مصائبنا المختلفة المتنوعة؟ الالتجاء إلى الله، الوقوف على باب الله، الانكسار والتذلل على أعتاب الله.

أنت عبد لا تملك من أمر نفسك شيئاً، إذاً ينبغي أن تعيش حياتك عيشة العبيد، ما ينبغي أن يشمخر منك الرأس عالياً وأنت لا تملك من أمر نفسك شيئاً، بماذا تشمخر؟ بفكر صائبٍ تتمتع به! غداً يسلب الله هذا الفكر منك، بذاكرة تتمتع بها! غداً تستيقظ من رقادك وقد نسيت كل شيء. بالعافية التي تتضرج في كيانك وتُزْهَى بها عندما تقف أمام مرآة ذاتك! غداً يسلبك الله هذه العافية، من أنت حتى تقول إني أملك شيئاً منها.

إذاً أنت –كما قلت– جهاز استقبال تتحرك صورٌ شتى عليك فسل من الذي يرسل ذلك كله، هو الله. إذاً ينبغي أن يكون شأنك، دأبك، دائماً الالتجاء إلى الله، الانكسار على أعتاب الله سبحانه وتعالى، وانظروا كيف تجدون مصادق قول الله عندئذٍ ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾.

لا، هما جملتان متكررتان لم أجد مثلهما في كتاب الله ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً، إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾ لكن لمن؟ لمن كان ملازماً باب الله، لمن كان مصطبغاً بذل العبودية لله، لمن كان دأبه أن يتصور الساعة التي يتمدد فيها على فراش الموت ويستقبل ملك الموت لينقله إلى الحياة البرزخية الأخرى.

أيها الإخوة: ما دمت أتحدث عن الالتجاء وفن الالتجاء وثمرة الالتجاء فدعنا نكتفي بهذا الكلام النظري لنوفر بقية الوقت لعملية الالتجاء إلى الله.



أقول قولي هذا واستغفر الله العظيم.

٥٤- العبادة غذاء العبودية | ٢٠١٠/٠٧/٣٠

حديثي اليوم حوار مع طائفة ممن يسمون أنفسهم الحداثيين يعبرون عن تبرهم بالماضي – وليس الماضي فيما يقصدون إلا الإسلام من خلال مواقع كثيرة متكاثرة هنا وهناك – ولقد كنت ولا أزال أقدس الحوار وأرى أنه السبيل الأوحد لمعرفة الحق وهو الطريق الذي لا ثاني له للاتفاق على الحق.

ترى هل يدعو الإسلام إلى التخلف أم هل يدعو الإسلام إلى القهر وما يسمى بالإرهاب أو الرهبة أم هل يدعو الإسلام إلى مخالفة أصول الحضارة الإنسانية أو إلى مخالفة المبادئ التي تقوم على أساسها المجتمعات المدنية.

الجواب عن هذا – أيها الإخوة – إنما هو عند الإسلام، والإسلام يقول من خلال مرجعه الأول – ألا وهو القرآن – يقول إنه يدعو الناس جميعاً إلى أمرين اثنين هما في الحقيقة حقيقة واحدة، يدعو إلى فعل الخير ويؤكد ويكرر ويدعو إلى العمل الصالح ويدعو ويكرر ويؤكد، إنه يقول: ﴿وَاعْمَلُوا صَالِحًا ۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ويقول: ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ويقول: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ ويقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ ويقول: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ والآيات التي تدعو إلى الخير والعمر الصالح كثيرة.

إذاً الإسلام يدعو إلى الخير وإلى العمل الصالح، ما الخير وما هو العمل الصالح؟

الخير أو العمل الصالح – يا عباد الله – هو كل عمل يعود بالمنفعة إلى صاحبه في جسمه، في نفسه، في ماله، وفي العلاقة السارية بينه وبين الآخرين ولكن على أساس من التوازن والعدل. هذا هو باختصار معنى الصلاح الذي يدعو إليه الإسلام من خلال القرآن وهو معنى الخير أيضاً.

وبالقدر الذي يدعو الإسلام الناس إلى عمل الخير وإلى العمل الصالح يحذر من نقيض كل منهما وما نقيض كل منهما إلا الفساد والإفساد فهو يقول: ﴿وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا﴾

[الأعراف: ٥٦]. ويقول: ﴿وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ وينعي على التائهين عن العمل الصالح والخير فيقول: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ هذا ما يدعو إليه الإسلام.

ولقد سمعت – وأنا أقول هذا – سمعت من يعترض فيقول: فإذا كان الإسلام يدعو إلى الصلاح وإلى الخير فما باله يدعونا إلى العبادات، ما باله يدعونا إلى الصلاة والصوم والأذكار وما إلى ذلك.

والجواب – يا عباد الله – هو أن الإنسان من شأنه أن يعود إلى حظ نفسه فيؤثر حظ نفسه على كل شيء، من شأن الإنسان أن يكون أنانياً يرعى حقوق ذاته ولو على حساب الآخرين، من شأن الإنسان أن تكون فيه رعونات وأن ينقاد وراء رعوناته. ما الذي يصلحه. إنما يصلحه الدخول في منهج تربوي يتمثل في العقيدة التي تبصره بأنه عبدٌ لمالك وأن هذا المالك يراقبه وأن له وقفةً بين يديه في الحياة الثانية وأن لم يُخْلَقْ عبثاً. هذه العقيدة لابد أن تُغْرَسَ في كيانه ومن ثم يعلم أنه مراقبٌ أينما ذهب، مراقب بأفعاله مهما فعل وأينما تقلب، ثم هذه العقيدة تحتاج إلى غذاء، إن لم تتلق العقيدة غذاءها ذَبُلَت ثم ذبلت ثم إنها تحولت إلى ما يشبه الهشيم من النبات فما غذاؤها؟ غذاؤها العبادة، غذاؤها الصلاح، غذاؤها مراقبة الله. هذه العبادات مع هذه العقيدة ترقى بالإنسان إلى مستوى تنفيذ عمل الخير والعمل الصالح ومن ثم يؤثر الآخرين بدلاً من أن يستأثر بنفسه ومن ثم لا يستطيع أن يتحول عن العمل الصالح إلى الفساد لأنه يعلم أن ملكين يراقبانه ويسجلان عليه.

وأقول لكم بحق: سألت واحداً من هؤلاء الحداثيين بل الذين لا يقيمون للإسلام وزناً وهو من رجال الأعمال: أرأيت لو أنك كنت بحاجة إلى أمين لصندوقك وجاء اثنان يقدمان الخدمة التي تطلبها أحدهما مثلك لا يقيم للدين وزناً والآخر مؤمن مسلم مراقب لله عز وجل على أي هذين الإنسانين تعتمد واصدقني في الجواب؟ قال على الإنسان المؤمن، قلت فلماذا تحاربون الوفاء؟ لماذا تحاربون الأمانة؟ لماذا تؤثرون حظوظ النفس على قرار العقل.

هذه الحقيقة – أيها الإخوة – تضعنا أمام حقيقة أخرى ينبغي أن نتبينها، ما يقف في وجه الإسلام متمثلاً في مبادئه الاعتقادية، متمثلاً في عباداته المتنوعة متمثلاً في شرائعه التي أمرنا الله عز وجل بها، ما

يتربص بهذا الإسلام أحد إلا وهو يتربص بالعمل الصالح، إلا وهو يتربص بالخير، ما يقف أحدهم في وجه الإسلام الذي هذه حقيقته باختصار إلا وهو يدعو إلى الفساد والإفساد في الأرض، والفساد هل هو الأمر المبتغى في حياة الإنسان اليوم؟ وها أنتم تجدون ما قد أثمره الفساد في حياة الإنسان، إنه يدور برحى القتل والظلم على البرآء الآمين، هذه الحقيقة ينبغي أن نعلمها يا عباد الله، وإذا علمنا هذه الحقيقة فإني لأرجو أن تبلغ كلمتي هذه أو حواري هذا هؤلاء الإخوة التائهين وأرجو أن تدركهم الرحمة الإلهية قبل فوات الآوان.

نحن راحلون ونحن نقف طوابير أمام بوابة الموت، لا يعلم أحد منا أهو يقف في آخر الطابور أم في منتصفه أم في أوله. تعالوا نصلح ما بيننا وبين الله، تعالوا نعد إلى عقولنا ونتحرر من حظوظ أنفسنا، وخير الكلام ما قل ودل ولن أزيد.

أقول قولي هذا واستغفر الله العظيم.



٥٥- جواباً على مقولة: لو كان القحط بكثرة المعاصي لكان الغرب أولى به منا

٢٠١٠/١٢/١٧ |

تعالوا نبتهل إلى الله سبحانه وتعالى ونخاطبه من أعماق قلوبٍ مؤمنةٍ به قائلين: اللهم إنا قد مُطِرْنَا بفضلك وإحسانك لا بعملنا وعدلك، كنا ننتظر أن تعاقبنا لسوء أعمالنا وللكثير من مظاهر إعراضنا ولكنك أريتنا من ذاتك العلية وجه الصفح، أريتنا وجه المغفرة والإكرام فنسألك اللهم أن تقدرنا على شكر نعمك وأن تلهمنا القيام بحق هذا الشكر لك كما ينبغي وعلى النحو الذي يرضيك يا ذا الجلال والإكرام.

ثم إن سؤالاً – يا عباد الله – يظل يتكرر على كثيرٍ من الألسن، ومهما أجبنا عن هذا السؤال لابد أن نجد أن ألسناً تلوك هذا السؤال مرةً أخرى، ذلك لأن في الناس من يحركون ألسنتهم بهذا السؤال أو الاستشكال ولكنهم لا يوجهون آذانهم قط إلى سماع الجواب، فكيف السبيل لحل هذه المعضلة؟ كيف نتابع الإخوة الذين يكررون سؤالهم هذا في كل نادٍ وفي كل مجتمع وفي كل مناسبة ثم إنهم يعرضون عن الجواب لأنهم قد لا يوجدون في أماكن مثل هذا المكان المقدس.

السؤال هو ما قد أجبت عنه منذ عدة أسابيع، لماذا تربطون حبس الأمطار والابتلاءات المتنوعة بالمعاصي التي قد نتورط فيها وها هي المجتمعات الغربية غارقة إلى الحمأة في كل أنواع المعاصي وفي كل مظاهر الانحراف والسوء ومع ذلك فإن نعم الله عز وجل لا تنقطع عنه، وإن قَطْرَ السماء يظل يصافح كل أرضٍ من تلك الأراضي، في كل بقعة من تلك البقاع؟ هذا هو السؤال، فما الجواب؟ أعود فأكرر الجواب مرة أخرى، وليت أن الإخوة الذين يسألون يُتَاح لهم أن يسمعوا الجواب بطريقة ما.

عباد الله: إن في الناس من يخاطبهم الله عز وجل يطلب منهم التوقيع على ميثاق الإيمان به والعبودية له، ومن الناس من وقعوا على هذا الميثاق يخاطبهم الله عز وجل بضرورة تطبيق مقتضيات الميثاق، فانظروا إلى الفرق.

يخاطب الله سبحانه وتعالى التائهين الشاردين عن الإيمان به الذين لم يدخلوا بعد ساحة التعرف عليه وساعة الالتزام بحقيقة العبودية له يقول لهم: ﴿وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [المائدة: ٧].

يقول لهم: لقد أصغيتم إلى الميثاق الذي دعوتكم إلى التوقيع عليه، وها أنتم وقَّعْتَمْ وذلك عندما قلتم: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، إذاً فأنتم مطالبون بالتطبيق.

يقول لهم أيضاً: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠]. ﴿أَوْفُواْ بِعَهْدِي﴾ الذي وقَّعْتُمْ عليه عندما قلتم: آمنا أُوفِ أنا بِعَهْدِي تجاهكم بإرسال النعم وحمايتكم من كل سوء وإعطائي لكم الأجور التي وعدتكم بها.

عندما يخاطب ربنا سبحانه وتعالى الشاردين عن هذا التوثيق، الشاردين عن الإيمان به يقول لهم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾، وعندما يخاطب الذين آمنوا به ويدعوهم إلى تطبيق مقتضيات الميثاق يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ﴾، فاسمعوا ولاحظوا الفرق. ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [يونس: ١٠٨]. هذا خطاب للناس جميعاً يدعوهم فيه إلى التوقيع على ميثاق العبودية لله ومعرفته. ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾ [يونس: ٥٧]. ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١].

ألاحظتم؟ الخطاب موجه إلى الناس الذين لم يقعوا بعد على صك عبوديتهم لله، وعلى صك معرفتهم لله عز وجل، لا يطالبهم الله إلا بشيء واحد، يطالبهم بالتوقيع على هذا الميثاق، فإن وقَّعوا فيطالبون بعد ذلك بالتنفيذ وإن لم يوقعوا تركهم وشأنهم لعقابهم الذي ينتظرهم يوم القيامة.

أما الذين آمنوا وصدَّقوا ووقَّعوا على صك هذا الميثاق بينهم وبين الله عز وجل، وقَّعوا على صك عبوديتهم لله وألوهية الله واحداً لا شريك له، وقَّعوا على الحقوق المترتبة في ذممهم وأعناقهم تجاه الله عز وجل فيخاطبهم قائلاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١]. أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ التي التزمتم بها. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣].

وهكذا، لا يقول لهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ﴾ إلا ليذكِّرهم بالعهد الذي وقَّعوا عليه تجاه ربهم وخالقهم، يخاطبهم بـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ﴾ ليدعوهم إلى تنفيذ هذا العقد.

إذا تبيَّنَ لنا هذا – أيها الإخوة – فأعود فأقول: أما نحن المسلمين المؤمنين بالله فلقد وقَّعْنا العقد، وقَّعنا صك عبوديتنا لله وأعلنا عن هويتنا عبيداً مملوكين لله ووقعنا على حقوق الله عز وجل علينا ووقَّعنا على أننا منقادون لشريعة الله وأمره، فإذا أعرضنا بعد التوقيع عن أوامر الله عز وجل، أعرضنا بعد التوقيع عن الواجبات التي واثقنا الله بها إذ قلنا سمعنا وأطعنا نستحق عندئذٍ العقاب في دار الدنيا قبل يوم القيامة كما توعَّدَ وكما بيَّنَ في محكم تبيانه.

أما أولئك الناس الذين لم يوقِّعوا على صك هذا العقد وأعرضوا عن دعوة الله عز وجل لهم ليوقِّعوا على صك عبوديتهم لله وليوقِّعوا على بالغ حقوق الله في ذممهم وليوقِّعوا على ضرورة تنفيذ شرائع الله وأمره في حياتهم فإن الله عز وجل لا يكلمهم ولا يخاطبهم ولا يأمرهم بتنفيذ ما لم يوقِّعوا عليه، لا يأمرهم بتنفيذ الشرائع التي لم يتعرفوا عليها، وهذا من أدق مظاهر عدالة الله عز وجل.

بل أقول لكم شيئاً آخر يا عباد الله. لو أن هؤلاء الذين لم يوقِّعوا على صك العبودية لله وعلى التزامهم بتنفيذ أوامر الله، لو أنهم تركوا الخمرة ولو أنهم تركوا المعاصي كلها أفيثيبهم الله عليها؟ أفيجزل الله لهم الأجر على شيء من ذلك؟ أبداً، لن يثيبهم على شيء من ذلك. كما أنهم لن يثيبهم على تنفيذ شيء لم يوقِّعوا مع الله على صك العبودية لله لهم فكذلك لا يعاقبهم في دار الدنيا أيضاً.

هؤلاء الذين يعيشون في الغرب، نعم إنهم يتقلَّبون في حمأة الرذائل، إنهم يتقلبون في بحار متلاطمة من المعاصي ولكن لماذا يلاحقهم الله عز وجل ولماذا يعاقبهم على ذلك وهم لم يوقِّعوا على الصك الذي دعاهم الله سبحانه وتعالى إلى التوقيع عليه، لم يقولوا: آمنا بك يا إلهنا وها نحن خاضعون لتطبيق أمرك، لم يقولوا: ها نحن مؤمنون بالرسل والأنبياء الذين ابتعثتهم وها نحن مؤمنون بقرآنك حتى يخاطبهم الله ويحاسبهم على عدم تنفيذ أوامر الله الواردة في هذا القرآن، لم يوقِّعوا، هؤلاء لم يلتزم الله أن يعاقبهم في دار الدنيا وإنما التزم أن يعاقبهم على عدم توقيعهم صك عبوديتهم لله يوم القيامة.

أما نحن المسلمين، أما نحن المؤمنين، أما نحن الذين نتلوا كتاب الله آناء الليل وأطراف النهار أو نصغي إلى كتاب الله عز وجل يُتلى على مسامعنا في كل مناسبة ووسائل إعلامنا المسموعة والمرئية، أما نحن الذين نقول صباح ومساء: إننا مؤمنون بك وبوحدانيتك، مؤمنون بقرآنك فلا شك أن الله عز وجل يلاحقنا بتنفيذ هذا الذي وقَّعنا عليه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١].

عقدٌ وقَّعتموه، عقد وصكٌّ مثبت في أعناقكم إذاً ينبغي أن توقعوه، وقَّعنا على هذا الصك فإذا أعرضنا بعد ذلك عن مقتضى التنفيذ، إذا أعرضنا بعد ذلك عن أوامره، إذا انحططنا بعد ذلك في الأوزار التي حذرنا الله عز وجل منها عندئذٍ نستحق العقاب الدنيوي. وهذا فرق دقيق ولكنه واضح، فرق ما بيننا نحن المسلمين الموقعين لصك العبودية لله والإيمان به إلهاً واحداً والإيمان بكتبه ورسله وأنبيائه وبين أولئك الشاردين الذين لم يوقعوا على هذا الصك أبداً.

هل أزيدكم بياناً أيها الإخوة لهذه الحقيقة؟

أرأيتم إلى هيئة الأمم المتحدة تنتهي إلى وضع مشروع تريد أن تلزم به الدول المختلفة، ماذا تصنع؟ ترسل هذا المشروع إلى البلاد العربية أو غير العربية المختلفة لكي يروا رأيهم في هذا المشروع، فالذين وقَّعوا على الموافقة يلاحقون بضرورة التنفيذ، والذين لم يوقعوا على الموافقة وأعلنوا أنهم غير مقتنعين به فإن هذه الهيئة الدولية لا تلاحقهم وليس من حقها أن تلاحقهم.

عدالة الله عز وجل في حق عباده — يا عباد الله — دقيقة وعجيبة ولكني أعود فأقول: ترى هل أنا بحاجة إلى أن أجيب عن هذا السؤال مرة ثالثة ورابعة وخامسة؟ أغلب الظن أنني سأحتاج إلى ذلك لأن الذين يطرحون هذا السؤال لا نراهم في مثل هذا المكان ومن ثم فإنهم يشفون غليلهم بطرح السؤال، يحركون ألسنتهم بذلك ولكنهم لا يوجهون آذانهم إلى الإصغاء إلى الجواب.

أما ما يتعلق بالحضارة الغربية لماذا تألقت وأما حضارتنا الإسلامية لماذا خابت وتراجعت فلهذا السؤال جواب آخر أجبت عنه أيضاً في مرة من المرات من هذا المكان ولكني سأعود فأجيب مرة أخرى عن هذا السؤال لنزداد ثقة بعدالة الله ولنزداد ثقة برحمة الله التي تجاوزت حدود هذه العدالة.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم فاستغفروه يغفر لكم.

٥٦- سبب عداوة الشيطان للإنسان والعاصم منها | ٢٠١١/١٠/٢١

ما قرأت في كتاب الله تعالى تحذيراً أبلغ ولا أجلى ولا أخطر من قوله عز وجل وهو يخاطب عباده قائلاً: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ، إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٥-٦].

ولكن لابد أن يتساءل كل منا يا عباد الله فيم جعل الشيطان من نفسه عدواً للإنسان؟ لماذا جعل الشيطان من نفسه خصماً لدوداً للإنسان كما يقول الله عز وجل وكما يحذرنا من عقابيل مكره وعدوانه؟ لقد أجاب بيان الله عز وجل عن ذلك، ولكن قبل أن أذكر لكم جواب الله عز وجل أجيب عما قد يخطر في البال بالنسبة لكثير من الناس، لعل فيهم من قد يقول: وأين هو هذا الشيطان؟ ولماذا لا نراه؟ لقد أجاب بيان الله عز وجل عن ذلك سلفاً وذلك عندما قال: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧].

ومتى كانت العين ميزان لما هو موجود ومفقود؟

أجل تعالوا إذاً نصغي السمع إلى السبب الذي بيّنه الله عز وجل لعداوة الشيطان للإنسان، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ، قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ، قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١١-١٣].

ذلك هو السبب الذي دعا إبليس إلى أن يعلن عداوته لك يا ابن آدم، لأنه رأى أن الله عز وجل طرده من حظيرة رحمته ومن واسع فضله ومِنَنِهِ وأعلن طردَهُ من رحمته ولعنَتَهُ من ألطافه في سبيلك أنت لأنه استكبر عليك فلم ينفذ أمره إذ كرَّمَكَ وأمر ملائكته بالسجود لك في شخص آدم سجود تكريم لا سجود عبادة، فهذا هو سبب العداوة التي يُكِنِّهَا الشيطان لهذا المخلوق، ومن أجل ذلك يقول ربنا محذراً: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

ولكن فما هو العاصم يا عباد الله من عداوة هذا المخلوق الذي استكبر على الله ومن ثم استكبر عليك يا ابن آدم؟ اسمعوا بيان الباري عز وجل وحديثه عن العاصم الذي يعصمك يا ابن آدم من عداوة الشيطان ومكائده، يقول الله عز وجل حكاية لخطابه الذي أجاب به إبليس إذ أعلن استكباره على الإنسان لأنه مخلوق من نار والإنسان مخلوق من طين: ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ، إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤١-٤٢].

متى قال الله عز وجل لإبليس هذا؟ عندما توعَّدَكَ يا ابن آدم ألا يألو جهداً في أن يزجك في أسباب الشقاوة والطغيان، عندما آل على نفسه ألا يألو جهداً في أن يجعلك شريكاً معه في اللعن الذي حاق به من قبل الله عز وجل وذلك عندما قال: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ، ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٦-١٧]. عندئذٍ أجابه بيان الله قائلاً: ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ، إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤١-٤٢].

ولكن هذا الكلام يضعنا أو يزجنا أمام إشكال خلاصته أن الناس كلهم عبادٌ لله، كلهم بما فيهم الفجرة والطغاة والمارقون والمؤمنون والملحدون، كلهم مصطبغون بصبغة العبودية لله، أيقنوا بذلك أو جحدوا، فهل هذا يعني أن كل الناس إذاً مُحَصَّنون ضد عداوة الشيطان؟ هل معنى ذلك أن الشيطان لن يستطيع أن ينال منهم منالاً؟ لا يا عباد الله، ليس هذا معنى كلام الله عز وجل، إن معنى قوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ أي إن كل من تحقق بمعنى العبودية لي ودخل مدخل هذه العبودية باختياره وطوعه متحققاً بهذا الوصف الذي أقمته فيه ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾.

إذاً هنالك في الناس فريقان؛ فريق أعرض عن واقع عبوديته لله عز وجل وذهل عنها كما ذهل الشيطان وعاش متجاهلاً مستكبراً عليها، ليس الحديث عن هؤلاء في هذا الذي يقوله الله عز وجل ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾، وإنما الحديث عن الفريق الثاني وهم أولئك الذين وضعوا عبوديتهم لله موضع التنفيذ، عرفوا هوياتهم مملوكين عبيداً لله سبحانه وتعالى ودانوا من ثم لله عز وجل بذل العبودية له، هؤلاء هم الذين يقول الله عز وجل عنهم: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾، كيف؟ أفيكونون

معصومين من الذنوب؟! لا يا عباد الله، نحن نعلم أن الناس كلهم كانوا ولا يزالون خطائين، حاشى الرسل والأنبياء، إذاً ما معنى قوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾؟

معنى هذا أن كل من دان بالعبودية لله وعلم أنه مخلوق لله عز وجل الواحد القهار، وعلم أن له وقفة بين يدي الله عز وجل لها ميقاتها الذي لن يتقدم ولن يتأخر، كل من علم هذه الحقيقة واصطبغ بها، مهما ارتكب من المعاصي لابد أن يقوده شعوره بذل العبودية لله إلى التوبة، إلى الإنابة، إلى الندم بين يدي الله عز وجل وعندئذٍ يلقى إلهاً تواباً رحيماً، وصدق الله القائل: ﴿وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

وأضعكم أمام صورة هذا العبد الذي دان بمعنى العبودية لله ووضع عبوديته لله موضع التنفيذ، قد تزل به القدم، قد تهتاج به رعوناته، أهواؤه فيرتكب محظوراً نهى الله عز وجل عنه لكنه ما إن يتجاوز هذا المنكر الذي اقترفه حتى تستيقظ مشاعر عبوديته لله فيعض على أكف الندم ويقوده الندم خجلاً إلى باب الله عز وجل يعلن التوبة وعندئذٍ يتوب الله عز وجل عليه، يمشي أياماً أو ساعاتٍ ربما وتزل به القدم مرة أخرى وتهتاج به النفس الأمارة بالسوء ويمكر به الشيطان ويدعوه ويغريه فيقع الثانية في المعصية، ثم إن عبوديته لله تقوده بعد ذلك مرة ثانية إلى الإنابة والتوبة ولن يجد إلا رباً غفوراً رحيماً، ومهما عصى الله عز وجل فإن عبوديته – مادام أنه قد وضعها موضع التنفيذ ودان لها – لابد أن تقوده إلى محراب التوبة والإنابة لله عز وجل، ومن ثم فإن الشيطان يفرح في الساعة الأولى إذ زجَّه في المعصية واستطاع أن يكيد له ولكن الفرحة ما تلبث أن تتحول إلى أسى وخيبة أمل إذ يجد أن هذا العاصي قد تاب إلى الله وأن الله عز وجل قد تاب عليه. واسمعوا – يا عباد الله – هذه الحقيقة كيف يصورها لنا بيان الله في هذا الحديث القدسي المتفق عليه:

يروي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ربه قائلاً: يقول الله تعالى: أذنب عبدٌ ذنباً – نموذج لمئات الملايين من أمثاله – فقال أي رب لقد أذنبت ذنباً فاغفر لي ذنبي، قال الله: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به فقد غفرت لعبدي، ثم أذنب ذنباً ثانياً فقال: أي رب لقد أذنبت ذنباً فاغفر لي ذنبي، قال الله عز وجل: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به فقد غفرت لعبدي، ثم إنه يذنب ذنباً ثالثاً

فيقول: أي رب لقد أذنبت ذنباً فاغفر لي ذنبي، قال الله عز وجل: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به فليفعل عبدي ما يشاء فقد غفرت له.

إياكم أن تتصوروا معنى خاطئاً لهذا الكلام الذي يرويه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ربه، فيقول قائل منكم إذاً فلنفعل ما شئنا من المعاصي فلقد أعلن الله عز وجل لنا التوبة سلفاً، لا ليس هذا معنى كلام الله، ولكن معنى هذا الكلام أن هذا العبد إذا كان شأنه هكذا كلما ارتكب معصية ساقته الندامة الحقيقية إلى التوبة والإنابة إلى الله فلسوف يجد رباً تائباً تائباً مهما عصى الله عز وجل لكن بشرط أن تكون إنابته إلى الله إنابة صادقة وأن يعزم على ألا يعود، ولكن مهما أطغاه الشيطان ومهما كاد له ومهما نجح في الكيد فإن التوبة تمحو السيئات كلها يا عباد الله.

هذا هو العلاج يا عباد الله، علاجنا الذي ينبغي أن نتخذه ضد مكائد الشيطان، علاجنا الذي ينبغي أن نستعمله أمام هذا التحذير الذي يحذرنا به بيان الله عز وجل أن نغذي مشاعر عبوديتنا لله وألا نستكبر على الله عز وجل كي لا نقع في الداء الذي أهلك الشيطان وكان سبباً لطرد الله سبحانه وتعالى له من رحمته وفضله.

إننا ينبغي أن نعلم أن الله سبحانه وتعالى قد سبقت رحمته غضبه وأن الإنسان ليس بينه وبين أن يلقى رباً كريماً غفوراً رحيماً إلا أن يكون صادق الالتجاء إلى الله، ليس بينه وبين هذه السعادة إلا هذه الخطوة، وانظروا إلى هذا الحديث الصحيح الذي يرويه مسلم في صحيحه من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: بينا نحن عند رسول الله إذ أُتِيَ بأسرى – في أعقاب حرب كانت آنذاك – ونظرنا فوجدنا امرأة تركض في هلع بين الأسرى تبحث عن شيء، ثم إنها وقعت على طفل صغير أخذته وألصقته بصدرها وأخذت ترضعه، قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿أترون إلى هذه المرأة أملقية وليدها في النار؟ قلنا لا والله يا رسول الله، قال: لَلّه أشد رحمة بعباده من هذه بوليدها﴾. نعم لَلَّه أشد رحمة بعباده من هذه بوليدها.

ولكن ما المعنى العميق لهذا الكلام؟ أي كن يا ابن آدم في علاقتك مع الله وصلتك بالله كهذا الطفل في علاقته بأمه تجد رباً رحيماً غفوراً كريماً يصفح عنك ويغفر الذنوب كلها، أي أن الطفل مهما كان

يتصف بالشقوة أشكالاً وأنواعاً، مهما رأيته يكسر ويخرب ويفعل، ماذا يكون شأنه إذا طاف به خطر؟ ماذا يكون من شأنه إذا أقبلت إليه مخافة؟ يلجأ رأساً إلى أحضان أمه، يلجئ إليها ويتشبَّثُ بها.

كن في واقعك كهذا الطفل، عندما ترتكب المعاصي وتشعر بثقلها على كاهلك وأنت تمضي إلى ديان السموات والأرض كن كهذا الطفل في التجائك إلى الله كما يلتجئ هو إلى أمه، كن كهذا الطفل عندما تطوف بك الأخطار، الابتلاءات، المصائب الدنيوية أو الأخروية المختلفة، كن كهذا الطفل إذ يلتجئ في مثل هذه الحال إلى أمه تلتجئ إلى ربك، تصلح ما بينك وبينه، إذاً ستجد رباً غفوراً رحيماً كريماً.

لكن أرأيت إلى من يستكبر على الله في الرخاء، في الشدة، عند الابتلاءات، عند المحن، عند المنح ولا يتعرف على الله، أرأيتم طفلاً صغيراً هكذا يكون شأنه.

عباد الله: هذا هو الداء وذلك هو التحذير وهذا هو العلاج الذي يضعه أمامنا بيان الله عز وجل.

والآن تعالوا نقف أمام هذه الصورة من العتاب الرقيق المذيب لإنسانية الإنسان عندما تكون يقظة ظاهرة، عتاب رقيق رباني، ما وقفت في يوم من الأيام وأنا أتلوا كتاب الله عنده إلا وأعدته مثنى وثلاث ورباع وأنا أشعر بالألم الشديد والحياء الكبير من الله، اسمعوا قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاء مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾ [الكهف: ٥٠].

أتأملتم في هذا العتاب؟ أنا طردت إبليس في سبيلكم عندما كَرَّمْتُكُم، لعنته من أجلكم، والآن تعرضون عني وأنا الرب الرحيم المكرِّمُ لكم وتتخذون من هذا العدو الذي طردته في سبيلكم تتخذونه ولياً من دوني! ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاء مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾

أقول باسمي وباسمكم: لا يا مولانا، لا يا رب العالمين ما اتخذنا الشيطان ولياً من دونك قط، أنت ولينا في الدنيا والآخرة، أنت ولينا، لكنه الضعف الذي ابتليتنا به يجعلنا نقع في مكائد الشيطان والنفس والهوى ولكنا لا نلبث أن نتوب وأن نؤوب إليك يا ذا الجلال والإكرام.

ربنا القائل: ﴿اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وها نحن مؤمنون بك، أخرجنا من ظلمات نفوسنا، أخرجنا اللهم من ظلمات أهوائنا، أكرمنا بنور المعرفة، بنور الهداية والعرفان.

اللهم ثبتنا على هذه الحقيقة التي ندين لك بها في دنيانا إذا آل الناس إليك وإذا وقفوا بين يديك.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.



٥٧- مَعين حرية الإنسان عبوديته لله | ٢٠١٢/٠٤/١٣

كما أن الحنطة لا تستحصد سنابل إلا بعد أن تبذر حباً في طوايا التراب وكما أن الثمار لا يتم الحصول عليها إلا بعد أن تبذر شتلاً فشجراً في عالم الحقول والبساتين وكما أن الفرع لا يمكن أن يوجد إلا من أصله وكذلكم الحرية التي متع الله سبحانه وتعالى الإنسان بها لا تتحقق إلا في ينبوع العبودية لله سبحانه وتعالى، لا تتحقق إلا في أصلٍ بينه وبين الحرية منتهى التلازم ألا وهو عبودية الإنسان لله عز وجل.

ولعل فينا من يتساءل أهي حقيقة عبودية الإنسان لله حتى نفهم هذا التلازم بين العبودية أصلاً وحرية الإنسان فرعاً لها؟ نعم يا عباد الله، وخير دليل وأخصر دليل على أن الإنسان عبدٌ أياً كان لله عز وجل أن الله عز وجل متعه بنعم شتى متنوعة ومختلفة ولكنه لا يملك استقداماً لها كما أنه لا يملك استبقاءً لها، إنه ينفعل بها ولا يفعل شيئاً منها باختياره، هذا ينطبق على نعمة الفكر، أنت تنفعل بالفكر ولا تفعله، لا تعلم كيف أقبلت إليك هذه النعمة ولا تستطيع أن تستبقيها عندما تودعك، كذلكم نعمة النطق، نعمة السمع، نعمة البصر، نعمة الرقاد، نعمة اليقظة بعد الرقاد، كل ذلك متع يتمتع بها الإنسان منفعلاً بها ولكنه لا يملك أن يكون الفاعل لشيء منها، علام تدل هذه الظاهرة يا عباد الله؟

إنها تدل على أن الإنسان جهاز استقبال فليسأل هذا الإنسان من أين يأتيه الإرسال. أنت مجرد جهاز استقبال، وإذا تأملت وجدت أن الإرسال يأتيك من لدن واحد لا ثاني له ألا وهو الخالق الأوحد سبحانه وتعالى، أليست هذه الظاهر كافية دليلاً على أن العبد الإنسان مصطبغ بحقيقة العبودية لله سبحانه وتعالى؟ إذاً فتعالوا نعود فنقول إن الإنسان لا يملك حريته التي ينبغي أن يعتز بها إلا بعد أن يغرس في طوايا قلبه شجرة العبودية لله عز وجل وإلا بعد أن يصطبغ بهذه العبودية كيانه وتهيمن على شعوره عندئذٍ تثمر هذه الشجرة – شجرة العبودية لله – ثمار العبودية الحقيقية.

ومن أراد أن يبحث عن الحرية فليبحث عنها في طوايا عبودية الإنسان لله، إن تاه عن هذا المعين لن يعثر عن هذه الحرية قط، إذا علم الإنسان أنه عبد مملوك لله وإذا تحققت هذه المعرفة يقيناً في عقله ثم

هيمنت وجداناً على قلبه وكيانه فإنه يملك حرية حقيقية تامة لا يملكها أحد غيره إلا من اتصف بالصفة التي متعه الله عز وجل بها، الإنسان الذي دان بالعبودية لله، هيمنت العبودية ثقة بالله على كيانه ويقيناً بأنه وحده النافع والضار وبأن منطلقه إلى الحياة منه وأن مرده بعد الحياة إليه لا يمكن أن يهون لطاغية ولا لباغٍ قط، ذلك لأن عبوديته إنما هي لله سبحانه وحده، لا يمكن أن يمارس طغياناً ولا بغياً في جنبات الأرض لأن عبوديته لله تصده عن ذلك فهو يتطامن وينزل عن مستوى الطغاة والبغاة والظالمين إلى مستوى الإنسانية إن كانت لديه قوة تدفعه إلى ذلك العلو، وهو يتسامى من وهدة الذل والضعة إلى مستوى الإنسانية الباسقة إن كان قد ابتلي بضعف في كيانه أو فقر في امتلاكه.

وهكذا فإن العبودية لله عز وجل تنزل بالمتألهين إلى مستوى الإنسانية وترفع النازلين والواقعين في وهدة الذل إلى مستوى هذه الإنسانية ذاتها. هذا ما تفعله العبودية إذا ترسخت جذورها في قلب الإنسان وإذا هيمنت على كيانه كما قلت لكم وجداناً أيها الإخوة.

هذا الإنسان الذي اصطبغ كيانه بذل العبودية لله لا يمكن أن يصبح عبداً لشهواته وأهوائه، يتحرر منها، لا يمكن أن يصبح عبداً لنفسه الأمارة بالسوء، لا يمكن أن تقوده إلى مهاوي الذل، لا يمكن للأطماع أن تنزل به عن مستوى الإنسانية الكريمة إلى مستوى الذل والمهانة استجابة لطمعه، استجابة لرغباته، لا يمكن للإنسان الذي هيمنت مشاعر العبودية لله عز وجل على كيانه لا يمكن أن ينقاد لمعصية حرمها الله سبحانه وتعالى عليه، يتصارعان كل من عقله ورعوناته ولكن حريته تجعله يتغلب على رعوناته لمصلحة عقله، والحر هو من يستجيب دائماً لنداء العقل ويتسامى فوق نداء الشهوات والأهواء دائماً.

هذه حقيقة أيها الإخوة والواقع خير شاهد على ذلك. وكم في القرآن من شواهد عجيبة وبليغة يضعنا بيان الله عز وجل أمامها لنعلم أن أول ثمرة من ثمار العبودية لله عز وجل هي الحرية، هي الكرامة التي تأبى على صاحبها أن يهون للطغاة وأن يهون للظالمين أياً كانوا. انظروا إلى هذا المشهد، مشهد سحرة فرعون عندما كانوا تائهين عن الحق، عندما كانوا تائهين عن هوياتهم عبيداً لله عز وجل، كانوا يعيشون أذلاء مهينين تحت سلطان فرعون، ولما استدعاهم فرعون لمباراة بينهم وبين معجزات سيدنا موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام بدؤوا أعمالهم السحرية قائلين: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ [الشعراء: ٤٤].

تأملوا المهانة، هم الذين يمارسوها ومع ذلك يقول أحدهم ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾. لكن ماذا كانت العاقبة؟ بعد أن تبينوا شخصية موسى وبعد أن تبينوا الفرق بين السحر الوهمي الخادع وبين المعجزة الربانية الهابطة من السماء وبعد أن عرفوا صدق سيدنا موسى تنبهوا إلى هوياتهم وعرفوا أنفسهم وتبينوا أنهم عبيدٌ لله وليسوا عبيداً لفرعون. انظروا إلى الوضع الجديد الذي آل إليه هؤلاء السحرة ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً﴾ [طه: ٧٠]. بعد أن تبينوا الحقيقة ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ [طه: ٧٠]. ﴿قَالَ﴾ أي فرعون: ﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى، قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا، إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: ٧١-٧٣].

تأملوا في موقف هؤلاء السحرة قبل أن يكتشفوا هوياتهم عبيداً مملوكين لله الواحد الأحد وكيف كانوا يقولون ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ ثم إلام آل أمرهم وكيف تفجرت الحرية من كياناتهم وكيف تفجرت الكرامة من مشاعرهم عندما عرفوا أنفسهم مملوكين لله لا لهذا الوغد، عندما عرفوا أنفسهم عبيداً لمن خلقهم، لم يؤثر فيهم التهديد، لم يؤثر فيهم الوعيد قط ﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾.

هذا مشهد من المشاهد الكثيرة التي يبرز البيان الإلهي من خلالها ما تفعله عبودية الإنسان لله عز وجل، هذا مشهد من المشاهد الكثيرة التي يخاطب البيان الإلهي من خلالها عباده قائلاً إذا أردتم أن تبحثوا عن الحرية فابحثوا عنها في معين عبوديتكم لي، ابحثوا عنها في كنز هذه العبودية، لن تعثروا عليها إلا إذا عرفتم هوياتكم وأدركتم مملوكيتكم لواحد لا لغيره، عندئذٍ تعلمون أنه هو النافع وهو الضار وهو المعطي وهو المانع وهو المحيي وهو المميت، لماذا أهون ولماذا أُذَلُّ لمن هو عبد مثلي.

أيها الإخوة: في الناس من يهتفون اليوم بالحرية، وفي الناس – ويا للعجب – من يريدون أن يضيفوا أصلاً إلى شريعة الله عز وجل بعنوان الحرية وكأن هؤلاء الناس لا يعلمون أن الفرع لا يُستولَد إلا من أصله، وأصل الحرية الحقيقية إنما يكمن في عبودية الإنسان لله سبحانه وتعالى، فمن عرف نفسه عبداً لله وأيقن

ذلك وهيمنت هذه العبودية وجداناً على كيانه وقلبه امتلك ناصية الحرية بكل معنى الكلمة في كل ما يتعلق في شؤونه وأحواله.

دعوني أضع أمامكم هذا المشهد الآخر: واحد من العلماء الربانيين الذين كانوا في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، اشترك بالحرب العالمية الأولى وسيق أسيراً إلى معسكرات القياصرة الروس، في يوم من الأيام دخل ضابط إلى معسكر هؤلاء الأسرى وأخذ يجوب فيما بينهم، كان كلما مر بفئة قاموا احتراماً له، لما وصل إلى هذا العالم الرباني الجليل الذي كان يُلقب ببديع الزمان لم يتحرك ولم يقم له، التفت إليه قائلاً: لعلك لا تعرفني، قال: بل أنا أعرفك، أنت ذاك الذي يُقال له نيقولا، قال: فأنت تستهين إذاً روسيا، قال: لا أنا لا أستهين ولكن الإله الذي أنا عبده يمنعني أن أهون لغيره، حكمت عليه المحكمة الميدانية بالقتل، ولما جيء به لتنفيذ الحكم نظر إليه ملياً ثم دنا إليه وربت على كتفه قائلاً: إنني معجب كل الإعجاب بدين أعزك إلى هذا الحد.

عباد الله كم هي جليلة نعمة الله علينا، كم هي جليلة نعمة كنز العبودية لله، كم هي جليلة نعمة مملوكيتنا لله عز وجل، عبوديتنا لله هي عنوان حريتنا بالنسبة لغير الله عز وجل، من هذا الذي يستطيع أن يذلك وأنت واقف بباب الله عز وجل معتز بعبوديتك لله سبحانه وتعالى، فليعلم هذا الذي يبحث ثم يبحث ثم يبحث في طوايا الشريعة الإنسانية عن كلمة الحرية فليعلم أنها مطوية في كنز العبودية لله سبحانه وتعالى، فلا يطيلن البحث في ذلك. ونحن عندما نعالج قضايانا على اختلافها إنما ننطلق في معالجتها من يقيننا بعبوديتنا لله عز وجل، ذلك هو كنزنا وذلك هو سلم الرقي في حياتينا الأولى والثانية علم ذلك من علم وجهله من جهل، أما أولئك الذين تاهوا عن عبوديتهم لله فانظر إليهم تجد أن كل واحد منهم عبدٌ للدرهم، عبدٌ للدينار، عبدٌ لبنائه الذي يشيده، عبدٌ لسيارته، عبدٌ لأهوائه، عبدٌ لمركزه، أليس كذلك، صدق رسول الله القائل: ﴿تعس عبد الدرهم، تعس عبد الدينار، تعس عبد الخميصة، تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش﴾ أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

٥٨- عبادة بلا عبودية لا تنفع صاحبها | ٢٠١٢/٠٨/١٧

فلقد سألني أحدهم كيف السبيل إلى أن نعلم أن الله عز وجل قد تقبل منا صيامنا وقرباتنا وقيامنا ومناسكنا على الرغم مما نعلمه من التقصير الكبير الذي حُمِّلْنَاه، هل من سبيل إلى ذلك؟ ولعل من الخير يا عباد الله أن أفصل الموجز الذي أجبت به عن هذا السؤال الذي ذكرته لكم، ولعل هذا المقام خير مناسبة للتفصيل للإجابة عن هذا السؤال. أيها الإخوة: إن الله عز وجل لا يحتاج إلى شيء من عبادات عباده، لا يحتاج إلى صيام يصومونه ولا إلى صلاة يقيمونها ولا إلى مجالس ذكر ولا أن يتجهوا حجاجاً إلى بيت الله الحرام، هو ليس بحاجة إلى ذلك، وصدق الله القائل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

ولكن الله يحب من عباده أن يتحققوا بهوية العبودية الكامنة في كياناتهم، يحب لهم أن يتحققوا بمعنى مملوكيتهم لله سبحانه وتعالى، بصفة الذل، المسكنة، الفقر، الاحتياج في كل الحالات والتقلبات إلى الله سبحانه وتعالى، ويحب لهم أن يُفَعِّلُوا هذه الهوية في حياتهم وفي سلوكهم، فما هو السبيل التربوي لإيقاظ مشاعر هذه العبودية الكامنة بين جوانحهم، السبيل الذي شاءه الله عز وجل هذه العبادات، الصيام يوقظ مشاعر الذل والمملوكية والعبودية لله عز وجل، كذلكم الصلاة، كذلكم سائر العبادات المتنوعة. فإذا توج الإنسان عبادته أياً كانت بالضراعة لله سبحانه وتعالى – الضراعة الحقيقية لا التقليدية – وأعلن عن عجزه وضعفه وذله ومسكنته لله سبحانه تعالى فلاشك أن الله عز وجل يقبل، هذه حقيقة لا مرية فيها.

بل إنني أقول لكم: إن التائه عن صراط الله سبحانه وتعالى والموغل في المعاصي إذا استيقظت بين جوانحه مشاعر عبوديته لله ومملوكيته وذله لله سبحانه وتعالى فراح يلتصق بأعتاب الله عز وجل باكياً متضرعاً يشكو إلى الله عجزه، يشكو إلى الله عز وجل أنه يريد أن يستقيم ولكن نفسه الأمارة تتغلب عليه، يريد أن يسير على صراط الله لا يلتوي يميناً ولا شمالاً ولكن شهواته ترده وتصده، إذا كانت هذه هي حاله واستمر على هذا الوضع متضرعاً شاكياً عجزه إلى الله عز وجل وهو منصرف عن الطاعات،

موغل كما قلت في المعاصي فإنه يرحل إلى الله عز وجل مغفوراً له، نعم هذه هي الحقيقة التي ينبغي أن نعلمها يا عباد الله.

العبادات – ولاسيما الصوم – سبل تربوية لإيقاظ حقيقة مملوكية الإنسان لله أي لإيقاظ هويته، لإيقاظ عبوديته لله عز وجل، فإذا استيقظت في كيانك مشاعر عبوديتك لله عز وجل وساقتك إلى رحابه مستجدياً، مستغيثاً، متضرعاً، تسأله اللطف، تسأله المغفرة والعفو، تشكو إليه عجزك، فإن الله سبحانه وتعالى يقبل شكواك هذه ويقبلك من التائبين ويقبلك من عباده السعداء يوم القيامة، هذا هو جزء من الجواب عن السؤال الذي طرحه أحدهم عليّ، ولكن ينبغي أن نعلم أيها الإخوة أن من تتمة الإجابة عن هذا السؤال أن الإنسان المتعبد السائر على صراط الله، المتنسك الذي تتنوع حياته ما بين صلاة وصوم وذكر وتلاوة لكتاب الله عز وجل مبتعداً عن المحرمات ولكن لسبب ما لم توقظ عبادته مشاعر عبوديته لله عز وجل، بقيت حقيقة عبوديته، هويته، مملوكيته، ذله لله تعالى بقي ذلك كله مختنقاً أو راقداً، ماذا عسى أن تنفع هذا الإنسان طاعته؟ ماذا عسى أن تنفع هذا الإنسان عباداته؟

الحكمة من الصوم أو يوقظ الصوم بين جوانحك مسكنتك، ضعفك، عجزك لله عز وجل، والحكمة من الصلاة وأنت تخاطب ربك قائلاً: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] أن تستيقظ مشاعر انكسارك، مملوكيتك لله، فإذا لم تكن عاقبة العبادات التي وُفِّقْتَ لها إلا أنها زادتك استكباراً، زادتك إعجاباً بنفسك فلتعلم أن صلاتك بل عباداتك هذه لا تقربك إلى الله شروى نقير، ولتعلم أن معصية ذلك العاصي التي ساقته إلى رحاب الله والتي جعلته يئن والتي جعلته يستمطر العفو والمغفرة من الله، تلك المعصية التي ساقت صاحبها إلى رحاب الله بالذل والانكسار خير من طاعة هذا الإنسان.

وأقول لكم بحق: إن أنين العاصي ألماً من معصيته أحب إلى الله عز وجل من تسبيح المرائي المعجب بتسبيحه، ينبغي أن نعلم هذه الحقيقة، وإذا أدركنا ذلك فلنعلم أن كثيراً من العصاة والتائهين والمارقين ما كانت معاصيهم وانحرافاتهم في الحقيقة إلا سُلَّمَاً للبلوغ إلى مرضاة الله، كيف؟! كيف تكون المعاصي سُلَّمَاً لبلوغ مرضاة الله؟ الجواب هو ما قاله ابن عطاء الله السكندري: رب معصية أورثت ذلاً وانكساراً خير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً. الإنسان الذي لا يحب المعصية لكن نفسه تقوده إليها، لا يحب أن

يوغل في التيه والشهوات الآسنة لكن نفسه الأمارة تسوقه إليها، هذا الإنسان ملكوم، هذا الإنسان يعاني من ألم يسوقه إلى الله عز وجل يشكو به حاله.

عباد الله: أعلم رجلاً من ألي الفتوة المتشطرين، موغلاً في المعاصي وفي مقدمتها الشرب، ولقد علمت فيما بعد أنه كان إذا أظلم الليل وسكن وسكن كل من فيه دخل غرفته الخاصة به وأغلق الباب وراح يناجي الله عز وجل بأسلوب فتوته وها أنا أترجمها إلى العربية الفصحى، كان يخاطب الله خالياً في جنح الله يقول له: أي رب هذا الجدار الذي بيني وبينك متى تنسفه، هذا الجدار الذي يحجبني عنك متى تنسفه حتى أراك، لعلك تنتظر أن أكون أنا الذي يزيله؟ أنا عاجز يا رب، أنا ضعيف وأنت تعلم ذلك، أنا لا أملك شيئاً، إنني أنتظر بقوتك، برحمتك أن تنسف هذا الجدار الحائل بيني وبينك، ولعل مشاعر السكر كانت تطوف برأسه وهو يناجي ربه بهذا الكلام.

معصية ساقته إلى رحاب الله، معصية ساقته بالشكوى إلى الله فماذا قال له الله؟ قال له لبيك، نُسِفَ الجدار أخيراً بينه وبين المولى سبحانه وتعالى وتحول ذلك الإنسان التائه الموغل في المعاصي المرتكب للأوزار الذي لا يسقط كأسه عن يده تحول إلى أصلح الصالحين، تحول إلى أفضل المقربين، هذه الحقيقة أريد منكم أيها الإخوة أن نجني ثمارها تربية هامة لنا نحن، هذه الحقيقة التي أوضحها لنا الله وبينها لنا رسول الله وصدقها التاريخ تدعونا إلى أن نتأدب مع عباد لله جميعاً، تدعونا إلى أن لا نمد ألسنتنا بقالة السوء إلى إنسان رأيناه فاسقاً عاكفاً على المعاصي والأوزار، نظرنا إلى أنفسنا فوجدنا أننا مبرؤون من ذلك، ما ينبغي أبداً أن تحملني هذه المقارنة على أن أتباهى باستقامتي وأن أنظر نظرة شزراء إلى هذا العاصي التائه عن الله عز وجل، ما ينبغي أن أصفه بالصفات السيئة، ما ينبغي أن أتألى على الله عز وجل أنه حشو جهنم، ما ينبغي أن أقول إنه كافر وتائه وإنه غداً سيحشر مع التائهين ولسوف يكون عقابه جنهم وبئس المصير، لا يا عباد الله، أنت رأيت ظاهراً وخفيت عنك البواطن، لعل هذا شأنه مثل شأن ذلك الرجل ذي الفتوة المتشطرة الذي كان مرتكباً لسائر المعاصي والأوزار ثم إنه أصبح من أصلح الصالحين، أتعلم الغيب! أتدرك هذا! كم وكم من أناس رأيناهم في حياتهم التي عاشوها تائهين شاردين عن صراط الله ولكن تبين لنا فيما بعد أنهم قد خُتِمَ لهم بخاتمةٍ طيبةٍ يغبطهم عليها الصديقون.

يقول أحدهم أيها الإخوة وكان له صديق أيضاً مسرف على نفسه يقول: توفي صديقي هذا المسرف على نفسه الموغل في المعاصي، رأيته في الرؤيا، قلت له ما فعل الله بك؟ قال أوقفني بين يديه وقال بم جئتني أي أين هي الطاعات التي جئتني بها؟ قلت يا رب أنا عبد، أنا مملوك، أنا لا يتأتى مني شيء، أنا جئت أطلب من سيدي ومولاي ومالكي، أنا عبدك يا رب، أنا مملوكك يا رب، أنا لست مالكاً لشيء، جئت بفقري وذلي وانكساري عرياً عن كل شيء إلا من الأمل برحمتك فغفر لي. ما أدراك أن هذا الذي تسيء الظن به سيكون مصيره كمصير هذا الإنسان، نعم نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ولكن نحسن الظن، فما بالك بمن يطلق أحكام الكفر على من لم يرهم ولم يجلس إليهم ولم يتحدث معهم.

فلان من الناس يُسْأَلُ: هل يجوز أن نعلن فلاناً من الناس وقد مات ورحل إلى الله؟ قال: نعم يجوز لأنه كافر. هل رأيته يا أيها المفتي؟ لا لم أره، هل جالسته؟ لا. هل تذاكرت معه شؤون العقيدة؟ لا. إذاً فبأي حجة تفتي بجواز لعنه وبالحكم بكفره، ألا تعلم أن هذه الفتوى التي تصدرها هي فتوى أيضاً تقدمها للناس أن يتوجهوا بها إليك أيضاً، من حق أي واحد منهم أن يفتي الناس بلعنك أنت أيضاً نظراً إلى أنه يحكم بكفرك وهو لم يرك ولم يجلس إليك ولم يسمعك وهكذا يصبح مصدر الفتاوي الرغبات والأمزجة، وعندما تصبح الأمزجة هي مصدر الأحكام والفتاوى المتنوعة فلتنظر إلى مصير الوحدة الإسلامية كيف تتصدع وكيف تصبح صخرة الوحدة الإسلامية جذاذاً بمطرقة هذه الفتاوي العجيبة.

يا عباد الله: رب رجل رأيناه من الناسكين كانت عاقبته على النقيض من ذلك، ورب رجل رأينا حياته حياة التائهين والشاردين والمرتكبين فكانت عاقبته اللطف والمغفرة والرحمة، نعم أمسك عليك لسانك يا هذا وليسعك بيتك وابك على خطيئتك.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.



الدعاء

٥٩- الدعاء غاية لا وسيلة | ٢٠١٢/٠٨/١٩

بالأمس دعونا الله عز وجل وألحفنا في الدعاء أن يكرمنا الله عز وجل بهديتي الصوم والعيد، ولسوف نظل ندعو بذلك أيضاً، ولكن أخشى أن يكون في الناس من يربط الدعاء الذي نلتمسه ونتقرب به إلى الله عز وجل أخشى أن يكون في الناس من يربطون هذه الهدية التي نلحف بالدعاء متوجهين إلى الله بها بالصوم وبما قد وفقنا الله عز وجل له من قيام لياليه ومن الإقبال على تلاوة كتابه، أخشى أن يكون في الناس من يتصور أننا إذ ندعو الله عز وجل إنما نطلب منه هذا مقابل ذاك، وهذا ما ينبغي أن يكون، ليس هذا شأن العبد، نحن عندما ندعوه ونلحف بالدعاء أن يكرمنا الله عز وجل بالنعم وبهدية هذا الشهر وغير ذلك فإننا لا نبتغي أن يكون هذا جزاءً نطالب الله به مقابل صومنا مقابل عباداتنا، نحن عندما عاهدنا الله عز وجل من منطلق عبوديتنا له، عندما عاهدناه على أن نسير على النهج الذي شرع وعلى أن نلتزم بما أمر وننتهي عما نهى لم نعاهده جل جلاله على هذا بشرط، ليس العهد الذي أخذه الله عز وجل علينا وأخذناه على أنفسنا ليس مشروطاً بأي شرط كما هو الشأن بالنسبة للعهود والمواثيق التي تكون بين الناس بعضهم مع بعض يتواثقون مقابل، لكلٍ واجبٌ يدفعه وحق يقوم به، هذا شأن الناس بعضهم مع بعض أما ربنا جل جلاله فلقد عاهدناه على أن نمارس عبوديتنا له بدون شرط بدون أي قيد، ونستمر على العهد ونطبق ما قد التزمنا به سواءً أعطانا ما نريد أو لم يعطنا، استجاب دعاءنا أو لم يستجب، أكرمنا أو منعنا، بكل الأحوال نحن عبيد وفي كل الظروف نحن مكلفون بأن نؤدي ضريبة العبودية الكامنة في أعناقنا لله سبحانه وتعالى، ينبغي أن نعلم هذا ونحن عندما نقرن دعاءنا في نهاية شهر رمضان بالصوم فإنما نقرن لان الله هو الذي قرن، لأن الله عز وجل هو الذي وعد عباده الصائمين أن يكرمهم في نهاية هذا الشهر بهدية الصيام، هو الذي قرن فنحن إنما نقف صيامنا هذا بوعد الله عز وجل لنا بناءً على حبه لنا وليس بناءً على الطلب منا، هذه نقطة هامة جداً في أمور العقيدة ينبغي أن نتبينها.

فلا يقولن قائل ها نحن صمنا وها نحن صبرنا على شهر الصوم والجوع والظمأ وها هو ذا لم يعطنا الهدية التي طلبناها وألححنا عليه بإعطاءه إيانا، طلبنا منه الفرج بعد هذه الشدة وألححنا بالدعاء، أين هي هذه الهدية؟! لا يقولن قائل هذا، نحن ندعوه لا على وجه الطلب مقابل شيء بذلناه، ولكننا ندعوه لأن

الدعاء شأن العبيد، لا تتجلى عبودية الإنسان لله ولا تفوح رائحتها في حالة من الحالات كالحالة التي يقبل العبد بها إلى الله متمسكناً متذللاً متضرعاً يرجوه يسأله، فإن أعطى حمدناه وشكرناه وإن لم يعطي عرفنا وأيقنا أن الله عز وجل حكيم ورحيم، وعرفنا أننا عبيد في كل الأحوال، لنا أن نطلب وأن ندعو وعلينا أن نستجيب لأوامره في كل الأحوال، لا أقول علينا أن نصبر فقط بل علينا أن نرضى، أن نرضى بما قد قدر الله عز وجل وقرر، ولو أن الإنسان مارس عبوديته لله حقاً لتفجرت من مشاعر عبوديته لله مشاعر الحب لله عز وجل، وعندما يرقى العبد إلى مستوى المحبة لله بكل الأحول وفي كل الظروف فإنه يصل إلى أوج من السعادة لا يستطيع أن يصفها البيان ولا أن يترجمها اللسان، ينبغي أن نعلم ذلك.

أيها الأخوة، نحن مملوكون أم مالكون؟ الجواب أننا مملوكون لواحد لا ثاني له، والمملوك لا يستطيع أن يمتلك شيئاً، بل المملوك لا يستطيع أن يقرر شيئاً، المملوك مهمته الطاعة والخضوع لمولاه وخالقه سبحانه وتعالى، ثم شأن العبد للخالق عز وجل أن يعلم يقيناً أن كل ما يأتيه من عند الله عز وجل هو خير، فإما أن يتبين له مظهر خيرية هذا الشيء وإما أن لا يتبين له، كما يوضح ذلك ربنا في محكم تبيانه، كلما يفد إلينا من عند الله نعمة يا أيها الأخوة، لكن في نعم الله عز وجل ما هو مستبطن لا يتبين لنا مظهره وفيه ما هو ظاهر، ألم تقرؤوا قوله: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠]

فالابتلاءات نعمة والمصائب التي تطوف بنا نعمة، والفتن التي يبتلي الله عز وجل بها عباده بين الحين والآخر نعمة، لكنها نعم باطنة لها آثار حميدة لا نتبينها، والمحب لله عز وجل يخضع لسلطانه ويتلقى ما يأتيه من عند الله عز وجل راضياً ولا أقول صابراً فقط بل راضياً، هذا هو شأن العبد وهذا هو موقفه، ولكنا في الوقت ذاته نستجيب لأمر الله، ألم يقول: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]

إذاً نقول لربنا عز وجل أمرتنا أن ندعوك فها نحن ندعوك مع العلم بأنك لو أعطيتنا أو حرمتنا، متعتنا أو منعتنا، فنحن في كل الأحوال راضون وفي كل الأحوال نحن عبيدك ونحن على العهد في كل الأحوال، على أن الحب سيترجم لنا هذه الحقيقة ويبين لنا ويعيننا على أن نسلك هذا المسلك تماماً، أن نجمع بين أمرين: ندعو الله أن يرفع عنا مقته وعذابه وابتلاءاته وفي الوقت ذاته نعلن أننا راضون، أننا راضون بكل ما يقضي به وواثقون بأن في كل ما يأتينا من عند الله خير وإذا لم نكن نتبين ذلك فلنشكره على ذلك، نشكره على النعم التي نتبين معناها وظاهرها ونشكره على نعمه الخفية التي لا نتبين حكمتها.

وأضعكم أمام مثال، أرأيتم إلى مريض أقبل إلى طبيب يعرفه، يثق بحبه له، ويثق بإخلاصه له، ويثق بخبرته العالية في الطب، ألا ترون كيف يستسلم هذا المريض لمبضع طبيبه الجراح استسلاماً تاماً! وإنكم لتعلمون أنه قد يتأوه تحت مبضع طبيبه هذا ولكنه يشكره باللسان ذاته الذي يتأوه به، هذا شأن الإنسان مع الإنسان فكيف شأن الإنسان مع الله سبحانه وتعالى!!!

ثقتنا بالله عز وجل أجل أجل أجل بكثير من ثقة المريض بهذا الطبيب، وثقتنا بحبه لنا أكثر بكثير من ثقة هذا المريض بهذا الطبيب، ومعرفتنا بحكمة الله فيما يقضي وفيما يبرم أكثر من معرفة هذا الإنسان المريض بالطبيب، فلماذا إذا تأوهنا - ولنا أن نتأوه، الإنسان بشر - لكن لماذا لا نشكر الله عز وجل بنفس اللسان الذي نتأوه به كشأن هذا المريض!!!

تعالوا نعاهد الله في صبيحة هذا اليوم الأغر أن نعلن عن رضانا بكل ما يقضي وعن يقيننا بالحكمة التي تستبطن ابتلاءاته كلها على الرغم من أننا ندعوه أن يرفع مقته وغضبه عنا، وأن نهيج عوامل الحب لله عز وجل بين أفئدتنا لله، ولو اتسع الوقت وحدثتكم عن هذه العوامل وتعاملنا معها لرأينا أن كلاً منا يعشق واحداً لا ثاني له هو هذا الخالق سبحانه وتعالى مهما فعل مهما فعل بنا، نعم حبنا له أقوى وأشد من الابتلاءات التي تأتينا من عند الله عز وجل، العبد لله عز وجل ينبغي أيضاً أن يكون محباً لله، انظروا أيها الأخوة إلى هذه الصورة في شخص سيدنا معاذ رضي الله عنه وهو واحد من أجل أصحاب سيدنا رسول الله عندما وقع في سكرة الموت وأخذت سكرة الموت تأخذه وترده كان بين الحين والآخر يفتح عينيه ويقول مناجياً ربه: أي رب أخنقني خنقاتك وعزتك تعلم أن قلبي يحبك، أي رب اخنقني خنقاتك وعزتك تعلم أن قلبي يحبك، ونحن دعونا نقول: أي رب ابتلنا بما شئت فوعزتك تعلم أننا نحبك، من عرف الله أحبه، ومن أحب الله وثق به، ومن وثق بالله عز وجل هانت الخطب كلها والابتلاءات كلها، على أننا نظل ندعوه ولنظل نلحف بالدعاء لا استنزالاً لشرط شرطناه عليه ولكنه لأنه أمرنا. أقول قولي هذا وأستغفر الله.



٦٠- طغيان تحاشاه الإنسان صغراً ووقع به كبير | ١٩٩٤/٠٣/١٨

عندما لا يتمتع الإنسان المسلم بالضروري من العلوم الإسلامية المتعلقة بالعقائد والأحكام المختلفة، فإن كثيراً من نصوص كتاب الله عز وجل أو من نصوص السنة النبوية تكون سبباً لفتنته وضلاله عن صراط الله سبحانه وتعالى، وهذا دليل من الأدلة الباهرة على أن الإنسان المسلم الذي يريد أن يمارس إسلامه كما أمر الله سبحانه وتعالى لا بد له في ذلك من الاعتماد على العلم، ولا يغني عن العلم أي شيء آخر. وما أخطر بل ما أسوأ العاطفة الإسلامية عندما تسيح في أودية مطلقة لا يحدّها شيء من ضوابط العلم.

كنت أتحدث في مجلس عن الحديث الذي اتفق عليه الشيخان من رواية عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نظر إلى أسرى قدمت عليه بعد غزوة من الغزوات، ورأى بين الأسرى امرأة تبحث متلهفة عن شيء، فوقعت على طفل صغير فأمسكته وألصقته بصدرها وأخذت ترضعه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: ﴿أترون إلى هذه المرأة.. أملقية وليدها في النار؟﴾ قال الصحابة: لا والله يا رسول الله. فقال عليه الصلاة والسلام: ﴿لله أشد رحمة بعباده من هذه بوليدها﴾. فقال أحد الجالسين: هذا دليل قاطع على أنه لن توجد هنالك نار يوم القيامة، ولن يوجد هنالك عذاب يصطلي به أحد من الناس كما يقال. وتذكرت عندما قال هذا الانسان هذا الكلام الفتنة التي زج فيها كثير من التائهين والضآلين والمارقين، عندما فقدوا العدة الكافية من العلم بعقائد الإسلام وبنصوص القرآن وبدلائل السنة النبوية، فكان من آثار ذلك أن أصبحت هذه النصوص من مثل هذه الأحاديث فتنة لهم؛ أضلتهم بدلاً من أن تهديهم، وأبعدتهم عن الانضباط بأوامر الله بدلاً من أن تضبطهم بهذه القيود. قلت له: عندما يصبح الناس جميعاً في علاقتهم بالله عز وجل كعلاقة هذا الطفل بأمه، فلا شك أن النار تنعدم عندئذٍ، فهل الأمر كذلك؟

ما من طفل من الأطفال صغير، مهما أخطأ ومهما عبث وعثى وأعرض عن نصائح أمه، إلا وهو يلجأ إلى أمه عند أي خطر، ويتشبث بأذيالها بذلٍّ وصغَار عندما يرى أي ضرر يطوف به أو يقدم عليه. فهل الناس جميعاً – العصاة منهم والطائعون والمؤمنون والجاحدون – مهما أخطأوا ومهما انحرفوا يقبلون إلى الله سبحانه وتعالى عند الحاجة تائبين لائذين يتضائلون ويتبتلون ويلجؤون إلى رحمته كما يلجأ الطفل أياً كان إلى أمه عند الخطر، لو كان الناس جميعاً هكذا لكانت رحمة الله عز وجل بهم جميعاً كرحمة هذه الأم بهذا الوليد، ولكن الأولاد جميعاً مهما كانت شؤنهم ومهما كانت أوضاعهم يخطئون وينحرفون ويعبثون ويعثون، ولكنهم يعلمون أن لا ملجأ لأي منهم إلا إلى أمه، طالما كان طفلاً صغيراً.

أما الناس فصنفان اثنان..

صنف عرَف ربه كما عرف هذا الطفل أمه، وعرف أن لا ملجأ له من الله إلا إليه، تماماً كهؤلاء الأطفال، قد يخطؤون وقد يرتكبون المعاصي، ولكن عندما يصحو أحدهم من سُكر معصيته وإثمه يعود ملتفتاً إلى الله يجأر إليه بالإنابة والتوبة ويسأله الصفح والمغفرة، وقد يعود إلى المعصية ويعود ويعود كما يعود الطفل إلى شقاوته وإلى أخطائه وانحرافه لكنه يظل مشدوداً إلى أمه دائماً. هذا الصنف من الناس هو الذي يصدق عليه كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا الصنف هو الذي يشبه الوليد بالنسبة لأمه وهو الذي شبّه رسول الله صلى الله عليه وسلم ربنا – وله المثل الأعلى – بأم هذا الطفل.

أما الصنف الثاني من الناس: فهم بالإضافة إلى أنهم ممعنون في الأخطاء ممعنون في ارتكاب الآثام؛ مستكبرون على الله عز وجل يعبّرون عن استكبارهم هذا إما بإنكاره وجحوده والسخرية ممن يتحدث عنه وعن وجوده، وإما أنهم يعبّرون عن استكبارهم على الله عز وجل بعدم حاجتهم إليه، وأنهم في غناً عن أن يلوذوا به فضلاً عن أن يطيعوه، فالعلم أغناهم، والقوة حررتهم، والغنى أبعدهم عن الحاجة إلى الله سبحانه وتعالى. هؤلاء إن عصوا الله عز وجل وملئوا طباق الأرض معصية وآثاماً لا يشعرون بأي خطر يدعوهم إلى أن يلتفتوا عائدين إلى الله، فضلاً عن أن يتشبثوا بأذيال رحمة الله سبحانه وتعالى.

النار التي يتحدث عنها بيان الله عز وجل إنما هيئت لهذا الصنف من الناس. هذا الصنف من الناس، تحدث عنه بيان الله عز وجل، ولو أننا فهمنا اسلامنا بمقاييس العلم، ولو أننا عكفنا على مبادئ العلم التي توصلنا إلى عقائد الإسلام لما استشكلنا شيئاً، ولما كانت نصوص تدل على رحمة الله من كتاب الله أو من حديث رسول الله فتنة لنا قط.

نعم... ألم يقل الله عز وجل ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ هذا هو قرار الله عز وجل، ولكن انظروا ببصيرة العلم. إن الله لم يقل: إن الذين انحرفوا عن عبادتي. لم يقل إن الذين غرقوا في بحار الآثام والعصيان. لم يقل شيئاً من هذا. وإنما قال: إن الذين استكبروا عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين.

فالجريمة ليست جريمة معصية ارتكبت، وإنما الجريمة جريمة استكبار على الله هيمن على الكيان والقلب. والاستكبار على الله شيء، وولوغ الانسان في المعاصي شيء آخر، أما المعاصي فقد أعلن الله عز وجل مراراً وتكراراً في كتابه أنه يغفرها، وأكد رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك. وقال الله في الحديث القدسي الصحيح: ﴿يا ابن آدم لو جئتني بقراب الأرض خطايا لجئتك بقرابها مغفرة﴾. فالمعاصي ليست مشكلة، ولكن المشكلة هي أن يندفع الإنسان إلى معاصيه بسائق من كبره، بسائق من صلفه وعناده، بسائق من تجبره – وهو عبد ذليل – على الله – وهو الرب الجليل.

هذه الكبرياء هل رأيتم في الأطفال الصغار نموذجاً لها؟! هل رأيتم في الأطفال الصغار الذين أودع الله في قلوب الأمهات هذه الرحمة بهم؟ هل رأيتم في هؤلاء الأطفال من ذهبوا في انحرافهم وفي أخطائهم وفي تمردهم على آبائهم وأمهاتهم هذا المذهب؟! لا..

إذاً فالله سبحانه وتعالى – كما قال المصطفى عليه الصلاة والسلام – رحمته أكبر وأعظم من رحمة هذه الأم بوليدها – كما قال المصطفى صلى الله عليه وسلم. ولكن الحديث عن أم رؤوم مع ولد مفطور على ما فطر الله عز وجل عليه الأطفال الصغار جميعاً.

لم يتحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن طفل في عالم الخيال متكبر على الأبوين متجبر عليهما مهما طافت به المحن، ومهما رأى أنه أخطأ وارتكب الآثام، يتجبر ويتعالى على أبويه وهو طفل صغير ضعيف، وهما قد وظّفا من قبل الله عز وجل بكل معاني الرأفة والرحمة له، ولو خلق الله طفلاً شاذ عن أترابه بهذا الشكل لرأيتم أن الله سبحانه وتعالى كيف يبعد الأبوين عن الرحمة بمثل هذا الطفل.

وأعود فأقول: إنها فتنة الجهل بدين الله سبحانه وتعالى هي التي أوجدت فقاقيع الاتجاهات والمذاهب والفرق التي قرأتم الكثير عنها في تاريخنا الاسلامي المجيد، ولو أن المسلمين عكفوا على دين الله عز وجل يدرسونه بواسطة العلم، ويعكفون على فهمه تحت أشعة المعرفة والبصيرة؛ بعيدين عن العاطفة الهوجاء إذاً لاجتمع أمر المسلمين ولما تفرق، ولما حق عليهم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿ستفترق أمتي إلى ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة. قالوا: ما هي؟ قال: ما أنا عليه وأصحابي﴾

أقول قولي هذا وأستغفر الله.



٦١- روح الأسباب المادية في حياة المسلمين هو صدق الالتجاء إلى الله | ٢٠٠٧/١٢/٢١

تنتاب المسلم في أيام العيد مشاعر متناقضة يحار فيما بينها؛ ينظر فيجد داره مغموسة بالفرحة، عامرة بالسرور، أَمْنُه مُسْتَتِب، طمأنينته تسود الدار، وينظر إلى وجوه الصغار والكبار فيرى الفرحة تغمرها، ويرى بسمة السرور تعلو الوجوه.

ثم يلتفت إلى خارج داره ينظر بعيداً أو قريباً منه فيجد خلاف ذلك؛ يجد الأمن غائباً، وينظر ويبحث عن الطمأنينة فيراها غير موجودة، ويزداد تأملاً فيرى الجراحات التي لا تنتهي والدماء التي لا تجف والظلم الذي لا يتوقف عند حد. ينظر إلى الأطفال فيجدهم يعانون من الشرود، يعانون من اليُتْم، يعانون من السَّغَب والجوع. ويعود بهذه المشاعر المتناقضة المتمازجة لا يدري كيف يتحكم بنفسه أمام هذه المشاعر. ولربما ساقته إلى لون من الاعتراض على الله، ولربما ساقته في أحسن الأحوال إلى الوقوف أمام إشكالات لا يجد حلاً لها. هذه هي الحالة التي تنتاب المسلمين في هذه العصور عندما يمر مثل هذا اليوم، عندما يتجلى الله عز وجل على عباده في مثل هذه الأيام تجليات رحمة، تجليات لطف وإكرام. فكيف السبيل للتخلص من هذه المشاعر المتناقضة؟ وكيف السبيل إلى أن لا تتحكم بنا هذه المشاعر وتزُجّنا في حالة من الانتقاد، في حالة من الإشكال نجد أنفسنا سجناء في داخله؟.

ينبغي أن نعلم يا عباد الله: أن الله سبحانه وتعالى حكيم ورحيم دائماً في سائر التقلبات وفي سائر الأحوال؛ ما من أمر من هذه الأمور التي نراها في مجتمعاتنا البعيدة والقريبة إلا ولها أسباب وجذور، وما من مشهد من هذه المشاهد التي تدمي القلوب والتي تزاحم فرحة العيد في مثل هذه الأيام إلا وهو يعود إلى نتيجة سنة من سنن الله سبحانه وتعالى في عباده. ربنا سبحانه وتعالى وضعنا أمام السبل التي تنجينا من الكوارث والتي تحررنا من الظلم والتي تسمو بنا إلى صعيد العزة والأمن والطمأنينة فهل سلكنا هذه السبل؟ كلكم يعلم الجواب عن هذا السؤال يا عباد الله. أمرنا الله عز وجل أن ننتصر لدينه ووعدنا إن نحن استجبنا لهذا الأمر أن ينتصر لنا، أن ينصرنا على كل من يتربص بنا الدوائر، فهل انتصرنا لدينه؟.

والله عز وجل غني لا يحتاج إلى من ينصره أو ينصر دينه ولكنها العبودية التي ينبغي أن نستعلن بها وينبغي أن نصطبغ بها. هذا هو السر في الأوامر التي يخاطبنا الله سبحانه وتعالى بها أو النواهي التي يحذرنا الله عز وجل منها. ولقد اقتضت سُنَّة الله سبحانه وتعالى أن يأخذنا بشيء من المخاوف وأمرنا في مثل هذه الحال أن نُهْرَعَ إلى الله وقال: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ حدثنا الله عز وجل عن مصائب وذكر أنه شاء أن يبتلينا بها. تلك سُنَّة من سُنَن الله سبحانه وتعالى ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾، ثم إن الله عز وجل وضعنا أمام الدواء الناجع. من أبرز هذا الدواء الناجع؛ الالتجاء إلى الله، الدعاء عند الكرب، الفرار من الكرب إلى الله بالدعاء والتضرع والتذلل والانكسار، فهل فعلنا ذلك؟ وأنا عندما أقول: هل فعلنا ذلك لا أعني بضمير الجماعة هذا الجمع المجتمع في هذا المسجد وأمثاله، وإنما أعني بضمير الجمع سائر المسلمين الذين يعانون من هذه المصائب والذين تطوف بهم من قريب أو بعيد هذه الرزايا.

هل التجأنا إلى الله سبحانه وتعالى؟ دلَّنا الخالق الأجلُّ سبحانه وتعالى على المشكلات التي سنراها في الطريق عن يميننا وشمالنا ووضعنا أمام السبل التي تخلِّصنا من هذه المصائب التي قد تحْتَوِشنا أو تطوف بنا ونبَّهنا إلى أنَّ الخلاص منها بعد الأخذ بالأسباب ومع الأخذ بالأسباب إنما يكمن في الرجوع إلى الله، في التضرع على أعتاب الله سبحانه وتعالى. فهل أخذنا أنفسنا بالدواء الذي أمرنا الله سبحانه وتعالى به؟ لعلنا حاولنا أن نأخذ بالأسباب الظاهرة ولكننا لم نتوِّج هذه الأسباب بروحها.

الأسباب المادية ينبغي أن يأخذ المسلمون أنفسهم بها ولكنها بمثابة الجسد؛ لا يمكن للجسد أن يفعل شيئاً أو أن يحقق أي جدوى إلا إذا سَرَت الروح في الجسد، وروح الأسباب المادية في حياة المسلمين إنما هو صدق الالتجاء إلى الله، الدعاء والتبتل على باب الله عز وجل، وقد ذكر المصطفى صلى الله عليه وسلم فيما صح عنه: ﴿الدعاء هو العبادة﴾ أي: هو أُسُّ العبادة.

كان المصطفى صلى الله عليه وعلى آله وسلم عندما يجد المصائب تدنو إليه وإلى المسلمين يأخذ نفسه بالأسباب المادية التي أمره الله عز وجل بها لكنه مع ذلك وبعد ذلك يُهْرَعُ إلى باب الله عز وجل يستنجده يدعوه يتبتَّل، في غزوة بدر جمَّع من الأسباب كل ما يستطيع ولكنه لم يكتف بذلك، أمضى الليل كله وهو يتضرع إلى الله سبحانه وتعالى يدعوه، يستنزل النصر من سمائه، في غزوة الأحزاب أخذ

رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه والمسلمون معه بالأسباب كلها، حفروا الخندق، قاموا بما وراء ذلك من الأسباب المادية ولكنه صلى الله عليه وسلم أقبل بعد ذلك في الليل يتضرع ويدعو وينكسر على باب الله عز وجل ذلاً وضراعة وافتقاراً. في كل المواقف؛ يوم فتح مكة هيأ الأسباب كلها ولكنه أخذ يلتجأ إلى الله سبحانه وتعالى أن يحقق له النصر الذي يطمح إليه ويستنزل النصر من عند الله عز وجل أن يكون نصر مرحمة وسِلْم لا نصر ملحمة وقتال.

وهكذا فإن الله سبحانه وتعالى استجاب نعم: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾. وكان أصحاب رسول صلى الله عليه وسلم من بعده يسيرون على هذا النهج تماماً. فهل نفَّذنا أوامر الله عز وجل عندما قال: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾؟ هل نفذنا أوامر الله عز وجل القائل: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾؟ هل استغثنا بالله كما كان المصطفى صلى الله عليه وسلم يستغيث؟ الجواب كلكم يعلمه، في أحسن الأحوال نعتمد على الوسائل المادية، ولعلنا نؤلِّهُ الوسائل المادية والوسائل المنظورة التي نجدها أمامنا، ولكن ينبغي أن نعلم أنها لا تفعل شيئاً وإنما هو تنفيذ لأوامر الله سبحانه وتعالى، أما الرجوع إلى الله، أما بسط الكفين تضرعاً على باب الله عز وجل فهذا شيء غائب وهو شيء مطوي عن حياة أكثر المسلمين الذين شاء الله عز وجل أن تكون بيدهم قيادة الأمور.

الدعاء– يا عباد الله– هو روح كل الأنشطة التي يقوم بها المسلمون من أجل رد غوائل المصائب والاعتداءات عليهم على اختلافها أياً كانت، والمسلمون اليوم غائبون عن هذا الدواء، بل أكاد أقول شيئاً آخر: أما المحجوبون عن الله فسبب ابتعادهم عن هذا الدواء حجابهم عن الله سبحانه وتعالى وربما أضيف إلى ذلك في كثير من الأحيان الفسوق والانحراف عن أوامر الله عز وجل، ولكن حتى كثير من المسلمين يستهينون اليوم بهذا الدواء الذي هو روح العلاجات كلها، كثيرون هم المسلمون الذين يستخِفُّون بالدعاء، لا بل كثيرون هم المسلمون الذين يحاربون الدعاء ويرونه بدعة ينبغي أن يتحرر الإنسان منه؛ إذا انتهى الإنسان من صلاته وانفتل عنها وبسط كفيه يسأل الله عز وجل القبول ويستنزل النصر لإخوانه المسلمين جاء من يقول: إن الدعاء بعد الصلاة بدعة. وإذا رفع هذا الإنسان كفيه ضارعاً إلى الله، قال: إن بسط

الكفين بالدعاء بدعة. فإذا كان التائهون عن الله مُعْرِضين عن هذا الدواء الناجع، وكان جمع كبير من المسلمين يحاربون هذا الدعاء لأنهم ينعتونه بالبدعة؛ فماذا تتصور أن يكون حال المسلمين؟.

رسول صلى الله عليه وسلم يُسْأَل فيما يرويه الترمذي- والحديث حسن صحيح-أيُّ الدعاء أسمع؟ يقول عليه الصلاة والسلام: «الدعاء في جوف الليل الآخرة والدعاء دبر الصلاة» أي: بعد الصلاة. قال قائل من هؤلاء الذين يحذِّرون من الدعاء: إنما المراد، في دبر الصلاة، أي: في آخر الصلاة قبل التسليم، مَنْ الذي يقول هذا إلا المستهزئون بدين الله عز وجل. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لفاطمة رضي الله عنها وقد سألته خادماً يُعِينها على أمر الدار فقال عليه الصلاة والسلام: «أوَ أدُلّك على خير من ذلك؟. تسبحين الله دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين وتحمدينه ثلاثاً وثلاثين وتكبرينه ثلاثاً وثلاثين». لعل هؤلاء الذين يحاربون الدعاء بعد الصلاة يقولون: معنى ذلك أن عليه قبل التسليم أن يسبح الله ثلاثاً وثلاثين ويحمده ثلاثاً وثلاثين ويكبره ثلاثاً وثلاثين ثم يسلم.

من الذي يقول هذا؟. يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم: «إن ربكم حييٌّ كريم يستحي من عباده إذا بسطوا أكفهم إليه- إذا بسطوا أكفهم إليه -أن يرُدَّها خائبة». ويقول هؤلاء: إن ارتفاع الكف بالدعاء بدعة. كان رسول صلى الله عليه وسلم إذا دعا رفع كفيه حتى يُرَى بياض إبطيه، فعل ذلك يوم بدر وفعل ذلك عند الاستسقاء وكان صلى الله عليه وسلم يُهْرَعُ إلى الله عز وجل بالدعاء دائماً، كان ذلك غذاءه وكان ذلك سبيل تعبيره عن مشاعر العبودية لله، كان ذلك سبيل تعبيره عن مشاعر المهابة من الله والحب لله سبحانه وتعالى. أما اليوم فنجد من يحارب السنة باسم محاربة البدعة بل نجد من يغرس في مجتمعاتنا البدعة باسم محاربة البدعة. الدعاء بدعة! الدعاء بعد الصلاة بدعة! التضرع والتذلل إلى الله باليدين المبسوطتين إلى سماء الله بدعة!. هذا هو المصير أيها الإخوة إن أردنا أن نتخلص من المشاعر المتناقضة-هي ليست متناقضة- تلك سنة الله سبحانه وتعالى في عباده، رحمته موجودة وغامرة، وعقابه أيضاً العاجل والآجل موجود أيضاً، ومن تعرَّض لرحمة الله أكرمه الله عز وجل بها، ومن تعرَّض للعقاب لم يكن بعيداً عن أن يعاقبه الله سبحانه وتعالى. نسأل الله سبحانه وتعالى أن يلهمنا رجوعاً إليه وأن يتوِّج أعمالنا وأنشطتنا المختلفة وسياساتنا الراشدة بصدق الالتجاء إلى الله عز وجل دائماً وعلى كل المستويات والأصعدة وبالنسبة لسائر الناس والطبقات. أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.



٦٢- لعلهم يضرعون | ٢٠٠٨/٠٣/٠٧

قضى الله سبحانه وتعالى في سابق علمه وغيبه أن يخلق الإنسان ضعيفاً وأن يرحل إليه ضعيفاً على الرغم من التكريم الذي متعه به وعلى الرغم من أنه عز وجل قد سخر له معظم ما في السموات وما في الأرض، نحن جميعاً نقرأ قرار الله سبحانه وتعالى هذا في محكم تبيانه فهو القائل عز وجل: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً﴾ [النساء:٢٨] وهو القائل في محكم تبيانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ، إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [فاطر:١٦] وهو القائل: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ [محمد: ٣٨]، وليس المراد بالفقر هنا الفقر المالي ولكن المراد بالفقر الاحتياج المطلق، خلق الله عز وجل الإنسان محتاجاً في كل ما يصبو إليه وفي كل ما يريد أن يحققه لنفسه إلى من يعينه، فما هي مظاهر هذا الضعف التي قضى بها الله سبحانه وتعالى في حق الإنسان وما الحكمة؟

من مظاهر الضعف أن الله عز وجل سلط عليه، إلى جانب العقل الهادي، رعونات النفس، أهواءها، شهواتها المتنوعة الكثيرة، ومن شأن ذلك أن يحاول الإنسان وقد هُدِيَ إلى الحق بعقله أن يتعامل مع الحق ولكن رعونات نفسه، أهواءه، شهواته كل ذلك يصده عن تنفيذ ما قد قرره له عقله، من مظاهر هذا الضعف الشيطان الذي قضى الله عز وجل أن يُسَلَّطَ على الإنسان يوسوس إليه في فكره ونفسه، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم القائل فيما اتفق عليه الشيخان من حديث أنس: ﴿إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم﴾ وصدق الله القائل: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً﴾ [فاطر: ٦]، من مظاهر هذا الضعف الابتلاءات الكثيرة التي تحيط بالإنسان من حوله من قريب أو بعيد، وصدق الله عز وجل القائل: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الانبياء: ٣٥] ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذىً كَثِيراً﴾ [آل عمران: ١٨٦] ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾ [البقرة: ١٥٥] هذه هي مظاهر الضعف الذي ابتلى الله سبحانه وتعالى به الإنسان.

وكأني يا عباد الله ببعضٍ منكم يقول: فيا رب حمَّلْتَنِي هذه التبعات من مظاهر الضعف وأنت ربِّيَ القائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢]، كيف السبيل إلى أن أنفِّذَ أمرك وقد حمَّلْتَنِي كل هذه التبعات من الضعف؟ أنى لي أن أتحرر من هذه القيود التي ابتليتُ بها لأنفذ أمرك الصارم ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾؟ لكأن فيكم من يسأل هذا السؤال يا عباد الله ولكن الجواب سرعان ما يأتيه من لدن الإله الذي قضى بهذا الضعف في حق الإنسان، يأتي الجواب من لدن رب العزة قائلاً: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الذريات: ٥٠]، يأتي الجواب من لدن رب العزة سبحانه وتعالى قائلاً: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ [لأعراف:٩٤]، يأتي الجواب من لدن رب العزة قائلاً: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ، فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ [الأنعام: ٤٣].

هذه هي الحكمة يا عباد الله من أن الله ابتلى الإنسان بهذا الضعف، جعله محتاجاً إلى من يعينه، ركَّبَ فيه العوامل الكثيرة التي تقصيه عن انقياده للعقل المبصر من أجل أن يقف أمام مرآة ذاته فيعلم أنه عبد مملوك ليس حراً يملك زمام أمره بيده، إنه مملوك لمن خلقه فسواه فعدله في أي صورة ما شاء ركبه، إنه العبد الذي لا يأتى منه شيء، وما هي وظيفة العبد يا عباد الله؟ وظيفة العبد أن يرحل إلى الله، وظيفة العبد عندما يجد هذه الأثقال التي تراكمت عليه، مظاهر هذا الضعف، يتجه إلى الله منقاداً لأمره ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ [الذريات: ٥٠]، يلتجئ إلى الله، يتجلبب بجلباب الانكسار والعبودية لله سبحانه وتعالى وعندئذٍ يكون قد حقق معنى العبودية في ذاته، وبهذا العمل يصل الإنسان إلى الله، ومن أجل هذا ميَّزَ الله الإنسان حتى عن الملائكة، ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الذريات:٥٠].

أجل إن الله عز وجل ركَّبَ بين جوانحي نفساً أمارةً بالسوء، غرس في نفسي رعونات متنوعة كثيرة ولكن ما أيسر أن أتخلص منها إن أنا وقفت أمام باب الله ملتجئاً متضرعاً متذللاً أقول له: أي رب حرِّرْني من هذه التبعات، أريد أن أطيعك ولكن لا قبل لي بذلك إن لم توفقْنِي لطاعتك، يبتليني الله عز وجل بالمصائب المتنوعة، يسلط عليَّ الأعداء من هنا وهناك ويأمرني الله أن أتخذ الأسباب ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [لأنفال: ٦٠] نعم، ولكنه يأمرني قبل ذلك ومع ذلك وبعد ذلك أن ألجأ إلى الله، أن أتضرع إلى الله، أن أتبتل على باب الله، ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي

﴿مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال:٩]، إذ أداة تعليل ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾، تلك هي الحكمة يا عباد الله من أن الله عز وجل قضى في سابق علمه وغيبه أن يبتليَ الإنسان بألوان من الضعف تتجلى من فرقه إلى قدمه ليسوقه ذلك إلى مرآة الذات فيقف أمام مرآة ذاته يتعرف على هويته، هو عبد مملوك لله عز وجل ومن ثم يلجأ إلى الله لكي يحرره من آصار هذا الضعف، ولا يمكن أن يلتجئ إلى الله بصدق ويستمر على هذه الحال إلا ويأتيه نداء الله قائلاً لبيك، إن لم يسمعها بأذنه يسمعها باستجابة الله سبحانه وتعالى لتضرعه ودعائه.

عباد الله، مصائبنا كثيرة والابتلاءات التي ابتلى الله عز وجل بها المسلمين كثيرة جداً فكيف نتحرر من هذه المصائب؟ كيف السبيل إلى أن نتغلب عليها؟ أمرَنَا الله عز وجل أن نُسَخِّرَ الأسباب التي سخرها لنا، ما سخرها لنا إلى لنستعملها، لكنها كالجسد الذي إنْ فرَغَ منه الروح لم يتأتى منه شيء، الذي ينصر الأمة التجاؤها إلى الله، الذي يحقق للأمة القوة والعزة تضرعها على باب الله سبحانه وتعالى، الذي يحررها من كل مظاهر الضعف أن يرحل بهويته إلى باب الله عز وجل ويدعوَهُ منكسراً، ما من أمةٍ استعملت هذا المفتاح إلا وارتقت من خلال مدارج الرقي إلى أعلى سدة القوة والعزة والنصر والوحد.

عباد الله، أضعكم أمام هذا المشهد الذي يرويه الحافظ ابن كثير عن عقبة بن نافع رضي الله عنه، مضى بثلة من أصحابه دعاةً إلى الله إلى شمال أفريقية، ولما وصل إلى الأرض التي بُنِيَتْ عليها مدينة القيروان نظر فوجد أنها مجموعة سباخ، مجموعة غابات حُشِيَتْ بأنواع من السباع الضارية، ووجد أن ذلك المكان هو المكان الاستراتيجي الذي ينبغي أن تشاد عليه مدينة وتكون منطلقاً للدعوة إلى الله والتعريف بدين الله فماذا فعل عقبة؟ جمع البقية الباقية من أصحاب رسول الله الذين كانوا معه وكانوا خمسة عشر رجلا وأخذوا يتضرعون إلى الله من الصباح إلى المساء أن يطهر هذه الأرض من السباع الضارية والحيايا والعقارب وما إلى ذلك ووقف عقبة يخاطب هذه السباع قائلاً: أيتها السباع لقد جئنا لنؤدي رسالة الله سبحانه وتعالى ولنحملها إلى عباد الله عز وجل فهلا يسرتم لنا سبيلاً إلى ذلك وانتقلتم من هذه البقعة إلى حيث تشاؤوا؟ وفي الصباح من اليوم الثاني فوجئ الناس بهذه السباع وهي تحمل صغارها ترحل عن هذا المكان بعيداً بعيداً، مشهد من عشرات المشاهد يا عباد الله يوضح لنا أن بين الضعف الذي ابتلى الله به الإنسان وبين القوة العظمى التي تنتظره شيءٌ واحد؛ صدق الالتجاء إلى الله عز وجل، وإذا قلنا

صدق الالتجاء فينبغي أن يكون هذا الالتجاء عاماً يشمل كل من وقف أمام مرآة ذاته فعرف أنه عبد، لا يعلو قوم عن قوم ولا تعلو فئة عن فئة في ذلك، الكل ينبغي أن يتضرعوا إلى الله.

عباد الله، في أحكام الشريعة الإسلامية قالوا إن الوكالة تجوز في العقود المختلفة المتنوعة توكل من تشاء في عقد من العقود الرضائية ولكن هل يجوز أن أوكل زيداً من الناس بالالتجاء إلى الله عني؟ هل يجوز أو أوكل شخصاً صديقاً مثلي أو فوقي أو دوني أقول له اذهب فالتجئ عني إلى الله سبحانه وتعالى ليكشف عنا السوء؟ لا يا عباد الله، الالتجاء إلى الله ثمرة هوية وكل من كان يتمتع بهوية العبودية لله عز وجل ينبغي أن تتجلى أصداء هذه العبودية في كيانه تضرعاً، التجاءً إلى الله عز وجل، لو كان في الناس من كان قد استثني من هذا العموم الشامل لكان رسول الله أولى الناس بالاستثناء، إنه الإنسان المعصوم، إنه النبي المحبوب إلى مولاه وخالقه، ومع ذلك فقد كان سيد المتضرعين، كان سيد المستغيثين، عباد الله الأعداء كثر والابتلاءات كثيرة ولكن بيننا وبين الانتصار على أنفسنا وعلى الأعداء الذين هم من حولنا من قريب أو بعيد شيءٌ واحد، صدق الالتجاء إلى الله والانقياد لأمره القائل: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الذريات: ٥٠].

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

٦٣- الالتجاء إلى الله في الشدة والرخاء | ٢٠١٠/٠٤/١٦

إن الله عز وجل قد وصف حال بعضٍ من عباده في محكم تبيانه فقال: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُوراً. أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلاً. أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً﴾ [الإسراء:٦٧-٦٩]

هناك بعض من عباد الله عز وجل يصف حالهم بهذا الكلام البليغ، إنهم إذا فوجئوا بالمصيبة يُخَيَّلُ إليهم أن بلاءها نابعٌ من ذاتها، وأنها إذا انجابت تحولوا من الخطر إلى ساحة الأمان، قد يُبْتَلى الواحد منهم بالفقر، فلا يرى المصيبة إلا هذه الحالة التي فاجأته، وشعر من جرائها بالضر والألم، وتصوَّر أن هذه الحالة إذا زايلته فإنه يصبح في أمن وطمأنينة، ولربما ابتلي بمرض يستقر في ذهنه أن البلاء إنما هو نابع من هذه الحالة التي ابتُلِيَ بها، من هذا المرض الذي انحطَّ في كيانه فإذا عُوفِيَ وانعتق من بُرَحَائِهِ وآلامه استطاع أن يضمن لنفسه الأمن وساحة الرغد من العيش، ولربما واجهه عدو أفقده أمنه وطمأنينته، يستقر في ذهنه أن البلاء محصور في هذا الذي واجهه، فإذا زال العدو، وانحسر العدوان، عاد إلى الطمأنينة، وعاد إلى الأمن، متصوِّراً أن البلاء قد زايله، وأنه يعيش الآن في حصن من الأمان.

ولكن هذا التصور تصور خاطئ يُنَبِّهُنَا بيان الله سبحانه وتعالى إلى خطورة هذا الخطأ الذي يقع فيه كثير من الناس، ليست المصيبة أن يهتاج البحر، وأن يهددك بالغرق، حتى إذا رأيت نفسك على اليابسة تخيلت أن البلاء قد زايلك، وأن الخطر قد انجاب عنك، لا. البلاء يهبط إليك من علياء الربوبية، ولا ينبثق لك من الطبيعة. الإله الذي شاء أن يبتليك بفقر ربما ابتلاك بالغنى، فكان الغنى أشد بلاءً من الفقر الذي كنت تعاني منه، والإله الذي يبتليك بمرض أفقدك الراحة وأفقدك الأمن ربما عافاك الله عز وجل بعد ذلك، ففجَّر من العافية التي تتمتع بها بلاءً أطم ومصيبة أشد.

أجل، هذا معنى كلام الله عز وجل: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلاً﴾ [الإسراء:٦٨]. وهذا المعنى ذاته يلفت البيان الإلهي نظرنا إليه عندما يقول:

﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ. أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ [الملك:١٦-١٧]

ما أكثر ما يتصور الإنسان أن الأرض مهدٌ جعلها الله عز وجل سبباً للسعادة والأمن والرخاء، وجعل منها كنزاً لسائر مبتغياته، ولكنه ينسى أن هذا الإله الذي جعل فعلاً من الأرض مهداً، إن شاء جعل لك منها سبباً للدمار، جعل منها أفواهاً فاغرة تبتلعك بل تبتلع أُمَّةً بأسرها. واسمعوا يا عباد الله بيان الله عز وجل كيف يرينا التفنن – إن جاز هذا التعبير – في إهلاك من أهلك من عباده، أهلكهم بوسائل كثيراً ما نراها أسباباً للسعادة، أهلك بعضهم بالماء الذي جعله الله سراً للحياة: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء:٣٠]، أهلك الله عز وجل كثيراً من الأمم بنسمات الهواء الرخية التي نراها سبباً للانتعاش وسبباً لاستمرار الحياة، أهلك الله سبحانه وتعالى أناساً عن طريق هذه الأرض التي جعلها الله سبحانه وتعالى للإنسان مهداً ولا كمهد الأم الذي تبسطه للطفل. ﴿فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٠]

أرأيتم إلى هذا المعنى التربوي الذي ينبهنا إليه بيان الله عز وجل، إنه يقول لنا جميعاً يا عباد الله: اجعلوا خوفكم من الذي يرسل عليكم المصيبة عندما يشاء، ويمتعكم بالنعمة عندما يشاء، لا تجعلوا خوفكم من شبح المصيبة ذاتها، المصيبة جندٌ من جنود الله عز وجل، وما أكثر ما يجعل من هذا الجند سبباً لنعمة، سبباً لسعادة، أجل. هذا ما ينبهنا إليه بيان الله سبحانه وتعالى. ولو أن الإنسان وعى هذه التبصرة الربانية لكان خياله ولكانت مشاعره الوجدانية دائماً متجهةً إلى الله سبحانه وتعالى، إن واجهته المصيبة التجأ إلى الله سبحانه وتعالى يسأله بذل عبوديته أن يبعد عنه هذه المصيبة ويسأل الله عز وجل العافية كما سألها رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلاً: ﴿إن عافيتك أوسع لي﴾

فإذا انجابت المصيبة بقي يلتجئ إلى الله عز وجل لأنه يعلم أن الساعة التي يتمتع فيها برغد العيش، يعلم أن الساعة التي يتمتع فيها بالعافية والصحة ربما تقلَّبَت وتحولت في لحظة واحدة إلى سبب للشقاء، إلى سبب لضنك العيش وللآلام المِمِضَّة التي لا حدَّ لها ومن ثم فهو دائم الالتجاء إلى الله، يلتجئ إلى الله في الشدة يسأله أن يبعد عنه الشدة، ويلتجئ إلى الله في الرخاء يسأله عز وجل أن يبقي رخاءه هذا،

يسأله عز وجل ألا يحول رخاءه إلى شدة، ويذكر في هذا الوصية التي أوصى بها رسولُ الله عبدَ الله بن عباس إذ قال في وصيته: ﴿تعرَّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة﴾

عباد الله: هذه حال كثيرٍ منا، يلتجئون إلى الله عز وجل عند الشدة فراراً منها، حتى إذا تنفس أحدهم الصعداء، وزالت الشدة نسي الإله الذي كان يلتجئ إليه، غابت الشدة وغاب معها الالتجاء إلى الله

كم رأينا أناساً ابتُلوا بفقر بعد غنى، أو ابتُلوا بمرض بعد عافية، وإذا بالواحد منهم يطرق أبواب الصالحين يسأل هذا وذاك: ألا تعلم دعاءً لو أنني دعوت به يفرِّجُ الله عز وجل عني هذه الشدة التي أعاني منها؟ فإذا علم صيغة من صيغ الدعاء أخذ يكررها كما لو كان طفلاً يحفظ وظيفته، حتى إذا أكرمه الله عز وجل بالعافية بعد المرض، وأكرمه الله سبحانه وتعالى بالغنى بعد الفقر، نسي ما كان يصنع، لأن التجاءه إنما كان خوفاً من المصيبة ذاتها، ولم يكن خوفاً من مرسلها وهو الله سبحانه وتعالى

عباد الله، أنا أقف مدهوشاً أمام صورة لطفل لا يعي، وأنظر بالمقابل إلى أمثالنا من الذين متعهم الله بالعقل وتجربة الحياة، فأجد أن هذا الطفل أقرب إلى الفهم والمعرفة من كثيرٍ من أمثالنا، يحمل الوالد طفله بين ذراعيه، ويحتضنه، ويطمئن الولد الطفل أنه مكلوءٌ بعناية والده، ويشرف به والده على وادٍ سحيق، ما إن ينظر الطفل إلى هذا الوادي السحيق حتى يتشبث بأبيه، حتى يلتصق بأبيه التصاقاً عجيباً، هو في أحضان أبيه، ذراع والده يحوط به، أجل، هو يعلم أنه مكلوءٌ بعناية أبيه، لكنه رأى البلاء على مقربة منه، ويعلم أن مصدر أمنه والده، ويعلم أن مصدر شقائه والخطر الذي قد يطوف به إعراض أبيه عنه، ومن ثم يظل متشبثاً بأبيه، يظل في كل حالٍ ملتصقاً بصدر أبيه. هذا حال هذا الطفل، أما الإنسان من أمثالنا، أما العاقل الذي أدرك أسرار الحياة أليس أولى به أن يعلم هذه الحقيقة؟

كلنا –أيها الإخوة– نطلّ ببصائرنا وأبصارنا على مصائب هي قريبة منا جميعاً، نطل عليها ونعلم أنها توشك أن تقع بنا، ونعلم — أو ينبغي أن نعلم — أن مصدر هذه المصائب مولانا وخالقُنا، مصدر الابتلاء هو الله عز وجل، أليس هو القائل: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء:٣٥]

نعلم هذه الحقيقة، فلماذا لا نفعل كما يفعل هذا الطفل؟! لماذا لا نتشبث برحمة الله ولطفه؟! لماذا لا نظل نلتجئ إلى الله عز وجل في الرخاء كما نلتجئ إليه في الشدة؟! لماذا لا يكون شأننا كشأن هذا الطفل بل لماذا لا نتعلم من هذا الطفل إذ يلتجئ إلى أبيه وإذ يرمقه بعينين تزيغان بالخوف كأنه يقول: لا تتخلَّ عني يا أبي، لا تتركني يا أبي للخطر المحدق الذي أراه من حولي، وهو في حالة أمن، وهو في حالة طمأنينة، أين نحن -يا عباد الله- من هذا المعنى ندركه في علاقة ما بيننا عبيداً وبين ربنا ومولانا سبحانه وتعالى

يفرُّ أحدنا إلى الله عندما تطوف به محنة، فقر، مرض، عدو يتهدده، أجل. فإذا استجاب الله عز وجل دعاءه، وفرَّجَ عنه كربه، تنظر إليه وإذا هو يعود إلى غفلته، يعود إلى شأنه ودنياه، وكأن البلاء قد زال ولا يمكن أن يعود إليه، وكأن اليد الحانية التي أنقذته من الفقر وأنقذته من المرض، كأن هذه اليد الحانية لا تستطيع أن تعود فتبتليه بشرٍّ من ذلك البلاء الذي أصابه

هذا شأن طائفةٍ من الناس وصفهم الله عز وجل بما قد سمعنا، وأعود فأذكِّر نفسي وأذكركم بهذا البيان الرباني البليغ معبراً عن هذا المعنى، يعلو بنا إلى هذه التربية: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُوراً. أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلاً. أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً﴾ [الإسراء:٦٧-٦٩]

أنت يا ابن آدم في قبضة الرحمن، أنت يا ابن آدم في قبضة الله سبحانه وتعالى يفعل بك ما يشاء. كن كهذا الطفل الذي يظل يرمق بعين الاسترحام أباه، كن كهذا الطفل الذي يلتصق بصدر أبيه، ولكن فلنعلم أن ولينا هو الله، ولنعلم أن مصدر البلاء ومصدر النعيم ومصدر السعادة والشقاء، مصدر ذلك كله هو الله سبحانه وتعالى، وإذا وقف الإنسان موقف العبودية مع الله في حالتي الرخاء والشدة فليعلم أن الله عز وجل قد أجزل له الأجر، وحقق له سعادة العقبى التي تنتظره بعد الموت.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.



٦٤- الدعاء والطلب | ٢٠١٠/٠٥/١٤

نحن نعلم جميعاً أننا عبادٌ مملوكون لله سبحانه وتعالى، مبدؤنا منه وانتهاؤنا إليه، نتحرك في قبضته، الحكم حكمه، والملك ملكه، هذه حقيقة لا ريب أننا جميعاً نعلمها ونصطبغ بها، يقيننا بهذه العبودية يقتضي أن نكون دائماً ملتصقين بأعتاب الله عز وجل، ملازمين بابه، متمسكنين في محراب العبودية له. معرفتنا بهذه العبودية تقتضينا أن نعلم يقيناً أننا بحاجة دائماً إلى الله عز وجل، ولسنا بحاجة إلى أحدٍ سواه، في كل لحظةٍ نحن بحاجة إلى الله عز وجل، ومن ثم فإن العبد الذي علم عبوديته لله لا بد أن يظل يدعو الله عز وجل، لا ينفك عن الدعاء له، لا ينفك عن استمطار رحمته، إن مرَّ بمرحلة رخاء دعا الله وسأله أن يديم رخاءه، وألا يسلب منه نعمته، وأن يديم عليه فضل إحسانه ومننه وجوده، وإن مرَّ بمرحلة ابتلاء دعا الله سبحانه وتعالى أن يكشف عنه السوء، وأن يزيل عنه الضراء، وأن يعيد إليه العافية، وهكذا فالإنسان الذي علم ذل عبوديته لله لا ينفك عن شعور احتياجه إلى الله سبحانه وتعالى، هو في كل لحظة بحاجة ماسَّةٍ إلى لطف الله وكلاءته وحمايته.

هذه واحدة ينبغي أن نعلمها جميعاً، الأمر الثاني الذي يجب على كل عبدٍ علم ذل عبوديته لله عز وجل يجب عليه أن يعلم أن دعاءه الذي يتوجه به إلى الله عز وجل دائماً هو غايةٌ بحد ذاته، وليس وسيلة إلى غايةٍ أخرى. هذه حقيقة هي من الأهمية بمكان ويجب أن نعلمها جميعاً، فالعبد الذي عرف مملوكيته لله سبحانه وتعالى يحب أن يعلن عن ذل عبوديته لله، يرى حاجةً ماسةً تدعوه إلى أن يعلن أنه مسكين بائسٌ منكسرٌ على أعتاب الله، سواء أجابه الله عز وجل أم لم يجبه، قَبِلَهُ الله أم لم يَقْبَلْه، هو يعلن عن حقيقة هي الهدف الأساسي في كيانه، يريد أن يعلن عن أنه عبدٌ لله، يريد أن يعلن أنه عبدٌ مسكين بائس منكسر ملتصق بأعتاب الله عز وجل، كيف يعلن عن ذلك؟

يعلن عن ذلك من خلال بؤسه الذي يشكوه إلى الله، من خلال حاجاته التي يعرضها على باب الله، من خلال مملوكيته تحت سلطان الله سبحانه وتعالى، الإنسان الذي ذاق لذة العبودية يلَذُّ له أن يناجيَ الله عز وجل بما يعَبِّر عن هويته عبداً مسكيناً بائساً شحاذاً يقف على باب الله عز وجل، سواء

أجابه الله إلى حاجاته أم لم يجبه، قَبِلَهُ الله أم لم يَقْبَلْه، هو شفى غليله بالتعبير عن ذله، شفا غليله بالتعبير عن عبوديته ومملوكيته لله عز وجل.

فاعلموا – يا عباد الله – هذه الحقيقة لأنها الجسر الذي ينبغي أن يتوفر بينكم وبين إقبال الله سبحانه وتعالى إليكم. إقبال العبد إلى الله بالدعاء غاية بحد ذاتها، وليس وسيلةً إلى غايةٍ أخرى.

والفرق بين الداعي الذي تسوقه عبوديته إلى باب الله والطالب الذي تسوقه رعونته إلى تحقيق ما يطلب هو هذا الذي أقوله لكم، الداعي الذي يقف في محراب العبودية لله يتخذ من الدعاء غايةً بحد ذاتها، أما الطالب الذي يسيل لعابه على مغنم، على غاية، على مال، على منصب، على أي شيء فذلك ما ينطبق عليه المثل القائل: صاحب الحاجة أرعن، لا يروم إلا قضاءها، ومعاذ الله أن يكون الواحد منا وهو يعلم أنه عبدٌ مملوكٌ لله يجعل من عبوديته لله عز وجل أداة استثمار للوصول إلى ما يبتغيه من عرض الدنيا أو من المغانم المختلفة أيّاً كانت.

فاعلموا الفرق – يا عباد الله – بين الطلب الذي يطلبه أحدنا من أجل تحقيق رغائبه، وبين الدعاء الذي يتوجه به العبد إلى الله عز وجل متمسكناً ذليلاً واقفاً في محراب عبوديته لله يلذُّ له أن يعلن عن مسكنته وبؤسه بين يدي الله سبحانه وتعالى.

كثيرون هم الذين يخلطون بين الدعاء والطلب، يُعْرِضُ أحدهم عن الله سبحانه وتعالى لأن الدنيا ترقص أمامه، ولأن المتع تطوف من حوله، ومن ثم فهو ناسٍ لمولاه الذي أنعم عليه وتفضل عليه بهذه المتع وهذه النعم كلها، فإذا غابت النعمة وظهر الابتلاء إن تمثل في مرضٍ سرى إلى كيانه، أو في فقر بعد غنى تسرب إلى كيانه أو داره، تنظر وإذا هو يبحث عمن يَدُلُّه على دعاءٍ مستجاب، يبحث عن صيغ من الدعاء قيل له: إن دعا بها لَقِيَ الاستجابة، يسأل هذا ويسأل ذاك. ماذا يبتغي؟ هو لا يبتغي في هذه الحالة أن يعلن عن عبوديته لله، هو يريد أن يطرق أي باب يستطيع أن يجد من خلال طرقه له تحقيقاً لغايته، تحقيقاً لهدفه؛ خسر بعد ربح إذاً دُلَّني على من ينجيني من هذه الخسارة وليكن أياً كان.

هذا الإنسان عندما يفعل ذلك هو يعبر عن طلب يطلبه، ويجعل من الدعاء خادماً لطلبه، ونسأل الله عز وجل ألا يجعلنا ممن مسخوا الدعاء، وممن نسوا عبوديتهم لله سبحانه وتعالى، فجعلوا من الدعاء

الذي هو العبادة والعبودية لله – كما ورد في الحديث الصحيح – جعلوا من هذا الدعاء طلباً لغاية، مغنماً يسيل عليه اللعاب. هذه الحقيقة ينبغي أن نعلمها جيداً يا عباد الله. يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم الدعاء: ﴿هو العبادة﴾، وفي رواية: ﴿الدعاء مخ العبادة﴾

كثيراً ما يتساءل كثيرون عن السبب في أنهم يقبلون إلى الله عز وجل بأدعيةٍ كثيرة، ثم إنهم لا يجدون الاستجابة. سؤال يتكرر كثيراً: دعونا الله عز وجل مراراً وتكراراً ولقد قرأنه قول الله عز وجل: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] وها نحن قد دعونا فلم يُسْتَجَبْ لنا، هكذا يقولون. الجواب عن هذا واضح، وقد ذكرته لكم يا عباد الله. أولاً ينبغي للإنسان أن يعلم أنه بحاجةٍ إلى أن يلازم محراب دعائه وعبوديته لله دائماً، سواء في حالة الرخاء أو في حالة الشدة، كي لا يكون ممن قال عنهم الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ أي في حالة واحدة ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١]. أفأنت بحاجة إلى الله فقط عندما تصيبك اللأواء، عندما تنوشك المصائب؟! أنت في كل لحظة بحاجة إلى الله. هذا شيء، ثم هل الدعاء عبارة عن خادم جعله الله بين يديك لتنال رغائبك التي يسيل عليها لعابك؟ لا، الدعاء إعلان عن ذل عبوديتك لله، الدعاء إعلان عن مسكنتك الدائمة الدائبة لله.

يا عجباً! إنسانٌ تعلق بإنسانٍ أو فتاة، تعلق بها أو به تعلقاً شديداً، انظر إليه كيف يلذّ له أن يعلن لذلك المحبوب عن مسكنته، عن ذله له، لا لشيء إلا ليعبر بذلك عن ذله له، يقول: لي لذة في ذلتي وخضوعي. هذا حال الإنسان مع الإنسان، فكيف ينبغي أن يكون حالة الإنسان مع مولاه؟ كيف ينبغي أن يكون حالك مع مولاك وربك، الإله الذي أنت في قبضته، الإله الذي منه ابتدأت وإليه ستنتهي، الإله الذي هو الحاكم في ملكوته كله؟ ألا يلذُّ لك أن تعلن له عن مسكنتك، عن ضراعتك، عن بؤسك. هذه الحقيقة إذا تمثلناها فلسوف تكون الاستجابة محققة، وبيان الله لا يلحقه خُلْفٌ بشكل من الأشكال يا عباد الله.

ألا لا يستخفنَّ أحدٌ بالدعاء عندما تتحقق فيه مواصفاته التي ذكرتها لكم. كم من دعاءٍ قهر أمة، وأباد حضارة، واستبدل بها حضارة أخرى، كم من دعاءٍ قوَّض عروشاً وقضى على طغيان، كم من دعاءٍ أحال النسيم الرخي العذب إلى إعصار مهلك، كم من دعاءٍ أحال خرير المياه السيالة الرقراقة إلى طوفان

ودمار، بل كم من دعاءٍ أحال العافية في كيان أصحابها إلى داءٍ ووباء، وكم من دعاءٍ أحال الداء في جسم أصحابه إلى عافيةٍ وشفاء، هكذا ينطق التاريخ وهكذا تنطق الأيام والليالي.

ألا لا يستخفنَّ أحدٌ بالدعاء إذ يتعالى من ذل العبودية إلى قيِّوم السماوات والأرض، لا يستخفنَّ أحدٌ بالدعاء إذ ينبثق من أفئدة منكسرة بائسة ذليلة تنبض بذل العبودية لله إذ يتعالى عبر الحناجر إلى ملكوت الله. أقول قولي هذا، وأستغفر الله، فاستغفروه يغفر لكم.



٦٥- إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ | ٢٠١٠/١١/٢٦

ما وقعت الأمة الإسلامية في يومٍ ما في مصيبة أو مهلكةٍ وما مُنِيَتْ بابتلاء فلاذت من ذلك بصدق الالتجاء إلى الله عز وجل والتضرع إليه وإعلان ذل العبودية له إلا وانجابت عنها تلك المصيبة وأبدل الله عز وجل عسرها يسرا. تلك سنة من سنن الله عز وجل التي يأخذ بها عباده أثبتها الله عز وجل في محكم تبيانه نصوصاً واضحةً قاطعةً وشهد بذلك التاريخ وكلنا يقرأ مصداقاً لهذه السنة التي أَلْفِتُ نظري وأنظاركم إليها في قوله عز وجل: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات: ٥٠].

فروا من مصائبكم، فروا من المهالك التي تطوف بكم، فروا من الابتلاءات المتنوعة التي تقرعوا أبوابكم، فروا منها إلى الله عز وجل. وكلكم يقرأ قوله سبحانه وتعالى في محكم تبيانه: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٩].

قرن الاستجابة بالاستغاثة وجعل الاستغاثة – أي صدق الالتجاء إلى الله والتضرع والتذلل على بابه – جعل ذلك ثمناً لكشف الضر وإزالة البأس. وكلكم يقرأ قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَوْلا إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣].

دعوني يا عباد الله أضعكم أمام شواهد من التاريخ الإسلامي الأغر الذي ينطق بهذه السنة المباركة نطقاً بيناً لا لَبْسَ فيه، والوقت يضيق عن الوقوف على سائر الشواهد التاريخية ولكن فلنلتقط منها على وجه السرعة ما يسمح به الوقت.

كلنا يعلم أن هذه البقعة المباركة قد مُنِيَتْ بالحملات الصليبية تواردت وتوالت هذه الحملات وبقيت ما شاء الله لها أن تبقى وطاف من ذلك اليأس في نفوس كثيرٍ من المسلمين وظنَّ كثيرٌ منهم أن بقعة مباركة قد استلبت من المسلمين وقضي عليها وظنوا أن هذه البقعة المباركة قد احتلت ولا أمل في رجوعها، ولكن فما الذي تمَّ بعد ذلك؟

ظهر نور الدين زنكي ومعه تلميذه وصاحبه صلاح الدين فكان السلاح الأول والأمضى الذي توجه به كل منهما إلى فلول الصليبيين إنما هو الالتجاء الصادق إلى الله والتذلل على أعتاب الله وإعلان ذل العبودية لله عز وجل، ولعلكم جميعاً تعلمون مناقب نور الدين زنكي الذي يُزَار قبره على مقربة من هذا المسجد الجامع. كان إلى جانب الإعداد التام الذي يهيئه ويلزم الأمة به كان يمضي معظم الليل قائماً باكياً ساجداً ملتجئاً إلى الله سبحانه وتعالى وكان أخوه بل تلميذه صلاح الدين الأيوبي يطرق باب الله باليد ذاتها، يد المسكنة ويد الذل وإعلان العبودية التامة لله سبحانه وتعالى، كان ذلك الروح التي لابد منها للاستعدادات المادية، نعم لابد من الاستعداد المادي لكنه كالجسد، وهل رأيت جسداً يقوى ويتحرك بدون روح، روح هذا الجسد الفرار إلى الله. ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات: ٥٠].

وسرعان ما طَهُرَتْ هذه البقعة المباركة من الحملات الصليبية ورُدَّتْ على أعقابها، واقرؤوا تاريخ هذا المنعطف تجدون شيئاً عجيباً، تجدون مظهراً عجيباً كبيراً لسنة الله عز وجل التي تقول: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٩].

شاهدٌ آخر، ذلك هو عهد ما يسمى بالدول المتتابعة. انفصمت عرى الوحدة الإسلامية في هذه البقاع وتفككت أوصالها وتحولت الدولة الواحدة إلى ما سُمِّيَ بالدويلات المتتابعة، ولسوء الحظ فقد كانت كل دولة تناصب العداء لجارتها للدولة الأخرى فما الذي كان علاجاً أنقذ الأمة من هذا النذير الخطير الذي أوصل الأمة إلى شفا جرف؟

ظهر بين هذه الدول المتتابعة رجل يرأس واحدة منها هو عثمان أرطغل جد الخلفاء العثمانيين. كان شأنه التجلبب بجلباب العبودية لله وكان غذاؤه الذي يستجمع به قوته الالتجاء إلى الله واستمرار البكاء في الليالي الطوال بين يدي الله عز وجل، كان شديد التعظيم لشعائر الله عز وجل. استضافه قريبٌ له بالبورصة، ولما حانت ساعة الرقاد دلَّهُ على غرفة نومه التي أعدت له وأطبق الباب ومضى صاحب الدار. نظر الضيف – عثمان أرطغل – فوجد مصحفاً معلقاً على جدار هذه الغرفة، دنا منه وإذا هو كتاب الله عز وجل، اتخذ عثمان أرطغل من كتاب الله موقف الجندي من قائده ووقف هذه الوقفة إلى لمعة الفجر لم يجلس ولم يرقد، ولما عرف صاحب المنزل هذا سأله معاتباً، قال: كيف أرقد، كيف أمدد رجلي في مكان فيه كلام الله يناجيني ويخاطبني. شاء الله عز وجل أن يتولى هذا الرجل جمع هذه الدويلات وتوحيدها

مرة أخرى في دولة واحدة وولدت الدولة العثمانية عن طريق توفيق الله سبحانه وتعالى ﴿جَزَاء وِفَاقاً﴾ لهذا الالتجاء إلى الله عز وجل وصدق مرة ثانية قول الله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٩]

هو ذاك الذي أوصى ابنه قبيل وفاته قائلاً: كنت يا بني كنملة في الضعف فأعطاني الله كل هذا بخدمة دينه فعش خادماً لدين الله حارساً لشريعة الله فإنما ذلك واجب الملوك على وجه الأرض. أأزيدكم يا عباد الله من البراهين التاريخية على هذه السنة الربانية؟

عهد ملوك الطوائف في أقصى المغرب، تحطمت صخرة الدولة الأموية القوية في الأندلس وتحولت إلى نثارٍ ورذاذ لأخطاء كثيرة يضيق الوقت عن ذكرها وتحولت هذه الدولة الواحدة إلى دويلات يخاصم البعضُ البعضَ وتستعين كل دولة بأعداء الله سبحانه وتعالى للانتصار على الإخوة، على الجوار، على من جمعهم مبدأ واحد ودين واحد. لكن إلام آل هذا الأمر؟ انظروا إلى الخطأ ثم انظروا إلى الوجه الثاني، إلى تصحيح الخطأ.

ظهر يوسف بن تاشِفِين – ويوسف بن تاشِفِين هذا هو مضرب المثل في بكاء الليالي، هو مضرب المثل في الزهد، هو مضرب المثل في الاخشيشان في الملبس والمأكل والمأوى، هو مضرب المثل في قيام الليالي متهجداً ساجداً باكياً داعياً – التجأ إلى الله ولاذ بباب الله سبحانه وتعالى ونفَّذَ قوله: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات: ٥٠].

جمع الله عز وجل به ملوك الطوائف وإذا بتلك الدويلات عادت فتلاحمت وعادت إلى دولة واحدة، تلاحمت الصخرة التي كانت قد استحالت إلى نثار عادت إلى القوة. ما السر؟ السر الأول الالتجاء إلى الله، الاصطلاح مع الله، مدّ الجسور بينه وبين الله سبحانه وتعالى، والله يستجيب. مرة أخرى صدق قول الله عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٩]. أأزيدكم يا عباد الله؟ نعم.

ها هو ذا محمد الفاتح الذي كان يحلم بأن يكون الإنسان الذي أشار إليه المصطفى إذ قال: لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش، أقام الاستعدادات المادية – لم ينسها – كأتم ما يمكن أن يقيم بها إنسان لا يؤمن إلا بالمادة وسلطانها، بنى قلعته المعروفة على ضواحي القسطنطينية

آنذاك في أقل من أربعة أشهر، ولا يمكن للتقنية المعاصرة أن تبنيها في مدة هي ضعفا ذلك الوقت ولكن على ما اعتمد محمد الفاتح؟ اعتمد على ما قد قصده، اعتمد على تنفيذه لأمر الله القائل: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات: ٥٠].

أقبل إليه ياوَرَهُ – خادمه – بعد هزيع من الليل إلى خيمته ليستشيره في أمر وإذا هو قد افترش الأرض ساجداً على التراب ليس بين وجهه والتراب أي فاصل، يبكي ويضرع إلى الله ويناجي الله سبحانه وتعالى يستنزل النصر، وقف الياوَرُ وقفة الجندي أمام القائد ينتظر أن ينتهي من سجوده بل من مناجاته لمولاه وخالقه. كان ذلك هو سر الفتح الإلهي الذي حققه الله سبحانه وتعالى على يد محمد الفاتح، مرة أخرى نجد أنفسنا أمام مصداق قول الله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٩]. ماذا أقول لكم، التاريخ كله – أيها الإخوة – ينطق بهذه السنة الربانية.

عقبة بن نافع وصل داعياً إلى الله عز وجل مجاهداً إلى المغرب الأقصى، نزل في أرضٍ سبخة كلها غابات وأدغال محشوة بالسباع والوحوش الضارية، ونظر فرأى أن ذلك المكان هو المنطلق المفضل، هو المكان الذي يسمونه اليوم الاستراتيجي، نظر إلى من حوله من أفراد جيشه فانتقى البقايا الباقين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا أربعة عشر، جمعهم واجتمع معهم بقية القوم وأخذوا يلتجئون إلى الله من الصباح إلى المساء يناجون الله، يستنزلونه النصر يلتجئون إليه وقد أعلنوا عن ذل عبوديتهم له، وقد أعلنوا عن فرارهم من أنفسهم إلى الله سبحانه وتعالى إلى المساء باكين متضرعين يستنزلون النصر من عند الله، ولما دنا المساء وقف عقبة فوق رابية في ذلك المكان الموحش وأخذ يخاطب تلك الوحوش، أخذ يقول لها بأعلى صوته: أيتها الوحوش المتناثرة في هذا المكان جئنا لنبلغ رسالات الله، جئنا لننفذ أمر الله فهلا ذهبتم إلى مكان آخر لنجعل من هذا المكان منطلقاً لرسالتنا. نظر القوم في صباح اليوم الثاني وإذا بهذه الوحوش تحمل صغارها مبتعدة. كان ذلك المكان هو المكان الذي بنيت فيه مدينة القيروان.

هل أزيدكم يا عباد الله؟ ارجعوا إلى التاريخ، التاريخ كله ينطق بذلك، سنة الله ماضية في عباده لا تتبدل ولا تتحول، ونحن كما تعلمون نمر اليوم بحالةٍ لم نعهدها من قبل أبداً كما تعلمون، القحط والجفاف اللذان ينذران بشيء وبيل وخطير، إنها رسالة – يا عباد الله – والله الذي لا إله إلا هو إنها رسالة آتية

من عند الله عز وجل لها مضمون ولها مقتضى وفيها متطلبات فهل نتأمل فيها؟ هل ننفذ مقتضياتها؟ هل ننفذ المطالب التي تتضمنها هذه الرسالة؟

أسأل الله العلي القدير أن يوفقنا لذلك، أقول قولي هذا وأستغفر الله.



٦٦- سلاحنا الأمضى الدعاء والتضرع إلى الله | ٢٠١٢/٠٢/١٠

إن أول واجب يمليه العقل والمنطق والعلم على الإنسان أن يتبصر ذاته، وأن يعلم هويته وعلاقته بالمكوَنات التي يتقلب في غمارها، وإذا رجع الإنسان إلى كلٍّ من المنطق والعلم والعقل يتبصر عن طريقه ذاته ويتعرف على هويته فإن الجواب الذي يأتيه من هذه المصادر الثلاثة أجمع أنه عبد ومملوك للخالق الذي أوجده وأقام أسباب حياته ومعايشه وسخّر له المكوَنات التي من حوله وجعل بداءة وجوده من لدنه ونهايته عوداً إليه، تلك هي الحقيقة التي يطالعها الإنسان عندما يقف أمام مرآة ذاته معتمداً على المنطق والعقل والعلم.

وإذا كانت هذه هي الحقيقة وهي كذلك يا عباد الله إذاً فإن المنطق يقول أن على الإنسان وقد علم أنه عبد لله عز وجل بالجبر والاضطرار أن يكون عبداً له بالسلوك والاختيار، كما أن الله سبحانه وتعالى قد خلقني عبداً مملوكاً له بالجبر والاضطرار ينبغي أن يكون سلوكي منسجماً مع واقعي الاضطراري، ينبغي أن يكون سلوكي في كل تقلباتي ناطقاً بذل عبوديتي ومملوكيتي لله سبحانه وتعالى. وإذا تساءلنا عن أبرز مظهرٍ من مظاهر عبودية الإنسان لله عز وجل يأتينا الجواب من لدن حبيبنا المصطفى صلى الله عليه وسلم إذ يقول فيما رواه أصحاب السنن من حديث النعمان بن بشير: ﴿الدعاء هو العبادة﴾.

أبرز ما تحقق به عبوديتك لله عز وجل عن طريق السلوك الاختياري الدعاء الضارع المنكسر الدائم على أعتاب الله سبحانه وتعالى، ومن ثَم فإن كتاب الله عز وجل يدعو ويكرر، يدعو عباد الله سبحانه وتعالى إلى أن يصطبغوا بذل العبودية لله عن طريق الإكثار من الدعاء. ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦] هكذا يقول الله سبحانه وتعالى. ويقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً...﴾.

ويقول المصطفى صلى الله عليه وسلم ﴿أكرم شيء على الله مسألة العبد لله سبحانه وتعالى أن يتضرع إليه بالدعاء﴾.

إذا وقف الإنسان مهما كان عاصياً، مهما حُمِّل من الأوزار، وقف وقفة المسكنة والذل والانكسار على أعتاب الله عز وجل ضارعاً باكياً لاجئاً مستسلماً فإنه بذلك يجعل من عبوديته قربى وشفيعاً بين يدي الله عز وجل، وإن ذلك يذيب أوزاره كلها مهما كانت ثقيلة ومهما حُمِّل منها يا عباد الله. ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

لاحظوا يا عباد الله المقابلة بين هاتين الجملتين في هذه الآية، جعل إعراض الإنسان عن الدعاء لله مظهراً من مظاهر الاستكبار، وجعل الإقبال الضارع إلى الله عز وجل تصديقاً وإذعاناً بعبوديته ومملوكيته لله سبحانه وتعالى. إذا عرفنا هذه الحقيقة يا عباد الله فلنعلم أن الإنسان مدعوٌ دائماً إلى أن يُقبل إلى الله عز وجل بالدعاء في كل وقت، هو بأمس الحاجة إلى أن يبسط كفيه بالدعاء الضارع إلى الله، لأن الإنسان بين حالتين اثنتين: إما أن يكون متقلباً في نِعم في عافية في أمل في رغدٍ من العيش، إذاً هو بحاجة إلى أن يسأل الله عز وجل دائماً أن يديم عليه نعمة العافية، أن يديم عليه نعمة الأمن والطمأنينة، أو أن يكون متقلباً في بعض المصائب وبعض الابتلاءات، إذاً هو بحاجة إلى أن يسأل الله عز وجل أن يعافيه من الابتلاءات، هو بحاجة إلى أن يسأل الله سبحانه وتعالى أن يعافيه من المصائب، بحاجة إلى أن يشكو إليه ضعفه، وهكذا فالإنسان في كل أحواله بحاجة إلى أن يطرق باب الله الذي لا يُغلق دون أحد، ثم إن الإنسان مدعوٌ إلى أن يدعو لنفسه وأن يدعو لإخوانه أياً كانوا وعلى أي المستويات كانوا.

يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم ﴿إذا دعا المسلم لأخيه في ظهر الغيب، قال الملك: ولك مثل ذلك﴾.

أي قال الملك الموكل به ولك مثل ذلك، وهذه دعوة من المصطفى صلى الله عليه وسلم إلى أن نكثر من الدعاء لإخواننا في الإنسانية وفي الله سبحانه وتعالى، وفي مقدمة من أجمعت الأمة على ضرورة الدعاء لهم أولياء أمور المسلمين.

ولقد ذكر المصطفى صلى الله عليه وسلم حديثه المعروف المتفق عليه: ﴿الدين النصيحة قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم﴾.

قال العلماء أن أول معنىً من معاني النصيحة لأئمة المسلمين الدعاء لهم، وإن أول معنىً من معاني النصيحة لعامة المسلمين أيضاً الدعاء لهم، وقد قال الفضيل بن عياض ذلك العالم الرباني الجليل: لو كانت لي دعوة أعلم أنها مستجابة لصيرتها لولي أمر المسلمينقال له عبد الله بن المبارك: كيف ذلك؟ قال: لأني إذا صيرتها لنفسي لم تتجاوزني وإذا صيرتها لولي أمر المسلمين فإن إصلاحه إصلاح للعباد والبلاد جميعاً، وكان الإمام مالك يقول هذا ويفتي بضرورة الدعاء لولي المسلمين، كيف؟ يدعو لولي أمر المسلمين بالاستقامة على صراط الله، يدعو لولي أمر المسلمين بتقوى الله، يدعو لولي أمر المسلمين بأن يزيده الله عز وجل حباً له تمسكاً بهديه حراسةً لشرعه، هذه هي الحقيقة التي ربانا عليها ديننا يا عباد الله.

ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب رضي الله عنه وكان قد عزم على أن يذهب في شأن له إلى ضاحية من ضواحي المدينة قال له: ﴿لا تنسنا يا أُخَيَّ من دعاءك﴾ لا تنسنا يا أُخَيَّ من دعاءك، يعلن المصطفى صلى الله عليه وسلم وهو رئيس دولة إلى جانب كونه نبياً عن حاجته إلى دعاء إخوانه المسلمين له فكيف؟ فكيف بعامة المسلمين؟ كيف بأولياء أمور المسلمين؟ هم بأمس الحاجة إلى أن ندعو لهم بالصلاح والاستقامة والسير على سنن الرشد.

عباد الله لا أعتقد أن هنالك محنة مرّت على بلدنا هذه – الشام وسوريا خاصةً – أدعى إلى أن نلتجئ منها إلى الله عز وجل وأن نفرَّ منها إلى الدعاء الضارع بين يدي الله عز وجل من هذه المحنة التي نمر بها اليوم، وبوسعي أن أوجز لكم حقيقة هذه المحنة بكلمتين اثنتين، إنها حرب حقيقة معلنة من إسرائيل على سوريا، كانت إلى الأمس القريب حرباً غير معلنة وكانت تختفي وراء وسائل مختلفة شتى، أما اليوم فقد غدت حرباً حقيقيةً معلنة، أكبر رئيس لإسرائيل اتجه مسرعاً قبل أيام إلى واشنطن وهو يقول بصلفٍ واستكبار، يقول بصلفٍ واستكبار أن أقل ما نطالب به سقوط هذا الحكم القائم اليوم في سوريا، لن نقبل بأقل من هذا الذي نتجه إلى واشنطن للمطالبة به، إذاً محنتنا هذه تتلخص في أن إسرائيل قد أعلنت حرباً حقيقيةً ضد هذه البقعة من شامنا المقدسة، وإنها لتراهن على أن تجني ثمار هذه الحرب دون أي جهد تبذله، وأن تلتقط مغانمها دون أن تتحمل شيئاً من مغارمها، وألا تراق قطرة دمٍ في سبيلها من جندي من جنودها. فيا أيها العرب مسلمين وغير مسلمين، يا أيها المسلمون عرباً وأعاجم، يا من يعتزون

بالشرف، يا من يعتزون بالمروءة، استيقظوا، استيقظوا إلى البلاء الماحق الذي يراد بكم قبل أن يفوت الأوان فتصبح اليقظة سبباً لندامة لا خير فيها ولا فائدة منها.

يا عباد الله على أني أعود فأقول لكم مهما اختلفت الوسائل ومهما تكاثرت العدد للوقوف في وجه هذا العدوان المستعلن فإنّ العُدّة الأساسية التي لا غنى عنها قط إنما هي عُدّة التوجه إلى الله كما قلت لكم الآن، إنما هي عُدّة الاصطلاح مع الله قبل كل شيء.

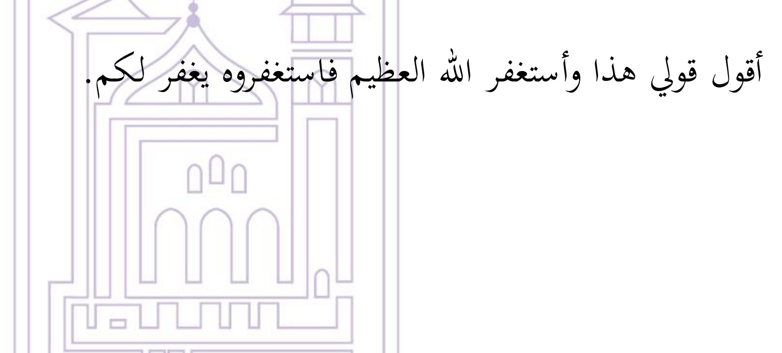
صحيح أن أنواع الإصلاح بين الناس بعضهم مع بعض من الأهمية بما كان، وأن السير في طريق الإصلاح ضرورة لا بدّ منها، لكن بوابة هذا الإصلاح إنما هو إصلاح ما بين العبد وربه، ألا فاسمعوا هذه الحقيقة يا عباد الله، بوابة الإصلاح على اختلافه واختلاف أنواعه وسبله إنما تتمثل في أن نصلح ما بيننا وبين مولانا وخالقنا، نتوب إليه، نجدد البيعة بين يديه، نعلن عن الالتزام بأوامره، نعلن عن الابتعاد عن نواهيه، نعلن عن الاعتزاز بشرعه، وإذا زلّت بنا القدم وإذا تغلبت علينا النفس الأمارة نعود إلى الله عز وجل بالتوبة ونسله الصفح والله تواب، لكن لا بد من أن نصلح ما بيننا وبين ربنا أولاً، أن لم نفعل ذلك فإن سبل الإصلاح ستبقى شكلاً لا مضمون له، ولسوف تبقى مظهراً لا روح فيها، ثمَّ إذا أُبنا إلى الله وتبنا إليه على كل المستويات لا بد من أن نتجلبب بجلباب المسكنة الذل الانكسار لله عز وجل، وهو ثوبنا اللاصق بنا في الحقيقة، هو ثوبنا الذي لا يمكن أن يفصل عنّا، نحن عبيد يا عباد الله، نحن مساكين شئنا أم أبينا، واقفون على أعتاب الله عز وجل، ينبغي أن نلتجئ إلى الله في البكور والآصال بانكسار، بدعاء واجف، بضراعة، نعلن بين يدي مولانا وخالقنا ألّا ملاذ لنا غيره، وألا مرجع لنا لا إليه، هو ملاذنا قبل أن نلوذ، هو عياذنا قبل أن نعوذ، نفعل ذلك على كل المستويات. وقد قلتها بالأمس وأقولها اليوم أيضاً أن التوكيل في المعاملات وارد قانوناً وشرعاً ولكن التوكيل في الالتجاء إلى الله غير وارد يا أخواننا، غير وارد يا ناس، لا ينبغي أن أقول لأخي التجئ إلى الله عني، أدعو الله عز وجل عني، أنا عبد، كلنا عبيد لله عز وجل. ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً﴾

أقبل رجل من الأعراب يسأل رسول الله أن يدعو له، قال له: ﴿سأفعل ولكن أعنّي على نفسك بكثرة السجود﴾.

أعنّي على نفسك بكثرة السجود، هذا ما يقوله رسول الله لكلٍّ منا، ليس هنالك إنسان بريء عن ذل العبودية لله عز وجل، فإذا أصلحنا ما بيننا وبين خالقنا، وجددنا البيعة له أن نلتزم بنهجه وأمره جهد استطاعتنا، ثم التصقنا بأعتاب ربنا داعين متضرعين باكين لا سيما في الأسحار، دعاء الأسحار سهام لا تخطئ يا عباد الله، حقيقةٌ أقولها لكم ليس فيها أي ريب، دعاء الأسحار عليكم بهذا السلاح، إن نحن فعلنا ذلك فإنني أقولها لكم وأنا متأكد وضامن أنَّ خوارق النصر الإلهية ستقبل إلينا من كل حدبٍ وصوب كما أن البلاء يقبل اليوم إلينا من كل حدبٍ وصوب.

فهل عسيتم أن تتوبوا إلى الله يا ناس، هل عسيتم أن تقبلوا إلى الله، هل عسيتم أن تصلحوا ما بينكم وبين مولاكم وخالقكم، إذاً لن تستطيع إسرائيل وإن أعلنت حربها على سوريا أن تنال منها منالاً. ربنا بالمرصاد، خالقنا جل جلاله بالمرصاد، ولكن ولكن العلاج هذا هو يا أيها الأخوة، كل أنوع الأعتدة لا بد منها، كل أنواع العدد لا بد منها، لكنها جميعاً جسدٌ لا روح فيه إن لم يُتوج ذلك بصدق التوجه إلى الله، بصدق الإنابة إلى الله سبحانه وتعالى.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم فاستغفروه يغفر لكم.




الذكر

٦٧- من نتائج الإعراض عن ذكر الله عز وجل | ١٩٩٢/١٠/٠٢

إنني لم أجد فيما بيّنه لنا الله عز وجل في محكم تبيانه وفيما أوضحه لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في هديهِ دعوةً إلى عبادةٍ من العبادات كالدعوةِ إلى ذكر الله سبحانه وتعالى، ولم أجد في كتاب الله وفي سنة الرسول المصطفى صلى الله عليه وسلم ما يدل على أهمية ذكر الله عز وجل وتميّزه عن سائر العبادات والطاعات الأخرى، ما رأيت شيئاً في كتاب الله عز وجل ولا في سنة رسوله المصطفى صلى الله عليه وسلم أدل على أهمية الذكر وخطورته بين سائر العبادات والطاعات، وحسبنا من كلام المصطفى صلى الله عليه وسلم في ذلك قوله: ﴿الدنيا ملعونةٌ ملعونٌ ما فيها إلا ذكرَ الله وما والاه﴾. وإن أردنا أن نضيف إلى ذلك فحسبنا قول المصطفى صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي نقلاً عن ربه عز وجل: ﴿أنا جليس من ذكرني فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خيرٍ من ملأه﴾.

وأقف قبل ذلك مع آيات في كتاب الله سبحانه وتعالى تُلِحُ على العبد المؤمن أن يكون ذاكراً الله عز وجل في كل حال. وانظروا إلى قول الله عز وجل: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ بل انظروا كيف يبين الباري سبحانه وتعالى أن للذكر ذِكرِ الله عز وجل أثرين قد يبدوان متناقضين، ولكن بينهما كمال التناسق فيقول مرةً: ﴿أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ ويقول في مكانٍ آخر وهو يصف المسلمين الصادقين والمؤمنين السائرين على صراط الله بحقٍ وصدق يقول عنهم: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ وأول الكلام: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ وذلك عندما نزلت آيات جواباً عن سؤالٍ سأله بعض الصحابة عن كيفية تقسيم الغنائم فأنزل الله قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ، إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾

فانظروا كيف أوضح أن الذكر يبعث في القلب الاضطراب والوجل عندما ينبغي أن يكون القلب متصفاً بذلك، وأن الذكر في الوقت ذاته يبعث في القلب الطمأنينة والسكينة عندما ينبغي أن يتصف القلب بذلك.

أجل لم أجد دعوة إلى طاعة من الطاعات لا في القرآن ولا في السنة كالدعوة إلى الإكثار من ذكر الله سبحانه وتعالى، ولم أجد ما يدل على أن الذكر هو دواء ناجع ضد الأدواء كلها التي قد تتسرب إلى كيان الإنسان وتتوضع في قلبه – كما يقولون – كذكر الله سبحانه وتعالى.

ومع هذا فأنا أنظر وأتأمل فأجد أن المسلمين اليوم في شغلٍ شاغلٍ عن ذكر الله عز وجل، وأنا لا أتكلم عن التائهين، ولا أتحدث عن الشاردين والفاسقين وإنما أتكلم عن المقبلين على الله عز وجل بحسب الظاهر، قد تجدهم يتلاقون ويتناقشون في قضايا الإسلام، وقد تجدهم يتجادلون في أحكام هذا الدين، وقد تجدهم يتحدثون عن آياتٍ في كتاب الله يستخرجون منها المعاني والأحكام، وقد تجدونهم يتكلمون عن حياة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد تجدونهم يتحرقون على الأحكام الإسلامية والمجتمع الإسلامي أين غاب؟ ولماذا لا يعود؟ ولكن قلّما تجد بين هؤلاء الناس من ينبض قلبه بذكر الله عز وجل دائماً أو غالباً أو من يتعهد قلبه بوردٍ دائم من ذكر الله سبحانه وتعالى.

ولما كان حال المسلمين اليوم هكذا، فقد رأينا في واقعهم الذي نتأمله فنراه جلِيّاً، نرى الشيء الذي يؤلم والذي يحير الألباب، ألباب من لا يعلمون أهمية هذا الذكر، تنظر فتجد المسلمين بحسب الظاهر يصولون ويجولون ويفورون تحدثاً عن الإسلام وحماسة لإعادة بنيان الإسلام راسخاً كما كان، ولكنك تجدهم لا يتحركون إلا في أماكنهم. كذلك الذي يتحرك ويراوح في مكانه تماماً.

وما أكثر ما رأيت من يسأل ويستشكل كيف أن المسلمين يهتاجون من أجل الإسلام ويتحرقون في سبيل الإسلام، ولكن الله سبحانه وتعالى لا يوفقهم لتطبيق شيء، ولا يستقدمون خطوة واحدة في الطريق الذي يحلمون به قط. فما السبب؟ السبب أيها الأخوة أن هؤلاء الناس مسلمون بأعضائهم بمظاهرهم بألسنتهم بل بقناعاتهم العقلية أيضاً، ولكنهم – وأرجو أن لا أكون مبالغاً ولا متطرفاً في الكلام – غير مسلمين ومؤمنين بقلوبهم التي هي مكمن العواطف والأهواء، أجل.. لو أنك نبشت سرائرهم

وكشفت عن ما تحتويه أفئدتهم وقلوبهم، لرأيت أن أفئدتهم تنطوي على حبٍ للدنيا على حبٍ للشهوات والأهواء، تنطوي على رغبةٍ عارمة في الزعامة، تنطوي على عصبيات، تنطوي على أحقاد، تنطوي على ضغائن، كل هذا هو الثابت المستقر في أفئدة كثيرٍ منهم.

العقل مؤمن ومصدق، ولذلك فإن هذه الأدواء بل مظاهر الزغل هذه التي تكمن في القلب لا تبرز ظاهرة، بل تبرز مقنعةً ومستورة بغلاف الإسلام، مستورةً بغلاف الدعوة إلى الله، فأنا لا أعبر عن حقدي بالتعبير المكشوف الواضح الذي يدل على أن في قلبي مرضاً، بل أُغلف حقدي بالغيرة على الإسلام، وأُغلف عصبيتي بالدعوة إلى دين الله سبحانه وتعالى.

هذا المرض مرضٌ خطير، وكثيرٌ كثير في مجتمعاتنا الإسلامية، ولو أن كل واحد من هؤلاء الناس عاد إلى قلبه وفحص سريرته فحصاً موضوعياً دقيقاً كما يقولون، لرأى أن بين عقله المقِر بدين الله عز وجل وبين عواطفه المتجهة إلى الدنيا وأهوائها حاجزاً حصيناً؛ هذا الحاجز الحصين كثفته الأهواء، كثفته الشهوات، كثفته الطبيعة الحيوانية في كيان كلٍ منا، كلٌ منا معرضٌ لهذا. فما الذي يُذيب هذه الأمراض والأوباء؟ وما الذي يزيل هذا الحاجز مما بين العقل الذي يؤمن بالله فعلاً والقلب المتجه إلى أهوائه المنحطة الدنيوية المختلفة التي تتنوع إلى أنواعٍ كثيرة؟ ما السبيل؟ لا سبيل إلا الإقبال إلى ذكر الله سبحانه وتعالى.

ذكر الله عز وجل هو الذي يذيب هذه الأدران من القلب، أنا واحدٌ من البشر وأعلمُ يقيناً أنني إذا نسيت الله عز وجل ونسيت مراقبته لي ونسيت وقفتي بين يديه، فلسوف أعامل الناس من منطلق الترفع عليهم، من منطلق استغلالهم، من منطلق اتخاذهم جنوداً لأهوائي وشهواتي، وأنا أعلم أنني سأتعامل عندئذٍ مع الناس أياً كانوا طبقاً للعصبية التي أجترُها في فؤادي وأحتضنها في فكري ونفسي، ولكن في حالةٍ واحدةٍ أستطيع أن أتحرر من هذا كله، عندما أُكثر من ذكر الله عز جل، ولست أعني قلتها مراراً مراراً لست أعني بذكر الله عز وجل ترداد اللسان عندما يكون محجوباً عن الجنان معاذ الله، وكذلك طبعاً لا أعني بالذكر فرقعة السبحةِ في اليد وقد أصبحت السبحة شعاراً استبدل به كثيرٌ من المسلمين استبدلوا الذكر به؛ يمسك أحدهم بالسبحة يتزين بها إن سار في طريق سبحته بيده إن وقف يتكلم سبحته تتدلى من يده إن جلس في مجلسٍ سبحته في يده يتجمل بها، ولسانه أبعد ما يكون عن ذكر الله فضلاً على

أن يكون القلب يلهج بذكر الله عز وجل، ليس هذا ما أعنيه بالذكر، إنما الذي أعني أن يكون القلب يقظاً لمراقبة الله، أن يكون القلب متجهاً إلى صفات الله سبحانه وتعالى وعظمته.

هذا الذكر القلبي هو الذي يُحي كوامن توحيد الله عز وجل في الفؤاد، ويطرد كل معاني العصبية كل معاني الأحقاد والضغائن، كل مظاهر الشهوات والأهواء التي تهيمن على الإنسان عندما يعافس الدنيا ويتعامل معها. أين هم هؤلاء الذاكرون الله عز وجل كثيراً والذاكرات؟ أين هم؟ انظر وتأمل تجد أكثر من يشتغلون بالدعوة إلى دين الله جعلوا من هذه الدعوة الحركية عوضاً عن ذكر الله سبحانه وتعالى، ولعل أحدهم إذا عاد إلى منزله أوى إلى فراشه متعباً فإذا ذُكر بأن عليه أن يجلس ليذكر الله قليلاً أو يقوم قبيل الفجر ليذكر الله قليلاً، ربما قال: حسبي أنني قد أتعبت نفسي النهار كله في سبيل دين الله عز وجل، وقد آن لي أن أستريح.

كانت النتيجة أيها الأخوة – نتيجة إعراضنا عن أهم ما أمرنا الله عز وجل به من الطاعات ألا وهو الذكر – أننا في الظاهر دعاةٌ إلى الله، وفي الباطن نحمل قلوباً مليئةً بالحقدِ والضغينةِ على عباد الله سبحانه وتعالى. هذه هي النتيجة التي آل كلٌ منا إليها، قلت في درس البارحةِ في مسجد دنكز قلت: آخر ما وقعت عيني عليه كلامٌ تقشعر له الجلود تقشعر له جلود كل من آمن بالله وكل من كان في قلبه مثقال ذرة من مراقبة الله ومن الخوف من الله، رأيت من ينعت الحافظ ابن حجر العسقلاني الذي أَلّفَ كتابه المشهور المعروف في شرح صحيح البخاري الذي أَلّفَ كتاب الفتح فتح الباري، ينعته بالتذبذب أصح ما يمكن أن يقال فيه أنه متذبذب في عقيدته.

كيف أتصور أن مسلماً يقول هذا الكلام كيف؟ ترى لو أن هذا الإنسان راقب الله وجعل لنفسه حظاً من ذكر الله، ساعةً في كل أربع وعشرين ساعة. ترى لو أنه جعل لنفسه حظاً من ذكر الله عز وجل ولو حظاً يسيراً، أفكانت تتركه مراقبته لله يقول هذا الكلام!؟ أفلا يأتي ذكر الله عز وجل لينبهه إلى كلام الله عز وجل في الحديث الصحيح ﴿من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب﴾؟ أفلا يتصور هذا الإنسان احتمال عشرة بالمئة أن يكون الحافظ ابن حجر من أولياء الله عز وجل، غبر حياته كلها يخدم دين الله، يحفظ حديث رسول الله، أَلّف أعظم كتاب ترتفع فيه هامة العالم الإسلامي فخرا، أفلا أتصور أن يكون هذا من أولياء الله عز وجل، أنعته بالتذبذب.

عندما أكون ذاكراً لله وعندما أشعر بأن الله يراقبني لا يمكن أن يتحرك لساني بمثل هذا الكلام أبداً، ولا يمكن أن يتحرك قلمي بكتابة هذه الكلمة مطلقاً، ذلك لأن خوفي من الله يمنعني، وخوفي من الله لا يأتي إلا من خلال الإكثار من ذكر الله، ومن مراقبة أن الله يراقبني سبحانه وتعالى. كيف يكون هذا؟

ابن حجر العسقلاني الحافظ صاحب عقيدةٍ متذبذبة!! ومن يقول هذا الكلام؟ نجديٌ يتظاهرُ بالغيرة على الإسلام، يتظاهر بالدعوة إلى دين الله عز وجل. والله إنني لأقول كما قال المثل العربي: طف الصاع طف الصاع. بل كما قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهو مثلٌ قبل ذلك، أجل.. فقد طف الصاع طف الصاع، ذكر الله عز وجل نعرض عنه، وإذا ذُكرنا بذكر الله حاربناه، لكي تكون قلوبنا متجهةً إلى أهوائنا، ولكي نكون قادرين على أن نطيل ألستنا بالسوء وبقالة السوء في حق السلف الصالح من هذه الأمة، بل ليت أن الأمر وقف عند ابن حجر، لقد كانت قائمة طويلة أصحاب أسماء هذه القائمة كلها مُنيت بالسباب والشتائم، هذا البلاء أيها الأخوة داء ولا دواء لهذا الداء إلا الإكثار من ذكر الله عز وجل، إلا الإكثار من ذكر الله سبحانه وتعالى، فاذكروا الله كثيراً وراقبوه كثيراً إذا ذكرتموه وراقبتموه أو جعلتم لأنفسكم حظاً من ذكر الله عز وجل في كل يومٍ وليلة، فإن أمرين يتحققان في حياتكم وتشعرون بهما في طوايا أفئدتكم:

الأمر الأول: الحب في الله، حب عباد الله سبحانه وتعالى بمجرد أن تجد فيهم رائحةَ التوجه إلى الله، هذه هي النتيجة الأولى؛ أي إنكم ستكونون ممن انطبق عليهم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه معاذ ابن جبل نقلاً عن رب العزة ﴿وجبت محبتي للمتحابين فيّ وللمتجالسين فيّ وللمتزاورين فيّ وللمتباذلين فيّ﴾ هذه هي النتيجة الأولى.

النتيجة الثانية للإكثار من ذكر الله عز وجل: الأدب مع عباد الله، فمهما رأيت من دواعِ الانتقاد ومهما رأيت من دواعِ التقاط العيوب والثغرات، فإن الأدب مع الله يجُرك إلى الأدب مع عباده، قد تنتقد انتصاراً لبيان الحق، ولكنك تقف عند النقد فقط، ولا يجُرّك النقد إلى انتقاصٍ لمن تنتقده، لا يجرك الانتقادُ إلى سبٍ و شتمٍ لمن تنتقده، لعلّ الرجلُ آب إلى الله سبحانه وتعالى تائباً، لعل هذا النقد رأيٌ لك وأنت مخطئ وهو المصيب، ولكنك تجتهد وتدلي باجتهادك، هذا هو أدب الخطاب، وهذا هو أدب التعامل مع عباد الله سبحانه وتعالى.

ولكن إذا لم يكن لنا حظٌ من ذكر الله سبحانه وتعالى، فلا الحب في سبيل الله يتحقق. من أين يأتي حبي لعباد الله في سبيل الله عز وجل إذا لم يكن فؤادي يحتضن حباً الله؟

إذا لم يكن يحتضن تعظيم الله عز وجل؟ فهيهات أن ينعكس عن هذا الفؤاد الفارغ حبٌ لعباد الله. أحبهم لمصالحي أحبهم لأهوائي وشهواتي فإذا انقلب الأمر انقلب الحب إلى حقد وهذا ما نراه اليوم.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم فاستغفروه يغفر لكم.



٦٨- الدنيا ملعونةٌ ملعونٌ ما فيها إلا ذكر الله | ١٩٩٣/١٠/١٥

لقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: ﴿الدنيا ملعونةٌ ملعونٌ ما فيها إلا ذكر الله وما والاه﴾ والحديث صحيحٌ مروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وربما استشكل كثير من الناس هذا الحديث، وتساءلوا كيف تكون الدنيا ملعونة وهي خارجة عن نطاق التكليف وخارجةٌ عن قائمة المكلفين؟ وهل الدنيا إلا ما يتمتع به الإنسان من رغد عيش؟ وهل الدنيا إلا هذه المظاهر التي قال الله عز وجل عنها: ﴿قُلْ مَنْحَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾؟ فكيف تكون هذه المتع التي لا حس فيها ولا عقل لديها، كيف تكون ملعونة؟ واللعن إنما هو نتيجة من نتائج التكليف، وثمرةٌ من ثمرات الأمر والنهي. ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يستثني فيقول: ﴿إلا ذكر الله وما والاه﴾ وهل كان ذكر الله عز وجل في يوم من الأيام داخلاً في شيءٍ من شؤون الدنيا؟ وهل ذكر الله عز وجل إلا مظهراً من مظاهر الآخرة؟

فكيف يكون معنى هذا الحديث بعد هذا الإشكال الذي كثيراً ما تصوره أناسٌ وتساءلوا عن الجواب عنه؟

إن المراد – أيها الأخوة – بالدنيا التي لعنها الله سبحانه وتعالى، تعامل الإنسان معها، فاللعن ليس موجهاً على هذه المتع بحد ذاتها، وإنما اللعن موجهٌ إلى وجه تعامل الإنسان مع هذه المظاهر الدنيوية، هذه المتع التي خلقها الله عز وجل لنا يصدق عليها قوله عز وجل: ﴿قُلْ مَنْحَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ ويصدق عليها قول الله عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾ فقد خلق الله سبحانه وتعالى هذه المتع على اختلاف صنوفها وألوانها للإنسان، وخلقها من أجل أن يتمتع بها ويستفيد منها، ولكن اللعن ينبثق من نوع العلاقة التي تسري بين الإنسان وبين هذه الحياة الدنيا، وربما تسائلنا والعلاقة التي تكون بين الإنسان وبين هذه الحياة الدنيا، فيم تكون مثابة للعن؟ وقد خلق الله سبحانه وتعالى هذه الدنيا من أجلنا؛ من أجل أن نقبل إليها ونستفيد منها. فكيف تكون هذه العلاقة بعد ذلك مثابة لعن وطرد من رحمة الله سبحانه وتعالى؟

وهاهنا ينبغي أن ندقق النظر في الإجابة أيها الأخوة عن هذا السؤال: أرأيتم إلى لحوم الأنعام التي خلقها الله عز وجل لنا، كم امتن الله عز وجل على عباده في كثير من آي كتابه المبين إذ خلق الله سبحانه وتعالى هذه الأنعام لنا، وجعلها رزقاً مباحاً طهوراً للإنسان بل لكم نعى القرآن على المشركين اللذين حرّموا على أنفسهم كثيراً من هذه الأنعام لأسباب اختلقوها ولبدعٍ ابتدعوها من عند أنفسهم، ومع ذلك .. مع أن الله امتن علينا بهذه الأنعام لحماً ولبناً، مع هذا كله فقد أعلن الله سبحانه وتعالى أن هذه الأنعام رجس ولا يطهرها إلا ذكر الله سبحانه وتعالى.

فقال عز وجل في محكم تبيانه: ﴿وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ أي أن الذبيحة التي امتن الله عز وجل عليك بها تظل فسقاً إلا أن تذبحها تحت سلطانٍ من ذكر الله عز وجل، وتحت ضوابط وتعليمات تنفذها كما أمر الله سبحانه وتعالى، فتحت سلطان ذكر الله عز وجل وبالانضباط بهذا الذكر وتعليمات الله تتحول هذه اللحوم من خبائث إلى رزقٍ طهور طيب، هذا الذي نبهنا الله عز وجل إليه فيما يتعلق بلحوم الأنعام هو ذاته الذي ينطبق على الدنيا، فالدنيا بكل ما فيها أشبه ما يكون بحيوان من هذه الحيوانات التي جعلها الله عز وجل رزقاً لنا، ولكن لابد لكي يكون هذا الرزق حلالاً، ولكي يصل إلى فمك طهوراً لابد أن يكون ذلك وأن تكون العلاقة بين وبين هذه الدنيا تحت مظلة وإشرافٍ من ذكر الله سبحانه وتعالى، وعندئذٍ تصبح الدنيا بكل متعها مباحةً وطهوراً ورزقاً طيباً لك تماماً كشأن التزكية التي هي الشرط الأساسي لتحول هذا اللحم الذي قضى الله أن يكون فسقاً إلى لحمٍ طيبٍ طهورٍ تتناوله، جعل الله سبحانه وتعالى منه خير غذاءٍ لك.

وهذا معنى الاستثناء في قوله عليه الصلاة والسلام : ﴿إلا ذكر الله وما والاه﴾ ذكر الله ليس من الدنيا ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعني أن إقبالك على الدنيا إقبال انحرافٍ دائم، وأن تعاملك مع الدنيا تعامل متنكر عن جادة الله دائماً، فتتبين ذلك إلا في حالة واحدة عندما يكون هذا الإقبال تحت حراسة من ذكر الله عز وجل، عندما يكون تعاملك مع الدنيا تحت حراسة من رقابة الله سبحانه وتعالى، عندئذٍ لا تصبح الدنيا دنيا بل تصبح الدنيا آخرة أو ذيلاً من ذيول الآخرة، فكأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول: هذا التعامل مع الدنيا طالما كان تعاملاً مع الدنيا يطغي ويضل ولا يهدي، ولكنك تستطيع أن تحول الدنيا هذه إلى آخرة، بل أن تحولها إلى جندٍ من جنود الآخرة، وجند من جنود مرضاة

الله عز وجل. متى يكون ذلك؟ إذا صبغت علاقتك بالدنيا بذكر الله سبحانه وتعالى، عندئذٍ يتحول رجس الدنيا إلى طهور، كما تحول اللحم الفسق – كما وصف الله عز وجل – إلى رزقٍ ومتعةٍ طاهرة لا إشكال فيها قط.

وهذا الذي يقوله النبي صلى الله عليه وسلم، فيه تلخيص لكل آداب التعامل مع الدنيا إقبالاً وإدباراً، وربما أن معنى قوله عليه الصلاة والسلام: ﴿الدنيا ملعونة﴾ ملعونة أي في إقبالها، لا بل هي ملعونة في إقبالها وإدبارها، أي هي فتنة للغني والفقير معاً.

أما الغني ففتنة المال والدنيا بالنسبة إليه أنها تسكره أنها تبطره أنها تنسيه مولاه وخالقه أنها تجعله يركن إلى الدنيا وكأنه مخلدٌ فيها، ولكن ما أسرع ما تتحول هذه الدنيا كلها في لحظة واحدة في كفه أو في صندوقه إلى سلمٍ يوصله إلى مرضاة الله عز وجل، عندما يجعل علاقته بهذه الدنيا خاضعةً لذكر الله، خاضعةً لمراقبة الله عز وجل، عندئذٍ يتحول الرجس في لحظة واحدة إلى طهور، أرأيتم إلى الخمرة كيف تصبح طهوراً عندما تتخلل، هذا الرجس من الدنيا أيضاً يتحول إلى طهور ولكن السر الخفي الكامن في هذا التحول إنما هو ذكر الله سبحانه وتعالى، كذلكم الفقير الدنيا ملعونة بالنسبة إليه ولا بد أن يصيبه من رشاش هذه اللعنة لأن اللعنة ليست منحطةً لهذه الشهوات والأهواء الخامدة والهامدة كما هي، ولكن اللعنة تنصب على وجه التعامل أو العلاقة بين الإنسان وبين الدنيا.

الفقير الذي قُدر له رزقه والذي انصرفت عنه الدنيا، عندما يفر على قدر الله عز وجل وقضائه في ذلك، ويبتعد عن الصبر الذي أمره الله عز وجل به، ويبتعد عن العفاف الذي أمره الله سبحانه وتعالى أن يداوي نفسه وفقره به، ثم يركن إلى ثوران نفسه وإلى هيجان غرائزه، فتمتد يده إلى المحرم هنا وهناك، وتمتد نفسه ويخضع لسلطان نفسه إلى الرشاوى وإلى كثير وكثير من وجوه الاكتساب المحرم، هذا مظهر من مظاهر اللعن الذي تحدث عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الذي قال في حديثٍ آخر: ﴿كاد الفقر أن يكون كفراً﴾، ولكن ليس معنى هذا أن رسول الله يُعذر الفقير إن هو كفر، بل هو تحذيرٌ أكثر من أن يكون إعذاراً؛ أي كاد الفقر أن يكون كفراً عندما يكون هذا الفقير شارداً عن ذكر الله، وعندما عندما يكون شارداً عن مراقبة الله سبحانه وتعالى، والذي يزجّه عندئذٍ في الكفر ليس ذلك الفقر، وإنما هو فقرٌ مشفوعٌ بالغفلة عن الله، والغفلة عن ذكر الله سبحانه وتعالى.

وهكذا فإن ذكر الله المتمثل في مراقبة العبد لله سبحانه وتعالى، هو الذي يحوّل رجس الدنيا إلى طهور، وهو الذي يحول عفونتها إلى غذاءٍ طيب، بل ما أكثر ما يتقرب به الإنسان إلى الله سبحانه وتعالى.

والذي أريد أن أنتهي إليه من هذا، هو أن نعلم أن ذكر الله هو علاج أعظم المشكلات في حياة المسلمين، ولقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: ﴿لكل أمة فتنة، وفتنة أمتي في المال﴾، ولقد قال عليه الصلاة والسلام في حديثٍ آخر: ﴿ما تركت بعدي فتنةً أضر على الرجال من النساء﴾ فهما فتنتان خطيرتان عظيمتان في حياة هذه الأمة، هما فتنة المال والنساء، ولن تجد من علاج لهذه الفتنة إلا ذكر الله سبحانه وتعالى، ذلكم هو الحصن الذي يستطيع الإنسان أن يحصّن فيه نفسه، ولكني لا أعني بالذكر إلا مراقبة الله سبحانه وتعالى. ذكر الله كلما ورد في كتاب الله وكلما رأيتم دعوةً إليه في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاعلموا أن المراد منه مراقبة العبد للرب، أي أن يكون قلب الإنسان وفكره متيقظين لمراقبة الله، للتأمل بأن الله يراه، وبأن الله يسمع نجواه، وبأنه يرى حركاته، وأنه يرى سكونه، وأنه يحصي عليه كل ما يفعل، بل إن الله يحصي عليه كل خطواته ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾.

وإذا علمنا هذا فلنعلم أن سلك ذكر الله عز وجل إذا انفصل عن علاقة العبد بالدنيا تحولت الدنيا في لحظة واحدةٍ إلى سموم ناقرة، أمّا إذا اتصل سلك هذا الذكر بعلاقة هذا الإنسان بهذه الدنيا، تحولت الدنيا كلها - مهما تجمعت في يديه - إلى غذاءٍ نقي طهور يفيد الإنسان ويقربه إلى الله عز وجل، فإن كان ممن أكرمه الله بالغنى كان غناه تسبيحاً لله عز وجل في يده، وإن كان ممن ابتلاه الله عز وجل بالفقر كان فقره احتساباً وجهاداً في سبيل الله سبحانه وتعالى في حياته، ورحمة الله عز وجل هي أفضل ما جمعه الإنسان من نشب الدنيا ومن أسباب الرزق وأسباب المتع التي فيها.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم فاستغفروه يغفر لكم.

٦٩- سبق المفردون المستهترون بذكر الله | ١٩٩٦/٠١/٢٦

كما أن الإنسان مهما جَمُلَ شكله ومهما تناسقت أعضاؤه لا يحيى بدون روح، فكذلكم الإسلام في كيان الإنسان المسلم مهما اتسم بالطاعات والعبادات فلا قيمة لهذا الإسلام ولا تحيا حقيقته إلا بروحٍ من ذكر الله سبحانه وتعالى.

وما شرع الله عز وجل ما شرع من العبادات والطاعات على كثرتها وتنوعها إلا من أجل أن يحيا قلب هذا الإنسان المتعبد بذكر الله سبحانه وتعالى، ولولا الذكر الذي تحيا به القلوب ما صلح حال مجتمع من المجتمعات ولا شاعت في جنباته قيم الدين ومبادئ الأخلاق، فذكر الله عز وجل هو معين الإسلام ومن ثم هو منبع القيم والمبادئ التي جاء بها هذا الدين الحنيف.

وما رأيت آيةً تُنذر الإنسان البعيد عن ذكر الله سبحانه وتعالى وتنبهه إلى أن إيمانه غير حقيقيٍ إن لم يُتوج بهذا الذكر مثل قول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ، الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ، أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ هذا الكلام يوضح بشكل جلي أن المؤمن حقاً هو ذاك الإنسان الذي فاض قلبه قبل أن يتحرك لسانه بذكر الله سبحانه وتعالى، فإذا رأى دلائل هذا الذكر من حوله، وجِلَ فؤاده واضطربت نفسه، ومن ثم خضع لسلطان الله سبحانه وتعالى وأوامره، هؤلاء هم المؤمنون حقاً.

وإنكم سمعتم أو تسمعون حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الصحيح الذي يقول فيه عن شهر رمضان المبارك، وهو حديث قدسي ينقله رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ربه: ﴿كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به﴾ ترى ما الذي جعل للصوم هذه المزية التي يعبر عنها هذا الحديث القدسي الشريف؟

السبب أيها الإخوة أن الصوم ينفرد بخصيصة لا توجد في العبادات المختلفة. يمكن جداً أن يصلي الإنسان وهو غافلٌ عن صلاته، يمكن أن يحج ويؤدي مناسك الحج وهو مشغول الفكر بدنياه، وكذلكم

الطاعات المختلفة يمكن أن يتلو القرآن وخياله متجه إلى دنياه وشهواته، أما الصائم الذي شعر بمعنى الصوم في نهاره جوعاً أو ظمأً فإن مشاعر صومه هذه تنقله إلى واحة من ذكر الله سبحانه وتعالى، كلما شعر بالجوع شعر أنه صائم، ومعنى أنه صائم أنه قد امتنع عن طعامه وامتنع عن شرابه تقرباً إلى الله سبحانه وتعالى، وأن الله يراقبه فهو إن أكل رآه الله عز وجل وحول أجره عقاباً، وإن شرب رآه الله سبحانه وتعالى.

وهكذا فظمأ الصائم منبع لذكره لله عز وجل، وجوع الصائم منبعٌ أيضاً لذكره لله سبحانه وتعالى، ولذلك فإن الأعمال كلها يمكن أن يفعلها صاحبها رياءً إلا الصوم فإنه لا يمكن أن يكون رياءً، صوم حقيقيٌ وفيه رياء لا يمكن أن يكون هذا في المنطق والعقل، لأن الصائم الكاذب ليس صائماً هو يملك أن يخلو في داره ويأكل فهو ليس صائم أم إن كان صائماً صوماً حقيقياً فلن يصبره على صومه هذا، ولن يبعده عن تناول طعامه وهو جائع وعن تناول شرابه وهو ظمآن إلا صدقه مع الله عز وجل في هذا الصوم ولذلك لا يمكن أن يتسرب الرياء إلى الصوم.

كل هذا معناه أن قيمة العبادة التي يقبلها الله عز وجل إنما تتمثل في ذكر الله عز وجل.

الإنسان الذي يتحرك جزعه بمظهر طاعات، وقلبه خالٍ عن ذكر الله عز وجل؛ مراقبةً لله، تعظيماً لله حباً له خوفاً منه، لن تفيده طاعاته شروى نقير أبداً أيها الإخوة.

وذكر الله ما هو؟ كم قلنا وأعدنا القول ليس المراد بالذكر حركة اللسان، حركة اللسان سبيلٌ إلى الذكر الحقيقي، وإنما المراد بالذكر يقظة القلب إلى صفات الله سبحانه وتعالى وربوبيته وعظمته.

هذا الذكر قد يكون بمظهر تسبيحٍ وتهليلٍ وتحميدٍ وتوحيدٍ لله عز وجل، وقد يكون بمظهر تلاوة لكتاب الله عز وجل، ويكون القلب شريكاً للسان في الوعي والتلاوة، وقد يكون بمظهر دعاءٍ واجف يتقرب الإنسان به إلى الله عز وجل؛ يسأله كلما يريد أن يسأل، ويستعيذه من كل ما قد يخاف منه، وقد يكون بتأملٍ فكريٍ بمكونات الله سبحانه وتعالى وصفاته.. كل ذلك مظاهر متنوعة لذكر الله عز وجل، وقد يكون ذكر الإنسان لله عز وجل في خلوة من خلواته منفرداً، وقد يكون في جلوة من جلواته مع إخوة

له يتساعدون على التحول من الغفلة إلى اليقظة ومن النسيان إلى تذكر الله سبحانه وتعالى، كل ذلك يكون.

وكان كل هذا من شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ودأبه، فكان يذكر الله خالياً، وكان يذكر الله في ملأ، وكان يذكر الله بين أصحابه، وكان يذكر الله تالياً لكتاب الله أو مصغياً لكتاب الله أو متأملاً في صفات الله عز وجل أو مبتهلاً ومتضرعاً داعياً الله سبحانه وتعالى.

وكان هذا شأن أصحابه البررة الكرام أيضاً، فكان الواحد منهم يذكر الله وهو سائرٌ في طريقه، أو يشتغل في حقله، أو يبيع ويشتري يمارس دنياه في الظاهر وقلبه مع الله في الباطن، وكان إذا رأى الواحد منهم أصحاباً له تداعوا إلى هذا المجلس من ذكر الله عز وجل فقال قائلهم تعالوا بنا نؤمن ساعة، هم مؤمنون. ما معنى نؤمن ساعة؟ تعالوا بنا نغذي إيماننا بمزيدٍ من ذكر الله حتى يزداد نمواً وحتى يزداد نشاطاً ويزداد قوةً بين جوانحنا وفي قلوبنا. هكذا كان ذكر أصحاب رسول الله لله، وهكذا كان ذكر رسول الله لربه.

لا يشترط للذكر بأن يكون الإنسان خالياً منفرداً، يكون الذكر ذكراً جماعياً في مسجدٍ أو في دارٍ أو في طريق في أي مكان، وقد يكون الذكر في انفرادٍ وخلوة، وكل ذلك سبيلٌ موصلٌ إلى الله عز وجل. ألم تسمعوا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم القدسي الصحيح: ﴿أنا معه إذ ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأٍ خير من ملأه﴾ إذاً كل ذلك قرباً إلى الله عز وجل إذا ذكر الإنسان ربه في حلقة ذكرٍ مع إخوانٍ له فكم هو عمل مبرور كما ينص عليه هذا الحديث القدسي الذي يرويه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ربه.

أيها الإخوة.. ليس هنالك من مطمعٍ في أن يصبح الإنسان معصوماً، فكل بني آدم خطاء، وكل منا معرضون للآثام والمعاصي حاشى الرسل والأنبياء، لكن الأمل الكبير قائمٌ في أن نكون من المكثرين لذكر الله عز وجل، في الغدو والرواح، في الخلوات والجلوات، وعندئذٍ يخفف هذا الذكر أثقالنا من المعاصي.

هذا هو الأمل بالله سبحانه وتعالى.. الذكر هو الذي يخفف أعباء معاصيك، ألم تسمعوا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي رواه الترمذي في سننه، والحاكم في مستدركه من حديث أبي هريرة

رضي الله عنه، والطبراني من حديث أبي الدرداء بسندٍ صحيح، بل بأكثر من طريق عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: ﴿سبق المفردون المستهترون بذكر الله، وضع الذكر عنهم أثقالهم يأتون يوم القيامة خفافاً﴾

سبق المفردون وشرح صلى الله عليه وسلم معنى المفردون فقال: المستهترون بذكر الله، أي المكثرون جداً جداً من ذكر الله عز وجل حتى إذا نظرت إلى أحدهم ظننت أنه مأخوذ بهذا الذكر لله سبحانه وتعالى. ماذا صنع الذكر لهم؟ وضع الذكر عنهم أثقالهم. ذلك لأن الإنسان لن يكون معصوماً. أتريد أن توضع أثقال معاصيك عنك؟ أكثر من ذكر الله سبحانه وتعالى. هكذا يقول المصطفى عليه الصلاة والسلام. وضع الذكر عنهم أثقالهم يأتون يوم القيامة خفافاً، لا لأنهم لم يرتكبوا معصية في الدنيا لكن لأنهم أكثروا من ذكر الله عز وجل.

أيها الإخوة والله ما عجبي بعد هذا من إنسان فاسق، فالفاسق يوشك أن يهديه الله عز وجل في يومٍ قريب، وما عجبي من إنسان تائهٍ ضال فالضال يوشك أن ينتشله الله عز وجل من ضلاله وضياعه، ولكن عجبي من إنسانٍ ذاق طعم الإيمان، وأقبل إلى مساجد الله عز وجل وبيوته، يفر من مجالس ذكر الله، إذا رأى المسلمين يمدون أيدي الضراعة إلى الله داعين فر من هذا وكأنه أمام معصية من المعاصي، إذا سمع الأصوات ترتفع بذكر الله عز وجل والمكان يرتج بتوحيد الله أو بتهليلٍ أو بتكبير أو نحو ذلك أخذ حذاؤه وفر. ما هذا يا أخي ألم يذق قلبك لذة ذكر الله؟ ألم تشهد معنى قول الله عز وجل: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ تطمئن القلوب. فهل رأيت إنساناً مؤمناً إذا ذُكر الله شعر بالضيق وفر من هذا الذكر!

هذا هو الأمر الذي أعجب منه جداً أيها الإخوة، والأعجب من هذا أن يتسائل أمشروعٌ أن يدعو الناس في المسجد ربهم بعد الصلاة، ورسول الله صلى الله عليه وسلم هو سيد من دعا الله عز وجل دبر كل صلاة. روى مسلمٌ في صحيحه من حديث سعد بن أبي وقاص أنه كان يجمع أولاده ويلقنهم هذا الدعاء: ﴿اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل﴾ قال وكان رسول الله يدعو بهن دبر كل صلاة دبر كل صلاة.

ألم تسمع حديث رسول الله وهو يروي عن ربه ﴿أنا معه إذ ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير من ملأه﴾ كيف يكون الذكر مع الملأ بأن تجد إخوة لك في الإيمان فتجلس معهم في دارٍ في طريقٍ في مسجدٍ، فتذكر الله إما بدعاءٍ ضارع وإما بتسبيح وتهليل أو بقراءة لكتاب الله عز وجل.

ولقد قلت مراراً إن زيد بن ثابت سأله إنسانٌ مسألة فقال إتِ بها أبا هريرة فقد كنت أنا وأبو هريرة وفلاناً هكذا قال وفلاناً في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، يدعو الواحد منا فيؤمن الآخران ثم يدعو الذي يليه فيؤمن الآخران وهكذا.. ودخل علينا رسول الله فأمسكنا، فجلس إلينا وقال عودوا إلى ما كنتم عليه، لاحظوا أيها الإخوة شيء فعله من عندهم هؤلاء الصحابة لم يسمعوا هذا من رسول الله أن يجتمع ثلاثة فيدعو واحد ويؤمن الآخران ثم تأتي النوبة على الذي يليه فيدعو ويؤمن الآخران وهكذا.. شيء خطر في بالهم ففعلوه دون تعليم من رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم، كان ينبغي أن يقول لهم فيما يتصوره قساة القلوب وغلاظ الأكباد اليوم، كان ينبغي أن يقول لهم ما هذه البدعة؟ هل علمتكم هذا النوع من الدعاء! هل علمتكم مثل هذا المجلس؟! ولكنه صلى الله عليه وسلم بأبي هو أمي جلس إليهم وقال: عودوا إلى ما كنتم عليه، وكانت النوبة قد وصلت إلى أبي هريرة فدعى قائلاً: اللهم إني أسألك علماً لا ينسى إلى آخر ما دعى وأمن رسول الله مع الآخرين على دعائه.

أيها الإخوة لا قيمة لإسلام الإنسان المسلم، إن لم تسري في هذا الإسلام روحٌ من ذكر الله سبحانه وتعالى، وذكر الله سبحانه وتعالى شيءٌ يعرف الإنسان مذاقه بقلبه لا بلسانه، ولذلك فإني أعود فأقول: ما عجبي من إنسان فاسق ففسقه حجاب طبيعي ويوشك أن يرتفع من ما بينه وبين الله، كذلكم الضال، كذلكم التائه. ولكن عجبي من إنسانٍ مسلم يشترك مع إخوانٍ له في الركوع والسجود في بيوت الله عز وجل؛ ذاق طعم الإقبال على الله عز وجل، يفر من مجالس ذكر الله عز وجل!

ولعلكم تعجبون من هذا الكلام وتتصورون أن فيه مبالغة، لكن لولا أن عيني رأت لما قلت هذا الكلام أيها الإخوة.

أقول قولي هذا وأسأل الله عز وجل أن يجعل ذكره في قلوبنا أُنس حياتنا إلى أن نرحل من هذه الدنيا ونقبل إلى الله سبحانه وتعالى ليضع الذكر عنا أثقالنا.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.



٧٠- حكم الدعاء بعد الصلوات المكتوبة والذكر الجماعي | ١٩٩٦/٠٥/٣١

ما أحسبُ أنني كنت أتصور أن هنالك حاجةً إلى أن أُذكّر ببديهيات هذا الدين العظيم، ولكنّ هذا العصر يُفاجئ الناس بالعجائب والغرائب، كنت أتصور أنه ما من إنسان مسلم إلا ويعلم أن التقرب إلى الله بالدعاء هو لب العبادة، بل هو العبادة ذاتها كما قال المصطفى صلى الله عليه وسلم. ولكني أنظر في هذا العصر فأجد من يعرض عن هذا الأساس الكبير في دين الله عز وجل وعن هذا اللباب العظيم في معنى التعبد لله سبحانه وتعالى. وليتني نظرت فوجدت أن الأمر يقف عند حدود الإعراض، لا بل الأمر الذي يزيد الإنسان غرابةً وتعجباً أن في الناس من يستهين بالدعاء وينظر إليه وكأنه أمر لصيق بالدين ليس من جوهره وليس من شيءٍ من حواشيه. وهكذا يجد الإنسان نفسه مضطراً إلى أن يعود إلى البديهيات فيوضحها.

من منكم يا عباد الله لم يقرأ أو لم يسمع قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ، إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾؟ ومن منكم لم يقرأ أو لم يسمع قول الله سبحانه وتعالى في وصف الثلة الصالحة من عباده عندما يقول عنهم: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ إلى آخر ما هنالك من الآيات التي تُلح على الأمر بالدعاء.

بل هنالك أحاديث صحيحة مشهورة ومعروفة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوضح لنا فيها أن الدعاء من العبادة التي ينبغي أن يُهرع الإنسان إليها في كل حين، فقد روى النعمان بن بشير عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: ﴿الدعاء هو العبادة﴾ رواه الترمذي والبيهقي والحاكم على شرط الشيخين والنسائي، وفي رواية ﴿الدعاء مخ العبادة﴾. وقد روى الترمذي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله: ﴿إذا فتح الله على العبد بالدعاء فليدعه، فإن الله سبحانه وتعالى يستجيب﴾.

وكلكم يقرأ كتاب الله عز وجل ويُصغي إلى حديث القرآن عن الرسل والأنبياء فماذا يقول لنا الله عن الرسل والأنبياء الذين يحدثنا عنهم؟ أهمُّ ما يضعنا أمامه هو دعاء هؤلاء الرسل والأنبياء، وما من نبيٍ حدثنا الله عز وجل عنه في محكم تبيانه إلا وأخبرنا عن طرفٍ من دعائه الواجف لله عز وجل ﴿وَلَقَدْ

نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ ألم يقل ذلك ربنا سبحانه وتعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ﴾ أي نوح ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ، فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاء بِمَاء مُّنْهَمِرٍ﴾ يرينا الله الرابط بين الدعاء وبين الاستجابة. ألم ينقل لنا دعائه ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً، إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً﴾.

حدثنا عن أبِ الأنبياء ابراهيم. فماذا كان حديث الرحمن عنه؟ كان جلُ ما أخبرنا عنه أن حدثنا عن دعائه، أدعيته الواجفة، أليس كذلك أيها الأخوة؟ ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ ألم يحدثنا ربنا سبحانه وتعالى عن الحوار الذي جرى بينه وبين قومه ثم يُتوِّج خبره عن هذا الحوار بالدعاء الواجف الذي دعى به ربه: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ، أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ، فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ، الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ، وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ، وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ، وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ، وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ، رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ، وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ، وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ، وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ، وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ، يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ، إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾

حدثنا عن أيوب فماذا كان جُل حديث القرآن عنه: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

حدثنا الله سبحانه وتعالى عن موسى فماذا كان جل ما أخبرنا الله عز وجل عنه؟ دعاؤه الواجف بالمناسبات المختلفة لربه.

وسيد الأنبياء وأكثرهم دعاءً لله سبحانه وتعالى إنما هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولو أننا جمعنا الأدعية التي كان يدعو بها ربه في البكور وفي الآصال وعند خروجه من بيته وعند الأسفار وعند الرجوع إلى داره وعند الدخول في المسجد وفي أدبار الصلوات المكتوبة وفي جنح الليل وفي غير ذلك من

الأوقات، لبلغت أدعية رسول الله صلى الله عليه وسلم ربع الأحاديث الصحيحة التي بلغتنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

هذا الأمر كيف يجهله أيٌ من المسلمين أيها الإخوة، حتى يُعرض عن هذا اللباب الذي هو أساس الدين؟ بل كيف يشمئز من الدعاء؟ بل كيف يجد نفسه في ثلة من المسلمين يجأرون إلى الله بالدعاء الواجف وهو ينظر إليهم شذرا؟ كيف يكون هذا الإنسان مسلماً مؤمناً بالله سبحانه وتعالى في هذه الحالة؟ وهم مسلمون يقول قائلهم: من أين ثبت بأن الدعاء في هذا الوقت مشروع؟ من أين ثبت الدعاء عقب الصلاة مشروع؟... وله الحق أن يسأل بعد ذلك من أين ثبت أن الدعاء في وقت الضحى مشروع؟ ومن أين ثبت أن الدعاء في وقت الظهيرة مشروع؟ ومن أين ثبت أن الدعاء قبل طلوع الشمس أو بعد طلوع الشمس أو قبل الغروب أو بعد الغروب مشروع؟

والجواب: أن الدعاء بهذا لم يعد مشروعاً قط، ولو أن هؤلاء الذين يقولون هذا الكلام شموا رائحة لعلم، لخجلوا من أن يلفظوا بمثل هذا السؤال الناقد، عندما أمرنا الله بالدعاء أمرنا بعبارات مُطلقة، وقد قال العلماء جميعاً: اللفظ المطلق يجري على إطلاقه، وعندما قال لنا: إذا فتح على العبد منكم الدعاء فليدع ربه، فإن الله يستجيب. إذا هذه أداة من أدوات العموم أيها الإخوة، ﴿إذا﴾ أي كلما رأى أن شعوره قد اتجه إلى الله بالدعاء فلينتهز الفرصة وليدعو، واللفظ العام يجري على عمومه. وقد قال العلماء عموم الألفاظ يستلزم عموم الأحوال وعموم الأزمنة والبقاع.

ولكن في الناس من يتقلبون في حمأةٍ من الجهالة، ثم إنهم يقفون موقف المحتقر لهذه الأمة وللسلف من هذه الأمة وصلى الله وسلم على من قال: ﴿إن من أشراط الساعة أن تلعن آخر الأمة أولها﴾.

أجل... كم وكم قيل لي: ما الدليل على أنه يستحب الدعاء عقب الصلوات؟ أولاً لا داعي إلى دليل خاص، لأن الأوامر التي جاءتنا من الله مطلقةٌ أو عامة، واللفظ المطلق يخترق الأحوال والأزمنة كلها، واللفظ العام يخترق الأزمنة كلها، هذا إلى جانب أن رسول الله يقول في الحديث الصحيح من حديث النعمان بن بشير: ﴿الدعاء هو العبادة﴾ فهل هنالك ميقاتٌ خاص للعبادة يا هذا؟ هل هنالك ميقات خاص للعبادة؟ فإذا ذهب هذا الوقت ينبغي أن يتنزه عن عبادة الله؟!

شيءٌ آخر: ألم تسمع حديث البخاري والترمذي عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أنه كان يُعلّم أولاده هذا الدعاء كما يُعلم المعلم الغلمان الكتابة، ويقول: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو بهنَّ دبر كل صلاة ﴿اللهم إني أعوذ بك من البخل وأعوذ بك من الجبن وأعوذ بك من أن أُرد إلى أرذل العمر وأعوذ بك من فتنة الدنيا وأعوذ بك من عذاب القبر﴾ هذا هو الجواب الآخر.

الثالث: ألم تسمع الحديث الذي رواه الترمذي من حديث أبي أمامة الباهلي بسندٍ صحيح أن رجلاً سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم: أي الدعاء أسمع؟ أي أي أنواع الدعاء أكثر استجابةً؟ قال: ﴿الدعاء في جوف الليل وأدبار الصلوات المكتوبة﴾.

ماذا يبتغي الإنسان المسلم بعد هذا؟ ما الذي يجعل الإنسان المسلم الذي يتظاهر بتمسكه بالإسلام يشمئز من الدعاء، إن مع إخوانه في مسجدٍ كهذا المسجد أو منفرداً؟!!

صورةً أيها الإخوة تقشعر منها الجلود، وأشعر باشمئزاز عجيب بل يُخيل إلي أن غضب الله سبحانه وتعالى في هذه الحالة يوشك أن يهبط، عندما أجد أن المسلمين في مسجدٍ كهذا المسجد بعد الانتهاء من الصلاة يرفعون أصواتهم بذكر الله سبحانه وتعالى ثم يبسطون أيديهم إلى الله بدعاءٍ واجف أنظر فأجد أناساً يفرون من ذكر الله سبحانه وتعالى، ويفرون أكثر من هذا الدعاء الواجف، بل ما هو أشد من ذلك مرارة، وما هو أبعث من ذلك للألم، أنني وجدت شاباً يجلس في هذا المسجد محتبياً ولما حان الدعاء وبسطنا جميعنا أكفنا بالدعاء كما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، والمصلون بين داعٍ ومأمن، نظرت وإذا بهذا الشاب المحتبي قد جمد على حالته، محتب هكذا ينظر إلى الداعين نظرة انتقاد وكأنه غريب من هذا الدين، وكأنه غريب من هذا الجو ذاته كله، وتساءلت ما الذي جعله يبقى؟ ما الذي جعله يصبر على هذه العبادة؟

هذا الوضع أيها الإخوة صورةٌ من أخطر صور المشكلات التي حاقت بنا، لم أكن اتصور أن المسلمين سيجدون أنفسهم في وقت من الأوقات بحاجة إلى أن يستعيدوا بدهيات الدين ليوضحوه إطلاقاً، ولكنّا نجد من يحارب هذا الدين يحارب العبادة باسم الإسلام، يحارب الدعاء – والدعاء هو العبادة كما قال

رسول الله – باسم الإسلام. أحدهم يتكلف متنطعاً: لماذا هذا الارتفاع بالأصوات بذكر الله سبحانه وتعالى؟

اقرأ سنة المصطفى صلى الله عليه وسلم وانظر الأحاديث الكثيرة التي جمعها الإمام النووي في مجموعه عن ارتفاع الأصوات في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذكر، فكان ينفتل فيتجه يدير ظهره إلى القبلة ووجهه إلى المصلين إذا لم تكن بعد الفريضة نافلة، ويرفع صوته بالأذكار لكي يتعلم الصحابة ما يقول. أجل.. عد إلى الصحيح من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأٍ ذكرته في ملأٍ خيرٍ من ملأه﴾ وكيف يكون ذكر الإنسان الله في الملأ؟ يكون بهذا الشكل أجل.

يقول الآخر من أين لكم بسط اليد عند الدعاء؟ انظر إلى الأحاديث الكثيرة، انظر إلى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم بأسانيد متنوعة شتى: ﴿إن الله حييٌ كريم سخي يستحيي إذا بسط العبد يده بالدعاء أن يردهما صفراً خائبتين﴾.

أجل أيها الإخوة... أناسٌ يحاربون دين الله باسم السلف واتباع السلف، وكذبوا والله ما هم من السلف في شيء، ربنا سبحانه وتعالى يأمرنا بالدعاء ويُحذرنا من أن نستكبر على الدعاء: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ ورسول الله يبين فيقول: ﴿الدعاء هو العبادة﴾ وأنت تعلم أننا ينبغي أن نصبغ بالعبادة في كل وقت، على فرشنا في بكورنا في آصالنا في غدونا في رواحنا أثناء انفرادنا مع أنفسنا وأثنا وجودنا في أعمالنا ووظائفنا المختلفة، إذاً في كل حالٍ ينبغي أن يكون الإنسان موصول القلب إلى الله عز وجل بالدعاء.

سلوا هؤلاء ما معنى قول الله عز وجل: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾ والتبتل المأمور به صبغة ينبغي أن يصطبغ بها الإنسان دائماً في كل وقت، ينبغي أن يكون متبتلاً ذلك لأنه إن لم يكن في سائر الأوقات متبتلا فإنه إذا انفصل عنه التبتل لا بد أن يتسرب إليه الشيطان بالكبر، ولكي تكون بعيداً عن الكبر ينبغي أن تكون مصطبغاً بالتبتل. فكيف يكون التبتل؟ التبتل الواجف يكون بالانكسار بالدعاء إلى الله عز وجل، وأنت تخرج من دارك إلى المسجد تدعو كما كان يفعل رسول الله، وأنت تعود من

المسجد إلى دارك تدعو الله سبحانه وتعالى، إذا رأيت ظلال نعمةٍ في حال إنسان رفعت يديك تدعو الله، وإذا رأيت ابتلاءً اصطبغ بها إنسان رفعت يديك تدعو الله سبحانه وتعالى.. بعد هذا تسأل هل ثبت أن الرسول دعا في هذا الوقت أم لم يدعو؟ تعلم... وإن عجبي الذي لا ينتهي من أناسٍ رحلوا من بلادٍ لهم إلى هذا البلد ليتعلموا، إن كنتم متعلمين فلماذا جئتم؟ وإن كنتم صادقين في أنكم تريدون أن تتعلموا فلماذا تستكبروا بجهلكم؟ ولماذا تستكبرون على الله سبحانه وتعالى؟

أجل أيها الإخوة.. إنني أتألم لحال الفاسقين الشاردين، ولكني أكثر ألماً لحال أناسٍ يتظاهرون بالإسلام وقلوبهم أقصى من الصخور ينطبق عليهم قول الله سبحانه وتعالى ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾. إن الإنسان التائه يعلن عن مرضه إذ يعاني من تيه، ولكن الإنسان الذي يستكبر بأنه هو المسلم، وبأنه هو البصير بشؤون الدين، ثم يمارس الانحراف عن دين الله عز وجل، يسير بخطىً مناقضة لأوامر الله، لوصايا رسول الله، لما كان عليه رسول الله، هذا الداء الذي لا دواء له.

عندما يكون المسلمون في هذا المسجد يدعون الله عز وجل كما أمر رسول الله يبسطون أيديهم إلى الله بالدعاء الواجف كما فعل رسول الله، وإنسان يحتبي هذه الجلسة اللا أدبية التي لا تعرف الأدب بشكل من الأشكال، وينظر إلى هؤلاء الداعين وكأنه يقول بلسان حاله: فأما أنا فغني عن دعاؤكم هذا، أما أنا فلا أحتاج إلى أن أبسط يدي إلى إلهكم هذا بشيء من الدعاء، تظاهر بالإسلام مهما شئت، الإنسان الذي لا يصطبغ بالتبتل لله سبحانه وتعالى محال أن يرحل إلى الله سبحانه وتعالى مؤمنا.

٧١- غَرسٌ بحاجةٍ إلى سُقيَا | ٢٠٠٠/٠٧/٢٨

إن الإيمان بالله سبحانه وتعالى هي المهمة الأولى والآخرة التي خُلق الإنسان من أجلها، والإيمان بالله عز وجل يكون مبدأه بتحريك العقل وتوجيهه إلى حقائق هذا الكون، صافياً عن الشوائب، صافياً عن كُدُرَات النفس وأهوائها، فإذا فكر الإنسان بينه وبين نفسه في المكونات التي من حوله ورجع إلى نفسه فتعرف عليها بحق، عرف ربه وغُرِس من ذلك الإيمان به في عقله ثم في طوايا قلبه، ولكن هذا الإيمان يحتاج بعد ذلك إلى رعاية كما يحتاج الشتل الذي يُغرس في تربة إلى رعايةٍ بعد ذلك من السقيا والحماية من سائر الموبقات المهلكة.

فكيف تكون حماية الإيمان بعد غرسه في طوايا العقل والفؤاد؟ لذلك سبلٌ شتى ولكن من أهمها ومن أخطرها أن يتلاقى المسلمون بعضهم مع بعض وأن يتذاكروا حقائق إيمانهم بالله عز وجل فتتلاقح من ذلك مشاعر الإيمان بالله عز وجل، أي أن الإيمان بعد أن يتم غرسه بخلوة من الإنسان بينه وبين نفسه لا يمكن أن ينمو ولا يمكن أن يُؤتي ثماره إلا بعد أن يتهيء من بعده المناخ الإسلامي، والمناخ الإسلامي إنما يكون بالتلاقي وإنما يكون بتعاون المسلمين بعضهم مع بعض.

ورضي الله عن عبد الله بن رواحة الذي كان إذا رأى واحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم هُرِع إليه قائلاً تعال بنا نؤمن بربنا ساعة، فقال هذا الكلام مرةً لواحدٍ من الذين دخلوا الإسلام حديثاً، غضب من كلام عبد الله بن رواحة هذا وأتى إلى رسول الله يقول: أرأيت يا رسول الله إلى ابن رواحة إنه يعدل عن الإيمان بالله عز وجل كما تقول إلى الإيمان بالله ساعة، فقال له رسول الله ﴿يرحم الله ابن رواحة انه يحب المجالس التي تتباهى بها الملائكة﴾ لماذا يقول عبد الله بن رواحة لمن يرى من الصحابة تعال بنا نؤمن بربنا ساعة؟

لأن هنالك سبيلين إلى الإيمان، السبيل الأول سبيلٌ يخلو به الإنسان مع نفسه ليغرس مبدأ الإيمان بين جوانحه، أما السبيل الثاني فلا يكون إلا بالتلاقي، لا يكون إلا بالاحتكاك، لا يكون إلا في مجالس

من هذا القبيل، عندئذٍ تتلاقح الأنوار وتمتد وشيجة الإيمان من قلب إلى قلب، ومن عقل إلى عقل إلى عقل، فيتنامى من ذلك الإيمان.

والوسائل التي يصل بها الإنسان إلى معارفه وإلى حقائق الكون قسمان اثنان: وسائل منظورة وهي تقف في الدرجة الثانية، ووسائل غير منظورة وهي التي تقف في الدرجة الأولى، نورٌ رباني يقذفه الله في قلبك عندما تجلس مجلس علم، عندما تجلس في مجلس ذكر، لا تدري من أين سرى هذا النور إلى كيانك.

هذه هي الوسيلة الكبرى فمن اطمأن باله إلى أنه مؤمن بالله عز وجل، ومن اطمئن باله إلى أنه يقرأ دلائل الإيمان بالله في كتب، أو يتفكر خالياً مع نفسه في دلائل عظمة الله ووجوده، لا يخدعنه الشيطان أن هذا القدر كافٍ، لابد من أن يجالس الناس لا سيما أهل الصلاح والتقوى، لابد أن يسير في حياته على منهج عبد الله بن رواحة تعالوا بنا نؤمن بربنا ساعة وإلا فلماذا روى البخاري ومسلم وغيرهما عن أهمية مجالس الذكر كما نبهنا إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

أحاديث كثيرة منها ما اتفق عليه الشيخان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ﴿إن لله ملائكةً يطوفون بالطرقات يبتغون مجالس الذكر، فإذا رأوا قوماً يذكرون الله تداعوا إلى مجلسهم وقالوا: هلموا إلى حاجتكم، فيحفون بهم ويتكاثرون إلى أن يصلوا إلى عنان السماء، فإذا انتهوا صعدوا إلى ربهم وهم يخبرونه بما فعلوا –والله أعلم بما فعلو–ا يقولون: يارب رأينا عباداً لك في الأرض يسبحونك سبحناك معهم، رأيناهم يكبرونك كبرناك معهم، يحمدونك حمدناك معهم، فيقول الله عز وجل: أشهدكم بأني قد غفرت لهم، يقول أحدهم: يارب إنَّ فيهم رجلاً ليس منهم جاء لحاجة، فيقول الله عز وجل: هم القوم لا يشقى بهم جليسهم﴾ لماذا هذا التنويه من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بمجالس الذكر؟

وأحب أن أقول لكم أيها الإخوة أن مجالس العلم التي يُبتغى بها وجه الله مجلس ذكر، كل مجلس علم مجلس ذكر، ولكن ليس كل مجلس ذكرٍ مجلس علم، هذه حقيقة ينبغي أن تعلموها. لماذا ينوه رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذه المجالس؟ ألا يكفي أن يغلق الإنسان بابه على نفسه ويجلس فيقرأ القرآن أو يذكر الله عز وجل؟ لا لا يكفي هذه تحقق مهمة من المهمات أما المناخ الإسلامي أما نمو الإسلام

أما رسوخ حقائق دين الله عز وجل في القلب واستنارة القلب بنور العرفان فلا يتحقق ذلك إلا في هذه المجالس التي يتحدث عنها رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

لماذا جعل الله عز وجل ثواب صلاة الجماعة تفضل صلاة الفَذِّ أي الفرد بسبع وعشرين درجة؟ أليست الصلاة هي هي؟ أليست هي هي في ركوعها في سجودها في أركانها في شرائطها؟ نعم. لكن شتان بين صلاةٍ هي أشبه ما تكون بمن يأكل خبزاً بدون إدام، تُصَلِّي أربع ركعات سريعات في غرفتك، وبين أن تخرج فتحتك بعباد الله ويحتكون بك، ولابد أن يكون فيهم صالحون، ولا بد من يكون فيهم من فاضت قلوبهم بأنوار المعرفة، تصلي معهم تركع كركوعهم تسجد مع سجودهم، فإذا انصرفوا هللت معهم سبحت معهم ذكرت الله معهم، وجاءت الملائكة التي يتحدث عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليجلسوا معهم، أنى لك هذا عندما تكون في غرفتك عندما تكون بعيداً عن صحبك عن عباد الله.

ما معنى قولنا إن الله خلق الإنسان اجتماعياً بطبعه؟ صحيح هذا لكن علماء الاجتماع والتربية وعلم النفس لم يبلغوا شأو هذه الحقيقة. معنى هذا أنني لا أستطيع أن أُروِيَ ظمأي الإيماني إلا بلقاء إخواني، لا أستطيع أن أُنَمِّي شتل الإيمان بين جوانحي وفي فؤادي إلا بالمجالس التي أعلم أن في الصالحين من يغشونها وأن في الجالسين فيها من بلغوا مبلغ الولاية والقرب من الله عز وجل. نعم. هذه هي الحقيقة التي ينبغي أن نتبينها أيها الإخوة.

وأحب أن أوضح لكم حقيقة أعرفها من نفسي فليعتبر كل من شاء أن يعتبر، كثير ما اتجه إلى ميعاد درس لي مع الإخوة الذين ألتقي معهم على بعض الدروس الأسبوعية، ولا يتسنى لي أن أحضر هذا الدرس وأهيأه، وأغدو إلى مكان هذا اللقاء وليس في ذهني شيء مما أستطيع أن أقوله إطلاقاً، ولكني أذهب لكي لا أخلف العهد والوعد وأستعين بالله عز وجل، ما إن أجلس مجلس الحديث مع هؤلاء الإخوة وأنظر إلى هذه الوجوه وأنا أعلم أن في هذه الوجوه كثيره من بلغوا مبلغ الولاية، أعلم هذا يقيناً، وأعلم أن فيهم ربانيين من عباد الله لو أقسموا على الله لأبر قسمهم لكنهم مجهولون، ما أكاد أنظر إلى هذه الوجوه التي تنظر إلي وأبدأ بالحديث الذي لا أعلم ماذا سأقول فيه حتى أجد أن فيضاً من الالهام

الرباني يتقاطر إلى ذهني، وأنا على يقينٍ وعلم بأنني لست مَعِين هذا أبداً إنما يأتيني هذا الوارد من هؤلاء الصالحين.

أرأيتم إلى فائدة هذه اللقاءات؟ أرأيتم إلى فائدة هذه الاجتماعات؟ كم وكم من فرق بين أن يصلي الإنسان ركعاته المفروضة وهو في غرفته في داره، وقد جربت ذلك رأيتني أصلي صلاةً شكليةً لا روح فيها ولا حضور، وبين أن أخرج فأصلي مع الإخوة المؤمنين أدخل معهم وأكون واحداً ضمن صفوفهم أجد أن نوراً ربانياً يتجه إلي من يمينٍ وشمال هنا وهناك، وأجد أن صلاتي أصبح لها طعم أصبحت لها روح، من أين جاء هذا الإخوة؟ من تلاقح الناس بعضهم مع بعض وهذا ما عناه عبد الله بن رواحة عندما كان يقول تعالوا بنا نؤمن ساعة، عبد الله بن رواحة يحتاج إلى من يجالسه ليضيف إلى إيمانه إيماناً. نعم. وحتى إن كان عبد الله بن رواحة ذلك لأن المسلم يظل بحاجة إلى أخيه المسلم ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾، والرسول صلى الله عليه وسلم هو القائل في الحديث الصحيح ﴿إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية﴾ أجل وهذه حقيقة يضرب بها لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلاً بيّناً واضحاً.

أيها الإخوة ينبغي أن نعلم أننا في هذا العصر نواجه تيارات خطيرة قوية تغالب قوانا وتغالب قدراتنا والشتل اللدن الضعيف من الإيمان بالله في عقولنا. فكيف نواجه هذه التيارات ونصرعها قبل أن تصرعنا؟

بالتعاون بالتلاقي بإيجاد نسيج يتألف من المناخ الإسلامي، والمناخ الإسلامي لا يتحقق بحركة فرد، إنما يتحقق بنسيجٍ من تلاقي هؤلاء الإخوة في المساجد في حلقات الذكر في حلقات العلوم، وكل مجلس علم مجلس ذكر إن أريد به وجه الله سبحانه وتعالى، بهذه الطريقة نستطيع أن نغالب ونقهر هذه التيارات الوافدة.

وأنا أنظر أيها الإخوة في مجالسي التي أقامني الله فيها بفضلٍ منه وإكرام وإحسان منه، أنظر إلى شباب آتين إلى هذا المجلس يأتي الواحد منهم في المرة الأولى ليجرب، يسوقه صديق له أو أخ له فما يكاد ينهي مجلسه الأول حتى يخرج وقد ذاق طعماً عز عليه أن يفارقه، مجلس الأول يجعله يتعلق بهذا اللقاء فإذا عاد المجلس الثاني فالثالث رأيت هؤلاء الشباب وكم رأيت فيهم وجوهاً باكية، وكم رأيت فيهم أناساً أكاد

أن أشبههم بالملائكة، ولا والله بيوتهم ليست عوناً لهم على الاستقامة، أسرهم ليست عوناً لهم على الاستقامة، كل ما حولهم يُغريهم بالفساد، لكن هذه المجالس هي التي تتغلب على كل تلك المغريات، هذه المجالس هي التي تنعش قلوبهم، هذه هي المجالس التي تصل ما بينهم وبين ربهم سبحانه وتعالى، عبادتهم تصبح لذة من اللذائذ التي لا تعدلها لذة، كم وكم من شباب اهتدوا إلى الله قبل شهر ثم لازموا هذه المجالس في الشهر الثاني ثم إنهم اتخذوا لأنفسهم منهاجاً من قيام الليل في الشهر الثالث.

هل صدتهم مجالسهم هذه عن أعمالهم وشؤونهم ودراساتهم؟ لا والله أيها الإخوة. بل كانت خير عوناً لهم إلى ذلك، وأنا أقف دائماً عند قول الله عز وجل ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ كم تخيفني هذه الآية ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ من أين يأتي هذا النور يا رب؟ أنى لي أن أتعرض لهذا النور؟ هكذا هكذا تستطيع أن تتعرض لنور الله عز وجل، ابحث عن المجالس التي يُبتغى وجه الله من علم من ذكر تجد فيها أصحاب هذا النور، اجلس إليهم احتك بهم تتعرض لنفحات الله يكرمك الله سبحانه وتعالى بهذا النور، نور لا تراه العين لكن البصيرة تراه.

هذا هو السبيل في هذا العصر لهذا الجيل من أجل أن يصمد في وجه كل التيارات الجانحة، من أجل أن يقف في سبيل كل السبل المتعرجة التي تدعو إليها شياطين الإنس والجن ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

٧٢- علاج مشكلاتنا بالصلاة على رسول الله | ٣٠ /٠٣/ ٢٠٠١

كان المسلمون من الرعيل الأول إذا ادلهم عليهم خطب أو طافت بهم مصيبة عالجوا أنفسهم بدواء دين الله سبحانه وتعالى، فأكثروا من الالتجاء إليه وأكثروا من الاستغفار لذنوبهم بين يديه، وبالغوا من ارتباطهم برسولهم محمد صلى الله عليه وسلم عن طريق الإكثار من الصلاة عليه، فكان ذلك دواء عملياً لزوال المصائب عنهم ولصلاح أمرهم بعد فساد ولاستقامة في شؤونهم بعد اعوجاج.

أما المسلمون اليوم فشأنهم على الأغلب أنهم إذا وجدوا أنفسهم أمام مشكلاتٍ تطوف بهم أو مصائب تتهددهم، يعالجون أنفسهم من ذلك بما يسمى اليوم الفكر الإسلامي، يقومون ويقعدون بالفكر والحديث عن الإسلام وتبادل الكلام الفكري عن الإسلام، والحوار المتطاول الذي لا نهاية له عن مبادئ الإسلام ومشكلاته وشؤونه، وينتهون كما بدأوا. دواؤهم الحديث اللساني والكلام الممطوط والمتسلسل، إنه الفكر.. ولعلكم تسمعون اليوم كلمةً لن تجدوها في قاموس تاريخنا الإسلامي الأغر إنها كلمة الفكر الإسلامي، المفكر الإسلامي، المفكرين الإسلاميين، وتنظر إلى الذين يعانون من أعباء ثقيلة من المصائب والمشكلات وتتساءل عن العلاج الذي يعالجون به مشكلاتهم فترى أنهم لا يراوحون إلا في أماكنهم، ولا يعالجون مشكلاتهم إلا بالكثير من الكلام والكلام والكلام، إنه الفكر.

لا حظوا هذا الفرق الخطير بين المسلمين في هذا العصر والمسلمين في عصر السلف الصالح بل في العصور المتصرِّمة كلها، وإذا شئنا أيها الإخوة أن نعلم اليوم الدواء الناجع لأمراضنا والذي إن استعملناه شفانا الله سبحانه وتعالى من مصائبنا ومشكلاتنا، إنه السلوك، إنه تجاوز الفكر الذي انتهينا منه. المسلم الذي اعتنق الإسلام ووعى دينه وآمن بكتاب الله واستيقن بسنة رسول الله وآمن بالمغيبات تجاوز مرحلة الفكر، إنه الآن في مرحلة العمل، في مرحلة السلوك، نحن بحمد الله تجاوزنا مراحل الشكوك التي كانت تعالج بالفكر والكلام، وإنما نحن اليوم بحاجة إلى العمل دواء أدوائنا إنما هو السلوك والوظائف التي نبَّهنا إليها كتاب الله عز وجل. وأنا أضرب لكم أمثلة يقول الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ﴾.

هذا الكلام الرباني يضعنا أمام مشكلة ومصيبة، ويضعنا بعدها أمام الدواء، إذا لقيتم فئةً تتهددكم تتهدد حقوقكم، تريد أن تنتقص من كرامتكم. ما العلاج؟ أهو الفكر الذي نقوم ونقعد به اليوم؟ لا.. فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون. هذا هو الدواء.

أين هم الذين يهرعون إلى استعمال هذا الدواء؟ أين هم الذين يستبدلون بالفكر ولقلقات اللسان التي لا نهاية لها، يستبدلون بذلك ذكر الله سبحانه وتعالى، ننظر يميناً وشمالاً فنجد الكثير والكثير مما يسمى الفكر الذي يكتب، والفكر الذي يقال، والفكر الذي يتداعى له المؤتمرون، ولكن قل ما نجد الرجوع إلى هذا الدواء الذي يصفه لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

كثيراً ما أواجه إخوةً وشباب يسألونني عن مشكلة تتكرر كثيراً لا ثاني لها، هي مشكلة ضيق الصدر، مشكلة الهموم التي تتراكم وتزداد على النفس، ونحن لا نجهل الأسباب هذه الهموم، فالدنيا التي نعيشها اليوم لا سيما بالنسبة للإنسان الملتزم، بالنسبة للإنسان الذي عاهد الله أن يسير على صراطه ولا يلتفت يمنةً ولا يسرة، لا بد أن تطوف به هذه الهموم همومٌ غريزية، همومٌ اجتماعية، همومٌ تتعلق بمستقبل الإنسان وحياته في هذه الدنيا التي يعيشها. سؤال يتكرر.. ولتمنيت لو أن الذين يقومون ويقعدون اليوم بالحديث عن الإسلام، ويعقدون المؤتمرات وندوات هاهنا وهاهنا في معالجة مشكلات الإسلام النفسية التي تتراكم في نفوس الملتزمين ولا سيما المصطلحين مع الله عز وجل من جديد، فلا يجد أحداً يعالج هذه المشكلات بأكثر من الكلمة التي نعود ثانيةً إليها: الفكر الإسلامي، الفكر والمفكرون وما إلى ذلك..

ولقد وضعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أمام العلاج الناجع لهذه المصيبة، ولكني أنظر كما قلت لكم هنا وهنا فلا أجد من يلتفت إلى هذا الدواء، وإن وجد من يلفت النظر إليه فلسوف تجدون الكثيرين والكثيرين الذين يستخفون به، إنه الإكثار من الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم هل تتوقعون أن أضعكم من هذه المصيبة أمام هذا الدواء؟

أنا أعلم أن كثيراً منكم لا يتوقع ذلك، ولعله عندما يسمع هذا العلاج، يعجب يقول في نفسه توقعت أن أسمع منهاجاً طويلاً وعلاجاً هاماً وخطيراً ينبغي أن نأخذ أنفسنا به، أهو هذا هكذا آلت حالة المسلمين اليوم، يستخفون بالإسلام عقيدةً وعبوديةً ومن ثم علاجاً. ويبجلون ويعظمون الإسلام فكراً

ولقلقة لسانٍ وحديثاً وجدالاً ونقاشاً، لا يبارح ساحة الكلام، لا يبارح دائرة الأحاديث المتنوعة المختلفة، ذلك لأن الإسلام السلوكي مسخ إلى فكر لساني، أجل الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم. ولقد ورد بطرق شتى وصلت كما قال كثير من العلماء إلى مبلغ التواتر المعنوي، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ﴿من صلى علي واحدة صلى الله عليه بها عشرة﴾.

ولا داعي إلى أن أطيل لكم في فكر طرق هذا الحديث ورواته الكثيرين، وما هي صلاة الله على عبادة؟ صلاة الله عز وجل على عباده الرحمة والمغفرة، فإذا عرفت أنك إن صليت على رسولك محمد صلى الله عليه وسلم مرةً صلى الله عليك بها عشراً، إذا علمت أن معنى ذلك أن الله عز وجل يرحمك ثم لا يزال يرحمك ويرحمك، أضعافاً مضاعفة، ويغفر لك ذنبك، فالتعلم أن من آثار هذه الرحمة زوال الهموم والغموم.

ورد فيما رواه أحمد والحاكم والبيهقي وآخرون من حديث عبد الرحمن بن عوف قال: ﴿كنت أتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً فرأيته دخل حائطاً _ أي بستاناً فيه نخيل _ فتبعته فإذا هو سجد _ سجد على الأرض _ وانتظرت فأطال السجود وأطاله حتى خشيت أنه قد قبض، فجئت أنظر إليه فرفع رأسه ثم قال لي: ﴿ما بك يا عبد الرحمن﴾ قلت: يا رسول الله وضعت رأسك هنا وأطلت خشيت أنك قد قبضت وقلت في نفسي لن أرى رسول الله بعد اليوم أبداً. قال: ﴿لقد أتاني آتٍ من ربي فقال ألا أبشرك إن الله يقول لك: من صلى عليك مرة صلى الله عليه بها عشرة﴾﴾ فكان ذلك سبباً لسجوده صلى الله عليه وسلم ووضعه جبهته الشريفة على الأرض المتربة، ليس بينها وبين جبهته حجاب، وأطال ما شاء الله أن يطيل، لماذا أيها الإخوة؟

ليست الفرحة فرحة الصلاة عليه، ولكنها فرحة الجزاء، فرحة صلاة الله عز وجل بذلك علينا من صلى عليك مرة صل الله عليه بها عشرة، ولو كانت هذه الصلاة أمراً مستهاناً يستخف به كما هي الصورة عند كثيرٍ من المسلمين اليوم، أفكان يحفل رسول الله بذلك إلى هذا الحد! أفكان يتحول إلى ذلك البستان ليسجد وليعفر رأسه بالتراب وليطيل سجوده ما شاء الله له أن يطيل! أفلو كانت نتائج آثار الصلاة على رسول الله لنا نحن عباد الله عز وجل أمراً مستهاناً به كما هي الصورة عند كثير من المسلمين

الإسلاميين الملتزمين اليوم، أفكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحفِل بذلك، لكنه علم أهمية صلاة الله سبحانه وتعالى على عباده.

ويروي أبي بن كعب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام مرة من نصف الليل. فقال: ﴿أيها الناس جاءت الراجفة تتبعها الرادفة ــ والراجفة هي المقدمات التي تكون بين يدي الساعة والرادفة التي تردفها هي قيام الساعة ــ جاء الموت بما فيه جاء الموت بما فيه﴾. يستنهض رسول الله بذلك الناس إلى القيام من جوف الليل للإقبال على الله عز وجل بما يستطيعون من ذكر وصلاة ودعاء واستغفار. قال: فقلت يا رسول الله، إني أكثر من الصلاة عليك، فكم أجعل من الصلاة عليك. قال: ﴿ما شئت﴾ قلت الربع قال: ﴿ما شئت وإن زدت فخير﴾ قلت: فالثلث قال: ﴿ما شئت وإن زدت فخير﴾. قلت: فالنصف قال: ﴿ما شئت وإن زدت فخير﴾. قلت: فلأجعل صلاتي لك كلها؛ أي أنفق وقتي كله بالصلاة عليك قال: ﴿إذاً تكفى همك ويغفر الله سبحانه وتعالى لك ذنبك﴾. هذا الكلام من رسول الله صلى الله عليه وسلم. أهو كلام فارغ لا معنى له أم هي حقيقة يخبرنا بها رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم؟ هل من إنسان وقرت حقائق الإيمان في قلبه وأيقن بنبوة رسول الله؟ والحديث الصحيح، ثم لا يستيقن هذا العلاج الذي يذكره لنا رسول الله.

ثم لتعلموا أيها الإخوة أنه ليس علاجاً فردياً لفرد، هو علاج اجتماعيٌ لمجتمع أيضاً، فالفرد الذي يعاني من مصائب يعاني من هموم وغموم، إذا عالج نفسه بهذا الذي ذكره أبي بن كعب وبشّره بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، ستجلى عنه همومه وسيحقق الله سبحانه وتعالى له الخير الذي يريد، والمجتمع الذي يأخذ نفسه أيضاً بهذا العلاج عندما تدلهم المصائب، وتكثر الخطوب، فإن الله عز وجل ينجي هذا المجتمع أيضاً من مصائبه، مصائب المجتمعات دوائها هذه الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يتبعها من الذكر على مستوى اجتماعي، ودواء المصائب الفردية لشخص الواحد هذا العلاج نفسه على مستوى ذلك الفرد.

ومرةً أخرى أقول أيها الإخوة ما بال الإسلام غدا عند كثيرٍ وكثيرٍ من المسلمين الملتزمين – ولا أقول الشاردين – ما بال الإسلام تبخّر ثم تبخّر سلوكاً وآل إلى مجرد كلام ولقلقة لسان، آل إلى ما يسمى اليوم بالفكر، ما لنا نسمع جعجعةً ولا نرى طحناً، نسمع أصوات الرحى تملئ آذاننا وننظر فلا نجد طحناً من

وراء هذه الرحى، كما يقول المثل العربي. لماذا أيها الإخوة؟ لأن الإسلام كحقيقةٍ يجب أن تهيمن على العقل فالقلب غاض، ولأن الإسلام كعبودية بين العبد والرب انقطعت حباله وتحول الإسلام إلى مجرد حركات، تحول الإسلام إلى مجرد تظاهرات، تحول الإسلام إلى مجرد أفكار ذاهبة آيبة؛ من أجل هذا أصبحنا ننظر وإذا بالمصائب تتراكم ثم تتزايد ومهما التجأنا من هذه المصائب إلى ما يسمى الفكر الإسلامي، لا نجد فائدة ولربما إرتاب مرتابون وشك متشككون. فقالوا: أين هو عمل الإسلام في حياتنا؟ وهل تداوينا بالعلاج الذي يذكرنا به كتاب الله؟

أجل أنا أيها الإخوة أحضر ندواتٍ كثيرة ومؤتمرات كثيرة وأغيب عن كثيرٍ منها ولتمنيت لو رأيت مرة واحدةً أن مؤتمراً عقد من أجل التنبيه إلى هذا الدواء، من أجل مراجعة المسلمين حسابهم في مدى ارتباطهم برسول الله صلاةً عليه وسيراً وراء هديه، في مدى إشراقة ذكر الله عز وجل في طوايا قلوبهم لم أجد. ولو أن مقترحاً أقترح ذلك لاستخفوا باقتراحه.

وقبل أن أنهي حديثي أجيب عن سؤال ربما يطوف بذهن بعض من المسلمين اليوم. ربما قال قائل: ما فائدة الإكثار من الصلاة على رسول الله نحن نعلم أن الله عز وجل قد أكرم رسوله بالدرجات العلا، ولسوف يكرمه يوم القيامة بالمقام المحمود، وبما وراء ذلك من الدرجات العالية التي لا يتخيلها الإنسان.. صلينا عليه أو لم نصلي عليه. فما الفائدة من الصلاة عليه؟ وما مصدر هذه الخطورة التي تجعل للصلاة عليه هذه الأهمية؟

الجواب أيها الإخوة: صلاتنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تزيده رفعة عند ربه، لا شك أن الله عز وجل يعطيه ما هو أهل له وزيادة، سواءٌ نفّذنا هذه الوصية أم لم ننفذها، ولكن هو الوفاء.. ينبغي أن نتحلى به تجاه من كانت هدايتنا على يده، تجاه من كان رشدنا بواسطته تجاه من كانت معرفتنا بالله عن طريقه، إنه الوفاء فعندما يصلي الله عز وجل علينا صلاة الرحمة والمغفرة، إنما يكون ذلك لأننا بصلاتنا عبرنا عن وفائنا لرسول الله لأننا نقول من خلال صلاتنا: جزى الله عنا محمداً ما هو أهله. أرأيتم إلى الأبوين كم أوصى الله الأبناء بهما يقول: وقل ربي ارحمهما كما ربيان صغيرا ألم يقل الله عز وجل ذلك:

﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾.

أرأيت لو أنك لم تدعو لأبويك بهذه الرحمة وقد قاما بما ينبغي من شؤونك والنهوض بتربيتك، لا بد أن يكرمهما الله بالرحمة دعوت أو لم تدعو، لكن الله يعلمنا الوفاء، يعلمنا الله سبحانه وتعالى أن نكون أوفياء تجاه آبائنا؛ أي أن الله يسلكنا في مسالك الأخلاق الراشدة. أبواك أسديا إليك هذا المعروف، فعلا ما فعلا أتعبا أنفسهما في صغرك من أجل أن ينهض منك شابٌ سعيد بحياته، مستقيمٌ في سلوكه، ألا يستحق منك كلمة تعبر بها عن وفائك لهذا الاهتمام. أجل.. ما الكلمة التي تعبر بها عن وفائك لأبويك أن تدعو الله لهما بهذا الذي علمك الله إياه، فكذلك صلاتنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في الليل والنهار. إن هي إلا لسان وفاء نرحل به إلى الله عز وجل نقول له: يا رب.. لولا رسولك هذا ما عرفناك، لولا رسولك هذا ما التزمنا بهديك، ما عرفنا صراطك، ما عرفنا الحق من باطل. فاللهم إنا نسألك أن تزيده فضلاً على فضل وأن تزيده إكراماً على إكرام، هذا معنى صلاة العبد على رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم. هذا المعنى وددت مرةً أخرى لو أن المسلمين احتفلوا به، لو أنهم جعلوا من هذا الدواء أعظم دواء في صيدلية الإسلام، عندما تطوف بنا هذه المحن المختلفة الكثيرة.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم

٧٣- الشجرة الطيبة وغذاؤها |2008/10/17

في الأسبوع الماضي ذكرت لكم طائفة من الأحاديث الصحيحة الدالة على أن من لقي الله عز وجل لا يشرك به شيئاً حرم الله عز وجل عليه النار وأدخله الجنة، ففي الناس من دفعهم هذا الذي ذكرت إلى التواكل، إلى أن يعتقدوا أنه ليس على الإنسان لكي ينال رضوان الله عز وجل وجنته ولكي يتقي من سخطه وناره سوى أن يحمل معه عقيدة أن لا إله إلا الله وأن يختم بها حياته و لا عليه بعد ذلك إن أعرض عن الطاعات ولا عليه بعد ذلك إن ولغ فيما يمكن أن يلغ فيه من المعاصي وفيما يمكن أن يرتكبه من المحرمات، ذلك لأن ضمانة سعادته إنما هي هذه الشهادة، وهذه وسوسة شيطانية تبعد بعض الناس عن المعنى المراد بهذا الذي أكده لنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

وها أنا أضعكم يا عباد الله أمام المعنى الدقيق لهذا الذي أكده لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، تعلمون أن الله عز وجل شبه لنا كلمة لا إله إلا الله وما يتضمنه من معتقد إيماني بالشجرة الراسخة الضاربة جذورها في الأرض فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ [ابراهيم:٢٤]، والكلمة الطيبة إنما هي شهادة أن لا إله إلا الله، هل هنالك شجرة غرست في الأرض وضربت بجذورها في باطنها دون أن تحتاج إلى غذاء؟ كلنا يعلم أن هذه الشجرة إذا تركت دون غذاء مدة من الزمن ذَبُلَتْ ثم إن الرياح تعصف بها وبأوراقها ذات اليمين وذات الشمال وإذا هي بعد قليل حطب للوقود فكذلكم شهادة أن لا إله إلا الله، أنا غرستها في عقلي يقيناً وغرست جذورها في قلبي عاطفة وحباً وتعظيماً لله عز وجل فأين هو غذاء هذه الشجرة الإيمانية حتى تبقى معي رفيقاً إلى الموت؟ غذاء هذه الشجرة أداء العبادات، غذاؤها الإكثار من ذكر الله عز وجل في القلب قبل اللسان، غذاؤها الابتعاد عن المحرمات والمعاصي، فمن غذَّى شجرة إيمانه ومعتقده بهذا الغذاء صاحبته هذه الشجرة رفيقاً أميناً وفياً إلى الموت ولقي الله عز وجل كما قال المصطفى صلى الله عليه وسلم وقد حَرَّمَ اللّهُ عليه النار.

أما من قال ها أنا ذا قد آمنت بالله إلهاً واحداً فرداً صمداً إذاً فأنا قد ملكت ضمانة السعادة في العقبى ثم إنه أعرض عن العبادات التي كلفه الله بها وتقلب في أنواع الملهيات والمنسيات من المحرمات التي نهى الله عز وجل عنها ما الذي يحصل؟ الذي يحصل أن شجرة إيمانه هذه المتمثلة في كلمة لا إله إلا الله تذبل ثم إنها تذبل ثم إن رياح الموت وآلام الموت تعصف بهذه الكلمة فَيُزَجُّ هذا الإنسان في يَمٍّ من النسيان عندئذ، ولكي يرتسم هذا الكلام في أذهانكم بطريقة علمية يا عباد الله أضعكم أمام هذه الحقيقة التي يدركها كل مثقف وعالم، الإنسان عندما يُزَجُّ به في آلام الموت وسكراته تتبدد كل الأفكار السطحية المتجمعة في ذهنه بل في قلبه أيضاً ولا يبقى جاثماً في نفسه من الأفكار والذكريات إلا ما كان مخزوناً في عقله الباطن،

وما الذي يختزن في عقل الإنسان الباطن؟ الذي يختزن في عقله الأمور التي كان في حياته يحبها حباً شديداً وكان لا يفتأ يحلم بها ويتحدث عنها وينشط في سبيلها، هذه الأفكار هي التي تبقى مخزونة في عقله الباطن أما الأفكار السطحية فإن سكرات الموت وبرحاء الموت يجلعها تتطاير كما تتطاير عصافير تجمعت في شجرة من الأشجار عندما تمتد يدٌ فتهز هذه الشجرة هزاً عنيفاً، فلينظر الإنسان إذا أقبل إليه الموت ما هي الأفكار السطحية التي تمر بذهنه بل بعاطفته وما هي الأفكار الجاثمة في كيانه والتي يوليها محبته والتي يعيش معها فكراً وذكراً ونشاطاً، إن كانت أفكاره السطحية التي يمر بها هي الدنيا التي ضمنها الله له. هي الرزق التي تكفل الله له به، هي المعايش التي ضمنها الله تعالى له وكانت حقيقة الإيمان وشجرة التوحيد هي التي تستولي على فكره الدائم وهي التي تستولي على عواطفه حباً لله وتعظيماً له ومخافةً منه فليطمئن هذا الإنسان حتى ولو قصَّر في جنب الله عز وجل في السلوك، ليطمئن إلى أن الموت إذا جاءه فإن الذي يتطاير من فكره إنما هو تلك الأفكار السطحية الدنيوية التي لم يكن يعبأ بها لأن الله قد تكفل له بها أما الأفكار المخزونة في عقله الباطن فإنما هي تلك الشجرة الإيمانية تلك الشجرة الإيمانية التي كان دائماً يغذيها بذكر الله، يغذيها بالطاعات والعبادات، يغذيها بالابتعاد عن المحرمات، انظر إليه وهو يعاني من برحاء الموت كيف تجد أنه يكرر هذه الكلمة: لا إله إلا الله، الله، الله، أما الدنيا فهو معرض عنها في تلك الساعة لا يبالي بها، فهذا هو الذي عناه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال: ﴿من لقي الله لا يشرك به حَرَّمَ الله عز وجل عليه النار وأدخله الجنة﴾.

إنكم لتعلمون يا عباد الله هذا الذي أقوله لكم من خلال مثل صغير، إنسان تمدد على فراش المرض ثم استسلم لمبضع طبيبه الجراح يجري له عملية جراحية، قدم إليه المخدر قبل ذلك ليقصيه عن آلام العملية، انظر إليه ما الذي يتحرك به لسانه؟ يتحرك لسان هذا الإنسان الذي غَيَّبه المخدر عن الدنيا التي من حوله، يتحرك بما هو مخزون في عقله الباطن، يعشق المال، يسأل عن تجارته، عن المال الذي اغتصبه فلان، عن المال الذي استدانه منه فلان، عن عن.،، الخ، وإن كان يتعلق قلبه بفتاة أو نحو ذلك تجد أنه يهتف باسم هذه التي يحبها، أما إذا كان هذا الإنسان من الذاكرين الله كثيراً فإن لسانه لا يفتأ يردد ذكر الله، كذلكم سكرات الموت، وانظروا إلى هذا المعنى كيف ينبهنا إليه بيان الله سبحانه وتعالى إذ يقول: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى، قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً﴾ [طه: ١٢٤-١٢٥]. كنت أؤمن في حياتي بأن لا إله إلا أن ﴿قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾ [طه:١٢٦]. هذا شأن الإنسان الذي جعل دنياه مرتبطة به ارتباطاً سطحياً لأنه وثق بأن الله ضمن له سعادة الدنيا ولكن مهمته أن يوفر لنفسه سعادة العقبى.

أما الإنسان الذي وثق بأنه يردد كلمة لا إله إلا الله صباح مساء وسمع هذه الأحاديث الكثيرة فوثق أنه من الناجين وأنه من السعداء الذين سيغفر الله لهم فأقبل إلى الدنيا منسياتها وملهياتها، يعرض عن ذكر الله ويشغل نفسه بالمال، بالمحرمات، بالمتع، باللذائذ، لا أقول المباحة بل المحرمة وأمضى حياته وهو على هذه الشاكلة، نعم إن لسانه يردد أن لا إله إلا الله ولكن حظه من ذلك إنما هو محصور في اللسان أما القلب والعواطف فمرتبطان بالدنيا التي هو مشغول بها، وقع هذه الكلمة في حياته كالشجرة التي انبت عنها الغذاء الذي ينبغي أن تناله دائماً، ما المآل بالنسبة لهذا الإنسان الذي وثق أن جواز سفر إلى الله سيمتعه بالسعادة لأنه جواز يقول لا إله إلا الله، عندما تمتد قدماه، بل كيانه على فراش الموت ويدخل عليه ملك الموت ليقبض روحه ويقع في سياق الموت وآلامه وبرحائه تتطاير من فكره كل الصور والمعتقدات السطحية وكان حظه من لا إله إلا الله لساناً يردد ذلك، ينسى وإنما يبقى ما كان مخزوناً في عقله الباطن، وإنما اختزن عقله الباطن ما قد قلته لكم، شهواته، أهواءه، متعه، لذائذه ونحو ذلك، وكم رأينا أناساً كانوا يشهدون أن لا إله في تقلباتهم الحياتية فلما وقع الواحد منهم في سكرات الموت نظرنا وإذا هو يهتف بتجاراته، يهتف بأمواله، يهتف يستعدي أهله على خصومه، يهتف بمن يحب من الأصدقاء أو من

الصديقات، أجل، وقد مضى إلى الله وقد نسي العقيدة التي عاشها، مضى إلى الله وهو بهذه الحالة، ينبغي أن نعلم هذه العقيدة، اضمن لنفسك أن تموت ورفيقك لا إله إلا الله يضمن لك الله السعادة لكن كيف تضمن إذا مت أن تبقى هذه الشهادة رفيقاً لك في رحلتك إلى الله، إذا غذيتها بحياتك بما قد أمرك الله به.

انظروا إلى قوله عز وجل: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون:١] هذا هو الذي يفلح الإيمان لكن لابد للإيمان من غذاء، سَرَدَ أنواع الأغذية ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ، الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ، إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ، فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ، أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ [المؤمنون:١-١٠]، ما العلاقة بين الإيمان وهذه الأمور التي ذكرها الله؟ الإيمان هو الشجرة التي ذكرها الله عز وجل وهذه الأمور الأخرى هي الغذاء التي ينبغي أن تتعهد شجرة إيمانك بها لكي ترحل إلى الله عز وجل وأنت مؤمن.

أيها الإخوة الإنسان الذي عاش يذكر الله بقلبه قبل لسانه، الذي أورثه ذكر الله حباً لمولاه وتعظيماً له لا خوفَ عليه وإذا وقف بين يدي الله سيلهمه الله حجته ولسوف يكرمه الله بالمغفرة عن طريق هذه الحجة التي يكرمه ويلهمه بها ولسوف يكون مثل ذلك الرجل الصالح الذاكر لله المتعهد شجرة إيمانه بالغذاء، توفي، رآه في الرؤيا صديق صالح مثله قال له: ما فعل الله بك؟ قال: أوقفني بين يديه وقال لي بم جئتني، أين هي الطاعات التي جئتني بها؟ قلت يا رب أنا عبد، أنا لا أملك شيئاً، أنَّى لي أن أملك شيئاً آتيك به، أنا الذي جئت أطمع في عطائك لي، أنت ربي وأنا عبدك تريد أن أعطيك ما لا أملك؟ غفر الله له بهذا، لكنني فكرت أيها الإخوة كيف لنا أن نملك هذه الحجة نقولها بين يدي الله غداً؟ إذا تعهدنا شجرة إيماننا، شجرة لا إله إلا الله بغذائها، الإكثار من ذكر الله، الإكثار من الطاعات والعبادات عندئذٍ سيلهمنا الله عز وجل هذه الحجة ذاتها، ورحم الله ابن عطاء الله السكندري إذ يقول في حكمة من حكمه: من أشرقت بدايته أشرقت نهايته، فلتشرق أيام حياتك في البداية بالطاعات وبذكر الله يشرق الله نهايتك بمغفرة وعفوٍ كبير.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم



٧٤- الثنائية مشكلة العصر..تشخيصها وعلاجها | ٢٠٠٨/١١/٢٨

مشكلة يعاني منها اليوم جل المسلمين في مختلف بلادنا العربية والإسلامية، إنها مشكلة الثنائية في السلوك وفي الفكر، الواحد من المسلمين اليوم في إيمانه العقلاني مسلم كامل مؤمن بالله ورسوله، مؤمن بالله وكتابه واليوم الآخر وتوابع ذلك كله، ولربما نافح وجادل عن هذه الحقائق أكثر مما كان ينافح ويجادل عنها السلف الصالح الذين خلَوا من قبل، حتى إذا نظرت إلى واقعه السلوكي وجدته شارداً إلا فيما ندر عن صراط الله سبحانه وتعالى، وجدته في معاملاته المختلفة مع الآخرين يجنح إلى مصالحه الشخصية وإن اقتضى ذلك أن يكيد لإخوانه وأن يغش وأن يخدع وأن يكذب وأن يماري، وهو الإنسان الذي إذا ناقشته في دلائل وجود الله ووحدانيته وتوابع ذلك ظهر لك منه إنسان فَذٌّ في علومه الاعتقادية، فَذٌّ في دفاعه عن الحق ودفاعه عن الإسلام، هذه الثنائية يا عباد الله هي مشكلة هذا العصر، ولعلها لم تكن موجودة في سالف الأزمان الإسلامية لاسيما في عصر السلف ولربما في العصور التي تلت ذلك أيضاً، فما سبب هذه الثنائية؟

هذا الازدواج والتخالف بين الفكر الذي يحتضن الإسلام وبين السلوك الذي ينأى عن ضوابط الإسلام وعن أخلاقيات الإسلام وأوامره؟ سبب ذلك يا عباد الله الاختلاف الذي يتم بين العقل والقلب، العقل من اليسير جداً أن يحتضن حقائق الإيمان لأنه لا يمكن أن يفارق الحقائق العلمية، العقل لا يمكن أن يختلف معك في أن الواحد زائد واحد يساوي اثنين، والعقل هو المصباح الذي ينير الطريق أمام صاحبه ويبين له المنهج السديد والفرق بينه وبين المنهج الملتوي البعيد الذي يورث صاحبه الشقاء والتيه والضلال، أما القلب فهو مخزن الوقود في حياة الإنسان، والوقود الذي يحرك الإنسان ليست قناعاته العقلية وإنما الوقود الذي يحرك الإنسان الحب المهيمن على القلب، العواطف المهيمنة على جوانب الفؤاد، هذه العواطف، هذا الحب، هذا التعلق هو الذي يقود الإنسان.

وعندما يختلف العقل، وهو المصباح الذي يضيء الطريق أمام صاحبه، مع القلب الذي هو مركز لوقود العواطف فإن الغَلَبَةَ إنما تكون للقلب ولا تكون الغَلَبَةُ للعقل، أنا مؤمن بالله إيماناً عقلياً نعم ولكن

قلبي المحشو بالرغائب والشهوات والأهواء وحب الذات والتعلق بالدنيا، القلب هو الذي لابد أن يقودني، ولقد ذكرت لكم فيما أحسب مثالاً يجسد هذا المعنى، إنه مصباح السيارة، إنه يضيء لك الطريق ويبين لك الطريق المعبد والطريق الذي فيه أخاديد وحفر ولكن هذه المركبة لا تستطيع بمصباحها أن تتحرك إنما الذي يحركها الوقود الذي في داخلها، والإنسان مثل هذه المركبة يا عباد الله، أما العقل فمصباح فقط وأما القلب فهو مخزن الوقود فانظر إلام يتجه هذا الوقود الذي في قلبك، إلام يتجه الحب المهيمن على فؤادك، في أكثر الأحيان تكون عواطفنا القلبية متجهة إلى أهوائنا، إلى دنيانا، إلى شهواتنا، إلى رغائبنا الذاتية، ومن هنا تنبثق الثنائية في حياة أكثر المسلمين اليوم.

يستأذن العقلُ القلبَ ليغرس فيه شتلاً أو نواةً من محبة الله، من مراقبة الله، ويبحث العقل ويبحث ويبحث فلا يجد في قلب صاحبه أي متسع، يرتد العقل خائباً، يبحث العقل في جوانب قلب صاحبه عن متسع لإبلاغه الرسالة الربانية التي يقول فيها المولى عز وجل بأسلوب رقيق من العتب والتحبب: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد:١٦] ولكن العقل إذ يحاول أن يبلغ القلبَ هذه الرسالة لا يجد في القلب متسعاً لأن القلب مشغول بدنياه، لأن القلب مشغول بمحابه المتمثلة في الشهوات، في الأهواء، المصالح الذاتية، ومن هنا تنظر إلى هذا الإنسان إذ يتحدث عن الإسلام بلسانه تجده ذا لسان زَلِق، تجده ذا فكر إسلامي مستنير، فإذا نظرت إلى سلوكه في المجتمع رأيته لا يبالي أن يكذب، لا يبالي أن يخدع، لا يبالي أن يغش، وكلكم يعلم نماذج كثيرة من هذا الذي أقول، هذا المعنى كم وكم يحذرنا منه بيان الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف:٢-٣].

وانظروا يا عباد الله إلى قصة هذا الذي ضرب لنا بيان الله مثلاً به ليجسد لنا هذه الثنائية، هذا الذي ذهب جُلُّ المفسرين إلى أنه بلعام بن باعوراء، يخبرنا الله عز وجل أنه قد متعه بعلوم كثيرة شتى، علومٍ تتعلق بالمزيد والمزيد من دلائل وجود الله، من دلائل عبودية الإنسان لله، من دلائل المصير الذي سيؤول إليه الإنسان والذي سيقف فيه بين يدي الله، كل ذلك آتاه الله لكن ذلك كله حشو العقل، والعقل كما قلت لكم مصباح، لم يستفد من ذلك كله لأنه أخلد إلى الأرض، وانظروا إلى هذا التعبير القرآني، كيف

أخلد وبماذا أخلد؟ أخلد إلى الأرض مالَ إلى الدنيا، مالَ إلى شهواتها، أهوائها، ملاذها، إلى مصالحه الآنية الشخصية، مال إليها بعقله؟! لا مالَ إليها بعواطفه، بقلبه، بهذا الوقود الذي أحدثكم عنه فما نفعته تلك الآيات قط ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ، وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [لأعراف:١٧٥-١٧٦].

عندما يصبح الإنسان أسيراً لقلبه ويكون القلب مركزاً للوقود المتجه إلى الشهوات، إلى الأهواء، إلى الملاذ، إلى الدنيا ماذا عسى أن تنفعه الآيات البينات، ماذا عسى أن تنفعه الحقائق والدقائق العلمية التي ورثها وتعلمها من دين الله عز وجل؟ لا لن ينتفع من ذلك شيئاً ويؤول أمره إلى مثل الكلب إن شبع وارتوى يظل لسانه يلهث وإن ظمِأ وجاع يظل لسانه على هذه الحال، الطمع مستمر والتوجه إلى الدنيا التي لا يشبع منها مستمر، هذا مثل يخاطبنا به الله عز وجل لعلنا نعتق أنفسنا من هذه الثنائية لعلنا نتحرر أنفسنا من أسر القلب عندما يكون مخزناً لوقود الأهواء والشهوات المختلفة.

والآن لعلكم تسألون يا عباد الله فكيف السبيل إلى أن نتحرر من هذا الأسر الذي يقصينا عن العقل ويحجبنا عن دلائله وبراهينه؟ سبيل ذلك شيء يسير، وربما كان عسيراً ولكنه يسير على من يسَّرَهُ الله عز وجل له، سبيل ذلك أن تقتحم قلبك الذي حُشِيَ بالأهواء المخلتفة، أن تقتحمه بذكر الله عز وجل، وأنا لست أعني في هذا المقام الذكر اللساني أو الذكر المتمثل في فرقعة السبحة في اليد وإنما أعني بالذكر التذكر كما حدثنا الله عز وجل: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [لأعراف:٢٠٥]، ذكرك اللهَ عز وجل يحرق كل ما تجمع في الفؤاد من مظاهر الدنيا وأهوائها التي جعلتك تخلد إلى الأرض كما قال الله عز وجل، ذكرك الله عز وجل يفجر حباً في قلبك للمولى عز وجل ومن ثم لابد أن يطرد حب الله في قلبك محبة سائر الأغيار، لم أجد أيها الإخوة إنساناً يداوم لسانه وقلبه على ذكر الله عز وجل ولم يتمتع بنعيم الحب لله أبداً.

كيف، كيف يكون ذكرك لله عز وجل؟ أيكون ذلك بذكر ذاته؟ لا، لا يمكن للإنسان أن يتخل ربه، كل ما خطر في بالك فالله بخلاف ذلك ولكن ذكرك لله يعني أن تذكر صفاته، أن تذكر نعمه، أن

تذكر رحمته بك، أن تذكر تدبيره لك، أن تذكر حمايته لك، اربط النعم بالمنعم، إذا جلست إلى المائدة تأكل فاذكر الله عز وجل وأنت تنظر إلى أصناف الطعام التي هيأها الله لك على مائدتك، إذا وضعت اللقمة في فمك تمضغها فاذكر نعمة الله عز وجل إذ أقدرك على استساغة هذا الطعام ولم يجعلك تختنق فيه، إذا قمت إلى فراشك لترقد اذكر نعمة الله عز وجل عليك إذ رزقك هذه الإجازة التي لو لم يمتعك الله عز وجل بها لهلكت خلال ثمانٍ وأربعين ساعة، إذا استيقظت من رقادك اذكر نعمة الله عز وجل إذ أيقظك بعد رقاد بل أحياك بعد موت وقل ما كان رسولك محمد صلى الله عليه وسلم يقوله: الحمد لله الذي أحياني بعد ما أماتني وإليه النشور، إذا دخلت الحمام اذكر النعمة الإلهية المتمثلة في إقصاء هذه السموم عن كيانك وتخيل لو أن الله لم يمتعك بهذه النعمة إلام كان يؤول أمرك، خرجت إلى الميضئة، تذكر نعمة الله المتمثلة في هذا الماء النمير العجيب السيال الذي ليس له لون ولا رائحة ولو أن الله لم يمتعك بهذه النعمة لمللت من ذاتك ولاشمأزت نفسك من ذاتك.

عندما تذكر الله بصفاته وآلائه وتربط النعم بالمنعم وتدوم على ذلك لا يمكن إلا أن يتفجر حب الله عز وجل بين جوانحك ومن ثم يطرد حبُّ الأعلى حبَّ الدون، يطرد حبُّ المولى حبَّ الأغيار، فإذا صفا قلبك من الأغيار يصطلح العقل عندئذٍ مع القلب ويتجهان معاً إلى السير على الصراط الذي اختطه لنا ربنا سبحانه وتعالى وتنطوي الثنائية آنذاك، هذا هو العلاج يا عباد الله، تعالوا نعالج قلوبنا التي أصبحت مركزاً بل مخزناً لوقود الشهوات والأهواء، تعالوا نطهر قلوبنا من ذلك بالإكثار من ذكر الله، وانظروا كيف يدعونا ربنا إلى هذا الدواء بتحبب عجيب: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ، فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]. اذكروني بتذكر النعم، بمعرفة العبودية لله، بمعرفة صفات الربوبية أذكركم باللطف، أذكركم بالمغفرة، أذكركم بالرحمة، أذكركم بالإسعاد، أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل قلوبنا عامرة بذكره وأن يطهرها من كل وصف يباعدنا عن مشاهدته ومحبته.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

٧٥- ذكر الله الوظيفة القدسية | ٢٠٠٩/٠٦/١٩

إن الله عز وجل أقام الإنسان في هذه الحياة الدنيا على وظيفة قدسية تتمثل أولاً في الدينونة بالعبادة والعبودية له عز وجل، وتتمثل ثانياً في الخضوع لشرعه، وإقامة المجتمع الإسلامي على المبادئ والنهج التي رسمها الله سبحانه وتعالى للإنسان، ثم إن الله عز وجل ضمن للإنسان في مقابل ذلك أمنه وطمأنينته ورغد عيشه ورزقه الموفور، ضمن له ذلك كله في مقابل أن ينهض بهذه الوظيفة القدسية التي أقامه سبحانه وتعالى عليها، ألم تقرؤوا في ذلك قوله سبحانه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، ذلك هو الأمر، وهذه هي الضمانة، أولم تقرؤوا قوله سبحانه وتعالى:﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه: ١٣٢] ثم كان من شأن كثير من الناس –ويا للعجب– أن أعرضوا عن الوظيفة التي أقامهم الله سبحانه وتعالى عليها، ثم توجّهوا باهتماماتهم ومخاوفهم واضطراباتهم إلى هذا الذي ضمنه الله سبحانه وتعالى لهم، وإنه لَداء خطير هذا النهج المعاكس لما قد وصى به الله سبحانه وتعالى عباده، ولما أخبرهم به وأخذه على نفسه لهم من ضمانات.

أما الوظيفة التي أقامهم الله عز وجل عليها، وهي الاصطباغ بذل العبودية والعبادة له عز وجل، ثم الانضباط بشرعه، وإقامة المجتمعات الإنسانية على النهج الذي أمر، وعلى المبدأ الذي خططه لهم، فإنهم يعرضون عن هذه الوظيفة التي كلفهم بها. أما الضمانة التي أخذها لهم الله عز وجل على ذاته العلية، فيتّجهون إليها باهتمام بالغ وباضطراب دائم وبخوف مستمر، هذا هو الداء الخطير الذي يعاني منه كثير من المسلمين في كثير من مجتمعاتنا الإسلامية اليوم، معاكسة النهج الذي خاطبنا الله سبحانه وتعالى به، والاهتمام بما قد ضمنه الله لنا، والإعراض عما قد وظفنا الله سبحانه وتعالى فيه.

وحديثي إليكم –يا عباد الله– بمناسبة تذكر هذا الداء الخطير هو التساؤل عن العلاج، ما العلاج الذي يعيدنا إلى النهج القويم، ويخرجنا من هذه الطريقة المعاكسة لما أمر الله سبحانه وتعالى به؟ ما العلاج الذي يجعلنا نقف على النهج القويم والصراط المستقيم، حتى نؤدي الوظيفة التي أناطها الله

بأعناقنا، ونجعل اضطرابنا وقلقنا في سبيله، ثم نطمئن بالاً إلى الحياة الرغدة وإلى الرزق الذي ضمنه لنا الله سبحانه وتعالى؟ علاج ذلك يتمثل في شيء بسيط في الحديث عنه، وما أكثر ما استخف به كثير من الناس، ما أكثر ما استخف به كثير من المسلمين، إنه ذكر الله عز وجل، ذلك الذكر الذي ينبثق من القلب ويترجمه اللسان، ولا أعني به الذكر الذي يتحرك به اللسان مفصولاً عن شعور القلب، ذكر الله الذي ينبثق من الفؤاد هو العلاج لهذا الداء أيها الإخوة.

ذكر الله سبحانه وتعالى يحقق نتيجتين قد تبدوان متعارضتين، النتيجة الأولى الطمأنينة النفسية التي تتحقق من وراء الاستمرار على ذكر الله عز وجل، والنتيجة الثانية الخوف والقلق والاضطراب، تلك المشاعر التي تهتاج بين الجوانح عند ذكر الله سبحانه وتعالى ولدى الاستقامة الدائمة على ذكره، أجل هما نتيجتان أخبر عنهما بيان الله سبحانه وتعالى، ولعل في الناس من يتصور أنهما نتيجتان متناقضتان، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، ويقول أيضاً: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال:٢/٨]، هما نتيجتان؛ الوجل والاضطراب اللذان يسريان في القلب من جراء ذكر الله عز وجل، والطمأنينة التي تتحقق أيضاً من ذكر الله سبحانه وتعالى، فما حل هذا التناقض فيما يبدو يا عباد الله؟

ذكر الله سبحانه وتعالى إذا داوم عليه الإنسان يحقق في كيان الإنسان الطمأنينة تجاه رزقه، يحقق في كيان الإنسان الطمأنينة تجاه رغد عيشه، يحقق في كيان الإنسان الطمأنينة تجاه حياته الدنيوية التي يعيش فيها، ذكر الله عز وجل يزيدك ثقة بما وعدك به الله تعالى، تعلم عندئذٍ أن الله سبحانه لن يتخلَّ عنك، سيرزقك، سيمتعك بالنعيم وبرغد العيش، وسيحقق لك الطمأنينة والأمن في الحياة التي تعيشها إن أنت تحققت بالوظيفة التي أقامك الله سبحانه وتعالى عليها.

وهكذا، فذكر الله عز وجل إذ ينبثق من نبضات الفؤاد يحقق طمأنينة النفس تجاه ما ضمنه لك الله سبحانه وتعالى. وذكر الله عز وجل يفجر بين جوانحك الخوف والاضطراب والقلق مما أنت مقبل عليه بعد موتك عندما ترحل إلى الله سبحانه وتعالى، ذكر الله عز وجل يفجّر بين جوانحك القلق والاضطراب تجاه الوظيفة التي أقامك الله سبحانه وتعالى عليها، والتي لم تقم بها كما ينبغي، ولم تؤدِّها حق الأداء كما

أُمرت، وهذا هو المعني بقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢]

لعلك تقول: إن في الناس من لم يقصروا في جنب الله، في الناس من استطاعوا أن يسلكوا الطريق الذي أمر به الله، واصطبغوا بكسوة العبودية والعبادة لله، ففيم يشعرون بالوجل والاضطراب عند ذكرهم لله؟ لا –يا عباد الله– ليس في الناس ناسٌ أدوا حقوق العبودية لمولاهم وخالقهم قط، ليس في الناس ناسٌ استطاعوا أن ينهضوا بكل ما أمر به الله عز وجل، حتى الرسل والأنبياء يظلون في خوف دائم وفي قلق مستمر تجاه شعورهم بأنهم مقصرون في أداء حقوق الله، مقصرون في شكر الله عز وجل، أو لم يكن يقوم رسولنا صلى الله عليه وسلم معظم الليل على قدميه يناجي الله ويقف بين يديه حتى يتورم منه القدمان، وحتى يقول لعائشة وقد سألته عما يفعل بنفسه وعن السبب في ذلك، قال لها: ﴿أولا أكون عبداً شكوراً؟﴾.

فما بالك بأمثالنا نحن الذين نتطوح في شهواتنا وأهوائنا، ونتطوح في أودية التقصير وإنه لأشكال وألوان، أمرنا الله سبحانه وتعالى أن نقيم مجتمعاتنا على النهج الذي أمر، وعلى الدعائم الدينية التي كلفنا الله سبحانه وتعالى بإقامة مجتمعاتنا عليها، فأعرضنا عن هذه الوظيفة التي أناطها بأعناقنا، وقلنا: لا، بل الأَولى أن نقيم مجتمعاتنا على نظم مدنية، بل الأَولى أن نقيم مجتمعاتنا بعيداً بعيداً عن الدين ووحيه، عن الشرعة وأمرها، ثم نقول: إن ذكر الله سبحانه وتعالى ما ينبغي أن يبعث الوجل في القلب، كيف؟ نحن مقصرون –يا عباد الله– والإنسان المقصر أحد رجلين، رجل معترف بتقصيره من شأنه أن يلتجأ إلى الله وأن يذكر الله عز وجل دائماً مستغفراً مسبّحاً مهلّلاً مكبّراً، ويجعل من ذكره لله سبحانه وتعالى أداةَ رجوع إلى الله ولسانَ توبةٍ إليه، في هذه الحال لا بد أن تتفجّر بين جوانح هذا الذاكر مشاعر الوجل، مشاعر الاضطراب، مشاعر الخوف مما هو مقبل عليه بعد الموت، ولسوف يكون وجلُه هذا شفيعاً له عند الله، لسوف يكون اضطرابه الذي ينبعث من خلال ذكره لله عز وجل شفيعاً له بين يدي الله عز وجل.

أما الرجل الآخر، فهو ذاك الذي يبرّر إعراضه عن الله، هو ذاك الذي يبرّر سيره على النهج الذي تشاؤه له أهواؤه ورعوناته، هو ذاك الذي يقول: لا، بل الحداثة أَولى، الحداثة التي نُدْعَى إليها أَولى من الانقياد لأمر الله عز وجل، ومن تحقيق ما طلب الله سبحانه وتعالى، فهذا الإنسان محجوب –يا عباد

الله- عن رحمة الله، محجوب عن مغفرته وكرمه لا بسبب الذنب، فإن الله يغفر الذنوب جميعاً، ألم يقل ربنا سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، ولكن الذي يحجب الإنسان عن رحمة الله استكباره، الذي يحجب الإنسان عن رحمة الله عتوه، يُذَكَّرُ بالله فيعرض، يُقَال له: يا هذا إننا عبيد مملوكون، وظائفنا في هذه الحياة الدنيا أن نتحقق بذل العبودية له، وأن ننهض بتطبيق شرعته، وأن نقيم مجتمعاتنا الإنسانية على الدعائم التي بَصَّرَنَا بها وأمرنا أن نقيمها على أساسها، فيعرض ويقول: ذهب ذلك الموقف، وذهب ذلك الوقت، وذهب ذلك العصر الذي تدعوننا إلى الرجوع إليه، هذا ما يحجب الإنسان عن رحمة الله سبحانه وتعالى ومغفرته.

عباد الله، أعود فأقول لكم: إنه داء وبيل أن نعرض عن الوظيفة التي أقامنا الله سبحانه وتعالى عليها، وأن نهتم ونقلق ونضطرب تجاه ما قد ضمنه الله عز وجل لنا، فما علاج هذا الداء؟ علاجه ذكر الله ﴿أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[الرعد:٢٨] ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[الأنفال: ٢]، هما نتيجتان: وجلٌ واضطراب، وكم نحن بحاجة إلى هذين الدوائين؛ وجلٌ مما نحن مقبلون إليه غداً، وطمأنينة تجاه ما قد ضمنه الله سبحانه وتعالى لنا اليوم.

أقول قولي هذا واستغفر الله العظيم.

٧٦- ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب |

٢٠١٠/٠٤/٢٣

ظاهرة تتكرر أمامي أحسب أن من الخير أن نشترك في الوقوف عندها لعلنا نقطف منها العبرة والدرس اللذين ينبغي لكل مؤمن أن يقتطفهما من هذه الظاهرة.

أقف أمام إنسان مسلم ذي دخل محدود فأسأله عن حاله وإذا به يستغرق في حمد الله عز وجل وشكره ويعبِّرُ بلسان يكاد قلبه يسبقه إلى التعبير عن عظيم النعمة التي يتقلب بها وعن الآلاء الإلهية التي يتلقاها من ربه سبحانه وتعالى. وأنظر إلى الدار التي هو فيها وإذا بكل ما فيها وبكل زواياها تشكو الفاقة، تشكو الفقر والقلة.

ويصادف أن أجد واحداً من هؤلاء الأثرياء الذين أكرمهم الله سبحانه وتعالى بالغنى الفاحش، أسأل الواحد منهم أيضاً عن حاله وإذا هو يطلق الزفرات الحارة يشكو فقد السيولة، يشكو سوء الحال، يشكو الخسارة المتوالية، ويمضي يطيل الكلام في الشكوى من العجز المادي ومن السيولة الغائبة ومن القهر الاقتصادي. وأتأمل في الدار التي هو فيها وإذا هي مليئة بكل أصناف المتع وبسائر أدوات الترف، إذا هي مشحونة بكل ما يحتاج إليه الإنسان من ضروريات أو حاجيات أو ما يدخل في ميزان الترف. أليس هذا – أيها الإخوة – مما يثير العجب؟!

ذوي الدخل المحدود غارقون في شكر الله وحمده، لا يشعرون إلا بالمزيد من فضله، وأصحاب الثراء الكبير الفاحش يظلون يزفرون الزفرات المتوالية يشكون فقد السيولة، يشكون الحالة الاقتصادية المتراجعة، يشكون العجز المادي الذي يعانون منه.

إن هذا يذكِّرني – يا عباد الله – بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح الذي يرويه الشيخان: ﴿إذا كان لابن آدم وادٍ من مال ابتغى إليه ثانياً وإذا كان له واديان من مال ابتغى إليه

ثالثاً ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب﴾. هذا الذي يقوله رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهي العجب ويبين السبب.

إن من شأن الإنسان – يا عباد الله – إذا أغدق الله عز وجل عليه النعمة وتوالت عليه الآلاء وأكرمه الله سبحانه وتعالى برغد العيش أشكالاً وألواناً تفجرت في نفسه الرغبات للمزيد من هذا الذي أكرمه الله عز وجل به فيتجه طموحه وتتجه أطماعه إلى الأحلام التي تحتضن الرغبة في المزيد والمزيد، يتذكر هذا الذي يطمح إليه وينسى هذا الذي قد أنعم الله به عليه. تنسيه النعمةُ المنعمَ وينسيه رغد العيش هذا الذي يتمتع به ومن ثم فإنه إنما يتفكر في أحلامه والاستزادات التي يطمع فيها. فإن سأله سائل عن حاله التي هو فيها عبر له عن تعلقه بالمزيد ونسي أن يحدثه عن النعمة وشكر الله سبحانه وتعالى عليها. وهذا من معاني قول رسول الله: ﴿إذا كان لابن آدم وادٍ من مال ابتغى إليه ثانياً﴾. لم يقل: إذا كان الإنسان مكتفياً وإنما قال: إذا كان له وادٍ من مال، هذا هو الذي يفجِّرُ لديه الرغبة في المزيد. ومن هنا كان شكر الغني أصعب من صبر الفقير.

الغني لكي يشكر لابد أن يسخِّر النعمة التي أنعم الله بها عليه فيما يرضي الله سبحانه وتعالى، ولابد أن يغلق على نفسه الأبواب المحرمة ويبقي باباً واحداً هو الباب الذي شرعه الله. أما الفقير فما أيسر عليه أن يصبر، ومهما كان فقيراً سيجد نعم الله سبحانه وتعالى ممتدةً إليه.

تعالوا نتساءل – يا عباد الله – كم في هؤلاء المترفين الذين أغدق الله عز وجل عليهم من النعم المزيد والمزيد، كم من هؤلاء من يلتزم ورداً دائماً من ذكر الله عز وجل وقراءة كتاب الله سبحانه وتعالى، كم في هؤلاء الذين يُسَمَّون برجال الأعمال كم في هؤلاء من يقوم ولو في الهزيع اليسير والأخير من الليل يقف بين يدي مولاه الذي أنعم عليه مناجياً، يسجد يطيل السجود شاكراً حامداً، يحمد الله عز وجل ويستغرق في الثناء على الله سبحانه وتعالى، كم في هؤلاء الذين يسبحون في بحارٍ من النعم قد لا تكون لها شطآن، كم فيهم من إذا دخل داره وقف أمام التحف التي تزدان بها زوايا داره ونظر إلى التحفة الواحدة فعلم أن قيمتها تيسر التزويج لشاب فقير من هؤلاء الذين يصبرون على لأواء الغريزة، من هؤلاء الذين يصبرون على حرارة الغريزة انتظاراً للفرَجِ الذي يأتيهم من عند الله عز وجل فيجعل من هذه التحفة وسيلة لتزويج واحدٍ من هؤلاء الشباب.

أعود فأقول كم في هؤلاء المنعمين المترفين الذين يَسْبَحُون في يمٍّ من نعم الله عز وجل من يربطون النعمة بالمنعم ويجعلون لأنفسهم ورداً دائماً من الارتباط بالله، يجعلون لأنفسهم ورداً من القيام في الأسحار، يتخذون من أفئدتهم النابضة وسيلة رحمة بمن ابتلاهم الله عز وجل به، والباري سبحانه وتعالى هو الذي ابتلى الغني بالفقير وابتلى الفقير بالغني ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً﴾ [الفرقان: ٢٠]. هكذا يقول الله سبحانه وتعالى.

سقى الله – يا عباد الله – عهداً مرَّ بهذه البلدة المباركة. كان الأغنياء – ولربما كان غناهم يتجاوز غنى أغنى الناس اليوم – كانوا في وَضَحِ النهار تجاراً فإذا جاء المساء تحولوا إلى طلاب علم وتأبط كل واحدٍ منهم في المساء كتابه ينتجع العلم الشرعي في حلقات العلم الكثيرة ساعة وساعتين من الليل، ثم إذا أقبل الصباح أسرع كل واحدٍ منهم إلى المسجد المجاور يصلي الفجر جماعةً ثم يعود إلى الدروس العلمية يدرس الفقه ثم التفسير ثم التوحيد حتى إذا أقبل الضحى عاد الواحد منهم إلى داره يجلس مع أهله يؤنسهم ويستأنسون به فإذا ارتفع النهار واشتدت لفحة شمس الضحى عادوا إلى متاجرهم.

سقى الله عهداً كان تجار هذه البلدة على هذه الشاكلة، صلتهم بالله عز وجل عامرة بمقدار ما صلتهم بالسوق أيضاً عامرة وغامرة. أولئك هم الذي وصفهم الله عز وجل بقوله: ﴿رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ. لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [النور: ٣٧–٣٨]. وانظروا إلى آخر هذه الآية كيف تجدون ردَّ العجز على الصدر ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

هؤلاء الذين يدخرون جزءاً كبيراً من أوقاتهم لله هؤلاء الذين يساهرون علوم الشريعة الإسلامية لكي يتشبعوا بالنهج الأمثل الذي ينبغي أن يتبيَّنُوه في معاملاتهم التجارية وغيرها، هؤلاء ربما قال قائل إنهم خسروا هذه الأوقات وكان بوسعهم أن يدخروها لأعمالهم التجارية وخططهم الربحية ولكن الله يعدهم بأنه سيعوِّض ولسوف يرزقهم بغير حساب وكان يرزقهم بغير حساب. لقد رأيت هؤلاء الأغنياء ولكني رأيت فيهم سيما العبودية لله، رأيتهم لا ينفكون عن محراب العبادة والعبودية لله سبحانه وتعالى.

عباد الله: أنا أنظر إلى مجالس الذكر الكثيرة في هذا البلد الطيب وأنظر إلى مجالس العلم الكثيرة في هذا البلد الطيب فماذا أرى؟ أرى ذوي الدخل المحدود، أرى الفقراء، أرى هؤلاء الذين يتدانون عن تلك الرتبة الدنيوية العالية، أراهم هم الذين تمتلئ بهم المساجد وأماكن الذكر والعبادة وكم بحثت يميناً وشمالاً عن هؤلاء رجال الأعمال – أقولها بصراحة – فلا أجد واحداً منهم إلا من ندر وربما كان ذلك في بعض الأحيان.

ألا فليسمع هؤلاء الإخوة – وأسأل الله أن يسمعهم كلامي – أيها الإخوة إذا أكرم الله عز وجل عبداً بالنعمة فمن اللؤم أن يشتغل بالنعمة وينسى المنعم، إذا أكرم الله عز وجل عبداً بالعطاء فمن اللؤم أن يصبح عبداً للنعمة وأن ينسى المنعم المتفضل. من الذي أعطاني؟ الله. من الذي أكرمني برغد العيش؟ الله.

ولكن أفيحسب هؤلاء الإخوة أن السعادة في الكم الذي يفيض به الصندوق المالي؟ لا. السعادة في الشعور الغمر الذي يجعل الإنسان عندما يشاء الله ويتجلى عليه بانشراح الصدر يشعر بالرقصة القلبية التي تهيمن على كيانه. رب رجل لم يكرمه الله عز وجل بالغنى الوفير لكن الله تجلى عليه بالرحمة الغامرة فهو في كل حركاته وسكناته سعيد يتمتع برغدٍ من العيش ويتمتع بسرور لا يستطيع البيان أن يصفه. ورب رجل أكرمه الله عز وجل بالعطاء الوفير والأرقام الكثيرة الطويلة من المال ولكن انظر إلى حاله تجد الضنى يسري في كيانه، انظر إلى الأمسيات التي يعود فيها إلى داره وانظر كم يتقلب في فراشه ريثما يستقبل نعمة الرقاد من مولاه وخالقه سبحانه وتعالى. ألا ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ [العنكبوت: ١٧] ابتغوا الرزق بالانقياد لأمر الله سبحانه وتعالى.

ليس هنالك عسر اقتصادي أبداً، وليس هنالك ضيق في السيولة أبداً. عطاء الله لم ينقطع ورزق الله ممتد متطاول يتضاعف ولكن الابتلاء هو الذي ينبغي أن نتنبه إليه وهو الذي ينبغي أن نلتقط العبرة والدرس منه.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم فاستغفروه يغفر لكم فيا فوز المستغفرين.

٧٧- عجيب شأنك أيها الإنسان | ٢٠١١/٠٣/٠٤

عجيب شأن هذا الإنسان، أغدق الله عز وجل عليه سلسلةً من المِكْرُمَات ميزه بها عن سائر الخلائق، خَلَقَهُ في أحسن تقويم وبثَّ فيه من روحه التي نسبها الله سبحانه وتعالى إلى ذاته العلية، أسجدَ له الملائكة سجود تكريم، طرد في سبيله إبليس من رحابه وإنعامه لأنه استكبر عليه ورفض الاستجابة لأمر الله في السجود له، ثم إنه جلَّ جلاله أعلن عن تكريمه لهذا المخلوق وعن تمييزه عن سائر المخلوقات الأخرى قائلاً: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٠].

ثم إن هذا الإله المتفضل بهذه السلسلة من المكرمات خاطب هذا الإنسان يأمره بأن لا يعرض عن ذكره، يأمره بأن لا يعرض عن شكره، يأمره بأن يصغي إلى وصاياه التي سيخاطبه الله عز وجل بها عن طريق الرسل والأنبياء يقول له: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]. يقول له: ﴿وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢]. يأمر الإنسان بأن يتوجَّهَ إلى الوصايا التي سيخاطبه بها وأن ينفذها لا لشيء إلا لأنها الضمانة لسعادته في عاجل حياته وفي عقباه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤].

فماذا كان موقف هذا الإنسان؟

كان موقفه – إلا من رحم ربك – أن أعرض عن ذكر الله سبحانه وتعالى، كان موقفه أن تشاغل عن شكر هذا المنعم بالرجوع إلى أهوائِه وشهواته، كان موقفه أن أعرض عن هذه التعاليم التي لاحَقَهُ الله عز وجل بها لا لشيء إلا لكي تكون ضمانة لسعادته، عانق شهواته وأهواءَه، عكف من الدنيا كلها على يومه معرضاً عن الغد الذي هو مقبل إليه، ومرةً أخرى أقول إلا من رحم ربك، أليس عجيباً يا عباد الله أن يكون شأن الإنسان هكذا.

سَخَّرَ الله عز وجل لك يا ابن آدم سماءه وأرضه وسَخَّرَ لك ما بينهما من الرياح الهابَّة والسحب المتراكمة، سَخَّرَ لك نبات الأرض، سَخَّرَ لك ضروع الأنعام ولحومها فما لك تعرض عن هذا الإله الذي

أكرمك ونعمك، صدق على الإنسان – ويا للأسف – قول الله عز وجل: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾ [عبس: ٢٣]. وكم أشعر بالخجل والأسى عندما أمرُّ على هذه الآية ثم أرددها، يقول ربنا عن الإنسان: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾ [عبس: ٢٣].

متى تقضي يا ابن آدم هذا الذي أمرك الله عز وجل به لمنفعتك ولضمان سعادتك في عاجل حياتك وآجلها.

ومن العجيب أيها الإخوة أن المسخَّرات الكونية التي استخدمها الله عز وجل لنا على اختلافها ماضية في العكوف على الاستجابة لأمر الله، ماضية في تسبيح الله. ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]. ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ [النور: ٤١].

من العجب أن هذه المخلوقات كلُّها تُنفِّذ أمر الله عاكفة على تسبيح الله وعبادته إلا هذا الإنسان الذي اشمخر منه الأنف وعانق أهواءه كما قلت بدلاً من أن يعانق وصايا الله عز وجل ليعكف على تنفيذها.

آيةٌ في كتاب الله لابد أن أقرأها وإن كانت آية سجدة، تثير هي الأخرى ألماً شديداً لدى كل من كان يتمتع بحساسية مرهفة أو يتمتع بذوقٍ إنساني سليم، اسمعوا: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ﴾ [الحج: ١٨]. ثم قال: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ [الحج: ١٨].

ألا تلاحظون يا عباد الله الألم الذي ينتابنا في هذا الذي يخبرنا الله به؟! الحيوانات، الجبال، الشجر، الدواب كل ذلك عاكف على الاستجابة لأمر الله، كل ذلك عاكف على أداء الوظيفة التي أقامها الله عز وجل عليها، حتى إذا جاء الحديث عن الإنسان قال: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨].

آيةٌ أخرى، أذكِّرُ نفسي وأذكركم بها، تجعل الإنسان يذوب خجلاً من العتاب الرقيق الذي يتضمنه هذا الخطاب الرباني: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ

رَبِّهِ﴾ [الكهف: ٥٠]. ثم قال خطاباً لنا: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاء مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾ [الكهف: ٥٠].

طردت إبليس من أجلكم، تكريماً لكم، تركتم الالتفات إلى وصاياي، تركتم الالتفات إلى أمري واتخذتم من هذا الشيطان الذي طردته في سبيلكم وليّاً من دوني! أيكون هذا! اقرأ هذا الكلام وردده تجد أنه يذيب كيانك خجلاً من الله عز وجل.

وإن إيمان المؤمن لابد أن يقول: لا يا رب حاشاك، ما اتخذنا من دونك ولياً، ما اتخذنا الشيطان ولا غيره من جنود الشيطان أولياء لنا، ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ في الدنيا والآخرة، لكنه الضعف هيمن على كياناتنا وأنت ربنا القائل: ﴿وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً﴾ [النساء: ٢٨].

عباد الله: عندما أقول ما قاله الله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

كثيرون هم الذين تسري الريبة إلى قلوبهم وعقولهم من هذا الكلام، كثيرون ممن خُدِعُوا بشعارات العلم وعاشوا فقراء إلى مضمونه يتساءلون: أفيمكن هذا؟! جمادٌ يسبح الله! ويثني على الله! ويذكر الله! وأقول لكم إنها حقيقة علمية قبل أن تكون حقيقة دينية.

إن الله سبحانه وتعالى جعل وسيلة الإقبال إلى الله عز وجل العقل الذي يتمتع به والروح التي تسري في كيانه فهل تتصورون أنها هي الوسيلة الوحيدة للتوجه إلى معرفة الله وللعكوف على تسبيح الله وعبادته؟! لا يا عباد الله.

كما جعل الله عز وجل وسيلة ذلك في حياتنا نحن البشر الروح والعقل جعل وسائل أخرى في حياة النباتات، في الجمادات، في كل ما خلق الله سبحانه وتعالى. فلا تتصور أن الوسيلة التي بها يعرف الإنسانُ ربَّهُ محتكرة في كيانك، نعم يا عباد الله، قلت لكم مرة وها أنا أعيد:

في كل صباح ما بين بزوغ الفجر وطلوع الشمس تتجمع طيورٌ كثيرةٌ وكثيفة بين أغصان الشجرة التي تواجه غرفتي التي أرقد فيها وتنطلق هذه الطيور ما بين الفجر وطلوع الشمس في ترنيمة جماعية، في تسبيح

لله سبحانه وتعالى، حتى إذا طلعت الشمس وانتشر نورها تفرقت هذه الطيور كل إلى شأنه، أما الإنسان – أو معظم الناس – فغافلون راقدون في تلك الساعة.

ألم تعلموا الحديث الصحيح المتواتر تواتراً معنوياً عن حنين الجذع إلى رسول الله؟

كان المصطفى صلى الله عليه وسلم يخطب في أول أمره مستنداً إلى جذع في قبالة المسجد وعند جدار قبلته، ثم إن امرأة جاءت تقول: يا رسول الله إن لي غلاماً نجاراً أفتأذن لي أن آمره بصنع منبر لك؟ فقال: إن شئت. وبعد أيامٍ أو أسابيع دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد في مثل هذا اليوم وإذا بمنبر قد نُصِبَ له في مكان ذلك الجذع وأُبْعِدَ الجذع إلى زاوية قاصيةٍ من المسجد، وقف رسول الله يخطب وإذا بالقوم جميعاً يسمعون أنيناً ينبعث من ذلك الجذع كصوت الناقة العشراء، نزل رسول الله من المنبر واتجه إلى الجذع فاحتضنه واستلمه حتى هدأ ما به، ثم أَمَرَ صلى الله عليه وسلم أن يُدْفَنَ ذلك الجذع تحت منبره.

الإنسان أقسى قلباً من الجمادات يا عباد الله، الإنسان أقسى قلباً من هذا الجذع الذي حنَّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

تلك هي مشكلة الإنسان، تلك هي مشكلتنا في أننا نعيش نتقلب في يمٍّ متلاطم من نِعَمِ الله وتكريمه ثم إنا نظل معرضين عن ذكر الله عز وجل، معرضين عن تنفيذ وصاياه، لو نفَّذْنَاها لما دنت إلينا فتنة من الفتن، لو نفَّذْنَاها لما تسرب إلينا سوءٌ من أي أنواع السوء التي نسمعها قد تنبع هنا أو هنا أو هناك.

ما المشكلة في حياة هذا الإنسان؟

المشكلة أن الإنسان يعيش بين جاذبين يا عباد الله، أولها جاذب الروح الهابطة إليه من الملأ الأعلى، تجذبه إلى الصعود إلى مرضاة الله، تجذبه بالحنين إلى الاستجابة لأمر الله سبحانه وتعالى.

أما الجاذب الثاني فيتمثل في الشهوات، في الأهواء، في الشيطان الذي أخبر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق أنه ﴿يجري من ابن آدم مجرى الدم﴾.

الإنسان يعيش بين هذين الجاذبين، فمنهم من استجاب لجاذب الروح، صعد إلى الأعلى وجاهد في سبيل أن يصعد إلى الأعلى وأن يتحرر من المحرمات، من شهواته وأهوائه، ومنهم من رَكَنَ إلى الدون فاستجاب لداعي الشهوات والأهواء ولكن الله يقول: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

اللهم اجعلنا بمنك وجودك من هؤلاء الذين توجهوا إلى الأعلى واستجابوا لنداء الروح التي تظل تبث حنينها إلى العالم العلوي، التي تظل تبث حنينها إلى الله، تبث حنينها وشوقها إلى يوم اللقاء، اللهم اجعلنا منهم، اللهم وفِّقْنَا ألا نستجيب للمحرم من شهواتنا وأهوائنا يا ذا الجلال والإكرام، أبعدْنَا على الفتن كلها ما ظهر منها وما بطن وتجلى علينا جميعاً برحمتك وفضلك وإحسانك، إنك وليُّ التوفيق، ولي كل توفيق.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم فاستغفروه يغفر لكم.



٧٨- ﴿وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ | ٢٠١٢/٠٧/٠٦

آيةٌ في كتاب الله سبحانه وتعالى تدخل وخزاتٍ أليمةً من العتاب الرباني إلى قلب الإنسان لو كان هذا الإنسان يتمتع من الدينونة لله عز وجل بمثل ما تتمتع به الحيتان في البحار والحيوانات في الأدغال والنباتات في الحدائق والمروج، هذه الآية هي آية سجدة يسن السجود عن تلاوتها ولكننا سنقرؤها ونترخص ألا نسجد في هذا المقام عند تلاوتها، يقول الله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج: ١٨].

أرأيتم إلى هذا البيان الإلهي العجيب، قرار يدلي به الله عز وجل، وصدق الله فيما قرر، أن كل المكونات التي أقامها الله عز وجل مسخرة خادمة لسيدها وهو الإنسان، ماضية في السجود لربها، ماضية في التسبيح لمولاها، ماضية في الخضوع لأوامرها، أما الإنسان ففيهم المستجيب وفيهم المعرض، فيهم من أصغى إلى بيان الله وعاهد الله أن يلتزم بأمره وفيهم من أعرض، أليس هذا عجيباً يا عباد الله؟! ألا يدخل هذا الكلام الذي سمعتموه وخزات أليمة فعلاً من العتب الرباني سبحانه وتعالى إلى فؤاد الإنسان لكن لو كان الإنسان فعلاً يتمتع بمثل ما تتمتع به الحيوانات والمكوَّنات الأخرى من الدينونة لله عز وجل. يا ابن آدم أقامك الله سيداً بين مكوَّناته، كرَّمَك الله عز وجل، أورثك ما لم يورِثْه أياً من المكوَّنات الأخرى، العقل الهادي والقلب النابض بالعواطف وكان المفروض أن تكون في مقدمة المنقادين لأمر الله، وكان المفروض أن تكون في مقدمة المستجيبين لقرار الله سبحانه وتعالى، فلماذا يكون الأمر على هذا النحو؟ قبل أن أجيبكم عن هذا السؤال أيها الإخوة لابد أن أجيب عن سؤال قد يخطر في بال المرتابين في قدرة الله عز وجل وسلطانه ونظام ملكه وملكوته، يقول: النباتات تسجد لله؟ الجمادات تسبح بحمد الله؟ الحيوانات تسبح بحمد الله؟ كيف يتأتى ذلك؟ ولقد أجاب الله عز وجل عن هذا التساؤل المعترض إجابة ملخصة سريعة لكنها علمية وقوية إذ قال: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]

مشكلتكم الجهل، لا تفقهون السبل الخاصة بالمكونات الأخرى والتي بها يسبح كل منها ربه وبها يسجد لمولاه ويعكف على تنفيذ أوامره، وما كان الجهل يوماً ما حجة يعتمد عليها مجادل، كثيرون هم الذين يجعلون من جهالتهم حجة لدحض ما يسمعون وما يقال لهم، هذا هو الجواب باختصار، ولكني أشرح في هذا الموقف بالقدر الذي يسمح به المقام هذا الذي يقوله بيان الله سبحانه وتعالى.

إن كانت أداة السجود لله في حياة الإنسان العقل الواعي والإدراك الذي متعه به والروح السارية في كيانه فإن الله عز وجل قد أورث المكوَّنات الأخرى وسائل أخرى بها تسبح الله وبها تسجد لذاته وبها تخضع لسلطانه. أذكر أني أنبأتكم منذ حين بأن على مقربة من غرفة نومي في المكان الذي أسكن فيه شجرة عظيمة، ما من صباح إلا وتجتمع في هذه الشجرة الطيور والعصافير المتنوعة وتبدأ بترنيمة جماعية وأوراد لا تفتأ تقوم بوردها في ذلك إلى أن تطلع الشمس، فإذا طلعت الشمس تفرقت هذه الطيور كلٌّ إلى شأنها، ذكرت ذلك لكم، ولعلكم تعلمون أن المصطفى صلى الله عليه وسلم كان يخطب يوم الجمعة مستنداً إلى جذع في مسجده ثم أقيم له المنبر فأقصي ذلك الجذع إلى مكان بعيد في إحدى زوايا المسجد، ولما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب أول جمعة على المنبر الذي نصب له سمع كل من في المسجد أزيزاً ينبعث من ذلك الجذع وصفه الصحابة بأنه يشبه الناقة العشراء، الصوت الذي ينبعث من الناقة العشراء التي على وشك الولادة مما اضطر المصطفى صلى الله عليه وسلم أن ينزل ويقطع خطبته فيستلم ذلك الجذع ويعتنقه إلى أن صمت، نعم. ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:٤٤].

تأملوا في الذرة بل في جزيئات الذرة التي لا تراها إلا بالمجهر المكبر المكبر ماذا تجد؟ تجد نظاماً قائماً لا يتخلف لا تشوبه شائبة، نترونات وإلكترونات تدور وتتحرك ضمن نظام لا يتخلف قط وفي ضمن ذلك ما يسمى الوسيط الساكن منذ أن خلق الله عز وجل المكوَّنات وهذه الوظيفة قائمة بها، أليس هذا تسبيحاً؟ أليس هذا تنفيذاً لقرار الله عز وجل وأمره؟ والشمس والقمر ودوران الأرض والجبال والأشجار انظر، كل ذلك عاكف على تسبيح الله عز وجل ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور: ٤١].

فلا يرتابنَّ أيٌّ منكم أيها الإخوة في هذا الذي يقوله الله سبحانه وتعالى، ولكن تعالوا إلى الجواب عن السؤال الآخر، فما بال الإنسان وهو المكرم على عين الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]

ما بال الإنسان وهو الذي يتمتع من دون سائر الحيوانات بعقل وإدراك، ما بال الإنسان وهو الكائن الذي سخر الله له كل ما حوله من أجرام علوية وسفلية، أجرام السموات والأرض، ما باله أعرض عن الله عز وجل حتى رأيناه يقول عن الإنسان: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ [الحج: ١٨].

إنه الاستكبار يا عباد الله وليس الجهل، لما متع اللهُ الإنسانَ بالعقل وهو ينبوع العلم ومتعه الله عز وجل بالشعور بالذات الأنا وهو ينبوع الاستكبار وكل ذلك تعبير عن الأمانة التي استودعها الله عز وجل لديه، وهو السبب في أن الملائكة قالوا لله: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء﴾ [البقرة: ٣٠].

لما كان الإنسان يتمتع بهذه النعمة كان من آفاتها إعراض الكثيرين منهم عن الله عز وجل. العلم يطغي إلا إن أخضعه صاحبه لمعرفة الله عز وجل، والأنانية تطغي، تقود صاحبها إلى الاستكبار إلا إن كان كثير الذكر لله، كثير الوقوف أمام مرآة الذات، هذا هو السبب يا عباد الله. ومن هنا فليس هنالك من يحيق به غضب الله عز وجل من ذلك الذي نسي كينونته عبداً مملوكاً لله عز وجل وأسكرته النعمة التي أضفاها الله عز وجل عليه، أسكره العلم، أسكرته القدرة، أسكرته هذه المزايا، وإذا بأحدهم يقول: إنه حتى الله لا يستطيع أن ينال مني منالاً أو أن يفعل نقيض ما قد قررته، ألا تسمعون من يهذي بمثل هذا الكلام؟ ومن ثم فإنك تسمع من يقول: إن سبب تخلف المسلمين أنهم أحالوا أمر القضاء والقدر إلى الله ولو أنهم علموا أنهم هم الذين يقودون أقدارهم وهم الذين يقودون القضاء كما يحبون لانعتقوا من هذا التخلف.

نعم يا عباد الله، أذكر أحدهم وكان ذا مرتبة عالية كتب كلاماً من هذا القبيل في جريدة سيارة، أن الإنسان عندما يعلم أنه هو سيد قدره عندئذٍ يتخلص من التخلف، فماذا كانت عاقبته؟ كان هذا ممن أحبهم الله، بينما هو يمارس عمله الوظيفي وكان كامل الصحة والعافية، وكان وجهه يتضرج عافية وقوة وحمرة دليل القوة والصحة إذا به يقع أرضاً أمام الناس جميعاً وقد زايله الشعور، أُخِذَ إلى المشفى وبقي فيه

عدة أسابيع، رأيته بعد ذلك ذاوي الوجه، نحيل الجسم وقد عاد إلى نصف الوزن الذي كان يتمتع به، ثم إنه غاب عني ورأيته بعد حين وقد تماثل للشفاء، سألته: كيف حالك؟ هنا تأملوا في الجواب يا عباد الله، قال: قد مَنَّ الله عز وجل عليَّ فجبر الخاطر مني وأكرمني بالتوبة وذهبت معتمراً إلى بيت الله الحرام وتبرأت من الأوهام التي طافت برأسي، نظرت وتأملت في الصفحة الأولى من حياته وشأنه وفي الصفحة الثانية التي آل إليها أمره عبداً عائداً إلى الله سبحانه وتعالى.

عباد الله: الإنسان الذي يقول: أنا أملك قضاء نفسي يسخر منه العقل الذي برأسه، والإنسان الذي يقول: إنه حتى الله لا يستطيع أن ينال مني منالاً أو أن يفعل نقيض ما أريد تكذبه كل خلية في كيانه وجسمه، أقول له من على هذا المكان: تعال فصد عنك المشيب وعقابيله، إنه قضاء من قضاء الله، تعال فصد عن ذاتك الخرف إذ يغزو رأسك ودماغك، تعال فصد عن كيانك إذ امتد بك العمر النسيان بعد الذكرى والجهل بعد العلم، من أنت؟ أنت ذرة في عالم الله سبحانه وتعالى، أنت هباءة في ملكوت الله سبحانه وتعالى، واسمعوا قصة من تألَّه وجعل من نفسه إلهاً من دون الله، إنه نمرود الذي نطقت محكمته بإحراق سيدنا إبراهيم على نبينا وعليه الصلاة والسلام، كان يستعرض في يوم من الأيام قوته بل قواه وعساكره وجنده، ولما رأى القوة أعجبته بل أذهلته طافت برأسه سكرة الاستكبار ونطق بما نطق به من الهذيان متألهاً ثم إنه عاد إلى قصره وامتد في وقت الرقاد على فراشه وما هي إلى بعوضه اتجهت إليه ولم تخطئ أنفه، ثم إنها صعدت إلى خياشيمه ثم استقرت في دماغه وناله من ذلك مرض، لم يكن يخفف عنه مرضه إلا أن يضرب رأسه بكل ما تناله يده، وكان أعز الناس إليه هو ذاك الذي يمسك بيده أي شيء فيضرب رأسه ذات اليمين وذات الشمال وهكذا ظل هذا المتأله حتى قضى نحبه، كيف قضى نحبه؟ ببعوضة، وصدق الله القائل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣].

هذه الحقيقة أيها الإخوة ينبغي أن نتمثلها وينبغي أن نتبينها، نحن عبيدٌ مملوكون لله عز وجل وعزتنا إنما تكمن في معرفة ذلك عبوديتنا لله عز وجل، ما ينبغي أن تكون الحيوانات والنباتات الجمادات المسخرة للإنسان أقرب إلى مرضاة الله سبحانه وتعالى من الإنسان ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ [النور: ٤١]. ليت أن الإنسان استأهل هذا القرار الذي شهد الله عز وجل به للمكوَّنات التي من حولنا.


الأدب مع الصحابة

٧٩- الله الله في أصحابي | ١٩٩٢/١٢/١٨

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنبأنا عن علامات تدل على قرب قيام الساعة، وقد قسم علماء الشريعة والعقيدة هذه العلامات إلى قسمين اثنين: علاماتٍ صغرى وعلامات كبرى.

والمراد بالصغرى: تلك العلامات التي أنبأ عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يصل الخبر عنها إلى درجة التواتر القطعي واليقيني. من هذه العلامات الصغرى التي أنبأ عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم: كثرةُ الفتن.

وكلمة الفتنة تعني كل ما يسبب اضطراباً أو فوضى في صفوف الأمة، أياً كان مظهر هذا الاضطراب، وأياً كان شكله وأياً كانت حدوده. كل ما يخالف النظام والألفة والتلاقي على الود وهو نوعٌ من الفتن. فمن أشراط الساعة أن تكثر الفتن؛ أي أن تكثر الاضطرابات وأن يكثر الفوضى في الرأي وأن يكثر الاختلاف بين الناس حتى يحملهم هذا الاختلاف إلى التهارج والخصام، بل يحملهم على ما وراء ذلك ربما، ولقد صح عن الرسول صلى الله عليه وسلم فيما رواه عنه عليٌّ رضي الله عنه أنه قال: ﴿ستكون فتنٌ من بعدي" قالوا: وما العاصم منها يا رسول الله؟ قال: "كتابُ الله فيه حكم ما بينكم ونبأ من قبلكم من اعتصم به هداه الله ومن تركه من جبارٍ قصمه الله تعالى﴾. والحديثُ طويل.

وهذا الحديث يدل على أمرين اثنين: يدل أولاً - كما قلت لكم - على أن من علامات قرب الساعة كثرة الفتن، ثم إنه يدل على أن خير معتصمٍ من هذه الفتن وخير ملجأٍ يفر إليه الإنسان منها الرجوع إلى كتاب الله عز وجل بالتدبر فيه ثم بالاهتداء بهديه، والتمسك بأوامره والانتهاء عن نواهيه، فمن فعل ذلك فإنه سيظل معصوماً عن رياح هذه الفتن مهما كانت هوجاء ومهما كانت مؤثرةً وخطيرة، ومن ند أو ابتعد عن كتاب الله عز وجل أطاحت به رياح هذه الفتن. ألم يقل عندما سُئِل ما العاصم منها قال: ﴿كتاب الله﴾.

ونحن اليوم نرى مصداق ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما حدثنا عن الفتن، كما نرى مصداق ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ نجد كتاب الله سبحانه وتعالى هو الملاذ والمعتصم من هذه الفتن الهوجاء التي تطل علينا إطلالة خطرٍ لا يعلم مداه أحدٍ إلا الله.

وهذه الفتن كثيرة، ولكني أحب أن أحدثكم اليوم عن واحدةٍ من هذه الفتن، أحب أن أحدثكم عن الألسن التي تمتد متطاولةً بقالة السوء إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو عن الأقلام المسمومة التي تكتب في الظلام كلاماً يسيء بحقِ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وربما كتب ذلك أو قيل ذلك باسم الإسلام وباسم الغيرة على دين الله سبحانه وتعالى، وهذه فتنةٌ من أخطر الفتن التي حذر منها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنبأ عنها؛ أن نجد المسلمين وقد راحوا إلى تلك الفئة التي كانت حول رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ذلك الرعيل الأول الذي حذر المصطفى صلى الله عليه وسلم من أن يمتد أحدٌ بأي أذىً بلسان أو بقلمٍ إليهم عندما قال: ﴿الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضاً من بعدي﴾ والحديث صحيح. ولكنا نجد اليوم من يسيء القول إليهم، بل ربما من يشتمهم ويسخر منهم ويتهجم عليهم باللسان أو بالقلم باسم الإسلام وباسم الغيرة على دين الله سبحانه وتعالى. وانظروا كم يجر هذا الموقف من فتن، وانظروا كم يجر هذا الموقف المسلمين إلى رزايا. وما العاصم من هذه الفتنة؟ العاصم منها كما قال رسول الله ﴿كتاب الله﴾ عز وجل.

عندما يقرأ شابٌ من المسلمين كتاباً فيه قالة السوء بأشكالٍ شتى في حق أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، أو في حق أبو بكر أو عمر أو عثمان أو في حق أيٍ من الصحابة، وعندما يقرأ هذا الكلام ويجد أن مبرراته هي الدين والغيرة على الدين بحسب ما يتبدى من لسان الكاتب ودوافعه. ماذا يفعل هذا الشاب عندما يقرأ هذا الكلام؟ وكيف يدرك أنه يقرأ كلاماً باطلاً ينبغي أن يترفع عنه؟ أو أنه يقرأ كلاماً صحيحاً كما يقول كاتبه يندفع إليه باسم الغيرة على الإسلام، إنها لحيرة وإنها لفتنة وأي فتنة، ولكن ما العاصم منها؟ العاصم منها كما قال سيدنا رسول الله الرجوع إلى كتاب الله عز وجل.

ارجع إلى كتاب الله وتدبر فلسوف تذكر أنك قرأت فيه قول الله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾

أرأيت إلى العاصم تقرأ فيه كلام الله سبحانه وتعالى في صفة المؤمنين أنهم أذلةٌ على المؤمنين أعِزّة على الكافرين تقرأ فيه قول الله سبحانه وتعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾

وتقرأ من مؤيدات ذلك في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ما اتفق عليه الشيخان من قوله صلى الله عليه وسلم ﴿المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده﴾.

فإذا وقفت على هذا البيان الناصع في كتاب الله وتدبرته رأيت فيه معتصمك، وعلمت أن هؤلاء الذين تمتد ألسنتهم كالثعابين لبث قالة السوء في حق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ليسوا من كتاب الله في شيء وليسوا من الإيمان بالله عز وجل في شيء، وتجد أن هذا الكتاب الرباني الذي جعله معتصمك ضد الفتن كلها، تجد أنه خير حصنٍ يؤويك وخير ملجئ يبعدك عن هذه الفتن كلها، وهكذا تنجو بدينك وإيمانك من كل هذه العواصف إلى أن ترحل عن هذه الدنيا إلى الله سبحانه وتعالى.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ الذين يؤذون المؤمنين، لم يقيد المؤمنين بأن يكونوا صالحين، لم يقيد المؤمنين بأن يكونوا علماء أولياء، ولم يقيد المؤمنين بأن يكونوا صحابة كرام، بل أعلن أن كل من يؤذي بلسانه أو بأي وسيلةٍ من الوسائل مؤمناً من المؤمنين كيف ما كان، فليعلم أنه احتمل في جنب الله بهتاناً وإثماً مبيناً. فكيف عندما يكون هذا الإنسان الذي تمتد إليه الألسن بالأذية من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ وكيف عندما يكون واحدة من أمهات المؤمنين زوجات رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ هل يمكن وأنت تعود إلى كتاب الله وتجعله الحكم عند كل مشكلةٍ وعند كل فتنة، هل يمكن أن تتصور أن هذا الذي يفعله هذا عنده آثارة من دين؟ معاذ الله.

عندما يصف الله سبحانه وتعالى التابعين لسيدنا محمد بأول صفة إذ يقول: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ رحماء فيما بين المؤمنين؛ ثم تنظر فتجد من يلغو بالظلم والإثم والكلام الذي يخجل منه الإنسان. أياً كانت نحلته؟ وأياً كان مذهبه؟ هل يمكن أن تتصور أن هذا واحدٌ ممن يسير مع

رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذا الوصف الذي وصف الله به أتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولقد قلت بالأمس وأقولها اليوم: لو جاز في مقياس الدين وميزان الإسلام أن ألتقط أخطاء المؤمنين من حولي لأجعلها مبرراً للهجوم عليهم ولمد اللسان أو القلم بالإيذاء في حقهم إذاً، إلى أي شيء سيحول حال المسلمين سيؤول حال المسلمين لا شك أن حال المسلمين سيؤول إلى أن ينطلق كل إنسان ليتقرب إلى الله بحرب أخيه الإنسان ذلك لأن كل بني آدم خطاء، إذا كانت قربتي إلى الله عز وجل أن أبحث عن أي خطيئة أو حتى عن معصية يرتكبها إنسان من الناس لأجعل منها مبرراً للهجوم الصاعق عليه ولمد اللسان أو القلم بالإيذاء في حقه، إذاً ينبغي أن أقضي حياتي كلها في الهجوم على إخواني المؤمنين، وأن يقضي كلٌ منهم حياته في الهجوم عليّ أيضاً، وهكذا فإن هذه الأمة تصبح أمة قد تحولت إلى رحىً يطحن بعضها بعضاً في أتونٍ من الحرب الدامية التي لا تنتهي، ويكون ذلك قربةً إلى الله عز وجل.

إذاً أين بقي معنى قول الله عز وجل: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾؟

وما معنى قول سيدنا رسول الله ﴿الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضاً من بعدي﴾؟

إن هذا لا يعني أن أصحاب رسول الله قد أصبحوا بهذا معصومين أبداً وكل الناس ما عدا الرسل والأنبياء معرضون للأخطاء معرضون للمعاصي، ولكن الله عز وجل على الرغم من ذلك أدبنا بأن لا نمد ألسنتنا بقالة السوء بحق أي من إخواننا. ﴿المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده﴾ لم يقل المسلمون من سلم المسلمون المعصومون من لسانه ويده إذاً ما هي الدوافع التي تحمل إنساناً على أن يكتب فينشر وينشر الهجوم على أصحاب رسول الله، بل على عيون أصحاب رسول الله على أمهات المؤمنين بل على عيون أمهات المؤمنين. ما هي الدوافع أهي فعلاً غيرة على دين الله؟ لا والله إنما هي غيرة على الهوى، إنما هي غيرة على العصبية، إنما هي غيرة على الشهوة، إنما هي غيرة على الكبرياء وحب الذات والانتصار للأنا، الأنا الجماعية المهلكة الحالقة كما قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿لا أقول حالقة الشعر بل حالقة الدين﴾ هذا هو الدافع.

وإننا لنقول دائماً أما الاختلاف في الرأي، وأما الاجتهاد في ساحة الإسلام الواحد فما أيسر أن يتسع الإسلام لهذه الاجتهادات المتعددة، ولكن على أن تنطلق هذه الاجتهادات من دافع الإخلاص لوجه الله، من دافع الغيرة فعلاً على دين الله عز وجل، عندئذٍ لابد لهذه الآراء الاجتهادية مهما تكاثرت أن تتجمع أخيراً ثم تتجمع ثم تلتقي على نقطة واحدة، هي نقطة الهدف الأقدس، هي نقطة الغاية القدسية، وهكذا يكون بدء هذه الاجتماعات، هذه الآراء المختلفة كقاعدة الهرم التي تنطلق منها ربما خطوط كثيرة، ولكنك لا تنظر إلى قمة الهرم إلا وقد اتحدت هذه الخطوط كلها، لكن عندما نجد أن هذه الآراء الاجتهادية تسير متباعدةً ولا تلتقي لا في منطلق ولا في نهاية، وعندما نعرضها على كتاب الله فنجد أن كتاب الله بصريح بيانه يتبرأ من هذه الاجتهادات، نعلم عندئذٍ أن هذه الآراء ليست نابعة من ساحة الدين، وإنما هي نابعة من حظوظ النفس.

أجل أيها الأخوة إنها من الفتن التي حذر منها رسول الله، وأنبأ أن ظهورها بعض من علامات قرب قيام الساعة، والأهم من هذا أن نعلم المعتصَم الذي ذكره رسول الله عندما سُئل فما العاصم منها؟ قال: ﴿العاصم كتاب الله﴾. فإذا رأيتم من يهذي هجوماً على أيٍ من أصحاب رسول الله فاعتصموا بكتاب الله وتدبروه تجدون ميزان كتاب الله اتجاه هذا الشذوذ، تجاه هذا العمل الذي قد يتقنع في كثيرٍ من الأحيان باسم الإسلام.

وليت شعري لو أن الصحابة فعلاً كانوا أهلاً لهذا الهجوم، وأهلاً لهذه النقيصة إذاً بجهد مَن مِن الجنود انتصرت هذه الأمة، وقامت هذه الفتوحات، وارتفع رأس الأمة بتاريخ المسلمين عالياً من أين جاء هؤلاء الجنود؟ أهبطوا من سماء الله ملائكة؟ أم خرجوا من طبقات الأرض جناً؟ إذا لم يكن أصحاب رسول الله هم أصحاب الفضل الذي يطوق أجيال المسلمين من بعدهم إلى أن تقوم الساعة، إن لم يكن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم هم الذين أسدوا إلى الأمة هذا الفضل، ترى أنتحدث عن حلم عندما نتكلم عن هذا الفتح الإسلامي العظيم؟ أنتحدث عن حلم عندما نتكلم عن مقادة الحضارة يوم سلمها الله سبحانه وتعالى للمسلمين من هي الأيدي التي تسلمت مقادة الحضارة؟ من هي الأيدي إن لم تكن أيدي أصحاب رسول الله؟ إن لم تكن أيدي أبا بكر وعمر وعثمان وعلي ومن معهم من بقية الصحابة الكرام رضوان الله تعالى عليهم.

اللهم إنا نشهدك أننا ماثلون أمام وصية رسولك المصطفى صلى الله عليه وسلم: ﴿الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضاً من بعدي فإنه لو أنفق أحدكم مثل أُحدٍ ذهباً لما بلغ مُدَ أحدهم ولا نصيفه﴾.



٨٠- صلاح الأمة باتباع القدوة الراشدة | ١٩٩٧/٠٥/٢٣

من الثابت يقيناً ومن المجمع عليه عبر القرون التي توالت من عصور الإسلام والمسلمين أن هذه الأمة لا تصلح إلا بما صلح به أولها، وأول هذه الأمة لا يمكن أن يظهر أو أن يتجسد إلا بما كان عليه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله وأصحابه البررة الكرام.

فأول هذه الأمة الذي هو المقياس إنما يتجلى بالواقع الذي كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله وأصحابه، ومن ثم فلا بد من أن يفهم المسلم معنى القدوة الراشدة في ذهنه لكي يتخذ من هذه القدوة الراشدة مقياساً لسيره على صراط الله سبحانه وتعالى، لابد من أن يتخذ من حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله وأصحابه مقياساً، فإن أعرضنا عن هذا المقياس وأوليناه ظهورنا تفتت أمر المسلمين واضمحل ولم تبق لهم جامعة؛ ذلك لأن كل فرد فرد من هؤلاء المسلمين بوسعه أن يفسر الإسلام ويفهمه كما يروق له، ذلك لأن القالب الذي وجهنا إليه ربنا في محكم كتابه إذا غاب أو ضاع أو أُهمل لم يبق هنالك قالبٌ يُصبُ فيه واقع السلوك الإسلامي على النحو الذي يُرضي الله سبحانه وتعالى أبداً.

ومن أجل هذا تجدون أن كتاب الله عز وجل يُثني أولاً على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ويأمرنا باتباعه والاقتداء به ويقول: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾.

ثم إن كتاب الله عز وجل هذا يلفت أنظارنا إلى أصحاب رسول الله رضوان الله عليهم، فيثني عليهم ويأمرنا باتباعهم ويُخبرنا بصريح البيان أنهم النخبة الممتازة من عباد الله سبحانه وتعالى.

انظروا إلى كلام الله عز وجل وهو يُثني على المهاجرين أولاً، ثم على الأنصار ثانياً، ثم على من جاء على غرارهم متبعاً نهجهم ثالثاً، يقول أولاً عن المهاجرين: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ ويمضي في الثناء عليهم ومدحهم.

ثم ينتقل إلى الحديث عن الأنصار فيقول: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾.

ثم يمضي فيثني على المسلمين الذين جاؤوا من بعدهم فيقول: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾.

ثم إن بيان الله يتابع بعد هذا التفصيل الثناء على رسول الله وأصحابه إجمالاً فيقول ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ إلى آخر الآية التي تعرفون.

ما معنى هذا أيها الإخوة؟

معنى هذا أن الله عز وجل وضع لنا منهاج دينه ونظام شريعته وأمرنا بالسير على صراطه، ثم جعل من واقع حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه المثل الذي يُحتذى، وما ثناء الله على رسوله وعلى المهاجرين والأنصار من أصحابه إلا دعوة لنا أن نجعل من واقعهم المثل الذي يُحتذى في حياتنا.

أما رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي كلفه الله سبحانه وتعالى ببيان ما أجمله كتاب الله فقال: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ فلقد كان دأبه عليه الصلاة والسلام أن يلفت أنظار أمته إلى أصحابه، وأن يستأمنهم على اتباعهم ومحبتهم والثناء عليهم، انظروا إلى قوله عليه الصلاة والسلام فيما يرويه البخاري ومسلم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه «لا تسبوا أصحابي لا تسبوا أصحابي فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه».

فمن لم يشأ أن يقيم وزناً لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحيح من الرواية التي تنقل كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنه لا يستطيع أن يُكذب كلام الله سبحانه وتعالى.

ها هي ذي خواتيم سورة الحشر تُثني على رسول الله وعلى المهاجرين خاصة من أصحابه وعلى الأنصار بعد ذلك من أصحابه، ثم تثني على الذين جاؤوا فساروا وراءهم ونهجوا نهجهم وكان دأبهم أن يسألوا الله أن يُطهر قلوبهم من الغل والأحقاد اتجاه إخوانهم المسلمين السابقين.

ثم انظروا إلى خواتيم سورة الفتح كيف يثني الله عز وجل عموماً بعبارة عامة على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى أصحابه: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ هذا الكلام كله ثناءٌ على من؟ على جملة أصحاب رسول الله صلى الله عليه

وسلم، وعندما نقول أصحاب رسول الله فإن آل رسول الله يدخلون من بابٍ أولى، لأن لهم الصحبة ولهم إلى جانب ذلك فضل القرابة من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فهل يُعقل أيها الإخوة أن يأتي مسلمٌ صادقٌ في إيمانه بالله، وإيمانه بكتاب الله عز وجل، وإيمانه برسول الله صلى الله عليه وسلم أن يطيل لسانه بقالة السوء في حق أصحاب رسول الله؟! هل يمكن هذا؟ لا يمكن.. إلا أن يكون مجنوناً والله سبحانه وتعالى لا يحاسب من قد أفقده نعمة العقل أو أن يكون عاقلاً ولكنه يُضمر حقداً على رسول الله وعلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، لا يمكن إلا أن يكون الأمر هكذا أو هكذا.

ومن شاء أن لا يُقيم وزناً للأسانيد الصحيحة التي أجمع العالم كله على دقتها، وعجيب منهج البعد والترفع عن الضعيف وعن الباطل وعن الموضوع منها لا سيما ما قد عرفناه من الدقة في رواية الإمامين الجليلين البخاري ومسلم، من أراد أن يشكك في الحديث جملةً وتفصيلاً فهل بوسعه أن يُشكك في كلام الله؟! وهل بوسعه أن يُشكك أيضاً في الأسانيد التي من خلالها وصلنا كلام الله في سورة الفتح، ووصلنا كلام الله سبحانه وتعالى عن الأنصار والمهاجرين في سورة الحشر؟ لا يمكن هذا بشكلٍ من الأشكال.

رأيت من يبرر كيده لأصحاب رسول الله، وحقده على من كانوا سنداً لرسول الله صلى الله عليه وسلم، بل أولئك الذين وصفهم رسول الله بأنهم كرشه وعيبته؛ أي أنهم الحصن الذين يقونه من السوء، قالها عن الأنصار صلى الله عليه وعلى آله وسلم. رأيت من يغطي حقده الدفين عندما ينتقص من أصحاب رسول الله ويسيء إليهم، بل ينظر يميناً وشمالاً فإذا وجد المكان ملائماً أوسعهم سباباً وشتماً.

رأيت من يعتذر بأن في أصحاب رسول الله منافقين وهل كل أصحاب رسول الله أصحاب حقيقةً؟

ربما قال لكم قائل منهم كلاماً من هذا القبيل أيها الإخوة فقولوا له:

هل أعلن رسول الله صلى الله عليه وسلم قائمةً بأصحابه المنافقين حتى يكون لك الحق في أن تفرز هؤلاء عن أولئك، فتوسع المنافقين الذين رأيت قائمتهم التي وقّع عليها رسول الله شتماً؟ هل رأيت هذا؟

ألا تعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعلم خبر المنافقين الذين كانوا في المدينة، ولكنه لم يفضحهم ولم يتحدث عنهم، وكان بيت سره في ذلك سيدنا حُذيفة رضي الله عنه، ولم يعلن حذيفة شيئاً من هذا إطلاقاً بشكل من الأشكال، ما معنى ذلك؟

معنى هذا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلب من أمته التأدب مع أصحابه جميعاً، لم يعطن الله الحق في أن ألتقط أسماءً أعتقد أنا أنهم منافقون، ومن يطيب لحقدي أن يسمهم بسمة النفاق، لم يعطن الله الحق في هذا أبداً، ربنا سبحانه وتعالى لم يعطن الحق في أن أصف المنافقين الذين يمارسون النفاق في هذا العصر، لم يعطن الحق في أن أسمهم في سمة النفاق وأن أرفع سمة الإسلام عنهم وهم يدعون الإسلام، بل أمرني أن أعاملهم على أنهم مسلمون، وأن أكل سرائرهم إلى محكمة الله سبحانه وتعالى. فكيف بأصحاب رسول الله؟

كيف يمكن لمسلم أن يغمض عينيه وأن يقيم لنفسه محكمةً في حق أصحاب رسول الله، ويقول ها أنا ذا أعلم من هم المنافقون، أبو بكر منافق وعثمان منافق وفلان منافق وفلان منافق وفلان منافق، ألا أخبرني عن مستند تعود إليه في هذا حتى أتبعك، في أي آية من كتاب الله عز وجل رأيت أسماء هؤلاء في قائمة المنافقين؟ أم في أي حديث ثابت من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيت أن هؤلاء موصوفون بالنفاق؟ أرنا لنتبع، أما أن تنطلق إلى قرارك هذا من حقدٍ دفين. فأشهد أن هذا ما يبرأ منه كتاب الله عز وجل القائل: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾

نحن نحمد الله أن جعلنا من هذا الفريق الذي طهر قلوبهم من الأحقاد إلى هذه اللحظة، ويدعون الله عز وجل أن تبقى قلوبهم طاهرة من الأحقاد إلى أن يرتحلوا من هذه الحياة الدنيا.

هذه حقيقة لا تغيب عن بال مسلم – أيها الإخوة – بشكلٍ من الأشكال قط، فلا يجوز أن نوسع أصحاب رسول الله شتماً لأن فيهم قلة من المنافقين.

ثم إن العجب العجاب الذي لا يمكن لعقل أن يستوعبه بشكل من الأشكال، أن نتصور أن الخير محصورٌ في عدد يسير ويسير جداً ممن كانوا حول رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم آله البررة الكرام

الذين كل واحد منهم سواد لأعيننا، وعدد يسير جداً جداً بعد ذلك من بقية أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم. إذاً من هم الآلاف المؤلفة الذين انطلقوا إلى شرق العالم وغربه فنشروا دين الله سبحانه وتعالى، وأطفأوا ظلام الكفر بإشراقة كتاب الله سبحانه وتعالى وسنة رسول الله؟

من هم هؤلاء الذين انقذفوا إلى مجاهل افريقيا جنوبها وشمالها؟

من هم هؤلاء الذين وصلوا إلى جدران الصين؟

من هم هؤلاء الذين اتجهوا إلى أقصى ما استطاعوا أن يصلوا إليه من العالم الغربي المعمور؟

من هم.. من هم الذي بهم فتح الله سبحانه وتعالى هذه البلاد كلها؟

أفكان كل هؤلاء الآلاف هؤلاء العشرات الذين لا يزيدون عن الخمسين!

أي عقل يستوعب هذا أيها الإخوة؟ كيف هذا!؟

نحن في هذا العصر ننشد أول وأقدس وأعظم أساسات يعيد هذه الأمة إلى تالد مجدها وعظيم سلطانها ألا وهو الوحدة، كلكم يعلم أننا ابتلينا بالتمزق، ومن ثم ابتلينا بالفقر، وابتلينا باستلاب حقوقنا، وابتلينا بتسلط الأعداء كلهم علينا، وكان هذا كله فروعاً عن خسارة أساسية كبرى ألا وهي زوال التضامن الذي أكرمنا الله عز وجل به، زوال الوحدة التي متعنا الله عز وجل بها، ونحن اليوم كلما تلاقينا في أي مناسبة من المناسبات نهيب بأنفسنا أن نعود فنتضامن، أن نقف تحت مظلة لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله، وأن نطهر قلوبنا من الأحقاد، وأن نترك الناس لمحكمة الديان سبحانه وتعالى.

ولكننا نعود فننظر فنجد أن هنالك إخوة لنا يزيدون في بتر أعضاء هذه الأمة بعضها عن بعض، ننظر فنجد من لا يقيمون لقدسية الوحدة أية وزن، يحاولون جاهدين أن يحيلوا إسلام هذه الأمة إلى مذاهب متصارعة يُفني بعضها بعضا.

كيف يمكن أن أتصور أن إنساناً يمعن سيراً في هذا الطريق أنه مخلص لدين الله؟!

كيف يمكن أن أتصور أن إنساناً يمعن في تمزيق جسم الأمة الإسلامية وتحويل دين الله إلى مذاهب متصارعة متآكلة؟

كيف أتصور أنه يخلص لقول الله عز وجل ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾؟

كيف يمكن أن أعتقد أن هذا الإنسان مخلصٌ لهذه الدعوة الربانية، وأنا أنظر وأجد كيف يتسرب سراً في غبش الظلام ليهمس في عقول البسطاء والسذج من الناس بالكلمات والأفكار التي تملئ قلبه حقداً على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ بأي وسيلة من الوسائل. كيف؟!

أيها الإخوة إذ استطعتم أن تخدموا دين الله في هذا العصر بوسيلة من الوسائل تجعلكم مقربين إلى الله تضعكم في مصاف المجاهدين في سبيل الله، فاعلموا أن هذا الطريق هو التعاون لرأب الصدع، ولجمع كلمة هذه الأمة تحت مظلة هذا الدين الإسلامي الحنيف الذي جعل الله ظاهره كباطنه، فلا تقصروا في أن تسعوا سعيكم دائماً أن تردموا كل ما يمكن أن يحفر في سبيل تمزيق آصرة هذه الأمة، وفي سبيل إبعاد المسلمين بعضهم عن بعض.

واعلموا أن أصابع البغي الخارجية تندس، واعلموا أنها تشتغل، واعلموا أنها تخطط، واعلموا أن الهدف في هذا العالم كله يطوف حول شيء واحد ألا وهو التخلص من إسلامكم ولا يمكن التخلص من الإسلام إلا بتسليط فئات المسلمين بعضهم على بعض، فمن كان مخلصاً لله لا يمكن أن يجند لهؤلاء الآثمين إطلاقاً.

نحن نقف عند كلام رسول الله: ﴿لا تسبوا أصحابي لا تسبوا أصحابي فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه﴾ وانظروا إلى كلمة أصحابي، جمعٌ مضافٌ إلى الضمير. قال علماء العربية: الجمع المضاف إلى الضمير لفظٌ من ألفاظ العموم، أي لا تسبوا أياً من أصحابي، محكمة الله سبحانه وتعالى هي التي تنظر إلى سرائرهم هكذا يقول الله، هكذا يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن أراد أن يرتاب في كلام رسول الله فما أعتقد أنه يستطيع أن يرتاب في كلام الله.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.



الأخلاق

٨١- معيار الحساب.. حقوق العباد لا كثرة العبادات | عام ١٩٨٥

إننا إذا نظرنا إلى المسلمينَ اليوم من مقياسِ العبادةِ والطّاعاتِ والإقبالِ إلى المساجد، رأينا صوراً نتفاءلُ منها، وعدنا نتيمّنُ خيراً ونتصوّرُ أنَّ جلَّ المسلمينَ بخيرٍ وإقبالٍ على اللهِ عزَّ وجلّ، فأكثرُ مساجدهم ملأى، وأكثرهم يهرعونَ إلى الصلاةِ في أوقاتها، وما أكثرَ من يشدُّ نفسهُ إلى مجالسِ الذّكر هنا وهناك.

ولكن إذا نظرنا إلى حالِ هؤلاءِ المسلمينَ أنفسهم من مقياسِ التّعامل، ونظافةِ اليد، وصدقِ الأمانة، عدنا بخيبةِ أمل، وتحوّلَ التّفاؤلُ لدينا إلى تشاؤم، وتحوّلتِ الطّمأنينةُ والأمن إلى خوفٍ من سخطِ اللهِ سبحانهُ وتعالى ومقته، فإنّكَ لتفاجأ من هؤلاءِ الذين تمتلئ بهم المساجد ويقبلونَ إلى الصّلوات ويقبلونَ إلى الطّاعاتِ في أوقاتها، تفاجأُ منهم بأمورٍ تشيبُ لها الولدان، وتسمعُ أحداثاً عن الخياناتِ الماليّة، وعن أكلِ حقوقِ المسلمين، وعن التهامِ المالِ من حلاله وحرامه، تسمعُ من ذلك كلّه أخباراً لا يكادُ عقلك يتصوّرُ أنَّ مسلمينَ يفعلونَ هذا، وأنَّ مؤمنينَ باللهِ يقفون بين يديهِ ويضعونَ يمنى على يسرى في تبتّلٍ وخشوع يفعلونَ كلَّ هذا.

هذه صورةٌ دقيقةٌ – فيما أعتقد – لواقعِ جلِّ المسلمينَ اليوم، وغداً إذا قامَ النّاسُ لربِّ العالمين على أيِّ المقياسين يحاسبهم؟ وعلى أيِّ الأساسين ينظرُ إلى أعمالهم؟ هل ينظرُ إليهم من مقياسِ السّجودِ والرّكوع وكثرةِ الإقبالِ إلى المساجد، ويعفو عنهم كلَّ السّيّئاتِ الأخرى الدّاخلةِ في نطاقِ التّعامل؟ أم إنَّ اللهَ سبحانهُ وتعالى يحاسبهم على أساسِ المعاملة، وعلى أساسِ نظافةِ اليدّ؟ وعلى أساسِ الأمانة المحفوظةِ أو المضيّعة؟ ويعفو عن التّقصيرِ في العباداتِ والحقوقِ التي هي حقوقهُ خاصّة وليست عائدةً إلى حقوقِ العباد؟ ترى كيفَ يحاسبُ اللهُ المسلمينَ غداً؟

روى البزار وغيرُه عن عليٍّ رضي اللهُ عنهُ قال: ﴿كنّا جلوساً عندَ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلّم فأقبلَ إلينا رجلٌ من أهلِ العالية، فجلسَ إلى رسولِ اللهِ وقال: يا رسولَ الله أخبرني عن ألينِ شيءٍ في الإسلامِ وأشدّه؟ فقال: "أمّا ألينه فشهادةُ أن لا إله إلا الله وأنَّ محمّداً عبدهُ ورسوله، وأمّا أشدّه فهو الأمانة، يا أخا العالية: إنَّ من لا أمانةَ لهُ لا يقبلُ اللهُ لهُ صلاةً ولا صياماً ولا زكاة، يا أخا العالية: إنَّ من

أصابَ مالاً حراماً فلبسَ منهُ جلباباً – أي قميصاً – فصلّى به فإنَّ اللهَ لا يقبلُ منه صلاتَهُ حتّى ينحّيَ عنهُ جلبابه، إنَّ اللهَ أكرمُ وأجلّ من أن يقبلَ صلاةَ إنسانٍ تجلببَ بجلبابٍ حرام"﴾. هكذا يقولُ رسولُ الله صلى اللهُ عليهِ وسلّم.

إذاً فغداً إذا رحلَ الإنسانُ عن الدّنيا ونفضَ يدهُ عن أموالها وخيراتها ووقفَ بينَ يدي اللهِ عزَّ وجلّ حافياً عارياً كما قالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلّم، لن يحاسبهُ اللهُ الحسابَ العسير على حقوقه الخاصّةِ به، ولكنّهُ يوقفهُ الوقفةَ الطّويلةَ والطّويلةَ جدّاً على الأمانة، على نظافةِ اليد، على الفم الذي أكل من حقوقِ النّاس واستمرأها، ونسيَ أنَّ اللهَ الذي تعبَّدَ عبادهُ بما تعبّدهم به من أوامر إنما ألزمهم بهذه الأوامر من أجلِ أن يحفظوا حقوقَ النّاس، هذه هي الحقيقةُ التي ينبغي أن نعلمها، وانظروا فلقد وقفتُ على آياتٍ كثيرة من تلكَ التي يحدّثنا اللهُ عزَّ وجلّ عن حيثيّاتِ العقاب الذي سينزله اللهُ بالجاحدينَ والمالقينَ يومَ القيامة، فرأيتُ أنَّ هذه الآياتِ كلّها التي تبينُّ حيثيّاتِ مقتِ اللهِ عزَّ وجلّ إنما تركّزُ على التّعاون، إنما تركّزُ على الأمانةِ والخلق، اسمعوا هذه الآياتِ مثلاً: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ، وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ، وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا، وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾، هذه هي الحيثيّات التي يحدّثنا اللهُ عنها بين يديه، ومقدّمةً للحديثِ عن عذابه عندما يقولُ بعدَ ذلك مباشرةً: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا، وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا، وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ، يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ﴾.

لم يركّز البيانُ الإلهيّ على صلاةٍ قصّرَ في آدابها، ولا على قيامِ ليلٍ لم يؤدّهِ كما ينبغي، ولم يركّز على أنَّ هؤلاءِ النّاس لم يكونوا يتربّعونَ في مجالسِ الذّكر، وإنّما ركّزَ على التّعامل، على الأمانة، على أن يفطنَ الإنسانُ نفسهُ من أكلِ المالِ الحرام.

عبادَ الله، ألا تسألونَ أنفسكم: لماذا ألزمنا اللهُ بهذا الاعتقاد؟ لماذا ألزمنا اللهُ بأن نعلمَ أننا عبيدٌ له؟ وبأنّهُ مالكٌ لنا، وإلهٌ لنا؟ لماذا؟ اللهُ لا يحتاج إلى أن نعلم عبوديّتنا له، ولا يحتاجُ إلى أن نطأطئ رأسنا ذلّاً بينَ يديه، فربوبيّتهُ كاملةٌ لا تحتاجُ إلى ممارسةٍ لعبوديّتنا له، ولكنَّ اللهَ عزَّ وجلّ ألزمنا بهذا الاعتقاد حتى نخافَ الله، فإذا خفنا الله خفنا من أن يظلمَ بعضنا بعضاً، وحسبنا للدّيّانِ حساباً، وحسبنا ليومِ القيامةِ حساباً، فلن أتقدّمَ بيدي إلى إنسانٍ إلا على النّهجِ العادل الذي أذن اللهُ عزَّ وجلّ، ولن تمتدَّ يدي إلى

لقمةٍ أضعها في فيَّ إلا بعدَ أن أنظرَ وأحسبها بدقّة: هل جاءت من حلالٍ أم من حرام؟ من أجلِ هذا تعبَّدَنا اللهُ بهذه العقيدة.

ولماذا أمرنا اللهُ بالصّلاة؟ ولماذا أمرنا اللهُ بذكره؟ ولماذا أمرنا اللهُ بالإكثارِ من مراقبته؟ كلُّ ذلك أُمرنا به دعماً لهذا الاعتقاد، صلاتنا تغذّي عقيدتنا وخوفنا من الله، ذكرنا ومراقبتنا لله عزَّ وجلّ كلُّ ذلك يزيدُنا شعوراً بالخوفِ من الله سبحانهُ وتعالى، والعقيدةُ تصبُّ في المعنى الذي ذكرتهُ لكم، ذلك لأنَّ الإنسانَ لا يملكُ غرائز كما تملكها الحيوانات، الحيواناتُ لها غرائز تردّها وتصدّها عن الانحرافِ عن نهجها الذي فطرها اللهُ عليه هكذا بالغريزة، أما أنت يابنَ آدم وقد كرّمكَ الله عن أن تكونَ مثلَ الحيوان، ليسَ في عنقك زمامٌ اسمهُ الغريزة يدفعكَ دفعاً إلى صراطٍ لا انحرافَ فيه، وإنما أورثكَ اللهُ بدلاً من الغريزةِ عقلاً، ثمَّ توّجَ عقلك بهذه الرّسالةِ التي أرسلها إليك، بيَّنَ لك سبيلَ التّعامل مع إخوانك، كيفَ ينبغي أن تتعاملَ معهم، كيفَ ينبغي أن تضعَ مخافةَ اللهِ نصبَ عينيك، كيفَ ينبغي أن لا تمدَّ يدكَ إلى قرشٍ من المالِ إلا من حلّه، وكيفَ أنَّ اللهَ يحذّرك إن أنت أوغلتَ في المالِ الحرام وتقلّبتَ واستغرقت في بحارِ المحرّمات فإنَّ اللهَ لن يقبلَ منك صِرفاً ولا عدلاً، وإنّكَ مهما دعوتَ اللهَ في الدّنيا لن يُستجابَ لدعائك.

ألم تسمع كلامَ المصطفى عليهِ الصّلاةُ والسّلام في الحديثِ الصّحيح، حديثٌ طويل، ذكرَ في آخرهِ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلّم قصّةَ الرّجلِ المسافر أشعثَ أغبر، يطيلُ السّفر، ذي طمرينِ باليين، يقولُ: ﴿يا ربِّ يا ربّ، ومأكله من حرام، وملبسه من حرام، وغذّيَ بحرام، فأنّى يُستجابُ له؟﴾ انظر إلى ما يقولهُ المصطفى: رجل أشعث أغبر، شأنهُ شأن الزّهّاد، يطيلُ السّفر، بعيد عن الأسواق، كأنَّ الرّجل طلّقَ الدّنيا، متعبّد، لكن كل هذا التّعبّد لا قيمةَ له في ميزانِ اللهِ عزَّ وجلّ، لقمةٌ واحدةٌ يأكلها هذا الإنسانُ من حرام يقومُ مقامَ الصّفقِ في الأسواقِ سنةً بكاملها، اشتغل في الأسواق وكن تاجراً أو صانعاً أو زارعاً ولا تكن هذا الزّاهد البعيدَ عن الدّنيا، على أن تأكل من الحلال وأن لا تمدَّ يدكَ إلى مالِ النّاس وأن لا تنكرَ حقوقهم، هكذا يعلمنا المصطفى عليهِ الصلاةُ والسلام.

إنني أسألُ اللهَ سبحانهُ وتعالى ألّا يجعلنا ممّن يخادعونَ الله عزَّ وجلّ، اللهُ لا يُخدع، ومخادعةُ اللهِ جريمة، ربّما تفوقُ جرائمَ الفسوقِ والعصيان، أسألُ اللهَ عزَّ وجلّ أن يجعلَ من أولى ثمراتِ مخافتنا من الله أن نؤدّيَ للنّاسِ حقوقهم، وأن لا تمتدَّ أيدينا إلى ظلمٍ معنويٍّ أو ماديٍّ لأحدٍ من عباده، حتّى وإن قصّرنا في

الطّاعات وإن قصّرنا في النّوافلِ والأذكار، فالأمرُ في ذلكَ سهل، ورحمةُ ربّكَ وسعت كلَّ شيء، ولكنَّ المهمّ أن تكونَ ثمرةُ مخافتنا من اللهِ عزَّ وجلّ أن لا نرحلَ من هذه الدّنيا وإن رقابنا مثقلةٌ بحقوقِ النّاس، أسألُ اللهَ سبحانهُ وتعالى لي ولكم المثوبة والرّجوعَ إلى هديهِ وصراطه، فاستغفروهُ يغفر لكم.



٨٢- قيمة الصبر والشكر في الإسلام | ١٩٩٢/١٠/٣٠

إن الله سبحانه وتعالى عندما شرفنا بهذا الدين العظيم، وتوج به حياتنا، وربط به مصير السعادة الأبدية لكل إنسان أقام هذا الدين على مبادئ وأقامه على قيم، وعلى جملة من السلوك الذي شرعه لنا الله سبحانه وتعالى وبينه في محكم كتابه، ثم بينه رسول الله صلى الله عليه وسلم في هديه النبوي الشريف، ولكن المصيبة الفادحة أن المسلمين بعد ذلك آلو إلى فريقين، فريق أعرض كلياً عن هذه المبادئ وهذه القيم وألقوها وراءهم ظهرياً، وفريقٍ آخر اتجهوا إلى هذه المبادئ وتعاملوا معها ولكن بعد أن جمدوها وجعلوا منها شعارات تقليدية ميتة، فالمسلمون اليوم أو الناس اليوم إنما ينقسمون إلى هذين الفريقين ولا يستثنى من هؤلاء وأولئك إلا من رحم الله سبحانه وتعالى.

وهذه المبادئ والقيم التي جمِّدت في حياتنا وتحولت إلى شعارات وألفاظ ميتة كثيرة، ولكني أحب أن ألفت النظر اليوم إلى واحد منه، إن من هذه المبادئ الخطيرة الهامة في هذا الدين الإسلامي الحنيف شكرَ الله سبحانه وتعالى، والشكر هو العمود الفقري في بنية هذا الدين من أوله إلى آخره، وإذا نهض الإنسان بواجب الشكر الذي أمره الله عزَّ وجل به فلا بد أن يجد نفسه ملتزماً بأوامر الله كلها، ولكن هذا المبدأ العظيم الذي يمثل العمود الفقري في بنيان هذا الدين تحول في حياتنا اليوم إلى شعار ميت وإلى معاملة تقليدية مع ألفاظ الشكر ونحوها، ما أكثر ما تتردد هذه الكلمة على الأفواه، وما أكثر ما يتلاقى قريبان أو صديقان، فيسأل الواحد منهما صاحبه عن حاله فتكون الكلمة الأولى التي يجيبه بها: نشكر الله ونحمده، ولكن لا المتكلم يعي معناً لهذه الكلمة ولا السامع يدرك لها أي دلالة، وإنما هي كلمة تقليدية تمر من الأفواه إلى الآذان وليس لها أي معناً حي نابضٌ يتصوره المتكلم أو يتلقاه السامع قط. نشكر الله وواقع هذا الإنسان يكذب ما يقول، وحياته من أولها إلى آخرها ردٌ عنيف لهذه الدعوة التي ينطق بها.

إذاً فالتعبير بكلمة الحمد والثناء على الله والشكر له تعبير شائع منتشر، ولكنها عبارات ميتةٌ ماتت معانيها على الشفاه، وغدت بعد أن كانت هذه الحقيقة العمود الفقري في بنيان الدين غدت شعاراً ميتاً لا قيمة له، ولا يقدم أو يؤخر عن الله شروى نقير، ولو كان المسلمون اليوم فعلاً يشكرون الله سبحانه

وتعالى كما أمر الله لما رأيتهم يتقلبون في هذا الواقع المخزي، لما رأيتهم مقبلين على الدنيا إقبال السكير إلى خمره، لما رأيتهم ينحطون في الأهواء والشهوات وقد أوغلوا في أوديتها ونسوا أو تناسوا أمر الله سبحانه وتعالى، لولا أن هذه الكلمة قد أصبحت شعاراً تقليداً في حياتهم لما رأيتهم وقد وحدهم الله عزَّ وجل وجعل منهم أمة واحدة، لما رأيتهم اليوم مزق من الفئات المتخاصمة المتعادية خصومة تبعث على الاشمئزاز والتقزز، تفرق أصبح مضرب المثل في العالم كله، وهم الذين يستظلون بظل دين واحد، ولكن لما تحولت المبادئ والقيم في حياتهم إلى شعاراتٍ ميتة، حوّل الله سبحانه وتعالى دينهم الذي يستظلون به أيضا إلى شعارٍ ميتٍ لا يقدم لهم شيئا ولا يحقق لهم أي ثمرة، لو كان الشكر هو هذا الذي يردده الإنسان بلسانه عندما يرى صاحبه أو صديقه في الطريق إذاً لكان الناس كلهم شاكرين الله عزَّ وجل، وإذاً لما صدق قول الله عزَّ وجل ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾.

ولكن الشكر ليس هذا، الشكر على النعمة هو أن يصرف الإنسان النعمة التي أسداها الله عزَّ وجل لما قد خلقت هذه النعمة من أجله، هذا هو شكر الله سبحانه وتعالى كما عرفه العلماء، شكرك لله على نعمه هو أن تستخدم هذه النعم التي أكرمك الله عزَّ وجل بها لتكون مجندة لتنفيذ أمر الله وللسير على صراط الله وللسعي إلى رضا الله سبحانه وتعالى، ولو أنك نظرت إلى من يطبق هذا المعنى الذي أمر الله سبحانه وتعالى به من معاني شكر لرأيت أن قليلاً من الناس الذين يصبرون على شكر الله سبحانه وتعالى.

المال نعمة تحتاج إلى شكر لأن الذي أسداها إليك هو الله عزَّ وجل، فكيف يكون شكرك على المال إن كان كثيراً أو قليلاً عندما يكرمك الله عزَّ وجل به؟ شكرك لله على المال أن توجه هذا المال إلى ما قد خلقه الله من أجله، أن تستخدمه فيما يحقق لك رضا الله سبحانه وتعالى عنك، وأن تحجزه عن كل السبل الأخرى.

العافية التي أكرمك الله عزَّ وجل بها نعمة وأي نعمة، ولا بد لها من ضريبة الشكر لله عزَّ وجل فكيف يكون شكر الله على نعمة العافية، إنما يكون شكر الله على ذلك بأن توجه صحتك وعافيتك ونشاطك لتستخدم ذلك كله في الطريق الذي شرعه الله والنهوض بالواجبات التي أمرك الله سبحانه وتعالى بها، ثم تبعد أنشطتك هذه التي هي ثمرة صحتك وعافيتك تبعدها عن كل ما حرم الله، تبعدها عن كل ما نهى الله سبحانه وتعالى.

الزوجة والدار نعم وأي نعم، فكيف يكون شكر الله سبحانه وتعالى عليها؟ إنما يكون ذلك بأن تتواثق أنت وزوجك على أن تقيما العلاقة التي قيضها الله سبحانه وتعالى بينكما لتكون هذه العلاقة خير خادم لدين الله عزَّ وجل، ثم لتكون هذه العلاقة منهجاً لبناء أسرة مؤمنة مسلمة تسبح بحمد الله عزَّ وجل ثم تصبح هذه الدار مثلاً مصغراً للمجتمع المسلم الذي أمر الله سبحانه وتعالى عباده بإنشائه.. وهكذا إلى سائر النعم التي لا تحصى كما تعلمون ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وهذا كلام الله عزَّ وجل، هكذا يكون شكر نعم الله عزَّ وجل.

وأنا لا أعلم في الطاعات وفي العبادات شيئاً أجمع لمختلف أنواع العبادات من الشكر، ولا أعلم مبدأً يمثل ينبوعاً من المثوبة والأجر لا ينضب قط يصل العبد رأساً بخالقه كينبوع الشكر، ولقد قال العلماء قديما وتساءلوا أيهما أجزل مثوبة وأجراً الصبر أم الشكر؟ صبر الفقير على فقره أجزل مثوبة وأجراً أم شكر الغني على غناه أجزل مثوبة وأجراً؟ وإني لأعجب من هذا السؤال، لأنني أعلم أن نهاية الشكر لا يمكن الوصول إليها إلا على جسر من الصبر، فلا يمكن للإنسان أن يكون شاكراً الله عزَّ وجل على نعمة المال ولا على نعمة العافية ولا على نعمة الزوجة والأهل والدار والأولاد إلا إذا مر قبل ذلك بمرحلة الصبر، فكل شاكر لابد أن يكون صابراً، ولكن ليس كل صابرٍ لابد أن يكون شاكراً.

ما أكثر الفقير الذي يضطره إلى الصبر واقع فقره ومهما حاول فإنه لن يستطيع أن يخرج من أقطار قضاء الله سبحانه وتعالى قط، فيقول في نفسه فلأكن صابراً إذاً حتى أنال أجر الصبر على أقل تقدير، هو ينال أجر الصبر، لكن انظروا إلى الفرق الكبير بين الصبر واقعاً يلجئ صاحبه إليه وبين الشكر الذي يسير الإنسان إليه على جسر من الصبر باختياره.

المال عندما يكرمك الله عزَّ وجل به مفتاح تستطيع أن تفتح به سبلاً شتى إلى أنواع من السلوك شتى، تتفق مع رغائب النفس وشهواتها وغرائزها، وإنما شكر الله على هذا المال الذي يمثل هذا المفتاح أن تغلق كل هذه الأبواب التي حرمها الله عزَّ وجل لا تبقيَ بينك وبينها بين هذه النعمة إلا باباً واحداً هو هذا الباب الذي شرعه الله عزَّ وجل. فانظر كم يحوجك شكر الله على المال الذي أكرمك به إلى ألوان من الصبر.

نعمة العين التي أكرمك الله بها لا تستطيع أن تشكره عليها إلا إذا صبرت فغضضت الطرف عن المحرمات التي نهاك الله سبحانه وتعالى أن تتبع بصرك إياها، وهذا لا يمكن أن يتحقق إلا بلون شديدٍ من الصبر، كذلكم العافية التي تتفجر في كيان الإنسان تبعثه إلى أنواع من السلوك شتى وأنواع من الانحرافات تعرفون، فإذا أراد الإنسان أن يشكر الله على نعمة العافية فلابد أن يجد نفسه أولاً على طريق الصبر، يفطم نفسه وعافيته المتوهجة بين كيانه عن كل ما قد حرمه الله عزَّ وجل حتى ينال بعد ذلك مرحلة الشكر التي أمرنا الله عزَّ وجل به، وهكذا فلا يمكن أن يكون الإنسان شاكرا إلا بعد أن يكون صابراً، وكلنا يعلم أجر الصبر ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، ولم أجد وعداً من الله عزَّ وجل لإنسان على طاعة من الطاعات بأجرٍ قفزاً فوق الحساب إلا الصبر، ولولا هذه الحقيقة ولولا أهمية الصبر وخطورته ولولا أنه الجسر الوحيد الذي يوصل إلى الشكر لما أكد الله سبحانه وتعالى لعباده بالصبر والمصابرة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

ترى لو أن المسلمين كانوا يتمسكون بحقيقة الشكر بدلاً من أن يميتوا هذه الحقيقة ويستبدلوا بها ألفاظها وشعاراتها الميتة كيف كان حالهم اليوم؟ ولكن لما تركوا الغالي والثمين وتتبعوا الرخيص خداعاً وجعلوا من أنفسهم بالدعاوي الكلامية الكاذبة شاكرين لله عزَّ وجل دون أن يكلفهم هذا الشكر دفع أي رأس مال قط، لما عاملوا الله على هذا الشكل عاملهم الله على الشكل ذاته، ومن ثم ترون مظاهر الإسلام البارقة المتألقة في حياة المسلمين اليوم صوراً وأشكالاً وشعارات، حتى إذا تجاوزت واخترقت هذه المظاهر المتألقة إلى ما دونها رأيت عفونة وأي عفونة، رأيت الفقر، رأيت التشرذم، رأيت الأحقاد التي يدور رحاها على وحدة هذه الأمة رأيت تعلق قلوب المسلمين بالمال والدنيا وتنافسهم بل خصامهم على هذه الثروات، ورأيت إعراضهم عن الله عزَّ وجل، وهكذا يعاملنا الله كما نعامله.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

٨٣- التراحم.. وقاية من غصص الحرمان | ١٩٩٨/١٢/٠٤

إن الله عز وجل ابتعث رسوله محمداً صلى الله عليه وعلى آله وسلم رحمةً للخلائق أجمع، وقد قرأتم في ذلك قول الله عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ فلا عجب وقد أرسل الله عز وجل محمداً رحمة للعالمين أن يكون في مظهره معلماً للرحمة بلسانه وبسلوكه معاً، لا غرو ولا عجب أن يكون محمدٌ صلى الله عليه وسلم في سلوكه الذي عرفناه معلماً للرحمة، وأن يكون في أقواله التي وعيناها معلماً أيضاً للرحمة.

ولقد أمرنا الله عز وجل أن نجعل من نبيه محمد قدوة لنا: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ والأحاديث التي نبه الرسول صلى الله عليه وسلم من خلالها الناس إلى أن يتراحموا والدعوات المختلفة التي دعاهم من خلالها إلى التراحم كثيرة، ولا أريد في هذا الموقف أن أحصي الأحاديث الواردة والتعليمات المتكررة من فمه صلى الله عليه وسلم للناس بالتراحم، ولكني أذكركم بنماذج. منها:

يقول عليه الصلاة والسلام فيما صح عنه: ﴿الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء﴾.

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما صح عنه مما رواه الشيخان: ﴿من لا يرحم لا يُرحم﴾، قال ذلك في مجلسٍ قبّل فيه الحسين بن علي رضي الله عنهما. فقال الأقرع بن حابس: إن لي عشرةً من الأولاد ما قبلت واحداً منهم قط. فقال له صلى الله عليه وسلم: ﴿من لا يرحم لا يُرحم﴾ وفي رواية ﴿وهل أملك إن نزع الله سبحانه وتعالى من قلبك الرحمة﴾.

ثم إن المصطفى صلى الله عليه وسلم كان نموذجاً تطبيقياً لهذا الذي كان يأمر به في سلوكه، في علاقته مع الناس جميعاً كباراً وصغاراً رجالاً ونساءً مؤمنين وغير مؤمنين، أما رحمته بالمؤمنين فكانت تتمثل في العطف والشفقة وحسن المعاملة الدائمة، وأما رحمته بغير المؤمنين فكانت تتمثل في دعوتهم إلى الله

سبحانه وتعالى وموعظته لهم دائماً ونصيحته لهم دائماً، وإن ذلك لمظهر من أجل مظاهر رحمة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بهم.

والأمة التي تنفذ وصايا رسول الله صلى الله عليه وسلم وتجعل من سلوكه قدوةً وأسوةً لها لابد أن تعيش في كنفٍ من رحمة الله سبحانه وتعالى وفضله. الأمة التي تشيع فيما بينها التراحم لن تعاني من غصص الحرمان أبداً.

والأمة التي ترى أن الله عز وجل يأخذها بالشدائد ينبغي أن تراجع حالها، هذا فيما بينها وينبغي أن تعلم أنها قد حادت عن وصايا رسول الله صلى الله عليه وسلم وابتعدت عن نهجه وسلوكه، وما أجدر بالمسلم أن يراقب حاله دائماً من هذا الجانب، وقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعلون ذلك، كانوا يحاسبون أنفسهم لدى الشدائد التي يُأخذون بها، وكان التابعون ومن بعدهم السلف الصالح كلهم كانوا على هذه الشاكلة.

ونحن اليوم أيها الإخوة نعاني من الحرمان الذي ترون، بل نعاني من حرمان لا أذكر أني رأيت مثيلاً له في حياتي الماضية قط؛ إنكم لترون كيف أن الصيف امتد إلى الشتاء ليقضي على الشتاء وأيامه الباقية، وأنتم تعلمون أن هذا الحرمان إذا استمر على هذه الشاكلة فلا بد أن يأخذ الظمأ بالحلوق، ولا بد أن تظهر قيمة الماء الذي لا تظهر قيمته اليوم عند كثيرٍ من الناس، ولابد أن يأتي وقتٌ يعلم فيه الناس جميعاً أن كأساً من الماء يساوي أكثر مما تساويه الجواهر المتألقة. ولكن رحمة الله سبحانه وتعالى هي التي تجعلنا لا نزال جاهلين بهذه القيمة الحقيقية.

إذا لم نشأ أن نلتجئ إلى الله الالتجاء الذي علمنا إياه رسول الله الالتجاء الجماعي بالآداب وبالشكل الذي عرفتموه في بابٍ في أجل أبواب الشريعة الإسلامية، باب صلاة الاستسقاء إذا لم نشأ أن نلتجئ إلى الله سبحانه وتعالى هذا الالتجاء العام في هذا الشكل فهنالك دواء آخر، هذا الدواء الآخر هو أن نتراحم وأن تشيع فيما بيننا صلة التراحم، يرحم الكبير الصغير، يرحم الغني الفقير، يرحم القوي

الضعيف، وأنا على يقين أن هذه الأمة إذا تراحمت فإن الله سبحانه وتعالى يغدق عليها من شآبيب إكرامه، وأن أعلم أن الله سبحانه وتعالى يسامح بحقوقه ولكنه لا يسامح بحقوق العباد.

وكم قلت وأعدت القول، القاعدة الفقهية المشهورة والمعروفة: إن حقوق الله مبنية على المسامحة، ولكن حقوق العباد مبنية على المشاحة. الالتجاء إلى الله حقٌ من حقوق الله، ولكن رحمة الغني بالفقير، ولكن رحمة القوي بالضعيف، ولكن رحمة القوي بالعاجز.. من حقوق العباد، وإذا أدى الناس الحقوق السارية فيما بينهم فأغلب الظن أن الله سبحانه وتعالى يتجاوز عن حقه المنوط بأعناقنا، ألا وهو صدق الالتجاء إلى الله سبحانه وتعالى. فلماذا لا نتداعى إلى الرحمة التي أمرنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم؟

أيها الإخوة ليت أن هذا الحديث يبلغ آذان كل الفئات التي تمثل هذه الأمة في هذه البلدة المباركة، ليت أن وصايا رسول الله بالتراحم تبلغ آذانهم، وليت أنها تمخر الآذان إلى قلوبهم وأفئدتهم كي يتراحموا قبل فوات الأوان.

وإنكم لتعلمون أن بلدنا هذا يعاني من تناقضات مثيرةٍ للأسى، مثيرةٍ للحزن في الفؤاد؛ إنك لتنظر فتجد مظهر الغنى البازخ الباذخ الذي لا يكاد الخيال يتصوره، وإلى جانبه الفقر والضنك والحرمان، ما أيسر أن ترى هذا إلى جانب ذاك، إنك تستطيع أن تلاحظ حال الرجل الذي يعيش في دارٍ فارهة وفي نعمةٍ تطوف به بل تتراقص من حوله ألواناً وأشكالاً، والنعم أنواعاً شتى كما تعرفون، وإلى جانب هذا الإنسان أسرة أخرى تبحث عن كن تأوي إليه عن عشٍ تستر نفسها فيه كما يستتر الحيوان في أكنانه، فلا تجد هذه الأسرة ذلك، تجد شاباً قد التهبت غرائزه بين جوانحه يبحث عن وسيلةٍ تُرضي الله ليتخلص من لظى غرائزه هذه، فلا يجد لأن ذلك يحوجه إلى قدرٍ من المال، يحوجه إلى مالا يقل عن خمسين ألف ليرة أو مئة ألف ليرة، وهكذا يتقلب في لظى الحرمان، وينظر عن يمينٍ وشمال فيسيل لعابه وهو يرى المنعمين المترفين، وهو يرى أخيلة النعمة كيف تتحقق من حوله وكيف تفر من داره. هذه الظاهرة موجودة، هذه التناقضات متزاحمة في بلدتنا هذه أيها الإخوة لو كان هنالك تراحم أفكنت ترى شيئاً من هذا التناقض؟ معاذ الله.

ولماذا أمرنا المصطفى بالتراحم؟ بل لماذا أمرنا الله بأن نتراحم من أجل أن تسد هذه الفجوات، ومن أجل أن تزول هذه التناقضات، ومن أجل أن تعود هذه الأمة كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.

إذاً نحن نعاني من مصيبة كبرى ألا وهي غياب الرحمة التي أمرنا بها المصطفى عندما أمرنا بها الله سبحانه وتعالى، والقلة لا قيمة لها، القلة من الناس لا تصلح فاسداً ولا تقوم إعوجاجاً بعد أن قال الله عز وجل: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ فما هي العاقبة إن استمر بنا الأمر على هذا المنوال؟ ما هي العاقبة إذا كان الناس يضحون بكل شيء في سبيل مصالحهم الشخصية وتعشى عيونهم عن رؤية إخوانهم الذين يعانون من ألوان الضنك والحرمان الذين يوصلان إلى الهلاك؟ كيف يكون حال هؤلاء وقد سمعوا قول رسول الله يقول: «ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائعٌ إلى جانبه» ما المآل إيها الإخوة؟

المآل أن يُزج بهذه الأمة كلها في الحرمان بعد ذلك، وعندئذٍ لا تجد فرقاً بين غنيٍ ولا فقير، بين قويٍ ولا ضعيف؛ ذلك لأن الله عز وجل إذا استلب إكرامه وفضله من أمةٍ لا تتراحم، فلن يبقى معنى لغنى الغني أبداً، ولن يبقى معنى لترف المترفين أبداً، ماذا عسى أن تفيدهم القصور البازخة إذا أخذ الظمأ بحلوقهم؟ ماذا عسى أن تفيدهم الأموال المكتنزة إذا عض الجوع عليهم؟

تصورا أيها الإخوة إنساناً أكرمه الله بالمليارات وجعل الدنيا ترقص من حوله، ولكن الله حرمه من جرعة ماءٍ عند حاجته إلى هذا الماء، ماذا عسى أن تصنع له هذه الكنوز كلها؟ ورحم الله طاووساً اليماني وقد كان جالساً عند هارون الرشيد فطلب جرعة ماء، جيء إليه بكأس من الماء، قال له طاووس: مه يا أمير المؤمنين، أي انتظر قال نعم، قال لو حرمت هذا الماء على ظمأ بماذا كنت تشتريه؟ قال: بكل ما أملك، قال: فاشرب هنيئاً، شرب، ثم قال له يا أمير المؤمنين: لو حرمت خروج هذا الماء من جسدك بماذا كنت تشتري إخراجه؟ قال: بكل ما أملك، قال: فاتقي الله في ملكٍ لا يساوي جرعة ماء.

ليت أن الأغنياء والميسورين الذين تاهوا عن وضع إخوانهم في هذه البلدة ليت أنهم يدركون هذه الحقيقة التي قالها طاووس، أجل إذا حاق الحرمان بهذه الأمة عندما يبقى الجو على هذه الشاكلة التي ترون، ماذا عسى أن يفيد الغنى أصحابه؟ ماذا عسى أن يفيد الترف أصحابه؟ الكل عندئذٍ يتساوون ولكن لن يتساووا في السعادة وإنما سيتساوون في الشقاء.

فيا عجباً لأمةٍ تجد أمامها دوائين ولكنها لا تريد أن تلجئ لا إلى الدواء الأول ولا إلى الدواء الثاني، وهي ترى شبح الحرمان والشقاء يدنو إليها رويداً رويداً! الدواء الأول الالتجاء إلى الله حسناً، إن كان هنالك من يشعر بأن هذا الالتجاء يجرح كبريائه، هنالك دواء آخر التراحم فإذا كنا لا نريد أن نتراحم ليرحمنا الله ولا نريد أن نلتجئ إلى الله سبحانه وتعالى ليكرمنا الله عز وجل فما النتيجة التي ينبغي أن ننتظرها؟

٨٤- الضمانة التي تجعل الإنسان ذا خلقٍ قويم |١٩٩٩/٠٥/٠٧

إن الله سبحانه وتعالى ما أخذ عباده بشيءٍ مما أخذهم به من عقائد هذا الدين ومن أحكامه وآدابه السلوكية إلا لحكمةٍ واحدة لا ثاني لها هي: أن يتهذب الإنسان وأن تسود علاقته مع بني جنسه على خير ما ينبغي أن تكون العلاقة، فالدين جاء ليهذب الإنسان، وجاء ضمانة لكي تكون صلته بأبناء جنسه عامةً على خير ما تكون العلاقة. ولو علم الله عز وجل أن الإنسان يصلحه شيء آخر غير الدين يهذب من طباعه ويسمو به إلى صعيد الأخلاق الإنسانية الراقية لألزم الله عز وجل عباده بذلك السبيل، ولكن الله الحكيم العليم علم أن الضمانة الوحيدة للأخلاق الإنسانية السامية هي أن يعرف الإنسان نفسه، إذا عرف نفسه عرف ربه، وإذا عرف ربه علم أنه عبدٌ مملوك لا حول له ولا قوة يتحرك في قبضة مولاه وخالقه؛ وعندئذٍ يعلم بأن الله يراقبه وأن الله سبحانه وتعالى سيحاسبه. فتلك هي الضمانة التي تجعل الإنسان ذا خلقٍ قويم، وذلك هو السبيل الأوحد إلى أن يصبح الإنسان مهذباً وأن يصبح سامياً إنسانياً في علاقاته مع بني جنسه ومن ثم فقد شرع الله سبحانه وتعالى لعباده هذا الدين.

ألم تسمعوا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿إنما بُعثت لأُتمم مكارمَ الأخلاق﴾ أي كل ما قد جئتكم به من عند الله عز وجل إنما هو ضمانة لشيءٍ واحد هو أن يرقى الإنسان في سلوكه وطباعه إلى مستوى مكارم الأخلاق؟

أو ما سمعتم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح ﴿ألا أنبئكم عن أقربكم مني مجالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً الذين يألفون ويؤلفون﴾.

أو ما سمعتم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الآخر ﴿اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس﴾ الناس جميعاً لم يقل المسلمين فقط ﴿وخالق الناس بخلقٍ حسن﴾

لكن ما الضمانة لأن يخالق الإنسان الناس بخلقٍ حسن؟ وما السبيل إلى أن تتهذب طباعه ويبتعد عن الشرة وأسبابها؟ الضمانة هي الدين. فالدين جاء حصناً ليكون حافظاً لأخلاق الإنسان ولكي يكون ضمانة لرقيه في مدارج الأخلاق الإنسانية الفاضلة.

وأهم خطوات الأخلاق الإنسانية تلك التي تبدأ في علاقة ما بين الرجل وأهله، ثم تأتي الدرجة التي تليها والتي تتمثل في علاقة الإنسان مع أهل بلدته وأهل حيه وأقرانه، ثم تأتي الخطوة الثالثة التي تتمثل في علاقة الإنسان مع بني جنسه عموماً.

الدرجة الأولى التي هي عين الأخلاق الإنسانية الفاضلة وهي أساسها وينبوعها: علاقة الإنسان مع أهله مع زوجه وأولاده وأسرته، وقد نوه رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا عندما قال في الحديث الصحيح ﴿أقربكم مني مجالس يوم القيامة ألطفكم بأهله﴾، ولقد وقفت عند هذا الحديث وتساءلت مراراً، ما الفرق بين أن يكون الإنسان لطيفاً مع أهله في داخل داره وأن يكون لطيفاً مع الناس عموماً خارج داره؟ ولماذا ميز رسول الله صلى الله عليه وسلم لطف الإنسان مع أهله على لطفه مع الناس في الأسواق وفي الميادين والشوارع؟

السبب هو التالي: أنا عندما أكون مهذب الطباع متمسّكاً بالأخلاق الإنسانية السامية في السوق حيث علاقتي مع الناس في التجارة وفي الاكتساب وفي العلاقات المختلفة، فإن هنالك حوافز كثيرة وأسباب مختلفة تدفعني إلى أن أكون متخلقاً معهم، والحافز الديني ربما كان أضعف هذه الحوافز، فرغبتي في أن يمدحني الناس وأن يُثنو علي ورغبتي في أن تكون مصالحي نافذةً فيما بينهم كل ذلك يدفعني إلى أن أظهر في الناس في مظهر المهذب في مظهر الإنسان اللطيف المتخلق بالأخلاق الإنسانية الراشدة. ولكن عندما أعود إلى داري ويبتعد الناس عني وأخلو مع أهلي وأولادي فإن هذه الرغبات وهذه المصالح الدنيوية تغيب عني، ويبقى دافعٌ واحد لسلامة الأخلاق ولحسن العلاقة والمعشر ألا وهو مراقبة الله سبحانه وتعالى.

في الدار ليست هنالك مصالح تقتضي الرجل أن يكون لطيف المعشر مع أهله وأسرته وأولاده، ليست له مصالح تجارية صناعية مختلفة سياسية تقتضي أن يكون حسن الطباع مع أهله، فإذا كان مع هذا كله حسن الطباع داخل داره مع أسرته وأولاده فهذا دليلٌ على أنه ليس مندفعاً إلى ذلك إلا بدافعٍ واحد هو استنزال رضوان الله سبحانه وتعالى له، لذلك ميّز رسول الله صلى الله عليه وسلم الرجل الذي يكون لطيف العلاقة والمعشر مع أهله داخل داره عن الذين يكونون في غاية اللطف والدماثة مع أصدقائهم وخلانهم في الأسواق المختلفة.

ثم تأتي الدرجة الثانية فيما يتعلق بعلاقة الإنسان مع الناس عموماً.

هذه الأخلاق الفاضلة هي التي تقرب الإنسان إلى الله سبحانه وتعالى، ومن أجل هذه الأخلاق تعبدنا الله عز وجل بما تعبد من العقائد والسلوكات المختلفة، وكأني بكثيرٍ منكم يسأل ما الضمانة التي تحقق سمو الأخلاق والتي ترقى بالإنسان إلى مستوى الإنسان المهذب الطباع مع الآخرين؟

سبيل ذلك عدة خطوات، الخطوة الأولى أن يبدأ فيعرف نفسه، إذا عرف نفسه تواضع وتطامن وتمزقت أغشية الكبرياء عن كيانه وخرج من قوقعة التكبر بين الناس، إذا عرف الإنسان نفسه. ورحم الله عبد الله بن المبارك إذ يقول: من عرف نفسه علم أن الكلب خيرٌ منه وهذا كلام سليم، والذي يعجب من كلام ابن المبارك هذا هو إنسان لم يعرف نفسه، فإذا عرفت نفسي أدركت علمت العيوب التي تراكمت في كياني من حيث لا يعلمها الناس، فدفعتني هذه المعرفة إلى التواضع والتطامن لله سبحانه وتعالى الذي هو مالكي والذي أنا في قبضته، فإذا تحررت من الكبر ودخلت في باب التواضع بل الضعة لا التواضع الحقيقية لله عز وجل ساقني هذا الشعور إلى الأخلاق الإنسانية الراشدة.

التواضع أولاً والأخلاق الإنسانية الراشدة ثانياً، بل معرفة الإنسان نفسه أولاً فالتواضع ثانياً فالأخلاق الإنسانية الكريمة ثالثاً، فيبدأ الأمر بأن يتعلم الإنسان نفسه يتعرف على ذاته وهويته.

وربما قائل يقول: كيف يتعرف الإنسان على ذاته وكلنا يعلم من هو الإنسان وما هو الإنسان، والإنسان واحد مهما تكررت أفراده وبلغو المليارات؟ ليس الأمر هكذا لسنا نتكلم عن علم النفس، وإنما

المهم أن يعلم الإنسان ذاته أي أن يعلم من الذي أوجده، وبيد من شأنه، وبيد من نهايته ومصيره، ومن هو الذي يحركه، ومن هو الذي يراقبه، هذا معنى معرفة الإنسان لنفسه، إذا عرف الإنسان نفسه عرف أنه مملوك لربه علم أنه عبد وإذا علم أنه عبد تحطمت الكبرياء تحت مطرقة عبوديته لله سبحانه وتعالى، فلم يعد يرى لنفسه شيئاً ولا يستطيع عندئذٍ أن يجعل من التواضع المتكلف سبيلاً آخر فنياً إلى تكبره، وكم في الناس أناس يجعلون من التواضع فناً للتكبر، أتظاهر بالضعة وأتظاهر بالمسكنة وأتظاهر بأني لا شيء حتى أسمو في أعين الناس، وحتى يشار إلي بالبنان بأني إنسان قريب من الله سبحانه وتعالى، ليس التواضع هذا، وليس معنى معرفة الإنسان هذا، إنما معنى معرفة الإنسان نفسه أن يستشعر بما استشعره المبارك عندما قال: من عرف نفسه علم أن الكلب خيراً منه ومن عرف نفسه حقاً عرف صدق كلام ابن المبارك رحمه الله.

أيها الإخوة أريد أن أصل من هذا الذي أقول لكم إلى نتيجة مؤلمة: إن نظرنا إلى مقاييس الإسلام في حياة المسلمين اليوم متمثلةً في الصلاة متمثلة في القربات الظاهرة متمثلة في الحجيج الذي يتكاثر في كل عام متمثلة في مجالس الأذكار والعلوم، فما أكثر ما نجد مظاهر الإسلام متألقة مشرقة، ولكن إذا أردنا أن نخترق هذه الظواهر ونتلمس ما ورائها، لنتلمس الأخلاق الإنسانية الراشدة، لنتلمس حسن العلاقة بين الناس بعضهم مع بعض بل بين أفراد الأسرة الواحدة لاحظنا علاقة النقيض بالنقيض.

كم وكم هنالك أناسٌ لا يقطعون فريضة كلفهم الله عز وجل بها ربما تبحث عنهم تجدهم في الصفوف الأولى يطلقون اللحى يحملون السبحات لا يفتر لسانهم عن ذكر الله عز وجل فإذا اهتاجت مصالح الدنيا فيما بينهم وبين أهليهم لا أقول بينهم وبين الغرباء رأيت أن سلطان هذا الدين تبخر، وأن سلطان إياك نعبد وإياك نستعين الذي يتكرر في كل صلاة اختفى، وإذا بهؤلاء الذين تراهم ركعاً سجداً إذا هم يثيرون خصوماتٍ بينهم وبين أهليهم في سبيل درهم ودينار.

كم سمعنا عن أبناء تسببوا بسجن آباءهم وأمهاتهم، من أجل عرض من الدنيا قليل.

كم سمعنا عن إخوة قامت العداوة فاستشرت فيما بينهم بسبب عرض من الدنيا قليل.

كم سمعنا حكايات وقصص لا يكاد العقل يصدقها تشمئز لها المشاعر، من هم أبطالها؟ أبطالها أناسٌ مصلون وأناس تفيض بهم المساجد من أجل ماذا جاء الدين؟

جاء الدين من أجل أن تتهذب الطباع، جاء الدين من أجل أن يتطهر القلب من محبة الدنيا وشهواتها وأهوائها ويتحول إلى إناء صافٍ طاهر لمحبة الله، جاء الدين من أجل أن تقوم علاقة ما بين الناس بعضهم مع بعض على المستوى الأخلاقي الراشد نضحي بالدنيا في سبيل علاقة ما بيننا ولا نضحي بعلاقة ما بيننا في سبيل الدنيا. هذا الواقع لو أنني أردت أن أفتح ملف قصصٍ تفصيليةٍ فيه لضاق الوقت عن ذلك ولسمعتم شيئاً عجيباً جداً أيها الإخوة.

عندما نلاحظ هذا الواقع نلاحظ أننا أمام ظاهرة من حيث الشكل تغري وتعجب ولكن العفونة كامنةٌ في دخائلها، إلا من رحم ربك ويبدو أن هؤلاء الذين رحمهم الله قليلون. ما أكثر ما أتلقى هتافات ومكالمات تدل على فتنٍ تستشري في بيوت فتنٍ تستشري بين إخوة فضلاً عن الأصدقاء وغيرهم من أجل الدنيا، من أجل تفاهات مالية أجل، وكلهم مصلون وكلهم متعبدون وربما رأيت الواحد منهم في نهاية كل عام عند بيت الله الحرام.

إذن لا يعتبن أحد عن الفساد الذي يستشري في مجتمعنا، وأقولها بصراحة لا يقولن قائل ما أكثر الفساد الذي يتكاثر على كل المستويات في مجتمعنا، مجتمعنا هو هو ليس في الناس من هبطوا من علياء المريخ ومنهم من خرجوا من طبقات الأرض الدنيا، هذا المجتمع بقضه وقضيضه بكل فئاته بكل طبقاته بالمسؤولين وغير المسؤولين كلهم من طينة واحدة كلهم هذا شأنهم، وأنا عندما أجد أن أناس شباباً يتسببون بإدخال أمهاتهم في السجون من أجل أن أشداقهم تتحلب على عرضٍ من الدنيا قليل ومن أجل أن لعابهم يسيل على شيء من المال وهم مصلون فماذا أقول عن غيرهم ولماذا أعتب على غيرهم وما هي قيمة الدين الذي يقف عند حد القشور وتكون مهمته أن يخفي العفونة من وراء القشور؟

أيها الإخوة اربطوا بين دين الله في عقائده وعباداته وبين السلوك الأخلاقي، واعلموا أن ضمانة السلوك الأخلاقي أن يكون الإنسان ذليلاً قد عرف حقيقته وعرف قدره وعرف أنه عبدٌ مملوك لله عندئذٍ يزايله الكبر، عندئذٍ تزدهر في حياته عروق وأغصان الإنسانية الراشدة.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.



٨٥- المسلم أخو المسلم لا يظلمه لا يسلمه لا يخذله | ٢٠٠٣/٠٤/٠٤

أثناء العدوان الأمريكي على العراق

نقاط عدة ألفت النظر إليها في خطابي الموجز إن شاء الله تعالى آملاً أن يكرمنا الله سبحانه وتعالى بأخذ العبرة وأن يوفقنا للالتزام بأوامره ووصاياه وللابتعاد عما يحذِّر.

أعود بكم أولاً إلى قول الله عز وجل: ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٩] ثم يقول بعد ذلك مباشرة: ﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النّاصِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٠]

هما طريقان يضعنا الله عز وجل أمامهما.

الطريق الأول: طريق الخيانة والخضوع للعدو، يحذرنا الله عز وجل من ذلك وينبهنا إلى العواقب الوخيمة للانحطاط في هذا الطريق: ﴿إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خاسِرِينَ﴾.

وما المراد بالطاعة؟ ليس المراد بالطاعة الكفر بعد الإيمان، وإنما المراد بالطاعة الخضوع لسلطانه، والانقياد لأمره، والاصطباغ بخداعه، هذا هو المراد بالطاعة وهذا تحذير من الله لعباده المؤمنين أن يخونوا العهد وأن يصدِّقوا العدو وأن يخيل إليهم أن في أعداء الله وأعدائهم من هم أرأف بهم من إخوانهم المسلمين.

ثم إنه يلفت النظر إلى الطريق الآخر؛ طريق الالتزام بالعهد، طريق الخضوع لسلطان الواحد الأحد ألا وهو الله، طريق الخضوع لولاية رب العالمين ﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النّاصِرِينَ﴾.

ليت أن المسلمين يتشبعون بهذا الكلام الذي يُرينا اللهُ من خلاله هذين الطريقين، ينبغي أن يعلم كل مسلم أن عدو الله عز وجل لن ينطوي فؤاده على مثقال ذرة من الرحمة بالمؤمنين المسلمين من أي فئة كانوا ومن أي مذهب كانوا – وافهموا ما أقول – العدو الأرعن يحمل شعوراً مشتركاً تجاه المسلمين

جميعاً، فما ينبغي أن يُخْدَع الإنسان كما ينبهنا الله عز وجل، ما ينبغي أن يُخدع الإنسان المسلم بوسواس يسري من أفواه الكفرة الطغاة أعداء الله عز وجل إلى فئة المسلمين ﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلاكُمْ﴾ لا مولى لنا إلا الله الواحد الأحد سبحانه.

معنى هذا الكلام الذي يخاطبنا به الله عز وجل؛ أن الله سبحانه وتعالى قد تكفّل للمسلمين إذا غزاهم عدو أن يحميهم من غزوه، تكفل لهم ألا يُفْتَح أي خَرْقٍ بأيدي هؤلاء الأعداء إلى أرض إسلامية كان أهلُها صادقين مع الله يتولَّون الله عز وجل ولا يتولون غيره. معنى هذا الكلام الرباني؛ أننا إذا سمعنا اليوم خَرْقاً حصل في جنوب أو غير جنوب فإنما تحقق هذا الخرق بسبب خيانة، ولولا هذه الخيانة لما تحقق هذا الخرق أبداً، سُنَّة ماضية من سُنن رب العالمين، استوعبناها في تاريخ الإسلام الأغر، لا يأتي هذا السُّنَّة أي شذوذ لا من بين يديها ولا من خلفها، على المسلمين جميعاً أن يعلموا، على اختلاف فئاتهم ومذاهبهم وفرقهم، أن هذا العدو الطاغية الذي جاء من آخر الدنيا ليغزو أرضاً إسلامية لن يكون أكثر احتراماً للعتبات المقدسة من الحكومة العراقية المسلمة، ينبغي أن نعلم هذه الحقيقة، ولو علم إخوة لنا هذه الحقيقة واصطبغوا بمعنى قول الله عز وجل: ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تطيعوا فريقاً مِنَ الذينَ أوتُوا الكِتَبَ يَرُدُّوكمْ بعْدَ إيمانِكمْ كَافِرِيْن﴾ [آل عمران: ١٤٩] لو علموا ذلك واصطبغوا بها لما سمعتم بهذه الخيانة التي حصلت بالأمس قط.

أقول هذا حتى لا يرتاب أحد في وعد الله، أقول هذا حتى لا يرتاب أحد منكم فيما ألزم الله به ذاته العلية ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غالِبَ لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٠]. ولكنه قال بعد ذلك: ﴿وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [آل عمران: ١٦٠]. من ذا الذي يتصور أن ذلك الطاغية الذي وسوس إلى بطانته بالأمس في خطاب خاص لم يُذَع أنه ماضٍ إلى هدفه في اجتثاث شأفة الإسلام من العا لم الإسلامي كله، قالها بوصفه يهودياً، أجل، قالها بوصفه متهوِّداً، ومن شاء منكم يستطيع أن يسمع كلماته التي قالها. هذا الإنسان الذي ينفِّذ خِطة يهودية رعناء أفيكون أكثر احتراماً وحماية لعتباتنا المقدسة من الجنود الذين يحمون أرض العراق؟ هذه هي النقطة الأولى وافهموها وتبينوا أبعادها.

وما أقوله لكم عما يجري في الجنوب هو ذاته الذي أقوله لكم عما يجري في الشمال، أنا كردي أيها الإخوة، ولكني أضع نسبتي هذه تحت قدمي، عندما أنظر فأجد أناساً من أبناء جلدتي يخونون الله سبحانه وتعالى، ويمارسون العبودية المهينة الذليلة لهذا العدو الآتي من أقصى العالم بهدف يخدم به الصهيونية العالمية، أجل. أنا أتشرف بأن أضع نسبتي هذه تحت قدمي عندما أجد هؤلاء الناس يمثلون الخيانة القذرة في شمالنا العراقي.

النقطة الثانية: ليس أمامنا إلا سلاح واحد أيها الإخوة، كنا ولا نزال هكذا، ليست هذه حالة طارئة، نحن مؤمنون، ومن ثم فالباب الوحيد المفتوح أمامنا إلى الله هو باب الالتجاء إليه، وباب الالتجاء إليه يتم عبر ثلاث مراحل: المرحلة الأولى التوبة النصوح إلى الله، المرحلة الثانية البيعة الجديدة لله بالسير على نهجه، المرحلة الثالثة التضرع والدعاء الواجف المستمر.

لعل فينا من يتصور أن إقبال المسلمين أمام هذا المنعطف الذي نمر به علاج نأخذ به أنفسنا بين الحين والآخر، فإذا رأينا أن الجسم قد عاد إلى نهجه وأن الصحة قد رجعت إلى مكانتها ننسى الدواء ونتركه، لا الدعاء عبادة دائمة، لا يطالبنا الله بها ساعة ويتركها ساعة، نحن مطالبون بالدعاء دائماً، ولقد قلت لكم مرة عن الفرق بين الطلب والدعاء، نحن عندما نمد أكف الضراعة إلى الله لا نعبّر بذلك عن حاجة عارضة عندما تحقق لنا ننسى الطلب، نحن دائماً بحاجة، نحن دائماً أذلاء، نحن نمارس عمل الشحاذة، كما يقولون، تجاه مولانا وخالقنا سبحانه وتعالى.

فلا يَمَلَّنَّ أحد منكم من الدعاء، لا يقولن في نفسه أو بلسانه لقد دعوتُ ودعوت كثيراً فلم أجد الاستجابة، ثم إن هذا الوسواس يجعله يَمَلّ فيعرض عن الدعاء: «إن الله يستجيب للعبد ما لم يَعْجَل» كما يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم: «يقول: دعوت فلم يُسْتَجب لي» لا أيها الإخوة. اجعلوا دعاءكم غذاء كالغذاء الذي تتناولونه دائماً، بل اجعلوا دعاءكم الواجف عملية كعملية الشهيق والزفير، ما دام الإنسان حياً يمارس فن الحياة شهيقاً وزفيراً ينبغي أن يمارس فن العبودية لله. وفن العبودية لله يتجلى

أول ما يتجلى في الدعاء الدائم الواجف. حتى ولو علمنا أن النصر آت لا ريب فيه لابدَّ أن نكون ملازمين لباب الله ملتصقين بأعتابه مترامين بانكسار في ساحة كرمه وجوده.

يروي الإمام أحمد عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه يقول: لقد رأيتُنا ليلة بدر وما فينا إلا نائم إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت شجرة يصلي ويبكي إلى أن طلع الفجر لم ينم لم ترقد له جفن طوال تلك الليلة يصلي ويبكي، أفكان المصطفى صلى الله عليه وسلم في شك من نصر الله وهو الذي وضع يده على أماكن معينة قبل ساعات وقال هذا مصرع فلان، هذا مصرع فلان، يُعَيِّن أسماء للمشركين ويعيِّن لمصرعهم أماكن. فلم يتجاوز واحد من هؤلاء الذين ذكر رسول الله أسماءهم مكانه الذي قُتل فيه، ومع ذلك فإنه لم يتم الدعاء ولم يَمَل من الدعاء، بقي من المساء إلى الفجر وهو يلتجئ إلى الله ويقول: ﴿اللهم هذه قريش أقبلت بخيلائها وكبريائها تحادك وتكذب رسولك فإحنهم الغداة يا رب العالمين، اللهم نصرك الذي وعدتني﴾. وظل يدعو ويدعو دون ملل ودون سأم إلى الفجر.

ألسنا أولى من رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا؟ وإني أريد أن أؤكد لكم أنه سلاح ماضٍ فتّاكٌ لاسيما عندما يجأر أحدنا بهذا الدعاء في الأسحار وبقلب واجف وبعد توبة صادقة إلى الله سبحانه وتعالى. ولكن لابدَّ من الصبر بعد ذلك، لابدَّ من الصبر مع ذلك وبعد ذلك، فالله يستجيب في الوقت الذي يشاء وكما يشاء، وما ينبغي للإنسان أن يفرض عَجَلته التي خُلق بها على الله سبحانه وتعالى.

ولكن إذا رأيتم جيوباً من الخِزي فاعلموا أن سبب ذلك يعود إلى شيء واحد؛ هو الخيانة، الخيانة التي تطوف بهذه البقعة المقدسة التي يتجه إليها عدو الله وعدونا اليوم أيها الإخوة، رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ﴿المسلم أخو المسلم لا يظلمه، لا يُسْلمه، لا يخذله﴾ ونحن نسير في الطريق المناقض لهذا الكلام. لا أقول نحن، لا ولله الحمد، نحن في بلدنا هذه ما زلنا على العهد ولله الحمد، لكن جيراناً لنا كأنهم أعلنوا بلسان حالهم أو بلسان قولهم: لا، بل سنفعل نقيض ما قاله رسول الله. المسلم أخو المسلم يخذله، يظلمه، يُسْلِمه إلى عدوه، هكذا سنفعل.

يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم: ﴿المسلمون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى﴾ وها هو الجسد الواحد، الأمة الواحدة يشتكي فيها هذا العضو؛ العضو الأغر، العراق الذي يحتضن تاريخ الأمة؛ العراق الذي ترتفع فوق أرضها ألوية الحضارة الإسلامية عبر قرون طويلة، العراق الذي كان مهد الدعوة الإسلامية ومنه انطلقت الجحافل لنشر الإسلام إلى شرق العالم وغربه، العراق اليوم تصطك أسنان كلاب الصهيونية، خدم الصهيونية، من أجل يقضوا على البقية الباقية من آثار الإسلام فيها، ومن أجل أن يدنسوها فيجعلوها لقمة سائغة للصهيونية العالمية. ومع ذلك فهاهم جيران لنا يستمرئون الخيانة ويُعِيْنُون هذا العدو بكل الوسائل، أجل بكل الوسائل، فإن رأيتم أن بعض الدعاء لا يبلغ عنان السماء يرتد بخيبة إلى أرض من أراضينا فاعلموا أن سبب ذلك هذه الخيانة، ومع ذلك فإني لشديد الأمل بأن رحمة الله سبحانه وتعالى هي الغالبة وبأن الله عز وجل سيستجيب دعاء، لا أقول الآلاف بل الملايين الذين يُقْبِلون إلى الله عز وجل بحناجر ملتهبة بالدعاء من أقصى شرقنا الإسلامي إلى أقصى غربه.

أفيَرُدّ الله عز وجل دعاء هؤلاء الناس المنكسرة قلوبهم، الذين يطرقون باب الله سبحانه وتعالى ببذل العبودية من أجل خيانة رعناء، من أجل سلسلة من الخيانات، من أجل خيانة وقعت بالأمس في جنوب عراقنا الأغر؟ لا، إن الله سبحانه وتعالى سيستجيب: ﴿وأنا عند ظن عبدي بي﴾ وهذا ما أظن.

هما أمران اثنان أحببت أن ألفت نظري ونظركم إليهما.

أقول قولي هذا وأستغفر الله.

٨٦- العمل الصالح: أعم كلمة يستعملها البيان الإلهي | ٢٠٠٧/١٢/٢٨

إن الله عزّ وجلّ قد قرن سعادة الإنسان في العاجلة والآجلة بشيء واحد ألا وهو العمل الصالح، فهو الأمر الذي أناط الله عز وجل به سعادة الإنسان في كثير من آيٍ كتابه المبين، وإننا ننظر فنلاحظ أن البيان الإلهي لا يبغي عن كلمة العمل الصالح بديلاً؛ يقول الله عز وجل مثلاً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ إِنّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾ [الكهف: ٣٠]، ويقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ كانَتْ لَهُمْ جَنّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً﴾ [الكهف: ١٠٧]، ويقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً﴾ [مريم: ٩٦]، ولكنَّ في الناس من يتصور أن المعنى المراد بكلمة (الصالحات) أو (العمل الصالح) إنما هو جملة يسيرة من العبادات التي كثيراً ما تتحول إلى عادات أو إلى أعمال تقليدية، يُخَيَّل إلى الكثير من الناس أن المراد (بالأعمال الصالحة) هذه الطائفة اليسيرة من العبادات، والأمر ليس كذلك يا عباد الله، كلمة (العمل الصالح) كلمة عامة، بل لعلها أعم كلمة يستعملها البيان الإلهي للتعبير عن المهام التي خلق الله عز وجل الإنسانَ في هذه الحياة الدنيا للنهوض بها، كل ذلك يدخل في العمل الصالح، ما من عمل يُصْلِح حال الأسرة الإنسانية، أفراداً أو جماعاتٍ، طِبْق المقاصد الشرعية التي تدور عليها أحكام الشريعة الإسلامية إلا وهو داخل تحت معنى العمل الصالح.

وإذا لاحظنا الأوامر الإلهية التي تتكرر في كتاب الله عز وجل داعية الإنسان إلى العكوف على العمل الصالح أدركنا أن العبادة التي شرعها الله وشرَّف اللهُ الإنسانَ بها هي كل ما يُصْلح الأسرة الإنسانية على أن يُتَوِّج قصده في النهوض إلى ذلك باستنزال مرضاة الله سبحانه وتعالى، فالطبيب أقامه الله عز وجل على نوعٍ من الخدمة للأسرة الإنسانية، العمل الصالح يتمثل في أن يكون مخلصاً في خدمة عباد الله سبحانه وتعالى من الزاوية التي وجَّهَه الله سبحانه وتعالى إليها، وعندما يقول المصطفى ﴿من غش فليس منا﴾. فلنعلم أن الغش الذي أراده المصطفى الله عليه وسلم ليس ذلك المحصورَ في العمل التجاري بيعاً وشراءً؛ وإنما يتمثل في كل خيانةٍ يقوم بها الإنسان بالنسبة لعملٍ ما من الأعمال الإنسانية التي أقامه الله عز وجل عليها.

فغش الطبيب أن لا يُخْلِص في عمله الذي ينهض به للمريض الذي جاءه، غش الطبيب أن يتفق مع طبيب آخر أن يتبادلا المرضى فيما بينهما من أجل أن يفوز كل منهما بمزيد من المال يدخره في جيبه، وكل واحد منهما يجْزِي الآخر الجزاء الأوفى على هذه الخدمة، والمريض هو الذي يذهب ضحية ما بينهما.

غش المعلم في مدرسته أو جامعته أن يلاحظ الذخر الذي يناله والمال الذي يدخره بعيداً عن الإخلاص في العمل الذي أُنيط به في التعليم الذي كُلِّفَ به، وغش الموظف الذي أقامه الله عز وجل على خدمة عباد الله عز وجل في جانب من الجوانب المِصْلَحِيَّة التي تتعلق بحياة المجتمع، الغش بالنسبة إلى هذا الإنسان إنما هو أن ينظر إلى مصلحة شأنه، وأن يلقي الاهتمام بحال هذا الإنسان وراءه ظِهْرياً، والوسائل التي تتمثل في الخيانة – خيانة الموظف –كثيرة جداً– يا عباد الله – والوقت يضيق عن ذكرها، غش العامل في العمل الذي كُلِّف به تجاه رب العمل أن لا يُخْلِص لرب العمل في العهد الذي بينه وبينه أو العقد الذي أُبْرِمَ بينه وبينه، أن لا يُخْلِص في رعاية الأجهزة التي وضعت بين يديه، أن لا يُخْلِص في إتقان العمل الذي كُلِّف به، ولعل من أبرز مظاهر هذه الخيانة أن يتظاهر بالذهاب إلى أداء حق الله عز وجل في أوقات الصلاة المفروضة، فيفسحُ لذلك من الوقت ما طاب له، بحجة الوضوء، وبحجة صلاة النافلة، وبحجة قراءة شيء من القرآن يغطي راحته غير المشروعة بعبادة مشروعة في الظاهر، كل ذلك من الغش الذي حذر الله سبحانه وتعالى منه.

غش المزارع الذي نهى الله سبحانه وتعالى عنه هو أن يستعمل الوسائل المبيدة للإنسان – لا للحشرات – في سبيل أن يتسارع الخير إلى جيبه، وأن يتسارع الربح إلى داره، غير سائل عن النتيجة التي تؤول إليها حال من يأكلون من زرعه ومن يستفيدون من جهده؛ هذه الخيانة هي من الغش الذي حذر الله سبحانه وتعالى منه، غش التاجر أن يخون المستهلك – وما أكثر أنواع الخيانة للمستهلك!– الغش في البضاعة، الغش في الثمن، الغش في دعوى المصدر الذي جاءت السلعة منه، إلى آخر ما هنالك من أنواع كثيرة من الغش في الأعمال التجارية التي لو تحدثنا عنها تفصيلاً لجعلت الشاب يشيب من هول هذه الأنواع من الغش، الغش الذي حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم منه بالنسبة لمن أناط الله عز وجل به زمام المسؤولية – جَعَلَه مناطاً لقيادة الأمة – الغش هو أن ينام هذا الإنسان المسؤول عن خدمة الأمة، عن رعاية حالها، عن نسج أسباب الطمأنينة والأمن ورغد العيش لها، وأن يُجَنِّد وظيفته وعمله في

سبيل ذاته، في سبيل استغلال الفرصة وانتهاز الساعة التي قد لا تُعَوَّض بعد أيام من أجل أن يجني لنفسه على حساب الأمة مزيداً من الربح، مزيداً من أسباب الخير العاجل الذي لابد أن يتلوَه شقاء آجل مستمر. كل ذلك من أنواع الغش الذي حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم منه، بل هدد الغاش إذا قال: ﴿من غش فليس منا﴾.

العمل الصالح كلُّ هذه الجوانب التي قد يكلِّفُ الله سبحانه وتعالى عباده بها يوزعها مسؤوليات فيما بينهم، فإنْ هم نهضوا بها على النحو السليم المفيد للأمة وابتغاء مرضاة الله سبحانه وتعالى فقد قاموا بالأعمال الصالحة، حتى وإن لم تكثر عباداتُهم الأخرى، حتى وإن لم يذهب الواحد منهم كل عامٍ ذاهباً آيباً إلى الحج والعمرة، حتى وإن لم يكن له حظٌّ من القيام في الليل، كل ذلك من الأعمال الصالحة، إتقان العمل الذي أناط الله سبحانه وتعالى بالإنسان، وقد صح عن المصطفى الله عليه وسلم قوله: ﴿إن الله يحب من العبد إذا عمل عملاً أن يتقنه﴾. ولئن ضعَّفه بعض الباحثين والدارسين للحديث وأصوله، فالحقيقة أنه صحيح ومعناه صحيح، كرر رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا المعنى في أحاديث كثيرة أخرى: ﴿إن الله يحب من العبد إذا عمل عملاً أن يتقنه﴾ أقول هذا كلَّه بين يدي جوابٍ عن سؤال: مساجدنا تكتظ بالمصلين ولاسيما في مواسم العبادة، ومعاهدنا الشرعية تستقبل الوافدين – ولله الحمد – ومع ذلك فإننا ننظر في مواسم الشتاء، وإذا برحمة الله عز وجل المتمثلةَ في الأمطار السخية تتقلص، ثم إنها تتقلص، وما من عام إلا وننظر فنجد أن الخير قد تقلص فيه عن العام الذي سبق، فما الحكمة وها هم أولاء المصلُّون يكثرون، وها هم أولاء الذين يحجون إلى بيت الله يتضاعفون؟ الجواب هذا الذي أقوله لكم يا عباد الله.

من الخطأ الفادح بل المميت أن نحتكر أو أن نحصِر الطاعة في أعمال جزئية صغيرة آل معظمها إلى أعمال تقليدية بل إلى عادات، وآفة العبادة أن تتحول إلى عادة نعم. هذا هو السبب، الله سبحانه وتعالى وعدنا بأن يكرمنا بالرزق الوفير والأمطار السخية، وأن يخرج لنا من نبات الأرض ما طاب ولَذَّ، ولكن بشرط واحد؛ أن ننهض بالأعمال الصالحة التي كلفنا الله سبحانه وتعالى بها، والعمل الصالح – كما قلت لكم – هو أن يتقن الإنسان العمل الذي أناطه الله به، أقامك الله عاملاً في معمل، أو أقامك زارعاً في مزرعة، أو أقامك الله موظفاً في دائرة، أو أقامك الله مسؤولاً عن الأمة، أو أقامك الله سبحانه

وتعالى تاجراً أو طبيباً أو مهندساً، إذن فعبادتك التي تتقرب بها إلى الله بعد أداء أوامره المعروفة أن تتقن العمل الذي أناطه الله عز وجل بك، وأن تخلص لله عز وجل في هذا العمل، كم من مهندسين يهتم الواحد منهم أن يجمع المال في جيبه، ولكنه لا يهتم أبداً بأن يجعل عمله العلمي في خدمة أمته، ومن ثم فهو لا يبالي بأن يقيم المشروع هنا والمشروع هنا والمشروع هناك، وبعد سنوات تتحول هذه المشاريع إلى قبور، أجل إلى قبور، تُدْفَن فيها الأحياء الذي كانوا يعيشون فيها، أهذا من العمل الصالح؟! أم هذا أمر لا علاقة للدين به؟

نعم. وهذا الجواب الذي أقوله لكم يتضمن جواباً آخر عن سؤال آخر: لماذا يكرم الله عز وجل الغربيين بالأمطار السخية والثلوج الوافرة في كل شتاء، في حين أنهم بعيدون عن الإيمان بالله عز وجل الإيمان الحقيقي؟ الجواب هذا الذي ذكرت، ولقد سبق أن ذكرت أيضاً جواباً عن هذا السؤال: الله عز وجل يُكْرِم الإنسان في الدنيا إن هو أقام ميزان العدل بينه وبين الأسرة الإنسانية حيث يعيش، فإن كان أيضاً مؤمناً بالله جمع الله له بين سعادتي الدنيا والآخرة، وإن لم يكن من المؤمنين بالله عز وجل أكرمه بسعادة الدنيا وحاسبه يوم القيامة وأشقاه بناره الخالدة، هؤلاء الذين نتحدث عنهم؛ انظروا إلى الأعمال التي ينهضون بها، انظروا إلى المهام التي أنيطت بهم كيف ينهضون بها بدقة، انظروا إلى القوانين كيف تلاحقهم، كيف تثيب المحسن وكيف تعاقب المسيء، انظروا إلى الإنسانية كيف تكون مكلوءة بالعناية والرعاية والحراسة الدائمة، نعم إنهم غير مؤمنين ربما بالعقبى، ولكنهم ينفذون أوامر الله عز وجل فيما يتعلق بالعمل الصالح فيما بينهم وبين أفراد الأسرة الإنسانية في دار الدنيا، والله عز وجل يقول: ﴿كُلاًّ نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ وَما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾ [الإسراء: ٢٠] كونوا متقنين للأعمال التي كلَّفكم الله بها وأقامكم عليها، ولا يخوننّ الواحد منا أمته من خلال العمل الذي كُلِّفَ به أياً كان نوع هذا العمل، وليكن رائدنا في ذلك تنفيذ أوامر الله عز وجل، وانظروا إلى عطاء الله سيستمر دون انقطاع. أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم.

٨٧- تعظيم خطاب الله عز وجل | ٠٦/٠٦/٢٠٠٨

مواطن من عامة الناس طرق باب داره طارق فخرج لينظر وإذا به رسول رئيس الدولة جاءه برسالة منه، كيف يتلقى هذا المواطن هذه الرسالة يا عباد الله؟ إنه يفضها بيد مضطربة ويحملق فيها تحدوه إلى قراءتها أطياف من المشاعر مختلفة، شعور تعظيم ومهابة، شعور أمل وفرحة، شعور خوف، هكذا يتلقى هذا المواطن من عامة الناس رسالة من عبد مثله ولكنه يتبوأ مكان رئيس الدولة، ولقد تلقى الإنسان مثل هذه الرسالة ولكن من خالق الكون كله، تلقاها ممن بيده الأمر والخلق، أنفذ إليه هذه الرسالة يخاطبه فيها، وما أعلم أن مكرمة أكرم الله عز وجل بها الإنسان أجل وأعظم من تلك المكرمة التي أهَّلَه الله عز وجل من خلالها لخطابه، أهَّلَه الله عز وجل من خلالها لهذه الرسالة التي خاطبه فيها قائلاً: ﴿يَا عِبَادِيَ﴾ [العنكبوت: ٥٦]، كيف تلقى الإنسان هذه الرسالة؟ وأنا أتحدث عن المسلمين في هذا العصر، لا أتحدث عن العهود الغابرة ولا عن السلف الصالح، خاطب الله سبحانه وتعالى الإنسان لافتاً نظره إلى رسالته الهابطة إليه من عند الله عز وجل يقول: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [صّ: ٢٩]، يقول: ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً﴾ [الكهف: ٢٧]، يقول مقرعاً: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]، هذه التذكرة بألوانها المتنوعة تصك أسماعنا وتسري إلى قلوبنا فأين هي الاستجابة التي رأيناها في شخص ذلك المواطن إذ يتلقى رسالة من رئيس الدولة.

جل المسلمين يا عباد الله عن خطاب الله عز وجل معرضون، جل المسلمين عن هذه الرسالة الربانية الهابطة إليهم من عند الله تائهون، يلاحقهم بيان الله عز وجل، يعرفهم على ذاته العلية، يتحبب إليهم بآلائه ونعمه وهم عن هذا كله معرضون وبدنياهم وأهوائهم منشغلون، يحدثهم الله عز وجل عن المهمة التي خلقوا من أجلها وعن المآل الذي هم صائرون إليه وهم عن هذا النداء وهذا التنبيه معرضون غافلون.

ويأتي بيان الله سبحانه وتعالى يجسد حالة المسلمين هذه ويبينها وكأنها آيات نزلت في هذا العصر يا عباد الله: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً﴾ [الفرقان: ٣٠]، هذا قول صيغ بصيغة الماضي لكنه سيقوله لربه يوم القيامة عنا، ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ [صٓ:٦٧-٦٨]، ويزيد البيان الإلهي حديثه إلينا ونحن تائهون عاكفون على إعراضنا وغفلتنا ينبهنا إلى القسوة التي منيت بها أفئدتنا، يقول: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١] أي لو أنا وجهنا خطابنا هذا لا إلى بني الإنسان الذي أوتي قلباً نابضاً بالمشاعر الإنسانية بل إلى جبل جامد لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله ولكن ها هو ذا الإنسان في هذا العصر يبرهن على أن له قلباً أقسى من الحجارة وصدق الله القائل: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ﴾ [البقرة: ٧٤].

هذا بيان الله سبحانه وتعالى يصك أسماعنا فهل من مستيقظٍ عن هذه الغفلة يا عباد الله؟ هل من عائد إلى كتاب الله يتأمله وقد سما بنا ربنا إلى مستوى خطابه؟ عباد الله مصيبة المسلمين اليوم أنهم، بل جلهم ولا أقول كلهم، لا يتعرفون على كتاب الله، دعوكم من شباب نذروا أنفسهم لدراسة دين الله وحفظ كتاب الله، ضعوا هؤلاء جانباً، دعوكم من أناس يستأنسون ويستبشرون بقراءة آيات من كتاب الله ما بين كل حين وآخر لكن تعالوا ننظر إلى السواد الأعظم من المسلمين في هذا العصر، تعالوا ننظر إلى السواد الأعظم على اختلاف فئاتهم وعلى اختلاف رتبهم هل فيهم من يتعرف على كتاب الله ويفرق بينه وبين كلام من سنة رسول الله؟ هل فيهم من يجلس في صباح أو مساء ليقف على شيء من كتاب الله يتأمله ويتدبره وإنها لرسالة هبطت إلينا من علياء الربوبية، من مولانا وخالقنا سبحانه وتعالى؟ كلكم يعلم الجواب.

وليت أن المسلمين إذ أعرضوا في هذا العصر هذا الإعراض المخجل عن كتاب مولاهم وخالقهم ليت أنهم إذا أعرضوا هذا الإعراض وقفوا عند حدود الإعراض ولكنكم تعلمون أن الكثيرين منهم أضافوا إلى هذا الإعراض الاستهانة بكتاب الله عز وجل، الاستخفاف برسالة الله الهابطة إلينا، إنهم اتخذوا كتاب الله بوقاً للإعلان عن مصيبة الموت التي وقعت في بيت من البيوت، إنهم يتخذونه اليوم ترنيمات أثناء سير الجنازة إلى مقرها الأخير، إن فيهم من أصبح يجعل من كتاب الله سبحانه وتعالى ينبوع رزق بوسائل شتى

لا داعي إلى الحديث عنها، حتى إنكم لتعلمون أن في الناس من أصبح يستوحش من كتاب الله عز وجل إذا سمع آياتٍ تتلى في المنزل ولربما قال قائلهم ما هذا أهنالك مصيبة قد حلَّت بالدار؟!

كم وكم سمعنا مثل هذا، وربنا سبحانه وتعالى هو المطلع، صاحب هذا الخطاب الذي سما ثم سما بنا إلى رتبة لسنا أهلاً لها لولا فضل الله عز وجل وعظيم إحسانه، يرى هذا الذي فعلناه من الاستهانة، من الاستخفاف بكتاب الله سبحانه وتعالى، ألا ليت أن الغيارى على كتاب الله من القائمين على أمور هذه الأمة يمنعون هؤلاء الناس من هذه الاستهانة التي بلغت إلى أدنى درجات الاستخفاف بكتاب الله عز وجل، ألا ليت أنهم يصدرون صكوكاً بالمنع تحت طائلة العقوبة لكل من يريد أن يجعل من القرآن بوقاً للإعلان عن موت وقع في دار، لكل من يريد أن يجعل من القرآن ترنيمات تتلى أثناء سير الجنازة إلى مقرها الأخير، هذا أضعف الإيمان يا عباد الله، وهذ الذي يتم اليوم، يتم اليوم بالنسبة لماذا؟ بالنسبة لكتاب صدق الله عز وجل في وصفه إذ قال: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١].

كم وكم في كتاب الله عز وجل من مشاهد لو تأملناها يا عباد الله لذابت منا الحشاشة خجلاً من الله عز وجل، كم في القرآن من مشاهد لو تلوناها ووقفنا عندها بتدبر لفاضت أفئدتنا حباً وعشقاً لهذا الإله، كم وكم في القرآن من مشاهد لو تأملناها لفاضت أفئدتنا مهابةً وتعظيماً لهذا الإله، تعالوا فتأملوا في هذا المشهد الذي يخجل الإنسان إن كانت فيه ذرة من بقايا الإنسانية: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾ [الكهف: ٥٠] هل تأملتم في هذا العتاب الرقيق، كرمتكم وأمرت ملائكتي بالسجود لكم في شخص أبيكم آدم وكان فيهم إبليس، استكبر إبليس وأبى، طردته من ساحة رحمتي من أجلكم واليوم تعرضون عني وتتخذون من هذا الذي استكبر عليكم وآلى على نفسه أن يعاديكم إلى قيام الساعة، تتخذونه ولياً لكم من دوني وتعرضون عني!

كم وكم قرأت هذا البيان الإلهي وتأملته ورددته، كل إنسان إذا تلا هذا الكلام لابد أن تذوب منه الحشاشة خجلاً من الله ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ

أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾ [الكهف: ٥٠] أقول لا يا رب ما اتخذنا الشيطان ولياً من دونك، حاشى، لكنه الضعف ربما ساقنا إلى ما لا ينبغي أن نساق إليه، هكذا ينبغي أن نقف أمام كتاب الله، أعرضنا، لم نعد نتبين فيه شيئاً من هذه المشاهد، جعلناه أداة ومناديل للتعبير بها عن أحزاننا.

انظروا إلى هذا المشهد الثاني، كلمات، آية مختصرة: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ، فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٦١]، يا عبادي هل جزاء الإحسان الهابط إليكم من عندي نعماً وآلاءً وحماية إلا أن تقابلوا إحساني الهابط إليكم بإحسان منكم يصعد إلي، هذا هو المعنى الأول، المعنى الثاني يا عبادي هل جزاء الإحسان الذي يتعالى منكم إلي التزاماً بأمري وانقياداً لوصاياي ونصائحي، هل جزاء الإحسان الصاعد إلي منكم إلا أن أكرمكم بمثل هذا الإحسان، الآية محبوكة من طرفيها، هل جزاء الإحسان الهابط من العبد إلا الإحسان الصاعد من العبد إلى الله وهل جزاء الإحسان الصاعد من العبد إلى الله إلا أن يكرم الله بالمقابل إحساناً يهبط من الله عز وجل إلى الإنسان، ألا نخجل، ألا نستحي من أن نجعل هذا الكلام الرباني أداة نعلن به عن مصائبنا، ترانيم في سير الجنائز إلى المقابر، ترى ما الموقف الذي سنقفه غداً يوم القيامة إذا أخذنا بالنواصي وحاسبنا على هذا يا عباد الله؟

انظروا وتأملوا في قول الله سبحانه وتعالى وهو الذي يتحبب إلينا: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥] يعطيني ربي المال ويملأ بيتي بالنعم والعطاء ثم يقول لي ألا تقرضني شيئاً من مالك، أعدك أنني سأوفيك مقابل ما تقرضني أضعاف أضعاف ذلك، يا رب أنت الذي أعطيتني المال ثم أنت الذي تطلب مني أن أقرضك هذا المال، انظروا إلى هذا التحبب من مولانا وخالقنا سبحانه وتعالى إلينا، هذا الكلام كله مشهد وراء مشهد وراء مشهد، مئات المشاهد في كتاب الله عز وجل مطوية عن بصائرنا، مطوية عن آذاننا، أصبحنا نستخدم كتاب الله عز وجل أداة لاستثمار المال، أصبحنا نستخدم كتاب الله عز وجل لما تعلمون حتى أصبح كثير من الناس يتشائمون من الإصغاء إلى كلام الله عز جل في البيوت، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

٨٨- الثبات على الاستقامة – حق العباد | ٢٠٠٨/١٠/٠٣

بالأمس حدثتكم عن منهج الرحلة إلى الله سبحانه وتعالى والطريق الموصل إلى مرضاته وقلت إنه يتلخص في أداء حقين اثنين أولهما حق الله سبحانه وتعالى والثاني حق العباد وقلت إن حق الله عز وجل على العبد يتمثل في الخضوع التام لعبوديته لله سبحانه وتعالى وشرحت وبينت، أما الحديث عن الحق الثاني وهو حقوق العباد فقد أرجأت الكلام فيه إلى فرصة قادمة، ولعل هذه الفرصة مناسبة للحديث عما أرجأت الكلام فيه، للإنسان حق على أخيه الإنسان، وهذا الحق أيها الإخوة يتم تحقيقه من خلال ثلاث دوائر، الدائرة الأولى وهي الدائرة المحورية الصغيرة تتمثل في حقوق الأسرة والأرحام، أما الدائرة الثانية وهي التي تحيط بها فهي حق الأخوة في الله سبحانه وتعالى، الأخوة الإسلامية، وأما الدائرة الثالثة الواسعة التي تحيط بالدائرتين فهي حق الأخوة الإنسانية، ولأبدأ بالحديث عن النقطة المحورية ضمن هذه الدوائر ألا وهو حق الأسرة وما يحيط بها المتمثل في حق الأرحام.

الأسرة يا عباد الله وضعها كتاب الله عز وجل ضمن هالة من القداسة وضمن هالة من الأهمية وأفرد للحديث عن قدسيتها سورة واحدة تقريباً وجعل فاتحة هذه السورة تذكيراً بحق الأسرة وقدسيته ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [النساء: ١]، والأسرة تتكون من أصول وفروع، أما الأصول فهما الزوجان وأما الفروع فهم الأولاد، والحديث عن حقوق الأسرة حديث طويل الذيل بل حديث ذو شجون لا مجال لتفصيل القول فيه في هذا المقام لكني ألفت نظركم إلى شيء، اضبطوا حقوق الأسرة بالرجوع إلى ما يذكركم به كتاب الله في سورة النساء وفي غيرها أيضاً وحصنوا حق هذه الأسرة بالسور الذي يذكر الله سبحانه وتعالى به في محكم تبيانه، إنه السور الذي يحمي الأسرة ألا وهو صلة الرحم، صلة الرحم عبارة عن سور يحيط الأسرة المحورية الصغيرة، إذا حُفِظَتْ حقوق الأرحام روعيت الأسرة وإذا ضُيِّعَتْ صلة الأرحام تعرضت الأسرة هي الأخرى للضياع، وحسبكم في بيان أهمية صلة الأرحام وخطورة قطعها قول الله عز وجل: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ، أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٢-٢٣].

ولعلكم تعلمون يا عباد الله أن قوى الشر في العالم تتربص بأسرتكم الإسلامية أيما تربص وتضع الخطط الماكرة الخفية والمعلنة، والخفية منها هي الأخطر، في سبيل القضاء على الأسرة وتمييعها ثم تذويبها لتؤول الأسرة الإسلامية في المجتمعات الإسلامية إلى مثل ما آلت إليه الأسرة الغربية إذ قُضِيَ عليها وتحولت إلى ما يشبه أطلالاً من بناء، هذا هو الحق المحوري الأول الذي هو قلب هاتين الدائرتين، أما الحق الثاني من هذه الحقوق أو الدائرة الثانية من هذه الدوائر الثلاثة فتتمثل في حماية وأداء حقوق الأخوة الإسلامية، وأنا أذكر نفسي وأذكركم بالآية الجامعة المانعة التي لا تنسى في كتاب الله عز وجل والتي تحملنا جميعاً مسؤولية هذه الأخوة: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠].

تأملوا يا عباد الله في هذين الشطرين من الآية، الشطر الأول قرارٌ معلن، قرارٌ إخباري معل ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾. أما الشطر الثاني فأمر رباني يأتي على أعقاب ذلك القرار ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾، أما قرار الله عز وجل فلا داعي إلى أن نبحث الدليل عليه، والحديث في هذا أيضاً حديث طويل الذيل، ولاشك أن هذا القرار الراسخ يستدعي منا القيام بتطبيق مقتضاه، ومقتضاه أن نصلح ما بيننا وبين إخواننا في الله عز وجل ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾، أصلحوا كلمة جامعة تحتضن معاني تفصيلية شتى، مدوا بينكم وبين إخوانكم حبال المودة، حبال القربى، حبال، ولا أقول خيوط، التضامن، ذَوِّبُوا مما بينكم وبين إخوانكم عوامل الفرقة أياً كانت هذه العوامل، مزقوا مما بينكم وبين إخوانكم الحواجز التي تقطع بعضكم عن بعض أياً كانت هذه الحواجز ولتكن الحواجز المذهبية، الحواجز الفكرية، الحواجز الاجتهادية، إياكم أن تضحوا بالأخوة التي قررها الله عز وجل في محكم تبيانه وأمركم بالنهوض بواجباتها، إياكم أن تضحوا بهذا القرار الكبير في سبيل قضايا جزئية أكاد أقول إنها تافهة، وسلم الأولويات منهج معروف في شرع الله عز وجل، نضحي بالجزئي اليسير البسيط في سبيل حماية الكلي الخطير الهام، الأخوة الإسلامية بناء ينبغي ألا يُمَس، المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً، القضايا الاجتهادية، الخلافات المذهبية تمثل الجزئيات التي لا قيمة لها أمام هذا الصرح الذي أمرنا الله سبحانه وتعالى بحمايته، أقامه في القرار وأمرنا بحمايته في الحكم الذي أتبعه بذلك، وإنكم لتعلمون أن هنالك مؤامرات من قوى الشر وخططاً كائدة تهدف تمزيق هذه الأخوة، القضاء على هذا القرار الذي أقامه الله بقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

وإنني أحتفظ بوثائق يعبر من خلالها أعداء هذا الدين عن الحلم الذي يراودهم، عن الحلم الذي يُسْعِدُهم من حيث إنه يشقينا عندما يرون أن المسلمين قد تألَّبَ بعضهم على بعض، توصي هذه الوثيقة بأن يتم بذل ما يمكن في سبيل تأليب المسلمين بعضهم على بعض وفي سبيل جعل الاجتهادات الإسلامية سبباً للعداوات والخصومات التي ينبغي أن تكون سارية بينهم، مزقوا كل حواجز الفرقة وكل عوامل التدابر واستحيوا واستنبتوا المزيد من هذه الأخوة التي شرفنا الله سبحانه وتعالى بها ولا تنسوا هذا القرار الرباني الذي يضع في أعناقنا مسؤولية وأي مسؤولية ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾[الحجرات: ١٠]. هذه هي الدائرة الثانية.

أما الدائرة الثالثة فهي الأخوة الإنسانية، هل الأخوة في الإسلام تجعلنا نتيه أو نعرض عن الأخوة الإنسانية؟ لا يا عباد الله، ولا تصغوا إلى من يتيهون عن الحقيقة في هذا الأمر، يقول المصطفى صلى الله عليه وعلى آله وسلم فيما يرويه الطبراني في الكبير والبيهقي في شعب الإيمان وغيرهما أيضاً، أبو يعلى في مسنده عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: «الخلق كلهم عيال الله فأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله، الخلق كلهم عيال الله»، وكلمة عيال هنا تعني أنهم المكلوؤون برعاية الله أنهم المرتبطون بنسب العبودية إلى الله سبحانه وتعالى، فإن أردتم القرب إلى الله فإياكم أن تسيئوا إلى عيال الله أي إلى هؤلاء العبيد، ولا حظوا أيها الإخوة أن الله عز وجل قد أعلن عن تكريمه لهذه الخليقة، للإنسان أياً كان: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ [الاسراء: ٧٠].

قرار عام يشمل عباد الله جميعاً إذاً ينبغي علينا أن نكرم من كرمهم الله، ينبغي علينا ألا نستهين بهذه الخليقة التي كرمها الله أما المآل الذين رفضوا هذا التكريم فتاهوا في جنبات الأرض فهذا شأن لا يخصنا نحن وإنما مرد ذلك بين الله وبين هؤلاء الناس، إذاً ينبغي أن نلحظ هذه الدائرة الثالثة أيضاً، كيف؟ ننصح هؤلاء الذين كرمهم الله والذين ينتسبون إلى الله عز وجل بنسب العبودية التي عبر رسول الله عنها بكلمة العيال مجازاً، تكريمنا لهذه الخليقة يقتضي أولاً النصح لهم، ندعوهم إلى الله بسائق من الحب، بسائق من الغيرة، بسائق من الشفقة والرحمة لا بسائق من العصبية ضد من ندعوهم إلى الله لكي نتغلب عليهم، ينبغي أن نتبين هذا، نحقق هذه الأخوة الإنسانية ونؤدي واجباتها لله عز وجل تجاه هؤلاء الإخوة بأن

تكون علاقة ما بيننا وبينهم علاقة رحمة، علاقة ود لا علاقة بغضاء لأشخاصهم، نُبغض فيهم معاصيهم إن عصوا الله ولكننا نرحم العاصي.

انظروا في هذا إلى بيان الله إذ يروي من كلام سيدنا لوط وقد علمه الله ما يقوله لقومه ﴿إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٨]. إني لعملكم من المبغضين، لماذا لم يقل إني لكم من المبغضين، لأن المطلوب منا أن نبغض معصية العاصي لا أن نبغض العاصي ذاته، وهكذا كان أصحاب رسول الله رضوان الله عليهم، ولو شئت لوضعتكم أمام صور ومشاهد تجسد هذه الحقيقة ولكن الوقت أضيق من ذلك يا عباد الله، ندعوهم إلى الله والدافع إلى ذلك الشفقة، تمتد ما بيننا وبينهم صلة هذا الرحم الإنساني الذي أشار إليه المصطفى بقوله عليه الصلاة والسلام: الخلق كلهم عيال الله.

فإذا وجدنا أناساً عصاة شردوا عن صراط الله إما شروداً سلوكياً أو شروداً فكرياً نسأل الله لهم العافية والهداية، نسأل الله سبحانه وتعالى لهم حسن الإنابة إلى الله سبحانه وتعالى، لئن وجدنا الآخرين يقطعون ما بينهم وبيننا صلة القربى كرحم إنساني ويضعون الخطط تلو الخطط للإيقاع بنا وللقضاء علينا فما ينبغي أن نواجههم بمثل ما يواجهوننا به، ينبغي أن يكون لسان حالنا هو: أما نحن فربنا سبحانه وتعالى ينهانا عن أن نُسَوِّدَ قلوبنا بالأحقاد والضغائن، نحن ندافع عن أرضنا وندافع عن حقنا إذا امتُهِنَ أو طافت به الأخطار ولكنا في الوقت ذاته لا نضمر حقداً لمن كرمهم الله عز وجل كأشخاص.

ولاحظوا هذا المعنى كيف يتجلى يا عباد الله في تصرفات الربانيين من عباد الله سبحانه وتعالى، معروف الكرخي رجل معروف في علمه وورعه وربانيته، كان يمشي على شاطئ دجلة مع ثلة من مريديه وتلامذته، رأوا في عُرْضِ النهر الغمر الكبير شباباً يقصفون ويلهون ويرتكبون بعض المحظورات فقال أحدهم للشيخ يا سيدي انظر إلى هؤلاء الفسقة الماجنين ادع الله عليهم، فرفع يديه وقال: اللهم كما أدخلت السرور على أفئدتهم في الدنيا فأدخل السرور على أفئدتهم يوم القيامة، هذا يجسد يا عباد الله منهج الدعوة في حياتنا وعلاقة ما بيننا وبين الإخوة في الإنسانية وفي العبودية لله سبحانه وتعالى، هل خالف هذا الإنسان مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ لا، إذا استجاب الله دعاء الشيخ فمعنى ذلك أنه سيغفر لهم ويتوب عليهم ويلهمهم الرشد إذ لا يمكن أن يتوب الله عز وجل على كافر أو فاسق أو فاجر وهو عاكف على فجوره وكفره وفسقه.

هكذا ينبغي أن نُعَلِّمَ الغرب الذي يتاجر بمشاعر الحقد ضد عباد الله سبحانه وتعالى الذين أرادوا أن يقفوا في محاريب العبودية لله سبحانه وتعالى، ولربما كان التعليم الصامت أدعى إلى التأثير من الخطاب اللساني الموجه لاسيما إذا كان خطاباً لا حظ للقلب والمشاعر الإيمانية منه، إذا رحل الإنسان إلى الله وقد أدى حق العبوية لله وأدى حق الأسرة والرحم التي جعلها الله سوراً للأسرة وأدى حق العباد الذين كرمهم الله عز وجل بقطع النظر عن الأديان والمذاهب فإنه مهما رحل الله بالقصير والقليل من العمل فلسوف يجد رباً كريماً غفوراً رحيماً، عبوديتي لله ستشفع لي، صلتي ما بيني وبين عباد الله الذين غذيت علاقتي معهم بإصلاح هذا الشأن كما قال الله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠] تشفع لي عند الله عز وجل.

العبودية لله هي السبيل إلى أن أمارس حقيقة الأخوة مع عباد الله المسلمين وأن أمارس حقيقة الأخوة الإنسانية مع الدائرة الكبرى، منطلق ذلك كله أن أمارس عبوديتي لله عز وجل، إذا رحلت إلى الله حتى ولو كان عملي قليلاً فلسوف تشفع لي عبوديتي ورحم الله عز وجل ذلك الرجل الرباني الذي توفي فرآه صديق له شأنه كشأنه في العلم والصلاح والتقوى، رآه في الرؤيا، قال له ماذا صنع الله بك؟ قال أوقفني بين يديه وقال بم جئتني، أين هي الطاعات التي وفدت إلي بها؟ قلت يا ربي أنا عبد أنا لا أملك شيئاً، أنا لا أملك شيئاً قط، أنا جئت أنتظر عطاءك، أفتنتظر مني وأنا عبد أن أعطيك فكان هذا شفيعاً لي بين يدي الله، أسأل الله أن يلهمنا هذه الحجة إذا وقفنا غداً بين يديه، وكيف السبيل إلى أن نُلْهَمَ هذه الحجة؟ سبيل ذلك أن نغذي عبوديتنا لله اليوم، سبيل ذلك أن نتحقق بذل العبودية لله وأن تقودنا هذه العبودية إلى حماية الأسرة وإلى حماية الرحم وإلى حماية العلاقة الإنسانية ما بيننا وبين إخواننا المسلمين وإخواننا في الإنسانية. أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم فاستغفروه يغفر لكم.

٨٩- الأخلاء يومئذٍ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين | ٢٠٠٩/٠٦/٢٦

ورد في أسباب النزول أن عقبة بن أبي مُعَيط، وهو من مشركي قريش، أقام في داره وليمة دعا إليها بعض وجوه المشركين من قريش، وكان فيمن دُعِيَ إلى هذه الوليمة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فلما حضرت المائدة، وجيء بالطعام، أبى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يطعم من طعامه إلا إن شهد شهادة الإسلام، فعزَّ على عقبة بن أبي معيط أن يخرج محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم من داره وقد وضعت مائدة الطعام دون أن يطعم منها، فشهد شهادة الإسلام أمام الجمع كلهم، وكان له صديق اسمه أُبيّ بن خلف كان غائباً عن مكة آنذاك، ولما عاد إليها قيل له: إن صاحبك قد صبأ، فأسرع أُبيّ إلى عقبة يقول له: أحقاً أنك قد صبأت؟ فقال له: لقد دخل الرجل داري، وأصر على ألا يأكل من طعامي إلا إن شهدت شهادة الإسلام له، فأحببت أن أطيِّبَ خاطره بكلمة، فقال له أُبيّ: وجهي من وجهك حرام إن لم تلق محمداً وتبصق في وجهه وترد عليه دينه، وفعل عقبة ما طلبه صديقه منه، تحين فرصة لقاء لقي فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأعلن ارتداده عن الإسلام، وبصق في وجهه، فارتدت البصقة شظية إلى وجهه أحرقت طرفاً من وجهه.

هذا هو الذي حدث، وهو الذي رواه علماء السيرة وأصحاب النزول، وإليكم تعليق بيان الله عز وجل على هذا الذي حدث، يقول الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً، يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً، لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولاً﴾ [الفرقان:٢٥/٢٧]

عباد الله، ما أكثر الذين يخلفون اليوم كلاًّ من عقبة بن أبي معيط وأُبيّ بن خلف، ما أكثر هؤلاء الضالين والمضلّين، وحديث الباري سبحانه وتعالى في بيانه ليس عن هذين الشخصين اللذين اقتضت المناسبة أن تنزل هذه الآيات عنهما، وإنما تعني الآية كل من سار على نهج أُبيّ بن خلف، فلم يكتف بالضلال الذي يتصف به، بل أصرَّ على أن يضل الآخرين أيضاً، إن كلام الله سبحانه وتعالى يشمل

كل من ذاق لذة القرب من الله تعالى، وذاق نشوة التوبة والعودة إلى حظيرة الإيمان، ثم استبدل بهذه النشوة وبهذه اللذة الرجوع إلى الضلال والكفر

كم وكم من قرين صدَّ قرينه عن الهداية بعد أن وصلت إليه، صدَّ قرينه عن الوقوف بين يدي الله سبحانه وتعالى، صده عن لذة المناجاة لله عز وجل، صده عن السجود في الأسحار، صده عن مناجاة الله سبحانه وتعالى في الخلوات، حيل بينه وبين تلك اللذة التي كم وكم تقلَّب فيها، ما أكثر الذين ذهبوا ضحية الخلة الفاسدة وصدق الله القائل: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]، وعن هؤلاء وعما يحيق بهم غداً، وعن الندامة التي تأكل قلوبهم يقول الله عز وجل: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ، خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾ [القلم: ٤٣-٤٢].

هكذا يقول الله عز وجل عن أناس انقادوا لإضلال أخلاء أو أصدقاء أو قادة لهم في دار الدنيا، فانقطعوا عن السجود لله بعد أن ذاقوا لذته، انقطعوا عن الوقوف بين يدي الله عز وجل بعد أن ذاقوا نشوته، يوم القيامة يريد الواحد منهم أن يعود فيسجد ليتذكر لذة سجوده، ولكن لا يتأتى له ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ، خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ، فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ٤٣-٤٤]

عباد الله، بيان الله عز وجل يصور لنا بطريقة أخّاذة الندامة التي تفري قلوب هؤلاء الذين كانوا في دار الدنيا إما ضحايا لمن أضلهم، أو كانوا مُضلّين غير مقتنعين بضلالاتهم الشخصية لأنفسهم، يصور البيان الإلهي الندامة التي تحيق بهم ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولا، وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا، رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً﴾ [الأحزاب: ٦٦-٦٨].

أرأيتم إلى هذه الصورة يا عباد الله؟! أرأيتم إلى صورة العذاب الذي يُعاقَبُ به هؤلاء الذين استجابوا للإضلال، والذين أصروا بدورهم على الإضلال ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ صورة تأملوها ﴿يَوْمَ

تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولا، وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا﴾ ويحك، هل لك سيد غير ربك؟! ويحك، هل لك كبير ينعم عليك، يرأف بك، يحنو عليك، بيده حياتك، إليه مصيرك غير واحد لا ثاني له؟! كيف تنسى من بيده أمرك؟! كيف تنسى من إليه مصيرك، ثم تتخذ من دونه سيداً أو كبيراً؟! ولكن هكذا تاهوا في دار الدنيا، وهكذا أخذت الندامة تفري قلوبهم، إن الندامة هي التي تنطق على ألسنتهم بهذا الكلام ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا﴾ صور وليست صورة من الندامة التي يبرزها أمامنا بيان الله عز وجل، وإن الفرصة لا تزال سانحة، وإن الدهر لا يزال في المرحلة الأولى، مرحلة الحياة الدنيا، مرحلة التكليف، الفرصة سانحة للآيبين بعد شرود، للتائبين بعد ضلال.

عباد الله، لقد استعرضت ألوان العقاب التي أعدها ربنا سبحانه وتعالى للمستكبرين، التي أعدها الله سبحانه وتعالى لا للضالين بل للذين أصروا على أن يُضِلُّوا الآخرين، فما وجدت عقاباً ادخره الله عز وجل للعاتين والطغاة من عباده أشد من العقاب الذي أعده لمن أصروا على أن يُضِلُّوا عباد الله، لم أجد عقاباً في بيان الله عز وجل أشد من العقاب الذي بيَّنَهُ لنا كتاب الله عز وجل، وأعده لمن وقف في طريق السالكين إلى الله، لمن وقف في طريق الممارسين إن لعبادتهم أو لعبوديتهم لله سبحانه وتعالى، تأملوا في هذه الصورة، وإنها لواحدة من الصور الكثيرة ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى، عَبْداً إِذَا صَلَّى، أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى، أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى، أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى، أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى، كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ، نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ، فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ، سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ، كَلَّا لا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [العلق: ٩-١٩]

سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، صورة تأملوها – يا عباد الله – من بطلها في دار الدنيا، إنه أبو جهل، وقف أمام محمد صلى الله عليه وسلم يهدده إن هو رآه مرة أخرى يصلي في البيت أن يدق عنقه بقدمه، جاء بيان الله عز وجل يخاطبه بلطف ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى، عَبْداً إِذَا صَلَّى، أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى﴾ لعل هذا الذي يصلّي يسير على طريق الحق، لعله يسير إلى طريق الهداية، لعله يتعامل من الإنسانية المثلى، لماذا تمنعه؟ ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى، أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى، أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى، أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ لكن الرجل

مارس طغيانه، وعاد فهدده قائلاً: لئن رأيت محمداً يصلي بعد اليوم في البيت الحرام لأقتلنه، فجاء بيان الله عز وجل يقول: ﴿كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ﴾ لنسحبنه من ناصيته إلى النار ﴿كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ، نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ هدَّدَ بدعوة ناديه قال: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ، سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ، كَلَّا لا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾

صورة يضعنا بيان الله أمامها، أو يضعها بيان الله أمامنا، والفرصة سانحة لكي نعلم أن ولينا واحد هو الله، كبيرنا واحد هو الله، مولانا واحد هو الله سبحانه وتعالى ﴿اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد: ١١]

لسنا يتامى في جنبات الأرض – يا عباد الله – نحن منسوبون إلى الله، نحن عبيده، هو ولينا، وليس بعد ولاية الله لنا من سيد ولا كبير، لا يمكن إلا أن نطيع سيدنا الأوحد، كبيرنا الأوحد، جل جلاله سبحانه وتعالى، الفرصة لا تزال سانحة، والصور التي تتكرر في كتاب الله عز وجل تنطق قائلة: إياكم أن تضيعوا الفرصة، إياكم، ليفترض كل واحد منكم أنه ارتحل عبر بوابة الموت إلى الحياة الآخرة، ووقف في عرصات القيامة، ليتخذ الموقف الآن، ليتخذ الموقف الذي يعلم يقيناً أنه لن يزجه في ندم، وليكن هذا الموقف أياً شاء، المهم أن تعلم يقيناً أن الموقف الذي تتخذه الآن لن يزجك في الندم، ولن يحرق فؤادك ندامة وأسىً عندما تقف في عرصات القيامة بين يدي الله سبحانه وتعالى، حاذر الندامة، ثم اسلك في هذه الدنيا الطريق الذي تشاء، هذا ما يقوله لنا بيان الله سبحانه وتعالى ﴿الْأَخِلَّاءُ﴾، من هو خليلك في هذه الدنيا يا عبد الله؟ خليلك الذي يأخذ بيدك إلى الله فيكرمكما الله عز وجل بحبه بعد أن يكرمكما الله سبحانه وتعالى بجزاءه.

﴿المتحابّين فيَّ على سرر من نور يوم القيامة﴾، ﴿وجبت محبتي للمتحابين فيّ﴾، هذا هو خليلك يا أخي، خليلك ذاك الذي يدلُّك على الله، إياك أن تتخذ من شيطان من شياطين الإنس خليلاً لك، إياك أن تتخذ من شيطان من شياطين الإنس صديقاً لك، فيزجك يوم القيامة في ضلال، ثم يزجكما هذا الضلال معاً في ندامة، وصدق الله عز وجل القائل: ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ، قَالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ، مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [قّ: ٢٧-٢٩]



٩٠- الإنفاق والثبات على الأمر | ٢٠٠٩/٠٩/١٨

ها هو شهر رمضان قد هبَّ ليودعكم ولتودعوه، ولقد استشهدتموه خلال أيامه ولياليه على أنكم عائدون إلى الله، مصطلحون معه، ملتزمون بأوامره، تؤدون واجباته، تنتهون وتبتعدون عن محرماته، فإياكم -يا عباد الله- أن تخونوا استشهادكم له، فتكونوا كذلك الذي أشهد قريباً له أو أشهد أحداً من أهل العلم أو من المرشدين الذين تاب على أيديهم أشهده أنه تائب إلى الله، وأنه ملتزم بأوامر الله، سائر على صراطه، حتى إذا أدبر هذا المرشد وابتعد عنه عاد فأوغل مرة ثانية في معاصيه، وابتعد مرة أخرى عن أوامر الله سبحانه وتعالى، خان الشهادة وخان من استشهده، لا يكونن الواحد منكم مثل هذا الإنسان، يستشهد رمضان في أثناء توديعه له على أنه تائب سائر على صراط الله عز وجل، حتى إذا وَلَّى الشهر عاد مرة أخرى إلى دأبه الذي كان عليه. هذه واحدة من النقاط التي ينبغي أن أُذَكِّرَ نفسي وأُذَكِّرَكُمْ بها.

شيء آخر، لقد قيل: إن المساجد -بحمد الله- فاضت لا بالقائمين الركع السجد فقط، بل فاضت بمن أحْيَوا ليلة القدر، بل ربما كثيراً من الليالي التي قد تكون هي ليلة القدر، ولقد كان هذا حقيقة ولكني أسائل نفسي وأسائلكم: كم نسبة الذين سيدأبون ثابتين ملتزمين هذا النهج الذي ألزموا أنفسهم به بعد أن ينطوي رمضان وبعد أن تزول أيامه ولياليه؟ كم هم أولئك لا أقول: الذين يحيون الليالي، بل الذين يشهدون صلوات الجماعات والجمعات؟ كم هم أولئك الذين سيبتعدون عن المحرمات ويبتعدون عن الولوغ في المال الحرام؟ كم من الذين أحيوا ليلة القدر الفائتة الذين سيواصلون إخوانهم لا بالمصافحة والبسمة الظاهرة فقط بل بالتراحم، بالعطاء، بالإنفاق؟ كم.

إذا كان هؤلاء الذين فاضت بهم المساجد وهم يحيون ليلة القدر قد عاهدوا الله عز وجل على أن يثبتوا على أوامره، وأن يلتزموا حقوق الله عز وجل التي بينهم وبينه، وأن ينهضوا بالحقوق السارية بينهم وبين عباد الله، فأشهد أن هذا سيكون سبباً لرحمة عظمى يكرمنا الله سبحانه وتعالى بها، ولهذه الرحمة آثارها الكثيرة والكثيرة، ولكن الذي أعلمه -يا عباد الله- وأرجوا أن أكون خاطئاً فيما أعلم، أن النفوس

لا تزال تعاني من الشح إلا ما رحم ربك، وأن التراحم الحقيقي الذي أمر الله عز وجل به غائب عن الساحة إلا ما ندر.

التوجه إلى الصلاة ولا سيما في المواسم أمر سهل على النفوس، ولا سيما وإن المواسم تجعل النفوس تستأنس بهذا الشيء الذي يمر علينا ويطل علينا كل عام مرة، مزاج يدعونا إلى أن نجتمع ونصلي ونركع وندعو، وأن نعلن أصواتنا ونحن ندعو ونجأر إلى الله بالدعاء نحيل هذه الأصوات إلى المآذن، توقظ النائمين، وتقض مضجع المرضى، وكل ذلك دليل على أننا إنما نندفع إلى ذلك مزاجياً لا من أجل استنزال رضا الله سبحانه وتعالى ورحماته.

مرة أخرى أعود فأقول لكم: أيها الإخوة إن الناس الذين لا يتراحمون لا يرحمهم الله، ومقياس التراحم اليد، وليس مقياس التراحم البسمة التي تكون على الوجه، حدثتكم عن طرف من هذا في الأسبوع الماضي، وأعود فأقول: لو أن هؤلاء الذين فاضت المساجد بهم بالأمس ركعاً سجداً إلى لمعة الفجر أدوا حقوق الله عز وجل في أموالهم كما أمر، إذاً لذاب الفقر في المجتمع، ولفاض الخير ولتلألأت رحمة الله سبحانه وتعالى تطل على عباده في هذه البلدة.

عباد الله الصلوات التي أمرنا الله بها، الحج الذي دعانا إليه، الصيام الذي أمرنا به كل ذلك وسيلة لتراحم الناس بعضهم مع بعض، كل ذلك وسيلة لأن يكرم الغني الفقير، ولأن يعطف القوي على الضعيف، فإذا لم تتحقق هذه الثمرة من وراء عباداتنا فلعل ذلك دليل على أن عباداتنا غير مقبولة ولا مَرْضِيَّة عند الله عز وجل، ولقد حذر الله سبحانه وتعالى من الذين يكنزون الذهب والفضة، أي الذين لا يخرجون زكاة أموالهم، حذر هؤلاء الناس وأنذرهم كما لم ينذر المعرضين عن الصلاة، كما لم ينذر المعرضين عن الصيام، ألم تقرؤوا قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ، يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة:٣٤-٣٥] وكما قلت لكم من أخرج زكاة ماله بدقة خرج من عُهْدَةِ هذا الإنذار الذي يحذرنا منه بيان الله سبحانه وتعالى.

كثيرون هم الذين يتوقعون الفقر من المال الوفير الذي ينبغي أن يعطيه أحدهم للفقير، ملايين من الليرات ينبغي أن يدفعها؟! كل هذا ينبغي أن أُخْرِجَه من مالي؟! إذا سأفتقر، يرد الله عز وجل على هؤلاء هذا الوهم الباطل قائلاً: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٦٨]، يؤكد هذا فيقول: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٦١]، ويؤكد المصطفى صلى الله عليه وسلم هذه الحقيقة فيقول: ﴿ما نقص مالٌ من صدقة﴾ عباد الله ليت الذين فرض الله عز وجل عليهم الزكاة في أموالهم وهم متفاوتون في الغنى ليتهم يطرقون أبواب الفقراء الذين يعيشون بين ظهرانيهم، ليتهم يدخلون إلى بيوتاتهم ليجدوا مظاهر الأسى، وليجدوا مظاهر الآلام الممضة التي تتجلى من قلوبهم ظُلَلاً على وجوههم، ليتهم يرون هذا ثم يعودون إلى الإنسانية الراقدة بين جوانحهم لعلها تستيقظ.

أدركوا الساعات الباقية من شهر رمضان يا عباد الله، توّجوا طاعاتكم، لياليكم التي أحييتموها توّجوها بهذا التواصل، توّجوها بهذا التراحم، وإلا فاعلموا أن عبادة لا تعطي ثمارها غير مقبولة عند الله، وإن كانت مقبولة قضائياً في دار الدنيا.

وهنا ألفت نظركم إلى أمرٍ عجيب باهر يبرز لنا حكمة عجيبة بل مظهراً من مظاهر رحمة الله عز وجل، أن علاقة الأغنياء بالفقراء شبكة التواصل –كما قلت لكم– طريقها الإنفاق الذي أمر الله عز وجل به، ومن شأن هذه الشبكة إذا امتدت ما بين المعطي والآخذ أن تقدح مشاعر الحب والألفة والود فيما بينهم، لكن ماذا عسى أن يكون الشأن في هذا بين الفقير والفقير، بين مجموعة من الفقراء ليس فيهم من يعطي وليس فيهم من يأخذ فيما بينهم؟! الفقراء مع الفقراء ومن ثم فإن هذه الشبكة، شبكة سريان الود لن تتحقق فيما بينهم، الفقير ليس مكلفاً بالعطاء، والفقير الآخر لن يعطيه، ومن ثم فلن تمتد يدٌ بالعطاء، ولن تمتد يدٌ أخرى بالأخذ، ولكن الله الرحمن الرحيم شرع أمراً آخر يغطي هذه الحاجة، شرع زكاة الفطر، وزكاة الفطر قدر يسير يسير من المال أناطه الله عز وجل بعنق كل من يستطيع أن يؤديه، ولن تجد فقيراً لا يستطيع أن يؤدي زكاة فطره، لأن زكاة الفطر عبارة عما قيمته ألفي غرام من غالب قوت البلد، يخرج هذا القوت أو يخرج قيمته لإنسان فقير من الفقراء، ورُبَّ فقير تجده يخرج زكاة فطره، وفي اليوم

الثاني يأخذ زكاة فطره من إنسانٍ مثله، شرع الله سبحانه وتعالى هذا، وأمر به الناس جميعاً، لكن الحكمة من ذلك أن تسير هذه الشبكة شبكة العطاء والأخذ بين جماعات الفقراء فيما بينهم أيضاً، حتى تسري مشاعر الود ما بينهم آخذاً ومعطياً، وهم جميعاً فقراء، تجب على من مَلَكَ قوت نفسه وقوت من كلفه الله عز وجل بالإنفاق عليهم ليلة العيد ويومه، فإن فاض عن ذلك مبلغ وجب عليه إخراج زكاة فطره.

هذا المعنى الذي أقوله لكم يلفت نظرنا إلى أهمية التراحم، ويبين لنا أن التراحم لن يكون ببسمة كاذبة تتاجر بها بين عباد الله سبحانه وتعالى، ولا بالمصافحة بيد فارغة من العطاء وإنما يكون التراحم بالإنفاق الذي أمر الله عز وجل ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

قولوا لإخوة لنا أكرمهم الله بالمال الوفير، أكرمهم الله بالمال الذي ربما لا يستطيع الإحصاء أن يَعُدَّه، لا يَرقُدَنَّ الواحد منهم على هذا المال كما ترقد الدجاجة على بيضها، أنفقوا يا هؤلاء الناس من مال الله الذي أعطاكم، ولئن أجاب هؤلاء الناس إلى أمر الله سبحانه وتعالى، فأنا على يقين أن الفقر الذي يتنامى بين ظهرانينا وفي حواشي هذه البلدة وسائر أطرافها سينمحي، وإذا انمحى الفقر أكرمنا الله عز وجل بالقوة، أكرمنا الله عز وجل بالعطاء، أكرمنا الله عز وجل بالنصر، أكرمنا الله سبحانه وتعالى بالعزة، فلا تغلقوا أبواب هذه المنح كلها دونكم، وافتحوا أبوابها بهذه الطريقة التي أمرنا الله عز وجل بها.

هذه كلمتي في توديعنا لرمضان، فاجعلوا توديعه لنا صدىً لهذا الكلام الذي أقوله لكم، وأسأل الله عز وجل أن يثبتنا بقوله الثابت. أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم.

٩١- اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي | ٢٠٠٩/١٢/٠٤

إن النعم التي امتنَّ الله عز وجل بها على عباده كثيرة ومتنوعة ولكن ليست هنالك نعمة امتنَّ الله عز وجل بها على عباده كنعمة الإسلام الذي شرَّفهم به، تأملوا في هذا التمنُّن الذي نتبينه في كلام الله عز وجل وهو يخاطبنا به، يقول: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾، ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ أي كل النعم التي أغدقها الله عز وجل على الإنسان منذ نشأته إلى قيام الساعة نعم ناقصة لا يتممها إلا شرف هذا الدين الذي كلفهم به بل الذي شرفهم الله عز وجل به، ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ أي لقد تخيرت المذاهب والسبل والمبادئ كلها فما وجدت سبيلاً يضمن لكم سعادة العاجلة والعقبى إلا هذا الذي اخترته لكم، إلا هذا المبدأ الذي أحببته لكم ورضيت أن تلتزموا به فهو الذي يضمن لكم سعادة العاجلة في الدنيا والآجلة في العقبى.

ولعلكم تعلمون يا عباد الله أن هذا الإسلام الذي شرفنا الله به وامتن علينا به ليس خاصاً بأمة دون أمة ولم يشرِّف به بعثة نبي دون نبي بل ما أُرْسِلَ الأنبياء والرسل جميعاً إلا بهذا الدين وما شرفهم الله عز وجل وشرَّف أممهم وأقوامهم إلا بهذا الذي يمتن الله سبحانه وتعالى علينا به، أليس هو القائل: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ أليس هو القائل عن سيدنا عيسى ابن مريم على نبينا وعليه السلام: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ ألم يخبرنا الله سبحانه وتعالى عن يعقوب قائلاً: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾، هذا هو الدين الذي شرف الله عز وجل به الإنسانية جمعاء منذ فجر وجودها إلى أن يقوم الناس لرب العالمين.

عباد الله لو أن الإنسان عرف قيمة هذه النعمة لرفع رأسه عالياً بها ولما شعر وهو يعيش دنياه هذه بنشوة من خلال نعمة وفدت إليه من عند الله عز وجل كما يشعر بالنشوة التي تطوف برأسه إذ يجد

نفسه قد اصطبغ بهذا الدين، إذ يجد نفسه قد اصطبغ بهذه القيم التي شرفه الله سبحانه وتعالى بها، هذه حقيقة ينبغي أن نتبينها، وما شرع الله عز وجل ما شرع من مبادئ خاطبنا بها لمنفعة تعود إلى ذاته العلية، حاشاه، فهو إله قبل أن يخلقنا وقبل أن يخاطبنا بهذه المبادئ وهو الغني عن عباده جميعاً لكنه شرفنا بهذه المبادئ وبهذه القيم لأنها مفتاح سعادتنا ولأنه السبيل الأوحد إلى النهضة الحضارية المثلى التي يسعد بها الفرد وتسعد بها الجماعة، هل رأيتم مشكلة من المشكلات المتنوعة المتمثلة في المشكلات الاجتماعية أو الاقتصادية أو العلمية أو التي تتمثل في الضعف بعد القوة أو الفرقة بعد الاتحاد ولم تجدوا في دين الله عز وجل الذي شرفنا الله به دواءً لهذا الداء، يا عجباً يا عباد الله لمن يرمي بهذا الدواء إلى أقصى الشرق أو الغرب ويفصله عن دائه ليبعده عما جعله الله عز وجل دواءً له يفصل بينهما فصل ما بين المشرقين، لماذا؟

هذه نعمة دلَّ التاريخ القصي البعيد والقريب على أن أدواءنا، أمراضنا المختلفة إنما جعل الله عز وجل دواءها في هذه الشِّرْعَة التي امتن علينا بها، في هذا المبدأ الذي أخذنا الله عز وجل به، مشكلاتنا حُلَّتْ بالأمس عن طريق هذه القيم ولا يمكن أن تُحَلَّ اليوم إلا عن طريق هذه القيم.

بالأمس قبل شهر ونيف دُعِيْتُ إلى لقاء مع ثلة من السواح الأجانب فجلست إليهم في قاعة من هذا المسجد المبارك وقام القوم يسألونني كلٌّ يسألني عما بدر إلى ذهنه وعن المشكلات التي تطوف برأسه، قامت امرأة عرَّفَتْ على نفسها أنها امرأة فرنسية ذات مكانة مرموقة في أمتها ودولتها، قالت لي: مشكلتان اثنتان إلى اليوم لم نستطع أن نحل أيّاً منهما، الأولى مجتمعاتنا الغربية الرجال فيها ينظرون إلى النساء نظرة دون، عند التعامل يتجلى هذا بشكل واضح وحاولنا جاهدين أن تكون المستويات في مختلف مجالات التعامل بين الرجل والمرأة واحدة ولكننا لم نفلح إلى اليوم، معاملة الرجل للمرأة تنبئ عن نوعٍ من الازدراء لها ولم نستطع إلى اليوم حلاً لها، أما المشكلة الثانية فهي أننا كنا ولا نزال نناضل في سبيل أن يكون أجر المرأة على العمل كأجر الرجل تماماً ولكننا لم نستطع أيضاً حل هذه المشكلة، هل من سبيلٍ عندكم لحل هاتين المشكلتين؟

طافت بذهني نشوة للجواب الذي لم أنطق به بعد عندما سمعت هذا السؤال، قلت لها: أما ما يتعلق بسوء التعامل من الرجل للمرأة عندكم، هذا السوء الذي ينبئ عن نظرة دونية فلقد عالج هذه المشكلة كتاب الله عز وجل، عالج هذه المشكلة المبدأ الذي خاطبنا الله عز وجل به وأَمَرَنَا أن نأخذ أنفسنا به

وذلك إذ قال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾، أرسى بيان الله ما تسميه الشريعة الإسلامية الولاية المتبادلة بين الرجل والمرأة أي أن المرأة في مبدأ الإسلام وشرعته تمارس الولاية على الرجل في الأسرة والرجل أيضاً يمارس في الوقت ذاته الولاية على المرأة في الأسرة وكلا الولايتان تتعانقان في سبيل تحقيق السعادة إن في المنزل أو في المجتمع، الولاية المتبادلة شرعة الله التي لا يعلم القانون الوضعي إلى اليوم معنى أو تطبيقاً لها.

أما المشكلة الثانية وهي مشكلة دنو أجر المرأة في العمل عن أجر الرجل فلقد حلَّها البيان الإلهي ومن ثم حلَّتْها الشريعة الإسلامية عندما قال لنا الله عز وجل: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾، إذا قدَّمْتُ لك الجهد اللائق بما قد طلبْتَهُ ما ينبغي أن تبخسه لي سواء كنتُ رجلاً أو امرأة، شريعة الله عز وجل تقرر أن الأجر في العمل على الإتقان في العمل وليس على هوية العامل، لا علاقة لهوية العامل بالأجر الذي يستحقه العامل وإنما المناط إتقان العمل، هكذا قررت الشريعة الإسلامية استجابة لأمر الله القائل ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ وهكذا قررت في كلٍّ من باب الجعالة والإجارة. أجبت، لساني كان يجيب ببيان الحكم وفكري كانت تطوف به نشوة حمداً لله عز وجل على هذه الشرعة الغراء التي سما الله سبحانه وتعالى بها، سما بالإنسان إليها.

عباد الله ألم يئن لنا جميعاً ولإخوة لنا أن يعلمون أن أدواءنا التي نعاني منها، لا والله ليس لها من دواء إلا هذا الذي شرفنا الله به ومن ثم امتن علينا الله عز وجل به، أتريدون دليلاً فوق دليل البيان الواقعي الميداني تعالوا أقل لكم دليلاً مختصراً لا يسمح هذا الوقت بأكثر منه، إنما تنهض الأمة نهضتها الحضارية المثلى عن طريق التعاون أولاً، هي الخطوة الأولى، ولكن لابد لكي يؤتِيَ التعاون ثماره أن تشيع بين المتعاونين الثقة فلئن لم تكن هنالك ثقة بين الجهات المتعاونة فإن التعاون يصبح أنكاثاً لا جدوى من ورائه، الثقة هي روح التعاون بين الجهات المتعاونة، والثقة من أين تأتي؟ إنما تأتي الثقة من الأخلاق الإنسانية المثلى، أخلاقك الإنسانية المثلى عندما تتلألأ في كيانك تبعث في نفسي الثقة بك وأخلاقي الإنسانية المثلى عندما تتجلى لك تبعث في نفسك الثقة بي ولكن من أين تأتي الأخلاق الإنسانية المثلى؟

لا والله لن تأتي الأخلاقية الإنسانية المثلى إلا عندما يقف الإنسان أمام مرآة ذاته فيعلم أنه عبد مملوك لله عز وجل وأنه إنما يتحرك بقبضة الله وأن الله الذي أمره ونهاه يراقبه، إن أحسن له الأجر الكبير

يوم القيامة ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وإن أساء فله العقاب الوبيل الذي ينتظره، عندما أصطبغ بهذه الحقيقة تنبع مبادئ الأخلاقية الإنسانية المثلى في كياني، عندئذٍ أوثرك على نفسي، عندئذٍ إذا اضطرِرتُ أضحي بمصلحتي في سبيلك، عندئذٍ يتحقق التعاون الذي تسري فيه روحه، وروحه كما قلت لكم الثقة، هذا هو الدليل الذي ينبغي أن نتبينه جميعاً يا عباد الله.

لعل فينا من قد يقول وها نحن ولله الحمد نرى أن المسلمين بخير، نرى المسلمين مصطبغين بإسلامهم ولا أدل على ذلك من أن مساجدهم تفيض كما هو الحال الآن بالمصلين، بالراكعين الساجدين فما لنا نجد مشكلاتنا تتفاقم دون حل؟ وأقول لهذا الذي قد يسأل هذا السؤال لا تقف عند المشاهد والصور، لا تحبس عينيك عند المظاهر، اخترق المشاهد والمظاهر إلى ما وراء ذلك تجد نقيض هذا الذي تقول، ما الذي تراه إن اخترقت صورة المساجد التي تفيض بالمصلين؟ ما الذي تراه إن اخترقت صورة الناس الذاهبين الآيبين إلى بيت الله الحرام حجاجاً ومعتمرين؟ تجد القِطَاعاتِ الكثيرة من الناس الذين لا يعلمون من إسلامهم الذي شرفهم الله به شيئاً، لو سألت واحداً منهم عن مبدأ بدهي من مبادئ الإسلام لرفع رأسه معتزاً وهو يقول لست متخصصاً بالدين وكأن الدين الذي شرفنا الله به اختصاص يختص به أناس دون ناس وكأننا لسنا نحن الذين خاطبنا الله قائلاً: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ، مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾.

تجاوز الظاهر تجد الكثير والكثير ممن ينعت هذه الشرعة التي شرفنا الله بها والتي هي الدواء لكل مشكلاتنا ينعتنا بالعود إلى العهود الظلامية الغابرة، ينعت الذين يريدون عوداً حميداً إلى المبادئ والقيم التي شرفنا الله عز وجل بها ينعت هذه الرجعة إلى رجعة إلى نوعٍ من الظلام، إلى نوعٍ من التخلف وكأنما الإسلام ليس هو السُّلَّم الذي صعد منه أولئك الأعراب أعراب البادية إلى الحضارة المثلى خلال عشرين عاماً، تأمل فيما وراء هذه المشاهد التي تحبس نفسك فيها تأمل فيما وراءها، قل لي كم هم عدد الذين يستجيبون لأمر الله القائل: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾، كم هم الذين لا يستخفون بالصلاة إذا حان ميقاتها، كم هم الذين يتسامون ويترفعون عن الاستجابة لهذا الأمر الرباني.

لا، الأمر ليس كما نتصور يا عباد الله، ولكن الإشكال لم ينته بعد، إن فينا من قد يقول فهاهم أولاء أمم الغرب، ها هي ذي المجتمعات الغربية تتمتع بحضارة متقدمة وتتمتع بتقدمٍ تقني وعلمي وحضاري

واجتماعي واقتصادي دون أن تلتزم بهذا الشرف الذي امتن الله عز وجل علينا به فما الجواب؟ لو أن الوقت لم يضق عن الجواب لحدثتكم في الجواب عنها حديثاً يشفي الغليل، حديثاً يضعنا أمام الحق الأبلج ولكن الوقت ضاق وأسأل الله عز وجل إن متعني بالحياة وجمعني بكم في الأسبوع القادم أن أجيب عن هذا السؤال مفصلاً. أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.



٩٢- التكاليف الشرعية يسرها وعسرها | ٢٠١٠/٠٣/١٢

إن التكاليف الشرعية التي خاطبنا الله سبحانه وتعالى بها مهما اختلفت وتنوعت ليس فيها ما هو يسير بالنسبة للإنسان الذي استقبلها معتمداً على نفسه، معتمداً على ما يتخيل من قوته، وإن التكاليف الشرعية التي خاطبَنَا الله عز وجل بها على تنوعها واختلافها ليس فيها ما هو عسير قط بالنسبة للإنسان الذي استقبلها معتمداً على مولاه وخالقه، ملتجئاً إلى قوة ربه سبحانه وتعالى متبرئاً من حوله وقوته، هذه حقيقة ينبغي أولاً أن نتبينها جميعاً.

والمشكلة التي يعاني منها أكثر المسلمين اليوم أنهم عندما يتلقون التكاليف الربانية التي يخاطبهم الله سبحانه وتعالى بها يتلقونها معتمدين على أنفسهم، معتمدين على أوهام قوتهم وقدراتهم فيفاجَؤون بالعجز ويفاجَؤون بالضعف ومن ثم يتراجعون وينكِصون على أعقابهم بصدد هذه التكاليف أو أكثرها.

إذا ذُكِّرَ أحدهم بضرورة الابتعاد عما حرَّم الله سبحانه وتعالى من الفواحش، عما حرَّم الله سبحانه وتعالى من الموبقات والاستجابة للغرائز المنحرفة شكا عجزه وشكا ما يسميه بالتحديات التي تفاجئه.

وإذا ذُكِّرَ أحدهم بضرورة الالتزام بضوابط التعاملات الشرعية في السوق والابتعاد عن أسباب الفساد والإفساد فيه والابتعاد عما حرَّم الله سبحانه وتعالى من ألوان المنكرات المعروفة في السوق ومن ألوان المعاملات التائهة والشاردة عن أوامر الله سبحانه وتعالى شكا وتأفَّف مشيراً إلى عجزه، مشيراً إلى التحديات التي تواجهه ومن ثم تجعله عاجزاً عن الاستجابة لأمر الله سبحانه وتعالى فيها ومن ثم يظل عاكفاً على انحرافاته المختلفة في السوق في المعاملات. وما أكثر أنواع التيه التي تعرفونها في المعاملات المالية المختلفة.

وإذا ذُكِّرَ أحدهم بضرورة الالتزام بالأخلاق الإنسانية الفاضلة في البيت داخل الأسرة إذا ذُكِّرَ أحدهم بضوابط تعامل الزوج مع الزوجة والزوجة مع الزوج ومسؤولية الآباء عن الأبناء عاد يتأفَّف وعاد يعلن عن عجزه وعاد يعبِّر عما يسميه التحديات التي تواجهه في المجتمع ومن ثم تجعله عاجزاً عن الانضباط بأوامر الله سبحانه وتعالى. ما السبب في ذلك؟

السبب أن هؤلاء الناس استقبلوا أوامر الله عز وجل وتكاليفه معتمدين على أوهام قوتهم، معتمدين على أوهام قدراتهم، وأنا أسأل هل في الناس قديماً وحديثاً من امتلك أو يمتلك قدرة ذاتية مستقلة يمارس بها شؤونه فضلاً عن أن يستجيب بها إلى أوامر سبحانه وتعالى وتكاليفه؟ هل في الرسل والأنبياء من اعتمدوا على قواهم وقدراتهم الذاتية بصدد الاستجابة لأوامر الله عز وجل فيما خاطبهم به؟ هل هنالك من صبر دون أن يصبِّره الله؟! هل هنالك من قَدَرَ على أمر ما دون أن يُقْدِره الله سبحانه وتعالى سبحانه وتعالى؟! أ لم تقرؤوا قول الله عز وجل: ﴿وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً﴾ [النساء: ٢٨] ألم تقرؤوا قول الله عز وجل: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤]

في منتهى العجز، في منتهى الضعف الذي يجعله يتحمل المشاق والجهد بصدد ما يريد أن ينفِّذه من أحكام. ألم تقرؤوا قول الله عز وجل: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات: ٥٠]

فروا إلى الله من ماذا؟ فروا إلى الله من ضعفكم، فروا إلى الله من عجزكم، فروا إلى الله مما تسمونه التحديات ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات: ٥٠]

تلك هي المشكلة التي يعاني منها كثيرٌ من المسلمين في عصرنا اليوم. وكلمة التحديات كلمة حديثة لم تعرفها الأجيال السابقة وإنما هي كلمة تدور على ألسن الذين فوجِئوا بعجزهم عندما اعتمدوا على أنفسهم، فوجِئوا بضعفهم عندما اتكلوا على قدراتهم فراحوا يعبرون عن ذلك بكلمة التحديات وإنها لكلمة ما عرفها أصحاب رسول الله ولقد كانت الجهود التي تحملوها أضعاف ما يتحمله كثيرٌ من المسلمين اليوم مما يسمونه التحديات.

استقبل التابعون أوامر الله وتكاليفه وفتحوا مشارق الأرض ومغاربها منفِّذين أوامر الله عز وجل ولم يتأفَّف أحد منهم ولم يشْك أنه يواجه ما يسميه بعضهم اليوم بالتحديات، ما الفرق بينهم وبين المسلمين- أو بعض المسلمين- اليوم؟! أولئك اتكلوا على توفيق الله واعتمدوا على قدرة الله، وكان ترجمان اعتمادهم على قدرة الله عز وجل الالتجاء الدائم والتضرع المستمر على أعتابه والانكسار الدائم بين يدي مولاهم وخالقهم عز وجل. بهذه الطريقة استنزلوا القدرة من عند الله عز وجل، وبهذه الوسيلة — وسيلة الوقوف على باب الله، وسيلة التضرع الدائم على أعتاب الله، وسيلة الانكسار والتذلل الدائم بين يدي الله —

استنزلوا القدرة ومن ثم تحوَّل عجزهم إلى قوة وتحول ضعفهم إلى مُكْنَة، ولكنها ليست قدرتهم، إنها قدرة الله سبحانه وتعالى.

واليوم لو أن المسلمين الذين يتلقون ما تلقاه أسلافهم من أوامر الله سبحانه وتعالى وتكاليفه اتجهوا إلى ما اتجه إليه أسلافهم من التضرع على أعتاب الله ومن التمسكن أمام باب الله ومن التذلل والانكسار داعين متضرعين باستمرار دائم إذن لوجد هؤلاء المسلمون أن المعجزات التي متَّع الله بها عبادَه من الأجيال السابقة يمتِّعهم بمثلها اليوم أيضاً. سُنَّةُ الله عز وجل واحدة في عباده لا تتبدل ولا تتغير.

كلمة التكاليف – أيها الإخوة – مشتقة من الكُلْفَة، والكلفة تعني المشقة، ولله حكمة باهرة في أنه حمَّلَنا ما حمَّلنا من المشاق التي يُعَبَّرُ عنها بالتكاليف، من أجل ماذا؟ من أجل أن توقظنا أعباء هذه المشاق إلى ذُلِّنَا، إلى عجزنا ومن ثم إلى عبوديتنا لله سبحانه وتعالى فتستيقظ مشاعر هذه العبودية بين جوانحنا ومن ثم نلتجئ إلى الله، ويكون التجاؤنا لا في ساعةٍ من نهار، لا، بل يكون التجاؤنا غذاءً مستمراً بين يدي نهوضنا بالتكاليف التي أمرنا الله سبحانه وتعالى بها. ألا تقرؤون في كل يوم بين يدي الله عز وجل وأنتم واقفون بين يديه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] ما علاقة ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ بقولنا ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ إياك نعبد دعوى نقولها، نقصد بذلك العزم والعقد بيننا وبين الله عز وجل على الاستجابة لأمره ثم إننا نعلن مع ذلك تماماً عن عجزنا وعن ضعفنا وعن أنا لا نملك أي قدرة على أن نستجيب ونتحقق بما عاهدنا الله عز وجل عليه ومن ثم نقول: ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. كلمة ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ هي التي تُدْخِلُ الروح والحيوية في قولنا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾. ألم تقرؤوا الله عز وجل – وهو يتحدث عن هذه السُّنة الربانية

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ، فَلَوْلا إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ، فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢-٤٤]

تلك سنة ماضية في عباد الله عز وجل، يأخذ الله عباده بالشدائد – أجل- لكن لماذا؟ من أجل أن تسوقهم عصي الشدائد إلى الله، من أجل أن يفرُّوا إلى الله سبحانه وتعالى

يا عباد الله: أوامر الله التي تلاحقنا ما أيسر أن ننفِّذها إن نحن التفتنا إلى الله، إن نحن هُرِعْنَا جاهدين ملتصقين بأعتاب الله، إن نحن نفَّذْنَا قول الله القائل: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات: ٥٠]

ما أيسر على الذين يشكون أنهم لا يستطيعون أن ينضبطوا بضوابط المعاملات المالية الشرعية في السوق، ما أيسر أن يتلزموا بها إن هم في الغدو والآصال التجؤوا إلى الله واستنزلوا التوفيق من عند الله بصدق وبحرقة وانكسار، تنظر عندئذٍ وإذا التجار يلتزمون الجادة التي شرعها الله، لا يوجد في السوق فساد ولا إفساد لا في أقوات الناس ولا في المعاملات ولا في الرشاوي ولا في شيءٍ غير ذلك.

ما أيسر لمن يتعامل مع أهله في الدار ثم يشكو أنه يعاني من مشكلات داخل داره ولا يستطيع أن ينفِّذَ أوامر الله تجاه زوجته أو تجاه أولاده.

ما أيسر أن يجد الانقياد لأوامر الله يسيراً إن هو فعل ما قلته لكم، إن هو تبرَّأ من حوله وقوته والتجأ إلى الله التجاءً صادقاً منكسراً يقف موقف الشَّحَّاذ أمام باب الله عز وجل يقول له: يا رب أمرتني وأنا عاجز كلَّفْتَنِي وأنا ضعيف، هلاَّ أبدلتَ ضعفي قوةً، هلاَّ أبدلتَ عجزي مكنة، اللهم إني عبدك الضعيف ألتجئ إليك وأفرُّ من عجزي إليك؟ وإذا بالباري عز وجل يستجيب. ما من شاب من الشباب الذين يشكون إليَّ أنهم يريدون الاستقامة على صراط الله ولكن غرائزهم المهتاجة تدعوهم إلى الانفلات، إلى الشرود، ماذا نصنع؟ الباب مفتوح والدواء أمامك. الدواء أن تلتجئ إلى الله، قل واشك إلى الله حالك، اشك إلى الله ضعفك.

وقف أحدهم في بَهْوٍ في الجامعة يشكو إليَّ ضعفه وعجزه، يشكو إليَّ بحرقة أنه لا يريد أن يعصي الله ولكنه عاجز وهو طالب في الجامعة، نفسه تجمح به وتدعوه إلى ارتكاب المحرمات، ماذا أصنع؟ قلت له: أرأيت إلى هذا الانكسار الذي تبديه إليَّ، توجه بهذا الانكسار ذاته ولكن لا إليَّ، أنا ضعيف مثلك، توجه بهذا الانكسار إلى ربك، توجه بهذا الضعف إلى مولاك، توجه بهذا التذلل إلى خالقك، قل له في جنح الليالي، قل له في أوقاتك الخاصة: يا رب أنا أحب أن أطيعك ولا أحب أن أعصيك لكني ضعيف

عاجز كما قد وصفتَ عبادك فيا رب أمكنِّي أن أكون عند أوامرك، أقدرني على أن أستجيب لحكمك. افعل هذا ولسوف تجد أن الله يقول لك: لبيك يا عبدي.

هذا دواء المسلمين اليوم يا عباد الله. قولوا لكل من يشكو ما يسميه التحديات على اختلافها – سواء تلك الآتية من آخر المغرب أو آخر المشارق أو تلك التي تنبع من مجتمعاتنا – قولوا لهؤلاء الذين يشكون ما يسمونه بالتحديات دواؤكم موصوف وعلاجكم موجود، استعملوه، إنه الالتجاء إلى الله، إنه التضرع الدائم، إنه الانكسار على أعتاب الله وانظروا كيف تجدون الاستجابة بعد الاستعمال.

أقول قولي هذا واستغفر الله العظيم فاستغفروه يغفر لكم.



٩٣- ولا تنسوا الفضل بينكم | ٢٠١٠/٠٣/١٩

جزءٌ من آيةٍ في كتاب الله سبحانه وتعالى استوقفني طويلاً. أما الآية فقول الله سبحانه وتعالى ﴿وَأَن تَعْفُواْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلاَ تَنسَوُاْ الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٧] وأما الجزء من الآية فقول الله عز وجل ﴿وَلاَ تَنسَوُاْ الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ هذه الجملة من هذه الآية العظيمة لو أردنا أن نتحدث عما تتضمنه من المعاني والمبادئ لضاق الوقت ولربما أُنْفِقَ في ذلك مجلد كامل ولكن ما لا يدرك كله لا يترك كله

تعالوا نقف على ملخص ما تدل عليه هذه الجملة أو هذه الفقرة من الآية القرآنية ﴿وَلاَ تَنسَوُاْ الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ يحب الله سبحانه وتعالى أن تمتد بين عباده آصرة الأُلفة، آصرة المحبة والود ومن ثم آصرة التعاون. ولكن فما السبيل الذي يسَّرَهُ الله سبحانه وتعالى لتحقق هذه الآصرة ولامتدادها بين عباد الله جميعاً؟؟

سبيل ذلك ما قد شاءه الله سبحانه وتعالى من أن لا يكون الإنسان أياً كان —حاشى الرسل والأنبياء— معصوماً عن الأخطاء والعيوب والآثام. هكذا قضى الله سبحانه وتعالى ببالغ حكمته ألا يكون في الناس — حاشى الرسل والأنبياء — معصوم عن الأخطاء والآثام والعيوب. كما شاء الله سبحانه وتعالى أن يقسم بين عباده المزايا والمبادئ الأخلاقية السامية، شاء الله عز وجل أن يجعل منها قسمةً تشيع فيما بينهم جميعاً. ومن ثم فقد فَوَّتَ الباري سبحانه وتعالى بحكمته الباهرة على الإنسان — أياً كان — أن يتباهى على أنداده وإخوانه بالعصمة. لا يمكن أن يتأتَّى له ذلك لأن الناس كلهم كما قال المصطفى خطاؤون وخير الخطائين التوابون.

كذلكم لا يتأتى للإنسان أياً كان — وأنا أستثني دائماً الرسل والأنبياء — أن يتباهى بمزية من الالتزام والاستقامة على المبادئ الأخلاقية متعه الله عز وجل بها. لا يتأتى له أن يتباهى على الآخرين بذلك لأنه كما يشعر بأن الله قد أنعم عليه ببعض هذه المزايا فإنه ينبغي أن يعلم أن الآخرين يتمتعون بمزايا أخرى فاتته ولم يتمتع بها. ومن ثم فلا يتأتى للإنسان أن يقف فيفَضِّل نفسه على عباد الله جميعاً لأنه مستقيم

على أوامر الله غير شاردٍ عن صراط الله عز وجل. من هو هذا الذي يزعم أن ذلك. فَوَّتَ الباري عز وجل هذه الفرصة على عباده جميعاً. فَوَّتَ الله سبحانه وتعالى الفرصة على عباده جميعاً أن يتباهى أحدهم بأنه يتمتع بخلق فاضل لم يتمتع به الآخرون. إن كان قد تمتع بخلق فاضل حسن فقد أكرم الله عز وجل الآخرين من الأخلاق الفاضلة والمزايا الحميدة بما لم يتمتع به هو. وسبحان من وزع المنائح بين عباده كما وزع فيما بينهم الابتلاءات بالنقائص

وهكذا فإنني عندما أنظر إليك لابد أن أفضِّلَكَ على نفسي لأنني أنظر فأجد أنك تتمتع بمزايا حميدة لم أتمتع بها، ولأنني أتأمل فأجد أنك وُقِيْتَ من كثيرٍ من الانحرافات ابتُلِيْتُ أنا بها، وكذلك أنت إذا نظرتَ إليَّ ستفضلني على نفسك لأنك ستجدني قد أُكْرِمْتُ ببعض المزايا التي فاتتك وفاتك التحلي بها ولأنك ربما تجدني معافى من بعض النقائص التي قد ابتُلِيْتَ بها، وهكذا يتبادل الناس الفضلَ فيما بينهم.

فهذا ملخص معنى قوله عز وجل ﴿وَلاَ تَنسَوُاْ الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ لاَ تَنسَوُاْ أنني قد مَيَّزْتُ كلاًّ منكم على الآخر.

لاَ تَنسَوُاْ أن الواحد منكم إذا حَمِدَ الله على نعمة قد أكرمه الله بها من حسن خلق لاَ تَنسَوُاْ أن إخوانكم يتمتعون بأخلاق أخرى لم تُمَتَّعوا أنتم بها.

ولاَ تَنسَوُاْ أن إخوانكم الذين تتأملون في أحوالهم إن رأيتم أن فيهم من قد انحط في بعض الأوزار فلتعلموا أنكم قد ابتليتم بمثل هذه الأوزار أو بعضٍ منها هكذا نقف أمام معنى جليلٍ عظيم لقوله سبحانه وتعالى﴿ وَلاَ تَنسَوُاْ الْفَضْلَ بَيْنَكُم﴾

بعد أن قال: ﴿وَأَن تَعْفُواْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ هذه هي الوسيلة التي شاءها الله عز وجل لأن تمتد من خلالها آصرةُ الألفة، آصرة المودة ومن ثم آصرة التعاون والتآلف بين عباد الله جميعاً

عباد الله: هذا الذي أقوله لكم سُنَّةٌ من سنن الله عز وجل نقرؤها في محكم تبيانه، لا يُستثنى من هذه السنة التي ذكرت لكم خلاصة عنها إلا المستكبرون. فالمستكبر هو ذاك الذي أَوْدَى استكباره بكل ما قد يتمتع به من المزايا والمحامد. المستكبر لا يمكن أن تلتقط له مزية حميدة قد تكون شفيعاً له يوم

القيامة. وصدق الله القائل: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً﴾ [الأعراف: ١٤٦].

هذا الذي يَذْكُرُهُ لنا بيان الله عز وجل من خلال جملة صغيرة في آيةٍ عظيمة يضعنا أمام مبدأ، يأخذنا الله سبحانه وتعالى به في مجال الأخلاق الحميدة. يطلب الله عز وجل مني ومنك إذا تأمَّلَ كلٌّ منا في واقع إخوانه، في سلوكاتهم، يطلب الله عز وجل منا أن نتبين فضائلهم كي نقتدي بها وأن لا نبحث ونلتقط عثراتهم لكي نمد ألسنة الاستعابة عليهم بها.

هذا هو المعنى — بل معنىً — من المعاني البعيدة التي يخاطبنا الله سبحانه وتعالى بها

عندما تتعامل مع إخوانك – تتعرف عليهم، تحتك بهم، تتعامل معهم – ابحث عن المزايا الصالحة التي متعهم الله بها مما قد فاتك التمتع به هذا هو الذي يفيدك، وإياك أن تشيح بوجهك عن المزايا التي يتمتع بها أخوك هذا — وإنه ليتمتع من ذلك بمزايا كثيرة — لتلتقط الهنات ولتلتقط العيوب التي انحط فيها، لو كنت من الملائكة المعصومين لكان لك ذلك. أمَّا وأنت تعلم أنك واحد ممن صَدَقَتْ عليه سنة رب العالمين سبحانه وتعالى التي عبَّر عنها المصطفى بقوله ﴿كل بني آدم خطاء﴾ والتي عبَّر عنها البيان الإلهي بقوله ﴿وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً﴾ [النساء: ٢٨] فليس لك أن تتمطى على مستوى الملائكية في حق نفسك ثم تضع المناظير المكبرة أمام عينيك لتلتقط بها عيوب وهنات إخوانك.

وإنه ليطيب لي أن أستشهد في هذا المقام بما قاله الإمام الشافعي شعراً وإن كان في الفقهاء من كَرَّهُوا الاستشهاد بالشعر في مثل هذا المقام

لسانك لا تذكر به عورة امرئٍ فكلك عورات وللناس ألسن

هذه الحقيقة يُبَصِّرُنَا بها كتاب الله، وهذا من الأخلاق الإنسانية الحميدة التي تقف من الأهمية ربما فوق مستوى كثيرٍ من الطاعات والعبادات، من أجل هذا – يا عباد الله — صدق المثل القائل: كلَّ من رأيت فالخضر اعتقد.

إذا رأيت إنساناً متطوحاً في بعض المعاصي، متلبساً ببعض ما هو سيءٌ أو مرذول من الأخلاق فإياك أن تحكم عليه وعلى مصيره من خلال هذا الذي تراه بل قل في سرك واستيقن في ضميرك بأن هذا الإنسان ربما آلى إلى الله ولياً من أوليائه وربما كان هو الخضر ذاته.

إذا رأيت في الناس من لم يتسم بالعصمة واستطعت أن تحصي له بعض الهنات والانحرافات فَأَشِحْ بوجهك عن انحرافاته وابحث في كيانه عن فضائله ستجد فيه من الفضائل من أنت بحاجة ماسة إليه ومن ثم حَسِّن الظن به واعتقد أنه ربما كان هو الخضر. إن لم يكن هو الخضر اليوم فلربما آل به الأمر إلى أن يصبح في مستوى الخضر غداً، وإنكم لتعلمون كما أعلم أن كثيرين هم الذين عاشوا ردحاً طويلاً من حياتهم منحرفين، تائهين، عاكفين على ألوانٍ من الغي ثم إن الله انتشلهم بالاجتباء فآلوا إلى الله سبحانه وتعالى وهم من أوليائه المحبوبين.

كلنا يعلم أن في الناس من يصدق عليهم هذا الأمر. أفأنت موقن أن هؤلاء الذين تراهم من التائهين والمنحرفين لن ينتشلهم الله عز وجل بشفاعة خُلُقٍ حميد يتمتعون به؟ بشفاعة استقامة على بعض المزايا التي وزَّعها الله عز وجل رحمةً ولطفاً بين عباده؟ أفموقن أنت أن هؤلاء الذين تنتقصهم لن يؤولوا إلى الله سبحانه وتعالى إلا بخاتمة حسنة.

ماذا كان فضيل بن عياض في شبابه؟ ماذا كان بشرٌ الحافي في شبابه؟ كم وكم من الصالحين الذين نعيش اليوم على مناقبهم كانوا في أوائل أيامهم من التائهين، مالك بن دينار ذلك الذي كان شُرَطيّاً في الأسواق، كيف كان وإلامَ صار أمره.

كما أقول لك هذا ناصحاً أقول لنفسي ولك: لا تكن أميناً من مكر الله عز وجل لاسيما إن تباهيت باستقامتك وبما متعك الله عز وجل ببعض المنح، أموقن أنت أن سبباً من أسباب السخط لم تتلبث به ومن ثم فإن الله عز وجل قد يحكم عليك بالشقاء بعد أن سرتَ أشواطاً في طريق السعادة ﴿فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩] والكافرون أيضاً، هذا – أيها الإخوة – بعضٌ يسير مما يدل عليه قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلاَ تَنسَوُاْ الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾.

إنني عندما أنظر إلى التائهين من عباد الله أكاد أن أُسَلِّمَ على الواحد منهم وأن أقول له أدْعُ الله لي في سِرِّكَ. في سرِّك أجل لعله في سرِّه يجأر إلى الله بالشكوى ولعله في سرِّه يتضاءل ثم يتضاءل ولعل البكاء يذيب حشاشته للسوء الذي قد تلبس به، ولعل الله عز وجل يشفع له يوم القيامة بهذا الذي أقوله لك.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا تجاه أخطائنا من التوابين وأن يجعلنا تجاه ما متعَنَا به من صالح الأعمال من الشاكرين. اقْبَلِ اللهم منا ذلك. أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.



٩٤- كلنا مستورون بستر الله عز وجل فلماذا لا نتخلق بأخلاق الله |

٢٠١٠/١٠/٠١

آيتان في كتاب الله تعالى في خواتيم سورة الحجرات لو أن المسلم تدبرهما وعمل بهما لرحل إلى الله سبحانه وتعالى وهو عنه راض مهما قلَّتْ طاعاته ومهما كانت عباداته قليلةً مزجاة، تأملوا في هذا الذي يقوله الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْراً مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١١-١٢]

ولقد لخَّصَ المصطفى صلى الله عليه وسلم مدلول هاتين الآيتين العظيمتين في قوله فيما رواه أبو داود والبيهقي جواباً عن سؤالٍ واجهه به عقبة بن نافع قائلاً: يا رسول الله ما النجاة؟ أي كيف السبيل إلى النجاة يوم القيامة؟ قال له: كُفَّ لسانك والزم بيتك وابك على خطيئتك. هذه الكلمات الثلاث هي تلخيص وافٍ لهاتين الآيتين اللتين تلوتهما عليكم الساعة.

عباد الله: تأملوا في واقع المسلمين اليوم تجدون أن المسلمين يكادون يكونون قد هجروا هاتين الآيتين من كلام الله سبحانه وتعالى وأعرضوا عنهما بل ساروا في تعاملهم مع بعضهم على النقيض من هذا الذي أوصى به الله سبحانه وتعالى، تنظر إلى المسلم وتتأمل حاله وإذا به يُخَيَّلُ وكأنما أقامه الله على وظيفة من ملاحقة الآخرين ومراقبتهم وتتبع أحوالهم والتقاط هناتهم وعيوبهم دون أن يتأمل أنه مكلف بشيء يتعلق بنفسه قط بل إن هنالك ما هو أبلغ من ذلك. إن في المسلمين اليوم من يضعون المناظير المكبرة التي تلتقط عيوب الناس وأخطاءهم ثم تكبرها ولا تزال تكبرها بل إنهم يسعون إلى أن يخترقوا ظواهر الناس إلى ما استكنَّ في قلوبهم، إلى ما استكنَّ في بواطن نفوسهم، ومن ذا الذي يعلم البواطن إلا الله،

من ذا الذي يعلم ما استكنَّ في النفوس إلا بارئها وهو الله سبحانه وتعالى، وإن أحدهم ليسمع كلام الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]

فلا يُخجله هذا الكلام ولا يقف عنده بل يلقيه وراءه ظهرياً ويتابع نسيان نفسه وتتبع حال إخوانه يلتقط فيهم الهنات والعيوب ناسياً هذا الذي تلوته عليكم من كلام الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا﴾.

أي لا يكن الواحد منكم جاعلاً من عينيه رقيباً على حال الناس، جاعلاً من سمعه رقيباً على أحداثٍ يتقلب بها الناس ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ ولقد مرَّتْ مدة من الزمن – يا عباد الله – استشكلت هذا الكلام ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ قلت في نفسي يقرر الله عز وجل أن بعض الظن إثم ولكنه ينهى عن الكثير من الظن فلماذا؟ ألم تكن المقابلة تقتضي أن يقول اجتنبوا بعض الظن لأن بعض الظن إثم؟ ولكن إليكم الجواب، المعنى الدقيق الذي يلفت إليه بيان الله عز وجل.

﴿اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ﴾ لأن ﴿بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾، هل تستطيع أن تعلم هذا البعض الذي هو إثم؟ لا لن تستطيع لأنها أمورٌ خفية، فإذا كنت لا تعلم هذا البعض وكان عليك أن تتجنبه إذاً ينبغي أن تتجنب مساحةً أوسع بكثير احتياطاً حتى تعلم أن هذا البعض قد تجنبْتَ الإساءة فيه، هذا معنى كلام الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً﴾ قرر العلماء أن الغيبة من الكبائر، من كبائر المعاص. ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً﴾ انظروا إلى هذا التمثيل والتجسيد.﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ﴾. لماذا شبهه بأكل لحمٍ مَيْت؟ لأنك عندما تغتاب أخاك الغائب لا يملك أن يدافع عن نفسه فكأنك تنهش منه لحماً ميتاً، هذا كلام الله سبحانه وتعالى.

تأملوا يا عباد الله في هذه السنة الربانية التي ألزَمَ ربنا عز وجل الرحمن الرحيم ذاته العلية بها، هذه السنة تتلخص في أنه إذا رأى عملاً صالحاً قام به عبدٌ من عباده جعل من هذا العمل الصالح ما يشبه الطيب تفوح رائحته ذات اليمين وذات الشمال، جعل من عمله الصالح صوتاً يلجلج هنا وهنا وهناك وينشر بين الناس علمه الصالح هذا فكيف إذا كانت أعمالاً صالحة.

أما إذا تورط في عمل محرم، إذا تورط في انحراف فإن الله عز وجل يستره عن الناس ولا يفضحه على رؤوس الأشهاد أبداً، اللهم إلا المستكبرين الذين يرتكبون ما يرتكبونه من الأخطاء استكباراً فهؤلاء يفضحهم الله عز وجل ولو كانت أخطاؤهم على فرشهم في غرف نومهم، ولكننا نتحدث عن المؤمنين الذين يتورطون في الأخطاء بسائق الضعف، بسائق الرعونات، يستر الله عز وجل عن الناس أخطاءهم، فإذا قاموا بعمل مما أمر الله عز وجل به ينشره وينثره طيباً تفوح رائحته ذات اليمين وذات الشمال، أما المعاصي فيسترها إلى أن يقوم الناس لرب العالمين، يدني الباري عز وجل هذا الذي ارتكب في الدنيا معاصيه التي ستره الله عليها –كما ورد في الصحيح– يدنيه منه ثم يسبل عليه ستره ويقول: أتذكر المعصية التي ارتكبتها يوم كذا؟ يقول نعم يا رب، يقول أتذكر المعصية الأخرى التي ارتكبتها يوم كذا، يقول نعم يا رب، يقول أتذكر المعصية الأخرى التي ارتكبتها يوم كذا، يقول نعم يا رب، يقول: فلقد سترتك في الدنيا وها أنا ذا أغفر لك هذه الآثام اليوم.

عباد الله لماذا لا نتخلق بأخلاق الله؟ لماذا لا نتعامل فيما بيننا كما يعاملنا الله سبحانه وتعالى؟ ينشر الله سبحانه وتعالى الطيب ذات اليمين وذات الشمال ويستر القبيح. لماذا لا نتعامل فيما بيننا نحن على هذا النهج الذي ذكرته لكم. نعم هو شأن رب العالمين وتلك هي سنته في عباده، بل أضعكم أمام سنة أخرى. شاء الله عز وجل بسابغ فضله وواسع رحمته أن يجعل للعبد مهما عصى ومهما انحرف وارتكب خيطاً من الصلة بينه وبين هذا العبد، اللهم إلا المستكبرين.

مهما رأيت فلاناً من الناس موغلاً في المعاصي بسبب رعوناته، بسبب ضعفه، لابد أن يترك الله عز وجل بين هذا العبد وبينه خيطاً للصلح، ولا تدري متى يقوم هذا الخيط بدوره الذي عُهِدَ به إليه، لابد أن يأتي يوم تجد أن هذا الإنسان استمسك بهذا الخيط وعاد به إلى الله قائلاً ها لقد رجعت إليك يا ربي، ها قد عدت إليك يا ربي فاقبلني، ويقبله الله قائلاً لبيك، يقبله الله عز وجل

هل تعلم – يا أخي – حال هؤلاء الذين تريد أن تطيل لسانك بالحديث عنهم أو بغيبتهم في المجالس لأنك رأيتهم موغلين في بعض المعاصي، منحرفين إلى بعض الأخطاء، هل تعلم أن الخيط الذي بينه وبين الله – هذا الخيط الخفي – لن ينتشله غداً من أخطاءه ولن يرقى به إلى حالٍ أفضل من حالك مع الله سبحانه وتعالى؟ تلك هي سنة رب العالمين قضى بها في عباده، لماذا؟ من أجل أن نتأدب مع عباد

الله جميعاً، فإذا وجدنا أناساً منحرفين وعدنا إلى أنفسنا فوجدنا أنفسنا مستقيمين لا نمد ألسنتنا بقالة السوء عنهم، لا نطرب أنفسنا بالحديث عنهم والغيبة لهم، نعم لو واجهْتَهُ بوسعك أن تذكِّرَهُ بالله، تأمره بالمعروف وتنهاه عن المنكر بأسلوب مغموس في اللطف، مغموسٍ في الرحمة، أما أن تتحدث عنه في المجالس هنا وهنا وهناك وأن ترسم بين الناس لحياته صورةً قبيحةً سيئةً هل تعلم أن هذا الإنسان لن ينتشله الله غداً أو بعد غدٍ أو فيما بعد من انحرافه هذا وتنظر وإذا به أصبح من أفضل عباد الله الصالحين، وهل تعلم أنك قد ضمنت لنفسك أن تبقى على هذا النهج السوي المستقيم وألا يغضب الله عز وجل منك لغيبة امتد بها لسانك أو لاستهزاء تحرك به لسانك أيضاً في حق عبدٍ من عباد الله؟ أتضمن ألا يغضب الله عز وجل عليك ويزجك بعد الهداية في أودية التيه، أتضمن ذلك.

لا يا عبادَ الله، عبادُ الله سبحانه وتعالى مستورون بستر الله فلا يجوز أن نمزق عنهم هذا الستر وأنت منهم، كلنا مستورون بستر الله، وقلت لكم حديث صحيح، يدني الباري عز وجل الرجل مثقلاً بالأوزار يدنيه منه ويسبغ عليه ستره ويقول له: أتذكر المعصية الفلانية، أتذكر معصية كذا، أتذكر معصية كذا، يذكِّرَهُ بمعاصيه فيذكرها ويريه الله عز وجل صورتها أمامه ثم يقول له: لقد سترتها عن الناس في الدنيا وها أنا أغفرها لك اليوم.

عباد الله: تعالوا نعاهد الله عز وجل أن ننفذ هذه الوصية التي تتضمنها هاتان الآيتان العظيمتان المغموستين باللطف والرحمة، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْراً مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١١-١٢]

أما أن تلقى أخاك المخطئ المنحرف فتقف أمامه وقفة حبٍّ ورحمة تذكره بخطئه وتدعوه إلى التوبة بطريقة مغموسة بالحب والرحمة فهذا شيء جيد، وأما أن تسكت إذا رأيته وتلقي له التحية المنافقة فإذا غبتَ عنه نسجتَ من وراءه صورة عنه تجعله أمام الناس أسوأ الناس، تجعله أمام الناس رجلاً فاجراً.. إلى

آخر ما هنالك فهذا لا يدخل في معنى الإصلاح ولا يدخل في معنى التوجيه ولا يدخل في معنى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ورحم الله امرءاً علم أنه مثقل بالعورات وأن الناس لهم أعي

لسانك لا تذكر به عورة امرئ فكلك عورات وللناس ألس

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.



٩٥- مَنْ لا يَرْحَم لا يُرْحَم | ٢٠١١/١٠/٠٧

لا أعرف في كتاب الله تعالى صفة يثني بها الله عز وجل على عباده كصفة الرحمة إذ يمتد نسيجها فيما بين أفراد عباده. تأملوا في هذا الذي يقوله الله سبحانه وتعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] ﴿أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ﴾ أي الذين يناصبونهم العداء من الجاحدين، ﴿رُحَمَاء بَيْنَهُمْ﴾ تلك هي الصفة العليا التي وصفهم بها وشهد لهم بها.

تأملوا في قوله عز وجل وهو يتحدث عن العقبة الكؤود التي ينبغي لعباد الله المسلمين أن يتجاوزوها وأن يبذلوا الجهد كله في اقتحامها وتجاوزها، ما هي الأداة الوحيدة التي بها يقتحمون هذه العقبة؟ إنها التراحم، تأملوا في قوله سبحانه: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ، فَكُّ رَقَبَةٍ، أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ، يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ، أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ، ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ، أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ [البلد: ١١-١٨]

وما أعلم يا عباد الله أن شفيعاً يحجز العبد يوم القيامة من سخط الله وعذابه كالرحمة التي كان يعامل بها عباد الله في دنياه، تأتي هذه الرحمة فتحول بينه وبين سخط الله وتحول بينه وبين عذاب الله، وإنما شفيع الإنسان في المآل عمله. وما أعلم يا عباد الله سلاحاً أمضى في التوفيق الذي قَيَّضَهُ الله لرسوله، أمضى أداةَ فَتْحٍ حققه الله سبحانه وتعالى لرسوله كسلاح الرحمة، ألا تتأملون في قوله سبحانه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وإنما الفتح المعتبر فتح القلوب، أما فتح البلاد والبقاع فذلك شيء يأتي على أعقاب فتح القلوب، افتتح رسولُ الله القلوبَ بالرحمة، ذلك هو السلاح الأمضى. وتأملوا في تأكيدات رسول الله صلى الله عليه وسلم لهذه الحقيقة التي بيَّنها كتابُ الله سبحانه وتعالى:

يقول صلى الله عليه وسلم فيما اتفق عليه الشيخان: ﴿من لا يَرْحَمُ الناس لا يرحمه الله﴾

تأملوا في قوله فيما رواه الإمام أحمد والترمذي وأبو داود والحاكم في مستدركه من حديث عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ﴿الراحمون يرحمهم الله الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء﴾.

عباد الله: أنا أبحث اليوم على ضوء هذا الذي ذكرته لكم عن الرحمة يسري نسيجها بين عباد الله المؤمنين في هذه البلدة فلم أعثر على هذه الرحمة تجيش بها صدور أكثر الناس اليوم، نعم بحثت فوجدت أن صدور كثيرٍ من الناس خاليةٌ عن هذه الرحمة التي هي أساس محبة الله سبحانه وتعالى للعبد لاسيما صَدْر أولئك الذين أتخمتهم النعمة، أولئك الذين يستغرقون في نعم الله عز وجل فأورثتهم تلك النعم التي أسداها الله سبحانه وتعالى إليهم قسوة في القلب، غَيَّبَتْهُم عن الرحمة، غَيَّبَتْهُم عن هذه المشاعر التي يثني الله سبحانه وتعالى على عباده بسببها، ولعلي لست مبالغاً في هذا الذي أقوله لكم.

لَفَتَ نظري إلى هذه المحنة التي أعدها محنة خطيرة كبيرة ذلك الإجراء الاقتصادي الجزئي – بل الشكلي – الذي اتُّخِذَ حماية لمدخرات الأمة ألا تتبدد وألا تنالها أيدي الأعداء، إن هي إلا ساعات – لا أقول أيام – إن هي إلا ساعات مرت بعد انتشار خبر هذا الإجراء وإذا بأصحاب الأموال الوفيرة والتجارات الكبيرة والمصانع الفخمة يتسارعون إلى شد الأسعار إلى الأعلى جهد الاستطاعة، إذا بهم يبسطون سلطان الغلاء على الأسواق جهد الاستطاعة بدون موجب أو بموجب، بل قبل أن يوضع هذا الإجراء من الناس موضع التنفيذ. هذه الظاهر هي التي جعلتني أتساءل عن الرحمة التي هي أول ما ينعت الله عز وجل به عباده المؤمنين.

عباد الله: إن المثل العربي يقول: مصائب قوم عند قوم فوائد. وإنه لمثل منطقي وواقعي ومقبول عندما تكون مصيبة قومٍ من الأقوام فائدة لأعدائهم أو عندما تكون نعمة قومٍ من الأقوام مصيبة لأعدائهم. أما عندما تكون مصيبة أناسٍ فائدة لأشقائهم فحدث عن شدة هذه المأساة ولا حرج، حدِّثْ عن الألم الممض الذي يجتاح الإنسانية من هذه الظاهرة ولا حرج. سيما وإن الجميع ليعلم أن هؤلاء الإخوة المتخمون بالنعم، هؤلاء الذين تسارعوا إلى ما فعلوا وملؤوا جيوبهم بالعلاوة التي طمحوا إليها وطمعوا بها إنما سرت إلى جيوبهم من استنزاف أولئك الذين يعيشون بالكفاف من الرزق، استُنْزِفَتْ هذه العلاوة من

جيوبهم، استُنْزِفَتْ هذه العلاوة نعم من جيوب أولئك الذين لا يتمتعون من الرزق الذي متعهم الله عز وجل به إلا بالكفاف.

وأنا أقول ناصحاً ومذكراً: هذا المقدار الذي استُلِبَ أو استُنْزِفَ من جيوب هؤلاء ذوي الدخل المحدود أصحاب الكفاف في الرزق ألا يعلمون أنه بمقدار ما كان في جيوب أصحابه سبباً للعافية، سبباً للصحة، تحول إذ سرى إلى جيوب أولئك المتخمين سرى إليهم وهي جراثيم، وهي عبارة عن أسباب لأدواء علم الله أنواعها وعلم الله كيف تغزو أجسام أناس فقدوا الرحمة التي ميز الله عباده الصالحين بها، أقول لهؤلاء الذين أسرعوا فشدوا الأسعار إلى أغلى ما استطاعوا وبسطوا سلطان الغلاء في الأسواق المختلفة جهد استطاعتهم أقول لهم: ما قيمة المليارات وأضعافها إذا انتابك صداع اشتد عليك، أفقدك راحة يومك وأفقدك منام ليلك وأفقدك الاستقرار في حياتك؟ قل لي أي قيمة تبقى لملياراتك أو لأضعافها لديك؟ قل لي يا أخي إذا جاءك من يقول ليس لك إلا أحد الأمرين إما أن تُسْلَبَ ضياء عينيك وتبقى لك ملياراتك أو يبقى لك ضياء هاتين العينين وتُسْلَبَ فضول أموالك، ماذا تقول؟ إنني لأعلم — وكلنا يعلم — أنك ستنفض اليد عن فضول مالك كلها من أجل أن يبقي الله عز وجل في عينيك ضياءهما.

ماذا تقول لمن يخيرك بين الصمم الكلي تبتلى به وبين بقاء ملياراتك هذه؟ أنا لا أشك أنك ستستغني عن فضول مالك في سبيل أن يبقي الله لك هاتين الأذنين تسمع بهما.

ماذا تقول لمن يخيرك بين المليارات التي تمتلكها وبين بقاء الذاكرة في كيانك ودماغك، إما أن تصبح غداً وقد نسيت حتى اسم نفسك، نسيت ذاتك والدنيا التي من حولك ولك ملياراتك وإما أن تستغني عن فضولها في سبيل أن يبقي الله لك هذه النعمة. هل هنالك خلاف في الجواب المعروف عن هذا السؤال؟!

﴿الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك: ٢٣]. ﴿قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾.

العافية يا عباد الله هي أغلى كنزٍ متعك الله به، فإذا عرفت ذلك فاشكر الله — لا بلسانك — اشكر الله بالرحمة تسديها لإخوانك من حولك أياً كانوا.

استسقى أمير المؤمنين هارون الرشيد بعض خدمه ماءً وكان في المجلس ذلك العالم الرباني الفقيه المحدث طاووس بن كيسان اليماني، جيء بالماء إلى هارون الرشيد، قال له طاووس: مه يا أمير المؤمنين – انتظر – أصغى السمعَ هارون إليه، قال له طاووس: يا أمير المؤمنين أرأيت لو أنك حُرِمْتَ هذه الكأس على ظمأ بم كنت تشتريها؟ قال: بكل ما أملك. قال: فاشرب هنيئاً، ولما شرب فارتوى قال: يا أمير المؤمنين أرأيت لو حُرِمْتَ خروج هذا الماء من جسدك بم تشتري إخراجها؟ قال: بكل ما أملك. قال: يا أمير المؤمنين اتق الله في ملك لا يساوي جرعة ماء.

أقول هذا الكلام لنفسي، وأقول هذا الكلام لكل أخٍ في الإنسانية وفي الله: ماذا أصنع، ماذا تصنعون بالمزيد من المال جعلتُ من هذا المال حجاباً بيني وبين هذا الرحمة تسري من قلبي إلى عباد الله عز وجل الذين ابتلاني الله عز وجل بهم وابتلاهم بي؟ ماذا يفيدني فضل المال، ماذا تفيدني فضوله إذا أُبْتُ غداً إلى الله وقد نفضتُّ يدي عن الزائد من وراء ما أكلت ومن وراء ما لبست ومن وراء ما سكنت فيه ثم ذهبت إلى الله عز وجل أبحث عن الشفيع الذي يحط عني أوزاري فلم أجد هذا الشفيع لأنني لم أدخره لذلك اليوم، وصلى الله وسلم على من قال: «يقول الإنسان مالي، مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ولبست فأبليت وتصدقت فأبقيت».

هذا الذي أقوله أيها الإخوة دفعتني إلى ذلك حرقة إلى أن أقوله آملاً أن يسري كلامي لا إلى آذان هؤلاء الإخوة بل إلى قلوبهم، دفعني إلى ذلك هذا المنعطف الذي نمر به الآن، هذه العصي التي تتهاوى علينا من لدن رب السموات والأرض لتوقظنا من سبات، لتعيدنا إلى صراطه العزيز الحميد، لتوقظنا إلى التوبة، لتجعلنا نؤوب ونتوب عن الانحراف وما أكثره وعن الشرود وما أدومه، أجل نحن نمر بهذه المحنة ولا توقظنا هذه المحنة إلى التراحم؟! ووالله الذي لا إله إلا هو إن أول دواء وأول وسيلة ناجحة تنجينا من هذه المحنة وتنهي هذه العصي التي تتهاوى علينا من لدن رب العالمين، أنجع دواء لذلك إنما هو التراحم يسري بين قلوب عباد الله عز وجل. أمر لم أكن أتوقعه، لم أكد أصدق أذني عندما قيل لي إن الأسعار قد هبَّتْ وإن الغلاء قد بسط سلطانه، لا بالنسبة للأمور التي يمكن أن يجري فيها النقاش بل في كل شيء. أهكذا يكون المؤمن؟! أهكذا يكون التراحم؟! أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم فاستغفروه يغفر لكم.



٩٦- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ | ٢٠١٢/٠١/٠٦

إن عقد ما بيننا وبين الله سبحانه وتعالى في محكم تبيانه هو الإيمان بذاته العلية، ذلك هو العقد الذي يكرره بيان الله سبحانه وتعالى ويؤكده على أسماع عباده؛ الإيمان بالله إلهاً واحداً فرداً صمداً لا شريك له، منه المبتدأ وإليه الانتهاء. ولكن الشأن في بيان الله عز وجل أن يقيِّدُ الإيمان بالصدق، يكرر ذلك ويؤكده في محكم تبيانه المنزل على رسولنا الشأن في بيان الله عز وجل كلما تحدث عن الإيمان أن يقيّده بضرورة الصدق، تأملوا مثلاً في قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

انظروا وتدبروا في قوله عز وجل: ﴿وَالَّذِي جَاء بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٣]

تأملوا في قوله سبحانه وتعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً، لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاء أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً﴾ [الأحزاب: ٢٣-٢٤].

وتحدث البيان الإلهي عن أمم ابتلاها الله عز وجل بفتن كهذه الفتنة التي نمر بها اليوم ثم تحدث عن أثر الصدق الذي يستبين في ذلك فقال: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٣].

أجل يا عباد الله، الصدق هو الشيء الذي نفتقده ونكاد لا نعثر عليه في عالمنا الإسلامي المترامي الأبعاد والآفاق اليوم، الصدق هو السر الكامن وراء اللسان، ما أيسر على اللسان أن يدعي الإيمان ولكن الصدق إذ يهيمن على القلوب هو الذي يقود وهو الذي يسوق وهو الذي يحقق المعجزات. لو تحقق الصدق مع الله سبحانه وتعالى لقادنا الصدق جميعاً إلى التمسك بحبل الله سبحانه وتعالى انقياداً لأمره إذ قال: ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وإذاً لوجدنا أن الاعتصام بحبل الله عز وجل يقودنا إلى مشاعر الأخوة الإيمانية يسري نسيجها في أرجاء العالم الإسلامي كله، وإذا لوجدنا أن مشاعر الإخوة الإيمانية تقودنا إلى التعاون الذي أمر الله عز وجل به إذ قال: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

الصدق يدفع إلى التمسكِ بحبل الله، والتمسكُ بحبل الله يدفع إلى مشاعر الأخوة الإيمانية يسري نسيجها بين أفراد العالم الإسلامي أجمع، والأخوة الإيمانية تدفع بدورها إلى التعاون، وأشرح لكم التعاون بكلمة واحدة موجزة هي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بدافع من الإشفاق والغيرة والحب.

عباد الله: إنه لمما يحز في الفؤاد وأنه لمما يرمض النفس ويبعث الأسى في المشاعر أن ننظر إلى عالمنا الإسلامي المترامي الأطراف الواسع الأرجاء الكبير في حجمه الذي يبلغ من حيث الكم العددي ما يقارب المليار ونصف المليار، ننظر إلى العالم الإسلامي هذا فنجده معرضاً أو شامتاً أو متألباً عندما يتأمل في هذه الفتنة التي نمر بها اليوم. إنه لمما يحز في الفؤاد – يا عباد الله – أن ننظر إلى العالم الإسلامي المترامي الأطراف – كما قد قلت لكم – الكبير في حجمه العددي وإمكاناته المادية والمعنوية ونبحث عن الأيدي التي تمتد إلينا للتعاون الذي أمر الله به ونبحث عن الأيدي التي ينبغي أن تمتد إلينا لإصلاح الفساد، لتقويم الاعوجاج، للأمر بالمعروف، للنهي عن المنكر، نبحث هنا وهناك فلا نعثر على ما ينتظره الحلم، لا نعثر على ما يتأمله فؤاد الإنسان المؤمن المشدود إلى إخوانه المؤمنين بمشاعر الأخوة، بمشاعر التعاون، بمشاعر الألفة، عالمنا الإسلامي هذا تجسده تلك المؤسسة المشرقة في عنوانها، المتألقة بكلمتها القرآنية، منظمة التعاون الإسلامي، ونتأمل فيما وراء هذا العنوان فلا نعثر على شيء، نتأمل فيما وراء هذا العنوان الكبير والذي تتألق فيه الكلمة القرآنية كما قلت لكم – منظمة التعاون الإسلامي – فلا نعثر على شيء. بينما ننظر وإذا بأيدٍ أخرى تمتد إلينا بالتعاون، تمتد إلينا بمشاعر الغيرة، تمتد إلينا بالإيناس، وإنها لأيدي دول وأناسٍ ليس بيننا وبينهم إلا رحم المشاعر الإنسانية فقط، ليس بيننا وبينهم وراء المشاعر الإنسانية أيُّ خيوطٍ تجمع، أيُّ علاقة تدفع إلى تعاون أو ما يشبه التعاون.

هناك في عالمنا الإسلامي الذي نحن جزء لا يتجزأ منه الإعراض أو الشماتة أو التألب مع العدو على الصديق، وهنا – حيث أناس ليس بيننا وبينهم أيُّ خيوط دينية جامعة، إن هي إلا المشاعر الإنسانية وحدها – وننظر وإذا بهم يعلنون عن غيرتهم، يعلنون عن استعدادهم للتعاون إلى أقصى الحدود، وننظر

وإذا بالكلمات تترجم إلى معانٍ وسلوك. لعل في الناس من يقول: إنها مصالح هي التي تدفعهم إلى هذا التعاون، حسناً ألا يوجد في عالمنا الإسلامي مصالح مشتركة تدفعهم إلى مثل هذا التعاون؟! أمصالح العالم الإسلامي الذي تعبر عنه مؤسسة التعاون الإسلامي مصالح متناقضة مع مصالحنا الإسلامية، ونحن جزء من أمتنا الإسلامية جمعاء؟!

عباد الله: ألا يحز هذا الذي أقوله لكم في النفوس؟! إخواننا وأبناء عمومتنا معرضون، بل كثير منهم شامتون، والناس الذين ليس بيننا وبينهم إلا مشاعر الرحم الإنساني يسعون سعي اللاهث لإنجادنا وللتعاون ولتقديم كل وسائل العون المختلفة، هذا ما يحز في الفؤاد.

وإنني لأقول لهذه المنظمة التي تمثل الشخصية الاعتبارية لأمتنا الإسلامية جمعاء، أقول لهذه المؤسسة متمثلة في أمينها العام، وعهدي به أنه صادق في إيمانه وإسلامه، وعهدي به أنه ذو محتدٍ إسلامي رفيع، وعهدي به أن ينحدر من أسرة إسلامية متميزة مخلصة، أقول: أين هو التعاون الذي أمر الله عز وجل به: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢]

وإنني لأقول هنا وأُسْمِعُ نفسي وأسمع كل من يُتاح له أن يسمع هذا الكلام: إنني لا أُبَرِّئ الحالة التي تمر بها سورية اليوم من الأخطاء المتعددة في النوع والمختلفة في المصدر، نعم، نحن نعاني من أخطاء كثيرة، نعاني من القتل أنواعاً وأشكالاً، نعاني من التخريب والتحريق والتفجير أشكالاً وأنواعاً، نعاني من الاعتداء على الحرمات والأموال والأعراض، نعاني من تقطيع الأوصال وتمثيل الجثث، نعاني من اعتقالات، نعاني، ما الذي نريده؟ نريد ما يريده الإسلام، نريد ما يدعونا كأسرة إيمانية إسلامية إلى ما يأمرنا به الله عز وجل: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢] ندعو إلى هذا الذي يأمركم به رسول الله صلى الله عليه وسلم: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً».

انصره ظالماً بردعه عن ظلمه، نعم تعالوا فاردعوا الظالم عن ظلمه أياً كان، وانصر أخاك مظلوماً بأن ترد غائلة الظلم عنه، هذا ما نطلبه وهذا ما ندعو إليه يا عباد الله. كل ما في الأمر، وأقولها لكل من يسمع هذا الكلام برشده وعقله ومشاعر إيمانه بمولاه وخالقه، كل ما أريد أن أقوله هو أنه ما ينبغي أن نتخذ من هذه الأخطاء ستاراً كثيفاً لدخان تُمَرَّرُ من ورائه أخطر وأخبث المؤامرات الصهيونية الإسرائيلية

الخطيرة التي تهدف إلى تدمير هذه المنطقة كلها، وليست سوريا إلا مظهراً لعقدة التماس بالنسبة لهذه المنطقة، هذا كل ما نبتغيه، هذا ما ننتظره من مؤسسة التعاون الإسلامي، هذا ما ننتظره من كل أخٍ في أرجاء عالمنا الإسلامي، تعالوا فأصلحوا الأخطاء، وليس في الناس من هو معصومٌ من خطأ — وأنا واحدٌ ممن نبَّه إلى أخطاءٍ وأنبه — أجل، كل ما في الأمر أنه ما ينبغي أن نجعل من هذه الأخطاء كما قلت لكم ستاراً كثيفاً لدخان نمرر من ورائه المؤامرات الخبيثة التي لم تُبْتَلَ المنطقة بمثلها قبل هذا اليوم من أجل تدمير هذه المنطقة وتحويلها إلى لقيمات تستساغ ثم تعدم، هذا ما نريده.

ولكن إذا عزَّت الاستجابة نادينا والتفتنا يميناً وشمالاً نبحث عن الإخوة في الإيمان، نبحث عن الإخوة في الإسلام ولم نجد إلا إعراضاً وشروداً فإنه يغنينا عن ذلك كله أن نلتجئ إلى الله ونطرق بابه، وأنا الآن أقولها وأكرر هذا الذي أقوله، قلته في مجلسٍ خاصٍّ وأقوله الآن علناً: تعالوا نقبل إلى الله، تعالوا نتب إلى الله، والله هو الذي يدعونا إلى ذلك قائلاً: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

تعالوا نتلمس أخطاءنا ونعلن أمام بارئنا أنَّا قد تبنا منها، تعالوا نصلح ما قد فسد، تعالوا نُقَوِّم ما قد اعوج، تعالوا نحاسب أنفسنا ونعلن الأوبة إلى الله عز وجل وأنا الضمين بأن الله عز وجل سيكشف الغمة وسيكشفها بإذن الله، وأنا الكفيل بأن الله سيكشف الغمة.

لئن عز النصير فحسبنا الله نصيراً، ولئن عز المجير فحسبنا الله مجيراً، ولكن اجعلوا سُلَّمَ ما بين بينكم وبين نصر الله التوبة إلى الله، الأوبة إلى الله.

أقولها للقائمين بالأمر في هذه البلدة المباركة، وأقولها لكل واحدٍ واحدٍ واحدٍ منا. هؤلاء الإخوة الذين شرفهم الله عز وجل بالإقامة فوق هذه الأرض المباركة، الشام: أيها الناس اجتباكم الله وأقامكم فوق هذه الأرض المباركة فكونوا على مستوى هذا الاجتباء، كونوا على مستوى هذا الشرف، توبوا إلى الله، عودوا إلى الله في معاملة ما بينكم وبين إخوانكم، عودوا إلى الله في علاقتكم مع الله في أسركم وبيوتاتكم، عودوا إلى الله أعطوا لكل ذي حقٍّ حقه، ولسوف تجدون الاستجابة السريعة آتية من الله ولسوف يصك نداء

٩٧- وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ | ٢٠١٢/٠١/١٣

إن الله عز وجل ألزم ذاته العلية بعهدٍ تجاه عباده وألزم عباده بعهدٍ تجاهه، وقضى جل جلاله أن يكون وفاؤه لعهده الذي التزمه على ذاته تجاههم متوقفاً على وفائهم بالعهد الذي ألزمهم به تجاهه فقال عز وجل: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠].

﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾، إن وجدتم في عصر ما من حولكم مظهراً من مظاهر الإرهاب فلا تقيموا لشيءٍ من ذلك وزناً بل إياي فقط إرهبون ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾.

وهو سبحانه وتعالى القائل: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [النحل: ٩١]. وهكذا فقد ألزم الله عز وجل ذاته العلية بعهدٍ تجاهنا، ولكنه ألزم في الوقت ذاته عباده، ألزمنا بعهدٍ تجاهه، وجعل الأول منوطاً بالثاني. فما هو العهد الذي ألزمنا الله عز وجل به؟

العهد الذي ألزمنا الله عز وجل به هو أن نكون مصدقي للدعوى التي نعلنها تجاه الله عز وجل. فنحن أعلنا أننا مؤمنون بربوبية الله عز وجل علينا ومن ثم أعلنا عن عبوديتنا لله سبحانه وتعالى، ألسنا نقول في مفتتح كل صلاة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]. ألسنا نقول: ﴿إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

هذه دعوى يا عباد الله، يريد الله عز وجل منا مصداقها، يريد الله عز وجل منا تطبيقها، فإن نحن صدَّقنا ما قد قلناه وفسَّرْنَا الدعوى بالتنفيذ فذلك هو الوفاء بالعهد الذي ألزمنا الله عز وجل به، ولابد حينئذٍ أن ينجز الله عز وجل عهده الذي ألزمه بذاته العلية، ولا ملزم له. يقول مولانا وخالقنا جل جلاله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ، وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٤-٢٥].

أرأيتم إلى هذا الذي يقوله لنا الله عز وجل: ﴿اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ نفذوا التعاليم التي ستكون مصداق وفائكم للعهد الذي التزمتم به تجاه الله سبحانه وتعالى ووفاؤكم لذلك لن يعود بخير إلى مولاكم الغني وإنما يعود بالخير إليكم، ﴿اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾، ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]. هذا هو العهد الذي ألزمنا الله عز وجل به تجاهه مَرَدُّه إلى خيرنا، مَرَدُّه إلى سعادتنا في العاجلة والعقبى يا عباد الله.

وأمام فتنة كهذه الفتنة التي أقبلَتْ إلينا بحكمة بالغة نؤمن بها ولسوف ترحل عنا برحمة بالغةٍ نؤمن بها أيضاً. هذه الفتنة يدعونا الله عز وجل من خلالها إلى أوامر عدة هي جزء من الوفاء بالعهد الذي ألزمنا الله عز وجل به. يقول لنا الله عز وجل: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]. قفوا معي يا عباد الله أما هذه الكلمة: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾

إنه يقول لنا بصريح العبارة: إن الإرهاب الإجرامي لا علاج له إلا الإرهاب العقابي، واجهوا الإرهاب الإجرامي بالإرهاب الآخر، ولكنه إرهاب العقاب، ومن أصر على أن يخلط بين هذا وذاك فهو مجرم وهو ضالع في الإرهاب الإجرامي، من أراد أن يوحِّد بينهما ليجعل الأمرين سواء، سواء كان في الدعوة إليه أو في الابتعاد عنه فهو ضالع في الإجرام. أما بيان الله عز وجل فهو يفرق أيما تفريق بين الإرهاب الإجرامي الذي يجب أن نترصد وأن نتربص به والإرهاب العقابي الذي ينبغي أن نتخذه سلاحاً لدرء تلك الجريمة. هذا جزء من الوفاء بالعهد الذي أمرنا الله عز وجل به. تعالوا إلى بقية الأجزاء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥].

ذكر الله مطلوبٌ دائماً، لكنه يتأكد بصورة خاصة متميزة عندما تفاجِئ الأمةَ مصيبةٌ كهذه المصائب، عندما تفاجَأ الأمة المسلمة، المؤمنة بالله عز وجل بأعداء يترصدون لها، يتربصون بقيمها وحقوقها عندئذٍ يتأكد ذكر الله عز وجل ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ﴾

ما هي الوسيلة للثبات يا رب؟ كيف السبيل إلى أن نثبت ونصمد ثم لا تعصف بنا رياح المخاوف؟ سبيل ذلك الإكثار من ذكر الله، سبيل ذلك أن تتجه قلوبكم بالذكر هيبةً، إيماناً، حباً، مخافةً إلى الله عز وجل وعندئذٍ لابد أن يكرمكم الله عز وجل بالنصر والتأييد ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ﴾

أولى الناس بذكر الله عز وجل أولئك الذين يقفون في الخنادق، أولى الناس بذكر الله سبحانه وتعالى أولئك الذين أقامهم الله عز وجل على شرف حماية الأمة، حراسة دينها، حراسة مبادئها وقيمها، هؤلاء أولى الناس بذكر الله سبحانه وتعالى كما قال الله عز وجل. واسمعوا يا عباد الله كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يرويه مسلم في صحيحه وغيره: ﴿عبادة في الهرج كهجرة إليَّ﴾

﴿عبادة في الهرج﴾ أي أثناء الفتن عندما تدور رحى القتل على عباد الله عز وجل دون أن يعلم القاتل لماذا قَتَل ودون أن يعلم المقتول فيم قُتِل، عبادة الله عز وجل أي الإقبال إلى الله بالذكر، بالعبادة، بالالتزام بالأوامر، بالابتعاد عن النواهي بمثابة الهجرة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما أُمِرَ أصحاب رسول الله بالهجرة من مكة إلى المدينة.

نعم يا عباد الله، هذا معنى وفاء الأمة بالعهد الذي ألزمها الله سبحانه وتعالى به. فإن نحن وفينا بهذا العهد وفَّى الله سبحانه وتعالى بعهده تجاهنا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤].

ثم أنه أكد إلزامه ذاته العلية بهذا العهد الذي ذكر فقال: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ، وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ، إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ، وَلِيُمَحِّصَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨-١٤١]. أرأيتم إلى هذه الكلمة ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾.

الابتلاء سبب من أسباب التمحيص، الفتنة سبب من أسباب التمحيص، تمحيص الله المؤمنين الصادقين من المنافقين الكاذبين يا عباد الله، ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾.

أرأيتم لو أن الأمة كانت تعيش في ظل من الأمن والطمأنينة ورغد العيش أفكنت تستطيع أن تستبين المؤمنَ الصادق في إيمانه والمنافق الكاذب؟ الكل سواء. لكن الهِزَّة هي التي تفرق ومن ثم يستبين هذا من ذاك. ألا ترون كيف أن هذه الفتنة ميَّزَتْ وفرقت. ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾.

أقول هذا يا عباد الله من أجل أن نقطف من هذه الفتنة – التي هبَّتْ لتدبر – ثمارَها وأن نلتقط منها عِبَرَهَا. العبر كثيرة لكنها تتلخص في أن نجدد توبتنا إلى الله جميعاً، تتلخص في أن نعاهد الله عز وجل على أن نفي بعهده لكي يفي بعهده تجاهنا، العبرة تتلخص في أن نصلح ما أفسدنا وأن نُقَوِّمَ الاعوجاج، والحديث عن إصلاح الفساد حديثٌ ذو شجون، وأنتم تعلمون أنواع الفساد التي تتراكم لأسباب شتى ولعواصف تأتي من هنا وهنا، وتعلمون كيف يتحقق الإصلاح، وأسأل الله عز وجل أن يتم الإصلاح كله في جذوره وثماره في أقرب وقت عاجل يا عباد الله.

بقي أن أقول أمرين اثنين:

الأمر الأول: تعالوا نتأسى بمن سبقنا، ببعضٍ من أسلافنا إذ مرُّوا بمثل هذه الفتنة، مَرُّوا بمثل هذا الابتلاء، ما الدواء الذي استعملوه إلى جانب الدواء الأول: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

صدق الالتجاء إلى الله، صدق التبتل على أعتاب الله، البكاء في الأوقات الخاصة. لا أريد أن أبتعد، بل أحب أن أُذَكِّرَكُم بما مرَّتْ به هذه الأرض المباركة. ها هو ذا صلاح الدين الأيوبي الذي يرقد في شرق هذا المسجد وذاك نور الدين زنكي الذي يرقد في غربي هذا المسجد، ألا تعلمون كيف طهَّر الله عز وجل بهما هذه الأرض المباركة من رجس الصليبيين؟ ألا تذكرون أن ملوك الفرنجة أجمع أقبلوا من أجل أن يقتنصوا قدس الله سبحانه وتعالى ويستلبوه؟ كيف كانت النتيجة؟ صَدَّ الله هؤلاء الغاصبين وردَّهم، وفَّى الله عز وجل بالعهد الذي ألزمه تجاه ذاته عندما وفَّى أولئك المسلمون بقيادة كل من نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي. ارجعوا إلى ترجمة نور الدين، كم كان له من البكاء في الأسحار، كم كان يناجي

مولاه وخالقه يستنزل الرحمة من علياء ربوبيته ورحمته، تأملوا في سيرة هذا الإنسان الذي يرقد عن يميننا، وانظروا إلى سيرة تلميذه ومريده صلاح الدين الأيوبي.

لا أريد أن أفيض في ذكر الآخرين الذين واجهوا فتناً كهذه الفتنة بل أكثر، ثم إن الله عز وجل استجاب دعاءهم وحقق رجاءهم ولم يضيع دموعهم، حقق الله لهم النصر والتأييد، نعم.

الكلمة الثانية التي أريد أن أقولها، أريد أن أتوجه بها إلى هؤلاء الناس – وأنا أوثر دائماً حسن الظن يا عباد الله – هؤلاء الذين رَخُصَتْ عليهم أرواحهم في سبيل أن ترخص عليهم أرواح عباد الله المؤمنين، هؤلاء الذين قرروا أن يجعلوا من أرواحهم سبيلاً لا لحماية أرواح عباد الله عز وجل بل سبيلاً لتدمير أرواح عباد الله سبحانه وتعالى، أقول لهم: إن كان – أيها الإخوة – إن كان في الناس من قد أقبلوا إلى أدمغتكم فغسلوها فأوهموا أن هذا الذي أنتم مقبلون إليه جهاد في سبيل الله عز وجل ألا فاسمعوا رسالة رسول الله التي أرسلها إليكم عن طريق مسلم في صحيحه وعن طريق الحاكم في مستدركه وعن طريق أحمد وغيره، يقول لكم رسول الله: ﴿من خرج من أمتي على أمتي يضرب برها وفاجرها ولا يتحاشى مؤمنها ولا يفي بذي عهدها فليس مني ولست منه﴾.

أسمعتم أيها الناس؟! أتريدون أن أعيد؟! لعلكم لا تعلمون حديث رسول الله: ﴿من خرج من أمتي على أمتي يضرب برها وفاجرها ولا يتحاشى مؤمنها ولا يفي بذي عهدها – أي أهل الكتاب – فليس مني ولست منه﴾

وأما إن كان هذا الذي تقبلون عليه ثمرة مالٍ مُلِئَتْ بها جيوبكم ثم دُفِعْتُمْ دفعاً عن طريق هذا المال الذي أسكركم فأنساكم حتى أرواحكم، إن كان ذلك هو الدافع ألا فاسمعوا كلام الله يقول لكم ويقول لهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

أقول قولي هذا وأسأل الله العلي القدير أن يلهمنا جميعاً رشدنا وأن يرحمنا جميعاً بالهداية يكرمنا بها، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

٩٨- هكذا أدّبنا الله في تعاملنا مع عباده | ٢٠١٢/٠١/٢٧

إن مما يجب على كل مسلم أن يعلمه أن القرآن هو آخر ما تنزل من الوحي على رسله وأنبيائه، تنزل للعالم أجمع على خاتم رسل الله وأنبيائه أجمع سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

وإن مما يجب أن يعلمه كل مسلم أن هذا الكتاب الرباني يتضمن أمرين اثنين، الأمر الأول بيان هوية الإنسان عبداً مملوكاً لله جل جلاله، مبدأ وجوده منه ونهاية رحلته إليه.

الأمر الثاني بيان الوظيفة التي أناطها الله سبحانه وتعالى بالإنسان الذي أعلن عن تكريمه له في محكم تبيانه، وتتخلص الوظيفة التي أناطها الله سبحانه وتعالى بالإنسان فيما عبَّرَ عنه البيان الإلهي بقوله: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١].

وظيفة الإنسان أن يعمر هذا الكوكب الأرضي الذي أقامه فيه عمراناً مادياً وعمراناً حضارياً على النهج الذي رسمه له وطبقاً للضوابط التي ألزمه بها في تشريعه المنزل.

ثم إن الله عز وجل قضى ببالغ حكمته ورحمته أن يلاحق الإنسان في حياته الدنيا بالرقابة، يراقبه الله عز وجل في سائر تصرفاته وأعماله وقصوده ونياته، أليس هو القائل: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [النساء: ١]. أليس هو القائل: ﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥]. أليس هو القائل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ، إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ، مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٦-١٨].

ثم إن الله عز وجل عقد محكمتين للإنسان يلاحقانه، إحداهما جعلها الله سبحانه وتعالى في هذه الحياة الدنيا عهد بها إلى الأئمة والقضاة، المحكمة الثانية استقل هو بها لذاته وأرجأ بسط سلطانها إلى اليوم الذي يقوم فيه الناس لرب العالمين.

أما المحكمة الأولى التي عهد الله عز وجل بها في دار الدنيا إلى الأئمة والقضاة فقد حصر سلطانهم فيها ضمن ما يظهر لهم من الناس من أعمالهم وسلوكاتهم وأقوالهم، ومنعهم من أن يتجاوزوا ذلك إلى

بواطن الأمور، منعهم – منع الأئمة والقضاة أيّاً كانوا – من أن يتجاوزوا في حكمهم ظواهر الناس إلى بواطنهم، إلى ما خفي من قصودهم، إلى ما خفي من نياتهم، قضى بذلك في حق الرسل وحق الأنبياء وحق الصالحين من عباده وحق سائر الأئمة والقضاة، فليس لأحد من الناس أن يقتحم سريرة أيٍّ من عباد الله عز وجل بحكم له أو عليه، ذلك لأن الحكم بالسرائر أو على السرائر إنما هي خصيصة اختص الله عز وجل ذاته العلية بها وجعل ميقات ذلك يوم يقوم الناس لرب العالمين، فليس لأحد غير الله عز وجل – لا لرسول ولا لنبي ولا لأي من الأئمة – أن يتجاوز في حكمه ظواهر الناس يقتحم بواطنهم وأسرارها، يقول الله عز وجل في ذلك: ﴿وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِناً﴾ [النساء: ٩٤].

قال ذلك يوم أراد أحد الصحابة أن يقتحم سريرة أحد من الناس اتهمه في إسلامه فمنعه الله عز وجل من ذلك، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ [الحجرات: ١٢].

أي لا تقتحموا قلوب الناس بالظنون، ذلك هو المعني بالتجسس. إياكم أن تخوضوا في بواطن الناس وفيما لا تعلمون من شؤونهم الداخلية النفسية البعيدة عن الظاهر.

يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم في هذا الصدد ذاته: ﴿إني لم أومر أن أُنَقِّبَ قلوبَ الناس ولا أن أشق على ما في بطونهم﴾ روى ذلك الإمام مسلم في صحيحه والإمام أحمد في مسنده.

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخاري: ﴿إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث﴾، ويقول رسول صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخاري أيضاً: ﴿من رمى مؤمناً بكفر فذلك كقتله﴾ أي فكأنما قتل هذا الذي رماه بالكفر.

ولقد صادف أن قال عمر بن الخطاب في مجلس رسول الله عن حاطب ابن أبي بلتعه لعله منافق، اشتد إنكار رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه وقال له: ﴿ما أدراك بذلك﴾.

وقد صح فيما اتفق عليه الشيخان أن رسول صلى الله عليه وسلم كان يقول: ﴿إنما أنا بشر مثلكم وإنكم تختصمون إلي ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من الآخر فأقضي له على نحو ما أسمع فمن

قضيت له من حق أخيه فلا يأخذه فإنما هي قطعة من النار﴾ أي لم يُؤذَن أن أتجاوز الظاهر الذي أسمعه وأراه إلى البواطن التي خص الله عز وجل ذاته العلية بها.

ولقد كان عمر بن الخطاب يقول: فيما رواه البخاري أيضاً: لقد كان الناس يؤخذون على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالوحي وقد انقطع الوحي اليوم وإنما نأخذكم اليوم بظواهر أعمالكم فمن أظهر لنا خيراً أمِنْاه وقبلناه وقربناه ووكلنا سريرته إلى الله سبحانه وتعالى والله يحاسبه على سريرته.

ومن ثم فقد أجمع المسلمون – يا عباد الله – جميعاً على أنه لا يجوز لمسلم أياً كان أن يحكم على أحد من عباد الله عز وجل عن طريق اقتحامه باطن أمره، لا يجوز أن يعتمد في حكم لإنسان أو على إنسان على ما يظنه من بواطن أمره مما خفيي من سريرته، من قصوده، لا يجوز ذلك بل هي جريمة أعلنها بيان الله سبحانه وتعالى.

والآن تعالوا نتساءل ما الحكمة من هذا الذي قضى الله عز وجل به؟ الجواب عن هذا يا عباد الله هو أن الله عز وجل لو أجاز للقضاة والحكام والأئمة وللأنبياء أن يتجاوزوا ظواهر الناس بصدد الأحكام لهم أو عليهم إلى بواطنهم وإلى الظنون التي يعتمدون عليها في قصودهم إذاً لتقطعت وشيجة القربى والود مما بينهم ولاهتاجت فيما بينهم الظنون والأوهام ولتحولت الأخوة التي قضى الله عز وجل بها لتحولت إذاً هذه الأخوة إلى عداوة وشقاق وإلى خصومة وبغضاء.

ومن هنا شاء الله عز وجل إبقاءً لوشيجة الود، إبقاءً لصلة القربى، إبقاءً لوسائل التعاون أن يستقل هو بذاته فيما يتعلق بالحكم على الضمائر، فيما يتعلق بالحكم على القصود والنيات، بل شاء الله عز وجل أن يرجئ ذلك إلى يوم القيامة، إلى اليوم الذي يقف فيه الناس جميعاً عبيداً أذلاء بين يدي الله سبحانه وتعالى، تلك هي الحكمة يا عباد الله. وإن مما يبرز هذه الحكمة ويضعنا أمام صورة ميدانية واقعية لذلك أننا نرى ونلاحظ أن الذين يحاولون أن يضربوا الأديان السماوية بعضها ببعض أو أن يضربوا المذاهب والفرق الإسلامية بعضها ببعض ما هم من تلك الفرق كلها والأديان كلها في شيء، إنهم يمارسون في الواقع عداوة شرسة لأصحاب هذه الفرق وهذه المذاهب والأديان كلها، إنهم يبتغون من وراء ذلك أن تنقدح شرارة العداوة والبغضاء فيما بينهم فيتهارجون ويتخاصمون ثم يتقاتلون ثم يقتل بعضهم بعضاً بدلاً

عن عدوهم الذي لو لم يفعل ذلك لقتلوا أنفسهم في سبيل الوصول إلى ما يبتغون. إنهم في هذه الحالة لا يريدون أن يخوضوا غمارها بأن يستعيروا أرواحاً أخرى غير أرواحهم ابتغاءً للقصد الذي قد أرادوه، وقد ذكرت لكم قبل بضعة أسابيع فقرات من بيان أصدره مجلس الأمن القومي الأمريكي في أواخر التسعينات من القرن الماضي يوصي فيه بضرورة تأليب المسلمين بعضهم على بعض وإثارة التناقض بين فئاتهم وفرقهم، والتقرير موجود. هذا شيء.

شيء آخر يا عباد الله، العبرة التي شاءها الله عز وجل ببالغ حكمته الخواتيم، العبرة في حياة الإنسان بالخاتمة التي يرحل بها إلى الله عز وجل، ومن هو هذا الذي يعلم الخواتيم؟ كم من إنسان يبدو أن من المؤمنين الملتزمين، بل يبدو أنه من الدعاة إلى الله، بل يبدو أنه من الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر كإنسان مثلي ولكنه يذهب ضحية استكباره، تطوف برأسه نشوة الاستكبار، نشوة العُجْب، وينظر الناس وإذا بهذا الإنسان قد خُتِمَ له بخاتمة السوء، أليس بلعام بن باعوراء واحداً من هؤلاء؟ أليس تقي بني إسرائيل المعروف واحداً من هؤلاء خُتِمَ له بالسوء؟ وما أكثر من ينطبق عليهم هذا القانون الرباني.

وبالمقابل فما أكثر الذين يذهبون ضحية ضعفهم الإنساني، يرتكبون الموبقات ويتحملون أشكالاً من الأوزار ولكنك لا تعلم كم وكم يتألم الواحد منهم بينه وبين نفسه، وكم وكم يشعر بذله وضعفه وبعده عن ربه فتدركه رحمة الله عز وجل وإذا به يقبل إلى الله بعد إدبار ويصطلح معه ولا تنتهي رحلته من هذه الحياة الدنيا إلا وقد صنَّفه الله عز وجل في الصالحين من عباده، أليس الفضيل بن عياض واحداً من هؤلاء؟ أليس عبد الله بن المبارك واحداً من هؤلاء؟ أليس بشر الحافي واحداً من هؤلاء؟ هذه الحقيقة هي التي عناها رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله في الحديث الصحيح: ﴿فوالذي نفسي بيده إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو حتى لا يبقى بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار فيما يبدو حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها﴾.

إذاً تعالوا أسألكم يا عباد الله من هذا الذي يستطيع أن يصنف واحداً من عباد الله عز وجل في الضالين والتائهين مهما رأى مظاهر التيه بادية عليه؟ من هذا الذي يستطيع أن يصنف عبداً من عباد

الله عز وجل في الصالحين والمستقيمين مهما رأى دلائل ذلك عليه؟ الأمر خفي والعبرة بالخواتيم يا عباد الله.

ما العبرة أو ما الدرس الذي أريد أن نقطفه من هذا الكلام؟ العبرة التي ينبغي أن تجتثها من هذا الكلام هي أن علينا أن نتأدب مع عباد الله جميعاً يا عباد الله، نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر نعم ولكن دون أن نصنف أنفسنا في الدرجة الأعلى ممن نأمره أو ننهاه، هكذا يؤدبنا الله سبحانه وتعالى في محكم تبيانه وهكذا ينبغي أن تكون علاقتنا مع عباد الله عز وجل. ألا فلتعلموا أن من يحاول أن يضرب الأديان السماوية بعضها ببعض بعد الذي سمعتموه ويحاول أن يضرب الفرق الإسلامية بعضها ببعض بعد الذي سمعتموه فلتعلموا يقيناً أنه ليس من تلك الفرق ولا الأديان في شيء، إنه عدو لهم جميعاً وإنه يتربص بهم جميعاً، وإنه يريد أن يجعل كل واحد منهم ناراً تلتهب على زميله وأخيه.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.







آفات النفس

٩٩- الهوى المقنع بالدين.. بلاء خطير | ١٩٨٧/٠٥/٢٩

إنّ الله عزّ وجلّ إنما أكرمَ عبادهُ بهذا الدِّين؛ ليكونَ نبراساً بينَ أيديهِمْ يوصلهم إلى الحق ويبعدهم عن الباطل، وإنما الميزان الوحيد الذي يكشف للإنسان الحقَّ عن الباطل ويميِّز هذا عن ذاك، إنما هو العلم. ولذلك؛ فقد كان العَمودُ الفقريُّ للدّينِ الذي أكرمنا الله عزَّ وجلَّ بهِ هو العلم.

ورفعَ المنهاج الإلهي من مستوى العلم كثيراً، وأهابَ بالناسِ أن يعكفوا على العِلمِ ودراسته.

إلا أن للعلم آفة كما أن لكل شيءٍ آفة. فما هي آفة العلم؟ أي ما هي الجرثومة المسلطة على العلم؟ الشأن فيه كالشأن في كل الأمور، لكل أمرٍ من الأمور المعنوية والمادية جرثومةٌ سُلِّطَتْ عليه. فما هي الجرثومة التي سلطت على العلم؟

إنها الهوى.. فالهوى آفةُ العلم، ومن ثمَّ فهو آفةُ الدّينِ أيضاً. والدّين الذي أكرم الله به الإنسان ليكون نبراساً له يوصله إلى الحق ويبعده عن الباطل، لا يمكن للإنسان أن يجد شيئاً يتربّص به في طريقه ليلبّس عليه الأمر سوى شيءٍ واحد ألا وهو الهوى.

ومن ثَمَّ فقد حذَّرنا كتاب الله عزَّ وجلّ من اتباع الهوى، وحذَّرنا من أن نخلط العلم بالهوى، وحذّرنا إذا حكمنا بما أنزل الله أن نمزج حكم الله أو الحكم بالحق بالهوى. وما أكثر ما يقرن البيان الإلهي بين الحكم بالحق دعوةً إليه وبين اتباع الهوى تحذيراً منه. انظروا إلى ما قاله جلَّ جلاله لداوود: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ﴾.

وانظروا إلى الكلامِ ذاتهِ الذي قالهُ الله عزَّ وجلَّ لنبيّنا محمّدٍ عليهِ الصلاةُ والسلام: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللّهُ إِلَيْكَ﴾..

وانظروا إلى بقيّة ما في كتاب الله عزَّ وجلّ من آيات ونصوص تحذر من اتّباع الهوى، وكم يتفنَّن البيان الإلهي في عرض هذا الأمر الخطير. انظروا مثلاً إلى قول الله عزَّ وجلّ: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾، هذا كلامٌ عجيب، وكلامٌ خطير، ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءهُمْ

لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾، أيُّ بلاءٍ أخطرُ إذاً على وجهِ الأرضِ أو في الدنيا التي يعيشها الإنسان من اتّباع الهوى؟

وما هو الهوى؟ إنه عبارة عن داعٍ يدعوك إلى سبيلٍ ما.. وهذا الداعي يأتيك مقنعاً بالعلم، مقنعاً بشارة الحق، مقنعاً بالدليل والبرهان، بل مقنعاً بالدين في كثيرٍ من الأحيان، فيلتبس عليك الأمر ويختلط عليك الحق بالباطل؛ ذلك لأن عادة الهوى أنه لا يأتي مكشوفاً صريحاً، ولو كان الأمر كذلك لما كانت له هذه الخطورة.

إن الملحد الذي يدعوك إلى إلحاده لا خطورة فيه لأنه يستعلن بهويته، وإن المنحرف الذي يدعوك إلى الانحراف باسم الانحراف لا خطورة في دعوته، لأن انحرافه يحذر من دعوته... ولكن الهوى لا يأتي بهذا الشكل الصريح الواضح، إنه يأتيك مقنعاً بأقنعةٍ عدّة بل مسلحاً بأسلحةٍ كثيرة، يأتيك مقنعاً بالعلم، يأتيك مقنعاً بالدين، يأتيك مقنعاً بدلائل الحق وشاراته.. فما أكثر ما يلتبسُ الإنسان عليه مثلُ هذه الدَعوة الخطيرة.

ومن ثَمَّ فقد حذَّرَ بيانُ اللهِ سبحانهُ وتعالى تحذيراً متكرراً من اتّباعه. انظروا إلى قول الله عزَّ وجل: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾.

ماذا أقولُ في هذا الصدد؟ اقرؤوا كتاب الله تعالى لتجدوا التحذير من الهوى، فإذا ما تنبهنا إلى ما ينبهنا إليه الله عزَّ وجلّ، استيقظت بين جوانحنا أحاديثٌ تخوِّفُ وتحذِّرُ الإنسان من هذا العدو الذي يتربّص بالعلم والذي يتربص بالدين ويتربص بالحق.

ومن ثَمَّ فإن الإنسان يعود إلى نفسه لينقدها نقداً ذاتياً وليتبيّن ما إذا كان للهوى تسللٌ إلى كيانه أم لا، وإذا ما وصل الإنسان إلى درجة الرقابة على ذاته، وقاه الله عز وجل من الأهواء والانحرافات كلها، رقابة الإنسان على نفسه، هذا هو الدواء أيها الإخوة.

كن رقيباً على نفسك بعد إخلاصك لربّك وبعد إخلاصك للدين الذي شرَّفك الله عزَّ وجلَّ به. هذه الرقابة تدعوكَ إلى العلم، وعكوفك على العلم يبعدك عن الهوى، لأن من عكف على العلم مخلصاً لله عزَّ وجلّ لا بدَّ أن يجعلَ هواهُ تحتَ قدميه، وإذا سارَ الإنسانُ مقيِّداً نفسهُ بضوابطِ العلم، مستأنساً

بنورِهِ وضيائه، مخلصاً لوجهِ ربِّه سبحانهُ وتعالى، فإن الهوى يبتعدُ عنه ولا يمكن أن يضيّقَ عليه سبيله أو يقطعَ عليهِ طريقه. معاذَ الله.

ولكنَّ الإنسان الذي يخلطُ الهدفَ الذي يسعى إليه من مرضاةِ ربّه، يخلطُ هذا الهدف بمصالحه، برغائبه، بشهواته، بدنياه. لا بدَّ أن يفتحَ السبيلَ واسعاً أمام أهوائه، وإذا تسللَ الهوى إلى كيانِ الإنسان، فإن العلم يصبحُ جنداً للهوى، وإن الحقَّ ذاتهُ يصبحُ جنداً للهوى.

الحقُّ يصبحُ شكلاً. أمَّا موضوعُ الحقِّ ومضمونهُ فيصبحُ بعيداً جدّاً عن الإنسان. ورضيَ اللهُ عن الصحابيّ الجليل عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه، يوم قالَ للناس: ﴿أنتم في زمانٍ كثيرٍ فقهاؤهُ، قليلٍ خطباؤهُ، كثيرٍ معطوه، قليلٍ سُؤّالُه، العلمُ فيه قائدٌ للهوى. وسيأتي على الناسِ زمانٌ كثيرٌ خطباؤهُ قليلٌ فقهاؤهُ، كثيرٌ سؤّالُهُ قليلٌ معطوه، الهوى فيهِ قائدٌ للعلم﴾.

ما أصدقَ هذا الكلامَ الذي قالهُ عبدُ اللهِ بنُ مسعود، ولا ريبَ أنهُ استقاهُ من مشكاةِ النبوة، ألا ترونَ إلى عصرنا الذي نعيشُ فيه، ألا تتأمّلون مدى انطباقِ هذا الكلامِ على ما نحنُ فيه..

خطباؤنا كثير.. ها نحنُ نتكلم وما أيسرَ علينا أن نتفنَّنَ في الكلام، لكن كم هي نسبةُ هؤلاء الخطباء الكثيرون الذين يتفصَّحونَ ويتشدَّقون في الكلام إلى الخطباء الذين يلتزمون بأمرِ الله عن علمٍ ودرايةٍ وفقه.

ألا ترون الأيدي التي تمتدُّ بالسُّؤالِ كم كثرت؟ والأيدي التي تمتد بالعطاء الحقيقيّ لوجه الله كم قلَّتْ؟ ألا تنظرون إلى العلم وقد تحوَّلَ عن قيادتهِ بالأمس؟ فأصبحَ اليومَ خادماً وجنداً لمن؟ للهوى..

كثيرون الذين هم يتحدَّثون بألفاظ العلم. يكررون هذه الألفاظ في أقوالهم من أجل أن يُقَنِّعُوا بهذه الألفاظ أهواءهم. وكلُّ من تأمّلَ ورأى.. لاحظَ مصداقَ كلامِ عبد الله بنِ مسعودٍ رضي الله عنه، وإنما أخذَ عبدُ الله بن مسعود هذا الكلام ــ كما قلتُ لكم ــ من مشكاة النبوّة.

ما واجبنا عبادَ الله أمامَ هذه الحقيقة؟ هل نحنُ صادقونَ في إيماننا بالله؟ هذا السؤال الأول. هل نحنُ مخلصونَ في سعينا إلى مرضاة الله عزَّ وجلّ؟ هذا هو السؤال الثاني.

إن كان الجوابُ نعم. فلندرك أن لا جسرَ بيننا وبين الوصول إلى مرضاة الله بعد الإخلاص لدينه إلا جسرٌ واحد هو العلم. الذي قلتُ لكم إنهُ العمودُ الفقريُّ للدين. هذا العلم الذي نوه الله بشرفه، وأمرَ بالإقبالِ إليه. فتحصَّنوا يا عبادَ الله بحصنِ العلم.

العلم بكتاب الله.. بسنَّةِ رسول الله.. بعمومِ الشريعةِ الإسلاميّةِ اعتقاداً وآداباً وسلوكاً، بعدَ الإخلاص لدين الله عزَّ وجلّ. فإنكم إن فعلتم ذلك تحصَّنتم ضدَّ وباءِ الهوى، تحصَّنتم ضدَّ جراثيمِ الأهواء التي حذَّرَ اللهُ سبحانهُ وتعالى منها، وإنكم إن فعلتم ذلك وهبكم الله إحساساً سامياً دينيّاً دقيقاً تُميِّزون به بين الحق الذي تُدعَونَ إليه والباطلِ الذي تُدعونَ إليه.

مثلُ هذا الإنسان إذا سمِعَ من يدعو الناسَ إلى هواه مقنعاً بقناعِ العلم مزيفاً بزيفِ الدين، لا يمكن أن يتأثر به أبداً. لأن إخلاصه لله، بالإضافةِ إلى العلمِ الذي تعلمه كما أمر الله به؛ يجعلُ عندهُ حصانةً، يجعلُ عندهُ وقايةً. والواقي هو الله والموفِّقُ هو الله.

أمّا إذا كانت أهواؤنا هي المفضّلة عندنا، عصبيّاتنا للذاتِ والجماعة هي المرجّحة في كياننا ولها الأولوية في تحقيق غاياتنا، إذا كان الأمرُ كذلك، فما أصعبَ العلاج وما أبعدَ الدواء. ولنعلم أننا بهذا سنجعلُ من الدينِ ومن العلم ومن مظاهر الحق جنوداً مجنَّدةً للأهواء. وقد حذّرنا الله من ذلك عندما أنذرنا أن هذا السبيل سيضلنا عن سبيل الله وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾.

وكأنه يقول: إن من وجد نفسه سجيناً لهواه، مقيَّداً بشهواته. دواؤهُ أن يتذكرَ يومَ الحسابْ. فإذا تذكَّرَ يومَ الحساب، تساقطت أهواؤه من قلبه وابتعدت جراثيم الهوى من فؤاده، فصفى طريقه إلى ربّه. أمّا الذي نسي يوم الحساب، فما أجدرَ أنْ يذكرَ مصالحهُ وعصبيّتهُ وأهواءَهْ.

أسألُ الله سبحانهُ وتعالى أن يحررنا من أهوائنا، وأن يجعلنا ممن تمسكوا بالدين عن طريق التمسّك بعلوم الدين. وأسألُ الله عزّ وجلّ أن يحصّننا بثقافةٍ إسلاميّةٍ راشدةٍ هاديةٍ مهديّة. وأن يجعلنا ممن أخلص لوجه الله عزَّ وجلّ.. فاستغفروهُ يغفر لكم.

١٠٠- وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلا وَهُمْ مُشْرِكُونَ | ١٩٩٦/٠٢/٢٣

ما مرةً وقفتُ فيها على قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ إلا وشعرت بالكثير والكثير من المخاوف التي لا بد أن تتبدى لكل متدبرٍ من هذه الآية. وكم تساءلت بيني وبين نفسي وقلت: لو أننا وقفنا مقتصرين عند الآية الأخرى التي يقول الله عز وجل فيها ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ لهان الخطب، ولرأينا الواقع يؤكد ذلك؛ فأكثر الناس على وجه الأرض هم الجانحون والجاحدون بالله عز وجل. أمّا هذه الآية فمخيفة حقاً، تلك التي يقول الله عز وجل فيها ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾.

هذا الكلام يتجه إلى الفئة القليلة المؤمنة؛ حتى هذه الفئة القليلة المؤمنة أيضاً أكثرهم إذا نظرت وإذا سبرت الغور رأيتهم كاذبين في إيمانهم ومشركين بالله عز وجل. هذا هو الشيء الذي يخيف. ترى كم هم إذاً أولئك الصادقون في إيمانهم والمخلصون لله عز وجل في توحيدهم؟

ثم إنني عندما أقف على الآية الأخرى التي يقول الله عز وجل فيها: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ أشعرُ بمزيدٍ من الخوف الاضطراب والقلق. هؤلاء الناس قاموا بحسب الظاهر بأعمال صالحة، وتقرّبوا إلى الله عز وجل في الظاهر بخطى حسنةٍ مقبولة، ولكن هاهو ذا قرار الله يُعلن قائلاً: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾.

هذا الشيء الذي يُثير القلق والخوف لم تتبدى معانيه مفسرةً أمامي إلا في هذه السنوات الأخيرة، عندما نظرت وتأملت في حال المسلمين أو أكثر المسلمين وغالبيتهم العظمى، فرأيت هذه الغالبية العظمى فئات، كل فئةٍ تسيرُ إلى متعتها تسير إلى رغبتها الدنيوية، قد تكون هذه الرغبة متعةً دنيويةً ولهواً مما حرمه الله عز وجل، وقد تكون هذه المتعة سياسةً جامحةً لا ترضي الله عز وجل، وقد تكون هذه المتعة عصبيةً يبحث الإنسان أو تبحثُ هذه الفئة عن غذاءٍ لتنميتها ولتربيتها.

عندما نظرت إلى فئات المسلمين ووجدتهم يسيرون في طرائق شتى، تجمع هذه الطرائق كلها صفة واحدة: أنها تلبي الرغبات الدنيوية، تلبي المصالح العاجلة، وأنظر وإذا بكل فئةٍ تغطي نفسها بها، كل فئةٍ تُجمِّل سيرها إلى متعتها إلى هواها إلى أنانيتها إلى عصبيتها إلى سياستها بهذا الدين الإسلامي.

وانظروا أيها الإخوة تجدون هذه الظاهرة التي تقشعر لها الألباب، ومن ثمّ فلن تقشعر الألباب لهذا الذي يقرره بيان الله سبحانه وتعالى. انظروا إلى الكثرة الكاثرة من حولنا تلك التي اتجهت إلى سياسة استمرأت الركون إلى العدو، والركون إلى الغاصب، والركون إلى أعدى أعداء هذا الدين، ولكن هذه الفئة أو هذه الفئات وهي تمارس عملها هذا تسير إلى هدفها وراء ستارٍ من الدين، شعاراته، مظاهره، أقواله وكثيراً ما تتخذ من أجهزة الإعلام أبواقاً للإعلان بكلام الله سبحانه وتعالى، وللترويج لأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وتنظر إلى فئةً أُخرى أو فئات أخرى استمرأت من الدنيا ما يسيرها في طريق الأهواء المحرمة، وما يجعل مجتمعها أشبه بمجتمع من المجتمعات الغربية لا بل أكثر، فما من لونٍ من ألوان المتع المحرمة إلا وهو مزدحمٌ وواضحٌ وثائرٌ في مجتمعهم، ولكنها في الوقت ذاته تغطي واقعها هذا بطنينٍ إسلامي وطنين ديني، فالمآذن تظل مزدانة بالأضواء وآيات الله عز وجل تظل أصوات المقرئين لها تجاوز طبقات الجو، والمتحدثون في الإسلام ومعاني الإسلام والكلمات التي تُعدُ شعارات عظيمة وبرّاقةً للإسلام كلها يروج رواجاً كبيراً في تلك المجتمعات.

متعٌ وأهواءٌ محرمة تسابق المتع التي تسمعون عنها في المجتمعات الأوروبية، وغطاءٌ من الإسلام والدين.

وتتابع النظر والتأمل فتجد فئات تعبد عصبيتها، تعبد انتماءاتها، المذهبية تعبد أنانيتها. ولكن كيف السبيل إلى أن تغذي عصبيتها هذه؟ وإلى أن تغالب بها الآخرين السبيل إلى ذلك؟ مرةً أخرى هو الإسلام.. تتخذ من الإسلام ومبادئه وأحكامه الغذاء الأوحد المثالي، لتغذية عصبيتها، لتغذية أنانيتها، لتغذية انتماءاتها.. كل ذلك في الواقع عبادةٌ للذات، لكنه يُغطى هو الآخر بغيرة على دين الله عز وجل، بكلماتٍ مستعارة من كتاب الله أو من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم. وتنظر إلى هذه الفئات فتجد أنها ترى بأم عينها كيف يُمزق الإسلام بهذا الاستغلال وهذا التسخير! وكيف يتحول الإسلامُ إلى

مزق بل إلى لُقم عن طريق هذا الاستغلال وهذا التسخير! ومع ذلك فهي تتجاهل هذا، وتمضي سائرةً إلى تغذية ذاتها وأنانيتها وعصبيتها.

انظروا أيها الإخوة إلى ما أنظر، وتدبروا كما أتدبر، والتفتوا يميناً وشمالاً تجدون مصداق كلام الله عز وجل: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾.

فئات مختلفة... هذه عاكفةٌ على أهوائها على رغباتها، مُصرّةٌ على أن تستقدم كل متع أوروبا وكل المستحضرات الحديثة من لهوها المختلف المتنوع، تُصر على أن يستحضر ذلك كله في مجتمعاتها، هي غنية هي تملك هذا كله بواسطة المال، ولكنها في الوقت ذاته تغطي نفسها بغطاءٍ لا نملك نحن أن نغطي أنفسنا به، فالحديث عن الإسلام صباح مساء، والشعارات الإسلامية تملأ أجهزة الإعلام.. كل ذلك جاهز.

تنظر إلى فئات أخرى.. وهي تلك التي استسلمت باسم السلام، وكلكم يعلم هذا الأمر، ونحن نسأل الله عز وجل دائماً أن يقينا رشاش هذا البلاء، وأن يُحصن أمتنا ضد هذا الانحراف، فتلتفت إلى مقاييس الدين فلا تجد أي شارة في الإسلام تبرر هذا الأمر، العدو يقتحم الدور باسم التطبيع وغير التطبيع ونحو ذلك، العدو يُدخل وسائل تربيته حتى في البيوت، العدو يحاول أن يشتري النفوس والضمائر عن طريق الوسائل اللاأخلاقية وغير ذلك، والذين فتّحوا الأبواب متجاهلون ومعرضون ويُغطّون أنفسهم باسم الدين بالآية القائلة ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾.

يلتفت البسطاء فيسمعون القرآن يُتلى، ويسمعون الأحاديث الدينية تتكرر، ويجدون المؤتمرات والندوات باسم الإسلام تعاد بين حينٍ وآخر، والناس الذين يتاجرون بشعارات الإسلام يُرّحب بهم. البسطاء يقولون: إنهم مسلمون، إنهم ملتزمون...

تنظر إلى الفئة الأخرى وهي تلك التي لا تُبالي بأن يُمزق المسلمون شر ممزق، لا تبالي بأن يتحول المسلمون الذين قال الله عنهم: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا﴾ أصلحوا ﴿بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ لا تبالي بأن تناقض أمر الله، فيُفسد بين إخوانه، ويجعل من الآراء الاجتهادية المختلفة أسلحةً تفتك في الأمة الواحدة، وتجعل من الإخوة الذين أمرنا الله بإصلاح ما بيننا وبينهم، يحيلون الأمر إلى وسيلة إفسادٍ فيما بيننا وبينهم.

أليس هذا هو سبيل لتغذيتي لعصبيتي، للمذهب الذي أنادي به، للرأي الذي أجنح إليه؟! أليس هذا هو السبيل لضمانة تغلبي في الساحة؟! إذاً فعلى الدنيا بل على الإسلام العفاء، وليتمزق المسلمون شذر مذر، وليُسخر الغرب هذا الواقع في سبيل ضرب المسلمين، المهم أنني تغلّبتُ في الساحة، وأن رأيي ظهر وتألق، وأنني استطعت أن أجر أكثر الناس إلى ما أرى.

وهكذا تحول الإسلام إلى سُتُر، كل صاحب رغبة، كل صاحب هوى، كل صاحب متعة، كل صاحب طريقٍ سياسيٍ أو غير سياسي يُهرَع إلى الإسلام ليجعل منه غطاءه الأمثل. هذا هو الذي يعيدنا إلى القناعة التامة بقول الله عز وجل: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾، يعيدنا إلى القناعة التامة بقول الله عز وجل: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾.

ثم إن هذه الظاهرة تنبهنا إلى شيء آخر: تنبهنا إلى أن الإسلام – ولا شيء غير الإسلام – هو الأداة الفعّالة في حياة المجتمعات اليوم، الإسلام هو الأمل الوثّاب الذي يُمكن أن تزدهر من وراءه طموحات الشعوب وآمالها. لو لم يكُن الإسلام هكذا لما رأت هذه الفئات سبيلاً إلى أن تستر نفسها وتستر انحرافاتها عن طريق الإسلام فقط، ذلك لأنها تعلم أن الإسلام في هذا العصر هو السلعة الرائجة، الإسلام في هذا العصر هو الأمل، الإسلام في هذا العصر هو مطمح الأبصار. لكن مطمح أبصار من؟ مطمح أبصار الأفراد، مطمح أبصار الذين لا مصالح لهم، مطمح أبصار الذين فرغت قلوبهم من الأهواء الآسنة التي تنتحر أوروبا بها اليوم. هؤلاء الناس هم الذين يُخدعون اليوم بالإسلام عن طريق هذه الفئات.

ولنا أن نتأمل أملَ خيرٍ من وراء ذلك، ما دمنا نعلمُ يقيناً أن الإسلام هو مطمح أنظار العالم كله، وما دام أن الإسلام هو الألق الذي تسعد به حتى بحلمه الأفكار والفئات والنفوس الإنسانية فلسوف يأتي بإذن الله يومٌ يتغلب الواقع الطاهر على هذا الواقع الذي يُستغل به الإسلام استغلالاً، لسوف يأتي اليوم القريب بإذن الله الذي نجد أن هنالك في الساحة مسلمين لا يُغذون عن طريق الإسلام عصبياتهم ولا يُغذون أنانياتهم، بل يُضحون بعصبياتهم وبإنتماءاتهم وأنانياتهم في سبيل وحدة الإسلام، في سبيل وحدة المسلمين.

سيأتي اليوم القريب الذي تتساقط فيه الأوراق التي يستتر أولئك المنحرفون أنفسهم بها، إن لانحرافات سياسية، إن لسبلٍ من الأهواء المختلفة، أو إلى متع أو إلى أي شيء غير ذلك، ولسوف يتألق الإسلام في نفوس المخلصين لدين الله سبحانه وتعالى، ونسأل الله عز وجل أن يكون هذا الغد قريبا إن الله طيبٌ لا يقبل إلا طيباً ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلا صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾. اللهم اجعلنا من هؤلاء الناس.

أقول قولي هذا وأستغفر الله.



١٠١- تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض |

١٩٩٦/٠٦/٢٨

تقرؤون جميعاً في كتاب الله سبحانه وتعالى تلك الآية التي ألزم الله عز وجل ذاته العليّة من خلالها، بأن يجعل الصفوة من عباده فوق هذه الأرض هم قادة الناس جميعاً وأئمة الأسرة الإنسانية. كلكم يقرأ في ذلك قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾. ولعلكم تقرؤون تلك الآية الأخرى التي تدعم هذه الآية وتزيدها جلاءً وتأكيداً وهي قول الله سبحانه وتعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ وقوله عز وجل: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً﴾. هذا وعدٌ قاطعٌ من الله عز وجل ألزم به ذاته العليّة وكلكم يعلم أن القرآن كلام الله وأن وعد الله سبحانه وتعالى لا يلحقه خلفٌ قط.

ولكن لعل في الناس من يستشكل هذا الذي وعد الله عز وجل ذاته العليّة مع آية أخرى أوصى فيها الله سبحانه وتعالى هذه الصفوة من عباده بالابتعاد عن الولاية والابتعاد عن أسباب العلو في الأرض، وذلك عندما قال عز وجل: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾؛ ربما قال قائلٌ: كيف يُطمع الله عباده في أن يجعلهم أئمة مستخلفين في الأرض وقادة على غيرهم، ثم إنه يحذرهم من التوجه إلى العلو في الأرض؟

ينبغي أيها الإخوة أن نعلم وجه التناسق بين الآية التي ألزم الله عز وجل فيها ذاته بهذه العِدَة، وبين هذه الوصية الأخرى التي أوصى الله بها عباده: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ﴾ أي نجعلها للذين لا يستكبرون على الآخرين، نجعلها للذين لا يطمحون إلى التعالي على إخوانهم وإلى التباهي عليهم، لا يلهثون مع إخوانهم وزملائهم في سباق إلى كراسي الحكم من أجل العلو ومن أجل التسامي ذلك، لأن الإنسان الذي يطمع أو يطمح إلى مثل هذا ليس هو الذي وعده الله سبحانه وتعالى بهذه الإمامة ولا بهذه القيادة. ينبغي أن تعلموا هذه الحقيقة جيداً.

لكي تنالوا الإمامة في الأرض ولكي تصبحوا فعلاً أئمةً كما وعد الله عز وجل، ينبغي أن تتحققوا بهاتين الوصيتين أولاً، فلا تطمعوا في علوٍ في الأرض أبداً، ولا تسلكوا مسالك الفساد بين عباد الله عز وجل أبداً، فإذا تحققتم بهذين الوصفين فأنا أعدكم أن أعلو أنا بكم بعد أن زهدتم أنتم في العلو، أعدكم أن أعلو بكم إلى مستوى القيادة والإمامة التامة على الأسرة الإنسانية جمعاء. وكيف يتنزه المسلمون عن حب العلو في الأرض؟ وكيف السبيل إلى ذلك؟

السبيل إلى ذلك أن يذوق الإنسان حقيقةً معنى عبوديته لله عز وجل، ثم أن يمارس هذه العبودية بسلوكه في هذه الحياة الدنيا، يعلم بيقينه العقلي ثم بمشاعره الوجدانية أنه عبد مملوك لله سبحانه وتعالى، يتحرك في قبضة الله عز وجل، وأن الناس من حوله جميعاً عبادٌ لله سبحانه وتعالى، فإذا عرفت هذه الحقيقة وتذوقتها فمن أين يمكن أن ينبثق في كياني حب التعالي في الأرض؟ وكيف يمكن أن أطمح إلى أن أعلو على إخواني في المكانة والرتبة ونحو ذلك؟ عبوديتي لله تمنعني من ذلك. وعبودية الآخرين لله أيضاً يجعلهم إخوةً متحابين متآلفين يؤثر الواحد منهم صاحبه على نفسه في التعالي والسمو.

عندما يجد الله عباده وقد تحققوا بهذا الوصف، وهذا يجرهم بالتالي إلى أن لا يكونوا مفسدين في الأرض بل يكونوا مصلحين دائماً، عندئذٍ يأتي دور الوعد الذي ألزم الله عز وجل به ذاته العليّة عندما قال: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾.

كم من الناس من شردوا عن هذا المعنى العظيم، بل شردوا عن وجه التناسق بين هاتين الآيتين. قرأوا الآية التي ألزم الله عز وجل فيها ذاته بهذا الوعد، فظنوا أن هذا إذنٌ لهم بأن يفتحوا أمامهم السبيل إلى منافسة الآخرين، وإلى سباقهم، والتعالي عليهم، من أجل الذات ومن أجل المباهاة وإشباعاً لرغبة الكبرياء، ونسوا قول الله عز وجل: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾. فإذا رأيتم اليوم أن المسلمين في جل أوطانهم وبلادهم بعيدون عن المعنى الذي وعدهم الله عز وجل به، محكومون دون أن يحكموا، مقودون دون أن يقودوا، ليسوا أئمةً كما وعد الله عز وجل، فذلك لأنهم لم يتحققوا بقوله عز وجل: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً﴾.

ولكي لا نبتغي في الأرض علواً ولا فساداً ينبغي أن نتحقق بمعنى العبودية لله عز وجل، لا شكلاً ولا تقليداً ولا بشعارات فارغة، وإنما بمعنىً من معاني الشعور والذوق بحيث يدفعنا هذا الشعور إلى السلوك، وبحيث تكون حياتنا تعبيراً عن عبوديتنا لله سبحانه وتعالى، عندئذٍ ينفذ الله سبحانه وتعالى لنا وعده الذي ألزم ذاته العلية به جل جلاله. وكيف يكون ذلك أيها الإخوة؟

إن الله عز وجل منذ أن شرّف عباده بهذا الدين الحق، ولقد قلت بالأمس وأقول وكررتها مراراً: إن الدين الحق في حياة الأسرة الإنسانية دينٌ واحد – كان ولايزال واحداً، وإن تلاعب به الناس عبر الأجيال والقرون فجعلوا منه أدياناً متهارجة متخالفة – منذ أن شرف الله عباده بهذا الدين، جعل من هذا الدين أقوى سلاح يدخل الرهبة والخوف في أفئدة أعداء الله سبحانه وتعالى.

هذه الحقيقة كانت ولا تزال إلى اليوم مُطبّقة ومحققة. كيف؟ وقد ألزم الله عز وجل ذاته بهذا أيضاً وأنبأنا بهذه الحقيقة ألم تقرأوا قول الله عز وجل: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نزلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ﴾ هذا كلام الله، بل هذه سنة الله ماضية إلى يوم القيامة حتى في هذا العصر الذي أصبح المسلمون فيه مزقاً متناثرة، وآلت حياة المسلمين إلى تبعيات لفئات لا تقيم لدين الله عز وجل وزنا، وأصبح لعابهم يسيل على الدنيا وحطامها، وتركوا ما أغراهم الله به ورائهم ظهرياً، على الرغم من هذا كله فإنك لتنظر فتجد أعداء الله سبحانه وتعالى يرهبون من هذا الدين الإسلامي أيّما رهبة إلى هذا اليوم.

وسبحان الإله العظيم الحكيم الذي جمع في حياة أولئك الأعداء اليوم أمرين اثنين: الخوف والهلع من دين الله في قلوبهم، والقوة وأسباب المنعة المادية في أيديهم. انظروا وتأملوا تدركون كيف جمع الله لهم بين هذا وذاك. تأملوا في مشاعرهم القلبية تجدوها مليئة لا بالخوف بل بالهلع من دين الله الحق الذي هو هذا الإسلام، ولكنك تنظر فتجد في الوقت ذاته أيديهم مليئة بالقوة المادية التي أمكنهم الله منها. هذا لماذا؟ مقابل ما نحن عليه، نتصف نحن أيضاً بصفتين اثنتين إسلامٍ نرتبط به انتماءً، ونتمسك به بشعاراتٍ جوفاء لا معنى لها ومن وراء ذلك القلب تبعيات ومحبة لاتباع هؤلاء وهؤلاء وأولئك، كما تعلمون وتلاحظون.

لما آل أمر المسلمين إلى هذه الحالة أقام الله من واقع أعداء المسلمين أقامهم على هذين الوصفين، هلعٌ من دين الله في كل لحظة يفري أفئدتهم ويأخذ بمجامع قلوبهم، وقوة ذات يد تتجمع لديهم.

انظروا أيها الإخوة.. ما من مظهرٍ من مظاهر الإسلام يعلن عن نفسه في مكانٍ ما، إلا وتجدون الرقاب قد اشرأبت والعيون قد جحظت بل دارت كما يقول الله سبحانه وتعالى خوفاً، وجاء رسلهم يبحثون ويتسائلون ويكتبون ويقررون ماذا حدث؟ ماذا وراء ذاك؟ ما الذي سيحدث وراء عودة المسلمين إلى إسلامهم؟

ألا تعتزون بهذا الذي أعزكم الله به! ألا تشعرون وأنتم تعانون من الضعف إلى أقصى درجاته، ومن مرض الذل إلى أحط دركاته! ألا تجدون أن الله قد وضع أمامكم الترياق الشافي! فلماذا لا تستعملون هذا الترياق؟ بل ليت شعري لماذا لا يستعمل الحُكام المسلمون هذا الترياق؟ الذين يشعرون بألم التشرذم وبأسى الذل الذي هيمن على كياناتهم؟ وكلٌ منهم يعلم أكثر مما أعلم أن أعداء الله عز وجل على الرغم من القوى المتجمعة لديهم تفيض قلوبهم خوفاً إلى درجة الهلع من دين الله سبحانه وتعالى الذي شرف الله سبحانه وتعالى به عباده.

هذا على الرغم من أن المسلمين بعيدون عن دينهم، هذا على الرغم من أن الإسلام آل حاله إلى مظاهر براقة وإلى إنتماءات وشعارات مذوقة، فكيف لو كان المسلمون مسلمين حقاً؟ وكيف لو كان الإسلام تفاعلاً بين قادة هذه الأمة وشعوبها كيف؟ وعندما نقول: الإسلام. فمعاذ الله أن نعني بالإسلام إلا هذا الذي جمعه الله ولخصه في هذين الوصفين: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً﴾ الفساد في الأرض نقيض الإسلام، لأن الإسلام جعل للإصلاح وللصلاح، وكل من عاث فساداً في الأرض فلتعلموا أنه يمارس عدواناً معلناً أو غير معلن لدين الله سبحانه وتعالى.

هذه حقيقة نعرفها، ومن ثم فإن كل من يعلن أنه يقف في وجه الإسلام ويحاول أن يخنق التوجهات الإسلامية، فلتعلموا أنه يعلن في الوقت ذاته أنه يسير ضد الصلاح والإصلاح في كل مكان، ويحاول أن يزرع الأرض فساداً وبأسباب الفساد أجمع.

دين الله عز وجل هو الحصن الوحيد للأمن والطمأنينة والسلام والصلاح. ولكن من ذا الذي يجهل أن الحصن الذي يحقق هذا كله لا يمكن أن يتحقق إلا إذا كان هذا الحصن مجموعة عيون ساهرة ضد الظلم والظالمين؟ ضد المغتصبين والاغتصاب؟ ضد المتربصين بحقوق وحياة الأبرياء؟ لا يمكن للصلاح أن يتم إلا إذا حُصِّن حقل هذا الصلاح بحماية له.

هذا المعنى ينبغي أن نعلمه جيداً، وبين هذين الأمرين تفاعلٌ يعرفه كل من درس شريعة الله سبحانه وتعالى، وانظروا لتعتزوا بهذا المعنى الذي أقوله لكم إلى ما يقوله جل جلاله في محكم تبيانه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ المهاد﴾.

وأقول: إن الذين يحرصون حقاً وصدقاً على السلام والأمن والطمأنينة عليهم أن يحرصوا قبل ذلك على العدالة، أما الذي يحاول بيدٍ واحدة أن يقتل الأبرياء وأن يستلب الحقوق وأن يجتث النبات اللدن الذي يُغرس بيد السلام والإسلام في الأرض، وبيدٍ أخرى يحاول أن يردع من يسميهم بالإرهابيين، فليعلم أن الناس كلهم سيكتشفون دجله، لا يمكن لطفلٍ صغير أن يجهل دجل هذا الإنسان الذي يستعمل يده الواحدة للإفساد وسفك الدماء بكل الوسائل والأسباب، ثم يستعمل يده الأخرى فيما يزعم بحماية حق السلام وبحماية الأمن والطمأنينة.

لا.. لم يصبح الناس مجانين بعد، ودين الله سبحانه وتعالى علم الذين لا يعلمون وتوج عقولهم بالمعارف التي ترفعهم عن مستوى الإنخداع بهذه الظاهرة.

أقول قولي وأستغفر الله العظيم.

١٠٢- لماذا يشعر أحدنا أنه فقير | ١٤/١١/١٩٩٧

في كتاب الله سبحانه وتعالى آيةٌ إذا تأملها القارئ المتدبر لا بد أن تستوقفه جملةٌ منها، ولا بد أن يقف عندها ليفهم الحكمة ويعود بالمعنى الذي أراد الله سبحانه وتعالى لعباده أن يتبينوه وأن يعتبروا به.

الآية هي قول الله سبحانه وتعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾

والذي يستوقف القارئ المتدبر في هذه الآية، أن الله عز وجل عدّ مظاهر الشهوات والأهواء دون أن يضبطها بقدر حتى إذا تحدث عن الذهب والفضة ومحبة الإنسان لهما ربط الذهب والفضة بقدرٍ هو القناطير المقنطرة ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ﴾ ثم تابع فقال: ﴿وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾، لماذا قيّد الذهب والفضة دون غيرهما بهذه القناطير المقنطرة، وهو يتحدث عن طبيعة الإنسان في محبته لهذه الشهوات والأهواء المتنوعة الكثيرة؟ إذا تدبرت في هذا الذي يلفت النظر تبينت الحكمة من ذلك.

الإنسان تتجه نفسه إلى الشهوات والأهواء بالقدر الذي يشبع نفسه منها، حتى إذا اتجه إلى المال فإنه لا يكتفي من ذلك بحد، ليس عند الإنسان حسابٌ يقف عند انتهاء حاجة، وليس عند الإنسان سقفٌ في محبته للمال الذي يتمثل في الذهب والفضة، وهما قيم الأشياء كما تعلمون. لو كانت حاجة الإنسان تتحقق بقدرٍ معينٍ من ذلك لطلب الإنسان من وراء ذلك المزيد والمزيد والمزيد... تلك هي طبيعة الإنسان وهكذا زين الله سبحانه وتعالى له الدنيا، وهذا هو الواقع الذي لا شك فيه.

يعيش الإنسان أيها الإخوة وهو مُقِل ليس معه من متاع الدنيا إلا قليل، ومن ثم لا يبني في ذهنه الأحلام ولا الأماني، ومن ثم فهو يعيش قانعاً بهذا المال القليل، حتى إذا اندلقت عليه الدنيا وجاءه المال من هنا وهنا بدأ يشعر بالفقر، وكلما ازداد المال لديه كلما شعر بمزيد من افتقاره، لماذا؟ لأنه كلما أنعم

الله عليه بمزيدٍ من المال غُرِست في أفكاره وأحلامه مشاريع دنيوية مختلفة، لم يكن يُفكر فيها من قبل، لم يكن يفكر في شيء منها عندما كان يأتيه رزقه بحساب، أما الآن وقد أصبح المال يأتيه من هنا وهنا وهناك، فقد بدأ يفكر في المزرعة، بدأ يفكر في البيوت الأخرى، بدأ يفكر بتحسين حاله من كل الجوانب، وكلما فكر في شيء من هذا وجد أنه فقير، وأن المال الذي لديه لا يكفيه، وكلما أكرمه الله بمزيدٍ من المال مدّ عينيه إلى مزيدٍ من الأحلام، فمتى يشبع؟ ومتى يتحرر من فقره؟

لن يتحرر من فقره. وهذا هو مصداق قول الله سبحانه وتعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ﴾ لم يقيد ذلك بعدد ثم قال: ﴿وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ﴾، وتصوروا كلمة القناطير المقنطرة هل فيها مبالغة؟ لا ليس فيها مبالغة أبداً.

ذلك هو شأن الإنسان، ويا عجباً عندما يكون الإنسان فقيراً يأتيه رزقه بحساب هو أكثر الناس شعوراً بالغنى وهو أكثر الناس شعوراً بأن ما لديه يكفيه، ذلك لأنه لا يشتط بأحلام يتخيلها، ولا يشتط بأماني يرسمها، ومن ذلك فحسابه مع المال متطابقان تماماً، ولكن الغني هو الفقير حقاً، الغني شكلاً هو الفقير حقيقةً، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم القائل فيما رواه الشيخان ﴿لو كان لابن آدم وادٍ من مال﴾ أي من ذهب وفضة ﴿لابتغى إليه ثانياً، ولو كان له واديان لابتغى إليه ثالثاً﴾ ثم قال عليه الصلاة والسلام: ﴿ولا يملؤ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب﴾. هل وقفتم مرةً على هذه الكلمة النبوية أيها الإخوة؟ ﴿ولا يملؤ جوف ابن آدم إلا التراب﴾، قفوا عندها وانظروا إلى الكلام العظيم والعجيب.

الإنسان مهما أوتي من المال من الذهب والفضة لن يكتفي ولن يستغني بل كلما زاد الله سبحانه وتعالى له من الرزق والعطاء من هذا المال الذي تحدث عنه بيان الله كلما ازداد شعوره بالفقر.

إذاً ما الذي يكبح جماح طمعه؟ ما الذي يشعره بأنه قد اكتفى؟ شيءٌ واحد شعوره بأن الموت يتربص به، عندما يعلم أن هنالك سقفاً لأمانيه لأحلامه لشططه للغنى الذي يطمح إليه، هنالك سقفاً

لا يستطيع أن يخترقه ألا وهو الأجل المحتوم، وإذا جاء الأجل فلا بد أن ينفض يديه هذا الإنسان من الذهب ومن الفضة، ولا بد أن ينفض فكره من سائر الأحلام التي كان يحلم بها.

إذا أشعر الإنسان نفسه بالموت وتذكره دائماً وعلم أنه راحل، فعندئذٍ يمكن أن تضع رحمة الله سبحانه وتعالى كوابح بينه وبين أطماعه، وعندئذٍ ينظر بإحدى عينيه إلى مصالحه العاجلة يجمع لذلك الدنيا، وينظر بالعين الأخرى إلى مصالحه الآجلة يمد يده بالعطاء يمد يده من أجل أن يتخلص من المزيد من المال، يُنفق ذلك كله فيما يسعده في آخرته التي هو مقبل عليها. هذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم: ﴿ولا يملؤ جوف ابن آدم إلا التراب﴾ كلامٌ بليغ.

التراب ليس هو المعني في المعنى الشكلي الذي تعرفون، ولكن التراب كناية عن الموت، ولا بد أن يتبين الإنسان شبح الموت قبل أن يموت، وإلا فإذا حاق الموت بالإنسان فإن قارون وهو أكثر الناس طمعاً سيزهد، والموت عاقبة كل حي، لكن مراد المصطفى صلى الله عليه وسلم أن شيئاً واحداً يكبح جماح طمع الطامعين ألا وهو أن يجلس فيغمض عينيه ويتصور أنه راحل، وأنه ميت فإذا علم هذا وتذكر هذه الحقيقة دائماً، وضع المال الذي يكرمه الله عز وجل به في كفة ووضع العمر الذي يتمتع به في كفة أخرى، وينظر فيجد أن المال قد فاض عن حاجات عمره، ستعيش خمسين عاماً بعد اليوم أكثر من ذلك ماذا عسى أن تصنع بالقناطير المقنطرة؟ ويحك ماذا عسى أن تصنع بأحلامك المجنحة التي لن تستطيع أن تنفذ إلا معشاراً يسيراً منها؟

إذا أدركت حقيقة الموت، استغنيت. وانظروا إلى هذا الكلام أجل استغنيت، ذلك لأن الغنى لا يتحقق بأن تلهث وراء المال، وأن تشعر بأنك بحاجة ماسة إليه، أنت أفقر الفقراء إليه في هذه الحالة. إنما يتحقق الغنى في تلك الساعة الأخرى، عندما تشعر أن هذا المال الذي بين يديك يكفيك ويزيد، وتشعر أنك بحاجة إلى أن تعود بالكثير منه إلى إخوانك عن يمينك وشمالك، عندئذٍ أنت الغني.

ولا والله ما رأيت أيها الإخوة فقيراً أحوج إلى العطف الحقيقي من هؤلاء الأغنياء الذين يلهثون وراء الملايين حتى إذا جمعوا الملايين في صناديقهم تناسوها أو نسوها وعادوا يحلموا بالملايين الأخرى ثم بالملايين

الأخرى كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإذا طرقت باب أحدهم تذكره بالله عز وجل أو تُذكره بعباد الله شكى وبكى وأبكاك، إن استطاع إلى ذلك سبيلاً وتألم إلى أن السيولة معدومة في هذا الكون كله.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يغنينا بفضله وأسأل الله عز وجل أن يجعل من نهاية كل حيٍ كوابح لأطماعنا. وأسأل الله أن يعافينا من الفقر الحقيقي. أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.



١٠٣- (باطن الإثم) داء وبيل أعرض عن دواءه المسلمون | ١٩٩٨/٠٨/١٤

إن مشكلاتنا الاجتماعية والدينية كثيرةٌ جداً في هذا العصر، ومردُّ هذه المشكلات كلها إلى آفاتٍ نفسية يُعاني منها اليوم أكثر المسلمين.

من هذه الآفات النفسية العصبية التي تتحكم في كثيرٍ من الأحيان بأصحابها، فيستخدمون الإسلام أو الدين من أجل إرواء وإشباع عصبياتهم.

ومن هذه الآفات قسوة القلب التي من شأنها أن تحجب الإنسان عن استيعاب خطاب الله سبحانه وتعالى، وعن الانصياع لأوامره، وعن التأثر بنذره ومهدداته.

ومن ذلك امتلاء القلوب والأفئدة بمحبة الدنيا بكل أشكالها وأنواعها، والدنيا ليست محصورةً في درهم ولا دينار، بل حب الشهوات من الدنيا، حب الشهرة والزعامة والرئاسة من الدنيا، التعلق بالمال من الدنيا.

هذه الآفات لو عددناها لاستغرقت منا وقتاً طويلاً...

هذه الآفات التي توضعت في نفوسنا نحن المسلمين في هذا العصر هي التي تفرز المشكلات الاجتماعية الكثيرة التي نعاني منها، هي سبب تفرقنا نحن المسلمين وهي سبب الضعف الذي آل حالنا إليه بعد تلك القوة التي عُرفنا بها، هي سبب الذل الذي انحط في كياناتنا ومجتمعاتنا بعد ذلك العز الذي سما الإسلام بنا إليه.

هذه المشكلات الكثيرة التي نقوم ونقعد كثيراً بالحديث عنها، إنما أفرزتها تلك الآفات النفسية، الكبرياء، العصبية، قسوة القلب، استخدام الدين وأحكامه وأموره من أجل إرواء الغرائز وإشباع النهم الذاتي، وزيادة تحقق الإنسان بذاته والدفاع عن كينونته إلى آخر ما تعرفون من المشكلات التي كثيراً ما نتحدث عنها...

ولعل فينا من قد يسأل: فهذه الآفات النفسية التي تُفرز تلك المشكلات الاجتماعية التي انحطت فيما بيننا ما علاجها؟ كيف يستطيع المسلم أن يتحرر من هذه الآفات النفسية التي يجمعها بيان الله عز وجل بكلمة واحدة هي "باطن الإثم"؟ كيف السبيل إلى ذلك؟

السبيل إلى ذلك أيها الإخوة معلومٌ وميسور، ولكنا معرضون عن هذا الأمر المعلوم والميسور جداً.

السبيل إلى أن نتطهر من هذه الآفات وأن نعتق أنفسنا وقلوبنا من عقابيلها هو الإكثار من تلاوة كتاب الله سبحانه وتعالى، وهي كلمةٌ ما أظن أن فينا من يُقدرها حق قدرها، ولعل كلاً منكم يتصور أنني أريد أن أشير إلى دواءٍ خطير لا يخطر بالبال، لا.. الأمر أهون من ذلك والأمر أيسر من ذلك أيضاً. الإكثار من تلاوة كتاب الله سبحانه وتعالى، وهذا الدواء لا أشك أننا معرضون عنه، ذلك لأنا لو كنا نأخذ أنفسنا بهذا الدواء كما يأمر الله سبحانه وتعالى إذاً لتحررنا من هذه الأمراض النفسية الداخلية التي سماها الله "باطن الإثم"، إذاً لتحررنا من عصبياتنا، من كبريائنا، من اهتمامنا بتحقيق ذواتنا على حساب الدين ومبادئه وأحكامه وقيمه. إذاً لتقلصت علاقتنا بالدنيا، بالمال بالرئاسة بالزعامة... ولتغلبت محبة الله عز وجل على نفوسنا، كل ذلك كان يتم بسهولة لو أنا كنا نأخذ أنفسنا بهذا الدواء، الإكثار من تلاوة كتاب الله سبحانه وتعالى.

وما منا إلا وقد وعى أمر الله سبحانه وتعالى بهذا الدواء إن كنا نقبل إلى كتاب الله تلاوة أو إصغاءً بين الحين والآخر. ألم يقل الله عز وجل: ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ وكم كرر وكرر هذا الأمر. لو لم تكن هنالك ضرورة قصوى لانقياد المسلمين لهذا الأمر لما أمرنا الله بذلك بدءاً من مخاطبته لرسوله إلى الناس جميعاً من بعده، ولكن لما علم الله عز وجل أن تلاوة المسلم لكلام الله المنزل عليه هو الذي يغسل أرجاس نفسه، وهو الذي يطهر فؤاده من باطن الإثم ومن الموبقات، لما علم الله ذلك أمره بهذا.

والآن تعالوا نتساءل كم عدد الصفحات التي نتلوها من كتاب الله عز وجل في كل يوم؟ دعونا من الشباب الذين يقبلون إلى حفظ كتاب الله، دعونا من المعاهد التي تتكاثر بحمد الله والتي تسمى معاهد الأسد لتحفيظ القرآن، هذه جيوب موجودة هنا وهناك في مجتمعاتنا. ولكني أسأل وأنا أقبل إلى عامة

المسلمين على اختلاف فئاتهم من أعلى القمة إلى القاعدة، ما هو نصيب كتاب الله عز وجل منا في بياض كل يوم؟

التجار الذين يصفقون في الأسواق، والذين يستغرقون في أعمالهم التجارية، ما هو الحزب أو الورد الذي يتمسكون به دائماً من تلاوة كتاب الله سبحانه وتعالى، وما هو أو ما هي حصيلة ما يقرأونه في كل يوم من هذا الكتاب؟

ما هو القدر الذي يقرأه الموظفون والعمال وغيرهم من كتاب الله عز وجل بتدبر في كل يوم على أنه ورد يلزمون به أنفسهم؟

ما هو القدر الذي يتلوه الطلاب – طلاب المدارس الثانوية أو طلاب الجامعة أو الطلاب الذين يدرسون اختصاصاتهم المتنوعة المختلفة من وراء الجامعة؟ ما هو القدر الذي يلزم كل واحد من هؤلاء الناس نفسه بتلاوته كل يوم؟

ما هو القدر الذي يتلوه الدعاة إلى الله سبحانه وتعالى ممن يسمون الإسلاميين؛ الذين يتحركون هنا وهناك وهم يحلمون بإقامة المجتمع ويرسمون الخطط لذلك، ويجتمعون ويتفرقون ثم يجتمعون ويتفرقون ابتغاء ذلك؟ ما هي عدد الصفحات التي يُلزم كل واحد منهم نفسه بتلاوته من كتاب الله سبحانه وتعالى؟

لو تأملتم لعلمتم أن الجواب مخزٍ ومؤلم ويبعث على الخجل من الله عز وجل الذي يقول لكل فردٍ فردٍ منا: ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾.

كثيرون هم الذين يحجبون أنفسهم عن الإقبال إلى كتاب الله بالعمل الإسلامي الذي يحلمون به، وما أغرب هذا وأعجبه!

كثيرون هم الذين يشتغلون بأمر الدعوة – فيما يقولون ويزعمون – وهم أبعد الناس عن الاهتمام والالتزام بوردٍ دائمٍ دائم من كتاب الله سبحانه وتعالى.

أما أولئك الآخرون الذين يصفقون في الأسواق من تجارٍ على اختلاف درجاتهم وفئاتهم، أما أولئك المسلمون الذين غرقوا في أعمالهم الوظيفية المختلفة، أما أولئك الآخرون العاملون في حقولهم المتنوعة من

صناعة أو فلاحة أو نحوها، أما أولئك المسؤولون على اختلاف درجاتهم وطبقاتهم... فما أبعدهم عن القرآن وما أبعد القرآن عنهم. أجل.

هذا الواقع أيها الإخوة هو الذي تسببت عنه هذه الآفات التي توضعت في نفوسنا، وهذه الآفات هي التي أفرزت المشكلات الاجتماعية المختلفة، بل الدينية أيضاً التي نتشاكى منها ونتألم منها، ومن أبرز آثار ذلك هذا التفرق الذي مني به المسلمون. قسوة القلب لا دواء لها إلا الإقبال إلى كتاب الله عز وجل، مهما ناقشت قساة القلوب ومهما حذرتهم ومهما ذكرتهم ومهما كنت تملك لساناً زلقاً وبياناً فصيحاً لن تستطيع أن تبدل قسوة قلبه رقة، إنما الذي يذيب قسوة القلب هو كتاب الله، هو الإقبال إلى كتاب الله سبحانه وتعالى بتدبر، واتخاذ ذلك غذاءً، غذاءً مستمراً مستمراً يأخذ الإنسان بذلك نفسه. هذا هو الذي يذيب قسوة القلب. الذي يذيب العصبية من كيان تلك العصبية التي أستعملها للانتصار لذاتي لتغذية أنانيتي ولو على حساب الدين باسم الدين باسم الانتصار للدين، باسم تخطئة الآخرين أغذي "أنا أعلم دوافعي" أغذي العصبية الكامنة في كياني.

مرض... ما الذي يشفيني من هذا المرض؟ الإقبال على كتاب الله؛ لا بين الحين والآخر إطلالة على كتاب الله كل أسبوع، لا لا وإنما شفائي يتمثل في أن يكون لي ورد، وردٌ دائمٌ منظمٌ آخذ نفسي به يتمثل في الجلوس مع الله من خلال الإصغاء إلى كلامه، الذي يقلص حب المال، حب الدنيا، بل ربما يزيلها نهائياً من القلب ويجعل الإنسان متوجهاً إلى الله، متوجهاً إلى شأنه الذي هو مقبلٌ إليه، إنما هو الرجوع إلى كتاب الله سبحانه وتعالى، أن يقرأ منه مقداراً محدداً في بياض كل يوم كما كان يفعل أصحاب رسول الله، كما كان يفعل التابعون وتابعوهم، السلف الصالح بل إلى عهدٍ قريب.

وإني لأذكر أيها الإخوة عهداً قريباً أعرفه بنفسي، كنت إذا ذهبت إلى أبرز سوقٍ من الأسواق التجارية في دمشق أنظر ذات اليمين وذات الشمال فأجد أصحاب هذه المحال، وكثير منهم كانوا من كبار التجار إما أن يكون مشتغلاً مع زبون وإما أن يكون مشتغلاً بكتاب الله عز وجل، إذا لم يكن أمامه من يساومه في بيعٍ أو شراء أقبل إلى كتاب الله سبحانه وتعالى وهو موضوعٌ دائماً على كرسيٍ أمامه يقرأه. أين هم التجار الذين يلزمون أنفسهم بهذا؟ انظروا كيف كانت حياة المسلمين قبل خمسين عاماً وكيف آلت حال المسلمين اليوم؟

السبب هذا. . الدعاة إلى الله عز وجل كان غذاؤهم في الدعوة القيام في الأسحار، كان غذاؤهم في الدعوة الإكثار من تلاوة كتاب الله عز وجل، أجل: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾.

نحن اليوم أيها الإخوة أصبحنا بعيدين عن كتاب الله، وإياكم أن تتناسوا هذه الحقيقة بتذكر الجيوب التي لا أشك فيها، لكنها كما قلت لكم جيوب. هنالك شباب يحفظون كتاب الله لكن كم هم بالنسبة لمجموع هذه الأمة؟ هنالك معاهد تسمى معاهد الأسد لتحفيظ القرآن، ونحمد الله على أن هذه المعاهد في تكاثر، ولكن هل التجار هم الذين يترددون على هذه المعاهد؟ هل الموظفون؟ إنهم الأطفال الصغار، ثم كم هم عدد هؤلاء الأطفال الصغار بالنسبة لمجموع هذه الأمة؟

ما تلوت ساعة أيها الإخوة من كتاب الله إلا ووجدت فيه دواء لنفسي، عندما أعاني من عصبية أجد كتاب الله قد غسل هذه لعصبية من كياني، عندما أجدني أعاني من تعلقٍ بالدنيا أو أيٍ من شهواتها أجدني قد رجعت إلى الحقائق الكونية وسما بي القرآن صعداً. انظروا إلى الآية التي تلوتها الآن انظروا إلى ما ورائها كم تجلب الإنسان وتأسره: ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾

كلام عجيب هذا كلامٌ يتنزل من علياء الربوبية ليس كلام بشر يخاطبك، كيف نعرض عن هذا الدواء ونحن نأن ونتوجع بسبب أمراضنا التي توضعت فيما بيننا؟

وبعد.. هل تعلمون ما الذي دعاني أيها الإخوة إلى أن أعالج هذا الموضوع هذا اليوم؟ لأنني منذ قريب سمعت إنساناً داعياً إلى الله يستشهد فيما يستشهد ببعض آيات كتاب الله ويا عجباً، إذا بلسانه غريبٌ كل الغرابة عن كلام الله وكتابه، لا يقيم لسانه على تلاوةٍ صحيحة لهذا الكتاب أبداً. أخطاءٌ غريبة وعجيبة بل نطقه مغموسٌ غمساً بالأخطاء الشنيعة التي لا يخطؤها أي طفل قرأ من كتاب الله عز وجل شيئاً، ويتحدث ناصحاً وهو يوجه من خلال كلامه دعوةً إلى الناس، شيءٌ مذهل وشيءٌ مؤلم إذا آل

حال الدعاة إلى الله أن يكونوا غرباء عن كتاب الله بهذا الشكل فماذا نقول عن الدنيويين، عن التجار، عن الموظفين، عن المسؤولين، عن الآخرين؟ هل نملك أن نعاتبهم!؟

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.



١٠٤- الكفران .. ظاهرة قديمة متجددة | ٢٠٠٠/٠٥/٢٦

ظاهرةٌ تتكرر أمامي أحسب أن من الخير أن نقف عندها، ولعل من الخير أن نأخذ منها العبرة وأن نأخذ منها العظة وأن نجعل منها سبيلاً لمزيد من القرب إلى الله سبحانه وتعالى، وسبيلاً لمزيدٍ من معرفة حقيقة هذه الدنيا وكيفية التعامل معها.

ما رأيت إنساناً مسلماً من ذوي الدخل المحدود في هذه البلدة فسألته عن حاله وظروفه الاقتصادية التي يمر بها، إلا وبادر إلى حمد الله عز وجل وشكره، وتحدث عن النعم المتلاحقة التي يكرمه الله سبحانه وتعالى بها، وأنظر إليه وإذا هو يتحدث عن ذلك كله بشعور فيّاض وبنشوة وطرب وإيمان، وكثيراً ما أنظر إلى داره التي هو فيها فأرى أن كل شيء في داره يشكو الفاقة ويشكو القلة، ومع ذلك فلسان مثل هذا الإنسان يسرع إلى شكر الله ويبادر إلى حمده والحديث عن النعم التي أغدقها الله عز وجل عليه.

فإذا صادف أن رأيت رجلاً من هؤلاء الأثرياء الذين أكرمهم الله سبحانه وتعالى بالملايين أو ربما بمئات الملايين وسألته عن حاله بدء يزفر، وأخذ يشكو أخذ يشكو فقد السيولة أخذ يشكو تراجع الوضع الإقتصادي أخذ يشكو خطورة الأمر، وأنظر إلى داره التي هو فيها فأجدها محشوةً بما يدل على النعم الكثيرة التي أغدقها الله سبحانه وتعالى عليه، بل أنظر إلى زوايا داره فأجدها محشوة بمظاهر الترف ومظاهر البزخ والزينة، ومع ذلك فأتأمل وإذا بالرجل محجوبٌ عن شكر الله سبحانه وتعالى محجوب عن حمد الله عز وجل بما يشكو من الفاقة من جمود الحالة الإقتصادية من فقد السيولة إلى آخر ما هنالك.

أتعجب أيها الإخوة من هذه المفارقة، ذاك صاحب الدخل المحدود يتقلب في شعورٍ راضٍ من نعم الله سبحانه وتعالى وآلائه ولا يحس ولا يشعرك بأي نقص يشكو منه، وهذا الذي جعله الله غريق نعمه غريق آلاءه وإكرامه يشكو الفاقة، يشكو سوء الوضع الإقتصادي يشكو فقد السيولة.

علام تدل هذه الظاهرة أيها الإخوة؟

أولاً: هذه الظاهرة تذكرنا بكلام الصادق المصدوق سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال:

﴿لو كان لابن آدم واد من مال لطلب إليه ثانياً ولو كان له واديان لطلب إليه ثالثاً ولا يملئ جوف ابن

آدم إلا التراب﴾، إذا ذاق الإنسان لذة الدنيا واستمرأ العكوف على ما هو فيه من السعي إليها واستمرء العيش في جنبات اللذائذ والمتع، نسي الله ومن ثمّ نسي النعم التي تتوارد وتتكاثر عليه، وتذكر مزيداً من احتياجاته تذكر مزيداً من طلباته، النعم التي يكرمه الله سبحانه وتعالى بها يلقيها وراءه ظهرياً، أما طموحاته أما آماله التي لم تتحقق له بعد فهي الموضوعة نصب عينيه، يذكر ما لم يأتي بعد وينسى ما قد أكرمه الله سبحانه وتعالى به، وهذا هو الكفران أيها الإخوة.

هذه واحدة من سنن الله سبحانه وتعالى.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ لا يكفي الإيمان وحده لفتحنا عليهم بركاتٍ من السماء تهمي إلى الأرض ولفتحنا عليهم بركات من الأرض تتفجر على ظاهرها، ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُوا﴾ لعل هؤلاء يقولون ما كذبنا أجل ما كذبنا ولله الحمد، ولكن الإيمان الذي لا يتوج بالتقوى ما ينبغي أن يطالب العبد ربه أي أجر عليه، يقول الله عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾.

هنالك أسباب كثيرة يعددها أصحاب الأموال ويتحدثون عنها بأسى وألم وأنا لا أنكرها، ولكني أذكر بأن هذه الأسباب هي خدمٌ لقضاء الله وحكمه هي خدم لسنة رب العالمين سبحانه وتعالى،

ربنا عز وجل يقول: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ جعل الله سبحانه وتعالى الفقير مادة امتحان للغني، وجعل من الغني ابتلاءً ومادة امتحان للفقير، ثم إن الله عز وجل يطالب الفقير بالصبر والتعفف ويطالب الغني بالإعطاء، كم من هؤلاء الأغنياء الموسرين الذين يشكون العدم الاقتصادي ويشكون فقد السيولة كم من هؤلاء يعودون إلى هؤلاء الفقراء بشيء مما يحتاجون إليه؟

لو أن هؤلاء الناس آمنوا واتقوا كما قال الله سبحانه وتعالى توجوا إيمانهم بالتقوى، وعلموا أن الإنسان لا يملك شيئاً وإنما استخلف على المال الذي وضعه الله عز وجل بين يديه فساس المال على النهج الذي شرع الله سبحانه وتعالى، إذاً والله لارتفعت هذه الضائقة – وأنا أعلم أنه ربما كانت هناك ضائقة – إذاً لتنامت السيولة وإذاً لأكرمنا الله سبحانه وتعالى بمزيدٍ من الخير وبمزيدٍ من النعم ولأكرمنا الله سبحانه وتعالى بهذين المعينين سماءه وأرضه.

ولكن أعود فأقول كم من هؤلاء الأغنياء الموسرين يقبلون إلى كتاب الله ليقرأوه وليتدارسوه، قلة إلا من رحم ربي، وكم قلت وأقول سقى الله عهداً في هذه البلدة كان كبار تجارها يمارسون التجارة في الصباح إلى المساء فإذا أقبل المساء تحولوا إلى طلاب علم، تأبط كلٌ منهم كتابه وبحث عن حلقةٍ من حلقات العلم يدرس كتاب الله شرع الله يدرس التفسير أو الحديث أو الفقه، فإذا أصبح الصباح خرج كلٌ منهم ليصلي الفجر جماعة، ثم إنه ينتقلُ من درسٍ إلى درس إلى درسٍ إلى الضحى ويعود إلى داره يجلس مع أهله، فإذا جاء وقت الضحى وإذا امتد النهار خرج بعد ذلك بالعاشرة صباحاً بعد ذلك إلى عمله، كان الغنى آنذاك أكثر وفرة منه الآن، وكان الواحد منهم ربما أغنى من أغنى الأغنياء في هذه البلدة في هذا العصر، وكان الله سبحانه وتعالى يكرمهم بالمزيد من العطاء لأنهم كانوا يعرفون حق الله سبحانه وتعالى عليهم.

أيها الإخوة كلما قلت كلمةً في هذا المعنى وذكرت بهذا التقصير الذي حاق بكثيرٍ منا في هذه البلدة، ذكرني بعض هؤلاء الناس بالتائهين في جنبات الأرض البعيدين عن الله كلياً، ويقولون ها هم أولاء يتقلبون في نعم لا تحصى، وها هم أولاء لا تتهاوى عليهم سياط التأديب الرباني، قلت وأقول وليت أن الآذان تصغي وليت أن القلوب تتيقظ: يا هؤلاء الناس اقرأوا كتاب الله وتأملوا سننه في عباده عندئذٍ تعرفون الجواب على هذا السؤال، سؤالكم هذا دليل من الأدلة على بعدكم عن كتاب الله سبحانه وتعالى. ربنا سبحانه وتعالى أعلن عن النهج الذي يأخذ به أولئك المجرمين التائهين الذين انقطعت بينهم وبين الله سبحانه وتعالى أوهى خيوط الاتصال وأعلن عن معاملته للمسلمين الذين يتيهون عن الدرب ويضلون عن صراط الله سبحانه وتعالى. يقول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ، فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾.

ولكن أين الذين يتلون كتاب الله؟

أين الذين يتدبرون كلام الله عز وجل إذا كان فيهم – وأنا أعني ما أقول – من لا يفرق بين حديثٍ قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم وآيةٍ في كتاب الله عز وجل، ومع ذلك يرمق بطرفه إلى السماء يعتب على الله ويسأله لماذا الضائقة الاقتصادية لماذا جمود السيولة؟

عودوا إلى أنفسكم واعلموا أن الله سبحانه وتعالى يكرم عباده ويغفر الكثير والكثير من الأخطاء، لكن لابد أن يأخذهم بعصي التأديب، وأسأل الله عز وجل أن لا يجعلنا من أولئك الذين انبتت آخر الخيوط الواهية بينهم وبين الله سبحانه وتعالى عندئذٍ ولا سمح الله سنكون ممن قال الله عز وجل وعنهم: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.



١٠٥- لا يضركم من ضل إذا اهتديتم | ٢٠٠٠/٠٦/١٦

آيتان في كتاب الله عز وجل في خواتيم سورة الحجرات لو تدبرهما المسلم وعمل بهما لكفتاه، ولرحل فيهما إلى الله سبحانه وتعالى وهو عنه راض مهما قلت أعماله ومهما قلت طاعاته وعباداته وقرباته. هما قول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾.

لاحظوا أيها الإخوة كيف أن هاتين الآيتين تكادان تكونان مهجورتين من حياة كثيرٍ من المسلمين في هذا العصر.

ولاحظوا كيف أن هذه الوصية الجامعة المؤثرة التي قالها رسول الله صلى الله عليه وسلم غدت هي الأخرى غريبةً عن أسماع كثيرٍ من المسلمين بل غريبة عن سلوكهم وأعمالهم أيضاً.

أنظر إلى هذا الذي يقوله الله عز وجل لنا وإلى ما يؤكده رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم أنظر إلى حال كثيرٍ وكثير من المسلمين في هذا العصر، يُخيل إلى أحدهم أن الله سبحانه وتعالى إنما أقامه حارساً ورقيباً على أموال الآخرين من الناس دون أن يكلفه بأي مسؤوليةٍ تجاه نفسه، تتأمل في حال أحدهم وإذا هو يضع على عينيه مناظير مكبرة ليتبين من خلالها أحوال المسلمين من حوله، بل ليخترق بهذه المناظير ظواهرهم إلى طوايا قلوبهم، ثم ليعود من ذلك بالتقارير التي يقررها ويجزم بها عن هؤلاء الناس، ويجلس ليحرك لسانه بقالة السوء، بالظنون بالحديث عن أحوال هؤلاء وهؤلاء وهؤلاء من الناس، أما هو أما حاله فالرجل عند نفسه غير مكلفٍ بشيء، إنما أقامه الله موظفاً لمراقبة حال الآخرين، أما حاله هو .. أما دخائل نفسه .. أما سلوكه مع الله .. أما تقصيراته في جنب الله عز وجل فلا يخطر شيء من ذلك منه على بال. أليس هذا هو واقع كثيرٍ وكثيرٍ من المسلمين في هذا العصر أيها الإخوة؟.

انظر إلى هذا الواقع المتكاثر وأقارن بينه وبين هاتين الآيتين المخيفتين في كتاب الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ﴾ ما معنى عسى؟

أي أنتم لا تعلمون أحوالهم لا تعلمون خفيات أمورهم عرفتم من ظواهرهم أشياء وغابت عنكم أشياء ولم تعرفوا من بواطنهم شيئاً. لا تدخلوا فيما لا شأن لكم فيه لا تحملوا أنفسكم مسؤوليةً لم أحملكم شيئاً منها اطلاقاً.

﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾. أين واقع المسلمين من هذه الوصايا العجيبة الجامعة في كتاب الله؟ ثم انظروا إلى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾.

كثيراً ما تساءلت عن وجه التقابل المتفاوت بين قوله: كثيراً من الظن وقوله: بعض الظن.

ينهى عن كثيرٍ وكثيرٍ من الظن ثم يوضح أن علة هذا النهي هو أن بعض الظن إثم. إذن يارب لماذا لم تنهنا عن بعض الظن فقط مادام أن بعض الظن هو الإثم؟! ذلك لأنك لا تعلم هذا البعض أين يكون، لا تعلم. ومطلوب منك أن تحتاط، فإذا كان بعض ما تظنه في عباد الله عز وجل خطأً وسوءاً فيجب عليك أن تجتنب مساحة أكبر وأكبر حتى تعلم أنك قد ابتعدت عن الوقوع في إساءة الظن مع من لم يكونوا أهلاً لذلك. ينهاك الله عز وجل عن الظن السيء عموماً لأن هنالك حالات أنت مخطأ في إساءة الظن فيها. لاحظوا هذا المعنى الدقيق في بيان الله عز وجل ولاحظوا واقع المسلمين اليوم.

﴿وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ ما رأيت فاكهةً يجتمع عليها المسلمون – ولا أقول غير المسلمين – بل أقول أكثر من ذلك، ما رأيت فاكهة يجتمع عليها كثيرٌ من الإسلاميين من المتحركين من أجل الإسلام كفاكهة الغيبة يجتمعون عليه، وكأن القرآن لم يتنزل خطاباً لهم وكأنه قومٌ ممتازون عن سائر الناس لم يكلفهم الله أن يعودوا إلى دخائل أنفسهم بالمراقبة والنظر والتطهير بشكل من الأشكال، وكأنهم قد وضعوا في آذانهم ما يحجبهم عن سماع قول الله عز

وجل: ﴿وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾.

أيها الإخوة أمراض المسلمين كثيرة، والنتائج التي تفرزها هذه الأمراض كثيرة أيضا، ولكني والله أيها الإخوة ما وجدت بين هذه الأمراض أخطر من هذا المرض الذي أحدثكم عنه. **تحول حال كثير من المسلمين عن الرقابة لأنفسهم وعن تتبع أحوالهم في الخفاء وفيما بينهم وبين الله عز وجل إلى تتبع حال الآخرين،** يا هذا ألم تقرأ قول الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾؟ فيم تنسى نفسك وقد أمرك الله بمراقبتها وتتبع حال غيرك. لا لكي تأمر بالمعروف إن غاب عنك، ولا لكي تنهى عن منكرٍ إن وجدته ماثلاً أمامك لا، بل لكي تنعت الناس بما يحلو لك، ولكي تغمض العين وتدخل بخيالك إلى سرائرهم وإلى بواطنهم، فتصنف هؤلاء بالكافرين وهؤلاء في المنافقين وهؤلاء في التائهين وهؤلاء في كيت وكيت وكيت وأنت أين مكانك بين هؤلاء الذين تصنفهم؟ لا هو لا يعود إلى نفسه بأي نظرة بشكل من الأشكال. هذا أخطر مرض يعاني منه المسلمون اليوم.

ولقد تأملت في تعامل رب العالمين مع عباده وهي سنة من أعظم سنن الله سبحانه وتعالى في تعامله مع عباده، فرأيت ما تذهل له السرائر، رأيت ما تذوب له المشاعر، ماذا كيف يعامل الله عز وجل عباده المسلمين كيف يعاملهم؟ إذا رأى الله عز وجل من عبد عملاً صالحاً نشره وكبره ونماه وجعل منه صوتاً يجلجل بين أسماع الناس حتى يلتفت الناس من هذا الرجل إلى ذلك العمل الصالح، وإذا ابتلي هذا الإنسان بعمل سيء، بانحراف عن جادة الإستقامة أبقى الله ذلك سراً بينه وبينه، ذلك لأن الله عز وجل ستير يحب الستر، تلك هي عادة رب العالمين في معاملته مع عباده أيها الإخوة.

أنا أعلم هذا من نفسي وليعلم كل منكم هذه العادة التي يعامل بها رب العالمين عباده من نفسه، ما من إنسانٍ يقدم عملاً صالحاً يُرضي الله عز وجل مهما كان هذا العمل بسيطا إلا نشره الله عز وجل بين الناس وجعل منه طيباً ينتشر فوحه بين الناس جميعاً، فإذا زلت بهذا الإنسان القدم وارتكب محظوراً أخفاه الله عز وجل وأبقاه بينه وبينه إلى أن يقوم الناس لرب العالمين، فإذا قام الناس إلى رب العالمين أوقفه بين يديه كما ورد في الحديث الصحيح وأسبل عليه ستراً من كنفه. قال له: أتذكر المعصية التي ارتكبتها

يوم كذا وكذا؟ يقول نعم يارب، أتذكر المعصية التي ارتكبتها يوم كيت وكيت ؟ يقول نعم يارب، يقول فلقد سترتها عن الناس آنذاك وها أنا أغفرها لك اليوم.

هذه هي عادة رب العالمين مع عباده، فلماذا نسير في التعامل مع بعضنا على خلاف هذا النهج الذي يتعامل معنا ربنا على أساسه لماذا أيها الإخوة لماذا نتتبع عورات المسلمين؟ لماذا؟ لك عورات وللناس ألسن. اذكر هذا تتبع عورات نفسك.

لماذا تحاول أن تنشر ستراً أصبغه الله سبحانه وتعالى على إخوانك؟

لماذا تسيء الظن؟ ومتى كنت رباً من دون الله عز وجل تدخل إلى سرائر النفوس وإلى كوامن القلوب؟ ومن ذا الذي أعطاك هذه الصلاحية أجل من؟ هذا هو المرض المستشري أيها الإخوة وهو السبب الأول من أسباب كثيرة في التخلف الذي ران على حياة المسلمين اليوم.

شيء آخر سنة أخرى من سنن رب العالمين عز وجل في عباده، ما من إنسانٍ مسلم إلا وبينه وبين الله خيط من عمل صالح قد يطلع عليه الآخرون وقد لا يطلع عليه الآخرون، هذه حقيقة ينبغي أن نعلمها قد أجد إنساناً في مظهره الذي أراه وفي ظاهره الذي لا أرى غيره قد أجده منحرفاً تائهاً عن صراط الله سبحانه وتعالى، ولكني لو تتبعت دخائل نفسه لوجدت له خصلة حميدة يحبها الله سبحانه وتعالى وما أكثر هذه الخصال الحميدة الخفية التي وزعها الله رحمة منه بين عباده فإذا علمت هذه الحقيقة ينبغي أن أتأدب في الحديث عن عباد الله وينبغي أن أمسك لساني عن قالة السوء في حقهم.

فلان من الناس رأيت ظاهره وأنا أعلم أن الله سبحانه وتعالى يبقي خيط من الصلة بينه وبين عباده المسلمين لكي يجعل من هذا الخيط أساساً لأوبة إلى الله، أساساً لرجوعهم إلى الله سبحانه وتعالى. فيم أسيء الأدب مع الله سبحانه وتعالى، هل تعلم أن جارك الذي تتباهى عليه بأنك تصلي ولا يصلي وبأنك تجلس مجالس العلم ولا يحضر وبأنك تتنزه عن المحرمات وهو ينغمس فيها هل تعلم مآلك بعد سنةٍ ومآله؟ هل أنت موقنٌ أن الشيطان لن يتسرب إليك ويضلك بعد هدى ولن يزجك في التيه؟ لأسباب كثيرة أقلها هذا التباهي منك؟ وهل تعلم أن جارك هذا الذي تنتقص وتمد لسانك بقالة السوء عنه غيبةً؟

هل تعلم وهل توقن أنه لن يتوب إلى الله ولن يصبح بعد عام أو أقل أو أكثر واحد من أفضل عباد الله المتنسكين والصالحين؟

إذاً الحكمة من هذه السنة الربانية التي يتعامل الله على أساسها مع عباده أن يعلمنا الأدب مع عباد الله عز وجل، وأن يعلمنا أن نسيء الظن بأنفسنا في الوقت الذي ينبغي أن نحسن الظن فيه بإخواننا، مهما رأيت إنساناً تائهاً بعيداً عن الله عز وجل شارداً عن صراط الاستقامة ينبغي أن تقول لعلم يوماً ندركه يصبح من الربانيين؟ ثم انظر إلى نفسك وكن خائف على نفسك من شيطانك، وافترض أنه ربما جاء يومٌ تزل بك القدم وتصبح من أسوء عباد الله المنحرفين، أجل ورحم الله من قال: معصيةٌ أورثت ذلاً وانكسارا خيرٌ من طاعة أورثت عزاً واستكبارا .

أيها الإخوة ضعوا نصب أعينكم هذه الكلمات التي أوصاكم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما سُئل من قبل أخ من إخواننا واحدٍ من أصحابه ما النجاة كيف السبيل إلى النجاة غداً؟ قال: "أمسك عليك لسانك" احفظوها "وليسعك بيتك وابك على خطيئتك" لا تبك على خطيئة الآخرين لا تزرف دموعاً كاذبةً على أخطائهم لو كنت حقيقةً تغار على حرمات الله لبكيت على خطيئتك، وكل منا أيها الإخوة إذا عاد ينظر إلى نفسه رآها أسوء إنسانٍ يسير على وجه الأرض، أجل وإذا كان الأمر كذلك فينبغي أن نحسن الظن بإخواننا بسائر عباد الله عز وجل من حيث نعود إلى أنفسنا لنصلحها من حيث نعود إلى أنفسنا لنقوم اعوجاجها.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم .

١٠٦- حسبك.. الظلم ظلمات يوم القيامة | ٢٠٠٧/١٢/٠٧

ها هي ذي رحمة الله عز وجل تهمي إلينا من سمائه، وها هو ذا فضل الله سبحانه وتعالى يقبل إلينا بكرمه وصفحه وجوده، فلنحافظ على هذه النعمة التي يرسلها الله عز وجل إلينا، ولنحصن هذه الرحمة التي يكرمنا بها الله سبحانه وتعالى بالشكر، والشكر ليس كما قد يخطر بالبال أنه كلمة ترددها الألسن كما تعلمون، بل الشكر الحقيقي الذي أمرنا الله عز وجل به والذي به تدوم النعم هو أن نسخر النعم التي يكرمنا الله عز وجل بها لما يحقق مرضاته، لما قد أمَرَنا الله سبحانه وتعالى به، الشيء الذي يحصن الرحمة الإلهية التي تقبل إلينا إنما هو أن نتراحم، وقد صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم القائل: ﴿من لا يَرْحَمْ لا يُرْحَم﴾. والله عز وجل غني عنا، لا يتأتى للعبد أن يرحم مولاه وخالقه، بل العبد هو الذي ينتظر دائماً رحمة الله سبحانه وتعالى وإحسانه، ولكن المراد بالرحمة التي تحدث عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما هو تراحم الناس بعضهم مع بعض، ومن ثَمَّ قال: ﴿من لا يَرْحَمْ لا يُرْحَم﴾. أي الأمة التي لا يشيع فيما بينها التراحم بدلاً من الظلم والتباغض والتكاره تتقلص عنها رحمات الله سبحانه وتعالى، فإذا أردتم دوام هذه النعمة، فحصنوها بشكر الله عز وجل، حصنوها بالتراحم.

والخطوة الأولى، التي لا بد منها في الطريق إلى التراحم، إنما هي الابتعاد عن الظلم لا يمكن للأمة أن تتراحم والظلم منتشر فيما بينها، ولقد حذرنا كتاب الله سبحانه وتعالى من الظلم أيما تحذير، وحذرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من التظالم أيما تحذير، وأنبأتنا شريعة الله عز وجل أنهما حقان: حقٌّ لله عز وجل على العباد، وحقٌّ للعباد على العباد، فأما حق الله عز وجل فمآله الرحمة ومبني على المسامحة، وأما حق العباد فمبني على المشاحة، لا تسامُح في حق العباد قط، ومن ثَمَّ فإن واجباً يتعلق بنا جميعاً على كل المستويات، وهو أن نتذكر ضرورة التراحم عندما نستقبل رحمة الله عز وجل الوافدة إلينا، أن نتذكر ضرورة الابتعاد عن الظلم عندما نجد رسائل الحب التي تفد إلينا من الله سبحانه وتعالى.

أَأُحدثكم عن خطورة الظلم والتظالم يا عباد الله؟! وما أظن أن فيكم من لم يسمع تهديدات كتاب الله وتهديدات المصطفى صلى الله عليه وسلم قال: ﴿اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة﴾.

وإن أردتم المزيد فحسبكم ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ألا إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكن هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا، ألا قد بلَّغْت، ألا لا تعودوا بعدي ضُلاَّلاً –وفي رواية كفّاراً– يضرب بعضكم رقاب بعض﴾ حسبكم من هذا ما رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ﴿من اقتطع حق امرئ بيمينه﴾ امرئ، لم يقل من اقتطع حق مسلم ﴿من اقتطع حق امرئ بيمينه أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة﴾. قال رجل: وإن كان شيئاً يسيراً يا رسول الله؟ قال: ﴿وإن كان قضيباً من أراك﴾.

ولعلكم جميعاً تعرفون حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يرويه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ﴿أتدرون من المفلس؟﴾ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا دينار ولا متاع. قال: ﴿إن المفلس من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيُؤخَذُ لهم من حسناته، فإن فنيت حسناته أخذت من سيئاتهم وطرحت عليه ثم طُرِح به في النار﴾ هذه الأحاديث بعض مما ذكره المصطفى صلى الله عليه وسلم محذراً المسلمين على اختلاف درجاتهم من الظلم، من أكل مال الآخرين دون حق، من الإساءة إلى الآخرين دون حق، من اقتطاع شبر من أرض لمالكه دون حق، وإن أردنا ألا تنقطع عنا رحمات الله سبحانه وتعالى فلنتذكر هذا الذي أمرنا به الله ومن ثم أمرنا به رسول الله صلى الله عليه وسلم، ينبغي لقادة الأمة أن يقفوا أمام هذا الذي يحذرنا منه الله ويحذرنا منه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وينبغي لشتى فئات الأمة، تجارها، قادتها، عمالها، زراعها، ينبغي أن يتبنوا هذه الحقيقة، ينبغي أن يبتعد كل منا عن الظلم، الظلم ظلمات كما يقول المصطفى صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وليس بيننا وبين أن تستمر رحمات الله سبحانه وتعالى مقبلة إلينا تهمي من السماء وتنفجر من الأرض، ليس بيننا وبين أن تعود الأنهار ممرعة ممتلئة إلا شيء واحد هو أن نتراحم.

وكما قلت لكم التراحم لا يكون بكلمة يرددها أحدنا على سبيل المجاملة، المجاملة لا مكان لها في ميزان الله سبحانه وتعالى، وإنما يكون التراحم بألا نظلم، أول خطوة من الخطوات إلى غاية التراحم أن نبتعد عن الظلم، خطاب يخاطب الله عز وجل به أولي الأمر، يخاطب الله سبحانه وتعالى شتى طبقات المجتمع أن يبتعدوا عن الظلم، ومن ثم ينبغي أن يشيع بينهم التراحم، فمن رحم رحمه الله، ارحموا من في

الأرض يرحمكم من في السماء، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم القائل: ﴿مَنْ لا يَرْحَم لا يُرْحَم﴾. وإنَّما يُفَسَّر هذا الكلام الرباني الذي يخاطبنا به قائلاً: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ [الفرقان: ٢٠]. إنما يُفَسَّر بهذا المعنى.

يبتلي الله عز وجل الناس بعضهم ببعض، فإن شاع فيما بينهم التراحم، استعمل القوي فيهم قوته في الرحمة، في العناية بالضعيف، في السهر على حقوقه، رحمهم الله جميعاً، وإن استعمل القوي أو المتنفذ قوته أو نفوذه في الظلم، في أخذ الحق فإن الله سبحانه وتعالى لا بد أن يقطع رفده عنهم، لا بد أن يقطع الله سبحانه وتعالى بركة الأرض والسماء عنهم نحن اليوم نستقبل رحمة الله سبحانه وتعالى، والقرار وضعه الله عز وجل بأيدينا، فإما أن تستمر هذه الرحمة وإما أن تنقطع، الأمر وضعه الله بأيدينا، إن تبنا إلى الله على كل المستويات، أقول: على كل المستويات، إن تبنا إلى الله عز وجل، فابتعدنا عن الظلم، ابتعدنا عن استلاب حقوق الآخرين، وشاع التراحم في مكان ذلك فيما بيننا امتدت هذه الرحمة الربانية، وتزايدت ثم تزايدت دون انقطاع، أما إن ركبنا رؤوسنا وسرنا على النهج الذي نعرفه وتعرفون، وأهملنا حقوق بعضنا لبعض، وشاع الظلم أشكالاً وألواناً فيما بيننا، فانتظروا انقطاع هذه النعمة وأسأل الله سبحانه وتعالى العفو والعافية لنا جميعاً.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم

١٠٧- الآية الكبرى التي تنطق بوجود الله | ٢٠١٠/١٠/١٥

إن هذا الكون الذي أقامنا الله فيه مليء بالأدلة والآيات الباهرة الكثيرة الناطقة بوجود الله سبحانه وتعالى والدالة على وحدانيته وعلى قاهريته وعلى سلطانه المنبسط على الكون كله. تجدون هذه الدلائل منتشرة منبسطة في السماء الذي نراه في صباحنا ومساءنا، تجدون هذه الدلائل المتنوعة منتشرة ومنبسطة في فجاج الأرض، في عالم النباتات والأدغال والحيوانات، تجدون هذه الأدلة منبسطة واضحة نيرة في عالم البحار، تجدون هذه الأدلة ناطقة بوجود الله وعظيم سلطانه وعبودية الإنسان لله في أنفسكم. ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١] صدق الله العظيم.

ولكن ما رأيت دليلاً أوضح وأجلى في النطق بوجود الله ووحدانيته وقاهريته من هذا الدليل التالي:

تنظر إلى إنسان يحمل في ذهنه أوقاراً من المعارف والعلوم وأوتي ثقافة منبسطة متنوعة ولكنه يصر على الاستكبار على الحق، يصر على العناد انتصاراً لأنانية النفس، تنظر إليه وإذا بعينيه تنظران إلى ملكوت الله عز وجل ولكنه لا يبصر في هذا الملكوت شيئاً، تحدثه عن الدلائل الناطقة بسلطان الله وعبودية الإنسان لله، يحدق بعينيه هنا وهناك ولكنه لا يبصر من ذلك شيئاً، تسمعه آيات الله الباهرة التي تنزلت علينا عن طريق رسول الله وإذا به لا يسمع وكأن في أذنيه وقراً، تناقشه وتحدثه بالأدلة المنطقية والعلمية وإذا بقلبه مقفل وإذا بعقله مطوي عن الإدراك. هذه الظاهرة نراها كثيراً، ما سببها وما هي خلفيتها.

هذا إنسان استكبر على الله عز وجل فعجَّل الله له العقاب في الدنيا فمد على عينيه غشاوة لا يبصر بسببها، وكذلك جعل في أذنيه الصمم فهو لا يسمع، هم الذين حدثنا البيان الإلهي عنهم قائلاً: ﴿خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ﴾ [البقرة: ٧] هذه هي الآية الكبرى التي تنطق بوجود الله. العقل موجود ولكن الله شلَّه عن الفاعلي، والعينان تنظران وتبصران ولكن الله عز وجل شلَّ هاتين العينين عن فاعلية الرؤية والإدراك، السمع موجود ولكن الله عز وجل عجَّلَ عقاب صاحب هاتين الأذنين فأدخل فيهما الوقر.

هذا هو الدليل الباهر المخيف على سلطان الله عز وجل قاهريته، أن يكون الإنسان عاقلاً مثقفاً يحمل – كما قلت لكم – أوقاراً من الأدلة الباهرة الناطقة بوجود الله عز وجل ولكن كِبْرَه كان سبباً في تعجيل العقاب الإلهي له، تجلى هذا العقاب بأن فصل ما بين حواسه وعقله المدرك وما بين الدلائل الناطقة بوجود الله عز وجل. هؤلاء هم الذين قال الله عز وجل عنهم: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَن يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً﴾ [الكهف: ٥٧]

هذا كلام الله عز وجل: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ أعرض عنها استكباراً ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَن يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً﴾

هؤلاء هم الذين قال الله عز وجل عنهم: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أي استكباراً ﴿وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٦]

هؤلاء هم الذين قال الله عز وجل عنهم: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ. لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٤-١٥]

عباد الله: لا يحول بين الإنسان ورؤية مولاه وخالقه بعين بصيرته لا بصره إلا شيء واحد؛ العناد والاستكبار. وما كفر من كفر في العهود الغابرة أو في هذا العصر إلا بسبب الاستكبار الذي تكون منه حجاب بينه وبين الله سبحانه وتعالى.

وإنكم لتعلمون بل لتجدون أو تسمعون النذر تِلْوَ النذر المخيفة تتنزل على أناس هنا وهناك لتوقظهم ولتنبههم فأما المستكبرون فلا تحرك منهم ساكناً ولا تنبه فيهم عقلاً، وأما الذين عافاهم الله عز وجل من الاستكبار فهم يعلمون معنى هذه الرسائل المخيفة التي تأتي تباعاً بالمناسبات لتخيف الشارد ولتوقظ النائم ولتنبه الغافل، وصدق الله القائل: ﴿وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللّهِ إِنَّ اللّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [الرعد: ٣١]

ألا تذكرون قاهرية الله سبحانه وتعالى وبطشه الذي فاجأ الناس جنوب شرقي آسيا – سونامي – قبل سنوات طوال؟! ألا تذكرون ذلك؟! كيف كان موقف المستكبرين المحجوبين بالاستكبار عن الله. قالوا

إنها غضبة الطبيعة، إنها تمرد الطبيعة، تمرد الطبيعة حوَّلَ البحر إلى أفواه فاغرة عجيبة ابتلعت في لحظة واحدة وجوداً كبيراً في تلك البقاع

ألا تذكرون أولئك السهارى السكارى الذين كانوا يسهرون في منتجع بحري في جهة من جهات تركيا كيف أن السكر دفعهم إلى أن يترجموا سكرهم بالسخرية من القرآن، بالاستهزاء بكتاب الله، استقدم أحدهم القرآن ليشفي غليله وهو سكران سخرية منه. ما الذي حصل

فجأة تحول ذلك المنتجع إلى فمٍ فاغر ابتلع كل من كانوا فيه بلحظة واحدة

أما الذين تحرروا من الاستكبار والذين رأوا هذا بأعينهم أو شاهدوه من بعيدٍ أو قريبٍ أو سمعوا به ففاضت أفئدتهم مخافة من الله وتعظيماً له وازدادوا إيماناً به وازدادوا إيماناً بقاهرية الله وسلطانه، وأما المستكبرون فما أفادهم ذلك شيئاً وصدق فيهم قول الله ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ. لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٤-١٥]

ألا تذكرون العواصف بل سلسلة العواصف التي جاءت إلى شطآن فلوريدا في أمريكا فكانت تقتلع الأشجار وكانت تُطِيْرُ العربات وكانت تهدِّم البنيان.

أما المستكبرون فنظروا إليها على أنها زمجرة الطبيعة وعلى أنها تمرد الطبيعة - استكبار - وأما الذين يتعاملون مع عقولهم فعلموا أن ذلك مصداق قول الله عز وجل: ﴿وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللّهِ إِنَّ اللّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [الرعد: ٣١]

ونحن يا عباد الله نحمد الله على أنا حُرِّرْنَا من كبريائنا، هذا فضل كبير من الله.

نحمدك مولانا أن حررتنا من الكبرياء والعناد فلم تبتلينا بغاشيةٍ تمتد على أبصارنا، ها نحن نرى بأبصارنا دلائل وحدانيتك ووجودك وسلطانك الباهر، نحمدك اللهم على أن لم تبتلنا بوقرٍ في آذاننا لأننا عبادك المؤمنون بك، لسنا مستكبرين.

عباد الله: إنكم لتعلمون أننا في أخريات أيام الخريف وأن رياح الشتاء تهب علينا من قريب، أين هو الشتاء؟

أين هي رحمة الله سبحانه وتعالى التي عوَّدَنا الله عليها في مثل هذه الأيام بل قبل هذه الأيام أيضاً

أين الشتاء من يومٍ ترقى حرارته إلى ما يزيد على ثلاثين

ألا تلاحظون، ألا تتساءلون ماذا لو أن هذه الحال امتدت أسابيع بل ربما أشهر إلى ما يؤول حالنا نحن، إلى ما يؤول حالك يا ابن آدم وأنت الذي تفتح فمك دائماً تنتظر قطر السماء ليرويك، أنت الذي تفتح فمك دائماً تنتظر رزق الله عز وجل يهمي إليك من سمائه أو يخرج وينبعث لك من أرضه. ماذا تصنع أنت الذي لا تستغني عن ماءٍ تشربه ولا عن طعامٍ تأكله إن ظل الأمر على هذا المنوال، أتقول الطبيعة؟ حسناً مفتاح الطبيعة فيما يزعم هؤلاء هو العلم فما لهم لا يستعملون مفتاح العلم ليُخضعوا الطبيعة لعلومهم

هذا النذير الذي يطل علينا أيها الإخوة نذير خطير له ما وراءه، ولقد قلت وحذرت ولقد نبهت نفسي ونبهت إخواني إلى أننا ما ينبغي أن نتعرض لغضب الله، ما ينبغي أن نتعرض لسخط الله، نحن عبيد وينبغي أن نتعامل مع الله على أننا عبيده، إن لم تستيقن بذلك مشاعرنا وقلوبنا وعقولنا اليوم فلسوف تستيقن به وتخضع له عما قريب عندما نمتد على فراش الموت. أروني المستكبر الذي يعبث والذي يسخر بدين الله أو بكتابه أروني حاله يوم يمتد على فراش الموت ويوم يقع في ساعة النزع ويوم يدخل عليه ملك الموت وهو يراه بعينيه إلى ما يؤول استكباره؟ إلى ما يؤول عناده؟

بل أروني حال المستكبرين إذا أصبحنا في يومٍ من الأيام وإذا بهذا النبع الثر قد انقطع وأصبح ماؤه غوراً، ماذا يصنع هؤلاء المستكبرون على الله؟ أبعيدٌ هذا؟ لا والله، والله إنه ليس ببعيد وأسأل الله العفو والعافية ولكن ما أقرب أن تستيقظوا في يومٍ من الأيام وإذا بهذا المعين الذي يكرمنا الله عز وجل به على الرغم من آثامنا وأخطاءنا قد أصبح غوراً ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاء مَّعِينٍ﴾ [الملك: ٣٠]

سلوا المعرضين عن كتاب الله، سلوا المستهزئين بدين الله، سلوا الذين جعلوا من أنفسهم وعقولهم عبيداً لما يسمونه الطبيعة ماذا تصنعون؟ من أين تأتون بالماء الذي تروون به ظمأكم؟ من أين تأتون بالطعام الذي تسكتون به جوعتكم. الإنسان ضعيف ﴿وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً﴾ [النساء: ٢٨]

وأشنع شيءٍ في حياة هذا الإنسان الضعيف أن يركبه الاستكبار، على الرغم من ضعفه ينسى ذله، ينسى عبوديته لله سبحانه وتعالى ثم إنه يستكبر على الله ويفعل ما تدعوه إليه رعونته

هذه الحقيقة أيها الإخوة ينبغي أن نتمثلها، سائلوا أنفسكم إلى ما سيؤول أمرنا إذا استمرت بنا هذه الحال. دخل الخريف وها هو ذا يهب ليمضي وها هي ذي رياح الشتاء تقبل ولا نزال نتقلب في الصيف الماضي

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.



١٠٨- فطرة الله سبل تغذيتها وعوامل إخمادها | ٢٠١١/٠٧/٠٨

فقد صحَّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال يروي عن ربه سبحانه وتعالى: ﴿إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ﴾ أي أن النبي صلى الله عليه وسلم ينقل عن ربه خبراً لا يلحقه خُلْفٌ، ما من إنسان وُلِدَ فوق هذه الأرض إلا وقد غُرِسَ في كيانه الإيمان بالله عز وجل، إلا وقد غُرِسَتْ في طوايا عقله حقائق العبودية لله سبحانه وتعالى، ولكن جاءت شياطين الإنس والجن، جاءت الأهواء المختلفة، جاءت التربيات الجانحة، جاءت العصبيات التي تهيمن على قرار العقل والقلب فاجتالتهم أي أبعدتهم عن هذه العقيدة التي فطرهم الله سبحانه وتعالى عليها، على أنها تظل باقية بين جوانحهم، قد ترقد ولكنها لا تموت، قد ترقد ولكنها لا تُجْتَث من كياناتهم. تعالوا يا عباد الله أضعكم أمام تجسيد لهذا الذي يخبر به بيان الله عز وجل.

إنها قصة يرويها مفكر إسلامي ذائع الصيت عاش في أوائل القرن الماضي، يقول: أبحرت من مرسيليا إلى الإسكندرية وفي الطريق كانت السفينة تسير على هينتها وتسير مستقيمة والناس الذين فيها أخلاط من مذاهب شتى، من أديان وفلسفات واتجاهات وأعراق مختلفة كل الاختلاف، وفيما نحن كذلك إذ أقبلت سحبٌ داكنة سرعان ما تلبدت فوق سماء السفينة وإذا بريح عاصف تطوف من حولنا، وإذا بالأمواج العاتية تعلو عن يمين السفينة ويسارها، وإذا بالسفينة تحولت إلى ما يشبه أرجوحة بين يدي هذه الأمواج العاتية التي كانت من حولنا، وأيقنا أننا قد أصبحنا بين شقي الموت والهلاك.

ونظرت وإذا بالناس الذين كانت تزدحم بهم هذه السفينة – أولئك الذين كانوا أخلاطاً من مذاهب وأديان وفلسفات وأعراق شتى – إذا بهم جميعاً يحدقون بي – وكان لهذا الرجل مظهره الذي يدل على أنه له ارتباطاً بالدين – أحدق الكل بي وأصروا على أن علينا أن نتجه إلى الله جميعاً بدعاء ضارع أن ينقذنا من الهلاك الذي قد أحاط بنا. نظرت وإذا بالفوارق الكثيرة التي كانت بين هؤلاء جميعاً قد ذابت وامَّحَتْ، وإذا بالكل يهتف بنداء واحد يسأل الله، يقول: يا الله، كلٌّ بلغته. دَعَوْنَا والتجأنا، وكان الناس الذين من حولي ما بين باكٍ وما بين مُؤَمِّن وما بين إنسان يصرخ ويستغفر كلٌّ بلغته، ما هي إلا ساعة حتى رأينا أن

الغمة قد انقشعت وأن السفينة عادت شيئاً فشيئاً إلى سَنَنِهَا الطبيعي واطمأن الكل إلى أن الخطر قد زال، ونظرت وإذا بالقوم رجع كلٌّ إلى شأنه، وإذا بالفوارق التي امَّحَتْ عندما أطلت علينا عوامل الهلاك إذا بهذه الفوارق عادت لتهيمن عليهم كما كانت، وصدق الله القائل: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُوراً، أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلاً، أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً﴾ [الإسراء : ٦٧-٦٩].

تلك هي صورة الواقع الذي ترويه شخصية إسلامية يعلمها كلٌّ منكم، وهذا هو مصداق ذلك يرسمه البيان الإلهي في هذه الجمل البليغة العجيبة يا عباد الله.

والآن، ما الذي يجعل الإنسان يُحْجَبُ عن عقيدته التي متعه الله بها، ما الذي يجعل الإنسان يُحْجَبُ عن هذا الكنز الذي أودعه الله عز وجل في كيانه منذ فجر نشأته؟ لماذا يُحْجَب؟ رأيتم كيف يُحْجَبُ الإنسان عند الأمن والطمأنينة ثم كيف يعود إلى هذا الكنز الذي في كيانه عندما تطوف به المحن أو تطل عليه الأخطار، لماذا؟

أيها الإخوة: أرجو أن يكون الجواب عن هذا السؤال درساً نتلقاه لنعتبر به، لكي نحافظ على هذا الكنز الذي أكرمنا الله به منذ فجر نشأتنا.

الذي يجعل الإنسان يُحْجَبُ عن هذه العقيدة بل هذا الكنز الذي غرسه الله عز وجل في كينونته إنما هي الأهواء، الشهوات التي تثور ثم تثور ثم تهيمن على العقل وعلى الكيان، العصبية التي تقود الإنسان إلى إشباعها على حساب العقل وعلى حساب المنطق، العرق، الانتماء، المصالح العابرة الشخصية التي تجعلنا نؤثرها على قرار العقل وحكمه، هذه هي التي تجعل الإنسان يُحْجَبُ عن قلبه الذي هو مركز هذا الكنز الرباني وصدق الله القائل: ﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ﴾

هذا كلام الله سبحانه وتعالى، هذا كلام ربنا سبحانه وتعالى عندما يحذرنا من أن نلتفت إلى العصبيات والأهواء وغير ذلك يحذرنا قائلاً: ﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال: ٢٤].

لكن لماذا يَحُولُ؟ ﴿يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ لأنه يعرض عن هذا الكنز وسبل حمايته ويستسلم كما قلت لكم لأهوائه، لرغباته، لشهواته، للعصبية التي تقوده، إلى آخر ما هنالك مما تعلمون.

والمطلوب من الإنسان – وقد علم أنه يسير في رحلة إلى الله، إن لم يكن قد حانت هذه الرحلة اليوم فلسوف تحين غداً، وإن لم يكن ذلك في الغد القريب فبعد أشهر أو بعد أعوام – دعونا يا عباد الله إذا رحلنا إلى الله عز وجل نرحل وهذا الكنز عامر بين جوانحنا، موجود، لم يتحول من الرقاد إلى الموت، كيف يكون ذلك؟ بأن نتحرر من العصبيات، بأن نتحرر من ردود الفعل، بأن نتحرر من الأهواء والرغائب والشهوات والمصالح العابرة الآنية. وهذا هو داؤنا الذي نعاني اليوم يا عباد الله.

ألا ترون كيف أننا نرى الحق ناصعاً بيِّناً يعلن عنه بيان الله عز وجل وننظر فنجد إخوةً لنا يعيشون بين ظهرانينا يعرضون عن بيان الله، يعرضون عن وصايا الله، يعرضون عن وصايا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا أريد أن أفصل، لا أريد أن أذكركم بوصايا رسول الله في مثل هذا المنعطف الخطير الذي نمر فيه وكيف أن إخوة لنا مؤمنين، مسلمين يعرضون باشمئزاز – أجل باشمئزاز – عن وصايا رسول الله.

ما أكثر الآيات التي تنبهنا إلى أن لا نخطئ وألا تزل بنا القدم في هذا المنعطف الخطير، تلوناها وذكرناها وذكَّرْنَا بها ولكننا وجدنا إخوة لنا يعيشون بين ظهرانينا مسلمين يعرضون عن هذا الذي يخاطبنا به الله. بل الأمر وصل إلى القمة التي لا يمكن للعقل أن يتصورها. جهادٌ في سبيل الله يعلن تحت عَلَمٍ أمريكي، جهاد في سبيل الله عز وجل يقوده السفير الأمريكي، جهادٌ في سبيل الله سبحانه وتعالى يخطط له السفير الأمريكي ثم يصر إلى أن يكون هو المشرف على التنفيذ ونسميه جهاداً، يقول لنا ربنا: ﴿لَا تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ [الممتحنة : ١٣]. ونقول بلسان الحال: بل سنتولاهم، نحن أعلم. يقول لنا الله عز وجل: ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: ١].

ويقول قائلهم: لا بل نحن أعلم، سنتخذهم أولياء ولسوف يقودوننا. حسناً، يقودونكم إلى ماذا؟ إلى معركة؟ لا، يقودوننا إلى الجهاد في سبيل الله. فيا عجباً، جهاد في سبيل الله يقوده السفير الأمريكي!

هذا هو البلاء وذلك هو الدواء.

كلنا أيها الإخوة يتمتع بالكنز الذي أعلنه رسول الله في الحديث القدسي: ﴿إني خلقت عبادي حنفاء كلهم﴾. فكيف السبيل إلى المحافظة على هذا الكنز الذي كم نحن بحاجة إليه عند رحيلنا إلى الله. إذا رحلنا إلى الله وهذا الكنز حيٌّ بين جوانحنا فلسوف يغفر الله لنا زلاتنا ولن يحاسبنا على أخطائنا، نعم، لكن المهم أن نرحل إلى الله وهذا الكنز حيٌّ نابض لم يمت. سبيل ذلك أن نتحرر من عصبياتنا، أن نتحرر من عوامل الثأر الجاهلي الذي أنقذنا الإسلام منه، سبيل ذلك أن نتحرر من مصالحنا الجزئية الآنية وأن نلحق وراء المصلحة الكلية التي يدعونا بيان الله سبحانه وتعالى إليها، دواؤنا أن نتحرر من الأهواء والشهوات الجانحة، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم..



١٠٩- التعامل مع نعم الله الظاهرة والباطنة | ٢٠١١/٠٨/١٩

تعالوا نتدبر هذه الآية في بيان الله عز وجل ومحكم تنزيله: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ [لقمان: ٢٠].

إذاً هما نعمتان يا عباد الله، أكرم الله عز وجل بهما عباده، نعمة ظاهرة ونعمة باطنة، أما النعمة الظاهرة فقد عرفناها جميعاً، هي العافية التي تتمتع بها، المال الذي جعله الله عز وجل في حوزتك، المسخرات التي استخدمها الله عز وجل ما بين سمائه وأرضه لمصلحتك، الأرزاق التي تهمي من السماء والنباتات والأرزاق التي تتفجر من ظاهر الأرض، هذه هي النعم الظاهرة التي يمتن الله عز وجل بها على عباده، ولكن فما هي النعم الباطنة؟

النعم الباطنة يا عباد الله هي تلك الابتلاءات أو المصائب والمحن التي تستتبع فائدة للإنسان، تستتبع يقظة منه بعد غفلة، تستتبع استقامة منه بعد اعوجاج، تستتبع منه يقظة إلى هويته ومعرفة لعبوديته لله عز وجل والتفاتة بالاصطلاح إلى مولاه وخالقه سبحانه وتعالى، تلك هي النعم الباطنة، هي نعم خفية مقنعة بما يبدو أنه ابتلاء أو أنه بعض من المحن والمصائب. ولعل النعم الباطنة أهم للإنسان من النعم الظاهرة، ولعلها أكثر دلالة على رحمة الله سبحانه وتعالى بعباده، إنها عصي التربية، ولقد كانت التربية وما تزال عنواناً على عطف المربي لمن يربيه، عنواناً على محبته لمن يلاحقه بالتربية. تعالوا يا عباد الله إلى ما يجسد لوناً من ألوان هذه النعم الباطنة.

عرفت رجلاً قبل سنوات طويلة في هذه البلدة المباركة. رجل أوتي مكانة باسقة في المجتمع، يتمتع بثقافة واسعة، يتمتع بوظيفة متميزة، يتمتع بعافية تامة ووجه يتضرج بالصحة، ولكن أفكاراً إلحادية كانت تطوف بذهنه ورأسه دعته إلى أن ينشر مقالاً في صحيفة سيارة في هذه البلدة عنوانها: (متى علمت الأمة العربية أنها هي سيدة قدرها فإنها عندئذٍ تتخلص من التخلف). وذاع مقاله وشاع، وأودع في كلامه هذا ما شاء من الأفكار الإلحادية زاعماً أن الإنسان هو الذي يملك قدره.

في يومٍ من الأيام كان الرجل يؤدي وظيفته كالعادة في دائرته وكان واقفاً يتحدث وما هو إلا أن وقع على حين غرة على الأرض، وقع ولا حراك به في الظاهر، أُخِذَ به إلى داره وعُهِدَ به إلى المشافي ومضت على ذلك مدة لم أعلم إلام كانت عاقبة أمره، رأيته بعد أشهر في مناسبة، سَلَّمْتُ عليه، رأيته ذابل الوجه، رأيته يمشي الهوينى، ضامر الجسم، سألته عن حاله فنظر إلي قائلاً: لقد جبر الله بالخاطر ولقد أكرمني بالعافية ولقد ذهبت فزرت بيته معتمراً ثم ذهبت فزرت نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم، وأخذ يلهج لسانه بحمد الله عز وجل وشكره، وعوفي الرجل.

أرأيتم إلى هذه الحال، إنها واحدة من النعم الباطنة، ألا ترون أنها ذات دلالة واضحة على محبة الله له؟ ألا ترون أنها ذات دلالة واضحة على غيرة الله عز وجل عليه ولكأنه يقول: أنا حبيب من أطاعني وأنا طبيب من عصاني، أجل. والطبيب مظهر من مظاهر الرحمة كما تعلمون.

عباد الله: لقد مرت أمتنا بمثل ما مر به هذا الرجل الذي حدثتكم عنه كما تعلمون. مرت أمتنا في هذه البلد بمثل هذه المحنة، بمثل تلك النعمة الباطنة، ولا أريد أن أصف شيئاً تعلمون ولكن ما الذي أعقبته تلك المحنة؟ إلام آلت تلك النعمة الباطنة؟ لقد ردَّتْنا عن المنحدر الذي كدنا نهوي إلى قراره، لقد أيقظتنا نعم إلى هوياتنا عبيداً مملوكين لله سبحانه وتعالى، ولسوف تتجلى مظاهر معرفتنا لهذه الهوية عما قريب، ردَّتنا هذه النعمة الباطنة إلى جديد من التمسك بعهد الله وإلى جديد من البيعة مع الله سبحانه وتعالى، إذاً هذه نعمة باطنة من النعم التي يمتن الله عز وجل بها على عباده في مثل هذه الآية التي تلوتها عليكم.

ما الذي بقي بعد أن عرفنا أن هذه المحنة التي مرت بنا – أقول مرت لأنها فعلاً مرت ولأنني على يقين بأنها لن تلبث وعلى يقين بأنها انطوت وشمرت أذيال الرحيل، نعم جاءت لتؤدي مهمة، بعثها الله عز وجل إلينا نعمة باطنة لتوقظنا، لتلفت نظرنا إلى هوياتنا، لتدعونا إلى تجديد البيعة مع الله سبحانه وتعالى – فما الذي بقي بعد ذلك؟ بقي أن نشكر هذا الإله المنعم، بقي أن نشكر مولانا الذي يقلِّبُنَا ما بين نعم ظاهرة ونعم باطنة وكلٌّ منهما يتطلب الشكر، بقي أن نشكر الله عز وجل على هذه المحنة التي أطلت علينا بوجهها ثم إنها اليوم في دور الانقشاع والذهاب، بقي أن نشكر الله جل جلاله على كل المستويات، نعم.

أما على مستوى القادة فشكرها لله سبحانه وتعالى يتمثل في أن نعود فنتبين جميعاً هوياتنا عبيداً لله لن نرحل غداً إلى الله عز وجل إلا بها، لن نرحل إلى الله بشيء آخر غير هذه العبودية، هذه الهوية تتطلب من قادتنا – أكرمهم الله سبحانه وتعالى بالحماية والتوفيق – العمل الدائب على إنشاء جيل مؤمن بالله، على إنشاء جيل لا يتيه عن هويته، لا يتيه عن رشده، شكر القادة يتمثل في أن يمسكوا بميزان العدل ولا شيء غير العدل، يجعلون من أنفسهم حراساً ورعاةً لهذا الميزان فيما بينهم وبين الأمة، فنحن بأمس الحاجة في دنيانا هذه إلى أن نمد رواق العدل بين إخواننا وبين من ملّكنا الله عز وجل زمام قيادتهم، ورواق العدل نحن الذين نمده، ونحن الذين نعلم كيف نُمَتِّعُ شعوبنا بها. أما أولئك المنافقون الذين يتحدثون عن العدالة ولا يفسرونها في الباطن إلا بالظلم فليس لنا حديث عنهم في هذا المجال قط. هذه هي مهمة قادتنا.

أما الفئات الأخرى من الأمة، أما عامة الشعب فإن شكر الله سبحانه وتعالى على هذه النعمة الباطنة التي جاءت ومرت تتمثل في أن نمد رواق الأخوة، جسور الأخوة التي قررها الله عز وجل في محكم تبيانه ثم أمرنا بأن نضعها موضع التنفيذ فيما بيننا. القادة فشكرها لله سبحانه وتعالى يتمثل في أن نعود فنتبين جميعاً هوياتنا عبيداً لله لن نرحل غداً إلى الله عز وجل إلا بها، لن نرحل إلى الله بشيء آخر غير هذه العبودية، هذه الهوية تتطلب من قادتنا – أكرمهم الله سبحانه وتعالى بالحماية والتوفيق – العمل الدائب على إنشاء جيل مؤمن بالله، على إنشاء جيل لا يتيه عن هويته، لا يتيه عن رشده، شكر القادة يتمثل في أن يمسكوا بميزان العدل ولا شيء غير العدل، يجعلون من أنفسهم حراساً ورعاةً لهذا الميزان فيما

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات : ١٠].ذلكم هو القرار. ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات : ١٠]. وهذا هو الأمر.

ينبغي أن نصلح ما بيننا وبين إخواننا في المعاملات المختلفة المالية والمادية المختلفة، الغش بكل أشكاله ينبغي أن يُطوى بعد اليوم، المعاملات البعيدة عن الحق والواقعة في حمأة الظلم ينبغي أن نرفع أيدينا عنها بعد اليوم، ينبغي أن نجعل أوقاتنا، ليالينا وأيامنا مليئة بنبضات العبودية لله سبحانه وتعالى لاسيما في هذه الأيام الباقية من هذا الشهر الأغر الذي أكرمنا الله سبحانه وتعالى به، هذا هو شكر الله عز وجل لأمتنا بصورة عامة.

ولكن لابد أن أتوجه إلى تلك الفئة التي طاب لها أن تستجيب للأوامر الصادرة إليها من وراء البحار، طاب لها أن تستجيب لأوامرها في الخروج إلى الشوارع وفي إعلان الشعارات المختلفة المتنوعة في الوقت الذي طاب لها أن تعرض عن وصايا نبيها محمدٍ صلى الله عليه وسلم الذي يلاحقها ويأخذ منها بالحجز يهيب بها ألا تشترك في الفتنة، يهيب بها أن تعتزل الفتنة، يهيب بها أن تعود فتهتم بخاصة نفسها، وأنا أصغي إلى هذه الوصايا بل الأوامر المتكررة فأتبين مدى نبضات الحب في قلب رسول الله لنا وإشفاقه علينا، طاب لهؤلاء الإخوة أن يستجيبوا لنداء أولئك الأعداء الآتي من وراء البحار وأن يعرضوا ويصموا آذانهم عن وصايا حبيبهم ورسولهم محمدٍ عليه الصلاة والسلام، يقول لهم اعتزلوا الفتنة، لتسعكم دويرة أهليكم، يبين لنا أن خمود الفتنة إنما هو في تجنبها يا ناس، أدعو هؤلاء الإخوة اليوم وقد أكرمنا الله سبحانه وتعالى بهذه النعمة الباطنة إلى جانب نعم ظاهر كثيرة أدعوهم إلى الاصطلاح مع رسول الله، أدعوهم إلى يعودوا فيمدوا يد البيعة مرة أخرى إلى رسول الله، لقد ظهر لهم أن نداء العدو إنما يحملنا المغارم والأثقال في حين أنه يعود بالكثير من المغانم والحقوق التي يستلبها من أرضنا ومن عباد الله عز وجل، لقد تبين هذا ولسوف يتبين أكثر، هذه وصيتي لهؤلاء الإخوة الأحباب، وأسأل الله أن يلهمهم الرجوع إلى الاصطلاح مع رسول الله صلى الله عليه وسلم.

أما أولئك الآخرون المقنعون الذين جعلوا من أنفسهم مخالب لأعدائهم وأعداء الله سبحانه وتعالى ثم أوسعوا بهذه المخالب فتكاً وتخريباً وتقتيلاً وتحريقاً وإفساداً لأرضهم، لإخوانهم، لممتلكاتهم، أقول لهؤلاء الإخوة: إن كنتم مؤمنين بالله عز وجل – وما أظن إلا أنكم مؤمنون بالله سبحانه وتعالى ولكن الإنسان قد يتيه وقد تهجم عليه حالة من الوحشية تنسيه إنسانيته – أقول لهم عودوا إلى إنسانيتكم فتعاملوا معها، عودوا قبل فوات الأوان فتوبوا إلى الله عز وجل والله يقبل توبة التائبين، عودوا عن هذا الذي فعلتموه، أنتم لستم مخالب لأعداء الله وأعدائكم، أنتم إخوة تقيمون بنيان الحضارة التي كلفكم الله بإقامتها: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١].

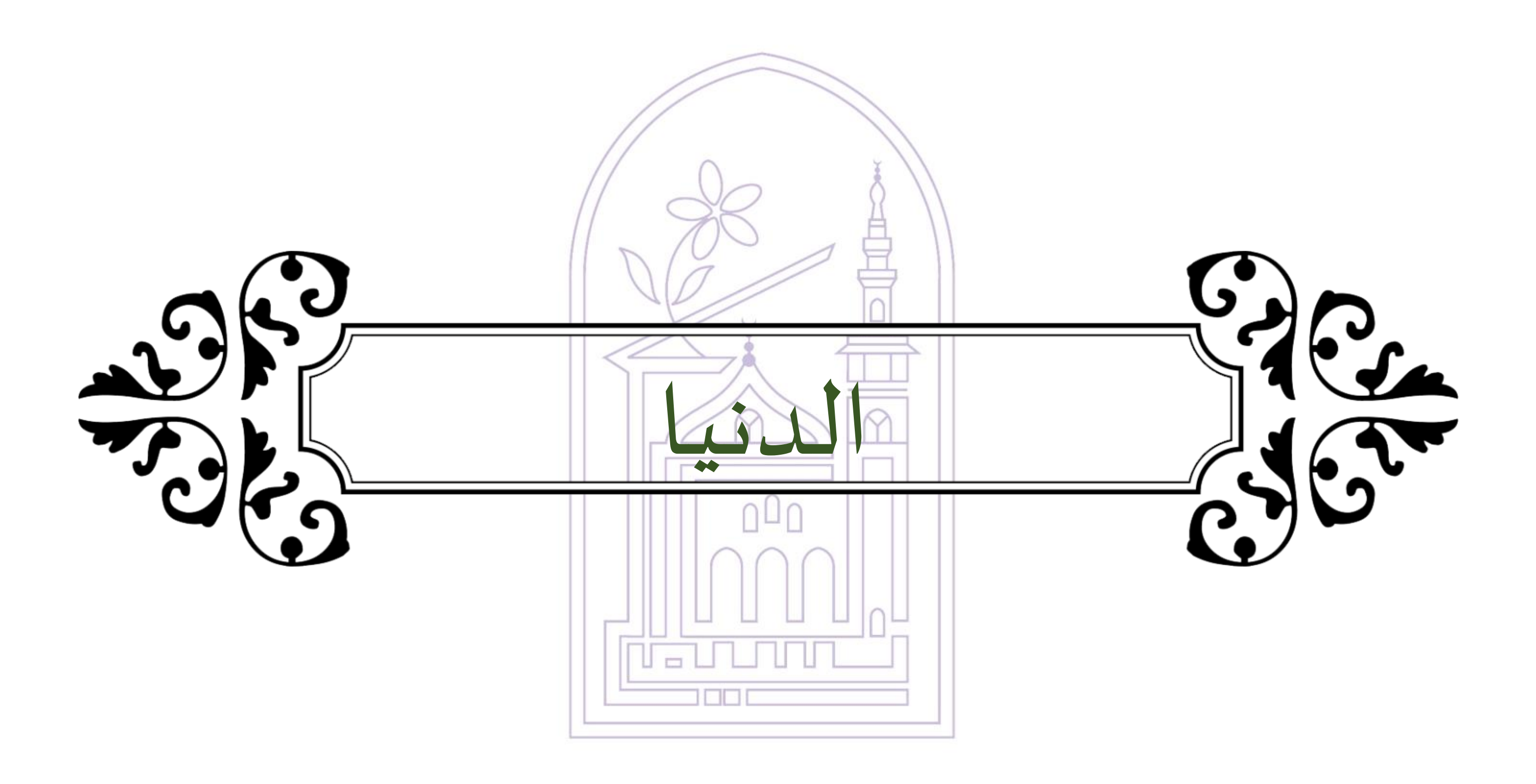
ما أظن إلا أن هؤلاء الإخوة مؤمنون بالله، ولسوف توقظهم حقيقة إيمانهم بالله عز وجل إلى هذه الحقيقة وإذا بأمتنا قد اجتمعت من نثار، وإذا بها قد تضامت، هذا هو شكر الله، هذا هو الشكر الذي يتطلبه الله عز وجل منا على نعمه الظاهر والباطنة. لئن شكرنا الله سبحانه وتعالى فلسوف نجد أنفسنا

مصداقاً دقيقاً لقول الله عندما قال في محكم تبيانه: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً﴾ [النور: ٥٥].

لسوف نكون مصداق قوله عز وجل: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ، وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٥-٦].

ولكل عصر فرعونه وهامانه وقارونه يا عباد الله، وأنتم تعلمون أن سلسلة الفراعنة لم تنقطع، وها نحن نجد هذه السلسلة كيف تعبث بدنيا الله سبحانه وتعالى الواسعة.

أقول قولي هذا وأسأل الله عز وجل أن يجعل لكلامي منفذاً إلى قلوب هؤلاء الإخوة وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يجمعنا وألا يفرقنا وأن يجعلنا جميعاً نقف سعداء تحت مظلة العبودية له، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم...



الدنيا

١١٠- حقيقة الحياة الدّنيا | ١٩٨٩/٠٥/٢٦

إنَّ النّاسَ كانوا ولا يزالونَ في نظرهم إلى الدّنيا وأحداثها فريقينِ اثنين: فريقٌ ينظرُ إليها نظرةً سطحيّةً بلهاء. وفريقٌ آخرُ ينظرُ إليها من خلالِ عقله ومن خلالِ تفكيرِهِ ووعيه.

أمّا الفريقُ الأوّل: فينظرُ إلى الدّنيا نظرتهُ السّطحيّةَ البلهاء فيرى فيها صورتين متمايزتينِ مختلفتينِ لشرٍّ ولخير، يتصوّرُ أنَّ هذا العالَمَ مسرحٌ لشرٍّ لا خيرَ فيه ولخيرٍ لا شرَّ فيه، ويتساءَلُ عن الحكمةِ والسّبب، وربّما هداهُ تصوّرهُ الخرافيُّ هذا إلى ما تصوّرهُ كثيرٌ من الأسطوريّينَ في يومٍ ما: أنَّ لهذا الكونِ إلهين: إلهُ يسوسُ الخيرَ الذي فيه، وإلهٌ آخر يرعى الشّرَّ الذي فيه.

وأمّا الفريقُ الثّاني الذي ينظرُ إلى الدّنيا من خلالِ عقله ومن خلالِ منظارِ وعيهِ وفكره: فإنَّ هذا الفريقَ يتجاوزُ الظّواهرَ إلى الجذور، فإذا وقفَ عندَ الجذور رأى أنَّ ينابيعَ كلِّ شيءٍ إنّما تتجمّعُ في خيرٍ مطلق، وأنَّ الأغصانَ والفروعَ مهما بدت مختلفةً متنوّعة فإنّها تنتمي إلى جذعٍ واحدٍ لا ثانيَ لهُ ألا وهوَ النّعمةُ المطلقة والخيرُ المطلق، وإذا تأمّلَ عندَ هذا الجذعِ وفكّرَ هُديَ إلى اليدِ الكريمةِ المعطاءة التي تسوسُ جذعَ هذا الخيرَ كلّه، وترعاهُ وتفرّعهُ ألواناً وأشكالاً وتجعلُ منهُ نعماً ظاهرةً ونعماً باطنة، وينظرُ إلى هذه اليد، ألا وهيَ يدُ ربِّ العالمينَ سبحانهُ وتعالى، فيرى أنَّ الكونَ كلّهُ يُساسُ في قبضةِ اللهِ سبحانهُ وتعالى وحكمه، وأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ ليسَ عندهُ إلا الخيرُ المطلق، وإلا النّعمةُ الدّائمة، ومن ثمَّ فإنَّ الحوار الذي يخاطبُ به العبدُ ربّهُ في اليومِ خمسَ مرّات، إنّما هو حوارُ الاعترافِ بنعمةِ اللهِ وفضله: ﴿الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، الرّحمنِ الرّحيم﴾.

ولو أنَّ الدّنيا كانت تُساسُ بيدٍ من الخيرِ وأخرى من الشّر، لما صحَّ أن يكونَ هذا الحوار هو الحوارَ المتكرّرَ الذي يُخاطبُ بهِ العبدُ ربّهُ في كلِّ يومٍ خمسَ مرّات.

ولكن لماذا ننظر فنرى الأشياءَ متنوّعة نرى بعضاً منها يتّسمُ بما يسمّى الشّر، ونرى بعضاً منها يتّسمُ بما هو الخير. تلكَ هي آثارُ النّظرةِ السّطحيّةِ يا عبادَ الله، التي ينبغي أن نتجاوزها، وما دامَ الإنسانُ عاقلاً واعياً ما ينبغي أن ينظرَ إلى الأشياءِ نظرةً صبيانيّةً حبيسة.

إنَّ الطّفلَ الذي يأكلُ فاكهةً لذيذةً من الفواكه وهو يتخيّلُ أنّهُ يجب أن يقضمها جميعاً وأن يحسَّ باللذّةِ في كلِّ جزءٍ منها، وإذا بهِ يفاجَئ بأنّهُ يقضمُ نواةً قاسيةً صلبة أدخلتِ الألمَ بدلاً من اللذّةِ بينَ أسنانه، يتصوّر أنَّ هذا الطّعامَ مزيجٌ من خيرٍ وشرّ، ولكنَّ الإنسانَ الذي يتناولُ هذه الفاكهة بنظرٍ ثاقبٍ ووعيٍ عقليّ: لا يجدُ في هذه النّواةِ إلا مظهراً لخيرٍ ثانٍ، لا يجدُ في هذه النّواةِ القاسية إلا مظهراً لامتدادِ هذه الفاكهة واستمراريّتها، وضمانُ بقاءِ هذه المائدة ممتدّةً أمامَ الإنسانيّةِ إلى أن يرثَ اللهُ الأرضَ ومن عليها.

فإنسانٌ ينظر نظرةً سطحيّةً بلهاء يقول: إنَّ الكونَ منقسمٌ إلى شرٍّ وخير. وإنسانٌ ينظرُ هذه النّظرةَ العميقة: يرى الأمرَ كلّهُ خيراً ولكنّهُ خيرٌ متنوّع. وذو النّظرةِ الصّبيانيّةِ البلهاء الذي يسيرُ في الشّوارعِ في قُرِّ الشّتاء، فتتهاطلُ الأمطارُ فوقَ رأسه، ويرى أنَّ ثوبهُ يتبلّلُ من قطراتِ المطرِ الهاطلة من السّماءِ على الأرض، ربّما يتأفّف ويتضجّر ويتساءل ما حكمةُ هذا الشّرّ؟ ولكنَّ الإنسانَ الذي ينظرُ إلى هذه الأمطارِ السّخيّة من خلالِ منظارِ عقله ووعيه وإدراكِ الحكمةِ الإلهيّةِ المعطاءة يتبدّدُ هذا التّصوّر من خلالِ وقوفهِ أمامَ فضلِ اللهِ عزَّ وجلّ، ويعلمُ أنَّ كلَّ قطرةٍ نعمة، وأنَّ هذا المطرَ الهاطل إنّما لسانُ فضلٍ وعطاءٍ من اللهِ سبحانهُ وتعالى، وينسى في غمارِ هذه النّظرةِ ثيابهُ المتبلّلة وتلكَ المشكلاتِ الجزئيّة التي قد يمرُّ بها.

وإذا ازدادَ الإنسانُ تصوّراً وتدبّراً بحكمةِ اللهِ علمَ أنَّ اللهَ قد جبلَ الإنسانَ وفطره على أن لا يدرك جمالَ الصّورةِ الخيّرة إلا من خلالِ الإطارِ الذي يحدُّ هذه الصّورة، والإطارُ الذي يحدّها ينبغي أن يكونَ فاصلاً بينها وبينَ نقيضها. الإنسانُ الذي يدركُ الحقائق يعلمُ أنَّ المغنم لا يحدّهُ إلا المغرم.

وهكذا يقفُ هذا الإنسانُ الواعي المتدبّر أمامَ محرابِ الرّبوبيّةِ للرّبّ وهو يصغي بتدبّرٍ إلى قولِ اللهِ عزَّ وجلّ: ﴿اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾. ليسَ عندَ اللهِ إلا النّعمة، ولا يبعثُ لكَ إلا الخير، ولكن إمّا أن تكونَ نعمةً ظاهرةً يتبيّنُها الطّفلُ والكبير. أو ربّما تكونُ نعمةً خفيّةً تغيبُ عن بالِ الطّفلِ وذي النّظرةِ البلهاء ولكن لا يمكنُ أن تغيبَ عن ذي النّظرةِ المتدبّرةِ الواعيةِ العاقلة. هكذا يربّينا القرآن من خلالِ منهجٍ علميٍّ دقيق، وهكذا يربّي العبدُ الصّالح الذي يسيرُ على صراطِ اللهِ سبحانهُ وتعالى العزيزِ الحميد.

ونتيجةُ هذه التّربية: هي أنَّ الإنسانَ مهما لقيَ في جنباتِ هذه الحياة، لن يشمَّ من هذا الذي يلقاه إلا عبيرَ النّعمة، وإلا أطيبَ معاني الخير يفدُ إليهِ من اللهِ سبحانهُ وتعالى. فإن لم يفهم، وإن ضاقت عليهِ السُّبُلُ للتحليل، وقفَ أمامَ قولِ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

كثيرونَ هم الذين يسيرونَ على الأول من خلالِ النّظرةِ السّطحيّةِ التي حدّثتكم عنها، وما أحراهم أن يتأمّلوا ويتدبّروا. إذا شيكَ أحدهم بشوكة تأفّفَ وتساءل: ما الحكمة؟ وإذا حبسهُ المرض تساءَلَ: ما السّرُّ وما الحكمة وماذا فعلت حتّى يصيبني اللهُ عزَّ وجلَّ بهذا المكروه؟ دواءُ هؤلاءِ النّاسِ أن يعقلوا، وأن يتدبّروا، وأن لا يكونوا مثلَ ذلكَ الطّفلِ الذي قضمَ الفاكهة إلى آخرها، فلمّا أحسَّ بالشّدّةِ التي لقيتها أسنانهُ بسببِ قضمهِ لتلكَ النّواةِ المتحجّرة، تساءلَ عن الحكمةِ والسّبب، وفي كتابِ اللهِ ما يشرحُ كلَّ شيء وفي كتابِ اللهِ ما يضعُ النّقاطَ على كلِّ أمرٍ خافٍ. فهل متدبّرٍ في كتابِ الله؟ وهل من واقفٍ عندَ شروحِ ذلك في سنّةِ رسولِ الله صلى اللهُ عليهِ وسلّم؟

كلُّ الآلامِ التي يراها الإنسان وكلُّ المصائبِ التي قد تمرُّ به نعمٌ خفيّةٌ ولكنّها مقنّعةٌ بمظهرٍ رقيق، الحكمةُ من ذلك أن يسوقَ هذا القناعُ الإنسانَ إلى محرابِ العبوديّةِ للهِ عزَّ وجلّ. واللهُ سبحانهُ وتعالى لا يحبُّ أن ينتقلَ عبدهُ إلى رحابِ الآخرةِ إلا نقيّاً من الأدران، نقيّاً من السّيّئاتِ كلّها، وقانونُ اللهِ سبحانهُ وتعالى قضى وقضاؤهُ لا مردَّ له: أنَّ كلَّ من ارتكبَ شيئاً لا بدَّ أن يجزى به، أليسَ هو القائل: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾؟ ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾، هذا كلامٌ مخيف. ولقد خوّفَ هذا الكلامُ سيِّدَنا أبا بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ قبلَ أن يخوّفنا نحن، وهُرِعَ إلى المصطفى عليهِ الصّلاةُ والسّلام عندما نزلت هذه الآية وهو يقولُ: «يا رسولَ الله ما العملُ بعدَ اليوم: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾. من منّا لا يعملُ سوءاً؟ من منّا لا يرتكبُ سيّئة؟ من منّا لا يسرفُ على نفسهِ في ساعةٍ من ليلٍ أو نهار؟ فماذا قالَ لهُ المصطفى عليهِ الصّلاةُ والسّلام؟ غفرَ اللهُ لكَ يا أبا بكر، ألستَ تمرض؟ ألستَ تحزن؟ ألستَ تصيبُكَ اللأواء؟ فذلكَ ما تُجزَونَ به».

والإنسانُ الغافل يسيرُ في فجاجِ هذه الحياة، يُصابُ برَشَاشِ الأمراض لا يدري ما الحكمة؟ وأيُّ فضلٍ أجلُّ من هذا الفضل؟ فإذا ابتُليت ينبغي أن تُدركَ الحكمة، وينبغي أن تجتازَ قناعَ هذا الابتلاءِ

وظاهره لتدركَ النّعمةَ الخفيّةَ التي تنبضُ في داخلها. اللهمَّ اجعلنا من أولئكَ العبيد الذين أدركوا مدى فضلك وعلموا واسعَ فضلكَ ورحمتك، وارزقنا اللهمَّ شكرَ آلائِكَ الظّاهرةِ والباطنة. أقولُ قولي هذا وأستغفرُ اللهَ العظيمَ، فاستغفروهُ يغفر لكم...



١١١- فتنة الحياة الدنيا.. ودورها فيما وصلنا إليه | ١٩٩٠/٠٩/٠٧

كلَّما مرت الأزمنة، وتقلبت الأجيال، ازداد الإنسان العاقل وثوقاً بقول النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿لقد تركتُ فيكم ما إن تمسّكتم بهِ لن تضلّوا بعدي: كتابَ اللهِ وسنّتي﴾.

كلّما مرَّتِ الأزمنة، وتقلّبتِ الظّروفُ والأحوال، وتكاثرتِ الفتنُ والمصائب، والتفتَ النّاسُ إلى وصايا رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم، وجدوا أمامهم مزيداً من الأدلّةِ والبراهينِ على أنّهم لو تمسّكوا بوصايا المصطفى عليهِ الصّلاةُ والسّلام: فلسوفَ يظلّونَ في حصنٍ حصينٍ ضدَّ كلِّ فتنة، وضدَّ كلِّ مصيبة، ولن ينالهم زلٌّ بعدَ عز، ولن يقعوا في فقرٍ بعدَ غنى. ولكنَّ الذينَ أعرضوا عنِ اللهِ وعن وصايا رسولِ الله: فوقعوا في مغبّةِ إعراضهم هذا.

لقد قالَ المصطفى عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ فيما اتّفقَ عليهِ الشّيخان، عندما رأى المسلمينَ يوماً وقد ابتهجوا لمرأى بعضِ الأموالِ والغنائمِ التي أكرمهمُ اللهُ عزَّ وجلَّ بها، قالَ لهمُ المصطفى عليهِ الصّلاةُ والسّلام عندما رأى استبشارهم: ﴿أبشِروا وأمِّلوا بما يسرّكم، فو اللهِ ما الفقرَ أخشى عليكم، ولكنّي أخشى أن تُبسَطَ عليكمُ الدّنيا كما بُسطت على الذينَ من قبلكم فتنافسوها كما تنافسها من قبلكم فتهلككم كما أهلكتهم﴾. هذه وصيّةٌ من وصايا رسولِ الله صلّى اللهُ عليهِ وسلّم التي أشارَ إليها عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ في خطبتهِ يومَ حجّةِ الوداع، ويومَ أهابَ بالمسلمينَ أن يتمسّكوا بسنّته، فإن هم فعلوا ذلك لن يتوهُوا، ولن يضلّوا، ولن تمتدَّ إليهم يدٌ من عدوّ.

يقولُ عليهِ الصّلاةُ والسّلام في بعضِ ما ورّثنا إيّاهُ من سنّتهِ الشّريفةِ: ﴿أبشِروا وأمِّلوا بما يسرّكم﴾ أي: ستُفتَحُ عليكمُ الدّنيا، وسيأتيكمُ المالُ من كلِّ حدبٍ وصَوب. فلا تخشوا من الفقر، فما من أمّةٍ سعت إلى مرضاةِ الله وسارت على صراطِه، إلا وأكرمها اللهُ بالغنى. لأنَّ اللهَ تعهّدَ ذلكَ لهم بقولهِ: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾. وأكّدَّ هذا بقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾. بل أكّدَ ذلكَ مرّةً ثالثةً فقال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ

آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ لذا قالَ عليهِ الصّلاةُ والسّلام: أبشروا وأمّلنوا فلسوفَ تفتَحُ عليكمُ الدّنيا. ولكن إذا فُتحتِ الدّنيا عليكم، فإنَّ الخطرَ الذي يحدقُ بكم آنذاك ليسَ فقراً فقط، لستُ أخشى عليكم من الفقر، فلن يهلككم فقرٌ أبداً، وإنّما أخشى عليكم نقيضَ ذلك. أخشى عليكم أن تبسط الدّنيا عليكم كما بسطت على من كانَ قبلكم.

ذلكَ هو بركانُ الفقر، ومنهُ يتفجّرُ الدّمار، وبهِ سيكونُ سببُ الهلاك، لماذا؟ لأنَّ المالَ إذا كَثُرَ بينَ أيدي النّاسِ طغوا وبغوا ما لم يلجموا أنفسهم بلجامٍ محكمٍ من شريعةِ الله. وما لم يرتقوا إلى سدّةٍ عاليةٍ من التّربيةِ الإسلاميّة التي يتلقّونها من كتابِ اللهِ عزَّ وجلّ. فإن هم رُبّوا هذه التّربيةَ الإيمانيّة، وألجموا حياتهم بلجامِ الشّريعة، لم يضرَّهمُ المال، بل كانَ خيرَ مطية لهم إلى عز الدّنيا وسعادةِ الآخرة.

ولكن إذا تغلّبَ عنفوانُ المال، فبغا النّاسُ بسببِ هذا المالِ الكثير وطغوا، أورثهم هذا الطّغيانُ بذخاً، ولا بدَّ أن يورثهم البذخ بعدَ ذلك شحّاً به وتكالباً عليه. فإذا تكالبوا على المال وشَحّوا به: تنافست الجماعاتُ الإسلاميّةُ على هذا المال، وتزاحموا عليه. ثمَّ إنّهم يتحاقدونَ ويتهارجونَ ويتخاصمونَ بسببه، ثمَّ إنَّ الدمار ينقدح من ذلكَ الخصام، ويتحوّلُ المسلمونَ بل جماعاتُ المسلمينَ إلى أممٍ متقاتلةٍ متهارجة، فَيَهلَكونَ بسببِ هذا المال. وهذا ما قالهُ عليهِ الصّلاةُ والسّلام: ﴿إنّما أخشى عليكم أن تُبسَطَ الدُّنيا عليكُم كما بُسِطَت على من كانَ قبلَكم فتنافسوها - أي تتنافسونَ عليها - كما تنافسَ عليها - أي من كانَ قبلَكم - فتهلككم كما أهلكتهم﴾.

ترى لو أنَّ أجيالَ المسلمينَ كانوا عندَ وصيّةِ رسولِ اللهِ يومَ ودّعهم في أيّامهِ الأخيرةِ قائلاً: ﴿لقد تركتُ فيكم ما إن تمسّكتم بهِ لن تضلّوا بعدي: كتابَ اللهِ وسنّتي﴾. لو أنَّ المسلمينَ كانوا أُمَنَاءَ على سنّةِ رسولِ اللهِ - بعدَ كتابِ اللهِ تعالى - وحافظوا على وضاياه، وطبّقوها خيرَ تطبيق، وجعلوا من تعاليمهِ عليهِ الصّلاةُ والسّلام خيرَ حارسٍ لسعادته ولعزّتهم، وسهروا ليلهم، وراقبوا لياليهم على تطبيقِ شرعِ اللهِ عزَّ وجلّ. أفكانت تتسرّبُ إليهمُ الفِتن؟ أفكانتِ المصائب تدورُ عليهم كما تدورُ الرّحى على الحبِّ فتطحنهُ

طحناً؟ أفكانَ المسلمونَ وقد أورثهمُ اللهُ منَ المالِ والغنى ما لم يعطِهِ لأممِ الشّرقِ والغربِ أبداً، أفكانوا يتحوّلونَ وهمُ الأغنياءُ إلى أفقرِ الأممِ على وجهِ الأرض؟ أفكانت أموالهمُ التي ملّكهمُ اللهُ عزَّ وجلَّ إيّاها تتبخّرُ وتزولُ من أيديهم ما بينَ عشيّةٍ وضُحاها لتصبحَ ملكاً لأعدائهم بقضها وقضيضها؟ لو أنَّ المسلمينَ من عبادِ اللهِ كانوا أوفياءَ لوصيّةِ رسولِ الله، وكانوا مطبّقينَ لسنّته. أفكانوا يقعونَ في هذهِ الفتنِ التي نراها من حولِنا اليوم؟ أيُّ عاقلٍ هذا الذي لا يدركُ اليومَ دقّةَ ما أوصى بهِ نبينا؟ أيُّ عاقلٍ لا يؤمنُ أنَّ هذا الذي قالهُ رسولُ اللهِ وحيٌ من عندِ الله؟

متى كانَ رسولُ اللهِ عالماً اجتماعيّاً؟ متى كانَ فيلسوفاً؟ متى كانَ مؤرّخاً؟ متى درسَ علمَ الاجتماعِ حتّى يستخرجَ لنا قواعدَ من أدقِّ قوانينِ علمِ الاجتماعِ في الحياة؟ ولكنّهُ وحيُ اللهِ عزَّ وجلّ.

أوصانا رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بهذا، وانتزعَ الأمانةَ من عنقهِ ووضعها في أعناقِنا ورحلَ إلى اللهِ وهوَ قريرُ العين. ولكن ما الذي حصل؟ وصى الرّعيلُ الأوّل بوصاياه، فأعطاهمُ اللهُ ما تعهّدَ به. واقرأوا التّاريخ: الجيلُ الذي جاءَ بعدَ أصحابِ رسولِ الله، والجيلُ الذي جاءَ من بعدهم أيضاً: كانوا أوفياءَ لوصايا رسولِ الله، كانوا يستخدمونَ المال، وكانوا يستثمرون كلَّ قرشٍ منه، ولكنّهم كانوا يتّخذونهُ مطايا إلى مرضاةِ الله، لم يكونوا يهتمّونَ بالمال، ومن ثمَّ فلم يكونوا يشحّونَ به، ومن ثمَّ فقد كانَ المالُ موزعاً عليهم جميعاً، وكانت مائدةُ المالِ مصفوفةً للمسلمينَ جميعاً.

لم يَضقِ المالُ بأمّةٍ دونَ أمّة. ولذلكَ عاشوا سعداء، عاشوا أغنياء، عاشوا متّحدين، عاشوا أعزّة، عاشوا متآلفين. فما الذي حصلَ بعدَ ذلك؟ خلفَ من بعدهم نسوا بل تناسوا وصيّةَ رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم، أهملوا الكلامَ الذي قاله، بل ناشد به رسول الله أمته أن تتمسك به حتى لا تزّل بعد عز وحتى لا تتشتت بعد وحدة، تكالبوا عليه.. سكروا به وكما قلنا مراراً: البذخ بالمال لا بد أن يولد الشحّ؛ لأن أبواب البزخ إذا فتحت فإن المال مهما كان كثيراً لا يمكن أن يغطي حاجات البذخ التي لا تنتهي، ولذلك فإن الباذخ يشح بالمال ويضن به، ويضيق ذرعاً بمن جاء يطلب شيء منه سواءً أكان جاره الأيمن أو جاره الأيسر.

بزخ المسلمين بالمال وشحوا به فضلوا به، فجاء من يطلب ولكن لم يلقى طلبه موافقةً أو قبولاً، وتنافسوا على المال كما قال رسول الله، وتحولت المنافسة على المال الى تهارج ففتك بعضهم دماء بعض، واستحلوا المحارم التي حرمها الله تعالى، ووقعنا في المغبة، مغبة ماذا؟ مغبة الإعراض عن وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم.

نحن اليوم أفقر الفقراء والمال كله بين أيدينا والكنوز تحت أقدمنا، وأمم الغرب والشرق أغنى الأغنياء وهم الفقراء بالحقيقة؛ ذلك لأن أموالنا بين أيديهم وأن ثرواتنا ملك بنوكهم، ولأن كل ما ورثنا الله عز وجل إياه لم نكن أمناء على تحصليه، فتسرب المال من هنا إلى هناك. ألم يقل الرسول صلى الله عليه وسلم: ﴿اتَّقُوا الظُّلْمَ فإن الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يوم الْقِيَامَةِ، وَاتَّقُوا الشُّحَّ فإن الشُّحَّ أَهْلَكَ من كان قَبْلَكُمْ﴾. ألم يقل رسول الله صلى اله عليه وسلم هذا، ألم يحذرنا رسول الله. والله إنني لأتخيل أن المصطفى عليه الصلاة والسلام يرمق بعينه الحزينتين المعذبتين الدامعتين يرمق بعينه أمته اليوم وقد ضيعت أمانة المصطفى، ضيعت أغلى ما تركه بين يديها في آخر أيامه وهو يودع الأجيال الإسلامية من أمته بل وإخوانه وأصحابه، فيخيل إليّ أن المصطفى عليه الصلاة

والسلام يطلق زفرات الحسرة زفرة إثر زفرة من هذه الأمة التي نسيت أمر الله، نسيت شرع الله، نسيت وصايا رسول الله. فوقعت في شر المصائب التي حذر منها. ماذا كان يضرنا وقد أعطانا الله المال الكثير الذي يمتلئ به باطن الأرض، ويفور به ظاهره. ماذا كان يضرنا لو كنا كرماء بالمال؟ ماذا كان يضرنا لو أنا استخدمنا المال في الطريق الشرعي الذي رسمه الله؟ ماذا كان يضرنا لو أنا جعلنا قلوبنا وقفاً على حب الله وأيدينا وقفاً على التمتع بمال الله. ماذا كان يضرنا؟ المال كله كان يبقى لنا والعز كله كان يبقى لنا. وأخوتنا لا يمكن أن تتفكك ووحدتنا لا يمكن أن تنفصل.

ولكن أثرنا أن نجر الهلاك على أنفسنا بأيدينا، لما ملئنا أفئدتنا بحب المال بدلاً من حب الله، ولما اتخذنا المال أداة بزخ وترف، اقتضانا ذلك أن نشح بالمال، وأن نضن به وأن نبخل به. وجاءت الفئات الإسلامية التي انطبعت بهذا الطابع ذاته، فتخاصموا وتنافروا وتهارجوا على مال بال.

ثم إن الله عز وجل فجر من مغبة هذا الضلال الذي آثروه على عرش السعادة والعزة التي أكرمهم الله عز وجل.

هل من عاقل يسمع كلام رسول الله ويرى في الكون مصداق ما قاله عليه الصلاة والسلام، ويرى بعينيه ثمرات وصايا رسول الله بالأمس، كما يرى بعينيه ثمرات الإعراض عن وصية رسول الله اليوم، هل من عاقل لا يدعوه عقله إلى أن يرعوي فيصطلح مع رسول الله بعد أن يصطلح مع الله.

هل من عاقل يغشّي عقله الإلحاد لا يخرج إلحاده من عقله ليعود إلى ربه ليقول لبيك اللهم لبيك، هل من إنسان يعي حركة الكون كيف يتحرك ويعود إلى سنن الله في قرآنه كيف ينطق، ثم لا يسجد لله عز وجل وسلطانه ولا يعلم أن الحاكمية لله وأن السلطان سلطان الله. وأن المنهج المنقذ هو منهج الله عز وجل.

أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم فاستغفروه فيا فوز المستغفرين.



١١٢- من كانت الدنيا همه.. جعل الله فقره نصب عينيه | ١٩٩١/١١/٢٩

هل لي أن ألفتَ نظركم إلى حديثٍ عن رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ اتّخذتهُ منذُ سنواتٍ طويلة، بل اتّخذتهُ منذُ فجرِ شبابي شعاراً وأساساً ودستوراً لحياتي. ولقد رأيتُ من خلالِ ما قد عاهدتُ اللهَ عزَّ وجلَّ عليهِ من اتّخاذي لهذا الحديثِ النّبويِّ العظيمِ دستوراً ومنهجاً لحياتي، رأيتُ من وراءِ ذلكَ ثماراً عظيمة، بل رأيتُ مصداقَ كلامِ رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في كلِّ ما قالَ ووعد، لعلَّ من الخيرِ أن ألفتَ نظركم إلى هذا الحديث. فمن شاءَ منكم أن يجعلَ هو الآخرُ منهُ دستوراً لحياتهِ فعل، ولا شكَّ أنّهُ سيرى ما قد رأيت. ومن شاءَ أن يرتابَ فلهُ أن يفعلَ ما يشاء.

يقولُ المصطفى صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم: ﴿من كانتِ الدّنيا همّهُ شتّتَ اللهُ شمله، وجعلَ فقرهُ نُصبَ عينيه، ولم يأتهِ من الدّنيا ما كُتِبَ له. ومن كانتِ الآخرةُ همّهُ جمعَ اللهُ شمله، وجعلَ غناهُ في قلبه، وأتتهُ الدّنيا وهي راغمة﴾. والحديثُ أيُّها الإخوةُ مرويٌّ بطرقٍ شتّى، فهو مرويٌّ من حديثِ زيدِ بنِ ثابت، وعبدِ اللهِ بنِ عُمر، وعبدِ اللهِ بنِ مسعود، وقد رواهُ الإمامُ أحمد، ورواهُ ابنُ ماجه، ورواهُ الحاكمُ في مستدركهِ بألفاظٍ متقاربة، مختلفة، ولكنَّ المعنى واحد.. هكذا يقولُ سيِّدُنا رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم: ﴿من كانتِ الدُّنيا همَّهُ شتّتَ اللهُ شمله﴾.

وفي روايةٍ: ﴿أفشى اللهُ ضيعته، وجعلَ فقرهُ نصبَ عينيه، ولم يأتهِ من الدّنيا إلا ما كُتبَ له. ومن جعلَ الآخرةَ همّهُ جمعَ اللهُ شمله﴾، وفي روايةٍ: ﴿كفاهُ اللهُ همَّ الدّنيا والآخرة، وجعلَ غناهُ في قلبه، وأتتهُ الدّنيا وهي راغمة﴾.

لقد حاولتُ أيّها النّاسُ أن أجمعَ همومي كلَّها على طريقٍ واحدٍ لسببينِ اثنين، السّببُ الأوّل: أنَّ ذلكَ أكثرُ تحقيقاً للرّاحةِ في حياةِ الإنسان، ففرقٌ كبيرٌ كبيرٌ بينَ أن يوزّعَ الإنسانُ همّهُ في طُرُقٍ وسُبُلٍ شتّى، وإذا هو مقسّمٌ مجزّءٌ بينَ هذهِ الهموم، يصبحُ ويمسي وقد تمزّقَ بينها. وبينَ أن يحصرَ اتّجاههُ وهمّهُ في طريقٍ واحد، وإذا هو قد ارتاحَ من تشابه الهمومِ وتسابقها على قلبه. وإذا كانَ هذا أمراً منطقيّاً فما هو الطّريقُ الأفضلُ الذي ينبغي أن نحصرَ همومنا فيه؟ ما هو السّبيلُ الأوحدُ الذي ينبغي للإنسانِ أن يصبَّ كلَّ

اهتماماتهِ وكلَّ همومهِ فيهِ ويريحَ نفسهُ أمامَ السُّبُلِ الأخرى؟ لا شكَّ أنَّ الجوابَ واضحٌ لمن كانَ يؤمنُ باللهِ واليومِ الآخِر، الطّريقُ الأوحدُ الذي ينبغي أن نصبَّ همومنا جميعاً فيه، والذي ينبغي أن نحصرَ أنشطتنا جميعاً له، والذي ينبغي أن نجمعَ أهدافنا وغاياتِنا كلَّها في سبيلهِ هو طريقُ مرضاةِ اللهِ عزَّ وجلّ، أو الطّريقُ الذي نحنُ بصددهِ شئنا أم أبينا في رحلتِنا الدّنيويّةِ هذهِ إلى الله. وهذا أيضاً أمرٌ منطقيٌّ لا يمكنُ أن يرتابَ فيهِ من آمنَ باللهِ واليومِ الآخر.

وإذا كانَ الأمرُ كذلكَ فمالَنا لا نجعلُ مبتغانا إن خرجنا إلى السّوقِ ابتغاءَ الرّزق، وإن خرجنا إلى المعاهدِ والجامعاتِ ابتغاءَ العلم، وإن ساهرنا إخواننا وأصدقاءنا وزملاءَنا ابتغاءَ التّآنسِ والصّداقة، وإن دعونا النّاسَ إلى اللهِ سبحانهُ وتعالى وإلى الخيرِ أو نهيناهم عنِ الشّرّ، لماذا لا نجعلُ هذهِ الأنشطةَ كلَّها تصبُّ في هذا الطّريق؟ لماذا لا نجعلُ غاياتِنا إن أمرنا النّاسَ أو نهيناهم إن تعلّمنا أو علّمنا، إن كدحنا في سبيلِ الرّزقِ أو أعطينا، لماذا لا نجعلُ همّنا خلالَ ذلكَ كلِّهِ مصبوغاً ومتّجهاً إلى الطّريقِ الذي نحنُ نسيرُ فيهِ فعلاً؟ وهو طريقُنا إلى الله، طريقُنا إلى الآخرة. هذا شيء.

شيءٌ آخر: ألسنا وقد آمنّا برسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم، ألم نعلم أنّهُ الصّادقُ المصدوق؟ وأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ ما أرسلهُ رحمةً للعالمينَ إلا وهوَ صادقٌ فيما يقولُ وفيما يعد؟ فها هوَ ذا يقول: ﴿من كانتِ الآخرةُ همّهُ جمعَ اللهُ شمله، وجعلَ غناهُ في قلبه، وأتتهُ الدّنيا راغمة﴾. وصدقَ سيِّدُنا رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم، ولكن ما معنى: ﴿جمعَ اللهُ شمله﴾؟ كلٌّ منّا أيُّها الإخوة لهُ هموم، فهوَ يتّقي ألسنةَ النّاس، لا يحبُّ أن يتحدّثَ النّاسُ عنهُ بسوء، هذا همّ. وكلٌّ منّا يحاولُ أن يكونَ قد أقامهُ اللهُ سبحانهُ وتعالى في حياةٍ من الأمنِ والطّمأنينة، فهوَ لا يحبُّ أن يعيشَ في خطرٍ من أمنهِ على حياتهِ أو كرامته، وهذا همٌّ ثانٍ. وكلٌّ منّا يحبُّ أن يعيشَ كريمَ النّفس، أن يعيشَ مستوراً غيرَ مفضوحٍ في أيٍّ من أمورهِ الدّنيويّةِ أو الإنسانيّةِ أو الاجتماعيّةِ المختلفة، وهذا همٌّ ثالث. وكلٌّ منّا يفكِّرُ بمصيرهِ ومآله، يحبُّ إذا ارتحلَ عن هذهِ الدّنيا أن يلقى مأمنهُ في الآخرةِ أيضاً، وأن لا يُفاجَأَ بشقاءٍ لم يكن يتوقّعهُ أو بعذابٍ لم يكن ينتظر، وهذا همٌّ رابع. فماذا يقولُ سيِّدُنا رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم؟

﴿من كانتِ الآخرةُ همّه﴾، أي من كانَ يبتغي في أنشطتهِ المختلفةِ رضى اللهِ عزَّ وجلَّ، وهذا معنى قولهِ عليهِ الصّلاةُ والسّلام: ﴿من كانتِ الآخرةُ همّه﴾. ﴿جمعَ اللهُ شمله﴾. كفاهُ اللهُ سبحانهُ وتعالى همَّ

النّاسِ فحجزَ ألسنتهم عنه، كفاهُ اللهُ سبحانهُ وتعالى الأخطارَ فأقامهُ في مأمنٍ من العيش، كفاهُ اللهُ سبحانهُ وتعالى الأخطارَ المقبلةَ التي هو آتٍ ومقبلٌ عليها من بعدِ الموتِ فنقلهُ من أمنٍ إلى آخر، وهذا معنى قولهِ عليهِ الصلاةُ والسّلام: ﴿جمعَ اللهُ شمله﴾.

ولقد فكّرتُ منذُ سنواتٍ طويلةٍ في هذا الذي يقولهُ سيِّدُنا رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وأنا أنظرُ إلى الحياةِ التي أقامنيَ اللهُ عليها منذُ نعومةِ أظفاري، أقامنيَ اللهُ عزَّ وجلَّ على سيرٍ في طلبِ العلم، على توجّهٍ إلى دراسةِ دينِ اللهِ عزَّ وجلَّ وشرعهِ وأنا لا أعي من معاني الدّنيا شيئاً، وأنا لا أعي من معنى إقامةِ الإنسانِ مقوِّماتِ سعادتهِ في مستقبلهِ الدّنيويِّ شيئاً، ولكنّهُ عهدٌ أخذهُ عليَّ والدي رحمهُ اللهُ عزَّ وجلَّ أحببتُ أن أوفّيهُ عهده. لكن ما الذي حصّنني وثبّتني على هذا النّهج؟ واللهِ الذي لا إلهَ إلا هو: هذا الذي قالهُ سيّدُنا رسولُ الله صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم: ﴿من كانتِ الآخرةُ همّهُ جمعَ اللهُ شمله﴾. وفي روايةٍ: ﴿كفاهُ اللهُ همَّ الدّنيا والآخرة﴾. فما ساعةٌ يوسُوس إليَّ فيها شيطانٌ من شياطينِ الجنّ، أو شيطانٌ من شياطينِ الإنس، إلّا وألجأُ إلى هذا الوعدِ النّبويِّ الذي قطعهُ سيِّدُنا رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ على نفسهِ لمن كانَ هذا شأنه.

وكنتُ أتعوّذُ من أن أنكبَّ على وجهي في طرقِ الدّنيا، وإذا بهمّيَ الواحدِ قد أصبحَ هموماً، وإذا بهذهِ الهمومِ تتفرّعُ وتتزايدُ كالماءِ الذي تسرّبَ بعدَ أن كانَ محصوراً بينَ دفّتين، تسرَّبَ هنا وهنا وهناكَ ثمَّ تبخّرَ ومضى، كنتُ أستعيذُ باللهِ سبحانهُ وتعالى من أن يتحوَّلَ همِّيَ الواحدُ إلى هذهِ الهمومِ الكثيرة، فماذا كانتِ العاقبة؟

لقد كانتِ العاقبةُ ما وعدني بهِ سيّدُنا رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم: لقد كفانيَ اللهُ سبحانهُ وتعالى كلَّ هم، ولا أريدُ أن أبيِّن، ولا أريدُ أن أخرجَ من الإجمالِ إلى التّفصيل. ولقد أقامنيَ اللهُ سبحانهُ وتعالى في خيرٍ ممّا كنتُ أتأمّلهُ وأرجوهُ من اللهِ سبحانهُ وتعالى لنفسي. وأنا لا أحبُّ الحديثَ عن الذّات، ولكنَّ الإنسانَ يُلجَأُ في بعضِ الأحيانِ من أجلِ تجسيدِ الحقائقِ لمن لم يكن يؤمنُ بها، ولمن كانَ في ريبةٍ منها، لا بدَّ من أن أجسِّدَ هذهِ الحقائقَ في شخص، في بيانِ واقع.

فإذا كانَ هذا هو الأمر، فلماذا لا نجعلُ جميعاً كلُّنا من هذا الحديثِ دستوراً لنا؟ ولماذا لا نتّقي الشِّقَّ الأوَّلَ منهُ لنتمسَّكَ منهُ بالشِّقِّ الثّاني؟ أفما رأيتم مصداقَ الشِّقِّ الأوّل: ﴿من كانتِ الدّنيا همّهُ شتّتَ اللهُ شملهُ﴾، أو: ﴿أفشى اللهُ ضيعته﴾؟ واللهِ ما أكثرَ ما رأيتُ ولا أزالُ أرى أناساً وجّهوا همومهم آناً إلى أن يكونوا متبوّئينَ أفئدةَ النّاسِ حبّاً، فهذا همّ. وجّهوا همّاً آخرَ إلى أن يكونوا في هذهِ الدّنيا من أغنى النّاسِ مالاً، وهذا همٌّ ثانٍ. وجّهوا همومهم إلى أن تكونَ لهم كلمةٌ نافذةٌ وشهرةٌ باسقة، وهذا همٌّ ثالث. وجّهوا همومهم إلى أن ينافسوا ويسابقوا زملاءَ وأندادَ لهم في هذهِ الحياةِ في أمورٍ دنيويّةٍ شتّى، وهذا همٌّ رابع.

إلامَ آلَ حالهم وها هم أولاءِ يعيشونَ وكلٌّ منهم مظهرٌ لصدقِ كلامِ رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم؟ إنَّ أحدهم كما قالَ المصطفى عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ في روايةٍ أخرى لا يخرجُ من فقرٍ إلا إلى فقر، ولا يمارسُ من الدّنيا إلا كما يشربُ الإنسانُ الماءَ الملح؛ كلّما كرعَ منهُ كأساً كلّما ازدادَ ظمأً.

ولا ينتقلونَ من همٍّ واحدٍ إلّا إلى همومٍ شتّى، ولم يتحقّق لهم هدفٌ من الأهدافِ التي ابتغوها، فلا على أفئدةِ النّاسِ هيمنوا، ولا على الغنى الذي بحثوا عنهُ عثروا، ولا على الأمنِ والطّمأنينةِ اللّتينِ ابتغاها كلٌّ منهم هيمنوا وعثروا أيضاً. وبقيت همومهم ودنياهم غصصاً كما قالَ سيّدُنا رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم.

وإذا كانت هذهِ حقيقةً نراها ونلمسُها، فلماذا لا نجعلُ همومنا كلَّها لماذا لا نضفرُها ونصبُّها في همٍّ واحد؟ لماذا لا نجعلُ همّنا متّجهاً إلى هدفٍ واحد؟ أن يرضى عنّا مالكُنا الذي بيدهِ أمرُنا، وبيدهِ رزقُنا، وبيدهِ أفئدةُ النّاسِ لتتوجّهَ إلينا بالحبِّ أو لتتوجّهَ إلينا بالبُغض، بيدهِ المالُ وبيدهِ الغنى وبيدهِ الفقر. لماذا لا نتّجهُ إلى هذا الينبوعِ فنخلصُ معَ اللهِ سبحانهُ وتعالى دينه ونتّجهُ في سلوكنا إلى مرضاته ننفِّذُ أوامرهُ وننتهي عن نواهيهِ ولا نبالي في ذلكَ بشيء؟ تخشى خلالَ ذلكَ دنياك؟ تخشى خلالَ ذلكَ عاقبةَ أمرك؟ تخشى خلالَ ذلكَ أن يتحوَّلَ رصيدُ حُبِّ النّاسِ لكَ إلى رصيدِ كُره؟ كلُّ هذا يضمنهُ لكَ ربُّك، كلُّ هذا يضمنهُ لكَ خالقُكَ ومولاك.

توجّه إلى اللهِ سبحانهُ وتعالى ومارسِ السّبيلَ الذي يجعلُكَ محبوباً عندَ ربِّك، يكتبِ اللهُ سبحانهُ وتعالى لكَ القبولَ بينَ عبادهِ في الأرض. اتّجه إلى اللهِ سبحانهُ وتعالى لتنالَ مرضاته، يكتبِ اللهُ سبحانهُ

وتعالى لكَ الرّغدَ من العيش. اتّجه إلى اللهِ سبحانهُ وتعالى لتكونَ قائماً على أوامرِه حارساً لحدوده، يُقِمكَ اللهُ سبحانهُ وتعالى على حياةٍ مكلوءةٍ بعنايته، تنامُ قريرَ العينِ ملئَ عينيك، ليسَ هنالكَ همٌّ يشاغبُ عليكَ حياتك.

ولم يقل سيِّدُنا رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ هذا الكلامَ إلا وهوَ ظلٌّ أو شرعٌ لقولِ ربِّنا سبحانهُ وتعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. فلنحيينّهم حياةً طيّبةً في الدّنيا، والحياةُ الطّيبةُ هي الضّمانةُ لكلٍّ ما قالهُ سيِّدُنا رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم، ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم﴾ أي في الآخرةِ ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. فالأمنُ معكَ في دنياك، والأمنُ يلاحقُكَ في آخرتك، وغناكَ ملءُ قلبك، ثمَّ إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يأمرُ الدّنيا أن تكونَ طوعَ أمركَ وخادماً يطوفُ من حولك.

أليسَ هذا كلامَ سيِّدِنا رسولِ الله؟ إذاً: لماذا نعرضُ عن أوامرِ اللهِ في كثيرٍ ممّا أمرنا بهِ في بيوتِنا؟ في أهلينا؟ في أسواقِنا؟ في تجاراتِنا؟ في شؤوننا كلِّها؟ ونوزِّعُ أهدافنا هموماً هنا وهنا وهناك؟ من الضّامنُ لكَ أن تتحوَّلَ همومُكَ هذهِ إلى سعادةٍ تحقِّقُ لكَ آمالكَ بعدَ أن أعرضتَ عن اللهِ عزَّ وجلَّ الذي بيدهِ كلُّ شيء؟

هذا الحديثُ النّبويُّ العظيم، أتمنّى أن يتّخذَ منهُ كلُّ إنسانٍ مسلمٍ صادقٍ في إسلامهِ دستوراً لحياته، يتمسَّكُ بالشِّقِّ الثّاني منهُ ويتّقي الوقوعَ في الشِّقِّ الأوَّلِ منه.

أقولُ قولي هذا وأستغفرُ اللهَ العظيم، فاستغفروهُ يغفر لكم...

١١٣- حب الدنيا رأس كل خطيئة | ١٩٩٢/١٠/١٦

لولا حب الدنيا لما آل حال المسلمين إلى هذا الذل الذي ران على حياتهم ولهيمنت هذه الآية بالوجل على قلوبهم، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ لو لا هذا الحب، الذي هو رأس الآثام وينبوعها، لولا حب الدنيا لما آل حال المسلمين إلى هذا الذل الذي ران على حياتهم بعد ذلك العز الذي رفعهم الله سبحانه وتعالى إلى سؤدده، هذه الحقيقة ينبغي أن نعلمها، وينبغي أن نتبينها، وربما كان الشعور بالمشكلة –كما قالوا– يساوي نصف الطريق إلى حلها، ولكن مصيبة المصائب أننا حتى الشعور بالمشكلة قد فقدناه، وعندما نعود إلى كتاب الله عز وجل نجد التحذير تلو التحذير من أن تتجه قلوب المسلمين بالحب إلى هذه الدنيا، بل نجد مظاهر تربية الله سبحانه وتعالى لذلك الرعيل الأول من المسلمين أصحاب رسول الله ﷺ، نجد مظاهر هذه التربية من الله لأولئك الصحابة رائية في كتابه لعلها تكون عظة لنا، لعلها تكون درساً لنا بعد أن كانت درساً لهم، ولما نتنبه إلى هذه العظات من كتاب الله سبحانه وتعالى.

إنكم جميعاً تقرؤون فواتح سورة الأنفال بدأً من قول الله عز وجل: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ، إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ، أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً..﴾ إلى آخر الآيات، ألا ترون إلى ما يتبدّا في هذه الآيات من التقريع؟ ما هي خلفياتها؟ وما هو أساسها؟ يروي الإمام أحمد في مسنده من حديث عبادة بن الصامت قال: ﴿نزلت فينا عندما ساءت أخلاقنا بالإقبال إلى الغنائم يوم بدر﴾ وروى ابن ماجه والترمذي بنحو ذلك من حديث ابن عباس رضي الله عنه فكيف كان ذلك؟ غزوة بدر كانت أول غزوة في حياة أصحاب رسول الله ﷺ، وقد ترك المشركون بعد الهزيمة التي حاقت بهم، قدراً كبيراً من الغنائم والأموال، ولقد كانت رؤية المسلمين لهذه الغنائم والأموال متراكمة بين أيديهم أول تجربة في حياتهم أيضاً، وكانوا قد هاجروا من مكة وقد نفضوا أيديهم وجيوبهم بعد نفضوا قلوبهم من الدنيا كلها، وكانوا جياعاً وكانوا عراة كما وصفهم رسول الله ﷺ، فلما رأوا هذه الغنائم المتراكمة تسابقوا إليها، واختلفوا في كيفية اقتسامهم لها وهي أول تجربة كما قلت

لكم، وجاؤوا يتسابقون إلى رسول الله يسألونه: كيف يتقاسمون هذه الغنائم؟ وهذا ما عبر عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه بقوله ﴿نزلت فينا عندما ساءت أخلاقنا في تقسيم الغنائم﴾ فانظروا إلى تربية الله لهم، لم يجبهم سيدنا رسول الله ﷺ، ولكن سرعان ما أنزل الله على رسوله هذه الآيات: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلّهِ وَالرَّسُولِ﴾ لا علاقة لكم بشيء منها، ﴿فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، عودوا إلى مهمتكم التي خلقتم من أجلها، انظروا ماذا فعل بكم المال؟ كيف تشاحنتم واختلفتم وما كان ينبغي للمال أن يلعب فيكم بعد إيمانكم بالله هذا الدور أبداً. ﴿فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ، إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ إنما يستنزلون الرزق من عند الله عز وجل، ويبتغون الرزق من مولاهم وخالقهم.

انظروا إلى هذا الجواب – أيها الإخوة – إنه جواب تقريع وتهديد، أكثر من أن يكون إجابة إقناع، ومن منا يجهل أن المال إنما هو لله وأن الأنفال إنما هو لله ولرسوله؟ ولكن الله سبحانه وتعالى غني عن هذا المال إلا أنها تربية ربانية، وكأن الباري عز وجل يقول لهم: إذا كان إقبالكم إلى الدنيا وتهافتكم من حولها عند أول تجربة منكم مع الغنائم كانت بهذا الشكل، فماذا عسى أن يكون حالكم عندما يفتح الله عليكم بلاد كسرى وفارس وبلاد الروم؟ وكيف سيكون مصيركم عندما تندلق عليكم الغنائم من كل حدب وصوب؟ وكيف يكون شأنكم عندما يملككم الله سبحانه وتعالى زمام الدنيا وقيادة الحضارات؟ أهذه هي صورة الخطوة الأولى من تعاملكم مع الدنيا؟!

من أجل هذا كانت التربية قاسية من الله عز وجل لهم، وكأنه يقول وهل قاتلتم مع رسول الله من أجل هذه الغنائم؟! إنكم قاتلتم في سبيل الانتصار لدين الله، فاذهبوا وعودوا لا نصيب لكم في هذه الغنائم قط، فإنما هي لله ولرسوله، وليعد كل منكم إلى دلائل إيمانه وصدق دعواه، أمؤمنون أنتم حقاً؟! إن من دلائل صدق الإيمان الإكثار من ذكر الله عز وجل، من دلائل صدق الإيمان أن ذكر الله عز وجل إذا طرق سمع أحدهم أو تحرك به لسانه فاض قلبه خجلاً ووجلاً وخشية من الله سبحانه وتعالى، إن من دلائل الإيمان بالله عز وجل توكل المؤمن على الله في رزقه، تركه ما تكفل الله سبحانه وتعالى له به، وسعيه إلى ما قد أمره الله عز وجل به، ليعد كل منكم إلى شأنه وليفحص حقيقة الإيمان بين جوانحه.

عندما صكت هذه الآيات بدلائلها هذه أسماع أصحاب رسول الله ﷺ، انفض جمعهم وعاد كل منهم إلى داره يبكي ويستغفر الله سبحانه وتعالى، وتناسوا بل نسوا هذه الدنيا وهذه الغنائم كلها، ومرت أشهر على ذلك، حتى إذا اصطبغت قلوب الصحابة بهذه التربية العظمى، وصدق توجههم إلى الله، ونفضوا وطهروا قلوبهم من شوائب الدنيا، عاد البيان الإلهي يقول: ﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى﴾ إلى آخر الآيات، وأمر الله رسوله أن يبين ذلك، فأتم بيان قسمة الغنائم، فيم سجل الله – أيها الأخوة – هذا التأديب وهذا البيان في كتابه المبين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها؟! لم فعل ذلك؟! من أجل أن تكون هذه التربية مستمرة للمسلمين جيل إثر جيل، من أجل أن يكون موقف أجيال المسلمين كلها كموقف أصحاب رسول الله ﷺ يوم استجابوا لهذه التربية، فنفضوا قلوبهم من الدنيا وأدرانها، واتجهوا إلى الله كما أحب ووجهوا قلوبهم إلى الله سبحانه وتعالى وحده، ولكن ها أنتم ترون خلف من بعدهم خلف أضاعوا واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً.

وهل هنالك إضاعة للصلوات واتباع للشهوات أكثر من أن تجد مكان للتعامل مع الدنيا وشهواتها وزخارفها، يقوم إلى جوار مسجد وفي اللحظة التي يقبل فيها عباد الله سبحانه وتعالى إلى بيته مهرعين ساجدين راكعين، يكون عشاق تلك الدنيا ينهلون من الدنيا أعمالهم التجارية التي لن تعود إليهم إلا بالخيبة والخسران؟ هذه هي حال المسلمين اليوم، ونحن نتلوا كتاب الله عز وجل. كلكم يسمع هذا الكلام العجيب: ﴿قُلِ الأَنفَالُ لِلّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أين الذين يقولون لبيك لقد اتقيناك، لبيك لقد أصلحنا ما بيننا من شؤون، وأعدنا وحدتنا الإيمانية إلى النهج الذي طلبت، وها نحن أطعناك يا رب، وأطعنا رسولك، عندما يدع الداعي إلى بيتك، نترك كل شيء، وننفض أيدينا عن كل معاملة، ونهرع ساجدين راكعين بين يديك، أين هم؟! هؤلاء الذين راهنوا على صدق إيمانهم بهذا الأمر، عندما نتساءل فيم حاق بنا هذا الهوي؟ فيم أصبحنا نموذجاً للذل والهوان في أبصار وبصائر أولئك الغربيين هنا وهناك؟ ينبغي أن نعلم الجواب: هنّا على أنفسنا، فهنّا على أعدائنا أيضاً، رضينا بالذل والهوان مناخاً بعد العز الذي رفعنا الله عز وجل إليه، فآل أمرنا إلى ما قد تعلمون، وعندما ربى ربنا سبحانه وتعالى عباده هذه التربية، أفكان ذلك يعني أن الله يريد أن يفطمهم عن دنياهم..

أليس هو القائل ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً﴾؟! أليس هو القائل ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾؟! أليس هو القائل ﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾؟! هو لا يريد أن يفطم أفواهنا عن رزق خلقه الله لنا، ولكنه يريد أن يفطم قلوبنا عن حب هذه الدنيا، يريد أن نجعل قلوبنا له وحده، حبنا له وحده، توجهنا إليه وحده، ثم إنه ضمن لنا أن يجعل الدنيا خادمة لنا، وانظروا كيف طبق ما قد ضمنه لأولئك الناس، ألم يجمع الله سبحانه وتعالى الدنيا كلها تحت أقدام أصحاب رسول الله ﷺ، خلال ربع قرن من الزمن، ألم يحقق لهم ذلك؟!.

ثم عندما ذهب ذلك الإنسان عبد الرحمن الداخل إلى الغرب بدافع واحد لا ثاني له ألا وهو الدعوة إلى دين الله، نشر الإسلام في تلك الربوع المظلمة، ماذا صنع الله سبحانه وتعالى به...؟ جمع الدنيا كلها تحت قدميه، وهيأ له ملكاً وجنداً، وسرعان ما اتسع له الملك والجند، وسرعان ما جعل الله سبحانه وتعالى من ظلام ذلك الكفر هناك نوراً إيمانياً يتلألأ، ولكن لما خلف من بعدهم خلف أدرك هذا الخلف اليوم، سكروا بالدنيا

وشهواتها ونسوا الإله الذي أعطاهم وسقاهم، سكروا بالنعيم ونسوا الإله المنعم المتفضل عليهم، قال لهم الله سبحانه وتعالى: هاتوا الأمانة لقد آن أن استدرها منكم.

لماذا لا نعتبر أيها الإخوة لماذا لا ندع الدنيا ورائنا تسعى هي ورائنا كما أخبر الله عز وجل، لماذا لا نجعل من مسجد كهذا المسجد محور حياتنا وموئلنا ومآلنا؟! لا سيما عندما يدع الداعي إلى هذه الصلاة، وإلى هذا الاصطلاح والعود إلى الله عز ووجل، لماذا؟! لماذا نبقى عاكفين من حول هذا المسجد على بيعنا وشرائنا؟! لماذا نلهث بذل وراء هذه الدنيا الفانية؟! وقد ضمن لنا الله سبحانه وتعالى أن يجعلها خادماً لنا؟! لماذا؟!

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

١١٤- علاج تعلق القلب بالدنيا | ١٩٩٥/٠٦/٠٢

حدثتكم في الأسبوع الماضي عن خطر تعلُق القلب بالدنيا وعن الآثار المهلكة التي تثمرها محبة الإنسان للدنيا بكل أنواعها وأشكالها، وأوضحت كيف أن هذه المحبة من شأنها أن تُفرِّق بين الزوج وزوجه، وأن تُفرِّق بين الأخ وأخيه، وأن تُمزِّق الأسرة الواحدة وتحيلها إلى أنكاث متعادية، فسأل بعد ذلك كثيرون عن الدواء الناجع الذي يُخلّص الإنسان من هذا الحب المهين، عن الدواء والعلاج الذي يُخلِّص الإنسان من تَعلُقه بالدنيا لكي لا يقع تحت طائلة قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿من أصبح والدنيا كل همه فليس من الله في شيء﴾

والعلاج أيها الأخوة بكلمة مختصرة إنما هو أن يغالب حب بحب، ذلك لأن مصيبة الإنسان الذي تعلق قلبه بالدنيا تتمثل في أنه ذهب ضحية حبٍ مهين، والحب المهين ما الذي يتغلب عليه؟ يتغلب عليه حب أقوى منه. ولذلك فإنّا لو فكرنا في أن نقهر حب الإنسان للدنيا بمعرفةٍ عقلية، فإن هذه المعرفة لن تكون علاجاً، ولو أردنا أن نقهر حب الإنسان للدنيا بوعيٍ وفكرٍ ثاقبين، فإن هذا الوعي والفكر الثاقبين لن يتغلبان على ذلك الحب المهين. العلاج ينبغي أن يكون من نفس الداء، تماماً كما أن اللقاح والمصل الواقي من كثيرٍ من الأمراض والأدواء إنما يتمثل في جراثيم مستخلصةٍ من الداء ذاته.

فحب الدنيا لا يمكن أن يُقهر إلا بحبٍ ولكن من نوعٍ آخر، ما هو النوع الثاني من الحب الذي يمكن للإنسان أن يقهر به حبه للدنيا؟ ومن ثَمّ يمكن أن يتحرر من ذلك الحب المهين؟ إنه حب الله سبحانه وتعالى، فإذا غذى الإنسان بين جوانحه محبته لله عز وجل وتعهد هذا الحب بالإنماء والرعاية والتغذية، فإن هذا الحُب – حبّ العبدِ لله عز وجل في مرحلةٍ من المراحل – يقهرُ حب الإنسان لدنياه، ومن ثمّ هو الذي يجعله يستطيع أن يتحرر من تعلُقه بالدنيا وحبه لها.

وإذا لم يتمتع الإنسان بهذا الحب إذا لم يتمتع بنسبة عالية وقدرٍ كافٍ من حبه لله عز وجل، فلن يجد إلى الهداية سبيلاً قط ولن يجد مخلصاً من شرور الدنيا وأهوائها، بل سيظل في وضعه الراهن ولن يهديه الله سبحانه وتعالى أبداً طالما كانت صلته بالله صلةً فكريةً مجردة، وصلة عقليةً لا غير. وهذا معنى قوله

عز وجل: ﴿وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ في آخر آية هي من أخطر الآيات التي خاطب الله سبحانه وتعالى بها عباده، انظروا وتأملوا في أول الآية ثم انظروا في عواقبها وخواتيمها: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾

انظروا إلى علاقة هذه الجملة الأخيرة ﴿وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ بالقرار الخطير السابق، أي الإنسان الذي استسلم لحب هذه القائمة الطويلة من الشهوات والأهواء الدنيوية لن يفيده العلم بعد ذلك شيئاً، ولن يفيده الفكر شروا نقير ومهما تسلح بالعقل ورشده، ومهما تسلح بالعلم ومنطقه، فلسوف يكون بعيداً عن الهداية؛ ذلك لأن السبيل الوحيد لهداية هؤلاء الناس هو أن يمزقوا الحب المهين هذا عن طريق الحب المقدس السامي ألا وهو حب الله سبحانه وتعالى.

وما أظن إلا أكثرنا تائه عن هذا التهديد الرباني الخطير قل يا محمد: ﴿إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا﴾ أي واحدٍ من هذه الأشياء كانت ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ﴾ انتظروا حتى يأتي الله بأمره. ما أظن أن في القرآن تهديداً يخاطب الله به المؤمنين الذين يتظاهرون بأنهم مؤمنين كهذا التهديد أبداً.

ونحن نغيب ونتيه عن هذا العلاج الذي يضعنا الله أمامه، بتصورِ أن العلم يُفيد – والعلم لا بد منه – بتصورِ أن الوعي كافٍ، والوعي لابد منه. لكن العلم طريقٌ إلى محبة الله، المعرفة سبيلٌ إلى محبة الله عز وجل، ورحم الله الحسن البصري إذ يقول: ﴿من تفكر في الله عرفه، ومن عرفه أحبه. ومن تفكر في الدنيا عرفها، ومن عرفها مقتها﴾.

إذاً المعرفة سبيل... ولكن الإنسان الذي يعتمد على المعرفة ما ينبغي أن يقف في منتصف الطريق، بل ينبغي أن يستمر ويستمر حتى يصل إلى الهدف من العلم، وإلى الهدف من المعرفة، والهدف من العلم والمعرفة إنما هو محبة الله سبحانه وتعالى. وكأن في الناس من يقول: فكيف السبيل إلى أن نغرس محبة الله في قلوبنا حتى تطرد هذه المحبة محبة الدنيا من هذه الأفئدة؟

هذا السؤال أيها الأخوة يبدو أنه سؤال عجيب لمن آمن بالله وزعم أنه عرف الله عز وجل، ذلك لأن كل مؤمنٍ بالله عز وجل ينبغي أن يكون متفائلاً مع قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه الترمذي بسندٍ صحيح: ﴿أحبوا الله لما يغذوكم من نعمه، وأحبوني لحب الله إياي﴾ أحبوا الله لما يغذوكم من نعمه. كلنا نعلم هذا الذي يذكرنا – ولا أقول يبصرنا – به رسول الله صلى الله عليه وسلم، لو فكر الإنسان في النعم التي يتمتع بها، سواءٌ الكامنة في كيانه من فرقه إلى قدمه أو الوافدة إليه أو التي تتجلى في مظهر تسخير الله سبحانه وتعالى للمكونات، أو التي تتمثل في تجديد رعاية الله للإنسان لحظةً فلحظة فلحظة، فإن الشأن إن كان فطري الكيان والبشرية والإنسانية أن يعشق الله سبحانه وتعالى لا يحبه فقط وهذا معنى قوله عليه الصلاة والسلام ﴿أحبوا الله لما يغذوكم من نعمه﴾.

إذا عرف الإنسان الله عز وجل علم أن الدنيا التي يعشقها في الأمور التي عددها الله في هذه الآية، إنما أكرمه الله بها الذي أكرمه بالأبوين بالزوجة بالعشيرة بالتجارة بالدار بالأثاث بالجمال الذي يتمتع به بالقوة بالصحة بالعافية... كل ذلك إنما كان هبةً من الله سبحانه وتعالى، فإذا استمر الإنسان يتأمل ويتفكر في هذا، فإن معرفته لهذه الحقيقة تجعله ينصرف عن النعمة إلى المنعم، تجعله يستدبر الكرامة إلى المتكرم، والإنسان فطري في نزعته وكيانه ينبغي أن يكون قائماً على هذه النزعة، وقائماً على هذا المنوال دائماً.

لكن ما المصيبة التي يصاب بها فريقٌ من الناس؟ ونسأل الله سبحانه وتعالى العفو والعافية؟

المصيبة أن فينا من يُقبل إلى النعمة التي يكرمنا الله عز وجل بها، فيتأمل أحدنا في النعمة ثم يسجن نفسه في داخلها ثم إنه يحيلها إلى ما يشبه كأساً من الخمر المعتقة المسكرة يحيلها إلى ذلك.

هذا العلاج أيها الأخوة وصفه لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكنه بحاجةٍ إلى شيء واحد: هو أن يفكر الإنسان ويتأمل، التفكر والتأمل هو الذي يمزق وقع هذا المصاب، هو الذي يجعل الإنسان يصحو من سكره بدنياه التي يتقلب في حضيضها، التفكر والتأمل هو الذي يجعله يخرج من سجن دنياه.

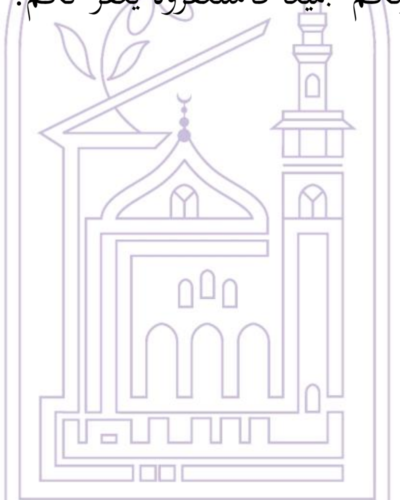
التفكر في هذه الدنيا التي تعشقها من أين جاء؟ من صاحب اليد التي تقدمت بها إليك؟ كيف تعرض عن صاحب هذه اليد الذي تكرم عليك وتدير إليه ظهرك ثم تتعشق وتتعلق بالنعمة التي أسداها

إليك، تفكر وتأمل واجعل من القرآن المادة الخام في تأملك وتفكرك، فإذا استمرت تلك الفكرة على هذا المنوال انعتقت منها تعاملت معها وأنت متعلق بالمنعم لا بالنعمة.

ورحم الله ابن عطاء الله السكندري إذ يقول: **ما نفع القلب شيء مثل عزلة يدخل بها ميدان فكره**، ولكن أين هم الذين يتفكرون؟ هؤلاء الذين يتعشقون دنياهم حتى فكرهم مجند لدنياهم إن جلسوا يتفكرون ففي الدنيا التي يعشقون، وإن جلسوا وقد اعتزلوا أهليهم وأصدقائهم فليضعوا مخططات جديدة لمشاريعهم التجارية المختلفة، وإن امتد على فراشه ليودع نهاره وصحوه وليستقبل رقاده بفضل من الله عز وجل أمضى بقية صحوه وهو في فراشه في مشاريعه التجارية، فأنّا وكيف يلتفت إلى الله سبحانه وتعالى؟

يلتفت إلى الله عندما يقبل عليه ملك الموت.

وأسأل الله العفو والعافية لي ولكم جميعاً فاستغفروه يغفر لكم.



١١٥- لو ملأ الله الدنيا مبهجات وطهّرها من المنغصات!.. | ١٩٩٧/٠٨/٠١

آياتان في كتاب الله سبحانه وتعالى استوقفتا مشاعري وعقلي قبل قليلٍ من سورة الكهف، ورأيت فيهما تعريفاً موجزاً جامعاً لحقيقة هذه الحياة الدنيا التي نعيشها، ورأيت فيهما جواباً عن سؤالٍ يجوب في خاطر كثيرٍ من الناس، وطالما عرضوه وسألوا عن الجواب عنه، أما الآياتان فهما قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا، الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾.

ليت أننا جميعاً عندما نقرأ كتاب الله سبحانه وتعالى نتدبر البيان المنزل والذي يُخاطبنا الله سبحانه وتعالى به من خلال هذه الآيات، إذاً لأثلجت صدورنا هذه الحقائق التي يخاطبنا الله عز وجل بها، ولرأينا فيها الجواب عن كثيرٍ من الأسئلة التي تطوف بأذهاننا، ولانتقلنا من حالة الحيرة والاضطراب إلى مستوى اليقين والطمأنينة والرضا عن الله سبحانه وتعالى.

يُصور لنا البيان الإلهي هذه الحياة الدنيا على أنها ظلٌ زائل ويُشبه الباري سبحانه وتعالى هذا الظل الذي لا قرار له بشيءٍ كم وكم نراه، ولكننا لا نتدبر وجه الحكمة في هذا الشيء الذي نراه، هذا النبات الذي يخضرّ على وجه الأرض في فصول الربيع من كل عام، وتنظر وإذا أنت أمام لونٍ تتمتع به الأبصار، وتنتشي به النفوس، وتسري مشاعر الازدهار منه إلى أعماق أعماق المشاعر وما هي إلا ساعات أو أيام وإذا بهذه النضرة المتألقة قد تراجعت إلى ذبول، ثم تنظر إلى هذا الذبول، وإذا به قد عاد كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾... ذات اليمين وذات الشمال.

ظاهرةٌ نراها جميعاً بأبصارنا ولها دلالة يريد الله سبحانه وتعالى أن ننتقل منها إلى الصورة العظمى، ألا وهي صورة هذه الحياة الدنيا التي نعيشها، والله سبحانه وتعالى في هذا الكلام المبين يُوضح لنا العلاقة السارية بين المثال والممثل له، هذه الحياة التي نعيشها - طال أمدها أو قصر - ليست إلا صورةً دقيقة لهذا النبات الأخضر الذي تتمتع به الأبصار وتنتشي به البصائر، وانظر إلى عمره القصير وانظر إلى الساعات التي تعيشها هذه النباتات ما هي إلا ساعات قليلة حتى يذبل النبات، وما هي إلا ساعات

حتى يتحول هذا النبات إلى حطام كما يقول الله سبحانه وتعالى؛ ذلك لأن الله عز وجل شاء أن تكون هذه الحياة الدنيا ممراً وأن لا تكون مقراً، شاء الله سبحانه وتعالى أن تكون هذه الحياة التي نعيشها أشبه ما تكون بنفق يمر من داخله قطار ليس لهذا القطار من وقفة فيه أبداً، فأنت عندما تعيش حياتك هذه – طالت ساعاتها أو قصرت – إنما تمر بنفق أوله ساعة الولادة وآخره ساعة الموت أي الانتقال إلى رحاب الله سبحانه وتعالى، أي إلى الحياة البرزخية.

ولما كانت هذه الحياة الدنيا على هذه الشاكلة، لما كانت ممراً ولم تكن مقراً أبداً، كان من مظاهر لطف الله بالإنسان، وكان من مظاهر كرم الله ورحمته بالإنسان أن لا يجعلها داراً متألقةً بأسباب السرور، أن لا يجعل هذه الدار التي يمر بها الإنسان محشوة بألق السعادة ومحشوة بمقومات النشوة والازدهار والخير وما إلى ذلك..، لو أن الله عز وجل جعل هذه الحياة الدنيا على الرغم من أنها ممرٌ لا بد أن تتجاوزه، لو أن الله جعل هذه الحياة صافيةً عن الشوائب مليئة بالخيرات والمبهجات، مليئة بمقومات السعادة والسرور ليس إلا، إذاً لتعلقت بهذه الحياة نفوسنا، ولاطمأنت إليها مشاعرنا، ولتعلقت بها أفئدتنا، ولتعشقناها تعشقاً كبيراً لا نهاية له، لأننا نلتفت يميناً ويساراً، ونتجاوز الساعة إثر الساعة إثر الساعة، فلا نرى في هذه الحياة إلا ما يبهج، ولا نرى فيها إلا ما يجعل الإنسان يتعلق بها، فإذا نادى منادي الموت أن قد حانت ساعة الرحيل، إذا جاءك ملك الموت يطرق بابك يقول لك: لقد حان أن تنتقل من هذه الحياة التي كنت تمر بمراحلها خلال عمرك الطويل أو القصير مرحلةً إثر مرحلة، كيف تكون مشاعرك عندئذٍ وقد تعلقت نفسك – بكل شراشرها – بهذه الدنيا المبهجة المتألقة المتراقصة من حولك؟ كيف تكون مشاعرك وأنت تُدعى إلى مفارقتها؟ إذاً لكان فراقك لهذه الدنيا أشبه ما يكون بمن يحاول أن يُخلص كتلةً من الحرير من مجموعة أشواك تعلقت هذه الكتلة بها. تصور وأنت تحاول أن تنتزع هذه الكتلة من الحرير من تلك الأشواك كيف تتقطع؟ هكذا تتقطع نفسك تعلقاً بالدنيا التي عشتها عندما يدعوك داعي الله سبحانه وتعالى إلى الانتقال إلى الحياة الثانية الحياة البرزخية.

لو أن الله عز وجل حشى هذه الدنيا بالمبهجات وبأسباب السرور وبأسباب السعادة ليس إلا ولم يدخل إليها شوائب من المنغصات لكان ذلك باعثاً على الشك في رحمة الله عز وجل ربما، باعثاً على الشك في حكمة الله سبحانه وتعالى ربما، لأن الممر ينبغي أن يكون منطبعاً بطابع الممر، ولأن المقر هو

الذي ينبغي أن تكون فيه هذه المظاهر المدهشة الصافية عن الشوائب كلها، فمن أجل هذا اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى كما أوضح لنا في هاتين الآيتين.

ونظراً إلى أنه أوضح لنا أن هذه الحياة نفقٌ نمر به وليس دار مقام نركن إليها؛ اقتضت حكمة الله واقتضت رحمة الله سبحانه وتعالى أن يجعل خير هذه الدنيا ممزوجاً بكثير من الشرور، وأن يجعل مبهجاتها ممزوجة بكثير من المنغصات، وأن يجعل حلوها مقترناً بكثير من المر؛ حتى لا تتعلق بهذه الدنيا، وحتى تتذكر في كل ساعة من ساعات تقلبك فيها أنك تمر، وحتى تعيش مع قول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾

لا تنس أنك تسير، وأنك في كل لحظة تضع الدقيقة التي تمر بها وراء ظهرك، ولا تحتاج إلا البلغة التي ينبغي أن يتزود بها كل إنسان راحل، كزاد إنسان يسير إلى الغاية التي يريد أن يستقر فيها.

فإذا من يسأل عن أسباب اختلاط الشرور في هذه الدنيا، إذا جاء من يسأل عن الحكمة من هذه الدنيا مليئة بأشواك الشرور والمصائب والآلام ينبغي أن يعلم الجواب، إن كان ممن يتدبر كتاب الله سبحانه وتعالى، بل ينبغي أن يعلم أن هذا من مظاهر فضل الله سبحانه وتعالى وكرمه.

أنا عندما تحين ساعة رحلتي من هذه الدنيا إلى رحاب الله عز وجل، وقد بلوت سيرة هذه الحياة الدنيا ورأيت أنه ما من لقمةٍ أتمتع بها إلا ومن قبلها أو من ورائها غصة أعاني منها، ثم ينادي منادي الرحيل أن قد حانت ساعة الانتقال إلى الله، وقد أصلحت الطريق بيني وبين الله سبحانه وتعالى جهد الاستطاعة، واصطلحت معه. فإنني أرحل من هذه الدنيا غير ملتفتٍ إليها، وغير عابئ بها، وغير متعلقٍ بها، بل أنتقل إلى الله سبحانه وتعالى وأنا أعلم أن قد حانت ساعة الانتقال من الغصص إلى الركون إلى النعيم الصافي من الشوائب.

أما الإنسان الذي يخب في ظلمات هذه الحياة الدنيا وهو لم يعرف مولاه وخالقه ولم يتعرف على نفسه، له شأن آخر نسأل الله له الهداية، أما نحن وقد بصرنا الله بأنفسنا وعرفنا منهاج هذه الرحلة، وعرفنا على ذاته العلية فالأمر مختلف. ومن هنا أيها الإخوة قضى الباري سبحانه وتعالى بعظيم حكمته أن يجعل الإنسان يتعب في هذه الحياة، كما قال في محكم تبيانه: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ﴾.

ما أكثر من قال ياربي لماذا؟ لماذا تُنكس عبداً ذوقته طعم العافية وطعم الشباب ومتعته ولذائذه؟ يأتي الجواب: عندما تحين ساعة الرحيل عن هذه الدنيا ينبغي أن تكون ساعاتك وعلاقتك بالدنيا علاقة تبرمٍ بها، لا علاقة إقبال إليها حتى تهون ساعة انتقالك من هذه الدنيا، وهذا يقتضي أن يُدبر الإنسان بعد إقبال، ويقتضي أن يكون الحال كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ ينكسنا الله في الخلق من أجل أن تتصفى نفوسنا عن شوائب التعلق بالدنيا، تقلصت الغريزة وانتهت فعاليتها، تقلصت أهواؤك وشهواتك ولم تعد متعلقة برغائبها، والآن حانت ساعة التأمل في نعيم آخر.

تلك هي رحمة الله وذلك هو عظيم حكمة الله سبحانه وتعالى، وللعبرة أقول لكم أيها الإخوة، قريبة لي وقعت في براثن مرض ولما دنى الموت وهي لا تعلم هل سينتهي مرضها بعافية أو بوفاة، كان الأقربون من حولها يُمنونها بالعافية ويبشرونها بالرجوع إلى ألق الحياة وبهجتها التي كانت تتقلب فيه، فماذا قالت؟ قالت وهي مشمئزة من هذا الذي يمنونها به: ذكروني بمن أنا مقبلة إليه، ذكروني بالنعيم المقيم، لا تحدثوني عن الدينا بما فيها من غُصص ونكبات وآلام، لست متعلقة بشيء من ذلك.

ما رأيت عظيم رحمة الله بالإنسان في ظاهرة من الظواهر كما رأيتها في هذه الظاهرة، قربت ساعة الرحيل من هذه الدنيا كم كان الألم شديداً لو أنها ارتحلت وهي متعلقة بزخرف هذه الدنيا؟ كم كان الألم شديداً لو أنها ارتحلت عما هي مدبرة عنه وهي متعلقة به، ولكن فضل الله سبحانه وتعالى جعلها تتبرم مما قد حان أن تنفض يدها منه، وتُقبل بالأمل والتعلق إلى ما قد حان أن تنتقل إليه. وهذا شأن حكمة الباري مع الناس جميعاً.

فمن أدرك هذه الحكمة ووعاها كان قلبه وعاءً لحب لا ينتهي لمولاه وخالقه سبحانه وتعالى، وأدرك حقيقة معنى قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾. وصدق الله القائل في محكم تبيانه ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾.

أقول قولي هذا واستغفر الله العظيم لي ولكم.



١١٦- متى يدرك الإنسان حقيقة الدنيا؟! | ١٩٩٩/٠٢/١٢

إن كتاب الله سبحانه وتعالى مليءٌ بالآيات البينات التي توضح لنا تفاهة هذه الحياة الدنيا والتي تؤكد أنها ظلٌ زائل وأنها عرضٌ باطل، وكم يتفنن كتاب الله سبحانه وتعالى في عرض هذه الحقيقة على أسماع الناس.

فهو يقول آناً: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ ويقول آناً: ﴿إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾.

ويضرب الأمثلة الموضحة والمقربة لهذه الحقيقة، فيقول: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾.

ومع ذلك فإن الإنسان يظل نزّاعاً إلى الدنيا وشهواتها، يظل على الرغم من سماعه لهذه القوارع مشدوداً إلى هذه الدنيا وما فيها من شهواتٍ وأهواءٍ ومتعٍ وملاذ. فهل هنالك من دواءٍ ينبه الإنسان إلى معاني هذه الآيات والنذر؟ هل هنالك من دواءٍ يصغر الدنيا في بصيرة الإنسان ويريها فعلاً كما يصورها الله سبحانه وتعالى؟

أجل أيها الإخوة هنالك دواءٌ ناجع ألا وهو: الإطلال على الموت الذي يتربص بالإنسان. مادام الإنسان معرضاً عن الموت الذي ينتظره فلا بد أن يظل مشدوداً إلى الدنيا بكل ما فيها مهما سمع ومهما صورت الآيات له تفاهة هذه الدنيا، ولكن إذا توجه الإنسان ببصيرته إلى الموت والأحداث التي تلي الموت، وتأمل في ذلك وأخذ العبرة ممن يسبقونه وممن كانوا إلى الأمس القريب يعانقون الدنيا بكل ما فيها من شهوات وأهواء، وإذا هم اليوم قد أعرضوا عنها وألقوها ورائهم نسياً منسياً، واتجهوا إلى النهاية التي تنتظرهم، تلك النهاية التي تنسيهم كل الملاذ التي كانوا يتقلبون فيها، كل ذلك النعيم الذي كانوا يذوقونه، عندما يُطل الإنسان ببصيرته على الموت الذي ينتظره ويتربص به ويرى تجسيد ذلك في الناس الذين يسبقونه، فإن ذلك هو الدواء الذي يجعله يستصغر الدنيا وينظر إليها وهي فعلاً تافهةً كما أوضح الله سبحانه وتعالى، هذا الدواء هو الذي يذيب ضرام الشهوات والأهواء كما تذيب النار الثلج.

ولكن ما أكثر ما يتيه الإنسان عن مصيره وهو مقبلٌ إليه! وما أكثر ما يشد القرآن الإنسان إلى تذكر الموت ولكنه يظل يضع الحجب والحجب بينه وبين هذا الذي هو متجهٌ إليه، ولكن أليس هنالك من دواء يجعلنا نضع الموت نصب أعيننا؟

هنالك أدوية كثيرةٌ جداً أيها الإخوة، منها هذا الموت الذي يتخطف أصدقائنا وأقاربنا من حولنا، فهذا جزءٌ من العلاج وجزءٌ من الدواء وهو في الظاهر مصيبة وفي الباطن رحمة، لأنها توقظ النائم وتنبه الغافل وتجعل الإنسان يستيقظ ببصيرته ليتأمل مصيره.

الدواء الآخر هو أن يصغي الإنسان جيداً إلى أحداث ما بعد الموت كما يصفها بيان الله سبحانه وتعالى، عندما يتلو الإنسان كتاب الله بتدبر ويقف عند المشاهد التي يرسمها بيان الله عز وجل لأحداث ما بعد الموت ويتدبر ذلك بعقله فلسوف يغيب عن الدنيا وشهواتها وأهوائها.

ألم تتدبروا مرةً هذه الآيات وتقفوا على معانيها التي تأخذ بالألباب؟ ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ، وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ، هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ لاحظوا هذا التصوير الذي يضعه بيان الله عز وجل أمام بصائرنا، إنه ليس خيال كاتب، ولكنها الحقيقة التي ستفاجئ الإنسان، إنها الحقيقة التي ستنسيه الدنيا بكل ما فيها من شهواتٍ وأهواءٍ وأطايب وملاذ أو مصائب وآلامٍ ومآسٍ وأسقام.

أجل... ألم تقفوا عند قول الله سبحانه وتعالى وهو يضع لنا صورةً أخرى للأحداث التي كلنا مقبلون عليها ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ هذا كلامٌ يضعه أمامنا بيان الله سبحانه وتعالى بأسلوب الحاضر وإن كان مستقبلاً، ولكنه للتأكيد على أن هذا الأمر المستقبل في حكم الواقع يعبر عنه بالأمر الواقع الذي أراه أمامنا ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾.

ألم تتدبروا بيان الله وهو يصف لنا الناس كيف ينقسمون إلى طائفتين، طائفة تعض أكف الندم ويحرقها لظى الخزي والألم، وطائفة ثانية أشرق وجهها بنور الرضا عن الله ورضا الله سبحانه وتعالى عنها

فهو يقول عن الطائفة الأولى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾، ثم يتحدث عن الفريق الثاني فيقول: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾.

إذا تأمل الإنسان في هذه الصور التي يضعها بيان الله عز وجل أمام بصائرنا تذوب الدنيا كلها، ويدرك الإنسان الحقيقة التي يصفها بيان الله يصف بيان الله الدنيا من خلالها ﴿إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾. يقف الإنسان ببصيرته عندئذٍ أمام نداء الله عز وجل القائل: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾.

تأملوا أيها الإخوة علاقة أولئك الناس في ذلك اليوم بالدنيا التي تركوها، بالشهوات التي كانوا يتقلبون فيها، تأملوا حال أولئك القادة والطغاة الذين كانوا يتلاعبون بحقوق الناس في دار الدنيا والذين كانوا يخدعون الأمم والشعوب ويدعونهم إلى التفريط بحقوقهم الدنيوية والأخروية بأسماء خدّاعة زائفة باطلة، تأملوا في حال أولئك الطغاة في ذلك اليوم، ما علاقتهم بدار الدنيا التي تركوها؟ إنهم يجترون الألم، يجترون الندامة ينظرون إلى ماضي علاقاتهم بتلك الدنيا كما ينظر إنسانٌ إلى سواد ليلٍ مظلمٍ مكفهر تأخذ الوحشة منه بمجامع فؤاده ونفسه.

متى متى يدرك الإنسان حقيقة الدنيا أيها الإخوة ومن ثم يتحرر من أخطبوطها؟ عندما يذكر الموت في مظهر الذين يسبقونه من شتى الفئات ومن شتى الطبقات ويتأمل حالهم، بالأمس كانوا يسكرون بالنعيم والآن يسكرون بالنهاية التي قد أقدموا عليها.

ثم عندما يتصور أحدهم واقعه بعد يوم أو يومين أو شهر أو سنوات وقد صدق عليه قول الله عز وجل: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ، وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ، وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ، لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾.

عندئذٍ ندرك أن هذه الدنيا التي نتقلب في فجاجها هي لعب أطفال، ندرك تماماً أن الدنيا ليست في حقيقتها إلا صورة مجموعة أطفالٍ تفرقوا عند سفح جبل أو على قارعة طريق رصفوا حجارةً بعضها فوق بعض واتخذوا من ذلك أبنية تلهوا بها، إلى أن جاء ظلام الليل تركوا كل شيء في مكانه وساقتهم وحشة ذلك الليل إلى أن يذهب كلٌ عائد إلى داره. وجاءت الرياح لتسفي تلك اللعب ولتجعل منها أثراً بعد عين. تلك هي حقيقة الدنيا لا يستطيع الإنسان أن يزيد عليها شيئاً إلا شيئاً واحداً هو أن يغرس الإنسان في هذه الدنيا ما يجد نتيجته في العقبى. هذه هي حقيقة أخرى.

فإذا ما اتجه الإنسان ليجعل من هذه الدنيا فرصة يزرعها بما يحب الله، يشغل نفسه بما يرضي الله سبحانه وتعالى، فلسوف يلاحقه عمله ليستقبله مؤنساً مسعداً عندما يقوم الناس لرب العالمين. أما أن يتلهى الإنسان بهذه الدنيا وأن يجعل منها شراباً بشهواته وأهوائه أو لظلم الآخرين فو الله الذي لا إله إلا هو سيجتمع الكل عما قريب تحت مظلة السلطان الإلهي ولسوف يجدون أنفسهم أمام قول الله عز وجل: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ﴾.

أرأيتم إلى قادة العالم الغربي وهم يحاولون أن يتأبطوا الدنيا كلها تحت آباطهم وأن يسوقوا الشعوب كلها طبق أمزجتهم وأهوائهم، وأن يخدعوهم بالاستسلام بدلاً عن السلم، وأن يخدعوهم بالكلمات الباطلة، وأن يخدعوهم عن دين الله سبحانه وتعالى بكل ما يمكن أن يضعوه من خطط باطلة معوجة زائفة، أرأيتم إلى هذا؟ أرأيتم إلى الذين ينساقون وراءهم ويخدعون بهم، كل هؤلاء سيفدون إلى الله سبحانه وتعالى ولسوف تجد مظهرهم وقد تجلى عليهم قول الله عز وجل ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا * لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾.

يا عجباً لمن يسمع كلام الله وهو يعلم أنه موجود، ويعلم أن الله صادق لا يلحق كلامه خلف، كيف لا يفيض قلبه خشيةً من ذلك اليوم؟ وكيف يعرض عن ذلك اليوم ليمارس لهوه بالنسبة للاهين أو ليمارس ظلمه بالنسبة للظالمين أو ليمارس ظغيانه في حق الأمم بالنسبة إلى هؤلاء الطغاة؟

عجبت لمن يسمع هذه الآيات ثم لا يستيقظ من سباته: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ، طَعَامُ الأَثِيمِ، كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ، كَغَلْيِ الْحَمِيمِ، خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إلى سَوَاءِ الْجَحِيمِ، ثُمَّ صُبُّواْ فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ،

﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ أتذكر يوم كنت تتباهى بعزتك؟ أتذكر يوم كنت تتباهى بطغيانك؟ أتذكر يوم كنت تمسك من الدنيا زماماً تسوق من وراءه الناس والأمم في مطارح الظلم كما تشتهي وتريد، ذق إنك أنت ذلك العزيز الكريم. عجبت لمن يسمع نداء الله هذا وبيان الله هذا ثم لا يستيقظ من سبات ولا يعود إلى رحاب القدس ولا يسير مستقيماً على صراط الله سبحانه وتعالى.

اللهم أيقظنا من سباتنا، اللهم ألهمنا رشدنا وسيرنا بلطفٍ منك على صراطك إلى أن يحين قيام الناس لرب العالمين إلى حين أن تكرمنا مع من أكرمت من عبادك الصالحين. فاستغفروه يغفر لكم.



١١٧- المال مال الله والعبد عبد الله | ٢٠٠٩/٠٩/١١

آيات في كتاب الله عز وجل استوقفتني بالأمس وزجتني في حالٍ وددتُ لو أن كل مسلم اصطبغ بها، هذه الآيات هي قول الله سبحانه وتعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى، وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى، وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى، وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ [الليل: ٩٢/٥-١١].

أصدقكم أيها الإخوة أن المال ما صَغُرَ في عيني مرة كما صغُر وأنا أتلو هذه الآيات البينات من كلام الله عز وجل وما سَمُجَ البخل في عيني وفي نفسي وترائى لي فيه معنى المهانة والذل كما ترائى لي ذلك وأنا أتلو هذه الآيات من كتاب الله سبحانه وتعالى ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى، وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى﴾ تظاهر بالغنى وهو فقير ﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى، وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ إنه لاستفهام عجيب يحيل المال الذي كم وكم يُفْتَنُ به الناس إلى شؤمٍ على صاحبه، أجل إنه استفهام يجعل من المال شؤماً على صاحبه، ذلك الاستفهام المنبعث من قوله عز وجل: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾

ماذا عسى أن يستفيد من المال الذي جمعه من هنا وهناك ثم ظل يرقد عليه كما ترقد الدجاجة على بيضها ماذا عسى أن يستفيد من ذلك عندما يُفَاجَئ بأنه قد تردى في هاوية الشقاء؟ أين هو المال الذي ينبغي أن ينجده؟ أين هي الثروة التي ينبغي أن تنتشله؟ أين هو الغنى الذي كان يُزْهَى به ينتشله في هذه الساعة من الهاوية التي تردى فيها والتي لا مجال للخروج منها قط؟

عباد الله: دعوني أضعكم أمام صورتين، الأولى صورة الإنسان الذي شاء باختياره أن يجعل من المال شؤماً له، أن يجعل من المال مادة شقاء له وإن خُيِّلَ إليه أنه سعد بهذا المال، أرأيتم إلى ذاك الذي يلهث وراء جمع المال من أي جهة لاح المال له فيها، يجمعه من كل حدب وصوب ثم إنه يملأ به أرقاماً في صندوقه وينشره رصيداً هنا وهناك في المصارف وينظر ويرمق بعينيه إلى البائسين الذين عضَّ عليهم الجوع

والذين نال منهم العري والذين أعوزهم الكِنّ والعش الذي ينبغي أن يأووا إليه، يمرق إليهم بعينٍ شذراء مستعلياً مستكبراً ولربما تفلسف وقال أنا تعبت وعرقت ومن أجل ذلك جمعت ما جمعت أما هؤلاء فإن الكسل هو الذي زجهم في سوء المصير فلينالوا جزاء كسلهم هذا وذلك هو الكلام الذي كان يقوله الجاهليون في صدر الإسلام عندما كانوا يسمعون نداء القرآن ونداء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى البذل ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ [يّس: ٣٦/٤٧] إلى آخر الآية التي ينعي فيها بيان الله سبحانه وتعالى على المستكبرين بعطاء الله سبحانه وتعالى، هذه هي الصورة الأولى.

ما هي عاقبة هذا الإنسان الذي جمع المال من كل حدب وصوب ثم إنه استكبر وعتى بهذا المال؟ أنا أجزم يا عباد الله بأن هذا الإنسان، هذا الفريق من الناس لن يسعد بهذا المال قط، هو في الصورة مبعث سعادة ومظهر بريق، هذا المال الوفير لكنه في الحقيقة يبعث في كيانه شتى ألوان البؤس والشقاء، لا تجد هذا الإنسان سعيداً في ساعة من ساعاته، هذا المال يتحول كما قلت لكم إلى شؤم في كيانه، يورثه أسباب الشقاء وما أكثرها تتسلل جميعاً إلى داره، تتسلل جميعاً إلى جسمه بألوان من الأمراض المختلفة، المال وفير وصندوقه مليء والأرصدة كثيرة ولكنه يعاني في ليله ونهاره من الأسى يعاني في ليله ونهاره من الضيق، من الكرب الخانق، وأنا الشاهد على ذلك، كم وكم رأيت أناساً تجسدت هذه الحقيقة في ظواهرهم.

أما الصورة الأخرى فتعالوا نتبينها، أرأيتم إلى ذلك الشخص الآخر الذي أكرمه الله سبحانه وتعالى هو الآخر بمثل ما أكرم به الأول من المال الوفير والغنى الكثير ولكنه يبحث عن الفقراء والمعوزين أينما كانوا، يزورهم في أعشاشهم، يدخل إليهم في بيوتهم المتداعية، يخلط نفسه بهم، يؤنسهم بنفسه ويؤنس نفسه بهم، تعالوا أضعكم أمام هذه الصورة وهي ليست مجتثة من خيال وليست نسيجة وَهْمٍ بل هي صورة لواقع يا عباد الله، صورة رجل، وأمثاله كثير أكرمه الله عز وجل بالغنى، أكرمه الله عز وجل بالعطاء، يبحث، وذلك هو سر سعادته، عن حال البائسين، دخل إلى بيت واحد منهم، دخل إلى هذه الأسرة

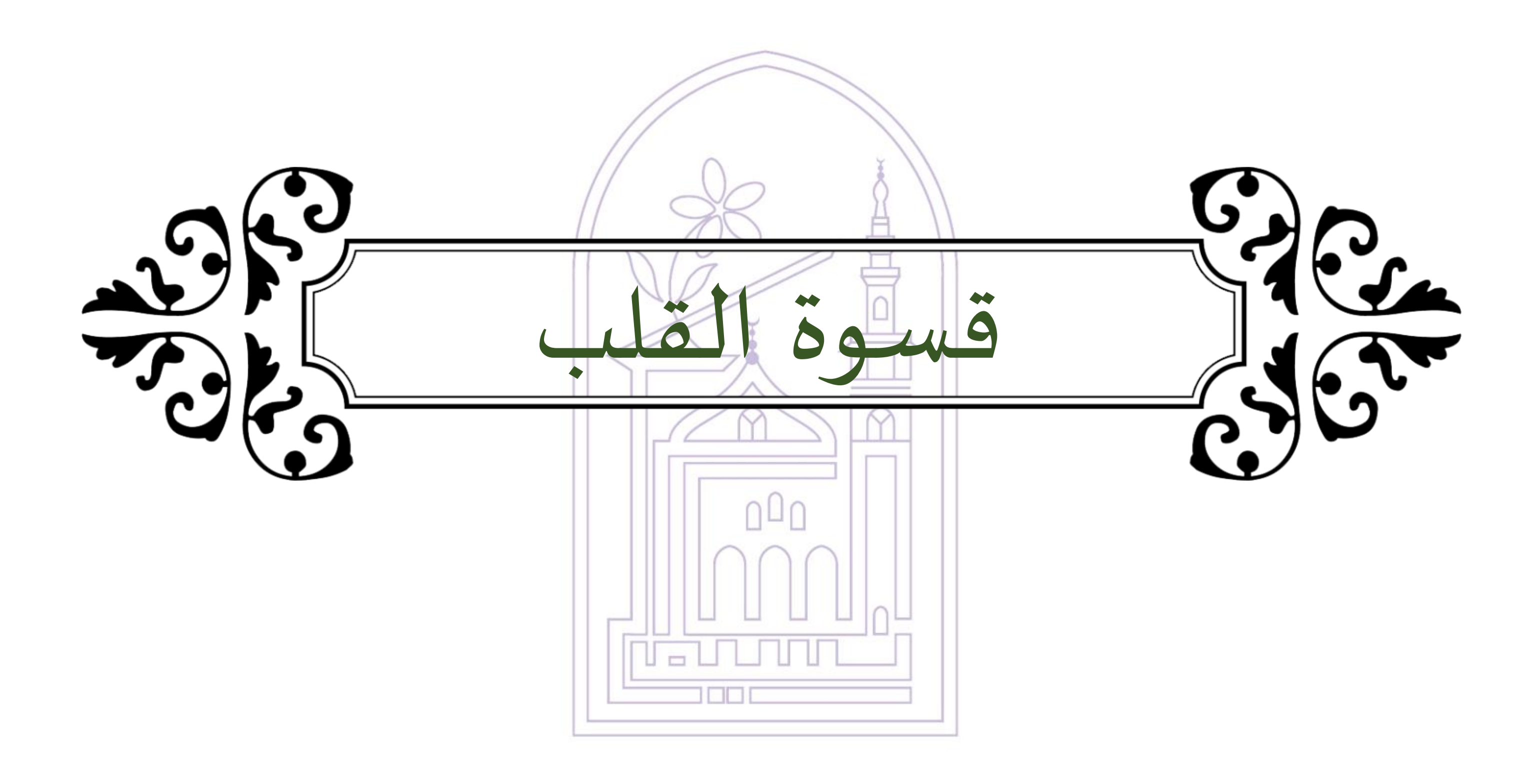
وجلس معها في بيتها المتداعي ومظاهر الدار كلها تنطق بالبؤس والحزن والكرب وظُلَلُ الأسى واضحة على أفراد الأسرة، الأب والأم والأولاد، أخرج من جيبه قدراً من المال هو في نظره شيء تافه ولكنه في نظر الأسرة التي نظرت إليه كنزٌ لم تكن تحلم به، كنزٌ لم تكن تتوقعه، لما وقع هذا الكنز في نظر هذه الأسرة وهو مالٌ ضئيل في نظر ذلك المعطي، لما وقع ذلك الكنز في يد رب هذه الأسرة سرعان ما زالت ظُلَلُ الشقاء والأسى من الوجود، سرعان ما زالت علائم الحزن والكرب من النفوس، نظر الرجل وإذا بالفرحة الغامرة تعمر قلوب أولئك الذين كانوا قبل قليل يعانون من كرب خانق، نظر إلى الوجوه وإذا بإشراقة الفرحة تتلألأ على سيماهم، نظر هذا الإنسان فوجد أن الله عز وجل سخَّره لأن يرسم الفرحة على وجوه هؤلاء البائسين رجالاً ونساءً كباراً وصغاراً، بعثت هذه البلغة اليسيرة من المال في نظره نشوة في رأس هذا الإنسان ما مثلها نشوة، بعثت في كيانه سعادة ما مثلها سعادة وأخذ يساءل نفسه أأنا استطعت في لحظة واحدة أن أنقل أفراد هذه الأسرة من دنيا الكآبة ومن ظلام الشقاء إلى صعيد السعادة والفرحة؟!

نعم المال أيها الإخوة نعم المال عندما يكون سُلَّماً إلى مثل هذا العمل، ما أعظم معناه وأجلَّ أثره عندما يُستخْدَمُ المال لرسم معالم الفرحة على الوجوه الحزينة، عندما يستعمل لغرس معاني السعادة في القلوب الكئيبة وما أتفه المال وما أسوأه وما أذله وإنها لقمامة ما مثلها قمامة عندما يرقد صاحب هذا المال عليه كما قلت لكم كما ترقد الدجاجة على بيضها ثم إنه يجعل من هذا المال سَكَرَاً لنفسه، يجعل من هذا المال أرقاماً يتذكرها لينتشي بها، ما أتفه المال عندما يكون في يد إنسان على هذه الشاكلة وما أثمن هذا المال وما أسماه وما أبقاه عندما يكون أداةً لإدخال الفرحة في القلوب.

شيء يا عباد الله، شيءٌ آخر، من ذا الذي يستطيع أن يزعم أنه هو المالك للمال الذي يفيض صندوقه به؟ من ذا الذي يزعم أنه هو الذي امتلك هذا المال بعرق جبينه؟ المال مال الله والعبد عبد الله والمآل إلى الله، هذه هي الحقيقة والإنسان مستخلف في المال الذي وضعه الله أمانة بين يديه، ألم تقرؤوا قوله: ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٥٧/٧]، فهذا الغني عندما يعطي إنما يعطي من

المال الذي استأمنه الله عز وجل عليه ثم إن هذا الإله الذي وضع المال أمانة بين يديك جعلك في صورة من يملك حقاً وجعل ذاته العلية في صورة من يقترض منك هذا المال حقاً فهو يقول: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢/٢٤٥]، ما ألطف هذا البيان الإلهي، ربي المالك لي ولمالي يعطيني المال الذي هو ملكه ثم إنه يجعل من نفسه مقترضاً ويقول لي ألا تقرضني شيئاً من مالك هذا وأنا أعدك بأنني سأعيده لك مضاعفاً عشر مرات على الأقل، هل في هذا الكلام خُلْفٌ يا عباد الله، هل يلحق كلام الله خُلْف؟ صدق الله، لا يمكن لإنسان يتعامل مع الله بالاستجابة لأمره بالحنو على الفقراء المعوزين الذين ابتلى الله الأغنياء بهم إلا ويصدق وعده الذي ألزم ذاته العلية به واسألوا الذين يتعاملون مع الله على هذا المنوال، ما من إنسان قدَّم لذي حاجة مبلغاً من المال إلا وأعاد الله سبحانه وتعالى ماله إليه مضاعفاً، لا يُبْقِي الله مِنَّةً على ذاته العلية لعبد.

أقول لكم هذه الحقيقة وضربت لكم هذين المثلين في هذا العشر الأخير من رمضان لعل كلامي يبلغ من لا يوجد في هذا المسجد ولعل الإخوة الذين يسمعون كلامي هذا يتفاعلون مع قول الله سبحانه وتعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ [الليل: ٩٢/٥-٧] ومن اليسرى أن يعوض الله عز وجل عليه ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى، وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ [الليل: ٩٢/٨-١٠] وقفوا معي أمام هذه الكلمة الأخيرة ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ [الليل: ٩٢/١١] لن يغني عنه ماله شيئاً فاللهم ألهمنا جميعاً وألهم الأغنياء الذين قست قلوبهم بسبب المال أكرمتهم به ألهمهم الرشد، رقِّق أفئدتهم يا رب العالمين، أوزع قلوبهم الرحمة حتى ترحمنا، ألهمهم أن يرحموا الفقراء والمعوزين الذين ابتليتنا بهم وما أكثرهم في جَنَبَاتِ هذه البلدة حتى ترحمنا وما أحوجنا في هذه الأيام إلى رحمتك أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.



قسوة القلب

١١٨- ضرورة ملازمة التوبة والاستغفار | ١٩٨٥/١٠/٢٥

ما من ريبٍ في أنَّ أعظمَ القرباتِ إلى اللهِ عزَّ وجلّ وأنَّ من أعظمِ الطّاعاتِ والعباداتِ والأذكار أن يلازمَ الإنسانُ التّوبةَ والاستغفارَ للهِ عزَّ وجلّ على الدّوام، فذلكَ طاعةٌ من أبرِّ الطّاعات، وعبادةٌ من أرقى العبادات، وذكرٌ من أدقِّ أنواعِ الذّكرِ للهِ سبحانهُ وتعالى، ولا فرق في ضرورةِ القيامِ بهذه الطّاعةِ العظمى بينَ فئاتِ النّاس على اختلافهم، لا فرقَ بينَ طائعٍ وعاصي، بينَ مستقيمٍ ومنحرف، فالكلُّ مطلوبٌ منهم أن يعكفوا دائماً على التّوبةِ لله سبحانهُ وتعالى وعلى الاستغفارِ من الذّنوبِ والآثام، ولعلَّ من أوضحِ ما يدلّ على هذا المعنى العظيم قولُ اللهِ عزَّ وجلّ: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾. تلاحظونَ أنّها دعوةٌ من الله لعبادهِ جميعاً، دخلَ في هذه الدّعوةِ الطّائعُ والعاصي، والبرُّ والفاجر، بل الرّسلُ والأنبياء، وسائرُ العبادِ الصّالحينَ والرّبّانيّين، كلّهم شملهم هذا الخطاب العظيم: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

ولقد صحَّ عن المصطفى عليهِ الصّلاةُ والسّلام قوله: «إنهُ ليغانُ على صدري فأستغفرُ اللهَ في اليومِ سبعينَ مرّة». وقد صحَّ عنهُ عليهِ الصّلاةُ والسّلام أنّهُ كانَ يكرّرُ في المجلسِ الواحدِ قوله: «اللهمَّ اغفر لي ذنبي وتب عليّ إنّك أنتَ التّوّابُ الرّحيم»، وكانَ الصّحابةُ رضوانُ اللهِ عليهم يحصون هذه الكلمة في الجلسةِ الواحدة يقولها رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلّم مراراً، والمعنى الذي ينبغي أن نتنبّهَ إليهِ في هذه الدّعوة، هي أنَّ الإنسان مهما كان، ينبغي أن يعلمَ أنّهُ مقصّرٌ في جنبِ الله عزَّ وجلّ، بل إنَّ الإنسانَ كلّما ازدادَ استقامةً في سلوكه وقرباً إلى اللهِ في طاعاته تنبّهَ إلى المزيدِ من تقصيرهِ في جنبِ اللهِ عزَّ وجلّ، هذا فضلاً عن أنَّ سائرَ النّاس ما عدا الرّسل والأنبياء عاصون، متلبّسونَ بالآثام، سواءٌ منها الآثامُ الخفيّة أو الآثامُ الواضحة التي يستطيعُ الإنسانُ أن يعلمها ويحصيها في سلوكه. «كلُّ بني آدمَ خطّاء»، هكذا يقولُ رسولُ الله صلى اللهُ عليهِ وسلّم «وخيرُ الخطّائين التّوابون». ويقولُ عليهِ الصّلاةُ والسّلام: «المؤمنُ واهٍ راقع، فطوبى لمن ماتَ على رقعه». أي إذا كانَ الإسلامُ عبارةً عن ثوبٍ سابغ شرّفَ اللهُ عزَّ وجلّ به العبد، فإنَّ من شأن هذا الإنسانِ المسلم أنّهُ كلّما مزقَ ثوبَ إسلامهِ بمعصية جلسَ ليعودَ فيرقعهُ بالتّوبة.

وذلك هو شأنُ المسلم، كلّما وجدَ أنَّ الشّيطانَ قد انتهز منهُ فرصةً وزجّهُ في معصية التفت إلى نفسهِ فجلس يتوبُ إلى اللهِ عزَّ وجلّ ويستغفره ليعودَ هذا الثّوبُ الممزّق فترقّعهُ التّوبةُ وتعيدهُ كما كان.

ينبغي لكلٍّ منّا أن يعلمَ هذا، وإذا علمَ المسلمُ هذه الحقيقة نبّهتهُ إلى معنيينِ عظيمين:

أوّلهما ينطوي على وعيدٍ وإنذار، ثانيهما ينطوي على بشارةٍ ورحمةٍ من اللهِ عزَّ وجلّ، أما المعنى الذي يتراءى في هذا الكلام الذي نقول، والذي يتضمّنُ إنذاراً من اللهِ عزَّ وجلّ، فهو أنَّ على المسلمِ أن يعلم أنَّ اللهَ يحصي عليهِ سكناتهِ وحركاته، وأنَّ اللهَ يسجّلُ عليهِ معاصيهُ كلّها كما يسجّلُ لهُ طاعاتهِ أجمع.. فإن لم يستر معصيتهُ بتوبةٍ صادقةٍ وإنابةٍ إلى اللهِ عزَّ وجلّ، فإنّهُ سيرى مغبّةَ معصيتهِ عمّا قريب.

والإنسان لا يعلم كم يعصي اللهَ في يومه وليله، ولو أنّهُ أرادَ أن يحاسبَ نفسه ما أكثرَ المعاصيَ الخفيّة التي يمرُّ منها الإنسانُ غيرَ عابئٍ بها، وغيرَ ملتفتٍ إلى خطورتها، يظنّها أمراً هيّناً وهي عندَ اللهِ عظيم.

فجديرٌ بالإنسانِ – وهذه حالُه ألا يتنبّه إلى كثيرٍ من المعاصي التي ينزلقُ إليها، فلئن لم يتب إلى اللهِ دائماً احتياطاً وغسلاً للمعاصي التي لم يتنبّه إليها، وقع في طائلةِ هذا الإنذارِ الإلهيّ.

وأمّا البشارة التي تكمن في تضاعيفِ هذه الحقيقة فهي أنَّ على الإنسانِ أن يعلم أنَّ المعصيةَ ليست هي التي تقصي العبدَ عن ربّه، إنما الذي يقصي العبدَ عن ربّه هو العكوفُ على المعصية ونسيانُ التّوبة، والإعراض عن استغفار الله سبحانهُ وتعالى، المعاصي أمرها هيّن طالما كانَ الإنسانُ يحملُ بيده مغتسلَ التّوبة الباردَ العذب. كلّما انزلقَ في قاذوراتِ المعاصي كلّما أقبلَ إلى مغتسلِ التّوبةِ فطهّرَ نفسهُ بمائها، وهكذا فإنَّ الشّيطانَ لن ينالَ منهُ أيَّ حظوة، ولن يصلَ منهُ إلى أيِّ غاية.

ولكنَّ المصيبةَ كلَّ المصيبة إنما تكمن في إحدى مكيدتين يكيدُ بهما الشّيطانُ للإنسان، المكيدةُ الأولى أن يزجّهُ الشّيطانُ في المعصيةِ ثمَّ ينسيهِ الوقوفَ بينَ يدي الله ليتوبَ ويستغفر. كثيرونَ هم الذين يعذرون أنفسهم لأنهم ضعاف، ولأنَّ الشّيطانَ يزجّهم في المعصيةِ تلوَ المعصية، ولكنَّهم لا يتنبّهون إلى أنَّ الدّواء موضوعٌ أمامهم، وأنَّ عقار التّوبة موضوعٌ بين يديهم، وأنَّ بإمكانهم أن يستعملوا هذا الدّواء جرعةً فجرعة عندَ كلِّ زلّةٍ من الزّلّاتِ التي يدفعهم الشّيطانُ إليها.

المصيبةُ الثّانية وهذه المصيبةُ العظمى أيضاً، تكمنُ في تصوّرٍ خاطئ، وجهالةٍ جهلاء، عندَ أولئكَ الذينَ يتصوّرون أنَّ الطّاعاتِ لا تتجزّأ وأنَّ المعاصيَ أيضاً لا تتجزّأ، فإذا انزلقَ أحدهم في معصيةٍ من المعاصي بعدَ أن تابَ إلى اللهِ وأناب، وسوسَ إليهِ شيطانه: إنّكَ لقد أسأتَ العلاقةَ مع ربّك، لقد وقعتَ في المعصية، وأُسدِلَ الحجابُ بينك وبينَ ربّك، فلن يقبلَ اللهُ منكَ طاعةً بعدَ اليوم، ففيمَ صلاتُك؟ وفيمَ طاعاتُكَ وعباداتُك؟. هكذا يوسوسُ الشّيطانُ لكثيرٍ من الجاهلين من عبادِ اللهِ عزَّ وجلّ. وليتَ الأمرَ وقف عندَ وسواسِ شياطينِ الجن، لا بل إنَّ لهؤلاءِ الشّياطينِ جنوداً وخدماً من شياطينِ الإنسِ وجهّالهم، ممن يطيلونَ ألسنتهم بالفُتيَا وهم أجهلُ الجاهلين، يقولُ أحدهم لصاحبه وقد علمَ أنّهُ سهرَ البارحةَ سهرةً لا ترضي الله، يقولُ له: ما فائدةُ صلاتك؟ وقد علمتُ أنّكَ عصيتَ الله بالأمس، إنَّ اللهَ لا يقبلُ منكَ صلاةً بعدَ اليوم، وإنَّ اللهَ لا يقبلُ منكَ طاعةً بعدَ اليوم، لا تدخلِ المسجد فإنَّ اللهَ غنيٌّ عن عبادتك. متى تعلّمتَ حتّى تفتي؟ من قالَ لكَ هذا حتّى تتبرّعَ بالفتيا من عندك؟

وقديماً عرفنا أنَّ العلماء، العلماء، العاملين بعلمهم كانت ألسنتهم تتلجلجُ بالفتوى إذا سُئلوا، أما اليوم فإنا لنرى أنَّ الجهّالَ بحمدِ الله الذي لا يُحمدُ على مكروهٍ سواه، الذينَ لا يتقنونَ أداءَ صلواتهم، تطولُ ألسنتهم أمتاراً بالنّطقِ بفتاوى كاذبة، يجنّدهمُ الشّيطانُ له.

كم مرّةً قيلَ لي: إنَّ فلاناً من النّاسِ قال: إنَّ صلاتكَ لم تعد تُقبَل، وإنَّ إقبالكَ إلى اللهِ أصبحَ مرفوضاً، لماذا؟ لأنّكَ تمارسُ المعصيةَ الفلانيّة، لأنّكَ تفعلُ كذا وكذا. هذا مخالفٌ لدينِ اللهِ عزَّ وجلّ، وهذه رقيةُ شيطان ما ينبغي للإنسانِ أن يمكّنَ عقلهُ منها يا عبادَ الله.

الطّاعات كثيرة وكلٌّ منها مستقلٌّ عن الآخر، لكلّ طاعةٍ مثوبتها. والمعاصي كثيرةٌ أيضاً وكلٌّ منها مستقلٌّ عن الآخر، ولكلِّ معصيةٍ أو على كلٍّ منها عقابها، وكلُّ شيءٍ بحساب. ورسولُ اللهِ يقول: ﴿أتبعِ السّيّئةَ الحسنةَ تمحها وخالقِ النّاسَ بخُلُقٍ حسن﴾. أليسَ خيراً لكَ يا هذا وقدِ ابتلاكَ اللهُ بالمعصية، أليسَ خيراً لكَ أن تبقيَ على صلةٍ بينكَ وبينَ ربّك؟ أن تبقيَ على خيطٍ يصلكَ باللهِ عزَّ وجلّ، تجدهُ في حالات الشّدائد ينجدك ويغيثك؟ أليسَ خيراً من أن تقطعَ الجسرَ كلّه، بينكَ وبينَ اللهِ عزَّ وجلّ؟ ربَّ رجلٍ مرتكبٍ للمعاصي كلّها: يقامر، يرابي، يشربُ الخمر، يقعُ في الفواحش، ولكنَّ اللهَ عزَّ وجلّ يجذبهُ إليه، ويغفرُ لهُ بسرٍّ من الأسرار، قد لا نعلمُ هذا السّر، بطاعةٍ من الطّاعاتِ خفيّة، فإيّاك وأن تصغيَ إلى رقى الشّيطان،

سواءٌ جاءتكَ وساوس من شياطينِ الجنّ، أو تعرّضَ لكَ أحدٌ من خُدّامهم وجنودهم من الأناسيّ الجهّال الذينَ يفتونَ بما لا يعرفون.

وأخيراً، بل أوّلاً وآخراً: ينبغي على الإنسانِ دائماً أن بالتّوبة، وبالاستغفارِ للهِ عزَّ وجلّ، سواءٌ من الذّنبِ الذي علمت أو منَ الذّنبِ الذي لم تعلم، قلها دائماً، هذه الكلمةُ تكونُ نبراساً لك طوال حياتكَ كلّها ولا تطمع أن يجعلكَ اللهُ معصوماً فقد قالَ المصطفى كما قلتُ لكم: ﴿كلُّ بني آدمَ خطّاء وخيرُ الخطّائينَ التّوّابون﴾ وقد قالَ اللهُ عزَّ وجلّ: ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾.

وإياكَ أن تتركَ معصيتكَ التي قد تقعُ فيها تحجبكَ عن اللهِ حجباً كلّيّاً، إيّاك، مهما عظمتِ المعصية في ساعةٍ سبقت، فاجهد جهدك أن تكونَ طائعاً للهِ في السّاعاتِ التي تليها، وإيّاك أن تقولَ أنا أخجل من الله؛ أن أقفَ بينَ يديه وأنا قبلَ ساعةٍ كنتُ أعصيه، لا لا تخجل، هذا خجلٌ اصطناعي يصطنعهُ الشّيطانُ لك، لأنَّ خجلاً يبعدكَ عن الله ليسَ خجلاً، إنما هو بالوقاحةِ أشبه.

لا تخجل من الله، بل أشعر نفسك كلّما كثُرَت معاصيك أن يزدادَ إقبالُكَ إلى الله في السّاعاتِ الأخرى، وأنتَ لا تعلم، واللهُ يقول: ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾. لعلَّ اللهَ يرحمُ ضعفنا جميعاً، ولعلَّ اللهَ يميتنا على الرَّقع ولا يميتنا على تمزيقِ ثوبِ الإسلامِ بالمعاصي، أسألُ اللهَ عزَّ وجلَّ لي ولكم حسنَ الإنابةِ إلى الله.

١١٩- يا عجباً من غفلة الناس | ١٩٨٧/١٠/١٦

لقد صح عما ورد من شمائل المصطفى صلى الله عليه وسلم أنه كان كثير الفكر دائم الذكر دائم الأحزان، إلى آخر ما هنالك من الصفات التي صحت عن شمائل المصطفى عليه الصلاة والسلام، وكثيرٌ من الناس عندما يسمعون هذه الصفات وأمثالها من شمائله صلى الله عليه وسلم قد يتوَهَّمون أنها من خصائصه، وأنها من المزايا التي ما ينبغي أن يتصف بها غيره، فلا يُحَمِّلون أنفسهم مسؤولية الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم بها أو بشيء منها، وهذا وهم كبير.

فإن المصطفى عليه الصلاة والسلام إنما جعله الله عزَّ وجل قدوة لنا، وجعله مثالاً يحتذا، ألم يقل الله عزَّ وجلّ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾. وإذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم المعصومَ من الانحراف المنزّهَ عن المعاصي والسيئات، إذا كان مع ذلك كثيرَ الفكر دائمَ الذكر دائمَ الأحزان، فكيف ينبغي أن يكون حال من هو مغموسٌ بالسيئات معرضٌ لارتكاب المعاصي والآثام، لا يعلم مصيره الذي سينتهي إليه إلى جنة أم إلى نار، إذا كان المصطفى عليه الصلاة والسلام، وهو المعصوم المنزه عن الآثام، المبشر برضوان الله عزَّ وجل، وبأن الله سبحانه وتعالى سيعطيه إلى أن يرضيه، مع ذلك كان كثير الفكر دائم الأحزان إذاً كيف ينبغي أن يكون حالنا نحن؟! ونحن لا نعلم المصير الذي سننتهي إليه، ولا نعلم النهاية المدَّخرة لنا، ثمَّ إننا مع ذلك وقبل ذلك معرّضون للكثير من السيئات والآثام.

إن هذه الصفة التي وردت عن المصطفى عليه الصلاة و السلام هي معناً عظيمٌ شرفه الله عزَّ وجل به، ثم إنه تعليم لنا نحن أن نقتدي برسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك، ولئن كانت هذه الصفة في حياته صلى الله عليه وسلم من المحسِّنات، فهي في حياتنا من الضروريات، لا يمكن أن تصلح حياتنا أبداً إلا إذا كنا كثيري الفكر، دائمي الذكر نتأمل في النهاية التي نحن مقبلون عليها، ونظراً إلى أنَّ أكثرنا مُعرضٌ عن هذه الصفة مُسرفٌ على نفسه، فكره متجهٌ إلى الدنيا التي من حوله والشهوات التي تبرُق عن يمينه وشماله، وذكره لملاذه ومتعه؛ نظراً إلى ذلك... فقد أصبح إيمانُنا – عندما يكون إيمان – إيماننا

أمراً تقليدياً ومظهراً ميتاً وشيئاً لا حراك ولا حياة فيه، ولم يعد غريباً أبداً أن يوصف الإنسان بأنه مؤمنٌ بالله عزَّ وجل ثم تجده يؤلِّه الدنيا التي يسعى وراءها ويؤله الشهوات التي اقتنصت قلبه بالمحبة والوداد، وتجده لا يتأمل صباحه ومساءه إلا في صفقاته التجارية أو أعماله الدنيوية، أما حقوق الله عليه فهي آخر ما يتأمل فيه ويفكر – مع أنه مؤمن بالله.

لماذا وكيف جاء هذا الازدواج بل ظهر هذا التناقض؟ لأن هذا الإنسان ليس كثير الفكر ولا دائم الذكر؛ بل هو معدوم الفكر معدوم الذكر لله سبحانه وتعالى؛ ولذلك أيضا قد تجد الإنسان وهو منتسب إلى الإسلام ومنتمٍ إلى الإيمان بالله سبحانه وتعالى، ولكنك تتأمله فإذا هو سكران، إذا هو سكرانُ بكبريائه، وإذا هو مأخوذٌ بنعم الله التي أغدقها الله عزَّ وجلّ عليه قد جعل منها حجاب بينه وبين الله سبحانه وتعالى، آتاه الله شيئاً من العلم يجعل من علمه سُلماً يعلو إليه ليتكبر به على الله، آتاه الله شيئاً من القوى والعافية يجعل من قوته وعافيته دليل استغناءٍ عن الله سبحانه وتعالى، آتاه الله شيئاً من المال والغنى جعل هذه النعمة التي آتاه الله سبحانه وتعالى إياها سَكَراً يشغله ويلهيه عن الله سبحانه وتعالى، وهو مع ذلك ينتمي إلى الإيمان وينتسب إلى الإسلام، لكن أيُّ إسلام هذا؟ وأيُّ إيمانٍ هذا الذي لا ينهض على جذور ولا يستقر على حقيقة راسخة في الفؤاد!!! إن هذا الإنسان وأمثاله إنما ينطبق عليهم قول الله عزَّ وجل: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾. لئن لم يظهر هذا في دار الدنيا فإن ذلك سيظهر عما قريب يوم القيامة.

وعبثاً تحاول إن أنت ناقشت وذَكَّرت وأنَّبت أو حاورت واحداً من هؤلاء الناس؛ لأن السَكران لا يمكن أن يعيي ما تقول، السكران يتكلم إلا أن لسانه منفصلٌ عن عقله، فعقله في واد ولسانه في وادٍ آخر، وهؤلاء سَكروا بنعمة الله عزَّ وجلَّ أولاً، ونسوا أنفسهم ثانياً إذ إنَّ الواحد منهم لا يفكر في الشهر ولا في العام مرةً في ذاته، من أنا.. ما حقيقتي.. ما هي هويتي؟ هل أنا أملك من أمر نفسي مثقال ذرة أم لا أملك شيئاً منها؟ لا يفكر على نقيض ما كان عليه المصطفى صلى الله عليه وسلم دائم الفكر، فهو أولاً ناسٍ نفسه، ثانياً هو سكرانُ بالنعم التي أغدقها الله سبحانه وتعالى عليه فحاق عليهم قول الله سبحانه وتعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ ولذلك لا فائدة من أن تحاورَ واحداً من هؤلاء وتحاكمه إلى موازينِ علم، ولا إلى موازين رؤيا ولا إلى موازين تذكرة مما يذكرنا به الله سبحانه وتعالى؛ وإلا فإن كلام

الله سبحانه وتعالى يزلزل الجامدات ويجعل الصخور الراسيات تتفجر وتنهمر كيف لا والرب عزَّ وجلّ هو القائل: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾. أي لو وجهنا خطابنا هذا بدلاً من اتجاهه إلى الإنسان لو وجهناه إلى جبل إلى حجارة إلى صخور لرأيت هذا الجبل قد تهاوى لرأيته تصدع من خشية الله سبحانه وتعالى، ولكنَّ في الناس –كما قلنا في الأسبوع الماضي– من يتمتعون بقلوب هي أقسى من الصخر هي في الواقع ليست أقسى من الصخر، لكنها آلت أخيراً إلى هذه الحال كما يستحجر الطين؛ يتحول الطين اللازب إلى حجر صلب كيف هذا؟

لما نسي هؤلاء الناس أنفسهم ولم يتفكروا بذواتهم، ولم يذكروا الصلة التي بينهم وبين الله سبحانه وتعالى، وأغرقوا أنفسهم في خضم النسيان يوماً إثر يومٍ وشهراً إثر شهرٍ وعاماً إثر عام، رانت هذه الحالة على قلوبهم واستحالت هذه الأفئدة النابضة إلى صخور قاسية بل إن الصخور ربما كانت أرق منها وألين، ولذا فإنا لا نعجب عندما نرى إنساناً نذكره بكلام الله ولكنه يلوي ويعرض الرأس عن كلام الله سبحانه وتعالى لا نعجب إن ذكَّرنا إنساناً بقول الله سبحانه وتعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاء إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ، ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾ نقرأ هذا الكلام على أسماع أشخاص وإذا بنا نتخيل هذه الآيات وكأنها كرة قذفتها إلى جدارٍ صلب ما هي إلا أن ترتد من ذلك الجدار إلى الجهة التي اتجهت منه، تلك هي حال آذانهم وتلك هي حال قلوبهم.

الربُّ عزَّ وجل يقول: لا تتباهى بعلمك فيوشك إن طالت بك الحياة أن يزول علمك بعد جهل أن يزول علمك هذا فتصبح جاهلاً بعد علم، وتصبح ناسياً بعد ذكر وتصبح ضعيفاً بعد قوة، إذاً هذا العلم ليس علمك إنما هو علم الله الذي أنزله إليك لتتمتع به إلى حين، ومع ذلك فما أكثر السُكارى الذين يتباهون بالعلم، ويقولون إن الإنسان قد وصل من العلم إلى حيث امتلك زمام الطبيعة وسخرها كما يشاء ووصل بها إلى ما يريد، ومن ثَمَّ فهو ليس بحاجة إلى دين ولا إلى الانضباط بشيء، هل في

السُكارى من يكون سُكره أشدَّ من هذا العبث وهذا الهذيان!! وإلى أيِّ حدٍ وصلتَ من العلم يا أيها الأحمق؟ ما هو العلم الذي وصلت إليه وأنت عاجزٌ عن التحكم في ذاتك فضلاً عن التحكم بما تسميه الطبيعة، إنْ ابتلاك الله بأرق لا تستطيع بعلمك الذي تتباهى به أن تجرَّ إلى عينك الرقاد، وإن شاء الله عزَّ وجلّ أن يجعل نومك ثقيلاً لا ينفك عنك لم تستطع أن تلتجئ إلى علم يعيد لك اليقظة، وإذا نظرت إلى نفسك في المرآة وقد ظهرت في وجهك خطوط المشيب وامتلأ الشعر الأبيض في فوديك ورأسك لم يُنجدك علمك في أن يعيد إليك الشباب مرةً أُخرى، أيُّ سكرٍ هذا؟ ما سبب هذا كلِّه؟ سبب هذا كلِّه أنَّ هذا الإنسان غافل لا يمتع كيانه بفكر ولا بذكر، ومن ثم ففيما يحزن ولماذا يجزع وهو لا يعلم إلا اللحظة التي يعيش فيها!! لا يعلم ذاته، ولا يعلم العلاقة بينه وبين خالقه، ولا يعلم شيئاً عن جوهره وكيانه ومبدئه ومنتهاه، ذلك لأنه لا يمتّع كيانه ويغديها بأيِّ فكر ولا أي ذكر، فالحب بعيدٌ عنه والتأمل في المستقبل بعيدٌ عنه، ونسأل الله سبحانه وتعالى أن يعافينا مما ابتلى به كثيراً من خلقه، ونسأل الله سبحانه وتعالى أن لا يضرب بين عقولنا وبين أنفسنا بحجاب يَزجُّنا إلى أسوأ مما عليه المجانين.

فاستغفروا الله يغفر لكم.



١٢٠- شح الماء.. رسالة تحذير للمستكبرين | ١٩٩١/٠٨/٠٩

إنَّ من أعجبِ الأسئلةِ التي طُرِحَت عليّ قولُ أحدهم: كيفَ السبيل إلى أن تتخلصَ منَ الكبر؟

هذا السؤال في حقيقتهِ سؤالٌ غريبٌ وعجيبٌ جداً؛ فترجمةُ هذا السؤال تساوي تماماً قولَ هذا الإنسان: كيفَ السبيلُ إلى أن أعرفَ نفسي؟ وهل هنالكَ من صعوبة في سبيلِ أن يعلم الإنسانُ ذاته؟ وهل هنالك حواجز وضعت بينَ الإنسانِ وذاته فهوَ بحاجةٍ إلى أن يخترقها ويمارسَ في سبيلِ ذلكَ مغامرةً وأيَّ مغامرة؟ وإذا لم يعرفِ الإنسانُ نفسه فما الذي يستطيعُ أن يعرفهُ بعدَ ذلك؟

كلُّ من يشكو أنَّ الكبر مهيمنٌ عليه وأنهُ غيرُ قادرٍ على التحرر منه فمعنى ذلكَ أنهُ يشكو من أنهُ لا يعرفُ نفسهُ حقَّ معرفتها، ذلكَ بأنَّ الإنسانَ إذا عرفَ نفسه عرفَ أنهُ لا يملكُ شيئاً قط.. فبمَ يتكبر؟ إذا عرفَ الإنسانُ نفسه عرفَ أنهُ لا يملكُ أيَّ قدرةٍ تتحكم بذاته ولا يملكُ أيَّ قدرةٍ تتحكمُ بالأرضِ التي يمشي عليها، ولا بالسماءِ التي تستظلُّهُ ويمشي تحتها. لا يملكُ أيَّ قوةٍ تتحكمُ بشيءٍ من مظاهرِ الكونِ المحيطِ به، بل هوَ لا يملكُ أيَّ قدرةٍ تتحكمُ بذاتهِ هوَ، فإذا عرفَ الإنسانُ هذا من حقيقتهِ فإنَّ التكبرَ يغدو لوناً من أسوءِ ألوانِ السكر، والإنسانُ السكرانُ محجوبٌ عن عقله، ومن ثمَّ فهوَ ليسَ أهلاً للعقاب وللحوارِ وللحديثِ أوِ النقاش.

من أرادَ أن يتخلصَ منَ الكبرِ الذي يهيمنُ عليه فليسَ عليهِ إلا أن يقفَ أمامَ مرآةِ ذاته، ولقد قلتُ أكثرَ من مرة: إنَّ الإنسانَ يتصفُ بالعلم لكنَّ هذا الإنسان ليسَ لهُ أيُّ فضلٍ في غرسِ أيِّ علمٍ منَ العلومِ في عقله، وعما قريب سيذهبُ هذا العلمُ منهُ ويجهلُ بعدَ علمٍ وينسى بعدَ برهة، والإنسانُ حقاً يتصفُ بالقدرة، ولكنَّ الإنسان لم يبدع هذهِ القدرةَ باختراعٍ منه، ولم يحشُ كيانهُ بالقدرةِ بطاقةٍ ذاتيةٍ لديه، وإنما وجدَ القدرةَ تكاملت بالتدريجِ في كيانه، وعما قريبٍ سيجدُ أنَّ هذهِ القدرةَ تودعهُ إلى غيرِ رجعة، وهكذا ككلِّ الصفاتِ التي يتصف بها الإنسان ليسَ لهُ أيُّ دخلٍ في جذبها إليه، ولن يكونُ لهُ أيُّ دخلٍ في إبعادها عنه، والإنسانُ مهما نظرَ إلى الكونِ الخاضعِ له، ومهما أُخذَ بهذا الخضوع، فأسكرهُ هذا التسخيرُ

بادئ ذي بدء -مهما أسكرتهُ هذهِ الصورة بأولِ مرة- إن هوَ رجعَ إلى وعيهِ وعقله، رأى أنهُ لا يملكُ أيَّ سبيلٍ للتكبرِ على هذا الكونِ الذي سُخِّرَ لهُ أبداً.

إنَّ الإنسانَ قد يمشي وهوَ يضربُ بقدميهِ الأرض، إشعاراً وتعبيراً عن أنهُ امتلكَ ناصيةَ هذهِ الأرض وامتلكَ كلَّ ما فيها من حبٍّ وخير، وأنهُ قادرٌ على التصرفِ بها كما يتصرفُ لاعبُ الكرةِ بالكرة، ولكن لو تأملَ في الحقيقة لوجدَ أنهُ سكران يهذي في هذا التصور، ولو أعجزهُ أن يعلمَ هذهِ الحقيقة فإنَّ آياتٍ في كتابِ اللهِ تذكرهُ بها، قالَ اللهُ عزَّ وجل: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾.

وما أحسبُ الإنسانَ المتكبر والذي يلتفتُ بينَ الحين والحينِ إلى شيءٍ من كتابِ اللهِ، ما أحسبهُ إلا وقد وقفَ عندَ هذهِ الآية وامتصَّ منها عواملَ سكرهِ وكفره؛ إذ وقفَ عندَ هذهِ الآية ولم يتابع: ﴿هُوَالَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا﴾، لماذا لا أتكبرُ على الأرض التي ذلّلت تحتَ قدميّ؟ ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾. ولكن لماذا لا تتابع ولماذا لا تصغي إلى الكلامِ الذي يليه الذي جاءَ إيقاظاً للسكرانِ الذي يشبهُ سكرك؟ ﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ، أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾. فإذا سكرَ المتكبر من أجلِ أنَّ اللّهَ سخرَ لهُ الأرض بتجاويفها الداخلية وبخيراتها الظاهرة فليستدرك وليتابع وليقرأ ما بعدَ ذلكَ من بيانِ اللهِ سبحانهُ وتعالى، فهوَ خيرُ ما ينقذهُ من سكره وحمقه: ﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ﴾؟ ءأمنتم هذا الإله العظيم الذي ذللَ لكمُ الأرض أن يخسفَ بكمُ الأرضَ فإذا هيَ تمور؟ صحيحٌ أنَّ اللهَ تعالى ذللها لكم، لكن منِ الذي أعطاكَ الضمانة أنَّ هذهِ الأرض ستبقى مطواعةً لك ما أصدرتَ إليها أوامركَ البشرية؟ منِ الذي قالَ لكَ هذا؟ ومنِ الذي أمنكَ ضدَّ أن تتفتحَ الأرض أفواهاً فاغرةً فتبتلعَ وتبتلعَ الملايينَ من أمثالك؟ ﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾؟ إذا بها تهتزُّ ذاهبةً آيبةً، وإذا بكلِّ الأبنيةِ التي فوقها، وإذا بكلِّ المؤسساتِ العلميةِ الشامخةِ من فوقها تحولت إلى لعبِ أطفالٍ تحطمت يميناً وشمالاً وذرتها الرّياح.

لماذا لا يضيفُ الإنسانُ إلى تمتعه بنعمةِ اللهِ تعرّفهُ على قدرةِ الله؟ ومن ثَمَّ تعرّفَهُ على عجزه؟ لماذا ينظرُ الإنسانُ إلى ينابيعِ الأرضِ وهي تفورُ بالماءِ العذبِ الفراتِ فلا يتذكرُ إلا طَوفتَهُ يومَ بحثَ عنِ الأرضِ و نبشَ دخائلها؟ ولا يعلمُ طاقتهُ إلا يومَ تعلَّمَ هندسةَ الرّيّ؟ لماذا لم يتذكرْ أنّ اللهَ هو الذي أعطاهُ هذهِ

المقاييس؟ ولماذا لم يتذكرْ أنّ اللهَ عزّ وجلّ هو الذي فجّرَ الأرضَ مياهاً وأنهاراً وكساها خضرةً ورياحين؟ لماذا وهي تتمةُ العلمِ الذي يتعلّمه؟ لماذا تعلّم من العلمِ خمسَ مسائلَ وأعرضَ عن مئاتٍ من المسائلِ الأخرى؟ لماذا؟

لو أنّهُ تعلّمَ العلمَ كلَّه ولم يقفْ عندَ أرباعِه أو أقلّ من أرباعِه لَتخلّص من كِبرِه، و لتخلّص من فجورِهِ و عنادِه، ولكنّ في الناس من لا يعلمون الحقيقةَ إلا بعدَ أن يأخذَهمُ اللهُ بسياطِ التأديب، إلا بعدَ أن يأخذهمُ اللهُ عزّ وجلّ بسياطِ المصائبِ، إنّ في الناسِ من لا يتخلّصونَ من كِبريائهِم إلا بعدَ أن تمتدّ ألسنتهُم يلهثونَ بها من عطشٍ وظمأ، يبحثونَ عن المياهِ الغائرةِ فلا يكادونَ يلحقونها، يبحثونَ عن الأنهرِ الّتي جفّت فلا يكادون يجدونَ في تجاويفها و شقوقِها جرعةَ ماءٍ أو شراب، في الناسِ من لا يتأدّبون إلا إذا أخذهمُ الله عزّ و جلّ بسياطِ التأديب، هذا الإنسانُ الذي يتكبرُ تحتَ سماءِ الله عزّ وجلَّ وقدِ اطمأنّ إلى أن الكونَ كلّه مسخرٌ له، الغلافُ الجويّ يحيطه بحصنٍ دائبٍ دائمٍ ضدّ كلّ شرّ، وما وراء ذلكَ.. إن هو إلّا مخلوقاتٌ تسرحُ لخدمةِ هذا الإنسان. يسيرُ مطمئنّاً، يتكبّرُ بقدميهِ إذ يضربُ بهما الأرضَ ساعةً، ويتكبّرُ على السّماءِ برأسهِ إذ يشمخُ به ساعةً أخرى. ألا يذكرُ هذا الإنسانُ قرارَ اللهِ سبحانهُ وتعالى إذ يقول: ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾؟ تعلّمت أن الغلافَ الجويَّ وقايةٌ لكَ من النّيازك، فهلّا تعلّمتَ أنَّ ربَّ هذا الغلافِ الجوّيِّ والنّيازكِ عندما يشاءُ يجعلُ هذه النيازكَ تخترقُ هذا الغلافَ الجوّيَّ إلى هذا الكوكب؟! لماذا لم تتعلّم حقيقةَ العلم؟ لماذا؟

الإنسانُ الذي يتباهى بقدرتهِ إمّا أنّه يتباهى بطاقةٍ مكتنَزَةٍ في كيانه معرضاً عن معرفةِ جذورِ هذهِ الطّاقة. وإمّا أنّهُ يتباهى بجندٍ يسوقهم كما يشاء، ويقودهم كما يريد. وإمّا أنّهُ يتباهى بأحلافٍ ينتمي إليها، بقوىً أجنبيّةٍ أو عالميّةٍ أعانتهُ ذاتَ يوم، وأخرجتهُ من كمين، ونفضت عنهُ الغبار، فأخذَ يتكبّرُ فوقَ الأرض، ويتصوّرُ أنّهُ القويُّ الذي لا يدركُ قوّتهُ بعد.

هلّا تابعَ هذا الإنسانُ المعرفة؟ وهلّا تابعَ السّعيَ إلى معرفةِ ذاته؟ وهلّا تابعَ تلاوة هذهِ الآياتِ العظيمةِ فأصغى إلى سؤالِ اللهِ ليجيب: ﴿أَمْ مَنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾؟! سؤالٌ يُطرَح، وعلى العالِمِ المتكبّرِ بعلمهِ أن يجيب: ﴿أَمْ مَنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ

لَكُمْ﴾؟ سواءٌ كانَ هذا الجندُ القوّةَ المكتنزة بينَ جوانحك، وسواءٌ كانَ هذا الجندُ الجندَ الذي تسوقهُ إلى ما تريد، وسواءٌ كانَ هذا الجندُ أحلافاً من أممٍ ودولٍ تتباهى بانتمائكَ إليها وعبوديّتكَ لها.

قل لي: من هو هذا الجندُ أيّاً كانَ نوعهُ الذي يستطيعُ أن ينصركَ إذا حجبَ اللهُ عنكَ الماء؟ سؤالٌ يفيضُ بالتّحدّي، موجّهٌ إلى كلِّ من يعانونَ من التّكبّر، بل كلِّ من يسعدونَ بكبريائهم. ﴿أَمْ مَنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ﴾؟ عندما يحجبُ اللهُ عنكَ نصرهُ لا توجدُ قوّةٌ مهما امتلأت بها الأرضُ ومهما فاضت بها السّماءُ تستطيعُ أن تنصركَ يومئذ، وليجرّب من شاءَ أن يخالفَ هذهِ الآية. وليمدَّ من شاءَ من النّاسِ يدهُ إلى من شاءَ من الأمم، وإلى من شاءَ من القوى، وإلى ما شاءَ من القوى، ناسياً الباريَ سبحانهُ وتعالى، ناسياً من بيدهِ الملكُ كلُّه، ثمَّ ليُريني كيفَ سيأتيهِ النّصرُ المحتوم؟ بل كيفَ سيتحقّقُ المحالُ الذي لا يمكنُ أن يتحقّق؟

تتباهى بغناك، تتباهى بأنّكَ تملكُ ما لا يُحصى من المال، وما لا يُحصى من القيَمِ والمنافع، من الذي أعطاك؟ ومن الذي ضمنَ لكَ أن يبقى هذا المالُ محصّناً في كيانكَ أو في جذوركَ أو في جيشك؟ ومن الذي أنبأكَ أنّكَ لن تبيتَ ليلتكَ هذهِ لتصبحَ وأنتَ فقيرٌ مُدعِق؟ إن كنتَ في شكّ، فهلّا وقفتَ عندَ تتمّةِ هذهِ الآية: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ۚ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾؟

كيفَ يشكو الإنسانُ أنّهُ غيرُ قادرٍ على التّخلّصِ من كبرهِ وهو لم يقف عند مرآةِ ذاته لحظةً واحدة، لنفضَ عن كاهلهِ غبارَ كبريائهِ كما ينتفضُ العصفورُ من بقايا قُذُراتٍ علقت بجناحه بلحظةٍ واحدة.

لو أدركَ الإنسانُ حقيقةَ ذاتهِ وحقيقةَ الكونِ المسخّرِ له، لمرّغَ وجههُ ورأسهُ على أعتابِ العبوديّةِ للهِ سبحانهُ وتعالى، ولعاشَ وهوَ يستغفرُ من بقايا أوهامِ كبريائه. ولكن لماذا لا نستعينُ على هذا بقراءةِ كتابِ الله؟ سورةُ الملكِ من المنجياتِ التي وردت فيها أحاديثُ كثيرة. لقد كانَ المصطفى صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذا أوى إلى فراشهِ لم يغمض عينيهِ حتّى يتلوَ هذهِ السّورة، يتأمّلُها، ويتدبّرُها، ويملأُ قلبهُ ونفسهُ بما شاءَ من معانيها، ثمَّ يسلمُ بعدَ ذلكَ عينيهِ للرّقاد.

أينَ نحنُ من سنّةِ رسولِ الله؟ أينَ نحنُ من الاصطباغِ بهذا الذي كانَ يصطبغُ بهِ رسولُ الله؟ لو فعلنا ذلكَ إذاً لتخلّصنا من الكبر، ولعشنا سعداءَ لا أقولُ بالتّواضعِ، بل سعداء بالوقفةِ الذليلةِ المهينة على أعتابِ الله.

أقولُ قولي هذا وأستغفرُ اللهَ العظيم..



١٢١- فويل للقاسية قلوبهم | ١٩٩٤/٠٤/٢٢

إن في الناس المسلمين اليوم من قد أعرضوا عن الكثير من لباب الاسلام وجوهره وحقائقه، ثم لحقوا بالكثير من مظاهره ومتمماته وثمراته، وهؤلاء الذين نسوا أو تناسوا متجاوزين لباب الإسلام وحقائقه إلى الكثير من ثماره ونتائجه وآثاره ومكملاته، قد وقعوا من ذلك في مغبة بلاء كبير، وما أظن أن حالهم سيصلح إلا إن رجعوا فعرفوا الإسلام بدءً من جوهره ونهايةً عند محسّناته وآثاره ومكملاته، فتمسكوا منه بالجوهر واصطبغوا منه باللباب، ثم انتقلوا بعد ذلك ليتفاعلوا مع الآثار والنتائج والثمرات.

إن الإسلام الذي ابتعث الله به الرسل والأنبياء جميعاً، ثم ختمهم بخاتم الرسل والأنبياء سيدنا محمدٍ عليه الصلاة والسلام، إنما يتمثل في حقيقة كبرى هي العبودية لله سبحانه وتعالى؛ ولا تتجلى العبودية لله عز وجل إلا في يقين يهيمن على العقل، وفي تأثرٍ يصطبغ به الوجدان. وتأثر الوجدان بحقائق العبودية لله عز وجل إنما يتجلى في التبتل والتذلل للمولى والخالق الأوحد سبحانه وتعالى، وهيهات أن يتحقق التبتل اصطناعاً.. وهيهات أن يتحقق التذلل والانكسار لله سبحانه وتعالى تكلفاً، وإنما معين ذلك خشية القلب والرقة التي تنتاب الفؤاد عند ذكر الله سبحانه وتعالى؛ أي عند تذكر صفات الخالق سبحانه وتعالى، عند تذكر صفات جبروته، عند تذكر صفات كبريائه، عند تذكر صفات كرمه وعطائه، عندما يقف الإنسان من آي الكتاب المبين على تلك المشاهد التي تبرز سطوة الله سبحانه وتعالى وكبريائه وقدرته التي لا تحد، وقبضته التي تقع الكائنات كلها في داخلها، هيهات أن يتحقق التبتل الذي يأمر به الله عز وجل، والذي هو جزءٌ لا يتجزأ من العبودية التي هي جوهر الإسلام، هيهات أن يتحقق التبتل تكلفاً وتظاهراً واصطناعاً، إنما يتحقق ذلك بواسطة معينه الطبيعي، والمعين الطبيعي لذلك إنما هو خشية الفؤاد ورقة القلب أمام تذكر المولى سبحانه وتعالى. فأين هم الذين يصطبغون بهذه العبودية تبتلاً وتضرعاً؟ أين هم الذين يصطبغون بهذا التبتل رقة وخشية تنتاب الفؤاد وتأخذ بمجامع النفس؟

إنني أنظر فأرى الكثرة الكاثرة من المسلمين ينتشون للكلمات الحماسية النيرانية التي يصغون إليها، ويعرضون ولا يتفاعلون قط مع تلك المشاهد الأخّاذة في كتاب الله سبحانه وتعالى، أو مع ذكر الله

سبحانه وتعالى الذي ينبغي أن يأخذ بالألباب، ويهيمن على مجامع النفوس. كم رأيت وأرى أناساً يبحثون عن أماكن الطرب والنشوة عندما يصغون إلى ما يبعث في كيانهم الحماسة. الحماسة لأمر ما، الحماسة للتوجه إلى شيءٍ ما، حتى إذا ذكّر هؤلاء الناس بالله عز وجل، وذكروا بالكثير من صفاته وآلائه ومظاهر سطوته وجبروته، رأيتهم أعرضوا وتشاغلوا أو ذهلوا عن هذا كله. وأعود لأتسائل: أهذا هو الإسلام؟ أهؤلاء مسلمون عندما يركنون إلى أثر من آثار الإسلام ثم يعرضون عن جوهر الإسلام ولبابه؟!

وكيف أتصور أنني مسلم قد طبق ما قد أمر الله عز وجل به من لباب الإسلام وجوهره، ولا أعلم للتبتل معنى في حياتي وقد قال الله عز وجل: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾، بل كيف أكون مسلماً كما أمر الله وكما وصف الإسلام، وإن التبتل لا يمكن أن يتحقق إلا من خلال رقة قلب، وأعود إلى قلبي فأجده كصخر قد قدّ من جبل، وأنظر وأصغي إلى ما يتلى من كتاب الله عز وجل فأجدني أتشاغل عنه إن بالفكر أو بالقول، والعجب العجاب أني أتشاغل عن هذه الآيات التي تذيب الحشاشة والفؤاد بالكثير من حديث الإسلام، أتشاغل عن هذه المشاهد الأخاذة بالحوار حول ما ينبغي أن نفعل للإسلام. أليس من أكبر الأخطار المحدقة بنا أن يؤول إسلامنا إلى هذا المآل؟ ثم كيف يكون الحال وكيف ينبغي أن ننظر إلى أنفسنا وفي أي ميزان ينبغي أن نضع أنفسنا عندما نقف أمام قول الله عز وجل وهو يخاطب بني إسرائيل بل ثلة كبيرة من بني إسرائيل قائلاً: – وهو يحدثهم عن أكبر جريمة وقعوا فيها وأكبر سوء مصير اندلقوا إليه – يقول لهم الله عز وجل: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾.

كيف أضع نفسي في ميزان الإسلام وأنا أعود إلى قلبي فأجده نظراً إلى هذا الذي يصفه الله عز وجل يعجبني من الإسلام الحديث الذي يبعث على الحماسة، ولا يعجبني منه ما يدعو إلى التبتل ويذيب القلب انكساراً لله عز وجل؟ كيف أعد نفسي مسلماً وهذه هي حالي؟ وأنا أصف من نفسي نموذجاً أيها الإخوة، ولسوء الحظ هذا النموذج كثير وكثير وكثير.

بل إنني وقفت أمام هذه الفقرة من آية في كتاب الله سبحانه وتعالى وكأني لم أقرأها من قبل، وعدت لأسأل نفسي: أين أقع أنا من هذا الذي يقوله الله سبحانه وتعالى؟ ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ

اللَّهِ﴾. لم أقرأ في كتاب الله عز وجل آية يبعث فيها الله ويرسل الويل إلى فئة من العصاة ولا إلى فئة من الجانحين ولا إلى التائهين أو الضآلين، لكني رأيت هذا الويل تبعثه آيات في كتاب الله عز وجل بل هذه الفقرة من كتاب الله عز وجل على أولئك الذين مرضوا بقسوة القلب، فويل للقاسية قلوبهم.

كيف أستطيع أن أتحرز عن هذا الويل الذي يتمطر من قبل الله عز وجل على كثير من المسلمين القاسية قلوبهم؟ كثير منهم مسلمون. وما أكثر ما ترى مسلماً يتفلسف بلسانٍ إسلامي أخاذ، ويعاني من قلب كالصخر؛ يذكر بالله فلا يندى له عين.. يذكر بعذاب الله عز وجل فلا يهتز منه جانب من فؤاد.. ولكنك إن حدثته عن الأمور الأخرى عن الأنظمة عن الأمور الحركية وجدته اهتاج ووجدته قام وثار وقعد، ووجدته تفاعل معك تفاعلاً كبيراً. ولكن ردد معه تلك الآية التي انخلع لها لب فضيل بن عياض في يوم من الأيام تجده لا يتحرك أمامها قط: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.

أنا أصف واقعاً أليماً كلكم يعلمه، وكلكم يشاهده، وعليكم أن تتبينوا خطورة ما نحن فيه وخطورة ما نحن آيلون إليه من ذلك، فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله لا يمكن للمؤمن إذا ذكر الله إلا أن يتفجّر فؤاده رقة وخشيةً لله عز وجل.

اجعل من هذا مقياساً لصدق إسلامك وإيمانك، فإذا رأيت نفسك تعاني من قسوة قلب فاعلم أنك مريض بمرض خطير، وأسرع قبل نفاذ الأجل، وقبل ذهاب الفرصة، أسرع لتدارك نفسك بعلاج، كما يقول الإمام الغزالي وكثير من الربانيين.

أيها الإخوة:

إن إسلامنا ينطلق من هذا التبتل الذي ينطلق من رقة القلب هذه، ينطلق من خشية الفؤاد، ولم يقل سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عبثاً ولا مبالغاً فيما رواه الترمذي وحسّنه وصححه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ﴿لاَ يَلِجُ النَّارَ رَجُلٌ بَكَى مِنْ خَشْيَةِ اللَّه حَتَّى يَعُودَ اللَّبَنُ في الضَّرْعِ﴾ بكاءً حقيقياً لا تصنع فيه ولا تكلف ولا نفاق ولا رياء بكى من خشية الله عز وجل لن يدخل النار قط إلا

إذا أمكن أن يعود اللبن بعد ما استحلب إلى الضرع الذي أُخرج منه – وهو لا يمكن – ليس في هذا من مبالغة.

ولعل في الناس من يعجب أو لا يصدق أو ربما يغص بالانتقاد على هذا الكلام فيقول: أمعقول أن يمر مسلم في حالة تنتابه فيها خشية فبكاء من خشية الله، ثم يأخذ من ذلك وحده براءة من النار مهما فعل ومهما عصى ومهما ارتكب من موبقات؟ أيعقل هذا؟ نعم.. يعقل هذا ولكن لا كما تفهم أنت يا من ابتلاه الله بقسوة القلب.

إن ما قد عناه سيدنا رسول الله من هذا، أن الفؤاد الذي يتمتع برقة قلب دفعت صاحبها إلى البكاء من خشية الله عز وجل، هذا الفؤاد سيقف سدّاً منيعاً بين صاحبه وبين ارتكاب الضلالات والانحرافات، قلب رقيق أُخذ وذاب من خشية الله سبحانه وتعالى قد يعود إلى شأنه، ولكنه إذا رأى أن صاحبه اندلق في المعصية تذكر سخط الله على المعصية والعاصي، فعاد هذا الفؤاد الرقيق إلى هيجانه إلى رقته إلى خشيته، وحمل ذاك صاحبه إلى أن يندم فيستغفر فيتوب إلى الله، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له.

رقة القلب خشية الفؤاد ضمانة – وأي ضمانة – لأن لا ينحرف الإنسان عن صراط الله، لا لأن يكون معصوماً أي ضمانة وأية ضمانة لعودته إلى صراط الله كل ما انزلق لرجوعه إلى الله كل ما تاه وابتعد، ذلك لأن خشية فؤاده تثير المخاوف واللواعج بين جنبيه، ومن ثمّ فهو يندفع آناً لا مآلاً إلى التوبة النصوح الصادقة مع الله سبحانه وتعالى، قلب أكرمه الله سبحانه وتعالى بالخشية سيقف في طريق صاحبه عندما يريد أن يسير إلى معصية. فإن غالب صاحب المعصية قلبه وقفز فوقه واجتاح ليذهب فيرتكب تلك المعصية فإن هذا القلب سرعان ما يتحول إلى بركان يتفجر ألماً وندماً، وهذه هي العبودية الصادقة لله.

ولكن حدثني عن مآل إنسان ابتلي بقسوة القلب. ماذا عسى أن تفيده الركعات وركعاته مفصولة عن بكاء قلبه؟ حدثني عن إنسانٍ ابتلي بقسوة القلب ماذا عسى أن تفيده تلاوة لآيات من كتاب الله أو إصغاء إلى بعض من هذه الآيات وإن خاطره سائح ومنتشر في أفكار وأمور أخرى؟ سواء كانت إسلامية أو غير إسلامية. لا يتذكر من هذا الذي يسمع شيئاً من صفات الله ولا يسري شيء من هذه الصفات إلى طوايا قلبه وحنايا فؤاده بشكل من الأشكال؟

حدثني عن إسلام هذا الإنسان الذي ابتلي بقسوة القلب... كيف يمكن أن يحصن نفسه ضد الحقد الذي شاء الله عز وجل أن يصنفه في أسوأ أنواع المعاصي والآثام؟ حدثني عن من ابتلي بقسوة القلب.. كيف يمكن أن يحصن نفسه عن حب الدنيا وشهواتها وملاذها وحب الشهرة والرئاسة ونحو ذلك؟ حدثني عن من ابتلي بقسوة القلب.. كيف يمكن أن يؤثر أخاه المؤمن بدلاً من أن يستأثر؟ كيف يمكن أن لا ينافسه على مغنم؟ كيف يمكن على أن لا ينافسه على نهاية يزاحمه عليها؟ كيف يمكن أن لا يضع العصي في طريق مصالح إخوانه اعتداداً منه بأنانيته وذاته؟

ألا تعلمون أن في المسلمين كثيرين ممن هم مسلمون وممن هم مصطبغون بظواهر الإسلام، ولكنهم مندلقون إلى هذا وأكثر من هذا، وألسنتهم تتحدث عن الإسلام ونظامه، ولكن المصيبة أنهم يعانون من مرض خبيث، لا ينحط ولا يتوضّع في حنايا الجسد ولكنه يتركز في الروح والفؤاد، ألا وهي قسوة القلب. وأسأل الله عز وجل أن لا يجعلنا ممن قال الله عز وجل عنهم: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم﴾

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.



١٢٢- إياكم واللؤم الذي انحط فيه كثير من الناس | ١٩٩٦/١١/٢٩

إن الأعاجيب في هذه الدنيا كثيرة، ولكن أعجب ما يمكن أن تراه عين أن ترى في الناس أُناساً قد أيقنوا أنهم يعيشون في مملكة الله، ويتقلبون في كنف الله، ويتغذون على مائدة الله سبحانه وتعالى، وتأتيهم النعم تترى من عند الله عز وجل، ويتعرضون في كل لحظة للمصائب التي إن أتت لن تأتي إلا من عند الله سبحانه وتعالى، ومع ذلك فأنت تجدهم يحاربون دينه ويُبعدون الناس عن شرعته ويغرسون أسباب الريبة بالله سبحانه وتعالى في أفئدة عباده. تلك هي الأعجوبة الكبرى التي لا أرى أغرب ولا أعجب منها في هذا الكون.

وقديماً عبّر البيان الإلهي عن العجب من أناسٍ كفروا بالله عز و جل وهم يتقلبون في مملكة الله عز وجل وهم آيلون إلى الله سبحانه وتعالى فقال عز من قائل ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ هذا استفهامٌ تعجبي يعبر به البيان الإلهي عن حالة أناسٍ كافرين جاحدين بالله عز وجل! فكيف بحال من عرف الله وآمن بالله سبحانه وتعالى وأيقن أنّ مبدأه من الله وأنّ مآله إلى الله عز وجل؟! ومع ذلك وقف أو أقام يُناصب دين الله سبحانه وتعالى العِداء!

أجل ما أظن أن هنالك أُعجوبة أغرب من هذه، وإذا كان هذا الكلام حقيقةً منطقيةً سليمة، فما أظن أن هنالك لؤماً أشد من هذا اللؤم.

كثيرون هم أيها الإخوة الذين أعلنوا عن إيمانهم بالله سبحانه وتعالى، وأعلنوا عن انتسابهم إلى هذا الدين الذي ارتضاه الله لعباده شرعةً ومنهاجاً، ومع ذلك فأنت تنظر إلى الواحد من هؤلاء وإذا هو ينتصر لأعداء الله سبحانه وتعالى ويزدري دين الله سبحانه وتعالى وتعاليمه. تنظر إلى الواحد من هؤلاء وإذا هو قد حالف أعداء الله سبحانه وتعالى على الرغم من ما يتصفون به من مهانة، وعلى الرغم من ما يتقلبون فيه من فقرٍ وذل. تجد الواحد منهم قد حالف أولئك الناس، وابتعد عن دين الله سبحانه وتعالى بل أخذ يُناصب هذا الدين العداء بكل ما يملك من وسائل فكرية وسبلٍ عملية.

كيف يمكن أن يتصور الإنسان أن عاقلاً في الناس يتصف بشيءٍ من الإنسانية، ويتصف بشيءٍ من العقلانية، ثم ينحط في هذا الطريق المعوج. بل ينحط في هذا السبيل من اللؤم ولا أعلم أن هنالك سبيلاً أشنع منه لؤماً؟

الإنسان الذي يجد نفسه محاطاً برعاية إنسانٍ مثله، يرعاه، يُجري عليه جراية مالية مستمرة، يعيش على مائدته صباح مساء. هل تتصورون أن واحداً من هؤلاء الناس يتمتع بعقل يعيش على هذا النمط والنعم تترى إليه صباح مساء من هذا الإنسان الذي يجاوره يكرمه ويعطيه ويمده بالنعم المتنوعة.. هل تتصورون أن يقف هذا الإنسان أثناء ذلك فيناصب سيده هذا العداء؟! ويرميه بالصفات الشنيعة ويزدريه ويتعالى فوق نعمه وفوق إكرامه الذي يمده به؟

ما أظن أننا وجدنا في حياتنا، وما أظن أننا سنجد في حياتنا إنساناً بهذا الشكل، مع العلم بأن الإنسان مهما أغدق النعم لأخيه الإنسان فبينهما جامعٌ مشترك من الإنسانية؛ كل منهما يمكن أن يكون نداً لصاحبه. فكيف إذا كان هذا المنعم المتفضل هو الله سبحانه وتعالى؟

ألا ترون أيها الإخوة إلى أناسٍ من أبناء جلدتنا من الذين يعلنون عن انتسابهم إلى هذا الدين ومن الذين يعلنون عن يقينهم بوجود الله عز وجل رباً ويوقنون بأنهم عبيدٌ لله عز وجل، ومع ذلك فإن ديدنهم صباح مساء محاولة تمزيق هذا الدين بكل ما يملكون من وسائل، شأنهم صباح مساء أن يصطنعوا بياض الوجه أمام أعداء الله سبحانه وتعالى، أمام أولئك الذين أبغضهم الله ولعنهم وطردهم من رحمته غير مبالين بأن يُقطعوا مما بينهم وبين الله سبحانه وتعالى الصلات.

هذه الفئة من الناس.. هذا النمط الغريب من البشر لعلكم جميعاً ترونه ولعلكم جميعاً تسمعون بأعمال الكثيرين منهم، والعجب أنهم يجمعون فيما يدعون بين إيمانهم بالله عز وجل وبين لؤمهم تجاه الله سبحانه وتعالى، ولو كانوا كافرين لما تعجبنا مع أن بيان الله سبحانه وتعالى عبر عن العجب العجاب من كفرهم وهم يتقلبون في قبضة الله سبحانه وتعالى.

ونحن نقرأ فيما نقرأ من كلام الله عز وجل بياناً يذيب الإنسان خجلاً، ولكن لو كانت لديه قابلية لخجل. نقرأ قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ

فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ ماذا قال بعد ذلك؟ ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾. لو أنّ إنساناً تكاملت الإنسانية فقط بين جوانحه وتحرر من لؤمه، أصغى جيداً إلى هذا الكلام، لذاب خجلاً من الله سبحانه وتعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾.

أنا الذي كرمتكم، وأنا الذي رفعت لكم شأناً، وأنا الذي أسجدت لكم الملائكة وأمرت إبليس أن يسجد لكم تكريماً وتبجيلاً. واليوم تعرضون عن هذا الذي كرمكم، تعرضون عن هذا الذي بجّلكم، تعرضون عن هذا الذي أسجد لكم ملائكته، وتتخذون عدوكم الذي استكبر عليكم تتخذون منه ولياً من دوني كيف يكون هذا؟ هذا الكلام يوجه إلى كثيرٍ منا اليوم من الله سبحانه وتعالى ولاداعي لكي يذوب هؤلاء الناس خجلاً وحياءً، لا داعي إلى أن يتصفوا بأكثر من إنسانية، ولكن عندما تتساقط معاني الإنسانية من وجودهم، ويتحولون إلى بهائم أو إلى أحط من بهائم، فإن العجب ينتهي عندئذ ذلك، لأنهم يدخلون عندئذٍ في قائمة من قال الله عز وجل عنهم: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾. وعندما تتساقط معاني الإنسانية من الإنسان ويغدو هذا الكائن المخلوق أضلّ وأحطّ من الأنعام، فما معنى العجب عندئذ؟ نعم.. يزول العجب في تلك الحالة، وأعتقد أن هذا هو حل اللغز الذي نراه أمامنا اليوم.

ما أكثر ما نجد صباح مساء أناساً مسلمين – بحسب الظاهر فيما يدعون – دأبهم وديدنهم أن يكونوا عبيداً لأعداء الله عز وجل وأعداء دينه، دأبهم وديدنهم أن يتلقوا الأوامر لا من خالقهم الذي إليه مآلهم، لا.. بل من أعدائهم وأعداء مولاهم وخالقهم سبحانه وتعالى، دأبهم أن يصغوا السمع جيداً إلى التعاليم التي تأتي من العدو المستعمر؛ من العدو الذي أذلهم، من العدو الذي يخطط للمزيد والمزيد من اقتناص حقوقهم؛ يصغون السمع إلى تلك الأوامر ليقولوا لهم ما يقوله العبد الذليل المهين لسيده المطاع الأمين لبيك لبيك.

أما الإله الذي خلق فسوى والذي إليه المآل، والذي بيده كل شيء، والذي لا يتنفس هؤلاء الناس إلا بالقدرة التي يبثها في كيانهم لحظةً فلحظة، أما هذا الإله فيا للعجب، إنهم لمحجوبون عنه.

لكن لا عجب، لأن الله سبحانه وتعالى قد حلل الأسباب وبين الخلفيات.

هذا شيءٌ أيها الإخوة، الشيء الثاني أن الإنسان عندما يجد نفسه أمام هذه الظاهرة، أناس عرفوا الله ثم إنهم يحاربونه، وعرفوا أعداء الله وأعدائهم، ثم إنهم يوالونهم. عندما يجدوا هذه الظاهرة ينبغي عليه أن يعلم أن له وظيفتين اثنتين، ينبغي أن يعلم وقد عافاه الله من أن ينحط إلى هذا الدرك فيكون مثل هؤلاء الذين هبطوا إلى الدرك الأدنى من الذل والمهانة، ينبغي أن يعلم أن له وظيفتين اثنتين:

الأولى: أن يسأل الله العفو والعافية وأن يمعن في التمسك بنقيض هذا النهج المنحط. الوظيفة الأولى أن يعلم كلٌ منكم أن مولاه ربه وخالقه، هذا هو مولانا ولا مولى لنا سواه إطلاقاً. ومن ثم فإن واجبنا أن نصغي إلى ما يقوله لنا هذا المولى، فننفذ أوامره تماماً، وإن اقتضى ذلك أن نضحي في سبيل هذه الأوامر بكل ما يمكن أن تتصوروه من مشتهيات وأهواء؛ تنفذون أوامر الله وتعلنون أنكم على استعداد لتطبيق ما قد أمر، وللترفع عما قد نهى، وإن كان في ذلك خسارة دنيا، وإن كان في ذلك خسارة أمنٍ أو طمأنينة، وإن كان في ذلك تعريضٌ الحياة للهلاك، ولن يقع الإنسان في مغبة شيء من ذلك أبداً وإن لاح له في بادئ الأمر أنه لا بد أن يضحي من أجل أن يظهر صدقه مع الله سبحانه وتعالى.

هذا هو واجبنا.. فهل عسيتم أن تنحرفوا عن هذا الواجب كأولئك اللؤماء، إياكم أيها الإخوة.

اجعلوا ديدنكم أن تعلنوا أمام الله عز وجل أنكم بعيدون عن ذلك الانحطاط الذي يهوي إليه أولئك الذين جعلهم الله أدنى درجةً من الأنعام، ليكن لسان حالكم معلناً أنكم مع الله وأنكم خاضعون لولاية الله الذي أحبكم والذي بجلكم والذي كرمكم، وفسِّروا هذا بتطبيقكم لأوامره وابتعادكم عن نواهيه في حق أنفسكم وفي حق أولادكم وفي حق بناتكم قبل أولادكم الذكور، وأنتم تعلمون جيداً معنى هذا الكلام الذي أقوله لكم أيها الإخوة.

قد تجدون أن أولئك الأعداء يتخذون من بناتكم أوراقاً لربحهم وخسارتكم فاجعلوا أنتم من أولادكم وبناتكم أوراقاً لربحكم ولخسارتهم هذا هو أول واجبٍ ينبغي أن تعلموه.

الواجب الثاني: أن لا نيأس من روح الله وأن نعلم أن الزبد الطافي يضمحل ويزول، وأن الحق والمفيد سيمكث في الأرض. ذلك هو قرار الله. وهل هنالك زبدٌ أكثر جفاءً وأكثر هباءً من الباطل الذي ترونه

والذي نتحدث عنه الآن، وأنتم تقرأون كلام الله سبحانه وتعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾. هذا كلام الله سبحانه وتعالى.

ومن عظيم وباهر حكمة الله أنه يجعل من مخلوقاته الكونية نماذج لحقائقه التشريعية، يرينا الله الزبد كيف يربو بشكل مخيف على وجوه السيول الداهمة، وما هي إلا دقائق حتى يزول هذا الزبد وينمحي وينمحق، وإذا هو لا شيء، والقرار للخير الذي ليلتصق بالأرض ولا يزول. هذا الذي كوّنه الله أمام أبصارنا هو نموذجٌ للحق الذي وضعه الله أمام بصائرنا.

أرأيتم إلى كل هذه المظاهر الزائفة من محاربة دين الله، ومن الكيد إلى الإسلام، ومن السير بمهانةٍ وذل لخدمة أعداء الله سبحانه وتعالى، أرأيتم إلى هذا كله إنه الزبد الطافي، إنه الزبد الذي سيذهب جفاء، ولا والله لا يمكن لشيء من ذلك أن يعلق بذهن إنسانٍ عاقل، ولا يمكن لشيء من ذلك أن يستقر على أرضٍ شاءها الله سبحانه وتعالى أن تكون موئلاً لدينه بشكلٍ من الأشكال، ولو كانت لأيدي البغي ولو كان للعقول المدجلة والخادعة لو كان لها أن تفعل شيئاً لهلك هذا الدين منذ قرون متطاولة، ولاختنقت حقائقه منذ أزمنة بعيدة.

ولكن ها أنتم ترون أن الزمن كلما امتد كلما ازداد هذا الدين جلاء وكلما ازدادت حقائقه نضارة، ينبغي أن نعلم هذا وذاك، ولكن ما ينبغي أن تنسينا الحقيقة الثانية وظيفتنا الأولى، فالله ينتصر لدينه عن طريق الصفوة الصالحة من عباده، فكونوا أنتم هذه الصفوة الصالحة من عباد الله سبحانه وتعالى.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا من خيرة عباده، وأن يوفقنا للسير على صراطه، فاستغفروه يغفر لكم.

١٢٣- معالجة قسوة القلب | ٢٠٠٩/٠٥/١٥

كثيرٌ من الناس يسألونني بين الحين والآخر عن السبب في أنهم لا يجدون لذة العبادة عندما يُقْبِلُوْنَ بها إلى الله عز وجل، يحاولون أن يتمتعوا بالخشوع ولا يتأتَّى لهم ذلك، يحاولون أن تكون مشاعرهم متجهة إلى الله عز وجل في وقوفهم بين يديه ولكن لا يتأتَّى لهم ذلك، وتشرد بهم أفكارهم ذات اليمين وذات الشمال. والجواب أن السبب في ذلك حجاب النعم التي يغدقها الله سبحانه وتعالى على عباده كالقوة التي يتمتعون بها والغنى الذي يكرمهم الله عز وجل به والمعارف والعلوم التي يمتعهم الله سبحانه وتعالى بها، من شأن هذه النعم أن تنسي الإنسان ضعفه، أن تنسي الإنسان عجزه ومخلوقيته ومملوكيته لله سبحانه وتعالى وأن تزجه في وَهْمٍ من الاستقلال بالذات، في وهم من الغنى والقوة الذاتية ومن ثم فإن هذا الذي يقف بين يدي الله عز وجل وقد حُجِبَ عن الله سبحانه وتعالى بهذه النعم ينسى حاجته إلى الله وينسى فقره بين يدي الله عز وجل فما الذي يجعله يخشع وهو يتخيل ويتصور غناه واستقلاله؟ ما الذي يجعله يدرك أنه بين يدي الله وأنه يخاطب الله وأن الله يراقبه وإن النعم التي يكرمه الله عز وجل بها تطوف بالنشوة في رأسه؟ هذا هو السبب، ولكن فما العلاج؟

العلاج أن يعلم الإنسان أنه كتلة من الضعف والعجز وأن الفقر هوية ذاتية موجودة في كيانه وأن النعم التي يتمتع بها أياً كانت إنما هي عوارض تأتي اليوم وتذهب غداً، إن الذي أبرز الإنسان إلى الوجود إنما هو الخالق عز وجل، أوجده عارياً إلا من فقره، تائهاً إلا من ذله، عاجزاً بل جاهلاً إلا بضعفه. إذا أدرك الإنسان هذه الحقيقة وعلم أنها هي هويته دائماً مهما رأى نفسه غنياً ومهما رأى نفسه قوياً ومهما رأى نفسه متمتعاً بالمعارف والعلوم فإن إدراكه لهويته يجذبه إلى الخشوع بين يدي مولاه وخالقه، وانظروا إلى هذا المعنى كيف جسده بيان الله عز وجل في قوله سبحانه وتعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً﴾ [النساء: ٢٨] ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً﴾ أي إن الضعف وُجِدَ مصاحباً لِخَلْقِ الإنسان ولم يأت من بعد الخَلْقِ، وانظروا إلى قوله سبحانه وتعالى: خُلِقَ الإنسان من ضعف، أي كينونته هي الضعف ذاتها، وإنما يريد الباري عز وجل من هذا أن يبين لنا أن نعمة القوة ونعمة العلم والرفاهية والغنى ما ينبغي أن ينسينا كل ذلك الهوية التي خُلِقْنَا بها، ينبغي أن نعلم أن هذه النعم الوافدة إلينا إنما هي

عوارض والعوارض تأتي اليوم كما قلت لكم وتذهب غداً، هذا هو العلاج الذي ينبغي أن يأخذ الإنسان نفسه به، فإن هو فَعَلَ ذلك تخلص من هذه المشكلة التي يشكو منها.

ولننظر يا عباد الله إلى بالغ لطف الله سبحانه وتعالى إذ يبتلي الإنسان بين الحين والآخر بالابتلاءات المتنوعة كالمرض يبعثه في جسمه وكالفقر يبتليه به بعد الغنى وكالضعف يبتليه به بعد القوة والاضطراب يرسله إليه بعد الأمن والطمأنينة، وصدق الله القائل: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الانبياء: ٣٥]، ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾ [البقرة: ١٥٥]، لماذا؟ أين هو مظهر اللطف الرباني في هذه الابتلاءات؟ مظهر اللطف أن مولانا جلَّ جلاله يحب منا ألا نَسْكَرَ بالنعم التي يغدقها علينا وألا تحجبنا هذه النعم عن مراقبته، وألا تنسينا هويتنا أننا مخلوقون من الضعف وآيلون إلى الضعف، كيف السبيل إلى ذلك لو أن كانت النعمة مستمرة دائمة إذا لكانت حاجزاً ولأنستنا هذه النعم هوياتنا وضعفنا ولكن الله عز وجل عندما يبتلي عباده بين الحين والآخر بهذه المصائب التي تعلمون يخفي المال والغنى ليرسل إليه عوضاً عنه الفقر، يخفي ويستل منه العافية ليرسل إليه نوعاً من الأمراض، يستل منه الأمن الطمأنينة ليرسل إليه طائفاً من الخوف والاضطراب لكي يصحو الإنسان بهذا إلى حقيقة أمره وليعلم أن هذه النعم التي تفد إليه إنما هي كما قلت لكم عوارض، والنعم العارضة لا يمكن أن تحل محل الهوية الإنسانية الأساسية.

ربنا عز وجل يقول: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ [النحل: ٧٨]، أي أنك يا ابن آدم ضعيف في كينونته، كتلة تعجز في هويته، أما النعم التي تُسْكِرُكَ بين الحين والآخر فإنما هي عوارض أرسلتها إليك فلا تحجبنك هذه العوارض عن هويتك. إذا علم الإنسان هذه الحقيقة وأدركها لاسيما عندما يجد المحن التي تمتزج مع المنح والنعم فلسوف يزول هذا الإشكال ولسوف لن يسأل هذا الإنسان سؤاله هذا عندما يعلم عجزه. إن كانت النعم مقبلة إليه التجأ إلى الله يسأله أن يستبقيها وإن كانت النعم أو بعضها مدبرة عنه التجأ إلى الله أن يعيدها إليه فهو في كل الأحوال ملتجئ إلى الله عز وجل، هذه حقيقة ينبغي أن نعلمها يا عباد الله.

وإن لأقول لكم إن من العجيب المؤسف أن الإنسان في كثير من الأحيان يحتاج إلى أن يأخذ العظة والدرس من الأطفال الصغار وهو الرجل الكبير الذي يتمتع بالوعي والعلوم والمعارف، أرأيتم إلى الطفل

يمسكه والده من عضديه ويلصقه بصدره ويشرف به على وادٍ سحيق ماذا يصنع هذا الطفل والأب يحتضنه وهو يمسك به؟ إنه يرتجف خوفاً ويرسل إلى أبويه مشاعر الاستعطاف والاسترحام من خلال عينيه إلى أبويه ألا يتركه وأن يظل ممسكاً به وأن يظل متشبثاً به وهو يعلم أنه في حضن أبيه وهو يعلم كيف أن والده يمسكه من عضديه ومع ذلك فهو يعلم أنه عاجز، الطفل يعلم هويته، يعلم أنه لا يملك من أمر نفسه شيئاً، لا يستطيع أن يرد غائلة الأذى عن نفسه إن هو استقل بأمره ولذلك فهو يرسل نظرات الاستعطاف إلى أبيه متشبثاً به في حالةٍ من الازدياد والتعلق الشديد بصدره كي لا يرسله ويتركه، لماذا لا يكون شأننا مع مولانا وخالقنا كشأن هذا الطفل مع أبيه؟

أنا أعلم كما يعلم هذا الطفل أنني لا أملك إن استقللت بأمر نفسي، لا أملك شيئاً من حياتي، لا أملك أي مُقَوِّمٍ من مقومات عيشي، في اللحظة التي يتخلى الله عز وجل فيها عني أتحول إلى لا شيء، فلماذا لا يكون شأني مع مولاي وخالقي كشأن هذا الطفل مع أبيه؟! حتى ولو كانت الحفاوة موجودة مرسلة من الله إلي ينبغي أن أعلم أنني معرض للهلاك، ينبغي أن أعلم أنني لا أستطيع أن أستقل بأمر نفسي شيئاً. هذا هو جوابي لهذا الذي يسألني هذا السؤال.

ولكن إذا كانت قسوة القلب فينا نحن المسلمين قد بلغت مبلغاً تتغلب حتى على هذه الحقيقة التي أبينها لكم فإني أنصح نفسي وأنصح مثلَ هذا السائل بالشيء الذي قلته بالأمس، زُرْ المشافي بين الحين والآخر انظر إلى حال المرضى وهم يعانون من الأمراض المتنوعة المختلفة، تأمل في حال هؤلاء المرضى الذين ذَوَتْ منهم الوجوه وضؤلت فيهم الأجسام، أصغِ إلى الأنين الذي يرتفع من صدورهم وحلوقهم، أصغِ إلى الأوجاع التي تنتابهم والتي يتقلبون في غمارها صباح ومساء، كانوا مثلك في العافية بل أقوى وكانوا يتمتعون بمثل ما تتمتع به من العافية ورغد العيش، سَلْهُمْ عن الكنوز المالية وقيمتها يقل لك كل واحد منهم خُذْ كل ما أملكه من كنوز، خُذْ كل ما أملكه من مدخرات وأَعِدْ إلي نعمة العافية. أليس هذا دليلاً على الإنسان خُلِقَ من ضعف وأنه آيلٌ إلى الضعف؟!

فإن كانت القسوة القلبية ما تزال مصاحبة لك فأضف إلى ذلك زيارة القبور، انظر إلى هذه القبور وانظر إلى الأرض المحشوة بجثث بل بعظام أناسٍ كانوا من أمثالك، كانوا فارهين، كانوا يتمتعون برغد العيش، كانوا محجوبين مثلك بالنعم عن المنعم وانظر إلى ما آل أمرهم، تأمل في الجنائز التي تُحْمَل لتلقى

في الحفر التي أعدت لهم، ربما كان داخل هذا النعش فتاة ذات قامة ميساء وجمال باهر وعينين ساحرتين لماذا آل أمرها إلى هذا الشبح المرعب لماذا؟! ربما كان هذا الذي يمتد داخل هذا النعش ملفوفاً في أكفانه قائداً عظيماً إذا نطق أصغت الدنيا كلها إلى قراره وحكمه، ذو إرادة نافذة، ذا سلطان قاهر، لماذا يستسلم اليوم إلى هؤلاء الذين يحملونه إلى حفرته؟!

تأمل في هذا الذي أقوله لك تعد إلى دارك وأنت تعلم أنك مهما كنت غنياً، مهما كنت عالماً، مهما كنت قوياً فأنت ضعيف وأنت كتلة ضعف وعجزٍ بين يدي مولاك وخالقك سبحانه وتعالى. أليس هذا الدواء كافياً يا عباد الله أليس هذا العلاج كافياً لكل من أسكرته نعمة القوة، لكل من أسكرته نعمة الحكم، لكل من أسكرته نعمة العلم والاكتشافات والرفاهية؟! صدق الله القائل: ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ﴾ [يّس: ٦٨]، غلافان من الضعف، غلاف ضعف انطلقنا منه يوم الولادة وغلاف من الضعف والعجز ننتهي إليه عند الموت. اللهم لا تنسنا فضلك، اللهم اجعلنا إذا وقفنا بين يديك لا نتيه عن ربوبيتك ولا نتيه عن ذل عبوديتنا لك، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.



شكر النعمة والفرح بالمنعم

١٢٤- عطاء الله وفضله.. ما ضمانة استمراره؟؟! | ٢٠٠٩/٠٢/١٣

تعيش أمتنا في هذين اليومين أجواءَ الآية القرآنية العظيمة التي يقول فيها مولانا وخالقنا جل جلاله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الشورى: ٢٨]، فتعالوا نتأمل في بعضٍ من أسرار هذه الآية وإنها لأسرار كثيرة ولكن ما لا يدرك جله لا يترك كله، أولاً قد يقفز إلى ذهن أحدنا السؤال القائل: فلماذا يا رب حبستَ قطر السماء عن عبادك إلى أن تسرب إلى قلوبهم اليأس وداخلتهم مشاعر القنوط وأنت الرب الكريم الذي لا ينقطع رفده عن عباده؟

والجواب يا عباد الله أن الإنسان في حالة الرخاء قلما يعلم مصدر الرزق الذي يأتيه وقلما يعلم أن الأمر كله بيد الله عز وجل وأن الأسباب شكلية لا فاعلية لها، ذلك لأن الإنسان في حالة الرخاء لاسيما إذا فُتِحَتْ أمامه أبواب المعرفة والعلم كثيراً ما يؤلّه معارفه ويؤلّه علومه واكتشافاته فمهما قيل له: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٣] قال إنه العلم وإنها الطبيعة، ومهما قيل له: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ [الملك: ٢١] قال بل إنها الطبيعة والمعرفة والاكتشافات التي وضعنا أيدينا عليها، فإذا جاءت المرحلة التي يتحدث عنها بيان الله في هذه الآية، يحبس عنهم قطر السماء ويستمر هذا الحبس إلى أمد ويجرب هؤلاء الذين أسكرتهم نشوة المعارف والاكتشافات، يجربون حظوظهم وإذا بها لا تستجيب ولا تنجد في وقت الحاجة والضرورة، في هذه الحالة ترتفع الحجب عن بصائر أولئك الذين كانوا يؤلهون علومهم ومعارفهم وعندئذٍ يعلمون الأجوبة الصحيحة الكامنة وراء قول الله سبحانه وتعالى: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾ إنه الله سبحانه وتعالى ويغيب اللجج والعتو اللذان يشير إليهما بيان الله بقوله: ﴿بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾، فمن أجل هذا يشاء الله عز وجل أن يحبس قطر السماء إلى أمد كي ترتفع الحجب وكي يذل المتعالم وكي يعود التائه فيعلم الجميع أن الله هو الرزاق، هذا هو الجواب عن هذا السؤال ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ [الشورى: ٢٨] تلك هي الحكمة.

ثم تعالوا فلنقف أمام قوله: ﴿وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ لماذا عبر عن قطر السماء بالرحمة وإنه لغيث يهمي من السماء ومطر ولكن البيان الإلهي كنَّى عن ذلك بالرحمة؟ لكي نعلم أن الإنسان كان ولا يزال كفوراً، الإنسان كان ولا يزال يركن إلى لهوه، يركن إلى رعوناته، ينهاه الله عز وجل عن الظلم والتظالم ولكنه لا يزال ينحط فيهما، يأمره الله سبحانه وتعالى بأن يسهر على ميزان العدل وأن يعطي لكل ذي حقٍّ حقه ولكنه يظل تائهاً عن هذا الذي يأمر به الله عز وجل ومع ذلك فإن الله سبحانه وتعالى يأمر سماءه فتمطر ويأمر أرضه فتنبت، ومن أجل هذا سمى البيان الإلهي قطرَ السماء رحمة، والرحمة إنما تكون لمن لا يستحقها إنما تأتي بسبب صفات الخالق عز وجل ومن أولى صفاته الكرم والصفح والمغفرة، ثم تعالوا نقف أمام قوله: ﴿وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ وهو وحده وليُّكُم الذي يعطيكم عندما يشاء ويمنع عندما يشاء، إذا أعطى فلا ممسك لعطائه وإذا منع فلا معطي لما قد أمسك، هو وحده الرزاق وهو وحده الذي يعطي وهو الذي يمنع، هذا معنى قوله: ﴿وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾،

ولكن متى يظهر للعبد معنى قوله عز وجل: ﴿وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾؟ عندما يحبس الإله الحكيم العادل الرحيم قطر سمائه عن عباده أمداً من الزمن ويتبين للقاصي والداني ألا معطي إن أمسك الله وألا ممسك إن أعطى الله سبحانه وتعالى، لما تبينت هذه الحقيقة عندما ابتلى الله عز وجل عباده بهذا المنع الذي مررنا به تبين لنا معنى قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾.

أرأيتم إلى هذا الذي يستبين في خطاب الله عز وجل، إنه مزيج من الحكمة ومزيج من الرحمة ومزيج من تثبيت العقيدة الحقيقية بين جوانح الإنسان أن يعلم أن الله لا غيره هو المعطي وهو المانع وهو الولي وهو الرازق، والآن يا عباد الله ما هي الضمانة لأن يستمر عطاء الله وفضله، ما هي الضمانة لأن تستمر رحمة الله عز وجل تهمي إلينا من سمائه؟ ضمانة ذلك تتمثل في أمرين اثنين يا عباد الله لا ثالث لهما، أما الأول فشكر الله سبحانه وتعالى على نعمه، ولست أعني بالشكر الكلمات التقليدية التي تعوَّدَتْ عليها الألسن وليس هذا ما يعنيه بيان الله عز وجل عندما يقول: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ إنما المراد بشكر الخالق سبحانه وتعالى أن نقف عند أوامره وأن نُسَخِّرَ نعمه للوظيفة التي قد خُلِقْنَا من أجلها، شكرنا لله

عز وجل يتمثل في صدق التوبة والإنابة إلى الله عز وجل، يتمثل في أن نقلع عن التظالم وقد نهانا الله سبحانه وتعالى عن ذلك، شكر النعمة يتمثل في أن نكون أعيناً ساهرة على العدالة بكل معناها وعلى كل مستوياتها، شكر الله سبحانه وتعالى يتمثل في الترفع عما حذَّر ونهى فإذا سارت الأمة على هذا النحو فقد تمثلت فيها حقيقة الشكر وإن كان لسانها صامت عن الكلمات التقليدية التي تعرفون، هذا هو الجزء الأول من الضمانة.

فتعالوا قبل أن ننتقل إلى الجزء الثاني نجدد البيعة مع الله أن لا نتظالم وأن نكون كما أمر رقباء على أنفسنا وعلى مجتمعاتنا أن نحقق ميزان العدالة كما قال: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ، أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ [الرحمن: ٧-٨]، ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ﴾ أي وزن العدالة، ﴿الْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن:٩]، تعالوا نبايع الله عز وجل أن ننفذ ما قد أمر، وأحب أن أقول لكم ما قد ذكَّرْتُكُم به من قبل يا عباد الله حقوق الله مبنية على المسامحة، ما أكثر ما يغفر الله للعبد إن سها عن صلاته أو سها عن صيامه أو عن ذكره أو عن حجه ولكن حقوق العباد مبنية على المشاحة ومن أجل هذا يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم: ﴿من لا يَرْحَمْ لا يُرْحَم﴾، وهذا ينطبق على الفرد كما ينطبق على الجماعة، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء، هذه حقيقة تمثلوها يا عباد الله، وإن تمثلتموها عرفتم الجواب عن أسئلة كثيراً ما تتردد على بعض الألسن، لماذا يكرم الله بعض الأمم التائهة عن حدود الله وأوامره برزق السماء يهمي إليهم دائماً؟

الجواب هذا الذي ذكرته لكم، حقوق الله مبنية على المسامحة ولكن حقوق العباد مبنية على المشاحة، الجزء الثاني من الضمانة استمرار الالتجاء إلى الله، استمرار التضرع على أعتاب الله، هي وظيفة الإنسان إن في حالة الرخاء أو في حالة الشدة، في حالة الرخاء يقود الإنسان إلى الالتجاء إلى الله خوفه من أن تزول النعمة، الله الذي أكرمنا بنعمه التي لا تحصى يوشك أن يستلبها منا في كل لحظة، إذاً ينبغي أن نلتجئ إليه ونقول يا رب أبق هذه النعم التي أكرمتنا بها لا تقطع رفدك عنا، وأما في حالة الشدة فالذي يقود الإنسان إلى الالتجاء إلى الله عز وجل ضعفه عن تحمل هذه الشدائد، حاجته إلى أن يكرمه الله عز

وجل بالراحة لأن الإنسان ضعيف كما أعلن بيان الله سبحانه وتعالى، هذه هي وظيفة الإنسان في كلتا حالتي الشدة والرخاء، ولعلنا جميعاً نقرأ ونكرر قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ، فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:٤٢- ٤٣].

نسأل الله عز وجل ألا يبتلينا بقسوة القلب وألا يزين لنا الشيطان سوء فعالنا يا عباد الله، وعندما أقول هذا هو الجزء الثاني من الضمانة ينبغي بل يجب أن أقول لكم إن واجب الالتجاء إلى الله ليس وقفاً على فئة دون أخرى وإنما هو واجب أناطه الله بأعناق عباده جميعاً فانظروا هل هنالك من هو مستثنىً من شرف العبودية لله! ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً، لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً، وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً﴾ [مريم: ٩٥]، إذاً كل من قد اصطبغ بصبغة العبودية لله عز وجل لابد أن يأوي إلى ركن ركين من الالتجاء إلى الله، من الانكسار والتضرع أمام باب الله مهما كانت مرتبته، مهما كانت مزيته هاتان هما الضمانتان لبقاء هذه النعمة واستمرارها، والله عز وجل إذا وعد فوعده صادق لا يلحقه خلفٌ أبداً، والله عز وجل لا يجرب ولكنها الحقيقة التي نقرؤها في بيان الله عز وجل ونُذَكِّرُ اليوم أنفسنا بها.

عباد الله نقطة الضعف في حياة الإنسان حتى ولو كان مؤمناً أنه إذا تمتع بالنعم الكثيرة الوفيرة من هنا وهناك نسجت له هذه النعم حجباً تحجبه عن الله وجعلته يسير في مدارج الطغيان ولا تدري إلى أي مدىً تسير به هذه النعم إلى الطغيان والبغي ونسيان المنعم المتفضل فلا تبطرنكم النعمة ولا تحجبنكم النعمة عن المنعم.

ويا عجباً لحكمة الله عز وجل يضعنا من هذه الحقيقة أمام عبرة في عا لم النمل، انظر إلى عا لم النمال وكيف يطالعك من هذا العا لم مرحلتان اثنتان، المرحلة الأولى المرحلة التي يتمثل فيها الضعف لهذا المخلوق الضعيف، الضعف والاستكانة والتواضع والسير دون توقف ودون كللٍ أو ملل للعمل الذي أُنيط بهذا العا لم، يعيش بين الأتربة وبين شقوق الحجارة والصخور راضياً متواضعاً بسيطاً ذليلاً ويأتيه رزقه الذي قد

ضمنه الله لكل المخلوقات، حتى إذا نظر النمل فوجد أن جناحين قد ظهرا في جنبيه وتأمل فوجد هذه النعمة التي لم يكن يتوقعها طافت برأسه نشوة الطغيان، طافت برأسه نشوة البغي فلم يعد يقتنع بالأرض مهداً له وسبيلاً لرزقه، لم يعد يقتنع بالشقوق التي كان يأوي إليها وأصبح يصر على أن يتخذ مطية له من أجواء الفضاء فما الذي يحصل عندئذٍ؟ يحصل أن يتحول هذا المخلوق الضعيف الذي خُدِعَ بالقوة الشكلية التي يتمثل بها يتحول إلى رزق للطيور.

يا عباد الله عبر الله كثيرة والمعاني التي ينبغي أن نقف عندها لنعرف هوياتنا وفيرة، تعالوا نقف في محراب العبودية لله فقد شردنا طويلاً عن بابه، تعالوا قبل فوات الأوان نلتصق بأعتابه، تعالوا قبل فوات الأوان نستذل بجلباب العبودية الذي هو حقيقتنا ولن يمكن أن ينفصل عنا هذا الجلباب أبداً، تلك هي الضمانة لأن يرزقنا الله من سمائه وأن يرزقنا من أرضه ولأن يعود فيفجر لنا ينابيع الأرض، اللهم ارزقنا الهداية، اللهم وجه قلوبنا إلى ما يرضيك واصرفنا عما لا يرضيك أقول قولي هذا وأستغفر الله.



١٢٥- هل جزاء الإحسان إلا الإحسان | ٢٠٠٩/٠٣/٢٧

يقول الله عز وجل في محكم تبيانه: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، لقد رأينا يا عباد الله مصداق هذه الآية العظيمة في كتاب الله عز وجل بكلا شطريها الأول والثاني، رأينا ابتلاء الله سبحانه وتعالى لنا بالشر ثم رأينا كيف انطوى الشر وابتلانا الله عز وجل بعد ذلك بهذا الخير، رأينا فيما مضى كيف احتُبِسَ قطر السماء وكيف جفت الينابيع وكيف توقفت الأنهار عن الجريان ورأينا كيف ذُبُلَتْ الأشجار وكيف ظمأت الأرض والنباتات ومرَّ على ذلك عهد، ولم يكن شيء من ذلك إلا مصداقاً لسنةٍ ربانية قضى الله عز وجل أن يأخذ عباده بها وقد حدثنا بيان الله سبحانه وتعالى عن هذه السنة وكرر بيانها وتفنن البيان الإلهي في ذلك، من ذلك قوله عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف:٩٦]، ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل:١١٢].

هذا الذي مر بنا من ابتلاء الله عز وجل لنا بالشر كان تطبيقاً لهذه السنة الربانية وكان صدىً لواقع مررنا به وإنكم لتذكرون كمثال على هذه الحقيقة التي يذكرنا بها بيان الله عز وجل كيف كان المدخل الغربي لهذه المدينة مضرَب مثل للجمال وكيف كانت موضوعاً ثرياً وثرَّاً لشعر الشعراء ولغزل المتحدثين عن ذلك الوادي الجميل الساحر الأخاذ، كانت الأنهر في ذلك الوادي متألقة وكانت فياضة غزيرة وكانت المياه تصافح وتلامس الضفتين من كل نهر أيام كانت النزهات في ظلال تلك الأشجار وعلى ضفاف تلك الأنهار نزهات بريئة أيام كان اللهو آنذاك لهواً مباحاً وكانت يد المولى الكريم تزيد هذه الأمة من العطاء وكانت المياه تزداد تدفقاً وكأن لسان الحال يقول كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون.

ولكن ما الذي حصل بعد ذلك؟ بُنِيَتْ على ضفاف تلك الأنهر الأعشاش التي تعلمون وبُنِيَتْ على ضفافها النوادي الليلية التي لا حاجة إلى الحديث عنها وإلى تدنيس هذه الساعة المباركة بشيء من

أوصافها واستمرأ أولئك الناس كفران النعمة، استمرؤوا احتجابهم بالنعمة عن المنعم فكانت العاقبة التي حدثتكم عنها، طُوِيَ الخير واستُبْدِلَ به الشر، غاضت تلك المياه وتحولت تلك الأنهر إلى مكان للوحل وأصبحت تفيض بالروائح النتنة التي تعرفون وأصبح الإنسان المار بذلك الوادي لا يشعر إلا بمرارة الذكرى، لا يشعر إلا بالألم الممض من انقضاء ذلك اليوم الذي كم وكم تحن إليه المشاعر وكم وكم تتخيله الأخيلة ولكن الأمر تحول إلى نقيضه، ذلكم هو مصداق الله عز وجل: ﴿مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾ [النحل: ١١٢]. وليس المراد بالكفران هنا كفران العقيدة ولكن المراد بالكفران هنا استعمال النعمة لما يغضب الله سبحانه وتعالى.

واليوم يا عباد الله ها أنتم ترون كيف أن الرحمة الإلهية طوت عهد الشر الذي عانينا منه ما عانينا، أكرمنا الله سبحانه وتعالى بالأمطار سخيةً تهطل من سمائه وأكرمنا الله سبحانه وتعالى بالينابيع أن تعود فتتفجر وأَذِنَ الله سبحانه وتعالى للأنهر أن تعود فتسير وتسيل، تلك هي سنة أخرى من سنن الله سبحانه وتعالى في عباده رأينا ولله الحمد هذا كله ولما يقلع إخواننا أولئك عن المعاصي التي كانت سبباً لذلك المحق والقحط، لما يقلعوا عن ذلك السبب الذي كان من ورائه جفاف تلك الأنهار وانحباس تلك الأمطار وجفاف تلك الينابيع، تلك سنة من سنن الله عز وجل يتحبب الله عز وجل من خلالها إلى عباده، لعل رسالات الحب التي تتنزل من علياء الربوبية إلى العباد، لعلها توقظ السادرين، لعلها تعيد الشاردين إلى صراط الله عز وجل، لعل الحب واللطف وعودة النعم لعل ذلك كله هو الذي يجعل هؤلاء الشاردين يخجلون من المنعم ويستحيون من هذا الإله المتكرم فيؤوبون إلى الله ويتوبون إليه ويقلعون عن تلك الأسباب التي قطعت الخير بل قطعت دابر الخير وفتحت أبواب الشر.

نحن نمر يا عباد الله في هذه المرحلة، أبدل الله عز وجل بذلك الشر هذا الخير الذي يمتعنا به، ها أنتم ترون كيف أن الينابيع عادت فتفجرت وكيف أن الأنهر عادت ففاضت وكيف أن مظهر الحدائق والخضرة عاد فتألق ولكن كل ذلك منوط بقرارنا الذي سنتخذه، هل عسانا أن نظل عاكفين على هذا الشرود عن صراط الله؟ هل عسانا أن نظل سادرين في هذا النهج المتمثل في اتخاذ النعم التي ينعم الله بها

علينا سبباً لغضبه، سبباً لنقمته؟ أغلب الظن أننا إذا ظللنا على هذا النهج وبقينا نسير في هذا الطريق فإن هذا الخير سيعود فينقطع وإن بلاءً شراً من ذلك البلاء الماضي سيحيق بنا يا عباد الله، ربنا يتحبب إلينا بهذا الذي ترون، يرسل إلينا رسائل حبه ولا ينبغي أن نتيه عنها، رسائل متمثلة في أمره للسماء بأن تمطر وفي أمره للينابيع بأن تعود فتتفجر وللأنهار بأن تعود فتسيل وتسير متألقة فياضة، رسائل حب يبعثها الله عز وجل إلينا، أفلا نبادله حباً بحب يا عباد الله! أفلا نترجم هذا الحب الذي ينبغي أن نبادل مولانا وخالقنا به بتوبة نصوح! بعودٍ إلى صراطه! أفلا نترجم حبنا لمولانا سبحانه وتعالى بأن نستعمل نعمه فيما يرضيه وألا نستعمل شيئاً منها فيما يغضبه!

ألا تذكرون قوله سبحانه في هذه الآية التي تأخذ بالألباب وتذيب مشاعر الإنسانية لمن كان له أدنى شعورٍ بل بقايا من الشعور بالإنسانية! ألا تقفون وقفة تدبر وتأمل عند قوله سبحانه وتعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْأِحْسَانِ إِلَّا الْأِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، تأملوا هذا المعنى اللطيف الذي غُمِسَ هذا البيان الإلهي فيه، تأملوا هذا الخطاب الرباني المتحبب ﴿هَلْ جَزَاءُ الْأِحْسَانِ إِلَّا الْأِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، أي يا عبادي ها أنا قد أحسنت إليكم أفلا تحسنون إلي! أليس جزاء الإحسان الهابط من علياء الربوبية إلى العبد إلا إحسان يعلو من تصرفات العبد إلى مولاه وخالقه! هلا أحسنتم إلي في مقابل إحساني إليكم!

على أن هذا البيان المتحبب يغضي ويستر الحقيقة التي ينبغي أن نعلمها نحن، من الذي قال: إن الله عز وجل عندما يحسن إلينا فنقابله بإحسان مثله من الذي قال أنه نحسن إليه؟ وهل الله بحاجة إلى أن نحسن إلي؟ وهل كان الله قبل أن يخلقنا محتاجاً إلى عباد يخلقهم ليحسنوا إليه! هو المولى، هو الغني وكل من عداً الله سبحانه وتعالى فقراء: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ، إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [فاطر:١٥-١٦]، ولكنه التحبب يا عباد الله، ولو أننا تأملنا في هذا اللطف الرباني ونحن نتمتع بإنسانيتنا وقد عرفنا عبوديتنا وربوبية مولانا وخالقنا لذابت منا الحُشاشة ولذابت منا الأفئدة خجلاً من الله عز وجل إذ يقول لقد أحسنت إليكم أفلا تحسنون إلي، ولا شك أن العبد العالم بالحقيقة سيقول لمولاه وخالقه حاشاك يا رب، أنا أحسن إليك! ومن أنا حتى أحسن إليك، إن

أحسنت مقابل إحسانك إلي فإن ثمرة ذلك تعود إليَّ أنا، عندما أحسن إليك فيما تأمرني به فإنما أحسن إلي أنا في الواقع والحقيقة،

هذا مثل قول الله عز وجل: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٥]، يقول لي الله عز وجل ألا تقرضني شيئاً مما معك وعهد علي أن أعيده إليك أضعافاً مضاعفة وأنت تعلم وأنا أعلم أن هذا الذي أملكه إنما هو عطاء من الله والمالك والمملوك ملك لله سبحانه وتعالى ومع ذلك فيتحبب إلي ويقول: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً﴾ [البقرة: ٢٤٥]، أما العبد الذي عرف عبوديته وتوَّجها بمشاعر إنسانيته فلابد أن يذيبه هذا التلطف من مولاه وخالقه عز وجل ولابد أن يقول إن بلسان الحال أو بلسان القول: مولاي أنت ربي أنت المالك لذاتي وأنت المالك لما منحتني إياه فيا ربي أنت المالك للعبد وما في يده وها أنا ذا أعود بنفسي وبكل ما معي إليك، هكذا ينبغي أن يقول وهذا هو ذاته المنطق الذي نراه في قوله: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْأِحْسَانِ إِلَّا الْأِحْسَانُ﴾ [الرحمن:٦٠]، لقد أحسنت إليكم بهطول الأمطار، أحسنت إليكم إذ أمرت الينابيع أن تتفجر فتفجرت، أحسنت إليكم بالمياه الغامرة التي تتلألأ ما بين الأشجار أفلا تحسنون إلي.

ماذا قررتم في مواجهة هذا اللطف الرباني يا عباد الله، ألا فاعلموا أننا إن عاهدنا الله عز وجل في ظل هذه النعمة، في ظل هذا الرخاء الذي جاء بعد تلك الشدة وصدقنا في بيعتنا مع الله سبحانه وتعالى وعاهدناه على أن نقلع عن المعاصي، أن نزيل تلك الأعشاش التي كنا نستثير غضب الله بنعمه عن طريقها وطوينا عهد تلك الأندية الليلية التي تستثير غضب الله عز وجل حول تلك الأنهر التي غاضت بعد أن فاضت فإنني على يقين بأن الله سيزيدنا من نعمه وسيزيدنا من عطائه ولن ينقطع هذا الرفد أبداً.

فتعالوا يا عباد الله نعاهد الله على كل المستويات، على مستوى القمة التي شاء الله عز وجل أن تدير أمورنا وأن تحكم فيما بيننا وعلى مستوى الفئات المتنوعة المختلفة المتفاوتة تعالوا نعاهد الله على أن نتوب، تعالوا نقل لله بلسان الحال نعم يا رب جزاء الإحسانُ الإحسان، ولقد أحسنت إلينا بما رأينا عهد

صادق نتوجه به إليك أن نحسن إليك وإن هو إلا إحسان إلينا وليبعث كل واحد منكم هذه الرسالة لمن يستطيع أن يبعثها إليه أو ليواجهه بها إن استطاع أن يواجهه بها.

ذكِّرُوا إخوانكم، ذكِّرُوا إخواننا بألا يقابلوا نعمة الله بكفران، بألا يواجهوا هذه النعمة بما يثير غضب الله سبحانه وتعالى، هذا ابتلاء ابتلانا الله عز وجل به لكنه ابتلاء بخير، ترى ماذا سنصنع، ما القرار الذي سنتخذه، أسأل الله سبحانه وتعالى أن يبلغ هذا النصح الذي أتوجه به أولاً إلى نفسي ثم إليكم أسأله سبحانه وتعالى أن ييسِّرَ إبلاغ النصح لكل أخٍ في الإنسانية وفي الله من أجل أن نحصن النعمة، من أجل أن نحصن العطاء الرباني بل لأجل أن نترجم حبنا لمولانا بما ينبغي أن نترجمه به أفلا نبادله حباً بحبٍ! أقول قولي هذا وأستغفر الله.



١٢٦- قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون | ٢٠٠٨/٠١/٢٥

فُطِرَ الإنسان- كما تعلمون جميعاً- على الفرح بالنعمة التي يكرمه الله سبحانه وتعالى بها، وعلى الأسى والحزن للمصائب التي قد يتعرض لها، تلك هي طبيعة أقام الله سبحانه وتعالى عليها الناس جميعاً، يُكْرِمُ اللهُ سبحانه وتعالى الإنسان بدارٍ فارهة فيفرح بهذه النعمة التي أكرمه الله بها، يكرمه بزوجة صالحة يَدْخُل إلى قلبه الفرح بهذه النعمة التي جاءته، يُكْرِمُ الله سبحانه وتعالى البلدة بالغيث المنهمر بعد الجدب المتطاول فيفرح الناس لهذه النعمة التي جاءتهم بعد طول غياب.

هي طبيعة فَطر الله سبحانه وتعالى عليها الناس جميعاً، ولكنَّ الله سبحانه وتعالى ينهى عن الفرح في كثير من آي كتابه المبين، من ذلك قوله سبحانه وتعالى على لسان ذلك الرجل الصالح الذي كان ينصح قارون: ﴿لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦]، ومن مثل قول الله سبحانه وتعالى منكراً هذا الشعور الذي يسري إلى الفؤاد عند رؤية النعم، يقول: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾ [الرعد: ٢٦].

فكيف السبيل إلى استرضاء الله سبحانه وتعالى بهذه الفرحة التي لا اختيار للإنسان فيها؛ مع النهي القرآني الصريح الذي نقرؤه دائماً في كتاب الله عز وجل؟ أما النهي الذي نهانا الله عز وجل عنه- يا عباد الله-فهو أن يفرح الإنسان للنعمة التي تُقْبِل إليه بحدِّ ذاتها؛ أكرمه الله عز وجل برزقٍ وفير، تعلق قلبه بهذا الرزق، وفرح بهذا المال الذي أغدقه الله عز وجل عليه، فرِح بالمال لذاته، أكرمه الله عز وجل بالدار، أكرمه الله عز وجل بالزوجة الصالحة، أكرم الله سبحانه وتعالى الأمة بالسقيا، فَجَّرَ لها الينابيع بعد جفاف، سَيَّرَ لها الأنهار بعد توقف، فرحت الأمة بهذه النعمة بحد ذاتها.

هذا ما حذر الله عز وجل منه ونهى عنه. ما السبب يا عباد الله؟ السبب أن الإنسان إذا تلقى النعمة الدنيوية من مثل ما قد ذكرته لكم ففرح بها؛ فلنعلم أن فرحه بهذه النعمة لا بد أن يحجبَه عن المنعم.

عندما أفرح بالتجارة الرابحة التي أكرمني الله سبحانه وتعالى بها، من حيث هي، لا بد أن تحجبني هذه النعمة عن المنعم الذي تفضل بها عليّ.

وعندما أفرح بالعافية التي أتمتع بها، من حيث هي؛ نظرْتُ إلى المرآة فأعجبني منظر العافية في كياني، وتراقصت الفرحة بين جوانحي من جراء ذلك فلأعلم أن هذه الفرحة لا بد أن تحجبني عن المنعم المتفضل. وإذا حَجَبَت النعمُ الإنسانَ عن المنعم الذي أرسلها إليه فقد باء بالخسران الكبير، ولن تعود إليه هذه النعم التي يفرح بها بأي متعة. من أجل ذلك نهى الله سبحانه وتعالى قارون والفراعنة وأمثالهم عن الفرح وقال له ذلك القائل: ﴿لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦]، ومن أجل ذلك قال الله عز وجل مستنكراً لهؤلاء الذين تراقصت الفرحة بين جوانحهم لمنظر الحياة الدنيا ونعيمها: ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾ [الرعد: ٢٦].

المطلوب من الإنسان إذا تلقى النعمة من الله عز وجل أن يخترقها إلى المنعم، وأن يفرح بالمنعم الذي أرسل هذه النعمة إليه، عندما أجد العافية التي أتمتع بها وقد أسبغها الله عز وجل عليَّ فضلاً منه وإحساناً، وحماني من السوء ومن أسباب الأمراض المختلفة المتنوعة فلأعلم أنها رسالة حب وصلتني من الله عز وجل، أفينبغي أن أفرح بالرسالة أم بالمرسل؟ ينبغي أن أفرح بالمرسِل الذي أرسل إليَّ هذه النعمة، وعندما يجد التاجر، رجل الأعمال، أن تجارته رابحة، وأن الله عز وجل قد أكرمه بالمال والرزق الوفير فليعلم أنها رسالة تحبُّب وصلت إليه من الله سبحانه وتعالى، فإن فرح؛ فليفرح بهذه الرسالة التي أتته من الله عز وجل، أي ليفرح بهذا الذي يَدُلُّ على أن الله قد أحبه، بهذا الذي يدل على أن الله قد رحمه وتفضل عليه.

بالأمس أكرمنا الله سبحانه وتعالى بالسقيا، ولبى الدعاء، واستجاب الله سبحانه وتعالى برحمته وفضله، وذلك هو شأنه دائماً لالتجاء الناس وتضرعهم لله سبحانه وتعالى، وفَرِحَ الناسُ، أفينبغي أن يفرحوا بهذه القطرات التي تهمي من السماء، أم ينبغي أن يفرحوا بالأرض التي تخضر بعد هذه السقيا، أم بالينابيع التي ستتفجر، أم بالأنهر التي تسيل؟

لا. المطلوب منا، وقد عرفنا الله عز وجل وناجيناه والتجأنا إليه فأجابنا الله سبحانه وتعالى وأكرمنا، المفروض أن تغمُر أفئدتنا الفرحة؛ لكن لمن؟ لهذا الإله الذي استجاب، المطلوب أن تغمُرَنا الفرحة لهذا

الذي يدل على أن الله قد رحمنا، على أن الله عز وجل قد تفضل علينا، على أن الله سبحانه وتعالى- وأرجو ألا أكون مبالغاً- قد أحب هؤلاء المتضرعين فاستجاب لهم. وهذا الذي أقوله لكم هو الذي يدل عليه قول الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

لاحظوا التنسيق إذن بين الفرح والنهي عنه ؛ عندما تكون الفرحة بالمال ذاته، بالنعمة ذاتها، وعندما يأمرنا الله عز وجل بالفرح؛ ولكن عندما تكون الفرحة بالله سبحانه وتعالى، عندما تكون الفرحة بالمعنى الذي تتضمنه هذه النعمة التي أقبلت إلينا؛ وهو محبة الله للإنسان، رحمته بالإنسان، تفضله على الإنسان، ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ﴾ الذي تجلى في نعمته التي أغدقها عليكم، ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨] المال الذي يجمعونه، بل حتى الأمطار التي تهمي إليهم،حتى النباتات، حتى الأنهر، كل ذلك ليست العبرة بهذا، وإنما العبرة باليد الإلهية التي تفضلت علينا فأكرمتنا بالسقيا. هذا هو التوفيق بين ما أمر الله سبحانه وتعالى به في مثل هذه الآية وما نهى الله سبحانه وتعالى عنه، أما أن أنظر إلى النعم وأحبس كياني ومشاعري في داخلها فهذا سجن يعثني على الشقاء.

عندما تفرح بالمال، أو عندما تفرح بالعافية، أو عندما تفرح بالأمطار الهاطلة فمعنى ذلك أنك حجبت نفسك عن الله سبحانه وتعالى؛ وإذا حُجِبَ الإنسانُ عن الله عز وجل بنعمه شقِيَ، وإذا استمر على هذه الحال آل إلى الله سبحانه وتعالى غير مرحوم وغير سعيد في العاقبة.

بالأمس أكرمنا الله سبحانه وتعالى، وأسأله عز وجل أن يكون ذلك الإكرام فاتحة خير. ولكي يكون ذلك الإكرام فاتحة خير، ينبغي أن نفرح بمعنى التحبب الذي تضمنه ذلك الإكرام نِعَم الله كلُّها، أقول لكم. إنها رسائل حب آتية من عند الله سبحانه وتعالى. فيا عجباً لمن يرقص لما قد تضمنته هذه الرسائل ولا يرقص لما تدل عليه هذه الرسائل، من محبة الله سبحانه وتعالى، من رحمة الله سبحانه وتعالى، من فضل الله سبحانه وتعالى لهؤلاء الذين أكرمهم الله بهذه النعم.

ومن آثار الفرح بالنعمة أن يجعلها الإنسان سبيلاً إلى المعاصي التي حرمها الله سبحانه وتعالى. وجدت الأمة النصر الإلهي قد أقبل فبماذا تعبر عن فرحتها؟ عبرت عن فرحتها بالمعاصي، بالمرح، بالطغيان

الذي هو الحال الغالب على كثير من الأمم في كثير من الأحيان، هذا الوضع من الطغيان نتيجة الفرح بالنعمة والاحتجاب عن المنعم سبحانه وتعالى، عندما يكرمنا الله سبحانه وتعالى، وسيكرمنا- وهذا هو ظننا بالله عز وجل- بمزيد من السقيا وبمزيد من رزق السماء ونِعم الأرض؛ ربما تجد أناساً يسيل لعابهم على ارتكاب المعاصي. وجدوا الأنهر عادت تتألق وعادت تجري متألقة بين الخمائل والبساتين والجنان، ونظروا فوجدوا الينابيع عادت متفجرة؛ يحلو لهم أن يبنوا عليها أعشاشهم التي حرمها الله عز وجل. تلك طبيعة الفرح بالنعمة والابتعاد عن المنعم سبحانه وتعالى.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل فرحنا به لا بالعوارض التي تأتينا من لدنه، وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل فرحنا به حاملاً على أن نلتزم الجادة، وأن ننضبط بالأوامر، وأن نصطبغ بذل العبودية لله سبحانه وتعالى.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم، فاستغفروه يغفر لكم.

١٢٧- الفرح الممدوح... والفرح المذموم | ٠١/٠٢/٢٠٠٨

يقول الله عز وجل في محكم تبيانه: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الانبياء: ٣٥]، ففي الناس من يتصورون أن الكون فيه مادة خير لن تتحول إلى نقيضها، وفيه مادة شر لا تتحول إلى خير، وأن الله سبحانه وتعالى يستخدم مادة الخير لمن أحب من عباده إنعاماً وإكراماً، ويستخدم مادة الشر لمن أبغض من عباده انتقاماً وتعذيباً، والأمر ليس كذلك يا عباد الله.

فإن الكون كله جند لله سبحانه وتعالى، والله سبحانه وتعالى يجعل ما يشاء من مكوناته خيراً يسخره لما أحب، ويجعل من مكوناته، مما شاء من مكوناته، شراً يستخدمه أيضاً لما يحب، ولربما بدل الله سبحانه وتعالى الوظائف فجعل مادة الخير أداةً للشر وجعل أداة الشر مادةً للخير، هذه حقيقة علمية اعتقادية يجب أولاً أن نتبينها جميعاً.

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سمع زمجرة الهواء دعا الله عز وجل قائلاً: ﴿اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً﴾ أي: اللهم اجعلها رياحاً منعشة مُسْعِدة ولا تجعلها ريحاً مُهْلِكة مدمرة، والهواء هو الهواء، وكان المصطفى صلى الله عليه وعلى آله وسلم إذا وجد المطر يهمي من السماء أقبل إلى الله عز وجل بضراعة العبد الواجف يقول: ﴿اللهم اجعلها سقيا رحمة ولا تجعلها سقيا عذاب﴾، والمطر هو هو لا يختلف ولا يتبدل، ولقد أنحى البيان الإلهي باللائمة على أناسٍ حبسوا أنظارهم، بل بصائرهم أيضاً، في مظاهر المكونات، فلما رأوا ما يخيفهم تصوروا أن الخوف إنما هو محبوس في داخل ذلك الشيء وأنه بطبعه يورث الخوف ويسبب الهلاك، وإذا رأوا ما يتجلى فيه دلائل البِشْر استبشروا وظنوا أنه يحمل بطبعه دِلالة الخير والبشرى، فقال البيان الإلهي مستنكراً ذلك: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُوراً، أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً، أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفاً مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً﴾ [الاسراء:٦٧/٦٩].

تأملوا يا عباد الله في هذا الذي يخاطبنا به بيان الله عز وجل، كأنه يقول: ويحكم ليست البشرى إلا ما يهبط إليكم من لدن خالق هذا الكون كله،وليس العذاب إلا ما قد يأتي أيضاً من خالق هذا الكون كله، أما البحار، أما البر والأرض، أما الهواء والرياح، فكل ذلك جنود مجندة لله سبحانه وتعالى، إن شاء وجهها بالخير إلى من شاء من عباده وإن شاء وجهها بالشر والدمار إلى من شاء أيضاً من عباده، وانظروا إلى هذا المعنى كيف يتجلى في الآية الأخرى: ﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً﴾ [الاسراء: ٦٨].

هذه الأرض التي جعلها الله سبحانه وتعالى تحت أقدامنا مهداً وجعلها ذخراً لكثير من الخيرات الباطنة والظاهرة- وكم امتن الله عز وجل على عباده بنعمة هذه الأرض- ومع ذلك فإن الخير الذي يكمن في هذه الأرض ليس نابعاً من طبعها وإنما هو آتٍ من فضل الله سبحانه وتعالى، فمن سار في جنبات الأرض آمناً مطمئناً وهو يضرب بقدميه الأرض ويرفع هامته إلى السماء مستكبراً فقد أبعد النجعة وجهل ما ينبغي أن يعلمه كل عاقل، الأرض جند من جنود الله يحيلها إذا شاء نعمة، ويجعل منها إذا شاء نقمة، والهواء جند من جنود الله سبحانه وتعالى يجعلها إن شاء رياحاً منعشة، ويجعلها إن شاء ريحاً مزمجرة مهلكة، نعم.

وانظروا في هذا إلى بيان الله عز وجل القائل: ﴿فَكُلّاً أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا﴾ [العنكبوت: ٤٠]، كلها أدوات الكون، كلها أدوات ما يسميه البعض بالطبيعة، قضى الله سبحانه وتعالى أن يكون هلاك من شاء إهلاكهم بمادة هي ذاتها- عندما يشاء الله- سبب الحياة وسبب النعيم، الأصوات التي نسمعها- ما أكثر ما تكون مصدر خير، بل مصدر طرب- ها هو عز وجل ينبئنا كيف جعل الله عز وجل من الصوت صيحة مهلكة، والأمطار التي نرى قطراتها تهمي من السماء مستبشرين، ها هو ذا ربنا عز وجل ينبئنا كيف جعل من هذه المادة الخيِّرة- أداة الاستبشار عند الإنسان- سبباً للهلاك والإغراق، وكذلكم البرق، ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً﴾ [الرعد: ١٢]، جلَّ ربنا القائل هذا الكلام، وكم نحن

بحاجة إلى أن نستوعب هذا البيان الرباني: {هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً﴾ [الرعد: ١٢]، نرى لمعان البرق ثم نسمع أزيز الرعد من بعده، ترى ماذا تحمل هذه الظاهرة؟ لعلها تحمل بشارة خير؟ قد يكون ذلك، ولعلها تحمل نذير سوء؟ قد يكون ذلك، كيف السبيل إلى أن نوجهها إلى الخير ونبعدها عن الشر؟ اللجوء إلى الله.

يا عباد الله أقول لكم هذا الكلام الذي نتبينه جميعاً في كتاب الله عز وجل من أجل أن أصل بنفسي وبكم إلى نتيجة بالغة الأهمية، ألا وهي ألا نفرح بالظاهرة الكونية التي نستبشر بمرآها وإقبالها إلينا، وإنما نفرح بفضل الله سبحانه وتعالى، بالأمس أكرمنا الله سبحانه وتعالى بالأمطار السخية وبالثلوج الوفيرة، ترى بماذا يفرح العبد الذي عرف مولاه وخالقه؟ أيفرح بهذه الظاهرة التي قد تكون مظهر خير وقد تكون مظهر شر، أم بمن أرسل هذا المظهر بل أرسل رسالة الحب هذه؟ ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]، نحن عبيد مملوكون لله عز وجل، بسطنا أكف الضراعة إلى الله، استسقيناه فسقانا، استنزلنا كرمه وجوده فأكرمنا وجاد علينا.

ما ينبغي– يا عباد الله –أن نُحْجَبَ بالنعمة عن المنعم، ما ينبغي أن تكون فرحتنا بالأمطار التي هطلت، بل ينبغي أن تكون فرحتنا بالكريم الذي أكرمنا، بالإله الرحمن الذي تفضل علينا، ينبغي أن تكون فرحتنا بما نعتبره دليلاً– ونرجو ألا نكون مخطئين فيه– ألا وهو محبة الله عز وجل لعباده الذين أغدق عليهم من رزقه وأكرمهم من عطائه، فإذا علمنا أن هذا الذي أكرمنا الله عز وجل به إنما هو رسالة حب من الله، أو تحبب من الله سبحانه وتعالى إلينا، فإن الفرحة عندئذٍ تكون عبادةً من أجلِّ العبادات: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس: ٥٨]، هذه الفرحة تسوقنا إلى مزيد من العبودية لله وترقى بنا إلى شأوٍ عالٍ من محبة الله سبحانه وتعالى،ولكن إذا رقصت أفئدتنا فرحاً بمظهر النعمة، إذا رقصت نفوسنا فرحاً بالأمطار السخية وبالثلوج المنهمرة،فإن ذلك هو الفرح الذي نهانا الله عز وجل عنه، ألم تسمعوا قوله على لسان ذلك الرجل الصالح الذي كان ينصح قارونا: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦]؟، هل في القرآن تناقض، مرة ينهانا عن الفرح ومرة يأمرنا بالفرح؟!

لا يا عباد الله، ليس في القرآن أي تناقض، أما الفرح المذموم، الذي كان يطوف برأس قارون وأمثاله ممن عاشوا في غابر الأزمان وممن لهم أندادٌ في هذا العصر، أما الفرح المذموم، فهو فرح الإنسان بالنعمة مفصولة عن المنعم الذي تكَّرم الله سبحانه وتعالى بها علينا، إنها فرحة تبعث على الطغيان، فرحة تبعث على الاستكبار، أما الفرحة التي أمرنا الله عز وجل بها إذ قال: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس: ٥٨].

إنها فرحة ترقى بالإنسان إلى صعيد العبودية الراضية لله عز وجل، إنها فرحة تملأ القلب حباً لله سبحانه وتعالى، والإنسان بم يرقى إلى الله؟ بم يرتفع إلى مرضاة الله؟ بجناحين اثنين، هما جناح العبودية الذليلة المتطامنة لله، وجناح الحب لله سبحانه وتعالى، فإذا شعرت بذل عبوديتك وبأنك بين طرفي الخوف والرجاء، تدعو الله عز وجل خوفاً وطمعاً، وإذا فاض قلبك حباً لله عز وجل فاهنأ بأنك قد وضعت نفسك في الطريق الموصل القريب إلى الله سبحانه وتعالى، ومهما زَلَّتْ القدم بك، ومهما تغلبت رعونات النفس عليك فإن لك في هذين الجناحين ما يوصلك إلى الله عز وجل وما يغفر لك ذنبك، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم فاستغفروه يغفر لكم فيا فوز المستغفرين.

١٢٨- المؤمن لا يتأذى بمصاب جاءه من ربه | ١٩٨٢/٠٢/١٢

إنَّ من شأنِ المؤمن أن يحيا عمرهُ كلّهُ، يراقبُ من نفسهِ تنفيذَ حقيقتين اثنتين، أولاهما: تنفيذُ أمرِ الله سبحانهُ وتعالى جهدَ استطاعته، والثانية: الرضا بحكمِ اللهِ سبحانهُ وتعالى وقضائه ملء قلبه.

تلكَ هي الحقيقةُ المختصرة التي ينبغي أن يتحلّى بها المؤمن، بل وتلكَ هي الحقيقةُ العظمى التي يفهمها من قولهِ سبحانهُ وتعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لا شريكَ له وبذلك أُمرت وأنا أوّلُ المسلمين﴾.

فالمؤمن ينفّذُ أمرَ اللهِ عزَّ وجلّ، ويراقبُ كلَّ أحكامهِ فلا يند عن واحدةٍ منها ولا ينحرف، ثمَّ مهما استقبله من أحداث، ومهما رأى من نتائج، يعلمُ أنَّ ذلكَ كلّهُ بتقدير من الله سبحانهُ وتعالى وبتدبيره. وهو يعلمُ أنَّ اللهَ عادلٌ لا يظلم، رحيمٌ بعبادهِ جميعاً، لطيفٌ بهم على كلِّ حال، وهو يتقبّلُ كلَّ ما رآهُ، وهو يذكرُ في هذا قولَ ربّنا سبحانهُ وتعالى: ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وإذا أردنا أن نُبَسِّطَ شرحَ هذه الحقيقة ببعضِ الأمثلة، فما أكثرَ الأمثلة التي نستطيعُ أن نجسد بها هذا المعنى:

المؤمن يخرجُ في صباحِ يومهِ الباكرِ إلى حقلهِ الذي يشتغلُ به، أو إلى مخزنهِ الذي يتاجرُ فيه، أو إلى أيِّ عملٍ يستدرُّ بهِ الرّزق، فيقومُ بكلِّ ما كلّفهُ اللهُّ عزَّ وجلّ به. وبعدَ ذلك يستسلم لما يأتي به قضاءُ الله وقدره، فإن جاءَتِ النّتائجُ كما يريد: حمدَ اللهَ سبحانهُ وتعالى، وعلمَ أنَّ ذلكَ إنما جاءَ بفضلهِ لا بجهده. أمّا إن فوجئَ بما يكره، إن فوجئَ بما لم يكن في الحسبان، جاءته الخسارةُ بدلاً من الرّبح، استسلمَ لحكمِ اللهِ عزَّ وجلّ وقضائه، لم يستسلم ظاهرهُ فقط بل يستسلمُ باطنهُ أيضاً، لأنهُ يعلمُ وهو مؤمنٌ باللهِ عزَّ وجلّ، يعلمُ ملئَ قلبه أنَّ اللهَ حكيم، لا يضعُ الأمورَ إلا في نصابها، وأنّهُ رحيمٌ به أكثرَ من رحمتهِ هو

بنفسه، وأنّهُ عادلٌ لا يظلم، فلئن رأى النّتائج وهي بحسب الظّاهرِ خسران، وما أكثرَ ما يأتي الرّبحُ وظاهرهُ على غيرِ حقيقته، وما أكثرَ ما يأتي الخير وظاهرهُ لذوي العقولِ القاصرة أنّهُ شر ومكروه.

الرجلُ المؤمن إذا وقع قريبٌ لهُ في مرض، هُرعَ به إلى الطّبيب، متذكّراً قولَ رسولنا محمّدٍ عليهِ الصّلاةُ والسّلام: ﴿ما أنزلَ اللهُ داءً إلا وأنزلَ لهُ شفاءً إلا السّام – أي إلا الموت –﴾، فيطبب ويستعلمُ الدّواءَ والعلاج، ثمَّ يستسلم لقضاءَ اللهِ عزَّ وجلّ وقدره، فإن شفيَ وعوفي، ازدادَ حمداً للهِ وشكراً، وإن جاءهُ الأجلُ المحتوم، رضيَ بقضاءِ اللهِ عزَّ وجلّ وقدره، وأيقنَ بملءِ قلبهِ وعقله، أنَّ الأجل هو الحاكمُ الغلّابُ بأمرِ الله وليسَ المرضُ الذي انتابه.

إنما جاءَ المرض: جنداً من جنودِ الأجل، وإنما جاءتِ الآلام: جنداً من جنودِ الأجل، فلو لم يأتِ هذا الجند لجاءَ جندٌ غيره، والأجلُ محتوم، لا بدَّ أن تنتهيَ حياتهُ في ذلكَ الميعادِ المحدّد.

وهكذا شأنُ المؤمنِ أيّها الإخوة، منفّذاً لأمرِ الله، واقفاً على صراطهِ جهدَ استطاعته، وهو يذكرُ دائماً قولَ الله: ﴿فاتّقوا اللهَ ما استطعتم﴾، ثمَّ إنّهُ مستسلم راضٍ بحكمِ اللهِ سبحانهُ وتعالى جهدَ استطاعتهِ أيضاً، بل وبملء قلبه.

ومن هنا: كانَ المؤمنُ في سعادةٍ دائمة، من هنا: كانَ المؤمنُ في رضىً دائمٍ عن ربّه، وعن الدّنيا كلّها، ولذلك يقولُ رسولنا محمّدٌ عليهِ الصّلاةُ والسّلام: ﴿عجباً لأمرِ المؤمن إنَّهُ بخيرٍ على كلِّ حال، إن أصابتهُ سرّاء شكر، فكانَ ذلكَ خيراً له، وإن أصابتهُ ضرّاء صبر، فكانَ ذلكَ خيراً له، عجباً للمؤمنِ إنَّهُ بكلِّ خيرٍ على كلِّ حال، إنَّ نفسُ لتتقعقعُ بينَ جنبيه وهو بخير﴾، أي إنّهُ ليجودُ بنفسه وهو راضٍ عن ربّهِ سبحانهُ وتعالى.

هذه الحقيقة التي أقولها لكم أيها الإخوة، من الذي يفقَهُها؟ يفقَهُها من ذاقها بعقله وبوجدانه وقلبه، وما ذاقها إلا المؤمنون الصادقون بالله سبحانهُ وتعالى.

أما من عاشَوا على هامشِ الإيمانِ باللهِ سبحانه، سمعوا بهذه الحقائق وما عاشوها، سمعوا بها وما تذوّقوها، لأنَّ إيمانهم بالله عزَّ وجلّ لم يستحكم في جوارحهم وفي أركانِ قلوبهم ونفوسهم، فهؤلاءِ لا يفهمونَ ما أقول، ولا يدركونَ الحقيقةَ التي أقولها وأشرحها لكم.

إنَّ المؤمن الحقيقيّ لا يعلمُ للعذاب وللتعزيةِ والآلامِ معنى، لا يحتاجُ المؤمنُ إلى من يعزّيهِ في مصابٍ ماليٍّ جاءه، ولا في أجلٍ محتومٍ تخطّفَ قريباً له، ولا في أيِّ مصيبةٍ طافت به، ولماذا تعزّيه؟ إذا تصوّرنا الحقيقة لماذا تعزّيه؟ لكي تخفّفَ مصابه! إنّهُ مؤمنٌ بالله، وإنّهُ مستسلمٌ لسلطانِ اللهِ عزَّ وجلَّ وحكمته، واللهُ عزَّ وجلّ يداوي عبده ولكنّهُ لا يضيمه، وربَّ شفوقٍ داوى من يحبه ويشفقُ عليه، بدواء كلّهُ ألمٌ وأوجاع، أرأيتَ إلى المريضِ يُهرعُ إلى الطّبيبِ ليعالجه، فيقرّرُ الطّبيب أنّهُ يحتاجُ إلى عمليّة، عمليّةٍ جراحيّة تستنزفُ الكثيرَ من دمائه، وتجعلهُ يخضعُ لآلامٍ شتّى، إنَّ المريض يستسلمُ لما يحكم بهِ الطّبيب، ويمتدّ هادئاً ساكناً تحتَ أجهزةِ هذا الطّبيبِ وتحتَ حركاتهِ ومعالجاته، ربّما تأوه لكنّهُ يشكوهُ بنفسِ اللسانِ الذي يتأوّهُ به، لأنّهُ يعلم أنَّ الطّبيبَ طبيب، وأنَّ الطّب ليسَ مقياسهُ فيما يتجلّى لنا من ظاهرِ الأوجاعِ والآلام، ولكنَّ المقياسَ في النّتائج التي لا نعلمها كمرضى وإنما يعلمها الأطبّاءُ الذينَ يعلمونَ هذه الحقيقة.

إنَّ اللهَ هو الطّبيبُ لعباده، وإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ هو الحكيمُ بهم، الرّؤوفُ بهم، فإذا كانَ الإنسانُ مسلماً بربّه، إذا كانَ مصطبغاً بحقائقِ العبوديّةِ لمولاهُ وخالقه، وإذا كانَ يقولُ بلسانِ حالهِ ومقالهِ صباحَ مساء: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، إذا كان يكرر تعاليمَ رسولِ اللهِ لنا: «رضيتُ باللهِ ربّاً، وبالإسلامِ ديناً، وبمحمّدٍ نبيّاً ورسولاً»، فما أبعدَ أن يؤذى هذا الإنسان بحكمِ ربّهِ سبحانهُ وتعالى، وما أقربَ أن يكونَ هذا الإنسان محفوفاً دائماً بألطافِ ربّه، معتنىً بهِ في كلِّ حال، وعلى كلِّ شاكلة، ولكنَّ هذا الإنسان ينبغي أن يعلم أنَّ مقاييسَ اللطفِ الإلهي لا تخضعُ لمقاييسهِ الضّيّقةِ التي يتصوّرها، كما أنَّ المريضَ يعلم أنَّ مقاييسَ الطّب لا تخضعُ لمقاييسِ آلامهِ وأوجاعهِ الخاصّةِ به.

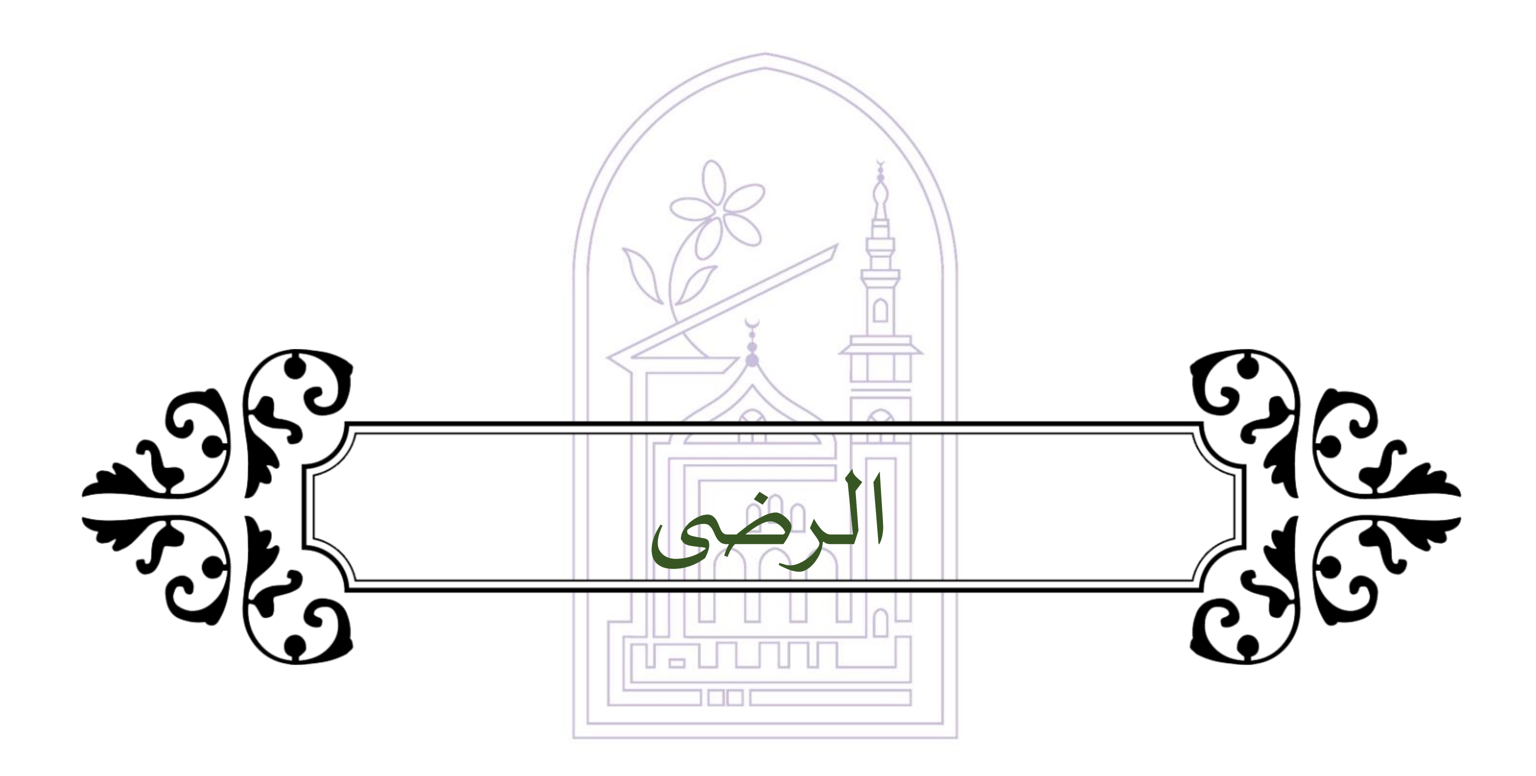
نعم، هكذا حال المؤمنُ باللهِ سبحانهُ وتعالى، أنا عندما أكونُ مؤمناً بربّي لا أقصر بأوامرهِ كلّها، ولكنّي بعدَ ذلكَ أنظر، فلا أجد جرحاً جاءني من ربّي إلا على أنّهُ دواءٌ وعلاجٌ لحالي. وهذه هي الحقيقة، وهذا هو الواقع، وما أكثرَ ما أوضح لنا ربّنا هذا المعنى.

ولكن إذا كانَ النّاسُ بعيدينَ عن الإيمانِ بالله، إذا كانوا بعيدينَ عن الاستسلام لحكمِ اللهِ عزَّ وجلّ، إذا كانت شهواتهم هي آلهتهم. إذا كانوا يتّخذونَ أهواءهم أرباباً وآلهةً لهم من دونِ الله، فإنَّ اللهَ عزَّ وجلّ قد يبتلي هؤلاءِ النّاسَ بالمصائب والرزايا، وهذه المصائبُ والرّزايا عندئذٍ ليست إلا رياضة لي، وليست إلا سياطَ تنبيهٍ وإيقاظ، فالخيرُ كلُّ الخير: أن يستيقظَ الّذينَ يُؤدَّبون، والبلاءُ كلُّ البلاء: في أن تتهاوى السّياطُ عليهم ثمَّ لا يستيقظون، ثمَّ يظلون سُكارى في ظلّهم، يتقلّبونَ في شهواتهم ولهوهم صباحهم ومساءهم.

نعم ما من نعمةٍ في الدّنيا كلّها أيّها النّاس، أعظمُ للإنسان من نعمةِ الإيمانِ باللهِ عزَّ وجلّ، الإيمان هو الحصنُ الذي يقي الإنسانَ من الشقاء، الإيمان هو النّعمة التي تقي فؤاد الإنسانِ من الضيقِ والكُروب، الإيمان هو بابُ السّعادةِ العظمى، الإيمان هو النّافذةُ التي يستنشقُ فيها النّسيمَ العليلَ كلُّ مكروب، فمن رُزِقَ هذا الإيمان رُزقَ سعادةً لا شقاءَ بعدها، أمّا من لم يُرزق هذا الإيمان فعليهِ أن يبحثَ لنفسِهِ عن هذه النّعمة ليجدَ الحقيقةَ التي أقولها لكم.

أقولُ قولي هذا وأستغفرُ اللهَ العظيم، فاستغفروهُ يغفر لكم، فيا فوزَ المستغفرين..





الرضى

١٢٩- في كل محنة منحة | ٢٠١٢/٠٨/٠٢

لعل من الخير أن أعيد الحديث الذي ذكرته لكم صباح العيد بالأمس في هذا المكان وذلك لسببين اثنين، أولهما الأهمية، ثانياً لأن الذين سمعوا هذا الحديث على أهميته آنذاك قلة من الناس. قلت: إننا دعونا الله سبحانه وتعالى وتضرعنا إليه خلال شهر رمضان المعظم ثم خلال الأيام الأخيرة منه أن يكرمنا الله عز وجل بالقبول وأن يكرمنا بهدية هذا الشهر، بل بهديتي الشهر والعيد معاً، ونحن لا نفتأ ندعو الله سبحانه وتعالى ولا نحصر دعاءنا لا في ميقات ولا في موسم ولكن في الناس من قد يتصور أن هذه الهدية التي ننتظرها في خواتيم شهر رمضان المبارك إنما هي جزاء نستحقه على عمل طُلِبَ منا فقمنا به.

هذا التصور تصور خاطئ يا عباد الله، ليس بيننا وبين الله عقد كالذي يتم بين الناس بعضهم مع بعض، هذا يستأجر فلاناً وذاك يتعاقد معه أجيراً على عمل، ثم إن الأجير يستحق الأجرة والمستأجر ينقده إياها، هذا يتم بين الناس، عقدٌ ذو طرفين أما بيننا وبين الله سبحانه وتعالى فهذا لا يتم، والأجر الذي ينص عليه بيان الله عز وجل في مثل قوله: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] إنما هو بموجب عقد من طرف واحد ألا وهو الله سبحانه وتعالى، فقد تفضل الله عز وجل علينا إذ أمرنا بما أمرنا به من طاعات وعبادات، هو الموفق لنا إليها وهو الميسر لتنفيذها ثم إنه جل جلاله أعلن أننا نستحق على ذلك أجراً وأنه يعطينا الأجر على ذلك إن كان صياماً، إن كان صلاة أو أي شيء آخر، ذلك عقد جرى من طرف واحد بتفضل منه وهو الله عز وجل، أما نحن فنحن عبيد مملوكون لله سبحانه وتعالى، لم يجر بيننا وبينه عقد أن يطلب منا عملاً فنعلن قبولنا لذلك العمل ونطالب على ذلك أجراً ثم يتم ذلك عقداً بيننا وبينه معاذ الله.

هذه النقطة ينبغي أن نتبينها يا عباد الله سبحانه وتعالى. أما الدعاء الذي نبتهل به إلى عز وجل قائلين اللهم أكرمنا بهدية هذا الشهر المبارك بل أكرمنا بهدية هذا العيد الذي يأتي على أعقابه فهذا

الدعاء ليس طلباً لحقٍّ أصبحنا نستحقه من الله عز وجل، هذا الدعاء ليس تذكيراً منا بحق أصبحنا مالكين له فنحن نلاحق مولانا وخالقنا به والعياذ بالله، إذاً ما الدعاء؟ الدعاء في حياة الإنسان تعبير عن عبودية الإنسان لله سبحانه وتعالى، نحن عبيد مملوكون لله عز وجل من نواصينا إلى فرق أقدامنا، مملوكون لله والمملوك لا يملك شيئاً، دعاؤنا الواجف لله عز وجل هو إعلان عن هذه العبودية، إعلان عن عجزنا بين يدي الله سبحانه وتعالى، إعلان عن مملوكيتنا لله سبحانه وتعالى، أعطى أو لم يعط، حرم أو أكرم، نظل ندعو الله سبحانه وتعالى بقطع النظر عن كل شيء، ندعوه لأننا بذلك نقدم هويتنا لله سبحانه وتعالى عباداً مملوكين له،

والإنسان يا عباد الله عاجزٌ في كل الأحوال في السراء وفي الضراء، عندما يبتلى الإنسان بالضراء كالحالة التي نمر بها اليوم لابد أن نطرق باب الله عز وجل ونعلن عن حاجتنا إلى أن يكشف عنا هذه الضراء، فإذا انجابت الضراء وأقبلت بعدها السراء نعماً في الأبدان، في البلدة، في تقلباتنا نحن بظل إلى حاجة إلى أن نسأل الله عز وجل أن يديم علينا نعمة السراء، هل يستطيع الإنسان أن يدفع عنه الضراء بدون عون من الله؟ لا، هل يستطيع الإنسان أن يبقي نعمة السراء بدون عون من الله سبحانه وتعالى؟

لا يا عباد الله. إذا تبين هذا فلنعلم أننا إذ نسأل الله سبحانه وتعالى أن يكرمنا بالأجر على عمل عملناه وأن يكرمنا بالمثوبة على طاعة وُفِّقْنا إليها فلنعلم أن المثوبة ليست على طاعتنا، ولنعلم أن المثوبة ليست على جهودنا، وهل لنا جهود من غير توفيق من الله؟ هل لنا من قربات نؤديها بدون توفيق من الله سبحانه وتعالى؟ الأجر الذي يَرِدُنا إنما هو تفضل من الله، والمثوبة التي تردنا لا نستحقها وإنما هي تفضل من الله، وصدق رسول الله القائل في الحديث الصحيح: «لَنْ يَدْخُلَ أَحَدُكُمْ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ» قالوا ولا أنت يا رسول الله، قال: «وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ». أرأيتم إلى منطق العبودية.

هذا الذي أقوله لكم يا عباد الله يقتضي منا إذ ندعو الله عز وجل أن نظل راضين، إن أعطى أو لم يعط، إن أكرم أو حرم، هذا منطق العبودية فلا يقولن قائل: لقد دعوت الله فلم يُسْتَجَبْ دعائي، أين هو منطق عقد الاستئجار بيننا وبين الله؟ لا، لا يقولن أحد ذلك، أنا عبد لله أدعوه أن يكشف عني الضراء، أدعوه أن يكشف عني الضيم، فإن فعل شكرته، وإن لم يفعل صبرت، وهذا ينبغي أن يفعله من

كان عبداً لله عز وجل، بل أقول شيئاً آخر: ينبغي بالإضافة إلى الصبر أن أعلن عن الرضا عما قد قضى الله عز وجل، نعم، أياً كانت المحنة التي قد ترد إليَّ من الله – وأسأل الله العافية لي ولكم – ينبغي أن أعلم أن هذه المحنة تستبطن منحة من الله، إنها نعمة لكنها مقنعة ومن ثم ينبغي لا أن أقابلها بالصبر فقط بل يجب أن أقابلها بالرضا أيضاً. ولعل فينا من يقول: أما الصبر فربما كان أمره يسيراً ولكن من أين آتي بالرضا؟ عندما أجد هذه المحنة التي تجتاحنا كيف أستطيع أن أضيف إلى الصبر الرضا عن المصيبة التي تفد إلينا؟

سبيل ذلك يا عباد الله هو الحب، وإنني أقولها لكم حقيقة: هما أمران اثنان لابد منهما، جناحان لا يصعد الإنسان إلى رضا الله إلا بهما معاً، العبودية والحب لله سبحانه وتعالى، فعندما يفيض القلب حباً لله عز وجل لا يمكن أن تجد شيئاً مما يفد إليك من عند الله سبحانه وتعالى اسمه عذاب، لا يمكن أن تجد شيئاً مما يفد إليك من عند الله سبحانه وتعالى اسمه بلاء، كلما يفد من المحبوب محبوب.

عباد الله، ولكنكم لابد أن تقولوا فكيف السبيل إلى أن تفيض أفئدتنا حباً لله عز وجل؟ والله الذي لا إله إلا هو إنه لسبيل معبد وإنه لسبيل قصير ويسير ولكن الأمر يحتاج إلى أن يستيقظ الإنسان إلى حقيقة ما بينه وبين الله. يا أخي الإنسان: عافيتك التي تتمتع بها من أين تفد إليك لحظة فلحظة، سمعك الذي تتمتع به من أين تفد إليك نعمته لحظة فلحظة، عيناك اللتان بهما تبصر من أين تفد إليك نعمة كل منهما، عقلك الذي به تدرك، عندما تتمدد على فراشك في المساء لترقد من ذا الذي يكرمك بنعمة الرقاد، وإذا أخذت قسطك من الرقاد من ذا الذي يعيد إليك صحوك ويقظتك مرة أخرى، من ذا الذي يجعلك إذا وضعت اللقمة في فمك تزدردها بسهولة ولا تمضغ لسانك مع قطعة اللحم التي في فمك من هو؟ أليس هو الله؟ إذا علمت ذلك فهل يمكن أن تعشق كائناً غير الله سبحانه وتعالى؟ هل يمكن أن يكون في قلبك محبوب غير الله سبحانه وتعالى؟

يا هذا إذا كان هنالك إنساناً لم تره ما من محنة تقع فيها إلا وينجيك منها على البعد بوسائله المختلفة، يدفع عنك الفقر، يدفع عنك العاهات، يدفع عنك الأخطار وأنت لم تره، أنت في تلك الحالة لابد أن يفيض قلبك تعظيماً لهذا الإنسان وحباً له، وإنك لتنتظر سوانح الأوقات لكي تحج إليه فتراه

وتكتحل عيناك برؤيته وهذا إنسان مثلك فكيف بالله سبحانه وتعالى ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣] أليس الأمر كذلك؟ إذا تبين هذا فلنذكر هذه الحقيقة ولا نحجب أنفسنا عنها بالنسيان عندئذٍ ستجد أن قلبك التهب بمحبة الله، ولقد جُبِلَت النفوس على حب من أحسن إليها، فإذا أحببت الله فإنك ستستيقن أنه لن يأتيك من عند الله إلا الخير ولكن إما أن يكون خيراً ظاهراً وإما أن يكون خيراً مقنعاً، وأنت تعلم أن كل هذا الذي يأتيك من عند الله خير لأنك تعلم أن الله عز وجل ما ابتلاك مرة في حياتك إلا بخير ظاهر أو بخير باطن، هذه السموات العلا، هذه الأرض وما عليها وما فيها كل ذلك مسخرات لك، هذه الأنعام مذللة لك ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٧٢]

نعم، عندئذٍ ستتمتع بكلا الصفتين الصبر والرضا، على أن الإنسان ينبغي أن يدعو لأن الدعاء ليس وسيلة إلى غاية، إنما هي غاية بحد ذاتها، على الرغم من أنك تستقبل كل ما يفد إليك من عند الله من المحن والابتلاءات بالصبر والرضا معاً ولكن في الوقت ذاته تدعو الله لأنه أمرك أن تدعوه، وها نحن ندعوه مرة أخرى، ندعوه أن يرفع عنا الضيم وأن يرفع عنا البلاء، ندعوه أن يقلب محننا منحاً، ولكنه ربنا له العتبى حتى يرضى، هذه هي الحقيقة التي ينبغي أن ندركها.

أعود فأقول يا عباد الله لن نرقى إلى مرضاة الله إلا بجناحين اثنين أولهما ذلك العبودية والمسكنة لله ثانيهما الحب لله سبحانه وتعالى، هذه الحقيقة ينبغي أن نتبينها، أما هذه المحنة التي نمر بها فانطلاقاً من الكلام الذي ذكرته لكم أقول: إنها محنة في الظاهر والله إنها لمنحة في الباطن، هي نعمة ولكنها باطنة كما قال الله عز وجل: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠].

ومن معاني هذه النعمة داخل هذه المحنة أن الله يوقظنا إلى أن نسير مرة أخرى على صراطه، إلى أن نتوب ونؤوب، يوقظ الشاردين إلى أن نعود إلى صراطه، يوقظ الفسقة والفاجرين إلى أن يتوبوا إليه، يقول لهم: عودوا والعود أحمد، هذا معنى من معنى المنح في هذا الابتلاء الذي نمر به، ولذلك فأنا أقول في خاتمة حديثي هذا متجهاً إلى قادتنا قائلاً يقول لكم الله: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧] وأتجه إلى رجال جيشنا الأبطال أقول لهم يقول لكم الله: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾، وأتجه إلى رجال الأعمال الذين يتقلبون في نعم الدرهم والدينار ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ وأتجه إلى الموظفين في

دوائرهم والعاملين في معاملهم والمزارعين في حقولهم والفلاحين في أراضيهم أقول لهم جميعاً يقول لكم الله: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.



١٣٠- مفتاح النعمة بعد النقمة | 2010/10/29

ورد في الأثر من كلام السلف الصالح رضوان الله عليهم أنه سيأتي على الناس زمن يدعو فيه المؤمن لخاصة نفسه فيستجاب له ويدعو لعامة المسلمين فلا يستجاب له.

تذكرتُ هذا الأثر الشريف عندما رأيت من يستوقفني أكثر من مرة في هذه الأيام يسألني الدعاء والابتهال إلى الله سبحانه وتعالى كي ينجينا من هذا الجفاف الذي طال أمده ولكي يكرمنا بالسقيا، ونظرت إلى حال أكثر هؤلاء الذين يطلبون مني هذا الدعاء والتضرع إلى الله فرأيت مظاهر الشرود عن الالتزام بأوامر الله عز وجل في كياناتهم وسلوكهم، ورأيت كثيراً منهم شاردين عن صراط الله غير ملتزمين بأوامره. ذكَّرَني ذلك بهذا الأثر الشريف؛ يأتي على الناس زمان يدعو فيه المؤمن لنفسه أو لخاصة نفسه فيستجاب له ويدعو لعامة المسلمين فلا يستجاب له.

ولابد أن أبين لكم – يا عباد الله – معنى هذا الأثر الذي دلَّ عليه كلام رسول الله ودلت عليه الآيات البينات من كلام الله سبحانه وتعالى.

إن المصائب التي يرسلها الله سبحانه وتعالى إلى عباده المسلمين إنما يرسلها إليهم لتوقظهم من معاصٍ ارتكبوها وعكفوا عليها، استمرؤوا العكوف عليها كي تحملهم على اليقظة والتوبة وتسوقهم إلى الاستغفار والندامة والدعاء والانكسار والتضرع أمام باب الله سبحانه وتعالى.

ثم إن هذه المصائب التي يرسلها الله ابتلاءً لعباده المؤمنين – ومرة أخرى أقول لكم المؤمنين – قسمان اثنان.

قسم من هذه المصائب يبتلى بها الأفراد كمصيبة المرض، كمصيبة الفقر، كمصيبة فقد عزيزٍ أو قريبٍ أو نحو ذلك.

والقسم الثاني مصائب تنحط في كيان الأمة كلها تبتلى بها البلدة جمعاء مثل هذا الجفاف الذي ابتلانا الله سبحانه وتعالى به والذي ينذر بما قد ينذر مما تعلمون أو ربما لا تعلمون، فهذا بلاء عام ليس من النوع الأول.

ما العلاج الذي ينجي الأمةَ من هذه المصائب؟؟

أما المصائب التي تنحط في كيان الأفراد فأمر علاجها يسير، مطلوب من صاحب المصيبة هذا الذي ابتلي بالمرض أو الفقر أو نحو ذلك أن يَصْدُقَ في التوبة إلى الله وأن يستغفر الله من ذنوبه كلها وأن يجأر إلى الله بالشكوى والضراعة وأن يستمر على هذه الحال ولابد أن يجد الاستجابة إذا دعا وكانت شروط الاستجابة موفورة.

أما المصيبة التي يبعثها الله عز وجل على الأمة جمعاء فعلاجها أن تعود هذه الأمة كلها إلى الله سبحانه وتعالى وأن يقبل أفراد هذه الأمة جمعاء على اختلاف فئاتهم ومستوياتهم يقبلون إلى الله سبحانه وتعالى تائبين متضرعين يجددون العهد مع الله أنهم لن يشردوا بعد اليوم عن صراطه، أنهم لن يستمرئوا المعاصي التي كانوا قد استمرؤوها نسياناً أو جهلاً أو نحو ذلك. فإن هم فعلوا ذلك، أقبلوا إلى الله جميعاً وتابوا إلى الله جميعاً وردُّوا المظالم جميعاً وابتهلوا وتضرعوا إلى الله عز وجل جميعاً فإن الله عز وجل لابد أن يرفع عنهم البلاء ولابد أن يبدل مصيبتهم نعمة.

إذاً المصائب في حياة المسلمين إنما يبعثها الله عز وجل للسبب الذي ذكرت لكم، وصدق الله القائل: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]

ولكن المشكلة – يا عباد الله – تتجلى عندما يظل جمعٌ كبيرٌ وكبير من المسلمين عاكفين على لهوهم على معاصيهم وأوزارهم، عاكفين ربما على استخفافهم بشرائع الله عز وجل وكتابه ثم إن أفراداً منهم يقابلون إنساناً مثلي ممن يُعَدّون في المتدينين أو ممن يُسَمَّون المشايخ يقول لهم ادع الله لنا، ما لكم لا تدعون للأمة أن يرفع الله سبحانه وتعالى هذا البلاء، يكلفون من يرونهم ملتزمين متدينين بالدعاء نيابة عنهم، أما هم تتأمل في حالهم فتجد أنهم لا يغيرون من سلوكهم شيئاً، لا يزالون عاكفين على الأوزار

التي استمرؤوها، لا تزال أفواههم تستقبل الحرام تأكله ولا تسأل من أين جاء، لا يفكرون برد المظا لم، لا يقفون أمام قول الله عز وجل القائل: ﴿أَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠]

كم وكم وقفتُ أمام هذه الكلمة العجيبة التي نغفل عنها يخاطبنا الله قائلاً: ﴿أَوْفُواْ بِعَهْدِي﴾ الذي ألزمتكم به والذي عاهدتموني عليه ﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾

لا. العكوف يستمر على المعاصي والأوزار ولكن عندما يتجلى البلاء بنُذُرِهِ المخيفة فإن الشأن الوحيد الذي يتجلى لهم أن يطرقوا أبواب من يرونهم متدينين أو من يسمونهم المشايخ: ألا تدعون؟ لماذا لا تدعون الله عز وجل. وأنتم لماذا لا تقبلون إلى الله.

تأملوا – يا عباد الله – في هذا الذي يقوله الله عز وجل: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] ثم ماذا قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]

ما العلاقة بين الجملة الأولى والثانية في هذه الآية ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي﴾ خطاباً للناس جميعاً على اختلاف فئاتهم، ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ ثم إنه يوجه الخطاب إلى الذين يستكبرون عن الدعاء، يستكبرون عن الوقوف أمام باب الله بانكسار وتضرع وبكاء فيقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

عباد الله: إن التوكيل الذي شرعه الله سبحانه وتعالى في العقود والمعاملات المختلفة لم يشرعه في العبودية الضارعة لله، لم يشرع البيان الإلهي التوكيل في واجب الالتجاء إلى الله، في واجب الفرار إلى الله القائل: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات: ٥٠]

لم يشرع الله عز وجل لي وقد سمعت قوله ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ أن أُوَكِّلَ فلاناً أو فلاناً فِرَّ عني إلى الله عز وجل.

لم يشرع الله عز وجل الوكالة في هذا الشأن قط، لم يأذن الله عز وجل لي أن أقول لزيد أو فلان أو فلان من الناس ألا تطرق باب الله عني، ألا تدعوه عني، ألا تدعوه عني أن يصلح تجارتي، أن يرفع عنا هذه الحوباء، اغد بدلاً عني إلى أعتاب الله عز وجل وتضرع بدلاً عني واسكب الدموع من المآق بدلاً عني. أفَشَرَع الله هذا يا عباد الله؟

جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول له ادع الله لي، ونظر رسول الله إليه فوجد فيه دلائل التقصير في جنب الله عز وجل فقال له: أعني على نفسك بكثرة السجود.

لا ينبغي أن يكون دعائي لك نيابة عن دعائك واستغفارك وتوبتك وإنما ينبغي أن يكون دعائي لك دعماً لعبوديتك، دعماً لموقفك الضارع أمام الله سبحانه وتعالى.

تأملوا – يا عباد الله – كيف يلحُّ البيان الإلهي عندما تنزل المصيبة على الأمة جمعاء أن تؤوب إلى الله وأن تتجلبب بجلباب العبودية والإنابة إلى الله سبحانه وتعالى، انظروا إلى هذا البيان وتأملوا فيه إذ يقول: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢]

﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء﴾ إيقاظاً لهم، أملاً في أن يستيقظوا ويؤوبوا فيتضرعوا إلى الله، لا ينيبوا غيرهم بالتضرع، لا، أملاً في أن يقبلوا جميعاً إلى الله على اختلاف فئاتهم وعلى اختلاف درجاتهم، يقبلون إلى الله عز وجل، يتوبون إلى الله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَوْلا إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ﴾ [الأنعام: ٤٣] هلا تضرعو ﴿وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣]

عباد الله: حصيلة القول هي التال

مفتاح النعمة بعد النقمة، السبيل إلى التخلص من هذا البلاء وغيره إنما هو أوبة جماعية إلى الله، إنما هي رحلة جماعية على صراط الله ووقفة انكسار على باب الله عز وجل، وانظروا كيف يبدل الله عز وجل النقمة نعمة وكيف تنطوي المصائب وكيف يكرمنا الله عز وجل بالأمطار السخية وكيف تعود الأنهار متدفقة متألقة. هذا هو بيان الله وهذا هو وعد الله، ووعد الله سبحانه وتعالى لا يلحقه خُلْف.

أما ما قد يطوف بأذهان البعض من أن الأمم التي شردت عن الإسلام كله – التي تعيش في الغرب – تتقلب في نعيم بعيدٍ عما نناله نحن فلقد أجبت عن هذا أكثر من مرة وموعدنا في تكرير الإجابة عن ذلك من خلال بيان سنة الله وقانون الله في تعامله مع عباده المسلمين وتعامله مع عباده الآخرين في وقفة قادمة إن شاء الله، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

١٣١- عندما يتشاءم العبد من الموت | ١٩٨٨/١١/١١

ما رأيتُ في النّاسِ أغبى من رجلٍ إذا ذُكِّرَ بالموتِ اشمأزَّ من هذا الحديث، وأعرضَ عنهُ بسمعهِ وبصره، وتحايلَ بكلِّ الأسباب أن يغيّرَ مجرى الحديث وأن يطويَ الكلامَ عن الموت بنقيضه.

هذا مع أنّهُ يعلم علماً لا يدركهُ شكٌّ ولا ريب أنَّ الموت نازلٌ بكلِّ إنسانٍ بل بكلِّ حيّ، ولئن نسيَ هذه الحقيقة فإنَّ خالق الموتِ والحياة يذكّرُ كلَّ عاقلٍ بها صباحَ مساء. يسمعُ قولَ اللهِ عزَّ وجلّ: ﴿قل إنَّ الموتَ الّذي تفرّونَ منهُ فإنّهُ ملاقيكم﴾، ويسمعُ قولَ اللهِ عزَّ وجلّ: ﴿قل يتوفّاكم مَلَكُ الموتِ الّذي وُكِّلَ بكم ثمَّ إلى ربّكم تُرجَعون﴾، ويسمعُ قولَ اللهِ عزَّ وجلّ: ﴿كلُّ نفسٍ ذائقةُ الموتِ وإنّما تُوَفَّونَ أجوركم يومَ القيامة﴾، وقولَهُ عزَّ وجلَّ: ﴿كلُّ نفسٍ ذائقةُ الموت ونبلوكم بالشّرِّ والخيرِ فتنةً وإلينا تُرجَعُون﴾. ويعي كلامَ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلّم: «أكثروا من ذكرِ هاذمِ اللذّاتِ ومفرّقِ الجماعات، لأنّهُ ما ذُكِرَ في كثيرٍ – أي من إقبالٍ على الدّنيا وعلى اللهو – إلا قلّله، وما ذُكِرَ في قليلٍ – أي من الطّاعاتِ والإقبالِ على الله – إلا كثّره». ومعَ ذلك فالرّجلُ الغبيّ يغمضُ عينيهِ ويصمُّ أذنيه ويتحايلُ ألا يسمعَ حديثَ الموتِ لأنّهُ يتشاءمُ منه. ما سببُ ذلك؟

سببُ ذلكَ أمرانِ اثنانِ أيّها الإخوة:

الأمرُ الأوّل: أنَّ هذا الرّجلَ وأمثالَهُ في النّاسِ كثير، يجهلونَ معنى الموت. ومن ثمَّ فهم يظلمونهُ ظلماً كبيراً. يظنّونَ أنَّ الموتَ عدم، وأنّهُ يعني تحوّلَ الإنسانِ من الوجودِ الممتع إلى ظلماتِ عدمٍ لا نهايةَ لآفاقها، والأمرُ ليسَ كذلك. إنّما تُطلَقُ كلمةُ الموتِ هذه بالنّسبةِ لحياتنا التي نعيشُها، تُطلَقُ على حياةٍ من نوعٍ آخر. لو قارنتَ بينَ ذلكَ النّوع وهذه الحياةِ التي نعيشُها لعلمتَ علمَ اليقينِ أنَّ الحياةَ التي يحياها الأموات أقوى من حياتنا بكثير، وكما قالَ العلماءُ من قبل: إنَّ الرّوحَ في حياتنا الدّنيا هذه محبوسةٌ في قفصِ الجسدِ فهي تابعةٌ له، أمّا الرّوحُ في الحياةِ البرزخيّةِ بعدَ الموت فإنَّ الجسدَ يكونُ تابعاً لها. تكونُ الرّوحُ طليقة تسيرُ أنّى شاءت، وتنتقلُ كيفما أرادت إن خُتمت بخاتمةٍ حسنة، ويكونُ الجسدُ تابعاً لها، وما أشبهَ الرّوحَ عندئذٍ بالشّمس التي تكونُ بعيدةً جدّاً عن الأرضِ والبنيان ولكنَّ أشعّتها تظلُّ موصولةً بالأرضِ وبالبنيانِ وبكلِّ

شيء. أشعّةُ الرّوحِ تبقى موصولةً بذرات الجسد إن في باطنِ حوت، أو في باطنِ قبر، ومهما استحالَ الجسد فأشعّةُ الرّوحِ موصولة بهذا الجسد، وبذلك تحيا الرّوحُ حياةً أعظم وتشعرُ شعوراً أتمّ، هذه هي حقيقةُ الموت. وبهذا المعنى يتهيّأُ الإنسانُ الميّت لأن يتلقّى مشاعرَ العذابِ إن كانَ العذابُ هو الذي ينتظرُه. وليتلقّى مشاعرَ النّعيم إن كانَ نعيمُ اللهِ عزَّ وجلَّ ورضوانهُ هما اللذانِ ينتظرانه. هذا هو السّببُ الأوّل للاستيحاشِ من الموت، وهوَ سببٌ مرّدهُ إلى جهلٍ سيّءٍ ينبغي أن يتحرّرَ عقلُ الإنسانِ منه.

السّببُ الثّاني: أنَّ الإنسانَ الذي يغرسُ السّوءَ في حياته يخشى من حصيدِ ما غرس، الإنسانُ الذي يزرعُ الشّرَّ والسّوء ويبتعدُ عن اللهِ عزَّ وجلَّ في سلوكِهِ وعمله، لا بدَّ أنّهُ يخشى عواقبَ أمره، وما الموت؟ الموتُ حصادُ هذه الحياة، والإنسانُ الذي يعكفُ على لهوِهِ ومرحِهِ في هذه الدّنيا ويتّبعُ أهواءهُ أنّى سارت: لا بدَّ أن يستوحشَ من الموت، ولا بدَّ أن يتشاءمَ من مَلَكِ الموت، ولا بدَّ أن يكره حديثَ الموتِ والذي يحدّثهُ عن الموت. ولذا قالَ أبو حاتم (سلمة بن دينار) رضيَ اللهُ عنه أحدُ علماءِ المدينةِ السّبعة، قالَ لسليمانَ بنِ عبدِ الملك الخليفةِ الأمويّ وقد جاءَ يزوره، قالَ لهُ سليمانُ بنُ عبدِ الملك: يا أبا حاتم مالنا نكرهُ الموت؟ قال: (لأنّكم عمّرتم دنياكم وخربتم آخرتكم، فكرهتم أن تنتقلوا من دارِ عمارٍ إلى دارِ خراب). منطق.. كلامٌ سليم.. لا يمكنُ أن يتسرب إليهِ أيُّ شكٍّ ولا ريب؛ من اشتغلَ لتعميرِ دنياهُ وأعرضَ عن آخرتهِ التي هو راحلٌ إليها، ولا بدَّ أن ينتقلَ إليها انتقالَ الطّليقِ إلى السّجن، ومن اشتغلَ في دنياهُ وحياتهِ التي يعيشها لتعميرِ الحياةِ التي هوَ مقبلٌ إليها، وبإصلاحِ ما بينهُ وبينَ ربّه، فإنَّ الموتَ ليسَ في حسابهِ إلا انتقال سجينٍ إلى الحياةِ الطّليقةِ الرّغيدة. هذه هي الحقيقةُ الثّانية.

فلماذا نخرّبُ آخرتنا بأيدينا ونحنُ نعلمُ أنّنا راحلونَ إليها؟ لماذا ندعُ ذلكَ العالم الذي ينتظرنا شئنا أم أبينا والذي نحنُ على موعدٍ معهُ في ميقاتٍ لا يتقدّمُ ولا يتأخّر؟ لماذا لا نجعل منهُ واحةً وارفةَ الظّلال حتّى إذا انتقلنا إليهِ شعرنا بالغبطّةِ والسّعادة؟ ولماذا نجعلُ من ذلكَ العالمِ بأيدينا بلقعاً موحشاً ونحنُ نعلمُ أنّنا راحلونَ إلى هذا البلقع؟ حتّى إذا حانَ حينُنا وجاءت ساعةُ انتقالنا لطمنا وجوهنا وأنفسنا وتمعّرت منّا الوجوهُ والأشكال؟ لماذا؟ أنتَ الذي خرّبتَ عاقبتك، وأنتَ الذي حكمتَ على نفسك بسجنٍ كنتَ تستطيعُ أن تجعلهُ واحةً وارفةَ الظّلالِ كما قلت؟ اسمع قولَ اللهِ سبحانهُ وتعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ

وَنَهَر، فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾. واللهِ ما يسمعُ هذا الكلام إنسانٌ وعى عبوديّتهُ لربّه، وعمرَ طريقهُ إلى مولاهُ وخالقه بشيءٍ من الإقبالِ إليه إلّا واستبشرَ بهذا الكلامِ أيَّ استبشار، وحلقت منهُ العينُ والنّفس إلى تلكَ اللحظة التي يصلُ فيها إلى هذا الوعدِ الرّحمانيِّ العظيم. ولكنَّ الإنسانَ الذي أعرضَ عمّا هو مقبلٌ إليه، وبدأَ يعالجُ دنياهُ التي هو راحلٌ عنها، لابدَّ أن يستوحشَ من هذا الكلام، لأنّهُ يعلم أنّهُ ليسَ المخاطبَ بهذا الوعد.

الإنسانُ هو الذي يخلقُ أسبابَ فرحهِ بالموت، أو يخلقُ أسبابَ تشاؤمهِ بالموت. إن شئت: جعلتَ الموتَ واحة، روضةً غنّاءَ ما أبدع منها ولا أجملَ، وإن شئت: جعلتَ من الموتِ نقيضَ ذلك. يقولُ المصطفى عليهِ الصّلاةُ والسّلام: ﴿من أحبَّ لقاءَ اللهِ أحبَّ اللهُ لقاءه، ومن كرهَ لقاءَ الله كرهَ اللهُ لقاءه﴾. قالت عائشة – والحديثُ صحيحٌ يرويهِ الشّيخان –: يا رسولَ الله كلّنا نكرهُ الموت! قال: ﴿ليسَ ذاك، ولكنَّ المؤمن إذا استبشر أو إذا بُشِّر برضوانِ اللهِ سبحانهُ وتعالى وفضلهِ وجنّته أحبَّ لقاءَ اللهِ فأحبَّ اللهُ لقاءه، وإذا بُشِّرَ الكافرُ بسخطِ اللهِ وعذابهِ كرهَ لقاءَ اللهِ وكرهَ اللهُ لقاءه﴾. هذا هو المعنى العلميّ الذي ينبغي أن نتبيّنهُ وينبغي أن نصطبغَ به: إذا عمرتَ الدّربَ بينكَ وبينَ ربّك ومارستَ عبوديّتكَ لخالقك وناجيته مناجاة العبد لربه في البكورِ والآصال منتظراً وداعكَ لهذه الدّنيا ورحيلكَ منها، ثمَّ جاءكَ طارقُ الموتِ يقول: (لقد حانَ خروجُكَ من الدّنيا واستقبالكُ لخالقكَ الذي طالما عبدتَهُ وطالما ناجيته، إنّهُ ينتظرُ لقاءك)، إنّكَ ستنظرُ إلى هذه البشرى على أنّها عرسٌ ترتقبه، وما هو أجملُ من أن يرى العبدُ ربّه بعدَ أن كانَ يعبدهُ غياباً لا يستطيعُ أن يراه؟ يعتقدُ بهِ ولا يراه؟ هل أجملُ من هذه اللحظة؟

أمّا الإنسانُ الذي طوى فكرهُ عمّا هو مقبلٌ إليه، وجعلَ الدّنيا جنّتهُ التي لا جنّةَ بعدها، واعتصرَ من الدّنيا نعيماً، ولم يبالِ أن يخالفَ أمرَ ربّهِ وخالقه، وأخذَ يخوضُ غمارَ حمأةِ هذه الدّنيا كما يشاء، ثمَّ جاءهُ مَلَكُ الموتِ يدعوهُ للخروجِ من الدّنيا، لا بدَّ أن ينادي على نفسهِ بالويلِ والثّبور.

ونسألُ اللهَ سبحانهُ وتعالى أن يجعلَ الموتَ روضةً نستبشرُ بالانتقالِ إليها، وأن يهيّئنا لذلك بإصلاحِ شأننا والسّيرِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ على صراطهِ الذي شرع، واتّباعِ أوامرهِ التي أمرنا بها، واللهمَّ إنّا نعوذُ بكَ من شرِّ إنسانٍ جعلَ من الدّنيا جنّتَهُ الآخرة فلمّا رحلَ عنها رحلَ رحلة الثُّكالى واستقرَّ في شقاءٍ لا مردَّ لهُ ولا نهايةَ له. استغفروا اللهَ سبحانهُ وتعالى يغفر لكم ذنوبكم، فيا فوزَ المستغفرينَ ويا نجاةَ التّائبين...





الموت

١٣٢- الموت دواء ونعمة.. لكننا عنه غافلون | ١٩٩٢/٠٧/٢٤

كما أن الإنسان لا يستطيع أن يدرك حقيقة النهار، ولا يستطيع أن يعلم السبيل الأمثل للتعامل معه إلا إذا أدرك أن من بعده ليلاً مظلماً آتيا، وكما أن الإنسان لا يمكن أن يدرك حقيقة الصيف ولا يستطيع أن يتعامل معه التعامل السليم الصحيح المثمر إلا إذا أدرك أن هذا الصيف من بعده شتاء، فكذلكم الحياة التي يعيشها الإنسان لا يستطيع أحدنا أن يدرك حقيقتها ولا أن يصل إلى سرّها ولا أن يتعامل معها إلا إذا علم أن جوهر الحياة إنما يتم إدراكه عن طريق فهم الموت.

فالذين عاشوا حياتهم الدنيوية هذه وتقلبوا في رغدها ونعيمها ولم يحاولوا أن يدركوا أن جوهر هذه الحياة إنما هو أشبه ما يكون بميزان، والميزان لا يمكن أن يتألف إلا من كفتين اثنتين، هؤلاء الذين تعاملوا مع حياتهم الدنيا ونظروا إليها من خلال نظر أحدهم من الميزان إلى كفة واحدة لا يمكن إلا أن تشقيهم هذه الحياة، ولا يمكن إلا أن يقعوا منها في مغبّات مهلكة، وإنها لحقيقة ما أحسب أنها تغيب عن ذهن مفكر، هل هناك إنسان يتعامل مع فصل الصيف تعاملاً حقيقياً إلا على ضوء أن أمامه شتاءً سيقبل إليه عما قريب؟ وهل هناك من يتقلب في ضياء النهار ذاهباً آيباً غادياً رائحاً إلا من خلال فهمه أنه بعد ساعات قليلة سيستقبل ظلام ليل دامس؟ كذلكم هذه الحياة التي نعيشها إنما ينبعث سرها من الموت المرتبط بها، وإنما يستطيع الإنسان أن يقدّر قيمة هذه الحياة تقديراً حقيقاً من خلال فهمه بارتباط الحياة ارتباطاً شديداً بالموت.

فمن عرف أن سر الحياة إنما يتممه الموت كما أن سر الموت إنما تتممه الحياة استطاع أن يتعامل مع الحياة التعامل المسعد، واستطاع أن يعلم كيف يضحي بها عندما يقتضي الأمر، وكيف يكون ضنيناً بها عندما يقتضي الأمر، ومن ثَم فإن هذا الإنسان دون غيره هو الذي يستطيع أن يجعل من حياته جسراً يسعده، جسراً يوصله إلى أحلامه وإلى المآلات التي يحلم بها والتي يشد آماله إليها، وإذا عرفنا هذه الحقيقة أدركنا أن الموت ليس في حقيقته مصيبة؛ بل الموت إنما هو المعنى المتمم لقيمة الحياة التي نعيشها، هل

هنالك من يتصور أن إحدى كفتي الميزان مصيبة ضد الكفة الأخرى؟ وهل هنالك من يتصور أن الكفة التي توضع فيها الأثقال إنما هي عدوة للكفة التي توضع فيها الأقوات؟ إن كان هنالك من يتصور هذا فإنه من الجنون بمكان، كذلكم الحياة والموت، وكم يدل على هذا المعنى بوضوح قول الله سبحانه وتعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

معنى الابتلاء لا يمكن أن يتكامل إلا من خلال تمازج الحياة بالموت، ولو أن الحياة استقلت وحدها لما كان للابتلاء معنى، ولو أن الموت كان هو القدر الوحيد الذي يواجه الإنسان لما كان لهذا الابتلاء معنى، إذا عرفنا هذا فلنتصور المنزلقات التي تواجه الإنسان في سلوكه وحياته، التي ترديه وتزجّ به إلى أودية الشقاء، ولنتصور رعونات النفس التي تحفزنا وتدعونا إلى ارتكاب كثيرٍ من المعاصي؛ بل لنتصور العصبية المهلكة التي تتربع في كثيرٍ من الأحيان على عروش نفوسنا وأفئدتنا، ثم تسوقنا لحسابها في كل مهيعٍ وفي كل وادٍ من أودية التيه والضلال، ما الشيء الذي يخلصنا منه؟ لن يخلصنا من آفات المعاصي التي تتسرب إلينا والمنزلقات التي نقع فيها والشهوات أو الأهواء أو العصبيات التي تتحكم بمجامع نفوسنا، لن يعتقنا منها ولن يحررنا منها إلا إذا علمنا الحياة وأدركنا الكوابح التي قيضها الله سبحانه وتعالى مع الحياة، وما هي الكوابح التي ربطها الله ربطاً محكماً بالحياة؟ إنها الموت.

أرأيتم إلى عربة تساق دون كوابح؟ لو فقدت الكوابح إذاً لهوت هذه العربة بأصحابها ولأهلكتهم خلال دقائق، ومن هنا تدرك أن الكوابح التي في العربة هي سر رعاية من يركبها؛ بل هي سر الوقاية، وإن بدت أنها تعارض سير العربة في كثير من الأحيان، كذلكم الحياة إذا شبهناها بعربة فالكوابح التي يجب أن تكون لهذه العربة إنما هي كوابح الموت، عن طريق كوابح الموت إذا تذكرناها، وإذا عرفناها نتخلص من المنزلقات فلا نقع فيها ولا تهوي بنا إلى أسفل أودية التيه والضلال، بواسطة هذه الكوابح نستطيع أن نتحرر من رعوناتنا ونستطيع أن نتحرر من وساوس شياطيننا فنشد أنفسنا سيراً على صراط الله سبحانه وتعالى، بواسطة كوابح الموت التي ينبغي أن نكون على ذكرٍ منها دائماً نستطيع أن نتحرر من عصبيتنا التي تجعلنا كثيراً من الأحيان نتخادع، والتي تجعل كثيراً منها يلبّس على صاحبه باسم الدين وباسم النقاش بالإسلام وباسم كثيرٍ من الأمور والشؤون المختلفة.

أرأيتم كيف أن الموت نعمة ولكنها نعمة باطنة غير ظاهرة، وإنما يستطيع التعامل مع هذه النعمة من وضعها في فكره دائماً، ومن تعامل مع هذا الموت بالانتظار والتذكر والتدبر، وإن كان يتقلب في رغد العيش وفي نعيم الحياة، هذا هو الذي يدرك نعمة الموت ويدرك معنى الكوابح التي جعلها الله سبحانه وتعالى كامنةً في نعمة الموت.

أما الإنسان الذي استغرق في حمأة هذه الدنيا وشهواتها، والذي أخذ يتقلب منها في نعيمٍ أطبق عليه من أطرافه، فكان كمن يتعامل مع الميزان بكفة واحدة فقط، أو كان كمن استهوته تلك العربة التي لا كوابح لها ظناً منه بأنها تستطيع أن تطير به أنى شاء، أما هذا الإنسان الذي استهوته الدنيا وشهواتها وأهواؤها فأنا أعلم يقيناً أنه يكره الموت؛ بل يكره من يذكره بالموت وهو شيء نعرفه جميعاً ولكن فليعد هذا الإنسان إلى نفسه وليضحك من غبائه وليتساءل ماذا يفيده أن يكره الموت!! بل ماذا يفيده أن يكره من يذكره بالموت إذا كانت هذه الكراهة لا تحصنه ضد الموت! بل ماذا يفيده أن يفر هارباً من الموت وليتقلب من الدنيا بألوان من الرغد والنعيم الذي فيها، ماذا يفيده أن يفر من الموت! ألم يسمع كلام الله خالق الموت والحياة ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ لكن ما أيسر أن يعلم الإنسان أن الدواء الشافي لكثير من رعونات الحياة وعصبياتها وأهوائها ومنزلقاتها والشرور التي تعلمون مما يعدي الناس بعضهم ببعض بهذه الشرور الدواء الوحيد أن يشدنا الموت بالذكرى، وأن نعيش مع الموت بالانتظار، وأن نكون كما قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿أكثروا من ذكر هادم اللذات ومفرق الجماعات، فإنه ما ذكر في قليلٍ إلا كثره – أي من الطاعات والقربات – وما ذكر في كثيرٍ – أي من الإقبال إلى الشهوات والأهواء – إلا قلله﴾.

أرأيتم كيف يصور لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الموت بهذا الكابح الذي حدثتكم عنه؟ من منا يشك إذاً في أن الموت نعمة، نعمة تأتي في ميقاتها، نعمة يتعامل معها الإنسان حسب النظام المرصود، تماما كالدواء إذا أخذته منه جراعات طبق ما أوصاك به الطبيب كان خيراً لك من الغذاء الذي تتناوله، ولكنك إذا أخذت منه بشكل كيفي دون نظام تحول بلا شك إلى بلاء ؛ بل إلى سمٍ ناقع مهلك وكذلكم الموت.

إنني عندما أنظر إلى هذه المجتمعات النائية عنا أو القريبة منا، وأنظر إلى واقع المسلمين وقد استشرت في حياتهم الأدواء المهلكة، وأعرضوا عن ديَّان السموات والأرض بما أسكروا أنفسهم من الأهواء والشهوات، وعندما أنظر إلى شرائح المسلمين أو الجماعات الإسلامية وقد تحول عملهم الذي كان ينتظر منهم إلى تهارج وتخاصم وتعادٍ تسوقهم إلى ذلك كله عصبيات رعناء تفوح رائحتها إلى أبعاد كثيرة، عندما أنظر إلى هذه الفتن والمصائب التي تحدق بنا، وأتأمل بحثاً عن العلاج الذي يخلصنا بسرعة من هذه الأدواء والله لا أجدني إلا أمام علاج واحد، هو أن نضع الموت أمام بصائرنا إن لم يكن يتسنى أن يوضع أمام أبصارنا، وأن نتبين أنه قد حان ميعاده وأنه قد طرق بابنا، إن لم يطرق اليوم فكأن قد.

دواؤنا الوحيد للتخلص من رعوناتنا أهوائنا تعشقنا للدنيا، إعراضنا عن الله، العصبيات الجاهلية التي استحكمت بنفوسنا ثم غطيناها بأردية الإسلام والعمل للإسلام، ثم تهارجنا بهذا السلاح وتقاتلنا، وجعلنا أعداءنا يصفقون لنا لأننا بهذا نتشرذم أكثر مما يحلم به أولئك الأعداء، والله لا علاج لذلك كله إلا أن نعلم أن كفة الحياة التي نتقلب فيها إنما هي ناظرة إلى كفة الموت الذي يتربص بنا، فمن مزج مشاعر حياته بمشاعر الموت الذي ينتظره سار على صراط الله، واستطاع أن يتمسك بزمام الوسطية الذي أمره الله سبحانه وتعالى بالتمسك به ولم تستطع الدنيا أن تسكره ولا الشهوات أن تأخذ بمجامع نفسه، ولا العصبية الرعناء أن تحمله على مخادعة الآخرين، وليتصور كلٌ منكم مصداق ما أقول في المشهد الذي أفترضه والذي نحن كلنا على موعد معه، أرأيتم لو أن الواحد من هؤلاء وجد نفسه وجهاً لوجهٍ أمام الموت، دنى إليه ملك الموت وأعلن أن قد حانت ساعة رحلته من هذه الحياة إلى لقاء ربه عزَّ وجل، إلى ما تؤل حال هذه الرعونات كلها، وأين تختفي أصوات هذه العصبية أجمع؟ وكيف تصبح حاله وهو الذي كان سكيِّراً بشهواته وأهوائه؟ سيتحرر آنذاك عن ذلك كله، ولسوف تصفو نفسه عن هذه الشوائب كلها.

هذا الدواء فلماذا لا نستعمله جرعة إثر جرعة ونحن نتقلب في رغدٍ من حياتنا التي نعيشها، لماذا نبتعد عن هذه القارورة المليئة بالدواء لكي نستعملها في لحظة واحدة عند الموت ثم نأخذها جرعة واحدة! وعندئذٍ سنشعر بمرار الدواء ولكننا لن نشعر أبداً بأي فائدة من هذا الدواء.

فائدة الموت أيها الإخوة أعظم بها من فائدة، ودواء الموت هو الدواء الأجل الأقدس، ولكن بمقدار ما أن هذا الدواء دواء ناجع عظيم بمقدار ما أن الناس معرضون كل الإعراض عن هذا الدواء.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل خيال الموت مغروساً في ألبابنا وعقولنا، ونسأل الله عزَّ وجل أن ندرك بكل سهولة أن الموت رحمة، وأنه كابح وأي كابح لحقائق الحياة وأخطارها، وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يرزقنا السير على صراطه، والتمسك بمنهج الوسطية عن طريق اللجوء إلى هذا العلاج.



١٣٣- ليبلوكم أيكم أحسن عملاً | ٢٠٠٠/٠٨/١١

كثيراً ما تساءلت وأنا أتلو هذه الآية من كتاب الله سبحانه وتعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾.

كثيراً ما تساءلت: لماذا قدم البيان الإلهي الموت على الحياة مع أن خلق الحياة سابقٌ على خلق الموت؟ وكتاب الله عز وجل عميقٌ ودقيقٌ في تعابيره وحكمه وإشاراته.

لعل المقتضى كما قد يتصور الإنسان لأول وهلة أن يقول الله عز وجل الذي خلق الحياة والموت ليبلوكم أيكم أحسن عملا، ولكني هُديت فيما بعد إلى الحكمة من هذا التقديم والله أعلم، صحيحٌ أن الموت يأتي بعد الحياة من حيث الواقع والترتيب العملي والتطبيقي والتنفيذي، ولكن الموت ينبغي أن يكون مقدماً على الحياة من حيث النظام ومن حيث وضع المشروع، من حيث تصور الإنسان لما ينبغي أن يفعل في حياته التي قيضها الله سبحانه وتعالى له، من حيث المشروع الذي ينبغي أن يضعه نصب عينيه لتنفيذه، ينبغي أن يوضع الموت أولاً ثم ينبغي أن توضع المراحل التي تلي الموت ثانياً؛ ذلك لأن الإنسان الذي يفتح عينيه على هذه الحياة الدنيا فيتعامل معها دون أن يعلم أن نهاية تقلبه في هذه الحياة هي الموت، فلسوف يتعامل مع مقومات الحياة بطريقة تُشقي ولا تسعد، ولسوف يُفاجئ منها بمطبات تُهلك. ولكن إذا وضع مشروع حياته التي سيعالجها وسيمشي على أساسها وقد وضع نُصب عينيه قبل كل شيء أن هذه الحياة تنتهي بغلاف الموت، وأن الموت هي العاقبة لكل حي، فإنه عندئذٍ يتعامل مع مقومات الحياة بالطريقة التي تسعده وتُسعد أبناء جنسه وتبعد عنه مغبات الشقاء كلها.

إذاً فالحياة مقدمة على الموت من حيث المراحل المادية، من حيث الواقع التنفيذي، ولكن الموت مقدمٌ على الحياة من حيث رسم المشروع، من حيث وضع الخطة، والمهندسون عندما يضعون خططهم يضعون في اعتبارهم النهايات التنفيذية قبل البدايات، وهذا شرطٌ أساسيٌ وعلمي لابد منه، فمن أجل هذا قدم البيان الإلهي الموت على الحياة فقال: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾.

الإنسان الذي لا يضع الموت نُصب عينيه باللحظات الأولى التي يفتح عينيه فيها على هذه الحياة الدنيا لا يستطيع أن يصلح أمور دنياه ولا يستطيع أن يصلح أمور دينه أبداً، ذلك لأن الذي وضع الموت وراء ظهره وتخيل أنه غير مقبلٍ عليه وتناساه أو نسيه فلا بد أن يُقبل هذا الإنسان على هذه الحياة الدنيا إقبال العاشق إقبال النهم إقبال الخالد المخلَّد بل المخلِّد أيضاً في هذه الحياة التي يعيشها، ومن ثم فإنه يغامر في الوصول إلى ما يهوى وما يحلم به وما يسيل لعابه عليه دون أن يجد أمامه أي ضابط أو قيود تحد من مغامراته وتحد من إقباله. تختفي الأخلاقيات تختفي الضوابط الاجتماعية التي يشيع بمقتضاها الإيثار بدلاً من الأثرة .. لذلك يختفي؛ ذلك لأن هذا الإنسان نسي الموت أو تناسى الموت ومن ثم فهو عندما يُقبل على الدنيا يُقبل عليها إقبال الظمآن الذي يعلم أن البحار كلها لن تروي ظمأه، يقبل على متعها وملاذها إقبال من لا يرى أي حد للمتع التي يتشهاها. والإنسان هكذا شأنه كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿لو كان لابن آدم وادٍ من مالٍ لابتغى إليه ثانياً ولو كان له واديان لابتغى إليه ثالثا ولا يملئ جوف ابن آدم إلا التراب﴾، أي لا يوقفه عند حده إلا تذكره للموت كما نبه بيان الله سبحانه وتعالى.

وهكذا فإن الإنسان الذي نسي أو تناسى الموت ووضعه وراء ظهره، لا يسعد نفسه في تعامله مع الدنيا ولا يسعد إخوانه، بل لابد أن يكون عبئاً على نفسه ولا بد أن يكون أيضاً عبئاً على إخوانه في المجتمع الذي هو فيه، يؤثر نفسه على الآخرين، يغامر دون حدود دون قيود دون ضوابط، ولكنه إذا وضع مشروع تعامله مع الحياة التي يعيشها ووضع في الخطوة الأولى من هذا المشروع صورة الواقع الذي يعيشه وعلم أن الموت هو النهاية وهو المرحلة الأخرى لكل مغامراته وأعماله، ثم وضع هذه النهاية من حياته في بوابة تعامله مع الحياة كما نبه بيان الله سبحانه وتعالى، فإنه يقبل على الحياة الدنيا ومعايشها، لكن لا إقبال العاشق النهم بل إقبال الموظف الذي أقامه الله عز وجل على ثغر كلفه بملئه، يقبل على تجارته صناعته زراعته أعماله إقبال من كلفه الله سبحانه وتعالى بذلك. يجد بيان الله عز وجل يقول: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِيمَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ يقول: لبيك يا رب، يمارس أعماله ووظائفه وهو يحسب في كل ليلة أن الموت ربما سيواجهه في صباح اليوم التالي. إقباله على الدنيا إقبال الموظف.

ومن ثم فإذا دعى الداعي إلى الإيثار آثر، وإذا دعى الداعي إلى ضبط النفس وعدم تميعها وسيرها في سكك الحياة المتنوعة، وإذا دعى الداعي إلى أن يسير طبق النهج الذي رسمه الله قال: لبيك؛ ومن ثم فإنه يسعد نفسه بالمال الذي يجمعه ويسعد مجتمعه أيضاً، لأنه لا يصبح عندئذٍ عبئاً على أفراد المجتمع بل يصبح عوناً لأفراد المجتمع بفضل أي شيء؛ بفضل أنه وضع الموت مدخلاً لتعامله مع الحياة. ما من خطوة يخطوها إلا وهو يعلم أن نهاية عمله هو الموت. وما الموت؟ التحول من الحياة الدنيا إلى الحياة البرزخية، الإقدام على الله سبحانه وتعالى.

كذلكم الإنسان الذي يعرض عن الموت فلا يتذكره ولا يتعامل معه على أساس أنه المدخل لكل تصرفاته وأعماله الدينية التي يقبل فيها على مرضاة الله عز وجل، الإنسان الذي يمارس وظائفه الدينية مبتورةً عن الموت وتذكره تصبح وظائفه رسّماً بدون حياة، تصبح أعماله وحركاته الدينية أشبه ما تكون بالمدينة المسحورة التي تجد فيها أشباحاً ولا تجد فيها حياةً ولا حركة، يصلي ربما يصوم ربما يحج ربما لكنها حركات تعود عليها، كلماتٌ تمرس لسانه على النطق بها أما الشعور أما رقة القلب أما الإحساس أما الروح التي ينبغي أن أن تنسكب في الصلاة إذا صلاها، التي ينبغي أن تنسكب في الذكر إذا ذكر الله، في تلاوة القرآن إذا تلى في الحج إلى بيت الله إذا ذهب حاجاً كل ذلك معدوم لماذا؟ لأن القلب إذا نسي الموت قسى، تحول إلى ما يشبه هذا الجدار الصلب ولا يمكن للإنسان أن يستشعر قلبه الرقة ولا الخشية إلا إذا علم أن حياته مطبوعةٌ بطابع الموت، إلا إذا علم أنه كما حمل بالأمس تلك الجنازة على الأعناق ورآها وهي ممدودة ورأى من في داخلها وهو ملفوفٌ في أكفانه يعلم أنه عما قريب سيكون هو هذا الرجل، وسيكون هو هذا الممتد في داخل هذا الصندوق، ولسوف يكون هو هذا المحمول على الأعناق. إذا لم يدرك الإنسان هذه الحقيقة فهيهات للقلب أن يرق، وهيهات للقلب أن يخشع.

كثيرون هم الذين يشكون إلي أنهم لا يكادون ينسون الموت، وأن تذكرهم للموت يزجهم في مخافة وفي خشية وفي وحشة، قلت: إن السبب في هذا لا يعود إلى تذكر الموت، ولكنه يعود إلى أنه تتذكر الموت ولا تتذكر الإله الذي حكم عليك بالموت فمن كان قلبه فارغاً عن الإيمان بالله، من كان عقله فارغاً عن تذكر سلطان الله عز وجل فلا شك أن تذكر الموت يوحشه، لأنه يتصور أن الموت عدمٌ يزج في واديه إلى غير رجعة ومن ثم يستوحش. أما الإنسان الذي علم أنه عبدٌ مملوك لله عز وجل وأنه دخل

إلى هذه الحياة الدنيا بالأمس من باب الولادة وسيخرج منها غداً من باب الموت ليلقى الله سبحانه وتعالى، وكان يسير في حياته طبق قدرته وقدر استطاعته على ما يرضي الله عز وجل فالموت لا يكون سبباً لوحشة لا، بل الموت يكون مستقبل بشارة يكون أداة فرحةٍ وسرور. ولكن فرقٌ بين من كان قلبه مؤمناً بالله عز وجل وبين من كان قلبه ناسياً لله سبحانه وتعالى.

إذاً فهذا الإنسان الذي لا يذكر الموت بل وضعه وراءه ظهرياً لا يستطيع أن يمارس سعادةً في أعماله الدينية، أعماله الدينية تصبح شبحاً لا روح فيها وهيهات أن تتسرب الخشية إلى شيءٍ من مشاعره، ولكن إذا أصبح الإنسان وأمسى وهو يتذكر الموت ويتلو الآيات التي تحدث عن الموت ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾ إذا تذكر قول الله عز وجل: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾.

الإنسان الذي يتذكر الموت ويعلم أنه على موعد معه، لكنه لا يعلم أين يقف من الطابور الذي ينتظر الموت كما قلت مراراً، أهوَ يقف في مؤخرة الطابور أم يقف عند أول نافذة الموت في أول الطابور؟ لا يعلم، عندما يدرك الإنسان هذه الحقيقة إن صلى كانت صلاته شبحاً تسري روح الخشية فيها، إذا ذكر الله كان ذكره نبضاتٍ يشعر بها في سويداء قلبه مناجاة وخشيةً لله سبحانه وتعالى، إذا تلى كتاب الله سبحانه وتعالى خُيل إليه أن الله يناجيه وأنه واقفٌ بين يديه، هكذا يصنع الموت بالإنسان. هل هنالك نعمة في حياة الإنسان أجلُّ من أن يبدأها بهذه البوابة التي هي بالواقع التنفيذي تأتي في نهاية المراحل؟

لكن لابد أن تكون من حيث الاصطباغ بالحياة مدخلاً في أولى الخطوات التي تمارسها سواءٌ في أمورك الدينية أو في قضاياك الدنيوية المختلفة.

وعلى الإنسان الذي ابتلي بقسوة قلب فهو لا يكاد يذكر الموت حتى وإن رأى الجنائز تترى أمامه عليه أن يصطنع تذكر الموت، عليه أن يفعل كما فعل عمر كان قد نقش على خاتمه هذه الكلمات: " كفى بالموت واعظاً يا عمر" ويحك ألا تذكر أنك رأيت إنساناً وقع في سياق الموت؟ ألا تذكر أنك رأيت قريباً صديقاً حبيباً أياً كان لك ..كان يتباهى بعافيته وقوته وسلطانه، كان يتباهى بغناه كان يتباهى بقدراته بحنكته بذكائه ثم نظرت وإذا هو ممتد على فراش الموت، وإذا بعينيه عالقتان بالأعلى، وإذا بكائن

يستلب روحه من جسده شيئاً فشيئاً. ألم تقف أمام هذا المنظر يوماً ما؟ ألم تقل لك نفسك إنك ستمتد على الفراش ذاته ولكن لا تعلم متى؟ وإنك ستقابل ملك الموت كما قابله هذا الإنسان أجل، ستجد ملك الموت بعينيك هاتين في حين أن أهلك لا يبصرونه نعم.

﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ لا يحيد الإنسان في دنياه عن شيءٍ كما يحيد عن الموت، عندما يُهرع إلى الأطباء عندما يأوي إلى أكنانه عندما يأكل الطيب من طعامه، عندما يفعل كل ما يستطيع أن يفعله من أجل أن يتوقى عادية الموت. والموت ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾.

أدرك هذه الحقيقة بعقلك ثم ليصطبغ بذلك شعورك تتحول مشاعرك من هذه الدنيا إلى الآخرة، إن مارست الدنيا فبسائقٍ من وظيفة اقامك الله فيها، وإن مارست أعمالك الدينية فكل ذلك يكون روحاً نابضاً من الخشية من الله والإقبال على الله سبحانه وتعالى. وإذا سرت في هذا الطريق مراحل إثر مراحل فلسوف تدرك أن الموت نعمة وليس نقمة، وأن لائحة الموت إذا لاحت أمامك فإنها بشارة وأي بشارة لا تتصور أن في هذا الكلام مبالغةً. ألم تسمع كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما اتفق عليه الشيخان ﴿من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه﴾ قالت له عائشة يارسول الله أهو الموت فكلنا يكره الموت؟ ﴿قال ليس بذاك ولكن العبد إذا دنا موته فبشر بمحبة الله سبحانه وتعالى ورضوانه أحب لقاء الله وإذا دنى الموت من العبد فبشره الله سبحانه وتعالى بمقته وغضبه كره لقاء الله فكره الله سبحانه وتعالى لقاءه﴾. ما معنى هذا الكلام؟

معنى هذا الكلام أن الإنسان عندما يدنو منه الموت لا بد أن يريه الله مقره الذي ينتظره لاسيما إن كان من الصالحين، لاسيما إن كان من الذين يحاولون جهد استطاعتهم أن يستنزلوا رضا الله سبحانه وتعالى عنهم، إذا حان انتقاله من هذه الدنيا بشره الله عز وجل بوسيلة ستعلمها آنذاك، بشره الله عز وجل بطريقة ما. فإذا تلقى هذه البشرى وعلم أن الله عز وجل أعد له من النعيم ما لا يدركه خيال ولا يتصوره وهمٌ من الأوهام، وأن الله راضٍ عنه. فهل تتصور أن يكون في الدنيا كلها شيء أغلى لديك من إقبالك على الله سبحانه وتعالى؟ وما قيمة هذه الدنيا العفنة بعد ذلك إذا تلقيت هذه البشرى من مولاك الكريم الرحيم؟

أجل من أحب لقاء الله أحب الله سبحانه وتعالى لقاءه. ألم تقرأ قول الله عز وجل: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ، الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ، لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾؟ والولي كل من ختم الله له بعملٍ صالحٍ يرضيه ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ متى؟

قبيل الموت .. قبيل الموت .. رحمة ولطف من الله تأتيه هذه البشرى حتى تغالب لذتها آلام الموت فتتغلب على آلام الموت، عندما يتلقى هذا العبد هذه البشرى من الله: أن الله راضٍ عنه، وأن الله يحبه، وأن الله سيكرمه فإن هذا يصبح مخدراً ينسيه آلام الموت، ومن ثم فإن الدنيا أيضاً تصبح سوداء في ناظريه.

ولكن اضمن لنفسك أن يبشرك الله هذه البشرى تجد أن الموت لذة وأنه سعادةٌ ما مثلها سعادة، أجل. وسبيل ذلك أن تتذكر الموت دائماً، وأن تجعل من تذكر الموت عصارة تُدخل منها خشيةً خوفاً مهابةً من الله سبحانه وتعالى في طاعاتك وفي أعمالك قربات إلى الله سبحانه وتعالى.

أسأل الله عز وجل أن يختم حياتنا بأحب الأعمال إليه حتى نلقاه وهو راضٍ عنا. أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

١٣٤- متى يكون الموت مصيبة ومتى يكون نعمة؟ | ٢٠٠٢/٠١/٠٤

فإن الله سبحانه وتعالى يقول في محكم تبيانه: ﴿تبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾

لاحظوا يا عباد الله كيف أن الله عز وجل قدم الاهتمام بالموت على الحياة، مع العلم بأن الحياة مقدمة على الموت بالنسبة للمرحلة الزمنية، والواقع الذي يعيشه الإنسان، ومع ذلك فإن البيان الإلهي لم يلتفت إلى المنهج الزمني والترتيب الميقاتي، وإنما قال الذي خلق الموت والحياة، والحكمة من ذلك أن يلفت البيان الإلهي نظر الإنسان، إلى أن عليه أن يهتم بما هو مقبل عليه، أكثر من اهتمامه بما هو متقلب فيه، إن من الأهمية بمكان، وأنت تتقلب في حياتك التي تعيشها اليوم أن تتأمل في الموت الذي أنت نقبل إليه عما قريب، فمن هنا قدم ذكر الموت على الحياة، ولكن الإنسان يعيش في حياته هذه التي يتقلب في غمارها متعاملاً مع نقيض ما يقوله بيان الله عز وجل يعرض عما هو مقبل إليه، شاء أم أبى، ويضع كل همه وكل تصوراته، ويحبس سائر أحلامه، في حياته الدنيوية التي هو معرض عنها عما قريب، وعلى الرغم من أن المصطفى صلى الله عليه وسلم، لفت نظرنا إلى هذا الذي يوحي به بيان الله عز وجل فقال: ﴿أكثروا من ذكر هادم اللذات ومفرق الجماعات فإنه ما ذكر في كثير – أي من المعاصي – إلا قلّله وما ذكر في قليل – أي من الطاعات – إلا كثّره﴾ على الرغم من أن المصطفى صلى الله عليه وسلم لفت نظرنا إلى هذا الذي يوحي به بيان الله سبحانه وتعالى فإن الناس أو أكثر الناس معرضون عما هم مقبلون إليه، ومتناسون له أو متغافلون عنه، ويتقلبون بدلاً عن ذلك، في غمرة حياتهم الدنيا التي هم عما قريب معرضون عنها،

وهذا الإعراض – أيها الإخوة – هو الذي يجعل من الموت مصيبة، إن الذي يجعل من الموت مصيبة تتربص بحياة الإنسان ليس حقيقة الموت ذاته، وإنما الذي يجعل الموت مصيبة حقيقة إعراض الإنسان عن الموت، ومن ثم عدم تهيأه للموت الذي هو مقبل إليه وعدم تهيأه لما بعد الموت، فهذا هو الذي يجعل من الموت مصيبة والذي جعلها كذلك إنما هو الإنسان ذاته، ومن عجب إن بيان الله عز وجل يؤكد ويبين

هذه الحقيقة لنا بأساليب شتى في محكم تبيانه، وأن المصطفى صلى الله عليه وسلم يلفت أنظارنا إلى هذا المعنى منبهاً ومؤكداً ومع ذلك فإن من شأن أكثر الناس أن يعرضوا عن الحديث عن الموت، وإذا وجدوا أنفسهم في مناسبة تستعدي الحديث عنه تغافلوا عنه وإذا أتيح للواحد منهم أن يفر من الحديث عنه فعل، وإذا أتيح لأحدهم أن يسكت المتحدث عن الموت فعل أيضاً وإنه لأمر مذهل ومضحك، لو كان هذا الفرار بالسماع أو بالنفس عن ذكر الموت، محرراً للإنسان عن الموت، لكان هذا عملاً مقبولاً ومعقولاً، ولكن الإنسان يعلم، كل الناس يعلمون أن الموت هو القدر الذي لا يمكن لأحد أن يفر منه، وصدق بيان الله عز وجل القائل: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، وصدق ربنا عز وجل إذ يقول: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾.

فما لك تعرض عما هو متربص بك، ما لك تعرض عن نهاية طريق كتي عليك أن تسير فيه وهو ذو اتجاه واحد، لا تستطيع أن تعود القهرقرة من طريقك هذا، لماذا تغمض عينيك عن المحطة الأخيرة التي أنت صائر إليها، هذا هو الأمر الذي يضحك، وشر البلاء كما قالوا ما قد يضحك في كثير من الأحيان.

أيها الإخوة: أريد في هذه الدقائق أن أوضح لكم الخطأ الكبير الكبير، من إعراض الإنسان عما صائر إليه، ثم لأوضح لكم ولنفسي الدواء الذي إن استعملناه هان علينا ذكر الموت، بل ذاب معنى المصيبة فيه أيضاً، أما الخطأ والخطر في إعراضنا عن الموت، فهو أن الإنسان إذا أعرض عن هذا الذي هو صائر إليه، فمعنى ذلك أنه يجعل من الموت فداء لهذه الحياة الدنيا، هذا هو تفسير هذا الموقف ولا ثاني له، معنى إعراضنا عن الموت وتجاهلنا له وتناسينا لأمره أننا نجعل من الموت، وما بعد الموت فداء لحياتنا الدنيوية التي نتقلب فيها، فاعجب لإنسان يجعل من الباقي فداءً للفاني، فاعجب لإنسان يجعل مما هو صائر إليه ومنته إليه، فداء لطريق يمر به، لمعبر يسير فيه، لجسر يقطعه إلى الغاية، لإن كان الجنون فنوناً فإن هذا لهو أسوء فنون الجنون، لا ريب في ذلك قط، نحن نسير من حياتنا الدنيا هذه – أيها الإخوة – في معبر وكم وكم يقرع أسماعنا بيان الله عز وجل القائل: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدَّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى﴾

وكم وكم نسمع قول الله عز وجل: ﴿لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِي الْبِلاَدِ، مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾

وكم نسمع قوله سبحانه وتعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾

هذه الحقيقة لا يجهلها أحد ومع ذلك فما أكثر من يصرّ على أن يجعل من الباقي – الذي لا مناص منه ولا مفر منه – فداءً للفاني، فداء لهذا الجسر الذي نعبره ونمر به، فهذه هي خطورة الداء وتلك هي ظاهرة المصيبة في حياة الإنسان ليس الموت مصيبة إنما المصيبة هذا الواقع الذي يمارسه الإنسان باختياره أما الدواء،

ما الدواء الذي إن استعملناه هان علينا ذكر الموت بل ربما أطربنا ذكر الموت؟

الدواء أيها الإخوة أن نستعد لما بعد الموت، الدواء أن نصلح حالنا مع الله، الدواء أن نعمر حياتنا التي نحن مقبلون إليها، وأن نضع كل همنا أو جلّ همنا لبناء ذلك الغراس لإشادة البناء الذي نحن مقبلون إليه، فإن نحن فعلنا ذلك، وإن عمرنا الطريق بيننا وبين الله عز وجل بالتوجه إليه على الصراط الذي أمر، وبالتزام النهج الذي أوصانا به، وذكرنا به، فلن يكون غائب أحب إلينا من حاضر من الموت، ذلك لأن الموت يصبح بوابة الوصول إلى الله، يصبح بوابة الوصول إلى الإله الذي استجبت لأمره وحققت ما أوصاك به ففاض قلبك حباً، له وفاض قلبك اشتياق إليه، وما الجدار الذي يحول بينك وبين رؤيته، شيء واحد لا ثاني له ألا وهو جدار الموت، عندئذ سيجعل الشوق فؤادك ينتظر لحظة هبوط هذا الجدار لتتجاوزه إلى لقاء الله سبحانه وتعالى، هذا هو الدواء أيها الإخوة.

وأنا أضرب لكم مثلاً إنسان استأجر داراً لعشر سنوات بعقد ينصّ على أنه لا بد أن يخرج من هذه الدار في نهاية السنوات العشر، وله دار على مقربة من هذه الدار التي استأجرها ولكنها خربة، هذا الإنسان لما سكن في هذه الدار التي استأجرها، غرّه منظرها، غرّه ما فيها من بهرج، وزينة فأنساه ذلك الألق داره الخربة التي لا بد أن يصل إليها، ومرت السنة تلو السنة تلو السنة، وهو سكران بهذه الدار التي استأجرها، والتي لا بد أن يخرج منها عم قريب، ولما مرت السنوات العشر جاء صاحب الدار، يقرع باب داره ويذكره بضرورة الخروج منه لأن عقد الإيجار قد انتهى، وعندئذ تذكر أن داره خربة، لا تصلح للسكنى

فيها وينظر إليها من كثب ويراها أنها تقول له إنني آسفة لا أصلح للسكنى، لا بد أن يكون خروج هذا الإنسان من هذه الدار مصيبة وأي مصيبة ولكن ما الذي جعل مصيبة منها، نسيانه لما هو صائر إليه، نسيانه لتلك الدار التي لا بد أن ينتهي إليها، وتعلقه بما هو مفارق له، هذا هو الذي جعل من خروجه من دار الناس، مصيبة وأي مصيبة.

لكن انظروا إلى العاقل الذي بدأ منذ أن حلت قدماه في تلك الدار التي استأجرها، بدأ يذهب في كل يوم ساعة أو ساعتين ليصلح من شأن داره وليرممها وليعيد بناءها، وليأسسها على النحو الذي يروق له، فما أن انتهت السنوات العشر حتى كانت داره التي سيصل إليها، متألقة، تقول له بلسان الحال مرحباً بك، ها أنا ذا مهيئة لأن أسعدك، عندما يأتي صاحب الدار ليستخرجه من داره، يخرج من داره وهو جذلان ويقطع الطريق ما بين الدار التي أعرض عنها والدار التي هو صائر إليها في نشوة وطرب، ما من خطوة يخطوها مبتعداً عن الدار التي تركها متقرباً من داره التي يملكها إلا فؤاده يرقص فرحاً، هذه قصة الإنسان في هذه الحياة الدنيا مع داره التي هو مقبل إليها ورحم الله سلمة بن دينار أبا حازم يوم سأله سليمان بن عبد الملك وقد جاءه زائراً يا أبا حازم ما لنا نكره الموت قال: لأنكم عمرتم دنياكم وخربتم آخرتكم، فكرهتم أن تنتقلوا من دار عمار إلى دار خراب، إي إن من عكس الأمر فاهتم بتعمير الدار التي هو مقبل إليها وترك داره الدنيا التي يعيش فيها للضرورة ولقدر الحاجة، فإن هذا الإنسان لن يكره الموت بشكل من الأشكال.

لاحظوا أيها الإخوة أنني عندما أوفق لتعمير ما بيني وبين مولاي وخالقي بالانقياد لأمره بالإكثار من ذكره، بحمده وشكره، على نعمه لا بد أن يفيض قلبي حباً ومن ثم لا بد أن يفيض قلبي اشتياقاً إليه، وإذا اهتاج القلب بالشوق إلى الله ذابت خطورة الموت وذاب الأسى الذي يمكن أن يشعر به الإنسان عندما يذكره زيد من الناس بالموت وأحداثه، بل يجد في الموت الذي هو مقبل إليه أطرب ساعة يجتازها إلى الله سبحانه وتعالى وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال للسيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: ﴿من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه﴾ قالت عائشة : أكراهية الموت فكلنا نكره الموت يا رسول الله، قال: ﴿ليس ذاك ولكن المؤمن إذا بشره الله برضوانه ومغفرته وجنته

أحب لقاء الله فأحب الله لقائه، وإن الكافر إذا بشر بسخط الله وعذابه كره لقاء الله فكره الله لقائه﴾ وقد فصل لنا المصطفى صلى الله عليه وسلم هذا الحديث الذي رواه الشيخان في مكان آخر وزاده تفصيلاً فأوضح لنا أن المؤمن إذا دنا منه الموت بشره الله بما هو صائر إليه، فليس شيء أحب إليه في تلك الساعة من أن يخرج من هذه الدنيا ويلقى مولاه وخالقه عز وجل أما الكافر فإنه إذا دنا من الموت أراه الله عز وجل مصيره فليس شيء في الكون كله من الخروج من الدنيا. وصدق الله القائل: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ، الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ، لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

أما البشرى في الحياة الدنيا فهي ساعة الفراق عندما يدنو الموت من واحد من هؤلاء الذين كتب الله سبحانه وتعالى لهم السعادة يريه الباري عز وجل مقامه ويريه مظاهر السعادة التي تنتظره، الموت، الموت عندئذ يكون فرحة ما مثلها فرحو، ولا بد أن يقول كما كان يقول بلال عندما اشتدت به برحاء الموت وقد سمع من يأسى ويحزن لفراقه ويقول واكرباه قال بل واطرباه غداً نلقى الأحبة محمداً وصحبه.

١٣٥- الموت والحياة | ٢٠٠٨/٠٥/٢٣

سُئِلْتُ أكثر من مرة لماذا قدَّم البيان الإلهي الموت على الحياة في قوله عز وجل: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الملك: ٢] وقد علمنا أن الحياة متقدمة في الرتبة والوجود على الموت فما الجواب عن هذا السؤال يا عباد الله؟

الجواب هو أن الحياة فعلاً متقدمة في الوجود على الموت ولكن الموت هو كابح الحياة، والكابح وإن متأخراً في الوجود والظهور ولكنه دائماً متقدم في الاعتبار وأخذ الحيطة، أداة الانطلاق في العربة مقدمة على كابحها ولكن السائق لابد أن يضع نصب عينيه الكابح قبل أن يستعمل أداة الانطلاق، هذه الحقيقة هي باختصار الجواب عن هذا السؤال الذي قد يطوف بذهن كثير من الناس، شاء الله سبحانه وتعالى بلطفه وحكمته ورحمته وقد بسط أسباب العيش لعباده في هذه الحياة الدنيا، شاء أن يضع بين أيديهم الكابح الذي يمنعهم من أن تطغيهم معايشها والذي يمنعهم من أن تسكرهم متعها ولذائذها، فما هو هذا الكابح الذي يمكن أن يؤدي في حياة عباد الله عز وجل هذه المهمة؟

إنه الموت، إنه الكفة الثانية، ومن هنا كان لابد من تقديم الكابح على انطلاقة الإنسان في فجاج الحياة الدنيا يتقلب في رغدها ونعيمها كما يشاء، ومن ثم فإن علينا أيها الإخوة أن نتبين حالتين اثنتين للإنسان وأن نتبين كيف يتجلى هذا الذي أحدثكم عنه من رحمة الله عز وجل ولطفه بعباده، أما الإنسان الذي أقبل إلى هذه الحياة الدنيا يتقلب في نعيمها ويذوق من لذائذها وقد نسي أو تناسى هذا الكابح، نسي الموت الذي يتربص به ومضى يعكف على لذائذ الدنيا ومتعها فإن الشأن بالنسبة لهذا الإنسان أن يُقْبِلَ إلى الدنيا إقبال المتعشق لها، إقبال المتعلق بها، كلما ازداد تذوقاً للذة من لذائذها ازداد سكراً بها وازداد عكوفاً عليها بل ازداد ظمأً إليها، إنه يعاني من ظمئٍ يُخَيِّلُ إليه أن بحار الدنيا كلها لا تستطيع أن تروي ظمأه والسر في ذلك أنه أقبل منطلقاً إلى الحياة الدنيا ناسياً الكابح الذي وضعه الله عز وجل في الاعتبار الأول أمامه.

وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يصور لنا هذا المعنى في حديثه المتفق عليه: ﴿لو كان للإنسان وادٍ من مال لابتغى إليه ثانيا ولو كان للإنسان واديان من مال لابتغى إليهما ثالثاً ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب﴾، أي لا يوقفه عند حد ولا يشعره بشبع إلا تذكره الموت، عبَّر عنه المصطفى صلى الله عليه وسلم وكنَّى عنه بالتراب، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، هذا الإنسان الذي نسي الموت وخُيِّلَ إليه أنه مخلد يقبل كما قلت لكم إلى الدنيا رغدها، أموالها، متعها، إقبال العاشق لها، يغامر في سبيلها مستأثراً وقد نسي الإيثار، يغامر في سبيلها ظالماً وقد نسي العدل وحقوق الآخرين، يغامر في سبيل متعه وأهوائه وقد خُيِّلَ إليه أنه الوحيد الذي وُضِعَتْ مائدة الدنيا كلُّها أمامه ليأكل منها ما لذَّ وطاب دون حدٍّ لشبع ودون حدٍّ لري.

وأما الإنسان الآخر الذي أقبل إلى هذه الحياة الدنيا وقد وضع نصب عينيه الكابح الذي نبَّه إليه بيان الله سبحانه وتعالى، علم أن الموت يتربص به وأنه يقف من بوابة الموت في طابور لا يعلم كما قلت أكثر من مرة أهو يقف في مقدمة الطابور أم في نهايته أم في وسطه دون أن يكون أثراً في هذا لشيخوخة أو لشباب أو طفولة وضع نصب عينيه هذا ومن ثم فهو يقبل إلى الدنيا ويتقلب في رغدها ولكنه يقبل إليها إقبال الموظف كُلِّفَ بالقيام بمهمة، يقبل إليها إقبال من كُلِّفَ بعمارة هذه الأرض على النحو الذي يشاء مالك هذه الأرض ومالك الكون كله، يقبل إلى الدنيا وهو يصغي إلى بيان الله القائل: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥] ويصغي إلى قول الله سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]، كلفكم بمهمةٍ تتمثل في عمارتها العمارة المادية والعمارة الحضارية.

يصغي هذا الإنسان إلى خطاب الله فيقول لبيك يا ربي ها أنذا أنهض لأداء الوظيفة التي كلفتني بها، يتمتع موظفاً عند الله، يتقلب في رغد العيش، يبني المصانع، يبني المؤسسات التجارية ولكنه يشعر في كل ساعة بل في كل دقيقة أنه موظف في هذا يؤدي مهمة كلفه الله سبحانه وتعالى بها ومن ثم فإن هذا الكابح يصده عن الشطط، يصده عن المغامرة والدخول فيما حرمه الله عز وجل، كابح الموت يمنعه من أن يظلم الآخرين، كابح الموت الذي ينتظره يمنعه من أن يلتهم حقوق الآخرين ليملأ جيبه وليملئ رصيده بأموال الآخرين وحقوقهم، هذا الإنسان الذي يضع كابح الموت نصب عينيه لا يمكن أن يستلب وطناً

لعبادٍ من عباد الله عز وجل، لا يمكن أن يجردهم من حقوق، لا يمكن أن يتلاعب عليهم من أن أجل أن يستَجِرَّهم إلى عرش يريد أن يتربع فوقه على حسابهم وظلم لحقوقهم، هذا هو الفارق ما بين الإنسانَيْنِ يا عباد الله.

أرأيتم إلى الموت ووظيفته، أرأيتم إلى الموت كم هو رحمة خفية من رحمات الله سبحانه وتعالى بعباده، ولكن ينبغي أن أستدرك أيها الإخوة لأقول لكم إن الذي يضع الموت نصب عينيه فريقان من الناس، أنا أتحدث عن الفريق الذي عرَفَ هويته وعرف ربه وأدرك أن الموت بوابة ينفذ منها إلى لقاء الله، إلى لقاء خالقه الذي أحبه واشتاق إلى رؤيته، عن هذا الفريق أتحدث، هذا الإنسان إن امتدت به الحياة سَعِدَ بالدنيا وأَسْعَدَ بها وإن عاجله الموت رقصت الفرحة بين جوانحه لأنه يستبشر بأنه على موعد قريب من لقاء الله سبحانه وتعالى وصدق رسول الله القائل: من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه، قالت عائشة يا رسول الله أهو الموت فكلنا يكره الموت، قال ليس ذاك ولكن العبد إذا وفاه الموت وبُشِّرَ برحمة الله ولقائه لم يكن شيءٌ أحبَّ إليه من لقاء الله وإذا بُشِّرَ العبد بسخط الله سبحانه وتعالى وعقابه لم يكن شيءٌ أشد وأصعب عليه من لقاء الله سبحانه وتعالى.

الإنسان الذي عرف حقيقة الموت وأدرك أنه ليس عبارة عن عدم وإنما هو انتقال عبر بوابة من حياة إلى حياة أخرى أرسخ قوة من هذه الحياة هي الحياة التي يلقى فيها العبد ربه سبحانه وتعالى، أما الذي عرف الموت ولكنه لم يدرك معناه، عرف الموت متوهماً أنه عدم بعد وجود وأنه الغلاف الأخير لقصة هذه الحياة التي يعيشها، هذا الإنسان من شأنه أن يسير في طريقه إلى هذه النهاية تماماً كإنسان يسير في نفق ذي اتجاه واحد وهو يعلم أن نهايته سدٌّ لا يُخْتَرَق، كلما أوغل في هذا النفق كلما شعر بالوحشة تأخذ بخناقه، كلما أوغل وأوغل ودنا إلى السد شعر أنه يكاد أن يختنق، تلك هي قصة الإنسان الذي عرف الموت ولكن ظن أنه عدم بعد وجود.

عباد الله أنا أحمد الله واحمدوا معي مولكم جل جلاله أن بصرنا بحقيقة الموت، أنه بيَّن لنا أنهما كفتان موت وحياة وكل منهما ضبط للآخر، نحمد الله عز وجل على أنه أكَّد لنا أن الموت بوابة نرحل منها إلى لقائه، ألستم في شوقٍ شديد إلى لقاء الله، إنكم تسألون الله صباح مساء، تجأرون إليه بالشكوى

والضراعة، تتنزل عليكم نعمه من كل حدب وصوب ولكنكم لا ترونه، ألم تتشوقوا إلى هذا الذي يأتيكم منائحه ولما تروه بعد، الموت هو الذي يرفع الحجاب بيننا وبين الله سبحانه وتعالى، الموت هو الذي يُشْعِرُنا بالأنس الذي شعر به بلال وهو يجود بنفسه إذ قال: واطرباه غداً نلقى الأحبة محمداً وصحبه، هذه نعمة لا أجلَّ منها ولا أعظم، ومن مظاهر هذه النعمة أنها تضطبنا بسير مستقيم لرغد العيش، نتمتع بنعيم الدنيا، نتقلب في رغدها لكن ضمن ضوابط لا مثل ذلك الذي يقبل إليها عاشقاً قد سكر بمتعها يستأثر بها عن الآخرين، لا، نقبل إلى الدنيا ولكننا نتقاسمها مع إخواننا تحت مظلة العدل، نقبل إلى الدنيا ولكننا لا نظلم أحداً حقه، نقبل إلى الدنيا ولا نستأثر بها بل نؤثر ولا نستأثر، بهذا يوحي الموت الذي هو بوابة الوصول إلى الله سبحانه وتعالى، أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل من الموت هذا الكابح لنا وأن يجعلنا مطبقين ومنفذين لوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول: «أكثروا من ذكر هادم اللذات ومفرق الجماعات فإنه ما ذكر في كثير، أي من المعاصي، إلا قلَّله وما ذكر في قليلٍ، أي من الطاعات، إلا كثَّره».

أسأل الله عز وجل أن يجعل تعاملنا مع الموت قبل أن يصل إلينا سبباً في ألا نقع في الندامة التي سيقع فيها من نسوا أو تناسوا الموت حتى إذا فوجئوا به هيمنت حرقة من الندم على قلوبهم لا يمكن أن تخمد بشكل من الأشكال، ألم تتصوروا هذه الندامة التي يجسدها بيان الله عز وجل في قول : ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ، لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ [المؤمنون: ١٠٠]، ألم تقفوا على قوله عز وجل وهو يجسد هذا المعنى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُؤُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة:١٢]؟!

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم فاستغفروه يغفر لكم.

١٣٦- مَنْ حسُنَتْ بدايته حَسُنَتْ نهايته | ٢٠/٠٢/٢٠٠٩

فيا عباد الله منذ أسبوعين حدَّثْتُكُمْ عن الأحاديث الكثيرة التي بلغت مبلغ التواتر المعنوي والتي تنص على أن من مات وهو يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله حرَّم الله عليه النار ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أني عبده ورسوله ما يلقى اللهَ بهما عبدٌ يوم القيامة فتحجب عنه الجنة، ففي الناس من فهم من هذا الذي ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم وأكده معنىً لم يقصد إليه المصطفى صلى الله عليه وسلم، في الناس من تصوروا ألا حرج على الإنسان في أن يتقلب في أنواع الفسوق والمعاصي وأن ينال حظه ما شاء من الشهوات والأهواء والمحرمات مادام أنه يحتفظ بقلبه ولسانه بهذه الشهادة عند الموت، وهذه رقية من رقى الشيطان.

وليس معنى هذا الذي ذكره المصطفى صلى الله عليه وسلم ما قد طاف بمخيلة بعض الناس من هذا المعنى الذي فهموه، إن نهاية الإنسان ليس إلا صدىً لحياته التي كانت من قبل أرأيتم إلى النبات يينع من باطن الأرض ثم يتطاول ثم يثمر، إن الثمرة التي تأتي في أعقاب ذلك إنما هي نتيجة للتربة التي رُعِيَتْ وللنبات الذي غُذِّي، هذه الحقيقة ينبغي ألا نتيه عنها، ولو صح هذا الذي يتخيله البعض إذاً لما كان ثمة معنى لقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾ [الكهف: ٣٠]، إذاً لما كان ثمة معنى لقوله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣]، إذاً لما كان ثمة معنى لقول الله عز وجل: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى﴾ [آل عمران: ١٩٥]، من زرع في شبابه وكهولته وشيخوخته استحصد ذلك الزرع في ساعة موته فانظر ما هو الزرع الذي تتعب نفسك فيه وانظر ما هو العمل الذي تعكف عليه لابد أن تجد ثمرات هذا العمل الذي أنت ماضٍ فيه عاكف عليه ساعةَ رحيلك من هذه الحياة الدنيا، قلت لكم وأقول، وهو الحق الذي لا مِرْيَةَ فيه، إن الحال التي يكون فيها أحدنا عند رحيله عن هذه الحياة الدنيا إنما هي صدىً

ونتيجةٌ للحال التي كان عليها هذا الإنسان في سابق حياته وإليكم التفصيل بل الدليل الذي يبرز هذه الحقيقة أيها الإخوة.

الإنسان عندما يقع صريعاً تحت براثن الموت وآلامه يغيب عقله الظاهر من شدة الآلام ويستيقظ بين جوانحه عقله الباطن، الأمور الظاهر التي كان يتعامل معها تتطاير من شدة الألم من كيانه وشعوره ويظهر في تلك الساعة ما كان حبيساً في عقله الباطن، ما هو الذي يكون في تلك الحالة حبيساً في عقله الباطن ثم إنه يظهر على اللسان ويبقى هذا الإنسان محتفظاً به في ذاكرته؟ تلك الأمور التي كان شديد التعلق بها، تلك الأمور التي كان يتعامل معها في شبابه، في كهولته، في سائر تقلباته وكان شديد الحرص عليها وكان شديد المراقبة لها، هذه هي الأمور التي يمتصها العقل الباطن فتكون مختبئة داخل هذا المخزن إلى ساعة الحاجة، عند الموت يفرزُ اللسان هذا الذي كان خبيئاً في مخزن العقل الباطن ويتحرك اللسان به، فإذا كان هذا الإنسان قد اتكل على ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم من أن من قال لا إله إلا الله مخلصاً بها دخل الجنة واطمأن إلى أنه يستطيع أن يمارس لغوه وأن يتقلب في عصيانه وأن يمارس أهواءه وشهواته كما يريد لأن مفتاح دخول الجنة بيده، ما الذي يحصل؟

تقلباته المتجهة إلى الأهواء والشهوات، إقباله بالحب إلى الدنيا وزخارفها وأهوائها، إلى الأموال بكل أصنافها، تعامله مع هذه الشهوات، تذوقه للمتع المحرمة هذا التذوق الذي يزيده تعلقاً بها كل ذلك يختبئ ثم يختبئ في مخزن عقله الباطن، أما كلمات الإيمان، أما الشهادة التي تحدَّثَ عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم، أما مشاعره الإيمانية فلا شك أنها تكون على ظاهرٍ من كلماته ولسانه ومشاعره ليس لها حظٌّ من فؤاده، ليس لها حظٌّ من الحب الكامن في سويداء قلبه وإنما هي كلمات يرددها لسانه ومشاعر عفوية تطوف به بالمناسبات بين الحين والآخر، فإذا حانت ساعة رحلة هذا الإنسان من الدنيا وجاءه ملك الموت ووقع في براثن النزاع وآلام سكرات الموت أتظنون أن الكلمات السطحية التي كان يرددها يبقى لها ذُكْرٌ في فؤاده! أتظنون أن المشاعر العفوية التي كانت تطوف في ذهنه بمناسبات يكون لها وجود في تلك الساعة!

لا أيها الإخوة إنما يكون الوجود في تلك الساعة لما هو مخزون، يتذكر دنياه التي هو راحل عنها، يهتف بما هو مخزون في صندوقه، يهتف بالأمور التي قد تعلق بها أيّاً كانت، يكون هواه ذكريات متعلقة

بذلك الماضي الذي كان يتقلب فيه ومهما ذُكِّرَ بشهادة أن لا إله إلا الله لن يلتفت إليها لأن آلام الموت تحجبه عن حظوظ اللسان وتُذَكِّرُهُ بما استقر في الجنان، على النقيض من الإنسان الذي أقبل إلى الله عز وجل في شبابه، بدأ رحلته إلى الله بالإيمان العقلي به ثم تَحَوَّل الإيمان العقلي إلى حب لهذا الإله الذي خلقه فسواه فعدله في أي صورة ما شاء ركبه، تَحَوَّلَ هذا الإيمان إلى حب لهذا الإله الذي لا تنقطع عنه نعمه ولا متعه، يتحول هذا الحب بعد ذلك إلى تعظيم ومن ثم يغذي حقائقه الإيمانية بالطاعات، يغذيها بالعبادات، يغذيها بكثير من ذكر الله وبديمومة المراقبة لله سبحانه وتعالى، الدنيا تكون علاقتها به علاقة سطحية ذلك لأن مشاعره الإيمانية هيمنت على مجامع فؤاده وعلى زوايا نفسه ومن ثم فإذا حانت ساعة رحلته عن هذه الحياة الدنيا وأقبل إليه ملك الموت ودخل في حالة النزع ما الذي يغيب عن باله وما الذي يتذكره؟ تغيب عن باله الدنيا التي هو راحل عنها ويتذكر ما احتفظ به في سويداء قلبه فهو يلهج باسم الله وهو يعبر عن شوقه إلى لقاء الله وهو يكرر كلمة لا إله إلا الله وهكذا يرحل إلى الله عز وجل بهذه الخاتمة، نعم العبرة بالخاتمة لكن الخاتمةَ نتيجةٌ لما كان يفعله هذا الإنسان من قبل ذلك إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وصدق ابن عطاء الله القائل في حِكَمِهِ مَنْ حَسُنَتْ بدايته حَسُنَتْ نهايته.

وليس معنى هذا الذي أقوله لكم يا عباد الله أن على الإنسان لكي يحتفظ بشهادة ألا لا إله إلا الله أن يكون معصوماً لا، ليس فينا معصوم حاشى الرسل والأنبياء، كل بني آدم خطاء ولكن الرسول قال: وخير الخطائين التوابون ولكن المعنى الذي يرمي إليه بيان الله والذي نبهنا إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الإنسان في تقلباته أثناء حياته التي يعيشها ينبغي أن يغذي مشاعر عبوديته لله، ينبغي ألا ينسى هويته عبداً مملوكاً لله وينبغي أن يعلم أن هذه العبودية هي جواز رحلته إلى الله، أجل يغذي عبوديته لله دائماً بالذكر، بالدعاء، بالالتجاء إلى الله، مثل هذا الإنسان إذا زلَّتْ به القدم وارتكب معصية من المعاصي سرعان ما تهتاج مشاعر عبوديته لله بعد ذلك فتدعوه إلى التوبة، تدفعه إلى الإنابة والندم ومن ثم يغفر الله له ما فعل، ولو أنه وقع في تلك المعصية أو غيرها مرةً ومرةً أخرى ومرةً رابعة وخامسة فإن عبوديته لله بالمرصاد، لابد أن تدعوه إلى الإنابة والتوبة وإذا تاب العبد تاب الله سبحانه وتعالى عليه ومن ثم يكرمه الله عز وجل بهذه الخاتمة التي تحدثنا عنها قبل أسبوعين، وهذا المعنى هو الذي قصد إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق عليه من رواية عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: أُتِيَ بأسرى إلى

رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فرأينا بين الأسرى امرأة تسرع بحثاً عن شيء، تسرع متلهفة بحثاً عن شيء ثم إنها وقعت على طفل صغير فأمسكته وألصقته بصدرها تبين أنه طفلها وكانت تبحث عنه فقال عليه الصلاة والسلام لأصحابه أرأيتم إلى هذه المرأة أملقية وليده في النار قلنا لا يا رسول الله قال: لله أرحم بعباده من رحمة هذه بوليدها، لا يقولن قائل إذا فإن الله سيغفر للناس جميعاً لأن هذه هي سيرة الأم مع أولادها مهما شقوا ومهما ابتعدوا، لا، الأمر أدق من هذا، كن في علاقتك مع الله، حتى وإن كنت عاصياً، كعلاقة هذا الطفل مع أمه يصدق عليك هذا الذي يقوله رسول الله، الطفل قد يلهو وقد يحطم وقد يخالف أوامر أمه ولكن إذا طاف به خطر وأقبل إليه شيء يخافه ماذا يصنع؟ رأساً يُهْرَعُ إلى حجر أمه، رأساً يتشبث بأمه، كن في رجوعك إلى الله وتشبثك برحمة الله عندما يطوف بك الخطر وعندما تقع في المعصية كهذا الطفل يكن لك الله سبحانه وتعالى كالأم لابنها.

هذه الحقيقة أيها الإخوة ينبغي ألا نتيه عنها، وجملة القول وزبدة الكلام أن الإنسان كما قال ابن عطاء الله إذا حَسُنَتْ بدايته مع الله حَسُنَتْ نهايته وإن تقلب في ألوان من المعاصي في أثناء حياته، أما إن كانت حياته الأولى محجوباً فيها عن الله بشهواته وأهوائه فلسوف يرحل إلى الله وهو محجوب عنه بلفظه، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم فاستغفروه يغفر لكم.

١٣٧- بوابة الموت | ٢٠٠٩/٠٧/٠٣

تعالوا أحدثكم اليوم في موضوع يستوحش كثيرٌ من الناس بذكره، بل يستوحشون ممن يحدثونهم عنه، إنه الموت الذي قضى به الله سبحانه وتعالى على عباده جميعاً، بل قضى به على سائر الأحياء، والموت -يا عباد الله- بالنسبة لمن ذَكَرَه وعرف معناه هو الذي يُقَلِّمُ مخالب البغي في الحياة، وتذكّر الموت مع معرفة حقيقته هو الذي يحطم أنياب الظلم والطغيان في الكون، وتذكّر الموت مع معرفة حقيقته هو الذي يجتث شأفة الفساد بكل أنواعه من المجتمع، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم القائل: ﴿أكثروا من ذكر هادم اللذات ومفرق الجماعات، فإنه ما ذُكِرَ في كثير -أي من المعاصي- إلا قلله وما ذُكِرَ في قليل -أي من الطاعات- إلا كثَّرَه﴾.

لذا تعالوا أحدثكم عن الموت الذي يشمئزّ من الحديث عنه السكارى الذين يتطوحون بين عوامل الأهواء والشهوات المتنوعة، تعالوا أحدثكم عن الموت الذي يفر هؤلاء من الحديث عنه فرار طير النعام من الحقيقة الراهنة التي تراها، يفرون من الحديث عن الموت وبيان الله سبحانه وتعالى يلاحقهم قائلاً: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ﴾ [الجمعة:٦٢/٨]، يفرون من الحديث عن الموت ويشمئزون بل يستوحشون ممن يحدثهم عنه، وبيان الله سبحانه وتعالى يلاحقهم قائلاً: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٤/٧٨]

ولكن ما الموت يا عباد الله؟ هل الموت عدمٌ كما يتصور كثير من الناس؟ وإنها لعدوى سرت إلينا من المجتمعات الغربية، ومن الأفكار الخرافية التي توضّعت في رؤوسهم، يتصوّرون أن الموت عدمٌ، ومن ثم يقول أحدهم: حُكِمَ على فلان بالإعدام، ولقد سرت هذه اللوثة وهذا الوهم الخرافي إلى كثير من الناس المسلمين في عالمنا الإسلامي.

الموت ليس عدماً -يا عباد الله- وإنما الموت المرحلة الثالثة من مراحل أربعة جعل الله عز وجل مجموعها منهاج رحلة الإنسان إلى الله سبحانه وتعالى، المرحلة الأولى تتمثّل في حياة الأجنة، حياة الأرحام،

والمرحلة الثانية تتمثّل في الحياة الدنيا التي نعيشها اليوم، والمرحلة الثالثة تتمثّل في الحياة البرزخية التي ننتقل إليها عبر بوابة الموت، أما المرحلة الرابعة فهي المرحلة التي تبدأ بالوقوف بين يدي رب العالمين سبحانه وتعالى.

الموت إذاً ليس عدماً، بل أقول لكم حقيقة علمية قبل أن تكون حقيقة دينية، الإنسان ثنائي التركيب -يا عباد الله- سواء كان يتقلب في حياته الدنيا هذه، أو كان قد انتقل إلى حياته البرزخية الآتية، هو على كلٍّ ثنائي التركيب، مركب من جسد وروح، أما الإنسان في هذه الحياة الدنيا فتكون روحه محبوسة لحساب جسده، لا تستطيع الروح أن تتحرك إلا بمقدار ما أوتيه الجسد من القوة، فإذا ارتحل الإنسان إلى المرحلة الثالثة، ودخل في مرحلة الحياة البرزخية، انقلب الأمر، فأصبح الجسد هو التابع للروح، تنطلق الروح بعيدة عن الجسد، ولكن كما تنطلق الشمس بعيدة عن الأرض، هي بعيدة عن الأرض في ذاتها، ولكنها متصلة بالأرض عبر أشعتها، الروح تكون كذلك أيضاً، تنفك عن الجسد الذي امتد في قبره، ولكنها تسيح في العالم الذي تشاء، وأشعة هذه الروح موصولة بالجسد، ومن ثم يتهيّأ الجسد للنعيم إن كان من أهل النعيم، ويتهيّأ للعذاب إن كان من أهل العذاب، ألم يقل الله عز وجل عن ذلك الذي أعلن إيمانه، وأخبرنا الباري عنه في سورة (يس) أنه قتل، فماذا قال بعد أن قُتِلَ طبقاً لما أخبرنا الله عز وجل به؟ ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ، بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [يّس: ٢٦-٢٧]، هل قال ذلك في يوم القيامة؟ لا، إذ لو كان ذلك القول في يوم القيامة لاجتمع الناس كلهم، ولكنه قالها في الحياة البرزخية ﴿قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ، بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾. وانظروا إلى بيان الله عز وجل إذ يتحدث عمن يعذبون في الحياة البرزخية ومنهم آل فرعون: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ ثم قال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٠/٤٦]

إذاً الموت ليس عدماً يا عباد الله- حسناً هل الموت مصيبة؟ كذلكم الموت ليس مصيبة بالنسبة لمن مات، وإنما هو مصيبة بالنسبة لأقران الميت، بالنسبة لأهله، زوجه، أولاده، ذوي رحمه، وتتمثّل

مصيبتهم في وحشة الابتعاد عن قريبهم، تمثّل المصيبة في الحاجز الذي أُسْدِلَ بينهم وبينه، كانوا يستأنسون بالقرب منه، وإذا هو اليوم بعيدٌ عنهم لا يرونه، أما الميْت فهو الذي يضع في معنى موته ما يشاء، الميْت في دنياه التي يعيشها هنا يضع في الموت إما معنى العرس إن شاء، أو يضع في موته معنى المصيبة الفادحة إن شاء، فإن هو وضع الموت نصب عينيه، واستعد له، واصطبغ بصبغة العبودية لله سبحانه وتعالى، وجعل من ذكر الموت كابحاً، فهو يسير في المنزلقات آمناً مطمئناً معتمداً على كابح الموت ألا يجعله يقع في هذا المنزلق على أُمِّ رأسه، هذا الذي آمن بالله، وتَذَكَّرَ الموتَ غدواً ورواحاً، واستعد له، فإن الموت سيأتيه عرساً ولا كالأعراس، أما ذاك الذي وضع الموت وراء ظهره، واتخذه منسياً من باله وفكره، وأخذ يستوحش ممن يحدثه عن الموت وهو آيلٌ إليه، فلنعلم أن هذا الإنسان يضع في الموت معنى المصيبة، فإذا جاءه الموت رأى المصيبة الفادحة التي تأخذ منه بالخناق.

وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم القائل فيما اتفق عليه الشيخان من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها: ﴿إذا أحب العبد لقاء الله أحب الله لقاءه، وإن كره العبد لقاء الله كره الله لقاءه﴾، قالت عائشة: أذلك الموت يا رسول الله؟ فكلنا يكره الموت، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿ليس كذاك، ولكن المؤمن إذا دنا موته بُشِّرَ بلقاء الله عز وجل، فلم يكن أمامه شيء أحب إليه من لقاء الله، وأما الكافر أو الفاجر فإذا دنا منه الموت بُشِّرَ بسخط الله سبحانه وتعالى، فلم يكن شيء أمامه أبغضَ إليه من لقاء الله عز وجل﴾. ولكنه آيلٌ إلى هذا اللقاء.

عباد الله، أنا أسأل نفسي وأسأل كل واحد منكم: لماذا يجعل الواحد منا نفسه في مثابة رجلين اثنين: أحدهما أحمق قد استغرق في الحمق والغفلة، والثاني ذو بصيرة ووعي؟ لماذا نحاول أن نجعل من أنفسنا مثالاً لذلك الأحمق؟ أعرفتم قصة هذين الاثنين، وقد ذكرت ذلك مرة وأنا أقول لكم: أضع هذا المثال دائماً نصب عيني، رجل استأجر داراً بعقد يمتد أجله عشر سنوات، وله دار خَرِبة على مقربة من الدار التي استأجرها، لما دخل الدار وهي مفروشة، وفي زواياها كل أسباب النعيم والمتعة وما لذَّ وطاب انحط في هذا النعيم وهذه المتعة ونسي داره الخربة التي تحتاج إلى ترميم وتجديد، ونسي وراح ينحط في هذه

الدار ونعيمها ناسياً أنه راحل عنها عما قريب، ولما انتهت السنوات العشر أقبل صاحب الدار يطلب منه الخروج لأن أجل العقد قد انتهى تذكر داره، التفت إليها وإذا بها وكأنها تقول له: أنا آسفة، لست مهيئة لك قط، خرج إلى العراء، أما ذاك الآخر ذو البصيرة، ذاك الذي استأجر الدار لعشرة أعوام، فقد وضع منهاجاً معيناً في حياته، يذهب في كل يوم ساعتين أو ثلاث ساعات ليتعهد خربته، وليرممها، وليجددها على عينيه وكما يشاء، ما إن انتهت السنوات العشر وجاء الرجل يطالبه بالخروج من داره حتى كانت داره كأنها العروس تقول له: ها أنا قد تهيأت لك.

عباد الله أنا أسأل نفسي وأسألكم: هل من فرق بين هذا الإنسان الذي استأجر داراً إلى أجل وله دار خربة يملك أن يتركها ويملك أن يجددها، وبين واقعنا المعاش في حياتنا التي سنرحل عنها عما قريب؟ لا والله ليس هنالك من فرق.

عباد الله أنا أسأل نفسي وأسألكم: لو أن واحداً من هؤلاء الذين يستهينون بحرمات الله تعالى، ويستهينون بالعبادات وأركان الإسلام من صلاة ونسك وصدقة ونحو ذلك، أُخْبِرَ أن الموت قادم إليه بعد عشرة أيام، وصدَّقَ هذا الخبر الذي وفد إليه وهو مؤمن بالله إجمالاً، ماذا يصنع؟ ألا يقلع عن غيِّه؟ ألا يقلع عن موقفه ضد كتاب الله وضد دين الله عز وجل؟ ألا يؤوب ويتوب إلى الله تعالى ليستدرك تقصيره؟ حسناً من منا يضمن أنه سيعيش بعد عشرة أيام؟ لعلكم تفاجؤون بأن هذا الذي يقف أمامكم خطيباً قد رحل إلى الله بعد أقل من عشرة أيام، إذاً تعالوا نجدد العهد مع الله، تعالوا نجدد التوبة إلى الله، أقول هذا لمن يراني ولمن يسمعني، أيها الناس نحن عبيد لله سواء استكبرنا على الله أم أدَّيْنَا حقوق الله عز وجل، نحن راحلون إلى الله عبيداً ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً، لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً﴾ [مريم: ٩٣-٩٤] لماذا لا نتهيأ للرحيل؟ لماذا لا نرمم الخربة؟ لماذا لا نجدد الدار؟ حتى إذا جاء ملك الموت يطلب منا الرحيل رأينا دارنا قد تهيأت لنا، ورأينا أن الموت قد أصبح عرساً لنا أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلني وإياكم ممن غنموا هذه الحياة الدنيا لزراعة تلك الحياة التي نحن مقبلون إليها، أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم.

١٣٨- حقيقة الموت | ٢٠١٠/٠١/٠٨

تعالوا أحدثكم اليوم عن حقيقة طالما تأفّف منها كثيرٌ من الناس، طالما اشمأز من الحديث عنها كثير من الناس، ألا وهي حقيقة الموت، ويا عجباً لأناس يشمئزون من الحديث عن هذه الحقيقة، ويتأفّفون ويفرّون منها، وهم يعلمون أن رسولهم صلى الله عليه وسلم هو القائل: ﴿أكثروا من ذكر هادم اللذات ومفرق الجماعات فإنه ما ذُكِرَ في كثيرٍ –أي من المعاصي– إلا قلَّله، وما ذُكِرَ في قليلٍ –أي من الطاعات– إلا كثَّره﴾

يا عجباً لأناس يشمئزون من الحديث عن الموت، ويتأفّفون من ذكره وفتح ملف الحديث عنه، وقد أكد البيان الإلهي للإنسان أنه على موعدٍ مع هذه الحقيقة لن يستطيع شروداً ولا فراراً منها، أليس هو القائل: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] أليس هو الذي أكد هذه الحقيقة فقال: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨]؟ أليس هو الذي زاد هذه الحقيقة تأكيداً فقال: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ﴾ [الجمعة:٨]؟ أليس هو الذي زاد الأمر تأكيداً وتبياناً إذ قال لرسوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر:٣٠].

عباد الله إن تذكر الموت مع معرفة حقيقته وما وراءه هو الذي يُقَلِّمُ أظافر البغي، وإن تذكر الموت مع معرفة حقيقته هو الذي يحطم أنياب الظلم والعدوان، وهو الذي يجتث الفساد بأنواعه من المجتمع الموت –يا عباد الله– جعله الله عز وجل كابحاً ليستعين به الإنسان في منزلقات الشهوات والأهواء والرعونات التي يجد نفسه سائراً إليها، كلنا نعاني من هذه المنزلقات، منزلقات الرعونات، الشهوات، الأهواء الجانحة، لا بد للإنسان لكي يتغلب على هذه الرعونات بعقلانيته من كابح، فما الكابح الذي يحمي الإنسان من هذه المنزلقات؟ إنه الموت يا عباد الله.

ألا ترون إلى العربة التي يقودها صاحبها، نعم إن الإقلاع هو الذي يبدأ، ولكن التنبه إلى الكابح يكون أسبق من هذه البداءة، لا بد لهذا الإنسان قبل أن يقلع بعربته أن يتبين الكابح، وأن يتبين مدى أدائه لوظيفته، فالكابح في الأهمية مُقَدَّمٌ على عوامل الإقلاع، وإن كانت عوامل الإقلاع هي السابقة من حيث ما نرى، من أجل هذه الحقيقة قدَّمَ البيان الإلهي الموت على الحياة عندما خاطبنا فقال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الملك:١-٢]. كثيراً ما سأل أناسٌ: لماذا قدَّم البيان الإلهي الموت والحياة قبلها؟ الجواب هو هذا، لأن الإنسان ينبغي أن يستبين الكابح، وأن يتبين أهميته، وأن يدرك ضرورة التعامل معه قبل أن يُقْلِعَ في المسير تعالوا إذاً بنا نتأمل في هذا الذي يفرُّ منه كثيرٌ من الناس ولا فرار منه، تعالوا نتأمل في حقيقة الموت التي قضى بها الله سبحانه وتعالى على الإنسان.

هل الموت مصيبة يا عباد الله؟ في الناس من قد يخطئون فيتصورون أن الموت مصيبة، الموت ليس مصيبة للمَيْتِ، وإنما هو مصيبة لأقاربه وأحبابه وذوي رحمه، مصيبتهم تتمثل في الاستيحاش من غياب قريبهم، حبيبهم الذي غاب عنهم، المصيبة تتمثل في حنين الأقارب والأحباب إلى هذا الذي غاب عنهم، أما الميْتُ ذاتُه فهو الذي يضع في حقيقة الموت معناه عندما كان حياً، أي إن الإنسانَ المقبلَ على الموت يملك أن يضع في الموت معنى العرس إن شاء، ويملك أن يضع في الموت معنى المصيبة الفادحة التي لا توجد مصيبة أفدح منها إن شاء، فالإنسان الحي هو الذي يضع في الموت حقيقته، ومن ثم فما ينبغي أن نتصور بإطلاق الكلام أن الموت مصيبة متى يكون الموت مصيبة للحي؟ عندما يسير هذا الإنسان في فجاج الحياة وقد عرف خالقه وصانعه ومولاه، واصطبغ بحقيقة العبودية لهذا الإله، ثم أصغى إلى أوامره ووصاياه فنفذَّها كما طلب، سار في فجاج الحياة يمسك بموازين العدل، لا يظلم، لا يبغي، لا يعتو ولا يستكبر، سار في فجاج الحياة وهو يغرس في جنباتها أسباب الصلاح وعوامل الحب والود وعوامل صلة القربى، لا أقول بين الأقارب فقط، بل بين أفراد الرحم الإنساني أجمع، هذا الإنسان الذي يتسامى على البغي، يتسامى على العدوان، يتسامى على الغش، لا يخدع إخوانه في الإنسانية، لا يغشهم في معاملة أياً كان نوعها، لا يفسد في الأرض بعد أن أصلحها الله عز وجل، وسلَّمها الله لعباده صالحة، نفَّذ قول

الله عز وجل: ﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا﴾ [الأعراف:٥٦]، أصغى إلى بيان الله سبحانه وتعالى القائل: ﴿لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص:٧٦]، فقال: سمعاً وطاعةً يا رب ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص:٧٧]، أقبل إلى الله قائلاً: سمعاً وطاعةً يا رب ﴿وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص:٧٧]، قال: نعم يا رب، عاهدتك ألا أفسد، عاهدتك ألا أبغي ولا أظلم، عاهدتك أن أمسك بميزان العدالة الذي أنزلته لعبادك في الأرض، لن أسير بين الناس إلا محتكماً إلى هذا الميزان.

هذا الإنسان -يا عباد الله- سيقبل الموت إليه عرساً، أجل، علم ذلك من علم وجهله من جهل أما الإنسان الذي أعرض عن هويته، أعرض عن مملوكيته لله سبحانه وتعالى، أما الإنسان الذي استجاب لرعونات نفسه فطغى وبغى واستكبر، وأخذ يفسد في الأرض، ويبْدِلُ إصلاح الله لها فساداً، وأخذ يغش ويخدع ويستلب الحقوق إن بصورة بارزة أو بصورة خفية، وسار على هذا النحو، فلسوف يستقبل الموت مصيبة وأي مصيبة، وعندما يدخل عليه ملك الموت يتبين ذلك تماماً، وانظروا في هذا إلى قول رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: ﴿من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه،﴾. قالت عائشة: أهو الموت يا رسول الله؟ فكلنا يكره الموت، قال: ﴿ليس ذاك، ولكن المؤمن -أي المؤمن الصالح الذي وصفْتُه لكم الآن- إذا دنا إليه الموت بُشِّرَ بلقاء ربه، فلم يكن شيءٌ أمامه أحب إليه من الموت، وأما الكافر -أي الطاغي والباغي والمفسد في الأرض- فإذا دنا منه الموت بُشِّرَ بمقت الله وسخطه، فلم يكن شيءٌ أبغضَ وأخوفَ إليه من الموت﴾ هذه الحقيقة ينبغي أن نعلمها عباد الله.

وانظروا إلى هذا الكلام الذي قاله ذلك العالم الرباني سلمة بن دينار للخليفة سليمان بن عبد الملك وقد جاء يزوره، جلس إليه كما يجلس المريد بين يدي شيخه، نعم هو خليفة جلس بين يدي سلمة بن دينار كما يجلس المريد بين يدي شيخه، قال له: يا أبا حازم لماذا نكره الموت؟ قال: لأنكم عمرتم دنياكم وخرَبْتم آخرتكم، فكرهتم أن تنتقلوا من دار عمارٍ إلى دار خراب، سكت ثم قال: ليت شعري كيف

القدوم غداً على الله؟ قال له: أما المحسن فكالغائب يقدم على أهله، وأما المسيء فكالعبد الآبق، أي الهارب، يقدم على مولاه، استعبر سليمان بن عبد الملك باكياً.

إذاً هذا هو الموت يا عباد الله. أنت تستطيع أن تجعل من الموت الذي أنت مقبل إليه عرساً وأي عرس، وتستطيع أن تجعل من الموت الذي أنت مقبل إليه مصيبةً تنسيك لذائذ الدنيا، تنسيك كل ليالي لهوك وفرحك وشؤونك، فيا عجباً لمن يلح على أن يجعل من الموت الذي هو مقبل إليه مصيبة وهو يملك أن يجعل من الموت الذي هو مقبل إليه عرساً.

عباد الله لماذا لا نتعامل مع عقولنا وقد متعنا الله عز وجل بالعقل؟ نحن في هذه الدنيا نشبه أحد رجلين في المثل التالي، رجل استأجر داراً إلى عشر سنوات وله دارٌ خربة على مَقربة من هذه التي استأجرها، أما الفريق الأول من الناس فعندما دخل الواحد منه إلى هذه الدار، وقد رأى فيها أسباب المتع وعوامل رغد العيش، ورأى فيها كل ما هو بازخٌ من الفرش والأثاث ونحو ذلك، أنساه ذلك كله خربته التي هي على مَقربة منه، فلم يتعدَّها بالترميم، وأسكرته الدار التي استأجرها، وظل يتقلب في نعيم تلك الدار التي سيرحل عنها عما قليل حتى إذا مرَّتْ السنوات العشر أقبل إليه صاحب الدار وقال: لقد انتهت مدة الإيجار فاخرج، صحا في تلك الساعة هذا الإنسان من سكر نعيمه، ونظر إلى الدار الخربة التي هي على مقربة منه، فقالت له بلسان حالها، أنا آسفة، لست مهيأةً لك، خرج إلى العراء. أما الآخر الذي استعمل عقله استأجر هذه الدار وتقلب، نعم، في نعيمها، وتمتع برغد العيش فيها، لكنه كان يتعهد داره الخربة كل يوم ساعةً أو ساعتين يصلح منها ما فسد، ويرمم منها ما اعوج، ويجددها جهد استطاعته، حتى إذا مرَّتْ السنوات العشر، وجاء ميقات خروجه من هذه الدار، وجاءه صاحب الدار يطلب منه الخروج منها، نظرت إليه الدار وكأنها عروس مجْلُوَّة تقول له: مرحباً بك، لقد تهيأت لك، تهيأت لك لأنك أعطيتني من حياتك حقاً، لأنك كنت تتعامل مع الدنيا من خلال كفتي ميزان كفة الحياة التي تعيشها، وكفة الحياة التي أنت مقبل إليها

عباد الله الموت ليس كما يتصور الغربيون، وقد وصلت إلينا اللوثة منهم، ليس عدماً، الموت مرحلة ثالثة من مراحل أربعة للحياة، احفظوها وأنا أقول بلسان العلم ولست أقول بلسان الخرافة التي يعيش كثيرٌ من الناس في عششها؛ المرحلة الأولى هي حياة الأجنة، هي حياة الجنين في عالم الرحم، المرحلة الثانية هي هذه الحياة الدنيا التي نتقلب في فجاجها، أما المرحلة الثالثة فهي الحياة البرزخية التي نحن على موعدٍ معها، وأما المرحلة الرابعة فهي الحياة الأخيرة التي نحن على موعدٍ معها، ولتعلموا أن كل مرحلة من هذه المراحل الأربع أوسع وأقوى من المرحلة التي قبلها، فمرحلة الحياة البرزخية التي نحن على موعدٍ معها من خلال بوابة الموت أقوى وأوسع من هذه الحياة التي نتقلب فيها، يتهيأ فيها الإنسان للنعيم إن كان أهلاً للنعيم، ويتأهل الإنسان فيها للعذاب إن كان مؤهلاً للعذاب، أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم، فاستغفروه يغفر لكم.

١٣٩- فرق ما بين المؤمن بالله والموقن بلقائه والجاحد والمنكر للقائه | ٢٠١٠/٠٤/٣٠

إن فرق ما بين المؤمن بالله سبحانه وتعالى والموقن بلقائه والجاحد بالله سبحانه وتعالى والمنكر للقائه فرق ما بينهما هو التالي:

أما المؤمن بالله سبحانه وتعالى والموقن بلقائه فإن كل ما مرَّ من عمره عام استبشر بأن لقاءه بالله سبحانه وتعالى قد أصبح أكثر قرباً وبأن ساعة رؤيته لله عز وجل ووقوفه بين يديه قد أزفت ودنت. ثم إنه ينظر في ماضي حياته فإن وجد أن الله عز وجل قد وفقه للاستقامة على أوامره والابتعاد عن نواهيه حَمِدَ الله واستبشر وإن رأى أن مُقَصِّر تائه قد توغل في بعض المعاصي والأوزار استدرك واستفاد من البقية الباقية من حياته فتاب وآب إلى الله سبحانه وتعالى وأحسن سلوكه وقَوَّم اعوجاجه، وهو في كلتا الحالتين في خير.

وأما الجاحد بالله والمنكر للقائه فهو إذا رأى أن عاماً قد انقضى وانسلخ من حياته يشعر بأن ساعة الاختناق قد دنت منه وبأنه قد أصبح قريباً من الجدار المغلق في داخل النفق المظلم الذي يسير فيه، نفق ذي اتجاه واحد، ومن ثم فإنه يشعر بالوحشة، إذ يشعر بأن ساعة انقضائه وزواله — فيما يتصور — قد أزفت وأن ساعة ابتعاده عن مائدة المتع والشهوات التي يعُبُّها قد دنت، ومن ثم فإن هذا الشعور يزجه في وحشة ما مثلها وحشة ولا يفر من هذه الوحشة إلا بواسطة النسيان وأنّى له النسيان! ليس له من سبيل إلى النسيان إلا عن طريق العكوف على كأس ثم كأس ثم أخرى.

هذا هو فرق ما بين المؤمن بالله عز وجل والموقن بلقائه والجاحد بالله سبحانه وتعالى والمستيئس من لقاء الله سبحانه وتعالى.

وأنا أعقد – يا عباد الله – هذه المقارنة لكي نرجع بشكر عظيم لله عز وجل وبحمدٍ لا ينتهي لمولانا سبحانه وتعالى إذ لم يقطعنا عن معرفته، أكرمنا بمعرفة ذاته عن طريق معرفة أنفسنا، بصَّرَنَا بقصة هذه الرحلة التي نقطع ساعاتها طبق منهج مرسوم تَبَيَّنّاه، بَصَّرَنَا الله عز وجل بالمبدأ الذي انطلقنا منه والنهاية الصغرى التي تنتظرنا موتاً ورحيلاً من هذه الحياة ثم النهاية الكبرى التي نحن على موعد معها بعون الله سبحانه وتعالى ورحمته وتوفيقه إذ نكون كما وعد الله عز وجل: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ. فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٤-٥٥].

عباد الله: تعالوا نحمد الله سبحانه وتعالى أن لم يجعلنا من أولئك الشاردين التائهين في صحراء هذا الوجود ميتَّمين في جنبات هذا الكون، لا يعلمون مبدأً لرحلتهم الحياتية التي يقطعونها ولا يدركون شيئاً من معنى الموت إلا أنه العدم المطلق ومن ثم فإن أحدهم كلما دنا من الموت وانطوى عامٌ من عمره شعر بالوحشة وشعر بالأسى يكاد يأخذ منه بالخناق.

احمدوا الله أن لم يجعلنا من هؤلاء الناس، احمدوا الله سبحانه وتعالى أن بَصَّرَنَا بحقيقة قوله: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة: ١١]. تعالوا نحمد الله عز وجل أن بَصَّرَنَا بالبشارة التي ينطوي عليها حَدَثُ الموت وذلك عندما قال مخاطباً لنا جميعاً، مخاطباً لكل مؤمن: ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى الله تُحْشَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٨] ﴿لإِلَى الله تُحْشَرُونَ﴾ أجل، كم وكم يكون المؤمن سعيداً – بل منتشياً بالسعادة – عندما يجد أن أيام عمره في هذه الحياة الدنيا قد انطوت وأنه قد آن أن يرحل إلى هذا الإله الذي قد طال حنينه واشتياقه إليه.

وهل هنالك سعادة أسعد وأيام أروع وعرس أمتع من أن يحين اللقاء الذي وعَدَكَ الله سبحانه وتعالى به!؟ هل هنالك سعادة أمتع من أن تجد نفسك أمام هذا الذي وعدك الله عز وجل به!؟ ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى الله تُحْشَرُونَ﴾

عباد الله: لقد قضى الله سبحانه وتعالى أن أرى مشهداً يُقَطِّعُ القلوب، مشهد أولئك الذين ظننت أنهم يحتفلون احتفال فرحة بولادة عامٍ جديد على إثر انتهاء عام أدبر، ولكن ماذا رأيت!؟

سمعت السخط، سمعت الكلمات التي تعبِّر عن الأسى، تعبِّر عن اليأس، تعبِّر عن الوحشة، ورأيت مظاهر البؤس ورأيت كيف يفر هؤلاء الناس وأنا أتأمل في هذا المشهد من كثب، رأيت كيف أنهم يفرون من الوحشة التي تلفُّ بهم من سائر الأنحاء إلى شيء واحد لا ثاني له، إنه الشراب، يشرب ثم يشرب ثم يشرب إلى أن يرتمي أرضاً ثم يُجَرُّ جرّاً إلى المكان الذي أُعِدَّ له ثم يأتي دور الثاني فالثالث فالرابع فالخامس.

إنه احتفال لكنه احتفال يعبِّر عن مأساة ما مثلها مأساة، لماذا؟ لأنهم لم يصغوا إلى بيان الله الذي أنبأنا عن قصة هذه الرحلة من مبدئها إلى النهاية الصغرى فيها إلى النهاية العظمى فاستوحشوا من الموت، استوحشوا من العمر الذي لا يعلمون حقيقته.

أما نحن يا عباد الله الذين شرَّفَهم الله عز وجل بمعرفته فأحسب أننا جميعاً نتبيَّن ونشعر بأننا داخلون تحت حمى لطف الله عز وجل ورعايته وذلك عندما نتدبر قوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد: ١١] نعم، لسنا مُيَتَّمِين في صحراء هذه الحياة، نحن مشدودون إلى مولانا، يشُدُّنَا إليه نسب عبوديتنا له ولطفه يستمر ويتجه إلينا من خلال ولايته علينا، ألم تقرؤوا قول الله سبحانه وتعالى: ﴿اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]

هذه حقيقة أمتعَنَا الله عز وجل بها، وإنما أُذَكِّرُ نفسي وأُذَكِّرُكُم بذلك لكي نستغرق في شكر الله أن لم يجعلنا من أولئك الذين يفسرون الحياة بالمآسي، يفسرون انقضاء هذه الحياة واستقبال الموت بأسى ما مثله أسى.

عباد الله: كنت الساعة أتلو قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ثم قال: ﴿وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾ [الكهف: ٢٨]. قفوا بتأمل وتدبر عند قوله سبحانه: ﴿وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا﴾.

إذن هنالك أناس أغفل الله عز وجل قلوبهم عن ذكره فعاشوا يتقلبون في فجاج هذه الحياة وهم لا يعرفون مولاهم وخالقهم ومن ثم لا يعرفون هوياتهم وأنفسهم. أما نحن فقد أكرمنا الله سبحانه وتعالى بأن

جعل قلوبنا أوعية لذكره، أوعية لحبه، أوعيته لتعظيمه ومهابته ومخافته. كم هي جليلة هذه النعمة. كم أنت لطيف بنا يا مولانا يا ذا الجلال والإكرام إذ لم تجعلنا من أولئك الذين جعلت قلوبهم في غطاء عن ذكرك، جعلتَ قلوبنا أوعية لذكرك، حببْتَ إلينا الإيمان، زيَّنْتَه في قلوبنا، كَرَّهْتَ إلينا الكفر والفسوق والعصيان.

هذه الحالة – أيها الإخوة – تجعلنا نستبشر إذا دنا الموت، لا نأسى ولا نشعر ببؤسٍ ولا بشقاء. الموت! ما الموت؟ الموت عبارة عن الساعة التي يرتفع مما بينك وبين الله الحجاب. وأنت، أنت الذي ما زلت تسأل الله عز وجل ولا تراه، تدعوه ولا تراه، تأتيك رسائله – رسائل الحب – تأتيك استجاباته لدعائك دون أن تراه. الموت هي الساعة التي يُقَال لك من خلالها ها لقد أزفت الساعة التي ستبصر إلهك الذي كنت تدعوه ولا تراه، أزفت الساعة التي كنت تسأل الله عز وجل ولا تدركه ببصرك، أزفت الساعة التي تذكِّرُك برسائل الحب والنعم التي كانت تتوارد إليك من الله. هذا هو الموت، هذه هي حقيقة الموت يا عباد الله لكن لمن؟ لمن عرف الله حتى ولو كان عاصياً لأنه سيؤوب إلى الله إن لم يكن مستكبراً على الله سبحانه وتعالى.

تعالوا يا عباد الله نغذي هذه النعمة التي أنعم الله بها علينا بمزيد من الشكر، بمزيد من الحمد لعلنا بذلك – إذا دنت ساعة الموت ووقعنا في سكرات الموت – نقول بل يقول كل واحد منا كما قال بلال رضي الله تعالى عنه عندما كان يعاني من سكرات الموت وسمع واحداً من أقاربه يقول وا كرباه قال: بل وا طرباه غداً نلقى الأحبة محمداً وصحبه. فاللهم وفقنا أن نقول في تلك الساعة التي ستحيق بنا عما قريب، وفقنا أن نقول مثل ما قال بلال مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم واطرباه غداً نلقى الأحبة محمداً وصحبه.

وإن من رحمة الله بعباده أنه خبَّأ لهم بشرى يرونها في دار الدنيا قبل الرحيل منها إلى الدار الآخرة. أين تكون هذه البشرى؟ قبيل الموت، ساعة السكرات يريك الله عز وجل بشارة النعمة التي تنتظرك، ولسوف يجعل الله عز وجل من هذه البشارة مخدراً ينسيك آلام سكرات الموت.

ألم تقرؤوا قول الله سبحانه وتعال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ. نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ [فصلت: ٣٠-٣١] إذن هذه بشارة من الملائكة تكون وأنت حي، وأنت في دار الدنيا ﴿أَلا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ. نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢].

اللهم ثبِّتْنَا، اللهم ثبِّتْنَا على النهج الذي ارتضيته لنا، اللهم اجعل قلوبنا أوعية لحبك، زدنا إيماناً بك، زدنا يا ربي حباً لك، زدنا تعظيماً لحرماتك، ثَبِّتْنَا على هذا النهج حتى إذا جاءت سكرة الموت شعرنا منها بالبشارة، شعرنا منها بعرس لا أمتعَ منه ولا ألذ. أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجيب دعائي ودعاءكم، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

١٤٠- صورة السعادة في مقابل صورة الشقاء | ٢٠١٠/١٠/٠٨

تعالوا أضعكم اليوم أمام صورتين اثنتين، صورة السعادة إذ تتنامى وتترسخ جذورها في حياة المؤمن إيماناً حقيقياً بالله مهما امتد به العمر ومهما رأى أن الأجل المحتوم قد دنا منه، وصورة الشقاء إذ تترسخ جذوره أيضاً في حياة الإنسان الذي عاش محجوباً عن ذاته ومن ثم عاش محجوباً عن مولاه وخالقه جاحداً بربوبيته أو مستكبراً عليه، يزداد شقاءً ويزداد شقاؤه رسوخاً في كيانه كلما امتد به الأجل وكلما رأى أن الموت قد أصبح قريباً منه.

أما المؤمن بالله حقاً فهو لابد أن يعيش وهو يربط النعم التي تفد إليه بالمنعم، لابد أن يتلقى من مولاه وخالقه المكرمات التي لا تُحصى على أنها رسائل حب تأتيه من الله سبحانه وتعالى ومن ثم فإن المؤمن لابد أن تتنامى بين جوانحه مشاعر الحب لمولاه وخالقه بمقدار ما تتنامى بين جوارحه مشاعر الهيبة ومشاعر التعظيم لذاته العلية.

هذا المؤمن مهما رأى نفسه يتقلب في رغد العيش ومهما رأى نفسه يستجيب لأهواء شبابه ولأحلامها ولأحلام شبابه لابد أن تكون مشاعره القلبية متجهة في الوقت ذاته بالحب والتعظيم إلى مولاه وخالقه ولابد أن يزداد شعوراً بالمآل الذي ينتظره، بالمآل الذي وعده الله عز وجل به نعيماً، رغد عيش لا يبلى ولا ينتهي، لابد أن يشعر بذلك. فإذا انطوى عهد الشباب من كيانه ودخل في مدارج الكهولة فالشيخوخة نسي أو تناسى عهد الشباب الذي ولّى من حياته واستأنس بقربه من مولاه وخالقه، كلما دنت ساعة رحلته من الحياة التي يتقلب فيها ازداد اشتياقاً إلى مولاه وازداد أنساً بما قد وعده به الله سبحانه وتعالى. أما ماضي حياته، أما أيام لهوه، أما أيام شبابه فهذا الإنسان المؤمن بالله لا ينظر إليها إلا كما ينظر إنسان إلى طعام آسن قد فاحت منه رائحة النتن فهو يعرض عنه، لا يعود إليه لا بالذكرى ولا بالآمال أو الأحلام وإنما تجده مشدوداً إلى المستقبل، مشدوداً إلى الساعة التي وصفها بيان الله سبحانه وتعالى إذ قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا

بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ. نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ. نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢].

هكذا يكون شأن الإنسان المؤمن، عاش في حياته الدنيوية يستقبل متعها ويجلس على مائدة نعيمها، آخذاً ما يكرمه الله عز وجل به في عاجل حياته، فإذا انطوت أيام شبابه وتقلصت رغائبه ورعوناته اتجهت منه المشاعر إلى المستقبل الذي وعده الله عز وجل به.

وكم وكم رأيت بعينيّ هذه الصورة التي أصفها لكم، رأيت شيوخاً ولَّى عهد الكهولة في حياتهم وأخذ الواحد منهم يشم رائحة الموت يدنو إليه رويداً رويداً، أخذْتُ أبحث عن مشاعر الأسى لعلها تطوف بنفوسهم أو بأذهانهم خوفاً من الموت الذي يدنو شيئاً فشيئاً إليهم، لا والله ما رأيت في وجوههم إلا مظاهر الأنس بما هم مقبلون إليه، ما وجدت في مشاعرهم التي تبدو على ألسنتهم وكلامهم إلا مظاهر الشوق إلى اليوم الذي وعدهم الله عز وجل به، الأيام الخوالي من حياتهم أعرضوا عنها. نعم، ما السبب؟

السبب أنهم عرفوا الله بعد أن عرفوا أنفسهم عبيداً له، عرفوا صلتهم بالله عز وجل ورحمانية الله عز وجل لهم، رأوا رسائل حبه التي تأتيهم تباعاً من الله سبحانه وتعالى، ذلك في العاجلة الدنيا فكيف إذا آل الواحد منهم إلى مولاه وخالقه. حتى الذين كان لهم ماضٍ من الشرود عن صراط الله ثم أدركتهم التوبة ودخلوا بعد ذلك في مرحلة الشيخوخة رأيت – ولا أزال أرى – رأيت الرجاء يهيمن عليهم ويتغلب على مشاعر الخوف بين جوانحهم، رأيتهم يتقلبون في مشاعر من رحمانية الله سبحانه وتعالى والأمل بمغفرته لهم، رأيت الواحد منهم يعيش ولا يمل مع معنى قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ. هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ [ق: ٣١-٣٢]

يقول قائلهم: لقد كنت أواباً، كنت أنحرف ثم أؤوب وأعود إلى الله، كنت أتيه وسرعان ما كنت أعود إلى الله، وها هي البشرى تدركني لتقول حتى وإن كنت كثير الشرود ولكني أيضاً كنت كثير الأوبة إلى الله عز وجل. رأيت في هؤلاء الناس من تمددوا على فراش المرض ووقعوا في ساعة النزع ولكن ضياء

البشرى لم تكن تفارق وجوههم، بل إن أحدهم – وأنا أعلم هذا علم اليقين – كان يتلقى البشارة من ربه وهو يعاني من النزع، وهذا وعد الله قطعه على ذاته العلية لعباده

﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ. الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ. لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٢-٦٤]

ومن هم أولياء الله؟؟ ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾

ربما كان المتقي في ماضي حياته متقلباً في حمأة المعاصي ولكن هذا الإنسان يصدق عليه هذا الذي يقوله الله عز وجل.

أرأيتم إذاً إلى السعادة كيف تتنامى وتترسخ جذورها في حياة الإنسان المؤمن حقاً الذي عرف مولاه وخالقه مهما امتد به العمر، مهما تجاوز الشباب إلى الكهولة فالشيخوخة لن يزداد هذا الإنسان – وقد عرف ربه – إلا سعادة، إلا نشوة.

تعالوا إلى الصورة الأخرى، إنسان عاش حياته محجوباً عن هويته، محجوباً عن ذاته، إذاً هو محجوبٌ عن مولاه وخالقه، هذا الإنسان يعيش عبداً لرعوناته، يعيش عبداً لأهوائه وملاذِّهِ، في ريعان الشباب يجلس على مائدة الشباب، يقطف من هذه المائدة وينال منها كل ما لذَّ وطاب دون أي ضابط ودون أن يلتزم بأي حدٍّ من الحدود، إنه لا يعلم من الدنيا إلا هذه الساعة التي يتربع فيها على مائدة اللهو والرعونات والأهواء. انقضى الشباب وجاءت الكهولة التي تنذر بالشيخوخة وتقلصت المشاعر والرغائب التي كانت تتجه منه إلى هذه الأهواء وطويت المائدة التي كان يجد فيها متعته، ما المشاعر التي تغزو كيانه؟ إنها مشاعر الوحشة، إنها مشاعر الأسى، كان يعيش لتلك الساعات الخوالي وها هي ذي أدبرت عنه وفارقته، إذاً ما الذي ينتظره؟ إن ينتظر الوصول إلى وادي العدم، ينتظر الوصول إلى ظلام العدم، وهكذا فكلما امتد به العمر ازداد وحشة وازداد كآبةً لأنه عاش لا يعرف مولاه وخالقه ولأنه عاش يعبد ذاته، يعبد شهواته، يعبد رعوناته وأهواءه ومن ثم فإنه اليوم يلتفت يمنة ويسرة لا يجد معبوده هذا يُنجده، لا يجد معبوده هذا ينتشله من مشاعر كآبته، من مشاعر أساه، من مشاعر شقائه.

نعم، هذه هي حال من عاش لا يعلم الله ولا يتعرف على هويته، لابد أن يكون مآله هذا الذي أقوله لكم يا عباد الله. وهذه الصورة أيضاً رأيتها، ما رأيت إنساناً عاش حياته معرضاً عن الله جاحداً عبوديته لله، ما واحد من هؤلاء الناس رأيته بعد عهد الشباب في مرحلة الشيخوخة إلا ووجدت ظُلَلَ الكآبة على وجهه، إلا ووجدت ظُلَلَ الأسى والحزن والشقاء تهيمن على كيانه وتسري في لسانه، أجل ولم أجد ما يشذّ عن هذه الحالة أبداً إلا أن يتدارك الله واحداً من هؤلاء فيعود ويؤوب إلى الله، وأنا أعلم أن سنة الله قضت ألا ينتشل المستكبرين والجاحدين، ألا ينتشلهم إلى الهداية قط، ينتشل الضعفاء الذين الذين ساقهم ضعفهم إلى المعاصي وإلى الانحراف.

هذه الحقيقة ينبغي أن نتمثلها يا عباد الله. أضعكم أمام مشاهد تجسد هذه الحقيقة التي أقولها لكم

عبد الله بن المبارك تاجر من أعظم التجار الذين كانوا في العهد الأموي، لما جاءت ساعة رحلته من هذه الحياة الدنيا ووقع في سياق الموت رأى الناسُ الذين من حوله رأوه يضحك ويبتسم قائلاً: ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلْ الْعَامِلُونَ﴾ [الصافات: ٦١] تلك هي البشرى التي تلقاها عبد الله بن المبارك في سياق الموت، ولعل هذه البشرى تغلبت على الآلام التي كان يراها وهو يجود بنفسه.

بلال رضي الله عنه عندما وقع في سياق الموت سمع بعضاً ممن حوله يقولون وا كرباه، ردَّ عليهم قائلاً: بل واطرباه غداً نلقى الأحبة محمداً وصحبه. هذه الحقيقة بوسعي أن أسرد لكم سلسلة من المشاهد الدالة عليها.

كم من إنسان آب وتاب إلى الله عاش بعد ذلك عمراً قصيراً أو طويلاً ما ارتحل من هذه الحياة الدنيا إلا بعد أن تقلى البشارة، نعم، لا أفترض ذلك افتراضاً بل أقول ذلك وأمامي صور يمكن أن تؤرخ في هذا العهد الذي نحن فيه.

ولكن العكس أيضاً صحيح – وأسأل الله لي ولكم العفو والعافية – تصوروا إنساناً عاش محجوباً عن الله، مستكبراً على كلمات الله، مستهزئاً بكتاب الله سبحانه وتعالى، كيف يكون وقوعه في سياق الموت؟! رأيت نماذج من هذا القبيل لا يستطيع الإنسان أمام ذلك إلا أن يلتجئ إلى الله يسأله العفو

والعافية، ولقد علمت — وهذه حقيقة — أن واحداً من هؤلاء المستكبرين على الله عز وجل مرض واشتد به المرض ثم وقع في سياق الموت، صاح يقول لمن حوله من أفراد أسرته: آتوني المسدس، أين المسدس؟ آتوني بالمسدس لأقتل هذا الذي جاء، وقضى نحبه وهو يصيح: آتوني المسدس، ولو شئت لذكرت لكم اسمه. هذه حقيقة، رأى ملك الموت وشاء الله عز وجل أن يفرز ماضي استكباره كلمات في ساعة رحيله من هذه الحياة الدنيا.

عباد الله: هما صورتان؛ الصورة الأولى للإنسان المؤمن الذي عرف ربه، والثانية للعبد الذي تاه عن مولاه وخالقه سبحانه وتعالى. الأول والثاني كلاهما يسيران في نفقٍ ذي اتجاه واحد.

أما المؤمن بالله حقاً فلا يوغل في هذا النفق إلا وهو يعلم أنه إنما يتجه إلى واحةٍ فيها كل ما لذَّ وطاب، فكلما أوغل في هذا النفق ازداد يقيناً بأنه مقبل على هذه الواحة وازداد وجهه سروراً واستبشاراً، أما الآخر فهو يتصور وهو يسير إلى جانبه في النفق ذاته أنه يسير إلى نهاية سد، كلما أوغل في هذا النفق كلما أطبق ظلامه على خناقه لأنه يعلم أنه سينتهي إلى سد ولا رجعة له عنه.

فلنحمد الله عز وجل أن أكرمنا وجعَلَنا من الفريق الأول وأسأل الله عز وجل أن يختم لنا بالحسنى. أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

١٤١- أهمية ذكر الموت في حياة المسلم | ٢٠١١/٠١/٢١

أحدثكم اليوم في أمرٍ ما أكثر من يشمئزون من الحديث عنه وما أكثر الفئات التي تستوحش من الاستماع إلى حديثه، ألا وهو الحديث عن الموت. ويا عجباً لمن يستوحش من الحديث عن الموت أو يشمئز من الاستماع إلى حديثه وشأنه وقد سمع رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول في الحديث الصحيح: ﴿أكثروا من ذكر هادم اللذات ومفرق الجماعات فإنه ما ذُكِرَ في كثيرٍ – أي من المعاصي – إلا قلَّلَه، وما ذُكِرَ في قليلٍ – أي من الطاعات – إلا كثَّرَه﴾.

تذكُّر الموت مع فهم معناه هو الذي يُقَلِّم مخالب البغي في المجتمع، تذكر الموت مع معرفة حقيقته هو الذي يحطم أنياب الظلم والطغيان في المجتمع، تذكر الموت مع فهم حقيقته هو الذي يجتث الفساد من جوانب المجتمع. أجل – يا عباد الله – تذكر الموت مع فهم حقيقته هو الكابح الذي يقي المجتمع من الانزلاق في مهاوي الفساد ومهاوي الضلال، هو الكابح الذي يوقظ الأفراد والمجتمعات إلى الطريق السوي ويبعدهم عن المنزلقات المهلكة، وأنتم تعلمون أن الكابح وإن كان دوره في الواقع المرئي يأتي بعد التصرف ولكن دوره في الاعتبار يكون قبل التصرف. من أجل هذا قدَّمَ البيان الإلهي الموت على الحياة عندما قال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك: ١-٢]

كان المقتضى – بحسب الظاهر – أن يقول: الذي خلق الحياة والموت. ذلك هو الترتيب المرئي في واقعنا المعاش ولكنه الكابح والكابح ينبغي أن يكون دائماً مقدماً في الذهن، ينبغي أن يكون مقدماً في الاعتبار.

فأنا إنما أريد أن أذكر نفسي وأن أذكركم بهذا الذي يأمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن نكثر من ذكره. أريد أن أحدثكم عن الكابح الذي ينبغي أن لا ننساه في غمار حياتنا الاجتماعية المختلفة. الموت الذي أكَّدَ البيان الإلهي في أكثر من أسلوب ومناسبة بأن الإنسان على موعد بل على ميعاد حتمي

معه، ألم يقل: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾ [الجمعة: ٨]. ألم يقل: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨]. ألم يقل: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]. ألم يقل لحبيبه المصطفى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠].

ولكن ما هو الموت يا عباد الله؟

لقد تسربت إلينا عدوى من الغرب تقول: إن الموت هو العدم. وما أكثر ما تسربت إلينا من العدوى عدوى الأفكار، عدوى الشعارات، عدوى الخرافات فتوضعت فيما بيننا، ألا تسمعون إلى قائلهم يقول: لقد حُكِمَ على فلان بالإعدام، يُفَسَّرُ الموت بالعدم، فهل الموت هو العدم يا عباد الله؟ معاذ الله. الموت هي مرحلة الحياة الثالثة من مراحل أربع لابد أن يتنقل فيها الإنسان من واحدة إلى أخرى. أما المرحلة الأولى فهي حياة الأجنة، تليها هذه المرحلة التي نعيشها اليوم في غمار دنيانا هذه، أما المرحلة الثالثة فهي الحياة البرزخية التي سننتقل إليها من خلال بوابة الموت، وأما المرحلة الرابعة والأخيرة فهي التي تكون في دار القرار يوم تقوم الساعة. وكل مرحلة من هذه المراحل أوسع مجالاً وأقوى حقيقة من المرحلة التي قبلها. أقول لكم كلاماً ينبثق من قوانين العلم ولا ينبثق من الأخيلة الخيالية أو الغيبية أبداً.

الإنسان – يا عباد الله – ثنائي التركيب، سواء وهو يعيش فوق الأرض حياتَه الدنيوية هذه أو يعيش حياته البرزخية بعد أن يؤول إلى القبر الذي هو على موعدٍ معه، هو على كلٍّ ثنائي التركيب.

أما في حياته الدنيا فتكون الروح تابعة للجسد، تكون الروح محبوسة في هذه المرحلة لحساب الجسد، لا تستطيع الروح أن تتحرك إلا ضمن النطاق الذي يستطيع الجسد أن يتحركه، فإذا انتقل الإنسان إلى الحياة البرزخية انعكس الأمر وأصبح الجسد هو التابع للروح وأصبحت الروح أشبه ما تكون بهذه الشمس التي تسري في قبة السماء، هي منفصلة عن الأرض بذاتها ولكنها متصلة بالأرض من خلال أشعتها، تلك هي حركة الروح مهما تقلبت متصلة بالجسد الذي واراه التراب، هذه حقيقة علمية ينبغي أن نعلمها.

ومن هنا أمكن أن يتعرض الإنسان في حياته البرزخية للنعيم وللعذاب، ومن هنا لابد أن نصدِّق بيان الله سبحانه وتعالى وهو يحدثنا عن الحياة التي يحياها الميْت إذ ينتقل إلى حياته البرزخية، ألا تقرؤون قول الله عز وجل عن ذاك الذي آمن بالرسل الذين تحدثنا عنهم سورة يس فكان جزاؤه إذ أعلن إيمانه بهم القتل، أخبرنا الله عز وجل عنه قائلاً: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ. بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [يس: ٢٦-٢٧]. إذاً عندما قيل له: ﴿ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ لم يكن ذلك في اليوم الآخر – يوم تقوم الساعة – بدليل أنه قال: ﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ. بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾. ومن هنا يقول الله سبحانه وتعالى عن فرعون وآله: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً﴾ [غافر: ٤٦]. في هذه الحياة البرزخية، ثم قال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

هذه هي حقيقة الموت يا عباد الله. إذاً الموت بحد ذاته ليس مصيبة للميْت ولكنه مصيبة للأحياء الذين يفارقون قريبهم أو حميمهم أو صديقهم أو حبيبهم. الموت مصيبة للأحياء الذين ودَّعوا الميْتَ الذي رحل قبلهم إلى الله عز وجل. أما بالنسبة للميْت فهو الذي ينسج للموت حقيقته ومعناه، ينسج للموت حقيقته في الحياة التي يعيشها في هذه الدنيا، إن شاء جعل من الموت الذي هو على ميعاد معه عرساً وأي عرس، وإن شاء جعل من الموت الذي هو على موعد معه شقاءً وأي شقاء.

الإنسان الذي التزم في حياته الدنيا بأوامر الله، نفَّذَ أوامره جهد الاستطاعة وتسامى عن المنكرات التي حذره منها جهد الاستطاعة ثم جاءه الموت وهو على هذه الحال لابد أن يتلقى البشارة، يراها بأم عينيه، ألم يقل المصطفى صلى الله عليه وسلم فيما ترويه عائشة: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه»، قالت عائشة: يا رسول الله أهو الموت؟ فكلنا يكره الموت. قال لها: «ليس بذاك ولكن المؤمن إذا دنا أجله ووقع في سياق الموت بُشِّرَ بلقاء الله عز وجل وبالنعيم الذي ينتظره فلا يكون شيء أحب إليه من لقاء الله ومن الموت، وأما الكافر أو الفاجر فإنه يُبَشَّرُ بمقت الله عز وجل وعذابه، يرى مظاهر ذلك بعينيه فلا يكون شيء أبغض إليه من الموت وما هو لاقيه بعد الموت».

عباد الله: هذه الحقيقة ينبغي أن نكون على ذكر منها كما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ترى لماذا لا يكون شأننا كشأن ذلك الإنسان الحصيف وقد ضربت لكم فيما أذكر مثاله إلى جانب مثال إنسان أحمق أيضاً؟ هما شخصان استأجر كل منهما داراً من صاحبها والعقد ينص على أنه لابد أن يخرج من الدار بعد عشر سنوات، أما أحدهما فأحمق، نظر إلى هذه الدار وما فيها من فاخر الفرش والرياش فسكر بها ونسي أن له خَرِبَة تحتاج إلى رعاية، تحتاج إلى ترميم، نسي هذه الحقيقة وسكِر بالدار التي استأجرها وأخذ يتقلب منها في نعيم حجبه عن الدار التي كان يملكها والتي تحتاج إلى رعاية وترميم، وسرعان ما انتهت المدة وأقبل صاحب الدار يطلب منه الخروج من داره لأن ميقات الاستئجار قد انتهى، نظر إلى خربته، تذكرها آنذاك، وإذا هي تقول له: أنا آسفة، لستُ مؤهلة لك أبداً، خيرٌ لك أن تكون في العراء من أن تضمك هذه الخربة التي لم تنظر إليها ولم تُعْنَى بها.

أما ذلك الآخر الذي يتعامل مع عقله، يتعامل مع المستقبل الذي هو على موعد معه فكان يتمتع بالدار التي استأجرها وكان يذهب في كل يومٍ لينظر إلى داره وخربته التي تحتاج إلى رعاية، تحتاج إلى ترميم فكان ينفق على رعايتها في كل يومٍ ساعتين أو ثلاث ساعات ثم يعود لينعم بداره التي استأجرها، داره المستودع، يعيش في داره المستودع ويرعى داره المقَر، فلما انتهت المدة وانطوت السنوات العشر وأقبل صاحب الدار يطلب منه الخلو قال له: شكراً، ونظر إلى الدار وهي جميلة مهيأة تقول له: مرحباً بك لقد أنفقت خلال هذه المدة زمناً لرعاية دارك التي تملكها والتي يعود إليها قرارك.

أليس هذا واقعنا يا عباد الله؟ هل فينا من يستطيع أن يفر من هذا الموت الذي نحن جميعاً منه على ميعاد؟ لماذا لا نجمع بين الحسنيين؟ لماذا لا نتقلب في رغدٍ من العيش في حياتنا التي أقامنا الله عز وجل فيها ولماذا لا نرعى دارنا التي سنرحل إليها لماذا لا نرعاها من خلال الالتزام بأوامر الله، من خلال الإصغاء إلى وصايا الله سبحانه وتعالى؟ أنحن عبيد أم أحرار يا عباد الله؟ سؤال سألته نفسي مراراً وأحب أن أسأله كل واحد منكم، أحب أن أطرح هذا السؤال على كل من يسمع الساعة كلامي، أنحن أحرارٌ أم عبيد؟

إن كنا أحراراً فلنعش كما نهوى ولنتقلب في نعيم لا حدود له ولنفعل كل ما تتشهاه نفوسنا، وإن كنا عبيداً نتفاعل بالمعاني التي ملَّكَنَا الله إياها ولا نفعلها، إن كنا عبيداً لا نملك حياتنا، لا نملك نومنا ولا يقظتنا، لا نملك اللقمة التي نزدردها في حلوقنا، إن كنا لا نملك العقل الذي نفكر به ونعلم متى يحول العقل إلى خرافة نعاني منها، إن كنا عبيداً فلنعلم من هو الذي يتحكم بنا، فلنعلم من هو الذي نواصينا بيده، فلنعلم إلام سيؤول أمرنا، ما هو هذا الموت الذي يتربص بنا، إن كنا نعلم أننا عبيد – ونحن عبيد – فلنسر سيرة العبيد وبوسعنا أن نجمع بين أمرين يتعانقان؛ رغد العيش: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

والاستعداد للرحيل، للحياة البرزخية، أما والله إنها لبشارة عند الموت لمن سار على النهج الذي أمر الله، أو نذير عند الموت يراه بأم عينيه لمن أعرض واستكبر على حكم الله. أقول قولي هذا وأستغفر الله فاستغفروه يغفر لكم.

١٤٢- فلنتذكر ضجعة الموت | ٢٠١٢/٠٨/١٠

أرأيتم إلى رجل أقامه الله من الدنيا داخل قصر باذخ مترف تجمعت فيه سائر أنواع النعيم والمتع المختلفة المتنوعة، تحيط بقصره حديقة غناء تضج بالخضرة، تزدهي بالزهور والورود والرياحين المتنوعة، تلقى هذا الرجل وثيقة تتضمن حكماً مبرماً غير قابل النقض بإعدام هذا الإنسان الذي يقيم في هذا القصر الباذخ دون أن يتبين ميقات التنفيذ، كلنا يعلم أن هذا الإنسان لن يتلقى من بهاء هذا القصر ونعيمه ومتعه إلا الوحشة، إلا أسباب الكرب الخانق، مهما تقلب على فراشه الوثير لن يجد الرقاد الهانئ إلى عينيه سبيلاً، يأكل ولكنه يغص بالطعام الذي يزدرده، يتجرع الماء ولا يسيغه ذلك لأن خيال هذا الحكم المبرم لا يبارحه قط، وهذه حقيقة نعلمها.

أفتعلمون من هو هذا الرجل يا عباد الله؟ إنه كل واحد واحد منا، إنه كل ابن أنثى من عباد الله عز وجل أقامه الله سبحانه وتعالى مدة معينة فوق هذه الأرض، أليس كذلك يا عباد الله؟! ألم نتلق هذا الحكم المبرم الذي لا يقبل النقض مراراً وتكراراً، ألم يقل: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١]. ألم يقل: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾ [الجمعة: ٨]. ألم يقل: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

من هو الناطق بهذا الكلام؟ هو أحكم الحاكمين الذي لا يلحق قراره خُلْفٌ قط، ولكن يا عجباً يا عباد الله، لماذا لا يكون شأننا كشأن ذلك الذي يقيم في ذلك القصر الباذخ، ذلك القصر الذي تحيط تلك الحديقة الغناء، لماذا لا يأخذ الكرب بخناقنا، لماذا نعيش وكأننا مخلدون، والقرار هو هو والتلقي للموضوع ذاته، ومهما فكرت في فرق بين الصورتين فلن أعثر على أي فرق، على كلٍّ ليس هذا مجال حديثنا، ربما تكلمنا في هذا الموضوع وتحدثنا عن حكمة الله في هذا الأمر في مناسبة أخرى ولكني أريد من خلال هذا الذي ذكرته لكم أن نحيل غفلتنا إلى يقظة، أن نحيل إهمالنا إلى اعتناء بهذا الحكم المبرم الذي تلقيناه.

ما الموت؟ ما هي عادية الموت يا عباد الله؟ هذا ما أريد أن أقوله، وأنا أعلم أن في الناس من يستوحشون في الحديث بالموت، أعلم أن فيهم من إذا ذُكِرَ حديث عن الموت حمل أمتعته وولى عن المجلس هارباً ولكن هذا ليس علاجاً، لو كان الفرار من هذه الحقيقة يلغيها لفعلنا أيضاً نحن كذلك ولكن القرار لا مرد له، وليس فينا من يعلم ميقات الساعة أو اللحظة التي يرحل فيها عن هذه الحياة الدنيا، ترى أهو واقف في منتصف الطابور أم في أوله أم في آخره ليس فينا من يعلم ذلك، إذاً لابد أن نتحدث عن الموت وأن أتحدث قبل ذلك عن مقدمة الموت الهائلة الكبرى، إنه الحديث عن ملك الموت كما سماه البيان الإلهي الذي وَكَّلَهُ الله عز وجل بقبض أرواحنا.

ألا فلتعلموا يا عباد الله أن الذي عاش حياته شارداً عن وصايا الله، بعيداً عن السير على صراط الله، معرضاً عن التعرف على الله عز وجل إنما يفاجئه من ملك الموت هول يصدع القلوب، يفاجئه من ملك الموت هول يأخذ الرعدة بصاحبه من الفرق إلى القدم، نعم هكذا يرى ملك الموت، أما الإنسان الذي عاش ملتزماً بأوامر الله متعرفاً على عبوديته لله، واضعاً هذه العبودية جهد الاستطاعة موضع التنفيذ فإنما يفاجئه من ملك الموت شكل يبعث على الاستبشار، يبعث على الراحة والاطمئنان، هذه الحقيقة ينبغي أن نعلمها.

فانظر يا هذا من أنت وفي أي طريق تسير وأي شكلين سترى أو سيفاجئك من ملك الموت غداً، أما الموت وعذابه وآلامه فحسبكم أنه يسمى بالنزع أي نزع الروح من الجسد، ولعل هذه الكلمة توحي بقدر كبير من الكرب الذي يعانيه من وقع في ساعة النزع، أرأيتم إلى الروح كيف أنها منتشرة في سائر الخلايا، متشبثة بسائر العروق والأوردة وسائر الأجهزة، إن ملك الموت يجذب هذه الروح جذبة واحدة من سائر ما قد اتصلت به هذه الروح فانظر وتأمل في العذاب الذي ينالك من وراء ذلك، ولقد وصف أحد التابعين رضوان الله عليه وصف عذاب الموت هذا بالمثل التالي، كتلة من الخيوط الحريرية نشبت داخل أغصان من الشوك، عمدت إليها يد عاتية فاجتذبت هذه الكتلة اجتذاباً شديداً فتقطع من الحرير ما تقطع وبقي منه في تلك الأغصان ما بقي.

ثم إن الإنسان كلما كان في ماضي حياته أكثر التزاماً بأوامر الله وسيراً على صراط الله ومعرفة لعبوديته لله كان ملك الموت أرفق به، وكلما كان هذا الإنسان شارداً عن صراط الله مستكبراً على أوامره، مبتعداً أو متعالياً عن شرائعه فإن ملك الموت يذيق هذا الإنسان من ساعة العذاب الواصب، نعم.

ولقد ذكر العلماء من التائهين العاكفين على الغي ذكروا صنفاً ألا وهم الذين أوغلوا في الظلم، أوغلوا في ظلم الآخرين، ظلموا ثم ظلموا ثم إنهم لم يستسمحوا ولم يُقْتَصَّ منهم فإذا جاءت ساعة الموت وأقبل إليه ملك الموت بالشكل الرهيب الذي ذكرت لكم يوحي إليه ويشعره أنه هو الموكل بالاقتصاص منه لأولئك الذين ظُلِمُوا أثناء حياته التي يتقلب فيها في رغد العيش ظالماً دون أن يبالي، يميته عن كل عضو ميتة مستقلة ثم ميتة مستقلة ثم ميتة مستقلة، وكل ذلك سلسلة قصاص عن أولئك الذين ظُلِمُوا ولم يتأت لحاكم أن يتقص منه ولم يتأت للمظلوم أن يسامحه، هذه الحقيقة أيها الإخوة ليست خيالاً، وكم في الذين وقعوا في حالة النزع من امتدت بهم ساعة النزع للسبب الذي ذكرته لكم إلى ساعات وساعات، كان فيهم من اندلقت منهم الألسن إلى خارج أفواههم مسترسلة، نعم حصل ويحصل هذا.

والآن أقول لك يا أخا الإسلام إن نازعتك نفسك أن تجمع فضول مالك في صندوقك أو في المصارف التي تجمع هذه الفضول فيها وتحجزها عن صاحب الحق، والمال ليس مالك وإنما أنت مؤتمن عليه، إن نازعتك نفسك أن تفعل ذلك لاسيما خلال هذا الشهر الأغر، هذا الشهر المبارك، فافتد نفسك بهذا المال وبرِّءِ نفسك من هذه الساعة الحرجة الخطيرة التي لا يمكن أن يصفها بيان ولكن الواقع هو الذي يصفها، عُدْ بفضول مالك، أنا أنصحك، نعم أنا أنصحك، عد بفضول مالك هذا إلى ذوي الحاجات، إلى سد الثغرات التي تفتحت خلال هذه الأزمة التي نمر بها، عُدْ لكي تفتدي نفسك من ذلك العذاب الواصب، وأنا أضمن أن الله سيعيد لك المال مضاعفاً أضعافاً مضاعفة، ألم تقرأ قوله: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥]

اسمع واستجب لنصيحتي قبل فوات الأوان فإن عذاب الموت الواصب لا ينهضك على النطق، لا يعينك حتى على التأوه فضلاً عن أن تقول أنا نادم. وأنت يا أخا الإسلام إن نازعتك نفسك على أن تستجيب لأحقادك السوداء فترسل صواعق الموت وأسباب الدمار والهلاك إلى إخوان لك إن لم أقل في الإسلام فهم إخوان لك في الإنسانية، إن نازعتك نفسك أن تواصل الاستجابة لأحقادك السوداء فترسل

صواعق الموت من دويرة أهلك إلى إخوانك في الإسلام وفي الإنسانية تدير رحى الموت عليهم بدون سبب، لم يؤذوك، لم يناصبوك عداءً، لم يأخذوا منك حقاً، لم يهددوك بأخذ حق، إن نازعتك نفسك ذلك فاذكر ضجعة الموت، اذكر ضجعة الموت التي حدثتها لك الآن، واعلم أن هؤلاء الذين يُقَتَّلون بسلاح أحقادك، بسلاح ضغائنك يُسَجَّلُ القصاص لهم دون نسيان، يُسَجَّلُ القصاص لهم منك دون ذهول ولا إهمال، وأول من يشفي غليله ليقتص منك هو ملك الموت، سيقول لك وسيذكرك ولسوف يميتك عن كل مظلمة ميتة خاصة، وأنا المسؤول عن صحة هذا الكلام، لسوف يميتك عن كل مظلمة ميتة واحدة حتى ولو بقي النزع لساعات طوال كما رأينا وشاهداً كثيراً منهم.

وأنت يا أخا الإسلام إذا نازعتك نفسك أن تستجيب لمنهج أمريكا والصهيونية العالمية اللذين ربما ضغطا عليك ما شاءا أن يستعملا وسائل الضغط، إذا نازعتك نفسك أن تستجيب لضغطهما وتلتزم بهذا المنهاج الذي أجبرك على اتخاذه ثم عدت فوضعته داخل لفافة من الإسلام، من نظام الإسلام، من شعائر الإسلام، من أحكام الإسلام فاذكر ضجعة الموت يا هذا فلسوف تحرك ضجعة الموت حتى وإن لم تصلك بعد ذكراها ستحررك ولسوف تتحرر من الضغوطات مهما كثرت ومهما اشتدت ولسوف تخشى أو تستحي من الله إذ يراك وأنت تستخدم دينه لفافة للمنهج الأمريكي والصهيوني الذي رُصِدَ لهذه المنطقة كما تعلمون، لسوف تستحي من الله، أنا أعلم ذلك، أنت مؤمن، لسوف تخاف من الله، نعم أنت مؤمن، ولسوف ترهب هذه الساعة التي أنت على موعد معها.

لا يا أخي، بدلاً من أن تمد يد المعاهدة والتواثق إلى أمريكا وأندادها مُدَّ يد التواثق والاصطلاح إلى ربك، إلى مولاك، كن خادماً لإسلامه الحقيقي ظاهراً وباطناً، كن خادماً لإسلامه جوهراً يَسْتَخِدُم ولا يَخْدُم، اجعل من الإسلام كما أمرك رسول الله، اجعل منه قائدك، اجعل منه مصباحك الذي ينير لك الطريق، اجعل السياسة خادمة لهذا الدين، اجعل الإسلام ينتعل السياسة وليس العكس، هذه نصيحتي التي أقدمها لنفسي والموت قادم، وموعدنا مع ملك الموت حقيقي ستراه أعيننا هذه نعم، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.



محاسبة النفس

١٤٣- اتهام النفس.. حال لا يعرفه مسلمو اليوم | ١٩٨٩/٠٣/١٠

إنَّ من دأبِ الإنسانِ المؤمنِ باللهِ عزَّ وجلّ أن يكونَ رقيباً على نفسه، محاسباً لذاته، متّهماً لسلوكه. وليسَ من شأنِ مؤمنٍ قط أن يتصوَّرَ أنّهُ الإنسانُ المنزّهُ عن الآثام، وأنَّ سلوكَهُ مبرر في كلِّ آنٍ وفي كلِّ حال، ويضعَ منظارَ الاتّهامِ ليتوجّهَ به إلى الآخرينَ من حوله، هذا يتنافى مع شأنِ المؤمنِ وصدقِ إيمانهِ وإسلامه.

ولقد كانَ أصحابُ رسولِ الله صلى اللهُ عليهِ وسلّم يضعُ كلُّ واحدٍ منهم نفسَهُ موضعَ المتَّهَم، ويراقبها في كلِّ حالٍ وفي سائرِ التّقلّباتِ والظّروف، وما تمرُّ مصيبةٌ عامّةٌ أو خاصّةٌ إلا ويرى كلُّ واحدٍ أنّهُ ربّما كانَ هو سببَ هذه المصيبة، وأنّهُ المقصّرَ في جنبِ الله، وأنَّ هذه المصيبةَ أو هذا البلاء إنّما جاءَ بشُؤمه.

ولقد كانَ الإمامُ مالك – إمامُ دارِ الهجرة – رضيَ اللهُ تعالى عنه إذا رأى السّماءَ أرعدت وأبرقت توجّهَ مسرعاً إلى خارجِ المدينة، فإذا سُئِلَ أجاب بتصوّرٍ ويقين أنَّ المدينة مشرفةٌ على عذابٍ بسببهِ وجرمه، فهو يصرُّ على أن يخرجَ منها لكي يقيَ اللهُ سبحانهُ وتعالى أهلها الهلاكَ بسببه. وهو الإمامُ مالك الذي سمعتمُ الكثيرَ من ترجمته هو هو إمامُ دارِ الهجرة.

هكذا حالُ المسلمِ المؤمن عندما يكونُ في ذروةِ التّقى، وعندما يكونُ سالكاً سبيلَ الاستقامةِ على الله. فكيفَ بهذا المسلم عندما يكونُ مستغرقاً في المعاصي والآثام؟ أليسَ على هذا المسلم أن يتّهمَ نفسهُ أضعافَ ما كانَ يتّهمُ الصّحابةُ والتّابعونَ أنفسهم به؟ ولكنّنا ننظرُ إلى حالِ المسلمينَ اليوم فنجدهم على النّقيضِ من ذلكَ إلا من رحمَ ربُّك.

إذا نظرَ المسلم إلى الدّنيا التي من حوله، أو إلى المدينةِ التي يعيشُ فيها، ورأى مظهرَ بعضِ الشّدائد، ودلائلَ بعضِ المصائب، اتّهم كلَّ أحدٍ من حوله إلا نفسَه، وتصوَّرَ أنَّ هذا من شؤمِ زيدٍ أو عمروَ أو عمن هو عن يمينهِ أو شمالهِ أو من فوقهِ أو من تحته، إلا أن يتصوّرَ أنَّ ذلكَ من شؤمِ نفسه وهو ينزّهها عن كلِّ زيغ، وينزّهها عن كلِّ خطأٍ وخطل. ولو أنَّ الواحدَ منّا كانَ من استقامتهِ كأصحابِ رسولِ الله، أو

كالتّابعين الذينَ جاؤوا بعدَ صحابةِ رسولِ الله صلى اللهُ عليهِ وسلّم، لتخيّلنا لهم بعضَ العذرِ في ذلك. ولكنّهم مَن؟ مسلمون لم يتمسّكوا من الإسلامِ إلا بالقشور، وليتَ أنّهم تمسّكوا من هذه القشور بقشورٍ حقيقيّةٍ غيرِ مرقعة أو مزيّفة.

المسلمونَ اليوم – وأعودُ فأستثني قائلاً: إلا من رحمَ ربُّكَ وقليلاً ما – مستغرقونَ في حمأةِ المعاصي والآثام. المفتقرونَ منهم يبرّرونَ لأنفسهم الولوغَ في حمأةِ السّيّئاتِ والمعاصي بحجّةِ الاضطرار، بحجّةِ أنّهم فقراء، وأنَّ اللهَ ينبغي أن يستثنيهم من أحكامهِ وشرعته. يمدُّ يدهُ إلى الرّبا بحجّةِ أنّهُ فقيرٌ مضطر، يقتحم الغشَّ والمكرَ والخداعَ في المعاملاتِ بحجّةِ أنّهُ فقيرٌ مضطر، يمدُّ يدهُ إلى المال من أيِّ السُّبُلِ لاحَ لهُ هذا المال بحجّةِ أن لا عليهِ حرج لأنّهُ فقيرٌ مضطر، وما هو بمضطر. وإنّهُ بالنّسبةِ لكثيرٍ من أصحابِ رسولِ الله صلى اللهُ عليهِ وسلّمَ يعيشُ في حالةٍ من الغنى والتّرف، ولكنّهُ يبرّرُ لنفسهِ ذلك الانحراف بهذا التصور والادّعاء، وإن أكرمَهُ اللهُ سبحانهُ وتعالى بالغنى وأغدقَ عليهِ المال حطّمَ حواجزَ الشّرعِ بقدمِ الطّغيان، ونسيَ أومرَ اللهِ سبحانهُ وتعالى ونواهيه، ونسيَ الرّقابةَ على دارِهِ وأهلِهِ وأولادهِ وبناته. تدخلُ إلى دارهِ فتجدُ علائمَ الطّغيان ترفرفُ في أنحائها، وإذا لاحت لكَ نظرةٌ إلى أولادهِ وبناتهِ لم تتصوّر قَط أنّهم أولادُ مسلمين، وإذا اطّلعتَ على منهاجِ حياتهِ اليوميّ وسهراتهِ في ليله، والعملِ الذي يقطعُ بهِ ساعاته، رأيتَهُ مندمجاً في كلّ نوعٍ من أنواعِ اللهوِ إلا أن يقبلَ إلى اللهِ عزَّ وجلّ، هكذا أطغاهُ المال. وصدقَ الباري عزَّ وجلَّ إذ يقول: ﴿كلا إنَّ الإنسانَ ليطغى أن رآهُ استغنى﴾، ويا عجباً للدقّةِ العجيبةِ في بيانِ اللهِ إذ يقول: ﴿أن رآهُ استغنى﴾ ولم يقل (لأنّهُ استغنى). لأنَّ العبدَ لا يستغني أبداً.

العبد يظلُّ فقيراً لأنّهُ عبد، لا يمكنُ للعبدِ أن يصبحَ غنيّاً أبداً، وصدقَ اللهُ القائل: ﴿يا أيّها النّاسُ أنتم الفقراءُ إلى الله واللهُ هو الغنيُّ الحميد﴾. ولذلكَ جاءَ التّعبيرُ دقيقاً: ﴿كلا إنَّ الإنسانَ ليطغى﴾ أن خُيِّلَ إليه أنّهُ استغنى، هذا معنى كلام الله عز وجل. ومن هنا تتضاعفُ الجريمةُ في حقّه. الجريمةُ الأولى: أنّكَ تخيّلتَ نفسكَ أصبحتَ غنيّاً وما أنتَ بالغنيِّ ولن تكونَ غنيّاً لأنّكَ تعيشُ في قبضةِ اللهِ سبحانهُ وتعالى، وما تتصوّرهُ من عطاءٍ وغنىً ومال كلُّ ذلكَ ملكُ اللهِ وأنتَ ملكُه. تلكَ هي الجريمةُ الأولى؛ جريمةُ

تصوّرِهِ أنّهُ قد أصبحَ غنيّاً. الجريمةُ الثّانية: أنّهُ يسخّرُ نعمةَ الله، كرمَ الله، عطاءَ الله في عصيانِ اللهِ سبحانهُ وتعالى.

تلكَ هي حالُ المسلمينَ إلا من رحمَ ربُّك في هذه البلدةِ وغيرِ هذه البلدة، الفقراءُ منهم يتأفّفونَ من حكمِ اللهِ عزَّ وجلّ ويبرّرونَ لأنفسهم كلَّ محرّم بحجّةِ أنّهم فقراء، أنّهم مضطرّون، وكذبوا في دعوى الاضطرار. فإن أغناهمُ اللهُ سبحانهُ وتعالى طغوا وبغوا، ونسوا اللهَ سبحانهُ وتعالى في سلوكهم، وفي مظهرِ بيوتهم، وفي أحوالهم. وفي ذهني صورٌ لأناس كانوا بالأمسِ فقراء يعرفونَ نسبتهم إلى الله، وأصبحوا اليومَ في تصوّرهم كما يقولُ الله أغنياء، قطعوا الصّلةَ التي كانت بينهم وبينَ اللهِ عزَّ وجلّ. ادخل إلى بيتِ واحدٍ منهم، انظر كيفَ لكَ تفتحُ لكَ ابنتهُ البابَ وهيَ في مظهرٍ لا تشكُّ أنّها إنسانةٌ لا علاقةَ لها في دينِ الله، وإنّما وفدت سائحةً من أقصى بلادِ الغربِ أو الشّرق، وأبوها كانَ يحجُّ بيتَ اللهِ الحرام، وكانَ ذا صلةٍ بالله يومَ كانَ يأتيهِ رزقه مقتراً. فلمّا أكرمهُ اللهُ بالنّعمة وأغدقَ عليهِ المال، حطّمَ صلةَ ما بينهُ وبينَ اللهِ عزَّ وجلّ.

ومع ذلكَ فالمصيبةُ الكبرى لا تكمن هنا. المصيبةُ الكبرى أنَّ هؤلاءِ النّاسِ إذا اجتمعوا في مجلس، وتباحثوا مصائبَ البلدةِ وشدائدها التي تمرُّ بهم تأففوا وضجروا وتساءلوا عن السّبب، وألقى كلٌّ منهم المسؤوليّة على فلانٍ أو فلانٍ أو الفئةِ الفلانيّةِ من النّاس. تلكَ هي المصيبةُ الكبرى: أن نرفعَ أنفسنا ونجعلها في مصاف الملائكة، فنحنُ لم نعص ونحنُ لم نرتكب ما يغضبُ الله، ونحنُ البرآء، وأيدينا مهما شممناها أيدٍ طاهرةٌ نقيّة، وينبغي أن نوزّعَ الاتّهام على الآخرين. أينَ هذا يا عبادَ الله من عملِ واحدٍ مثلِ الإمامِ مالك رحمهُ اللهُ تعالى؟ عندما كانَ يرمقُ بطرفِهِ السّماءَ فيجدُ غيوماً داكنةً سوداءَ قد أقبلت وفي تضاعيفها رعودٌ وبروق، يخرجُ متسلّلاً إلى خارجِ المدينة وقد وقرَ في يقينهِ أنَّ هذا من شؤمه، وأنَّ هذه المدينةَ بينَ يدي عذابٍ من اللهِ عزَّ وجلَّ لمعصيةٍ ارتكبها هو. هكذا يرى مالك، أنَّ المصائبَ التي تأتي إلى البلدةِ التي هوَ فيها من شؤمه، وفسّاقُنا من أغنياءِ المسلمينَ وفقرائهم يرفعونَ أنفسهم إلى مصاف الرُّسُلِ والأنبياءِ وينسونَ عفنَ حياتهم وبعدهم عن اللهِ عزَّ وجلّ، وحربهم لدينِ اللهِ سبحانهُ وتعالى في مظهرِ أولادهم وبناتهم، فإذا حانَ أن يتساءلوا عن سرِّ هذه الشّدائد نظروا يميناً وشمالاً، أو نظروا إلى الأعلى أو إلى الأدنى، واتّهموا غيرهم ونسوا أنفسهم.

تلكَ هي المصيبةُ الثّانية، فمتى نصحو أيّها الإخوة؟ متى نستغفرُ اللهَ بحقّ؟ ومتى نتوبُ إلى اللهِ بجدّ؟ ومتى نجعلُ من الفقرِ أداةً للصّبرِ الذي يقرّبنا إلى الله؟ ومن الغنى ينبوعَ الحبِّ الذي يقرّبنا أيضاً إلى الله؟ أقولُ قولي هذا وأستغفرُ اللهَ العظيم..



١٤٤- من لم يتهم خواطر نفسه لا يعد من الرجال | ١٩٩٤/٠٦/٠٣

رأيتُ في كلامِ بعضِ الرّبانيين من السّلفِ الصالح، رأيتهُ يقول: (من لم يزن أعمالهُ وأحوالهُ في كلِّ وقتٍ بالكتابِ والسنّة، ويتّهم خواطرهُ، فلا تعدُّه منَ الرّجال). أي لا يعدُّ منَ الرّجالِ الذينَ قالَ اللهُ فيهم: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ .

استوقفني هذا الكلام من هذا العالِم الرّبّانيّ، الذي هو من أعيانِ السلفِ الصالح من أربابِ القرونِ الثلاثةِ الأولى، وهو يقول: (من لم يزن أعمالهُ وأحوالهُ في كلِّ وقتٍ بالكتابِ والسنّة، ولم يتّهم خواطرَ نفسه، فلا تعدّهُ من الرّجالِ الذينَ قالَ اللهُ فيهم: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾، وعدتُ بهذا الكلامِ الذي يقولهُ لا واحد، بل هو كلامُ سائرِ الرّبّانيّين من سلفنا الصّالح. عدتُ بهذا الكلام، إلى واقعِ المسلمينَ في هذا اليوم، وتساءَلتُ عنِ الأفئدةِ التي تستوعبُ هذهِ النّصيحة، والتي تقفُ عندها بإجلالٍ وتقبُّل، فرأيتُ أنَّ هذا الكلامَ غريبٌ غربةً كبرى في عصرنا اليوم. ولا أقولُ أنهُ غريبٌ في مجتمعاتٍ غيرِ إسلاميّة، فهذا شيءٌ واضح، ولكنّي أعني أنَّ هذا الكلامَ غريبٌ في مجتمعاتنا الإسلاميّة. أينَ همُ المسلمون الذينَ يعودونَ فيزينونَ أعمالهم وأحوالهم في كلِّ وقتٍ بميزانِ الكتابِ والسنّة؟

ثمَّ أينَ هم الذينّ إذا سنحت لهم خواطر، ووقفوا أمامَ تصوّراتٍ واجتهادات، عادوا فاتّهموا أنفسهم؟ اتّهموها ربّما باتّباعِ الهوى، أو اتّهموها بالخطأِ في الفهم، أو اتّهموها بالسّطحيّةِ في الارتباطِ والرّجوع، هذهِ غدتْ قلّةً قليلةً جدّاً في مجتمعاتنا الإسلاميّة.

وقفزَ إلى ذهني تساؤلٌ أعلمُ أنَّ كثيرين وكثيرين يطرحونه، من أينَ جاءَ هذا الإنسانُ بهذا الكلام؟ وهل هذا كلامُ قرآنٍ أم كلامُ سنّة؟ ليسَ هذا الكلامُ آيةً في كتابِ الله، ولا حديثاً من كلامِ رسولِ الله. ففيمَ الوقوفُ عندَ كلامِ إنسانٍ يصحُّ منهُ الخطأُ والصّواب؟ وهذهِ ظاهرةٌ من أمراضِ هذا العصر. قفزَ إلى ذهني انَّ في الناسِ من يسألُ هذا السؤال، فما الجواب؟

والجواب، هو أنَّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلّمَ قالَ في الحديثِ الصّحيح، أجل في الحديثِ الصّحيح الذي لا يعجبُ اليومَ بعضَ الفِرَقْ: ﴿عليكم بسنّتي وسنّةِ الخلفاءِ الرّاشدينَ المهديين، عضّوا عليها بالنّواجذ﴾. عندما يقولُ المصطفى صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ هذا الكلام، فإنّهُ يدلي من خلالهِ بشهادةٍ لهذهِ العصورِ النيّرة، التي تمثّلُ فجرَ انبلاجِ الإسلامِ بعدَ بعثةِ رسولِ الله صلى اللهُ عليهِ وسلّم.

وعندما أجد ثناءَ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلّم، على القرونِ الثّلاثة التي عاشَ هو في أوّلِ قرنٍ منها، ﴿خيرُ القرونِ قرني، ثمَّ الذينَ يلونهم، ثمَّ الذينَ يلونهم﴾. فأنا أمامَ شهادةٍ ثانية، بأنَّ هؤلاءِ الرجال المسلمين الذينَ نشؤوا في ظلالِ كتابِ اللهِ وسنّةِ رسوله، في فجرِ هذه القرونِ الثّلاثة، هذهِ شهادةٌ من المصطفى صلى اللهُ عليه وسلّم أنَّ كلامهم هدي، وأنَّ نصائحهم سنّةٌ متّبعة، بعدَ سنّةِ رسولِ الله صلى اللهُ عليه وسلّم.

ثمَّ إنني أقفُ لأتساءَلْ، أفكانَ هؤلاءِ الرّبّانيّون ينزحون في هذا الكلامِ وأمثالهِ من أفكارهم، مما تملي عليهم أنفسهم؟ هؤلاءِ الرّبّانيّون كانوا رقباءَ على ألسنتهم، فما كانَ أحدهم يتفوّهُ بكلامٍ إلا بعدَ ان يقتطفهُ من نصوصٍ من كتابِ اللهِ عزَّ وجلّ، أو أن يأخذهُ غضّاً طريّاً من كلامٍ قالهُ سيّدنا رسولُ الله صلى اللهُ عليهِ وسلّم. ولكنَّ الإنسانَ الذي يعجبُ برأيه، يتيهُ عن كلامِ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلّم، ويتيهُ عن الدلائلِ العقلانيّةِ التي تدلّهُ على صراطِ اللهِ سبحانهُ وتعالى.

أليسَ هذا الكلام الذي يقولهُ هؤلاءِ الرّبّانيّون، وليسوا واحداً، أليسَ هذا الكلام هو ذاتُه الذي يقولهُ المصطفى عليهِ الصلاةُ والسّلام، فيما رواهُ النّسائيُّ والترمذيُّ وابنُ ماجه بسندٍ صحيح: ﴿إذا رأيتَ شحّاً مطاعاً، وهوىً متّبعاً، ودنياً مؤثرةً، وإعجابَ كلِّ ذي رأيٍ برأيه، فعليكَ بخاصّةِ نفسك، ودع عنكَ أمرَ العامّة﴾.

ما معنى أن يعجبَ الإنسانُ برأيه؟ معنى ذلك، هذا الذي يحذّرُ منهُ هذا العالمُ الربّانيُّ الجليل، (من لم يتّهم خواطره) من لم يتّهم خواطرَ نفسهِ بالخطأ، بالنسيان، بتسرّبِ الزغل النّفسيِّ إليها، من لم يفعل ذلك، فلا شكَّ أنّهُ ممن قالَ عليهِ الصّلاةُ والسلام عنهم: ﴿إذا رأيتَ شحّاً مطاعاً، وهوىً متّبعاً، وإعجاب

كلٍّ ذي رأيٍ برأيه، ودنياً مؤثرةً، فعليكَ بخاصّةِ نفسك، ودع عنكَ أمرَ العامّة﴾. من هذا الكلام، استقى هؤلاءِ العلماءُ هذا النّصح.

وأعودُ فأقول: أينَ يكمنُ الخطأ، بلِ الخطر، في أن لا يتّهمَ الإنسانُ نفسهُ في قرارٍ يدلي به، أو في رأيٍ يرتئيه، أو في خاطرةٍ حامت حولَ قلبه، أينَ هو مكمنُ الخطرِ في ذلك؟ مكمنُ الخطر، أنَّ اللهَ سبحانهُ وتعالى أعلنَ لنا في محكمِ كتابه، وأنَّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أكّدَ لنا في الصحيحِ من سنّته، أنَّ ﴿أعدى عدوّك نفسكَ التي بينَ جنبيك﴾، هذا كلامُ رسولِ الله صلى اللهُ عليه وسلّم.

وإذا عرفَ الإنسانُ أنَّ أعدى عدوٍّ لهُ في هذه الدّنيا هي نفسهُ الكامنةُ بينَ جنبيه، وإذا علمَ أنَّ كيدَ الشّيطانِ ضعيف بالنّسبةِ لكيدِ نفسه، وأنَّ الشّيطانَ يجعلُ من كيدِ النفسِ سلاحاً لهُ في معركتهِ مع عبادِ اللهِ سبحانهُ وتعالى.

إذا عرفَ الإنسانُ المسلمُ هذا، وكانَ مسلماً حقّاً، وكانَ يسيرُ على صراطِ اللهِ عزَّ وجلَّ على وَجَلْ، من أن يشذَّ عن الطريق، ومن أن يشردَ عن الصّراط، فلا شكَّ أنهُ كلّما سنحت في فكرهِ خاطرة، يحاولُ أن يتبيّن، أليست في هذه الخاطرةِ شائبةٌ من شوائبِ نفسه، أليست هذهِ الخاطرةُ التي ظهرت أمامي مقنّعةً بقناعِ الإسلام، أليست هي في الحقيقة شهوةً من شهواتِ النّفس، رغبةً من رغائبِ الهوى؟

ينبغي أن أتّهم، ينبغي أن أمحّص، ينبغي أن أراقبَ وأنظر، ومقياسُ النظر، إنما هو التبصّرُ بكتابِ الله، والتبصّرُ الدّقيق، الدّقيق، بسنّةِ رسولِ الله صلى اللهُ عليه وسلّم.

فإن غمَّت عليه السبل، فليجعل من كلامِ هؤلاءِ الربّانيين قبساً منيراً أمامه، كما علَّمنا رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلّم، وليجعل من كلامِ أولئكَ السلفِ الصّالح مصباحاً منيراً يبعدهُ عن التّيه، ويعينهُ على اتّهامِ نفسه، ليتبيّنَ الخطأ من الصواب من آراءِ نفسه.

إن فعلَ الإنسانُ هذا، فلا شكَّ أنهُ كانَ من الرّجال، الذينَ أشارَ إليهم أولئكَ الرّبّانيّون والّذينَ قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ في حقّهم: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾.

والكلامُ مفتوح، يشملُ الأجيالَ كلّها إلى يومِ القيامة، إن هم كانوا ممن وصفهم الله سبحانهُ وتعالى بهذا الوصف.

أمّا إن كانَ هذا الإنسان ممن إذا وصلَ إلى رأيٍ يرتئيه، أو وقفَ على خاطرةٍ سنحت له، أو ركنَ إلى اجتهادٍ أعجبَ به، تعلّقَ بهذا الرّأيِ والاجتهاد، ورأى أنَّ الحقَّ كلَّ الحق هو ما قد اهتدى إليهِ من هذا الرأي، وأنَّ الضلالَ كلَّ الضلال، هو ما يتمثّلُ في الآراءِ والأفكارِ والخواطرِ الأخرى، وعادَ يتّهمُ الآخرينَ بدلاً من أن يتّهمَ نفسه، فهذا إنسانٌ تائهٌ عن صراطِ الله. وهوَ ممن صدقَ في حقّهم قولُ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلَّم: ﴿وإعجابَ كلِّ ذي رأيٍ برأيه﴾.

فماذا نجد من حالِ المسلمين في هذا العصر؟ ألستم تلاحظونَ أيها الإخوة أنَّ جلَّ المسلمينَ اليوم، قد غدوا عشّاقاً لآرائهم؟ يضعونَ أنفسهم موضعَ العصمةِ من حياتهم، إذا سنحت فكرةٌ لأحدٍ منهم، رآها هي القرآن ذاتُه، وهي كلامُ اللهِ سبحانهُ وتعالى الذي لا يأتيهِ باطلٌ من بينِ يديهِ ولا من خلفه، فلو أنَّ الثّقلين جاءا ليوضحا لهُ خطأهُ وخطله، لم يرعو عن الرأيِ الذي تعشَّقهُ وتمسَّك به.

أينَ هو مكانُ اتّهام المسلم لنفسه، فيما يقولهُ هؤلاءِ الرّبّانيّون؟ أينَ هو التعامل مع قولهِ صلى اللهُ عليهِ وسلّمَ: ﴿أعدى عدوّك نفسكَ التي بينَ جنبيك﴾؟ أينَ هو التّعامل مع هذا الذي يوضحهُ بيانُ اللهِ سبحانهُ وتعالى في كثيرٍ من آياتِ كتابه؟ أما ينبغي أن أعلم أنَّ كياني مشوب، خليطُ خيرٍ بِشَرّ، أملكُ عقلاً نيّراً، وأملكُ نفساً تأمرني بالسوء، وإنَّ كيدَ النفسِ شرٌّ من كيدِ الشيطان، أما ينبغي أن أعلمَ هذه الحقيقة؟ فإن علمتُها، أما ينبغي أن أمحّص؟ أما ينبغي أن أتّهمَ نفسي؟ هذا ما قد أصبحَ غريباً في مجتمعاتنا الإسلاميّة اليوم، وهو مظهرٌ من مظاهرِ الخوارقِ التي أكرمَ اللهُ بها رسولهُ صلى اللهُ عليه وسلّم، إذ كشفَ لهُ عن سجاف الغيب، وأراهُ كثيراً مما يجري في حياةِ أمّته من بعده.

هذا التّهارجُ الذي يقعُ في مجتمعاتِ المسلمينَ اليوم، هذه الاختلافات الكبيرة والكثيرة والتي تتحوّلُ إلى صراعاتٍ مريرة، يصطادها أعداءُ المسلمين ويوظفونها لخططهم ومصالحهم، هذه الاختلافاتُ التي ترون أو التي تسمعون عنها، نتيجةُ هذا الذي يحذّرُ منهُ أولئكَ العلماءُ الرّبّانيّون، ويحذّرُ منهُ من قبلهم سيّدنا رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلّم، فعندما أرتئي رأياً باسمِ هذا الدّين، ثمَّ أتعشّقهُ ولا أريدُ أن أتّهمَ نفسي بأني لعلّي منهُ على خطأ. وعندما تسنحُ لكَ أنتَ الآخرُ فكرة، فيما يتعلّقُ بهذهِ المسألةِ نفسها، فتتعشّقُ هذه الفكرة، وتضعُ نفسكَ منها موضعَ العصمة، وعندما يرتئي ثالثٌ في هذهِ المسألةِ رأياً آخر، ويأبى أن يتّهمَ هو الثّالثُ نفسه، ويضعُ نفسهُ من رأيهِ أمامَ العصمة، إلامَ تنتهي الأمور؟ تنتهي الأمورُ إلى

مقارعات، وتنتهي الأمورُ إلى مصادماتٍ عدوانيّة، وتنتهي الأمورُ إلى شقاقٍ ثمَّ تنابذٍ مما قد نهى اللهُ سبحانهُ وتعالى عنهُ ومما لا أريدُ أن أخوضَ فيه.

وهذا ما يجري اليوم، وإلا فإننا لا نعلم أنَّ الخلافَ كانَ موجوداً في عصورِ السّلفِ الصالح كما هو موجودٌ اليوم، لكنَّ هذه الخلافات كانَ يذيبُها الأدبُ الإسلاميّ. كانَ الرجلُ إذا ارتأى رأياً، من أجلِ خدمةِ دينِ اللهِ عزَّ وجل، قدَّرَ أنهُ ربّما كانَ على صواب وربّما كان على خطأ، وحتّى لو لم تلح لهُ دلائلُ كونهِ مخطئاً، فهو يفرض احتمالَ خطئهِ مرجوحاً، ولذا فإنهُ يتقبّلُ الرأيَ المخالف لأنهُ يسدُّ الاحتمالَ الذي تصوّرهُ علمه.

عندما أجنحُ إلى رأيٍ وأراهُ أقربَ إلى الصواب لا الصوابَ بعينه، فلا شكَّ أنَّ احتمالاً ولو يسيراً يبقى أنني ربما أكونُ على خطأ، هذا الاحتمال الذي لهُ فسحةٌ في نفسي وفي قلبي يتّسع للرأي الآخر الذي يرتئيهِ الآخرون، ولذلك فلم يكن يقعُ شقاق، ولم يكن يقعُ تصادم، لأنَّ الهدف إنما هو السعيُ إلى مرضاةِ الله، لا السّعيُ إلى الانتصارِ للنفسِ وللذات، ومن ثمَّ فلقد كانَ المسلمونَ من قبلُ متّحدين، بمقدارِ ما كانوا مختلفينَ في أمورهم الاجتهاديّةِ المتنوّعة.

أمّا اليوم، فقد غدتْ آراؤنا الاجتهاديّةُ المتنوّعة غذاءً نغذّي بهِ أنفسنا، نغذّي بهِ ذواتنا، نغذّي بهِ شهواتنا، نغذّي بهِ أنانيّاتنا، ولذلكَ فهيهاتَ أن أتنازلَ عن رأيٍ ارتأيتُه مهما كانتِ الظروف، ومهما كانتِ الدّلائل، لأنني لو تنازلتُ عنه لجرحتُ بذلكَ كرامتي، ولأنزلتُ بذلكَ نفسي من برجِ عصمتها، وكذلكَ المقابلُ لي، لا يمكنُ أن يتنازلَ عن رأيهِ مهما لاحت لهُ البوارقُ أنّهُ مخطئ، لأنهُ إن فعلَ ذلك سيجرحُ هو الآخرُ كرامته، ولسوفَ ينزلُ نفسهُ من علياءِ عصمتها، ما النتيجةُ إذاً؟ النتيجةُ لا بدَّ من التصادم، والتصادمُ يودي إلى عدوان، والعدوانُ يودي إلى شروخٍ مما قد ترون، ومما قد وظّفهُ الغربُ لنفسهِ أيّما توظيف.

عندما يكونُ حالُ المسلمينَ هكذا، ما العلاج؟ العلاج، يتمثّلُ في هاتين الكلمتين اللتينِ قالهما رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلّم: ﴿عليكَ بخاصّةِ نفسك، ودع عنكَ أمرَ العامّة﴾. والخاصّة تتمثّلُ في

الذات، وفي الأهل، الزوج، الزوجة، الأولاد، كلُّ من يلوذون بك. ﴿ودع عنكَ أمرَ العامّة﴾، لأنَّ الخوضَ في أمرِ العامّةِ خوضٌ في طريقٍ مسدود، لن تجدَ من نتيجتهِ إلا جداراً مسدوداً تقفُ أمامه.

ولكنّي أعودُ فأقول: إنني أبحثُ في خيالي وذهني في هذا العصر، عن شبابٍ يسيرونَ على صراطِ اللهِ عزَّ وجلّ، ويتّجهونَ ربّما إلى سبلِ الدّعوةِ إلى الله، أبحثُ عن أناسٍ يقفونَ أمامَ كلماتِ هؤلاءِ الربّانيّين، ويتلقّونَ منهم التّربية، ويصغونَ إلى نصائحهم، فلا أجد.

أصبحتْ كلماتُ هؤلاءِ النّاس غريبةً عنّا أيها الإخوة، وأصبحت نصائحهم موضوعةً في أماكنَ قصيّة على رفوف، والكتبُ التي تحوي هذه النّصائح أصبحت غريبة، وربّما أصبحت مجهولة من أذهانِ كثيرٍ من الشبابِ المثقّف الذينَ حشيت أذهانهم بمئاتٍ من الكتبِ الحديثةِ الفكريّةِ المتنوّعة، ولكنهم عن هذه النصائح معرضون.

وإنها لظاهرةٌ تدلُّ على مرضٍ خطير، يفصلُ هذه الأمّةَ عن سلفها، أقولُ قولي هذا وأسألُ اللهَ سبحانهُ وتعالى أن يصلحَ أحوالنا جميعاً فاستغفروهُ.



١٤٥- ساعة في نقد الذات ضرورة للأمة وقادتها | 09/٠٩/٢٠١١

إذا تذكرنا الحقيقة القائلة بأن الأمة بشطريها القادة والشعب إن هي إلا شخصية اعتبارية واحدة، إذا تذكرنا هذه الحقيقة فلنعلم أن على هذه الشخصية متمثلة في سائر أفرادها أن تعكف على ساعة قدسية من نقد الذات وأن تعيد تنسيق المسؤوليات فيما بين أجزائها وأعضائها، فما أكثر ما ترامت هذه الأعضاء مسؤولياتها بعضها على بعض. هذه الحقيقة يذكرنا بها دائماً كتاب الله عز وجل، وتأملوا يا عباد الله في هذه الآيات التي تأمرنا بهذه الساعة القدسية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨].

تأملوا في قوله سبحانه وتعالى: ﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ، وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾ [القيامة: ١٤-١٥] بوسعه أن يعلم نقائصه وأراد أن يقف أمام هوية ذاته، تأملوا في قوله سبحانه وتعالى في محكم تبيانه وهو يقول: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار: ٥].

وهذا العلم إنما هو في دار الدنيا كما قال العلماء.

عباد الله: إن لم تنطلق الأمة أفراداً من العكوف على هذه الساعة القدسية — نقد الذات، محاسبة النفس — فإن القوانين مهما رُصِفَتْ لا تصلح فاسداً ولا تقوِّمُ اعوجاجاً، وإن موادها مهما تناسقت أيضاً هي الأخرى لا تصلح فاسداً ولا تقوِّمُ اعوجاجاً، المنطلق هو الفرد، المنطلق إنما يتمثل في نقد الذات. تعالوا نضرب بعض الأمثلة التي تجسد هذه الحقيقة التي يضعنا أمامها بيان الله سبحانه وتعالى.

ما أكثر ما تظا لم أفراد الأسرة الواحدة، ما أكثر ما يتظا لم الزوجان لأن الزوج قد أهدر حقوق الزوجة فيما يتعلق بحقها بالمهر ونحوه، وما أكثر ما أهدر حق الزوج من قبل الزوجة في كثير مما شرع الله وأمر لأن أياً منهما لم يعكف على ساعة قدسية من نقد الذات، ما أكثر ما يتظا لم الأولاد ذكوراً وإناثاً لأن الإناث حرمن من حقهن في الميراث لأنهن إناث، ولعلكم تعلمون هذه الظاهرة الجاهلية التي لا تزال تسري إلى كثيرٍ من البيوت، ومن ثم فإن الأحقاد والضغائن هي التي تتوضع في مكان المحبة والوئام.

تعالوا ننظر إلى أسواق التعامل، ما أكثر ما يتظالم رجال المال والأعمال مع الناس المستهلكين الذين يغشون أسواق العمل وأسواق الاقتصاد، ذلك لأن التجار ورجال الأعمال منصرفون إلى أبواب الرشاوي التي تجعلهم يفرون من القوانين والشرائع وتجعلهم يتملصون منها ذات اليمين آناً وذات الشمال آناً، أو يعكفون على ابتداع وسائل الغش والخداع والغرر وما أكثر هذه الأنواع وما أكثر ما يُبتَدَعُ منها اليوم، ومن ثم فإن علاقة ما بين هؤلاء الناس بعضهم مع بعض تتحول إلى أحقادٍ وضغائن بدلاً من أن يمتد فيما بينها نسيج الأخوة، نسيج التعاون والوئام، ترى ماذا عسى أن تصنع الشرائع المكتوبة وماذا عسى أن تفعل القوانين المرسومة عندما تغيب هذه الساعة القدسية، ساعة العكوف على النقد، ساعة العكوف على نقد الذات ومحاسبة النفس، وصدق من قال: (حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا).

عباد الله: تعالوا نتأمل في الليالي وما تُحشى بها هذه الليالي وساعاتها، تعالوا نتأمل في العمر الثمين الذي لا أقول ملكنا الله عز وجل إياه بل ائتمننا عليه، فيم تزهق هذه الساعات، فيم تتبدد بل هذه الدقائق وهي أمانة وضعت في أعناقنا ونحن نعلم أيها الإخوة مما سمعنا الآن من بيان الله عز وجل أن الإنسان مدفوع إلى هذه الساعة القدسية من محاسبة النفس ونقد الذات، مدفوع إلى ذلك من اليقين بالحقيقة التي لا ريب فيها وهي أننا نعيش من حياتنا هذه في ممر نعبره إلى مقر، من لم يؤمن بذلك اليوم طوعاً فلا بد أن يستيقنه غداً قسراً واضطراراً، هذه هي الحقيقة ينبغي أن نتبينها.

أما ثالثة بل رابعة الأثافي فتتمثل في هذه الصورة التي لا يكاد يصدقها العقل، صور إنسان — أجل يسمى إنسان — يعمل إلى تخريب بلده وإحراق بنيانها في سبيل أن تعمر جيبه ببضعة آلاف، نعم، يعمد إلى تخريب بلده، يعمد إلى تحريق بنيانه من أجل أن تعمر جيبه ببضعة آلاف من المال وهو يعلم لو عكف على ساعة من نقد الذات أن هذه الآلاف لن تبقى حبيسة في جيبه بل ستسري بأخبث الأمراض إلى جسده ولسوف تستقر ناراً كاوية من الندامة في قلبه وبين طوايا جوانحه ولسوف تقيمه الندامة ثم لا تقعده ولسوف يذيبه ضرام هذه الندامة شيئاً فشيئاً كما يذوب الدهن فوق نار كاوية، يعلم هذا لو أنه عكف على ساعة قدسية من نقد الذات.

يا عباد الله، يا ناس هل سمعتم عاقلاً يخرب داره من أجل أن يُفْرِحَ عدوه؟! هل سمعتم عاقلاً يزهق نفوس إخوانٍ برآء في سبيل أن يضمن أمن عدوه؟! هل سمعتم بهذا؟! مهما كان الذل مهيمناً على كيان

الإنسان، مهما كانت المهانة آخذة منه بالعنق فإن إنسانيته ستجمح به دون الإقدام على هذا الأمر، لكن هذا يتم اليوم، لماذا؟ لأن هذا حيل بينه وبين إنسانيته لأنه لم يقف لحظة واحدة أمام مرآة ذاته وقفة نقد، وقفة محاسبة. قالوا: إن العاقل في الناس هو من لا يفعل فعلاً يعلم أنه سيندم عليه – وحقاً ما قالوا – هذه الحقيقة لا ريب فيها ولا شك يا عباد الله.

لقد رؤي بعض من هؤلاء الناس وإن الواحد منهم يلطم وجهه، وإن الواحد منهم يسب ذاته، ولقد آل الأمر ببعض منهم إلى الانتحار ليتخلص من عقابيل هذه الندامة. أرأيتم يا عباد الله إلى ما أمر الله عز وجل به وذكَّر ونبَّه إليه من ضرورة الوقوف أمام ساعة قدسية من نقد الذات هذه الحقيقة يخاطب بها القادة وتخاطب بها الأمة جمعاء يا عباد الله. نعم يجب أن نتذكر إلى جانب هذا المعنى الذي قلته لكم الحقيقة القائلة: إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن. صحيح أن القوانين تُشَلُّ إذا لم يقف الإنسان الفرد ساعة قدسية لنقد ذاته ولكن الحقيقة هكذا تقول: إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن.

لئن تاهت الأمة عن هذا العلاج الذي ذكَّر به الله سبحانه وتعالى فإن علاجاً آخر لا يزال موجوداً، هو العلاج الذي أمكن الله عز وجل السلطان منه، سلطان التربية، التربية التي تعلو بالأمة صُعُداً شيئاً فشيئاً إلى أن يعانق كل فردٍ منها هذه الساعة القدسية، إلى أن يصبح كل واحدٍ منهم يعكف كل واحد منهم على محاسبة نفسه وعلى نقد ذاته على ضوء المقر الذي هو آيلٌ إليه بعد هذا الممر الذي هو فيه.

التربية؛ من الذي يملك أمرها؟ السلطان، أي قادة الأمة. التربية التي تقوم على القيم قبل أن تقوم على العلوم، وما أفادت العلوم شيئاً إن أصبحت مكنة أو سلاحاً في أيدي من لم يُرَبَّ هذه التربية التي يتحدث عنها بيان الله سبحانه وتعالى. إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن عن طريق المراقبة، عن طريق المحاسبة، عن طريق العقاب، أجل. ولقد قلت لكم: إن القانون لا يوجد شيئاً معدوماً مهما كان دقيقاً ومهما صَلُحَ أمره ولكنه يحرس ما هو موجود، القوانين كلها في العالم أجمع بما فيها شرائع الله سبحانه وتعالى لا توجد شيئاً معدوماً وإنما تحرس ما هو موجود، أوجد المعدوم أولاً، المعدوم الذي لابد أن يوجد عن طريق العقيدة السلمية، عن طريق الإيمان بالله عز وجل، ثم عن طريق محاسبة النفس عن طريق الوقوف على هذه الساعة القدسية من محاسبة الذات ومن نقد النفس والذات، أجل، هذا هو المنطلق. إذا وجدت هذه الحقيقة جاء دور القانون ليحرس هذه الحقيقة أيما حراسة. التربية هي الغذاء

الذي ينمي ويغذي ويرسخ جذور هذه الحقيقة المثلى، حقيقة الإيمان بالله، حقيقة التربية على هذا الأساس، وأنتم تعلمون أين تقع المؤسسات التربوية وكيف ينبغي أن تمارِس وكيف ينبغي للأمة أن تمارَس من خلال هذا الواجب.

مرة أخرى أقول أيها الإخوة كلنا بحاجة إلى أن نقف وقفة قدسية مع نقد الذات وأهم هؤلاء الذين يجب عليهم أن يقفوا هذه الوقفة القدسية هؤلاء الإخوة الذين أشفق عليهم أكثر مما أحقد أو أنتقد عليهم، هؤلاء الذين عمدوا إلى إحراق بلادهم وإتلافها وتخريب دورهم من أجل بضعة آلاف توضع في جيوبهم، يا هذا والله إن لن تستمتع بهذه الآلاف، والله إنها ستسري بأخبث الأمراض إلى كيانك، والله الذي لا إله إلا هو إنها ستوقد ضراماً من نار الندامة بين جوانحك ثم إنها لا يمكن أن تخمد بشكل من الأشكال حتى تذيبك، أنا أشفق على هؤلاء الأخوة وأرجو أن يبلغهم كلامي ونصحي. يا ناس كلكم – وأبدأ بنفسي – تعالوا نقف ساعة قدسية أمام نقد الذات، نحن اليوم نتحرك فوق هذه الأرض وغداً سيحتضننا باطن هذه الأرض، أجل، يا من يبحثون لنفسهم عن قصور فوق هذا الركام ابحثوا عن قصوركم في باطن الأرض، أقول لكم كما قلت قبل أيام: قصورنا قبورنا فاجهدوا جهدكم أن يبني كل واحد لنفسه قصراً في باطن الأرض، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.



الخوف والرجاء

١٤٦- واعلموا أن الله يعلمُ ما في أنفسكم فاحذروه | ١٩٩٣/١١/٠٥

استوقفتني قبل قليل فقرةٌ من آية في كتاب الله سبحانه وتعالى، ولكم أخذت أفكر فيها ولكم لمت نفسي على أنني وكثيرٌ من المسلمين قلما نعيش في ظلالها. هذه الفقرة هي قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ أخذت أردد هذه الفقرة من آية في كتاب الله تعالى وأخذت أتساءل أين نحن من هذا الأمر الذي يتجه من الله سبحانه وتعالى إلينا؟ ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ ثم هذه الفقرة شدتني إلى فقرةٍ مثلها من آية أخرى في كتاب الله سبحانه وتعالى هي أشدُ خطراً وتخويفاً. وهي قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

تأملت في هذا الربط ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أليس معنى هذا الكلام أن الذي لا يستشعر قلبه المخافة من الله ليس مؤمناً، وإذا أخذنا هذه المشاعر مقياساً لإيمان الإنسان بالله عز وجل. فكم هم عدد المؤمنين حقاً بالله سبحانه وتعالى؟ أين هم الذين تفيضُ قلوبهم بالمخافة من الله عز وجل؟ والعبارة صريحة وواضحة ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، فكأن البيان الإلهي يعلن أن الذي لا يخاف الله عز وجل ليس بمؤمنٍ وإن رددَ لسانه كلمة الشهادة مراراً وتكراراً.

تأملت في هذا المعنى الرباني العجيب وسرعان ما ساقني ذلك إلى الحكمة الباهرة التي تكمن في المصائب التي تتراود على الإنسان من حين إلى آخر، كثيراً ما يتساءل الإنسان ما الحكمة من هذه المصائب التي تترى في حياة الإنسان؟ وإنها لكثيرة أقلها وأبسطها مصائب الأمراض، وأهمها وأخطرها مصيبة الموت. ما الحكمة من ذلك؟ وإن الله لرحيمٌ بعباده رؤوف بهم، ولكن الجواب يتجلى من خلال هذا التحذير الإلهي في هاتين الفقرتين من كلام الله سبحانه وتعالى.

متى يخاف الإنسان ربه؟ لو أن النعم كانت هي التي تطوف به دائماً، ولو أن العافية كانت حصنه المستمر من مبدأ حياته إلى منتهاها، ولو أنه لم يتمنى أمنيةً إلا ورأها ماثلةً بفضل الله عز وجل بين يديه

متى. وكيف وبأي حافزٍ يخاف الله عز وجل؟ لقد كان من عظيم نِعم الله الخفية لا الظاهرة أن يبتلي الله سبحانه وتعالى عباده بالمصائب، حتى توقظهم هذه المصائب إلى هوياتهم، فتشدهم إلى المخافة من الله عز وجل، فينصاعون إلى تطبيق قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

المصائب أيها الإخوة نعمٌ من النعم ولكنها من النعم الخفية التي أشار الله عز وجل إليها من خلال قوله عز وجل ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ كل سبيلٍ يوصلني إلى الله نعمة كل طريقٍ يعرفني منتهاهُ على ربوبية الله نعمةٌ وأي نعمة، كل بارقةٍ تملئ قلبي خوفاً وحذراً من الله عز وجل نعمة وأي نعمة، نقولها ولا ننس عجزنا وضعفنا وذلنا وأن نقول: اللهم إنا نسألك أن تملأُ أفئدتنا بالخوف منك دون مصيبةٍ تسوقنا إلى ذلك.

أجل.. هذه تربيةٌ من عظيم تربية الله سبحانه وتعالى لعباده، لأن الله علم أن عباده يُبتلون بالنسيان، يبتلون بالسُكر بنعيم الشهوات والأهواء، فكان لا بد أن يطوف بهم طائف المصائب بين حينٍ وآخر. ولكن هل تعلمون ما هي المصيبة العظمى أيها الأخوة؟ المصيبة العظمى التي هي أفدح من كل مصيبة أن تطرق أبوابنا المصائب واحدةً إثر أخرى، ومع ذلك فلا تتحرك منا الأفئدة ولا القلوب، المصيبة العظمى أن يطرق بابنا الموت ومع ذلك فتبقى قلوبنا قاسية كالحجارة بل أشد قسوة وتبقى نفوسنا معرضة عن الله سبحانه وتعالى؛ لا النعم تسوقنا بالحب إلى الله ولا المصائب تسوقنا بسياق الخوف للعودة إلى الله سبحانه وتعالى، تلك هي المصيبة التي لا علاج لها والداء الذي لا دواء له.

عندما جئت إلى هذا المسجد مع الأذان الآن، رأيت ثلةً من الناس واقفين جامدين لا حراك بهم أمام بابِ هذا المسجد، فيم يقفون والمؤذن يدعو؟ ونداء الله ينادي؟ دخلت وإذا بجنازة تنتظر من يصلي عليها، عرفت السبب وعدت لأنظر بخيالي لصورة ما رأيت في عمري أشنع منها ولا أبشع، ما رأيت بحياتي منظراً يبعث على الاشمئزاز ويبعث على الخوف من غضب الله أشد من هذا؛ أناسٌ جاؤوا مع جنازة مع إنسانٍ قضى نحبه ورحل من هذه الدنيا إلى الله، حتى إذا أوصلوها إلى المسجد تركوها تدخل ووقفوا جاثمين كأنهم أصنامٌ وتماثيل. ترى أهو احتجاج على الله لأن الله سبحانه وتعالى ابتلى قريباً أو صديقاً لهم بمصيبة الموت؟! أم هو استكبارٌ على الله يقول بلسان الحال: نحن جاثمون على ما نحن عليه سواءٌ أكرمتنا

بالنعم أو ابتليتنا بالمصائب؟! تلك هي حالنا آلينا على أنفسنا ألا نخطو خطوة إلى الله، وألا نصلح حالنا، سواءٌ رأينا أمامنا مذكرات النعم أم رأينا أمامنا أخطار المصائب.

كيف يكون فؤاد الإنسان من القسوة على هذه الشاكلة كيف؟ والذي أعلمه أنه لا يمكن أن يجد الإنسان مهما كان بعيداً عن الله مهما كان مدفوناً في قبر الشهوات والأهواء، لا يمكن أن يجد شيئاً يوقظه من رقاده ويحرره من قبر شهواته وأهوائه ويعيده إلى الله ليصطلح معه كعادية الموت، عندما تراها عيناه. ولكن ولكن الأمر كما قال الله عز وجل: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

أيها الإخوة.. (مقام الخوف) دواء واحد لا يمكن أن ينقذنا أو يصلح حالنا غيره، هو أن نقف أمام محراب هاتين الفقرتين: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ وأمام قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فإذا تأملنا وتدبرنا وقد آمنا بالله عز وجل وآمنا برحلتنا أو رحيلنا عن هذه الدنيا، فلسوف تفيض أفئدتنا مخافةً من الله، وإذا فاضت أفئدتنا مخافةً من الله، فلسوف نستهين بالقليل ولسوف نعظم الجليل، لسوف نستهين بالدنيا لن نخضع بها لن يستطيع أحدٌ أن يحجبنا عن الله بمخاوف دنيوية، سنؤدي ما طلبه الله منا ولسوف نجتاز إلى ذلك كل التضاريس مهما رأينا أن شهواتنا تتعارض مع أمر مولانا وربنا، فإن هذه الأفئدة التي تفيض بالخوف من الله عز وجل ستجعلنا نوكل هذه الشهوات والأهواء ولن تصدنا أو تحجبنا عن الله عز وجل.

عندما يجد هذا الإنسان المؤمن الخائف من الله أن ابنته بين أحد أمرين إما أن تلبي داعي الله فلا تظهر إلا كما أمر الله حجابها على رأسها تاج لا يمكن أن تفارقه إلا مع مفارقتها لهذه الحياة، أو أن تستجيب لشهواتها وأهوائها وأماني مستقبلها. عندما يجد ولي أمر الفتاة نفسه بين هذا وذاك ويعود إلى قلبه فيراه موجلاً من الخوف والحذر من الله عز وجل، فإن الدنيا كلها لا يمكن أن تصده عن تطبيق أمر الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْجَلابِيبِهِنَّ﴾.

ما قيمة الدنيا كلها إذا أدبرت عن هذا الأمر الإلهي إذا أعرضت عنه؟ ما قيمة الشهادة؟ ما قيمة المال؟ ما قيمة كل شيء؟ أُضحي بكل شيء في سبيل تنفيذ أمر الله الواضح الساطع الذي لا يمكن أن يرتاب به اثنان من المؤمنين قط. وعندما يتصرف الإنسان من منطلق خوفه من الله في أمن وطمأنينة وهدوء، فإن الله عز وجل يسخّر له الدنيا كلها، يسخر له أولئك الذين امتدت أيديهم أو حاولت أن تمتد إلى الحجاب الإسلامي ليمزقه؛ يسخر لهم أولئك الذين حاولوا أن يقصوه عن الله أو يقصوا ابنته عن الله سبحانه وتعالى. ولكن أين هم الذين وقفوا أمام هذه الآية المخيفة: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾. والله الذي لا إله إلا هو لو أن الإنسان وعى معنى هذه الآية، لما شعر بمعنى النعيم في حياته قط، ولأخذته غصة هذا الحذر من الله عز وجل إلى أن يلقى الله سبحانه وتعالى، ويطمئن إلى أنه من الناجين والآمنين.

اللهم إنا نسألك أن تملأ قلوبنا بالخوف منك. أقول قولي هذا وأستغفر الله.

١٤٧- وعد ووعيد | ٢٠٠٩/١٠/٠٢

يا ابن آدم إذا أردت أن تشهد صفات الرحمة والمغفرة والصفح والجود الآتية من الله عز وجل إليك، والتي تنسيك بطشه وعقابه، فانظر إلى ما يصل إليك من عند الله سبحانه وتعالى من سابغ نعمه وآلائه، وإذا أردت أن تشهد وعيده وبطشه وانتقامه وعذابه، فتأمل فيما يصل إلى الله سبحانه وتعالى منك.

تعالوا نتأمل في النعم التي تصلنا من عند الله سبحانه وتعالى. إن الإنسان –أياً كان– يسبح في يمٍّ متلاطمٍ لا شطآن له ولا قرار من نعم الله الكثيرة والوفيرة التي لا تُحْصَى، إن نظرت إلى العالم العلوي رأيت أنه عالم سخره الله بقضه وقضيضه لراحتك وحياتك أنت يا ابن آدم، الأفلاك تتحرك فيه لخدمتك، الشمس والقمر دائبان فيه من أجل توفير أسباب رغد العيش لحياتك، من أجل تقسيم الزمن الذي تتقلب فيه إلى سنوات فشهور فأيام وليالي فساعات.

وإن تأملت في الأرض التي تحتضنك رأيت أن الله سبحانه وتعالى قد جعلها مخزناً للكثير والوفير والمتنوع من رزقك واحتياجاتك المتنوعة، تأملت في ظاهر الأرض رأيتها تتفجر بأمر من الله عز وجل بأنواع شتى من النباتات، فيها من الألوان ما يُمَتِّعُ ناظريك، وفيها من الروائح العبقة ما يُمَتِّعُ أنفك، وفيها من الطعوم المتنوعة المختلفة ما يلتذ أكلك له، وفيها الرزق الوفير الذي وفَّرَهُ الله عز وجل لأنعامك.

وإن تأملت في الرياح الهابة من حولك فيما بين السماء والأرض وجدت مزيداً من النعم التي لا تُحْصَى، تنظر فتجد هذا الغلاف الجوي الذي أقامه الله عز وجل خادماً لحياتك، ساهراً على استمرار هذه الحياة، يدرأ عنك الشهب والنيازك والأجرام الملتهبة المختلفة، تتأمل في الرياح الهابة من حولك كل ذلك مسخر لك، تنقل السحب من هنا إلى هناك.

وهكذا تعود فتنظر إلى كيانك من فرقك إلى قدمك فماذا تجد؟ تجد جهازاً معقّداً عجيباً من أجزاء كثيرة متراكبة متآلفة كل جزء منها يسهر على رعايتك، كل جزء منها عاكف على خدمتك.

هذا ما تراه عندما تتأمل فيما يصل إليك من عند الله عز وجل، حقاً إن الإنسان عندما يتأمل في هذا الذي يصل إليه من عند الله عز وجل ينسى أنه ذو عقاب أيضاً، ينسى بطشه، ينسى انتقامه، ينسى وعيده، كل ذلك يُطْوَى من ذهنه بل من ناظريه أمام هذا اليَمِّ المتلاطم من نعم الله التي لا تُحْصَى، وحسبكم من ذلك قوله عز وجل: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [ابراهيم: ٣٤]، ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ [الاسراء: ٧٠].

وأما إذا نظرت يا ابن آدم إلى ما يرقى إلى الله منك فماذا تجد؟ تجد ما ينسيك رحمة الله عز وجل وفضله ونعمه، تجد ما يضعك وجهاً لوجه أمام وعيد الله وبطشه.

أسجَدَ الله سبحانه وتعالى لك يا ابن آدم ملائكته، وطرد في سبيلك الشيطان الذي استكبر عليك، طرده من جنانه ورحمته، ثم أوصاك هذا الإله الذي أكرمك هذا الإكرام بأن تصغي إلى تعاليمه، وأن تحقق ما به سعادتك، وحذّرك من وساوس عدوك هذا الذي طرده الله عز وجل من أجلك من جنته، فماذا فعلت؟ وضعْتَ وصايا الله عز وجل وراءك ظهرياً، واتبعْتَ وساوس عدوك، اتبعْتَ وساوس هذا الشيطان واتخذته ولياً لك من دون الله.

تأمل يا أيها الإنسان في هذا العتاب الرقيق من الله ألا يدعوك إلى الخجل الذي يذيب إنسانيتك؟ ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾ [الكهف: ٥٠]، ألا يخجلك هذا.

عندما تتأمل في العدو الذي حذّرك الله عز وجل من الخضوع له، هو عدوه وعدوك، هذا الذي تراه في صورة إنسان، وهو في داخله وكيانه الداخلي وحشٌ مستكبر على الله عز وجل، وأنا لا أقصد هنا شياطين الجن، وإنما أقصد الكثرة الكاثرة من شياطين الإنس، حذّرك الله سبحانه وتعالى من كثيرٍ من الطائفة التي ملأ بيانه الرباني من الحديث عنها، ومن بيان خيانتها، ومن بيان سوئها، وكم وكم حدّثك

عن النعم التي أغدقها الله عز وجل عليها، ثم إنها استكبرت على الله وسكرت بنعمه، إنها تلك الفئة التي قال عنها: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرائيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ٧٨].

أجل حذرك الله عز وجل من أن تتخذ من عدوك وعدوه ولياً، وأمرك بأن تكون ساهراً على حقوقك، وعلى حقوق الله عز وجل في عنقك، وعلى الأوطان التي متعك بها، وعلى المقدسات التي أقامك الله عز وجل حارساً عليها، فماذا صنعت؟ أعرضت عن هذا الذي وصاك الله عز وجل به، وتخاذلت أمام عدوك وعدوه، يقول لك في بيانه الذي يلاحقك به: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨]، ويقول لك: ﴿إِلاّ تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التوبة: ٣٩].

فماذا صنعنا؟ أعرضنا عن هذا البيان، أعرضنا عن هذه الوصايا، ثم أعرضنا عن هذا التحذير، وبدلاً من أن نلبي أمر الله فنكون صفاً واحداً ننتصر لدين الله سبحانه وتعالى كما أمر، ونقف في وجه هذا العدو كما أوصى، بدلاً من أن نفعل ذلك لجأنا إلى التخاذل، لجأنا إلى التخاصم، لجأنا إلى التفرق، واستشرى العدو وفعل كل ما قد طاب له، وها هو ذا يقتحم بيت المقدس كما تعلمون، وها هو يُقَتِّل من شاء أن يُقَتِّلَهُم، وها هي ذي وعيده بل غطرسته التي يواجه العالم الإسلامي أجمع بها لا تتناهى قط.

ما موقف المسلمين الذين شرفهم الله بنعمه التي حدثتكم عنها؟ الذين شرّفهم الله سبحانه وتعالى ببيانه الذي يخاطبهم به: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧]، ﴿إِلاّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ [التوبة: ٤٠] ولكن الله عز وجل شرَّفَنَا بهذه المهمة، وهو ليس بحاجة إلينا، شرَّفَنَا بأن نكون حراساً للقيم، حراساً للمقدسات، حراساً لحقوقنا، لأوطاننا، فماذا صنعنا؟ أعرضنا عن هذا الذي أوصانا الله عز وجل به، وكما اتخذنا من الشيطان الجني ولياً لنا من دون الله اتخذنا من هذا العدو ولياً لنا من دون الله عز وجل، أجل ولو لم نكن قد أعلنا ذلك، لا أدلَّ على ذلك من التخاذل، من التخاصم، لا أدل على ذلك من هذا الذي تعرفون مما يضيق الوقت عن ذكره والخوض في تفصيله.

حذّرَنَا البيان الإلهي من أن نركن إلى الدنيا وقال لنا: ﴿إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ﴾ [غافر: ٣٩]، وقال لنا: ﴿وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣]، ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلادِ﴾ [الحديد: ٢٠]، إلى آخر الآية، ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾ [الكهف: ٤٥]، وأنبأنا أن المقر هناك، يا بني آدم لا تتخذوا من الممر مقراً، ولا تضعوا المقر وراءكم ظهيراً، أنتم راحلون من هذه الحياة الدنيا، فماذا صنعنا؟ عانقْنَا زهرة الحياة الدنيا على خلاف ما أمر، جعلنا من الدنيا سكراً، اعتصرنا الدنيا بكل ما تعرفون من مزاياها سَكَراً لنا حَجَبَنَا عن وصايا الله، حَجَبَنَا عن الشرف الذي متَّعَنَا الله سبحانه وتعالى به.

هذا ما يَفِدُ إلى الله منا، فما الذي يُذَكِّركم هذا الذي أقول؟ إنه لا يُذَكِّرُنَا إلا ببطشه، لا يذكرنا إلا بعقابه، لا يذكرنا إلا بوعيده.

يا عباد الله، ألا لا يقولن واحد فيكم: أما أنا فلم أتخذ من الشيطان ولياً، لقد نَفَّذْتُ أوامر الله كلها، وأديت حقوق الله في عنقي.. حتى الرسل والأنبياء ما قالوا هذا الكلام، ما ادعوا هذه الدعوى العريضة قط، وصدق الله القائل: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً﴾ [فاطر: ٤٥]، أنت أديت حقوق الله؟! أديت حقوق عينيك؟! أديت حقوق هذه الحياة التي تتمتع بها؟! أديت حقوق أنفاسك الصاعدة والهابطة؟! من هذا الذي يستطيع أن يقول: إنني لم أقصر في جنب الله سبحانه وتعالى؟! لا الرسل ولا الأنبياء ولا الربانيون من عباد الله سبحانه وتعالى قالوا هذا الكلام.

والآن ما الموقف الذي يجب أن يتخذه الإنسان المؤمن بالله عز وجل؟ هل ينبغي أن يركن إلى الصورة التي تذكّرنا بفضل الله ورحمته؟ هل ينبغي أن نركن إلى ما يصلنا من عند الله؟ أم ينبغي أن نركن إلى ما يرتقي إلى الله من عندنا.

أما الباري سبحانه وتعالى فقد ربانا على أن نمزج هاتين الحالتين الواحدة منهما بالأخرى، وأن نكون بين الرجاء والخوف وصدق الله القائل: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً﴾ [الانبياء: ٩٠] أجل هكذا يقول الله عز

وجل: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [السجدة: ١٦]، فلنكن على هذا المنوال، تشدنا الآمال برحمة الله آناً، وتخيفنا مظاهر وعيد الله وبطشه بسبب سوء فعالنا آناً آخر.

هكذا ينبغي أن يكون الإنسان ما دام يتمتع بالحياة الرغيدة والقوة والقدرة على الحركة وتنفيذ أوامر الله، فإذا غاضت من كيان الإنسان قواه، وإذا انقضى عهد القوة والنشاط من كيانه، ووجد نفسه متمدداً على فراش الموت، وشم رائحة الموت تزكم أنفه، فلينسَ الخوف والبطش، فلينسَ الوعيد، وليتذكر وعد الله، وليتذكر رحمة الله سبحانه وتعالىن وليقل إن بلسان قوله أو بلسان حاله: ها أنا أفد إليك يا ربي ضعيفاً كما قد ولدت ضعيفاً، ها أنا أفد إليك لا أملك حولاً ولا قوة، لا أملك طاقة، هكذا خلقتني وهكذا أفد إليك فارحمني بضعفي، لا تؤاخذني بسوء فعالي. هكذا ينبغي أن يكون مآل الإنسان.

ولكني أعود فأقول لكم: هذا الواجب الذي يأمرنا الله عز وجل به؛ ردع العدو الذي نَهَبَ الأرض، وسيطر على الحقوق، واغتصب الوطن، وها هو ذا يتوعد المؤمنين والمسلمين في العالم كله بأن يستلب منهم بيت المقدس الذي شرفه الله بمعجزة المعراج والإسراء اللتين أكرم بهما الله رسوله محمداً صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

فيا عباد الله اتفقوا، يا عباد الله كفاكم تخاذلاً، يا عباد الله أجمعوا أمركم ثم ائتوا صفاً، ونفذوا أمر الله سبحانه وتعالى الذي شرفكم به، إن لم تفعلوا ذلك فلتعلموا أنكم أمام وعيد الله الذي سينفذ في الدنيا قبل الآخرة ﴿إِلاّ تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التوبة: ٣٩].

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم

١٤٨- المرشد الرباني .. صفاته؟ وأهميته؟ | ٢٠٠٠/١١/٢٤

لا شك أن الله عز وجل أكرم هذه الأمة في هذا العصر بصحوةٍ إيمانيةٍ وإسلامية، وما من شكٍ في أنا نجد مظاهرها وآثارها لا في عالمنا العربي والإسلامي فقط بل نجد مظاهرها ممتدة إلى العا لم الغربي أيضاً، ولكن ينبغي أن نعلم أيضاً أننا لم نجن شيئاً من نتائج هذه الصحوة الإسلامية إلى اليوم، ولعل في الناس من يحار فيما يتخذه من موقف وفيما ينبغي أن يعود به من علم، أفنحن نعيش مرحلة صحوة إسلامية حقيقية إذاً ينبغي أن نجد شيئاً من آثارها وثمارها، أم إننا نعيش مرحلة تخلفٍ إسلامي ومن ثم فإننا نجد مزيداً من الاختلافات، مزيداً من المفارقات والمناقضات على مسرح العمل الإسلامي.

أقول لكم أيها الإخوة: ليس في الأمر ما يقتضي حيرةً قط، أما الصحوة الإيمانية والإسلامية موجودة، ولكن آفة هذه الصحوة أنه يعوزها المرشد الموجه، الصحوة الإيمانية موجودة ولكنها تحتاج إلى مرشدين ربانيين. بمقدار ما نتمتع بهذه الصحوة نفتقر إلى وجود هذا المرشد الديني. وأقول نحتاج إلى المرشد الرباني، ولاحظوا هذا القيد الذي أذكره؛ ذلك لأن كلمة المرشد وحدها قد أُفرغت من معناها اليوم، كانت كلمة المرشد في صدر الإسلام تعني ذلك الوريث للنبوة، تعني ذلك الذي حل محل النبوة وإن لم يكن يوحى إليه، إذ الوحي ينقطع بل انقطع بلحوق رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى. لكننا إذا قلنا مرشد فإن هذه الكلمة إنما تنحط على ذلك الذي ورث من رسول الله صلى الله عليه وسلم أخلاقه، ورث منه حرقته وإخلاصه، ورث منه القبس النوراني المتوهج في حنايا قلبه، ورث منه صلته العامرة بالله سبحانه وتعالى، ثم إنه ورث منه المعارف الدقيقة المتوازنة لأحكام الشريعة الإسلامية.

كلمة المرشد اليوم موجودة وربما سمعت أن فلاناً من الناس هو المرشد لجماعةٍ إسلامية معينة، لكنك تنظر فتجد أن هذه الكلمة تعني عملاً إدارياً وتعني رسم خططٍ اجتماعية سياسيةٍ تدعوه إلى أن يسير من هنا إلى هنا.

نحن ننظر إلى مسرح حركاتنا الإسلامية وتوجهاتنا الدينية وصحوتنا الإسلامية والإيمانية ونبحث في هذا المسرح عن مرشدٍ بالمعنى الذي ذكرته لكم فلا نجد، وإلام يؤول حال أمةٍ شعرت بجوعها الإيماني، شعرت بظمأها إلى الدين وأخذت تلتفت يمنة ويسرة لتبحث عن المعين الذي تروي به ظمأها ولكنها لم تجد الدليل، لم تجد المرشد – ذلك المرشد الرباني كما قلت لكم – الذي يدلها على الطريق الموصل إلى الينبوع، الذي يدلها على المعين.

لا بد لأمة تبحث ثم تبحث فلم تعثر على الدليل، فلا بد أن تتخبط ولابد أن ينقلها التخبط إلى الاختلافات وإلى المتاهات وإلى السبل المتعرجة التي حذر الله عز وجل منها إذ قال في محكم تبيانه: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

من الذي يفرق بين السبيل العريضة التي تمثل صراط الله والسبل المتعرجة؟ من الذي يأمرني بالسير على هذا السيل العريض ويحذرني من تلك السبل المتعرجة؟

المرشدون أيها الإخوة، ومرة أخرى أقول لكم المرشدون الربانيون الذين تستطيعون أن تجدوا في مرآة قلوبهم ونفوسهم سيما رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم. مجتمعاتنا فارغة من هؤلاء المرشدين وأهمية المرشد أهمية كبرى أيها الإخوة. إياكم أن تزدروها أو أن تستخفوا بشأنها.

شأن المرشد في المجتمع الإسلامي كشأن مقود السيارة الذي يكون بيد قائد هذه السيارة، كما أن المقود يضمن لك التوازن في السير ما بين يمين متطرف وشمالٍ قد تنزلق منه إلى هاوية، فكذلك المرشد هو الذي يوجد في حياة المسلمين التوازن بين الجواذب المختلفة التي قد تتراءى لنا عن يمين المجتمعات ويسارها، ليس المهم في حياة الإنسان أن يرفع لواء الإسلام فوق رأسه عالياً، إنما المهم إذا رأى المظاهر المتناقضة وحار فيما بينها أن يُلهم رشده وأن يعلم كيف يسير وكيف يتجه. وأين هو السبيل الذي أمر الله سبحانه وتعالى باتباعه.

نحن أيها الإخوة نعيش اليوم بين أمواج متلاطمة موجة تأتي عن يمينك وأخرى عن يسارك، وربما رأيت هذه الأمواج ملونةً في كثيرٍ من الأحيان بلون الإسلام بلون الهداية فلا تعلم أيها اللون الحقيقي

وأيها اللون المزيف، وهكذا يقع الناس من جراء ذلك في متاهات يتخبطون، ذلك لأن القائد المرشد غائب، ربان السفينة غائب.

هذه الحقيقة ينبغي أن نتمثلها، والشيء الذي يؤلم ويؤسف أن هذا المعنى الذي يتمثل في شخص المرشد الرباني ما أكثر من يستخف به بهذا العصر. عمل المرشد يبدأ بالقلب يبدأ بحنايا الفؤاد يبدأ بحرقة إيمانية موصولةٍ بعرش الله سبحانه وتعالى. هذه الحرقة الإيمانية لا تتم إلا على وقود دائمٍ متكررٍ متجدد من ذكر الله من مراقبة الله من الخوف من الله من الإكثار من التبتل من الإكثار من العبادة كما كان عليه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وإنكم لتعلمون أنه حتى رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحتاج إلى أن يذكره مولاه بين الحين والآخر أن لا يشرد عن هذا الطريق، أن لا يلتفت يميناً ويساراً إلى البوارق التي قد يرى أنه إذا اتبعها عاد بفائدة إلى الإسلام والمسلمين ويأتيه بيان الله قائلاً: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾

أرأيتم إلى هذا الكلام الرباني، هؤلاء الذين يدعو الله رسوله إلى أن يصير معهم وأن يركن إليهم وأن يعتز بجلوسه فيما بينهم هم الذين يسميهم بعض الناس اليوم بالدراويش، هم الذين إذا رآهم بعض الناس يقولون إن ديننا ليس فيه دروشة؛ أجل انظروا إلى التيه الذي وقعنا فيه، وانظروا إلى ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وكيف كان يعلم ويرشد.

المرشد أيها الإخوة هو الذي يضعك أمام النهج المتوازن، هو الذي يقول لك: ينبغي إذا سرت على نهج الدعوة إلى الله عز وجل أن تكون أنت المستقل بتسيير نفسك وأن لا تكون أداة في جهاز لا تعلم من الذي يحركه. تنظر إلى نفسك كأداة صغيرة في جهاز كبير وكبير تجد نفسك تتحرك باسم الاسلام وتجد نفسك تتزيى بزي الاسلام وتتكلم عن الإسلام، لكن ليس هذا هو المهم، المهم أن تعلم أين موقعك من هذا الجهاز؟ من الذي يحرك هذا الجهاز كله من الذي يلفت نظري ونظرك إلى هذا المرشد الرباني؟

وأنا أضرب لكم مثلاً بدلاً من الأمثلة الكثيرة، إذا التفتنا إلى غرب عالمنا هذا إلى أوروبا أو إلى أمريكا سنجد أن في تلك المجتمعات كثيراً من المسلمين، وتنتظر إليهم فتجد أنهم يعتزون بأنهم يخدمون الإسلام وأنهم يشتغلون للإسلام وأنهم يتحركون ويذهبون ويجيؤون باسم الإسلام، لكن انظر إليهم بعين المرشد الرباني تأمل في حالهم تجد مثَله وهو في ذلك المجتمع المظلم كمثل إنسانٍ يركب سفينة عملاقة ضخمة جداً تبحر من الغرب إلى الشرق، لكن الرجل يركض فوق ظهر هذه السفينة من الشرق إلى الغرب ويزعم أنه يناقض سير هذه السفينة. ما قيمة أن أسير فوق ظهر السفينة من الشرق إلى الغرب إذا كانت السفينة العملاقة تتحرك بي وتستوعب حركتي متجهة من الغرب إلى الشرق.

هذا هو مثل كثيرٍ من المسلمين الذين يعيشون في ربوع أوروبا وأمريكا وهم يظنون أنهم يخدمون دين الله سبحانه وتعالى، ولو لفت أحدهم نظره إلى وضعه إلى أسرته إلى قلبه لرأى أنه ينتقل مبتعداً عن الإسلام رويداً رويداً، ولرأى أن قلبه يتحول شيئاً فشيئاً إلى وعاءٍ لألق الغرب وحضارته ومنهجه، ولرأى أن أسرته قد اصبغت بهذه الحقيقة كلها أيها الإخوة، ولكن لو وُجد مرشدٌ رباني لأمكن أن يكون كل واحد من هؤلاء الناس كعبد الرحمن الداخل.

أضرب لكم مثلاً، أحد الفضلاء قال لي بالأمس إنه كان ينظر إلى التلفاز ويتابع أخبار هذه الإنتخابات الأمريكية فرأى حشداً كبيراً من النساء والرجال عاكفون وعاكفات على هذا العد اليدوي، ونظر فوجد بين النساء فتاةً متحجبة، أُعجب هذا الأخ الفاضل أيما إعجاب وأخذ يحدثني حديث إنسانٍ لا يستطيع أن يعبر عن فرحته وسروره، وكأنه وقع على معينٍ يبشر بأن الغرب الأمريكي سينبثق الإسلام منه خلال أيام معدودات.

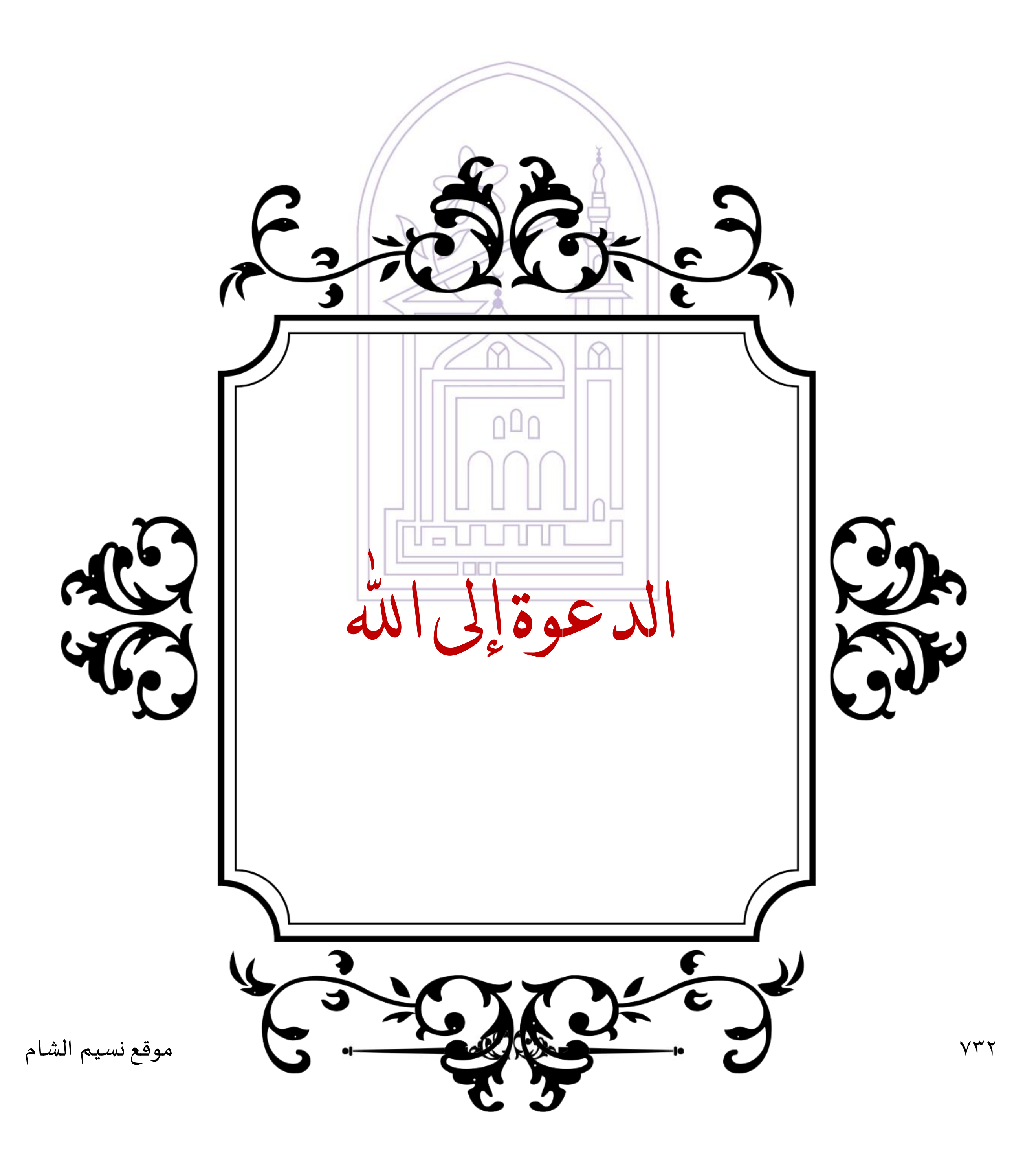
تأملت، نعم إنها فتاة متحجبة ولكنا نسينا أنها تعكف على خدمة من؟ لمصلحة ذلك العدو. أليس هذا مظهراً ينطبق عليه كل الإنطباق مثال ذاك الذي يتباهي بأنه يسير من الشرق إلى الغرب دون أن يتذكر أن السفينة العملاقة تخوض به غمار بحرٍ من الغرب إلى الشرق، الحركة المستوعبة حقيقة علمية ينبغي أن نتبينها أيها الإخوة.

الحجاب نعم جزء لا يتجزأ من الإسلام العظيم، لكن أرضية الحجاب ينبغي أن لا ننساها، المقود الذي ينبغي أن يقودنا ينبغي أن يكون حاضراً وموجوداً.

أعود فأقول لكم أيها الإخوة: مصيبتنا وآفتنا في هذا العالم الإسلامي اليوم أننا نحمد الله سبحانه وتعالى فيه على نعمة الصحوة، ولكننا بمقدار ما نشكره على نعمة الصحوة هذه نعاني من أزمةٍ خطيرة وخطيرة جداً ألا وهي أزمة فقد المرشد الرباني، لا أقول المرشد لكي لا تفهموا أنني أعني بالمرشد مرشد الجماعة الفلانية أو مرشد الجماعة الفلانية، لا هذه أسماء انحطت على مسميات جديدة، أنا أبتغي ذلك المرشد الرباني الذي تجدون تراجمهم في الرسالة القشيرية، تجدون تراجمهم في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه البررة الكرام، أنا أعني بالمرشدين الربانيين الذين يمثل كل واحد منهم حياة عبد الرحمن الداخل، أجل أرني ذلك المرشد الذي ينبثق الإيمان قبساً وهاجاً من قلبه يمثل حُرقة الإخلاص لله يمثل حُرقة الخوف من الله يمثل حرقة الحب لله، يمثل حرقة الحنين إلى الله سبحانه وتعالى أُرك كيف تجتمع نثار هذه الأمة الإسلامية بعد تفرق.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.





الدعوة إلى الله


منهج الدعوة

١٤٩- بين الدعوة إلى الله والرحمة بالناس: تلازم تام | ١٩٩١/١٠/٢٥

كانتِ الدّعوةُ إلى اللهِ سبحانهُ وتعالى بالحكمةِ والموعظةِ الحسنة. ولا تزالُ شعيرةً من أقدسِ شعائرِ هذا الدّين، وواجباً من أهمِّ الواجباتِ المنوطةِ بأعناقِ المسلمين. ولكنَّ هذا الواجبَ يتفاوتُ بينَ أن يكونَ واجباً كفائيّاً، وبينَ أن يكونَ واجباً عينيّاً يتعلّقُ بكلِّ فردٍ فردٍ على حدة. فإذا كانَ المسلمونَ مقبلينَ على اللهِ عزَّ وجلّ، وكانَ العلمُ هو المتغلِّبَ على الجهل، وكانتِ الرّعايةُ للإيمانِ والإسلامِ متوفّرةً على أحسنِ الأحوالِ، فإن واجب الدعوة إلى الله من الواجبات الكفائية.

أما إن سادَ في النّاسِ الإدبارُ عن الدّين، وتخلّى أكثرُ المسلمينَ عن رعايةِ إسلامهم ودينهم إن في بيوتهم، أو في مرافقهم ومؤسّساتهمُ العامّة. فإنَّ واجبَ الدّعوةِ إلى اللهِ سبحانهُ وتعالى يصبحُ من الفرائضِ العينيّةِ التي تتعلّقُ بعنقِ كلِّ إنسانٍ مسلم، على أن يدعوَ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ في نطاقِ ما يعلم، وضمنَ حدودِ ما يتقن، وأن لا يتجاوزَ الحدودَ التي يطيقُها. وما من مسلمٍ صادقٍ معَ اللهِ عزَّ وجلَّ ومعَ نفسهِ في إسلامهِ إلّا ولهُ حدودٌ يستطيعُ أن يتحرَّكَ في دائرتها، ويستطيعُ أن يدعوَ إلى اللهِ من خلالها، لا سيّما في آلهِ وأولادهِ وضمنَ داره.

ولعلّنا في هذا العصرِ نعيشُ الحالةَ الثّانية.. فالجهالةُ هي المتغلّبة، والإدبارُ عن دينِ اللهِ عزَّ وجلَّ في أكثرِ الأحيانِ هو السّائدُ وهوَ المتغلّب. ومن ثمَّ: فإنَّ الدّعوةَ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ لم تعد كما كانت بالأمسِ فرضاً كفائيّاً، بل أصبحَت من الفروضِ العينيّةِ الواجبةِ على كلِّ إنسان.

مثالُ ذلك: ما إذا شبَّ حريقٌ في مكانٍ ما، وكانت فرقُ الإطفاءِ قليلة، أو في إجازة، أو لم تكن تبالي بهذا الأمرِ وخطورته. فلا شكَّ أنَّ واجبَ القيامِ والنّهوضِ لإطفاءِ هذا الحريقِ يتعلّقُ بالنّاسِ جميعاً، كلٌّ منهم على قدرِ استطاعته. وحريقُ الجهالةِ والإدبارِ عن الدّينِ وعن اللهِ عزَّ وجلَّ أخطرُ بكثيرٍ من هذا الحريقِ المادّيِّ الذي يقفُ مهما استشرى عندَ حدٍّ لا يتجاوزُه. ولعلّي قد قلتُ وأعدتُ القولَ في هذا الموضوعِ ذاتَ يوم، وأوضحتُ أنَّ على كلِّ مسلمٍ في هذا العصرِ أن يكونَ قائماً على حدودِ الله، حارساً لشريعتهِ وأوامرِهِ في النّقاطِ التي يتمكّنُ أن بها، ومهما ضاقَ هذا النّطاقُ فلن يضيقَ عن الدّارِ التي هوَ المهيمنُ عليها وهوَ المشرف.

وأكرّرُ القولَ وأُعيد: أنَّ هذا الواجبَ هو أقدسُ واجبٍ يتحمّلهُ اليومَ كلُّ مسلمٍ في عنقه. ذلك: لأنَّ الجهالةَ بدينِ اللهِ عزَّ وجلَّ قد استشرت، ولأنَّ المشاغلَ والعوائقَ والغوائلَ قد تكاثفت وكوّنت حجاباً صفيقاً بينَ النّاسِ وبينَ الدّينِ الذي خُلِقوا من أجله، بل بينَ النّاسِ وعقولهم.. فحيلَ بينهم وبينَ التّدبّر، والتّأمّلِ والتّفكّر، وحيلَ بينهم وبينَ النّظرِ في المآلِ الذي لا بدَّ لهم أن ينتهوا إليه. ومهما تلوتَ عليهم كتابَ اللهِ عزَّ وجلّ، فهوَ لا يعدو أن يكونَ كلماتٍ تطوفُ بأذهانهم، ولكنَّ شيئاً من نورِ هذهِ الكلماتِ لا يتسرّبُ إلى أفئدتهم.

ولكنَّ الدّعوةَ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ لها آفاتٌ أيُّها الإخوة، ويجبُ على المسلمِ أيّاً كانَ إذا أرادَ أن ينهضَ ولو بقسطٍ من واجبِ الدّعوةِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ إن في دُويرةِ أهله، وإن في مجتمعٍ أوسعَ من ذلك، ينبغي أن يتّقيَ هذهِ الآفات.

والآفاتُ التي يواجهُها الدّاعي إلى اللهِ كثيرة ولا مجالَ للحديثِ عنها في هذا المقام، ولكنّي أشيرُ اليومَ إلى آفةٍ خطرةٍ منها ما أكثرَ ما نعاني منها، وما أكثرَ ما تسرّبت هذهِ الآفةُ فكوّنت داءً عُضالاً في شخصِ الدّعاةِ إلى الله، فكانَ من واجبهم أن يرجعوا إلى أنفسهم فيطبّبوها من هذهِ الآفةِ قبلَ أن يدخلوا في معتركِ الدّعوةِ إلى اللهِ سبحانهُ وتعالى، واستعدادُ الدّاعي إلى اللهِ جزءٌ من أجزاءِ الدّعوة كما أنَّ الوضوءَ جزءٌ من أجزاءِ الصّلاةِ كما قالَ كثيرٌ من الفقهاء. ما هيَ هذهِ الآفة؟

كثيراً ما ينظرُ الدّاعي إلى اللهِ عزَّ وجلَّ إلى المجتمعِ الذي هوَ فيهِ نظرةَ طبيبٍ إلى مجموعةٍ من المرضى وقعوا في براثنِ الهلاكِ واستيأسَ هذا الطّبيبُ من معالجتهم ومن عودهم إلى العافيةِ والصّحّة. فهوَ ينظرُ إليهم نظرَ اليائس، ويعالجهم معالجةَ من يريدُ فقط أن ينفِّذَ أمراً وُكِلَ إليه، ولكنّهُ لا يرجوا فائدةً من وراءِ عمله، بل هو ينظرُ إليهم وكأنَّ الموتَ قد حاقَ بهم، وكأنَّ المرضَ العُضالَ قد استحكمَ بهم، وكأنَّ الدّواءَ لم يعد ناجعاً فيهم. كثيرٌ من الدّعاةِ ينظرونَ إلى النّاسِ اليومَ -بمجملهم- هذه النّظرة.

ولا شكَّ أنَّ هذا التّصوُّرَ تصوّرٌ خاطئ، ولا شكَّ أنَّ الدّاعيَ إذا نظرَ إلى عبادِ اللهِ عزَّ وجلَّ في أيِّ حالٍ كان، وفي أيِّ عصرٍ من العصورِ وُجِدوا. إذا نظرَ إليهم هذهِ النّظرةَ فقد خالفَ أمرَ رسولِ الله، وقد خالفَ شرعَ اللهِ عزَّ وجلّ، وخالفَ مقتضى ما هوَ مرسومٌ في كتابِ اللهِ سبحانهُ وتعالى.

ولقد صحَّ عن المصطفى صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قوله: ﴿من قالَ: هلكَ النّاس، فهوَ أوّلهم هلاكاً﴾. أي من كانَ ينظرُ إلى النّاسِ من خلالِ سعيهِ للدّعوةِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ بينهم، وقد وقرَ في نفسهِ أنّهم جميعاً هالكونَ لأنّهم جميعاً بعيدونَ عن دينِ اللهِ عزَّ وجلّ، فليعلم أنّهُ في رأسِ هذهِ القائمةِ التي يتصوّرُها. ﴿هوَ أوّلهم هلاكاً﴾.

وقد رُويَ عن رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنّهُ قال: ﴿أمّتي كالمطر، لا يُدرى أوّلُها خيرٌ أم آخرُها خير﴾. وإنّما قالَ رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ هذا الكلامَ حتّى لا ينظرَ المسلمُ أيّاً كانَ -المسلمونَ عامّةً والدّعاةُ خاصّةً- إلى إخوانهم في أيِّ عصرٍ من العصورِ إلا نظرةَ من يتأمّلُ فيهم خيراً، ومن يرجو منهم إقبالاً إلى اللهِ عزَّ وجلّ، ومن ينظرُ إليهم على أنَّ بينهم وبينَ الهدايةِ اتفاتةٌ واحدةٌ بسيطة. هذا أسلوبٌ من أساليبِ التّربيةِ النّبويّة، يعلِّمُنا إيّاها سيّدُنا رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم.

وقد صحَّ عنهُ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أيضاً أنّهُ قال: ﴿لا تزالُ طائفةٌ من أمّتي ظاهرينَ على الحقِّ لا يضرُّهم من خالفهم حتّى يأتي أمرُ اللهِ وهم ظاهرون﴾.

وما أَمَرَنا اللهُ سبحانهُ وتعالى في كتابهِ بالدّعوة، إلا وأمرَنا أن تكونَ هذهِ الدّعوةُ مضمّخةً بالأمل، مقرونةً بالتّقدير، مقرونةً بافتراضِ أنَّ المدعوَّ أفضلُ من الدّاعي إلى اللهِ سبحانهُ وتعالى.

وانظروا إلى معنى قولِ اللهِ عزَّ وجلّ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾. هذهِ الرّحمةُ جعلها اللهُ سبحانهُ وتعالى زاد نبيِّهِ سيِّدِنا محمَّدٍ عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ في طريقِ دعوةِ أولئكَ الذينَ كانوا مظهراً لكفرِ الجاهليّة، أولئكَ الذينَ كانوا صورةً لظُلُماتِ الكفرِ والشّكِّ والوثنيّة. ومع ذلكَ فقد ملأَ اللهُ عزَّ وجلَّ صدرَ نبيِّهِ عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ بالرّحمةِ لهم، بل ملأ قلبهُ بالأملِ المتعلِّقِ بهم، ومن هذا المُنطَلَقِ دعا، وبهذا السِّرِّ نجحت دعوته. ولو أنَ المصطفى عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ دعاهم من خلالِ اليأسِ المتبرم، لو أنَّ النّبيَّ عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ دعاهم من خلالِ أملٍ مقطوعٍ بينهُ وبينهم، إذاً لما كان لكلماتهِ أيُّ تأثيرٍ في نفوسهم. وهذا معنى قوله: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾.

فإذا كانَ هذا منهجَ الدّعوةِ الرّبّانيّةِ في عصرِ الشّركِ وأيّامَ ظُلُماته، فكيفَ ينبغي أن يكونَ هذا المنهجُ في عصرٍ النّاسُ كلُّهم مستأنسونَ بدينِ الله، يعرفونَ عبوديّتهم لله، ولكنَّ الشّهواتِ والأهواءَ هي التي حالت بينهم وبينَ الاصطلاحِ مع اللهِ عزَّ وجلَّ، وما أكثرَ ما تتلوَّنُ هذهِ الشّهواتُ بألوانٍ عدّة، وما أكثرَ ما تأخذُ ترجماتٍ وتعبيراتٍ متنوّعةً مختلفة، ولكنَّ جذورَها واحدٌ على كلِّ حال، هو الشّهواتُ والأهواء.

إذاً فيجبُ على الدّعاةِ أياً كانوا إذا دعوا إلى اللهِ عزَّ وجلَّ أن لا يتصوروا أن هؤلاءِ النّاسِ مهما كانوا جانحينَ عن صراطِ الله، ما ينبغي أن يتصوّروهم وقد وُضعوا في سجنٍ أُغلق بابهُ بأقفالٍ كثيرةٍ فلا أملَ من خروجهم إلى ساحةِ الإيمانِ وإلى صعيدِ الهدايةِ وفهمِ دينِ اللهِ سبحانهُ وتعالى، بل إنَ من تصوّرَ الأمرَ على هذا النّحوِ فليعلم أنّهُ هو السّجينُ في هذا السّجن. ورُبَّ سجينٍ يظنُّ نفسهُ طليقاً، ورُبَّ سجينٍ هو اليومَ سجينٌ ولكنّهُ غداً سيكونُ طليقاً، ولسوفَ يتبوَّءُ مركزاً يرضي اللهَ سبحانهُ وتعالى ويسعدُه. هذا ما ينبغي على كلِّ مسلمٍ أن يعرِفهُ ويتصوّره.

هذا إذا كنّا نبتغي بالدّعوةِ إلى اللهِ مرضاةَ الله وإذا كانَ الدّافعُ لنا إلى هذهِ الدّعوةِ الإخلاصُ لدينِ اللهِ سبحانهُ وتعالى، هذا الإخلاصُ وهذهِ الغايةُ يجعلانِ كلّاً منّا تأمّلُ في النّاسِ جميعاً على شتّى مستوياتهم الخيرَ العميم، بينهم وبينَ الهدايةِ التفاتةٌ واحدة، بينهم وبينَ الهدايةِ حوارٌ قصير. إن كانَ هذا الحوارُ

مضمّخاً بالإخلاصِ لدينِ اللهِ سبحانهُ وتعالى؟ وأنا لا أقولُ لكم هذا الكلامَ من منطلقِ آدابٍ إسلاميّةٍ نظريّةٍ فقط، ولكنّي أقولهُ أيضاً من خلالِ تجربة، من خلالِ نظر، من خلالِ واقعٍ أعيشُ فيه.

ما أكثرَ الذينَ كنتُ أتصوّرُ أنّهم جانحونَ عن صراطِ اللهِ عزَّ وجلَّ جنوحاً أبعدهم عن الهدايةِ أيّما إبعاد، وزجّهم في مَضَايِقَ لا أملَ من الخروجِ منها.. ورأيتُ أنَّ كلمةً واحدة، حديثاً واحداً، حواراً قصيراً واحداً جعلهم ينتفضون، وجعلهم يستيقظونَ كالنّائمِ الذي كانَ يغطُّ في رقادٍ عميق، فما هيَ إلا حركةٌ وأخرى حتّى استيقظَ وهبَّ من سريره.

ما أكثرَ الذينَ لو أنّني تحدّثتُ عنهم لقيلَ لي من قِبَلِ أناسٍ كثيرينَ ممّن يهتمّونَ بالدّعوة: إنّهم ميؤوسٌ منهم، ولا أملَ من الدّعوةِ لهم، ولا أملَ من الحديثِ معهم.. وربّما استرسلوا في القولِ إلى ما وراءِ ذلك. ولكنّي وجدتُ بعيني كيفَ دخلتِ الهدايةُ أعماقَ قلوبهم، وكيفَ تسرّبَ اليقينُ باللهِ عزَّ وجلّ، وتربّعتِ المخافةُ من اللهِ عزَّ وجلَّ على عرشِ فؤادهم، ورأيتُ من يستوقفُني في الطّريقِ ممّن لو رآهُ أحدُ الدّعاةِ إلى اللهِ يبتعدُ عنهُ مسافةَ نصف كيلو لو استطاعَ من كثرةِ الظُّلماتِ التي رانت على قلبه، ومن كثيرةِ فسوقهِ وعصيانهِ. ما أكثرَ ما استوقَفَني واحدٌ من هؤلاءِ يسألُني عن سبيلِ العودةِ إلى الله، وعن طريقِ الصُّلحِ مع الله، وعن الدّواءِ النّاجعِ الذي ينبغي أن يأخذَ بهِ نفسهُ لكي لا يعودَ إلى ماضيهِ القذرِ السّيّء.

عندما أجدُ هؤلاءِ النّاسِ ينبغي أن أعلمَ أنَّ الواحدَ من هؤلاءِ ربّما كانَ خيراً منّي، و(ربّما) هنا للتّكثيرِ وليست للتّقليل. انظر إلى هذهِ التّجربةِ التي أراها بعيني، ثمَّ أتأمّلُ حالَ أولئكَ الذينَ إن دعوا إلى اللهِ عزَّ وجلَّ كما أمرَ الله، دَعَوهم، دَعَوا هؤلاءِ النّاسَ من أبراجهمُ العاجيّةِ الباسقةِ المرتفعة، كأنّهم يخاطبونهم وهم متعلّقونَ بالثّريّا، والنّاسُ الذينَ يكلّمونهم ملتصقونَ دونهم بالثّرى وترابه. متى يمكنُ لمثلِ هذا الكلامِ أن يؤثِّرَ في هؤلاءِ النّاس؟

هذهِ الدّعوةُ لا تفيدُ شيئاً، من استيأسَ من النّاسِ ينبغي أن يستيئِسَ من نفسهِ أوّلاً. ومن قالَ: النّاسُ هلكى فهو أوّلهم هلاكاً. ومن تصوّرَ أنَّ إنساناً ألحدَ باللهِ عزَّ وجلَّ لا فائدةَ من دعوتهِ إلى الله، فليعلم أنّهُ

واحدٌ ممّن قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ عنهم: ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾. وفي آيةٍ أخرى: ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُالْكَافِرُونَ﴾.

أسألُ اللهَ عزَّ وجلَّ أن يرزقَنا حسنَ الظّنِّ بعباده، وأن يرزقَنا معَ ذلكَ الغيرةَ على دينه، حتّى يجتمعَ لنا من هذا وذاكَ خيرُ مزيجٍ يسوقُنا إلى السّبيلِ الذي يرضي الله، نأمُرُ وندعوا من خلالِ الغيرةِ على دينِ الله، ونحسِّنُ الظّنَّ بعبادِ اللهِ عزَّ وجلّ، ونتصوّرُ أنَّ بينهم وبينَ الهدايةِ التفاتةٌ يسيرةٌ واحدة، وما أيسرَ أن تتحقَّقَ هذهِ الالتفاتة. أقولُ قولي هذا وأستغفرُ اللهَ العظيم...



١٥٠- أهمية تزكية النفوس.. وخاصة الدعاة | ١٩٩٢/٠١/٢٤

إنَّ الإنسانَ -كلُّ إنسانٍ- لهُ صورتانِ اثنتان: صورةٌ ظاهرةٌ جليّةٌ تتمثّلُ في خَلقهِ وأعمالهِ وسلوكهِ الظّاهرة، وصورةٌ باطنةٌ خفيّةٌ تتمثّلُ في طبائعهِ وسجاياهُ وخُلُقه. والإنسانُ يصلُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ بواسطةِ تحسينِ صورتهِ الباطنةِ أكثرَ ممّا يصلُ إلى مرضاةِ اللهِ عزَّ وجلَّ بواسطةِ تجميلِ صورتهِ الظّاهرة.

بل إنّنا لنعلمُ يقيناً أنَّ اللهَ سبحانهُ وتعالى ما ألزمَ عبادَهُ بالسّلوكِ المستقيمِ وباليقينِ القويمِ وبالمظهرِ الذي يرضي اللهَ والعبادَ إلا ليكونَ ذلكَ كلُّهُ خادماً لتقويمِ الصّورةِ الباطنة، ولجعلها على النّحوِ الذي يرضي اللهَ سبحانهُ وتعالى. فالعقائدُ الإسلاميّةُ التي شرّفنا اللهُ عزَّ وجلَّ بها، والعباداتُ التي كلَّفَنا بها، وأحكامُ المعاملاتِ التي دربَّنا ورَوَّضَنا عليها، كلُّ ذلكَ إنّما شَرَعَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ خادماً لترقيةِ هذهِ الصّورةِ الباطنة، أي الطّبائعِ والسّجايا والأخلاقِ الخفيّةِ في كيانِ الإنسان.

وانظروا عندما يوجزُ اللهُ سبحانهُ وتعالى سبيلَ سعادةِ الإنسانِ في هذهِ الحياةِ كيفَ يجمعُ هذا السّبيلَ في كلمةٍ واحدةٍ فيقول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾. وعندما يوجزُ البيانَ الذي يوضحُ نقيضَ ذلك، يجمعُ النّقيضَ أيضاً في كلمةٍ واحدةٍ فيقول: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾.

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ والضّميرُ عائدٌ إلى النّفسِ، أي إلى الصّورةِ الباطنةِ في كيانِ الإنسانِ، وكأنَّ الباريَ عزَّ وجلَّ يقول: إنَّ كلَّ ما شرعتهُ لكم يدورُ حولَ هذا الهدف: أن تزكّوا أنفسكم، وأن تطهّروا بواطنكم من الأدرانِ والرّذائل.

ولعلَّكم جميعاً قرأتم في كتابِ اللهِ سبحانهُ وتعالى الآياتِ التي تكرِّرُ وتؤَكِّدُ هذا المعنى الإجماليَّ لشرائعِ الإسلامِ المختلفةِ التي ابتعثَ اللهُ عزَّ وجلَّ بها الرُّسُلَ والأنبياء. ألم يعلِّم نبيَّهُ موسى عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ

كيفَ ينجزُ المهمّةَ التي بُعِثَ بها إلى فرعونَ عندما قالَ لهُ: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ، وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾؟ بدأَ فأوضحَ لهُ الهدف، والهدفُ يتمثَّلُ في كلمةٍ واحدةٍ ألا وهيَ تزكيةُ النّفس، أي إصلاحُ الباطل، أي السُّموُّ بالخُلُقِ الإنسانيِّ الخفيِّ الذي يفرز المعاملاتِ الظّاهرةِ المرضية عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ بينَ النّاسِ بعضهم مع بعض.

ولعلَّنا جميعاً عرفنا ثمَّ نسينا الكلامَ المتكرِّرَ الذي يقولهُ سيِّدُنا رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في هذا الصّدد، روى الإمامُ مالكٌ في موطَّئِهِ عن معاذَ بنِ جبلَ رضيَ اللهُ عنهُ أنّهُ قال: ﴿كانَ آخرُ ما أوصاني بهِ رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عندما وضعتُ قدمي في الغرز: أحسِن خُلُقَكَ للنّاسِ يا معاذَ بنَ جبل﴾. وقولهُ: عندما وضعتُ قدمي في الغرز: أي عندما وضعتُ قدمي في ركابِ راحلتي متوجّهاً إلى اليمنِ أو متوجّهاً إلى البحرين، آخرُ ما أوصاهُ بهِ رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وهوَ متّجهٌ إلى أناسٍ أكثرهم أو جلُّهم غيرُ مسلمين، آخرُ ما أوصاهُ به: ﴿يا معاذ بنَ جبل أحسن خُلُقَكَ للنّاس﴾.

ولعلَّكم سمعتم قولَ رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فيما رواهُ الحاكمُ في مستدركهِ وصحَّحهُ وغيرهُ أيضاً عن أبي هريرةَ رضيَ اللهُ تعالى عنه: ﴿إنَّكم لا تسعونَ النّاسَ بأموالكم﴾، وفي روايةٍ: ﴿لن تسعوا النّاسَ بأموالكم، فلتسعكم منهم بسطةُ الوجهِ وحسنُ الخُلُق﴾. وانظروا إلى كمةِ النّاسِ وعمومِها كيفَ شملتِ الجانحينَ عن الإسلامِ قبلَ المستقيمينَ على دينِ اللهِ سبحانهُ وتعالى. ولعلَّكم وقفتم على الحديثِ الصّحيحِ الذي يقولهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وهوَ من جوامعِ كلمِه: ﴿اتّقِ اللهَ حيثُما كنت، وأتبع السَّيِّئةَ الحسنةَ تمحُها، وخالِقِ النّاسَ بخُلُقٍ حسن﴾. ولعلَّكم عرفتم معنى قولهِ عليهِ الصّلاةُ والسّلام: ﴿إنّما بُعِثتُ لأتمِّمَ مكارمَ الأخلاق﴾. أي: حولَ هذا أدندن سواء علّمتكم العقائدَ الإسلاميّة، أو درّبتكم على العباداتِ الدّينيّة، أو نبّهتكم إلى المعاملاتِ التي ينبغي أن تسودَ فيما بينكم، كلُّ هذهِ الأحكامِ إنّما شرعها اللهُ عزَّ وجلَّ هادفةً إلى أن ترقى أخلاقكُم في التّعاملِ فيما بينكم إلى المستوى المَرْضِيِّ عندَ اللهِ سبحانهُ وتعالى.

وإذا أردنا أن نتجاوزَ هذهِ الوصايا والكلماتِ النّظريّةِ إن في كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ وإن في كلامِ سيِّدِنا رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم، فبوسعكم أن تروا تجسيدَ هذا الكلامِ النظريِّ في سلوكِ رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم. وإنّكم لتعلمونَ أنَّ الوقتَ يضيقُ عن الحديثِ عن سيرةِ رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم في هذا المضمار، وعن مشاهدِ حياتهِ التي تجعلُنا نقفُ مشدوهينَ أمامَ أخلاقٍ إنسانيّةٍ ساميةٍ إلى أعلى درجاتِ السّموّ، وحسبُكم أنَّ هذا الواقعَ قد توّجهُ تقريبُ ربِّ العالمينَ جلَّ جلالهُ ورسولِهِ محمَّدٍ عليهِ الصّلاةُ والسّلامِ عندما يقولُ له: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾.

ألا ما أحوجَنا يا عبادَ اللهِ إلى أن نستعيدَ هذهِ الحقائقَ التي كانت إلى الأمسِ الدّابرِ بدهيّةً في دينِنا، معلومةً لنا جميعاً، ولكن كأنّي بالمسلمينَ وقد نسُوها أو تناسَوها، فرحلوا عن هذهِ الوصايا التي أوصانا بها رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم، وظهرَ في سلوكهم بل ظهرَ في أسلوبِ دعوتهم إلى اللهِ سبحانهُ وتعالى ما يناقضُ سيرةَ المصطفى عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ في سلوكه، وما يناقضُ وصاياهُ في ألفاظهِ وأقواله، وما يختلفُ مع ما أمرَ بهِ اللهُ سبحانهُ وتعالى في محكمِ تبيانهِ وكتابه. وقد آلَ بنا الأمرُ إلى أن أصبحنا نمزجُ وبقدرةٍ خارقةٍ وبحيلةٍ متناهيةٍ في الحنقِ والدّراية، أصبحنا نستطيعُ أن نمزجَ بينَ مشاعرِ نفوسِنا وكراهيتِها وبينَ أسلوبِ الدّعوةِ إلى اللهِ عزَّ وجلّ، أصبحنا قادرينَ بدقّةٍ متناهيةٍ أن نمزجَ بينَ الغضبِ للهِ والغضبِ لأنفسِنا، ولقد كانَ من الواجبِ علينا أن نكونَ ماهرينَ في عكسِ ذلك، كانَ من الواجبِ علينا أن نكونَ مَهَرةً في وضعِ الحاجزِ الدّقيقِ بينَ الغضبِ للهِ سبحانهُ وتعالى والتّضحيةِ بالنّفس، نضحّي بأنفسِنا وحظوظِها، نضحّي برغباتِنا، نضحّي بأَثَرتِنا في سبيلِ مرضاةِ اللهِ عزَّ وجلّ، حتّى إذا رأينا أنَّ حدودَ اللهِ انتُهِكت غضِبنا لهذهِ الحدودِ التي تُنتَهَك، وفي الوقتِ ذاتهِ لم نتركِ المبدأَ الذي أمَرَنا بهِ اللهُ عزَّ وجلّ؛ ألا وهوَ حُسْنُ الخُلُق، ألا وهوَ صفاءُ السّريرة، حتّى نجعلَ من صفاءِ سريرتِنا قوّةً لانتصارِنا لحدودِ اللهِ سبحانهُ وتعالى.

أيُّها الإخوة: لقد قلتُ بالأمسِ وأقولُها اليوم: إنَّ أعداءَ دينِ اللهِ عزَّ وجلَّ حيثُما صوَّبنا بنظراتِنا عاكفونَ اليومَ على مهمّةٍ لا أحسبُ أنَّ لها مهمّةً ثانية، إنّهم يمسكونَ بريشةٍ يرسمونَ بها الإسلامَ على أنّهُ أمرٌ مخيف، وحشٌ ضارٍ، هوَ عدوُّ الحضارات، وعدوُّ المدنيّات، وعدوُّ كلِّ حرّيّة، ومن خلالِ ذلكَ يرسمونَ المسلمينَ أيضاً، إنّهم يصوّرونَ بريشتهمُ المليئةِ بأفانينِ الحقدِ والمكرِ والأكاذيب، يصوِّرونَ بريشتهم هذهِ واقعَ المسلمين ليجعلوا من هذا الواقعِ تعبيراً عن الإسلامِ ذاته، وليكونَ هذا وذاكَ كلّاً منهما دعماً للثّاني وليقولَ هذا المظهرُ أو لتقولَ هذهِ الصّورةُ: إنَّ الإسلامَ في مظهرِ هؤلاءِ المسلمينَ شيءٌ مخيفٌ في هذا العصر، شيءٌ مرعب، شيءٌ لا يتعاملُ إلا معَ الإرهاب، معَ التّهديمِ والتّحطيم. شيءٌ لا تعبِّرُ عنهُ كلماتٌ متجملة، ولكنَّ الذي يعبِّرُ عنهُ الأسنانُ التي تصتكُّ حقداً وألماً وكراهية، والصّورةُ كما تعلمونَ كاذبة، والعملُ كما تعلمونَ إنّما ينبثقُ من عداوةٍ تقليديّةٍ دفينةٍ لدينِ اللهِ سبحانهُ وتعالى.

وهنالكَ دافعٌ ثانويٌّ كما تعرفون: أنّنا نعيشُ وللهِ الحمدُ في عصرِ صحوةٍ إسلاميّةٍ حقيقيّةٍ تتمثَّلُ في بلادِ المسلمينَ في عودةِ المسلمينَ وانعطافهم إلى دينِ اللهِ يعانقونهُ بصدقٍ ووجلٍ وحبٍّ للهِ سبحانهُ وتعالى، وتتمثَّلُ هذهِ الصّحوةُ في بلادٍ كثيرةٍ غيرِ إسلاميّةٍ في إقبالِ أولئكَ النّاسِ إلى التّعرُّفِ على الإسلام، وإلى البحثِ عن حقيقته، لعلَّ فيهِ الأملَ الوحيدَ الذي تقاصرَ عنِ الآمالِ الأخرى والذي تحوَّلَ إلى يأسٍ خانق. هذهِ الصّحوةُ كيفَ يحاربُها أعداءُ الإسلام؟ يحاربُها بوضعِ هذهِ الصّورةِ البشعة، هذهِ الصّورةِ المخيفةُ لعلَّها تجهض هذهِ الصّحوةَ في بلادٍ غيرِ إسلاميّةٍ أوّلاً وفيما بينَ المسلمينَ لا سيّما لدى حكّامهم ثانياً، فما الذي ينبغي أن نعملهُ وقد عرفنا هذهِ الحقيقة؟

الذي ينبغي أن نقومَ بهِ بصمت، بسلوكٍ قبلَ قول، أن نظهِرَ الإسلامَ في واقعنا السّلوكيّ، وأن يستعلن هذا السّلوكَ الذي نسيرُ بهِ واقعاً صامداً، لا مع دعاوٍ وألفاظٍ وكلماتٍ رنّانة، بل سلوكاً فقط، لنجعل من إسلامنا السّلوكيِّ ما يجسِّدُ قولَ رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم: ﴿يا معاذ: أحسِن خُلُقَكَ للنّاس، إنّما بُعِثتُ لأتمِّمَ مكارمَ الأخلاق، إنّكم لن تسعوا النّاسَ بأموالكم، فلتسعكم منهم بسطةُ الوجهِ وحسنُ الخُلُق﴾. ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾. ينبغي

أن نجعلَ من سلوكِنا تجسيداً لوصايا ربِّنا جلَّ جلالهُ لنا، ولوصايا حبيبِنا محمَّدٍ عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ لنا، فإنِ التبست علينا السُّبُلُ فلنهتدِ بسلوكه، ولننظر إلى واقعه.

أيُّها الإخوة: المسلمونَ كلُّهم مدعوّونَ في هذا اليومِ إلى عملٍ يرضي اللهَ عزَّ وجلَّ يهدفُ إلى تمزيقِ هذهِ الصّورةِ القذرةِ التي يُصَوَّرُ من خلالِها الإسلامُ بريشةِ أولئكَ الحاقدينَ على دينِ اللهِ سبحانهُ وتعالى، وليسَ من سبيلٍ إلى ذلكَ إلا أن نبرهنَ على أنّنا نحنُ المسلمينَ لا نطمعُ بشيءٍ غيرِ مرضاةِ اللهِ عزَّ وجلّ، رأسُ مالِنا في الدّعوةِ الحُبّ؛ حبُّ اللهِ عزَّ وجلَّ ومن ثَمَّ حبُّ عبادِ اللهِ عزَّ وجلَّ جميعاً، نحنُ لا نبتغي من وراءِ ذلكَ تجارة، لا نبتغي من وراءِ ذلكَ مغنماً، لا نبتغي من وراءِ ذلكَ كراسيَّ حُكم، ولكنّنا نبتغي أن ننتشِلَ عبادَ اللهِ عزَّ وجلَّ من ظلُماتِ الجهالةِ ومن ظُلُماتِ الضّلالة، ونصعدَ بهم إلى عروش معرفةِ اللهِ سبحانهُ وتعالى ليتبوّؤوا السّعادةَ الدّنيويّةَ والسّعادةَ الأخرويَّةَ معاً.

كيفَ نبرهنُ على هذا؟ بسلوكِنا نبرهن لا بأقوالِنا، فإذا برهنَ المسلمونَ على هذا وأخلصوا دينهم للهِ عزَّ وجلَّ وفاضت أفئدتهم بما فاضَ بهِ فؤادُ رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ من حبٍّ لعبادِ الله، ومن غيرةٍ عليهم، ومن إشفاقٍ عليهم، ومن وضعهِ الدّنيا بكلِّ مظاهرها وبكلِّ زخارفِها ظهرياً ورائهم، هيمنت هذهِ الفئةُ الإسلاميّةُ على قلوبِ النّاس، وأورثهمُ اللهُ سبحانهُ وتعالى مقاليدَ هذهِ الأفئدةِ وهذا هو المهمّ، هذا هو السّبيلُ إلى كلِّ نصرٍ بعدَ ذلك، ولكن إن لم نستطِع أن نمزِّقَ هذهِ الصّورةَ التي تُرسَمُ للإسلامِ والمسلمين، فأخشى أن تعودَ جهودُنا كلُّها فاشلةً خائبةً لا تفيدُنا لا في دنيانا ولا في مآلِنا عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ شيئاً.

أسألُ اللهَ سبحانهُ وتعالى أن يُصلِحَ سرائرَنا قبلَ أن يُصلِحَ ظواهِرَنا، وأسألُ اللهَ عزَّ وجلَّ أن يقيَنا باطنَ الإثم، وأسألهُ سبحانهُ وتعالى أن يملأَ أفئدتنا بمحبّتهِ جلَّ جلاله، ثمَّ أن يجعلَ فيضَ هذهِ المحبّةِ حبّاً لعبادِ اللهِ وغيرةً عليهم وشفقةً عليهم، أقولُ قولي هذا وأستغفرُ اللهَ العظيم...

١٥١- ذكر الله يورث الأدب مع عباد الله | ١٩٩٢/١٠/٥٢

إنني لم أجد فيما بينه لنا الله عزَّ وجل في محكم تبيانه، وفيما أوضحه لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في هديه، دعوة إلى عبادة من العبادات كالدعوة إلى ذكر الله سبحانه وتعالى، ولم أجد في كتاب الله وفي سنة الرسول المصطفى صلى الله عليه وسلم، ما يدل على أهمية ذكر الله عزَّ وجل وتميزه عن سائر العبادات والطاعات الأخرى، ما رأيت شيئاً في كتاب الله عزَّ وجل ولا في سنة رسوله المصطفى صلى الله عليه وسلم أدل على أهمية الذكر وخطورته بين سائر العبادات والطاعات، وحسبنا من كلام المصطفى صلى الله عليه وسلم في ذلك قوله: ﴿الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه﴾، وإن أردنا أن نضيف إلى ذلك فحسبنا قول المصطفى صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي نقلاً عن ربه عزَّ وجل: ﴿أنا جليس من ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير من ملأه﴾.

وأقف قبل ذلك مع آيات في كتاب الله سبحانه وتعالى تلح على العبد المؤمن أن يكون ذاكراً الله عزَّ وجل في كل حال، انظروا إلى قول الله عزَّ وجل: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلاَ تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾، بل انظروا كيف يبين الباري سبحانه وتعالى أن للذكر، ذكر الله عزَّ وجل أثرين قد يبدوان متناقضين ولكن بينهما كمال التناسق فيقول مرة: ﴿أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾، ويقول في مكان آخر وهو يصف المسلمين الصادقين والمؤمنين السائرين على صراط الله بحق وصدق يقول عنهم ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ وأول الكلام ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، وذلك عندما نزلت آيات جواب عن سؤال سأله بعض الصحابة عن كيفية تقسيم الغنائم، فأنزل الله قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُواْ اللّهَ

وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ، إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

فانظروا كيف أوضح أن الذكر يبعث في القلب الاضطراب والوجل عندما ينبغي أن يكون القلب متصفاً بذلك، وأن الذكر في الوقت ذاته يبعث في القلب السكينة والطمأنينة عندما ينبغي أن يتصف القلب بذلك، أجل لم أجد دعوة إلى طاعة من الطاعات لا في القرآن ولا في السنة كالدعوة إلى الإكثار من ذكر الله سبحانه وتعالى، ولم أجد ما يدل على أن الذكر هو الدواء الناجع ضد الأدواء كلها التي قد تتسرب إلى كيان الإنسان وتتوضع في قلبه كما يقولون كذكر الله سبحانه وتعالى.

ومع هذا فأنا أنظر وأتأمل فأجد أن المسلمين اليوم في شغل شاغل عن ذكر الله عزَّ وجل، وأنا لا أتكلم عن التائهين ولا أتحدث عن الشاردين والفاسقين، وإنما أتكلم عن المقبلين على الله عزَّ وجل بحسب الظاهر، قد تجدهم يتلاقون ويتناقشون في قضايا الإسلام، وقد تجدهم يتجادلون في أحكام هذا الدين، وقد تجدهم يتحدثون عن آيات في كتاب الله يستخرجون منها المعاني والأحكام، وقد تجدونهم يتكلمون عن حياة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد تجدونهم يتحرقون على الأحكام الإسلامية والمجتمع الإسلام أين غاب ولماذا لا يعود؟، ولكن قلَّ ما تجد بين هؤلاء الناس من ينبض قلبه بذكر الله عزَّ وجل غالباً أو دائماً أو من يتعهد قلبه بورد دائم من ذكر الله سبحانه وتعالى.

ولما كان حال المسلمين اليوم هكذا، فقد رأينا في واقعهم الذي نتأمله فنراه جلياً نرى الشيء الذي يؤلم والذي يحير الألباب، ألباب من لا يعلمون أهمية هذا الذكر، فانظر فتجد المسلمون بحسب الظاهر يصولون ويجولون ويفورون تحدثاً عن الإسلام وحماسةً لإعادة بنيان الإسلام راسخاً كما كان، ولكنك تجدهم لا يتحركون إلا في أماكنهم، كذلك الذي يتحرك ويراوح في مكانه تماماً، وما أكثر ما رأيت من يسأل ويستشكل كيف أن المسلمين يهتاجون من أجل الإسلام ويتحرقون في سبيل الإسلام، ولكن الله سبحانه وتعالى لا يوفقهم لتطبيق شيء، ولا يستقدمون خطوة واحدة في الطريق الذي يحلمون به قط، فما السبب ؟؟

السبب أيها الأخوة أن هؤلاء الناس مسلمون بأعضائهم، بمظاهرهم، بألسنتهم، بل بقناعاتهم العقلية أيضاً، ولكنهم - وأرجو أن لا أكون مبالغاً ولا متطرفاً في الكلام — غير مسلمين ومؤمنين بقلوبهم التي هي مكمن العواطف والأهواء، أجل، لو أنك نبشت سرائرهم وكشفت عما تحتويه أفئدتهم وقلوبهم، لرأيت أن أفئدة تنطوي على حب للدنيا، على حب للشهوات والأهواء، تنطوي على رغبة عارمة في الزعامة، تنطوي على عصبيات، تنطوي على أحقاد، تنطوي على ضغائن، كل هذا هو الثابت والمستقر في أفئدة كثير منهم، العقل مؤمن ومصدق، ولذلك فإن هذه الأدواء؛ بل مظاهر الزغل هذه التي تكمن في القلب لا تبرز ظاهرة؛ بل تبرز مقنعة ومستورة بغلاف الإسلام، مستورة بغلاف الدعوة إلى الله.

فأنا لا أعبر عن حقدي بالتعبير المكشوف الواضح الذي يدل على أن في قلبي مرضاً بل أغلف حقدي بالغيرة على الإسلام، وأغلف عصبيتي بالدعوة إلى دين الله سبحانه وتعالى، هذا المرض مرض خطير وكثير كثير في مجتمعاتنا الإسلامية، ولو أن كل واحد من هؤلاء الناس عاد إلى قلبه وفحص سريرته فحصاً موضوعياً كما يقولون لرأى أن بين عقله المقر بدين الله عزَّ وجل وبين عواطفه المتجهة إلى الدنيا وأهوائها حاجزاً حصيناً، هذا الحاجز الحصين كثفته الأهواء، كثفته الشهوات، كثفته الطبيعة الحيوانية في كيان كل منا، كل منا معرض لهذا.

فما الذي يذيب هذه الأمراض والأوباء؟ وما الذي يزيل هذا الحاجز مما بين العقل الذي يؤمن بالله فعلاً والقلب المتجه إلى أهوائه المنحطة الدنيوية المختلفة التي تتنوع إلى أنواع كثيرة ما السبيل؟

لا سبيل إلا الإقبال إلى ذكر الله سبحانه وتعالى، ذكر الله عز وجل هو الذي يذيب هذه الأدران من القلب، أنا واحد من البشر وأعلم يقيناً أنني إذا نسيت الله عزَّ وجل، ونسيت مراقبته لي، ونسيت وقفتي بين يديه فلسوف أعامل الناس من منطلق الترفع عليهم، من منطلق استغلالهم، من منطلق اتخاذهم جنوداً لأهوائي وشهواتي، وأنا أعلم أنني سأتعامل عندئذٍ مع الناس أياً كانوا طبقاً للعصبية التي أجترها في فؤادي وأحتضنها في فكري ونفسي، ولكن في حالة واحدة أستطيع أن أتحرر من هذا كله، عندما أكثر من ذكر الله عزَّ وجل، ولست أعني - قلتها مراراً - بذكر الله عزَّ وجل ترداد اللسان عندما يكون محجوباً عن الجنان - معاذ الله — وكذلك طبعاً لا أعني بالذكر فرقعة السبحة في اليد، وقد أصبحت السبحة شعاراً استبدل به كثير من المسلمين استبدلوا الذكر به، يمسك أحدنا بالسبحة يتجمل بها، إن سار في

طريق سبحته بيده، إن وقف يتكلم سبحته تتدلى من يده، إن جلس في مجلس سبحته في يده يتجمل بها ولسانه أبعد عما يكون عن ذكر الله فضلاً عن أن يكون القلب يلهج بذكر الله عزَّ وجل، ليس هذا ما أعنيه بالذكر، إنما الذي أعني أن يكون القلب يقظاً لمراقبة الله، أن يكون القلب متجهاً إلى صفات الله سبحانه وتعالى وعظمته، هذا الذكر القلبي هو الذي يحيي كوامن توحيد الله عزَّ وجل في الفؤاد، ويطرد كل معاني العصبية، كل معاني الأحقاد والضغائن، كل مظاهر الشهوات والأهواء التي تهيمن على الإنسان عندما يعافس الدنيا ويتعامل معها.

أين هم هؤلاء الذاكرين الله عزَّ وجل كثيراً والذاكرات !! أين هم !! انظر وتأمل تجد أكثر من يشتغلون بالدعوة إلى دين الله جعلوا من هذه الدعوة الحركية عوضاً عن ذكر الله سبحانه وتعالى، ولعل أحدهم إذا عاد إذا منزله أوى إلى فراشه متعباً فإذا ذُكِّر بأن عليه أن يجلس ليذكر الله قليلاً أو يقوم قُبيل الفجر ليذكر الله قليلاً، ربما قال: حسبي أنني قد أتعبت نفسي النهار كله في سبيل دين الله عزَّ وجل، وقد آن لي أن أستريح.

كانت النتيجة أيها الأخوة، نتيجة إعراضنا عن أهم ما أمرنا الله عزَّ وجل به من الطاعات – ألا وهو الذكر – أننا في الظاهر دعاة إلى الله، وفي الباطن نحمل قلوباً مليئة بالحقد والضغينة على عباد الله سبحانه وتعالى، هذه هي النتيجة التي آب كل منا إليها.

قلت البارحة في درس البارحة في مسجد دنكز قلت: آخر ما وقعت عيني عليه كلام تقشعر له الجلود، تقشعر له جلود كل من آمن بالله وكل من كان في قلبه مثقال ذرة من مراقبة الله ومن الخوف من الله، رأيت من ينعت الحافظ ابن حجر العسقلاني الذي ألف كتابه المشهور المعروف في شرح صحيح البخاري، الذي ألف كتاب فتح الباري، ينعته بالتذبذب أصح ما يمكن أن يقال فيه أنه متذبذب في عقيدته، كيف أتصور أن مسلماً يقول هذا الكلام؟

ترى لو أن هذا الإنسان راقب الله، وجعل لنفسه حظاً من ذكر الله ساعة في كل أربع وعشرين ساعة، ترى لو أنه جعل لنفسه حظاً من ذكر الله عزَّ وجل ولو حظاً يسيراً أفكانت تتركه مراقبته لله يقول هذا الكلام؟ أفلا يأتي ذكر الله عزَّ وجل لينبهه إلى كلام الله عزَّ وجل في الحديث الصحيح: ﴿من عاد

لي ولياً فقد آذنته بالحرب﴾، أفلا يتصور هذا الإنسان احتمال عشرة في المائة أن يكون الحافظ ابن حجر من أولياء الله عزَّ وجل، غبَّر حياته كلها يخدم دين الله يحفظ حديث رسول الله، ألف أعظم كتاب ترتفع به هامة العالم الإسلامي فخراً، أفلا أتصور أن يكون هذا من أولياء الله عزَّ وجل؟ أنعته بالتذبذب !! عندما أكون ذاكراً الله وعندما أشعر بأن الله يراقبني لا يمكن أن يتحرك لساني بمثل هذا الكلام أبداً، ولا يمكن أن يتحرك قلمي بكتابة هذه الكلمة مطلقاً، ذلك لأن خوفي من الله يمنعني، وخوفي من الله لا يأتي إلا من خلال الإكثار من ذكر الله، ومن مراقبة أن الله يراقبني سبحانه وتعالى، كيف يكون هذا؟

ابن حجر العسقلاني الحافظ صاحب عقيدة متذبذبة، ومن الذي يقول هذا الكلام نجدي يتظاهر في الغيرة على الإسلام، يتظاهر بالدعوة إلى دين الله عزَّ وجل، والله إنني لأقول كما قال المثل العربي (طفَّ الصاع طفَّ الصاع)، بل كما قال سيدنا رسول الله صلى الله عزَّ وجل قبل ذلك، أجل فلقد طفَّ الصاع طفَّ الصاع، ذكر الله عزَّ وجل نعرض عنه، وإذا ذكرنا بذكر الله حاربناه لكي تكون قلوبنا متجهة إلى أهوائنا، ولكي نكون قادرين على أن نطيل ألسنتنا بالسوء وبقالة السوء بحق السلف الصالح من هذه الأمة، بل ليت أن الأمر وقف عند ابن حجر، لقد كانت قائمة طويلة، أسماء هذه القائمة كلها منيت بالسباب والشتائم.

هذا البلاء أيها الأخوة داء، ولا دواء لهذا الداء إلا الإكثار من ذكر الله عزَّ وجل، إلا الإكثار من ذكر الله سبحانه وتعالى فاذكروا الله كثيراً وراقبوه كثيراً، إذا ذكرتموه وراقبتموه، أو جعلتم لأنفسكم حظاً من ذكر الله عزَّ وجل في كل يوم وليلة فإن أمرين يتحققان في حياتكم وتشعرون بهما في طوايا أفئدتكم، الأمر الأول: الحب في الله، حب عباد الله سبحانه وتعالى بمجرد أن تجدوا فيهم رائحة التوجه إلى الله، هذه هي النتيجة الأولى، أي أنكم ستكونون ممن صدق عليهم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي رواه معاذ بن جبل نقلاً عن رب العزة ، ﴿وجبت محبتي للمتحابين فيَّ، وللمتجالسين فيَّ، وللمتزاورين فيَّ وللمتباذلين فيَّ﴾، هذه هي النتيجة الأولى.

النتيجة الثانية للإكثار من ذكر الله عزَّ وجل الأدب مع عباد الله، فمهما رأيت من دواعي الانتقاد، ومهما رأيت من دواعي التقاط العيوب والثغرات فإن الأدب مع الله يجرك إلى الأدب مع عباده، قد تنتقد انتصاراً لبيان الحق، ولكنك تقف عند النقد فقط، ولا يجرك النقد إلى انتقاص لمن تنتقده، لا يجرك إلى

سب وشتم لمن تنتقده، لعل الرجل آب إلى الله سبحانه وتعالى تائباً، لعل هذا النقد رأيٌ لك وأنت مخطئ وهو المصيب، ولكنك تجتهد وتدلي باجتهادك، هذا هو أدب الخطاب، وهذا هو أدب التعامل مع عباد الله سبحانه وتعالى، ولكن إذا لم يكن لنا حظ من ذكر الله سبحانه وتعالى، فلا الحب في سبيل الله، يتحقق من أين يأتي حبي لعباد الله في سبيل الله عزَّ وجل؟ إذا لم يكن فؤادي يحتضن حب الله، إذا لم يكن يحتضن تعظيم الله عزَّ وجل، فهيهات أن ينعكس عن هذا الفؤاد الفارغ حبٌ لعباد الله، أحبهم لمصالحي، أحبهم لأهوائي وشهواتي، وإذا انقلب الأمر انقلب الحب إلى حقد، وهذا ما نراه اليوم.

أقول قولي هذا واستغفر الله العظيم.



١٥٢- السبيل إلى الحُبِّ الذي تفتقر إليه الأمة | ١٩٩٤/١١/٢٥

إن أركان هذا الدين القويم تتأسس وتوجد في كيان الإنسان بواسطة العلم، وأداة العلم في كيان الإنسان إنما هو العقل والتفكير، ومن هنا فقد كان العقل هو رأس مال الإنسان في طريقه إلى معرفة الله عز وجل، وكان العلم هو أعظم كنز يعتمد عليه الإنسان في طريقه هذا، وكلكم قرأ كتاب الله سبحانه وتعالى ووقف عند الآيات التي يعظم الله عز وجل فيها من شأن العلم، وحسبكم من ذلك قول الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْهَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ وقوله عز وجل: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾.

وما يكاد بيان الله عز وجل ينبه عقولنا إلى برهان ساطع من براهين وجوده إلا ويربط فاعلية هذا البرهان بالعلم وبالإدراك كقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ هذا عن السبيل إلى استقرار أركان الاسلام في كيان الانسان.

أما الدافع الذي يحمل الإنسان على السلوك طبق ما أمر الله سبحانه وتعالى، والالتزام بالنهج الذي اختطه الله سبحانه وتعالى لعباده، فإن أساس ذلك شيء آخر، هو حب العبد لله سبحانه وتعالى وتعظيمه لخالقه ومولاه عز وجل، ومن هنا ندرك أن لكل من العلم والحب لله عز وجل وظيفة لا يقوم أحدهما مقام الآخر أبداً:

أما وظيفة العلم فهي مجرد الإدراك، ويقين العقل بوجود الله ووحدانيته وعظيم إبداعه لهذا الكون، وأعتقد أننا إن وقفنا عند هذا الحد فلسوف نجد أن معظم الناس مؤمنون ومسلمون باليقين المهيمن في قلوبهم، ولا تستطيع أن تستثني من هذا إلا أولئك الذين اهتزت منهم المدارك والعقول، فسقطت مسؤلياتهم بسبب أنهم لا يملكون في أدمغتهم رشداً وإدراكاً.

أما من عرف حقيقة هذه الدنيا، ومن أكرمه الله عز وجل بشيء من المعرفة وأصولها، فلا بد أن يكون ممن يؤمن في سريرته بالله سبحانه وتعالى، ولكن المهم ليس هذا، ليس المهم أن يدرك الإنسان بعقله أن له صانعاً، وإنما المهم أن يتفاعل كيانه مع هذا الإدراك، وأن يدين بعد هذا اليقين بمعنى العبودية لله عز وجل، وإلا فإن الله سبحانه وتعالى قد وصف المارقين ووصف الكافرين والجاحدين بأنهم مؤمنون ومستيقنون وذلك عندما قال: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾.

وما أكثر الذين يؤمنون اليوم وتستيقن عقولهم بوجود الله عز وجل ووحدانيته، ولكنهم بألسنتهم يستنكرون ويجحدون للسبب ذاته الذي يقوله لنا الله عز وجل، وهو التباهي والعلو واللجوء إلى مقتضيات العصبية في الكيان والذات، وهاهنا يكمن الداء الوبيل فما علاجه؟

علاجه الحب، علاجه أن يوجد في كيان الإنسان معنى محبة العبد لربه وخالقه، ثم أن يتوَّج هذا الحب بالتعظيم لله سبحانه وتعالى، وعندئذٍ يتغلب شعور الحب هذا على دوافع الكبرياء والعصبية والفخار، وتتحطم هذه المشاعر الحيوانية كلها ويتغلب عليها معنى حب العبد لربه وتعظيمه لخالقه، وهذا هو السبيل الأوحد لنجاح الإنسان في الامتحان الذي خلقه الله له في هذه الحياة الدنيا.

إن معنى قوله عز وجل ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ هذا الابتلاء لا تستطيع أن تؤدي حقوقه بواسطة العلم أبداً، على إن العلم شرطٌ كما قلت لثبوت أركان الإسلام في كيان الإنسان، أما هذا الابتلاء الذي خلقنا الله عز وجل لنخترق حجبه إلى الله، فلا يمكن أن ينجح الإنسان فيه إلا بسلاح آخر، بعد تحقق العلم، ألا هو حب العبد لربه وخالقه عز وجل.

إن الذين يفقده هؤلاء التائهون عن الله، إن في مشرقنا العربي والإسلامي أو في بقاع الغرب عموماً، هؤلاء الذين تاهوا عن الله لم يتيهوا عنه لأن شرائح العلم قاصرة في حياتهم، ولأن عقولهم لم تدرك وجود الله عز وجل، لا أبداً. ليس هذا هو السبب، وإنما السبب أن قلوبهم فارغة عن محبة خالقهم ومولاهم، ومن ثم هي فارغة عن تعظيم هذا الخالق سبحانه وتعالى، ولما فرغت أفئدتهم عن محبة الله كان لابد أن

تمتلئ بمحبة أشياء أخرى، كان لابد أن تمتلئ بمحبة ما تدعو إليه الغرائز، وما تدعو إليه الأهواء والعصبيات، فهذا هو الذي حجزهم عن الله سبحانه وتعالى.

كثيرون هم أيها الأخوة الذين إن ناقشْتهم أقصوا الحديث معك وقالوا إنهم مؤمنون بالله عز وجل، ولكنك تنظر إلى سلوك أحدهم فتجده غريق آثامه، وتجده ضحية أمواج من الصراعات التي تتناوشه عن يمين ويسار، هي صراعات غرائزه شهواته أهوائه، ربما تجده واحداً من المدمنين، ربما واحداً من السُكارى ربما تجده واحداً من ممن يرعى النوادي الليلية، إذا أقبل الظلام في كل ليلة، وربما تجده واحداً من الذي ابتلاه الله عز وجل بمكائد في التجارة، وأنواع من الغش والخديعة للناس، وهو يعلم أنه مخطئ، وهو يعلم أنه منحرف، العقل معه، والعلم سلاح بيده، ولكن العقل ما أفاده، والعلم ما أفاده، وذلك لأنه افتقد الدواء الذي لابد أن يستعمله بعد ذلك، لأن قلبه فارغ من محبة الله سبحانه وتعالى.

وأنا أعلم أن في أصقاعنا العربية والإسلامية القريبة منا والبعيدة عنا، أناساً كان من الممكن أن يكونوا المثل الأعلى في السلوك الإسلامي كان من الممكن أن يكونوا أساتذة المسلمين في التوجيه إلى الله عز وجل، ولكنك تنظر إلى الواحد منهم فتجده صريع شهواته وأهوائه، تجده غريقاً في إدمانه وفي مسكراته أيضاً، ترى ما السبب وما الدواء؟ السبب ما قد قلته لكم، والدواء هو أن نطرق الباب الذي إذا فتح لنا دخلنا من أرجائه إلى حقيقة محبة العبد لله عز وجل، والذي إن سلكناه وصلنا إلى معنى تعظيم العبد لله سبحانه وتعالى.

وانظروا أيها الأخوة في هذه الآية التي ما رأيت أخطر منها في كتاب الله قط، مما يخاطب الله به المؤمنين – لا الكافرين ولا الجاحدين – ما رأيت أخطر منها قط ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ هذا الكلام خاطب الله به من أعلنوا إيمانهم بالله عز وجل ذلك لأن الإنسان كثيراً ما يؤمن بالله عن طريق عقله، لكنه يزيغ عن سبيل الله عن طريق قلبه، وتلك هي المصيبة الكبرى.

والابتلاء الأطم والأخطر في هذه الحياة هي أن يملك الإنسان قلبه فيجعله محباً لله عز وجل حتى يستطيع بهذا الحب أن يندفع إلى صراط الله عز وجل، ولا ينحرف إلى الطرق التي تقتنصه الشياطين إليها بواسطة حب آخر.

قليلون هم أيها الأخوة الذين يدركون هذه الثغرة الخطيرة في حياة المسلمين، بل ما أكثر الذين يتفلسفون عن الإسلام وحقائق الإسلام ومبادئ الإسلام والمكفرات في الإسلام والبدع وما يتعلق بالسنة كلاماً عقلانياً جافاً، حتى إذا وصلوا إلى حافة الحديث عن القلب وحب الله وحب الأغيار تقاسر كلامهم، وسكتوا عند ذلك؛ لأنهم ليسوا من هذا الوادي في شيء أبداً، والنتيجة أيها الأخوة أننا ننظر ونجد أناساً.. أما ألسنتهم فتخوض كلاماً عجيباً في وصف الإسلام ودقائقه وحقائقه، وأما سلوكاتهم فأبعد ما يكون عن السير الذي يعبِّر عن حب صاحبه لله عز وجل.

وأنتم ترون هذا التهديد الرباني.. هو ليس تهديداً لعقول تزيغ، لأن العقل لن يزيغ بعد أن يهديه الله أبداً، ولكنه تهديدٌ لأصحاب قلوب جعلوا من أفئدتهم أوعيةً لحب الزوجة، لحب المال، لحب الشهوات لحب العشيرة التي ينتمي إليها أو القوم الذين ينتسب إليهم، لحب التجارة لحب المساكن لحب هذه الأهواء. هذه الآية تتهدد هؤلاء ونحن المعرّضون لهذا كله.

وكأني بكم تسألون فما العلاج؟ وما هو السبيل إلى أن تفيض أفئدتنا حباً لله عز وجل؟

سبيل ذلك بينٌ أيها الأخوة في كتاب الله وفي سنة رسول الله، ولم يكن يوماً ما معقداً أبداً، سبيل ذلك أن تكثر من ذكر الله عز وجل، وأول خطوات الذكر أن يكون قلبك يقظاً إلى مراقبة الله، وكمال الذكر أن يكون لسانك جنداً مع قلبك في مراقبة الله عز وجل، محبة الله تتحقق بأن تتدبر عن طريق ذكره بنعمه وآلائه وعظيم إحسانه وكامل قدرته، وما من إنسان أدرك مدى فضل الله عليه وتبين النعم التي لا تحصى التي تفد إليه كما قال عز وجل، ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ ما من إنسان فكر في هذا وأطال التفكير، إلا واتجه قلبه بالحب إلى الله، جبلت النفوس على حب من أحسن إليها.

فإذا راقبت الله وتدبرت صفاته وعشت مع هذه الصفات التي هي صفات الكمال في ذات الله، تُوّج حبك لله بالتعظيم وبالمهابة وبالإجلال، هذا السير على هذا الطريق هو الذي يضمن لك أن يفيض قلبك حباً لله، ومن ثم يطرد هذا الحب حب الآخرين وحب الأغيار، وتكون عندئذٍ ممن قال الله عنهم: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ أشد حباً لله.

هذا المنهج ما اسمه أيها الأخوة؟ لا تسألني عن الاسم وإنما اسألني عن المسمى، سمه بما شئت، قل هو الطريق الوجداني إلى الله اسم سليم، قل: هو علم السلوك إلى علام الغيوب هو اسم سليم، قل: هو سبيل الإحسان كما سماه جبريل عندما سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه. هو اسم صحيح. سمه التصوف كما سماه المتأخرون مادام المسمى هذا هو، فإنها تسمية صحيحة ولا مشاحة في الاصطلاحات، وبالكلام إنما المهم أن تكون خطواتك التي تحقق بواسطتها المسمى سليمة، أن تذكر الله عز وجل وتتخذ لنفسك ورداً من تذكر الله عز وجل، وتكون مظهراً لقوله عز وجل: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾.

اتخذ لنفسك المنهاج إلى ذلك خالياً أو مع أخوة من أصحابك وإخوانك، نفذ ما كان الصحابة يفعلونه عندما كان الواحد منهم يجد نفسه مع ثلة من الصحابة يقول أحدهم: تعالوا بنا نؤمن ساعة، يجلسون ليذكروا الله بأفانين من الذكر لو حدثتكم عن سبلها لضاق الوقت عن ذلك، ولكن إياكم أن تتصوروا أن السبيل إلى هذا مرتبط في هذا العصر بطريق؛ يأخذ البيعة عن طريقه مريد على شيخ، ليس هذا حتماً لذلك أبداً، فما كانت الطرق بمعناها التقليدي المألوف شرطاً للسلوك إلى الله أبداً، ما كان الطريق بمعناه التقليدي ارتباط مريد بشيخ يسلّكه إلى الله عز وجل ما كان ذلك شرطاً لما يسمى بعلم السلوك أو الإحسان أو التصوف بشكل من الأشكال، وما أذكر أنني أخذت طريقاً على شيخ، وكم في الناس ربانيون وصلوا لله عز وجل، وما أخذوا طريقاً على شيخ لا سيما في هذا العصر الذي آلت فيه المشيخة إلى حرفة، وآلت المشيخة فيه إلى وسيلة لطرق باب الدنيا، لا أنت في غنىً عن ذلك كله. اسلك السبيل الذي كان يسلكه أصحاب رسول الله التابعون ومن بعدهم، ولكن إياك أن تترك قلبك هذا وعاءً

تتسرب إليه محبة الأغيار، فتهلك عندئذٍ وتكون من شر الهالكين، وإياك أن تصغي إلى من يهولون من شأن هذا الطريق، فلا والله لا يستطيع الإنسان أن يأخذ العبرة من حياة إنسانٍ تفلسف كثيراً في الحديث عن الإسلام، ثم كان هو أول التائهين في السلوك إلا من هؤلاء الذين يحذّرونك عن طرق إن سميناه التصوف فالتصوف أو السلوك فالسلوك أو الإحسان فالإحسان.

انظر إلى أحدهم إنه لقادر أن يفلسف لك الحديث عن الإسلام من الصباح إلى المساء، ولكن انظر بعد ذلك وراقب سلوكه هل تجد له عيناً تدمع خشية من الله، هل تجده يلتجئ إلى الله في ساعة يتيه فيها عن الناس جميعاً ليناجي الله بقلب واجف، وليحدثه بقلب وفؤاد محب، هو أبعد ما يكون عن ذلك، هو أبعد ما يكون عن ذلك، بل أسألك راقبه في بكوره وآصاله وغدوه ورواحه في كل الأوقات هل تجده يمد يده هكذا بتضاؤل وصغار ليدعو، لن تجده يفعل هذا أبداً، هذا هو الإسلام الذي أصبح حديث العقل وأصبح ترجمانه الفلسفة والكلام الذي لا يدفعه إلى سلوك، حتى إذا رأيت وبحثت عن السلوك رأيت الدنيا هي التي تهيمن، ورأيت وسائل كثيرة من أسباب اللهو والابتعاد عن الله سبحانه وتعالى هي التي تتسرب.

ليت شعري لماذا لا يستطيع أولئك المتفلسفون أن يعالجوا الداء الوبيل الذي يستشري في بلادهم، من مدمنات استشرت – وياليت أن التعبير يستطيع أن يضع ويحجم مقدار هذا الاستشراء – لماذا لا يستطيعون أن يعالجوا ذلك؟ لماذا لا يستطيعون أن ينتشلوا شبابهم من وأدة هذه الموبقات؟ لماذا؟

لأن الترجمان أو اللغة التي تنجح في هذا الطريق لا يملكونها، اللغة التي تنجح في هذا السبيل هي لغة القلب لغة الفؤاد الملتاع، لغة الحب. ومن لم يملك هذه اللغة يأتي كلامه ثقيلاً على الأسماع لا يمكن أن يفيد شيئاً، وهذه عبرة كافية، وهذا دليل كاف أيها الأخوة. ولتعلموا أن السبيل الأوحد للدعوة إلى الله أن يملك الإنسان بعد رشده العلمي والعقلي قلباً يتوهج بحب الله سبحانه وتعالى وتعظيمه، فمن ملك هذا القلب اخترق السدود، ولتعلموا أن السبيل الذي يجمع شمل هذه الأمة أن تكون نبضات الإسلام لا فكراً عقلانياً في الدماغ، وإنما حباً يهيمن على الفؤاد، ولتعلموا أن السبيل الذي يجعل هذه الأمة تعتز بدينها ومن ثم تصبح المثل الأعلى للآخرين، هو هذا الحب الذي تفتقده هذه الأمة، كما قال محمد إقبال

في عصر من العصور قال ذلك وهو يتحرق على الإسلام الذي كان يفيض به الشرق في يوم ما كان إسلاماً يتوهج بنار الحب، ولكنه غدا اليوم عبارة عن ثلج بارد لا تترجمه إلا الفلسفات الكلامية. أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجدد وقود إسلامنا في أفئدتنا حباً وتعظيماً لله فاستغفروه يغفر لكم.



١٥٣- رسالة الله تعالى إلى المرشدين والمريدين | ١٩٩٧/٠٦/٢٧

لقد جعل الله سبحانه وتعالى لنا من رسوله ونبيه محمد عليه الصلاة والسلام القدوة الحسنة فقال عز وجل: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ هو قدوة هذه الأمة جمعاء، هو قدوةٌ للعلماء والمرشدين وقدوةٌ لسائر الناس من العامة وغير العامة والمتعلمين، فكل من أراد أن يسلك الطريق القويم إلى الله عز وجل لا بد أن يقتدي بسيد الرسل والأنبياء وسيد المرشدين والمربين والموجهين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم. ولو أن المسلمين التزموا أمر الله سبحانه وتعالى فاتخذوا من رسوله قدوةً لهم لما زاغوا يوماً ما عن المحجة، ولما تاهوا عن الطريق قط، ولكن لما زاغت بهم السبل وابتعدوا من عند أنفسهم المناهج المختلفة ابتعدوا عن صراط الله سبحانه وتعالى ووكلهم الله عز وجل إلى أنفسهم.

كثيرون هم الذين يتحدثون في هذا العصر عن المرشد وضرورة المرشد، كي يستطيع الإنسان الشاب الذي اهتدى إلى صراط الله عز وجل أن يتخلص من تيهه وضلاله، وأن يضمن لنفسه سلامة العاجلة والآجلة، ويبحثون عن هؤلاء المرشدين. وأقول لنفسي ولهؤلاء الإخوة: انظروا إلى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وانظروا إلى علاقة أصحابه به فاجعلوا من ذلك نبراسكم وقدوتكم وأساسكم فيما تبحثون عنه.

كيف كانت سيرة أصحاب رسول الله مع رسول الله؟ وما هو السبيل الذين انتشلهم الله عز وجل بها من الغي والجاهلية الجهلاء، ورفعهم بها إلى سدة الهداية والتوفيق؟

السبيل الأول: هو العلم الذي كان الخط الأول المتصل بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعامل مع أصحابه جميعاً بهذا الغذاء وبهذه الوسيلة التي ينبوعها كتاب الله سبحانه وتعالى.

ولا أعلم أنه صلى الله عليه وسلم علّم واحداً من أصحابه فن الاتباع له بالطرق التي نسمعها اليوم.

لا أعلم أنه صلى الله عليه وسلم لقن واحداً من أصحابه كيفية الذكر، وكيفية تصوره لرسول الله صلى الله عليه وسلم عند الذكر، وكيف سلّكه في الطرق التي نسمعها اليوم، وكيف راقبه رسول الله صلى الله عليه وسلم في خلاواته وجلاواته وشؤونه.

لا أعلم أنه صلى الله عليه وسلم مارس شيئاً من هذا مع أصحابه، ولكنه كان يعلمهم، وكان يحاورهم، وكان يحاجهم إلى كتاب الله. والدلائل الواضحة في خطاب الله سبحانه وتعالى.

وقد نقول: أفلم يكن الصحابة يتأثرون بالمصطفى صلى الله عليه وسلم من وراء هذا العلم الذي يخاطبهم به؟ أفلم يكونوا ينجذبون إليه بسرٍ آخر أقامه الله سبحانه وتعالى في تبيان رسوله؟

نقول: بلى. كان الرجل إذا دخل مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ونظر إليه وكان خالي القلب من الكبر والعصبية والعناد، شعّت الهداية من وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قلبه، ولكن هذا لم يكن يُحوج المصطفى صلى الله عليه وسلم إلى أن يدعي الدعاوي، وأن يُلزم هذا الإنسان وهذا الأعرابي بشيء أو أن يتحدث له عن نفسه وعن مناقبه وعن عظيم صلته بالله عز وجل.

الذي كان يتأثر به أصحاب رسول الله هو حال رسول الله، لا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعاوي رسول الله، بل كان واقع المصطفى صلى الله عليه وسلم غارقاً في التذلل والتبتل لله سبحانه وتعالى، وكان لايرى نفسه فوق أي عبدٍ من عباد الله عز وجل، وكان يُجالس المساكين، ويجالس الفقراء، ولم يكن يوجد أو ينسج أمام أبصار الناس من قوله أي هالة أو أي معنى من معاني التبجيل أو التقديس قط.

القداسة تأتي إلى أفئدة أصحاب رسول الله من حال رسول الله، من الواقع الذي أكرم الله عز وجل رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم، فلم يكن المصطفى صلى الله عليه وسلم يُدرب أصحابه على أن يركعوا بين يديه، ولا عن أن يجعلوا من نفسه ما يُشبه معبوداً لهم من دون الله سبحانه وتعالى، ولم يكن يأمرهم قط في يوم من الأيام إذا ذكروا الله عز وجل أن يجعلوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم الرسم الذي ينبغي أن يكون موضوعاً نُصب أعينهم أو في قلوبهم إطلاقاً.

كانت هداية أصحاب رسول الله عن طريق العلم، وينبوع العلم هو كتاب الله وسنة رسول الله، ثم إن الصحابة كانوا يتأثرون وكانوا ينجذبون بحال رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مزيدٍ من الهداية وإلى مزيدٍ من الرشد. هكذا كان رسول الله وهكذا كان أصحابه والله يقول: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾.

ينبغي على المسلمين جميعاً أن يجعلوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم محجتهم، وأن يجعلوا منه الميزان الذي يلتزمون به في سائر سلوكاتهم وأعمالهم، سواءٌ منهم العلماء والمربون أو الشباب والمتثقفون والمتربون، كلنا ينبغي أن نقتدي برسول الله وأول أن يقتدي برسول الله من يُسمون اليوم بالمرشدين والمربين والموجهين والعلماء، كيف كانت سيرة رسول الله؟ هكذا ينبغي أن نصنع.

ثم إن على الشباب الذين يريدون أن ينهلوا من علوم العلماء، وأن يقفوا في مظلة الإرشاد وأن ينهلوا من إرشاد المرشدين، عليهم أيضاً أن يجعلوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم المرشد الأول لهم، فهل سمعتم أن رسول الله كان يتبجح بالدعاوي؟! وهل سمعتم أن المصطفى صلى الله عليه وسلم كان دائماً إذا جلس مفتوناً بمدح نفسه والثناء على ذاته، الذي نعلمه عن المصطفى صلى الله عليه وسلم أنه كان يُلح على أن يُدخل في ذهن الصحابة معنى عبوديته لله عز وجل، وصورة تذلله بين يدي الله سبحانه وتعالى، فلماذا نجد كثيراً ممن يتبوأون مركز الإرشاد أو ما يُسمى بالتربية أو التوجيه اليوم، يسلكون طريقاً آخر مخالفاً لطريق المصطفى صلى الله عليه وسلم، رأيت بالأمس رسول الله حياً يقظة قال: لي كذا وكذا وكذا، وأنا عندما أغيب عنكم وأراقب الله عز وجل أجد رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لي ويوصيني إلى آخره...، ثم يضع الواحد منهم في ذهن مريديه المعنى الأكبر للتقديس الذي ربما لم يبلغوه بالنسبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، من أين جاء هذا؟ وأي رسولٍ يتبعون في هذا؟ لماذا نسمع في كل يوم تعليماً لأساليب غريبة وعجيبة من ذكر الله سبحانه وتعالى؟ لماذا نسمع من بعض هؤلاء المرشدين من يدعو المريد إذا جلس ليذكر الله أن يضع الشيخ نصب عينيه وأن لا يبدأ بالذكر إلا وشيخه مرسومٌ في قلبه أو بين عينيه من أين جاء هذا؟ ومتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا لأصحابه؟

أما الذكر فهو أول مصدر من مصادر الهداية والرشد بعد الإيمان بالله ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾ ولا شك في هذا ولا ريب،

ولكن باب الذكر مفتوح بين العبد وربه سبحانه وتعالى، وما قال المصطفى صلى الله عليه وسلم يوماً قط وهو يشرح هذا الآية وأمثالها: إنكم لن تستطيعوا أن تذكروا الله إلا إذا كنت أنا الباب الذي يوصلكم إلى ذكر الله، ما قال هذا قط.

بل إننا نصغي جيداً إلى تعاليم المصطفى صلى الله عليه وسلم وهو سيد المربين والمرشدين، فلم نسمعه مرة يقول: إنكم لن تصلوا إلى محبة الله إلا إذا أحببتموني أولاً، لم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا، ولكنه كان يُعلم أصحابه ويعلمنا أيضاً أن إيمان المؤمن لا يكمل إلا إذا كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما.

ينبغي للمؤمن أن يحب الله ويحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وليس لهذا الكلام إلا معنى واحد هو أن حب الله هو المعين والأصل، وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الجدول والفرع، فلحب ربي الذي هو مولاي وخالقي أحب رسوله الذي أحبه الله سبحانه وتعالى وميزه عن سائر خلائقه، هذه هي الحقيقة التي علمنا إياها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقد كان الصحابة يحبون رسول الله ويقدسونه ونحن نقدسه ونحبه، بل إن حبه لجزءٌ لا يتجزأ من القربى إلى الله ومن الإيمان بالله عز وجل، ولكن أحداً من الصحابة لم يكن يترجم هذا الحب بركوعٍ بين يدي رسول الله، لم يكن يترجم هذا الحب بهذه الظاهرة التي يعبد بها الإنسان ربه سبحانه وتعالى.

كان إذا دخل رسول الله مجلساً جلس حيث انتهى به المجلس وكان المصطفى صلى الله عليه وسلم يجلس ليأكل فيقعي ربما ويجلس جلسة المستوفذ أو جلسة الإنسان الذليل وقد صح أن أعرابياً سأله ما هذا الجلسة قال: ﴿إنني عبدٌ جعلني الله سبحانه وتعالى عبداً كريماً ولم يجعلني ملكاً لئيماً﴾ هكذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم.

بُعد المسلمين اليوم عن هدي رسول الله تتسبب عنه مشكلات كثيرة، ولكن من أخطر المشكلات هذه الحيرة التي يقع فيها كثير من الشباب الذين يبحثون لأنفسهم عن معين الهداية، وعن حصن يقون به أنفسهم من مغبات الضلال، ينظرون يميناً وشمالاً فيجدون من يدعوهم إلى أن يكونوا تلامذة أو مريدين

له، فيبحثون عندهم عن سبيل الهداية ويحمدون الله أنهم ربما عثروا على الطريق الذي لابد منه ثم إنهم يخاطبونهم ويأمرونهم بأمورٍ لا عهد لنا بها في دين الله سبحانه وتعالى.

أولاً أيها الإخوة.. هذه القالة التي تطرق أسماعكم جميعاً من لم يكن له شيخٌ فشيخه الشيطان، ليس حديثاً وليس أثراً وليس كلاماً مقدساً قاله أي من الناس الذين يُقدس كلامهم، وما أكثر الذين هداهم الله فكانوا من أحسن الناس ديناً هُدوا إلى الله بدون شيوخ، بل إن شعوباً كثيرة من جنوب شرقي آسيا دخلوا الإسلام وأصبحوا من خيرة الناس وتبوأوا أعلى المراكز قرباً إلى الله سبحانه وتعالى، وتمسكاً بدين الله دون أن يكون لهم شيوخ، ودون أن يكون لهم مرشدون بشكلٍ من الأشكال.

لكنني أتصور أن هذه القالة تُنشر اليوم لتكون رأس مالٍ لربح، حتى يلتقط هؤلاء الناس من خلال هذه القالة مزيداً من التلامذة والمريدين لهم، ولا بأس على أن يلتزم هؤلاء الشيوخ النهج الذي كان يسير عليه رسول الله، وعلى أن يلتزموا الآداب التي علمنا إياها ربنا ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ﴾ هذا كلام الله سبحانه وتعالى. كل من أراد أن يتبجح ويُزكي نفسه، فاعلموا أنه خارجٌ عن دائرة الهداية إلى الله سبحانه وتعالى.

إن الإنسان كلما ازداد قرباً من الله كلما ازداد شعوراً بتقصيره في جنب الله، وكلما ازداد بعداً عن الله كلما شعر بأنه مؤدٍ لأوامر الله سبحانه وتعالى، هذا مقياسٌ فاعلموه جميعاً، عندما يرى الإنسان نفسه قريباً من الله عز وجل يشعر بعظيم تقصيره في جنب الله، وهكذا كان يرى رسول الله، كان يرى نفسه مقصراً في جنب الله، ولذلك كان يقوم الليل حتى تتورم قدماه، فإن رأيتم من يتبجح بمدح نفسه والثناء على ذاته، والمنامات التي يرى بها رسول الله، بل الساعات التي يجالس فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم يقظةً، ويتبجح بهذا أمام الناس، فاعلموا أنه محجوبٌ عن الله سبحانه وتعالى، لأنه لو كان مقرباً إلى الله لذاب خجلاً من الله سبحانه وتعالى.

انظروا إلى هؤلاء الذين يتبجحون، وفي كل يوم أسمع عنهم أقوال غريبة وعجيبة، انظروا إلى تبجحهم وانظروا في مقابل ذلك إلى واحدٍ من أمثال الشيخ عبد القادر الجيلاني قدس الله روحه، كان يرى نفسه تراباً تحت أقدام مريديه، كان يرى نفسه لا شيء، وقد رؤي متشبثاً بأستار الكعبة وهو يقول: اللهم إن كنت لن تغفر لي ذنوبي وتقصيري في جنبك يوم القيامة فاحشرني أعمى، حتى لا أخجل من الناس الذين

يُحسنون الظن بي قارنوا بين ذلك العا لم الرباني الجليل والذين يتبجحون اليوم فيقدمون أيديهم قرباناً لتقبيلها وقربى إلى الله سبحانه وتعالى، وينتشون ويطربون بمرأى تلامذتهم ومريدهم وهم رُكع بل يكاد أحدهم يكون ساجداً، وينتشون بالحديث عن رؤيتهم لرسول الله يقظةً لا مناماً، وماذا قال له وماذا أجاب به، وانظروا إلى حال الشيخ عبد القادر الجيلاني.

صح فيما ورد من ترجمة أبي يزيد البسطامي رضي الله عنه وقدس الله روحه أنه كان إذا ازدحم الناس في مجلسه وأقبل إليه الزائرون من كل حدب وصوب، شعر بالذل وشعر بالضراعة ثم رفع يديه وقال: اللهم إنك تعلم أنهم يزورونك أنت ولكنهم رأوني عندك هكذا يكون المرشدون.

والنتيجة التي أريد أن أصل منها وصيةٌ ونصيحةٌ أنصح بها كل شاب يريد أن يهتدي إلى صراط الله، كل من أراد أن يصل إلى الله فليجأر إلى الله بالدعاء الضارع وليسأله أن ييسر له سبيل وصوله إليه، ولسوف يستجيب الله له، وليعلم أن طريقه إلى الله مُيسر ولا داعي إلى أن يتوسط لوصوله إلى الله بمرشدين من هؤلاء الذين سمعت عنهم، والذين ابتعدوا عن منهج رسول الله صلى الله عليه وسلم بُعد المشرقين، أما المرشدون الذين هم من أمثال أبي يزيد البسطامي وعبد القادر الجيلاني والجنيد البغدادي فليتني أعثر على واحد من هؤلاء لكي أربط نفسي خادماً لمثل هؤلاء الناس، المرشد الحقيقي هو من يُعيد سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وليس المرشد الحقيقي هو من يتاجر بالإرشاد.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

١٥٤- أين هم الدعاة إلى الله؟! | ٢٠٠٠/٠٧/٢١

لا أعلم أن هنالك عملاً أرضى لله سبحانه وتعالى وأجزل مثوبةً وأجراً وأرقى في أنواع الجهاد رتبةً – بعد أن يتحقق الإسلام في كيانه – من قيام المؤمن بعد هذا بالدعوة إلى الله سبحانه وتعالى؛ الدعوة إلى الله عز وجل إذ ينهض بها الإنسان الذي تحقق الإسلام أولاً في كيانه وراقب ذاته أن لا تشرد عن صراط الله سبحانه وتعالى.

الدعوة إلى الله عز وجل أرقى أنواع الجهاد كله وأقرب ما يتقرب به العبد إلى الله سبحانه وتعالى، ولو لم يكن في كتاب الله عز وجل من الدلائل على ذلك إلا قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾. لو لم يكن في كتاب الله عز وجل ما ينوه بأهمية الجهاد في سبيل الله إلا هذه الآية لكفى، فما بالك بالدلائل الأخرى من مثل قول الله عز وجل: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ ومن مثل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في ما قاله لعلي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: ﴿لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من حمر النعم" وفي رواية "خيرٌ لك مما طلعت عليه الشمس أو غربت﴾.

ولقد ذكر العلماء وهم ينوهون بأهمية هذا النوع من الجهاد في سبيل الله عز وجل، وهو النوع الدائم الذي لا يتوقف في حالٍ من الأحوال ولا لسببٍ من الأسباب، ولا بالنسبة لفئة من الناس. تحدث العلماء وهم ينوهون بأهمية هذه الدعوة وعن شرائطها. ولها شرائط كثيرة، ولكني أستطيع في هذا الموقف أن ألخص هذه الشرائط كلها بشيء واحد هو: أن يستخدم المسلم نفسه لأعمال الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى ولا يستخدم الدعوة لمصالحه الشخصية الخاصة به. كل ما ذكره العلماء والفقهاء من الشرائط التي لا بد منها لكي يتبوأ الداعي إلى الله عز وجل هذه الرتبة السامية تتلاقى في هذا الشرط، الشرط الذي يجمع كل ما ذكره العلماء هو: أن تجعل من نفسك خادماً للدعوة إلى الله لا أن تجعل من الدعوة إلى الله عز وجل خادماً لنفسك.

تأملوا في هذا الكلام وانظروا إلى الأبعاد التي تتفرع عنه تدركون عندئذٍ أهمية هذا الشرط الجامع بالنسبة إلى المسلم.

الداعي إلى الله عز وجل لابد أن يكون مخلصاً لله في عمله، لابد أن تكون دوافعه كلها متجمعةً في دافعٍ واحد هو أن يستنزل رضى الله سبحانه وتعالى عنه فيما يُقدم عليه من قولٍ أو عمل، وهذا الإخلاص يستلزم ثمرةً لا بد منها ولا محيد عنها، هذه الثمرة تتمثل في أن يجعل هذا المسلم الداعي إلى الله عز وجل نفسه ودنياه وسمعته ومصالحه الدنيوية خدماً لدعوته إلى الله سبحانه وتعالى.

قد يجد أن سيره في فجاج الدعوة إلى الله وتبصير الناس بدين الله وتحبيب هذا الدين وأحكامه إلى قلوب الناس قد يجد أن ذلك يستدعي خسارةً تحيق بماله فلا يبالي.

قد يجد أن سيره في هذا الطريق إلى الله قد يستلزم سوءً يطوف بسمعته أو إساءةً تتجه إلى كيانه فلا يبالي بذلك ولا يتأثر بشيء من ذلك، ويظل سائراً على نهجه من أجل أن يرضى الله سبحانه وتعالى عنه.

قد يجد أن دعوته هذه تقتضي أن يتقلب أناس من حوله كانوا أصدقاء وأحباء فإذا هم تحولوا عن ذلك فأصبحوا أعداء ألداء له، لا يبالي بذلك، لا يبالي بهذه الخسارة التي تحيق بكيانه أو التي تحيق بماله أو التي تحيق بسمعته في سبيل أن يرضى الله عز وجل عنه، وفي سبيل أن تنتشر محبة دين الله عز وجل في الأوساط وفي القلوب.

هذا معنى هذا الشرط الذي يعد الشرط الجامع لكل ما قد قاله العلماء.

أما عكس ذلك فهو أن ينظر الإنسان إلى أعمال الدعوة إلى الله عز وجل فيسلك منها السبل التي تزيد في ماله يسلك منها السبل التي تعلو بسمعته، يسلك منها السبل التي تجعله آمناً مطمئناً في رغدٍ من

العيش، يسلك منها السبل التي تجعله يُشفي غليله في حق من يناصبه العداء وفي حق من قامت بينه وبينهم المشكلات.

هذا إنسانٌ هو في الظاهر يدعو إلى الله، ولكنه في الحقيقة إنما جعل من دعوته إلى الله مطيةً ذلولاً يركبها ليتجه بها إلى حيث تكمن مصالحه، إلى حيث تكمن رغائبه، إلى حيث تكمن أهواؤه. هذا النهج المزيف في الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى لا يمكن أولاً أن يثمر في حياة الإنسان الدنيوية أية ثمرة، فلا يمكن لهذا الإنسان أن تجد كلامه أصداء تنخر القلوب عبر الآذان، لا يمكن لحديث هذا الإنسان أن يجد قبولاً في النفوس بل الأرجح أنه يأتي ثقيل الظل على العقول وعلى النفس معاً، ثم إن هذا الإنسان لا تقربه دعوته الزائفة إلى الله عز وجل شروى نقير بل تُبعده عن الله عز وجل.

هذه الحقيقة أيها الإخوة كم وكم ينبغي على كل مسلم أن يتبينها في هذا العصر لسببين اثنين:

السبب الأول: أن الناس كل الناس لم يتهيأوا لقبول الدعوة إلى الله، ولم تظمأ نفوسهم لسماع كلمة تحبب الإسلام إلى قلوبهم في عصر من العصور كهذا العصر الذي نمر فيه الناس في هذا العصر أياً كانوا، وفي أي صقعٍ من أصقاع العالم وجدوا أشبه ما يكون بالأرض التي تطاولت عليها أشعة الشمس المحرقة ولم يُتح لها قطرة ماءٍ ترتوي منه، كم تكون هذه الأرض بحاجةٍ إلى الماء الذي يرويها؟

الناس اليوم أياً كانوا، ومن أي الفئات درجوا، وفي أي صقع وجدوا .. كهذه الأرض التي طال بها العهد بعداً عن الماء فهم بأمس الحاجة بمن يعرفهم على دين الله، وهم بأمس الحاجة إلى حكيم يدخل محبة الله عز وجل في سويداء قلوبهم هذا هو السبب الأول.

السبب الثاني: أن الدين قد تحول في هذا العصر إلى حرفة، إلى سبيل من سبل العيش، إلى أداة من الأدوات التي يحقق بها الإنسان أحلامه الدنيوية المتنوعة وما أكثرها .. إلا من رحم ربك وقليلٌ ما هم، إذا التفت الإنسان المسلم يمنة ويسرة وبعث بنظره إلى الأمام البعيد أو إلى ما وراءه، وأخذ يسبر حال المسلمين اليوم يجد أن الإسلام قد تحول في هذا العصر إلى سلمٍ قليل الدرجات سهل البلوغ والقفز فوق درجاته لبلوغ كل الأماني المختلفة.

فمن شاء أن ينال سمعةً وشهرة بين سمع العالم وبصره، فإن أقصر طريق له إلى ذلك هو أن يستخدم سلم الإسلام.

ومن شاء أن يجمع ثروة وأن يبني لنفسه من ورائها مكانة، فأقصر طريق إلى ذلك إنما هي حرفة الإسلام.

ومن شاء أن يبني لنفسه عروشاً سياسية ينال بها مبتغياته السياسية التي يجنح إليها، فإنه مهما نظر يميناً وشمالاً فلن يجد طريقاً أقصر إلى مبتغاه هذه أقصر من طريق الإسلام.

وهكذا أصبح الإسلام سلماً تزدحم عليه فئات شتى من الناس في هذا العصر، كلهم يبتغون من وراء ذلك أحلامهم الدنيوية، وهي أحلامٌ متنوعة الألوان ومتنوعة الأطياف، ولكنها جميعاً أحلام دنيوية ولكنك إذا بعثت نظرك إلى الواقع الذي يعاني منه العالم الإسلامي لتبينت هذا الذي أقوله لك.

نعم هنالك ومضات تلوح كما تلوح البروق في ليلة مظلمة سوداء هنا وهناك، ولا تزال هذه البروق تلتمع إلى أن يرث الله الأرض وما عليها. لا يزال في الناس أناس مخلصون أناس متحرقون أناس ٌ يُضحون بدنياهم بسمعتهم بشهرتهم بأموالهم في سبيل الدعوة إلى الله عز وجل، ولكنهم اليوم قلة أيها الإخوة، وإذا كان الداعي إلى الله عز وجل في العصور السالفة ينال الأجر العظيم العظيم الذي حدثتكم عن طرف منه، فالذي أعتقده أن الداعي إلى الله اليوم إذا كانت دعوته خالصة من الشوائب إذا لم يكن يضع نصب عينيه إلا رضى الله عز وجل عنه، فإن أجر الدعوة إلى الله في هذا اليوم في هذا العصر أضعاف الأجر الذي كان يناله الدعاة إلى الله بالأمس، كانوا يجدون على الحق أعواناً كثيرين، ولكن المسلم الذي يريد أن يخب في طريق الدعوة إلى الله بالنهج الذي أمر الله بالحكمة التي دعا إليها الله عز وجل سيجد نفسه يسلك في فجاج غريبة، سيجد نفسه بعيداً بعيداً عن زحمة وأوضاع الناس وفئاتهم ومسالكهم وسبلهم المختلفة، ولن يجد على الحق الذي يدعو إليه الأعوان الذي كان يجد الدعاة من قبل يجدونهم عندما يسلكون سبل الدعوة إلى الله عز وجل.

قد يقول قائل: وما أيسر الدعوة اللسانية إلى الله ففيم جعل الله عز وجل عليها هذا الأجر الوفير؟

لا أيها الإخوة إن الدعوة إلى الله بالنهج الذي ذكرت ليس عملاً يسيراً بل هو عمل عسير، الداعي الذي لا يريد من دعوته إلا مرضاة الله عز وجل لابد أن يبتليه الله عز وجل بما يكشف عن ثباته أو عن نكوسه عن هذه الدعوة. سيجد من يحطم سمعته، سيجد من يبتز ماله، سيجد من يحرمه من حظوظه الدنيوية سيجد من يحاول أن يزجه في غربة من مجتمعه الذي هو فيه، الدعوة إلى الله بعد ذلك تتوقف على حكمة متناهية يتجاهل الإنسان من خلالها ذاته، يتجاهل الإنسان من خلالها مكانته، سيجد هذا الداعي من الشخص التائه الفاسق الذي يدعوه إلى الله عز وجل سيجد منهم الإنسان الذي يشتمه الذي يسبه الذي يسخر منه، ما موقفك أيها الداعي من ذلك؟

إما أن يتحول هذا الإنسان فينتصر لنفسه ويدوس على منهج الدعوة إلى الله بقدميه، لأن حظه قد هُضم ولأن كيانه قد جُرح، وإما أن يدفعه الإخلاص إلى الله أن يتطامن للسباب وللشتائم ولكل كلمات الإنتقاص، وأن يواجه هذا الفاسق بالابتسامة وبما يدل على الحب وبما يدل على الرحمة. من ذا الذي يستطيع أن يتجاوز هذا الامتحان بما يُرضي الله عز وجل بسهولة؟!

الحكمة التي أمر الله عز وجل بها: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

هل تعلم كم تُكلِّف؟ هل تعلم ما هو ثمن ذلك؟ ثمن ذلك راحة نفسك ثمن ذلك كيانك الذي تعتز به لا بد أن تضحي به في كثير من الأحيان أجل، لا يقولن قائل: إن الدعوة إلى الله عز وجل عمل ينتشي به الإنسان هل هو إلا خطبة يلقيها؟ هل هو إلا مقال يدبجه؟ هل هو إلا رحلة من بلد إلى بلد في سبيل مؤتمر وفي سبيل ندوة واجتماع؟ لا هذه شعارات دعوة هذه عناوين، فانظر ما الذي تراه تحت هذه العناوين، وما أكثر الذين ينتشون ولا نشوة السُكر تحت هذه العناوين: المؤتمرات .. الندوات .. الخطب الرنانة .. المقالات .. كل ذلك تسمعونها أو ترونها فأين هي النتائج؟

أسمع – كما يقول المثل العربي – جعجعة ولا أرى طحناً لماذا؟ لأننا اتخذنا من منهج الدعوة مطيةً ذلولاً لرغائبنا لتجاراتنا المالية لحظوظنا الدنيوية لآمالنا السياسية، نعم هذا هو الواقع المرير. في حين أن

الناس اليوم مشرقين ومغربين هم في أشد حالات الظمأ إلى إنسانٍ متحرق على دين الله، مخلصٍ لوجه الله يقف ليعرفه على الله عز وجل، وليُدخل الإسلام قناعةً في عقله ثم حباً بين جوانحه.

كم وكم الناس اليوم من أقصى الغرب المعمور إلى أقصى شرقه كم هم بحاجة إلى هذا؟ فأين هم الدعاة إلى الله؟ أما العناوين فكثيرة وأما المظاهر فأكثر، ولكن انظر إلى النتائح النتائج كلها تعود بالمسلمين إلى الوراء.

أسأل الله عز وجل أن يرسخ أولاً حقائق الإسلام بين جوانحنا، ثم أسأله عز وجل أن ينهضنا بدافعٍ من تلمس مرضاته من تلمس رحمته وكرمه أن ينهضنا إلى هذه الدعوة التي أمرنا الله سبحانه وتعالى بها ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلا﴾ هذا كلام الله ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾. العمل الصالح جعله الله واسطة العِقد بين شرطين شرطٍ يأتي قبله وآخر يأتي بعده، العمل الصالح قد ذكرت لكم طرفاً منه، العمل الصالح لا يكون إلا بأن أدوس على حظوظي النفسية ورغائبي المالية وأن أمزق آمال شهرتي، وأن أمزق كل النتائج الدنيوية التي أتصورها من وراء عمل الدعوة أجعل ذلك كله تحت قدمي وأجعل هدفي الأعلى وتاجي الأكثر ألقاً البحث عن مرضاة الله سبحانه وتعالى لا أكثر من ذلك.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

١٥٥- رسالتنا وواجبنا وشعارنا | ٢٠٠٨/٠٣/٢٨

ليس في الرسل والأنبياء والمقربين من عباد الله جميعاً مَنْ نَوَّهَ كتاب الله سبحانه وتعالى بمكانته وتبجيل الله له ومحبته له والالتزام بحمايته من كل سوء كمحمد بن عبد الله خاتم الرسل والأنبياء صلوات الله وسلامه عليه وعلى أصحابه، فربنا هو القائل: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨] أي فإنك مكلوء بحمايتنا ورعايتنا، وربنا عز وجل هو القائل عنه: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤] ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الحجر: ٩٥] لن ينالوا منك منالاً قط، وهو القائل له: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، السؤال الذي يقفز إلى ذهن كلٍّ منا يا عباد الله هو: إذاً فلماذا أوذي رسول الله صلى الله عليه وسلم وتناولته الألسن بالسخرية ونال منه من أراد أن ينال من أعدائه المشركين وغيرهم؟ أفكان كثيراً أن يكرمه الله عز وجل وهو القائل له: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨] بالحماية من هؤلاء الذين آذوه؟ أفكان كثيراً أن يحميه الله سبحانه وتعالى من ألسن المستهزئين والساخرين وهو القائل له: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الحجر: ٩٥]؟ فما الجواب عن هذا يا عباد الله؟

تعالوا نتأمل في حكمتين اثنتين تكمنان وراء هذا السؤال الذي يقفز إلى ذهن كل واحد منا، أما الحكمة الأولى فهي أن رسول صلى الله عليه وسلم علم أنه فاتحة الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى في رحاب العالم كله وأن سلسلة الدعوة إلى الله عز وجل ستستمر من بعده إلى قيام الساعة فهو فجر الدعوة الإسلامية بعد غيبوبة زمن ابتعد فيه الرسل وتلبثوا عن الناس، علم الله سبحانه وتعالى أن محمداً صلى الله عليه وسلم هو إمام الدعاة إلى الله عز وجل وأن سلسلة الدعاة والمبلغين عن الله عز وجل ما ينبغي أن تنقطع ولن تنقطع من بعده، ورسول الله هو القائل: ﴿بلغوا عني ولو آية﴾، وعلم المصطفى صلى الله عليه وسلم أنه إن كان مكلوءاً بعناية الله بحكم استثنائي وأنه إن كان محصناً ضد لَغْوِ اللاغين وضد سخرية الساخرين وضد الأذى الذي قد ينتابه من هنا وهناك فإن هذه المزية الاستثنائية لن ينالها الدعاة والمبلغون عن الله وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم من بعده، الاستثناء إنما يكون لرسول صلى الله عليه وسلم الذي قال له الله عز وجل: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨] وقال له: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الحجر: ٩٥]

أما الناس الذين سيتبوءون وظيفة الدعوة إلى الله وإبلاغ رسالة الله من بعده فلا بد أن يخضعوا لسنة الله، لابد أن يخضعوا لأنواع الأذية، لابد أن يخضعوا لأنواع السخرية، وتأمل حبيبنا المصطفى صلى الله عليه وسلم المحب لأمته الرؤوف بها تأمل أن هؤلاء الذين سيأتون من بعده إن تجرعوا غصص الآلام في سبيل الدعوة إلى الله ونظروا إلى حياة رسول الله فوجدوا أنه كان بعيداً عن كل ذلك الأذى وتأملوا في سيرته فوجدوا أن أحداً من الناس لم يكن يستطيع أن ينال منه منالاً وأن يسخر منه بكلمة أو أن يتقدم إليه بأي أذية فلسوف يوسوس الشيطان إلى هؤلاء الدعاة من بعد المصطفى صلى الله عليه وسلم ولربما خطر ببال أحدهم أن محمداً صلى الله عليه وسلم سار في طريق الدعوة إلى الله على أرضٍ مفروشة بالرياحين وأنه لم يذق شيئاً من آلام ما قد ذاقه الدعاة إلى الله سبحانه وتعالى من بعده، هم الذين تجرعوا الغصص في سبيل إبلاغ رسالة الله جل جلاله، أما محمد صلى الله عليه وسلم فهو الوحيد الذي كُفِيَ هذا الذي يتجرعه اليوم الدعاة إلى الله من بعده، تأمَّلَ المصطفى صلى الله عليه وسلم في ذلك فأبى وأبت عليه محبته لأمته وأبى عليه تحنانه للدعاة الذين سيأتون من بعده إلا أن يكون في مقدمة من يتجرعون غصص الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، لئن كان الدعاة إلى الله من بعده سيتعرضون للأذية سخرية بالألسن فليكن هو أول من يتعرض لذلك، ولئن كان في الدعاة من بعده من ستضطرهم الدعوة إلى الهجرة عن الأوطان والبلاد فليكن محمد صلى الله عليه وسلم أول هؤلاء الناس تجرعاً لذلك، ولئن كانت الدعوة إلى الله عز وجل تضطر الدعاة من بعده أن يصبروا على شظف العيش فليكن محمد صلى الله عليه وسلم أول من يتحمل ذلك،

عباد الله لو أن محمدا صلى الله عليه وسلم فضَّل أن يأوي إلى ركن ركين من الحماية والدَّعةِ والبعد عن الأذية لاستجاب الله عز وجل طلبه، لكنه التحنان، لكنها الرحمة منه للدعاة إلى الله سبحانه وتعالى من بعده، وهكذا فإن الذين يشرفون بنشر رسالة الله اليوم في الآفاق إذا أصابهم رشاش مما قد أصاب المصطفى صلى الله عليه وسلم ينتشون فرحاً بأنهم قد ضربوا بسهم مما قد نال المصطفى صلى الله عليه وسلم وبأنهم قد تجرعوا شيئاً من الأذية التي تجرعها رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، تلك هي الحكمة الأولى.

أما الحكمة الثانية فإنه تعليم من المصطفى صلى الله عليه وسلم لنا عن طريق وسيلة إيضاحية تتمثل في شخصه وبواسطة تعليم ميداني يتمثل في سلوكه، تُرى عندما يواجَهُ المسلمون، لاسيما الدعاة إلى الله عز وجل، من بعده بأنواع السخرية، بأنواع الأذى يتجه ذلك كله إنْ إلى الإسلام وجوهره أو إلى محمد صلى الله عليه وسلم وسيرته أو إلى الدعاة الذين تشرفوا بأن يتبوءوا مكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في الدعوة كيف ينبغي أن يواجه المسلمون سخرية الساخرين، أذية الذين يتقدمون إلى الإسلام بهذه الأنواع من الأذى؟ أرانا رسول الله الجواب عن هذا السؤال لا بكلام نظري بل بسلوكه العملي، أوذي كما تعلمون ولم يكن إيذاء أهل الطائف له الصورة الأشرس والأسوأ من أنواع الأذية بل أوذي شراً من ذلك الأذى، ألقيت كما تعلمون الأقذار على رأسه وهو ساجد أمام كعبة الله المشرفة، وقد وصلت إلى أذنيه أنواع من الأذية والتهديدات والوعيد من أباطرة الرومان ومن غيرهم فماذا كان موقف رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم؟ لم تشغله الأذية ولم تشغله أنواع السخرية التي كان تطوف به وتأتيه من بعيد أو قريب، لم يشغله شيء من ذلك عن السير في الطريق الذي أمره الله أن يسير فيه لم يشغله شيء عن ذلك، عن نشر رسالة الله سبحانه وتعالى في الأرض إطلاقاً، لم يتحول لا إلى اليمين ولا إلى الشمال، لم ينشغل بهؤلاء الذين تعرضوا له بالسخرية أو الأذى أنواعاً وأشكالاً إطلاقاً، لم يشر ولم ينوه ولم يأمر الناس أن يخرجوا في مسيرات يملؤون بها الشوارع بشكل من الأشكال، لا، الوقت أضيق من ذلك وعمر الزمن قصير ورسالة الله سبحانه وتعالى حُمِّلَهَا ولابد أن يؤديها، وما شأن هؤلاء الساخرين وما موقفك منهم؟ الموقف الذي اتخذه منهم وعَلَّمَنَا أن نتخذ الموقف ذاته أن ندعو الله لهم بالهداية، أوذي رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل الطائف كما تعلمون وطردوه شر طردة، ثم أوذي بعد ذلك عندما حاصر الطائف وتمطرت سهام المشركين من حصون الطائف على المسلمين وقُتِلَ من قُتِل، وفي صباح اليوم الثاني بعد حصار دام قرابة عشرين يوماً أمر رسول الله أصحابه بالرحيل، قال قائل منهم له يا رسول الله ادع الله على ثقيف فرفع يديه وقال: اللهم اهد ثقيفاً وات بهم مؤمنين.

عباد الله هذه الحكمة الثانية درس بلَّغَنا إياه رسول الله صلى الله عليه وسلم من وراء القرون وكم نحن بحاجة إلى أن نتلقى هذا الدرس المقدس اليوم، وكم نحن بحاجة إلى أن نتدبره ونتأمله ونصطبغ به ونحن الذين نشرف بأن بوأنا الله سبحانه وتعالى المكانة التي سما رسول الله صلى الله عليه وسلم إليها نبياً

بل خاتماً للرسل والأنبياء، ما أشبه الليلة بالبارحة الأذى لا يمكن أن يتوقف، والصراع بين الحق والباطل سنة قضى بها الله سبحانه وتعالى ولعلي ذكرت لكم هذه السنة قبل أسبوعين أو ثلاثة أسابيع، لا يمكن أن تتوقف السنة الإلهية، السخرية تستمر، أنواع الأذى تستمر أيضاً فما الموقف الذي ينبغي أن نتخذه نحن؟ تعالوا نتأمل في الرسالة التي حمَّلَنَا الله إياها بعد رسول الله: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

هذه هي رسالتنا وهذا هو واجبنا، والمعنى الخطير الهام الذي تتضمنه هذه الرسالة والذي ينبغي أن نصطبغ به شعوراً ويقيناً هو أن نعلم أن علاقة ما بيننا، مبلِّغِين، وما بين الآخرين، سامعين ومبلَّغين، إنما هو الغيرة عليهم، إنما هو الشفقة عليهم، إنما هو الحب لهم، الدين النصيحة، ولا والله لا يمكن أن يكون الناصح عدواً مبغضاً، لا يمكن أن يكون الناصح إلا صاحباً ودوداً، من هذا المنطلق نبلغ رسالة الله، من هذا المنطلق نواجه الناس لا بالتهديد والدمار والانفجارات ولكننا نواجههم بالحوار كما كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ولئن طرق أسماعكم قول قائلين بأن الإسلام إنما كان شدة تخترق إنسانية الإنسان وطغياناً يخترق رحمة الإنسانية التي ينبغي أن يصطبغ بها فلتجعلوا من واقع الحال رداً على هذا الكلام الأخرق نجعل من منهجنا الذي نأتسي ونقتدي به برسول الله صلى الله عليه وسلم رداً على هذا الكلام، أوذي المصطفى صلى الله عليه وسلم وكان الإرهاب وكانت الأذية وكان الطغيان في الجانب الآخر أما محمد صلى الله عليه وسلم فلم يُعْرَف في يوم من الأيام أنه ادخر في قلبه الشريف إلا الرحمة بأمته سواء كانت أمة استجابة، من أمثالنا نحن، أو أمة دعوة كهؤلاء الذين يملؤون رحاب الأرض في مشارق الأرض ومغاربها، عباد الله ربما تطرق أسماعكم أخبار مثيرة مؤلمة، ألا فلتعلموا أنها خطة مدبرة وأنها مكونة من مرحلتين المرحلة الأولى الاستثارة، الاستثارة النفسية ولا أقول الشعورية، المرحلة الثانية الاستجرار إلى الفتن، وقد أكرمنا الله عز وجل بإسلام غرس في أفئدتنا من الوعي ما يتسامى فوق هذه الخطط، لنقل بلسان الحال، وإن شئتم بلسان القول أيضاً: لن نشغل أنفسنا عن الرسالة التي حملنا الله إياها، رسالة الإسلام التي كلفنا الله عز وجل أن نبلغها مشارق الأرض ومغاربها بدافع واحد لا ثاني له إلا هو دافع حب الإنسانية، الغيرة على الإنسان، الغيرة على أخي ألا يكون حطباً غداً في نار جهنم،

ألا يلومني غداً قائلاً لقد عرفت الحق فهلا ذَكَّرْتَنِي به في الدنيا، هذه هي رسالتنا وهذا هو شعارنا فليعلم القاصي والداني أننا لن نستجر إلى خطط ولن نستجر إلى إثارة فتنة أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.



١٥٦- آداب النصيحة | ٢٠١٠/٠٢/١٢

لقد أمر الله سبحانه وتعالى كما تعلمون أن يكون في المسلمين في كل عصر، في كل زمان ومكان من يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقومون بواجب النصح للأمة وصدق الله سبحانه وتعالى القائل: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم القائل: الدين النصيحة، قلنا لمن؟ قال لله ولكتابه ولرسوله لأئمة المسلمين وعامتهم، ولكن فلنعلم يا عباد الله أن لواجب النصيحة التي ينبغي أن يقوم بها الناصحون والآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر آداباً ينبغي أن يتحلَّوا بها، وأنا أوجز لكم ولنفسي بيان هذه الآداب.

أولاً ينبغي للآمر بالمعروف والناهي عن المنكر مهما كانت معارفه دقيقة ومعلوماته بدين الله واسعة ومهما كان مستقيماً على صراط الله عز وجل ألا تكون نصيحته من مستوى التعالي على المنصوح وألا يوجه أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر للناس وهو يتصور أنه يتعالى فوقهم ويتسامى عنهم في برجٍ عاجيٍّ هم كلهم دونه في ذلك.

ينبغي أن يعلم أنه ربما كان في هؤلاء العاصين الذين يذكرهم بالله والذين يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر من هم خيرٌ منه ولو كان في المآل والنتيجة ومن ثم فينبغي إن هو نصح وإن هو أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ألا يُكَفِّرَ وألا يُفَسِّقَ وألا ينسب هذا الذي ينهاه عن المنكر إلى كفرٍ أو تبديعٍ أو فسقٍ أو زندقةٍ أو نحو ذلك بل ينبغي أن يعلم أنها وظيفة أقامه الله عز وجل عليها وربما آل الأمر إلى أن يكون هذا العاصي غداً خيراً منه وربما آل الأمر إلى أن يكون هذا الناصح قد وقع في غضب الله عز وجل وسخطه.

ما ينبغي أن ينظر الناصح إلى الأمة نظر المتشائم، نظر من يتصور أن الأمة لم يعد فيها خير وأنهم جميعاً فسقة، هذه نظرة شيطانية يوسوس بها الشيطان الناصحين أو الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾، ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى

أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾، ويقول المصطفى صلى الله عليه وسلم فيما اتفق عليه الشيخان: ﴿من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة﴾، ويقول: ﴿من قال هلك الناس فهو أهلكهم﴾ وفي رواية ﴿فهو أولهم هلاكاً﴾.

نعم. ينبغي للناصح ألا يجعل من نصيحته سَكَرَاً يطوف برأسه، ينبغي للآمر بالمعروف والناهي عن المنكر ألا يتصور أنها مكانةٌ باسقة بَوَّأَه الله إياها بل ينبغي أن يتصور أن هذا العاصي ربما كان في المآل خيراً منه، ربما لقي الله وهو واحدٌ من أولياء الله عز وجل، ذلك هو الأدب الذي ينبغي أن يتحلى به الناصحون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر.

فماذا عن الذين يتلقون النصيحة؟ هؤلاء أيضاً يخاطبهم الله عز وجل ويذكرهم بأدبٍ من أهم الآداب التي ينبغي أن يتحلوا بها.

إذا تلقيتُ النصيحة من ناصحٍ ينبغي أن أتطامن لها وينبغي أن أتذكر أنني بشرٌ يجوز عليه الخطأ والنسيان ولست ملكاً من الملائكة فما أسرع أن أخطئ وما أسرع أن أتنكب عن الصواب ومن ثم ينبغي أن أصيغ السمع إلى هذا الذي ينصحني فأستقبل نصيحته بالامتنان وأتوجه إلى الله بالاستغفار، أستغفره من الذنب الذي أعلم ومن الذنب الذي لا أعلم، فإن قال قائل ولكني نظرت إلى نفسي ولم أجد أني ارتكبت إثماً أو أني تورطت في معصية ففيم أستغفر؟ ذكرته بقول الله عز وجل: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، خطاب عام شمل حتى الأنبياء والرسل ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ﴾، أذكره بقول رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: ﴿إنه ليغان على صدري فأستغفر الله في اليوم مئة مرة﴾، أذكره بأن المصطفى صلى الله عليه وسلم لم يجد غضاضة في أن يعلن لتلك المرأة التي جاءت تقول إن زوجي ظاهرني منه فما العمل؟ قال لها: ﴿ما أراك إلا قد حَرُمْتِ عليه﴾ ثم تبين له أنها لم تحرم عليه وأن ذلك ليس طلاقاً وإنما هو ظهار وللظهار شأن وحكم آخر، لم يجد رسول الله صلى الله عليه وسلم غضاضة في أن يستقدمها وأن يبَيِّنَ لها أن جوابه لها لم يكن هو الحق وأنبأها بما أنزله الله عز وجل، ورسول الله صلى الله عليه وسلم متعالٍ عن الانحراف والولوغ في الخطأ لكنه تعليم منه صلى الله عليه وسلم لنا، بيان منه عليه الصلاة والسلام لأمثالنا بل لمثلي إذا تورطتُ في مثل هذا الموقف في خطأ

وجاءني طفلٌ فذكرني بأني قد أخطأت ينبغي أن أقف هذا الموقف ذاته فيما بعد وأعلن عن خطأي وأعلن أن طفلاً قد أصاب وأرسله الله إلي لكي يوقظني من خطأي ولعل ذلك دليل محبة الله عز وجل لي.

إن قال قائل لقد ذُكِّرْت ونُصِحْت ولكنني لم أتورط في خطأ أذكِّرُه بالخلفاء الراشدين، أذكِّرُه بعمر بن الخطاب أمير المؤمنين كيف كان يتلقى نصح الناصحين، ينغض الرأس لذلك، كيف استقبل تخطئة امرأة خطَّأته فأغضى الطرف والرأس لها وأذعن لأنها هي التي أصابت وأنه هو الذي أخطأ، هذا هو الأدب الذي ينبغي أن يتحلى به الناصح إذا نصح وهذا هو الأدب الذي ينبغي أن يتحلى به الإنسان المنصوح إذا تلقى النصيحة، إذا تلقى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

عباد الله نحن جميعاً عبادٌ اصطبغت كياناتنا بذل العبودية لله ومن أبرز مظاهر هذه العبودية أننا خطاؤون كما قال رسول الله وأننا لسنا معصومين فإذا رأيت، أنا أقولها عن نفسي، إذا رأيت من وقف في طريقي ناصحاً، مذكراً، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر ونظرت فوجدت ميزان الشرع يؤيده ينبغي أن أُقَبِّلَ يده وينبغي أن أعلن أنني قد أخطأت وأرسل الله لي تفضلاً منه وإحساناً من ينصحني، ولكن في الناس يا عباد الله من تحكم عليهم العصبيات وتسيرهم الأهواء والشهوات، في الناس اليوم من إذا سمعوا نقد العلماء والدعاة متوجهاً إلى رجال الحكم وقادة الأمة طربوا لذلك وربما صفقوا لذلك وأُعْجِبُوا بذلك أيَّما إعجاب فإذا حوَّل هذا الإنسان نقده إليهم وتوجه بالنصح إليهم وذكرهم بأخطاءٍ يرتكبونها وبمعاصٍ يوغلون فيها ضاقوا بذلك ذرعاً وتألموا لهذا وذاك ما السبب يا عباد الله؟

السبب غياب نعمة الإخلاص لله سبحانه وتعالى، إن لم نجد في الناصحين من يتحلون بالأدب الذي ذكرته لكم فَمَرَدُّ ذلك إلى أن هؤلاء الناصحين لا يخلصون في عملهم لله سبحانه وتعالى وربما كانت لهم دوافع نفسية متنوعة مختلفة، وإن رأينا في الناس الذين يتلقون النصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من يتبرمون ويضيقون ذرعاً بذلك فإنما مَرَدُّ ذلك أيضاً إلى غياب الإخلاص لوجه الله عز وجل، فيا رب أنَّى لنا أن نتلقى منك نعمة الإخلاص، كيف السبيل إلى تغرس في قلوبنا وبين جوانحنا نعمة الإخلاص لوجهك حتى لا نرى في الكون سواك وحتى لا نقيم وزناً لأنفسنا ولا لشيءٍ سواك؟ يأتي الجواب فيقول: الإخلاص سرٌّ من أسرار الله يودعه الله في قلوب من أحب من عباده، فيا ذا الجلال والإكرام، يا ذا

الطول والإنعام نسألك اللهم أن ترزقنا حبك حتى تكرمنا بنعمة الإخلاص لوجهك تغرسها بين جوانحنا كي نلقاك وهو رأس مالنا إذا أُبنا إليك يوم يقوم الناس لرب العالمين، أقول قولي هذا وأستغفر الله.



١٥٧- نصيحة لكل أخ في الله (وخاصة منهم الدعاة) | ٢٠١٢/٠٣/٢٣

إن من الواجبات الكفائية التي خاطب الله عز وجل بها عباده في محكم تبيانه وجود فئات من الصالحين الذين طهرت قلوبهم من السخائم وهيمنت الرحمة عليها بعباد الله سبحانه وتعالى، يمارسون وظيفة التعريف بالخير والدعوة إليه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ألم تقرؤوا قوله سبحانه: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

ولكن الآفة التي ابتليت بها أمتنا الإسلامية في هذا العصر أن في هذه الفئات التي تنهض اليوم بواجب التعريف بالخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فئاتٍ لا تعلم الحق إلا ذاك الذي هدته إليه عصبيتها أو طالعه عليه مزاجها أو اقتضاه تحزبها أو دعته إليه مصالحها، ذلكم هو الحق فيما يعرّفون الناس به وفيما يدعون إليه، فإن تنكب متنكب عن هذا الذي يدعونهم إليه اتُّهِموا بالفسوق أو الابتداع وربما اتهموا بالتكفير وربما أهدروا دماءهم.

ميزان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إنما هو الثوابت المستقرة في كتاب الله سبحانه وتعالى وهدي محمد صلى الله عليه وسلم، ولكننا ننظر فنجد في هذا العصر أناساً – أقول أناساً، وأسأل الله عز وجل أن يكونوا قلة – يرون أن الحق ما تسكن إليه أمزجتهم، ما يتعلق بمصالحهم، ما تدعوهم إليه تحزباتهم، إذا تعارضت هذه مع صريح كتاب الله وصريح كلام رسول الله فإن الغلبة – ويا للأسف – تكون للأمزجة، تكون للمصالح الشخصية، تكون للأنانيات الحزبية، وهكذا. فلقد رأينا في هؤلاء الناس من يوزعون تهم الفسق والابتداع وربما التكفير على كثير من الناس رشَّاً دون تفصيل ودون تبيان ودون استثناء.

وأقول لهؤلاء الإخوة: إن علماء الشريعة الإسلامية عندما وصفوا الناس الذين ينبغي أن ينهضوا بهذا الواجب وصفوهم بصفات في مقدمتها الرحمة بعباد الله، في مقدمتها أن يكونوا ربانيين، في مقدمتها أن تكون قلوبهم أوعية لمحبة الله، لتعظيم حرمات الله، في مقدمتها أن تكون لهم ساعات عهد ولقاء مع الله في الأسحار، تلك هي صفات الدعاة إلى الله سبحانه وتعالى، فلماذا ننظر فنجد أن في الدعاة من

يتصفون بنقائض هذه الصفات؟ ننظر إلى كتاب الله فنجده يبشر عباد الله سبحانه وتعالى بالمغفرة وننظر إلى أحاديث رسول الله وإذا هي الأخرى تبشر بالمغفرة، يقول الله عز وجل: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

ويروي الشيخان من حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من لقي الله لا يشرك به شيئاً حرَّمه الله على النار».

روى الحاكم في مستدركه وأبو داود من حديث معاذ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله لم تمسه النار».

يروي النسائي من حديث أبي عميرة الأنصاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أني رسول الله لا يلقى اللهَ يوم القيامة عبدٌ يؤمن بهما فتمسه النار».

يروي الحاكم في مستدركه بسند صحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن أمتي أمة مرحومة مغفورة متاب عليها» وفي رواية بزيادة «لا يُدرى أولها خير أم آخرها خير».

ويروي مسلم في صحيحه وأحمد وأبو داود من حديث جابر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله».

يروي مسلم في صحيحه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من قال هلك الناس فهو أهلكهم» وفي رواية: «من قال هلك الناس فهو أولهم هلاكاً».

يا هذا، لماذا تدعو الناس إلى الله عز وجل بقلب مليء بالضغائن، مليء بالأحقاد، مليء بسوء الظن؟ لماذا تدعو الناس إلى الله وأنت موقن – لا ظان – بأنك أنت وحدك على الحق، أنك من الفئة الناجية وأن كل من خالف اجتهادك وخالف منهجك الذي تتبعه فهو ضال وربما كان كافراً وربما أهدرت دمه؟ كيف يا أخي؟ أموقن أنت أن هؤلاء الذين تتهمهم بما شئت من الفسوق والابتداع بل الكفر، أموقن أن الواحد منهم لن يصبح في الغد القريب خيراً مني ومنك؟ أموقن أنك – وأنت تعتد بنفسك – أنني وإياك عندما نمتد على فراش الموت ونعالج برحاءه لن تنسينا برحاء الموت شهادة أن لا إله إلا الله؟ أموقن أنت بهذا حتى تصنف نفسك وحتى أصنف نفسي معك في الناجين من عباد الله وحتى نصنف التائهين مع الكفرة، مع الفاسقين، مع الفجرة؟

من كان فضيل ابن عياض يا أخي؟ ألم يكن قاطع طريق؟ ألم يكن مرتكباً للفواحش؟ إلام آل أمره بعد ذلك؟ ألم يكن واحداً من كبار الربانيين، من كبار عباد الله الصالحين؟

من كان بشر الحافي؟ ألم يكن مسرفاً على نفسه؟ ألم تكن الدنيا قد أسكرته بأهوائها وشهواتها ثم إنه آل إلى الإنسان الذي ضُرِبَ به المثل في التقوى وفي البعد لا أقول عن المحرمات بل عن الشبهات وبالورع العجيب؟

من كان عبد الله بن المبارك وإلام آل أمره؟ أموقن أنت يا أخي أنني وإياك إذا حانت سكرة الموت سنبقى على هذه الحالة، على هذه الاستقامة؟ إذاً فأنت تأمن مكر الله، والله يقول: ﴿فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

ألم تسمع حديث رسول الله المتفق عليه: ﴿يُلْقَى بالرجل يوم القيامة في النار فتندلق أقتاب بطنه في النار فيدور فيها كما يدور الحمار بالرحى فيقال له: مالك؟ ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ يقول: بلى ولكني كنت آمر بالمعروف ولا آتيه وكنت أنهاكم عن المنكر وآتيه﴾.

أموقن أنت يا أخي أنني وأنت لن نكون غداً إذا قام الناس لرب العالمين من هؤلاء الفئات؟! ربنا سبحانه وتعالى فتح باب رحمته لعباده جميعاً وجلبهم إليه بهذه الرحمة، ورسولنا الحبيب يقول: ﴿بشروا ولا تنفروا﴾ أننفر بدلاً من أن نبشر. يقول حبيبنا محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿يسروا ولا تعسروا﴾ أنعسر ولا نيسر؟!

إذا خالفني زيد من الناس في أمزجتي التي نُشِّئْتُ عليها، خالفني في مصالحي الذاتية، خالفني في مصالحي الحزبية الأنانية، أصنفه من أجل ذلك في التائهين، أصنفه من أجل ذلك في البعيدين عن رحمة الله سبحانه وتعالى؟

أيها الإخوة: كأني بكم تتساءلون – وأنا أتساءل معكم – عن العلاج الذي يسمو بالإنسان فوق هذا المنحدر، العلاج الذي يجعل بالإنسان قائماً بواجب التعريف بالخير والأمر به، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دون أن يقع في هذا الحضيض والسبيل إلى ذلك.

كيف السبيل إلى ذلك ونفوسنا الأمارة بالسوء تقف لنا بالمرصاد؟ سبيل ذلك أيها الإخوة أن نزكي قلوبنا، سبيل ذلك أن نبذل كل ما نملك من جهد لغرس محبة الله بين جوانحنا، محبة الله عز وجل إذا غرست في أفئدتنا طردت حظوظ النفس، طردت الشهوات والأهواء، طردت الأنانية الشخصية والأنانية الحزبية، طردت ذلك كله وتحول القلب إلى وعاء نقي صافٍ من الأدران ينبض بحب واحد لا ثاني له ألا وهو الله.

ولعلكم تتساءلون فكيف السبيل إلى أن نغرس بين جوانحنا محبة الله سبحانه وتعالى؟ سبيل ذلك – عجباً لمن يسأل عن هذا السبيل – عندما تنظر فتجد أن الله قد أحبك فرزقك نعمة الإسلام، إذا نظرت فوجدت أن الله قد أحبك فرزقك نعمة الإيمان به، إذا نظرت فوجدت أن الله قد أحبك فساقك إلى هذا المكان لتركع وتسجد له، إذا نظرت فوجدت أن الله قد أحبك وأقدرك على أن تقف بين يديه تقول له: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]. إذا نظرت فوجدت أن الله قد أحبك فأكرمك بنعيم الدنيا أشكالاً وألواناً، اعتصر من سمائه وأرضه رزقاً لك، إذا نظرت فوجدت نعمة العافية تتضرج في كيانك، ماذا تعلم؟ تتبين من ذلك أن الله يحبك، أجل والله الذي لا إله إلا هو إن الله يحبنا، يحبنا إذ أكرمنا بنعمة معرفته، يحبنا إذ أكرمنا بنعمة الوقوف بين يديه، أحبنا لأنه يكرمنا بالسجود له. فإذا عرفت أن الله يحبك ألا تبادله يا أخي حباً بحب؟! لابد أن يتفجر حب الله بين جوانحك، فإذا هيمنت محبة الله عز وجل على قلبك طردت هذه المحبة ظلمات الأغيار، لم يبق في قلبك متسع لشيء آخر، عندئذٍ تنظر إلى عباد الله سبحانه وتعالى وتتأمل فيهم فتجد أنهم جميعاً خير منك، إن لم يكونوا خيراً منك اليوم فلسوف يكونون ربما خيراً منك غداً. ولقد كان من دأب سيدي الشيخ أحمد الرفاعي إذا جلس إليه تلامذته ومريدوه من حوله ينصحهم ويعظهم وقف قائلاً: حُشِرْتُ مع فرعون ونمرود وهامان إن كنت أرى نفسي خيراً من أي واحد منكم، أنا أحمد اللاش، أنا لاش اللاش، أنا لا شيء ولكن الله عز وجل أقامني في هذا الذي أقامني فيه.

مطلوب منا – لاسيما نحن الذين نقوم بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر – مطلوب منا أن نتصف بهذه الصفة. من قال لك أن هؤلاء الذين يجلسون فيستمعون إليك أدنى منك شأناً عن الله؟ من قال هذا؟ لعلك تنظر إذا جاء الناس وقاموا لرب العالمين فتجد أن معظم هؤلاء الذين كنت تعلمهم

وتدعوهم وتأمرهم بالمعروف وتنهاهم عن المنكر تنظر فتجد أنهم خير منك وأنهم يتبوؤون أماكن خيراً منك.

ثم إذا رأيت الفاسق، إذا رأيت الفاجر، ما أدراك أن الله سبحانه وتعالى سيتغمده يوم القيامة ويستره كما ستره في دار الدنيا؟ ألم تسمع بحديث رسول الله الصحيح: ﴿يُؤتى بالرجل يوم القيامة – نموذج مثله مليارات من الناس – يؤتى بالرجل يوم القيامة فيوقفه الله بين يديه ويسبل عليه ستره، يسأله: أتذكر المعصية التي ارتكبتها يوم كذا؟ يقول نعم يا رب، يقول أتذكر المعصية التي ارتكبتها يوم كذا؟ يقول نعم يا رب، أتذكر المعصية التي ارتكبتها يوم كذا؟ يقول نعم يا رب، يقول: فلقد سترتها عليك في دار الدنيا وها أنا أغفرها لك اليوم﴾ لماذا لا نتخلق بأخلاق الله؟ لماذا لا نملأ قلوبنا رحمة بعباد الله؟ لماذا لا نجني من هذه الرحمة الوسيلة التي نجذب بها الناس إلى حمى الله سبحانه وتعالى.

هذه النصيحة أزجيها أولاً لنفسي – فأنا أحوج الناس إلى ذلك – ثم إنني أتوجه بها إلى كل أخٍ في الله. أسأل الله سبحانه وتعالى ألا يزجنا في التيه، أسأل الله عز وجل ألا يجعلنا ضحايا لشهواتنا وأهوائنا وحظوظ أنفسنا. أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

عباد الله: كان الناس ولا يزالون يسوسون في هذه الدنيا مصالحهم، ويقودون أنفسهم بالحكمة، وهي المعني بكلمة السياسة، إلى ما فيه مصالحهم وأسباب انتجاعهم للرزق والعيش الرغيد، ولكن المسلمين فيما مضى، الرعيل الأول من المسلمين، كانوا يمارسون هذه السياسة تحت شعار السياسة الإسلامية، أي يجعلون سياساتهم التي يقودونها أو تقودهم في مصالحهم المختلفة خاضعة للإسلام، ومن ثم يرفعون شعار السياسة الإسلامية، خلف من بعد أولئك الناس خلف ونظرنا فوجدنا أن ذلك الشعار اختفى رويداً رويداً ليظهر في مكانه الإسلام السياسي، أي الإسلام الخاضع للسياسة، ونظرنا فوجدنا ناساً من الناس وأسأل الله أن يكونوا قلة يخضعون الإسلام لما تقضيه أمزجتهم السياسية، ربما أفتوا بالأمس بأمر من الأمور بالحل وأفتوا به ذاته اليوم بالحرمة، وربما فعلوا النقيض، ربما أعلنوا عن أمر من الأمور أنه محرم ونسمع اليوم وهم يؤكدون أنه حلال، ربما كان الشيء الذي حرّمه الله في كتابه محرماً في فترة من الفترات، وإذا بنا نسمع من يقول: لا إنها غدت مباحة، وهكذا فلقد كان الشعار من قبل سياسة الإسلام، أي السياسة

التي ينبغي أن يهيمن عليها الإسلام، ونظرنا اليوم فإذا بالشعار قد نكّس وأصبح الإسلام السياسي، أي الإسلام الخاضع للسياسة.

أسأل الله عز وجل أن يجنبنا المزالق، وأن يطهر قلوبنا من الآفات كلها.





أهمية الدعوة

١٥٨- لتَنْهَونّ عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم | ١٩٩٠/٠٨/١٠

لقد وصفَ اللهُ سبحانهُ وتعالى الإنسانَ في محكمِ تبيانهِ بالضّعف، فقالَ عزَّ من قائل: ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾.وضعفُ الإنسانِ يجرّهُ إلى الانحراف، ويجرّهُ إلى ارتكابِ الأخطاء، ويجرّهُ إلى نسيانِ العهدِ الذي بينهُ وبينَ اللهِ سبحانهُ وتعالى، وليسَ في شيءٍ من ذلكَ من عجب لا سيّما إن تذكّرنا قولَ المصطفى صلّى اللهُ عليهِ وسلّم:﴿كلُّ بني آدمَ خطّاء وخيرُ الخطّائينَ التّوّابون﴾.

ولكنَّ المشكلةَ التي قد لا نرى حلّاً لها، والانحرافَ الذي لا يقبل، وقد لا يُغفَر، عندَ اللهِ سبحانهُ وتعالى: أن لا تُغطّى المعاصي التي يرتكبها النّاس بتذكرةٍ من خير، وبأمرٍ بالمعروف، وبنهيٍ عن المنكر.

كلّما لوحِقَتِ المعاصي التي يرتكبها الأفراد أو التي يزجّ فيها الجماعات بتذكرةٍ تأتي من هنا أو هنا، وبالقيامِ بواجبِ الأمرِ بالمعروفِ والنّهيِ عن المنكر، فإنَّ المأمولَ من كرمِ اللهِ سبحانهُ وتعالى وفضله: أن يصفحَ عن المجتمعِ الذي تشيعُ فيهِ هذه المعاصي على أقلِّ تقديرٍ في الدّارِ الدّنيا. ولكن إذا شاعت المعاصي وكَثُرَتِ الانحرافات، ولم تستتبع هذه الانحرافات بالتّذكرةِ وبواجبِ الأمرِ بالمعروفِ والنّهيِ عن المنكر، فتلكَ هي المصيبةُ الفادحة، وذلكَ هو المؤشّرُ الخطير الذي ينذرُ بغضبِ اللهِ سبحانهُ وتعالى.

أن يكونَ النّاسُ معصومين: هذا شيءٌ لا يقوى عليهِ الإنسانُ ما عدا الرُّسُلِ والأنبياء. ولكنَّ النّاسَ يستطيعون أن يعالجوا معاصيَهم بالتّذكرة، يستطيعونَ أن يعالجوا انحرافاتهم بواجبِ الأمرِ بالمعروفِ والنّهيِ عن المنكر. بهذه الشّعارات، أو بهذه الوظيفة التي أمرهمُ اللهُ سبحانهُ وتعالى بالقيامِ بها.

وقد يقولُ قائل: ما فائدةُ الأمر بالمعروفِ والنّهيِ عن المنكر بينَ أناسٍ ضربتِ المعاصي فيما بينهم جذوراً راسخةً لها؟ ما فائدةُ التّذكرةِ بالحقِّ بينَ أناسٍ ارتفعت رؤوسهم إلى أعلى حدودِ الكبرياء، فهم لا يأبهونَ بالتّذكرة، ولا ينصاعونَ لموعظة. هذا السّؤالُ كثيراً ما يتكرّرُ ويتردّد، ولكنَّ هذا السّؤالَ نتيجةُ جهلٍ بالحكمةِ التي من أجلِها وظّفنها اللهُ سبحانهُ وتعالى في هذا الواجب. صاحبُ هذا السّؤالِ يخيَّلُ إليه أنَّ الذي يذكِّرُ هو الذي يجتث المعاصيَ من القلوبِ أو البيوتِ أو المجتمعات، صاحبُ هذا السّؤال يخيَّلُ إليهِ أنَّ الذي يأمرُ بالمعروف وينهى عن المنكر إنّما يقوى بأمرهِ ونهيه على تغييرِ أعمالِ النّاس وتغييرِ اتّجاهاتهم

وإزالةِ أسبابِ انحرافهم. وهذا وهمٌ خطير، وباطلٌ من التّصوّرِ والاعتقاد، وقديماً خاطبَ اللهُ عزَّ وجلَّ رسولهُ قائلاً: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾. قلوبُ العبادِ بيدِ اللهِ عزَّ وجلّ، ومفاتيحُ الهداية بيدِ اللهِ سبحانهُ وتعالى. إذاً ما فائدةُ التّذكرة؟ ما فائدةُ الموعظة؟ أو وفائدةُ الأمرِ بالمعروفِ والنّهيِ عن المنكر؟

إنَّ فائدةَ ذلكَ كلِّهِ تتمثَّلُ في شيءٍ واحد: هو القيامُ بما أمرَ اللهُ سبحانهُ وتعالى. وظيفةٌ وظّفنا اللهُ عزَّ وجلَّ بها، مهمّةٌ حمّلنا اللهُ عزَّ وجلَّ شرفها، تبدأُ هذه المهمّة: بأن تصدعَ بكلمةِ الحقِّ بالحكمةِ واللطف، وتنتهي: بأن تدخلَ هذه الكلمةَ في آذانِ النّاسِ من حولك. ثمَّ إنَّ هذه المهمّةَ تتكرّر كلّما تكرّرت موجباتُها، وكلّما لاحت معاصٍ تستدعي التّذكرة بأنّها معاصٍ يبغضُها اللهُ سبحانهُ وتعالى. وليسَ لكَ من حق، وليسَ من شأنِكَ أبداً أن تتساءَلَ عن نتيجةِ كلامِك، أو عن جدوى تذكرتِك، ذلكَ لأنَّ مهمّتكَ مقطوعةٌ عن تلكَ النّهاية.

أمرٌ وظّفكَ اللهُ به، مهمّةٌ حمّلكَ اللهُ سبحانهُ وتعالى إيّاها، والنّاصرُ هو الله، والهادي هو اللهُ سبحانهُ وتعالى. وهو لا يُسأَلُ عمّا يفعل، وهم يُسألون.

إذا عرفنا هذا الجواب زالَ الإشكال. إذا عرفنا هذا الأمر عرفنا أنَّ الحصنَ الذي يمكنُ للمسلمين أن يحفظوا أنفسهم في داخلهِ ضدَّ المصائب، وضدَّ الرّزايا، وضدَّ ما توعّدَ اللهُ عزَّ وجلَّ بهِ عبادهُ من أن يلبس بعضَ عبادهِ شيَعاً ويذيقَ بعضَهم بأسَ بعض، الحصنُ الوحيدُ ضدَّ هذا: أن يشيعَ بينَ النّاسِ واجبُ الأمر بالمعروف، واجبُ النّهيِ عن المنكر، واقرأوا كتابَ اللهِ سبحانهُ وتعالى. كم تجدونَ هذا الأمرَ مكرّراً؟ وكم تجدونَ الوعيد مكرّراً في حقِّ من نامَ عن هذا الواجب؟ وغفلَ عن هذه المهمّةِ بل الوظيفةِ القدسيّةِ التي أناطها اللهُ سبحانهُ وتعالى بأعناقنا؟ جعلَ خيرية هذه الأمّة منوطةً بشيءٍ واحد: بقيامِها بهذه الوظيفة. ومعنى ذلك أنَّ صمّامَ الأمانِ ضدَّ كلِّ المصائبِ لهذه الأمّة يتمثّلُ في واجبِ الأمرِ بالمعروفِ والنّهيِ عن المنكر. ألم تقرؤوا قوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّه﴾؟ مصدرُ هذه الخيريّة: قيامُكم بذلكَ الواجبات.

ألم تقرؤوا قولَ اللهِ سبحانهُ وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾؟ هو السّؤالُ ذاتُه الذي يتطارحهُ -كما قلتُ لكم- كثيرٌ من النّاسِ اليوم. قالوا: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾. لكي نعذر أمامَ اللهِ أنّنا قمنا بما يجب، نطقنا بالحقّ، ذكّرنا إخواننا بالمعروف، أمرناهم به، ونهيناهم عن المنكر.

ولكن انظروا إلى الآيةِ التي تليها: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾. ﴿أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ﴾، أقلُّ المراتب أنَّ الأمّةَ التي تشيعُ فيها المنكرات، ويشيعُ فيها إلى جانب ذلك الأمرُ بالمعروفِ والنّهيُ عن المنكرِ والتّذكرةُ بالحقّ، فإنَّ اللهَ سبحانهُ وتعالى يجعلُ هؤلاءِ القائمينَ بأمرِ اللهِ في مأمنٍ من عذابه، بعيدينَ عن سخطه، هذا إذا كانَ القائمونَ بهذه المهمّةِ كثيرين. أمّا إذا كانوا قلّة، فإنّما ينطبقُ عليهمُ القانونُ الآخر الذي يعبّرُ عنهُ البيانُ الإلهيُّ في مكانٍ آخرَ إذا يقول: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾.

متى يكونُ ذلك؟ عندما يكونُ التّيارُ الكثيرُ الكبيرُ تيّارَ الانحراف، تيّارَ الفسوقِ والعصيان، وعندما تكونُ الأصواتُ المذكّرة والآمرةُ بالمعروفِ والنّاهيةُ عن المنكر أصواتاً ضعيفةً في كيفيّتها قليلةً في كمّيّتها. ذاكَ هو القانونُ الآخرُ المطبّق.

هذا المعنى ينبغي أن يكونَ ملجأنا في هذه العصورِ يا عبادَ الله، نحنُ ضعاف، لا نستطيعُ أن نكونَ على مستوى الاستقامةِ الدّائمةِ على أمرِ الله، لا نستطيعُ أن نكونَ على مستوى العصمة ضدَّ ما نهى اللهُ سبحانهُ وتعالى عنه، لكنّنا نستطيع وبكلِّ سهولة أن نلاحقَ المعاصي بالتّذكرة الحلوة، أن نلاحقَ المعاصيَ أيّاً كانَت ومن أيِّ جهةٍ صدرت بأمرٍ بمعروفٍ ونهيٍ عن منكر، فإن فعلنا ذلك تغمَّدَنا اللهُ برحمته وبغفرانه، أنا لا أستطيع أن أدعو الأسر كلها إلى أن تكون رقيبة ضد أي معصية تقع في بيتها. وإن طالبت الأسر بذلك فمعنى ذلك أني أتاركهم في سنة الله في عباده. وكل بني آدم خطاء، وما جعل الله العصمة لأناس أو لفئة حاشا الرسل والأنبياء، ولكني أستطيع أن أذكرهم بما لا يعجزون عن القيام به، أن يكونوا رقباء على بيوتهم أن يكون كل إنسان حارساً على داره، كلما رأى معصية وقعت، يجمع أسرته ليذكرهم بحق الله وليذكرهم بواجب الله وليحذرهم من مغبة عذاب الله تعالى إن استشرت هذه المعاصي، فإذا وقعت معصية أخرى بعد يومين جمع الأسرة مرة أخرى وذكّر وأنّب وحذر،

أنا لا أستطيع أن أطلب من المجتمع أن يكون مجتمعاً معصوماً لا يمكن هذا، لا بد أن أسير في الأسواق ولا بد أن أتوقع المعاصي التي أراها عن يميني وعن شمالي، ولكنني أستطيع أن أشيع التذكرة كما تشيع المعاصي، وأن أشيع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بقدر ما تشيع من المعاصي في هذا المجتمع ولا يعجزني ذلك شيء، فأنا إن فعلت هذا وإن فعل هذا سائر الإخوة المؤمنون عصمهم الله عن الهلاك وعصمهم الله عن المصائب والمعاصي، وإن وقعت المعاصي فيما بينهم.

ويا عجباً لمن يستبطئ هذه الوظيفة، ولمن يراها شابة، ولمن يتصور أنه رجلاً مكلفاً يحمل واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتذكرة بالحق هنا وهناك، عجيب أمر هؤلاء الناس، وكأنهم لا يقرؤون كتاب الله تعالى، وكأنهم لا يقرؤون قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ هذا أمر عام، يخاطب الله به العلماء والجهال والصناع والتجار وكل فئات الناس، ما الذي يعجزك – وأنت من المؤمنين – أن تسير في السوق، فإذا صادفتك معصية وقفت عند صاحبها تذكر وترشد وتحذر بلسان حلو وبكلام يستساغ، ما الذي يمنعك وأنت التاجر الذي تمارس التجارة في متجرك إذا جاءك إنسان متلبس بمعصية أن تجلسه عندك ضيفاً وأن تكرم وفادته لديك، ثم أن تحدثه وتذكره بالله.

ما الذي يمنعك إن جاءتك فتاة أو لقيت امرأةً جانحة مبتعدة عن دين الله أن تحدثها حديثاً عذباً تذكرها بواجب الله تعالى وأن تذكرها بحب الله تعالى.

ما الذي يعجزك إن عدت إلى دارك وأقبل إليك أقاربك وأرحامك مساءً، أن تجعل الحديث، حديث السهرة معهم، حديث تذكرة بحقوق الل،ه حديث إرشاد إلى دين، حديث تذكير بسطوة الله، أتظن أن هنالك عقبات تصدك عن هذا، لا والله.. لإن تراءت إليك العقبات فإن دخولك بأداء هذا الواجب يجعل من مظاهر فضل الله عليك أن يزيل هذه العقبات من طريقك، أم أنك تظن أن كلامك ممجوجاً ثقيلاً على الأسماع، إن الإله تقوم بما أمرك به من أجله خالصاً لوجهه يجعل كلامك مقبولاً في الأسماع على النقيض مما تتصور، يجعل كلامك مؤثراً في القلوب على النقيض مما تتصور، ولكننا عن هذا الواجب معرضون، وكلنا يتصور أنها ليست مهمتنا وإنما مهمة من يسمون زوراً وبهتاناً برجال الدين، أين هذا مما جاء في كتاب الله أو في سنة رسول الله أو فيما كان عليه السلف الصالح.

مصيبتنا أيها الإخوة ليست بالمعاصي والله يغفر المعاصي إن غطيت بهذه التذكرة، ولكن مصيبتنا أن أصحاب هذه المعاصي وأن كثيرين ممن يرون هذه المعاصي من حولهم يرقدون أمامها رقدة الموت أو رقدة أصحاب الكهف، ولسان حال أحدهم يقول: لا عليك لست أنا المسؤول عن ذلك رجال الدين هم المسؤولون. حتى أسرته الخاصة حتى أولاده وبناته، حتى ما كلفه الله تعالى به من واجب الرعاية لبناته لتربيتهن، يرى انه غير مكلف، إن وجد في وجه ابنته عقبه تصدها عن بلوغ مرضاة الله فليس عليه أن يحرك ساكناً وإنما هي مهمة رجال الدين، وإنما هي من تقصير رجال الدين، أما هو فعليه أن يرقد رقدة الموت كما قلت والله سبحانه وتعالى لم يكلفه شيء، ولكن الأمر ليس كذلك، ﴿كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته﴾ أين نحن من هذا الكلام.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أيها الإخوة هما صمام الأمان ضد المصائب ضد الشرور ضد الرزايا ضد كل مصيبة تسمعون بها او ترونها من حولكم، فانهضوا بهذا الواجب، وإلا فأنتم معرضون لنذير طالما حذر منه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ﴿لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لَيُسَلِّطَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ شِرَارَكُمْ، ثُمَّ يَدْعُو خِيَارُكُمْ فَلا يُسْتَجَابُ لَكُمْ﴾.

١٥٩- حراسة الدين.. شرف يمنحه الله للموفقين من عباده | ١٩٩٧/٠٦/٠٦

عندما نُذكر أنفسنا ونُذكر إخواننا بواجب النهوض بحراسة هذا الدين، وواجب القيام بما وظفنا الله سبحانه وتعالى فيه من واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما قد حدثتكم في الأسبوع الماضي، فمعاذ الله أن يكون دافعنا إلى ذلك أن نتصور بأننا نحن الذين نحمي هذا الدين من السهام المصوبة إليه، وبأننا نحن الذين ننسج الحصن الذي يقيه من شر الأعداء والمعتدين، بل إننا لنعلم أننا لا نملك في هذا شروا نقير من الحول والقوة، وإنما هي وظيفة أكرمنا الله سبحانه وتعالى بها، ومهمة أقامنا الله عز وجل عليها، فيجب أن نؤدي ضريبة هذه المهمة، ويجب أن نؤدي ضريبة هذا الشرف الذي متعنا الله سبحانه وتعالى به.

أما الانتصار لدين الله سبحانه وتعالى، فالذي ينتصر له هو ديّانه، وأما حراسة دين الله سبحانه وتعالى فالذي يحرسه هو ذاك الذي نزله وهو الذي قال في محكم تبيانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾

ينبغي أن نعلم هذه الحقيقة جيداً، ولكن ينبغي أيضا إذا علمنا أن الله سبحانه وتعالى هو الذي ينصر دينه وهو الذي يحمي شريعته، ينبغي أن لا تحملنا هذه الحقيقة إلى أن نتقاعس عن القيام بواجباتنا فنقول: إن للبيت رباً يحميه، لا... هذا شيء ألزم الله به ذاته العلية.

ثم إن هنالك شيئاً آخر ألزم الله به عباده. أمرهم أن يأمروا بالمعروف وأن ينهوا عن المنكر، وأن قوامين على حدود الله في بيوتهم، في أهليهم، في مجتمعاتهم جهد استطاعتهم، فتلك الحقيقة لا تُلغي هذا الواجب، وهذا الواجب ما ينبغي أن يُنسينا تلك الحقيقة.

وعندما أريد أن أؤكد هذه الحقيقة التي ينبغي أن نتبينها، فينبغي أن أُذكركم مرة أخرى بأن لا نجعل منها أداةً للكسل وللابتعاد عن ما أمرنا الله به، وللتخاذل عن القيام بالواجب الذي شرفنا الله سبحانه وتعالى به.

إن المصطفى صلى الله عليه وسلم يقول فيما رواه الطبراني: ﴿إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر﴾ والحديث صحيح، وسنده صحيح. ﴿إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر﴾؛ أي قد تجد أناساً يحاربون دين الله عز وجل ولا يألون جهداً في العبث بشرائعه وأحكامه ومعتقداته، وتنظر وإذا بقدر الله عز وجل قد سار بهؤلاء الناس بنقيض ما استهدفوه، تنظر وإذا بالله عز وجل قد جعل من مكائد هؤلاء الناس قبساً جديداً يُبصر عباد الله سبحانه وتعالى بدين الله عز وجل، هذه الحقيقة ماثلةٌ للعيان لو أننا تأملنا وتدبرنا.

الإنسان كما أنه لا يستطيع بلسانه وبيانه أن يجعل من نفسه حارساً لدين الله، فكذلك الهدامون لا يستطيعون ببياناتهم ولا بأقوالهم ولا بألسنتهم أن يحطموا شيئاً من دين الله سبحانه وتعالى، فلا أنا أستطيع أن أخلق الحماية لدين الله بجهدي ولا الآخرون يستطيعون أن يحققوا أسباب الهدم لدين الله سبحانه وتعالى بجهودهم بشكلٍ من الأشكال. ولأمرٍ ما أراد الله في بيانه المحكم هذه الحقيقة. فهو القائل: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾، ثم يؤكد البيان الإلهي هذه الحقيقة مرةً أخرى فيقول: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾. كلامٌ ربانيٌ مُنزل وحياً على رسوله محمدٍ صلى الله عليه وسلم، كلكم يقرأه صباح مساء.

وانظروا إلى واقع الدنيا كيف يصدق بيان الله سبحانه وتعالى.

لا أقولها – مرةً أُخرى أؤكد – لأدفع نفسي وأدفعكم للكسل والتقاعس عن النهوض بالواجب الذي شرفنا الله به، بل لأدفع نفسي وأدفعكم إلى مزيد من الاهتمام بالوظيفة التي شرفنا الله سبحانه وتعالى بها.

ولقد استوقفتني كلمة ﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾.

إذا تجاوزنا التعبير البلاغي الذي يشبه البيان الإلهي فيه المحاولات المختلفة التي يتفنن بها أعداء دين الله عز وجل بمن ينفخ نفخاً ضعيفاً جداً جداً في سراجٍ محصنٍ ضد العواصف، فضلاً عن نفخة فمٍ تافهةٍ لا قيمة لها، إذا تجاوزنا هذا التشبيه البليغ فلنتبين المعنى الذي ترسمه الآية لكلمة بأفواههم: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ بألسنتهم بقالة السوء التي يرددونها في حق الله وفي حق دينه، بالأكاذيب التي تنطق بها ألسنتهم وتلوكها أفواههم كذباً وافتراءً على الله سبحانه وتعالى. الفم هو مصدر حرب دين الله سبحانه وتعالى عند هؤلاء.

كيف يحاربون دين الله؟ بما يتقولونه، بما يفترونه، بما يكذبونه والأمثلة كثيرة وكلكم يعلم ذلك..

أداةٌ واحدة يطمعون من خلالها أن يطفئوا هذه الجذوة التي اتقدت منذ الأزل ولن تنطفئ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، يريدون أن يُطفئوا هذه الجذوة بالأكاذيب التي تصطنعها ألسنتهم والتي تلوكها أفواههم. فهذا هو معنى قول الله سبحانه وتعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ وكأنه يلفت نظرنا إلى جنون هؤلاء الناس، لو كان هذا النور شيئاً اخترعه أناس أمثالهم بطاقةٍ مما يأتي به البشر، لكان العقل يمكن أن يدفع هؤلاء الناس إلى أن يقاموا قوة بقوة مثلها، إلى أن يقاوموا خطة بشرية بخطة بشرية أخرى، ولكن مال لهؤلاء الناس يتحركون في وادٍ من الحماقة لا حدود له، إنهم يحاولون أن يطفئوا نوراً لم تشعله يد بشرية، ولم توجده طاقة إنسانية، وإنما هو نور الله سبحانه وتعالى ذاك النور الذي أشار إليه البيان الإلهي إذ قال: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾

كيف يمكن لإنسان تافه أن يُطفئ النور الذي أشرقت به السموات والأرض، ألا وهو نور الله سبحانه وتعالى، لا يمكن لهذا أن يتم أبداً.

وأعود بعد هذا فأقول عندما ذكرتكم في الأسبوع الماضي بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إنما أحمل نفسي وأحمل كل مسلم على تنفيذ هذه الوظيفة التي شرفنا الله عز وجل بها؛ دفعاً للضريبة التي طوقنا الله بها؛ ضريبة العبودية، ضريبة المنن التي أكرمنا الله سبحانه وتعالى.

أمرنا الله سبحانه وتعالى أن نكون جنداً من الجنود الذين شرفهم الله سبحانه وتعالى بالدعوة إلى دينه، بالدعوة إلى شريعته، بتعريف الناس بمولاهم وخالقهم سبحانه وتعالى، ولتعلموا أنكم إن نكصتم على أعقابكم ولم تحملوا هذا الشرف الذي شرفكم الله عز وجل به، فلسوف تطردون من دائرة هذه المكانة التي بوأكم الله إياها ولسوف يستبدل الله سبحانه وتعالى بكم آخرين ثم لا يكونوا أمثالكم.



١٦٠- بلغوا عني ولو آية فَرُبَّ مُبَلَّغٍ له أوعى ممن سمع | ٢٠١٠/٠٧/٠٩

صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال خطاباً لأمته جمعاء: ﴿بلغوا عني ولو آية فَرُبَّ مُبَلَّغٍ له أوعى ممن سمع﴾

عباد الله: لقد وعى السلف الصالح من أصحاب رسول الله وأتباعهم والتابعين من بعدهم هذا الأمر الذي وجهه رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم وإلينا. سمعوه فوعوه فنفذوه على خير وجه. انطلقوا إلى مشارق الأرض ومغاربها، انطلقوا إلى فجاج هذه المعمورة كلها يبلغون عن الله وعن رسول الله، يبلغون رسالات الله سبحانه وتعالى، ولعلكم تعلمون أنه ما من بقعة من بقاع الأرض المعمورة اليوم إلا وتحتضن قبراً لصحابي أو تابعي أو تابع تابعي.

وهكذا نفذوا ما خاطبهم به رسول وما خاطبنا نحن أيضاً به ﴿بلغوا عني ولو آية﴾ وإننا لننظر فنجد صلة وثقى بين هذا الذي أمرنا به رسول الله صلى الله عليه وسلم من خلف أربعة عشر قرناً وبين قوله صلى الله عليه وسلم: ﴿سيبلغ هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار﴾ حقاً لقد بلغ هذا الأمر – بلغ الإسلام – ما بلغه الليل والنهار، فما من عالَمٍ من العالم المعمور اليوم إلا وقد بلغه الإسلام، إلا وهو يتعرف على الأذان يطرق آذانهم كل يوم وليلة خمس مرات.

وينبغي أن نعلم أن هذا الذي قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿سيلغ هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار﴾ ينبغي أن نعلم أنه إخبارٌ وأمرٌ في وقت واحد. إنه إخبارٌ يتضمن هذه البشرى، ولكن كيف السبيل إلى أن يبلغ هذا الأمر الدنيا كلها التي عبَّرَ عنها رسول الله بما بلغه الليل والنهار، سبيل ذلك أن يجند الله عز وجل عباداً من عباده يبلغون رسالات الله سبحانه وتعالى، يبلغون كلمة الإسلام، يبلغون الحق الذي بُعِثَ به رسول الله صلى الله عليه وسلم

والآن تعالوا فانظروا يا عباد الله إلى ما فعله ذلك الرعيل الأول، ذلك السلف الصالح أصحاب رسول الله وأتباعه وأتباع أتباعه، استجابوا لأمر رسول الله، بَلَّغُوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما

قلت لكم، انقذفوا إلى بقاع الأرض كلها المعمورة آنذاك وطَهَّروا الأرض المستعمرة من المستعمرين وأعادوها إلى أربابها.

طهروا بلاد مصر والشام من الاستعمار الروماني وأعادوهما إلى حظيرة أرباب هاتين الدولتين بل البقعتين في العالم، طهروا كثيراً من بقاع إفريقية من الاستعمار الروماني وغيره وعادوا بعد أن أعادوا هذه البقاع إلى أصحابها آمنةً مطمئنة، إذاً نفذوا أمر الله عز وجل وأمر رسوله، حملوا رسالة الله إلى العالم كله، أبلَغوهم عقائد الإسلام، أبلغوهم شرائع الله سبحانه وتعالى، حملوا إلى العالم كله هدايةَ الإسلام حقاً ونوراً، نفَّذوا هذا الذي أمرهم به رسول الله ﴿بلغوا عني ولو آية﴾ وإن بقاع الأرض التي تحتضن قبور ذلك الرعيل الأول لخير شاهد على هذا الذي نقول.

هذا ما فعله ذلك السلف فماذا فعل المسلمون اليوم، أقول باختصار ما قاله الله عز وجل: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً﴾ [مريم: ٥٩]. بدلاً من أن يواصلوا ما فعله أسلافهم فيكونوا أعيناً رقباء على الحق يطردون البغي وأسبابه والطغيان وأسبابه لا أقول من حظيرة الإسلام بل من حظيرة الإنسانية بدلاً من ذلك طووا شعار الجهاد في سبيل الله لأن هذه الكلمة لا ترضي أعداء الله عز وجل وأعداء الإنسانية، طووها عن الذاكرة إلا من رحم ربك، أجل. ومكَّنوا للاستعمار الأمريكي أقداماً راسخة في بلاد المسلمين، مكنوهم من استلاب حقوقهم، من استلاب كنوزهم التي تستبطنها الأرض، مكَّنوا البغي الإسرائيلي من أن يزداد بغياً، من أن يزداد عتوّاً، حالف من حالف هذا البغي الإسرائيلي ليزداد استلاباً لحقوق المضطهدين أصحاب الأرض، أصحاب الممتلكات.

وهكذا نظرنا فوجدنا أن خلف ذلك السلف ساروا على النقيض مما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم، رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لهم (بلغوا عني) أي الرسالة التي شرَّفْتُكُمْ بها بل شرَّفكم الله عز وجل بها. وبدلاً من أن ينهض هذا الخَلَفُ بما قد نهض به ذلك السلف ننظر فنجد هؤلاء المسلمين – وأقول مرةً أخرى إلا من رحم ربك – يرفعون فوق رؤوسهم شعار الحداثة أو شعار العلمنة والعلمانية، وليت أن المراد بالعلمنة معناها اللغوي المعروف وهو إتباع العلم والابتعاد عما لا يتفق مع العلم إذاً لوجد أرباب العلمنة أنفسهم خاضعين للإسلام الذي خضع له العلم في عقائده وشرائعه ومبادئه وقيمه ولكن

المعنى الذي يتمسكون به لهذه الكلمة هو المعنى الذي آل إليه في المجتمعات الغربية: إبعاد سلطان الدين عن الحكم والإدارة، إبعاد سلطان الدين عن المجتمع الإسلامي متمثلاً في الحكم والإدارة.

ننظر ونقارن بين ذلك السلف وما فعلوه استجابة لقول رسول الله (بلغوا عني) وبين ما فعله الخلف ويفعله اليوم إلا من رحم ربك إعراضاً عن هذا الذي أوصى به رسول الله، والعجيب أنهم مع ذلك يشدون أنفسهم بانتماء شكلي إلى الإسلام ويشدون أنفسهم بانتماء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

عباد الله: إن الشيء الذي يدمي القلب، إن الشيء الذي يدخل الأسى والحياء الممض المذيب في طوايا النفس أنك تنظر فتجد كل يوم الآلاف المؤلفة يقفون أمام مثوى رسول الله صلى الله عليه وسلم كل واحدٍ منهم يقول: أشهد يا رسول الله أنك قد بلغت الأمانة ونصحت الأمة وتركت أمتك على بيضاء ناصعة ظاهرها كباطنها.

ليس مكان الشاهد هذا وإنما مكان الشاهد المؤلم المخجل الذي يذيب حياءً من رسول الله، الجواب الذي ينبغي أن تعلموه جميعاً صاعداً من فم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هذه الآلاف المؤلفة، ورسول الله ماثل فينا ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ٧] هكذا يقول الله سبحانه وتعالى. إنه يجيبهم جواباً يضرب على أغوار النفوس وإن لم تبلغه الآذان، إنه يقول لهم: حقاً لقد بلَّغْتُ الرسالة وها أنتم تعترفون بذلك فلماذا ضيعتموها وكان أسلافكم أمناء عليها.

حقاً لقد نصحت لكم وها أنتم تعترفون بذلك فلماذا ضيعتم النصح الذي نقلته إليكم نصيحة من الله عز وجل في حين أن أسلافكم حفظوه ونشروه ونثروه في سمع العالم كله، صحيح أني تركتكم على بيضاء نقية ظاهرها كباطنها ولكن ما لكم ضيعتم هذه الشرعة البيضاء النقية، ما لكم ترفعون بدلاً عن ذلك شعار الحداثة، ما لكم تبرمتم بل تتبرمون من هذه الشرعة البيضاء التي استأمنتكم عليها تتبرمون منها وتستخفون بها وتستبدلون بها ما تسمونه آناً الحداثة وآناً العلمانية أو العلمنة لماذا؟ هذا هو الشيء المؤلم يا عباد الله.

أصدقكم القول: كم أتيح لي السبيل إلى أن أذهب إلى مثوى رسول الله فأسلم عليه ولكن الذي يصدُّني عن الوقوف والمثول بين يديه هذا الجواب الذي قد لا تسمعه أذني ولكنه سيضرب في أغوار

نفسي، ولكنه سيمتزج في دقات قلبي، لسوف يذيبني هذا الذي يقوله لي رسول الله حياءً وخجلاً، ولسوف يؤلمني أشد الألم ما قد يَذَكِّرُني به رسول الله صلى الله عليه وسلم من التهديد الذي وجهَّه رسول الله إلى المضيِّعين يوم قال في حديث طويل قبيل وفاته: ﴿ألا ليذادن رجال عن حوضي – أي ليطردن رجال عن حوضي – كما يذاد البعير الضال فأقول ألا هلم ألا هلم فيقال: إنك لا تدري كم بدلوا من بعدك فأقول: فسحقاً فسحقاً فسحقاً﴾. اللهم لا تجعلنا يا رب من هؤلاء الذي يُطْرَدون عن حوض رسول الله يوم القيامة.

لا تجعلنا من هؤلاء الذين يقول رسول الله فسحقاً فسحقاً، يحرمون من شفاعته، يحرمون من المغفرة التي يكرمهم الله بها إرضاءً لرسوله، وبعد فلعل فيكم من يقول هلا حدثتنا عن الإسراء والمعراج والوقت وقته.

والجواب باختصار: ماذا عسى أن أقول في هذه المناسبة، وهل أملك إلا كلاماً مكروراً وشيئاً مُعاداً أذَكِّرُ أسماعكم به، ماذا عسى يفيدنا أن نتسلى بالكلام وها هي ذي فلسطين تُبَضَّع، وها هم أولئك أصحاب الأرض والحقوق والبناء والدور بين مُيَتَّمٍ ومُذَبَّحٍ وشارد والمسلمون من حول هذا التيه عاكفون على أهوائهم إلا من رحم ربك، عاكفون على حظوظهم، متعلقون بكراسيهم؟ ماذا عسى أن أقول كلاماً تجدون فيه مفتاحاً لحل مشكلة. لا أملك إلا الكلام المكرر المردود ولكني أملك ما هو خيرٌ منه؛ الالتجاء بالدعاء إلى الله. أقول قولي هذا واستغفر الله.



مشكلات الدعوة

١٦١- آداب يفتقدها الدعاة والمدعوون إلى الله سبحانه وتعالى |

١٩٨٤/١٠/٥٥

علمتم مما ذكرناهُ مراراً وفي مناسباتٍ شتّى، أنَّ الدعوةَ إلى اللهِ سبحانهُ وتعالى هو العمودُ الفقريُّ في المجتمعِ الإسلاميّ، بل إنَّ الدّعوةَ إلى اللهِ سبحانهُ وتعالى هو لبُّ الدّين، ومن أساسِه وجوهره، وإذا فرغَ المتجمعُ من دعاةٍ إلى الله، مرشدينَ إلى دينِ الله عزَّ وجلّ، وقد آل هذا المجتمع إلى بناءٍ تهاوت دعائمهُ لا بدَّ أن يتهاوى هو الآخرُ من وراءِ ذلك، كيفَ لا وإنَّ ربّنا جلَّ جلالهُ ليقول: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، ويقولُ عزَّ وجلّ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

ولستُ أريدُ أن أتكلّمَ الآن عن أهميّة الدّعوةِ في حياةِ المسلمين، فقد تكلّمنا في ذلكَ مراراً، ولكنّي الآنَ أريدُ أن أتكلّمَ عن طرفٍ من آدابِ الدُّعاةِ إلى اللهِ سبحانهُ وتعالى، وعن طرفٍ من آدابِ المسلمين إذ ينصتونَ إلى الدّعوةِ إلى اللهِ عزَّ وجلّ.

إنَّ على الدّاعي إلى ربِّهِ سبحانه أن يعلمَ هذه الآداب ويلتزمها ويتمسّكَ بها، كما أنَّ على النّاسِ جميعاً الذين يتلقّونَ هذا الإرشادَ والتّوجيه أن يعلموا الآدابَ التي ينبغي أن يصطبغوا بها.

على الدّاعي إلى اللهِ عزَّ وجلّ ألا يجعلَ الدّعوةَ إلى دينهِ متّكئاً لغيبة، ولا وسيلةً لفتنة، ولا مجالاً لفضحِ من سترهمُ اللهُ سبحانهُ وتعالى في معاصيهم، فما ينبغي للداعي إلى اللهِ عزَّ وجلّ أن يُعلِنَ عن أسماء سترها اللهُ سبحانه، وما ينبغي أن يجمعَ بينَ الدّعوةِ إلى ربّه، وهو أمرٌ يأمرنا اللهُ عزَّ وجلَّ به، وبينَ الغيبةِ التي ينهانا اللهُ سبحانهُ وتعالى عنها. وقد كانَ سيِّدُنا رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلّم أوَّلَ الدُعاةِ وسيِّدهم، فما كانَ يرفعُ سترهُم، وما كانَ يفضحُ أمرهم، وما كانَ يذكرُ العصاةَ بأسمائهم، وإنما كانَ من هديِهِ عليهِ الصّلاةُ والسّلام أن يقول: ﴿ما بالُ أقوامٍ يفعلونَ كذا، ما بالُ أناسٍ يفعلونَ كيتَ وكيت﴾.

وقد خطبَ مرّةً فيما يرويهِ مسلمٌ وأبو داوودَ فقال: ﴿لقد هممتُ أن آمرَ فتيتي فيأتوني بحزمٍ من حطب، فآتيَ أقواماً يُصَلّونَ في بيوتهم من غيرِ عذر، فأُحَرِّقَ عليهم بيوتهم﴾.

فما كانَ المصطفى عليهِ الصّلاةُ والسّلام وهو يقومُ ليُنكِرَ منكراً، ما كانَ ليربطَ بينَ المنكرِ وأصحابهِ بأسماءَ صريحةٍ علانية، وإنما كانَ يقولُ: ﴿ما بالُ أقوامٍ..﴾.

ثمَّ إنَّهُ صلى اللهُ عليهِ وسلّم لا يبالِ أن تقعَ هذه الكلمةُ أينَ وقعت، ولا يبالِ ان تلتصقَ هذه الكلمةُ بمن كانَ أهلاً بأن تلتصقَ به.

من آدابِ الدّعوةِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ أيضاً: أن يكونَ الدّاعي إلى ربِّهِ سبحانهُ وتعالى حكيماً. وأن يكونَ مندفعاً إلى الدّعوةِ والإرشاد بسائقِ حبٍّ وشفقةٍ ورحمة، لا بسائقِ كيدٍ وضغينةٍ وغلظة. فإنذَ نبيّنا عليهِ الصّلاةُ والسّلام حذَّرَ كلَّ التّحذيرِ من هذا، وأرانا في هديهِ العمليّ وسلوكهِ التّطبيقيّ كيفَ ينبغي أن يكونَ الدّاعي إلى ربِّهِ شفوقاً بالناسِ جميعاً، بمن فيهم من العصاةِ وغيرِ العُصاة، بل بالمسلمينَ وغيرِ المسلمين. لأنهم جميعاً مرضى، والداعي إلى اللهِ عزَّ وجلّ يقفُ منهم موقفَ الطّبيب، فإن لم يكن الطّبيبُ شفوقاً على مرضاه، فكيفَ يستطيعُ أن يحثَّ لهم عن العلاجِ والدّواء؟ تلكَ هي خلاصاتٌ بل طرفٌ من آدابِ الدّاعي إلى اللهِ عزَّ وجلّ..

ولكنَّ هنالكَ آداباً أخرى ينبغي أن يتّسمَ بها النّاس الذينَ يستقبلونَ التّوجيه والإرشاد، ويصغونَ إلى النُّصحِ والأمرِ بالمعروفِ والنّهيِ عن المنكر..

على المسلمين – عصاةً كانوا أم مستقيمينَ على أمرِ الله ونهجه — إذا أصغوا بآذانهم إلى نصيحةِ ناصح، أو موعظةِ مُذكّر، أن يستقبلوا هذا النُّصحَ بقلوبٍ صافيةٍ مؤمنةٍ خالصةً عنِ الغشِّ والزّغل، وأن يُحطِّموا حظوظَ نفوسهم، وأن يكنسوا الطّريق مما بينَ آذانهم وأفواهِ هؤلاءِ المرشدين من عقباتِ العصبيّة، ومن صدود الأهواء الشّخصيّة المختلفة المتنوّعة، فإنَّ المسلم إذا كانَ قد حجبَ نفسهُ عن الدّاعي إلى اللهِ سبحانهُ تعالى بعصبيّةٍ، أو بأنانيّةٍ، أو بهوىً من الأهواءِ المختلفة، فإنَّ هذا الإنسانَ لا يمكنُ أن يستفيدَ من نصيحةِ النّاصحِ أبداً، مهما كانَ النّاصحُ مخلصاً لربّه، ومهما كانَ قريباً من مولاه، ومهما كانَ من

الصّدّيقينَ والرّبّانيّين. بل لعلّهُ لو سمعَ تذكرةً من رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلّم وهو محصّنٌ نفسهُ في سجنِ عصبيّته وأهوائه والانتصارِ لذاته، فإنّ هذه الكلماتِ النّورانيّة التي تخرج من فمِ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلّم قد لا تلامسُ قلبه، وقد لا يتأثّرُ منها بشيء.

وذلكَ هو السّبب الذي من أجلِه لم يكن كثيرٌ من المشركينَ ليتأثّروا بنصائحِ المصطفى عليهِ الصّلاةُ والسّلام، فقد كانوا يضعون بينهم وبينهُ سدوداً، ما كانت هذه السّدود سدوداً من حجارةٍ ولا صخور، أهونِ بها من سدود، فإن الحجارة والصخور تناهلُ وتذهب، ولكنّها كانت صخوراً من حظوظِ النّفس، صخوراً من العصبيّة، إذا وجدَ أحدهم أنَّ كلمةَ هذا النّاصح تصيبُ كيانه، وتهزُّ كرامته، لوى الرأسَ وأعرض، وذهبَ لا يلوي لأنّه وجدَ هذا الكلامَ يلسعُه، ولما كانَ الميزانُ الذي وَضَعَهُ هذا الإنسان بينهُ وبينَ النّاصح ميزانَ جسمه، ميزانَ أنانيّته، ميزانَ عصبيّته، فلا بدَّ أنّهُ سيحسُّ بهذا كلّه، بمقدارِ تبلّدهِ عن إحساسٍ آخر، لم يحسّ أنَّ هذه النّصيحةَ تعالجُ منهُ مرضه، لم يحسّ أنَّ هذه النّصيحةَ تنسكبُ على داءٍ في قلبهِ بالشّفاء، نعم يا عبادَ الله.

إذا وقفَ المرشد لينهى عن الغشّ وليحذّرَ المسلمينَ منه، ووجدَ بعضُ الجالسين أن هذا الكلام يتّجهُ إليه، فما ينبغي أن يغضبَ ويرتدّ، وما ينبغي أن تأخذهُ الغضبةُ الجاهليّة فيغضبَ ويتأثّر، فإنَّ مثلُ هذا التّأثّر يفقدهُ جدوى هذا الكلام، إذا وقفَ المرشد ليتكلّمَ عنِ الرّشاوي ومدى خطورتها، ومدى عِظَمِ وقعها وجريرتها في ميزانِ اللهِ سبحانهُ وتعالى، ثمَّ أحسَّ بعضُ السّامعين أنّ هذا الكلامَ مفصّلٌ على قدره، وأن هذا الكلامَ ربّما كانَ متّجهاً إليه، فأقامهُ الغضبُ ولم يُقعده، وربّما أعرضَ عن المكانِ فلم يعُد يغشاهُ ويعودُ إليه، وربّما أخذَ ينظرُ إلى هذا النّاصحِ بعدَ ذلكَ شزراً، فتعقّدت نفسُهُ منه، لماذا؟ لماذا كلُّ هذا؟

هل فضحكَ النّاصح فتحدّثَ عنك؟ هل انطلقَ النّاصحُ الذي نصحك بدافعٍ غيرِ دافعِ الشّفقة، غيرِ دافعِ أن يُحبَّ لك ما يحبُّ لنفسه، وإذا رأيت أنَّ مغبّةَ هذا الذي يُحذّرك موجودةً في كيانك، فلماذا لا تحمدُ الله على أنّهُ قد بعثَ إليكَ من ينبّهك، وأرسلَ إليكَ من يرشدك، فتشكرُ اللهَ ولا تشكر النّاس؟ اشكرِ اللهَ سبحانهُ وتعالى وقلِ الحمدُ لله الذي أرسلَ إليَّ من بصّرني بخطئي.

وإذا قامَ المرشدُ أو الخطيبُ أو النّاصح يحذّرُ من بدعةٍ في العقيدة، من بدعةٍ فيما يتعلّقُ بكبدِ الإسلامِ وجوهره، يتحدّث عن سوء حال من يتجرّأُ على اللهِ بالفتيا، ومن يتجرّأُ بالعبثِ بكلامه، فما ينبغي لأحدٍ من السّامعين أن تهزّهُ الغضبة، بدافعٍ من العصبيّة أو القرابة أو أيّ معنىً من هذه المعاني دونَ أن يضعَ في الميزان، ترى هل هذا الكلام صحيح؟

ترى هل هذا الذي يقولهُ هذا النّاصح كلامٌ صافٍ عن الزغل؟ سليمٌ في ميزانِ القرآنِ والإسلامِ وهديِ ذلك؟ لو أنَّ هذا الإنسانَ وضعَ عصبيّتهُ تحتَ قدميه، وأرادَ فقط أن يصغيَ إلى كلامِ هذا النّاصح ويضعهُ في الميزانِ كلمةً كلمة، لكنّهُ ميزانُ الرّؤيةِ الدّينية، ميزان الأحكام الإسلامية، لما غضب، ولما أخذتهُ العزّةُ بالإثم.

هذا الذي أقولهُ لكم أيها الإخوة إنما هو تجسيدٌ لمصيبةٍ عظمى نعاني منها جميعاً، ربّما يعاني الدّعاة من عدمِ التزامِهم للآدابِ التي أمرهم اللهُ بها، فعلى الدّاعي أن يكونَ بصيراً بأمره، متنبّهاً إلى خطرهِ وخطئه. ولكنَّ النّاسَ أيضاً يعانونَ من الجزءِ العظيمِ من هذا الدّاء، فما أكثرَ ما نشعر بالعصبيّة، وما أكثرَ ما نشعرُ بالغضبةِ التي لا تنبعُ لله، ولكنّها تنبعُ من حظوظٍ آسنةٍ عفنةٍ من حظوظِ النّفس.

حدّثني أحدُ الشّبابِ المسلمينَ الغيورينَ على دينِ اللهِ عزَّ وجلّ، أنّهُ سمعَ إنساناً يخطب ويفتي النّاسَ في الرّبا هكذا دونَ قيدٍ ولا شرط، ويقولُ لهم: ضعوا أموالكم في البنوكِ أو خذوها من البنوكِ ولا حرج وإثمكم على جنبي، وأخذَ هذا الرّجلُ يناقشُ هذا الإنسان ثمَّ جمعهُ ببعضِ أهلِ العلمِ في هذه البلدة، وناقشهُ هذا الرّجلُ العالم ثمَّ أوضحَ لهُ خطرهُ وخطأه، وقالَ لهُ الرّجل: اتّقِ اللهَ يا هذا، اتّقِ اللهَ يا أيها الشّيخ فبينكَ وبينَ قبرك مسافاتٌ قريبة، عد في الأسبوعِ الثّاني فحذّر النّاسَ مما قلت، وقل لهم لقد أخطأت والعائدُ عن خطئهِ ذو فضلٍ كبير، ولكنَّ هذا الرّجل الخطيب بدلاً من أن يعود فيستغفرَ الله من خطئه، عادَ ليبرزَ لظى نفسه، عادَ ليدغدغَ عصبيّتهُ وهواه، عادَ ليقول: لقد ناقشني فلانٌ ومضى بي إلى رجلٍ من أهل العلم فناقشتهُ وناقشني ولكنّي أعودُ لأقولَ إنَّ الحقَّ ما قلتُه، فلا ضيرَ أن تضعوا الأموالَ في البنوك أو أن تأخذوها من البنوك.

هذا الإنسان مسوقٌ في نصيحتهِ بدافعٍ من عصبيّته، ولا فرقَ بينهُ وبينَ السّامع الذي يصغي إلى نصيحةِ النّاصح بسائقٍ من عصبيّته، لا الدّاعي إلى الله ينبغي أن يلتفتَ إلى شيءٍ من حظوظِ نفسه، ولا المصغي إلى دينِ الله ينبغي أن يلتفتَ إلى شيءٍ من حظوظِ نفسه.

كيفَ نستطيعُ أن نعالجَ أنفسنا من هذا الدّاء ذي الشّطرينِ العظيمين؟ نعالجُ انفسنا من هذا الدّاءِ بعلاجٍ واحد، هو الإخلاص لدينِ اللهِ عزَّ وجلّ. وليست ثمّةَ حيلةٌ أمامي لأدلّكم على الطّريقِ الذي يوصلُ الإنسانَ إلى الإخلاص، الإخلاصُ سرٌّ يهبهُ اللهُ لمن يشاءُ من عباده، الإخلاصُ نورٌ يقذفهُ اللهُ عزَّ وجلَّ في قلبِ من شاء، فمن حرمهُ للهِ من هذا النّورِ فهو محروم، وأسألُ اللهَ ألا يحرمني ولا يحرمكم من هذا النّورِ القدسيِّ العظيم.

لكنَّ السّبيلَ إلى ذلك كثرةُ التّضرُّعِ إلى الله، السّبيلُ إلى ذلك كثرةُ الإلتجاءِ إلى الله، إذا رأيت أنني أحبُّ نفسي وأدافعُ عن ذاتي، وأدافعُ عن العصبيّةِ التي تعشعشُ في كياني فالأعلم أنني مريض، وإذا لم أجد سبيلاً إلى الخلاصِ من هذا الدّاءِ فلألتجئ إلى الله ولأشكُ إليهِ دائي ولأتضرّع إليه، فإنَّ اللهَ يجيبُ الدّعاء.

وإذا كانَ في النّاسِ أيضاً ممن يصغونَ إلى نصيحةِ النّاصحين، وإرشادِ المرشدين، يجدونَ أنفسهم يتألمون كلّما أصابتِ النّصيحةُ بسهمٍ جانباً منهم، يتألمون كلّما رأى أحدهم أنّهُ ربّما كانَ هو المعنيَّ بهذا الكلام، ليعلم هذا الإنسان أنّهُ يعاني من مرض.

لماذا تبحثُ في هذا؟ أأنتَ تعاني من هذه المعصيةِ أم لا؟ أقاربكَ يعانونَ من هذه المعصيةِ أم لا؟ هي معصيةٌ حقيقةً أم لا؟ إذا رأيتَ أنَّ الأمرَ هكذا إذاً فارفع يديكَ وقل: اللهمَّ العفوَ والعافية. ولا تضف إلى المعصيةِ التي تلبّستَ بها معصيةً شرّاً منها، أنتَ تعاني من معصيةٍ يُحذّرُكَ المرشدونَ منها، فتأبى إلا أن تضيفَ إليها معصيةً أخرى، هي الانتصارُ للذات، الانتصارُ للعصبيّة، تهجرُ المسجد الذي ذُكِّرَ فيهِ قريبُكَ أو ذُكِّرتَ فيهِ أنت بأمرٍ ما ينبغي أن يكون، معصيةٌ أخطرُ وأشدّ.

فإن لم تجد سبيلاً لأن نترفّع على حظوظنا، وأن نتغلّبَ على عصبيّاتنا، فلنضرع إلى الله ولنشبّث بأعتابهِ ولنقل: اللهمَّ لا طولَ لنا ولا حول ولكنّا نريدُ أن نكونَ مخلصينَ لدينك، نريدُ أن نتحرّرَ من عصبيّاتنا وأهوائنا فحرّرنا اللهمَّ من ذلك، ولسوفَ تجدونَ أنَّ اللهَ يجيبُ الدّعاء، ويجيبُ نداءَ السّامعين، إذا انطلقَ النّداءُ من قلوبٍ متحرّقةٍ صادقة، أسألُ اللهَ سبحانهُ وتعالى أن يجعلنا من هؤلاء، فاستغفروهُ يغفر لكم.



١٦٢- العصبية.. آفّة تتربص بالعلم والدين | ١٩٨٧/٠٦/٠٥

حدَّثتكم في الأسبوع الماضي عن الآفةِ الكبيرةِ التي تتربَّصُ بالعِلمِ وتتربَّصُ بالدّين.. ألا وهي آفةُ الهوى، وإذا ذُكِرَ الهوى فلابدَّ أن يتذكَّرَ الإنسانُ العصبيّة.. فهما شقيقان، بل هما توأمان في التربّصِ بالعلمِ والدّين، وفي أنَّ كلاً منهما آفةٌ أخطرُ من الأولى، تقفُ في وجهِ التمسُّكِ بالدِّينِ الحق، كما تقفُ في وجهِ التمسّكِ بقواعدِ العلم، كما تفوّتُ على الإنسانِ إخلاصهُ لوجهِ اللهِ سبحانهُ وتعالى، وإذ قد تكلمنا عنِ الهوى وآفاتهِ وخطورته، فلنتكلم بعد ذلك عنِ العصبيّةِ وخطورتها، عسى اللهُ أن يحجزنا عن أخطارِ كلٍّ منهما، وعسى اللهُ عزَّ وجلَّ أن يرزقنا بصيرةَ قلبٍ تبعدنا عن مطارحِ الهوى وعن منزلقات العصبيّة.

العصبيّةُ: هي أن ينتصرَ الإنسانُ لجماعتهِ أو قومه، أو قبيلتهِ، أو عشيرته، أو مذهبهِ الذي ينتمي إليه، أو شيخهِ الذي يأخذُ منه، غيرَ مبالٍ في ذلك بأن يتنكّبَ عن الحق، وأن يتعدَ عن نبراسِ العلمِ وضيائه، تلكم هيَ العصبيّةُ التي بُعِثَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمحاربتها، ولتحريرِ الإنسانِ من غوائلها، بل تلكم هي العصبيّة التي أوذيَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلَّم سنواتِ دعوتهِ الطويلةِ من أجلها، وتلكم هي العصبيّة، التي نبَّهَ القرآنُ إلى ضرورةِ الترفُّعِ فوقها، وأخذِ الحِذرِ منها، وهي التي نوَّهَ القرآنُ بها مراراً وتكراراً، وذلكَ في مثلِ قولهِ عزَّ وجلّ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾. وفي مثلِ قولهِ عزَّ وجل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾.
هذهِ العصبيّةُ يا عبادَ الله هي الآفةُ الثانية، التي تتربّص بإيمان المؤمنين، والتي تحجب الإنسان عن معرفة الحق، وتضعُ العصائب على العقل، فلا يفرقُ بينَ حقٍّ وباطل، ثمَّ إنها الآفة التي تحجب الإنسان عن الوصول إلى لذة الإخلاص لوجهِ اللهِ عزَّ وجلّ، إذ كيفَ يخلصُ هذا الإنسان لوجهِ ربِّه؟ وقد منحَ قلبَهُ وإخلاصه للجماعةِ التي يتعصّبُ لها؟ سواءٌ _ كما قلت لكم _ كانت هذه الجماعةُ قبيلةً يعتزُّ بها، أو قوماً يتباهى بهم، أو أهلَ ملّةٍ ومذهبٍ يشدُّ أوصِرتهُ بالانتسابِ إليهم، أو شيخاً يتباهى بالانتسابِ إليه،

غيرَ مبالٍ في هذا الاتباع أن يبتعد عن طريق الحق، وأن يخاصم العلم، وأن يخاصم موازين المنطق، ومنهج كتاب الله سبحانه وتعالى وسنّة رسوله.

وهذه العصبيّة يا عباد الله، فرعٌ من الكبر الدنيء. فهو نوعٌ من أنواع الكبر.والكبرُ نوعان اثنان:

كبرٌ أساسه الأنانية الفرديّة، إذ يرى الإنسان من خلاله ذاته فوق كل شيء، هذا هو النوع الأول من الكبر "الأنانيّة الفردية".

النّوعُ الثاني: "الأنانية الجماعيّة". أن يتباهى الإنسان ولكن لا بشخصه المفرد، وإنما يتباهى بنسبته إلى القوم الذي هو منهم. الجماعة الذي هو عضوٌ فيهم، الفئة التي تنامت عصبيّته بالارتباط بها، فهذا نوعٌ من أنواع الكبر والأنانية، إلا أنها أنانيةٌ جماعيّة وليست أنانيّةً فرديّة، فالشخص المفرد الذي لا ينتمي إلى أحدٍ من الناس إن تكبّر فكبرياؤه في ذاته، وتعاليه على الآخرين بشخصه، وذلكم هو شأن الفراعنة ومنهم فرعون موسى الذي ذهب به الكبر مذهباً قال فيه للناس: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾، تلك هي الأنانية الفردية.

أما العصبية فهي نوعٌ آخر خطير من الكبر.. ولكنه لا يتمثل في أنانية الفرد في ذاته..

إنها الأنانية التي يتباهى الإنسان بها إذ ينتسب إلى قوم فئة، إلى جماعة، إلى نِحلة، إلى مذهب، إلى شيخٍ من الشيوخ، وإذاكان هذا الإنسان المنتمي إلى هذه الجهة ينتمي إليها بناءً على بصيرة العلم وبناءً على دلائل الحق؛ فإن هذا الإنسان في حقيقة أمره متّبِعٌ للحق، وليس متعصّباً لقوم، ذلك لأن هذا الإنسان إن رأى ذات يومٍ أن ميزان الحق يدعوه إلى الانصراف عن هذه الجماعة وإلى الابتعاد عنها، لم يتردد في أن يستجيب لميزان الحق. فهذا ليس متعصّباً وإنما هو متبع للحق.

أما المتعصب الذي نتكلم عنه ونسأل الله عز وجل أن يعافينا من آفة هذا البلاء الخطير، فهو ذاك الذي يجعل انتماءه للجماعة بديلاً عن انتمائه للحق. بديلاً عن تمسكه بميزان العلم ومعرفته، ومن هنا تأتي الخطورة، وهذا ما فعله المشركون عندما بعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم.

كانوا يتعصبون لآبائهم وأجدادهم، الذين كانوا يعبدون الأصنام ويشركون بالله عز وجل بشكلٍ لا يقرّهُ عقلٌ ولا منطق، فلمّا نبّههم رسولنا صلى الله عليه وسلّم إلى الحق ونبَّههم إلى قرار العقل وموازين المنطق والعلم. ماذا كان مصيرهم؟

وجدوا أنفسهم على مفترق طرق، إمّا أن يتبعوا الحق ويتحرروا من العصبية المقيتة، ويتمسكوا بالحق الذي لا ثاني له. وإمّا أن يركبوا رؤوسهم في التعصّب لآبائهم وأجدادهم وإن اقتضاهم ذلك أن يسحقوا العلم والحق وقرار العقل تحت أقدامهم. وهذا ما فعلوه؛ ولذلك نعى الله عز وجل عليهم تلك العصبية الشنعاء وقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾، وهم الذين عناهم البيان الإلهي في قوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾.

يا عجباً... ما هو هذا الشعور الغلّاب الذي يتغلب على العقل فيحجبه عن صاحبه، ويتغلب على نور البصر فيصبح البصر وكأنه قد عشي وعمي، ويتغلب على قوة السمع فلا تعود الأذن تسمع. ما هي هذه القوة العجيبة؟ إنها العصبيّة.

العصبيّة التي تشلُّ فاعليّةَ العقل، وتشلُّ فاعليّةَ السمع، وتشلُّ فاعليّةَ البصر.. فيغدوا هذا الإنسان وهو لا يسبّح إلا بحمد من يتعصَّبُ له.

قد تجد هذه العصبيّة مقنّعةً بأقنعةٍ شتّى... قد تجدها مقنّعةً بقناع القوم، وقد تجدها بقناع الانتصار للعشيرة، وقد تجدها مقنعةً بقناع الدين ذاته، وهذا أمرٌ خطيرٌ جداً، يقنّعُ عصبيّتهُ بالدين ولكنه لو تنبّه إلى ذاته لرأى نفسه يحارِب الدين بقناع الدين ذاته، يقنّعُ عصبيّته باسم الدين، ثمَّ إذا ذُكِّرَ بموازين الدين – وليسَ للدين سوى ميزان واحد – هو العلم، أعرضَ عن العلم.

إذا ذكّرَ بكتاب الله وبسنّةِ رسول الله صلى الله عليه وسلم، لوى الرأسَ معرضاً عن كتاب الله وعن سنّة رسول الله؛ يفضّلُ على ذلك عصبيّته.. وهكذا فهو يقنّعُ عصبيّته ربّما باسم الدين.. ثمَّ إنه يند عن الدين بهذه العصبيَّةِ ذاتها...

ولحكمةٍ بالغة نزل البيان الإلهي عامّاً يشمل حتى الدين ذاته يقول فيه ربنا جلَّ جلاله: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾.

ولكم وقفتُ يا عبادَ الله أمامَ كلمةِ "ما" أداةِ العمومِ هذه، ولا تقفُ: أي لا تتبع شيئاً ما لم يدلك العلم على أنه الحق، أرأيتم كيف أن الدين ذاته دخل في هذا العموم، أرأيتم كيف أن العقائد الدينية ذاتها كيف دخلت بهذا العموم، أرأيتم كيف يحرر كتاب الله عقل الإنسان من التبعيّة، ويصعدُ به إلى سدّة الفكر الإنسانيّ العقليّ الكامل المطلق؟

معنى هذا الكلام، أنَّكَ إن تمسَّكتَ بالدين فلا تتمسّك به عن عصبيّةٍ عمياء، فربّما أضلَّتكَ هذه العصبيّة، لا تتمسّك به في عقائده الأساسيّة عن تقليد، لأنَّ هذا التقليد ربَّما أتلفك وأهلكك، ولكن انظر إلى ميزانِ العلم الذي متّعك الله به وأكرمك به، فسر وراءَ قرارِ العلم، وإن غُمَّ عليك السّبيل ولم تعلم حقائق العلم، فدونك كتاب الله فكتاب الله هو النبراس لمن لم يكن يعلم من حقائق العلم شيئاً، وإن رأيت أن كتاب الله في عموماته لا تفقهه كما ينبغي، فدونك سنّة رسول الله صلى الله عليه وسلم تضعُ لك النقاطَ على حروفها وتشرحُ لكَ الغوامضَ وتبيّنُ لك المجملَ والموجز.. هكذا يأمرنا ربُّنا سبحانه وتعالى..

ولو التفتنا إلى آفة المجتمعات الإنسانية، تلك التي تمزق المسلمين فئاتٍ شتّى وتنبّهنا إليها لرأينا أن السكين التي تمزق جسم المجتمع الإسلامي إنما يتمثل في سلاحين اثنين:

إما أن يكون سلاح الهوى، أو سلاح العصبية.. ولن تجد سلاحاً ثالثاً أو سكيناً ثالثةً تمزق وحدة المسلمين في أي عصرٍ من العصور...

انظر إلى عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ بُعِثَ فيه والعرب فئاتٌ شتّى تتخاصم وتتعارك. ما الذي كان يدعو إلى هذا الخصام؟ العصبية والهوى.

عندما اتحد شمل هذه الأمة وأصبحت كالجسد الواحد فعلاً.. كيف تمَّ ذلك؟

لمَّا نجحت هذه الأمة في أن تتخلى عن عصبيتها وتتخلى عن أهوائها وتتحرر إلا من العقل والعلم. اتحدت.

فلمَّا عاد هذا الوباء مرَّةً ثانية، وباء الأهواء ووباء العصبية يفعل فعله في الأفكار والنفوس، عادت الأمة الواحدة أمماً شتَّى وعادوا فئاتٍ متخاصمةً متهارجة، وكان بوسعهم أن يظلوا متحدين، أن يظلوا متآخين، متسالمين. لو أنهم أووا إلى عقولهم.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يرزقنا من حرارة الإخلاص لدين الله ما يذيب وباء هذه العصبية وذلك الهوى.. وأن يجعلنا من الصادقين كما أمر فاستغفروه يغفر لكم.



١٦٣- الإسلام ليس دين طقوس .. وإنما مسؤوليات تعتريها عقبات |

١٩٩٠/١١/٣٠

إن في الناس من يتصورون أن التمسك بالإسلام ليس أكثر من الارتباط بجملة طقوس وعادات ما أيسر على النفس الإنسانية أن تتعود عليها وتتمرس بها، ويتصورون أن الإنسان إذا ركن إلى هذه العادات وعكف عليها وتعودت نفسه واستأنست نفسه إليها، فقد أصبح مسلماً حقا، وقد أدى ذمة الله سبحانه وتعالى في عنقه، كثيرون هم الذين يتصورون الإسلام بهذا المعنى، وهذا تصورٌ خطيرٌ جداً، هذا التصور يضع في أذهان هؤلاء الناس صورة معاكسة ومناقضة تماماً لدين الله عز وجل، أين هذا من قول الله سبحانه وتعالى: ﴿مَّا كَانَ اللّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىَ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ وأين هذا التصور من قوله سبحانه وتعالى: ﴿الم، أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ، وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾، ولو كان الإسلام جملة طقوس وعادات يركن إليها الإنسان فيتعود عليها ويستأنس بها؛ إذاً لما سمى الله ممارسة المسلم لإسلامه جهاداً، ولما قال: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ ولما قال: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ ولما قال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ انظروا إلى كلمة يبلوكم، والابتلاء أشد أنواع الافتتان والزج في سبل الجهاد.

أيها الأخوة إن الإسلام في حقيقته مسؤولية كبرى، مسؤولية يتحملها الإنسان عن نفسه، ومسؤولية يتحملها الإنسان عن خاصته، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، عن أهله وأولاده، ثم إنه مسؤولية يتحملها الإنسان جهد استطاعته عن مجتمعه، ذلكم باختصار هو الإسلام، ولأمر ما يضع الله عز وجل وهو الحكيم العليم العقبات في طريق من يريد أن يتحمل هذه المسؤوليات، يضع أمامه عقبات تصده عن تحمل مسؤوليات نفسه، ويضع أمامه عقبات شتى تصده عن تحمل مسؤوليات أهله وأولاده، ترى ماذا يصنع؟ أيؤثر الدعة والركون وعدم الالتفات إلى هذه التضاريس والعقبات، ثم يجلس هنالك آمناً مطمئناً

يجتر بضع عادات وطقوس وشعاراتٍ وكلمات، ويسجل على نفسه أنه كاذبٌ في إيمانه وإسلامه، أم إنه يخترق هذه التضاريس والعقبات وإن أضرَّ ذلك بدنياه، وإن أضر ذلك بمصالحه التي تبدو أنها مصالح، وإن زجه في بعض ما يتصور أنه خسران! إن هو فعل ذلك فقد برهن على أنه صادق في إسلامه، وهو الذي يسمع كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿من أصلح دنياه أضرَّ بآخرته، ومن أصلح آخرته أضرَّ بدنياه، فآثروا الباقي على الفاني﴾، لو كان الإسلام منسجماً مع أهوائنا لما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الكلام، ولذلك فإن أمامكم أيها الأخوة مقياس تمسكوا به وتعرفوا من خلاله على مدى صدقكم في التمسك بدين الله.

كلما رأيتم أن الإسلام لا يُحَمِّلكم ثقلاً ولا يتعارض مع شيء من مصالحكم، وأنكم تمارسون إسلامكم بكل بساطة وبدون أي تبعات وأثقال؛ فاعلموا أنكم من الذين اتخذوا من الإسلام شعاراته وطقوسه وابتعدوا عن مسؤولياته وآصاره، أمَّا إن رأيتم أن تمسككم بالإسلام هذا يزجكم في مصاعب، ويضعكم أمام مشكلات، وأن هذه المشكلات تجعلكم تحارون في كيفية التوفيق، ثم إن هذه المواقف تزجكم إلى الوقوف في باب الله عز وجل متضرعين ومتوسلين؛ فاعلموا أنكم تسيرون في الطريق الإسلامي الصحيح الذي أمرَّ به الله عز وجل.

نحن مسلمون .. ولكن ماذا كلفنا إسلامنا أيها الأخوة؟ لم يكلفنا إسلامنا في أسواقنا شيئاً، إنما نمارس تجاراتنا كما نهوى ونشاء، وما من انحراف وانعطاف تقتضيه مصالحنا إلا ونحن ننعطف معها متأولين ومتناسين حكم الله وأوامره، لم يكلفنا إسلامنا في بيوتنا شيئاً، لم يكلفنا إسلامنا في مجال التربية لأولادنا وبناتنا شيئاً، كلما قامت معضلة، وكلما قام تشاكس وتعاكس بين التربية الإسلامية التي كلفك الله أن تسلك ببناتك في طريقها تأولت، وأطلت النظر، وتناسيت وتصورت أن الإسلام لا يكلفك من هذا شيئاً أو قلت أن الأمر خارج بيدي وليس طوع قدرتي وطاقتي، إن الإسلام لم يكلفنا شيئاً فيما يتعلق بصداقتنا وسهراتنا، وذهابنا وإيابنا، إسلامنا قراءات نقرأها، وركعات نركعها، وكلمات نرددها، وكل ذلك عادات

تستمرءها النفس، كل إنسان تعود على شيء استأنس إليه، ليس الإسلام هذا، هذه بوابه الإسلام أما الإسلام فجهاد.

أين أنتم من قول الله عزوجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ لماذا قرن الباري عز وجل أمره إياك تربية أبنائك وبناتك مع هذه الصورة المرعبة لناره التي تحطم الحجارة وتحرقها وتحيلها إلى الهشيم، فماذا تصنع يا ترى بجسم الإنسان؟ لماذا؟ لكي يحملك الله عز وجل خطورة هذه المسؤولية تجاه أولادك وبناتك، ولكنك تنسى جسامة هذا الخطر، وتنسى النهاية التي أنت على موعد معها يقيناً، تنسى ذلك كله، لماذا؟ لأن مشكلات عويصة تقف حاجز بينك وبين تربية بناتك، ما هي هذه المشكلات، ما هي؟ ليس ثمة عقبة ما تصدك عن أمر ربك أبداً، إن كنت عبداً لله فاعلم أن نفعك يأتي منه وأن ضررك إنما يأتي منه، وأن تقلبك إنما يكون في قبضته، وأن مبدأك من لدنه، ونهايتك إليه.

فما خوفك من عباد الله بعد هذا، واعلم أن خوفك من الله يجعل الناس كلهم يخافون منك ويهابونك، ولكن خوفك من عباد الله يجعل هؤلاء الناس جميعاً يزدرونك ويحتقرونك، هل جربت؟ هل جربت أن تضع مخافة الله في قلبك بدلاً من مخافة أي كائنٍ سواه؟ ثم هل جربت إذا رأيت التعارض قد قام بين مصالحك الدنيوية وما كلفك الله به من تربية أهلك وبناتك ثم آثرت أمر الله على مصالحك، هل جربت ربك فرأيت أنه تخلى عنك؟ هل جربت ربك فرأيت أنه لم يخلق معجزات الحفاوةِ لك و الرعايةِ لك والانتصارِ لك؟ ولكن المسلم إذا هان على نفسه تركه الله للذل الماحق، وإذا كان الإنسان كريماً على نفسه، خطيراً عليه أمر ربه سبحانه وتعالى مليء القلب تعظيماً لمولاه وخالقه، أودع في قلوب الناس جميعاً تعظيمه وحبه، فليت أني وجدتُ مسلماً مارس دينه على هذه الشاكلة لأريكم كيف أن الكون كله يسجد له إن جاز التعبير.

ربَّ إنسان يقول: ولكني ضعيف لا أستطيع اختراق العقبات ولا أستطيع تجاوز التضاريس، أنا إنسان ضعيف شهواتي تتأجج، وأنا أقول: كلنا ذلك الرجل يا أخي، ومن منا ليس ضعيفاً؟ من منا لا

تتأجج الشهوات بين جوانحه؟ من منا لا تهفو نفسه إلى الانحراف؟ إن كنت تتحدث عن الضعف، فليس هناك عبد من عباد الله عز وجل لا يتصف بمنتهى هذا الضعف حتى الرسل والأنبياء، ولكن مفتاح القوة هو الالتجاء إلى الله، هل التجأت إلى الله؟ هل شكوت ضعفك إلى ربك؟ هل أحسست بالمشكلة أولاً فشعرت أنك في موقف لا يرضى عنه ربك، فالتجأت إلى الله بذل وصغار وشكوت إليه أنك ضعيف وتشبثت بأذيال رحمته وبكيت على بابه، وقلت له: يا رب إنني أكره أن أعصيك وأحب أن أطيعك، لكني عبدك الضعيف الذي استرقته الشهوات والأهواء، فتداركني يا رب برحمتك، والله لئن فعلت هذا لتجدنَّ أن الله عز وجل قد أبدل ضعفك قوة، ألم يقل الله عز وجل: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللّهِ﴾ هل في هذا من تناقض؟ لا تناقض، قال لك: ﴿وَاصْبِرْ﴾ ثم أجابك قبل أن تعترض. كيف أصبر يا رب أنا ضعيف أنا عاجز، دنياي هيمنت على كياني، الدعة تمنعني من النظر والمراقبة بشأن أهلي وأولادي، أنا ضعيف لا أستطيع أن أصبر، قبل أن تعترض وتناقش جاء الجواب يقول:)وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللّهِ(فإذا لم يكن صبرك إلا بالله فما السبيل لأن ينجدك الله بالصبر؟ التجئ إليه، ولكن المصيبة أننا لم نشعر بالمشكلة حتى نلتجئ إليه.

أرأيت إنساناً خسر تجارته ووقع في أشد المصائب الدنيوية، ودارت عليه ألوان من الشدائد الدنيوية ولم يستطع أن يجد حيلة للتخلص منها ماذا يصنع؟ يطرق أبواب المشايخ أشكالاً وألوانا، ويستجد بهم أن يعلموه دعاءً مستجاباً، ويوطنُ نفسه أن يسهر الليل كله ليسأل ربه أن يزيل عنه ضراءه، وأن يبدل له شدته رخاء، لماذا؟ لأنه شعر بمشكلة؛ ولأن هذه المشكلة أهمه أمرها، إنها الدنيا التي فاتته، فإذا وجدت أن مشكلةً قد أحدقت بديني، وهي توشك أن تبدل رضا الله عني غضبا، وأن لا أستطيع أن أحل أمر هذه المشكلة بيدي، فلماذا لا أستنجد كما استنجدت كما مضى؟ لماذا لا ألتجئ إلى الله لهذه المشكلة كما أتجه إليه لتلك؟ لماذا لا أقوم من الليل فأقول يا رب إنني أريد أن تحي بناتي حياة إسلامية أينما ذهبن وحيثما وجدن، ولكني ضعيف لا أملك سبيل إلى تحقيق ذلك فاعني يا رب، ولقد قلت :)وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ(لماذا لا تقوم الليل وتستنجد بالله؟ إذاً لاستجاب لك؛ بل لقال لك: لبيك يا عبدي، ولكننا نتصور مشكلاتنا الدنيوية أكبر مما هي أضعافاً مضاعفة، وننقذف يميناً وشمالاً في سبيل من

يحلها لنا، فإذا رأينا مشكلات دنيوية تطوف بنا، وإذا وجدنا أن الإسلام غريب في ديارنا، وإذا وجدنا أن مظهر الإسلام ممزقٌ مزدراً في أهلينا وأولادنا، لم نحرك ساكناً ولم نتألم حتى نلجأ إلى الله سبحانه وتعالى كما التجأنا إليه من قبل، تلك هي مصيبتنا التي أبدلت رخاءنا شدة، وتلك هي مصيبتنا التي جعلت سماءنا في هذا الشتاء مجدبة، وأرضنا قاحلة، ولا ندري ما الذي سيأتي به الغد.



١٦٤- الآفة الكبرى | ١٩٩٤/٠٤/٢٩

إن المسلمين اليوم يعانون من آفاتٍ كثيرة تتسرب إلى كياناتهم وتتحكم في وجودهم بل في كثيرٍ من تصرفاتهم وأفكارهم، والحديث عن هذه الآفات وأنواعها طويل، ولكن بوسعنا أن نعلم أن هذه الآفات التي تستشري في كيان الأمة الإسلامية اليوم تلتقي على آفة واحدة هي منها بمثابة الجذع من الأغصان الكثيرة، هذه الآفة الكبرى هي: الجهل بدين الله سبحانه وتعالى. وبتعبيرٍ آخر هي: القفز إلى التعامل مع الإسلام قبل التفهم لحقيقة الإسلام وقبل التفقه الراشد بعلومه وحقائقه، ولو أن المسلمين لا سيما العاملون منهم في حقول الإسلام والدعوة إلى الله سبحانه وتعالى عكفوا بادئ ذي بدء على دراسة الإسلام من ينابيعه، وعلى التدقيق في مفاهيمه، والفقه بأحكامه والوقوف على الفوارق الظاهرة بين المتشابه الذي يلتبس على كثيرٍ من الناس اليوم؛ أنواعه وأشكاله، إذاً لحصّنوا أنفسهم ضد كل هذه الآفات المتفرعة الأخرى.

والحديث عن مظاهر هذه الجهالة حديثٌ طويل ولا تفي به دقائق في مقامٍ كهذا المقام، ولكني أضعكم من ذلك اليوم أمام نماذج لعلها تبين لنا خطورة هذه الآفة التي نعاني منها، والتي قلما ننتبه إليها:

هنالك كثير من الأمور التي تشتبه على الجاهل، ولا يمكن أن تلتبس على العا لم، يتيه فيها كثير من المسلمين اليوم، لا بل كثيرٌ من الذين يتحركون في نطاق الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، هنالك من يلتبس عليه الاعتزاز الذي أمر الله سبحانه وتعالى به مع الاستكبار الذي نهى الله سبحانه وتعالى عنه، وعندما يلتبس عليه هذا الأمر بذاك يختلط عليه السبيلان وينحط، آناً في هذا الطريق وآناً في هذا الطريق، دون أن يتبين النتائج الوبيلة التي تفد إليه من جراء هذا الالتباس.

هنالك أناس كثيرون يلتبس عليهم ما سماه الفقهاء بدار الكفر أو الأمان أو العهد ولها أحكام فقهية كثيرة بما يسميه الفقهاء بدار الحق، ولها أحكامٌ أخرى فقهية كثيرة، ما أكثر الذين يلتبس عليهم هذا

بذاك، وينحطون من جراء هذا الالتباس في سبل متشابهةٍ يخلطون من جراء ذلك بين الجائز والمحرم من أحكام الله سبحانه وتعالى.

هنالك كثيرٌ وكثير من المسلمين يلتبس عليهم معنى الجهاد الذي أمر الله سبحانه وتعالى به في سبيل إعلاء كلمة الله عز وجل بمعنى الثأر الذي نهى الله سبحانه وتعالى عنه وأبطله كعادةٍ آسنة من عادات الجاهلية التي نسخها الإسلام، فينحطون في طرق الثأر إنتصاراً للنفس وذاتيتها وهم يتصورون أنهم يسيرون في طريق الجهاد إلى الله سبحانه وتعالى.

هنالك من يلتبس عليهم سبيل القيام بالحقائق الإسلامية التي شرفنا الله عز وجل وكلفنا بها، والدعوة إلى دين الله سبحانه وتعالى هدايةً وتعريفاً بما يسمى اليوم بالسير إلى إقامة المجتمع الإسلامي، وما أكثر الفرق الكبير بين هذا وذاك.

هنالك من يلتبس عليهم العكوف على تعلم الفقه الإسلامي وحقائق دين الله سبحانه وتعالى من ينابيع العلم التي تتمثل في كتاب الله وفي سنة رسول الله وإجماع أئمة هذه الأمة، بما يسمى اليوم الفكر الإسلامي.

هذه نماذج يسيرة من كثير وكثير.. تصوروا مسلمين يتحركون في ساحة العمل الإسلامي أياً كان نوعه وأياً كان مظهره، كيف تكون الثمرة والنتيجة عندما يسيرون من هذه الحقائق المتشابهة في طرقٍ متداخلة وقد التبس عليهم في نطاق ذلك الحلال بالحرام والجائز بالممنوع والمطلوب بالمحَرم كيف تكون النتيجة؟

والوقت يضيق عن أن أبين لكم الفرق بين هذا وذاك، ولكن لا بد أن أضرب أمثلة، ولا بد أن أضعكم من هذا أمام شواهد:

لقد ربى الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين على أن يكونوا أعزةً بإيمانهم، ولكنه حذرهم من أن يكونوا مستكبرين بأنفسهم. فهل عرف المسلمون اليوم الفرق بين ما طلب وبين ما نهى عنه؟ ينبغي أن أحرص

دائماً على أن أكون عزيزاً بالإيمان الذي شرفني الله به. فما معنى ذلك؟ معنى ذلك أن الله كلفني بأن أسلك مع الآخرين سبيلاً لا يُهان الإسلام والدين من خلال شخصي، ينبغي أن لا أُمكن الناس من أن يُهينوا دين الله عز وجل من خلال الإهانة التي قد تتجه لذاتي. تلك هي العزة التي أمرنا الله عزوجل أن نمارسها، وذلك معنىً من معاني قوله عز وجل: ﴿وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾. وهذا معنىً من معاني قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

أما الاستكبار فهو أن أحاذر أن تنخدش ذاتيتي الشخصية من خلال الاهتمام بذاتي، ورُب إنسانٍ مستكبر يجعل من الإسلام ضحية في سبيل أن تبقى ذاتيته شامخةً أمام الناس، يجعل من الإسلام مطية بل يجعل منه منديلاً ليقي بهذا المنديل سمو ذاته وكبرياء نفسه، تلك هي الكبرياء المحرمة.

أما العزة التي طلبها الله سبحانه وتعالى منا، فهي أن أنظر فإذا وجدت أن هنالك من يريد أن يستهين بالإسلام من خلال مظهري الإسلامي، أو أن يستهين بشيءٍ من شعائره من خلال وجودي الديني، فينبغي أن أتحول إلى إنسانٍ آخر قد يبدو ويظهر أمام كثيرٍ من الناس بأنه إنسان كبرياء، ولكن الله يرى ما استكن في القلوب، ويرى ما قد خفي في السرائر، هنا تكمن العزة التي أمرنا الله عز وجل بها، وكم في حياة المسلمين من مظاهر تقينا من هذا الالتباس لو درسنا ولو تعلمنا ولو رُبينا في ظلال التربية الربانية التي أعرضنا أيما إعراض اليوم عنها.

نحن كثيراً ما نفتي الفتاوى الباطلة من خلال التباسات كثيرة قد استقرت في أذهاننا بين كلمة الكفر أو دار الكفر ودار الحق، ما أكثر ما أسمع الفتاوى التي تقول على ألسن كثير من هؤلاء الناس التائهين، إن الشريعة الإسلامية تبيح التعامل بالربا في دار الكفر، فليس على المسلم من حرج إذا وجد نفسه خارج دائرة الإسلام بين أناس غير مؤمنين بالله عز وجل أن يتعامل معهم بالربا، وأن يأخذ الفوائد الربوية ويأكلها هنيئاً مريئاً، ولم يقل أحد من الفقهاء هذا، وإنما قال فريقٌ من الفقهاء أنه إذا دخل الإنسان دار حرب، دار حرب لا دار كفرٍ تدخل في دار المعاهدة أو الأمان، دار حربٍ أعلن عليها إمام المسلمين أو أئمة المسلمين جميعاً الحرب. قال فريق من الفقهاء: لا حرج إذا دخل دار الحرب أن يقامر هؤلاء الحربيين بشرط

أن يستيقين أنه هو الذي سيربح ولم يخسر هذا رأي، وقد قيس عليه من قبل البعض أكل الربا. أمام دار الأمان أما دار العهد وهي الدار التي ينطبق عليها واقع هذه البلاد الغربية المختلفة، فما قال أحدٌ من الفقهاء أبداً بأن للإنسان إذا دخلها أن يأكل الربا فيها. إذاً ينبغي أن يقولوا أيضاً لو أن ينهب ويسلب لأن أحكام الحرب واحدة، فكما يجوز أن يقتنص أموالهم باسم القمار أو الربا لأنهم حربيون، يجوز أن يقتنص أموالهم أيضاً نهباً وسلباً لأنهم حربيون. إذاً ينبغي أن يقال لنا أن ننهب أموال هذه الدول كلها، وليت شعري أي معنىً سيؤخذ عن الإسلام، وأي صورة سيئة ستستقر في أذهان هؤلاء الناس في عصرٍ هم أحوج ما يكونون فيه إلى تجسيد الإسلام بحقائقه الجاذبة المحبوبة.

ما أكثر ما أسمع كلمات الفكر الإسلامي والفكر الإسلامي، وما أكثر ما تصدره المكتبات من الكتب التي تتحدث عن ما يسمى الفكر الإسلامي، وأعود بذهني إلى ما قبل قرن أو قرن ونصف من الزمن فلا أجدُ من المسلمين يتعامل مع ما يسمى الفكر الإسلامي، كانوا يتعاملون مع ما يسمى علوم الإسلام عقائد الإسلام الفقه الإسلامي الشرائع الإسلامية، أما اليوم فقد تقلصت هذه الكلمات وحلت محلها كلمة الفكر الإسلامي، ولكن المصيبة الأدهى أن جُل المثقفين الإسلاميين لا يعلمون الفرق بين كلمة الفكر الإسلامي والفقه الإسلامي، ولو أن أحدهم أخذ كتاباً عنون بكلمة الفكر الإسلامي لظن نفسه قد وقع على كامل الإسلام وحقائقه، وتلك مصيبة ما مثلها مصيبة.

قلت بالأمس وأكرر اليوم: إن الفكر الإسلامي شيءٌ ينبع من ذات الإنسان من كيانه ودماغه، ولكل منا فكره الخاص به، أما عقائد الإسلام حقائقه شرائعه فإنما تفد من وحي الله إلينا حقائق الإسلام، تفد إلينا من وحي الله لتضبطنا ولتجمعنا على صراط واحد، أما ما يسمى الفكر الإسلامي فهي تصورات ضبابية شتى، وأخيلة متنوعة متعارضة، بل كثيراً منها متناقضة؛ ذلك لأنها تنبع من دخائل أنفسنا وإنما لها وظيفة واحدة في حياتنا، هي شَرذمة الوحدة وتضييع الكتلة، وتصديع الإرادة الواحدة، وتحويلها إلى شظايا من الإرادات المتنوعة المتخاصمة، ولا أحد يتصور خطورة ما يسمى اليوم بالفكر الإسلامي، ولا أحد يفكر ليقول: من أين تسربت هذه الكلمة إلينا؟

أول من استعملها أيها الأخوة، ارجعوا إلى مكتبات هذه البلاد العربية والإسلامية، هم اليساريون هم الملحدون، هم الذين كتبوا بأقلامٍ ناقدة، هم الذين كتبوا بأقلامٍ مسمومة، سموا كتاباتهم الفكر الإسلامي وجاء المسلمون المغفلون السُذَج فأعجبوا بهذه الكلمة، وأمسكوا بها وأخذوا يجعلون منها ديدناً لهم فيما يقولون وفيما يتناقشون به وفيما يكتبون، وتناسَ القوم الفقه الإسلامي، ومن خلال هذا التناسي تقع هذه الخصومات، ويقع هذا اللجج، بل كثيراً ما أجد من يدلي بقرارات ضخمة كبيرة باسم الإسلام، وإذا هو ينزع من فكره، وإذا هو ينزع إلى ذلك من أخيلته وتصوراته، ولماذا لا يفعل وقد آل الإسلام إلى مضمون أفكار، وكلٌ منا له فكره، إذاً فكل منا له إسلامه.

أتلاحظون أيها الأخوة كيف أن سائر الآفات المتفرعة المتنوعة التي لا مجال للحديث عنها قد شُقت وتفرعت من هذه الآفة الكبرى، آفة الجهل بدين الله سبحانه وتعالى؛ تلك الآفة التي جعلتنا نتيه بين أمور متخالفة في الحقيقة ولكنها متشابهة في الألفاظ والكلمات اللغوية.

ضربت أمثلة كثيرة ويسيرةً جداً لنماذج كثيرة وكثيرة جداً، وحسبنا أن نتبين في هذا الموقع هذه المصائب التي نعاني منها، فإننا إذا أردنا أننا نعاني من هذه المصائب نجتاز بذلك ربما نصف الطريق إلى حلها كما قالوا.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.



سنن الله في عباده

١٦٥- يا أيها الناس أنتم الفقراءُ إلى الله | ١٩٨١/١٢/٠٤

آيةٌ في كتاب الله سبحانه وتعالى، فلنقف عندها بشيءٍ من التدبّرِ والتأمّل، فما أحوجنا لو علمنا إلى أن نتدبَّرَ آياتِ الله سبحانهُ وتعالى، ونتأمَّلَ ما فيها من حقائقَ وعِظات. يقولُ ربُّنا سبحانهُ وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ، إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

يا أيها الناس: خطابٌ عامٌّ لا عمومَ من بعده، ليسَ خاصَّاً بفئةٍ دونَ أُخرى، لم يتجه إلى المؤمنين دون الملحدين، ولا إلى الصالحينَ دون الفاسقين، بل إنهُ خطابٌ يتجهُ إلى البشرِ جميعاً. فقد دخلَ في عمومِ هذا الخطاب، دخلَ الناسُ بشتَّى طبقاتهم وفئاتهم، وشملتِ الكلمةُ أعلى قممِ القيادةِ والحُكم. كما شملت أدنى درجاتِ الانقيادِ والخضوع، يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ لهؤلاءِ جميعاً: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى الله﴾، إنهُ الفقرُ المطلَق، الذي لا يقفُ عندَ نوعٍ ما دونَ آخر، ليس فقراً نسبياً، وليسَ فقراً في صنفٍ دونَ صنف، ولكنه الفقر الذاتيُّ المطلقُ الذي يشملُ كلَّ أنواعه، ﴿أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى الله﴾.

الفقرُ في الوجود، الفقرُ في الصحّة، الفقرُ في العقلِ والفكر، الفقرُ في الجمالِ والمظهر، الفقرُ في المال، الفقرُ في الرّزقِ والكساء، كلُّ ذلكَ دخلَ دخولاً ذاتيّاً تحتَ قولِ اللهِ عزَّ وجلَّ لعبيدِه. لمن بيدهِ أمرهم ودماؤهم، يقول لهم: ﴿أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى الله﴾.

فهل من إنسانٍ يستطيعُ أن يكذِّبَ هذا القرار؟ هل من رجلٍ عالمٍ أو جاهلٍ مهما كان شأنهُ في دارِ الدنيا، مؤمناً باللهِ أو جاحداً مهما كان مستواه في المجتمع، هل يستطيعُ أن ينكرَ هذه الحقيقة؟

لعلَّ هنالكَ من ينكر، ينظرُ إلى جسدهِ، فيرى نفسهُ صحيحَ البدن، ويرى نفسهُ متمتّعاً بالمالِ والرخاء، ويرى تحت يدهِ القوّةَ وأسبابَ البطش، يرى كلَّ ذلك موفوراً عنده، وينظرُ إلى نفسهِ في المرآة، فيرى نفسهُ جميلاً ما أجملَ منه، ويرى فكرهُ دقيقاً لا أثقبَ منه، ربما قال، وهو في نشوةٍ عارمةٍ ينظرُ إلى عِطْفَيه، وينظرُ إلى هذه المظاهرِ لديه. يقول: لا بل أنا غني! فأينَ الفقرُ الذي أوصَفُ به؟ ها أنا ذا غنيٌّ من كلِّ ناحية، ولم يستطعِ الفقرُ أن يتسلَّلَ إليَّ مثقالَ ذرّة، فهل دعوى هذا الإنسانِ صحيحة؟ هل كلامُ هذا الإنسان، إذا وُزِنَ في ميزانِ العلم والتفقّه، جاءَ بأيِّ نتيجةٍ إيجابيّة؟

إنَّ هذا إنسانٌ أحمقُ يا عبادَ الله، لا أقولُ إنَّهُ أحمقُ في ميزانِ الدّينِ فقط، بل إنَّهُ قبلَ ذلكَ أحمقُ بقرارِ العلم، وبقرارِ الحقيقة.

أنتَ غنيَ، من أينَ جاءَ غناك؟ أنتَ تتمتَّعُ بقوَّة، نعم، ولكن أفأنتَ مصدرُ هذه القوَّة؟ أنتَ الذي جعلتَ الطاقةَ تسري في دمائك؟ أنتَ الذي أقمتَ الغددَ المنتشرةَ في جسمك على وظائفها النوعيَّةِ التي تقومُ بها؟ أنتَ الذي أورثتَ لسانكَ الحركةَ والبيان؟ أنتَ الذي أقمتَ فؤادكَ على نبضاتِهِ ووضعهِ الذي تراهُ فيه؟ أنتَ الذي سخَّرتَ الدَّورةَ الدّمويّة، بناءً على القوةِ التي تمتلكها؟ ما هذا؟ فتحتَ عينيكَ في الحياة، ونظرتَ إلى نفسك، فرأيتَ فيها طاقةً تتحرَّك، رأيتَ الدماءَ تسيلُ حارَّةً في عروقك، رأيتَ الغددَ تؤدّي وظائفها، رأيتَ كلَّ ذرَّةٍ من ذرَّاتِ جسمك عاكفةً على مهمتها.

أنتَ منفعلٌ بالقوَّةِ ولستَ فاعلاً لها، أنتَ تستقبلُ القوَّة، ولستَ ينبوعاً لها، أنتَ مكانٌ لإشراقاتِ هذه القوَّة، ولستَ مصدراً لها؛ إذا سكنَ جسمك، وإذا توقفَ شيءٌ من أجزاءِ كيانكَ عن أداءِ مهمّته، فماذا تصنعُ يا أيها القويَ؟ وكيفَ تدبِّرُ أمركَ يا أيّها الإنسان الغنيّ؟

كيف؟ أنتَ غنيّ! أنتّ غنيٌّ بعقلك؟! ما هو عقلُك؟ وكيفَ استطعتَ أن تغرزَ عقلَكَ في دماغك؟! أو في فؤادِك؟ أو في أيِّ جهةٍ من جهاتِ جسدكَ إن كنتَ تعرفُ جهةَ العقلِ ومكانَه؟ وكيف ومن أين جئتَ بهذه الطّاقة؟ ومتى استوردتَها؟ وكيفَ أقمتها على وظيفتها؟

عقلُك؟! فتحتَ عينيكَ على الحياةِ الدّنيا، وكبرتَ شيئاً فشيئاً، ونظرتَ فرأيت سرَّاً غريباً يتفتَّحُ في كيانكَ كما تتفتَّحُ أكمامُ الزَّهرة، ونظرتَ فوجدتَ نفسكَ تتفكَّر، وتتأمَّل، وتدركُ الأمور.

فإذا ما ذَبُلَّتْ هذه الزَّهرة، وإذا ما ضعُفَتْ هذه القوَّة، وإذا ما آلَ علمُكَ إلى جهل، وإذا ما آلَ ذِكراكَ إلى نسيان، فمن أين؟ من أينَ يا أيُّها القوي؟ تستوردُ عقلاً آخرَ عندما يصبحُ عقلُكَ هذا خَرِبَاً لا يفيدُكَ شيئاً. من أين؟!

أتقولُ إنَّكَ غنيٌّ بالقوَّةِ والطاقةِ والوجود!؟ منِ الذي بثَّ فيكَ الوجود؟ منِ الذي أورثكَ الحياة؟ منِ الذي أورثكَ الروح؟ أأنتَ الذي اكتسبتها، فغرستها في كيانك، ثمَّ تباهيتَ بها على أقرانك؟ والجمال الذي تتباهى به وتُجَمِّلُ نفسكَ مزيداً من التّجَمُّلِ بمظاهره، إذا ما خبا شعاعُ عقلكَ في يومٍ من الأيام،

وعدتَ فنظرتَ إلى نفسكَ في المرآة، ترى إلى أينَ يذهبُ ذلكَ الجمال؟ تنظرُ فترى هذا المظهر، وقد انعكست سحنتُك، إذا بالجمالِ أصبحَ قباحة، وإذا بهذه النضارةِ أصبحت قباحة، وإذا بهذا الذي كنتَ تفتخر به على الناس، أصبحَ شيئاً تشمئزُّ منه الأعيُن.. أنت تتباهى بأنك غني! بأنكَ تضعُ يدكَ على مالٍ وفير!

إذا أمسكَ اللهُ عزَّ وجلَّ سماءَهُ عن قطره، وإذا حبسَ أرضهُ عن أن تنبتَ لك، وإذا أمسكَ ينابيعَ الرزق، عن أن تُدِرَّ رزقها إليك، فأخبرني ماذا تصنعُ بذَهَبِكَ وفضَّتك؟ ماذا تصنعُ بكنوزك؟ ستلعقُ الثَّرى، ولسوفَ تبحثُ عن لقمةِ طعامٍ بينَ القمامةِ فلا تعثرُ عليها، نعم يا أيها القوي، نعم يا أيها الغني.

هذا معنى كلام الله عزَّ وجلّ: ﴿يا أيها الناس﴾ جميعاً ﴿أنتم الفقراء إلى الله﴾، هذا يعني كما قلتُ لك، أنَّكَ منفعلٌ بالقوَّة، استقبلتها بدون اختيارك، تفاعلتَ معها بدون اختراعك، سرتَ في تيارها بدونِ قصد منك، بل أنتَ جزءٌ من هذا التيار ذاتهِ، أنت منفعلٌ بالقوَّة، ولستَ فاعلاً لها إطلاقاً بشكلٍ من الأشكال.

﴿قُتلَ الإنسانُ ما أكفره، من أيِّ شيءٍ خلقه، من نطفةٍ خلقهُ فقدَّره، ثمَّ السبيلَ يسَّره﴾، أيُّ سبيلٍ هذا يابنَ آدم؟ أعلمتَ أيُّ سبيلٍ يعنيهِ ربُّ العالمين؟ ينبغي أن تتذكر، حتَّى تخفض من أنفكَ قليلاً، وحتَّى تُحَطِّمَ من كبريائِكَ كثيراً، ﴿ثمَّ السبيلَ يسَّره﴾، أنتَ أعلمُ بذلكَ السبيل، ذلكَ السبيلِ القذر، ذلكَ السبيلِ الضيِّق، الذي شاءَ اللهُ أن يكون مروركَ إلى الدنيا منه، والذي شاء اللهُ عزَّ وجلَ أن يوسعهُ عندَ خروجك، ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ، ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ، كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾.

هذا الإنسانُ الكفورُ بالنعمة، يرى جلبابَ نِعَمِ اللهِ عزَّ وجلّ قد ألبسهُ اللهُ إياه، بدلاً من أن يشكره، بدلاً من أن يقولَ ربِّ، اجعل هذا الرِّداءَ عفواً وعافيةً لي، وأدمهُ عليَّ ستراً وكرماً، بدلاً من هذا يقولُ كما قالَ قارون: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾، نعم، هكذا قالَ قارون، قال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ﴾؛ رزقي، قوَّتي، طاقتي، مالي، ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾، هذا كلامُ سُكْر، كلامُ نشوة، كلامُ جنون!! أيُّ شيءٍ هذا الذي أوتيتَهُ على علمٍ عندك؟ ألم تذكُر يومَ كنتَ طفلاً صغيراً، يومَ كانتِ الأقذارُ تحتوشك؟ يومَ كانت الرعايةُ

شرطاً أساسيَّاً لبقائكَ واستمرارك؟ كانت أسباب هذه القوَّةِ موجودةً في كيانك، كانَ أسباب العقل، والطاقة، وهذه الأجهزة، كلها مهيئةً في كيانك الصغير.

أين علمك، الذي به أورثتَ نفسكَ هذه القوَّة؟ أينَ جهدك؟ أينَ اختراعك؟ صدق اللهُ العظيم، صدقَ اللهُ القائل: ﴿اللهُ الذي خلقكم من ضعف ثمَّ جعلَ من بعدِ ضعفٍ قوَّة ثمَّ جعلَ من بعدِ قوَّة ضعفاً وشيبة﴾، نعم، وآيةُ ذلك أنَّكَ لا تستطيعُ أن تحبسَ مظاهرَ هذه الطاقةِ في كيانك، إن كنتَ أنت القوي، فاحبس هذه القوَّةَ عندك، إن كنتَ أنت مالكَ هذه الطَّاقة، ومن ثَمَّ فلكَ أن تتكبَّرَ على الأرض، وأن تتجبَّر، إن كنتَ كذلك فعلاً، فأمسك شيئاً من مظاهرِ هذه القوَّةِ أن لا تُتخطَّفَ منك، بل قم أمامَ تحدِّي اللهِ عزَّ وجلّ وغالب هذا التَّحدّي إن كنتَ قادراً.

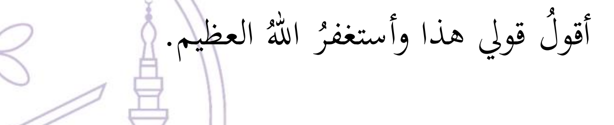
ما هو هذا التَّحدّي؟ هو قولُ اللهِ عزَّ وجلّ: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾، قرارٌ لا شذوذ فيه، إذا عُمِّرَ الإنسانُ نُكِّس، عادَ إلى الضعف، عادَ إلى النسيان، عادَ إلى الهزال، عادَ إلى الجهلِ بعدَ العلم، وهكذا يقرِّرُ اللهُ عزَّ وجلَّ في الآيةِ الأخرى: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾.

نعم يابنَ آدم، إذا عرفتَ هذه الحقيقة، فاعرفِ الحقيقة التي تليها والتي بنيت عليها، ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ، وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾، وما يُكَلِّفُ ذلكَ ربَّنا إلا أمرٌ يوجّهُه، وإلا إرادةً ينفّذها ربُّنا سبحانهُ وتعالى، ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾، فإذا كنتَ على يقينٍ من هذا، بناءً على الحقائقِ العلميَّة قبلَ الحقائقِ الدينية، إذا كنتَ واثقاً من أنك هذا الإنسان، إذاً ينبغي أن تحطِّمَ كبرياءَك، ينبغي أن تحطِّمَ عنادكَ وجبروتك، وينبغي أن ترتديَ كسوةَ العبوديَّةِ لله، وينبغي أن تجعلَ ولاءَكَ لمولاك لمن بيدهِ زمامُك، نعم أنتَ دابَّةٌ أُحْكِمَ الزمامُ في عنقها إحكاماً متيناً، فانظر يا أيتها الدابة، انظري إلى اليدِ التي تسوقكِ من هذا الزمام، انظر يابنَ آدم، من الذي يقودُكَ من الزمام الذي أُثبِتَ في عنقك، انظر لتعلم، وإذا تأملت، علمتَ أنهُ ربُّ السّماواتِ العلى، أنهُ الذي أضحكَ وأبكى، وأنهُ الذي أماتَ وأحيا، وأنهُ ربُّ الفلق، وربُّ الكائناتِ كلها، وأنَّه الذي إليهِ المرجعُ والمآل. فاجعل ولاءَكَ لربِّك، اجعلِ اتجاهكَ إلى خالقكَ سبحانهُ وتعالى، اجعل دنياكَ خيرَ خادمٍ لتحقيقِ مرضاةِ اللهِ عزَّ وجلّ، وإذا

رأيتَ أمراً لا يعجبُك، وإذا رأيتَ ضيقاً لا يتَّفقُ مع هوى نفسك، فاصبر لحكمِ ربِّك، كما قالَ اللهُ عزَّ وجلّ لرسوله: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾.

حكمُ اللهِ عزَّ وجلّ يسري، وقرارهُ عدلٌ مطبَّق، وخيرُ منجاةٍ من غضبِ اللهِ عزَّ وجلّ وعقابه، أن تدخلَ في بابِ الذُّلِّ والضراعةِ له، وأن تنطويَ في بابِ المسكنةِ والهوانِ للهِ عزَّ وجلّ، بهذا الانكسار، يرفعُ اللهُ الضَّرَّاء، بهذا الانكسار يعيدُ اللهُ عزَّ وجلَّ النِعَم، ليت أنَّ أولئكَ الذينَ تشمخر جباههم، وليت أنَّ أولئكَ الذينَ يتقلَّبونَ في سهراتهم الماجنة، وليسَ أنَّ أولئكَ الذينَ سكروا بنعمةِ الله ألواناً وألواناً، ليت أنهم يسمعون هذا الكلام، وليت أنهم يدركونَ هذه الحقيقة، وياليتَ أنهم تفاعلوا مع قول اللهِ عزَّ وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ، إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

أقولُ قولي هذا وأستغفرُ اللهُ العظيم.



١٦٦- عندما تتداعى عليكم الأمم وأنتم غثاء | ١٩٨٥/١٠/٠٤

كلّما اشتدّتِ الخطوبُ على المسلمين وكلّما تكاثرتِ المصائبُ من حولهم مقبلةً إليهم من كلِّ حدبٍ وصوب، تذكّرتُ حديثَ رسولِ الله صلّى اللهُ عليهِ وسلّم الذي رواهُ أبو داوودَ وأحمدُ بنُ حنبل عن ثوبان رضي اللهُ عنه. قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلّم: ﴿يوشكُ أن تداعى عليكم الأممُ كما تداعى الأكلةُ إلى قصعتها، قالوا: أمن قلّةٍ نحنُ يا رسولَ اللهِ يومئذ؟ قال: بل أنتم كثير ولكنّكم غثاءٌ كغثاءِ السّيل، وسينزعنَّ اللهُ الرّهبة في قلوبِ أعدائكم منكم وسيقذفنَّ في قلوبكم الوهن، قالوا: ما الوهنُ يا رسولَ الله؟ قال: حبُّ الحياةِ وكراهيةُ الموت﴾.

نعم كلّما رأيتُ الخطوبَ تتكاثر مقبلةً على المسلمين من كلِّ حدبٍ وصوب، ذكّرتني هذه المآسي بكلامِ المصطفى عليهِ الصّلاةُ والسّلام وهو ينظرُ من خلالِ مشكاةِ النّبوّة إلى ما يقعُ في هذه العصور وما بعدها، وطالما وقفت من هذا الحديثِ عندَ هذه الكلمة: ﴿بل أنتم كثير ولكنّكم غثاءٌ كغثاءِ السّيل﴾. وطالما رأيتُ العقلَ يقفُ خاشعاً أمامَ قولِ المصطفى عليهِ الصّلاةُ والسّلام: ﴿ولكنّكم غثاءٌ كغثاءِ السّيل﴾.

ترى لماذا تتحوّلُ الكثرةُ غثاءً؟ لماذا تصبحُ الملايين، مئاتُ الملايين غثاءً لا قيمةَ له؟ لماذا يتحوّلُ البناءُ الشّامخُ العالي إلى هباءٍ لا قيمةَ له؟ لماذا تتحوّلُ الشّوارعُ العريضة والأبنيةُ الفخمة والمالُ الكثير والغنى الوفير، لماذا يتحوّلُ ذلكَ كلّهُ إلى ما يسمّيهِ رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم غثاءً؟ نعم، ينبغي لكلِّ مسلمٍ أن يقفَ عندَ هذه الكلمةِ النّبويّة فيجعلَ منها غذاءً لعقله وغذاءً لفكره، ويأخذَ منها العبرة تلوَ العبرة لكي يعلم لماذا لا يمكنُ أن يعيشَ الإنسانُ بدونِ عقيدة؟ ولماذا لا يصلحُ المجتمعَ مالٌ ولا غنىً إن لم يتوّج هذا المجتمعُ بعقيدةٍ صحيحة؟ أنتَ تمرُّ بمدرسةٍ شامخةٍ عظيمةِ البنيان، مشيّدةِ الأركان، وتنظرُ إلى داخلِ هذه المدرسة فتجدها قد مُلئت بأحدثِ الأجهزة وأحدثِ الوسائلِ التّعليميّة، فتظنُّ لأوّلِ نظرةٍ ولدى النّظرةِ السّطحيّةِ العجلى أنَّ هذا المعهدَ لابدَّ أن يخرّجَ أفذاذاً من العلماء، لأنّهُ بناءٌ شامخ ولأنَّ أجهزتهُ أحدثُ ما تكونُ الأجهزة، ولكنّكَ إذا تأمّلت وفكّرت رأيتَ أنَّ العبرةَ ليست بهذا كلّه، العبرةُ بالأدمغةِ التي في داخلِ هذا المعهد. العبرةُ بالأدمغةِ التي تقودُ الصّغارَ وتعلّمهم، ما هو التّصوّر الجازمُ في أدمغةِ

هؤلاءِ المعلّمين والتّلامذة عن الكونِ والإنسانِ والحياة؟ ما هي عقيدتهم التي تدفعهم إلى العمل وتدفعهم إلى النّشاط، وتستعلي بهم فوقَ الكسل؟

وتمرُّ بمستشفىً عظيمٍ جدّاً بُنِيَ على أحدثِ الطّرازِ للتّو، وتنظرُ إلى داخلهِ فتجدهُ مليئاً هو الآخر بأحدثِ الأجهزةِ الطّبّيّة التي لا يمكنُ أن ترى أحدثَ منها في أيِّ صقعٍ من أصقاعِ العالم، فتخالُ لدى النّظرةِ العجلى أنَّ المرضى لابدَّ أن يجدوا الشّفاء العاجلَ في هذا المشفى لأنَّ بناءَهُ حديث ولأنَّ أجهزتهُ أحدث، ولكنّكَ عندما تتأمّل وتدقّقُ النّظر، تعلم أنَّ الأجهزةَ وإن كانَ الإنسانُ بحاجةٍ إليها، ولكنَّ العبرةَ بالقائمينَ على هذه الأجهزة، العبرةُ بالأطبّاء الذينَ يديرونها والعقيدةِ الجاثمةِ بينَ جوانحهم، ترى هل هؤلاء الأطباء المناوبون في هذا المستشفى في منتصفِ ليلةٍ مظلمة تُراهم منصرفون بدافعٍ من عقيدتهم الجاثمةِ بينَ جوانحهم إلى خدمةِ المرضى والقلقِ على أحوالهم والنّظرِ في شؤونهم، أم إنَّ قلوبهم فارغة من هذه العقيدة وأعينهم زائغةٌ مكانَ ذلكَ بالشّهواتِ والأهواء، كلٌّ ينتظرُ فرصةً أن يخلوَ مع زميلةٍ له، ماذا يفيدُ المشفى القائم على أحدثِ الأجهزة وعلى أحدثِ طرازِ البناء إن لم تكن الرّؤوسُ التي تديرهُ مصقولةً بالعقيدة التي شرّفنا اللهُ عزَّ وجلّ بها؟

وتنظر إلى الدّبّابةِ العظيمة، هذا الحديد الثّقيل المتراكب الذي يتهادى على الأرض فيحطّمُ الصّخر ويقذفُ بالشّواظ، فيعجبكَ مرأى هذا الشّيء وتظنُّ أنَّ مثلَ هذا الجهازِ ومثلَ هذه القوّةِ المادّيّةِ إذا وجدت فقد ضُمنَ النَّصر، ولكنّكَ لدى التّأمّل تتفكّر وتعلم أنَّ العبرةَ ليست كامنةً في هذا الحديد مهما اشتدَّ ثقلُه ومهما قذفَ بالشّواظ، إنما العبرةُ بمن في داخلِ هذا الحديد، إنما العبرةُ بالرّأس الذي يديرُ هذا الحديد بالعقيدةِ الجاثمةِ بين جوانحه، هذا معنى كلامِ حبيبنا المصطفى عليهِ الصّلاةُ والسّلام: ﴿بل أنتم كثير ولكنّكم غثاءٌ كغثاءِ السّيل﴾.

الكثرةُ المادّيّة تذهبُ بدداً إن لم تقم في داخلها خمائر العقيدة، إن لم تتحقّق في أعماقها أوّلياتُ التّصوّرِ الحقيقيّ لمعنى الكون ولمعنى الإنسان ولمعنى الحياة.

ويالِلأسفِ يا عبادَ الله. المسلمون هم إلى اليوم أوّلُ الفقراء بإدراكِ معنى كلامِ المصطفى عليهِ الصّلاةُ والسّلام، فلا يزالُ العدوُّ ينهشهم من عن يمينٍ وشمال، ولا تزالُ الخطوبُ تقرعُ أبوابهم صباحَ مساء تنبّههم

إلى معنى كلامِ رسولِ الله صلى اللهُ عليهِ وسلّم ولكنّهم – وهم مسلمون – عن معنى كلامِ المصطفى غافلون، ويالالأسف من الذي أدركَ كلامَ المصطفى هذا؟ المستعمرُ الأجنبيّ الذي حطَّ رحالهُ يوماً ما في هذه البلدةِ وغيرها من بلادِ الإسلام، هؤلاء هم الذين عرفوا معنى كلامِ المصطفى عليهِ الصّلاةُ والسّلام: ﴿ولكنّكم غثاءٌ كغثاءِ السّيل﴾.

لقد حطَّ هذا الأجنبيُّ المستعمر في بلادِ العربِ والمسلمين، ونظرَ فوجدَ في هذه البلادِ يهوداً ونصارى ومسلمين، فتركَ اليهودَ على يهوديّتهم، وتركَ النّصارى على نصرانيّتهم، وأقبلَ إلى المسلمين يسرقُ الإسلامَ من قلوبهم وعقولهم، لأنّهُ علمَ معنى كلامِ المصطفى عليهِ الصّلاةُ والسّلام، فهو يريد أن يحيلَ كثرةَ المسلمينَ إلى غثاء، لقد سرقَ الأجنبيُّ المستعمرُ ذات يوم إسلامَ المسلمينَ من أفئدةِ المسلمينَ وعقولهم، وهو يعلم أنّهُ بذلكَ سرقَ الوقودَ من خزّانِ السّيّارة، فماذا عسى أن تفعلَ السّيّارةُ الجاثمةُ بمظهرها الجميلِ بعدَ ذلك؟ منذا الذي يستطيع أن يحرّكها؟ وكيفَ يمكنُ أن تؤدّيَ غايتها؟ لئن كانَ العالمُ الإسلاميُّ مثلَ هذه السّيّارة، فإسلامُ العالمِ الإسلاميِّ إنما هو وقودُ هذه السّيّارة.

تبخّرَ الوقود، زالَ معنى الإسلام الذي كانَ جاثماً كالطّود في يومٍ من الأيّام بين جوانح المسلمين وفي عقولِ المسلمين فكانتِ القلّةُ تستحيلُ بذلكَ إلى كثرة، وكانَ الفقرُ يتحوّلُ بذلكَ إلى غنى، وكانَ الضّعف يستحيلُ بقدرةِ قادرٍ إلى قوّة، ذلكَ لأنَّ الإسلامَ منبعُ الغنى، ومنبعُ القوّة، ومنبعُ الكثرةِ الواحدةِ المتآلفة. تبخّرَ ذلكَ الإسلام وبقيَ من ورائهِ من أجلِ الخداعِ فقط ومن أجلِ ملءِ الثّغراتِ فقط، بقيَ المظهرُ الإسلاميّ، الإسلامُ الشّكليّ، افتقدنا حقيقةَ الإسلام الذي كانَ يقودُ الأمّة، والذي كان يرفعُ شأنها إلى الشّأوِ العالي، فاستحلنا – كما يقولُ حبيبنا المصطفى عليهِ الصلاةُ والسّلام إلى غثاءٍ كغثاءِ السّيل.

أما آنَ لنا يا عبادَ اللهِ أن نعلم؟ أما آن أن ندرك أنَّ الأجنبيَّ الكافر عندما سرقَ إسلامَ المسلمينَ بالأمس إنما كانَ يهيّئُ أرضَ المسلمين لهذا الامتلاكِ وهذا الاغتصابِ اليوم؟ أما آنَ لنا أن نعلم أنَّ الإسلام الذي سُرق بأيدي ذلكَ الأجنبيِّ الغاصبِ الحاقد على المسلمين أشخاصاً وأرضاً وذخراً، إنما كانَ يمهّدُ بذلك لتفتيتِ كيانِ هذه الأمّة؟ أما آنَ لنا أن نعلم أنَّ ذلكَ الأجنبيّ الذي سرقَ إسلامَ المسلمينَ وهم نيام لا يحسّونَ ولا يتنبّهون، إنما كانَ يتهيّؤُ لذلك من أجلِ أن ينزلَ المكيدةَ تلوَ المكيدة ببلادِ المسلمين وأراضيهم دونَ أن يستطيعوا حراكاً، ودونَ أن يستطيعوا دفاعاً، ودونَ أن يملكوا إلا الاحتجاجَ والكلام؟

ترى ما الذي فقدنا حتّى آلَ بنا الأمرُ إلى هذا الذّل؟ هل فقدنا شيئاً غيرَ الإسلام؟ ألا تعلمونَ أننا لا نزالُ أغنى الأمم؟ من الذي يجهلُ من الحمقى أنَّ أمّةَ المسلمين والعرب كما يقولون هي أغنى أمم الأرضِ قاطبة؟ وها هي ذي أرضُها بما في باطنها من ذخرٍ وما على ظاهرها من خير تعلنُ ذلك. أما تعلمون أنَّ أرضَ المسلمين أوسعُ أراضي اللهِ قاطبة؟ وأحراها بأن تؤلف أقواماً وتجمعهم من شتات، كلُّ من درسَ حقائقَ الجغرافيا والتّاريخِ يعلمُ ذلك.

ولكن مع هذا كلُّ هذا لم يعد يغني، لماذا؟ لأنَّ الأمر آلَ بعدَ ذلكَ كما قالَ المصطفى إلى غثاء، إلى غثاءٍ كغثاءِ السّيل، وجلَّ ربّنا القائل: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾، واللهِ الذي لا إله إلا هو: لو أنَّ هنالكَ حبلاً غيرَ حبلِ اللهِ كانَ حريّاً بأن يجمعَ كلمةَ المسلمين، لأمرَ الإلهُ الرّحيمُ عباده أن يتمسّكوا بذلكَ الحبل، ولكنَّ الإلهَ الرّؤوفَ الرّحيم يعلم أن لا يوجدُ حبلٌ يجمعُ شتاتَ هذه الأمّة إلا حبلٌ واحد هو حبلُ الله ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾، هذا هو الإيمانُ الذي يحيي ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾.

أقولُ قولي هذا وأسألُ اللهَ عزَّ وجلّ أن يرزقنا العبرةَ من كلامه، وأن يرزقنا الاتّعاظَ بكلامِ رسوله فاستغفروهُ يغفر لكم..

١٦٧- القوة من الله والنصر من عند الله | ١٩٩٠/٠٨/٢٤

إنَّ من أهمِّ العقائدِ التي تنهضُ عليها حقيقةُ الإيمانِ باللهِ عزَّ وجلّ: أن يستيقنَ الإنسانُ أنَّ القوّةَ هي قوّةُ الله، وأنَّ النصرَ كلّهُ إنّما هو من عندِ اللهِ سبحانهُ وتعالى. ولا يحتاجُ المؤمنُ بكتابِ اللهِ عزَّ وجلّ إلى برهانٍ على هذهِ الحقيقة بعدَ نصوصٍ واضحةٍ صريحةٍ قاطعةٍ بهذا في كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ من مثلِ قولهِ سبحانهُ وتعالى: ﴿إن ينصُرْكُمُ اللهُ فلا غالبَ لكم وإن يخذُلْكُم فمَنْذا الذي ينصُرُكُم من بعدهِ وعلى اللهِ فليتوكّلِ المؤمنون﴾. ومن مثلِ قولهِ عزَّ وجلّ: ﴿أمّن هذا الذي هو جندٌ لكم ينصركم من دونِ الرّحمن إنِ الكافرونَ إلا في غرور﴾.

وأمّا من لم يؤمن بعدُ بكتابِ اللهِ عزَّ وجلّ فنحيلهُ إلى حقائقِ التّاريخِ النّاطقة، ووقائعِ الدّهر التي لا يمكنُ أن يكذّبها إنسانٌ ولا بيان، وأنا لا أحبُّ أيّها الإخوة أن أملأَ هذه الخُطَبَ المنبريّةَ بقَصَصٍ ولا برواياتٍ تاريخيّة، وليسَ من شأني ذلك. ولكن إن اقتضتِ العبرة، وإذا اقتضتِ الحقيقةُ بيانَ برهانٍ عجزت عن التعويض عنهُ براهينُ الإيمانِ باللهِ عزَّ وجلّ، ونصوصُ البيانِ الإلهيِّ النّازلِ وحياً على رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم، فلا بدَّ من الإشارةِ بإصبعِ استشهادٍ إلى الوقائعِ التّاريخيّةِ التي لا مردَّ لها ولا مجالَ لتكذيبها.

الدّولةُ الإسلاميّةُ التي غرسها اللهُ بيدِ واحدٍ من عبادهِ في الأندلس دولةٌ إسلاميّةٌ راسخة، من ذا الذي كانَ أساسَ بنائها؟ رجلٌ واحد: اسمهُ عبدُ الرّحمنِ الدّاخل. ولو أردنا أن نضعَ مقاييسَ القوّةِ المادّيّةِ أمامنا: لما رأينا المنطق، ولما رأينا العقلَ ولا العلم إذ نصدّقُ أنَّ رجلاً واحداً كسحَ ظلماتِ الكفر فوقَ أرضٍ واسعةٍ شاسعة وبنى في مكانِها دولةً نورانيّةً إيمانيّةً قامت على أساسِ الإيمانِ باللهِ عزَّ وجلّ. ولكن هذا ما وقع. وظلّت هذه الدّولةُ راسخةً قويّةً تتّسع، ولا يستطيعُ عدوٌّ أن يتسرَّبَ إليها، أو أن يكيدَ لها، أو أن يخطِّطَ عدواناً نحوها. حتّى إذا استغنى ملوك أو رؤساءُ هذه الدّولة، وأفاضَ اللهُ عزَّ وجلَّ عليهم من نعمهِ وخيراته، ركنوا إلى المالِ الكثير، واطمأنّوا إلى الدَّعَةِ والمتعةِ والفجور: فتحوّلت مملكتهم الواحدةُ إلى ما يسمّى بملوكِ الطّوائف. كانوا دولةً واحدة، وتحوّلوا إلى دويلاتٍ صغيرة. لأيِّ سبب؟ بسببِ انصرافهم إلى المجون، إلى البذخ، إلى التّرف، إلى التّقلّبِ في النّعيمِ والاتّجاهِ بهِ على نقيضِ الشّرعِ الذي أمرَ اللهُ سبحانهُ وتعالى.

وقامت هذه الدّويلاتُ المتنافسة، وشاعَ فيما بينها الخصام، ثمَّ شاعَ فيما بينها التّهارج. فأخذت هذه الدُّولُ تستعينُ بأعداءِ اللهِ سبحانهُ وتعالى على أبناءِ عمومتهم، وعلى أبناءِ جلدتهم، وعلى من يقفونَ معهم تحتَ مظلّةِ إسلامٍ واحد، تحتَ مظلّةِ دينٍ واحد. أخذوا يستعينونَ بأعداءِ الله الذينَ طردهمُ اللهُ بالأمسِ من ديارهم، عندما كانوا متمسّكينَ بحبلِ الله، ينتصرونَ بدينِ اللهِ عزَّ وجلّ، يلتزمونَ نهجَ الشّريعةِ الإسلاميّة.

فإلامَ آلَتْ حالُ هذه الملوكِ المتناحرة؟ آلَ حالُهم إلى مزيدٍ من التّهارُج، ثمَّ مزيدٍ من الاضمحلال، ثمَّ إنَّ هذه الدّولة غابت شمسُها بعدَ أن أكرمَ اللهُ سبحانهُ وتعالى المسلمينَ منها بميلادٍ لا يستطيعُ أيُّ منطقٍ أن يفهمَ سرّه، إلا أن يكونَ هو السِّرَّ الرّبّانيَّ القائل: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ﴾.

الشّقُّ الأوّلُ من هذا الكلامِ تجسَّدَ في ميلادِ تلكَ الدّولة، والشّقُّ الثّاني ظهرَ وتجسّدَ في غروبِ تلكَ الدّولة..

خذوا العبرةَ يا عبادَ الله. إن لم تريدوا أن تؤمنوا بنصوصِ القرآنِ لأنّها بتصوّرِ البعضِ نظريّة، فانظروا إلى الواقعِ الميدانيّ والتّاريخِ الذي يشهد لهذه الحقيقةِ الرّبّانيّة: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ، أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾.

ولا يوجدُ صمامُ أمانٍ ضدَّ هذا الطّغيان إلا أن تلزم لأمّةُ نفسها بلجامِ العبوديّةِ لله. فإذا لم تلزم نفسها بلجامٍ حقيقيٍّ من معنى العبوديّةِ للهِ عزَّ وجلّ، فلسوفَ يطغيها الغنى. وإذا أطغاها الغنى فلسوفَ يسبِّبُ غناها لها انقساماً على نفسها. يسبّبُ لها المالُ الكثيرُ الوفيرُ أحقاداً تسري فيما بينَها. وتتفرّقُ الأمّةُ الواحدة، وتتحوّلُ إلى دويلاتٍ وشيعٍ وأحزابٍ وفئات. ثمَّ إنَّ كلّاً من هذهِ الفئاتِ تتربّصُ بالأخرى ويذهبُ ريحُها جميعاً. ولا غرابةَ ولا عجبَ بعدَ هذا أن تجدَ فئةً تستنجد، بمن؟ بالعدوِّ المشترك. تستنجدُ بمن؟ بمن قالَ اللهُ سبحانهُ وتعالى للمسلمينَ في حقّهم: ﴿لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾.

هذا ما حدثَ بالأمس، وتللكَ هي العبرةُ الخالدةُ من ورائها إلى اليوم، بل إلى ما بعدَ اليوم. واسمعوا تلكَ العبرةَ مع هذه الحقيقةِ الرّبّانيّة: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾

ولا بدَّ أيُّها الإخوة ونحنُ نتكلّمُ عن هذه الحقائقِ التي من شأنِها أن تزيدَ إيمانَ المؤمنِ إن كانَ إيمانهُ ضعيفاً، بل من شأنِها أن توجدَ الإيمانَ في كيانِ الإنسانِ الذي لم يشرق الإيمانُ بينَ جوانحهِ بعد. لا بدَّ أن أضعَ النّقاطَ على الحروفِ في مسألةٍ قد تذكّرنا بحقيقةٍ: هل يجوزُ أن يستعينَ المسلمونَ في قتالٍ لهم بعدوٍّ مشترك؟ أي بمشركٍ أو ملحد؟ ها هنا حالتانِ اثنتان:

الحالةُ الأولى: أن يكونَ المسلمينَ مستقرّينَ في دورِهم، مستقرّينَ في أوطانهم في دارِ الإسلام. ويكونَ السّؤالُ هو: هل يجوزُ لنا أن نستقدم أناساً غيرَ مسلمينَ ليحتلّوا دارَ الإسلام باسمِ تقديمِ المعونةِ للمسلمين؟ الجوابُ بإجماعِ العلماءِ قديماً وحديثاً وبنصِّ كتابِ اللهِ عزَّ وجلّ: لا يجوزُ ذلك.

الحالةُ الثّانية: أن يخرجَ المسلمونَ من أرضهم، وأن يتّجهوا إلى دارِ عدوٍّ لهم لقتاله، ويلتقوا هناك مع أناسٍ غيرِ مسلمينَ يقدّمونَ لهم المعونة، ويعرضونَ لهم أن يكونوا شركاءَ لهم في قتالِ هذا العدوّ، والأرضُ التي يجري عليها القتالُ أرضٌ غيرُ إسلاميّة، والمسلمونَ خارجونَ عن دارهم متّجهونَ إلى عدوٍّ لهم. ما الحكمُ في هذه الحالة؟ المسألةُ خاضعةٌ للسّياسةِ الشّرعيّة، فإن رأى الإمامُ المسلمُ المتّقي للهِ والمخلصُ لدينِ اللهِ عزَّ وجلَّ أن لا خطرَ على الإسلامِ والمسلمينَ من هؤلاءِ النّاس، وأنّهم صادقونَ في تقديمِ هذه المعونة، فلا حرج. وإن رأى أنّهم كاذبون، وتصوّرَ ببصيرتهِ السّياسيّةِ أنّهم يكذبون، فعليهِ أن يمتنعَ عن ذلك.

والمهمُّ أن نعلمَ الفرقَ المنصوصَ عليهِ في شريعةِ اللهِ عزَّ وجلّ: عندما أكونُ في دارِ الإسلام، مستقرّاً فوقَ أرضيَ الإسلاميّة، لا يجوزُ لي أبداً أن أستقدمَ أناساً غيرَ مسلمينَ يجثمونَ فوقَ هذه الأرض. فضلاً عن أن تكونَ هنالكَ مكيدة، مكيدةٌ تتجلّى باسمِ المعونةِ ثمَّ إنّها تنتهي إلى ما يشبهُ الاحتلال. أمّا الحالةُ الثّانية فهيَ أن نخرجَ من أرضنا هذه لملاقاةِ عدوٍّ فوقَ أرضٍ أخرى غيرِ إسلاميّة، ويأتي من يقدم نفسه للمعونة معنا، ذلكَ شيءٌ آخر. خرجَ رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ من المدينةِ المنوّرةِ إلى أُحُد، خرجَ

من دارِ الإسلام، ووقفَ فوقَ أرضٍ غيرِ إسلاميّة، وجاءَ من يعرضُ نفسهُ لتقديمِ المعونة. المسألةُ داخلةٌ في السّياسةِ الشّرعيّة.

في حُنَين: في مكانٍ بعيد، مكانٍ حياديّ، بعيدٍ عن أرضِ الإسلام، وبعيدٍ عن أيِّ أرضٍ أخرى أي عن أيِّ مملكةٍ أو أرضٍ كافرةٍ أو أرضٍ غيرِ إسلاميّة، وجاءَ من يقدّمُ نفسهُ لمعونةِ المسلمين، شيءٌ آخر. هذه المسألةُ خاضعةٌ لأحكامِ السّياسةِ الشّرعيّة.

أقولُ هذا حتّى نتبيَّنَ أحكامَ الشّريعةِ الإسلاميّةِ بدقّة، وحتّى نعلم ما هيَ الأحكامُ التي تتعلَّقُ بدارِ الإسلام، وكيفَ ينبغي أن نحصِّنَ دارَ الإسلام. ضدَّ أيِّ إصبع تريد أن تتسرب، وضدَّ أيِّ كائدٍ يريدُ أن يتقنّعَ باسمِ الحمايةِ والرّعاية. ينبغي أن نعلمَ هذا.

والأهمُّ من هذا كلّهِ أن ندركَ أنَّ يومنا الذي نحنُ فيهِ أشبهُ ما يكونُ بأمسِنا الدّابر. وأنَّ دولةً إسلاميّةً كدولةِ الأندلس تحملُ على كاهلها عبراً طويلةً ينقضي الدّهرُ ولا تنقضي هذه العبر، تجسد حقيقةَ كتابِ اللهِ عزَّ وجلّ، وتجسد واقعَ السّنّةِ الرّبّانيّة: دولةٌ إسلاميّةٌ واحدة، ما الذي بددها؟ البزخ والترف والمجون، ما الذي جعلَ عتاة ملوكَ الطّوائفِ يتهارجونَ ويتخاصمونَ ويستعينُ كلٌّ بالفرنجةِ من أعداءِ دينِ اللهِ على صاحبه؟ تحوُّلهم عن الانتصارِ لدينِ الله، ووقوفهم عندَ الانتصارِ للذات، عندَ الانتصارِ للنّفس.

هذا الواقع ينبغي أن نعلمه، وهو واقع متكرر، إذا رأيتم أنَّ المسلمينَ أصبحوا دويلاتٍ متهارجةٍ متخاصمة: فاعلموا السّبب، وإن عزَّ أن تعلموه افتحوا أعينكم لتروا السّبب. وإن رأيتم أنَّ هؤلاءِ المسلمين وصلوا من الذّلِّ والهوان إلى درجةِ أنّهم يستعينونَ بأعدائهم التقليدين، فاعلموا السّبب، وتبيّنوا أنَّ دينَ اللهِ سبحانهُ وتعالى لا توجدُ لهُ أيُّ مكانةِ اعتزاز بينَ جوانحنا، إنّما جوانحُنا مستعمرةٌ لأهوائنا، مستعمرةٌ للهونا، مستعمرةٌ لليالينا، مستعمرةٌ لبذخنا وترفنا، تلكَ هي المصيبة. وإذا كانت هذه المصيبةُ جاثمةً مستقرّة: فما أطولَ الليلَ المظلمَ الذي قد نخوضُ فيه.

١٦٨- لماذا لا ينصر الله عباده المؤمنين؟ | ١٩٩١/٠٢/٠١

إنَّ من شأنِ الفتنِ التي قد يبتلي اللهُ سبحانهُ وتعالى بها عباده أنّها تزيدُ المؤمنينَ باللهِ إيماناً، وتزيدُ التّائهينَ والضّالّينَ عن صراطِ اللهِ سبحانهُ وتعالى حيرةً وشروداً.

أمّا المؤمنونَ باللهِ عزَّ وجلّ، المطّلعونَ على سننِ اللهِ وقوانينهِ في عباده، فإنَّ الفتنَ مهما كَثُرت وادلهمّت لا تزيدهم إلا يقيناً باللهِ سبحانهُ وتعالى. بل إنَّ من شأنِها أن تضاعفَ إيمانهم. وأمّا أولئكَ التّائهونَ الذينَ لم يسبق لهم أنِ التفتوا إلى سننِ اللهِ في عباده، ولم يصغوا إلى قوانينهِ التي يأخذهم بها، فإنَّ هذهِ الفتنَ تزيدُهم ضلالاً كما قالَ اللهُ سبحانهُ وتعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾.

للهِ سبحانهُ وتعالى سننٌ في عبادهِ لا يلحقُها خلف ولا يتسرّبُ إليها شذوذ. هذهِ الأرضُ للهِ سبحانهُ وتعالى، ولكن من الذي يرثُها؟ منِ الذي يهيمنُ عليها؟ يأتي البيانُ الإلهيُّ مجيباً ليقول: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ، إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾. هكذا يقولُ اللهُ سبحانهُ وتعالى. ويقول أيضاً: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ﴾. ثمَّ قال: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ، وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾.

هذهِ سننُ اللهِ في عباده، ولا يلحقُها خلف. انظروا ماذا يقولُ الله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ﴾، وقد استبدَّ بهمُ الطّغيانُ واستشرى الكِبر: ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾. هكذا قالَ الذينَ كفروا لرسلهم ولمن اتّبعهم من المؤمنينَ والصّالحين. فماذا كانَ جوابُ اللهِ لهم؟ ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ﴾.

وهذا قانون، ولم يكن أمراً عشوائيّاً أو حدثاً عارضاً، ولذلك قالَ من بعد: (ذلك...)، أي هذا المنطقُ يتكرّرُ ﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ كلّما وُجِدَ أمامَ الظّالمين أناسٌ أو قومٌ أو أمّةٌ آمنوا باللهِ عزَّ وجلَّ وأحيَوا إيمانهم بالخوفِ من مقامِ اللهِ عزَّ وجلَّ، بالخوفِ من وقوفهم بينَ يديِ اللهِ سبحانهُ وتعالى،

والخوفِ من وعيده. وضعوا ذلكَ كلّهُ من حياتِهم موضعَ الفاعليّةِ والتّنفيذ، قانونَ اللهِ الذي لا يتبدّل: أنّهُ يهلكُ الظّالمينَ الذينَ يجابهونَهُم ويجعلُ الأرضَ ميراثاً لهؤلاءِ الذينَ يخافونَ مقام اللهِ ويخافونَ وعيده.

ولكن إذا لم يوجد أمامَ الظّالمينَ من يكونونَ على هذهِ الشّاكلة، فإنَّ اللهَ ليسَ من شأنهِ أن يهلكَ الظّالمينَ هكذا، لا بدَّ أن تبقى الحياةُ مستمرّةً إلى أن يأتيَ الميقاتُ المحدّدُ لإقامةِ السّاعة. لا بدَّ أن تسريَ الحياةُ على طبيعتِها، فإمّا أن تكونَ الأرضُ ميراثاً لهؤلاءِ الذينَ آمنوا وخافوا مقامَ اللهِ وخافوا وعيده. أو لا يوجدُ هؤلاءِ النّاس، فإنَّ اللهَ يسلّمُ الأرضَ عندئذٍ لأسوأِ عباده، هكذا يقولُ اللهُ سبحانهُ وتعالى.

والمؤمنونَ في الظّاهرِ والمسلمونَ في هذهِ الأيّامِ كثير، كثيرٌ جدّاً. ولو نظرَ الإنسانُ إليهم نظرةً سطحيّةً لعجبَ من سياسةِ اللهِ في عباده، ولربّما داخلهُ الرّيبُ وتساءل: لماذا يهملُ اللهُ عبادهُ المؤمنينَ هؤلاء؟ ولكن لو أنَّ هذا المتسائلَ المرتابَ تأمّلَ في دينِ اللهِ، ووقفَ عندَ بعضٍ من كلامِ رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم، وأصغى إلى رسولِ اللهِ وهو يصفُ هؤلاءِ المؤمنينَ المسلمينَ الكُثُر في هذا الوقت، يصفهم بماذا؟ يصفهم بأنّهم غثاءٌ كغثاءِ السّيل. عندئذٍ نعلمُ السّرّ، وندركُ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لا يتعاملُ مع عبادهِ بالكمِّ العدديِّ ولكنّهُ يتعاملُ معهم بناءً على ما استقرَّ في قلوبهم من الإيمانِ الحقيقيِّ بالله. ثمَّ من هذينِ الأمرينِ اللَّذَينِ هما من صفةِ كلِّ مؤمن، ينظرُ إلى من خافَ مقامَ اللهِ سبحانهُ وتعالى غداً وخافَ وعيده. ليكونوا قلّة؛ ينصرُهمُ اللهُ سبحانهُ وتعالى ويعطيهم مقاليدَ الأمر، ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾. ولكن ماذا تفيدُ الكثرةُ عندما تكونُ غثاءً كغثاءِ السّيل؟ ولعلّكم جميعاً وعيتُم أو سمعتم هذا الحديثَ النّبويَّ العظيم: «ستداعى عليكمُ الأممُ –من كلِّ فئة– كما تداعى الأكلةُ إلى قصعتها. قالوا: أمن قلّةٍ نحنُ يا رسولَ اللهِ يومئذٍ؟ قالَ: بل أنتم كثير، ولكنّكم غثاءٌ كغثاءِ السّيل. وسينزعنَّ اللهُ الرّهبةَ منكم من قلوبِ أعدائكم. وسيقذفنَّ في قلوبكمُ الوهن. قالَ أحدهم: ما الوهنُ يا رسولَ الله؟ قالَ: حبُّ الدّنيا وكراهيةُ الموت». حبُّ المال، حبُّ الشّهوات، حبُّ الزّينة، حبُّ الأهواء.

هذا الحبُّ إذا استولى على النفوسِ لا يعلمُ أصحابُ هذهِ النّفوسِ طريقاً يؤدّيهم للالتجاءِ إلى اللهِ عندَ الضَّرّاء، ولا يعلمونَ مهما ضاقت بهمُ المحنُ وتهدّدتهمُ الفتن، لا يعلمونَ سبيلاً للعودةِ إلى اللهِ والالتجاءِ إلى اللهِ سبحانهُ وتعالى. ذلكَ لأنَّ الشّهواتِ أسرت أفئدتهم، ولأنَّ حبَّ الدّنيا وحبَّ المالِ هيمنَ على مشاعرهم، إن ضاقت بهم فتنة أو رأَوا أنفسهم أمامَ فتنة: التجؤوا إلى أميركا قبلَ الالتجاءِ إلى الله. والباري

سبحانهُ وتعالى - مرّةً أخرى أقول -: لا ينظرُ إلى عبادهِ عدّاً، ولا يتعاملُ معهم على أساسٍ من الكمّ. ولكنّهُ يتعاملُ معهم على أساسٍ من الصّدقِ أو عدمِ الصّدق. والصّدقُ يظهرُ في القلب، ولهُ دلائل في الظاهر، لا بدَّ أن يمتحنَ اللهُ عباده.

انظروا، انظروا إلى طالوتَ الذي اختارهُ اللهُ سبحانهُ وتعالى قائداً ليقودَ أصحابهُ إلى قتالِ ذلكَ الطّاغية. كيفَ كانَ النّصر؟ وبما ابتلى اللهُ سبحانهُ وتعالى طالوتَ وقومه؟ ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ﴾، هكذا يقولُ اللهُ سبحانهُ وتعالى: ﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾. ابتلاهمُ اللهُ بشيء، قد يقولُ أحدُنا: ما سرُّ هذا الابتلاء؟ وما فائدته؟ أو ما الضّررُ فيه؟ ابتلاهمُ اللهُ بنهرٍ وهم على ظمأ، وجاءَ الأمرُ الإلهيُّ يقول: ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّ﴾. ترى ماذا سيصنعُ الجند؟ الأمرُ ليسَ أمرَ شربٍ أو عدمَ شرب، إنّما الأمرُ عبارةٌ عن طواعيةٍ وخضوعٍ لأمرِ اللهِ أو عدمِ خضوعٍ لأمرِ الله. المسألةُ عبارةٌ عن استخراجِ هذهِ الحقيقةِ من القلب وإبرازِها أمراً واضحاً في السّلوك، ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾.

﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّ﴾. ووصلوا إلى النّهر، فكانتِ النّتيجةُ انَّ أكثرهم شربَ منَ النّهر. لم يكن هنالكَ خوفٌ من مقامِ الله، ولا خوفٌ من وعيدِ الله. بقيت قلّةٌ لم تشرب، تلكَ القلّةُ هي التي اصطفاها الله، وهيَ التي كانت السّند، ومن ثمَّ قالَ اللهُ سبحانهُ وتعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ واللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾. كذا يقولُ اللهُ سبحانهُ وتعالى.

الباري عزَّ وجلَّ يمتحنُ عباده، وهوَ يعلمُ ما استقرَّ في بواطنهم وفي أفئدتهم. ولكنَّ اللهَ من شأنهِ أن يُظهرَ هذا الذي خفيَ في أفئدتهم ليكونَ واضحاً في علانيتهم، على هذهِ العلانيةِ يعاملهم إن بالنّصرِ وإن بأتونه. وإن كانت هذهِ هيَ سنّةُ اللهِ في عبادهِ فتعالوا فانظروا: هل استأهلنا النّصرَ حقيقةً؟ هل استأهلنا أن نكونَ ممّن قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ عنهم: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾. هل نحنُ من عبادهِ الصّالحين؟ هل لو كنّا ممّن ابتلاهمُ اللهُ بهذا النَّهَرِ ونحنُ على ظمأٍ لا نشربُ من هذا الماءِ ونؤثرُ الظّمأَ القتّالَ على الرّيِّ في هذهِ الحال؟ وشربُ الماءِ من المباحاتِ إذا كنّا نرتكبُ المحرّماتِ جهراً. وإذا كنّا نتعاملُ مع الخمرِ أكثرَ ممّا نتعاملُ مع الماء. في بعضِ بلادِنا العربيّة: الخمورُ منتشرةٌ

في الأسواقِ والأماكنِ والشّوارعِ العامّةِ أكثرَ ممّا ينتشرُ الماء، ولعلّكم تعلمونَ البلدةَ التي أعني. ومنَ المحرّماتِ شهواتُنا الدّاعرة، أهواؤنا المستبدّة، ماذا أبقت من الفوارقِ بيننا وبينَ أميركا وأوروبّا؟

عاد الأمرُ سواءٌ بسواء، تحطّمت الحواجز، وهل الحواجزُ إلا البنيان؟ وهلِ الحواجزُ إلا تقوى اللهِ سبحانهُ وتعالى؟

في ليلةِ رأسِ السّنةِ الميلاديّة، أيُّ فرقٍ بقيَ بينَ بلدةٍ مسلمةٍ وبلدةٍ غيرِ مسلمةٍ؟ والمقياسُ هذا (الرّائي) الذي يراهُ كلٌّ منكم في داره. أنا أسألُ وعلى كلٍّ منّا أن يجيب: ماذا بقيَ من الفرقِ في تلكَ الليلةِ بينَ شوارعِنا الإسلاميّةِ وأنديتنا وملاهينا، إن صحَّ أن نقول: الملاهي الإسلاميّة. وتلكَ الشّوارعِ والملاهي الأخرى؟ أيُّ فرقٍ بقي؟

في البلادِ التي طافت بها المحنُ وطافت بها هذهِ الفتنة، ماذا جرى في تلكَ الليلة؟ وهم بينَ شقّيٍّ الموت، وهم في حالةٍ لا يعلمونَ مآلهم بعدَ أيّامٍ أو بعدَ ساعات. أينَ الالتجاءُ إلى اللهِ عندَ الشّدّة؟ أليسَ صواباً أن أقول: التجؤوا إلى أميركا قبلَ أن يلتجؤوا إلى الله؟

عدما نلتجئُ إلى اللهِ حقّاً، وعندما نكونُ ممّن قالَ اللهُ عنهم: ﴿ذلكَ لمن خافَ مقامي وخافَ وعيد﴾، انظروا عندئذٍ إلى معجزاتِ النصر، انظروا إلى معجزاتِ التأييد، انظروا إلى الحضاراتِ السائدة كيفَ تنتهي وتذوبُ وتضمحلّ. وانظروا إلى سلطانِ اللهِ في عبادهِ المسلمينَ كيفَ ينتشرُ ويسود.

ولكن إذا كانَ جنودُ اللهِ قد خانوا اللهَ عزَّ وجلّ، إذا كانَ جنودُ اللهِ بالأمسِ قد أصبحوا جنودَ شياطينِ الإنسِ والجنِّ اليوم. من همُ الذينَ ينصرُهمُ اللهُ؟ عندئذٍ لا بدَّ أن يحيقَ بهم قولُ الله: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾. لكلِّ حالٍ قانون، لكلِّ وضعٍ مبدأٌ وشِرعة.

أقولُ قولي هذا وأسألُ اللهَ سبحانهُ وتعالى أن يهديَنا سواءَ صراطهِ المستقيم، فاستغفروهُ يغفر لكم..

١٦٩- الذي أحال قوة المسلمين وغناهم إلى ضعف وفقر |١٩٩١/٠٢/٠٨

طالما تساءَلَ كثيرُ من النّاس –إن بطيبِ قلبٍ أو بنيّةٍ سيّئةٍ –: لماذا نرى المسلمينَ في العالَمِ أذلّة، وغيرُهمُ الأعزّةُ الموقّرون؟ ولماذا نراهمُ الفقراء، وغيرُهمُ الأغنياءُ المترفون؟ ولماذا نراهمُ الضّعفاء، وغيرهمُ الأقوياءُ الذينَ يُرهَبُ جانبهم؟ طالما طُرِحَ هذا السّؤالُ إمّا على سبيلِ الاستشكال، أو من أجلِ إدخالِ ريبةٍ وشكوكٍ في أذهانِ المسلمينَ تجاهَ إيمانهم ويقينهم باللهِ سبحانهُ وتعالى.

ولكن ها هي ذي الأحداثُ تتولّى أبلغَ إجابةٍ عن هذا السّؤال، عندما لم يكن يعي هؤلاءِ السّائلونَ الجوابَ الذي يذكّرهم بهِ كتابُ الله، أو الذي يذكّرهم بهِ علماءُ الشّريعة. ها هي ذي الأحداثُ تأتي لتؤكّدَ هذا الجوابَ بأبلغِ بيان، وبأوضحِ حجّة.

الباري سبحانهُ وتعالى أعدلُ وأرحمُ من أن يتركَ عبادهُ المسلمينَ فقراءَ وغيرُهم الأغنياءُ المترفون. وهوَ أعدلُ وأرحمُ من أن يجعلهم أذلّةً وغيرُهمُ الأعزّةُ الأقوياءُ وهوَ القائلُ في محكمِ كتابه: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾. واللهُ سبحانهُ وتعالى أعدلُ وأرحمُ بعبادهِ المسلمينَ من أن يجعلهم همُ المستضعفينَ وغيرهمُ الأقوياءُ المتسلّطون؟

المسلمونَ هم أغنى النّاسِ على وجهِ الأرض، وهم أقوى النّاسِ على وجهِ الأرض، وهم أعزُّ النّاسِ على وجهِ الأرض. ولكنَّ المسلمينَ لمّا كانوا مؤمنينَ بإسلامهم، متفاعلينَ مع حقائقِ العبوديّةِ لربّهم وخالقهم، التفتوا إلى غناهمُ الذي أكرمهمُ اللّهُ بهِ فعرفوا كيفَ يستخدمونه. والتفتوا إلى عزّتهم فعرفوا كيفَ يحصّنونها. ونظروا إلى قوّتهم فعرفوا كيفَ يشكرونَ اللهَ سبحانهُ وتعالى عليها وكيفَ يجعلونَ منها أداةَ دعوةٍ إلى دينِ الله، وإقامةٍ لصرحِ شريعةِ اللهِ سبحانهُ وتعالى. تلكم هيَ سيرةُ الرّعيلِ الأوّل، ومن جاءَ فسارَ على نهجهم من الأجيالِ التي تلتهم من المسلمين.

ثمَّ خَلَفَ من بعدهم خلفٌ عمدوا إلى المالِ الذي أغناهمُ اللهُ سبحانهُ وتعالى بهِ فجعلوا منهُ سَكَراً، وجعلوا منهُ أداةً للطّغيان، وصاغوا منهُ حجاباً صفيقاً حجبهم عن رؤيةِ اللهِ المنعمِ المتفضّلِ عليهم. وتركوا

أموالهم هذهِ تندلقُ إلى أعدائهم وأعداءِ اللهِ سبحانهُ وتعالى. فأيُّ حجّةٍ على اللهِ بعدَ أن فعلَ المسلمونَ بأنفسهم هذا؟

خلفَ من بعدهم خلفٌ عمدوا إلى القوّةِ التي أكرمهمُ اللهُ بها، وما أكرمَ اللهُ عبادهُ المؤمنينَ بقوّةٍ إلا وينبوعُها الوحدة. وما كانت وحدةُ المسلمينَ يوماً إلا ائتلافاً للقلوب، وحبّاً يسري بينَ الأفئدةِ والنّفوس، وشفقةً تتفاعلُ بها المشاعرُ والألباب.. على هذا الأساسِ اتّحدتِ الأمّةُ الإسلاميّة، ومن هذهِ الوحدةِ انقدحت حقائقُ القوّة.

خلفَ من بعدهم خلفٌ عمدوا إلى الحبِّ الذي غرسهُ اللهُ عزَّ وجلَّ في أفئدتهم تجاهَ بعضهم بعضاً، اقتلعوا هذا الغرسَ المباركَ وغرسوا في مكانهِ الأحقادَ والضّغائن. عمدوا إلى الشّفقةِ والرّحمةِ التي أكرمهمُ اللهُ عزَّ وجلَّ بها، فاقتلعوا هذهِ المشاعرَ والمعانيَ القدسيّةَ وغرسوا في مكانِها من أفئدتهمُ العداوةَ والبغضاء. أحبَّ اللهُ لهم أن يكونوا متراحمين، ولكنّهم حكموا على أنفسهم أن يكونوا متباغضين.

وهكذا تحوّلت وحدتهم إلى شِقاق، وكانَ لا بدَّ من بعدِ ذلكَ أن تتحوّلَ قوّتهم إلى مهانةٍ وضعف. فأيُّ حجّةٍ تبقى على اللهِ سبحانهُ وتعالى بعدَ أن فعلَ المسلمونَ بأنفسهم هذا؟

خلفَ من بعدهم خلفٌ عمدوا إلى الولايةِ السّاريةِ بينهم عبيداً وبينَ ربّهم مولىً رحيماً مربّياً. عمدوا إلى هذهِ الولايةِ فقطّعوا أوصالها فيما بينهم وبينَ ربّهم. وهانت عليهم كلماتُ اللهُ سبحانهُ وتعالى ﴿إنَّ وليّيَ اللهُ﴾. هانت عليهم كلماتُ اللهِ سبحانهُ وتعالى من مثلِ قولِهِ: ﴿إنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ﴾. هانت عليهم كلماتُ اللهِ سبحانهُ وتعالى من مثلِ قولِهِ: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَالنُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾. بعدَ أن أعزّهمُ اللهُ بولايتهِ لهم ورعايتهِ إيّاهم تحتَ مظلّةِ هذهِ الولايةِ أعرضوا عنها، ومدّوا لأنفسهم ولايةً فيما بينهم وبينَ أعداءِ اللهِ سبحانهُ وتعالى، وكانتِ النّتيجةُ أن يتحوَّلَ عزّهم ذلّاً، لأنَّ العزَّ الذي أكرمهمُ اللهُ بهِ إنّما كانَ ينبوعهُ هذهِ الولاية. وإذا استغنى المسلمونَ عن ولايةِ اللهِ لهم، وأعلنوا عن احتياجهم إلى ولايةِ أعداءِ اللهِ لهم، فأيُّ حجّةٍ تبقى على اللهِ لهم إنِ انقلبَ عزُّهم ذلّاً؟ وإن انكفأت قوّتهم ضعفاً؟

المسلمونَ أقوياء، ولكنّهم همُ الذينَ حكموا على أنفسهم أن يعودوا ضعفاء. المسلمونَ أغنياء إلى هذا اليوم، ولكنّهم همُ الذينَ حكموا على أنفسهم أن يعودوا فقراءَ لا يتمتّعونَ بالمالِ الذي أغناهمُ اللهُ عزَّ وجلَّ به. والمسلمونَ أعزّة ولكنّهم همُ الذينَ حكموا على أنفسهم بهذا، وكانَ طبيعيّاً في ميزانِ العدالةِ الإلهيّةِ وقد فعلَ هؤلاءِ المسلمونَ بأنفسهم هذا أن يَكِلَهم إلى ما شاؤوهُ لأنفسهم من المهانةِ والضّعفِ والذُلِّ والفقر.

ألم يقلِ اللهُ عزَّ وجلَّ في وصفِ المؤمنينَ في أكثرَ من موضعٍ أنّهم رحماءُ فيما بينهم أعزّةٍ على الكافرين؟ ألم يقل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾؟ ألم يقل: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾؟ أليسَ هذا وصفَ المؤمنين النّخبةِ الصّالحةِ من عبادِ اللهِ عزَّ وجلَّ في كتابه؟ فلماذا سرنا في الطّريقِ المناقضِ لهذا الذي اختارهُ اللهُ لنا من الصّفات؟ شاءَ اللهُ لنا أن نكونَ رحماءَ فيما بيننا فأصبحنا أشدّاءَ فيما بيننا. نتهارجُ من أجلِ أتفهِ الأسباب، يستلبُ الواحدُ منّا من صاحبِهِ حقّهُ دونَ أن يذكرَ هذا المعنى العظيمَ الذي شرّفنا اللهُ عزَّ وجلَّ بهِ سمةً ووصفاً. وإذا استلبَ المؤمنُ من صاحبِهِ حقّه، جاءَ الآخرُ بدلاً من أن يرعوي إلى وصفِ اللهِ وما أمرهُ بهِ الله، فيكيلُ لهُ الصّاعَ صاعين، ويكيلُ لهُ الظُّلمَ ظلمَين، وإذا بالطّرفينِ يمزّقانِ هذا الوصفَ العظيمَ الذي وصفَ اللهُ بهِ عبادهُ المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾. كيفَ كانَ حالُ المسلمينَ من قبل؟ إذا أخطأَ طرفٌ معَ الطّرفِ الثّاني في مظلمةٍ وسِعَ قلبُ الطّرفِ الثّاني كلَّ ذلكَ برحمةٍ وصفحٍ وغفران، وعادَ الأمرُ بعدَ ذلكَ إلى وئام، وكانَ في صفِّ هذا الطّرفِ الثّاني خيرَ عاملٍ لتوبةِ الطّرفِ الأوّل. ولكن انظروا إلى ما آلَ إليهِ حالُ المسلمينَ اليوم..

أمّا حالُ المسلمينَ مع أعدائهم، فليتَ أنَّ هذهِ الشِّدّةَ التي يعاملُ المسلمُ بها أخاهُ يعاملُ بها أعداءَ اللهِ عزَّ وجلَّ أيضاً، إذاً لقلنا هي شدّةٌ في الطّبعِ لا تعلو ولا تهبطُ مهما كانَ الأمرُ وأيّاً كانَ الظّالم. ولكنّا ناقضنا وصيّةَ ربِّنا سبحانهُ وتعالى؛ بدلاً من أن نكونَ رحماءَ فيما بيننا أصبحنا أشدّاءَ متحاقدينَ متباغضينَ متهارجين، وبدلاً من أن نكونَ أشدّاءَ على الكافرينَ أصبحنا أذلّةً ننظرُ إليهم بعيونٍ كثيرةٍ وبنظراتٍ مهينة، ونرفعُ الأيديَ مستسلمينَ لما يفعلونَ ويقرّرون، ونعلنُ عن امتناننا لهم وشكرنا لهم بكلِّ لسان.

ألم يعد حالُ المسلمينَ إلى هذا الأمر؟ واللهُ يقول: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾. ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ فهل نحنُ مع رسولِ اللهِ بعدَ هذا؟ هل بقيَ جسرٌ يصلُ ما بيننا وبينَ رسولِ اللهِ وقد عكسنا بشكلٍ حادٍّ وصيّةَ اللهِ سبحانهُ وتعالى؟ يستلبُ منّا العدوُّ الأرعنُ –اليهودُ الذينَ هم شرُّ أمّةٍ في مقياسِ كتابِ اللهِ عزَّ وجلّ– أقدسَ أرضٍ ويطردونَ منها أهلها، فلا تتحرّكُ منّا قوّةٌ، ولا ينعصرُ منّا شعور، ولا نستعملُ شيئاً من الشّدّةِ التي نتمتّعُ بها اليومَ في معاملةِ بعضِنا لبعض، إن هيَ إلا كلماتٌ وشعاراتٌ نغطّي بها مهانتنا. وتمرُّ السّنواتُ تلوَ السّنواتِ ونحنُ نرى استلابَ أولئكَ الأعداءِ لأرضِنا وتمزيقهم لأوصالِنا وتعذيبَهم لإخوانِنا، ثمَّ لا تطرفُ منّا عين.

فإذا جاءَ من يستلبُ منّا أرضَنا من المسلمين، أو يوقعُ بنا مَظلَمَةً منَ المسلمين، والظّلمُ ظلمٌ من أيِّ جهةٍ جاء. تحوَّلَت مهانَتُنا إلى شدّة، وتحوَّلَ ضعفُنا واستخزاؤنا إلى عزّة، وتحوَّلَ ضعفُنا إلى قوّة، وأخذنا نستكثر، وأخذنا نجمّعُ لاستكثارنا أهلَ الشّرقِ والغربِ من أعداءِ اللهِ سبحانهُ وتعالى. وكأنّنا نعلِنُها صريحةً أنّنا على نقيضِ ما يقولهُ الله، وإن كانَ البيانُ الإلهيُّ يقول: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾، فليعلمِ اللهُ أنّنا أشدّاءُ على أنفسِنا رحماءُ مع الكافرين. كأنَّ لسانَ حالِنا يقولُ هذا الكلام.

إذاً أيُّها الإخوة: ألا ترونَ فيما نفعلهُ بأنفسِنا وفيما قضينا باختيارِنا على أنفسِنا خيرَ جوابٍ لهذا السّؤالِ الذي كانَ ولا يزالُ يتطارحهُ بعضُ النّاس: لماذا جعلنا اللهُ نحنُ المسلمينَ فقراءَ وتركَ الغِنى لأعداءِ الإسلام؟ لماذا جعلَنا اللهُ أذلّةً وتركَ العزّةَ لأولئك؟ ألا ترونَ فيما فعلناهُ بأنفسِنا خيرَ جوابٍ على هذا السّؤال؟

حصنُنا موجود، غنانا موجود، عزّتُنا موجودة، أرائك العزِّ لا تزالُ تنادينا وتشدُّنا إلى ذلكَ الصّعيدِ العالي الذي كنّا نتبوّؤهُ من قبل، ولكنّا حكمنا على أنفسِنا بالمهانة. حكمنا على أنفسِنا بالمهانةِ فكنّا جديرينَ بها، كنّا جديرينَ بالمهانةِ تماماً، كنّا جديرينَ بالضّعف، كنّا جديرينَ بالتّمزّق.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

١٧٠- أخطر عقاب يعاقب به المعرضون | ١٩٩٢/١٢/١١

إنَّ من سننِ اللهِ سبحانهُ وتعالى في عبادهِ: أنّهُ يعاملهم بأساليبَ شتّى طبقَ مراحلَ متعدّدة، وطبقاً لحكمتهِ الذي ألزمَ اللهُ سبحانهُ وتعالى بها ذاتهُ العليّة، فقد ألزمَ ربُّنا سبحانهُ وتعالى نفسهُ بأن يُكرِمَ عبادهُ بكلِّ نعمهِ الظّاهرةِ والباطنة، وأن يجعلَ لهم من هذهِ الأرضِ التي أقامهم عليها مائدةً عامرةً تزدهرُ عليها صنوفُ إنعامهِ وإكرامه. ولكَم أكّدَ البيانُ الإلهيُّ هذا قانوناً دائماً وقاعدةً مستمرّةً في تعاملهِ مع عباده، انظروا إلى قولهِ عزَّ وجلَّ: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ﴾. انظروا إلى قولِ اللهِ سبحانهُ وتعالى: ﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾. انظروا إلى قولهِ عزَّ وجلّ: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾.

ثمَّ إنَّ الإنسانَ بعدَ ذلكَ أحدُ رجُلين: رجلٌ أقبلَ إلى نِعَمِ اللهِ الوفيرةِ هذهِ فاستفادَ منها وقابلَ ربَّهُ سبحانهُ وتعالى عليها بالشّكرِ وبالثّناء، وعندئذٍ فإنَّ من سنّةِ ربِّ العالمينَ تجاهَ عبادهِ هؤلاء أن يُضاعِفَ لهم من هذهِ النِّعم، وأن يزيدهم من هذهِ الآلاء، ولقد قرأتم في ذلكَ قولَ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾. فما من إنسانٍ أقبلَ إلى نِعمِ اللهِ عزَّ وجلَّ يتقلَّبُ فيها مقبِلاً إلى اللهِ عزَّ وجلَّ بالشُّكرِ الحقيقيِّ إلا وحصَّنَ اللهُ سبحانهُ وتعالى لهُ نِعَمهُ وزادهُ نِعَماً إليها.

ورَجلٌ آخرُ تقلَّبَ في نِعَمِ اللهِ سبحانهُ وتعالى ثمَّ جعلَ منها حاجزاً يبعدهُ عنِ اللهِ سبحانهُ وتعالى، وجعلَ منها أداةَ نسيانٍ ينسيهِ فضلَ اللهِ سبحانهُ وتعالى، فهؤلاءِ النّاسُ يعاملهمُ اللهُ سبحانهُ وتعالى بطريقةٍ أخرى، ربَّما قلَّصَ منهم بعضاً من هذهِ النِعَم، ربَّما استبدلَ بها بعضَ ما نظنُّهُ نِقماً ومصائب، وهيَ في الحقيقةِ وفي المرحلةِ الأولى ليست مصائب، ولكنَّها ألوانٌ من التّطبيبِ وألوانٌ منَ العلاج، هؤلاءِ النّاسُ الذينَ أقبلوا إلى نِعَمِ اللهِ عزَّ وجلَّ يعبُّونَ منها عبّاً، ويتقلَّبونَ في رغدِ عيشِهم وهم عنِ المنعمِ معرضون، وهم عن حقوقِ اللهِ عزَّ وجلَّ سادرون، يعاملهمُ اللهُ بادئَ ذي بدئٍ بالتّطبيب: يرسلُ إليهم بعضَ المصائبِ التي نظنُّها مصائب، يرسلُ إليهم بعضَ ما يبعثُ اضطراباً أو زلزالاً في مستوى رغدِ عيشهم ونعيمهمُ الذي

يتمتّعونَ به، ولكنَّ هؤلاءِ النّاسِ لو تأمّلوا لرأوا أنَّ في هذا التّطبيبِ لوناً آخرَ منَ النِّعمِ التي يكرمُ اللهُ عزَّ وجلَّ بها عباده، ولرأوا في تضاعيفِ هذهِ المصائبِ، مظاهرَ رحمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ بهم.

وهؤلاءِ النّاسُ أيضاً أحدُ رجلين: رجلٌ استجابَ لهذا التّطبيب، واستجابَ مرضهُ لهذهِ المداواةِ ولهذا العلاجِ فاستفاقوا من غفلتهم وعادوا إلى رشدهم، وعادوا يشكرونَ اللهَ عزَّ وجلَّ على نِعمه، وتذكَّروا هويَّاتهم عبيداً صاغرينَ أذلاءَ للهِ عزَّ وجلّ، وهؤلاء سرعانَ ما يعيدهمُ اللهُ سبحانهُ وتعالى إلى سابقِ عهدهم، وسرعانَ ما يضاعفُ لهم من نعمهِ إذ ينتهي دورُ التّطبيبِ ويعودونَ إلى ما كانوا عليهِ من غذاء. ورجلٌ آخرُ لا تُعمِلُ فيهِ هذهِ العلاجاتُ أبداً، ولا يتأثّرُ مرضهُ بهذهِ المداواةِ قَطّ مهما بعثَ اللهُ سبحانهُ وتعالى إليهمُ القوارعَ التي تحلُّ بهم أو قريباً من دارهم كما قالَ اللهُ عزَّ وجلّ، فهم يبقونَ سادرينَ في غيّهم، يتقلّبونَ في أهوائهم، عاكفونَ على النِّعَمِ التي أغدقها اللهُ عزَّ وجلَّ عليهم، وقدِ اتّخذوا منها سَكَراً جعلهم يعرضونَ عن الله، ويستكبرونَ على اللهِ سبحانهُ وتعالى.. فمهما نبّههمُ المنبّهون، ومهما أرشدهمُ المرشدون، ومهما تليَت على مسامعهمُ القوارعُ المخيفةُ من كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ فإنَّ ذلكَ كلَّهُ أضعفُ من أن يوقظهم من سكرتهم، أو أن يردَّهم من كبريائهم، أو أن يعيدَهم إلى صراطِ اللهِ عزَّ وجلّ. ومعَ ذلكَ فإنّهم يرونَ هذهِ النِّعَمَ لم ينقطع حبلُها، ولم ينقطع عنهم رفدُها، فكيفَ يعاملُ اللهُ هؤلاءِ النّاس؟

هؤلاء يعاملهُم بالعقوبةِ التي هيَ عقوبةٌ حقيقيّةٌ وليست تطبيباً، يعاملُهم بالمصائبِ والرّزايا التي هيَ مصائبُ ورزايا في ظاهرِها وباطنِها، وليست تطبيباً أبداً، وليسَ فيها ما يفيدهُم، ولكنَّها مظهرٌ من مظاهرِ اسمٍ من أسماءِ اللهِ عزَّ وجلّ، ألم تعلموا أنَّ من أسمائهِ أنّهُ: عزيزٌ ذو انتقام؟ إنّهُ الرّحمن، وإنّهُ الرّحيم، وإنّهُ الغفور، وإنّهُ الشّكور، وإنّهُ المنعم، ولكنّهُ في الوقتِ المناسبِ أيضاً عزيزٌ ذو انتقام.

وأحبُّ هنا أن أوضِحَ أيُّها الإخوة: أنَّ انتقامَ اللهِ عزَّ وجلَّ من هذهِ الفئةِ من عبادهِ يكونَ على نوعينِ اثنين: هنالكَ انتقامٌ خبّأهُ اللهُ سبحانهُ وتعالى لهم ليفاجؤوا بهِ في الحياةِ الآخرةِ بعدَ أن ينتقلوا من هذهِ الحياةِ الدّنيا عبرَ بوّابةِ الموتِ إلى تلكَ الحياةِ الأخرى التي تنتظرُهم، ولكنَّ هنالكَ عقاباً عاجلاً أيضاً، يبتلي اللهُ سبحانهُ وتعالى بهِ مَن شاءَ مِن عباده، بل يبتلي اللهُ عزَّ وجلَّ بهِ هؤلاءِ النّاس، فما هوَ هذا العقابُ العاجل؟ العقابُ العاجلُ الذي يتجلى فيهِ معنى انتقامِ اللهِ عزَّ وجلَّ متنوّعٌ وكثيرٌ جدّاً، وليسَ لي غرضٌ في أن أستعرِضَ معكم أنواعَ هذا العقابِ في هذا الموقف، ولكنّي أقصدُ إلى أن أذكِّركم بنوعٍ منهُ هو أخطرُ

أنواعِ العقابِ العاجلِ الذي يعجّلهُ اللهُ سبحانهُ وتعالى للمستكبرينَ من عباده، الذي لم تُعمِل فيهم المداواةُ والعلاج، ولم يؤثِّر فيهم التطبيب، أريدُ أن ألفتَ نظركم إلى أخطرِ عقابٍ عاجلٍ بينَ هذهِ الأنواعِ كلِّها، إنّهُ: قسوةُ القلب، عرفَ ذلكَ من عرفَ وجهلهُ من جهل، وهوَ العقابُ الذي ألمحَ إليهِ بيانُ اللهِ عزَّ وجلَّ في قولهِ: ﴿واعلموا أنَّ اللهَ يحولُ بينَ المرءِ وقلبهِ وأنّهُ إليهِ تحشَرون﴾.

فكيفَ يُحيلُ اللهُ بينَ الإنسانِ وبينَ قلبهِ الذي هو مجمعُ العواطف؟ والذي هوَ مركزُ الوجدان؟ هذا ما لا يعلمهُ أحدٌ إلا فاطرُ السّماواتِ والأرض، إلا الإلهُ الذي خلقَ الإنسانَ وخلقَ قلبه، فهوَ يعلمُ كيفَ يحجزُ القلبَ عن صاحبهِ وكيفَ يجعلهُ بعيداً عن حياةِ صاحبِ هذا القلب: ﴿واعلموا أنَّ اللهَ يحولُ –أي إذا شاء– بينَ المرءِ وقلبهِ وأنّهُ إليهِ تُحشرون﴾.

وهوَ العقابُ الذي أعلنَ عنهُ بيانُ اللهِ عزَّ وجلَّ في قرارٍ أمضاهُ اللهُ عزَّ وجلَّ في حقِّ بني إسرائيلَ عندما استحقّوا هذا العقاب، عندما أكرمهمُ اللهُ بالنِّعَمِ ثمَّ لم يشكروا الله، ذكّرهمُ اللهُ بالشُّكرِ ثمَّ لم يتذكّروا، طبّبهمُ اللهُ ثمَّ لم يتطبّبوا، ولم يُعمِل فيهمُ العلاجُ، عندئذٍ عاقبهمُ اللهُ بأنواعٍ منَ العقابِ العاجلِ كانَ في مقدِّمتها: قسوةَ القلب. فماذا قالَ لهمُ اللهُ عزَّ وجلَّ من خلالِ قرارٍ أعلنه؟ ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاء وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللّهِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾. هذا القرارُ اتّخذهُ اللهُ عزَّ وجلَّ في حقِّ بني إسرائيل، ولكنّهُ قرارٌ نافذٌ في حقِّ كلِّ من وقعوا في هذهِ المطارح، واتّخذوا هذهِ المواقفَ التي اتّخذها بنو إسرائيل.

قسوةُ القلبِ أيُّها الإخوةُ هوَ الدّاءُ الذي لا علاجَ له، يسمعُ صاحبُ هذا القلبِ القوارعَ المخيفةَ من كلامِ اللهِ عزَّ وجلَّ فلا يحسُّ منها بشيء، يسمعُ كلامَ الرُّسُلِ والأنبياءِ فلا يسري شيءٌ من هذا الكلامِ إلى قلبِهِ لأنَّ هذا الفؤادَ قد صُفِّحَ بالرّان، وصدقَ عليهِ قولُ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ والرّانُ هوَ هذا الحجازُ أو الحجابُ الذي يفصلُ اللهُ سبحانهُ وتعالى بهِ القلبَ عن صاحبه، وإذا ابتليَ الإنسانُ بقسوةِ القلبِ هذهِ فالحجارةُ أقربُ إلى الهدايةِ من صاحبِ القلب، فضلاً عن الحيواناتِ العجماواتِ التي تتقلّبُ وتعيشُ في غاباتها.

ولعلَّكم تسألون: فما هي العواملُ التي تقرِّبُ هذا الدّاءَ إلى الفؤاد؟ والتي تجعلُ صاحِبهُ معرّضاً لهذا الغضبِ الرّبّانيّ؟ هنالكَ أسبابٌ كثيرة، من أهمِّها: الكِبر. ومن أهمِّهما العتوُّ والطّغيانُ على اللهِ سبحانهُ وتعالى. ولكن من أينَ يأتي الكِبرُ أيضاً؟ معينُ هذا الكِبر: الرّكونُ إلى الشّهواتِ والأهواء، الرّكونُ إلى زهرةِ الحياةِ الدّنيا. معينُ هذا الدّاءِ الذي لا دواءَ لهُ: أن يجدَ الإنسانُ نفسَهُ في حالةٍ منَ الغِنى ينسيهِ فقرهُ الحقيقي، ينسيهِ فقرَ اللهِ عزَّ وجلَّ وهوَ يعرِّفهُ على هويّته: ﴿يا أيُّها النّاسُ أنتمُ الفقراءُ إلى الله واللهُ هوَ الغنيُّ الحميد﴾.

فإذا شعرَ الإنسانُ أنّهُ غنيٌّ وليسَ بفقير، وأنّهُ قويٌّ غيرُ ضعيف، وأنّهُ معافىً صحيحُ البدنِ لا يتسرّبُ إلى كيانهِ داءٌ أو مرض، استشرى بينَ جوانحهِ الكِبر.. وإذا استيقظتِ الكبرياءُ بينَ جوانحهِ فقد توضّعَ هذا الدّاءُ في كيانهِ وقد ابتُليَ بقسوةِ القلبِ التي يهدِّدُ اللهُ سبحانهُ وتعالى بها الكثيرَ من عباده. المالُ الوفيرُ الذي يخيِّلُ إلى صاحبهِ أنّهُ أصبحَ غنيّاً منَ الأغنياء، وأنّهُ قد طردَ الفقرَ من دارهِ وبابه، وأعوذُ باللهِ عزَّ وجلَّ من أن يبتليَنا اللهُ بخيالٍ ماحقٍ للحقيقةِ ينسينا فقرنا الحقيقيّ، ومتى كانَ هذا المالُ ملكاً لهذا الإنسانِ حتّى يتخيّلَ أنّهُ قد أصبحَ غنيّاً. وهل رأيتم في كتابِ اللهِ آيةً تنسِبُ المالَ إلى الإنسانِ وتجعلُ منهُ مالكاً له؟ لقد سمعتموهُ يقول: ﴿وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾. وسمعتموهُ يقول: ﴿وأنفقوا ممّا جعلكم مستخلَفينَ فيه﴾. وليسَ في كتابِ اللهِ آيةٌ واحدةٌ يعلنُ فيها اللهُ عزَّ وجلَّ أنَّ زيداً من النّاسِ قدِ امتلكَ قرشاً من المال.

كلُّ ذلكَ من أجلِ أن لا ينس الإنسانُ ضعفه، ومن أجلِ أن لا ينس الإنسانُ فقره، ومن أجلِ أن يعلمَ أنّهُ يعيشُ على مائدةِ الله، وسرعانَ ما يمكنُ أن يأتيَ ما يسبِّبُ طردَ هذا الإنسانِ من مائدةِ اللهِ عزَّ وجلَّ في أيِّ لحظةٍ من اللحظات.

ولكنِ انظروا أيُّها الإخوةُ ماذا يصنعُ هذا الدّاءُ بكثيرٍ منَ النّاس: لقد أنساهم عبوديّتهم لله، وأنساهم ضعفهم وفاقتهم، وأنساهم فقرهم. وإنّني مهما نسيتُ من المشكلاتِ التي تحيقُ بنا لا أنس في هذهِ الأيّامِ مصيبة، أجل هيَ مصيبة، وليتَ أنَّ هذهِ المصيبةَ كانت من نوعِ التّطبيب، إذاً لكانت نعمةً في باطنِها وإن كانت نقمةً في ظاهرِها، هذهِ التّظاهراتُ التي نراها في الأسواق، هذهِ اللوائحُ التي ملأتِ الشّوارع، أعودُ بالذّاكرةِ إلى ما قبلَ عشرةِ أعوامٍ، أعودُ بالذّاكرةِ إلى ما قبلَ ذلك، هذهِ المهمّةُ كانت موجودة، هذهِ الغرفةُ كانت تستقبلُ كلَّ فترةٍ منَ الزّمنِ من يمثّلونَ مصلحةً من مصالحِ هذهِ الأمّة، فهل شهدت هذهِ البلدةُ

مثلَ هذا العملِ الذي ترون؟ هل شهدت هذهِ البلدةُ هذهِ الأموالَ الطّائلةَ التي تُلقى وتُبذَرُ تحتَ الأقدام؟ في سبيلِ ماذا؟ في سبيلِ أيِّ مصلحة؟ في سبيلِ إغناءِ أيِّ فقيرٍ من الفقراء؟ في سبيلِ أيِّ فائدة؟ في سبيلِ أيِّ استرضاءٍ للهِ عزَّ وجلّ؟ ملايين من الأموالِ تُبذَر وتنفَق، وانظروا في سبيلِ ماذا؟

ما أيسرَ أن يصلَ هؤلاءِ النّاسُ إلى كراسيِّهم دونَ أن يدفعوا شيئاً من هذا كلِّهِ فضلاً عن السّبيلِ الذي لا يرضي اللهَ عزَّ وجلّ الذي ينتهي إليهِ هذا المال، ونحنُ في كلِّ صباحٍ ومساءٍ نذكِّرُ بأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ ابتلى هذا المجتمعَ بالفقرِ والفقراء، ابتلى هذا المجتمعَ بشبابٍ هم بأمسِّ الحاجةِ إلى زواج، هم بأمسِّ الحاجةِ إلى بيوتٍ يَسكُنونَها، فيهم من هم بأمسِّ الحاجةِ إلى لقمةٍ يأكلونها ليتغذَّوا بها. ومع ذلكَ فعندما كانَ كثير -لا أقولُ كلّ- كثيرٌ من هؤلاءِ النّاسِ الذينَ يظنّونَ عندَ أنفسهم أنّهم أغنياء يُذَكَّرونَ بهذهِ الحاجةِ يُعرِضون، ويشكون، ويستعملونَ الكلماتِ الاقتصاديّة: لا سيولةَ في هذهِ الأيّام، يستعملونَ هذا الكلام. واليومَ ما أسرعَ ما عادتِ السّيولةُ إلى أكثرَ ممّا نتوقَّع، اليومَ ما أكثرَ ما يبدو الكَرَمُ سخيّاً بدونِ حدود، ولكن في سبيلِ ماذا؟ ليتَ أنَّ هذا الكرمَ في سبيلِ سدِّ ثغرة، ليتَ أنَّ هذا الكرمَ كانَ في سبيلِ سدِّ عوز، ليتَ أنَّ هذا الكرمَ كانَ في سبيلِ رفعِ مستوى المجتمعِ إلى ما ينبغي أن يرقى إليه، ليتَ أنَّ هذا الكرمَ كانَ استجابةً لقولِ اللهِ عزَّ وجلّ: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً﴾.

ولكن كلُّ ذلكَ غيرُ موجود، إنّما هنالكَ تنافس، وتسابُق، وعندما تُسَدُّ سُبُلُ التّنافسِ بحيثُ لا يُعمِلُ أيُّ مفتاحٍ لفتحِ هذهِ السُّبُلِ إلا المال، فحدِّث عن حدودِ هذا التّنافسِ ولا حرج، لن تجدَ سقفاً عندئذٍ لهذا التّنافس.

الإنسانُ الذي يتحدّى ببذلِ الملايينِ سيجدُ من يتحدّاهُ ببذلِ أضعافِ ذلك. والنّاسُ ينظرون، والمجتمعُ يتأمّل: ترى ما معنى هذا الكلام؟

ومرّةً أخرى أقولُ أيُّها الإخوة: ليسَ معنى هذا الذي أقولُ أنَّ هؤلاءِ الأغنياءِ جميعاً لا يتذكَّرونَ الكرمَ إلا في مثلِ هذهِ الحال، ففيهم قلّةٌ قليلةٌ جدّاً ممّن يستجيبونَ للداعي إذا دعا، وممّن يشعرونَ بالحاجةِ التي ندبهمُ اللهُ عزَّ وجلَّ إلى سدِّها، ولكن ماذا عسى أن تفيدَ القلّةُ وربُّنا يقول: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ ؟

ترى لو أنَّ إنساناً مثلي نبَّهَ وذكَّرَ هل تسري هذهِ التّذكرةُ إلى تلكَ القلوب؟ لا. لماذا؟ لأنَّ كثيراً من هؤلاءِ - ولا أقولُ جميعهم - لأنَّ كثيراً من هؤلاءِ ابتُلوا بهذا العقابِ العاجل: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾. ولذلكَ: فلا أظنُّ ولا أتصوَّرُ أنَّ مثلَ هذا الكلامَ يبعثُ أيَّ هزّةٍ في قلوبِ أولئكَ النّاس، وربَّما لو سمعَ أحدهم هذا الكلامَ لأغضى الطَّرف، ولربَّما تذكَّرَ كلماتٍ ساخرةٍ تجاهَ هذهِ الحقيقةِ التي أقولُها.

أيّها الإخوة: ينبغي أن نعلمَ أنَّ هذهِ الحياةَ دارُ ابتلاء، وأنَّ الإنسانَ يتقلَّبُ فيها بينَ نِعمٍ ونِقم، بينَ رخاءٍ وشدّة، ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾. وكلُّ ذلكَ امتحان، والمطلوبُ من الإنسانِ إذا واجهتهُ النِعمةُ أن يغطّيَها بشكرٍ حقيقيٍّ لله، وإذا واجهتهُ النّقمةُ أن يفرَّ منها إلى رحمةِ اللهِ بالتّوب.



١٧١- العبرة بالصدق وعدمِ الصّدقِ لا بكثرةٍ أو قلّة | ١٩٩٥/٠١/٦٠

إنَّ في كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ آياتٍ كثيرةٍ يعدُ اللهُ عزَّ وجلَّ فيها عبادهُ بأن يكرمهم بأجلِّ معاني القوّةِ وبأسمى حقائقِ النّصرِ، إن هم ساروا على صراطهِ والتزموا أوامرهُ ووصاياهُ وتمسّكوا بهديه.

ولقد مرَّ عهدٌ ارتابَ فيهِ كثيرٌ منَ النّاسِ بكثيرٍ من هذهِ الوعودِ، لمّا رأوا أنَّ في المسلمينَ كثرةً كاثرة لا يزالونَ يعتزّونَ بالإسلام، ولا يزالونَ ينتمونَ إلى دينِ اللهِ عزَّ وجلَّ، ولكنّهم مهزومون، معذّبون، مغلوبون، لا يتأتّى منهم أن يصلوا إلى ثمرةِ أيِّ جهد، فكانَ الإنسانُ إذا مرَّ على قولِ اللهِ سبحانهُ وتعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾، وجدَ كثيراً منَ المرتابينَ في هذا الكلام.. وكم عانَيتُ من جدلٍ مع شبابٍ يسمعونَ مثلَ هذا الوعدِ الرّبّانيِّ ثمَّ ينظرونَ إلى واقعِ المسلمينَ الذي يناقضُ هذا الوعدَ فيعبّرونَ عن ريَبهم وشكوكهم.

ولكن ما أجلَّ حِكمَ اللهِ سبحانهُ وتعالى؛ إنَّ الفتنَ والمصائبَ لها وجهانِ اثنان: وجهٌ يريكَ مظهرَ المأساةِ ومظهرَ النّكبةِ والضّرّاء، ووجهٌ آخرُ يريكَ في هذهِ الفتنِ والمصائبِ الدّرسَ والعِبَر، وجهٌ آخر ترى من خلالهِ الإجابةَ عن هذهِ الأسئلة، وجهٌ آخرُ يزيلُ ويزيلُ هذهِ الشّكوكَ والرّيَب.

ولذلك.. فإنَّ الفتنَ والمصائب – على الرّغمِ من أنّنا نسألُ اللهَ أن يعافيَنا منها – لا تخلوا من حكمٍ باهرة، ومن أجلِّ هذهِ الحكم: أنّها توقظُ هؤلاءِ المرتابينَ منَ الذينَ يتساءلونَ عن وعدِ اللهِ لماذا لم يطبَّق؟ أجل من حولنا كثيرٌ منَ المسلمينَ هُزموا في معاركَ ولا يزالونَ يُهزَمون، لم يستطيعوا أن ينالوا حظوتهم، ولم يتحقَّقِ الوعدُ الذي وعدهمُ اللهُ عزَّ وجلَّ به.

ولكن ها نحنُ ننظرُ إلى مسلمينَ آخرينَ يختلفونَ عن أولئكَ المسلمين، مسلمونَ صدقوا ما عاهدوا اللهَ عليه، مسلمونَ وضعوا مُتعَ الدّنيا كلَّها في الأمنِ قبلَ الاضطرابِ والحرب، وضعوا مُتعَ الدّنيا كلَّها تحتَ أقدامهم، ووضعوا رضى اللهِ عزَّ وجلَّ نصبَ أعينهم.. مسلمونَ وجعلوا مقياسَ حياتهم في التّحرُّكِ وفي السّيرِ عملَ أصحابِ رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم، ها هوَ ذا ربُّنا عزَّ وجلَّ يرينا من خلالِ واقعِ هؤلاءِ

المسلمينَ مصداقَ قولهِ عزَّ وجلّ: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، ويرينا من خلالِ واقعهم مصداقَ قولهِ عزَّ وجلَّ: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾، ويرينا من خلالِ واقعهم صداقَ قولهِ عزَّ وجلّ: ﴿فأوحى إليهم ربُّهم لنهلكنَّ الظّالمينَ ولنسكنَنّكمُ الأرضَ من بعدهم ذلكَ لمن خافَ مقامي وخافَ وعيد﴾. أما آنَ إذاً للمرتابِ أن يتعالى فوقَ ريبته؟ أما آنَ للشّابِّ المتشكِّكِ أن يتحرَّرَ من شكوكه؟!

عندما تنظرُ إلى أولئكَ المسلمينَ لا تنظر إلى انتماءاتهم، بل انظر إلى مظاهرِ مصداقيّةِ الإسلامِ في سلوكهم.. عندما تنظرُ إلى المسلمينَ الذينَ تفيضُ بهم هذهِ الدّنيا ويملؤونَ رحبَ هذهِ الأرض، لا تنظر إلى اعتزازِ الانتماءِ في كلامهم، ولكنِ انظر إلى صلةِ السّلوكِ والقربى بينم وبينَ رسولهم سيّدنا محمَّدٍ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم. عندما تتأمّلُ من خلالِ واقعِ المسلمينَ في هذهِ النّقاطِ التي ألفتُ النّظرَ إليها ستجدُ أنَّ هؤلاءِ المسلمينَ يصدقُ عليهم قولُ رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم في الحديثِ المشهورِ المعروف: «بل أنتم كثير، لكنّكم غثاءٌ كغثاءِ السّيل».

ما قيمةُ مليارِ مسلمٍ إذا كانَ هذا المليارُ غثاء؟ ما قيمةُ هذهِ الحشودِ منَ المسلمينَ إذا كانت عقولهم مفتونةً بذيلِ الغرب؟ إذا كانَ سلوكهم خاضعاً لعاداتِ الغرب؟ إذا كانت أخلاقهم أخلاقَ الشّاردينَ عن دينِ اللهِ سبحانهُ وتعالى؟ ما قيمةُ إسلامِ هؤلاءِ المسلمين؟

هؤلاءِ المسلمونَ قد يفيدهم إسلامهم يومَ القيامةِ مغفرةً ورحمةً ولطفاً منَ اللهِ عزَّ وجلّ، ولكنَّ هذا الإسلامَ بهذا الشّكلِ لا يفيدُ المسلمينَ في دارِ الدّنيا عندما يسألونَ اللهَ أن يحقِّقَ لهمُ الوعدَ الذي قطعهُ على نفسهِ لهم، وهذا كلامٌ دقيقٌ اعقلوه، المسلمُ الذي يؤمنُ باللهِ وكتابهِ بعقله، ولكنّهُ مستسلمٌ بسلوكهِ لتيّاراتِ الانحراف، إذا ماتَ وهوَ مسلمٌ ربّما يفيدهُ إسلامهُ مغفرةً كلّيّةً أو جزئيّةً يومَ القيامة، لكنَّ هذا الإسلامَ بهذا الشّكلِ لا يفيدُ صاحبَهُ في دارِ الدّنيا، ليسوا همُ الذينَ قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ عنهم: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

ليست هنالكَ في ميزانِ اللهِ كثرةٌ ولا قلّة، الكثرةُ والقلّةُ شيءٌ ترصدهُ أعينُنا نحن، شيءٌ نفقههُ نحنُ بموازين رؤيتِنا الشّكليّة، هذهِ أمّةٌ كثيرةُ العدد، عظيمةُ العُدد، يرهبُ جانبُها، هكذا نتصوّرُ وندلي بالأحكامِ

بناءً على هذهِ الرّؤية. وتلكَ حفنةٌ قليلةٌ منَ النّاسِ قليلةُ العددِ، قليلةُ العُدَد، لا يُؤبَهُ بها، منَ المعقولِ ومنَ المنطقِ أن تُبتَلَعَ في ساعةٍ واحدةٍ من ليلٍ أو نهار. هذا المقياسُ غيرُ موجودٍ في قانونِ اللهِ سبحانهُ وتعالى، ﴿وكم من فئةٍ قليلةٍ غلبت فئةً كثيرةً بإذنِ اللهِ واللهُ معَ الصّابرين﴾. بل إنَّ اللهَ سبحانهُ وتعالى إذا تجلّى على عبادهِ بالرّضى بعدَ صبرهم وصدقِ إيمانهم، فإنَّ تجلّيَ اللهِ هذا يجعلُ منهم ربّما في فترةٍ قصيرةٍ سادةَ العالَم، ولا نعلمُ كيفَ يتمُّ ذلك.

أقولُ هذا أيُّها الإخوة لكي نأخذَ العبرَ ممّا يجري في العالَمِ من حولنا، ومن نظرَ إلى الوقائعِ بعينِ العبرةِ استفادَ من أضرارِها ومن فوائدِها، عندما نجدُ الرّزايا ندركُ أسبابَ هذهِ الرّزايا ونرى من خلالِ ذلكَ ما يزيدُ إيماننا وما يحملُنا على أن نصلِّحَ سيرَنا ونصححَ أخطاءنا. وإذا وجدنا أمامَنا مظاهرَ السّرّاء، مظاهرَ لطفِ اللهِ ونصره، نأخذُ من ذلكَ أيضاً العبرةَ وندركُ صدقَ وعدِ اللهِ سبحانهُ وتعالى.

ويا عجباً كيفَ لا يعتبرُ المسلمونَ هنا بهذا الواقعِ الذي يجري لدى بعضِ إخوةٍ لنا منَ المسلمينَ هناكَ، ونحنُ نعاني من مشكلتِنا؛ مشكلةِ أرضِنا المقدّسةِ التي اغتُصِبَت؟ لماذا لا نعتبر؟ أهيَ –تلكَ الحفنةُ القليلة– أولى بأن تنتصرَ أم هذهِ الدّولُ والأممُ الكثيرةُ التي تُحدِقُ بهذهِ الحفنةِ التي اغتصبت حقوقَنا أولى بأن تنتصر؟ إن أخذنا أو راعَينا قانونَ الكثرةِ والقلّة، وقانونَ كثرةِ العَددِ والعُدد، ثمَّ نظرنا إلى هذا النّصرِ العجيبِ الذي نراهُ الآنَ وإلى هذهِ السّاعة، إذاً فنحنُ أولى بأن نذوقَ لذّةَ هذا النّصرِ في بلادِنا لو أنَّ مقياسَ الأمرِ كانَ كثرةً وقلّة. ولكنّي قلتُ لكم: إنَّ ميزانَ اللهِ لا ينظرُ لا إلى كثرةٍ ولا إلى قلّة، ولكن ينظرُ إلى الصّدقِ وعدمِ الصّدقِ؛ ﴿يا أيُّها الذينَ آمنوا اتّقوا اللهَ وكونوا معَ الصّادقين﴾، أنا مسلم، إذاً ينبغي أن أكونَ صادقاً معَ الله. أنا مؤمن، إذاً لا ينبغي أن يكذِّبَ سلوكي لساني. أنا ملتزمٌ بأوامرِ الله، إذاً ينبغي أن يكونَ واقعي مصداقاً لهذهِ الدّعوى التي أدّعيها. فهل كانَ سلوكُنا مطابقاً لألسنتنا؟ كلُّكم يعلمُ الجوابَ أيُّها الإخوة.

وأنا أقولُ وأقسمُ باللهِ عزَّ وجلّ: لو أنّنا جعلنا سلوكَنا في هذهِ الحياةِ خاضعاً لأمرِ ربِّنا، خاضعاً لسلطانِ دينِنا، فإنَّ اللهَ سبحانهُ وتعالى يكرمنا بمثلِ هذا النّصر، وإنَّ اللهَ سبحانهُ وتعالى يعيدُ لنا الأمانةَ التي استُلِبَت منّا، ويعيدُ لنا مقدّساتِنا التي لا تزالُ بينَ ماضغَي الاغتصاب.

ولكن سَلُوا أنفسكم: أينَ نحنُ من هذا الواقعِ أيُّها الإخوة؟ ما الذي جعلَ أولئكَ النّاسَ ينتصرونَ ذلكَ النّصرَ الذي أذهلَ العلمَ كلّه؟ بل وأيُّ نصر، نصرٌ حطَّم سلطان تلكَ الدّولةِ الباغيةِ وبدأَ يذيبُها، ولا تدري إلى أيِّ مدىً سيسيرُ الذّوبان. ما الذي جعلَ ذلك؟ ما هيَ هذهِ القوّةُ الهائلةُ التي لا توجدُ إطلاقاً؟ لماذا لا نعتبر؟ لماذا لا يكونُ إسلامُنا كإسلامِ أولئكَ النّاس؟ لماذا لا يكونُ التزامُنا بدينِ اللهِ في أسرِنا، في أولادِنا، في أنفسِنا، كالتزامِ أولئكَ الآخرين؟ وربُّنا يقولُ لنا: ها أنا ذا أعدكم، ها أنا ذا معكم، لن أتخلّى عنكم. لماذا نعرضُ عن كلامِ اللهِ عزَّ وجلّ؟ وكتابُ اللهِ مليءٌ بما يذكِّرُ النّاسي، ويوقظُ الغافل: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ، وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ، إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾. هذا كلامُ اللهِ عزَّ وجلّ..

ولكنّ بدلاً من أن نصغيَ إلى هذا الكلامِ وننظرَ إلى تلكَ العبرةِ التي تتراءى للعالَمِ كلِّهِ أمامنا من بعيد، بدلاً عن ذلكَ نتفرَّقُ أوزاعاً، وكلُّ فئةٍ تتخيَّلُ سبيلَ السِّلمِ الذي ينبغي أن تمدّهُ جسراً بينها وبينَ هذا العدوِّ المغتصب، كلُّ فئةٍ تقدِّرُ لنفسها، وتفكِّرُ على طريقتِها، كيفَ تقيمُ سِلماً آمناً بينَ هذا العدوّ، والعدوُّ ينظرُ إلى هذهِ الفئةِ ثمَّ إلى هذهِ ثمَّ إلى هذهِ وكأنَّ الكلَّ ينتظرُ دوره، لماذا أيُّها الإخوة؟

عندما ندركُ أنَّ هذا كلامُ اللهِ وأنَّ هذهِ هيَ سياسةُ اللهِ – إن جازَ التّعبير – معَ عبادهِ الصّالحينَ الصّادقين، ومعَ عبادهِ الذينَ لم يصدقوا بعد، عندئذٍ سيكونُ سيرُنا على نهجٍ آخر، لن نهونَ ونستسلمَ للسّلمِ المهينِ كما قلتُ لكم بالأمس، ولسوفَ يكونُ سلمُنا هوَ السِّلمَ المنزَّلَ من عندِ الله، المشروعَ بيدِ اللهِ سبحانهُ وتعالى، ذلكَ السِّلمُ الذي تجتمعُ عليهِ الأمّةُ كلُّها، يجتمعُ عليها المعنيّونَ بهذا الأمرِ كلّه، ذلكَ السِّلمُ الذي لا يتمُّ إلا بعدَ أن تعودَ الحقوقُ كلُّها إلى أصحابِها.

عندما نكونُ مسلمينَ يكونَ هذا نهجَنا، لن نسعدَ بالغوغاء، ولن نسعدَ بالعنف، وليسَ هذا سبيلَنا لأنَّ اللهَ لم يأذن لنا بذلك، ولكنَّنا عندما نسيرُ في طريقِ السّلمِ إنّما يخطِّطهُ لنا الله، السِّلمُ الذي ندعوا إليهِ والذي نحنُ رسلهُ في العالَمِ كلِّهِ هوَ ذاكَ الذي شرعهُ اللهُ لنا، وهوَ الذي يثمرُ سعادةَ الدّنيا كلِّها. الفرقُ أيُّها الإخوةُ بينَ السّلمِ الذي شرعهُ اللهُ والسِّلمِ الذي تدعوا إليهِ ساسةُ الغربِ هوَ التّالي:

السِّلمُ الذي شرعهُ اللهُ ثمرتهُ أمنٌ وطمأنينةٌ للأسرةِ الإنسانيّةِ كلِّها. أمّا السِّلمُ الذي يدعو إليهِ ساسةُ الغربِ والشّرقِ هنا وهناكَ فهوَ سِلمٌ يخدمُ تلكَ المصالحَ فقط. وانظروا إلى فرقِ ما بينَ السّلمَين؛ نحنُ روّادُ ذلكَ السّلمِ العالميِّ الذي يعطي الأمنَ والطّمأنينةَ للأسرةِ الإنسانيّةِ كلِّها، ولن يكونَ ذلكَ إلا بالقيودِ والشّروطِ التي شرعَها الله. أمّا أولئكَ الذينَ يتاجرونَ بكلماتِ السِّلمِ فهُم لا يبحثونَ عنِ السِّلمِ لذاته، وإنّما يبحثونَ عنهُ لأنَّ مصالحهمُ الخاصّةَ بهم والتي لا تعنينا قطُّ إنّما تتحقَّقُ من وراءِ ذلكَ السّلمِ الملوَّنِ باللونِ الذي يبتغون.

أسألُ اللهَ سبحانهُ وتعالى أن يجعلَ من أحداثِ هذهِ الدّنيا عبرةً لنا، وأسألُ اللهَ عزَّ وجلَّ أن يجعلَ من ثمارِها ما يعيدُ إلينا وحدَتنا، وما يعيدُ إلى هذهِ الأمّةِ تضامنَها واعتزازها بما قد أكرمها اللهُ سبحانهُ وتعالى بهذا الدّينِ حتّى لا تسيرَ إلا طبقَ النّهجِ المرسومِ الذي شرعَ الله..

أقولُ قولي هذا وأستغفرُ اللهَ العظيم..

١٧٢- لهذا ملأ الله سبحانه وتعالى الدنيا بالغصص والمنغصات |

١٩٩٥/١٢/٢٢

ينبغي أن يعلم كل إنسانٍ وافدٍ إلى هذه الحياة الدنيا، أن يعلم طبيعة هذه الحياة والشأن الذي أقام الله سبحانه وتعالى هذه الدنيا عليه، حتى لا يفاجئ منها بما لم يكن يتوقع، وحتى ينسجم سلوكه مع النهج الذي أقام الله هذه الدنيا عليه؛ فكم من إنسان فتح عينيه على هذه الحياة وتوهم أنّه يعيش منها في جنة وارفة الظلال، فكان هذا الوهم سبباً من أهم أسباب شقائه فيها، ولو أنه بادئ ذي بدءٍ تعرف على هذه الحياة وشأنها وما أقامها الله عز وجل عليه لما شقي منها بمفاجأة، ولأدرك أن الله سبحانه وتعالى لحكمة أقامها على النهج الذي أقامها عليه. ينبغي أن نعلم أنّ هذه الدنيا مهما ذخرت بالنعيم، فإنّ نعيمها مشوبٌ بالغصص الدائمة لحكمةٍ سنذكرها ونتحدث عنها.

ينبغي أن نعلم أنّ الصيف الذي يبعث الله سبحانه وتعالى فيه الخير وأسباب النماء للثمار التي جعلها الله نعمةً لعباده فوق هذه الأرض، لابد أن يحمل معه أيضاً آلاماً من حرارته، والشتاء الذي جعله الله سبحانه وتعالى موئلاً لبركة السماء ولنبات الأرض، ينبغي أن نعلم أنه لابد أن يحمل معه قوارص أيضاً من برده؛ وينبغي أن نعلم أن الهواء الذي جعله الله سبحانه وتعالى سرّ استمرار الحياة من وراء صدورنا لابد أن تتسرب إليه العواصف ولابد أن تتسرب إليه أسباب الآلام بين حينٍ وآخر، والطعام الذي فَجَّر الله سبحانه وتعالى الأرض به، أو أنزله ذخراً من السماء أو سَخّر به كثيراً من الأنعام والدواب – هذا الطعام ذاته لا يصل إلى الإنسان ولا يستمرئه إلا عبر غصص.

والحياة التي يعيشها الإنسان لا يمكن أن تستقر معه حالٌ دون أن تتنقل إلى حالٍ أخرى، إن أعجبته الصبوة في مرحلة حياته الأولى فلسوف يودعها إلى شباب، وإن أعجبه الشباب في مظهر الصحة والعافية والمشاعر التي يشعر بها الإنسان الشاب لابد أن يودعها إلى كهولة تملؤ قلبه بذكريات وغصص، وإن ركنَ إلى الكهولة واستأنس بها وتعود عليها لا بد أن يودعها إلى شيخوخة، وإن أعجبته الصحة والعافية لا بد أن يتسرب إلى هذه الصحة فيما بعد ذلك الآلام والأمراض والأوجاع.

ينبغي أن يعلم الإنسان أنّ شأن هذه الحياة الدنيا هكذا، مع كلِّ إنسانٍ مهما كانت قوته صاعدةً أو هابطة، ومهما كان شأنه في هذه الحياة الدنيا ومهما كان له من الغنى وطول اليد. ألم تقرأوا قول الله سبحانه وتعالى ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾ ألم تقرأوا قول الله عز وجل ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ ينبغي أن يعلم الوافد إلى هذه الحياة الدنيا أنّ هذه هي هوية هذه الحياة لا مجال ولا سبيل لتغيير نظامها قط، لكن ما الحكمة؟

ها هنا يكمن الأمر الخطير الذي ينبغي أن يعرفه كل إنسان.

الحكمة أيها الأخوة من هذا الذي أقام الله الحياة عليه من الأنظمة والنهج الذي ذكرناه يتصل برحمة من رحمات الله سبحانه وتعالى، فهو مظهرٌ دقيق لعظيم رحمة الله عز وجل بعباده. لقد جعل الله سبحانه وتعالى هذه الحياة ممراً إلى مقر، ولم يجعل هذه الحياة مقراً قط. جعل الله هذه الحياة الدنيا ساحةً يمر بها الإنسان يؤدي بها وظائف كُلّف بها، يبرز من خلال هذه الوظائف ما قد اعتلج بداخل قلبه وفي طوايا سريرته من إيمانه بالله ومن دينونته لحقائق العبودية بالله أو من نقيض ذلك، من كفرانه بالله وعناده أمام حقائق عبوديته لله. جعل الله هذه الحياة الدنيا عبارة عن ساحة يمر بها الإنسان فيكتشف أو تظهر من خلال هذه الساحة التي يمر بها؛ تظهر طوايا نفسه وتتجلى دقائق ما يكمنه فؤاده وتنطوي عليه نفسه.

أرأيتم إلى هذا الجهاز الذي تمر عبره الأمتعة التي يسافر بها الإنسان إلى مكان ما، إن هذا الجهاز من شأنه أن يكشف ما بداخل هذه الأمتعة، كذلكم هذه الحياة الدنيا التي يمر بها الإنسان كهذا الجهاز يمر الإنسان بهذه الحياة فتتجلى من خلال سلوكه ومن خلال تعامله مع هذه الحياة ومن خلال انصياعه أو عدم إنصياعه إلى أوامر الله تتجلى من خلال هذا الجهاز الذي هو الحياة الدنيا نفسياً تتجلى كوامن قلبه، يتجلى مدى شعوره واستسلامه لحقائق العبودية لله، أو يتجلى مدى تمرده على ذلك في جنب الله سبحانه وتعالى هذه هي الحياة الدنيا. هذه الحياة معبر وليست مقراً.

أرأيت لو أن الله عز وجل جعل هذه الحياة القصيرة في عمرها التي هي معبر كما قلت لكم وجسر، أرأيتم لو أن الله عز وجل ملأها بنعم لا غصص فيها، وجعلها تفيض بألوان من المتع لا معكرات تتسرب

إليها، إذاً لتعلق الإنسان بها أيّما تعلق، ولعشق هذه الحياة، ولتقطعت آماله عما هو مقبل عليه ولحصرت آماله وأحلامه في هذه الساحة التي تذخر بكل أنواع النعيم صافية عن الشوائب والغصص؛ فلا أمراض ولا أوجاع ولا آفات تحيط به من سماءٍ ولا في أرضٍ ولا إبتلاء من الناس بعضهم ببعض. إذاً فإن الإنسان يتعلق بهذه الحياة الدنيا. ولكن هذه الحياة معبر وجسر وليست مقراً، ولا بد في لحظة من اللحظات أن يدعوك الداعي إلى الرحيل.

أرأيت لو أن قلبك تعلق بهذه الحياة وتعشقها بسبب ما فيها من متع. كم يكون ألمك وأنت تودعها؟ كم يكون عذابك وأنت تستجيب للملك الذي يقول لك قد حان أن تلقى الله سبحانه وتعالى راحلاً عن هذه الحياة الدنيا؟ عندئذٍ سواءٌ كنت من الصالحين أو الطالحين أو الأولياء أو المستقيمين أو المنحرفين، ستجد أنك تنقلع أو تنخلع من هذه الحياة الدنيا كما يخلع الإنسان أو يقتلع جذور شجرةٍ ضربت بجذورها في باطن الأرض؛ فأنت لا تستطيع أن تمتلخها إلا وقد تقطعت جذورها ههنا وهناك. هكذا يكون شأن الإنسان. فهل هذا يكون مظهر رحمة من الله لعباده؟

كلكم يعلم أن الأمر ليس كذلك، اقتضت رحمة الله عز وجل إذاً أن يشعرك أن هذا المعبر هو معبر ليس إلا، إذاً ما ينبغي أن تتعلق به. هو جسر تمر عليه، إذاً ما ينبغي أن ترى في هذا الجسر من المشتهيات والمتع ما يجعلك تنسى ما أنت مقبلٌ عليه. هكذا تقتضي رحمة الله سبحانه وتعالى.

وانظروا أيها الأخوة كيف شاء الله عز وجل أن يختم حياة أكثر الناس بالمشيب. لماذا لم يكن المشيب أولاً والشباب ثانياً؟ حكمة باهرةٌ من وراء ذلك، عندما يودع الإنسان شبابه ويستقبل شيخوخته يجد نفسه يتبرم من هذه الحياة يوماً بعد يوم، يجد نفسه وقد ملّ من هذه الحياة يوماً بعد يوم، هذا مظهر رحمة، رحمة من الله عز وجل بعباده، أمّا لو كان الشباب هو نهاية الحياة التي يعيشها الإنسان وجاءه الموت بعد ذلك فكم تكون آلامه شديدة، وكم يشعر بأنه متعلق بهذه الحياة التي يودعها، من أجل هذا ملأ الله سبحانه وتعالى هذه الحياة الدنيا بالمنغصات والغصص كما ملأها بالمتع والنعم، ومزج هذا بذاك حتى لا تركن إلى هذه الدنيا، وحتى لا تحبس مشاعرك بها، وحتى تُعلّق آمالك بما أنت مقبل عليه من بعد.

ينبغي لكل وافدٍ إلى هذه الحياة أن يعرف هذا النظام الذي أقام الله سبحانه وتعالى هذه الحياة عليه حتى لا يُفاجئ منها بشقاء وبيل، وحتى يعلم أنه مهما تقلب في نعم أو ابتلاءات فإنه لا يرى من خلالها إلا مظاهر رحمة الله، لا يرى من خلالها إلا مظاهر حكمة الله سبحانه وتعالى.

وكل هذا الكلام إنما يأتي مقيداً بأن يكون الإنسان مؤمناً بالله، مؤمناً بأن لهذا الكون خالقاً أقامه على هذا النظام. فأمّا من لا يفهم ارتباط الكون بالمكون ولم يدرك ارتباط هذا النظام بالمنظّم، فما أطول شقاءه، وما أصعب عليه الحياة التي يعيشها، ولا والله ليست حياته التي يعيشها إلا موتاً مستمراً، وليس حياته فوق هذه الأرض إلا سيراً في نفقٍ مُظلم. ولسنا نتحدث عن أولئك الناس الذين نسأل الله سبحانه وتعالى لنا ولهم العفو والعافية، ولكني أتحدث عن الإنسان المؤمن بالله عز وجل المدرك لكلام الله سبحانه وتعالى. هذا هو العزاء الأكبر لمصائب الدنيا.

فالإنسان لابد أن يكرمه الله بنعم ولا بد أن يبتليه الله بغصص أيضاً، إذا أدرك هذه المعنى لم ينس فضل الله عز وجل عليه في أيّ حالٍ من الأحوال، هو دائماً مع منن الله، هو دائماً مع عطاء الله سبحانه وتعالى، هذا هو شأن الجسر الذي يمر به الإنسان.

كثيرون هم الذين يعودون في المساء من أعمالهم إلى قراهم أو إلى مدنهم فيمرون في الليل المظلم بجسر، قد يكون هذا الجسر صعب العبور، قد تكون فيه بعض الصعوبات، ولو أن إنساناً سأل عن هذه الصعوبات قال: هذا أمرٌ يسير، جسرٌ نمر عليه، وليس الشأن أن يجلس أو يقيم أو يستوطن الإنسان في هذا المكان، حياتنا هكذا...

ومع ذلك فإن الإنسان الذي آمن بالله وأدرك معنى قول الله عز وجل ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً، وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً﴾ الذي أدرك هذه الحقيقة هو دائماً في سعادة ودائماً في غِبط، نعم إن عوفي شكر الله وحمده، وإن مرض علم أنه راحل وأنه يمر في معبر شكر الله سبحانه وتعالى وحمده أيضاً، ومع ذلك فإنا نسأل الله العفو والعافية، ولكن لا بد أن يدرك الإنسان هذا النظام لهذه الحياة الدنيا، حتى إذا رحل الإنسان منها قال له الله عز وجل: الآن حان أن تجد النعيم الصافي عن الغصص، الآن حان أن تمتع بالمتع البعيدة عن المعكرات، والبعيدة عن المشوشات.

لا بد أن يظهر الفرق بين المقر الذي هو الجنة، وبين الممر الذي هو هذه الحياة الدنيا.

اللهم اختم حياتنا بأحب الأعمال إليك حتى نلقاك وأنت راضٍ عنا، وحتى نشكرك على كلِّ ما يصدر إلينا منك يا مولانا يا رب العالمين من نعمك الظاهرة والباطنة، واللهم إنا نسألك أن تعرفنا نعمك بدوامها وأن لا تعرفنا إيّاها بفقدها. أقول قولي هذا واستغفر الله العظيم.



١٧٣- سنن الله في عباده إذا كثر فيهم الخبث | ١٩٩٦/٠٤/١٩

إن الإنسان مهما فوجئ بالأحداث المؤسفة أو المؤلمة لن يجد فيها لغزاً غير مفسرٍ على ضوء إيمانه بالله عز وجل، بل لسوف يجد كل هذه الأحداث التي يراها من حوله خاضعةً لسنن الله سبحانه وتعالى في عباده، والإنسان المسلم إنما يكتشف هذه السنن ويتعلمها من كتاب الله عز وجل، لا من التاريخ البشري ولا من واقع المصائب أو الرزايا أو الوقائع البشرية الماضية.

لو كان التاريخ وحده بياناً لسنن الله في عباده؛ لأغنانا ذلك عن تنزل خطاب الله سبحانه وتعالى وحياً من السماء، فمهما رأى المسلم في هذا العصر أو في غير هذا العصر من الأمور التي تستجد من حوله خيراً كانت أو شراً، فإن ذلك كله داخلٌ بدقة في سنن الله وقوانينه التي يجريها على عباده، ونحن عندما نستعرض هذه السنن الكونية ونطبق الواقع عليها نجد فيها المزيد على إعجاز البيان الإلهي، وعلى أن هذا الكلام الرباني منزلٌ من علياء الربوبية وليس نابعاً من أرض البشرية قط.

من السنن الكونية قول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ هذا قانونٌ من قوانين الله عز وجل في عباده، وهو قانونٌ ماضٍ إلى يوم القيامة.

ولكن مهلاً أيها الإخوة إلى جانبه قانونٌ آخر يُقيده ويضبطه ومن ثم فهو يتممه، هو قول الله عز وجل بعد ذلك: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾، قرار الله عز وجل الأول ماضٍ في عباده إلى يوم القيامة، فالكافرون الذين ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله سينفقونها، ولكنها ستكون حسرةً عليهم وسيُغلبون، ولكن مع ملاحظة القانون الثاني: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ أي هذا عندما يكون في المجتمع خبيث وإلى جانبه طيب، عندما يكون فريقٌ من الناس يمثلون خبث الإنسانية وشذوذها ويكون إلى جانب ذلك أناسٌ يمثلون طيب الإنسانية واستقامتها على صراط الله سبحانه وتعالى، فإن الله عز وجل لابد أن ينتصر للطيب على الخبيث، ولا بد أن يركم الخبيث بعضه على بعض ويُهيئه وقوداً لجهنم.

ينبغي أن نعلم هذه السنة الربانية الثانية، ومعنى هذا أن الطيب إذا آل إلى أن يصبح هو الآخر خبيثاً، إذا أصاب الطيب عدوى الخبيث وانتشر الخبث بين الطائفة الطيبة وعادت الطائفة التي وصفها الله عز وجل بأنها طيبة، عادت تركن إلى الخبث وأسبابه، وتنحط إلى أرض السيئات والملهيات، وتتفنن كما يتفنن الآخرون في خبثهم، فإن السُنة الأولى لم يعد لها مناخٌ للتطبيق، ذلك لأن الكافرين لابد أن يُغلبوا يخسرون المال الذي ينفقون ويخسرون الهدف الذي يطمحون إليه، ويكون ذلك كله حسرةً كاوية على أفئدتهم لكن في سبيل ماذا؟ في سبيل الفئة الطيبة التي ثبتت على الحق وجالدت في الثبات على صراط الله سبحانه وتعالى.

فأما إذا رأينا هذه الفئة الطيبة وقد أصابتها العدوى - كما قلت لكم - وانحرفت انحراف أولئك الخبيثين، فلم يعد هؤلاء الناس الذي وصفهم الله عز وجل بالطيب، لم يعودوا يعتزون بالشرف الذي ميزهم الله به، لم يعودوا يعتزون بالدين الذي رفع الله شأوهم إليه، لم يعودوا يلتزمون بالنهج الذي اختاره الله سبحانه وتعالى لهم، لم يعودوا يدركون قيمةً لقول الله عز وجل: ﴿وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ لم يعودوا يقيمون وزناً لقول الله عز وجل: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ إلى آخر الآية، عندما يؤول الأمر إلى هذا تغيب الفئة الطيبة، وإذا غابت الفئة الطيبة أصبح مسرح الأحداث حبيساً للخبث والخبيثات والخبيثين. فما قيمة القانون الأول إذاً؟ لا مجال لتطبيقه في هذه الحال.

ليت أن المسلمين أيها الإخوة يُسقطون هذه السنن الربانية التي نتلوها في كتاب الله عز وجل صباح مساء على الوقائع التي نراها كل يومٍ من حولنا، إذاً لما عجبنا ولما تسائلنا ولما ارتابت عقولنا أو قلوبنا في عدالة الله سبحانه وتعالى.

كلنا نأسى أيها الإخوة لهذا البلاء الذي تدور رحاه على أناسٍ برئاء آمنين نساء أطفال لاشأن لهم بخصامٍ بين طرف وطرف قط، همجية ما مثلها ووحشية لا تتدانى إليها وحشية الحيوانات الهمجية في الأدغال، كلنا يأسى لهذا، ولكن ينبغي أن نعلم أنه لا يوجد شذوذٌ في وقائع الكون عن سنن الله سبحانه وتعالى. أفكان من مقتضى هذه السنن أن يسلط الله عز وجل إرهاب هؤلاء الغاصبين ووحشيتهم القذرة على الأمناء الآمنين على المسلمين لولا أن الفئة التي كانت إلى الأمس القريب فئةً طيبة إندلقت إلى هاوية

الخبث؟! أفكان لهذا الذي نراه اليوم أن نراه لولا أن هامات وقامات كانت إلى الأمس القريب تُظهر تمثيلاً أو حقيقةً أنها صامدةٌ أمام الحق وأنها لم تمد يداً إلى العدو المشترك الغاصب للديار، الحاقد على المبادئ والقيم، الذي يستشري الظلم بين عينيه، ويضع المطامح لامتلاك هذه الأراضي الإسلامية المقدسة كلها.

كانوا يجاهرون ويقسمون أن يداً منهم لن تمتد إلى مصافحة هؤلاء الناس ولا إلى مبايعتهم وإلى مصالحتهم، وإذا بالقامات والهامات التي كانت إلى الأمس القريب تصطنع الارتفاع إذا بها اليوم بين راكعة وساجدة في سبيل ماذا؟ لا أرض استعيدت، ولا حقٌ عاد إلى أصحابه، ولا القدس المقدسة المطهرة عادت إلى المسلمين. بل العدو كان ولا يزال يُنذر ويتوعد ويُذكر أبناءه وأحفاده بالخطة بالخارطة التي ينبغي أن يمتلكها من أرض هذه الأمة وتراثها.

انحنت الرؤوس بين راكعٍ وساجدٍ كما قلت لكم، وعاد العدو المشترك صديقاً حميماً، وعاد هؤلاء الإخوة الذين كانوا عضداً للمسلمين بحسب الظاهر إلى الأمس القريب عادوا عضداً إلى هذا العدو المشترك اليوم.

عندما تحول الطيب إلى الخبيث، وعندما اختلط الحابل بالنابل كما يقول المثل العربي، هل تستطيع أن تتفقد المناخ للقرار الأول الرباني الذي يقول فيه الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ في سبيل من يُغلبون؟ في سبيل الفئة الطيبة. أين هي الفئة الطيبة؟ أين هي الفئة الطيبة أيها الإخوة حدثوني؟

إن الإنسان ليأسى لا من هذا البلاء، فما يصيب الإنسان إلا ما قد كُتب لهم وكل أجلٍ بكتاب، إنما البلاء الأطم والمصيبة الأدهى أن في الناس من كانوا يعتزون بنسبة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا يخجلون اليوم من أن يطووا شرف هذه النسبة، ثم يجعل الواحد منهم نفسه خادماً ذليلاً لطغيان أولئك الطغاة الأقزام، لطغيان هؤلاء الذين أخذوا الأرض والدار والحقوق ولا يزالون يهددون بأخذ المزيد. هذا هو البلاء الذي أثمر هذا البلاء الذي تسمعون عنه بالأمس الدابر وقبل الأمس. أرأيتم إلى سنة الله سبحانه وتعالى في عباده أيها الإخوة.

إن الله عز وجل علم وهو علّام الغيوب وهو الحكيم الخبير أن هذه الأسرة الإنسانية لا تصلح لها أي قيادة إلا قيادة هابطة من سماء الله عزوجل إلا قيادةٌ هابطةٌ من تعليمات الله سبحانه وتعالى، فإذا انبتت التعليمات الإلهية عن هذه الأسرة الإنسانية تحولت هذه الأسرة الإنسانية إلى وحوش ضارية بل إلى ما يشبه كلاباً استكلبت. هذا هو الواقع لذا فقد كان الشرط الأساسي لصلاح هذه الأسرة أن ينجد الله عباده بهذا النظام الذي اختاره لهم وأن يستنجد العباد بهذا الحبل الرباني الذي أنزله عليهم.

ولما انقطعت صلة ما بين الأرض والسماء، ولما أعرض حتى المسلمون عن إسلامهم وغدا الكثير من المسلمين يكتبون المؤلفات والمقالات في تحطيم الإسلام، وغدو عملاء لأعداء دين الله سبحانه وتعالى بأثمانٍ رخيصة ليُحطم الإسلام كما يشاء سادتهم كتاباتٍ وكلماتٍ وندوات ومحاضرات وهم مسلمون. كان لابد أن يُسلط على الأسرة الإنسانية وحوشٌ بشرية، لابد. هذه الوحوش البشرية طبعاً لن تُريك منها مخالب ولا أنياب، لأنهم أدهى من الوحوش الطبيعيين، هؤلاء الوحوش البشريون يُرونك من أنفسهم الدبلوماسية الرائعة والبسمات المسكرة ويلقون الكلمات الطويلة الطنانة عن الإرهاب والتحذير من الإرهاب والسلام وضرورة السير في سبل السلام وما إلى ذلك، غطاء يُغطون به أنيابهم التي تبلغ خطورتها أضعاف أنياب السباع المسالمة الذليلة الضعيفة في الأدغال، وتبلغ مخالبها التي تظل تقطر دماءً أضعاف طول تلك المخالب الأخرى، لكنها مغطاة بهذا الكلام. تجدون هذه الكلمات هناك بدءاً من أقصى أمريكا إلى أقصى الشرق المحاربٍ لدين الله سبحانه وتعالى إلى اليوم.

أجل هذا الواقع الذي ترون نتيجة لانقطاع صلة العبد الإنساني بالله سبحانه وتعالى، ولذلك فالإنسان اليوم يسمع كلمات كثيرة عن الإرهاب وما يتعلق بالإرهاب، وهؤلاء الذين يُحذرون عن الإرهاب هم شر الوحوش التي استطاع التاريخ أن يرصد وجودها في تاريخ الإنسانية منذ فجر الوجود الإنساني إلى اليوم.

أجل أيها الإخوة أن يتسلل العدو إلى الدار ويُخرج صاحبها من الدار، ثم يجلس جاثماً في الدار، ثم يركن إلى كل ما في الدار من ممتلكات وأثاث ونحو ذلك غير مبالٍ بجريمة الاغتصاب التي ارتكبها، غير مبالٍ بتشرد أصحاب الدار من دارهم، هذا عملٌ إنساني رائع وينبغي أن تركع له هيئة الأمم المتحدة وينبغي أن تتوالى إعلانات الفيتو إثر الفيتو إثر الفيتو في سبيل ذلك. وأما أن ينادي المظلوم الشارد من

داره بالويل والثبور، وأما أن يطرق باب داره يُلح على الغاصب أن يخرج، وأما أن يستعمل حقه في الدفاع عن حقه وينادي العالم كله ألا أنجدوني فأنا المظلوم المحق، هذا هو الإرهاب، هذا هو الإرهاب الذي ينبغي أن تقطع أوصاله. أي إنسان وعى مثل هذا الأمر في التاريخ ثم لم يذهل عجباً.

ولقد قلت وأقول: إن هذا الواقع الذي تجسده أمريكا في باديء الأمر والتي تزعم أنها تريد أن تقود العالم ولن تستطيع ذلك ولن تجد إلى ذلك من سبيل، هذا الواقع أشبه ما يكون برجلٍ ذي عين حولاء، ينظر بعينه الحولاء إلى اليمين المظلوم فينحط إلى الشمال الظالم لأنه ينظر بعين حولاء.

أتتصورون هذا الواقع أيها الإخوة هذا الرجل الأحول مظلوم لأن مرضاً يجعله يرى الأمر يقع يميناً فينحط عليه يساراً، أما الذي يتحاول ومابه من حول أما الذي يرى اليمين شمالاً والشمال يميناً وهو قادر على أن يرى الأمور بشكلها السوي، فإنها جريمة ما بعدها جريمة. ومع ذلك فأنا لا أقول هذا الكلام لكي أتعجب من حكم الله وقراره لماذا سُلّط علينا هذا البغي الإرهابي الشنيع؟ لا. أقول هذا لأزداد يقيناً بسنة الله سبحانه وتعالى.

دفاع الله عن هذه الأمة مستمر عندما يستمر الطيب فيها، فإذا تحول الطيب إلى خبيث بشكلٍ أو بآخر وإذا عاد الطيب قلة يسيرة يسيرة ثم يسيرة فإن سنةً أخرى لابد أن تحيق بنا نعم: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ ينبغي أن ندرك هذه الأمور لنزداد ثقةً بمولانا وخالقنا أيها الإخوة.

والبلاء الأطم الذي أكرره ثم أكرره يتعلق بتلك الفئات التي تزعم بأنها فئات إسلامية، كنت إلى الأمس القريب أصفها بالإسلامية أما اليوم فأصفها بأنها تزعم بأنها إسلامية، مالها تصمت صمت الموت، مالها لا تتكلم لتعلن عن الباطل الذي جر علينا هذا البلاء المستشري الذي يدور رحاه على الآمنين من جيراننا مالهم يعيشون في أحضان أولئك الذين يصافحون العدو المشترك ثم لا يقولون كلمة حق، لايستطيعون أن يقولوا ذلك لأنهم في أحضان أولئك الذين باعوا الشرف والدين. إذاً ما لهم لا يقولون كلمة حق يعلنون من خلالها أن هذه القلة في هذه البلدة لاتزال صامدةً على دين الله! ينبغي أن تُشجع، ينبغي أن تجد من يكلؤها بعين العناية حتى تزداد استمراراً على هذا الثبات، وحتى تزداد الأرض صلابةً تحت قدميها مالها وقد وعت قول الله عز وجل: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ

﴿وَالْعُدْوَانِ﴾ ماهم لا يصدرون بيان الناطق الذي يعلن بأن الظلام الذي أطبق على بلادنا العربية كلها التي تحيط بهذا العدو المشترك لم يبقى في أرجاءه إلا بصيص نور واحد.

فيا أيها الناس تعاونوا جميعاً للإبقاء على هذا البصيص حتى لا تأتي رياحٌ تقطع دابر هذه البقية من الضياء أيضاً. مال الشيطان قد أخرس ألسن هؤلاء الناس.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.



١٧٤- سبب المهانة التي أُصيبت بها الأمة | ١٩٩٦/٠٩/٢٠

كثيراً ما نردد ونُذكر بأن السبب الأول والأخير للمهانة التي أُصيبت بها هذه الأمة وللذل الذي حاق بها إنما هو ابتعادها عن تعاليم إسلامها الذي كان هو أساس عزتها وشرفها وسؤددها.

وهنالك فئة من الناس كلما ذكّرنا بهذه الحقيقة ونبهنا إلى هذا الواقع قالت: فما بال تلك الأمم الأخرى التي لم تتقيد بالإسلام أصلاً ولم تتمسك بشيءٍ من أصوله أو فروعه، عزيزةٌ لا تهون، قويةٌ لا تضعف، متماسكة لا تتخاذل؟!

والمصيبة أيها الإخوة أن هذه الفئة – التي تظل تسأل هذا السؤال كلما أكدنا تلك الحقيقة – لا تلتفت إلى كتاب الله لفتةً واحدة، ولا تقف بأي تأمل عند دراسة سنن الله سبحانه وتعالى وأصول تعامله مع عباده، ولذلك فإن سؤال هذه الفئة من الناس يظل متكرراً، لأنها تهوى أن تطرحه إشكالاً، ولا تحب أن تصغي إلى الجواب عنه كحلٍ لهذا الإشكال.

وأنا أقول – لا إقناعاً لتلك الفئة التي لن تقتنع، ولكن أقول لكم لكي لا يصيبكم شيءٌ من رشاش هذا الإشكال المفتعل، أقول لكم: إن الجواب عن هذا كامنٌ في كتاب الله سبحانه وتعالى ومحكم تبيانه اقرأوا في هذا قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ، فَلَوْلاَ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ، فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾.

أليس في هذا البيان الواضح الصريح والمفصل ما يجيب عن هذا الإشكال وما يحل هذا اللغز المفتعل؟ ولكن الأمر يحتاج إلى من يتدبر كتاب الله سبحانه وتعالى، ويحطم أقفال القلوب التي تمنع من الإصغاء إلى هذا البيان الواضح الصريح.

سنة الله سبحانه وتعالى في عباده هي أنه يبعث إليهم الرسل والنذر منبهين معرفين موضحين مهمة الإنسان ووظيفته فوق هذه الأرض وهويته عبداً لله سبحانه وتعالى، فإذا انقاد الإنسان إلى هذه التعاليم واصطبغ بهذه الإرشادات وسار على الطريق التي رسمها بيان الله سبحانه وتعالى، فإن الله قد ألزم نفسه

أن يسعد هذه الثلة من الناس، وأن يكرمها بالغنى وبالعزة وبالتماسك والقوة. وهذا معنى قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً﴾.

هذا قرار الله وهذا وعده الذي قطعه اتجاههم على نفسه.

فأما إن سارت هذه الثلة على نهج هذه الأوامر، ولكنها تلكأت أو انحرفت بين الحين والآخر إلى المعاصي والمحرمات، أو منيت بالأمراض التي تسري إليها من جيرانٍ لها أو من أناسٍ منحرفين عن يمينها أو عن شمالها، فإن الله عز وجل من شأنه أن يتدارك هذه الثلة عندما تنحرف أو عندما تقلد أو عندما تسري إليها عاديةٌ من أمراض أولئك الآخرين، إن من عادة الله عز وجل أن يوقظ هذه الثلة من عباده، بماذا يوقظها؟ يوقظها بالتخويف، يوقظها بالمصائب، يوقظها بالابتلاءات؛ يسلط عليها بين الحين والآخر قوىً ذليلةً مهينة كان الجدير أن تكون هي المتحكمة بها وهي المسيطرة عليها، لعلها تستيقظ، لعلها تجد في هذه السياط المؤدبة تطبيباً لها وإيقاظاً لها من رقادها. تلك هي سنة الله سبحانه وتعالى وتلك هي الحالة التي نمر بها اليوم.

نحن مسلمون ولله الحمد ونحن هي تلك الأمة التي أعزها الله بالإسلام، ولكنا انحرفنا عن الجادة جزئياً أو كلياً، واستهوتنا السبل المتعرجة هنا وهناك، ووجد فينا من يقلد ومن يتبع ومن تمتلأ عيناه بلغو اللاغين وعبث العابثين ويُخدع بانحرافات المنحرفين. هذا هو واقعنا.

كيف يعالج بيان الله المسلمين عندما يكونون بهذه الحالة؟ يعالجهم وهذه رحمة من رحمات الله بالإيقاظ، وكيف يكون الإيقاظ؟ بأن يبعث عليهم الشدائد واحدةً إثر أخرى، وأن يبتليهم بالرزايا والمصائب مرةً تلو مرة، وأن يسلط عليهم فئات ممن كانوا هم المسلَّطين عليهم من قبل لعلهم يستيقظون لعلهم يتنبهون. هذه سنة رب العالمين، وهذا ما أعلنه بيان الله قد تلوته عليكم الآن ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ، فَلَوْلاَ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

نحن الآن نعيش هذه المرحلة، كنا تلك الأمة التي أعزها الله بالإسلام، وكنا نموذجاً أمام بصائر الناس وأبصارهم ليعلموا قيمة الإسلام وأهميته، فلما ظهر الإنحراف هنا وهناك عن الجادة، وظهر ظهرت الرغبة في تقليد الآخرين ممن شنأهم الله سبحانه وتعالى وأبغضهم، كان لا بد أن نمر بهذه المآسي التي نمر بها الآن للإيقاظ وللتربية؛ لعلنا نجتمع بعد تفرق، لعلنا نتوب، لعلنا نصطلح مع الله، إذاً سيعيد الله سبحانه وتعالى إلينا العزة.

أما تلك الأمم الأخرى التي لم تكن لها سابقة سير على صراط الله، ولم تكن لها سابقة هديٍ بكتاب الله سبحانه وتعالى ولا بتعاليم رسله وأنبيائه، جاءتهم الرسل جاءتهم المذِّكِّرات، تلقوا الكثير والكثير من المنبهات فلم يلتفتوا ولم ينصاعوا ولم ينقادوا. وصدق عليهم قول الله عز وجل: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم﴾ قست منهم القلوب، وقست منهم الألباب، هؤلاء ليسوا محل تطبيب لأنهم ليسوا أهلاً ليُطببهم الله سبحانه وتعالى.

ألم يقل الله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَوْلاَ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ، فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ انقطع الأمل من عودتهم، ونحن لم ينقطع الأمل من رجوعنا إلى الله، لا ها نحن نتصايح ونتواصى لكي نعود. لكن تلك الأمم الأخرى التي انقطع الأمل منها أن تعود إلى الله، ماذا يقول الله عنها: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ نسياناً كلياً ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

هذه عادة رب العالمين، ما فائدة التطبيب؟ ما فائدة الرزايا؟ ما فائدة سياط التربية وقد نسوا كل شيء وقد قست منهم القلوب والألباب؟ لا فائدة. إذاً ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾

من ذا الذي يتمنى أن لو كان هو المعني بهذه الفقرة من كلام الله عز وجل، ومع ذلك عندما يفتح الله عليهم أبواب كل شيء هل يستمر الأمر على هذا المنوال؟ ما عاذ الله، هل يستمر هذا الرقص على هذه النشوة بسائق هذه النعم التي تتوارد وتتمطر عليهم؟ لا والله. وانظروا إلى تتمة كلام الله عز وجل ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾

وهذه المرحلة آتية والله الذي لا إله إلا هو، وتلك هي سنة الله في أولئك الذين خلوا من عباده، ما من أمة طغت وبغت ونسيت الانصياع لأوامر الله واستكبرت وعتت وأصرّت على السير بعيداً عن صراط الله وأصرت على أن تُصم الآذان عن سماع هدي الله وركبت رأسها مستمرةً على هذا المنوال، ما من أمة كان هذا شأنها إلا أسكرها الله بالنعم لمدة من الزمن، وبعد حين أخذها الله أخذ عزيزٍ مقتدر.

الحضارة الرومانية وصلت إلى ما أكثر إلى ما وصلت إليه الغرب اليوم، بذخاً قوةً عزةً استكباراً عتواً هيمنةً... فماذا كان النتيجة بعد ذلك؟ أسفت تلك الحضارة الرياح المشرقة والمغربة وعادت أثراً بعد عين.

الحضارة الساسانية الفارسية وصلت إلى أكثر من وصل إليه الغرب اليوم، واستشرت وطغت وبغت فماذا كانت النتيجة؟ أخذها الله أخذ عزيزٍ مقتدر.

ما من أمة من الناس جاءتها المذكرات فلم ترعوِ، ثم لم ترعوِ.. إلا فتح الله سبحانه وتعالى لها سبل المتعة من كل النوافذ والأبواب ردهاً من الزمن، ريثما تأخذها سكرة النعيم أخذاً تاماً، وفجأة جائها العذاب الواصب إما من فوق أو من تحت أو من الأطراف المختلفة.

ولكن الناس عندما ينتظرون انتقال مرحلة تلو المرحلة من هذا الذي يقوله الله، ينتظرون الأمر تماماً كما ينتظرون الموت الذي يحيق بإنسانٍ قد امتد على فراش الموت أمامهم، ينظرون إلى الميقات ويعدونه بالأيام، فإن لم يكن بالأيام فبالشهور، أعمار الدول ليست كأعمار الأناسي أيها الإخوة، أعمار الأناسي تعد بالسنوات بل ببضع سنوات ربما ثم بالشهور والأيام، أما الدولة فأعمارها تعد ربما بالقرون، والدولة التي لا تعيش أكثر من مئتي عام تكون من الدول التي حاق بها الهلاك وهي في المهد.

نعم.. ونحن ننظر إلى دول البغي مغربة أو مشرقة، ونعد الساعات ونجد الساعات تمر دون أن يحيق بها قول الله سبحانه وتعالى: ﴿أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾. ننظر إلى الأيام والليالي التي تمر ونقول متى سيحين ذلك؟ نقيس عمر تلك الدول بأعمارنا نحن، وهاهنا مكمن الخطأ أيها الإخوة، الذي يرصد حياة الأمم ينبغي أن يرصدها بمواقيت التاريخ لا بمواقيت الساعة التي يضعها في يده.

ونحن نعلم أن دول البغي هذه تتحرك، ولكنها والله تتحرك حركة المذبوح، وعما قريب ستهدأ النأمة، ولسوف يحيق قضاء الله سبحانه وتعالى بها، فلا يخدعن إنسان عندما نتحدث عن أسباب تخلفنا، لا

يُخدعن بأولئك الناس الذين حاق عليهم لمرحلة قصيرة من الزمن قول الله سبحانه وتعالى: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ هي مرحلة قصيرة.

وانظروا إلى عمر كيف وعى هذا المعنى بدقة، وكيف عبر عن هذا الذي وعاه بجملة واحدة، عندما قال لأبي عبيدة: **نحن قومٌ -نحن لا غيرنا- نحن قومٌ أعزنا الله بالإسلام فمهما طلبنا العزة بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله.**

نحن بالذات التاريخ يعلن أن عزتنا التي طأطأ العالم رأسه لها إنما جاءت من ينبوع هذا الدين، العالم كله يعلم ذلك **نحن قومٌ أعزنا الله بالإسلام**، إن تحدثت عن حضارة هذه الأمة فمعينها الإسلام، وإن تحدثت عن غنى هذه الأمة فمعينها الإسلام، وإن تحدثت عن قوة هذه الأمة فمعينها الإسلام، وإن تحدثت عن تماسك هذه الأمة ووحدتها فمعين ذلك الإسلام.

عندما تخلع هذه الأمة رداء الإسلام كلياً أو جزئياً، لا بد لكي يعلم العالم هذه الحقيقة ولكي لا يسري الشك إليه لماذا اعتزت هذه الأمة في ردح من الزمن، ثم هانت؟ لا بد عندما تخلع هذه الأمة رداء الإسلام أن يستلب الله منها عند ذلك تلك العزة، وذلك الغنى، وتلك الوحدة، وتلك القوة، حتى يعلم الناس ويتأكدوا من أن تلك العزة التي تمتعت بها هذه الأمة في ماضي حياتها إنما كانت آتية من الإسلام.

عندما نجد أن هذه العزة وهذه المزايا قد تقلصت عنها عندما تقلص عنها الإسلام سلوكاً، يزداد الناس تأكداً بهذه الحقيقة، ويزداد علماً بهذا المعنى.

لكن لو أنها خلعت رداء الإسلام كلياً أو جزئياً كما نرى اليوم، وبقيت وحدتها، وبقيت قوتها، وبقي غناها، فربما أصابنا الريب، وربما قلنا إذاً لم تكن تلك العزة ولم يكن ذلك التوفيق ولم تكن تلك الحضارة.. لم يكن كل ذلك مبعثه الإسلام، لأن الإسلام ها هو ذا انحسر عنها وهي لا تزال في قوتها، وانظروا إلى قول عمر هذا كم هو دقيق: **نحن قومٌ أعزنا الله بالإسلام**. ومن أجل هذا فاعلموا مهما اعتززنا بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله. وها هو هذا كلام عمر يحيق بنا سلباً بعد أن عرفنا حقيقته إيجاباً وطرداً.

فهل عسيتم أيها الإخوة أن تحصنوا عقولكم ضد هذا الخداع الذي يقوله من يقول، ويكتبه من يكتب، والله الذي لا إله إلا هو ليس بينكم وبين أن تحصنوا عقولكم ضد هذه الجرثومة إلا أن تقرأوا كتاب الله بتدبر.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.



١٧٥- قتل الإنسان ما أكفره | ١٩٩٦/١٢/١٣

ليس غريباً أن يستمر الخالق الكريم سبحانه وتعالى في إمداده لعباده بالنعم والآلاء التي لا تنقطع مع استمرار إعراضهم عنه سبحانه وتعالى، ومع استمرار نسيانهم لفضله، بل مع استمرار إشراكهم لغيره معه سبحانه وتعالى، ولكن الغريب حقاً أن يكون العبد وهو يعلم أنه عبدٌ لله سبحانه وتعالى مستمراً في عكوفه على إعراضه عن الله، ونسيانه لفضل الله سبحانه وتعالى، مع ما يرى من النعم التي تستمر في مجيئها وفي تطوافها من حوله في كل حالٍ وفي كل وقتٍ وآن؛ أن لا ينقطع رفد الله عن عباده سواءٌ كانوا طائعين أو عاصين ليس غريباً، لأن الله سبحانه وتعالى وصف نفسه بالرحمة لعباده جميعاً وهو القائل سبحانه وتعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾.

ولكن العجب الذي لا ينتهي.. أن يعلم العبد أن مولاه وخالقه هو الله سبحانه وتعالى، وأن يتأمل فيدله عقله على أنه لا يوجد مصدرٌ للنعمة التي تفد إليه من سماءٍ أو من أرض إلا من عند الله سبحانه وتعالى، وهو يعلم أن هذه الألطاف وهذه النعم لو انقطعت عنه لهلك هذا الإنسان، يعلم هذا كله ويرى مائدة الله مبسوطة أمامه لا ينقطع رفدها ولا ينقطع خيرها، ومع ذلك تجده معرضاً عن الله سبحانه وتعالى، مستكبراً على أوامره؛ يأمره فيتأبى، ينهاه فيتمرد على نهيه، يحذره من الالتفات إلى أعدائه وأعداء دينه فلا يلتفت إلا إليهم، ولا يأخذ وصاياه ونصائحه إلا منهم. ذلك هو العجب العجاب يا أيها الأخوة.

وهذه هي حالنا.. ننظر فنجد أن السماء تمطر ولا ينقطع رفدها عن الإنسان أبداً، وهو يعلم أن الله سبحانه وتعالى لو قطع رفده هذا مدةً من الزمن لآل هؤلاء الناس إلى ما يشبه البعوض الذي يبحث عن المستنقعات.

ويرى هذا العبد كيف أن الله سبحانه وتعالى مستمرٌ في تسخير أرضه لتتفجر رزقاً وطعاماً رغيداً وخيراً وفيرا وكنوزاً لا تنقطع لهذا الإنسان الذي ميزه الله على عباده وكرمه بكل مظاهر التكريم، يرى العبد هذا وهو معرضٌ عن الله عز وجل.

يُدعى إلى شرعة الله فيشمئز منها ويبحث عن قمامات الشرائع لدى أمثاله من الناس بل لدى أعدائه من عباد الله سبحانه وتعالى.

يُذكره الله سبحانه وتعالى بألوهيته له وفضله السابغ عليه وبضرورة اعترافه وشكره له، ولكنه يُلوي رأسه ذات اليمين وذات الشمال ويتناسى أو يتجاهل أن لله عليه فضلا، هذا إن لم يُكابر في إنكاره لربوبية الله سبحانه وتعالى.

هذا الواقع الذي نراه بأعيننا هو أغرب ما يمكن أن يتصوره أحدنا عن واقع الإنسان، ذلك لأننا منذ أن عرفنا الإنسان وحقيقته عرفنا أنه ذا شعور وأنه ذا إدراك وأنه ذا حساسية وذوق. فأين هي حساسية هذا الإنسان وذوقه وشعوره أمام هذا الواقع العجيب؟

انظروا إلى سماء الله عز وجل كيف يتصل خيرها بالأرض دون انقطاع، وانظروا إلى عباد الله أو أكثرهم الذين يتحركون في مناكب الأرض كيف يسعون لاهثين إلى عصيان الله! إلى الوقوف في وجه حدود الله سبحانه وتعالى محادين ومكابرين!

انظروا إلى هؤلاء الذين يُدعون إلى الاصطلاح مع الله عز وجل، فيشمئزون ويكابرون ويستمرون في إعراضهم واستكبارهم على الله سبحانه وتعالى، وكلٌ منهم يعلم أنه لولا هذه النعمة التي تهمي من السماء والتي تتفجر من الأرض؛ لولا هذه النعمة لغدا هذا الإنسان المستكبر على الله سبحانه وتعالى أحقر مخلوقٍ يسير في جنبات الأرض! فهل من أمرٍ أعجب من هذا!!..

ومع ذلك فلو أن خطاب الله عز وجل لم يكن يذكرنا بين الحين والحين بضرورة الرجوع إلى الله والاصطلاح معه، بضرورة الاعتراف بربوبية الله عز وجل والشكر لنعمه، لو لم تكن آيات الله تترى، ولو لم تكن مذكراته تقرع آذاننا بين الحين والآخر، لقلنا إن الإنسان قد ينسى، وما سمي الإنسان إنساناً إلا لأنه ينسى، ولكننا نعلم أن المذكرات تقرع آذاننا صباح مساء، ومع ذلك فإننا نأبى أن نتذكر.

وإذا لاحقَنا من يريدون أن يذكرونا بذلك، ثرنا وتأبينا وأعلنا عن الاشمئزاز، واتجهنا إلى شطر أولئك الذين يعادوننا ويستعبدوننا ويحاولون أن يسومونا سوء العذاب بكل الوسائل، نجعل منهم أولياء لنا من دون الله عز وجل.

أغربُ ما تراه من حال الإنسان أنه يستمر في نهجه المنحرف اللئيم هذا وخطاب الله يلاحقه قائلاً: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ خطاب الله يلاحقنا ونحن نفر هاربين معرضين وقد تلبسنا بأشنع مظاهر اللؤم، ولاؤنا نعطيه لأعداء الله عز وجل، والإله المتفضل علينا المتكرم الذي لا يقطع عنا رفده في ليلٍ ونهار نواجهه بالتمرد، نواجهه بالإعراض، لا بل في كثيرٍ من الأحيان نواجهه بالحرب لشرائعه وأحكامه ووصاياه ونصائحه. وهو مع ذلك وقبل وبعد ذلك لا يقطع عنا رفده؛ مائدته مبسوطة، نعمه عليها وفيرة، ومعظم من يتحلقون حول هذه المائدة لؤماء، بل ما وجدت لؤماً أشنع من هذا اللؤم أيها الإخوة.

يأمرنا الله بالأخلاق الراشدة الحميدة التي يعود مآلها إلينا فنحارب هذه الأخلاق الحميدة.

يأمرنا الله سبحانه وتعالى بأن نكون قوامين على حدود الله وأوامره؛ حارسين لها في بيوتنا وأسواقنا، فنعرض عن هذا الذي أمرنا به الله ونسعى جاهدين للاستمساك بنقيض هذا الذي يأمرنا به الله سبحانه وتعالى.

ويذكرنا الله بلطف بأن نعلم فضله، وأن ندين له بالولاء والشكر، فنعرض عن هذا الذي يوصينا به ويتلطف في تذكيرنا به ونمعن في الاسترسال في غينا وأهوائنا وشهواتنا.

ومع ذلك فإن نداء الله يقول: ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾.

لا وسيلة أيها الأخوة لكي نتخلص من هذا الداء العضال الذي نعاني منه إلا وسيلة واحدة، هو أن تلتجئ القلة الصالحة من عباد الله سبحانه وتعالى إلى أعتاب الله وإلى ألطاف الله سبحانه وتعالى تستجديه أن يلهم هؤلاء التائهين بل هذه الكثرة الكاثرة من التائهين حسن الرجوع إلى صراطه، حسن الإنابة إلى ساحة عفوه، ليس لنا من سبيلٍ إلا هذا أيها الإخوة.

والله إن الإنسان ليعجب عجباً يُذيب الحشاشة، عندما يسير في هذه الشوارع في هذه الأيام فيرى آثار نعمة الله عز وجل منبسطة حوله أنّى ذهب، وكيفما التفت ثم ينظر إلى هؤلاء الذين ما يزال مولانا وخالقنا مستمراً في إكرامهم وفي إعطائهم وفي إرسال النعم التي لا تنقطع إليهم؛ ينظر إليهم وإذا بهم مستكبرون عليه وإذا بهم متأبون على شرعه، وإذا بهم ربما يسخرون من وصاياه وكلامه.

انظر إلى ما يعامل الله به عباده ثم التفت إلى ما يعامل العباد به مولاهم وخالقهم سبحانه وتعالى.

أما الله سبحانه وتعالى فهو القوي وهو العزيز وهو الجبار وهو الذي إذا أخذ، أخذ أخذ عزيز مقتدر، لا يمنعه أي مانع من أن يُذهب كل هذه النعم وهذه الآلاء، وأن يمطر علينا بدلاً من ذلك كل ألوان السخط وأسباب الهلاك. ما الذي يمنعه من هذا؟ هو القوي.. أما نحن الذين نستكبر على الله والذين نتأبى على وصايا الله سبحانه وتعالى، فنحن الضعاف مثال الضعف مثال الذل مثال الوهن اللاشيء.

لو أن الله سبحانه وتعالى تخلى عنا، ولو أن الله سبحانه وتعالى قطع رفده عنا. من هو الإنسان؟ من هو هذا الإنسان المستكبر على الله عز وجل؟ هو ذاك الذي قال الله عنه: ﴿وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ هذا الإنسان عندما تنقطع عنه عناية الله سبحانه وتعالى، والله لبعوضةٌ تجوب المستنقعات أقوى من هذا الإنسان. أجل. وها أنتم ترون الدلائل البعيدة التي تنبهكم إلى هذه الحقيقة عندما يسلط الله سبحانه وتعالى على أحدنا حشرةً من هذه الحشرات، ما الذي يستطيع أن يعمل الله سبحانه وتعالى؟

يكرمنا ويعطينا على الرغم من لؤمنا وهو القوي، أما نحن... فنواجهه باللؤم ونواجه إكرامه بالتمرد والتأبي والثورة على نصائحه ووصاياه ونحن الضعاف، لو أننا كنا أقوياء نستند إلى هذه القوة في لؤمنا، نستند إلى هذه القوة في استكبارنا، إذاً لربما خنع المنطق لشيء من هذا التصرف. لكن يا هذا ما هو رأسمال لؤمك؟ ما هو رأسمال استكبارك؟ ما هو رأسمال تأففك من وصايا الله عندما يأمرك؟ يوصيك لمصلحتك أن تسير على النهج الذي شرعه الله لك، ما هو رأسمالك؟

إذا شاء الله عز وجل أن يتجلى عليك بجبروته. ترى هل ستستمر في لؤمك لحظة واحدة؟ هل ستقوى على الثبات على استكبارك ثانية واحدة؟ إذاً فيما يستكبر الإنسان التافه الضعيف! فيما يثور ويتمرد على الله القوي! هذا المخلوق التافه الذي لا قيمة له، ومع ذلك فانظروا إلى القوي كيف يعامل هؤلاء المستكبرين الضعفاء، لا تنقطع رحمات الله عنهم، وانظروا إلى هؤلاء الضعفاء كيف يعاملون الله سبحانه وتعالى.

أسأل الله عز وجل أن يجعل من القلة الصالحة التي لا تزال مستمرةً بفضل الله سبحانه وتعالى، أسأل الله عز وجل أن يجعل منها سبيل هدى ورشد وسر إعادة لأولئك الكثرة التائهة الضالة إلى صراط الله سبحانه وتعالى. أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.



١٧٦- مياهكم تقلصت.. والسبب؟ | ١٩٩٧/١١/٢١

منذُ أسبوعين حدثتكم عن ظاهرةٍ مخيفةٍ يأخذ الله سبحانه وتعالى بها عباده في هذه البلدة، هي ظاهرة من ظواهر تربيته وتأديبه لعباده الذين يتقلبون بين الحين والآخر في حالات من اللهو والنسيان، والإعراض عن الله سبحانه وتعالى، والعكوف على المعاصي والمحرّمات، ولفتُّ النظر إلى الدلائل التي تتجسد فيها هذه الظاهرة، ومنها تقلص المياه على حين غِرة ودون سابق إنذار، ودون أن يخضع ذلك لشيء من المقاييس العلمية التي يعرفها ويتحدث عنها علماء الري، ونبّهت إلى أن علينا أن نرعوي وأن نتوب إلى الله سبحانه وتعالى حتى يُصلح الله شأننا ويبدل شدتنا رخاءً.

فقال بعض من قد سمع كلامي هذا مستفسراً أو مستنكراً: ها هي ذي أولاء أمم البغي من حولنا وقد استغرقت استغراقاً تاماً في حالات مستمرة من البعد عن الله والإعراض عن حدوده؛ وهي ماضيةٌ في ارتكاب الموبقات دون أي التفاتة إلى الله عز وجل، بل هي ماضية في عدم إقامتها لوجود الله سبحانه وتعالى – فضلاً عن أوامره – أي وزن، ومع ذلك فإن الله سبحانه وتعالى لم يبتليها بما قد ابتلانا به، فماؤها موفور، ونعيمها موصول، وهي تتقلب في حالات مستمرة من الرخاء.

وهذه القالة أو هذا الاستنكار يتكرر كلما نبهت إخواننا في هذه البلدة إلى ضرورة الرجوع إلى الله سبحانه وتعالى. فما هو الجواب الذي ينبغي أن يعرفه أولئك المستفسرون أو المستنكرون؟

أقول ما قلته مراراً في الجواب عن هذا، ولكن هنالك مشكلات لا تُحل إلا من خلال التكرار والتأكيد: ويبدو أن كثيرين هم المسلمون الذين لا يقرأون كتاب الله أبداً، وإن قرأوا شيئاً منه لا يتدبرونه إطلاقاً ولو قرأوا وتدبروا لما احتاجوا إلى هذا الاستفسار ولا إلى هذا الاستنكار، ولعلموا أن سنة الله سبحانه وتعالى لا خُلف فيها ولا اضطراب.

هذا الذي يأخذنا الله به الآن من الشدائد، إن بالنسبة للماء وإن بالنسبة لغير الماء، أهو تربيةٌ وتأديب، أم هو إهلاك؟

كلكم يعلم الجواب. هذه الظاهرة تدخل في معنى التربية والتأديب، وأنتم تعلمون أن التربية تعتمد آناً على الشدة، وتعتمد آناً على الرخاء، وكلٌ منا يعلم أن قانون التأديب والتربية سار على هذا المنوال، ومبدأ التربية والتأديب إنما هو من خصائص العباد الذين يغار الله على مصيرهم، والذين أحبهم الله سبحانه وتعالى فلم يرتضي لهم الهوان، ولم يرتضي لهم أن يسلكوا الطريق الذي إن استمروا فيه أودى بهم إلى الهلاك.

الناس الذين يأخذهم الله بالتربية أي بالشدة آناً وبالرخاء آناً ليستيقظوا إنما يخاطبهم خطاب مُحب، وإنما يأخذهم بمعنى من معاني رحمته، فهل تتصورون أن أمم البغي وأن المجتمعات التي قطعت صلتها بالله عز وجل ومضت في ارتكاب الموبقات وهي مستكبرة بذلك على الله عز وجل، أفترون أن تلك الأمم تستأهل أن يأخذها الله سبحانه وتعالى أخذ المحب بالتأديب والتربية فيبتليها بالشدة آناً والرخاء آناً لعلها ترعوي، لعلها تعود إلى خطة الرشد!؟

تصوروا أيها الإخوة الأمر على هذا النحو تجدون مدى الجهالة الجهلاء التي تدفع هؤلاء الناس إلى مثل هذا السؤال. نحن ولله الحمد لا نزال أمةً مسلمة مؤمنة، ومجتمعنا لا يزال مصطبغاً بأسمى معاني العبودية لله عز وجل، فمساجدنا عامرة ودروسنا متواصلة، والمقبلون إلى الله عز وجل شيباً وشباناً، رجالاً ونساءً كثرةٌ كاثرة بحمد الله سبحانه وتعالى، ولكن يشيع بين ذلك ظلامٌ من الفسوق، ظلامٌ من العصيان قد يتكاثر آناً وقد يتقلص آناً، هذا الذي يشيع ضمن هذا المجتمع شيء يغضب الله سبحانه وتعالى، وفي هذه الحالة يربينا الله عز وجل برحمته، يُأدبنا الله سبحانه وتعالى بلطفه؛ كي نستيقظ. ونحن لم نصل إلى الدرجة التي قضى الله سبحانه وتعالى فيها بالإهلاك، ونسأل الله عز وجل أن لا نصل إلى تلك الدرجة.

أولئك الناس الذين لا يزال بعض الجاهلين أو المتجاهلين يقارنون بيننا وبينهم، مجتمعات البغي في أقصى الغرب أو الشرق تلك المجتمعات التي طوت من ذهنا مسألة الله والإيمان بالله، تلك المجتمعات التي اتخذت من هواها آلهة من دون الله سبحانه وتعالى، أي فائدة يُفيدها التأديب وأي معنىً بقي في حياتها لعصى التربية؟ إنها تنتظر شيئاً واحداً ألا وهو الهلاك. وهذا هو فرق ما بيننا وبين أولئك الناس.

قلت: إن الذين يستشكلون مثل هذه المشكلات لا يقرأون كتاب الله ولو أنهم قرأوه لما سألوا. انظروا إلى كلام الله سبحانه وتعالى ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يقول: كفروا؛ لا يتحدث عن الفاسقين المؤمنين العاصين ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾ أي ما أهلكنا من أمة من هذا القبيل كفروا وقطعوا ما بينهم وبين الله من صلات إلا وجاء إهلاكنا لهم على ميقات ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ هكذا يقول الله سبحانه وتعالى. فهل يريد هؤلاء الناس أن نقف وراء الطوابير التي تنتظر الهلاك والتي حاق بها قرار الله سبحانه وتعالى؟ تلك هي سنة الله عز وجل، الذين قطعوا ما بينهم وبين الله من صلات، واستكبروا على الله وعلى الإيمان به، واتخذوا من شهواتهم وأهوائهم آلهة لهم من دون الله عز وجل، قرار الله في حقهم هو التالي: أن يفتح لهم أبواب المتع على مصارعها، وأن يجعلهم يزدادون في طغيانهم وبغيهم كما قال الله عز وجل إلى الميقات المحدد المعلوم عند الله سبحانه وتعالى، وعندئذٍ إذا أخذ، أخذ أخذَ عزيزٍ مقتدر.

من الذي يتمنى أن نكون مثل أولئك الناس؟ نحن لم نصل إلى ذلك الوضع المزري، بل لن نصل إليه بتوفيق الله سبحانه وتعالى.

نحن أيها الإخوة ينبغي أن نقرأ كتاب الله لنتبين سنن الله في عباده، انظروا إلى قوله عز وجل وهو يتحدث عن ظاهرة من ظواهر سننه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ كما هو شأننا، لعلهم يتضرعون... الأمل معقود لا يزال لايزال احتمال الرجوع إلى الله والارعواء إلى دين الله قائم، أخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون. ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي لما انقطع الأمل ولما قطعوا أوهى الخيوط بينهم وبين الله ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ اقرأ كتاب الله لتجد كيف أن واقع المجتمعات اليوم مصداقٌ دقيقٌ لهذا الكلام الرباني العجيب.

هذا هو قانون الله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أفنحن كذلك؟ لا، لا ولله الحمد لم تقسو بعد أفئدة هذه الأمة ككل

وكمجتمع، لا، لا تزال هذه الأمة بخير، ولا يزال فيها الشباب الذين تذوب أفئدتهم خشيةً من الله، ولا يزال هنالك الرُّكع السُجّد الذين يجأرون إلى الله بالدعاء ضارعين في الغدو والآصال، ولا يزال هنالك شيوخٌ رُكّع، وأطفالٌ رُضّع، وأطفالٌ آخرون يهرعون قبل آبائهم إلى المساجد. مجتمعنا مليءٌ بهذا كله والمأمول أن يشفع الله سبحانه وتعالى للطالحين بفضل هؤلاء الصالحين.

إذا كنت تنتظر أن تكون مثل أولئك الناس، فاذهب إلى حيث يقيمون، وانتظر الهلاك الذي ينتظرون والهلاك آتٍ عما قريب ينبغي أن نعلم هذه الحقيقة.

نحن لسنا كهؤلاء الناس ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ فينا من يتضرع، وفينا من يلجئ إلى الله، وفينا من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، إذاً لسنا من هؤلاء الناس، أما أولئك الذين تذكرهم فلا يتذكرون، تُنبههم فلا يتنبهون قست قلوبهم فأصبحت كالحجارة، كما قال الله سبحانه وتعالى: أولئك الذين حاق عليهم قوله سبحانه وتعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً﴾ قبل ذلك يقول: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾. وهذا هو الواقع الذي ترون، فتح الله عليهم أبواب كل شيء ولكن إلى حين ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾ أي ميقات معلوم ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾

كثيرون هم الذين يقيسون أعمار المجتمعات بأعمار الحيوانات أو بأعمار الأناسي، الإنسان يعيش إن طال عمره سبعين عاماً أو يزيد قليلاً مهما طال عمره، كثيرون هم الأغبياء الذين يقيسون أعمار المجتمعات بأعمار الأشخاص، لا، عمر المجتمع ليس سبعين عاماً حتى تنظر إلى مجتمع البغي وأنت تضبط ساعتك وتقول: ها هم لم يُهلكوا بعد، مر يوم ولم يُهلكوا، مر شهر ولم يُهلكوا، مر عامٌ ولم يُهلكوا، مر عامان عشرة أعوام ولم نجد قرار الله قد حاق بهم... هذا من الغباء بمكان.

للمجتمعات أعمار غير أعمار الأشخاص، وإذا كانت العين هي التي ترصد عمر الشخص ما بين طفولة وشباب وكهولة وشيخوخة، فالتاريخ هو الذي يرصد أعمار المجتمعات، إذا أهلك الله مجتمعاً بعد أن قام واستمر ثلاثمئة عام فمعنى ذلك أن الله أهلكه وهو في عمر الطفولة.

أجل.. أمريكا لم تقضي أكثر من مئتي عام من حياتها المستقلة التي تتباهى فيها بالوجود برقعةٍ من بقاع الأرض، وإن العلماء - قبل أن أقول إن الله سبحانه وتعالى - لا يُعطون لها من العمر ما تستطيع أن تفرح فيه بمرور ثلاثة قرون على وجودها.

هذه الحقيقة ينبغي أن نعلمها، وإذا أدركنا ذلك أيها الإخوة فلتكن مشاعرنا متجهةً إلى الله سبحانه وتعالى بلسانين اثنين، لسان يحمد الله على أنا لا نزال سائرين على صراطه معتزين بدينه، مستمسكين بحبله، ولو بشكلٍ جزئي، لسانٍ آخر يجأر إلى الله بالضراعة أن لا يأخذنا بجريرة هؤلاء الذين فسقوا وفجروا وارتكبوا الموبقات علناً وجهراً واستكباراً، ينبغي أن نتجه إلى الله بهذين اللسانين، وباعتبار أننا نملك هاتين اللغتين فواقعنا يختلف كل الاختلاف عن واقع دول الغرب وتلك الأمم التي أدبرت عن الله سبحانه وتعالى وابتعدت عن صراط الله سبحانه وتعالى أيّما ابتعاد.

هؤلاء نحن نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر، ونقولها صريحة في كل مكان وفي كل مناسبة: أيها الناس عودوا إلى الله سبحانه وتعالى، فإن مياهكم تقلصت، وأنا أتحدى أن أياً من علماء الري لا يملك أن يأتي بأي دليل مادي علميٍ على ما حدث هذا العام، ولو أنه ملك دليلاً على هذا لكان الذي حدث هذا العام ينبغي أن يحدث من باب أولى في العام الماضي، أجل أيها الإخوة.

ولكننا نحن نعلم السبب، والعلم عند من آمن بالله سبحانه وتعالى، السبب أن الله يُذكرنا من خلال هذا الذي نعانيه بقوله عز وجل: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾.

بالأمس قال قائل: كثر الناس، كثر الازدحام في الشام، ولذلك فالماء هو هو ولكن قسمته على الناس اقتضت أن يتراجع، لا هذا الكلام خطأ، لو كان هذا الكلام صحيحاً لكان معين بردى كما هو، في المعين ينبغي أن يكون هو هو، وفي الطريق ينبغي أن يتقلص حيث يتكاثر الناس الشاربون والآخذون، لو كان هذا الكلام صحيحاً لكانت كتلة معين الفيجة كما هي من حيث الانطلاق، ومن حيث القوة، ولكن عندما يمر الماء ويتسلسل إلى البيوتات والناس، عندئذٍ يتبخر الماء. لكن الأمر كذلك؟ لا انظروا إلى

كتلة المعينين تجدون العجب العجاب. ما الذي جعل هذه الكتلة تتقلص من مصدرها الأول قبل أن تلمس عدد الناس أهم كثرة أم قلة

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يوقظنا من سباتنا وأن يُلهمنا التوبة والرجوع إلى الله على كل المستويات قادةً وأمة. أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.



١٧٧- رُب نعمةٍ تحولت إلى نقمة! | ٢٠٠٠/٠١/٢٨

يقول ربنا سبحانه وتعالى في محكم تبيانه: {وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ}.

من الناس من يتصورون بموجب سطحيةٍ في أذهانهم، أن للشر مادة يستخدمها الله عز وجل للابتلاء، وأن للخير مادة أخرى يستخدمها الله عز وجل في عباده للإنعام والإكرام، كثيرون هم الذين يتصورون هذا باسم العلم أو يتصورون هذا باسم الطبيعة وإدراك أسرارها، ولكن الأمر على خلاف ذلك.

فإن الله سبحانه وتعالى الذي قال لنا هذا الكلام لفت نظرنا إلى أن كل ما قد خلقه الله عز وجل في لحظة واحدة إن شاء استخدمه نعمة أرسلها لعباده، وإن شاء استخدمها نقمة جعلها تنزل بهم، فليس في الدنيا أو في الطبيعة مادةٌ هي للشر خاصة ومادة أخرى هي للخير خاصة فقط؛ ذلك لأن الذي جعل وسيلة الشر وسيلة له هو الله عز وجل، والذي جعل وسيلة الخير أداةً له هو الله سبحانه وتعالى، فإن شاء بدل الوظائف وإن شاء غير الأعمال والمهن بين مخلوقاته كما يشاء. ولذلك فقد كان من دعاء المصطفى صلى الله عليه وسلم إذا سمع صفير الهواء قال: {اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً}، أي إن هذا الهواء بيد الله عز وجل جندٌ من جنوده سبحانه وتعالى إن شاء أرسلها نعمة وجعل منها مادة خير وسبب إنعاش وسبباً للحياة واستمرارها، وإن شاء جعلها سبباً للدمار والهلاك وهي هي، الهواء هو هو، وليس بين أن يكون هذا الهواء أداة انتعاش وخير وبين أن يكون سبب اهلاك ودمار إلا الأمر الصادر إلى هذا الهواء من الله عز وجل.

أجل لذلك كان يقول: {اللهم اجعلها رياحاً} أي منعشة {ولا تجعلها ريحاً} أي مهلكة. وكان إذا رأى المطر يهمي رفع كفيه إلى السماء قائلاً: {اللهم اجعلها سقيا رحمة ولا تجعلها سقيا عذاب} أي أن هذا الماء الهاطل من السماء هو ذاته إن شاء جعله الله سبحانه وتعالى سبب نعمة ومظهراً لحياة تنتعش بها الأنفس بل تنتعش بها الأرض أيضاً، وإن شاء جعلها أداة نقمة وإغراق، والماء هو هو.

وانظروا إلى قول الله سبحانه وتعالى كيف ينبه الأغبياء من عباده عندما يقول: {وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا (67)

أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ} كيف تتصورون وأي غباء هذا الذي يجعلكم تتصورون أن زمجرة الرياح في البحر وأن تعالي الأمواج في عرضه سبب للهلاك؟ فإذا خرج الإنسان من تلك الدائرة إلى البر وقي الشر وحصّن نفسه بحصن الأمان؟ الإله الذي إن شاء جعل من الرياح الهوجاء في البحر ومن أمواجها المتعالية سبب هلاك هو الذي إن شاء يجعل من البر الآمن فيما تتخيل سبب هلاك أيضاً. هذه الحقيقة كم وكم يذهل عنها أناس من عباد الله عز وجل، تنظر فتجد الثلوج تهمي نعمة من عند الله سبحانه وتعالى في صقع من الأصقاع، وتنظر في الوقت ذاته وإذا بهذه المادة ذاتها بهذا الثلج ذاته يهطل نقمة في صقع آخر من أصقاع الله سبحانه وتعالى وبلاده، هنا يهطل هذا الثلج بأمان وطمأنينة واطمئنان، وهنالك يرسل الله سبحانه وتعالى من ذلك أداة للتخريب وأداة للإهلاك، كذلكم الماء كذلكم الرياح.

وانظروا أيها الإخوة ما من سبب أسباب الانتعاش والحياة فوق هذه الأرض إلا وجعل الله من ذلك في عصر من العصور وفي مكان من الأمكنة سبب هلاك حتى نتبين هذه الحقيقة. ألم تقرأوا قول الله سبحانه وتعالى {فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}.

لاحظوا كيف يلفت البيان الإلهي نظرنا إلى فنون الإهلاك وأدواتها المختلفة، كلها أدوات إنعام فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً، لعله المطر الذي كانوا يتصورونه، وكم مر في معبر هذا الكون أناسٌ لما رأوا الغيوم الداكنة السوداء {قالوا هذا عارضٌ مُمطرنا}. فجاء الجواب من عند الله عز وجل: {بل هو ما استعجلتُم به ريحٌ فيه عذابٌ أليم تدمر كل شيء بأمر ربها}، هذه نعمة لكن الله عز وجل يجعلها عندما يشاء نقمة. ومنهم من أخذتهم الصيحة، أصوات كثيرا ما تكون سبب انتعاش كثيراً ما تكن أداة طرب، فإذا شاء الله عز وجل جعلها سبب صعقة سبب هلاك والصيحة هي هي كل ذلك يسري في هذه الطبلة الصماخية التي تعرفونها، أجل {وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ} هذه الأرض التي يسير الإنسان فوقها وهو يتأمل فيها الخير لحياته، وهو يطمع بذخرها الذي في باطنها وينتعش بخيرها الذي يخضر على ظاهرها، ولكن الله عز وجل عندما يشاء يجعل هذه الأرض مظهر شقاء وبلاء وسبب ابتلاع لكل من على وجهها.

هكذا يقول الله سبحانه وتعالى، كذلكم الأمطار كم وكم جاءت مهلكة وكم وكم جاءت محيية نافعة. ما معنى هذا الذي يقوله الله عز وجل؟ معنى ذلك أن نتأمل في كل ما نراه مما نسميه مظهراً من مظاهر الطبيعة، أن نتأمل فيه الخير وأن نتوقى منه الشر، وأن نعلم أن الذي يجعل منه معيناً للخير هو الله، والذي يجعل منه سبباً للشر والهلاك هو الله سبحانه وتعالى. ليس هنالك شيء اسمه العلم يريك أن هذا خير وأن هذا ضرر إطلاقاً، كل ذلك جند من جنود الله عز وجل يغير الأماكن ويبدل الوظائف، هذا هو ربنا سبحانه وتعالى، وصدق الإله القائل: {هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ} خوفاً وطمعاً عندما تنظر إلى البرق الذي يلتمع في آفاق السماء ثم تسمع صوت الرعد المزمجر بعد ذلك. ما الذي يحدث في كيان الإنسان؟ يتجاذبه شعوران لعل ذلك نذير شر ولعله بشارة خير. ما أدراك؟ من الذي يجعل من هذه الظاهرة بشارة خير؟ الله، ومن الذي يجعل منها نذير شر؟ الله سبحانه وتعالى.

لا العلم يستطيع أن يتدخل ولا الاختراعات تستطيع أن تتدخل بشكل من الأشكال. ولكن نحن ننظر إلى هؤلاء الذين شموا رائحةً للعلم فسكروا بهذه الرائحة فتطوحوا في آفاق من الجهالة العفنة. كم هم ثقلاء وكم يأتي كلامهم ثقيلاً ممجوجاً على النفس وعلى العقل؟ ينظرون إلى الطبيعة وقد أبعدوا أعينهم وعقولهم عمن يسيرها، ينظرون إليها وقد حبسوا أبصارهم كفعل صاحب الدابة عندما يحبس نظر دابته عن النظر يميناً وشمالاً لكي تنظر إلى الطريق الذي تسير فيه ولا تحيد عنه يمنة ولا يسرة، هؤلاء حبسوا أنفسهم وأعينهم في كلمات حفظوها في أمور يرددونها، من أسمج ما قد وقعت عليه عيني وسمعته أذني أن كلاماً قيل من إنسان ليت أنه فهم ما معنى العلم يقول: لا داعي إلى الآمال ولا إلى الدعاء، حقيقة علمية تقول: كلما مر خمسة وثلاثون عاماً على هذا الكوكب الأرضي لابد أن تمر ثلاث سنوات عجاف، لابد أن تمر هذه السنوات العجاف علمياً، لأن العلم هكذا يقول. وليت شعري ما الذي أدراه بالعلم؟ ومن أين أدرك حقيقة العلم ومصدر العلم؟ وجاء بيان الله سبحانه وتعالى العملي لا النظري يقول له: اسكت وارجع فتعرف على نفسك قبل أن تعرف الناس على طبيعة وسلطان الطبيعة وقوانينها ونظمها، من ذا الذي قال لك هذا الكلام؟

كثيرون هم الذين يتصورون أن الدنيا فيها جانبان جانب خير فهو الخير الذي لا شك فيه، ولا يتحول إلى شر. وفيه جانب آخر هو الشر الذي لا يتحول إلى خير، لأنها الطبيعة. ولكنهم لو أدركوا حقيقة العلم وتجاوزا شم رائحته إلى إدراك شيء من حقيقته لعلموا أن الذي يسير الكون هو المكون هو الله سبحانه وتعالى، ولا يزال الذين كفروا في مغرب عالمنا هذا ومشرقه تصيبهم قارعةٌ بما صنعوا أو تحل قريباً من دارهم حتى يأتي وعد الله، وأنا انطلاقاً من اليقين الذي نقرأه في كتاب ربنا والذي آمنا به عندما آمنا بقيومية الله سبحانه وتعالى، عندما نعلم أنه ما من طغيان يستشري فوق هذه الأرض إلا وقرار الله يتربص به، ولسوف يحيق به هذا القرار إن عاجلاً أو آجلاً.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.



١٧٨- فإن مع العسر يسرا | ٢٠٠٨/٠٧/١١

سنتان نقرأهما في كتاب الله عز وجل ألزم بالواحدة منهما ذاته العلية وألزم بالثانية عباده في مقابل التزامه بالأولى، جعل السنة الثانية التي ألزم بها عباده شرطاً للسنة الأولى التي تفضل بها على عباده، أما السنة الأولى فهي تلك التي يعبر عنها بيان الله عز وجل في قوله سبحانه: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً، إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾ [الشرح: ٥-٦]، قاعدة ألزم الباري عز وجل بها ذاته العلية أنه ما من عسر يبتلى به الإنسان إلا ويأتي في أعقابه مباشرة اليسر الذي ينسخه ولكن ذلك مشروط بأن يلتزم الإنسان بالعهد الذي ألزمه الله سبحانه وتعالى به، بالسنة التي ألزم الله سبحانه وتعالى بها عباده وهي أن يفر الإنسان عندما يقع في العسر أياً كان نوعه، أن يفر منه إلى التجمل بالرضا والصبر أولاً ثم أن يفر من هذا العسر إلى اللجوء إلى أعتاب الله عز وجل والالتصاق ببابه والتمسكن عند جنابه، تلك هي السنة الثانية.

ولقد قضى الله عز وجل بأن يربط الأولى بالثانية فقال عز من قائل: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠]، أوفوا بعهدي الذي ألزمتكم به وهو الصبر على الشدائد التي تنتاب الإنسان وتأتيه ابتلاءً من الله عز وجل ثم الفرار من هذه الشدائد إلى أعتاب الله، إلى الوقوف على باب الله، إلى التضاؤل عند جنابه والتعرض لصفحه وكرمه، وكأن الله عز وجل يقول لعباده إن أنتم وفيتم بالعهد الذي ألزمتكم به التجاءً إليَّ وفراراً إلى رحمتي وصفحي فلسوف إلزم ذاتي بما قد وعدتكم به وهو أن يعقب العسرَ يسرٌ دائم، هما سنتان إذاً ينبغي أن نتبينهما جيداً، وإننا لنلاحظ هذه السنة في حياتنا التي نعيشها سواء كانت حياة فردية أو اجتماعية، هي مصداق دقيق لقوله سبحانه ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾ ذلك هو العسر، ثم قال: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ، الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٦].

إذاً سنة الابتلاء ماضية في عباد الله عز وجل ولكن الله عز وجل ألزم ذاته بأن ينسخ اليسرُ العسرَ بعد ذلك بل مباشرة ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾ [الشرح: ٥] وأكد ذلك فقال: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾ [الشرح: ٥] ولكن بشرط الالتجاء إلى الله، بشرط الفرار من هذا العسر إلى أعتاب الله والتمسكن على

باب الله سبحانه وتعالى، وانظروا إلى هذا العهد الذي قطعه الله عز وجل علينا من خلال قوله سبحانه ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ، فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢-٤٣].

هذا هو العهد الذي قطعه الله عز وجل علينا وذلك هو العهد الذي ألزم الله به ذاته تجاهنا فهلا وفينا العهد الذي قطعه الله علينا ليوفي العهد الذي ألزم الله عز وجل به ذاته؟! هلا وقفنا عند قوله ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠]، ومع هذا فإن في الناس ربما من قد يعترض أو يستشكل فيقول وما الحكمة من أن يبتلي الله الإنسانَ بالعسر ثم يكشف عنه العسر إذا التجأ إلى الله عز وجل، هلا أقامه في حياةٍ كلها اليسر دون هذه المقدمة وتلك النتائج، دون السنة الأولى ولا السنة الثانية؟ سؤال قد يطوف بذهن كثير من الناس فما الجواب على ذلك؟

الجواب باختصار يا عباد الله هو أن ما نعلمه من أن الحياة التي نعيشها اليوم ليست مقراً وإنما هي ممرٌّ إلى مقر هي معبر هي جسر إلى الحياة الباقية الخالدة التي تنتظرنا عبر بوابة الموت، إذا علمنا أن حياتنا هذه ممر فهل من الحكمة الربانية أن يجعلها الله عز وجل نعيماً مقيماً لا تشوبه شائبة؟ هل من الحكمة أن يتقلب الإنسان من هذه الحياة في رغد من العيش أنَّا ما تقلب وكيفما حل وسار إذاً سيتشبث الإنسان بهذه الحياة تشبث الخالدين وإذا أقبل إليه الموت فلسوف يكون اقتلاعه أو انقلاعه من هذه الحياة التي تعشقها لأنها كلها متع لسوف يكون اقتلاعه من الحياة الدنيا أمراً شديداً جداً جداً ولعله أشبه ما يكون بمجموعة خيوط حريرية تشبثت بشجرة من الشوك اجتذبتها بشدة فتقطع من تلك الخيوط ما تقطع وبقي منها ما بقي، الحكمة أن يجعل الله هذه الحياة التي هي ممر مزيجة من خير وشر حتى نستفيد من الخير في طريقنا إلى الله فإذا جاءنا الشر تأففنا من هذه الحياة وعرفنا أن الإنسان ما ينبغي أن يركن إليها، ما ينبغي أن يتعشقها، هي جسر والجسر ما ينبغي أن يكون فيه من المتع ما في الدار التي أنت مقبل إليها بعد عبورك لهذا الجسر بدقائق.

هذه الحكمة الأولى أما الحكمة الثانية فهي أن تتجلى هويتك عبداً لله عز وجل، أنا عبد أعلن ذلك صباح مساء لكن كيف تفوح رائحة عبوديتي حقيقة لله، إذا جاءتني الابتلاءات سنة من سنن الله كما قلت لكم ثم أقبلت إلى العهد الذي ألزم الله عز وجل به نفسي فالتجأت إليه، شكوت أمري إليه،

تمسكنت على بابه، أعلنت عن تجملي وصبري على قضائه هنا تفوح رائحة عبودية الإنسان لله والمطلوب أيها الإخوة أن يعلن الإنسان عن عبوديته لله ببرهان لا أن يعلن عن عبوديته لله بدعوى تحتاج إلى دليل، هذه الحقيقة كم وكم جسدها الله عز وجل لنا، هذه الرابطة بين السنة التي ألزم الله بها ذاته العلية ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾ [الشرح: ٦] والسنة التي ألزمنا بها شرطاً للأولى أن نفي بعهد الله عز وجل تحملاً وصبراً وأن نفي بعهد الله سبحانه وتعالى التجاءً وتمسكناً وتضرعاً على أعتاب الله سبحانه وتعالى.

وانظروا يا عباد الله كيف يجسد لنا مولانا الحكيم هذه السنة بشطريها بل هاتين السنتين في سيرة سيدنا يوسف على نبينا وعليه الصلاة والسلام، ضرب الله لنا منه مثلاً لسلسلة الابتلاءات التي ابتلِيَ بها ثم ضرب الله لنا منه مثلاً للصبر والتحمل والالتجاء الدائم إلى الله ثم أرانا كيف أبدل الله سبحانه وتعالى عسره يسراً، ألا ترون؟ ألم تقرؤوا سورة يوسف؟ رماه إخوته وهو صغير في البئر دون ذنب اقترفه ثم إن فئة من الناس أقبلت فانتشلته من البئر وفازت به عبداً باعته في سوق النخاسة بمصر هذا هو الابتلاء الثاني، ثم إن عزيز مصر اشتراه واتخذه خادماً في داره، ولما بلغ مبلغ الشباب ونضج كيانه واشتد عوده راودته زوجة العزيز عن نفسه وذلك هو الابتلاء الأطم والأشد فاستعصم وتعفف والتجأ إلى الله سبحانه وتعالى قائلاً: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣]، ثم إنه سجن لبضع سنين وهو بريء، سلسلة من المصائب هي سنة، هي العسر الذي تحدث البيان الإلهي عنه لكن كيف قابل يوسف عليه الصلاة والسلام هذا العسر؟ قابله بالتجمل والرضا، قابله بالالتجاء إلى الله دائماً أن يفرج عنه، أن يكشف عنه هذا الضر، نعم، فماذا كانت عاقبة ذلك؟

كانت العاقبة أن أخرجه الله من السجن ثم كانت العاقبة الثانية أن زوجه من تلك التي راودته عن نفسه ثم إن الله بوأه عرش مصر ثم إن الله عز وجل جمع الشمل وأعاد إليه أبويه وإخوته، أرأيتم هكذا يكون رب العالمين في تصرفه مع عباده لكن تعالوا نصغي السمع إلى خواتيم هذه الصورة التي تجلي لنا هذا المعنى الذي أقوله لكم، أقبل إخوة يوسف إلى مصر يريدون أن يأخذوا الميرة، الحاجات التي يحتاجون إليها ليعودوا بها إلى الصحراء التي كانوا يعيشون فيها، إلى البادية، دخلوا على عزيز مصر وهم لا يعرفونه: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ

عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ، قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ، قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ، قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ، قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ، وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَنْ تُفَنِّدُونِ، قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ، فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ، قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ، قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ، فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ، وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدا - سجود تكريم لا سجود عبادة - وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ، رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف ٨٨-١٠١]

مشهد جذاب يا عباد الله ينسيك الدنيا وما فيها، يجعلك تعيش في بحار من حكمة الله ولطفه وكرمه وجوده، ما الشدة عندما تفر منها إلى أعتاب الله، ما البلاء عندما تعلم أنك تتقلب في كفٍّ من حكمة الرحمن سبحانه وتعالى، اللهم ألهمنا الشكر أمام نعمائك وألهمنا الصبر والالتجاء إليك بصدق وثبات أمام ضرائك. أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

١٧٩- الصراع بين الحق والباطل | ٢٠٠٨/٠٨/٠١

قضى الله سبحانه وتعالى أن يكون هناك صراع دائب بين الحق والباطل، يبدأ مع بدء هذه الخليقة، ويستمر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، هذا الصراع متفرع عن الصراع الذي شاءه الله عز وجل بين الخير والشر، وإن لذلك حكمةً باهرة يضيق هذا المقام عن ذكرها وبيانها. فلئن رأينا اليوم مظهر هذا الصراع مستشرياً بين الحق والباطل فلا يفاجَئَنَّ أحدٌ منا بذلك ولا يَرَيَنَّ في ذلك أمراً بدعاً من التاريخ، هي سلسلة مستمرة من سنة من سنن رب العالمين سبحانه وتعالى في عباده.

ولكننا عندما ننظر إلى الصراع الدائب الذي هو ثمرة هذه السنة الربانية في هذا العصر نكاد نرى أن الباطل محدق بالحق من سائر الجهات والأطراف، حتى لكأنه سيأخذ منه بالخناق، ولعل في الناس الذين يغارون على الحق ويؤمنون به من قد يخافون على الحق من الباطل، ولكن هذا الخوف ليس في محله أيها الإخوة، يردُّه قول الله سبحانه وتعالى ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨/٢١]، وهذه أيضاً سنة من سنن رب العالمين ماضية في عباده، فالنصر دائماً للحق والذي يُزهق إنما هو الباطل.

وإذا كان لابد أن يساورنا الخوف في هذه الحالة فليساورنا الخوف على الحق من أنفسنا لا من الباطل الذي يحدق به، ينبغي أن يساورنا الخوف على الحق من معاصينا، من انحرافاتنا، من إعراضنا عن النهج الذي أمرنا به الله سبحانه وتعالى وأوصانا به. وانظروا يا عباد الله كم يتجلى هذا التنبيه الذي ألفت نظري وأنظاركم إليه في بيان الله سبحانه وتعالى القائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠/٣]، لم يقل الله سبحانه وتعالى يا أيها الذين آمنوا إن استشرى الباطل وهيمن على الحق فإن الباطل سيردكم إلى الكفر لكنه سبحانه وتعالى أناط الأمر بطاعة الكافري ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٩/٣]، فانظروا إلى أنفسكم وتبينوا سلوككم وموقفكم من وصايا الله وأوامره.

والمراد بطاعة الذين كفروا ليس محصورة في مبايعة الكافرين جهراً، ولكن المراد بالطاعة اتباع سَنَنِهِم، السير على نهجهم، سيلان اللعاب على ما عندهم من الموبقات، هذا هو المراد بالطاعة، فلنتأمل كيف أن الله عز وجل يوصينا عندما نرى هذا الخطر أن نخاف على الحق من أنفسنا، نحن السبب، لا أن نخاف على الحق من الباطل، لن يستطيع الباطل هيمنة وتغلباً على الحق أبداً بشكل من الأشكال، ثم انظروا كيف يجلوا هذا المعنى في الآية التي تليها: ﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣/١٥٠]، ليس بينكم وبين انتصار الحق سوى أن تتولوا الله سبحانه وتعالى، أن تعرضوا عن طاعة أعدائكم والسير وراءهم وأن تتولوا مولاكم الأوحد الذي خلقكم والذي منه البداءة وإليه الانتهاء والمصير ﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣/١٥٠].

عباد الله إننا ننظر اليوم فنجد كما قد قلت لكم أن الباطل يحدق بالحق من سائر الأطراف، وهذا الذي يبعث وسواساً في أذهان كثير من الناس، مؤداه أن الباطل قد انتصر أو كاد أن ينتصر على الحق. أعود فأقول لكم: إن كانت هنالك مخافة فلتكن مخافة على الحق من أنفسنا، هنالك سلسلة من الأخطاء تورطنا فيها هي السبب في هذا الذي حاق بنا، فلئن بقينا عاكفين على هذه الأخطاء فلسوف ينتصر الحق ولكن بأيدي أمة أخرى ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: ٤٧/٣٨]، وإن عدنا إلى النهج الأمثل فلسوف تجدون أن الحق قد انتصر، وهو لابد أن ينتصر، ولسوف يكون ذلك بيد هذه الأمة، وما أشبه الليلة بالبارحة، أخطاؤنا كثيرة وينبغي أن نمر على نماذج منها، من هذه الأخطاء أن الله عز وجل نهانا عن التنازع والتفرق قال: ﴿وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [لأنفال: ٨/٤٦]، أمرنا بالاعتصام بالمحور الأوحد وهو حبل الله عز وجل ولكنا أعرضنا عن الذي أمرنا به الله، آثرنا التنازع والشقاق على الاتفاق والوئام، ولعل هذا الخطاب يتجه أول ما يتجه إلى قادة الأمة، إلى قادة المسلمين، وننظر فنجد في قادة المسلمين من إذا تلاقوا تسابقوا بالمصافحة والعناق، فإذا تفرقوا عانق كل واحد منهم مصالحه ومتعه وأهواءه.

من الأخطاء التي وقعنا فيها أن الله سبحانه وتعالى حذرنا من أن نغتر بزهرة الحياة الدنيا متمثلة فيما نسيمه دائماً الحضارة الغربية، وحذرنا وكرر التحذير قال لنا: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ [النساء: ٤/٧٧] ﴿لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ، مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ

مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ٣/١٩٦-١٩٧]، أعرضنا عن هذه الوصية الربانية، وسال لعابنا على ما عند العدو، وليت أن اللعاب سال على الحق الذي عندهم، على المجدي التي تقوم عليه الحضارة في حياتهم، ولكن لعابنا، أو لعاب الكثيرين منا، سال على التافه الذي عند الغربيين وهكذا أعرضنا عن بيان الله عز وجل، بل لم نكتف بذلك، رفعنا شعار الحداثة دعوة إلى نبذ الماضي وثوابته، ولحاقاً وراء الحداثة ونسيج كل جديد.

حذرنا الله سبحانه وتعالى من أن نخون أمانة الشريعة الإسلامية التي اتأمننا عليها أحكاماً ومبادئ وعظات، حذرنا من أن نستبدل بها، ولكننا أمعنا في التغيير والتبديل، كانت الفتوى -يا عباد الله- في صدر الإسلام من أشد ما يرهب علماء الشريعة الإسلامية وأئمة الإسلام، يقول أبو بكر الصديق رضي الله عنه: أي سماء تظلني، وأي أرض تقلني إن أنا قلت في كتاب الله ما لا أعلم؟ وفد إلى إمام دار الهجرة الإمام مالك رجل من أقصى المغرب يحمل في جعبته أسئلة له، ولما بدأ يعرض أسئلته عليه أجاب عن ثلة يسيرة منها، وقال على الباقي: لا أعلم، قال له السائل: أأعود من حيث جئت؟ فماذا أقول لمن يسألونني ماذا قال لك الإمام مالك؟ قال: قل لهم: يقول لكم مالك: لا أعلم، أما اليوم فأحسب أننا لا نجد شيئاً أيسر على فم أي واحد منا أن يفتي، لقد غدت الفتوى التي تسوق حسب الطلب أيسر من شرب الماء البارد على الكبد الظمآن، وربنا عز وجل يقول: ﴿وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ [الأحزاب: ٣٣/٢٣] عن ذلك الرعيل الأول ومفهوم المخالفة ينطبق علينا، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في نهاية الحديث الذي يرويه مالك: ﴿ألا ليزادن رجال عن حوضي كما يزاد البعير الضال، فأقول: ألا هلم ألا هلم، فيقال: إنك لا تدري كم بدلوا من بعدك، أقول: فسحقاً فسحقاً فسحقاً﴾.

أخطأنا في الشعائر التي أمرنا الله عز وجل بتعظيمها: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٢٢/٣٢] وشعائر الله التي استخففنا بها وأهملناها كثيرة، لكن من أبرزها كتاب الله سبحانه وتعالى، أما الرعيل الأول فلا أعلم أنهم أغرقوه في ألوان من البذخ في إخراجه وكتابته وتجليده وما إلى ذلك، ولكنه كان ملء قلوبهم تعظيماً وتبجيلاً وتنفيذاً لأوامره، أما نحن فإننا اليوم نتسابق إلى التفنن في بذخ هذا الكتاب الرباني، وإخراجه متفننين في ألوان الألق الظاهر في طباعته وتجليده ومظاهره، نجعل منه التعبير عن مناسباتنا كلما مرت، ونجعل منه التعبير عن أفراحنا كلما حلّت في دورنا، فإذا عدنا إلى

أفئدتنا ومركز هذا الكتاب الرباني منها نجد أن قيمة هذا الكتاب غائبة عن أفئدتنا إلا من رحم ربك، أين الذين ينفذون أوامره؟ أين الذين يطبقون أحكامه؟ أين الذين إذا رأوه هيمنت مخافة الله سبحانه وتعالى على قلوبهم.

هذه الأخطاء -أيها الإخوة- هي التي ينبغي أن نخاف منها عندما نريد أن نخاف على الحق ومصيره. الحق أبلج، ولا يمكن أن يغلب، لكن يمكن أن نُغْلَبَ نحن في سياق دفاعنا عن الحق لعل فينا من يسأل إذاً، وبالإجابة عن ذلك أنهي كلمتي هذه لكم، كيف السبيل إلى أن نتوقى هذه الأخطاء؟ السبيل أيها الإخوة أن يكون إسلامنا تأسيساً في القلب، ثم عمارة على الظاهر والألسن، هذا هو باختصار. الإسلام الذي له معنى واحد يبرز في الكيان كلاماً وسلوكاً دون أن تكون له جذور مستقرة في القلب أشبه ببناء باسق ليس له أساس في باطن الأرض، هل تنتظر به إلا الدمار والزوال؟ وكيف السبيل إلى ذلك؟ السبيل إلى ذلك أن تعمر محبة الله عز وجل قلوبنا. الإيمان العقلي واجب لكنه لا يكفي، هو مصباح للإنارة في طريقك، والمصباح لا يحركك، إنما الوقود هو الذي يحركك، والوقود هو الحب. املؤوا قلوبكم ولتملأ هذه الأمة قادة وشعوباً أفئدتها بمحبة الله عز وجل وبتعظيمه تذوب هذه الأخطاء كلها.

أسأل الله عز وجل أن يعمر قلوبنا بحبه، بتعظيمه، بمهابته، أقول قولي هذا وأستغفر الله.

١٨٠- ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب | ٢٠٠٩/٠٨/٠٧

ورد في أسباب النزول أن ثلة من اليهود تباهوا على النصارى وعلى المسلمين قائلين: إن نبينا موسى الكليم ناجاه ربه سبحانه وتعالى مباشرة وعياناً، وهي مزية انفرد بها عن سائر الأنبياء، فقالت ثلة النصارى: إن نبينا عيسى ابن مريم معجزة الله عز وجل في الأرض، أحيا به الله عز وجل الأموات، وقالت ثلة من المسلمين: إن نبينا محمداً صلى الله عليه وعلى آله وسلم هو آخر الرسل والأنبياء، وبُعِثَ للعالم كله، فأنزل الله عز وجل قوله: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً﴾ [النساء: ٤/١٢٣].

الأماني –يا عباد الله– جمع الأمنية، والأمنية هي الرغبة التي تهيمن على كيان الإنسان دون أن يسلك أي سبيل للوصول إليها، تلك هي الأمنية، ومعنى كلام الله عز وجل الذي توجه به إلى كل هذه الفئات أن هذه الأماني لا تقربكم إلى الله شروى نقير، اعتزاز المسلمين بانتمائهم إلى آخر الرسل والأنبياء، واعتزاز النصارى بعيسى ابن مريم الذي ميزه الله عز وجل على سائر الأنبياء بما ميزه، واعتزاز اليهود أيضاً بسيدنا موسى الكليم، كل ذلك من الأماني التي لا تفيد أصحابها شروى نقير، إنما الذي يفيدهم السلوك، إنما الذي يقربهم إلى الله سبحانه وتعالى الانقياد لما أمر به الله سبحانه وتعالى، والابتعاد عما نهى عنه الله عز وجل، ومن ثم فإن كل من يتورط ويرتكب سوءاً لا بد أن يُجزى به، مسلماً كان أو غير مسلم، والمفهوم المخالف لذلك يعني أن كل من قام بعمل من الأعمال الصالحة للمجتمع لا بد أن يجزيه الله عز وجل الجزاء الأوفى، إن كان مسلماً فجزاؤه في الدنيا والآخرة معاً، وإن كان غير مسلم فلا بد أن يعجل الله عز وجل له الجزاء الأوفى في دار الدنيا، وصدق الله القائل: ﴿كُلّاً نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾ [الإسراء: ١٧/٢٠].

عباد الله، كم هو ضروري أن نتذكر هذه الآية وسبب نزولها في هذا المنعطف الخطير الذي يمر به العالم أجمع، عندما نجد العالم الإسلامي وقد ركن معظم المسلمين فيه قادة وشعوباً إلى الأماني دون أن تحركهم هذه الأماني إلى النهوض بأي واجب، يعتزون بانتمائهم التراثي إلى الإسلام، يعتزون بانتمائهم إلى

الحضارة الإسلامية، حتى إذا جاء ميعاد التطبيق والتنفيذ والالتزام بهذا الميزان الذي شرفنا الله عز وجل به وألزمنا به إذا قال: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ، أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ [الرحمن: ٥٥/٧-٨]. رأينا معظم هؤلاء الذين يعتزون بانتماءاتهم الإسلامية، ويتعزون بصلة التراث، التراث الذي يربطهم بالحضارة الإسلامية، نجدهم قد أعرضوا عن هذه التعاليم، نجدهم قد تجاهلوا الشرائع التي شرفنا الله عز وجل بها، نجدهم يترفعون أو يخجلون من أن يصطبغوا بالعبادات التي كلفهم الله عز وجل بها، ولاسيما رأس العبادات وهي الصلاة.

ينبغي يا -عباد الله- ونحن نرى حالنا هذه في عالمنا العربي والإسلامي أن نتذكر هذا البيان الإلهي المخيف: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ٤/١٢٣]. أمانيكم لا تفيدكم شيئاً، اعتزازكم بالإسلام التراثي لا يقربكم إلى الله عز وجل شروى نقير.

عباد الله كم هو عجيب عجباً لا ينتهي أن أنظر إلى حال كثير من المسلمين قادة وشعوباً -ولا أقول: كل المسلمين- فأجدهم يخجلون من أن يُتَوِّجُوا اعتزازهم التراثي بالإسلام بالسلوك الذي أمر به الله عز وجل، يخجلون من أن يصطبغوا أمام الراحل والآتي والغادي بصبغة العبودية لله سبحانه وتعالى، ولاسيما الصلاة التي هي شبكة الاتصال بين العبد وربه سبحانه وتعالى، في حين أنني أنظر إلى كثير من أعضاء المجتمعات الغربية وهم يعلمون أنهم يرتبطون من دينهم بتقاليد وطقوس، ولربما يعلمون أن موازينهم العلمية لا تتفق مع تلك الطقوس، ولكنك تنظر فتجد أنهم يضعون هذه الطقوس من حياتهم في موضع السلوك القدسي، وتنظر إلى لقاءاتهم المتنوعة المختلفة، وإذا بصلواتهم في كثير من الأحيان جزء لا يتجزأ من اجتماعاتهم ولقاءاتهم تلك، ولكم وُجِدتُ في مناسبات شتى فيما بينهم، فرأيتهم لا يبدؤون عملاً يمارسونه أياً كان إلا بصلوات يؤدونها على طريقتهم الخاصة، ولقد كُلِّفْتُ يوماً من الأيام بأن أبدأ أنا مجلسهم ذاك بصلوات أي ابتهال ودعاء أتوجه به إلى الله باسمهم جميعاً.

ألا تثير هذه الظاهرة العجبَ يا عباد الله؟! نحن الذين نعلم أننا نرتبط بحقائق دينية تسجد لها قواعد العلم، نرتبط بقيم إسلامية دينية جعلها الله سبحانه وتعالى موئل النصر في تاريخنا القصي والقريب، جعلها الله سبحانه وتعالى معين حضارة إنسانية بازخة كَسَفَتْ نور الحضارات الأخرى، نعلم هذا كله، ثم إننا نخجل أن نجعل من انتمائنا إلى هذا الإسلام الذي تسجد له حقائق العلم، نخجل من أن نحيل ارتباطنا

به إلى سلوك، نخجل من أن نصطبغ بصبغة العبودية لهذا الإله الذي شرفنا بهذه التعاليم، شرفنا بهذا الميزان الذي جعله أمانة في أعناقنا إذ قال: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ، أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ، وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٥٥/٧-٩]، كيف هذا؟ أهو ازدواج في الشخصية نعاني منه؟! لنا شخصيتان: شخصية دينية نذكرها ونرفع الرأس بها عالياً عند الانتماء، وهو انتماء تراثي، وكثير ما نُلِحُّ على هذه الكلمة (تراثي) حتى إذا حان الانضباط بهذا الانتماء الذي شرفنا الله عز وجل به تبرمنا أو تجاهلنا أو خجلنا وترفعنا، كيف يمكن أن نحل هذه الظاهرة بل هذه المقارنة التي وضعتكم أمامها، وأنا أرى ذلك بعيني فيما أذهب وآتي.

لقد تعلمت من هذا الذي تأملته ورأيته في ربوع الغرب، تعلمت مزيداً من الاعتزاز بهذا الدين الذي شرفنا الله به. أنا معتز به ولكني عندما أجد هؤلاء الغربيين لا يعلنون عن صلتهم بطقوسهم الدينية انتماءً على طريقتنا نحن، بل يعلنون عن انتماءهم إلى هذه الطقوس بالسلوك وبالاعتزاز، بل بلقاءات في كثير من الأحيان رسمية، علمني ذلك أن أزداد اعتزازاً بهذا الذي شرفنا الله عز وجل به، العبودية هي تاج، تاج كم وكم انتشيت بشعوري بأنني أصطبغ بهذا الذي شرفني الله عز وجل به.

ومما زادني شرفاً وتيهاً		وكدت بأخمصي أطأ الثريا
دخولي تحت قولك يا عبادي		وأن صيرت أحمد لي نبيا

نعم، هذا الذي علمني ألا أشعر بأي حرج عندما تحين ساعة الصلاة وأنا في مكان كطائرة تقلني إلى مكان ما، ولا يمكن أن أجمع هذه الصلاة إلى غيرها مما قبلها أو بعدها قمت، وأعلنت أنني أريد أن أؤدي فريضة ربي، أما عندما كنت على متن طائرة من الطائرات العربية والإسلامية، فما أكثر ما وُوْجِهْتُ بالاستخفاف، ما أكثر ما وُوْجِهْتُ بالمنع والازدراء إن بشكل مباشر أو غير مباشر، ولكن عندما كنت مسافراً على متن طائرة أوربية، وحان ميقات الصلاة، وقلت لطقم المضيفين: إنني بحاجة إلى أن أؤدي شعيرة ربي، أقبل فريق المضيفين جميعاً، وبحثوا عن مقعد فارغ، طووا هذا المقعد، ووسعوا منه مكاناً للصلاة، وأقبلوا إليَّ يطلبون مني أن أقوم فأصلي، وعندما قمت لأصلي اتجهوا إليَّ يرجونني أن أدعو الله لهم بالهداية، نعم هذا الذي أقوله لكم، تعلمت قسطاً منه من اعتزاز أولئك الناس بطقوسهم الدينية.

وإنني لأذكر ساعة ما أعلم أنني انتشيت في عبادة لوجه ربي فيها مثل تلك الساعة، في مطار من تلك المطارات الأوربية، أنتظر ميقات الإقلاع، حانت الصلاة، وخفت أن تفوتني والمصلى في المطار موجود لكنه بعيد، قمت بسطت ردائي الخاص بالصلاة، واجتهدت في القبلة، ووقفت أصلي، وتذكرت حديث رسول الله الذي يرويه مسلم ﴿العبادة في الهرج كهجرة إليّ﴾. العبادة في الهرج أي في الصخب والضجيج واللهو المنسي عن الله عز وجل كهجرة إليّ، وقفت أصلي، وقفت أناجي الله عز وجل، والقوم من حولي غادون رائحون في شؤونهم وأعمالهم، ولكني أناجي الخالق، أناجي مولاي وخالقي، شعرت بنشوة ما مثلها نشوة، وأنا أصدقكم ما من عين رمقتني وأنا أصلي لله وحيداً في ذلك المكان إلا وكانت نظرة صاحب هذه العين إليّ نظرة إكبار، نظرة إجلال، تُرى ما سر هذه الظاهرة يا عباد الله؟

لعل سرها يكمن في التالي: كثيراً ما يكون المحروم متشوقاً إلى النعمة التي حُرِمَ منها، فإذا رأى من يتمتع بها، اهتاجت مشاعر الشوق بين جوانحه لهذا الذي متّعه الله عز وجل به، وكثيراً ما يكون الإنسان المِمَتَّعُ بالنعمة، والذي مضى عصر بل دهر بل سنوات عليه وهو يتمتع بنعمته هذه، كثيراً ما يكون قد شبع منها وتبرم منها، فهو ينظر إلى البديل لعل هذا هو السر أعود فأقول لكم: يا عباد الله، أذَكِّرُ نفسي وأذَكِّركم بهذا البيان الإلهي المخيف ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً﴾ [النساء: ٤/١٢٣]. الاعتزاز بالإسلام وحده لا يكفي، الانتماء التراثي إلى الإسلام لا يكفي، الإصلاح هو الذي يُقَرِّبُ العبد في ميزان الله والفساد هو الذي يُبْعِدُ العبد في ميزان الله عز وجل، سواء كان هذا الإنسان مسلماً أو غير مسلم، أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم.

١٨١- نعمة خفية يكرمنا الله عز وجل بها | ٢٠٠٩/١٠/١٦

قلت لكم في آخر خطبتي الأسبوع الماضي: إنني أحمل إليكم من الله عز وجل نذيراً بشتاء جاف موصول قيظه بقيظ الصيف الذي انطوى ومضى، فسأل سائلون: أوحيٌ تنزّل من بعد بعثة خاتم الرسل والأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم حتى بلغك منه هذا النذير؟ والجواب يا عباد الله: أن الوحي قد انقطع ببعثة خاتم الرسل والأنبياء دون ريب ولا شك، ولكن سنن الله تعالى وقوانينه في عباده ماضية، وقراراته التي يتعامل على أساسها مع عباده ما تزال ناطقة، والنذير الذي ينبغي أن نتلقاه من عند الله عز وجل ليس محصوراً في وحي يأتي به رسول أو نبي، ولكنه يخاطبنا ويتصل بنا عن طريق سنن الله تعالى، بل عن طريق دستوره وقوانينه التي يأخذ الله عز وجل بها عباده.

نحن أمة مسلمة ولله الحمد، إذاً فقد بايعنا الله عز وجل على الإسلام، وهذا يعني أننا عاهدناه بأن نؤدي حقوق هذا الإسلام الذي بايعنا الله عز وجل عليه، وقانون الله عز وجل يقول لنا عندئذٍ: ﴿أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠]. لقد ألزمتم أنفسكم بأن تنفّذوا عهد الإسلام الذي بايعتموني عليه، وهو عهد مستقر في أعناقكم، نفّذوا هذا العهد الذي ألزمتم أنفسكم به تجاه أوامري، تجاه الدين الذي شرّفتكم به، وأنا أُلزم ذاتي بأن أنفّذ عهودي تجاهكم، نعمات جُلَّى لا تنقطع، سأكرمكم ببركات السماء، وسأكرمكم بنبات الأرض ورزقه، ولسوف أكفّ أيدي الظُّلّام والطغاة عنكم، ولسوف أحمي حقوقكم من الناهبين والمغتصبين، ولكن إن بايعتموني على الإسلام ثم أعرضتم عن تنفيذ ما عاهدتموني عليه، فانتظروا نقيض ذلك. هذا ما يقوله قرار الله: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠]

ولربما قال قائل: فلماذا يكرم الله عز وجل الطغاة والمارقين والجاحدين لدين الله عز وجل في شرق العا لم وغربه؟ ويأتي قانون الله وينطق دستوره قائلاً: أولئك ليس بيني وبينهم عهد، لم يبايعوني على الخضوع لهذا الدين، لم يبايعوني على الاستسلام لعبوديتهم لي، فليس بيني وبينهم أي تلازم، أما أنتم فهنالك عقد بيني وبينكم، ألم تبايعوني على الإسلام؟ ألم تُعلنوا أنكم معتزون بإيمانكم بالله عز وجل؟إذاً فقد تحمّلتم

في أعناقكم حقوق هذا الإيمان،في حين أن أولئك لم يتحمّلوا في أعناقهم تلك الحقوق، وآثروا الحياة الدنيا على الآخرة التي وعد الله بها عباده الصالحين، وقانون الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ﴾ [هود: ١٥]، هذا قانون الله عز وجل، ليس ثمة حاجة إلى استمرار وحي ما دمنا نقرأ كتاب الله وأعود فأقول: إنه شتاء يحمل في داخله النذير وأيَّ نذير، والذي ينطق بذلك قانون الله تعالى المقروء في كتابه وسننه التي تطرق أسماعنا صباح مساء، إن لم نكن نقرؤها في كتاب الله سبحانه وتعالى، فتعالوا يا عباد الله، تعالوا نعكف على ساعةٍ قدسيةٍ من نقد الذات أدعوا إلى ذلك نفسي، وأدعوكم جميعاً، وأدعو أمتنا جمعاء شعوباً وقادةً إلى أن نعكف ساعةً قدسيةً على النقد الذاتي، تعالوا نشمّ رائحة أكفنا، ماذا صنعنا؟ نحن مسلمون، وهذا شرف كبير تَوَّجْنا وجودَنا الذاتي والحضاري به، لا شك في هذا ولا ريب، لكن هل أدّينا حقوق هذا الدين الذي بايعْنَا الله عز وجل عليه؟ هل احترمنا شعائر الإسلام؟ وأنتم تعلمون أركان الإسلام بعد الشهادتين، أولها إقامة الصلاة، ولم يقل المصطفى صلى الله عليه وسلم: أداء الصلاة وإنما قال: إقامة الصلاة، وفرق كبير بين الأداء والإقامة، المطلوب منا أن نقيمها على خير وجه، وأن ندافع عنها بكل شكل، وأن نعتز بها أينما وُجِدْنَا، هذا معنى إقام الصلاة، إلى آخر الأركان الأخرى.

بايعْنا الله عز وجل على الإسلام، هل اعتززنا بما يتضمنه الإسلام من مبادئ وقيم، أم سال لعابنا على ما عند الآخرين؟ أعرضنا عن النظم التي قضى الله عز وجل فضلاً منه وإحساناً أن يحصن الأسرة الإسلامية بحصن الوقاية والسعادة والحقوق الدائمة، فأعرضنا عن هذا الذي ضمنه الله عز وجل لنا، وسال لعابنا على الأحوال التي يتقلب فيها الآخرون، وأنتم تعلمون أن الأسرة قد أصبحت أطلالاً وبقايا أبنية، ألم يؤل حالنا مع الله إلى هذا يا عباد الله؟! أمرنا الله سبحانه وتعالى بكثير من الأحكام التي تتعلق بشخصية كل فرد على حدة، والتي تتعلق بالنظم الاجتماعية والاقتصادية وعلاقة ما بين المسلمين وغيرهم، ونظرنا يميناً وشمالاً، وإذا بالقلّة فقط تلك التي لا تزال على العهد، وأما الأكثرية فمفتونون بما لدى الغربيين

وأقول لكم أيها الإخوة: في هذه المناسبة بالأمس الحقيقي – أي في يوم الخميس – استقبلت ثلةً من الأجانب في قاعة هذا المسجد رجالاً ونساءً، فكان فيمن سأل، والسائل امرأة، تقول: إننا إلى اليوم في الغرب نجاهد ونحاول أن تكون أجور المرأة كأجور الرجل، ولم نفلح إلى اليوم، إننا ما زلنا نناضل إلى

اليوم في سبيل أن تكون المرأة لها من القيمة في نظر الرجل مثل ما للرجل في مجتمعاتنا، ولكنا لم نفلح بعد، امرأة فرنسية مثقّفة قامت تقول لي هذا الكلام، ثم قالت: تُرى هل من المأمول أن تنجحوا فيما لم ننجح به نحن؟ قلت لها وكياني كله من الفرق إلى القدم يحمد الله: أما الأجور فشريعتنا تنصّ على ألا فرق بين الرجل والمرأة في الأجر، إنما المقياس الجودة في العمل، وليس المقياس الهوية في العامل، وأما نظر المجتمع إلى المرأة فمتفرع عمّا ربَّانا كتاب الله سبحانه وتعالى عليه إذ يقول: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١] إنها الولاية المتبادلة، المرأة تتمتع بالولاية على الرجل، وفي الوقت ذاته يتمتع الرجل أيضاً بالولاية على المرأة، إنها الولاية المتبادلة التي لا تعرفها القوانين الوضعية بعد.

ومع كل هذا ننظر إلى مجتمعاتنا الإسلامية، فنجد من قد سَكِرَ بهذا الذي يعاني منه الغربيون، قد سَكِرَ بهذا البلاء المحاق الذي يتأفّف منه الغربيون، والله عز وجل يقول ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠]

هذا هو مصدر الإنذار الذي حدثتكم عنه، فإن أردتم مصدراً آخر، وما أكثر مصادر هذا الإنذار في كتاب الله عز وجل فاسمعوا قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام:٤٢]، تلك هي سنة رب العالمين، سنة رب العالمين في عباده أن الناس الذين عاهدوا الله عز وجل على السمع والطاعة إذا أعرضوا عن تنفيذ العهد الذي ألزموا أنفسهم به فإنه يطبق عليهم القاعدة القائلة: من لم يُقْبِلْ إلى الله بلطائف الإحسان سيق إليه بسلاسل الامتحان، أي سيق إليه بسلاسل الابتلاءات، بسلاسل المصائب، بسلاسل الحرمان، بالسلاسل المتمثّلة بتسليط الطغاة عليهم، هذا هو قانون الله عز وجل ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢]، قانون الله ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ [الأنعام: ٤٣] هلا تضرعوا عندما جاءهم بأسنا.

وما المراد بالتضرع أيها الإخوة، ليس المراد بالتضرع المسكنة الظاهرية، ليس المراد بالتضرع الأكف التي ترتفع مرتجفة إلى السماء، ثم يعود كل واحد إلى شأنه، المراد بالتضرع تجديد البيعة مع الله عز وجل، المراد بالتضرع إصلاح الفساد، المراد بالتضرع تقويم الاعوجاج، المراد بالتضرع أن يقف كل واحد منا ساعةً

قدسية مع نقده لذاته، ماذا صنعت؟ ماذا أسأت؟ ثم يجدد البيعة مع الله عز وجل، هذا معنى قوله: ﴿فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣]

هذه المرحلة التي نحن فيها – أيها الإخوة – مرحلة عنوانها نعمة خفية يكرمنا الله عز وجل بها، الحرمان الذي نُبْتَلى به في هذه المرحلة نعمة، وصَدَق من قال: ربما مَنَعَكَ فأعطاك، وربما أعطاك فَمَنَعَك، أي ربما كان العطاء في المنع، يمنعك فتستيقظ فتتوب فتؤوب إلى الله عز وجل، فتعود نِعمُه تترى في حياتك، أجل، ولكن إذا ركبنا رؤوسنا، ولم تعمل الإنذارات في أنفسنا، ولم نلتفت إلى الله على اختلاف المستويات أقول: فلربما تحيق بنا المرحلة الأخرى التي يخاطبنا بها الله في هذه السنَّة الماضية في عباده ﴿فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣]. اسمعوا: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤]

أخشى ما أخشاه أن تحيق بنا هذه المرحلة الثالثة، نركب رؤوسنا في الإعراض ثم في الإعراض، النُّذُرُ لا تعمل شيئاً في مشاعرنا، وعندئذٍ تأتي المرحلة الثالثة، يفتح الله عليه نِعمَه تترى كلها، ونسكر بنعم الله الوافدة من السماء والنابعة من الأرض، ولكن إن هي إلا فترة يسيرة من الزمن وتأتي ساعة المحق والهلاك.

أجل يا عباد الله، إن الله عندما يهلك أمة لا يهلكها وهي مستضعفة، إنما يهلكها عندما تبلغ الأوج في تصورها، وصدق المثل القائل: لا يسقط أحد من الحصير، وإنما يسقط من العرش أو السرير. الإنسان الذي يكون على حصيره لا معنى لسقوطه، ولكن الناس الذين يريد الله عز وجل أن يمحقهم يشدهم، ويملي لهم، ثم يملي لهم، حتى إذا سكروا بالنعمة، ووصلوا إلى أعلى حد من البطر عندئذٍ يقعون من حالقٍ، أجل يسقطون من العرش أو السرير، ولا يسقطون من الحصير.

أيها الإخوة هذا هو مصدر الإنذار الذي حدثتكم عنه في الأسبوع الماضي، وأنا أوجّه هذا الإنذار إلى نفسي أولاً، ينبغي أن أشمَّ رائحة كفي، ولسوف أُقْبِلُ إلى الله تائباً، وأسأله أن يعينني على الاستقامة على دينه.. وتوبوا إلى الله جميعاً أنتم أيضاً يا عباد الله، أسأله سبحانه وتعالى أن يكرمنا بالتوفيق إلى العود آمناً متطمئناً إلى دينه، أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم.

١٨٢- السجن الذي حَبَسْنَا أنفسنا فيه بأيدينا | ٢٠١٠/٠١/٠١

لقد آن لنا أن نتجاوز الصور والمشاهد المختلفة للظلم والعدوان التي تفد إلى عالمنا الإسلامي من كل الجهات من شرق العالم وغربه، آن لنا أن نتجاوز هذه الصور والمشاهد إلى ما وراءها، وأن نقف على اليد التي تحرك، وأن نقف على سلطان الربوبية المهيمن على كل ما نراه من هذه المظاهر العدوانية التي تفد إلينا من كل الجهات.

أما وقفتم أمام قرارات الله عز وجل؟ أما وقفتم وقفة تأمل أمام قول الله سبحانه وتعالى مثلاً: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١]؟ ألم تقفوا وقفة تأمل أمام قوله عز وجل: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ، وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ، لِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٦٥-٦٧]؟ من الذي يرسل العذاب إلى من يشاء من فوقهم؟ ومن الذي يفجر أسباب العذاب من تحت أقدامهم؟ ومن الذي يلبس بعض الناس شيعاً بأس بعض؟ إنه الله، إنها يد الله سبحانه وتعالى، ولكن لله جنوداً ولا يعلم جنود ربك إلا هو، إنها أصداء لأعمالنا، وإنها مفرزات ونتائج للفساد المتوضّع في حياتنا، وهل أحدثكم عن أنواع الفساد المستشري في عالمنا العربي والإسلامي الذي تحتضنه شعوب هذا العالم الإسلامي ويتبناه كثيرٌ من قياداته؟ الوقت يضيق عن ذلك يا عباد الله. المهم أن نعلم أن هذه الصور والمظاهر التي نراها إن هي إلا نتائج قانون يعامل الله عز وجل به عباده، ولن تجد لسنة تبديلاً ولا تحويلاً.

يا عباد الله. إسرائيل التي جعل الله عز وجل منها واحداً من العِصي، عِصي الظلم، عِصي العدوان التي تنهال على عبادٍ مظلومين بائسين في مجتمعاتنا، إسرائيل هذه خاضعة لهذا القانون، وفي يومٍ من الأيام مرت بالمحنة التي نمر بها، ألم تقرؤوا قوله عز وجل: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرائيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراًن فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَفْعُولاً﴾ [الإسراء: ٤-٥]؟ فسادٌ أوغل فيه أولئك الناس في ذلك العصر يشبه الفساد

الذي أوغل فيه كثير من المسلمين في عالمنا العربي والإسلامي اليوم، فأرسل الله عز وجل إليهم عِصي التأديب متمثلة في أناسٍ حلَّتْ أمريكة اليوم محلهم، ألم يقل الباري سبحانه وتعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَفْعُولاً﴾ [الإسراء: ٥]

أعود فأقول: آن لنا –يا عباد الله– أن نطلق أنفسنا من السجن الذي حَبَسْنَا أنفسنا فيه بأيدينا، سجن هذا التصوّر أن عدواناً يستشري قادماً إلينا من هنا أو هناك، وأن ظلماً ينحطّ علينا آتياً من خططٍ راميةٍ عدوانية تتجه إلى عالمنا العربي والإسلامي، أجل إنها صور، وإنها مظاهر لجنود، ولكن تجاوزوا الجنود إلى القيادة، تجاوزوا هذه الظواهر إلى اليد التي تحرك، إنها يد الله، وإنه القانون الرباني الذي لا يتبدل، هل فعلنا ما نستأهل به هذا العدوان؟

نعم –يا عباد الله– إن المسلمين اليوم كما تعلمون يناهزون المليار ونصف المليار، إنهم من الكثرة بمكان ولكنهم كما قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «غثاءٌ كغثاء السيل»، مظهر كبير لكنه فارغ عن المضمون، ما أدقّ هذه الصفة التي وصفنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، أفي شكٍ أنتم من أن المسلمين أو جُلّ المسلمين، شعوباً وقياداتٍ أو كثيراً من قياداتهم قد تحولوا إلى غثاء؟

إذاً تعالوا أَجُبْ بكم وأجول في شوارع المسلمين، في منتدياتهم، في أماكن أسمارهم وحاناتهم، تعالوا أطلعكم على القلوب التي فرغت من مخافة الله، التي فرغت من هيمنة سلطان الله سبحانه وتعالى عليها، وتسرب إليها في مكان ذلك سلطان أولئك الذين يعادون الله ومن ثم يعادون عباد الله عز وجل، أصبح السلطان الذي يهيمن على قلوب كثيرٍ من الناس المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها شعوباً وقيادات أصبح السلطان الذي يهيمن على قلوبهم سلطان هؤلاء المعتدين، سلطان هؤلاء الذين يرفعون شعارات العدوان والحقد والظلم لهذه الأمة، أأقف بكم على القلوب التي فرغت من آخر معنى من معاني الرحمة بعباد الله، بل فرغت من آخر قطرة من قطرات الرحمة بإخوتهم الذين هم إلى جانبهم فضلاً عن الذين يعيشون بعيداً عنهم؟

ألا تلاحظون كيف أن هذه القسوة قد حلَّت في قلوب كثيرٍ منهم، ولا أقول: في قلوب الكل، في قلوب كثيرٍ منهم، حتى أصبحوا يضنون باللقمة تمر بهم إلى أولئك المظلومين ليتبلغوا بها في طريق هلاكهم،

أصبحوا يضنون بالجرعة من الشراب والقارورة من الدواء يمر إلى أولئك البائسين، أولئك الذين تنحطّ عليهم سياط الظلم والعدوان، أولئك الذين يستحرّ بهم القتل ظلماً وعدواناً، يضنون بالجرعة من الشراب، باللقمة من الطعام، بشيءٍ من الدواء يمر بهم إلى أولئك الناس، لأن القسوة لإخوانهم حلَّت محل الرحمة بهم، أليس هذا مصداق قول رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: ﴿ولكنكم غثاءٌ كغثاء السيل﴾؟ إنه خطاب لنا وليس خطاباً لأصحابه رضوان الله تعالى عليهم، أجل لقد عدنا فعلاً وأصبحنا غثاء كغثاء السيل.

بعد فما الفائدة من وصف هذا الذي أقوله لكم ولعله لا يبعث في النفوس إلا الأسى ومرارة البلاء؟ لا يا عباد الله، إن الأمل فيما إذا عرفنا هذه الحقيقة، واخترقنا صور المآسي التي تطوف بنا، ووقفنا على اليد التي تحرك، ووقفنا على سنن الله سبحانه وتعالى، المأمول أن تستيقظ بين جوانحنا بل بين جوانح أمة محمد صلى الله عليه وسلم قادةً وشعوباً مشاعر الإيمان بالله مرةً ثانية، دوافع العودة ببيعة جديدةٍ مع الله سبحانه وتعالى، إن أملاً عظيماً يراودني ويطوف بنفسي أن يقظة إسلامية قريبة ربما بل أرجو أن تسري إلى قلوب عامة المسلمين في عالمنا العربي والإسلامي متمثلاً في قادته وشعوبه، المأمول، وهو أمل يراودني أن تستيقظ هذه الحقيقة بين جوانحنا وجوانحهم جميعاً، فتمتد إليهم الأيادي مرة إلى سلطان الله يبايعونه من جديد، وينتصرون لأحكامه وشرعته ونظامه ومنهجه من جديد

أجل. الأمل يراودني وهو قريب بإذن الله عز وجل أن قادة المسلمين سيعودون فيشعرون بثقل المهمة القدسية التي أنيطت بأعناقهم، ولسوف يجدون أنهم أحفاد أو خلفاء أولئك القادة الذين قضوا نحبهم بعد أن أدوا رسالة الله في أعناقهم، ولسوف يسيرون مسيرتهم، لسوف يقفون على حياة نور الدين محمود زنكي هذا الذي يجثم إلى مقربةٍ منا يا عباد الله، هذا الذي فتح ما بين خمسين وستين حصناً من حصون الفرنجة، وأخضعهم لسلطان الله سبحانه وتعالى وحكمه، إنني أتصور أنهم يقفون في الطريق ذاته الذي ساروا فيه من قبلهم، إنهم يشعرون بالمجد بل بالشرف العظيم الذي بوأهم الله إياه إذ سيرهم في الطريق ذاته، وما أظنهم إلا أنهم سيسيرون مسيرة أولئك الناس، سيقفون على الجهاد الأقدس الذي قام به صلاح الدين الذي يرقد على مقربة منا، وكيف ألَّف جنداً يقف في وجه العدوان الصليبي من طلاب الشريعة في مختلف المعاهد التي أسسها وغرسها في سفوح قاسيون هنا وفي ربا القاهرة هناك، جمعهم من هنا وهناك

وألّف منهم جيشاً يعتز برسالة الله، ويعتز بالهوية التي يمتعون بها، استفتح باب النصر بيدٍ مرتجفةٍ من الالتجاء إلى الله، من التذلل على أعتاب الله، وقدَّمَ بين يدي التجائه هذا قرباناً إلى الله هؤلاء الجنود التي كانت مشاعرهم تنبض بتوحيد الله، وكانت جباههم تعلوها معالم السجود لمولانا وخالقنا عز وجل، ماذا كانت النتيجة؟ كانت النتيجة الفتح الإسلامي الأغر، كانت النتيجة أن طهَّرَ الله سبحانه وتعالى أرضه المقدسة من فلول الصليبية.

ما أشبه الليلة بالبارحة يا عباد الله. نعم إن أملاً كبيراً يراودني، سيعود قادة المسلمين وستعود الشعوب الإسلامية لتجدد ذلك العهد، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم القائل: ﴿الخير فيَّ وفي أمتي إلى يوم القيامة﴾.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم.



١٨٣- الأسباب والمُسَبَّبات والعلاقة بينها | ٢٠١٠/١٢/٠٣

تعالوا نتأمل في هذه الآيات التي يخاطبنا الله عز وجل بها، يقول عز وجل: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩]. خلقنا ذكراً وأنثى أو سالباً وموجباً. ويقول عز وجل: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]. ويقول سبحانه وتعالى عن ذاته العلية: ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠].

هذه الآيات طائفةٌ من آياتٍ كثيرةٍ في كتاب الله عز وجل يؤكد فيها البيان الإلهي أن كل ما هو موجود في دائرة المكوَّنَات فإنما تم وجوده بإيجاد الله سبحانه وتعالى له.

ومن المعلوم علمياً قبل أن تكون معلومة دينية أن الأشياء كلها تمارس صفتي السببية والمسَبَّبِيَّة، فما من شيء مما خلقه الله عز وجل إلا وهو مُسَبَّبٌ عما قبله وسبب لما بعده، وهكذا فإن الموجودات كلها عبارة عن سلسلة متفاعلة من الأسباب والمسَبَّبات. فمن الذي بثَّ فيها فاعلية التسبب فجعلها سبباً آناً ومسبَّباً آناً آخر؟ هو ذاك الذي يقول عن ذاته العلية: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]. ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾ [الفرقان: ٢].

الأسباب التي نتحدث عنها ونجعلها موضوعات لكثير من علومنا ومعارفنا إنما هي جندٌ من جنود الله سبحانه وتعالى، وانظروا – يا عباد الله – إلى حديث البيان الإلهي عن إسكندر المقدوني والطائفة من المزايا التي متَّعَهُ الله بها، انظروا إلى حديثه عنه في خواتيم سورة الكهف: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً﴾ [الكهف: ٨٤].

أخضعنا له جنودنا من الأسباب الكثيرة، أخضعنا له الوسائل المختلفة لتحقيق ما قد كلَّفْنَاه به ولتحقيق الغايات التي اتجه إليها مشرقاً ومغرباً ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً﴾ [الكهف: ٨٤].

وهكذا فالأسباب التي ندرسها ونعتبرها حقائق علمية إنما هي جند من جنود الله عز وجل.

قوانين التبخر الذي يتعالى من البحار فتنعقد منه السحب جند من جنود الله.

قانون الإمطار وتفاعل التربة مع المياه الهاطلة من السماء واخضرار الأرض من بعدها جند من جنود الله سبحانه وتعالى. والشحنات الكهربائية التي تتلاقى بين الكتل من السحب فتنبثق منها الرعود والبروق جند من جنود الله سبحانه وتعالى. والصواعق التي يرسلها الله عز وجل فيصيب بها من يشاء من عباده أو من مخلوقاته جند من جنود الله عز وجل. وقوانين الفلك التي تُدرَسُ علماً ويختص بها من يختص جند من جنود الله عز وجل. وقانون فيزياء البحار جند من جنود الله عز وجل.

فيا عجباً لغباء من يسجن نفسه ضمن هذه القوانين التي هي من جنود الله سبحانه وتعالى ثم يحجب نفسه بهذه القوانين عن مُقَنِّنِها، يحجب نفسه بهذه القوانين عن موجدها، يا عجباً لغباء من يفعل ذلك.

يقول عن العلم – ويمضغ كلمات العلم كما يشاء ويترطَّن بها – ولا يسأل نفسه قوانين العلم هذه من الذي رسمها، قوانين العلم هذه التي تُدرَس في الجامعات وهنا وهناك من الذي وضعها؟ إنه الله سبحانه وتعالى.

هذه الحقيقة كيف تغيب عن أناس يتمتعون بوعيٍ وبصيرة؟ وصدق الله القائل: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ. لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٤-١٥].

يا عجباً لمن لا يتدبر كلام الله سبحانه وتعالى وكل آية فيه توقظ الألباب الغافلة، توقظ النفوس السادرة. صحيح أن لهذا الجفاف المرعب – الذي لم نر مثله في حياتنا – سبباً ولكن من الذي رسم هذا السبب؟ من الذي جعله جنداً لهذا الإله الذي يفعل ما يشاء ويعامل عباده بما يشاء إنه الله سبحانه وتعالى. ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاء الَّذِي تَشْرَبُونَ. أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ. لَوْ نَشَاء جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨-٧٠]

أجل. أخشى أن يستمر الغباء بهؤلاء الذين يلوكون كلمات العلم ولا يدركون شيئاً من مضامنها أخشى إذا رأى أحدهم بعينيه ملك الموت وافداً إليه أن يفسر ذلك بأنه إنما يرى قانوناً علمياً درسه يوماً ما.

في جامعته وهو يتحدث مع أستاذته يسائلهم ويجيبونهم عن العلوم الطبيعية المختلفة، كان هذا الذي رآه قبل رحيله من هذه الدنيا مظهراً لهذه العلوم التي يلوكها. لا يعد أن يستمر الغباء بهؤلاء الناس إلى درجة أن يفسر رؤية ملك الموت بظاهرة علمية طبيعية دنيوية لا علاقة لها بدين ولا إيمان.

أخشى إذا قام الناس غداً لرب العالمين ورأى هؤلاء الناس زفرة جهنم، ورأى هؤلاء الناس كيف تتغير الأرض غير الأرض والسموات، أخشى أن يفسر ذلك بالطريقة التي كان يتلقاها من أساتذته إذ كان يجلس على مقاعد الدرس في الجامعة.

بل فعلاً أخشى أن يستمر الغباء بهؤلاء الناس إلى ذلك المصير.

بل أخشى إذا زُجَّ بأحدهم إلى صراط الله عز وجل ليمشي فوقه وعالم النار تتعالى لهيبه عن يمين وشمال أخشى أن يقف ليفسر هذه الظاهرة تفسيراً فيزيائياً أو كيميائياً أو نووياً من نوع التفسيرات المادية الطبيعية التي كان سجينها في دار الدنيا.

لا يا عباد الله. الإنسان أكرم من أن يهبط إلى هذا الدون، الإنسان مُكَرَّم، وصدق الله القائل: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ [الإسراء: ٧٠].

وإن أجل معاني التكريم الذي متَّع الله به الإنسان إنما هو العقل الذي متعه به، الإدراك الذي ميَّزه الله سبحانه وتعالى به.

نعم، عالمنا مليء بالأسباب والمسببات لكن العلم يقول – وليتعلم من لم يعلم هذه الحقيقة بعد علاقة ما بين الأسباب والمسببات علاقة اقتران فقط. منذ أن ولدت ووعيت على الدنيا نظرت فرأيت أن الهشيم يحترق كلما مسته النار، هذا ما أراه، اقتران دائم. أما حتمية العلاقة بين النار طبيعة وبين الاحتراق فلم أجدها بعيني ولم ألمسها بشيء من إحساسي ولم يلتقطها عقلي، رأيت الاقتران فقط، من الذي ربط هذا بذاك؟ الله مقنن القوانين.

منذ أن وعيت على الدنيا رأيت أن السم يهلك وأن الذي يحتسيه سيموت ولكني ما رأيت فيما يقرره العلم بين هذا وذاك إلا الاقتران فقط، أما ضرورة العلاقة بين هذا وذاك فلم أضع يدي عليها ولم

أتبين ما يدله العلم على ذلك منه إنما هو الاقتران فقط، من الذي ربط هذا بذاك؟ الله مسبب الأسباب القائل: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً﴾ [الكهف: ٨٤].

لست أنا الذي أقول هذا من منطلق ديني بل أقوله من منطلق العلم الذي يسجد للدين، ولا حرج في أن أنقل لكم كلام عالم من العلماء الذين يعتز بهم الغرب، إنه هُيوم، يقول: لو وجدت أن الهشيم احترق في النار مليون مرة لكي أجزم جزماً علمياً بأنه سيحترق للمرة الجديدة في المستقبل لابد أن أُجَرِّبَ لأنني لم أضع يدي على علاقة ما بين الأسباب والمسببات إلا على الاقتران أما ضرورة ما بينهما فلم ألمسه ولم أجده، من الذي يكتشف العلاقة ما بينهما؟ الذين آمنوا بالله، الذين عرفوا أنفسهم ومن ثم عرفوا الله سبحانه وتعالى قبل فوات الأوان.

عباد الله: رسالة وفدت إلينا من عند الله كما قلت لكم بالأمس – وأنا مكلف أن أقول لكم هذا – هذه الرسالة تقول: إن لهذا الجفاف سبباً أو أسباباً فأزيلوا هذه الأسباب مما بينكم وبين الله تعود الأرض ممرعة، تعود السماء ممطرة ولسوف يكون هذا، أما إن بقيت الأسباب فاعلموا أن المصيبة في طريقها إلى الاستفحال.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

١٨٤- سبب تفوق المجتمعات الغربية وتخلف المجتمعات العربية في المعارف والعلوم | ٢٠١٠/١٢/٣١

فما يزال إخوة لنا يطرحون هذا السؤال الذي سبق أن أجبت عنه وها أنا أعيد الجواب عنه مع عودة السؤال مرة أخرى.

يقول أحدهم: لماذا تظل المجتمعات الغربية متفوقة في معارفها وعلومها المادية، متميزة في الإبداع والاختراع، ثروات الدنيا تحت أيديهم وزمام القيادة في العالم خاضع لسلطانهم وهم كفرة فجرة عاكفون على الغيِّ وعلى كل أنواع المعاصي والفواحش في حين أن المجتمعات العربية اليوم تعاني من كثير من التخلف في المعارف والعلوم المادية، تعاني من التخلف في الإبداع والاختراع، تعاني من الفقر وهي التي كانت مضرب المثل في الغنى، تنظر إلى وضعها وإذا هي تابعة بعد أن كانت متبوعة مع أن أهل هذه المجتمعات مسلمون مؤمنون بالله سبحانه وتعالى؟ هذا هو السؤال المتكرر الذي سبق أن أجبت عنه وها أنا ذا أعيد الجواب عنه مع عودة السؤال.

ولكن الغريب يا عباد الله أنّ الذين يطرحون هذا السؤال، لا مستفسرين بل مستنكرين ومنتقدين، قائلين أين هي عدالة الله أمام هذا المظهر؟ الغريب أن هؤلاء لا يلتفتون إلى ما يقوله الله في كتابه، لا يلتفتون إلى سنن الله سبحانه وتعالى في عباده، معرضون عن الإسلام الذي يُذَكِّرُون العالم به ويسألون عن مصير العدالة الإلهية أمامه. فما الجواب عن هذا السؤال يا عباد الله؟

هما سُنَّتَان من السنن الربانية التي يأخذ الله عز وجل بها عباده والتي أعلن عنها في محكم تبيانه.

أما السُّنَّةُ الأولى – أو بالعبارة الحديثة – أما القانون الأول فهو القانون الذي يقضي بأن كل إنسان أو كل مجتمع بذل الجهد في سبيل الوصول إلى غاية، تحمل التعب والضنى في سبيل هدف، بذل العَرَق سخياً في سبيل هدفه هذا لابد أن يوصله الله عز وجل إلى غايته ولابد أن يعطيه ثمرة جهوده أيّاً كان هذا الإنسان أو أيّاً كان هذا المجتمع مسلماً مؤمناً، جاحداً كافراً، فهذا هو القانون الأول، يعبر عنه بيان الله

عز وجل بقوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ﴾ [هود: ١٥].

ثم قال: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٦].

وأما القانون الثاني فهو ذلك الذي يقضي بأن الله سبحانه وتعالى إن رأى فرداً أو مجتمعاً اصطبغ بذل العبودية لله عز وجل وأصغى إلى وصاياه وأوامره فنفَّذها بصدق ودقة فإن حقاً على الله عز وجل — وقد ألزم الله بذلك ذاته ولا ملزم له — أن يرقى بهؤلاء الناس إلى سُدَّةِ التقدم، إلى سُدَّةِ الحضارة قفزاً فوق الجهود وفوق مقتضيات الزمن ومراحل الزمن، وقد عبَّر البيان الإلهي عن هذا بقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٥].

ويعبر عنه البيان الإلهي أيضاً بقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]. هذان القانونان نقرؤهما في كتاب الله هما الجواب باختصار عن هذا السؤال الذي يتطارحه اليوم إخوة لنا.

المجتمعات الغربية أصحابها ورثوا عن آبائهم وأجدادهم جهوداً تحملوها وعَرَقاً بذلوه، جامعاتهم القديمة والحديثة تشهد بذلك، تاريخ الحضارة الغربية يشهد بذلك، إنهم اعتمدوا في ذلك على جهودهم الشخصية، اعتمدوا في ذلك على قدراتهم الذاتية ولم يعتمدوا في ذلك على دين ولم يستنزلوا في ذلك نصراً من عند رب العالمين سبحانه وتعالى فحقَّ لهم بمقتضى قانون الله الذي سمعتم بيانه أن يكرمهم الله عز وجل بثمرات جهودهم ولا فرق بين أن يكونوا مؤمنين أو غير مؤمنين، عاكفين على الغيِّ أو ملتزمين للرشد، نعم.

أما نحن العرب الذين نقول إننا مسلمون في هذا العصر فإننا أحفاد ذلك الرعيل الأول الذي كان قبل مجيء الإسلام ممثلاً في بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم مضرب المثل في التخلف والأمية والجهل، كانوا يعيشون على هامش التاريخ، إن هي إلا سنوات يسيرة مضت من عمر التزامهم الحق بالإسلام واصطباغهم حقاً بذل العبودية لله وانقيادهم بطواعية لأمر الله سبحانه وتعالى حتى سَمَا بهم بيان الله بل

قانونه إلى صعيد الحضارة الباسقة قفزاً فوق شروط الزمن، قفزاً فوق شروط الجهد، قفزاً فوق شروط الأتعاب التي بذلها أولئك الغربيون. لم يمض من عمر الفتح الإسلامي إلا ربع قرن وإذا بأولئك الذين كانوا مضرب المثل في التخلف بكل أنواعه إذا بهم غدوا مضرب المثل في التقدم بكل أنواعه.

حدثوني، أولئك المهندسون من العرب الذين بهروا العالم من أي جامعة تخرجوا؟ حدثوني، أولئك الأطباء الذين بهروا العالم وأبدع من أبدع منهم الدورة الدموية وغيرها من أي جامعة تخرجوا؟ حدثوني، أولئك العلماء الذين بثّوا العالم في علم الفلك والرياضيات وغيرها من أي جامعة تخرجوا؟ إن هو إلا القفز الذي شاءه الله لهم، إن هو إلا مصداق قوله: ﴿وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

هذا هو التاريخ العربي الذي نعرفه، وقد ذكر العلماء في ترجمة أبي الحسن علي بن النفيس أنه كان يعكف على معارفه الطبية وغيرها فإذا وقف أمام مشكلة أو معضلة لم يتأت له حلها ترك ما هو بصدده وهُرِعَ إلى الميضئة فأسبغ الوضوء ثم صلى ركعتين ثم التجأ إلى الله أن يلهمه الرشد. أبو علي ابن سينا كذلك كان شأنه.

واليوم – يا عباد الله – عندما يتبرم أكثر المسلمين العرب – لا أقول جلهم – يتبرمون بالإسلام ويملّون من لا أقول الالتزام به بل من الانتماء أيضاً إليه، يرفعون لواء الحداثة وما أشبه وتتجه منهم المطامع إلى تقليد المجتمعات الغربية هنا وهناك ماذا تنتظر من المنطق وماذا ننتظر من سنة الله الثانية؟ لابد أن يقول لهم قانون الله عز وجل إذاً أنتم لستم الآن بحاجة إلى الإسلام تعالوا فاخلعوا هذا الثوب إذاً وارجعوا كما يقول الله: ﴿ارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٣].

تلمسوا جهودكم وثمراتها، ارجعوا. إن كنتم قد بذلتم جهداً متمثلاً في أنفسكم أو أجدادكم، إن كنتم قد بذلتم عَرَقَاً أو تحملتم جهداً في سبيل حضارة متعتكم بها، في سبيل تبوّء مركز من التقدم العلمي والتقني والاقتصادي بوأتكم به فارجعوا إليه وأسعدوا أنفسكم به، هذا ما يقوله قانون الله سبحانه وتعالى.

أمتنا العربية والإسلامية اليوم تعلن بلسان الحال أنها لم تعد بحاجة إلى منَّةِ الإسلام وإن كانت تتجمل بالانتساب إليه، وإن كانت تتجمل بالتباهي بأولئك الذين التزموا به حق الالتزام واصطبغوا بذل العبودية لله حقاً فسما بهم قانون الله إلى ما قد ذكرت لكم، لكنهم اليوم –كما تعلمون – يرفعون لواء الحداثة

وينظرون إلى الإسلام ومقوماته على أنه شيء قديم بائد أكل الدهر عليه وشرب إلا من رحم ربك طبعاً، قانون الله ماذا يقول؟ يقول: حسناً ارجعوا إلى التاريخ الغابر إن عثرتم على آثارٍ لجهودٍ شخصية بذلتموها كما بذل أهل الغرب فتمتعوا بثمرات جهودكم، أما إن كان الماضي الذي تعتزون به ثمراته التي سمت بكم إلى أوج التقدم إنما كانت عن طريق الرقي في سُلَّمِ الإسلام عبر درجات الإسلام إذاً وأنتم الآن تعلنون أنكم لستم بحاجة إلى السُّلَّم فلا بد أن ترجعوا إلى ما كنتم عليه قبل الإسلام.

هذا هو قانون الله، بمقدار تراجعنا عن الالتزام بهذا الدين يقضي الله علينا بمقدار ذلك تخلفاً. وإني – يا عباد الله – ضربت بالأمس مثلاً لهذا وها أنا ذا أعيد المثل مرة أخرى.

أسرة منكوبة تقيم في العراء، ليس لها دارٌ تأوي إليها، ليس لها طعام يسدُّ جوعتها، ليس لها لباس يقيها من الحر والبرد. مرَّ رجل ثري كريم ذو مروءة عالية نظر إلى هذه الأسرة فداخلته الشفقة عليها، حملها بأفرادها وأقامها في دار منيفة، في دار باذخة وأجرى عليها جراية شهرية مجزئة، عاش أفراد هذه الأسرة وهم يتقلبون في النعيم بعد ذلك الضنك، مرت مدة وهم يثنون على هذا الإنسان الكريم الذي انتشلهم من أسباب الهلاك، ولكن ما هي إلا مدة حتى طافت نشوة الكبرياء، طافت نشوة الحياة الباذخة التي يتمتعون بها، طاف كل ذلك برؤوسهم، نسوا الذي تفضل عليهم، نسوا الحالة التي كانوا فيها واليد التي انتشلتهم منها، تنكروا للرجل، ماذا يقول القانون المنطقي؟ يقول التالي: جاء هذا الإنسان فطرق عليهم الباب، قال لرب الأسرة: يبدوا أنكم استغنيتم ويبدوا أنكم أصبحتم في غنى عن اليد التي أنقذتكم والتي تمدكم بالعطاء إذاً تفضلوا واخرجوا إلى الغنى الذي نسجتموه، اخرجوا إلى نتيجة وثمرات جهودكم التي بذلتموها. يقول رب الأسرة – كما نسمع اليوم – ولكن ها هي ذي البيوت الأخرى التي تحيط بنا لماذا لا تطردهم هم أيضاً من بيوتهم كما تطردنا؟ يقول: لا، فرق كبير بينكم وبينهم، أولئك هم الذين تعبوا في بناء بيوتهم، أولئك هم الذين أضنوا أنفسهم وبذلوا الجهد الطويل والكثير في سبيل حياتهم الباذخة المترفة التي يتقلبون فيها أما أنتم فما هي جهودكم؟ ارجعوا إلى مساكنكم التي بنيتموها بجهودكم.

والله الذي لا إله إلا هو ذلك هو مثل مجتمعاتنا العربية اليوم بالنسبة للمجتمعات الغربية، وانظروا إلى بيان الله الذي كأنه يخاطبنا اليوم: ﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٣].

هذا كلام الله يخاطبنا به اليوم، لا تبحثوا هنا وهنا عن أسباب الذل التي حاقت بكم، لا تستنكروا ولا تعترضوا ﴿ارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾، أنتم مترفون، أنتم أغنياء، أنتم لستم بحاجة إليَّ، ﴿ارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ﴾. خطاب تهكمي توبيخي يخاطبهم الله سبحانه وتعالى به.

يا عجباً، مهما كرَّرْتُ هذه الآية في كتاب الله لا يمكن إلا أن أتصور أنها نزلت اليوم وأنها تخاطبنا اليوم: ﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٣]. نعم، هذا هو الجواب بعد الجواب الذي ذكرته لكم قبل أسبوعين. أسأل الله عز وجل أن يلهم المعترضين ألا يفروا من الجواب. أسأل الله أن يلهم الذين يحركون ألسنتهم بالانتقاد أن يوجهوا أسماعهم إلى الجواب.


أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.



١٨٥- وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ | ٢٠١٢/٠٢/١٧

ما من ريب في أن الذي حدا بنا إلى أن نتلاقى في هذه الرحاب القدسية إنما هو إيماننا بالله عز وجل إلهاً واحداً فرداً صمداً لا شريك له وبأننا عبيده ينبغي أن نُهْرَعَ إلى أداء الواجبات التي أناطها في أعناقنا، إذاً فنحن مؤمنون ولله الحمد بمولانا وخالقنا جل جلاله. هذا الإيمان بالله يستلزم إيماننا بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، ولا يتأتى للإنسان أن يؤمن بالله وهو غير مؤمن بنبوة رسله وأنبيائه لاسيما آخرهم وخاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم.

وإيماننا برسول الله صلى الله عليه وسلم يستدعي بالضرورة إيماننا بأن هذا القرآن الذي بُعِثَ به والذي أوحِيَ إليه به إنما هو كلام الله سبحانه وتعالى ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ ولا يتأتى تغيير حرف منه بزيادة أو نقصان. إذاً فتعالوا فاسمعوا كلام الله عز وجل، يقول ربنا عز وجل في قرآنه الذي أوحي إلى رسوله الذي آمنا به نبياً والذي بُعِثَ من عند مولانا وخالقنا جل جلاله الذي آمنا به رباً وإلهاً، يقول الله عز وجل: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

تأملوا يا عباد الله في هذا الوعد المغموس بالتأكيد في أول الفعل وفي آخره، ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ﴾، المؤكد الأول هو لا القسم والمؤكد الثاني في نهاية الفعل هو نون التوكيد ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ﴾، فهل يجول في خواطركم يا عباد الله – وقد آمنتم بالله وبأن هذا كلامه الموحى به إلى رسوله – هل يجول في خاطركم الريب في هذا الوعد الذي ألزم الله عز وجل به ذاته العلية؟ ما أظن أن فينا من يرتاب في ذلك، ولكن تعالوا فتأملوا في القيد ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾، ﴿مَن يَنصُرُهُ﴾، ولابد أن أتساءل معكم بادئ ذي بدء أفربنا يحتاج إلى من ينصره؟ ألم يعلن في أكثر من موضع في كتابه العظيم أنه الغني عن عباده ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]. فما معنى قوله: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾؟

نصر الله عز وجل هنا كناية عن الالتزام بأوامره والانتهاء عن نواهيه والانضباط بشرعته، فمن آمن بالله رباً واحتضن العقائد الإيمانية في قلبه يقيناً ثم التزم بأوامر الله عز وجل وشرعته سلوكاً ومنهاجاً فكأنما نصر الله عز وجل، والله هو الغني الذي لا يحتاج إلى من ينصره.

والسؤال الذي أسائل به نفسي وأرجو أن يسأله كل واحد منكم أفنصرنا الله بهذا المعنى الذي يخاطبنا به الله؟

أما المعتقد فأحمد الله، وأعتقد أننا جميعاً نحتضن إيماناً حقيقياً بمولانا وخالقنا، وأعتقد أننا جميعاً نعلم ونؤمن بكل الفروع الاعتقادية المنبثقة عن إيماننا بالله عز وجل، ولكن تعالوا نتساءل أفنتصرنا لدين الله عز وجل عن طريق تطبيق أوامره، عن طريق الالتزام بشرعته؟

عباد الله: إن أحكام الشريعة الإسلامية تنقسم –كما قال العلماء جميعاً إلى طائفتين من الأحكام، أما الطائفة الأولى فتتضمن حقوقاً لله عز وجل يؤديها الإنسان ليطبق الحقوق الإلهية في عنقه، وأما الطائفة الثانية من الأحكام فهي تلك التي تضمن تحقيق حقوق العباد.

أما الأحكام التي تتضمن تنفيذ حقوق الله عز وجل فلتعلموا أن أمرها يسير وأن الإنسان مهما قصر في تنفيذ هذه الحقوق ولم يكن تقصيره عن استكبار ولم يكن تقصيره في ذلك عن عناد فإن الأرجح أن الله سبحانه وتعالى سيصفح عنه، وهذا معنى قول الله عز وجل: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

كل من قصَّر عن ضعف، لا عن استكبار، مآله إلى هذه البشارة التي يبشره بها الله عز وجل، أما المستكبرون فهم الذي قال الله عنهم: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

لذا لابد أن نقف أمام الطائفة الثانية من الحقوق، حقوق العباد.

حقوق العباد مبنية على الشدة والمشاحة، على النقيض من حقوق الله سبحانه وتعالى وعندما أعود فأشم رائحة كفَّي أشعر بأننا مقصرون في إنجاز حقوق العباد التي أناطها الله سبحانه وتعالى بأعناقنا، فتعالوا يا عباد الله أضف إلى الضمانة التي ذكرتها لكم بالأمس الدابر في الأسبوع الماضي هذه التذكرة الهامة جداً.

حقوق العباد هامة، وكم وكم ضيعنا هذه الحقوق، والحديث عنها طويل الذيل لكن أضرب لكم بنموذج، ولعله أخطر النماذج لاسيما في هذه الفترة التي نمر بها.

نحن يا عباد الله نمر بمحنة كما تعلمون، ومن مظاهر هذه المحنة ذلك العقاب الاقتصادي الذي واجهنا من العالم الغربي من هنا وهناك، وليس الحديث عن أحقية هذا القصاص أو هذا العقاب أو عدم أحقيته ولكن الحديث يتجه إلى جانب أهم، ماذا كان عاقبة هذا العقاب الذي ووجِهْنَا به يا عباد الله؟ كانت عاقبة ذلك أن الفئة الفقيرة في هذه البلدة وأن الفئة ذات الدخل المحدود في هذه البلدة هي التي منيت أو ما منيت بنتائج هذا العقاب.

أفكان سبب ذلك العقاب الوارد إلينا من البعيد، من الخارج؟ لا يا عباد الله. كان سبب ذلك تقصيرنا نحن في النظر إلى هؤلاء الإخوة وفي أن نتراحم وفي أن نقدم لهم من أيدينا فضلاً من فضول أموالنا، نقدم لهم ما يرأب صدعهم، ما يبعدهم عن الشعور بمأساة هذا العقاب الذي انتابنا بحسب الظاهر جملة ولكنه تنزل على هذه الفئة من الناس قبل كل شيء.

ما مسؤوليتنا تجاه هذا يا عباد الله؟ مسؤولياتنا واضحة وما أظن أن فيكم من يجهلها. في الأغنياء وفي الموسرين كثيرون ممن بذلوا جهودهم أن يوظفوا هذه المحنة لمزيد من الثروة يستجرونها إلى أرصدتهم، يستجرونها من أين؟ من جيوب الفقراء، يستجرونها من جيوب المساكين.

كيف ذلك يا عباد الله؟ هنالك سلع تصنع بأيدٍ سورية في داخل هذه البلدة، في داخل هذه الأرض، يتم إنتاجها بمواد أساسية أيضاً من إنتاج هذه البلدة، لم تُسْتَقْدَم من الخارج ولم تُفْرَضْ عليها إتاوات، نظرنا إلى أثمان هذه السلع من قبل وإذا بها ارتفعت وقفزت إلى ما يقارب الضعف.

لماذا يا أيها الإخوة؟ هل دفعتم وأعطيتم مزيداً من رأس المال الذي أنتجتم به هذه السلع حتى تستردونها من الفقراء والزبائن؟ لا، الأمر لم يختلف عما كان عليه الأمر سابقاً، لكنها انتهاز لفرصة، لكنها توظيف لمحنة. الأرزاق التي يكرمنا الله سبحانه وتعالى بها أقواتاً تهمي قطراً من السماء وتستنبت نباتاً من الأرض إلى جانب جهودٍ يبذلها أصحاب الأراضي والفلاحون، هذه الأقوات لم تستقدم من الخارج، لم يفرض عليها إتاوات من الخارج قط ولكنني أنظر فأجد فرق ما بين أثمان من قبل وأثمانها اليوم يكاد يصل

إلى الضعف. غدوت منذ أيام إلى سوق من أسواق الخضرة ونظرت وتأملت في الأثمان وعدت بخيالي إلى هذه الأثمان سابقاً وإذا بي أمام ما يقارب الضعف.

لماذا أيها الإخوة؟ أفستقدمتم هذه البضائع من أوروبا وفرضت عليكم إتاوات بسببها؟ لا. المسألة كما قلت أيها الإخوة أن الأثرياء اليوم – ولا أقول كلهم — وإنما أقول إن كثيراً من الأثرياء اليوم يوظفون هذه المحنة من أجل أن يزيدوا على ثرائهم ثراء، يوظفون هذه المحنة بالطريقة التي ذكرتها لكم، يستجرون من خلالها مزيداً من الثروة لتضاف إلى أرصدتهم، لكنهم استجروها من أين؟ من جيوب الفقراء من جيوب المعوزين، رأيت ذلك بعيني، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ﴿صنائع المعروف تقي مصارع السوء﴾ والحديث صحيح، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ﴿صدقة السر تطفئ غضب الرب﴾، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ﴿الصدقة تمنع ميتة السوء﴾، و صلى الله عليه وسلم يقول: ﴿من لا يَرحم الناس لا يرحمه الله﴾، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ﴿الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء﴾ هذا كلام رسولنا الذي آمنا به نبياً.

يا عباد الله أضعكم أمام نموذج واقعي، لكنه نموذج يتيم نادر، واحد من الأثرياء زار أسرة من هذه الأسر المنكوبة الفقيرة، استقبلته دارٌ صغيرةٌ متهاوية، نظر إلى الوجوه التي أحاطت به من هذه الأسرة، وإذا بمعا لم الأسى يُقرأ على تقاسيمها، تأمل فيها فإذا بالهزال قد نال مناله من كل واحد منها، تأمل في الأعين وإذا بالكآبة تنبثق من هذه الأعين جميعاً، جلس، أخرج من جيبه حزمةً من الأوراق النقدية، لعل أعضاء الأسرة لم يرَ الواحد منهم مثل هذه الحزمة، ما إن رأوها حتى شعّت أعينهم بالسرور وبالبشر، وضع هذه الحزمة بين أيديهم وقال إنها حقكم، بوسعكم أن تتمتعوا بها، تحققوا لأنفسكم بها الوقود الذي يقيكم من هذا البرد، بوسعكم أن تنالوا بها الأدوية والعلاجات لأمراضكم، بوسعكم أن تتوسعوا بها، أنا أسأل يا عباد الله أيهما يبعث النشوة في الرأس ويملأ القلب سروراً؟ أن يجنّد المال من أجل طرد مظاهر النكبة ومشاعر الحزن والأسى من القلوب، وغرس معاني الفرحة والسرور فيها ورسم الانتعاش على قسمات وجهه، أم أن أضع هذا المال وأعتصر منه طعاماً أنثره على مائدة آكله اليوم ويفنى غداً، أم أن أتوسع بالملابس والرياش أتباهى به أمام الناس، ألا ما أعظم المال وما أبقاه للإنسان مصدراً من مصادر السعادة عندما يُسخّر لرسم معا لم الفرحة في القلوب وعلى الوجوه وقسماتها، وما أبعثها للذل في النفس عندما

يعتصر من هذه الأموال أسباب الأبهات أمام الناس، أرأيتكم إلى هذا النموذج، ترى ماذا لو أن هذا النموذج أصبح ديدن الأثرياء، أقول معتصراً العبرة من هذا الكلام آملاً أن أتخذ منه الدرس لنفسي، وآملاً أن يتخذه كل واحد منكم لا سيما أثرياءنا هنا ..

أيها الأخوة قلت لكم بالأمس التوبة إلى الله .. التوبة الصادقة التي تفسر بالتطبيق وبالسلوك هي الضمانة لذهاب هذه المحنة وستذهب، ولكن هذه التوبة لن تتحقق إلا ببراهينها، هذه التوبة لا تتحقق إلا ببراهينها، من تاب إلى الله عز وجل من الأثرياء الذين أكرمهم الله ببسطة من العيش ينبغي أن يبرهنوا على توبتهم بأن يطرقوا أبواب الفقراء والمعوزين وذوي الدخل المحدود، يرأفون بحالهم، ينبغي أن يبرهنوا على توبتهم بين يدي الله سبحانه وتعالى بأن يخفضوا أثمان السلع والأقوات بدلاً أن يرفعوا أسعارها إلى ما يقارب الضعف، كنت أتوقع النقيض، فلماذا أنظر إلى الأسوق فأرى كأن نيران الأسعار الملتهبة الغالية تغزو الأسواق كلها لماذا؟

أنا لا اتحدث عن البضائع التي تستقدم وتستورد ويفرض عليها إتاوات، وإنما أتحدث عن أموال أكرمنا الله بها فوق هذه الأرض المعطاءة. لماذا يحاول أصحاب الشياه والألبان ومشتقاتها أن يرفعوا الأسعار. لماذا من أجل أن يوظفوا من هذه المحنة سبباً لامتصاص الأموال البسيطة التي جمعها الفقراء بعرق جبينهم وبجهد شديد، ألا فاعلموا ان من لا يَرحم لا يُرحم أقول قولي هذا واستغفر الله.

١٨٦- إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِم | ٢٠١٢/٠٧/١٣

سنة من أخطر السنن الربانية التي أثبتها البيان الإلهي في محكم تبيانه، تعالوا نقرأ الآية التي تعبر عن هذه السنة ونتبين الحبك البياني العجيب الذي صيغت الآية على أساسه، وهو الحبك الذي يجعلنا لو أردنا أن نترجم هذه الآية إلى لغتنا العربية بطريقتنا لأحوجت الترجمة إلى أن نأتي بأربعة أضعاف هذه الآية بل هذه الفقرة من الآية، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

أي إن الله لا يغير ما تلبس بقوم أو جماعةٍ من مظاهر التقدم أو التخلف المادي والحضاري إلا بقدر ما يتحقق من التلبس بالصفة النفسية الخفية الكامنة في كيان الإنسان، إن الله لا يغير ما تلبس به قومٌ من مظاهر التقدم أو التخلف المادي والحضاري إلا بقدر ما يتغير ما تتلبس به نفوسهم من الأخلاق الرضية أو الأخلاق المرذولة، أي إن بنيان الحضارة الإنسانية، بنيان التقدم بكل معانية وصوره، بنيان التخلف بكل معانية وصوره، كل ذلك منوط بأساس خفي ألا وهو ما قد تتلبس به النفس من الأخلاق الرضية أو الأخلاق السيئة المرذولة، تلك هي سنة رب العالمين فيما يتحدث، أي أن الأمة مادامت متلبسة بأخلاق مرذولة، بأخلاق سيئة فلا يمكن أن تكون حياتها الاجتماعية الحضارية المادية إلا نتيجة لهذا الوضع الذي تعاني منه نفسيتها، لا يمكن أن ترقى صعداً مادامت متلبسة بهذه الآفات الأخلاقية، فإذا تحررت النفس من أخلاقها المرذولة وتمطت صعداً إلى الأخلاق الإنسانية الرضية فقد حان أن يتغير بنيان تلك الأمة الحضاري وأن تنتقل هذه الأمة من طور التخلف إلى التقدم.

الأخلاق الإنسانية يا عباد الله هي المحور وهي الأساس الخفي لبناء المجتمعات كلها، وإنما تدور الأخلاق الإنسانية على محور أساسي لا بديل له ألا وهو التراحم. التراحم هو مدار الأخلاق الإنسانية المثلى على اختلافها وتنوعها، ولقد تحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم ونبه إلى أهمية هذا التراحم كأساس للأخلاق الإنسانية المثلى، بشر وحذر، قال صلى الله عليه وسلم فيما اتفق عليه الشيخان: ﴿من لا يرحم الناس لا يرحمه الله سبحانه وتعالى﴾ والحديث متفق عليه، ويقول المصطفى صلى الله عليه

وسلم أيضاً فيما اتفق عليه الشيخان: ﴿الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء﴾، ويقول المصطفى صلى الله عليه وسلم مبيناً النقيض، أي الوجه الثاني لهذه النقطة الهامة نقطة التراحم فيما يتعلق بالأخلاق الرضية يقول: ﴿دخلت امرأة النار في هرة حبستها فلا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض﴾، دخلت النار ولربما كانت مصلية صائمة مقبلة إلى الله بكثير من الطاعات.

عباد الله: من منطلق هذه السنة الربانية ومن منطلق الأساس المحوري الذي نبهنا الله عز وجل إليه وهو أساس التراحم منطلقاً للأخلاق الإنسانية الرضية، تأملت فيما يمكن أن أعثر عليه من أوهي الخطوط التي قد تصل بين المسلمين اليوم، بين إخوتنا وأبناء عمومتنا اليوم في بلادنا هذه وبين الأنصار الذين هاجر إليهم المسلمون من مكة إلى المدينة، بحثت عن أوهى الخطوط التي قد تصل بين أولئك المسلمين الأنصار والمهاجرين إليهم وبين المسلمين اليوم والإخوة الذين هُجِّرُوا إليهم، أصدقكم أنني لم أجد حتى خيطاً من أوهى الخيوط، موقف أولئك الأنصار كان ذلك الموقف الشامخ الذي تعرفون، استقبلوا المهاجرين من مكة، أسكنوهم معهم في بيوتهم، أشركوهم بأموالهم، أشركوهم مع حدائقهم وبساتينهم بل زادوا على ذلك أيضاً، ولعلكم تعرفون هذا، وأنظر إلى واقع المسلمين في بلادنا اليوم، إخوة وجيرانه هُجِّروا من وقع القتل والتذبيح والتخريب وما تعلمون، هُجِّروا إلى أين؟ إلى أخوة لهم، أشقاء لهم، فيكف استُقبِلوا؟ أنا لا أتحدث عن القلة اليسيرة جداً جداً والتي لا يُقام لها وزن أمام هذه الكثرة التي أحدثكم عنها، استقبلتهم كثرة من إخوتنا وأبناء عمومتنا في هذه البلدة منتهزين وجودهم فيما بيننا على أنها فرصة سانحة للاستثمار التجاري، استقبلوهم على أن مجيئهم الاضطراري إلينا سيكون مفتاح رزق للطامعين وما أكثر الطامعين، رأينا من قسم داره إلى غرف ليؤجر كل غرفة إلى أسرة، فإذا قالت هذه الأسرة المهاجرة: ألا يمكن خفض الرقم قليلاً، أشاح الرجل بوجهه عنهم قائلاً: دُفِعَ لي أكثر، هذا واقع. أروني أوهى خيط من خيوط الصلة بين هؤلاء وهم مسلمون وبين الأنصار من أهل المدينة المنورة الذين هاجر إليهم إخوانهم المسلمون من أهل مكة. أما فئة أخرى فهم أولئك الذين متعهم الله بالدور الفارهة والواسعة بل الواسعة جداً ولكن أعينهم لم تبصر هذه البيوت إلا على أنها ضيقة، بيوت واسعة بل أكثر من واسعة متعهم الله بها ولكن أعينهم الطامعة أرتهم هذه البيوت وهي ضيقة لا تكاد تتسع لأكثر من حفلاتهم، لا تكاد تتسع لأكثر

من تقلباتهم وأحوالهم، وأصدقكم القول لو أن كل بيت من هذه البيوت الواسعة قُدِّمَتْ زاوية منها لهؤلاء الضيوف – الضيوف الأعزاء، إخواننا وجيراننا – لحيت هذه الأزمة، أزمة الهجرة إلى دمشقنا هذه يا أيها الإخوة، فكيف إذا فتحت المزارع وكيف إذا قدمت لهؤلاء الضيوف؟ ليست الأزمة متمثلة في مشكلة استعصى حلها علينا ولكن الأزمة متشكلة في الطمع الذي ران على قلوبنا، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ﴿الراحمون يرحمهم الرحمن﴾ ويقول: ﴿من لا يرحم الناس لا يرحمه الله﴾. ما ضر لو أنَّا ضربنا من سلوكنا مثلاً نعيد به سيرة الأنصار من أصحاب رسول الله، أولئك الذين خلد الله الثناء عليهم في محكم تبيانه إذ قال عنهم: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

ما ضر يا عباد الله لو أنَّا ضربنا مثلاً في سلوكنا هذه الحال، ضربنا مثلاً يدل على أنه لا يزال هنالك خيط من التواصل بيننا وبين أولئك الأنصار. ألا فتعلموا ولتثقوا بوعد الله، ألم يقل: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥].

هل يلحق بيان الله خلف؟ هل في المؤمنين بالله من يرتاب في كلام الله؟ لا يا أيها الإخوة، المال ما الله والأرض أرض الله والعباد عباد الله وما أجدرنا أن نقول يا مرحباً بعباد الله، هذه كلمتي الأولى في خطبتي هذه اليوم.

كلمة ثانية يا عباد الله: رمضاننا المبارك على الأبواب، أوصي نفسي وأوصي كلاًّ منكم وأوصي كل من يبلغه كلامي أن نجدد التوبة إلى الله وأن نجدد البيعة صادقة مع الله عز وجل وأن نسعى سعينا اللاهث وبكل جد أن نعمر مساجدنا في هذا الشهر المبارك بالقيام وأن نعمر أيام هذا الشهر المبارك بالصيام وأن نسعى بكل ما نملك على أن نطهر أسواقنا وميادينا عن أي مجاهرة تتحدى الله وشرعه بإفطار يمكن أن يمارسه أحد من الناس، آن أن تعلن وزارة الداخلية العقاب الذي يلاحق كل من يريد أن يسيء إلى شعار هذا الشهر المبارك، هو حر يفطر لكن ما ينبغي أن يُساء إلى شعار هذا الشهر، قوموا يا عباد الله بحقوق هذا الشهر صياماً في نهاره وقياماً في لياليه، ليهرع كل واحد منا إلى بيوت الله عز وجل، لا تدعوها فارغة، لا تدعوها تعاني مما كانت ولا تزال تعاني منه خلال هذا العام وهي تئن إلى ربها وبارئها مما قد فعله أناس ولربما لا يزالون يفعلون، نعم، ابذلوا كل ما تملكون أن تكون مساجدكم عامرة كما كانت بالمصلين، بالركع

السجود واذكروا في هذا كلام رسول الله القائل: ﴿عبادة في الهرج كهجرة إلي﴾، عبادة في الفتن تعلو قيمتها ويعلو ثوابها حتى تصبح هذه العبادة كهجرة إلى رسول الله r، هذه وصية غالية لا تضيعوها يا عباد الله.

كلمتي الثالثة أتوجه بها إلى من؟ إلى هؤلاء الذين تورطوا واستدرجوا وأصبحوا سجناء في الأسلحة التي حُمِّلوها، نعم، أنظر إليهم وأتبين أنهم يعانون من حبس لكن لا داخل أربعة جدران وإنما داخل هذه الأسلحة التي استدرِجوا في حملها والتي عاشت في أذهانهم آمال كم وكم ازدهرت في تصوراتهم وأعتقد أنهم علموا الآن أن هذه الآمال تحولت إلى أوهام، ما المآل الذي ينتظرونه؟ النهاية أو قل النصر الذي كان راسخاً في أذهانهم بل رُسِّخَ في أذهانهم اضمحل وهذا شيء حقيقي، إذاً فتعالوا أيها الإخوة أدعكم وأدعو ولاة الأمر في بلدنا إلى لقاء نتواثق فيه جميعاً وبشكل جاد على الاصطلاح الوطني الذي ينبغي أن ننهض به جميعاً على أن يكون تواثقاً جاداً وتواثقاً حقيقياً وأنا الضامن أنه سيكون تواثقاً جاداً حقيقياً من جهة المسؤولين فأرجوا أن يتبين هؤلاء الإخوة أن هذه المرحلة التي استدرِجوا إليها انتهت وبوسعهم أن يبدؤوا مرحلة جديدة، والمخطئ من شأنه أن يرجع إلى الحق الذي ألهمه الله عز وجل إياه.

أيها الإخوة أريد أن أبلغهم هذه الحقيقة: مادامت هنالك لمعة من المشاعر الإنسانية لا تزال موجودة في كيان من تورط في ارتكاب آثام ومعاصٍ وموبقات فإن باب التوبة لا يزال مفتوحاً أمامه من قبل الله عز وجل، نعم، هكذا يعلن الله سبحانه وتعالى، وإذا كان الباري عز وجل يلاحق هؤلاء الناس بباب التوبة يفتحه على مصراعيه أمامهم فأحرى أن يفتح العبد باب الاصطلاح مع العبد أمام مثل هذه المعضلة أياً كانت، أليس العبد أولى بأن يفتح أمام هؤلاء الناس باب القبول، باب الاصطلاح؟ نعم،

ربما قال أحدهم: والدماء التي ارتكبناها في أعناقنا، والبرآء الذين قُتِّلُوا بأيدينا، أقول لهم ألم يقتل ذلك الإنسان مائة شخص، تسعة وتسعين بريئاً ثم أتم هذا العدد الكبير بالمائة ثم إن الله تجاوز عنه لما صدق التوبة، باب التوبة مفتوح، أنا أقول لهؤلاء الإخوة: نعم عودوا من هذه التجربة التي لن تنالوا منها إلا الحناظل واعلموا أن هذا النهج إن استمر بكم أو بقيتم تسيرون في طريقه فإن كرباً أسود سيأخذ منكم بالخناق وإن هذا الكرب سيزجكم في شقاء لا يمكن أن أصفه، مالكم ولهاذ الكرب، مالكم ولهذا الشقاء؟

نعم، يمكن للشيطان أو لغير الشيطان أن يخدعكم بأن نصراً قريباً سيتحقق وبأنكم ستقطفون ثمرات هذا النصر.

ولكني أيها الإخوة أقول: لقد أغلق باب هذا النصر الموهوم ودلائل ذلك واضحة ولكن أرأيتم لو أن هذا الباب لا يزال مفتوحاً أتظنون أنكم إن استطعتم بخدمتكم لأولئك الذين يأمرون وينهون وهم يتربعون على عروشهم – لا أقصد الأقربين بل أقصد أصحاب العروش الأباعد الذين يأمرون المأمورين الذين يأمرون هؤلاء الجنود – أرأيتم إلى أولئك هل سيخلطونكم بهم، هل سيشركونكم بشيء من الأمر؟

أقسم بالله الذي لا إله إلا هو سينسونكم ويطرحونكم وراءهم ظهرياً ولسوف يجتمعون في المكان الذي حددوه من دمشقنا نعم ليشربوا نخب النصر فيما بينهم، أما أنتم فلن تكون لكم أماكن معهم نهائياً، على أن هذا النصر موهوم، على أن هذا اليوم الذي كانوا يحلمون به أن يتلاقوا في مكان معين نعم من دمشقنا هذه ليشربوا نخب النصر بتفتيت سوريا إلى دويلات لن يتحقق، وإذا كان الأمر كذلك فتعالوا نعد إلى صراط الله، أنا أتحدث مع أبناء جلدتنا، أتحدث مع إخواننا أبناء هذا الوطن ولا أتحدث عن المتسربين المتسللين الآتين من الخارج، لهم أن يعودوا إلى الجهات أو البلاد التي جاؤوا منها، أما إخواننا وأبناء عمومتنا فأقول: ليس هنالك أجدى لكم ولهذه الأمة ولهذا الوطن من الاصطلاح، أن تمتد الأيدي من هنا وهنا وهناك بالاستيثاق الجاد والاصطلاح الحقيقي، أن نعلن من خلاله العفو عما مضى وذلك هو قرار شريعة الله عز وجل في باب هؤلاء الذين يسميهم الشارع الغلاة نعم، ولكل شيء حكمه في الشريعة الإسلامية وليس هاهنا مجال التفصيل في ذلك.

هذه كلمات ثلاث أقولها في مقتبل شهر رمضان المبارك سائلاً الله عز وجل أن يجمع شمل هذه الأمة على ما يرضيه، نعم، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

١٨٧- لو عرفوا سنة الله لما ارتابوا في حكمة الله | ٢٠١٣/٠٢/١٥

لا ريب أن هذه الفتنة التي تعاني منها أرضنا وبلدتنا المباركة هذه من الخطورة بمكان، على أنها ستمر بإذن الله جل جلاله ولن تتلبث بقطع النظر عن الميقات والزمان، ولكن ما هو أخطر من هذه الفتنة ذاتها النتائج والذيول التي تكاثرت من ورائها وبسببها، هذه النتائج المتمثلة في شكوك وريب بدأت تغزو قناعات ويقين كثيرٍ من المؤمنين بالله سبحانه وتعالى مما جعلهم يرتابون في عدالة الله وحكمته ورحمته، بل مما جعل بعضاً منهم يتبرمون على حكم الله عز وجل وقضائه.

الفتنة خطيرة ولكن ما هو أخطر منها هذا الريب الذي يسري من ورائها إلى قلوب وعقول كثيرٍ من الإخوة الذين نحسبهم مؤمنين بالله سبحانه وتعالى. وإنني لأجزم بأن هؤلاء الإخوة لو تدبروا سنن الله عز وجل وقوانينه التي أعلن عنها ببيانات قاطعة واضحة في محكم تبيانه لما استطاعت هذه الفتنة أن تسري بشيء من الريب إلى قلوبهم قط، ولكن الإعراض عن كتاب الله، بل الإعراض عن معرفة سنن الله عز وجل وقوانينه هي التي تفتح باب الشكوك والريب تسري إلى عقول هؤلاء الإخوة وقلوبهم، ألم يقل الله عز وجل في محكم تبيانه: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

أولم يقل البيان الإلهي خطاباً لنا: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

أما قرؤوا قول الله سبحانه وتعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣].

تلك هي سنة ربانية مرتبطة بهذه الفتنة التي تمر بنا، وإنها لنموذج من النماذج التي تسجل وتجسد بطريقة جلية واضحة هذه السنة الربانية التي يأخذ الله عز وجل بها عباده في كل زمان ومكان، ولكن في الناس أو في هؤلاء الإخوة من قد يسأل: فإذا كان هذا البلاء من شأنه أن ينزل على الذين أخطأوا والذين ارتكبوا الآثام التي تستدعي مثل هذا البلاء فما ذنب البرآء، ما ذنب الذين لم ينحرفوا قط إلى مهاوي

الرذيلة أو مهاوي المعاصي؟ والجواب أن هذا الاستشكال دليل ثان على أن هؤلاء الإخوة لا يلتفتون إلى قوانين الله في عباده ولا إلى سننه التي يأخذهم بها دائماً، ولو أنهم تدبروا كتاب الله لعلموا الجواب عن هذا السؤال أيضاً، ألم يقل الله سبحانه وتعالى: ﴿وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥].

أولم يسمعوا كلام رسول الله في الحديث الصحيح: ﴿والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهن عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عذاباً من عنده ثم لتدعنه فلا يستجاب لكم﴾.

أولم يقرؤوا قول الله سبحانه وتعالى في حق بني إسرائيل، أولئك الذين أعلن البيان الإلهي عن لعن الله لهم إذ قال: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ [المائدة: ٧٨]، إلى أن قال موضحاً سبب ذلك ﴿كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٩].

انتشرت المعاصي ضمن أناس محدودين نعم ولكن هل وُجِدَ الأمر بالمعروف؟ هل وُجِدَ النهي عن المنكر؟ ولعلكم تذكرون يوم قلت وحذرت منبهاً إلى كثيرٍ من المعاصي التي أوغلَتْ وسَرَتْ في مجتمعنا الإسلامي المبارك دون وجود من ينبه وينهى، وقلت: إن هذا لنذير شر مقبل إلينا، ألا تذكرون ذلك؟ هذه الحقيقة ينبغي أن نعلمها يا عباد الله، هي سنة ماضية في عباد الله عز وجل منذ عصر النبوة، هذه السنة نُفِّذَتْ حتى في حق سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، أولا تذكرون أن ثلة يسيرة من الصحابة أخطأوا فعصوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد، أمرهم فعصوه فكانت عاقبة ذلك أن أرسل الله سبحانه وتعالى إلى الجيش كله بلاءً بسبب معصية ثلة يسيرة من الجيش من أصحاب رسول الله، حتى إن رشاش هذه المصيبة أصابت رسول الله، كُسِرَتْ رباعيته من أسنانه، شُجَّ وجهه، وقع في كمين، تلك هي ظاهرة هذه السنة الربانية.

ألا تذكرون يوم حنين وهو اليوم الذي كان جيش المسلمين قد وصل إلى الرقم القياسي في العدد الذي لم يكن قد وصل إليه من قبل قط، كان جيش المسلمين اثني عشر ألفاً، قال أحدهم وقد سرت نشوة هذه الكثرة في رأسه: لن نُغْلَبَ اليوم من قلة، تذكر الكثرة ولم يتذكر نصر الله، فماذا كانت عاقبة

هذه الكلمة التي سرت في أفراد الجيش كما تسري الجرثومة، كانت النتيجة أن استلب الله عز وجل من أفراد هذا الجيش جميعاً رباطة الجأش والجرأة التي كانوا يعرفونها من أنفسهم، وسرعان ما دخلهم الرعب وانتشروا هاربين ذات اليمين وذات اليسار إلى أن سمعوا دعاء رسول الله يقول لهم: ﴿إليَّ يا أصحاب البيعة، إليَّ يا أصحاب الشجرة، أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب﴾ غفر الله سبحانه وتعالى لهم وأعاد لهم النصر والتأييد. سنة ماضية في عباد الله سبحانه وتعالى، نعم المعاصي إنما وقعت في دائرة صغيرة ولا أريد أن أشير إلى هذه الدائرة ولكن ماذا كان موقف الآخرين؟ واليوم أين هم الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر باللسان العذب، بمشاعر الحب، أين هم أصحاب هذه الألسن؟ خرجوا وابتعدوا بدلاً من أن يقفوا ليأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر، ألا ترون، عندما يجد مولانا وخالقنا الذي يعلم السر وأخفى يجد عباده الشاردين عن هديه، الشاردين عن صراطه مؤمنون ولكنهم بدلاً من أن يستنزلوا النصر من علياء الربوبية يستنزلونه من أيدي أعداء الله، وأي الأعداء، أولئك الذين غضب الله عز وجل عليهم، بيان الله عز وجل يوضح بطريقة عجيبة وغريبة وكأنها آيات نزلت في هذا العصر بل تعليقاً على هذه الفتنة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [المجادلة: ١٤].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم﴾ من هم القوم الذين ﴿غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم﴾؟ كلما رأيتم وصفاً لمنحرفين يعلن البيان الإلهي أنه ﴿غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم﴾فلتعلموا أن المراد بهم اليهود، أولئك الذين أعلن الله عز وجل لعنهم، يلفت ربنا النظر في هذا العصر إلى أناس من أبناء جلدتنا ممن بايعوا الله، ممن أسلموا – بحسب الظاهر – قرارهم العقلي لله عز وجل، أين أصبح ولاؤهم اليوم علناً لا سراً؟ الجواب عن بيان الله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

ربما عاد هذا الذي تسري الشكوك والريب إلى قلبه، عاد يجادل ويسأل: فها هم أولاء التائهون الكافرون الجاحدون في مجتمعاتهم الغربية يتقلبون في حمأة الرذيلة والكفر دون أن يصيبهم مثل هذا البلاء الذي أصابنا؟ والجواب: مرة أخرى أقول أيها الإخوة عودوا إلى كتاب الله فتبينوا قوانينه التي يأخذ عباده بها، تبينوا سننه، نحن المسلمين بيننا وبين ربنا عقد، عهد عاهدناه عندما آمنا به وبايعناه عندما آمنا به ثم

إنا أخلفنا العقد، أولئك الذين تتحدث عنهم في الغرب هل يوجد بينهم وبين الله عقد إسلام وإيمان؟ لا يوجد، ومن ثم فإن مسؤوليتنا أننا خالفنا ما عاهدنا الله عز وجل عليه، ويقول ربنا: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠].

أجل، هكذا يأمرنا الله سبحانه وتعالى، الله سبحانه وتعالى يُذَكِّرُنا دائماً بأن نكون عند العقد الذي أخذناه على أنفسنا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١].

وأجلُّ العقود تلك التي بيننا وبين الله سبحانه وتعالى. أولئك الذين يعيشون في الغرب بشطريه الأمريكي والأوروبي لم يمدوا أيديهم إلى بيعة مع الله ومن ثم فإن الله لا يحاسبهم في دار الدنيا على ذلك، هل يقول الله عز وجل يا أيها الناس لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة أم يقول: يا أيها الذين آمنوا؟ كلكم يعلم السبب، لن تجد آية يخاطب الله فيها الناس جميعاً يأمرهم الله فيها بحكم من أحكام الشريعة الإسلامية الفرعية أبداً لأن الكافرين ليس بينهم وبين الله عقد وإنما يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ الرِّبَا أَضْعَافاً مُّضَاعَفَةً﴾ [آل عمران: ١٣٠]. يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠].

أجل، هذا هو الجواب. أولئك الناس الذين يعيشون في الغرب عقابهم المدخر لهم على الكفر لا على الأعمال، لا على أحكام الشريعة، وقد ادخر الله سبحانه وتعالى لهم ذلك العقاب إلى اليوم الموعود، أما نحن فقد عاهدنا الله – لا تنسوا – على كل المستويات ثم إنا نعرض عن العقد الذي أعلناه ونخون هذا العقد – ولا أريد أن أقول نخون الله – نخون هذا العقد، بل ماذا أقول لكم؟!

نبهتني الذاكرة وأنا أتلو هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ﴾ إلى آخر الآية، هذه الآية ذكرتني بسخرية يتجاذبها فيما بينهم كثيرون من الناس، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ قال قائلهم: إن معنى اجتنبوه أي ضعوا الخمرة إلى جانبكم، وأنا سمعت هذا كثيراً، بل إن أفواهاً تفوهت بهذه السخرية من كتاب الله عز وجل، ليت أن الله عز وجل لا يحاسبنا بجريرتهم قط.

هذا موجود يا عباد الله، إذاً أعود فأقول: الفتنة ستمر ولن تتلبث، وهي خطيرة ولكن ما هو أخطر منها ما تتركه من عقابيل ونتائج في قلوب وعقول كثيرٍ من الناس، الشك في عدالة الله، الشك في رحمة الله وحكمته.

أيها الإخوة فليعود كل واحد منكم إلى ما استكن في قرارة عقله، إلى ما استكن في يقينه العقلي والقلبي فليتساءل عن مدى يقينه بحكمة الله وعدالته بل برحمته أيضاً وليتلمس حقيقة الإيمان وجذوة اليقين التي ينبغي أن تزداد بمثل هذه الحالة لا أن تنقص. عندما أعود إلى الأحاديث التي وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها هذه الفتنة أزداد إيماناً وأزداد يقيناً بنبوة رسول الله بل لكأن رسول الله صلى الله عليه وسلم بيننا يرى بعين بصره لا ببصيرته كل هذا الذي يجري، ومن ثم فأنا أحب أن أسميها بالتسمية النبوية فتنة ولا أحب أن أسميها أزمة ولا مصيبة، عندما أجد كلام رسول الله عن هذه الفتنة وكيف يهتف بنا من وراء أسوار القرون ألا نضل وألا نتيه وألا نشرد عن صراط الله عز وجل أزداد إيماناً بالله، وأنظر إلى إخوة لنا وقد شردوا عن الاستجابة، عن هذا الهتاف الذي يصك أسماعهم ثم إنهم يعرضون عنه، أجل. هذا البلاء الماحق الذي جاء من جراء هذه الفتنة التي ستمر كما قد ذكرت لكم، رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في الحديث الصحيح: ﴿الجهاد واجب عليكم خلف كل أمير برّاً كان أو فاجراً وإن هو عمل الكبائر﴾، وأناس من أبناء جلدتنا يزعمون أنهم مسلمون يعرضون عن كلام رسول الله هذا ويجاهدون هؤلاء الأمراء ضد كلام رسول الله، يجاهدون ضد هؤلاء الأمراء بدلاً من أن يجاهدوا مع هؤلاء الأمراء.

رسول الله يقول: ﴿الجهاد واجب عليكم خلف كل أمير برّاً كان أو فاجراً وإن هو عمل الكبائر﴾ إذاً فعمل الكبائر لا يُكَفِّر.

أين نحن أيها الإخوة من صلتنا برسول الله، أين نحن من صلتنا بكتاب الله سبحانه وتعالى، عندما تُصَفَّى القلوب من الشوائب وعندما يكون إيماننا خاضعاً لسلطان الله عز وجل لا خاضعاً لتجارة، التجارة المالية التي تجعل أفواهنا تُفْتَح ولا تكاد تمتلئ وتشبع من وراء المال الذي ندخره ونمزق من خلال ذلك هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعاليمه. عندما نعود مخلصين لله عز وجل نتبع أمره ونضحي بكل شيء في سبيل رضا الله وفي سبيل رضا رسول الله كل مصيبة تُطْوَى وكل بلاء يبتعد، نعم ولكن متى سيكون ذلك؟ أبناء جلدتنا الذين يردحون تحت هذه الفتنة – إلا ما ندر – يتخذون منها تجارة فتنة أو

تجارة أزمة كما يقولون، ألا تسمعون، ألا ترون؟ ها هم أولاء يتسابقون في سبيل أن يملؤوا لا الجيوب فقط بل البيوت والصناديق – أجل – على حساب الناس الذين شُرِّدُوا من بيوتهم، الناس الجياع، الناس الذين تميتهم رعدة البرد في هذا الشتاء، ألا تسمعون، ألا ترون؟ هذا الذي نعاني منه هو الذي يجر بنا هذه الفتنة، وكلما تصفت النفوس، صُفِّيَتْ من الشوائب والأدران وكلما صدقوا ما عاهدوا الله عز وجل عليه فإن وقع هذه الفتنة يخف ثم إنه يزول ثم إن الله عز وجل يرسل بعد هذه السحابة السوداء نوراً يتلألأ من رحمة الله سبحانه وتعالى وفضله، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.





قضايا اجتماعية



مشكلات اجتماعية

١٨٨- مشكلة كثير من (الجمعيات الخيرية) | ١٩٩٢/٠٧/١٧

كلما وقفت على مثل قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ أو على مثل قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ أو على قوله عز وجل: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ أو على قوله عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾. أو عندما أمر على مثل قول عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح: ﴿إن الله جعل في أموال الأغنياء بالقدر الذي يسع فقرائهم، وإن الفقراء لن يجهدوا إذا جاعوا أو عروا إلا بما يصنع أغنيائهم، وإن الله سائلهم عن ذلك فمحاسبهم حساباً عسيراً﴾.

كلما وقفت على أمثال تلك الآيات وعلى مثل هذا الحديث النبوي الشريف ازددت يقيناً بالحكمة الربانية عندما خلق الناس متفاوتين في قدراتهم، وعندما خلقهم متفاوتين في درجات الغنى أو الفقر التي ابتلاهم الله عز وجل بها، وتبين لي أن هاهنا يكمن محك العبودية لله عز وجل، وهاهنا يتجلى صدق الصادقين وكذب الكاذبين، فلو كان الناس جميعاً على مستوىً واحدٍ من الكفاية لما كان ثمة أي معناً لقول الله عز وجل: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾، وتبقى أموال الناس في جيوبهم دون أن يحتاجوا إلى أن يقتحموا ما هو شديد على نفوسهم، خطيرٌ على أمزجتهم، مخالفٌ لأهوائهم وغرائزهم.

ولكن لما جعل الله عز وجل هذه الدنيا دار ابتلاء، كان لا بد أن تتحقق مواد الابتلاء وأسبابها، ومن أهم أسباب الابتلاء أن يفاوت الباري سبحانه وتعالى في القدرات المادية والجسدية والفكرية بين الناس، ثم يغري بعضهم إلى بعض، ثم يأمر الباري سبحانه وتعالى بما أمر به عباده، وعندئذٍ تتجلى حقيقة الصدق وتتميز عن الكذب.

وهذه الحكمة موصولة اتصالاً وثيقاً بالمعنى الذي نلحظه في قول الله عز وجل: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾،

فإن قال قائل: لماذا زينها الله عز وجل في قلوبنا فكان من ذلك عقبة وأي عقبة تمنعنا من الانصياع لأمر الله؟

لو لم يزين الباري سبحانه وتعالى المال في عينك وقلبك لكانت قيمته كقيمة التراب سواءً بسواء، ولما كان لك أي فضل في الانصياع لأمر الله عز وجل، ولما كان في هذا الانصياع أي دليل على أنك قد آثرت الله على هوى نفسك، ولكن الله عز وجل غرس جذور محبة الدنيا في قلبك، ثم ابتلاك بأن تقف منها الموقف الذي أمرك الله، ثم ملئ من حولك أناساً هم بأمس الحاجة إلى المعونة، هم بأمس الحاجة إلى الرعاية، هم بأمس الحاجة إلى أن تعطيهم من ذات يدك، وعندئذٍ يتجلى الصادق من الكاذب، وههنا مكمن الوصول إلى الله أو القرب من الله عز وجل.

أما تلك الأعمال التي لا تكلف أصحابها رأسمال، كتلك العبادات التي ما أسرع ما يتعود الجسد عليها، فإنها – والحق أقول – لا يمكن أن تدل وحدها إطلاقاً على أن أصحابها سائرون إلى الله عز وجل أو صادقون في دعوى إيمانهم بالله عز وجل، كلما طرقنا أبواب كثير – ولا أقول كل كثير – من الأغنياء من أجل أن يقدموا يد العون إلى فقراء هم بأمس الحاجة إلى المقومات الأساسية للحياة. قيل لنا: لقد دفعنا الحقوق الإلهية في ذممنا كاملة غير منقوصة دفعنا زكاة مالنا. لمن؟ دفعناها للجمعيات الخيرية.

ولقد كنت أود أن لا أطر إلى أن أعود مرة أخرى إلى الحديث عن هذه الجمعيات، ولكن الضرورة القصوى تلجئني إلى هذا الحديث. الفقراء المنكوبون هم كثر، والذين هم بأمس الحاجة إلى مقومات الحياة الضرورية لا الترفيهية كثر، والأغنياء كثر أيضاً، وعندما نطرق أبواب كثيرٍ من هؤلاء الأغنياء يعتذرون ولهم الحق في هذا العذر أنهم قد وكلوا الجمعيات الخيرية بتقديم الحقوق المترتبة في أموالهم للمستحقين الذين تحدث البيان الإلهي عنهم في كتابه المبين، وعندما نطرق أبواب هذه الجمعيات نجد صمتاً كصمت الموت. بل ماذا نجد؟ نجد تباهياً بالمال الذي جمعوه، جمعوه في غاية الحماسة وفي غاية الاهتمام، وكأن قلوبهم مكلومة تتنزا دماً على الفقراء، بهذا الشكل جمعوا المال، حتى إذا استوثقوا منه وتجمع تحت أيديهم رقدوا على هذا المال رقدة الموت، فإذا جاء الفقراء وقد أحالهم الأغنياء إلى هذه الجمعيات، حتى إذا جاؤوا

يطرقون أبواب هذه الجمعيات نظروا إليهم شذراً؛ نظرة فيها كل معاني التأديب وفيها كل معاني التقريع، نظرة فيها كل المعاني التي تجرح الإنسان الكريم، مهما كان بعيداً عن معنى الكرامة، ومهما كان قد اعتاد على أن ينال الصفعة تلو الصفعة.

وهنا أيضاً أقول وأستدرك أنا أستثني قلةً من الجمعيات، ولكنها قلة نادرةٌ جداً، تلك هي المعضلة التي نعاني منها أيها الأخوة.

المعضلة هي أن القناة التي تصل ما بين جيوب الأغنياء وجيوب الفقراء تفصلها عقدة، هذه العقدة تتمثل في الجمعيات الخيرية التي قضى الله أن تكون شؤماً على الأغنياء وعلى الفقراء معاً، ذلك لأنهم لم يكونوا أمناء اتجاه الأغنياء الذين وكلوهم، وكانوا خائنين اتجاه الفقراء الذين لم يؤدوا حقوقهم إليهم. فما العمل؟ ما العمل أيها الأخوة؟ أنا أرسل كثيراً من هؤلاء المحتاجين إلى هذه الجمعيات التي أعلم أن أعضائها يرقدون على ملايين، ولكن هؤلاء الفقراء يُطردون شر طردة، ولتمنيت أن لو فتح الواحد من أعضاء هذه الجمعية محضر تحقيق، أو لو أنهم صرفوهم - كما يقولون - بالتي هي أحسن، ولكن هؤلاء الفقراء ينالون منهم فوق فقرهم التقريع والتأنيب والجرح في الكرامة، وإن الله سبحانه وتعالى ليغار على كرامة عباده أكثر من أن يغار على جيوبهم: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾.

يحدثني واحدٌ من هؤلاء وقد أحاط به الضر من كل جانب؛ أحاط به الضر من كل جانب؛ ولتخيلت وأنا أقرأ كلامه أن بينه وبين الانتحار حاجزٌ واحد، هو بقايا إيمانه بالله عز وجل: ذهب إلى مسؤول عن هذه الجمعيات له قدمٌ سابقة في الدين، له قدم سابقة في الإيمان، في الحديث عن القرآن، في الحديث عن السنة، بدء يشكو له قصته، ولكن الرجل بخل عليه حتى برفع رأسه لينظر إليه، ظل ينظر في دفاتر حسابه في دفاتره التجارية يقلبها ثم قال له متأففاً دون أن ينظر إليه: اختصر فإن وقتي ضيق، ولما ذكر له القصة بكاملها، صرفه بكلمة هي قول: يعينك الله (الله يعينك).

ولقد وقفت أمام هذه الكلمة، ماذا أقول في التعليق عليها: (الله يعينك)، ماذا لو استقبلك الأغنياء الذين كنت تقفز إلى دكاكينهم واحداً إثر آخر، وأنت تَستدِرُ الرحمة بألسن هؤلاء الفقراء، ماذا لو قال

لك الواحد منهم إثر الآخر: (الله يعينك.. الله يعينك) إذاً لنثرت له خطبةً طويلةً عريضة تعلمه فيها الرِقة والرحمة بالفقراء، تعلمه فيها كيف يكون كريماً، ولكن هذا كله تذكرته عندما كنت تجمع المال، حتى إذا اطمأننت أن المال قد جمع، وأنه قد تهيأ تحت يديك، وجاء دور الذين كنت تستدر الرحمات باسمهم، وجاء دور الذين كنت تتكلم بألسنتهم، جاء الواحد من هؤلاء يطالبك بأن تحقق، يطالبك بأن تنظر قبل أن تعطي وقبل أن تصدق. تقول له: انصرف فالله يعينك، تقول له: اختصر فأنا مشغول.

لست مشغولاً عندما تجوب الأسواق من أولها إلى آخرها لتجمع المال باسم الفقراء، ثم إنك تصبح مشغولاً لا تجد أمامك دقيقة واحدة لتصغي بها إلى فقير، ابتلاك الله سبحانه وتعالى به، ثم تطرده شر طرده، وليت أن الواحد من هؤلاء لم يكن متقنعاً بقناع الإسلام، لم يكن متقنعاً بقناع الدين، ولكنهم يتقنعون بمظاهر دينية يتقاصر أمامها مظهر إنسانٍ مثلي، يتظاهرون بأنهم الحفظة لدين الله، وبأنهم السائرون على سنن الله عز وجل، وإنها والله لتجارة فوق تجارة، تجارة الدنيا بعد ذلك أن نركب الدين فنجعله مطية أخرى إلى دنيانا وشهواتنا.

أيها الأخوة تلك هي المشكلة فكيف يكون حلها؟ كيف يكون حلها؟ جمعيات كثيرة ومرة أخرى أستثني قليلاً من هذه الجمعيات، نعم ولكن أكثر هذه الجمعيات هكذا، تمتصّ المال من جيوب الأغنياء ثم تضعه في سدٍ محكم عن أن يصل إلى أيدي الفقراء، فإن وصل فبأي كيفية يصل؟

طوابير من الذل تقف وكلمات تلسع أكباد هؤلاء الفقراء جرحاً لكرامتهم وتمزيقاً لأفئدتهم، في سبيل ماذا؟ في سبيل أن ينال الواحد منهم في كل شهر خمسمائة ليرة أو أقل أو أكثر بقليل، والمال وفير والإنسان الذي يحتاج إلى زواج يتقلب على مثل الغضى، ولا يجد من ينجده، والإنسان المهدد بأن يأوي إلى الشارع فيرقد في الشارع لا يجد من ينجده، والملايين المكدسة مهيأة تقول بلسان الحال: تعال يا صاحب الحاجة فأنا أنتظرك أكثر مما تنتظرني، ولكن هذه الملايين محبوسة، لماذا هي محبوسة؟ لا أدري لا أدري أهي أموالكم؟ أهي ملك آبائكم وأجدادكم؟ كيف وبأي وجهٍ تقابلون رب العالمين غداً؟ عندما يطالبكم الله بالأمانة التي ضيعتموها.

كأني بالواحد من هؤلاء الناس وقد وضع شحّه حكماً بينه وبين هذه الأموال، يرى الملايين المكدسة تجمعت بين يديه فيمنعه الشح من أن ينثرها بين بياض يوم وسواد الليلة التابعة له. كيف ينبغي أن يبقى هذا المال؟ ينبغي أن يبقى هذا المال ربما وسوس إليه الشيطان أن يربي هذا المال بمشاريع وكذا وكذا، لا والله لا مشاريع تقام ولا هذه الأموال تسري إلى أيدي أصحابها، الكلمة الوحيدة التي يخيل إلي أن الله سيجعل منها حلاً لهذه المشكلة هي أن أقول لكم: أيها الأخوة من كان يرى أن في عنقه ذمةً اتجاه الله عز وجل قد ارتبطت بماله فليؤدها إلى الفقراء مباشرة، وليبعد هذه الجمعيات عما بينه وبين أولئك الفقراء، فذلك أرضى لله أولاً، وذلك أجزل للمثوبة لكم ثانياً، وذلك أضمن لقلوبكم ثالثاً.

وإذا علم الواحد منكم أن هذه الأموال لن تصل إلى منتهاها الذي شاءه الله عز وجل فإنكم مسؤولون إذاً، لا يجوز أن أوكل إنساناً في إنفاذ زكاة مالي إلى محتاج، إلا بعد أن أثق أنه أمين لن يخون، وإذا عرفنا أن الأمر على النقيض من ذلك، فسيروا إلى الله عز وجل بأجرين اثنين: الأجر الأول البحث عن المحتاجين الحقيقيين، ثانياً أن تدفعوا حقوقهم إليهم مباشرة. فذلك أحرى أن يحفظ الله سبحانه وتعالى لكم الأجر العظيم والوفير.

وأنا أعلم أيها الأخوة أنني عندما أقول مثل هذا الكلام سأسمع تأففاً بعد حين من هؤلاء الذين اتجهت اليهم كلماتي بالنقد والتذكير والعتاب، أنا أعلم أنهم سيتأففون، ولقد تأففوا كثيراً، وأعلم أن فيهم من يتساءل أليس هنالك مشكلات أخرى يمكن أن تتحدث عنها كما قلت لكم منذ أسبوع أو أسبوعين: علينا أن نتسلى جميعاً بجهة واحدة ننقلها، ولقد عرفناها وعرفنا جميعاً إنها القادة والحكام، علينا أن نتسلى جميعاً بالحديث عنها وبنقدها، حتى يكون لنا من ذلك ما يشغلنا عن هؤلاء الذين يعبثون ويعيثون في أرض الله فساداً، أليست هنالك مشكلات أخرى تتحدث عنها، بلى بقيت مشكلة واحدة أن نتحدث وأن نتسلى مع القادة عن أخطائهم.

ولكن الله عز وجل قال: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ﴿كما تكونوا يولَّ عليكم﴾، ولم أعلم أبداً أنه قال كما يُول عليكم تكونون، فلماذا لا نشم رائحة أكفنا؟ لماذا لا نضع أنفسنا مع الآخرين على قدم المساواة؟

كلنا ينبغي أن نقبل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بدءاً من أعلى قمة في القيادة إلى كل فئات الناس كلنا ينبغي أن نخضع لقدسية التذكرة لقدسية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مقياس واحد نتمسك به، أن ننظر إذا كان هذا الكلام حقاً طأطأنا الرؤوس لهذا الكلام، وإذا رأيناه كلاماً بعيداً عن الصواب فلكلٍ منا أن ينقضه ويرد عليه.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يصلح أحوالنا وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يقينا شح أنفسنا في أموال غيرنا قبل أن يقينا شح أنفسنا في أموالنا أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.



١٨٩- مصيبة اختفاء طلاب العلم الليليين من أسواق دمشق |١٩/١١/١٩٩٣

كنت منذ أيامٍ أتلو هذه الآية في إحدى الصلوات وهي قول الله سبحانه وتعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوّ وَالآصَالِ، رِجَالٌ لاّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللّهِ وَإِقَامِ الصّلاَةِ وَإِيتَآءِ الزّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ﴾.

وقفت ملياً أمام هذه الآيات، ولقد ساقتني فيما بعد إلى صورتين اثنتين: إحداهما صورة مشرقة لأمس دابر شاهدته وعشته، والصورة الثانية صورة قاتمة لهذا العصر الذي نعيش فيه.

أما الصورة المشرقة التي عشت طرفاً كبيراً منها في أمس دابر مضى وانطوى، فذلك عهدٌ كانت هذه البلدة تفيض بطلاب العلم، وكان طلاب العلم فيها ينقسمون إلى قسمين: أحدهما من يسمون بالطلاب المتفرغين، أما القسم الثاني فكان يطلق عليهم اسم الطلاب الليليين، وليس حديثي عن الطلاب المتفرغين الشرعيين، وإنما الحديث هنا عن أولئك الذين كانوا يسمون الطلاب الليليين، هؤلاء الطلاب الليليون كان جلهم من كبار تجار هذه البلدة، ومعهم كثير من الصناع والعمال والموظفين، كانت مساجد هذه البلدة ومعاهدها الشرعية تستقبل في كل مساءٍ من بعد صلاة المغرب هذه الطبقة من طلاب العلم الليليين، وعدت أنظر وإذا بمعظم تجار هذه البلدة وأسواقها كل منهم يحمل كتابه مسرعاً إلى معهدٍ شرعيٍ يرتبط به أو إلى مسجدٍ من المساجد القريبة من داره، ويبدأ منهاج دراسة من بعد المغرب إلى صلاة العشاء، ثم من بعد صلاة العشاء إلى ما شاء الله، دروسٌ في العقيدة في الفقه في التفسير في الحديث. هذا ما شهدته بعيني وهذا الواقع كان يترك صدىً يُطرب كل إنسان مؤمن بالله عز وجل مرتبط الشعور والعواطف بالله سبحانه وتعالى. أفتعلمون ما هو هذا الصدى؟

صدىً تراه العين قبل أن تسمعه الأذن، كنت أمر بسوق من أسواق التجار في دمشق وإذا بهؤلاء التجار الذين يتحولون إلى طلاب علمٍ في المساء، كلٌ منهم إما أن يستقبل زبوناً من الزبائن، أو إذا كان فارغاً أقبل إلى كتاب الله، فهو عاكفٌ على قراءته، أو عاكف على قراءة كتاب من كتب العلم التي هو على ميعادٍ معها في المساء. رأيت ذلك بعيني وكل هؤلاء من كبار التجار. ولا تسألوا عن نتائج هذا الواقع

الذي يجسد الانصياع الإيجابي المطرب لقول الله عز وجل: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ، رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾.

ومرت الأيام وانطوت تلك الصورة، وانتشرت صور أخرى، ورأيت كما ترون جميعاً كيف قد آلت هذه البلدة إلى حالة تستقبل فيها قِسماً واحداً من طلاب العلم، هم الطلاب الشرعيون المتفرغون، وجلهم أو أكثرهم وافدون، وهذا مما نحمد الله سبحانه وتعالى عليه، وأبحث ثم أبحث عن أولئك الطلاب الليليين أين أجدهم؟ وأنا لا أبحث عن الطلاب الليليين في أشخاص عمال، ولا في أشخاص صغار موظفين، أو صغار تجار، وإنما أبحث عنهم في من يسمون اليوم بكبار التجار، وأقيس عليه أمثالهم وأندادهم من فئات أخرى، فلا أكاد أجد منهم أحدا، وأتأمل في واقعهم، وإذا بالدنيا قد أطبقت على حياتهم من بكورهم إلى آصالهم، ومن غدوهم إلى رواحهم، فالدنيا هي شغلهم الشاغل، ولا يمكن أن يستثنى من ذلك إلا ساعات يركن فيها هذا الإنسان إلى راحته ثم إلى رقاده، وفي أحسن الظروف نضيف إلى ذلك تلك الدقائق التي يصلي فيها صلواته الخمس. هذا ما آل إليه حالنا اليوم.

ولقد كنت منذ أيام في مجلس ضم ثلة من هؤلاء التجار. وقيل لي: ألا تقول كلمةً ترقق قلوبنا فإن الدنيا قد هيمنت عليها؟ قلت: ما أظن في كلماتي التي سأقولها أي فائدة إلا إذا كانت كلماتي هذه فيها من الإعجاز أبلغ ما في إعجاز الرسل والنبيين، الشيء الذي يرقق القلب قد فاتكم، أين هي الساعات التي ترصدونها لذكر الله؟ أين هي الساعات التي ترصدونها للإقبال على علوم الشريعة؟ أين هي الساعات التي تتعلمون فيها أصول المعاملة الشرعية؟ ألستم أنتم اولاد وأحفاد أولئك الذين كانوا يملؤون أسواق دمشق وكانوا تجاراً مثلكم، وكانوا أغنياء مثلكم، وربما أكثر منكم.. ألا تذكرون كيف كان واقعهم؟! ألا تتذكرون كيف كانت حالهم؟!

وماذا نتوقع أيها الأخوة من إنسان استسلم لعواصف الدنيا؟ وأي دنيا التعامل مع الدرهم والدينار؟ وما أدراك ماذا يصنع التعامل مع الدرهم والدينار إذا انقطع صاحب هذا التعامل عن الله سبحانه وتعالى؟ إنه ينطبق عليه معنى قول الله عز وجل ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ، أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾.

المال يسكر، المال يطغي، المال يبعث لوناً من أخطر ألوان قسوة القلب، المال يجعل الإنسان مهما سمع عظة مهما سمع عبرة مهما سمع تذكرة لا تطرق هذه التذكرة إلا طبلة صماخه، وهيهات هيهات أن تخترق ذلك إلى فؤاده وقلبه، لابد من نافذةٍ تتفتح، فما هذه النافذة؟ هي أن ينفض يده الإنسان ساعة واحدة في كل يوم على أقل تقدير من تجارته من صفقه في السوق من لهوه ليقبل فيها على دين الله عز وجل، ودين الله عز وجل إنما يتم الإقبال إليه قبل كل شيءٍ علماً، ثم يتم الإقبال عليه بعد ذلك اصطباغاً وسلوكاً.

ننظر إلى واقعنا اليوم، كما قلت لكم، وإذا بمن كانوا يسمون بالطلاب الليليين أصبحوا ذكرى من الذكريات. تتأمل تبحث عنهم في أي معهد من المعاهد الشرعية فلا تقع منهم على أثر، تبحث عنهم في أي مسجد من المساجد فلا تكاد تقع منهم على أثر، قد أستثني قلة يسيرة يسيرة يسيرة من الناس. نعم والمشكلة التي هي أهم من هذا أننا عندما نحاول أن نذكّر، ونحاول أن نعاتب العتاب الرقيق المنبعث من دوافع حب، نجد التأفف نفاجىء بالتألم.

بالأمس في الليلة الدابرة كنت في لقاء في عقد من العقود، ورأيت ثلة من هؤلاء التجار في ذلك المكان، ودعيت إلى الكلام فطرقت هذا الحديث، وذكرت بهذه الآية وتساءلت أين أنتم أيها الأخوة من كفتي دينكم ودنياكم؟ لماذا تتعاملون من الميزان مع كفة واحدة؟ الكفة الواحدة تخنق تهلك. أين هو التوازن بين الدين والدنيا؟ ألستم أنتم أحفاد وأولاد أولئك الذين كان من شأنهم كذا وكذا وكذا، ثم إننا نعلم كم تفعل الدنيا من الأعاجيب بصاحبها، كم تبعده عن الله عز وجل، كم تجعله مجنداً فقط لشهواته وأهوائه. فلماذا لا نرصد من أوقاتنا وقتاً للإقبال فيه على الله عز وجل إن في سبيل علمٍ نحن بأمس الحاجة إليه، أو في سبيل ذكرٍ من ذكر الله نتعهد به قلوبنا كما يقول الله في هذه الآية؟ قلت: وبدافع من الحب والشفقة، وبأسلوب كامل من اللطف ويكلمني بعد ذلك في الهاتف من يتأفف من كلامي، ومن يشبه حديثي بعصاً كانت غليظة، ومن يشبه حديثي هذا بشيء جرح وآذى، تلك هي المشكلة الثانية والتي هي الأطم والأخطر.

أن يوجد مريض في مجتمعنا تلك سنة من سنن الله، ولا حرج من أن تكون هذه السنة موجودة إذا كان المريض يستسلم للطبيب، لكن المصيبة الأدهى أن ينظر المريض إلى الطبيب نظرة إنسان إلى عدوه، تلك هي المصيبة التي لا علاج لها، المصيبة لا تكمن في غفلة عن الله، لكنها تكمن في تأففك من أن تتألم أو تتأفف ممن جاء لينقذك من هذه الغفلة، عندئذٍ تتحول هذه الغفلة إلى مرض قد لا تستطيع النجاة منه.

وإنني لأذكر يوم قلت وكتبت إذا كان من شأني أن أرى كل فئة من الناس تتأفف عن التذكرة، إن ذَكّرت أخوتنا التجار تأففوا، وإن ذكرت الجمعيات الخيرية بما ينبغي أن تنهض به وتقوم على أساسه حالها تأففوا، وإن ذكرت طبقات الموظفين تأففوا، وإن ذكرت مختلف الفئات تأففوا، إذاً كيف السبيل إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟! لسان حال هؤلاء جميعاً يقول: أجل هنالك سبيل واحد بإمكاننا أن نستغني به عن السبل كلها، هو أن نتسلى بالهجوم على الحكام فقط، دع هؤلاء جميعاً دع التجار دعهم أحراراً يفعلون ما يصنعون دع الأطباء الذين كم نقول اجعلوا من أوقاتكم ساعة لتطبيب قلوبكم كما تقيضون ساعات كثيرة لتطبيب جسوم الناس، عندما نتجه إلى هؤلاء جميعاً بالعتب نجد الأبواب مسدودة، وقد رضينا أن تكون الأبواب مسدودة، لا بل نجد إلى جانب ذلك التأفف، علينا أن نتسلى كما قلت بالهجوم فقط على فئة واحدة من الناس، ونحن ما ينبغي أن نتهجم لا على هؤلاء ولا أولئك ولا أولاء، ولكن مهمتنا التي أمرنا الله بها التذكرة، وعلى الجميع أن يقبلوا التذكرة.

فكيف السبيل أيها الأخوة وقد رأينا أن سبل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مغلقة بتأفف هذه الفئات كلها، أعتقد أننا عندما نتأمل في هذه الظاهرة التي نحلل طرفاً منها ندرك آلامنا وندرك أسرار آلامنا وندرك مفاتيح الحل لمشكلاتنا ونعلم أننا لا نريد أن نستعمل هذه المفاتيح. أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.



١٩٠- ترويج الصعاليك للفساد | ١٩٩٦/٠٤/٢٦

إنكم لتعلمون أنكم تمرون بخواتيم هذا العشر المبارك، هذه الأيام التي أقسم الله سبحانه وتعالى بمحكم تبيانه، وهي العشر الأول من شهر ذي الحجة، وهي الأيام والليالي التي قال الله عز وجل فيهن: ﴿وَالْفَجْرِ، وَلَيَالٍ عَشْرٍ، وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ، وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ، هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾

وقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: ﴿ما من أيامٍ العمل الصالح فيها أفضل منه في هذه الأيام﴾ أي في هذه الأيام العشرة، قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله يا رسول الله. قال: ﴿ولا الجهاد، إلا رجلٌ خرج بنفسه وماله فلم يعد من ذلك بشيء﴾.

أما يوم عرفة وهو تاسع هذه الأيام فقد ميز الله سبحانه وتعالى الحديث عنها فضلاً عن عموم الكلام الذي يسري على هذا اليوم أيضاً، باستحباب صومه. وقد روى مسلم وغيره من حديث أبي قتادة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سُئلَ عن صوم يوم عرفة فقال: ﴿هو كفارة عن سنة مضت وسنة آتية﴾ وقد ورد هذا الحديث بألفاظٍ متقاربة بطرقٍ كثيرةٍ شتى؛ يؤكد فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم أن صوم يوم عرفة إذا كان احتساباً لله سبحانه وتعالى يكون كفارة لذنوب السنة الماضية وكفارة للذنوب التي قد ينزلق إليها الإنسان في السنة الآتية.

وخلاصة ما ينبغي أن نعلم أننا نمر بأيامٍ متميزة خاصة من أيام العام، ويأتي بعد ذلك عيد الأضحى وأيام التشريق، وهي كلها أوعية جعلها الله سبحانه وتعالى بين يدي الإنسان ليملأها بالقربات وليملأها بالطاعات والعبادات، ومن ثم فإن الإنسان بوسعه أن يتدارك ما فاته من الحج إلى بيت الله الحرام أينما كان مقامه، بوسعه أن ينال المثوبة ذاتها إن هو انتهز هذه الفرصة التي نبهنا إليها كتاب الله سبحانه وتعالى وأرشدنا إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وإذا كان استعمال هذا الوقت أو هذه الأزمان المباركة في المثوبة يُضاعف من الأجر ويُضاعف من المثوبة، فإن استعمال هذه الأوقات في نقيض ذلك من المعاصي والمحرمات يحقق عكس ذلك تماماً، فكما أن الإنسان يتضاعف قربه من الله سبحانه وتعالى بالخطى التي يخطوها إلى الله بطاعاته وعباداته، فإن المعاصي التي يرتكبها تُضاعف من بعده عن الله سبحانه وتعالى أيضاً في هذه الأيام.

هذا بالإضافة إلى شيءٍ آخر أيها الإخوة، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما صح عنه: ﴿عبادةٌ في الهرج كهجرة إليّ﴾ والهرج كما قال علماء الحديث وشُرّاحه: هو الفتن والقتال، يقول عليه الصلاة والسلام: إقبال الإنسان إلى الله عز وجل بالطاعة والتبتل والعبادة والدعاء والتضرع أيام الفتن وأيام الاقتتال أشبه ما يكون في درجة ذلك كهجرة أحدكم إلي.

وإنكم لتعلمون مثوبة الهجرة إلى الله وإلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأعتقد أننا جميعاً نعلم أننا نمر بأسوأ ساعات الهرج والمرج، فالفتن مُدلَهِمّة، وقتال العدو الشرس للمظلومين البرئآء مستمر، فإذا لاحظنا هذا المعنى الثاني بالإضافة إلى قيمة هذا الوقت الذي نبهنا إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم نُدرك أنه ينبغي حتى على المستغرق في لهوه وعلى المستغرق في فسوقه وعصيانه، ينبغي أن يجد من الحوافز ما يدعوه إلى الإقبال إلى الله عز وجل والإقلاع عن لهوه وعصيانه ومجونه وفسقه؛ ذلك لأنه إن لم يندفع إلى ذلك بسائق من فضيلة هذه الساعات، اندفع إلى ذلك بسائقٍ من هذا الكلام الذي يقوله المصطفى عليه الصلاة والسلام

وإذا رأى الإنسان في خِضم الفتن، وإذا رأى أن أعداءه يُحيطون به من كل جانب، وإذا رأى المكائد تحوك ضد المسلمين، وإذا رأى أن البرئآء والآمنين والآمنات من الكبار والصغار يُشردون عن بيوتهم فلم يدفعه ذلك إلى الرجوع إلى الله وإلى التبتل بين يدي الله عز وجل. فما أحسب أن هذا الإنسان سيجد بعد ذلك فرصة أخرى للإقبال على الله سبحانه وتعالى.

أيها الإخوة زبدة هذا الكلام الذي أقوله لكم، أن علينا أن نتواصى جميعاً بل على كلٍ منكم أن يكون لساناً ناطقاً ونبراساً منيراً بين إخوانه وأصدقائه، في السوق الذي يكون فيه، بين زملائه وإخوانه الذين يجالسهم، ينبغي أن يكون لساناً ناطقاً منبهاً إلى هذه الحقيقة التي نقولها. ينبغي أن يُقلع أصحاب اللهو عن لهوهم، ينبغي أن يُقلع الدعاة إلى الإباحية عن دعوتهم هذه، وينبغي أن يجأر الكل بتبتل ضارع إلى الله عز وجل لينالوا نصيباً من قوله عليه الصلاة والسلام: «عبادةٌ في الهرج كهجرةٍ إلي».

ومع ذلك وعلى الرغم من هذه الوصية التي ينبغي أن نتواصى بها جميعاً، فالخطر الأكبر أيها الإخوة لا يتبدى من مظهر عدوٍ شرس يُصر على القتال، ويُصر على أن يمارس الإرهاب بأحط صوره الشخصية والشكلية والوحشية التي ما مثلها، ولكن الخطورة تتمثل فيما يجرنا إلى هذا الوضع أو فيما يجر العدو إلى ذلك، الخطورة كل الخطورة تكمن في أننا ننظر في هذه الساعات ذاتها فنجد من يظل عاكفاً على لهوه وعصيانه، نجد من يُتاجر بالإباحية كسبيلٍ يجمع من وراءها المال، البرئآء الآمنون يُشردون ويُقَتلون وبيوتهم لا أقول تُحتل بل تُنسف، وبيننا من يلهث وراء التجارة، وليت أنها كانت تجارة عن طريق مشروع وإنساني سامٍ، تجارة رخيصة تجارة دنيئة عن طريق ترويج أسباب الإباحية بأسوأ صورها وأشكالها، لو أن الإنسان

استمرأ هذه الحال في ساعات الرخاء لقلنا أنها مظهر من مظاهر الضعف الإنساني، أما أن يستمرأ الإنسان هذه الحالة، وهذه الشدائد تطوف بنا، وهذه الفتن تدور رحاها علينا، وهذا الهرج والمرج كما تسمعون بل كما ترون، أن نجد أناساً في هذه الحالة يلهثون ويسيل منهم اللعاب في سبيل جمع المال عن طريق التجارة بالإباحية وبالتحلل من المبادئ والقيم، هذا هو الخطر الأشد، وهذا هو الذي يُطمع العدو فينا، وهذا هو الذي يفتح السبل ما بيننا وبينه أيها الإخوة. هذا الكلام لا يمكن أن يجهله عاقلٌ بشكلٍ من الأشكال.

قيل لي: وكدت أن لا أصدق – في هذه الأيام والعواطف مشدودة إلى حال إخوان لنا قريباً منا كما تعلمون والعقول كلها تُفكر وتقدر وتتساءل عن سبيل الفرج في هذه الحال، يُقال لي: إن هنالك من ينثر وينشر بطاقات يدعو الشباب فيها مجاناً إلى جلساتٍ وحفلاتٍ مليئة بالفجور، مليئة بالخنى، مليئة بالميوعة وأسبابها، دعوةٌ إلى حفلات مجانية، ولعلكم تعلمون نماذج منها تُنثر وتُنشر بطاقاتها في الصيف، لكن اليوم لا في الصيف بل في هذه الأيام، ولعل المناسبة أن عدواً يحاول أن يفتك بهذه الأمة ماضٍ في نسف البيوت وفي تشريد الأُسر، لعل هذه هي المناسبة أيها الإخوة. هؤلاء من أبناء جلدتنا بحسب الظاهر؛ يدعون شبابنا ذكوراً وإناثاً إلى هذه الحفلات تتويج ملكة الجمال، مسابقة أجمل رقصة، إلى آخر الكلمات التي تعرفون والتي لا أريد أن أدنس هذا المكان المقدس بعباراتها.

إنني لأتساءل: ما هي قيمة الوطنية أو ما هو نصيب الوطنية إن كانوا يتعاملون بالوطنية أو بالقومية؟! إن كانوا يتعاملون بالقومية، أو الشرف إن كانوا يشعرون بشيء من الشرف، أو الدين إن كان لديهم شيءٌ من الدين واحترامه، ما نصيب هؤلاء من هذا كله. بل كيف يستقيم أن يتصور كل منا هذه الصور التي تقشعر لها القلوب، وكلكم رأى صوراً منها في الأجهزة الإعلامية المرئية؟

كيف يتسنى؟ بل كيف يكون هذا الإنسان إنساناً؟ وكيف يكون هذا الإنسان متفاعلاً مع بلده ووطنه وأمته، ثم يكون همه الأوحد أن يقتنص المال عن طريق ترويج الخنى، عن طريق ترويج الإباحية وأسبابها في هذه الأيام بالذات أيها الإخوة؟!. كيف يمكن لإنسان يتفاعل شعورياً أو عاطفياً أو إنسانياً مع الساعات التي يمضيها رئيس هذه الدولة منذ أيام ليل ونهار، لا يهدأ ولا يستريح في سبيل صد العدوان، وفي سبيل درء الأخطار، وفي سبيل المحافظة على عزة هذه البلدة وهذه الدولة وهذه الأمة، وإن اقتضى ذلك أن لا يستقبل أكبر مسؤول لأكبر دولة ؟ كيف يمكن أن أتفاعل عاطفياً مع إنسانٍ يمضي وقته كله

في سبيل حل هذه المعضلة إذا كنت أستغل هذه الفرصة من أجل أن أدعو الناس إلى حفلات ماجنة، إلى حفلات داعرة من أجل أن آخذ المال، ومن أجل أن لعابي يسيل على أموالٍ محرمة أملأ بها جيبي. هل يمكن أن تتصوروا الصَغار أيها الإخوة والذل في أسوء وأحط من هذا المظهر.

إسرائيل أيها الإخوة عندما تدعو إلى ما يسمى بالسلم ما هو أملها من وراء ذلك؟ أملها وكما أعلنت وكم كررت – أملها ما يسمى بالتطبيع، وما هو أملها من وراء التطبيع؟ أملها أن تمتص الثروات الاقتصادية لهذه البلدة وأن تنفث في مقابل ذلك روح الإباحية فيها، هذا هو شهيقها وذلك هو زفيرها، تشهق لامتصاص الثروات الاقتصادية التي متعنا الله عز وجل إياها. وتزفر ببث أسباب الإباحية لدينا، انظروا إلى النموذج الذي يُجسد هذا كله لدى جيران لنا، انظروا إلى الملاهي التي تفتحت، انظروا إلى الدور التي وجدت ولم تكن موجودةً من قبل، انظروا إلى الخطط الإباحية التي تُطبق تحت مظلة السلم بل تحت مظلة التطبيع، هذا هو الدافع لإسرائيل ما يسمى بسلمها الذي تحلم به وهذا هو المعنى الوحيد للتطبيع الذي تنادي به، وإذا كنا نجد من أبناء جلدتنا اليوم من يفعلون هذا، فإن إسرائيل لا شك أنها تصفق، لأن الله قد أرسل إليها خدماً يحققون آمالها بدون قيمة، يحققون رغائبها بدون كلفة، أجل هذا هو الهدف أيها الإخوة.

وصيتي التي لابد أن أقولها لكم ونحن جميعاً لا نملك أمام هذا الهرج وهذه الفتن الحمراء إلا الدعاء ولا نملك إلا التضرع والإقبال على الله عز وجل. وصيتي أيها الإخوة أولاً أن نقبل إلى الله سبحانه وتعالى فنتبتل وندعو ونتضرع حتى يصيبنا نصيبٌ من قوله عليه الصلاة والسلام «عبادةٌ في الهرج كهجرةٍ إلي».

ووصيتي الثانية: إذا رأيتم هؤلاء الصعاليك، إذا رأيتم هؤلاء الذين يروجون في هذه الأيام لما تخطط له إسرائيل من وراء التطبيع أن تحطموا وسائلهم بكل ما تملكون، نحن لا نستطيع في هذا الجو اللاهب أن نفعل شيئاً مادياً، من وراء الدعاء ولا نستطيع أن ندعم موقف رئيس هذه الدولة الذي كان ولا يزال يصنع بمواقفه العزة لهذه الأمة، لا نملك أن ندعم مواقفه إلا بهذا السبيل، فكونوا حُرّاساً أيها الإخوة للقيم في بلدتكم، كونوا حُرّاساً للأخلاق على أرضكم. إياكم وهؤلاء الناس.

قد تجدون صوراً تنطق بألفاظ العربية وقد تجدون مظاهر تنتمي إلى وطن عربي وإسلامي، ولكن احذروا فما أكثر ما تستقطب هذه الصور خدماً لإسرائيل.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.



١٩١- سبب فساد المجتمعات الإسلامية | ١٩٩٦/٠٦/٠٧

إن سبب فساد المجتمعات الإسلامية محصورٌ في أمرين اثنين: إما أن يغيض في ذلك المجتمع واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهذا السبب الأول، وإما أن يشيع فيه واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولكنه لا يصادف آذاناً مُصغية ولا نفوساً متقبلة، وإنما يُواجه بنفوسٍ متمردةٍ وآذانٍ تُصم نفسها عن سماع الحق. هذان هما السببان اللذان إليهما مردُ فساد المجتمعات الإسلامية، ولا أعتقد أن من وراء ذلك سبباً ثالثاً. وانظروا في هذا إلى قول الله عز وجل: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ

بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي المجتمع الذي يشيع فيه هذا الواجب وتنتشر فيه هذه المسؤولية هو المجتمع الذي يتصف بالفلاح والرشد.

ومعنى ذلك.. أن هذا الواجب إذا غاض في المجتمع فلم تعد هنالك ألسن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فلا شك أن هذا المجتمع لابد أن ينحرف عن طريق الفلاح وأن ينحط في طريق الغواية والضلال، ثم انظروا في هذا إلى قول الله عز وجل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ، وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللّهَ﴾ أي إذا أُمر بالمعروف ونُهي عن المنكر ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾.

أرأيتم إلى نص الكتاب المبين كيف يعلن صراحةً أن مردَّ فساد المجتمعات الإسلامية إلى أحد هذين المرضين: إما أن تختفي مسؤولية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهذا سبب، وإما أن لا تختفي ولكن لا تصادف هذه المسؤولية آذاناً صاغية ولا نفوساً متقبلة، بل تجد أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يصطدمان بنفوسٍ قد أخذتها العزة بالإثم، وأعتقد أن مجتمعاتنا الإسلامية اليوم تعاني من هذين المرضين معاً، فواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اختفى أو كاد يختفي وأصبحت الفئة التي تتذكر المعروف لتأمر به وترى المنكر لتنهى عنه فئةً قليلة جداً، ولكن مجتمعاتنا حتى عندما يوجد فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لماماً وفي الحالات النادرة، فالغالب أن يُصادف هذا الأمر بالمعروف أو النهي عن المنكر نفوساً يصدق عليها وصف الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ﴾.

ثم يقول الله عز وجل ونسأله العفو والعافية: ﴿فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾. كم وكم تذكرتُ معروفاً ينبغي أن آمر به، وكم وكم رأيت منكراً ينبغي أن أُحذر منه. فقلت.. وذَكّرت.. أمرت.. ونهيت جُهد الاستطاعة وبالأسلوب الإنساني اللطيف، ولكني ما أذكر أني مرةً رأيت صدىً إيجابياً لهذه التذكرة قط إلا في الحالات النادرة جداً، الصدى الذي رأيته ولا أزال أراه هو ذاك الذي يُذكرني مع خوفٍ شديد بقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ﴾.

إذاً فمجتمعاتنا تعاني من هذين الداءين معاً، قلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من جانب، ومواجهة هذا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بعزةٍ تتأبى على الانصياع لهذه التذكرة من جانبٍ آخر.

ولا أريد أن أضرب الأمثلة أيها الإخوة، ولا أريد أن أحدثكم عن الجوانب التي ذكرت فيها بمعروف أو نهيت من خلالها عن منكر فالأمثلة كثيرة، ولعلي ذكرت أكثر من مرة في ما مضى العبرة التي جنيتها من وراء ذلك لقد قلت أكثر من مرة جربت أن التفت إلى فئات من الناس قد ذهلوا عن واجب الله عز وجل فانحرفوا إلى بعض المحرمات أو تناسوا أو نسوا بعض الواجبات؛ لاحقت هؤلاء الفئات بالتذكرة اللطيفة الإنسانية المقبولة، فما رأيت نتيجةً لهذه التذكرة إلا التأفف وإلا الضجر وإلا ما قد قاله الله سبحانه وتعالى العزة التي قد حجبت آذان هؤلاء الناس عن تذكرة الحق.

وقد قلت لكم مرة: إنني جربت أن أطرق أبواب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كلها بالنسبة لسائر فئات الناس، فما رأيت أحداً يُصغي إلى معروفٍ أُذكر به أو يصغي إلى منكرٍ أنهاه عنه، ولذا فخير ما ينبغي أن أتسلى به هو أن اتجه إلى الحكام فآمرهم هم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر، ولعل هؤلاء أقل الفئات تأففاً. وهذا ما قد رأيته ولعل هؤلاء أقل الفئات احتجاباً عن الحق بعزة النفس ربما لا يستجيبون ولكنهم في أسوأ الأحوال يلوذون بالصمت. أما تلك الفئات الأخرى من فئات هذا الشعب أو هذه الأمة التي تستشري بين جوانحها البغضاء وتأخذها العزة فعلاً بالإثم وتتأبى على التذكرة فتلك هي المصيبة التي لا دواء لها.

عندما يشيع في المجتمع انحراف، أو يتكاثر سعيٌ إلى مُحرّم أو ارتكاب منكر، فالدواء واضح والدواء ماثلٌ وقريب وهو: أن يوجد من يأمر بالمعروف وأن ينهى عن المنكر، الدواء أن يوجد من يقول لهؤلاء الناس أيها الإخوة هذا منكرٌ فاعرضوا عنه وهذا واجبٌ أو معروف فتشبثوا به، ولكن ما الداء؟ عندما يوجد بالأمر بالمعروف ويوجد النهي عن المنكر ومع ذلك تبقى هذه الفئة التي تلبست بمنكرٍ أو نسيت معروفاً تبقى محجوبة عن هذه التذكرة، وتأخذها العزة بالإثم، وتتأبى وتتأفف، وتعلن الضجر كل الضجر

عن هذا المعروف الذي ذُكرَت به، في هذه الحالة ما العلاج أيها الإخوة؟ الأمر بالمعروف نُفِّذ والنهي عن المنكر نُفّذ ولكن عندما تكون النتيجة هكذا ما هو العلاج؟

الملاذ هو الله، والمفر إلى الله سبحانه وتعالى، ونحن من أي الفئات كنا سواءٌ كنا ممن يُذكِّر أو ممن يُذكَّر ينبغي أن يكون الحكم الفصل فيما بيننا ميزان شرع الله، ميزان هدي الله، الانصياع لحكم الله سبحانه وتعالى، فإذا ذُكرت بمعروف فلأرجع لهذا التشريع، هذا التشريع سيوضح لي ما إذا كان هذا الذي يذكرني مفتئتاً علي أو متطرفاً أو مبالغاً أو كان عادلاً في حكمه وتذكرته. فلماذا لا نجعل من شريعة الله الحكم؟ لماذا لا نجعل من ميزان هذا الدين الجامع لشمل هاتين الفئتين التي تُذكر والتي تُذكَّر.

ألم يقل الله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾.؟! فإذا تأففنا من حكم الله ومن شرعه وهديه الذي نلوذ به كلما أمرنا بمعروف، ونلوذ به كلما نهينا عن منكر، إذا تأففنا من شرع الله عز وجل فمعنى ذلك أننا قطعنا ما بيننا وبين سبل الصلاح آخر خط من الخطوط، وأنهينا سبيل العلاج لإصلاحنا بشكلٍ كلي.

أيها الإخوة كما قلت لكم: الأمثلة كثيرة في ذهني وأنا لا أريد أن أضرب المثل لأن المسألة ليست متعلقة بجزئية من الجزئيات، المشكلة تتمثل في كليةٍ خطيرة جداً، أننا نتأبى على التذكرة بالخير وعلى النهي عن المنكر؛ أياً كان نوع هذا الخير الذي نأمر به وأياً كان نوع هذا المنكر الذي نحذر منه وننهى عنه.

تلك هي المصيبة.. دعوا الجزئيات، ولكن كثرة هذه الجزئيات تنبهنا إلى كلي هذا المرض العضال الذي نعاني منه، وأنا عندما أقول هذا الكلام، لابد أستثني قلة التي يرحمها الله عز وجل دائماً، ولكن ينبغي أن نعلم أن القلة لا تفيد عندما يستشري السوء ويزداد في المجتمع كله لا تفيد، ما معنى أن أقول: هنالك قلة، وأنا لا أستطيع أن أعتمد عليها في رحمةٍ يكرمنا الله بها، ألم يقل الله عز وجل: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾.

هذا هو داؤنا وهذا يدعوني إلى أن أقول لكم: عندما نعافى من هذا الداء فيشيع في مجتمعنا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بقدرٍ كافٍ وافٍ يغطي حاجات مجتمعنا، وإذا كان الذين يُذكَّرون بهذا

المعروف وينهون عن المنكر يتمتعون بآذان صاغية ونفوسٍ راضية تقبل الخير الذي تُأمر به وتقبل أن تُقلع عن الشر الذي تُنهى عنه، فاعلموا أن مجتمعنا عندئذٍ سينتشل من ضلاله وضياعه وأنه سيرقى إلى مستوى الصلاح والأمن والطمأنينة والقوة. أقول قولي هذا واستغفر الله العظيم.



١٩٢- هذه مشكلاتنا.. حقائق وحلول | ١٩٩٧/٠٥/١٦

إن من الأسئلة التي تنطوي على مغالطة كبيرة، سؤال أحدهم للمسلمين الذين يحلمون بعودة المسلمين إلى حظيرة الإسلام، ورجوعهم إلى التمسك بمنهج الإسلام والسير مجدداً على صراط الله سبحانه وتعالى، يقول أحدهم لهؤلاء المسلمين الذين يحلمون بعودٍ حميد إلى الإسلام والسير على صراط الله سبحانه وتعالى: ما هو المنهج الذي أعددتموه؟ ما هو البرنامج الذي هيأتموه لكي يسعد المجتمع في ظل الإسلام الذي تحلمون به؟

ونظراً إلى أن كثيراً من المسلمين الذين يتحركون في ساحة الدعوة إلى الله لا يعلمون المغالطة التي ينطوي عليها هذا السؤال، بل ربما كان نصيبهم في معرفة الإسلام والثقافة الإسلامية نصيباً يسيراً جداً؛ نظراً إلى ذلك فأكثر هؤلاء المسلمين يُحرجون عندما يستمعون إلى مثل هذا السؤال، وربما لم يحيروا جواباً ولا يعلمون كيف يُجيبون، لأنهم ينظرون إلى ما بين أيديهم فلا يجدون أنهم قد هيَّأوا منهاجاً ورسموا خطة، بينما الآخرون أصحاب المذاهب الأخرى يُهيِّئون مناهجهم ويرسمون خططهم ويلوحون بها دعايةً لأنفسهم. فما هو وجه المغالطة أيها الإخوة في هذا السؤال؟

هؤلاء الذين يسألون مثل هذا السؤال، يُخيل إليهم أن هنالك مشكلات معقدة في قاع المجتمع العربي اليوم، وأن هذه المشكلات تحتاج إلى حلها وحل رموزها وطلاسمها إلى عباقرة يخططون وإلى علماء ومخترعين يُبدعون ويمنهجون، ومن ثم يسألون المسلمين هذا السؤال. ولكن الواقع أنه لا توجد مشكلات سحرية من هذا القبيل في أيٍ من مجتمعاتنا.

مشكلات المجتمعات العربية والإسلامية اليوم تتمثل في أن هؤلاء المسلمين لا يُخلصون للإنسانية قبل أن نقول لله عز وجل في أعمالهم، يمدون أيديهم إلى حقوق الآخرين إن عن طريق الظلم والاستلاب والاقتناص، أو عن طريق الرشاوي أو عن طريق الخداع.

مشكلات المسلمين نابعةٌ من واقع المسلمين، من سوء حالهم، من عدم إخلاص كلٍ منهم لرعاية الإنسانية التي أناط الله مسؤوليتها في عنقه، تلك هي المشكلات. مشكلاتنا تتمثل في التسيب، ونحن أبطال التسيب.

مشكلاتنا تتمثل في أن الواحد منا إذا وُظف بعمل فإنه يضع نصب عينيه أن يخدم نفسه، وأن يُسخر عباد الله بدلاً مما يقوله الله عز وجل له أن يخدم عباد الله ويسخر لهذه الخدمة نفسه.

مشكلاتنا تتمثل في أنني لا أقوم بعملٍ كُلِّفت به إلا من بعد أن آخذ الإتاوة – أي ضريبة – التي يأمرني الشيطان أن آخذها. مشكلاتنا تتمثل في ظلم الإنسان للإنسان

فإذا أقبل المسلمون إلى قيادة المجتمع، هل هنالك حاجةٌ إلى أن يضعوا خطةً سحرية للتخلص من هذه المشكلات؟! لا.

المشكلة تُحل بأن يحل في هذه الأماكن محل هؤلاء الغاشين والخادعين والظالمين والمتسيبين، حل المشكلة أن يحل محل هؤلاء الناس أناسٌ يخافون الله، يخلصون لدين الله سبحانه وتعالى، ويراقبون الله عز وجل في أعمالهم.

وتنظر وإذا بالأمر استقام بعد اعوجاج، وإذا بالمشكلات قد حُلت دون وضع خطة ودون رسم بيانٍ ومنهاج ونحو ذلك، الخطة تنبع من الإخلاص لله سبحانه وتعالى.

انظر إلى هؤلاء المسلمين المخلصين لدين الله الذين يحلون محل أولئك الذين كانوا يخدمون أنفسهم ويستغلون عباد الله عز وجل، فسوف تجد أن الغش قد اختفى، وحل التناصح في مكانه، وأن التسيب قد اختفى وحل في مكان ذلك الخدمة التي تنبع من الغيرة على عباد الله سبحانه وتعالى، تنظر فتجد أن الأيدي التي كانت تمتد لطلب الرشوة اختفت وظهرت الأيدي التي تمتد لتخدم، ظهرت الأيدي التي تمتد لتضحي براحتها ونفسها في سبيل خدمة عباد الله سبحانه وتعالى، تنظر وإذا بالمشكلة قد انجابت، وإذا بالحل قد ساد. من أين كان حل هذه المشكلة؟ هل تم هذا الحل بخطة وُضعت في ليالٍ مظلمة في سهرات متوالية؟ لا. وما كان لهذه الخطة أن تفعل شيئاً إن لم يوجد الإخلاص لله عز وجل بين جوانح المنفذين.

لو أن المسلمين الذين يحلمون بعودة المسلمين إلى إسلامهم الحق كانوا من الثقافة الإسلامية بمكان، لأدركوا المغالطة الفجة في هذا السؤال الذي يسأله كثيرون من الناس، ولعل فينا من يقول فهل هنالك نموذجٌ تطبيقي يدلنا على أن حل المشكلة لا يحتاج إلى كل هذا الاهتمام؟

نقول: أجل وفي كل عصرٍ هنالك نماذج تُذكرنا بهذه الحقيقة التي ينبغي أن نعلمها، أجل في كل عصرٍ بوسعكم أن تجدوا أن حلول المشكلات الاجتماعية تكمن في تربية المسلم، ما من مشكلة مهما كانت عسيرة إلا وسوف تُحل عندما يقود المجتمع مسلمون رُبوا على عين الله عز وجل، رُبوا التربية الإسلامية الحقيقية بدءاً من القلب فما وراء ذلك إلى الظاهر.

والنموذج التطبيقي اليوم واقع المجتمع التركي أيها الإخوة، قبل سنوات كيف كان ذلك الواقع الاجتماعي؟ كان مليئاً بالفساد كان مليئاً بالتخريب، كان مليئاً بالأثرة بدل الإيثار كانت الرشاوي هي التي تقود كان التسيب هو الذي يُهيمن لماذا؟ لا لأنه لم تكن هنالك خطة رشيدة، لا، ولكن لأن الذين

كانوا يمسكون بزمام الأمور في الدوائر وهنا وهناك كانوا لا يعبدون إلا أنفسهم، كانوا لا يتصورون أن لهم حظٌ في خدمة عباد الله عز وجل إذ كانوا محجوبين عن معرفة الله، كانوا محجوبين عن معرفة دين الله عز وجل ومن ثم فلم يكن يحلو للواحد منهم إلا أن يستغل وظيفته في خدمة نفسه.

وهكذا تراجع ذلك المجتمع في سائر مظاهره إلى أنواعٍ متنوعة من الخراب والفساد والتسيب والرشاوي، ما الذي آل إليه الأمر بعد ذلك؟ ظهر المسلمون على الساحة وحلوا أو حل الكثير منهم محل أولئك الذين حيل بينهم وبين الإيمان بالله عز وجل، حيل بينهم وبين معرفة لذة العبودية لله عندما تظهر هذه العبودية في خدمة عباد الله عز وجل، ظهر هؤلاء الناس رؤساء لبلديات أو قائمين بأعمال ووظائف مختلفة، ومرت أيامٌ وأيام ونظر الناس فإذا بظلام الفساد بدأ ينقشع وإذا بالتسيب بدأ يتحول إلى عمل جاد لخدمة الأمة، وإذا بالمرافق التي كانت مهدرة ومتروكة ازدهرت بالعمل، وإذا بالناس الذين ضاعوا بين ظلم هؤلاء وهؤلاء الناس من قبل إذا بهم ينالون حقوقهم.

انظر إلى المجتمع التركي اليوم، انظر إلى أعمال رؤساء البلديات ومن دونهم تجد نموذجاً لأعلى درجات الخدمات الإجتماعية الباهرة تجد أن كل ذلك التسيب قد اختفى، وتجد أن أولئك الناس الذين كانوا يقبلون متخوفين إلى شبح الفقر والحرمان والبطالة يفتحون أعينهم ليجدوا أنفسهم يقبلون إلى آمالٍ مزدهرةٍ بالغنى والعمل والتقدم والرفاه الاجتماعي والاقتصادي. والسؤال هل اقتضى هذا وضع خطة؟ هل اقتضى هذا كله رسم بيان؟

كما يُطالِب هؤلاء المتشدقين عندما يقولون للمسلمين الذين يتألمون من أن المسلمين حادوا عن منهج ربهم: أرونا منهاجكم؟ أرونا بيانكم الذي هيأتموه. هل احتاج أولئك الناس وقد فعلوا ما فعلوا من تحويل الخراب إلى عمار والتسيب إلى جدٍ وخدمة؟ وتحويل اليأس لدى الذين يعانون البطالة ويعانون الفقر والشظف ونحو ذلك إلى أملٍ وازدهار؟ هل احتاج أولئك الذين أصلحوا الفساد وقوموا الاعوجاج إلى بيانٍ يضعوه؟

البيان مرسوم في القلب البيان موجود حرقة بين اللواعج، عندما كان هؤلاء المخلصين لله يعلمون أنهم آيلون إلى الله ويريدون أن يملأوا صحائف أعمالهم بما يرضي الله عز وجل، وعلموا أن أعظم القربات

إلى الله إنما يتمثل في خدمة عباد الله سبحانه وتعالى نجحوا، الخطة طُبقت قبل أن تكتب والبيان نُفذ قبل أن يرسم وأن يُعلن عنه، هذا هو النموذج أيها الإخوة.

أليس من الغريب أيها الإخوة وهذا هو الواقع المرير أن تجدوا من يُضحي بمصلحته ويُضحي بمجتمعه ويضحي بمنهاج تقدمه في سبيل أن لا يصافح دين الله عز وجل، كأنه يقول: إذا كان ثمن هذا الازدهار، إذا كان ثمن هذا التقدم إذا كان ثمن هذا الوضع الاقتصادي والاجتماعي والأخلاقي المتفوق المزدهر أن أصافح الإسلام فلن أصافحه، ولسوف أُضحي بكل مصالحي، دعني أتقلب في ظلام التخلف، دعني أتقلب في ظلام التسيب، دعني أتقلب في ظلام الفساد بكل ألوانه وأنواعه، لكن على أن لا تحرجني في أن أصافح دين الله عز وجل.

أما نحن فنقول إن علينا أن نكون إنسانيين بمعنى الكلمة وأن لا نكون مسخاً للحقيقة الإنسانية، فهذه واحدة، ثم علينا أن نبذل كل ما نملك من جهد وعرق ومالٍ في سبيل أن ننتشل مجتمعنا من الفساد في أن ننتشل مجتمعنا من الضيعة والهوان في سبيل أن نرقى به إلى سدة الازدهار، فهذه ثانية. ولما عرفنا برأي العين أن سبيل ذلك هو الإيمان بالله والالتزام بحدود الله والالتزام بشرعة الله عز وجل كان لابد أن نستعمل المفتاح الذي لا ثاني له ألا وهو مفتاح العودة إلى الله.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

١٩٣- إلى الشباب والفتيات اللذين يتخوفون من قوانص الشهوات |

١٩٩٧/٠٩/١٢

كثيراً ما يشكو إليَّ شبابٌ وفتيات، صعوبة استقامتهم أو استقامتهن على صراط الله سبحانه وتعالى، وشدة المغريات التي تطوف بهم أو تطوف بهن، عن يمينٍ وعن شمال، وكثيراً ما يشكو الواحد منهم أنه فرح بالاستقامة على صراط الله عز وجل أياماً أو شهوراً، ثم إن رياح الشهوات والأهواء قد عصفت به وأبعدته عن طريق الاستقامة على دين الله سبحانه وتعالى. ويسأل هؤلاء وأولئك عن العلاج.

والغريب أيها الإخوة أن علاج ما يشكو منه هؤلاء الناس أمامهم مرئي، بل هو ملء كل عينٍ وكل سمعٍ وفؤاد. العلاج بعد الإيمان بالله سبحانه وتعالى إنما هو كتاب الله سبحانه وتعالى، كما أكد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل كما أوحى كتاب الله سبحانه وتعالى ذاته وذلك في مثل قوله: ﴿قَدْ

جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ، يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾. العلاج موجود، ألا وهو كتاب الله سبحانه وتعالى.

وكأنّ قائلاً منهم يقول: فكيف السبيل إلى استعمال هذا العلاج؟ كيف السبيل إلى أن نجعل من كتاب الله سبحانه وتعالى حرزاً لنا وحمايةً لنا عن الانحراف؟ كيف السبيل للاستفادة من كتاب الله عز وجل؟ سبيل أخذ الإنسان نفسه بهذا الدواء:

أولاً: أن يتعلم قراءته على معلم وأن يُتقن تلاوته بناءً على تلقٍ ولاحظوا ما أقوله لكم، لا يُقرأ كتاب الله كما تُقرأ الصحف والجرائد ولا يجوز أن يعتمد الإنسان في ذلك على ملكته اللغوية وثقافته العربية، بل لابد من أن يتلق القرآن سماعاً ممن قد تلقاه من عالِمٍ مثله. هكذا تلقى الصحابة كلهم القرآن من فم رسول الله وهكذا تلقى التابعون عن الصحابة إلى يومنا هذا.

الخطوة الثانية في استعمال هذا العلاج: هو أن يعمد الإنسان فيعكف على تلاوة كتاب الله عز وجل بعد أن تلقاه تلقياً صحيحاً، يجعل لنفسه ورداً في كل يوم من كتاب الله سبحانه وتعالى يقرأه.

وربما تسرب الشيطان في هذه الحالة فوسوس إلى القارئ قائلاً: وماذا تُغنيك قراءتك؟ وهل تفقه شيئاً ممن تتلو وأنت لا تعلم شيئاً من معنى هذا الكلام الرباني العظيم؟ وربما أصغى المسكين إلى هذه الرُقية الشيطانية وتخيل فعلاً أنه يهذي وأنه يقرأ شيئاً لا يفقهه، ومن ثم ليس له من فائدة في ذلك. الأمر ليس كذلك.

هنالك كلامٌ تتأمله تكون فائدته في فهمك له وفي تطبيقك له، وهنالك كلامٌ فيه سرٌ بالإضافة إلى هذه الفائدة، مجرد قراءتك له يُنير فؤادك، مُجرد رؤيتك لهذه الكلمات متقرباً إلى الله سبحانه وتعالى يُحصِّن نفسك، مجرد ذلك. وهذا ثابتٌ ومقررٌ في كتاب الله سبحانه وتعالى. الإنسان يُؤجر على تلاوة كتاب الله فهم أو لم يفهم، يُؤجر على كل حرفٍ عشر حسنات، ويُؤكد المصطفى صلى الله عليه وسلم ذلك قائلاً: ﴿لا أقول ألف لام ميم حرف بل ألفٌ حرف ولامٌ وميمٌ حرف﴾.

فائدة هذه التلاوة تسري إلى كيانك من حيث لا تشعر، نورٌ يقذفه الله سبحانه وتعالى في فؤادك، إذا أخذت نفسك في هذه الوظيفة وأدمت على التمسك في هذه الوظيفة فإن الله سبحانه وتعالى يجعلك في حصنٍ حصين من هذه المخاوف التي تشكو منها، لن تُحرقك نار الشهوات والأهواء أبداً، ولن تجد للشيطان سبيلاً إليك ليتخطفك من صراط الله سبحانه وتعالى أبداً، هذا إن اتخذت من تلاوة كتاب الله سبحانه وتعالى ورداً دائماً لك.

وانظروا كيف كان كتاب الله، بل رب العالمين سبحانه وتعالى يأمر رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم بأن يعكف على تلاوة كتابه المنزل في كل صباحٍ ومساء، وما أغناه صلى الله عليه وسلم وقد حصّنه الله بحصنه وحرزه المتين من أن يلجئ إلى أي وسيلة أخرى، لكن الله عز وجل إنما حصّن حبيبه محمداً صلى الله عليه وسلم بهذا العلاج وأمثاله: ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾.

فهل يقرأ هؤلاء الشاكون كتاب الله عز وجل في كل صباح؟ هل يجعلون لأنفسهم ورداً من تلاوة كتاب الله سبحانه وتعالى؟ أنا أعلم أن كثيرين هم الشباب الملتزمون بأوامر الله، بل الذين يلتزمون بجماعات والحركات الإسلامية أعلم أن فيهم من لا يعودون إلى كتاب الله إلا للاستشهاد بآية، إلا للاحتجاج بنصٍ قرآني من أجل أن يناقشوا به ويجادلوا الآخرين، أما أن يجلس أحدهم ويضع كتاب الله نُصب عينيه ثم يتلو جزءاً أو أكثر أو أقل من كتاب الله عز وجل بجلسة؛ قراءةً سليمة لا يتعتع فيها، فقليلون هم هؤلاء.

إذاً الخطوة الأولى في أخذك نفسك بهذا العلاج أن تتلقى القرآن ممن تلقاه قبلك، والخطوة الثانية أن تجعل لنفسك ورداً كل يوم من تلاوة كتاب الله سبحانه وتعالى حسب ظروفك وحسب اتساع وقتك وضيقه.

الخطوة الثالثة: أن تتدبر كلام الله، وأن تتأمل في معانيه، وأن تعمد إلى من يبصرك بمعاني كتاب الله؛ لا أن تعتمد في ذلك على نفسك وأن تُفسر القرآن كما تشتهيه شأن كثيرٍ من المنحرفين عن صراط الله سبحانه وتعالى اليوم. هذه هي الخطوة الثالثة.

والخطوة الرابعة: إذا أمكنتك الظروف، وإذا عدت إلى قوتك وطاقتك، فرأيت أنك قادر على أن تثبت على الخطوة الرابعة، فهي أن تُقبل إلى حفظك لكتاب الله عز وجل أو حفظ المقادير التي تستطيع حفظها منه جهد استطاعتك، ولكني أعود فأقول هذه الخطوة الأخيرة يُشترط فيها أن تكون على يقين أنك ستستطيع المحافظة على ما قد حفظته. فأما إن كنت في شك من ذلك فاعلم أن إقدامك على حفظ ما لا تستطيع أن تجزم أنك ستحافظ عليه معصية من المعاصي.

ورد فيما رواه الإمام أحمد في مسنده أنه صلى الله عليه وسلم قال: ﴿ما من مؤمنٍ يحفظ كتاب الله ثم ينساه إلا حُشر يوم القيامة أجذم﴾.

ولقد قرر العلماء أن نسيان ما قد حُفظ من كتاب الله عز وجل من الكبائر.

وعجبي لا ينتهي أيها الإخوة من أناسٍ يدفعون الشباب – صغاراً أو كباراً ذكوراً أو إناثاً – إلى حفظ كتاب الله سبحانه وتعالى غيباً، ويتباهون بين الحين والآخر بأن عدداً من هؤلاء الشباب قد حفظوا كتاب الله، هذا حفظه خلال ستة أشهر، وذاك وعاه وحفظه غيباً خلال ثلاثة أشهر، هذا لم يبلغ الخامسة عشر، وذاك لا يزال في الثالثة عشرة... ويتباهى المعلمون بهذا، ويعرضون بضاعتهم متمثلةً في هؤلاء الصغار ينهض كل واحد منهم ليقرأ غيباً جزءاً مما قد حفظه.

أنظر إلى حال هؤلاء بعد سنوات وأتعقبهم، هذا دخل الجامعة وأصبح طالباً في الجامعة، وذاك اتجه إلى حِرفة من الحرف، وأسأل ماذا بقي في رأسك مما قد حفظته من كتاب الله خلال ستة أشهر، وإذا بكل ما حُفظ قد طار وتبخر، لأن الرجل لا يستطيع أن يقرأ في كل يوم خمسة أجزاء ليحافظ على ما قد حفظ، هو طالب في الجامعة أو هو حرفي يخرج من داره في الثامنة ويعود في الثامنة، متى يستطيع أن يُحافظ على ما قد حفظ؟

نعم أنت معذور، ولكن من الذي كلفك أن تحُمِّل نفسك ما لا تطيق حمله؟

ولعلك هنا أيضاً معذور، لكن الرجل الذي يتحمل هذه المسؤولية هو من دفعك دفعاً إلى أن تحفظ كتاب الله عز وجل وهو لا يعلم أنك قادرٌ على المحافظة على ما قد حفظت.

كثيرات هنّ الفتيات اللائي حفظن كتاب الله عز وجل في أسنانهن صغيرة، والإنسان يملك خيالاً قوياً في الصغر بموجبه يحفظ بسهولة، ولكن ما إن تنقلت هذه الفتاة من مرحلة إلى مرحلة، وتزوجت أو دخلت في مراحل الدراسة الجامعية أو نحوها حتى نسيت كلما قد حفظته.

وقليلون جداً وقليلات جداً الذين واللائي يحافظون ويحافظن على ما قد حفظوه من كتاب الله سبحانه وتعالى.

هذا الأمر الخطير أقوله لكم بهذه المناسبة، ولكني أعود فأقول للذين يشكون ويتخوفون من قوانص الشهوات وشياطين الإنس والجن. أقول لهم:

العلاج أمامكم ولكنكم لا تستعملونه ألا وهو كتاب الله سبحانه وتعالى، أنا لا أقول لكم احفظوه غيباً ابذلوا ربع هذه المهمة في أن تجعلوا لأنفسكم ورداً كل يوم من تلاوة جزءٍ من كتاب الله سبحانه وتعالى، أروني إنساناً شاباً أو فتاةً ثابر مثابرة دقيقة على هذه الوظيفة ثم استطاعت شياطين الإنس والجن أن تتخطفه من صراط الله سبحانه وتعالى.

ألم يلتزم الله سبحانه وتعالى أن يحفظ عباده بواسطة هذا النور وأن يجعلهم في كلاءته وحماه؟ ولكني أعود فأقول: على الرغم من كثرة معاهد الأسد لتحفيظ القرآن، وعلى الرغم من الحلقات الكثيرة لتحفيظ القرآن في المساجد وغيرها، ولكني أنظر يميناً وشمالاً فلا أرى تياراً واسعاً يتشكل من أولئك الشباب الذين يقرأون كتاب الله كل يوم، حصة يقرؤونه لا غيباً بل نظراً إلى كتاب الله سبحانه وتعالى، هذا ما نبحث عنه.

وخير حصنٍ في هذا العصر وفي كل عصر يتقي به الإنسان شياطين الإنس والجن، ويتقي الشهوات والأهواء إنما هو كتاب الله سبحانه وتعالى. من أراد أن يغرس بين جوانحه محبة الله فليعكف على تلاوة كتاب الله. من أراد أن يغرس بين جوانحه المخافة من سخط الله فليتعهد نفسه بتلاوة كتاب الله، من أراد أن يكون من الذاكرين الله كثيراً فليتعهد نفسه بتلاوة كتاب الله عز وجل. أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.



١٩٤- الكآبة... أسباب وعلاج | ١٩٩٧/١٠/١٧

قيل لي منذ أيام: إن فلاناً – وهو من أساطير علماء النفس والتربية – قد قعد به الكِبر عن العمل وهو عاكفٌ في منزله يُعاني من مرض الكآبة.

قلت: يا عجباً من أساطير علم النفس والتربية، لا شك أنه كان يعالج الكآبة وأسبابها، ولا شك أنه كان يُدلي إلى الناس بآرائه وعلومه الدقيقة في أسباب الكآبة وطرق التوقي منها، فما له وهو المتخصص بهذا الفن قد وقع في براثن هذا المرض!؟ ماله يعاني اليوم وهو أستاذٌ جليلٌ في علم النفس وعلم التربية، يعاني من مرض الكآبة ولا يجد مفراً منه!؟

لا شك أن الجواب على هذا السؤال واضحٌ أيها الإخوة. فالكآبة لا تأتي إلا من سببٍ واحد، ألا وهو باختصار: جهل الإنسان لهذه الحياة التي يعيشها، وجهله لما هو مقبلٌ عليه من ورائها، جهل الإنسان بطبيعة هذه الحياة وبما سيلقاه بعد الموت وبعلاقته بالله عز وجل هو المصدر الأوحد لما يسمى بمرض الكآبة، ومن ثمّ فإن علاج الكآبة علاجٌ واحد لا ثاني له، هو أن يكون الإنسان على بينة من قصة هذه الحياة التي يعيشها، ومن منهاج هذه الرحلة التي يتقلب في فجاجها، وأن يعلم ما هو مقبلٌ عليه بعد الموت، وأن يعلم صلته بمولاه وخالقه عز وجل. فإذا علم ذلك كله، وأدرك حقيقة هذه الحياة، وعلم علاقته عبداً بمولاه وخالقه رباً ومولاً وقيّوماً، زايله هذا المرض ولن يجد سبيلاً إليه بشكلٍ من الأشكال.

هذه الحقيقة لا تستدعي فلسفة عميقة، ولا تستدعي ثقافة واسعة، وإنما تستدعي فقط أن يُعمل الإنسان عقله، فإذا أعرض الإنسان عن مولاه وخالقه وظن أنه مستقلٌ في هذه الحياة الدنيا؛ يتقلب في فجاجها كما يشاء، ويعبث بها وبالناس كما يريد، لا يستطيع كائنٌ ما أن يُضيّق عليه سبيلا، أو أن يُغير له منهجاً، ولا يُفكر بالموت الذي يختفي وراء أُذنه، ولا يعلم متى سيفاجئه، لا يفكر بهذا الموت ولا بما بعده لا شك بأن هذا الإنسان ينبغي أن يتحين هذا المرض الذي سينتابه بدون ريب، هذا الإنسان الذي يعيش حياته بهذا الشكل يمضي حياته بشكلين لا ثالث لهما:

الشكل الأول: يكون عندما يتقلب هذا الإنسان في مرحلة الشباب ومرحلة إقبال الغرائز، في هذه الحالة تستبد به السكرة ويتيه عنه العقل، فيتقلب من الدنيا في أهوائها وشهواتها دون أن يُعمل عقله ودون أن يُفكر في الحياة التي يسير في فجاجها، ذلك لأنه في هذه المرحلة سكران، والسكران لا يتصرف طبق عقله، ولكنه يتحرك حسب غرائزه وحسب اهتياج رعوناته، فهو لا يُبالي بأن يتقلب ذات اليمين وذات الشمال يعثو ويعبث في هذه الدنيا كما يشاء، ولا يُبالي بأن يجعل من نفسه مادة أذى للآخرين يتصرف كما يشاء لأنه سكران، والسكران لا يعي وإمامه وقائده في هذه المرحلة إنما هو رعوناته وغرائزه التي تهتاج بين جوانحه. هذه هي المرحلة الأولى التي تتحكم به.

فإذا ذهب الشباب وطوي عهده، وجاءت الكهولة وأدبرت هي الأخرى، وجاء عهد الشيخوخة، زالت السكرة واستيقظ العقل، وزال وقع الغرائز، وزال هياج الرعونات التي كانت تهتاج بين جوانحه، وكانت تدفعه إلى أن يسير في فجاج هذه الحياة على غير هدى كما يُحب ويشاء، كلّ هذه المؤثرات زال عهدها وزالت السكرة من وراء ذلك وجاء العقل، وينظر الرجل وقد أصبح عارياً عن دوافع رعوناته المختلفة، ينظر وقد بدأ يشم رائحة الموت، ينظر وإذا بالدنيا تقول له: وداعاً بعد طول رقصٍ وبعد طول تقلبٍ في فجاج الأهواء والشهوات.

وينظر إلى ما هو مقبلٌ عليه، وهو لم يدرس شيئاً عن حقيقة هذه الدنيا ومآلها، ولم يُفكر في علاقته عبداً بمولاه وخالقه رباً، كل ما في الأمر أنه ينظر فيجد أن شبح الموت يدنو إليه رويداً رويداً.

وعندئذٍ تأتي المرحلة الثانية في حياته ألا وهي مرحلة الكآبة، زالت مرحلة المرح بكل مقوماتها وفي مقدمتها سكرة النعيم وجاءت المرحلة الثانية مرحلة الكآبة، شيءٌ طبيعي لابد أن يقع هذا الإنسان في مرحلة الكآبة ولن يجد مناصاً منها، فليستنجد هؤلاء الذين يعيشون الكآبة في أُخريات أعمارهم ليستنجد الواحد منهم بكل مجلدات علم النفس، بكل مجلدات التربية، بكل العلاجات التي يتحدث عنها علماء الشرق والغرب، فلا والله لن يجد مناصاً ولن يجد مخرجاً من هذه الكآبة أبداً، لأن الكآبة تنبثق من داخله ولم تلتصق عاملاً خارجياً بكيانه.

الكآبة نتيجة موقفٍ وقفه، نتيجة لإعراضه عن منهاج رحلته في هذه الحياة الدنيا، نتيجةٌ لعدم وقوفه ساعة واحدة أمام مرآة الذات ليعلم هويته ويعلم من هو. ولكن متى ينجو الإنسان من كلا هذين البلائين؟

متى ينجو الإنسان من سكرة المرح في عهد الشباب والكهولة وينجو من آلام الكآبة في مرحلة الشيخوخة وقبل الممات؟

عندما يقف أولاً أمام خطاب الله سبحانه وتعالى القائل: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾. عندما تعلم أنك عبدٌ لهذا الإله مملوكٌ له تتحرك في قبضته منتسبٌ إليه بالعبودية،

وينتسب هو إليك بالألوهية، وعندما تعلم أنك لست طريداً بين سمع الدنيا وبصرها، ولست يتيماً في هذا العالم المترامي الأطراف، إنما أنت عبدٌ لإله، إله عظيم إلهٍ كبير إلهٍ رحيم إلهٍ لطيف، هو مولاك الذي يُعطيك والذي يُربيك والذي يُنشِّئك والذي يرعاك، ولا رعاية الأم لمولودها كل هذا تُدركه من خلال قول الله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾.

ثم يدعوك هذا إلى أن تعلم قصة حياتك التي تعيشها، هذه المرحلة التي تتقلب في فجاجها، وكيف يُحدثك مولاك المحب مولاك الرؤوف الكريم عن رسالتك في هذه الحياة، ومهامك التي ينبغي أن تنهض بها، والخُلق الذي ينبغي أن تلتزم به، ثم تُصغي إليه وهو يُحدثك عن الموت وما بعده، يُحدثك عن الحياة الثانية التي ستؤول فيها إلى مولاك العزيز الكريم، ولابد أن يجزيك بالحسنى حسناً وزيادة، ولابد أن يُكرمك بما قد أعطيته من واجبات عبوديتك لمولاك، لابد أن يُكرمك بالعطاء الذي لا ينفذ، وتُصغي إلى بيان الله سبحانه وتعالى وهو يوضح هذا كله وهو يقول لك: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾.

عندما تعلم هذا كله فقد أدركت منهاج رحلتك، وإذا التزمت – جُهد استطاعتك – بأوامر الله ووصاياه، فلا السكرة تطوف بك في مرحلة شبابك وكهولتك لتنسيك واجبك، ولتوقظ الرعونات بين جوانحك، فتعبث بعباد الله كما تهوى أهواءك لا تفعل هذا، ولا مرض الكآبة بعد ذلك ينتابك، ذلك لأنك إذا رأيت أن الشباب قد ولى، وأن الكهولة قد أدبرت، وأن عهد الشيخوخة بنذره قد أقبل إليك، وأنت قد عرفت مولاك، وعرفت صلتك بمولاك، وقمت بالواجب الذي كلفك الله عز وجل به، فلسوف يتراقص شعورك بين جوانحك حباً للقاء الله سبحانه وتعالى، ولسوف تعلم أنك ستنتقل من آلام هذه الدنيا، ولسوف تنتقل من مظاهر الوحشة التي فيها إلى الأُنس بلقاء مولاك الذي طالما عبدته وأنت لا تراه، وطالما ناجيته وأنت محجوبٌ عنه.

سيُقال لك: لقد آن أن تلقى مولاك الذي كنت تحبه فكيف لا يحبك! الذي كنت تعبده وترجوه فكيف لا يتقبل عبادتك و عبوديتك ولا يجيبك إلى سؤلك؟! أنّا لمرض الكآبة أن يطوف بكيانك في

تلك الساعة!؟ أجل. وما أصدق وأجمل ما يقوله سلمة بن دينار وقد سُئل كيف القدوم غداً على الله؟ قال: فأما المحسن كالغائب يقدم على أهله، وأما المسيء فكالعبد الآبق يُجر إلى مولاه.

كن محسناً لن تشعر بمرض الكآبة أبداً. وهل يشعر بمرض الكآبة الغائب الذي آن له أن يعود إلى أهله!؟

لكن عندما يكون هذا الإنسان قد أمضى شبابه وكهولته تائهاً عن الله، يُؤلّه آلهةً من غير الله، يُؤلّه أهواءه رعوناته يستجيب لغرائزه فقط، وقد نسي الله الذي يكلمه ويدعوه ويناديه، حتى إذا جاء الموت لابد أن يقع في مرض الكآبة.

ألا تنتبهون إلى قول الله عز وجل وهو يصف علاجاً من أعظم أنواع العلاج، بل هو العلاج الوحيد للمرح – وهو شر أنواع الأمراض – الذي يتجاوز عن حده بدافع السكرة التي حدثتكم عنها، وللكآبة التي تأتي بعد ذلك، علاج هذا المرض وذاك الإكثار من ذكر الله.

من أكثر من ذكر الله عز وجل لم يختنق في سكرة هذه الحياة الدنيا، بل عاش مستيقظاً لمسؤوليات مولاه وخالقه، قلقاً خائفاً من رقابة الله سبحانه وتعالى له، وإلى هذا يُشير قول الله سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ وأنّى لمن يوجل قلبه بذكر الله أن تُسكره الدنيا أو تُسكره الرعونات والشهوات؟!

ثم إن ذكر الله علاجٌ بعد ذلك لهذه الكآبة، ذكر الله يُحصِّنك ضد كل أنواع الكآبة، ذكر الله يجعلك ولو رأيت شبح الموت يدنو إليك، يرقص قلبك فرحاً، عندما تكون من الذين يمارسون ذكر الله بمعناه الحقيقي الذي وصفه الله عز وجل، وإلى هذا الإشارة في قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾.

ذكر الله يورث القلق: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ بهذا الوجل تمزق أغشية السُكْر، فلن تسكر عن حقيقتك، وذكر الله يُطمئن قلبك، فبهذه الطمأنينة يبتعد عنك مرض الكآبة وكل ما يشبه ذلك، لكن من هم الذين ينبغي أن نسأل الله لهم الهداية؟

هم الذين عاشوا حياتهم دون أن يعرفوا مولاهم وخالقهم، ودون أن يعرفوا عبوديتهم لله، عاشوا فعلاً كعبدٍ آبق ساح في صحراء هذه الدنيا يميناً وشمالاً، فلما قيل له: تعال تعال لقد جاءت ساعة الرحلة من هذه الدنيا أطبق عليه الكرب الخانق، فماذا عسى أن يُفيد هذا الإنسان اختصاصه التربويّ!؟

عبرة أخذتها أيها الإخوة من هذا الإنسان عندما قيل لي خبره، أحد أساطير علم التربية وعلم النفس كم وكم تحدث عن الكآبة وأسبابها؟ كم وكم نصح الناس كي يبتعدوا عن الكآبة وخطط لهم سبل ذلك، ها هو ذا يقع في براثن الكآبة ذلك لأنه عاش حياته طليقاً عن معنى عبوديته لله بعيداً عن الوقوف أمام هذا الكلام الحلو الرباني: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ لا مولى لهم ولذلك لابد أن يصرعهم هذا المرض.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

١٩٥- أصل أمراض المجتمع والسبيل إلى صلاحه | ١٩٩٨/٠٢/١٣

إن من شأن الإنسان السويّ في تفكيره وعقله أنه إذا شعر بأعراض مرض يسري في كيانه، سرعان ما يعود إلى الأطباء الذين بوسعهم أن يشخصوا مرضه، وأن يبينوا له سبب ما قد حل بجسمه، ثم أن يضعوه أمام الدواء الناجع الذي يخلصه من مرضه. هذا هو شأن كل إنسانٍ عاقل عندما يتعرض لمرضٍ من الأمراض أياً كان.

ومجتمعنا الذي نعيش فيه اليوم يعاني من أمراض لا من مرض واحد، يعاني من أمراضٍ كثيرة، والكل موقنٌ بذلك والكل معترفٌ به. مجتمعنا يعاني من مرض تضييع الأمانة، يعاني من مرض إهمال المسؤولية، يعاني من مرض التعامل بالغش والخديعة، يعاني من مرض التسيب بكل أنواعه، يعاني من مرض الأثرة بدلاً من الإيثار الذي هو خُلُق كل إنسانٍ سويٍ وشريف، يعاني مجتمعنا من الفساد بأكثر أنواعه وأشكاله... وهذا مرض.

والمرض كما يمكن أن يسري في بدن إنسان يمكن أن يسري مثله أيضاً في كيان مجتمع. والمفروض أن يتنبه المجتمع من خلال أشخاصه ومن خلال أفراده ومن خلال الذين يديرون شؤونه، من المفروض أن يتنبه المجتمع إلى هذا المرض، ثم أن يتساءل عن السبب، ثم أن يتجه إلى الدواء؛ الذي إن استعمله تخلّص من عقابيل هذا الداء وآثاره.

أما الشعور بهذا المرض فأعتقد أن مجتمعنا يعلم ويدرك أنه مريضٌ بهذه الآفات كلها، بل إن كل من في هذا المجتمع على اختلاف فئاتهم مدركون ومعترفون بأنه يعاني من هذه الأمراض. الدعاوي الكلامية تفيض بها مجتمعاتنا، فإذا بحثت عن مصداق هذه الدعاوي سلوكاً لم تجد نفسك أمام سلوكٍ يتفق مع هذه الدعاوي قط. التبجحات الكلامية بضرورة التضحية في سبيل القيم والمبادئ والأرض والوطن والحقوق ما أكثرها، ولكنك عندما تبحث عن الواقع الذي يُصدق ذلك لا تجد أثراً لهذا كله. الحديث عن الثغرات وأنواع الفساد الذي يستشري في هذا المجتمع، حديثٌ لا نهاية له... إذاً فالكل معترف بأن مجتمعنا يعاني من أمراض ويعاني من انواعٍ من الفساد مقتضى هذا الشعور وهذا اليقين أن يبحث هؤلاء الذين شعروا وعرفوا وأيقنوا ثم اعترفوا، مقتضى ذلك أن يبحثوا عن السبب ومن ثم أن يبحثوا عن الدواء ثم أن يستعملوا هذا الدواء كما يفعل أي مريض عندما يُهرع إلى طبيبه ثم ينصحه بالدواء الناجع الذي ينبغي أن يستعمله وها هنا نقطة الغرابة والعجب.

أكثر الناس التائهين وأكثر الناس الواقعين في تيارات هذا الفساد يقفون من حديثهم عن المجتمع عند الإقرار بوجود هذه الأمراض، ثم إنهم لا يتجاوزون ذلك إلى أي معالجة وإلى أي بحث. فما السبب؟

نحن نعلم أيها الإخوة أن هذه الأمراض التي من شأنها أن تسري في كيانات المجتمعات المختلفة لها سبب واحد لا ثاني له، هو فساد الأخلاق، عندما تفسد الأخلاق تسري هذه الأمراض في كيان المجتمع، وعندما تصلح الأخلاق وتستقيم تغيب هذه الأمراض.

وقديماً تحدث الناس عن أهمية الخلق وكونه الدعامة الأولى للمجتمع السوي وللتقدم الإنساني الحقيقي ولكن من أين ينبثق حسن الخُلق؟ وما هي الضمانة لأن يتمتع أفراد مجتمعٍ ما بحسن الخُلق لا سيما مجتمعاتنا العربية التي كانت في يومٍ من الأيام مثال الفساد الأخلاقي ثم لم يقومها إلا دين الله سبحانه وتعالى؟ عندما أكرمها الله سبحانه وتعالى ببعثة خاتم الرسل والأنبياء - كما يقول ابن خلدون. هذه الأمة العربية لا يقومها إلا شيءٌ واحد هو الدين، هنالك أمم أخرى يمكن أن تقومها عوامل مختلفة، ولكن هذه الأمة يستعصي أي سبب من الأسباب على تقويمها إلا أن يكون هذا السبب متمثلاً في دين الله سبحانه وتعالى.

الأخلاق الفاضلة لا يمكن أن تنبثق إلا من معين التدين، لا يمكن أن تنبثق إلا من معين الإيمان بالله سبحانه وتعالى والانضباط بأوامر الله عز وجل، ولعل كثيراً من الناس في مجتمعاتنا يغصون بهذا الكلام وبالاعتراف به لأنهم مازالوا يستمرئون البعد عن حظيرة الإسلام، ما زالوا يتخيلون أو يحبون أن يتخيلوا أن هنالك علاجات أخرى يمكن أن تفيدهم، ولعلهم جميعاً أدركوا أن لا علاج يُصلح حال هذه الأمة بذاتها إلا علاجٌ واحد، ألا وهو علاج هذا الدين.

لا سيما وكما قلت أكثر من مرة لقد جرب الكثيرون من فئات مجتمعاتنا هذه أدوية وعلاجات شتى، جربوا دواء اللجوء إلى القومية وزخمها وإيحاءاتها، فلم يغنِ عنهم هذا الدواء شيئا وما زادهم إلا بلاءً. جربوا اللجوء إلى فلسفات أجنبية خارجة عن مجتمعاتنا وعن طبيعتنا بل عن الفطرة الإنسانية السوية، جربوا ذلك وساروا في هذا الطريق أشواطاً فلم يستفيدوا من ذلك شيئاً.

جربوا الكلمات الكبيرة التي تتحدث عن الوطنية، والتي تتحدث عن الغيرة، والتي تتحدث عن التراث، والتي تتحدث عن الاعتزاز بتراث الآباء والأجداد فما أفادهم ذلك كله شيئاً.

تحدثوا عن كلمة الأخلاق، ولكن بعيدة عن جذورها، بعيدةً عن معينها، بعيدةً عن ضماناتها، فلم تجدهم كلمات الأخلاق شيئاً ولم تفدهم إلا تصديعاً في الرؤوس وبقيت الأمراض مستشرية وبقي الفساد ممتداً والكل معترف بهذا الفساد.

إذاً لقد آن الأوان أن نعترف بأن لا دواء – بعد التجربة وبعد الاستقراء – إلا دواء واحد، هو أن نعود إلى معين هذا الإسلام، ونحول انتمائنا التقليدي إليه إلى انتماء فعّال.

لقد آن الأوان أن يدرك هذه الحقيقة كل الناس بكل فئاتهم إن كانوا ممن يضيقون ذرعاً بهذا الفساد، وإن كانوا ممن يبحثون عن وسيلة للإصلاح، أما الذين يستمرؤون الفساد لأنهم يربحون من وراءه، وأما الذين يطيب لهم الإعوجاج لأنهم يستفيدون من وراءه فوائد ولو كانت على حساب أمتهم، فأولئك لا حديث لنا معهم ونسأل الله لنا ولهم الهداية.

أما أولئك الغيارى على هذه الأمة ولا شك أنهم كثيرون أما أولئك المتحرقون على صلاح هذه الأمة ولا شك أنهم كثيرون، فقد آن أن يعلموا أن الأخلاق لا تزدهر أبداً إلا في تربة الإيمان بالله والتربية الإيمانية الصحيحة. إذاً ينبغي أن تتنامى التربية الإسلامية على كل المستويات في مجتمعاتنا، ينبغي أن يرتبط هذا الجيل ارتباطاً عقلانياً ووجدانياً بدين الله سبحانه وتعالى، ينبغي أن نُجند لذلك سائر وسائل إعلامنا، سائر الأدوات الثقافية التي نجعلها زاداً يسري فيما بيننا، ينبغي أن نجند ذلك كله من أجل أن يتحول انتماؤنا الإسلامي من الوضع التقليدي إلى الوضع الحيوي الفعّال. هذا ما ينبغي أن نعلمه وينبغي أن نتبينه.

ما ينبغي أن يستحي المتحدثون والكاتبون في وسائل الإعلام عن الاعتراف بهذه الحقيقة، يعلمون وتغص أفواههم عن الاعتراف بما يعلمون يتبينون ولعلهم في السر يقولون أيضاً إن هذه الأمة لا يصلحها إلا أن تعود إلى دينها، حتى إذا خرج الكلام عن السر إلى العلن اختفت هذه الألفاظ عن الألسن. من هم الذين يستحي منهم هؤلاء الناس؟ وفيما الخجل من حقيقة أصبحنا جميعاً ندركها وأصبحنا جميعاً

نعلمها! ينبغي أن تكون الجرأة التي يعتز بها القائمون على أمر هذه الأمة متمثلةً في عودٍ حميد إلى هذا المبدأ الذي نقوله.

جربنا كل الوسائل ولا مانع أن نزيد التجربة تجربة، وليحاول من يحاول.. ولكن ها هي ذي الحقيقة الناصعة ظهرت، لا يمكن أن تعود هذه الأمة فترقى إلى عزتها التي كانت قد عرفت بها، ولا يمكن أن تنهض نهضتها التي يحلم بها كل واحد منا إلا إن رجعت إلى هذا الدين الحنيف. وإنها لحقيقةٌ أدركها عمر بن الخطاب إدراكاً ثاقباً يوم قال: ﴿نحن قومٌ أعزنا الله بالإسلام فمهما طلبنا العزة بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله﴾.

كثيرون هم الذين ربما يقولون ها هي ذي أمم الغرب تتعامل فيما بينها بالأخلاق الحميدة وتتفق حيث ينبغي أن تتفق كما نرى دون أن تعتمد في ذلك على دين حق، فلماذا لا نملك ما يملكون؟ ها هنا السر العظيم الغريب هذه الأمة العربية كانت كما قلت لكم مثلاً يُضرب في التفرق والتشتت والحطة في الفكر والأخلاق والولوغ في أنواع الرذيلة، ما الذي أنقذها؟ ما الذي حولها إلى النقيض؟ ما الذي جعلها مضرب المثل للأخلاق الفاضلة وللوحدة وللإنسانية وللمعارف وللثقافة؟ شيءٌ واحد.. هو الانضباط بحبل الله عز وجل والتشرف الحقيقي بدين الله.

من حكم الله عز وجل أنه يريد أن تصبح هذه الحقيقة واضحة جليةً مع الزمن، هذه الأمة بالذات التي أصلحها الإسلام بعد الفساد إن تركت سر صلاحها ألا وهو الدين لا بد أن ترجع إلى ما كانت عليه، تلك هي الحكمة وهذا هو فرق ما بيننا وبين الأمم الأخرى، لباسٌ ارتديناه فأعزنا الله عز وجل فيه، عندما نخلع هذا اللباس بشكلٍ أو بآخر لا بد أن نعود إلى الوضع الذي كنا عليه قبل أن نتشرف بهذا اللباس، هكذا كنا إذاً هكذا ينبغي أن نعود عندما نخلع هذا الثوب الإسلامي الذي أعزنا الله عز وجل به. هذا لا ينطبق إلا على هذه الأمة أما تلك الأمم الأخرى فلها شأنها الآخر، فليعرف هذه الحقيقة كل من أراد أن يقيس نفسه على الأمم الأخرى.

أقول قولي هذا وأسأل الله عز وجل أن يهدينا إلى سواء صراطه المستقيم، فاستغفروه يغفر لكم.



١٩٦- أول ضحايا خرافات الجن والسحر | ١٩٩٨/٠٧/٢٤

إن الملحدين والذين يتعمدون الشرود عن صراط الله سبحانه وتعالى، كانت معذرتهم ولا تزال أنهم رجال علم، وأنهم لا يبتغون بالعلم بديلاً، فإن رأيت من يتباهى بإلحاده فعذره أنه لا يستطيع أن ينفك عن العلم ولا يستطيع أن يبتعد مقاييسه وموازينه، وإن رأيت من يتعمد الشرود عن صراط الله سبحانه وتعالى، فعذره عندما تدعوه إلى الله سبحانه وتعالى أنه رجل علم وأنه لا يحب أن يتعامل في هذه الدنيا إلا مع العلم وقواعده.

والغريب أيها الإخوة أن هؤلاء الناس الذين يلحدون في ذات الله باسم العلم، وبدعوى أنهم يتعشقون العلم ولا يريدون أن يبارحوه، وأن هؤلاء الشاردين عمداً عن صراط الله عز وجل الذين يعتذرون عن شرودهم بالعلم وحبهم له، الغريب أن هؤلاء هم أول من يقعون ضحية الخرافة، وهم أول من يفترسهم الدجل بكل أنواعه، وفي هذا دليلٌ ما بعده دليل على أن في الناس اليوم من يسجنون أنفسهم في سجون الجهالة، ولكن نُقش على هذه السجون اسم العلم، وأن في الناس من يختنقون في بحار الجهالة، ولكنهم يسمون اختناقهم سباحة في ميادين العلم. هؤلاء الناس هم أول من تفترسهم أنواع الدجل، وأول من تفترسهم الخرافات.

وآية ذلك أننا جميعاً نلاحظ أن أحاديث السحر والسحرة وأحاديث الجن وأعمال الجن وتَلَبُّسات الجن قد شاعت وذاعت في الآونة الأخيرة جداً، وما من مجلسٍ يجلسه أحدنا في مجتمعٍ صغيرٍ أو كبير إلا ويطرح فيه هذا الموضوع باهتمامٍ بالغ، وأنظر فأتأمل فأجد أن أول من يهتمون بهذا الموضوع هم الشاردون عن صراط الله، وأول من يُشعرك بالقلق والاضطراب والجذع من احتمال أن يكون قد مسه طائفٌ من الجن أو أن سحراً قد رُصد له، أول هؤلاء الذين ينالهم الاضطراب والقلق ويسألون هذا ويسألون ذاك هم أولئك الذين ابتعدوا عن صراط الله، ملحدين أو ضالين وتائهين.

فانظروا إلى الذين يلحدون في ذات الله عز وجل باسم العلم، وبدعوى تعشقهم للعلم، وبدعوى أنهم لا يريدون أن يستبدلوا بالعلم بديلاً، ومن ثم فهم يشعرون إن آمنوا بالله فلا بد أن يكلفهم الإيمان بالله أن يتركوا العلم، ولذلك فهم مضطرون أن يؤثروا العلم على الله عز وجل، ولكن ها أنتم ترونهم كيف أنهم يُضحون بالعلم وقواعده وموازينه في سبيل الخرافة، في سبيل الدجل، وفي سبيل الأوهام التي لا حقيقة لها.

ولكن مع هذا ينبغي أن نتسائل أيها الإخوة: لماذا تجد أن الفئات التي تهتم بموضوع السحر في هذا العصر والجن وما يتعلق بالجان، لماذا نلاحظ أن الذين يقومون ويقعدون بهذا الموضوع في خوف ووجل، هم الشاردون عن صراط الله سبحانه وتعالى؟

الجواب: هو أن السحر له وجود، وإن كان وجوده ضئيلاً ضئيلاً جداً وسط يمٍ من الدجل والدعاوي الكاذبة والجان موجودون وإن كان الحديث عن مس الجن واحداً من عشرات الأقوال الكاذبة والأوهام التدجيلية التي لا أصل لها، ولكن الله عز وجل بين لنا أن السحرة إن أرادوا أن ينالوا من أحدٍ من الناس منالاً فلا يستطيعون أن ينالوا من إنسانٍ قد لازم صراط الله سبحانه وتعالى وتحصن بحصنٍ من اتباع أوامره والابتعاد عن نواهيه، لا يمكن، وأن الجان وإن وقع منهم فعلاً مسٌ كما ورد في آيات قرآنية وأحاديث نبوية صحيحة فإنهم لا يستطيعون أن ينالوا بمسهم هذا إلا الشارد عن صراط الله، إلا الشارد عن حصن العبودية لله سبحانه وتعالى، تماماً كالذئب، إنما تأكل الذئب من الغنم القاصية.

فالسحرة إن وجدوا ولم يكن الأمر دجلاً وكذباً، فإنما ينالون من غنم الناس القاصين والبعيدين والتائهين عن صراط الله سبحانه وتعالى، تأملوا في قول الله عز وجل: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ، إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ هذا كلام الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ﴾ أي ليس للشيطان وزمرته ﴿لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

ما سمعنا لا قديماً ولا حديثاً أن إنساناً سار على صراط الله، وآمن بالله إيماناً حقيقياً، ولازم ورداً من قراءة كتاب الله سبحانه وتعالى، ولازم ورداً من الأذكار التي يأمر الله سبحانه وتعالى بها، ثم إنه كان ثابتاً مستمراً على أداء فرائضه، أوامره التي أمره الله عز وجل بها، وكان رقيباً على نفسه، فإن شردت به نفسه مرةً أو مرات عاد وتاب وآب إلى صراط الله عز وجل، ما سمعنا أن واحداً من هؤلاء مسه طائف من الجن. أو أن أين من السحرة قد نالوه بأي أذىً بشكلٍ من الأشكال، ذلك لأن هذا شيءٌ ألزم الله عز وجل به ذاته العلية ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

ولكن لاحظوا وتأملوا من هم الذين يطرقون أبواب العلماء، علماء الدين؟ من هم الذيم يطرقون أبواب من يثقون بهم من الذين يعرفون حقائق هذه الأمور، يطرقون أبوابهم في اضطراب في وجل في خوف، هذا قد انتابه قلق نفسي، يخيل إليه أن سحراً قد هيمن عليه، وذاك ناله اضطراب بليله ونهاره يُخيل إليه أن مساً من الجن قد هيمن عليه، وتلك يُخيل إليها أن سحراً قد كُتب لها، وأنها بسبب ذلك قد حيل بينها وبين أن تسعد بأسرةٍ مسعدةٍ تسعد بها وهكذا... انظر إلى هؤلاء الذين ينتابهم القلق، ويأخذ منهم الاضطراب مأخذه، والذين تشيع في أنفسهم الوساوس ويسألون عن هذه الأمور، تجدهم جميعاً شاردين عن الله عز وجل، بعيدين عن صراط الله سبحانه وتعالى وأوامره..

ولكن الأدهى من ذلك والذي يُضحك، هو أنك تتأمل في واحدٍ من هؤلاء فتجده أنه هو الذي كان بالأمس يتباهى بابتعاده عن أوامر الله لأنه رجل علم، يتباهى بشروده عن صراط الله عز وجل لأنه رجل علم ولأنه لا يحب أن يؤمن بالخرافة، أن يخضع لله عز وجل بالعبودية خرافة، ولذلك فهو يتأبى على هذا الإيمان باسم علمه أما أن يستسلم لأوهامٍ باطلةٍ لا وجود لها، أما أن يستسلم لقلقٍ نفسي يفسره بأن مساً من الجن انتابه، أو أن أناساً من الدجاجلة قد كتبوا له في أوراقٍ ونحو ذلك سحراً فهذا لا يتنافى مع العلم.

وهكذا تظهر آيات الله باهرة لننظر إلى هؤلاء الذين يتباهو بالعلم، وقد تمزقت الحجب التي ستروا بها أنفسهم زوراً وبهتاناً، ونظرنا إلى ما دون هذه الحجب وإذا هي الجهالة العفنة التي فاحت رائحتها. وننظر إلى هؤلاء الذين يتشدقون باسم العلم وإذا بهم أناسٌ يوجلون ويرتعبون وترتعد فرائصهم من الأوهام الكاذبة من الخرافات التي لا أصل لها، ولعل هذا الذي يشيع بين الناس اليوم، ولعل هذا الذي يدخل الفزع والاضطراب والقلق في نفوس كثيرٍ من الشاردين له ثمارٌ مفيدة غداً، بل ثماره المفيدة واضحة جلية اليوم اليوم، نحن الذين آمنا بالله عز وجل، نحن نتحرك في مناخ العلم، ومن ثم لا يستطيع الدجل أن يفترسنا، لا تستطيع الأوهام والخرافات سواءٌ تجلت باسم السحر أو باسم الكهانة أو باسم الجان لا يستطيع شيءٌ من ذلك أن يفترس عقولنا وأن يزجنا في متاهات وخوفٍ واضطرابٍ ووجل ونحو ذلك. ما الحصن الذي يقينا؟ إيماننا بالله عز وجل، لأن منبع العلم هو الإيمان بالله وكل من شرد عن الإيمان بالله عز وجل شرد أيضاً عن العلم.

ولكن رب قائلٍ يقول: إنهم أيضاً مؤمنون أو فيهم كثير من المؤمنين، أنا لا أتحدث عن الإيمان التقليدي الأجوف الرخيص الذي لا قيمة له عند الله عز وجل، أتحدث عن الإيمان الفعّال، أتحدث عن الإيمان الذي يقود صاحبه سيراً على صراط الله، أتحدث عن المؤمن الذي يدفعه إيمانه إلى أن يحافظ على صلواته الخمس، يدفعه إيمانه إلى أن يكون رقيباً على نفسه فلا يرتكب شيئاً من المحرمات إن ارتكب عاد وتاب وآب إلى الله سبحانه وتعالى. أعني بالمؤمن ذاك الذي يتخذ لنفسه ورداً كل يوم من قراءة كتاب الله سبحانه وتعالى، هذا هو حصن المؤمن. أروني أي إنسان كان مؤمناً وساقه إيمانه إلى هذا السلوك، هل تجدون أن في يومٍ من الأيام ذهب أو كاد أن يذهب ضحية شيءٍ من هذه الخرافات؟ إطلاقاً ما سمعنا بهذا.

ربما كاد له كائد وحاول أحد الدجاجلة أن يؤذيه، ولكن الأذى يمر به مر الكرام ولا يقف عنده بشيء من الأشياء. تماماً كما حاول اللبيد بن الأعصم ذلك اليهودي أن يسحر رسول الله صلى الله عليه وسلم فمر السحر به مرّ الكرام، وأنبأه الله بكل ما فعله لبيدٌ بن الأعصم وهذا شأن كل مسلم.

وانظروا أيها الإخوة إلى قصة الأمس كيف تتكرر اليوم، دائماً الشاردون عن صراط الله إنما يشردون عن صراط الله لأنهم يتباهون بالعلم الذي سكروا به، وهو أي علم؟ علمٌ لا قيمة له أمام علم الله بل أمام جذور الإيمان العلمية التي ينبثق عنها الإيمان بالله عز وجل. انظروا إلى قول الله عز وجل: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ كأنه يتحدث عن الذين يتباهون بالعلم اليوم: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُون﴾ حاق بهم هذا الدين الذي كانوا يستهزئون به.

ها هو ذا يحيق بأولئك الذين يتحدثون باسم العلم عندما يذكرهم بالله، ثم إنهم يرفعون أيديهم وأقدامهم وقد نالهم الاضطراب، قد نالهم القلق كل منال وهم يتحدثون عن خرافات تتعلق بمس الجن وتتعلق بالسحرة وما إلى ذلك، أجل.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا ممن يتعاملون مع حقيقة العلم، لا ممن شموا رائحة العلم فسكروا به، هؤلاء الناس هم أبعد ما يكونون عن العلم وإذا تنطع أحدهم بكلمات من العلم فاذكر قول الله عز وجل عنهم ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾. أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.



١٩٧- أثر الأطباق المتكاثرة على أسطح المنازل | ٢٠٠٠/٠٣/٣١

قلت لكم بالأمس إنه ما من شيء أوجده الله سبحانه وتعالى ووضعه بين يدي الإنسان إلا وهو في أصله صالحٌ للخير وموجهٌ لإسعاد الإنسان، وما من مخترع من المخترعات، وما من أحدوثةٍ تظهر على يدي إنسان إلا وهي في أصلها من إبداع الله وخلقه، وهي في أصلها موجهةٌ لخدمة الإنسان وإسعاده، ولكن الإنسان هو الذي يصرف الخير إلى الشر في كثير من الأحيان، يستعمل الأداة التي جعلها الله سبيلاً لخير الإنسان يستعملها أداةً لشره، يستعمل السُّلم الذي يمكن أن يرقى به الإنسان إلى سعادة العاجلة والعقبى، فينكس هذا السلم ويجعله سبباً للوقوع في أودية الشقاء.

حقيقة أوضحتها قبل أيامٍ لكم، وأعود إلى هذا الذي ذكرته لأركز على جانب من هذه الجوانب وعلى مخترع من هذه المخترعات ألا وهو هذه **الأقنية الفضائية**، وأذكركم بما قد قلت آنذاك من أن العلم لا يوجد شيئاً معدوماً وإنما يكتشف العلم ما أوجده الله عز وجل فوق هذه الأرض التي نعيش فيها، كل ما يمكن أن تسمعوه من المخترعات إنما هو نسيج لمواد موجودة في الأصل أوجدها الله سبحانه وتعالى، وهذه الأقنية الفضائية واحدة منها، هي في أصلها أداة طيعة في يد الإنسان؛ إن توجه بها إلى الخير كانت خير خادم له، وإن نكسها ليتوجه بها إلى الشر كانت قنبلة موقوتة لتدمير حياة الفرد والأسرة، والمأمول من الإنسان عندما يكون قائماً بعهد ربه، مؤدياً الأمانة التي حمله الله سبحانه وتعالى إياها، ملتزماً نهج العبودية لله بسلوكه بتعامله مع هذه الحياة وأسبابها.. المأمول من هذا الإنسان أن يطوع هذه الأجهزة وهذه الأداة لما يقرب الإنسان إلى الله عز وجل، وكان المأمول بناءً على هذا عندما يقع هذا الجهاز في أيدي مسلمين صادقين مع الله، ملتزمين بعهده أوفياء مع ما بايعوا الله سبحانه وتعالى عليه، أن يرفعوا هذا الجهاز أو هذه الأحدوثة أو هذا الاكتشاف أن يرفعوه إلى سدة الخدمة لدين الله سبحانه وتعالى.

ولكن المصيبة الفادحة أن في المسلمين مسلمين من حيث الانتماء، إذا ابتلاهم الله سبحانه وتعالى بامتحان تعارضت فيه أهواء هذا الإنسان وشهواته مع أوامر الله سبحانه وتعالى ووصاياه، نسي أوامر الله وقال لمتعه وأهواءه: لبيك. وهم مسلمون ومؤمنون دون أن يتنبه هؤلاء المسلمون في الظاهر المنقادون لشهواتهم وأهوائهم عند أي تعارض بينها وبين أوامر الله عز وجل دون أن يتبينوا أنهم بذلك يخلقون أسباب الشقاء لأنفسهم، يديرون حبل المشنقة ويضعونها في أعناقهم ويحكمون على أنفسهم بالشقاء في هذه الدنيا العاجلة قبل الآخرة الآجلة.

كثيرون هم المسلمون الذين يختلفون إلى هذه المساجد ويحضرون الجماعات والجمعات، إذا عادوا إلى بيوتهم جعلوا من هذه الأقنية قبلة لهم، جعلوا من هذه الأداة سميرهم في كل أمسية، سميرهم في سهراتهم إلى آخر الليل أو إلى ما بعد منتصفه، وكان المأمول من هؤلاء المسلمين الذين عاهدوا الله فصدقوا على ما عاهدوا الله عز وجل عليه، والذين أبوا إلا أن يستعملوا هذه الأجهزة، كان المأمول منهم أن يخضعوها لما يريد الله، وأن يصفوها من الشوائب، فلا يتعاملوا إلا مع الخير منها، كان هذا هو المأمول، ولكن الذي يجري خلاف ذلك تماماً، الغرض من هذا تلبية المتع وتلبية الشهوات والأهواء، أما أمر الله فمنسي وملقى دبر الأذان. ونحن مسلمون ونحن نعلن أننا عاهدنا الله وأننا أوفياء بما عاهدنا الله سبحانه وتعالى عليه.

أريد أيها الإخوة من هؤلاء المسلمون أن يكونوا صادقين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ أي في صدقهم، كونوا صادقين مع الله سبحانه وتعالى.

وأريد أن تعلموا أن هذه الدنيا دار ابتلاء ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ هذه الدنيا دار امتحان هذا شيء.

والشيء الثاني الذي يجب أن نعلمه هو أن الله عز وجل لا يأمرنا إن أمر إلا بأمر فيه سعادتنا في الدار الدنيا قبل الآخرة، وإن نهانا عن شيء فإنما ينهانا عنه لأنه ينطوي على سبب من أخطر الشقاء لنا في الدنيا العاجلة قبل الآخرة الآجلة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ هذا عهد الله عز وجل لنا.

إذاً ركون بعض الناس إلى هذه الأجهزة؛ إلى هذه الأقنية الفضائية كي يستجيبوا من خلال ذلك لعطش شهواتهم وأهوائهم ومتعهم لن يحقق لهم سعادة إطلاقاً، بل سيزجهم في شقاء خطير وبلاء وبيل، هذا ما يجري.

الله عز وجل لا يكذب – والعياذ بالله – الله عز وجل يقول: ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾، أي إن خلاف ذلك يشقيكم ويميتكم ويهلككم. ماذا استفاد هؤلاء الذين يساهرون الليل بطوله في بيوتهم أمام هذه الأجهزة التي اتخذوها لأنفسهم معبوداً من دون الله ماذا استفادوا؟

أولاً: وقعوا في مثل ما يقع فيه من يشرب ماءً ملحاً أجاجاً كلما شرب كأساً ازداد ظمأً وازداد تعلقه بالكأس الثانية فالثالثة فالرابعة إلى أن يتمزق ويهلك. هذا أول ما وقع فيه هؤلاء الناس. هذا الشيء الذي تراه مما تبحث عنه وتلتقطه لن يسعدك، سيثيرك ولن تجد شفاءً وراء استثارته لك أبداً، ثم سيستثيرك ثم سيستثيرك ثم يمزقك، أو تنحرف وتضع هذه الأوامر الإلهية تحت قدميك، وهذا هو الشقاء الوبيل الذي أرجو أن يحمينا الله سبحانه وتعالى منه.

الشيء الثاني: كانت هذه الأسرة مأتلفة وكان الوداد سارياً بين الزوجين وكانت صلة القربى بين أفراد هذه الأسرة متألقة، فلما دخل هذا الشيطان بالشكل الذي سخره هذا الإنسان إلى ما آل حال هذه الأسرة؟ تحول الوداد بين الزوج والزوجة إلى برودٍ فجفاءٍ فخصام، وكم من أسر شقيت وشقي الزوج بزوجته وشقيت الزوجة بزوجها من وراء هذا الأمر. كانت الرعاية سارية من الآباء إلى الصغار وكانت الاستجابة وكان البر سارياً من الأبناء إلى الآباء، تقطعت هذه الصلة تقطعت، كان المجلس في المساء مجلس مذاكرة مجلس محادثة مجلس تناصح فلما جاء هذا المتكلم الذي أصمت الأسرة كلها ولما استعمل هذا الجهاز من حيث لا يرضى الله سبحانه وتعالى انتهت المحدثات التي كانت ترمي إلى التناصح انتهت رسالة الأب اتجاه أولاده انتهى بر الأبناء اتجاه آبائهم. أليس هذا الكلام هو الواقع أفي هذا الكلام شيء من المبالغة أيها الإخوة؟

أنا أعلم أسراً كانت تعتز بالود الساري في أرجاء دارها، وما من تسرب هذا البلاء برضى طبعاً من رب الأسرة وبهذا التوجيه الذي أقول حتى تحولت الدار من مسكن للسعادة إلى بؤرة للشقاء، وقع الطلاق ووقع الفراق وشقيت الزوجة بالزوج والزوج بالزوجة وإلى ما آل حال الزوج؟ هل عثر على سعادته ومتعته الحقيقية من وراء ذلك؟ لا بل انتقل من ظمأٍ إلى ظمأٍ ولسوف ينقله تسلسل الظمأ إلى الهلاك. هذه حقيقة لا مرد لها.

كان هذا الإنسان يتحرك في داره طبق نظام يرقد طبق نظام ويستيقظ طبق نظام، ثم يخرج إلى عمله نشيطاً طبق نظام، أما الآن فقد تحول النظام إلى فوضى، تحول النظام الرقاد فاليقظة إلى فوضى. السهر ممتد إلى آخر الليل وفي الصباح لابد أن يخرج هذا الإنسان إلى عمله. كيف يؤدي عمله والجسم بحاجة إلى حظه وحقه كيف؟ ولا أريد أن أتجاوز الحديث عن الأسرة إلى الحديث عن المجتمع، المجتمع ينبغي أن

يغار عليه أربابه، كانت الأعمال والوظائف تؤدى على خير ما ينبغي أن تؤدى عليه، ولكن لننظر إلى الدوائر وإلى هؤلاء الذين كانوا أمناء على أعمالهم، ينشطون في أداء وظائفهم تنظر فتجد التأخر لا المدة التي تكون مدة معقولة كعشر دقائق ربع ساعة ونصف ساعة لا، بل التأخر يمتد إلى الساعة والساعتين، والتثاوب ممتدٌ إلى الظهيرة، والكسل الذي ران على الجسم ممتدٌ إلى الجميع، ومن ثم فالعمل متروك ومجمد، والوظائف تشكو من لا يستطيع أن ينهض بها. لا أريد أن أتحدث عن ذلك البلاء، ولكني أريد أن أتحدث عن مصير الأسرة.

أيها الإخوة إن هذه الأطباق التي تتكاثر فوق بيوت الفقراء قبل أن تتكاثر فوق قصور الأغنياء والأمراء، هذه الأطباق نذير هلاك لهم، نذير شرٍ لهم، ولا يمكن لها أن تروي ظمأ أصحاب الشهوات والأهواء لا يمكن، لابد أن تزج الأسر في دمار، لابد أن تشتعل هذه البيوت بلظى الفتن.

فأنا أعود إلى الكلام الذي قلته بالأمس لأتمه بهذا التحذير اليوم.

أقول لهؤلاء الإخوة وقد جربوا ورأوا أن وراء هذا الخط لا يمكن أن يروي ظمأ رغبات الإنسان، بالعكس تماماً. هو يصد وهو يجعل الإنسان واقعاً في مهلكة لا يستطيع أن يخرج منها، سيكون حبيس الظمأ في سبيل شهواته وأهوائه، جربتم ورأيتم كيف تسربت الفتن إلى بيوتكم، جربتم ورأيتم كيف كان الزوج قنوعاً بزوجته محباً لها وكيف كانت الزوجة تبادله الود، كانت تؤدي المهام والوظائف التي أمرها الله عز وجل بها اتجاهها وكان الزوج مقبلاً إليها غير مدبر فماذا كانت النتيجة؟ آل الأمر إلى خلاف ذلك.

ها أنتم ترون ... شقي الزوج بالزوجة وشقيت الزوجة بالزوج. هذه هي النتائج جربتم ورأيتم هذه النتائج، فعودوا من طريق تجربتكم تستغفرون الله، واقتلعوا هذه الأطباق من فوق بيوتكم قبل أن تقعوا في مصيبةٍ دنيوية لا أقول أخروية لا مفر منها.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.



١٩٨- من أين يبدأ حل كل المشكلات؟ | ٢٠٠٠/٠٤/١٤

ما تزال المشكلات التي تحيق بالمسلمين في عالمهم الإسلامي تتزايد وتتفاقم.

تتفاقم فيما بينهم المشكلات الإجتماعية والمشكلات الأخلاقية التي تغزو بيوتهم وتذيب قدسية الأسرة فيما بينهم. وتتجه إليهم المشكلات الإقتصادية التي تحاول أن تشل فاعليتهم وأن تقضي على قدراتهم وأنشطتهم. وتتفاقم متجهةً إليهم المشكلات السياسية ومن ورائها العسكرية، كل ذلك يُصوب إلى العالم الإسلامي من جهة واحدة، والغرض من ذلك القضاء على البقية الباقية لكيان هذه الأمة، ومن ثم القضاء على الإسلام الذي يتجلى في مظهر هذه الأمة وكيانها.

والوقت لا يتسع لتفصيل الحديث عن هذه المشكلات، لا يتسع الوقت للحديث عن المشكلات الإقتصادية التي تتجه بالقصد إلى شل فاعلية هذه الأمة وأنشطتها الاقتصادية المختلفة، لا يتسع الوقت للحديث عن المشكلات الاجتماعية والأخلاقية التي تتسرب إلى كل بيت فضلاً عن كل مدينة وقرية ومحلة، لا يتسع الوقت للحديث عن المشكلات السياسية والتي تتهددنا من وراءها المشكلات العسكرية. ولعل كل من أوتي حظاً من الوعي الثقافي يعلم تفاصيل ذلك كله، ومن ثم فهو ليس بحاجةٍ إلى فتح هذا الملف في مثل هذا الموقف في مثل هذا الزمن، ولكني أتسائل معكم عن العلاج الذي به ندرء به هذه المشكلات الكثيرة المختلفة المتعاونة من أجل هدف واحد، ما السبيل إلى أن ندرء هذه المشكلات عن أنفسنا بل عن العالم الإسلامي كله؟

سبيل ذلك يتمثل في علاج واحد لا ثاني له: ألا وهو أن تعود هذه الأمة إلى سابق وحدتها، أن تعود هذه الأمة إلى ما قد ارتضاه الله سبحانه وتعالى لها من التضامن ومن الاتحاد والاجتماع على كلمة الله سبحانه وتعالى، هذا هو العلاج. فإذا لم تهتدي هذه الأمة إلى علاجها هذا الذي به شفيت فيما مضى من أمراض وبيلة أخطر من هذه الأمراض التي تتهددنا، إذا لم تهتدي هذه الأمة إلى هذا العلاج فلا يمكن أن تجد من وراء ذلك أي علاج آخر؛ مهما تفلسف الناس عن القومية ومعانيها وآثارها وجدواها، مهما تفلسف الناس عن العلم والعلوم الحديثة وضرورة الإقبال إليها والضرب بسهمٍ عمليٍ مع العالم فيها، مهما تحدث الناس عن الفلسفات الاجتماعية المختلفة، ومهما نشط الناس هنا وهناك بحثاً عن سبلٍ سياسيةٍ جديدة مختلفة يبرع فيها البارعون، كل ذلك لا يُجدي، كل ذلك يتبخر ويذهب أدراج الرياح ما دامت هذه الأمة قد ركنت إلى التفسخ الذي وقعت فيه، ما دامت هذه الأمة تركن إلى الخصومات التي ارتضتها لنفسها بعد التضامن الذي ارتضاه الله سبحانه وتعالى لها.

معين العلاجات كلها يكمن في الوحدة، في أن تعود هذه الأمة مرة أخرى إلى وحدتها السابقة ولولا أن هذا هو أس العلاج كله وهو مصدر الأدوية كلها لما خاطبنا الله سبحانه وتعالى آمراً ناصحاً موجهاً إلى هذا العلاج: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا﴾، لما كرر وعاد فقال: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾.

وكأن في الناس المؤمنين بهذا الكلام يسألوا فما السبيل إلى أن نسترجع وحدتنا؟ ما السبيل إلى أن نجد هذا الجاذب الذي جمعنا بالأمس ووحدنا، فعشنا متضامنين وتفجرت من داخل ذلك قوتنا وعزتنا، تفجرت من ذلك مظاهر غنانا، ما السبيل؟

عند البحث عن جواب على هذا السؤال يتيه الناس في سبل متعرجةٍ كثيرة مختلفة، ويختلفون ويتناقشون ويتجادلون في الطريقة المثلى لاستعادة هذه الأمة وحدتها. وأنا أقول أيها الإخوة في كلمة جامعة: **السبيل الذي يعيد هذه الأمة إلى وحدتها شعورها بجاذب يجذبها إلى حبل الله عز وجل،** هذا الشعور أين ينبثق؟ ينبثق من القلب، القلب هو محل هذا الشعور وهو مكمنه، وإذا لم يوجد لدى أفراد هذه الأمة الشعور الذي يجذب أفرادها بعضهم إلى بعض، بل فئاتها يجذبها بعضها إلى بعض، بل بلدانها ودولها تجذبها بعضها إلى بعض، فإن هذه الوحدة المنشودة لا يمكن أن تتحقق، الذي يجذبني إليك ويجذبك إلي هو الشعور الجاذب، والشعور الجاذب لا يوجد في كلام يردده اللسان، ولا في ابتسامة أواجه بها صديقاً أو يواجهني ذلك الصديق بمثلها، إنما يوجد الشعور في حنايا القلب، فالقلب هو مغرس ذلك الشعور الجاذب، ومن أين يأتي هذا الشعور ليهيمن على القلب؟ لا يأتي إلا من مصدر واحد من عند الله عز وجل. ما السبيل إلى أن استنزل هذا الشعور من علياء الربوبية؟

ما السبيل إلى أن يستنزل الناس مشاعر الانجذاب إلى بعضهم، مشاعر التآلف فيما بينهم، مشاعر تحطيم الفوارق وأسباب الخلاف فيما بينهم. ما السبيل إى أن يستنزلوا هذه المشاعر إلى قلوبهم من عند بارئهم ومولاهم وخالقهم؟

الجواب يتمثل في شيء واحد: ذكر الله عز وجل، الاكثار من ذكر الله سبحانه وتعالى. وكم قلت وأعود فأكرر فأقول إنه العلاج المنسي في عالمنا الإسلامي اليوم.

يتسابق المسلمون إلى فئات وإلى فجاج وإلى وسائل شتى بحثاً عن علاجات خيالية يحلمون بها لعلاج مصائبهم، لعلاج المشكلات التي توضع بعضٌ منها فيما بينهم والتي يتهددهم كثيرٌ منها وهي آتية إليهم يبحثون عن علاجات شتى وهم عن هذا العلاج الوحيد تائهون، ذكر الله سبحانه وتعالى، ألم تسمعوا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه أحمد والترمذي والبيهقي والحاكم على شرط الشيخين وأبو داوود وابن ماجة يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم: ﴿ألا أنبئكم بأفضل أعمالكم وأزكاها عند مليككم وخير لكم من إنفاق الذهب والورق وأن تلقوا عدوكم فيضرب أعناقكم وتضربوا عنقه قالوا بلى يا رسول الله، قال : ذكر الله﴾.

وربما عجب بعض المسلمين من هذا الذي يقوله رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وربما تاهوا في معنى قوله عليه الصلاة والسلام: ﴿وخير لكم من إنفاق الذهب والورق ومن أن تلقوا عدوكم فيضرب أعناقكم وتضربوا أعناقه﴾ ربما قال قائل وقالها بعض الناس: كيف يكون ذكر الله هذا خيراً من الجهاد؟ كيف يكون ذكر الله هذا خيراً من بناء المجتمع عن طريق التضامن والتكافل الاجتماعيين؟ ليس هذا معنى كلام رسول الله.

معنى كلام رسول الله هذا أن ذكر الله هو المفتاح، ما قيمة أن تقف أمام الدار وليس مفتاح هذه الدار بيدك؟ ما قيمة أن تتباهى بالصرح الكبير أن تنسبه إلى نفسك بملكية أو غيرها وأنت ممنوع من الدخول إلى هذا الصرح لأن مفتاحه ليس بيدك؟ المفتاح الذي ييسر لهذه الأمة سبيل التضامن والتكافل الاجتماعيين هو ذكر الله، المفتاح الذي يجعلك تجاهد حقاً في سبيل الله فتتغلب على عدوك هو ذكر الله سبحانه وتعالى.

إذا لم يعمر فؤاد الإنسان بالذكر لن يوجد هذا الشعور الذي أحدثكم عنه، وإذا لم يوجد هذا الشعور لن أشعر بالجاذب الذي يدعونني إليك ولن تشعر بالجاذب الذي يجذبك إلي، ومن ثم فإن الوحدة المنشودة لا تتحقق بشكلٍ من الأشكال، السر الذي يجعلني أحن إليك ومن ثم تذوب سائر التضاريس والخلافات التي بيني وبينك، الإكثار من تذكر الله عز وجل وذكره، والسر الذي يجذبك إلي هو أيضاً ذكر الله سبحانه وتعالى ومن ثم يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الكلام، المفتاح قبل كل شيء لابد

من أن يتسر السبيل إلى تلك الأهداف وسبيل ذلك الشعور القلبي والشعور القلبي لا يتفجر إلا من خلال الإكثار من ذكر الله سبحانه وتعالى.

ألم تسمعوا قول المصطفى صلى الله عليه وسلم فيما رواه الشيخان وغيرهما من حديث أبي هريرة: ﴿أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إن ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير من ملأه، وإن خطى إلي خطوة دنوت إليه ذراعا، وإن دنا إلي ذراع دنوت إليه باعا، وإن أقبل إلي يمشي أقبلت إليه هرولة. ..﴾ إلى آخر هذا الحديث. ألم تسمعوا هذا الحديث؟ كلنا سمعناها لكنه ملقىً وراء آذاننا ملقىً على الرفوف هو من المنسيات بغمار حياتنا الإجتماعية التي نعيشها.

لماذا يُلح رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الإلحاح العجيب على الذكر؟ لسبب واضح ربما أقول بسيط، كل المشكلات التي يعاني منها العالم الإسلامي في هذا العصر أو في غير هذا العصر يبدأ علاجها من إصلاح القلب، ولا يمكن أن تتم معالجتها من خلال إصلاح الهيكل الجسمي بكل ما له من عوارض والقلب ما الذي يصلحه؟ لا يصلح القلب إلا علاج واحد: رقابة الله، ورقابة الله من أين تأتي؟ من الإكثار من ذكر الله سبحانه وتعالى، هذا العلاج، إن أقبل إليه المسلمون فئات وجماعات سرعان ما يجدون السبيل الذي يعيد إليهم وحدتهم كفئات وجماعات، وإن أقبلت إليه الدول متمثلة في حكامها وملوكها وقاداتها عكفوا على ذكر الله سبحانه وتعالى، سرعان ما يجدون سبيل الوحدة قد تعبد، وأسباب الخلافات ذابت. ولكن إن لم يتحقق هذا العلاج، وإن ظل المسلمون معرضين عن الله سبحانه وتعالى يبحثون في كل الوسائل البسيطة المختلفة الخلبية والخيالية، فإنهم سينتقلون من مشكلةٍ إلى مشكلة إلى مشكلة.

ها هو ذا العالم العربي والإسلامي يضج منظمة التجارة العالمية تهديد خطير للعالم الإسلامي، والهدف منه شل فاعلية هذه الأمة اقتصادياً.

ها هي ذي الخطط الإجتماعية والأخلاقية التي نُغزى من خلالها عن طريق هذه الأقنية المتنوعة المختلفة الكثيرة، التي تغزو بيوتنا وتغزو عقر دورنا، تهدف إلى تحطيم ركائز المجتمع في حياتنا، تهدف إلى تحطيم البقايا الباقية من أخلاق هذه الأمة.

ها هي ذي وسائل النسيج السياسة الرعناء التي تهدف إلى أخذ البقية الباقية من ممتلكات هذه الأمة والبقاء على البقية الباقية من قوتها، ومد رواق الاستعمار الجديد على العالم العربي والإسلامي كله، ومع ذلك فالعالم العربي والإسلامي يلتفت ذات اليمين وذات الشمال لا يملك إلا أن يرفع صوتاً ويخفض صوتاً ولا يملك إلا أن يتلاقى القادرون على اتخاذ القرارات ليتناقشوا وليتحاوروا ثم ليعودوا إلى ما كانوا عليه، كل ذلك لا يجدي، وسائل الخنق تقبل ثم تقبل وهي عما قريب ستأخذ منا بالخناق، وهذا هو مصداق كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم نعم: ﴿ستداعى الأمم عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها﴾ هذا مصداق كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم، والعلاج واضح العلاج ماثل أمامنا ومولانا وخالقنا ينظر ويبصر حالنا هل سنهرع إلى هذا العلاج؟ إذاً ستعود هذه الأمة من حيث لا نحتسب إلى سابق وحدتها وإلى سابق عزتها وإلى كل قوتها، العلاج مرة أخرى أقولها وباختصار إنما يتمثل في الشعور القلبي الذي يدفع إلى التلاقي إلى التضامن إلى الاتحاد، هذا الشعور القلبي لا يأتي إلا من تجليات الله عز وجل، وتجليات الله عز وجل لا تأتي إلا من الإكثار من ذكر الله سبحانه وتعالى بدءً من القادة والرؤساء والملوك والحكام إلى القاعدة الشعبية المتمثلة في الأفراد والفئات.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

١٩٩- رسالة إلى أصحاب الأعشاش | ٢٠٠٠/٠٤/٢٨

إن من سنة الله عز وجل في عباده أنه يأخذهم بالرخاء آناً والشدة آناً آخر، وهو في كلا الحالتين لطيفٌ في عباده متكرمٌ عليه بذلك.

أما في حالة الرخاء فاللطف في ذلك واضحٌ وجلي والجانب الخفي من اللطف في الرخاء أنه يذكر العباد، بشكر الله سبحانه وتعالى فإذا شكروه زادهم الله عز وجل من نعمه وأسباب الرخاء في حياتهم. وأما مظهر اللطف في الشدة فهو أن الشدائد توقظ الراقد والنائم وتنبه الغافل وتدفع المنحرف إلى الإستقامة والتائه إلى الرجوع إلى الله عز وجل وهل في الألطاف ما هو أعظم شأناً من أن يجذب العبد إلى رحابه بعد شرود أياً كانت الوسيلة فإن ذلك للطفٌ ما وراءه لطف أن يجذب الله سبحانه وتعالى العبد إلى رحابه عندما يكون شارداً عنه تائهاً عن سبيله غافلاً عن سلطان الله سبحانه وتعالى عليه.

ولقد رأينا الصورتين في حياتنا أيها الإخوة ابتلانا الله سبحانه وتعالى بالأمس الدابر في السنة الماضية وفي نصفٍ من السنة التي أقبلت ابتلانا الله عز وجل بالشدة وعانينا من ذلك ما عانينا وطرقنا الأبواب كلها كما قلنا مراراً وتكراراً وظهر لطف الله الجلي الكبير في تلك الشدة، إذ هي التي دفعتنا إلى أن نلوذ بأعتابه وأن نتشبث بالدعاء الواجف في محراب العبودية بين يديه، تلك الشدة هي التي استبطنت نعمة الالتجاء إلى الله ونعمة التوبة وما أكثر الذين تابوا وعادوا إلى رحاب الله سبحانه وتعالى ثم نظرنا فوجدنا أن الله سبحانه وتعالى قد طوى عنا تلك الشدة وأبدل تلك الشدة بالرخاء الذي رأيتم استجاب الله سبحانه وتعالى دعاء الداعين والتجاء الملتجئين وتضرع المتضرعين وما أكثرهم فأكرمنا الله سبحانه وتعالى كما تعلمون بالأمطار السخية والثلوج المنهمرة وأمر الينابيع أن تتفجر فتفجرت وعادت المياه كسابق عهدها في هذه البلدة تغمر أنحاء هذه البلدة المباركة رأينا اللطف في المرة الأولى ورأينا لطف الله سبحانه وتعالى في المرة الثانية وذلك هو مصداق قول الله عز وجل ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ وما الشر إلا نعمة مستبطنة وما الخير إلا نعمة ظاهرة ومستبطنة أيضاً كما قد أوضحت لكم.

ولكن فلتعلموا أيها الإخوة أن عصا التأديب الإلهي تلوح دائماً من خلال نعمه كما تلوح من خلال نقمه فلا يتصورن أحداً منكم أن نعمة المطر إذا انهمر من السماء هي نعمة دائماً وما يتصورن أحدكم أن الينابيع إذا تفجرت هي مقياس كرم وعطاء دائماً لا، إن الله سبحانه وتعالى إذا أراد أن يعذب عباده سخر ما شاء لما يشاء من أنواع التعذيب والابتلاء إذاً في كل الأحيان يجب على الإنسان أن يلتجئ إلى الله وأن يقول كما كان يقول رسول الله ﴿اللهم اجعلها سُقيا رحمة ولا تجعلها سُقيا عذاب﴾ إذا هطلت الأمطار وهي تحمل معها الوحل كما رأيتم وترون فلتعلموا أن ذلك نذير عقاب ولتعلموا أن في ذلك

تخويفاً وتهديداً وكأن الله عز وجل يقول لنا لقد أكرمتكم واستجبت دعاؤكم وفرجت الكرب عنكم فهلا تستقيمون على صراط الله، هلا تصدقون في التوبة هلا تطهرون أنفسكم من بقايا الرجز ومن بقايا الانحراف ؟ ها هي ذي عصا التأديب تلوح أمامنا، تلوح أمامنا من خلال النعمة التي تهمي من السماء وما أيسر أن تلوح أمامنا عصي التأديب من خلال الينابيع التي تتفجر في الأرض أيضاً أجل كأن الله عز وجل يذكرنا بقوله ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ أو كأن الله عز وجل يذكرنا من خلال هذا بقوله ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنكُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾

أيها الإخوة بالأمس ذكرت ولعل غيري ذكّر عندما كنا نمر بالمحنة التي تعرفون وأسأل الله أن لا تعود عندما كنا نمر بالأنهر التي كانت تسمى الأنهر السبعة التي جعلها الله سبحانه وتعالى عقداً يتألق في جيد هذه المدينة المباركة عندما كنا نمر فنجد أن الوحل قد حل محل الماء الذي يتألق وكنا ننظر إلى الأعشاش المقامة عن يمين هذه الأنهر وعن يسارها وقد حُشيت بما يُغضب الله، حُشيت بمخالفة أوامر الله سبحانه وتعالى قلت وقال كثيرون يا أيها الناس لا تستبدلوا نعمة الله كفراً توبوا إلى الله عز وجل أغدق الله سبحانه وتعالى علينا من نعمه ونظرنا إلى هذه الأنهر وإذا هي عادت تتألق وإذا هي مغمورة بالماء وتابعنا نظرنا إلى حيث الينبوع فرأينا الينبوع يسبح بحمد الله سبحانه وتعالى ورأيناه ثراً بالماء يعيدنا إلى ذكريات سنواتٍ قديمة سابقة. ترى هل تاب أصحاب هذه الأعشاش؟ ترى هل طهروا أعشاشهم من الموبقات؟ سلوهم أيها الإخوة إن كنتم تستطيعون أن تسألوهم بل انصحوهم إن كانت بينكم وبينهم جسورٌ موصولة تقدركم على النصح لكم، انصحوهم إنني أخشى ما أخشاه أن يركب هؤلاء الإخوة رؤوسهم وأن تغريهم نعمة الله التي تنهمر من حولهم بمزيد من هذه المنكرات وبمزيدٍ من هذه المحرمات وعندئذٍ ما الذي يتهددنا؟ لابد أن يتهددنا الحرمان مرة أخرى وكأن الله عز وجل يرينا طرفاً من هذا الحرمان في المظهر الذي نراه الآن وأسأل الله عز وجل أن يطهر هذه البلدة من الوحل بنعمة تنهمر من السماء وما أحوجنا إلى ذلك.

انصحوا هؤلاء الإخوة قولوا لهم لا تكونوا في عملكم هذا سبباً لنقمة أنتم تستنزلون الرزق بهذا ولكنها حماقةً وجنون إنكم بهذا تحرمون أنفسكم وأهليكم وأهل بلدتكم من الرزق. من ذا الذي يتصور أن وسائل الحرمان هي أسباب للإرتزاق؟ عجيب حال هذا الإنسان الذي يصدق وساوس الشيطان ولا

يصدق وعد الرحمن ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ كيف كيف يكون الإنسان عاقلاً ومؤمناً بالله عز وجل ثم يشك في وعد أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين يشك في وعد الله أو ربما لا يؤمن به ثم يركن إلى وساوس الشيطان الكاذبة يستجيب لوساوس عدوه الشيطان ولا يستجيب لنصائح مولاه الرحمن سبحانه وتعالى، سلوا أيها الإخوة كل من كان يسير في موبقةٍ من الموبقات التي من هذا القبيل ثم تاب إلى الله وطهر مطعمه أو مقهاه أو منتجعه من هذه المحرمات سلوهم أياً كانوا هل حرمهم الله عز وجل من نعمةٍ كانت تفد إليهم بل سلوهم أ لم يضاعف لهم الله عز وجل في الرزق ولعلكم جميعاً تعلمون الجواب عن هذا السؤال من صور واقعة حقيقية، من هو هذا الذي أعرض عن وساوس الشيطان واستجاب لأمر الرحمن وصدق وعد الرحمن ثم لم يكرمه الله عز وجل بالمزيد ؟ من أتحدى من ؟

وبالأمس سمعت خبراً ثم إني تحققت منه، تحققت منه بجلية الأمر فنادق من تلك التي كانت تغوص في حمأة الانحراف والفسق والمجون من الدرجة العالية عنّ لأصحابها أن يعودوا لحمى الرحمن في تركيا طهروا فنادقهم من المحرمات، أبعدوا الخمور عنها، أبعدوا اللحوم المحرمة عنها، فصلوا بين أحواض الرجال وأحواض النساء للسباحة، أقاموا أماكن مدنية حضارية للصلاة والعبادة في أبهى أماكن من فنادقهم، فماذا كان جواب الله عز وجل ؟ ضاعف لهم الدخل أضعاف مضاعفة. بالأمس قرأت هذا الخبر وأصدقكم القول أني تصورت أنه ربما كانت فيه مبالغة ثم أتيح لي أن أتحقق من الأمر على كثب على مقربة من الأمر فعلمت أن الأمر حقيقة ولعل في هذا ما يدفع الآخرين إلى سلوك هذا النهج ذاته. تلك هي سياسة الله عز وجل مع عباده الباري سبحانه وتعالى يقول ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ الله عز وجل يقول: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ﴿من ترك شيئاً لله عوضه الله عز وجل خيراً منه﴾

أنا لا أريد ولست بحاجة إلى أن أضع النقاط على الحروف فأحدثكم عن الأماكن التي كانت بالأمس في بلدنا هذا منحرفة محشوةً بالمحرمات ثم تاب أصحابها ورجعوا إلى حمى الرحمن سبحانه وتعالى وطهروا أماكنهم من الموبقات فأغدق الله سبحانه وتعالى عليهم من رزقه بدون حساب ولكن سلوا ستعرفون وستجدون الأمثلة الحية على هذا. أيها الإخوة أشد ما أخشاه أن يركب أصحاب هذه الأعشاش

في ربوتنا الجميلة رؤوسهم وأن يدفعهم دافعٌ خفي ولا أدري ما هو إلا أن يعكفوا على هذه المحرمات وأن يستمروا في هذه الموبقات إذاً فلتعلموا أن الخير الذي أكرمنا الله عز وجل به قد ينقلب إلى شر. لعلكم سمعتم البشائر العظيمة التي لا يمكن للعلماء علماء الأرض أجمع من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب أن يربطوا ذلك بأي سبب مادي إطلاقاً إنما الرباط الأوحد لذلك كله هو كرم الله، استجابة الله عز وجل لمئات الألوف الذين تضرعوا وحملوا صغارهم إلى الله تعالى يلتجئون إلى الله أن يستجيب دعاؤهم، ذلك هو التحليل العلمي وذلك هو السبب المنطقي كرم الله عز وجل عظيم وكبير وما خفي منه مما استبطنته الأرض أكثر بكثير مما ظهر على باطن الأرض من أمطار الهاطلة، لكن أشد ما أخشاه إذا ركب أصحاب هذه الأعشاش رؤوسهم إما بدافع من جهات الله أعلم بها، و إما بسبب مبايعةٍ رجسة بينهم وبين الشيطان.

أشد ما أخشاه أن تتحول هذه النعمة مرة أخرى إلى نقمة وما أيسر أن تتحول ما أيسر أن تغيض المياه بعد أن تفجرت ما أيسر إلى أن تتحول إلى أجاج ما أيسر أن تتحول إلى وحل وها أنتم ترون بارقةً من النذير فإن كنتم تعرفون هؤلاء الناس أو إن كان فيكم من يستطيع أن يتصل بهم ويكون عوناً لي بأمر في معروف ونهيٍ عن منكر فلنتعاون على السبيل الأمثل لتحصين بلدنا ضد الموبقات وضد الشدائد التي قد نتعرض لها، انصحوهم إن كنتم تبتغون الرزق فالرزق سيأتي من عند الله وما من إنسان صدق مع الله في توبة نصوحة إلا ضاعف الله سبحانه وتعالى له رزقه.





٢٠٠- قِيَم عظيمة في ديننا تغنينا عن قيم الغرب المزيفة | ١٩٨٤/٠٦/٢٩

إذا تأمَّلنا في مُجمَلِ أحكامِ الدّينِ وواجباتِ الشَّريعةِ الإسلاميةَّ، لرأينا أن هذه الواجباتِ والأحكامَ كلَّها تدورُ على محورِ شيءٍ واحد، ألا وهوَ الرَّحِمُ الإنسانيّ، إقامةُ الرَّحمِ الإنسانيِّ على أقومِ صلة، وعلى أرسخِ نظام، فالعقيدةُ التي أمرنا اللهُ عزَّ وجلّ أن ندينَ بها، والأوامرُ التي كلَّفنا اللهُ عزَّ وجلَّ أن نخضعَ لها، والنواهي التي حذرنا اللهُ سبحانهُ وتعالى من مغبتها، كلُّ ذلكَ خدمة للأُسْرَةِ الإنسانيّة، وكلُّ ذلكَ في سبيلِ أن تقومَ وشيجة الإنسانيَّةِ على أوفقِ نظام.

كيفَ لا؟ وقد رُويَ عنِ الصَّدقِ المصدوقِ عليهِ الصلاةُ والسلام فيما رواهُ الطَّبرانيُّ في الكبيرِ والأوسط، والبيهقيُّ في شُعَبِ الإيمانِ مرفوعاً، أنَّهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ قال: ﴿الخلقُ كلُّهم عيالُ الله، فأحبُّ الخلقِ إلى اللهِ أنفعُهُم لعيالِه﴾، وحسبنا في هذا أن نمثلَ أمامَ قولِ اللهِ عزَّ وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾، قرنَ اللهُ عزَّ وجلّ تقوى الرَّحِم بتقوى ذاته، فأمرَ – عزَّ من قائل – أمرَ عبادهُ بأن يتَّقوا الأرحام، في الوقتِ الذي كلَّفهم بتقوى اللهِ سبحانهُ وتعالى، إلا أنَّ إقامةَ الأسرةِ الإنسانيَّةِ على منهجٍ سويّ، وتحقيقِ صلةِ التآلفِ بينَ آحادِ النَّاسِ وأفرادِ المجتمعِ الإنساني، لا يتحقَّقُ إلا من وراءِ ثلاثِ مراحل.

المرحلةُ الأولى: تهذيبُ النفسِ الإنسانية وتزكيةُ الإنسانِ من سائرِ الأوطار، وسائرِ الأمراضِ النفسيّةِ والقلبيّةِ المختلفة، فهذهِ هي المرحلةُ الأولى.

المرحلةُ الثانية: ترسيخُ قواعدِ الأسرة، ونظامها الإنسانيِّ الدَّقيق، وهذهِ هي المرحلةُ الثانية.

أمَّا المرحلةُ الثالثة: فتتمثَّلُ في وضعِ الأنظمةِ الدَّقيقة، التي تربطُ النَّاسَ بعضهم ببعض بوسيلةِ الألفةِ والمحبَّة، تلكَ الأحكامُ التي تضمنُ أن تزولَ السخائم من القلوب، وأن تزولَ الأحقادُ والأضغانُ من النفوس.

ولذلك.. فنحنُ إذا نظرنا إلى مجملِ أحكامِ الشريعةِ الإسلاميَّة وتأمَّلناها مليَّاً، نجدها تنقسمُ إلى ثلاثةِ أقسام: أحكامٍ تتعلَّقُ بتزكيةِ الإنسانِ نفسَه، تتعلَقُ بتهذيبِ الفرد وتربيته، أحكامٍ أخرى تتعلَقُ بالأسرة وتنظيمها، وإقامةِ علاقةِ أفرادها على أساسٍ دقيق منَ الصلةِ الإنسانيَّةِ السليمة، القسمُ الثالث: أحكامٌ تتعلَّقُ بمجملِ الناس وما ينبغي أن تنهضَ علاقاتُ الناسِ بعضهم مع بعض، فانظر يا أخي المسلم، إلى مدى رحمةِ اللهِ بعباده، عندما شرعَ لهم دينه، وعندما أحبَّ لهم أن يلتزموا بأحكامه، وعندما قال لهم عزَّ من قائل: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾، هل من هديَّةٍ يحقُّ للإنسانِ أن يفخرَ بها، ويرفعَ الرأسَ بها عالياً، أعظمُ من هذه الهديَّة؟

تلكَ الهديَّة، التي لا ضمانةَ غيرها، ولا يمكن للإنسانِ أن يجدَ عنها بديلاً، تلكَ الهديَّة التي تضمن أن يتحوَّلَ المجتمعُ الإنسانيُّ المتصارعُ المتعادي، إلى أسرةٍ إنسانيّةٍ متوائمة، ومترابطةٍ بِوشيجة الألفةِ والمحبّة.

وعندما ننظر في استعراضٍ سريعٍ إلى هذه الأحكام، نجدُ أمراً عجيباً، ونجدُ أحكاماً دقيقة، لم ترقَ إليها علومُ الاجتماعِ قَطْ، ولم يستطع علماءُ التربيةِ أن يصعدوا بعقولهم إلى مستوى دقّتها، إذ جعلَ اللهُ عزَّ وجلّ تهذيبَ الإنسانِ نفسهُ أوَّل درجةٍ في هذا السلَّم، ثمَّ جعلَ من تماسُكِ الأسرة وترابطِ أفرادها الدَّرجةَ الثّانية، فإذا قفزَ الإنسانُ فوقَ هاتينِ الدَّرجتين، فلسوفَ يخرُّ صريعاً، ولن يجدَ وسيلةً إلى تحقيقِ الهدفِ الذي قد يطمحُ إليه، في إقامةِ مجتمعٍ إنسانيًّ سليمٍ.

ومن عَجَبٍ أنَّكَ تنظرُ إلى الأسرةِ المسلمة، فتجدُ المقياسَ التالي:

كلَّما كانَ أفرادُ هذه الأسرة أكثرَ التزاماً بدينِ الله، كلَّما رأيتَ هذه الأسرةَ أكثرَ تماسكاً، وأكثرَ ترابطاً، وأكثرَ سعادة. وكلَّما رأيتَ أفرادَ هذه الأسرة أكثرَ بعداً عن دينِ اللهِ عزَّ وجلّ، وشتاتاً عن التزامِ أمره، رأيتَ هذه الأسرة أكثرَ تميُّعاً، وأكثرَ شتاتاً، وأبعدَ عن حمى السَّعادةِ وظلالها الوارفة.

ودونكم فانظروا.. فانظروا إلى المجتمعاتِ الإنسانيّة، البعيدةِ عن الدّين، والقريبةِ إلى ما يسمّى بالحضارة، هل هنالك معنىً للأسرةِ في تلكَ المجتمعات؟ أسرها متفسخة متفككة، لا يتعرَّفُ ابنٌ على أب، ولا يتعرَّفُ ولدٌ على أم، ولا يعرفُ أخٌ أخاه، أسرٌ متمزّقة، لم تغنهمُ الحضارةُ عندما فقدوا الدين، ولم تغنهمُ المدنيّة عندما تشتّتوا، وابتعدوا عن ظلالِ دينِ اللهِ سبحانهُ وتعالى.

في سبيلِ هذا، أقامَ اللهُ أحكامهُ لنا، وأمرنا بالانضباطِ بها، فجعلَ سيّدَ الأسرة الأبوين، ولا يمكنُ أن تجدَ واحداً من أفرادِ الأسرة يتعالى إلى مستوى هذهِ السيادة، نعم، ألم تسمعوا كلامَ اللهِ عزَّ وجل؟ ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾، وقد شرحَ رسولُ الله عليهِ الصلاةُ والسلام طرفاً من معنى هذه الآيةِ العظيمة، عندما أجابَ على سؤالِ سائل جاءَ يقولُ لهُ يا رسولَ الله، أيُّ الناسِ أحقُّ بصحابتي؟ انظروا إلى السؤالِ الدقيق، أيُّ الناس؟ دخلَ في هذا الاستفهام الزوجة، والزوج، والأولاد، والإخوة، والأبوان،

والأصدقاء، والعشيرة، أيُّ الناسِ أحقُّ بصحابتي؟ قالَ: أمُّك، قالَ ثمَّ من؟ قالَ: أمُّك، قالَ: ثمَّ من؟ قالَ: أمُّك، قالَ: ثمَّ من؟ قالَ: ثمَّ أبوك.

وهذا معنى قولنا: أنَّ الأبوين قد خصهما اللهُ عزَّ وجلّ في دائرةِ الأسرة بسيادةٍ لا يرقى إلى مستواها أحدُ أفرادِ الأسرةِ قط.

وقد روى الطبراني وروى الترمذيُّ وابنُ ماجه عن أبي الدرداء رضيَ اللهُ عنه أانَّ رجلاً جاءَ يقولُ له: إنَّ أبي ما زالَ بي حتّى زوَّجني، ثمَّ إنهُ اليومَ يأمرني أن أطلقَ زوجتي، فماذا أفعل؟ قالَ لهُ أبو الدرداء: أما إني لا آمركَ بأن تعقَّ أباك، ولا آمركَ بأن تطلِّقَ زوجتك، ولكن إن شئت، أخبرتكَ بما قالهُ رسولُ الله صلى اللهُ عليهِ وسلَّم: ﴿إنَّ أوسط أبوابِ الجنّة برُّ الوالدين﴾، فإن شئت، فادخل من هذا البابِ إلى الجنّة، وإن شئت فدعه.

وقد وقعَ هذا الأمرُ بما هوَ أوضح، تزوَّجَ ابنُ عمر من امرأةٍ كانَ يكرهُها عمرُ رضيَ اللهُ عنه، فقالَ عمرُ لابنهِ طلّقها، وارتفعتِ المسألةُ إلى رسولِ الله، وقال عمرُ ذلكَ لرسولِ الله، وابنُ عمرَ جالس، فالتفتَ رسولُ اللهِ إلى ابنِ عمرَ فقالَ لهُ: نَعَمْ طلِّقها.

وهذا ما ينبغي أن يُفهَمَ يا عبادَ الله، على أنَّ للوالدينِ أن يتعسفا، في أمرِ ابنهما بأمرٍ من هذا القبيل، لا، ولكن انظروا إلى دقَّةِ الشرعِ ودقّةِ أحكامِ الشارع، إنَّ اللهَ عزَّ وجلّ، عندما أمرَ الأولادَ ببرِّ الآباءِ إلى هذهِ الدَّرجة، في الوقتِ ذاتهِ أمرَ الآباء، أن يصطبغوا بدينِ الله، وأن يقيموا علاقاتهم مع أولادهم على أساسٍ من موازينِ الشريعة، فإذا كانتِ الأسرةُ متدينة، وإذا كانَ الوالدُ مصطبغاً بدينِ الله، فإنهُ لا يخشى منهُ ظلمٌ ولا جَور، عندما يعطيهِ اللهُ عزَّ وجلّ هذه الصلاحية، وعندما يأمرُ الأولاد بأن يذهبوا في برِّهِمْ بآبائهم إلى هذه الدرجة، نعم الوالدان هما عصبُ الأسرة، وهما العمودُ الفقريُّ فيها، وكلُّ أعضاءِ الأسرة إنما يدورونَ على محورِ هذا العمودِ الفقريّ الذي إن ماعَ وزال، ماعتِ الأسرةُ من وراءِ ذلك، نعم، هنالكَ شيءٌ واحدٌ يستثنى من هذا الحكمِ الشاملِ العام، ألا وهيَ الحقوق المادّيَّةُ العينيّة. فإنَّ اللهَ عزَّ وجلّ، جعلَ حقَّ الزوجةِ مقدَّماً على حقِّ الأبوينِ والأولادِ في ذلك، لا فيما يتعلَّقُ بالبر، ولكن فيما يتعلَّقُ بالحقوقِ العينية، سألَ رجلٌ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم فقال: يا رسولَ الله، أرأيتَ لو كانَ لي درهمٌ

ماذا أصنعُ به؟ قالَ: أنفقهُ على نفسك، قال: فإن كانَ لي درهمٌ ثانٍ؟ قالَ: فعلى زوجك، قالَ فإن كان لي درهمٌ ثالث؟ قالَ: فعلى أولادك، قالَ: فإن كانَ لي درهمٌ رابع؟ قالَ: فعلى أبويك.

هذا شيءٌ لا علاقةَ لهُ بالبرِّ أبداً، البرّ، ينهضُ على حكمٍ تربويٍّ دقيق، وقاعدةٍ اجتماعيّةٍ هامّة، ومن ثمَّ فإنَّ الأبوين هما أساسُ البرّ، وإذا ذهبَ برُّ الوالدين، لم ينفع برُّ زوجةٍ ولا برُّ أولادٍ ولا إخوةٍ من بعدِ ذلك.

عبادَ الله: عندما أقولُ لكم هذا الكلام، إنما أهدفُ من وراءِ ذلكَ إلى شيءٍ واحد، هو أن نرفعَ الرأسَ عالياً بديننا، هو أن نستشعر أنَّ أعظمَ عزّةٍ مُتِّعنا بها هيَ عزَّةُ هذا التاج، وما التَّاجُ الذي يستأهلُ أن نرفعَ رأسنا بهِ عالياً، إلا تاجُ هذا الدينِ الذي شرَّفنا اللهُ عزَّ وجلَّ به؟ إذا أتيحَ للإنسان أن يعتزَّ بهذا الإسلامِ العظيم، وأن يعلمَ أنهُ استوعبَ جميعَ علومِ الاجتماع، وجميعَ علومِ التربية، وجميعَ علومِ التشريعات، وجميعَ الأدويةِ التي تعالجُ الإنسان كفردٍ وكمجتمع، فإنَّ الإنسان لا يلتفتُ إلى يمينٍ ولا إلى يسار، لا يقلّدُ شرقاً ولا غرباً، كيف؟ كيفَ يتركُ ربَّهُ عزَّ وجلّ؟ الذي شرَّفهُ بأن وصلهُ به، عندما عرَّفهُ بذاته، يضيِّعُ هذا الشَّرف، ويلقي هذا التاج، لكي يبحثَ عنِ القمامةِ فوقَ المزابل أي والله، يبحثُ عنِ القمامةِ فوقَ المزابل، يدعُ البرّ، برَّ الأبوين كما قالَ اللهُ سبحانهُ وتعالى، ويبحثُ عن قمامةٍ في تقليدِ الغربيين، يسمع أنَّ الغربيين جعلوا في السنةِ يوماً اسمهُ يومُ الأم، فنقلدُ ذلكَ المجتمعَ بهذا الشكل، وننسى أن نتشرَّفَ وأن نرفعَ الرأسَ عالياً لاصطباغنا بدينِ اللهِ عزَّ وجلّ، وينسى هؤلاءِ الأذلَّاء نعم الأذلَّاء، المهينون عندَ أنفسهم، أنَّ الغرب، ما الذي دفعهم ليجعلوا يوماً اسمهُ يومُ الأم؟ شيءٌ واحدٌ دفعهم إلى ذلك: تمييعهم للأسرة، تضييعهم لحقوقِ الآباء، ولذلك فإنهم يحاولون أن يشدُّوا الأولادَ والشبابَ إلى آبائهم ولو في العامِ مرَّة.

أمَّا ديننا فقد علَّمنا ألا نعيشَ إلا في ظلالِ البرّ، وألا ندخل حياتنا إلا من معينِ هذا البرّ، فارفعوا رؤوسكم عالياً بدينكم يا عبادَ الله، ولا تبتغوا عن دينِ اللهِ بديلاً، وإياكم أن تبتعدوا عن شرعةِ الله شروى نقير، فإنكم إن ضيعتم هذا الشرف، شقيتم شقاءً لا سعادةَ من بعدهِ قَطْ، أقولُ قولي هذا وأستغفرُ اللهَ العظيم، فاستغفروهُ يغفر لكم.



٢٠١- مسؤولية الآباء تجاه أبناءهم وبناتهم في العطلة الصيفية

١٩٩٢/٠٧/١٠

مناسبةٌ يجدر أن نتنبه إليها في أوائل كل صيف، عندما تغلق المدارس أبوابها وتنتهي أنشطة الطلاب والطالبات المتجهة إلى دراستهم ودراستهن، عندما يقبل الشباب إلى ساحة من الفراغ رهيبة في هذه الأشهر من القيظ، يتفتّح بابان اثنان أمام هؤلاء الشباب.

الباب الأول: عليه شياطين من الإنس والجن يدعون هؤلاء الفتية ذكوراً وإناثاً إلى الولوج في هذا الباب، فإذا ولجوا وولجن.. رأوا داخل هذا الباب من الأمور ومن الأسباب التي تتخطف الإنسان من ساحة الرشد وتزج به إلى أودية الضلال والضياع رأى هؤلاء الفتيان أنواعاً لا تحصر من هذه الأمور التي تفنن فيها شياطين الإنس والجن. وإلى جانب هذا الباب بابٌ آخر في الطرف الثاني.

الباب الثاني: عليه أناسٌ يغارون على دينِ الله عز وجل ويغارون على حرمات الله سبحانه وتعالى، يدعون هؤلاء الفتية إلى أن يملأوا فراغ هذه الأشهر بما يرضي الله سبحانه وتعالى، بما يزيدهم رشداً، بما يزيدهم ثقافةً وعلماً، بما يحصنهم من خطاطيف الضلالة والبغي المتمثلة –كما قلت لكم – في شياطين الإنس والجن.

هذان البابان يتفتحان في مثل هذه الأيام من كل عام، والشيء الذي ينبغي أن نقوله وأن نتناصح على أساسه، هو أن على الآباء جميعاً أن يوجهوا أبنائهم في هذه الأشهر إلى ما يرضي الله سبحانه وتعالى، ينبغي أن يوجهوهم إلى الساحة التي تزيدهم ثقافةً وعلم، وتزيدهم حباً لله سبحانه وتعالى ومخافةً من الله، وتزيدهم شعوراً بهوياتهم وإنسانيتهم. ونتيجة السلوك في هذا الطريق أن الواحد منهم يرجع بخير الدنيا والآخرة، يرجع بربح في الدنيا عاجل، وبربح آخر من مرضاة الله سبحانه وتعالى آجل، والسبل إلى ذلك ميسرة ومُفَتّحةٌ في مجتمعنا ولله الحمد، ولكن الأمر يحتاج إلى من يبحث، والأمر يحتاج إلى من يغار على أهله وأولاده ويحافظ عليهم من القوانص ومن هؤلاء الخطاطيف الذين أحدثكم عنهم.

ولا شك أنه بمقدار ما ينشط جند الله سبحانه وتعالى في هذه الأيام لحماية الجيل من كل سوء وانحراف، فإن هنالك فئات أخرى تنشط هي الأخرى نشاطها، ذلك لأن بينها وبين شياطين الإنس بل بين أعداء الله عز وجل عهوداً ومواثيق خفية أو معلنة. فما الموقف الذي ينبغي أن يتخذه كل أب ناصح؟

الموقف هو هذا الذي أقوله لكم، وإن عزّت السبل أمام الشباب في أشهر البطالة هذه، فما أيسر أن يتخذ هؤلاء الشباب من بيوت الله عز وجل مثابة لقاءٍ، بل تلاقٍ، ومثابة درسٍ بل تدارس. فكيف

وإن هنالك سبلاً كثيرةً أخرى تنسي هؤلاء الشباب أوقات فراغهم، وتجعلهم إن هم استجابوا لأمر الله عز وجل سعداء في دنياهم وآخرتهم، ولكن يظل الإنسان رغم هذا كله مشدوداً إلى عاملين اثنين:

العامل الأول: هو اللامبالاة، وذلك هو العامل الذي يتمثل في حياة الآباء والأمهات، اللامبالاة وعدم الاهتمام بالواقع أو المنهاج الذي سيتخذه أولاده في هذه الأيام أو في هذه الأشهر، ولا يمكن لإنسان أن يحتضن هذه اللامبالاة وأن يتعامل مع أولاده على أساسها إلا إذا كان محجوباً عن ربه وخالقه سبحانه وتعالى، وسيان بعد ذلك أن يكون من المصلين أو أن يكون من غير المصلين.

العامل الثاني: هو العامل الغريزي، الذي يستثير كل إنسان منا، وهذا العامل الغريزي يمثل الورقة الرابحة الأولى والأخيرة التي يلعب بها أعداء الله سبحانه وتعالى المتربصون بأولادنا، والمتربصون بشبابنا، ولقد علمتم – أيها الأخوة – وتبين لكم جميعاً أن الإنسان الذي يستجيب استجابةً كيفية لغرائزه لا بد أن يضيع، لابد أن يقع بين ماضغي الشقاء، وهذه حقيقة لا إشكال فيها ولا ريب فيها، ولقد رأينا كثيرين من الشباب استجابوا لغرائزهم في بادئ الأمر عن طريق استجابة جزئية لبرامج أو لمناهج تعقد عادة خلال الصيف بعد أن تغلق المدارس –كما قلت لكم – أبوابها فماذا كانت العاقبة؟ جرتهم الخطوة الأولى إلى خطوات، وجرتهم الخطوات الأولى إلى انزلاق في أودية، ولما انزلقوا في تلك الأودية لم يعودوا يستطيعون أن يملكوا لا رشدهم الدنيوي، ولا يستطيعون أن يلتفتوا عائدين إلى صراط الله الذي كانوا يتمسكون به، ووقعوا هكذا بين ماضغي الشقاء الدنيوي أولاً والشقاء الأُخروي ثانياً.

وما أعجب وأغرب كلام الأب أو الآباء الذين يلجؤون إلى مثلي عندما يقعون في مضايق، أو عندما يقع أولادهم في مضايق ويسأل الواحد منهم واحداً مثلي: ماذا نعمل؟ وكيف أصنع؟ وكأن مفتاح حل هذه المشكلات إنما هو بيدِ إنسانٍ مثلي فقط! دون أن يتبين هذا الإنسان أنه مسؤولٌ قبلي عن أولاده ودون أن يذكر كلام سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿كُلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيَّته﴾.

ما معنى أن يسألني سائل عن حكم ابنته عندما تزج في معسكر وتجبر على أن تعصي الله بحجابها ما معنى هذا السؤال؟ اسأل ربك، ولا تسأل عبداً مثلي. ولقد سألت ربك يوم قرأتَ كتابه، وسمعت

تنزيله، وتبين لك قراره، إذن أنت الحكم العدل في هذه القضية، وأنت الذي تستطيع أن تبرم، فإما أن تستجيب لأمرالله عز وجل، وإما أن تستجيب لأمر غير الله عز وجل، أنت الذي تملك أن تحل مشكلتك، لأنك مسلم مثلي؛ تعلم دين الله عز وجل كما أعلم.

وعندما تواكل المسلمون في نقاط المسؤوليات التي وزعها الله عز وجل عليهم، وعندما التجأ أناسٌ فأسندوا ظهورهم إلى جدران اللامبالاة واللامسؤولية، ثم ألقوا التبعات كلها على فئات من أمثالي! يوم فعل المسلمون هذا وَكَلَهُم اللهُ عز وجل إلى أنفسهم، وجعلهم يتيهون في دائرة مفرغة، وكأنهم لا يعلمون كيف يخرجون من هذه الدائرة المفرغة، وهم يستطيعون أن يخرجوا منها لو شاؤوا.

وقد قلتُ مرةً إن الله عز وجل لم يَقُل لا في توراةٍ ولا في انجيلٍ ولا زبورٍ ولا فرقان أن الله عز وجل أعطى صلاحية لبعض عباده أن يحملوا عباده الآخرين على أكتافهم ويدخلونهم الجنة أبداً، لم يعطي الله عز وجل هذه الصلاحية لبعض عباده أن يفعلوا بالآخرين هذا. بل قال في محكم كتابه: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً، اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾ لن تقرأ يوم القيامة كتابي، ولن أقرأ كتابك ولن تتحمل من ذلك وزراً ارتكبته، ولن أتحمل من ذلك وزراً أنت الذي ارتكبته، كل ما في الأمر أن علي أن أقف مثل هذا الموقف فأقول لك مثل هذا الكلام، تلك هي المسألة الثانية. وأسألُ الله عز وجل أن يُلهِمَنا الرُشد وأن يغرسَ في أفئدتنا خوفه وحبه و الإخلاص لوجهه أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

٢٠٢- واجب الأهل تجاه التربص بالأمة عبر استهداف الناشئة |١٩٩٤/٠٨/٠٥

إنكم لتسمعون الكثير من التذكرة المتمثلة في آيات وأحاديث نبوية كثيرة ومتنوعة، والتي تتضمن تحميل الآباء والأمهات مسؤولية تربية أولادهم، وما أكثر ما ردد هذا الكلام في مناسبات حتى غدا هذا الموضوع من المسائل البديهية التي لا يجهلها – أو ما ينبغي أن يجهلها – إنسان مسلم.

غير أن هذه المسؤولية التي أناطها الله عز وجل بأعناق الآباء والأمهات في كتابه المبين أولاً، ومن خلال نصوص من كلام سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثانياً، أقول: إن هذه المسؤولية تتضاعف في صيف كل عام، وتزداد أهمية التذكير بها حتى لربما يشعر الإنسان بأن عليه أن يذكر أخاه بهذا الواجب في كل أسبوع، إن لم نقل في كل يوم؛ ذلك لأن شياطين الإنس والجن ولأن جنود الطغاة ولأن المخططين للكيد لهذا الدين خارج هذا العالم الإسلامي وداخله يهبون هبة عجيبة لإفساد الناشئة ولإضلال جيل المسلمين في صيف كل عام، ويعتبرون هذه الأشهر أو هذين الشهرين من صيف كل عام الموسم الذي ينبغي أن يهب فيه محترفوا الغزو الفكري وعملاء الغرب والشرق؛ الذين باعوا الشرف قبل أن يبيعوا الدين، ينشط هؤلاء الناس في هذه الأشهر علماً منهم بأنها الفرصة السانحة. فالأطفال والشباب يعيشون في فراغ، والساحة مهيئة لنشر المغريات ونشرها في كل صوب وعلى كل مستوى وبكل مناسبة.

ونظراً إلى هذا فإن واجب الآباء والأمهات يتضاعف في هذه الأشهر، وكما أن الصيف موسمٌ لمحترف الغزو الفكري ولمحاربي الشرف ودين الله عز وجل، فكذلكم هذه الأشهر موسمٌ ينبغي أن ينتهز الآباء والأمهات فرصته للرجوع إلى أبنائهم وبناتهم بالتربية التي أناطها الله سبحانه وتعالى في أعناقهم، ومهما قلنا عن دور المجتمع ومهما تحدثنا عن دور المدرسة وأهمية الإعلام وغيره، فإن معين التأثير إنما ينبع من البيت – كما قال العلماء والمربون قديماً وحديثاً.

فإذا كان البيت مسلماً وكان هذا الإسلام متمثلاً في التزام الأبوين وفي قيام كل منهما بالواجب الذي أناطه الله عز وجل به، فإن انحراف المجتمع، وإن انحراف وسائل الإعلام وإن سائر الخطط الأخرى لا تنال من الشاب الذي خرج من هذا البيت المسلم أي منال. قد يؤثر تأثيراً عارضاً، لكنه ما يلبث أن يعود إلى رشده، وما يلبث أن يعود إلى جاذبية الاسلام في الدار التي ربته وفي ظل التربية الإسلامية التي تلقاها من الأبوين، وإذا كانت هذه التربية واجباً خطيراً وكبيراً معلقاً بأعناقنا في كل يوم، وإذا كانت دلائله من كتاب الله عز وجل دلائل مخيفة، فما بالكم بالقيام بهذا الواجب في هذا الموسم الذي يتكاثر فيه جنود البغي وجنود الضلال على كل المستويات؟!

ما أحسب أن مسلماً – عالماً أو غير عالم – لم يقرأ كتاب الله عز وجل ولم يقف فيه على مثل قول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾. ومهما كان الانسان عامياً غير متخصص بالشرع فإنه عندما يقرأ هذا الكلام العربي المبين لا بد أن يستوقفه – إن كان مسلماً – حقاً لابد أن يستوقفه قول الله عز وجل ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ فكيف عندما يرى المسلم أن أولاده أصبحوا نهبة لشباك المتربصين بالإسلام والمتربصين بهذا الجيل؟ كيف إذا رأى ببصره وببصيرته أن أصحاب هذه الشباك لا يبحثون في سعيهم الذي يسعونه عن ثقافة؟ ولا يبحثون في سعيهم هذا عن وطنية؟ ولا يبحثون عن رشدٍ حقيقي؟ وإنما يبحثون عن شيء واحد.. هو تمزيق جذوة هذا الدين في قلوب هذه الناشئة، ومن ثم تمزيق جذوة هذا الدين في كيان المجتمع، ومن ثم نثر هذا المجتمع مزقاً متناقضةً متصارعة، لتنتهي هذه المزق إلى موت فهلاك.

كل ما ترونه أيها الأخوة من المظاهر المؤسفة والمؤلمة حلقات من سلسلة واحدة، فمحاربة الدين في مظهر الأخلاق الإسلامية، ومحاربة الدين في مظهر التشكيك بالحقائق الإسلامية التي نقرؤها في كتاب الله عز وجل أو في سنة رسول الله، ومحاربة الدين في مظهر تحويل الإسلام الواحد إلى إسلامات متصارعة متناقضة شتى، ومحاربة هذا الدين في مظهر تحويل هذه الأمة إلى محاور متناقضة متصارعة.. كل ذلك حلقات مترابطة متواصلة من سلسلة واحدة لا تتقطع ولا تنفصل أبداً.

والمبتغى من وراء ذلك، المبتغى من وراء إبعاد الفتاة والفتى عن النهج الأمثل الذي رسمه الله عز وجل لنا خلقاً وشرف، والإمعان في ما وراء ذلك مما قد قلت.. كل ذلك يصب في هدف واحد: أن تتحول هذه الأمة الواحدة التي شاء الله عز وجل أن تكون قوتها في وحدتها وأن تكون عزتها في ترابطها، وأن تكون هيبتها في تضامنها، الهدف من وراء ذلك كله أن تتحول هذه الأمة الواحدة إلى فئات وشرائح متصارعة شتى، وعندئذ تتحقق الأهداف كلها الأهداف التي يرسمها العدو المتربص بنا، والأهداف أيضاً سلسلة من حلقات متصلة، هذا السلم الذي تسمعون عنه السلم المزيف العفن الذي تفوح رائحة عفونته

من أقصى الغرب إلى أقصى الشرق. كيف يتم إخضاع هذه الأمة له؟ إنما يتم إخضاع هذه الأمة له عن طريق تمزيقها إلى فئات وتحويل كل فئة إلى لقمة، وهكذا فإن كل لقمة تؤكل بعيداً عن الشريحة الأخرى. ألا ترون ذلك؟! ألا ترون اللقم كيف تأكل في كل حين بعد اللقمة التي سلفتها؟! ألا تلاحظون هذه الظاهرة؟! ألا تلاحظون المقدمات التي سبقت؟! ولم تكن أزمة الخليج إلا مقدمة من تلك المقدمات. كان ينبغي أن تتناثر هذه الأمة أولاً، وكان ينبغي أن تتحول إلى فئات متناقضة إن باسم الدين الموحِد، وإن باسم المصالح، وإن باسم الأموال التي يتقارع ملاكها عليها.

كان ينبغي لهذه الأمة أن تتمزق أولاً وأن تتحول إلى محاور، تحقق ذلك وبوسائل شتى، هذه الوسائل منها ما يتمثل في محاربة الخلق والفضيلة، ومنها ما يتمثل في تزييف الدين الواحد ومن ثم تحويله إلى فرق متصارعة من المذاهب المتنوعة إلى آخر ما هنالك من أسباب..

ونظر الكائدون فوجدوا أن هذه الأمة التي كانت في الأمس الدابر أمة واحدة تخيف وتملأ رهبتها القلوب قد تحولت فعلاً كما قلت لكم إلى لقم متناثرةٍ على مائدة، وهيهات أن تنصر كل لقمة لأختها، وهكذا بدأت رحلة السلم المزيف تؤكل كل لقمة بالمعزل عن جارتها، ونسأل الله سبحانه وتعالى العفو والعافية، ونسأل الله سبحانه وتعالى أن يحصن هذه البلدة التي لا تزال تخيف والتي لا تزال ترعب والتي لا تزال تأوي إلى ركن من التماسك، ولكننا لا ندري إلى أي مدىً سيبقى هذا التماسك. مهما يكن من أمر فينبغي أن نعلم ما هي الأسلحة التي تستعمل للكيد ضدنا عرفناها، إذاً ينبغي أن نجابه هذه الأسلحة بنقيضها.

نحن نحارب في أخلاق أبنائنا وبناتنا، وهي حلقة من هذه السلسلة، نحن نحارب في الشرف الذي يعتز به هذا الجيل متمثلاً في أبنائه وبناته، نحن نحارب من خلال تحويل الإسلام الواحد إلى إسلامات متعددة، إذاً ينبغي أن نصحو إلى هذا، ينبغي أولاً أن ينهض الآباء والأمهات في بيوتهم فيضحو بكل شيء في سبيل حماية أولادهم وبناتهم من السوء الذي يراد بهم، ينبغي إن كانوا مسلمين صادقين أن يعلموا أن هذا هو جهادهم الذي كلفهم الله عز وجل به، وما عجبي من شيءٍ كعجبي من أناسٍ قيض

الله لهم أسرةً، جعل الله سبحانه وتعالى إليهم مسؤوليتها، يجترّون الغيرة الزائفة الباطلة على دين الله عندما ينظرون بعيداً بعيداً بعيداً.

كيف ينبغي أن يقاوم المجتمع الإسلامي؟ وكيف ينبغي أن يسود الإسلام وأن يطبق قانوناً في قصور العدل وردهات الحكم؟ وكيف ينبغي أن يحارب الحكام الذين لا يطبقون دين الله عز وجل؟ وهم عن واجبهم الأول الذي أناطه الله في أعناقهم معرضون تائهون.. بناتهم أبنائهم أصبحوا في شباك هؤلاء المتربصين، أصبحوا غنيمةً لهؤلاء الماكرين. ولم يكن ذلك ليتحقق إلا لغفلة هؤلاء الآباء بسبب حديثهم عن الإسلام وغيرتهم المضحكة، لو لم يكن أمرهم كذلك ولو عادوا إلى ما قد كلفهم الله عز وجل به فَضَحّوا بكل شيء في سبيل أن تبقى أسرهم أولادهم بناتهم في حصنٍ حصين، بعيداً عن مكر الماكرين. إذاً لرأيتم أن هؤلاء الشباب لم ولن يقعوا في شباك هؤلاء الناس أبداً.

والعمل يبدأ من الخطوة الأولى، ولا يبدأ من الخطوة الأخيرة، هذا شيء يعرفه كل عاقل، ولكننا ابتلينا أيها الأخوة بكثير وكثير من الآباء الذين يحاولون أن يبيعوا الله كلاماً؛ كلاماً لا يتناه بشكل من الأشكال حتى إذا حان العمل والقيام بالواجب المحدد الذي طلبه الله منهم أعرضوا ونسوا أو تناسوا؛ يضحون بأولادهم وبناتهم في سبيل مستقبلٍ مالي موهوم، لا يعلمون أيتحقق أم لا يتحقق، يضحون بدين أولادهم وبناتهم في سبيل أن يحققوا لأنفسهم مستقبلاً أرغد ومستوىً أبسق وأعلى، وكم وكم رأيت من يزج بابنه لا في أتون مجتمع تائهٍ قريب منه، لا بل يلقيه يقذف به بعيداً بعيداً في مجتمعات غير إسلامية. وكم يقال له: أما تخاف الله يا هذا؟ ما تقول لله عندما يذكرك بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ بدلاً من أن تستجيب لأمر الله تستجيب لوهم الشيطان، ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاء وَاللّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً﴾ بدلاً من أن تثق بوعد الله تثق بوعد الشيطان، فتستجيب للفحشاء الذي يخططه لك، وهؤلاء الذين يزجّون أولادهم بهذه المتاهات، لا والله ليسوا فسقة ولا والله ليسوا علمانيين، هم مسلمون هم ممن يبيعون الله الكلام الكثير الكثير، هم ممن يتفلسفون عن المجتمع الإسلامي وكيفية إقامته.

نعم.. المجتمع الإسلامي لا يقام من خلال حلمٍ يداعب النائمين حول المجتمع الإسلامي، المجتمع الإسلامي تتم إقامته من خلال تضحيتي بكل شيء، في سبيل أن تبقى ابنتي متوجةً بتاج الفضيلة، عرف ذلك من عرف وجهل ذلك من جهل، المجتمع الإسلامي يتحقق من خلال تضحيتي بكل شيء في سبيل أن يبقى ابني وفلذة كبدي موحِّداً الله بلسانه وبنبضات قلبٍ محبٍ لله عز وجل، وذلك لا يتم إلا من خلال تربيةٍ موصولة النسب آناء الليل وأطراف النهار. فانظروا واستمعوا إلى الأعذار الكثيرة التي يعتذر بها هؤلاء الناس، ولا أريد أن أردد شيئاً منها فأنتم أعرف مني بها.

أقول قولي هذا وأستغفر الله.



٢٠٣- حذار من متصيدي أولادكم وبناتكم في هذا الصيف | ١٩٩٥/٠٧/٢٨

إن نبينا المصطفى صلى الله عليه وسلم أوصانا فيما صح عنه: إذا رأينا دنيا متبعة من حولنا وإذا رأينا الأهواء هي التي تقود وهي التي تحكم، وإذا رأينا العصبيات هي التي تتحكم، أوصانا حبيبنا المصطفى صلى الله عليه وسلم إذا رأينا ذلك أن نعرض عن الأمور العامة ومشكلاتها، وأن يشرف كل منا ليكون حارساً على أهل بيته؛ ليكون متتبعاً للتربية التي ألزمه الله سبحانه وتعالى بها لخاصة أسرته، يربي أهله وأولاده على النهج الذي ارتضاه الله، ويحرس سيرهم ليل نهار على صراط الله سبحانه وتعالى، ويُدخل

محبة هذا الدين ومحبة كتاب الله والالتزام بسنة رسول الله في شغاف أفئدتهم. هكذا أوصانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما صح عنه.

ولكم ردّدت على مسامعكم الكلام الذي قاله عليه الصلاة والسلام في هذا الصدد، ولقد رأينا اليوم مصداق ما قد حذِر منه رسول الله وحَذَّر، فلقد رأينا الهوى المتبع، ورأينا الشح المطاع، ورأينا اتباع كل إنسانٍ لهواه، ورأينا العصبية التي تقود في مكان المنطق والعقل، رأينا كل ذلك.. فحق علينا أن نُطبق وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم، التي أرسلها إلينا من خلال الأجيال والقرون قبل أربعة عشر قرناً أو يزيد، حقَّ علينا أن نضاعف اليوم من تطبيق هذه الوصية التي أوصانا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، أن ينصرف كلٌ منا إلى رعاية أهل بيته، إلى رعاية أسرته، إلى حراسة سير أفراد هذه الأسرة على صراط الله سبحانه وتعالى. فهل تقومون أيها الأخوة بما قد أوصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم أم إنكم أعرضتم عما أوصى به؟ ولحقتم ما أمركم الرسول بأن تُعرضوا عنه؟

لا أريد أن أجيب عن هذا الكلام ولكني أُحيل الجواب على كلٍ منكم لينظر إلى واقع أمره وإلى الصلة ما بينه وبين أفراد أسرته.

إن الله سبحانه وتعالى أناط بعنق كل مسلم، أياً كان شأنه وأياً كان مركزه، مسؤوليةً كبيرة جليلة شرّفه الله عز وجل بها، وأول خطوات هذه المسؤولية أن يكون الإنسان قيّوماً على نفسه، يرعى دين الله عز وجل في كيانه؛ إخلاصاً لله والتزاماً بأوامر الله سبحانه وتعالى، ثم تأتي الخطوة الثانية لتتمثل في رعاية هذا الإنسان لأفراد أسرته.. زوجه أولاده وبناته. وتلك هي الخاصة التي عبّر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما قال في آخر الحديث الذي أشرت إليه: «فعليك بخاصة نفسك ودع عنك أمر العامة»، وإذا كنا نعلم هذه الحقيقة، وإذا كنا على يقين من أنّ الله عز وجل يسألنا يوم القيامة عن خاصة أنفسنا قبل أن يسألنا عن عامة بلادنا، فلنعلم أن هذا الذي قد بينه لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس إلا توضيحاً وتأكيداً لما قد بينه الله عز وجل من قبل، ألم يقل في محكم تبيانه: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ ألم يقل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ

﴾، وكلمة الأهل تعني الخاصة فهما مترادفتان ﴿قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾.

وإذا كانت هذه الوصية واضحة وضوح الشمس في كبد السماء في كتاب الله عز وجل، وإذا كانت تأكيداتها نيرة في سنة وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلنعلم – أيها الأخوة – أن هذه المسؤولية تتضاعف في مثل هذا الصيف اللاهب، فلنعلم أن هذه المسؤولية تتضاعف وتزداد أهميةً عندما تغلق المدارس أبوابها، وتغلق الجامعات أبوابها، وينتشر الشباب والفتيات عن يمين هذا الصيف وعن يساره إن بشكلٍ عفويٍ وإن بدوافع، وكلكم يعلم هذه الدوافع، ولا أريد أن أطيل الحديث عنها، كلكم يرى ذلك.

في مثل هذه الحال تزداد وتتضاعف مسؤولية الأبوين اتجاه أولادهما ولا والله لا جدوى لأي اهتمامٍ بأمر المجتمع بعد أن يقفز هذا الإنسان المهتم عن رعاية أسرته والاهتمام بها، والجهاد في سبيل الله عز وجل من خلال رعايتها. لا قيمة ولا جدوى لأي اهتمام بمصير المجتمع، بإقامة المجتمع الإسلامي بما وراء ذلك من كلمات كبيرة جوفاء لا معنى لها إذا قفز الإنسان إليها فوق هذه المسؤولية التي أوصى بها رسول الله كلاً منا بها. ﴿عليك بخاصة نفسك﴾.

ما قيمة أن يأكل قلبي الاهتمام بمصير الإسلام والعالم الإسلامي؟ وما قيمة أن لا أرقد الليل بسبب اهتمامي بضرورة أن يقوم المجتمع الذي تُطبق فيه شرائع الإسلام؟ إذا كانت شرائع الإسلام في بيتي تتحطم، إذا كان أولادي تقتنصهم شباكات الصيف، إذا كانت بناتي تقتنصهن خوادع الصيف وشياطين الإنس والجن وكنت معرضاً عن هذا لأي سبب من الأسباب. ما أغرب هذا الإنسان الذي يعرض عن ما أوصى به رسول الله! ثم يلاحق ويسري لاهثاً وراء ما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الإنسان بالإعراض عنه!

أيها الإخوة شياطين الإنس والجن – وما أكثرهم – يتصيدون أولادكم وبناتكم في فرصة هذا الصيف بالوسائل المختلفة، يتخذون من الشطآن مثابة، ويتخذون من النزهات والمعسكرات مثابة، ويتخذون من اللهو – وقد يسمى بريئاً — مثابة، يتخذون من ذلك كله مثابة... وأنتم قبل كل شيء أولياء هؤلاء

الشباب والفتيات، مسؤوليتهم ومسؤوليتهن منوطةٌ بأعناقكم أنتم، فلتعلموا أن شاباً من أولادكم إذا شرد عن صراط الله ثم اتبع شيطاناً من شياطين الإنس والجن، فلن يحمل إصر ومسؤولية هذا الشرود إلا أنتم قبل كل شيء، أنتم وإذا شردت فتاةٌ عن حصن طهرها، وشردت متبعةً شيطان من شياطين الإنس والجن ليمزق مزيداً مما كانت تعتز به من طهر وعفاف، ثم لكي تضيع في براثن الشقاء – أجل الشقاء –الدنيوي قبل الأخروي، فلن يتحمل مسؤولية ذلك إلا أنتم قبل كل شيء، نعم.

ومهما غطى أحدنا نفسه وفرّ من هذه المسؤولية بالحديث عن المجتمع الإسلامي وضرورة إقامة المجتمع الإسلامي ووضع الخطط لكيفية التحرر من هذه المجتمعات التي ابتعدت عن دين الله عز وجل، مهما كَثر هذا الكلام ومهما أزبد وأرغى على ألسن قائليه، فإن الله لا يُخدع، فإن الله لا يُأخذ بهذا الكلام الأجوف. سيقول لك الله سبحانه وتعالى: ألم تقرأ كلامي فيما أولت وأعرضت، ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا﴾، ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ﴾ .. إلى آخر الآية.

أمرتك بأمر محدد وحملتك مسؤولية محددة، جعلت مسؤولية زوجك أولادك وبناتك منوطةً بعنقك، فلماذا تتيه عن المسؤولية التي حَمّلتك إياها؟ وتتشاغل عنها بالكلام الذي لن يخدعني؟ لا بد من وقفة بين يدي الله عز وجل ولا بد من حديث من هذا القبيل يواجه الله سبحانه وتعالى به هؤلاء الناس.

أيها الإخوة: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حكيم، وحكمته مظهر من مظاهر تأديب الله له وصدق عليه الصلاة والسلام، إذ يقول ﴿أدبني ربي فأحسن تأديبي﴾، ومن مظاهر هذا التأديب أنه نبهنا إلى سُلم المسؤوليات إلى سُلم الأولويات في درجات المسؤولية، أجل كلنا ينشد المجتمع الإسلامي، وكلنا يحلم باليوم الذي يُطبق فيه دين الله بحذافيره. ولكن ما السبيل إلى ذلك؟ ما السبيل إلى أن تقيم بناءً باسقاً ذا عشرة أدوار؟

سبيل ذلك أن تأتي بالحجارة فترصفها وتجمعها وتنسقها ثم تقيم منها سقف فوق سقف فوق سقف وإذا بالبناء قد تكامل، ما سمعنا أن مجنوناً من المجانين حلم ببناء من هذا القبيل، ثم إنه جعل من حلمه

سدا ولحمة لإيجاد هذا البناء، لن يوجد البناء. أوجد الحجارة، أوجد المواد الخام الجزئية، واشغل وقتك بذلك تجد أن الجزء قد نبع منه الكل، تجد أن هذه الجزئيات قد تولدت منه كليات، ما المجتمع؟ المجتمع هو الأسر الإسلامية. وما الأسر الإسلامية؟ زوجان وأولاد وبنات، فإذا صَلُحت الأسر. أفتتصورون أن تلاقي أسر صلُحت وتحركت تحت مظلة هذا الدين وانتعشت كباراً وصغاراً بمعرفة هذا الإسلام والتعلق به، أفتتصورون أن يكون المجتمع الذي يتألف من هذا الأسر مجتمعاً شارداً؟ مجتمعاً تائهاً!

صلاح الأسر يساوي المجتمع الإسلامي، وفساد الأسر يساوي المجتمع المنحرف عن دين الله سبحانه وتعالى. من الذي يجهل هذه الحقيقة أيها الأخوة؟

من أجل هذا يقول عليه الصلاة والسلام ﴿إذا رأيت شحاً مطاع، وهوىً متبعاً، ودنيا مؤثرةً، وإعجاب كل ذي رأي برأيه﴾ وقد رأينا كل ذلك ﴿فعليك بخاصة نفسك﴾ هذا خطابٌ يخاطب الله به كل فرد فرد فرد فرد منكم.

فتصوروا أن كل رب أسرة سمع كلام المصطفى صلى الله عليه وسلم هذا، وانقاد له قائلاً: لبيك يا سيدي يا رسول الله، ها أنا ذا أسعى لتنفيذ أمرك مجاهداً في عُقرِ داري وفي إصلاح خاصة نفسي كما قد طلبت، إذا لبى كل رب أسرة نداء رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا، وصبر وصابر وصمد ضد كل ضائقة وضد كل ما يصده عن هذا السبيل كيف يكون الحال؟

تنظر فتجد أن الإسلام قد نبع من هنا ومن هنا ومن هنا، ثم تلاقى هذا الإسلام نسيجاً بسداه ولحمته، وتكون منه المجتمع الإسلامي السليم.

مرةً أخرى أيها الأخوة أقول لكم: ينبغي أن نعي الحقائق، الآخرون يحطمون المجتمع الإسلامي من خلال تحطيم خُلق الأفراد، لا ينظرون إلى المجتمع ككلٍ في حلم يتقلبون فيه كما يفعل كثير من المسلمين الحركيين، لا إنما يتصيدون الأفراد ذكوراً و إناثاً، ويجعلون من مسرح هذا الصيف اللاهب فرصةً سانحة لهم، لأنهم يعلمون إذا انتشر الفساد هنا وهنا وهناك، وإذا ماعت الأخلاق في صفوف الشباب والفتيات،

ثم ازدادت ميعةً هنا وهناك، فإن هذا الفساد يتلاقى، وإن هذه الميوعة تتجمع ويتكون من ذلك تيار من الفساد، وإذا بهذا التيار الفاسد قد انبثق منه مجتمع فاسد.

لماذا يدرك أولئك المبطلون هذا المنطق في التحرك من الجزئي إلى الكلي، ونحن المسلمين لا ندرك هذا المنطق، بل نأبى إلا أن نهبط من الكلي إلى الجزئي، وهل للإنسان أن ينجح في هذا الهبوط.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يلهمنا معرفة قدسية وصية رسول الله هذه، وأن يجعلنا أبطالاً في هذه الساحة نتحرك مجاهدين في دورنا في بيوتنا على النهج الذي أمر الله عز وجل، نصمد صمود الطود في بيوتنا وعندئذٍ انظروا كيف يكون ثمرة هذا الثبات. أقول قولي هذا وأستغفر الله.



٢٠٤- قنبلة امتلأت بها سطوح المنازل نجني دمارها | ١٩٩٦/٠٣/٢٢

إن الله عز وجل خلق هذه الحياة الدنيا ومتعنا بها، وبصّرنا بهويتها كما بصّرنا بوظيفتنا التي أقامنا الله عز وجل عليها، أوضح ذلك كله من خلال قوله عز وجل: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾، وإذا تأمل العاقل في هذا البيان الإلهي علم أنّ هذه الحياة جد، وأنها جسرٌ خطيرٌ المعبر، وأن الهلاك الذي قد يُمنى به الإنسان من خلال هذا الإبتلاء هلاكٌ وبيل، ولن يعود الإنسان كرة أخرى إلى هذه الحياة الدنيا، ولن

يستجيب الله عز وجل لقول القائل إذا قام الناس غداً لرب العالمين: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ، لَعَلِّي أَعْمَلُ صالِحاً فِيما تَرَكْتُ﴾ لن يستجيب أحدٌ لهذا النداء.

ومن ثمّ فإن الإنسان مدعوٌ إلى أن يتعامل مع حياته الدنيا هذه بجد، وأن يترفع فيها عن اللهو وأسبابه، فإن التفت إلى اللهو بين حينٍ وآخر، فما ينبغي أن يلتفت إليه إلا بمقدار ما يعينه على استعادة الجد، وإلا بشرط أن يكون هذا اللهو مما قد أباحه الله سبحانه وتعالى، وإلا فإنه ليوشك أن يحكم الإنسان على نفسه في حياته الدنيا هذه بالهلاك أو الانتحار.

أقول هذا مقدمة بين يدي فتنةٍ طالما شاورت وتساءلت مع نفسي. هل أعالجها في حديثٍ من هذه الأحاديث؟ وفي يومٍ كهذا اليوم أم لا؟ وتساءلت عن جدوى حديثي هذا إن تحدثت به إليكم وتنبهت إلى أن شر الابتلاءات ما كان صادراً من طبيعة الإنسان ذاته، لم يفرضها عليه قانون، ولم تفرضها عليه شرعة ولم يلاحقه بها حاكم، شر الابتلاءات وشر المصائب تلك التي تنجم من قاع النفس الإنسانية ذاتها.

في هذه الحالة وعلى الأرجح لا تفيد النصائح ولا تفيد المواعظ، لأن تيار النفس والهوى أشدُ من ذلك كله، ومع ذلك فالأمر عندما يتفاقم لا بد للإنسان من أن يقول كلمة، إنها فتنة هذه الأطباق التي امتلأت بها سطوح المنازل، وأي منازل منازل الفقراء المتقعين قبل منازل الأغنياء الموثرين، هذه الأطباق أيها الإخوة كلكم – فيما أعتقد – أصبح يعلم أنها قنبلة موقوتة لابد أن تتفجر في دار صاحبها بدمارٍ ذي ألوانٍ متعددةٍ شتى، ومن ثمّ فلا بد أن يعلم كلٌ منا أن الذي يستسلم لهذا اللهو إنما يستسلم لمشروع انتحار لاشك في هذا ولاريب، ولعل الأيام التي خلت كشفت عن هذا المعنى الذي أقول.

إن الإنسان قد ينساقُ إلى شيء من اللهو، وربما كان هذا اللهو مما أباحه الله عز وجل، ومع ذلك فإن الإنسان الجاد ما يلبث أن يعود من لهوه هذا إلى جده، ولكن فتنة هذه الأطباق أشبه بفتنة بحرٍ هائجٍ مائج يخوضه من لا يستطيع السباحة، فهو ما يلبث أن يحرك أطرافاً من أطرافه لبضع ثوانٍ – ولا أقول دقائق – حتى يغرق ويختنق في ذلك الخضم المائج.

الإنسان الذي جرّ على نفسه بلاء هذه الأطباق، حكم على نفسه بالشلل، وحكم على نفسه بفقد الإرادة، لن يستطيع أن يهيمن على ما قد فعل، ولن يستطيع أن يتحكم فيما قد قضى به بحق نفسه وفي حق أسرته؛ ذلك لأننا جميعاً من صنف البشر، والإنسان مليءٌ بغرائز وأهواء مختلفة متنوعة. وقد علمنا أن السبيل الأوحد للترفع فوق هذه الأهواء والغرائز أن نفطم أنفسنا بالابتعاد عنها، هذا هو السبيل الذي نستطيع، فأما إذا دنونا من أسباب هذا اللهو ومن مُهيجات هذه الغرائز، وعشنا في خضمها فمن ذا الذي يملك منا إرادةً جازمةً وحاسمة يترفع بها فوق ما قد جره على نفسه من بلاء ووباء!؟

ما أظن أن فينا من البشر أحداً يملك ذلك، ولكن الإنسان يستطيع أن يتحرر من ذلك كله إن هو ابتعد، يستطيع أن يحرر نفسه من ذلك كله إن أقام بينه وبين ذلك اللهو بل تلك القنبلة الموقوتة الحواجز. ولعل فيكم من يقول: فما الأضرار الناجمة من هذه الأطباق وما فيها من لهوٍ وما إلى ذلك؟

فيها – أيها الإخوة – ألوان شتى من عوامل الدمار، فيها ألوان شتى..

وأبدأ بما يمكن أن يكون هو ثاني وثالث، لن أتحدث عن غضب الله عز وجل على العبد عندما يُحيل هذه الحياة إلى لهوٍ وقد أقامها جداً، لن أتحدث عن هذا.

لن أتحدث عن الهوية التي وصف وأقام الله سبحانه وتعالى حياتنا الدنيا عليها وقد أعرضنا عن هذه الهوية وأعطيناها طابعاً آخر، لن أتحدث عن ذلك.. سأتحدث عن المصائب القريبة العاجلة التي تحيط بالإنسان في دنياه هذه قبل أن يرحل إلى الله سبحانه وتعالى.

من أولى المصائب التي تحيق بالأسرة من جراء هذا البلاء الواصب أنها تفتن الزوج عن زوجه، وأنها تفتت علاقة القربى بينهما، وكم وكم وقع ويقع هذا البلاء، كم من الأزواج كانوا يعيشون حياةً هنيئة سعيدة مع زوجاتهم، فلما أسلم نفسه لهذا الوباء وعاش بخياله في عالم آخر، عاد إلى العلاقة التي كانت بينه وبين زوجه وإذا بها تقطعت.

بدأ يتبرم بها بعد أن كان متعلقاً بها؛ بدأ يتأفف منها بعد أن كان يراها جنة حياته؛ ذلك لأنه أصبح يرى شيئاً آخر لم يكن يراه من قبل، وكم وصلت الخصومات التي نجمت عن هذه الظاهرة إلى طلاق، وأنا البصير بهذا. كما أن العكس أيضاً قد يقع كم من امرأة كانت راضية وكانت مطمئنة الفكر والقلب والبال فلما أطلت من هذه النافذة الجهنمية على عالمٍ آخر غير الذي تعلمه إذا بها تتبرم بحياتها، وإذا بالزوج الذي كان يملئ بصيرتها وفؤادها أصبح شيئاً تافهاً في نظرها. حياةٌ من نعيم تحولت إلى جحيم، هذه أول نهاية.

المصيبة الثانية – أيها الإخوة – أن الإنسان الذي جرّ على بيته هذا الوباء، وقد قلت لكم: إن أحدنا لا يستطيع أن يتحكم بإرادته في هذه الحالة، إذاً لا بد أن يستسلم لمقتضيات هذا الوباء وهذا البلاء، لابد أن تكون النتيجة الثانية لذلك ضموراً وهُزالاً مستمراً مستمراً في المؤسسات الإقتصادية والإجتماعية والتربوية والثقافية في هذه البلدة. لابد للناس الذين يخرجون من بيوتهم صباحاً إلى أعمالهم أن يخرجوا متأخرين، وإن خرجوا غير متأخرين لابد أن يلف النعاس برؤوسهم. أين هو النشاط الذي ينبغي أن يتهيأ وأن يتكامل في نفوسهم لينهضوا بالأعمال التي ينبغي أن يقومون بها؟

لا يمكن أن تجد شيئاً من هذا النشاط، حركة متثاقلة وفكرٌ متثائب وكسلٌ يُهيمن على هذا الإنسان، ومن ثم فإن الأعمال والوظائف المختلفة المتنوعة تجمد ثم تجمد ثم تتراجع إلى الوراء، وهذا شيء ملموس، ولسوف يتضاعف ذلك في الغد القريب إن سارت الأمور على هذا النحو تماماً أيها الإخوة.

البلاء الثالث أن الإنسان لابد أن تتراجع قواه، ولا بد أن تتراجع صحته، ولا بد أن تهيمن على نفسه الوساوس والأمراض النفسية المختلفة، وفي مقدمتها أمراض ولا أقول مرض الكآبة.

هذه الظاهرة أيها الإخوة تجرّ إلى صاحبها أمراضاً قد لا يعرف أحدٌ منا اليوم لونها أو طعمها، ونسأل الله عز وجل أن لا نتعرف على شيء من ذلك، ولكن إن بقي هذا البلاء فلسوف نخوض حمأة هذه الأمراض التي أحدثكم عنها، وليت أن الأمر يقف عندئذٍ عند حدود هذه الأمراض. لا، لسوف يعاني الإنسان آن ذاك من هذا المرض ولسوف يتطوح عندئذٍ بحثاً عن الملاجئ والملاذ، بحثاً عن الأدوية الخيالية

وليست الأدوية الخيالية آنذاك إلا ما هو أشد وأفتك من المرض ذاته، وعندئذٍ يأتي دور المخدرات التي تسمعون عنها.

أيها الإخوة إنني الآن لست واعظاً، وأنا في هذا لا أتحدث عن موقف الباري عز وجل منا، ولا عن عتابه أو عقابه الذي سيحيق بنا، والذي سيكون ميقاته بعد الموت. وإنما أحدثكم عن شيءٍ يعرفه المؤمن وغير المؤمن، يعرفه المنصاع لأمر ربه والمنحرف عن أمر ربه، يعرفه كل إنسانٍ يريد لنفسه السعادة العاجلة لا الآجلة، هذا شيءٌ لا يستطيع أحدٌ أن يناقش فيه بشكل من الأشكال أبداً. فما بالكم إذا أضفنا إلى ذلك كله عتاب وعقاب رب العالمين عز وجل؟؟! ما بالكم إذا لاحظنا أننا في هذا أقمنا بيننا وبين خطاب ربنا وبين الوظيفة التي أقامنا عليها ربنا حاجزاً كبيراً جداً، وأعرضنا عن الله سبحانه وتعالى فيما أمر وفيما نهى وفيما عرّف.

أرجو وأنا أقول هذا الكلام في مكانٍ ضيق صغير، أرجو أن يكون لهذا الكلام الصدى المناسب، وأرجو أن يعيد كل منا إلى ذاكرته المصائب التي أحدثكم عنها.

ومن ثم فأرجو من كل ابتلي بهذا البلاء أن يعيد النظر وأن يأوب ويتوب إلى ربه، وأن يكون رجّاعاً إلى مصلحة نفسه، أن يكون له من الحب لذاته، وأن يكون له من الغيرة على سعادته ما يجعله يتسامى عن هذا الأمر.

الحياة قصيرةٌ أيها الإخوة وهي ورقة إما أن تكون رابحةً بيننا وبين الله وإما أن تكون خاسرة، ومن ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه.

واللهِ إن السعادة ليست في البوارق التي يتخيلها بعض الناس ويلهثون ورائها لا، هذه بوارق سعادة. ولكن الإنسان عندما يلهث ويلهث ورائها يجد نفسه منها أمام سراب، ولسوف يجد هذا السراب قد أخذ بخناقه وأسلمه إلى مصائب عاجلة شتى.

السعادة هي ما يجده الإنسان في قلبه، السعادة هي المشاعر التي ترفرف في حنايا فؤاده، السعادة هي المرح الذي يفيض به قلبه، وابحثوا عن ذلك كله بين يدي الله، ابحثوا عن ذلك كله في اللجوء إلى الله عز وجل، يخلق لكم السعادة الفرح المرح. كل مايتخيله الباحثون عن السعادة في هذه البوارق الخادعة الكاذبة سيجده آنذاك في داره، سيجده آنذاك في علاقة القربى بينه وبين زوجه وأولاده.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.



٢٠٥- من ثمرات الإسلام الاجتماعية | ٢٠٠١/٠١/١٩

آية في كتاب الله سبحانه وتعالى استوقفتني طويلاً، هي قوله عز وجل ﴿لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

هذا الكلام الذي يقوله الله سبحانه وتعالى بهذه الطريقة التي تلفت النظر وتثير الاهتمام، لا يشير إلى شيءٍ من العبادات التي يؤديها الإنسان بينه وبين ربه، ولا يشير إلى شيءٍ من الأعمال التي تدخل فيما يسمى حقوق الله سبحانه وتعالى، ولكنه يتحدث عن أمورٍ هي في مجملها تتمثل في علاقة الإنسان مع الإنسان، هذا ما يتحدث عنه بيان الله عز وجل في هذه الآية.

﴿لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ﴾، أي من الأحاديث التي تجري بين الناس ومن اللقاءات التي تتم فيما بينهم ﴿لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾ هذا نوع من الأعمال التي تتمثل في إصلاح شؤون الناس بعضهم مع بعض أو معروف.

﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ وكلمة المعروف تشمل كل أنواع البر، كل أنواع الإحسان، كل ما يدخل في معان البر وفي معان الإحسان وفي معان التقريب بين الناس فهو داخلٌ تحت كلمة المعروف.

﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾. هذا ما يتحدث عنه بيان الله عز وجل وكأن الإسلام محصور في هذه الأمور وحدها.

ثم إنه يقول: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ لا ابتغاء مصلحةٍ شخصية، ولا ابتغاء مغنم، ولا استغلالاً لعاطفة.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أجراً لا يعلم مدى أهميته وعظمه إلا الله سبحانه وتعالى إلا المؤجر.

الذي استوقفني من هذا الكلام أيها الإخوة هو ما ينبغي أن يتبينه كل منا من أن هذا الدين الذي شرف الله عز وجل به عباده المتمثل في العقائد أولاً والعبادات ثانياً والتشريعات ثالثاً ... كل ذلك إنما شرعه الله عز وجل لهذه الأمور الثلاثة، إنما شرعه الله سبحانه وتعالى ليكون سبيلاً إلى إقامة علاقاتٍ إنسانيةٍ سليمة رخية، ليكون سبيلاً إلى مد جسور الأخوة الإنسانية بين عباد الله سبحانه وتعالى، ليكون سبيلاً إلى مد شبكة التآلف والتعاون الإنساني بين عباد الله عز وجل جميعاً.

فإذا أمر الله عز وجل عباده بأن يعرفوا أنفسهم عبيداً مملوكين لله عز وجل وأن ربهم ومالكهم واحد لا ثاني له هو الله عز وجل، فسعياً إلى هذه الحقيقة وإلى هذه الغاية يأمرهم بذلك.

وإذا أمر الله عز وجل عباده بأن ينمو مشاعر عبوديتهم لله عز وجل ويغذوها بالعبادات فمن أجل الوصول إلى هذه الغاية يأمرهم بذلك.

وإذا شرع لهم النظم والتشريعات التي ترعى حياتهم فمن أجل السعي إلى هذه الغاية نفسها يشرع الله سبحانه وتعالى لهم ذلك كله.

وما عجبي لشيء كعجبي من أولئك الذين يضيقون ذرعاً عندما يذكرهم أحدنا بضرورة الدينونة لسلطان الله عز وجل وبضرورة الاصطباغ بحقائق العبودية لله سبحانه وتعالى. يقول أحدهم: وماذا يستفيد الله عز وجل من أن أدين له بالعبودية وهل هو بحاجةٍ إلى أن أذل أو أهون له؟ أنا حر ..

ولو عرف هذا الأحمق واستيقظ من غفلته وغبائه لعلم أن الله سبحانه وتعالى إنما يأمره بأن يستيقظ إلى عبوديته لله وأن يصطبغ بها .. إنما أمره بذلك لكي تصبح علاقته مع إخوانه كعلاقة الماء العذب بالماء العذب، ولكي تصفو صلة ما بينه وبين أخيه، والأمر ليس عائداً إلى الله سبحانه وتعالى ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾. لماذا يُلح بيان الله عز وجل على الإنسان أن يكون عبداً لله ألا يستكبر على الله أن يدين بمعاني العبودية المطلقة لله، لماذا؟ وماذا عسى أن يفيده شعوري بهذه العبودية هو ربٌ قبل أن يخلقني وبعد أن خلقني وبعد أن يُهلكني؟

ولكن الله رحيم بعباده يريد من عباده أن يتآلفوا فيتراحموا، وإنما السبيل إلى ذلك أن يعلم كل إنسانٍ هويته فيقف عندها، أن يعلم أنه مملوك لله عز وجل وعندئذٍ تتحطم مقالب كبريائه وتنكسر شوكة عناده، فإذا اتصل بإخوانه اتصل بهم اتصال الأخ الشفوق، اتصل بهم اتصال الأخ الودود، تلك هي الثمرة.

وعندما يأمرنا الله عز وجل أن نركع ونسجد ما الذي يفيده من ركوعنا وسجودنا؟! ويا عجباً لحمق ذاك الذي ينظر إلى الساجدين فيشمأز من هذا المنظر ويتأبى على هذه العبادة ويقول لا أحب أن يتعالى أسافلي على رأسي، قالها أبو طالب في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقولها اليوم بعض ورثة الجاهلية في هذا العصر أيضاً. لماذا يأمرنا الله عز وجل أن نكسر بقايا شوكة كبريائنا بهذا التذلل الجسدي لله عز وجل؟ ماذا عسى أن يفيده هذا منا؟

مرد ذلك إلى أن الإنسان بهذا العمل المتكرر يمارس عبوديته بجسده وتحركاته كما يغرس عبوديته في طوايا فؤاده، نعم عملٌ تربوي يُلين الإنسان بهذه الحركات بهذه الطاعة التي أمرنا الله عز وجل بها جسده لكي ينسجم شعور العبودية في القلب مع صبغة العبودية في الجسد والكيان. والنتيجة هي أن يصافح

أخاه الإنسان مصافحة ود مصافحة رعاية مصافحة إخلاص وحب، تلك هي الثمرة الأولى والأخيرة في هذه الدنيا من وراء الإسلام الذي شرفنا الله عز وجل به. وإن كنتم في ريب من هذا فانظروا إلى عصارة الثمرة الإسلامية في هذا البيان الإلهي ﴿لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ﴾.

تخيل أنواع التلاقي بين الناس أنواع الأحاديث التي تشيع فيما بينهم أنواع الحوارات والتعاونات التي تسري فيما بينهم كل ما تريد تخيل يقول بيان الله عز وجل: ﴿لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾. هذه هي الأمور الثلاثة التي يحبها الله عز وجل. صدقة تتقرب بها إلى الله لإصلاح حال أخ لك لكي ترأف بوضعه لكي تصلح من حاله. أو معروف وقلت لكم المعروف كل أنواع البر مهما كانت كلمة جامعة من جوامع الكلم في كتاب الله سبحانه وتعالى، أو إصلاحٍ بين الناس. هذه الأمور الثلاثة هي التي تطوف حولها شعائر دين الله، هي التي تطوف حولها العقائد، العبادات، الشرائع أجل، وآية هذا قوله: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال لأبي أيوب الأنصاري: «ألا أدلك على صدقةٍ يحبها الله ورسوله؟ تُصلح بين الناس إذا تفاسدوا وتقربهم إذا تباعدوا» لم يقل صلى الله عليه وسلم أكثر من ذلك. كان من الممكن أن يضعه أمام قائمة طويلة من العبادات والتبتلات والقربات والأوراد وما إلى ذلك، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم قفز به إلى النتيجة والوسائل معروفة، النتيجة هي: تصلح بين الناس إذا تفاسدوا وتقربهم إذا تباعدوا.

هذا الذي يدلنا عليه كتاب الله عز وجل ويؤكده ويشرحه لنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، يجعلنا أيها الإخوة نزداد حباً لله عز وجل الذي أحبنا، ألا ترون أن الله جعل الإسلام كله في خدمة هذا الإنسان؟ ألا ترون أن الله عز وجل قد جعل أحكام هذا الدين بدءاً من جذور العقائد إلى أغصان العبادات والشرائع، ألا ترون أن الله جعل من هذا الدين حارساً لسعادة هذا الإنسان في هذه الحياة الدنيا. هذا شيء يجعلنا نزداد حباً لله عز وجل ومن ثم يجعلنا نزداد حباً لهذا الدين الذي شرفنا – ولا أقول كلفنا – الله سبحانه وتعالى به.

أجل عقائد الإسلام هي البوابة الكبرى للدخول في رحابه، ولا يتم ذلك إلا بالعقائد، ولكن تلك هي الغاية.

أجل العبادات هو الغذاء الذي لابد منه لتنمية جذور العقيدة في الكيان، ولا يمكن أن يتحقق الإسلام إلا بالعبادات بدءاً من الصلاة التي جعلها الله على المؤمنين كتاباً موقوتاً إلى سائر النوافل التي يتقرب بها الإنسان إلى الله عز وجل، ولكنها خادمٌ لهذه الغاية أيها الإخوة.

الشرائع التي ندرسها ونقرأها في كتب الشريعة الإسلامية لابد منها ولابد من تطبيقها، ولكن فلتعلموا أن ذلك كله جعله الله خادماً لعلاقة ما بينك وبين أخيك، جعلها الله عز وجل سبيلاً لتنمية آصار الود ووشائج القربى وتنمية مشاعر الحب والألفة، جعل الله عز وجل من الإسلام حارساً لصلاح علاقتك مع أخيك إذا فسدت العلاقة دخل الإسلام للإصلاح، جعل الله سبحانه وتعالى هذا الإسلام حارساً لتقارب ما بينك وبين أخيك، فإذا وقعت الحواجز وحل التباعد محل التقارب دخل الإسلام ليذيب أسباب الفجوة والجفوة وليرفع الحجب وليستبدل بالابتعاد القرب.

هذا هو الإسلام .. ألا تعجبون إذاً ممن يتبرم بدين الله؟ ألا تعجبون إذاً ممن يتنطعون بالحديث عن المجتمع الإنساني وكيفية رعايته وحمايته وتحقيق أسباب سعادته، فإذا ذُكر بالإسلام أشاح بوجهه عنه وأعرض عنه، أنت كاذب يا هذا لو كنت صادقاً في غيرتك على المجتمع ولو كنت صادقاً في حبك للإصلاح ولتقدم هذا المجتمع الإنساني بعد تخلف ووحدته وتضامنه بعد شتات إذاً لبحثت عن الدواء. ولو بحثت عن الدواء بمصباح عقلك لهديت إلى الدواء الذي لا ثاني له الإسلام.

الإنسان الذي يبحث عن وسيلة لتقريب الإنسان إلى أخيه الإنسان ولتحطيم تضاريس الكبرياء فيما بينهم لا يمكن أن يشمئز من العبادات التي جعلها الله السبيل إلى إذابة هذه التضاريس؛ ما رأيت إنساناً يشمئز من الصلاة التي يتقرب بها الإنسان إلى الله عز وجل لتكون سبيلاً إلى إصلاح حاله مع أخيه الإنسان إلا وعلمت أنه كاذبٌ في دعوى أنه يحب رعاية المجتمع الإنساني أجل أيها الإخوة.

هما أمران متلازمان الإسلام بعقائده وعباداته وشرائعه وأخلاقه والمجتمع الإنساني بسموه وسعادته وتآلف أفراده وتقدمه بكل أنواع التقدم لا سبيل إلى هذه الغاية الأخيرة إلا سلوك ذلك السبيل الذي شرفنا الله تعالى به

وانظروا إلى ما يجري في عالمنا الذي حولنا هذا، انظروا إلى البلاء الأطم، انظروا إلى الوحشية التي تلتهم حقوق بني الإنسان باسم رعايتها باسم حمايتها، انظروا إلى المخالب الدامية التي تبرأ منها الوحوش في أدغالها، لماذا تحقق هذا كله؟ لماذا؟ لأن السبيل إلى المجتمع الإنساني الأمثل غاب وعندما يغيب السبيل الأمثل إلى هذا المجتمع الإنساني ما الذي يحصل؟ يتحول الإنسان من ملكٍ إلى وحشٍ كاسرٍ خطير. لا يمكن أن يروض الإنسان شيء إلا دين الله عز وجل إلا خوفه من الله إلا حبه لله إلا إيمانه بالله، فإن غابت مشاعر إيمانه بالله وخوفه من الله وحبه لله عز وجل استيقظ بين جوانح هذا الإنسان الوحش الذي دونه في الوحشية وحوش الغابات كلها وهذا ما يجري اليوم.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يشرف مجتمعنا بالإسلام حقيقةً وأن يُلهم أفراد هذا المجتمع أينما كانوا وحيثما حلوا الإخلاص لدين الله سبحانه وتعالى حتى نجد من خلال ذلك السلم الذي يرقى بمجتمعنا إلى صعيد التقدم إلى صعيد الإنسانية الحقيقية إلى صعيد السعادة إلى صعيد الوحدة والتضامن.


قضايا فكرية



إسلاميات

٢٠٦- الوسطية.. ومن هم الذين يألفون ويؤلفون؟ | عام ١٩٨٥

إنَّ من جميلِ فضلِ اللهِ سبحانهُ وتعالى على هذه الأمّة، أن ميّزها عن الأمم الأخرى بصفةٍ هي من أجلِّ الصّفاتِ التي نوّهَ بها كتابُ اللهِ عزَّ وجلّ، ألا وهي صفةُ الوسطيّة، تلكَ الصّفة التي قلّدَ اللهُ سبحانهُ وتعالى بها هذه الأمّةَ إذ قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾.

والوسطُ من كلِّ شيءٍ أعدله، أي ما بعُدَ عن طرفي الإفراطِ والتّفريط، أي ما بعُدَ عن طرفِ الغلوّ والتّقصير، وقد وردَ في الحديثِ الصّحيحِ عن رسولِ الله صلى اللهُ عليهِ وسلّم: ﴿أفضلُ الأعمالِ أوساطها﴾. وقد وردَ في الأثرِ عن عليٍّ رضيَ اللهُ تعالى عنه أنّهُ قال: عليكم بأوساطِ الأمور، فإنَّ إليها يهبطُ العالي، وإليها يصعدُ النّازل.

ومعنى هذا البيانِ الإلهيّ أنَّ اللهَ سبحانهُ وتعالى شرّفَ هذه الأمّةَ بشريعةٍ بعيدةٍ عن الغلوّ الذي جنحَ إليهِ النّصارى، وبعيدةٍ عن الاستهتارِ والتّقصير اللّذينِ وقعَ فيهما اليهود، وهذا المعنى ذاته هو الذي أشارَ إليه كتابُ اللهِ عزَّ وجلّ في قوله عزَّ وجلّ خطاباً لأهلِ الكتابِ عن طريقِ سيّدنا رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلّم: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْقَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾، ﴿لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ أي لا تشتطّوا فتتزيّفوا على الدّينِ ما ليسَ منه، فإنَّ الشّططَ فيهِ أخو التّقصير، وإنَّ الزّيادةَ على الدّين ليست بأقلَّ خطورةً من النّقصانِ منه، وما أكثرَ ما كرّرَ بيانُ اللهِ سبحانهُ وتعالى على أسماعنا هذا المعنى، ثمَّ كانَ عملُ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلّم خيرَ تطبيقٍ شارحٍ لهذه الوسطيّة التي شرّفنا اللهُ عزَّ وجلّ بها، وللابتعادِ عن ذلكَ الغلوّ الذي حذّرنا اللهُ سبحانهُ وتعالى منه.

فقد وردَ في الحديثِ الصّحيحِ المشهور عنهُ عليهِ الصّلاةُ والسّلام أنّهُ سمعَ بنبأ ثلاثِ فئاتٍ أو ثلاثِ رجالٍ من أصحابه قد عاهدَ كلٌّ نفسه على أن يحمّلَ نفسهُ من جهدِ العبادةِ أشدّه، فالتزمَ أحدهم بأن يصومَ ولا يفطر، والتزمَ الثّاني بأن يقومَ الليلَ ولا ينام، والتزمَ الثّالثُ بأن لا يتزوّجَ النّساء، فلمّا سمعَ رسولُ

اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلّم خبرهم غضب ودعا النّاس إلى المسجد وصعدَ المنبر فقال: ﴿أمّا أنا فأخوفكم للهِ سبحانهُ وتعالى، أصومُ وأُفطر، وأصلّي وأنام، وأتزوّجُ النّساء، فمن رغبَ عن سنّتي فليسَ منّي﴾.

وقد روى البخاريُّ رضيَ اللهُ عنهُ والتّرمذيّ ﴿أنَّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلّم آخى بينَ سلمانَ الفارسي وأبي الدّرداء، وجاءَ ذاتَ يومٍ سلمان رضيَ اللهُ عنه يزورُ أخاهُ أبا الدّرداء، فرأى امرأتهُ متبذّلةً شعثاء، فقالَ لها: ما شأنك؟ قالت: أخوكَ أبو الدّرداء لا شأنَ لهُ بالدّنيا قطّ، لا يريدُ من الدّنيا شيئاً. فدعا سلمانُ رضيَ اللهُ عنهُ أبا الدّرداءِ إلى داره وصنعَ لهُ طعاماً ووضعَ الطّعامَ وقالَ لهُ: كل، فقالَ أبو الدّرداء: أنا صائم، ولكنَّ سلمانَ عزمَ عليهِ وأقسمَ أنّهُ لن يأكلَ إلا إذا أكل، فأفطرَ أبو الدّرداءِ وأكل، فلمّا جاءَ الليل أرادَ أبو الدّرداءِ أن يقومَ فيصلّي، فقالَ لهُ سلمان: بل نَمْ. نامَ قليلاً ثمَّ استيقظَ ليصلّي، قالَ لهُ سلمانُ رضيَ اللهُ عنهُ: نَمْ. ونامَ حتّى إذا كانَ آخرُ الليل أيقظهُ وقامَ إلى الصّلاة، ثمَّ قالَ لهُ سلمان رضيَ اللهُ عنه: إنَّ لربّكَ عليكَ حقّ، وإنَّ لنفسكَ عليكَ حقّ، وإنَّ لأهلكَ عليكَ حقّاً، -وفي روايةٍ بزيادة- وإنَّ لزوجكَ عليكَ حقّاً، فأعطِ كلَّ ذي حقٍّ حقّه. ومضى أبو الدّرداءِ يقولُ لرسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم ما قالهُ سلمانُ له، فقالَ لهُ رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم: لقد صدقَ سلمان﴾.

ماذا نفهمُ من هذا يا عبادَ الله، من هذا الشّرفِ الذي قلّدنا اللهُ به؟ إذا جعلنا أمّةً وسطاً، بل جعلَ شعارَ إسلامنا كلمةَ الصّراطِ المستقيم، التي نردّدها في صلاتنا ونقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، أي البعيد عن طرفي الإفراطِ والتّفريط، نفهم أنَّ على المسلم بعدَ أن يمتّنَ عقيدتهُ الإسلاميّة وأن يحافظَ عليها محافظةً عقليّةً ووجدانيّةً أن يعلم أنَّ ملاكَ الورع إنّما يتمثّلُ في الابتعادِ عن الفحشاء ما ظهرَ منها وما بطن كما قالَ اللهُ عزَّ وجلّ: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾، هذا أعظمُ معنىً من معاني الورع، أن تعاهدَ نفسك وتعاهدَ ربّك على أن لا ترتكبَ شيئاً من الفواحش الظاهرةِ والباطنة، والفواحشُ الباطنةُ أخطرُ من الظّاهرة، أي أن تروّضَ كيانك على أن لا تحقد، على أن تبتعدَ عن الحسد، على أن تبتعدَ عن النّميمةِ والفحشاء، على أن لا تعلّقَ قلبكَ بالدّنيا وزخرفها، فإنّكَ إن وفّقتَ إلى ذلك ملّككَ اللهُ بهذا زمامَ الورع.

فإذا استطعت أن تسيرَ في هذا الطّريقِ ووفّقكَ اللهُ لذلك، فتتمّةُ هذه السّبيل أن تؤدّيَ فرائضَ اللهِ التي ألزمها عليك، وأن تتجاوزَ هذه الفرائضَ إلى ما تستطيعُ من النّوافل متمثّلاً قولَ اللهِ عزَّ وجلّ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾. ولا تحمّل نفسكَ في ذلكَ شططاً، فربّما تسلّلَ الشّيطانُ إلى الإنسانِ من هذا الطّريق،

حمّلهُ بدلاً من العبء ثلاثةَ أعباء، وبدلاً من الثّلاثةِ ستّةَ أعباء، حتّى يشعرَ هذا الإنسانُ بالكللِ والملل فيضجرَ من الدّينِ كلّه ويعودَ إلى شرٍّ ممّا كانَ عليهِ فيما مضى، إيّاكَ وأن يستغلّكَ الشّيطانُ هذا الاستغلال.

ثمَّ اعلم يا أخي المسلم أنَّ العبادة ليست محصورةً في أفكارٍ ولا أوراد، ولا في ركعاتٍ ولا إطالةِ سجودٍ ولا ركوع، العبادة كلُّ ما سمّاهُ العملَ الصّالح: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾، أرأيتَ إلى هذا الذي يسمّيهِ اللهُ العملَ الصّالح؟ إن أنتَ فعلتهُ استجابةً لأمرِ ربّك واستدراراً لمرضاتهِ عنك، كنتَ من المتعبّدينَ المتبتّلين، وانظر ما أوسعَ مدلول هذا الكلمة، تجارتكَ عملٌ صالح إن أنتَ قصدتَ بها مرضاةَ الله، زراعتكَ عملٌ صالح، صناعتكَ المباحة عملٌ صالح، دخولُكَ إلى داركَ ولهوُكَ المباح مع أهلكَ وأولادكَ عملٌ صالح، كلُّ ذلكَ من العبادةِ يسجّلُ اللهُ لكَ عليها أجراً، وأيَّ أجر؟ ولكنَّ هذا العمل الثّالث من أشقِّ الأعمال على المسلم، رغمَ أنَّ كثيراً من النّاسِ يظنّونَ أنَّ هذا من أسهلِ الأمور، لماذا هو من أشقِّ الأعمال؟ هوَ من أشقِّ الأمور من أجلِ أن تحوّلها من مباحةٍ إلى عملٍ صالح، سبيلُ ذلكَ القلب، ليسَ سبيلُ ذلكَ الأعضاء والحركات المادّيّةِ البارزة. وكيفَ يستقيمُ القلب؟ بأن توجّهَ قصدك في أعمالكَ هذه كلّها إلى هدفٍ واحد: ألا وهوَ أن يرضى اللهُ عزَّ وجلّ عنك، وهذا ليسَ يسيراً، هذا يحتاجُ إلى معاناةٍ طويلة، وإلى جهدٍ دائب، يتوجّهُ هذا الجهدُ إلى القلب لا إلى الأعضاء، تكثر من ذكرِ اللهِ عزَّ وجلّ بينكَ وبينَ ربّكَ في سرّك، تكثر من تصوّر معنى هذه الدّنيا وأنّها عَرَضٌ زائل، وأنّها شيءٌ فانٍ، وأنَّ الحقَّ فيها ليسَ إلّا الله سبحانهُ وتعالى.

فإذا أمعنتَ النّظرَ في هذه الحقيقة ونظرت فوجدتَ أنَّ الكونَ كلّهُ إنّما هو عبارةٌ عن ذرّاتٍ تدورُ على محورِ الحقيقةِ الواحدة ألا وهي محورُ الذّاتِ الإلهيّة، وعرفتَ هذا واصطبغتَ بهذه الحقيقة: فإنّكَ مهما انغمستَ في الدّنيا، ومهما عاشرتَ أهلها، أو تعاملتَ بشؤونها، فإنّكَ تكونُ متعاملاً معَ اللهِ سبحانهُ وتعالى، لستَ بحاجةٍ إلى أن تنفضَ يدكَ من الدّنيا، لستَ بحاجةٍ إلى أن تأكلَ المقدّدَ من الطّعام تزهّداً، لستَ بحاجةٍ إلى أن تعتزلَ النّاسَ والأهلَ والأولاد لتفرغَ بزعمك في الذّكرِ مع ربّكَ عزَّ وجلّ، لستَ بحاجةٍ إلى شيءٍ من ذلك لأنَّ الخلوةَ في الجلوة، لأنَّ عبادتكَ لله إنّما تتحقّق بأن تخدمَ ربّكَ عزَّ وجلّ وتعبدهُ من خلالِ خدمةِ عباده، من خلالِ رعايةِ عباده، من خلالِ تحقيقِكَ لمعنى قولهِ عزَّ وجلّ: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾، كلّفكَ اللهُ بعمارةِ الأرض، كلّفكَ اللهُ بأن تكونَ زوجاً وأباً وربَّ

أسرة، وأن تكونَ عوناً لإخوانكَ على طرفٍ من أطرافِ الحياة، ولكن احذر أن يتسلّلَ الشّيطانُ إلى قلبك فيجعلَ هدفكَ هدفاً دنيويّاً، هذا هو الورع، وهكذا ينبغي أن يكونَ المسلم، وبهذا الحصن يحصّنُ الإنسانُ نفسهُ ضدَّ ضراوةِ الشّيطانِ وضدَّ أحابيلهِ ومكره.

من قال: إنَّ المسلمَ لكي يكونَ ورعاً ومحبوباً إلى الله ينبغي أن يتبذّلَ في هيأته وينبغي أن يبتعدَ عن التّجمّلِ في مظهره؟ من قالَ هذا؟ العكسُ هو الصّحيح، ربَّ رجلٍ متبذّلِ الهيئة وقلبهُ مفتونٌ بالدّنيا، وربَّ رجلٍ متجمّلٍ في فاقة كما يقولُ الحسنُ البصريُّ رضيَ اللهُ عنه، وقلبُه لا يحيا إلا مع ربّهِ سبحانهُ وتعالى.

إنَّ رسولَ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ يقول: ﴿ألا أنبّئكم بأقربكم منّي مجالساً يومَ القيامة؟ أحاسنكم أخلاقاً، الموطّؤونَ أكنافاً، الّذينَ يألَفونَ ويؤلَفون﴾. هذا هو ديننا، وتلك هي شرعةُ ربّنا، وهذا هو كلامُ رسولنا عليهِ الصّلاةُ والسّلام. ﴿ألا أحدّثكم عن أقربكم منّي مجالساً يومَ القيامة﴾؟ منذا الذي لا يحلم بهذا الشّرف الكبير؟ ما ثمنه؟ ثمنهُ شيءٌ واحد: ﴿أحاسنكم أخلاقاً، الموطّؤونَ أكنافاً﴾، فسرَّ ذلكَ كلّهُ بهذه الكلمة: ﴿الّذينَ يألفونَ ويؤلفون﴾، والإنسانُ لا يؤلَف إلا إذا كانَ متجمّلاً في مظهره، قريباً من إخوانه، رخيَّ النّفسِ تجاههم، يشعرونَ بالأنسِ به، يعطيهم من طرفِ لسانهِ حلاوةً ومن طرفِ قلبهِ إخلاصاً وأنساً، يُعاملُ الأهلَ والأولادَ والأسرة هذه المعاملةَ التي تحقّقُ في نفسه هذا المعنى، وكانَ لهُ مظهرٌ أخّاذٌ بينَ النّاس، يجعلُ النّاسَ تتعشّقُه وتألفه وتحبُّ التّقرّبَ إليه.

وهكذا كانَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلّم، ولكنَّ هذا كلّه ينبغي أن يحصَّنَ بحصنٍ من النّيّةِ السّليمة، النّيّةُ السّليمة هي مجالُ الجهاد، وهي مجالُ الورع، وهي مفتاحُ القربِ إلى الله، فأمسك بيدكَ مقودَ قلبك، أمسك بيدكَ مقودَ النّيّةِ والعزمِ في فؤادك، واجعل في قلبكَ من حبّكَ للهِ عزَّ وجلّ ما يصرفُ أعمالكَ كلّها ما تراهُ دنيويّاً وما تراهُ أخرويّاً في سبيلِ أن يرضى عنكَ ربُّكَ عزَّ وجلّ، وعندئذٍ ستجدُ نفسك أينما سبحتَ من يمِّ هذه الدّنيا وحيثما غصتَ يميناً أو يساراً ستجدُ نفسكَ تتقلّبُ بينَ الأعمالِ التي تقرّبكَ إلى اللهِ عزَّ وجلّ، فقط لا ترتكبِ المحرّمات، وابتعد عن الفواحشِ ما ظهرَ منها وما بطن، وأدِّ ما فرضَ اللهُ عزَّ وجلَّ عليك تكن أعبدَ النّاس.

أقولُ قولي هذا وأستغفرُ اللهَ العظيم فاستغفروهُ يغفر لكم...



٢٠٧- عجباً لمن ينتقي من الإسلام زاوية يصبغ نفسه بها | ١٩٩٠/٠٦/٠٨

إنَّ من أبرزِ صفاتِ هذا الدّينِ الذي شرّفَ اللهُ بهِ عبادهُ أنّهُ دينُ الوسطيّةِ ودينُ العدل، وكلُّنا قرأ قولَ اللهِ عزَّ وجلّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾. وكلُّنا قرأ الآياتِ التي تصفُ الإسلامَ بأبرزِ صفةٍ من صفاته، ألا وهيَ صفةُ العدل.

فلا تُصَبُّ الأوامرُ مهما اختلفت والنّواهي مهما اختلفت إلا في معينِ الدّعوةِ إلى العدل، وما هو العدل؟ العدلُ هو الابتعادُ عن طرفي الإفراطِ والتّفريط من خلالِ محورِ الوسطيّة الذي يشكّلُ بعداً واحداً بالنّسبةِ لسائرِ الأطرافِ المحيطةِ بهذا المحور. هذا هو دينُنا الذي شرّفنا اللهُ سبحانهُ وتعالى به.

وفائدةُ هذا الدّينِ في حياتنا الدّنيا: أن يركنَ الإنسانُ منهُ إلى هذهِ المائدةِ التي دعانا إليها اللهُ سبحانهُ وتعالى، فإذا ركنَ إليها وجدَ نفسهُ وقد أعطى لكلِّ ذي حقٍّ حقّه. إذا ركنَ الإنسانُ إلى مائدةِ الإسلام وخضعَ لدينِ اللهِ عزَّ وجلَّ وتعاليمه. أعطى لعقلهِ حقّهُ وغذاءه، أعطى لوجدانهِ وعواطفهِ حقّهما وغذاءهما، أعطى لغرائزهِ الإنسانيّةِ البشريّة حقّها وغذاءها، أعطى لمن يلوذُ بهِ حقّهُ وغذاءه، أعطى للمجتمعِ الذي هو جزءٌ منهُ حقّهُ وغذاءه، ووزنَ ذلكَ كلّهُ في ميزانِ الإسلام حتّى لا يأتي حقٌّ أرجحَ من حقّ، وحتّى لا يأتِيَ حقٌّ لجهةٍ أنقصَ من حقٍّ لجهةٍ أخرى. هذا هو الإسلام، فهل طبّقنا الإسلامَ على هذا النّحو؟

إنَّ آفةَ المسلمين الذينَ يتّجهونَ إلى الإسلامِ – ولا أتحدّثُ عمنّ يعرضُ عن الإسلام –: أنّهم ينتقونَ منهُ ما يطيبُ لهم، وما يتّفقُ مع شهواتهم ورغائبهم أو غرائزهم، وهكذا فإنّهم يتخلّصونَ من إفراطٍ ليقعوا في إفراطٍ آخر.

فئةٌ من النّاس يطيبُ لها أن تختارَ من الإسلامِ عباداته، فهي تركن منهُ إلى هذه العبادات، وهي بسببِ ذلكَ تنطلقُ إلى لونٍ من التّطرّفِ نهى عنهُ اللهُ سبحانهُ وتعالى.

وفئةٌ أخرى تختارُ من هذا الإسلامِ أفكارهُ ومعارفهُ وعلومه مبتعدةً عمّا أمرَ اللهُ سبحانهُ وتعالى بهِ من أذكارٍ وعبادات، تنطلقُ هذه الفئةُ الأخرى إلى لونِ آخرَ من التّطرّف.

فئةٌ أخرى تلتقطُ من الإسلامِ ما يتّفقُ ورغائبَها، وما يتّفقُ وظروفَها، وما يحقّقُ لها المغانمَ ويبعدُها عن المغارم، فهي عاكفةٌ من الإسلامِ على هذا الجانب الذي يحقّقُ لها حظّاً وفيراً ويبعدُها عن التّحمّل ويبعدُها عن كلِّ ما لا ترتضيهِ من المغارم. هذا لا يرضي اللهِ عزَّ وجلَّ أبداً.

الذي يرضي الله: أن نأخذَ الإسلامَ مزيجاً متكاملاً على النّحوِ الذي أمرَ اللهُ عزَّ وجلَّ به، لا نعطي قسماً حقّاً أكثرَ من القسمِ الآخر، المسلمُ يجبُ أن يعلم أنَّ الإلهَ الذي أمرَ في محكمِ كتابهِ النّاسَ بالحجِّ وقال: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾.

هو ذاك الإله الذي قالَ أيضاً في محكمِ كتابه: ﴿لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾.

وهو ذاته الإلهُ الذي أمركَ بالحجّ، هو الذي قال أيضاً في محكمِ كتابه: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ، الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ، وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ، أَلا يَظُنُّ أُوْلَئِكَ أَنَّهُمْ مَّبْعُوثُونَ، لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

هذا الإله ذاتهُ هو الذي قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ﴾.

هذا الإلهُ الذي أمرَ بالحجِّ وأمرَ بالصّلاةِ وأمرَ بالصّيام، هو الذي قالَ أيضاً في محكمِ كتابه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ﴾.

هذا الإله الذي أمرَ بهذا كلّه هو الذي قالَ في محكمِ كتابه: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ، وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾.

هذا الإله الذي أمرَ بهذا وذاك هو الذي عادَ فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّأَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾.

ما الإسلامُ إذاً أيّها الإخوة؟ الإسلامُ جذعٌ يتمثّلُ في الاعتقادِ بأنَّ الإنسانَ عبدٌ وأنَّ خالقَ هذا الكونَ ربٌّ، وأن لا ربَّ سواه. ثمَّ فوقَ هذا الجذعِ أغصان شتّى كلُّها متكاملة، إن أخذتَ بغصنٍ منها دونَ غصن أوصلكَ ذلكَ إلى تصرّفٍ ينأى عنهُ الدّينُ ويبغضهُ ربُّ العالمين. وإنما عليكَ أن تسيرَ أنّى هداكَ هذا الجذع، والجذعُ يهديكَ إلى هذه الأغصانِ كلِّها، هذه الأغصانُ التي تغذّي حقوقكَ مع أهلك، حقوقكَ مع أولادك، حقوقَكَ مع جيرانك، حقوقَكَ مع النّاسِ في السّوق، حقَّ التّعاملِ مع الآخرينَ بالمال -بالدّرهمِ والدّينار-.

هذه الحقوقُ التي تمتدّ إلى رقابةِ اللهِ سبحانهُ وتعالى، إلى الخوفِ من عذابِ اللهِ سبحانهُ وتعالى، إلى مزج الدّنيا بالآخرة، واستخلاصِ ترياق من هذا المزج يوصلُكَ إلى اللهِ سبحانهُ وتعالى.

فالإسلامُ لا يأمركَ أن تنفضَ يديكَ من الدّنيا وتلحقَ بالآخرة لأنّكَ لن تنالَها إلا على جسر من الدّنيا. ولا يأمركَ اللهُ بأن تتقوقعَ في الدّنيا وتقطعَ ما بينَك وبينَ اللهِ صلةَ الآخرةِ وصلةَ الوصولِ إليه، لأنَّ هذه الدّنيا تخنقك، ولأنَّ هذه الدّنيا تشقيكَ ولن تسعدك. الإسلامُ حقوق متكاملة.

عجبي لا ينتهي من أناسٍ يصبغون أنفسهم بالإسلامِ من زاويةٍ واحدةٍ من زواياهُ التي تبلغُ العشرات. ما هي هذه الزّاوية التي يربطُ نفسهُ بالإسلامِ كلِّهِ من خلالها؟ زاويةُ الحجِّ مثلاً إلى بيتِ اللهِ الحرام: كلّما جاءَ هذا الموسم يظنُّ الرّجل أنَّ العواطف تشرئب وتتوقّدُ بينَ جوانحه، وأنَّ حبّهُ لبيتِ اللهِ ولذكرى رسولِ اللهِ يقيمهُ ولا يقعدُه، ولا بدَّ أن يرحلَ مع الرّاحلينِ إلى هناك. وفي بيتهِ شبابٌ بلغوا مبلغ الزواج وهم في حاجةٍ إلى أن يتزوجوا يعرضُ عنهم، نزواتهم تبلغُ أذنيه، بشكلٍ مباشرٍ أو غيرِ مباشر، ولكنَّ حبّهُ للهِ فيما يزعم وشوقهُ لبيتِ اللهِ فيما يزعم يحجبُ سمعهُ عن الإصغاءِ إلى زفرات أولاده. أيُّ دينٍ هذا؟ من ذا الذي قال: إنَّ هذا الحجّ يقرّبُ هذا الإنسانَ إلى اللهِ شروى نقير؟

عجبي من أناسٍ أرادوا أن يصطبغوا من الدّينِ بزاويةٍ أخرى من زواياه، ألا وهي زاويةُ الأخلاق. يقولُ ويكرّر كلامَ المصطفى عليهِ الصّلاةُ والسّلام: «إنّما بُعِثتُ لأتمّم مكارمَ الأخلاق». ثمَّ يتفلسف قائلاً: هل أمرَنا اللهُ بالصلاة إلا لنتخلّقَ بالأخلاقِ الفاضلة؟ وهل أمرنا اللهُ بالصّومِ والحجّ إلا لكي نهذّبَ نفوسنا

ونتسامى إلى صعيدِ الأخلاقِ الفاضلة؟ إذاً فسيّانِ أن نصلّيَ أو لا نصلّي، أن نصومَ أو لا نصوم إذا تخلّقنا بالأخلاقِ الفاضلة. أيُّ فلسفة هذه؟

هذه زاوية من زوايا لإسلام لابدَّ تتمتّعَ بها وتصطبر. والإسلامِ زوايا عدّة، بل أقولُ كما قلت: الإسلامُ مائدةٌ عامرة رُصفت فوقها أطباقٌ شتّى، وكلُّ طبقٍ فيهِ غذاءٌ لجانبٍ مستقلٍّ من كيانك، ولا يصبحُ كيانُكَ كمجموعٍ إلا أن تتناولَ من هذه الأطباقِ كلِّها.

من الذي قال: إنَّ أخلاقَ الإنسانِ تستقيم دون مثول في محرابُ العبوديّةِ للهِ صلاةً صياماً حجّاً ذكراً تبتلاً. صحيح أنَّ هذه العباداتِ وسائل، ولكنَّ الذي لا يتّخذُ الوسيلة لن يصلَ إلى الغايةِ أبداً.

الإسلامُ أيّها النّاس دينٌ متكامل لا يمكنُ للإنسانِ إن بدأ منهُ بجمعِ العقيدة إلا أن يغنى بأفكارهِ كلِّها، ولكنَّ الذي يقفزُ منهُ فوقَ جذعِ العقيدة لا يصطبغُ بمعنى عبوديّتهِ لله، لا يدركُ معنى وحدانيّةِ اللهِ عزَّ وجلَّ ربّاً وخالقاً، ثمَّ يطيحُ بينَ هذه الأغصان فإنَّ هذا الإنسانَ فعلاً ينتقي من أغصانِ الفروعِ الإسلاميّةِ ما يطيبُ له. هذا يطيبُ لهُ أن يكرّرَ الحجَّ إلى بيتِ اللهِ الحرام، وذلكَ يطيبُ لهُ أن يغشى مجالسَ الذّكر يذكرُ اللهَ مترنّحاً يهزَّ رأسهُ آناً ذاتَ اليمينِ وآناً ذاتَ الشّمال، وهذا يطيبُ لهُ أن يكثرَ الصّلاة، وذاكَ يطيبُ لهُ أن يتحدّثَ عن علومِ الإسلام والأفكارِ الإسلاميّةِ والشّرائعِ الإسلاميّةِ وما خلّفهُ الإسلامُ من تراثٍ عظيم، كلٌّ يأخذُ منهُ بزاوية والكلُّ بعيدٌ عن حقيقته. والكلُّ فقيرٌ إلى جوهره، لأنَّ الإسلامَ هو هذا الجذع، فمن استمسكَ بهِ غني بأغصانهِ كلِّها، ومن قفز إلى غصنٍ من أغصانهِ اندقَّ بهِ ووقعَ وقد شُقّت رأسهُ وشقيَ في حياتهِ الدّنيا والآخرة.

أسألُ اللهَ سبحانهُ وتعالى أن يبصّرنا بحقيقة الإسلام وأن يذوّقنا معنى الوسطيّة التي وصفَ اللهُ سبحانهُ وتعالى بها إسلامه ومن ثمَّ وصفنا نحنُ المسلمينَ بهذه الوسطيّة. أقولُ قولي هذا وأستغفرُ اللهَ العظيم.

٢٠٨- الوازع الديني سبيلنا إلى التخلص من التخلف | ١٩٩٢/٠٦/٢٦

أما أننا نحن المسلمون في هذا العصر قضي علينا بالتخلف، فإنها لحقيقة ثابتة لا مجال للريب فيها، وأما أنَّ علينا أن نعود إلى دراسة هذا التخلف والتنقيب عن أسبابه للتخلص منه، فتلك أيضاً حقيقة لا مجال للريب فيها. ولكن الأمر الذي يثير للعجب إلى درجة من الدهشة البالغة، أننا نرى أناساً دأبهم أن يعكفوا على الحديث عن التخلف الذي تعاني منه هذه الأمة الإسلامية، ثم عن التنقيب عن أسباب هذا التخلف، ولكنهم لا يجدون سبباً لذلك إلا بقايا انتماء هذه الأمة إلى الإسلام، فكأن السبب الأوحد الذي جعل هذه الأمة تعاني من تخلفها المذموم، أنها لا تزال تركن إلى بقية باقية من إسلامها، ولا تزال تعتز بصلة ما إلى تراثها كما يقولون، وإلى إيمانها وحضارتها الباسقة والمعروفة لنا جميعاً في التاريخ.

وما رأيت واحداً من هؤلاء الباحثين الذين يؤرقهم – بحسب الظاهر – واقع هذه الأمة تبينوا لهذه التخلف سبباً آخر، والأعجب من هذا أن أسباب التخلف واضحة للعيان يتبينها لا أولوا البصائر فقط بل يتبينها أولوا الأبصار أيضاً.

هذا هو الأمر العجيب الذي لا أعده إلا مظهراً هو الآخر من مظاهر التخلف في هذه الأمة، عندما منيت هذه الأمة ذات يومٍ بما يسمى الاستعمار، ثم أنقذها الله سبحانه وتعالى من براثن ذلك البلاء، جاء من رجال هذه الأمة من تصوّروا أن الانعتاق من آثار ذلك الاستعمار وأن التحرر من عقابيله إنما يتثمل ذلك كله بفتح الشوارع العريضة وإقامة الأبنية الباسقة ونبذها عن يمين وشمال بخطوطٍ وميول، والسير بالناس ذكوراً وإناثاً على النهج الذي كان يسير عليه ذلك العدو المستعمر، وقام هؤلاء الذين تصوروا الأمر على هذا النسق، وخُيّل إليهم أن سلم التقدم تحصر درجاته فقط في هذه الأمور.

عكفوا على ذلك وأتيح لهم فعلاً أن يفتحوا الشوارع العريضة وأن يرفعوا الأبنية الباسقة وأن يجعلوا الساحات والميادين تتلألأ بالأضواء الساطعة واستطاعوا أن يجعلوا الشوارع هنا تشبه الشوارع هناك، وأن الغادين والرائحين والغاديات والرائحات هنا يشبهون ويشبهن أولئك الناس في تلك الفجاج الأخرى، ثم

عادوا إلى بيوتهم وأماكنهم مطمئنين أنهم قد تخلصوا من التخلف، ثم نظروا بعد ذلك يميناً وشمالاً وإذا هم لا يزالون يعانون من بلاء ذلك التخلف، بل نظروا وإذا هم قد غرقوا في مزيدٍ من حمأة ذلك التخلف.

إذاً لم تستطع تلك الشوارع ولا تلك الأبنية ولا تلك المظاهر أن تخلصهم من ذلك البلاء، بل إن القوة التي تتمثل في العتاد هو الآخر لم يستطع أن يخلصهم من ذلك التخلف، لقد أتيح لهم أن يحققوا كل ما كانوا يحلمون به، وأتيح لهم أن يقلدوا تلك المجتمعات النائية حذو القذة بالقذة كما يقول المثل العربي فعلوا كل ما يحلمون به دون يتخلصوا من ذلك التخلف. هذه حقيقة ساطعة وواضحة نعلمها جميعاً. أما ينبغي أن ترشدنا هذه الحقيقة الواضحة إلى البلاء إلى السبب الأطم الذي يصفدنا في الأغلال، هب أن قوة من العتاد ضاهت لدنيا قوة أولئك الأعداء من هم الذين سيستخدمون هذه القوة.

إن الذين سيستخدمونها بنجاح إنما هم جندٌ آمنوا بحقهم الذي وضعوا حياتهم في سبيله، وضحّوا في سبيل هذا الحق بكل شهواتهم وأهوائهم، ولكن كيف السبيل إلى ذلك من ذا الذي يضحي بشهواته وأهوائه في سبيل الحق الذي آمن به، ها هنا تكمن المشكلة.

لا سبيل أبداً لجعل هذا الحق هو القيم على السلوك ولجعل الشهوات والأهواء هي الخادم الذي يوضع تحت الأقدام إلا عن طريق واحد، ألا وهو التربية الإنسانية المثلى، ولن تتحقق التربية الإنسانية المثلى إلا عن طريق الوازع الإيماني بالله سبحانه وتعالى. هذا الوازع الإيماني هو الذي يجعل الجندي قادراً أن يرقى إلى مستوى العتاد الذي أمكنته المادة منه، هذا الوازع الإيماني هو الذي يجعل في البنيان الشامخ سرّه، وهو الذي يضع في الشوارع العريضة روحانيتها، هذا الوازع الإيماني هو الذي يجعل في المؤسسات التعليمية أو العلمية إشعاعها النابض، وسرها المنتشر إلى العقول والقلوب، هذا الوازع الديني هو الذي يجعل الطبيب إذا بات في مستشفاه يعلم كيف يخدم أمته ولا يجعل من ذلك فرصةً نادرةً للعكوف ليلاً على شهواته وأهوائه، هذا الوازع الديني الذي غاب من حياتنا هو السر في تخلفنا.

ولودت لو أن غبياً من هؤلاء الأغبياء الذي يكتبون عن أسباب التخلف تخلص من غباءه ساعةً واحدة، وتنبه إلى الحقيقة المثلى الساطعة أمام كل بصر وأمام كل بصيرة، لوددت أن يعلم ذلك لا بالرجوع

إلى سنن الله في عباده المنثورة في كتابه، له أن لا يقرأ، ولودت أن يرجع أن يعلم هذا بالرجوع إلى مظاهر الكون الساطعة أمامه. أما نحن فمنذ قليل وقفنا عند قول الله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

عرفنا كيف يكون الجهاد عرفنا روح الجهاد وعرفنا خطواته وعرفنا أن خطوات الجهاد لن تأتي بقائم إلا إذا استقامت هذه الخطوات على روحه وما روح الجهاد إلا هذا ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩] ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً} [النحل: ٩٧] أي لنعتقنه من تخلفه الذي يعاني منه.

يا عباد الله كلكم يعلم أن دولة من الدول العربية والإسلامية القريبة منا، امتلكت ذات يوم مظاهر القوة امتلكت مفاعلاً نووياً، وامتلكت ترسانة من القوة ارعبت العدو القريب والعدو النائيَ البعيد، ومع ذلك فإلى ما آل حال هذا كله؟ إلى ما آل حال ذلك المفاعل الباسق وتلك الترسانة القوية المخيفة؟؟

لقد تهاوى ذلك كله في جنح ليلة سوداء حالكة. ترى لماذا تهاوى؟ إن أردنا أن نفهم التقدم والتخلف بمظاهره المادية، فها هو جاء التقدم تماماً طبقاً للتقدم الآخر بل تحقق.

إذا أردنا أن نعتمد على المقاييس المادية وحده، ولكن هذا التقدم الظاهري الذي يدغدغ مشاعر الأغبياء الذين يتكلمون عن التخلف والتقدم بمنأً عن حقيقة هذا الدين العظيم. هذا التقدم لم يغنِ أصحابه شيئاً، بل تهاوى كما قلت لكم تحت سلطان مكيدة رخيصة؛ ذلك لأن هذه القوة أقيمت في العراءِ ذلك لأن هذا التقدم أقيم بعيداً عن أي حصن من الحصون، وما الحصن الذي يقف في وجه التقدم؟ الحصن كامن في ذاتي. . الحصن كامن في تربيتي. . الحصن كامن في كينونتي الإنسانية عندما تتوج بتاج الإيمان بالله سبحانه وتعالى. هذا الحصن لم يكن موجوداً، ومن ثم فقد كان سهلاً جداً على العدو القريب، وعلى العدو النائي البعيد أن يأتي كل منهما إلى مظاهر تلك القوة فيركلها بقدمه كما قد وقع فعلاً.

أليس في ذلك كله عبرةٌ لمن يريد أن يفهم الأمور على حقيقتها؟ أليس في عبر الدهر القديمة والحديثة ما يجعلنا ندرك هذه القضية التي لم تعد معقدة، ولا بأس من أن نأخذ العبر من واقع أعدائنا ومن واقع الأمم الأخرى، فالحكمة كانت ولا تزال كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ضالة المؤمن.

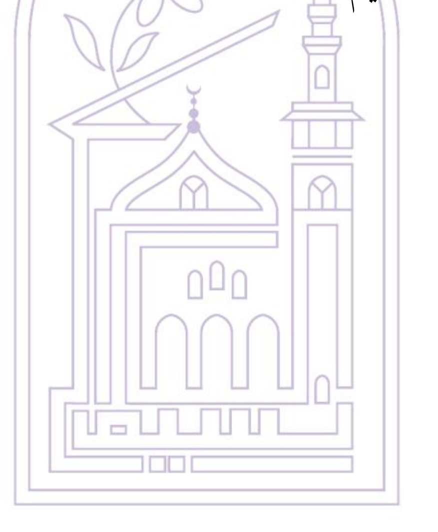
لقد فوجئت أمريكا ذات يوم بأنها متخلفة عن منافستها آن ذاك في غزو الفضاء وأعماله، فعاد المسؤولون هناك ينقبون عن سبب هذا التخلف، عن سبب هذه الثغرة. هل بحثو عن ذلك في تقنية ناقصة؟ هل بحثو عن ذلك من خلال قوة مادية غير متوفرة؟ أبداً. . إنما بحثو عن هذه الثغرة في التربية بحثوا عن هذه الثغرة في التربية السلوكية وفي الأخلاق التي ينبغي أن تتوفر ولقد تبينوا أنها هي النقيصة التي كانوا يعانون منها.

ولا يقولن قائل: ولكن كيف أتيح لهم أن يتبينوا الأسرار التي أعتقتهم من التقدم وهم غير مؤمنين، ولم يتح لنا أن نتبين هذه الأسرار ونحن مؤمنين؟ لا يقولن قائل هذا الكلام الباطل الأجوف الذي غدا ثقيل على الآذان وممجوجاً في القلوب والنفوس.

لو كنا مؤمنين بالله حقاً، ولو أننا درسنا أسباب تخلفنا على الطريقة التي يدرسها أولئك الناس لأمكننا الله سبحانه وتعالى من التفوق عليهم، ولمد الله سبحانه وتعالى زمام حضارتنا الخالدة إلى أن تقع في أيدينا نحن، ولرأينا أن تقدم تلك الأمم قد تهاوى بكل مظاهره، ولكن لما آل أمرنا لما أقول لكم أن فينا من المسلمين من يريد أن يعالج التخلف فلا يجد إلا سبب واحد للتخلف هو بقايا انتماء المسلمين إلى إسلامهم، عندما آل أمر المسلمين إلى هذه الحال، وعندما آل دينهم إلى مظاهر شكلية، وعندما أمكنهم الله من قوى يتمتعون بها ومن غنى جعل الله أراضيهم صندوقاً له، ومن مال وفير لا تأكله النيران ثم تركوا ذلك كله في العراء، تركوا ذلك كله في ساحة من ساحات البعد والعهر والترك لأوامر الله سبحانه تعالى، وكلَهَمُ الله عز وجل إلى شأنهم وطبّق عليهم الباري سبحانه وتعالى قانونه الذي ما كان ليشذ في يوم من الأيام.

أيها الناس هذه العبرة العظمى لو أننا أخذنا أنفسنا فيها لكانت المنعطف الأوحد إلى إعتاق الله إيانا من كل مظهر من مظاهر التخلف، منعطف واحد لا ثاني له، ألا وهو أن نعلم أن العلوم المادية التقنية ونحوها، وأن مظاهر التقدم المادي كل ذلك جنود تنفيذية، وقيادة هذه الجنود لا يمكن أن تكون إلا بالتربية الإنسانية المثلى. والتربية الإنسانية المثلى لا يمكن أن تستوي على سوقها وأن تبقى على الأسس الثابتة الراسخة لها، إلا إذا توّجت بحقيقة الإيمان بالله عز وجل، وشُدت النفوس إلى معنى العبودية إلى الله عز وجل، عندئذ يتآلف الشاردون وعندئذ يضحي كلٌ منا بشهواته وأهوائه في سبيل مصلحة أمته، وانظروا بعد ذلك كيف يحقق الله عز وجل فينا معنى قوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

أقول قولي هذا واستغفر الله العظيم.



٢٠٩- الإسلام دين السلم والسلام والحوار.. ولكن متى وكيف؟ |

١٩٩٨/٠١/٠٩

إنّ من الأمور البديهية والمفروغ منها أن الإسلام الذي شرف الله عز وجل به عباده هو دين السلام، وما أكرم الله هذه الخليقة بالإسلام إلا من أجل أن يتفيأوا بواسطته ظلال الأمن والطمأنينية والسلم. وهل فينا من لم يسمع أو لم يقرأ قول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

ولكن المهم الذي ينبغي أن يعلمه كل عاقل أن هذا السلم الذي جاء به دين الله سبحانه وتعالى والذي هو نعمة من أكبر النعم، ومكرمة من أعظم المكرمات التي امتن الله عز وجل بها على عباده، هنالك من يتربصون به، وهنالك من يتخذون منه موقف العداء، وهم أولئك الذين لم يرتضوا شرعة الله ديناً، ولم يرتضوا الدخول في بوابة العبودية لله سبحانه وتعالى. هؤلاء الذين استكبروا على الله لابد أنهم يتخذون موقفاً معادياً من هذه المكرمة التي جاء بها الإسلام ألا وهي مكرمة السلم.

إذاً فقد كان لابد أن يجعل هذا الإله المشرّع المتفضل على عباده لهذا السلم الذي متع به عباده حمايةً، ولا بد أن يجعل له حصناً، ولا بد أن يُكلف عباده الذين ارتضوا الإسلام ديناً، لابد أن يكلفهم بأن يكونوا حراساً لهذا السلم، وأن يكونوا رعاةً وحماةً له، وربما اقتضى الأمر أن يقوم قتالٌ وجهادٌ في سبيل الوصول إلى السلم، وذلك هو قانون الله سبحانه وتعالى، وذلك هو مقتضى سلم الأولويات في دين الله سبحانه وتعالى.

إن السلم الذي لا يمكن تحقيقه إلا بجهاد، ما أيسر أن يشرع الجهاد في سبيله، هذه الحقيقة ينبغي أن يتبينها كل عاقل، وإذا عرفناها فإننا لا يمكن أن نجد في كتاب الله تناقضاً ولا تضارباً، كما يحب أن يتوهم أو يُوهم بعض الذين يحاولون أن يصطادوا دين الأمة بالماء العكر. لن نجد أية تناقضٍ بين هاتين الآيتين في كتاب الله سبحانه وتعالى. أما أولاهما فقوله عز وجل: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾، وأما الآية الثانية فهي قوله عز وجل: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾. قد يتخيل

السطحي الساذج من الناس أن بين هاتين الآيتين تناقضاً، إطلاقاً. من وعى هذه الحقيقة التي ذكرتها الآن يعلم أن بين الآيتين كل الانسجام.

يأمر الله سبحانه وتعالى بالجنوح إلى السلم عندما يطرق العدو بابنا يبتغي السلم، ومن ثم يقول: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾، ذلك لأن حواراً يتم بيننا وبين الذين يلاحقوننا بصدق ويطالبون بالسلم بصدق لابد أن يكون هذا الحوار حوار الند للند على أقل تقدير، هذا إن لم يكن المسلمون هم المتفوقين.

أما في الحالة الثانية عندما يقول الله عز وجل: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ فالأمر مختلف أي ما ينبغي أن تكونوا أنتم الدعاة إلى السلم من منطلق المهانة من منطلق الضعف، لأنكم عندما تلاحقون أعدائكم مسالمين بدافعٍ من المهانة وبدافعٍ من الذل فلن يكون ذلك السلم إلا سلماً مزيفاً، ولن يكون ذلك سلم إلا أداة تحمل الدمار وتحمل الهلاك للأمة جمعاء. هذا معنى كلام الله سبحانه وتعالى.

وحصيلة الأمر أن الله سبحانه وتعالى جعل هذا الدين الذي شرفنا به تربةً يُستنبت فيها السلم، ولكن لما كان هذا السلم كنزاً ثميناً وعظيماً جداً كان لابد أن يتربص به أعداؤه، ومن ثم فقد كان لا بد من حماية هذا السلم بالقوة، أو بكل الوسائل التي ينبغي أن يتخذها المسلمون أداةً لحماية هذا الكنز العظيم الذي متع الله سبحانه وتعالى به عباده.

واليوم أيها الإخوة ونحن ننظر إلى العالم الذي أحدق بالمسلمين، وننظر إلى الأدوات والوسائل المتنوعة والمختلفة التي تتجه جميعاً إلى محور واحد وهدفٍ واحد ألا وهو الإسلام، وننظر فنجد وسائل الكيد لهذا الدين متنوعة شتى، بالأمس أكرم الله هذه الأمة بيقظةٍ وصحوة إسلامية حقيقتين، فأسرع الذين يكيدون للإسلام ويتربصون به سوءاً ووضعوا الخطط التي تجهد هذه الصحوة، وأنتم ترون كيف أن الخطط التي رُسمت بالأمس تُنفذ اليوم في كثيرٍ من الأصقاع العربية والإسلامية.

وبالأمس القريب طرحت شعارات السلم والسلام، وجاء من يُحرك المسلمين ويذكرونهم بأن الإسلام هو دين السلم والسلام، ونظرنا فوجدنا أن الدعوة إلى مكيدة، وأنها عبارة عن سعي إلى تمزيق السلام الحقيقي في العالم الذي هو أحوج ما يكون إلى أن يتفيأ ظلال السلام باسم السلام ذاته، أو باسم السلم

ذاته، ولكن الإنسان الذي يتبين بدقةٍ بيان الله، ويتبين بدقةٍ الإعجاز الرباني في كلام الله سبحانه وتعالى أدرك ويدرك أن هذه الشعارات الكاذبة تحارب الحقيقة بأسمائها، ونحن نعيش اليوم عصر محاربة الحقيقة بأسماء مزيفة لتلك الحقيقة. فالسلم يُحارب اليوم باسم السلم، أجل والصحوة الإسلامية الحقيقية التي فُجرت وأشرق نورها بالأمس تُحارب اليوم باسم صحوة إسلامية مزيفة أُخرى.

ويأتي دور أداة أخرى ألا وهي أداة الحوار التي كانت ولا تزال القوة الأولى بيد المسلمين والمفتاح الأول الذي فتح المسلمون به البلاد العالمية شرقاً وغرباً، هذا الحوار الذي به تمت الفتوحات الإسلامية يُحارب اليوم باسم الحوار علم هذا من علم وجهل ذلك من جهل. نحن دعاة الحوار ولا يوجد من هو أقدس من الحوار بعد الإسلام الذي هو أقدس من كل شيء مقدس.

ولكن عندما تُطرح ورقة الحوار كما طرحت بالأمس ورقة السلام أو السلم، وكما أكرم الله قبل ذلك هذه الأمة باليقظة أو الصحوة سرعان من نجد من يغطي هذه المكرمة باسمٍ مزيف لها، غُطيت الصحوة بوسائل مزيفة لها لإجهاضها، غُطي السلام بأسماء مزيفة للسلام من أجل إجهاضها ومن أجل استجرار المسلمين إلى المهانة والذل والتخلي عن حقوقهم.

واليوم يُغطى الحوار باسم الحوار، يُغطى الحوار الحقيقي الذي هو مفتاح الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى بالحوار المزيف، وبوسعكم أن تتبينوا أشكالاً وألواناً للحوار المزيف هنا وهناك عن طريق وسائل الإعلام المرئية والمسموعة.

قالوا إن حواراً جرى بين أكبر شخصية إسلاميةٍ تعبر عن الإسلام وجوهره وعلمه وحقيقته في القاهرة، وبين أكبر شخصيةٍ يهودية تُمثل الصهيونية أو تمثل إسرائيل، حوار أليس الإسلام دين حوار؟ قام هذا الحوار فماذا كانت النتيجة أيها الإخوة؟

الذين قرأوا كلام الله عز وجل، وتبينوا كيف يربي عباده الصالحين، يدعوهم إلى السلم عندما يكونوا هم الأعلون، ويحذرهم من السلم عندما يكونون في حالةٍ من المهانة ويستجرون باسم المهانة إلى السلم. الذين تبينوا كلام الله عز وجل عرفوا سلفاً نتيجة هذا الحوار.

أجل.. وماذا عسى أن ينتظر من هذا الحوار عندما يكون ممثله الإسلامي ذاك الذي أباح بالأمس كل أنواع الربا، واليوم يُجالس أكبر شخصية يهودية ينطق باسم اليهودية بل باسم الصهيونية يجالسه باسم الحوار. إذا كان أعلى الزيت درياً فماذا تنتظر في نهاية هذا الوعاء؟

أجل أيها الإخوة ما ينبغي أن نكون مغفلين بحيث يتصيد أعداء هذا الدين ديننا باسم الدين، يتصيدون السلام الذي جاء به الإسلام باسم السلام، يتصيدون الحوار الذي هو مفتاح الدعوة إلى الله عز وجل باسم الحوار، بالأمس وباسم الحوار وتحت مظلة الحوار جيء بمن يعلنها لأول مرة عن عقيدته العفنة أن الإسلام لا قيمة له، وأن القرآن انتهى دوره، وأن القرآن يتنافى مع العلم سمعت ذلك بأذني، أُستجر هذا الإنسان ليقول هذا ولم يكن يحلم أن يقول هذا أبداً. لكنه قال ذلك تحت غطاء الحوار، وراجعت ذهني وفكري ترى هل هنالك من قال هذه الكلمة علناً وراء مذياع أو أمام كاميرا ولو في ظل دولة غير إسلامية؟ أبداً.. لأول مرة يسمع العالم الإسلامي هذه الكلمة ويطرق الاستهزاء بكتاب الله عز وجل سمعه. في بلاد الكفر لا يمكن أن تمر كلمة من هذا القبيل؛ من أجل أن لا تُجرح كرامة المسلمين، وفي ديار المسلمين لا يمكن أن يقول قائلٌ هذا الكلام أيضاً لأنه كلامٌ غريبٌ أرعن لا يرقى إلى مستوى علمٍ ولا منطق ولا فكرٍ بشكل من الأشكال. لكن الأمر حصل وباسم الحوار، باسم الحوار الزائف أُجهض الحوار الحقيقي المقدس.

قلنا وأرسلنا إليهم نقول: الحوار مقدس ادع ملحداً، ولكن حاوروه في الجادة، لتكن الجلسة معقودة من أجل بيان قيمة القرآن، لتكن نقطة الحوار هي حقيقة هذا الدين، حقيقة وجود الله عز وجل ألا وهي الحقيقة الكبرى في الكون، على أن يكون هنالك جامع مشترك قبل ذلك ألا وهو الانطلاق من العلم، الانطلاق من المنطق، الانطلاق من المنهج، أما أن نستنطق الملحد الأرعن بإلحاده ثم لا يناقش إلحاده ونجعل من إلحاده مقياساً للحديث عن فلسطين والحقوق المستلبة فهذه مكيدة صلعاء، مكيدة لا يمكن أن تمر حتى على عقول الأغبياء بشكلٍ من الأشكال أيها الإخوة.

إذاً ينبغي أن نعلم أن كتاب الله سبحانه وتعالى يبعث الفكر الثاقب لدى من كانوا سذجاً وبسطاء فليلجؤا إلى كتاب الله، كتاب الله سبحانه وتعالى فيه الحكمة، فليلجأ كل من ينشد الحكمة إلى كتاب الله

سبحانه وتعالى. كتاب الله عز وجل يكشف عن مكيدة الكائدين مهما تطورت وتعقدت فليلجأ كل من يبحث عن ذلك إلى كتاب الله سبحانه وتعالى.

نحن أيها الإخوة دعاة سلم باسم الإسلام ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾، ولكننا من أجل أننا دعاة سلم، حراس سلم أيضاً ولا يمكن لحراس السلم أن يحرسوا سلمهم هذا إلا بكل الوسائل التي ينبغي أن يهيؤها ويجندوها.

أجل.. ونحن الذين أكرمنا الله بالصحوة الإسلامية ولكن الصحوة الإسلامية التي كانت تحتاج إلى مرشدين يرشدونها ابتليت بأناسٍ أجهضوا هذه الصحوة باسم الصحوة. إنما يجري اليوم في الجزائر وأشباه الجزائر ثمرةٌ لخطة مرسومة قُرأت وقرأناها وحفظناها في أدراجنا وهي موجودة اليوم واليوم يحارب الحوار الذي طرحناه قبل سنوات، تعالوا إلى الحوار تعالوا إلى الحوار الذي هو وسيلة فتح الإسلام ووسيلة إدخال الهداية في قلوب الناس جميعاً، وإذا بنا نجد من يجهض الحوار باسم الحوار. ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.



أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

٢١٠- لتخلي الأمة عن مبدأ الخلافة الواحدة.. التاريخ يكرر نفسه | ١٩٩٨/٠٢/٢٠

حكمٌ من أجلّ أحكام الشريعة الإسلامية وأهمها وأخطرها، غدا اليوم غائباً عن أذهان المسلمين جميعاً، وغريباً أو بعيداً عن المجتمعات الإسلامية كلها، ألا وهو حكم الإمامة الكبرى أو الخلافة التي أرساها دين الله سبحانه وتعالى مع بعثة خاتم الرسل والأنبياء سيدنا محمدٍ صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

نسي الناس أو أكثرهم هذا الحكم الجليل والعظيم الذي يحتل حيزاً كبيراً من مصادر الشريعة الإسلامية، نسوا أو تناسوا أن على المسلمين في كل عصر ووقت أن تكون في أعناقهم بيعةٌ لإمامٍ يجتمع المسلمون كلهم تحت إمرته وقيادته؛ سواءٌ سُمي إماماً أو سُمي خليفة. ولعلكم جميعاً تعلمون دلائل ذلك من كلام سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ووصاياه، فلقد صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: ﴿من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة الجاهلية﴾.

وهذا حكمٌ تضامني اجتماعي يصدق على كل فردٍ فردٍ من أفراد هذه الأمة، أي إذا مرّ يوم واحد على المجتمع الإسلامي، وليس لهذا المجتمع إمامٌ واحد يلتقي المسلمون جميعاً تحت قيادته ومات واحد من هؤلاء المسلمين على هذه الحال مات ميتة الجاهلية، ذلك لأن كلاً منهم مسؤولٌ عن البحث عن إمامٍ واحد يجتمع المسلمون كلهم تحت مظلته. ومن هنا قال الفقهاء جميعاً: لا يجوز أن يفترق المجتمع الإسلامي إلى دويلات متعددة يرأس كلاً منها إمامٌ مستقل، وأساس ذلك كلام سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهو يقول فيما يرويه مسلمٌ من حديث أبي سعيد الخدري: ﴿إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما﴾، إذا بويع لخليفتين، أي بويع لواحدٍ أولاً ثم بويع لرجلٍ ثانٍ ثانياً فاقتلوا الثاني، ولم يقل الرسول صلى الله عليه وسلم اقتلوا أسوأهما أو أكثرهما ابتداعاً أو انحرافاً، وإنما قال: فاقتلوا الثاني؛ أي الذي جاء بعد الآخر، وهذا دليلٌ ما بعده دليل على أن المجتمع الإسلامي واحد وينبغي أن يظل واحداً، وينبغي أن تكون إمرة هذا المجتمع إلى إمامٍ واحد.

ويقول المصطفى صلى الله عليه وسلم فيما يرويه الشيخان البخاري ومسلم من حديث عرفجة رضي الله تعالى عنه يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم: ﴿من أتاكم وأمركم جميعاً على رجلٍ واحد؛ يريد أن يشق عصاكم ويُفرق جماعتكم فاقتلوه﴾.

ويقول المصطفى صلى الله عليه وسلم فيما يرويه الشيخان أيضاً من حديث عرفجة: ﴿إنه ستكون هناةٌ وهناة﴾، أي ستكون أخطارٌ وفتن من بعدي، فمن أراد أن يشق عصا المسلمين وأمرهم جميع على رجلٍ واحد فاضربوه بالسيف كائناً من كان.

هذه الأحاديث أيها الإخوة صريحة واضحة في أن هذه الأمة التي أكرمها الله سبحانه وتعالى بجمع الشمل بعد أن كانت متفرقة في متاهات، وبعد أن أكرمها بحبله الذي كان إليه الفضل في اجتماع شملها، إن هذه الأمة مكلفةٌ بالحفاظ على هذه الوحدة، مكلفةٌ برعاية هذه المكرمة التي أكرمها الله بها من خلال قوله: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾، وذلك بأن تكون هذه الأمة دائماً متفقةً متحدةً يجتمع شملها وتتظافر قواها تحت مظلة خليفة واحدة يخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو تحت مظلة إمام واحد يقودها.

ولقد بلغ الأمر في الاهتمام بوحدة هذه الأمة إلى أن يقول رسول الله: وأمركم جميعٌ على رجل واحد، لم يصف هذا الرجل إطلاقاً، المهم أن يكون رجلاً واحداً مسلماً، ذلك لأن تفرق هذه الأمة وتدابرها أخطر بكثير وبكثير من أن يكون إمام هذه الأمة الواحدة مبتدعاً أو فاسقاً أو مخطئاً أو مسرفاً على نفسه. إن وضعت هذه الصفات في كفة، ووضع تفرق المسلمين في كفة أخرى، فتفرق المسلمين أخطر وأسوأ من ذلك كله.

نسي الناس أيها الإخوة في هذا العصر هذا الواجب الذي هو من أخطر الواجبات، ومن أهم الأحكام التي نقرأها في كتب الشريعة الإسلامية، وإني لأخشى أن تكون معصية المسلمين في نسيانهم لهذا الحكم لا يقل خطراً عن معصية هذه الأمة في ترك هذا الحكم. فهما معصيتان:

أولهما: الابتعاد عن تنفيذ هذا الحكم. ثانيهما: نسيان هذا الحكم وابتعاد هذه الأمة عن ذلك.

والآن ما وجه الخطورة في هذا الأمر، ولماذا يُصر الإسلام إصراره من خلال كتاب الله ومن خلال أحاديث كثيرة كما سمعتم من كلام رسول الله على أن تجتمع هذه الأمة على قيادة رجل واحد ما السبب؟

السبب: هو أن الله عز وجل علم أن الأرض سيظل فيها طغاة وبغاة، وأن هذا الدين مطموعٌ فيه وفي أهله، وأن المسلمين مهما انتصروا ومهما سادوا فإن هنالك أناساً وأمماً ستغلي الأحقاد بين جوانحهم وفي قلوبهم، ولسوف يحاولون أن يقضوا على قوتهم التي أكرمهم الله عز وجل بها، ولسوف يحاولون أن يستنزفوا قواهم وعزتهم التي متعهم الله بها، ولسوف يحاولون أن يسرقوا ثرواتهم التي أكرمهم الله عز وجل بها، ترى ما هو الحصن الذي ينبغي أن يتحصن فيه المسلمون ضد ذلك كله؟ القوة المادية تفيد لكنها فائدة جزئية، التمسك بأوامر الله الفردية يفيد ولكنه يفيد فائدة جزئية، كل ذلك لابد له من حصن، ما هو هذا الحصن؟ هو وحدة الأمة هو اجتماع شمل هذه الأمة، ومن هنا يحذر بيان الله سبحانه وتعالى الأمة في محكم كتابه من أن تتفرق: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾، ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ إلى آخر الآية.

هذا هو السبب الذي من أجله يُلح كتاب الله ويُلح سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن يلتقي أمر هذه الأمة على خليفة أو إمام؛ ذلك لأن أطماع الطامعين لا يمكن أن تُرد على أعقابها إلا بهذه الوحدة وبهذه الطريقة وتحت مظلة إمامٍ يجمع شمل هذه الأمة بوازعٍ ديني لا بوازعٍ سياسيٍ مجرد.

وإنكم لتذكرون أن هذه الأمة طالما كانت في تاريخها الغابر متمسكةً بهذا المبدأ، يجتمع شملها تحت مظلة خليفة أو إمام، لم تكن أمم البغي تستطيع أن تخترق سوراً من أسوارها، ولم تكن تستطيع أن تقضي على جانب من عزتها، حتى في أسوأ الظروف، حتى عندما كانت الخلافة الإسلامية تخب وهي مريضة كما يسمونها بالرجل المريض حتى في تلك الظروف لم يكن الغرب يستطيع - وكم كانت له من أطماع - أن يصل إلى أطماعه؛ ذلك لأن طوق الخلافة الإسلامية كان يمنع الطامعين ويصدهم على الرغم من أنها كانت خلافة هشّة وكانت خلافة ضعيفة.

نحن أمة واحدة، هكذا كنا، أما واقعنا فنحن مضرب المثل للتفرق والتدابر والتشاكس من خلال هذا الواقع قُضي على هذه الأمة، من خلال هذا الواقع تتهدد أمتنا هذه أعمالٌ وحشية وإجرامية ما مثلها وحشية في الغابات أبداً بشكلٍ من الأشكال. ولكن الأعمال الوحشية والإجرامية قسمان اثنان:

أعمالٌ بدائية، كتلك الأعمال الوحشية التي تراها في الغابات، والتي تُقدم عليها الوحوش، وما أيسر صد هذا النوع من الأعمال الوحشية البدائية. أعمال وحشية أخرى تتقنع بقناع من الحضارة، تتقنع بقناع خداع من الشعارات البراقة الزائفة الكاذبة. كحقوق الإنسان، كإقامة العدالة كشعارات كثيرة مما تعرفون. الوحشية والجرائم التي لا يمكن أن تعلم وحوش الغابات مثيلاً لها والتي تطوف حول هذه الأمة، هي من هذا النوع الثاني أيها الإخوة.

ترتفع شعارات حقوق الإنسان كما تسمعون في هيئة الأمم المتحدة، وفي العالم الغربي بشطريه الأمريكي والأوروبي، ولكن اخترقوا هذه الشعارات وانظروا إلى الواقع، تجدون أن الوحشية التي يمارسها أصحاب هذه الشعارات – لا والله – لا تستطيع وحوش الغابات أن تمارسها، تحت هذا الاسم يقتل البرءاء، وليس هنالك من يتحدث عن حقوق الإنسان، ذلك لأن أوراق السلفان هي المطلوبة فقط، أما أن يموت البرءاء، أما أن يموت الأطفال جوعاً، أما أن يجد العالم أن شعباً بكامله هو عرضة للهلاك بكل معنى الكلمة، فلا أحد يتحدث عن هذا بشكلٍ من الأشكال، ذلك لأن هذا العمل الإجرامي مخبوء تحت اسم حقوق الإنسان.

عندما تجتاح جماعة من الناس بلدةً آمنة مطمئنة يهب الغرب هبة رجل واحد، لأن مصلحته تقتضي انتهاز الفرصة من أجل وضع اليد على ثروات تلك المنطقة، من أجل اقتناص خيراتها كلها، وها هي ذي دولة أخرى تجتاح جارتها كل يوم كتركيا والعراق، ولا نجد من يقول، ولا نجد من يستنكر، ولا نجد من يقول إن العدالة تقتضي أن تتقاسم الأمة الإنسانية حقوقها على السواء، وأن يتحمل الناس كلهم واجباتهم أيضاً على السواء لا نجد.

ننظر إلى من ينادون بحقوق الإنسان ماذا يصنعون؟ يختلقون الأزمات في بقعة من بقاع هذه الأمة التي قُضي عليها بالتفرق والشتات، يختلقون الأزمة هناك لأن لأولئك الناس طمعاً في خيراتهم هناك. أجل

الطمع بالكنوز السوداء والصفراء التي جعلها الله ذخراً لهذه الأمة هو الذي جعلهم يختلقون هذه الأزمة قبل سنوات، لكي يضعوا أيديهم على هذه الكنوز كلها، ولكي ينادي مناديهم إن في السر أو في العلن هذه الخيرات ينبغي أن تعود إلينا حقوق الإنسان، أين هي حقوق الإنسان؟ واليوم هذه الأزمة التي تُختلق إنما تُختلق من أجل تعميق الهيمنة الغربية على حقوق هذه الأمة المعنوية والمادية. هذا العمل الإجرامي هذا العمل الوحشي الذي تتنزه عنه الوحوش في غاباتها عدا عن الفارق الوحيد الذي يتمثل في ورق السلفان الذي خبئت هذه الوحشية تحتها، والذي كتب عليه حقوق الإنسان.. العدالة إلى آخر ما هنالك من الكلمات الجوفاء الفارغة...

ترى ما الذي جعل الغرب يشمر عن ساعد البغي والوحشية، ويكشر عن أنيابه المخبوئة وراء هذه الكلمات ليفعل هذه الأفاعيل بنا؟ هل كان يستطيع إلى ذلك سبيلاً لو كانت هذه الأمة ما تزال مكلوءة بحراسة أعظم مبدئٍ تركه الإسلام لنا، ألا وهو مبدأ اجتماع الأمة على إمام واحد على خليفة واحد .

(الخلافة) هذا هو الأمر الذي ينبغي أن يعود إلى أذهانكم أيها الإخوة، هذا هو الأمر الذي ينبغي أن يعود فيصبح حقيقةً ماثلةً بين جوانحكم وفي مشاعركم، إن لم نستطع اليوم إلى ذلك سبيلاً لأنه قد حيل بيننا وبين السبيل إلى ذلك، فلا أقل إلى أن نعلم أن هذا هو البلاء الأعظم الذي حاق بنا يوم نسينا هذا الواجب، لا أقل من أن يصبح الإنسان ويمسي وهو يقول لمولاه وخالقه: اللهم إني أعترف بأني قد قصرت، فلم أكن حارساً أميناً على هذا المبدأ الذي أمرتنا به.

كل هذه المصائب التي تأتي تباعاً، كل هذه السلسلة المؤلفة من الحلقات التي رأيتموها والتي قد تروها ونسأل الله العفو والعافية، إنما جاءت من وراء هذا الأمر، ومن العجب أن في أبناء جلدتنا من يقف في وجه هذا المبدأ، ومن يناقش ومن يخالف ومن يحارب مبدأ هذه الخلافة، وإنكم تعلمون ونحن نعلم أنه ما من حقيقة سرقها الغرب من حقائقنا الإسلامية إلا واستعان بعملاء منا وفينا، ما من مبدأ من المبادئ حطمه الغرب في مجتمعاتنا إلا واستعان بمعاول منا وفينا.

ورحم الله العرب الذين تركوا من ورائهم المثل القائل: إن قطعة من فأسٍ ألقيت في بستان، فذعرت الأشجار من قطعة الفأس هذه، فقالت شجرة مسنة كبيرة أتت عليها الدهور: لا تخافوا ولا تحذروا من

قطعة الحديدة هذه، فلو أنها بقيت ملقاة فيما بينكم دهر كاملاً لن تستطيع أن تمس أياً منكم بسوء إلا إن تبرع غصناً منكم أن يكون مقبضاً لها.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.



٢١١- أخلص للإسلام يخلص لك الإسلام | ١٩٩٨/٠٢/٢٧

نعود مرة أخرى إلى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، المنبئ عن المرض العضال الذي يعاني منه المسلمون اليوم: ﴿ستداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، قالوا أمن قلة نحن يا رسول الله يومئذ؟ قال: بل أنتم كثير، ولكنكم غثاءٌ كغثاء السيل، ولينزعنّ الله الرهبة من قلوب أعدائكم، وسيقذفن في قلوبكم الوهن، قالوا ما الوهن يا رسول الله؟ قال حب الدنيا أو الحياة وكراهية الموت﴾.

كثيرون هم الذين يتذكرون حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا، في هذه الظروف المدلهمة السوداء التي تمر بها هذه الأمة الإسلامية اليوم. وينظرون فيجدون المصداق الدقيق والعجيب لكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الواقع، ولكن ما العمل الذي يدفعهم هذا الحديث إليه؟ وما العلاج الذي يتفكرون فيه؟

أما الكثرة الكاثرة من المسلمين التقليديين ممن يكتفون أو يفتخرون بانتماءٍ شكليٍ منهم إلى الإسلام الذي غدا اليوم يسمى تراثاً، أما هؤلاء الكثرة فإن هذا الحديث يحدث فيهم أثراً واحداً، ويدفعهم إلى شيء واحد لا بديل عنه هو أنهم يوظفون الإسلام من أجل تحقيق مصالحهم، ومن أجل السعي به إلى أهدافهم؛ أي يجعلون من الإسلام أداةً ومطيةً من أجل تحقيق أهدافهم وربما كانت أهدافاً سليمة وصحيحة. فهل هذا العمل هو الدواء؟ وهل هذا هو الذي عناه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ لا ليس هذا هو الدواء الذي نبه إليه المصطفى عليه الصلاة والسلام.

أما القلة من المسلمين المتحرقون على الرجوع إلى هدي رسول الله، المتألمون لشرودهم عن صراط الله عز وجل وابتعادهم عن أوامر الله عز وجل، فإنهم يطمحون إلى أن يوظفوا أنفسهم لخدمة الإسلام وتحقيق أهدافه. وانظروا كم من الفرق يقوم بين الأمرين؟ كم من الفرق بين من يريد أن يوظف الإسلام لمصالحه وأهدافه وبين من يتجه ليوظف نفسه لأهداف الإسلام ومبادئه وقيمه.

العلاج أيها الإخوة لا يكمن ولا يتحقق في أن نوظف الإسلام ونستعمله أداةً لخدمة أهدافنا التحررية أو التقدمية أو الثقافية أو الحضارية أو العلمية أياً كانت، بل إن هذا النهج لا يزيد بلائنا إلا بلاء، ولا

يزيد واقعنا إلا تخلفاً. النهج السليم واستعمال الدواء الناجع هو أن نوظف أنفسنا نحن لخدمة هذا الإسلام الذي به سعدت هذه الأمة في أمسها الدابر، وما ينبغي أن يفوتكم الفرق الكبير بين هذين الأمرين.

هنالك منظمة اسمها منظمة المؤتمر الإسلامي، وهذه المنظمة مكونةٌ من مسؤولين كبار في العالم الإسلامي على اختلافه، والمفروض أن تكون هذه المنظمة هي الطبيب الذي يقدم العلاج لهذه الأمراض التي تستشري في جسم الأمة الإسلامية اليوم. فمالها لا تستطيع أن تقدم شيئاً؟

إن أعضاء هذه المنظمة يجتمعون بين الحين والآخر، ولم ننس بعد آخر مؤتمرٍ لهم، وهذه الظاهرة فيما يبدو سعي حثيث لمعالجة مشكلاتنا ولتقديم الدواء الناجع لأمراضنا، ولكن لماذا نراوح في مكاننا؟ بل لماذا ننظر فنجد أننا نزداد تخلفاً على تخلف؟

السبب أيها الإخوة أن رجال هذه المنظمة في أحسن الأحوال إنما تتجه إلى استخدام الإسلام وتوظيفه لمصالحها. رأوا أن ورقة الإسلام شيءٌ كبير، وأن اللعب بهذه الورقة يحقق فائدةً كبرى، إذاً فلماذا لا نلعب بهذه الورقة؟ لماذا لا نستخدمها؟ لماذا لا نستعملها أداةً من أجل ردم الثغرات التي تتفتح فيما بيننا؟

هذا النهج لا يفيد أبداً. . إن الله سبحانه وتعالى طيبٌ لا يقبل إلا طيباً، وليس الإسلام الذي ابتعث الله به الرسل والأنبياء إلا بوابةً أُمر الناس أن يدخلوا عبرها إلى ساحة العبودية لله سبحانه وتعالى، والإسلام إنما يترجم عنه بقول الله عز وجل الذي يعلمنا أن نقول ونردد: ﴿إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، كل شيء أملكه حتى الروح التي تخفق بين جوانحي، المال الذي يتجمع في داري أو في صندوقي، كل المدخرات التي أعتز بها، ثقافتي، حضارتي تراثي، كل ذلك ملكٌ لمن خلقني الله سبحانه وتعالى، ودينونتي كلها لله عز وجل. هذا معنى قوله سبحانه وتعالى وهو يقول على لساننا ليعلمنا كيف نقول بل ليعلمنا كيف نؤمن ونستشعر كيف ذلك: ﴿إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

عندما يصطبغ المؤمنون بهذا الشعور ويرتفع إيمانهم إلى هذا المستوى، فإنهم عندئذٍ لا يوظفون الإسلام لخدمة مصالحهم، لأن مصالحهم كلها في خدمة الإسلام، ولأن دنياهم كلها إنما تدور على فلك العبودية؛

عبوديتهم لله سبحانه وتعالى، وآية ذلك أن هؤلاء الذين يجتمعون ليتحدثوا عن الإسلام، وليلعبوا بورقة الإسلام، وليوظفوا الإسلام، إن رأيتهم في سلوكاتهم الفردية وأعمالهم الشخصية خاضعين لسلطان الله ملتزمين أوامر الله سحانه وتعالى، لائذين على أعتاب الله عز وجل، كل منهم يجعل من نفسه خادماً لدين الله سبحانه وتعالى، قيماً يحرس أوامر الله عز وجل، داعياً إلى الله سبحانه وتعالى بعيداً عن المحرمات والمعاصي التي نهى الله عز وجل عنها، فاعلم أن هؤلاء عندما يتلاقون لن يوظفوا الإسلام ويستخدموه لأمورهم ومشكلاتهم السياسية، بل سيستخدمون أنفسهم ويوظفون ذواتهم وكل ما يملكون لخدمة دين الله سبحانه وتعالى.

إذا تحول الأمر من هذا الواقع اليوم إلى هذا المستوى الذي يطلبه الله عز وجل منا، فقد بدأت الأمة تستعمل الدواء الناجع، وعندئذٍ لا بد أن تتلاحم القوى من جديد، وعندئذ لا بد أن يتجلى الله سبحانه وتعالى على هذه الأمة بالرحمة، وبإمدادها بالقوة، وبإمدادها بالعزة والكرامة، لا تدري من أين. . كل ذلك سيتحقق، ولكن المصيبة أيها الإخوة أن أكثر المسلمين اليوم وقد عرفوا دور الإسلام العظيم يتجهون ليلعبوا بالإسلام ورقة، تأتي مناسبات تمر في كل عامٍ مرة أو مرتين يتسابق هؤلاء الناس لهذه المناسبات ليستخدموا المناسبة من أجل المصالح، أجل يأتي موسم الحج وقد جاء ما أكثر من يستخدم هذا الموسم من أجل المصالح.

ولعل فينا من يقول: والمصالح التي نستخدم مواسم الدين ونستخدم شعائر الدين من أجلها أليست مصالح مشروعة؟

نعم هي مصالح مشروعة، ولكن فرقٌ كبير بين أن تجعل عبوديتك لله عز وجل الواجفة الصادقة التي تتجلى في تضحيتك بروحك وبكل ما تملك وبكل وقتك وبكل شيء في سبيل مرضاة الله عز وجل، ومن ثم فإن الله يجعل هذا الإسلام حصناً لمصالحك، فرقٌ بين هذا وبين أن لا تبالي لأوامر الله في حق نفسك، لا تطبق أوامر الله عز وجل في حق ذاتك، أخلاقاً مبادئ قيماً في بيتك في مجتمعك في مدارسك في وسائل إعلامك، فإذا لاحت أمامك المشكلات ورأيت أن اللعب بورقة الإسلام يفيد، هرعت عندئذٍ لتتحدث عن الإسلام، والله يرى والله يراقب. فرقٌ كبير أيها الإخوة بين هذا وذاك.

أقول هذا لأن في المسلمين اليوم من يقول ويكرر القول ألسنا مسلمين؟ ألسنا مؤمنين بالله عز وجل؟ فلماذا لا يحصننا الله ضد طغيان الطاغين وضد هؤلاء الذين يبتزون منا الأموال ويستمرؤون الحقوق تلو الحقوق لماذا؟

الجواب هذا الذي أقوله لكم: الله سبحانه وتعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجه الله عز وجل: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَات﴾.

العمل الصالح كلمة كبيرة جداً ولها مدلول واسع، العمل الصالح يتجلى في سلوك الإنسان ما بينه وبين ربه، يتجلى في سلوك الإنسان قوامة في داره، تربية لأهله وأولاده. العمل الصالح يتجلى في رقابة المجتمع. العمل الصالح يتجلى في الدعوة إلى الله عز وجل: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً﴾.

هل تريدون أيها الإخوة أن أضعكم أمام مثالٍ يجسد هذا الفرق الذي ألفت أنظاركم إليه؛ بين من يوظف نفسه لخدمة الإسلام ومن يوظف الإسلام لخدمة ذاته؟

مع الأسف المثال الذي يبرز هذا بشكل جيد هو فرق ما بين المسلمين التقليديين في بلاد الإسلام اليوم، والمسلمين الذين يدخلون الإسلام اليوم من أولئك الذي كانوا إلى الأمس القريب شاردين تائهين، يسبحون في بحار اللهو والمعاصي والكفران، انظروا إلى واقع هؤلاء الكثرة الكاثرة الذين يدخلون في دين الله سبحانه وتعالى في رحاب الغرب، انظروا إلى الفرق ما بين أولئك الناس والمسلمين التقليديين في بلادنا اليوم. عندما يدخل الواحد منهم في دين الله عز وجل، ولا يدخل إلا بعد أن يعمر الإيمان قلبه ويهيمن على عقله ماذا يصنع؟ يتجرد من دنياه، يتجرد من شهواته وأهوائه، يتجرد من ماضيه كله وكأنه مخلوق جديد مناقضٌ كل التناقض مع ذاك الذي كنت لا تراه إلى في الملاهي وفي السهرات وفي أمسيات الشهوات والأهواء متجهاً إلى الله عز وجل.

انظر إلى هذا الإنسان. . هل يسخدم الإسلام لأهوائه لمصالحه، أم يستخدم نفسه بكل ما يملك لمرضاة ربه سبحانه وتعالى؟ ثم انظر إلى المسلمين الذين – ولا أعني القلة من المسلمين الذي أسأل الله أن يرحم الأمة بهم – ولكني أضرب المثل بالكثرة الكاثرة من المسلمين، الذي إن حدثتهم عن حقوق الله أعرضوا، إن حدثتهم عن مشاعر ومبادئ العبودية لله أشاحوا بوجوههم، إن حدثتهم عن الواجب الذي ينبغي أن يسير المسلم عليه سعياً على صراط الله أشاحوا بوجوههم، فإن ضايقته قال لك: الإسلام ليس إلا هذا!!؟ حدثني عن المذاهب الاقتصادية، حدثني عن الرجل العربي الذي يعاني اليوم من سغب كيف السبيل الإسلامي إلى أن نشبعه؟ حدثني عن الإسلام الذي يخلص هذه الأمة من التخلف الذي ران عليها، حدثني عن الإسلام الذي يستعيد حقوق هذه الأمة يستعيد أرضها.

لا يريد أن تذكره بالسجود والركوع، لا يريد أن تذكره باللجوء إلى أعتاب الله، لا يريد أن تذكره بالاصطباغ بالعبودية لله. يريد منك أن تقول له: ماذا يمكن للإسلام أن يقدم له، أرضي مسلوبة وأريد من الإسلام أن يستعيد أرضي، أنا متخلف أريد من الإسلام أن يبين لي كيف أتخلص من التخلف، أنا جائع أمتي جائعة أريد أن يبين لي الإسلام كيف يمكن أن أملئ بطون الجائعين.

هذا هو منطق المسلمين التقليديين عندنا، وذلك هو سلوك المسلمين في الغرب، أولئك الذين كانوا إلى الأمس القريب شاردين بعيدين يسبحون في بحار من اللهو الذي لا حد له.

عندما يكون المسلمون اليوم هنا كأولئك المسلمين هناك، أقطع لكم وأجزم أن الإسلام سيشبع الجائعين عندئذ، بأن الإسلام سيعتق المتخلفين من تخلفهم، بأن الإسلام سيعيد الحقوق المنهوبة لأصحابها، أجل لكن أخلص للإسلام يخلص لك الإسلام.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

٢١٢- دواء المصائب الذي أعرض عنه المسلمون | ١٩٩٨/٠٣/١٣

لا شك أن المصائب التي تطوف بالمسلمين اليوم كثيرة ومتنوعة، ولكن ما من مصيبةٍ يبتلي الله سبحانه وتعالى بها عبداً له أو عباده إلا وإلى جانبها الدواء الذي يُنجي الإنسان من هذه المصيبة أو من وقعها الأليم. وكما أن القاعدة كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿ما أنزل الله داءً إلى وأنزل لهُ دواءً إلا السام أي الموت﴾، فكذلكم الأمر بالنسبة للمصائب. ما من مصيبة يبتلي الله عز وجل عباده إلا وفتح أمامهم نافذةً للتخلص من هذه المصيبة إن هم رأوا هذه النافذة واستعملوها كما أمر الله سبحانه وتعالى.

والمسلمون على مر العصور كانوا ولا يزالون دائماً يلاحَقون بالمصائب، وتلك هي سنة الله سبحانه وتعالى في عباده، وذلك هو قانونه الذي يمضي في كون الله سبحانه وتعالى كما نقرأ في كتاب الله عز وجل، ولكن المصيبة الكبرى التي يعاني منها المسلمون اليوم، أنهم يرون المصائب أمامهم ولا يلتفتون إلى الدواء الناجع، الذي وضعه الله سبحانه وتعالى بين أيديهم، وهنالك علاجات وأدوية كثيرة، ولكننا معرضون عن أهم هذه الأدوية وهذه العلاجات.

أنا لا أتحدث عن الأدوية الشكلية والمادية التي نستوي نحن والجاحدون وأعداء الدين فيها، نحن نلجئ إليها كما يلجؤون ونستعملها ربما كما يستعملون، ولكن الله عز وجل خصص المسلمين بدواءٍ ناجع آخر لا يوجد نظيره عند أعداء الله سبحانه وتعالى، هذا الدواء نحن في شغلٍ شاغل عنه، إلا قلةً مما رحمها الله سبحانه وتعالى. فهل علمتم ما هو هذا الدواء الذي هو أول علاجٍ إن استعمل ضد المصائب ذاب وقع هذه المصائب، وغاب عظيم تأثيرها عن المسلمين، ولم تستطع هذه المصائب أن تفعل فعلها المسيء في حياتهم قط؟ هل تعلمون ما هو هذا الدواء؟

هو اللجوء إلى الله عز وجل بالدعاء، الدعاء الذي جمع آدابه والذي توفرت له شرائطه وضرورياته، هذا الدواء الذي يقف على رأس قائمة العلاجات التي تقي الإنسان من المصائب وشرورها ونتائجها. المسلمون اليوم إلا من رحم الله وقليلٌ هم في شغلٍ شاغل عن استعمال هذا الدواء.

نحن نتحرك كما يتحرك أعداء الله عز وجل الذين يحيطون بنا من كل حدبٍ وصوب، نتحرك كما يتحركون ونستعمل العلاجات التي يستعملونها مع فارق ما بيننا وبينهم في تلك القدرات المادية، أما ما خصنا الله عز وجل به مما لا يوجد نظيره عندهم فنحن في شغلٍ شاغل عن ذلك نهائياً.

أيها الإخوة ينبغي أن تلاحظوا سنةً أقام الله عز وجل عليها جميعاً حتى الرسل والأنبياء، ما هي هذه السنّة؟

هي أن الله عز وجل جعل قدرات عباده محدودة؛ تقف عند حدٍ لا تتجاوزه قط، ولكن الله عز وجل جعل طموحات عباده واسعةً جداً، جعل قدرات الناس محدودة بحيث تتغلب سمة الضعف على الإنسان دائماً، في حين أن الله عز وجل جعل طموحات الإنسان طموحات واسعة اتساع الكون كله ربما. فالإنسان إذا حاول أن ينسق بين قدراته المحدودة الضعيفة وطموحاته العالية جداً يشعر بالتخاذل، ويشعر بخيبة الأمل.

ما الحكمة؟ الحكمة أن تنقدح هنا بين جوانحه مشاعر الحاجة إلى الله، أن يشعر بأنه بأمس الحاجة أن يمد يده إلى الله عز وجل، لأن طموحاته عالية جداً، فإذا التجئ إلى قوته رآها ضعيفة جداً ماذا يصنع؟ الحكمة هنا تكمن في هذا المعنى، إذا بحث وبحث الإنسان إضطرته هذه الحالة إلى أن يلتجئ إلى الله. وهذا معنى قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ، لم يقل اتجهوا إلى الله لم يقل سيروا على أوامر الله ولكن قال: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾. ومعنى ذلك أن الله عز وجل يأمرنا أن نهرب من شيء نخافه، يأمرنا أن نهرب من شيءٍ يلاحقنا، ما هو هذا الشيء؟

هذا التناقض بين الضعف الذي رُكب في كياننا وبين الطموح العالي الذي أغدقه الله سبحانه وتعالى علينا، فالله عز وجل يقول: يا ابن آدم عندما تجد نفسك وقد كدت تقع في خيبة أمل بسبب ضعف قوتك أمام عظيم طموحاتك، التجئ من هذه الحالة إلى الله، فرّ من وضعك الذي تعاني منه كي لا تقع في خيبة أمل فرّ إلى الله سبحانه وتعالى.

كيف الفرار إلى الله؟ كيف يكون الفرار إلى الله؟ وأنا لا أتحدث عن الواجبات المتكررة التي يؤديها المسلم من صلاةٍ وصيامٍ وحجٍ وزكاةٍ ونحو ذلك، وليس هذا هو المعنى المراد، وإنما المعنى فرّ إلى الله عز

وجل بالدعاء الواجف بين يديه بالضراعة، بأن ترفع يديك إلى الله سبحانه وتعالى تلوذ من ضعفك بقوته، تستجير من المصائب التي تطوف بك، برحمة ربك سبحانه وتعالى وكرمه، ولكن لا بد من أن تطرق باب الكريم، لا بد من أن تدعوه. هذا المعنى الذي هو لباب الإسلام والذي هو العمود الفقري لمعنى عبودية الإنسان لله، معنى يكاد يكون غائباً عن حياة المسلمين اليوم لا سيما الذين يمارسون أعمال القيادة فيهم، لا سيما الذين ينهجون منهج التخطيط الدعوي في حياتهم، يتحركون على كل المستويات ويعالجون مصائبهم بكل الوسائل المادية كما يعالج أعدائنا مصائبهم. حتى إذا نظرنا إلى باب الالتجاء إلى الله رأينا المدخل إليه فارغاً ولرأينا الطريق إليه ليس فيه أحد إلا من رحم ربك كما قد قلت لكم.

أيها الإخوة أما تقرأون كتاب الله!؟ أما تدبرون ما قد تقرأون في كتاب الله عز وجل؟! انظروا كيف يحدثنا كتاب الله عن الصفوة الكبرى من عباده وهم الرسل والأنبياء المؤيدون بنصر الله، المؤيدون بقوةٍ من عند الله سبحانه وتعالى، عندما يحدثنا بيان الله عنهم تنظر فتجد جامعاً مشتركاً بينهم كلهم، ما هو هذا الجامع المشترك؟ الالتجاء الدائم إلى الله، الدعاء الضارع بين يدي الله عز وجل، وأنت عندما تقرأ ما يرويه بيان الله عز وجل من أدعية هؤلاء الرسل والأنبياء ليخيل إليك أنهم قد عصوا الله معصيةً كبرى أو أنهم ارتكبوا أمراً شنيعاً اقتضاهم أن يدعوا هذا الدعاء الضارع الواجف مع ما نعلم من نقيض هذا تماماً، فهم إنما جعلهم الله عز وجل خيرة الناس في عباده، وهم المصطفون الأخيار، وهم المعصومون من كل الذنوب. . . ومع ذلك فهم دائماً يلجؤون من الشدائد التي تطوف بهم إلى هذا الدواء قبل كل دواء، ألا وهو الالتجاء إلى الله.

ألم تقرأوا دعاء سيدنا ابراهيم: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ، وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ، وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ، وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ، وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ، يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ، إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.

ألم تقرأوا دعاء سيدنا نوح في سورة نوح، وكل هذه السورة رواية لدعائه، انظروا إلى دعائه وتخيلوه وهو يتجلبب بأدنى وأدق معاني الذل والصغار لله سبحانه وتعالى، وانظروا إلى قول الله عز وجل معلِّقاً على دعائه هذا: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾، انظروا إلى الدواء وانظروا إلى استعمال نوحٍ له، انظروا إلى الداء وانظروا إلى دواء الدعاء: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾. ألم تقرأوا قول الله سبحانه

وتعالى في مكانٍ آخر: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾، إلام فر سيدنا نوح عندما وقعت به هذه المصيبة؟ ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ، فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ، وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾.

ألم تقرأوا دعاء سيدنا أيوب عندما حدثنا ربنا عن المصيبة التي طافت به؟

ألم تقرأوا دعاء ذي النون: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

ألم تقرأوا دعاء سيدنا زكريا؟

ألم تقرأوا قصص الرسل والأنبياء في القرآن وتقفوا على أول دواءٍ استعملوه للوقوف في وجه المصائب التي كانت تطوف بهم؟ إنه الدعاء.

أين نحن أيها الإخوة من استعمال هذا الدعاء؟ لكأننا ونحن ننظر إلى فرق ما بيننا وبين أولئك الرسل والأنبياء لكأن الخيال يرينا الواقع التالي: أولئك الرسل والأنبياء مغموسون بكثيرٍ من المعاصي والأوزار والتقصيرات في جنب الله ولذلك يدعونه ويتضرعون، أما نحن فملائكةٌ مقربون، لم نعص الله ولم نسئ إلى أنفسنا ولم نشرد عن صراط الله عز وجل شروى نقير فلماذا ندعو؟ وهل هذا التخيل صحيحٌ أيها الإخوة!؟ الواقع تماماً هو الصحيح.

النتيجة التي ينبغي أن نصل إليها من هذا الكلام هي أن المصائب التي تحتوشنا وتطوف بنا ما عظّم من شأنها أنها خطيرة وعظيمة، ولكن الذي عظّم من شأنها ومن خطورتها إدبارنا عن الله عز وجل وعدم التجائنا إلى الله باستعمال هذا الدعاء. هذا هو الذي جعل هذه المصائب خطيرةً تبدو أمام أبصارنا، لا العدو الذي يقبل إلينا من الغرب متمثلاً في أمريكا ومن معها، ولا الذي يقبل إلينا من الشرق، ولا الذي يتفجر في داخل بلادنا، كل هذه المصائب لا قيمة لها، ولكن الذي جسدها وعظمها هو أن يبدو وكأن الكبر حال بيننا وبين أن نلتجئ إلى الله عز وجل بمسكنة وضراعةٍ ندعو الله سبحانه وتعالى كما كان يدعو أولئك الرسل والأنبياء.

تأملوا. . تأملوا في حال المسلمين ولا تستثنوا القادة فيهم، ولا تستثنوا الدعاة بينهم إلى الله عز وجل والحركيين فيهم، لا تستثنوا أحداً، أروني كم هم الذين يلتجؤون إلى الله عز وجل في ظلمات الليالي ركعاً وسجداً وقد تضائلوا وقد تجلببوا بجلباب الصغار بين يدي الله يدعونه بصدق وبمشاعر وقلوب منكسرة كم هم؟ إنهم لقلة إن لم أقل إنهم معدومون. والله عز وجل يستجيب.

﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ هو الله سبحانه وتعالى، وكم وكم دعا من قبلنا ممن ابتلوا بشرٍ من المصائب التي ابتلينا نحن بها فاستجاب الله لهم.

كلكم سمع بمحمد الفاتح الذي فتح الله على يديه القسطنطينية فماذا كان سلاحه؟ لم يكن سلاحه تلك التقنية التي يفتخر بها الغرب اليوم على أنه كان يستعملها، لم يكن سلاحه الاعتماد على جنودٍ كثر على أنه كان له هذه الجنود، ولكن اعتماده الأول على هذا الدعاء الواجف على هذه الضراعة، كانت غرفة عملياته محراب دعاءٍ وبكاء كان يدعو الله سبحانه وتعالى من أول الليل إلى آخره، وقد عفّر وجهه بتراب الأرض يدعو الله سبحانه وتعالى أن يستجيب دعاءه وأن يحقق رجاءه وأن يفتح على يديه وأن ينصر الإسلام بهؤلاء الجنود. بهذا نصره الله عز وجل.

أما المسلمون اليوم فلا أكاد أجد فيهم من يرفع يديه في ساعة خالية بينه وبين الله للدعاء، بل لقد قلت لكم قبل أسبوعين: كنت أدعو الله عز وجل وكنتم تؤمنون وأنظر فأجد أناساً من أصحاب اللحى يسمعون الدعاء ولا تتحرك منهم مشاعر، لا ترتفع أيديهم إلى الله سبحانه وتعالى بدعاء على الرغم من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم التي تؤكد أن الله يستحي أن يرد يداً امتدت إليه بالدعاء أن يردها خائبة.

أسأل الله عز وجل أن ينبهنا إلى هذا الدواء الذي لا دواء من قبله ولا من بعده إن تركناه يُصلح أحوالنا.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم

٢١٣- لهذا تدور رحى الهلاك على مسلمي (بورما) اليوم | ١٩٩٩/٠٤/٠٢

لو علم الله سبحانه وتعالى أن القوانين التي يحكم الناس بعضهم بعضاً بواسطتها وسيلةٌ لإصلاحهم ولإسعادهم ولتنسيق علاقة فيما بينهم، إذاً لوكلهم الله سبحانه وتعالى إلى تلك القوانين ولكلفهم أن يبحثوا عن سعادتهم في الركون إليها وفي الاعتماد عليها. ولكنه عز وجل – وهو الحكيم الخبير – علم أن الناس إن وكلوا إلى الأنظمة التي يبتدعونها من عند أنفسهم وإن أحيلوا إلى الشرائع والقوانين التي يحكمون بها أنفسهم ويختلقونها ويخترعونها من عند أنفسهم، فإنها ستكون سبباً لهيمنة القوي على الضعيف، ولسوف تكون سبباً لاستعباد القوي الضعيف، ولسوف يكون مجالاً للتهارج وللفتن وللشقاء الذي لا علاج له.

ومن هنا كان لابد أن يتدارك الله سبحانه وتعالى الناس برحمته؛ فيكلفهم بأن يخضعوا لنظامه وأن يستسلموا لشرعته وأن يقفوا جميعاً على بابه، فقال عز من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ وقال سبحانه: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ، يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ هكذا يقول الله سبحانه وتعالى.

ولقد كان من الممكن أن لا يكلفهم بالرجوع إلى شرعته ولا بالاحتكام إلى نظامه لو أن قوانين البشر تسعدهم، ولو أن الناس كانوا من دون رقابة الله سبحانه وتعالى يمارسون العدالة ويراقبون سيرها بدقة فيما بينهم، ولكن الله علم أن هذه الخليقة إن وكلت إلى نفسها لا بد أن يستشري فيها الظلم، ولا بد أن يذهب الضعيف ضحية قوة القوي وغناه. ومن هنا كان اللطف الإلهي متجسداً في هذه الشريعة التي أنزلها علينا، وفي عقيدة العبودية لله عز وجل التي أخذ عباده بها. ومن أراد أن يشك فيما نقول ومن داخلته الريبة في هذه الحقيقة فلينظر إلى التاريخ القصير الماضي ولينظر إلى الوقائع التي يراها من حوله اليوم.

ها هم أكثر الناس قد ابتعدوا عن شرعة الله، واستبدلوا بها أنظمتهم، واستبدلوا بها قوانينهم، وزعموا أنهم قادرون على أن يستغنوا من رقابة الله برقابة القوانين، وزعموا أنهم قادرون على أن يتحرروا من شرائع

الله سبحانه وتعالى بالرجوع إلى ما يسمى بحقوق الإنسان، وزعموا أن لهم بما يسمى بالمنظمات العالمية كهيئة الأمم وغيرها ما يغنيهم عن رقابة الله الحي القيوم. فماذا كانت النتيجة؟ هل أفادت هذه القوانين كلها؟ هل أنصفت هذه الأنظمة الضعيف من القوي؟ هل قام من منظمة حقوق الإنسان وموادها ما ضرب على يدي الظالم وجعل المظلوم في حصنٍ حصين من أجل أن يرعى حقوقه في حياته التي يعيش فيها؟

كل ذلك لم يتحقق شيءٌ منه بل الذي تحقق هو نقيض ذلك كما ترون.

ها أنتم ترون أيها الإخوة ما لا تصدقه الأعين على الرغم من أنها تحدق فترى، وها أنتم تسمعون ما لا تكاد الآذان تصدقه على الرغم من أنكم تسمعون، وها أنتم ترون شيئاً لو وضع في ميزان المشاعر الإنسانية لقلنا إنه لا يمكن للمشاعر الإنسانية أن تتعايش مع مثل هذا النوع من الوحشية التي تقشعر لها مشاعر المخلوقات أجمع. والقوانين موجودة والأنظمة موجودة وما يسمى بحقوق الإنسان موجود فما السر في ذلك؟

السر في ذلك أن الناس كأولاد في أسرة إن انبتت عنهم رقابة الأبوين عادت علاقة ما بينهم إلى هرج ومرج، لا يصلح الأسرة إلا رب الأسرة، والأسرة الإنسانية كهذه الأسرة الصغيرة لا يمكن أن يقف أفراد هذه الأسرة تحت مظلةٍ واقية من العدالة إلا برقابة قيوم السماوات والأرض، ابتعدت هذه الأسرة عن رقابة قيومها وشردت عن نظام الله إلى ما يسمى بنظام الإنسان فكانت النتيجة هذا الذي ترون. استبد القوي ورأى أنه يملك أن يفعل ما يشاء في سبيل مصالحه وهو لا يؤمن إلا بمصالحه ولا يعبد إلا ذاته ومصالحه، فما الذي يمنعه من أن يذبح الملايين؟

ما الذي يمنعه من أن يجرد عشرات الآلاف من هوياتهم ومن ارتباطهم بأوطانهم وإذا بهم بين عشيةٍ وضحاها ليست لهم نسبٌ إلى أرض وليست لهم هوية تنتمي إلى دولة؟ ما الذي يمنعهم ما دامت رقابة الله ابتعدت وما دام القوي يملك أن يفعل ما يشاء دون أن يقول له قائلٌ؟

أجل.. ها أنتم ترون الدول العظمى التي تتحدث عن حقوق الإنسان والتي تلوح بما يسمى النظام العالمي الجديد وما إلى ذلك. ها أنتم ترون كيف تجعل من ذلك كله غطاءً لأشرس أنواع البغي، لأشرس أنواع الوحشية والهمجية التي لا يمكن أن تروا نظير لها في التاريخ أبداً .

والمسلمون اليوم الذين يملؤون رحب هذا العالم، لهم منظماتهم الشكلية، لهم ما يسمى منظمة المؤتمر الإسلامي، لهم ما يسمى بجامعة الدول العربية، لهم القادة المسلمون الذين يتكلمون بين الحين والآخر ويلوحون بالمشاعر ولا أحد يُلقي لهم بالاً، ولا يوجد من يضع لهم ميزاناً ولا يوجد أمام الوقائع في العالم من يضعهم إلا في خانة الصفر على أقصى اليسار. هذا هو الواقع. هل كان المسلمون هكذا؟

لقد كان واقع المسلمين بالأمس الدابر على النقيض من هذا تماماً، كانت خشية العالم من المسلمين، وكانت الهيبة في صدور العالم اتجاه الدولة الإسلامية، وكانت الدولة العظمى التي يحسب لها كل حساب هي الدولة الإسلامية، وكانت الدولة الإسلامية ترعى من خلال سياستها حق الله سبحانه وتعالى، فكانت خير أمين على رعاية حقوق الناس. هكذا كانت تلك الدولة.

فما الذي جعلها مهابة في أعين العالم؟ وما الذي جعلها اليوم هينة في تلك الأعين؟ ما الذي جعلها تقود وهي اليوم تُقاد بذلٍ وهوان؟

شيءٌ واحد، كانت الدولة الإسلامية بل كانت الأمة الإسلامية آنذاك تدور على محور إسلامها، تدور على محور إيمانها، كانت علاقتها بإسلامها علاقة الجندي بالقائد، ولم تكن علاقة إنسان يعرف شعار كاذباً يلوح به ولا معنى له، كانت تلك الأمة تتعامل مع دينها بحق، وكانت أمينة على عقائدها عبوديةً لله، وعلى شرائعها خضوعاً لنظام الله سبحانه وتعالى، ومن هنا ألف الإسلام بين أشتات تلك الأمة، ومن هنا كان لابد لهذا الإسلام أن يجمع أفراد تلك الأمة، فكان أولئك الناس بفضل تمسكهم الحقيقي بهذا الإسلام أمة واحدة حقيقة وكانوا مثالاً ناصعاً لقول الله عز وجل: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ .

فلما وحدهم الإسلام عزوا في أعين الآخرين، ولما وحدهم الإسلام قواهم الله عز وجل أمام الآخرين، ولما وحدهم الإسلام أغناهم الإسلام أمام الآخرين، واستعملوا عزتهم وقوتهم وغناهم في مراقبة الله عز

وجل وفي رعاية حقوق الإنسان فعلاً، ولذلك كانوا مثال الدفاع عن الإنسانية في مشارق الأرض ومغاربها. أما اليوم فقد ودّعوا إسلامهم حقيقةً واستبدلوا به شعارات ميتة. هذا هو باختصار واقع المسلمين اليوم. أسماؤهم لا تزال تلتمع في الآفاق مسلمون، ومشاعرهم وعقائدهم وأحلامهم وأمانيهم فارغة عن الإسلام متجهة إلى جهات أخرى مختلفة وأرضية شتى. فما الذي يجمعهم وقد اختفى الإسلام الجامع؟ ما الذي يغنيهم وقد كان غناهم عن طريق الإسلام؟ ما الذي يعزهم وقد كان مصدر عزتهم الإسلام؟

لا يمكن أن يعزوا بعد أن نفضوا أيديهم من الإسلام إطلاقاً، ولا يمكن أن يجدوا بعد ذلك إلا الذل. لا يمكن أن يتحدوا بعد أن وحدهم الإسلام وقد نفضوا اليوم أيديهم من الإسلام. ما الذي يوحدهم بعد أن غاب الإسلام الذي كان هو محور توحيدهم؟

الشعارات لا تحقق شيئاً، الكلمات البراقة لا تفعل شيئاً، الذي يفعل هو الاعتقاد، والذي يفعل هو اليقين، الحافز إلى السلوك... وكل ذلك غاب. ومن هنا فإن رحى الهلاك تدور كما نرى وكما نسمع على الآلاف المؤلفة من إخوة لنا.

أين هم الذين يتكلمون؟ وأين هم الذين يستنكرون؟ وأين هم الذين يلوحون بعصا تأديب الأوغاد الذين هم مثال الهمجية في العالم المتحضر؟ لا يوجد أحد. لماذا؟ لأن اليد التي ستهتز بالتأديب لن يحركها إلا قوة الإسلام والإسلام غائب والشعارات الإسلامية لا تفعل شيئاً.

أيها الإخوة كلمات قالها قائدٌ من أبرز قادة العالم العربي اليوم قبل أيام وقفت عندها قال: كان شعار هذه الأمة الوحدة العربية، ثم تراجع هذا الشعار فأصبح شعارها التضامن العربي، ثم إن هذا الشعار أيضاً تراجع وأصبح شعارها التعاون العربي. أفيجوز السكوت على واقع مخزٍ بهذا الشكل؟ هذا ما قاله هذا القائد العربي الذي يمتاز عن كثير من قادة العرب اليوم.

وأنا أقول: إن هذا الكلام صحيح، ولكن ينقصه بيان السبب، لماذا كان شعار هذه الأمة بالأمس الوحدة العربية، ثم تراجع ثم تراجع فتراجع؟ السبب هو أن هذه الأمة لم تكن من قبل ترفع شعاراً أبداً، كانت تفعل ولا تعتز بشعارات مكتوبة، كانت هذه الأمة أمة واحدة، وكان طوق الخلافة خير ترجمان لوحدتها التي ينشدها كثيرٌ من الناس اليوم، على الرغم من ضعفها لم يكن العدو يستطيع أن يفعل شيئاً

مع وجودها، فلما انهارت تلك الخلافة بفعل أعداء هذه الأمة وفي مقدمتهم الصهيونية العالمية كما تعلمون، وغابت الوحدة الإسلامية عندما تحطم طوق الخلافة الإسلامية، استبدل المسلمون والعرب بتلك الخلافة الشعار الذي رفعوه، (الوحدة العربية). هذا الشعار جاء بديلاً عن واقع الوحدة المتمثل بالخلافة.

ولما كانت الوحدة لا يمكن أن تتحقق بدون محور جامع، ولما كان المحور الجامع الذي يجمع أشتات المسلمين الذي هو الإسلام وقد غابت فعالية الإسلام، فقد بقي الشعار ميتماً على الرغم من ارتفاعه، ظل شعار الوحدة العربية مرفوعاً لكنه ظل شعاراً يتيماً يستعصي على التطبيق، لأنه لا يوجد محورٌ يجمع، وقام من جرّب محاور أخرى، لعل القومية تجمع لعل الواقع التاريخي يجمع لعل اللغة تجمع، لم ينب عن الإسلام أي جامعٍ آخر بعد أن غابت فعالية الإسلام.

كان لابد أن يتراجع هذا الشعار بعد ذلك، ذلك لأن الأعداء الذين تربصوا بالخلافة وحطموا طوقها لم يقفوا عند ذلك الحد، عمدوا إلى كتل هذه الأمة الإسلامية فقسموها إلى أجزاء، وعمدوا إلى الأجزاء فقسموها أيضاً إلى نثار، وعمدوا إلى هذه النثار فأثاروا فيما بينها الخصام، ومن ثم كان لابد أن يتراجع شعار الوحدة الإسلامية أو العربية ليتحول إلى شعار تضامن عربي، ونظرنا وإذا بنا نجد أنه لابد أن يتحول شعار التضامن أيضاً إلى أقل من ذلك نقتنع به ألا وهو شعار التعاون، شعارٌ امتداد الأيدي بشيء من التعاون بين العرب الذين كانوا يوماً ما مثال العزة ومثال الهيبة بين العالم.

ألا هل آن لأشتات المسلمين اليوم أن يعلموا أن معين عزهم إنما يكمن في الإسلام؟ هل آن لهم أن يعلموا أن معين غناهم لا يمكن لا يمكن أن يتفجر إلا من خلال عودٍ صادقٍ راشدٍ إلى الإسلام؟ ألا هل آن لهم أن يعلموا أن الشبكة التي تعيدهم إلى ألق الوحدة، لا يمكن أن تتمثل إلا في الإسلام.

أسأل الله عز وجل أن يوقظ هذه الأمة إلى معرفة هذا الحق فاستغفروه يغفر لكم.

٢١٤- موقف الإسلام من المخترعات الحديثة | ٢٠٠٠/٠٣/٢٤

يقول الله عز وجل في آية جامعة من كتابه العزيز: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾.

تدل هذه الآية بمعناها الواسع الشامل الجامع على أن الله سبحانه وتعالى ما خلق شيئاً مما نراه في ظاهر الأرض أو من ما هو مكنون في باطنها أو مما يتنزل من السموات العلى، إلا وقد خُلق لمصلحة الإنسان، واللام في قوله تعالى: لكم؛ للدلالة على هذا المعنى، كل شيءٍ مما ترونه ومما لا ترونه، مما قد خلقه الله عز وجل إنما خُلق لمصلحة الإنسان.

ومعنى هذا أنه لا يوجد في مخلوقات الله سبحانه وتعالى ما هو فاسد غير صالح، ولكن الإنسان:

إما أن يستعمل هذا الذي خلقه الله سبحانه وتعالى من الوجهة الصالحة والمصلحة، فيكون هذا هو الإنسان الذي يعمل الصالحات، وهو الإنسان المصلح.

وإما أن يستعمل هذا الذي خلقه الله عز وجل من وجهه المفسد الذي لم يأذن به الله عز وجل، فيكون الإنسان بتصرفه هذا هو الفاسد والمفسد.

الأموال التي خلقها الله سبحانه وتعالى - أياً كانت أنواعها - مادةٌ من أهم المواد التي خلقها الله عز وجل لصالح الإنسان، ولكن الإنسان إما أن يستعمل هذه الأموال كما شرعها الله، وإذا هي سلمٌ لمصالح الناس؛ أفراداً وجماعات. وإما أن يستعمل المال من الجوانب التي نهى الله سبحانه وتعالى عنها؛ يجعل من المال مادة للميسر، يجعل من المال مادةً للربا والمراباة، يجعل من المال أساساً للغش والخديعة، لم يأت الفساد من المال وإنما جاء الفساد من هذا التصرف الأرعن.

الأطعمة التي خلقها الله سبحانه وتعالى، كل ذلك مفيد وكل ذلك لمصلحة الإنسان، ولكن الإنسان الصالح الذي وعى مهمته ووظيفته في هذه الحياة الدنيا، وعلم أنه عبد مملوك لله عز وجل يتجه بهذه الأطعمة إلى ما يفيده ويبعدها عما قد يضره، وإذا هو من المصلحين والصالحين في هذه الحياة الدنيا.

وإما أن يتوجه بها إلى الجوانب التي حذر منها الله سبحانه وتعالى، وإذا هو من المفسدين والفاسدين في هذه الحياة الدنيا.

كل الأعناب والثمار المتنوعة والمختلفة خلقها الله عز وجل لمصلحة الإنسان ولفائدته، ولكن في الناس من أبوا إلا أن يعتصروا من الأعناب سكراً، من الناس من أبوا إلا أن يوجهوا كثيراً من هذه الأطعمة إلى ما يفسد ولا يصلح، إلى ما يسيء بدلاً من أن يمتع الناس بالعافية والصحة.

إذاً فالإنسان هو الذي يفسد ما قد أصلحه الله سبحانه وتعالى، ولا يوجد في مخلوقات الله عز وجل إلا ما قد خلقه الله وهيأه لمصلحة الإنسان. وهذا هو معنى قوله عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾، لكم، ولا يكون هذا الشيء مخلوق لنا إلا إذا كان صالحاً للفرد صالحاً للمجتمع.

المخترعات الحديثة المعادن المبثوثة في باطن الأرض، أو المتفجرة على ظاهرها، كل ما كان مجهولاً وعرفه الإنسان اليوم، كل ذلك مخلوق أبدعه الله عز وجل وهيأه لخدمة الإنسان.

العلم أيها الإخوة لا يوجد شيئاً معدوماً كما قد قلت مراراً، وإنما العلم يكتشف الذخر الذي أوجده الله سبحانه وتعالى، وعلى العلماء الذين اكتشفوا أن يوجهوا هذا الذي اكتشفوه للمصالح التي خلق الله سبحانه وتعالى هذه الأمور المكتشفة من أجلها. وهذا هو معنى الحديث الصحيح الذي يقول فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر»، أي لا يسبن أحد شيئاً يراه في هذه الحياة الدنيا غير صالح، فيمضي يسب الحياة أو يسب الدهر، لا لا تظلم الحقيقة، الله عز وجل هو الذي خلق هذا البنيان الكوني بكل ما فيه، وإذا نظرت إلى هذا البنيان في جملته وتفصيله، لن تجد فيه إلا ما هو خير، ولن تجد فيه إلا ما هو صالح للإنسان، ويدور سعياً على خدمة الإنسان، ولكن الإنسان من شأنه أن يفسد، الإنسان إذا لم يمارس عبوديته لله عز وجل ولم يعلم وظيفته في هذه الحياة الدنيا من شأنه أن يفسد، ومن ثم يعمد إلى ما هو صالح مما خلقه الله وأبدعه يوجهه ويدفعه إلى السوء والإفساد.

يقول الله عز وجل: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾. ولكن الإنسان الذي يتجه إلى هذا الذي أكرم الله الإنسان به إما أن يكون صالحاً مصلحاً وهو العبد الذي عرف وظيفته في هذه الحياة الدنيا. وإما أن يكون فاسداً مفسداً وهو الذي سار وراء

مقتضيات رعونته في هذه الحياة الدنيا. أما هذا الذي خلقه الله عز وجل فهو مخلوق لمصلحة الإنسان، أجل .. ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾.

هذه المخترعات الحديثة، شبكة الاتصالات هذه والمعلومات أو المعلوماتية كما يقولون، ليس في شيء من ذلك ما يسمى فاسداً أو مفسداً، بل الإنسان لم يوجد شيئاً من ذلك اليوم، بل اكتشف ما كان موجوداً بخلق من الله وتدبير عندما خلق هذا الكون، والإنسان بعد أن وضعت بين يديه هذه الأمانة إما أن يقف أمام مرآة هويته فيعلم أنه عبد لله عز وجل ويتذكر قول الله سبحانه: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾، تذكر أن وظيفته التي أقامه الله فوق هذه الأرض بالاستعانة مع إخوانه أن يعمر هذا الكوكب الأرضي، العمران المنبئ عن وحدانية الله، العمران المنبئ عن صفات الله عز وجل، وبهذا ينجز الخلافة التي أقام الله سبحانه وتعالى الإنسان لتحقيقها فوق هذه الأرض، يتجه إلى هذه الشبكة ليجعلها خادماً لسلطان الله، ليجعلها خادماً لأوامر الله عز وجل، ليجعلها إنساناً ناطقاً بستبيح الله سبحانه وتعالى وصفات الله عز وجل، ليجعلها جنداً في طريق الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى.

يقول ربنا عز وجل: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾، كل شيء يسبح بحمد الله، أي كل شيء مفيد، وكل شيء خاضع لسلطان الله منبئ عن وحدانية الله. متحدثٌ بلغته عن صفات الله سبحانه وتعالى وحكمته ووحدانيته، والمطلوب منك أن تعي لغة هذا الشيء في تعاملك معه.

نحن اليوم أيها الإخوة نشاهد الدنيا وهي تفور بما نظنه كان معدوماً بالأمس ووجد اليوم، ولعل في هذا ما يفتن بعض عقول السذج من الناس، فلتعلموا أنه ليس في هذا الكون شيء كان معدوماً ثم وجد، ومن تصور ذلك فهو جاهل بالعلوم كلها، كل ما تبينه الإنسان اليوم مما لم يكن يعرفه بالأمس كان موجوداً، ولكنه كان محجوباً عنه، فهذه حقيقة يقتضي أن نعرفها.

الأمر الثاني: هو أن علينا أن نسابق أصحاب الرعونات في هذه الحياة الدنيا، وأن نقطع عليهم الطريق إلى هذه الأمور التي أنعم الله عز وجل على الإنسانية بها، إلى هذا الذي أجمله الله عز وجل بقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾، ينبغي أن نغلق الطريق على أصحاب الرعونات، فنستبق

إلى هذه النعم التي تفجرت من باطن الأرض أو ظهرت على وجهها أو تنزلت من علياء السماء أو لاحت لنا بعد أن كانت خفية، ينبغي أن نستبق إليها ونجعل منها جنداً لأداء المهام التي كلفنا الله سبحانه وتعالى بها.

أجل .. هذه الأقنية الفضائية المختلفة كم وكم سمعت من يتكلم ويقول ويظهر التأفف منها، وليت أن هذا التأفف الذي يتجلى في أفواه وحلوق كثير من الناس، ليت أنه ترجم سلوكاً، ليت أنه ترجم عملاً، ليت أن هؤلاء المتأففين أدركوا معنى قول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ لماذا تتأفف؟ لماذا تسب الدهر، وقد قال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تسبوا الدهر فالله هو الدهر»، هذه الأقنية جند هيأها الله سبحانه وتعالى لعباده المسلمين، والمصيبة لا تكمن فيها، وإنما تكمن في كسل هؤلاء المسلمين وخمولهم، المصيبة تكمن في أن هؤلاء المسلمين يتقلبون في نوم ولا كنوم أصحاب الكهف، في حين أن أصحاب الرعونات سابقوهم فسبقوهم إلى هذه المفاتيح التي ألقاه الله سبحانه وتعالى بين أيدينا لتستخدم في الخير.

انظر إلى فجاج الحياة كلها، لن تجد في الدنيا فساداً لا وجه لصلاح فيه، حتى السم الناقع الذي يضرب به المثل خلقه الله لمصلحة الإنسان، السم إذا تمدد أو مدد دواء وأي دواء، المواد المخدرة خلقها الله عز وجل لمصلحة الإنسان ليرعى من خلالها مصلحته طبق قانون طبق نظام طبق ضوابط، ولكن الإنسان برعوناته ينكس نظام الله سبحانه وتعالى؛ يحول ما هيأ لمصلحة الإنسان إلى ما يأتي بالفساد وبالشر للإنسان، والمصدر في ذلك رعونة الإنسان.

عندما يصبح المسلمون في هذا العصر صادقين مع الله، مخلصين في دينهم لله، لا بد أن يتضامنوا ويتحدوا، فتلك هي الخطوة الأولى، وإذا تضامنوا واتحدوا لابد أن يفجر الله سبحانه وتعالى في كياناتهم القوة التي كانت مضرب المثل للعالم كله بالأمس، وإذا تفجرت في حياتهم هذه القوة فإن الله يوفقهم ليستعملوا قوتهم هذه بعد تضامنهم واتحادهم في اخضاع كل المخترعات، في اخضاع كل بديع مما لم نكن نعرفه وعرفناه اليوم، ليكون جنداً على طريق الانتصار لدين الله سبحانه وتعالى، فأما إن كان المسلمون باقين على هذا النحو، نائمين فوق أسرة كسلهم، يتقلبون يميناً وشمالاً لا يعرفون إلا مزيداً من التفكك والخصام، لا يعرفون إلا مزيداً من الشقاق والرعونات بدافع من العصبيات والأهواء، فلسوف

يزدادون بعد ضعفهم ضعفاً، ولسوف تكون هذه النعم وهذه المخترعات والمكتشافات القديمة في وجودها والحديثة في ظهورها، لسوف يكون ذلك كله أداة بيد السابقين أداة بيد أولئك النشيطين.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.



٢١٥- هل كُتب على إسلامنا أن يُيَتَّم؟ | ٢٠٠٠/٠٥/١٩

في ظل مجتمعاتنا الانسانية اليوم أمورٌ بداهية معروفة لا يختلف فيها اثنان:

إذا تطاول إنسانٌ من الناس بلسانٍ تكلم به أو بقلم استخدمه كتابةً على ملكٍ من الملوك نُصّب فوق رقعة من رقاع هذه الأرض أو بلدةٍ من بلادها، اتجهت إليه القوانين والأنظمة بالمحاكمة ثم التجريم.

وإذا تطاول إنسانٌ بلسان امتد ناطقا أو بقلم تحرك كاتبا على رئيسٍ من الرؤساء نُصب في بلدة من البلاد أو دولة من الدول أو على مسؤول كبير في تلك الدولة سرعان ما تنهض لهما المواد القانونية المختلفة ثم يُحاط محصوراً بهذه المواد القانونية ويساق باسمها إلى المحاكمة ثم إلى التجريم.

وإذا أهان إنسانٌ في صحيفة من الصحف أو في خطبة من الخطب أو في مناسبة من المناسبات إذا أهان إنسانٌ شخصاً من الناس معروف أو غير معروف لامعاً أو غير لامع أهانه بشتيمة أو بسبٍ من السباب أو بسخرية أو نقيصة أياً كانت، سرعان ما يقوم هذا الإنسان الذي أُسيء إليه فيستنهض ما يعرفه بالمواد القانونية ويرفع الدعوى باسم هذه المواد القانونية على هذا الذي أساء إليه شتمه سخر منه، وتخضع المحاكم كلها لدعواه ويُساق هذا الإنسان إلى المحاكم ليُتهم ثم ليُحاكم ثم ليجرّم.

واسرائيل والصهيونية العالمية إذا وجدت أن هناك من اتجه إليها باصبع من أصابع الاتهام تحدث عن محرقتها أو مخرقتها تساءل .. بحث .. حقق، تتحرك القوانين كلها لخدمة الصهيونية، ويساق هذا الإنسان إلى المحاكم أياً كانت البلدة التي وجد فيها هذا الإنسان المتهم وأياً كانت تلك الدولة يساق إلى المحكمة، ثم إنه بعد التحقيق يُجرم ولا بد أن يُعاقب.

هل هنالك شكٌ في شيء من هذا كله أيها الإخوة؟ ويتم هذا كله في ظل الحرية وحديث الناس عنها، في ظل ما يرتفع لها من شعارات وما يُقدس باسمها من كلمات... فإذا جاء من يتطاول على ملك الملوك، إذا جاء من يتطاول على خالق السماوات والأرض، إذا جاء من يتطاول على من خلقنا ورزقنا وسوانا وأحيانا ويميتنا ثم يحيينا، إذا جاء من يتطاول عليه بسخرية بإنكار بهزء، بأي نوعٍ من أنواع التطاول

نظرت يميناً وشمالاً فلم تجد من ينتصر لهذا الإله الذي أُسيء إليه، وإذا قام من ينتصر له قامت الدنيا كلها لتنتصر للظالم ولتغري الناس جميعاً بالإعراض عن الإله. لا أقول المظلوم بالإعراض عن الإله الذي أُسيء إليه.

أفأقول: إن الدين مُيتّم في هذا العصر أيها الإخوة!؟ أفأقول إن شرعة الله وألوهية الله وعبودية الإنسان لله وحقوق الله سبحانه وتعالى على عباد الله كل ذلك ميتم تماماً – ولله المثل الأعلى – كطفلٍ بين أطفالٍ كثيرين يحيطون به عن يمين وشمال لكلٍ منهم أبواه، لكلٍ منهم ولي أمره لا يستطيع أحدٌ أن ينفث في واحد منهم بأي أذى، إلا هذا الطفل، فهو يتحرك بينهم يتيماً ليس له من ولي يدافع عنه، وليس له من أبٍ يخاصم دونه.

أفأقول – ولله المثل الأعلى – إن دين الله عز وجل قد غدا في مجتمعاتنا الإنسانية اليوم كحال هذا الطفل اليتم بين هؤلاء الأطفال الذين ترتفع منهم الرؤوس بأن لهم آباءً وأمهات، وبأن لهم أولياء يدافعون عنهم ويحموهم.

أنا أعلم – كما تعلمون جميعاً – أن الله سبحانه وتعالى ليس فقيراً إلى الانتصار لذاته العلية. وأنا أعلم والعالم كله يعلم أن الله هو الغني وأننا نحن الفقراء. ولكنكم تعلمون أيضاً أن الله عندما خلق الإنسان استخلفه لإقامة عدله فوق هذه الأرض، عندما خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان استخلفه أي أقامه قيماً لرعاية شرعه، أقامه قيماً لحماية دينه، أقامه مسؤولاً عن تعريف الناس جميعاً بربوبية الله سبحانه وتعالى للإنسان وعبودية الإنسان لله سبحانه وتعالى.

ألم يقل الله سبحانه وتعالى للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ والخليفة إنما هو هذا المخلوق الذي يتمثل في سلالة آدم على نبينا وعليه الصلاة والسلام، شرفنا الله سبحانه وتعالى بهذه الخلافة التي تعني تكليف الله عز وجل إيانا بحماية شرعته، بحماية مقدساته بحماية الحقيقة الإيمانية التي شرفنا الله سبحانه وتعالى بها، ولو شاء لانتصر لدينه دون حاجة منه إلينا، ولكنه ابتلاء من الله بل تشريف من الله عز وجل لنا ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ ما الوزن أقيموا الوزن بالقسط؟ هذه العدالة الإلهية التي أقام الله شرعته بيننا عندما. قال: ووضع الميزان أي في الأرض، إنما المراد بالميزان هذا الدين

بمجموعه انطلاقاً من عقائده فعباداته فتشريعاته، وضع هذا الميزان بيننا ثم وكل إلينا حماية هذا الميزان ألا تطغوا في الميزان ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾

شرف أنهضنا الله سبحانه وتعالى له، وإلا فمن ذا الذي يقول إن الله بحاجة إلى أن ننصره؟ كلنا نعلم أن النصر بيد الله ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ لكنه قال أيضاً: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾ هكذا قال الله سبحانه وتعالى.

إذاً فشاء الله عز وجل أن يشرفنا بأن نكون فوق هذه الأرض أولياء لشرعته، حماةً لدينه رقباء على مقدساته هكذا شاء الله عز وجل. فأين هم هؤلاء الأولياء في جنبات الأرض؟ أين هم هؤلاء الذين وكل الله سبحانه وتعالى إليهم حماية دينه وشرعته ومقدساته من لغو اللاغين وسخرية الساخرين وعداوة المعتدين؟ إن الله سبحانه وتعالى لا يريد من الناس أكثر مما يفعلونه في حق أنفسهم.

لو أن إنسان تطاول كما قلت لكم على ملك من ملوك الأرض في أي بقعة من بقاع هذه الدنيا المتحضرة أو المتخلفة ما الذي سيحصل؟ القانون الإقليمي والعالمي والدولي كله تلاحق هذا الإنسان.

لو أن إنساناً تطاول بسخرية ما على مسؤول على رئيس تطاول على مواطن في بلدة أساء إليه اتهمه بما هو منه بريء سبه شتمه، ما الذي يحصل؟ كلكم يسمع بين الحين والآخر الأنباء التي تتحدث عن سلاسل من دعاوي ترفع من هذا القبيل، يرفع هذا المظلوم أو هذا المتهم الدعوى وتسمع المحاكم دعواه أياً كان، ويُساق هذا المتهم ثم يُعاقب إما بالغرامات المالية وإما بالسجن أو نحو ذلك ذلك.. لأن مواطناً أسيء إليه.

لماذا يُتم هذا الدين وأولياؤه موجودون؟

لماذا يُتم الإسلام وهاهم أولاء الذين شرفهم الله سبحانه وتعالى بحماية الإسلام قائمون؟

ومن هم هؤلاء الذين هم شرفهم الله فأقامهم حراساً على دينه من هم؟ هم الذين حياتهم من عند هذا الإله الذي شرفهم بهذا الشرف. رزقهم من لدن هذا الإله الذي توجهم بهذا الشرف عافيتهم من لدن هذا الإله الذي توجهم بهذا الشرف، محياهم ومماتهم بيد هذا الإله الذي توجهم بهذا الشرف. قال لهم: انتصروا لديني أنتم المستخلفون على هذا لا تطلبوا مني أن أقوم عنكم بهذا عملي، سيكون يوم

القيامة في محكمة أنا ديانها وأنا صاحبها، أما اليوم فقد جعلتكم أنتم المسؤولين عن هذا كله. لا يقولن قائل: ها هو ذا ربنا موجود فلماذا لا ينتصر لدينه؟ لماذا لا ينتقم من هؤلاء الساخرين والشامتين؟

الجواب معروف ومقروء: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ، مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ إلى أن كرر وأكد هذا فقال ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ، يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ، وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ، سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ أما اليوم فأنتم المسؤولون.

شرفٌ متعنا الله عز وجل به استخلاف ما كان لنا أن نرقى إلى سدته الباسقة لكنه الشرف الأعظم شرفنا الله عز وجل به. فمالِ لأولياء هذا الدين راقدون غافلون أو غائبون؟ مالِ للإسلام يُتم وما ينبغي أن يُيتم؟ لماذا أيها الإخوة؟ سلوا القوانين ومقننيها سلوهم، لماذا يُساق من يحرك لسانه بتطاولٍ على ملك من ملوك الأرض أو على رئيسٍ من رؤوسائها أو على مسؤول فيها أو على مواطن من المواطنين فيها، فإذا اهتاج هؤلاء المجرمون ومدوا ألسنتهم بقالة السوء ألواناً وأشكالاً على الله على دين الله على شرعة الله غابت القوانين وظهرت الحرية! غابت القوانين كلها وحلت الحرية محلها، وجاء من يقول: إنها الحرية التي ينبغي أن يستمتع بها كل مثقف كل عاقل إنه الأدب وقدسية الأدب ينبغي أن لا تُمس بشكلٍ من الأشكال.

قدسية الأدب؟! أنتم الذين أنكرتم قدسية الإسلام وقلتم في عصر الحرية ينبغي أن تغيب القدسية، فما لكم تقدسون الأدب تقديساً مطلقاً في كل الأحوال، ومن ومتى قال العقل وقال العقلاء الأدب إنما يُطلب للأدب؟ من الذي قال ينبغي أن نحج للأدب لندور حول الأدب كما يدور الطائفون حول الكعبة لا لشيءٍ إلا للأدب؟ هل في العقلاء من يجهل أن الأدب وسيلة لغاية؟ هل في العقلاء من يجهل أن الأدب لغة مضمخة بالعطر يُجتذب بواسطتها عقل العقلاء إلى معرفة الحق؟ من الذي قال الأدب عبارة عن كائن مجنون يراوح في مكانه؟ من الذي يقول إن الأدب عبارة أن يطرب الإنسان للهذيان الذي ينبعث من لسانه وأياً كان الهدف الذي ينبغيه هبط أو صعد هو أدب مقدس؟ أي لغة تقرر هذا الكلام المهذار؟ من؟

الأدب وسيلة ترتقي بارتقاء هدفها وتهبط بهبوط هدفها.

أرأيتم لو أن إنساناً اتخذ الأدب وسيلة لسلب الناس حقوقهم؟ أرأيتم لو أن إنساناً اتخذ الأدب وسيلة للدجل على الناس وللكذب عليهم؟ أرأيتم لو أن الأدب استخدم وسيلة للضحك على الناس وتجريدهم من ممتلكاتهم؟ أفيُقر هذا الأدب؟ أفيأتي من يهذي ويقول: ينبغي أن يُقدس الأدب إلى أي جهة اتجه؟ وأي هذيان من الهذيانات عانق هل هنالك عاقل يقول هذا الكلام؟ لماذا يُصفق للأدب عندما يتطاول على الله وعلى دينه؟ ولماذا يجرم الأدب إذا استبطن الأدب كلمات فيها تطاولٌ على ملك من الملوك فيها تطاول على مسؤول من المسؤولين فيها تطاول وشتم وجرح لمواطن من المواطنين؟ لماذا يُساق الأديب وأدبه للمحاكمة. بوسعي أن أضرب لكم أمثلة ولكني أنزه هذا المنبر عن ذكر الأسماء؟

أعود فأقول أيها الإخوة هل كُتب على إسلامنا أن يتيتم؟

أسأل الله سبحانه وتعالى أن لا يُرينا عهداً يصدق فيه جواب هذا التساؤل بشكلٍ إيجابي أبداً. سقى الله أيها الإخوة عهوداً كان الحكام وكان أئمة المسلمين وكان ملوك المسلمين فوق الأرض لا يعرفون لنفسهم إلا مهمة واحد هي حراسة دين الله سبحانه وتعالى، فإذا أدى أحدهم مهمته وجاء ابنه وجاء خليفته من بعده سلمه هذه الأمانة وأوصاه أن يواصل سيره الحثيث حراسة لدين الله بالعين بالعقل بالجسم بالمال بالجسد والروح.

سقى الله ذلك العهد سقى الله يوم وقع عثمان أرطغرل أو خليفة من خلفاء العثمانيين في سياق الموت فأوصى ابنه قائلاً كنت كالنملة الصغيرة فأعطاني الله كل هذا لخدمة دينه فاخدم دين الله سبحانه وتعالى فوق هذه الأرض فإنما تلك هي مهمة الملوك في هذه الدنيا.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

٢١٦- ما أصيبت أمة بالذلة وهبطت من أوج العز إلا بسبب ضياعها عن الهوية | ٢٠٠٧/١١/٠٢

إنَّ تَعَرُّف الأمة على هويتها إنما هو البوابة الأولى للدخول في مدارج الحضارة والمعرفة والقوة والثقافة والرشد، وبمقدار ما تكون الهوية التي تتعرف عليها الأمة مطابقةً لحقيقتها تكون انتصاراتُها أقربَ، ويكون وصولُها إلى قمة الحضارة أسرعَ، وبمقدار ما تكون الهوية التي تتعرف عليها الأمة مخالفةً لحقيقتها تتيه عن الوصول إلى هذه المبتغيات والأهداف، وما انتصرت أمتنا الإسلامية عند بعثة المصطفى صلى الله عليه وسلم، التي كانت إيذاناً بتجديد الإسلام، إلا بعد أن عرفت هذه الأمة هويتها بعد ضلال، ووقفت أمام مرآة ذاتها، واستعلنت عن هذه الهوية قائلة على لسان كل مؤمن: ﴿إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيايَ وَمَماتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢]. إنها هوية العبودية لله سبحانه وتعالى، هوية الانتماء إلى الله سبحانه وتعالى بالمملوكية والعبودية له، والتشرف بولاية الله سبحانه وتعالى عليها: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦].

هكذا عَرَفَت هذه الأمة نفسها وعرفَت وليَّها؛ وليَّ أمرها، ومن ثَمَّ صح لها أن تدخل في مدارج الحضارة والثقافة والعلوم والقوة والرشد. واليوم؛ وباختصار أقول لكم يا عباد الله: إن المرض الذي تعاني منه أمتنا إنما يتمثل في ضياعها عن الهوية، في ضياعها عن الانتماء الحقيقي الذي تبينه السلف من قبل. إن أمتنا اليوم تعاني من انتماءات مزدوجة متناقضة، كان شأنُها أنْ تُمَزِّق هذه الانتماءات هويتها الحقيقية، ومن ثم فهي تتطوح بين انتماءات شتى، وما أصيبت أمةٌ بالذّل والمهانة، وما هَبَكَتْ من أوج العزّ إلى أودية المهانة والذلّ إلا بسبب ضياعها عن الهوية، وبسبب الجواذب المتناقضة المختلفة التي تشدها إلى انتماءات شتى أمتنا، وأقول: العربية الإسلامية، هي في الظاهر تعلن انتماءها إلى هُويتها الحقيقية، هي تعلن عن عبوديتها لله عز وجل، وتعلن عن اعتزازها بولاية الله عز وجل لها، ولا تزال تُنْغِض الرأس لقرار الله القائل على لسان عباد الله: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦]، ولكنها في السلوك وفي الإدراك وفي التعامل تتمزق ما بين انتماءات شتى، هذا التمزق أنساها ذاتِيتَها واعتزازها بهُويتها، وجعل لعابها يسيل على كل ما تراه من قريب أو بعيد، جعل لعابها يسيل على

كل ما تتبينه من أَلَقٍ في حياة أعدائها، في حياة المتربصين بها، ومظاهرُ هذا الضياع عن الانتماء إلى الذات كثيرة جداً، وإنها لأمراض تفرَّعت عن هذا المرض الخطير، لكنني اليوم أريد أن أتحدثَ عن مرض واحد من هذه الأمراض، وعَرَض واحد من أعراض ضياع أمتنا عن ذاتيتها، إنها تنادي بكل مناسبة، على المستويات المختلفة الرسمية والشعبية، أنها أمة عربية، ولكننا ننظر إلى الواقع فنجد أن سلوكها يتجه إلى طرق – لا أقول طريق – تُمَزِّق هذا الانتماء، وتدوس على معاني هذا الانتماء وحقائقها.

أمة عربية، إذاً ينبغي أن تعتزَّ بعروبتها، وأنا أتحدث اليوم عن العروبة، وهي فرع من أهم فروع الإسلام كما تعلمون، أمة تعتز بعروبتها، وأنظر إلى أفراد هذه الأمة ذاهبين وآيبين، فأجد ثيابهم مغموسةً في نقائض هذا الانتماء، تأملتُ، وقد لَفَتَ هذا نظري أكثر من مرة، إلى القمصان التي يرتديها شباب العرب الذين يعيشون في مجتمع يعتز بانتمائه إلى العروبة، وإذا بهؤلاء الشباب يطربون لا للنقوش الزاهية على قمصانهم، وإنما يعتزون بالحروف الأجنبية التي تحمل في كثير من الأحيان كلمات أجنبية ومعانٍ أجنبية، وفي بعض الأحيان لا تحمل شيئاً إلا ما تحمله من هذه الحروف الأجنبية، تُرْسَم على الظهر آناً، وتُرْسَم على الصدر آناً، وتُرْسَم على الأسافل آناً آخر، يعتزُّ الشباب ذكوراً وإناثاً ذاهبين آيبين بهذه الألبسة، ومكانُ الأسى لا يتمثل في هؤلاء الذين يرتدون هذه الثياب من أجل أن يعلنوا عن اللا انتماء، من أجل أن يعلنوا عن الضياع عن الهوية، ولكن المأساة تتمثل في أولئك الذين يصنعون هذه الثياب المبتذلة التي تترجم الذل وتترجم المهانة في أشخاص الصانعين، وفي أشخاص المتاجرين، وفي أشخاص اللابسين.

أجوب الشوارع المشهورة المعروفة في دمشقنا العربية، ومرة أخرى أقول: إنني أتحدث في هذا المقام عن العربية التي يعتز بها من يعتز أجوب شهر الشوارع، وألتفت يميناً وشمالاً، فيخيل إليَّ أنني أسير في شوارع باريس، يخيل إليّ أنني أسير في شارع من أزهى وأبهى وأشهر شوارع لندن، كل الإعلانات التجارية، أو أكثر هذه الإعلانات التجارية، إنما تتألف بأحرف أجنبية وبكلمات أجنبية، والشيء المضحك أن الكلمات في كثير من الأحيان تكون عربية لكنها صيغت بحروف أجنبية، أنظر يميناً فلا تطالعني عيناي إلا على هذه الإعلانات، وأنظر شمالاً فلا أرى إلا هذه الإعلانات، وكم تشعر بالأسى عندما تمشي في الليل في هذه الشوارع لتجد أضواء (النيون) وهي تترجم الذل والمهانة لهذه الأمة التي طوت انتماءها الذي كانت تعتز به بالأمس، وأخذت ترفع الرأس عالياً بالذل، ترفع الرأس عالياً بالمهانة، تسكر بالوضيع.

أجل. والمظهر المؤسف العجيب، المظهر الساخر الذي يُضْحِك ويُبْكِي بآن واحد، أنك تنظر إلى هذا الشارع ولعله من أشهر وأبرز وأبهى شوارع دمشق فتجد في وسط هذا الشارع بناءً كُتِبَ عليه في الأعلى: مَجْمَع اللغة العربية! مجمع اللغة العربية، وعن يمينه وشماله ما يبصق على هذا العنوان، وأمامَه ومن خلفه ما يتبرَّأ من هذا العنوان، مجمع اللغة العربية مغموس في إعلانات تجارية لا تعرف انتماءً إلى اللغة العربية قط، فلم تطالعني عيناي على الحقيقة، أهذا صورة قبر لتاريخ كم وكم اعتزت به أمتنا، تاريخ العروبة في حياة هذه الأمة؟! أم هو عبارة عن شخص بل كائن مُحَنَّط لا يتأتى من أمره شيء، كان فيما مضى فعَّالاً، واليوم أصبح أثراً بعد عين، كان فيما مضى حيّاً، واليوم أصبح كائناً محنطاً؟! لا أدري. المهم أنك تنظر إلى الإعلانات التجارية التي من حول هذا البنيان فلا تبصر إلا ما هو تكذيب لهذا العنوان.

تلك هي مشكلتنا الكبرى؛ ضياع اذات، ضياع الهوية. شعاراتنا في واد وأهواؤنا في وادٍ آخر، كلماتنا في واد ونفوسنا وتطلعاتها في وادٍ آخر، وهذه الحقيقة التي أقولها لا تغيب عن بال أيٍّ منكم، وليس فيكم إلا من يجوب في هذه الشوارع، إن نظرتَ إلى الثياب وجدتَ فيها ترجمة التنكر للذات، وتَعَشُّق الأعداء الذين يتربصون بنا الدوائر، وإن نظرتَ إلى المصانع والتجارة والتجار رأيتهم مغموسين في الحقيقة ذاتها، وإن رأيت إلى الإعلانات التجارية وجدتَ هذا الذي أقوله لكم.

ماذا بقي؟ ماذا بقي من الحقيقة فيما نرفع الرأس به عالياً، أو في الشعارات المتألقة البراقة التي نرددها بين الحين والآخر؟ انظرْ إلى ما دون الشعارات لا تجد شيئاً.

وبالأمس تحدَّث رئيسنا في مجلس الشعب حديثاً مطولاً عن اللغة العربية، ولا شك أن من يسمع حديثه يُحِسُّ بالأسى الذي ينتابه، وما أظن إلا أن هذا الأسى الذي ينتابه إنما ينتابه من عدة عوامل، ولكنّ هذا من أهم هذه العوامل. وهذه الظاهرة لها سبب، وليتنا نصحو لهذا السبب حتى نعالجه وحتى نقضيَ عليه. معالجة هذا السبب تبدأ في التربية ومؤسساتها، تبدأ في الإعلام ومؤسساته المرئية والمسموعة المختلفة فأسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل من هذا الأسى الذي ينتابنا حافزاً لأن نعالج الأمر، وألا نراوح في أماكننا ونحن نتأسف، ونحن نطلق الزفرات، الزفرات وحدها لا تفيد يا عباد الله، وأُذَكِّرُكُم بأننا جميعاً عندما نقف في الصلاة نتذكر هُوياتنا ونخضع أمام ربِّ العالمين بإيماننا بهذه الهُوية، نحن نقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] تلك هي هُويتنا

فأسأل الله عز وجل ألا يجعلنا من المنافقين، وألا يجعلنا من الكاذبين، نخاطبه في الصلاة مُعْلِنين عن هذه الهوية؛ فإذا تحولنا عن الصلاة إلى الشوارع وإلى المجتمع نسينا هذه الهوية، وأَمْعَنَّا فيها تمزيقاً.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم



٢١٧- قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين | ٢٠٠٨/٠٢/٠٨

إن قوى الشر في العالم لا تزال-كما تعلمون-ماضيةً في احتلال الأرض والأوطان؛ واغتصاب الحقوق والممتلكات؛ والاستخفاف بحياة الأبرياء المظلومين الضعفاء؛ والعمل الدائب على إثارة الخصام بين الأشقاء.

وإن قُوى الشر هذه لتتخذ، وهي ماضية في هذا السبيل، لتتخذ من كلمات السلام والهتاف بها والدعوة إليها مخدراً يخدع العقول عن الهدف المرسوم ويُغَيِّب الألباب عن الكمين المرصود؛ في حين أن السلام الحقيقي هو مهوى قلوب الأسرة الإنسانية جمعاء.

فما هو العاصم من هذا الخداع؟ وما هو السبيل للتحرر من هذا الكمين الذي يُرَادُ لنا من خلال الهتاف بهذه الكلمة القدسية المتألقة؛ كلمة السلام؟ العاصم- يا عباد الله- هو ما أمرنا به رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما سأله علي رضي الله عنه، وقد حدثه عن الفتن التي ستستشري من بعد، قال له: ﴿ما العاصم منها يا رسول الله؟ قال: كتاب الله، فيه نبأ مَنْ قبلكم، وخبر ما بعدكم، وهو الحُكم فيما بينكم. . . ﴾ إلى آخر ما ذكره المصطفى صلى الله عليه وعلى آله وسلم. فلنعد إلى كتاب الله عز وجل لنجد فيه السبيل الذي يحررنا من وطأة هذا الخداع؛ والذي يجعلنا نتبصر مواطئ أقدامنا ونحن نسير فعلاً إلى حقيقة السلام، بل ونحن ندعو العالم كله إلى السلام.

عباد الله: ربنا سبحانه وتعالى دعا الأسرة الإنسانية كلها، من خلال خطابه للمؤمنين، إلى السلام العام الشامل فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨]، ولكنه لفت النظر إلى الطريق المؤدي إلى السلام. دعا إلى السلام ثم إنه لفت إلى الطريق المؤدي إلى السلام وركز على ذلك أيَّما تركيز؛ وتفنن البيان الإلهي في ذلك فقال أولاً؛ وكأنه يجيب عبادَهُ عن سؤال يقفز إلى أذهانهم قائلاً: فكيف السبيل إلى أن نتفيأ ظلال السلام؟ قال الله عز وجل مجيباً: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ، يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ

الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [المائدة: ١٦] ما هو الطريق بل ما هو النور الذي ذكره بيان الله عز وجل الذي إن اتبعناه أوصَلَنَا إلى واحة السلام؟ هو العدل يا عباد الله.

ولذلك فقد فَسَّرَ البيان الإلهي هذا الكلام الرباني عندما قال: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ، يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [المائدة: ١٦]. فَسَّرَ هذا النور: بالعدل؛ وركز البيان الإلهي على العدل أيما تركيز، وتفنن البيان الإلهي وصَرَّف في الحديث عن العدل والدعوة إليه؛ قال جلَّ جلاله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ [النساء: ٥٨].

ثم عاد فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [النحل: ٩٠] ثم أكد هذا فقال عز من قائل: ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ [المائدة: ٨] أي؛ لا يحملنكم بغضكم لأعداء لكم على ألا تعدلوا ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٨].

وقال جلَّ جلاله: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧] والميزان هو: العدل يا عباد الله. وانظروا كيف كرر الدعوة إلى هذه الكلمة وبيَّن قدسيتها من خلال هذا الإطار الفني الذي خاطبَنَا به: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ، أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ، وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٩]؛ وكأن الله عز وجل يقول لنا منبهاً أن لا نُخْدَع بمن يحاولون أن يجعلوا من كلمة (السلام) جرعات مخدرة بين يدي عملياتهم الإجرامية والانتقامية؛ وهو يخاطبهم هم أيضاً في الوقت ذاته قائلاً: إن مَن كان متمسكاً بالسلام حقاً وداعياً إليه حقاً ينبغي أن يتلمس الطريق إليه؛ ينبغي أن يسلك السبيل الموصل إليه، وما ينبغي أن يتخيل أن بوسعه أن يقفز إلى السلام قفزاً فوق حطام المظلومين؛ وفوق أعمال الفساد المستشرية في جنبات الأرض.

بيان الله سبحانه وتعالى يخاطبنا ويخاطب الآخرين جميعاً وكأنه: يقول لئن كان السلام حقيقة تكمن في بُرج باسق؛ فإن السُّلَّمَ الذي يرقى إليه إنما هو العدل، ولئن كان السلام واحةً خضراء ممرعة تزدان بأنواع

النعيم؛ فإن البوابة الموصلة إلى هذه الواحة إنما هو العدل، ولئن كان السلام كنزاً مخبوءاً في صندوق مقفل؛ فإن مفتاح هذا الصندوق إنما هو العدل، هكذا يعلمنا الله سبحانه وتعالى.

وعودوا إلى كتاب الله عز وجل_ يا عباد الله _كما أمر رسول الله وأوصى؛ تجدون شيئاً عجباً في باب العدل هذا الذي هو السبيل الأوحد إلى السلام الحقيقي الذي هو مهوى قلوب الناس جميعاً. هنالك عدل خاطب به الإنسانَ الفرد ربُّنَا سبحانه وتعالى؛ هو عدل الإنسان مع نفسه. وهنالك عدل آخر خاطب الله سبحانه وتعالى به الأسرة؛ هو عدل أفراد الأسرة بعضها تجاه بعض. وهنالك عدلٌ ثالث ذو دائرة أوسع وأشمل؛ إنه عدل الأسرة الإنسانية جمعاء.

عندما يخاطب الله سبحانه وتعالى الإنسان الفرد وينهاه عن أن يظلم نفسه فمعنى ذلك؛ أنه يدعوه إلى أن يكون عادلاً مع ذاته؛ لأنه إن عدل مع نفسه ابتعد عن التعرض للظلم وأسبابه، ولكنه إن جنح عن طريق العدل لابد أن يقع في الظلم ويكونُ هو الذي ظلم نفسه. انظروا إلى قوله عز وجل ﴿سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٧]؛ ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [النحل: ٢٨].

هذا البيان الإلهي المكرور ينبه الفرد إلى أنه أمام طريقين لا ثالث لهما؛ إما طريق العدل؛ أن يعدل مع نفسه. كيف يعدل الإنسان مع نفسه؟ بأن يؤمن بالحق ويتبعه، وأن يبتعد عن الباطل ولا يغامر في السلوك إليه عبر السبل المتعرجة؛ إذن فقد عدل مع نفسه وعندئذٍ يبتعد عن الوقوع في الظلم. أما إن أعرض عن هذه الوصية فلا شك أنه يكون قد حكم على نفسه بالظلم ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: ١١٨]؛ أي لأنفسهم. هذا هو المستوى الأول الأدق من مستويات العدل. المستوى الذي يليه: العدل بالنسبة للأسرة؛ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا﴾ [النساء: ١٣٥].

هذا خطاب الله عز وجل إن يخاطب أفراد الأسرة ويطلب منهم أن يكونوا عادلين؛ كلٌّ في حق نفسه وحق صاحبه. يلي ذلك؛ العدل الشامل العام الذي يخاطب الله سبحانه وتعالى به الأسرة الإنسانية:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨].

فيا عباد الله: عالمنا اليوم يفور بأمرين اثنين متناقضين–وسبحان من يجمع المتناقضات في هذا العصر– ظلم ينحط على الضعفاء أشكالاً وألواناً، ولا داعي أن أشرح لكم مظاهر هذا الظلم الذي يُقَطِّعُ الأكباد، وفي الوقت نفسه؛ هتاف بكلمات السلام، ودعوة إلى السلام، وعبارات تنبئ أن هؤلاء الذي يظلمون ويبغون في الأرض ويسعون في الأرض فساداً إنما هم عشاق السلام.

ألا ترون إلى هذه الظاهرة؟ إنها سبيل يُبْتَغى منه خداعنا نحن المستضعفون في الأرض. فلا تخدعنكم هذه الكلمات البراقة؛ وقفوا أمام كلام الله سبحانه وتعالى في هاتين الآيتين العجيبتين؛ إذ يقول في الآية الأولى منهما: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [لأنفال: ٦١]؛ ﴿وَإِنْ جَنَحُوا﴾ متى يجنح عدوك للسَّلْم؟ عندما تكون في مستوى من القوة راسخ، وعندما يكون قرارك بيدك. في هذه الحالة إن دعا عدوك إلى السَّلْم؛ إن جنحوا إلى السلم فاجنح لها وتوكل على الله، إن الله يحب المتوكلين. ولكنه عاد فقال في الآية الأخرى: ﴿وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]؛ هو السَّلْم الذي نُدْعى إليه عندما نكون ضعفاء، عندما يكون القرار بأيدي أولئك الآخرين دعاة الشر، عندما تكون القيادة بأيديهم، إنه ليس سِلماً في الواقع؛ وإنما هو استسلام مَهين.

فيا عجباً لبيان الله سبحانه وتعالى الدقيق الحكيم؛ عندما تكونون أقوياء، وعندما يكون السِّلْم حقيقياً وتضعون خطه ومنهجه طبقاً للقيم الإنسانية الراشدة فهذا هو المطلوب: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾. ولكن إذا كان الذين يدعونكم إلى السِّلْم يدعونكم إليه بألسنتهم وينحطون في مجتمعاتكم ظلماً بأعمالهم ووقائعهم؛ فإياكم وهذا السلم فإنما هو مكيدة يريدون أن يتصيدوا حقوقكم من خلالها.

أسأل الله عز وجل أن يجعلنا ممن ينقادوا لوصية رسول الله عندما حَدَّثَ عن الفتن التي ستستشري من بعده وسُئِلَ عن العلاج والعاصم فقال: ﴿العاصم هو كتاب الله فيه نبأ من قبلكم وخبر ما بعدكم وفيه الحكم لما بينكم﴾. أسألك اللهم أن توفقنا للعودة إلى كتابك وللتمسك به ولتنفيذ أوامره والابتعاد عن نواهيه.   أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

٢١٨- العرب... لا يبقي ملكهم إلا تمسكٌ بالدين | ٢٢/٠٢/٢٠٠٨

إن كتاب الله عز وجل يفيض بالقوانين والسنن التي يعامل الله عز وجل بها عباده جميعاً في هذه الحياة الدنيا، ومن أهم هذه القوانين والسنن سنتان اثنتان ينبغي لكل منهما ولاسيما في هذا العصر أن نتبينَّهما، وأن نكثر التأمل فيهما فإن في معرفتهما حلاً لكثير من المشكلات وإجابة عن كثير من التساؤلات.

أما القانون الأول فهو ذلك الذي يقضي بأن أي أمة من الأمم إذا نشطت سعياً وراء غاية وبذلت الجهد الذي ينبغي أن تبذله في الوصول إليها وأفرزت في سبيل ذلك الجهد والعرق فإن الله عز وجل قضى بأن يوصل هذه الأمة إلى غايتها وأن يحقق لها هذا الهدف الذي تَعِبَت في سبيل وصولها إليه، مؤمنة كانت أو غير مؤمنة، مستقيمة كانت أو منحرفة، هذا القانون نقرؤه في آيات كثيرة من كتاب الله عز وجل، من ذلك قوله سبحانه: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ﴾ [هود: ١٥] أي نحقق لهم ثمرات جهودهم في هذه الحياة الدنيا ولا يمكن أن نظلمهم باحتجابهم عن الغاية التي يهدفون إليها، ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً﴾ [الاسراء: ١٨] إلى أن قال: ﴿كُلّاً نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾ [الاسراء: ٢٠]

القانون الثاني في كتاب الله عز وجل هو ذلك الذي ينطق بأن أي أمة أصغت إلى بيان الله عز وجل الذي يخاطب الباري عز وجل من خلاله عباده واصطبغت بصبغة العبودية الحقيقية لله ونفذت الوصايا التي أمرها الله عز وجل بها عن طواعية وإخلاص فإن الله عز وجل قضى بأن يقفز بها إلى مستوى باسق من الحضارة والدراية والعلوم والقوة والتماسك والتعاضد والوحدة قفزاً فوق السبل والوسائل التي تتعب في سبيلها الأمم الأخرى، نقرأ في ذلك قول الله سبحانه وتعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧] ونقرأ في ذلك قوله أيضاً سبحانه وتعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ

آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً﴾ [النور: ٥٥]

هما قانونان يا عباد الله تأملوا فيهما جيداً، ينطبق القانون الأول على أمثلة كثيرة من الأمم والناس، من أبرز هذه الأمم المجتمعات الغربية اليوم، إنها تتمتع بميراث ورثته من آبائها وأجدادها، ميراث حضاري تعبت في سبيل الوصول إليه، كم أقامت في سبيل ذلك السبيل الحضاري مؤسسات وجامعات، وكم سارت في سبيل ذلك عبر خطط متنوعة مختلفة كان لا بد أن يمتعها الله عز وجل بالغاية التي سعت إليها وكان لا بد لهؤلاء أن يرثوا ذلك الميراث حقاً لهم.

وينطبق القانون الثاني على كثيرٍ أيضاً من الأمم والجماعات، من أبرز هذه الأمثلة الأمة العربية التي كانت قبل أن يشرفها الله عز وجل بالإسلام مضرب المثل للتخلف ومضرب المثل للجهالة ومضرب المثل للضعف والفرقة فلما اصطبغت بحقيقة العبودية لله وأصغت السمع جيداً إلى بيان الله وألزمت نفسها بتنفيذ ما أمر والابتعاد عما نهى قفز بها قضاء الله سبحانه وتعالى دون جهد مما قد بذلته الأمم الأخرى إلى مستوى باسق من الحضارة والعلم بعد الجهل والتخلف، إلى مستوى باسق من القوة بعد الضعف، إلى مستوى باسق من التعاضد والوحدة بعد الفرقة والشتات خلال خمسةٍ وعشرين عاماً، خلال ربع قرن، لم يكلفها الله عز وجل أن تتعب في سبيل هذا الهدف وأن تسلك السبل الطويلة التي سلكتها تلك الأمم الأخرى هذا هو مصداق القانون الثاني وذلك هو مصداق القانون الأول يا عباد الله، ما الفائدة التي ينبغي أن نجنيها من معرفة هاتين السُّنتين من سنن الله التي نقرؤها في محكم تبيانه يا عباد الله؟ الفائدة الأولى أن علينا ألا نستشكل إذا رأينا الغرب يتمتع بحضارة، يتمتع بعلوم، يتمتع بقوة، لا يقولن قائل هؤلاء كفرة كيف يمتعهم الله بما لم نتمتع به نحن؟ عندما نعلم القانون الأول الذي ذكرته لكم يذوب هذا الإشكال ونعرف الجواب عنه، هذا هو عدل الله في الأرض، ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ﴾ [هود: ١٥] لكنه قال بعد ذلك: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٦]، إذاً لا إشكال في هذا الأمر وما ينبغي أن نقف عند هذه الظاهرة بشيء من التساؤل

الفائدة الثانية هي أن نعلم أن هذه الأمة العربية التي كان السُّلَّم الذي رقى بها إلى سدة الحضارة المتمثلة في العلوم، في التقنيات، في القوة، في التماسك، عندما نعلم أن هذا السلم إنما كان سلم الإسلام صعد بهم قفزاً فوق السبل التقليدية المادية الأخرى ينبغي أن نعلم تتمة هذا القانون، تتمة هذا القانون أيها الإخوة هي أن هذه الأمة العربية طالما كانت وفية لهذا السلم الذي رقى بها صُعُدَاً، طالما كانت على العهد، طالما كانت لا تزال مصطبغة بذل العبودية لله على شتى المستويات فإن قوتها تظل في إقبال دون إدبار وإن المعنى الحضاري الذي تتمتع به يظل في ازدهار، ولكن فلنعلم أنها إذا تبرمت بهذا السُّلَّم الذي رقى بها صعداً، إذا تبرمت بالإسلام والدين، وإذا تمزقت هويتها التي كانت سرَّ انبعاثها وقوتها، إذا تمزقت بين تيارات العولمة والحداثة والعلمانية والتجديد وما إلى ذلك فلنعلم أن مآل هذه الأمة أن تعود إلى ما كانت عليه، إن كان لها ميراث حضاري بذلت في سبيله عرقاً تعود إلى ميراثها الحضاري كالغرب، وأما إذا لم يكن لها من هذا الميراث إلا ما ألزم الله عز وجل به ذاته العلية اتجاهها، إلا هذا القانون الذي قضى به ربنا في حقها فلتعلم إذاً أنها لا بد أن ترجع إلى الحال التي كانت عليها

هذه الحقيقة ينبغي أن نتبينها يا عباد الله، اقرؤوها في كتاب الله، اقرؤوا خطاب الله لأمم تشبه هذه الأمة العربية التي تبرمت بهذا السلم الذي رقى بها إلى هذا الأوج الحضاري عندما يقول: ﴿لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ [الانبياء: ١٣] ارجعوا إلى ما كنتم عليه، تنكرتم للفضل الإلهي الذي قفز بكم دون حاجة إلى جهد، تنكرتم لذلك إذاً ارجعوا إلى رأسمالكم السابق.

عباد الله كم وكم تفاعل مع هذه الحقيقة الربانية أصحاب رسول الله وفي مقدمتهم عمر بن الخطاب يوم قال لأبي عبيدة يوم أقبل إلى الشام واستقبله رؤساء وأباطرة الشام همس في أذنه أن لو أقبل بثوب غير هذا الثوب وبمظهر أكثر مناسبة من مظهره قال له: أوه يا أبا عبيدة لو غيرك قالها نحن قوم أعزنا الله بالإسلام فهما طلبنا العزة بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله، لم نتعب كهؤلاء، لم نتعب كأصحاب الإمبراطورية الرومانية، اليونانية، الفارسية، لم نبذل عرقاً، سما بنا الله إلى هذا الشأو العالي، أنتنكر لذلك بعد أن انتشينا، بعد أن طافت برؤوسنا النشوة لهذا الذي أكرمنا الله به، وابن خلدون اقرأوا مقدمته، اقرأوا عنوان ذلك الفصل الذي جعله هكذا؛ فصلٌ في أن العرب لا يبقي ملكهم إلا تمسكٌ بالدين لأنهم بهذا الدين امتلكوا، بهذا الدين نسجوا نسيج الحضارة يا عباد الله.

أنا أضرب أخيراً المثل لمن يتبرم بالتخلف الذي يعاني منه العرب المسلمون اليوم ولمن يضيق ذرعاً بالألق الحضاري الذي يراه في الغرب أقول: أرأيت لو أن رجلاً كريماً شهماً غنياً رأى أسرة فقيرة قد ألقاها الفقر والعوز في الشارع فرق لها ورحمها، نقل هذه الأسرة إلى دارٍ منيفة بازخة وأجرى على أفرادها جراية من المال كافية وأكرمها وأبقى إكرامه مستمراً لها، لما رأت هذه الأسرة كيف أن الواقع قد قفز بها من منتهى العوز إلى أعلى درجات الغنى والشبع والقوة والأمن والطمأنينة طافت النشوة برأسها وبعد قليل نسيت الفضل الذي امتدت يد هذا الإنسان به إليها فأخذت تتنكر له بل أخذت تتسامى عليه، ما الذي يحدث فيما يقرره عقل الإنسان؟

لا بد أن يأتي هذا الرجل يطرق باب هذه الأسرة وأن يقول لها يبدو أنكم أصبحتم اليوم بغير حاجةٍ إلي ويبدو أن غناكم قد سما بكم صعداً فأصبحتم غير محتاجين إلى واحدٍ مثلي إذاً تفضلوا واخرجوا من هذه الدار وعودوا إلى ممتلكاتكم التي تتمتعون بها وتعتزون بها، ربما قال رب هذه الأسرة ولماذا لا تُخْرِجْ أصحاب البيوت الأخرى الذين يتمتعون مثلنا بدورهم؟ يقول له في الجواب: أولئك هم الذين بنوا دورهم، هم الذين تعبوا وكدُّوا في سبيل أمنهم وطمأنينتهم أما أنتم فقد فتحتم أعينكم وأنتم في غاية العوز على وجودكم وأنتم في أعلى درجات القوة ﴿لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ [الانبياء: ١٣]

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

٢١٩- الانتصار للإسلام. . . . سبيله وأدواته | ٢٠٠٨/٠٢/٢٩

إن من سنن الله الماضية في هذا الكون الصراع المستمر بين الحق والباطل، إنه صراع مستمر لا يهدأ ما توالى الليل والنهار إلى أن يرث الله الأرض وما عليها، وما دام في الناس أناس يستجيبون لوحي عقولهم وآخرون يستجيبون لنداء رعوناتهم وأهوائهم إذاً لا بد أن يظل الصراع بين الحق والباطل مستمراً، ولكن الله عز وجل الذي شاء أن يمضي هذه السنة في كونه قضى وقرر في محكم تبيانه أن الباطل مهما جال لا بد أخيراً أن يزول ويندثر، وصدق الله عز وجل القائل في محكم تبيانه: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾ [الاسراء: ٨١]. وصدق الله عز وجل القائل في محكم تبيانه ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨].

أقول لكم هذا يا عباد الله أذكركم بهذه السنة الربانية لكي لا تُفَاجَأوا إن سمعتم أن هنالك عَوداً إلى التطاول على رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم عن طريق تلك الأقلام التي كانت تبث سمومها والتي عادت اليوم إلى بث نقيع آخر من هذه السموم، ينبغي ألا تفاجَأوا، إنها صورة من صور السنن الماضية والتي قضى بها الله عز وجل صراعاً بين الحق والباطل، وكلما رأينا صورة من صور هذا الصراع ينبغي أن نتذكر قرار الله القاضي بأن يمحق الحقُّ الباطلَ مهما تطاول أمد الباطل ومهما جال جولته، وإنني يا عباد الله أؤكد لكم أنها خطة كيدية تتمثل في مرحلتين اثنتين، أولاهما مرحلة الاستفزاز واستثارة المشاعر الوجدانية لدى المسلمين لدفعهم إلى الصياح ولدفعهم إلى الثأر وروح الانتقام ولحملهم على أعمال التخريب والتحريق والنهب والقتل إن استطاعوا، وبذلك تحقق هاتان المرحلتان الهدف العظيم الخطير الذي يرمي إليه أولئك الكائدون للإسلام، الحاقدون عليه الثائرون على انتشاره في ربوع الغرب والشرق كلها، ينبغي أن نكون على بينة من هذا الذي أقوله لكم يا عباد الله، إنها مكيدة، مرة أخرى أقول، تتمثل في مرحلتين اثنتين؛ المرحلة الأولى الاستثارة للدفع إلى الشغب والأعمال التخريبية و. . و. . .

إلى آخر ما تعلمون ومن ثَمَّ إلى شغل الناس المسلمين عن تحقيق ذواتهم، عن مراجعة هوياتهم، عن النهوض برسالتهم الإسلامية، يرمي إلى بعدهم عن هذه المهمة وشغلهم بهذا الذي لا طائل من ورائه وإنما هو تعويض عن مشاعر التخلف الذي يعاني منه المسلمون ما يعانونه في هذا العصر، أريد أن أعلم وأن تعلموا جميعاً أن الانتصار للإسلام لا يتمثل في حركة مفاجئة، في يقظة بعد رقدة متطاولة، في يقظة تتمثل في صراخ في الشوارع، في هتافات، في تخريب، حتى في مقاطعة، اليقظة الإسلامية لا يمكن أن تتحقق بمثل هذه اليقظة المفاجئة بعد ذلك الرقاد الطويل، اليقظة الإسلامية والانتصار لدين الله سبحانه وتعالى إنما يتمثلان في أن يلتفت المسلمون ولاسيما قادة المسلمين إلى وصية رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم التي يقول فيها فيما رواه مسلم والإمام أحمد من حديث النعمان بن بشير: ﴿المؤمنون في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كالجسد الواحد إن اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى﴾، الانتصار للإسلام يتجلى في أن يُقْبِلَ قادة المسلمين إلى هذا الذي يقوله رسول الله صلى الله عليه وسلم فيتأوهون للمصائب التي تنزل بإخوانهم، يتأوهون للقتل الذي يستحر بإخوانهم ويعبرون عن هذا التأوه بالعمل الجاد، بالتضامن، الانتصار للإسلام لا يتمثل في الإعراض عن هذه الوصية النبوية التي وصانا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم بل خاطب بها قادة المسلمين قبل أن يخاطب بها عامتهم، الانتصار للإسلام لا يتمثل في الإعراض عن هذه الوصية القدسية وإخضاع الرأس بدلاً عن ذلك للعدو الذي يمضي في تمزيقه للحقوق والذي يمضي في قضائه على الحياة البريئة والذي يمضي في إشباع كيانه للنزوات والأحقاد المستحرة بين جوانه، الانتصار للإسلام لا يتمثل في يقظة مفاجئة من بعض هؤلاء القادة وإخوانهم يستحر بهم القتل والعدو ماضٍ في تقطيع صلة القربى مما بينهم وهم لذلك التخطيط خاضعون وبرؤوسهم لهذه المكيدة يطأطئون.

الانتصار للإسلام يا عباد الله إنما يتمثل في أن ينهض الأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامي بتنفيذ ما تم الاتفاق عليه في أكثر من قمة إسلامية مرَّتْ، يتمثل في أن يقدم على تنفيذ ما تم الاتفاق عليه من استحداث قناة فضائية إسلامية لا تنتمي لدولة ما وإنما تنتمي لهذه المنظمة الإسلامية تتجه إلى الغرب بلغاتٍ شتى تعرفهم بالإسلام، تبين لهم حقيقة الإسلام، توضح لهم عن طريق موازين وحقائق علمية تاريخ الحضارة الإسلامية، هكذا يكون الانتصار للإسلام، وعندما يتم هذا ما ينبغي أن نشغل أنفسنا بتلك

الأقلام السخيفة التي ترسم ما تريد أن ترسم، ما ينبغي أن نشغل أوقاتنا الغالية الثمينة بالرجوع إلى هؤلاء بقالٍ وقيل ولا بمسيرات ولا نحو ذلك فالوقت أسرع من ذلك بل لسوف نجد أنفسنا أمام مصداق المثل العربي القائل: الكلاب تعوي والقافلة تسير.

ولكن فلنعلم يا عباد الله أن هذا الاستخفاف الذي تسمعون عوداً إليه في بعض الصحف الأجنبية هو في حقيقته ليس استخفافاً برسول الله ولا تطاولاً على سيرته وحياته قط إنما هو في الحقيقة استخفاف بما آل إليه أمر المسلمين، إنما هو باستخفاف بالحالة التي يندى لها الجبين من واقع المسلمين لا سيما كثير من قادة المسلمين، متى يا عباد الله، متى يصحو النائم؟ متى يستيقظ السادر؟ متى تهتاج الكرامة؟ وقد علمتم سلسلة هذه الاعتداءات التي تستحر على إخوانكم في فلسطين، علمتم الخطط المتسلسلة الرابية الرامية إلى القضاء على كينونة هذه الأمة، الرامية إلى القضاء على حضارة هذه الأمة ومع ذلك فإننا نلتفت يميناً ثم نعود فنلتفت شمالاً فلا نجد في أكثر الأحيان إلا من يطأطئ الرأس لهذه المكائد لماذا؟ لأن القدسية الكبرى تحولت إلى قدسية حراسة للكراسي، تحولت إلى قدسية رعاية للذات وللنفس، وما أصدق ما قاله الشاعر العربي تجسيداً لهذا الواقع الذي نقول:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها   واقعد فإنك أنت الطاعم الكاس

عباد الله أرجوا من نفسي أولاً ومنكم ثانياً ومن قادة المسلمين من حولنا ثالثاً أن توقظهم هذه المكائد المتوالية وأن يتبينوا النهاية التي هم ونحن راحلون إليها وأن يقفوا ملياً أمام مرآة الذات، نحن اليوم نعيش فوق الأرض وغداً سنكون في باطنها، الملك زائل، الأموال تتبخر وتزول، القدرات ونشوة اللذائذ تتبدد، ما الذي يبقى في رحلتك إلى الله؟ يبقى ما قد قدمته لربك، ما قد حققته لأمتك، هذا هو الذي يبقى.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل من صمود هذه الدولة عبرة للمعتبرين، وأسأل الله عز وجل أن يرزقنا الثبات على النهج الذي يرضيه وأن يكرمنا بأن نتقدم خطوة إثر خطوة إلى ما يرضي الله سبحانه وتعالى في نفوسنا، خيرٌ من هذه المسيرات التي سمعنا أنباءها، ولربما سارت عدواها إلى كثير من البلاد الأخرى، خيرٌ من هذه المسيرات التي لا تجدي شيئاً أن يعود المسلمون وقادتهم في المقدمة إلى

اصطلاحٍ جديد مع الله سبحانه وتعالى، أن يعودوا فينفذوا وصية حبيبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿المؤمنون في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد﴾، هكذا يقول رسول صلى الله عليه وسلم، اليقظة الإسلامية التي تهيب بنا أن نعود فنصطلح مع الله تقتضي أقل المراتب أن يكون هنالك صوت لمنظمة المؤتمر الإسلامي يحاور العالم الغربي، يعرفه الإسلام بهدوء، يبين له حقائق الإسلام، يبين له أن هذا القرآن لا يأتيه باطل، يضع الغرب أمام حقيقة المصطفى صلى الله عليه وسلم ويمزق الأغشية الزائفة الكاذبة التي تمتد سحباً على وجه الحقيقة الإسلامية، هكذا ينبغي أن ننتصر لديننا ضد هذه الإساءات التي قد سمعتم بها، أسأل الله العلي القدير أن يوقظ الأمة الإسلامية يقظة ترضيه.

أقول قولي هذا وأستغفر الله.



٢٢٠- العمل الصالح | ٢٠٠٨/٠٤/١٨

دأَبَ الناس أن يتخذوا من مظاهر الإقبال على المساجد مصلين راكعين ساجدين ومن مظاهر تزايد الحجيج المتجه إلى بيت الحرام دليلاً لهم على أن المسلمين لا يزالون بخير وأنهم ملتزمون بأوامر الله عز وجل مبتعدون عن نواهيه، ولكن البيان الإلهي يضعنا أمام مقياس آخر يا عباد الله فتعالوا نتأمل في هذا المقياس الذي نقرؤه في كتاب الله عز وجل، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ [البقرة: ٢٠٤]، ﴿يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ مستشهداً بصلواته، بركوعه وسجوده، مستشهداً بتطوافه حول بيت الله العتيق لكن ذلك ليس دليلاً، يقول: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾، لماذا يا رب؟ يأتي الجواب ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]، إذاً هذا هو المقياس، إصلاح المجتمع أو العكوف على إفساده، وتأملوا يا عباد الله كيف يؤكد البيان الإلهي هذا المقياس عندما يقيد ربنا الإيمان دائماً، لا بصلاة وحج، ولكن بالعمل الصالح، ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً﴾ [الكهف: ١٠٧]، ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [النور: ٥٥].

هذا هو المقياس يا عباد الله، ولست أعني بهذا أن الصلاة غير ذات جدوى ولكن الصلاة لابد لها من ثمرات والثمرات تكمن في رعاية إصلاح المجتمع والابتعاد عن إفساده، فإن لم تتحقق هذه الثمرات فصلاة هذا الإنسان ربما كانت مردودة، وقد روى الطبراني من حديث عبد الله بن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ﴿من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً﴾. تعالوا يا عباد الله نتخذ من هذا المقياس الذي رسمه لنا بيان الله سؤالاً عن واقعنا المعاش اليوم أهو يتجه صعداً إلى مرضاة الله عن طريق إصلاح المجتمع أم هو يرجع القهقرى بسبب عكوفنا على الفساد والإفساد فيه.

هل اختفت الرشوة من مجتمعاتنا الإسلامية؟ تلك الجريمة التي تسري ما بين الراشي والمرتشي، تلك الجريمة التي كادت أن تشل فاعلية القوانين والشرائع، إن كانت هذه الظاهرة قد اختفت أو تقلصت فلنعلم أن المسلمين بخير كما يقول بيان الله سبحانه وتعالى.

هل أقلع التجار والبائعون عن الغش وأنواعه، وما أكثر أنواع الغش إن في السلعة ونوعها أو في الثمن والأكاذيب التي تحاك من حولها، وأنتم تعلمون التفاصيل التي لا داعي إلى ذكرها، هل أقلع هؤلاء التجار والبائعون عن الغش وأنواعه وآثروا أن يكونوا في عملهم خداماً لمجتمعاتهم؟ إن كانوا قد أقلعوا عن ذلك أو تقلص ذلك من حياتهم فلنعلم أن المسلمين بخير وأنهم متجهون إن ببطء أو بسرعة إلى مرضاة الله سبحانه وتعالى.

هل غدت المشافي العامة مظهراً بكل من فيها لخدمة المرضى ورعايتهم والسهر عليهم؟ هل أصبح الأطباء المناوبون يقضون لياليهم إلى جانب مرضاهم يؤنسونهم، يرعونهم، يخدمونهم؟ هل يعكف الممرضون والممرضات في هذه الليالي على هذا الواجب الأقدس أم إنهم يتخذون من لياليهم ساعة سمر، ساعة أنس وفكاهة ومالا أدري ما أقول؟ إن كانت هذه المشافي قد أقلعت عن هذا الذي أقوله لكم فلنعلم أن المسلمين بخير وأنهم متجهون إلى مرضاة الله سبحانه وتعالى.

هل أقلع الفلاحون والمزارعون عن استنبات مزروعاتهم وثمارهم بواسطة السموم المهلكة التي تعرفون من أجل أن يجمل مرآها في أعين الناظرين وإن تحولت إلى سموم للآكلين؟ هل أقلع هؤلاء المزارعون عن هذه الأسمدة الكيميائية التي لا حاجة ولا ضرورة إليها إلا لمزيد من تحقيق الأطماع؟ إن كانوا قد أقلعوا عن ذلك فلنعلم أن المسلمين بخير وأنهم متجهون إلى مرضاة الله سبحانه وتعالى.

هل أقلع تجار المداجن عن تغذية فراريجهم بالأغذية الهرمونية ابتغاء أن تضخم في أقرب وقت وأن يثّاقل وزنها في الميزان من أجل أن ينال أصحابها مزيداً من الأرباح وإن تحولت في جسوم الآكلين إلى أمراض خبيثة ووبيلة؟ هل أقلع هؤلاء عن هذا الذي أقوله لكم؟ إن كانوا قد فعلوا ذلك فالمسلمون ولله الحمد ما يزالون بخير، الموظفون والمسئولون على اختلاف مراتبهم هل أقلعوا عن أن يجعلوا من وظائفهم

مطايا لمصالحهم الشخصية وعادوا فعاهدوا الله عز وجل على أن يجعلوا من أنفسهم مطايا لمصلحة الأمة؟ إن كانوا قد عاهدوا الله على ذلك فالمسلمون بخير.

عباد الله لعلكم تعلمون أن أكياساً كبيرة من الشحوم تُملئ في فصل الربيع من كل عام لتملأ بها شاحنات ويُتَّجَه بها إلى البادية من أجل أن تمزج بأول غذاء أكرم الله عز وجل به الإنسان ألا وهو غذاء السمن الطبيعي، لئن كان تجار البادية أقلعوا عن هذا رحمة بإخوانهم من خلال الخوف من الله عز وجل فلنعلم أن المسلمين بخير وأنهم متجهون إلى مرضاة الله سبحانه وتعالى، فما الجواب عن هذه الأسئلة يا عباد الله؟ الواقع هو الذي يجيب، وإني لأرجوا الله سبحانه وتعالى أن يصلح واقعنا، الصلاة وحدها ستار يستر هذا السوء وليس هو الذي يقرب إلى الله، العمل الصالح، هذا ما يقرره بيان الله سبحانه وتعالى.

وكأني بكم يا عباد الله تسألون سؤال الإنسان المؤمن الحائر: كيف السبيل إلى أن نُخرِج حب الدنيا من قلوبنا، وحب الدنيا هو السبب لكل هذه المفاسد التي قد نتورط فيها؟ السبيل سبيل قصير سهل وهو أن تمتن وأن تزيد من حب الله عز وجل بين جوانحك، ولكن كيف السبيل إلى أن تزداد حباً لله؟

سبيل ذلك أن تربط النعمة بالمنعم، افعل ذلك تعشق ربك، إذا أويت في المساء إلى فراشك فاذكر أن الذي يكرمك بنعمة الرقاد ربك واحمد الله على ذلك، فإذا استيقظت بعد ساعات ورأيت نفسك قد تنشطت من عقال اذكر الإله الذي أيقظك بعد نوم وأحياك بعد موت، إذا دخلت الحمام فاذكر أن هذه النعمة التي أسداها الله إليك إذ حرَّرَك من سمومك أتتك من عند الله سبحانه وتعالى واشكر مولاك على ذلك، إذا خرجت تغسل يديك بالماء النمير اذكر الإله الذي أكرمك بهذا الماء الطهور الطاهر المطهر، وهكذا اربط نعم الله عز وجل بالمنعم تعشق المنعم وعندئذٍ تتجه إلى أن تضحي بدنياك في سبيل من تحب بعد أن كنت تضحي بأوامر الله عز وجل وأحكامه في سبيل دنياك.

ومن أخص النعم التي ينبغي أن لا ننساها يا عباد الله أن الله سبحانه وتعالى أكرم هذه الأمة بجلاء المستعمر عنها، ولست أذكر جلاء المستعمر الصوري كما يقول بعض الناس ولكني أحب أن تتذكروا أن الله عز وجل أكرمنا بجلاء المستعمر عن أرضنا وبجلاء سلطانه عن نفوسنا، هما مرضان اثنان، مرض الاستعمار المعروف التقليدي ومرض قابلية الاستعمار، كثيرة هي المجتمعات التي ولىّ الاستعمار عنها في

الظاهر فلم يعد للاستعمار يد على أرض ولا على ثروة أو ممتلكات ولكن قابلية الاستعمار جعلتها لا تزال تعاني من هذه الأمراض، تأتيها الأوامر من وراء البحار، تأتيها المطاليب من أقصى بلاد الغرب ينبغي تطبيق ذلك وينبغي تحقيق ذلك.

أما نحن فقد أكرمنا الله عز وجل إلى جانب الجلاء التقليدي من الأرض جلاء المستعمر من النفوس، أحسب، وأرجوا ألا أكون مخطئاً، أن أمتنا قد حررها الله عز وجل من قابلية الاستعمار، والدليل على ذلك أننا ما زلنا نرفع الرأس عالياً، تأتينا الأوامر فنلقيها وراءنا ظهريا، يأتينا التحذير تلو التحذير فنلقي التحذير من وراء ذلك ظهريا، انظروا وقارنوا بين هذه النعمة التي أسداها الله عز وجل إلينا وبين واقع مجتمعات أخرى، لكنني أريد أن أقول: من أين جاءت هذه النعمة؟ لا تتصوروا أنها جاءت بحيلة عقل ولا بقوة إنسان، الوسائل موجودة والأسباب لا تُنْكَر، ولكن الله الذي خلق الأسباب هو الذي أكرمنا بهذه النعمة فيا عباد الله اربطوا نعم الله عز وجل بالمنعم، اربطوا هذه النعم بمصدرها، عودوا بعد ذلك إلى قلوبكم تجدون أن هذه القلوب غدت أوعية لحب واحد لا ثانيَ له ألا وهو الله، فيم يخدع التجار إخوانهم، فيم يغش المزارعون إخوانهم وأصحابهم، لماذا يكون هذا كله؟ من أجل الدنيا؟ الدنيا، إذا هيمنت محبة الله على القلب، خرجت وأصبحت عبارة عن قمامة تداس على الأرض، اللهم اجعل قلوبنا أوعية لحبك، الله وفقنا لأن نربط نعمك بك، أنت المنعم، ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ [النحل: ٥٣].

أقول قولي هذا وأستغفر الله.

٢٢١- المسلم الذي وقف أمام مرآة ذاته | ٢٠٠٨/١٠/٠١

دعوني أذكر نفسي وأذكركم بمزية متع الله سبحانه وتعالى بها عباده المسلمين الصادقين في حين أن الآخرين قد حُرِمُوا منها. إننا لنعلم جميعاً أن الدنيا مسرح للمبهجات والمنغصات وصدق الله القائل: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾. فأما التائهون عن معرفة الذات، الشاردون عن صراط الله عز وجل، أولئك الذين يُخَيَّلُ إليهم أنهم يعيشون في يوم لا غدَ من ورائه فإن أحدهم إذا صادف من الدنيا مبهجاتها هيمنت على كيانه أجمع وطافت من ذلك برأسه نشوة كأنها الخمر وهيمنت عليه مشاعر هذا الابتهاج حتى لم يعد يتسع في قلبه مكان لنقيض أو لمخالف.

فإذا رأى هذا الإنسان الذي أخذت منه نشوة هذا الابتهاج مأخذَها، رأى صورة لبائسين، رأى صورة لمنكوبين هيهات أن تدخل مؤثرات هذه الصورة إلى شيء من طوايا نفسه قط، ذلك لأن مشاعر الابتهاج هيمنت على كيانه كله فلم يبق في قلبه متسع لخلاف ذلك.

أما إن واجه هذا الإنسان من الدنيا الشر ونكباته، الشر وأنواعه فإن هذا أيضاً لابد أن يأخذ من كيانه كل مأخذ ولابد أن تهمين مشاعر الأسى على فؤاده كله، ولابد أن يزجه ذلك في لونٍ من الأمراض النفسية والكآبة أو أن يزجه ذلك في طريق إلى الانتحار.

أما المسلم الذي وقف أمام مرآة ذاته، عرف نفسه عبداً مملوكاً لله سبحانه وتعالى، وعرف منهج رحلته في هذه الحياة الدنيا، فإن صادفه من الدنيا مبهجاتها وظفها لما يقربه إلى الله عز وجل، تفاعل مع المبهجات أنواعاً وأشكالاً ولكن بروح الوظيفة، يعلم أنه موظف عند مولاه وخالقه، يسخر هذه المبهجات لما يقربه إلى الله، فإذا رأى أمامه صورة لنقيض ذلك، صورة لبؤس، لمصيبة، لنكبة، اتسع قلبه لهذا الأمر الثاني كما اتسع للأول وتفاعل مع هذا الأمر الثاني كما تفاعل مع الأول، ذلك لأنه يستقبل كل ما يصادفه في الكون من مبهجات ومن مؤلمات، من سراء أو من ضراء، يستقبل ذلك على أنه موظف عند الله ومن ثم فهو يسخر ذلك سلما للقرب من الله عز وجل.

ودعوني يا عباد الله أجعل من هذا اليوم الأغر نموذجاً حياً مجسداً لهذه الحقيقة. لقد طلعت علينا شمس هذا العيد المبارك ولقد تجلى الله عز وجل في صباح هذا اليوم على عباده بالأنس الذي نشعر به جميعاً، بعد قليل سيذهب كل منا إلى داره ولسوف يدخل كل منا إلى بيته ليجد البسمة على الوجوه وليجد الفرحة الغامرة في زوايا الدار وفي النفوس، ماذا يصنع هذا الإنسان وقد رأى مظاهر هذه البهجة أمامه، يعلم أنه موظف عند الله عز وجل، يغرس في أفئدة الصغار والكبار مزيداً من أسباب الفرحة، مزيداً من أسباب البهجة، يرسم مزيداً من الابتسام على وجوه هؤلاء وأولاء وأولئك وهو يعلم إنما يفعل ذلك قربى إلى الله، ثم إنه يغدو إلى دار جاره ودور أصدقائه وأقاربه يصل ما انقطع من الرحم ويجدد ما تقادم من الود، يقيم مرة أخرى نسيج هذا التضامن الذي شاءه الله عز جل، إنها بهجة دخلت الدار وتسربت إلى النفوس ولكن المسلم يوظفها قربى إلى الله عز وجل.

فإذا خرج هذا الإنسان ومشى في طريقه وتذكر ما جرى قبل أيام، تصور ثلة من الناس قد خرجوا من دورهم وإن شهر الصوم يظلهم وإن الأنس الرمضاني يطوف بهم، غادين لمهامهم ولربما يحققون أسباب الفرحة للعيد الذي أزف قدومه وما هي إلا لحظات حتى تؤول هذه الثلة من الناس إلى أثر بعد عين، منهم من قضى نحبه ومنهم من هو بين الموت والحياة.

هذا الذي وظف البهجة قبل قليل بين جوانحه سلماً إلى مرضاة الله هل يتسع قلبه لهذا المنظر الثاني؟ نعم يتسع قلبه لأنه يمارس هذا وذاك، يتفاعل مع هذا وذاك قربى إلى الله سبحانه وتعالى، لابد أن يقف أمام هذه المأساة متفاعلاً معها، كيف يتفاعل؟ ما الذي حصل؟ ما الذي استوجب هذا الدمار؟ من الذي قضى بأن يكون هؤلاء البرآء الآمنون الذين أظلهم أنس هذا الشهر وطاف بهم كرم الله سبحانه وتعالى وتجلياته التي يقبل بها على عباد الله الصائمين، إنها جريمة وقعت، إذاً ينبغي أن ننسى قليلاً تلك البهجة لنتفاعل مع هذا الأسى، قالوا إنها جماعة من المكَفِّرين، قلت من هم الكفار الذين أرادوا أن يلحقوا بهم وأرادوا أن ينفذوا حكم الله المزعوم في حقهم، لعلهم هؤلاء الشاذلة الذين صدف مرورهم في ذلك المكان لعلهم هم الكفرة، ولكن المصادفة هي التي ساقتهم إلى ذلك المكان ولربما كانت فئات أخرى تحل محلهم تجوب في تلك المنطقة ذاتها وعندئذٍ يكون الدمار قد حاق بهم لا بأولئك الآخرين، إذاً لعل كل من يعيشون فوق هذه الأرض المباركة كفرة، أفهذا منطق يقبله عقل؟

يا أيها الإخوة إن الجريمة كانت تستهدف شيئاً آخر، إنها كانت ولا تزال تستهدف الاستقرار الذي تتمتع به هذه البلدة، تستهدف الأمن والطمأنينة اللتين تتمتع بهما هذه البلدة ولعلكم تعلمون أن الاستقرار هو رأس المال الخفي لكل نهضة ولكل تقدم في حياة الأمة، إذاً الاستقرار هو الكافر الذي ينبغي القضاء عليه، الأمن والطمأنينة هما الكافران اللذان ينبغي تنفيذ حكم الشيطان فيهما.

أيها الإخوة إنها حرب معلنة على الله عز وجل من خلال قوله سبحانه وتعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرائيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً﴾ [المائدة: ٣٢]، إنها حرب معلنة على رسول الله القائل فيما يرويه مسلم والنسائي وأحمد: ﴿من خرج من أمتي على أمتي يقتل برها وفاجرها، لا يفرق بين قاتل ومقتول منه ولا يفي بذي عهدها فليس مني ولست منه﴾، إنها حرب معلنة على الله عز وجل وعلى رسوله، أما هذا الشعار الذي يعمل به بين الحين والآخر، ملاحقة الكفر والكافرين فهو غطاء شفاف لا يستر، وهو الغطاء الذي يستعمله الزنادقة وقد استعملوه فيما مضى.

الزنديق هو ذاك الذي يمارس حرباً قذرة ضد الإسلام والمسلمين ولكنه يغطي نفسه بشعارات الإسلام وهذا هو تعريف الزندقة والزنادقة، هؤلاء فريق من الزنادقة يا عباد الله. وأعود فأقول أنا مسلم أوظف كل ما يواجهني في دربي إلى الله عز وجل أواجه ذلك كله لأجعل منه مرقاة إلى مرضاة الله عز وجل، واجهتني المبهجات فوظفتها وتقربت بها إلى الله، واجهتني البأساء في أمتي أو في أي جهة من جهات هذا العالم الإنساني لابد أن أتفاعل مع هذه الظاهرة أيضاً، هذا هو فرق ما بين المسلم وغير المسلم، فؤاد المسلم يتسع للتعزية بالمصائب وللتهنئة بالأفراح في لحظة واحدة، نعم، ذلك لأن عبودية الإنسان لله عز وجل تجعله أمام هذين البابين المشرعين دائماً.

ولكني أريد أن أنتقل من هذا الذي أوضحته باختصار إلى سؤال أحاول أن أجيب عنه باختصار أيضاً. ما العلاج الذي ينبغي أن نمارسه لتحصين أرضنا ولحماية أمتنا كلها من هذه الزندقة وهؤلاء الزنادقة الذين أعلنوا الحرب معاً على الله وعلى رسوله؟ الجواب أيها الإخوة أنهما سبيلان لا ثالث لهما.

أما السبيل الأول فهو أن نمعن في تحقيق المزيد من التضامن الذي شاءه الله لنا بل الذي شرفنا الله عز وجل به، لا نألوا جهداً في تحقيق مزيد من التآلف، نسد الثغرات، نسد الجيوب التي يمكن أن يتسرب منها شياطين الإنس والجن، ثغرات الخلافات المذهبية، ثغرات الخلافات الفكرية، ثغرات الخلافات أياً كان نوعها، ينبغي أن نتقرب إلى الله عز وجل بسد هذه الثغرات كلها ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً، الخلاف موجود ولكن على كل منا أن يجتر مذهبه وفكره بينه وبين نفسه، ما ينبغي أن نجعل من أرائنا الاجتهادية ومذاهبنا الفكرية أو الدينية، ما ينبغي أن نجعل منها عصا فرقة، ما ينبغي أن نجعل منها سبب خصام وشقاق، إذا سيرقص العدو على هذا الذي سنفعل، وعندما يمارس هؤلاء التكفيريون عملهم إنما يستغلون هذه الفرقة، إنما يستغلون هذا الخلاف الذي يبدو لهم فيتكئون عليه ويمارسون زندقتهم التي حدثتكم عنها، نحن أمة جذعها الإسلام الواحد أغصانها المذاهب المتعددة التي تصل جميعاً إلى مرضاة الله عز وجل، فلنتمسك بالجذع يا عباد الله، فلنتمسك بالجذور يا عباد الله، دعوا الآراء الاجتهادية والخلافات كلها وراءكم ظهرياً أثناء مد الأيدي بعضنا إلى بعض، أما عندما نعبد الله عز وجل ونسير إلى مرضاته فليمارس كل واحد منا قناعاته وأفكاره. هذا هو السبيل الأول.

أما السبيل الثاني فهو صدق الالتجاء إلى الله على كل المستويات وفي كل الأوقات، نطرق باب الله بأيدي الذل بأيدي المسكنة، بأيدي الانكسار، وربنا يرى، وجل من قال: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦]، نطرق باب الله عز وجل نستنزل نصره، نطرق باب الله عز وجل نستدفع الضر الذي يلاحقنا.

هكذا شاء الله عز وجل أن تكون بلدنا هذه محط أنظار الكثيرين وكأنها تتمتع بنعم يحسدنا عليها الأقربون والأبعدون، هكذا شاء الله سبحانه وتعالى، نتضرع إلى الله سبحانه وتعالى بانكسار على كل المستويات وفي السر قبل العلن أجل يا عباد الله، دعوني أضعكم أمام هذا المشهد الذي يجسد ويبرز حقيقة ما أقول، عقبة بن نافع الذي وصل إلى أرض القيروان قبل أن تبنى، نظر فوجد أن هذه الأرض سبخة غابات محشوة بالسباع الضارية والوحوش المختلفة ورأى أن هذه الأرض هي المنطلق الاستراتيجي للدعوة إلى الله وللتبصير بدين الله في تلك المنطقة فأخذ يبحث عن بقايا الصحابة الذين كانوا معه، عثر على عدد منهم، أمضى بياض يومٍ من الصباح إلى المساء وهم يتضرعون إلى الله أن يعد الباري عز وجل

هذه الوحوش الضارية عن هذا المكان الهام من أجل أن ينطلقوا إلى الواجب الذي أقامهم الله عز وجل فيه ولما أقبل المساء قام عقبة يخاطب هذه الوحوش قائلاً أيتها الوحوش أيتها السباع لقد جئنا لنبلغ رسالات الله عز وجل فهلا ابتعدتم عن هذا المكان لتمكنونا من أداء رسالة الله. وفي صباح اليوم الثاني رؤيت هذه السباع وهذه الوحوش يحملون صغارها إلى أماكن بعيدة بحيث لا يعلم إلى أي مكان رحلت.

هذه حقيقة تاريخية واقعة يا عباد الله. نحن ابتلينا بالخير والشر، تلك هي سنة الله عز وجل وعهدنا مع الله عز وجل أن نشكره على السراء وأن نصبر على الضراء ومهما يكن فإنني أحمد الله عز وجل أن العالم كله يا عباد الله بشرقه وغربه وشماله وجنوبه قد نددوا واستنكروا وعزوا ما عدا جهتين اثنتين، إسرائيل واحدة منهما، هذا يدعونا إلى مزيد من الثبات وإلى مزيد من شكر الله سبحانه وتعالى على نعمه الظاهرة والباطنة، ولا يفد إلى العبد من المولى إلا النعمة ولكن ربما كانت مقنعة غير مرئية وربما كانت ظاهرة جلية.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

٢٢٢- ينادون بالعودة إلى فلسطين وننادي بالعودة إلى يثرب؟!! |

٢٠٠٨/١١/٢١

ليس من دأبي أن أُسَخِّرَ مثل هذا المنبر في مثل هذا المقام لمعالجة المشكلات السياسية مهما كانت، ولكن عندما تجدُّ حوادث يُسَخَّرُ ويُسْتَخْدَمُ فيها الدين للسياسة في طريقة من المزج شائنة فلابد أن ننتصر في مثل الموقف للدين الحق ولابد أن نحرر الدين الحق من السياسة التي تريد أن تستخدمه وأن تقوده لصالحها، والله المستعان أن يجعل أعمالنا وأقوالنا كلها خالصة لوجهه.

في لقاء ضم طائفة من رؤساء وملوك العالم العربي في أمريكا تحت قيادة وتبريك ولي أمرها الراحل تحت عنوان حوارات الأديان قام فتكلم رئيس الكيان الإسرائيلي الذي كان يتبوأ مكان الصدارة في ذلك اللقاء، قام فقال إن كان هنالك من ينادي بضرورة العودة إلى فلسطين فإننا بدورنا ننادي بضرورة العودة إلى يثرب، أي إلى المدينة المنورة.

ونظراً إلى أن رئيس الكيان الإسرائيلي لم يجد من يجيبه على جرأته هذه التي تجاوزت حدود العدالة والحق وتجاوزت حدود الأدب واللياقة إذاً لابد أن نجيب عن أولئك الرؤساء والملوك الذين تقاصروا أو جبنوا في الإجابة عن هذا الكلام الذي تجاوز أقصى حدود اللياقة، نقول إن عدالة الإسلام رحبت بالقبائل اليهودية التي كانت تقيم في المدينة المنورة في ظل الدولة الإسلامية الفتية التي أعلنها وأقامها رسول الله صلى الله عليه وسلم على أساس من التعايش والتعاون والمساواة التامة، ولقد استصدر رسول الله صلى الله عليه وسلم آنذاك وثيقة تتألف مما يقارب تسعين بنداً، وهي تلك التي تسمى في المصطلح الحديث اليوم الدستور، نص فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم على هذه الحقيقة التي أقولها لكم، جاء فيها ما نصه: يهود بني عوف أمة مع المسلمين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتِغُ إلا نفسه، أي لا يهلك إلا نفسه، البند الذي يليه: على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم وعلى أهل هذه الصحيفة النصر على من حاربهم، هكذا أعلنت عدالة الإسلام وهكذا ترجم الإسلام هذه العدالة إلى واقع، فما الذي حدث بعد ذلك؟

الذي حدث أن الخيانة هي التي قذفت باليهود خارج المدينة المنورة، لا بل إنها سلسلة الغدر والخيانة التي لم تقف عند حد هي التي أخرجت اليهود من المدينة المنورة، بل الذي اقتضى ذلك ميثاق العدالة الذي نص عليه بيان الإسلام والذي نطق واستكتبه رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

إليكم بعض النماذج من هذه الخيانة الفاقعة التي تشمئز منها الإنسانية في أي عصر عاشت وإلى أي مذهب من المذاهب انتمت، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حي يهود بني النضير ليطلب منهم معونة لتقديم الدية لقتيلين قُتِلا خطأً من بني كلاب طبقاً لما تنص عليه الوثيقة أو الدستور الذي حدَّثْتُكم عنه، ولما توسَّطَ بيوتات بني النضير وطلب منهم برفق تقديم المعونة التي تمكنهم قالوا نفعل يا أبا القاسم، وتركوه واقفاً في ظل منزلٍ من منازلهم وبدلاً من أن يأتوا إليه بالعون تراوضوا فيما بينهم واتفقوا على قتله في فرصة سانحة ما مثلها، وقال أحدهم سأعلوا فوق هذا المنزل الذي يقف محمد في ظله ولسوف أطرح عليه صخرة تميته وننتهي من أمره، ولكن الوحي الرباني أخبر المصطفى صلى الله عليه وسلم فتسلل من ذلك المكان عائداً مع صحبه إلى المدينة، ولما سأله أصحابه عن ذلك قال بيت بنو النضير بسوء وغدر وأنبأني الله عز وجل بذلك، فهذه واحدة من صور الغدر بل الخيانة التي غدت مضرب مثل في العالم كله.

وإليكم هذا النموذج الثاني، في غزوة الأحزاب، عندما اجتمعت أحزاب المشركين بتخطيط من اليهود أنفسهم، عندما أحدق المشركون بأحزابهم المختلفة بالمدينة المنورة وأحاطوا بها كإحاطة السوار بالمعصم وخرج المسلمون كلهم ليواجهوا هذا العدوان الذي أطبق عليهم من كل الجهات وليس بينهم وبين أولئك المشركين إلا الخندق كان يهود بني قريظة يعيشون آنذاك آمنين سالمين يتعايشون مع المسلمين في مستوىً واحدٍ من الندية لا يدفعون جزية ولا غرامة، لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، في تلك الساعة الحرجة والمسلمون كلهم تركوا بيوتاتهم ليستقبلوا هذا العدوان الذي أحاط بهم من كل الجوانب يعلن كعب بن أسد القرظي سيد بني قريظة في قومه اليهود، يعلن نقض العهد، يعلن الخيانة، يعلن تمزيق هذا الاتفاق ويعلن الحرب من داخل المدينة المنورة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، بلغ الخبر رسول الله، ما صدق، لا يُصَدَّق! أناس يعيشون في ظل ظليل من الأمن والحرية والمكانة، في ظل من الأساس الإنساني، ليس في حياتهم أي معنى من معاني الدونية ولا التبعية، فيم يعلنون هذه الحرب في أحلك

الساعات وفي أحرج الأوقات! لماذا! إنه الحقد ولا شيء غير الحقد، وبعث رسول صلى الله عليه وسلم من يأتيه الخبر الحق وإذا بالأمر حقيقة، وإذا الأمر يُذْهِلُ الإنسانية تماماً كما أذهل رسولَ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فهذا نموذج آخر يا عباد الله من هذه الخيانة الفاقعة الغادرة التي قذفت باليهود آنذاك إلى خارج المدينة المنورة.

فإن كانت لليهود الإسرائيليين اليوم تَرْبَة وإن كانت لهم دعاية وإن كان لهم حق يريدون أن يحاكموا به فليخاصموا الخيانة التي هي المسؤولة عن إخراجهم من المدينة المنورة، إذا كان لهم خصم يريدون أن يحاكموه في خروجهم من المدينة المنورة فليحاكموا غدرهم وليحاكموا خيانتهم وإنه لطبع قديم متجدد في هذه الطغمة من الناس عرف ذلك التاريخ كله.

على أن المصيبة يا عباد الله لا تكمن في كلمات أفرغتها هذه الطبيعة على لسان رئيس الكيان الإسرائيلي، ليست هذه هي المصيبة التي نقول عنها شنشنة أعرفها من أخزمي ولكن المصيبة أن تواجه كلماته هذه جدراً صامتةً لا تعي ولا تسمع، المصيبة كل المصيبة ألا يوجد في أولئك الذين تجرأ هذا الوقح وقال ما قال أمامهم، ألا يوجد فيهم من يقول هذا الكلام، من يقول لهم إن الذي بوسعكم أن ترفعوا دعواكم عليه إنما هو غدركم، إنما هو خيانتكم، ولكن أحداً لم يواجهه بشيء. وبيان الله سبحانه وتعالى الخالد المخلد يتكرر على أسماعنا يصور لنا هذا البلاء الذي واجه المسلمين من خارج المدينة ثم تفجر عليهم من داخل المدينة ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا، هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً﴾ [الأحزاب: ١٠-١١].

والذي أريد أن أقوله أيها الإخوة آملاً أن نقطف جميعاً من هذا الحديث العبرة والدرس اللذين ينبغي أن نستفيد منهما في مشكلاتنا المتجددة اليوم هو أن هذا العدوان الذي أحاط بالمدينة المنورة من خارجها إلى جانب هذا الغدر القذر الذي تفجر من داخل المدينة المنورة كل ذلك لم يُصِبْ المسلمين بأي رشاشٍ من أذىً أو ذل أو هوان، وأنتم تعلمون النصر الذي قَيَّضَهُ الله عز وجل للمسلمين يوم الخندق، يوم غزوة الأحزاب، لا الحرب الخارجية استطاعت أن تنال من المسلمين منالاً ولا الغدر الداخلي استطاع أيضاً أن ينال هو الآخر من المسلمين منالاً، كيف ذلك؟

إنما كان ذلك بنصر من الله عز وجل تنزل عليهم من علو، إنما كان ذلك بتأييدٍ من الله عز وجل وفَّى الله عز وجل به وعده الذي قطعه لرسوله ولأصحابه الذين من حوله، ولكن ماذا كان ثمن ذلك النصر؟ هذا ما ينبغي أن نعلمه، كان ثمن هذا النصر بعد الإعداد الذي لابد منه، وحسبكم من مظاهر هذا الإعداد حفر المسلمين للخندق، الكل، وفي مقدمتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤدي هذا الواجب المادي، هذا الإعداد المادي ولكن الثمن من وراء ذلك هو صدق الالتجاء إلى الله، صدق التعامل مع الله، صدق البيعة لله عز وجل، إعلان العبودية لله سبحانه وتعالى لا بألفاظ تقليدية متكررة تعوَّدَ عليها اللسان ولكن بسلوك وبقلب مفعم بتعظيم الله عز وجل وتعظيم حرماته والتمسك بمبادئه.

ماذا فعلت خيانة اليهود، يهود بني قريظة؟ ما فعلت شيئاً، ما فعل غدر بني النضير الذين خططوا لقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن طريق صخرة يلقونها عليه من علو، ما فعل كل ذلك شيئاً لأن ربك بالمرصاد، لأن الله سبحانه وتعال وليُّ كل من انتصر لدين الله عز وجل: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠]، كان ذلك واجباً، لعل المسلمين جميعاً وقعوا في إثم عدم القيام به عندما نطق ذلك الإنسان رئيس الكيان الإسرائيلي بما نطق به يطلب العودة إلى مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فرضٌ كفائي كان عليَّ أن أرفعه عن كاهلنا وكاهل الأمة الإسلامية كلها بهذه الإجابة التي أسأل الله أن تبلغ مشارق الأرض ومغاربها.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

٢٢٣- جند من جنود الله يستيقظ | ٢٠٠٩/٠٥/٠١

إن من سنن الله عز وجل في عباده أنه إذا استشرى الطغيان بالطغاة، وركبوا رؤوسهم في الاستكبار على الله وعلى عباد الله، واستمر بهم الأمر على هذه الحال إلى أن جاء الميقات المحدد في علم الله عز وجل لإهلاكهم، أرسل إليهم من وسائل الإهلاك والدمار أحقرَ ما لا يقيم الناس له وزناً، وأتفه ما لا يأبه به هؤلاء الطغاة بل الناس جميعاً، تلك هي سنة من سنن الله عز وجل، وها أنا أضعكم أمام نماذج وأمثلة من ذلك جسدها التاريخ، وأحصاها وخلَّدها بيان الله عز وجل في محكم تبيانه للعبرة والعظة.

أبرهة ذاك الذي قاده استكبارُه إلى مكة ليطيح ببيت الله الحرام، واستاق معه جنداً من الطغاة تتقدمهم الفيلة العظيمة التي جاء بها، وصل إلى مكة وأهلكه الله عز وجل، ولكن بماذا أهلكه؟ هل أرسل عليه جنداً آخَرَ أخرجه له من باطن الأرض؟ أم هل أنزل له فيلة أخرى من السماء لتتغلب على فيلته؟ لا، وإنما أرسل أليه طيوراً من جهة البحر سَدَّتْ الأفق الذي أمامه، طيور صغيرة جداً تحمل في مناقيرها وبين أظافرها حصاً صغيرة تقذف بها أبرهة وجنده، ما تصيب الحصا منهم واحداً إلا فعلت فيه أشد مما تفعله الرصاصة اليوم، وعاد أبرهة مسرعاً فاراً إلى بلده، ولم يصل إلى ذلك المكان إلا وقد تناثر جسمه وحاق به الهلاك، ولعلكم تعرفون أن الشعر الجاهلي خَلَّدَ هذه الحادثة في شعر أمية بن الصلت وكثيرٍ من الشعراء الآخرين، ولماذا أستشهد بالشعر الجاهلي ولا أُذَكِّرُكُمْ بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ، أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ، وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ، تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ، فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾ [الفيل: ١-٥].

وها هو ذو نواس الذي تألَّه ودعا الناس في نجران إلى عبادته من دون الله عز وجل، ولكن كثيراً من قومه أصرّوا على عبادة الله الواحد الديّان، وأنكروا ألوهيته، فحفر لهم خنادق في الأسواق وملأها بالنيران الملتهبة، وقذف بهؤلاء المتمردين على ألوهيته في تلك النار، ولما جاء ميقات إهلاك الله عز وجل له ما الذي كان وسيلةً لإهلاكه، لم يواجه الله عز وجل طغيانه بجيش لَجِبٍ، بل أرسل وباءً إليه وإلى جنده،

ولما رأى الوباء يطوف به وبجنده اتجه إلى البحر متصوّراً أن هواء البحر فيه منجاة من هذا الوباء، ولكن البحر استقبله ليختنق فيه.

وها هو ذا فرعون الذي استكبر وطغى واستكبر على الرسالة التي حملها إليه سيدنا موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام، لما طال به الاستكبار بماذا عالج البيان الإلهي بل الحكمة الإلهية استكباره؟ يقول عز وجل: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ﴾ [لأعراف: ١٣٣]، لم يحتجِ استكبارُ فرعونَ وجنودِه إلى شيء أكثر من هذا ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ﴾. قال جُلُّ المفسرين: المراد بالطوفان الوباء الذي طاف به وبجنده ﴿وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ﴾ هذا هو الذي أرسله الله سبحانه وتعالى إليه.

وتعالوا إلى قصة نمرود التي اجتمعت محكمته وقضت بإحراق سيدنا إبراهيم خليل الرحمن بالنار، وجريمته التي اقتضت ذلك أنه حطم الأوثان والأصنام، قضت محكمة النمرود بإحراق إبراهيم في النار، ولكن محكمة الله نطقت قائلة: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [الانبياء: ٦٩]، ثم إنَّ محكمة الله عز وجل عادت فقضت بأن يتم هلاك النمرود ببعوضة، ببعوضة واحدة لم تخطئ أنفه، دخلت أنفه وتغلغلت منه إلى مخه وعشعشت هذه البعوضة في مخه، فكان يعاني من جراء ذلك من مرض وبيل، وكان أعز الناس عنده أولئك الذين يضربون رأسه بالنعال أو بما شابه ذلك، وإن هي إلا أيام حتى قضى نحبه.

تلك هي سنة الله عز وجل في عباده بالأمس، وهي ذاتها سنة الله في عباده اليوم، وصدق الله القائل: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ [الفتح: ٢٣]، فيروس إنفلونزا الخنازير، هذا الاسم مهما ابتغى له الباحثون معنى وتحليلاً علمياً مختلفاً فلن تجدوا لهذا الاسم إلا مسمى واحداً في الحقيقة، إنه جندٌ من جنود الله عز وجل يرسله في الميقات الذي يشاء على المستكبرين من عباده ليستيقظوا إلى هوياتهم عبيداً مملوكين لله عز وجل، إنه جند من جنود الله عز وجل يخترق به ترسانة القوى الوهمية التي يستكبر بها هؤلاء الذين يحشدون قوى الهلاك والدمار يُذِلُّون بها عباد الله، يستلبون بها حقوق

المستضعفين، وقد ظنوا أنهم استطاعوا بذلك أن يضعوا الكرة الأرضية تحت آباطهم، وظنوا أنهم قادرون على أن يقودوا الناس بأزِمَّةِ العولمة التي ابتدعوها واخترعوها كما يشاؤون.

إنه، هذا الفيروس، جند من جنود الله كتلك الجنود التي أهلك الله بها أبرهة، والتي أهلك الله بها ذا نواس، والتي أهلك الله سبحانه وتعالى بها أولئك الطغاة الآخرين. هذه الحقيقة ينبغي أن نقولها لنجتث منها العبرة، ولنقطف منها الدرس الذي يحب الله عز وجل منا أن نتبينه ونعلمه.

قالوا: إنها حقيقة طبيعية، وراحوا يشرحون ويتكلفون لبيان خلفيات هذا الذي يسمونه الفيروس، وأنا أقول: أكان هذا الفيروس المتوضع في الخنازير موجوداً أم لم يكن؟ ما له كان راقداً إلى اليوم؟ وما الذي دفعه إلى اليقظة في هذا الميقات بالذات؟ لقد علمنا أنه قبل عصور طويلة خلت استيقظ هذا الفيروس مرة، وفعل ما فعل، وأتلف ما أتلف، وهلك ما هلك، ثم عاد إلى الرقاد، ما الذي جعله يستيقظ حيث نفاجَئ ولا نعلم لذلك سبباً؟ وما الذي جعله يرقد رقدة الموت حتى لكأنه غير موجود؟ هذا السؤال ينبغي أن نصغي إلى الجواب العلمي عنه، إنها حقيقة، جند من جنود الله موجود يتلقى الأمر من مولاه وخالقه ليتحرك في الوقت الذي يشاء، ولينفذ الأمر الذي يُوَجَّهُ إليه كما يشاء، وليتلف من يتلف، وليبقي من يبقي، وعندما يتلقى هذا الجندُ الأمرَ من الله بأن يعود إلى مرقده يعود إلى مرقده.

عباد الله، نحن اليوم بأمس الحاجة إلى أن نستيقظ إلى عبوديتنا، أما نحن فإنا نعجز عن الشكر اللائق لمولانا وخالقنا أن جعلنا لا نبصر الكون إلا من خلال مكونه، ولا نرى الأسباب إلا ويد الله سبحانه وتعالى هي المحرك لها، نحن نعتز بإيماننا هذا، ونسأله سبحانه أن يبقي نعيم هذا الإيمان في عقولنا ووجداناً في قلوبنا إلى أن نلقاه، إلى أن نقف بين يديه، أما الآخرون فها نحن نتوجه إليهم، لعل حديثي يبلغهم أو يبلغ من قد يبلغهم: يا أيها الناس الفرصة باقية لم تُطْوَ بعد، عودوا، قفوا أمام مرايا ذاتكم ليقف كل واحد منكم أمام مرآة ذاته، ليتذكر أنه عبد، أنه ضعيف، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ، إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [فاطر: ١٦]

يا أيها الناس، لا تسكروا بالقوة التي أودعها الله عز وجل لديكم إلى حين، إنها قوة الله، لا تسكرنكم القابليات والإمكانيات التي متعكم الله بها إلى حين، إنكم تنفعلون بها ولكنكم لا تفعلونها، إنها غُرِسَتْ

في كياناتكم كما لا تعلمون، ولسوف تودعكم إلى غير رجعة كما لا تعلمون، ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً، لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً، وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً﴾ [مريم: ٩٣_٩٥]

جنود الله سبحانه وتعالى كثيرة، الهواء الذي ننتعش به ونمارس عن طريقه الشهيق والزفير جند من جنود الله، إن شاء جعله سبب هلاكنا، الماء الذي جعله الله أساس كل حياة ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠] ما أسرع ما يجعله الله سبباً للهلاك، هذه الدويبة الصغيرة، البعوضة التي قال الله عز وجل عنها: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: ٢٦] إذا شاء الله عز وجل أهلك بها أمة بقضها وقضيضها. ما أضعف الإنسان، وما أشد ضعفه عندما ينسى ضعفه ويسكر بقوة لا علاقة له بها، قوةٍ أمتعه الله بها إلى حين.

اللهم لا تحجبنا عن هوياتنا عبيداً لك، اللهم أكرمنا بذل العبودية لك، اللهم إذا رحلنا إليك اجعل من يقين عبوديتنا لك خير شافعٍ يشفع لنا ويصفح عن تقصيرنا في جنبك، أقول قولي هذا.

وأستغفر الله العظيم.

٢٢٤- دور المسجد في بناء المجتمع الإنساني المتماسك السليم |

٢٠٠٩/٠٥/٢٩

إن مما يلفت النظر أن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما هاجر من مكة إلى المدينة المنورة، واستقر له المقام فيها، واتجه إلى إقامة أول مجتمع إسلامي، واتجه إلى بنائه على أركانه الثلاثة الكبرى بدأ من ذلك كله بالمسجد، مع العلم بأن من المتوقع –كما نعرف اليوم – أن يبدأ باستكتاب الوثيقة أي الدستور كما يُعَبَّرُ عنها اليوم، أو بعقد رباط الأخوة بين المسلمين بعضهم مع بعض وبين المهاجرين والأنصار، ولكنه صلى الله عليه وسلم لم يبدأ بهذه ولا بتلك، وإنما بدأ بالأمر بالمسجد، خطط للمسجد، وعيّن له مكاناً، وأمر أصحابه بالمبادرة والإسراع إلى بنائه، فلماذا وهو الذي يقول فيما صح عنه: ﴿جُعِلَتْ لي الأرض مسجداً وطهوراً﴾، أينما حل ميقات الصلاة للإنسان أن يصلي في ذلك المكان.

لماذا أسرع إلى هذا الركن من أركان المجتمع الإسلامي قبل الركن المهم الذي يتمثل في الدستور ويتمثل في عقد رباط الأخوة بين المسلمين؟ الجواب عن هذا – يا عباد الله – أن المجتمع لا يمكن له أن يتماسك وأن تترسخ جذوره إلا بالانضباط بالأخلاق الإسلامية، وإنما تنضج الأخلاق الإسلامية داخل المسجد، والمجتمع الإسلامي لا تترسخ جذوره ولا يتماسك وجوده إلا عن طريق الود والتراحم والتآلف، وإنما ينضج ذلك أيضاً في رحاب المسجد، والمجتمع الإسلامي لا يمكن أن يتكامل بنيانه، ولا يمكن أن تترسخ جذوره إلا بوجود مبدأ العدل والمساواة وخضوع المجتمع لقانون كل منهما، ولا يمكن أن ينضج العدل ولا أن تنضج المساواة إلا في رحاب المسجد، والمجتمع الإسلامي لا يمكن أيضاً أن يتماسك بنيانه ولا أن تترسخ جذوره إلا بالوحدة، وحدة الأمة تلتقي على حبل الله سبحانه وتعالى الذي أمر الله عز وجل بالاجتماع عليه، ولا يمكن للوحدة أن تنضج إلا في داخل المسجد.

هذه حقيقة ينبغي أن نعلمها، وذلك هو السر في أن المصطفى صلى الله عليه وسلم بدأ ببناء المسجد، وجعله أول ركن وأخطر ركن من أركان المجتمع الإسلامي، وانظروا في هذا إلى قول الله عز وجل: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾

[لأعراف: ٢٩]، ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ تعبير عن أدق معاني العبادة والعبودية لله عز وجل، ربط البيان الإلهي بين العبادة والمسجد لهذا السبب الذي أقوله لكم، ولما كان المسجد يؤدي هذه المهام الأربع التي حدثتكم عنها، أمر ربنا عز وجل بسبب ذلك كلاً منا إذا اتجه إلى المسجد أن يزَّيَّن، وأن يتطيب، وأن يتهيأ لكل ما ينبغي أن يوجد من أجل الإيناس ومن أجل تحقيق رسالة المسجد التي حدثتكم عنها، أليس هو القائل: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [لأعراف: ٣١] لأنك عندما تأتي إلى المسجد إنما تمد آصرة الود والإخاء والمؤانسة والمساواة بينك وبين إخوانك، ولا يتم ذلك إلا بهذه الآداب التي يلفت البيان الإلهي النظر إليها.

هذا باختصار، أما تفصيل ذلك بالقدر الذي يسمح به مثل هذا المقام فاسمعوا يا عباد الله، المجتمع الإنساني لا يمكن أن ينهض إلا عن طريق خدمات متنوعة مختلفة، ومن جرَّاء ذلك لا بد أن يختلف الناس في اختصاصاتهم، ولا بد أن يتفاوتوا في رتبهم، ولا بد أن يتفاوتوا في معاشاتهم ودخلهم، هكذا يقتضي التعاون الذي أقام الله عز وجل المجتمع الإنساني على أساسه، ولكن ما السبيل إلى أن يعلم الإنسان أن مظاهر التفاوت هذه التي تقتضيها الخدمات الاجتماعية إن هي إلا مظاهر زائفة، وأننا إذا طرحناها وعدنا بها إلى حقيقة الإنسان وجدنا الناس كلهم سواسية كأسنان المشط، وأنهم جميعاً يتساوون في الهوية عبيداً لله؟ ما الذي يُنَبِّه الإنسان إلى أن الرتب التي يقتضيها المجتمع في أسواقه وحوانيته وشوارعه ودوائره إن هي إلا رتب زائفة ما ينبغي أن يُخْدَعَ الإنسان بها؟ إنه المسجد الذي يلفت نظر الإنسان إلى ذلك، المسجد هو الذي ينبهك إلى أن كل تلك الرتب زائفة عارضة وتزول.

تأملوا – يا عباد الله – عندما يدخل الداخلون إلى المسجد وهم رتب متفاوتة، مستويات مختلفة، لا بد أن يضع كل واحد منهم رتبته ومكانته حيث يضع حذاءه ويدخل إلى رحاب الله مجرداً من ذلك كله، مجرداً من شاراته، مجرداً من مكانته، مجرداً من وظيفته مهما تسامت، مجرداً من غناه وأبهته، كل ذلك يتجرد عنه، ويقف بين يدي الله عز وجل عبداً ذا هويةٍ أصلية هي الأساس، وينظر عن يمينه وشماله، وإذا الكل قد تساووا على هذه الشاكلة.

يدخل الداخل إلى المسجد، وربما كان غنياً من الأغنياء، وربما كان مترفاً من المترفين، وربما كان ذا مكانة باسقة في دائرته أو بين قومه، يدخل ولا يمكن أن يصلي إلا حيث انتهى به الصف، يقف فيصلي

ويسجد، ولعل رأسه تكون بين قدمي رجل لو رآه في الطريق لما التفت إليه، ينظر فيجد أن رأسه الساجد لله قد أصبحت بين قدمي إنسان يقدمه في الصف، رجل لا يؤبه به، مدفوع في الأبواب، كما قال المصطفى صلى الله عليه وسلم، هل يستطيع أن يحتج؟ هل يستطيع أن يغير من هذه الحقيقة شيئاً؟ لا، وهذا يتجدد كلما تكرر دخول الإنسان على اختلاف الرتبة إلى المسجد، وتعهد نفسه بالإقبال إلى المسجد كل يوم خمس مرات كما شرع الله سبحانه وتعالى ونبه، ما الذي يحدث؟ يتجرد هؤلاء الناس من عوارض مراكزهم وأبهاتهم ومستوياتهم، ويعلمون أنها أمور عارضةٌ ينبغي أن تُلْقَى حيث تُلْقَى الأحذية، فإذا خرج عاد فاستعمل هذه الرتب من أجل المصالح، من أجل إزجاء حاجات المجتمع، وتحقيق مبادئ التعاون الذي ينبغي أن يكون فيه.

الذين يختلفون إلى المسجد ليؤدوا الصلاة التي شرعها الله عز وجل جماعة في المسجد لا فرادى في بيوتهم تذوب الفوارق المختلفة شيئاً فشيئاً مما بينهم وبين الآخرين، وتمتد وشيجة التآنس بين التاجر الكبير والفقير الصغير، بين الموظف الكبير والإنسان الذي لا يؤبه له، تسيل وتسير جسور القربى والتآنس والتعارف بينهم، وهكذا تذوب في المسجد الفوارق المختلفة التي نراها في المجتمع والأسواق والدوائر ونحو ذلك، وعندما يكون أحدهم ممن يغشى المسجد دائماً وهو ذو مكانة عالية يلتفت في كثير من الأحيان يميناً وشمالاً فيجد مسكيناً من المساكين الذين كانوا أيضاً يجتمع بهم في رحاب هذا المسجد وإذا به يفتقده، يبحث عنه يوماً ويومين وثلاثة أيام فلا يراه، يسأل عنه، يُقَال له: إنه مريض، وإنه في بيته لا يستطيع أن يخرج إلى الصلاة، فيقول: أما ينبغي أن نزوره؟! أما ينبغي أن نعوده؟! يخرج هو وصحبٌ له من المسجد إلى زيارته، ما الذي جعله وهو ذو مكانة باسقة يبحث عن مثل هذا الإنسان المسكين الفقير، ويجد حاجة ماسة في نفسه وبين جوانحه إلى أن يزوره وإلى أن يعوده؟ المسجد، ولو أن هذا الإنسان لم يكن يلتفت إلى المسجد، ولم يكن من روّاده لما شعر بهذه الطبقة من الناس، ولما شعر بوجود مسكن أو فقير ينبغي أن يسلم عليه، فضلاً عن أن يدخل داره، فضلاً عن أن يزوره.

أرأيتم إلى المسجد ماذا يصنع؟ بوتقة تنضج فيها الأخلاق، بوتقة تنضج فيها مشاعر الود والرحمة، بوتقة تنضج فيها مبادئ المساواة والعدل، بوتقة تنضج فيها الوحدة، وانظروا إلى سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم وأصحابه، هل تلاقت فيما بينهم مشاعر الود إلا في المسجد؟ هل صفت قلوبهم من فوارق

القومية والعصبية والعرقية وما إلى ذلك إلا في المسجد؟ هل عاشوا جسداً واحداً وقلباً واحداً ينبض بشعور واحد إلا في المسجد　تلك هي رسالة المسجد - يا عباد الله - وهذا هو السبب في أن المصطفى صلى الله عليه وسلم أعلن أن صلاة المرء جماعةً في المسجد تفضل صلاة الفذ، أي الفرد، سبعةً وعشرين درجة، من أجل هذا ينبغي أن نتواصى بالاهتمام بالمساجد والاختلاف إليها، ينبغي أن نجعل في كل سوق تجارية، أو بناء ينهض للتسوق، مسجداً أو مصلى في داخلها، ينبغي أن يكون في كل دائرة مسجد يتلاقى فيه الإخوة ليزداد شعور الأخوة فيما بينهم، ينبغي ألا تكون هنالك مؤسسة إلا وفي داخلها مصلى ينهض بهذه الرسالة التي حدثتكم عنه.

هذه هي وظيفة المسجد، وإني لأسأل الله عز وجل أن يوقظنا للتحقق بهذه الرسالة، ولرفع مستوى مساجدنا إلى تحقيق هذا المعنى الذي شرعه الله عز وجل والذي لَفَتَ نَظَرَنَا إليه عندما قال: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ﴾ في المساجد ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩] إن بدأتم على هذه الشاكلة تعودون إلى الله برحمة وصفح.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله.

٢٢٥- الوازع الديني وتأثيره في الأمة | ١٤/٠٨/٢٠٠٩

مما لا ريب فيه ومما لا يسري إليه الشك أن الوازع الديني في النفس كلما ازداد قوةً ازدادت الأمة تضامناً، وازدادت تعاوناً في سبيل الخير ودرء الشر، وازدادت عوامل الودِّ فيما بينها، ومما لا ريب فيه أن الوازع الديني كلما ضَعُفَ وتراجع لا بد أن يتراجع التضامن من جرَّاء ذلك في حياة الأمة، ولا بد أن يتحول التعاون في سبيل الخير إلى خصامٍ وتهارج، ولا بد أن تنقطع جذور الود وخيوطه السارية فيما بين الأفراد، وتتحول العلاقة فيما بينهم إلى أنانية، ولا بد أن يتحول الإيثار إلى أثَرَة، ولا بد أن يتحول التعاون إلى أنانية وجهود يبذلها كل إنسان في سبيل مصلحته الشخصية، ومن هنا تتهارج الأمم، ومن هنا يتفاقم البلاء، هذا ما يفعله الوازع الديني في حياة المسلمين عندما يوجد، وهذه هي الآثار التي تتجلى في الأمة عندما يغيب الوازع الديني.

وانظروا يا عباد الله كيف لَفَتَ رسول الله صلى الله عليه وسلم أنظارنا إلى هذه الحقيقة في هذا الحديث الذي يرويه مسلم وغيره من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، يدعو فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى التضامن وإلى الود وإلى التعاون في سبيل الخير، ولكنه صلى الله عليه وسلم يقحم في أثناء هذه الوصية ويبين لنا العلاج الذي لا بد منه لتنفيذ وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم، إنه يقول: ﴿المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله ولا يسلمه﴾. ثم إنه يأتي بعبارة خارجة عن الموضوع فيقول: ﴿التقوى هاهنا، ويشير إلى صدره، التقوى هاهنا﴾ التقوى هاهنا، ثم يعود فيتمم وصاياه ويقول: ﴿بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم﴾ لماذا يقحم رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث عن التقوى في سلسلة من الوصايا لا علاقة لها بالتقوى، يقول: ﴿المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يسلمه﴾ ثم يقول: ﴿بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم﴾ فما الذي دعاه إلى أن يقحم هذه الجملة الاعتراضية فيقول: ﴿التقوى هاهنا﴾ ثم يكررها ثلاثاً مشيراً إلى صدره؟ كل ذلك كي يبيّن لنا المصطفى عليه الصلاة والسلام أن وصاياه هذه لا يمكن أن تُنَفَّذَ، وأن الأمة لا تستطيع أن تطبق هذه الأوامر التي يخاطبها بها إلا إذا وُجِدَ الوازع الديني، وإنما يوجد الوازع الديني عن طريق التقوى إذ تهيمن على الفؤاد.

وما هي التقوى هذه الكلمة التي يكررها كثيراً بيان الله سبحانه وتعالى؟ إنها بكلمة موجزة بسيطة الخوف من سخط الله عز وجل، الاتقاء من أسباب سخط الباري عز وجل، عندما يهيمن الخوف من سخط الله عز وجل على الفؤاد فقد هيمنت عليه التقوى، وإذا وُجِدَتْ التقوى فقد وُجِدَ الوازع الديني، عندئذٍ ينفذ المسلمون هذا الذي يقوله المصطفى صلى الله عليه وسلم: ﴿المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يسلمه﴾ إلى آخر ما ذكر المصطفى صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

أيها الإخوة، لعل فيكم من قد يقول: ولكن الوازع الديني بحمد الله موجود في مجتمعاتنا، ولا أدل على ذلك من أن كتاب الله عز وجل يُتْلَى في وسائل الإعلام صباح مساء، ولا أدل على ذلك من الاحتفالات التي تُقَام ولا تنتهي بالمناسبات الدينية المختلفة، ولا أدل على ذلك من الخطب التي تُلْقَى في مثل هذه المناسبة، والجواب عن هذا، أن الوازع الديني ينبع من الداخل -يا عباد الله- ولا يأتي إلى الإنسان من الخارج، الوازع الديني لا يتّجه إلى الإنسان من الخطب الرنانة التي يلقيها واحد مثلي، الوازع الديني لا يسري إلى القلب عن طريق الأصوات المفخمة الجميلة التي تتبارى بتلاوة كتاب الله، الوازع الديني لا يسري إلى الفؤاد عن طريق تسابق الناس إلى طباعة المصاحف والتفنن في زخرفتها وما إلى ذلك مما تعرفون، وإنما ينبع الوازع الديني من الداخل، من الفؤاد، فهل يوجد هذا الوازع الديني بهذا المعنى الذي أقوله لكم في مجتمعاتنا الإسلامية والعربية؟ لعلكم جميعاً تعلمون الجواب، عندما تعلمون أن الوازع الديني ثمرة التقوى، وأن التقوى شيء ينبع من داخل الفؤاد الذي هو محل الحب ومكان الخوف من الله سبحانه وتعالى.

عباد الله، إن مشكلتنا التي تجعل مجتمعاتنا محلاً للفساد الذي يستشري أشكالاً وألواناً، إن مشكلتنا التي تتمثل في الخصومات بدلاً من التضامن، في التدابر بدلاً من التعاون، ولا أريد أن أفصل، ولا أريد أن أضع النقاط على الحروف، هذه المشكلات التي نقوم ونقعد بالحديث عنها، والتي تتحدث عنها وسائل الإعلام في عالمنا العربي والإسلامي صباح مساء ما سببها؟ سببها باختصار غياب الوازع الديني من أفئدة الناس الذين تتكون منهم هذه المجتمعات، مجتمعاتنا العربية والإسلامية. ولو وُجِدَ هذا الوازع لتحول الإفساد إلى إصلاح بكل أشكاله، لو وجد هذا الوازع لتحول الخصام إلى وئام، لو وجد هذا الوازع

لتحولت الأنانية التي تهيمن على الأفراد إذ يتهارجون ويتسابقون في سبيل المصالح الفردية، يتحولون إلى أناس يتسابقون بالإيثار بدلاً من الأثرة.

والذي أريد أن أنتهي إليه الآن هو الجواب عن السؤال الذي لا بد أن يقفز إلى ذهن كل واحدٍ منا ألا وهو: فكيف السبيل إلى غرس هذا الوازع الديني في القلوب حتى نتحرر من الفساد الذي نعاني؟ سبيل ذلك -يا عباد الله- باختصار وإيجاز يتمثل في الإكثار من مراقبة الله عز وجل، وأشد ما يوقظ الإنسان إلى مراقبة الله أن يضع أحدنا الموت نصب عينيه دائماً، وأن يعلم أن شبابه إن كان شاباً لن يبق له، وأن كهولته إن كان كهلاً لن تصاحبه إلى المدى الذي لا نهاية له، وأن شيخوخته تؤذنه بالرحيل، وأن الموت لا بد أن يقرع بابه، وإذا جاء الموت انكشف الغطاء، إذا جاء الموت ارتفع الستر الذي كان يحجب الإنسان عن حقيقة هويته وعن كينونته وعن وظيفته التي أقامه الله عز وجل عليها، وصدق الله القائل: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ، وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾ [قّ: ٥٠/٢٠]. الدواء الأول إذاً من أجل أن نغرس الوازع الديني بين جوانحنا رقابة الله سبحانه وتعالى، وروح هذه الرقابة أن نتذكر الموت، والموت لا يعرف طفلاً، ولا يفرق بين شاب وكهل، ولا بين كهل وشيخ أبداً يا أيها الإخوة.

العلاج الثاني: الإكثار من ذكر الله سبحانه وتعالى، الإكثار بإحياء القلب بنبضات الذكر لله عز وجل، وسيد أنواع الذكر الصلاة إذ يتقرب بها الإنسان إلى الله سبحانه وتعالى، التي هي -كما قلت لكم في الأسبوع الماضي- شبكة الاتصال بالله عز وجل.

عباد الله، أقول لكم كلمة مختصرة توضح لكم دور الصلاة بوصفها نوعاً من أجلّ أنواع ذكر العبد للرب، إن هذه الصلاة تنتشل الإنسان من أسباب اللهو، ومن أسباب النسيان، ومن التقلب في حمأة هذه الحياة الدنيا، كلنا بحاجة إلى أن نخرج إلى السوق ونقصف ونشتغل ونعود بالرزق الوفير إلى أهلينا، بل كلنا مكلف بأن نقيم الحضارة الإنسانية المثلى على النحو الذي أمرنا الله إذ قال: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١/١١] لكن عندما أدخل في تيار الحياة الدنيوية، وأدخل في مشاغلها التجارية والزراعية والاجتماعية والسياسية المختلفة لا بد أن أُشْغَلَ بها، ولا بد أن تقحمني في نسيان ولهو.

فما الذي يجعلني أتعامل معها وفي الوقت ذاته أتحرر من غوائلها؟ الصلاة. عندما تنفض يدك من عملك الدنيوي في اليوم خمس مرات، وتتجه إلى الله سبحانه وتعالى واقفاً بين يديه، راكعاً ساجداً داعياً منكسراً متذللاً، فإن حمأة الدنيا لا تستطيع أن تهيمن عليك، وإن عدت بعد ذلك إلى سوقك وإلى تجارتك وعملك، بعد قليل يدخل ميقات الصلاة الثانية، تنفض يدك مرة أخرى من عملك الدنيوي، وتقبل إلى الله عز وجل، وهكذا كلما أوغلت في حمأة الدنيا عدت إلى ربك سبحانه وتعالى تذكره من خلال صلاتك، وإذا أنت نقي، وإذا أنت صافٍ من أسباب اللهو والنسيان، وهكذا يستطيع المؤمن أن يجمع بين دنياه وآخرته عن طريق هذا النوع من الذكر القدسي العجيب ألا وهو الصلاة، ومن أجل هذا يركز البيان الإلهي أيما تركيز على الصلاة، ألم تقرؤوا قوله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه: ١٣٢/٢٠]، ألم تقرؤوا قوله: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤/٢٠] كم هي محببة هذه الجملة إلى الإنسان وإلى النفس، كم يتحبب الله إلى عبده من خلال هذا الكلام ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾، ألا تريد أن تتذكر هذا الذي ينعم عليك؟! ألا تريد أن تتذكر هذا الذي يبعث إليك رسائل حبه، رسائل إنعامه؟ لا بد أن يكون الجواب: بلى يا رب، أحب ذلك، إذاً تعال إلى استضافتي التي أدعوك إليها في اليوم والليلة خمس مرات، ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾، كي تذكرني فأذكرك، كي تذكرني من حمأة هذه الدنيا فأذكرك بالعطف، أذكرك بالتوفيق، أذكرك بالنصر على نفسك، أذكرك بالنصر على أعدائك، ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥/٢].

هذا هو العلاج الثاني -يا عباد الله-، أما العلاج الثالث فهو الابتعاد عن المحرمات، ابتعدنا عن المحرمات كلما صفت نفوسنا، وتألقت قلوبنا بالوازع الديني، وكلما استدرجتنا المحارم وجُذِبْنَا إليها ابتعدنا عن هذا الوازع الديني، الوازع الديني أيها الإخوة هو العلاج ولا وبديل عنه. كثيرون هم الذي يجادلون بالباطل، وربما يستخفون بما نسميه الوازع الديني عند الحديث واللجج، ولكن انظروا لو أن رجلاً ملحداً كانت له تجارة، واحتاج إلى موظف يقف على صندوقه المالي. من الذي يختاره هذا الملحد؟

أنا أعلم وأنتم تعلمون أنه ينتقي من بين الناس أكثرهم تديناً، وأكثرهم التزاماً بأوامر الله، وإن قيل له عن زيد من الناس: إنه لا يصلي ولكنه أمين، أما الآخر فهو يحافظ على صلاته، يترك الأول ويتمسك بأذيال الثاني وهو ملحد، ذلك لأنه يعلم أن الإنسان الصادق في تعامله مع الله، يعلم أن الإنسان الصادق

في بيعته لله عز وجل لا يخون مولاه، لا يخون ربه سبحانه وتعالى، ومن ثم لا يخون عباد الله، هذه حقيقة نعلمها، فلماذا نتجاهل الحقائق؟ لماذا لا نُهْرَعُ إلى هذا الدواء؟ نحن بحاجة إلى أن نتخلص من مظاهر الفساد في مجتمعاتنا وما أكثرها، نحن بحاجة إلى أن نمد جسور الوئام والود فيما بيننا بدلاً من الخصام، ما السبيل إلى ذلك؟ لا يوجد أي سبيل إلى ذلك في حياتنا نحن الأمة الإسلامية والعربية إلا الوازع.



٢٢٦- النظام التكويني والنظام التشريعي | ٢٠٠٩/٠٩/٢٥

تعالوا بنا إلى هذا المثل الذي لا بد أن نقرب به حقيقة عظمى ولله المثل الأعلى، شركة أبدعت جهازاً للتو من الأجهزة التي يحتاج إليها الناس في أعمالهم وشؤونهم، وبُثَّ هذا الجهاز بين الناس وسُوِّقَ في المدن والبلاد المختلفة، لا بد أن تجد مع هذا الجهاز ومقروناً به كتيباً، يتضمن هذا الكتيب كيفية استعمال هذا الجهاز على النحو السليم، وكيفية المحافظة عليه، والسبيل الأمثل لصيانته، ولا ريب أن من أدرك ضرورة شكر هذا المصنع الذي أخرج هذا الجهاز وأبدعه يدرك في الوقت ذاته ضرورة شكر هذا المصنع إذ قدَّمَ للناس مقروناً به كيفية استعماله وطرق صيانته وسبل المحافظة عليه، هذه حقيقة ما أحسب أن في الناس من يمتري بها ويرتاب.

تعالوا نتجاوز هذا المثل إلى الحقيقة التي أريد أن أضع نفسي وإياكم أمامها، هذا الكون الذي أقامنا الله عز وجل فيه هو الجهاز الأكبر الذي نتقلب في غماره، ولا يمكن لعاقل أن لا يتبين مدى رحمة الله بعباده من خلال هذا الجهاز الذي أخضعه لحاجات الإنسان، انظر إلى العالم العلوي والأفلاك التي تتحرك لخدمة الإنسان والتي ينقسم الزمن من خلال حركتها إلى ليل ونهار، هذا الجهاز الذي يطيل الليل عندما يحتاج الإنسان إلى طوله على حساب النهار، ويطيل النهار عندما يحتاج الإنسان إلى طوله على حساب الليل، هذا الجهاز الذي يتمثل في الهواء الساري ما بين السماء والأرض خدمة للإنسان وحياته، هذا الجهاز الذي يتمثل في الأرض التي وطَّأها الله سبحانه وتعالى، وجعلها مهاداً تحت أقدامنا، وجعلها كنزاً للمدخرات المختلفة المتنوعة التي نحتاج إليها من عروق مياه، من معادن مختلفة، ثم هذه الأرض التي فجَّر منها النباتات المتنوعة المختلفة، والتي تقدم للإنسان احتياجاته المتنوعة من الثمار والفواكه والأغذية المختلفة، يعطيك الله عز وجل في الصيف منها ما تحتاجه من ثمار الصيف، ويعطيك الله عز وجل في الخريف منها ما يحتاج إليه جسمك من الثمار في هذا الفصل، ويقدم إليك الله عز وجل منها في الشتاء ما يحتاج إليه جسمك في فصل الشتاء، أقامك الله سبحانه وتعالى من هذا الجهاز على خدمة عجيبة ومسخرات تدور حول مصلحتك، حول حياتك، ونبهك الله عز وجل إلى هذا الجهاز وأهميته لخدمتك في آيات كثيرة منثورة في كتاب الله عز وجل، انظر إلى قول: ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ

بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [النحل: ٦٥]، انظر إلى قوله: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خَالِصاً سَائِغاً لِلشَّارِبِينَ﴾ [النحل: ٦٦]، انظر إلى قوله: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ، ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٩].

هذا هو حديث القرآن عن الجهاز الكبير الكبير الذي أقامه الله عز وجل لخدمة الإنسان، فماذا عن الكتيب، وقد ذكرت لكم مثاله؟ ماذا عن التعليمات التي وضعها الله عز وجل أمامنا، والتي بها نعلم كيف نتعامل مع هذا الجهاز الكوني، كيف نصونه، كيف نرعاه؟ هذا ما يسمى بالنظام التشريعي، النظام التكويني هو هذا الجهاز، أما الكتيب، وأعيدكم إلى المثال الذي ذكرت وهو ما يسميه الناس اليوم بالكتلوك، فهو النظام التشريعي، وما النظام التشريعي؟ هو التعليمات الآتية من قبل رب العالمين تقول لنا: هكذا ينبغي أن تتعاملوا مع الجهاز الكوني الذي سخرته لصالحكم، إياكم أن تشردوا عن هذه التعليمات فيشقيكم هذا الجهاز بدلاً من أن يسعدكم، هذا النظام المتكامل هو النظام التشريعي، فيا أيها الإخوة هل من عاقل يرى مدى ما في جهاز أنتجته شركة من خير وفائدة للإنسان وللمجتمع الإنساني يلهج بلسان حاله أو قوله بكلمات الشكر لتلك الشركة أو لذلك المصنع، ثم لا يلهج بالشكر ذاته للكتيب المقرون بذلك الجهاز؟! هل من عاقل يأخذ الجهاز ويقدّره ويقدّسه ثم يرمي بالكتيب أرضاً؟! مجنون ذاك الذي يفعل هذا.

هذا النظام الكوني الذي ينبض كله بكل دقائقه بمعاني اللطف من الله بعباده، بمعاني الرحمة من الله سبحانه وتعالى بعباده، علاقة النظام التشريعي بهذا النظام الكوني كعلاقة ذلك الكتيب بالجهاز الذي أنتجته شركته، فإن رأيت ألطاف الله سبحانه وتعالى ومظاهر رحمته تتلألأ في هذا النظام الكوني الذي جعله الله خادماً لك فلا بد أن تتبين أيضاً ألطاف الله عز وجل ورحمته الغامرة بالنظام التشريعي الذي قرنه الله سبحانه وتعالى لك مع نظامه الكوني.

فيا عجباً لمن يستقبل هذا النظام الكوني، ويتقلب فيه، ويتمتع بما فيه من خير، فإذا نظر إلى النظام التشريعي الذي وضعه الله أمامنا قائلاً: إن أردتم أن تسعدوا بهذا النظام الكوني فطبقوا هذه

التعليمات التي وضعتها بين أيديكم. في الناس من يُقْبِلُ إلى هذا النظام التشريعي فيزدريه، يلقيه وراءه ظِهرياً ويتبرم به، أليس هذا تماماً كشأن ذاك الذي اشترى جهازاً من معمل أو مصنع، ولما وقف على الكتيب المقرون به ألقى الكتيب جانباً، وأخذ ينظر إلى هذا الجهاز، يتعامل به تعاملاً أعمى؟ أيعد هذا من العقلاء يا عباد الله؟

ولكن ما الفرق بين هذا المثال الذي وضعته أمامكم وبين الحقيقة التي نتكلم فيها؟ ما أكثر الناس الذين يتبرمون اليوم بشريعة الله، ما أكثر الناس الذين يضيقون ذرعاً بأحكام الله عز وجل إن كانت مما يتعلق بحياة الإنسان الفردية، أو مما يتعلق بالأسرة ونظام الأسرة، أو مما يتعلق بعلاقة الناس بعضهم مع بعض فيما يتعلق بتنسيق علاقاتهم الاجتماعية أو الاقتصادية أو نحوها، يضيق ذرعاً ويتبرم، ولا سيما عندما يجد أحدهم نفسه أمام النظام التشريعي الذي وضعه الله أمامنا من أجل حماية الأسرة من السوء الذي قد يتسرب إليها، من أجل حماية الأسرة من أسباب الشقاء التي قد تتسرب إليها، يضيق ذرعاً بذلك، فإذا وجد النظام الكوني تقلَّبَ فيه وسعد به وحاول أن يعتصره إلى النهاية، وَيْحَك! إن النظام التشريعي غطاءٌ لا بد منه للنظام الكوني، إن أردت أن تفصل بين نظام الله الكوني ونظامه التشريعي فاعلم أن النظام الكوني الذي صاغه الله عز وجل لإسعادك لسوف يتحول إلى سببٍ لشقائك، تماماً كالذي يستعمل الجهاز الذي أخذه للتو، ولكن دون أن يستعمل صفحة التعليمات، دون أن يستعمل وسيلة الصيانة، لا بد أن يزجه هذا الجهاز في سببٍ من أسباب الشقاء قولاً واحداً كما تعرفون جميعاً يا عباد الله.

أما تتعجبون من أناسٍ مؤمنين بالله، أناسٍ يرون لطف الله في نظامه الكوني الذي سخره لنا، بدءاً من أجرامه العلوية، إلى ما بين السماء والأرض من رياح تهب إلى الأرض وما على ظهرها وما في دخائلها، إلى النظام الذي أقامه الله عز وجل في كيان الإنسان الداخلي، يرى لطف الله، ويرى رحمة الله به في هذا، فإذا التفت إلى النظام التشريعي الذي هو في جملته تعليمات لكيفية التعامل مع النظام الكوني تبرم به وضاق ذرعاً، به وأخذ يتلفت إلى الحداثة، ويلتفت إلى الابتداعات التي يريد أن يتَقَمَّمَها من هنا وهناك، ولربما اتهم بيان الله الذي يدعوه إلى النظام التشريعي الذي يحمي علاقته مع النظام الكوني، ربما

اتهم الذين يريدون أن ينضبطوا بهذا النظام التشريعي بأنه دعوة إلى العود إلى الظلام وإلى الحياة الظلامية السابقة.

هذه ظاهرة غريبة وعجيبة -يا عباد الله- ألّا يؤمنَ الإنسان بالله هذا يزج الإنسان في مثل هذا التصور الأخرق، غير مؤمن بأن لهذا النظام مكوّناً، ومن ثم فهو لا يؤمن بأن لهذا الإله مشرعاً أيضاً، ولكن العجب لا ينتهي من إنسان يؤمن بوجود الإله الخالق المنظم لهذا الكون، ثم لا يؤمن بحاجة هذا النظام الكوني إلى صفحة تعليمات للإنسان، كيف يتعامل مع هذا النظام الكوني؟! هذا أمر غريب جداً أيها الإخوة.

من أراد أن يتبين مدى لطف الله عز وجل في نظامه التشريعي إن فيما يتعلق بالأسرة، وإن فيما يتعلق بعلاقة الإنسان بربه، وإن فيما يتعلق بشبكة العلاقة الإنسانية مع إخوانه، من أراد أن يتبين مدى رحمة الله ومدى لطف الله سبحانه وتعالى في نظامه التشريعي، فليتأمل في النظام الكوني، وليتدبر مظهر نعمة الله ولطف الله ورحمة الله بالإنسان أياً كان هذا الإنسان في نظامه الكوني، نظام كوني سخره الله لك من أعلى الأجرام الكونية إلى أدقها، سخره الله لسعادتك، سخره الله سبحانه وتعالى من أجل أن تجد فوق هذه الأرض أسباب رخائك، أسباب طمأنينتك، من أجل أن تجد في هذه الحياة الدنيا مقومات سعادتك الفردية والاجتماعية البدنية والروحية وغيرها، الإله الذي رحمك بنظامه الكوني هو الذي يلطف بك ويرحمك بنظامه التشريعي فلا يأتين من يريد أن يفرق بين النظام الكوني الذي سخره الله عز وجل لنا ونظامه التشريعي الذي أهداه الله سبحانه وتعالى لنا إلا إن كان هذا الإنسان من المجانين الذين يأخذون الجهاز من الشركة أو المعمل الذي أنتجه، ثم يمزقون الكتيب الذي يتضمن بياناً لكيفية التعامل مع هذا الجهاز.

أسأل الله عز وجل ألا يحرمنا من نعمة العقل والبصيرة التي تبين لنا مدى فضل الله عز وجل إذ أكرمنا بكلٍ من هذين النظامين النظام الكوني والنظام التشريعي. أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم

٢٢٧- الوازع الديني | ٢٠٠٩/١٢/٢٥

إن ازدهار التضامن والتعاون بكل أشكاله في المجتمعات العربية والإسلامية رهن بشيء واحدٍ لا بد منه، ألا وهو وجود الوازع الديني، فإذا وُجِدَ الوازع الديني مهيمناً على قلوب أفراد المجتمع خضعوا لقرار الله القائل في محكم تبيانه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] وإذا خضعوا لهذا القرار الرباني فلا بد أن يخضعوا بعد ذلك وينقادوا لأمر الله القائل بعد ذلك مباشرة: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ والإصلاح كلمة تشمل كل معاني التعاون، وتشمل كل مظاهر الود والتآلف وتشمل كل مظاهر تبادل المنافع، ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ هذه الكلمة تشمل كل هذه المعاني الإنسانية الإيجابية، فالوازع الديني يُخْضِعْ لقرار الله القائل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ والوازع الديني من ثَمَّ يخضعهم لأمر الله عز وجل القائل: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾.

ولكن إذا غاب الوازع الديني لا بد أن تغيب الأخوة الإسلامية، بل الإنسانية أيضاً من وراء ذلك، ولا بد أن تحلّ محلّ الأخوة عندئذٍ الأنانية والفردية، وعندئذٍ يغيب الإيثار، وتحلّ الأثرة في مكان ذلك، ويغيب التعاون والتآلف، وتتجلى في مكان ذلك الأنانية والاستكبار، تغيب مشاعر الشفقة، مشاعر الحب والرحمة، وتحلّ محلّ ذلك مشاعر الشماتة.

هذه حقيقة ينبغي أن نعلمها وألا نرتاب فيها قط. لعلكم تسألون عن الدليل، ونحن إنما نتحدث عمن أعلن أنه مؤمن بالله عز وجل ولو أنه كان يقول ذلك بلسانه، الدليل على هذا -يا عباد الله- أن المصطفى صلى الله عليه وسلم قَرَنَ تعاون المسلمين وتآلفهم وتسابقهم إلى التعاون، قرن ذلك بالتقوى، قال ذلك من خلال أسلوب يلفت النظر قال: ﴿المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، التقوى ها هنا، التقوى ها هنا، التقوى ها هنا، ويشير إلى صدره، كل المسلم على المسلم حرام، دمه وعرضه وماله﴾، ألا ترون إلى قوله عليه الصلاة والسلام: ﴿التقوى ها هنا﴾ يكررها ثلاث مرات وكأنها جملة اعتراضية في موضوعٍ -بحسب الظاهر- لا علاقة له بالتقوى، المسلم أخو المسلم لا يظلمه لا يخذله لا يحقره، ما المناسبة التي دعته صلى الله عليه وسلم ليقفز إلى شيء آخر فيقول: ﴿التقوى ها هنا﴾يكررها

ثلاثاً ويشير إلى صدره؟ لنعلم أن هذه الوصية النبوية الغالية التي يوجهها إلينا لن تتحقق إلا بالوازع الديني يهيمن على القلب، وهل التقوى إذ تهيمن على القلب إلا ترجمة دقيقة للوازع الديني يا عباد الله.

الدليل على ذلك أيضاً قول المصطفى صلى الله عليه وسلم: ﴿الخلق كلهم عيال الله، فأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله﴾، هذه الكلمة: ﴿أحبهم إلى الله﴾ تدغدغ قلب من؟ قلب من فاض قلبه حباً لله، تدغدغ قلب من هيمنت مشاعر التقوى عليه، تدغدغ قلب من هيمن الوازع الديني عليه، ومن ثم فهو يسعى جاهداً ليتقرب إلى الله بمزيد من الحب يناله من الله، ومن ثم بمزيد من الحب يكرمه به الله سبحانه وتعالى، الخلق كلهم عيال الله فأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله.

لعل فينا من يقول: وإنا لنحمد الله عز وجل أننا نتمتع بالوازع الديني، لعل هذا الذي يقول هذا الكلام يتصور أن الوازع الديني يتلألأ من خلال شعارات ترتفع، لعل هذا الذي يقول هذا الكلام يخيَّل إليه أن الوازع الديني ينبثق من أصوات مفخمة تتلو كتاب الله عز وجل في الرائي أو الإذاعات أو الحفلات، لا يا عباد الله، الوازع الديني ينبثق من الداخل ولا يأتي إلى الإنسان ولا يتسرب إليه من الخارج، الوازع الديني شعور مهيمن ينبثق من داخل القلب، ثم إنه يتجلى على ظاهر الإنسان سلوكاً والتزاماً، هذا هو الوازع الديني، ثم إن لهذا الوازع الديني آثاراً ونتائج ذكرها المصطفى صلى الله عليه وسلم عندما قرن هذه الآثار والنتائج بتقوى الله عز وجل: ﴿المسلم أخو المسلم لا يظلمه، لا يخذله، لا يحقره، كل المسلم على المسلم حرام، دمه وعرضه وماله﴾، أين المسلمون الذين يتنصرون لإخوانهم وها هم أولاء يَسْتَحِرُّ بهم القتل صباح مساء؟ أين المسلمون ينتصرون لإخوانهم ويدافعون عنهم وها هي ذي بيوتهم تُسْتَلَب وتُهَدَّمُ على رؤوسهم وتتحول ما بين عشية وأخرى إلى قبور؟ أين الانتصار للأخوة الإسلامية بل الإنسانية وها نحن نرى في مواسم الفرحة، ننظر فنجد أولئك الناس يجترّون الآلام الممِضَّة، يجترّون الشقاء الذي يجعلهم بين ماضِغَيّ الموت والحياة.

الوازع الديني! ليس هنالك وازع ديني تتمتع به مجتمعاتنا العربية والإسلامية كما قد يخيّل إلينا أن نتصور، ولكن تعالوا -يا عباد الله- لكي نزداد يقيناً بهذا الذي أقوله لكم نقلاً عن كتاب الله عز وجل، تعالوا نضع صورة الإيجاب أمام السلب ونضع الطرد أمام العكس، ونضع الداء أمام الدواء، لكي نقارن ولكي يتبين لنا مزيدٌ من البرهان عن طريق الضد، وبضدها تتميز الأشياء كما قالوا.

إن الناس الذين يمسكون اليوم بزمام الحكم في تركية هم من الذين يتمتعون بالوازع الديني، يتمتعون به تربيةً إيمانية منذ نعومة أظفارهم، وقد شاء الله عز وجل أن أكون واحداً ممن يعلم هذه الحقيقة لا اليوم بل قبل اليوم أيضاً، ورحم الله ذلك المرشد الرباني الذي أنبتهم هذا النبات الحسن، والذي بث بين جوانحهم الوازع الديني الذي نتحدث عنه، إن هذا الوازع الديني يجعلهم ينظرون إلى شامنا هذه على أنها أرضٌ مقدسة كما قال المصطفى صلى الله عليه وعلى آله وسلم، يقفون من هذه الأرض وقفة تبرّك، وقفة تقديس.

أجل، ما الذي يجعلهم ينظرون إلى شامنا هذه هذه النظرة؟ الوازع الديني ومن ثم فإن الوازع الديني هو الذي يجعلهم يمدون يد الود والتآلف إلى شامنا وأهله والقائمين بشؤونه، هذا الوازع الدين هو الذي يجعلهم يمدون جسور التعاون بكل معنى الكلمة، يمدون جسور تبادل المنافع، إن الدافع إلى ذلك يا عباد الله استراتيجية إيمانية ثابتة مستقرة، وليس تكتيكاً سياسياً مرحلياً يمر، عَلِمَ ذلك من عَلِم وجهله من جهل، نعم إن ألسنتهم قد لا تتقن النطق بلغة القرآن، ولكن فلنعلم أن سلطان القرآن ولغته يهيمن على مجامع نفوسهم، يهيمن على قلوبهم، وإنك لتنظر إلى أحدهم وهو يتلو القرآن أو يصغي إليه وإذا بدموع عينيه تترجم معاني ما يسمع أو يقرأ، أجل.

عباد الله ما ضرَّتْ عجمة اللسان إذا كانت عروبة القلب يترجمها سلطان القرآن المهيمن على النفوس، وماذا تفيد عروبة اللسان إذا كان القلب يعاني من عجمة الفهم والخضوع لكتاب الله وسلطانه؟

هذه الحقيقة تضعنا أمام برهان آخر على هذا الذي أقوله لكم، دليلان أحدهما سلبي نعاني منه في مجتمعاتنا، والآخر إيجابي رأيتموه بالأمس، ولسوف ترون مزيداً من دلائله قريباً، فهل لنا يا عباد الله أن نقطف ثمرة هذه الحقيقة؟ هل لنا أن نوقظ إخواننا في مجتمعاتنا العربية والإسلامية وفي مقدمتهم قادة هذه الأمة أن يعودوا فيتحسسوا مكان الوازع الديني بين جوانحهم؟

يا أيها الناس إن سلطان الإسلام لا يمكن أن يتمثل إلا بشيء واحد لا ثاني له هو هذا الوازع الديني الذي يهيمن على القلب، فإن لم يوجد هذا الوازع الديني فالألسنة التي تنطق بالفلسفات المختلفة لا قيمة لها، والشعارات التي ترتفع وتتلألأ ذات اليمين وذات الشمال لا معنى لها.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يكرمنا بالاعتزاز بهذا الدين الذي شرَّفَنَا الله عز وجل به، وأسأله سبحانه أن يغرس بين جوانح أفراد هذه الأمة الوازع الديني حتى يتآلف أفرادها، وحتى يعطف الناس بعضهم على بعض، حتى يعطف الذين يتفيؤون ظلال الرخاء والأمن والطمأنينة على إخوانهم الذين يُقَتَّلُون وتُسْفَكُ دماؤهم وتدور رحى الموت عليهم.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم فاستغفروه يغفر لكم.



٢٢٨- عروبة وعربية القرآن | 2010/05/07

ألفت نظري وأنظاركم جميعاً إلى هذه الظاهرة في كتاب الله عز وجل، إنه يركِّزُ دائماً ومكرراً على عروبة وعربية القرآن، لا يكتفي البيان الإلهي من بيان ذلك مرة أو مرتين أو ثلاث مرات، بل يكرر ويؤكد التكرير، فهو يقول: ﴿قُرآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ [الزمر: ٢٨] ويقول: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢] ويقول: ﴿لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣] ويقول: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ. عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ. بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٥] أفأسترسل وأستعرض معكم مزيداً من الآيات؟ لماذا وما الحكمة من هذا التأكيد المتكرر.

إن البيان العربي – بل البيان الرباني العربي – يؤكد لنا أن العربية ستظل بخير ما دامت الأمة الإسلامية مشدودةً إلى هذا الكتاب الذي شرفها الله سبحانه وتعالى به وخاطبها به، ما دامت مشدودة إليه تتلوه بتدبر وتتبيّن صوره الجمالية العجيبة التي تأخذ بجوانب النفس، وتقف على بياناته المعجزة التي يتعشقها الذوق الإنساني، ويؤكد لنا بيان الله عز وجل في الوقت ذاته أن القرآن ستظل منافذُه موصولةً إلى عقول الأمة وأفئدتها ما دامت هذه الأمة تعود إلى اللغة التي اختارها البيان الإلهي خطاباً لعباده، ما دامت هذه الأمة ترجع إلى هذه اللغة، تقف أمام صورِها الأخاذة، تقف أمام بيانِها الذي سمت به إلى شأوٍ لم تبلغه أي لغة أخرى، ما دامت الأمة مشدودة إلى هذه اللغة، إلى جمال بيانها، وإلى صورها البليغة، ثم إنها تعكف على دراسة قواعدها، فلسوف يظل القرآن هو الحكم، ولسوف تظل منافذُه متّصلةَ إلى عقول هذه الأمة وقلوبها.

وهكذا يؤكد لنا بيان الله عز وجل أن بين القرآن واللغة العربية التي تَنَزَّلَ بها تفاعلاً مستمراً، كل منهما مفتاح للآخر، كل منهما يسوق القلب والعقل إلى تعشق الآخر وإلى التعلق به.

عباد الله: نظراً إلى أن المؤسسات والمحافل الغربية التي تتربص بالإسلام وتكيد له تبينت هذه الحقيقة ودرستها وعكفت طويلاً على دراستها، فإنها وَضعتْ في أواسط القرن الماضي خططاً ماكرة للفصل بين هذين القطبين المتفاعلين، وضعت خططاً معلنة لفصل هذه الأمة عن لغتها بل لغة القرآن، كي لا تجد

في هذه اللغة ما يسوقها إلى الاستئناس بالقرآن، فالتعلق به، فالتعشق لبياناته، فالخضوع لتعاليمه، وفعلت فعلَها الماكر لصرف هذه الأمة عن القرآن كي لا يقودها القرآن في سمو بيانه وفي ألق بلاغته إلى معينه الذي تنزَّل به ألا وهو اللغة العربية، كي لا يشد القرآنُ الأمةَ إلى الوقوف على هذه اللغة والركون إليها، ثم حبها وتعشقها، ثم العكوف على دراسة قواعدها وبلاغتها، والوقت يضيق عن وضع النقاط على الحروف، وبيان الخطط التي رسمها اليونسكو، وبيان الخط التي رُسِمَت في ظلام ليل داهم، وكل ذلك معلوم ومقروء ومعروف، ولكن من حسن الحظ، ومن لطف الله عز وجل بعباده أن باءت تلك الخطط بالفشل والخيبة، فلم يستطع قادة تلك المؤسسات والمحافل أن يحققوا شيئاً من هذا الذي ابتغوه، بل الذي حصل نتيجة لخططهم المستعلنة أن ظهرت ردود فعل لدى أمتنا العربية والإسلامية تجاه هذا الأمر، ومن القواعد المعروفة أن الكيد المعلن لا بد أن يفجر ردود الفعل، ولقد كانت ردود الفعل ولا تزال هي أول ما يخنق كيد الكائدين، خابت تلك الخطط، ونظرنا في أواسط ذلك القرن وما بعد، فرأينا ألق اللغة العربية كيف يعود متجدداً على ألسن الأدباء والشعراء التي كانت أمتنا العربية والإسلامية وما تزال تعتز بهم، رأينا كيف أن أمتنا العربية تتسامى فوق العامية التي فرضت عليها والتي أريد لها، رأينا حتى كثيراً من المسرحيات والتمثيليات قد شُدَّ أصحابها ومنتجوها إلى استعمال اللغة العربية الفصحى، على الرغم من أن أولئك الكائدين قرروا القضاء على اللغة العربية بسكين اللهجات العامية، ولكن هذه الخطة لم تتحقق.

هل توقف أولئك الكائدون عن كيدهم يا عباد الله؟ معاذ الله، لم يتوقفوا، ولكن الذي حصل أنهم خاضوا اليوم إلى الأعماق، وأخذوا يخططون ويكيدون في الخفاء، أخذوا يخططون وكأنهم أخذوا العِبرة من الغلط الذي ارتكبوه، يخططون في الظلام دون أن يشعر بخططهم العرب بل هذه الأمة العربية المسلمة، ولكن الخطط الماكرة الخفية تأبى إلا أن تعلن عن نفسها، فما الخطة الجديدة التي يرسمها أولئك أنفسهم للقضاء على العربية في ألسن هذه الأمة ومن ثم للفصل بين هذه الأمة وقرآنها.

سبيل ذلك هو التالي:

أولاً: الفصل بين اللغة العربية ونموذجها الأسمى، وإنكم لتعلمون أن النموذج الأسمى للغة العربية إنما هو القرآن، ولا أعلم أن لغة من لغات العالم لها نموذج أسمى تعود بمقياسها البلاغي إليه إلا اللغة العربية. الخطة الأولى هي الفصل ما بين اللغة العربية ونموذجها الأسمى.

الخطة الثانية: هي الفصل ما بين اللغة العربية ومصدر بلاغتها وقواعدها وألقها وصورها البيانية، ألا وهو الشعر الجاهلي والنصوص التي وصلت إلينا من صدر الإسلام.

الخطة الثالثة: هي العمل على إبعاد الصور الجمالية التي يتعشقها الذوق العربي من أفكار الناشئة، وإبعادها عن ذوقهم الصافي المتألق، وما أكثر الصور البيانية الجمالية التي تأخذ بمجامع النفس من مشاهد نصوص عربية نعود فيها إلى ينبوع تاريخ هذه الأمة. ثم ماذا؟ ثم إن النشئ حُمِّلَ ويُحَمَّلُ بعد ذلك أوقاراً من القواعد العربية الجافة تُحْشَى بها أذهانهم من أجل أن يشعروا بصعوبة شديدة، ومن أجل أن يشعروا بثقل هذه المهمة التي تُحْشَى بها أذهانهم وأدمغتهم، ومن أجل أن تتحقق من وراء ذلك عقدة نفسية تجاه قواعد العربية، تُقْصَى هذه الأمة عن الجواذب التي تجذبها إلى هذه اللغة الرائعة التي كم وكم تعشقتها أمة بل أجيال نفخر اليوم بها. الخطة ترمي إلى فصل أذهان الناشئة وأذواقهم عن النموذج الأسمى للغة العربية، عن ينبوع البلاغة العربية وقواعدها، عن الصور الجمالية المتألقة لهذه اللغة، ثم تُحْشَى أذهانهم بأوقارٍ من القواعد الجافة، كي يتبرموا بها، وكي يضيقوا ذرعاً بها، وكي تنشأ في نفوسهم ردود فعل تجاه هذه القواعد.

هذه هي الخطة البديلة التي يمررها أولئك الناس على أمتنا اليوم لعلها تنجح، وسؤالي الآن هل ستنجح؟ لا والله الذي لا إله إلا هو، لا ومنَزِّل هذا الكتاب لن تنجح، ذلك لأن هذه الأمة سوف تظل مشدودة إلى خطابها الرباني المنزل عليها منذ قرابة خمسة عشر قرناً، ومن ثم لسوف يقودها هذا القرآن إلى ينابيع اللغة العربية، ولسوف تتشرف الألسن ببلاغة هذه اللغة كما تشرف بها لسان مثل لساني، وما أكثر الألسن الأعجمية التي وُلِدَتْ وهي لا تعلم شيئاً من هذه اللغة، ولكن القرآن هو الذي صقل ألسنتها بلغة القرآن هذه، وأنا واحد من أولئك الناس.

نحن عرب، كيف أستطيع أن أجمع بين نقيضين؛ عرب ونحاول أن نخنق اللغةَ العربية ونستخذي لكيد الكائدين!؟ لا لن يمر هذا ولا سيما في هذه البلدة المباركة التي شهدت في يوم من الأيام تعريب المصطلحات العلمية التي تعتز بها جامعتنا هنا دون كثير من البلاد الأخرى، نحن الذين عرَّبْنَا المصطلحات العلمية، في الوقت الذي كانت فيه كثير من الأمم العربية تضطر إلى استعمال المصطلحات الأخرى. بلدة كهذه لن تمر فيها هذه الخطط ناجحة بشكل من الأشكال.

وأنا في هذا المقام – أيها الإخوة – لا أتحدث عن الدين، أتحدث عن اللغة العربية، والخطط التي تكيد بها المؤسسات والمحافل التي تعرفون، أقول لكل من يتوجس خيفة من كتاب الله عز وجل عندما نعتمد عليه في صقل ألسنتنا باللغة العربية المباركة هذه، هؤلاء الذين يخافون عندما يركنون إلى القرآن لاستنباط البلاغة العربية والصور البيانية منه، يخافون أن تفترسهم المشاعر الدينية من جراء ذلك، ومن ثم فإن قرارهم هو التضحية بالعربية في سبيل ألا تفترسهم المشاعر الدينية عندما يركنون إلى القرآن، أقول لهم: كونوا كالمستشرقين الذين يدرسون القرآن لمصالحهم الشخصية، ولكنهم يحصنون أنفسهم ضد افتراس القرآن لأفكارهم، يحصنون أنفسهم، يدرسون القرآن من ألفه إلى يائه، ويدركون اللغة العربية العجيبة التي تنَزَّلَ بها القرآن، وما أكثر من اصطبغوا بهذه اللغة وهم مستشرقون، ها هم أولاء اصطبغوا بها، ودرسوها، ولم تفترسهم المشاعر الدينية في كتاب الله عز وجل. أقول لأبناء جلدتنا: كونوا كأولئك المستشرقين، حصِّنُوا أنفسكم ضد تسرب الأفكار الدينية، والتقطوا ما يهمّكم من مبادئ اللغة وقواعدها وبياناتها وصورها المتألقة.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يكرم أمتنا بوعيٍ يُبَصِّرُها بكيد الكائدين من بعيد أو من قريب، وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل من بلدتنا المباركة هذه درساً تقتدي به الأمم العربية والإسلامية من حولنا، فلقد كانت هذه البلدة ولا تزال في مقدمة البلدان التي تعي ما عليها، وتعي ما يراد بها، أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم.

٢٢٩- الوصايا الإلهية تشريف قبل أن تكون تكليفاً | ٢٠١٠/٠٩/١٧

عجيب شأن الإنسان يجلس على مائدة الرحمن سبحانه وتعالى فيتناول منها ألواناً لا تُحْصَى مما لذَّ وطاب، مما يتمتع به فمه من طعومٍ ولذائذ مختلفة متنوعة ومما له آثاره الغذائية المتنوعة في جسمه وجسده، يمتع الله عز وجل عينيه بمشاهد من الجمال المتنوع يتيه عن وصفه الكلام والبيان، يمتع الله سبحانه وتعالى أنفه بروائح تطربه يتيه عن وصفها أيضاً البيان والكلام.

يتقلب من الأرض التي أقامه الله عليها في مهادٍ لم تستطع أمه أن تهيأ له مثل هذا المهاد، يتقلب في ذلك كله وهو يعلم أن مصدر ذلك قرار الله القائل: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٠].

حتى إذا جاء وقت الوصايا التي يوجهها الله سبحانه وتعالى إلى هذا الإنسان المكرَّم يوصيه بما يسعفه وبما يسعده ويحذره عما يشقيه إذا به يشيح بوجهه عن هذه الوصايا وإذا به يسيء الظن بها وبمن يوصيه بها ويلتفت ليأخذ بدلاً عن ذلك وصايا عدوه وأعداء الله سبحانه وتعالى.

إنه لأمر غريب! كيف أحسن الظن بالله عندما أجلس على مائدته وأتلقى منه النعم التي لا تحصى ثم أسيء الظن في وصاياه التي يوصيني بها، هذا على الرغم من أن الله سبحانه وتعالى يؤكد لعباده أنه ما أوصاهم إلا بما فيه خيرهم وما شرع لهم إلا بما يضمن سعادته. ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾ [المائدة: ٣]. هذا الذي يقول هذا الكلام هو ذاته الذي أقامنا فوق هذه الأرض المليئة بمظاهر الإكرام لأفواهنا ولأنوفنا ولأعيننا ولمشاعرنا أجمع، كيف يتأتى للإنسان أن يحسن الظن بالله آناً ثم يسيء الظن به آناً آخر.

عباد الله: لن يُسْعِدَ الإنسانَ شيءٌ كالوصايا التي وجهها الله سبحانه وتعالى إلى عبد المكرم ولن يشقي الإنسانَ شيءٌ كإعراضه عن هذه الوصايا، ليس من دأبي في مثل هذه الموقف أن أسرد الحكايات والقصص وما أظن أني فعلت ذلك مرةً ولكني اليوم سأقص عليكم خبراً لأنه يفيض بالعبرة ولأن الذي

يصغي إليه ويستعمل عقله إن كان تائهاً أو ضالاً لابد أن ينتقل خلال دقيقة واحدة من أقصى أودية التيه والضلال إلى أعلى أصعدة الإيمان والهداية.

قبل سنوات خلت أقبلت إليَّ في مكتبي في الجامعة فتاة قد سترت جزءاً من شعر رأسها بجزءٍ من غطاء وارتدت ثياباً هي أقرب إلى العري منها بالستر، التجأت إليَّ قائلة أنا على شفير الهلاك فهل لي أقص عليك خبري لعلك تنقذني من هذا الهلاك الذي يتربص بي؟ أصغيت إليها، قالت: نشأت في بيت لا يعرف الإسلام لا فكراً ولا سلوكاً، درست حتى وصلت إلى الجامعة وأنا لا أتقيد بشيء لأنني لم أُرَبَّ على أي منهجٍ ديني أو أخلاقي قط، جعلتُ قلبي نُزُلاً للشباب وأصبحت أتعرف على الواحد إثر الآخر ثم إني تعلقت بواحدٍ منهم أحببته وعرفت أنه أحبني أيضاً وتواثقنا على الزواج، ثم إنه في ساعةٍ من الساعات نال مني كل ما يبتغي وراح يعدني بالزواج ورحت أستعجله بالزواج ثم إني أخذت أستعجله وأضيِّقُ عليه الأمر وذات يومٍ نظر إليَّ وقال: إنني عندما أقرر الزواج أختار فتاة مستقيمة لا أختار فتاة مثلك لا ترد يد لامس، قالت: في تلك اللحظة استيقظت وفي تلك اللحظة علمت أنني أسير في طريق الهلاك، الآن لو علم أهلي بما تم لي لقتلوني أو ذبحوني تحت قانون جناية الشرف التي لا شرف لها في الحقيقة، أما المجتمع فقد لفظني بعد أن خدعني متمثلاً في شبابه، ما العمل؟ ماذا أصنع.

قلتُ لها: الآن تعترفين بأن الدنيا كلها تحولت إلى أعداء لك، أهلك تحولوا إلى أعداء ويوشكون أن يقتلوك لو علموا بما تم لك، والمجتمع أخذك لباباً ورماك قشوراً وهو سيفعل ذلك في المستقبل أيضاً بك ولم يبق لك إلا صديق واحد أتعلمين من هو؟ قالت: من؟ قلت: إنه الإسلام، صديقك المتبقي هو الإسلام، هو وصايا الله سبحانه وتعالى، فإن أنت صدقت معي العهد واصطلحت مع الله سبحانه وتعالى في فكرك وسلوكك والتزامك وآدابك أرجو أن الله هو الذي سينتشلك من هذا الشقاء، قالت: الآن أعلن عن توبتي إلى الله بين يديك، الآن أعلن عن رجوعي إليه، الآن سأفعل كل ما يأمرني به الله، بصَّرْتُها بما ينبغي أن تفعل في فكرها وفي مظهرها وقلت لها ترددي علي.

انظروا يا عباد الله إلى رحمة الله، ما هي إلا أيام حتى أقبل إلي في مكتبي شاب يقول لي إنه تحرى الفتيات لينتقي منها واحدة تليق بالتزامه ودينه وأخلاقه فلم يعثر فهلا دللتني على فتاة أستطيع أن أجد فيها متعة دنياي والتزامي في ديني؟ قلت له: نعم ووصفت له الحال وذكرت له قصة الفتاة، قلت: إن أنتَ

قبلتها زوجة لك كتب الله لك أجر الهداية ومتَّعَكَ الله سبحانه وتعالى بنعيم الزواج في الدنيا فهل لك أن تجمع بين سعادتين؟ قال: نعم ولقد رضيت.

وشاء الله عز وجل بقدرته وألطافه أن يجتمعا وأن يتعارفا ثم أن يتعاهدا على الزواج عن طريق الأهل وانطوت القصة ونسيت الخبر ومر على ذلك عامٌ أو عامان وذات يومٍ كنت أعود من بعض المحافظات ونزلت من العربة في استراحة من تلك الاستراحات وإذا بي أمام فتاة محجبةٍ حجاباً تاماً ترتدي ثياباً سابغة مع أناقة في المظهر وهي تحتضن طفلاً صغيراً على صدرها وإلى جانبها شابٌّ لم أعرفه، قالت: ألم تعرفنا؟ قلت: لا، قالت: أنا التي كنت تائهة في مناكب الأرض وانتشلني الله عز وجل بدينه عن طريقك، ها أنا ذا أعيش سعادة غامرة ما مثلها مع زوجي هذا وأشهد في كل لحظة أن سعادتي هذه لم تتحقق إلا من خلال التزامي بأمر الله، إلا من خلال التزامي بهذا المظهر الذي أوصاني به الله سبحانه وتعالى.

تذكَّرْتُ ورجعتُ القهقرى بالذاكرة إلى ما قبل عام وعام ونصف وتذكرت صورتها عندما جاءت إليَّ وهي نصف عارية وقد خدعها المجتمع وراحوا يأكلون منها كما قلت لكم اللباب ويرمونها قشراً على نواصي الشوارع لو سارت على هذا المنوال.

هذه القصة – أيها الإخوة – مليئة بالعبرة، مليئة بالدرس، تبين لكل من آمن بالله أن وصايا الله سبحانه وتعالى سواءٌ ما تعلق منها بالفكر أو ما تعلق منها بالمظهر والالتزام والسلوك كل ذلك تتمة لمظاهر إكرام الله للإنسان، كل ذلك تتمة لمظاهر إسعاد الله عز وجل للإنسان، أجل، وهذا الخبر الذي أقصه عليكم يجسد هذه الحقيقة، تحولت الدنيا كلها بالنسبة إليها إلى وحوش ضارية بدءاً من الأسرة إلى المجتمع والسوق والأصدقاء والشباب. من الصديق الذي انتشلها؟ من هو الصديق الذي أسعدها بعد شقاء؟ كانت تسير على شفا جرف إن هي إلا دقائق أو أيام وستذبح، أما المجتمع فكان يريد أن يتخذ منها كما قلت لكم ألعوبة يتسلى بها هذا ثم هذا ثم ذاك وترمى بعد ذلك على نواصي الطرق ولكن الله الكريم العظيم من خلال دينه القويم، من خلال وصاياه الحلوة المسعدة كل ذلك هو الذي انتشلها من الشقاء وسما بها إلى صعيد سعادةٍ ما مثلها سعادة.

أليس من الحق أن أقول مرة أخرى يا عجباً للإنسان عجباً لا ينتهي، يتقلب من أرض الله في مهادٍ ولا كمهاد الأم التي ترعى به طفلها، يمتع فمه من عطاء الله عز وجل بطعومٍ لا حصر لها، بلذائذ لا حصر لها، يمتع سمعه عينه أنفه حياته من إكرام الله وعطائه بأمورٍ لا حصر لها وهو يعلم أنها آتيةٌ من عند الله عز وجل حتى إذا حان أن يوصيه الله عز وجل فيقول له: إذا جلست على المائدة فافعل كذا وكذا، ألزِمْ نفسك بهذه الضوابط وبهذه النظم لتتناول طعامك على نحو شهي. عندما يأتي ميقات الوصايا التي جاءت من المكَرِّم الأول وهو الله أعرض عنه، أعرض عنه عند وصاياه وأتقلب في نعيمه، طعامه وشرابه ولذائذه كلها، عندما أجد الفم المحتاج والجسم المحتاج، أليس هذا لؤماً يا عباد الله؟

أعرض وأشيح عن وصاياه – إن كنت من صنف الرجال أو النساء – أعرض عن وصاياه إن في الفكر أو في السلوك وهو الذي كرمني وهو الذي يعطيني ويسقيني ثم ألتفت بدلاً من الإصغاء إلى وصاياه ألتفت إلى وصايا أعداء الله وأعدائي، كيف ينبغي أن أعيش، كيف ينبغي أن يكون مظهري، كيف ينبغي أن تكون علاقاتي في المجتمع؟ أتلقى الأجوبة عن هذا كله ممن؟ من أعداء الله وأعدائي أنا! أهم الذين كرَّموك على المائدة التي تتناول عليها ما لذَّ وطاب؟ أهؤلاء هم الذين يمتعون فمك بأنواع الطيبات؟ أهؤلاء هم الذين جعلوا من الأرض مهداً ولا كمهد الأم لطفلها كما قلت لكم؟! هؤلاء هم الذين كرَّموك حتى تثق بوصاياهم؟! أم الله عز وجل هو الذي كرَّمك وأعطاك، سقاك، أطعمك، متعك، جعل لك الأرض مهداً كما قلت لك ثم إنه توَّج هذا الإكرام بإكرام الوصايا؟! عجبٌ، إنه لعجب لا ينتهي.

اللهم لك الحمد أن جعلتنا من المؤمنين بعبوديتنا لك وبربوبيتك لنا، أن جعلتنا من المؤمنين بتكريمك لنا، آمنا بأن تكريمك لنا طريقٌ أوله متعة الدنيا بكل أصنافها وآخره الوصايا التي تمتعنا إذ ذكَّرْتَنا بها، إذ أمرتنا بها، فاللهم أبق علينا هذه النعمة، أبق علينا نعمة الانضباط بوصاياك، ها نحن نعدك – يا أرحم من سُئِل ويا أكرم من أعطى – نعدك أننا لن نكون لؤماء قط، لن نتلق الوصايا إلى من لدنك تلك التي جاءتنا وحياً عن طريق رسلك وأنبيائك جميعاً، سلوكنا نأخذ دستوره من لدنك، أفكارنا، معتقداتنا نأخذ دستور ذلك من لدنك، كيف لا وأنت الذي كرمتنا وأنت الذي استخدمت أرضك كلها بل كونك كله لمصالحنا، جعلت من ذلك كله خدماً لنا، فأبق علينا اللهم هذه النعمة حتى نلقاك، حتى نخرج من هذه الدار – دار الدنيا – بسلام. أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.



٢٣٠- الاعتصام بحبل الله هو المحور الجاذب لوحدة الأمة | ٢٠١٠/٠٩/٢٤

لا أعلم أن أمراً وجَّهَهُ القرآنُ إلى الناس يتمتع بالقدسية والأهمية التي تتمتع بها الدعوة إلى الوحدة وإلى التضامن وإلى نبذ أسباب الفرقة والشتات، بل أنا لا أعلم أن نعمةً امتنَّ الله سبحانه وتعالى بها على عباده كنعمة تحويله لهم وانتشاله إياهم من أقصى دَرَكَاتِ الفرقة والتباغض والتهارج والتقاتل إلى أعلى قمم الود والتآلف والتضامن والحب، ألا ترون إلى الآية التي لا يجهلها ذو جنان ولا يكاد يفتر عن تردادها لسان ولا يخلو جدار في بناء أو قاعة إلا وتجد لها رسماً على جدرانها وتفنناً في كتابة خطوطها ألا وهي قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وإني لأعلم أن شعوب العالم والدول العربية والإسلامية كانت في هذه العصور المتأخرة ولا تزال تسعى بكل الوسائل إلى استعادة هذه الوحدة، إلى استعادة هذا التضامن، وإنها لترفع في سبيل ذلك الشعارات المتنوعة في المناسبات المختلفة. ولكن العجب أن هذه الجهود التي نراها بأعيننا أو تسمعها آذاننا لم تأت إلى اليوم بأي طائل، بل إننا لننظر فنجد أن واقع المجتمعات الإسلامية يتراجع إلى الوراء على صعيد التعارف والتآلف والتضامن وإنكم لتجدون دلائل ذلك.

كلمة الوحدة لها شعارات متألقة براقة في هذا العصر على كل الأصعدة وننظر فنجد أن هنالك وسائل فعلاً تُبْذَل من أجل تحقيقها ولكننا ننظر فلا نجد مصداقاً لذلك ويُذَكِّرنا هذا بالمثل العربي القائل أسمع جعجعةً ولا أرى طحناً. فما السبب؟

السبب – يا عباد الله – أن دائرة الاتحاد بين أفراد أمة أو أفراد جماعة كثرت أو قلت لا يمكن أن تتم وتتكامل إلا إذا كان هنالك محورٌ جاذبٌ يجمعها. دائرة الاتحاد بين الأفراد أيّاً كانوا ومهما كانوا من الكثرة والقلة لا تتحقق بدون محورٍ جاذب، يعرف ذلك علماء الفلسفة والمنطق ويعلم ذلك علماء الهندسة على اختلافهم، من أجل هذا وضع البيان الإلهي المحور الجاذب قبل أن يأمر عباده بالتلاقي والتضامن

والوحدة فقال أولا: ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً﴾ هذا هو المحور، الاعتصام بحبل الله، ثم قال بعد ذلك: ﴿وَلاَ تَفَرَّقُواْ﴾ ولو أنه بدأ فقال: ﴿وَلاَ تَفَرَّقُواْ﴾ لن يتأتى لعباده أن يجتمعوا عن تفرق، وعلام يجتمعون؟

لا يمكن للأمة أن تتلاقى إلا على هدف، إلا على محور. وربنا سبحانه وتعالى حكيم كما تعلمون ولذلك وضع المحور المتمثل في حبل الله أي المتمثل في كتاب الله وما يتضمنه من عقيدة وشرعة ومبادئ، فلما استقر فيما بينهم هذا المحور جاء دور الدعوة إلى الاتحاد.

وإنا لنتساءل الآن أين هو هذا المحور؟ أين هو المحور الذي ينبغي أن تتداعى الأمة إلى الاتحاد على أساسه؟ أين هو المحور الجامع الذي عبَّرَ عنه بيان الله عز وجل بحبل الله؟

لقد تحول المحور إلى محاور شتى يا عباد الله، وإنكم لتعلمون ذلك، وعندما يغيب المحور الواحد الجامع وتحل محله محاور متعددة متناقضة لابد أن تُوْرِثَ الأمةَ هذه المحاورُ مزيداً من الفرقة ومزيداً من الشتات يختلفون على هذه المحاور المتعددة، وها أنا أضعكم أمام طائفة من الأمثلة تجسد هذه الحقيقة التي أقولها لعلنا نجعل لأنفسنا من ذلك درساً.

يقول المحور الرباني مبيناً المبدأ الذي به يسمو الإنسان أو به يهبط في مجتمعه الذي يعيش فيه، يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

ننظر وإذا بأيدٍ قد غَيَّبَتْ هذا المحور، وإذا بمحاور أخرى حلَّتْ محله، محاور العصبية، محاور المبالغة في الاعتداد بالقوميات المختلفة فكان من نتائج ذلك أن تحولت هذه المحاور إلى سبب جديد للفرقة بدلاً من السبب الذي رسمه بيان الله عز وجل.

إليكم هذا المثال الثاني: يضعنا المحور الرباني أمام تحذير بعبارات لا تقبل التأويل، يحذرنا المحور الرباني من أن نستسلم للسلم الذي يأتي بمظهر السلام فيقول: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥]

أي سَلْمٍ يحذرنا منه بيان الله؟ ذلك السلم الذي لا يأتي إلا بعد أن نتجرد من الحقوق، بعد أن نتجرد من الممتلكات، ونظرنا فوجدنا إخوة وأبناء عمومةٍ لنا يعرضون عن هذا المحور الذي وضَعَنَا البيانُ

الإلهي أمامه، ينغضون الرأس لاستسلام يأتي بصيغة سلام ويغضون الطرف عن الحقوق المستلبة والأراضي المغتصبة المستوطنة، أجل. إذاً لاحظنا كيف غاب المحور الرباني وحلَّ في مكانه المحور الذي يثير الشقاق والجدال.

انظروا إلى هذا المثل الآخر، يضعنا المحور الرباني – نحن المسلمين – على أساسٍ إنساني من التعايش والتآلف والتعاون مع غير المسلمين من أهل الكتاب فيقول: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨]. ونظرنا اليوم وإذا بأناس يُغَيِّبون هذا المحور الرباني ويحلون محله مشاعر الأحقاد والضغائن وما يُعَبَّرُ عنه اليوم بالإرهاب ونحو ذلك.

آتيكم بأمثلة أخرى؟ حسناً. يضعنا المحور الرباني من كتابه المبين بعبارة لا تقبل التأويل أمام كفتين أو دعامتين متساويتين لجهود كلٍّ من المرأة والرجل في هذا المجتمع الإنساني لينهض المجتمع على جهود كلٍّ منهما بتساوٍ فيقول: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]

يرسخ مبدأ الولاية المتبادلة التي لا تعلمها إلى اليوم القوانين الوضعية ويقول: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥]. ونظرنا فوجدنا اليوم من يُغَيِّبُ هذا المحور أو يتجاهله أو يلقيه وراءه ظهرياً ثم يزعم ويتهم أن القرآن إنما رسخ المجتمع الذكوري لينهض على حطام وأطلال حقوق المرأة. غُيِّبَ المحور القرآني الذي نقرؤه ووضع مكانه هذا الذي يثير الجدل والنقاش والخصام.

تعالوا إلى مثال آخر: يضعنا المحور الرباني أمام ما ينبغي أن نعلمه من تاريخ البعثة الإسلامية وحياة المصطفى مع أصحابه، يضعنا أمام الصورة التالية والشهادة العالية لأصحاب رسول الله فيقول: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾ [الفتح: ٢٩]. تلك هي شهادة رب العالمين لأصحاب رسول الله، ونظرنا

فوجدنا من يُحَكِّمُ مزاجه في تصنيف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيصنفهم بين صالح وطالح معرضاً عن شهادة كتاب الله سبحانه وتعالى.

ونظرنا إلى محور آخر – وكل ذلك ينبثق من الحبل الذي أمرنا الله باعتصامه – فوجدنا البيان الإلهي يقرن بين مكانة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين زوجاته فيقول: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦]. يصفهم بالأمومة لنا جميعاً إلى يوم القيامة، إذاً هنَّ جميعاً بشهادة كتاب الله عز وجل أمهات للمؤمنين، ونظرنا فوجدنا من يُغَيِّبُ أو يحاول أن يُغَيِّبَ هذا المحور ليحكِّمَ مزاجه بين زوجات رسول الله صلى الله عليه وسلم.

هذه نصوص ذكرتُهَا كأمثلة على المحور الجامع وكلها نصوص قاطعة الدلالة لا تقبل تأويلاً قط، ولكن لا شك أن من وراء هذه النصوص القاطعة الدلالة جملاً وبياناتٍ وألفاظاً أخرى في كتاب الله تقبل التأويل وتقبل أكثر من تفسير ومن هنا وجدت المذاهب بل من هنا وجدت الفرق، ينبغي أن نعلم أن هذه الفرق التي تكاثرت من خلال تفسير النصوص المحْتَمِلَة التي تقبل التأويل ينبغي أن تتسع صدورنا لها جميعاً وينبغي أن نعلم أنها جميعاً تستظل بظل الإيمان وأنها جميعاً تسمو إلى صعيد الإسلام وأنها ستلقى الله عز وجل إن كانت صادقة في اجتهاداتها هذه وهي مثوبة إن بأجرٍ أو بأجرين.

هذه خلاصة ما يبغي أن نعلمه أيها الإخوة من أمر الوحدة وقدسيتها في كتاب الله وهذا ما ينبغي أن نعلمه من السبب الذي جعل عودة الأمة إلى هذه الوحدة مستعصية وكم وكم من الناس تساءلوا عن سبب ذلك، سبب ذلك أن المحور الذي يجذب للوحدة قد غاب وحلَّت محله محاور متناقضة مختلفة. المحاور المختلفة المتناقضة تمزق بدلاً من أن تجمع وبدلاً من أن تحقق وحدة هذه الأمة.

وخلاصة ما ينبغي أن أقوله لنفسي وأن أقوله لإخواني في الإسلام والإنسانية أن لنا أن نجتهد في فهم كتاب الله عز وجل ما وسعنا ذلك وفي فهم سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن على أن نتصور أننا قادرون على أن ندافع عن اجتهاداتنا يوم نقف بين يدي الله عز وجل إذ يقوم الناس جميعاً لرب العالمين، فإذا علمتُ أنني أستطيع أن أدافع عن اجتهادي في ذلك الموقف الخطير العظيم المخيف فيا مرحباً باجتهادي اليوم في الحياة الدنيا ولكن إذا علمتُ أن لسانيَ سيتلجلج وأنني لن أستطيع أن أدافع

عن اجتهادي الذي تبنيته اليوم عندما أقف بين يدي رب العالمين فلأعد إلى نفسي ولأمحص نظرتي هذه ولأحوال ألا أرتحل من هذه الدنيا إلا بقلب سليم كما دعا سيدنا إبراهيم على نبينا وعليه الصلاة والسلام.

هذه هي نصيحتي لنفسي ولإخواني جميعاً أنتشلها وأعتصرها من هذا الكلام الجامع الذي ذكرته لكم.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.



٢٣١- هويتنا الإيمانية سلاحنا الأمضى | ٢٠١١/٠٣/١٨

أعود اليوم مرة ثانية لأحدثكم عن الشام وما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الشام. وحسبكم من ذلك الحديث الذي رواه أبو داود والحاكم في مستدركه وابن حبان بسند صحيح من حديث عبد الله بن حوالة أنه كان في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتحدث عن فتنٍ ستقع في المستقبل فقال له عبد الله بن حوالة: اختر لي يا رسول الله، أي اختر لي المكان الذي ينبغي أن أفرَّ إليه من الفتن التي تتحدث عنها، فقال له: ﴿عليك بالشام فإنها خيرة اللهُ من أرضه يجتبي إليها خيرته من عباده﴾، ثم قال: ﴿إن الله تكفل لي بالشام وأهله﴾.

عباد الله: هذه شهادة من رسول الله الصادق المصدوق بحق الشام وأهل الشام، أفما ينبغي أن نكون أوفياء مع صاحب هذه الشهادة التي شهد بها لنا؟ هذه الشهادة التي شهد بها لنا ولأرضنا المباركة هذه؟ وكيف ينبغي أن يكون الوفاء منا لهذه الشهادة التي أعلنها رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ كلنا يعلم أن الوفاء إنما يتمثل في أن نستعلن بالهوية التي شرفنا الله سبحانه وتعالى بها، الوفاء يتمثل في أن نستعلن بالهوية الإيمانية، الهوية الدينية التي هي سر اجتباء الله عز وجل لنا إذ أقامنا في هذه الأرض، بل هو سر اجتباء الله الأرض والبركة التي أغدقها على هذه الأرض.

إنكم لتعلمون يا عباد الله أن شعارات كثيرة مَرَّتْ ببلدتنا هذه، أقيمت سياسة هذه البلدة على أساسها، شعارات متنوعة كثيرة ولكنها جميعاً أخفقت أمام مواجهة العدو المشترك الذي يتربص بنا الدوائر كما تعلمون. لغة واحدة هي التي نجحت – وما تزال تنجح – في مواجهة تحديات هذا العدو المشترك الذي وفد إلينا من وراء البحار. لم يتجه إلينا هذا العدو في سبيل محاربة قومية، لم يتجه إلينا من أجل أن يحارب يساراً ضد يمين أو يميناً ضد يسار، لا لم يتوجه إلينا من أجل طمع في أرضٍ فقط وإنما توجه إلينا واضعاً نصب عينيه بل في قراره الذي اتخذه أن يجتث هويتنا الإيمانية والإسلامية من أفئدتنا بل من أرضنا المباركة هذه أيضاً. إنكم لتعلمون هذه الحقيقة يا عباد الله. إذاً فهويتنا الإيمانية والدينية هي السلاح الأول بل الأوحد الذي يخشى منه عدونا الذي أقبل إلينا كما قلت لكم من وراء البحار.

إذا كان هذا هو السلاح الذي يخيفه فلماذا لا نستمسك به؟ لماذا لا نحرص عليه؟ بل لماذا لا نستعلن الوفاء مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ شهد لنا بهذه الشهادة إذ شهد بهذه الشهادة التي حدثتكم عنها؟

عباد الله: إن لغة الدين – لغة هذه الهوية – هي اللغة الوحيدة التي أعلنت عن نجاحها وأعلنت عن قدرتنا على الثبات في وجوه – لا أقول في وجه – الذين يتربصون بنا الدوائر. إذا أردنا أن نحارب الغلو فإن الغلو لا يُحَارَب إلا داخل دائرة الإسلام، وإن شئنا أن نحارب التطرف فلنعلم أن التطرف لا يمكن أن يُحَارَب إلا ضمن دائرة الإسلام، أما الإرهاب فلقد بحثت كثيراً فلم أجد لها ثبتاً في قاموس الإسلام ولا في قاموس الشريعة الإسلامية، إن معنى هذه الكلمة مطوي وخفي في صدور من ابتدعوها، معناها خفي وثابت في صدور من يصدرونها إلينا ثم يتعاملون معنا على أساسها. نحن نعلم أن الإسلام يحارِبُ في معتقده ويحارِبُ في أحكامه السلوكية وفي مبادئه الأخلاقية الغلوَّ، يحارِبُ التطرف.

أعود فأقول: لقد مضى العهد الذي كان لنا أن نستحي فيه من استعلان هويتنا الإيمانية والإسلامية، مرَّ ذلك المنعطف الذي كنا نخجل فيه من أن نعتد وأن نرفع الرأس بهويتنا الإيمانية هذه، آن لنا أن نعلنها وآن لنا أن نعلم أن وجودنا الحضاري رهن برفع هذه الهوية، آن لنا أن نعلم أن تحررنا من التطرف رهن برفع هذه الهوية، آن لنا أن نعلم أن تحررنا من الغلو رهن بهذه الهوية يا عباد الله فلماذا نخجل من الاستعلان بها ونحن الذين نحارب فعلاً الغلو والتطرف ولا أعتقد أن للإرهاب معنى في خارج هاتين الكلمتين قط.

لقد كان في الناس من يقول: إن الذي يمنعنا من أن نستعلن هذه الهوية أننا لا نريد أن نثير حساسية بيننا نحن المسلمين والآخرين، وأنا أنظر اليوم وأنتم تنظرون أيها الإخوة وإذا بكثير من مواطنينا غير المسلمين يعتزون بهذا الدين وهذا الإسلام أكثر مما يعتز به بعض المسلمين، نحن نرى هذا ونتبين هذا، ورحم الله ذلك القائد الذي سبقنا إلى رحمة الله يوم قال: إن المسلمين في هذه البلدة ينتمون إلى الإسلام بمعتقدهم وإن غير المسلمين ينتمون إلى الإسلام عن طريق الوطن وعن طريق التاريخ الذي يجمعنا ويجمعهم. هذه حقيقة لا تزال في البال ولا يمكن أن تُنْسَى على مر الزمن.

لقد فُتِحَتْ مصر –كما تعلمون – فهل في الناس من قال: إن الأقباط كانوا مواطنين في الدرجة الثانية تحت مظلة الفتح الإسلامي؟ هل في الناس من لا يعلم أن مصر بكل ما احتضنته من مسلمين وأقباط وغيرهم كانوا يعيشون على مستوى واحد، كان الإسلام صهرهم في بوتقة واحدة تحت قانون: لنا ما لهم وعلينا ما عليهم.

لقد فُتِحَتْ بلاد الشام فهل في الناس من لا يعلم أن المسلمين والنصارى آنذاك كانوا مضرب المثل للحمة، كانوا مضرب المثل للتعاون والتواصل؟ هل في الناس من لا يعلم أن المسلمين والنصارى وقفوا صفاً واحداً في وجه الغزوات الصليبية المتوالية؟ هل في الناس من لا يعلم أن المسلمين والنصارى كانوا جنباً لجنبٍ في خندق واحد في مواجهة العدو المشترك.

لقد نشأت تلك الدولة المتألقة الحضارية الإسلامية في الأندلس فهل في الناس من لا يعلم أن الإسلام الذي هيمن على تلك الدولة لم ينسج الدولة الإسلامية عن طريق سدى ولحمة الإسلام والنصارى واليهود؟ هل في الناس من لا يعلم ذلك؟ جامعاتها كانت تفور بالمسلمين وغيرهم، مستشفياتها كذلك، ثقافتها كذلك. هذا هو الإسلام. الإسلام يحتضن كل من تحتضنه الأرض الذي يهيمن عليها الإسلام.

أعود فأقول يا عباد الله: آن لنا أن نرفع الرأس بهذه الهوية وألا نطويها عن أنظارنا وألا نطويها سلاحاً في وجه خصومنا وأعدائنا الذين يتربصون بنا الدوائر، وإنكم لتعلمون أنهم يمارسون – وأتحدث عن العدو المشترك – هؤلاء الأعداء يمارسون ألواناً من التحديات يواجهوننا بها، وإنكم لتعلمون – وأنا أقول ولست مغالياً ولست مبالغاً –: إن هذه البلدة كانت ولا تزال تمتاز بأنها لم تنغض الرأس لأي ضغط، لم تنغض الرأس لأي تحد ووجِهْنَا به قط، كلنا يعلم أن هذه البلدة تمتاز بأن كل من فيها على كل المستويات كانوا ولا يزالون أعيناً ساهرة على الحقوق، أعيناً ساهرة على الأرض والوطن، أعيناً ساهرة على المبادئ والقيم فما ضرَّ أن نجعل من هذه المبادئ والقيم سلاحنا الأول يا عباد الله في وجه من يريد أن يقضي على قيمنا ومبادئنا، ولا والله ما اجتمع الشرق والغرب في عهد من العهود إلا على هدف واحد هو اجتثاث هذا الإسلام، عرفتم ذلك قبل أن ينهار الاتحاد السوفييتي وعرفتم ذلك بعد أن انهار الاتحاد السوفييتي عندما أعلنت رئيسة وزراء دولة بريطانيا آنذاك باسم أوروبا كلها أن العدو المتبقي والذي ينبغي القضاء عليه هو

الإسلام، إذاً الإسلام سلاح خطير نواجه به أعدائنا، إذاً الإسلام حصننا الأول والأخير الذي نستعيد به حقوقنا، نعم.

أعود فأقول: انطوى ذلك العهد الذي كنا نخجل من أن نستعلن هويتنا الإيمانية والدينية التي تجمع ولا تفرق، وتبني ولا تهدم، وتقيم ولا تترك الاعوجاج قط، وتجمع نثار القلوب لكي تصوغها في قلب واحد، وحسبنا من ذلك الشرف الذي توجنا الله عز وجل به إذ قال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾ [المائدة: ٣]. إنها هدية ما مثلها هدية، إنه لتاج تَوَّجَ اللهُ عز وجل به عقولَنا ولابد أن نُتوِّجَ به قلوبنا وعواطفنا.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يثبتنا بقوله الثابت وأن يكرمنا بمصداق ما قاله رسول الله عن شامنا هذه وقد فعل.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.



٢٣٢- موقف الدين الإسلامي من التصنيف الطائفي | ٢٠١١/١٢/٠٩

إن الإسلام هو الدين الذي ابتعث الله عز وجل به رسله وأنبياءه جميعاً، بدءاً من أولهم آدم عليه الصلاة والسلام وانتهاءً بآخرهم وهو محمد صلى الله عليه وسلم. وصدق الله القائل في محكم تبيانه: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

ومن هنا فإن الإسلام لم يضق في يومٍ من الأيام ذرعاً بأهل الكتاب، بل إن الإسلام متمثلاً في الدول الإسلامية المتوالية التي كانت ترعى الشريعة الإسلامية وتطبقها كما أمر الله عز وجل وكما أنزل، كان الإسلام متمثلاً في هذه الدول الإسلامية تحتضن أهل الكتاب، ترعاهم، تبرهم، تذود عنهم، تتقاسم معهم الحقوق الإنسانية بالعدل وعلى السواء. وتأملوا يا عباد الله في الفتوحات الإسلامية التي امتدت إلى بلاد الشام هذه، والتي امتدت إلى مصر لم يُلْجَأ نصراني أو يهودي إلى أن يبدل دينه هنا أو هناك، وبقي النصارى في بلاد الشام إلى أن جاءت الغزوات الصليبية أعدادهم متكافئة مع أعداد المسلمين، سعداء بالفتح الإسلامي الذي طهر الشام من الاستعمار الروماني، وكان أقباط مصر سعداء بالفتح الإسلامي الذي طهر مصر من الإمبراطورية الرومانية.

وكما أن الإسلام لم يضق ذرعاً في يومٍ من الأيام بأهل الكتاب فإنه لم يضق ذرعاً بالفرق بالإسلامية التي تنامت في أواخر القرن الأول الهجري. ظهرت كما تعلمون فرق إسلامية كالمعتزلة والمرجئة والجهمية والقدرية والحشوية وغيرها فهل ضاق السواد الأعظم من المسلمين الذي يشكل بما يسمى بأهل السنة والجماعة هل ضاق أهل الإسلام ذرعاً بهذه الفرق؟ بل احتضنتهم الدولة الإسلامية، ترعرعوا ونموا في تربة الحرية الفكرية، ثم إنهم بادوا بعد أن سادوا عن طريق الحوار والنقاش الأخوي المتبادل.

واعلموا أيها الإخوة أن هذا الذي أقوله لكم إنما تحقق تحت سلطان القاعدة القائلة: ﴿ألا لا يُفْتَنن نصراني عن نصرانيته ولا يُفْتَنن يهودي عن يهوديته﴾، هذا المبدأ كان هو الشرعة المطبقة خلال القرون المتصرمة كلها.

إذا تبين هذا – وهذه حقيقة نعود بها إلى ألف باء تاريخنا العربي الإسلامي الذي ما ينبغي أن يجهله أحد منا – إذا علمنا هذه نعلم أنه لو جاز للمسلمين أن يغمضوا أعينهم وينثروا تهم الكفر رشاً لا دراكاً على من يشاؤون لجاز لهم أن ينثروا تهمة الكفر لتلك الفرق التي تنامت في أواخر القرن الأول من الهجرة، الجهمية، المرجئة، المعتزلة، الحشوية، القدرية، الخوارج، ولكن أصغوا السمع جيداً وابحثوا ونقبوا هل ترون في أئمة المسلمين من نعت أياً من هذه الفرق بالكفر؟ لن تجدوا.

القاعدة أن الذي يُكَفِّرَ الإنسان هو نفسه، هو الذي يُكَفِّرُ نفسه، فإذا لم يكفر المسلم نفسه فإن أحداً لا يملك أن يكفره. لو أن إنساناً ارتكب الموبقات المكفرة ثم عاد فقال أنا مسلم فإن كلمته هذه إعلان بأنه قد تاب وآب إلى الله، وهو إعلان بأن الله عز وجل قد قبل توبته. إذا عرفنا هذه الحقيقة يا عباد الله عرفنا بالبداهة أن لا يجوز في شرع الله عز وجل أن تهتاج طوائف من المسلمين بعضهم على بعض، لا يجوز في شرع الله أن يهتاج المسلمون على الكتابيين ولا الكتابيون على المسلمين لمجرد أن هؤلاء مسلمون وأن هؤلاء كتابيون، هكذا قرر كتاب الله وهكذا قررت سنة رسول الله وهكذا قرر واقع الأمة الإسلامية فيما مضى.

لا يجوز في شرع الله عز وجل أن تهتاج الحروب بين فرق المسلمين أياً كانت بسبب أنها فرق مختلفة. فرق المسلمين انبثقت من داخل الوجود الإسلامي، فرق المسلمين تنتمي إلى الإسلام، ينتمي كلٌّ منها إلى الإسلام، إذاً لا يجوز ذلك قط. هذا الهياج الذي يُسمى اليوم بالحرب الطائفية ينبغي أن تعلموا يا عباد الله أن الذين يستثيرونها ويحاولون أن يقدحوا زناد العداوة والبغضاء في الحرب المشتعلة بين الفرق الإسلامية المختلفة ينبغي أن تعلموا أن هؤلاء ليسوا من تلك الفرق في شيء، وإن تظاهروا بأنهم ينتصرون لبعضٍ منها ضد البعض الآخر.

إن الذين ينفخون في ضرام هذه الفتنة ليسوا من الإسلام الذي شرفنا الله عز وجل به في شيء. إذاً من هم؟ إنهم قد يكونون أصابع عربية وإسلامية ولكنها مستعبدة وخادمة لسواعد غربية تعلن العداوة لله وتعلن العداوة والبغضاء لعباد الله المؤمنين بالله سبحانه وتعالى. لئن رأيتم سيما الإسلام في هذه الأصابع التي تحاول أن تشعل نيران البغضاء فالعداوة فالحروب بين فرق الإسلام أو طوائفه أو بين المسلمين والكتابيين فلتعلموا أن هذه الأقنعة التي تستر وجوه هؤلاء الناس بالسواد إنما هي أقنعة تستر حقيقة ينبغي

أن نعلمها، إن هؤلاء وإن كانوا أصابع عربية وإسلامية لكنهم في الحقيقة عبيد مستذَلون مهانون، خَدَم لسواعد غربية أعلنت أخيراً الحرب على الله ومن ثم الحرب على عباد الله المؤمنين به.

عباد الله: إنكم جميعاً تقرؤون قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: ١٠٣]. وما أكثر ما رأيت هذه الآية ملصقة على جدران زُينت بها أبهاء بيوت وقيعان، ولكن هل تأملتم في معنى هذا الأمر الإلهي: ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً﴾ هل الخطاب موجه فقط إلى السواد الأعظم من المسلمين الذي يسمى بأهل السنة والجماعة؟ هل الآية تقول لهم وحدهم اتفقوا ضد الفرق الإسلامية الأخرى وإن كنتم تخطئونها؟ لا يا عباد الله. الخطاب هنا إذ يقول ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً﴾ موجهٌ إلى المسلمين كُلاًّ دون تجزئة، موجه إلى المسلمين بقضهم وقضيضهم بما فيهم السواد الأعظم، بما فيهم الفرق التي تنتمي إلى الإسلام وتعتز بانتمائها إلى الإسلام، هؤلاء جميعاً هم الذين يقول لهم الله عز وجل: ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ﴾، مهما اختلفتم ومهما توزعتكم الاجتهادات في طرق شتى فإن الجامع المشترك موجود، وإن الجامع المشترك هو الذي يدخلكم في رحاب الرحمة الإلهية غداً، الجزء الإسلامي موجود، تمسكوا بهذا الجزء ولا تفرقوا. إذاً فهذه الآية العظمى في كتاب الله عز وجل تلطم وجوه الذين ينفخون في نيران الحروب الطائفية. هذه الآية العظمى تهيب بالمسلمين ألا يستذلوا وألا يهونوا وألا يجعلوا من أنفسهم عبيداً أذلاء لأولئك الأعداء.

يا عجباً يا عباد الله كيف لا يَصْحُوا هؤلاء الإخوة الذين بايعوا أعداء الله – إن بشكل مباشر أو غير مباشر – كيف يرضون لأنفسهم الهوان؟ ألا يرون أو يسمعون بالكاريكاتير الأجنبي الغربي الذي يسخر من هؤلاء الذين أعلنوا بسلوكهم العبودية لقادة الغرب، الذين أعلنوا بسلوكهم العبودية والذل والهوان لمن يريد أن يجتث شأفتهم من أرضهم، لمن يريد أن يأخذ خيراتهم أجمع، لمن يريد أن يقضي على وجودهم، ألا يرون إلى الكاريكاتير الذي يبعث الذل والهوان؟

في الغرب جمهرة كبرى معارضة لهذا الذي يفعله قادة الأمم الغربية. تعالوا فانظروا كيف يعبر الكاريكاتير عن ذل هؤلاء المسلمين، وكيف ينظر إلى هؤلاء الصامدين الثابتين على كلمة الله عز وجل، ينظر إليهم نظر إجلال، نظر إعظام.

يا عجباً يا عجباً، أينتهي الأمر بالإنسان — وهو خُلِقَ شريفاً، شرفه فطرة تنبض بين جوانحه، خُلِقَ كريماً في حق نفسه، كرامته تنبض بين جوانحه — أيغدو الإنسان ممسوخاً تغيب عنه مشاعر شرفه، تغيب عنه مشاعر كرامته، وفي سبيل ماذا؟ في سبيل أن يُقْضَى عليه، في سبيل أن يصبح بعد قليل ضراماً لهذه النار التي يشعلها، حطباً لهذه النار التي يشعلها.

الأمور التي تجري، كلها يجري يا عباد الله تحت أغطية من القرارات المكتوبة، ولدي طائفة من هذه القرارات، والإنسان الذي لا صلة له بهذه القرارات لا يعيش في هذا العصر، يعيش في عصور غابرة قديمة. واحدة من هذه القرارات صدرت من مجلس الأمن القومي الأمريكي في أواخر القرن الماضي تبرر الحرب الطائفية الأهلية، تدعو إلى إشعال الحرب الطائفية الأهلية بين المسلمين. التقرير يبدأ بالحديث عن خطر الإسلام الوارد والداهم إلى المجتمعات الغربية بشطريها الأوروبي والأمريكي، ثم إن التقرير يتحدث عن العلاج الذي لا يصد الخطر الإسلامي عن الغرب فقط بل يجتثه من ينابيعه أيضاً، يقول: إن الدواء هو العمل على تأليب المسلمين بعضهم على بعض.

والله هذه هي الصيغة بعد أن تُتَرْجَمَ إلى اللغة العربية، يجب تأليب المسلمين بعضهم على بعض بحيث تهتاج بينهم العداوة ثم تتحول العداوة إلى حروب، ومن الذي يجني ثمرات هذه الحروب ذلك العدو الذي ينتظر وينفخ من هناك في نيران هذه الفتنة.

يا عباد الله: أتريدون أن تعرفوا الفرق بين موقف الإسلام من الخصام الطائفي فضلاً عن الحرب الطائفية؟ أتريدون أن تعرفوا الفرق بين موقف الإسلام وبين موقف أعداء الله عز وجل؟ تعالوا فانظروا إلى هذه الصورة أيام الفتح الإسلامي في الشام.

فُتِحَتْ الشام —كما تعلمون — ولكن رجال الدين في بيت المقدس أصروا على أن لا يوقعوا صك الصلح والتعاون إلا مع أمير المؤمنين عمر، واستُقْدِمَ عمر على هذه البلاد، وجاء إلى بيت المقدس، توجه أول ما وصل إلى بيت المقدس إلى الصخرة المشرفة فوجد ركاماً من الأقذار قد جُمِّعَتْ فوق هذه الصخرة، لماذا؟ هكذا كان يفعل الاستعمار الروماني، يثير النصارى على اليهود، يدفعهم إلى استقذار الصخرة المقدسة التي يقدسها اليهود، ثم يثير اليهود بدافع من ردود الفعل إلى تقذير مكان كنيسة القيامة حيث

وُلِدَ سيدنا عيسى، وهكذا يثير الطائفتين كُلاً منهما على الآخر لكي يجد العدو موطئاً مستقراً لنفسه بين ذلك الضرام من الحرب الطائفية، هكذا كانت تفعل الامبراطورية الرومانية وهكذا يفعل اليوم أحفادهم، أما الإسلام ممثلاً في عمل عمر فماذا صنع؟

عندما وجد هذه الأقذار خلع رداءه وأخذ ينظف الصخرة المقدسة بردائه من هذه الأقذار، سرعان ما تعاون معه الذين كانوا من حوله، ثم إنه ذهب يزور مكان ولادة سيدنا عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام، رأى هنالك أيضاً ركاماً من الأقذار، خلع رداءه وأخذ ينظف ذلك المكان، ذلكم هو عمل العدو – عدو الإنسانية وعدو الله – الذي يتوارثه أعداء الله اليوم، وهذا هو موقف الإسلام، موقف الإسلام قضى على تلك الكراهية وجمع بين الدينين وسرعان ما تحقق الصلح. حسبي هذه الصورة، وحسبكم هذا المعنى يا عباد الله.

ألا فارعووا يا أيها الإخوة قبل أن تتحول حياتكم إلى الحياة البرزخية الأخرى فتندموا ولات حين ندم. لا تجعلوا من أنفسكم أعداءً لربكم وعبيداً لأعداء مولاكم وخالقكم سبحانه وتعالى، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم فاستغفروه يغفر لكم.

عباد الله: مَرَّةً أخرى أُذَكِّرُكُمْ وأذكر نفسي بأن الله عز وجل لا يَرْحَم من لا يَرْحَم، هكذا أعلن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح، وهذا المنعطف الذي نمر به هي الفترة الامتحانية التي تتجلى فيها رحمة الإنسان بأخيه الإنسان، حذار يا عباد الله، حذار يا أيها الموسرون، حذار يا أيها المتعشقون للمال الذي يجمعونه في جيوبهم أو الذي يملؤون به خزائنهم، حذار من أن تنتهزوا فرصة الأسر التي تطوف بحياة إخوان لكم يحتاجون حاجة ماسة إلى وسائل التدفئة، إياكم أن تمسخوا إنسانيتكم وتمزقوا رحمتكم بإخوانكم فتنتهزوا الفرصة لتحرموهم من هذه الأداة.

إياكم أن تتكلفوا بأن تجعلوا منها سوقاً سوداء ينظر الفقير فلا يجد سبيلاً إلى جذبها إلى داره، يبيت – وأنا أعلم ذلك – هو وأهله لا أقول على الطوى فقط بل يبيت والجميع أجسامهم ترتعد من البرد، وأنت تتمتع بالدفء في زوايا بيتك أجمع، أين هي إنسانيتك يا أخي. إن كنت ممن يؤمن بالله عز وجل فأكلك إلى إيمانك، أَكِلُكَ إلى إنذار الله لك، وإن كنت ممن شردوا عن صراط الله وعن سبيل الإيمان بالله

فإني أحيلك إلى إنسانيتك وهي فطرة فطرك الله عز وجل عليها. إياك أن تجعل من هذه الحالة الامتحانية التي يزجنا الله عز وجل فيها سبيلاً لاحتكار الأرزاق، سبيلاً لرفع أثمانها وأنت اشتريتها بثمن رخيص قبل أن تحيق هذه الشدة. لماذا يا هذا الإنسان؟ لماذا تنتهز فرصة حاجة أخيك لتقتله فتحيا من وراء موته، لماذا؟

مرة أخرى بل مرة ثالثة أيضاً أوصي نفسي وأوصي إخواننا في الشام بأن يضربوا المثل الأعلى في التراحم. إن كان من حولنا أناس يضربون المثل الأحط في المقاطعة التي لا تبالي بالفقير ومآله فأنا أدعو نفسي وأدعوكم يا أهل الشام إلى أن تضربوا المثل بالتراحم.



٢٣٣- التطرف والغلو... مصدرهما وموقف الإسلام منهما | ٢٠/٠١/٢٠١٢

إن مما يلفت النظر حقاً أن الناس الذين يعيشون غرباء عن الإسلام وعن دياره كلما ازدادت نفوسهم استئناساً بالإسلام وكلما ازدادت عقولهم إقبالاً إليه وتأملاً فيه واقتناعاً بمبادئه ازدادت عداوة أعداء هذا الدين شراسة وفاح المزيد من رائحة الضغينة والحقد والكراهية عليه في نفوسهم. ولقد حدا بهم ذلك إلى أن يطوروا الوسائل التقليدية التي كانوا يستعينون بها للوقوف في وجه المد الإسلامي الذي شاءه الله سبحانه وتعالى. لم تعد وسيلتهم اليوم كما كانت إرساليات تبشيرية، شكوكاً تُبَثُّ في عقائد الإسلام ومبادئه وإنما اختُرِعَ اصطُنِعَ لذلك سلاح جديد ربما رأوا أنه أمضى سلاح وأيسرُ ما يمكن أن يُتَّخّذَ من سبيل للقضاء على خطر الإسلام ومدِّه، إنه يُلَخَّص – يا عباد الله – فيما يلي:

يصطنعون في ديارهم التطرف ويصطنعون الإرهاب – وما أكثر معاملهما هناك – ثم إنهم يصدرون كلاًّ منهما إلى ربوع عالمنا العربي والإسلامي ثم يُلْصِقُونَ كلاًّ منهما بالإسلام من خلال نسبة مختلقة مصطنعة، فيقولون: التطرف الإسلامي، الإرهاب الإسلامي. وينتشر هذان الشعاران هنا وهناك أملاً في أن تؤمن عقول المسلمين وفي أن تؤمن عقول شعوبهم بأن الإسلام إنما هو معين الإرهاب وأنه معين التطرف والغلو، فهل الإسلام كذلك يا عباد الله؟ هذا ما أريد أن أجيب عنه في موقفي هذا إليكم.

أذكركم يا عباد الله بأن دستور الإسلام الأول هو كتاب الله عز وجل المنزل على خاتم الرسل والنبيين، وأن قدوتنا في تنفيذ هذا الدستور إنما هو حبيبنا محمد صلى الله عليه وسلم، وإن الواقع العملي الذي يُعاشُ من خلاله ويُطَبَّقُ هذا الدستور إنما هو شريعة الله سبحانه وتعالى، فتعالوا نتأمل في هذه المصادر المتعددة.

أما دستور الإسلام الذي هو القرآن فما رأيت فيه إلا ما يحذر من الغلو والتطرف والإرهاب الإجرامي. ولقد نَشَّأَ القرآنُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم في ظل الرحمة، في ظل المسامحة، ألم يقل كتاب الله عز وجل لرسوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وهذا الكلام الموجه إلى رسوله صلى الله عليه وسلم ليس خاصاً بمعاملته بالمسلمين فقط بل بكل من قد أُرْسِلَ إليه. أليس كتاب الله عز وجل هو الذي أرسى موازين العدالة المطلقة متحررة من العصبية للعرق، متحررة من العصبية للمذهب، متحررة من العصبية للدين؟! ألم يقل: ﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٨].

ألم يدافع كتاب الله عز وجل من خلال عشر آيات عن يهودي ظُلِم عندما أُلْصِقَتْ به تهمة سرقة وقد كان بريئاً منها وقد كان السارق مسلماً من ضعاف الإيمان والإسلام؟! صُدِّرَتْ هذه الآيات بقول الله عز وجل: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيماً﴾ [النساء: ١٠٥].

هذا هو الدستور وبهذا ينطق. ولئن كان هناك من يحارب التطرف ومن يمزق الإرهاب الإجرامي فلن تجد في العالم كله ولا في التاريخ القصي والقريب مثل كتاب الله سبحانه وتعالى يحارب التطرف ويمزق الإرهاب الإجرامي.

وأما محمد صلى الله عليه وسلم الذي رباه ربه في ظلال الرحمة، نشَّأه في ظلال المسامحة فتعالوا فتأملوا في سيرته من أولها إلى آخرها، هل تجدون في سيرته إلا نقيض هذا الذي يُتَّهَمُ به كتاب الله سبحانه وتعالى؟!

ألم يُشْهِر ذلك الأعرابي المشرك سيفَ رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه منتهزاً فرصة رقاده صلى الله عليه وسلم في وادٍ كثير الأشجار عند عوده من غزوة من الغزوات، ركله بقدمه، أيقظه قائلاً: من ينجيك مني يا محمد؟ أجابه بهدوء: الله. سقط السيف من يد الأعرابي وجلس خائفاً مرتعداً فماذا صنع به رسول الله؟ عفا عنه ولاطفه وهدَّأ من روعه، وعاد الأعرابي يقول لقومه: جئتكم من عند خير الناس.

محمد رسول الله الذي نشَّأَه الله على عينه في ظلال الرحمة، المسامحة، الوسطية هو الذي كان يعامل الناس جميعاً بما ظهر منهم ولم يكن يخترق ظاهراً إلى باطن، لم يكن يتحسس البواطن ليغمض عينيه عن الظواهر. كان في المدينة منافقون فكيف كان يعاملهم رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ كيف عامل ذاك الذي قال بمناسبة لا نريد أن نتحدث عن تفاصيلها: ما أرانا وجلابيب قريش إلا كما قال المثل سَمِّنْ

كلبك يأكلك والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. وجاء ابن هذا الرجل — عبد الله بن أبي بن سلول — وكان من المسلمين الصادقين يقول لرسول الله: يا رسول الله لقد بلغني أنك قاتل أبي فيما قال فإن كان كذلك فمرني آتيك برأسه.

تبسَّم رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلاً: بل نترفق به ما كان بيننا. ولما توفي عبد الله بن أبي بن سلول أرسل ابنه إلى رسول الله على استحياء يرجوه أن يعطيه قميصه الذي يلبسه ملتصقاً على جسده ليكفن به أباه لعل ذلك يخفف عنه. خلع رسول الله الثوب وأرسله إليه، ولما جيء به ليُصَلَّى عليه أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصلي عليه، وقف في وجهه عمر يهمس في أذنه: يا رسول الله أتصلي عليه وقد فعل كذا وقد قال كذا، ورسول الله لا يلتفت إليه، ولما أكثر عليه عمر التفت إليه رسول الله قائلاً: أَخِّرْ عني يا عمر فلقد خيرني الله واخترت، وصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على عبد الله بن أبي بن سلول.

هذا هو قدوتنا بعد ذلك الدستور الذي حدثتكم عنه، أفتجدون في شيء من سيرته صلى الله عليه وسلم رائحة تطرف؟! أفتجدون في شيء من سيرته صلى الله عليه وسلم رائحة لغلو، رائحة لإرهاب يا عباد الله؟!

تعالوا وانظروا بعد هذا إلى سيرة أصحاب رسول الله الذين استظلوا بسيرة الشريعة الإسلامية تلك التي اعتصرت من كتاب الله ومن سنة وسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، كيف كانت حياته، نشأت كما تعلمون بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرقٌ إسلامية شاردة عن المنهج الأمثل الذي يدعو إليه كتاب الله عز وجل، جهمية ومرجئة ومعتزلة وآخرون، أصغوا السمع جيداً يا عباد الله وتأملوا هل تجدون في أصحاب رسول الله من كفَّرَ واحداً من هؤلاء؟! هل تجدون كلمة التكفير فاحت رائحتها هنا أو هنا أو هناك في وجوه هؤلاء الذين شردوا عما كان عليه السلف الصالح أهل السنة والجماعة؟ لا نعلم قد — وقد درسنا التاريخ ووعيناه ونقبنا دخائله — لا نعلم أن في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من كفَّرَ أيَّاً من هذه الفرق. هل تجدون إلا المسامحة، هل تجدون في كل ما يمكن أن تتأملوه في حياة أصحاب رسول الله رائحة لتطرف، رائحة لإرهاب، هل تجدون؟ لن تعثروا على ذلك قط.

تعالوا فتأملوا في سيرة التابعين، انظروا وابحثوا، كان النهج منضبطاً بدستور الإسلام القرآن، كان منضبطاً بسيرة حبيبنا المصطفى صلى الله عليه وسلم، ودونكم فانظروا إلى هذا الموقف من الإمام أحمد بن حنبل – ولئن كان هنالك من يمكن أن يلصق قالة السوء أو الإرهاب أو التطرف بالإسلام فلعله لا يجد غير الإمام أحمد لكي يلصق به هذه التهمة النكراء.

أنتم تعلمون قصة المحنة التي دارت رحاها على الإمام أحمد، لما انجابت عنه هذه المحنة في عصر المتوكل جاء بعض تلامذته ومريديه يقولون له: يا سيدي ادع الله على ابن أبي دؤات – واحد من المعتزلة الذين نفخوا في نيران تلك المحنة ضد الإمام أحمد – قال له: ادع الله على ابن أبي دؤات، قال له الإمام أحمد: ماذا يفيدك أن يُعَذَّب أخوك يوم القيامة من أجلك في النار؟ ورفع يديه يدعو لابن أبي دؤات، ويدعوا لكل أولئك الذين تسببوا بالمحنة التي دارت رحاها عليه.

عباد الله: هذا هو إسلامنا متمثلاً في دستوره الأمثل متمثلاً في سيرته محمدٍ صلى الله عليه وسلم، هل تجدون إلا اللطف، هل تجدون إلا نقيض إلا ما قد يتهم به الإسلام ومن ثم المسلمون؟!

أقول بعد هذا: ترى لو كان هذا السلاح الجديد الذي يُستخدم اليوم للقضاء على الإسلام ولخنقه في ربوعه – في ربوع الإسلام – لو كان هذا السلاح من شأنه أن يكون ناجحاً ينبغي أن يتجلى نجاحه في ربوع تلك البلاد قبل أن يتجلى نجاحه في ربوعنا، فهل نجح هذا السلاح بالوقوف في وجه المد الإسلامي الزاخر في ربوع الغرب بشطريه الأوروبي والأمريكي؟ لماذا يعتنق في كل عام آلاف الناس في ربوع الغرب دينَ الله عز وجل الإسلام. وإني لأعلم أن الذين يدخلون الإسلام سراً أكثر مم يعتنقونه جهراً، لماذا لا يُخْدَعون بهذه القالة؟! لماذا لا تخدعهم تهمة التطرف التي تُلْصَقُ بالإسلام والمسلمين، لماذا؟ ومن ثم لماذا هذا الخوف الذي يستبد بأفئدة القائمين بأمور الغرب إن في أوروبا أو في أمريكا؟ أي بعبع هذا الذي يظهر لهم من الإسلام. الإسلام يدعو إلى السلم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨].

تلك هي رسالته، الإسلام يصحح الحضارة عندما تفسد، يقوِّمها عندما تعوج. ولقد قلت لواحد منهم ممن له قيادة في ربوع الغرب، قلت لهم: إن الحضارة الغربية قد شاخت وإنكم تعترفون بأن أيامها

أصبحت معدودة، ألا أدلكم على وسيلة تعود حضارتكم بها إلى الشباب بعد الشيخوخة؟ قال: ما هي الوسيلة؟ قلت: أن تفتحوا المجال للإسلام يزدهر في ربوعكم، إن الإسلام إذا ازدهر في ربوعكم وإذا تركتم عقولكم تقبل على الإسلام لتعلم حقيقته لا أكثر فإنني أضمن بأن شيخوخة الحضارة الغربية ستولي ولسوف تعود إلى الشباب، ونحن نريد لكم أن تعود حياتكم إلى الإقبال بعد الإدبار ولكن على النهج الأمثل، على النهج الإنساني الذي رضعنا لبانه من خلال دين الله سبحانه وتعالى.

عباد الله: هذا هو إسلامنا، عندما يُتَّهم اليوم بالتطرف أو بالإرهاب وعندما أصغي السمع إلى مسؤول فرنسي يعلن كما لم يعلن من قبل عداءه العجيب الشديد للإسلام وتوعده للإسلام والمسلمين من خلال ما يتهم به الإسلام من التطرف والإرهاب فإنني أقول لكم – وهي كلمتي الأخيرة التي أرجو أن نعتصر منها العبرة والدرس الواجبين –:

إن هذا الذي يقولونه عن الإسلام يعلمون أنهم كاذبون فيه، وإن عملاء لهم هم الذي يلصقون هذا بذاك، يلصقون التطرف الذي يصدرونه إلينا من هناك بالإسلام ثم ينسبونه إليه قائلين التطرف الإسلامي، يلصقون الإرهاب بالإسلام ثم إنهم يختلقون نسبةً إليه فيقولون الإرهاب الإسلامي. وأنا أقول لإخواننا وأبناء عمومتنا: أيها الإخوة مصيرنا واحد، إسلامنا هو المظلة التي نستظل بها، ديننا إنما هو هويتنا، عبوديتنا لله سبحانه وتعالى. تعالوا نعد إلى أمن وطمأنينة هذا الدين، تعالوا نعلن عن عبوديتنا لله عز وجل، تعالوا ندخل جميعاً تحت ظل قول الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠]. قرارٌ وأمر، أما القرار فقوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ وأما الأمر فقوله عز وجل: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾. ألا هل عسيتم أن تصغوا إلى بيان الله؟ هل عسيتم أن تدينوا لهذا الأمر الذي يطالبنا به الله.

أيها الإخوة إن مساحة ما بيننا وبين القبور قصيرة، قصيرة جداً، وغداً سيبتلعنا باطن الأرض بعد أن عشنا على ظاهرها. ألا فاعلموا – أيها الإخوة من بعيد وقريب – ألا فاعلموا أن قصورنا إنما هي قبورنا، نعم يا أيها الإخوة، فاضمنوا، تعالوا نتعاون أن نجعل من قبورنا قصوراً لنا، وإياكم أن تعكفوا على أيام معدودات سنترك فيها كل ما قد بلوناه وكل ما قد بنيناه وكل ما قد نسجناه ولن نأخذ معنا إلى حفرتنا – والله الذي لا إله إلا هو – إلا الندم ولات حين مندم. أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

٢٣٤- محور شرائع الإسلام إقامة العدالة التامة | ٢٠١٢/٠٣/١٦

إنما الإسلام في هيكله الكلي إنما يتألف من العقائد الإيمانية التي تهيمن على القلب والعقل ومن الشرائع المتنوعة التي تنظم علاقة الإنسان مع ربه وتنظم علاقة الإنسان مع أسرته وتنظم علاقة الإنسان مع مجتمعه الإسلامي وتنظم علاقة الإنسان مع مجتمعه الدولي ومع الناس غير المسلمين. وعندما يتحقق الإسلام بأركانه وكلياته هذه في أي مجتمع من المجتمعات فذلك إيذان بقيام الدولة الإسلامية، ذلك لأن أركان الدولة لا تزيد على هذه الحقائق الكلية التي يتألف منها الإسلام معتقداً وسلوكاً. ولكن في الناس الذين لم يمارسوا من الإسلام إلا رسومه ولم يفهموا منه إلا مظاهره وتقاليده – إن جاز التعبير – يتوهمون أن الدولة الإسلامية كلما قامت لابد أن ينقسم منها خصام مع غير المسلمين الذين قد يوجدون في المجتمع الذي أظلته الدولة الإسلامية، في الناس من يتوهمون هذا الأمر ويتصورون أن هنالك تلازماً بين قيام الدولة الإسلامية وبين الخصام الذي لابد أن ينبثق ما بين المسلمين وغيرهم أو ما بين الإسلام والديانات الأخرى لاسيما الكتابية. أيها الإخوة أريد أن أقول لكم أن الحقيقة تقول نقيض ذلك تماماً، ولعلي أتمكن في هذه الدقائق أن أبسط الدليل على هذه الحقيقة التي تغيب عن بال كثيرٍ من المسلمين السطحيين أو التقليديين.

شرائع الإسلام كلها على تنوعها إنما تدور على محور واحد ألا وهو إقامة العدالة التامة وأكاد أقول المطلقة، تدور على إقامة العدالة التي تتسامى فوق فوارق الدين وتتسامى فوق فوارق العرق، تتسامى فوق فوارق الإقليم واللون واللغة، شرائع الإسلام كلها إنما تدور على هذا المحور، ألم تقرؤوا أو تسمعوا قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٨]. ألم تقرؤوا قوله: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ﴾ [الأنعام: ١٥٢]. وقد كرر البيان الإلهي هذا المعنى في أكثر من موطن وفي أكثر من مناسبة.

ولعل فيكم من قد يقول: هذا كلام نظري، فما الدليل على أن الواقع مصداق له؟ وأقول لكم أيها الإخوة: الفتوحات الإسلامية التي تمت هي نماذج لتصديق هذا الكلام النظري. الفتوحات الإسلامية التي

تمت والتي قامت على أعقابها الدول الإسلامية هي مصداق هذا الذي أقوله لكم. والوقت لا يتسع لاستعراض هذه الفتوحات وحقيقة الدول الإسلامية التي قامت على أعقابها ولكن فلأضعكم أمام نموذجين.

مصر كانت مستعمرة لبيزنطة وكانت ترزح تحت نير الاستعمال البيزنطي، وكانت الامبراطورية الرومانية قد اصطنعت الدخول في مذهب من المذاهب المسيحية لتستطيع أن تمكن لنفسها جذوراً أرسخ في تلك الأرض ولكي تبسيط مزيداً من السلطان على الناس هناك، فما إن فعلت ذلك حتى نشرت الظلم والقتل والترويع في أقطار مصر، وفي مجزرة واحدة قتلت بيزنطة ما لا يقل عن مئتي ألف من اليعاقبة وهم الذين يسمون اليوم بالسريان الأرثوذكس، نعم، هكذا كانت مصر، ولم تتحرر مصر ولم يتحرر أقباطها من هذا الاستعمار الخانق الظالم إلا عندما تحقق الفتح الإسلامي. لما تحقق الفتح الإسلامي وطهرت مصر من الاستعمار البيزنطي تنفس الأقباط الصعداء وعثروا على حريتهم وعثر كل واحد منهم على كرامته، هل كان فيهم من قد أكره على الإسلام؟ أبداً، هل كان فيهم من قد أكره على أن يغير دينه؟

أبداً، نعم، لقد أظلتهم الدولة الإسلامية واستظلوا بظل الشريعة الإسلامية ولكن الشريعة الإسلامية كانت حصناً رائعاً لكرامتهم، كان الدرع الذي لا بديل عنه لحريتهم الفكرية والدينية، ولعلكم تعلمون أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أنصف شاباً قبطياً من واحدٍ من أولاد عمرو بن العاص، استقدم عمرو بن العاص وابنه إلى المدينة واستقدم الشاب القبطي واقتص أمير المؤمنين عمر من ابن عمرو بن العاص وقال له — لعمرو بن العاص — كلمته التي خلدها التاريخ: أي عمرو متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً، هذا مثل للحقيقة التي أقولها لكم، ومثل آخر؛ فتح الشام، فتحت الشام أيضاً فتحاً إسلامياً، ولكن كيف كانت الشام وبلادها من قبل؟ كانت هي الأخرى ترزح تحت نير بيزنطة، تحت نير الإمبراطورية الرومانية، ولقد مني أهل الشام بعذاب واصب من الاستعمار البيزنطي وكان دأب بيزنطة أن تستثير اليهود على النصارى وأن تؤلب النصارى على اليهود وأن تسعى سعيها اللاهث ليظل القتال مستشرياً والعداوة والبغضاء مستمرين بينهما في سبيل أن ترسخ بيزنطة قدماً راسخة فوق تلك الأرض.

كانت بيزنطة تستثير اليهود لتقذير المكان الذي يعتقد المسيحيون أن سيدنا عيسى قد ولد فيه لكي يتألب المسيحيون على اليهود، ثم ما يلبث الرومان أن يؤلبوا النصارى على تقديس الصخرة المشرفة التي

يقدسها اليهود لاستثارة مزيد من البغضاء بين هؤلاء وأولئك، فكيف كانت النتيجة عندما شاء الله عز وجل أن تتحرر الشام من نير الاستعمار الروماني؟ اجتمع المسلمون ورجال الدين في بيت المقدس ليوقعوا على صك الصلح والمعاهدة، ولكن رجال الدين المسيحي أبوا إلا أن يوقعوها بحضرة أمير المؤمنين عمر، وأخبر عمر بالأمر فجاء، وبدأ عمر بن الخطاب أمير المؤمنين عندما وصل إلى القدس بدأ فاتجه إلى الصخرة المشرفة، وجد عليها الأتربة والأقذار الكثيرة، خلع رداءه وراح ينظف الصخرة المقدسة برداءه وعندئذٍ هب كل من كان حول عمر فهرعوا ليسابقوه في هذا العمل القدسي، ثم إنه اتجه إلى المكان الذي قال النصارى إن سيدنا عيسى ولد فيه – مكان كنيسة القيامة – ما إن وصل إلى ذلك المكان حتى رأى القمامة والأقذار والأوساخ متراكمة في ذلك المكان أيضاً، فخلع مرة أخرى رداءه وراح ينظف ذلك المكان بردائه، ولكن الناس الذين من حوله ما لبثوا أن سابقوه إلى ذلك.

تأملوا في العمل الذي كان تمارسه بيزنطة من إثارة البغضاء والحرب الطائفية بين أهل الكتاب وما فعله الإسلام ولا أقول عمر من نقيض ذلك. أولئك كانوا ينفخون في نيران الحرب اللاهبة بين الإخوة أهل الكتاب والإسلام متمثلاً في شخص عمر جمع الكل على خط الوئام، على صراط الحب، على صعيد الألفة، نظف بردائه كلا الموضعين المعروفين، والتاريخ ينطق بتفصيل هذا الكلام الذي أذكر لكم مجمله. هل أكره أحد من النصارى الذي كانوا في بلاد الشام على الإسلام؟ ولا واحد، لم يكرهوا. ويقول التاريخ: إن عدد النصارى في بلاد الشام بقي إلى أن أطلت فلول الغزوات الصليبية يساوي عدد المسلمين، نعم. ولكن السؤال الأهم، كيف كان يعيش النصارى في بلاد الشام بعد الفتح الإسلامي؟ كان يعيشون أحراراً وكانوا يعتزون بحريتهم أيما اعتزاز، وكانوا يتمتعون بكرامة لم يكونوا ليعثروا عليها إبان الاستعمار البيزنطي بشكل من الأشكال أبداً.

لم يكره أي واحد منهم على أن يغير دينه، كانت الشريعة الإسلامية تنفذ القاعدة القائلة: ألا يفتتن نصراني عن نصرايته ولا يهودي عن يهوديته، نعم. ولما أطلت الغزوات الصليبية المتسلسلة متجهة إلى بلاد الشام أرسل قادة تلك الغزوات سراً كتباً إلى قادة المسيحيين في بلاد الشام يسألونهم ما القرار الذي اتخذتموه وها نحن قادمون إليكم، أهو الوقوف إلى جانب بني قومكم المسلمين أم الموقوف إلى جانب بني دينكم الوافدين؟

كان جواب الكل: قرارنا الذي اتخذناه هو الوقوف إلى جانب بني قومنا المسلمين، وشهد التاريخ كيف أن المسلمين والنصارى وقفوا في خندق واحد يواجهون الغزوات الصليبية المتسلسلة. ما الشرعة التي كانت تظلل أهل الشام من مسلمين ونصارى؟ إنها شرعة الإسلام. فهل كانت شرعة الإسلام تتحيز لفئة دون أخرى، هل كانت شرعة الإسلام تتحيز للمسلمين على حساب النصارى؟ لا يا عباد الله أبداً، لأن الإسلام يأبى ذلك، ولأن الإسلام يقول: ﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٨].

أقول الآن لهؤلاء الذين يتخوفون من كلمة الدولة الإسلامية، أقول لهؤلاء الذين يتخيلون أن الدولة الإسلامية تعني الظلم الذي قد يقع على غير المسلمين، الدولة الإسلامية تستلزم أن يكون غير المسلمين مواطنين من الدرجة الثانية، أقول لهم: ادرسوا الإسلام قبل أن تتهموا الدولة الإسلامية بهذا، الإسلام لا يعرف هذا الذي تقولون، الدولة الإسلامية التي تتجلى بشرعة الإسلام إنما تدور –كما قلت لكم– على محور العدالة التي تتسامى فوق الأعراق، فوق فوارق الأديان، فوق فوارق اللغات، فوق فوارق الألوان كلها.

المسلم يتفيأ ظلال الشريعة الإسلامية ويرحب بها تفاعلاً مع عقيدته الإيمانية والدينية، أما غير المسلم فيستقبل الشريعة الإسلامية لأنها جزء من تراثه، لأنها جزء لا يتجزأ من حضارته العربية، أوليست الشريعة الإسلامية التي هي تراث إلى جانب كونها ديناً أولى بنا من أن نتقمم قوانين نأتي بها من هنا وهناك، نأتي بها ونستذل أنفسنا لنتقممها من شرق أو من غرب. شريعة الإسلام تراثنا، وهي أيضاً دين لمن كان قد تمسك بالإسلام. فمن كان مسلماً فإنه سعيد بأن يطبق شريعة الله جل جلاله لأنه مسلم، ومن كان غير مسلم فإنه يعتز ويسعد بتحقيق والتمسك بشريعة الإسلام لأنها جزء من تراثه ولأنها جزء من حضارته، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم فاستغفروه يغفر لكم.

وبعد أيها السادة: أرسل إليَّ بعضهم يقول: إن الاحتكار الذي حرمته الشريعة الإسلامية إنما هو احتكار الأقوات أي التي يحتاج إليها الناس لطعامهم وشرابهم، وأقول لهؤلاء الإخوة: أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا أعلم أنه خصص حرمة الاحتكار بهذا الذي سمعت، ورسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي أعلن مرة واثنتين وثلاث مرات وأكثر أعلن حرمة الاحتكار فقال: «من احتكر حكرة يبتغي

بها الغلاء فقد برئت منه ذمة الله ورسوله﴾ والحديث صحيح يرويه الإمام أحمد والحاكم في مستدركه على شرط الشيخين.

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿لا يحتكر – لم يقل لا يحتكر الأقوات – لا يحتكر إلا خاطئ﴾ والحديث صحيح يرويه مسلم في صحيحه. ويقول صلى الله عليه وسلم فيما يرويه الحاكم في مستدركه على شرط الشيخين من حديث عبد الله بن عمر: ﴿المحتكر ملعون﴾

فلا يفتئتن أحد على شريعة الله عز وجل، لا يكذبن أحد على حديث من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم. ما هو مناط تحريم الاحتكار؟ الضرر. ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في كلمته الجامعة: ﴿لا ضرر ولا ضرار﴾ ولا نافية للجنس، جنس الضرر مرفوع، ﴿لا ضرر ولا ضرار﴾، لا يجوز للإنسان أن يضر غيره ولا يجوز للإنسان أن يضر نفسه.

الاحتكار كله مناط ضرر، احتكار الأقوات، احتكار السلع، احتكار النقد عن سوق التداول في سبيل التلاعب بقيمته، كل ذلك احتكار محرم، والإنسان الذي يمارس ذلك ملعون بكلام رسول الله في حديثه الصحيح الذي قال، الذي رواه الحاكم في مستدركه على شرط الشيخين: ﴿المحتكر ملعون﴾.



٢٣٥- الافتتان بالدنيا أبرز العوائق أمام نهضة حضارتنا | ٢٠١٢/٠٣/٣٠

حكمة باهرة يرينا الله عز وجل إياها في عالم صنف من النمال، تتأمل في هذا الصنف فتجد النمال تسعى في الأرض باحثة عن أرزاقها، آوية بعد ذلك إلى أعشاشها وشقوقها من الأرض في تواضع جم وجدٍّ دائبٍ يضرب به المثل. وعلى حين غرة تنظر الواحدة من هذه النمال وإذا بجناحين قد نبتا في جنبيها على غير توقع، وتنظر وإذا بالنشوة قد أسكرتها وإذا بالطغيان قد هيمن عليها، أصبحت تستخف بأعشاشها التي تأوي إليها من الأرض وأصبحت الدنيا التي تتحرك فيها ضيقة أمام أطماعها ونظرها، وتنظر وإذا تشد نفسها بجناحيها إلى جو السماء تبحث في تلك الأجواء عن أوطان أخرى لنفسها، ولكن ما هي إذا دقائق حتى تغدو هذه النمال رزقاً للعصافير والطيور التي تتحرك في جو السماء.

عباد الله: إنه درس من الدروس الكونية يبصرنا به الله سبحانه وتعالى ليعلمنا أن في الناس نمالاً بشرية أصابها مثل هذا الطغيان لما توهمت أنها قد تمتعت بجناحين؛ جناح من وهم الغنى وجناح آخر من وهم القوة انطلقت من مثل ما انطلقت منه تلك النمال وانتهت إلى العاقبة ذاتها. هذا درس من الدروس الكونية يبصرنا به الله سبحانه وتعالى، أناس ذهلوا عن هوياتهم، ذهلوا عن الضعف الذاتي الذي رُكِّبَ في كياناتهم، خُيِّلَ إليهم أنهم يتمتعون بشيء من الغنى الذي وضعوا أيديهم عليه وأنهم يتمتعون بسلاح من القوة التي سرت إلى وجودهم.

ها هي ذي أمريكا، الولايات المتحدة مثال حي نابض لهذا الذي يبصرنا به ربنا عز وجل وهو يرينا ما يشاء من سنن الكون وعبره، ها هي وقد خُيِّلَ إليها أنها تملك الدنيا كلها من خلال الكنوز المالية التي وضعت يدها عليها وخُيِّلَ أنها تمتلك قوة الكون عندما وجدت أنها تملك من الأسلحة والقوى ما لا يملكها الناس الذين من حولها مشرقين أو مغربين ومن ثم طمعت بأن تجعل من الكون كله سلطاناً لها وأن تبسط يدها – يد الملك والحكم – على العالم كله وأن تجعل من الأسرة الإنسانية معسكراً يأتمر بأمرها وينقاد لحكمها. هذا الواقع الذي نراه مثال لذلك الصنف من عالم النمال الذي حدثتكم عنه، وكم

وقفت أمام ذلك المثال، وكم تأملت في المنطلق والعاقبة التي تتلخص في قصة ذلك العالم من الحيوانات الضعيفة التي يُضْرَبُ المثل بضعفها.

عباد الله: هذه العبرة ينبغي نحن المسلمين، ينبغي نحن الذين أقامنا الله عز وجل في هذه المهمة القدسية التي شرفنا بها ينبغي أن نجني العبرة. أمريكا اليوم تحاول – كما قلت لكم – أن تبسط سلطانها على العالم كله وأن تجعل من الأسرة الإنسانية معسكراً لها ينقاد لأمرها ويخضع لحكمها، ولكن هل تعلمون أن العقبة الكؤود التي تخشى منها والتي تراها واقفةً في طريقها بالمرصاد هل تعلمون أن هذه العقبة – فيما تتصوره هي – هي الحضارة الإسلامية المنبثقة من المعتقد الإسلامي؟! هذا هو الذي يخيفها وهي تسعى لبسط نفوذها على العالم كله، ومصدر هذا الخوف أنها ترى الحقائق الإسلامية العلمية كيف تغزو ربوع الغرب بشرطيه الأوروبي والأمريكي، وتسمع قرارات الدارسين والمتربصين والمتوقعين من الباحثين في العالم الغربي وجلهم يقول: إن الإسلام سيهيمن على الغرب خلال نصف قرن من الزمن.

هذا هو الذي يخيف الغرب في طريقه لتحقيق الحلم الذي يتمتع به، ومن ثم فهو يضع كل همه في خنق الإسلام الحضاري عن طريق القضاء على جذور الإسلام الديني، ذلك لأن الإسلام الحضاري كما تعلمون ثمرة للمعتقد الإسلامي الديني. ومن هنا فإننا نعاني هذا الذي نعانيه. لسنا نعاني من هذا الظلم الذي انحط علينا والذي تقوده أمريكا وتتخذ لحربها جنوداً لها من هنا وهنا وهناك، لا والله أيها الإخوة ليس مبتغاها من وراء ذلك أرضاً تسيطر عليها ولا ينابيع نفط تمتلكها ولكن قصدها من وراء ذلك خنق الحضارة الإسلامية وهي تعلم أن الحضارة الإسلامية لن تخنق إلا إذا امتلكت الأرض التي نبع فيها الإسلام والتي أشرقت منها الحضارة الإسلامية.

قرأت كلاماً كثيراً بهذا المعنى ووضعت يدي على كثيرٍ من الوثائق وأنا منتهٍ للتو من آخر كتاب ألفه إسرائيلي يتضمن هذا المعنى الذي أقوله لكم. ما العلاج يا عباد الله؟ بالأمس الدابر حاولت قوى الشر متمثلة في الإمبراطورية الرومانية أن تفعل الفعل ذاته وأن تخنق الإسلام في مهده فما استطاعت إلى ذلك سبيلاً كما تعلمون. ما العلاج الذي هُرِعَ إليه ذلك الرعيل الأول حتى تغلب على قوى الشر وقد كانت مهيمنة أكاد أقول على العالم كله أو على ثلاثة أرباع العالم؟ سأحدثكم عن العلاج من أجل أن نضع أيدينا على العلاج فنستعمله نحن. نحن اليوم بأمس الحاجة إلى أن نستعمل العلاج الذي استعمله ذلك

الرعيل لأننا نعاني من الخطر ذاته الذي طاف بذلك الرعيل من قبلنا الذي يمثله أصحاب رسول الله والتابعون ومن بعدهم.

عباد الله: إن الله عز وجل قد وضعنا أمام كنوز من المدخرات، وضعنا أمام كنوز من الأموال المتنوعة، ما موقفنا منها؟ وما الذي ينبغي أن نتخذه من قرار في سياستنا لهذه المدخرات وهذه الكنوز وهذه الأموال؟ اسمعوا الجواب من خلال بيان الله عز وجل، هذا البيان التربوي العجيب، بادئ ذي بدء خاطب الله عز وجل عباده مبيناً تفاهة الدنيا مؤكداً تفاهة المال وأن المال كله عرض زائل، وذكر ذلك بأساليب متعددة متنوعة متكررة، فقال: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ [غافر: ٣٩].

وقال: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

وأقبل رسول الله يوماً – في حديث صحيح – فرأى جدياً مرمياً ميتاً – وقد فاحت رائحته – فأمسك بأذنه وقال: «من يشتري مني هذا؟ قالوا له: ماذا نصنع به يا رسول الله؟ قال: والله إن الدنيا لأهون على الله عز وجل من هذه على أصحابها الذين رموها».

وهكذا اقتلع البيان الإلهي محبة الدنيا، زخارفها أموالها كنوزها مدخراتها من قلوب عباده المسلمين، حتى إذا نظفت قلوبهم من محبتها وتوجهوا إلى الله وهيمنت محبة الخالق سبحانه وتعالى على قلوبهم أقبل البيان الإلهي يقول: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

أقبل البيان الإلهي يقول: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً﴾ [البقرة: ٢٩].

أقبل البيان الإلهي يقول: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

أرأيتم إلى هذا النهج التربوي؟ عندما علم الله عز وجل أن محبة الدنيا اقتلعت وزالت من قلوب عباده قال لهم: أقبلوا إلى المال وإلى متاع الدنيا فاستخدموه، الآن بوسعكم أن تتأكدوا أنكم أنتم الذين

ستستخدمون المال ولن تدعوا المال يستخدمكم، الآن وقد اقتلعتم محبة الدنيا الفانية من أفئدتكم وقلوبكم فقد أصبح مضموناً ومكفولاً أنكم إن مددتم أيديكم إلى المال –كما يفعلون الآخرون – بنيتم به الحضارات، بنيتم به أسباب المتعة والعيش، اتخذتم منه سفناً للوصول إلى مآربكم الحضارة لن تستعبدكم الدنيا، لن يستعبدكم المال، وهكذا أقبل ذلك الرعيل أيها الإخوة إلى الدنيا كما يقبل الآخرون، لكنهم أقبلوا إليها بأيديهم، أقبلوا إليها إقبال السيد إلى العبد المستخدَم، أقبلوا إليها إقبال الآمر ولم يدعوها تتسلل إلى قلوبهم لتهيمن عليها مهيمنة السيد كما هو الشأن بالنسبة للعالم الغربي اليوم، هكذا استطاع المسلمون أن يتغلبوا على الحضارة الغربية آنذاك، هكذا استطاع العالم الإسلامي، ذلك الرعيل الأول أن يتغلبوا على الإمبراطورية الرومانية، لأن أولئك الناس كانوا يتعلقون بالمال والذخر تعلق العابد بالمعبود، أما المسلمون فقد كانوا يستخدمون – نعم – المال بكل أصنافه ولكنهم يستخدمونه استخدام السيد لعبده، كانوا يقبلون إلى الدنيا إقبال الصانع إلى أدواته التي يستعملها لتحقيق صناعاته التي يقبل إليها، هكذا انتصروا.

ألا تذكرون عمر؟ عمر أقبل إلى الدنيا كما يقبل هؤلاء الغربيون إليها، بنى الكوفة والبصرة، وكان هو المشرف على هندستها، على إقامة الشوارع الرئيسية والفرعية وعلو البنيان وما إلى ذلك، أقام مشروعاً لأسطول بحري، ولو امتد به الأجل لنفذ ذلك المشروع، فعل كل ذلك، لكن هل دخلت هذه الدنيا في قلبه؟ لم تدخل في قلبه قط. بقي يرتدي مرقعته كما تعلمون، ولما سيقت إليه الدنيا – وقد أكرم الله سبحانه وتعالى المسلمين بالكثير والكثير منها – نظر إلى الأموال التي سيقت إليه وبكى قائلاً: اللهم إنك تعلم أن محمداً خيراً مني فلم تعطه كل هذا، وأنت تعلم أن أبا بكر كان خيراً مني فلم تعطه كل هذا، فأعوذ بك الله أن يكون هذا أعطيتنيه فتنةً لي في ديني.

هذا هو العلاج الذي أدعو نفسي وأدعوكم إليه، نقبل على الدنيا ولكن نكون حراساً على قلوبنا، نجعل قلوبنا أوعية لحب واحد لا ثاني له هو الله، نجعل قلوبنا أوعية لتعظيم واحد لا ثاني له هو الله، نجعل قلوبنا أوعية للمخافة من واحدٍ لا ثاني له هو الله، ثم نقبل إلى الدنيا كإقبال هؤلاء الآخرين، نستخدمها ونعتصرها حتى الثمالة من أجل بناء الحضارة، من أجل بناء المدنية تنفيذاً لقول الله عز وجل: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١].

إن نحن فعلنا هذا أيها الإخوة فإن الله سبحانه وتعالى لن يسلط علينا عدواً أياً كان، ولسوف يمنى كل من يريد بالعالم الإسلامي الذي هذا شأنه سوءاً عندما يريدون أن ينالوا منه منالاً. مشكلتنا أننا أصبحنا سواسية مع الغرب في تعشق الدنيا، في تعشق المال والذخر، ودواؤنا أن نقتلع ذلك الحب من قلوبنا ثم نمارس هذه المتعة التي أغدقها الله علينا ومتعنا بها بأيدينا ونجعل منها خادماً لما قد كلفنا الله سبحانه وتعالى به.

عباد الله: عالم النمال أو صنف من عالم النمال يتضمن درساً وأي درس، ليت أن العقول البشرية تقف أمام هذا الواقع من هذه الحكمة التي أرانا الله عز وجل إياها لنعتصر منها درساً. الغرب قد نال منه السكر كل منال، لن يصح وعاقبته قريبة ولكنه لا يعتبر، حسناً نحن الذين ينبغي أن نعتبر. أتذكرون رئيساً من رؤساء الولايات المتحدة، صال يميناً ويسرة ما طاب له ذلك منذ سنوات طويلة، إلام آل أمره الآن؟ إنه اليوم – إن لم يتخطفه الموت – لا يفرق بين أرض وسماء، إنه اليوم لا يعلم يميناً من شمال، إنه اليوم إن وقف أمام المرآة لم يتبين صورة ذاك الذي يواجهه في المرآة، إنه اليوم لا يعلم اسمه. ألسنا في غنى عن أن نتأمل طويلاً لنجني العبرة يا عباد الله؟! أسأل الله سبحانه وتعالى أن يبصرنا بما كان عليه الرعيل الأول فنقتدي بهم في النهج الذي سلكوه كي نطور أنفسنا في الواجب الذي أمرنا الله عز وجل أن نطور أنفسنا به، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

٢٣٦- ديمقراطيتنا خادمة للإسلام وليس العكس | ٢٠١٢/٠٥/٠٤

لا أكاد أجد في كتاب الله عز وجل آيةً تعاني من الغربة في عالمنا العربي والإسلامي، بل تعاني من العقوق بين من يسمَّون إسلاميين أو معرفين بالإسلام من تلك الآية التي نقرؤها في افتتاح سورة الممتحنة، إنها قول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءكُم مِّنَ الْحَقِّ﴾ [الممتحنة: ١]. إلى أن قال: ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ﴾ [الممتحنة: ١].

ما أكثر ما تردد هذه الآية على الأسماع وما أكثر ما تتلوها أفواه، ولكننا ننظر فنجد أن جُلَّ من يقومون بمهمة الدعوة إلى الله عز وجل عن مضمون هذه الآية معرضين ونجدهم ينبذونها وراء ظهورهم، في حين أن أمريكا تقابلهم وتقبل إليهم قائلة أعطوني قلوبكم أمتعكم بإسلامكم، وسرعان ما يستجيبون، سرعان ما ينغضون إليهم الرؤوس ويدلون إليهم بالولاء ويقبلون إليهم بالاستجابة، يلاحقهم بيان الله سبحانه وتعالى بهذه الآية وبمؤكداتها، يقول لهم الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاء مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ١١٨].

تردد هذه الآية على الأسماع، وما أكثر ما تقرؤها الأفواه في مناسبات شتى ولكننا ننظر إلى هؤلاء الإخوة الذين ينهضون بواجب التعريف بالإسلام وإقامة ما يسمى المجتمع الإسلامي، ننظر إليهم فنجدهم يعرضون عن هذا البيان المحذر الرباني كإعراض من وُضِعَ أمامه طعام وطال العهد به حتى تبرم به وعافته نفسه. هذا هو الواقع الذي نراه يا عباد الله. بيان الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء﴾ يقول: ﴿لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً﴾

ولا يتم من وراء ذلك إلا الإعراض عن التنفيذ، وبالمقابل تقبل أمريكا قائلة: عليكم أن تنبعثوا إلى تطبيق الفوضى الخلاقة ولسوف تجدون كيف ينبعث الإسلام الذي تبحثون عنه في رحم هذه الفوضى التي أدعوكم إليها، وننظر فنجد أن القوم يستجيبون، وننظر فنجد أن القوم يصدقون، تقول لهم أمريكا:

إن إسلامكم سيزدهر أيما ازدهار من خلال انبثاق شرق أوسط كبيرٍ كبير، وننظر فنجد أن القوم يتسابقون إلى الاستجابة لهذا الوعد، ونتأمل فنجد الأفواه تتبارى في نفخ نيران هذه الفوضى الخلاقة للقتل، المفجرة للدم، أليس هذا مصداق ما أقول يا عباد الله؟ آيةٌ في كتاب الله أقرؤها وأتدبرها وأنظر إلى العالم الذي أنا في داخله ويترامى من حولي أن تترامى أنشطة شتى كلها تدعو إلى الإسلام وكلها تنادي بالإسلام ولكن الجميع عن هذا النداء معرضون، إنها آية تعاني من غربة وأي غربة، إنها آية تعاني من العقوق ممن بايعوا الله بالأمس ثم عقوا نداءه اليوم.

عباد الله: أيعقل هذا فيما يتعلق بتصور الإنسان ملتزماً بدينه أو ملتزماً بعقله؟ أفئن غاب الالتزام بأوامر الله وغاب الاعتصام بحبله أفحتم أن يغيب عنا الرشد أيضاً؟ أفحتم أن يغيب عنا سلطان العقل أيضاً؟ متى كان النقيض يُسْتَولَد من نقيضه عباد الله؟ من قال هذا؟ أفينبعث الإسلام حقاً من القرار الذي اتخذه المجلس القومي الأمريكي والذي ينص على أنه يجب إثارة التناقضات داخل المعتقد الإسلامي ويجب تأليب المسلمين بعضهم على بعض حتى يتآكل الإسلام ويمحي في أرضه، أفينبثق الإسلام من هذا القرار أم ينبثق الإسلام من هذا التقرير الذي نقرؤه ونتبينه وهو موجود لدينا ونكاد أن نحفظه غيباً، من قال هذا، كيف يمكن للنقيض أن يُسْتَوْلَدَ من النقيض، وإذا كان فاقد الشيء لا يعطيه أيها الإخوة أفيتأتى للعدو أن يأتي – إذا كان فاقد الشيء لا يعطيه – أفيتأتى عدو الشيء أن يأتي بذلك الشيء لأصحابه؟ تلك هي المصيبة التي نعاني منها، وها هو ذا الإسلام الأمريكي الذي تعدنا به أمريكا – لا بل تعد أولئك الذين يسمون الإسلاميين – ها هو ذا يطل علينا إسلاماً جديداً لا عهد لنا به. فتاوى عجيبة وغريبة تنسخ الثوابت وتثبت ما لا عهد لنا به ولا معرفة لنا به. وبالأمس حدثتكم عن طائفة من هذه الفتاوى المتناقضة، بالأمس كان الفتوى تتضمن شرعية أمر من الأمور وإذا بها اليوم تتضمن بطلان هذه الشرعية، ذكرت لكم أمثلة ولا أريد أن أعيد، ولكن ما العلاج أيها الإخوة؟

أولاً ينبغي أن نتساءل أنحن صادقون في أننا نريد أن ننفذ الإسلام الذي ابتعث الله عز وجل به الرسل والأنبياء وكان خاتمتهم محمداً صلى الله عليه وسلم؟ أفنحن صادقون أننا ننقاد بدافع العبودية لسلطان الله عز وجل ومن ثم نحن نسعى إلى استرضاءه واستنزال رحمته من علياء ربوبيته؟ إن كنا صادقين في هذا فسبيل السعي إلى تنفيذ أوامر الله وإقامة المجتمع الإسلامي إنما هو الانطلاق من أساس لا ثاني له

هو أساس استشعار العبودية لله لا لغيره، هو أساس الاصطباغ بذل العبودية لله عز وجل لا لغيره، فإذا استنبتنا هذه الحقيقة إن كانت معدومة وإذا أيقظناها إن كانت موجودة وراقدة فإن الحل بعد ذلك يصبح جللاً ويسيراً. وليُّنَا هو الله، ليس لنا وليّاً من دونه ومن ثم فإن منهجنا في تنفيذ الإسلام هو الرجوع إلى وصايا الله عز وجل، هو الرجوع بالتوبة إلى الله قائلين: ها نحن مولانا قد جددنا العهد، لن نتخذ عدونا وعدوك وليّا لنا قط، لن نتخذ لأنفسنا بطانة من دونك، نعم.

أيها الإخوة: هذا هو قرارنا في شامنا هذه، وهذه هي بيعتنا مع الله سبحانه وتعالى، ولسوف نسير قدماً ننفذ هذه البيعة لا نلتفت عنها إلى يمين ولا إلى شمال. الديمقراطية التي تستنبت اليوم ويتم إنضاجها فوق شامنا هذه لن تكون إلا تربة تينع فيها حقيقة الإسلام ويينع فيها النظام الإسلامي الحقيقي، نعم. هكذا تكون ديمقراطيتنا فوق شامنا هذه.

وإذا رأينا أن السلطان قد اختلف مع القرآن فإننا مع القرآن، هكذا نقول دائماً وهكذا نسير أيَّاً كان السلطان الذي يريد أن يبعدنا عن كتاب الله عز وجل سواء كان دولة عاتية كأمريكا أو دولة ذيلية من تلك الدول الأخرى، لن نستجيب إلا لنداء الله، نحن مع القرآن، ومن ثم أقول لهؤلاء الإخوة إن كانوا صادقين في انطلاقهم إلى الإسلام من جذوة العبودية لله عز وجل، إن كانوا صادقين في أنهم لا يبتغون عن رضا الله عز وجل بديلاً، إن كانوا صادقين في أنهم ينشدون لقاء الله عز وجل وهو عنهم راض أقول لهم تعالوا إلى بلاد الشام، أدعوهم إلى ذلك بدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما سئل عندما تدلهم الفتن عن البلدة التي يمكن أن يختارها المسلم قال: ﴿عليكم بالشام فإنها خيرة الله من أرضه يجتبي إليها خيرته من عباده﴾، لست أنا القائل، رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي قال هذا.

أيها الإخوة: يا من ينشدون الإسلام ابتغاء رضا الله، يا من ينشدون إقامة الدولة الإسلامية ابتغاء تنفيذ أوامر الله عز وجل تعالوا لتمتد منا الأيادي بعضنا إلى بعض، تعالوا لتجدوا تربة الإسلام طاهرة نقية، تعالوا لتجدوا أن شامنا محصنة ضد المؤامرات التي تتمثل في الشرق الأوسط الكبير، ضد المؤامرات التي تتمثل في الفوضى الخلاقة التي تمعن في خلق القتل وفي تفجير الدم، تعالوا — إن كنتم صادقين في ابتغاء الإسلام — فلن تجدوا بعد وصية رسول الله وبعد دعوة رسول الله وبعد القرار الذي أعلنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، خيرٌ لكم من مكان تنتجعون فيه وتنهضون فيه بالدعوة التي أمر الله عز وجل

بها خيراً من شامكم هذه، وأنا كنت ولا أزال دائماً أنهج إلى حسن الظن، ومن منطلق حسن الظن هذا أمد يدي، من منطلق حسن الظن هذا أدعوا هؤلاء الإخوة إلى أن نجتمع معاً ونستظل معاً في ظلال قول الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.



٢٣٧- وجه الشبه بين سيدنا يوسف والإسلام | ١٩٩٨/٠٦/٠٥

كنت الساعة أتأمل في آياتٍ من كتاب الله سبحانه وتعالى في سورة يوسف، تأملت في الكيد الذي كاده الناس ليوسف في هذه السورة، كاد له الأقربون قبل الأباعد، زجّه إخوته وهو طفلٌ بريءٌ في الجب، ثم إن الله سبحانه وتعالى أخبر عن تلك القافلة التي جاءت فانتشلته من الجب لتجعله عبداً تبيعه بدراهم قليلة بخسة: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾، ويصور لنا كيف أن الحر تحول إلى عبد وبثمنٍ بخس: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾، ثم تأملت كيف فجر الله سبحانه وتعالى رعاية هذا الإنسان الذي اصطفاه الله عز وجل؛ تأملت كيف فجر الله أسباب اصطفائه ورعايته من سلسلة هذا الكيد ذاته أجل. انظروا إلى قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

تأملت في سلسلة هذا الكيد الذي يُصوّره كتاب الله عز وجل لنبيٍ من أنبيائه، وقفز ذهني فجأةً إلى هذا الدين؛ هذا الدين الإسلامي الحق اليوم وقلت في نفسي: ما أشبه هذا الدين اليوم بسيدنا يوسف الذي كاد له الأقارب قبل الأباعد بالأمس، ولكأن الله سبحانه وتعالى وهو يُحدثنا عن قصة هذا النبي وهي قصة واقعة، لا يطوف بها الريب إطلاقاً، لكن ولكأن الله سبحانه وتعالى يجسد لنا من خلال هذه القصة الكيد الذي ينسج اليوم لهذا الإسلام العظيم، إنه كيدٌ يبدأ بكيد الأقربين، بكيد المسلمين أنفسهم لهذا الدين كما كاد إخوة يوسف ليوسف. ثم إن مظاهر هذا الكيد تتسلسل ليقوم بدور ذاته كثيرٌ من الأباعد كثيرٌ من الحاقدين بل من الأعداء التقليديين لهذا الدين الإسلامي العظيم.

الصورة تماماً كصورة سلسلة ذلك الكيد الذي نُسج حول حياة سيدنا يوسف على نبينا وعليه الصلاة والسلام. ولقد رأينا كيف أن تلك المكائد ذاتها جعل الله منها سلماً لعلو شأن يوسف، تلك السلسلة ذاتها التي نسجتها عقول البشر الضعاف الذين لا يعلمون شيئاً عن حقيقة هذا الكون وواقع الأسباب وسلطان مسببها، سلسلة تلك المكائد لم تكن إلا سلماً عُرج فيه سيدنا يوسف إلى أن تبوأ

عرش مصر، وإلى أن نقل الله سبحانه وتعالى الأسرة كلها من البدو إلى الحضر، كما تعرفون عندما تتأملون في هذه الصورة المباركة.

انظروا إلى هذا الدين الذي يطوف من حوله الكيد بدءاً بالمسلمين أنفسهم، بدءاً من الحاقدين عليه من أهله المسلمين أنفسهم، ثم انظروا إلى من وراء ذلك من الأعداء التقليديين الذين يخططون الخطط الكثيرة المتنوعة للكيد لهذا الدين ولخنقه وللقضاء عليه تماماً. ما النتيجة؟ النتيجة التي أرانا الله عز وجل إياها مما قد تم لسيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام هي النتيجة ذاتها التي لابد أن نراها هنا، ولأن كان يوسف على نبينا وعليه الصلاة والسلام واحداً من المصطفين الذين أحبهم الله عز وجل. فهل هنالك حقيقةٌ قدسية يكلؤها الله من العالم كله بأتم رعاية كحقيقة هذا الدين؟ هل هنالك حقيقة أجل شأناً وأعلى مكانة وأكثر تقديراً للمولى سبحانه وتعالى من هذا الدين الذي يجسد حقيقة هذا الكون، والذي يربط العبد بالرب، والذي ينبه الإنسان إلى هويته الدائمة التي لا تتحول ولا تتطور، كما أن الله جعل خطط الكيد التي تربصت بيوسف بالأمس سلماً لبلوغه ذلك الشأو العالي الذي بلغه.

فكذلكم هذا الدين الذي يخطط الأعداء للقضاء عليه هذه الخطط ذاتها هي التي ستكون سبباً لعلو شأنه وهي التي ستكون سبباً لسعة انتشاره وعظيم سلطانه في الغد القريب. ألم يقل الله سبحانه وتعالى وهو يتحدث عن الكيد الذي كاده أولئك الناس ليوسف وعن الخطط الربانية الخفية التي وضعها لإنقاذ يوسف، ألم يقل في أعقاب ذلك: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أيها الإخوة إنكم لتلاحظون كيف أن الغرب الأوروبي والأمريكي يقوم ويقعد بالحديث عن خطورة الإسلام، وبضرورة الوقوف في وجه خطر الإسلام، يظن أنه بهذا يخطط للكيد له ويخطط للقضاء عليه، لكن انظروا تجدون مصداق قول الله عز وجل: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أجل أيها الإخوة، عندما تقرأون كتاب الله اقرأوه بتدبر، لتجدوا أن سنة الله واحدة، قد تجدون أنفسكم أمام جزئية من هذه الجزئيات كقصة سيدنا يوسف مثلاً، والقانون الذي على أساسه فشّل الله سبحانه وتعالى كيد الكائدين، ثم جعل من هذا الكيد ذاته سبيلاً لعلو شأن سيدنا يوسف، تلك جزئية من الجزئيات التي يضعنا الله عز وجل منها أمام قانون، هذا القانون كما انطبق على سيدنا يوسف بالأمس

ينطبق على الدين الذي يكيد له كثيرٌ من أهله اليوم، ويخطط للقضاء عليه كثيرٌ من الأعداء والأجانب أيضاً اليوم، كما تنطبق سنة ربنا سبحانه وتعالى على قصة يوسف لا بد أن تنطبق هذه السنة على هذا الموقف الذي يقفه كثير من المسلمين – ويا للأسف – متضامنين مع أعدائهم – ويا للمهانة – من هذا الدين العظيم.

فإذا رأيتم أيها الإخوة أن هنالك مسلمين من أبناء عمومتكم من إخوانكم يضيقون ذرعاً بالإسلام إن في عقائده وإن في أخلاقياته وقيمه المثلى، ويتخذون من المناسبات المختلفة من صيف العام وشتائه من انصراف الطلاب إلى إجازاتهم أو من إقبالهم إلى دراساتهم، إن رأيتم أن في المسلمين من ينتهزون هذه الفرص ليملؤوها بما يقصيهم عن الدين وبما يستثير غرائزهم وأهوائهم، وإذا رأيتهم يجتمعون في هذا مع الصهاينة الذين يمزقون أخلاق هذه الأمة في خندق واحد فإياكم واليأس، إياكم وأن يسري إلى قلوبكم أو تصوراتكم خيبة أمل إطلاقاً. كم وكم كرر بيان الله في هذه السورة قوله نعم: ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ إنه لا ييأس من روح الله، ما ينبغي أن نيأس من روح الله.

أرأيتم إلى هؤلاء الذين يضيقون ذرعاً بالتاج الذي توجهم الله عز وجل به؟ لن يكون شأنهم أكثر من شأن إخوة يوسف، فما النتيجة؟ أرأيتم إلى أولئك الذين يخططون من بعد ويجندون المال ويجندون الطاقات ويجندون القدرات السياسية المختلفة من أجل الإحاطة بهذا الدين والقضاء عليه، لن تكون عاقبة كيدهم إلا كعاقبة كيد القافلة التي انتشلت هذا الطفل حراً ثم سامته العبودية وباعته في سوق النخاسة. لن تكون عاقبة ذلك إلا كعاقبة أولئك الذين سجنوه وهو بريء، ماذا كانت العاقبة؟ كانت العاقبة أن هذه الخطط نفسها كانت – كما قلت لكم – سُلماً إلى علو شأنه.

كذلكم هذا الدين الحق عرف ذلك من عرف وجهله من جهل.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

٢٣٨- الإسلام خطاب للعقول والقلوب لا ثورة على الحياة والعمران | ٢٠١٣/٠٢/٠٨

منذ ثلاثة عقود من الزمن بدأت تروج في أوساطنا الإسلامية كلمة الثورة الإسلامية على ألسنة كثير مما يُدعَون بالإسلاميين، بل أصبحت هذه الكلمة تزاحم الكلمة القرآنية – الجهاد في سبيل الله سبحانه وتعالى – ولكأن المراد أن تحل هذه الكلمة الحديثة محل الكلمة القرآنية أو أن تكون تفسيراً للكلمة القرآنية، ومن المعلوم فيما تقرره أعراف السياسة الحديثة أن كلمة الثورة تعني جَرَّ أي مجتمع ما إلى نظام معين قسراً وعنوة وقفزاً فوق الوسائل والأسباب المتدرجة المعروفة والفطرية التي أقام الله عز وجل عالمنا الإسلامي عليها، تلك هي حقيقة الثورة فيما يعرفه علماء السياسة الحديثة بل فيما يعرفه الناس جميعاً.

ومما لا شك فيه أن هذا النهج في جر المجتمعات إلى النظم أو في جر النظم إلى المجتمعات قسراً وعنوةً قفزاً فوق الأسباب والوسائل التدريجية من شأنها أن تجر إلى المواجهة ثم العراك ثم العنف ثم إلى الاحتكاكات الدموية، ومن هنا كانت الثورات ذات ذيول من القتال الدائر بين الفئات المختلفة، بل كانت الثورات أسباباً لانفجار أنهر من الدماء ما تكاد تجف، هذه هي الحقيقة، ولعل نموذجين من الثورات الدموية المرعبة تجسد هذه الحقيقة التي يعرفها المثقفون جميعاً، أولاهما الثورة البريطانية التي قامت في أوائل القرن الثالث عشر الميلادي، ثانيهما الثورة الفرنسية التي قامت في أواخر القرن الثامن عشر. ونظراً إلى أن هذه الكلمة – كلمة الثورة الإسلامية – يرفع اليوم لواءها إخوةٌ لنا يُنْعَتُون بالإسلاميين، ونظراً إلى أنهم يحاولون أن يُحِلُّوا هذه الكلمة محل الكلمة القرآنية – الجهاد في سبيل الله – إذاً ينبغي أن نتساءل ما موقف الإسلام من هذه الكلمة ومن مضمونها الذي ذكرته لكم؟

إن الإسلام يا عباد الله تنزل على ألسنة الرسل والأنبياء جميعاً خطاباً للعقول وعوداً إلى تحكيم موازين العلم، ثم خطاباً للقلوب واستثارة للعواطف والوجدان أن تخضع للقرار الذي اتخذه العقل والذي أقره العلم، فالإسلام إنما يخاطب العقول محاكماً محاوراً، والإسلام لم يأت ليجر مجتمعاً قسراً وعنوة إلى نظام أو ليلصق نظاماً ما قسراً وعنوة بمجتمع، تلك هي الحقيقة التي ينبغي أن نعلمها جميعاً. هذه الحقيقة تتمثل

في كتاب الله وتستبين في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ونهجه. أما كتاب الله فآيات كثيرة لا مجال لاستيعابها واستعراضها جميعاً، لكن حسبكم من ذلك قول الله عز وجل: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. حسبكم من ذلك هذه الآية الوجيزة في لفظها العظيمة في معانيها: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وشتان بين من يرفع لواء الرحمة ومن يرفع لواء الثورة. أما سيرة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فلعلكم تعلمون جميعاً أنه بقي ثلاثة عشر عاماً لا يلتفت إلا إلى العقول ولا يخاطب إلا النفوس، يحاكمها إلى الحق، يحاكمها إلى موازين العلم، لا يلتفت من وراء ذلك لا إلى قتال ولا يُهرع إلى حمل سلاح، وأنتم تعلمون ذلك.

أما المشركون فهم الذين كانوا يهرعون إلى الثورة، هم الذين كانوا يمتشقون أسلحة الثورة على هذا النهج الإنساني الوديع الذي بُعِثَ به رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولما هاجر واستقر به المقام في المدينة المنورة وشاء الله عز وجل أن يملِّكَ المسلمين أرضاً – أي وطناً – وشاء الله عز وجل أن تقوم الدولة بأركانها الثلاثة وأن تولد الأمة الإسلامية في ظل الدولة الإسلامية هُرِعَ الشرك متمثلاً في المشركين، هُرِعَ كثيرٌ من الأمم الذين كانوا يقودون الحضارات الجانحة حول الجزيرة العربية خائفين من هذا الأمر الجديد، من هذا الميلاد الجديد للدين الذي أرساه الله عز وجل في الجزيرة العربية وانتشر شعاعه إلى أطراف الدنيا، فاتجهوا إلى رسول الله وإلى الأمة الإسلامية بل إلى الدولة الإسلامية بالقتال بل بالثورة، راحوا يتجهون إلى هذه الدولة الفتية بالثورة من كل الجهات ورسول الله صلى الله عليه وسلم يدفعهم دفعاً، رسول الله صلى الله عليه وسلم يدفع عن المسلمين وهن الثورة التي مَلَّكَ الله سبحانه وتعالى عباده المسلمين بالجهاد الذي شرعه الله عز وجل، فمن هم الثائرون ومن هم الذين رفعوا لواء الإنسانية والرحمة والشفقة بعباد الله عز وجل؟ قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم إن في القبائل الكثيرة المنتشرة ما بين مكة والمدينة أناساً تائهين جدير بهم أن ينقادوا إلى الحق لو أرسلت إليهم بعضاً من أصحابك يدعونهم إلى الله.

أرسل إليهم ستة من عيون أصحابه ليس معهم من السلاح إلا اللسان الداعي إلى الله واتجهوا إلى حيث قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن أولئك التائهين، تصيد المشركون هؤلاء الستة واحداً إثر

آخر، قُتِلوا عن بكرة أبيهم، ولم يكن مع هؤلاء الصحابة أي سلاح يمتشقونه في وجوههم، فمن هو الطرف الثائر ومن هو الطرف الإنساني المحاور؟ كلكم يعلم الجواب.

في العام الذي يليه – في العام الرابع من الهجرة – قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم إن في نجد قبائل سمعت بالإسلام وإنها لخليقة بأن تنقاد له لو أنك أرسلت من يعرفهم بالإسلام، أرسل إليهم بدلاً من الستة سبعين واحداً من عيون أصحابه ليس معهم من السلاح إلا الحوار الذي ابتعثهم الله عز وجل به، ليس لهم سلاح يمتشقونه إلا اللسان الذي يحاورونهم به، واتجهوا إلى نجد وأطبق عليهم الإيذاء من كل جانب بل أطبقت عليهم ثورة التي حدثتكم عنها، قُتِلُوا عن بكرة أبيهم إلا واحداً شاء الله أن يبقى لعله لكي يعود إلى رسول الله فيخبره بما حدث. إذاً من هو الطرف الثائر ومن هو الطرف المحاور، كلكم يعلم الجواب.

يوم الفتح اتجه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة ودخلها من أعلى قمم النصر ولو كان للثورة سبيل إلى أن يدخل روعه لكان هو أولى الناس بأن يعلن الثورة وأن يمتشق سلاحها ولكن الأمر كان على النقيض من ذلك. سمع سعد بن عبادة قيل له إنه يقول اليوم يوم الملحمة، اليوم تُسْتَحَلُّ الكعبة، غضب المصطفى، أرسل إليه من يصحح له القول وقال: بل اليوم يوم المرحمة، اليوم تُكْسَى الكعبة.

أيها الإخوة: هذا هو موقف الإسلام من الثورة التي حدثتكم عن معناها والتي يرفع كثير من الناس لواءها في هذا العصر اتباعاً لثورتين يتحدث التاريخ عنهما ذكرت لكم بل أشرت لكم إليهما، إذاً فأي تيه وقع فيه هؤلاء الإسلاميون عندما حاولوا أو يحاولون أن يستبدلوا بالكلمة القرآنية — الجهاد في سبيل الله ضمن ضوابطها، ضمن أحكامها — أن يستبدلوا بها كلمة الثورة الإسلامية.

عباد الله: ينبغي أن نعلم جميعاً أنه ما من ثورة تجبر مجتمعاً من المجتمعات على اتباع نظام معين قسراً وعنوة دون حوارٍ ودون محاكمة فكرية وحرية نظر إلا وتستولد هذه الثورة ثورةً مضادةً أخرى تطيح بذلك النظام ولو كان ذلك بعد حين، النظام الذي ينهض على ثورة يستبطن في باطنه ثورة مضادة، والجدلية بين الثورات جدلية معروفة متبينة، وإذا أردت أن ألفت نظري وأنظاركم إلى مصداق هذا الكلام فتعالوا فانظروا، يُرَادُ في مصر أن يُفْرَض الإسلام فرضاً من علو عن طريق الثورة فانظروا إلى ما آل هذا السبيل،

سرعان ما استولدت هذه الثورة من داخلها ثورة مناقضة وها هما الثورتان تتعالجان فيما بينهما، أما المحاكمة العقلية فبعيدة عن الساحة والميدان نهائياً، أما المخاطبة العقلية التي بُعِثَ بها رسول الله بل الأنبياء جميعاً فبعيدة ومطوية.

تلك هي حال تونس، أجل، رُفِعَ فيها لواء الإسلام، هل رُفِعَ عن طريق الدعوة، هل رفع لواء الإسلام عن طريق الدعوة إلى الله كما فعل حبيبنا رسول الله؟ لا، وإنما عن طريق الثورة. تلك هي الثورة الإسلامية التي فُرِضَتْ فرضاً هناك، إنها تستولد من رحمها اليوم ثورة مناقضة، تلك هي سنة الله، هكذا يقرر العلم وهكذا نطق التاريخ.

أقول هذا الكلام والله يعلم ويشهد أنني أقوله من منطلق الحب، من منطلق الشفقة، من منطلق الاندفاع إلى قرار الله القائل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] أتجه بكلامي هذا إلى هؤلاء الإخوة الإسلاميين أو الثائرين في سبيل الإسلام، أقول لهم: عودوا أيها الإخوة إلى نهج حبيبكم رسول الله، عودوا إلى النهج الأمثل الذي بصركم به كتاب الله، أين أنتم من قوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، أي لو كنت ثائراً لانفضوا من حولك ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

أيها الإخوة كلٌّ منا يخطئ ولكن العاقل يتبصر موطئ قدميه ويستبين الخطأ الذي وقع فيه فيعود عنه، والعود أحمد، عودوا أيها الإخوة، عودوا ولنرجع إلى هدي رسول الله، ولنرجع إلى سيرة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، أكان أولئك الذين أرسلهم رسول الله إلى نجد – ولقد كانوا سبعين من عيون أصحابه – أفكانوا ثائرين، أفراحوا وهم يمتشقون أسلحة الثورة، أفكانوا يتهددون أهل نجد بالقتل والسحق والمحق؟ لا، لم يكن معهم إلا سلاح واحد ألا وهو سلاح اللسان المحاور، ألا وهو سلاح الحب، أما الثورة فقد كانت إلى الجانب الآخر، كانت إلى جانب أولئك المشركين العتاة الطغاة.

ألا عودوا أيها الإخوة، عودوا قبل أن تنتهي الفرصة وقبل أن تصلوا إلى الجدار المغلق فتضربوا رؤوسكم به من غير طائل، لا نشك في الظاهر الذي يدل على أنكم إنما تحبون الإسلام وتغارون على دين الله عز وجل ولكن ما أكثر الحب الصحيح الذي يفقد النهج الصحيح، لا يجوز أن نكتفي بالحب، لابد من أن

يكون الحب محكوماً بالعقلانية، محكوماً بالعلم، لابد أن يكون الحب إن وجد محكوماً بكتاب الله، محكوماً بسيرة حبيب الله صلى الله عليه وسلم، ألستم أتباعه، ألستم أتباع المصطفى صلى الله عليه وسلم، ألا تشعرون بنبضات الحب بين جوانحكم لرسولكم محمد صلى الله عليه وسلم فكيف تعرضون عن هديه يا ناس، كيف ترفعون لواء الثورة باسم الإسلام وأنتم تعلمون أنه ما من ثورة تقوم إلا وتستبطن هذه في رحمها ثورة مضادة، علم ذلك من علم وجهله من جهل. أما مخاطبة العقول، أما غرس الإسلام في النفوس، أما تهييج محبة الله عز وجل في الضمائر فذلك هو الذي يبقى وذلك هو الشعاع الذي يمتد. أسأل الله سبحانه وتعالى لي ولكم ولسائر الإخوة في الله عز وجل بل في الإنسانية أيضاً جمعاً وسيراً على الصراط الإنساني السليم، أسأل الله سبحانه وتعالى أن يأخذنا من أنفسنا الضالة إليه، أسأل الله سبحانه وتعالى أن يمتعنا بالإخلاص لوجهه، أسأل الله سبحانه وتعالى أن يرينا أن هذا الكون كله يتحرك في قبضة الله. ما الكون إن نسينا المكون، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

٢٣٩- محاربة الدين تولد التطرف | ٢٠١٢/٠٦/٢٩

يقولون إن علاقة الإنسان بوطنه كعلاقة الجزء بكله، والشأن في الجزء أن يحن دائماً إلى الكل، والشأن في الجزء أن يذود دائماً عن كله كما يذود عن نفسه، وأقول: إن هذه حقيقة أجمعت عليها الأمم وأجمعت عليها الناس في سالف الدهور والعصور.

ويقولون إن الحرز الذي يحمي الوطن ويبعده عن الآفات المختلفة إنما هو العدالة، وأقول: وهل في الناس من لا يعلم أن بين العدالة والظلم تناقضاً دائماً، فحيثما وجدت العدالة غاب الظلم، وحيثما غابت العدالة لابد أن يتحقق الظلم.

ويقولون أيضاً: ولكن العدالة تحتاج إلى ميزان يضبطها، وميزان العدالة إنما هو الشرائع والقوانين، وأقول: حقاً إن الشرائع هي ترجمان العدالة في كل عصر وفي كل زمان، ولكي لا تكون العدالة عنواناً لا مضمون تحته ينبغي أن تكون العدالة منضبطة بالشرائع.

ويقولون أيضاً: ولكن الشرائع لا يمكن أن تفعل فعلها إلا بواسطة مكارم الأخلاق، ذلك لأن القانون لا يوجد شيئاً معدوماً وإنما يرعى ويحرس ما هو موجود فلابد من مكارم الأخلاق يتمتع بها الفرد، وأقول: حقاً إن مكارم الأخلاق هي التربة التي يينع فيها القانون ومن ثم تينع فيها العدالة ومن ثم تتحقق صلة ما بين الفرد والوطن، وهكذا فإن حنين الإنسان إلى وطنه والتجاءه إلى العدالة لرعاية الوطن وعوده إلى القوانين والشرائع لضبط العدالة إن كل ذلك إلا كالأسلاك المتصلة إن لم يسر فيها التيار الذي يبعث فيها القوة لن تجد قوة لهذه الأسلاك قط. إن القوة التي تبعث الحياة في القوانين والشرائع ومن ثم تبعث الحياة في العدالة ومن ثم تبعث الحياة في الصلة ما بين الإنسان ووطنه إنما هو الخلق الإنساني الباسق.

وأقول يا عباد الله: هل من بين الإنسان وبين أشرس الحيوانات الضارية المتوحشة، هل من فرق بين هذا وذاك إلا الأخلاق إذ يُتَوَّجُ بها الإنسان، ولكن أعجب لأناس كثيرين انتقلوا من وسيلة إلى أخرى إلى أخرى إلى أن وصلوا إلى الوسيلة العظمى التي هي الأخلاق الإنسانية المثلى ثم إنهم وقفوا عندها ولم

يسألوا أنفسهم أين هو معين الأخلاق الإنسانية المثلى؟ لقد بحثتم عن معين العدالة واكتشفتم أن معين العدالة إنما هو القانون فهلا بحثتم عن معين الأخلاق أيضاً؟

عباد الله: إن الأخلاق الإنسانية المثلى لا تستنبت إلا في تربة الإيمان بالله سبحانه وتعالى، إن الأخلاق الإنسانية المثلى لا تنشأ إلا في ظلال التربية الإسلامية لا التقليدية بل الحقيقية المثلى المتمثلة في تنشئة جيل يؤمن بالله عز وجل حقاً ويحتضن عقله الدلائل العلمية لهذا الإيمان حقاً، ثم إن هذا الإيمان العقلاني يتحول عن طريق التربية إلى عاطفة ووجدان يهيمنان على الفؤاد، من هنا تنشأ الأخلاق الإنسانية المثلى في كيان الإنسان، ومن هنا يسري تيار من القوة في القوانين والشرائع، ومن هنا يسري تيار من القوة إلى العدالة الحقيقية، ومن هنا تكون حراسة الإنسان لوطنه حقاً ويكون حنينه إلى وطنه حقاً، ومن ذا الذي ينكر حنين الإنسان إلى مسقط رأسه ووطنه، ولقد علمنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو سيد من أعلن حنينه إلى وطنه، ألم يقل وهو يهاجر من مكة ملتفتاً إليها: ﴿والله إنك لأحب بلاد الله إليَّ ولولا أن قومك أخرجوني منك ما خرجت﴾.

أقول هنا يا عباد الله: إن الأخلاق الإنسانية المثلى لا يمكن أن نبحث عنها كما نبحث عن أي ضالة يمكن أن نعثر عليها بعد جهد نبذله أو بعد تحديق للبصر أو البصيرة، لا يا عباد الله، الأخلاق الإنسانية المثلى ليست درة ضائعة في طوايا التراب بحيث يمكن أن نعثر عليها هنا وهناك، الأخلاق الإنسانية المثلى كما قلت لكم لا تستنبت إلا في تربية التربية الإسلامية الحقيقية ثقافة وعلماً ثم عاطفةً تهتاج وتسيطر على الفؤاد وعلى مكمن العاطفة في كيان الإنسان. التربية الإنسانية في ظل حقائق الدين والإسلام هو عصارة الأديان السماوية كلها يا عباد الله علم ذلك من علم وجهله من جهل، هذه التربية الإسلامية الدينية المثلى هي التي تجعل الأمة محصنة ضد هذا التطرف الوهابي التكفيري الذي نشأ في هذا العصر فمن أراد أن يتلمس سبيلاً لتحصين نفسه وأمته ضد هذا الوباء فليعلم ألا سبيل إلى ذلك إلى العكوف على معرفة حقائق الدين ثم الاصطباغ بهذه الحقائق تربية ثم تحويل هذه الحقائق إلى عاطفة مهتاجة تكمن في طوايا الفؤاد، ومصدر بل معين ذلك كله إنما هو كتاب الله وسنة رسول الله وسيرة السلف الصالح ممثلة فيما قاله المصطفى صلى الله عليه وسلم: ﴿خيركم قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم﴾. معين أخلاقنا الإنسانية المثلى، معين إسلامنا الذي نسير فيه ونتصل من خلاله بحبيبنا المصطفى

صلى الله عليه وسلم إنما هو عصارة كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، بالتمسك بكتاب الله ونبذ التطرف الذي يبرأ عنه دين الله عز وجل، نتسامى عن الغلو الذي قال عنه بيان الله: ﴿لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقِّ﴾ [النساء: ١٧١].

هذه حقيقة ينبغي أن نعلمها، أقول هذا الكلام لأسمع الذين يحلمون بحياة لا دينية أو بحياة تسمى العلمانية أقول لهؤلاء: هل أنتم دعاة تطرف؟ هل أنتم دعاة غلو؟ هل بينكم وبين الوهابية التكفيرية حلف؟ ستقولون لا، إذاً فاعلموا أن محاربة الدين والعمل على اجتثاثه من المجتمع إنما هو فتح لأبواب التطرف، إنما هو تعبيد لكل أسباب التطرف والغلو، ولقد علم الناس جميعاً من خلال التجربة ومن خلال النظر إلى العالم القاصي والداني المحيط بنا أن المجتمعات النائية عن حقيقة الإسلام والوعي الإسلامي الحقيقي هي التي تذهب ضحية التطرف والغلو التكفيري وأن المجتمع المحصن بحقيقة الإسلام الذي بعث به محمد والمتمثل بكتاب الله سبحانه وتعالى، المجتمع الذي رضع لبان الحقيقة الإسلامية من معينها وأدرك معنى الإسلام واصطبغ بجوهره لا يمكن للغلو أن يدنو إليه ولا يمكن للتطرف أن يسري إلى كيان هذا المجتمع من خلال فرد أو من خلال مؤسسات أو مجتمع قط.

ألا وليعلم كل منا أن من أراد أن يحارب التطرف فلا سبيل له إلى ذلك إلا بأن يستظل بظل الإسلام الحقيقي. قد كانت سورية ولا تزال مضرب المثل في هذا، سورية هي كعبة القصاد لمعرفة الإسلام الحقيقي الخالي من الشوائب، الآتي نقياً صافياً من كتاب الله الآتي نقياً صافياً من كلام رسول الله، نعم، اسمعوا هذا الذي يقوله الله عز وجل لكي تتبينوا أن مدار الإسلام في كتاب الله عز وجل إنما هو الأخلاق المثلى وأن مدار الإسلام في حديث رسول الله إنما هو الأخلاق المثلى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

اسمعوا قوله في مكان آخر: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]. ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

تلك هي معا لم الأخلاق الإنسانية المثلى يشد القرآنُ الإنسانَ إليها لكن كيف؟ عن طريق الاصطباغ بحقيقة الإسلام، بالتربية الإسلامية المثلى متمثلة في العلم الذي يتجه غذاءً إلى العقل ثم متمثلة بالعواطف إذ تتجه إلى الفؤاد، هذا الفرد لا يمكن أن يرى التطرف سبيلاً إلى فكره أو قلبه قط، سورية كانت ولا تزال مضرب المثل لهذا، نعم يا عباد الله، سنظل ننشر وننشر في بلاد الواسعة حقيقة الإسلام، هويتنا الإسلامية إتباع السلف الصالح، والسلف الصالح إنما يتمثل في ثلاثة أمور، الانضباط بكلام الله عز وجل دون تلاعب به، الانضباط بكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم دون تلاعب به، الانضباط بسيرة السلف الصالح متمثلاً في القرن الأول ثم الثاني ثم الثالث. نحن أتباع السلف ولن نحيد عن منهج هذا السلف يمنة ولا يسرة.

أقول هذا يا عباد الله وقد أجمع الناس جميعاً المؤمنون منهم والملحدون والفاسقون والتائهون أجمعوا على أن الأخلاق الإنسانية المثلى هي السر الذي يبعث الحياة في القانون وهي السر الذي يبعث الحياة في العدالة وهي السر الذي يبعث الحياة في علاقة ما بين الإنسان ووطنه، إذاً هذه النقطة محل إجماع فما لكم لا تسألون عن مصدر الأخلاق؟ مصدر الأخلاق هو دين الله عز وجل، إذا أُخِذَ النشء بالتربية الإسلامية المثلى عن طريق العلم غذاءً للعقل وعن طريق العاطفة غذاءً للكيان القلبي فلقد تحققت هذه الرابطة الإسلامية التي شاءها الله لنا وتحققت الهوية التي نعتز بها ونرحل بها إلى مولانا وخالقنا غداً إسلامنا المنتمي إلى كتاب الله وسنة رسوله، أنتمي إلى سيرة السلف الصالح، إذاً نحن السلفيون المتمسكون بكتاب الله والمتمسكون بسيرة رسول الله حقاً والسائرون على نهج أصحاب رسول الله وأتباعه حقاً.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.


الحضارة

٢٤٠- أساس رقي الأمم يتمثل في دعامتين |١٩٩٨/٠٦/١٢

إن أساس رقي الأمم كلها يتمثل في دعامتين اثنتين لا ثالث لهما، أما الدعامة الأولى: فهي العلم، العلم بمعناه المطلق، والعلم بمعناه الحقيقي، وأما الدعامة الثانية: فهي الخُلق، الخُلق الإنساني الرشيد، هاتان الدعامتان هما أساس رقي الأمم كلها في سائر العصور وفي مختلف الأزمنة والأمكنة. وعندما أكرم الله سبحانه وتعالى عباده بهذا الدين الحق الذي ابتعث فيه الرسل والأنبياء، إنما جعل الرسالة التي أوحى بها إلى هؤلاء الرسل والأنبياء دائرةً على محور هاتين الدعامتين. بهذا السر تقدمت الأمم التي انقادت لوحي الله سبحانه وتعالى وأوامره، وبهذا السر ترقت الأمة العربية التي ابتعث الله سبحانه وتعالى فيها آخر رسله محمداً صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

كلكم يعلم أن الجزيرة العربية كانت مضرب المثل في التخلف، وفي التراجع، وفي كل ما يمكن أن تُنعت به الأمة التي تتراجع سلبياً إلى كل معاني التخلف الإنساني والاجتماعي. فما هو إلا أن انقاد أهل الجزيرة العربية لما ابتعث به رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تحول تخلفهم الذي كان مضرب المثل إلى رقي، ولكن فما هو السر الذي ابتعث تلك الأمة من رقادها وأيقظها ووضعها في أولى مدارج التقدم والرقي؟

إن السر هو هذا الذي ذكرته لكم، الوحي الإلهي الذي ابتعث الله به رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم والذي خاطب به العرب أولاً ثم الناس جميعاً ثانياً، هذا السر يدور على محورٍ من هاتين الدعامتين، الأولى العلم، وإنكم لتقرأون في كتاب الله سبحانه وتعالى الآيات الكثيرة التي يحبب الله سبحانه وتعالى فيها عباده إلى العلم، ويغرس في قلوب الناس تعشق العلم وشدة التعلق به، ولا داعي إلى أن نستقصي هذه الآيات. ربّى القرآن الناس الذين خاطبهم كتاب الله سبحانه وتعالى على أن يتجهوا إلى العلم بالتعلق والحب والتعشق. انظروا إلى قول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾، ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، بل انظروا إلى أول آية تنزلت على رسول

الله صلى الله عليه وسلم: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الإنسَانَ مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. عَلَّمَ الإنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

بل إن القرآن ذهب إلى أبعد من هذا، فتح أمام الملحدين والجاحدين سبيل المحاجة والنقاش في الله عز وجل على أن يدور هذا الحجاج على محور العلم: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾، ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾، ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾.

وهكذا فقد رُبي العرب وهم الفئة الأولى التي خاطبها رسول الله بوحي الله عز وجل رُبوا على الالتفات إلى العلم والتعلق به وتعشقه هذه هي الدعامة الأولى.

أما الدعامة الثانية فهي الخلق الرفيع الخلق الإنساني الذي يتمثل في تزكية النفس من الشحناء والبغضاء والأحقاد المتنوعة، والذي يتمثل في التعاون الإنساني الصاعد الذي يرتقي فوق مستوى الأثرة ويسمو إلى درجة الإيثار.

الخُلق الإنساني الذي يتمثل في تضحية الإنسان بمصالحه من أجل مصالح الأمة أي يُضحي بمصلحته الفردية الجزئية في سبيل حماية المصلحة الكلية الاجتماعية العامة، وكتاب الله سبحانه وتعالى مليء بالآيات التي تدعو إلى التخلق بالأخلاق الإنسانية المثلى، وما الأخلاق الإسلامية إلا الأخلاق الإنسانية المثلى التي فطر الله سبحانه وتعالى الإنسان عليها. ومن أجل هذا ابتعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم عيناً من عيون الأخلاق الإنسانية السامية، حتى يتعشق الناس فيه هذا الخلق، فيجعلوا من ذلك مثلهم الأعلى لأنفسهم. أ لم تقرأوا قول الله عز وجل: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾؟

وانظروا أيها الإخوة كيف يلفت سيدنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنظارنا إلى هاتين الدعامتين اللتين ابتُعث بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم، من أجل ينتشل الناس بهما من قاع التخلف ويرقى بها بهذه الأمة إلى أعلى درجات التقدم. يقول مرةً: ﴿إنما بُعثت معلماً﴾ ويقول في الوقت ذاته: ﴿إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق﴾ انظروا إلى هاتين الدعامتين، أي: هما الأساسان اللذان لا بد منهما لنهضة أي أمة من كبوتها، ولكي تعلو في مدارج الرقي الحضاري السليم.

وعندما انقادت هذه الأمة في فجر بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم لهذين الأساسين، فتشبعت بالعلم بعد أن تعلقت به، وتشبعت بالأخلاق الإسلامية الحميدة بعد أن تعشقت هذه الأخلاق، لا سيما في شخص سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، تحولت من مثلٍ كان يُضرب بالتخلف والجهالة إلى المثل الذي أصبح يُضرب بالرقي في العالم كله.

أقول هذا أيها الإخوة لألفت نظركم إلى شيء كثيراً ما يُدلس به المدلسون:

الشريعة الإسلامية حسب التعبير الإسلامي الذي نردده، أو الأنظمة والقوانين حسب التعابير الوضعية المألوفة، هل لها دورٌ في تصعيد الأمة إلى مستوى التقدم الباسق؟ ليس لها أي دور.

الشريعة والنظام ثمرةٌ لرقي الأمة وليستا – الشريعة والنظام – سلماً يرقى به الناس إلى درجة التقدم والرقي، وفرق كبير بين الأمرين، الشريعة ثمرةٌ للتقدم تتقدم الأمة عن طريق العلم وعن طريق الخُلق، ثم تتقدم، ثم تتقدم، ثم تتقدم إلى أن تجد نفسها قد وصلت إلى أوجٍ من الرقي عندئذٍ تشعر بحاجتها الماسة إلى صياغةٍ للقوانين والأنظمة التي ينبغي أن تربطها وأن تجمع شملها، وهكذا فالشريعة إنما هي من مفرزات ونتائج تقدم الأمة، ولذلك كانت الأحكام الشرعية التي تنزلت من عند الله عز وجل في خاتمة المطاف. تعلم الناس وتمسكوا بالعلم، ثم ساروا على صراط الخلق، فلما انعتقوا من التخلف بهذين السببين جاء التشريع ليكون ترجماناً للرقي الذي أكرم الله سبحانه وتعالى تلك الأمة به.

أقول هذا كي لا يلبس عليكم ملبس، ويدجل عليكم مدجل قائلاً: إن هذه الأمة ينبغي أن تجدد رقيها عن طريق تطوير شريعتها، ينبغي لهذه الأمة أن تجدد رقيها، لأنها تخلفت وتراجعت، وإنما سبيل ذلك أن تعود إلى متن هذه الشريعة الإسلامية المثلى، فتتلاعب بها، وتغير منها. ألا تسمعون إلى هذه الدعوة؟

هذه الدعوة أيها الإخوة إن أحسنا الظن بقائليها فإنهم إذاً لجهّال ينبغي أن نتوقى جهالتهم، إنها جهالة عمياء. وإذا لم نحسن الظن وتخوفنا من الدوافع قلنا: إنهم يعلمون ما نعلم، ولكنهم يريدون أن يتلاعبوا بثمرة تقدم هذه الأمة، فقد حاق بنا التخلف فعلاً لأننا أعرضنا عن العلم الحقيقي الذي هو أساسٌ من أسس التقدم، ولأننا أعرضنا عن الأخلاق الإنسانية الإسلامية الراشدة كما تعلمون؛ تحطمت الأخلاق وتمزقت مما بيننا وواقعنا ناطقٌ بليغ بهذا الواقع.

إذاً نحن فعلاً متخلفون لأننا أرضنا عن العلم الحقيقي وأعرضنا عن الخلق. وهؤلاء يريدون أن يدفوننا في قبرٍ من التخلف لا انبعاث من وراءه، يريدون أن نتمم تخلفنا فلا نبقي حتى على البقية الباقية التي هي ثمرة التقدم في الأمة التي ابتعث فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا وهو التشريع، تعالوا نبدل التشريع. . تعالوا نجدد التشريع. . إن كنت صادقاً يا هذا في غيرتك على الأمة قل: تعال نجدد حبنا للعلم، تعال نجدد بيعتنا للعلم، للعلم الحقيقي لا للفرضيات والنظريات والأوهام الكاذبة التي تُلبس لباس العلم.

إن كنت حرصاً فعلاً على تقدم هذه الأمة قل: تعال نصطلح مع الخُلق الإنساني الرشيد. انظر إلى ما آل إليه حال هذا المجتمع، انظر إلى الأثرة التي حلت محل الإيثار، انظر إلى التضحية بالأمة وبمصالح الأمة في سبيل مصلحة الفرد بل في سبيل مصلحة رعناء، قل: تعال نعالج الخُلق الذي يتمثل في انتشار الفساد ألوانا وأشكالاً، والرشوة لونٌ من هذه الألوان. لماذا تُعرض عن السبب الأسود الذي هو سر تخلف الأمة، وتمد غواشي الستر على هذين السببين اللذين نعاني منهما، ثم تتلاعب بشيءٍ آخر لا شأن لنا به؟

الشريعة الإسلامية نتيجة التقدم، وليست سلماً للتقدم حتى نعود فنتلاعب به.

وأقول لكم أيها الإخوة: أما التخلف فقد ران بكلكله على صدورنا، وأما سببه فهذان السببان، لقد أعرضنا عن العلم واستعضنا عنه بأشباه العلم، بما يمكن أن يكون مظهراً لعلمٍ كاذب. انظروا إلى كلمات العلم كم هي كثيرة وكبيرة في مجتمعاتنا، ولكن اخترق هذه الكلمات، وانظر إلى ما وراءها تجد نفسك أمام فقاقيع عندما تتفجر لا تجد شيئاً من ورائها، هذا هو السبب الأول.

السبب الثاني: الخلق الذميم الذي حل محل الخُلق الإنساني الذي ابتعث به رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا رأيتم من يتنطع ويتمشدق مرةً إثر مرة بالحديث عن ضرورة تطوير الشريعة وإخضاع القرآن للقراءات المتطورة والمتجددة والمعاصرة وما إلى ذلك. . فاعلموا أن هذا الإنسان إما جاهلٌ يحتاج إلى حقنة من العلم تبصره بالحقيقة، وإما أنه عميل، ولا أدري أيهما الحقيقة.

٢٤١- لهذا يتطوح العرب بأودية الذل | ٢٠٠٠/٠٩/٠١

إن كتاب الله سبحانه وتعالى يفيض بالقوانين والسنن التي يأخذ الله عز وجل بها عباده في هذه الحياة الدنيا، ولكن من أهم هذه النواميس والسنن أو القوانين التي يفيض بها كتاب الله سبحانه وتعالى قانونان اثنان ينبغي على المسلمين يتبينوهما في كل عصر.

القانون الأول: ذاك الذي يقضي بأن كل من سعى في هذه الحياة الدنيا ابتغاء الوصول إلى غاية من الغايات الدنيوية أو الأخروية وبذل في سبيل ذلك جهداً وعرق في سبيل ذلك ولم يتوان، فإن الله عز وجل قضى بأن يوصله إلى غايته ويحقق له أمنيته، أياً كان هذا الإنسان وأياً كانت هذه الأمة. هذا هو القانون الأول والقرآن يعبر عنه بصراحة ووضوح إذ يقول الله عز وجل: ﴿كُلا نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾.

القانون الثاني الذي ألزم الله عز وجل به ذاته العلية بالنسبة لعباده في هذه الحياة الدنيا: أن كل من أصغى إلى بيان الله واصطبغ بصبغة العبودية لله ونفذ الأوامر التي أمره الله عز وجل بها فإن الله سبحانه وتعالى سيحقق له فرداً كان أو أمةً أعلى درجات السعادة الدنيوية قفزاً فوق الجهود التي يبذلها الآخرون، قفزاً فوق العَرق الذي يبذله الآخرون. وفي ذلك يقول الله عز وجل ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾.

ويقول في بيان هذه الحقيقة أو هذا القانون أيضاً: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ نُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ، وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ ثم قال وهذا هو نص القانون ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾.

هما قانونان يجب على المسلمين في كل عصر أن يتبينوهما، وإذا تبين المسلمون ذلك فلن تكون هنالك غشاوات من جهلٍ أو انتقادات.

لماذا تزدهر حياة الغربيين حضارياً ومدنياً وعلمياً؟ لأن الله قال: ﴿كُلا نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾. كل من سلك مسالك السعي إلى غاية وبذل في سبيل ذلك الجهد ولم يتوان، فإن قانون الباري عز وجل فيما يتعلق بتسخير الكون للإنسان يقضي أن ينال هذه الإنسان مطلبه وأن يصل إلى غايته.

والقانون الثاني أيضاً واقع، ويتمثل هذا القانون الثاني في أمةٍ كانت مثال البداوة ومثال الجهل ومثال التشتت والتفرق، هي أولئك العرب الذين كانوا يعيشون في الجزيرة العربية على هامش التاريخ، انقاضوا لأوامر الله واصطبغوا بصبغة العبودية لله عز وجل وصدقوا مع الله في تنفيذ أوامره، فقفز الله بهم قفزاً إلى أعلى درجات القوة الحضارية والسمو العلمي والمكانة الباسقة.

هؤلاء الغربيون وصلوا إلى ما ابتغوه بجهودهم بأفكارهم، بطاقاتهم صدق عليهم القانون الأول. وهؤلاء العرب إنما اتجهوا إلى الله ومدوا أيدي الاصطلاح مع الله وخضعوا لأوامر الله عز وجل فدفعهم الله دفعاً دون أن يسلكوا تلك الوسيلة التي سلكها أولئك الآخرون من أصحاب الحضارات الذين كانوا يعيشون ويناكبون العرب في ذلك العصر، قفز الله بهم قفزاً إلى الغايات ... ما هي إلا سنوات قليلة وإذا بالعرب الذين كانوا مثال الجهل يصبحون مضرب المثل بالعلم، وإذا أولئك الذين كانوا مضرب المثل في التشتت أصبحوا مضرب المثل في الوحدة، أولئك الذين كانوا مضرب المثل في البداوة والتخلف فإذا بهم أصبحوا مضرب المثل في الحضارة دون أن يسلكوا إلى ذلك الطريق الدنيوي الذي سلكه الرومان أو اليونان أو الفرس أو الذي سلكه الغربيون اليوم، لأن الله حقق فيهم قانونه الثاني ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾.

ما السبب في أهمية معرفة هذين القانونين أيها الإخوة؟ بل أهمها هو القانون الثاني هو أن نعلم أن العرب إنما ازدهرت حياتهم حضارياً، علمياً، ثقافياً من حيث القوة بواسطة هذا الدين ولم تزدهر فيهم هذه المظاهر بواسطة سلوكات دنيوية وجهودٍ علميةٍ بذلها المسلمون كما بذلها اليونان كما بذلها الرومان كما

بذلها الفرس كما بذلها الغرب اليوم، ولذلك فإنهم قفزوا قفزاً من أقصى أودية التخلف بكل أنواعه إلى أعلى درجة الوجود الحضاري بكل أنواعه.

ما الذي نفهمه من هذا ما النتيجة؟ النتيجة هي أن هؤلاء العرب الذين تبوأوا هذه المراكز لا بعرق جبين ولا بجهودٍ دنيوية علمية بذلوها وإنما بسوقٍ ساقهم الله إلى هذه المراكز عندما أخلصوا دينهم لله وعندما اصطلحوا مع الله وعندما اصطبغوا حقاً بصبغة العبودية لله عز وجل.

ما المعنى المنطقي الذي ينبغي علينا أن ندركه؟ المعنى المنطقي هو أن هؤلاء العرب عندما يجدون أنفسهم وقد تبوأوا هذه المراكز العالية وأشرق الوجود الحضاري في حياتهم، عندما ينتشون ويطربون ويفرحون بهذا وينسون السلم الذي ارتقى بهم قفزاً إلى هذا المستوى ثم يخلعون ربقة هذا الدين الذي هو سر سموهم إلى هذه المكانة فما النتيجة التي يقتضيها هذا القانون؟ النتيجة هي أن يعود هؤلاء الناس إلى الواقع الذي كانوا فيه؛ ذلك لأنهم لم يتبوأوا الحضارة بجهودٍ علمية مارسوها سنوات طويلة كما فعل الآخرون، لم يتبوأوا مراكز الغنى بجهود صناعات أقاموها وفلسفاتٍ اعتمدوا عليها واختراعاتٍ ابتدعوها ومارسوا في ذلك جهوداً استطالت مدةً من الزمن لا لا، وإنما بواسطة سلمٍ ارتقوا درجاته هو هذا الدين، فإذا نسوا هذا السلم وركلوه بأقدامهم لأنهم وجدوا أنفسهم في مركز السمو والعلو، فإن القانون يقول لهم: إذاً فارجعوا إلى ما قد كنتم عليه. ولابد عندئذٍ للعرب وقد خلعوا ربقة هذا الشرف الذي شرفهم الله عز وجل به، لابد أن يعودوا إلى ما كانوا عليه.

أما الآخرون فهم لم يصلوا إلى مستواهم الحضاري بواسطة الدين، لم يصلوا إلى مستواياتهم العلمية بواسطة العبودية لله، وصلوا بواسطة العرق الذي بذلوه، بواسطة جهودهم الدنيوية التي بذلوها والقانون الأول يقول: ﴿كُلا نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾. ولكن العرب إذا ما راجعوا إذا ما تركوا الشرف الذي بوأهم هذا المركز فالقانون الرياضي والحقيقة العلمية تقتضي أن يعودوا إلى ما قد كانوا عليه بالأمس، لأن الذي رفعهم هو هذا الدين وحده.

وإن من أول من أدرك هذه الحقيقة وفلسفها وبينها ابن خلدون في مقدمته، وذلك في الفصل الذي عقده وجعل عنوانه فصلٌ أن العرب لا يمكن أن يتبوأوا حضارةً إلا بواسطة الدين الذي شرفهم الله به. وهذا المعنى أيها الإخوة هو الذي لاحظه وأشرق في رأسه سيدنا عمر رضي الله عنه، وذلك عندما جاء إلى مشارف بلاد الشام وهو مصرٌ على أن يرتدي رقعته ذات الاثنتي عشرة رقعة، وجاء من عاتبه سراً فقال له: أوه يا أبا عبيدة لو غيرك قالها، نحن قومٌ أعزنا الله بالإسلام فمهما طلبنا العزة بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله، أي ينبغي لهؤلاء الأباطرة ولهؤلاء الزعماء في بلاد الشام أن يعلموا أننا لم نصل إلى شأوهم ولم نتغلب حضارياً عليهم بالجهود التي بذلوها بمثل الوسائل الدنيوية التي أتقنوها لا، نحن كنا متخلفين عنهم، إنما وصلنا إلى شأوهم بل تجاوزناهم بتعرفنا على الله، باصطباغنا بدينه، باصطلاحنا معه، لذلك فليعلموا: هكذا نحن.

من حيث الدنيا نحن لا نزال كما كنا في أوضاعنا السابقة، لكي يتبين للعالم كله أن الفضل ليس عائداً إلى عرق جبين، ليس عائداً إلى فلسفات درسناها، إلى معاهد أقمناها، إلى جامعاتٍ درّسنا ودرسنا فيها لا .. المسألة عائدة إلى انتشال الله لنا عندما اصطلحنا معه ومددنا أيدينا إليه لنكون عبيداً بالسلوك والاختيار كما قد خلقنا عبيداً له بالقهر والاضطرار.

أيها الإخوة أرأيتم – وأنا أضرب المثل ولله المثل الأعلى – إلى قرية كل من فيها متخلفون، كل من فيها فقراء متقعون متشاكسون، وأقبل إليهم ملك من الملوك ذو بسطةٍ واسعة وذو قدرة لا تتناهى ونظر إليهم فعطف عليهم، ولما شعروا بعطف هذا الملك أقبلوا جميعاً إليه وبايعوه وأعلنوا الولاء له، فأعطاهم من ذات يده ما أعطى وأكرمهم من قدراته بما قد أكرمهم به ورعاهم رعاية خاصة بكل ما يملك، وإذا بأهل هذه القرية ما بين عشية وضحاها ينتقلون من أقصى درجات الفقر إلى الغنى، يتحولون من أقصى درجات التخلف إلى التقدم، وإذا بهم من خلال عناية ذلك الملك لهم يصبحون متآلفين متوادين، تصوروا أن أهل هذه القرية بعد حين تطوف هذه النشوة برؤوسهم ويرون أنهم قد أصبحوا بين الأمم أمة تُذكر، وأصبح لهم شأن وأي شأن، نسوا اليد التي انتشلتهم نسوا أنهم لم يرتقوا إلى هذه السدة كما ارتقى غيرهم بدرجات

العلم والجهاد وبذل العرق ونحو ذلك، فتنكروا لذلك الملك، تنكروا ليده البيضاء، أعرضوا عنه. ما النتيجة المنطقية التي سينتهي إليها حال هذه القرية؟ النتيجة المنطقية أن يستلب منهم هذا الملك تلك الميز التي متعهم بها وأن يقول لهم: إذن ما دمتم لستم بحاجةٍ إلي فارجعوا إلى ما قد كنتم فيه، وليتفضل عليكم من كان من الممكن أن يتفضل عليكم، ولم يكن يوجد من يتفضل عليهم آنذاك غيره، لابد أن يعودوا إلى ما قد كانوا عليه، ليس لهم رصيد من عمل استقلالي يعتمدون عليه، ليس لهم رصيد من قدراتٍ تقنية علمية يعتمدون عليها، رصيدهم يد ذلك الملك. فلما تنكروا له تنكر لهم، ولما انفصلت هذه الصلة بطبيعة الحال عادوا إلى ما كانوا عليه.

هذا هو واقعنا نحن العرب اليوم، مهما حاولنا أن نقلد الأمم الأخرى في تقنياتها في قدراتها مهما حاولنا أن نتسكع على درب الوصول إلى العلوم إلى الحضارة إلى المدنية إلى القدرات الاقتصادية غير ذلك، لن نصل إلى ذلك، لأن هذه الأمة لم ترتق في تاريخها الغابر الأغر إلا بواسطة الدين، وعندما تتنكر اليوم للدين لابد أن تعود القهقرى إلى ما كانت عليه، كانت المثل الذي يُضرب في التفرق عدنا اليوم إلى المثل الذي يُضرب في التفرق، كانت المثل الذي يُضرب بسوء الأخلاق أجل عدنا اليوم إلى هذا المثل ذاته، كانت المثل الذي يُضرب في الفقر رغم أن أراضيهم كانت منذ ذلك العصر مليئةً بالثروات والمدخرات عدنا إلى ذلك الوقت.

تلك هي سنة رب العالمين في حقنا، ولن تجد لسنة الله تبديلا.

ألا ليت أن إخوة لنا من حولنا عن قربٍ أو عن بعد يعلمون هذا القانون، يدركون معنى قول الله سبحانه وتعالى: ﴿كُلا نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾، يدركون قول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ ليت أنهم يقفون وقفة تدبر أمام الكلمة الخالدة لعمر "نحن قومٌ أعزنا الله بالإسلام فمهما طلبنا العزة بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله".

على هؤلاء الذين يتباهون اليوم بتاريخهم الأغر وينتشون، فإذا ذُكروا بالدين سخروا، إذا ذُكروا بكتاب الله أعرضوا إذا ذُكروا بشرعة الله عز وجل تساموا، ليت أن هؤلاء يذكرون ماضي هذه الأمة قبل أن يشرق في حياتها هذا الدين الأغر لكي يعلموا أنهم عندما يخلعون ربقة هذا الدين الذي هو مصدر عزهم لابد أن يعودوا إلى أودية الذل التي كانوا يتطوحون فيها.

وأسأل الله عز وجل أن يعيدنا إلى حمى هذا الدين باختيار ورشد وأسأله عز وجل أن يوفق هذه الأمة بكل فئاتها أن تعود فتصطلح مع الله حتى يعود فينتشلها من جديد كما انتشلها بالأمس.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.



٢٤٢- منهج امتلاخ الفساد والإفساد من المجتمع | ٢٠٠٧/١٠/١٩

من المعلوم أن أسباب الفساد في المجتمعات مهما تنوعت إنما تنحصر في عدم شعور الإنسان بوجود رقابة تلاحقه بالجزاء، هذا هو السبب للفساد أياً كان نوعه عندما يستشري في المجتمع.

ولقد شعر علماء الاجتماع بهذه المشكلة، وبحثوا عن علاج بها، فعثروا على علاج المؤيدات القانونية، وجعلوا من القوانين الرادعة وسيلة لدرء الفساد، ولمنع الإنسان من الدخول في ساحة الإفساد في المجتمع بأنواعه المختلفة، ولكن الذي ظهر وثبت أن هذه الوسيلة لم تُجْدِ نفعاً، وهي لا تجدي في مستقبل الأيام أيضاً أي نفع؛ لأن الذي يرسم القوانين الجزائية إنما هو الإنسان، والذي يفسد في الأرض هو الإنسان، وما أيسر للإنسان المفسد أن يتحايل على الإنسان القانوني الذي يرسم من القوانين مؤيدات جزائية، ما من قانون يُرْسَم لدرء الفساد إلا وتجد في اليوم الثاني من استخراج وسيلة للتعالي فوق هذا القانون، وللمرور بجنبه دون أي نظر إليه أو التفات إليه.

وجاء الفلاسفة فقالوا: إن الرادع الأوحد الذي يردع الإنسان عن الفساد في المجتمع إنما هو الضمير، فالضمير إذا استيقظ هو الذي يردع صاحبه عن الفساد، عن اغتصاب الحقوق، عن التحايل على حقوق الآخرين، عن التربص بها بأي وسيلة من الوسائل.

ونَظَرَ الناسُ إلى هذا العلاج – علاج الضمير – ورأوا أنه علاج خُلَّبي لا معنى له قط، ذلك لأن الضمير ليس إلا مرآة لنفسية صاحبه، ليس الضمير شيئاً رادعاً الإنسان عن الفساد، أو يمنعه عن السلوك في طريق ما، أو يدفعه إلى السير في طريق ما، وإنما الضمير هو الشعور، وهو بمعنى آخر مرآة لنفسية الإنسان، نفسية زيد من الناس بالرعونات وبالرغبة في استلاب حقوق الآخرين، وبالرغبة العارمة في التعالي عليهم، فإن الضمير لهذا الإنسان ليس أكثر من مرآة لنفسيته هذه، ولقد علم العقلاء جميعاً أن اللص إنما يمارس لصوصيته بدافع من الضمير الذي يدفعه إلى ذلك، والمتحايل على حقوق الآخرين باستلابها والعمل على اقتناصها إنما يندفع إلى ذلك بسائق من ضميره، فضمير اللص يدفعه إلى السرقة، وضمير

المرتشي يدقعه إلى الرشوة، وضمير الذي ينهب ويسلب الحقوق يدفعه إلى ذلك كله، وتبين أخيراً أن هذه الوسيلة لا تجدي نفعاً، ولا تحقق فائدة، ولا تطهّر المجتمع من الفساد شروى نقير.

إذن ما الوسيلة التي بها يزول الفساد من المجتمع، والتي بها يتعالى الإنسان عن الوقوع في دركات الإفساد في مجتمعه والتربص بإخوانه؟ الاستقراء التام الصحيح – أيها الإخوة – عل على أنه ليس ثمة إلا وسيلة واحدة، هي وسيلة مراقبة الله عز وجل بعد الإيمان بالله سبحانه وتعالى، يُغْرَس الإيمان بالله أولاً في طوايا العقل، ثم إن هذا الإيمان يقوى ويشتد عوده إلى أن يهيمن على مكمن الوجدان في النفس والقلب، يأتي بعد ذلك دَور رقابةِ الإله سبحانه وتعالى.

هذا هو العلاج الأوحد لامتلاخ الفساد بكل أنواعه من المجتمع، يقرأ الإنسان الذي آمن بالله سبحانه وتعالى خطاب الله عز وجل القائل: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ ما يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَما يَخْرُجُ مِنْها وَما يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ وَما يَعْرُجُ فِيها وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَما كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤] آمن بالله وأيقن أن هذا كلام الله عز وجل من خلال هذا الذي قرأ أن الله يراقبه أينما كان ﴿سَواءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَساربٌ بِالنَّهارِ﴾ [الرعد: ١٠]. قرأ قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنا الإِنْسانَ وَنَعْلَمُ ما تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ، إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمالِ قَعِيدٌ، ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيد﴾ [ق: ١٦-١٨].

هذا الإنسان آمن بالله أولاً، وغُذِّي إيمانه بماء التربية ثانياً، حتى هيمن إيمان العقلاني على مكمن الوجدان في قلبه، ثم قرأ هذه الآيات وعلم أنه مُراقَب من قِبَل الله عز وجل، أنَّى له وهل يستطيع أن يتحايل على مراقبة الله كما كان يتحايل على مراقبة القانون والقانونيين؟ لا يستطيع، بالأمس كان من اليسير عليه أن يتحايل على القانون؛ لأن واضعي القانون بشر مثله، كما يستطيعون أن يقيدوه بقوانينهم يستطيع هو أن يتحايل على قوانينهم بقدراته، والإنسان أخو الإنسان، وهذه الظاهرة معروفة كلكم يعرفها.

إذن ثبت لدى التجربة، وبحكم المنطق، ولدى الاستقراء أن الذين يكرهون الفساد، ويتأففون منه ويبحثون عن مخرج من هذا الفساد لا سبيل لهم إلا تغذية الإيمان بالله عز وجل، ومن ثَم تغذية مراقبة الله سبحانه وتعالى.

أصحاب رسول الله رضوان الله عليهم مظهر من مظاهر هذه الحقيقة، وتجربة من التجارب التي مرت في التاريخ لإثبات هذا المعنى، كيف كان الواحد منهم قبل الإسلام؟ أستطيع أن أقول ولا أبالغ: كان الكثيرون منهم مظهراً لشتى أنواع الفساد، ولشتى أنواع الانحراف عن السلوك الإنساني، ولا أقول عن السلوكات القانونية، ولم تكن قوانين ترد عنهم آنذاك، ولكن ما الذي صيرهم إلى النقيض من ذلك؟ ما الذي صيرهم بعد أن كانوا مظهراً للفساد والإفساد إلى رقباء للصلاح والإصلاح؟ هذه المراقبة؛ مراقبة الله سبحانه وتعالى هي التي جعلت الصانع يخشى الله عز وجل في صنعته فلا يفسدها، هي التي جعلت الذي وُكِّلَت إليه مراقبة أمة مراقبة ثغر جعله أميناً على هذا الذي عُهِد إليه، وفياً لهذا الذي طُلِب منه، إنها ليست مراقبة قانون، وليست فاعلية ضمير، ولكنها رقابة الله سبحانه وتعالى التي أينعت بين جوانحه عن طريق إيمانه بالله سبحانه وتعالى، وما تحقق بالأمس من خلال الأجيال المتصرمة، وما شهد به التاريخ القصي والقريب هو الحقيقة التي تفرضها على المجتمعات وعلى الأمم في هذا العصر أيضاً أيها الإخوة

نحن نشكو اليوم من أنواع كثيرة من الفساد، كل الفئات تشكو من الفساد، ولا نستطيع أن نتهم أحداً بأنه مُعْرِض عن هذا الفساد ولا يبالي به، لا، كل فئاتنا في مجتمعاتنا من قمة المسؤولية إلى القاعدة الشعبية تشكو الفساد وتبحث عن مخرج من هذا الفساد، لكن كثيرون هم الذين لم يعثروا – ولعل في الناس من لا يريدون أن يعثروا – على المنهج الأوحد الذي يطهر المجتمع من الفساد والإفساد؛ إنه التربية الإيمانية التي ينبغي أن يؤخذ بها الجيل، التربية الإيمانية الإسلامية الحقيقة، ولا أعني بها التربية التقليدية الشكلية التي لا جذور لها، هذه التربية عندما توجد يؤخذ بها الجيل فإن الفساد عندئذ يضمر، وإنه يذوب، ولا يزال يذوب إلى أن يختفي بإذن الله سبحانه وتعالى.

تنظر إلى الموظفين في دوائرهم، وتتأمل في هؤلاء الذين تخرجوا من دورات تربوية إيمانية إسلامية، وإذا بالواحد منهم يؤدي وظيفته التي عُهِدَت إليه على خير منوال، لا لأن القانون يلاحقه، هو يستطيع أن يتحايل على القانون، ولكن الله يراقبه ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَما كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤].

نعم – تنظر إلى هؤلاء العمال الذين يملؤون المصانع في بلادنا، وكم وكم رأينا فيهم مظاهر الإهمال ومظاهر الفساد، ولربما مظاهر الإفساد في كثير من الأحيان عمداً، ولكنك عندما تنظر فتجد هؤلاء العمال قد تخرجوا من هذه الدورات التربوية الإسلامية عن طريق وزارة التربية – أجل – تنظر فتجد أن الواحد منهم يعكف على عمله وهو في منتهى الأمانة لهذا الذي عُهِدَ به إليه، لا خوفاً من القانون، ولا غيرة على العمل وصاحب العمل، لكن خوفاً من الله سبحانه وتعالى الذي يراقبه اليوم، ويأخذ بناصيته غداً.

تنظر وتتأمل إلى الذين عُهِد إليهم بالأنظمة الاجتماعية في الشوارع – وما أكثر مسؤوليات الأنظمة المختلفة في الشوارع هنا وهناك – وتبحث عمن يفسد، تبحث عمن يمد يده لرشوة فلا تجد. لماذا؟ لأنهم رُبُّوا في ظلال الخوف من الله، رُبُّوا في ظلال الإيمان بالله عز وجل، رُبُّوا في ظلال مراقبتهم لله ومراقبة الله سبحانه وتعالى لهم، تشبعت أفئدتهم وعقولهم بقوله سبحانه: ﴿سَواءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسارِبٌ بِالنَّهارِ، لَهُ مُعَقِّباتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ [الرعد: ١٠-١١].

هذا هو الدواء، وهذا هو العلاج، وهذا العلاج ينطق به التاريخ، وينطق به أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتنطق به معالم أخّاذة في تاريخنا العربي والإسلامي، ولكن الوقت يضيق عن استعراض هذه المعالم.

يا عباد الله. ديننا الإسلامي يا عباد الله ليس خطاً موازياً للأنشطة الدنيوية، من قال هذا؟ ليس الدين خطاً يسير هكذا، والدنيا خط آخر يسير هكذا، وهما خطان متوازيان لا يلتقيان في بداية، ولا يجتمعان في نهاية. من قال هذا؟ الدين جاء من أجل الدنيا، والدنيا جاءت من أجل الدين، وبينهما تفاعل تام، ولا يوجد مجتمع رُبِّيَ أفراده التربية الإسلامية الإيمانية الحقيقية إلا وتنظف هذا المجتمع من كل أنواع السوء، نَظُف هذا المجتمع من الإفراط والتفريط والغلو، نَظُف هذا المجتمع من الفساد بكل أنواعه وأشكاله، وتجلت الأنشطة الدنيوية على خير منوال، وازدهرت النشاطات التجارية، النشاطات الاقتصادية، النشاطات الاجتماعية، النشاطات الثقافية والعملية والسياسية كلها دون أن تتسرب إليها شائبة من شوائب الإفساد.

هذه الحقيقة معروفة، وإذ كنا نعرف هذه الحقيقة فما لنا لا نلتفت إلى مبدأ التربية الإيمانية الإسلامية في مجتمعاتنا؟ وما لنا لا نُحَمِّل مسؤولي التربية في مجتمعاتنا، ما لنا لا نُحَمِّلهم مسؤولية الفساد الذي يتم؟ مسؤولية اللا مبالاة التي تتم؟ إنْ في دوائر الدولة أو في المصانع أو في المتاجر أو في الشوارع والأزقة، المسؤولية تكمن هناك. هذه حقيقة أتمنى لو أن إنساناً يناقشني فيها ليلفت نظري إلى خطأ قد وقعت فيه في هذا البيان، أو إلى ثغرة ناقصة في هذه الحقيقة، ولكن أحداً لا يستطيع أن يناقش في هذا الذي قرره الله عز وجل.

القوانين التي وضعها البشر ما أيسر أن يتحايل عليها البشر، والضمير هو مرآة العمل الإنساني، ضمير اللص إنما يتلألأ فيه معنى اللصوصية، ضمير المفسد إنما يفيض بمعاني الإفساد وصوره، وضمير الإنسان الذي آمن بالله عز وجل يفيض مراقبة لله، أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم.



٢٤٣- عوامل النهضة والانحدار | ٢٠٠٨/٠٥/٣٠

إن في كتاب الله سبحانه وتعالى سنناً وقوانين يبين لنا الله عز وجل من خلالها عوامل نهضة الأمم والأشخاص والحضارات في مدارج الرقي والتقدم، ويبين من خلال هذه السنن عوامل انحدار الأمم والأشخاص والحضارات إلى مهاوي التخلف والهلاك، يرد البيان الإلهي من خلال هذه السنن على من يتصور اليوم أن للحضارات والدول أعماراً كأعمار الأشخاص فهي تبدأ من ضعف كضعف الطفل ثم تتحول إلى قوة فقوة متزايدة ثم تتراجع ثم تذبل ثم تنطفئ جذوة تلك الحضارة والحياة، أي أنها عوامل طبيعية لا علاقة لها بسلوك الأشخاص بأخطائهم أو انحرافاتهم، ولكن البيان الإلهي يرد على هذا التصور من خلال هذه السنن التي نتبينها في كتاب الله.

ولقد جسد البيان الإلهي هذه السنن من خلال قصة شخصٍ بين لنا تنقله وإقباله إلى الحياة متمتعاً بمقومات البقاء ثم بين لنا تراجعه إلى الذبول فالضعف فالهلاك من خلال هذا القانون الذي يحدثنا البيان الإلهي عنه، إن هذا الشخص هو قارون، وكم يمر في المجتمعات الإنسانية ورثة لقارون هذا وإنهم لجميعاً ينطبق عليهم قانون الله سبحانه وتعالى وسنته.

فتأملوا في هذا الذي يقوله لنا الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾ [القصص: ٧٦]، هذه هي المرحلة الأولى من حياة قارون هذا الذي يجسد لنا البيان الإلهي في شخصه مظهراً لقانونه هذا؛ ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ﴾ [القصص: ٧٦] والبغي يا عباد الله أشد أنواع الظلم، البغي هو اجتماع الاستكبار مع العتو والظلم، وهكذا كان قارون.

ولكأن فيكم من يسأل: فإذا كان قارون قد وصل به الظلم والعتو إلى هذه الدرجة فلماذا أكرمه الله عز وجل بالكنوز وقال: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾ [القصص: ٧٦]؟ لماذا متعه الله بهذا الزخم الكبير من الغنى، ذلك الغنى الذي بلغ إلى درجة أن مفاتيح كنوزه لا تكاد العصبة تستطيع أن تحمله؟ ما الجواب عن هذا يا عباد الله؟ الجواب هو ما يقوله المنطق أن الإنسان إذا وقع لا

يمكن أن يقع من على الحصير وإنما يقع من على العرش أو السرير، إذا كان الإنسان على أرض مستوية فلا معنى لوقوعه منها وإنما يرتفع ثم يرتفع ثم إنه يهوي من حالق، هذا المنطق هو الجواب، اقتصت سنة الله سبحانه وتعالى أن يرفع الطغاة الباغين الذي جمعوا إلى الظلم العتو والاستكبار، اقتضت سنة الله عز وجل أن يمد لهم في الرخاء وأن يرفعهم إلى شأوٍ فوق شأوٍ فوق شأو لكي يأتي الهوي بعد ذلك له معناه المهلك يا عباد الله، تلك سنة أخرى في كتاب الله عز وجل، ألم تقرؤوا قوله: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٣]، وقد كرر البيان الإلهي هذه السنة، وهكذا سما الله عز وجل بحياة هذا الطاغية صُعُدًا بين يدي الإهلاك الذي ينتظره والذي حاق به.

ولكن أيضاً اقتضت سنة الله سبحانه وتعالى إذا استدرج الظالم الباغي أن يرسل إليه من ينصحه، أن يرسل إليه من يعظه، من يحذره وينذره، وهكذا أنبأنا بيان الله عز وجل، أرسل إليه من يقول له: ﴿لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦]، لا تفرح الفرح الذي يبعث على الطغيان، ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧]، نصائح جامعة بعثها الله سبحانه وتعالى إليه من خلال رسل ومن خلال صالحين ناصحين، ﴿تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾، والفساد هي الكلمة الجامعة التي تحوي كل أنواع الشرور، ﴿تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾، الظلم لون من أشد ألوان الفساد، تجريد الناس من حقوقهم وممتلكاتهم وأوطانهم من أشد أنواع الفساد، العبث بالحرث والنسل وإفساد البيئة من أشد أنواع الفساد، ﴿وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾.

انظروا إلى المرحلة الأخرى من حياة قارون، إنها سنة ماضية في عباد الله عز وجل تبينت لنا في التاريخ القصي المدبر وفي واقعنا الحالي وفي مستقبل الأيام الآتية، قال: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨]، هي الكلمة التي يقولها العتاة والطغاة دائماً، إنها القدرة، إنها المِكْنَةُ العلمية، إنها التكنولوجيا، إنها مفاتيح أوتيتها بقوةٍ مني، بعرق جبيني، ليس في الكون من قد تفضل عليَّ بشيءٍ مما قد أوتيته؛ ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾، ويأتي الجواب ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُون﴾ [القصص: ٧٨]، هذه السنة أيها الإخوة نقرؤها في كتاب الله ونجد مصداقها في حياتنا اليوم في عالمنا القريب والقصي.

ثم إن الباري سبحانه وتعالى يضعنا أمام هذه الصورة الأخرى، صورة افتتان الناس بمظهر هذا الغنى، هذا الإقبال الحضاري الخلبي الكاذب؛ ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي﴾ [القصص: ٧٩] يستعرض قوته ﴿زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ، وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [القصص: ٨٠]؛ أوتوا العلم، لم يقل: أوتوا الإيمان، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ [القصص: ٨٠]، لماذ قال ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ ألم يكن أولى أن يقول وقال الذين أوتوا الإيمان؟

وضَعَنَا بيان الله عز وجل أمام المعين، ما هو معين الإيمان يا عباد الله؟ إنه العلم، ما من إنسان أسلم عقله لموازين العلم بصدق إلا وهداه العلم إلى الإيمان بالله عز وجل، ما من إنسان تشرَّبَ عقله حقائق العلم واستعمل مصباحه في الطريق الذي يسير فيه إلا وهداه العلم إلى هويته عبداً مملوكاً ذليلاً لله سبحانه وتعالى، وما من إنسان تنكَّبَ عن طريق العلم إلا وتاه في منعرجات الحياة ثم زجته هذه المنعرجات في الشقاء الوبيل، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ [القصص: ٨٠].

ما هي المرحلة الأخيرة في قصة هذا الإنسان بل في هذه السنة الربانية التي يجسدها لنا الله عز وجل من خلال هذا الإنسان؟ ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾، ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ﴾ تأملوا في مظهر جلال الربوبية في هذا الكلام؛ عبد مثلي ومثلكم يقول فخسفنا به وبداره الأرض؟! إنسان من الناس وليكن نبياً أو رسولاً يتأتى له أن يقول له هذا الكلام؟! إنما يقول هذا الكلام من كانت ناصية الدنيا بيده، إنما يقول هذا الكلام من يتحرك الناس في قبضته ويتقلبون في مملكته، إنه الله سبحانه وتعالى، الذي يقول هذا الكلام هو ذاك الذي يقول: ﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ، أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾، ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ﴾، ما الذي قضى به إلى هذه النهاية؟ إنه العتو والطغيان وليست الطبيعة التي جعلت عمر الأشخاص والحضارات أشبه بعمر المولود الذي يولد، لا، إنه العتو والطغيان، ولو لم يسلم نفسه إلى هذا العتو لجمع الله له بين سعادتي الدنيا والآخرة، ﴿وَأَصْبَحَ

الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾.

هذه هي سنة رب العالمين جسدها لنا الله عز وجل في هذه القصة، وكم مرَّ بمعبر التاريخ أناس من أمثال قارون فحاق بهم ما حاق بقارون، وكم في الناس اليوم من ورث من قارون كبرياءه وطغيانه فحاق بهم أو سيحيق بهم هذا الذي حاق بقارون، ثم تأملوا في عصارة هذه القصة بل في عصارة هذه السنة؛ ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾، أتريد أن تمسك بمفتاح حضارة تظل في مستوى شبابها وألقها خلافاً لما يقوله شبنجلر وأمثاله؟ كن متمسكاً بهذه النصيحة التي يقولها بيان الله ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا﴾.ما من أمة اصطبغت بهذا النصح، ما من أمة اصطبغ أفرادها قادة وشعوباً بذل العبودية لله سبحانه وتعالى إلا ومد الله لهم من عمر الحضارات قرناً إثر قرن إثر قرن، نعم، هذه حقيقة يضعها الله سبحانه وتعالى أمام أبصارنا ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا﴾.

ما الذي يريده ربنا منا؟ يريد ألا نفسد، يريد ألا يطغى بعضنا على بعض، يريد ربنا سبحانه وتعالى إذا أردنا أن نأخذ حظنا من الحياة ألا نجعل حظنا من الحياة هيمنة على عباد الله الآخرين، يريد الله عز وجل منا أن نأخذ حظنا من الحياة ولكن على أن نسير في مناكب الأرض وما أوسعها لا نظلم، لا نسلب حقوقاً لأصحابها، لا نأخذ ممتلكات لأصحابها، لا نكون كالناس الذين حدَّث عنهم رسول الله قائلاً: ﴿لو كان لابن آدم وادٍ من مال لابتغى إليه ثانيا ولو كان له ثانٍ لابتغى إليهما ثالثاً ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب﴾، حذار يا عباد الله أن نجعل تراب الموت هو الذي يوقظنا من رقاد، هو الذي يوقظنا من ظلم الآخرين، حذار فإن تلك الساعة التي توقظنا فيها رائحة الموت ممزوجة بتراب القبر، تلك الندامة لا تغني آنذاك يا عباد الله.

بقي أن أقول هل هذا الذي جسده لنا بيان الله في قصة قارون كان بدعاً من التاريخ والزمن؟ تأملوا يا عباد الله تجدونها سنة نافذة، تصوروا وأغمضوا أعينكم وتذكروا تجدون أمثالاً وأمثالاً لقارون، ألا تذكرون ذلك الطاغية الذي لا يزال اليوم يعيش ولكن في يمٍّ من النسيان، لا يعلم اليوم ذاته ولا يعلم من هو بل هو نسيان أشبه بالجنون منه بالرقاد، إنه ذاك الذي قاد الولايات المتحدة ردحاً من الزمن، ألا تذكرون

طاغية إسرائيل الذي يعيش اليوم سجيناً معلقاً بين حالتي الموت والحياة، لا هو ينال حظاً من الحياة يتنفس بها الصعداء ولا هو يستريح مع الموتى الذين أراحهم الموت، ألا تتذكرون أولئك الطغاة الذين أعلنوا عن ظعيانهم في عُرْضِ البحر قبل سنوات كيف قضى الله سبحانه وتعالى بأن تتفتح قيعان البحر أفواهاً فاغرة لتبتلعهم وتبتلع قواعدهم العسكرية؟!

اذكروا ذلك أيها الإخوة لتعلموا أن سنن الله ماضيةٌ في عباده، والعبرة التي ينبغي أن نقطفها من هذا الكلام لأنفسنا أن نتفيأ ظلال العدل وأن نقف أمام مرآة الذات جميعاً فنعلم أننا عبيد لله وأننا مملوكون بقبضة الله وأن نواصينا بيد الله سبحانه وتعالى وأن مآلنا مهما فعلنا ومهما صعدنا أو هبطنا، مآلنا إلى الوقوف بين يدي الله ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا، لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا، وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾.



أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

٢٤٤- مزايا الشام وأهلها | ٢٠٠٨/١٠/٣١

دعوني أفتتح حديثي إليكم اليوم بطائفة من الأحاديث النبوية الصحيحة التي يحدثنا فيها رسول الله عن المزايا التي اختص الله بها الشام، ﴿يروي العرباض بن سارية أن رجلاً سأل رسول الله فقال يا رسول الله اختر لي بلداً من بعدك فإني لو علمت أنك تبقى لن أختار عن قربك بديلاً فقال له عليه الصلاة والسلام: عليك بالشام فإن الله سبحانه وتعالى جعلها خيرة أرضه يجتبي إليها خيرة عباده وإن الله قد تكفل لي بالشام وأهله﴾.

﴿ويروي عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنه أن رسول الله قال: بينا أنا نائم إذ رأيت كأن عمود الكتاب استُلِبَ من تحت وسادتي فأتبعته بصري فإذا هو نور ساطع عُهِدَ به إلى الشام ألا إن الأمن والأمان عندما تكون الفتن في الشام﴾.

﴿ويروي أبو الدرداء عن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه قال: فسطاط المسلمين يوم الملحمة الكبرى على أرض يُقَال لها الغوطة إلى جانبها مدينة يقال لها دمشق هي خير منازل المسلمين يومئذ﴾.

يا عباد الله هذه من أصح الأحاديث التي رُوِيَتْ عن رسول الله في بيان المزايا التي اختص الله عز وجل بها الشام ولقد تبين لنا أن دمشق هي قلب الشام. ويشاء الله عز وجل أن يرينا مصداق كلام رسوله في كل عصر، وها نحن نرى تجسيد ما قاله رسول الله: ﴿ألا إن الأمن والأمان عندما تكون الفتن في الشام﴾ في هذه الأسابيع القريبة التي مرت، سلسلة متوالية من المحاولات التي استهدفت أمن هذه البلدة واستهدفت إقرار هذه البلدة عن طريق العمل على بث القتل والرعب فيما بين بيوتاتها البريئة الآمنة، أما جنود هذه السلسلة من المحاولات فمخالب من مخالب الوحشية الأمريكية، وأما الهدف من وراء هذه السلسلة التي تمت فهو ما قد قلت لكم تحويل أمن هذه البلدة إلى فوضى واضطراب وتمزيق استقرارها وتحويل هذا الاستقرار إلى بؤرة يشيع فيها التطرف والإرهاب ولكن مصداق كلام رسول الله تجسد، باء أبطال، بل جنود، هذه السلسلة بالخزي والخيبة وارتد الكيد إلى نحورهم وأحيط بهم وأصبحوا في قبضة

العدل والقصاص، فهذا يا عباد الله مظهر من مظاهر نبوة المصطفى وهو تصديق لما قاله، والتاريخ كله من قبل وإلى هذا اليوم يصدق المصطفى بل يسجل على سمع الدهر كله صدق هذه المزية التي أنبأنا بها رسول الله.

ولكن الذي فوجئ به الناس بعد ذلك أن مراوح أمريكية اتجهت إلى هذه البلدة فأمطرت وابلاً من أسباب دمارها بين البيوتات الآمنة المطمئنة البريئة وذهب الناس في تفسير هذا الذي فوجِئْنَا به يميناً وشمالاً ولكن التفسير واضح يا عباد الله، إن الطغيان الأمريكي عندما راقب ونظر فوجد أن جنوده قد باؤوا بالخيبة والخزي وأنهم قد أُحيطَ بهم وأن الكيد عاد فاستقر في نحورهم قام الغيظ ولم يقعد بين جوانح الطغيان الأمريكي والتهب الحقد في نفس هذا الطغيان فكان أن جعل من عمله الإجرامي هذا رسالة تعزية أرسلها إلى جنوده لعلها تُبْرِدُ لظى الألم الذي انتابهم ولعلها تنسيهم الخزي الذي وقعوا فيه، إنها رسالة تعزية يا عباد الله وإنها وسيلة لإشفاء الغليل، أجل هذا هو التفسير الذي لا تفسير من دونه. عندما اغتاظ الطغيان الأمريكي من أن جنودهم باؤوا بهذا الخزي المرةَ تِلْوَ المرةِ تِلْوَ المرة كان لابد أن تهتاج لظى الحقد والضغينة على الإنسانية، على الأمن والطمأنينة، على الاستقرار ومن ثم كان لابد أن يتم إشفاء هذا الغليل عن طريق هذه الجريمة التي كانت ضحاياها بيوتاً برآءِ آمنين. هذه الحقيقة ينبغي أن نعلمها يا عباد الله.

وإني لأقول بعد ذلك من على هذا المنبر في هذا المسجد الذي سجل منذ أقدم العصور إلى يومنا هذا مظاهر النصر الرباني الذي أكرم الله به أمتنا هذه، أقول إن أمتنا في شامنا هذه كانت ولا تزال تعكف على نسج بُرْدٍ من الحب والود والتآلف والبر تكسو به أمتنا في شامنا هذه وتصدره رسالة لا أقول إلى العالم الإسلامي فقط بل إلى العالم كله. أما سَدَى هذا النسيج فهو صدق العبودية لله، هو إخلاص هذه الأمة في محبة الله عز وجل وتعظيمه والالتزام ما استطاعت بأمره، وأما لُحْمَةُ هذا النسيج فهو ما يتفرع عن ذلك من الحب الذي ينبغي أن تنشره هذه الأمة فيما بينها وأن تصدره لجيرانها بل للعالم كله شرقيه وغربيه، شعاره ودافعه في ذلك قول المصطفى صلى الله وسلم عليه فيما قد صح عنه: ﴿الخلق كلهم عيال الله وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله﴾.

شعارنا الثاني الذي نرفعه فوق رؤوسنا قادة وأمة هو قول المصطفى فيما رواه مسلم في صحيحه وغيره: ﴿من خرج من أمتي على أمتي لا يفرق بين برها وفاجرها ولا يفي بذي عهدها فليس مني﴾. هذه هي رسالتنا، وإذا تبين لنا ذلك فإني أقول، ولست أنا الذي أقول، بل إن أمتنا هذه كلها تقول إن بلسان الحال أو بلسان المقال: إنها لن تتردد في بتر أي يدٍ تمتد لتعبث بهذا النسيج الذي هو رسالتنا، لتعبث بنسيج الود والتآلف والحب الذي يمتد منه لباس وارف لشامنا هذه والذي نجعل منه رسالتنا نصدرها إلى العالم كله. إن الذين يحاولون أن يعبثوا بنسيجنا هذا وأن يُحَوِّلُوا ما نتمتع به من الأمن ورسالة الحب والود والوئام إلى تطرف وإرهاب تُفَجَّرُ به أرضنا هذه فإن هذه الأمة لن تتردد في بتر هذه اليد التي تسعى إلى ذلك. هذه الرسالة كانت ولا تزال أيها الإخوة أنشودة أمتنا هذه، وكيف تنساها وعلى أساسه أقام الله عز وجل وجودنا الحضاري، على أساسه أقام الله سبحانه وتعالى كينونتنا فيما يتعلق بهويتنا التي نعتز بها، كيف يمكن أن نتخلى عن رسالتنا هذه أو أن ننساها أو أن نوليها ظهورنا ونحن نتلو كتاب الله سبحانه وتعالى ونردد قوله: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَالنُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾، وَلِيُّنَا الله ولن يكون لنا وليٌّ غيره لا من قبل ولا من بعد إطلاقاً.

والكلمة الأخرى التي ينبغي أن أقولها هي أن أذَكِّر نفسي وأذَكِّر أمتي وأذَكِّر قادتنا بألا نبتغي النصر إلا من معين واحد، ألا وهو معين الانضباط والارتباط والتشرف بذل العبودية لله سبحانه وتعالى، أوصي نفسي وأوصي أمتنا وقادتنا بأن نقف دائماً أمام محراب العبودية متمثلين قول الله عز جل: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾، نعم نحن مقصرون في جنب الله ومن ذا الذي يستطيع أن يؤدي حقوق الربوبية كاملة لله ولكنا نمد جسوراً بيننا وبين مولانا عز وجل، جسوراً من ذل العبودية له، جسوراً من الإيمان به، جسوراً من البيعة له نجددها في كل مناسبة أننا على العهد، لن ننحرف عن هذا العهد يمنة ولا يسرة ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً ونردد بعد ذلك قوله: ﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

٢٤٥- الوظيفة والضمان | ٢٠٠٩/١١/٢٧

ليس فينا –نحن المسلمين– من لا يعلم أن الله سبحانه وتعالى إنما أقام الإنسان في هذه الحياة الدنيا على وظيفة شرفه بها، وكلفه بمهمة أقامه عليها، وهذا هو معنى الاستخلاف الذي خاطب الله عز وجل به الملائكة إذ قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، وكلنا يعلم أن الله عز وجل قد ضمن للإنسان الذي كلفه بما كلفه من وظيفة شرفه بها ضمن له في هذه الحياة الدنيا رزقه، ضمن له رغد عيشه، ضمن له أمنه وطمأنينته، ألزمه بوظيفة كلفه بها، وضمن له في مقابل ذلك بكل ما يحتاج إليه في حياته، وسخَّرَ له المكونات التي من حوله ضمانة لذلك، ومع هذا فإنك لتنظر فتجد أن أكثر الناس تائهون عن هذه المهمة التي خُلِقُوا من أجلها، يلهث أحدهم وراء ما قد ضمنه له الله عز وجل، ويُعْرِض عما قد كلفه الله عز وجل به، هذا هو الغالب اليوم في حياة الإنسان وتعامله مع الله.

تقول لأحدهم وهو يلهث وراء تجارته بل تجاراته المتنوعة، يمضي ليله ونهاره كادَّاً متعباً في سبيلها، تقول له: يا هذا ألم يضمن الله سبحانه وتعالى لك رغد عيشك؟ فلماذا لا تلتفت إلى الوظيفة التي أقامك الله عز وجل عليها؟ لماذا لا تُقْبِل على كتاب الله عز وجل تتأمل من خلاله واجباته التي خاطبك بها، وظيفتك التي أقامك عليها؟ فيجيبك قائلاً: إنني لست غافلاً عن هذا الذي تقول، إنني أنتظر ريثما أفرُغ من عملي التجاري هذا الذي أخذ عليَّ الوقت كله، وبمجرد أن أنتهي إلى ما أريد، وأنجح في شؤوني وعملي التجاري لسوف أقبل إلى الله عز وجل وإلى كتابه، ولسوف أشمّر عن ساعد الجدّ لأداء الوظائف التي كُلِّفْتُ بها.

وتقول لآخر وقد أكرمه الله عز وجل بالرزق الوفير والمال الكثير، ومتعه برغد العيش، وهو مع ذلك يلهث وراء المزيد والمزيد، تقول له: يا هذا ألم يئن لك أن تلتفت إلى ما قد طلبه الله منك؟ ألم يئن لك أن تؤدي المهمة التي قد خُلِقْتَ من أجلها؟ فيجيبك قائلاً: ليس بيني وبين أن أنهض بهذا الذي تقول سوى أن أنتهي من مشاريعي الاستثمارية والتجارية المختلفة، وبمجرد أن أنجح فيها لسوف أنشئ مشفاً ومستوصفاً للفقراء، ولسوف أجعل عشرين بالمئة من أرباحي التجارية للفقراء والمدقعين والمرضى، يقول

لك هذا الكلام، وتلتفت إلى طائفة الموظفين وأصحاب الرتب الحساسة فيهم، فتقول لهم أو تقول لكل واحدٍ منهم: ألم يئن لك أن تلتفت إلى ما قد أقامك الله عز وجل عليه؟ كتاب الله يلاحقك، وأنت معرض عنه ورسول الله صلى الله عليه وسلم يشرح لك ويحذرك، وأنت تائه عنه لا تعلم فرقاً بين آيةٍ في كتاب الله ولا حديثٍ من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيجيبك هذا الذي تقول له هذا الكلام: ليس بيني وبين أن أتقاعد عن الوظيفة إلا سنوات قليلة أو أشهر معدودة، ولسوف أتّجه رأساً بعد ذلك حاجّاً إلى بيت الله الحرام، ولسوف تجدني عندئذٍ في أول صفٍّ في المسجد أؤدي مع الناسكين والمصلين فرائض الله سبحانه وتعالى، فإن قلت له: فما الذي يمنعك من أن تؤدي أوامر الله الآن؟ نظر إليك محدقاً، وذكَّرَكَ بأنه يمر بوظيفة، وأنه يمر بعمل حساس وهكذا.

أأزيدكم من الأمثلة يا عباد الله؟ هذا وإننا جميعاً نقرأ كتاب الله، وننظر كيف أن الله كلَّفنا بأمر وكلَّف ذاته العلية تجاهنا بضمانات، قال لنا: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ، مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ﴾ [الذريات: ٥٦-٥٨]، ويقول: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه:١٣٢]، ويقول مؤكداً: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ﴾ [النحل:٩٧] انظروا إلى العقد بين الله والعبد، أما وظيفتي فيعبر عنها الشطر الأول من الآية ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى﴾ وأما الضمانة التي أخذها ربنا على ذاته العلية لنا فقوله عز وجل: ﴿لَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾، لماذا يفصل هؤلاء الناس بين الدين الذي كُلِّفُوا به، والدنيا التي ضمنها الله عز وجل لهم، يضع الواحد منا نصب عينيه أنه سيمضي شبابه وريعان عمره ومرحلة النشاط حياته من أجل رغد عيشه، من أجل دنياه، من أجل تجارته ومزرعته وما إلى ذلك، حتى إذا ولَّى الشباب، وجاءت الكهولة، وتراجع النشاط، أخذ يمضي ثمالة عمره مقوس الظهر معتمداً على عكاز، عندئذٍ يتذكر أوامر الله، عندئذٍ يتذكر الوظيفة التي خُلِقَ من أجلها، ألا يُخْجِلُ هذا الأمر الذي نرى أنفسنا وكثيراً من الناس عليه؟ أليس أمراً مخجلاً؟ وربنا سبحانه وتعالى يرى ويراقب.

ماذا نقول لهؤلاء الناس -يا عباد الله- بعد أن نُذَكِّرَهُمْ ببيان الله، وبعد أن نُذَكِّرَهُمْ بالضمانات التي أكدها الله سبحانه وتعالى لهم، نقول أولاً: من الذي أنبأكم بالمقدار الذي كُتِبَ لكم أن تعيشوه من الحياة التي تتقلبون فيها؟! أيُّ خبر صادق جاءكم من عند الله يقول: إن الواحد منكم سيعيش إلى أن

يقطف ثمالة عمره، سيتجاوز الشباب إلى الكهولة فالشيخوخة وعندئذٍ يلتفت إلى أوامر الله؟! كم من شاب تخطّفه الموت وهو في ريعان الشباب، كم من إنسان وضع نصب عينيه المشاريع المختلفة، ثم إن الموت عاجله وسارعه وكان كامناً خلف أذنه، أنت لا تدري وأنت تقف في الطابور الطويل أمام بوابة الموت لا تدري أأنت تقف في مقَدَّمَةِ الطابور أم مؤخرته أم بين المقدَّمَةِ والمؤخرة، أنت لا تعلم، كيف تضمن لنفسك أن تعيش حياة تجارتك كلها، وتعيش أيام تقلبك من أجل دنياك ورفاهية عيشك، حتى إذا وصلتَ إلى خاتمة عمرك وجَّهْتَ هذه الخاتمة إلى الله، من الذي أدراك بهذا؟ إنها رقية شيطان يوسوس لك.

شيءٌ آخر نقوله، وإنه لأمر دقيق يجب أن نعلمه جميعاً يا عباد الله، ربنا سبحانه وتعالى جعل من تعاليم الدين ووظائفه التي كُلِّفْنَا بها ضابطاً ومنظماً لأنشطتنا الدنيوية، شاء الله عز وجل أن يجعل من أحكام الدين وشرائعه المختلفة المتنوعة، وفي مقدمتها العبادات التي تعلمون شاء الله عز وجل بل أمر أن تُمْزَجَ بالأنشطة الدنيوية المختلفة؛ لتكون وظائف الدين وشرائع الله منظمةً لأنشطتنا الدنيوية، ضابطةً لتوجهاتنا إلى دنيانا المختلفة، ويأتي ناس من الناس، بل هم اليوم أكثر الناس، فيفرقون بين الدنيا والدين الذي خلقنا الله عز وجل لأجله، ويقررون في منهجية عجيبة أن يعيشوا أيامهم الطويلة وأنشطتهم المقبلة، يعيشوا للدنيا، حتى إذا حانت النهاية، وقَرُبَ الأجل طُوِيَتْ عندئذٍ الدنيا وتم الإقبال إلى الدين، من الذي قال: إن الأمر هكذا يكون؟ أيها الإخوة ألا فتعلّموا أن الدين بالنسبة للدنيا كالملح والسمن بالنسبة للطعام، فلتعلموا هذه الحقيقة، هل هنالك عاقل يُنْضِجُ طعامه، ثم إنه يضع وعاءً فيه الملح وفيه السمن مستقلاً إلى جانب والطعام الذي أنضجه موضوع إلى جانب؟!

ستقدم الضيوف فيضع أمامهم الطعام الخالي من الدهن والملح يقول لهم: كلوا، ولسوف يأتي ميقات تناول الملح والسمن من بعد، إنه لحمق عجيب، أرأيتم إلى الدين بالنسبة للدنيا، الدين من الدنيا كالملح والسمن بالنسبة للطعام الذي تنضجه، إذا أقبلت إلى دنياك تنشط في سبيلها، أقبلت إلى تجارتك، مشاريعك الاستثمارية المتنوعة، وظائفك المختلفة المتنوعة وقد أبعدت سلطان الدين عن ذلك كله واضعاً نصب عينيك أنك ستقبل إلى الدين بعد ذلك، فأنت مثل هذا الأحمق إذاً الذي يضع الطعام أمام

الضيفان منفصلاً عن سمنه وعن ملحه، حتى إذا أكلوا الطعام قال لهم: تفضلوا، والآن أقبلوا إلى السمن والملح، حقيقة بدهية تغيب اليوم عن أفكارنا وأمورنا وأنشطتنا العجيبة أيها الإخوة.

هل سمعتم أن رئيس دولة أرسل موظفاً من كبار موظفيه إلى بلدة في دولة نائية ليؤدي مهمة شرفه بها، وصل هذا الموظف إلى تلك البلدة، لا شك أن السفير هناك سيستقبله، ولا شك أن رئيس الدولة قد حقق له سائر الضمانات لكي يعيش عيشاً هنيئاً، ولكي يتقلب في رغد من العيش، وهيأ له علاوة من المال أيضاً في سبيل أن يجد الطريق معبّداً للقيام بالمهمة التي كُلِّفَ بها، أرأيتم لو أن هذا الإنسان ذاق طعم المتعة التي وُضِعَتْ أمامه، ذاق طعم المقومات التي هيأها من أرسله إلى ذلك المكان، منزل فاره، كل مقومات العيش الرغيد، كل ما يحتاج إليه وأكثر مع العلاوات المالية والمادية، نظر إلى ذلك كله فَسَهَا به عن المهمة التي أُرْسِلَ من أجلها، سها بهذا الإكرام عن الواجب الذي أنيط بعنقه، سَكِرَ بذلك، وأخذ يتقلب فيما قد هُيِّئ له من رغد العيش وأسباب النعيم والمتعة، وعاد خالي الوفاض لم يُؤَدِّ شيئاً مما قد كُلِّفَ به، والله الذي لا إله إلى هو هذا هو شأن الإنسان الذي أرسله الله إلى الحياة الدنيا مكلفاً بوظيفة، مكلفاً بمهمة وقد ضمن الله عز وجل له رغد عيشه، ومع هذا فهو لم يمنعه من أن يقبل إلى دينه ودنياه، لكن كما يفعل العاقل إذ يمزج السمن بالطعام الذي ينضجه، ويمزج الملح بالطعام الذي يهيئه.

أسأل الله عز وجل أن يوقظنا من هذا السبات قبل فوات الأوان، غداً إذا طرق الموت باب أحدنا، ووجد نفسه أمام ضجعة الموت لا عودة ولا رجوع، وكُشِفَ له ما كان خفياً، وجاء البيان الإلهي يقول له ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [قّ: ٢٢]، عندئذٍ سيأكل الندم قلبه، ولسوف تهتاج نيران الألم بين جوانحه، ولكن ما الفائدة؟ ذهبت الفرصة.

عباد الله فرصتنا سانحة، والوقت لم يفت بعد، نحن عبيد لله عز وجل، خُلِقْنَا لمهمة، خُلِقْنَا لأداء رسالة، ليس التكريم الذي كَرَّمَ الله عز وجل به عباده إلا ترجماناً لهذه الرسالة التي حُمِّلَهَا ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ [الاسراء: ٧٠] فما مآل ذاك الذي أعرض عن الرسالة التي حُمِّلَهَا وركل هذا التكريم بقدمه؟ ذاك هو الذي ينطبق عليه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ [التين: ٥] للهم لا تجعلنا منهم، اللهم اجعلنا ممن تفاعلوا

مع الوظيفة التي كلّفتَهم بها، أخضعنا يا مولانا للرسالة التي حَمَّلْتَنَا إياه، يا هادي المضلين اهدنا إلى سواء صراطك المستقيم، أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم.



٢٤٦- سبب التخلف والتقدم | ٢٠٠٩/١٢/١١

إن في الناس من يسأل مستشكلاً: إذا كان سبب تخلف المسلمين والابتلاءات والمصائب التي تنحط فيما بينهم إعراضَهُم عن الإسلام، وإعراضَهُم عن الالتزام بشرائعه وأحكامه، فما بال دول الغرب وهي مغرقة في الكفران والإعراض عن الدين كله، ما بال دول الغرب متقدمة لا تعاني من تخلف، ولا تعاني من الابتلاءات والمصائب التي تنحط فيما بيننا؟ هذا السؤال هو ما قد وعدت أن أجيب عنه في هذا اليوم المبارك، وأسأل الله سبحانه وتعالى لنا التوفيق.

عباد الله إن الكتاب الذي أنزله الله على رسوله خطاباً لنا يتضمن سنناً وقوانين ألزم الله عز وجل بها ذاته العلية تجاه عباده، من تأمل في هذه السُّنَن لم يستشكل من مثل هذه الأسئلة شيئاً، ولكن معظم الناس عن سنن الله في كتابه غافلون ومعرضون. هنالك سُنَّتان، أو نقول: قانونان ألزم الله عز وجل بكل منهما ذاته العلية: أحدهما تجاه عباده المؤمنين، والآخر قانون ألزم الله عز وجل به ذاته العلية تجاه عباده المعرضين.

أما القانون الأول فهو قوله عز وجل: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً﴾ [النور: ٥٥] وأما القانون الثاني الذي ألزم الله عز وجل به ذاته العلية تجاه عباده الشاردين عن أوامره وشرائعه فهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ، أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود:١٥-١٦]

هل تأملتم يا عباد الله في كلٍّ من هذين القانونين؟ تعالوا نتأمل في الأول منهما، يقول مولانا وخالقنا عز وجل: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي ليجعلن زمام الحضارة الإنسانية في أيديهم ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً﴾ أي ليبعدنَّ عنهم أخطار الأعداء والطغاة، ومن ثم فلسوف يعيشون

أمناء مطمئنين يتقلبون في نعمهم وأوطانهم، لكن لمن هذا الوعد؟ لمن آمن بالله حقَّ الإيمان ولمن فسَّر إيمان الصادق هذا بالانضباط بأوامر الله والابتعاد عن نواهيه وهذا معنى قوله: ﴿وَعَمِلَ صَالِحاً﴾، ينفِّذُ شرائعه، وهو واثق بأنها هي التي تسعد، وهي التي تحقق للإنسان رغد العيش في دنياه وآخرته، كل من التزم بهذا لا بد أن يمتّعه الله عز وجل بالتقدم بدلاً من التخلف، ولا بد لهذه الأمة أن يجعل الله عز وجل زمام الحضارة في أيديها، وأن يكرمها بطمأنينة العيش والأمن بعيداً عن المخاوف وبعيداً عن طغيان الطغاة، فهل التزمنا بهذا الذي ألزَمَنَا الله عز وجل به.

أجبتُ عن هذا في الأسبوع الماضي، نعم مساجدنا تفيض بالمصلين، لكن تعالوا نضع إلى جانب هذا الكمِّ الهائل الآخر من أولئك الذين جعلوا نسبتهم إلى الإسلام نسبة صورية شكلية فلكلورية، تعالوا ننظر إلى الكم الهائل الذين أعرضوا عن شعائر الله ووجباته وفي مقدمتها الصلاة ﴿إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً﴾ [النساء: ١٠٣]، تعالوا إلى أولئك الذين يرفعون فوق رؤوسهم لواء الحداثة، وينظرون إلى التاريخ الأغر الإسلامي الماضي على أنه عَودٌ إلى الظلامية وعَودٌ إلى القيود التي تتعارض مع الحضارة الإنسانية المثلى، أليس كذلك؟! هذا هو السبب في أن الله عز وجل لم ينفذ في حقنا ما ألزم به ذاته العلية، أين العمل الصالح؟! والعمل الصالح كلمة تستوعب كلَّ ما في كتاب الله من شرائع وأوامر وتحذير من النواهي.

أما القانون الثاني الذي يعبر عنه بيان الله بقوله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ﴾ انظروا إلى قوله: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾ أي كل من بذل جهداً في سبيل الوصول إلى غاية، كل من بذل عرقاً، كل من أضنى نفسه في سبيل هدف لا بد أن يكرمه الله عز وجل بتحقيق الغاية التي سعى إليها مؤمناً كان أو كافراً، كل أمة أضنت نفسها، وأتعبت أيامها ولياليها في سبيل الوصول إلى حضارة، في سبيل الوصول إلى مظهر من مظاهر العيش الرغيد أو نعمة من النعم أياً كانت، وأتعبت نفسها في ذلك، فإن الله قد ألزم ذاته العلية أن يوصلها في الدنيا إلى الغاية التي كانت تَتَطَلَّبُها هذه الأمة، فإن كانت مؤمنة فذلك نعيم عاجل ووعد بنعيم آجلٍ أيضاً، وإن كانت غير مؤمنة فإن الله يكرمها بما سعت إليه في الدنيا ثم يقول: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٦].

إذاً عُرِفَ الجواب يا عباد الله. هذه الأمم التي تعيش في الغرب، وننظر فنرى حضارتها تتألق بالشكل على أقل تقدير، حضارتها نتيجة جهود بذَلَتْهَا وبذلها من قبل الآباء والأجداد، الحضارة الرومانية إنما هي نسيج جهود، نسيج علوم، نسيج جهاد بذلته تلك الأمم، وورث اليوم أحفاد تلك الأمم جهود آبائهم، بل جهود أنفسهم أيضاً، فما الاعتراض على أناس ألزم الله عز وجل ذاته العلية أن يحقق لهم في الدنيا ما قد سعوا من أجله؟ ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ﴾.

أما نحن فتعالوا نتساءل: الحضارة الإنسانية البازخة التي تمتع بها تاريخنا الأغر نتيجة ماذا كانت؟ أفكانت نتيجة جهودٍ بذلها العرب في جزيرتهم العربية كالجهود التي بذلها الرومان واليونان؟ أفكانت الحضارة التي أشرقت للتوّ فجأة في الجزيرة العربية، ثم انتشر إشراقها إلى العالم كله نتيجة جهودٍ قام بها ودراساتٍ علمية عكف عليها أولئك الأعراب الجاهلون؟

لا يا عباد الله، كلكم يعلم أن الجزيرة العربية كانت مضرب المثل في الجهالة والتخلف، ولكن لما أشرقت بعثة المصطفى صلى الله عليه وسلم مجدِّدَةً رسالة الإسلام التي ارتضاها الله عز وجل لعباده سرعان ما أقبلوا إلى هذه الرسالة فآمنوا بها أولاً، وأخلصوا لله في تنفيذها ثانياً، والالتزام بها والجهاد دونها ثالثاً، عندئذٍ قفز بهم قضاء الله عز وجل وإحسانه إلى قمة التقدم فجأة وطفرة دون أن يتخذوا إلى ذلك مسلك التعلم ومسلك العلوم ومسلك الجامعات التي أقيمت ومسلك الجهاد والضنى في سبيل الحضارة كما فعلت الإمبراطورية الرومانية واليونانية، طفرة قفز بهم إحسان الله عز وجل إلى قمة الحضارة خلال عشرين عاماً، بأي سر؟ بسر انضباطهم بأوامر الله، بسر تمسكهم بصدق برسالة الله، فحق عليهم أن ينفذ الله فيهم قوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٥].

واليوم إلى ما آل حال أولئك الناس بل أحفاد أولئك الذين أخلصوا لله؟ إنكم لتسمعون، وإنكم لترون أن كثرة كبرى من الناس تتبرّم بهذه الرسالة التي شرفت تاريخنا وشرفت سلفنا وأجدادنا، إنكم لتعلمون أن في الناس كثرة يصفونها بالظلامية، ويصفون الحنين إلى ذلك التاريخ بالرجوع إلى عهود الظلام، وإنكم لتعلمون أن في أحفاد ذلك الرعيل من يسيل لعابه على أنظمة الغرب، من يريد أن يبتعد عن نظام الأسرة الإسلامية التي شرفها الله بالحضارة الإنسانية المثلى، ويريد أن يقتفي وراء آثار الغرب في أمر الأسرة التي

تحولت اليوم إلى أطلال، إنكم لتعلمون ذلك، فما الغرابة في أن يعود الأمر بنا نحن المسلمين شيئاً فشيئاً إلى ما كنا عليه قبل بعثة المصطفى صلى الله عليه وسلم.

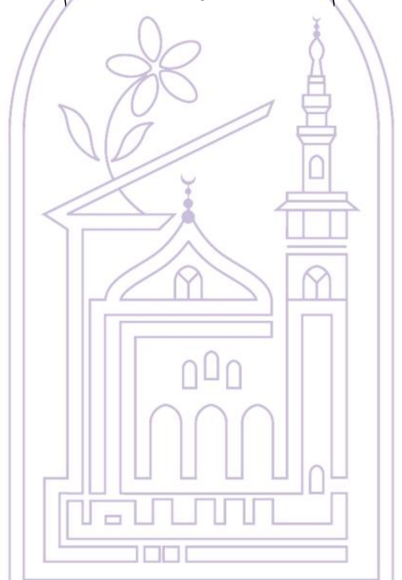
لسان حال سنن الله يقول: لقد رأيتم ألق الحضارة وتمتعتم به عندما كنتم صادقين ومخلصين لرسالة الله التي هبطت إليكم من السماء، ورأيتم كيف أن الله قفز بكم قفزاً وبطفرة وخلال عشرين عاماً إلى قمة الحضارة الإنسانية وأنواع التقدم، واليوم ما دمتم قد اجتويتم هذا السلم الذي رقى بكم، وما دمتم قد تبرمتم به تنظرون إليه نظرة اشمئزاز ونظرة من أكل من طعام ثم أكل حتى ملَّ وقَرَفَ منه، إذاً فتعالوا ﴿وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٣]، إن كانت لكم جهودٌ بذلتموها في سبيل حضارة فلكم أن تحصنوا حضارتكم بجهودكم التالدة، وأما إن كانت حضارتكم وكان تقدمكم كل ذلك جاء طفرة بسبب صدقكم مع الله، وبسبب التزامكم لأوامر الله، واليوم أردتم أن تخلعوا رداء هذا العز الذي متعكم الله به، إذاً عليكم أن ترجعوا إلى ما قد كنتم عليه، ما الغرابة في هذا؟

فإن جاء من يقول: ولكن لماذا لا يرجع أولئك الناس في غرب العالم أيضاً إلى التخلف وهم أيضاً معرضون بل أكثر منا، معرضون عن رسالات الله، الجواب: عودوا إلى القانون الثاني الذي ألزم الله عز وجل به ذاته العلية، أولئك ناس بذلوا العَرَق في سبيل ما وصلوا إليه، أولئك أناس وَرِثوا هذه الحضارة عن أبٍ عن جدٍّ عن تاريخٍ أغرَّ قديم، فمن حقهم أن ينالوا ثمرات جهودهم، من حقهم أن ينالوا الغايات التي حفيت أقدامهم سعياً إليها، وأنا لا أظلم ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ﴾ [هود: ١٥] عالوا أضرب لكم هذا المثل -يا عباد الله- لعله يجسد ما أقول، رجل شهم كريم غني مرَّ بأسرة تعيش في العراء، تعاني من الفقر، تعاني من العدم والضنى، أخذته الشفقة على هذه الأسرة، فحلمها وأسكنها في دارٍ رائعة منيفة فيها كل أنواع النعيم، فيها كل ما لذَّ وطاب، وأجرى على هذه الأسرة أيضاً جرايةً من المال لا تنقطع، مرت مدة من الزمن والأسرة لا تنكر فضل هذا الإنسان، ولكن لما تكاثرت النعمة أمامها، ولما تقلبت بمزيد من الرفاهية فالرفاهية، وطاف سكر النعيم برؤوس أفراد هذه الأسرة، نسي أفرادها هذا الذي تفضَّلَ عليهم، وأخذوا يظهرون له الإعراض عنه، والتعالي عليه، ونسيان فضله، شيءٌ منطقي وطبيعي أن يطرق عليهم الباب فيقول: يبدو أنكم استغنيتم الآن عني، ولم تعودوا بحاجة إلي، فاخرجوا وانطلقوا وعيشوا في ممتلكاتكم التي تعبتم في سبيل الحصول

عليها. فإن قال قائلهم: ولكن ألا ترى إلى البيوتات الأخرى لماذا لا تخرج أصحابها منها أيضاً؟! سيقول لهم: لا أولئك تعبوا وملكوا هذه الأرض وابتنوا عليها هذه البيوت، فنالوا حظوتهم بعرق جبينهم لا ينبغي أن أخرجهم، أما أنتم فلا تملكون شيئاً، لعلكم تملكون خارج هذه الدار أشياء فاخرجوا إلى ممتلكاتكم.

أقسم بالعلي الأعلى –يا عباد الله– إن هذا المثل صورة مصغرة عن حال المسلمين في هذا العصر، وأسأل الله عز وجل أن يوقظ المسلمين إلى الشرف الذي متعهم به، وأن يعيدهم إلى ألق الحضارة الإنسانية المثلى التي متعهم الله عز وجل بها عندما كانوا صادقين مع الله، عندما كانوا أمناء مع شرع الله، عندما كانوا يرفعون الرأس عالياً بِذُلِّ عبوديتهم لله عز وجل.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم، فاستغفروه يغفر لكم.



٢٤٧- الأخلاق الإنسانية الفاضلة | ٢٠١٠/٠٥/٢١

لقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: ﴿إنما بُعِثْتُ لأتمم مكارم الأخلاق﴾. وفي رواية صحيحة أيضاً أنه قال: ﴿إنما بُعِثْتُ لأتمم صالح الأخلاق ﴾ومعنى هذا الكلام النبوي أن الله عز وجل قد جعل من بنيان العقيدة التي ينبغي أن يصطبغ بها كل عبد من عباد الله عز وجل، ومن بنيان الشريعة الإسلامية التي ينبغي أن يتعرف عليها ويلتزمها كل مؤمن بالله عز وجل، معنى كلام المصطفى هذا أن الله عز وجل وضع ذلك كله سلماً يرقى به الإنسان إلى الأخلاق الإنسانية الفاضلة، وهذا المعنى هو ذاته المراد بكلمة الأعمال الصالحة أو العمل الصالح المكرر في كتاب الله عز وجل، والمنوط دائماً بصفة الإيمان بالله سبحانه وتعالى، وذلك في مثل قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً﴾ [الكهف: ١٠٧]. والآيات التي تربط العمل الصالح بالإيمان كثيرة جداً كما تعلمون.

وإنما المقصود بالأعمال الصالحة الأخلاق الإنسانية الفاضلة التي تسري بالتعامل بين الناس بعضهم مع بعض، بل ينبغي أن نعلم جميعاً أن أحكام الشريعة الإسلامية التي تتمثل في أنواع المعاملات المالية المختلفة وغيرها إنما المراد بذلك كله أن تُسْتَخْدَمَ هذه الأعمال وهذه المعاملات للأخلاق الإنسانية. فما حرَّم الله عز وجل معاملة من المعاملات إلا لأنها تتعارض مع أخلاق التعامل الإنساني، وما أوجب نوعاً من المعاملات إلا لأنه هو المتفق مع الأخلاق الإنسانية الفاضلة، فهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم: ﴿إنما بُعِثْتُ لأتمم مكارم الأخلاق﴾ ولكن فلنعلم – يا عباد الله – أن مكارم الأخلاق وأن الأخلاق الإنسانية الفاضلة لا تُسْتَنْبَتُ في فراغ، ولا يمكن أن يصطبغ بها المجتمع الإنساني بدون أن تُسْتَنْبَتَ في تربة صالحة ترعى هذه الأخلاق الفاضلة

وانظروا – يا عباد الله – إلى البيان الإلهي كيف يُجَلِّي هذه الحقيقة، إن الله سبحانه وتعالى يضعنا من هذا الإسلام الذي شرفنا به أمام ما يشبه شجرة باسقة، أما جذعها فإنما هو المعتقدات الإيمانية التي تترسخ بالذهن وتهيمن عاطفة من الحب والتعظيم والمهابة على القلب، وأما أغصانها فالأحكام السلوكية

المتنوعة بدءاً من العبادات فما يليها من أحكام المعاملات المتنوعة الكثيرة، وأما ثمارها فالأخلاق الإنسانية الفاضلة

هكذا يبصرنا كتاب الله عز وجل، وتأملوا في هذا الذي يقوله ربنا سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاء. تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٥]. ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا﴾ ما هو أُكُلُ هذه الشجرة؟ ما هو أُكُلُ العقيدة التي تمثل جذع هذه الشجرة؟ ما هو أُكُلُ الأغصان الكثيرة المتفرعة التي تمثل الأحكام السلوكية في الإسلام؟ إن الأُكُلَ إنما هو الأخلاق التي بُعِثَ رسول صلى الله عليه وسلم لرعايتها ولإتمامها، ألا فلنتبصر بهذه الحقيقة يا عباد الله

أُذَكِّرُ نفسي وأُذَكِّركم بهذا الذي يقوله لنا ربنا سبحانه، حتى نعود فنتأكد أن الأخلاق الإنسانية الفاضلة لا يمكن أن تتحقق في فراغ بدون وازع، الأخلاق الإنسانية الفاضلة لا يمكن أن تُسْتَنْبَتَ في الهواء، إن الذي يريد أن يربي المجتمع على الأخلاق الإنسانية المثلى قفزاً دون أن يستنبتها في جذع العقيدة الإيمانية تعليماً وتربية وتنبيهاً، دون أن يستنبتها في الأحكام السلوكية الكثيرة تربية وتنبيهاً وتعليماً، إن هذا الذي يحلم بهذا هو أشبه بمن يَرْقُمُ في الهواء، أو بمن يكتب على الماء، لا يتأتى ذلك.

وقديماً فكَّر الفلاسفة اليونانيون وغيرهم بمسألة الأخلاق وضرورة التعامل بها عند بناء المجتمعات الإنسانية، فكَّروا في أن تُقَامَ حقيقة الأخلاق الإنسانية الفاضلة، وأن يُشاد بنيانها هكذا رأسها دون اعتماد على وازع، فما انتهت محاولاتهم إلا إلى خيبة كبيرة، كل الذين حاولوا أعلنوا عن خيبتهم بدءاً من أبيقور وزينون وأمثالهم من الذين كانوا قبل الميلاد بما يقارب ستة أعوام إلى الفلاسفة الذين يعيشون في هذا العصر.

لا يمكن للأخلاق الإنسانية المثلى أن تُسْتَنْبَتَ في فراغ، لا يمكن للأخلاق الإنسانية المثلى أن ينضبط بها الإنسان بدون وازع، ولقد نبَّهَنَا إلى ذلك بيان الله، في سورة الإسراء عشر من المبادئ الأخلاقية يذكرنا الله بها، ويأمرنا بها واحدة إثر أخرى، ولكنه يبدؤها بالركيزة الإيمانية، ويختمها بالركيزة الإيمانية، يقول: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ ثم قال: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا

فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً﴾ [الإسراء: ٢٣]. إلى آخر الآيات التي تذكرنا بعشرة من المبادئ يأمرنا الله بها، ولو أنه أمرنا بالتمسك بهذه المبادئ الأخلاقية دون أن يأمرنا أن نستنبتها في تربة العقيدة إيماناً بالله، تعظيماً لأوامر الله، مخافة من سلطان الله، ولو أنه لم يبصِّرْنا بالأحكام السلوكية لما أصغى أحد السمع إلى الدعوة إلى الأخلاق.

الأخلاق الإنسانية قيد، من ذا الذي يرضى بالقيد إن لم يكن هنالك وازع يدعوني إلى هذا القيد عن طريق حب أو عن طريق مخافة وتعظيم؟

من هنا – يا عباد الله – كان السبيل لكل من يغار على الأخلاق الإنسانية، ويريد حقاً أن يصطبغ الجيل بالأخلاق الإنسانية المثلى، كان لا بد أن يسعى سعيه إليها عن طريق التربية الإيمانية يأخذ هذا النشء به، التربية الإيمانية يؤخذ هذا النشء به محاورة مع العقل، وغرساً للحقائق الإيمانية ذات الدلالات العلمية والمنطقية في العقل، ثم تُحَوَّلُ هذه الحقائق العلمية التي ترسخت في العقل إلى عاطفة من الحب والتعظيم والمهابة في القلب، ثم يُؤْخَذُ هذا النشء بمعرفة غذاء العقيدة، غذاء شتل العقيدة الذي رُسِّخَ في العقل، شتلٌ رُسِّخَ في العقل ألا يحتاج إلى سقيا؟ ألا يحتاج إلى رعاية؟ ما هي الرعاية التي يتحول بها شتل الإيمان بالله إلى جذعٍ راسخ؟ إنه العبادات، العبادات المتنوعة.

إذن لا بد أن يُؤْخَذَ النشء بهذه العبادات، وأن يربَّى عليها، ثم لا بد أن يستبين كيف أن الله عز وجل أناط أحكام المعاملات المختلفة بالمبادئ الأخلاقية، فما حرَّم الغرر في المعاملات إلا لأنه يصادم الأخلاق الإنسانية، وما حرَّم الغش في المعاملات إلا لأنه يصادم الأخلاق الإنسانية، وما أمر بالعدل في الكيل والميزان والمحاكمة في أثناء التعاقدات المالية المختلفة إلا لأن ذلك هو روح العدل، روح الأخلاق الإنسانية الفاضلة.

فتصوروا حال إنسان يلقي هذه الحقائق وراءه ظهرياً، يلقي السبيل الذي لا بد منه إلى اصطباغ النشء بالأخلاق الإنسانية، يلقي السبيل إلى ذلك وراءه ظهرياً، ثم إنه يتظاهر بأنه يدعو إلى الأخلاق الإنسانية، ويحرص على أن يربَّى النشء على الأخلاق الإنسانية الفاضلة. أنى لك يا أخي أن تفعل ذلك

والفلاسفة من قبلك حفيت أقدامهم في هذا الطريق، ثم أعلنوا العجز عن ذلك؟! أخلاق إنسانية تزرع في كيان النشء دون وازع، دون دافع! هيهات. لا يمكن أن يتحقق ذلك قط.

الإيثار من أجلِّ الأخلاق الإنسانية، وهل يمكن لإنسان أن يؤثر أخاه على نفسه إلا إذا كان هنالك وازع؟! وما هو هذا الوازع؟ الوازع هو إيماني بالله، الوازع هو أمر الله الصادر إليَّ، الوازع هو حبي لله سبحانه وتعالى ومن ثم حبي للالتزام بأوامره، لكن عندما أشيح النظر عن الطريق الطويل الذي ينبغي أن أربي النشء على أساسه، الطريق الذي ينبغي أن أربي النشء على أساسٍ من مبادئ العقيدة الإيمانية، من السبيل إلى غرس محبة الله في القلب، من بيان العبادات ودورها في تغذية العقيدة، من بيان الأحكام السلوكية وكيف أنها تخدم الأخلاق الإنسانية. عندما لا أُرَبَّى على هذا النحو، عندما لا أُؤْخَذُ بهذه التربية هيهات أن أُوثِرَ غيري على مصالحي، لا بد أن أوثر نفسي، هكذا تقول لي مصلحتي الذاتية، هكذا يقول لي عقلي في مثل هذه الأحوال.

ونحن نعلم يا عباد الله أن ربنا سبحانه وتعالى حكيم، وأنه سبحانه لو علم أن الناس يمكن أن يضبطوا أنفسهم بأحكام التعاملات الإنسانية الأخلاقية دون وازع لوَجَّهَهم رأساً إلى هذه المبادئ الأخلاقية، ولما أمرهم أن يؤمنوا به، ولما حذَّرهم من عذابه، ولما دعاهم إلى العبادات التي تغذي حقائق العقيدة الإيمانية.

أقول لمن يريد أن يَفْصِلَ بين أخلاق الإسلام وبين العقائد الإسلامية ومبادئ السلوك الإسلامية المتمثلة في التربية الإيمانية، أقول لمن يريد أن يفرِّقَ بين هذا وذاك: لك في الغابرين عبرة وأي عبرة. عد إلى الفلاسفة الذين حاولوا ذلك، وانظر أن جهودهم كيف باءت بخزي، أجل، إن لم ترد أن تعود وتغوص إلى الماضي السحيق، فإن أمامك الفلاسفة الأوروبيين الذين يؤكدون هذه الحقيقة، عد إلى ما يقوله ستوارت ميل، عد إليه واسأله: هل يمكن أن تغرس الأخلاق الإنسانية الفاضلة المثلى في غير تربة الإيمان بالله عز وجل؟ هل يمكن أن يؤخذ الجيل بالتربية الأخلاقية رأساً قبل أن يصطبغ هذا الجيل بالتربية الإيمانية والدينية متمثلة في العقيدة ثم العبادة ثم الأحكام السلوكية المختلفة.

أمر بدهي – أيها الإخوة – مضى التاريخ بعد أن وقَّع عليه، ومضى على ذلك قرون عدة، وكل يوم يأتي يزيد فيه هذا البيان تأكيداً، وتزيد فيه هذه الحقيقة بداهة.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل أعمالنا صادقة خالصة لوجه الله، وألا يجعلنا ممن يغار على الأخلاق في الظاهر، ولكنه يريد أن يركلها في قدمه في الباطن. أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم.



٢٤٨- إن الله تَكَفَّلَ لي بالشام وأهلِها | ٢٠١٠/٠٥/٢٨

تعالوا أذكركم مرة أخرى ببعضٍ مما أخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الخصائص التي مَيَّزَ الله عز وجل بها شامَنا هذه، ولو لم يكن فيما أخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك إلا هذا الذي سأرويه لكم لكان كافياً.

روى أبو داود وابن حبان والحاكم في مستدركه بسندٍ صحيح من حديث عبد الله بن حوالة قال: ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم فتناً ستقع فقلت يا رسول الله اختر لي – أي اختر لي مكاناً أو بلداً ألجأ إليه عندما تحيق هذه الفتن – فقال له: عليك بالشام فإنها خيرة الله من أرضه يجتبي إليها خيرته من عباده. ثم قال: ﴿إن الله تَكَفَّلَ لي بالشام وأهلِها﴾.

عباد الله: أحداث كثيرة مرَّتْ وانقضت في شامنا هذه، كلها كانت ولا تزال شواهد على صدق هذا الذي قاله المصطفى صلى الله عليه وسلم، وكلامه حق لا يحتاج إلى شاهد.

مرَّت على شامنا هذه تيارات فكرية جانحة مختلفة، ذهبت كما جاءت وعادت هويتنا الإسلامية في شامنا هذه تتلألأ وضاءة في أرض هذه الشام وسمائه، مرَّ في هذه البلدة تيار القومية الجانحة المتطرفة التي حاولت أن تجعل من القومية ديناً يحل محل دين ولكنها لم تصلح فاسداً ولم تُقَوِّمْ اعوجاجاً وانحسر هذا التيار وعادت الهوية التي أنبأ عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم في شامنا هذه وضَّاءةً متلألئة، ومرَّ اليسار الفكري والسياسي المتطرف فجاءت يد التصحيح من لدن قائد هذه الأمة في هذه البلدة آنذاك فطَهُرَتْ البلدة من ذلك التيار الجانح وعادت الهوية الإسلامية مرة أخرى وضاءةً تتلألأ.

عباد الله: أليس من الوفاء مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي شهد لشامكم بهذه الشهادة أن نستعلن بهذه الهوية دائماً، أليس من الوفاء مع شامنا هذه بل مع شهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم لها أن نستعلن بهويتنا الإسلامية في كل مناسبة وعلى سائر الأصعدة عند كل المنتديات والمؤتمرات، في كل الدوائر والمعسكرات. أليس هذا وفاءً يتطلبه الخلق وتتطلبه نسبة شامنا إلى رسول الله بل نسبة أهل الشام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؟

عباد الله: لقد راح وانقضى أوان الاستحياء بالهوية الإسلامية والإعلان عنها. مضى ذلك المنعطف الذي كان فينا من يغص بإعلان هذه الهوية والاعتزاز والتباهي بها. لقد تجلى لكل ذي بصيرة أن كل الخطابات التي واجَهْنَا بها أعداءنا الذين يتربصون بنا خابت ولم تنجح إلا خطاباً واحداً إنه الخطاب الديني المنبثق من عدالة الإسلام والمنبثق من وسطية هذا الدين، هذا هو الخطاب الذي أعلن العالم كله أنه الذي أسكت المتآمرين وَكَمَّمَ أفواه المتربصين.

إن كانت هنالك أخطار الغلو فالإسلام هو الذي يقضي على الغلو، وإن كان هنالك أخطار تتمثل في التطرف فالإسلام هو الذي يلاحق التطرف حتى يقضيَ عليه، أما كلمة الإرهاب فليس لها وجود في قاموسنا الإسلامي قط. ومعناها إنما هو كامن في قلوب أولئك الذي يُصَدِّرُونها إلينا. أما نحن فها نحن نعود إلى تاريخنا الإسلامي الأغر ونستبين ما في طواياه فلا نجد لكلمة الإرهاب هذه وجوداً في قاموس إسلامنا إنما هو شيء صُنِّعَ هناك وصُدِّرَ إلينا، فإن تساءلتم عن معناه فاسألوا عن معناه أولئك الذين يُصَدِّرُونه إلينا

أليس من الوفاء – يا عباد الله وها نحن ننظر فنجد كيف أن الكون كله شهد لشامنا هذه بما شهد به رسول الله صلى الله عليه وسلم أليس من الوفاء اليوم أن نستعلن عن هويتنا الإسلامية هذه على كل صعيد.

نعم، هنالك أساليب كثيرة من الضغط تُمَارَسُ ضد عالمنا الإسلامي وتمارس ضدنا نحن أيضاً، ولربما وجدت هذه الممارسات بعض الاستجابة في بعضٍ من بلادنا العربية والإسلامية البعيدة أو القريبة منا. أما نحن، أما شامنا هذه التي أثنى عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم بما سمعتم فهيهات هيهات أن يأتي يوم ننغض فيه الرأس لهذا الضغط التي تمارسه القوى الأجنبية المتربصة بنا.

لا يا عباد الله، لن ننغض الرأس ولن نستجيب للضغط، إن الضغط الذي يقودنا إلى ما يسمى العالمية أو إلى ما يسمى العولمة. وترجمة هذه الكلمة عودة الاستعمار في أسوأ مظاهره، هذا الضغط يُراد به أن نكون تبعاً لأولئك الذين يتربصون بنا في المبادئ والقيم، أن نكون تبعاً لهم في الثقافة والمعارف، أن نكون تبعاً لهم في الاقتصاد، أن نكون تبعاً لهم في السياسة، هذا الضغط الذي يمارس علينا وعلى إخوانٍ

لنا من بعيد أو قريب إنما يبتغى به هذه التبعية المهينة الذليلة التي لم يصل الاستعمار في تاريخه الأرعن يوماً ما إلى مثل هذه المهانة.

ولكن هل سننغض الرأس للضغط؟ وهل نصطبغ بهذه العولمة؟ هل سنكون تبعاً في مبادئنا وقيمنا للعدو الذي يتربص بنا؟ هل سنصبغ ثقافاتنا بما يرضي ذلك العدو ويجعله يصفق لنا؟ هل سنجعل أنشطتنا الاقتصادية تدور في فلك أولئك الأعداء لنكون الأمة المستهلكة وتكون هي الأمة الصانعة والمصدرة.

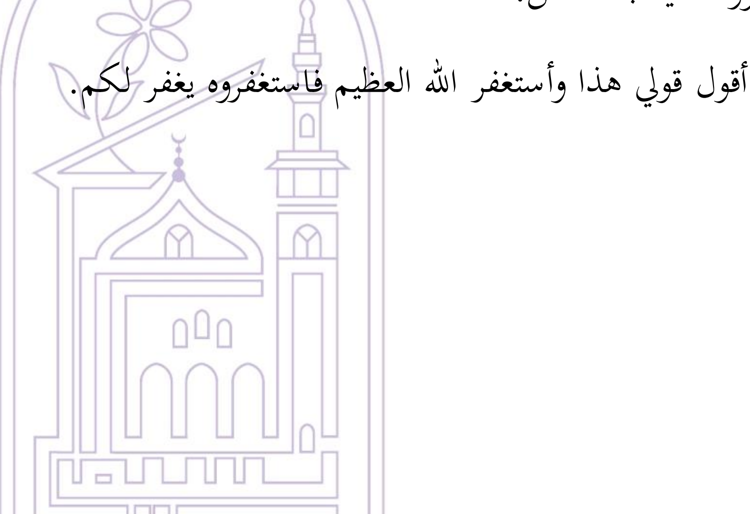
لا يا عباد الله. بشرى رسول الله صلى الله عليه وسلم تعلن أننا لن ننغض الرأس. مبادئنا وقيمنا ستكون مبرأة من كل تبعية. ثقافتنا ستكون نابعة من أرضنا هابطة من سمائنا. اقتصادنا سيتوج بتاج الإسلام دائماً، وها نحن نسير قُدُمَاً في طريق تطهير الاقتصاد من كل ما لا يرضي الله سبحانه وتعالى، نسير في خطى حكيمة وفي تبصرة دائمة دائبة، فليضغط ذلك العدو الأرعن ما طاب له الضغط، نحن مكلوؤون ببشارة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنا أعلم وأنتم تعلمون أن هذا الضغط يتمركز على مناهج التربية والتعليم في بلادنا العربية والإسلامية، كلنا يعلم ذلك، يراد من عالمنا العربي والإسلامي تغيير مناهج التربية على اختلافها بحيث تصبح خاضعة لرؤية أولئك يتربصون بنا سوءاً، بحيث تكون خاضعة لمرضاتهم سائرة طبق محبتهم وطبق ما تهواه نفوسهم.

ولكن لا، لئن خضع أناس من قريب أو بعيد عنا لهذا التغيير استسلاماً وخضوعاً وخنوعاً فنحن رُبِّيْنَا على ألا نخضع إلا لخالقنا ومولانا فقط، رُبينا على أن ننهل تربيتنا من ينبوع كتاب ربنا وسنة نبينا وتاريخنا الأغر، رُبينا على هذا الذي استأمننا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، لن نجد فيما بيننا جنوداً يمارسون تنفيذ الأوامر الصادرة إلينا من أولئك الذين يخططون صباح مساء ضد وجودنا الحضاري، ضد وجودنا العلمي والثقافي والاقتصادي، ضد وجودنا الإيماني. لن يكون بيننا لا اليوم ولا في الغد القريب أو البعيد من يَسْخَر من تربيتنا الإسلامية، من يسخر من قيمنا الدينية. لا كيف ورسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي شهد لشامنا هذه إذ قال: إنها خيرة الله من أرضه يختار إليها خيرته من عباده، إن الله تكفَّلَ لي بالشام وأهلها.

وأنتم تعلمون يا عباد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما تحدث عن الشام نبَّهنا إلى أن قلب الشام النابض إنما هو دمشق وغوطتها، هكذا أعلن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح إذ قال: فسطاط المسلمين يوم الملحمة الكبرى على أرضٍ يقال لها الغوطة إلى جانبها مدينة اسمها دمشق هي خير منازل المسلمين يومئذ.

رسول الله يقول عن دمشق: إنها خير منازل المسلمين يومئذ، وأعداء رسول الله – أعداء هذا الدين – يتربصون بنا ونتخيل أن تكون لهم الغلبة على شهادة رسول الله! حاشى. لن يتحقق ذلك أبداً. إن الله عز وجل إنما استودع في الشام من هم أهل لحماية الشام، وإن الله استودع في قلب دمشق من هم أهل لحراسة دمشق، ولقد شهدت الأيام الغابرة بهذا الحق الذي أقول ولسوف تشهد الأيام الآتية بل العصور التالية بهذا الحق.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم فاستغفروه يغفر لكم.



٢٤٩- الإنفاق | ٢٠/٠٨/٢٠١٠

لقد بحثت في كتاب الله عز وجل عن آيةٍ يقرر فيها بيان الله عز وجل أي ملكية من الإنسان للمال – أو لأي شيء يضع يديه عليه – فلم أجد في كتاب الله عز وجل ذلك، لم أجد في كتاب الله عز وجل ما يثبت أن الإنسان يملك شيئاً وإنما يقول عندما يتحدث عن المال وعلاقة الإنسان به يقول: ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧] أو يقول: ﴿وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ [النور: ٣٣].

ولكنه لا يقول: أنفقوا من المال الذي تملكون، ذلك لأن الإنسان بحد ذاته مملوك لله عز وجل فأنَّى للمملوك أن يكون مالكاً لشيء، العبد مملوك لله عز وجل والعبد وما ملكت يداه – بحسب الظاهر – ملك لسيده.

إذاً فالمال الذي تحت يد الإنسان سواء اصطنعه من العدم أو استخرجه زراعةً من الأرض أو ورثة من سابقه الذي مات من قبله أو ربي عن طريق التجارة التي نشط فيها. في كل هذه الأحوال لا يُعَدُّ الإنسان مالكاً لهذا المال الذي تحت يده.

ومع ذلك فإن الله سبحانه وتعالى أذن له بل طلب منه أن يعود بهذا المال إلى نفسه وإلى ذويه، ينفق منه على نفسه وعلى ذويه، يأكل بهذا المال ما لذَّ وطاب، يبني لنفسه بهذا المال البناء الباذخ، يشتري به المركب الفاره، يؤسس داره بالأساس الرائع، لا حرج، هكذا يقرر الله، يقول: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢] يقول: ﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سبأ:١٥].

هكذا يعامل الله عز وجل عبده بالنسبة للمال الذي وضعه أمانةً تحت يديه ولكنه يقول لك أنفق من فضول هذا المال الذي بقي عندك بعد الذي أنفقته على نفسك وأهلك، بعد الذي متعت نفسك وأهلك به بأفانين مختلفة، أنفق من فضول هذا المال الذي جعلتك أميناً عليه على من ابتليتك بهم من الفقراء والمعوزين.

وانظروا إلى الأسلوب اللطيف العجيب الذي يخاطب به الربُّ سبحانه وتعالى عبدَه الذي استخلفه على المال الذي لا يملكه، يقيم الله عز وجل نفسه منه مقام المقترض ويقيمك منه مقام المقرض ويقول: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥].

أرأيتم – يا عباد الله – إلى هذا الأسلوب الذي يعامل به الربُّ عبدَه. هو المالك لك والمالك لما أعطاك، يعطيك ويكرمك ثم يقول لك: ألا تقرضني شيئاً من هذا المال الذي عندك وأعدك أنني سأعيده إليك أضعافاً مضاعفة.

وهذا المال الذي يطلب الله عز وجل منك أن تقرضه إياه إلى أين يذهب؟ أهو يذهب إلى الله؟ ومتى كان الله عز وجل بحاجةٍ إلى رزقٍ أو مالٍ وهو الرزاق وهو المعطي وإنما الذي يقترضه الله عز وجل منك إنما يتحول إلى عباد الله عز وجل الذين ابتلاهم الله بك، أفقرهم في الظاهر وهم أغنياء، أحوجهم في الظاهر وهم غير محتاجين. هذا المال إنما يذهب إلى هؤلاء الناس ولكن الله عز وجل مع ذلك يقيم ذاته العلية منك مقام المقترض ويقيمك منه مقام المقرض.

هنا أسمع كثيراً من الاعتراضات التي تذكرنا باعتراض السفلة المشركين عندما ووجهوا بمثل هذه الآيات، يقول قائلهم: ألم يكن الله قادراً على أن يغني هؤلاء الفقراء فما له أفقرهم وأغنانا، كان الله ولا يزال قادراً على أن يعطيهم مثلما أعطاك

يقول قائلهم: وإنما جمع أحدنا المال الذي جمعه بعرق جبينه، بجهده، بقدراته وعلى هؤلاء الذين نطالَب بإعطائهم والتصدق عليهم أن يشتغلوا كما اشتغلنا وأن يعرقوا كما عرقنا، هكذا قال المشركون لرسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ٤٧].

واليوم يرددها أخلاف أولئك المشركين وورثتهم، يقولون الكلام ذاته، فما الجواب عن هذا يا عباد الله

ألا فلتعلموا أيها الإخوة أن هؤلاء الذين نراهم في الظاهر فقراء ليسوا فقراء، لهم أموال زاكية وافية ولكن الله عز وجل جعل أموالهم في عهدتك أنت، جعل أموال هؤلاء الذين نحسبهم فقراء أمانةً تحت أيدي الأغنياء، ويخطئ ويجرم الغني الذي يظن أنه هو المالك لكل هذا الذي يضع يده عليه.

الله سبحانه وتعالى أعطى عباده جميعاً القدر الكافي من الحاجة لكنه لحكمة باهرة وضع مال الفقراء واليتامى والمعوزين تحت يد الأغنياء والأثرياء المترفين ثم أمرهم أن يعيدوا الأمانة إلى أصحابها. وانظروا كيف يقرر المصطفى صلى الله عليه وسلم هذه الحقيقة في الحديث الصحيح ﴿إن الله جعل في أموال الأغنياء بالقدر الذي يسع فقراءهم ولن يُجْهَدَ الفقراء إذا جاعوا أو عروا إلا بما يصنع أغنياؤهم، ألا وإن الله محاسبهم على ذلك فمعاقبهم فمعذبهم عذاباً شديداً﴾.

أسمعتم ما يقوله رسول الله؟ مال الفقير عهدة في يدك أنت وفي يد الآخر والآخر والآخر، والمطلوب من الأغنياء أن يعيدوا حقوق الناس إلى أصحابها، ليست لك منة فيما تعطيه إن أعطيت هذا الفقير لأنك تعيد إليه ماله، ولماذا وضع الله مال هذا الفقير في يدك؟ نعم وضعه في يدك امتحاناً وابتلاءً. أفتكون أميناً على هذا المال الذي ائتمنك الله عز وجل عليه فتعيده إلى أصحابه فيثيبك الله عز وجل الثواب الأوفى ويضاعف لك دخلك أم تتناسى وتتجاهل ذلك وتنام على المال كله كما تنام الدجاجة على بيضها وعندئذٍ يعاقبك الله في الدنيا قبل أن يعاقبك في الآخرة. هذه الحقيقة ينبغي أن نعلمها لاسيما في هذا الشهر المبارك.

عباد الله: دعوني أن أسألكم هذا السؤال الذي أخاطب به مشاعركم وإنسانيتكم، رزقني الله عز وجل من المال الكثير والكثير، أنفقت منه على نفسي وتوسعت به على نفسي وعلى ذريتي وأهلي وتفننت في النعم التي أكرمت نفسي وأكرمت أسرتي بها ونظرت وإذا بفضول من المال كثير لا يزال تحت يدي، كيف أسعد نفسي بهذا المال الزائد الذي زاد عن ترفي وزاد عن النعم التي أتخيلها، حققتُ ذلك كله، كيف أسعد نفسي؟ هل أسعد نفسي بهذا الزائد من المال – بفضول مالي – بأن أسعد بتعداد أرقامه كل يوم فأنتشي إذ أعلم الأرقام التي أتملكها؟ أم هل أسعد بأن أباهيَ به الناس في المجتمعات والمجالس أعلن لهم عن دخلي وعن ثرواتي الواسعة الهائلة العظيمة.

لا والله أيها الإخوة، لن يسعدك هذا من مالك أبداً، إذاً ما الذي يسعدك — أتحدث عن فضول المال، الزائد عن دارك، عن مزرعتك، عن مركبتك، عن كل ما — لا أقول ما تحتاج إليه — بل كل ما تحلم به. إنما يسعدك هذا المال أن تذهب به فتطرق دار فقير من هؤلاء الفقراء الذين أسكنهم الفقر فيما يشبه الكهوف بل لعلها تذكر بالقبور، تنظر إلى هذه الأسرة لا تملك شبع بطنها، لا تملك قيمة الأدوية لمرضاها، لا تستطيع أن تجد غطاءً يقيها البرد في الشتاء ووسيلة تقيها الحر في الصيف. أدخل إلى هذه الأسرة وإذا البؤس مرتسم على وجه الصغار والكبار الذكور والإناث، وإذا الحزن مخيم على الدار كلها، تخرج من ذات يدك هذا المبلغ الكبير فتعطي هذا المبلغ لهذه الأسرة.

ما الذي يحدث؟ تنظر وإذا بالبؤس المخيم تحول إلى فرحة، وإذا بالحزن قد غاب وتحول إلى سرور، وإذا الوجوه قد أشرقت وإذا الفرحة قد عمَّت، وتعود فتنظر كيف أن الله سخرك أنت، سخَّر هذا المال الذي في يدك لتدخل الفرحة به إلى قلوب بائسة، لتدخل الفرحة به إلى أفئدة حزينة.

انظر إلى هذه الحالة التي مكَّنَكَ الله عز وجل منها بواسطة فضول المال الذي بيدك، كيف حولْتّ الأسى في أفراد هذه الأسرة إلى فرحة وسعادة. هاهنا تنتشي بالمال الذي تملكه، هاهنا تشعر بسعادة ما مثلها سعادة، بنشوة يشبهها الشاردون بنشوة شارب الخمر. أجل هكذا يسعد الإنسان بفضول ماله. وها هي التي أوضحتها لكم

عباد الله: بمقدار ما يكثر الغنى في مجتمعنا — وإن ليكثر — يكثر الفقر، بل أقول يكثر الفقر الذي يوصل إلى الأمراض ويوصل من شدة الأسى إلى حالة بين الموت والحياة، زوروا كهوفهم، زوروا ما لا أستطيع أن أسمي منازلهم. انظروا إلى الوجوه البائسة ما ذنبها؟ لماذا تُفْصَلُ عنهم أموالهم؟ لماذا لا يُعْطَون أموالهم التي ائتمن الله الأغنياء عليها، والله إن الغني لا يملك شيئاً من هذا المال الذي تحت يده، وإن الفقير لغني وغني ولكنه ماله عهدة في يد هؤلاء الأغنياء.

ماذا تفعل بالمال يا ابن آدم؟ أما الطعام فأنت تأكل منه ما لذَّ وطاب وأما الدار الفارهة فأنت تتقلب فيها صباح مساء وأما الأثاث الفاره فأنت تتمع منه بكل ما تحلم به وأما المركبة بل المراكب فكل

ذلك متوفر لديك، ما الذي ترجو بعد ذلك؟ ماذا تفيدك الأرقام بعد ذلك؟ ألم تسمع كلام رسول الله القائل: ﴿يقول العبد مالي مالي وليس له من ماله إلا ما أكله فأفناه ولبسه فأبلاه وأعطاه فاستبقا﴾.

أجل، أيها الإخوة أقول لكم شيئاً: إن الأمة التي لا تتراحم لا يرحمها الله هكذا أنبأنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنا أعلم أن في بلادنا أغنياء لعل النار لا تستطيع أن تأكل أموالهم وإني لأعلم أنهم معرضون كل الإعراض عن الحقوق التي أقامها الله في أعناقهم في صناديقهم لمن نسميهم الفقراء لا يعودون من هذه الحقوق إلى أصحابها بشيء. إذاً ينبغي أن نعلم أننا معرضون لسخط الله، معرضون لعقاب الله، الأمة التي لا تتراحم لا يرحمها الله، ولقد كان رسول الله شديد الكرم وكان مضرب المثل في الكرم ولكنه كان أكثر ما يكون في هذا الشهر وكان يوصف كرمه في هذا الشهر بالريح المرسلة، ورسول الله قدوتنا.

إن لم يكن هؤلاء الأغنياء لهم صلة بكتاب الله ولهم صلة بدين الله أفليست لهم صلة بالإنسانية؟ أفليست لهم صلة بالمشاعر الإنسانية التي توَّجَ الله سبحانه وتعالى قلوبنا بها. كيف يتأتى للإنسان ألا يغص باللقمة يأكلها وبالثوب الفاره يلبسه وبالمركبة الرائعة يركبها متخايلاً متباهياً بها وهو يعلم أن هنالك فقراء يموتون من شدة الفقر.

أسر معوزة فيهم الأصم، فيهم الأبكم، فيهم المطروحة في فراش المرض الخبيث، فيهم الأخرى التي تبحث عن دواء لمرض أصابها فلا تجد قيمة لهذا الدواء وكثيرٌ منهم أعزاء متعففون لا يمدون يد المسألة، ولكن الله بالمرصاد.

ألا ليت كلامي يبلغ سمع هؤلاء المترفين، ألا ليت كلامي في هذه الساعة يبلغ سمع هؤلاء المترفين لعل يقظة تدركهم قبل فوات الأوان، لعل رحمة تستيقظ بين جوانحهم قبل فوات الأوان، أسأل الله سبحانه وتعالى ألا يمسخ إنسانيتنا إلى ما يشبه الصخرة العاتية، أسأل الله سبحانه وتعالى ألا يقطع الصلة ما بيننا وبينه.

أقول قولي هذا وأستغفر الله.

٢٥٠- صرخة إنسانية في وجه حصار غزة | ٢٠٠٨/١٢/١٢

هنالك صورٌ تشمئز منها الإنسانية ولا تقوى على تخيلها فضلاً عن أن تمارسها، مجموعة من الناس يتحلقون حول مائدة رُصِفَ عليها الطعام ألواناً وأنواعاً، عليها من الطعام كل ما لذَّ وطاب، يتناولون منها وينعمون بخيراتها، وعلى مقربة من هذه الجماعة أرحام وأقارب لهم تمدهم إليهم صلة القربى والأخوة الإنسانية والإيمانية يتضورون جوعاً، ينظرون بعين من التوسل والضراعة إلى هؤلاء الذين يلتهمون ألوان الطعام المتوافر على مائدتهم وهم عن هؤلاء الذين يتضورون جوعاً معرضون، وهم عن أعين هؤلاء الجائعين المتوسلة المتضرعة معرضون وتائهون ومحجوبون.

صورة أخرى؛ أناس يتقلبون في رغد من العيش وأنواع من النعيم وطمأنينة النفس والبال، لا يطوف بهم خطر ولا يطوف بهم أي بلاء أو خوف وعلى مقربة منهم جيران بل إخوة لهم يُساطون بأسواط العذاب، يصرخون ويتوسلون ويرفعون أصواتهم يتوسلون إلى إخوانهم في الإنسانية أن ينجدوهم بما يستطيعون وأن يخففوا عنهم هذا البلاء الذي يعانون منه ولكن أصحاب النعيم تطوف بهم سكرة النعيم ومن ثم فهم عن إخوانهم وعن أقاربهم وجيرانهم معرضون، لا تصك أصوات الاستنجاد آذانهم ولا تسري أصوات البكاء إلى قلوبهم، هل يمكن للإنسانية أن تتخيل فضلاً عن أن تمارس هذا التصور الذي أضعكم أمامه يا عباد الله!

ولكن المستحيل في كثير من الأحيان يتحول إلى شيء ممكن، في المخلوقات التي تنتمي إلى صنف الإنسان من كان مظهراً لهذا الشذوذ الغريب الذي تنأى وتشمئز عنه الإنسانية تجلى هذا التصور جيداً في العيد الذي مرَّ بكم، أهالي غزة لا يزالون محاصرين ولا يزال العدو الإسرائيلي يحكم طوق الحصار عليهم من كل جانب ضد أبسط الحاجات الإنسانية التي هم بأمس الحاجة إليها، ضد أهم الضرورات المعيشية التي تذوب أمامها الخصومات وتنطوي بين يديها العداوات وجيران لهؤلاء، جيران لهم في المناخ، إخوة لهم في الإنسانية، إخوة لهم في الدين يعينون أولئك الذي يُحَاصِرُونَهم ليزيدوا الطوق عليهم إحكاماً وليزيدوا البلاء الذي يحيطوا بهم ليدنو منهم بالخناق.

هذا الذي تشمئز منه الإنسانية مرَّ بنا في هذا العيد الذي مرَّ ولا ندري كيف مرَّ، هؤلاء إخوة لنا في المناخ، إخوة لنا في الإنسانية، إخوة لنا في الدين، القيم الإنسانية والمبادئ الدينية على اختلافها كل ذلك يستصرخ ضمائر من يقولون إنهم يتمتعون بذرة من الإنسانية، يستصرخهم أن يهونوا عليهم هذا البلاء وأن يخففوا عليهم هذا الطوق وأن يبعدوا هذا الحصار عن خناقهم ولكن ها أنتم ترون كيف أن جيراناً لهم في المناخ، إخوةً لهم في الإنسانية وفي الدين أبوا ويأبون إلا أن يعينوا أعداء الله عز وجل وأعداءنا جميعاً في مزيد من إحكام هذا الحصار عليهم.

وهنا أعود يا عباد الله إلى الثنائية التي حدثتكم عنها في الأسبوع الذي مضى وربما في الذي قبله، هذه الثنائية التي تشمئز منها القيم والأخلاق، أناس ينتمون إلى الإسلام في الظاهر ويجملون ألسنتهم بألفاظ من الدين والقيم وما إلى ذلك ويرفعون فوق رؤوسهم شعار الانتماء إلى هذا الدين ولكن سلوكهم، تصرفاتهم، كل ذلك يكذب ما تنطق به ألسنتهم، كل ذلك يكذب تلك الشعارات التي يرفعونها فوق رؤوسهم.

ربنا عز وجل يقول: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠]، قرارٌ وأمرٌ، جملتان يجمع البيان الإلهي فيهما بين القرار وبين الأمر المترتب على هذا القرار، أما القرار فهو إعلان الأخوة وأما الأمر فهو الأمر بالإصلاح، الأمر بالحماية، الأمر بالدفاع، الأمر بالتضحية في سبيل هذه الأخوة الإيمانية والإنسانية، ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ ذلكم هو القرار ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ وهذا هو الأمر والحكم ولكن هؤلاء الناس جعلتهم ثنائيتهم يعرضون عن هذا الأمر الرباني بل ويتساهلون فيه ولربما يستهزئون به، يقول المصطفى صلى الله عليه وعلى آله وسلم: ﴿مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إن اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى﴾، حديث حفظناه يوم كنا صغاراً في المدارس والأمة كلها تعرفه ولكن هؤلاء الجيران عن هذا الحديث تائهون وعن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم معرضون، ويقول المصطفى صلى الله عليه وسلم المسلم ﴿أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يسلمه﴾.

ولكن هؤلاء الإخوة يصرون على أن يناقضوا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، لئن دعا المصطفى صلى الله عليه وسلم المسلمَ إلى أن لا يظلم أخاه المسلم وإلى أن لا يخذله وإلى أن لا يسلمه فإن لسان

حال هؤلاء الناس يقول لا بل مبدؤنا أن نظلمه وأن نخذله وأن نسلمه ذلك لأن بيننا وبين أعداء الله عز وجل وعوداً وعهوداً ولسنا قاطعي هذه الوعود، بيننا وبينهم اتفاقات وأخوة أحرى بنا أن نؤدي حقوق هذه الأخوة لهم من أن نؤدي حقوق هذه الأخوة التي يأمرنا الله عز وجل بها.

ومع ذلك يا عباد الله فإن الدنيا في كثير من الأحيان قد تغر عندما يجد أناس أن هنالك صفقة رابحة تضمن لهم إن هم باعوا دينهم أن ينالوا دنيا مؤثرة عندهم، أن ينالوا متاعاً من أمتعة الدنيا، أن ينالوا رغداً من العيش وبسطة في الحياة، ربما تاه هؤلاء الناس وسال اللعاب منهم على هذه الفائدة الدنيوية أو على هذا المغنم الذي قد ينالونه من خلال هذه الصفقة ولكن البلاء الأطم أن يبيع الإنسان دينه بدنيا غيره، البلاء الأطم أن يمارس الإنسان صفقة تجارية يبيع فيها متاعه ويخسر الثمن الذي باع به ذلك المتاع فيعود لا هو على متاعه أبقى ولا هو على الثمن الذي باع به متاعه حصل.

تلك هي صورة حال بعض إخوانٍ لنا وجيران لنا، أبرموا عهوداً وعقوداً مع عدو الله وأعدائهم ونزلوا على الشروط التي أملوها عليهم وانتهى العقد وأبرم العهد فماذا استفاد هؤلاء الذي باعوا دينهم؟ نظروا وإذا بهم قد زجوا شعوبهم في مزيد من الفقر، زجوا شعوبهم في مزيد من الضنك والكرب الذي يأخذ اليوم منهم بالخناق، زجوا شعوبهم في العولمة الاقتصادية التي جعلتهم أتباعاً للآخرين ينتظرون لقمة الطعام أن تأتيهم عن يمين أو عن شمال، تلك هي المصيبة الكبرى أن يُخدَعَ الإنسان ببريق من المال يدخل جيبه، ربما استغله الشيطان وتغلب عليه فزجه في مثل هذه الحال، هي حالة من الربح لكنه ربح عاجل يؤول إلى خسران آجل، ولكن البلاء الأطم أن يبيع الإنسان مكانته وشرفه لعدوه لقاء لا شيء، لا، لا لقاء لا شيء بل لقاء فقر يزج به شعبه، لقاء ضنىً وضنك وبؤس، يزج به أمته، هذا هو البلاء الماحق يا عباد الله.

مرَّ بنا هذا العيد بحلوه ومره، أما الحلو فقد ذقناه وأما المر فينبغي أن نذوقه لكي نشعر بمعنى كلام رسول الله: مثل المؤمنين في توادهم تراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إن اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، حلو ومُرّ ينبغي أن نتقرب إلى الله عز وجل بكل منهما، أما العبرة التي ينبغي أن نجنيها من هذا الذي أقوله لكم فهي أن نزداد تمسكاً بالنهج الذي شرفنا الله به، أن نزداد سيراً على الصراط الذي أمرنا الله عز وجل به، أن نزداد اصطباغاً بالوصايا التي يأمرنا الله عز وجل بها ليل

نهار: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٩]، ﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٠]، ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً﴾ [آل عمران: ١٥١].

انظروا إلى قوله عز وجل نتلوه ونصطبغ به ونعاهد الله عز وجل على أن نكون كما أمر لا كما نهى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ﴾ [آل عمران: ١١٨] هذه البطانة ينبغي أن تكون من إخواننا الذين تجمعنا بهم آصرة الإنسانية التي تَوَّجَهَا دين الله سبحانه وتعالى؛ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ١١٨]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الممتحنة: ١].

نحن في شامنا هذه التي باركنا الله عز وجل ينبغي قادة وشعباً وأمة أن نزداد تمسكاً بأمر الله، أن نزداد تمسكاً بوصايا الله سبحانه وتعالى وينبغي أن نكون دثاراً وشعاراً لإخواننا أولئك الذين يحاصرون جهد الاستطاعة، بالقدر الذي أمكننا الله سبحانه وتعالى به، ينبغي أن نوفر الكثير والكثير مما رزقنا الله عز وجل إياه ونوجهه بالطرق الممكنة إلى هؤلاء الإخوة الذي امتحننا الله سبحانه وتعالى بهذه المصيبة التي زجهم فيها، ترى ما الموقف الذي سنقفه؟ هل سيكون خيانتنا لدين الله عز وجل وإعراضنا عن جيراننا، إخواننا في الإنسانية، إخواننا في دين الله عز وجل هل سيكون سبباً في عزة نطمح إليها؟ هل سيكون سبباً في نعمة ننالها؟

لا والله يا عباد الله؛ ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً﴾ [طه: ١٢٤]، من أعرض عن أوامر الله وخان حرمات الله وخان شرعه لابد أن يزجه الله عز وجل في ضنك من العيش وها نحن ترون وينبغي أن نعتبر بإخوة لنا ونسأل الله سبحانه وتعالى لهم النجاة والخلاص، مَرَّ العيد كما قلت لكم بحلوه ومُرِّه، ربما تقلَّبْنَا في قَدْرٍ من الحلو منه ولكن ينبغي أن نجني المر أيضاً وينبغي أن نذوق مرارة هذا العيد لنكون شركاء مع جيران لنا ومع إخوة لنا، والعزة إنما هي العزة التي ينالها الإنسان من خلال استرضاء مولاه وخالقه سبحانه وتعالى.

انظروا إلى البؤس الذي يتقلب به أولئك الذين مدوا يد المصافحة إلى العدو ماذا استفادوا؟ باعوا دينهم بدنيا غيرهم بل باعوا دينهم بالخسران الذي ركبهم، باعوا دينهم بالذل الذي ركبهم والذي لبسوه، باعوا دينهم بالنكبات، بالفقر الذي زُجَّتْ به شعوبهم، أسأل الله سبحانه وتعالى أن يرزقنا الاعتبار، أسأل الله سبحانه وتعال أن يُقْدِرَنَا على الاعتزاز بدينه، على الاعتزاز بأوامره، على التمسك بوصاياه.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.



٢٥١- إذا أراد الله إنفاذ قضائه وقدره سلب ذوي العقول عقولهم |

٢٠١٠/٠٦/١١

روى الديلمي في مسند الفردوس من حديث علي وأنس بن مالك رضي الله عنهما مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ﴿إذا أراد الله إنفاذ قضائه وقدره سلب ذوي العقول عقولهم حتى إذا نَفَذَ قضاؤه وقدره ومضى أمره أعاد إلى ذوي العقول عقولَهم ووقعت الندامة﴾.

وأقول: هذا ينطبق على من كان يتمتع بعقل ودرايةٍ قبل ذلك. أما الطغاة الذي أسكرهم الطغيان وسلب عقولهم فغدوا يتصرفون بدون عقل ولا دراية فله بالنسبة إليهم أهون من ذلك، ذلك هو شأن الطغمة الطاغية الجاثمة فوق أرضنا العربية الإسلامية في فلسطين. حدا بها الطغيان إلى أن تسكر فتفقدَ عقلَها لينفذ فيها قضاء الله سبحانه وتعالى.

لم تعد تحارب من يقف في وجهها مدافعاً عن حقه ومدافعاً عن أرضه بل أخذت تحارب الإنسانية في صميم ذاتها، تحارب الإنسانية أينما وُجِدَتْ لأنها تعلم أن الإنسانية لا تُقِرُّ طغيانها، تعلم أن الإنسانية أينما وجدت لا تقر صلفها ولا تقر استكبارها وعتوها ومن ثم فإنها اليوم تعادي الإنسانية في صميم ذاتها —كما أقول لكم— ولا تعادي فقط الذين يدافعون عن أنفسهم أو يدافعون عن حقوقهم، ومن ثم فإن هذه الطغمة تنظر إلى الغذاء الذي قد يأخذ طريقه إلى الإنسان القابع في سربه الآمن في وَكْرِهِ كما لو كان سلاحاً يتم إرساله إليه ومن ثم فإنها تقر ضرورة ضرب الحصار على هؤلاء المساكين القابعين في أسرابهم الذين لا ينتظرون إلا لقمة طعامهم أو جرعة شرابهم، تضرب عليهم الحصار وتنظر إلى الأقوات التي قد تأخذ طريقها إليهم كما تنظر إلى سلاح مدمر يوضع بين أيديهم.

وإذا رقَّت الإنسانية في العالم فتوجهت إلى هؤلاء المحاصرين ضد أقواتهم وضد أرزاقهم وضد مقومات عيشهم وبقائهم، إذا رقَّت الإنسانية لهؤلاء فحاولت أن تمد جسراً من المعونة الإنسانية لا غير إلى هؤلاء فقد حَقَّ لهذه الطغمة الباغية باسم مسيحها الدجال الذي تنتظر ظهوره كل يوم، حَقَّ لها أن تعلن الحرب على هذه الإنسانية، حَقَّ لها أن تعلن الحرب عليها وإن كانت لا تحمل إلا نبضات الحب والشفقة وحَقَّ

لها أن تدمر قافلتها الإنسانية التي لا تحمل لها إلا نبضات الشفقة والحب متمثلة في أغذية تؤكل وأردية تلبس وأدوية تسعف.

نعم، هذا ما يشاهده العالم اليوم. وأعود إلى الحديث الذي افتتحت به خطابي هذا إليكم يا عباد الله: ﴿إذا أراد الله إنفاذ قضائه وقدره سلب ذوي العقول عقولهم﴾ لقد سُلِبَ هؤلاء الناس عقولهم، سُلِبَتْ عقولهم منهم إن كانت لهم عقول ولا أظن أن عقلاً يتعايش مع الطغيان أبداً، ولقد كان شأنهم ولا يزال هو الطغيان، الطغيان يسكر أكثر وأشد مما تسكر الخمرة، وها هو ذا قرار رب العالمين بل حكمة رب العالمين أفقدت هذه الطغمة البقية الباقية من عقلها لكي تتخبط ولكي تزداد في التخبط ولكي يعلن العالم الغربي عن كراهته التي كانت ولا تزال خفية تزداد وراء الصدور ولكي يعلن الغرب عن غضبه الذي كان ولا يزال مستشرياً هائجاً وراء القلوب ولكن الرجل الغربي لم يكن يستطيع أن يستعلن ذلك بسبب غطاء السياسة التي تهيمن عليه وتفقده حرية النطق بما يريد وتفقد حرية استعلان زفراته الكامنة وراء صدره.

ولكن هذا الذي أعلنته الطغمة الباغية على أرضنا الإسلامية العربية من محاربتها للإنسانية أينما وجدت جعلت مشاعر الإنسان الغربي الخفية تتغلب على حجاب السياسة، تتغلب على غطاء السياسة. لقد كان بالأمس حجاباً غليظاً يصعب على الرجل الغربي اختراقه لكن اليوم أصبح حجاباً رقيقاً ما أسهل أن يُخْتَرَق. نعم، لقد سلب الله عز وجل عن هذه الطغمة البقية الباقية مما كان لديها من عقل وتدبير لينفذ فيها قضاء الله سبحانه وتعالى.

ولقد رأيت بالأمس جزءاً من غضبة الإنسان الغربي في بلاد الغرب وسمعت بالأجزاء الكثيرة من ذلك، ورأيت كيف يستعلن المسؤولون عن غضبهم واستنكارهم لهذه الحرب المعلنة ضد الإنسانية في أصفى معانيها وفي أصفى حقائقها وهوياتها. رأيت ذلك، ورأيت من خلال ذلك سنة رب العالمين التي أعلنها رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال: ﴿إذا أراد الله إنفاذ قضائه وقدره سلب ذوي العقول عقولَها﴾.

إنهم يتخبطون اليوم وإننا لنعلم – وإن لم نتلق أخبار ما نعلم – أنهم متطوحون في ندامة لا فائدة منها كما قال المصطفى صلى الله عليه وسلم في آخر هذا الحديث: ﴿ووقعت الندامة﴾ ﴿أعاد الله إليهم عقولهم ووقعت الندامة﴾.

عباد الله: ستجدون أن مشاعر الشارع الغربي – ولا أقول السياسة الغربية – ستجدون أن مشاعر الشارع الغربي بشطريه الأوروبي والأمريكي يستعلن شيئاً فشيئاً غضبته العارمة ضد هذه الطغمة التي تعلن كيدها وحربها للإنسانية، إنها لا تحارب فئة من الناس حوصروا في غزة أو غيرها إنما تحارب الإنسانية في ذاتها أينما وجدت، إن هذه الغضبة العارمة هناك تزداد اتساعاً يوماً بعد يوم، وإني لأعلم أن مشاعر الكراهية هائجة وراء الصدور هناك ولكنها كانت خفية كالبركان الذي كان يستخفي بما في داخله ولكن لابد أن يأتي يوم يتفجر فيه البركان بكل ما فيه، وها هو اليوم بدأ بالانفجار.

هذه حقيقة ينبغي أن نتذكرها وأن نربطها بهذه السنة الربانية التي أعلن عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكن الشيء المؤسف المؤلم الذي ينبغي ألا نتيه عنه أيضاً أن ثمة فئة من أبناء جلدتنا وأبناء عمومتنا لا يزال يطيب لهم أن يتقلبوا في حمأة المهانة والذل وأن يستسلموا بكل شراشرهم لهذا الذي يعلن الحرب على الإنسانية أينما وجدت، لهذا الذي يجعل من الغذاء والقوت والدواء أمراً خطيراً كما لو كان سلاحاً من أسلحة الدمار، لا تزال فئة – قَلَّتْ أو كَثُرَتْ – من أبناء جلدتنا يطيب لهم أن يتقلبوا في حمأة هذا الذل وأن ينقادوا لإشارات هذا الذي أعلن الحرب على الإنسانية أينما وجدت ضد سائر الشرائع السماوية وضد سائر القوانين الدولية وضد سائر الأنظمة الإنسانية.

وإني لأقول: ربما كان لهم عذر أو أعذار، والغائب ربما كان له عذر ومن الخير أن نتصور أن له عذراً يُلجئه إلى هذا، ولكن ما هي المعذرة التي تجعل أبناء عمومتنا هؤلاء يضيقون ذرعاً بمن يعلنون عن دفاعهم عن الإنسانية، ما هو الموجب لأن يشمئزوا من أولئك الذين تهتاج بين جوانحهم مشاعر الشفقة على الإنسانية فيعلنون دفاعهم عنها أينما وجدوا؟ لماذا يضيقون ذرعاً بهم؟ لعل لهم عذراً يمنعهم أن يسيروا في ركابهم ولكن ما العذر الذي يجعلهم يتهجمون عليهم ويتهمونهم ويريدون منهم أن ينقادوا إليهم وأن يقفوا مع صفهم وفي الخندق التبعي الذين يقفون فيه.

تركيا ليست إلا واحدة من الدول أو من الجماعات التي تهتاج بين جوانحها مشاعر الإنسانية ومن ثم فهي تريد أن تدافع عن الإنسانية التي تعيش في ذاتها، تعيش ضمن كيانها، ما الموجب لأن تتهم تركيا – أو غير تركيا – بأنها تبحث من خلال هذا الأمر عن تاجها الذي افتقدته، عن عزتها التي ضيعتها عندما ضاعت الخلافة؟ ما الموجب لأن تتهم تركيا – أو غير تركيا – بأنها إنما تفعل ذلك من أجل أن تبسط لنفسها عرشاً أو سلطاناً فوق بلادنا العربية والإسلامية هنا أو هناك؟ ما الموجب لهذا كله؟

أليس هنالك ما يدفع الإنسان مخلصاً بدافعٍ صافٍ عن الشوائب إلى الدفاع عن الإنسانية الذليلة المهينة؟!

أليست إنسانية الإنسان ما تزال موجودة نابضة؟!أليست شفقة الإنسان على الإنسان ما تزال حية نابضة؟!

أليس في هذا الدافع ما يكفي لأن تنهض تركيا وغير تركيا ولأن ننهض نحن وإخوان لنا هنا وهناك في الدفاع عن الإنسانية التي أَمَرَ الله سبحانه وتعالى الإنسانَ أن يقف إلى جانبها في الشدة وفي الرخاء؟!

هذا هو الأمر العَجَب، بعضٌ من أبناء جلدتنا يستنطقون إعلامهم المسَخَّر المسموع أو المرئي أو المقروء لبث هذا التصور الذي لا يمكن أن يقبله أحد.

إما أن أقف موقف الذل والمهانة والاستسلام للعدو الذي لم يعد يحارب من يدافع عن أرضه فقط بل أصبح يحارب حتى الإنسانية في أصفى مظاهرها. إما أن أقف إلى جانب هذه الطغمة التي تحارب الإنسانية فلا عتب ولا انتقاد وإما أن أرفع فوق رأسي شعار إنسانيتي وأدافع عن الإنسانية في كياني وفي كيان إخواني في الإنسانية إذن أنا أبحث عن عرشٍ افتقدته، إذن أنا أريد أن أبسط سلطاناً على أناس! ما هذا الكلام، ما هذا الهراء العجيب يا عباد الله.

أعود فأقول لكم إنها سُنَّة من سنن رب العالمين أنبأنا بها رسول الله: «إذا أراد الله إنفاذ قضائه وقدره سلب ذوي العقول عقولهم» لماذا؟ ليحيق في أولئك قرار الله القائل: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ [الأعراف: ١٦٧].

أجل، ستجدون يا عباد الله – وهذا ليس تنبؤاً ولا تخبطاً في الحديث وإنما هو قرار أعلم وقوعه – ستزداد مشاعر الإنسان الغربي غضباً ولسوف يستعلن الإنسان الغربي منذ اليوم بمشاعره الكامنة تجاه هذا الذي يحارِب الإنسانية في أصفى حقائقها ومبادئها، لسوف تجدون الغضبة الإنسانية المقدسة تستعلن بها شوارع الغرب بشطريه الأمريكي والأوروبي ضد هذه الطغمة وعندئذٍ ستجدون قرار الله الماثل أمام أبصاركم ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.



٢٥٢- دور المؤسسات الدينية | ٢٠٠٩/٠١/٠٩

حقيقة لابد من بيانها وكشف الغطاء عنها حتى نتبينها وتتحمل هذه الأمة الإسلامية مسؤوليتها من وراء ذلك. إن المأساة الكبرى لا تتمثل في هذا الحصار الذي تطاول أمده على أهل غزة ولا في القتل الذي استحر ولا يزال بشيوخها أطفالها ونسائها البرآء وإنما تتمثل المأساة الكبرى في شيء آخر، تتمثل المأساة الكبرى في السبب الذي أودى إلى هذا المصير.

إن المأساة الكبرى تتمثل في أناس يزعمون أنهم لا يزالون مسلمين يمدون جسور الود والتواصل والقربى إلى أعداء الله عز وجل وأعدائهم وأعداء الإنسانية، هؤلاء الذين أصموا آذانهم عن أصوات الاستغاثة التي تتجه إليهم من إخوانهم في الإنسانية وفي الإسلام، يعرضون عن مد يد العون إليهم، يعرضون عن مد الاستنصار استجابة لرغائبهم مخالفين في ذلك، بل مخاصمين، حكمَ الله سبحانه وتعالى القائل: ﴿لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: ١]، مخالفين بل مخاصمين في ذلك قول الله سبحانه وتعالى: ﴿مِنْ دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا ما عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران: ١١٨]، مخالفين بل مخاصمين في ذلك قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾ [الأنفال: ٧]، مخالفين بل مخاصمين في ذلك قول الله عز وجل: ﴿وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ [النساء: ٧٥].

هؤلاء الذين يقفون من أوامر الله عز وجل وأحكامه الصريحة القاطعة موقف المخالف بل المخاصم كما ذكرت هو السبب في هذه المأساة ومن ثم فهي المأساة الكبرى. رأى العدو الأرعن أنه يقف بقدميه على أرض راسخة من رؤوس هؤلاء الذين يتظاهرون بالإسلام، رأى العدو الأرعن أنه يقف على أرض ثابتة مستقرة من رؤوس هؤلاء المسلمين الذين يدعمون ويؤيدون ويواصلون في الوقت الذي يعرضون فيه عن إخوانهم في الله عز وجل ويمزقون باستهانة بالغة أمر الله القائل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠]، ينبغي أن نعلم أيها الإخوة أن المأساة الكبرى تتمثل في الينبوع والأصل ولا تتمثل في النتائج والفروع. فما المنجاة من هذه المصيبة، ما السبيل للتحرر من سبب هذه المأساة الكبرى؟

سبيل ذلك يا عباد الله، وها أنا أضع النقاط على الحروف، أن تتحرك هذه الأمة على محورين اثنين، أولهما المحور السياسي، ثانيهما المحور الديني.

أما المحور السياسي فهنالك بقايا من القيادات الراشدة تحركت ولا تزال للنهوض بهذا الواجب ابتغاء الترفع على هذه المأساة الكبرى، ولعلكم تعلمون أن سورية في مقدمة البلاد التي تحركت على كل الأصعدة وفي كل الاتجاهات في النطاق السياسي من أجل التخلص من هذه المأساة الكبرى التي سببت النتائج الكثيرة المؤلمة. أما التحرك على صعيد المحور الديني فلا يزال أمنية في النفس ولا يزال فكرة تراود الأذهان على الرغم من الضرورة القصوى التي تدعو إلى ذلك.

وأنا أيها الإخوة لا أعني بالتحرك على المستوى الديني الأنشطة التي يقوم بها الأفراد من أمثالي، لا أعني خطباً تُلْقَى ولا مواعظ تُسمَع ولا بيانات فردية تُكتَب فإن ذلك كله في الغالب يذهب أدراج الرياح، إنما أعني بالمحور الديني تلك المؤسسات الإسلامية التي يُفترض أنها تهيمن على قناعة الأمة وتستوثق من الثقة التامة بها، هذه المؤسسات هي التي ينبغي أن يتمثل فيها المحور الديني المتحرك، إنها لا تزال جاثمة ساكنة هادئة هدأة الموت.

المجمع الفقهي المنبثق من منظمة المؤتمر الإسلامي أين هو صوته؟ الجامع الأزهر الذي كان، وإنها لذكرى نرجوا ألا تكون قد طويت وذابت وذهبت مع الريح، الجامع الأزهر الذي كان صوتُه صوتَ الإسلامي المدوي على كل الأصعدة أين هو صوته، لا أعني الأفراد المتناثرين فيه، وإنما أعني صوت هذه المؤسسة، الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين، وهو اسم لعلكم سمعتم به منذ أيام وأنا أيضاً سمعت به منذ أيام وإنه لاسم كبير كبير ولا أدري أين يكمن مسماه، أين هو التحرك من هذه المؤسسات على الصعيد الديني الذي يوازي خط التحرك السياسي.

وعندما أقول التحرك الديني لا أعني بذلك البيانات التي يمتزج فيها الأسلوب السياسي بالأسلوب الديني، لا أعني الزفرات الاصطناعية أو الحقيقية التي يطلقها بعض هذه المؤسسات هنا وهناك وإنما أعني أن تجتمع هذه المؤسسات كلها على إصدار فتوى تعلن من خلالها حكم الله سبحانه وتعالى، تعلن من خلالها قرار الشريعة الإسلامية في حق من يمدون يد التواصل والود والقربى إلى أعداء الله وأعداء الإنسانية

وأعداء إخوانهم في الدين، أعني بتحرك هذه المؤسسات فتوى ينبغي أن تصدر واحدة متفقة باسم هذه المؤسسات تنطق بحكم الشريعة الإسلامية في حق هؤلاء الإخوة لنا في الإنسانية وفي الدين يذبحون بدون جريرة، تدور رحى القتل عليهم رجالاً شيوخاً نساءً أطفالاً دون حساب مخالفين، بل كما قلت لكم مخاصمين قرار الله عز وجل ومخاصمين وصايا رسول الله صلى الله عليه وسلم القائل: ﴿المؤمنون في توادهم وتحابهم كمثل الجسد الواحد إن اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى﴾. والقائل: ﴿المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يسلمه﴾. المجمع الفقهي، ما هي مهمته؟ كانت مهمته ولا تزال إصدار الفتاوى وإنه إلى اليوم ماضٍ في إصدار الفتاوى في القضايا المنثورة الجزئية في الشريعة الإسلامية والتي أشهد أنها لم تقدم الأمة إلى الأمام قُدُماً ولم تُقَوِّم لها اعوجاجاً. أما هذا الأمر المصيري، أما هذا التحرك الذي كلف الله سبحانه وتعالى به هذه المؤسسات باسم الأمة الإسلامية جمعاء فإن المجمع الفقهي عن هذا الواجب غافل بل إنه لراقد بل إنه ربما قد حُكِمَ عليه بالرقود، المجمع الفقهي المنبثق من منظمة المؤتمر الإسلامي.

تعالوا نتساءل يا عباد الله، ما وظيفة منظمة المؤتمر الإسلامي بعد أن يرقد رقدة الموت عن النطق بكلمة في مجال الفتوى أما هذه المأساة المدمرة؟ ما وظيفتها؟ لا وظيفة لها ولا معنى لوجودها قط. الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين، هذا الاسم ينسجم انسجاماً تاماً مع فتوى ينبغي أن تصدر من هذا الاتحاد ولكنه لا ينسجم أبداً مع تحرك أعضاء هذا الاتحاد يميناً وشمالاً حركات سياسية تنافس أو تسابق أو تزاحم الناس المختصين بالسياسة والذين يتحركون بطبيعة الحال في هذا الصدد وعلى هذا المستوى. مؤسسة الأزهر، فيم هذا الصمت القاتل، ومرة أخرى أقول لكم لا أعني بالأزهر نثار الأشخاص الذين يتكلمون واحد من هنا وواحد من هنا وهناك وإنما أعني المؤسسة متمثلة في شيخها، متمثلة في إدارتها.

الأمة الإسلامية تنتظر من ينطق باسمها عن حكم الله سبحانه وتعالى في هذا الأمر المصيري. ولربما تتساءلون فلو فرضنا أن هذه المؤسسات قامت بواجبها وأصدرت مجتمعة الفتوى المعروفة التي لا يمكن أن يختلف فيها اثنان لأن كتاب الله عز وجل صريح في بيان هذا الحكم ولأن كلام المصطفى صلى الله عليه وسلم صريح في ذلك كله، لعلكم تتساءلون فماذا عسى أن تفيد هذه الفتوى؟ نعم ستفيد.

فرق كبير بين أفراد يتكلمون من هنا وهنا وهناك على منبر مثل هذا المنبر وبين مؤسسات تعبر عن مشاعر الأمة الإسلامية، تعبر عن عقيدة الأمة الإسلامية، تعبر عن التزامات الأمة الإسلامية، عندما تستعلن هذه المؤسسات بهذه الفتوى وتعلن حكم الشريعة الإسلامية باسم الأمة الإسلامية فإن هؤلاء الذين كانوا ولا يزالون يتجاهلون حكم الله وهم يتظاهرون بالإسلام والذين كانوا ولا يزالون يمدون أيدي الود والتناصر والمحبة إلى أعداء الله وأعدائهم والذين يعرضون عن صيحات إخوانهم المستغيثة بهم لابد أن يرعووا، لابد أن يتضاءلوا ولابد أن يتحركوا وعندئذٍ إما أن يكرمهم الله بالهداية، وهذا ما ننتظره وندعوا به، وإما أن يرحلوا بقرار من أمة الإسلام، فإما الهداية، وهذا ما نأمله، وإما الرحيل وهذا ما لا يمكن أن نشك فيه بعد أن تقوم هذه المؤسسات بواجباتها. مرة أخرى أقول لكم أيها الإخوة المجمع الفقهي الذي أصدر الكثير والكثير من الفتاوى التي لم تحرك ساكناً ولم تقوم اعوجاجاً أين هو صوته المدوي اليوم؟ الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين ما ينبغي أن يغطي نفسه بحركات من بلد إلى بلد وإنما ينبغي أن يصدر الفتوى التي تنبئ عن حكم الشريعة الإسلامية في هذا الأمر.

أما بعد يا عباد الله، إن عزَّ العثور على السبيل الذي ينهي هذه المأساة فالسبيل الأكبر والأعظم كان ولا يزال مفتوحاً أمامنا ولا جدوى من اختراق أو السير في السبل كلها إن لم نسلك هذا السبيل الكبير؛ سبيل الرجوع إلى الله، سبيل التوبة النصوح على أعتاب الله ثم التضرع والالتجاء الدائم إلى الله عز وجل لاسيما في الأوقات الخاصة كأوقات السحر.

أوصي نفسي وأوصي كلاً منكم بالتوبة والإنابة إلى الله عز وجل ثم إني أوصي نفسي وأوصي كلاً منكم بالوقوف موقف الذل والانكسار على أعتاب الله، على باب الكرم الإلهي، ندعوه ونستغيث برحمته وجوده دون توقف، نجعل من ذلك ورداً دائماً ولسوف تجدون الاستجابة، إن لم نحن أهلاً لذلك ففينا من هؤلاء الذين وصفهم الرسول صلى الله عليه وسلم رُبَّ أشعث أغبر مدفوعاً في الأبواب ذي طمرين باليين لو أقسم على الله لأبر قسمه، فينا أيها الإخوة من هذا القبيل كثير، لئن لم يستجب الله دعاءنا لأننا أهل للاستجابة فلسوف يستجيب دعاءنا بحرمة هؤلاء الذين تحدث عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم. أين أنتم من قول الله عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [لأنفال: ٩]، أين أنتم أيها الإخوة من قول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ

فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ، فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأنعام: ٤٢-٤٣].

أنا أدعو نفسي في هذا المكان وأدعوكم وأدعو القادة وأدعو كل من يسمع كلامي إلى التوبة النصوح بين يدي الله ثم إلى التضاؤل على أعتاب الله والانكسار والذل أمام باب الكرم الإلهي.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم فاستغفروه يغفر لكم.



٢٥٣- لا تكرهوا الفتن فإن فيها حصاد المنافقين | ٢٠٠٩/٠١/١٦

ورد عن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بسند ضعيف أنه قال: ﴿لا تكرهوا الفتن فإن فيها حصاد المنافقين﴾. ومعنى هذا الكلام النبوي أن المسلمين عندما يكونوا في أمن وطمأنينة وعندما تكون الفتن بعيدة عنهم ينبغي أن يستعيذوا بالله منها كما كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكن إذا وقعت الفتنة فليعلم المسلم أن لله عز وجل في ذلك حكمة وأنها في الظاهر فتنة وابتلاء ولكنها في الباطن منحة ونعمة من النعم الخفية، هذه النعمة الخفية يشير إليها المصطفى صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث إذ يقول: فإن فيها حصاد المنافقين، أي إن المنافقين عندما يكونون في ظلٍّ من الأمن والطمأنينة ورغد العيش فإن نفاقهم يختفي ولا يستبين لأنهم لا يُكلَّفون بمغرمٍ إسلامي يدفعونه وإنما هي المغانم يقتطفونها مع إخوانهم المسلمين الصادقين ولكن إذا انتابت المجتمعَ الإسلامي هزَّةٌ وتسرب إليها زلزالُ فتنة فعندئذٍ يختفي غطاء النفاق ويتجلى ما هو مستكن في القلوب فهذا هو المعنى الذي أراده المصطفى صلى الله عليه وسلم بقوله: فإن فيها حصاد المنافقين.

قلتُ لكم إن الحديث مرويٌّ بطرق ضعيفة ولكن بيان الله عز وجل في محكم تبيانه يدعم هذا الحديث ويقويه. هنالك آيات كثيرة يبين الله سبحانه وتعالى فيها الحكمة من الفتن التي يبعثها بين الحين والآخر في حياة المجتمعات الإسلامية، إنه يقول مثلاً: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ، وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لَاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٦-١٦٧]، لاحظوا كيف أن البيان الإلهي يوضح لنا الحكمة من الابتلاء أو الفتنة التي أصابت المسلمين ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين ظهرانيهم، ما الحكمة؟ أجاب البيان الإلهي عن ذلك ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ، وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ أي ليستبين علم الله الخفي السابق حقيقة ساطعة واضحة للناس جميعاً، وتأملوا في قوله عز وجل: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]، وتأملوا في قوله عز وجل: ﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ [آل عمران: ١٢٠] وانظروا إلى قوله سبحانه وتعالى: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ، وَلا تَهِنُوا

وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ، إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ، وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨-١٤١].

أرأيتم كيف أن البيان الإلهي جاء تبياناً لسنة من سُنَنِ الله في الكون عبَّرَ عنها المصطفى صلى الله عليه وسلم بقوله: لا تكرهوا الفتن، أي بعد وقوعها، فإن فيها حصادَ المنافقين. وإنكم لترون مصداق كلام رسول الله بل مصداق كلام الله سبحانه وتعالى في الآيات التي تلوتُها على مسامعكم في هذا المنعطف الخطير الذي تمر به أمتنا الإسلامية.

عبادَ الله ما رأيت مظهراً من مظاهر النفاق تفوح رائحته النتنة كالمظهر التالي؛ عندما يستعلن الذين يبينون للناس مظاهر إسلامهم ويمضغون شعاراته وكلماته في كل مناسبة عندما يجدون عدواً لله ولرسوله ولعباد الله المؤمنين قد استشرى طغيانه واتجه بالطغيان الذي يشبه هذا الطغيانَ الهمجي الذي نراه اليوم يكون موقفهم هو الانحياز إلى العدو، يكون موقفهم دعم هذا العدو إن بالكلام وإن بالفعل وإن بالسكوت، والساكت على ظلم الظالم إنما يعتبر سكوته لوناً من أخطر ألوان الدعم له.

ما رأيت نفاقاً تبرز حقيقته وتنتشر رائحته كالنفاق الذي تظهر دلائله في هذا الأمر، إنها مخالفة حادة لأمر الله سبحانه وتعالى القائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: ١]، وقد تلوت عليكم آيات كثيرة كلها تحذير للمسلمين الصادقين من أن يعرضوا عن الانتصار لإخوانهم المسلمين ثم يتجهوا بالانتصار إن باللسان أو باليد أو بالصمت لأعداء الله سبحانه وتعالى وأعداء عباده المسلمين، وقد صحَّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال فيما رواه الحاكم في مستدركه من حديث عبد الله بن عباس: ﴿من أعان ظالماً ليدحض بباطله حقاً فقد برئت منه ذمةُ الله ورسوله﴾، وقد المصطفى صلى الله عليه وسلم المعنى ذاتَه بألفاظ أخرى في حديث آخر من أعان ظالماً سُلِّطَ عليه. آيات بيِّنات من كتاب الله عز وجل تحذر المسلمين من أن يعرضوا عن الانتصار لإخوانهم المسلمين عندما يحيق بهم البلاء وعندما تدور عليهم رحى الظلم يحذر الله عز وجل المسلمين من أن يعرضوا عن إخوانهم هؤلاء ثم يتجهوا بالدعم والانتصار لأعداء الله سبحانه وتعالى ﴿لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

عباد الله أنا لست أخشى من خلال هذا الطغيان المستشري الذي ترون أو الذي تسمعون، هذا الطغيان الذي لعل التاريخ الغابر لم يشهد له مثيلاً قط، هذا الطغيان الذي يتجه بالإفساد إلى الحرث والنسل ويتجه للقضاء على الحياة الآمنة البريئة المطمئنة دون حساب ودون توقف، نعم أنا لا أخشى على الإسلام من هذا الطغيان قط، لاشك أن هذا الطغيان سيعود وباله عليه ولاشك أن لله عز وجل في عباده سنناً تدل على أن الباطل له جولة ولكن جولته ستعود عليه بالوبال ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧] وإنما المراد بما ينفع الناس الحق الذي نزله الله سبحانه وتعالى على عباده في مختلف كتبه التي أنزلها عن طريق الرسل والأنبياء ولكن الذي أخشاه أن يتحول الحكم والأمر، أن يتحول العز الذي متع الله عز وجل هذه الأمة به إلى الآخرين، الذي أخشاه أن يحيق بنا قول الله عز وجل: ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨]، الذي أخشاه أن يحيق بنا قول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَه﴾ [المائدة: ٥٤]، هذا هو الذي أخشاه.

عباد الله هل رأيتم في المجتمعات الإسلامية بَعُدَتْ أو قَرُبَتْ سواء كانت من المجتمعات الإسلامية أو التائهة الضالة أو الملحدة من لا يُقَدِّسُ الوحدة! من لا يعلم أن القوة إنما تنبع من مشرق الوحدة! وأن الضعف والهوان إنما يتبدى من مغرب الوحدة، من التفرق وأسبابه! إنكم لترون عندما تلتفتون إلى العالم الإسلامي والعربي بل إلى العوالم الأخرى إنكم لتجدون كيف أن المجتمعات كلها تنشد الوحدة وتتحرر من التفرق إلا مجتمعنا الإسلامي الذي دعاه الله سبحانه وتعالى إلى الاتفاق، هذا المجتمع الذي ناداه بيان الله قائلاً: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، هذا المجتمع يُدْعَى إلى الوحدة فينبذها ويعشق التفرق والخصام، هذه الظاهرة هي الظاهرة المخيفة، أما الإسلام فالإسلام منصور في كل عهد وفي كل وقت ولكن الله عز وجل يُقَيِّضُ له في كل عصر جنودَه المخلصين له.

إنني أخشى، وهذا هو الذي يقضُّ المضجع وهذا هو الذي يخيف، أخشى أن يستلب الله عز وجل من هذه الأمة عز حضارتها ومجدها وسؤددها ثم يعطي الأمانة لأمم أخرى، أيها الإخوة والأمل لا يزال معقوداً، وربك هو الذي يهدي وهو الذي يوجه القلوب وهو الذي يقلبها كما يشاء.

إننا لا نزال ننتظر، لا أقول من الدول والحكومات العربية والإسلامية بل من المؤسسات الإسلامية التي تنتمي أول ما تنتمي إلى الشعوب الإسلامية ولها وجود رسمي أيضاً في الوقت ذاته، أنتظر من هذه المؤسسات كما قلت بالأمس وقبل الأمس أن تعلن عن حكم الله عز وجل في هذا الذي يستشري اليوم على أرض غزة وفيما ينبغي أن يكون عليه حال المسلمين تجاه هذا العدو الأرعن الطاغي وفيما ينبغي أن يكون عليه حال المسلمين تجاه إخوانهم الذين يُقَتَّلُونَ ويُذَبَّحون وتستلب حقوقهم وتُهَدَّمُ عليهم دورهم بدون حساب. إننا ننتظر منظمة المؤتمر الإسلامي التي ينبثق عنها المجمع الفقهي ومهمته كانت ولا تزال تقديم الفتاوى، رابطة العالم الإسلامي التي ينبثق منها المجمع الفقهي، الجامع الأزهر، ولا أقول الجامعة التي تتمثل في كليات متناثرة هنا وهناك، أقول الجامع الأزهر المتمثل في مشيخته وفي إدارته، لا أزال بل لا يزال العالم الإسلامي ينتظر من هذه المؤسسات أن تعلن حكم الله سبحانه وتعالى في هذا الذي ذكرت، إن لم ننفِّذ فعلى أقل تقدير ينبغي نعلنها، ينبغي أن نعلن حكم الله عز وجل وليقل من يشاء أن يقول: ولكننا ضعاف لا نستطيع أن نطبق هذا الحكم. أما أن نروغ عما أمر الله عز وجل به سلوكاً ثم نغطي روغاننا بتبرير من السكوت عن بيان حكم الله والعالَم يطلب والعالَم ينتظر فهذا شيء مخيف ومرعب.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجمع أمتنا على ما يرضيه وأسأله عز وجل أن يهدينا جميعاً إلى سواء صراطه المستقيم، أما أنا بوصفي فرداً أقف على هذا المنبر الذي عُهِدَ إليَّ بالخطابة فيه بل بوصفي عالماً من علماء المسلمين كما يقولون فلسوف أقرأ عليكم في الخطبة الثانية نص الفتوى التي لم أجتهد فيها والله يعلم ولم أخترعها من عندي والله يعلم وإنما نقلتها كما هي من الشريعة الإسلامية الغراء قائمة على دعامة من كتاب الله وسنة رسول الله وإجماع علماء المسلمين، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

أما بعد فها أنا أتلو عليكم نص الحكم الذي أنقله إلى مسامعكم مأخوذاً من صريح كتاب الله وصريح سنة رسول الله وصريح ما أجمعت عليه الأمة فاسمعوا أيها الإخوة ولن أتزيد من عندي كلمة واحدة في هذا الأمر.

هذا هو حكم الشريعة الإسلامية فيما ينبغي أن تكون عليه علاقة المسلمين مع إسرائيل وفي الموقف الذي يجب عليهم أن يجددوا مع إخوانهم أن يجددوا مع إخوانهم المحاصرين والمقاتلين بيد العدو الإسرائيلي في غزة، في الموقف الذي ينبغي أن يتخذوه من هذا العدوان.

أولاً: يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: ١]، ويقول عز وجل: ﴿لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة: ٢٢]، ويقول: ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٩]، وعليه فقد تم إجماع المسلمين على أنه تحرم على المسلمين موالاة العدو الإسرائيلي ويحرم مد يد أي نوعٍ من أنواع التعاون معهم بما في ذلك إقامة العلاقات الدبلوماسية، ولم نجد فيما قرره علماء المسلمين منذ صدر الإسلام في باب الجهاد أي خرق لهذا الإجماع، وكيف يجرؤ مسلم عا لم بكتاب الله على خرق بيانه المحكم القاطع.

ثانياً: يقول الله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ [النساء: ٧٥]، ويقول: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُون﴾ [الحجرات: ١٠]، قال المفسرون المراد بالإصلاح رد غائلة البغي عنهم. ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه مسلم وغيره: المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ولا يخذله. وعليه فقد تم إجماع المسلمين على أنه يجب على كل مسلم تقديم العون الممكن لإخوانهم الذين يقعون في أي نوعٍ من أنواع الضيم لاسيما ذاك الذي يتمثل في اعتداء أعداء الله على حياتهم وأوطانهم وسائر حقوقهم وهذا يعني أنه يجب على المسلمين جميعاً اليوم العمل بكل السبل الممكنة على رد غائلة العدوان الهمجي الضاري الذي يمارسه الطغيان الإسرائيلي دون توقف على إخواننا في غزة كما يجب عليهم العمل على رفع الحصار المضروب عليهم وفتح سائر المعابر المغلقة في وجوههم لاسيما معبر رفح الذي هو السبيل الطبيعي المفتوح بينهم وبين إخوانهم في مصر.

إن تجاهل المسلمين لهذا الواجب الإلهي الذي يصرح به كتاب الله عز وجل وإن إصرار أولئك الذين يتحدونه ويقررون المضي في مخالفته تقرباً من الطغاة الذين أعلنوا الحرب على الله وعلى عباده المؤمنين ينذر بغضب رباني وشيك وصدق الله القائل: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]. هذا واجب رباني أخرجته من عنقي وأسأل الله ألا يجعلني ممن قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ [آل عمران:

١٨٧]. أرجو من إخواننا في مشارق الأرض ومغاربها الذين يعلمون حكم الله ألا يلقوا هذا الأمر الرباني وراء ظهورهم، والفرصة لا تزال سانحة.



٢٥٤- إسرائيل تحفر قبرها | ٢٠٠٩/٠١/٢٣

صح عن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه قال: لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود فيقتل المسلمون اليهود حتى يختبئ اليهودي وراء الشجر والحجر فيقول الشجر والحجر يا مسلم يا عبد الله هذا يهودي ورائي فتعالى فاقتله إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود.

أيها الإخوة لاشك أن في الناس من إذا سمع هذا الحديث ذهب به العجب منه مذهباً قد يوصله إلى الإنكار، لعله يقول ما شأن الحجر والشجر وما علاقته بما يفعله اليهود وليس له من شعور بشيء من ذلك ولكني أقول لكم إذا أراد الله شيئاً هيَّأَ أسبابه.

إذا لم يحن بعد وقت ظهور الشيء الذي أراده الله عز وجل وسمعه الناس غيباً ربما عجبوا منه واستبعدوه لأن الله عز وجل لم يهَيِّئ أسباب هذا الأمر بعد ولكن عندما يخلق الله مقدماته ويهيِّئ أسبابه يزول العجب.

أرأيتم لو أن في الناس قال قبل سنوات إن الغرب بشطريه الأوروبي والأمريكي سيثور على الصهيونية العالمية وعلى إسرائيل ولسوف يتخذ من كلٍّ منهما موقف المؤدب والزاجر إذاً لذهب العجب بهؤلاء الناس أيضاً إلى حدِّ الإنكار ربما، ولربما قال قائل الغرب يقف من إسرائيل والصهيونية العالمية موقف الثائر المؤدب ونحن نرى أن الغرب ليس إلا خاتماً ذليلاً في إصْبَعِ إسرائيل تفعل بهذا الخاتم ما تشاء وتقلبه كيفما تريد! ولكني أعود فأقول لكم إذا أراد الله شيئاً هيَّأ أسبابه ومن ثم يزول العجب.

إنكم تعلمون أن الشارع الغربي كان ولا يزال يستبطن كراهية ما مثلها، لا أقول للصهيونية العالمية وإسرائيل فقط بل لليهود قاطبة، ولكن الرجل الغربي لم يكن قادراً على أن يبوح بهذه الكراهية ذلك لأن السياسة التي زمامها بيد الصهيونية العالمية كانت تكمم الأفواه وكانت تمنع الإنسان الغربي من أن يبوح بغيظه وبكراهيته الشديدة للصهيونية العالمية ولإسرائيل ولكني أقول مرة ثالثة إذا أراد الله شيئاً هيَّأ أسبابه.

لقد سمعت كل ذي أذن ورأى كل ذي عينين الوحشية الضارية التي تزلزل لها دماغ التاريخ وفكره، هذه الوحشية التي لم يكن في العالم كله طاغٍ أو باغٍ يستطيع أن يضرب بها المثل الأعتى الذي ضربت به إسرائيل اليوم. ها أنتم ترون كيف تحولت غزة إلى نهر من الدماء تعوم فيه أشلاء الأطفال، أشلاء النساء، ها أنتم سمعتم وربما رأيتم كيف أن رجالاً من رجال الدين كانوا يباركون هذا الإجرام الوحشي الذي تزلزل له كيان التاريخ كله، هذه الوحشية ضجَّ لها الشجر والحجر أجل، ضجَّ منها الشجر والحجر وكان ذلك سبباً أو مقدمة بين يدي الحقيقة التي أخبر عنها رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

نظرنا وإذا بالأمر البعيد أصبح قريباً، وإذا بالشأن العَجَب أصبح أمراً طبيعياً، نظرنا إلى الإنسان الغربي وإذا بالكراهية التي كانت دفينة وراء صدره أصبح يزمجر بها في كل صعيد، إذا بالغيظ الذي كان كامناً بين جوانحه وأعود فأقول لكم، أقول هذا عن الغرب بشطريه الأمريكي والأوروبي، عادت الأفواه تنطق وتعلن عن هذا الغيظ الكامن، عن هذه الكراهية، أجل هذا الذي رأيناه وسمعناه، كانت السياسة من قبل تكمم الأفواه ولكن بركان الغضب فَجَّر هذا السَّدَّ السياسي، لم تعد السياسة تستطيع أن تكمم فماً ولم تعد تستطيع أن تمنع الشارعَ الغربي من أن يستعلن بمشاعره التي كانت وظلت إلى أمدٍ ما خفية.

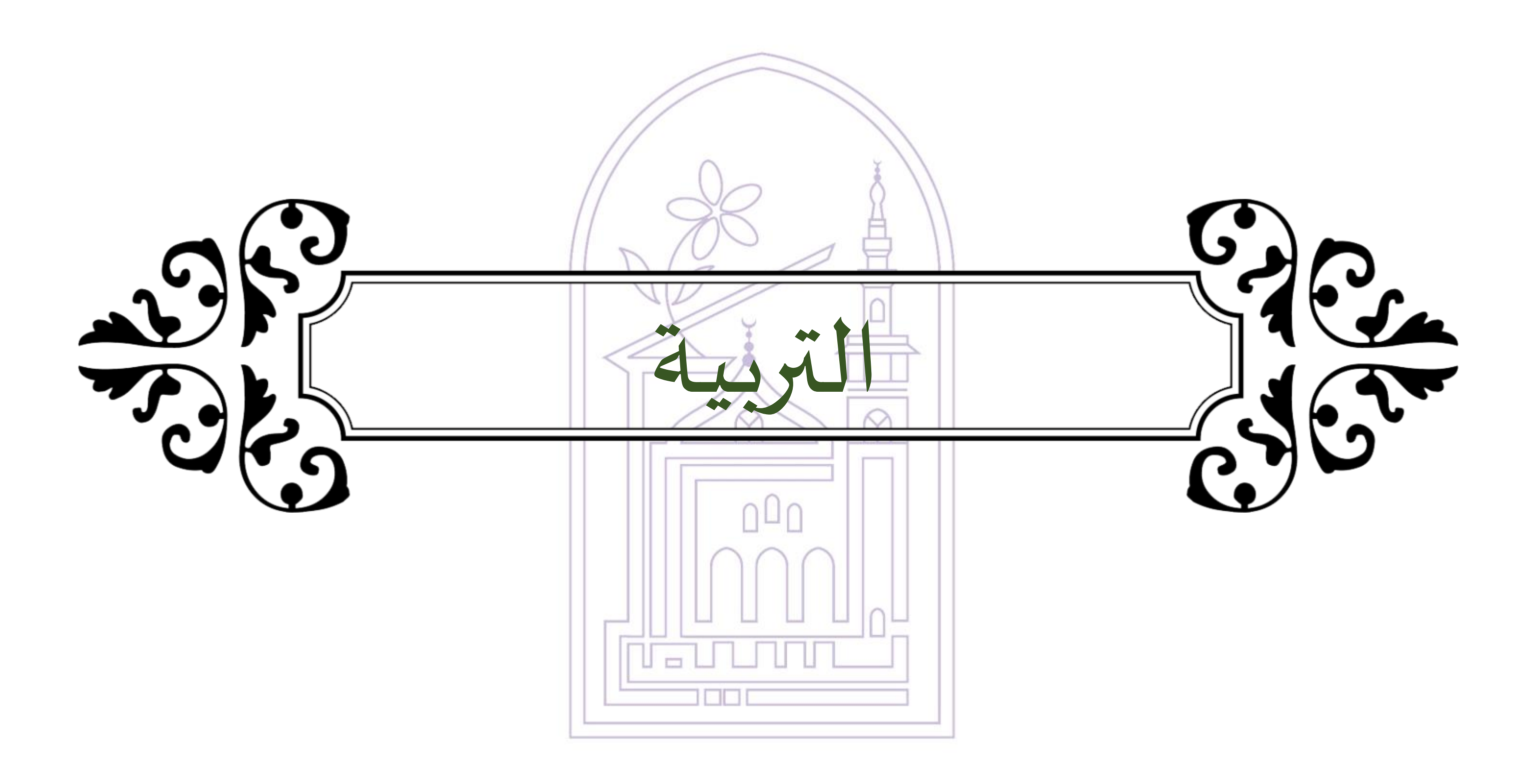
هذا الذي نراه أمامنا اليوم يا عباد الله يجلّي لنا حكمة رب العالمين إذ يقول: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١]، وكم وكم وراء هذه الجملة البليغة القرآنية من معانٍ يضيق الوقت عن بيانها ولكن الأحداث ستكشفها وتضع منها النقاط على الحروف. الشجر والحجر لقد ضجَّ كلٌّ منهما من الوحشية التي لا يستطيع البيان أن يصفها، يذوب البيان قبل أن ينطق به اللسان، أجل، ومن قال إن الشجر والحجر لا يملكان شعوراً؟ إذا طفَّ الصاع وتحولت الوحشية أو الإجرام إلى هذه الحال التي يذهل لها التاريخ فإن الأمر يهم الشجر ويهم الحجر وصدق الله عز وجل القائل: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]، وصدق الله عز وجل القائل: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤] هذا البيان الإلهي يكون غريباً عن الأذهان وعن الأسماع ولكن عندما يحين تنفيذ الله عز وجل لوعده يتحقق المناخ الذي يقرب البعيد والذي يجعل الأمر العجيب أمراً كما قلت لكم طبيعياً.

أقول لكم وأنا المسؤول عن هذا الكلام لن تجدوا الغرب بعد اليوم يخفي مشاعره تجاه هذا العدو الأرعن للإنسانية بل للجنس البشري، لقد أخفى مشاعره وصبر أمداً من الزمن إذا كان قُفْلُ السياسة هو الذي يكمم فمه لكن بركان الغضب المزمجر تغلب اليوم على أقفال السياسة الغربية كلها، ومن هنا فإن العقلاء كلهم يعلمون أن إسرائيل فما فعلت إلى الأمس في غزة مما تعرفون ومما لا أريد أن أصفه إنما كانت تحفر بذلك قبرها ولسوف يدفنها الغرب في هذا القبر، عَلِمَ ذلك من علم وجهله من جهل.

وهذا الذي أقوله لكم هو الذي يزيل العجب ويزيل الاستغراب من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود، لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتل المسلمون اليهود حتى يختبئ اليهودي وراء الشجر والحجر فيقول الشجر والحجر يا مسلم يا عبد الله هذا يهودي ورائي فتعالى فاقتله إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود.

العجب مما فعلت إسرائيل يكافئ العجب مما قاله رسول الله، العجب من هذا الذي أقدمت عليه إسرائيل ليس أقلَّ أبداً من العجب الذي أنبأ عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ ينطق الشجر وينطق الحجر ثائراً على هذه الوحشية يهيب بالمسلم أن يقوم فيثأر للعدل، يثأر للإنسانية، يثأر للطفولة، يثأر للدماء الزكية، هذه حقيقة ينبغي أن نعلمها وينبغي أن نزداد إيماناً بكل ما أنبأ به رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم فاستغفروه يغفر لكم.



التربية

٢٥٥- كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته | ١٩٨٥/٠٦/٢١

إنَّ من أبرزِ خصائصِ هذا الدّينِ الإسلاميِّ العظيم أنّهُ دينُ تضامنٍ وتكافل، فحيثُما وُجدَ الإسلامُ الصَّحيح في أيِّ بلدةٍ أو قرية، أو مجتمعٍ صغيرٍ أو كبير، لا بدَّ أن تجدَ هناكَ شبكة متواصلةً من المسؤوليّاتِ ومظاهرِ التّضامنِ والتّكافلِ ساريةً في تلكَ المنطقة.

ولا يتحقّقُ الإسلامُ الذي أمرَ اللهُ عزَّ وجلّ به في كيانِ الفردِ المؤمن، إلا إذا كانَ جزءاً لا يتجزّأ من هذه الشّبكةِ المتواصلة، التي إذا اهتزَّ طرفٌ منها اهتزّتِ الأطرافُ كلُّها.

الإسلامُ لا يقرُّ أن يلتفتَ الإنسانُ المسلمُ إلى نفسه ثمَّ يحصرَ رقابتهُ في ذاته، ويقول: إنما كلّفني اللهُ عزَّ وجلَّ بنفسي فقط، فإذا هُديت فليضلَّ النّاسُ جميعاً، وإنما يؤاخذُني الله عزَّ وجلَّ بجريرةِ حقوقي أنا ونظري إلى ذاتي وحدها.

هذا الإسلامُ الذي أنزلهُ اللهُ عزَّ وجلّ علينا بواسطةِ رسلهِ وأنبيائه يسيرُ في نقيضِ هذا الخطِّ تماماً، فالإسلامُ دينُ المسؤوليّة، كيفَ لا ورسولُ الإسلامِ سيدنا محمّدٌ عليهِ الصّلاةُ والسّلام يقولُ فيما صحَّ عنه: ﴿كلّكم راعٍ وكلّكم مسؤولٌ عن رعيّته﴾، ثمَّ مضى يتحدّثُ عن طبقاتِ النّاسِ وفئاتهم، ويوزّعُ على كلٍّ منهم مسؤوليّتهُ التي أناطها اللهُ عزَّ وجلّ بعنقه، فالإنسان يتحمّلُ مسؤوليَّاتٍ منظّمةً تنظيماً عجيباً من قِبَلِ اللهِ عزَّ وجلّ، هو أولاً مسؤولٌ عن نفسه وذاته، ثمَّ هو في الدّرجةِ الثّانية مسؤولٌ عن أسرته وكلِّ من جعلَ اللهُ عزَّ وجلَّ رعايتهُم إليه، وهو ثالثاً مسؤولٌ عن أصدقائهِ وأقاربِهِ وذوي رحمِهِ الأباعد، وهو رابعاً بالقدرِ الذي تطولهُ طاقتُه، وبالقدرِ الذي ينالهُ جاهه، مسؤولٌ عن أهلِ حيّه أو أهلِ بلدته، ثمَّ هو إن كانَ حاكماً أو عالماً، مسؤولٌ عن المجتمعِ الذي يعيشُ فيه أيضاً، وهكذا تنتشرُ شبكةُ المسؤوليّة التي أقامها اللهُ عزَّ وجلّ بينَ عبادهِ عندما يعلنونَ أنهم مسلمونَ للهِ عزَّ وجل، لا يوجدُ في المجتمعِ الإسلاميّ شخصٌ يدّعي أنّهُ مسلمٌ بصدق، ثمَّ يخرجُ من سلطانِ هذه المسؤوليّة ليعكفَ على النّظر في ذاته ويجترُّ الرّقابةَ على كيانهِ فقط.

انظروا إلى المصطفى عليهِ الصّلاةُ والسّلام عندما جاءَتهُ النّبوّة، أوَّلُ ما كلّفهُ اللهُ عزَّ وجلَّ به: هو أن يؤمنَ بذاته، وأن يعلمَ أنّهُ نبيٌّ مرسل، وأنَّ هذا الذي يأتيهِ إنما هو رسولٌ من عندِ الله، أنه جبريل مَلَكٌ من ملائكةِ اللهِ عزَّ وجلّ.

حتّى إذا آمنَ سيّدُنا محمّدٌ بذاته نبيّاً مرسلاً، وأدّى هذه المسؤوليّةَ في حقِّ نفسه، كلّفهُ اللهُ عزَّ وجلّ أن ينقلَ هذه المهمّة إلى ذويه، إلى أسرتهِ وأقاربه، فذهبَ للتّو وجمعَ أقاربهُ ونظرَ إليهم واحداً واحداً، يقولُ لكلِّ فردٍ فردٍ منهم: «يا بني عبد المطلب اشتروا أنفسكم من الله، فإني لا أملكُ لكم من اللهِ شيئاً، يا بني هاشم اشتروا انفسكم من الله فإني لا أملكُ لكم من اللهِ شيئاً، يا فاطمةَ بنتَ محمّد اشتري نفسكِ من الله فإني لا أملكُ لكِ من اللهِ شيئاً إلا رحماً وسأبلها ببلالها» إلا صلةَ رحمٍ أعطيها حقّها ما استطعت.

وهكذا قامَ رسولُ اللهِ وهو رسول، بمسؤوليّتهِ تجاهَ أسرته، تجاهَ أهليهِ وأولادهِ وعشيرته. ثمَّ نهض إلى الواجبِ الثّالث، إلى المسؤوليّةِ الأوسع: فراحَ يدعو النّاسَ جميعاً إلى اللهِ عزَّ وجلّ، واسمعوا في هذا بيانَ الله، الذي نقرؤهُ صباحَ مساء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ خطابٌ تنخلعُ لهُ القلوب عندَما يتأمّلُ الإنسانُ هذا الأمرَ الرّبّانيّ المنزّل علينا من عند خالقنا وبارئنا، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ﴾ زوجاتكم، أولادَكم، بناتِكم، ﴿قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً﴾ ناراً وأيَّ نار. يصفُها اللهُ عزَّ وجلَّ في هذه المناسبةِ فيقول: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾، تتّقدُ بالحجارة. ترى أيُّ نارٍ هذه!؟ التي تتّقدُ بدلاً من الحطبِ بالحجارةِ الصّمّاء؟ ﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾،

لماذا هذا التّخويف؟ هل هو إلا تحذيرٌ ممن ينسى مسؤوليّتهُ تجاهَ أهله، تجاهَ أولادهِ وذرّيّته، ثمَّ يزعمُ أنّهُ قد أدّى حقَّ اللهِ بحقِّ نفسه، يحجُّ كلَّ عام، ويصومُ رمضان، ويقرأُ كلَّ يومٍ جزأينِ من القرآن، ويذكرُ اللهَ صباحَ مساء يعدُّها بسُبحَتِهِ عدّاً. وأسرتُك؟ أولادُك؟ بناتُك؟ أتظنُّ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ سينجيكَ من مسؤوليّتهم بشفاعةِ هذه السُّبحةِ التي تطقطقُ بحبّاتها؟ ألم تقرؤوا قولَ اللهِ عزَّ وجلّ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾، هل وقفتم يوماً ما عندَ هذه الكلمة؟: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا﴾، نحصي ما فعلوه ونحصي ما فعلهُ آثارهم، ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ ما معنى

وآثارهم؟ إذا ماتَ ابنُ آدم، فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يكونُ قد أحصى عليهِ عملهُ الذي قد قامَ به إن خيراً فخير وإن شرّاً فشرّ، ولكنَّ الحسابَ لم ينقطع. يُسجّلُ اللهُ عليهِ أو لهُ ما ينبثق من آثاره من بعده، وأثرهُ أولادُه، بناتُه، ذرّيّتُه.

كم من إنسانٍ مدفونٍ تحتَ الثّرى قدِ انقطعَ حظُّهُ من العملِ الصَالح أو العملِ السّيّء، ولكنَّ صفحاتهِ يُسَجَّلُ عليها سوادٌ أو بياض، يأتيهِ الحسابُ الجاري من فوقِ الأرض، من الآثارِ التي تركها من بعده، من ذرّيّتهِ وأولادهِ وأطفاله، فلينظُر أحدُنا عندما يودّعُ الدّنيا كيفَ تركَ هذه الذّريّةَ وهؤلاءِ الأولادَ أوِ البنات؟ إن كانَ قد ربّاهم تربيةً صالحة، ونشّأهم على عينِ اللهِ عزَّ وجلَّ وكما يريدُ المولى، ثمَّ قال لهم لقد أعتقتُ رقبتي من مسؤوليّتكم وربّيتكم كما طلبَ منّي الباري عزَّ وجلّ، فدونكم وسيروا في فجاجِ الحياة، ثمَّ رحلَ منَ الدّنيا واستقرَّ في قبره، فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يرسلُ إليهِ المثوبةَ تلوَ المثوبة، يرسلُ إليهِ الأعمالَ الصّالحةَ تلوَ الصّالحة وهو ميِّت، لأنَّ أعمالَ أولادِهِ البررة تُكتبُ حسناتها لأبويهِ قبلَ أن تُكتَبَ له.

وأمّا إذا كانَ هذا الإنسانُ قد غفلَ عن أولادهِ وبناته، تركَ أولادهُ يسرحونَ ويمرحون في ظلماتِ هذه الحياةِ الدّاكنة، وتركَ بناته لقماً لفريسةِ شياطينِ الإنسِ أوِ الجن، تركهم ينسونَ اللهَ عزَّ وجلّ، يتقلّبونَ في الملهياتِ والمنسيات، يتقلّبون فيما تعرفونَ وترونَ من مظاهرِ العُري، ومظاهرِ الزّينة التي نهى اللهُ عزَّ وجلَّ عنها، حالَ دونهُ ودونَ القيامِ بمسؤوليّتهِ ما يزعُمهُ من عطفٍ على أولادهِ وبناته، وأيُّ عطفٍ هذا الذي سيلجُّ بهم وبهنَّ في عذابِ اللهِ عزَّ وجلَّ ومقته، وأيُّ عطفٍ هذا الذي سيجعلُكَ يا أيّها الوالد فريسةً لعذابٍ لا نهايةَ له، هذا معنى قولِ اللهِ عزَّ وجلّ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾، هذا الإنسان صحيحٌ أنّهُ قد حجَّ وصام وصلّى وذكرَ الله، ولكنّهُ يجدُ وهو مستقرٌّ في قبره أنَّ ظلماتٍ من الآثامِ تتمطّرُ عليه، من أينَ يأتي هذا؟ لقد انقطعت أعماله ومات، نعم إنها تأتيه من لدن أولاده وبناته الذين انحرفوا سلوكاً واعتقاداً، واللائي انحرفنَ سلوكاً أو مظهراً أو اعتقاداً.

ينبغي للمؤمنِ أن يعلمَ هذا، ديننا الإسلاميُّ دينُ مسؤوليّة، دينُ تضامنٍ وتكافل، إنَّ اللهَ عزّ وجلّ يؤاخذُ الفرد عن نفسه، وعن أسرته، وعن أصدقائه، وعن كلِّ من يلوذُون به. ولو أنَّ المسلمين قاموا بعُشرِ المسؤوليّةِ هذه التي ألقاها اللهُ على كاهلهم، لصلَحَ المجتمعُ الإسلامي في أيِّ زمانٍ كانَ وفي أيِّ مكان،

ولاستراحَ الحاكم عندما يريدُ أن يُصلحَ فلا يستطيع، ولعجزَ الحاكم عندما يريد أن يعوجَّ الأمرُ فلا يستطيع، لا الذي يريد أن يفسد يستطيعُ أن يفسد، ولا الذي يريدُ أن يصلح يُعجزهُ شيءٌ عن أن يصلح.

ولكنَّ المسلمينَ اليومَ ساهونَ سادرون عن هذا الواجبِ الملقى على أعناقهم، لا ينهضونَ بأيِّ مسؤوليّةٍ كلّفهم اللهُ سبحانهُ وتعالى بها، ويظنُّ الواحدُ منّا أنّهُ إذا جلسَ في غرفته آمناً مطمئناً إلى أنّهُ يؤدّي أورادهُ، ويقرأُ قرآنه، ويحجُّ كلَّ عام، ويفعلُ الأعمالَ الخاصّةَ به، فإنَّ اللهَ لا يسألهُ عن أولادهِ وبناته، من قالَ لك هذا؟ ألم تسمعِ الحديثَ الصّحيح عن يومِ القيامة.

عندما يكونُ الرّجلُ واقفاً في عرصات يومِ القيامة، وهو يذكرُ أعمالهُ المبرورةَ التي قدّمَ بها، وإذا بأولادهِ وبناته وذرّيّته يأخذونَ بحججه، يشدّونهُ شدّاً وينترونهُ نتراً إلى الله، يقولونَ لهُ: يا ربّنا خذ حقّنا من هذا، لم ينصحنا عندما أمرتَهُ أن ينصح، ولم يأمرنا عندما أمرتَهُ أن يأمر، ولم يربّنا عندما أمرتّهُ أن يربّي، ولا تجدي دعوى هذا الأبِ في ذلكَ الموقف، أن يقولَ: يا ربّ، لقد كنتُ آمرهم فلا يأتمرون، وقد كنتُ أطلبُ من ابنتي التي بلغت السّادسةَ عشرَ من عمرها أن تتستّرَ فما كانت تتستّر. هذا كلامٌ لغوٌ وباطل إنسانٌ مثلُكَ لا يقبله، فضلاً عن أن يقبلهُ ربُّك الذي أسلمكَ هذا الطّفل وهو معجونٌ بفطرةِ الإسلام، وكلّفكَ اللهُ أن تَرقُبهُ وأن ترعاه منذُ أن تزوّجتَ أمّه لا منذُ أن وُلِدَ هو.

كلّفكَ اللهُ بأن تبدأ برنامجَ تربيةٍ لأولادك منذُ أن تفكّر في الزّواج ثمَّ منذُ أن يولدَ هذا الولد ثمَّ إلى أن يشتدَّ عودهُ شيئاً فشيئاً، في كلِّ هذه المراحل لو أنّكَ أدّيت الرّكن الأساسيّ من المسؤوليّةِ التّربويّةِ التي كلّفكَ اللهُ عزَّ وجلّ بها لرأيتَ أولادكَ خيراً منك، ولرأيتَ بناتك ينهضنَ إلى السّترِ والصّيانةِ والتّديّنِ أكثرَ مما تنهضُ أنت، لأنَّ كلَّ مولودٍ يولَدُ على الفطرة. ولكنّكَ أعرضت، ثمَّ أعرضت، ثمَّ أعرضت، حتّى إذا اشتدَّ هذا الطّفل وحتّى إذا نمى عودُه، واستيبسَ غصنُ كيانه، عندئذٍ أخذتَ تتذكّر أنَّ عليكَ أن تربّي، ولكنَّ الشّياطينَ سبقوك، سبقوكَ فربّوه على أعينهم، ووضعوه في قالبٍ منحرف، فكيفَ تقوّمُ ما استقامَ منحرفاً؟ كيفَ تقوّمُ ما استصلبَ منحرفاً؟لقد فاتَ الأوان، والصيف ضيعت اللبن كما يقولُ المثلُ العربيّ، ولن تنجو من مسؤوليّةٍ خطيرةٍ يومَ القيامةِ أمامَ اللهِ عزَّ وجلّ غداً، وإنَّ غداً لناظرهِ قريب.

أقولُ قولي هذا وأستغفرُ اللهَ العظيم.



٢٥٦- عندما غابت المرجعية | ١٩٩٨/٠٩/١٨

إن أساس هذا الدين الذي هو الدين الذي ابتعث الله به الرسل والأنبياء جميعاً إنما هو العلم. فلم ينهض الإسلام في عصرٍ من العصور نهضةً سليمةً مستقيمةً قويمةً إلا بواسطة العلم، وكلما كانت الأمة أكثر عكوفاً على معرفة دين الله عز وجل من خلال موازين العلم كانت هذه الأمة أكثر استقامةً على صراط الله سبحانه وتعالى، ومن ثم فقد كانت أكثر منعة وأمضى قوةً وأكثر عزة، وكلما كانت هذه الأمة أكثر إعراضاً عن موازين العلم التي هي أساس هذا الدين كما قلنا، عادت هذه الأمة القهقرى وعادت إلى ما كانت عليه ذات يوم من الذل والمهانة والتفرق والشتات.

وإنكم جميعاً تقرأون كتاب الله سبحانه وتعالى، أو ينبغي أن تقرأوا كتاب الله سبحانه وتعالى وتربطوا حياتكم دائماً بهذا الكتاب، فمن كان على صلة مستمرة بكتاب الله عز وجل علم هذه الحقيقة وعلم أن المحور الذي تدور عليه حقائق هذا الدين إنما هو العلم، وإذا كانت هنالك أديان شتى تأخذ أحكامها من الأمزجة ومن الشهوات والأهواء والمصالح الشكلية المتطورة، فإن المحور الأساسي لهذا الدين إنما هو العلم، ومن ثم فإن العلم هو الذي يكشف عن المصالح الحقيقية للإنسان ويميز هذه المصالح عما قد يلتبس بها من المضار والمفاسد المختلفة.

وأنا أعلم أن في المسلمين جمهرة كبرى تدرك هذه الحقيقة وتتجه لا سيما في هذا العصر ولا سيما في هذه البلدة إلى كتاب الله سبحانه وتعالى وسنة رسوله تتفقه في دينها عن طريق هذين المصدرين. وأنا أعلم أن هنالك لا مئات بل آلافاً من أصحاب الوظائف المتنوعة من الذين لا يحتاجون إلى شهادةٍ علمية يستثمرونها من أجل مصالحهم الدنيوية ولكنهم مع ذلك ينفقون الكثير من أوقاتهم في سبيل تعلم دين الله عز وجل، أعلم هذه الحقيقة.

ولكن هنالك مشكلةً أخرى، فيما مضى كانت هنالك مرجعية هي التي تنطق باسم كتاب الله سبحانه وتعالى، هي التي تفتي إذا استفتى الناس وهي تحل المشكلات العلمية إذا تساءل الناس عن هذه المشكلات وحلها، كانت هذه المرجعية هي المعتمدة ومن ثم فقد كانت هي الناطقة، وكانت هذه المرجعية

قد توفرت فيها الشروط كلها من العلم الغزير الجم، والإخلاص لدين الله سبحانه وتعالى، والتسامي فوق الشهوات والأهواء وفوق التعامل بالدين من أجل الدنيا، ومن ثم فقد كان الناس في مأمن وطمأنينة من أن تلتبس عليهم الحقائق باسم العلم، ومن أن تلتبس عليهم الأحكام المزاجية بالأحكام المنبثقة من حقائق العلم بكتاب الله سبحانه وتعالى، وكانت هذه المرجعية مكلوءة بعناية الدولة الإسلامية التي كانت مهمتها الأولى رعاية دين الله عز وجل.

أما اليوم فقد غاضت وغابت هذه المرجعية المعتمدة، لم تعد هنالك مرجعية تتصف بالإخلاص لدين الله والعلم الغزير الجم بكتاب الله وسنة رسوله والشروح التي تستتبع ذلك، غابت هذه المرجعية ومن ثم فقد غدا كل لسانٍ ذا حرية في أن ينطق باسم الإسلام، غدا كل من يدعي أنه قد غدا وأصبح من العلماء أصبح ذا حقٍ في أن يفتي إذا استفتي وفي أن يفند الفتاوى التي لا تعجبه، وفي أن يذهب يميناً وشمالاً في تصور الإسلام كما يشاء، يسير وراء ذلك بدافعٍ من مزاجه، ولكنه يغلف هذا المزاج بالدلائل العلمية والموازين العلمية المنطقية.

كثر في الناس اليوم بعد أن غابت تلك المرجعية هؤلاء الذين تتدجى بهم المجتمعات الإسلامية، ومن ثم ؤ لا يعلمون ولهم الحق أن لا يعلمون، ذلك لأن المرجعية التي كانت تحمل الشهادة بأنها الفئة المخلصة لدين الله التي بلغت من العلم درجةً تملك بها أن تفتي إذا استفتيت وتملك أن تجيب عن الأسئلة وانتشرت الثقة بها في المجتمع كله، هذه المرجعية غابت.

هذه المشكلة أيها الإخوة هي المشكلة الكبرى التي يقوم ويقعد بها المجتمع الإنساني الإسلامي لا في هذه البلدة وحدها بل في كثير من البلاد الإسلامية التي تحيط بنا، ولقد كان من آثار هذا الواقع أن كثيراً من العلماء – الذين هم علماء حقاً – والذين هم أهلٌ لأن يجيبوا إذا سُئلوا، ولأن يبينوا إذا استفتوا، أصبح كثير من هؤلاء الناس يتخوفون من ألسنة الآخرين الذين لا يعجبهم إلا الإسلام المزاجي لا يعجبهم إلا الإسلام الذي يمر من أقنية رغباتهم الذي يمر من أقنية شهواتهم وأهوائهم وأمزجتهم.

العالم الذي إذا سُئل أراد أن يجيب فكر ملياً ترى ماذا سيقف مني هؤلاء العوام الذين يَزِنون العلم بموازين الأمزجة الذين يزينون الحقائق العلمية الصريحة الواضحة في كتاب الله أو في سنة رسول الله أو في

القواعد المتفق عليها في دين الله عز وجل. ترى ماذا عسى أن يكون موقف هؤلاء المزاجيين؟ إنهم سينكرون. . إنهم سيثورون ويهتاجون. . وما أكثر الذين يتلجلج منهم اللسان خوفاً من هؤلاء الرقباء، وما أكثر الذين يغيرون أحكام الله عز وجل وهم يعلمون أنهم يغيرونها خوفاً من ألسنة هؤلاء الناس.

وكم قيل لأناس من هؤلاء الناس كيف تجيبون عن هذه الأسئلة بهذا الشكل ودين الله ينطق بعكس ذلك؟ فماذا يكون الجواب؟ يكون الجواب أن الناس لا يتقبلون إلا هذا، وأن الناس لا يمكن أن يتقبلوا الحق الذي يوجد في بطون الكتب الفقهية، سيثورون ولسوف ينهشون لحمي إن في غيبتي وإن أمامي، إذاً فينبغي أن أغير دين الله في سبيل أمزجة الناس، هذا جزءٌ مما آل إليه وضعنا أيها الإخوة في هذا العصر.

وأنا كنت ولا أزال أعزي نفسي وأرغب لكل أخ مسلم كان له نصيب من العلم بدين الله عز وجل أن يعزي نفسه بهذا الحديث النبوي القدسي العالي، وأن يسير على نهج هذا الحديث وأن يعض عليه بالنواجذ، يقول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه الترمذي وغيره من حديث عائشة: ﴿مَنِ الْتَمَسَ رِضَاءَ النَّاسِ بِسَخَطِ اللَّهِ وَكَلَهُ اللَّهُ إِلَى النَّاسِ، وَ مَنِ الْتَمَسَ رِضَاءَ اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ اللَّهُ مُؤْنَةَ النَّاسِ﴾ هذا هو العزاء عندما تجد أن الإسلام المزاجي قد كثر وأن العلم قد سُخِّر عند كثيرٍ من الناس للإسلام المزاجي، بل أكاد أقول: عندما تجد أن حقائق العلم بكتاب الله قد غدت أشبه ما تكون بالكرة التي يتقاذفها الرجال بأقدامهم فيما بينهم في سبيل أن تنتصر الأمزجة وفي سبيل أن تنتصر الأفكار والرغائب، وما أكثر ما تكون الرغائب من أجل مصالح وشهوات آنية، عندما تجد المجتمع قد آل حاله إلى هذا الأمر فقف تحت مظلة هذا الحديث وكن من الفريق الثاني لا من الفريق الأول. ﴿مَنِ الْتَمَسَ رِضَاءَ النَّاسِ بِسَخَطِ اللَّهِ وَكَلَهُ اللَّهُ إِلَى النَّاسِ﴾.

إياك أن تكون من هؤلاء الناس واعلم أن قلوب العباد بين اصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، إن سخط الناس عليك اليوم في سبيل الله فلسوف يرضيهم الله عز وجل عنك غداً، ولكن اصبر غير أنك إن ضحيت بما تعلم وما تتيقنه من أوامر الله سبحانه وتعالى ونواهييه ومن قواعد الشريعة الإسلامية كما هي ثابتةٌ مقررةٌ في بطون كتب الشريعة الإسلامية وعلى ألسن أئمتها الموثوقين، عندما تُضحي بهذه الحقائق في سبيل أن يرضى الناس عنك فلا والله ستجد نفسك في مآلٍ افتقدت فيه رضى الناس وافتقدت فيه رضى الله سبحانه وتعالى.

هذه جزءٌ من المشكلات المدلهمة التي عصفت بواقع حياتنا الإسلامي، العلم أيها الإخوة كانت له مرجعية معتمدة وكان الناس في ظل هذه المرجعية مطمئنين آمنين غابت هذه المرجعية أصبح لكلٍ أن يتلكم كما يشاء اعتماداً على ظاهرٍ وغلافٍ من العلم ولكنه بالواقع اعتمادٌ على الأمزجة والرغائب والنظريات والشهوات والاجتهادات الشخصية، تمزق العلم بل مزق هذه العلم حقائق هذا الدين، وبدا الدين من خلال ذلك مذاهب شتى بعد أن كان مذهباً واحداً وحقيقةً واحدة، ولكن فلنحاول أن نُذيب هذه المشكلة بالإخلاص لدين الله عز وجل، الإخلاص فيه حل معظم مشاكلنا، عندما أكون مخلصاً لله لا يمكن أن أجعل من مزاجي قائداً لديني، يستحيل لا يمكن أن أجعل العلم مطية لرغائبي وشهواتي، ذلك لأن الإخلاص سيحجزني عن ذلك. أسأل الله سبحانه وتعالى أن ينتشلنا من واقعنا هذا بحلٍ هو أدرى به، وهو القادر على أن ينجدنا بهذا الحل وأسأله عز وجل أن يرقى بنا إلى أن نكون أهلاً لاستجابة دعائنا هذا.



أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

٢٥٧- لهذا خُلقنا ... | ١٩٩٩/٠٧/٢٣

إن مثل كثيرٍ من الناس الذين خلقهم الله سبحانه وتعالى في هذه الحياة الدنيا ومتعهم بعمرٍ من الزمن – طويلٍ أو قصير – ليقوموا بمهمةٍ معينةٍ بيّنها لهم وكلفهم بها، ثم إنهم أعرضوا عن هذه المهمة وتشاغلوا بالنعم والمنح التي متعهم الله عز وجل بها، مثل هؤلاء الناس كمثل ملكٍ عظيم أو رئيس دولة أرسل رجلاً من حاشيته وأعيانه إلى بلدةٍ ما ليقوم بمهمةٍ ذات أهمية كبرى في نظره، لم يدخر هذا الملك سبباً من أسباب الراحة إلا وهيأها له، هيّأ له المنزل الفاره في تلك البلدة، هيأ له الرزق الوفير، هيأ له أسباب الأمن والطمأنينة من أجل أن يسخر ذلك كله للقيام بالمهمة التي أرسله لإنجازها، فلما وصل هذا الرجل إلى البلدة التي أُرسل إليها ورأى النعيم الذي هيأه له ذلك الملك له، ونظر إلى أسباب المتع التي توفرت له ركن إلى ذلك كله ونسي المهمة التي قد أوفد من أجلها، فاتخذ من المنزل الفاره الذي سخره له ذلك الملك مقراً ومستوطناً له، واتخذ من الرزق الوفير وأسباب الراحة والمتع الكثيرة سكراً أسكره عن المهمة التي كلفه الملك بها، نسي الملك ونسي المهمة وركن إلى هذه النعم التي سخرت له وعانقها وعانقته، وبقي هناك إلى غير رجعة.

هذا واقع كثيرٍ بل أكثر الناس الذين أوفدهم الله عز وجل من عالم الغيب إلى هذه الحياة الدنيا لمهمةٍ أعلن عنها بيان الله قائلاً: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ، مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾، وكم في كتاب الله عز وجل من آيات تحمل الإنسان هذه المهمة وتعرفه بوظيفته في هذه الحياة: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾.

والعجب أيها الإخوة من إنسانٍ رأى نعم الله تترى، ورأى الرزق يفد إليه من كل جانب، ورأى أسباب المتع تتفجر بين يديه ومن خلفه من أجل أن يستعين هذا الإنسان بذلك كله فيكون باراً بربه، ويستخدم ذلك كله للوظيفة التي خُلق من أجلها والتي ينبغي أن يجعل من عمره رأس مالٍ لإنجازها، عجباً

لهذا الإنسان كيف يركن إلى الواسطة وينسى الغاية!؟ يركن إلى الدنيا التي جعلها الله مطيةً له وينسى الوظيفة التي كلفه الله عز وجل بها!؟

انظروا إلى حال أكثر الناس المسلمين – ولا أقول عن غير المسلمين – الذين يتحركون في جنبات الأرض تجد أن كلاً منهم قد وضع نصب عينيه حياته الدنيوية، وظائفه ماله سكنه تحسن وضعه المعاشي. . . كل ما يتعلق بأسباب الرفاه والنعيم وانظر إلى الناس الكثيرين تجد أنهم يتنافسون على هذا الطريق، يتنافسون على طريق تحسين الوضع المعيشي، يتنافسون على طريق الوصول إلى أكبر قدرٍ من المتع في هذا يتنافسون، بينما يقول الله عز وجل عن المهمة التي خُلق الإنسان من أجلها: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾.

ما عاقبة إنسانٍ كان سائراً على هذا النحو سادراً في غيه على هذا النهج، يأتيه الرزق من عند الله ليزداد قياماً بالوظيفة التي سخره الله عز وجل بها، كلما ازدادت النعم ازداد إعراضاً عن المهمة التي وظّفه الله بها ومعانقة للوسائل والوسائط التي متعه الله عز وجل بها.

أيها الإخوة ما ينبغي أن يكون الإنسان عبداً لئيماً تجاه ربه سبحانه وتعالى، وما ينبغي للإنسان أن يمد يده فيلتقط اللقمة والنعمة ورغد العيش من ربه حتى إذا لاحقه الله عز وجل ليسأله ماذا فعلت بالمهمة التي أرسلتك إليها؟ أصم أذنيه وأعمى عينيه وجعل من نفسه جداراً لا يعي ولا يدرك ولا يسمع، يدرك كل شيء عندما تدعوه ملاذه وعندما تدعوه أسباب متعه إلى أن يزداد إقبالاً إلى الدنيا ومعانقةً لها وتعميقاً لأسباب عيشه ورفاهيته، يُعمل عقله كأذكى إنسان يُعمل وعيه كأكثر ما يتمتع به إنسان من حساسية، حتى إذا لاحقه خطاب الله حتى إذا لاحقه بيان الله جعل من نفسه كهذا الجدار لا يعي شيئاً.

كثيرٌ من هؤلاء أيها الإخوة إذا جلست تحدثهم عن الدنيا ومعايشها وأسبابها وطبائعها حدثك في ذلك حديث عارفٍ دقيقٍ بصيرٍ بهذه الأمور كلها، حتى إذا سألته عن ربه عن دينه عن المهمة التي خُلق من أجلها إذا به لا يعي من ذلك كله شيئاً، وكأنه يقول لك بلسان الحال أنا لست متخصصاً في هذا الذي تسألني عنه، أنا لست متخصصاً في الدين، أنا إنسان متخصص بطعامي الذي آكله بشرابي الذي

أبحث عنه، بداري التي أريد أن أجد فيها كل أسباب المتع والرفاهية. مالك تسألني في موضوعٍ لا شأن لي به ولا خبرة لي به؟

لماذا خُلقت؟ لماذا أوجدك الله فوق هذه الأرض؟ بل لماذا سخر لك الله عز وجل سماؤه وأرضه وأنعامه ورزقه ونباته لماذا؟ من أجل هذا الذي تحاول أن تجعل من نفسك منفصلاً عنه وتجعل من نفسك إنساناً لا علاقة لك به. كل علاقتك مع هذا هذا هو الأمر الذي خلقت من أجله، وعما قليل ينقضي العمر وتنطوي أيامه ويأتي ملك الموت ليقول له: انتهت جلسة الامتحان في قاعتها الواسعة الكبرى في هذا العالم، وحان أن آخذ منك صحيفة أعمالك وأن أرحلك إلى الله سبحانه وتعالى وهنالك الحساب والنظر، ماذا تقول له يا ابن آدم؟

أتقول له: لقد عمرت كذا من البيوت والدور؟ أتقول له: لقد جبت الأرض كلها في سبيل مزيد من الرزق وفي سبيل مزيد من المال؟ أفتقول له: لقد عرق الجبين مني في سبيل طعامي وشرابي ورفاهيتي؟ أمستعدٌ أن تقول هذا الكلام لمولاك وخالقك؟

أيها الإخوة الله سبحانه وتعالى قد أمر الدنيا كلها أن تخدم الإنسان الذي وعى وظيفته وجعل من نفسه لأمر الله، خادماً للوظيفة التي كلفه الله عز وجل بها، مثل هذا الإنسان لابد أن تكون الدنيا سائرة ورائه خادمةً له بالنهج الذي يصلحه ولا يطغيه. أما الإنسان الذي أعرض عن الوظيفة التي خلقه الله عز وجل من أجلها وعانق الوسيلة، عانق الأسباب والوسائط ونسي الله وأوامره، فإن الله عز وجل قضى بسنته التي لا تتبدل أن يجعل منه خادماً للدنيا، وأن يجعل من الدنيا مخدومة له.

انظر إليه تجده يعرق ينصب تجده ينقذف من يمين إلى شمال، والعكس تجده يجوب أطراف الدنيا كلها من أجل رزقه، من أجل طعامه وشرابه الذي ضمنه الله سبحانه وتعالى له، أجل ولكن انظر إلى واقعه تجد أن السعادة قد زايلته وتجد أن الأمن والطمأنينة قد انفصل كلٌ منهما عنه، وانظر إليه تجد أنه قد غدا هو الخادم للدنيا وأصبحت الدنيا هي المخدومة له، ورحم الله ابن عطاء الله السكندري إذ يقول: اجتهادك فيما ضُمن لك وتقصيرك فيما طلب منك دليل على انطماس البصيرة منك.

غداً ستنقضي الحياة أيها الإخوة، غداً سننفض أيدينا ومشاعرنا من هذه الحياة التي نتمتع بها، وليس فينا من يعلم هذا الغد متى سيكون. بعد لحظة. . بعد دقائق. . أو بعد أشهر. . أو بعد سنوات. . وإذا نفضنا أيدينا من متع الدنيا ورحلنا إلى الله عز وجل عندئذٍ نعلم تفاهة هذه الدنيا التي وضعناها فوق رؤوسنا، وجعلنا من أنفسنا خداماً لها، وعظم أمر الآخرة الذي وضعنا تحت أقدامنا، وبالمناسبات أصبحنا نتحدث عن هذا الأمر الخطير، من أجل هذا خلقنا أيها الإخوة. أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.



٢٥٨- فطرة الله | ٢٠٠٨/٠٦/١٣

ما من مولود من بني آدم يُخْلَق إلا وقد جهزه الله سبحانه وتعالى بفطرتين اثنتين، أولاهما فطرة الإيمان بالله سبحانه وتعالى والركون إلى مشاعر العبودية للخالق الأوحد جل جلاله، الثانية فطرة الغرائز الحيوانية التي أودعها الله عز وجل أيضاً بين جوانح الإنسان، وكلا الفطرتين تكون راقدة تنتظر المناخ المناسب ليقظتها، وكلنا نقرأ في هذا قول الله عز وجل ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس:٧-٨]، ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ، وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ، وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ٨-١٠]، هما كناية عن هاتين الفطرتين اللتين أحدثكم عنهما.

فأما الفطرة الإيمانية فإنما الذي يوقظها في كيان الإنسان إنما هو التربية الدينية المثلى، فإذا تلقى الإنسان من مجتمعه هذه التربية الدينية الصحيحة من خلال عواملها المعروفة وأبرزها البيت والمدرسة والإعلام فإن هذا الإنسان يُتاحُ له عندئذٍ أن يقف أمام مرآة ذاته وأن يتعرف على نفسه عبداً مملوكاً خاضعاً لسلطان الله سبحانه وتعالى وأن يتعرف على مولاه وخالقه إلهاً واحداً لا شريك له وعندئذٍ تستيقظ فطرته الإيمانية بين جوانحه بعد أن كانت برعماً ينتظر المناخ الملائم، هذا الإنسان الذي أتيح له أن يتلقى هذه التربية الإيمانية المثلى يتحول إلى ملك يمشي على الأرض، تتفجر بين جوانحه الأخلاق الإنسانية الراشدة، يتصف بالأمانة ولا يمكن أن يركن إلى أي لون من ألوان الخيانة، يركن إلى الصلاح والإصلاح ولا يمكن أن يميل إلى أي لون من ألوان الفساد أو الإفساد، يؤثر الآخرين على نفسه ولا يستأثر لنفسه مضحياً بالآخرين، يضحي بمصالحه الذاتية في سبيل مرضاة ربه، في سبيل حماية أرضه ووطنه وحماية أمته، هكذا تفعل الفطرة الإيمانية في كيان صاحبها ولكن بعدما تستيقظ، وإنما الذي يوقظها كما قلت لكم المناخ التربوي الملائم وقد قلت إن للتربية عوامل كثيرة من أبرزها البيت والمدرسة والإعلام.

أما الذي لم تتهيأ له هذه التربية ومضى في حياته قُدُمَاً وإنها لتُعْوُزهُ وهو بعيد عنها فلسوف تبقى هذه الفطرة الإيمانية راقدة بين جوانحه وإنما الذي يستيقظ فطرة الغرائز الحيوانية المهتاجة التي ابتلانا الله

سبحانه وتعالى جميعاً بها، وهكذا فإن هذه الغرائز الحيوانية تستبد بصاحبها إن لم يجد غذاءه التربوي الذي يحرره منها، يستبد ويصبح عوناً لمصالحه الشخصية، يستأثر بدلاً من أن يؤثر، يضحي بالبلد والأرض والوطن في سبيل عرض من الدنيا قليل، يسيل لعابه وراء كل ما تهفو إليه نفسه من الملاذ والأهواء والشهوات المنحطة، وهكذا يصبح هذا الإنسان وبالاً على نفسه ووبالاً على مجتمعه.

يا عباد الله هذه حقيقة لا يرتاب فيها أحد، والواقع المجرب قديماً وفي هذه العصور الراهنة أكبر شاهد على ما أقول، وإن أردنا أن نضع أمام أبصارنا وبصائرنا البرهان الساطع الذي يبرز ويجسد هذه الحقيقة فتعالوا إلى هذا المثل الواقعي المتكرر في سائر المجتمعات، رجل يملك مؤسسة مالية كبرى يبحث عن موظف يكون أميناً لصندوقه المالي، وأقبل إليه الكثيرون يعرضون له خدماتهم، فيهم ملحد لا يؤمن بالله واليوم الآخر ولكنه يتمتع بخبرات تؤهله لهذه الوظيفة، ولعل صاحب هذه المؤسسة هو الآخر لا يقيم للدين وزناً بل لعله ملحد من الملاحدة، وينظر فيجد إلى جانبه إنساناً آخر لعله يتمتع بخبرة أقل من الناحية الفنية لكنه يتفحصه وإذا هو مؤمن بالله عز وجل، وإذا هو مرتبط بمراقبة الله سبحانه وتعالى له، قد تلقى هذه التربية التي أحدثكم عنها فهو يضبط نفسه في تقلباته كلها بأمر الله عز وجل، من هو الذي سيختاره رب هذه المؤسسة ولعله يكون ملحداً؟

كلكم يعلم الجواب، إنه لا يختار إلا هذا الإنسان المتدين الملتزم على الرغم من أنه هو شخصياً لا يقيم للدين وزناً، ذلك لأنه يعلم أن من اتصف بصفات العبودية لله ووضع عبوديته لله موضع التنفيذ وعاش حياته وهو يراقب الله الذي يراقبه، يعلم أن هذا الإنسان لن يخونه، يعلم أن هذا الإنسان لن يغدر به، أما ذلك الآخر فهما بلغت خبراته الفنية فإن عدم انضباطه بالمخافة من الله، إن عدم انضباطه بمراقبة الله عز وجل لابد أن يفرض عليه أن يقدم حظوظه الشخصية على مصالح الآخرين، وهي فلسفة كل إنسان إن تحرر من رقابة الله سبحانه وتعالى، هذا واقع مرئي يا عباد الله وهو دليل واضح على ما أقوله لكم، الفطرة الإيمانية عندما تستيقظ بين جوانح الإنسان، وسبيل استيقاظها كما قلت لكم إنما هي التربية الدينية المثلى، فإنما تنقل هذا الإنسان من حالٍ إلى حال، هذا الإنسان يصبح في كل تقلباته مع الله

سبحانه وتعالى، هذا الإنسان يضع نصب عينيه في كل ساعة من كل يوم أنه ربما سيرحل في نهاية هذا اليوم إلى الله عز وجل، يضع نصب عينية أن وقفةً تنتظره بين يدي الله عز وجل يحاسبه فيها على الكبير والصغير، أفترون أن هذا الإنسان وهو يعيش حياته هذه مرتبطاً برقابة الله عز وجل يمكن أن يخون أمته؟ يمكن أن ينحرف عن الصدق إلى النفاق؟ يمكن أن يخون وطنه؟ يمكن أن يمد يده إلى عرضٍ من الدنيا قليل، أجراً زهيداً لإعراضه عن مصالح بلده وأمته؟ حاشى، لا يمكن أن يكون ذلك قط.

ولكن الإنسان الآخر يا عباد الله منطقي مع نفسه عندما يلتفت يميناً وشمالاً فلا يرى سلطاناً غير سلطان غرائزه الحيوانية تقوده، لا يرى أمامه مصلحة ينبغي أن يسعى إليها إلا مصالحه الآنية العاجلة، شيء طبيعي أن يضحيَ بالمصالح الأخرى كلها في سبيل ذاته، في سبيل أهوائه، قد يبيعك كلاماً لذيذاً ممتعاً، قد يخدرك بأحاديث طنانة رنانة تدل على الحب والتضحية وما إلى ذلك ولكنه بعد أن يعرض عنك ويُقْبِلَ إلى شأنه وعمله تجده يمارس نقيض ذلك، وصدق الله القائل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ، وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ، وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [البقرة: ٢٠٤-٢٠٦]، هذا تصوير دقيق من كلام الله سبحانه وتعالى لهذه الحقيقة يا عباد الله.

وهكذا نتبين يا عباد الله من خلال هذه الحقيقة التي ألفت نظري وأنظاركم إليها أن الدولة الدينية عندما تتحقق بالضوابط الدينية القائمة على العلم وعلى الوعي معاً فإنما تقود أمتها إلى واحةٍ ظليلة تتحقق فيها المودة ويتحقق فيها الوحدة والنظام والوفاق، تاريخنا الأغر يدل على ذلك وواقعنا الذي نعيشه يدل على ذلك، ولكن هاهنا ساحة قد يسري عليها التباس بالنسبة لبعض الناس، للناس الذين يريدون أن يصطادوا بالماء العكر، هنالك فارق كبير يا عباد الله بين الدولة الدينية والدولة الطائفية، أما الدولة الدينية فهي تلك التي تلتزم هذا النهج الذي حدثتكم عنه، تقف بأمتها وكل فئاتها على اختلاف الدرجات والمراتب تحت مظلة الإيمان بالله والعبودية لله وترضع جيلها لبان التربية الإسلامية المثلى، هذه هي الدولة الدينية بالمعنى الذي رسمه لنا بيان الله عز وجل، هذه الدولة يقودها سلطان الدين إلى هذه الواحة الذي

حدثتكم عنها، واحة الود، واحة الألفة، واحة التلاقي على التعاون لمصلحة هذه الأمة، واحة الوفاق، ديننا يدعو إلى ذلك كله، أما الدولة الطائفية، وهي الدولة التي تظل قوى الشر تنفخ في أوارها فإنما تقود أصحابها إلى حياة من الخصام والشقاق وإلى هرج ومرج بين المذاهب والأديان المختلفة ومن ثم يتبدد الوطن وتتبدد مصالح الأمة في ضرام هذا الاختلاف وهذا الشقاق، فرق كفرق ما بين السماء والأرض بين هذين الأمرين.

يا عباد الله الدين الذي تصطبغ به الأمة متمثلة في قادتها ومتمثلة في شعوبها لا يمكن أن تفتح باب الشقاق بين أفرادها وفئاتها ما اختلفت منهم المذاهب، لا يمكن، هذا الدين لا يمكن إلا أن يحقق نسيج الألفة، نسيج الوحدة والتضامن على أساس من الجذع الجامع، جذع الوحدة الإيمانية التي تشكل الجامع المشترك بين هذه الفئات كلها، والوعي الديني والإيماني الراسخان المعتَمَدَان على العلم هما الضمانة لهذه الحقيقة التي أقولها لكم، أما الركون إلى الطائفية ونسيان وصايا كتاب الله سبحانه وتعالى ونسيان وصايا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم فذلك هو الذي يبعث على الهرج والمرج، ذلكم هو الذي يبدد قوة الأمة ويحيلها إلى ضعف، ذلك هو الذي يبدد وحدة الأمة ويحيلها إلى شقاق، نعم، ورأس مال البغاة والطغاة الذين يتربصون بمصالحنا ومبادئنا هو إثارة هذا الشقاق وهذا الخصام، أما موقف الدين الحق الذي ابتعث الله به الرسل والأنبياء جميعاً فهو سد الثغرات، هو جمع الشمل، هو إزالة أسباب الشقاق، وتاريخنا الأغر خير شاهد على هذه الحقيقة التي أقولها لكم، أسأل الله سبحانه وتعالى أن يهيأ لنا أسباب يقظة فطرتنا الإيمانية الإسلامية حتى تتغلب، ولا أقول تقضي، حتى تتغلب على طبيعة الغرائز الحيوانية والشهوانية المتوضعة في كياناتنا، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

٢٥٩- صلاح الأمة وفسادها | 2008/07/18

إن من الحقائق التي لا تقبل الريب أن صلاح الأمة، أياً كانت، رهن برسوخ هويتها وأن فساد الأمة، أياً كانت، رهن بضياع هويتها ومن ثم فإن الاهتمام بالهوية والعمل على رعايتها من أهم المحاور الأساسية في حياة الإنسان ومن ثم فإن العمل على حماية هذه الهوية وتغذيتها هو السبيل إلى تحقيق الصلاح بكل ما تشمله هذه الكلمة من معنى، وإن عدم الاكتراث بالهوية وعدم الاهتمام بها هو السبب المباشِر للفساد بكل ما في هذه الكلمة من معنى وبكل ما تشمله كلمة الفساد من أنواع.

ولكن ما هي الهوية يا عباد الله؟ يقول العلماء أن هوية الشيء هي الذاتيات التي يتحقق ذلك الشيء بها، هوية الشيء هي الذاتيات التي تدخل في قِوام الشيء وتبقي ببقائه، أما ما وراء ذلك من الأعراض فقد يلتبس على كثير من الناس أنها من الهوية وهي ليست كذلك، إن الأثاث والفرش في الدار ليس شيء منهما من هوية الدار، وإن الطلاء الذي تزدهي به الدار ليس من هوية الدار في شيء لأن الطلاء يأتي ويذهب وإن الفرش والأثاث كل ذلك يأتي ويتطور ويتغير أما هوية الدار فهي الغرف التي تتألف منها وهي الجدران والسقوف تلك هي هوية الدار، إذا عرفنا هذا المثال يا عباد الله فلنعلم أن ما تتمتع به الأمة من القوميات والأعراق ليس داخلاً في معنى الهوية الإنسانية قط لأن الإنسان يرحل من هذه الحياة الدنيا وقد تركته أعراقه وقد تركته قوميته، يرحل عن هذه الدنيا وقد ودعته إلى غير رجعةٍ أو لقاء، إن ما قد نتمتع به من غنى أو ما نعانيه من فقر، إن ما نتمتع به من علم أن ما نعانيه من جهل، إن ما نمتع به من قوة أو ما نعانيه من ضعف ليس شيء من ذلك داخلاً في معنى هوية الإنسان أبداً، غداً سنرحل من هذه الحياة الدنيا وقد ودعتنا هذه الصفات والأعراض كلها، ننظر ونلتفت فلا نجد ظلاً للغنى الذي كنا نتمتع به أو حتى للفقر الذي كنا نعانيه، نلتفت ونبحث فلا نجد ظلاً للقوة أو الضعف الذي كان صفة من صفاتنا وإنما نرحل من هذه الحياة الدنيا إلى الله بهوياتنا، بذاتيتنا.

فما هي هوية الإنسان يا عباد الله إذا عرفنا الفرق بينها وبين الصفات والأعراض؟ هوية الإنسان مملوكيته لمن أبدعه وكونه، هوية الإنسان عبوديته لمن هو ملك له، لمن يأخذ بناصيته ويفعل به ما يشاء،

تلك هي هوية الإنسان، وبهذه الهوية نرحل إلى الله سبحانه وتعالى، وصدق الله عز وجل القائل: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً، لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً، وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً﴾ [مريم: ٩٣-٩٥] عارياً عن الصفات التي كان يتباهى بها، عارياً عن الأعراق والقوميات التي كان ينتمي إليها، عارياً عن كل شيء إلا عن هوية مملوكيته لله، وصدق الله القائل: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً، أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْداً، كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدّاً﴾ [مريم: ٧٧-٧٩]، هذه الحقيقة التي يضعنا بيان الله سبحانه وتعالى أمامها ينبغي أن نحتفي بها أيما احتفاء، ينبغي أن نفرق بين الهوية والذات التي لن تفارقنا إلا إلى يوم وقوفنا بين يدي الله عز وجل وبين الصفات والأعراض التي تأتي وتذهب وكثيراً ما يخدع الإنسان بها.

إذا عرفنا هذه الحقيقة يا عباد الله فما الذي يجب علينا فعله في حياتنا الدنيا هذه؟ يجب علينا أن نبذل كل ما نملك لحماية هذه الهوية ولتغذيتها بكل الوسائل التي تضمن حويتها وتضمن أن تكون لها القيادة في حياتنا وتضمن تغلبها على الأعراض والصفات الآتية والذاهبة في حياتنا هذه، ينبغي لنا على كل المستويات أن نبذل كل ما نملك لتغذية هذه الهوية على النحو الذي ذكرت وللغاية التي أوضحت.

لكن ما هو الغذاء الأمثل بل ربما الأوحد لحماية هذه الهوية، هوية المملوكية لله، العبودية لله عز وجل؟ إن غذاء هذه الهوية يتمثل في التربية، التربية التي يتلقاها الإنسان منذ نعومة أظفاره، وإن المجتمع هو الذي يتقاسم عبء هذه التربية متمثلاً في المدارس ومتمثلاً في الإعلان ومتمثلاً في البيوتات ومتمثلاً في الثقافة، وأقول هنا إن علينا كلما تحدثنا عن الثقافة أن نعلم أن الثقافة لكي تكون ثقافة حقيقية منسجمة مع ذاتية الإنسان ينبغي أن تكون متناغمة مع هذه الهوية، ثقافتنا ينبغي أن تكون متناغمة مع هويتنا أننا مملوكون لله، أننا عبيدٌ لله وسنرحل إليه بهذه الهوية عارية عن كل الأعراض والصفات الأخرى، فإذا تلقى الأفراد هذه التربية على هذه المستويات فإن ثمرات جُلَّى ستتحقق في المجتمع من وراء ذلك، ستتحقق العدالة التي لا يمكن أن ترى نظيراً لها في أي بقعة من بقاع العالم خارج البقعة التي تتلقى هذه التربية تغذية للذاتية الإنسانية، من ثمرات هذه التربية المساواة الحقيقية لا الخادعة الكاذبة التي تسمعون عنها أسماء وعناوين وتفتقدونها مسميات وحقائق، من ثمرات هذه التربية للهوية الإنسانية تربية كينونة الإنسان عبداً مملوكاً لله عز وجل تحقُّقُ الأخلاق الإنسانية العظمى.

تأملوا يا عباد الله في مجتمع إنساني إسلامي تربى أفراده ونشئوا في ظلال هذه التربية، تلقت هوية كل منهم هذه التربية من نعومة الأظفار، انظروا تجدون أن هذا المجتمع يتميز بهذه الصفات الجُلَّى، وما تاريخنا القريب والبعيد إلا شاهداً يؤكد هذه الحقيقة التي أقولها لكم، أأضرب لكم أمثلة والوقت يضيق عن ذلك يا عباد الله؟ لكن تعالوا إلى هذا المشهد الذي هو ثمرة من ثمرات الهوية التي تلقت غذائها، عمرو ابن العاص كان والياً على مصر، قامت خصومة بين ابنه وبين أحد شباب الأقباط من أهل مصر في فرس كان لهذا الشاب القبطي فأوسع ابن عَمْرٍ بن العاص الشاب القبطي ضرباً بسوط كان معه وقال له خذها وأنا ابن الأكرَمَيْن فما كان من هذا الشاب إلا أن اتجه إلى المدينة المنورة يشكو أمره إلى خليفة المسلمين عمر بن الخطاب، استقدم عمر بن الخطاب عَمْرَ بن العاص وابنه وأحسن وفادة هذا الشاب واستبقاه عنده، يقول أنس بن مالك: فإني في ذات يوم من الأيام عند أميرِ المؤمنين عمر وإذا بِعَمْرٍ بن العاص وابنه يدخلان عليه، قال عمر: عَلَيَّ بالشاب المصري فأقبل الشاب يقول هاأنذا، أعطاه عمر الدرة وقال له: اضرب بها ابن الأكْرَمَيْن ثم إنه قال للشاب وجُلْ بها على صلعة عَمْرٍ بن العاص فإنه ما فعل ذلك به إلا لسلطان أبيه ثم التفت إلى عَمْرٍ وقال له: أيا عمرو متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً، ربما قال قائل أيها الإخوة إنها مكرمة تميز بها عمر وإنها خصيصة ذكرها التاريخ لشخص عمر، لا أيها الإخوة، إنها مزية للإسلام، إنها مزية للهوية الإنسانية عندما تتلقى غذاءها من هذه التربية التي حدثتكم عنها، عندما يتلقى العبد الذي عرف نفسه مملوكاً لله سبحانه وتعالى ثم تلقى التربية التي تغذي هذه الحقيقة منذ نعومة أظفاره عن طريق المدرسة، عن طريق الإعلان، عن طريق البيوت، عن طريق الثقافة لابد أن يكون كل واحد، كل فرد فرد في أمره وسلوكه وتعامله مثلَ عمر، هذا هو ديننا، هذه هي حقيقة العدالة اسم ومُسَمَّى، هذه هي حقيقة المساواة إعلان وعنوان ومن تحت ذلك العنوان المصداق الدقيق لهذا الإعلان والعنوان.

أتريدون يا عباد الله أن نبرز هذه الحقيقة للعالم وأن نجعل من بروزها مع الصمت دعوة للناس جميعاً للدخول إلى رحاب هذه الهوية والتحقق بها؟ ليس بيننا وبين ذلك إلا أن نحقق مجتمعنا بهذه التربية إلا أن نعود إلى نَشْئِنا فنغذيه بهذه التربية الحقيقية، ماذا أصنع بالمال الوفير إذا كنت سأرحل وقد ودعني؟ ماذا أصنع بالعلوم الجمة إذا كنت سأرحل عن هذه الدنيا وقد تخلت عني هذه العلوم كلها؟ ماذا أصنع بالقوة

التي أسكر بها وأتباهى بها إذا كنت غداً سأرحل عن هذه الدنيا وكل كياني ضعف من الفرق إلى القدم؟ ماذا أصنع بذلك كله إذا كان عرضاً وظلاً زائلاً ولن أرحل إلى الله إلا بهويتي عبداً عبداً عبداً مملوكاً لله؟ وصدق الله القائل: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً، لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً، وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً﴾ [مريم: ٩٣-٩٥].

أقول قوله هذا وأستغفر الله.



٢٦٠- الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً | ٢٠١٠/٠٦/١٨

إن نعم الله التي تفضَّل بها على عباده كثيرة ومتنوعة ولكني لم أجد نعمة امتَنَّ الله بها على عباده وتحبب بها إليهم كتلك النعمة التي يعبر عنها البيان الإلهي بقوله عز وجل: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾ [المائدة: ٣]. تأملوا في هذه النعمة التي يتحبب الله عز وجل بها إلى عباده ويمتن بها عليهم كما لم يمتن بأي نعمة أخرى عليهم مثلها، إنه يقول لقد أهديت إليكم من هذا الإسلام ثوباً سابغاً على قدر الفطرة الإنسانية، ثوباً سابغاً يستجيب لمصالحكم كلها. لقد أحببت لكم هذا الالتزام بهذه الضمانات التي تحقق لكم سعادة العاجلة والعقبى.

ومما لا ريب فيه – يا عباد الله – أن الإنسان – إن لم يكن عبد سوء – إذا كان وفياً مع الله سبحانه وتعالى لابد أن يتفاعل أيَّ تفاعل مع هذه النعمة التي يتحبب الله عز وجل بها إلينا ولابد أن يرفع الرأس بهذه النعمة عالياً ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾.

إنه يقول كل النعم التي وصلتكم مني ناقصة ولكنها تُمِّمَتْ وَكَمُلَتْ بنعمة هذا الدين الذي ارتضيته لكم، ولو علمت أن مصالحكم تتحقق بسبيل آخر غيرِ سبيل هذا الدين لاخترته لكم لكنه السبيل الأوحد لتحقيق سعادة الإنسان في عاجله وآجله.

وهذا يوضِحُ لنا – يا عباد الله – أن هذه الشرعة التي أخذنا الله عز وجل بها وارتضاها لنا إنما تعود فائدتها إلى الإنسان ولن تعود فائدتها إلى الله عز وجل كما قد يتوهم كثيرٌ من الناس ويتساءلون عن ذلك. الله عز وجل غني عن عباده وألوهيته كاملة قبل أن يخلقنا وقبل أن يشرفنا بهذا الدين.

إذاً هذا الذي ارتضاه الله عز وجل لعباده إنما هو نعمة يعود بها الله سبحانه وتعالى إلينا، هي الضمانة –كما قلت لكم – لسعادة الإنسان في دنياه ولسعادته في الآخرة التي هو على موعدٍ معها

إذا علمنا هذه الحقيقة فإننا جميعاً نعلم يا عباد الله الأمراض الكثيرة التي نعاني منها، إننا نعاني من أنواع من التخلف، نعاني من التخلف المتمثل في الفرقة، نعاني من التخلف المتمثل في التخلف الثقافي والعلمي عن الأمم الأخرى، نعاني من التخلف الاقتصادي، نعاني من أنواعٍ كثيرة من التخلف، وإنها لأمراض متوضعة في كيان هذه الأمة، وها هو ذا الدواء والعلاج مرسومٌ وموضوع أمامنا، وها هو ذا ربنا جل جلاله يمتن علينا بهذا الدواء ويذَكِّرُنَا به ويرتضيه علاجاً لأدوائنا ومشكلاتنا.

فلماذا نفرق بين الداء والدواء، لماذا نجعل الدواء بعيداً عن أدوائنا وأمراضنا بعد المشرقين ونحن نعلم – أيها الإخوة – أن الله عز وجل كان ولا يزال لطيفاً بعباده، نحن نعلم أن الله سبحانه وتعالى يبتلي عباده ولكنه يريهم في الوقت ذاته الدواء الذي ينجيهم من هذا الابتلاء، لماذا لا نعود إلى هذا الدواء الذي شرفنا الله عز وجل به وامتن علينا به لنستعمله في التخلص من الأمراض التي نعاني منها، إنه هذا الدين الذي شرفنا الله به. وهيهات هيهات أن يمكن لعقل عاقل أن يتبين إلى جانب هذا الدين قبله أو بعده أي علاج آخر للأمراض المتوضعة في مجتمعاتنا وكياناتنا، أجل إنه الدين – يا عباد الله – الدين الحق هو العلاج الذي لا بديل عنه للأمراض التي نتأوه منها، وها أنا أضعكم أمام الدليل الناطق بهذا الذي أقوله لكم باختصار قدر الإمكان.

لا يمكن للأمة – يا عباد الله – أن تعالج أمراضها وأدواءها أياً كانت إلا بالتعاون، هي الخطوة الأولى لمعالجة التخلف الذي ذكرته لكم بكل أنواعه، ولكن التعاون لا يتحقق إلا بشيوع الثقة بين المتعاونين، إذا لم تكن هنالك ثقة سارية بين الناس الذين يتعاونون هيهات أن يتحقق التعاون، ربما يتحقق مظهر التعاون ولكن الثقة إذا لم توجد لن تتحقق آثار هذا التعاون قط، حسناً، والثقة من أين تأتي؟ ما السبيل إلى أن يثق الناس بعضهم ببعض لكي يتعاونوا تعاوناً حقيقياً مثمراً.

سبيل هذه الثقة كي تشيع بين أفراد الناس إنما يتمثل في الخلق الإنساني السامي. الخلق الإنساني السامي عندما يصطبغ به الإنسان ويصطبغ به الآخرون تنبثق من ذلك عوامل الثقة، فإن لم تتحقق الأخلاق الرضية، إن لم تتحقق الأخلاق الصالحة التي بُعِثَ رسول الله صلى الله عليه وسلم لإتمامها وكمالها لا يمكن أن تشيع الثقة بين أناس لم يتحقق فيما بينهم الخلق الإنساني السليم ولم يُرَبَّ أفراد المجتمع التربية التي تجعلهم يتسامون إلى مستوى الأخلاق الإنسانية الرضية، وهذا من الوضوح بمكان ولكن ما

السبيل إلى أن تتحقق الأخلاق الإنسانية بين الناس؟ ما السبيل إلى أن أوثرك على شخصي عندما أجد ضائقة قد طافت بك؟ ما السبيل إلى أن لا أخونك في معاملة؟ ما السبيل إلى أن لا أغدر بك؟ ما السبيل إلى أن أتصف بالصفات التي تتحقق من خلالها الأخلاق الإنسانية السامية. لا سبيل إلى ذلك – يا عباد الله – إلا مراقبة الله سبحانه وتعالى.

لا تنبثق الأخلاق الإسلامية – بل الإنسانية – السامية الرضية إلا من خلال مراقبة الله عز وجل. وهيهات أن تتحقق مراقبة العبد للرب إلا إذا عرف أن له ربّاً وعلم أن يتصف بكل صفات الكمال وآمن بالكتاب المنزل من عنده خطاباً له وأيقن بالمصير والوقفة التي لابد أن يقفها بين يديه عندئذٍ ينضبط الأخلاق الإنسانية الرضية.

وباختصار ينبغي أن تعلموا أن الأخلاق لا تُسْتَنْبَتُ في فراغ، الأخلاق الفاضلة لا تُسْتَنْبَتُ في الهواء وفي الفراغ، لا تُسْتَنْبَتُ إلا في تربة الإيمان بالله، لا تُسْتَنْبَتُ إلا في تربة الدينونة لله سبحانه وتعالى، فإذا اصطبغ الإنسان بالدين إيماناً بالله عز وجل وإيماناً بحقائق العبودية لله سبحانه وتعالى ثم تحول يقينه العقلاني إلى عاطفة متوهجة من الحب والتعظيم لله سبحانه وتعالى تسكن حنايا القلب عندئذٍ يتهيأ هذا القلب لكي تُسْتَنْبَتُ فيه الأخلاق الإنسانية الفاضلة.

إذاً لابد من التعاون والتعاون لا يتحقق إلا بشيوع الثقة والثقة لا تتحقق إلى عن طريق الأخلاق الصالحة إذ تشيع بين أفراد المجتمع والأخلاق لا تُسْتَنْبَتُ في فراغ، لا تُسْتَنْبَتُ إلا في تربة الإيمان بالله، لا تُسْتَنْبَتُ إلا في تربة العبودية الراضية لله سبحانه وتعالى ومن ثم الانقياد لما شرع الله سبحانه وتعالى وأمر به، أليس هذا من الوضوح بمكان يا عباد الله؟

وهنا لابد أن أقول كلمة لعلها تأتي على الهامش، هنالك من يتفلسفون اليوم فيقولون: إذا كانت الغاية من الدين الذي ابتعث الله عز وجل به رسله وأنبياءه الأخلاق الفاضلة فلنقفذ إلى الأخلاق الفاضلة رأساً ولنترك المقدمات. ألم يقل المصطفى صلى الله عليه وسلم: إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق. إذاً فلنطوِ الدين بكل ما يتعلق به عقائدِه سلوكاته مادام كل ذلك عبارة دهاليز إلى الغاية القصوى ألا وهي الأخلاق

وأقول لقد خَبَّ في هذه الظلمات قبلكم فلاسفة جاؤوا قبل بعثة سيدنا عيسى ومن بعد، ظنوا هذا الذي ظننتموه، تصوروا أن الأخلاق يمكن أن تُسْتَنْبَتَ في الفراغ، تصوروا أن الأخلاق يمكن أن تُلصق بالإنسان إلصاقاً لكن إنسانية الإنسان تَأَبَّتْ على ذلك، من هذا الذي يملك أن يقيدني ويمنعني من بلوغ رغباتي وأهوائي، من هذا الذي هو إنسان مثلي يملك أن يسيِّرني في الطريق الذي يخططه ويجعل من هذا الطريق قيماً يزعم أن عليَّ أن أنضبط بها، لا، لا يمكن للإنسان أن ينضبط بالأخلاق الصالحة إلا إذا تنزلت من عَلُو، إلا إذا تنزلت من عند مولانا وخالقنا جل جلاله ولابد من الإيمان به قبل ذلك.

هذه حقيقة لا تغيب إن إنسان عاقل قط ولكن في الناس من لا يزالون يقولون: حسناً ها هي ذي دول البغي المتناثرة من حولنا بعيدة عن الالتزام بالدين، بعيدة عن الانضباط بحقائق العبودية لله ومع ذلك فقد انعتقت من التخلف، إنها لا تعاني من تخلف، إذاً ليس الأمر كما قد نظن أن الوسيلة محصورة في الدين، وأقول لهؤلاء السائلين – ولعلي قد ذكرت ذلك في مناسبة مرَّتْ – من علم سنن الله سبحانه وتعالى ووقف عندها ملياً لا يمكن أن يسأل هذا السؤال ولا يمكن أن يتصور هذا الوهم الغبي أو أن يتوضع ويسري إلى عقله.

ربنا سبحانه وتعالى يقول: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ﴾ [هود: ١٥] قرار الله الذي ألزم الله عز وجل به ذاته ولا ملزم له أن كل أمة عَرِقَتْ في سبيل هدف، بذلت الجهد في سبيل غاية، واصلت ثم واصلت في سبيل هذا الجهد لابد أن يحقق الله عز وجل لها ثمرات جهودها، الدول الغربية بشطريها الأمريكي والأوروبي إنما ورثت هذه الحضارة التي ورثتها، هذا التقدم نتيجة جهود بذلها الآباء والأجداد، نتيجة جهود طويلة طويلة بذلها الآباء والأجداد وورثوها كابراً عن كابر، والله عز وجل قضى وألزم ذاته بأن يعطي هؤلاء الناس ثمرات جهودهم﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ﴾

أما نحن العرب المسلمين ما الجهد الذي بذلناه في سبيل التقدم من نوع الجهود التي بذلها أولئك الناس؟ كم هي الجامعات التي أشدناها قبل بعثة المصطفى صلى الله عليه وسلم؟ أين هو نسيج الحضارة الذي عكفت القبائل العربية على نسجه وإيجاده قبل بعثة المصطفى صلى الله عليه وسلم؟ لا شيء. إذاً

ما الذي جعل هذه الأمة تقفز من أقصى أودية التخلف إلى أعلى قمم الحضارة. الدين، هذا الإسلام هو الذي سما بها صُعُدَاً قفزاً فوق تلك الجهود التي بذلها أولئك الناس.

عندما ندرس العصر الذهبي لتاريخ هذه الأمة نجد أعاجيب التقدم الحضاري، سل نفسك متى طُبِخَتْ هذه النهضة الحضارية وفي أيِّ الجامعات تمت ومن أيِّ الجامعات العربية في الجزيرة العربية انبثقت. تعلم الجواب: الله سبحانه وتعالى هو الذي سما بهذه الأمة صُعُدَاً قفزاً إلى حيث قمة التقدم والحضارة، فإذا بقيت هذه الأمة وفية لهذه النعمة التي ارتضاها الله لنا وامتن بها علينا فإن هذه النعمة ستبقى وإن التقدم لن يتراجع.

أما إذا آل الأمر إلى تبرم بالدين وأما إذا آل الأمر إلى أن أكثر هذه الأمة لا تعلم شيئاً عن الإسلام الذي تنتمي إليه وإذا سُئِلَ أحدهم عن مسألة بدهية من مسائل الدين أو العقيدة رفع رأسه معتزاً يقول أنا لست مختصاً بالدين.

أما عندما تنظر فتجد – لا أقف أمام الجزئيات يا عباد الله وإنما أقف أمام الأمر الكلي، التيار الكلي في مجتمعاتنا العربية والإسلامية – عندما أجد ظاهرة التبرم بهذا الدين، عندما أجد من يقول إن الدين قد انقضت أيامه وغربت شمسه ونحن بحاجة إلى شيءٍ جديد وطورٍ جديد نَؤُمُّ فيه منهج هؤلاء الآخرين في الغرب، عندما يكون الأمر هكذا فإن الله عز وجل يقول لنا – لم يكن في كتابه فبلسان الحال – عودوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم، عودوا إلى جهودكم إن كانت لكم جهود في سبيل نهضة حضارية، عودوا فضعوا سُلَّمَ الرقي من خلال جهودكم السابقة، ولن نجد جهداً بذلناه إنما هو هذا الدين، هذا فرق ما بيننا وبين تلك الأمم الأخرى ﴿كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاء وَهَؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾ [الإسراء: ٢٠].

أعود فأقول يا عباد الله: نعمة امتن الله عز وجل بها علينا كما لم يمتن علينا بنعمة سواها، ارتضاها لنا، تحبب إلينا به ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾ فتعالوا نتفاعل مع الله سبحانه وتعالى تعامل العبد المؤمن، تعامل العبد الوفي الذي يرفع رأسه بهذه النعمة التي أغدقها الله عز وجل عليه. أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

٢٦١- التربية الدينية هي مفتاح الوصول إلى كل معاني الخير والسعادة | ٢٠١١/٠١/١٤

ليس في الناس من لا يُعْجَبُ بالأخلاق الإنسانية الفاضلة المثلى، وليس في الناس من لا يتبرم بالأخلاق السيئة التي تتنافى مع إنسانية الإنسان وما فطره الله عز وجل عليه.

هل في الناس من لا يُعْجَبُ بالصدق ويحبه، وهل في الناس من لا يكره الكذب ويحذر منه؟! هل في الناس من لا يحب الإخلاص ويكره النفاق؟! هل في الناس من لا يحب الاستقامة ويكره الفساد والخداع؟! هذه حقائق ما أظن أن في الناس من يرتاب أو يجادل فيها؟ فما هي ضمانة هذه الأخلاق الإنسانية المثلى وما السبيل إلى أن تُغْرَسَ فتترعرع في كيان الإنسان؟

سبيل ذلك – يا عباد الله – شيء واحد، هو التربية الدينية الحقيقية. هذه التربية الدينية التي يُؤْخَذُ بها النشء، يؤخذ بها الإنسان منذ نعومة أظفاره هي التي تحقق في حياته الأخلاق الإنسانية المثلى وتردعه وتسمو به عن الأخلاق الذميمة التي تتنافى مع إنسانية الإنسان.

وبيان ذلك – يا عباد الله – أن الالتزام بالأخلاق الإنسانية المثلى تتعارض مع ما جُبِلَ عليه الإنسان من غرائز، تتعارض الأخلاق الإنسانية المثلى مع غريزة حب الذات، مع غريزة حب الشهوات والأهواء والمنافسة والاستكبار على الآخرين ومن ثم فإن الالتزام بالأخلاق الإنسانية المثلى يحتاج إلى روادع بحيث تتغلب هذه الروادع في كيان الإنسان على غرائزه الحيوانية.

فمن أين نأتي بالروادع؟ وكيف تتحقق الروادع في كيان النشء؟

لا سبيل إلى ذلك إلا التربية الدينية المثلى. التربية الدينية هي التي تغرس في كيان النشء معنى وجود الله سبحانه وتعالى وربوبيته، هي التي تغرس في كيان النشء – بعد إيمانه بالله – محبته لله عز وجل. التربية الدينية المثلى هي التي تغرس في كيان النشء تعظيم الله، مهابة الله سبحانه وتعالى ومن ثم تتجمع في كيان الإنسان روادع تسمو به فوق أهوائه وشهواته ومن ثم تعانق حياتُه السلوكية الأخلاقَ الإنسانية المثلى التي

يتعشقها الإنسان أياً كان، ومن ثم فإن الله سبحانه وتعالى جعل من كتابه الذي شرفنا به خطاباً لا أظن أن في الكون شرفاً يسمو بالإنسان إلى مستوى التكريم كالخطاب الذي جاءنا من عند الله وأهَّلَنَا الله له، هذا الكتاب من ألفه إلى ياءه إنما هو منهج تربوي يصفي في الإنسان الشوائب التي تعلق به وهي فطرة فطر الله الإنسان عليها. ورسول الله صلى الله عليه وسلم لم ينجح في دعوته وفي جمع قلوب الناس على الإيمان بالله والسير على صراط الله إلا عندما متَّعه بهذا الأدب بل بهذه التربية وهو القائل: ﴿أدَّبَنِي ربي بأحسن تأديبي﴾ تأملوا في قوله عز وجل: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

هذا الذي أقوله لكم هو السبب في أن الله عز وجل جعل مرتبة المربين من عباد الله عز وجل على النهج الموصل إلى الأخلاق الإنسانية الفضلى جعل مرتبتهم فوق مرتبة الملائكة، أليس هو القائل فيما يرويه الترمذي من حديث أبي أمامة: ﴿فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم، إن الله وملائكته وعباده وحتى النمل في جحوره وحتى الحيتان في البحار لَيُصَلُّون على معلم الناس الخير﴾.

التربية الإسلامية المثلى – يا عباد الله – هي التي تؤهل الإنسان للدعوة إلى الله وهي التي تسمو به إلى النهج الأمثل للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

نعم إذا لم يكن الإنسان قد نُشِّئ في ظلال التربية الإسلامية المثلى لن يستطيع أن يكون آمراً بالمعروف ولا ناهياً عن المنكر على النهج الذي أمر الله. قد يأمر وقد ينهى لكنه يجعل من أمره ونهيه غذاءً لمصالحه، غذاءً لرغائبه وتطلعاته بل ربما غذاءً لسياسته التي يجنح إليها.

فأما الإنسان الذي رُبِّيَ هذه التربية الإسلامية المثلى، هيمنت محبة الله على سويداء قلبه وفاض قلبه تعظيماً لله وتعظيماً ومهابةً لحرمات الله عز وجل فإن قلبه يصفو عن الشوائب كلها، يصفو عن الأحقاد والضغائن، لا يعلم قلبه ضغينة على أحد من الناس أياً كان. إن دعا إلى الخير فإنما يقوده إلى ذلك حب من يدعوهم إلى الخير وإن نهى عن الشر فإنما تدعوه إلى ذلك الشفقة على أولئك الناس، يحذرهم من الشر لأنه يرى أنهم يسيرون على شفا جُرُفٍ فهو لا يريد أن يقعوا في مغبة شقاء، يحب لهم ما يحب لنفسه. كل ذلك إنما يتحقق في ظلال التربية الإسلامية المثلى، وهذا معنى قول الله عز وجل: ﴿وَلْتَكُن

مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

عباد الله: من البدهي أن المعارف والعلوم كلها مفيدة في حياة الإنسان والشيء الوحيد الذي لا يحتاج إلى استثناء هو هذا القرار الذي أقوله لكم، ولكن العلوم والمعارف أسلحة ذات حدين لا تحقق في أصحاب هذه العلوم والمعارف الخير ولا تَصَّاعد بهم إلى سبل السعادة واللقاء على ما ترضي الإنسانية وعلى ما يرضي الله عز وجل إلا إذا استنبتت هذه المعارف والعلوم في أرضية من التربية الإسلامية. علوم نشأت في أذهان أصحابها وترعرعت في عقولهم دون تربية هذه العلوم أسلحةٌ للفتك قبل أن تكون أسلحةً للدفاع عن الحق. ألا ترون إلى العلوم والمعارف التي تذخر بها الدنيا اليوم كيف أصبحت أداةً للقتل والسفك واستلاب الحقوق واغتصاب الأوطان؟ إلى ترون إلى العلوم والمعارف كيف غدت سَكَرَاً يطوف برؤوس أصحابها؟ لماذا؟ لأنها لم تُنَشَّئ فوق أرضية من التربية الإيمانية بالله سبحانه وتعالى. هذه الحقيقة ينبغي أن نعلمها، ورحم الله أولئك الربانيين القائلين: زيادة العلم في الرجل السوء كزيادة الماء في أصول الحنظل، كلما ازداد رِيّاً ازداد مرارة.

عباد الله: أريد أن أعتبر بهذا الذي أقوله لكم وأن تعتبروا، وأريد منا جميعاً – من العالم العربي والإسلامي – أن يقطف ثمار هذه الحقيقة. التربية الدينية هي مفتاح الوصول إلى كل معاني الخير والسعادة، وإذا ضاع هذه المفتاح هيهات أن تصل الأمة إلى مبتغياتها وأن تحقق شيئاً من أحلامها.

إن دول البغي – يا عباد الله – لم تعد تطمع فقط باستلاب الحقوق وقد استلبت الكثير والكثير من ذلك، لم تعد تكتفي باغتصاب الأوطان ولقد استلبت الكثير والكثير من ذلك، إنها فعلت ذلك كله تمهيداً للوصول إلى غايةٍ هي الأساس الذي تبتغيه، ألا وهو اجتثاث هذه الحقيقة الدينية التي تتمثل في بوابة التربية الدينية الحقيقية المثلى.

تأملوا واصغوا السمع إلى ما يمكن أن تلتقطوه من كلمات يفوه بها أولئك الذين يقودون العالم من خلال طغيانهم تجدون مصداق هذا الكلام الذي أقول.

أنسيتم ما قالته رئيسة الوزراء البريطانية يوم تهاوى صرح الاتحاد السوفيتي؟ أنسيتم يوم قالت: إن العدو الأخطر الذي بقي أمامنا إنما هو الإسلام.

أنسيتم ما قله رئيس الولايات المتحدة الأسبق، نيكسون، وأقول اسمه يوم توجَّه إلى العالم الإسلامي وأعلن عن خوفه من الإسلام الآتي من هذا المشرق الأقدس، يوم أعلن أن العدو الألد الذي ينبغي أن نحسب له حسابه إنما هو الإسلام.

هذا الذي قالوه يُطَبَّقُ اليوم، والسبيل الذي يتم تخطيطه للقضاء هو تفريغ أفئدة الناشئة في بلاد الله الواسعة الإسلامية والعربية مما نسميه التربية الإسلامية المثلى أو قل التربية الدينية المثلى، نعم يا عباد الله. إنهم يبتغون أن يغزوا أفئدة الناشئة بما يمكن أن يسكرهم عن هويتهم، بما يمكن أن يصدهم عن إيمانهم، إنهم يغزون نفوس الناشئة بالشهوات، بالأهواء، بالموبقات لعل ذلك ينسيهم الهوية، لعل ذلك ينزل بهم عن مستوى التربية الدينية الباسقة إلى وادي الغرائز الحيوانية التي تجعل الواحد منهم يضحي بالأرض وبالوطن وبالمال والقيم في سبيل الاحتفاظ بغرائزه، في سبيل الاحتفاظ بشهواته، في سبيل الاحتفاظ بالأضواء الساطعة أو الخافتة بليالي اللهو المختلفة.

هذا ما يخطط له أولئك الناس فما نحن فاعلون؟ ما موقفنا نحن وها هو العدو يعلم قيمة التربية الدينية في مجتمعاتنا، يعلم قيمة الناشئة إذ تترعرع وهي تحنو على فؤاد مليء بمعرفة الله، مليء بمحبة الله، مليء بتعظيم حرمات الله. لا يمكن لناشئة رُبِّيَتْ هذه التربية أن تُخْدَعَ عن حقها، لا يمكن أن تُخْدَعَ فيستلب منها جزء من أوطانها لأنها تعلو دائماً فوق قيود الشهوات والأهواء، تمارس رغباتها وشهواتها وأهواءها طالما كان هنالك صلح بينها وبين شريعة الله سبحانه وتعالى فإذا وقع التعارض ووقع التناقض نظَرْتَ وإذا بهذه الناشئة تتسامى ثم تتسامى لتعانق الأخلاق الإنسانية المثلى التي حدثتكم عنها.

ترى هل ستنجح المخططات التي تُرْسَمُ هناك من وراء البحار ويُرْسَلُ بها إلينا؟ هل تجد تلك المخططات من يرحب بها؟ لا يا عباد الله أبداً.

نحن أمة مكلوءة بعناية الله، نحن أمة مرحومة كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، هذه الأمة بقادتها وشعوبها لا يمكن إلا أن تعود إلى فطرتها الإيمانية التي تعتز بها، والدعوة إلى الله في كل الأحوال لا

يجوز أن تنطلق إلا من تربية إنسانية مثلى غُذِّيَ بها المربي، حتى تكون دوافعه إن دعا إلى الله دوافع حبٍّ فقط، دوافع شفقة فقط، دوافع تضحية بالذات في سبيل الأخ، بل في سبيل الآخر.



٢٦٢- الإنسان أعتى حيوان لولا لجام الدين | ٢٠١٢/٠٥/١١

لم تجمع الأسرة الإنسانية على شيء قديماً وحديثاً كما أجمعت على أن الأخلاق الإنسانية الفاضلة هي الضمانة الكبرى الوحيدة لسعادة المجتمع الإنساني، ولكن ما هي الأخلاق الإنسانية الفاضلة؟ لعل أيسر وأبسط تعريف لها يا عباد الله أن نقول: إنها جنوح الإنسان إلى الإيثار بدلاً من الأثرة والأنانية، جنوح الإنسان إلى العدل مع الآخرين بدلاً من أن ينحط في الظلم معهم، هو أن يجنح إلى الرحمة بالآخرين بدلاً من أن يجنح إلى القسوة والغلظة في التعامل معهم، هو أن يجنح إلى التعاون مع الآخرين بدلاً من أن يركب رأسه في المنابذة والخصام مع الآخرين، هذه الصفات ببساطة هي التي تسمى الأخلاق الإنسانية المثلى أو الأخلاق الإنسانية الفاضلة.

ولقد تساءل العلماء – علماء الأخلاق وعلماء المجتمع – قديماً وحديثاً عن المصدر الذي يمكن أن تنبثق منه هذه الأخلاق الإنسانية المثلى فلم يتبين لهم إلا مصدر واحد لا ثاني له ألا وهو الدينونة لله سبحانه وتعالى بعد معرفته والخضوع الصادق لسلطانه. هذا هو المصدر الوحيد الذي تنبثق منه الأخلاق الإنسانية الفاضلة المثلى. ولابد من أن أوضح لكم يا عباد الله حقيقة لابد من رفع اللثام عنها بهذه المناسبة وهي أن أشرس مخلوق يمشي على الأرض إنما هو الإنسان، وذلك للصفات التي ركبها الله عز وجل فيه والتي سماها الأمانة، كصفات حب التملك والأثرة كصفة القدرة، كصفة الأنانية، كصفة العلم، كصفة تسخير كثير من الظواهر الكونية للإنسان، هذه الصفات هي مصدر شراسة الإنسان، وهي تلك التي قال عنها الله عز وجل: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾ [الأحزاب: ٧٢].

ومن ثم فليس هنالك شيء يلجم كيان الإنسان إلا الدين، إلا الانضباط الحقيقي بتعاليم الله سبحانه وتعالى، إلا هيمنة الرهبة والتعظيم لله سبحانه وتعالى على كيان الإنسان. وإننا لنظلم الحيوانات التي نتحدث عنها بالسباع الضارية عندما نجعل منها أمثلة نضرب بها للفظاظة والغلظة والظلم والقتل والسفك، إننا نظلم هذه السباع. الصفات التي بها تفترس السباع إنما هي صفات غريزية قانونية أقامها الله عز وجل

في هذه الحيوانات لإبقائها، لكي تستطيع أن تبقي على حياتها من خلال هذه الصفات، ولذلك فإن السبع الضاري إذا شعر بالشبع بعد الجوع أغمض عينيه وركن إلى الراحة وأعرض عن كل ما حوله، أما الإنسان فإن جاع أو شبع، إن افتقر أو استغنى، إن قوي أو ضعف لا تزايله الشراسة، لا يزايله العتو للسبب الذي ذكرته لكم، وإنما يقلم أظفار عتوه شيء واحد؛ هو الدينونة لله سبحانه وتعالى والخضوع لسلطان الله عز وجل. وإذا استشرى في الإنسان هذا المعنى الذي أقوله لكم، إذا استشرت في كيان الإنسان شراسته وانحطت به شراسته إلى الدون وإلى أحط درجات الشراسة والعتو فإنه سرعان ما يتخذ من لجام الدين نفسه سلاحاً يستعين به لمزيد من الشراسة والعتو، هذه حقائق علمية يا عباد الله أضعها بين أيديكم.

وما قصة التكفير الكيفي الذي تم الحكم به في أقبية الظلام إلا أداة لتحويل الإسلام إلى منجل لحصد الرقاب، إلا أداة لتحويل الإسلام إلى متعة تزدهي بها الأعين وتنتشي بها الأبصار إذ ترى أنهار الدماء تتدفق متعرجة بلونها الأحمر القاني بين عشرات الأشلاء ذات اليمين وذات الشمال، نعم. إن هذا التكفير الكيفي الذي لا عهد للإسلام به والذي تم الحكم به في أقبية الظلام إنما أريد من ذلك تحويل الإسلام –كما قلت لكم– إلى منجل لحصد الرقاب الآمنة البريئة.

ألا فاسألوا أولئك الناس الذي مُسِخُوا ولا مسخ القردة والخنازير الذي أنبأنا عنه بيان الله عز وجل، سلوا هؤلاء الذين مُسِخُوا من أي مصدر حاقد على الله وحاقد على إسلام الله وحاقد على رسول الله ابتدعوا إسلامهم الذي جعلوه أعتى سلاح لتدمير الإنسان لا لشيء إلا لإشباع الغريزة التي حدثتكم عنها، غريزة العتو التي يتمتع بها الإنسان دون أن يكون في ذلك له شبيه في عالم الحيوانات المفترسة قط، سلوهم من أي مصدر من المصادر الحاقدة على الله والحاقدة على رسول الله صلى الله عليه وسلم قضوا قضاءهم المبرم بأن تدور رحى الموت على الناس الذين شرفهم الله عز وجل بالمقام فوق هذه الأرض المباركة، أولئك الذين شهد لهم رسول الله بالخيرية، ألم يقل رسول الله في الصحيح لذلك الذي سأله – وهو عبد الله بن حوالة – إلى أي جهة تنصحني أن أذهب إذا ادلهمت الفتن، قال: ﴿عليك بالشام فإنها خيرة الله من أرضه يجتبي إليها خيرته من عباده﴾.

من أي مصدر حاقد على الله وعلى إسلامه قتل هؤلاء الذين شهد لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنهم خيرة الله من عباده لا لشيء إلا لأن الله شرفهم بالسكنى في بلاد الشام، فكيف وهم مؤمنون، كيف وهم مسلمون، كيف وهم قانتون، كيف وإن الواحد منهم ظل يلفظ كلمة التوحيد حتى فاضت روحه مع هذه الكلمة؟! ألا فاسألوا هؤلاء الناس كيف يكون إسلاماً ذاك الذي يخاصم رسول الله — أجل يخاصم رسول الله — إذ يقول: ﴿من خرج من أمتي على أمتي يضرب برها وفاجرها ولا يتحاشى مؤمنها ولا يفي بذي عهدها فليس مني﴾.

ألا فاسألوهم كيف يكون إسلاماً ذاك الذي يسفه قرار رسول الله صلى الله عليه وسلم القاضي بألا يُعَامَل الناس في الدنيا إلا على ما يظهر منهم وأن تحال بواطنهم إلى محكمة الله التي ستنعقد غداً إذا قام الناس لرب العالمين.

ألا فاسألوهم كيف يكون إسلاماً ذاك الذي يسفه من خلاله رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما أوتي بعبد الله بن أبي بن سلول وهو أول من كان يُتَّهَمُ بالنفاق، أقبل رسول الله فصلى عليه، لم يكفره، ولو كان هنالك من يستأهل التكفير منذ عهد رسول الله إلى اليوم ممن يعيشون في العالم الإسلامي لكان أول من ينبغي أن يُكَفَّرَ عبدَ الله بن أبي بن سلول ذاك الذي آذى رسول الله في أهله، ذلك الذي آذى رسول صلى الله عليه وسلم في شخصه.

ألا فاسألوهم كيف يكون إسلاماً ذلك الذي يخاصم السلف الصالح المتمثل في التابعين وتابعيهم وبقايا الصحابة الذين كانوا باقين معهم، هذا هو سلفنا، وباتباعهم نعتز وعلى خطاهم نسير، سلوهم كيف يكون إسلاماً ذاك الذي يخاصم هذا السلف، كيف. لقد ظهرت الفرق الإسلامية الجانحة، نعم، الشاذة في بعضٍ من معتقداتها كالجهمية والمرجئة والحشوية والقدرية والمعتزلة والخوارج، هل في السلف الصالح من كفَّرَ فيهم واحداً؟ هل في السلف الصالح من حرَّك لسانه بتكفير خارجي أو جهمي أو مرجئي؟ ألم يُسأل علي بن أبي طالب كرم الله وجهه عن هؤلاء الخوارج الذين يقاتلونه وحكمهم فقال عنهم: إخواننا بغوا علينا، سلوهم يا عباد الله: إن كنتم لا تزالون بخيط ولو كان واهياً مع الله عز وجل يتمثل في الإسلام فأجيبوا عن هذا السؤال.

أعود فأقول: إن تحليل القصة يا عباد الله يتمثل فيما قد قلته لكم، ليس على وجه الأرض حيوان أشرس – في أصل خلقته ونشأته – من الإنسان، وإنما يروضه شيء واحد هو الدينونة لله سبحانه وتعالى، فإن غابت حقيقة الدينونة فإن التجمل بها لا يفيد، وإن اصطناع المظاهر لها لا يغني، وإن بناء المآذن الباسقة لا يرضي الله سبحانه وتعالى، ألا دعوني أسألكم هذا السؤال وليجبني كل واحد منكم عليه بينه وبين نفسه، أفيمكن أن تروا حيواناً من السباع الضارية مهما طالت أنيابه ومهما اخضلت بالدماء مخالبه يقدم فيقتل الفريسة الأولى ثم الثانية ثم الثالثة ثم الرابعة إلى أن يصبح عدد الفرائس خمسة وخمسين فريسة ثم إنه يقبل ذات اليمين وذات الشمال فيجرح هذه ويلطم تلك حتى يبلغ الجرحى الذين ينتشرون عنه يميناً وشمالاً المئات، أفيمكن لحيوان ضارٍ مهما بلغت به الضراوة أن يفعل هذا؟ ولكن في الناس من فعل هذا، لماذا؟ ليشفي غليله وليروي ظمأ حقده من شخص واحد، لكي يروي ظمأ حقده وليشفي غليل غيظه من هذا الشخص أقدم على قتل خمسة وخمسين بريئاً وأقدم على جرح المئات كما تعلمون، سلوه لماذا؟ ليشفي غليل حقده تجاه شخص واحد، لا أقول نظاماً واحداً بل تجاه شخص واحد، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

وبعد: فقد حدثتكم عن المشكلة وصورت لكم أبعادها وجذورها ولكن ماذا عن الدواء الذي ينبغي أن نقف عليه وأن نأخذ أنفسنا به؟ أيها الإخوة: دعوني أجبكم عن هذا السؤال من منطلق هو الذي أتعامل معه منذ أن أقامني الله في هذا الذي أقامني فيه، من منطلق الحب، من منطلق الغيرة، من منطلق الارتباط بهذه الأرض المقدسة، من منطلق الغيرة على الآخرين، الدواء – وأتوجه به إلى هذه الأمة التي شرفها الله بسكنى هذه البلدة، الشام، وإنما قلب الشام سوريا وإنما قلب هذا القلب دمشق – أتوجه إلى القادة، أتوجه إلى الأمن، أتوجه إلى الجيش، أتوجه إلى الشعب بكل فئاته، أدعو نفسي وأدعوهم جميعاً إلى الاصطلاح مع الله، إلى التوبة إلى الله، إلى الإقلاع عن الذنوب، أولئك يضربون المثل الأعتى بالظلم فلنضرب المثل الأعلى بالرحمة فيما بيننا، أولئك يضربون المثل بالشرود عن صراط الله وإن كانوا يتجملون بأقنعته وألفاظه أما نحن فلنكن صادقين مع الله في الجذور، تعالوا نمتن جذورنا الإسلامية مع الله سبحانه وتعالى. إن نحن فعلنا ذلك فليس بيننا وبين الفرج إلا قاب قوسين، وهذه ضمانة ليست مني وإنما هي من

الله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ، أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ، أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ، ولكن أوبوا وتوبوا، أقولها لنفسي وأقولها لسائر إخواني الذين شرفني الله معهم بالمقام فوق هذه الأرض.



٢٦٣- نقاط ثلاث ذات أهمية كبرى | ٢٠١٢/٠٦/٠١

إن حديثي إليكم اليوم يتضمن ثلاث نقاط، أرجو أن يُتاح لي بيانها ملخصة بدون إخلال. أما النقطة الأولى منها فهي أني ما وجدت خلافاً قط بين الناس على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم ورؤاهم وسياساتهم في أن الأخلاق الإنسانية المثلى هي السبيل الأوحد لاجتثاث جذور الفساد ولترسيخ أسس الصلاح والإصلاح،

ولكن ما هي الضمانة لتحقيق هذه الأخلاق الإنسانية المثلى؟

الجواب عن هذا يا عباد الله هو أننا عندما نعود إلى ما ذكره أو كتبه علماء الفلسفة والأخلاق والاجتماع قديماً وحديثاً نجد أنهم اتفقوا على أن لا سبيل لإيجاد قيمٍ أخلاقية تُنْتَزَعُ من أفكار الناس ومن رؤاهم وما قد يتفقون عليه، والسبب أن مصالح الناس إنما يُنظر إليها من خلال الأمزجة، والأمزجة كانت ولا تزال متناقضة، ومن ثم فليس هنالك من سبيل بعد البحث والتنقيب لاكتشاف قيمٍ أخلاقية ثابتة راسخة تلتقي عليها الأسرة الإنسانية جمعاء، وآخر من أكد هذه الحقيقة العالم البريطاني والقانوني والفيلسوف بنتام، أكد ذلك في كتاب له اسمه أصول الشرائع، لكنه اختلف عن أولئك السابقين بأنه ذكر في آخر كتابه أن المرجع الوحيد الذي يمكن أن يرسخ قيماً أساسية للأخلاق إنما هو الوازع الديني، وقال: وإن كانت الأديان مختلفة فمما لا ريب فيه أن الوازع فيما بينها واحد. ولعل بنتام هذا هو أول من سَيَّر المثل الإنكليزي القائل: لا أخلاق بدون دين ولا ديناً من دون أخلاق.

أقول هذا يا عباد الله منبهاً إخوة لنا ألا ينتهزوا الفرصة ونحن نقف في وجه تطرف التكفيريين ونقف في وجه ابتداعات الوهابيين، لا ينتهزن هؤلاء الإخوة الفرصة من أجل أن يستخدموا الوسيلة ذاتها لنبذ الدين ولإبعاد مظلة الدين عن مجتمعنا الإسلامي السوري الذي كان ولا يزال يتنفس برئة الإسلام والدين، لكنه الدين الواعي السليم الذي يُعد المثل الأعلى للاقتباس من كتاب الله عز وجل وسنة رسوله. لا يحلمن أحدهم بحياة لا دينية أو نوع من العلمانية في الحكم أو الإدارة من خلال ما ننهض به من الوقوف في وجه التطرف التكفيري والبدع الوهابية، لماذا؟ لأن الحصن الذي يقي مجتمعنا – بل أي مجتمع من

المجتمعات – من التطرف الديني المتمثل في التكفير وغيره إنما هو حصن الدين الواعي، إنما هو حصن الدين المنبثق عن كتاب الله وسنة رسوله وما أجمعت عليه الأمة، فإذا زال هذا الحصن فحدث عن مرتع هؤلاء المتطرفين ولا حرج، عندئذٍ يرتاعون ويلهون ويفعلون ما يشاؤون، وأقول لهؤلاء الإخوة: انظروا ما هي البلاد أو الجهات الذي ينتشر فيها هذا التطرف الديني؟ هي الجهات التي تعاني من جهل بالدين أو هي الجهات التي تفتقر إلى حمى الدين، البعيدة عن ضوابط الدين. هذه ملاحظة أرجو أن يتنبه إليها إخوة لنا يضربون بالسلاح ذاته الذي نقف به في وجه الإرهاب الوهابي أو التكفيري. تلك هي النقطة الأولى.

أما النقطة الثانية فطالما قيل لي على لسان التذكير أو لسان النقد: ألا ترى إلى التجاوزات الكثيرة، ألا ترى إلى الأخطاء والأغلاط الكثيرة التي يقع فيها المسؤولون والتي يقع فيها الأمن وغيره ألا ترى ذلك، ألا ترى أن هذا يحتاج إلى معالجة؟ أقول جواباً لهؤلاء الإخوة نعم نحن نشترك معكم في ملاحظة ما تقولون ولكن الفرق هو أن في الناس الذين يرون هذه الأخطاء أو كثيراً منها يتبعون ذلك بالعمل على معالجتها، يسعون السعي اللاهث بجدٍّ ولكن بحكمة في سبيل معالجتها، هنالك أناس ما ينبغي أن نشير إليهم بحديث واضحٍ أو غير واضح، وهذا فرق ما بين الذين يجلسون ليتحدثوا عن الأخطاء ويحصونها إحصاءً وبين من يرون الأخطاء فعلاً ولكنهم يتحركون بجد ولكن بحكمة في سبيل اقتلاعها.

المهم يا أيها الإخوة أننا ما ينبغي أن نُهْرَعَ إلى معالجة أخطائنا عن طريق ردود الفعل، وبعبارة أملى: ما ينبغي أن نهرع إلى معالجة أخطائنا عن طريق الترامي في أحضان برنار ليفي، ما ينبغي أن نعالج أخطاءنا عن طريق الترامي في أحضان من حكموا على سورية بالإعدام من حيث هي، وبعبارة أكثر جلاءً ما ينبغي أن نعالج هذه الأخطاء ونسعى إلى اجتثاثها عن طريق تقديم هذا الوطن بما فيه ومن فيه ثمناً لاجتثاث هذه الأخطاء، إذاً إذا زالت الأخطاء وزال معها الوطن أين تضع التصحيح إذاً؟ أليس هذا حال ذلك الأحمق الذي حطم وجه صاحبه قبل أن يطير الذباب المنحط عليه؟ هذه هي النقطة الثانية يا عباد الله، أرجو أن نكون على بينة من ذلك.

أما النقطة الثالثة فيا عجباً أيها الناس، يا عجباً من جماعة تقبع داخل ظلام مكشوف وهي جماعة مكشوفة لتضع خطة جهنمية لمجزرة بل لمذبحة لا يقوى على تنفيذها إلا من قد وُضِعَ وراء صدره قطعة

صخر عاتية بدلاً من القلب الذي متع الله به الإنسان، هذه الجماعة نفَّذت خطتها هذه وأرسلت بها إلى سورية ابتغاء أن تلتهب من جرائها حرب طائفية ثم إن الحرب الطائفية تقود إلى إشعال هذه الأرض المباركة كلها بوقود لا ينطفئ، فعلت ذلك، ولكن الأعجب أنها سرعان ما رمت من وجهها قناعاً واستبدلت به قناعاً آخر، نظرنا وإذا هي تنوح مع الثكالى، نظرنا وإذا بهذه الجماعة تبكي مع الأطفال الذين يُتِّمُوا، وإذا بهذه الجماعة تبكي مع الآباء الذين ذُبِّحَ أبناؤهم وفقدوا أطفالهم، نعم، ثم ماذا؟ ثم إنهم لطخوا المسؤولين بل لطخوا الجيش الذي شأنه في العالم كله أن يرعى أمن المواطنين، أن يرعى سلامتهم، أن يرعى حمايتهم، ننظر فنجد هذه الجماعة بعد أن رمت بقناع واستبدلت به قناعاً آخر تتهم المسؤولين بكل فئاتها بهذه الجريمة التي يفزع منها التاريخ، جريمة ذبح الأطفال، جريمة القضاء على حياة البرآء.

ألا فتعلموا يا عباد الله أن هذه المكيدة إنما نسجت خيوطها في لبنان وهي المحاولة الثالثة بعد المحاولة الأولى التي كانت في حمص والتي تلتها من بعد ثم جاءت على أعقابها هذه الثالثة كل ذلك في سبيل إيقاد حرب طائفية وفي سبيل أن تسلم الحرب الطائفية سوريا وهي تلتهب إلى برنار ليفي لتنفيذ ما قد قُرِّر.

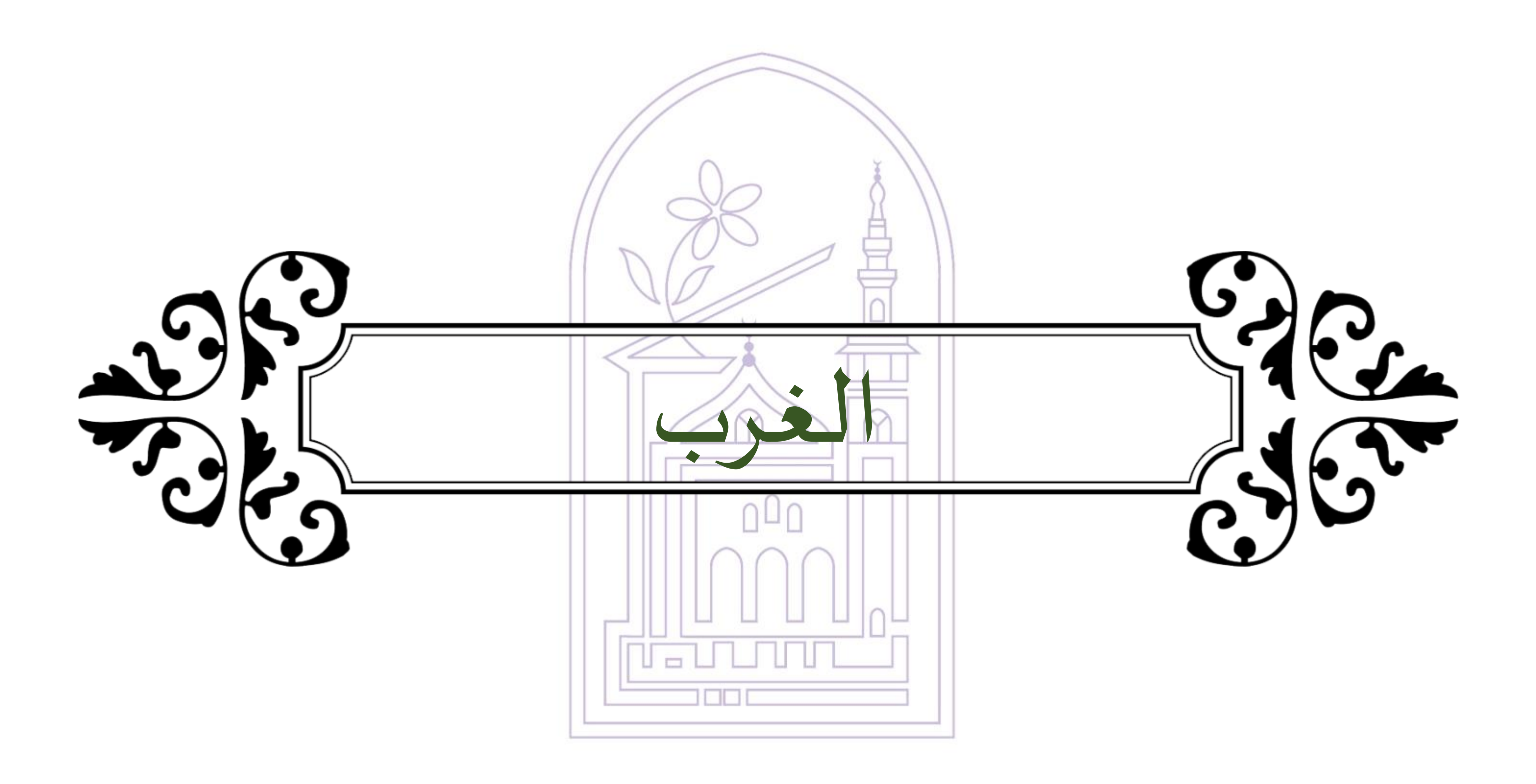
ألا فليعلم الجميع أن شامنا هذه التي شهد لها رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال وقد أوصى الناس عند الفتن باللحاق بالشام، قال: «إنها خيرة الله من أرضه يجتبي إليها خيرته من عباده» وقد علم الناس جميعاً أن قلب الشام إنما هو هذا الوطن سوريا وأن قلب هذا القلب إنما هو دمشق. سوريا هذه، شامنا هذه أمينة على شهادة رسول الله، أمينة على وصف رسول صلى الله عليه وسلم، نحن أسرة واحدة في هذه الأرض المباركة، أسرة واحدة في هذه الأرض المباركة، لا يمكن لعدو ولا لمتآمر أن يحيل علاقة ما بين فئاتها ومذاهبها إلى عداوة وبغضاء، من هذا الذي يصدق أن فئة ممن كان يعيش في الحولة أو ما حولها اعتدت على فئة أخرى وأن الفئتين تصارعتا فتقاتلتا فتذابحتا من هذا الذي يصدق هذا، إنه عدو لئيم خارجي خطط ورسم في لبنان وأوحى بما فعل وكان ذلك كله هذا الذي رأيتموه.

نحن نعلم جميعاً أن الإسلام الذي متعنا الله سبحانه وتعالى بالوعي الثاقب في فهمه ومتعنا الله بالإخلاص التام في التمسك به، نعلم أن لهذا الإسلام جذوراً وأن له أغصاناً، جذور هذا الإسلام إيماننا بالله عز وجل وكل فئات هذا الوطن المبارك تتمتع بالإيمان بالله سبحانه وتعالى، علم من علم وجهل من جهل، وهيهات هيهات أن يستغني الجذع عن أغصانه، هذه حقيقة نعلمها الناس جميعاً ولا يُتاح لأحد

من الناس أن يتآمروا علينا، حاولوها في المرة الأولى ولم يأخذوا مما نتج الدرس، حاولوها في المرة الثانية ولم يشاؤوا أن يلتفتوا فيلتقطوا من ذلك الدرس، وحاولوها في المرة الثالثة فهلا استيقظوا ليأخذوا الدرس.

الأطفال الذين ذُبِّحُوا أولادنا، الرجال الذين قُتِلُوا إخوتنا، ورب أخٍ لك لم تلده أمك، النساء اللاتي رُمِّلْن أو الثكالى أخواتنا، بيننا وبينهم أعلى نسب نعتز به هذا الاحتضان الذي شاءه الله عز وجل لنا ولهم جميعاً فوق شامنا التي شهد لها رسول الله، ما معنى شهادة رسول الله أيها الإخوة إن لم تكن هذه هي النتيجة، ﴿هي خيرة الله من أرضه يجتبي إليها خيرته من عباده﴾ وها أنا أجسد حقيقة هذا الكلام الذي أقوله لكم بصلاة الغائب أأوديها بعد الانتهاء من صلاة الجمعة على هؤلاء الذين سبقونا إلى رحمة الله صغاراً وكباراً، ذكوراً وإناثاً، وكم سئلت أهم شهداء حقاً؟ نعم، الشهادة في دين الله قسمان: قسم يتصف بها ذلك الذي يقع صريعاً أثناء معركة القتال بين المسلمين وأعدائهم، هؤلاء يدفنون بثيابهم ودمائهم وفقههم معروف، الفريق الثاني من الشهداء هو ذاك الذي قال عنه رسول الله: ﴿من قتل دون دمه فهو شهيد، من قتل دون ماله فهو شهيد، من قتل دون عرضه فهو شهيد﴾ هذه شهادة من نوع آخر، يغسلون، يكفنون، يصلى ولكن لهم أجر الشهادة.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم فاستغفروه يغفر لكم.



الغرب

٢٦٤- هل انتصر الغرب على الإسلام!؟.. | ١٩٩٨/٠١/٣٠

لعل الذين سمعوا حديثي بالأمس وأنا أتكلم عن طغيان الدول الغربية، وعن خططها المتآمرة على هذه الأمة العربية والإسلامية، وعن تخاذل هذه الأمة وتدابرها والضعف الذي استشرى فيما بينها... لعل الذين سمعوا حديثي هذا بالأمس يتصورون أن ذلك يعني أن الغرب بطغيانه قد تغلب أو سيتغلب على دين الله سبحانه وتعالى، وأن الإسلام قد أصبح مهزوماً في حلبة هذا الصراع القائم المهتاج بين الغرب وبين الأمة العربية والإسلامية. هذا التصور إن تسرب إلى بال أيٍ منكم خطأٌ كبير، ووهم خطير، ما ينبغي أن يستقر في ذهن إنسانٍ مسلمٍ قط.

لو كانت هذه الأمة العربية والإسلامية اليوم مظهراً يُجسد حقيقة الإسلام في معتقداتها الجامعة وفي سلوكها وأخلاقياتها، إذاً لكان هذا الاستنتاج في محله، ولكن ينبغي أن نعلم كما قد قلت بالأمس أن هذه الأمة العربية والإسلامية اليوم لم تعد مظهراً للإسلام الحق لا في معتقداتها الجامعة ولا في سلوكاتها المتفقة مع دين الله سبحانه وتعالى وآدابه وشرعه، غلبة الغرب إذاً على واقع هذه الأمة وليست على الإسلام الذي لا وجود له في هذا الصراع قط. هذا ما ينبغي أن يعلمه كل واحد منكم.

إن الغرب اليوم إنما يصول ويجول في حلبة هذا الصراع وينتشي بانتصاراته المتلاحقة بسبب أن المسلمين قد تجردوا عن إسلامهم الحقيقي فلم تبقى له فاعلية في حياتهم، لو كان للإسلام سلطانٌ حقيقيٌ في حياتهم إذاً لاتحدوا، لأن الإسلام من شأنه أن يوحد المسلمين أينما كانوا وفي أي عصر عاشوا، لو كان للإسلام سلطانٌ مهيمنٌ على حياتهم إذاً لتفجرت في كيانهم القوة من الجهات كلها، لأن الإسلام حيثما وجد وجدت فيه القوة ووجدت فيه العزة والمنعة، ولكن الإسلام لما انحسر سلطانه – وأقول سلطانه ولا أقول انتماؤه – عن هذه الأمة، تبددت هذه الأمة وتفرقت أوزاعاً إلى فئاتٍ متدابرةٍ شتى، ذلك لأن المحور الجاذب لم يعد له وجودٌ مهيمنٌ فيما بينهم، ومن ثم فإن قوتهم آلت إلى ضعف وعزتهم آلت إلى ذل. في هذه الساحة صال العدو وجال، في هذه الساحة يتغلب الغرب.

أما الإسلام.. ترى هل إذا انتصر الغرب على هذه الأمة التي ودّعت إسلامها إلا فيما يتعلق بانتماءاتٍ تقليدية في أكثر الأحيان، هل إذا ودعت هذه الأمة إسلامها وانحسر سلطان الإسلام عنها.. هل معنى ذلك أن الإسلام دفن في الغياهب فوق هذه الأرض؟ وأن الإسلام لم يعد له وجود في عالمنا المعاصر اليوم؟

هل معنى هذا أن الأمة التي شرفها الله بالإسلام هي العرب فقط؟ فإما أن يكون العرب هم الحملة للواء الإسلام؛ إذاً يعز الإسلام بهم ويعزون به، وإما أن يترك هؤلاء الناس الإسلام فتيتم الإسلام ولا يبقى له أحدٌ يرثه؟ هل هذا هو ما قرأتموه في كتاب الله عز وجل؟

أهذا هو معنى قول الله سبحانه: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾؟

أهذا هو معنى قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾؟ ما ينبغي أن يخطر هذا ببال أحدٍ أيها الإخوة.

إن الغرب في صولته هذه وفي طغيانه هذا، بل في تغلبه الذي نراه، لا يتغلب أبداً بسبب قوة خارقة يتمتع بها، وإنما يتغلب بسبب ضعفٍ خارقٍ آل إليه حال هذه الأمة، فلتعلموا هذه الحقيقة.

الغرب مهما بلغ في شدته ومهما استشرى في قوته، لن يبلغ إلى القوة التي بلغتها أمم من قبل. إلام آل حالهم؟! انظروا إلى كلام الله عن هذه الحقيقة: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾. وكم وكم يتكرر هذا المعنى في كتاب الله عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾. صدق الله.. وتلك هي آثار تلك الأمم التي يتحدث عنها بيان الله عز وجل لا تزال قائمة، ولا تزال تقنيات العصر الحديث جاهلةً حيرى أمام تلك الظاهرة الحضارية التي لا تزال أطلالها باقيةً إلى اليوم. فماذا كانت عاقبة أولئك الأشداء؟ رحلوا وآل أمرهم إلى هباء تحت سلطان الله سبحانه وتعالى.

أولم تقرأوا قول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ، فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ، فَلَمَّا

نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ كل شيء ولم تتفتح أبواب كل شيء أمام الغرب اليوم كما تفتحت أبواب كل شيء للأمم سابقةٍ خلت من قبل، ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾.

أجل أيها الإخوة الغرب، عندما يتغلب بطغيانه على هذه الأمة إياكم أن تتصوروا إنما يتغلب بقوته الخارقة علينا، وإنما هو يتغلب بالضعف الخارق الذي حاق بنا بعد أن تجردنا عن دين الله سبحانه وتعالى. أما الإسلام فلإن تقلصت أشعة شمسه عن هذه المنطقة فلسوف تسري هذه الأشعة ذاتها إلى مكانٍ آخر في عالم الغرب، وانظروا ولاحظوا حركة التاريخ، أليس الغرب يتربص بالإسلام؟ أليس الغرب هو الذي يضع الخطط للكيد بالإسلام في بلاد الإسلام هذه؟ والله لسوف يتفجر الإسلام تحت أقدام الذين يتربصون به سوءً، هؤلاء الذين يتربصون بالإسلام المكائد ويرسلون الخطط من هناك إلى هنا، وينظرون بمناظيرهم الدقيقة المدققة إلى مآل الإسلام هنا، لسوف يفاجئون بأن خطر الإسلام قد تفجر فيما بينهم، أجل وتلك هي سنة رب العالمين سبحانه وتعالى في عباده.

لأن كان واقعنا يبعث اليأس، فهذا ما ينبغي أن يبعث يأساً في قلوبنا اتجاه الإسلام لا، سيبلغ هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار هذا كلام سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الصادق المصدوق.

ولعل فيكم من يقول: لماذا تتصور أن الإسلام قد خبى نوره وتقلص سلطانه عن المسلمين، وها هو ذا شهر رمضان قد جدد الآمال بين جوانحنا، ها هي ذي المساجد تأبى إلا أن تكون شاهدةً على إقبال الإسلام، ها هي ذي الفئات التي كانت تزحف إلى المساجد قائمةً مصليةً راكعةً ساجدةً، كل ذلك دليل على أن الإسلام في بلادنا الإسلامية بخير، أجل الإسلام بخير هذه حقيقة. أما أن الإسلام له سلطانه المهيمن على هذه الأمة فذلك شيء آخر.

أريد أن تلاحظوا ما قد لاحظت وألاحظ أيها الإخوة، هل حاولتم أن تتعقبوا هذه الحشود التي كانت تفيض بها المساجد من أي طبقةٍ كانت، إذا كانت هذه الحشود تمثل الطبقات كلها فالآمال قوية، ولكن لو عدتم بذاكرتكم وتأملتم في تلك الحشود لرأيتم أنها من طبقة واحدة أو من طبقتين اثنتين فقط، أما الفئات الأخرى فقد كانت غائبة وكانت لها سهراتها الأخرى.

قلت مرةً: إنني عندما أنظر فأجد الصورة التالية يفيض بقلبي الأمل عندما أجد الأغنياء المترفين المترفين الذين أكرمهم الله بالغنى الكبير والكبير يتصدرون صفوف المساجد؛ ركعاً سجداً قد استدبروا تجاراتهم، ونفضوا أفكارهم وأيديهم عن دنياهم، وانتشوا بهذا القيام وبهذه الركعات وبتلاوة كتاب الله عز وجل، أستطيع أن أرى الآمال قد ازدهرت بين جوانحهم، ولكنكم تعلمون كما أعلم، أن جُل – ولا أقول كل – هؤلاء الذين أكرمهم الله بالمال الوفير، بالغنى الذي كاد أن يخنقهم، هؤلاء كلهم كانوا في غيبوبة عن هذا الذي نعتز به، عن هذا الحشد الكبير الذي كانت تطوف به مساجدنا كلها.

أجل أيها الإخوة... هنالك أناسٌ كانوا راكعين ساجدين يتلون أو يُصغون إلى كتاب الله عز وجل، وفي أماكن أخرى كانت ثمة سهرات أخرى عامرة، الحديث عن المال، والحديث عن التجارة، والحديث عن الخطط المستقبلية لتنمية المال ومضاعفته، أجل هذه طبقة من الطبقات كانت غائبة، وهنالك طبقات أخرى أيها الإخوة.

أنا كنت ولا أزال أقول: منظران اثنان يبعثان النشوة الغامرة في رأسي، منظر شخصية قيادية كبيرة جداً جداً أجدها واقفةً بين يدي الله عز وجل وقد تجلبب هذا الإنسان برداء العبودية لله على الرغم من شموخه وعلى الرغم من مكانته؛ أجده يتمرغ ساجداً راكعاً متبتلاً بين يدي الله عز وجل، منظرٌ يثير بين جوانحي نشوةً ولا كنشوة الخمر. المظهر الآخر: مظهر إنسانٍ كان بالأمس القريب مسرفاً على نفسه، يلغُ في الدنيا وشهواتها وأهوائها تماماً كما تريده أهواؤه وشهواته له، وأنظر وإذا به قد خلع ثوباً وارتدى ثوباً آخر، وانظر وإذا هو متبتل بين يدي الله يقول: اللهم لبيك وإليك ها أنا عائد إليك.

منظران اثنان يثيران نشوة ما مثلها نشوة، أن تجد إنساناً ذا مكانةً باسقة إن بسبب غنى أو بسبب رتبة أو بسبب قيادة أو سببٍ من الأسباب... تجد أنه قد حطّم مكانته كلها بين يدي الله عز وجل ووقف صاغراً متبتلاً بين يديه، الدنيا نسيها، التجارة تركها، عندما ننظر فنجد أن إقبال الحشود إلى مساجد الله يتمثل في هذه الفئات والطبقات كلها، فاعلموا أن الآمال قد ازدهرت وهذا سيكون مصداقاً لقول الله عز وجل: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآَصَالِ،رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾.

لتمنيت لتمنيت أن أجد خلال هذا الشهر المبارك ثلة من هؤلاء الذين أكرمهم الله وبسط لهم ما بسط من المال الوفير. لتمنيت لو أن هؤلاء هُرعوا وهم يشكرون الله على بعضٍ من نعمه.

لتمنيت لو أنهم أسدلوا حجاباً لساعات بينهم وبين هذه النعمة التي أكرمهم الله بها وقالوا إن بلسان القال أو لسان الحال: يا رب ها أنا ذا مقبلٌ إليك أكرمتني بالمال الوفير أفلا أقبل إليك بالعبودية الضارعة، أكرمتني بالعطاء، غمرتني بالمنن.. أفلا أسجد أفلا أركع أفلا أبيت الليل قائماً، إذا كان الفقراء يُهرعون إلى بيوت الله عز وجل وقد نسوا غُصص فقرهم أفلا يُهرع إلى بيوت الله هؤلاء الذين يلعبون بالمليارات! الذين يقولون الإسلام بخير عليهم أن يتخيلوا هذا الذي أقول عندما يكون هذا الإقبال إلى بيوت الله سبحانه وتعالى متمثلاً بهذه الفئات كلها فالإسلام بخير.

ومع ذلك فأنا أسأل الله عز وجل أن يجعل إسلامنا مقبلٌ غير مدبر وأن يجعلنا نحن الذين نتشرف بعزة الإسلام وأن لا يجعله ميراثاً لغيرنا. أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

٢٦٥- هل يمكن للعدو أن يحيل المودة إلى تدابر | ١٩٩٨/٠٣/٠٦

أرأيتم لو أن ثلاثة إخوة يسيرون في طريق يجتازونه إلى بلد ما، وخرج عليهم أثناء المسير أعداء؛ قُطاع طريق وقفوا في وجوههم، يستطيعون أن يُجردوهم من أموالهم إذا شاءوا ولم تكن لديهم القدرة الكافية في مواجهة الأعداء، يستطيعون أولئك الأعداء – قُطاع الطرق – أن يجردوهم من كل ما معهم حتى من ثيابهم، يستطيعون إذا شاءوا ربما أن يقتلوهم، ولكن هل يستطيع قطاع الطريق هؤلاء أن يحيلوا مودة ما بين هؤلاء الإخوة إلى عداوة؟ هل يستطيع قُطاع الطريق هؤلاء أن يُقطعوا صلة القربى السارية بين هؤلاء الإخوة؟ هذا ما لا يستطيع قُطاع الطريق أن يفعلوه، مهما كثروا ومهما قل هؤلاء الإخوة.

كل الأموال يمكن أن تُأخذ بواسطة القوة، وكل المقدرات يمكن أن تجرد من أصحابها بواسطة القوة، وكل أنواع الأذى المادية يمكن إنزالها بهؤلاء الإخوة إلا المودة السارية فيما بينهم، وإلا الوحدة التي تجمعهم. فهذا لا يستطيع الأعداء أن يفعلوه مهما كثروا، ذلك لأن المودة نابعةٌ من الأعماق، ومن ثم فإن الوحدة ثمرة لهذه المودة.

هذا المثل الذي أقوله ينطبق على واقع هذه الأمة الإسلامية اليوم. . أما أن يتجه الأعداء إليها فيجردوها من ممتلكاتها، هذا يمكن عندما يكون الأعداء أقوياء وتكون هذه الأمة ضعيفة. وأما أن يحتل هؤلاء الأعداء أو بعض منهم جزءاً من أوطانهم أو يستلبوا بعضاً من حقوقهم فهذا أيضاً ممكن، وأما أن يعمد هؤلاء الأعداء فينصبوا عليهم حرباً لا هوادة فيها ويسلطوا عليهم أسلحة الدمار الشاملة التي يملكونها ولا يريدون لغيرهم أن يمتلكها فهذا أيضاً ممكن. ولكن هل يمكن لهؤلاء الأعداء إذا كانت هذه الأمة متحدة وإذا كان الود سارياً فيما بين أفرادها. . هل يمكن لهؤلاء الأعداء أن يقطعوا صلة القربى فيما بينهم وأن يحيلوا مودتهم الموجودة والنابعة من عبوديتهم لله ووقوفهم تحت مظلة الإيمان بالله عز وجل؟ هل يستطيع هؤلاء الأعداء أن يسلكوا إلى ذلك سبيلاً؟

كل عاقلٍ منكم يعلم الجوب، لا يستطيع الأعداء مهما كثروا ومهما كثرت حيلهم أن يحققوا شيئاً من هذا أبداً؛ ولذلك تجدون كتاب الله عز وجل أيها الإخوة لا يأمر الناس المسلمين والمؤمنين بشيء كما

يأمرهم بالاتحاد، وكما يأمرهم بالمحافظة على هذه الوحدة التي رسّخها الإيمان بالله فيما بينهم. لا يأمرهم بالقوة كما يأمرهم بهذه الوحدة، لا يأمرهم بشيء لا يأمرهم بمحافظة على وطن، ولا بمحافظة على مال، ولا بمحافظة على كنوز ومدخرات كما يأمرهم بالمحافظة على هذه الوحدة. ذلك لأنها الكنز الوحيد الذي يملك الإنسان أن يطرد الأعداء جميعاً عندما يطمعون في هذا الكنز، لذلك يقول: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ يقول: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ يقول: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ يكرر هذا كله.

ولكن لعل فينا من يقول: فمال هذه الأمة قد فقدت وحدتها فعلاً؟! وهاهم أولاء الأعداء قد استطاعوا أن يحيلوا المودة التي أكرمهم الله عز وجل بها إلى تدابر بل إلى عداوة أحياناً؟! ها هم أولئك الأعداء قد استطاعوا أن يفعلوا ذلك؟!

إنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا ذلك قهراً أبداً، ولكنهم استطاعوا أن يقضوا على وحدة هذه الأمة عندما رغبت هذه الأمة معهم في أن تزول وحدتها، عندما تعاون المسلمون مع أعداءهم في أن يسحقوا وحدتهم ويقطعوا الشمل الموصول فيما بينهم.

أي عدوٍ هذا الذي يجبر أخاً أن يعادي أخاه بعد أن أوجد الله سبحانه وتعالى صلة القربى وصلة الود بين الأخ وأخيه!؟ ولكن عندما أراد العدو أن ينال من هذه الأمة منالاً علم أنه لا يستطيع أن يصل إلى أموالها، ولا يستطيع أن يحطم قوتها، ولا يستطيع أن ينال شيئاً من أوطانها إلا إذا بدء قبل ذلك فمزق الوحدة التي تتمتع بها. وعندما حاول العدو أن يقضي على هذه الوحدة لم يجد سبيلاً إلى هذه الأمة عن طريق الإجبار أبداً، ولكنه انتظر أن تنكص هذه الأمة على أعقابها وأن تترك الحبل الذي جعله الله سبحانه وتعالى المحور الجامع لها، والأداة الموحدة والجامعة لشملها، انتظر أولئك الأعداء إلى أن ترك المسلمون هذا الحبل وتوجهت قلوبهم إلى الأموال بدلاً من أن توجه إلى هذا الحبل الذي عصمهم الله عز وجل به عبر قرونٍ وأجيال. اتجهت نفوسهم إلى حب الشهوات والأهواء، اتجهت نفوسهم إلى حب المغانم بدلاً من تحمل المغارم، عندئذٍ اتخذ العدو من المال الذي أصبحنا نحبه، من الشهوات التي أصبحت هي مهوى قلوبنا وأفئدتنا، جعل العدو من ذلك سلاحاً للقضاء على وحدتنا.

لو كان الإخوة إلى اليوم يُضحون بالمال في سبيل هذه المودة التي أشاعها الإسلام بالأمس فيما بينهم، لو كان هؤلاء الإخوة المسلمون يُضحون بالأهواء والشهوات في سبيل هذا الحبل الذي جمع شملهم، وفي سبيل الأُخوة التي ارتضاها سبحانه وتعالى لهم إذا قال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ هل كان العدو أياً كان يستطيع أن يفرق بين الأخ وأخيه عن طريق المال؟ هل كان العدو يستطيع أن يفرق بين الأخ وأخيه عن طريق سباق الشهوات؟ لا بشكلٍ من الأشكال. بل سيدور ويدور ويدور تماماً كالكلب الذي يدور حول الحمى من أجل أن ينقض إلى داخله لينال منالاً من الأغنام التي فيه، ولكنه مهما دار ولف لن يجد سبيلاً لأن يخترق الحصن أو الحمى إلى الداخل أبداً، ولكن العدو نظر فوجد أن المسلمين اليوم لم يعودوا كالمسلمون من قبل، كان المسلمون من قبل يُضحون بالمال ويجعلونه فداءً لوحدتهم، كان المسلمون من قبل يُضحون بالدنيا كلها حتى بالأوطان إن اقتضى الأمر ليجعلوا ذلك فداءً لوحدتهم.

أما اليوم فمسلموا اليوم يُضحون بوحدتهم في سبيل أن ينال الواحد منهم مزيداً من الثروة ويسبق أخاه إليها. أما المسلمون اليوم فأناسٌ يُضحون بعقائدهم إن اقتضى الأمر، ويُضحون بوحدة مابينهم إن اقتضى الأمر في سبيل أن يضمن الواحد منهم لنفسه مزيداً من الأهواء والشهوات التي يطمح إليها. رأى الأعداء هذا الواقع الذي آل إليه حال المسلمين اليوم، فتسللوا إلى حمى هذه الأمة. لم يفعلوا ما فعلوا من تقطيع صلة القربى بين المسلمين بمعجزة أوتوها، ولم يجبرونا على ذلك ولكننا نحن الذين ارتضينا لأنفسنا أن نتدابر في سبيل المال، وأن نتعادى في سبيل الشهوات والأهواء، عندئذ بدء العدو يلعب لعبته.

وكتاب ربنا ينادينا صباح مساء أن عودوا إلى رشدكم، المال الذي أعطيتكم إياه ثمرةً لوحدتكم، الأوطان التي أكرمتكم بها ثمرة من ثمرات وحدتكم، القوة التي متعتكم بها ثمرة من ثمرات وحدتكم، فإذا شئتم أن تحافظوا على الثمر فحافظوا على الجزع، حافظوا على أشجار الثمر. هكذا يقول لنا الله عز وجل.

ولكن الأغبياء اليوم، ولكن المسلمين الأغبياء اليوم مُنوا بالغباء قبل أن يمنوا بضعف الإيمان بالله سبحانه وتعالى. تاهوا عن هذا الرشد ولحقوا الثمار وتركوا الأصول والجذور، فلم يُبقوا لا على أصولٍ ولا

جذور، ولم يبقوا على الثمار التي تسابقوا من أجلها وسال لعابهم في سبيلها. في سبيل المال تدابروا وتخاصم الجيران فأين هو المال؟ ذهب المال الذي تدابروا من أجله إلى العدو.



٢٦٦- بشارة ... ومأساة | ١٩٩٩/١١/٠٥

أخيراً وبعد أن وصل السيل الزبى وبعد أن اشتدت وحشية الكيد للإسلام والمسلمين وتفاقمت إلى درجةٍ لا يستطيع أن يتصورها عقل عاقل ولا إنسانية إنسان، نهضت المنظمات المعنية بحقوق الإنسان تستنكر، وتبعها الاتحاد الأوروبي هو الآخر رفع صوته يستنكر، أما الذي يبعث على الأسى في النفس فذاك هو الشعور المنبعث في قلب كل إنسان مسلم عندما ينظر إلى مصير العالم العربي والإسلامي والعالم العربي قلب العالم الإسلامي كان ولا يزال، عندما ننظر فنجد أنه يرقد عن مصائبه كما قلت لكم رقدة الموت، فنجد أنه مشغولٌ عن معالجة مصائبه عن البحث عن وسائل لإنهاء هذا النزيف الذي تحكم بجسم العالم الإسلامي، نجده مشغولاً عن ذلك كله باحتفالات الإسراء والمعراج، راقدٌ عن مصائبه رقدة الموت ويغني في حلمه ورقاده ذكريات الأيام التي أعز الله سبحانه وتعالى بها هذه الأمة، هذا ما يبعث الأسى بين الجوانح.

ما قيمة الاحتفال بذكرى الإسراء والمعراج إن لم يهيج هذا الاحتفال بين جوانح المسلمين أجيج نارٍ تتقد للنهوض إلى القيام بالواجب، للنهوض إلى إعادة شيء من التضامن شيءٍ من الوحدة التي أعز الله سبحانه وتعالى بها هذه الأمة؟

ما قيمة أن أقوم فأتكلم أو أن يتكلم أي إنسان مثلي في أطراف عالمنا الإسلامي هذا عن ذكرى الإسراء والمعراج؟ ما قيمة أن يتغنى المتغنون بهذه الذكرى وهم يغطون في رقادٍ هو أشبه بالموت عن معالجة مشاكلهم ومصائبهم؟

العدو يمعن في بتر أعضاء هذا الجسم الإنساني وإلقاء كل عضو منه في وادٍ من الأودية، ثم يمعن في تقطيع العضو الواحد وتحويله إلى قطع وأجزاء، ونحن عن معالجة هذه المصيبة تائهون، ونرقد ثم نرقد حتى إذا جاء ميقات ذكرى الإسراء والمعراج تسابقنا إلى الكلمات، تسابقنا في إلقاء القصائد والأناشيد المختلفة.

ما قيمة هذا؟ ومتى كان الله سبحانه وتعالى ينظر إلى صورنا التافهة وإلى أشكالنا التي تكذب سرائرنا متى؟ ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ﴿إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أشكالكم﴾ إنما ينظر

الله سبحانه وتعالى إلى القلوب المحركة، القلوب التي تولد دوافع العمل والنهوض بما قد كلف الله سبحانه وتعالى به هذه الأمة.

أيها الإخوة أما أن يبعث هذا الواقع المرير يأساً بين الجوانح فيما يتعلق ببقاء الإسلام في عزه وبقاء الإسلام متربعاً على عرشه، فهذا ما لا يمكن أن يتسرب إلى قلب مؤمن ولا إلى عقل مفكر موضوعي بشكلٍ من الأشكال، ذلك لأننا مؤمنون بالله ومؤمنون بأن الله صادق فيما أخبر ومنجز وعده فيما وعد وهو القائل: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾، وقد قال رسوله محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم: «سيبلغ هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار».

لا يمكن لهذا اليأس أن يتسرب إلى أفئدتنا، بل أنا على يقين وكأني أرى ذلك بعيني أن ضياء الإسلام سينبثق من ظلمات الأقبية التي يخطط فيها ضد إسلام المسلمين، لكأني أرى هذا الواقع بعيني، ولكن المأساة تتمثل في أن يجردنا الله سبحانه وتعالى من مهامنا ووظائفنا التي شرفنا الله سبحانه وتعالى وأن يحيلنا إلى التقاعد وأن يقول لنا: ابقوا كما أنتم في أودية ذلكم ومهانتكم فقد أبيتم ثم أبيتم إلا أن تخلعوا عز الإسلام الذي أكرمتكم به، إذاً عودوا إلى ما كنتم عليه سابقاً وهاتوا الرداء الذي أعزكم لألبس أمة أخرى غيركم به. تلك هي المأساة الخطيرة التي أعرفها وأتصورها.

أما الحقيقة الأولى فكأني أراها، وأما هذا الخوف الآخر فأسأل الله سبحانه وتعالى أن لا يحققه وأن يلهم هذه الأمة أوبة عزيزةً إلى صراطه المستقيم ويقظةً تامة قبل فوات الأوان.

أنا أنظر إلى المستقبل الآتي والعاقل لا بد أن يتبينه، وليس هذا من قبيل العلم بالغيب وإنما الدلائل هي التي تنطق، فإذا عرفت المستقبل الآتي فينبغي أن أعالج حاضري على ضوء ذلك المستقبل الآتي.

العالم العربي والإسلامي يرى تشوف الغرب إلى الإسلام؛ التشوف العجيب الغريب الذي لا نعرفه قبل عدة سنوات بشكل من الأشكال، جل من يغشون بلادنا العربية والإسلامية من الأجانب الغربيين الآتين من أمريكا أو الآتين من أوروبا يطمحون إلى أن يسمعون كلمة عن الإسلام وحقيقته قبل أن يطمعوا إلى منهاج رحلتهم السياحية إلى البلدة التي يزورونها، هذه حقيقة لم تكن موجودة بالأمس ولكنها أصبحت حقيقة ماثلة للعيان اليوم يعرفها كل إنسان، وعندما ينظر المسلمون التائهون عن دينهم الشاردون

عن صراط ربهم إلى الغربيين الذين يسيل لعاب الناس وراء تقليدهم ووراء تقمم بقايا الحضارات العفنة من تحت أقدامهم ومن تركاتهم، ثم ينظرون فيجدون أن أولئك الذين يقلدوهم يتشوفون إلى معرفة الإسلام وتشرئب أعناقهم إلى أن يسمعوا كلمة عن الإسلام، وينهلون هذه الحقيقة كما ينهل الظمآن الماء العذب البارد، ثم يبقى هؤلاء الناس شاردين كما هم، ثم يبقى هؤلاء الناس يغطون في رقادهم.

ليت أن التقليد تقليداً كلياً ولم يأت تقليداً انتقائياً، أنتم تقلدون الغرب حسناً فمالكم لا تقلدونهم في كل حركاتهم وسكناتهم، هاهم أولاء في مختلف بقاع أوروبا وفي كثير أصقاع أمريكا يتجهون إلى معرفة الإسلام ويطمحون إلى أن يتعلموا حقيقة هذا الدين، بالأمس كانت الكتب التي تترجم من العربية إلى اللغات الأجنبية لا تجد من يبحث عنها تتراكم ثم تتراكم ثم تتلف، واليوم الكتب العربية التي تتحدث عن الإسلام عندما تترجم تجد الأيدي الكثيرة التي تتلقفها. أين المقلدون ما لهم لا يقلدون ما لهم لا يقلدون أولئك الأجانب عندما يطمحون إلى أن يعرفوا حقيقة الإسلام؟ هنالك يأتون من قارة إلى قارة بحثاً عمن يجلسون إليه ليسمعوا ما هو الإسلام، وكثير ولا أقول كل كثير من المسلمين في بلادنا العربية والإسلامية زاهدون في معرفة دينهم لا يريدون أن يعلموا منه شيئاً.

تلك هي البشارة التي تقر لها أعين المسلمين وهذه هي المأساة، المأساة والبشارة كلاهما يتمثلان في قول الله عز وجل: ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾، والإسلام سيبقى عزيزاً منيعاً. قد تستبدل غرفة العمليات قد يكون محور الإسلام هناك وقد يكون هنا وقد يكون في مناطق أخرى حسب إخلاص المخلصين لهذا الدين وحسب صدق المسلمين لربهم وخالقهم سبحانه وتعالى.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يعيدنا إلى حظيرة دينه وأن يعزنا بإسلامه وأن يوقظنا من سباتنا ورقدتنا قبل أن يحيق بنا ذل الموت.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

٢٦٧- إلى المفتونين بأخلاق المجتمعات الغربية | ٢٠٠٠/٠٦/٣٠

إن الله سبحانه وتعالى عندما شرّف عباده بهذا الدين الذي ابتعث به رسله وأنبياءه وختمهم بخاتم الرسل والأنبياء محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، جعل من هذا الدين مصدر لكل خيرٍ للفرد وللمجتمع، وجعل من هذا الدين معين الأخلاق الإنسانية المثلى التي تُسعد الفرد وتُسعد المجتمع، ولعلكم جميعاً تذكرون مصداق هذا في كلام رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم عندما قال: ﴿إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق﴾. فبين الإيمان والإسلام من جانب والأخلاق الإنسانية السامية المثلى من جانب آخر تلازمٌ مضطردٌ دائم.

وعندما تقرأون قول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ ينبغي أن لا تفوتكم حقيقة هذا التلازم الذي يُعبر عنه بيان الله عز وجل، الذين آمنوا يهديهم ربهم إلى الأخلاق الفاضلة إلى السلوك المستقيم إلى التعامل الإنساني الرشيد، يهديهم ربهم إلى ذلك كله بإيمانهم، فالإيمان بالله عز وجل هو مصدر هذه الأخلاق الإنسانية المثلى.

والمعنى ذاته يتجلى في قوله عز وجل: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ والحياة الطيبة إنما تكون بمقومات لا بديل عنها هي الأخلاق، الأخلاق الفردية والأخلاق الإجتماعية.

من أمور العقيدة الأساسية في الدين الإسلامي أن نعلم هذه الحقيقة، ولكن في الناس من اضطربت لديهم هذه العقيدة ومن تسرب إليهم الشيطان من وراء هذا الاضطراب، فأوقعهم في غبش من فهم هذه الحقيقة التي أوضحتها لكم بما قد نص عليه كتاب الله وذكرته سنة رسول الله. إن نظر أحدهم إلى المجتمعات الإسلامية ردد مقولةً قديمةً لا نريد أن نناقشها: في العالم الإسلامي مسلمون ولا يوجد إسلام، وإن رمى ببصره شطر الغرب عاد ليقول لنا: أما في الغرب فيوجد إسلامٌ ولا يوجد مسلمين.

كثيرون هم المفتونون بما يسمونه الأخلاق الإنسانية المثلى في المجتمعات الغربية، فإذا نظروا إلى مجتمعاتهم الإسلامية العربية هنا وهناك اشمأزوا وتحدثوا عن الثغرات وتحدثوا عن الانحرافات، ثم إنهم يقولون:

هؤلاء مسلمون دون أن يوجد الإسلام، هذا التصور أيها الإخوة تصور خطير في باب العقيدة الإسلامية، أن يوجد مسلمون ولا يوجد إسلام، هذا كلامٌ غير منطقي .. متى قلت: إن هذا إنسانٌ مسلم فمعنى ذلك أن الإسلام متلبسٌ في كيانه، ومتى قلت إن هذا المجتمع مجتمعٌ مسلم فمعنى ذلك أن الإسلام يتلألأ في هذا المجتمع. نعم، الوازع الديني يقوى وقد يضعف، ومهمة المجتمعات الإسلامية أن ترعى الوازع الديني دائماً وأن تدفعه إلى الأمام دائماً بالوسائل التربوية المعروفة لدينا جميعاً، كلما قوي الوازع الديني كلما تسامت الأخلاق وتضاءل الفساد وذاب واضمحل، ولكن إذا ضعف الوازع الديني غابت هذه الحراسة التي ينبغي أن تكون يقظة دائماً.

هذا ما يمكن أن يقوله الإنسان، ولكن أن يقطع الصلة الوثقى بين الإسلام وبين آثاره الأخلاقية فهذا أمرٌ خطيرٌ غير مقبول. ماذا عن المجتمعات الغربية التي يفتن بها كثيرٌ من أبناء جلدتنا اليوم أصحيحٌ أن تلك المجتمعات تتمتع بالأخلاق الإسلامية الراشدة وإن لم تكن تتمتع بمعتقدات الإسلام؟

لا أيها الإخوة لقد قلت في أكثر من مناسبة إنها عندما توجد ليست أخلاقاً إنسانية فضلاً عن أن تكون إسلامية ولكنها أخلاق اقتصادية، الغربيون يعلمون كيف يصلون إلى منافعهم وإلى مبتغياتهم سواءٌ وجدوا في شركات، سواء وجدوا في مؤسسات، سواء كانت بيدهم مقادة عمل سياسي ... يعلمون كيف يصلون إلى مآربهم ولهم إلى ذلك سبلٌ وخطط منها سبل مادية منظورة ومنها سبلٌ معنوية غير منظورة.

من هذه السبل الخفية ما يسميه البعض بالأخلاق الإسلامية هناك، إنها ليست أخلاقاً إسلامية، إنها أخلاق اقتصادية، إنما يتبينونها ويتدارسونها ويعلمونها موظفيهم والمعتمدين لديهم من أجل أن يتخذوا أقرب طريقٍ إلى أعظم غاية مادية يبتغونها، وآية ذلك أن هذا السبيل إن ضاق عليهم اتخذوا إلى أهدافهم وسائل أخرى تغيب عندها الأخلاق تغيب عندها هذه القيم كلها.

حدثني أحدهم وكان مريضاً يُمرض في إحدى المستشفيات في أوروبا عن الأخلاق الإنسانية المثلى التي عومل بها من قبل الأطباء ومن قبل الممرضين والممرضات، أصغيت إليه وما أردت أن أجرح شعوره وهو مريض .. ولكني أقول لكم أيها الإخوة لتتخذوا مناعة كافيةً في أنفسكم ضد هذا التصور الوهمي.

هذا أسلوبٌ يعامل به الأطباء والممرضون مرضاهم سواءٌ كان الهدف جريمةً يريدون أن يرتكبوها أو كان هدفهم عملاً إنسانياً لغايةٍ مادية يريدون ليصلوا إليها.

ألم تسمعوا بأنباء المستشفيات التي تحولت إلى مؤسساتٍ للتجارة بقطع غيار من أجساد بني الإنسان؟ لو أنك دخلت إلى إحدى هذه المستشفيات لرأيت هذه المعاملة الملائكية ذاتها لرأيت الممرضين والممرضات والأطباء والطبيبات يعاملون ضحاياهم – ولا أقول مرضاهم – بهذه الطريقة المختلفة، والهدف معلومٌ ومرسوم.

حتى أولئك الذين يرتكبون الجرائم والذين أخذوا شهادات حرفية في الجرائم التي يرتكبونها، لا يرتكب أحدهم جريمته كما يرتكبها زيدٌ من الناس هنا، يملأ الدنيا من حوله صراخاً وضجيجاً ثم يختم ذلك بقذيفة يقذف بها ضحيته لا، يسير إلى هدفه بابتسامة، يسير إلى هدفه بوداعة، يُخرج مسدسه بكل طمأنينة ولا تفارق الابتسامة شفته .. وهكذا ينتهي من جريمته ويسير مطمئن القدم آمن البال وكأنه لم يفعل شيئاً، إنه أسلوب أيها الإخوة فافتحوا أبصاركم لتعلموا هذه الحقيقة.

منذ أيامٍ سألني شابٌ يعمل في إحدى الشركات الأوروبية قال لي: هذه الشركة عندما تصدر منتجاتها لابد أن تضع على كل منتج قائمة المواد الأولية التي رُكب منها هذا الانتاج كما هو الشأن، ولكنها عندما ترسل منتجاتها إلى البلاد الأوروبية من حولها تكون دقيقةً جداً في تنفيذ هذه المواصفات، فإذا أرسلت هذه المنتجات إلى البلاد العربية أو إلى أي بلدة مما يسمى العالم الثالث غيرت وبدلت ووضعت اللصاقة نفسها ولكن المضمون يختلف كل الاختلاف، سألني قائلاً هل يجوز لي أن أعمل في مثل هذه الشركة؟ استوضحته وظننت أنه مبالغ، ثم عرفت يقيناً أن الأمر كما قال، ثم عرفت أكثر من هذا، أن معظم الشركات تكيل بهذين المكيالين. اللصاقة واحدة والمواصفات واحدة لكن الكذب يبلغ إلى درجة الجريمة عندما تُبعث هذه المنتجات إلى بلدٍ إسلامي عربي إلى بلادنا وتكون دقيقةً كل الدقة عندما ترسل إلى بلدة من هذه البلاد الأوروبية. كيف أيها الإخوة نُخدع بعد هذا بهذا الذي يتصوره البعض؟

سبعون مليون أيها الإخوة من الجائعين الذين ينتظرهم الهلاك والموت بسبب الجوع، ولو أن شركةً عالمية واحدة اهتمت بهذه الملايين لاستطاعت أن تنهي هذه المجاعة في مثل طرفة عين بدون أي جهد.

أين هي الأخلاق الراشدة ترعى إنسانية هؤلاء الناس الذين يسيرون بخطى وئيدة إلى الهلاك؟ الشركات الماضية في إنتاج الأسلحة. شبكات من هذه الشركات تتصل بالقادة السياسيين، تتصل بالذين يتلاعبون بكرة السياسة إذ يتقاذفونها فيما بينهم، تعطى لهم الأموال السخية في سبيل أن يُنفخ في نيران الفتنة هنا وهنا وهناك حتى تقوم الحروب في هذه البقاع ولا تقعد، وحتى تستطيع هذه الشركات أن ترسل منتوجاتها من الأسلحة وأن تبقى ناجحةً رابحةً على حساب من يدور عليهم رحى الهلاك في هذا العالم. أهذا هو شأن الناس الذين وجد لديهم الإسلام وإن لم يكونوا مسلمين ؟

أيها الإخوة هذا التصور إن تسرب إلى مكان العقيدة من كيان الإنسان إنه لتصورٌ خطير. يمكن أن يمضي ويطير ويمتلخ العقيدة الإسلامية من جذورها، يمكن أن تبعث شكوكاً وريباً في عدالة الله سبحانه وتعالى، نحن المسلمين نتمتع بالإسلام حيثما وجد مسلمون ووجد إسلام، ولكن هنالك مآسٍ لسنا مخيرين في أمرها جُرت هذه المآسِ علينا جراً، حُكمت هذه المآس علينا حكماً، وهذا أيضاً مثال يؤكد الحقيقة التي أقولها لكم أن الغرب لا يتمتع بأخلاقٍ إنسانية راشدة، هي أخلاق اقتصادية، هي أخلاق سياسية عندما يقتضي الأمر ذلك.

وعندما يتاح لمجتمعاتنا أن تتحرر تحرراً كاملاً، وعندما يتاح لمجتمعاتنا أن تعلن عن قيمها ومبادئها لا بشعارات ترفعها فوق الرؤوس فقط بل بيقينٍ إيماني تعتز به، فإن المثل العربي القائل المرء حيث يضع نفسه سيتجسد ولسوف تجدون أننا نحن أرباب الأخلاق الإنسانية المثلى، نحن الذين نتحلى بهذه الأخلاق سواءٌ على المستوى الفردي أو الاجتماعي الوازع الديني نحن المسؤولون عنه، ينبغي أن نمتن ونقوي ونغذي هذا الوازع الديني كلما ضعف وينبغي أن نكون حراساً عليه وهذا هو المأمول.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

٢٦٨- سكرة الموت تحيق بالنظام الرأسمالي | ٢٠٠٨/١٠/٢٤

يقول لنا ربنا سبحانه وتعالى في محكم تبيانه: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ وها هي ذي الآيات الربانية التي أنبأ عنها ربنا سبحانه وتعالى تتوالى علينا ما بين الحين والآخر كي يستيقظ السادر وكي يتنبه الغافل ولها. آخر هذه الآيات التي ينبئنا عنها كتاب الله سبحانه وتعالى هذه السكرة، سكرة الموت، التي حاقت بالنظام الرأسمالي الاقتصادي العليل. هي آخر آية من الآيات التي أنبأنا عنها بيان ربنا سبحانه وتعالى.

ولقد سمعتهم يسمونها أزمة، يسمون هذه السكرة التي حاقت بهذا النظام أزمة والأزمة يا عباد الله حالة تأتي وتمر، تأتي وتنقضي، أما هذه فهي سكرة الموت حاقت بهذا النظام العليل الذي كان يعاني من المرض المتوضع في كيانه وذاته واليوم يشهد العالم حالة النزع الذي يعاني منها.

ولقد سمعت من يقول إنها أخطاء تسربت إلى هذا النظام والحل أو العلاج يكمن في انتشال هذه الأخطاء وإزاحتها والأمر ليس كذلك يا عباد الله، إن الخطأ يتمثل في النظام ذاته، فهذا النظام الرأسمالي ذاته هو الخطأ، والإنسان الذي مُنِيَ بداء ما ينبغي أن يبحث عن الأخطاء الكامنة في الداء إن الداء بحد ذاته هو البلاء، هذه الحقيقة إن لم يدركها أولئك الناس الذين يعيشون بعيدين عن معرفة الذات ينبغي أن لا تغيب عنا نحن الذين شرَّفَنَا الله سبحانه وتعالى بالإسلام.

ولقد قالوا إنهم هناك في الغرب ضخوا، ولا يزالون يضخون، مئات الملايين بل ربما آلاف الملايين من الدولارات من أجل التخلص من هذه الأزمة والتغلب عليها وهذه الظاهرة تضحك وتزج عالمنا هذا في مزيد من الأسى والألم بسبب سوء الفهم بعد سوء التعامل. هذا الذي يقولون أشبه ما يكون بذاك الذي تخرق ثوبه الذي يرتديه فعمد فاقتطع جوانب من ثوبه هذا ليستر به الخرق، ماذا عسى أن يصنع هذا العمل في كيان هذا الإنسان الأخرق، رجل أخرق يعاني من الخرق في ثوبه ولكي يسد هذا الخرق يقتطع من ثوبه ذاته ما يستر به خرقه. هذا تجسيد للمعالجة التي يعالج بها أولئك الناس الذين نسأل الله عز وجل لنا ولهم الهداية.

أيها الإخوة أين يكمن الخطأ الذاتي في هذا النظام الذي هو ذاته من أوله إلى آخره خطأ وبُنِيَ على خطأ؟ يكمن الخطأ في عبادة النقد، هذا الذي آل إليه أمر الغرب اليوم، أجل إنه عبادة النقد، هذه العبادة التي استجرت إلى المتاجرة بالنقد مفصولاً عن المنفعة التي ما خُلِقَ النقد إلا ضمانة لها، ما أوجد الله سبحانه وتعالى النقد إلا سبيلاً إلى المنفعة ولكن عُبَّادَ النقد راحوا يتاجرون بالنقد ذاته بعيداً عن المنفعة.

هذا الأمر استجر إلى شيء آخر، استجر إلى ما يسمونه هم هناك خداع النقد، الخداع الذي يتسابق عليه هؤلاء الذين يلهثون في أسواق الأوراق المالية، أجل خداع النقد، وما أدراك ما خداع النقد، لولا أن الموقف لا يتحمل التفصيل والتطويل لشرحت لكم هذا الخداع. خداع النقد هذا كان من نتائجه انتزاع الثقة بين من يتعاملون إن بالتجارة أو الصناعة أو الأوراق المالية أو الأسهم، سمها ما شئت. زالت الثقة يا عباد الله، ذلك أن رائحة الخداع أصبح يزكم أنوف الذين يتعاملون بالنقد وليس بالمنفعة في هذه الأسواق.

لما أصبح الحادي الذي يحدو رجال الأعمال ورجال الاقتصاد إلى المنافسة والتسابق متمثلاً في الجشع، متمثلاً في الطمع، كانت النتيجة التصادم وكان المخلص من التصادم الخداع، خداع النقد وكانت نتيجة خداع النقد أخيراً زوال الثقة، وزوال الثقة يعني انتهاء هذا النظام إلى ساعة النزع، إلى حالة السكرات التي لابد أن تعقبها النهاية وأن يعقبها الموت.

وسمعت أصواتاً ترتفع على استحياء تدعو إلى التجربة الثالثة الباقية التي لا رابع لها، لقد تم تجربة الاشتراكية المتطرفة التي تعلمونها بالأمس، وتمت تجربة النظام الرأسمالي العليل الذي نرى نهايته اليوم فتعالوا نتجه إلى النظام الثالث الباقي فلنجربه هو الآخر، سمعتُ من يدعو إلى هذا، وإنما يقصدون بذلك النظام الإسلامي الاقتصادي.

وأنا أسأل يا عباد الله لأجيب ترى هل سيجد العالم الغربي في التجائه إلى النظام الإسلامي الاقتصادي منجاةً من هذا البلاء الطام، هل سيجد العالم الغربي في لجوئه إلى النظام الاقتصادي الإسلامي ما يجعلهم يتنفسون الصعداء وينتعشون ويرون البديل المسعد لهم؟ لا أيها الإخوة، لن يجدوا في هذا النظام ما يحلمون به قط، لماذا؟ لأن النظام الاقتصادي الإسلامي إنما يُسْتَنْبَت في تربة الأخلاق التي هي حزام

الاقتصاد أياً كان مذهبه، والأخلاق إنما تُسْتَنْبَت في تربة العقيدة، في تربة الإيمان بالله عز وجل، في تربة معرفة الذات ومعرفة حقيقة المكَوَّنَاتِ ومُكَوِّنِهَا ومعرفة قصة هذه الرحلة الإنسانية التي يقف الإنسان اليوم على رأسها ولا يستطيع أن يحيد عنها شاء أم أبى.

إذا لم يتمتع العالم الغربي أو الإنسان بهذه المعرفة، معرفة الذات، معرفة هذه المكَوَّنَات ومعرفة مُكَوِّنِهَا ومعرفة منهاج هذه الرحلة التي نحن بصددها والتي لابد أن تكون نهايتها وقفةً بين يدي المكَوِّنِ الأجلّ مولانا وخالقنا عز وجل، إذا لم يوجد هذا الاعتقاد فهيهات أن توجَدَ الأخلاق التي هي حزام النظم الاقتصادية أياً كانت.

يا عباد الله الأخلاق يمكن أن توجَد ويمكن أن يتعامل بها الناس بعضهم مع بعض عندما لا يكلفهم التعامل مع الأخلاق أي تضحية ولكن عند التعامل مع هذا الاقتصاد الغربي، النظام الرأسمالي، لا يمكن إلا أن تغيب الأخلاق طالما لم يوجد هذا الإيمان الذي يستجره ويوجده، ذلك لأن التعامل الاقتصادي في حياة من لم يعرفوا ربهم وخالقهم لابد أن يقوم على دعامة الجشع، لابد أن يقوم على دعامة الطمع. وعندما يكون الحادي في سوق الأموال إنما هو الجشع وهو الطمع فكيف تتصور أن يكون هنالك تعاون حقيقي تكلؤه الأخلاق الراشدة؟ لا يمكن. هذا يتناقض مناقضة حادة مع منطق الجشع، مع منطق الطمع.

هذه الأسواق المالية ليست قائمة على منهج يسعد الأمة أو العالم وإنما هي قائمة على الصراع العجيب الذي هو أخطر بكثير من صراع الحروب. ولقد دخلت مبنى البورصة في نيويورك ورأيت الوجوه الشاحبة ورأيت الأحداق الجاحظة التي تبسمرت وانحبست أمام الشاشات التي تتراقص فيها الأرقام صاعدة هابطة، وما ذُهِلْتُ لأمر كذهولي لهذا المنظر، ثم رأيت إلى جانب هذا المبنى مبنىً للإسعاف، ما حاجة الإسعاف؟ ذلك لأن في كل يوم لابد أن يُسْتَجَرَّ عددٌ من هؤلاء الناس في حالات بين الموت والحياة.

هذه صورة أيها الإخوة للنظام الاقتصادي الرائد إنما يحدوه الجشع، يحدوه الطمع، يحدوه تربص الناس بعضهم ببعض ومن ثم لابد أن يتحطم هذا النظام بين هؤلاء المتصارعين، وهذا ما نشهده اليوم وهذا تحليل علمي مختصر يا عباد الله لهذا الذي نراه، المهم أن علينا أن نأخذ العبرة.

نحن ولله الحمد لم تُقَطَّع السبل بعد بيننا وبين خالقنا عز وجل، نحن لا نزال نعلم هوياتنا عبيداً مملوكين لله، مازلنا نعلم حقيقة هذا الكون الذي أقامنا الله فيه، مازلنا نعلم وظائفنا التي أقامنا الله عز وجل فيها ومازلنا نعلم رقابة الله عز وجل لنا في السر والعلن، ومازلنا نعلم النهاية، الوقفة التي لابد منها بين يدي الله عز وجل. فهلا اقتطفنا من هذا البلاء الماحق الذي نراه في الغرب عبرة ودرساً لنا.

نظامنا الاقتصادي الإسلامي إن استُثْمِرَ هنا يُثْمِر، ذلك لأنه يُسْتَنْبَتُ في تربة الأخلاق وليس في تربة الجشع والطمع والصراع ومن ثم فإن تربة الأخلاق تُسْتَنْبَت في مجال العقيدة ونحن ولله الحمد مازلنا نتمتع بالعقيدة الإسلامية الراشدة. فيا قادة هذه الأمة استيقظوا من سباتكم، يا قادة هذه الأمة قفوا أما كلام الله عز وجل باعتبار واصطباغ بحقيقة هويتنا أمام الله ألا وهو قوله عز وجل: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ وقد تبين لنا أنه الحق ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ بلى يا رب إنك على كل شيء شهيد وها نحن نتبع شهادتنا بشهادتك وها نحن نعلن عن عبوديتنا لك وأن لا نظام يُسْعِدُ هذه الأمة في دنياها وفي عقباها إلا نظام الالتزام بهديك.

أقول قولي هذا وأستغفر الله.



٢٦٩- الفرق بيننا وبينهم ...| ٢٠٠٩/٠٤/٢٤

تجربة مررتُ بها وقطفت ثمار العبرة منها أرجو أن نشترك في الاستفادة من هذه العبرة وأن نشترك في أخذ الدرس من هذه التجربة، ما زرتُ يوماً صقعاً من أصقاع العالم الغربي إلا وعدت منه بشعورين اثنين، أما أحدهما فشعور الأسى والإشفاق والرحمة لأناس يظلون يبحثون عن مفتاح سعادة الدنيا وأسباب الطمأنينة فيها حتى إذا عثر الواحد منهم على ما ظنه مفتاحاً للسعادة وركن إليه فوجئ منه بنقيض ما كان يتوقع ولم يجد فيه إلا ما يزيده شقاءً بالحياة واستيحاشاً منها.

وأما الشعور الثاني فهو الاستغراق في يمٍّ لا ساحل له من الثناء على الله ومن الشكر لخالقنا ومولانا عز وجل أن شرفنا بضوابط هذا الدين، أن شرفنا بقواعد هذه الشريعة التي تكفَّلَتْ لنا سعادة العاجلة وبشرتنا بسعادة العقبى، هذا الغرب الذي أنا عائد منه قبل ساعات إذا أظلم فيه الليل وامتد سواده في الأرجاء نظرْتَ إلى ساحات ذلك الصقع وشوارعه وميادينه وأزقته وإذا هي قد أصبحت فارغة كل قد عاد إلى داره ومثواه أو مأواه من الليل، ذلك لأن الأمن غير مستتب ولأن الجرائم كثيرة وهذا هو ميقاتها، وعندما تأوي إلى دارك في تلك الساعة وتطل من خلال شرفة أو تأوي إلى نُزُلٍ تطل على الشارع من خلال النافذة لا تجد في الشوارع إلا العربات الذاهبة والآيبة، وفي الليل لا يمكن أن يهدأ ضجيج عربات النجدة وعربات الإسعاف إلى آخر الليل، ذلك لأن مهام هؤلاء الناس تبدأ تقريباً بعد الهزيع الأول من الليل فهذا مشهد من المشاهد التي تبعث الشعور الأول في نفسي.

وتنظر إلى وجوه الذين تجاوزوا مرحلة الكهولة من حياتهم ودخلوا في مدارج الشيخوخة، تتأمل في هذه الوجوه فتجد أن معظمها قد اكتست قناع الكآبة، قناع الحزن والأسى ذلك لأن أصحاب هذه الوجوه قد ودعوا ليالي لهوهم وأيام عبثهم إلى غير رجعة وظهر من وراء ذلك المصير المحتوم الذي لا مفر منه بل المجهول أيضاً بالنسبة إليهم، ذلك المصير الذي يدنوا إليهم رويداً رويدا، فهذا هو المشهد الآخر الذي يبعث الأسى والشفقة في نفس كل متأمل ومتدبر.

والمهن، يا عباد الله، المهن القاسية والحرف القاسية المحرجة في الغرب كثيرة ولكن الغريب أن نصيب المرأة من هذه المهن أوفر وأكثر من مهن الرجال، عربات القمامة ما أكثر ما تقودها النساء، عربات النقل وما يتبعها من حمل للأثقال ما أكثر ما تقودها النساء، صيانة شبكات الصرف الصحي ما أكثر ما تُناط بالنساء دون الرجال، ما أريد أن أذكر لكم أنواعاً من هذه المهن المؤلمة القاسية ولكن الغريب أن نصيب المرأة من هذه المهن أوفر حظاً من الرجال، فهذا مشهد آخر من المشاهد التي تبعث الأسى والشفقة على أولئك المجتمعات في تلك الربوع.

فأعود وأنظر إلى مجتمعاتنا الإسلامية التي ما تزال تتمتع ببقية إن لم أقل بكل ما قد شرع الله سبحانه وتعالى وأمر فأجد أهل هذه المجتمعات متحررين من هذه المآسي التي تعتصر القلوب، يمر الهزيع الأول من الليل ويتبعه الهزيع الثاني وتنظر إلى الأسواق والشوارع والساحات والميادين في بلادنا وإذا هي لا تزال تعج بالذاهبين والآيبين ولا يزال كثير من المحَالِّ قد بقيت أبوابها متفتحة، لا خوف ولا هلع ولا رعب ذلك لأن الأمن مستتب ولأن عين الشريعة الإسلامية الحارسة تكلؤ أمتنا الإسلامية ولأن الأخلاق الإسلامية لا تزال موجودة في مغارسها ولا يزال ديننا الذي شرفنا الله عز وجل به لا يزال هو الذي يبعث الأمن والطمأنينة في النفوس، وصدق الله القائل: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، وصدق الله القائل: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾

نعم، وتنظر إلى وجوه أولئك الذين دخلوا في مدارج الشيخوخة من رجالنا الذين عاشوا في ظل الإسلام والذين تَرَبَّوا على مائدة هذا الدين فتجد الألق يزدهر به وجوههم وتجد مظاهر الأمن والطمأنينة قد هيمنت على كياناتهم، لماذا؟ لأنهم قد علموا قصة هذه الرحلة الإنسانية، أطلعهم الله عز وجل عليها، علموا المبدأ وعلموا المنتهى وعلموا معنى الموت وحسبكم من معناه المؤنس ومن معناه المبشر قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٨]، ألا ما أجل هذه النعمة، ما أجل هذه المكرمة التي أكرمنا الله سبحانه وتعالى بها، أما ينبغي أن تهيمن الشفقة في قلوبنا على أولئك الذين حرموا من فهم معنى الموت، أولئك الذين حرموا من فهم معنى هذه الحياة ومنهاجها وبرامجها.

وتنظر إلى المرأة التي نمت وترعرعت في ظل أسرة لا تزال تعتز بهذا الدين ولا تزال تعتز بشرائعه وأخلاقه فتجدها تتربع من حياتها على عرش الكرامة، على عرش العزة، هل وجدتم في مجتمعاتنا الإسلامية امرأة زجها العوز أو زجتها الضرورة إلى تقود سيارة القمامة، هل وجدتم في مجتمعاتنا الإسلامية امرأة زجتها الضرورة إلى أن تقود سيارة النقل وأن تُضْطرَّ إلى أن تحمل أثقال الناس من مكان إلى مكان؟ لا أيها الإخوة، ما أظن أن أعينكم رأت شيئاً من هذا قط، ذلك لأن الله سبحانه وتعالى كرَّم المرأة، أمر الأب أن يكون هو الحارس على كرامتها، أمر الأب أن يكون هو الذي يمنع أن تُزَجَّ في عوزٍ وضرورة حتى إذا تزوجت أمر الشارع الزوج أن يقوم بما كان يقوم به الوالد من قبل فهي مكرمة مكفية إن كانت تعيش في دار أبويها أو تعيش في دار زوجها، على أن الشارع لم يمنعها من العمل لكن لا بسائق ضرورة وإنما بسائق رغبة، إذا وجد العمل الذي يناسبها والذي يتلائم مع ضوابط الآداب الشرعية التي أوصاها الله سبحانه وتعالى بها فلا حرج،

نعم، هذا هو مجتمعنا، وعندما أقارن مجتمعاتنا الإسلامية، وشامنا مجتمع يقف في مقدمة تلك المجتمعات وأنظر وأقارن، أما ينبغي أن نشعر بهذا الذي أقول لكم؟! أما ينبغي أن نشعر بِيَمٍّ لا ساحل ولا حدود له من الشكر لله، من الثناء على الله عز وجل الذي أكرمنا بهذه الشرعة وشرفنا بهذا المنهاج، الذي جعلنا ممن قال عنهم: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ﴾ [الأنعام: ٨٢]، تأملوا ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ﴾، الأمن في الدنيا والأمن في الآخرة، لن يقعوا في خوفٍ من الجرائم، لن يجدوا أنفسهم بعيدين عن الطمأنينة وأسبابها، سيجدون أنهم يتفيؤون ظلاً وارفاً من ظلال الأمن والطمأنينة ورغد العيش وسلامة العيش في هذه الدنيا العاجلة، هذا إلى جانب ما بشرنا الله عز وجل به من سعادة العقبى.

ولكن الذي يؤلمنا يا عباد الله أن في مجتمعاتنا من لا يزال يسيل لعابهم على الصور والمظاهر الغلافية لتلك المجتمعات الغربية وهم في غفلة عما هو موجود في داخل الغلاف، ليت أن هؤلاء الإخوة والأخوات يتجاوزون صور الغلاف التي هي صور لقلة من ممثلات هوليود، لقلة من النساء المترفات، ألا ليت أن إخوة لنا وأخوات لنا يخترقون صور الغلاف هذه ويدخلون في داخل تلك المجتمعات ليروا المآسي، ليروا ما يعتصر القلوب ألماً، لعل فيكم كثيرين ذهبوا ورأوا ما رأيت، وأنا والله لا أبالغ أيها الإخوة، أصف لكم

جزءاً مما رأيت ولو أنني تتبعت لرأيت أكثر وأكثر، المصيبة التي أسأل الله أن يعافينا ويعافي أبناء جلدتنا، إخواننا وأخواتنا، منها أن فينا من قد عافاهم الله عز وجل من الجرب ومع ذلك فإن أحدهم إذا رأى هؤلاء الذين يعانون من مرض الجرب وإن الواحد منهم يكاد يمزق جلده حكاً يحاول أن يقلده في الحك أيضاً، ويحك أنت معافى، أنت لست مريضاً، عافاك الله مما ابتلى به أولئك الناس، لماذا تمد أصابعك بل أظافرك إلى جلدك فتحك كما يحك أولئك الناس، أيصل التقليد بالإنسان العاقل الحر إلى هذه الدرجة يا عباد الله.

رأيت المرأة التي تجاوزت مرحلة الكهولة إلى الشيخوخة وقد اجتواها الصديق بل الأصدقاء واجتواها الزوج، هجر ولم يطلق تعيش وحيدة في منزل قصي لها تنتظر النهاية التي تخرجها من هذه الحياة وتتأمل في مظهرها وإذا بالشقاء يعتصرها اعتصاراً، لا ولد يتعرف عليها ولا أخ أو أخت يعرفها وإنما البلاء والشقاء هما صديقاها فقط، أما المرأة في مجتمعاتنا الإسلامية عندما تدخل في مدارج الشيخوخة فإن هالة الكرامة تزداد حراسة لها، وإن عرش العزة تزداد رسوخاً فوقه، لا يُقْضَى دونها بأمر، الكل يرجع إليها، الكل يُقَبِّلُ يديها صباح مساء، يا هؤلاء الناس احمدوا الله على هذا الذي أكرمنا به من حيث يفتقر إليه أولئك الناس.

نعم هذه هي الحضارة، قلتها بالأمس وأؤكد لكم ذلك اليوم، الحضارة الإنسانية هي هذه، نحن لا الغرب الذين نتمتع بالحضارة الإنسانية المتمثلة فيما ذكرت لكم، نحن متخلفون في شيء واحد هي الناحية العلمية التقنية فقط والغرب متخلف في كل مظاهر الحضارة الإنسانية إلا هذا الجانب التقني فقط، تعالوا نعد مرة أخرى إلى هذه المنة الربانية التي طوق الله بها أعناقنا إذ قال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْأِسْلامَ دِيناً﴾ [المائدة: ٣]، رضينا اللهم إسلامك ديناً لنا فوفقنا اللهم للتشرف به ولتطبيقه كما أمرت.

أقول قولي هذا وأستغفر الله.


شبهات ومكائد



الكيد للإسلام

٢٧٠- حذار من حرب شعارات ضد الإسلام | ١٩٨٩/٠٦/٠٩

كنتُ ولا أزالُ أحذّر من أحدث حربٍ ضدَّ الإسلام تصاغُ طريقتها في أقبية يعرفُها محترفو الغزوِ الفكريِّ في العالمِ الذي نعيشُ فيه، وكنتُ ولا أزالُ أحذّر من هذه الطّريقةِ الجديدةِ في حربِ الإسلام وهي الطّريقةُ التي سمّيتُها حربَ الشّعارات.

وأعودُ اليومَ لأذكّركم بها ولتستعيدوا الوعيَ الذي متّعكمُ اللهُ عزَّ وجلَّ به وتجعلوا منهُ حصنكمُ الحصين ضدَّ كلِّ أحبولة وضدَّ كلِّ خِداع.

قلتُ مرّةً إنَّ هنالكَ شعاراتٍ برّاقةً تُطلَقُ وتُطرَح، ظاهرها خدمةُ الإسلام وباطنُها الكيدُ للإسلام. من هذه الشّعارات كلمةُ: (التّقاليدِ الإسلاميّة)، من هذه الشّعارات كلمةُ: (الأديانِ السّماويّة)، من هذه الشّعارات كلمةُ: (رجالِ الدّين)، وهنالكَ كلماتٌ كثيرة صيغت بليل وأُحكِمَتْ بعدَ جهد وطُرِحَت بينَ النّاسِ والنّاسُ عن ذلكَ غافلون. وآخرُ هذه الشّعارات التي تصاغُ في هذه الأقبية المظلمةِ من أطرافِ عالمنا المترامي الفسيح، كلمةُ: (التّراثِ الإسلاميّ). كلمةُ التّراثِ الإسلاميّ هذه تُستَعمَلُ اليومَ بدلاً من كلمةِ (المبدأِ الإسلاميّ)، (الثّقافةِ الإسلاميّة)، (المصادرِ الإسلاميّة)، (العقيدةِ الإسلاميّة). هذه الكلماتُ كلُّها تُذَوَّبُ لتُستَبدَلَ بها كلمةٌ أخرى هي (التّراث) أو (التّراثُ الإسلاميّ). فما هوَ وجهُ خطورةِ هذه الكلمةِ أوّلاً؟ وأينَ ينبعثُ الكيدُ منها؟

كلمةُ (التّراثِ) أو (الميراث) تعني: مخلّفاتِ أمّة، مخلّفاتِ أجيالٍ سابقة، تلكَ الأجيالُ ابتدعتها واخترعتها واعتزّت بها ثمَّ إنّها رحلت عن الدّنيا وتركتها وراءها، فبقيت تلكَ الأفكارُ التي هي وليدةُ ابداعاتهم، بقيت ميراثاً للأجيالِ التي تليها.

وإذا تصوّرنا الإسلامَ من هذا القبيل، تصوّرناهُ تراثاً وميراثاً. استقرَّ في ذهننا شيئاً فشيئاً ودونَ أن نتنبّه أنَّ الإسلامَ ليسَ أكثرَ من أفكارٍ ابتدعتها تلكَ الأجيالُ السّابقة، وتعبت حتّى ابتدعتها وصاغتها وأنتجتها،

فنحنُ اليومَ نرثُ تعبَ تلكَ الأجيالِ السّابقة، ونرثُ أفكارهم التي ابتدعوها، ونقفُ ممّا تركوهُ وراءهم أمامَ ركامٍ كبيرٍ كبير اسمهُ التّراث أو التّراثُ الإسلاميّ. يدخلُ في هذا الكلامِ القرآن: تراثٌ إسلاميّ، تدخلُ في هذه الكلمةِ السّنّة: تراثٌ إسلاميّ، تدخلُ في هذه الكلمةِ شروحُ القرآنِ وتفاسيرُ السّنّة: تراثٌ إسلاميّ، يدخلُ في هذه الكلمةِ الفقهُ الإسلاميُّ المأخوذُ من كتابِ اللهِ وسنّةِ رسولِ الله: تراثٌ إسلاميّ.

وإذا استقبلَ الإنسانُ هذه الكلمةَ قبولاً حسناً فلا شكَّ أنَّ هذا المعنى سينطلي قريباً على ذهنه، ولسوفَ يتصوّرُ أنَّ مصادرَ الإسلامِ كلَّها ليسَت إلا عبارةً عن إبداعاتٍ فكريّةٍ وإنتاجاتٍ عقليّةٍ لأممٍ ذاتِ عراقةٍ حضاريّة، ونحنُ اليومَ نرفعُ الرّأسَ إذ نجدُ ذلكَ (التّراث).

ولا تزالُ كلمةٌ تطنُّ في أذني كانَ يردّدها واحدٌ ممّن رحلَ إلى اللهِ وأصبحَ اليومَ على موعدِ وقفةٍ خطيرةٍ بينَ يديِ الله، تلكَ الكلمةُ التي كانَ يردّدها، يردّدها وهو معتزٌّ بها في الظّاهرِ والصّورة ولكنّهُ يستبطنُ الكيدَ بها في الحقيقة، تلكَ الكلمةُ هي: (تراثُ الآباءِ والأجداد)، (إنّنا نعتزُّ بالإسلامِ الذي هو تراثُ الآباءِ والأجداد)، (تراثُ الآباءِ والأجداد).

أريدُ قبلَ كلِّ شيءٍ أيّها الإخوة أن تتمسّكوا بالوعيِ الذي هو سدى ولحمة هذا الدّينِ الحنيف. دينُنا الإسلاميُّ يمتازُ عن سائرِ المذاهبِ والمبادئِ كلّها بشيءٍ قدسيٍّ واحد، ألا وهو: تربيةُ الإنسانِ على الوعي، وعلى الفهمِ والإدراكِ العميقين، أريدُ أن تتمتّعوا يا عبادَ الله بهذا الوعي عندما تستمعونَ بينَ الحينِ والآخر كلماتٍ تطوفُ وتدورُ حولَ التّراثِ وما يتعلّقُ بالتّراثِ وما إلى ذلك.

إذا تصوّرنا أنَّ الإسلامَ تراث، واستمرَّ الأمرُ ذلك، هانَ بعدَ ذلكَ أن تُطرَحَ أطروحاتٌ أخرى، وهي تُطرَحُ الآن. إذا كانَ الإسلامُ تراثَ الآباءِ والأجداد، فمالنا ننظرُ إليهِ بقدسيّة؟ مالنا ننظرُ إليهِ بهذا التّبجيلِ والتّعظيم الباهرين؟ إنّهُ ليسَ أكثرَ من تراثِ الآباءِ والأجداد. وآباؤنا وأجدادنا من البشر، فلماذا لا ننظرُ إلى هذا التّراثِ نظرةً نقديّة؟ نظرةً توحي بكثيرٍ من الأخطاءِ ربّما توجدُ في هذا التّراث؟ ولولا هذا الجسرُ الذي نصب بيننا وبينَ الإسلامِ من كلمةِ التّراث، واستمرّت تتكرّر حتّى صقلت أذهانَ كثيرٍ من النّاس لما

كانَ في المسلمينَ من يتهيَّأُ لاستقبالِ هذه الدّعوة، الدّعوةِ إلى بترِ القسية عن هذا التراثِ الذي هو تراثُ الآباءِ والأجداد.

أتلاحظونَ خطَّ المكيدةِ يا عبادَ الله؟ أتلاحظونَ ما وراءَ الأكمة؟ هذا الأمرُ لا يستدعي سوى أن يكونَ الإنسانُ قد رُبّيَ تربيةً صحيحةً تامّةً على يدِ القرآنِ العظيم، على يدِ هذا الكتابِ المبين، عندئذٍ لا يستطيعُ أيُّ أفّاكٍ أن يخدعه. وماذا نقولُ نحن؟ ماذا نقولُ لمن يدعونا اليوم بعدَ أن غرزَ كلمةَ التّراثِ بدلاً عن الإسلامِ ومصادرِ الإسلام ثمَّ جاءَ يدعونا إلى بترِ مظاهرِ القدسيّةِ عن هذا التّراثِ لكي نستطيعَ أن ننقدهُ نقداً موضوعيّاً؟ ماذا نقولُ لهؤلاءِ النّاس من منطلقِ علمٍ وموضوعيّة ودونَ أن نجنحَ إلى أيِّ عصبيّةٍ قط؟ نقول: إنَّ تقديسنا للإسلامِ – ولا نقولُ للتراث – إنّما هو نتيجةُ دراسةٍ نقديّةٍ ونتيجةُ بحثٍ موضوعيٍّ مجرّد. وليسَ تقديسُنا للإسلامِ حكماً اعتباطيّاً جاءَ باديءَ ذي بدئ، فنحنُ المسلمين عندما نقدّسُ القرآن لم نقدّسهُ إلا بعدَ أن فكّرنا فيهِ طويلاً وقدّرنا وفرضنا أن يكونَ كلامَ بشر وأن يكونَ كلاماً مختَرَعاً من عندِ رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم، ووضعنا الاحتمالاتِ النّقديّةَ كلَّها ولكن بموضوعيّةٍ ودونَ أيِّ عصبيّةٍ لأيِّ جهة. ولمّا محّضنا الفكرَ ودقّقنا النّظر انتهينا إلى أنَّ القرآنَ كلامُ الخالقِ وليسَ من إبداعِ المخلوق. فقادنا هذا اليقينُ إلى تقديسِ هذا القرآن.

ولمّا بلغنا حياةَ محمّدٍ عليهِ الصّلاةُ والسّلام سرنا على المنهجِ ذاتهِ، وضعنا مجاهرَ النّقدِ والفحصِ والبحث على حياةِ رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم وفرضنا كلَّ احتمال ولكن مرّةً أخرى أقولُ بموضوعيّةٍ وبدونِ أيِّ شططٍ أو عصبيّة، وانتهينا بعدَ هذا البحثِ إلى أنَّ رسولَ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم نبيٌّ مرسلٌ من عندِ ربّهِ لم يفتئت على خالقٍ ولا على مخلوق، فقادنا هذا اليقينُ إلى قدسيّةِ رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم. وحديثُنا عن السّنّةِ كذلك، وحديثُنا عن أصحابِ رسولِ اللهِ والخلفاءِ الرّاشدين كذلك.

إذاً تقديسُنا للإسلامِ لم يكن أمراً مبدئيّاً اعتباطيّاً ساقتنا إليهِ العصبيّة، ولكنّهُ نتيجةُ دراسةٍ موضوعيّةٍ نقديّةٍ تامّة. وإذا كانَ بيننا من لم يتأمّل في الإسلامِ بعدُ كما تأمّلنا، ومن لم يدرس كتابَ اللهِ كما درسنا، ومن لم يدرس شخصيّةَ رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ كما فعلنا، فلا عليهِ أن يبدأَ هو من نقطةِ الصّفر،

بل نحنُ نبيحُ لهُ وندعوهُ إلى أن يبدأَ دراستَهُ لذلكَ كلّهِ بعيداً أيّ تدجيل. ولكنّا نطلبُ منهُ أن يسيرَ في الطّريقِ الذي سرنا فيه، نطلبُ منهُ أن يتأمّلَ كما تأمّلنا، نطلبُ منهُ أن يحرّرَ يديهِ وعقلهُ من الأغلال، نطلبُ منه أن يحرّرَ كيانهُ من التّبعيّةِ الذّليلة لأناسٍ هناكَ في أقصى الشّرقِ أو الغرب، نطلبُ منهُ هذا التّحرّرَ فقط. وسيصلُ إلى النّقطةِ التي وصلنا إليها.

ونطلب شيئاً أخرُ نطلب: أن لا يطلبَ هؤلاءِ المتخلّفون الذينَ لا يزالونَ يقفونَ في أوّلِ الطّريقِ وعندَ نقطةِ الصّفر، حيثُ لم يدرسوا الإسلامَ بعد، ولم يدرسوا كتابَ اللهِ بعد، نطلبُ منهم أن لا يطلبوا منّا وقد سرنا بعدهم أشواطاً، نريدُ منهم أن لا يطلبوا منّا أن نرجعَ القهقرى وأن لا نرجع إلى حيثُ هم يقفون، سيروا كما سرنا وتأمّلوا كما تأمّلنا. هذا ما نقولهُ من منطلقِ الوعي الذي نسجهُ إسلامُنا العظيمُ في عقولنا يا عبادَ الله.

نحنُ اليوم تحتوشنا أعاصيرُ وعواصفُ كثيرة، هذهِ الأعاصيرُ والعواصف تدورُ من حياتنا على محورٍ واحد، وأنا أقسم غيرَ مبالغٍ ولا متأثّم، إنّها لا تدورُ من حياتنا على محورِ المال، ولا تدورُ من حياتنا على محورِ أرض، ولا تدورُ من حياتنا على محورٍ أيِّ مظهرٍ من مظاهرِ الغنى أو (التّراث) بالمعنى السّليمِ لهذه الكلمة، وإنّما تدورُ هذه العواصف على محورٍ واحد. ألا وهو هذا الدّينُ العظيمُ الذي أكرمنا اللهُ عزَّ وجلَّ به، والذي امتنَّ اللهُ بهِ علينا إذ قال في محكمِ كتابه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾. وما أظنُّ أنَّ هنالكَ تاجاً توِّجَ بهِ الإنسانُ من قِبَلِ ربِّ الإنسانِ أجلَّ وأعظمَ من هذا التّاج، هذا التّاج كنزٌ يبعثُ في حياتهِ الغنى، هذا التّاج مصدرٌ يكوّنُ لديهِ القوّةَ التي لا تُغلَب، هذا التّاجُ يؤلّفُ في حياتهِ نسيجَ التّآلفِ والوحدةِ الإنسانيّةِ الصّحيحة. ولذلك فلم يكن غريباً ولا يكونَ غريباً أن تحاولَ مصادرُ الكيدِ للإنسان اصطيادَ هذه الحقيقةِ التي توّجنا اللهُ عزَّ وجلَّ بها، ولم يكن غريباً عن هؤلاءِ النّاس أن يصطنعوا فيما بيننا العملاءَ لأنفسهم، وأن يستنطقوهم بألسنتهم، وأن يقوموا هم بدورِ الملقّنِ على المسرح، ويقومُ هؤلاءِ الصّغار بدورِ الذي يتحرّكُ فوقَ المسرحِ جيْأةً وذهاباً. ولكن أرأيتم

إلى هذه العواصفِ والأعاصيرِ كلِّها، واللهِ الذي لا إلهَ إلا هو إنّها لأقلُّ شأناً من أن تزعزعَ اليقينَ الإيمانيَّ الإسلاميَّ في فكرِ طفلٍ بلغَ رشده.

وقد بلغنا رُشدَنا، وعرفنا جوهرَ ديننا، وعرفنا العزّةَ التي ورّثنا اللهُ عزَّ وجلَّ إيّاها، وعرفنا أنَّ الأديانَ السّابقةَ لم تخترع من لدُنها ديناً ولم تورّثنا شيئاً ممّا اخترعتهُ من جرّاءِ ذلك. نحنُ نعلمُ هذا، وينبغي لكلِّ مسلمٍ أن يعيَ هذه الحقيقةَ التي أقولُها، فإذا وعاها ثمَّ رأى أو سمعَ كلماتٍ تنطقها أفواه ممجوجةٌ في الآذان، ثقيلةٌ في الوعيِ والعقولِ والقلوب فإنّهُ لن يجدَ من خلالِ ما يسمع إلا مزيداً من اليقين بالحقيقةِ التي متّعهُ اللهُ سبحانهُ وتعالى بها.

أرأيتم إلى الرّجلِ الذي يحملُ صندوقاً لا يعلمُ ما في داخله ولكنّهُ التفتَ فرأى المتربّصينَ بهِ يحدقونَ بهِ وبصندوقه، وإنَّ ألسنتهم لتلهثُ طمعاً في هذا الصّندوق، أرأيتم إلى هذا الإنسان ألا يزدادُ تمسّكاً بصندوقه؟ ألا يزدادُ يقيناً بأنَّ ما فيهِ شيءٌ ثمين؟ هذه هي حالُنا اليوم، هذا هو واقعُنا اليوم، دينُنا الإسلاميّ تنزّلَ من عندِ اللهِ عزَّ وجلّ هديّةً وتتويجاً لبني الإنسان، ولم يكن تراثاً نبعَ من أفكارِ بني الإنسان.

حقيقةٌ معروفةٌ افهموها ولا تغرّنّكم ألفاظُ العلمِ وكلماتُ العلم، التي يعوزها جذور العلم، والتي يعوزها مضمون العلم، وما أكثرَ الجهّال الذينَ تفوحُ رائحةُ العفنِ من جهالتهم، ولكنّهم يغطّونَ جهالتهم هذه بألفاظٍ وكلماتٍ وعناوينَ علميّةٍ برّاقة، لكن منذا الذي ينخدع؟

أقولُ قولي هذا وأستغفرُ اللهَ العظيم...

٢٧١- الذين يزيدهم كتاب الله تعالى تيهاً وضلالاً | ١٩٩٠/١١/٢٣

(نقص في أصل التسجيل)... الذي يقبل على قراءةِ هذا الكتابِ العظيمِ بدافعٍ من أسبقيات أو دوافع سيّئة، فإنّهُ يجدُ في هذا الكتابِ بل في الآياتِ والنّصوصِ ذاتِها التي اهتدى بها ذلكَ الإنسانُ الأوّل، يجدُ هذا الثّاني في الآياتِ والنّصوصِ ذاتِها ما يزيدهُ تِيهاً، وما يزجّهُ في مزيدٍ من الضّلالِ والغواية، وما يزيدهُ على عماهُ عمىً كما قالَ اللهُ سبحانهُ وتعالى عنهُ وعن أمثالهِ: ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾، أي: والقرآنُ في الوقتِ الذي جعلَهُ اللهُ لأصحابِ الفكرِ الموضوعيِّ والمُبَرَّئينَ منَ الأسبقيّاتِ والخلفيّاتِ الباطلة، في الوقتِ الذي جعلهُ اللهُ كتابَ هدايةٍ لهم جعلهُ أداةً ليزيدُ عمى هؤلاءِ العُميان، ويزيدهُم إلى ضلالهم ضلالاً.

هذهِ الظّاهرةُ من أغربِ ما يمتازُ بهِ كتابُ اللهِ سبحانهُ وتعالى، ونحنُ نقرأُ هذهِ الحقيقةَ بل هذا المزيّةَ في كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ ذاته، ألم تقرؤوا قولهُ سبحانه: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾؟ وهذا شيءٌ عجيب؛ آياتٌ تزيدُ المؤمنينَ إيماناً، وتزيدهم طمأنينة، وتحيلُ مرضهم إلى شفاء، وتجعلُهم في حصنٍ حصينٍ ضدَّ كلِّ سوء. ولكنَّ هذهِ الآياتِ ذاتَها كما يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ لا تزيدُ الظّالمينَ إلّا خساراً.

أنا عندما أقرأُ بعضاً من آياتِ كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ وأقفُ عندها بتدبُّرِ العاقل، بل بنظرةِ الإنسانِ الموضوعيّ دونَ انطلاقٍ من إيمانٍ كامل، ودونَ انطلاقٍ من تأثّرٍ أكرمنيَ اللهُ عزَّ وجلَّ بهِ من قبل، أجدُني أمامَ كلامٍ أخّاذ لا يمكنُ إلا أن ينتشلَ الإنسانَ من أوديةِ التّيهِ وضلالهِ مهما كانت سحيقة. وأقفُ وأعجب: كيفَ يمرُّ على هذا الكلامِ أناسٌ لا ينتشلهم من سوءِ حالهم، ولا يخلِّصهم من شُبُهاتهم وريَبهم، كيف؟ كيفَ يمرّونَ على هذهِ الآياتِ دونَ أن تهديَهم إلى سواءِ صراطِ الله؟ بل دونَ أن تملأَ قلوبَهم مخافةً من اللهِ سبحانهُ وتعالى؟ بل العجب: أنّها تفعلُ فيهم نقيضَ ذلك، تزيدُ ضلالهم ضلالاً، وتزيدُ عماهم كما قالَ اللهُ سبحانهُ وتعالى عمىً.

كنتُ أتلو السّاعةَ هذهِ الآياتِ في كتابِ اللهِ عزَّ وجلّ، ولكنّي كدتُ أن أُحبَسَ في هذهِ الآياتِ فلا أتجاوَزَها، كلامٌ عجيبٌ لا بدَّ أن يأخذَ بمجامعِ كلِّ ذي لب، ولا بدَّ أن تهيمنَ على كلِّ عقل، آياتٌ تمخر حجب السّنواتِ والأزمنةِ والشّهورِ وتنقلكم إلى عَرَصَاتِ القيامة وكأنّكَ ترى يومَ القيامةِ أمامكَ وقد أُزلِفَتِ الجنّةُ إليك، وقد زَفِرَتِ النّيرانُ زَفَراتِها، وربُّ العالمينَ بالمرصادِ يأخذُ بالنّواصي والأقدام. انظروا إلى هذهِ الآيات، هل من عاقلٍ لا يتأثّرُ بها؟ ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا، وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا، وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾.

وانظروا بعدَ ذلكَ إلى هذا الكلامِ الذي يذيبُ الإنسانَ خجلاً منَ الله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلا﴾.

ما أتصوَّرُ أنَّ إنساناً يملكُ فقط عقلاً واعياً وقلباً إنسانيّاً نابضاً ويمرُّ على هذهِ الآياتِ إلا ويأخذُ بمجامعِ قلبهِ الخوفُ أوّلاً، ثمَّ إنَّ الحياءَ يذيبُ نفسهُ ثانياً، ربُّ العالمينَ سبحانهُ وتعالى يُكَرِّمُكَ يا ابنَ آدمَ ويأمرُ الملائكةَ بمن فيهم إبليسَ أن يسجدوا لكَ في شخصِ أبيكَ آدم، ولكنّهُ أبى واستكبرَ ونظرَ إليكَ نظرةَ عِداءٍ وربُّ العالمينَ يأمرُ هذا المخلوقَ أن ينظرَ إليكَ نظرةَ تقدير، وإذا بكَ أنت يا ابنَ آدم الذي كرَّمَكَ اللهُ هذا التّكريمَ وعاداكَ إبليسُ تلكَ المعاداةَ تتركُ موالاةَ ربِّ العالمينَ الذي كرَّمكَ وتؤثِرُ موالاةَ الشّيطانِ الذي عاداك، ويسألُكَ اللهُ سؤالاً مغموساً بكلِّ معاني اللطف، وبكلِّ معاني الرِّقَّةِ النّابعةِ من نقد وعتابٍ رقيقين: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلا﴾. ولكنَّ في النّاسِ من يقرأُ هذا الكلامَ وغيرَ هذا الكلامِ ممّا يهزُّ الأفئدةَ والقلوب، وممّا يملأُ طوايا العقولِ شعاعاً وإيماناً بالحقيقةِ فلا يزدادُ — ويا للعجبِ – بقراءَتهِ لهذا الكلامِ إلا ريباً، ولا يزدادُ من خلالِ تأمّلهِ في هذهِ الآياتِ إلا تطوُّحاً، لماذا؟ هل كانَ اللهُ عزَّ وجلَّ في لحظةٍ منَ اللحظاتِ ظالماً؟ هل كانَ اللهُ عزَّ وجلَّ في لحظةٍ منَ

اللحظاتِ ينظرُ نظرةً متحيّزةً إلى عباده؟ معاذَ الله، اللهُ سبحانهُ وتعالى أعدلُ العادلين، واللهُ سبحانهُ وتعالى هوَ الذي أعلنَ أنّهُ يكرهُ الظُّلمَ ونهانا عن أن نتظالم: ﴿إنّي حرّمتُ الظّلمَ على نفسي وجعلتهُ بينكم محرّماً فلا تَظَالموا﴾، معاذَ اللهِ أن يكونَ الأمرُ كذلك. إذاً لماذا؟

عاقلان يقرأُ كل منها نصوصاً ذاتيةً معينةً في كتاب الله عزَّ وجل، هذهِ النّصوص تزيد الأول إيماناً وهي ذاتها تزيد الثّاني فجوراً وضلالاً، السّبب: أنَّ الأوَّلَ عندما أقبلَ إلى هذا الكلامِ أقبلَ ليتدبَّرَه، فقد وضعَ عقلهُ الصّافي عن الخلفيّاتِ والشّوائبِ والأسبقيّاتِ تماماً، إلى أيِّ نهايةٍ أوصلتهُ هذهِ النّهاياتُ وصلَ. وهذا هوَ عربونُ هدايةِ اللهِ عزَّ وجلَّ لهذا الإنسان. أمّا الثّاني فهوَ لم يقبل إلى هذا الكتابِ إلا وملأَ عقلهُ وقلبهُ نيّاتٍ فاسدةً قذرة، لم يعكف على هذا الكتابِ إلا من أجلِ أن يخدِمَ أعداءَ اللهِ سبحانهُ وتعالى بدءاً من إبليسَ الذي استكبرَ على اللهِ عزَّ وجلَّ وأعلنَ عِداءهُ لهذا الإنسانِ إلى جميعِ شياطينِ الأرضِ من مشارقِ الأرضِ ومغاربِها، هذا الإنسانُ عندما يقبِلُ على كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ يتفحّصُهُ أو يقرَؤهُ أو يكتبُ عنهُ فإنّهُ لم يَضَع نُصبَ عينيهِ أن يعلمَ جليَّ الأمور، وأن يُدرِكَ حقائِقها، ثم يسيرَ وراءَ هذهِ الحقائقِ ليتمسَّكَ بها أيّاً كانت، وإنّما ينطلقُ إلى ذلكَ من معاقدةٍ واتّفاقٍ وفيّينٍ بينهُ وبينَ أعداءِ اللهِ سبحانهُ وتعالى، هذا الإنسان لو رأى في كتابِ اللهِ سبحانهُ وتعالى أعظمَ معجزةٍ خارقةٍ تنخرُ الألبابَ وتنخرُ العقولَ لا يمكنُ أن يهديهُ اللهُ عزَّ وجلَّ بها أبداً. وكيفَ يهديهِ ولماذا يهديهِ وإنَّ دافعَ السّوءِ هو الذي حرّكه؟ وإنَّ دافعَ التّدجيلِ هوَ الذي سيّره؟ واللهُ يعلمُ خفيّاتِ القلوبِ ويطّلعُ على طوايا القلوب.

ألم يقلِ اللهُ سبحانهُ وتعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾. والتّكذيب: أن يعلمَ الإنسانُ حقيقةَ شيءٍ ثمَّ يتغاضى عنهُ ابتعاداً وتكلّفاً. هذا هوَ قرارُ اللهُ عزَّ وجلّ، وهذا هوَ حكمه.

عجبتُ لإنسانٍ يقرأُ كتابَ اللهِ سبحانهُ وتعالى وقدِ امتلأَ ذهنهُ يقيناً بأنَّ الإنسانَ تطوَّرَ كما قالَ مثلاً داروين أو من قبله أو من بعده، وقد امتلأَ عقلهُ ويقينهُ بأنَّ الإنسانَ خُلِقَ وتطوَّرَ بشكلٍ كذا، وعلى النّحوِ

الفلانيّ، وبدافعٍ من كذا، كأنّهُ كانَ يشهدُ عصورَ التّطوُّرِ الإنسانيِّ حِقبةً إثر حِقبةٍ إثرَ حِقبة، عجبتُ لهذا الإنسانِ الذي ملأ عقلهُ بهذهِ العفونات، ثمَّ وقفَ أمامَ قولِ اللهِ عزَّ وجلّ: ﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾. كيفَ يقرأُ هذا الكلامَ العجيبَ ثمَّ لا يهتزُّ العقلُ منهُ لتتساقطَ هذهِ العفوناتُ كلُّها؟ وليعانقَ هذا الكلام؟ وليعقِدَ الصُّلحَ معَ اللهِ عزَّ وجلّ؟ وليقولَ: نعم، لقد بَرِئتُ يا ربِّ من كلِّ هذهِ التّقوُّلاتِ الكاذبةِ الفاجرةِ وآمنتُ بالحقِّ الذي لا يأتيهِ الباطلُ من بينِ يديهِ ولا من خلفه. مَن هذا الذي رحلَ إلى أقصى الدّنيا قديماً فرأى كيفَ خُلِقَ الإنسانُ ورأى في أيِّ مصنعٍ تمَّ تصنيعُه؟ مَن هذا الذي استوفدَهُ اللهُ ليأتيَ شريكاً معَ اللهِ في خلقه؟ هل رأيتم أعجبَ من هذا الكلامِ الذي يردُّ على هؤلاءِ المفتَئِتينَ على اللهِ: ﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾.

لكن ها هم أولاءِ يقرؤونَ هذا الكلامَ أو يسمعونه، تمرُّ هذهِ الآياتُ على عقولهم مرَّ الغاشيةِ على العقلِ فلا يزيدُ العقلَ إلا الخَدَر، ولا يزيدهم إلا تطوُّحاً وخبالاً كما قالَ اللهُ سبحانهُ وتعالى.

تلكَ أعجوبةٌ من أبرزِ أعاجيبِ هذا الكتابِ العظيم، كلُّ ما نبغيهِ بعدَ العبرةِ التي ينبغي أن نأخذَها أن نلتَجِئَ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ أن يجعلَنا من الفريقِ الأوّلِ لا منَ الفريقِ الثّاني، أن يجعلَنا ممّن يتدبّرُ كتابَ اللهِ ليعلمَ من وراءِ ذلكَ الحقيقةَ فيتمسّكَ بها ولا يتركها. أسألُ اللهَ عزَّ وجلَّ أن يجعلَنا جميعاً ممّن يتدبّرونَ كتابَ اللهِ ثمَّ يصلونَ إلى القصود العاليةِ من هذا الكتاب.

أقولُ قولي هذا وأستغفرُ اللهَ العظيم...

٢٧٢- خوارج اليوم في ميزان التعامل مع الخلق (لنا الظاهر والله يتولى السرائر) | ١٩٩٢/٠١/١٧

إنَّ الدِّينَ الذي أكرمَ اللهُ سبحانهُ وتعالى بهِ عبادهُ وشرّفهم بهِ عندما ابتعثَ بهِ إلى النّاسِ الرُّسُلَ والأنبياء، هذا الدِّينُ لهُ جانبانِ اثنان:

جانبٌ يتمثَّلُ في الأحكامِ الظّاهرةِ التي أمرَ اللهُ عبادَهُ أن يتعاملوا على أساسِها، وهذا الجانبُ هو الذي يسمّى بالشّريعةِ التي أنزلها اللهُ عزَّ وجلَّ على عباده، ومن خلالِ موازينِ الشّريعةِ يتعاملُ النّاسُ بعضُهم مع بعض، ومن خلالِ موازينِ الشّريعةِ يشيعُ فيما بينهم الأمرُ بالمعروفِ والنّهيُ عن المنكر، ومن خلالِ موازينِ الشّريعةِ أيضاً يستقرُّ القضاءُ فيما بينَ النّاسِ طبقَ أوامرِ اللهِ سبحانهُ وتعالى. ويتّسمُ هذا الجانبُ في جملتهِ بأنَّ أحكامهُ ظاهرة، تنطبقُ عليها القاعدةُ القائلة: لنا الظّاهرُ واللهُ يتولّى السّرائر. وينطبقُ عليها قولُ سيِّدنا عمر لبعضِ المتخاصمينَ إليه: إنّما نُقاضِيكمُ اليومَ بما ظهرَ لنا منكم. فهذا هو الجانبُ الأوّلُ من الدّين، وهو الجانبُ الذي يسمّى بالشّريعة.

أمّا الجانبُ الآخرُ منهُ فجانبٌ خفيٌّ أخفاهُ اللهُ سبحانهُ وتعالى عن عباده، ومن ثمَّ فهوَ لم يمكِّنهم بأن يتعاملوا فيما بينهم على أساسه، ولم يمكِّنهم بأن يتقاضوا فيما بينهم بموجبه، ولم يعطِهمُ الصّلاحيةَ في أن يأمروا بمعروفٍ أو ينهوا عن منكرٍ على أساسه. هذا الجانبُ هو الجانبُ المتعلِّقُ ببواطنِ الأمور، وبخفيَّاتِ القضايا، وبما استكنَّ بينَ جوانحِ النّاس، فأسرارُ النّاسِ وبواطنهم ومشاعرهمُ الخفيَّةُ بعضُهم عن بعضٍ إنّما تُحالُ إلى أحكامٍ أخرى ينظرُ فيها اللهُ سبحانهُ وتعالى، ويقاضي بينَ عبادهِ يومَ القيامةِ على أساسها، وهذا الجانبُ الآخرُ هو الجانبُ الباطنيُّ الذي يسمّيهِ العلماءُ: الحقيقة.

فمن خلالِ فهمِ الإنسانِ لشريعةِ اللهِ وانضباطهِ بها يتقيَّدُ بالمنهجِ الذي أمرهُ اللهُ عزَّ وجلَّ بهِ وينهضُ بواجبِ الأمرِ بالمعروفِ والنّهيِ عن المنكر، ومن خلالِ فهمِ هذا الجانبِ الآخرِ الباطنيِّ الخفيِّ يتأدَّبُ الإنسانُ المسلمُ مع عبادِ اللهِ عزَّ وجلَّ جميعاً: يعاملهم طبقَ موازينِ الشّريعةِ الظّاهرة، ويقاضيهم إلى أحكامها الفقهيَّةِ الثّابتة، ويأمرهم بالمعروفِ وينهاهم عن المنكر، فإذا وصلَ إلى حدودِ البواطنِ المظلمةِ

الخفيَّةِ عنهُ أحالها إلى محكمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ وقضائه، وأحالها إلى علمِ اللهِ سبحانهُ وتعالى الذي لا تندّ عنهُ خافية، ولا يشردُ عنهُ سرٌّ من الأسرار، بالتزامِ الإنسانِ بالشّريعةِ يقيمُ منهجَ هذا الدّينِ فوقَ الأرض، وبتقديرِهِ للحقيقةِ يتأدَّبُ مع عبادِ اللهِ سبحانهُ وتعالى جميعاً.

وانظروا إلى هذين الجانبينِ كيفَ يبرزانِ ظاهرَينِ متميّزينِ في قولِ اللهِ سبحانهُ وتعالى: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾. أمّا قولهُ عزَّ وجلّ: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَشَاءُ﴾، فإنّهُ بيانٌ للحقيقةِ الخفيّةِ عنّا، من هم الذينَ يستأهلونَ غداً رحمةَ اللهِ عزَّ وجلّ؟ ومن همُ الذينَ يُخرَجونَ عنها؟ هذا شيءٌ لا نعرفهُ هذا اليوم، ومهما رأيتَ إنساناً ملتزماً في ظاهرِهِ بأوامرِ الشّرع، منصاعاً إلى أوامرِ الله، فلن تستطيعَ أبداً أن تتألّى على اللهِ بموجِبِ هذا الظّاهرِ فتقولَ: إنَّ هذا ممّن ستشملهم رحمةُ اللهِ غداً، لقد رأيتَ جانباً من الدّينِ في ظاهرِهِ وخفيَ عنكَ جانب، تنظر إلى واقعِهِ الذي تراه، بموجبِ هذا الواقعِ تأمرهُ بمعروف: لكَ ذلك. تنهاهُ عن منكر: لكَ ذلك.

تقاضيهِ وتقضي لهُ بما تعرفهُ من أحكامِ الشّرع: لكَ ذلك. ولكنّكَ لا تستطيعُ أبداً أن تحكمَ على ظاهرِهِ بالجذورِ التي لا يعرفُها إلا اللهُ عزَّ وجلّ، وبما سينتهي إليهِ حالهُ عندَ اللهِ سبحانهُ وتعالى، وهذا معنى قولِهِ عزَّ وجلّ: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَشَاءُ﴾، ما هو قانونُ هذهِ المشيئة؟ أخفى اللهُ عنكَ ذلك، من همُ الذينَ يصيبهمُ اللهُ برحمته؟ لا نعلم.. ثمَّ قال: ﴿وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾، هذا هو الجانبُ الشّرعيّ. والميزانُ هو الإحسان، فكلُّ من أحسنَ معَ اللهِ عزَّ وجلَّ فسارَ على الصّراطِ الذي أمرهُ اللهُ عزَّ وجلَّ بهِ والتزمَ بالأوامرِ وابتعدَ عن النّواهي وتمسَّكَ بحبلِ اللهِ عزَّ وجلّ، فإنَّ اللهَ سبحانهُ وتعالى قد التزم، ألزمَ ذاتهُ العليَّةَ ولا مُلزِمَ لهُ أنّهُ لن يضيعَ مثوبته ولن يُضيعَ أجرهُ كما قالَ عزَّ وجلَّ في آيةٍ أخرى: ﴿إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلَ﴾، هذا هو الميزانُ الشّرعيُّ الذي نتعاملُ في دارِ الدّنيا على أساسه، ولكنَّ اللهَ أخفى عنّا جانباً آخرَ لا نعرفُهُ ولا ندركُ مقاييسهُ وموازينه، وللهِ في ذلكَ حكمةٌ وأيُّ حكمة.

وانظروا إلى هذينِ الميزانينِ أيضاً أو إلى هذينِ الجانبينِ أيضاً كيفَ يتجلّيانِ في قولِ اللهِ عزَّ وجلّ: ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾. أمّا الجزءُ الأوّلُ من هذهِ الآيةِ فرسمٌ وبيانٌ للحقيقةِ الخفيّةِ عنّا: ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي – أي يجذبُ إليهِ – مَن يَشَاءُ﴾، من هم؟ لا نعلم. وكيف؟ لا نعلم. بماذا استحقّوا

هذا الاجتباء؟ لا نعلم. لعلَّ حبّاً سرى من ربِّ العالمينَ لطائفةٍ من عبادهِ لسببٍ من الأسبابِ لا نعرفُه، فكانَ هذا الحبُّ السّاري سبباً لاجتباءِ هؤلاءِ العبيد.

هذا شيءٌ يتعلَّقُ بالحقيقةِ الخفيّةِ عنّا، لا نتعاملُ معها ونكلُ الأمرَ في ذلكَ إلى اللهِ عزَّ وجلّ، ثمَّ قال: ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾، ميزانُ الشّرعِ ها هنا واضح، ألزمَ ذاتهُ العليّة أن يهديَ كلَّ إنسانٍ التفتَ إلى الله، التفتَ إلى اللهِ بعقلهِ الحرّ، بقصدهِ الخالصِ من شوائبِ الكبرِ والعناد، التفتَ إلى اللهِ لا بسلوك فالسّلوكُ بقدرةٍ من الله، لا بِخُطىً فالخُطى يُوَفِّقُكَ إليها الله، ولكنّهُ التفتَ إلى اللهِ بقصده، بعزمه، بإرادته، هذا هو ميزانُ الشّرع، يضعُنا الباري عزَّ وجلَّ إذاً بينَ موازينَ شرعيّةٍ نتعاملُ فيما بيننا على أساسِها ونحكمُ ونتقاضى بموجبِها.

ولكن علينا ألّا نتجاوزَ هذا الحدّ، وألّا نتألّى على الله، وألّا نجعلَ من موازينِ الشّرعِ المتعلّقةِ بالأمورِ الظّاهرةِ قوانينَ تتعلَّقُ بالخفايا الباطنةِ التي استلبَ اللهُ عزَّ وجلَّ منّا صلاحيةَ القضاءِ فيها، واستلبَ منّا اللهُ عزَّ وجلَّ صلاحيةَ الحكمِ بموجبِها، ما الحكمةُ من ذلك؟ الحكمة: أن يظلَّ الإنسانُ مهما طبَّقَ أوامرَ اللهِ عزَّ وجلَّ بينَ الخوفِ والرّجاء، لعلَّ الموازينَ الخفيّةَ قضت بشقائه، وإن كانتِ الموازينُ الظّاهرةُ فيما يبدو تقضي بسعادته، الحكمةُ من ذلكَ أن يتأدَّبَ أحدُنا مع ربِّ العالمينَ سبحانهُ وتعالى، ويتأدَّبَ مع عبادهِ الآخرين، فأنا آمرُكَ بالمعروفِ وأنهاكَ عنِ المنكر، وأذكرك باللهِ ولا أزيدُ على ذلك، ومهما رأيتُكَ جانحاً، لا أتألّى على اللهِ وأحكمُ أنَّكَ من أهلِ الضّلال، لعلَّ سرّاً خفيّاً يجتذبُكَ اللهُ بهِ إليه، لعلَّكَ أنتَ واحدٌ ممّن قالَ اللهُ عنهم: ﴿اللهُ يجتبي إليهِ من يشاء﴾، لعلّكَ واحدٌ ممّن قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ عنهم: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْنَشَاءُ﴾.

الحكمة: أنَّ الإنسانَ الذي عرفَ هذينِ الجانبينِ من دينِ اللهِ سبحانهُ وتعالى مهما أظمأَ نهارهُ صائماً، ومهما قامَ ليلهُ متعبّداً متهجّداً، ومهما التزمَ الأذكارَ والأورادَ والتّسبيحَ والاستغفار، يبقى في خوفٍ ووجلٍ من اللهِ عزَّ وجلّ، لأنّهُ أمسكَ من الدّينِ بميزانهِ الظّاهر، وخفيَ عنهُ ميزانهُ الباطن، ويقفُ هذا الإنسانُ أمامَ الحكمةِ الباهرةِ التي يقولُها ابنُ عطاءِ اللهِ السّكندريّ: **إذا أردتَ أن يُفتَحَ لكَ بابُ الرّجاء، فاشهد ما منهُ إليك. وإذا أردتَ أن يُفتَحَ لكَ بابُ الخوف، فاشهد ما منكَ إلي**. إذا أردتَ أن يُفتحَ أمامكَ أبوابُ الأملِ بمغفرةِ اللهِ عريضاً، فانظر إلى الرّحماتِ الواسعةِ الكثيرةِ التي تفدُ إليكَ منَ اللهِ دونَ أن يقابلكَ

اللهُ سبحانهُ وتعالى باستحقاقكَ وآثامك، هذا الميزانُ دليلٌ على أنَّ اللهَ يغفرُ لعبادهِ جميعاً. ولكنّكَ إذا أردتَ أن تشهدَ الخوفَ من مقتِ اللهِ عزَّ وجلَّ وعذابهِ فانظر ما يسري منكَ إلى الله، انظر إلى تقصيرِكَ في جنبِ الله، انظر إلى إساءَتِكَ إلى الله، انظر إلى استكبارِكَ على الله، انظر إلى ابتعادكَ عن اللهِ عزَّ وجلَّ منعماً والتزامكَ ووقوفِكَ أمامَ الأشباحِ والصّورِ التي تنسبُ إليها كلَّ فضلٍ وتنسبُ إليها كلَّ نعمة.

هذهِ الحقيقةُ أيُّها الإخوة يجبُ أن نلتزمها، وينبغي أن نعلمَ أنَّ دينَ اللهِ كلٌّ مكوّنٌ من هذينِ الطّرفين، فمن وعى الشّريعةَ فقط لا يؤمَنُ أن يهويَ في ضلالٍ وتيهٍ من تألّيهِ على اللهِ سبحانهُ وتعالى، ومن نظرَ إلى الجانبِ الخفيِّ لا يؤمنُ عليهِ أن يتيهَ ويتركَ الشّرائعَ ويتيهَ عن الانضباطِ بها.

فاللهمَّ اجعلنا ممّنِ اتّبعوا شريعتك، وممّن آمنوا بالحقيقةِ الخفيّةِ التي أخفيتَها عنّا، ونسألكُ اللهمَّ أن ترزقَنا كمالَ الأدبِ معكَ وصدقَ الأدبِ مع عبادك، فاستغفروا اللهَ يغفر لكم...

٢٧٣- واقعٌ.. مبشِّر ومؤلم!! | ١٩٩٣/٠٩/١٠

بمقدارِ ما نرى في هذا العصرِ من هجومٍ على الإسلام، ومن تربّصٍ بهِ عن طريقِ شتّى المكائد، وفي كلِّ مجالٍ منَ المجالات، وبواسطةِ شتّى الأسلحة، بمقدارِ ما نرى هذا عن يمينِنا وشمالِنا ومن أمامِنا ووراءَنا، فإنّا نجدُ بمقابلِ ذلكَ دعماً عجيباً منَ اللهِ عزَّ وجلَّ لدينه، ونصراً عجيباً وخفيّاً منَ اللهِ سبحانهُ وتعالى لإسلامه. فما يكيدُ الكائدونَ لهذا الدّينِ في جهةٍ من مشارقِ الأرضِ ومغاربِها إلا وتتفجَّرُ تلكَ الجهةُ ذاتُها باتّجاهٍ عارمٍ إلى الإسلام، وبإقبالٍ شديدٍ إلى تفهّمهِ ودراستهِ ثمَّ إلى اعتناقه.. ويضيقُ الوقتُ عن بيانِ الأمثلة، وعن بيانِ الصّورِ والمشاهدِ التي تؤكِّدُ هذهِ الحقيقةَ التي تأتي مصداقَ كلامِ رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في الحديثِ الصّحيح: ﴿ليبلُغنَّ هذا الأمرُ ما بلغَ الليلُ والنّهار﴾.

لكنَّ الذي يحزُّ في نفسِ المؤمنِ هوَ: أنَّ العالَمَ يَشهدُ هذا التّوجُّهَ العارمَ إلى دينِ اللهِ سبحانهُ وتعالى، وهذا الإقبالَ العجيبَ في مشارقِ الأرضِ ومغاربِها إلى دراسةِ هذا الدّين، ثمَّ إنّهُ ليشاهدُ ذعرَ ساسةِ العالَمِ وقادتهِ منَ الإسلامِ كما لم يُذعَروا قبلَ اليومِ من أيِّ سلاحٍ فتّاك، الذي يحزُّ في نفسِ المؤمنِ أنّنا في الوقتِ الذي نرى هذا المظهرَ الأخّاذَ لدينِ اللهِ نجدُ مسلمينَ يتبرَّمونَ من دينِ اللهِ عزَّ وجلّ، نجدُ مسلمينَ يتّخذهم أعداءُ الدّينِ مخالبَ وأنياباً للحطِّ من قدرِ الدّين، وللهجومِ على حقائقهِ، ولوضعِ المكائدِ له، وإنّني لأتصوَّرُ أنَّ منَ المنطقِ أن يحاربَ الدّينَ من لم تكن لهُ أيُّ علاقةٍ بالدّين، ذلكَ لأنَّ الذي لا يعلمُ شيئاً يجهلُه، منَ المعقولِ جدّاً أن يكيدَ للإسلامِ من لا صلةَ لهم بالإسلام. ولكن كيفَ يتأتّى أن يأتيَ مسلمٌ يرى تخوُّفَ الغربِ والشّرقِ منَ الإسلام كما لم يتخوَّف -أجل- كما لم يتخوَّف قبلُ من أيِّ سلاحٍ فتّاك، ويرى كيفَ أنَّ هذا الإسلامَ يمدُّ المجتمعَ الذي يتغلغلُ فيهِ بالقيَمِ الحضاريّة، وبالقيَمِ الإنسانيّة، ويرقى بهم إلى أعلى ذُرى العلمِ والمعرفة، ثمَّ إنّهُ على الرّغم من ذلكَ يقفُ في صفِّ الكارهينَ للهِ عزَّ وجلّ، ويقفُ في صفِّ المشكّكينَ بهذا الإسلامِ العظيم. هذا هوَ الشّيءُ المؤلم.

وألمُنا من هذا لا يعني أنّنا نتخوَّفُ على الإسلامِ من هؤلاءِ النّاسِ الذينَ ينتمونَ إلى الإسلامِ ثمَّ يكيدونَ له، لا واللهِ الذي لا إلهَ إلّا هو.. إنّنا لنعلمُ أنَّ هؤلاءِ النّاس لا يمكنُ أن تبلغَ مكائدُهم شروى

نقيرٍ ممّا يمكنُ أن يسيءَ إلى الإسلام، والإسلامُ لا يشترطُ أن يتنامى في شرقٍ ولا في غرب، وإنّما ينقلهُ اللهُ عزَّ وجلَّ من أرضهِ التي يملكُها إلى حيثُ يشاء، ألم يقل: ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾؟ ألم يقل أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾؟ هذا هوَ الشّيءُ الذي يؤلمُ الإنسانَ المؤمن.

إنّنا نرى بأمِّ أعيُننا كيفَ يكيدُ الغربُ - لا شعوباً بل - قادةً وساسةً وحكّاماً، إنّنا نراهم كيفَ يكيدونَ للإسلامِ لا اشمئزازاً منهُ ولكن تخوُّفاً على أنفسهم منه، نرى هذا بأمِّ أعيُننا ولا نعجب لذلكَ قَطّ، لأنّهم يرونَ خطرَ الإسلامِ وقد أحدقَ بهم، وقد أخذَ بخناقهم، ففي كلِّ يومٍ يدخلُ في هذا الدّينِ الأغرِّ من أبناءِ جلدتهمُ العشراتُ في كلِّ بلدة، فليسَ غريباً أن يحاربوا الإسلام، ولكنَّ الغريبَ الذي يُشعِرُ الإنسانَ بالمهانةِ والذُّلِّ: أن تجدَ مسلماً في بلادِ الإسلامِ يعلنُ أنّهُ دلّالٌ وسمسارٌ لمن شاءَ أن يستعملَهُ في حربِ الإسلام، هذا هوَ الشّيءُ العجيب. ونحنُ لا نشكُّ أنَّ منطلقَ كيدِ هؤلاءِ النّاسِ للإسلامِ هوَ العمالة، وهوَ الخضوعُ لمن يدفعُ أكثر، ونحنُ نعلمُ أنَّ الغربَ عندما أعلنَ عن حربهِ للإسلامِ أعلنَ عن استعدادهِ للدَّفعِ أعلنَ عن استعدادهِ لدفعِ المبالغِ الطّائلةِ لمن يجنِّدُ نفسهُ في طريقِ هذا الكيدِ ضدَّ دينِ اللهِ سبحانهُ وتعالى.

وإذا كانت هذهِ هيَ المشكلةُ التي تشعرُ المسلمينَ بالمهانةِ والذُّلِّ فإنّي أحبُّ أن أقولَ أمرَينِ اثنينِ تعليقاً على هذا الواقعِ المؤلم، الأمرُ الأوّل: أنَّ هذا الكيدَ الذي يكيدهُ المسلمونَ في عقرِ دارهم لإسلامهم لا يمكنُ في يومٍ منَ الأيّامِ أن تكونَ نتيجتهُ اختناقَ الإسلام، ولكنَّ نتيجتهُ شيءٌ واحدٌ هوَ: أنَّنا نزيدُ أنفسَنا ذلّاً فوقَ ذل، وأنّنا نمدُّ أعناقَنا لزمامٍ جديدٍ يوضَعُ فيها فنكونُ أناساً مستذلّينَ لما يريدهُ شرقٌ أو غرب، وقد اتّفقَ الشّرقُ والغربُ اليومَ على كلِّ حال، ولذلكَ فلا يطمعنَّ المسلمونَ الذينَ يكيدونَ للإسلام، لا يطمعنَّ واحدٌ منهم بأنَّ هذا الكيدَ يرقى بهِ أو بأمثالهِ أو بالمسلمينَ إلى عزٍّ في يومٍ ما، أو إلى مستوىً حضاريٍّ باسق، يجعلونَ من أنفسهم أنداداً لأولئكَ الآخرين، لا، بل إنَّ هذا هوَ العملُ الذي يسيرونَ بهِ فوقَ أقصرِ طريقٍ إلى أشدِّ نوعٍ من أنواعِ المهانةِ والذُّلِّ يتربَّصُ بهم.

الشّيءُ الثّاني: أنّنا نناشدُ أبناءَ جلدَتِنا المسلمينَ أن يرجِعوا إلى أنفسهم، وأن يستيقظوا من سباتهم، وأن يكونوا في صفِّ العزّةِ وفي صفِّ الاستجابةِ لأمرِ اللهِ عزَّ وجلّ، إنّني لأعجب: كيف ثمَّ كيفَ يستيقظُ

إنسانٌ وُلِدَ في التّيه؟ وترعرعَ ونما في التّيهِ والضّلال؟ وشبَّ عن الطوق وأصبحَ شابّاً وهوَ في أوديةِ التّيهِ والضّلال؟ أعني بهم النّاسَ الذينَ يعيشونَ في أوروبّا وأميركا، فإذا دعاهُ داعي الإسلامِ وأصغى السَّمعَ إليه، انفضَّ عن واقعهِ الذي كانَ فيه، واستيقظَ من سباته، واتّجهَ إلى اللهِ عزَّ وجلّ، وتحرَّرَ آيباً تائباً إلى الله. كيفَ لا يكونُ المسلمونَ التّائهونَ في بلادِنا أولى من أولئكَ بأن يَؤوبوا إلى اللهِ في عصرِ الصّحوةِ إلى الإسلام، كيفَ لا يرجعونَ إلى اللهِ وهم يرونَ في كلِّ يومٍ الآياتِ المتجدّدةِ التي تنمّي في عقلِ كلِّ إنسانٍ عاقلٍ شهودَ هذا الإسلام وأحقّيّته، هذهِ الآياتُ التي تأتي في كلِّ يومٍ مصداقاً لقولِ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾.

أريدُ منَ المسلمينَ من أبناءِ جلدَتِنا أن يرعووا، وأن يعودوا إلى هويّاتهم، وأن يسيروا على صراطِ العزّ، ألا وهوَ صراطُ هذا الدّينِ العظيم، هذا الصّراطُ الذي يحقِّقُ لهم كلَّ مطلب، ويحقِّقُ لهم كلَّ طموحاتهم التي يطمحونَ إليها، ألا إن كانَ لأحدهم طمعٌ في مأربٍ دنيويٍّ فليَحُجَّ بطمعهِ هذا إلى ربِّ هؤلاءِ الملوكِ والرّؤساءِ والحكّامِ جميعاً، فهوَ الذي يعطي، وهوَ الذي يمنع، وهوَ الذي يُعِزّ، وهوَ الذي يُذِلّ، وهوَ الذي يرفع، ليعودوا إلى حظيرةِ هذا الدّينِ قبلَ فواتِ الأوان.

أيُّها الإخوة.. وأحبُّ أن أنبّهَ كلَّ مسلمٍ إلا واجبهِ تجاهَ هذا الواقعِ الذي أقوله، الواقعِ المفرحِ والمبشِّرِ من جانب، والمؤلِمِ من جانبٍ آخر: واجبُنا أن ندعوَ إلى اللهِ في كلِّ مكانٍ برفق، وبلطف، وبشفقةٍ على عبادِ الله، وبإخلاصٍ لوجهِ الله، لا نبتغي معَ ذلكَ شيئاً قَطّ. لعلَّ هؤلاءِ الشّاردينَ من إخواننا إنّما ابتُلوا بهذا الشّرودِ لتقصيرٍ منّا لا لتقصيرٍ منهم، لأنّهم لم يسمعوا كلمةَ دعوةٍ إلى الله، لأنّهم لم يجدوا من يجلسُ معهم ليحاورهم بشأنِ دينِ اللهِ عزَّ وجلّ، لعلَّ الأمرَ كذلك.

فلننفُض عن كواهلِنا هذا التّقصير، ولكن فلنبدأِ الخطوةَ الأولى قبلَ أن ندعوَ هؤلاءِ الإخوةَ الشّاردين: لندعُ أنفسَنا، لندعُ أهلينا وأولادَنا، نكونُ رقباءَ على الإسلامِ في بيوتِنا، حتّى يجعلَ اللهُ سبحانهُ وتعالى لنا من ذلكَ قدرةً على التّأثيرِ في أولئكَ الإخوةِ الأخرين. والأمثلةُ كثيرة، والمشاهدُ وفيرة.

ينبغي أيُّها الإخوة أن نجعلَ دراسةَ الأولادِ في المدارسِ وثقافتهم في أماكنِ الثّقافةِ أيّاً كانت وأيّاً كانت مستوياتُها خدمةً لدينِ اللهِ سبحانهُ وتعالى وسعياً في سبيلِ مرضاةِ اللهِ عزَّ وجلّ. ولذلكَ فما ينبغي أن

تنفصلَ المدرسةُ عن الأدبِ الإسلاميِّ قَطّ، بمظهرٍ منَ المظاهرِ ولا بشكلٍ منَ الأشكال، ينبغي أن تحتضنَ المدرسةُ الإسلاميّةُ أدبَ الفتاةِ وفضيلةَ الفتاةِ المسلمةِ وحجابَها الإسلاميّ، أجل. وإنّي لأناشدُ المديرينَ والمديراتِ في هذهِ المدارسِ المتوسّطةِ والثّانويّةِ أن لا يمارسوا خطأً ضدَّ النّظامِ في هذهِ البلدة، فضلاً عن ممارسةِ خطأٍ ضدَّ نظامِ اللهِ سبحانهُ وتعالى وأمره. وإنّني لأقولُ ولا أعلنُ شيئاً خفيّاً: إنَّ نظامَ هذهِ الدّولةِ أعلنَ بعبارةٍ صريحةٍ مكتوبةٍ واضحة: أن ليسَ لأحدٍ أن يمنعَ فتاةً في مدرسةٍ من أن تضعَ حجاباً على رأسِها. هيَ ملزمةٌ بالثّيابِ الرّسميّةِ التي أُلزِمَتِ الطّالبةُ بها، ولكن ليسَ لأحدٍ –هذا ما يقولهُ النّظامُ المكتوبُ الموزّعُ–، ليسَ لأحدٍ أن يمنعَ فتاةً من وضعِ حجابٍ على رأسِها.

ولذلكَ فأنا أناشدُ المديرينَ والمديراتِ في مدارسِ هذا القطرِ أن يكونوا عوناً لنظامهِ وأن لا يكونوا أعداءً لنظامه، وأن يطبّقوا بعدَ هذا أو قبلَ هذا نظامَ اللهِ سبحانهُ وتعالى وأمرَه، وأن يعلموا أنّهم ليسوا خيراً منَ الذين يرعونَ مدارسَ من هذا القبيلِ في أوروبّا وفي أمريكا، ها هيَ ذي تلكَ المدارسُ تُطأطِئُ الرّأسَ بأدبٍ واحترامٍ لحجابِ الفتاةِ المسلمة. كيفَ يُحتَرَمُ الحجابُ الإسلاميُّ هناكَ ثمَّ يمزَّقُ هنا لا بأيدي النّظام، لا، بلِ النّظامُ يرعى حجابَ الفتاةِ المسلمةِ وأعلمُ هذا عن يقين. ولكنَ الذينَ يمزّقونَ هذا الحجابَ أناسٌ يخالفونَ هذا النّظام، ويمارسونَ ممارساتٍ خاطئة لإثارةِ المشكلات، لإثارةِ بلبلة، وقد آنَ أن نقولَها صريحةً: إنَّ الذي يعلنُ عن خدمتهِ لنظامِ هذهِ الدّولةِ ينبغي أن يكونَ صادقاً في السّيرِ والخدمةِ الحقيقيّةِ لحقائقِ هذا النّظام، ولقد قرأنا ووزّعنا وذكّرنا: أنَّ الفتاةَ ينبغي أن ترتديَ هذا الثّوبَ الرّسميَّ الذي تُلزَمُ بهِ في المدارس، أمّا الحجاب فليسَ لأحدٍ أن يمنعهُ لا في مدرسةٍ ولا في معهدٍ ولا في جامعة. وأنا إذ أقولُ هذا الكلامَ فأنا إنّما أدافعُ عن دينِ اللهِ أوّلاً وعنِ النّظامِ الحقيقيِّ لهذهِ البلدةِ ولهذا القطرِ ثانياً.

ثمَّ إنَّ واجبَ الآباءَ بعدَ ذلكَ هو: أن يكونوا معَ النّظامِ الحقيقيِّ لا معَ الذينَ يمارسونَ أخطاءً فادحةً ضدَّ هذا النّظام، مهما كانت الأمور، ومهما كانت النّتائج. ولقد كرّرتُ وأعدتُ القولَ إنّنا لسنا قادرينَ على أن نحملَ النّاسَ على أكتافِنا وهم صمٌّ بكمٌ لندخلهمُ الجنّة، علينا واجبٌ وعلى الآباءِ أيضاً واجب، فمن تقاعدَ عن واجبهِ فليعلم أنّهُ ليسَ هنالكَ من قد أقامهُ اللهُ في مقامهِ ليتحمَّلَ واجبين، كلٌّ منّا يتحمَّلُ المسؤوليّةَ التي أناطها اللهُ في عنقه، الحكّامُ عليهم مسؤوليّةٌ يؤدّونها ثمَّ لا يتجاوزونها، وعلينا نحنُ مسؤوليّة، وعلى العلماءِ مسؤوليّة، وعلى الآباءِ والأمّهاتِ مسؤوليّة، وأنا أعلمُ أنَّ كلَّ أبٍ يكونُ شديداً قويّاً في

تطبيقِ هذا النّظامِ الذي هوَ نظامُ هذهِ البلدةِ إنّما يخدمُ حقيقةَ هذهِ البلدةِ ضدَّ أولئكَ الذينَ يمارسونَ أخطاءً فادحةً إثارةً للبلبلة وإثارةً للمشكلات.

أقولُ هذا ونحنُ في مقتبلِ عامٍ دراسيٍّ جديدٍ حتّى تكونوا على بيّنةٍ منَ الأمر، هنالكَ أخطاءٌ تُرتَكَبُ ضدَّ النّظامِ قبلَ أن تُرتَكَبَ ضدَّ دينِ اللهِ سبحانهُ وتعالى وهنالكَ أهداف، ولكنّنا لا نرضى أبداً أن يصلَ هؤلاءِ النّاسُ إلى أهدافهم، ولعلَّ فتحَ الثّغورِ بينَ أفرادِ هذهِ الأمّةِ منَ الأهداف، ولعلَّ القضاءَ على ما يسمّى بالوحدةِ الوطنيّةِ من هذهِ الأهداف، ولكنّنا نحنُ الحرّاسُ لهذهِ الوحدة، وحدةٌ يكلَؤُها الدّينُ أوّلاً، وتكلَؤها المبادئُ الأخلاقيّةُ ثانياً، ثمَّ نكلَؤها نحنُ بواقعِنا السّلوكيِّ ووعيِنا الإيمانيِّ ثالثاً، فكونوا على هذا المستوى، أقولُ قولي هذا وأستغفرُ اللهَ العظيم...



٢٧٤- الاقتصاد.. سلاح الغرب في محاربة الإسلام | ١٩٩٤/٠٨/١٩

كلنا يقرأ في كتاب الله عز وجل قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ إلى آخر الآية...

كثيرون هم الذين يتصورون أن المراد بالقوة في هذه الآية هي قوة السلاح، ولكن جُلَّ العلماء المفسرين فسّروا القوة بما هو أعم من ذلك؛ فسروها بمقتضى المطلق الذي جرت الآية على سننه، ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾، كل ما يمكن أن يُعَدّ قوةً يحرز المسلمين عن الوقوع في براثن أعدائهم ينبغي أن تعدوا تلك القوة له، يدخل في معنى هذه القوة السلاح بكل أنواعه وبسائر تطوراته، ويدخل في هذه القوة أيضاً قوة الجسم وما يتبع ذلك، ويدخل في معنى القوة: القوة الاقتصادية، وهذه القوة ليست أقل في الخطورة والأهمية من قوة السلاح أبداً، وكان من الممكن أن يأتي التعبير القرآني هكذا (وأعدوا لهم ما استطعتم من أسلحة) ولكن لأمرٍ ما عمم البيان الإلهي وجاء التعبير بكلمة القوة الشاملة لمعاني كثيرة.

ومن هنا قرر العلماء أن على المسلمين أن يُحَصّنوا أنفسهم ضد أعدائهم بكل حصون القوة، من هذه الحصون قوة السلاح، ومن هذه الحصون – ولعلها أهم – القوة الاقتصادية، وفي الناس من قد يتصور أن سعي الإنسان وراء بناء القوة الاقتصادية ركونٌ إلى زهرة الحياة الدنيا. وقد قال الله عز وجل: ﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾، ولكن هذا تنكر خطير عن معنى كلام الله عز وجل، وعن فهم العلاقة القائمة بين المسلم وما أودع الله في باطن الأرض وظاهرها من مقومات الحياة الاقتصادية، المسلمون ينبغي أن لا يكونوا أقل من غيرهم سعياً إلى إقامة وإشادة البناء الاقتصادي بأقوى مظاهره، ولكن الفرق بين المسلمين وغيرهم أن غير المسلمين يتعشقون هذا البنيان الاقتصادي لذاته ويتعشقون المال ركوناً منهم إليه. أما المسلمون فقد علّمهم الله عز وجل أن يتخذوا من البنيان الاقتصادي كلب حِراسة يحرسهم كي لا يتسلل عدوٌ إلى دارهم. تلك هي نظرةُ الإسلام إلى ما ينبغي أن

ينهض به المسلمون من عمران اقتصادي، وتلك هي نظرة العشاق عشاق الدنيا ابتغاء الركون إلى متعها وشهواتها.

ولقد رأيت في كتاب مدخل ابن الحاج أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج إبان خلافته ذات يوم إلى السوق، فلفت نظره أن معظم الأسواق التجارية بيد الأنباط القادمين من بلاد الشام فأغضبه ذلك، وهرع إلى المسجد ودعا الناس إليه، ثم اختطب فيهم وأمرهم أن ينافسوا هؤلاء الناس وأن يجعلوا مقادة التجارة والأعمال الاقتصادية كلها في أيديهم. فقال له أحد الصحابة الجالسين: يا أمير المؤمنين قومٌ سَخرهم الله لنا ففيما ننهض بما ينهضون عنا به؟ قال له أمير المؤمنين عمر: والله لأن قلتم هذا ليكونن رجالكم خدماً لرجالهم، وليكونن نساؤكم خدماً لنسائهم.

هذا المعنى متألق واضحٌ أيها الأخوة، وكم يتجلى هذا المعنى في هذا العصر حيث أصبح السلاح الأول الذي يُوجه إلى صدور المسلمين والذي تُقَوّض بواسطته المجتمعات الإسلامية هو السلاح الاقتصادي، هذا السلاح الذي يستعمله الغرب وأمريكا الإمام المقتدى به في ذلك، الغرب يحاربنا بواسطة قوته الاقتصادية، وبواسطة إفقاره إيانا في الاقتصاد، وإنكم لتلاحظون كيف تتساقط هذه الدول العربية والإسلامية واحدة إثر أخرى بعد أن أُلجِئت إلى المضائق الإقتصادية، وبعد أن أُلجِئت إلى الحرمان فصبرت حيناً ولم تستطع أن تواصل، فاضطرت أن تمد يدها إلى العدو الذي يقيم على مقربة منا والمؤامرة مستمرة، والخطة ماضية..

نحن نحارَب في أخلاقنا وفي مبادئنا وفي قِيَمنا وفي أرضنا التي تنتقص من أطرافها، نُحارب بذلك كله بواسطة سلاحٍ واحد هو السلاح الاقتصادي، ولعلكم تعلمون أو ربما ينبغي أن تعلموا أن هنالك صندوقاً اسمه صندوق الإسكان المنبثق من هيئة الأمم المتحدة، صندوق الإسكان هذا كان يُنظم منذ أمدٍ طويل مؤتمراً عالمياً كبيراً لا يُقام في بلاد الغرب، وإنما يقام في بلدةٍ ضعيفةٍ اقتصادياً من بلاد الإسلام، وهذا ما سيتحقق من خلال الأيام القليلة القادمة. ما شأنُ هذا الصندوق؟ وما علاقته بهذا المؤتمر؟

الغرب أيها الأخوة يهدف ومنذ حين إلى أن ينتقص هذا العا لم العربي لا من قواه فقط بل من أعداده أيضاً، وتُتخذ الوسائل الخفية والظاهرة إلى ذلك باسم خطر الانفجار السكاني وما أشبه ذلك مما تسمعون، وسُئلنا وأجبنا أن لا إشكال حيث أن الشريعة الإسلامية أجازت للزوجين أن يتحكّما اعتماداً على الوسائل المعروفة المستعملة في أمر الإنجاب وعدمه، شريطة أن لا تتدخل أي قوى أجنبية، أو لا يتدخل سلطان أي دولة في ما بين الزوجين. ولكن المجتمع يسير على النهج الذي رسمه الله سبحانه وتعالى لنا.

الخطة الموضوعة أن على المجتمعات العربية والإسلامية المتخلفة اقتصادياً، بل التي فُرض عليها أن تتخلف اقتصادياً أن تُقلل من الإنجاب، بل أن تُحارب الإنجاب. لكن كيف السبيل إلى إلجاء هذه الدول إلى ذلك؟ سبيل ذلك هو الإفقار، سبيل ذلك هو التعرية الاقتصادية، سبيل ذلك إلجاء هذه الدول إلى المضايق، حتى إذا أُلجئوا ووجدوا أن الاختناق كاد أن يحيق برقابهم جاء صندوق الإسكان ليقول لهم انظروا إلى المال الوفير، ستأتيكم المعونات من كل حدب وصوب. بشرطٍ واحد: أن تلتزموا بالنهج الذي ستحملون عليه والذي يُرسم لكم. وما النهج؟ تقرأونه في الوثيقة التي سيسير المؤتمر على ضوئها الخطة هي أن تُفتح أبواب المتع الخلفية بعيداً عن الزواج، وأن يُشجع ذلك على كل المستويات لأن هذا سبيل من سبل تقليل الإنجاب، وإذا اقتضى الأمر ينبغي أن يشجع الشذوذ الجنسي أيضاً، ذلك لأن هذا العلاج وذاك يحققان جزءاً كبيراً من الهدف بوسع الإنسان أن يمارس لذته ومتعه دون أن يتحمل مسؤولية كثرة الإنجاب من وراء ذلك. فإذا انصاعت هذه الدولة المتخلفة المختنقة اقتصادياً لهذه الشروط، جاءتها المعونات التي تتلألئ داخل صندوق الإسكان، وإذا لم تنصع هذه الدول أو هذه المجتمعات حُرمت من هذا الصندوق وتركت للضيق الذي يحيط بها وتُركت للإختناق الذي يدنو من رقابها.

هذا ما ينبغي أن تعلموه أيها الأخوة لكي تعلموا أننا نُحارب اقتصادياً قبل أن نحارب بواسطة الأسلحة، ولكي تعلموا أن الخطط الماكرة هذه لا تصمد أمامها إلا خطط مثلها. فأين الذين يخططون؟ أين المسلمون الذين يعتزون بدينهم بعد أن بايعوا الله سبحانه وتعالى على هذا الالتزام، ثم عرفوا كما عرف

عمر ومن قبل عمر والمسلمون الذين جاؤوا من بعد أن الحصن الاقتصادي لا يقل أبداً عن الحصون العسكرية وما شابهها بشكلٍ من الأشكال.

لقد استسلمنا للخطط الأجنبية دون أن نرهق عقولنا بوضع أي خطة، بل إنني مضطرٌ أن أقول لكم وسامحوني إن اضطررت إلى التكرار بعد التكرار بعد التكرار: بدلاً من أن نخطط لحماية أنفسنا اقتصادياً تثور شريحة منا على شريحة من أجل أن تُسحق البقايا الاقتصادية الموجودة فيما بيننا، ومن أجل أن ندفع بأنفسنا وبأيدينا شيئاً فشيئاً فشيئاً إلى تلك المضايق التي ستلجئنا إلى الاختناق والعدو اللاهث ينظر ويتربص حتى إذا جاءت الساعة التي يستطيع أن يتحكم برقابنا ساق صندوقه الإسكاني إلينا وحملنا حملاً على ما ينبغي أن نفعله تحت سلطانه وأوامره.

المؤتمر سيُعقدُ عما قريب في القاهرة، ولعلكم تعلمون لماذا يُعقد في القاهرة، القاهرة التي خضعت لكل شيء، وطَبّقت كل شيء، وما زادها ذلك إلا فقراً، وما زادها ذلك إلا تراجعا. ها هي ذي الآن تتنفس تحاول أن تتنفس الصعداء فلا تستطيع، هناك سيعقد هذا المؤتمر وهناك ستعلن هذه الوثيقة، لم يستطيع أحدٌ أن يناقش وثيقة، هي النور الذي يسير عليه المؤتمر وهو الدستور الذي يسير على أساسه. كل ما يمكن أن يناقش من حوله أمور فرعية وراء هذه الوثيقة الكبرى. ماذا نملك أن نصنع؟

نملك أن نصنع كل شيء عندما نرتبط بمولانا الذي بيده كل شيء، ولا نستطيع أن نفعل أي شيء عندما ننفض أيدينا من إسلامنا العزيز، ونترك الأمور تسير طبق ردود الفعل وطبق الشعارات الفارغة التي لا نعلم من أي مصدر تأتي وإلى أي نهاية تسير. نحن أغنياء أيها الأخوة ولسنا بفقراء، لكن حُكم علينا أن نصبح فقراء، وها هي ذي بلدان الخليج. لا أقول يُنتقص من أطرافها بل يُنتقص من أموالها ها هي ذي أموالها تذوب ثم تذوب ثم تذوب، لابد، لأنها ينبغي أن تخضع لسلطان هذا الصندوق، لا أريد خير الكلام ما قل ودل،وكثيراً ما يكون الكلام جارحاً. فما ينبغي أن أزيد في جراحاتكم لا سيما عندما يكون الكلام مذكراً بواجب دون نملك السير في طريق هذا الواجب. ولكن الله هو المستعان وعليه التكلان، وهو الذي يرحم عباده عندما يلوذون به. أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

٢٧٥- الشام تنفي التطرف كما نفته من قبل | ١٩٩٤/٠٧/٢٩

إن الله سبحانه وتعالى تَفضّل على هذه الأمة فاختصها بمزايا لم توجد في كثير من الأمم من قبلها، ولعل من أبرز ما اختص الله سبحانه وتعالى به هذه الأمة من المزايا ذلك النعت الذي وصفها الله سبحانه وتعالى به في محكم تبيانه عندما قال عز من قائل: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾، هذه الوسطية مزية من أكبر مزايا التي اختص الله سبحانه وتعالى بها هذه الأمة، الوسطية في الاعتقاد، والوسطية في السلوك والشرع، والوسطية في المنهج المتبع في الحياة، ولعل فينا من يقول: أفليس شرعُ الله عز وجل وسطاً للأمم جميعاً؟ أولم يكن المعتقد الذي ألزم الله به عباده جميعاً متسماً بهذه الوسطية؟

ونقول في الجواب بلى، بل إن الدين كان ولا يزال واحداً والمعتقدات التي أخذ الله بها عباده منذ فجر الوجود الإنساني إلى اليوم معتقدٌ واحد، ولكن الأمم السابقة شردت عن خط هذا المعتقد فانحازت إلى غلوٍ أو تقصير، وكلا طرفي قصد الأمور ذميم، أما هذه الأمة فقد أكرمها الله عز وجل أو أكرم السواد الأكبر منها بالتوفيق فكانت متبعة النهج الأمثل الذي شرعه الله لها وللأمم من قبل، وكانت متبعة النهج الأمثل في المعتقدات التي شرعها الله سبحانه وتعالى لها وللأمم السالفة من قبل، وروى أبو يعلى في مسنده بسندٍ جيد من حديث وهب ابن منبه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ﴿إن لكل شيءٍ طرفين ووسطاً فإن أمسكت بالطرف الواحد مال الطرف الآخر وإن أمسكت بالوسط اعتدل الطرفان فعليكم بالأوساط من كل شيء﴾.

ولعلنا إن أردنا أن نحلل هذا الكلام النبوي العظيم احتاج منا هذا التحليل إلى ساعات طوال كل ما يمكن أن نصغي إليهم من حديث الناس عن التطرف والتحذير من التطرف بأنواعه إنما يتضمنه هذا الكلام النبوي العظيم، إذاً فديننا الإسلامي العظيم جاء بعيداً عن التطرف بل جاء محذراً عن التطرف بكل أنواعه وذلك عندما أمر الناس بالوسط أي أمر الناس بالابتعاد عن الطرف الأقصى نحو الغلو

والطرف الأقصى نحو التقصير، وأحب أن أقول لكم من منطلق هذا الكلام إن الأمم أو الجماعات أو الفئات أو الحكومات عندما تتداعى إلى محاربة التطرف فإن عليها أن تعلم أن الإسلام هو أول من دعا إلى نبذ التطرف، وأن المسلمين الملتزمين بدين الله هم أعظم مظهر للابتعاد عن التطرف وللتمسك بالمنهج الوسط العدل الذي شرعه الله سبحانه وتعالى.

ولكن كيف يمكن محاربة التطرف؟ إن التطرف أيها الأخوة كُل لا يتجزأ فمن أراد أن يحارب التطرف فعليه أن يحارب الكل بأجمعه، أما أن يخيل إلى فئة من الناس أن تحارب طرفاً من أطراف التطرف فإنها بهذا تحقق التطرف بأسوأ صوره وأشكاله وتستورده من أقصى ساحات الغُلب، ذلك لأن الأمر كما قال المصطفى صلى الله عليه وسلم إن أمسكت بطرفه من الشيء لابد أن يميل الطرف الآخر ويجنح عن خط الاعتدال وإن أمسكت من الطرف الآخر لا بد أن يميل هذا الطرف أيضاً ويجنح عن خط الاعتدال، إذاً فمحاربة التطرف إنما تكون بنبذ التطرف كُلاً دون أي تجزُّء.

إننا نحارب التطرف الذي يجنح إليه كثيرٌ من الناس عندما يحاولون أن يطبقون الشرع فينقذفون إلى جانب من الغلو نحارب ذلك، ونعلم أن في محاربتنا لهذا الغلو ضمان أن لا يقع غلوٌ في الطرف الآخر، ولذا فإن على الآخرين أيضاً عندما يريدون أن يحاربوا التطرف أن يدركوا هذه الحقيقة المنطقية ذاتها، وأنا أضرب مثلاً حياً على هذا الذي أقول نحن نحارب التطرف أي الغلو في الحجاب الذي شرعه الله عز وجل ستراً وحشمة للمرأة ونجعل من ميزان الشرع الحكم العدل والفاصل بين الوسط والغلو، وعلى الآخرين أن يدركوا هذه الحقيقة ولكن ألا تلاحظون أن هنالك من يصنعون التطرف ليل نهار وهم يتظاهرون بأنهم يحاربون التطرف؟ ألا تلاحظون أن هنالك من يستولدون التطرف بكل وسائله في الوقت الذي يتمشدقون بأنهم محاربون التطرف، عندما نجد من يحارب حجاب المرأة أو الفتاة إن في المعسكرات أو في المدارس عندما نجد من يلاحق هذا الحجاب وكأنه شعارٌ صهيوني أو كأنه سمة من سمات الفجور أو كأنه مظهر من مظاهر الإنحراف عن جادة الفضيلة والخُلق، عندما نجد من يلاحق الحجاب بهذا الشكل أليس هذا تطرفاً؟ أليس هذا إمساكاً من الحقيقة بطرف؟ ماذا تتوقع من المجتمع الملتزم بأوامر ربه والمتمسك بشرعة مولاه وخالقه عندما يجد من يمارس هذا العمل بانفعال عصبي ــ وينبغي أن تعلموا أن التطرف دائماً إنما

ينبثق من انفعال عصبي ولا ينبثق من فعل فكري أبداً _ لا بد أن تعلموا أن الانفعال العصبي هناك يستولد الانفعال الصبي هنا هذه حقيقة لا شك فيها ولا ريب.

فإذا أراد هؤلاء الأخوة أن يحاربوا التطرف وأن يتساعدوا معنا على محاربة التطرف، فعليهم أن يتركوا الأمر على سجيته وطبيعته، عليهم أن يجنحوا إلى الحرية يمارسونها في حق أنفسهم ويفتحون آفاقها في حق الآخرين والأخريات أيضاً، وعندئذ نكون قد أطفئنا جزوة التطرف هنا وهناك، أليست هذه حقيقة منطقية أيها الأخوة؟!.

لكم قيل لي عن تطرفٍ يتجلى في مظهر غلو في الحجاب الذي شرعه الله عز وجل، وأقول وقلت مراراً أجل إنه غلو هنالك غلو، ولكم رأيت من تأفف من هذا الغلو ولكني أقول إن هذا ليس تأففاً إن المتأفف من الغلو يحاربه بالمنهج المنطقي هذا الغلو إنما استنبت في تربة غلو آخر، لماذا؟ من أجل أي سبب تمنع الفتاة من أن تمارس حريتها فتلتزم بمظاهر حشمتها استجابةً لأمر مولاها وخالقها لما؟!

وأنا فكرت طويلاً أيها الأخوة وتفاعلت في نفسي مع هؤلاء الأخوة الذين يلاحقون الحجاب وكأنه عدوٌ لدودٌ لهم في هذه المعسكرات، قلت في نفسي لعل هذا الحجاب يمنع من تحقق الوحدة الوطنية على مستواها المناسب، ولكني رأيت أن الأمر على النقيض من ذلك، إن هذا العمل يهدد الوحدة الوطنية قلت: لعل هذا الحجاب يمنع من الانضواء على وحدةٍ إسلامية جامعة دون ابتعاد إلى مذاهب وفرق متناحرة متخاصمة، ولكني رأيت أن هذا الموقف هو الذي يستولد التناحر وهو الذي يستولد الخصام.

قلت في نفسي: لعل السبب في محاربة الحجاب السعي في المحافظة على أمن هذا الوطن الغالي وطمأنينته ولكني رأيت كما ترون أن الأمر يسير إلى العكس من ذلك، ذلك لأن الناس هم عبارة عن جملة من الوعي والفكر وجملة من الأعصاب، فإذا رأيت من يتلاعب بطهر ابنتي، بعفاف ابنتي، بشرف ابنتي، في هذا المظهر فلا شك أن ثورة عصبية تتجمع في كياني، قد أتماسك ثم أتماسك ثم أتماسك ولكن أرأيت لو أن ذلك التطرف استمر ثم استمر ثم استمر، هل أستطيع أن أضمن أن أستبقي على نفسي كوابح الالتزام بالعقلانية والتحرر من العصبية ؟! لا أستطيع. إذاً أليس من الحق أن اقول وأن يقول كل مواطن بصفته مواطناً في ما يا أيها الناس تحاربون الوحدة الوطنية بهذا الذي تفعلون؟! تحاربون التماسك

الإسلامي والخلقي في أعدل صوره بهذا الذي تفعلون؟! تحاربون الأمن الرخي الذي تتمتع به هذه البلدة فيما تفعلون، لتمنيت لو أن إنساناً حدثني أن هذا الحجاب الحضاري البسيط الذي تضعه الفتاة على رأسها لتستتر به زينة شعرها بعيداً عن المغريات أمام الشباب الآخرين وأنتم تعلمون حالهم، ترى ما الفائدة من وراء ذلك؟! لو أن هنالك أي فائدة لكنت أول الساعين مع هؤلاء الأخوة إلى ذلك. إذاً نحن نحارب التطرف ونحن جميعاً مدعوون إلى محاربة التطرف، ولكن هؤلاء يستولدون التطرف هؤلاء هم الذين ينفخون في نيران التطرف، وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يلهمنا جميعاً أن نكون مخلصين لهذه الأمة ولهذا الوطن ولهذه التربة المباركة وللقِيَم التي شائها الله سبحانه وتعالى أن تكون تاجاً لهذه التربة ولهذه الأمة.

نحن عندما نقول هذا الكلام ننطلق من غيرةٍ صادقةٍ على ما يسمى بالوحدة الوطنية، لأننا نعلم أن الوحدة الوطنية هي الخطوة الأولى نحو الأم وحدة الأمة الإسلامية بل إن العدو ما استطاع أن يتسرب إلينا بخططه وبمكائده وبما ترون من تحويله لهذه الأمة إلى لقم صغيرة يبتلعها لقمة إثر لقمة باسم السلام ونحو ذلك، ما استطاع هذا العدو أن يفعل فعله بنا إلا بعد أن قضى على هذه الوحدة الوطنية في كل قطرٍ قطرٍ على حدة.

ولكن بقايا من التماسك لا تزال موجودة في هذا الوطن لا تزال موجودة في هذه الأمة، أجل بقايا من التماسك الأخلاقي، بقايا من التمسك بحبل الفضيلة، بقايا من الوحدة الوطنية السامية المتنامية، كل ذلك موجود ولذلك فإني لأعتقد أن هنالك تركيزاً على هذا القطر، لعل وعسى أن يصبح كأقطارٍ كثيرة أخرى، لعل الخصام يسود محل الاتفاق، لعل التنابذ يحل محل الوحدة سمها العربية أو الوطنية أو كما تشاء، لعل التنابذ يحل محل ذلك، وقلت بالأمس وأقولها اليوم الملاهي كثيرةٌ في بلادنا ونحن لم نقف عندها ولم تلفت أنظارنا قط، هي موجودة وموقفنا منها معروف ولكن هذا الشيء موجود، والذين يديرون هذه الملاهي وهذه القاعات وهذه الصالات معروفون، تجار مال يستقبلون ويأخذون لم نقل شيئاً، ذلك لأننا نحارب التطرف، لا نريد أن نجنح إلى التطرف وإنما نسلك سبيل التوعية لإبعاد الناس عن هذه الأماكن وعن هذه المهايع.

ولكن حدثوني وأجيبوني ما المبرر لأن تنهض فئة خفية تنشط نشاطاً عجيباً في هذه البلدة فتوزع بطاقات بأسماء مستعارة تدعو الشباب الصغار المراهقين إلى حفلات مغرية شديدة الإغراء، حامية الإغراء

مجاناً أو شبه مجان في أوقاتٍ يستطيع الشاب المراهق أن يتسرب فيها من داره دون إذن كالخامسة مساءً، وتسأل من هم الذين يبذلون هذا المال كله سخياً، لا تعلم، لماذا لا يستعيدون جزءً من هذا المال الذي يبذلونه على الكثير والكثير من أجل ترتيب هذه الحفلات، لا تعلم كيف يمكن لحفلات من هذا النوع أن تقوم بكرمٍ حاتمي دون أن يستعيد المشرفون على هذا الحفل شيء من المال؟ كيف يمكن أن يتم هذا؟ وهذا الشيء غير الملاهي التقليدية الموجودة والتي لم نتحدث عنها شيئاً قط.

قلت وأقول: إن هذا العمل عندما يسير بخفاء لا تعلم مصدره ولا تعلم وارده، وعندما تجد أن كرماً شيطانياً ينثر بين أرجل المراهقين وبين أحضانهم ثم يُتصيدون، أجل يُتَصيدون إلى هذه الملاهي في هذه الأوقات التي حدثتكم عنها، فمعنى ذلك أن خيطاً بعيداً بعيداً عن هذا القطر قد تسرب إلينا، وقد اخترق وحدتنا الوطنية، لا شك في هذا ولا ريب، قلت بالأمس، إن الله وقى هذا القطر من كثير من المصائب ومن جملة المصائب التي وقى هذا القطر منها إلى الآن تلك المخدرات التي هي أعظم مرضٍ سرطاني يمكن أن يفتك بالجيل الناشئ في هذا العصر، ولكن هنالك من يخطط من أجل أن تخترق هذه البلدة، لماذا تُخترق؟ لماذا تسيح وتسير فتن هذا البلاء الماحق الذي يمزق صحو الشباب من حولنا؟ ثم يبقى هذا القطر بعيداً متسامياً بعيداً عن الاختراق؟ لماذا؟

من جملة الوسائل هذه الوسيلة التي أحدثكم عنها يذهب الشاب لأول مرة، وقد حصلت يذهب الشاب لأول مرة فيسكن إلى هذا اللهو المظلم الذي يستثير الغرائز ويرى شيئاً لم يألفه من قبل ويأتي من يسكن إليه، ويأتي من يركن إليه ويأتي من يقدم إليه الشراب، ثم من يقدم إليه شيئاً آخر، ثم من يصور له متعةً أعظم، لكن لها شروط غير هذه الشروط، وهكذا فإن الشاب متى وضع رجله في المنزلق لا بد أن يهوي إلى الحضيض، أنا هنا وأنا مسلم، وعقيدتي الإسلامية هي أسمى من كل شيء وفوق كل شيء، ولكني في هذا الموقف إنما أعبر عن غيرةٍ وطنية، إنما أُعبر عن غيرة على الوحدة الوطنية في هذه الأرض، وهنالك تناسق وتساوق بين هذا وذاك. أسأل الله العظيم أن يوفقنا لأن نتعاون على كل المستويات في هذا القطر المبارك لتحصين هذا القطر من كل ما يراد به، والله هو المستعان وعليه التكلان فاستغفروه يغفر لكم.

٢٧٦- ما هي التحديات التي تواجه المسلمين اليوم | ١٩٩٦/٠١/١٢

يتعامل المسلمون اليوم في مابينهم بمصطلحاتٍ وكلماتٍ لا أعلم أنّ المسلمين السابقين من السلف الصالح كانوا يعرفونها أو يتعاملون معها أو يشعرون بشيءٍ من معانيها، من أبرز هذه الكلمات ما يرددونه من كلمة (التحديات التي يواجهها المسلمون في هذا العصر)، فما تجلس مجلساً مع مفكرين مسلمين إلا ويتأففون في حديثٍ ضَجر من ما يسمونه التحديات التي تواجه المسلمين وتَشُلُ فعاليتهم. ويذهبون إلى استعراض أنواع هذه التحديات، فمن تحديات اقتصادية، ومن تحديات اجتماعية، ومن تحديات علمية، ومن تحديات سياسيةٍ ونحوها...

ويصور أحدهم المسلمين وكأنهم يعيشون في معترك حربٍ ضروس وهم عُزّل من كل سلاح، والأسلحة تتناوشهم من قبل الأعداء من كل صوب. وأتأمل في واقع المسلمين من قبل في صدر الإسلام أو في العصر الذي يليه أو الذي يليه، ولقد كانوا يعانون من ضنكٍ أشد من الذي يعانيه المسلمون اليوم في فجر البعثة الإسلامية وأبحث عن كلمة التحديات هذه فلا أقع لها على أي مثال، ولا أجد أن أي مسلمٍ تكلم عن ما يسمى اليوم بالتحديات فضلاً عن أن يتأفف منها فضلاً عن أن يُظهر ضعفه أمام هذه الأسلحة التي تُسمى اليوم بالتحديات، التحديات التي يواجهها المسلمون من إقتصادية واجتماعيةٍ وتشريعيةٍ وفكريةٍ و سياسيةٍ ونحوها.

ألم يواجه المسلمون في صدر الإسلام أيام بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم شراً من هذه التحديات؟ ألم يكن المسلمون الذين كانوا مادة الإسلام الأولى وسرّ انتشاره الأول والجند الأول والرعيل الأول الذي أوجد الله عز وجل بهم الدولة الإسلامية التي ترامت أطرافها من شرقٍ إلى غربٍ وشمالٍ إلى جنوب، ألم يكونوا مثال الضعف؟ كانوا أناساً أُميين، كانوا أبعد ما يكونون عن الحضارة والمدنية، كانوا أبعد ما يكونون عن القوة والوحدة، وكانت التحديات تتفجر من داخلهم ضد الشرعة التي أنزلها الله عليهم، وكانت التحديات تحيط بهم من أطرافهم أيضاً، فالعادات التي واجه الإسلام العرب بها كانت

عادات سيئة وكان السلوك أسوأ. فهذه هي التحديات الداخلية. وكانت المجتمعات التي تحيط بالجزيرة العربية التي بُعث فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم تذخر بالمدنية وبالحضارة وبالقوة وبالغنى، وكان العرب مثالاً يُضرب للتشرذم والضعف والهوان، وكانوا يعيشون على هامش التاريخ كما هو معروف.

هكذا كان الرعيل الأول الذي بُعث فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم. فهل تأففوا في يومٍ من الأيام وضجروا من أنّ هنالك تحديات تشل فعاليتهم؟ من أن هنالك تحدياتٍ تواجههم بها الحضارة الرومانية أو اليونانية أو الفارسية؟ أو هل تبرموا بتحدياتٍ نابعةٍ من داخلهم تتمثل في عاداتٍ سيئة وأمورٍ وسلوكات آسنة تختلف كل الاختلاف مع النهج الإسلامي الذي شرعه الله عز وجل لهم؟ أبداً لم نسمع همسةً تُترجم تأففاً من ما يسمى اليوم بالتحديات.

في حين أن المسلمين اليوم وهم ليسوا أميون ولله الحمد، في حين أن المسلمين اليوم وقد ورثوا إسلامهم من التاريخ الذي يدخل العزة والكبرياء الإيماني في صفوف المسلمين وصدورهم، في حين أن المسلمين اليوم وقد أورثهم إسلامهم القناعة بأن الإسلام هو مصدر كل عز مصدر كل غنى، مصدر كل وحدة، في حين أن المسلمين اليوم على الرغم مما متعهم الله عز وجل به من قوىً ومن منطلقات للقوة يتأففون ويضجرون صباح مساء مما يسمونه التحديات التي تواجههم؛ وكأن هذه التحديات غدت حبل مشنقة قُضي على المسلمين اليوم أن يُشنقوا بها، وأنهم لا يستطيعون أن يبدو حراكاً أمام هذا الحبل الذي يُمثل قدرهم الذي لا محيص عنه.

وأنا عندما أقارن بين المسلمين اليوم وقد ورثوا عزة الإسلام من القرون التي خلت، وبينهم كتاب الله والأمثلة التي خلت تجعلهم أمام طريقٍ مفروشٍ بالرياحين، وأجد أولئك المسلمين الذين كانوا الرعيل الأول والمادة الأولى للإسلام كيف انطلقوا من نقطة الصفر إلى كل ما يسمى اليوم بالتحديات فحطموها وارتقوا بإسلامهم إلى أعلى القمم وذابت بين أيديهم المدنيات والعادات والحضارات الآسنة، عندما أُقارن بين المسلمين اليوم الذين يتدللون على الله بهذا الشكل وأولئك المسلمين أشعر أيها الإخوة بالخزي، أشعر بالخجل من الله عز وجل.

لا يجوز للإنسان أن يتدلل على الله إلى هذه الدرجة، ويحكم إنكم ورثتم كنوزاً من العزة والقوة والغنى ولا تحتاجون إلا إلى فتح مغاليقها واستعمالها، في حين أن المسلمين الذين بُعث فيهم رسول الله لم يكن معهم أي كنز لكنهم أوجدوا الكنز بجهادهم وجهودهم ويقينهم بالله سبحانه وتعالى. فما السر أيها الأخوة؟ ما السر في أنّ أولئك المسلمين عندما دخل الإسلام أفئدتهم لم يشعروا بأن هنالك سدوداً تتحداهم؛ اقتحموها غير واجفين، وأنّ هؤلاء المسلمين اليوم الذين ورثوا أسلحةً من القوة وورثوا كنوزاً من جيلٍ إثر جيلٍ إثر جيل، وورثوا عبرة الدهر ودروسه وقرآن الله بين جوانحهم يتخاذلون إلى هذه الدرجة ويعتذرون أن التحديات تحيط بهم، ومن ثمّ لا يستطيعون أن يسيروا كما أمر الله عز وجل في تطبيق الإسلام.

السر أيها الإخوة باختصارٍ ما يلي:

أولئك المسلمون فاضت قلوبهم بعد إيمانهم العقلي بالله عز وجل تبتلاً وعبودية لله، فاضت قلوبهم بعد إيمانهم العقلاني حباً لله، فاضت قلوبهم تعظيماً لله سبحانه وتعالى، امتلأت قلوبهم بهذه المشاعر كلها فسقطت مشاعر الدنيا بسبب ذلك من قلوبهم وأفئدتهم أمام عظمة الله هانت عظمة الأغيار، أمام محبتهم لله سقطت محبة الدنيا، أمام تعظيمهم لحرمات الله عز وجل هانت عليهم الدنيا بكل متعها وألوانها، في حين أن المسلمين اليوم أو أن جُلّ المسلمين اليوم إسلامهم بقي فكراً يتحرك، بقي منطقاً يتحرك في أدمغتهم، أما القلوب فلو أنك نبشتها لوجدتها خاوية من تعظيم الله، لوجدتها خالية من محبة الله، لوجدتها خالية من المخافة من الله، وإذا خلا الفؤاد من حب الله وتعظيمه وخوفه فلن يبقى وعاءً فارغاً لا بد أن تفيض فيه محبة أخرى، لابد أن تفيض هذه القلوب عندئذ بمحبة الدنيا بتعظيم الشهوات والأهواء بتعظيم الآخرين والخوف منهم. هذا هو الفرق.

بسبب هذا الذي امتاز به ذلك الرعيل الأول عنا اقتحموا السدود، لم يشعروا بها شعروا بعظمة الله عز وجل فكانوا مظهراً لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿استعن بالله ولا تعجز﴾، ونصرهم الله فتحطمت سدود التحديات أمامهم. أمّا نحن فبأي سلاحٍ نقتحم هذه التحديات؟ خوفنا من الناس،

تعظيمنا للدنيا، حبنا للشهوات والأهواء، وإن كانت ألسنتنا تتكلم عن فلسفة الإسلام وأهمية الإسلام والتخطيط لضرورة إعادة قوة الإسلام وعزه، لكن ما قيمة أن تُفكر إذا كان قلبك يفيض بحب الشهوات والأهواء ويفيض بخوفٍ عارمٍ من الأغيار؟.

انظروا أيها الإخوة إلى كتاب الله عز وجل المربي والمعلم، كتاب الله معلم أولاً و مربٍ ثانياً، ولو أنك أخذت من كتاب الله آيات العلم لوقفت في مكانك ولراوحت في محلك لا تستفيد شيئاً كما هو حال المسلمين في أحسن أحوالهم اليوم. لكن انظر إلى القسم الثاني آيات التربية كيف تُعلم هذه الآيات الإنسان أن يجعل قلبه وعاءً لتعظيم الله للتبتل بين يدي الله، هل وقفنا أمام هذه الآيات واصطبغنا بها؟ لماذا يُكرر بيان الله هذا كله بأفانين شتى وبأساليب مختلفة؟ ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ ﴿كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ لماذا لماذا يفيض القرآن بهذا كله؟ لأهميةٍ كبرى؛ لأنها التربية التي تأتي تتويجاً للعلم.

وانظروا كم نمر على هذه الآيات ونحن معرضون؟ أين هم المتبتلون؟ لا أقول من الفسقة والفاجرين بل أين هم المتبتلون ممن يتكلمون بالإسلام ويكتبون عن الإسلام ويتحدثون في همٍ منقطعٍ عن الإسلام؟ أين هم الذاكرون الله كثيراً والذاكرات؟ أين هم الذين اصطبغوا بقول الله عز وجل: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾. قل لي أين هم هؤلاء المسلمون الذين إذا التقيت بهم حدثك الساعة والساعتين عن الإسلام أين الواحد منهم ينطبق عليه قول الله تعالى: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ أين هم الذين ينطبق عليهم قول الله تعالى ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً﴾ لو أنك اقتحمت بيوت جُلّ هذه المسلمين بسحرٍ من الأسحار لن ترى عشرة في المئة قد قاموا ليقفوا بين يدي الله عز وجل خُشعاً باكين متضرعين يمدون أيدي الضراعة والتبتل إلى الله سبحانه وتعالى، لن تجد لأن الواحد منهم سهر سهرة طويلة وهو يتكلم في الإسلام، ولم يمضي على رقاده إلا ساعة ربما فأنّا له أن يستيقظ ويقوم؟ ولكن رب العالمين علّم

ثم ربّى، علمنا كيف نغرس حقائق الإسلام في عقولنا ثم ربانا كيف نحب هذا الإله كيف نُعظم هذا الإله كيف نخاف من هذا الإله ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾.

لما فرغت قلوبنا من هذا الأثر التربوي، ولما اتجهت وتسربت إليها محبة الدنيا والشهوات والأهواء ونحن نتكلم بالإسلام ونتحدث بفكرٍ رائعٍ عن الإسلام كانت النتيجة ما قد قلت لكم. نراوح في مكاننا فإذا التفتنا يميناً وشمالاً إلى الأنظمة التي تُحيط بنا إلى التحديات التي تطوف من حولنا والتي تتهددنا، رفعنا أيدي الاستسلام وقلنا إنه عصر التحديات ولا نستطيع أن نحطم هذه التحديات، ويحك ألا يُذيبك هذا الكلام خجلاً من الله، ألا تُقارن بين نفسك وبين أولئك الناس البدو الأميين الذين متّعهم الله بالإيمان وجعلهم خلال سنوات أداة وأي أداة لتحطيم وتذويب هذه التحديات.

هل تحدثوا عنها يوماً ما؟ هل تكلموا عنها في يومٍ من الأيام؟ هل قالوا لرسول الله كيف نستطيع أن نقتحم تحديات الحضارات التي تحيط بنا؟ لا ربطوا قلوبهم بالله عز وجل عاشوا معنى قول الله عز وجل لا حول ولا قوة إلا بالله. كلمة ربّانية ليت أن المسلمين الذين يكتبون كثيراً في الإسلام والذين يتحدثون كثيراً في الإسلام ليت أن الواحد منهم جعل من هذه الكلمة القدسية ورداً له يرددها بقلبٍ نابض في اليوم ألف مرة. لا حول ولا قوة إلا بالله، أين هو حول الشرق والغرب أمام قوة الله إذا اعتصمت بالله وإذا بايعت الله وإذا فاض قلبي حباً لله وتعظيماً لله وتركت الدنيا كلها وراء ظهري، فإن الله عز وجل سيفجر بين جوانحي قوةً من قوته، عزةً من عزته، ولسوف تذوب القوى كلها أمامي، إذ لا حول ولا قوة إلا بالله.

نعم هذا هو السر أيها الإخوة وهذا هو داؤنا وليت أننا نتأمل لنتذكر فقط هذا الداء ليت أننا نشخص فقط هذا الداء بل المصيبة الكبرى أننا في غفلةٍ عن أننا نعاني هذا الداء.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

٢٧٧- عندما ينسى المسلمون فاعلية الله سبحانه وتعالى | ١٩٩٦/٠٧/١٢

إن المسلم لا يستطيع أن يكون مؤمناً بالله حقاً إلا إذا سخر عقائد إيمانه وإسلامه لحياته السلوكية التي يقيمه الله سبحانه وتعالى عليها، فإذا كان الإنسان المسلم يخزن عقائده ويحبسها في عقله ثم إذا تعامل مع الحياة وتعامل وتقلب مع الدنيا وفي فجاجها نسي هذه العقائد أو انفصل عنها فما هو من المؤمنين بالله عز وجل حقاً.

ولعلّكم تعلمون أن من عقائد الإسلام التي ينبغي أن يؤمن بها الإنسان أيما إيمان، وأن لا يتسرب إلى يقينه شكٌ فيها أن الفعّال هو الله عز وجل في كل شيء، وأن القوة في الكون كله إنما هي قوة الله سبحانه وتعالى، وكم وكم يمر الإنسان على آيات في كتاب الله عز وجل تذكره بهذه الحقيقة إن كان ناسياً لها أو تعلمه إياها إن كان جاهلاً لها.

نحن نقرأ قول الله عز وجل: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ ولو وقفنا عند كلمة القيوم هذه لعرفنا أن معناها الذي ينبغي أن يعرفه كل إنسان أن الذي يقوم بأمر السموات والأرض وما بينهما خلقاً وإدارةً وتحريكاً إنما هو الله سبحانه وتعالى، وهذا هو معنى تلك الكلمة القدسية التي علمنا إياها رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا حول ولا قوة إلا بالله.

وكلنا يقرأ قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾ ولو تأملنا قليلاً في معنى هذه الآية لعلمنا أنها تأكيدٌ للآية الأولى، وأن كلما تجده من حركةٍ في كون الله سبحانه وتعالى - أياً كان المتحرك - إنما تنبثق هذه الحركة فيه بقوة من الله سبحانه وتعالى.

وانظروا إلى قوله عز وجل في تلك السورة التي نكررها كثيراً وفي مناسبات شتى إذ يقول الله عز وجل: ﴿وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ كان ينبغي أن يقال بحسب الظاهر وفيما يفهمه حتى أكثر المسلمين اليوم كان ينبغي أن يقول: وآية لهم أن الفلك المشحون قد حملهم، ولكن الله عز وجل

قال: ﴿وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ نعم لقد استقلوا الفلك، لكن من الذي حمل الفلك وحملهم؟ هو الله عز وجل.

هذه أوليةٌ من أوليات العقيدة الإسلامية ولكن العجيب أيها الإخوة أننا عندما ندرس العقائد نؤمن بهذه الحقيقة وندافع عنها ونحفظها جيداً في أدمغتنا وعقولنا، فإذا تحولنا إلى التعامل مع الحياة، واحتككنا بالناس، ونظرنا إلى حركات المكونات والأمم والجماعات نسينا هذه الحقيقة ونسبنا الأشياء إلى أسبابها الظاهرة، فأين هي هذه العقيدة التي ينبغي أن تكون المهيمنة على يقيننا وعلى سلوكنا وعلى علاقاتنا الاجتماعية مع الناس جميعاً؟

أقول هذا الكلام أيها الإخوة لأعزي كل مسلم أمام الأحداث التي يراها من حوله ناسياً هذا المعنى الذي قلته الآن، ناسياً هذا المبدأ الأساسي الكبير من مبادئ العقيدة الإسلامية. هؤلاء الكثرة من المسلمين الذين كادت الأحداث التي من حولهم تزجهم في ضرام اليأس، الأعداء الذين يحيطون بالإسلام والمسلمين قد أحدقوا بالمسلمين من كل صوب، والقوى المتربصة بهم قد تظافرت جهودها من عن يمينٍ وشمال، من كل الجهات المختلفة المتنوعة، والعدو الجاثم في أرضنا يُزبد ويرغي ويهدد ويتوعد، والقوى العالمية الكبرى ماضيةٌ في دعمها له، والمسلمون متناثرون متباعدون متخاصمون... هذه هي الظاهرة باختصار.

فأما الواقع الذي ربما كان أشدّ سوءً من هذا الذي وصفته لكم، فهو واقع كثير من المسلمين الذين نسوا هذا المبدأ الأساسي في العقيدة واستسلموا للأسباب المادية وتخيلوا نتائجها وتوقفوا عندها ثم زجهم ذلك كله في ضرام اليأس. ما ينبغي للمسلم إن كان مسلماً أن يتعامل مع الكون أو مع المجتمعات على هذا الأساس أبداً، وإلا ففيما العقيدة الإسلامية؟ وما هي رسالتها إن لم يقم لها دور فعال في الحياة؟

أيها الإخوة كل ما ترون من هذه المظاهر التي قد تبث في نفوس بعض الناس اليأس، كل ذلك جنودٌ مجندة بيد الله عز وجل: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْبَشَرِ﴾. ينبغي أن نعلم هذه الحقيقة تماماً.

فأمريكا التي ترعى العدوان المستشري ضد الإسلام، وتغذي الإرهاب العالمي الذي يتجه ضد إسلام المسلمين وضد حقوقهم، وما وراء ذلك مما يمكن أن ترون ومن لا أريد أن أطيل الحديث فيه... كل ذلك

إنما يتحرك بقدرة مباشرة من الله، كل ذلك مظهرٌ لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ كل ذلك مظهرٌ لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ أجل أيها الإخوة.

ينبغي أن تعلموا هذا.. فإذا علمتم ذلك أثمرت هذه المعرفة ثمرتين اثنتين كل منهما يقربنا إلى الله عز وجل:

أما الثمرة الأولى: فهي أننا سنتساءل ترى لماذا يسلط الله علينا جنده هؤلاء؟ جندٌ يسلطهم الله عز وجل علينا مهما كانت الصور والأشكال التي تبرز فيها هذه الجنود، لابد أننا أسأنا، ولابد أننا انحرفنا، ولابد أننا خرجنا عن خطة الرشد ولذلك سلط الله عز وجل علينا هذا الجند. هذه الثمرة الأولى التي تفيدنا عندما نعلم أن القوى المحيطة بنا إنما يحركها الله ولا تتحرك إلا بقوة من الله عز وجل، فإذا عرفنا ذلك وشمنا أكفنا رجعنا إلى ذنوبنا نتوب عنها، ورجعنا إلى اعوجاجنا نستبدله باستقامةٍ وسيرٍ على صراط الله سبحانه وتعالى.

والنتيجة أو الثمرة الثانية هي أننا لا يمكن أن نزج في ضرام اليأس أبداً، ذلك لأنا إن علمنا أن الله هو الفعال، وأن كل ما في الكون جنودٌ مقهورون بيد الله سبحانه وتعالى تذكرنا قول الله عز وجل: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾.

نتذكر التأكيدات التي أكدها رسول الله صلى الله عليه وسلم في شرح هذه الآية ومعناها، من مثل قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح: «إن الله زوى ليّ الأرض فأراني مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها». من مثل قوله صلى الله عليه وسلم: «سيبلغ هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار» وعندئذٍ لا يمكن لهذه الأحداث أن تدخل أي ريبةٍ في قرار الله سبحانه وتعالى وبيانه.

وإذا أردتم أيها الإخوة ما يزيدكم طمأنينة على هذه الحقيقة، وما يعيدكم إلى حمى العقيدة الإسلامية التي ينبغي أن تُسخر في سلوكنا العملي وفي علاقاتنا مع الآخرين، فانظروا إلى أحداث التاريخ وتأملوا التاريخ الماضي كيف كان أهل تلك العصور يتوقعون حسب الأسباب المادية المرئية أمامهم، ثم كيف سار التاريخ مناقضاً لتلك التصورات التي كانوا يتصورونها. انظروا إلى التاريخ الماضي وسيروا معه إلى يومنا هذا،

تجدون أنه ما من جيلٍ من الأجيال رسم خطةً بيده بناءً على رؤىً مادية إلا وكانت النتيجة مناقضة لهذا الذي تصوروه، كانت النتيجة خاضعة لخطة رب العالمين الخفية إلى يومنا هذا، ولا يتسع الوقت لضرب الأمثلة الكثيرة. ولكن فلنضرب مثلاً واحداً:

هذه الأمة المسلمة (تركية) التي شاء الله عز وجل لأسباب يطول الحديث عنها أن ينحسر الإسلام عنها في فترةٍ حالكةٍ من الزمن، شاء الله عز وجل أن ينحسر عنها الإسلام انحساراً كلياً تماماً كما يخلع الإنسان ثوبه ويلقيه بعيداً شكلاً وموضوعاً، ابتعدت تلك الأمة عن الإسلام فلا اللسان العربي يسمح به أن يتداول، ولا كتاب الله عز وجل يمكن الإقبال عليه بدراسةٍ وعلم أو تعلم، ولا الأذان باللغة العربية يمكن أن ترتفع به الأصوات وهكذا...

وقامت معاهدةٌ معروفة قبل ما لا يقل عن سبعين عاماً بين تلك القوى التي جحدت بدين الله عز وجل وبين بريطانيا في معاهدةٍ اسمها معاهدة لوزان، أن تبتعد هذه الأمة ابتعاداً كلياً عن الدين خلال ما لا يزيد على ثلاثين عاماً بهذا الشرط، وتعهدت القوة العلمانية في تركيا بذلك وأطبقت دول البغي كله تعين على تطبيق هذه المعاهدة، كل الوسائل المادية سارت على هذا المنوال، وكل القوى البشرية دعمت هذا النهج.

ولكن فما الذي انتصر بعد ذلك؟ الأسباب المادية الظاهرة كلها تسير هكذا نحو العلمانية، ونحو مزيدٍ من الابتعاد عن دين الله عز وجل. وكم وكم من مسلمين أُخذوا بهذه الأسباب المادية ونسوا العقيدة الإيمانية التي افتتحت بها كلمتي الآن. هكذا كانت تسير الأسباب المادية، ولكن هذه الأمة كيف سارت فعلاً؟ كانت تسير سيراً مناقضاً لما تقتضيه هذه الخطة والأسباب، بأي قوة؟ لا أحد يرى. بأي فعالية؟ ليست هنالك عينٌ تبصر، ذلك لأنها قوة الله، ولأنها خطة رب العالمين سبحانه وتعالى.

ويعيش المسلمون اليوم ليروا هذه الحقيقة التي أقولها لكم، ليروا الخزي الذي أحاط بمعاهدة لوزان، بل ليروا الخزي الذي أحاط بجنود البغي إن في تركيا وإن في العالم المحيط بالإسلام والمسلمين الذي عاهد الشياطين الإنس والجن على الكيد لدين الله عز وجل.

ها هي ذي تلك الأمة تتنفس الصعداء، وها هي ذي تمارس دينها شكلاً ومضموناً، وها هو ذا الآذان يجلجل فوق أرفع المآذن في تلك البلاد، وها هو ذا كتاب الله عز وجل يُتلى صباح مساء، وها هي ذي الأذهان تحفظ كتاب الله عز وجل عن ظهر غيب، وها هي ذي اللغة العربية تغزو ذلك المجتمع، لا بل تُشرف ذلك المجتمع الذي حالت أو أرادت قوى الشر أن تحول بينه وبين الإسلام. ثم إنكم لتجدون نتيجة النتائج بعد هذا، إنكم لتجدون كيف أن الإسلام عاد ليحكم، بدأ فعاد ليحكم، تجدون هذا كله.

هذا المثل أضربه لكم أيها الإخوة لكي تربطوا العقيدة الإسلامية التي لا يتم إسلام المؤمن إلا بها بالواقع بالحياة، وإلا فلا معنى لعقيدةٍ إسلامية نحبسها في عقولنا ثم نتعامل مع الحياة على أساسٍ من نقيض هذه العقيدة، ولسوف يكون المستقبل حاملاً لمزيدٍ من الأدلة على هذا الذي أقوله لكم.

لكن لا تنسوا الثمرة الأولى: هؤلاء الجنود الذين يسلطهم الله علينا يسلطهم تأديباً لنا، ولو أن المسلمين كانوا على مستوى التأديب الرباني، تابوا إلى الله، عادوا إلى الله التجأوا إلى حظيرة القدس، عادوا يعلنون عن رجوعهم إلى صراط الله عز وجل، إذاً لحول الله هؤلاء الجنود إلى جنودٍ ينتصرون لدين الله سبحانه وتعالى.

احفظوا هاتين الثمرتين ثم اذكروا أن العقيدة الإيمانية التي تتمثل في التوحيد، هذا هو معنى التوحيد أيها الإخوة، هذا التوحيد ينبغي أن نمارسه سلوكاً في حياتنا، وينبغي أن لا ننسى عندما نجد أنفسنا نغرق في أمواج من الأسباب المادية المختلفة المتنوعة. ما الأسباب المادية؟ إنها من جنود الله سبحانه وتعالى.

والعجب كل العجب أيها الإخوة من أناسٍ يجادلون مجادلة بيزنطية متكلفة ممجوجة في معنى التوحيد، ويقارعون بل يتقارعون، ويخاصمون بل يتخاصمون ضمن مجالس نظرية لا تنتج إلا الأحقاد وإلا الضغائن حول التوحيد وكيف يكون التوحيد وكيف يكون التنزه عن التوحيد.

أمّا ربط التوحيد لله عز وجل بالحياة، أمّا أن نعلم أن هذا التقلب الذي يجري في الكون إنما يجري بيد من الله عز وجل، إنما يديره قيّوم السموات والأرض، وأن الأسباب تذوب وتذوب إلى أن تنمحي في ضرام قول الله عز وجل، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾، أمّا أن يربط هؤلاء الناس توحيد الله بهذا الواقع، فهم عن هذا غافلون، وهم عن هذا تائهون، بل إني لأُراهم عندما يتعاملون مع الحياة

وهم الذين يرفعون لواء التوحيد ويحذرون من الشرك يغرقون في شبر من الأسباب المادية المتنوعة، وينسون فاعلية الله سبحانه وتعالى. أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.



٢٧٨- الإسلام الحقيقي لا يقهر | ١٩٩٦/١٠/٢٥

في كتاب الله سبحانه وتعالى آيتان فيهما عزاءٌ لكل حزينٍ ومتألمٍ مما يرى من واقع المسلمين من حوله اليوم، وفيهما تصحيحٌ للخطأ الذي يحمله على تصور أن الإسلام مغلوب اليوم على أمره ومقهورٌ عن أداء رسالته. هاتان الآيتان هما قول الله سبحانه وتعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ، هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾. هاتان الآيتان فيهما عزاءٌ لكل حزينٍ ومتألمٍ لواقع المسلمين اليوم، وفيهما تصحيحٌ لوهم من يتصور أن الإسلام مقهورٌ ومغلوبٌ على أمره.

والواقع التاريخي البعيد والقريب يشهدُ لهذا الكلام الرّباني العظيم والمبين. فلو أننا تصورنا الصراع التاريخي الطويل بين الحق والباطل المتمثل في الصراع بين الإسلام الذي ابتعث الله به رسله وأنبيائه والباطل الذي تخترعه وتبتدعه شياطين الإنس والجن، لرأينا أنّ للباطل جولة ولكن هذه الجولة ما تلبث أن تنطفئ وأن ترجع وتذوب.

إننا لنذكر أشخاصاً قاموا في يومٍ من الأيام بأعمالٍ وجهودٍ كبيرة يُشككون من خلالها بقرآنية القرآن، وبكونه كلاماً مُنزلاً من رب العالمين، ونظرنا فوجدنا أنّ جهودهم مدعومة بقوى العالم الخارجي، ومدعومة بالأموال الكثيرة والوفيرة، ومدعومةٌ بوسائل الإعلام الغزيرة، ولقد كان في الناس من يتصور أنّ هذه الهجمة على كتاب الله سبحانه وتعالى ستخنقه ولسوف تحجز الناس والمسلمين عن معرفته والإيمان به بعد اليوم. ولكنا نظرنا فوجدنا أنّ هذه الهجمة قد انحسرت، ونظرنا وإذا بهذا الهياج قد ذاب، وبهذه الأمواج المتلاطمة قد همدت واختفت، وتألقت العقيدة الإيمانية في قلوب المسلمين وازدادوا إيماناً بكتاب الله عز وجل بل ازداد المؤمنون بهدي الله سبحانه وتعالى وكتابه.

ونظرنا في التاريخ القريب والبعيد ورأينا من يُشكك بسنة المصطفى صلى الله عليه وسلم، ورأينا كيف تُجند لهذا التشكيك الأموال الكثيرة والجهود الوفيرة ونظرنا فوجدنا بأعيننا الدعم الخارجي الآتي من جهاتٍ

لا نشك في قوتها ولا نرتاب في أهميتها، فإلام آل هذا العمل كله؟ إلام آلت هذه الجهود المدعومة بالمال الوفير والمكلوءة بحماية الأعداء من شياطين الإنس والجن؟ ذابت هذه الجهود وتبددت وذهبت أدراج الرياح واستقرت الحقيقة وازداد المؤمنون إيماناً بسنة رسول الله، وازدادوا ارتباطاً بسيرته، وازدادوا سيراً على نهجه.

وتأملنا أيضاً في الماضي فرأينا من يُلِّح ويُلحف على تصوير حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان مجرد مصلحٍ اجتماعي، وأنه كان بعيداً عن الغيبيات المتمثلة في الوحي والنبوة والمعجزات والخوارق ونحوها. ونظرنا فوجدنا كيف أن هذه الدعوة كانت مدعومةً بالمال الوفير ومدعومةً بالقوى المتضافرة الكثيرة ومدعومة بوسائل الإعلام المختلفة الكثيرة وربما كان في الناس من يتصورون أنّ هذا العمل غطى أو كاد أن يُغطي على الحقيقة وأن المسلمين أو أن الجيل الصاعد الجديد سينشأ بعيداً عن معرفة هوية محمد صلى الله عليه وسلم بسبب شدة وكثافة هذا الغبار الذي أُثير أمام العقول والبصائر والأبصار.

ونظرنا وإذا بهذا الغبار ينجلي وإذا بشمس هذه الحقيقة - لا أقول تطلع من جديد بل هي طالعة ولكنّ أشعتها بددت ذلك الغبار، وأتلفت ذراته وقضت على كل تلك السحب الداكنة التي اجتمعت عليها قوى الشرق والغرب واجتمعت من أجلها وفي سبيل الرصد لها الأموال الكثيرة الطائلة. وهنالك أمثلة كثيرة جداً أيها الأخوة كل ذلك يجسد ويؤكد معنى قول الله سبحانه وتعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾

هذه الحقيقة يجسدها هذا الواقع المرئي الذي بوسعنا جميعاً أن نتبينه، نعم هنالك أموالٌ كثيرة - ربما لا تأكلها النيران كما يقولون - تجند كلها في سبيل الكيد لدين الله عز وجل، وترسل هذه الأموال لا بالملايين بل بالمليارات لتُعطى بدون حساب لكل من يعلن أنه مستعدٌ لتحطيم دين الله سبحانه وتعالى. ومع ذلك فلن يَصدُق على هذه الجهود إلا قول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ هذا قرار الله.. ولولا أن الزمن

يُصدق هذا القرار لكان لبعض الناس أن يرتابوا ويتشككوا فيه، ولكن العصر والزمن بل الأحقاب كلها تؤكد هذه الحقيقة الربانية.

ولكن عندما نجد أن المسلمين في بعض الظروف والأحوال يُغلبون ويقهرون، وأن الدائرة تدور عليه فليس معنى ذلك أن الإسلام هو الذي قُهر، وليس معنى ذلك أن الإسلام هو الذي غُلب على أمره. تلك خطيئة يقع فيها كثير من الناس كلما رأوا المسلمين ظنوا أنهم يُجسدون الإسلام، وظنوا أن هنالك تلازماً بين واقع المسلمين أياً كانت أحوالهم وبين الإسلام الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

عندما تجد أنّ قهراً قد دارت رحاه وأن الغلبة قد تحققت فعلاً لأولئك الأوغاد من أعداء دين الله عز وجل فإن الغلبة لا تنحط على الإسلام وإنما تنحط على المسلمين، وتنحط على أيٍ من المسلمين، هل انحطت الغلبة في يومٍ ما على المسلمين الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه؟ ما عاذ الله.

هل انحطت الغلبة في يومٍ ما على المسلمين الذين ضحوا بأموالهم وتجاراتهم في سبيل مرضاة ربهم؟ ما عاذ الله، ما حصل هذا. هل انحطت الغلبة في يومٍ ما على المسلمين الذي يراقبون بدقة سيرهم على صراط الله وتمسكهم بهدي رسول الله فإذا اشتطت بهم السبل أو انحرفوا عادوا سريعاً إلى الجادة مؤمنين تائبين آيبين؟ ما عاذ الله.

عندما تدور رحى الغلبة على المسلمين إنما تدور على أولئك المسلمين الذي ضحوا بأوامر الله في سبيل دنياهم، والذين تناسوا عهدهم مع الله في سبيل تجاراتهم، والذين تناسوا السير على صراط الله في سبيل اتباع السبل المتعرجة من هنا وهناك؛ عندئذٍ يسلط الله سبحانه وتعالى عليهم أولئك الأعداء. عندئذٍ ربما تتبدد منهم القوى ويقلب الله سبحانه وتعالى عزهم إلى ذل، ولكن إياكم أن تتصوروا أن هذا يساوي أن الإسلام هو الذي قُهر، وأن الإسلام هو الذي غُلب على أمره. متى كنا نحن بهذا الواقع المزري مظهراً لحقيقة الإسلام؟ ينبغي أن نتبين هذه الحقيقة جيداً، عندما نكون نحن المسلمين مظهراً لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ

﴿الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ عندما نكون نحن المسلمين مظهراً لهذا الوصف الرباني للمسلمين، كونوا على يقين أن أحداً لن يستطيع أن يتغلب علينا، وأن قوى الشر مهما كانت مدعومة بالمال، ومهما كانت مدعومة بالسلاح ومهما كانت من الكثرة يميناً وشمالاً وشرقاً وغرباً، فإن الله سبحانه وتعالى سيحمي عباده الصالحين، ولسوف يجعل الغلبة لهم، ولكن أرني من انطبق عليهم قول الله سبحانه وتعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾

عندما يؤول حال المسلمين إلى هذه الصفات التي وصفهم بها ربنا سبحانه وتعالى، أريك كيف يكون نصر الله سبحانه وتعالى للمسلمين؛ ذلك لأن الإسلام عندئذٍ يتجسد فيهم ولما كان الإسلام دائماً هو المنتصر فكان لابد لهؤلاء المسلمين أن ينتصروا عندما أصبحوا أوعيةً أمينةً لهذا الدين الإسلامي. ولكني أنظر وأنتم تنظرون تجدون غثاءً كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كغثاء السيل.

مسلمون وإذا رأينا سبيلاً تلتمع أمامنا فيه ضمانة لتجاراتنا وأموالنا وشؤوننا الدنيوية (نقص من أصل التسجيل) وربما بررنا لكي نحظى بالخيرين معاً في وقتٍ واحد، لكي نعانق دنيانا وشهواتنا وأهوائنا ولكي نظل أيضاً متوجين بالظاهر بإسلامنا الذي أعز آبائنا وأجدادنا في يوم من الأيام. هذا هو واقعنا أيها الإخوة.

عندما ننظر إلى الآباء الذين وكل الله إليهم تربية أولادهم تربية بناتهم، وننظر فنجد أن الله زجهم في امتحان بسيط، إما أن يفضل الآباء أوامر الله سبحانه وتعالى تجاه بناتهم وأولادهم ويخسروا – بالوهم لا بالحقيقة – مستقبلاً من المستقبلات الدنيوية، وإما أن يضمنوا لأنفسهم هذا المستقبل الموهوم ويعرضوا عن أوامر الله في تربيتهم لأولادهم وبناتهم، يضعهم الله أمام هذا الامتحان اليسير والبسيط فماذا نجد؟ نجد أنهم طووا دين الله سبحانه وتعالى وتناسوا أوامره ونسوا قوله أو تناسوا ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾، ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾. ونسوا قول الله سبحانه وتعالى: ﴿قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ ننسى أو نتناسى كل هذا ونتمسك بالضمانة للمستقبل الموهوم،

نعرض عن أوامر الله التي وكلها إلينا وعلقها في أعناقنا اتجاه التربية الواجبة لبناتنا سلوكاً وحشمةً في كل المستويات وعلى كل الأصعدة.

لو أننا أمام هذه التجربة وأمام هذا الامتحان الصغير ركلنا بقدمنا هذا المستقبل الموهوم وتمسكنا بالمستقبل الذي ضمنه الله لنا عندما قال ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ ﴿لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا﴾ عندما أتمسك بضمانة الله وألقي جانباً ضمانة العبد وضمانة الدنيا، انظروا كيف يُبعد الله سبحانه وتعالى آنذاك عنا أشباح المتغلبين، وأوهام المسيطرين وكيف أن الغلبة تكون لعباده المسلمين.

أيها الإخوة وهمٌ كبير يقع فيه كثير من المسلمين وربما جرهم إلى بعضٍ من الريب في عدالة الله ووعده، وذلك عندما يتصورون أن المسلمين يساوون الإسلام، وأن الإسلام يساوي هؤلاء المسلمين. هذا خطأ كبير.

الإسلام الحقيقي لا يقهر.. يظل عزيزاً حتى في عقر دور الكفر، يظل ممنعاً حتى بين تلك الأمم والدول التي تصطنع الخطط ليل نهار للمكر بدين الله سبحانه وتعالى. فكيف لا يكون الإسلام عزيزاً في دار الإسلام؟! أما المسلمون فشيءٌ آخر. عندما يتناسى المسلمون أوامر الله وعندما يعرضون عن اللباب وإنما يتجملون منه بالقشور فقط، من أجل أن يحتفظوا لأنفسهم بنسبة تعزهم إلى الإسلام وإلى التراث وإلى ما كان عليه الآباء والأجداد، فإن المسلمين قد ينالوا من الذل ما لا يمكن أن تتصوروه لأنهم مسلمون في الظاهر ولكنهم ليسوا مسلمين على الحقيقة وبالنهج الذي أمر الله سبحانه وتعالى به. أقول قولي هذا وأسأل الله أن يجعلنا من المسلمين الصادقين.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

٢٧٩- حتى لا تقع في شَرَك الدجاجلة | ١٩٩٧/٠٦/٢٠

كثيرون هم الإخوة الذين يسألون في حيرة عن من ينبغي أن يثقوا بهم في حديثهم عن الإسلام وبيانهم لأموره وطرحهم للفتاوى المتعلقة بهم، من هم الذين يؤخذ بكلامهم ومن الذي يُطرح كلامهم ويُرمى به عرض الحائط؟

وأقول لهؤلاء الإخوة ما قاله الإمام مالك: «إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم». هذا هو المقياس الذي يُخرج هؤلاء الإخوة من دائرة الحيرة من هذا الأمر الذي يسألون عنه، ميزانٌ دقيق وقياس واضح، «إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم».

ومعنى هذا الكلام: أنّ عليك أن تنظر إلى هذا الذي يتحدث عن الإسلام أو يكتب فيه أو يصنع الفتاوى تلو الفتاوى بأموره، انظر إلى واقعه وراقب سلوكه في واقعه المنفرد الشخصي بينه وبين نفسه، فإن رأيت أنه مستقيم على صراط الله سبحانه وتعالى ملتزمٌ بأوامره لا يخرج عن آداب الإسلام ووصايا الله عز وجل وهدي رسوله صلى الله عليه وسلم، فاعلم أنّ هذه الإنسان إن تكلم عن الإسلام فإنما يتكلم بإخلاصٍ وصدق، حتى لو أخطأ فخطأه قابل للإصلاح؛ ذلك لأنه إنما يريد معرفة الحقيقة وبيانها للناس، وفي هذه الحالة ما أيسر أن يُصحح خطأه بالنسبة لمن تبين بكلامه الخطأ.

أما إن رأيت هذا الذي يتحدث عن الإسلام أو يكتب فيه، رأيته شارداً في سلوكه عن سَنن الدين، غير ملتزمٍ بأوامر الله سبحانه وتعالى، لا يراقب الله سبحانه وتعالى في معاملاته للناس وفي أموره المالية المختلفة، فكن من كلامه هذا على حذر، وإياك أن تأخذ بشيءٍ مما يقول أو أن تأخذ بشيءٍ مما قد يكتب. هذا معنى قول الإمام مالك إنّ هذا العلم إشارة إلى علم الشريعة «إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم».

وأنتم تعلمون أيها الإخوة أن الشهادة لا تُقبل أمام القضاء إلا إذا ثبتت عدالة الشاهد، وثبت الدليل على أنه غير ساقط المروءة، وأنه قويم العدالة، وإذا كان الأمر كذلك.. وهذه حقيقة معروفة ينبغي أن لا يجهلها أحد من المسلمين، فإن كلام الذي يتكلم عن الله ورسول الله صلى الله عليه وسلم أخطر من شهادة الشاهدين، الشاهد الذي لا تُقبل شهادته إلا إذا ثبتت عدالته إنما يتكلم عن عباد الله ويصف ما يعرفه من أحوالهم، أما الإنسان الذي يتكلم عن الله أو يتحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فهذا الإنسان أخطر في عمله وفي كلامه من ذاك الذي يتكلم أو يتحدث عن عباد الله عز وجل.

الخطأ في كلام الإنسان عن الإنسان أمرٌ يُمكن أن يُقبل، ويمكن أن يُصحح، ولا تكون المصيبة فيه مصيبة كبيرة، أما الإنسان الذي يتكلم عن الله سبحانه وتعالى ثم إنه يخلط الباطل بالحق، ويزج أو يدس الباطل الذي لا علاقة للدين به بدين الله سبحانه وتعالى، فهذا الإنسان أحرى أن لا يُقبل كلامه إلا بعد أن تثبت عدالته.

فإذا أردتم أن تخرجوا من سجن هذه الحيرة أمام الكثرة الكاثرة من هذه الكتابات التي تظهر عن الإسلام، ولم تستطيعوا أن تملكوا من الثقافة الإسلامية المقياس الذي يُبين لكم صدق هذا الكلام أو كذبه، فما عليكم في هذه الحال إلا أن تراقبوا حال هذا الإنسان المتكلم، وبوسعكم أن تعلموا بعد ذلك هل يؤخذ بكلامه أو لا يؤخذ بكلامه.

هذا السؤال المتكرر جداً في هذه الأيام ما ينبغي أن يطرحه إلا إنسانٌ فقيرٌ جداً حتى في معارفه الأولية عن دين الله سبحانه وتعالى، وأنا أضرب لكم مثلاً من أمثلةٍ شتى: الإنسان الذي يجعل من نفسه إماماً في الدين، وعالماً من علماء الإسلام، ثم يقول أو يكتب ما يريد أن يثبت لك من خلاله أن السنة ليست مصدراً من مصادر الإسلام، وإنما القرآن وحده هو المصدر الذي يجب على المسلمين أن يبنوا أحكامهم عليه وأن يستنبطوا مبادئ الدين منه، الإنسان الذي يقول هذا الكلام بوسع كل شخصٍ مثقف بوسع كل إنسان يتمتع بمعرفةٍ سطحية من مبادئ دين الله عز وجل أن يعلم بطلان هذا الكلام، وأن يمر عليه غير عابئٍ به، وأن يُلقي هذا الكلام وراء ظهره؛ ذلك لأن هذا الإنسان يقرأ على أقل تقديرٍ كلام

الله سبحانه وتعالى، يقرأ في كل يوم شيئاً من القرآن، فإن كان كذلك فلا بد أن يمر كل يومٍ بالآيات الناطقة ببطلان هذا الكلام وبسخف هذا التصور.

بل لابد أن تقرأ في كتاب الله عز وجل ما يبصرك بأن هذا الإنسان ليس من دين الله في شيء، وإنما هو مدسوس عليك مدسوس ككثيرين من أمثاله على الإسلام والمسلمين، ألا تقرأ فيما تقرأ من كتاب الله عز وجل قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ وفي القرآن الكثير والكثير من مثل هذا الكلام.

وأذكر أن في الناس من كانوا يسألون سؤالاً يتعلق بالعقيدة بل يتعلق بمعنى من معاني التوحيد، يسأل عن واو العطف هذه: كيف جاز أن تأتي واو العطف التي تدل على المعية؛ فتعطف الرسول على الذات العلية على الله سبحانه وتعالى؟ كيف ساغ أن يُقال: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً﴾ كأن الكلام يوحي بأن هنالك شركة في قضاء الأحكام وبناءها في حين أننا نعلم أن الله واحدٌ في ذاته وواحدٌ في حكمه وواحدٌ في صفاته وواحدٌ في أفعاله، فكيف ساغ أن يُعطف اسم رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الصدد على اسم الله سبحانه وتعالى؟

لعل هذا الواقع الذي ترونه اليوم أيها الإخوة يُشكل أدق جواب عن هذا السؤال. علم الله عز وجل أن في المبطلين والدجاجلة من سيأتي فيلبس مسوح الإسلام، ويتزيى بزي المدافعين عن دين الله عز وجل، ويحاول جاهداً على أن يُلبس على عباد الله سبحانه وتعالى ثم يخلط الباطل بالحق، ويحاول أن يستل حقائق الإسلام من داخله، ومن جملة ما يريد أن يفعل أن يفرق بين الله ورسله كما قال الله سبحانه وتعالى، نعم يفعل هذا فكان الرد المحكم من كتاب الله عز وجل على هؤلاء الذين علم الله أنهم سيأتون مع الزمن ليملأوا الأرض بالدجاجلة الذين سيكونون جنوداً للدجال الأعظم الذي أعلن المصطفى صلى الله عليه وسلم في الأحاديث الصحيحة، أن ظهروه سيكون علماً من أعلام الساعة ودليلاً من أدلتها الكبرى.

علم الله هذا.. فصاغ هذه الحقيقة بهذا التعبير، قرّب مكانة المصطفى صلى الله عليه وسلم إلى ذاته العلية تكريماً وتشريفاً لا تشريكاً بشكلٍ من الأشكال أبداً، ومزج القضاء الذي تَنزّل وحياً من عند الله عز وجل بالقضاء الذي قضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأرض، مزج هذا بذاك ليعلن أن القضاء واحد، وأن ما يقضي به رسول الله هو ذاته الذي يقضي به الله، وأن ما يقضي به الله هو ذاته الذي يقضي به رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما كان المصطفى صلى الله عليه وسلم إلا المعلن عن حكم الله سبحانه وتعالى وقضاءه.

فهذه الواو الجامعة مزجت القضائين بقضاءٍ واحد لا على وجه التشريك – معاذ الله – ولكن ليبين لنا أن معين القضاء واحد فيما ينطق به رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيما يقوله الله سبحانه وتعالى.

أليس كل مسلمٍ وعى دينه ولو لم يكون مثقفاً يقرأ كتاب الله؟! أفلا يمر على مثل هذه الآية – ومثل هذه الآية في القرآن كثير، فيقف عندها ليتدبرها إذا تدبرها، ثم أصغى إلى كلام هؤلاء الدجاجلة، فإن بوسعه أن يبصق على كلام أولئك الدجاجلة بعقله، وبصاق العقل أفعل بكثيرٍ من بصاق الفم.

فإن لم تستطع أن تستبين حقائق كلام الله عز وجل، وإن كنت ممن يتلو كتاب الله سبحانه وتعالى هكذا سرداً دون تدبرٍ في معانيه، ثم أعوزك أن تعلم هوية هؤلاء الذين يدجلون ويقولون، فبوسعك أن تنظر إلى حال هؤلاء الناس.

وانظروا أيها الإخوة إلى هؤلاء الذين يكتبون في مثل هذا الموضوع وأمثاله، تأملوا في واقعهم فلسوف تخرجون من الحيرة، لن تجدوا أن فيهم من يتجه إلى القبلة ليؤدي صلاة فريضة وإن فعل ذلك في وقتٍ من الأوقات فإنما يفعل ذلك خروجاً من مراقبة من يشعر أنهم يراقبونه، فإذا عاد إلى شأنه وعادته تحرر من هذا الذي لا شأن له به. إذا أردتم أن تعرفوا قيمة هذا الكلام فانظروا إلى واقع هؤلاء الناس وانظروا كم هم مغموسون في المعاصي والمحرّمات، فهل هنالك حاجة إلى أن تعلموا قيمة كلامٍ في شرع الله وفي دينه يقوله إنسانٌ لا يقيم وزناً لأوامر الله وواجباته وعباداته التي أمر الله عباده بها؟!

هذا معنى كلام الإمام مالك الذي ذكره في عصره منبهاً وينبغي أن نتعامل به في هذا العصر علاجاً.

أيها الإخوة نحن اليوم نعيش العصر الذي تتجه فيه سهام الهجوم والنقد والتمزيق إلى دين الله من كل جهة من سائر الأطراف، وأسوء وأخطر هذه الأطراف تلك الأطراف الداخلية التي تستقدم هذه السهام مصنعة هناك ثم إن هؤلاء الناس الدجاجلة العملاء يريشون سهامهم هنا، ويوجهونها إلى كبد الإسلام أيضاً هنا، فئةٌ لم تر عيني أحط منها عمالةً، لم تر عيني أحط منها استخذاءً وعبوديةً لأولئك الذين يُعادون دين الله ويُعادون هذه الأمة من عباد الله سبحانه وتعالى.

فإياكم أن تقعوا في شرك هؤلاء الناس، وإياكم أن تقعوا قبل ذلك في الحيرة؛ هذه الحيرة التي طالما يكرر ويسأل عنها كثيرٌ من الناس، ثم إن كل مسلم ينبغي أن يعلم أن الحصن الأول والأخير الذي يقي دينه ويقي كيانه الإيماني من هذه السهام المتنوعة الكثيرة شيءٌ واحد: هو الوعي الذي ينبغي أن يتحلى به كل إنسان بدين الله، المسلم التقليدي الذي وضع هوية الإسلام في جيبه ثم إنه سار يَخُب في المجتمع وهو لا يعلم ما هو الإسلام، ما أسرع أن تقتنصه أقوال هذه الدجاجلة بل إنه لا يُعد في ميزان الله عز وجل من المسلمين السائرين على صراط الله سبحانه وتعالى، على هؤلاء الناس بل على كل مسلمٍ أن يتمتع بالوعي، بالثقافة الراشدة يأخذها من مصادر هذا الدين التي أجمع الأجيال التي مضت كلها على أنها مصادر سليمة، نقية من الدس، نقية من الشوائب. فإذا تمتع المسلم بهذا الوعي فلا يمكن لهذه السهام أن تخترق كيانه وأن تخترق عقيدته بشكلٍ من الأشكال.

أقول قولي هذا وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يحمي أمتنا ويحمي ديننا من الكائدين.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

٢٨٠- أُكلت يوم أُكِل الثور الأبيض | ١٩٩٧/٠٧/١١

لقد اهتاجت مشاعر الحماس لدى كثيرٍ من الشباب المؤمنين بالله سبحانه وتعالى يوم أن قام الصهاينة اليهود بالأمر الذي لا غرابة فيه، والذي لم يُفاجئوا أحداً من العالم به، يوم أن أفرزوا خساستهم وقذارة مشاعرهم في حق الله سبحانه وتعالى قبل أن ينفثوا شيئاً من ذلك في حق رسله وأنبيائه المقربين.

كثيرٌ من الإخوة اهتاجت بين جوانحهم مشاعر الحماسة وراحوا يتسائلون ما العمل؟ وكيف السبيل إلى الوقوف في وجه هؤلاء الذين فاجؤوا العالم بقذاراتهم وخستهم هذه؟

وأنا لم أقل أي كلمة إلى اليوم تعليقاً على هذه المشاعر، وجواباً عن أسئلة هؤلاء الإخوة الكثيرين، ولكن يبدو أن قد حان أن أقول لهم ما ينبغي أن يعرفوه، وأن أضع لهم النقاط على الحروف بعيداً عن الحماسة التي لا تفيد، وبعيداً عن الضوضاء التي لا تُصلح فساداً ولا تقوم اعوجاجاً. ينبغي أن نعلم أولاً أن هذا الذي تَبدّى في الأسبوع الماضي والذي قبله ليس أمراً غريباً وليس شيئاً مما يمكن أن يُفاجئ به العالم الإسلامي بل العالم كله، فقد عرف العالم الإسلامي وعرفت الدنيا كلها أن هذه الفئة التي حدثنا عنها بيان الله سبحانه وتعالى كثيراً، هي كتلة خساسة ورجسٍ تتحرك فوق هذه الأرض، لم يختلف أمرها لا بالماضي السحيق ولا في التاريخ القريب، ولا في الواقع الحالي المشاهد في هذا اليوم.

هذا هو واقع هؤلاء الناس، ولأمرٍ ما أخبرنا الصادق المصدوق جل جلاله كيف أن الله سبحانه وتعالى مسخ منهم القردة والخنازير، وهذا كلام الله سبحانه وتعالى وكلامه لا يلحقه خُلف.

وأنا أصدقكم القول: أنني لم أفاجئ بشيءٍ مما حدث، ولو أنا رأينا أضعاف ما حدث، فلن أُفاجئ بشيء من ذلك بعد النعت الذي وصف الله به هذه الشرذمة عبر التاريخ، وبعد هذا الخبر الصادق الذي أنبأنا به وكيف أن الله مسخ منهم القردة والخنازير. ولكن الأمر الذي ينبغي أن نفاجئ به شيءٌ آخر أيها الإخوة.

هذا الذي رأيناه أو سمعناه وقع مثله كثير في التاريخ الماضي، ولكن كان المسلمون في المرصاد وكانت عصا التأديب تُلهب ظهور هذه الشرذمة ومن ثم فلم يكونوا يستطيعون أن يُفرزوا شيئاً من قيئهم الرجس إلا بحدودٍ ضيقة وإلا بمقدارٍ قليلٍ جداً، الشيء الذي فُوجئ به المسلمون اليوم هو أن المسلمين الذين كانوا بالأمس مسلمين لم يعودوا هم أولئك المسلمون اليوم. هذا هو الذي يُفاجئ به كل مسلم.

ينبغي أن نعلم أن الغرابة ليست في أن ترى السوء نابعاً من مصدره، ولا في أن ترى الرجس صادراً من قمامته فهذا شيءٌ طبيعي، ولكن الغريب أن تجد أولئك المسلمين الذين كان شأنهم تطهير مجتمعهم وحراسة دينهم وحراسة كتاب ربهم؛ أن تجد هؤلاء المسلمين يرقدون رقدة أصحاب الكهف وكأنهم ليسوا أحفاد أولئك الأجداد والآباء الذين ينتمون إليهم، وربما تباهوا بانتسابهم إليهم، هذه هي المفاجأة التي تجرح الفؤاد والتي تُنض القلب والتي تجعل الإنسان أسير أحزانٍ متطاولة. فما الذي حدث حتى نسي المسلمون هوياتهم؟ وحتى نامت مشاعر العز بين جوانحهم؟ وحتى آل أمرهم إلى ذلٍ أصبح مضرب المثل في العالم كله لا في العالم العربي والإسلامي فقط؟ ما الذي حدث حتى آل الأمر إلى هذا الشأن المريع؟

الذي حدث أيها الإخوة وأقولها للعبرة وللعظة فلعل العبرة تقفز بالإنسان إلى خطوط الإصلاح أكثر من أي دافع آخر.

السبب أيها الإخوة أن المسلمين فيما مضى حققوا أول ثمرة من ثمار إسلامهم عندما أخلصوا دينهم لله، وعندما فاضت قلوبهم حقيقةً بمشاعر الحب لله والتعظيم لحرمات الله عز وجل، قطفوا عندئذٍ أقدس ثمرة لهذا الإسلام. أتعلمون ما هي؟

هي وحدة الأمة المسلمة. أول هدية يهديها رب العالمين لعباده المسلمين عندما يُخلصون دينهم لله أنه يهبهم الوحدة والتآلف والتضامن، فيجتمع منهم الشمل، وتتحد منهم المشاعر، ويسيرون على صراط واحد ألا وهو صراط الله سبحانه وتعالى، ويستمسكون بعد الشرود بحبلٍ واحد ألا وهو حبل الله سبحانه وتعالى.

قطف المسلمون فيما مضى أول ثمرةٍ جاءت نتيجة إخلاصهم لله سبحانه وتعالى، وتجلّت هذه الوحدة في الخلافة التي قرأتم الكثير عنها والتي عرفتم حقيقتها، وهي بابٌ في آخر كتب العقيدة: (الخلافة الإسلامية أمرٌ من الأهمية بمكان، وهي من الأمور التي ينبغي أن يعلم المسلمون أنها جزء لا يتجزء من البنيان الإسلامي، ولذلك فالحديث عنها تفيض به كتب العقيدة جمعاء، تجلت هذه الوحدة في الخلافة، والخلافة عملٌ ديني كان في تاريخنا الإسلامي ولم يكن عملاً سياسياً مجرداً.

لما استثمر المسلمون إسلامهم عن طريق الإخلاص لدين الله وأكرمهم الله بهذه الثمرة الأولى، تحول ضعفهم – وكم كانوا ضعافاً – إلى قوة، وتحول تفرقهم إلى اتحاد واجتماع كلمة، وتحول فقرهم إلى غنىً، فأصبحوا أمة تهابها الأمم، وأصبحوا وحدةً تهابها القوى كلها، والله هو الذي يضع في القلوب الرعب إذا وضع، ويضع في القلوب العزة ومشاعرها إذا أراد، ومن ثم إن هذه الشرذمة القذرة لم تكن تستطيع آنذاك أن تفعل شيئاً، ولم تكن تستطيع أن تُفرز شيئاً من قيئها الذي تفرزه اليوم بشكل من الأشكال، واستمر الأمر على هذا النحو عبر التاريخ الإسلامي الذي تقرأونه والذي تعتزون به أيها الإخوة.

متى وصلت هذه الشرذمة وأضرابها إلى ما ابتغوا من المسلمين من حقوق لهم مادية أو معنوية؟ متى؟ عندما وضعوا نُصب أعينهم تحطيم الطوق الذي لا بد أن يُحطم قبل كل شيء، ألا وهو طوق الخلافة، ولقد قرأت كلاماً لزويمر في مذكراته وهو يتحدث عن حركة الصهيونية التي لم تكن تأتي بطائل في أوروبا وهنا وهناك. ويقول زويمر بعد ذلك: لقد علمنا واتفقت منا الكلمة على أن أعمالنا كلها لا تفيد شيئاً ما دام طوق الخلافة الإسلامية ضارباً حول المسلمين، ومن ثم فلقد اتجهنا إلى تحطيم هذا الطوق، وكانت بريطانيا أول من دعمت الصهيونية بهذا الأمر، وينبغي أن تعلموا هذه الحقيقة.

اتجهت قوى الشر التي تتربص بالمسلمين إلى تحطيم طوق الخلافة، وينبغي أن نقولها معترفين أن مما أعان بريطانيا وغير بريطانيا على تحطيم طوق الخلافة فساد الخلافة آنذاك، وفساد المسلمين أو كثيرٍ من المسلمين آنذاك، ولو لم يكن المسلمون قد اخترقوا بنيانهم بأيديهم عن طريق المباذل الأخلاقية، وعن طريق القومية الطورانية التي انتشرت في حاضرة الخلافة آنذاك، وعن طريق ألوان أُخرى من الفساد، لما

استطاعت بريطانيا ولا قوى الشر أجمع أن تحطم ذلك الطوق آنذاك، ولكن بدأ الفساد من المسلمين فاستشرى الفساد وسلط الله عليهم أولئك الأعداء، لما تناثر ذلك الطوق. إلام آل حال المسلمين؟ إلى تشرذم وتفرق تماماً كأي عقدٍ قطعت الخيط الواصل لحباته إلى ما تؤول هذه الحبات؟ تتفرق يميناً وشمالاً.

ولقد قرأت كلاماً للورانس في كتاب له اسمه أعمدة الحكمة السبعة وهو يتحدث عن أعمال بريطانيا وخداعها للعرب والمسلمين في آواخر الخلافة الإسلامية يقول: لقد وعدت العرب أن يتحول عقد الخلافة الإسلامية من جِيد الأكراد إلى جِيد العرب. ثم يقول بعد ذلك: وقد كان واضحاً أن هذا الوعد لم يكن إلا حبراً على ورق، ولكن إخلاصي لحكومتي هو الذي اقتضاني أن أقول هذا الكلام. ثم يقول: وكم أنا سعيد الآن بهذه الحرب التي وضعت أوزارها لمصلحة بريطانيا دون أن تُراق قطرة دم واحد لبريطاني.

ودونكم فاقرأوا كتاب لورنس هذا أعمدة الحكمة السبعة لتجدوا العجب العجاب من هذا الأمر. عبرة خُذوها يا عباد الله، تحطم طوق الوحدة الإسلامية عن طريق تهاوي الخلافة الإسلامية، تناثر المسلمون بعد ذلك. أين هو العقد الذي كان ينبغي أن يتحلى به جيد العرب؟ كل ذلك كان كذباً وافتراء، وكل ذلك كان خداعاً وتدجيلاً. وتقاسم الأعداء حقوق المسلمين كما تعلمون، وجاءت الصهيونية لتنال حظها الأوفر من أرض المسلمين وحظهم وبلادهم، ومنذ ذلك اليوم يا عباد الله والغرب كله بشطريه الأمريكي والأوروبي عينٌ ساهرةٌ ترقب المسلمين أن لا يعودوا إلى شيء من وحدتهم السابقة، ترقب المسلمين مساء صباح أن لا يحنوا مرة أخرى إلى لونٍ من ألوان اتحادهم، ولا يُشترط أن يكون هذا الاتحاد في مظهر خلافة، لا، وكلما رأوا أن المسلمين حاولوا أن يعودوا إلى شيءٍ من وحدتهم السابقة بذلوا الجهود العجيبة والغريبة في سبيل التفتيت وفي سبيل النثر وحدة هذه الأمة التي أعزها الله عز وجل بها، إنهم دائماً يحرسون المسلمين الذين وقعوا في تيه التشرذم والتفرق؛ يحرسونهم أن لا يعودوا إلى قول الله بأي شكلٍ من الأشكال: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

ازداد المسلمون فرقةً بعد فرقة، وازدادت قطع المسلمين تمزقاً أيضاً؛ كل قطعة آلت إلى قطع كما تشاهدون وكما ترون اليوم، ومن ثم فإن الصهيونية تنفث أحقادها، وتستقيم رجزها تماماً كما تشاء. أين هم المسلمون الذين كانوا بالأمس يأخذون بالخناق؟ أين هم المسلمون الذين كانوا بالأمس ينهلون بعصي التأديب على هذه الشراذم؟ وكم في تاريخنا المجيد من أمثلة. أين هم المسلمون الذين طهروا الأرض المقدسة من رجس الصليبية؟ لم يعد المسلمين اليوم أولئك المسلمين

ويرحم الله شوقياً الذي يقول:

مَرَرتُ بِالمَسجِدِ المَحزونِ أَسأَلَهُ هَل في المُصلى أَو المِحرابِ مَروانُ

فَلا الأذانُ أَذانٌ في مَنارَتِهِ إِذِا تعالى وَلا الآذانُ آذانُ

أقولها وإن كره بعض العلماء الاستشهاد بالشعر في مثل هذا المقام، لأن القلب لا يستطيع أن يشفي غليله إلا باستشهادي بكلامٍ من هذا القبيل الحار.

الغرابة التي ينبغي أن تأخذ بالألباب والتي تستثير مشاعر الذل بين جوانح المسلمين، الشيء الذي يندى له الجبين والذي ينبغي أن يشغل بالنا ونُفاجئ به هو: أين المسلمون الذين يتلون كتاب الله صباح مساء ويتظاهرون بانتمائهم إليه، ها هو ذا كتاب ربنا يُمزق، وحاشا أن يُمزق، حاشا أن يمزق حقيقةً، لكن ها هي ذي صورة هذا التمزيق تراه أعيننا فأين هم الغيارى على دين الله؟

ها هو ذا سيدنا أن محمد صلى الله عليه وسلم تحاول كتل الرجس في العالم أن تستقيء شيئاً من رجسها لتصل بها إلى أطهر الطاهرين محمدٍ عليه الصلاة والسلام ولن تبلغ منه شيئاً، فأين هم الذين يتباهون بأنهم منسوبون إلى رسول الله؟ أين هم الذين يتباهون ساعة السلم وساعة الصفاء بأنهم من حفدة أو أسباط المصطفى صلى الله عليه وسلم؟ أين هي ظاهرة الغيرة على دين الله سبحانه وتعالى؟ أُكلت يوم أُكِل الثور الأبيض.

قد يقول هذا الإنسان: أنا لا أملك وليس لدي من القوة ما أفعل شيئاً، والآخر قد يقول كذلك، والثالث قد يقول كذلك. من الذي جعلك فقيراً إلى القوة؟ أنت الذي حكمت على نفسك بهذا. لماذا احجمت فلم تمد يدك إلى جيرانك لتتحد معهم في سبيل الانتصار للحق؟ لماذا رفضت الوحدة وأبيت إلا السكينة.



٢٨١- لماذا غدا الإسلام كلأً مباحاً لكل متصدر جاهل | ١٩٩٧/٠٩/٠٥

إن الإمام مالكاً رحمه الله تعالى ورضي الله عنه، عندما قال كلمته المشهورة المعروفة: ﴿إن هذا العلم دينٌ، فانظروا عن من تأخذون دينكم﴾، لم يقل ذلك إنطلاقاً من هوىً في نفسه، ولا اجتهاداً من دخيلة ذهنه، ولكن هذه الكلمة التي قالها إنما كانت ثمرة معرفةٍ لحقيقة الدين الذي ابتعث الله به رسله وأنبياءه، وختمهم بخاتمة الرسل والأنبياء محمد عليه الصلاة والسلام، أخذه مما يدل عليه كلام الله ومما أكده رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولعل من أبرز ما اعتمد عليه الإمام مالك في هذا، هو قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح المتفق عليه: ﴿إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من صدور الناس، ولكنه يقبضه بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالمٌ اتخذ الناس رؤوساً جُهّالاً فأفتوهم بغير علمٍ فضلوا وأضلوا﴾.

فالإمام مالكٌ وغيره إنما اعتمدوا في القاعدة التي نبهوا الناس إليها على مثل هذا الحديث الصحيح الذي ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ومن هنا فقد كانت أولى مهام الخلفاء الراشدين، ثم الخلفاء الذين جاؤوا من بعدهم، هو حراسة هذا الدين والنظر إلى أفواه الناطقين به والمتكلمين عنه، فكانوا يراقبون حلقات العلم، وحلقات الدروس، فإن وجدوا هنالك إنساناً قد دس أنفه فيما لا يفقه وفيما لا علم له به، انتزعوه من حلقته وردوه إلى ساحة التعلم، وردوه إلى ساحة المعرفة، فإذا تعلم دين الله سبحانه وتعالى وأصبح ممن يستطيع أو يملك أن ينطق باسم هذا الدين وأن يتحدث عن كتاب الله سبحانه وتعالى ومصادر الشريعة الإسلامية، كان له بعد ذلك أن يجلس فيتكلم كما يشاء.

وهكذا سارت الأمور على هذا النحو خلال القرون المتصرّمة من عصر الإسلام الذي شرفنا الله سبحانه وتعالى به، كانت مهمة القادة والخلفاء والحكام الأولى حراسة دين الله سبحانه وتعالى، وكان

أخطر أنواع هذه الحراسة حراسة أفواه الناس، ترى بما يتكلمون، وعما يعربون، وما هي المكنة العلمية التي يتمتعون بها؟

إلى أن خلف من بعد أولئك الناس خلفٌ لم يعودوا يهتمون بهذا الدين إطلاقاً، سواءٌ بُنيت أركانه واستقرت دعائمه وشمخ قانونه وشرعته، أو جاء من ينسفه ويحاول أن يهدمه بالمعاول المتنوعة. جاء من لا يبالي بأمر هذا الدين سواء أوغل فيه المتخصصون بشأنه أو تسرب إليه الزائفون الذين يتقنعون بقناع الإسلام، وما هم من الإسلام في شيء، ومن ثم كثر المبطلون الذين يتقنعون بقناع الإسلام ثم ينطقون باسمه، كثر المزيفون الذين يتظاهرون بالغيرة على الإسلام ثم يتسللون إلى ساحته ويتكلمون باسمه، كثر الجهّال - كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - الذين لم يتعلموا دين الله عز وجل ولم يعكفوا على دراسة شيء من مصادره، وما هم من العلم به في شيء قط، ولكن لأمرٍ ما ولغاية ما ولمصلحة دنيوية ما وما أكثر هذه المصالح، تظاهروا بالعلم وهم جاهلون وخاضوا عبثاً بالإسلام وهم يتظاهرون بالغيرة على دين الله عز وجل.

ولو كان هنالك قادة يحرسون دين الله سبحانه وتعالى، كما كان الذين من قبل يحرسون دين الله عز وجل من خلال النظر في حال من ينطق باسم الدين ومن ثم يتحدث عن الإسلام، إذاً لما وجدنا هذا العبث يتسرب إلى حمى الدين أبداً، ولما وجدنا هنالك من يتكلم باسم الإسلام وهو أحوج ما يكون إلى أن يتعلم حقيقة الإسلام، فضلاً أن يتعلم أركان الإسلام وفقهه وشرائعه.

ومن هنا أُتيح لأعداء الدين أن يُطوروا سبيلهم في حرب هذا الدين، وأن يجددوا أسلحتهم التي يحاربون بها هذا الصرح الإسلامي الشامخ، فأصبحت الطريقة الحديثة للكيد لدين الله ولحرب هذا الإسلام هو أن يُحارب الإسلام بسلاحه، وأن يُكاد له داخل دائرته.

كثُر الذين يتقنعون بقناع الإسلام.. كثُر الذين يظهرون الغيرة على دين الله عز وجل، ثم يتسربون تحت ستارٍ من هذا القناع، تحت ستارٍ من هذه الغيرة الكاذبة المصطنعة ليعيثوا فساداً بدين الله سبحانه وتعالى، وليتكلموا فيه كما يشاؤون، وليخلطوا الحق بالباطل كما يهوون وكما يريدون بل كما يراد له.

أين هم أولئك الذين كانوا يحرسون دين الله من العبث؟

أين هم أولئك الذين كانت مهمتهم الأولى أن يرقبوا أفواه الناس، حتى إذا وجدوا من يعبث باسم الإسلام باسم الغيرة عليه اقتنصوه وعاقبوه وحذروا المجتمع كله من أن يوجد من يعبث بالإسلام مثل عبثه؟ لا تجد، فرغت الساحة من أولئك الحراس.

أيها الإخوة نحن ننظر اليوم يميناً وشمالاً، بحثاً عن إنسانٍ ما هو بطبيب، ولكنه يتقنع بقناع الطب ويتظاهر بالغيرة على الطب ومصيره، ثم يتكلم في المجتمعات عن الطب وضرورة تطويره وتجديده، أبحث في مجتمعنا عن إنسانٍ ما هو بطبيب ولكنه يتظاهر بأنه يغار على الطب ويتقنع بقناع من يعرف معنى من معاني الطب فلا أجد، ولو وجدت إنساناً بهذا الشكل لرأيت أن حراس هذه الأمة يتسارعون إليه ليضبطوه بالجرم المشهود وليعاقبوه شر أنواع العقاب، ولعلكم تعلمون أن فلاناً من الناس منذ فترة عبث وعاث بشيء من قوانين الطب وأدويته، ووصف بعض الأدوية لبعض المرضى وهو لا يعلم من الطب شيئاً، فكان العقاب العاجل يترصده، وها هو ذا الآن يلاقي عقابه العاجل.

وأنظر يميناً وشمالاً فلا أجد إنساناً ليس له أي اختصاصٍ بالهندسة وليس له أي باعٍ فيها، ولكنه يتظاهر بأنه عليمٌ بها ويتظاهر بأنه خبيرٌ بها وغيورٌ عليها، ثم يطرح النظريات التي لم يعرفها غيره في الهندسة وضرورة تجديد قوانينها وقواعدها، ألتفت يميناً وشمالاً فلا أجد إنساناً يفعل هذا ويعبث بهذا العلم بشكلٍ من الأشكال. وأنا أعلم يقيناً أن الحراس الذين يحرسون هذه الساحة يمنعون وجود مثل هذا الدجال أن يتسرب إلى حمى هذا الفن، ولو وُجد من يتسرب لوجد العقب بانتظاره.

ولا أعلم أن هنالك أي إنسانٍ يحاول أن يعبث بأي فن من الفنون التي تعرفونها بشكلٍ من الأشكال.

ولكني أنظر إلى ساحة الدين، أنظر إلى ساحة الإسلام، فما أكثر ما أجد أناس لا خبرة لهم بالإسلام، ولا علم لهم بشيء من حقائقه، ولم يعرف المجتمع أنهم أتعبوا أنفسهم بدراسة شيءٍ من أصوله أو فروعه، وإذا بك تنظر وقد تقنعوا بقناع الإسلام، وقد تظاهروا بغيرة ما مثلها غيرة الأنبياء والرسل على دين الله سبحانه وتعالى، ثم راحوا يتسللون إلى حمى هذا الدين يعبثون به كما يشاؤون، ويتحدثون باسم

الإسلام بل باسم الله عز وجل كما يحبون، وأنظر فلا أجد أحداً من أولئك الحراس للطب للهندسة للفنون للعلوم الأخرى، لا أجد هنالك أحداً يعاقبهم أو يحاورهم أو يسائلهم عن المكنة التي على أساسها يدخلون هذا المدخل الذي لا شأن لهم به، لا أحد.

لماذا آل الأمر إلى هذا الشكل؟ لماذا يُتم الإسلام أيها الإخوة على هذه الشاكلة؟ لماذا غدا الإسلام كلأً مباحاً لكل غادٍ ورائح، في حين أننا ننظر إلى سائر العلوم والفنون الأخرى فإذا هي محصنة بأسوارها، وإذا بالحراس واقفون أمناء عليها، ما الحكمة؟ أي هذه العلوم أهم وأخطر؟

نحن خلقنا لأجل هذا الدين، لم نخلق من أجل طب، ولا هندسة، ولا فنون ولا آداب وإن كنا قد كُلفنا أن نجعل من هذه العلوم كلها خدماً لدين الله عز وجل، نعم.

أين هم الذين يحرسون دين الله عز وجل، كلكم يعلم ويسمع ويرى، في كل يوم من يأتي فيتقنع بقناع الإسلام، وقناع الإسلام لا يكلف شيء، لا يكلف أكثر من عمة وأكثر من لحية ومظهرٍ ديني وكلمات إسلامية، ربما كان هذا الإنسان تاجراً، ربما كان هذا الإنسان فناناً ربما كان هذا الإنسان مزارعاً، ربما كان هذا الإنسان طبيباً، ربما كان هذا الإنسان مهندساً لا شأن له بالإسلام قط، خلال أربع وعشرين ساعة يولد ولادة جديدة أمام الناس، له لحية طويلة، وله عمة كبيرة، ويجلس ليتكلم باسم الإسلام. متى أتيح له أن يتعلم فيتكلم؟! لا أحد يعرف. وتنظر فتجد أن الجرائد تدفعه دفعاً إلى أن يهذي بدلاً من أن تقول له: من أين لك هذا العلم؟

يقول أحدهم: ينبغي أن يجدد الفقه الإسلامي، لابد من تجديد الفقه الإسلامي، وتُصغي له أفواه الجرائد بكل تقديس وإجلال، ثم يعود فيقول لماذا يخاف المسلمون من تجديد الفقه الإسلامي، ويصغي له هؤلاء الآخرون وربما صفقوا له أيضاً.

ونحن المسلمين الأمناء على دين الله ماذا نقول؟ إننا لا نخاف من أن يُجدد الإسلام بأيد أئمته، والإسلام دائماً جديد، والفقه الإسلامي دائماً يتجدد، ومنذ أن بُعث رسول الله صلى الله عليه وسلم

والفقه الإسلامي يسير طبق قواعد لا طبق هذيان، يسير طبق قواعد علمية مع حاجة المجتمعات الإنسانية الحقيقية.

لكن هذا التجديد إنما يتم بإشراف من؟ بإشراف أئمة هذا الدين بإشراف علمائه المجتهدين.

عندما يتكلم علماء هذه الأمة المجتهدون عن ضرورة التجديد فبخٍ بخٍ لهذا الكلام، وما منا إلا أن يصدقه لأن هذا الإسلام كان ولا يزال يتجدد، ولكن عندما يقفزُ تاجرٌ من متجره ليلبس الجبة وليضع على رأسه العمامة وليطلق اللحية وهو لا يعرف من دين الله سبحانه وتعالى شيئاً، ثم يتحدث عن ضرورة تجديده، فالخوف عندئذٍ إنما هو أن يعبث بدين الله جاهلٌ كهذا الإنسان، ليس الخوف من أن يتجدد.

عندما يأتي طبيب متخصص ويقول: ينبغي أن نجدد الطب، فالمجتمع كله يرحب بهذا الكلام، لأن طبه وأمانته على طبه خير دليل وشاهد على أنه إنما يريد أن يخدم المجتمع الإنساني من خلال هذا الذي يقول. ولكن عندما يأتي فلاحٌ أو عندما يأتي تاجرٌ أو عندما يأتي مهندسٌ لا خبرة له بالطب، ويدعو المجتمع إلى تطوير الطب، فإن كل عاقل يعلم أن من أننا من هذا الكلام أمام خطر، كل عاقل يعلم أننا من هذا الكلام أمام خطرٍ ماحق.

وليت شعري لماذا لا يُدعى إلى مثل هذا الكلام على منبر الصحافة – أو غيرها – العلماء الذين يشهد لهم المجتمع بالعلم الغزير، وبالأمانة على دين الله سبحانه وتعالى. لماذا لا يُدعى هؤلاء إلى الحديث عن هذا الموضوع؟ ولماذا يُستنطق الجاهل الذي أمضى حياته كلها بالتجارة أو الزراعة أو الهندسة أو نحو ذلك.

لو أن إنساناً مثلي خرج يتكلم على الناس عن الفنون وتطويرها وأدابها لأسكته المجتمع، ذلك لأنني لست متخصصاً بهذا المجال.

ولو أن إنساناً مثلي خرج على المجتمع يتكلم عن الزراعة وطبائع الأرض والتربة الجيرية والتربة الطينية ونحو ذلك لأسكته المجتمع، لأنه ليس متخصصاً بهذا الأمر. ولقال الناس إن هذا الإنسان خطر على مصالح العباد.

فلماذا يستدعى إلى منبر الصحافة أناسٌ لا خبرة لهم بدين الله عز وجل، ولا علم له بدين الله سبحانه وتعالى بشكلٍ من الأشكال ثم يُستنطقون باسم الإسلام وما هم من العلم في الإسلام في شيء بشكل من الأشكال. والعلماء المتخصصون بدين الله يملأون رحب هذا العالم لا يزال ولله الحمد، لماذا يُستقدم الواحد من هؤلاء؟ لكي يتحدث عن تجديد الإسلام.

ترى ما هي المشكلة الجديدة التي طرأت والتي واجهها المجتمع العربي والإسلامي اليوم، ثم نظر فلم يجد غطاءً لهذه المشكلة في شرع الله؟ أنا أتحدى هؤلاء الجهال الذين يدعون إلى تطوير الفقه وإلى تجديده أن يأتوا بمثالٍ لمشكلة جديدة طرأت ثم لم تغطى هذه المشكلة في هذا العصر أو قبل هذا العصر بحكم من أحكام الشريعة الإسلامية، ماذا تصنع المجاميع الفقهية في هذا العالم وهي أكثر من خمس مجامع فقهية كلها موجودة عملها أن تترصد المشكلات الحديثة لتدرسها ولتغطي هذه المشكلات بأحكامٍ فقهية متنزلة من عند الله سبحانه و تعالى. ولكن الجاهل لا يعلم عن الماضي شيئاً ولا عن الحاضر شيئاً.

أيها الإخوة دينكم يُحارب من داخله، وقد مضى ذلك العهد الذي يمتشق فيه السلاح البعيد عن الإسلام، البعيد عن دائرة الإسلام، عندما كان الإسلام يُحارب بأنه دين تخلف أو دين رجعية، تذكرون كلمة رجعية يوماً ما كيف كان الإسلام يوسم، بها مضى ذلك العهد الذي كان الملحد يتباهي بإلحاده، ويعلن أن لا إله والكون مادة، مضى ذلك العهد أولئك الناس أنفسهم قد ارتدوا أقنعة جديدة أقنعة إسلامية تتجاوز مظاهر الإسلام لدى المسلمين فعلاً، وأخذوا يعبثون بالإسلام من داخله:

مرةً باسم القراءة المعاصرة التي يحاولون أن يجعلوا من القرآن بواسطتها ككرة يقذفونها فيما بينهم أرباب هذه القراءة المعاصرة.

ومرةً يأتي من يقول إن السنة لا داعي إليها فكتاب الله يغني عن كل شيء.

ومرة يأتي ثالثٌ يقول: قد غدى الفقه قديماً قديماً جداً وما أحوجنا إلى أن نجدده وكلٌ يحاول أن ينهش من هذا الدين من الجهة التي يتمكن أن ينهش منها، والكل متقنعٌ بقناع الإسلام.

ولكن دين الله لن يُغلب على أمره: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ ولكن شرفٌ شرفنا الله به ينبغي أن لا نتقاعس عنه وينبغي أن نعلم كيف يُأتي هذا الدين، وبأي وسيلة، وكيف هو النهج الجديد لمحاربة دين الله.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.



٢٨٢- تذكير لليائسين (إن لهذا الدين إقبالاً وإدباراً) | ١٩٩٧/١٢/١٢

إن الآفات والمصائب التي قد تتسرب عن طريق الشيطان ووساوسه إلى فكر الإنسان المؤمن وعقله كثيرة ومتنوعة، ولكن من أخطر هذه الوساوس التي تتسرب كثيراً ما إلى عقل الإنسان وفكره عن طريق الشيطان سواء كان شيطان إنس أو جن. من أخطر هذه الوساوس التي قد تتحكم في العقل: اليأس والقنوت من كرم الله سبحانه وتعالى ووعده وعطائه.

وكثيرون هم الذين لا يتنبهون إلى هذه الآفة الكبرى التي من شأنها أن تزعزع العقيدة الإيمانية بالله عز وجل من حيث لا يشعر صاحبها. والله سبحانه وتعالى يقول في محكم كتابه: ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ وهذه الآية تعني معاني شتى، ولكن في مقدمة ما تعنيه هذه الآفة التي نتحدث عنها.

كثيرون هم الناس لا سيما الشباب الذين يطمحون إلى أن يروا المجتمع من حولهم مجتمعاً خاضعاً لدين الله مصطبغاً بأحكام الله سبحانه وتعالى، ولكنهم بدلاً من أن يروا ما يروق لهم من ذلك يروا نقيض هذا، ويروا ألواناً كثيرة من العبث تمتد إلى دين الله سبحانه وتعالى، ورأوا خططاً لا حصر لها من المكر والبغي تتجه للوقيعة في حياة المسلمين وتمزيق دينهم، وينظر إلى العالم المحيط بالعالم الإسلامي فيجده كله متألباً على الإسلام والمسلمين، يلتفت يميناً وشمالاً وينظر إلى الواقع الذي يعيش فيه فلا يرى إلا ما يكيد للإسلام، ولايرى إلا خططاً تتربص بالإسلام فتتسرب إلى قلبه أو إلى عقله من جراء ذلك اليأس والقنوت، ويهيمن عليه هذا التصور، وربما حدّث نفسه أنّ الإسلام قد أدبر ولن يُقبل بعد اليوم، وأنه لا فائدة قط في أن يسعى الإنسان بأي وسيلة من الوسائل لاستعادة سلطان الإسلام وحكمه وهيمنته.

هذه المصيبة التي تتسرب إلى عقل هؤلاء الناس من المسلمين دون شعورٍ منهم، أخطر من هذه المصائب كلها التي تطوف بالعالم الإسلامي. ليس هنالك أخطر من أن ييأس الإنسان من مولاه وخالقه

سبحانه وتعالى، هذا اليأس يتسرب إلى مكمن العقيدة ومن شأنه بعد حين أن يزلزل إيمان المؤمن بالله سبحانه وتعالى، وأن ينسف ثقة هذا الإنسان بمولاه وخالقه سبحانه وتعالى.

ولعل فينا من يقول فما العلاج؟ أليس معذوراً هذا الذي ينظر إلى واقعه الذي يعيش فيه، ويلتفت إلى العالم المحيط بالعالم الإسلامي وينظر إلى كثيرٍ من المسلمين أنفسهم فلا يجد إلا المعاول التي تنحط تهديماً في دين الله عز وجل، ولا يجد إلا وسائل العبث بدين الله عز وجل إن في عقائده وقيمه، وإن في أخلاقياته، وإن في أحكامه وسلوكه.

أليس معذوراً هذا الذي يرى هذا الواقع الذي يُحيط به؟ وما العلاج الذي يمكن أن يُخرجه من جو هذا اليأس؟

العلاج موجود وماثلٌ في كتاب الله سبحانه وتعالى، ومن قرأ كتاب الله سبحانه وتعالى بتدبر أدرك أن المؤمن لا يمكن أن يتسرب إلى فؤاده يأس بوعد الله سبحانه وتعالى وكرمه، ولا يمكن أن يتصور أن هذا الدين قد تقلص وجوده وفاعليته وأنه لن يعود مرة ثانيةً لألقه ولحكمه وهيمنته، لا بل سيجد في كتاب الله عز وجل وفي كلام رسوله ما يؤيد أن هذا الدين سيبقى، له سلطانه وله أثره إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ولكن للدين إقبالاً وإدباراً كما قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومهما رأيت نفسك في حالة من إدبار الدين فلتعلم أن مع هذا الإدبار إقبالاً، وأن من وراءه إقبالاً. واذكر قول الله سبحانه وتعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً، إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾.

آياتان ما أعلم أن في كتاب الله آيتين تكررتا دون فاصل إلا هاتين الآيتين: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً، إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾ وما أتصور أن هذا التأكيد جاء إلا ليعالج اليأس الذي قد يتسرب إلى فؤاد الناس لسبب من الأسباب.

أما أن هنالك كيداً كبيراً يتربص بالإسلام والمسلمين فإن هذا مالا نرتاب فيه، بل هذا ما نذكره دائماً ونحذر منه دائما.

وأما أن في المسلمين أنفسهم من تبرموا بإسلامهم ومن أقاموا أنفسهم خدماً وعملاء صغاراً أذلاء لأعداء هذا الدين، فهذا أيضاً شيئاً معروف وشيء نراه جميعاً.

وأما أن هنالك أعداءً قد تسللوا إلينا وتربعوا على أرائك من حقوقنا وأراضينا وأوطاننا ثم تفرغوا للكيد لدين الله سبحانه وتعالى من الداخل إلى جانب أولئك الذين يكيدون له من الخارج، فهذا أيضاً مما لا نرتاب فيه ومما نراه أمام أبصارنا وبصائرنا.

ولكن مهما كثر هذا الكيد، ومهما كثرت الخطط، ومهما كثرت عداوة المعتدين وعبث العابثين فإن دين الله سبحانه وتعالى لن يُقضى عليه، ولسوف يبقى مهيمنا، وما ظاهرة التقلص التي نراها أمامنا أو من حولنا إلا ما يشبه التكتيك الذي يذكرنا بمعنى المد والجزر. والمد والجزر أمران مرتبطان دائماً، مدٌ مع الجزر، وجزرٌ مع المد، وما ينبغي أن تنظر إلى واحد منهما بمعزلٍ عن الآخر.

فلإن رأيت للإسلام جزراً في منطقةٍ أو بلدةٍ أو في مكانٍ ما، فاعلم أن له مداً في مكان آخر. وإذا رأيت أن فاعلية الإسلام قد تقلصت في مكان ما فاعلم أن فاعليته قد ازدادت وهيمنت في مكان آخر. عرف هذا من عرف وجهله من جهل.

فإن لم يستطع هذا الذي أقول أن يزيل الوساوس الشيطانية من فكرك، وأن يُطهر عقلك من اليأس الذي قد يتسرب إليه، فانظر إلى الماضي انظر إلى تاريخ الإسلام والمسلمين من قبل، كانت المكائد موجودة، وكانت الخطط العدوانية موجودة وفي فترات من الزمن كانت أكثر منها اليوم، ومرت فترات وعهود ظن بها بعض الجاهلين أن الإسلام قد قُضي عليه، وأنه قد اختنق، وأن الصليبية قد هيمنت على العالم الإسلامي والعالم العربي، وأن على المسلمين بل على العرب أن يودعوا لغتهم التي كانت لغة القرآن، وعليهم أن يودعوا المبدأ الذي أعزهم حقبة من الزمن، وجد جُهّال تصوروا هذا فماذا كانت النتيجة بعد ذلك؟

عاد الإسلام يُهيمن على هذه الربوع كلها، وعادت لغة الإسلام تعلن عن نفسها فوق أرفع وأعلى ذروة من ذرى هذا العالم العربي والإسلامي، وعاد سلطان الإسلام مهيمناً، وتقلصت ظلال البغي،

وتقلصت ظلال العدوان، وطهر العالم الإسلامي والعالم العربي من كل بغي وحقد، وما أتصور أن تلك السلسلة من العدوات والمكائد كانت أقل منها اليوم، بل كانت أكثر بل كانت أكثر بكثير... ومع ذلك فإن دين الله سبحانه وتعالى عاد ليكون هو المهيمن، وخاب كل باغٍ وكل معتد وكل مخطط للكيد ضد دين الله سبحانه وتعالى.

وهذا المثل الذي أذكر به تكرر تكرر كثيراً وشهد المسلمون حالات من المد والجزر ولكن الله سبحانه وتعالى في كل وقتٍ كان يُذكر عباده بقوله عز وجل: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾.

أيها الإخوة مهما كثر البغي ومهما كثرت الخطط العدوانية التي تستهدف دين الله ما ينبغي أن يتسرب وسواسٌ تجعلنا نرتاب في وعد الله سبحانه وتعالى هذا أبداً، أين نحن من قول المصطفى صلى الله عليه وسلم: ﴿ليَبْلُغن هذا الأمر ما بلغ اللَّيل والنَّهار﴾ أليس هذا كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم؟

أين نحن من قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح: ﴿إِنَّ اللهَ زَوَى لِي الأَرْضَ -أي جمعها لي ولخصها وصغر العالم أمامي- فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا﴾. وليس لرسول الله ملك إلا هذا الدين، وليس له ميراثٌ إلا هذا الإسلام، ولسوف ملك أمتي زوي لي منها.

ما ينبغي أن يتغلب وسواس الشيطان على هذا الذي يقوله رسول الله صلى الله عليه وسلم وحياً من لدن ربه.

يقول القائلون: ها هي ذي الدول التي تتحكم بالعالم كما تشاء والتي تنفذ خططها في العالم كما تريد، وها هي ذي الدول بل الدولة التي تسمي نفسها عظمى اليوم تحرك العالم وتخبطهم بعضاً ببعض فلا يتم إلا ما يريد هؤلاء الناس. وهل هنالك بعد هذا مجال لأن نقول: لا بل إن خيراً سيأتي من بعد هذا الشر.

هؤلاء يتحركون وهم جند من جنود الله، ولولا أن المسلمين كانوا يغطون في رقادٍ عميق، ولولا أن المسلمين ابتعدوا عن سلطان الله سبحانه وتعالى وأمره وشردوا عن نهجه وصراطه، لجعل أولئك الجنود خدماً للمسلمين، ولكن لما شرد المسلمون عن واجبهم وتحولوا عن معنى العبودية لله عز وجل إلى البحث عن نظامٍ فوقي رأوه في الإسلام وهذا في أحسن الأحوال، سلط الله سبحانه وتعالى عليهم هؤلاء الذين نقول، وليس بيننا وبين أن يجعل الله منهم جنوداً للإسلام وخدماً إلا أن نعود نحن إلى إسلامنا الحقيقي، وأنا أعني بالعودة إلى الإسلام الحقيقي، أن نعود إلى جزع هذه الشجرة الإسلامية وجزعها إنما هو العبودية لله، وأن لا نحبس أنفسنا من الإسلام في نظام، وأن نتصور أن معنى المجتمع الإسلامي أن تُطبق القوانين الإسلامية، وأن تُطبق فيه الحدود، وإذا بالإسلام يُهيمن، لن يكون هذا ولن يتحقق إن لم نعد إلى جزع الإسلام، وجزع الإسلام إنما هو الاصطباغ بمعنى عبودية الإنسان لله عز وجل.

ولكن لا شك أن هذه العبودية تثمر تبتلاً في حياة المسلمين، تُثمر تذللاً، تُثمر مهابةً، تثمر خوفاً، تُثمر تعظيماً ذكراً، كل هذا من نتيجة إصطباغ الإنسان بمعنى العبودية لله. المسلمون أو كثيرٌ من المسلمين في أحسن أحوالهم نسوا هذا الجزع ولم يعودوا يتذكرون من الإسلام إلا الأنظمة التي تُقارع الأنظمة الأخرى. هذا هو العلاج لتحصين العقل ضد الوساوس الشيطانية التي قد تدخل اليأس بين جوانح الإنسان المسلم أو في عقله.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يهدينا سواء صراطه المستقيم وأن يغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا. فاستغفروه يغفر لكم.

٢٨٣- عندما يفتي الدجالون بالبقاء في دار الكفر | ٢٠٠١/٠٣/٢٣

ستمر بنا عمّا قريب ثانيةً ذكرى هجرة المصطفى صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة، وستمر هذه الذكرى كما هي العادة بتواضعٍ وصمت في حين أن ذكرى عيد الميلاد ورأس السنة الميلادية لا تمر إلا بطنين وضجيج كما تعرفون، ولو كان هذا التواضع أو الصمت الذي تمر من خلاله ذكرى هجرة المصطفى صلى الله عليه وسلم، لو كان هذا التواضع مفسراً بخشية وبخشوع وتدبرٍ وذكرى إذاً لكان هذا موقفاً إيجابياً يُرضي الله سبحانه وتعالى لكنه صمتٌ أو تواضعٌ تفسره اللامبالاة تفسره عدم الاهتمام في حين أن عالمنا العربي والإسلامي ولا أتحدث عن العالم الغربي عندما يحتفي ويحتفل بذكرى رأس السنة الميلادية وعندما يستقبله بما يستقبله من ضجيج وطنين فإن هذا الضجيج إنما يُفسر بشدة الاهتمام.

وإنها لمصيبة من أجل وأخطر مصائب عالمنا العربي والإسلامي، ضَمُرت ذكرى الهجرية النبوية ثم ضَمُرت وضَمُرت حتى تحولت إلى حالٍ مؤلمة من الهزال اقتضى معها أن يستقبلها العالم الإسلامي بلا مبالاةٍ وقدرٍ كبيرٍ من التواضع والصمت وإنما يُعبَّر عنه شعار واحد هو الشعار الرسمي الذي تترجمه العطلة. في حين أنَّ الأمر بالنسبة للجهة الأخرى على النقيض من ذلك، وإن دل هذا على شيءٍ فإنما يدل على سوء ارتباط هذه الأمة بمصدر عزها ومعين شرفها، وأنَّ المسلمين تحولت علاقتهم بالإسلام إلى علاقة انتماءٍ انتماءٍ مجرد، هذه الظاهرة تعبيرٌ عن هذا الواقع المؤلم والمؤسف، ومع ذلك فلا مناص من أن نقف وقفة اعتبار ووقفة اهتمامٍ وذكرى أمام هذه العبرة التي تمر بالعالم الإسلامي في هذه المناسبة، لعل في المسلمين من يعتبر ولعل فيهم من يستيقظ من سباته من قادةٍ أو شعوب، والله سبحانه وتعالى هو ولي كل إصلاح.

أيها الإخوة هل كانت هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه أصحابه الذين سبقوه أو الذين تبعوه هل كانت هجرةً من مكانٍ إلى مكان؟ نُخطئ خطأً كبيراً إن تصورنا الأمر على هذا النحو فمكة المكرمة ليست أقل قداسةً وشرفاً من المدينة المنورة، وإنكم لتعلمون أن لكلٍ منهما مكانتَه عند الله سبحانه

وتعالى، إذاً لم تكن هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم احتواءً من مكان أو إعراضاً عن مكان ليستبدل به مكاناً آخر، وإنما كانت هجرته احتواءً لمحرمات وابتعاداً عن تقاليدَ وعاداتٍ جاهلية بُعِث رسول الله صلى الله عليه وسلم ليحرر الجزيرة العربية والبشرية جمعاء منها، هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم الفواحش، هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم التقاليد الآسنة، هاجر الأعراف والعادات الباطلة، هاجر الشرك وألوان الكفر بالله سبحانه وتعالى، هذا معنى هجرة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

وذلك هو المعنى الذي من أجله خُلِّدت هذه الذكرى وبهذا المعنى بقيت الهجرة مستمرةً إلى يوم القيامة ولن تنقطع أبداً. لو لاحظنا الهجرة من مكانٍ إلى مكان ينبغي أن نعلم أنه لا هجرة بعد الفتح كما قال عليه الصلاة والسلام، لكنها هجرةٌ باقية مستمرة يجب على المسلم كلما وجد نفسه محفوفاً بمنكراتٍ ومحرماتٍ لا يستطيع أن يقتحمها ويتغلب عليها يجب عليه أن يهاجرها إلى مناخٍ أفضل يُرضي الله ويُرضي رسوله ومن هنا فالهجرة باقية وماضية إلى يوم القيامة.

واليوم أيها المسلمون يتيه العالم العربي والإسلامي بقضه وقضيضه إلا النذرَ القليل مما رحمه الله سبحانه وتعالى عن هذا المعنى الذي ينبغي أن يكون العالم العربي والإسلامي أميناً عليه إلى يوم القيامة. أين هي هجرة المسلمين مما حرمه الله عز و جل؟ بل أين هي مغالبة المسلمين للمنكرات التي تحيق بهم وأين هو سعيهم لتطهير بلدانهم وقراهم وأماكنهم مما حرم الله سبحانه وتعالى بالنهج الذي شرعه الله وبالطريقة التي أمر الله سبحانه وتعالى بها؟ عندما أعود بالذاكرة إلى هذا المعنى لهجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أنظر إلى واقع المسلمين اليوم أجد شيئاً مؤلماً، أجد شيئاً يبعث الأسى والحزن والكرب في النفس، بدلاً من أن يكون المسلمون أُمناء على هذه الهجرة التي علمنا إياها رسول الله صلى الله عليه وسلم بفعله و وصاياه نسلك في طريقٍ مناقض لذلك، عندما نجد أنفسنا في مجتمعات لا تتفق مع شرائع الله وأحكامه مجتمعاتٍ الإسلام فيها غريب نعمد إلى تذويب الإسلام لكي يخضع لسلطان تلك المجتمعات بدلاً من أن نهجر تلك المجتمعات.

ها أنتم ترون والعالَمُ كله يرى كيف أن هنالك من يتخذ من نفسه صانعاً للفتاوى مختلقاً لأحكام جديدة يدسها في شرع الله سبحانه وتعالى ودينه؛ لأن المسلمين اليوم في الغرب لم يعودوا يستطيعون أن يتخذوا من دين الله عز وجل منهجاً لهم هناك إذاً ينبغي أن تصدر الفتاوى المتتابعة بحل الربى وحل المعاملات التي حرمها الله عز وجل، ونظراً إلى أنَّ الإسلام غريب في تلك المجتمعات وأن المسلمين هناك لا يستطيعون أن يبنوا أسراً إسلامية على الطريقة الإسلامية التي شرعها الله إذاً فينبغي أن تصدر فتاوى جديدة تُبيح اقتران الكافر بالمسلمة ولا حرج، ونظراً إلى أنَّ الإسلام في تلك المجتمعات أضحى غريباً وأن المناخ مناخٌ غير إسلامي إذاً فينبغي أن تصدر فتاوى جديدة تغير من أحكام الله عز وجل وتجعل الاحتكاك بالمنكرات والعيش معها والجلوس إليها أمراً مباحاً لأنه لا يتأتى البقاء في تلك المجتمعات إلا على هذه الشاكلة، ونظراً إلى أن الإسلام قد أضحى هناك غريباً بل هو غريبٌ في أصله وأنَّ المسلمين لا يستطيعون أن يطبقوا شرعة الله في مأكلهم ومشربهم إذاً فينبغي أن نغض الطرف عن القيود والشروط التي شرعها الله عز وجل للذبائح والمأكولات وهكذا.

ننظر فنجد أنَّ أحكام الله عز وجل في تلك المجتمعات تذوب ثم تذوب كما يذوب الثلج تحت أشعة الشمس أو تحت ضرام النيران، وننظر فنتساءل ما الذي بقي من الإسلام لم تبقَ منه إلا الرسوم وإلا الأشكال لاحظوا النقيض القائم اليوم لما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما هاجر وعندما علمنا الهجرة، رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعونا إلى أن نهاجر المناخ الذي لا يصلح فيه الإسلام للتطبيق إلى مناخٍ آخر وإن كلفنا ذلك شططاً، يُعلمنا ذلك بسلوكه وبقوله، يعلمنا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك أيضاً بتطبيقاتهم وسيرهم وراء تعاليم رسولهم صلى الله عليه وعلى آله وسلم. أما نحن فنسلك طريقاً آخر، لا ما ينبغي أن نغادر المناخ السيء، وما ينبغي أن نسعى لمقاومته أيضاً بل الحل أن نغيِّر من دين الله وأن نُذيب أحكام الله سبحانه وتعالى كما قلت لكم وكما ضربت الأمثلة وإنها لأمثلة قليلة من وقائعَ كثيرة.

ما المعذرة ما المعذرة التي يعتذر بها أصحاب هذه الفتاوى المصطنعة المختلقة؟

المعذرة الضرورة لا مجال لعيشٍ كريمٍ باذخٍ في تلك المجتمعات إلا بتغيير أحكام الله عز وجل، ونظراً إلى أن العيش الباذخ ينبغي أن يبقى على حاله، ونظراً إلى أنَّ الهجرة في سبيل الله قد أُوصدت أبوابها قد أُوصدت أبوابها باختلاقٍ مبتدع قذر، نظراً إلى ذلك فإن الضرورات تُبيح المحظورات والضرورة ما هي؟ هي أن تبقى تلك الأسرة التي تعيش في رحاب الغرب تتمتع بحياة متألقة، تتمتع بحياةٍ آمنةٍ فارهة، تلك هي الضرورة. فانظروا إلى هذا النهج الذي يسلكه هؤلاء الناس، لا بل انظروا إلى الفتاوى التي تصدر بهذا المعنى، وانظروا إلى عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم. كان رسول الله وأصحابه أولى بالبقاء في مكة وأن لا يهاجروا لأن ضرورتهم كانت أعتى من ضرورة هؤلاء الذين يتقلبون في حياةٍ فارهةٍ في مجتمعات أوروبا وأمريكا. هجرة المسلمين آنذاك كلفتهم ضرورات معيشتهم، كلفتهم أن يشردوا عن بيوتهم وأوطانهم، كلفتهم أن يغامروا بحياتهم، كلفتهم تمزق الأسر، زوجة تبقى في مكان وزوج يرحل إلى الله سبحانه وتعالى تلك هي ضرورة لو أننا تحدثنا عن الضرورة.

ومع ذلك هل قال قائلُهم بمثل ما يُفتي به الدجالون اليوم أنه لا مناص من البقاء في دار الكفر ولا حرج في التقلب في المجتمعات المظلمة البعيدة عن أوامر الله وشرعته بسبب هذه الحاجات أو الضرورات. هل فعل رسول الله هذا؟ هل قال لهم بل ابقوا في مكانكم ذلك لأنكم مضطرون ولا عليكم أن تعيشوا غرباء عن دين الله سبحانه وتعالى لأنكم بحاجة إلى بيوتكم بحاجة إلى أوطانكم بحاجة إلى أسركم إلى وحدة الحياة الاجتماعية الاقتصادية في مناخكم هل قال هذا؟

بل أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخلعوا رقة الدنيا كلها من أنفسهم وأن يرحلوا إلى الله سبحانه وتعالى عرايا عن المال عن الدار عن العقار وفي بعض الأحيان عن الزوجة والأولاد أيضاً، أجل هذه هي الضرورة ومع ذلك فقد علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نركل هذه الضرورة بأقدامنا لنرحل إلى الله كما قد أمر الله سبحانه وتعالى يرحل أحدنا إلى الله وهو يقول وعجلت إليك ربي لترضى. واليوم لا ضرورة تُلزم بل لا حاجة تقود وتسوق وإنما هي الرغبة في التوسع وإنما هي الرغبة في الحياة الرغيدة ذات الرفاهية.

من أجل هذا تُصنع الفتاوى المختلفة التي تُستبدل فيها أحكام الله سبحانه وتعالى ويتم فيها التلاعب بشرعة الله عز وجل قارنوا أيها الإخوة بين النقيض والنقيض إذا قارنتم أدركتم سبب ذل العا لم الإسلامي اليوم، أدركتم سبب المهانة التي ضربت بجيرانها الأمم الإسلامية والمسلمين في مشارقهم ومغاربهم التي يعيشون فيها.

كثيرون هم الذين يقرأون آيات في كتاب الله فيرون أنها ينبغي أن تنطبق عليهم ولكنهم يجدون أنها لا تنطبق فيتسائلون وربما دخلوا في أفئدتهم الريب يقف أحدهم أمام قول الله عز وجل ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ يقول قائلهم: ها هم الكفرة ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله لكنهم لم يُغلبوا ولم يُقهروا هاهم ينتصرون أين هو وعد الله سبحانه وتعالى؟ قولوا أيها الإخوة لهؤلاء المستشكلين الجواب في الآية التي تليها مباشرة ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ أرني الطيب لأريك كيف ينتصر الطيب على الخبيث، أين هو الطيب أين هو الطيب في المجتمع الإسلامي الذي تحولت صلته بالإسلام إلى انتماءٍ مجرد؟ أين هو الطيب في عالمنا العربي والإسلامي الذي يتبرم جله من الإسلام، قواعده أحكامه شرعته بل في كثيرٍ من الأحيان وعقائده أيضاً؟ لا تحدثني عن القلة، لا تحدثني عن النَزر اليسير بل حدثني عن الجمهرة الكبرى والكثرة الكاثرة.

أجل. ربنا عز وجل وَعَدَ أن يُغلب الذين ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله لأنَّ أمامهم طيباً يقابل خبيثاً ولا بد أن ينتصر الله عز وجل للطيب ضد الخبيث ولكن لقد تداخلت الأمور في عصرنا اليوم تداخل الخبيث مع الطيب ولم تعد تستطيع أن تتبين أين يكمن الخبيث وأين يكمن الطيب وما هو الفرق الباقي بين الخبيث والطيب اليوم. إذا كان هنالك الذين يقودون عالمنا العربي والإسلامي من خلال العلم ومن خلال الدعوة ومن خلال الارشاد والتوجيه هؤلاء الذين كنا بالأمس القريب نظن أنهم هم الذين ينتشلون هذه الأمة من الضياع هم الذين يعيدونها بالإرشاد والتوجيه إلى النهج القويم وإلى صراط

الله المستقيم وإذا بهم يعكفون على اصطناع فتاوى ما أنزل الله بها من سلطان وإذا بهم يعكفون على اصطناع اللغو وعلى التشويه وعلى الاستبدال بدين الله سبحانه وتعالى إذا كان رب البيت بالطبل ضارباً فلا تلومنَّ الصبيان يوماً على الرقص.

هذا هو الواقع أيها الإخوة وإنني لأنظر يميناً وشمالاً فأحار أين هو مكمن الأمل في هذه الأمة؟ علماؤها وهذه هي قصة نموذج من هؤلاء العلماء الذين لا تسقط أقلام الفتية من أيديهم والفتية على قدر الطلب وعلى قدر الحاجة وعلى قدر في بعض الأحيان على قدر الفائدة التي تكمن وراءها. أم أنتجع الأمل من الشباب المتحرق على دين الله والتائه بين الفئات والجماعات المتناقضة المتصارعة؟ أم أعقد الأمل على القادة الذين يغرقون اليوم في المشكلات السياسية وفي المد والجزر التائه ما بين الشرق والغرب؟ المستعان هو الله والملجئ هو الله سبحانه وتعالى.



أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.



٢٨٤- التمسك بالثوابت | ٢٠٠٨/٠٤/٠٤

دروى الإمام مالك في موطئه والإمام أحمد في مسنده من حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم زار البقيع يوماً فسلم على أهل البقيع ثم قال: وددت لو أني رأيت إخواننا فقال له أحد الصحابة ألسنا إخوانك يا رسول الله قال: بل أنتم أصحابي وإخواني أولئك الذين لم يلحقوا بعد وسأكون فرَطَاً لهم على الحوض قال قائل منهم أوتعرفهم يا رسول الله أي أتعرفهم وأنت لم ترهم قال: أرأيتم لو أن رجلاً له خيول غرٌّ محجلة وسط خيول دهم بهم أفكان يعرفها قالوا نعم قال: فأنا أعرفهم غُرَّاً محجلين من آثار الوضوء ألا ليذادن رجال عن حوضي، أي ليطردن رجال عن حوضي، كما يذاد البعير الضال فأقول: ألا هلم ألا هلم فيقال إنك لا تدري كم بدلوا من بعدك وأقول فسحقاً فسحقاً فسحقا.

يا عباد الله ها أنتم ترون كيف أن القسم الأول من هذا الحديث مُفَرِّحٌ ومبشر وأن القسم الثاني منه مخيف ومنذر، القسم الأول منه هو العزاء لأمثالنا ممن آمن برسول الله وتشوق إليه وأحبه ولكن عينيه لم تكتحلا برؤيته، عزاؤنا هذا الذي يقوله رسول الله، عزاؤنا أن نسمع تشوق رسول الله صلى الله عليه وسلم إلينا، وإني لأرجو وآمل أن أكون وأن تكونوا جميعاً من إخوانه الذين أحبهم وحنَّ إليهم وتمنى لو رآهم، ذلك هو عزاؤنا، وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يثبتنا بقوله الثابت إلى اليوم الذي نقف فيه بين يدي الله حيث يستقبلنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن من أولئك الغر المحجلين كما وصف.

أما القسم الثاني المخيف والمنذر فهو قوله: ألا ليزادن رجال عن حوضي، ليطردن رجال عن حوضي، كما يزاد البعثر الضال فأقول ألا هلم ألا هلم فيقال إنك لا تدري كم بدلوا من بعدك، لم يكونوا أمناء على شرعك، لم يكونوا صادقين في التمسك بهديك، بدلوا وغيروا، ضاقوا ذرعاً بالكثير مما شرع الله عز وجل وبلَّغْت، ملوا من بقائه واستمراره، رغبوا في التطور، رغبوا في أن يطوروا الكثير من الأحكام التي شرعها الله عز وجل حماية للأسرة، رغبوا أن يطوروا ويبدلوا الكثير والكثير من الأحكام التي شرعها الله سبحانه وتعالى حماية للاقتصاد السليم الصحيح المسعد لا المشقي، بدلوا، نظروا إلى العبادات فتبرموا بها، كانوا كما قال الله عز وجل فيهم: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ

يَلْقَوْنَ غَيّاً﴾ [مريم: ٥٩]، هؤلاء الذين بدلوا وغيروا لأنهم تبرموا بالقديم ورغبوا بالتطوير والتبديل، هؤلاء يطردون غداً عن حوض رسول الله، وإن الظمأ ليأخذ بالحناجر والحلوق، وإن الشدة لتكاد تخنقهم، يرون بريق الماء العذب ولكنهم يُطردون عنه لأنهم طردوا أنفسهم إذ كانوا في دار الدنيا من صراط الله سبحانه وتعالى ومن معين شرعه، هؤلاء الذين يتحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم ويصف كيف أنهم يطردون من رحمة الله سبحانه وتعالى هم نقيض ذلك الرعيل الأول الذين كانوا أمناء على شرع الله بعد أن آمنوا بالله وآمنوا برسول الله وعلموا أن هذا الشرع لم يفتئته إنسان من عنده ولم يخترعه قانونيون من عند أنفسهم وإنما هو وحي تنزل عليهم من علياء الربوبية، كانوا أمناء عليه، كانوا محافظين له، لم يبدلوا، أولئك الذين قال الله عنهم: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ [الأحزاب: ٢٣]. ما بدلوا أي تبديل في الشرع الذي جعلهم الله عز وجل أمناء عليه.

عباد الله: إن الحجة التي يرددها اليوم كثير من الناس تبريراً لإعمال اليد في تغيير وتبديل شرائع الله سبحانه وتعالى وأحكامه والعمل على شطب ما لا يُراد منه وتغيير ما قد اجتووه وتبرموا به، الحجة التي يرددونها هي أن العالم يتطور وأن المجتمعات الإنسانية لابد أن تتطور وسبيل التطور رهن بتغيير الشرائع، سبيل التطور رهن بتبديل الشرائع والأحكام، حتى لو كانت شرائع الله! نعم قالوا حتى ولو كانت شرائع الله، لكي نتطور إلى الأفضل ينبغي أن نطور هذه الشرائع التي تقادم عليها العهد، تلك هي حجتهم، ولكن تعالوا فانظروا إلى ذلك الرعيل الأول الذين كانوا أمناء على شرع الله لم يطوروا من ثوابته شيئاً ولم يغيروا من أحكامه الراسخة أي حكم من الأحكام، تأملوا كيف أكرمهم الله بالتطور العجيب العجيب نتيجةً لبقائهم ولعدم تبديلهم وتطويرهم شرع الله سبحانه وتعالى، كان العرب في صدر الإسلام يعيشون حياة بدائية، ثيابهم مُحيطة ولا يعلمون شيئاً منها مَخيطة، بيوتهم متداعية من اللَّبِنِ ونحوه، لا يعلمون شيئاً عن التجارة وفنونها، لا يعلمون شيئاً عن الصنائع نهائياً، ليست لديهم ثقافة ولا التفات إلى شيء من العلوم والحضارات، ولكن إلامَ آل حالهم خلال ربع قرن لا أكثر، خلال خمسة وعشرين عاماً، وما الذي جعلنا نرى هذه المعجزة في حياتهم، تطوروا تطوراً لم يتطوره المسلمون قبل أربعة قرون إلى يومنا هذا، أصبحوا يتقنون فن العمران والنقش والفنون التشكيلية بأنواعها، أصبحوا يمارسون التجارة وينافسون فيها

الأعاجم وأباطرة الروم، أصبحوا يتقنون الصناعات بكل أنواعها، تحولت الصياغة إليهم وأصبحوا هم المهرة فيها، أصبحوا ماهرين في حوك الثياب ونسجها، تطوروا في صناعة الأطعمة والبر والقمح والحلويات المختلفة وما يمكن أن تتصوروه من أفانين الطعام وأطايبه، كل ذلك تم خلال ربع قرن، المدونات التي لم يكونوا يعلمونها ولم يكن قد رأوا شيئاً منها انتشرت في حياتهم، انتشرت في مجتمعاتهم علوم الطب، علوم الهندسة، الفلسفة، كل ذلك خلال ربع قرن، ولكن ليسن ها هنا محل الشاهد، محل الشاهد هل اقتضاهم ذلك أن يطوروا شيئاً من أحكام دينهم، هل اقتضاهم ذلك أن يطوروا شيئاً من شرائع الله التي كانوا أمناء عليها؟

لم يطوروا ولا حكماً من هذه الأحكام، كانوا حراساً لها، وكانوا أمناء عليها، فكانت نتيجة ثباتهم عند هذه الأحكام وحراستهم لها وعدم تبديلهم لها أن أكرمهم الله بهذا التطور العجيب العجيب، ونطقت الحكمة الربانية في أمثولة هذا النموذج من العرب تقول بمقدار ما يقول المسلمون أمناء على شرع الله محافظين على ثوابته ألا تتغير يطورهم الله سبحانه وتعالى من حالٍ إلى حالٍ إلى حالٍ فضلى، تعالوا ننظر إذاً إلى الصورة الأخرى، إلى الخلف الذي نعيش بين ظهرانيهم أو يعيشوا بين ظهرانينا، نلتفت يميناً وشمالاً فنجد المتبرمين بشرع الله الذين ملّوه واجتووه لأنه قد تقادم عليه العهد، تتسلل أصابع التغيير إلى أحكام الأسرة، تتسلل أصابع التغيير إلى أحكام الاقتصاد، تتسلل أصابع التغيير إلى الأحكام الدولية وعلاقة ما بين المسلمين وغيرهم بحجة الموقف من الآخر وارتضاء الآخر، تسربت الألسن والأصابع إلى العبادات لتغييرها وتبديلها، والوقت لا يتسع لتفصيل القول في ذلك.

حسناً، هل تحققت النتائج المرجوة من هذا التغيير؟ هل كان من آثار هذا التطوير والتغيير لشرع الله عز وجل وأحكامه الثابتة أننا تطورنا إلى الأفضل، أننا تقدمنا صعداً كما تقدم أسلافنا الرعيل الأول خلال خمسة وعشرين عاماً تقدماً معجزاً غريباً لم نستطع أن نتطوره خلال خمسة قرون، كانت نتيجة هذا الذي آثرناه من التلاعب والعبث بشرع الله عز وجل أن تطورنا ولكن إلى الخلف، أن تراجعنا، كنا أعزة، غابت العزة وظهر في مكان ذلك الذل، وها أنتم ترون مظاهر ذلك عن يمين وشمال خلال واقع جيران لنا قريبين أو بعيدين، كنا أغنياء، آل غنانا إلى فقر، كنا أقوياء، آلت قوتنا إلى ضعف، كنا نحن أساتذة العالم في العلوم وإذا بنا نتقمم فتات العلوم من أولئك الآخرين، لماذا؟ لأننا لم نكن أمناء على شرع الله سبحانه

وتعالى، وتتأكد الحكمة التي قلتها لكم وليت أننا نغرسها حقيقة في عقولنا ثم نندفع إلى تطبيق مقتضاها، تقول هذه الحكمة: بمقدار ما تكون أميناً على شرع الله، لا تبدل، لا تغير، تكون حارساً عليه، يكرمك الله بحوافز التطور إلى الأمام، وبمقدار ما تحاول أن تعبث بدخائل هذا الدين وتغير وتبدل بدافع تبرمك بالقديم فإن الله سبحانه وتعالى يبعد عنك أسباب التطور ويصفد كيانك بالأغلال التي تجعلك تتراجع ثم تتراجع إلى الخلف وإلى الوراء.

عباد الله، مَثَلٌ تستطيعون أن تتبينوه مجسداً أمام أبصاركم وبصائركم فلتعلموه، رجل يملك عربة يتخذها أداة لرحلته وأسفاره إلى حيث يبتغي، بمقدار ما يكون أميناً على دخائل عربته هذه، محافظاً لمحركاتها، لا يمد يده إلى أكثر من الصيانة لها تبلغه هذه المركبة غاياته، والعكس صحيح، إذا مرت سنوات وسنوات ونظر الرجل إلى مظهر هذه العربة فتبرم منها، ملَّ قدمها وأخذ يعبث بدخائلها، أخذ يغير ويبدل منها لا على وجه الصيانة ولكن على وجه التبرم بهذه السيارة القديمة في مظهرها إلام يؤول حاله؟ ستعطب هذه السيارة وتجمد في مكانها وتبقي صاحبها متخلفاً في مكانه أيضاً، هذه حقيقة تتجسد في حياتنا المادية فلتكونوا على يقين أنها تتجسد فيما بيننا وبين الله سبحانه وتعالى، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم فاستغفروه يغفر لكم فيا فوز المستغفرين.

عباد الله أنا أعلم أن تشوق رسول الله صلى الله عليه وسلم إلينا الذي عبر عنه في الحديث الذي ذكرت آنفاً حرك مشاعر الاشتياق إليه، حرك مشاعر الحب له، حرك مشاعر الحنين إليه، وشيء طبيعي أن نبادله حباً بحب وتحناناً بتحنان ولكن أرجوا من نفسي ومن كل واحد منكم أن يتلمس مكان هذا الشعور المهتاج بين الجوانح فليوظفه في سبيل المحافظة على شرع الله، فليوظفه في سبيل حراسة دين الله عز وجل، إنْ في عباداته وصلواته وإن في أحكامه التي تتعلق بالأسرة وإن في أحكامه التي تتعلق بالاجتماع والاقتصاد وغير ذلك، ثوابت معروفة في دين الله عز وجل، إن كان هنالك شوق حقيقي يحرككم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلتترجموا هذا الشوق يا عباد الله بسلوك، فلتترجموا هذا الشوق إلى الله وإلى رسول الله باصطلاح مع الله وببيعة جديدة تبايعون الله سبحانه وتعالى ومظهر هذه البيعة أن نعاهد الله على أن لا نبدل وأن نكون جهد الاستطاعة ممن قال الله عنهم: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا

عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ [الأحزاب: ٢٣]، كونوا من هؤلاء الرجال، واستعينوا بالله إن كنتم تشعرون بالعجز.



٢٨٥- واقع المسلمين اليوم | ٢٠٠٨/٠٥/٠٩

المسلمون اليوم يزيدون على ثلث العالم المعمور في بلاد الله الواسعة، وشعاع الحضارة الإسلامية يسري إلى عمق بلاد الغرب بشطريها الأمريكي والأوروبي، والمسلمون جعلهم الله عز وجل أغنى الناس بما أكرمهم في أوطانهم من كنوز المدخرات والأموال الظاهرة والباطنة ومع ذلك فإن كثيراً من قادة المسلمين اليوم يركنون إلى الفرقة والتدابر.

وإذا ذُكِّرُوا بأمر الله سبحانه وتعالى القائل: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣] اعتذروا بأن التحديات التي تواجههم لا يستطيعون صموداً أمامها، وأكثر قادة المسلمين اليوم يركنون إلى دعم أعدائهم الذين يمعنون في اغتصاب الحقوق واستلاب الأوطان وقتل البرآء ومحاصرتهم في أوطانهم.

فإذا ذُكِّرُوا بقول الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠]، وإذا ذُكِّرُوا بقول رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «المسلمون في توادهم وتحابيهم كمثل الجسد الواحد إن اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» اعتذروا بأن التحديات التي تأتيهم من وراء البحار أقوى منهم وأنهم لا يستطيعون صموداً أمامها، أكثر قادة المسلمين اليوم يرون أعداءهم وهم يمعنون في وضع أيديهم على ممتلكاتهم ومدخراتهم، يمعنون في تجريدهم عن كل ما يملكون، يمعنون في رسم الخطط المتلاحقة للقضاء على قيمهم ومبادئهم ومع ذلك فهم عاكفون على دعم هذا العدوان والخضوع لمؤامراته.

فإذا ذُكِّرُوا بقول الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: ١] عادوا يعتذرون بأن التحديات التي تحيط بهم أقوى من صمودهم ومن ثم فإنهم لا يستطيعون إلا استسلاماً لذلك كله.

تعالوا يا عباد الله وهذه هي حال المسلمين اليوم نقارن بين المسلمين والإسلام في الأمس الدابر وبين حال الإسلام والمسلمين اليوم، تعالوا نقارن بين ذلك الفجر البعيد البعيد يوم أطل الإسلام خيطاً دقيقاً من النور في الجزيرة العربية وسط بحر من الظلام الدامس، يوم كانوا المسلمون قلة ضعيفة فقيرة لا يؤبه بها محصورين داخل جزيرتهم العربية وبين الإسلام الذي يتلألأ نوره فوق كل صعيد والتي تسري أشعته الحضارية كما قلت لكم إلى عمق بلاد الغرب بشطريها الأمريكي والأوروبي، تعالوا نقارن بين ذلك الأمس الدابر يوم أطل الفجر الإسلامي مع بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم والدنيا كلها قيودٌ من عداوة تتربص بهذا الإسلام ذي النور البسيط وذي الأعداد البسيطة من المسلمين، مسلمون والعداوة مستشرية داخل جزيرتهم العربية، مسلمون والحضارات الإنسانية كلها تعلن العداوة والبغضاء لهم، مسلمون والحضارات قيد تحيط بهم من الشمال والجنوب والشرق والغرب، واليوم الإسلام كما قلت لكم قويٌ في ربوعه وخارج ربوعه، ما من أسبوع يمر إلا وثلةٌ من التائهين الجانحين يدخلون في دين الله عز وجل وتشهد ديار الغرب على ذلك في كل أسبوع.

تعالوا نقارن بين قوة الإسلام اليوم وبين ضعفه بالأمس عندما انبزغ فجره نوراً من الخيط بسيطاً كما قلت لكم، هل شكا أولئك المسلمون من هذا الذي يسمونه اليوم بالتحديات، هل قال المسلمون القلة وهم ينقذفون إلى شرق العالم وغربه يحملون رسالة الله عز وجل إلى العالم ويقتحمون أسوار الدنيا، هل شكوا التحديات التي يتدلل بها اليوم كثيرٌ من قادة المسلمين على الله، لم تكن هذه الكلمة معروفة في قاموسهم، التحديات، ولم يشعروا بها قط في يوم من الأيام أبداً، رسالة حُمِّلُوهَا، كان ذلك الشرف يمثل النشوة التي طافت برؤوسهم، أنستهم الضعف، أنستهم القلة، أنستهم العجز، أنستهم كل شيء إلا شرف النهوض بهذه الرسالة التي حملهم الله عز وجل إياها، جاءتهم التهديدات.

نعم ولكن هذه التهديدات ذابت واضمحلت وسقطت في ضرام قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، جاءتهم التهديدات من الحضارة

الساسانية والحضارة الرومانية واليونانية، جاءتهم التهديدات تترى ولكن هذه التهديدات كلها سقطت في ضمار قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

قارنوا يا عباد الله بين الاستخذاء الذي نراه أو نسمعه اليوم في عهدٍ الإسلام فيه يتلألأ على كل صعيد وحضارة الإسلام تعلن عن نفسها في كل رَبْعٍ من ربوع العالم ومع ذلك فالكثرة الكاثرة من قادة المسلمين تفيض قلوبهم هلعاً مما يسمونه التحديات التي تواجههم ومن ثَمَّ فهم مستسلمون لعدو الله وعدوهم محجوبون عن قوله الله عز وجل: ﴿لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [الممتحنة: ١]، ومع ذلك فإنهم يقدمون قواهم وممتلكاتهم عربوناً لأعدائهم كي يزيدوا إمعاناً في ظلم البرآء وكي يزيدوا إمعاناً في قتل البرآء رجالاً ونساءً وأطفالاً وليزيدوا إمعاناً في محاصرة الناس داخل أوطانهم، لماذا؟ لأن هنالك تحديات لا يستطيعون اقتحامها، هذا هو واقع الإسلام اليوم وهذا ويا للأسف واقع كثيرٍ، لا أقول كل، كثيرٍ من القيادات الإسلامية في العالم، تحديات! كلمة لا يعرف قاموس التاريخ الإسلامي ترديداً لها أبداً، كلمة لم يدنس لسان الإسلام ولا ألسنة المسلمين أنفسهم بها في يوم من الأيام في عهودنا الغابرة قط، لكنها اليوم ولأول مرة تطرق أسماعنا مظهراً من مظاهر الدلال على الله، مظهراً من دلال الكسل عن النهوض بالرسالة التي شرفنا الله سبحانه وتعالى بها، تحديات تأتينا من وراء البحار!.

لا يا عباد الله، ليست تحديات تأتينا من شرق ولا غرب وإنما هي تكمن في نفوسنا نحن، إن هذه التحديات تنبعث من نفوس مَنْ يتحدثون عنه ومن يرددونها، ما ينبغي أن نظلم الحقائق، عندما يهون الإنسان على نفسه يهون على أعدائه، عندما يذل المرء في حق نفسه فإنه يبعث رسائل الذل في حق نفسه لأعدائه، هذا هو الواقع يا عباد الله والمرء كما يقول المثل العربي حيث يضع نفسه، فإن وضع الإنسان نفسه في موضع الكرامة والسمو وضعه الله عز وجل في هذا الموضع الذي اختاره لنفسه، وإن أبى الإنسان إلا أن يسقط نفسه ويجعلها تتربع في أودية الذل والمهانة فلا شك أنها رسالة إلى الآخرين، إلى أعدائه، أن يعاملوه بمثل ما يعامل به نفسه، ربنا سبحانه وتعالى كرمنا وأعلن عن هذا التكريم في محكم

تبيانه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ [الاسراء: ٧٠].

ربنا سبحانه وتعالى بعد أن كرم هذه الخليقة بمجملها شرفنا نحن بحمل هذه الرسالة إلى العالم كله، رسالة السمو إلى الألق الحضاري الإنساني الصافي عن الشوائب، رسالة الأخوة الإنسانية التي تمد آصرة الود ووشيجة القربى داخل الأسرة الإنسانية جمعاء، شرفنا الله بهذا كله وأكرمنا بكنوز من المال لم يكرم بها غيرنا ومتعنا بقوةٍ معنوية ومادية لم يكرم بها أحداً سوانا، ورثنا ذلك كله، ورثنا الكنوز التي نتربع عليها، ورثنا العزة التي كم وكم انتشت رؤوسنا بها ومع ذلك فإن نظرة واحدة إلى العدو المتربص بالقيم وبالإنسانية وبالحقوق جعلت إخوةً لنا تهلع قلوبهم وترتعد فرائصهم من هذا الذي يعادينا ويبعث تهديداته إلينا وهو ذلك الذي لا يملك أمام أمر الله وأمام تشريف الله لنا مثقال نقير إطلاقاً، فاضت قلوبنا رعباً من هذا العدو الذي هو عبد ذليل من عباد الله ولم تفض قلوبنا ثقة بالله عز وجل القائل: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ [الحج: ٤٠]، لم تفض قلوبنا ثقة بوعد الله سبحانه وتعالى القائل: ﴿وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، لم نقف وقفة اعتبار أو دراسة أما قول الله عز وجل: ﴿هَا أَنْتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ، إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١١٩-١٢٠] ذلك هو المرض العضال الذي نعاني منه، العدو الذي يرسم الخطط ويبعثها إلينا من وراء البحار متحالفاً مع الصهيونية العالمية أقل وأقل من أن تكون خططه ذات فاعلية مهما كانت قليلة ولكن المصيبة تكمن في نفوس أولئك الذين أصابوا أنفسهم بميسم الذل وأخضعوا رؤوسهم لهذا الذل وحكموا على أنفسهم بذلك فكان لابد أن يحكم العالم عليهم بمثل ما حكموا على أنفسهم به، هذه خلاصة الأمراض التي نعاني منها وهذا هو الدواء الماثل أمامنا يا عباد الله.

والإسلام قبل هذا الداء وبعده عزيز لا يذل، قوي لا يضعف، متسامٍ لا يُهْزَم بشكل من الأشكال والدليل على هذا يا عباد الله أن حرب أعداء الإسلام للإسلام إنما يندفعوا إليها بسائق خوف منه لا بسائق حقد عليه ومن ثم فهو يتحرك في عدواته للإسلام والمسلمين بالأساليب التي تعرفونها حركة مذبوح وحركة المذبوح لا يمكن أن تنجح ولكن بشرط أن يعي المسلمون مكانتهم وأن يرتفعوا إلى الشأو الذي أعزهم الله عز وجل به وأن يصحوَ قادةُ المسلمين من حولنا إلى الحق الذي حملهم الله عز وجل إياه.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.



٢٨٦- مقاصد الشريعة الإسلامية ووحدة الصف | ٢٠٠٨/٠٥/١٦

إن هذا الدين الذي شرفنا الله عز وجل به، في ضرورياته الكلية التي لا تقبل اختلافاً ولا اجتهاداً، وفي حاجياته المنبثقة منها، وفي تحسينياته الكثيرة الخاضعة للاختلاف والاجتهاد، أشبه ما يكون بشجرة، أما جذعها الواحد فضروريات هذا الدين، وأما فروعها الغليظة المنبثقة من الجذع فحاجياته، وأما أغصانها الرقيقة الكثيرة الظاهرة في أعلى الشجرة فهي التحسينيات الكثيرة الخاضعة للاجتهاد والاختلاف، وقد أجمع علماء الشريعة الإسلامية على أن ضروريات الدين هي الكليات الراسخة فيه لا تقبل خلافاً ولا تقبل اجتهاداً، ولقد أجمعوا على أن تعارضاً إذا وقع بين هذه الضروريات وبعض الحاجيات وجبت التضحية بالحاجيات في سبيل الإبقاء على الضروريات، وإذا قام تعارض ما بين التحسينيات وهذه الضروريات أو الحاجيات وجبت التضحية بالتحسينيات في سبيل الإبقاء على الحاجيات وعلى الضروريات.

ولنعلم –يا عباد الله– أنه لا توجد ضرورة من ضروريات الدين في هذا العصر أخطر ولا أهم من الوقوف في وجه الإعلان على الحرب المتسلسلة الدائمة ضد الإسلام، لا يمكن أن نعثر على ضرورة لا يجوز الاختلاف فيها ولا يجوز تجاوزها أو الاجتهاد في أمرها أهم من الوقوف في وجه هذا العدوان المعلن على الإسلام، وفي وجه الخطط الرامية إلى تحقيق هذا الهدف الخطير، ولعلكم تعلمون –يا عباد الله– أن الحرب على الإسلام كانت إلى الأمس القريب همساً يسري بين أفواه قادة الغرب البريطاني والأمريكي وآذانهم، ولكن هذا الهمس اليوم تحول إلى قرار معلن، تحول إلى قرارٍ مستعلن بوسع العالم العربي والإسلامي أن يسمعه في كل يوم، والوثائق الكثيرة لا تعجز أحداً الوقوف عليها بشكل من الأشكال يا عباد الله، ونحن نعلم أن الغرب الأمريكي والبريطاني، إذ جعل قراره هذا معلنا على الأسماع بقدر كبير من التحدي، دأبه أن يغطي هذا الهدف بأغطية متنوعة شتى، وبأسباب مختلفة كثيرة، كالحديث عن الإرهاب، وكالحديث عن حماية إسرائيل وكوقوفها اليوم في وجه حرية واستقلال هذا البلد المجاور لنا لبنان، ينبغي أن نعلم أيها الإخوة أن هنالك وثائق تنص على أن إسرائيل ماضيةٌ في تحقيق هدف يتمثل في جعل لبنان بوابة تدخل

منها إلى العالم العربي والإسلامي لتبسط عليه سلطانها السياسي وسلطانها الاقتصادي، بل وربما سلطانها العسكري أيضاً، كل ذلك أغطية وأسباب شتى، والهدف البعيد منها هو اجتثاث الإسلام والقضاء على الإسلام.

هذا الواقع الذي نراه يمثل أمامنا ضرورة من ضروريات هذا الدين لا يجوز إطلاقاً الاجتهاد فيه، ضروريات تقتضينا أن نطوي أمامها كل الفوارق المذهبية، تقتضينا أن نطوي أمامها كل الاختلافات العرقية والاجتهادية المتنوعة، ضرورة تدعونا إلى الوقوف، الوقوف بإصغاءٍ ثم باصطباغٍ بذل العبودية لله عز وجل أما قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤] ومعنى قوله عز وجل: ﴿صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾ أي يحبهم مجتمعين وقد سُدَّت مما بينهم ثغرات الاختلاف، يحبهم مجتمعين متلاصقين، وقد تساقطت مما بينهم الفوراق المذهبية المختلفة، هي موجودة، وليس المطلوب أن تُذَوَّبَ، ولكن المطلوب أن تطوى أمام هذه الضرورة التي لا اختلاف فيها ولا اجتهاد فيها بشكل من الأشكال، ألم نقل: إن الحاجيات إذا تعارضت مع الضروريات يجب التضحية بالحاجيات في سبيل الضروريات؟ هذا ما ينادينا إليه كتاب الله، هذا هو النداء الذي يصك أسماع قادة المسلمين وشعوبهم يا عباد الله.

حسناً وما الواقع الذي نعاني منه في العصر يا عباد الله؟ ننظر ونتأمل فنجد ظاهرة من الذل ما أحسب أنّا مررنا بمثلها في تاريخنا الإسلامي الأغر، جُلُّ، ولا أقول كل، جُلُّ قادة المسلمين منهمكون في الإبقاء على كراسيهم، منهمكون في الالتصاق بعروشهم، وهم في سبيل ذلك يبسطون أكف البيعة لا إلى الله سبحانه وتعالى، ولكن إلى العدو المشترك الذي يعلن اليوم دون هوادة قراره المتخذ للقضاء على الإسلام، العدوِّ الوحيدِ الذي بقي بعد انهيار الاتحاد السوفييتي، قادةُ المسلمين أو أكثرهم يرون الخطط الماكرة التي تتربص بهذا الدين، والتي تتربص بالمسلمين على اختلاف مذاهبهم ومستوياتهم، وهم خاضعون يطأطئون الرأس انقياداً لما يريده هذا العدو الأرعن، يريدهم أن يختلفوا، إذن هم مختلفون، يريدهم أن يعرضوا عن نداء الله عز وجل وعن نداء إخوانهم الذين يُقَتَّلون ويُشَرَّدون إذاً فليستجيبوا لما يريد هذا العدو،

والغريب أن هذا العدو مع ذلك يجردهم من حقوقهم ويعريهم من ممتلكاتهم ويحيل أغنياءهم إلى فقراء، وهو ماضٍ في هذا المخطط، ومع ذلك فهم ماضون أيضاً في هذا الخضوع الذليل المهين، يناديهم الله عز وجل قائلاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: ١] ولكن لسان حالهم يقول: إننا عن هذا النداء معرضون وإنا لفي شغل شاغل عنه؛ لأن مصالحنا الآنية تقتضينا أن نلقي هذا النداء وراءنا ظهرياً، يتبعهم بيان الله ويلاحقهم قائلاً: ﴿إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ [الممتحنة:٢] ولكنهم إلى الوجهة التي قرروا أن يتجهوا إليها ماضون، وعن نداء الله معرضون، يلاحقهم نداء الله عز وجل قائلاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ١١٨] ولكن جُل قادتنا في العالم العربي والإسلامي عن هذه الوصية معرضون، هذا النداء الذي يلاحقهم به الله عز وجل يلقونه وراءهم ظهرياً.

هذا هو واقع المسلمين اليوم –يا عباد الله– وإني كلما عدت إلى تلك الصفحة السوداء التي سجلها تاريخنا الإسلامي لملوك الطوائف في الأندلس، هذه الصفحة التي تذيب الإنسان خجلاً من المهانة، خجلاً من الذل، أولئك الذين قسموا فردوس دولة الإسلام في الأندلس إلى مِزَقٍ ورُقَعٍ من الأرض، واستأثر كل واحدٍ منهم ببقعةٍ فيها جعل منها عرشه القابع فيه، ثم إنهم لم يكتفوا بذلك، بل استعانوا بالجيش الإسباني، استعان كل منهم بالجيش الإسباني لكي يكون نصيراً له على أخيه، وهكذا تمزق ذلك الفردوس بين ماضغي الفرنجة، وسلم أولئك الناس ذلك الفردوس إلى أعدائهم وأعداء دين الله عز وجل، عندما أعود إلى هذا الواقع يكاد دوار يطوف برأسي من الألم من هذا الذل، ألقي هذه الصفحة ورائي ظهريّاً وأقول؛: فلأتناساها ولكني أفاجأ بهذه الصفحة ماثلة أمامي مرة أخرى في الصورة ذاتها، وما أشبه الليلة بالبارحة.

عباد الله، هذا واقعنا، وإني لأنادي من هذا المقام آملاً أن يبلغ ندائي هذا كل أخٍ يعتز ببقية باقية من الارتباط بالله عز وجل، ومن الدينونة لسلطان الله عز وجل أقول لهم: إن عز عليكم أن تلتفتوا إلى بيان الله عز وجل، وأن تعودوا مرة أخرى فتجددوا البيعة مع الله وتنفذوا وصاياه، فأمامكم علاج بسيط بوسعكم إن أخذتم أنفسكم به أن تعود إليكم عزتكم القعساء، وأن يزول هذا الذل الذي ضرب بأطنابه على كياناتكم، التجئوا إلى الله، التجئوا بقدر جادٍ من الذل والمسكنة إلى باب الله عز وجل، وقفوا أمام محراب العبودية المتجسد في قوله سبحانه وتعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، قولوا: ها نحن مؤمنون يا مولانا يا رب العالمين، ها نحن قد جددنا صبغة العبودية في كياناتنا لك، أنت ولينا، لا ولي لنا سواك، وها نحن عدنا إليك فاقبل عودة العائدين إلى رحابك يا رب العالمين، التجئوا إلى الله، واصدقوا في الانكسار على باب الله عز وجل، وانظروا كيف تستيقظ في كياناتكم مشاعر العزة، عزة العبودية لله عز وجل، وانظروا كيف تعودون إخوة متحابين متوائمين تنفذون قول الله عز وجل القائل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠]، التجئوا إلى الله بصدق ومارسوها علاجاً مستمراً، مارسوا ذلك علاجاً مستمراً تجدوا أن الله سبحانه وتعالى قد بعث في قلوب أعدائكم رهبة منكم، وبعث في قلوبكم الاعتزاز بالله سبحانه وتعالى ولسوف تجدون أنفسكم أمام مصداق قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤] أتجه بهذا النداء إلى نفسي أولاً، وإلى كل قادة المسلمين في بلاد الله ثانياً ليتخذوا من هذا الدواء علاجاً لهم، هذا أقصر علاج، وأنجع علاج وانظروا كيف تكون النتائج، أقول قولي هذا، وأستغفر الله.

٢٨٧- الفتن والنجاة منها | ٢٠٠٨/٠٧/٠٤

ينبغي أن نعلم جميعاً أن سيدنا رسول صلى الله عليه وسلم كان يكثر من الاستعاذة بالله من الفتن وكان يُحَذِّرُ منها في كل مناسبة وكان من دعائه في نهاية كل صلاة ﴿اللهم إني أعوذ بك من فتنة المحيا والممات ومن فتنة المسيح الدجال﴾، وقد روي عنه عن طريق أنس بن مالك أنه صلى الله عليه وسلم قال: الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها، وها نحن نرى يا عباد الله كيف أن نيران الفتن تنقدح اليوم في جنبات الأرض، وها نحن نرى هذه الفتن كيف تطوف بنا من قريب أو بعيد، حتى إن هذه الفتن أصبحت الرصيد الأوحد للأخبار الإذاعية التي تتلقاها الآذان أو تتلقاها الأبصار، هو الرصيد الوحيد لهذه الأخبار التي ما تفتأ تتحدث عن الإنسانية المهيضة، عن الإنسانية المكلومة في جنبات الأرض، وهل تسمعون في ساعة من الساعات خبراً إلا من هذا النوع يا عباد الله؟!

هذه حقيقة ينبغي أولاً أن نتبينها ثم ينبغي أن نعلم أن هذه الفتن لا تأتي مصادفة ولا تسوقها رياح العشوائية وإنما هي نتيجة خطط يرسمها العدو المشترك بين يدي استلاب الحقوق والقضاء على الأوطان واستلاب الثروات المتنوعة على اختلافها والقضاء على بقايا الحضارة الإنسانية المثلى التي تتملكها أمتنا، فهي خطط مرسومة وليست مصادفة جاءت بها رياح العشوائية، ولأضرب لكم بعض الأمثلة، إن بغداد ما سقطت، إن جاز هذا التعبير، إلا بعد مقدمات من الفتن خُطِّطَ لها، أُلِّبَ فيها على الأصدقاء وعلى الإخوة، حُوِّلَتْ علاقة الود السارية فيما بينهم إلى عداوة وبغضاء، حُوِّلَتْ علاقة التعاون السارية بين الفئات والجماعات إلى تدابر وبغضاء وتحطيم حتى إذا استحرت هذه الفتن وأصيبت بغداد بالدوار وفقدت القدرة على التحكم انقض العدو المشترك ليجعل منها فريسة ينهشها وها هو إذا إلى اليوم يجتمعون فئات على نهشها بعد أن تم القضاء عليها.

فلسطين يا عباد الله ما اغتصبت وما أصبحت نهبة بين يدي رعاع الدنيا إلا بعد أن تمت إليها مقدمة من هذه الفتن التي تم النفخ المستمر المتواصل في أوارها حتى إذا تحققت الخطة وتحولت المودة السارية ما بين الأشقاء إلى وقيعة وتحول التعاون الذي كان سارياً ما بين الفئات إلى تدابر وبغضاء استطاع

من ثَمَّ العدو المشترك أن ينتهبها وأن يجعلها فريسة وأن توزع فلسطين بين يدي رعاع الدنيا كما قلت لكم وهؤلاء الغاصبين.

وأنتم تعلمون يا عباد الله أن في الحيوانات المفترسة أنواعاً لا تستطيع أن تنقض على فريستها إلا بعد أن تزجها في دوار حتى إذا فقدت هذه الفريسة القدرة على التوازن ووقعت في الدوار انقضت عليها، واليوم هذه الخطة تتجه إلى لبناننا الشقيق أيضاً، فها هي ذي الوسائل ليل نهار تسعى لتنفيذ هذه الخطة، إثارة نيران الفتنة التي تمت في بغداد وفلسطين وأفغانستان وفي أماكن كثيرة أخرى، ها هي ذي المحاولة ذاتُها تستمر صباح مساء وها هو ذا الغراب الأسود يتردد ما بين لبنان وما وراء البحار مرة تلو المرة من أجل أن ينفخ في نيران البغضاء، من أجل أن يعمد إلى كل تعددية، تعددية متعاونة، تعددية بناءة، يسعى هذا الغرب سعيه ليحيلها إلى تعددية مخربة، إلى تعددية تتحول إلى بركان فتنة، يسعى هذا العدو المشترك إلى تحويل تعددية المذاهب، وهي حقيقة ما كانت في يوم من الأيام أداة تخريب بل كانت سُلَّمَاً إلى تعاون لكنه يحاول أن يجعل منها أداة فتنة وأداة تدمير، تعددية المذاهب، تعددية الفرق، تعددية الاتجاهات السياسية المختلفة كل ذلك ننظر فنتبين هذا المعنى الذي أقوله لكم والذي حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم أمته منه، إن هذا العدو المشترك ينفخ في نيران هذه الفتنة بعد أن نفخ فيها طويلاً في بغداد وفي فلسطين وفي أماكن أخرى.

الآن جاء دور لبنان من أجل أن يحول لبنان إلى بوابة كما قد قلت لكم بالأمس تنفذ منها الصهيونية العالمية بسلطانها الذي تحلم به إلى هذا العالم أجمع، هذه حقيقة ينبغي أن نتبينها يا عباد الله، وإذا تَبَيَّنَ لنا هذا المعنى فإن بوسعنا أن ندرك أن الأمة تملك السلاح تحصن به نفسها من كل مغبة من مغبات هذا العدوان الذي يتربص بنا الدوائر، أن نغلق باب الفتنة، أن نحيل بين هذا العدو المشترك والوصول إلى ما يبتغيه من تحويل علاقات الود بين الإخوة إلى بغضاء، من تحويل علاقات التعاون بين الفئات والجماعات إلى تدابر وشقاق، فإنا إن فعلنا ذلك، وسبيل ذلك ميسور كما سأقوله الآن فإن هذا العدو مهما حاول أن يطوف ثم يطوف لن يجد منفذاً يتسرب منه إلينا بأي وقيعة بل بأي اغتصاب.

ما الدواء يا عباد الله؟ هذا السؤال طُرِحَ على رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فكان جوابه هو هذا الذي قاله عليه الصلاة والسلام فيما يرويه علي كرم الله وجهه، قال عليه الصلاة والسلام النجاة

منها أي من الفتن كتاب الله فيه خبر من قبلكم ونبأ ما بعدكم وحكم ما بينكم، من أعرض عنه من جبار قصمه الله ومن اهتدى به هداه الله سبحانه وتعالى، هذا هو العلاج، ولكن هذا العلاج الذي نبهنا إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو كتاب الله لا تتمثل الاستجابة له في الإكثار من طبعاته ولا في الإكثار من الهدايا التي نتوجه بها إلى الناس إذ ندعوهم إلى العقود أو الأعراس، لا تتمثل الاستجابة لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم في أن نصغي إليه وهو يُتلى في الإذاعات المرئية أو المسموعة أو أن نسمعه عرضاً في أمسية تعزية ونحو ذلك وإنما يقصد المصطفى صلى الله عليه وسلم أن نتلوه فنتدبره فننفذ وصاياه.

هذه الفتن ليست حديثة العهد بل هي موجودة منذ أن وجد العدوان فوق هذه الأرض، منذ أن وجدت قوى الشر، ولقد أَلَّفَ الإسلام بين قبيلتين طالما كانتا متحاربتين هما الأوس والخزرج، تحولتا إلى مثال للود والتعاون والوحدة ولكن اليهود الذين كانوا يعيشون بين ظهراني المسلمين تجمعهم حياة مشتركة ويجمعهم السلم المشترك الذي كانت ترعاه عين الإسلام ضاقوا ذرعاً بهذا فأقبل رجل اسمه شاس بن قيس يحاول أن يؤلب الأوس على الخزرج والخزرج على الأوس في أمور وطريقة من الخبث كانت ولا تزال هي رأس مال هذه الفئة إلى أن تقوم الساعة، فنسي لدقائق هؤلاء الإخوة الذي وحدهم الله، وحدهم الإسلام، نسوا هذه النعمة واهتاجت لدقائق معدودة عوامل البغضاء فيما بينهم ولكن كتاب الله عز وجل سرعان ما صهر هذا الشعور فيهم، ما ذَوَّبَ هذا الشعور فيهم وأعادهم إلى هذه النعمة التي أغدقها الله عز وجل عليهم فأقبلوا يتعانقون وأقبل الواحد منهم يعتذر لأخيه ونزل قول الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ، وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠٠-١٠١] إلى أن قال: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

ما أشبه الليلة بالبارحة يا عباد الله، ما الفرق بين ذلك الرعيل الأول وبيننا نحن؟ المسلمين في هذا العصر، الوسائل التي كانت تستعمل بالأمس للإيقاع ولإثارة براكين الفتنة هي ذاتها التي تستثار اليوم،

فلماذا استطاع أولئك أن يتساموا فوقها ولماذا عجزنا نحن عن ذلك؟ سلوا أنفسكم هذا السؤال تعلمون الجواب.

يا عباد الله إن الذي ينجي هذه الأمة من الفتن ومن ثم ينجيها من الدمار والهلاك إنما هو الرجوع إلى وصايا كتاب الله عز وجل، يقول لنا كتاب الله عز وجل إن هنالك ثلاث دوائر كل دائرة تقي من فيها من الفتن أياً كانت، الدائرة الأولى دائرة الأمة الإسلامية، على المسلمين مهما اختلفت مذاهبهم، مهما تعددت فرقهم أن يجتمعوا تحت مظلة هذا الإسلام وأن يذيبوا فوارق ما بينهم وإذا بالفتنة ابتعدت عنهم، الدائرة التي تليها والتي هي أوسع منها هي دائرة الأديان المتعددة التي تلتقي وتنتهي عند جذع من الدين الواحد، في هذه الحالة على هؤلاء الذين فرقتهم الأديان السماوية المتعددة ولكنها تنتمي كما قلت لكم إلى جذع واحد عليهم أن يجعلوا من هذا الجذع الجامع وقاية لهم ضد كل فرقة، وقاية لهم ضد كل فتنة، لئن تعدد الدين في حياتهم وفي سلوكاتهم فليذكروا أن الجذع واحد، أن المصدر واحد، فهذه هي الدائرة الثانية، والدائرة الثالثة وقد نبه إليها بيان الله عز وجل هي الدائرة الإنسانية، فإن كان في الأمة من لا ينتمي إلى إسلام ولا إلى دين ولا شيءٍ آخر وهو يعيش بين ظهراني هذه الأمة فليعلم أنه ينتمي إلى دائرة واسعة جداً هي الإنسانية التي قدس الله سبحانه وتعالى حقوقها أيما تقديس ونبهنا بيان الله عز وجل إلى ضرورة رعايتها عندما عبَّر عنها بالأسرة الإنسانية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [النساء: ١]، الأرحام أي الرحم الإنساني، أرأيتم إلى كتاب الله عز وجل كيف يكون هو العاصم لنا من الفتن كما قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

عباد الله من رأى العبرة في غيره فليعتبر، ها أنتم ترون كيف أن عدونا المشترك يسعى سعيه اللاهث إلى إيقاظ نيران الفتنة بل إلى تفجير براكين الفتنة على مقربة منا، بين من، بين الأشقاء، بين فئات اختلفت مذاهبهم، حسناً لكنهم ينتمون إلى جذعٍ واحدٍ من العبودية لله عز وجل ومن الالتفاف على دين الله سبحانه وتعالى، إن هذا العدو يسعى سعيه اللاهث من أجل القضاء على بقايا حضارتنا، من أجل القضاء على بقايا الثروات التي لم تطلها بعد يد هذا العدو المشترك فعودوا إلى كتاب الله، عوداً إلى

كتاب الله أيها الأمة، أقولها لكل الفئات عوداً إلى كتاب الله تمسكوا به، عودوا إليه، تدبروه، نفذوا وصاياه.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.



٢٨٨- يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ اللّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ | ٢٠١٢/٠٩/١٤

لو أن الإسلام كان نسيج فكر أو فلسفة إنسانية لتحول منذ زمن بعيد إلى أحدوثة تُرْوَى ولتحول إلى نبأ تاريخي طواه التاريخ ونسيه المؤرخون، ذلك لأن شمس البعثة النبوية ما كادت تبزغ في الجزيرة العربية حتى بدأت سلسلة العداوات والمؤامرات والتربصات وأنواع الكيد لهذه الرسالة السماوية التي هي جذع الرسالات السماوية كلها، ما إن بزغت شمس النبوة في الجزيرة العربية حتى تألَّبَ ثلاث امبراطوريات كانت إليها قيادة العالم آنذاك توجهت إلى هذه الرسالة بالكيد والمؤامرة ولكن ما هي إلا سنوات حتى امتدت السحب الداكنة على تلك الحضارات كلها وطويت بعد انتثار وانتشار وغزت شمس الحضارة الإسلامية بقاع العالم وآفاق الدنيا كلها. جاءت الحملات الصليبية تترى، ولكن ما هي العاقبة التي ينبغي أن تلفت أنظارنا إليها بعد عقود من الزمن رجع أولئك الذين أقبلوا إلى هذه الأرض المباركة محاربين وغزاة، رجع كثيرٌ منهم يحمل شعلة الإسلام ويعرف الفرنجة في بلاد المغرب بالإسلام ويدعوهم إلى معرفة والإقبال إليه.

وأقبل المغول من الشرق يحدوهم حقد نياربي عجيب قاصدين إلى أن يخنقوا الحضارة الإسلامية الإنسانية في مهدها من حاضرة الخلافة الإسلامية وأن يغرقوها في مياه دجلة الغامرة، فماذا كانت النتيجة يا عباد الله؟ لا الإسلام ولا الحضارة الإسلامية اختنق أيٌّ منهما ولا دجلة أغرقت أيٌّ منهما، وعاد الإسلام يعلو ويعلن عن ذاته فوق أرفع وأعلى ذروة من ذرى هذا الكوكب الأرضي الذي نعيش فيه. واستمرت العداوات تترى متجهة إلى دين الله عز وجل دون أن يكون رجع تلك العداوات إلا على أصحابها، واهتاجت زوابع ولكن النقع الذي حملته تلك الزوابع لم يرجع إلا إلى رؤوس أولئك المتربصين بالإسلام.

وبالأمس لم تنسوا بعد قصة الصور الكرتونية التي تطاول بعض الناس بها على دين الله سبحانه وتعالى – ولا أقول أساؤوا كما يقولون، ليس في الدنيا من يملك أن يسيء إلى رسول الله أو إلى الإسلام لكنهم تطاولوا بذلك – واستقبلت أوروبا كيدهم بالترحيب، ونُشِرَتْ هذه الصور هنا وهناك، ولكن فماذا كانت العاقبة بالنسبة للإسلام ذاته؟ اتجه كثيرٌ من الغافلين عن الإسلام في الدانمارك إلى الإسلام يدرسونه

ثم إنهم استأنسوا به ثم إنه اعتنقوه، وفي مؤتمر حضرته عُقِدَ في بلدة من بلادنا العربية والإسلامية دُعِيَ إليه جَمْعٌ من مثقفي وعلماء الدانمارك، نظرت وإذا فيهم مسلمون لم يجرهم إلى الإسلام إلا هذا الكيد الذي فُوْجِئُوا به، قامت بينهم أستاذة في جامعة من جامعات الدانمارك كانت حاملة، قالت: لم أتشرف بعد بالإسلام ولكني على يقين بأن هذا الطفل الذي أحمله في أحشائي سيولد مسلماً.

واليوم أصرت أمريكا إلا أن تعلن عن حقدها متجاوبة في ذلك مع أحقاد الصهيونية العالمية ومع أحقاد إسرائيل ولم يجدوا أن ينفثوا رجيع حقدهم إلا في ذلك الفيلم الذي سمعتم عنه، فما الذي جرى؟ لقد قاؤوا رجيع حقدهم في أحداث ذلك الفيلم ولكن فماذا كانت عاقبة ذلك الرجيع؟ لقد عاد تتضمخ بذلك الرجيع وجوه أولئك الذين أنجزوه ومثلوه وأخرجوه، هذا هو الذي حصل وصدق الله عز وجل القائل: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ اللّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢].

فهل الإسلام يا عباد الله نسيج فكر صاغته عقولٌ بشرية؟ من ذا الذي من العقلاء – لا أقول من المسلمين – يتصور أن هذا الدين أو هذه الرسالة التي اخترقت مؤامرات المتآمرين وكيد الكائدين وعدوان المعتدين، اخترقتهم جميعاً إلى يومنا هذا وهي في أوج الانتصار، وهي الشمس المتلألئة التي تنشر ألقها ونورها في آفاق الدنيا أجمع، أيمكن أن يكون الإسلام الذي جذع – أقول هو جذع – الرسالات السماوية كلها هل يمكن أن يكون الإسلام نسيج فكر إنساني؟ هذا أول ما ينبغي أن نعلمه لنزداد يقيناً بأن قرآننا إنما هو كلام الله وبأن إسلامنا الذي يحتضن الرسالات السماوية كلها إنما هو شرعة الله التي تنزلت علينا من سماء رحمته وشرفنا الله سبحانه وتعالى به ديناً إلى أن يُحْشَرَ الناس ويقفوا بين يديه. أقول لكم يا عباد الله فلن يضيره كيد الكائدين قط، وليس الإسلام في هذا الذي فعله هؤلاء الحاقدون إلا كما قال ذلك الشاعر:

وناطح صخرة يوماً ليوهيها   فلم يضرها وأوهى قرنه الوعر

إنكم لتلاحظون – أو ينبغي أن تلاحظوا – أن الذين أخرجوا هذا الفيلم إنما عبروا به عن أحقادهم ولكن ها هو ذا رجيع الأحقاد قاؤوه داخل هذا الفيلم، وها أنتم ترون كيف أن هذا الرجيع عاد خضاباً خُضِّبَ وجه هؤلاء الذين اشتركوا في إخراج هذا الفيلم وتمثيله والدولة التي احتضنته وصفقت له وباركته،

ولكن الأمر الذي يحز في النفس هو أننا نلتفت يميناً وشمالاً، لا أقول نبحث عن الإسلام فالإسلام موجود لا تُكْسَفُ شمسه ولا يمكن لأي أثر من سحابة أن تسري على وجهه ولكني أبحث عن المسلمين الذين شرفهم الله عز وجل بهذا الإسلام وحملهم رسالته أين هم بل أين يقفون من تحمل رسالة الإسلام، قال لهم الله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠]. وليت أنهم سكتوا ولكنهم صرخوا قائلين: بل نفسد ما بيننا وبين إخواننا المسلمين ولا نصلح.

وقال لهم الله سبحانه وتعالى: ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: ١٠٣]. وقال قائلهم: بل إنا عزمنا على أن نتفرق وعزمنا على أن نجعل من الأسلحة حارساً لهذه الفرقة التي ينبغي أن تدوم ولا تنقضي.

وقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: «المؤمنون في توادهم وتحابهم كالجسد الواحد إذ اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى». قالوا: أما نحن فلسوف نصر على أن يكون كل عضو من هذا الجسد حرباً على العضو الآخر. يا عجباً، مسلمون ويحاربون أوامر الله، وليت أنهم سكتوا.

ويقول لهم ربنا سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاء مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران: ١١٨]. ويقول قائلهم كما تعلمون: بل سوف ندير ظهرنا إلى هذه الوصية ونمد يد المودة والولاء لأعداء الله عز وجل وأعدائنا، وليت أنها مودة نِدٍّ لِندٍّ، لا، بل أصروا إصرارهم على أن يكونوا سدنة يخدمون طغيان الطغاة، وأنتم تعلمون ذلك. يقول لهم الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: ١]. ويقول قائلهم: ليس لنا مصطفى نصطفيه للود إلا هؤلاء الذين يحذرنا الله من موالاتهم.

ألا ترون إلى ذلك؟ ألا ترون إلى واقع المسلمين يا عباد الله كيف يولي البعض منهم ظهره للبعض من إخوانهم ثم يقبلون بالمودة والخدمة لسادتهم الذين يطوفون حولهم ولا طواف المؤمن بكعبة الله سبحانه وتعالى. نعم هذه هي المصيبة. قالوا وكرروا القول: ما للأفراد والأمشاج من الغربيين لا الحكومات ضاعفوا من كيدهم للإسلام وسخريتهم به على مستوى المقالة التي تنشر وعلى مستوى الفنون السينمائية وليس

هذا أول وآخر نموذج وعلى مستوى الكاريكاتير التي لا تخلو منه الصحافة الأوروبية والأمريكية لماذا؟ قلت لهم ولماذا لا تتوقعون ذلك؟ وهل الأمر خاص بأولئك الناس؟ هل تأملتم فوجدتم أن سخرية المسلمين بإسلامهم أقل خطورة من سخرية أولئك؟ عندما أقول لأحدهم إن رسول الله يقول لك: ﴿من خرج من أمتي على أمتي يضرب برها وفاجرها ولا يتحاشى مؤمنها ولا يفي بذي عهدها فليس مني﴾ فيجيبني: هذا الكلام لا يصلح في هذا الوقت. لماذا تتعجب من أن يتربص أولئك الناس بإسلامنا ويتهجم عليه عن طريق المقالة والكاريكاتير ونحو ذلك ولا تتعجب من هذه السخرية بل من هذا التعالي على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ إذا كان المصطفى صلى الله عليه وسلم يقول لنا في وصيته الغالية قبيل وفاته: ﴿لا ترجعوا بعدي ضُلالاً – أو كفاراً – يضرب بعضكم رقاب بعض﴾ وينظر أحدنا إلى هذا الكلام ثم يقلي به وراءه ظهرياً لينفذ المزاج الذي في رأسه، وليت أنه مزاج شخصي، لا، لينفذ ما قد أخذ عليه الأجر السخي ووضعه في جيبه، أعطني الأجر ثم مرني بعبادة الشيطان أفعل ما تريد. وما أيسر أن يضع هذه العبادة للشيطان في قالب الإسلام، وما أيسر أن يضعه في أسلوب وفي طريقة إسلامية تدين للمزاج وتخضع للفكر ومصلحة الجيب، أليس كذلك؟ هذا هو واقعنا فلماذا نعجب من أن يزداد الغرب سخرية بنا وبدينا عندما ينظرون فيجدون أننا سبقناهم إلى ذلك، هل من العجيب أن يقتدوا بنا، هل من العجيب يا عباد الله، أليس فيكم من نظر إلى الكاريكاتير الغربي وهو يعبر عن سخريته بقادة كثيرٍ من المسلمين اليوم، أليس فيكم من قرأ أو نُقِلَ له بعض ما كتبته الصحف الغربية سخرية بالمسلمين، ولا شك أن السخرية بالمسلمين تجر إلى السخرية بالإسلام. على كل حال ينبغي أن أقول أيها الإخوة: أما دين الله عز وجل فلن يُشَاكَ بشوكة، وأما الزوابع التي ارتفعت بسبب عداوة المعتدين وبغضاء الحاقدين وما إلى ذلك فلا والله لن يعود نقع هذه الزوابع إلا إلى رؤوس أولئك الأعداء، إلا إلى رؤوس أولئك الحاقدين على دين الله، هذه حقيقة.

ثم إني أقول: إننا عندما نطلب من هذه الدولة التي احتضنت هذا الفيلم القذر الذي يعبر عن هذا الحقد والتي تفوح رائحة رجيعه عندما نطالب هذه الدولة التي احتضنت هذا الفيلم بإنزال العقاب على الذين أساؤوا لا إلى الإسلام فقط ولا إلى المسلمين فقط بل أساؤوا إلى كل من يقدس دين الله سبحانه وتعالى ذلك لأن الإسلام كما قلت لكم هو جذع الرسالات السماوية التي تنزلت على عباد الله في

الأرض، نعم، يجب على هذه الدولة وهي تزعم أنها ديمقراطية وإن جزءاً من الديمقراطية حراسة مشاعر الناس، حراسة قدسية الدين أن أقول: فليكن ذلك أسوة بقدسية اليهود وإسرائيل، أن أقول: فلتكن ذلك أسوة بقدسية السامية التي تنظر أمريكا بعشرة عيون بل بمئات العيون على كل من يسيء إليها بكلمة، نعم، ولكن في الوقت ذلك نحذر من ردود الفعل، عندما نتحدث عن العقاب نلجأ إلى حضارتنا الإسلامية، عندما نتحدث عن العقاب نُذَكِّر بحضارتنا الإسلامية التي تمزج العقاب العدل بل تجعل العدل سلطاناً يهيمن على العقاب، نذكر أنفسنا ونذكر إخواننا ونذكر المسلمين جميعاً بقول الله عز وجل: ﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٨].

هكذا نفهم رسالتنا السماوية وهكذا نتعامل معها، أما ردود الفعل فهي شاردة عن أوامر الله، ليس لنا شأن بسفارة، ليس لنا برجل قد لا تكون له أية علاقة بهذه الجريمة التي وقعت. ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام: ١٦٤].

ولكنا بمقدار ما نحذر من ردود الفعل فإننا نأمر ونذكر بضرورة إنزال العقاب، هذا شيء، وذاك شيء آخر؛ موقعنا من الإرهاب ومن الظلم الذي يستشري موقف واحد لا يعلم ألواناً متعددة حسب المكان وحسب الزمان، نحن نتربص بالإرهاب ونحذر منه عندما يمارس عمله هنا ونحذر من الإرهاب ونحاربه عندما يمارس عمله في أمريكا أو في أي بقعة أخرى، لا نعلم، ديننا لم يربنا على أن نكيل الحق بمكيالين، ديننا لم يربنا على الدجل، ديننا لم يربنا على النفاق، هذه هي الحقيقة التي تدعونا للاعتزاز بإسلامنا وبديننا ولله عز وجل عاقبة الأمور.

أقول قولي هذا وأستغفر الله.


الوهابية

٢٨٩- هكذا استُعملت الوهابية أداةً لتمزيق شمل المسلمين | ١٩٩٢/٠٩/٠٤

كثيرون هم الذين يتحدثون بصفاء قلبٍ وبصدق نية عما يسمى اليوم بالصحوة أو اليقظة الإسلامية، ويتحدثون فرحين مبتهجين عن كثيرٍ من هذه المظاهر، فيذكّر الواحد منهم صاحبه أو إخوانه مثلاً بتلك القرية البريطانية التي دخلت بقضها وقضيضها بالإسلام، وأقامت في قريتها مجتمعاً إسلامياً صغيراً مثالياً كما أمر الله عزَّ وجل، ويتحدث الآخر عن العشرات بل ربما المئات الذين يدخلون في دين الله أفواجاً من ذكور وإناث في شتى ربوع ذلك العالم الغربي، وكل هذا صحيح والأمثلة أكثر من ذلك، ولكني أحب أن أقول إن علينا أن نخشى من الطامعين في النعمة أكثر من أن نفرح بالنعمة ذاتها، كلما عظمت النعمة كلما كثر الطامعون من حولها، ولذلك فإن الذي يشغلني عن الفرح باليقظة الإسلامية الحقيقة إنما هو تصور المخاوف عليها، فبمقدار ما هنالك إقبال على الإسلام في ربوع الغرب وغيره بمقدار ما يوجد وسائل وخطط ماكرة جديدة مستحدثة للتربص بالإسلام وللكيد به؛ بل للقضاء عليه حيث ما وجد، وذلك هو شأن أعداء الإسلام كلما رأوا نجمه خافتاً كلما أعرضوا عنه وبردت هممهم في معاداتهم، فإذا رأوا نجمه وقد تألق، وإذا رأوا طاقته وقد أقبلت بعد إدبار جمعوا وسائلهم وهيئوا عُددهم وأسهروا لياليهم في سبيل الكيد لهذا الدين الذي أصبح يشكل خطراً كبيراً عليهم، ينبغي أن نكون من الوعي بحيث نفرح بالنعمة آناً، ونسأل الله سبحانه وتعالى أن يعافينا من الماكرين والمتربصين آناً آخر على أقل تقدير.

وإذا عرفنا أن هنالك أعداءً يتربصون بهذا الدين، وأن هنالك خططاً ماكرة تُرسم، فلنتذكر ولنتبين هذه الخطط، ولنكن على مستوى الوعي الذي يتطلبه منا إيماننا وديننا، كيف ترسم هذه الخطط أيها المسلمون، إنها ترسم في أقبية مظلمة خفية بعيدة حتى عن تلك المجتمعات الغربية البعيدة عن الإسلام، ولكن كثيراً من أبطال تطبيقها هم المسلمون أنفسُهم، كل من لم يعي هذه الحقيقة فهو في الحقيقة مغفل، وهو في الحقيقة سادر الفكر ساذج الوعي، الخطط ترسم هناك بعيداً بعيداً جداً لكن كثيراً من أبطالها هم من المسلمين أنفسهم، والكثير من هؤلاء المسلمين على علم بما يراد بهم وكل منهم يعلم هويته مجنداً

في سبيل الكيد للإسلام والمسلمين، ولكن فيهم من يسر بدون وعي في هذا الطريق، وأظن أن كلاً منا ينبغي أن يعلم أن هذه الخطط كثيرة ومتنوعة ولكن أبرزها وأخطرها هي الخطة التي ترمي إلى الإيقاع بين المسلمين.

تلك الخطة التي تهدف إلى جعل إسلام المسلمين الواحد إسلامات كثيرةً متناقضة متخاصمة متعادية، تلك هي أخطر الخطط التي ترسم كما قلت لكم هناك بعيداً وأنا على علم بذلك، ولكنها تعهد إلى أناس منفذين من أبناء جلدتنا مسلمون في الظاهر، ذلك لأن أحداً لا يستطيع أن يمزق شمل المسلمين إلا إذا كان القائم بذلك من المسلمين أنفسهم، أتتصورون أن عدواً لنا يستطيع أن يتسلل إلى داخل البنية الإسلامية فيصدع هذه البنية؟ لا. لأن هوية هذا العدو مكشوفة، ومن ثمَّ فإن عمله سيأتي بنقيض ما يريد، ولكن الطريقة هي أن يعهد بهذا الأمر إلى مسلمين هوياتهم تنطق بأنهم مسلمون، بل بأنهم غيارى على الإسلام وعقائده ومبادئه ثم إنهم يتسربون إلى حلبة النقاش في مبادئ الإسلام وأحكامه وعقائده، فيطرحون الأمور الخلافية واحدة إثر أخرى، ويجعلون من تلك الجزئيات الخلافية بركاناً لتفجير مشكلة، ويجعلون منها أساس لتكفير أو لتفسيق أو لتبديع، ثم إنهم يلاحقون المسلم بها مشكلةً إثر مشكلة إثر مشكلة، ويسيرون في طريق ذلك على نهجٍ من التنطع الممجوج ويتبعون في ذلك أسلوباً من التكلف البيّن الذي تفوح رائحته لكل متأمل ومتدبر.

وهكذا فإن هذا الطابور من هؤلاء المسلمين ظاهراً يسلكون سبيلاً يصل بهم إلى الغاية المرسومة، والغاية المرسومة أن يتحول المسلمون الذين أظلهم إسلامهم في ساحة إيمانية واحدة وكون منهم أمة واحدة خلال قرون متطاولة من الزمن؛ يحيلون هذه الأمة الواحدة إلى فئات متناحرة متعادية متخاصمة، هكذا كما يفعل أولئك الذين يحدقون حول مائدة وضع عليها شواء كبير من قطعة واحدة، كيف السبيل إلى أن يلتهمها هؤلاء الآكلون؟ السبيل إلى ذلك أن يقطع هذا الشواء إلى قطع قطع قطع صغيرة حتى يستطيع كل منهم أن يجعل من كل قطعة مضغة يزدردها تماماً هذا هو الواقع الذي يجري اليوم، وهو يجري باسم الإسلام.

تصوروا أيها الأخوة وعودوا بأذهانكم إلى ما قبل خمسة قرون أو ستة قرون أو سبعة أو ثمانية قرون أفتستطيعون أن تشموا رائحة لخلاف بين المسلمين أو لتصارع فيما بينهم بسبب التساؤل عما معنى قول الله عزَّ وجل: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾؟ هل تستطيعون أن تشموا رائحة صراع وخصومات فضلاً عن التكفير في ساحة المسلمين قبل ثمانية قرون مثلاً بسبب اختلافهم حول تفسير آيات الصفات؟ أو بسبب اختلافهم حول أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوسل به أو لا يتوسل به؟ نبِّشوا وفتشوا كتب التاريخ وكتب التراجم منذ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هذه القرون الأخيرة هل تجدون من أقام الدنيا وأقعدها بالنكير والتكفير بسبب التساؤل هل أن الله في جهة العلو أم ليس في جهة العلو؟ لئن نبشتم وفكرتم لن تجدوا هذه المسألة أبداً تكونت منها مشكلة في عهد من عهود الإسلام الغابر قط، ربما بحثوا واختلفوا لكنهم وقفوا عند ما سميته الاختلاف التعاوني فقط، ولم يعكّر هذا الاختلاف معناً من معاني الوداد بينهم فضلاً عن أن يصدّع صفاً لهم، فضلاً عن أن يمكن العدو المتربص ليدخل في ساحتهم وليستغل الخصام القائم فيما بينهم، ولكن أصغي جيداً اليوم انظر كيف تقوم المهاترات لا أقول في المجتمع الإسلامي، فالمجتمع الإسلامي تحول إلى بركان في هذا الأمر، لا بل في المجتمعات الغربية ضمن الدوائر الإسلامية الصغيرة، انظر كيف يبدأ الخصام ولا ينتهي حول تفسير العلو بالنسبة لذات الله عزَّ وجل، إن لم تقل إن الله في جهة العلو فقد كفرت وأشركت وخرجت من الملة.

ومهما قام النقاش ومهما قام الجدل ومهما قدمت الأدلة على أن جزع الدين في هذه القضايا واحد، وأن المبادئ الكلية لا يمكن أن يجري خلاف حولها، فالله لا يتحيز في مكان، والله جلَّ عن أن يشبه مخلوقاته لن تجد هنالك سبيلاً لإنهاء هذا اللجج أولاً وآخراً قط، ذلك لأن هذه الأمور إنما تستثار من أجل غاية لا تتعلق بالمسألة العلمية ذاتها، الغاية هي أن يتصدع المسلمون، وأن يتحولوا إلى فئتين أو فئات كل فئة تكفر الأخرى. قرأنا هذه التقارير الخفية ذات يوم صاعدة من جامعات استشراقية غربية، ولكن ويا للأسف من هم الجنود المنفذون لها؟ هم أولئك الذين يدعون إلى أنفسهم لتكون لهم الريادة الإسلامية، ووالله إنهم لمجندون من أجل تطبيق هذه الخطة الذي ستأتي الأيام لتكشف عنها ولتكشف عن صادرها وواردها.

وإذا قلت لهؤلاء المتنطعين أين هي جهة العلو التي استقر فيها الله عزَّ وجل هاهنا أم هاهنا أم هنا؟ أشار لك إلى الفوق، طبعاً لابد أن يشير ما دام يقول إن الله في جهة الفوق، إذاً هو في جهة من الجهات ويشير لك هكذا، وانظر إلى هذا العلم الذي يصل إلى حضيض التفاهة والجهل، وانظر إلى التخلف العقلي الذي يشفق الصغار في مدارسهم على مثل هذا التخلف العقلي والفكري، الله في هذه الجهة العليا، هذه الجهة العليا هي جهة السفل في مكان آخر، فكيف تحل المشكلة؟ هل تقول في أي مكان وجدت فيه إن الله في علو بالنسبة لذلك المكان لا غير؟ فإذا طرت إلى المكان المقابل غيرت كلامك وقلت الله في جهة العلو هناك لا غير؟ من الذي يصدقك بهذا الكلام التافه الذي يقال في عصر العلم وتنبذه ثقافة التلاميذ في مدارسهم! ومهما قلت ولكن الله عزَّ وجل يقول: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾، ويقول: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاء إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ﴾ ويقول: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾، مهما قلت له هذا الكلام فإن هذا لا ينهي الجج والجدل أبداً. لماذا؟ لأن الهدف ليس حل مشكلة، وإنما الهدف اختلاق مشكلة. وصلى الله وسلم على رسوله محمد النبي الأمي الذي أطلعه الله على كثيرٍ من المآسي التي وقعت من بعده إلى يومنا هذا إذ يقول في الحديث الصحيح: «هلك المتنطعون» ووالله لئن لم يكن هذا هو التنطع بعينه فلا أعلم صورة للتنطع بعد ذلك بشكل من الأشكال.

ولقد قلت مرة وأقولها أيها الأخوة وسأصدر بياناً مكتوباً بها، قلت لعالم جليل من علماء ذلك الصقع الذين ينادون لأنفسهم بالريادة الإسلامية ليمزقوا شمل المسلمين، قلت: إلى متى تجعلون من الإسلام سلاحاً تقطعون به أوصال هذه الأمة؟ نحن أمة واحدة ونحن فوق ذلك كلنا من أهل السنة والجماعة، كلنا ننشد الإخاء تسموننا ضيوف الرحمن حتى إذا اتجه ضيوف الرحمن إلى هناك استقبلتموهم بالتكفير والتبديع، سمعت خطيب مسجد نَمِرة وهو يخاطب المسلمين يكفرهم يشركهم لأنهم يتوسلون برسول الله، ويجعلهم داخلين تحت نطاق الله عزَّ وجل: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾.

قلت: في أي قاموس ديني، في أي قرآن وفي أي تفسير لقرآن هذه الآية يجوز إسقاطها على هؤلاء المسلمين الموحدين الذين يذهبون حجاجاً إلى بيت الله الحرام؟، وانتهينا إلى وفاق إلى أن هذه مشكلة يجب حله، وأن هناك مدسوسين يجب كشفهم، قلنا فأين السبيل واتفقت معه على أن السبيل هو التالي: أن يذهب إلى بلده ويختار عشرة أسماء من أرقى العلماء اختصاصاً وأفضلهم إخلاصاً لدين الله، وأختار أنا أيضاً من علماء هذه البلدة قدر ذلك، أفضلهم اختصاصاً وأفضلهم إخلاصاً فيما نظن ونتصور، ثم نتداعى إلى ندوة يتلاقى فيها هؤلاء العلماء فيتناقشون في هذه المسائل التي أصبحت سلاح تبضيع وتمزيق لهذه الأمة، فما اتفقنا عليه بعد النقاش يكون قد انتهى الإشكال فيه وما لم نتفق عليه يكون اختلافنا المستمر دليل على أنه أمرٌ اجتهادي، ومادام أمراً اجتهادياً ينبغي أن يعذر كل فريق منا صاحبه، ثم ينبغي أن نتواثق ونتعاهد على أن لا نثير هذه الأمور، بل ينبغي أن نغذي وحدتنا نغذي جزع إسلامنا الواحد، اتفقت معه على ذلك وذهب عائداً إلى بلده وعدت عائداً إلى بلدتي دمشق زادها الله حراسة وزادها الله رعاية وأمنا وأرسلت إليه أسماء عشرة علماء معتدلين، علماء أحسب أنهم مخلصون لدين الله عزَّ وجل، وانتظرت أن يرسل لي أسماء عشرة من قبله لنتفق على لقاء وحوار. وإلى اليوم ومنذ ست أو سبع سنوات وأنا أنتظر الجواب منه.

ولقد علمت أن المسألة طرحت لكن أولئك العلماء الغيارى على التوحيد وعلى دين الله عزَّ وجل فرّوا فراراً عجيباً عندما شعروا بالدعوة لهذا اللقاء، إذا المسألة أيها الأخوة من الخطورة بمكان عرف ذلك من عرف وجهله من جهل، المسألة لا تنطوي على غيرة على دين الله معاذ الله، إنما هي الغيرة من وحدة الأمة، إنما هي الحقد على وحدة هذه الأمة، هناك يقظة إسلامية تهدد لابد من كف جماحها، ولابد من ردها على أعقابها كيف السبيل إلى ذلك؟ هناك في المجتمع الغربي لا فائدة؛ بل سيخلق ذلك ردة فعل، السبيل هو أن يمزق شمل المسلمين حيث يتجه أولئك الناس إلى الإسلام، السبيل أن يصبح الإسلام الواحد كما قلت لكم أدياناً متصارعة يأكل بعضها بعضا.

ولقد قرأت تقريراً لإنسان يشتهي ويتمنى أن يرى الإسلام وقد تحول إلى ما يشبه الفرق المتعادية في الغرب للمسيحية التي يأكل بعضها بعضاً فعلاً الآن، ولكن هذا إنما يمثل أمنية لبشر، وعلينا أن نقول هذا لنكون على مستوى الوعي وعلى مستوى اليقظة الإسلامية التي ينبغي أن نتمتع بها، وإلا لابد أن نتذكر قول الله عزَّ وجل: ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾.

ما المصيبة في أن أتوسل برسول الله ولا تتوسل؟ أنت أخي وأنا أخوك اجتهدتُ واجتهدتْ كما اجتهد أبو حنيفة والشافعي في مسائل كثيرة، ما المشكلة؟ لماذا تثير من ذلك مشكلة تجعل منها بركان يلتهب؟ غداً سيبدأ موسم الموالد في هذه البلدة، وسيبدأ التوجه القلبي المعبر عن حب هذه الأمة لرسولها فاسمعوا وانظروا إلى صيحات النكير، واسمعوا وانظروا إلى الهجوم المقزع العجيب الشديد، فيما هذا كله؟ هل تتصورون أن هذا يبتغى به وجه الله أبداً، ترى لو أنا فعلنا مثلما يفعلون إذاً إلى ما سيؤول حال المسلمين؟ وعدوهم ينتظر المزيد من ذلك؟

في سنة من السنوات كان اليوم مصادف مناسبتين، مناسبة عيد الميلاد — عيد ميلاد سيدنا عيسى عليه السلام؛ بل اليوم الأول من السنة الميلادية الجديدة، وكان اليوم ذاته يحكم مناسبة عيد المولد النبوي، وكنت أصغي مصادفة إلى بعض هذه الإذاعات الإسلامية؛ بل إلى الإذاعة الإسلامية التي تنادي لنفسها بالريادة الإسلامية، وسمعت المحدث وهو يحذر من مظاهر الفسوق والعصيان التي تثور في البيوت في مثل هذا اليوم، قلت في نفسي جزا الله المتحدث خيراً إنه يحذر من هذا اللهو ومن هذا الفسوق ومن مظاهر هذه المعاصي التي اتجهت ريحها من الغرب إلى بلادنا بمناسبة رأس السنة الميلادية فجزاه الله خيراً على هذا، وأصغيت وأنا منشرح الصدر إلى ما يقول، وفي آخر حديثه تبين أن الرجل إنما يعني الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، إنما يريد بالفسوق؛ الفسوق الذي يكون عند احتفال الناس بالمولد، وبقصد باللهو والجنوح والبعد عن الدين .. يقصد بذلك كله ما يتنامى من إقبال الناس على مولد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا اليوم.

أما ما يجري في تلك البيوتات في تلك الليلة من مظاهر الفسوق والعصيان، أما الأنهار من المسكرات التي تتدفق في الأنفاق في تلك المناسبة فلا خطر من ذلك قط، ولا يتناقض شيء منه مع دين الله سبحانه وتعالى قط.

أقول هذا أيها الأخوة لنتمتع بوعي يجعلنا نفرح عشرة بالمائة بما نسميه اليقظة الإسلامية، ونحذر تسعين بالمائة على هذه اليقظة من أعدائها الأبعدين ومن المحترفين لمعادة الإسلام الأقربين.



٢٩٠- التّنازع والشّقاق أخطر المصائب التي حذر الله منها | ١٩٩٤/٠٩/١٦

ما أعتقدُ أنَّ العالمَ الإسلاميَّ – والعالمُ العربيُّ قلبُه – منيَ في عصرٍ من العصورِ بمصيبةٍ استنزفت حيويّتهُ وكادت أن تقضيَ على وجوده كالمصيبة التي منيَ بها العالم الإسلاميُّ والعربيُّ في هذا العصر، تلكَ المصيبة التي تتمثّل في التّفرّقِ والتّشرذم اللّذَينِ قضيا عليه.

ومهما تصوّرنا المصائبَ وأهميتها، ومهما تصوّرنا النّكبات التي مرّت بهذه الأمّة على جسامتها، فلن نجدَ أجسمَ ولا أخطر من المصيبةِ الكبرى التي حاقت بها في هذا العصر والتي تتمثّلُ في التّدابر الذي حاقَ بجماعاتها وبدولها وأقطارها حتى غدا كلٌّ منها محوراً ضدَّ المحورِ الآخرِ تقريباً.

وهذه المصيبةُ الكبرى تتفرّعُ عنها – كما قلتُ أكثر من مرّة مصائب متنوّعة ومتعدّدة – لا مجالَ لحديثِ عنها بل ربّما لا مجالَ لإحصائها.

وأنتم تعلمون أيها الإخوة أنَّ اللهَ عزَّ وجلّ ما امتنَّ على عبادهِ بنعمةٍ من النّعم التي جاءت ثمرة للإسلام كنعمةِ الوحدةِ التي أكرمَ اللهُ هذه الأمّةَ بها، وما أعلمُ أنَّ اللهَ حذّرَ هذه الأمّة من أن تتنكّبَ فتقعَ في مصيبةٍ من أخطرِ المصائب كما حذّرها من التّنازعِ والشّقاق، فكلّكم يقرأ قولَ اللهِ عزَّ وجلّ: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾، وكلّكم يقرأ قولَ اللهِ عزَّ وجلّ: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾.

وإنا لنرى بأمِّ أعيننا السّبب في أنَّ اللهَ عزَّ وجلّ امتنَّ على عبادهِ بهذه النّعمةِ الكبرى، ونرى السّبب في أنَّ اللهَ حذّرَ عبادهُ المسلمين من أن يقعوا في نقيضِ هذه النّعمةِ من التّنازعِ والتّدابر، نرى سببَ ذلكَ فيما قد حاقَ بنا، عندما تفرّقت هذه الأمّة سَهُلَ على العدوِّ أن ينالَ منها كلَّ منال، وأن يصلَ منها إلى كلِّ ما يبتغي، وأن يحيلَ عزَّها إلى ذلّ، وأن يحيلَ قوّتها إلى ضعف، وأن يحيلَ غناها إلى فقر، ولا داعيَ إلى أن أفصّلَ وأفسّر.

ولكن من أين جاءَ هذا التّدابر؟ وكيفَ تسرّبَ إلينا هذا التّنازع؟ وكيفَ أصبحنا محاورَ متدابرة؟ محاور متنازعة بعدَ أن شاءَ اللهُ عزَّ وجلَّ لنا أن نكونَ أمّةً واحدة؟ هنالكَ عواملُ كثيرة، ولكن من أخطرِ هذه

العوامل عواملُ ينسجها المسلمونَ بأيديهم، بل يسعى إليها المسلمونَ الملتزمون بالإسلام باختيارهم، وهذا هو البلاء الأطم، أن يكون المسلمون هم الأداة لهذا التّفرّقِ الذي حاقَ بهم، وعن طريقِ إسلامهم فيما يبدو، هذا العاملُ الذي أريدُ أن ألفتَ النّظرَ إليه بكلماتٍ وجيزة، وبكلامٍ مكثّف نلاحظهُ أيها الإخوة إن التفتنا إلى يميناً أو شمالاً، أنّا نظرنا نجد كيفَ أنَّ المسلمينَ بأيديهم يمزّقونَ وحدتهم، وبمساعيهم يقضونَ على التّضامن الذي أكرمهم اللهُ سبحانهُ وتعالى به.

التّطرّف.. التّطرّف هو الذي يخلقُ ردودَ الفعل، وردود الفعل تنتهي إلى هذا التّمزّقِ الذي أحدّثكم عنه، والتّطرّفُ نراه في السّلوك، ونراهُ في المعتقدات، ونراهُ في مخترعاتٍ تُختَرَعُ باسمِ الدّين، كلُّ هذه الأمورِ وغيرُها يدخل تحتَ عنوان التّطرّف أو التّكلّف أو التّقعّر، وقديماً نهانا رسولُ اللهِ وحذّرنا من التكلّف، وحذّرنا رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ من التنطّع.

والتّكلّفُ والتّنطّعُ والتّقعّرُ والتّطرّف، كلُّ ذلكَ كلماتٌ لها مدلولٌ واحد، ألم يقل المصطفى عليهِ الصّلاةُ والسّلام: ﴿هلكَ المتنطّعون﴾؟ قالها ثلاثاً، والحديثُ صحيح: ﴿هلكَ المتنطّعون، هلكَ المتنطّعون، هلكَ المتنطّعون﴾، ويضيقُ المجالُ أيها الإخوة عن رسم هذا التّنطّع الذي يقوم به المسلمون سيراً في اتّجاهٍ مناقض لما أوصانا به رسولُ الله صلّى اللهُ عليهِ وسلّم، ولكن فلأضعكم أمامَ نماذج، ولأوضح لكم كيفَ أننا نصنعُ بأيدينا أسبابَ الفُرقةِ والتّدابر.

هنالك من يتنطّع، ومن يتطرّف في التّصوّر والاعتقاد، فيذهبُ مذهباً يرى به رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلّم بدعةٌ جارحة، ولعلّكم لا تصدّقون أنَّ في المسلمينَ اليوم من ذهبَ هذا المذهب ولاذَ بهذا الملاذ، سمعت ذلكَ أذني في موسمٍ من مواسمِ الحجّ من إنسانٍ قام يدعو إلى اللهِ عزَّ وجلّ وله مظهر الدّاعي إلى الله والعا لم بشريعة الله، يقولُ لهم: إياكم والغلوَّ في حبِّ محمّدٍ رسول الله صلّى اللهُ عليهِ وسلّم، سمعت أذني هذه الكلمة، أقولُ ذلك لأنّهُ ما من مسلمٍ إلا ويشمئزُّ ويعجبُ من هذا الكلام، هذا تطرّفٌ عجيب، ما الموجبُ لأن يُقالَ هذا الكلام؟ لو أنَّ الذي قالَ هذا الكلام نظرَ فرأى نفسهُ بينَ ثلّةٍ من المجاذيب الّذينَ جُذبوا عنِ الدّنيا بمحبّةِ رسول الله، فغابوا عن أنفسهم وعن تجاراتهم ودنياهم، ولكنّنا ننظرُ أنّا كنّا وحيثُ ما وُجدنا فلا نجدُ إلا أنساناً معرضين عن حبِّ اللهِ وعن حبِّ رسولِ الله، وأكثرنا حبّاً لله هو ذاكَ الذي يشطرُ قلبهُ إلى قسمينِ اثنين: جزء يتجه به إلى حبِّ دنياه وشهواته وأهوائه، وجزءٌ يتّجه به

إلى حبِّ اللهِ وحبِّ رسوله، أينَ هم الغلاة؟ أينَ هو الإنسان الذي سَكِرَ بحبِّ رسولِ الله حتى لم يعد يستطيعُ أن ينظرَ في أمورهِ الدّنيويّة؟

هذا التّطرّفُ في القولِ إلامَ يدفع؟ يدفعُ إلى ردودِ فعل، يدفعُ إلى نقيضِ هذا الكلام، يدفع إلى أن يقومَ أناسٌ هنا وهناك وقد اندفعوا بالاشمئزازِ من هذا القول، فيقومُ الجَدَل، وتشيعُ الفُرقة، ذلكَ لأنَّ التّطرّف من شأنهِ أن يوجِدَ التّكلّف، وذلكَ لأنَّ التّكلّف من شأنه أن يُوجِدَ ردودَ الفعل المختلفة، وهذا هو العاملُ الأكبر في القضاءِ على التّضامنِ والوحدة أينما وُجدوا.

هذا مثالٌ للتطرّفِ في طرفٍ معيّن، ولكن انظروا إلى التّطرّفِ الآخرِ في الطّرفِ الثّاني، سمعت أذني أيضاً شيخاً من الشّيوخِ يقولُ لمريديه: إنَّ حبَّ الشّيخِ أهمُّ وأجلُّ من حبِّ اللهِ ورسوله، هذا ما سَمِعَتهُ أذني، والرّجلُ أيضاً داعٍ ومربٍّ ومعدودٌ في العلماء، ثمَّ قالَ الرّجل: لعلّكم ترونَ في هذا مبالغةً، فالأشرح لكم: إنَّ حبَّ اللهِ عزَّ وجلّ شيءٌ كبيرٌ وكبيرٌ جدّاً، لا يتّسعُ لهُ قلبُ الإنسان الذي عاشَ حياتهُ الدّنيويّةَ هذه متقلّباً في فجاجها كعامّةِ النّاس، لا بدَّ لصاحبِ هذا القلبِ الصّغير من مربٍّ يهيّئ هذا القلب لحبِّ الله، وهذا المربّي هو الشّيخ، ولكي يستطيعَ المربّي أن يهيمنَ على قلبِ هذا المريد لابدَّ أن يتّجهَ هذا المريدُ بكلِّ مشاعره إلى حبِّ الشّيخ، ومن ثمَّ ينتقل إلى حبِّ اللهِ عزَّ وجلّ.

لو لم أسمع أيّها الإخوة هذا الكلامَ بأذني لأنكرته ولكنّني سمعته، وتأمّلت في ذلك الإفراط وهذا التفريط، وتأمّلت في ذلك التّكلّف الذي يسيرُ إلى أقصى الغرب، وهذا التّكلّف الذي يسير إلى أقصى الشّرق، والأمّةُ الواحدةُ هي التي تتمزّقُ بينَ هذا وذاك.

المسلمون، عبادُ الله عزَّ وجلّ الذين يريدون أن يعرفوا الحق فيتّبعوه، يريدونَ أن يتبيّنوا صراطَ اللهِ عزَّ وجلّ فيتلاقوا عليه، يتمزّقونَ بينَ هذا التّكلّفِ وذاك، بينَ ذاكَ التّنطّعِ وهذا، فماذا يصنعُ هذا القولُ الأرعنُ، وهذا القولُ الأرعنُ الثاني؟ ولابدَّ أن يقومَ النّاسُ فيثوروا، ولابدَّ أن تقومَ ردودُ فعل، ولابدَّ أن تتحوّلَ وحدةُ الأمّةِ الإسلاميّةِ إلى نثار متمزق، هذا شيءٌ طبيعيّ.

بينَ ذلكَ التّطرّف ولهُ نماذجُ شتّى ويضيقُ الوقتُ عن ذكرها، وهذا التّطرّف ولهُ نماذجُ شتّى ويضيقُ الوقتُ عن ذكرها، تظهرُ فقاقيعُ الخلافات، وتظهرُ فقاقيعُ الأفكارِ المتناقضةِ المتصارعة، وكلُّ ذلكَ يصبُّ في أمرٍ واحد، ما هو؟ وحدةُ هذه الأمّة هي التي تذهبُ ضحيّةَ ذلكَ كلّه.

حبُّ الشّيخ أهمُّ وأجلُّ من حبِّ الله، كيفَ ذا؟ هل هنالكَ إنسانٌ لم يُفطر على حبِّ اللهِ ورسوله؟ أليسَ هذا الإسلامُ دين الفطرة؟ أليست هذه العقيدة التي جاءت بها الرّسلُ والأنبياء انعكاساً لشعاعٍ ينبثقُ من فطرةِ الإنسان؟ كلُّ إنسانٍ إذا عرفَ الله أحبّه ولا داعيَ إلى وساطةِ شيخه، إنما يحتاجُ الإنسانُ إلى وساطةِ عقلٍ مفكّر، ثمَّ إلى وساطةِ فكرٍ يذكرُ الله، جُبلتِ النّفوسُ على حبّ من أحسنَ إليها، هل هذا القانونُ يحتاجُ إلى شيخ؟ كلُّ من أحسنَ إليكَ لابدَّ أن تحبّه، ليكن جارَك، ليكن أستاذك، ليكن تلميذك، ليكن القائدَ الذي تسيرُ في ركابه، ليكن أيَّ زيدٍ من النّاس، فكيفَ عندما يكونُ المحسنُ ربَّ المحسنين؟ كيفَ عندما تذكرُ أنَّ اللهَ هو الذي أكرمكَ بالنّطقِ وأكرمكَ بالفكر وأكرمكَ بالعافيةِ والصّحةِ وأكرمكَ برغدِ العيشِ وأكرمكَ بالقدرةِ على استيرادِ الطّعامِ وأكرمكَ بالقدرةِ على الشّرابِ وأكرمكَ بالقدرةِ على الرّقاد وأكرمكَ فسترَ معايبك وأظهرَ محاسنك، عندما تتفكّرُ وتتأمّلُ في هذه الآلاء أفتحتاجُ إلى من يتوسّطُ ليملأَ قلبكَ بحبِّ اللهِ عزَّ وجلّ؟ لو أنَّ أيَّ رجلٍ من الشّارع تفكّرَ في آلاءِ اللهِ عزَّ وجلّ لعشقَ اللهَ سبحانهُ وتعالى. هذه حقيقةٌ ينبغي أن نعلمها جميعاً.

وحبُّ رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم مهما بلغ، أفيصلُ إلى درجةٍ اسمُها الغلو؟ أفيصلُ إلى درجةٍ اسمُها الغُلو؟ وهل في النّاسِ من فعلَ أكثرَ مما فعلَ أصحابُ رسولِ الله؟ أفأضعكم أمامَ نماذج من حبِّ أصحابِ رسولِ الله لرسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم؟ أفأذكّركم بقولِ أبي سفيان: ويحكم ما رأيتُ قوماً أشدَّ حبّاً لشخصٍ من حبِّ أصحابِ محمّدٍ لمحمّد؟ ومهما غالى المغالي، أفيصلُ بحبّهِ إلى أبلغَ من الدّرجةِ التي وصلَ إليها زيدُ بن الدَّثِنّة، الذي جيءَ به ليُقتل في ضاحيةٍ من ضواحي مكّة، فقالَ لهُ أبو سفيان: أنشُدُكَ الله يا زيد، أتحبُّ أنّكَ في أهلكَ آمناً مطمئناً وأنَّ محمّداً في مكانكَ هنا؟ فقالَ: واللهِ لا أحبُّ أن أكونَ في بيتي آمناً مطمئنّاً ورسولُ اللهِ يُشاكُ بشوكة. أي أنا مستعدٌّ أن أضحّي بحياتي كلّها في سبيل أن لا يشاكَ رسولَ اللهِ بشوكة. مهما بلغَ الإنسانُ في حبّهِ لسيّدنا رسولِ الله أفيبلغُ هذه الدّرجة؟ كيف، كيف يمكن أن يقبلَ العقل كلمةً من هذا القبيل؟

هذا هو واقعنا أيّها الإخوة، العالَمُ العربيُّ والإسلاميُّ هذه الكتلة يضحّى بها بسببِ هذا التّنطّع، هذا التّنطّع الذي يجرُّ الأمة آناً إلى أقصى هذا الطّرف، ويجرُّ الأمّةَ آناً إلى أقصى هذا الطّرف، ويجرّها أقصاً إلى أطرافٍ أخرى كثيرة وكثيرة، وانظروا إلى النّتائج، انظروا إلى الخلافات، انظروا إلى الخصومات، انظروا إلى الشّقاق، من الذي يستفيدُ منه؟ من الذي يبني عليه ساقاً فوقَ ساقٍ من البنيان؟ العدوّ، العدوّ هو الذي ينفخ في نيران هذه الخلافات، أنحنُ مجنونون؟ بلغنا درجةَ الجنونِ أيها الإخوة، أم نحنُ متجاهلون؟ أم إنَّ مصالحنا أودت بنا إلى هذا الحدّ من اتّخاذِ الدّين أشبهَ ما يكونُ بكرةٍ تُقذفُ إن بالعقول المتنطّعة كما قالَ رسولُ الله، أو بالأقدامِ الدّافعة؟

كلا الأمرينِ سواء، وأمامي صورٌ كثيرةٌ لهذا التّنطّع ويضيقُ الوقتُ عن ذلك، ولكنّي أحبُّ أن أعودَ إلى صدرِ حديثي: هذه الأمّة بُلِيَت بأعظمِ مصيبة، بأعظمِ مصيبةٍ حاقَت بها منذُ فجرِ الإسلامِ إلى يومنا هذا: مصيبةُ التّفكّك، مصيبةُ التّشتّت، ولذلكَ أسبابٌ متنوّعة، ولكنَّ هذا من أخطرِ الأسباب، لن أتحدّثَ عن سببٍ يأتينا من عدوّ فهذا شيءٌ طبيعيّ، لن أتحدّثَ عن سببٍ نُدفعُ إليهِ دفعاً ربّما كانَ هذا أمراً طبيعيّاً، لكنَّ الأمرَ العجيب الذي تنزفُ منهُ الدّماءُ من الأكباد، الأمرُ الذي يشكّلُ مصيبةً داهمةً أخرى: أن يكونَ المسلمونَ هم العاملَ الأوّل في هذا التّشرذم وبسلاحِ الإسلام، وبسلاحِ الإسلامِ نفسه. فأنا أسألُ اللهَ سبحانهُ وتعالى أن يقينا شرَّ التّطرّف.

أيّها الإخوة أنتم المقصودونَ بهذا التّطرّف، وأنتم الّذينَ تعانونَ من الانجذابِ إلى هنا آناً وإلى هنا آناً، ما العاصم؟ العاصم أن تدرسوا دين الله، وأن تتبيّنوا شريعةَ الله وأن تخلصوا عملكم للهِ عزَّ وجلّ، عندئذٍ سيكرمكم اللهُ بالتّوفيق. لا يمكنُ لمن يجذبكم إلى تّنطّعٍ ذاتَ اليمينِ أن يؤثّرَ عليكم، ولا يمكنُ لمن يريدُ أن يجذبكم إلى تنطّعٍ ذاتَ الشّمالِ أن يؤثّرَ عليكم بشكلٍ من الأشكال.

نحنُ نؤمن بالتّصوّف، ولكنّا والله ننكرُ التّصوّفَ عندما يكونُ وعاءً لبدعٍ كاذبة، ننكرُ التّصوّف عندما يكونُ سلّماً لشهرةِ أشخاص، ننكرُ التّصوّف عندما تتحوّلُ العبوديّةُ للهِ إلى العبوديّةِ للأشخاص، ننكرُ التّصوّف عندما يدفعُ أصحابهُ إذا ماتَ لهم شيخٌ أن يقيموا لهُ نصباً تذكاريّاً وكأنّهُ يُعبدُ من دونِ اللهِ سبحانهُ وتعالى، ما كفرنا بالتّصوّفِ الذي هو لبُّ الإسلام، ولكنّا نجحد بالتّصوّف الذي يُتّخذُ لأمثالِ هذه البدع.

ونحنُ لا يمكن أن نبتعدَ عن إسلامنا الحقيقيّ، عن طريقِ شعاراتٍ اسمُها محاربةُ البدع، ثمَّ إننا نجد أنَّ هذه الشّعاراتِ في وادٍ وأنَّ الواقعَ في وادٍ آخر، وأنَّ الذي يُحارَبُ في الواقعِ هو دينُ الله وليست البِدع.

عن طريق محاربة البدع يقالُ إيّاكم الغلوّ في حبِّ رسولِ الله، عن طريقِ محاربةِ البدع يقالُ أين الله ولن تكونَ مسلماً إلا إذا أشرتَ بإصبعك هكذا وقلتَ في الأعلى، أيضاً هذا ممكن. ونسألُ اللهَ عزَّ وجلَّ أن يلهمنا الرّشد وأن يجعلنا ممن قالَ اللهُ عزَّ وجلّ عنهم: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾، أقولُ قولي هذا وأستغفرُ اللهَ العظيم..



٢٩١- الفرق بين السلف الصالح وخلف اليوم | ١٩٩٥/٠٤/٢١

إنّ المسلمين من الرعيل الأول الذين أكرمهم الله سبحانه وتعالى بصحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والسلف الصالح الذين جاؤوا من بعدهم، خضعوا لهذا الدين الذي شرفنا الله سبحانه وتعالى به، فكان أن ساقهم الدين إلى حيث شاء الله سبحانه وتعالى لهم من العزة والمنعة والسؤدد والوحدة، ثم خلف من بعدهم خلفٌ انتسبوا هم الآخرون أيضاً إلى هذا الدين، ولكنهم أبَوْ إلّا أن يكونوا هم الذين يسوقون الدين إلى حيث يشاؤون، فكان أن اتخذوا من الدين مطيّة لأهوائهم وسبيلاً لمبتغياتهم فانحطت بهم أهوائهم إلى الدرك الأسفل من الذل والمهانة ومن التفرق والشتات. وأنا أريد أن تلاحظوا فرق ما بين ذلك السّلف وهذا الخلف، أولئك استسلموا للدين الذي سار إلى حيث يشاء الله عز وجل، ونحن أخضعنا الدين إلى حيث ينبغي أن نسوقه بناءً على رغباتنا وشهواتنا وعصبياتنا وأهوائنا، والكل من سلفٍ وخلف في الظاهر منتسبون إلى هذا الدين ومتمسكون به، ولكن فرقٌ بين من يتمسك بالشيء منقاداً إليه وبين من يتمسك بالشيء ليجره إلى رغباته وأهوائه.

هذا هو فرق ما بين المسلمين اليوم والمسلمين بالأمس باختصار. ولكن لماذا كان هذا الفرق؟ لماذا كان إسلام أصحاب رسول الله رضوان الله عليهم والسلف الصالح الذين جاؤوا من بعدهم مظهراً واضحاً لقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ كان واقعهم مظهراً لهذا الاستسلام؟ ولماذا آل أمرنا إلى حيث أصبحنا نحمل الإسلام على أن يستسلم لنا، نحمل الإسلام على أن يصبح مطية ذلولاً لنا ولأهوائنا؟. ما هو الفرق الذي دعا أولئك الناس أن يستسلموا لدين الله والذي دعانا نحن إلى أن نحمل إسلامنا أن يستسلم هو لمبتغياتنا وأهوائنا؟

الفرق شيء واحد أيها الأخوة هو أنّ ذلك الرعيل الأول أخلصوا لله عز وجل في الإسلام الذي اتجهوا بقلوبهم ووجوههم إليه، فكانوا منصاعين ومنقادين لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلا صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ

أَحَدًا﴾ أي لا يدع شيئاً ما يتسرب إلى مشاعره وقلبه ليكون شريكاً مع الله سبحانه وتعالى في السير على صراط الله عز وجل.

كانوا مظهراً للإنقياد لقول الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾. والصدق تعبيرٌ آخر عن الإخلاص لدين الله عز وجل. لن يكون المؤمنُ صادقاً إلا إذا كان مخلصاً دينه لله، ولن يكون الإنسان مخلصاً إلا إذا كان صادقاً مع الله عز وجل في لسانه وبمشاعره.

كانوا مظهراً للإنقياد لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ﴾ أخلصوا لله عز وجل واجتثوا حظوظ الناس واجتثوا الأهواء وانفصلوا عن العصبيات والأغراض كلها، حتى آلت قلوبهم إلى أن أصبحت أوعيةً نظيفةً طاهرةً من سائر الشوائب لتتجه إلى الله سبحانه وتعالى باليقين وبالحب والطواعية، ولذلك استسلموا لله سبحانه وتعالى استسلموا لدين الله سبحانه وتعالى، تركوا أنفسهم وأهوائهم وشهواتهم تنقاد لما يُرضي الله سبحانه وتعالى، فكانوا منقادين لدين الله سبحانه وتعالى ولم يكونوا مُسَيّرين لهذا الدين، ولذلك كانوا أُمناء على شرعه، كانوا أُمناء على عقائده لم يُغيروا لم يُبدلوا لم يُطوِّروا شيئاً من عقائدِ هذا الدين، لم يُبدلوا ولم يُطوروا شيئاً من الشرائع الثابتة المستقرة في هذا الدين العظيم، وهذا معنى استسلامهم وإسلامهم كما قال الله عز وجل وجوههم أي كياناتهم لدين الله سبحانه وتعالى.

أمّا نحن فنحن في الظاهر مثلهم تماماً، ونحن في الشعارات نملك شعارات أكثر بريقاً منهم وأكثر ألقاً وأكثر ضخامةً، ونحن في الدعاوي ربما كنّا أسبق منهم، ولكن الذي نختلف به عنهم أنّ قلوبنا ليست صافيةً كصفاء قلوب أولئك الناس.

أهواؤنا هي المتغلبة على دوافع سلوكنا، عصبياتنا حظوظنا محبة الدنيا التي رانت على قلوبنا... كل ذلك هو المهيمن على كياناتنا الداخلية الخفيّة، ولذلك فقد غدا صوت الإسلام خافتاً بين جوانحنا وبين هذه الأصوات المرتفعة الأخرى؛ لم نُخلص لله سبحانه وتعالى، تسرّبَ الرياء، تسربت الحظوظ، تسربت دواعي الشهوات والأهواء، تسربت العصبيات، فكنا جانحين وبعيدين عن الانضباط بقول الله سبحانه وتعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلا صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾. ومن ثمّ كنا جانحين

بعيدين عن الانضباط بقول الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ أي الصادقين مع الله فيما يدّعون، كونوا مع الصادقين مع الله فيما يعاهدون فيما يبايعون، لا تكوننّ حظوظكم بألسنتكم ثم تكون قلوبكم ملكاً لأهوائكم وملكاً لشهواتكم، فماذا كانت النتيجة؟

كانت النتيجة أننا تحايلنا على هذا الدين، حتى جعلناه ينساقُ هو وراء رغباتنا وشهواتنا وأهوائنا، تحايلنا عليه حتى اتخذنا منه مطية ذلولاً لأمانيّنا ورغباتنا. وهكذا فقد كان سبب هذا الفرق الكبير أنهم أخلصوا دينهم لله عز وجل فاستسلموا لسلطان الله وحكمه وكانوا أمناء فلم يُغيروا. أمّا نحن فقد استسلمنا لشهواتنا وأهوائنا ورغائبنا وحظوظنا، ودفعنا ذلك إلى أن نقود الإسلام بدلاً من أن ننقاد له، وكانت نتيجة هذه النتيجة أننا غيرنا ولم نبالي، وأمعنا في التغيير ولا نزال ولا نبالي، ونسينا أو تناسينا وصايا رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل أوامر رب العالمين سبحانه وتعالى، وقول رسول الله في الحديث الصحيح المعروف يوم وقف قبيل وفاته بين القبور قائلاً: ﴿السلام عليكم دار قومٍ مؤمنين ونحن بكم إن شاء الله لاحقون ثم قال: وددت لو أني رأيت إخواننا. فقال قائلٌ: ألسنا إخوانك يا رسول الله؟ قال: بل أنتم أصحابي وإخواني أولئك الذين لم يلحقوا بعد وسأكون فرطاً لهم على الحوض أي سأستقبلهم على الحوض. ثم قال: ألا ليزادنّ رجالٌ عن حوضي أي ليطردن رجالٌ عن حوضي كما يُزاد البعير الضآل، فأقول: ألا هلم هلم. فيُقال: إنك لا تدري كم بدلوا من بعدك فأقول فسحقاً فسحقاً فسحقا﴾.

أحسب أنّ هذا الذي يقوله المصطفى عليه الصلاة والسلام إنما ينحطُّ علينا وعلى أمثالنا. فها أنتم ترون كم بدلنا وكم غيرنا وكم نمعن في التبديل والتغيير، وما أكثر ما يُجلجل كثير من الناس بكلمة معروفة قالها أحد العلماء: حيثما وجدت المصلحة فثمّ شرع الله.

قالوا: تتبدل الأحكام بتبدل الأزمان، شيء رقص له أصحاب الشهوات والأهواء، رقص له أصحاب الدنيا أولئك الذين يريدون أن يتحايلوا على الإسلام حتى يجروه إلى مغانيهم بدلاً من العكس، غطوا أنفسهم بهذا الكلام.

تتبدل الأحكام بتبدل الأزمان، ولم يُحمِّلوا أنفسهم مسؤولية فهم هذه الكلمة، بأي قانون تتبدل الأحكام إذا تبدلت الأزمان، وبأي دافع؟ ومن الذي يشرح هذا القانون وهذا الدافع؟ وهل هي أحكامٌ تتحولُ دائماً من الشدة إلى التخفيف!؟ تتحول دائماً من الحرمة إلى الرخصة والإباحة كما يفهمه أصحاب الرعونات والأهواء في هذا الوقت؟ أم إن هذا التبدل كما يتم بهذه الصورة يتم أيضاً بالانتقال من المباح إلى الحرام، بالانتقال من الجواز إلى المنع؟ هذا واردٌ وذاك وارد ولكل ذلك دستور ولكل ذلك قانونٌ وميزان، وإنما يُرجع في قانونه وميزانه إلى حُرّاس هذا الدين الذين أخلصوا دينهم لله سبحانه وتعالى. ذلك هو داؤنا أيها الأخوة أننا فقدنا الإخلاص لله.

وكأني بكم تسألون: فما العلاج الذي يُعيد إلينا نعمة هذا الإخلاص وكيف السبيل إلى ذلك؟ إنّ الحديث عن هذا العلاج طويل أيها الأخوة، ولكن بوسعي أن أقول لنفسي ولكم شيئاً واحداً: كلما ازداد الإنسان بخياله وشعوره قُرباً من الموت، كلما ازداد قرباً من الإخلاص لله عز وجل، وكلما ازداد شعوره بلذة الإخلاص لله سبحانه وتعالى. وكلما ابتعد الإنسان بخياله عن الموت ووضع بينه وبينه حواجز الأماني والأحلام، كلما ابتعد عن الإخلاص لله سبحانه وتعالى.

فمن شاء أن يُخلص لله فليُغمض عينيه وليتصور أن الموت يطرُقُ بابه أو كاد أن يطرُق، وليتصور أن أمانيه وأحلامه من هذه الدنيا طُويت وأنه قد حان تحوله من هذه الدنيا إلى لقاء الله عز وجل وليعد بعد ذلك إلى قلبه، لسوف يجد أن الإخلاص لدين الله قد استيقظ بين جوانحه، ولسوف يجد أن الشهوات، الحظوظ، العصبيات، الأهواء، كل ذلك قد خفت، وجلجل صوتٌ واحدٌ في سويداء قلبه ألا وهو صوت التحذير من المآل، الإخلاص لله سبحانه وتعالى.

والإنسان لا يعلم متى يحين حينه، ما ينبغي أن يخدع نفسه بأيام الشباب أو بمرحلة القوة والنشاط، فالموت لا يعلم فرقاً بين شابٍ وشيخ، بين قويٍ وضعيفٍ أبداً الموت يتصيّدُ الناس ويلتقطهم حسب قرار الله الخفي الذي لا يعرفه أحد ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

إذا وضع الإنسان الموت نُصب عينيه ذابت الدنيا في قلبه، وإذا أبعد الإنسان الموت عن عينيه هيمنت الدنيا على قلبه هذا هو مختصر الدواء. وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل الموت نُصب أعيننا دائماً حتى نكون متحررين بذلك عن دنيانا وشهواتنا وأهوائنا وحتى نذوق بعد ذلك طعم الإخلاص لوجه الله سبحانه وتعالى. أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.



٢٩٢- التجائي إلى رسول الله أدبٌ مع الله عز وجل | ١٩٩٦/٠٨/٠٢

إن من مقتضى محبة الإنسان لله سبحانه وتعالى أن يحب رسوله المصطفى محمداً صلى الله عليه وسلم، وإن من مقتضى محبة المسلم لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينقاد لأوامره، وأن يطبق سنته، وأن يكون رقيباً على تنفيذ وصاياه كلها، ولكي يستطيع المسلم الثبات على ذلك ينبغي أن يكون رأسماله في ذلك محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فالمسلم الذي ينتمي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنسب اليقين العقلي بأنه رسولٌ من عند رب العالمين فقط، دون أن يكون قلبه مليئاً وفيّاضاً بحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، لن يستطيع الصبر على الانقياد لسنته، ولن يستطيع ثباتاً على تنفيذ وصاياه وأوامره، وإنما الذي يعينه على ذلك بعد الإيمان بنبوته صلى الله عليه وسلم إنما هو حب المصطفى صلى الله عليه وسلم.

وهذا هو السبب في أنه عليه الصلاة والسلام قال وكرر القول في أكثر من حديث صحيح واحد: ﴿لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ماله وولده والناس أجمعين﴾، وحاشى أن يكون الحافز لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هذا الكلام أنانية يشبعها بهذا الحديث، ما عاذ الله أن يكون دافعه إلى هذا الكلام ذلك، لكنه صلى الله عليه وسلم مكلفٌ بأن يبلغنا كل ما قد كُلّف بتكليفه، ومحبة المسلم لرسول الله صلى الله عليه وسلم جزءٌ لا يتجزء من الإيمان أو هي ثمرةٌ لابد منها من ثمرات الإيمان، فكان من الواجب على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبين ذلك للناس، وأن يوضح لهم أن عليهم أن يسعوا سعيهم إلى محبته صلى الله عليه وسلم بعد محبة الله عز وجل، ولو لم يقل ذلك لخان الأمانة – وما عاذ الله أن يخونها – ولما بلّغ الرسالة – وما عاذ الله أن لا يبلغها.

إذاً فالإنسان الذي اكتفى بصلته برسول الله صلى الله عليه وسلم بإيمانٍ عقلي أنه رسول، ثم لم يُشعر قلبه شيئاً من محبته صلى الله عليه وسلم لن ينفعه ذلك الإيمان إن بقي على هذه الحالة قط، وكيف ينفعه ذلك ورسول الله يقول: ﴿لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ماله وولده والناس أجمعين﴾.

فأما إذا سألت عن الطريق الذي ينبغي أن يسلكه المسلم إلى محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعلى الرغم من أن هذا سؤالٌ عجيب وغريب، عجيبٌ أن يقول مسلمٌ آمن بأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم، وآمن بأن القرآن كلام الله عز وجل، ثم احتار كيف يسلك السبيل إلى أن يحب رسول الله؟ هو يعاني من عدم محبته له، لا يمكن أن تجد إنساناً آمن بالله ثم آمن برسول الله وشعر بحاجته إلى السبيل التي يغرس بين جوانحه محبة المصطفى عليه الصلاة والسلام. على الرغم من غرابة هذا السؤال نقول:

تأمل في مدى محبة رسول الله لأمته تجد نفسك أمام السبيل بل أمام أقصر سبيلٍ إلى محبتك لرسول الله صلى الله عليه وسلم، انظر كيف كان المصطفى عليه الصلاة والسلام يحب أمته - سواءٌ منها من رآهم من أصحابه أو من تشوق إليهم من إخوانه، أي الذين لم يرهم، انظر كيف كانت مشاعره صلى الله عليه وسلم بالحب اتجاههم. هل يمكن إذا رأيت دلائل ذلك - والدلائل كثيرة - أن لا يفيض منك القلب حباً لهذا الذي أحبك؟!

وانظروا أيها الإخوة إلى هذا الحديث - وهو واحد من أحاديث كثيرة بل من مواقف كثيرة جداً - انظروا إلى هذا الحديث الذي يرويه مسلم بسنده: عن عبد الله بن عمر بن العاص ﴿أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلى قول الله عز وجل على لسان ابراهيم: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ثم تلى قول الله عز وجل على لسان عيسى عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ رفع يديه عندئذٍ سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: اللهم أمتي.. اللهم أمتي وبكى صلى الله عليه وسلم، فأمر الله جبريل أن ينزل إلى رسوله صلى الله عليه وسلم وأن يقول له: يا محمد يقول لك الله سبحانه وتعالى: سنرضيك في أمتك ولن نسوءك﴾.

هل في الناس إنسانٌ آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم ووقف أمام هذا المشهد العجيب من شدة رحمة رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمته، بل شدة محبته صلى الله عليه وسلم لأمته مما جعله يجأر إلى الله عز وجل بالشكوى والدعاء، ومما جعله يبكي قائلاً: اللهم أمتي أمتي، ثم كان من نتيجة التجاءه إلى

الله في هذه الشكوى أن بشره الله عز وجل – وهي بشارة لنا — قائلاً: يا محمد سنرضيك في أمتك ولن نسوءك.

فإن كنت على الرغم من هذا لا تشعر بحبك لهذا الذي أحبك، ولهذا الذي التجئ إلى الله يدعو من أجلك فأشهد أنك غير مؤمن بنبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولعلك عندئذٍ غير مؤمنٍ بربوبية الله الذي أرسل رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم.

وليت شعري لماذا يجأر رسول الله بالالتجاء إلى الله؟ أفي سبيل الطائعين من أمته؟ رسول الله يعلم أن كل إنسان طائع مستقيم على صراط الله من أمته لا بد أن يُنفذ وعد الله في حقه بالمغفرة والإسعاد والرحمة، فلا داعي إلى أن يجأر رسول الله إلى ربه بالدعاء الواجف الباكي، ولكنه عليه الصلاة والسلام يلتجئ إلى الله أن يغفر للعصاة من أمته لماذا؟ لأن الذي هيج لديه هذا الدعاء دعاء ابراهيم للعصاة من أولئك الذين بُعث بهم، ودعاء عيسى بن مريم للعصاة الذين أرسل إليهم، هذا الدعاء من سيدنا ابراهيم ومن سيدنا عيسى هو الذي هيّج رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقف المقام ذاته فيجأر ويلتجئ إلى الله باكياً أن يرحم أمته، أي أن يرحم العصاة من أمته صلى الله عليه وسلم.

أيها الإخوة عندما نجد مثل هذا الموقف لرسول الله الذي أكرمه الله عز وجل به، ألا يشعر كل إنسانٍ مسلم أن سبيله إلى الله عز وجل وهو عاصٍ آثم سبيله إلى الله عز وجل أن يلجئ إلى رسوله؟ من منا لا يشعر بهذا السبيل المفتوح لاسيما عندما يقف أمام أحاديث كثيرة وهذا حديثٌ واحدٌ منها، كما أن رسول الله التجئ إلى الله ليقبل شفاعته للعصاة من أمته، فإن مهمتنا نحن أفراد أمته صلى الله عليه وسلم أن نلتجئ إلى رسول الله الذي جعله الله ملجئاً لنا، أن نلتجئ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنستفيد من الالتجاء إلى ربه أن يغفر لنا، نستفيد من الدعاء الضارع إلى ربه أن يتوب علينا، أن يكون شفيعنا يوم القيامة عندما يجعل الله من رسوله ملاذاً لنا، أفلا نجعل نحن بدورنا من رسول الله الملاذ إلى الله سبحانه وتعالى؟!

وما عجبي من شيء كعجبي ممن يُعرض عن هذه المكرمة التي أكرم الله بها رسوله محمداً عليه الصلاة والسلام. ثم يقول: دعك من الواسطة، لا حاجة إلى الواسطة ليس بينك وبين الله حاجز ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾.

من الذي يقول لك: إن التجائي إلى رسول الله إنما هو شرك مع الله عز وجل، التجائي إلى رسول الله أدبٌ مع الله عز وجل. ألم يغرز الله عز وجل في قلب رسوله هذا الحنان لنا أليس هو الذي وضع في قلبه هذا الرحمة بنا أليس كذلك؟ من الذي جعل قلبه يرق للعصاة من أمته حتى يرفع يديه ويقول باكياً اللهم أمتي أمتي لماذا؟

الباري عز وجل قادرٌ أن يتجه إلينا مباشرةً بالرحمة والمغفرة والتوبة دون أن يكرم رسوله بأن يجعله هو الوسيلة إلى ذلك، قادر، ولكن ها أنتم ترون أن الله عز وجل غرز هذا التحنان العجيب لنا في قلب مصطفاه، مما دعاه إلى هذا الدعاء الواجف الباكي ثم أرسل إليه يقول: يا محمد سنرضيك في أمتك ولن نسوئك. من ذا الذي يجهل هذا المعنى أيها الإخوة؟ عندما يوسط الله رسوله سبيلاً إلى رحمته لنا أفما ينبغي بدورنا أن نوسط رسول الله ملاذاً لله عز وجل كي يتوب علينا؟

لا يمكن أيها الإخوة أن يجهل هذا الإنسان أن يجهل هذه الحقيقة إنسانٌ آمن بالمصطفى من بعد ما آمن بالله سبحانه وتعالى.

وإني لأتخيل أن أولئك الذين اخترعوا اليوم اختراعاً جديداً وعجيباً من مظاهر الكفران برسول الله صلى الله عليه وسلم، إنما قلدوا في اختراعهم هؤلاء الذين يقولون إن التوسل في رسول الله شرك. قام من يقلدهم فيقول: إن اتباع سنة رسول الله شرك، والتوحيد يقتضي أن نؤمن بوحيٍ واحد ألا وهو وحي القرآن، فإن أشركت مع وحي القرآن وحي سنة فذلك نوعٌ خطيرٌ من أنواع الشرك، قرأنا هذا الكلام لأناس كتبوه من جديد وأنا واثق أن هؤلاء الذين اخترعوا هذا اللون من الزندقة والكفران، إنما نبههم إلى ذلك أولئك الذين يقولون إن استنزال الشفاعة من رسول الله أو التوسل برسول الله صلى الله عليه وسلم شرك، إذا كان التوسل برسول الله شركاً فليكن اتباعنا لسنته أيضاً شركاً.

والواقع أن اتباعنا لسنة رسولنا إنما جاء بأمرٍ من الله: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ تماماً كالتوسل ما كان توسلنا برسول الله إلا بأمرٍ من الله سبحانه وتعالى، لو لم يأذن لنا الله بل لو لم يأمرنا بأن نتوسل برسوله لما جعل رسوله وسيلة الرحمة إلينا، بل ما جعله صاحب الشفاعة الكبرى يوم القيامة. يوم يلوذ كما ورد في الصحيحين الناس كلهم إلى الأنبياء جميعاً فيردونهم الواحد إثر الآخر إثر الآخر فلا يجدون ملاذاً أمامهم إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

إذاً عندما أقول نعم لا ملاذ لي إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحشر كلامٌ صحيح، بل هو الكلام الذي أنبأني به رسول الله صلى الله عليه وسلم وعندما يقول البوصيري:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به سواك عند حلول الحادث العمم

إنما قال هذا الكلام انعكاساً لما أخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم.

أيها الإخوة إن كنتم مؤمنين برسول الله، فاعلموا أن رأسمالكم لتغذية هذا الإيمان هو حب رسول الله، وإن كنتم تسألون عن السبيل إلى حب رسول الله، فالسبيل إلى ذلك كثير، لكن من أهم السبل: أن تتبينوا وتعرفوا مدى حبه لكم، وكم التجئ إلى الله في سبيل أن يكون شافعاً لكم غداً، وانظروا كيف أجاب الله عز وجل التجاءاته المتكررة عندما قال له: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾.

ترى ما الذي سيطلبه رسول الله يوم القيامة: هل سيطلب كنزاً من المال؟ هل سيطلب مزيداً من الرفعة التي متعه الله بها؟ أجمعت الأمة على أن الذي يرضي الله به رسوله إنما هو المغفرة الواسعة لأمته.

هذا هو السبيل الأكبر لغرس محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم بين جوانحنا. فأما إن كنت من أولئك الذين أصابهم رشاش هذا الشرود عن صراط الله سبحانه وتعالى، وأبيت أن تعلم أن الله جعل رسوله وسيلة رحمة لنا فمعنى ذلك أنك اجتثثت جذور حب رسول الله من قلبك وأسأل الله لك العفو والعافية من هذا.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.


الإسلام السياسي

٢٩٣- أيهما الضامن لحرية المعتقد الإسلام أم العلمانية؟ | ٢٠١٢/٠٩/٢١

إن من أعجب المفارقات المذهلة أن كلاً من أمريكا والصهيونية العالمية وإسرائيل إذ يروجوا الكل لذلك الفيلم الساقط العاهر، ذلك الفيلم الذي اشتركوا جميعاً في صنعه، ذلك الفيلم الذي أفرغوا فيه ما شاؤوا من رجيع أحقادهم على الإسلام ونبي الإسلام وسائر الرسل والأنبياء، أقول: من المفارقات العجيبة أن هذا الثلاثي ذاته يوصي أو يأمر ما يُسمى بالقاعدة أن يقيم الدولة الإسلامية في سورية، وإنني لأقول: إن صح هذا النبأ فلا شك أن الدولة الإسلامية التي ستكلف القاعدة بإقامتها عندنا في سورية إنما ذلك الإسلام الذي صُنِعَ في ذلك الفيلم، ذلك هو الإسلام الذي تُكَلَّفُ القاعدة بإقامته في ديار الشام ولكأن ديار الشام غريبة عن الإسلام لم تُبْنَ فيها دولة الإسلام بعد، أي إسلام هذا الذي تُدْعَى القاعدة إلى بنائه؟

إنه الإسلام الذي تواجهك منه أنياب بارزة غليظة ومخالب حمراء متوثبة ضمن كتلة من السواد الفاحم المرعب المخيف، ذلك هو الإسلام الذي يحرص كل من أمريكا والصهيونية العالمية وإسرائيل على إقامته وأين؟ على إقامته في ربوع الشام في قلب الشام في سورية، أي إسلام هذا الذي يمكن للإرهاب الوهابي الذي تقوده فيما يبدو القاعدة، أي إسلام ذاك الذي يتجسد في ذبح المجاهدين للأطفال والنساء والشيوخ والناس البرآء الآمنين في سربهم، أي إسلام ذاك الذي يتجسد في اقتحام من يُسَمَّون المجاهدين في اقتحام البيوت على أصحابها وطردهم منها ليحتلوها ويجعلوا منها منطلق جهادهم، أي إسلام ذلك الذي يتجسد في التقاط فتيات عفيفات صالحات مستقيمات يُغْتَصَبْنَ، تُلْتَقَطُ الواحدة ويحاط بها ثم يتعاقب الكل واحداً واحداً إثر آخر لينال حظوته منها قبل أن تقتل، هذا هو الإسلام الذي تُكَلَّفُ القاعدة ببنائه، إسلام يقوم على دعائم الإرهاب والظلم والفحش وما إلى ذلك، إسلام ليس بينه وبين ما نتبينه في كتاب الله وما ورثناه من سنة وسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم لا نتبين بينه وبينهما إلا علاقة النقيض بالنقيض.

قيل لي: إن مجلة فرنسية نشرت صوراً كاريكاتيرية تسيء من خلالها إلى الإسلام وإلى مقام النبوة، قلت لهم بيقيني أن الصورة التي رسمتها المجلة ليست صورة الإسلام التي نتبينه في قرآن الله عز وجل وسيرة رسول الله وإنما هي صورة هذا الإسلام الزيف المكذوب به على الله سبحانه وتعالى، نعم، هذا ما بلغني وإنها لأعجوبة ومفارقة مذهلة بين الفيلم الذي أفرغ فيه أولئك العتاة كامل رجيع حقدهم على دين الله عز وجل وعلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم إنهم ليعودون ليكلفوا جنودهم وعبيدهم بإقامة الدولة الإسلامية.

وبعد أيها الإخوة: فإن في الناس من فكر ورأى أن الوسيلة التي يمكن بها تحصين بلدنا هذا سورية التي هي قلب الشام، الوسيلة الناجعة لتحصين شامنا هذه ضد هذا الإسلام الزيف المكذوب على الله عز وجل إنما هو إعلان النظام العلماني وإنني لأقول متسائلاً: وهل أتيح لهذه الوهابية، الوهابية التائهة عن دين الله سبحانه وتعالى، الوهابية الإرهابية هل أتيح لها في يوم من الأيام أن تقتحم سوريا؟ هل أتيح لها في يوم من الأيام أن تبيض وتفرخ في سوريا؟

نعم ها هي ذي قد غزت شمال إفريقيا وجهات كثيرة منها وها هي ذي قد غزت الخليج أو كثيراً من بقاعه وها هي ذي قد غزت كثيراً من بقاع إفريقيا لكن ما الفرق؟ أما تلك البقاع فتتمتع من الإسلام بعاطفة مشبوبة حارة ولكنها غير مقيدة العلم وضوابطه ولقد عشت ورأيت الحالة الإسلامية في الجزائر كذلكم الخليج، أما هنا فإسلامنا يتميز – ولعلكم جميعاً تعلمون – يتميز بالتالي: إسلامنا هنا ينبثق من ثقافة إسلامية راشدة تنبع من جذور الإسلام، تنبع من كتاب الله سبحانه وتعالى، ثم من سيرة حبيبنا المصطفى صلى الله عليه وسلم، ثم مما كان عليه السلف الصالح، ومن هنا فلقد حاولت الإرهابية الوهابية أن تقتحم سوريا من هنا أو من هنا من النوافذ أو من الشقوق لم يتأت لها ذلك قط.

ولكم أن تعلموا نموذجاً بل سبباً من الأسباب في ذلك، إن كلية الشريعة في جامعة دمشق عندما وضعت مناهجها روعي فيها هذا الجانب، روعي فيها أن تكون مناهج كلية الشريعة الإسلامية حصناً يُحَصَّنُ به الشاب المسلم ضد كل ما هو شارد عن كتاب الله، ضد ما هو كل مبتدع شارد عن هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، هذه المناهج التي تنفذ اليوم روعي فيها هذا الأمر، أما تلك البقاع الأخرى

فلم يُتَحْ لها إلا رأس مال واحد هو العاطفة، والعاطفة الإسلامية إن لم تنضبط بضوابط العلم الدقيق مع الإخلاص لله فإن هذه العواطف تتحول إلى عواصف، وقد تحولت العواطف الإسلامية في الجزائر قبل سنوات إلى عواصف كما تعلمون، لذلك أقول لهؤلاء الإخوة أنتم مخطئون خطأً قتالاً إن تصورتم أن العلمانية هي التي تحصن هذه البلدة ضد أخطار الوهابية الإرهابية، النظام العلماني يفتح المجال واسعاً لهذه الإرهابية ويعطيها الشرعية فيما تزعم للعمل بتهمة أننا بلدٌ ارتد عن الإسلام وأعلن علمانيته أي لا دينيته، إياكم مثل هذا النظام يرقص على أحلامه أولئك الإرهابيون الذين حدثتكم عنهم وعن إسلامهم.

نعم. نعم العلمانية تعلن حرية الفكر والمعتقد لكنها تعلنها ولا تستطيع أن تدافع عنها، أما الإسلام فهو يعلن حرية المعتقد والفكر ضمن احتضان الإسلام له وتدافع عن هذا الأمر، هذا هو الفرق بين الأمرين، ما الضمانة التي تجعل حرية المعتقد والدين في ساحة العلمانية غير مهددة؟ ما الضمانة ألا نُتَّهَم من خلال ذلك بأننا قد ارتضينا الإلحاد بديلاً عن الإسلام؟

لا ضمانة، سنُظْلَم ولسوف نُتَّهَم ولكن لا سبيل، هنالك من سيؤخذون، هنالك من سيُخدعون، أما الإسلام فهو عندما يحتضن بنظامه وشرعته حرية الفكر والمعتقد يحتضن ذلك ويدافع عنه، لن يستطيع أحد أن يخترق الإسلام من أجل أن يصل إلى حرية المعتقد والدين ليخنق كلاً منهما، لن يتأتى له ذلك، نعم أيها الإخوة، على هؤلاء الإخوة أن يعلموا ما معنى شرعة الإسلام والنظام الإسلامي عندما يهيمن، لكي تعلموا ذلك انظروا الفتح الإسلامي الذي هيمن على بلاد الشام بعد أن طُرِدَ المستعمر الروماني منها، ألم يتنفس النصارى الصعداء، ألم يعثروا على حريتهم بعد أن فقدوها ردحاً طويلاً من الزمن، ألا تعلمون أن عدد النصارى ظلوا إلى الحروب الصليبية يساوون عدد المسلمين بل يزيدون في كثير من الأحيان، لماذا؟

لأن الإسلام الذي احتضن المذاهب الأخرى لم يرفع لواء حرية الفكر والمعتقد فقط، رفع اللواء ودافع عن هذه الحرية أيضاً، ينبغي أن تعلموا ذلك، تأملوا في الفتح الإسلامي الذي تم في مصر وتأملوا في سعادة الأقباط وكيف تنفسوا الصعداء وكيف كانت الحرب الدائرة عليهم قبل الفتح الإسلامي، مئة ألف

من اليعاقبة النصارى قُتِلُوا في يوم واحد على أيدي الاستعمار الروماني فماذا كان موقف الإسلام؟ احتضن ولم يكن احتضانه للأقباط احتضان المتبوع للتابع لا بل كان احتضان الند للند، ولعلكم جميعاً تعرفون قصة القصاص الذي أخذه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لذلك الشاب القبطي من ابن عمر بن العاص لأنه ضربه بسوط قائلاً له: خذها وأنا ابن الأكرمين، أقول لإخواننا: لا تخطئوا إنه لخطأ قَتَّال، إن هؤلاء الإرهابيين الوهابيين ينتظرونها أن يُعْلَنَ نظام الدولة الإسلامي نظاماً علمانياً ليقولوا ها نحن ذكرنا لكم إنها دولة كافرة، إنها دولة مرتدة لأن العلمانية تعني في ترجمتها غير الدقيقة من الكلمة الأجنبية التمسك بالدنيا فقط والانصراف عن الدين أي النهج اللاديني، هذا المنزلق ينبغي أن ننتبه إليه وألا نضحي بجهود كثيرة بذلناها في ذلك، أجل.

الدولة الإسلامية دولة يتمتع بها شخصية الاعتبارية، والدولة شخصية اعتبارية لا يمكن إلا أن تتصف بعقيدة شأنها كشأن أي إنسان، هذه الشخصية الاعتبارية لها معتقدها ولها يقينها عن الكون والإنسان والمكوِّن ولكن هل هذا المعتقد الإسلامي يظلم فئة على حساب فئة؟ أبداً، العقيدة الإسلامية بل النظام الإسلامي فلتعلموا أن العدالة التي تتألق بين المسلمين وغيرهم لا يمكن أن تجدها متألقة في حالة أخرى أو من خلال نظام آخر، لا تعطوا هؤلاء الإرهابيين الوهابيين حجة، إياكم، سوريا كانت وما تزال مثال الدولة التي تُعَلِّمُ العالم الإسلامي الإسلام الواعي، الإسلام المنتمي إلى جذعي كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، كانت ولا تزال الكعبة التي يقصدها المسلمون جميعاً لمعرفة الدين ولمعرفة حقيقة الإسلام، لئن كانت كعبة الله سبحانه وتعالى يُطاف من حولها عبودية لله فسوريا إنما هي الكعبة الأخرى التي يقصدها المسلمون لمعرفة دينهم المعرفة الحقيقية، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

٢٩٤- عندما يتحول الإسلام إلى أداة بيد السياسة | ٢٠١٢/١٢/٠٧

قضى الله عز وجل في محكم تبيانه أن يكون موقع دينه من الأسرة الإنسانية موقع الآمر الحاكم القائد وأن يكون موقع الأسرة الإنسانية من دين الله عز وجل موقع المستجيب، موقع الخاضع لسلطان الله وأمره، لا يتحول عنه ولا يستبدل به غيره. تأملوا في بيان الله عز وجل في قرآنه الذي يخاطبنا به كيف يأمر مؤكداً أن نترك الأهواء المختلفة وأن نتحرر منها وأن ندخل في دين الله عز وجل خاضعين لسلطانه، منفذين لأوامره طوعاً وألا نحيد عن ذلك قط قولاً واحداً ولأي سبب من الأسباب. تأملوا في هذه الطائفة من بيان الله عز وجل الذي يخاطبنا به منفذاً ومنبهاً لهذه الحقيقة التي ذكَّرت نفسي وذكرتكم بها: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣]

ينطقنا الله عز وجل بهذا العهد وبهذا العقد كما رأيتم. ويقول: ﴿فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦]

ويؤكد هذا الأمر بطريقة أخرى فيقول: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩].

ويقول مؤكداً لهذا الأمر: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ [أجل بما أراك الله] وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيماً﴾ [النساء: ١٠٥].

ويقول: ﴿قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ، يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥-١٦].

أرأيتم يا عباد الله إلى هذه الأوامر التي تجتمع على محور واحد ألا وهو توجيه الباري عز وجل أمره إلى عباده بأن يدخلوا في دين الله عز وجل طوعاً وأن ينفذوا أحكامهم التي خاطبهم بها وأوامره التي حذرهم عن الانحراف عنها، أرأيتم إلى هذه الآيات كيف تؤكد هذا الأمر الذي يخاطبنا به الله عز جل.

وانظروا إلى حياة الرعيل الأول من المسلمين كيف نفذوا هذا الأمر الرباني بدءاً من عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم وسلوكه، ثم تأملوا ذلك في عصر الخلافة الراشدة، ثم تأملوا سير المسلمين على هذا النهج دون التواء ولا انحراف عنه في العصور التي خلت ذلك. انقادوا لأمر الله كما أمر، لم يبدلوا ولم يغيروا، التزموا بتنفيذ شرائع الله ولم تجنح بهم أهواؤهم إلى البديل، لم تجنح بهم رغائبهم إلى نسخ شرع أمر الله بها ليستبدلوا بها شرعة فرضتها عليهم نفوسهم وأهواؤهم قط.

والوقت يضيق يا عباد الله عن ذكر الشواهد والأمثلة الناطقة بهذه الحقيقة ولكن المفروض في حق كل مسلم أن يدرس حياة المسلمين في العصر الأول بل حياة الرعيل الأول من المسلمين لأنه المقياس الدائم للسير على صراط الله سبحانه وتعالى، ولكن فما الذي آل إليه الأمر بعد ذلك، لقد خَلَفَ من بعد ذلك الرعيل خَلْفٌ في عصرنا الذي نعيش فيه، تأملنا ونظرنا في حال من – لا أقول في حال التائهين عن الإسلام، لا أقول في حال الشاردين عن صراط الله – بل أنظر في حال من يُسَمَّون اليوم بالإسلاميين – وهي تسمية لا عهد للتاريخ الإسلامي بها – الإسلاميين، أتأمل في حالهم وإذا بهم يتخذون الإسلام سُلَّمَاً مهيناً ذليلاً للوصول إلى أمانييهم وأغراضهم وسياساتهم، وقديماً قالوا: السياسة لا دين لها، أي السياسة التي لا ترتبط بمبدأ حقاً لا دين لها، نظرنا فوجدنا هذا الخلف الذي جاء من بعد ذلك الرعيل الأول من الإسلاميين كما يعبرون عن أنفسهم، يتخذون من شرائع الله وأحكامه خادماً، وربما أقل من خادم لإيصالهم إلى مبتغياتهم السياسية المختلفة.

كم وكم كانت هناك تصرفات سمعنا من هؤلاء الناس من يحكمون بأنها واجبة، ولا أريد أن أسميهم. وننظر إلى هذه التصرفات اليوم وإذا بهم يعلنون بأنها أصبحت محرمة، كانت بالأمس واجبة ثم إنها غدت اليوم محرمة، وما تنزل وحي بذلك بالأمس ولا تنزل وحي في ذلك اليوم ولكنها السياسة اختلفت، الطريق الذي ينبغي أن يُسلَك إلى المبتغى هو الذي اختلف. كم وكم سمعنا تراجم عن رجال بأعيانهم ولا نريد أن نسميهم نعتهم الإسلاميون بخير ما ينعت به أناس مسلمون ملتزمون صادقون مع الله وصادقون مع الأمة ونظرنا إليهم وإذا هم اليوم يحكمون عليهم بالكفر ويحكمون عليهم بالشرود الكلي عن صراط الله سبحانه وتعالى، وما نزل وحي عليهم بنعت أولئك الناس بالأمس وما نزل عليهم وحي مناقض اليوم عن نعتهم وصفاتهم اليوم ولكنها السياسة اقتضت بالأمس الثناء عليهم واقتضت اليوم تكفيرهم. كم وكم

أصغينا ونظرنا فوجدنا مظهراً للحماسة التي تبرد فيها رائحة الإخلاص لدين الله ضد هذا العدو المغتصب للأرض، المغتصب للحقوق والديار، الطارد للناس من بيوتهم وأوطانهم إسرائيل، سمعناهم يتداعون لقتال العدو المغتصب ورأيناهم يلحون على الأمة الإسلامية بضرورة التلاقي صفاً واحداً على قتال هذا العدو المغتصب، ونظرنا اليوم وإذا بهم يعلنون حلفاً خفياً أو معلناً مع هذا العدو المغتصب، وأصغينا السمع وانتظرنا أن نسمع منهم ما يذكرنا بموقفهم قبل سنوات ولكننا لم نسمع منهم إلا النقيض.

أأزيدكم أيها الإخوة أمثلة على كيفية التلاعب بشرع الله وأحكامه عندما اتخِذَ الإسلام سُلَّمَاً للسياسة، سبيلاً لبلوغ الأماني السياسية، ما أكثر الأحكام الشرعية التي أيَّد فيها الإسلاميون فقهاء الشريعة الإسلامية المجمعين على حرمة هذه التصرفات وبطلان هذه العقود، ونصغي السمع اليوم إلى موقفهم من هذه الفتاوى التي كانوا يؤيدون فيها فقهاء الشريعة الإسلامية بالحرمة والبطلان والتحذير وإذا هم اليوم يفتون بإباحتها، يفتون بصحتها، يفتون بجوازها، ونتساءل ألعل هنالك دليلاً غاب عنكم بالأمس وعرفتموه اليوم ومن ثم غيَّرْتم الحكم؟ لا. الحكم هو هو والدليل هو هو ولكن المصلحة السياسية هي التي اختلفت، كانت المصلحة السياسية تقتضي الانقياد لما يقوله الفقهاء في حكم هذه الأمور ولا أريد أن أذكرها، أما المصلحة السياسية اليوم فقد اقتضت خلاف ذلك، أرأيتم إلى الفرق بين ذلك الرعيل الأول الذي انقاد مخلصاً لأوامر الله وشرائعه يضعون أهواءهم تحت أقدامهم في سبيل أن ينفذوا أمر الله وفي سبيل أن يرحلوا إلى الله وقد ابيضت وجوههم بتنفيذ أوامره، أنظرتم إلى الفرق بين تصرف ذلك الرعيل وبين ما آل إليه الإسلام بين يدي كثيرٍ – ولا أقول كل – من يسمون الإسلاميين اليوم؟ ها أنتم ترون كيف يُتَّخَذُ سُلَّمَاً ذليلاً يوطئ درجة إثر درجة للبلوغ إلى الأماني السياسية.

عباد الله: أنا أؤيد من يحذر من الإسلام السياسي، ولكن فلتعلموا ما الذي نقصده بالإسلام السياسي؟ أقصد هذا، أولئك الذين أحالوا الإسلام إلى وسيلة، إلى خادم، إلى سُلَّمٍ يُسْتَخْدَم للبلوغ إلى الأماني السياسية المتنوعة المختلفة، هذا ما أقصده بالإسلام السياسي الذي نحذر منه، أما الإسلام في حقيقته فيأمر وينهى، الإسلام يأمر بالسياسة السليمة الإنسانية التي بينها لنا الله في محكم تبيانه وشرحها لنا رسول الله في الصحيح من حديثه، نعم، لكن ما ينبغي أبداً أن ننزل الإسلام من عليائه لنجعله خادماً لأمانينا وخادماً لأهدافنا وأحلامنا السياسية. قلت مرة لواحدٍ من هؤلاء القياديين هذا الكلام الذي أقوله

لكم فاعتذر بأن تطبيق الشريعة الإسلامية لا يمكن أن يتم إلا بعد بلوغ الحكم وبعد الإمساك بنواصي الحكم، وعندما نصل إلى الحكم ونمسك بزمامه فإنا بوسعنا عندئذٍ بكل سهولة أن نطبق الإسلام، أرأيتم إلى هذا الفخ الذي هو أخطر من الغلطة التي أحدثكم عنها، يتصور هؤلاء الإخوة أن شأن الإسلام وتنفيذه كشأن المذاهب السياسية عندما يسعى السياسيون إلى تنفيذها، أناس يتبنون الاشتراكية ينفذونها عندما يصلون إلى الحكم، ليبراليون ينفذون ليبراليتهم عندما يصلون إلى الحكم دون البحث عمن اقتنع وعمن لم يقتنع. هل الإسلام هكذا؟

قلت: يا هذا الإسلام معتقد يسري إلى العقل عن طريق العلم، ثم هو حب يسري إلى الفؤاد تعظيماً لحرمات الله وحباً له ومخافة ومهابة منه عندئذٍ يطبق الإسلام شئت أم أبيت، وإنما سبيل ذلك أن تخوض مخاضة الدعوة إلى الله عز وجل بين الناس على الأرض لا أن تبتغي محادثتهم على كرسي الحكم، الإسلام يأمرك أن تطمع بعقل الحكام والملوك لا أن تطمع بكراسيهم، بالأمس – قبل سنوات – وصلت ثلة كبرى إلى الحكم في بلدة مجاورة في جنوب سوريا ولا أسميها وبقيت هذه الثلة الإسلامية في الحكم قرابة عامين ونيف فماذا فعلت؟ لم يتأتى لها أن تطبق من الإسلام شروى نقير، بقي الأمر كما كان من قبل، حاولوا فلم يجدوا آذاناً صاغية، لماذا؟ لأن هؤلاء الإسلاميين شغلوا أنفسهم وبددوا وقتهم بالسعي إلى الكراسي ولم يلتفتوا إلى الدعوة إلى الله، لم يحاوروا عباد الله، لم يحاولوا أن يدخلوا محبة الله عز وجل في القلوب، وصلوا إلى الحكم والناس كما هم فأنى لهم أن يصلوا إلى ما يبتغون؟!

هذه الحقيقة أقولها اليوم لكي تبلغ آذان كل من يتمتع بجذوةٍ من الإخلاص لدين الله عز وجل لعلهم يرعون، يا هؤلاء الناس ألا ترون إلى العبرة التي ينبغي أن تقطف من هذا الذي ذكرته لكم من هذه الآيات التي تبين لنا المنهج الذي ينبغي أن يسلكه عباد الله للدعوة إلى دين الله ولتنفيذ أوامره، ها هي ذي الفتنة المدلهمة تقوم ولا تقعد، تحرق ولا تطفئ، في هذه الدولة الإسلامية الكبرى التي كنا ولا نزال نعتز بها، ما الذي حصل؟ الذي حصل أن الإسلاميين تنكبوا الطريق إلى تطبيق الإسلام، تنكبوا الطريق إلى تنفيذ شريعة الله عز وجل، شريعة الله ليست مذهباً ليبرالياً يطبق سياسياً شاء الناس أم أبوا، شريعة الله دعوة إلى الله عز وجل: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

هذه هي الطريقة التي ينبغي أن نسلكها، الوقت لم ينضب بعد، لعل هؤلاء الإخوة يعودون إلى رشدهم، ولعلهم ينزلون عن هذه الأبراج التي كانوا يحلمون بالوصول إليها، ولعلهم يلتفتون يميناً وشمالاً فيرون أنها ليست هي التي أمر الله بأن يبلغوها وأن يصلوا إليها فينزلوا إلى حيث الأمة، إلى حيث عقول الناس، والناس فطرتهم قائمة متيقظة ومستيقظة ولا يحتاجون إلا لمن يحاور ويذكِّر، أياً كان هؤلاء الناس، أين هم الذين يجلسون مع التائهين ليحاوروهم ويدعوهم إلى حمى الله، أين هم الذين يلاحقون الفسقة ليجلسوا إليهم ويحاوروهم بمنطق الحب، منطق الغيرة كما فعل أصحاب رسول الله، كما فعل التابعون، كما فعل أولئك الذين تغربوا في مجاهل أوروبا، أين هؤلاء الذين يسيرون طبق النهج أمر به الله عز وجل.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.



٢٩٥- عندما يكون الحكم سياسياً والقناع إسلامياً | ٢٠١٢/١٢/١٤

إننا نقرأ في بيان الله سبحانه وتعالى في محكم تبيانه بياناً للواجبات التي أناطها الله سبحانه وتعالى بأعناق عباده وكلفهم بها، ونقرأ إلى جانب ذلك بياناً آخر يتضمن الحق الذي تكفل الله له بعباده إن هم نفذُّوا تلك الواجبات وحققوها كما أمر، فتعالوا نصغي إلى طائفة من الآيات التي تتضمن بيان الواجبات التي أناطها الله عز وجل في أعناق عباده، يقول: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ، مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٧].

ويقول: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت:٥٦].

ويقول: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

ويقول: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

ويقول: ﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥].

ويقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً﴾ [الحجرات: ١٢].

ويقول: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠].

هذه طائفة من الآيات التي تتضمن بيان الواجبات أناطها الله عز وجل بأعناق عباده، فتعالوا نصغي السمع إلى الحقوق التي ألزم الله عز وجل ذاته العلية بها تجاه عباده التي ينفذون هذه الواجبات، يقول: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً﴾ [النور: ٥٥].

ويقول: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥].

ويقول: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ، وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٣-١٤].

أرأيتم يا عباد الله إلى هذين البيانين اللذين نقرأهما في كتاب الله، البيان الأول يتضمن الواجبات التي أناطها الله عز وجل بأعناقنا وكلفنا بها، والبيان الثاني يتضمن الحق التي ألزم الله عز وجل ذاته العلية به تجاهنا، وأنتم تعلمون أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين من بعدهم هم المثل الأعلى وهم النموذج الذي أمر الله عز وجل سائر عباده من بعد بالاقتداء بهم، أ لم تقرؤوا قوله: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

تعالوا نتأمل في موقف أصحاب رسول الله والتابعين من بعدهم من هذه الواجبات، تعالوا نتأمل ولنستعرض باختصار، ما إن يقبل الواحد منهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مبايعاً — وقد دخل اليقين بالإسلام ودين الله في طوايا عقله — حتى يعكف على ترسيخ هذا الإيمان في عقله وتغذيته بمشاعر العبودية وبأعمال العبادات المختلفة، ما إن يدخل الإيمان في طوايا عقله حتى يعكف على تحويل هذا اليقين العقلي إلى حب وتعظيم يهيمنان على القلب، يعكف هذا الإنسان الذي عرف الله على تطهير قلبه وتطهير نفسه من الأهواء والشهوات المنحطة ويعكف على التسامي فوق بقايا ظلمات الجاهلية التي كان مبتلى بها، ما إن يتلاقى بعض من هؤلاء الصحابة فيما بينهم حتى يتداعوا إلى مجلس شعاره تعالوا بنا نؤمن ساعة، يتداعون إلى مجالس ذكر، إلى مجلس تذكرة، إلى مجلس تناصح، يتجهون جميعاً إلى تنفيذ أمر الله عز وجل، تعريف الناس بالإسلام، دعوتهم إلى الله عز وجل، إدخال محبة الإسلام في قلوب التائهين، يحدث الواحد منهم بعضاً من المشركين الذين لا يزالون يخبون في ظلمات الجاهلية، يحدثهم عن الإسلام والإيمان فيرفع حربته في وجهه يهدده بالقتل فيقول له مبتسماً: أو تجلس فتسمع فإن أعجبك أخذت وإن لم يعجبك فافعل ما تشاء فيغرس الحربة إلى جانبه ويجلس ليسمع، ما إن يأتي الله ويأخذ الواحد منهم حظه الكافي من الرقاد حتى يقوم سائر الليل بين يدي الله راكعاً، ساجداً، متبتلاً، ملتجئاً إلى الله، داعياً، متضرعاً، يغذي عقله بجذور الإيمان ويغذي قلبه بمزيد من الحب لهذا الذي آمن به.

ترى، هل كان أصحاب رسول الله رضوان الله عليهم وهم عاكفون على أداء هذه الواجبات التي أناطها الله بأعناقهم، هل كانوا منصرفين إلى حلم قيام الدولة الإسلامية، هل كانوا يحلمون بأن يمتلكوا

البلاد التي تهيمن عليها الإمبراطورية الرومانية أو الساسانية، هل كانوا يتساءلون متى سيتحقق الحق الذي وعدنا الله عز وجل به؟ لا يا عباد الله. كانوا منصرفين إلى هذه الواجبات التي أناطها الله بأعناقهم، شغلهم الشاغل أن يطهروا نفوسهم من السخائم، أن يطهروها من الكدرات، شغلهم الشاغل أن يطهروا أنفسهم من بقايا أدران الجاهلية، شغلهم الشاغل أن يمدوا ما بينهم وبين إخوانهم جسور الحب والود تنفيذاً لقوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

فلما نفذوا هذا الذي أمرهم الله عز وجل به وقاموا بالواجبات التي أناطها الله عز وجل في أعناقهم حقق لهم ما كان قد التزم به ربنا تجاههم، أعاد الله لهم الأرض التي هُجِّرُوا منها وملَّكهم بلاداً وأراضي أخرى وجعل منهم أئمة يمسكون بأزمة القيادة في العالم، ألا تلاحظون ذلك. هذا هو النموذج الذي ينبغي أن نتبينه ونتذكره يا عباد الله، وأعود فأقول: إن ذلك الرعيل الأول عندما كانوا يعكفون على القيام بالواجبات التي أناطها الله بأعناقهم لم يكونوا يتصورون أي علاقة بين تلك الواجبات التي كُلِّفُوا بها والحق الذي ألزم الله به ذاته العلية تجاههم، لم يكونوا يتصورون علاقة علة ومعلول بينهما، لم يكونوا يتصورون علاقة سلعة وثمن بينهما، بل كانوا يعلمون أنهم عبيدٌ لله وأن عليهم أن يؤدوا هذا الواجب الذي أناطه الله في أعناقهم فكان أن نفذ الله عز وجل لهم ما قد ألزم به ذاته العلية.

عباد الله: نحن أيضاً جيل من تلك الأجيال التي جاءت بعد ذلك الرعيل الأول، نحن أيضاً عرفنا الله وآمنا به، نحن أيضاً نعتز بالإسلام شرعة ومنهاجاً، أجل، وها نحن ننظر فنجد في ساحتنا الإسلامية ثلة كبيرة من الناس الذين يُدعون بالإسلاميين – ولقد قلت لكم بالأمس إنها تسمية لا عهد لنا بها من قبل – مسلمون نعم، إسلاميون، ماذا تعني هذه الكلمة؟ على كلٍّ هنالك ثلة تنشط فيما بيننا تسمى الإسلاميين، ولعلها الفئة الأولى، النخبة المتميزة في نطاق السير على صراط الله والتمسك بدين الله، فهل يسير هؤلاء الإخوة، الإسلاميون، على النهج الذي سار عليه الرعيل الأول وهم قدوتنا، وصدق الله القائل: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

هل يسير هؤلاء الإسلاميون على نهج ذلك الرعيل الأول طبقاً للنهج القرآني الذي انتبهنا إليه وأصغينا إلى طائفة من الآيات الدالة عليه؟ لا يا عباد الله. لقد شُغِلُوا عن الواجبات التي أناطها الله عز وجل بأعناق عباده، شُغِلُوا عنها بالحق الذي ألزم الله عز وجل به ذاته العلية تجاههم. أين هو التوجه إلى

الناس التائهين عن دين الله، الشاردين عن صراط الله، الذين يبحثون يميناً وشمالاً عمن يبصرهم بدين الله، عمن يدلهم على حقيقة العبودية لله، عمن ينبههم إلى هوية العبودية لمولانا سبحانه، أين؟ أين الذين يستجيبون نداء هؤلاء الإخوة يجلسون إليهم ليعرفونهم على دين الله وليدخلوا محبته في قلوبهم، أين هم من مجالس تعالوا بنا نؤمن ساعة التي كان يتداعى إليها أصحاب رسول الله فيتذاكرون ويتناصحون ويذكرون الله سبحانه وتعالى؟ أين هي ليالي التبتل بين يدي الله سبحانه وتعالى، أين هو السعي إلى معارج التزكية بالنفس إلى صعيد الإيثار بدلاً من الأثرة، إلى صعيد الحب بدلاً من الحقد، إلى صعيد التضحية بالحظوظ بدلاً من التضحية بالخصوم، أين هي ساعات التبتل وتغذية الإيمان بالله عز وجل بوقود الحب لله، بوقود التعظيم لحرمات الله؟ شُغِلُوا عن ذلك كله بالبحث عن السبيل إلى الحق الذي ألزم الله عز وجل ذاته العلية تجاههم فصدق عليهم قاله ابن عطاء الله السكندري في حكمه: اجتهادك فيما ضُمِنَ لك وتقصيرك فيما طُلِبَ منك دليل على انطماس البصيرة منك.

نعم. قيل لهؤلاء الناس: أين هو انضباطكم بتهذيب النفس، بتزكية النفس، وهو شيء أمر الله عز وجل به وكرر الأمر به وهو البوابة إلى قيام المجتمع الإسلامي؟ معذرتهم التي يرددونها وكم قيلت لي هي أن تنفيذ الشرعة الإسلامية لا يمكن أن يتم إلا بعد الوصول إلى كراسي الحكم، فما لم نصل إلى سدة الحكم لا يتأتى لنا تنفيذ الإسلام وشرعة الإسلام. هؤلاء أصابتهم عدوى المذاهب السياسية، الأفكار السياسية، الذين يسعون سعيهم إلى الحكم ليفرضوا على الأمة مذاهبهم وأفكارهم أياً كانت دون أن يتساءلوا عن وصول هذه الأفكار إلى قلوبهم طوعاً أو كرهاً، ولكن الإسلام ليس كذلك. قلت وأقول: الإسلام أيها الإخوة معتقد أولاً وسبيله الدخول إلى العقل طوعاً، ثم إنه يجب أن يتحول من القناعة العقلية إلى وقود الحب في الفؤاد، يجب أن يتحول من قناعة عقلية إلى حب عارم في الفؤاد لله، إلى تعظيم لحرمات الله، وهذا إنما يتم عن طريق ما أمر الله به ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥].

أما الوصول إلى كراسي الحكم فهذا يمكن أن يحقق القسر، يمكن أن يحقق قسر الناس للسير في الطريق الذي يرتؤون فهل هذا هو الإسلام، هل يقبل الله عز وجل من إنسان سيق سوقاً إلى مظاهر الإسلام والدين هل يقبل منه ذلك يوم القيامة؟

لا يا عباد الله. هذه الحقيقة ينبغي أن نتبينها، ثم لنعلم أيها الإخوة أن هنالك آفات كثيرة تتحقق من وراء الشرود عن منهاج كتاب الله عز وجل، وأعود فأذكركم بأن المنهج الذي رسمه الله لنا يتكون من أمرين اثنين، واجبات نحن الذين كُلِّفْنَا بها من قبل الله، وحقوق ألزم الله عز وجل بها ذاته العلية، حذرنا من أن نخلط هذا بذاك، فإن أعرضنا عن الواجبات وسال لعابنا على الحقوق أو على هذا الحق الذي قادنا الله عز وجل إليه أو الذي ألزم الله عز وجل ذاته العلية به ما الذي سيحصل؟ أنا عندما أسلك هذا المسلك – وأسأل الله العفو والعافية – سأجدني ضمن محاور سياسية شتى ولسوف أجدني مضطراً إلى أن أنجذب إلى فلك بعض من هذه المحاور قطعاً، وصدق المثل القائل: من وجد نفسه في ساحة الرقص لابد أن يهز نفسه، نعم.

إذاً لابد لهؤلاء المسلمين – وقد دخلوا في معترك السياسة بحثاً عن الوصول إلى الحكم – لابد أن يتجهوا وأن ينجذبوا إلى محور من المحاور السياسية ضد محاور أخرى أليس كذلك؟ إذاً تحولوا من عبيد لله عز وجل منفذين لأوامره إلى عبيد لسلطات سياسية، تحولوا إلى عبيد لمحاور سياسية شاؤوا أم أبوا، وهذا الواقع الذي نراه من حولنا شاهد على هذا الذي أقوله لكم. هذا الواقع الذي نراه أمامنا شاهد على هذا الذي أقوله لكم، وإنه لأمر خطير جداً.

لماذا رأينا أنفسنا أمام هذا الشرود ولماذا رأينا إخوة لنا انقادوا ودخلوا في فلك جاذبية سياسية من تلك السياسات، لماذا؟ لأنهم تخلوا عن الواجبات وأصروا على أن يستنزلوا الحق الذي ألزم به ذاته العلية تجاهنا، نعم، هذه هي النتيجة، والنتيجة النتيجة أننا نظرنا فوجدنا إخوة لنا يحالفون من لا نرتاب في أنهم أعداء لدين الله، يحالفون من لا نرتاب في أنهم أشد الناس عداوة للمسلمين ولإسلام الله سبحانه وتعالى، هذا الأمر هو الذي جعلنا نرى ولا نكاد نصدق من يصافح البغي الإسرائيلي الجاثم على صدورنا، الجاثم على أوطاننا الذي لا يزال يطرد ثم يطرد ثم يطرد أصحاب الدور من دورهم، أجل، ألا ترون ذلك؟ ما الذي دعا هؤلاء الإخوة إلى أن ينجذبوا إلى هذا الفلك؟ إعراضهم عن الواجب الذي كلفهم الله به وقفزهم إلى الحق الذي ألزم الله عز وجل ذاته العلية، ولكن من استعجل الشيء قبل أوانه لابد أن يعاقب بحرمانه.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

٢٩٦- حتى لا تُأخذوا بما يسمى الفكر الإسلامي | ١٩٩٧/٠٤/٢٥

إن الله سبحانه وتعالى جعل العلم ميزاناً لهذا الدين، وحاكم عباده جميعاً لمعرفة حقائقه إلى موازين العلم، وأذن بل أمر عباده بأن يجادلوا الآخرين والمبطلين احتكاماً إلى ميزان العلم هذا، ونعى على الذين يجادلون بغير علم وأكد المصطفى صلى الله عليه وسلم أنه إنما بُعث معلماً، وكم أكد أن المسلم لا يبلغ رضا الله سبحانه وتعالى إلا بعد أن يسلك مسالك العلم، ﴿من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين﴾، والفقه في الدين هو خلاصة العلم بدين الله سبحانه وتعالى، وعندما يناقش كتاب الله سبحانه وتعالى المبطلين يحاكمهم إلى موازين العلم فيقول لهم: ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ وعندما يُنكر على الذين يجادلون في دين الله لا يُنكر عليهم ذلك لأنهم يجادلون فيه، ولكنه يُنكر عليهم أنهم يجادلون في دين الله وفي الله بغير علم فيقول عز وجل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾.

والخلاصة أن هذا الدين الذي شرّف الله عز وجل به عباده إنما يدور على محور العلم، العلم الحقيقي. وللعلم موازينه، وللعلم قواعده، وللعلم منهجه... فلا بد لمن أراد أن يلتزم بهذا الميزان الذي جعله الله حكماً بينه وبين عباده لمعرفة الحق من الباطل، لابد لهذا الإنسان أن يعكف على معرفة موازين العلم ودقائق قواعده وضوابط منهجه، ومن ثم فيلتزم بهذا المنهج بل بهذا العلم، ولاشك أنه لن يصل من وراء ذلك إلا إلى الحق، ولسوف يحجزه هذا الحق عن الوقوع في أودية الضلال والتيه.

هذه الحقيقة غدت بداهية معروفة، وكم وكم في مناسبات أوضحناها، وكم تحدثنا عن التلازم القائم بين الإسلام والعلم كلما وُجِد الإسلام بحقائقه لابد أن يوجد العلم بضوابطه، وكلما وُجد العلم بموازينه وضوابطه لابد أن يهدي هذا العلم صاحبه إلى هذا الدين، إلى هذا الدين الحنيف القائم على دعائم العلم والمنطق والبيان.

ولكن لعلكم جميعاً تلاحظون أيها الإخوة أن شيئاً آخر بدأ يتسرب شيئاً فشيئاً ليحل محل العلم بدين الله سبحانه وتعالى، ولكي ينسخ هذا الميزان الذي جعله كتاب الله حكماً بين الله سبحانه وتعالى وعباده المرتابين أو المتشككين أو المجادلين، هذه الكلمة التي بدأت تزحف زحفها الخفي لتحتل محل العلم هي كلمة الفكر. لعلكم أصبحتم تسمعون هذه الكلمة أكثر مما كنتم تسمعون كلمة العلم من قبل.

كنا نسمع دعوة إلى العلم بالإسلام إلى معرفة حقائق الإسلام بالعلم، وكنا نتداعى فيما مضى إذا تناقشنا أو تذاكرنا نتداعى إلى العلم وموازين العلم، ويُذكر بعضنا البعض بإلحاح كتاب الله وبإلحاح المصطفى صلى الله عليه وسلم على العلم في كل مناسبة، واليوم اختفى هذا الأمر أو كاد يختفي، حل محله الفكر الإسلامي.

إن نظر إلى المكتبات وجدت نفسك أمام عشرات الكتب التي عُنونت جميعها باسم الفكر الإسلامي على تنوع هذا الاشتقاق والعنوان، الفكر الإسلامي.

وإن نظرت إلى الكتاب والباحثين الجدد رأيت كلامهم يطوف حول محور جديد ألا وهو محور الفكر الإسلامي. بل إن كلمة الفكر هذه أصبحت عنواناً على اختصاص علمي، فأصبحنا نرى من يعلن عن اختصاصه العلمي الذي نال عليه الإجازات والشهادات بأنه مختص بالفكر الإسلامي.

ترى هل يمكن أن يحل الفكر الإسلامي محل العلم؟ هل بين هاتين الكلمتين علاقة ترادف، فالفكر هو بمعنى العلم والعلم هو بمعنى الفكر؟ ينبغي أن تعلموا أن بين هاتين الكلمتين بُعد ما بين المشرقين.

الفكر أيها الإخوة هو حركة الذهن، هذا هو الفكر، والواقع أن كلاً منا يتمتع بهذه المزية كل إنسانٍ عاقل سواء كان عامياً من الناس أو مثقفاً أو عالماً أو متخصصاً، وأياً كانت مهنته لابد أن يسمى مفكراً، لابد أن يتمتع بالفكر، ذلك لأن الفكر كما قلت لكم هو حركة الذهن، وحركة الذهن هذه يمكن أن تتجه اتجاهاً سليماً منضبطاً بقواعد العلم، ويمكن أن تتجه اتجاهاً منحرفاً شارداً عن قواعد العلم، كل ذلك تفكير، وأصحاب هذا التفكير كلهم مفكرون. فالملحد مفكر.. والمؤمن مفكر.. ومن يتحرك شارداً بينهما

هو الآخر مفكر، والذي يضع الإسلام موضوعاً لتفكيره هو مفكر إسلامي سواءٌ كان موقفه من هذا الإسلام موقف الناقد، أو موقف المطيع والمصغي والمتبع يسمى مفكراً إسلامياً أي يفكر في الإسلام.

الملحد الذي يُلحد في دين الله عز وجل، والذي يرمي شباك الاصطياد اصطياد عقول الناس بالخداع والدجل مفكرٌ إسلامي، لأنه يفكر في الإسلام لكنه يفكر فيه ليبطله، يُفكر فيه ليقضي عليه.

كل إنسانٍ مفكر.. كيف يُمكن أن نتصور أن إنساناً يرقى لدرجة اختصاصٍ علميٍ يُعبر عن هذا الاختصاص بالمفكر الإسلامي، هذا الاختصاص يشترك معه الناس جميعاً.

البقال عندما يجلس ويصغي إلى كتاب الله عز وجل ويتأمله بقدر فهمه مفكرٌ إسلامي.

ورجل الشارع الذي يسمع في المذياع حديثاً عن الإسلام أو عن الشريعة أو عن دين الله أو عن رسول الله فيتأمل هذا الكلام بقبول أو برفض مفكرٌ إسلامي.

وهكذا فكلمة التفكير لا يمكن أن تُعبر عن اختصاص، لأن التفكير عبارة عن حركة الذهن كيفما كانت هذه الحركة، هذا هو التفكير. هذا التفكير السائب، هذا التفكير المطلق عن ضوابط العلم هل يمكن أن يهدي صاحبه إلى الحق؟ لا يمكن.

وإذا علمتم هذا أيها الإخوة فينبغي أن تسائلوا أنفسكم هل يمكن لمن يأتي ليناقشنا في دين الله وقد أمسك بميزان ما قد يسميه ميزان الفكر الإسلامي بدلاً من ميزان العلم بدين الله عز وجل؟ هل يمكن أن تصل معه إلى نقطة لقاء؟ لايمكن بشكل من الأشكال؛ ذلك لأن هذا المفكر لم يضبط نفسه بالقواعد العلمية التي أمر الله في محكم تبيانه بها. وكم كرر وأعاد أن ينضبط المجادلون أن يضبط المجادلون أنفسهم بها.

إذا علمتم هذا فعودوا إلى هذه الظاهرة الإجتماعية أو الثقافية التي تلفت النظر بشكلٍ غريب. فيم حلت الفكر بالإسلام محل العلم بدين الله عز وجل؟ لماذا؟

لكي يسهل على المقتنصين لعقول المسلمين والدجالين الذين يريدون أن يصطادوا إيمان المؤمنين بالله عز وجل، والذين يريدون أن يُعكروا صفاء اليقين بالله عز وجل عند هؤلاء المسلمين، هؤلاء الذين يهدفون إلى هذا الأمر لا يتأتى منهم ذلك إن ضبطوا أنفسهم بضوابط العلم، لأن ضوابط العلم دائماً إنما تقف إلى جانب الإسلام، إنما تنتصر لدين الله عز وجل، تنتصر لحقائق كتاب الله، لِما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فلو أن ملحداً ناقشك وكان ملتزماً بقواعد العلم، لا يمكنه إلا أن ينتهي إما إلى أن يعلن إيمانه بالله إن كان منصفاً، أو أن يصمت ويتخاذل إن كان جدلاً متكبراً، ومن ثم فلا بد أن يتحول هؤلاء الذي آلوا على أنفسهم أن يحملوا معاول سُلّمت إليهم بواسطة الغرب ورجاله، ومن خططوا لهدم دين الله عز وجل، هؤلاء الذي آلوا على أنفسهم أن يُمسكوا بهذه المعاول ليحطموا كينونة الإسلام وبناءه، كان لا بد لكي ينجح عملهم أن يتحولوا من اصطلاح العلم إلى اصطلاح الفكر، ومن ثم كان ينبغي أن يكون للفكر قداسته كما كان بالأمس للعلم قداسته، ينبغي أن تتحول القداسة من العلم إلى الفكر، وعندما يصبح الأمر ويتحول إلى هذه النهاية فما من أحد أفضل من أحد، أنت مفكر وأنا مفكر؛ أنت تفكر لتمضي ذات اليمين وأنا أفكر لأمضي بفكري إلى ذات الشمال، وكما أن فكرك يدعوك إلى سلوك هذا الطريق ففكري هو الآخر يدعوني إلى سلوك الطريق الآخر، وكل ذلك فكر.

الملحد لا يلحد إلا بفكر، والمؤمن لا يؤمن إلا بفكر، والوجودي لا يتبنى فلسفته الباطلة الخرافية إلا بفكر، والبهائي لا يجادلك في بهائيته إلا بفكر، والمبطلون كلهم وما أكثر فجاج البطلان وسبله المتعرجة كلهم لا يجادلونك إلا بفكر.

فكيف يمكن أن تمسك بإنسانٍ يتلاعب باسم الفكر؟ كيف يمكن أن تضبطه بقواعد العلم وهو هاربٌ من هذه القواعد؟

وانظروا أيها الإخوة بعد هذا ومع هذا إلى دقة الإعجاز في بيان الله عز وجل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾ كنت أقول في نفسي: كيف يتأتى للإنسان أن يجادل

وبغير علم، إن جادل فلا بد أن يجادل بعلم، ثم إن هذا الواقع المخزي الذي نشاهده فسّر هذه الآية العجيبة في كتاب الله إنهم يجادلون بالفكر. ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾يجادلون بفكرٍ سائب؛ يضعون الآيات تحت أشعة أفكارهم الغير منضبطة بشيء من قواعد العلم، هو عندئذٍ يتأتى لهم أن يفسروا هذه الآيات بما يشاؤون، يضعون حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت سلطان أفكارهم السائبة اللا منضبطة بقواعد العلم، وعندئذٍ يتأتى لهم أن يفسروا حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشكل الذي يشاؤون، ذلك لأنهم لا يجادلون بعلم وإنما يجادلون بفكر.

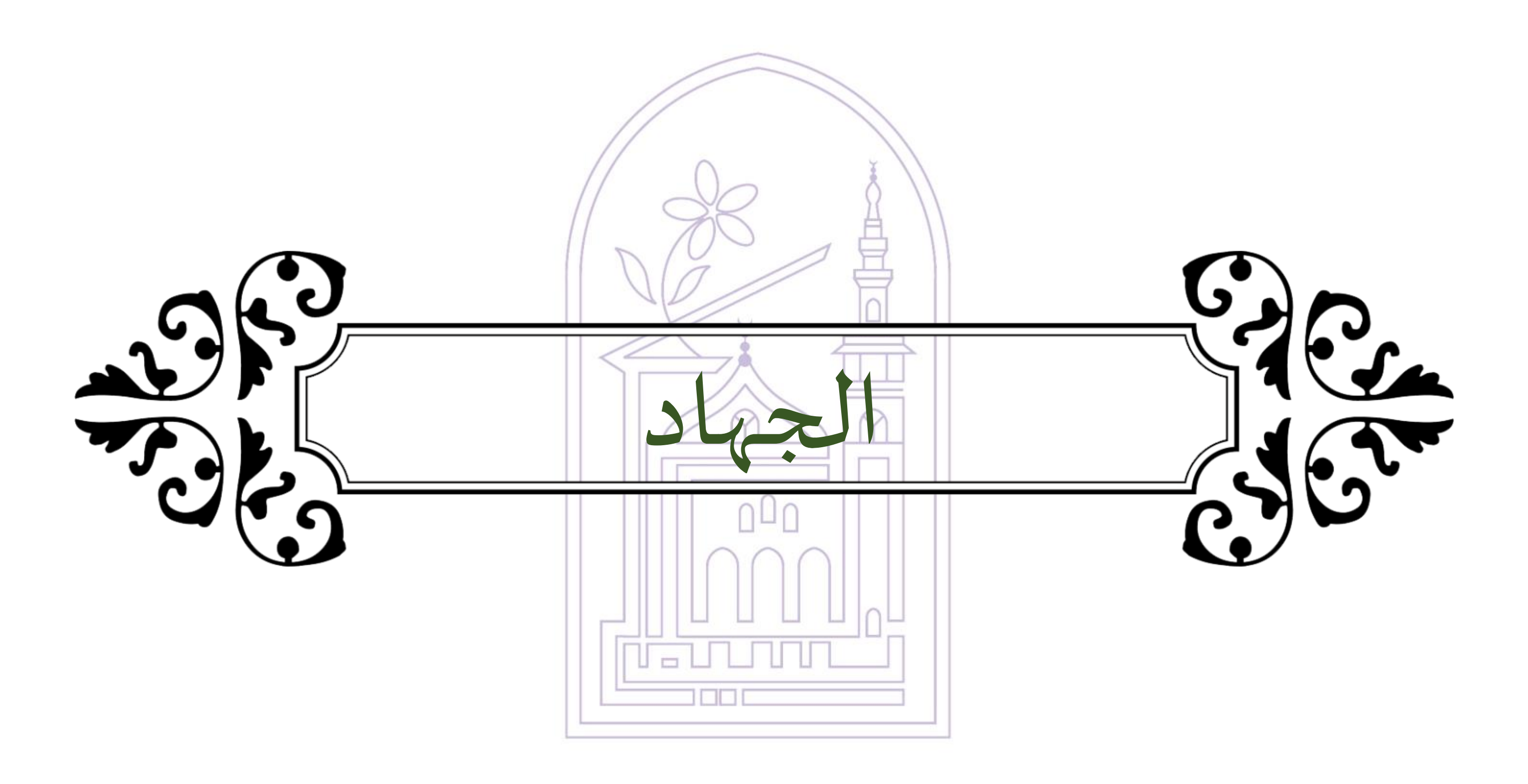
أقول هذا أيها الإخوة حتى تضيفوا إلى وعيكم الإسلامي الذي متعكم الله به وعياً جديداً، وحتى لا تُأخذوا بمن يأتي ليناقشكم تحت مظلة ما يسمى الفكر الإسلامي، وحتى لا تُأخذوا بهؤلاء الدلالين على بضاعة الغرب لا بل على بضاعة إسرائيل والله يعلم ويشهد أنني أقول حقاً، نعم إياكم أن تُاخذوا بهؤلاء الذين يجادلونكم في الإسلام باسم الفكر، قولوا نحن نرحب بالجدال على أن ينضبط هذا الجدال بضوابط العلم، الفكر طريق إلى العلم، عندما يكون فكرك منضبطاً بالعلم منتهياً إليه فمرحباً بكل جدالٍ وبكل نقاش وهذا ما أمر الله عز وجل به: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

اسمع إلى كلامهم الذي يظنون أنه كلامٌ علميٌ خاضعٌ لموازين العلم، طالما كان الحكم بينك وبينهم هو موازين العلم، ثم رد عليهم باطلهم بأن تبرز لهم كيف أن هذا التصور مخالف لضوابط العلم وميزانه، فإذا كان الذي يجادلك قبل دقائق قد أصغى للحق وخضع لهذا الحق وآمن به، هذا إن كان منصفاً.

ولكن إياكم أن تجادلوا إنساناً جاءكم بما يسمى الفكر.

أقول قولي هذا وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يقينا من شرور أنفسنا ومن شرور أعدائنا.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.


الجهاد

٢٩٧- لهذا سمي الجهاد في سبيل استعادة الحق إرهاباً | ١٩٩٣/٠٣/١٥

ثبت بالبداهة وبالأدلة الواضحة النيّرة لكل ذي عقل أن المسلمين اليوم، مهما أوتوا من القوة المادية، ومهما أوتوا من البصيرة السياسية، ومهما أكرمهم الله عز وجل بكنوز المدخرات وذخر الأرض الظاهرة والباطنة، فإن كل ذلك لن يفيدهم شيئاً لا في دنياهم ولا في آخرتهم، إن لم يكرمهم الله بجمع الشمل وتوحيد الكلمة والاعتصام كما أمر الله عز وجل بحبله المتين الذي أكرمهم الله عز وجل به.

قد تكون هذه الحقيقة فيما مضى خاضعةٍ لأخذٍ ورد، ولكنها اليوم غدت ناصعةً واضحةً بديهية لا يختلف فيها عاقلان، ولعل العقلاء جميعاً من المسلمين كلما حزبهم أمر وكلما طافت بهم طائفة مصيبةٍ من هذه المصائب وجدوا أنفسهم أمام قول الله عز وجل: ﴿وَاعْتَصِمُوْا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيْعًا وَلاَ تَفَرَّقُوْا وَاذْكُرُوْا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوْبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾، أو يجد نفسه أمام قول الله عز وجل في هذا البيان الجامع القصير: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾.

ومن العجب أن أعداء المسلمين أدركوا هذا قبل أن يدرك ذلك المسلمون أنفُسهم، فانحطوا في كيان المسلمين تقطيعاً وتمزيقا، وحاولوا أن يستضعفوهم من النقطة الخطيرة التي حماهم الله عز وجل منها إذ أكرمهم بجمع الشمل عن طريق هذا الدين. لما تفرّق المسلمون شذر مذر، ولما فرقتهم الأهواء عن الصراط البين الذي أمر الله عز وجل باتباعه قائلاً: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، لما حادوا عن النهج العريض وعن صراط الله البين الواسع، وتفرقوا في متاهات السبل المتعرجة والمذاهب المتنوعة المختلفة، معرضين عن دين الله عز وجل لم تعد تنفعهم سياسات السياسيين، ولم تعد تنفعهم الكنوز والأموال الكثيرة التي ادخرها الله لهم في باطن الأرض أو فجرها لهم من ظاهرها، لم يعد يفيدهم شيء من ذلك، بل تحولوا إلى فقراء رغم غناهم، وتحولوا إلى أذلاء رغم أن الله كان قد أعزهم بهذا الدين الإسلامي، ونوه بمكانتهم بين الأمم إذ قال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾. فماذا كان من عاقبة هذا التفرق أيها الإخوة؟

كان من عاقبة ذلك أن اتخذ الأعداء من أراضي المسلمين منطلقاً للكيد للمسلمين، جعلوا من بلاد المسلمين مكاناً لمؤتمرات ومكاناً لخطابات ينحون فيها باللائمة على المسلمين الذين يدافعون عن حقوقهم. ومتى كان من المتخيل هذا؟

قد نتصور أن أعداءً للمسلمين يكيدون، لكن خارج أرض المسلمين وبعيداً عن حدودهم. قد نتصور أن فئات من غير المسلمين قد يرفعون عقائرهم ويرتفعون بأصواتهم هجوماً على مقدسات المسلمين ولكن في بلادهم. ولم نكن نتصور أبداً أن المسلمين سيأتيهم يومٌ من الذل والهوان يجعلون من بلدانهم منابر لأعدائهم، ويصغون بآذانهم التي طالما شنفها كتاب الله وطالما أطربتها سنة رسول الله، يُصغون بآذانهم إلى أولئك الذين ينحطون في بلادنا على إسلامنا هجوماً، وعلى مقدساتنا تمزيقاً، ويُغيرون الحقائق ويُنكِّسونها، ويسمون الحقائق الإسلامية بغير أسمائها، فيطلقون على الجهاد الذي شرعه الله عز وجل وأمر به طرداً للغاصب وحمايةً للحق، يُطلقون على ذلك اسم الإرهاب أو ما شاكل، ويطلقون الأسماء المقدسة الإنسانية على عمليات الاغتصاب وعلى السعي لاقتناص الحقوق ولاغتصاب الأموال ولتقتيل البرءاء، يغطون ذلك كله بأسماء مقدسة وبأسماء إنسانية رائعة، كل ذلك كان من الممكن وحصل شيء من هذا في التاريخ لكن كل هذا كان يجري خارج بلاد المسلمين. ثم إن المسلمين يكافحون هذا الكلام بما يستطيعون.

أما أن يأتي يومٌ ويجتمع فيه هؤلاء المتربصون بالإسلام في أرضٍ إسلامية، ويتخذون من أرضٍ إسلامية منبراً لتنكيس الحقائق ولإطلاق اسم الإرهاب على الجهاد، وللتلاعب بالأمور وبما شرع الله عز وجل من أحكامٍ إنسانية فهذا شيءٌ لم يكن متوقعاً.

لكن ترى ما الذي جعله يقع بعد أن لم يكن متوقعاً؟ تفرق المسلمين. وأنا عندما أقول تفرق المسلمين أعني الكتلة التامة للمسلمين بدءً من الحكام والقادة ونهايةً بالشعوب والجماعات الإسلامية، ولا أدري إلى أي الفئتين أُحيل المسؤولية، ولا أدري هل أقول إن تفرق المسلمين والجماعات الإسلامية هو السبب

في تفرق حكام المسلمين وولاة أمرهم أم إن تفرق حكام المسلمين هو السبب في تفرق الجماعات الإسلامية؟ أياً كان الأمر فإنه لداءٌ خطير يستشري هنا ويستشري هناك.

الحكام المسلمون تفرقوا بعد أن وضعت خطة ماكرة وعجيبة لعلكم سمعتم أو تصورتم أو عرفتم الكثير منها قضت على البقية الباقية لهيبة هذه الأمة المنعكسة من بقايا وحدةٍ أو تضامنٍ كانت تتمتع به، تحولت هذه الهيبة إلى نقيضٍ لذلك وتحولت بقايا التضامن إلى تفرق بل إلى تدابر، وأصبح فينا من يسعى من أجل أن يصفق لما يقوله الأعداء، يسعى لكي يُخفض نفسه وليطوي مكانته وليجعل من نفسه تابعاً لخطط أولئك الناس، ورأينا مظاهر التفرق قد هيمنت على واقع هذه الأمة لما تفرق هؤلاء الحكام وتدابروا، أمكن أن يتم هذا الواقع الذي لم يكن متوقعاً، وأمكن أن نجد كيف تُنكّس الحقائق وكيف نُتهم بما نحن برئاء منه، ثم لا يُتهم ذلك العدو الغاصب والوحش الذي يستمرئ دماء البرءاء من الناس، كيف أن أي أصبعٍ لا تتجه إليه بأي اتهام، ثم إننا نرى كيف أن أرضاً إسلامية تتحول إلى منبر لبيان هذه الأمور العجيبة التي لم تكن متوقعةً ثم توقعت. هذا عن التفرق الذي أصاب قادة المسلمين.

أما التفرق الذي استشرى بين المسلمين أنفسهم فلعله أخطر، ولعله أبعث للأسى في النفوس، نحن أمة إسلامية واحدة، وإسلامنا واحد، ولقد تحقق توحيد هذا الإسلام للمسلمين بالأمس عبر قرون متطاولة، ورأينا كيف أن الإسلام جمع المسلمين ولم يُفرقهم إلى دوائر وجماعات متخاصمة.

ولكن يا عجباً ها نحن نرى اليوم كيف أن المسلمين قد تحولوا إلى جماعات متناقضة متخاصمة يشيع بينها من التناكر ما يشيع بين أديانٍ متفرقةٍ متخاصمة في كثير من الأحيان، ومن لم يدرك ويتصور شناعة هذا التدابر فليستعرض أي مركز من المراكز الإسلامية في أي بقعة من بقاع أوروبا وأمريكا ليجد التناحر هناك بين من؟ بين مسلمين، يستظلون بمظلة الإسلام. لماذا لم تكن هذه المظلة تفرق الأجيال السابقة؟ لماذا لم يجعل الإسلام المسلمين بالأمس دوائر متناكرةً متحاربةً كما جعلهم الإسلام اليوم؟ هل الإسلام تحيز فانتصر للأجيال السابقة فوحدها وتحيز ضد المسلمين اليوم ففرقهم؟ هل يمكن هذا؟ لا. إذاً ما السبب؟!

السبب أننا نحن المسلمين جعلنا من الإسلام مطايا لأهوائنا، مطايا لأمزجتنا، ولما كانت الأهواء مختلفة، ولما كانت الأمزجة متعارضة. فقد كان لا بد أن يتحول الإسلام الواحد إلى إسلامات، لأنني أجعل منه مطيةً لهواي، ولأنك تجعله مطية لهواك، ولأن الثالث يجعله مطية لهواه وهكذا.

هذا هو الذي وقع، ومن ثم فلا الوحدة التي أحبها الله لنا تتلألأ في مستوى القيادة في عالمنا الإسلامي، ولا هي تتلألأ مُذكرةً آمرةً ناهيةً في مستوى المسلمين كجماعات.

ولو أن جماعات المسلمين اتحدت على جذع الإسلام وتركت الأمور الاجتهادية والخلافية لمن يجتهدون كما فعل المخلصون لدين الله بالأمس، لأمكن للمسلمين أن يتخذوا من موقفهم الواحد الموحد موقف الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، ولأمكنهم أن يوجهوا النداءات إلى حكامهم وقادتهم أن يا قادة المسلمين اتفقوا، اتفقوا وكفاكم تناحراً. ولكن لما كان واقع الجماعات الإسلامية أخزى، ولما كان تفرقهم أعمق لم يكون بوسعهم ولم يكن لديهم من الوقت ولا من الشعور الإسلامي ما يدفعهم إلى شيء من هذا.

ترى عندما نجد هذا الهرج الذي يتم في بلادنا، عندما نجد أن المصطلحات الإسلامية الإنسانية تُنكس ويُتعامل معها بالنقيض فيسمى الجهاد في سبيل الحق في سبيل استعادة الحق إرهاباً، ويبارك بالإرهاب الحقيقي الذي يتكمل في اغتصاب، الذي يتمثل في نهبٍ لحقوق، الذي يتمثل في إراقة دماء بريئة، وكلكم يعلم صوراً لهذه الدماء التي سالت في مساجد سالت في أماكن مقدسة، هذه الأعمال تتجه إليها المشاعر المعادية للإسلام بالتبريك وبالتأييد. عندما نجد أن بارقة خير لاتزال تلتمع، وأن هنالك من يأبى أن يطأطئ الرأس وأن يُخضعه لهذا التلاعب بالحقائق، لماذا لا نجد جماعات المسلمين تشير إلى الحق بالتأييد؟ لماذا لا نجد جماعات المسلمين المتفرقة تلتقي لتقول أمّا هذا فكلنا نتفق على كلمة واحدة فيه لماذا؟ لماذا لا نسمع بياناً ينطلق من أفواه سائر الجماعات الإسلامية لتقول إن الله قد أمرنا قائلاً ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ ونحن مكلفون بمقتضى واجب هذا التعاون أن نقول: هذا الموقف هو الحق. فنحن نؤيده ونحن نهيب بسائر قادة المسلمين وسائر المسلمين جماعات

وشعوباً وحكاماً أن ينصاعوا للحق جهد استطاعتهم، وأن لا يُخضعوا أنفسهم للباطل وللتلاعب بالحقائق. لماذا؟

ولكننا نجد هذه الجماعات تظل في طرقٍ شتى، تسلك مسالك متناقضة، ولا تزال في هرجها ومرجها، فلا المواقف الواحدة والموحدة توحدها ولا الخوف من الله عز وجل يجعلها تترك مسائلها الاجتهادية لتأوي إلى الجذع الواحد.

تفرقٌ أيها الأخوة في الساحة كلها من مستوى المسلمين وجماعاتهم صُعداً إلى مستوى قادة المسلمين، أمام هذا الواقع ما الذي يُتوقع؟ لا يتوقع خيرٌ مما نرى.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يلهمنا رشدنا وأن يجمعنا قادةً وشعوباً على صراط الله عز وجل وأن يرزقنا العبرة بهذه الدروس التي أضنتنا وكادت أن تُهلكنا. أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.



٢٩٨- الحوار.. هو رأس مال الجهاد | ١٩٩٧/١٢/٢٦

روى ابن خزيمة في صحيحه والبيهقي في سننه من حديث سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: قال خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في آخر يومٍ من شعبان فقال: ﴿أيها الناس قد أظلكم شهرٌ عظيمٌ مبارك، شهرٌ فيه ليلة خير من ألف شهر، شهرٌ جعل الله سبحانه وتعالى صيامه فريضةً وقيامه تطوعاً، فمن صام نهاره وقام ليله احتساباً غُفر له ما تقدم من ذنبه﴾ والحديث طويل وفيه الكثير مما ينبه إلى فضائل هذا الشهر المبارك الذي أنتم مقبلون إليه.

ولقد صح أن مراد المصطفى صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿من قام ليله﴾ أي من شهد صلاة التراويح في كل عشيةٍ من ليالي هذا الشهر المبارك. ولقد كانت تُسمى صلاة التراويح هذه القيام، وليس المراد بذلك أن يقوم الليل من المساء إلى الفجر، وهذه صورةٌ من الصور التي لا تحصى لرحمة الله سبحانه وتعالى وكرمه وفضله.

فمن صام هذا الشهر محتسباً لله سبحانه وتعالى، ومن لازم القيام بما قد ندبنا إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلاة الليل في هذا الشهر المبارك، فقد حقت له الرحمة التي وعد بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا شك أن الله عز وجل يغفر له ما تقدم من ذنبه أجمع.

والمأمول من كل واحدٍ منا ومن سائر الذين آمنوا بوجود الله سبحانه وتعالى، وآمنوا بأن القرآن كلامه، وبأن محمداً صلى الله عليه وسلم نبيه ورسوله، أن يعود مع دخول هذا الشهر المبارك إلى رحاب الله سبحانه وتعالى فيتطهر من أوزاره وسيئاته، ويعاهد الله سبحانه وتعالى على توبةٍ نصوح، وأن يستقيم على الرشد، وما أظن أن إنساناً يُقبل على الله سبحانه وتعالى بهذا القصد خالياً قلبه من الشوائب إلا ويجد أنه مقبولٌ عند الله سبحانه وتعالى، ولا شك أن الله سبحانه وتعالى يتقبل التوبة من عباده ويغفر السيئات.

ومن أعظم القربات التي ينبغي أن يتقرب بها الإنسان إلى الله في هذا الشهر بعد التوبة النصوح التي ينبغي أن يستعين فيها بالله عز وجل وبعد أن يعاهد الله سبحانه وتعالى على الاستقامة، لا شك أن من أعظم القربات أن يلقى إخوانه الشاردين والتائهين عن صراط الله سبحانه وتعالى بالتذكرة والحوار.

ودين الله سبحانه وتعالى قائمٌ على دعامتين اثنتين: الأولى: أن يصلح الإنسان من نفسه وأن يراقب ذاته. والثانية: أن يهتم بإخوانه وأن يكون لساناً داعياً إلى الله سبحانه وتعالى بالتذكرة والموعظة الحسنة.

وليست هذه المهمة مقصورة على طائفةٍ من الناس أو طبقة منهم كما قد يخيل إلى كثير من الناس اليوم. كتلك التي تسمى برجال الدين ونحوها، وهي كلمةٌ زائفة باطلة لا وجود لها في قاموس الإسلام ولا وجود لها في تاريخ الإسلام في يوم من أيامه قط، فكل مسلم صدق مع الله عز وجل رجل دين، وكل إنسان عاهد الله عز وجل أن يكون صادقاً في التزامه بأوامر الله سبحانه وتعالى فقد تحول إلى موظف عند مولاه وخالقه سبحانه وتعالى؛ يراقب نفسه أن لا يشذ وينحرف. يراقب إخوانه يهديهم إلى سواء صراط الله بالتذكرة والموعظة الحسنة وبالحوار الذي هو رأس مال كل إنسانٍ مؤمنٍ يريد أن يخدم دين الله عز وجل، وأن يكون دلّالاً على بضاعة الله سبحانه وتعالى التي شرفنا بها في هذه الحياة الدنيا. هي مهمة كل مسلم ومسلمة، ولكن جهد استطاعته وبالقدر الذي يستطيع أن يتصرف.

وأقل ما ينبغي أن يعرفه كل مسلم أنه مسؤولٌ عن أهله، مسؤول عن محاورة أهله وأولاده ومن يحيط به أولئك الذين سماهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الخاصة عندما قال: ﴿فعليك بخاصة نفسك﴾ كل مسلمٍ مكلفٌ على أقل التقادير مهما قلت بضاعته العلمية من دين الله عز وجل مكلف بهذا.

فإذا وفق الإنسان لأن يملئ هذا الشهر المبارك بالرجوع إلى ذاته يقومها، ويسلك بها سبيل الهداية والرشد ثم إلى إخوانه يحاورهم ويتذاكر معهم ويحاول أن يجذبهم ويشدهم إلى صراط الله سبحانه وتعالى، فما أعلم أن عملاً مبروراً يتقرب به الإنسان إلى الله خيراً من هذا قط، لا سيما في هذا الشهر المبارك.

أيها الإخوة رأس مال الجهاد الذي شرفنا الله به هو الحوار، هو محاورة المسلم المؤمن بربه الذي فاض قلبه يقيناً بالله عز وجل لأولئك المرتابين ولأولئك الذين تطوف بأذهانهم الشكوك والريب أو لأولئك

الذين تغلبت عليهم نفوسهم، الحوار هو بوابة كل أنواع الجهاد. وما انبثقت الأنواع الأخرى بعد ذلك كالجهاد القتالي ونحوه إلا بعد المرور بهذه البوابة العظمى.

الحوار.. محاورة التائهين والملحدين والضالين والشاردين عن صراط الله سبحانه وتعالى، واليوم وقد أصبحت كلمة الحوار هذه بحمد الله رائجة، وأصبحت هي الورقة التي يمسك بها المسلم المعتز بإسلامه يدعو سائر الشاردين والتائهين إلى الحوار، لا يلزمهم ولا يسوقهم ولا يكرههم ولا يجبرهم عندما يجبر الناس وعندما يُكره الآخرون وعندما يسوق الآخرون فئات الناس إلى السبل التي يشاؤون. فإن المسلم انطلاقاً من إسلامه لا يدعو إلى شيءٍ من هذا، وإنما يدعو إلى المحاورة، وعندما نقول يدعو إلى المحاورة فلا شك أن رأس مال المحاور إنما هو العلم وإلا فكيف ينجح المحاور إن لم يعتمد على العلم.

وأنتم تعلمون أن بيان الله سبحانه وتعالى إنما يطوف حول حقائق العلم والمنطق، ويهيب بالإنسان أن يلتزم بمبادئ العلم ثم يسلك السبل التي يشاؤها. أليس هذا هو معنى قول الله سبحانه وتعالى في محكم كتابه: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَك بِهِ عِلْم إِنَّ السَّمْع وَالْبَصَر وَالْفُؤَاد كُلّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾.

وإني لأنظر فأجد – بحمد الله سبحانه وتعالى – أن الذين يظهرون على مسرح الدعوة إلى الحوار في هذا العصر أعزةً يطالبون الآخرين إلى ساحة الحوار وإلى محاريب المذاكرة العلمية، أنظر فأجد أنهم المسلمون الواثقون من حقائق الإسلام المطمئنون إلى أنهم يقفون على أرضٍ صلبة من الحقيقة العلمية الراسخة، وأتأمل في حال الآخرين الذين يعيشون في دروب الظلام والذين يختبؤون في جحور الجهالة التي تتقنع بالعلم، أجد أنهم هم الذين يفرون من الحوار هم الذين يفرون من هذه اللقاءات، ذلك لأنهم يعلمون أن الحوار إذا وقف على مستوىً حقيقيٍ راسخ، فلا بد أن تكون العاقبة للحوار القائم على العلم والمنطق.

وقد ثبت ثبوتاً لا ريب فيه أن الإسلام هو الذي ينهض على دعامتين العلم والمنطق، ومع ذلك فإن كل فئات الناس في هذا العصر لا تستطيع أن تتجاهل أهمية الحوار وقدسيته، وهذا هو الموقف المحرج للتائهين عن صراط الله عز وجل. من ذا الذي يستطيع أن يقول: لا.. أنا لا أؤمن بالحوار بل يجب أن

أفر من الحوار، إن الذي يقول هذا إنما يعترف بأنه يفر من العلم، ويفر من المنطق، وأمامنا عِبر وما أكثر العبر التي تخدم دين الله سبحانه وتعالى في هذا العصر أيها الإخوة.

هنالك أقنية تلفزيونية فضائية عربية ولا أتحدث عن الأجنبية تتكاثر، وكلها يتسابق بالظاهر للدعوة إلى الحوار، ذلك لأنه الشيء الذي يتطلع إليه عقول الناس جميعاً الذين يريدون أن يعرفوا الحق، ولكننا ننظر فنجد أن هنالك من يريد أن يتجمل بالحوار ولكنه يريد في الوقت ذاته أن يفر من الحقائق التي تكمن داخل الحوار. يريد أن يتجمل بالحوار مظهراً من المظاهر، وفي الوقت ذاته لا يريد أن يأسر نفسه للنتائج العلمية التي يوصل إليها الحوار.

قناةٌ من هذه الأقنية التلفزيونية في الخليج تعلن عن منهاج تتفاخر به جعلت عنوانه، الرأي والرأي المعاكس، وتحاول أن تعلن بأنها تحاور وأنها تدعو الناس إلى الحوار ليستبين من خلال الحوار الحق من الباطل، وهذا شيء رائع. ولكن انظروا إلى الخداع.. انظروا إلى الذين يسيل لعابهم على ألق الحوار ليتجملوا به ثم يفرون من نتائج الحوار كي لا يحرجوا أنفسهم بالإسلام لدين الله سبحانه وتعالى. ماذا تصنع هذه القناة؟ تستقدم إنساناً أوتي لساناً لسناً، أوتي قدرة على المنطق، أوتي قدرة على التفلسف وعلى التلاعب بالألفاظ باسم العلم، أوتي مكنة من هذا كله؛ يتبنى الشرود عن دين الله، يتبنى الدعوة المعاكسة للإسلام ثم تبحث هذه القناة عن إنسانٍ ملتزم يدعو إلى دين الله لكن شريطة أن يكون محدود العلم محدود القدرات، لا يملك شيئاً من القدرة المنطقية والكلامية والفلسفية التي يتمتع بها ذلك الثاني، تلح على هذا الاختيار اللامتكافئ، ثم تستقدم طرفين زاعمةً إلى أنها تدعو إلى حوار، وزاعمة إلى أنها تخضع للعلم. والنتيجةُ واضحة لكل ذي عينٍ باصرة ولكل ذي فكر متدبر.

النتيجة أن ألق الكلام العلمي وأن مظهر الدجل المنطقي يكون في جانب ذلك الإنسان الشارد عن دين الله الثائر على أوامر الله سبحانه وتعالى، أما الآخر الذي أُنتقي بشرط أن يكون محدود المعارف والعلوم سطحي الكلام النظري والفكري فلا شك أن القدرة تخونه، ولا يستطيع أن يبرز الحق الذي يؤمن به، ومن ثم فإن النتيجة ستكون كما قد خطط لها.

وليست العبرة هنا، إنما العبرة في أن أمتنا لا تُخدع وأنها عالمنا مليءٌ بالمثقفين الذين يدركون الأكمة، ويدركون ما وراءها، يدركون المظاهر المدجلة والخطط الكاذبة من وراء ذلك.

أرسل كثيرون إلى القائمين على تلك القناة الخليجية يفضحون عملهم هذا، ويضعونهم أمام أسماء لأناسٍ هم القادرون على أن يقفوا في وجه هؤلاء الشاردين عن دين الله، إذا أريد الاستعانة بالفلسفة فهنالك من يتكلم بالفلسفة من الملتزمين، وإذا أريد المنطق أو التاريخ أو التاريخ الطبيعي أو النظريات العلمية الجديدة فهنالك من يملك هذا الزمام. لماذا لا تدعون أولئك الذين يتسمون بالإسلام والالتزام وقد أغناهم الله سبحانه وتعالى بهذه القدرات. أرسل كثيرٌ من لا أقول الملتزمين إنما من العقلاء المثقفين إلى القائمين على تلك القناة الخليجية يمزقون هذه الخدعة الدجالة المدجلة ويطالبونهم إن كانوا فعلاً هم أهلٌ للحوار وممن يقدسون الحوار يطالبونهم بأن يأتوا بالكفأين، يطالبونهم بأن يحققوا آداب الحوار وشروطه، وأرسلت إليهم هذه الإنتقادات وهذه المذكرات فماذا كانت النتيجة؟

كانت النتيجة الصمت، الصمت المطبق بل كانت النتيجة الفرار من الحوار الحقيقي واللجوء إلى الحوار المزيف. هذه العبرة ماذا نفهم منها أيها الإخوة؟

نفهم منها أن اللذين يفرون من دين الله عز وجل بأي اسم من الأسماء إنما يفرون من العلم، إنما يفرون من المنطق، إنما يفرون من العقلانية الحقيقية التي هي رأس مال الإنسان والتي هي شرف رأسه وفكره. هذه هي العبرة التي نخرج بها والتي نتمسك بها، وهذه العبرة هي التي تجعل المسلم يزداد شموخاً بإسلامه ويزداد بصيرةً بدينه ويزداد يقيناً بأنه بمقدار ما يتمسك بحبل الله يتمسك بالعلم بكل معانيه وبكل حقائقه.

الحوار الذي يدلل عليه المدجلون نحن أربابه والديمقراطية التي تعني حقيقةً الشورى، وتعني حقيقةً تعظيم رأي الإنسان واحترام فكره ورغباته، نحن أرباب ذلك أجل. أما الآخرون الذين يحاربون دين الله عز وجل والذين يمارسون عمالةً ذليلةً لأولئك الذين يحاولون أن يقودوا العالم كله إلى الخراب والدمار باسم

الحضارة، هؤلاء أبعد ما يكونون عن الديمقراطية الحقيقية كما يدجل أناسٌ على الحوار ويزيفونه فأولئك يدجلون على الديمقراطية ويزيفونها.

ديننا.. الدين الإسلامي العظيم لا يترعرع إلا في مجال الحرية، بمقدار ما تشرق شمس الحرية على العالم يشرق شمس الإسلام، وبمقدار ما تسود الديمقراطية الحقيقية الحقيقية التي لا تترجمها إلا الشورى بمقدار ما يترعرع الإسلام وينمو دين الله سبحانه وتعالى.

كل هذا الذي أقوله أيها الإخوة عبر تلو عبر تلو عبر تُبين أن دين الله سبحانه وتعالى الذي هو الإسلام يقوم على دعامة العلم ولا شيء إلا العلم، يقوم على دعامة المنطق ولا شيء إلا المنطق بكل معاني العلم والمنطق، كل هذا يدل على أننا عندما نُدعى إلى حوار فنحن السابقون إليه، وعندما ندعى إلى الديمقراطية الحقيقية فنحن الذين نسوق الناس كلهم إلى الديمقراطية ونحارب الاستبداد الفكري، وكل هذا دليل على أن الآخرين الذين يشردون عن دين الله باسم العلم إنما يشردون عن العلم، إنما يشردون عن المنطق، هم يدجلون على الناس باسم العلم وباسم المنطق، ومع ذلك فإننا نسأل الله سبحانه وتعالى لنا ولهم جميعاً الهداية، ولا نقول هذا إلا شفقةً على الشاردين، وشكراً لله سبحانه وتعالى أن وفق المستقيمين على صراطه.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

٢٩٩- للجهاد مقدمات | ٢٠٠٠/١١/٠٣

يقولون إنّ المصائب تجمع الشمل وهذا كلامٌ صحيح إلى حد كبير. فأنا ما أذكر أن الشعوب العربية والإسلامية في محيطنا هذا اجتمعت كلمتها على معنى واحد وتلاقت على شعورٍ واحدٍ في فترة من فترات هذا العصر الذي نعيش فيه كما اجتمعت كلمتها واتحدت مشاعرها في ظل هذه المصيبة التي هي مصيبة العا لم الإسلامي أجمع.

أصغي السمع إلى مشاعر الشعوب الإسلامية في محيطنا العربي فأجد أن الجميع يعزفون على وترٍ واحد ويتطلعون إلى حل واحد لا ثاني له أمام هذه المصاب، ألا وهو حل الجهاد الإسلامي في سبيل الله سبحانه وتعالى، شعورٌ يسير في طريقٍ لا تسده الرؤى السياسية ولا تقف في وجهه المعايير الحكومية، شعور واحد كان ينبغي أن يولد في ما مضى في ظل أحداثٍ أخرى سبقت، ولكن نحمد الله سبحانه وتعالى أن رأينا أنفسنا أمام الدليل الواقعي الباهر على أن الأساليب السياسية مهما تلونت وأن المحاولات التي تقوم بها القادة مهما كثرت وتنوعت كل ذلك لا يحرك ساكناً، وإنما الذي يحرك وإنما الذي يفيد هو هذا الجهاد الذي أمر به الله سبحانه وتعالى.

ولكني أسأل نفسي أيها الإخوة وعلى كل مسلم أن يسأل نفسه: هذه المشاعر هي صادقة، والتعبير عن الحل الوحيد الذي لا ثاني له تعبيرٌ صادقٌ أيضاً، لكن فلنعلم أن التعبير عن هذا الحل لا يكلف صاحبه شيئاً، وأن الإصبع التي تشير إلى مبدأ الجهاد في سبيل الله لا تكلف شيئاً عندما تمتد لتبين أو لتتحدث أو لتعلن، إنما الذي يكلف صاحبه القيمة الحقيقية للجهاد هو النهوض العملي بهذا الجهاد الذي أمر به الله سبحانه وتعالى.

أن تثور ثائرة أناسٍ يجلسون في بيوتهم، اجتمعوا في صالونات سهراتهم، ينظرون إلى هذه المآسي التي تنقلها الفضائيات و يتنقلون خلالها من منظرٍ إلى منظر إلى منظر، ثم أن يزبد كلٌ منهم ويرغو ويُطلق الزفرات ويتحدث عن الحل، هذا أمرٌ لا يكلف صاحبه شيئاً، هو جالس في مكانه الوثير في داره الآمنة

مع صحبه الذين يسمر معهم، ويتحدث عن الحل الأمثل وعن الحل الخلبي الذي لا فائدة منه. هذا لا يقتضي أي قيمة تُبذل ولا يحمل صاحب هذا الكلام أي مسؤولية يتحملها.

ولكن فلنتسائل: أين هي الخطط التنفيذية سعياً إلى هذا الهدف المنشود، أو سعياً إلى هذا الحل الذي آمنت الأمة كلها به ثم آمنت بأن لا حل أمام هذا المصاب غيره؛ دون ذلك – كما يقول المثل العربي – خرط القتاد؟ لماذا أيها الإخوة؟

الجهاد في سبيل الله سبحانه وتعالى في حياة الإنسان المسلم كلٌ لا يتجزأ، ومن المستحيل أن ينتقي الإنسان من معاني الجهاد التي خاطبنا بها الله عز وجل نوعاً دون نوع، من الخيانة لدين الله عز وجل أن ينتقي أحدنا ما طاب له من أنواع الجهاد ويشيح بنظره عن الأنواع الأخرى، الجهاد الذي خاطبنا الله عز وجل به كلٌ لا يتجزأ، وآية ذلك أننا نقرأ كتاب الله عز وجل فنجده من فجر نزوله على رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحدث عن الجهاد ويأمر بالجهاد:

يأمر بالجهاد إذ كان المسلمون لا يزالون في مكة لم يهاجروا بعد ولم يُفرض عليهم بعد الجهاد القتالي.

يأمر بالجهاد عندما يحدثهم عن العقائد التي ينبغي أن يملؤا بها عقولهم، وينبغي أن يطهروا أفئدتهم وعقولهم من رجس الوثنية والشرك السابقين.

يتحدث عن الجهاد عندما يأمر ببذل المال والوقت وتزكية النفس وتطهيرها من الشوائب سيراً على صراط الله سبحانه وتعالى.

يأمر بالجهاد عندما يتحدث عن ضرورة صبر المسلمين ومصابرتهم أمام الإيذاء الذي يطوف بهم أمام السخرية أمام الاستهزاء الذين يراهما كل مسلم أمامه عندما يدعو إلى الله عز وجل.

يدعو إلى الجهاد عندما تألبت أمم البغي ضد المسلمين ويهيب بهم أن يقاتلوا في سبيل الله سبحانه وتعالى.

إذاً فالجهاد كلٌ لا يتجزأ، في حالة السلم نحن مكلفون بالجهاد، في حالة الحرب مكلفون بالجهاد، عندما يكون الإنسان آمناً مطمئناً في عقر داره مكلفٌ بالجهاد. الجهاد واجبٌ يصطبغ به الإنسان من فوقه إلى قدمه:

العقيدة التي ينبغي أن ترتكز في عقلك إيماناً ويقيناً ثم تنعكس إلى فؤادك عاطفةً حباً تعظيماً مهابةً جهاد.

بذل المال في سبيل مرضاة الله سبحانه وتعالى وفي سبيل إيجاد النسيج الإنساني للمجتمع الإسلامي جهاد جزءٌ لا يتجزأ منه.

الصبر والمصابرة على الالتزام بشرعة الله بأوامر الله في الدار في المجتمع أمام المستهزئين أمام الساخرين أمام الذين ينتقصون من أجل أنك سائرٌ على صراط الله جهاد.

ثم إن حمل السلاح في وجه من يقف في طريق الدعوة إلى الله عز وجل أو في وجه من يريد أن ينتقص حقاً من حقوق المسلمين أيضاً جهاد.

فمن أراد أن ينتقي من الجهاد عندما تهتاج به نفسه وعندما تثور به عواطفه؛ يتذكر الجهاد الذي يتمثل في الوقوف في وجه العدو مقاتلاً باذلاً الروح باذلاً الدم في سبيل الله عز وجل لونٌ من ألوان الجهاد. من أراد أن ينتقي هذا اللون فلسوف يكون حظه من الجهاد اللسان فقط، ولسوف تجده يحمل سبحته التي يتسلى بها وهو جالس في مقعده الوثير بزاوية من زوايا صالونه الفخم يتحدث عن الجهاد، ضرورة الجهاد في سبيل الله، فإذا استنهضته لذلك، تقاعس – أجل – وأخلد إلى الأرض كما قال الله عز وجل، لماذا؟ لأن هذا الإنسان سار في طريق دعوته إلى الجهاد على نهجٍ انتقائي طاب له أثناء هذه العواطف المهتاجة أن يتحدث عن الجهاد القتالي. ولكن أين هي المقدمات الأخرى؟ أين هي تزكية النفس؛ وهو لون من أخطر ألوان الجهاد؟ هذه التزكية التي يبتغى منها أن يصبح القلب مركزاً لمحبة الله مركزاً لمحبة الباقي ومركزاً لإزدراء الفاني، حتى تخف في سيرك إلى الجهاد في سبيل الله ولا تكون متثاقلاً بحمل أعباء الشهوات والأهواء والملذات وما إلى ذلك ..

الجهاد أيها الإخوة مرة أخرى كل لا يتجزأ، ولذلك عندما نقرأ كتاب الله نقرأ السور المكية في كتاب الله نجده يكرر الدعوة إلى الجهاد: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾، هذا هو المدخل الذي لا بد منه، وفي مكة لم يكن هنالك قتال ولم تكن ثمة دعوة إلى قتال أيضاً، لكن كان هنالك جهاد الصبر على شظف العيش، كان هنالك جهاد التعالي والتسامي على الشهوات والأهواء، كان هنالك جهاد الصبر على الاستهزاء بدين الله سبحانه وتعالى والسخرية من السائرين على صراط الله عز وجل، ثم كان هنالك جهاد الترفع على العقارات على الدور على الوطن ونفض اليد من ذلك كله، عندما يدعو الداعي إلى هذا ثم جاء الجهاد القتالي نتيجة لهذه المقدمات.

أنا اليوم أقول وأحمد الله عز وجل على أن مشاعر الشعوب الإسلامية في بلادنا العربية أصبحت تعزف على وتر واحد وتعبر عن شعور واحد وهي خطوة هي جيدة على كل حال، لكنني أتساءل ما الذي يلي هذه الخطوة الأولى؟ هذا هو القرار اللساني فأين هو التنفيذ العملي؟ التنفيذ العملي عسير، لأنني أنظر فأجد أن هذه الأمة مثقلة برغبات، مثقلة بأعباء من الشهوات، مثقلة بألق من الدنيا؛ قد هيمن هذا الألق على بصائرها وعلى أفئدتها والله سبحانه وتعالى يقول في محكم تبيانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

أتأملتم بهذا الكلام الرباني؟ ما الذي يقف في وجه المهتاجين نظرياً عاطفياً؟ ما الذي يقف في وجوههم عندما يريدون أن يتجهوا فعلاً إلى الجهاد في سبيل الله؟ هذا الذي قاله الله عز وجل، الدنيا التي اثاقلت بهم إلى الأرض، الأعباء الشهوانية التي تهتاج بين جوانحهم وهذا معنى كلام الله: "مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾. شيءٌ واحد هو الذي يجعل الإنسان يُحجب عملياً عن الجهاد في سبيل الله أهواؤه التي تشده إلى الأرض، رغباته التي تشده إلى المال، رغباته التي تشده إلى الأحلام الطيفية الدنيوية التي تعرفونها، يجمل لسانه بالحديث عن الجهاد، ولكن كيانه كله من الدماغ إلى القلب إلى الفرق إلى القدم كل ذلك قد أصبح مشدوداً إلى الأرض أي مشدوداً إلى الدنيا. هذا كلام الله سبحانه وتعالى.

أنظر إلى التناقض في مجتمعاتنا العربية والإسلامية، الألسن تتحدث عن الجهاد في سبيل الله عز وجل وهذا كلامٌ سليم، والأعمال كلها تتجه إلى التقلب في غمار الدنيا وشهواتها وأهوائها؛ في سبيل هذا العشق الذي بلغ أقصى مداه للرغبات والشهوات والأهواء غيرنا شرع الله، بدلنا أحكام الله طرقنا أبواب المفتين ليستجيبوا لنا في تغيير أحكام الله سبحانه وتعالى، وكم وكم من المفتين استجابوا لذلك؟

غاب الربا، لم يعد في مجتمعنا رباً محرماً إطلاقاً، ألا تسمعون؟ ألا تصغون إلى الفتاوى التي تفتح كل يوم نافذةً جديدةً إلى جانب الخروق التي فُتحت بيننا وبين ما يطوف به الغرب من أوضاعٍ حضارية تشمئز لها النفوس؟! ألا تلاحظون أنه قد استوى الماء والخشبة! استوى واقعنا مع واقع أولئك الغربيين لم يعد هنالك ربا محرماً، كل ما كان محرماً دخل بطريقة من أغرب الطرق تحت ما قد أذن الله عز وجل به، وبالأمس قلت: إما أن هؤلاء صادقون ورسول الله – والعياذ بالله – كاذب، وإما أن رسول الله صادق وهؤلاء دجالون وكاذبون. ولا شك أن هذا الاحتمال الثاني هو الصحيح. ألم يقل المصطفى صلى الله عليه وسلم: "يأتي على الناس زمانٌ يأكلون فيه الربا فمن لم يأكله أصابه من غباره"؟ لأن كان التعامل الذي يجري اليوم بين الناس وبين المصارف أمراً مباحاً زالت عنه الصبغة المحرمة، إذاً فليس هنالك ربا وليس كلام رسول الله إذاً صحيحاً.

ولكننا نعلم أن الأمر ليس كذلك هو عشق غريب وعجيب ولا كعشق مجنون لليلاه في التاريخ الذي تعرفون، تكالب المسلمين اليوم على الدنيا على الشهوات على الأهواء، لماذا؟

تنهض فئات في كل يوم هنا وهنا وهناك تدعو إلى تطوير شريعة الله، تدعو إلى تغيير مبادئ دين الله، تدعو إلى ما يُسمى بالتجديد لماذا؟ من أجل أن يقوم اصطلاحٌ بين شرع الله سبحانه وتعالى وبين الحضارة الغربية بحيث تخضع شريعة الله سبحانه وتعالى للحضارة الغربية التي ترون، وبحيث تحجم الشريعة الإسلامية ثم تُحجم ثم تُحجم لتقف تحت إبط رواد الحضارة الغربية ولتكون أداةً للدعوة إليها. هؤلاء الذين يفعلون هذا هم الذين يتحدثون عن الجهاد والدعوة إليه.

قلنا: حسناً فنفذوا ما تقولون، ولا سبيل إلى التنفيذ، لا لأن قوى تحول بينهم وبين ذلك، لأن قرارات سياسية تحول بينهم وبين ذلك لا، ولكن لأن الإنسان في كثير من الأحيان يجمل لسانه إرواءً لغلته

العاطفية، يحمل لسانه وهو جالسٌ في مكانه الوفير كما قلت لكم، والله الذي لا إله إلا هو لأن علم أن شوكةً ستؤثر على دخله المالي وتؤثر على أحلامه فيما يتعلق بتجاراته وأرباحه ومدخراته، فلسوف يُقيم الدنيا ولا يقعدها، وكم رأينا دلائل ذلك، وآية هذا الذي أقول أنني أكرر الدعوة إلى ما قد قلت، هنالك خطوة أولى نحو الجهاد في سبيل الله عز وجل، هذه الخطوة الأولى لا تكلف صاحبها حمل سلاح ولا تُكلف صاحبها أن ينتقص من ماله شروى نقير، ولا تكلف صاحبها أي عنت أو الدخول في أي خطر أو أي مغامرة، قاطعوا هذه البضائع التي تفيض بها مجتمعاتكم تلك التي تفد إليكم من الولايات المتحدة الأمريكية، قاطعوها لا تستطيع فئة من الناس أن تمنعكم من ذلك، للقادة أن يفعلوا ما يشاؤون وأن يستقدموا هذه المتع وهذه البضائع كما تحبون، فلتتراكم في مجتمعاتكم، ابتعدوا عنها، قاطعوها، لكم غنى عنها تستطيعون أن تعيشوا بدونها، تستطيعون أن تحققوا أحلامكم الذهبية بحياتكم الفارهة بقصوركم العامرة بأثاثكم برياشكم بكل ما تبتغون دون أن تمتد منكم يد الذل والمهانة إلى هذه البضائع، قاطعوا هذا نوع من أنواع الجهاد، جزء من الكل الجهادي الذي أمر الله سبحانه وتعالى به. فأين هم الذين ينفذون هذا؟

وأنا لا أشك ولست مبالغاً إذا قلت لكم: لإن كان السلوك الإسلامي في بلادنا العربية متطابقاً مع المشاعر النظرية في هذه البلاد في هذه الفترة بالذات وتحقق هذا السلوك العملي في الخطوة الأولى هذه التي تتمثل في تطهير المسلمين أيديهم من هذه البضائع الأمريكية، فإن الله سبحانه وتعالى سيوفقهم للخطوات التالية، وإن الله سبحانه وتعالى سيفتح لهم آفاق نصرٍ لا يتوقعونه، ولكن هذا الأمر يحتاج لشيء واحد، أن لا يخلد الإنسان إلى الأرض، أن لا يتبع هواه، أن لا يسيل لعابه على المشتهيات وهو يتحدث عن الجهاد بشدقٍ يتحدث عن الجهاد وبشدقٍ آخر يسيل لعابه على المشتهيات العجيبة. كيف يكون هذا؟

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنْ الْغَاوِينَ، وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصْ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾. المشكلة هي إخلاد هذه الأمة إلى الأرض.

وها هي ذي رائحة هذا الإخلاد تفوح؛ تفوح بألوان شتى وبصور شتى؛ السعي إلى التلاعب بشرعة الله رائحة تزكم الأنوف، هذه الفتاوى العجيبة التي جعلت الحرام حلالاً وجعلت الواجب مباحاً وغيرت وبدلت بشكلٍ لا عهد لنا به لونٌ من هذه الألوان رائحة من هذه الروائح التي تزكم الأنوف.

هذا السلوك الشائن المائع البعيد عن دين الله سبحانه وتعالى، هذه المنكرات التي لا تجد من ينكرها من يشير بإصبعه إليها كل ذلك مظهرٌ للرائحة التي تزكم الأنوف لمعنى قول الله تعالى: ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾.

أسأل الله عز وجل أن يحررنا من هذا الوصف حتى يجعلنا فعّالين لا قوّالين، وحتى لا نتكلم بشدقٍ من أفواهنا عن الجهاد وشدق آخر من أفواهنا يسيل لعابه على المشتهيات الدنيوية العجيبة.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.



٣٠٠- الجهاد كلٌّ لا يتجزأ | ٢٠١٠/٠٢/٠٥

قالوا: إن المصائب إذا استشرت وحَّدت المشاعر، وجمعت الشمل، وقضت على أسباب الخلاف، وصدق ما قالوا، فإن مجتمعاتنا الإسلامية تعيش اليوم عصر المصائب المستشرية من جراء تسلط قِوى البغي والشر على حقوقها المادية والمعنوية بل على وجودها الحضاري، وما البغي الإسرائيلي المهيمن على حقوق أمتنا الإسلامية جمعاء في فلسطين إلا الكتلة السرطانية التي تنشر آلامها وأوجاع مصائبها في مختلف بقاع مجتمعاتنا الإسلامية، ونحن نصغي إلى مشاعر الناس وهم يعانون من هذه المصائب ويرون انتشارها واتساعها، وإذا بمشاعرهم تتلاقى على هدف واحدٍ فعلاً، وإذا بهم جميعاً يرفعون لواء الجهاد في سبيل الله سبحانه وتعالى على اختلاف مشاعرهم وعلى اختلاف مشاربهم ومذاهبهم وتوجهاتهم، وهذا هو مصداق ما قالوا: إن المصائب توحد المشاعر وتجمع الشمل.

ولكن الذي يفوت جُلَّ المسلمين معرفتُه هو أن الجهاد في سبيل الله سبحانه وتعالى كُلٌّ لا يتجزأ يا عباد الله، هو كلٌّ متكامل يأخذ بعضه بحُجُزِ بعض، ولا يتأتى فصل جزء منه عن الأجزاء الأخرى، فالجهاد القتالي جزءٌ من الجهاد الكلي الذي شرعه الله سبحانه وتعالى ولا يستقيم نهوض الأمة بهذا الجزء إلا إذا تكامل نهوضها بكل معاني الجهاد الذي شرعه الله سبحانه وتعالى.

شرع الله سبحانه وتعالى الجهاد منذ فجر البعثة النبوية، أي قبل أن يهاجر النبي صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة، أي قبل أن يشرع الباري سبحانه وتعالى الجهاد القتالي، ومع ذلك فإن الأمر بالجهاد كان يتنزل بين الحين والآخر على المسلمين من خلال الوحي الرباني من مثل قول الله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩] وقوله عز وجل: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ [الحج: ٧٨] مع أن الجهاد القتالي لم يكن مشروعاً بعد، فما المراد بالجهاد الذي كان يدعو الباري سبحانه وتعالى عباده إليه وهم يعيشون في أوائل عهد البعثة النبوية؟ المراد من الجهاد الذي كان يتكرر على سمع المسلمين آنذاك هو أن يجاهدوا بعقولهم في سبيل معرفة الحق، وفي سبيل اليقين به، وفي

سبيل أن يعرفوا حقيقة الكون والإنسان والحياة وعلاقة الإنسان بهذا الكون الذي يعيش فيه، وأن يعلم عبوديته ومملوكيته لله سبحانه وتعالى، فهذا أول معنى من معاني الجهاد الذي أمر به الله سبحانه وتعالى.

المراد بالجهاد الذي خاطب الله عز وجل به عباده آنذاك جهاد النفس، التسامي بها فوق الشهوات المحرمة، التسامي بها فوق الأهواء الجانحة، هذه الشهوات والأهواء التي كم وكم أفسدت الحرث والنسل، كم وكم أفسدت المجتمعات، كم وكم فتحت سبل تسرب الأعداء إلى الأمة وإلى استنزاف حقوقها ومبادئها.

المراد بالجهاد الذي أمر الله سبحانه وتعالى به التجمُّل بالأخلاق الإنسانية الإسلامية الفاضلة ولا سيما داخل الأسرة، الأخلاق الإسلامية التي تتمثل في علاقة الزوج بالزوجة والزوجة بالزوج، والمتمثلة في واجبات الآباء تجاه الأبناء والأبناء تجاه الآباء.

المراد بالجهاد الذي أمر الله سبحانه وتعالى به التحلّي بالأخلاق الإنسانية الإسلامية في السوق، في أعمال التعامل، في أخلاق المعاملات المالية المختلفة. ثم إن المراد بالجهاد بعد ذلك الوقوف في وجه العدو المستشري، وردّ غائلة العدوان عن الأمة.

هذا هو الجهاد، كلٌّ لا يتجزأ، والأمر العجيب -يا عباد الله- أن في الناس -بل لعلهم أكثر الناس- من إذا تلاقوا في سهرات لهم، في أمسيات سلوى، في ساعات لهوٍ جلسوا يتذاكرون أمر هذه المصائب المستشرية في مجتمعاتنا، فاتّفقوا جميعاً على أن لا علاجَ إلا الجهاد في سبيل الله، يؤكد ذلك أحدهم وهو ينفخ دخينته، ويؤكد الثاني على قوله وهو يزداد اتّكاءً على أريكته، والكل يؤكدون هذا وهم عن بقية معنى الجهاد غافلون، وهم عن بقية ما أمر الله سبحانه وتعالى به معرضون، كم وكم في هؤلاء الذين يرفعون لواء الجهاد القتالي في سبيل الله من إذا سألته عن حقيقة المعتقد الإسلامي قال لك: أنا لست مختصاً بالدين، أنا مهندس، أنا طبيب، وكأن اصطباغ الإنسان بالهوية اختصاص من الاختصاصات، أليس هذا هو الواقع المرئي في مجتمعاتنا يا عباد الله؟!

كم في هؤلاء الذين يرفعون لواء الجهاد في سبيل الله، ويؤكِّدون أنه السبيل الأوحد الذي لا سبيل من دونه، كم في هؤلاء من يتمرَّغون في أوحال الشهوات المحرمة، من يتمرَّغون في أوحال الأهواء الجانحة،

وأي الأهواء وأي الشهوات؟ تلك الشهوات التي تفسد الحرث والنسل -كما قلت لكم- تلك الشهوات والأهواء التي تُقَطِّعُ صلة القربى بين الإنسان وأخيه الإنسان، تلك الشهوات والأهواء التي تفتح السبل أو النوافذ أمام العدو المستشري ليتسلل منها إلى أوطاننا وإلى حقوقنا، كم وكم في هؤلاء الذين يرفعون لواء الجهاد في سبيل الله عز وجل في سهراتهم وأمسياتهم من إذا دخلت دار أحدهم، وبحثت عن الأخلاق الإنسانية الإسلامية المثلى في معاملة الزوج للزوجة أو الزوجة للزوج وجدت ذلك كله غائباً، يدخل الزوج ولا يبالي بإهدار شيءٍ من حقوق الزوجة، كم وكم سمعنا في المصلين، في الحجاج، في المتَّجِهين بين الحين والآخر إلى أداء العمرة من يمعن داخل داره بظلم زوجته، وينهال عليها ضرباً ولَكْماً، لماذا؟ لماذا تفعل هذا؟ قال: لأنني أكرهها، تكرهها! وهل كراهيتك لها جريمة ارتكبتها في حقك؟! أنت الذي ترفع لواء الجهاد بكلامك، ألم تقرأ قول الله عز وجل في صلاتك أو في نسكك: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً﴾ [النساء: ١٩]؟

وما أقوله عن معاملة الزوج للزوجة أقوله ربما عن معاملة الزوجة أيضاً في بعض الأحيان للزوج، الكلام ذاته يقال لدى البحث والتدقيق في الواجبات التي ينبغي أن ينهض بها الآباء تجاه أبنائهم، التربية الإيمانية المثلى التي وضعها الله عز وجل مسؤولية في أعناقنا غائبة، كذلكم الأبناء وهكذا، كم في الناس الذين يرفعون لواء الجهاد في سبيل الله متحمسين مُحَمِّسين كم في هؤلاء من إذا دخلوا السوق، ومارسوا الصفق بالتجارة والمعاملات المالية لم يبالوا باختراع ألوان الغش، بل سلسلة الغش المتنوعة التي يُبْتَدَعُ منها كل يومٍ بدعة جديدة، هل أحدثكم والوقت يضيق عن أنواع هذا الغش، عن أنواع هذا التكالب على حقوق الآخرين باسم المعاملات المالية؟ هل أعود فأحدثكم كما ذكرت لكم بالأمس عن أولئك الذين يقدمون الأغذية الفاسدة المتنوعة ولا يبالون بأن يملؤوا جيوبهم بالمال ثمناً لقتل الناس، ثمناً لبثّ أسباب الأمراض الوبيلة المهلكة في جسومهم؟ أأحدثكم كما ذكرت بالأمس عن المطاعم وما تقدمه من أصناف الأطعمة المجلوة جمالاً في الأعين والتي تملأ البطون بأسباب الهلاك عند الأكل والطعم.

لن أعيد ما قد ذكرت، الجامع المشترك بين هؤلاء كلهم أنهم إذا تلاقوا تنفسوا الصعداء، وأجمعوا على أن لا سبيل إلا الجهاد في سبيل الله عز وجل، إذا تلاقوا في سهراتهم أو في أنديتهم أو في أي مناسبة من المناسبات الوطنية المختلفة صاحوا وهاجوا ورفعوا لواء الجهاد في سبيل الله، والله ينظر، والله يرى، وكأن

الله يقول لعباده: الجهاد كُلٌّ متكامل لا يتجزأ، فإن قطَّعْتَ جزءاً من كله شُلَّ ومات وفارقته الحياة، روح الجهاد في سبيل الله الأخلاق الإسلامية ﴿إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق﴾، روح الجهاد في سبيل الله التراحم الذي ينبغي أن يسري معناه دائماً بين أفراد الأمة على اختلافها، روح الجهاد القتالي في سبيل الله أن يشيع الوئام في داخل البيت، داخل الأسرة، أن يعلم الزوج وهو يدخل إلى داره أنّ تقربه إلى الله عز وجل بالبسمة في وجه زوجته، أن تقربه إلى الله سبحانه وتعالى باللطف مع زوجته يثيبه أكثر من حجه النافلة إلى بيت الله الحرام، وصدق رسول الله القائل: ﴿إن أقربكم مني مجالس يوم القيامة ألطفكم بأهله﴾.

هذا هو معنى الجهاد الكلي، ولعل غياب كلي معنى الجهاد هو السبب في أننا نرفع لواء الجهاد في سبيل الله صباح ومساء، ولا نجد روحاً تسري في هذا اللواء، لا نجد روحاً تسري في هذا التوجه، لأنه - أقول لكم بصدق- توجهٌ كاذب في أكثر الأحيان، أجل، أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم فاستغفروه يغفر لكم.



٣٠١- الجهاد وجمع الشمل | ٢٠١٠/٠٣/٢٦

قديماً قالوا: إن المصائب من شأنها أن تجمع الشمل، وأن تسد ثغرات الاختلاف والشقاق، وهذا كلام صحيح إلى حدٍّ كبير، فها نحن نرى شعوبنا الإسلامية –من خلال بلادنا العربية القريبة– قد اجتمعت على نهجٍ واحدٍ وغايةٍ واحدةٍ تحت الضغط المستشري والمتمثل في المصيبة الكبرى المتمثلة في اغتصاب الأرض واستلاب الحقوق والحصار المستمر الذي تطاول أمده على غزة وأصحابها والسعي الدائب الحثيث على تهويد القدس. هذه المصيبة جمعت الشمل في الحقيقة، وجعلت شعوب العالم الإسلامي القريب والبعيد تعزف على وَتَرٍ واحدٍ، وتتجه إلى الإيمان بحلٍّ واحد ألا وهو حلُّ الجهاد في سبيل الله سبحانه وتعالى. هذا التوجه الذي لا يقف أمام رؤى سياسية، ولا يَسُدُّ السبيل إلى الإيمان به قيادات حكومية، وهكذا نجد أن هذه المقولة صحيحة: المصيبة من شأنها أن تجمع الشمل، وأن تسد نوافذ الخلاف والشقاق.

ولكنا نبصر ونتأمل فنرى أن العزف على هذا الوتر، واتجاه الشعوب الإسلامية إلى اليقين بهذه الوسيلة وحدها، نجد أن الأمر لا يعدو القال والقيل، ننظر فنجد أن الأمر لا يعدو أن يكون أحاديث أسمارٍ في سهرات وصالونات.. ينظرون ويتأملون في المناظر المأساوية المتتالية في هذه الأقنية الفضائية المختلفة، فتهتاج بين جوانحهم آلام المأساة، ويتذاكرون فينتهون إلى رؤية واحدة وقرار واحد، ألا وهو الجهاد، ولا شيء غير الجهاد، ولكنهم جميعاً لا يتحرّكون من مجالسهم الوثيرة، ولكنهم جميعاً لا يتنازلون عن طمأنينتهم، ولا يتنازل الواحد منهم عن رغد عيشه، وهكذا فإن الحديث عن الجهاد لا حَظَّ له إلا في الألسن. فما سبب هذه المفارقة؟ يجتمع الكل على ألا علاج إلا علاج الجهاد في سبيل الله، ثم إنهم لا يراوحون إلا في أماكنهم، ولا يتجاوزون الحديث إلى الفعل شروى نقير، ما السبب.

السبب –يا عباد الله– أن الجهاد كلٌّ لا يتجزأ، ولا يجوز أن ينتقي المسلم من معاني الجهاد ما طاب له، ويبعد نفسه ويعرض عن الأنواع والمعاني الجهادية الأخرى، الجهاد كلٌّ لا يتمثل فقط في الجهاد القتالي الذي نقرأ عنه في كتاب الله سبحانه وتعالى.

منذ فجر البعثة النبوية وكتاب الله سبحانه وتعالى يأمر المؤمنين بالجهاد، حتى عندما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في مكة قبل أن يُشْرَعَ الجهاد القتالي ما أكثر ما يأمر كتاب الله عز وجل بالجهاد، نقرأ في السور المكية قوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، نقرأ فيها قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ [الحج:٧٨] إذن الجهاد لا يتمثل في نوعٍ واحدٍ مما نسميه جهاداً، الجهاد كلٌّ لا يتجزأ.

المسلم مكلف بالجهاد في حالة السلم وحالة الحرب معاً، المسلم مأمور بالجهاد حتى وهو آمنٌ مطمئنٌّ في داره مع أسرته، المسلم مكلَّف بالجهاد في كل تقلباته وفي سائر أحواله، ومن أعرضَ عن معنى من معاني الجهاد، والتقط منها ما يروق له لن يكون حظّ هذا الجهاد منه إلا حظّ اللسان فقط.

العمل الذي يجب أن يمارسه كلٌّ منا –كل مسلم– في سبيل أن ينقل العقيدة الإسلامية يقيناً جاثماً في العقل إلى عاطفة مشبوبةٍ من الحب والتعظيم تهيمن على القلب جهاد في سبيل الله سبحانه وتعالى.

وسعي المسلم الدائب على معرفة أحكام الشريعة الإسلامية، والانضباط بضوابط الشريعة في أحكام المعاملات المالية في السوق من الجهاد، بل من أهم معاني الجهاد.

وترفُّع الإنسان بكل الوسائل التي بَصَّرَنَا بها كتاب الله عز وجل على الشهوات الآسنة وعلى الأهواء الجانحة كل ذلك من الجهاد، بل من أهم معاني الجهاد.

وسعيك في سبيل أن تطهّر قلبك من الضغائن، من الأحقاد، من مشاعر الحسد، من الاستكبار والأنانية من أجلِّ معاني الجهاد.

والأخلاق الإسلامية الإنسانية التي بَصَّرَنَا بها كتاب الله عز وجل، وأمرَنَا أن نواجه بها الآخرين، وأن نضبط أنفسنا بها أيما انضباط من أجلِّ معاني الجهاد، ثم إن مواجهة المسلم للعدو الذي يصرُّ على اغتصاب الأرض واستلاب الحقوق الوقوف في وجهه جهاد من أجلِّ معاني الجهاد.

أرأيتم –أيها الإخوة– كيف أن جهاد المسلم كلٌّ لا يتجزأ، ولا يجوز للإنسان أن ينظر إلى هذه المعاني فيلتقط منها ما يروق له، ويعرض عما لا يروق، هذه خيانة، خيانة لمن شرَّع الجهاد ولمن أمر به.

إذن أعود فأقول وأتساءل معكم: لماذا تجتمع شعوبنا الإسلامية –بَعُدَتْ أو قَرُبَتْ– على ألا علاج لدرء هذه المصيبة وتطهير الأرض من الغاصبين والمستلبين إلا الجهادُ في سبيل الله تعالى، لماذا تجتمع

شعوب العا لم الإسلامي على هذه الحقيقة يقيناً ثم لا يكون نصيبُ هذا الذي اجتمعوا عليه إلا في الألسن وإلا في المجالس التي يجتمعون فيها على السمر والحوار.

السبب —يا عباد الله— أن أكثر المسلمين اليوم إنما يفهمون من الجهاد نوعاً واحداً منه، وقد أعرضوا عن بقية معانيه وبقية أنواعه، إنهم يفهمون من الجهاد مواجهة العدو بالسلاح، مواجهة العدو بالقتال، أجل وهو فهم صائب، وهو فهم سديد، لكن لماذا لا ينهضون إلى ذلك؟ لأنهم مثقلون بأعباء كثيرة، مثقلون بحبّ المال، مثقلون بحبّ الحياة، مثقلون بحبّ رغد العيش، مثقلون بحبّ الشهوات والأهواء الآسنة، مثقلون بذلك كله، لم ينتبهوا إلى أن عليهم أن يجاهدوا في سبيل الله عز وجل للتحرر من هذه المصائب وهذه الأعباء كلها، ومن ثم صَعُبَتْ عليهم الحركة، صَعُبَ عليهم التوجه إلى هذا الذي آمنوا به فعلاً لأنهم مثقلون بأعباء الشهوات والأهواء وما يتبع ذلك مما تعرفون.

ألا تقرؤون قول الله عز وجل أيها الإخوة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة:٣٨].

وَضَعَنَا البيانُ الإلهي أمامَ الأمر، وَوَضَعَنَا أمامَ السبب الذي يجعلنا ننكص على أعقابنا، ونبتعد عن الانقياد للأمر، إنه هذا الذي يقوله لنا ربنا بهذا التعبير البليغ العجيب: ﴿اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾، والمراد بالأرض كل ما تنبع به الأرض من الشهوات والأهواء ومظاهر الدنيا وما إلى ذلك، فالأرض كناية عن ذلك كله، ولا يكون الإنسان مُثَّاقِلاً إلى الأرض إلا وهو مُثْقَل بحب هذه الشهوات وهذه الأهواء وما إلى ذلك. هذا كلام الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾، مَنَعَكُم من الاستجابة لأمر الله عز وجل الثِّقِل الذي حَمَّلْتُمُوه على أنفسكم وفي قلوبكم، ثقل الرغائب، ثقل الشهوات والأهواء المتنوعة، ﴿أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

هم مؤمنون بأن الجهاد هو العلاج، ولكن حِيْلَ بينهم وبين استعمال هذا العلاج مرارتُه، والذي جعل الجهاد مُرَّاً علقماً في حلوقهم إنما هو هذا الثقل الذي ران عليهم، أجل، وتلك هي مشكلتنا في هذا العصر يا عباد الله.

ألا ترون إلى قادة الأمم العربية وغيرها من حولنا، مَنِ الذي جعلهم يعْرِضُون عن استعمال هذا الدواء؟ من الذي جعلهم يمارسون قسوة قلبٍ عجيبة وغريبة تجاه هذه الصور التي لا شك أنهم يرونها صباح مساء، صور إخوانهم الذين يموتون موتاً بطيئاً تحت هذا الضغط العدواني الآثم؟ لماذا لا ترقُّ قلوبهم لهذا الحصار الذي تطاول أمده على أهل غزة؟ لماذا لا ترقُّ أفئدتهم وتهتاج مشاعرهم الإيمانية لمساعي التهويد الخثيثة للقدس؟ لماذا؟ إنهم مؤمنون، وفيهم من لا يتركون الصلوات الخمس في أوقاتها، نعم، ويعلمون أن الوسيلة الناجعة هي الجهاد فقط، ولكن حاق عليهم قول الله سبحانه وتعالى: ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾، إنهم قد يعتذرون بالتحديات التي تحيط بهم وتأخذ منهم بالخناق -تسمعون هذا كما نسمع- ولكنهم والله يعلمون أن المسألة ليست تحديات تأتي من هنا أو هناك والتي تأخذ منهم كما يقولون بالخناق، إنه تحدٍّ واحد، تحدي شهواتهم الآسنة على إيمانهم المحبوس في زوايا عقولهم، هذا الإيمان الذي لم يتحول بعدُ إلى عاطفة من الحبِّ تهيمن على قلوبهم. هذا هو السبب.

التحديات! أي تحدٍّ هذا. تعالوا قارنوا بين التحديات التي واجهَهَا الرعيل الأول من إخوانكم المسلمين في عصر النبوة، كانوا غرباء في العالم كله، كان طغيان الحضارات يحيط بهم كإحاطة القيد بالمعصم، ومع ذلك لم يشعروا بما يسمى اليوم التحديات، حطموا التحديات، ونفَّذُوا أمر الله سبحانه وتعالى، لماذا؟ لأن ثقل الشهوات الأهواء قد تحرروا منه عندما انقادوا لأمر الله، وعندما جاهدوا في الله حق جهاده، عندما جاهدوا نفوسهم، عندما حرّروا نفوسهم من رقِّ الشهوات وحب المال وحب الحياة، عندما جاهدوا أنفسهم في تنفيذ أوامر الله عز وجل، عندما جاهدوا أنفسهم فاصطبغوا بصبغة العبودية لله، وعكفوا في محراب العبادة على تنفيذ أوامر الله سبحانه وتعالى. هذا هو الجهاد الذي مارسوه ثم مارسوه فخفَّ عليهم ثقل الجهاد القتالي في سبيل الله سبحانه وتعالى.

واليوم لو أننا فعلنا ما فعله ذلك الرعيل الأول، ولو أنا جاهدنا أنفسنا تنفيذاً لأمر الله، حررناها من ربقة الشهوات المحرمة، حررناها من ربقة حب المال، حب كنز المال بعضه فوق بعض، لو أننا حررنا أنفسنا من الأخلاق الذميمة، ولو أنا مددنا جسور الود والقربى مع إخواننا المؤمنين تنفيذاً لأمر الله القائل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠] ولو أننا توَّجْنَا ذلك كله بالوقوف بين يدي الله عز وجل كل يومٍ كما أمر خمس مرات، نؤدي الصلوات في مواقيتها، ندخل ضيافة الله سبحانه وتعالى وقد استضافنا إليها في اليوم والليلة خمس مرات، لو أننا فعلنا ما كان يفعله الرعيل الأول، احتفظنا لأنفسنا بحق من قيام الليل من الهزيع الأخير في الليل نقوم والناس نيام، نخاطب الله، نجأر إليه بالشكوى، نسجد، نعفّر رأسنا بالأرض ونحن نخاطب الله ونستنزل النصر من عليائه، لو أننا فعلنا ذلك كله، هذا جهاد، وكل ذلك بوابة الجهاد القتالي في سبيل الله، لو أننا فعلنا ذلك إذاً لخف ثقل الجهاد علينا، وإذن لكان اجتماع الكلمة متوَّجاً بالتنفيذ، وإذن لن يكون اجتماع الكلمة مجرد حوارٍ نزجي به الوقت في سهراتنا وفي أمسياتنا وفي أسمارنا كما هو الحال اليوم.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم فاستغفروه يغفر لكم.



القرآنيون

٣٠٢- لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنه | ١٩٩٤/٠١/٢١

إن الله عز وجل قرن الأمر بطاعته مع الأمر بطاعة رسوله سيدنا محمدٍ صلى الله عليه وسلم، ثم كرر ذلك وأكده؛ حتى يتبين للناس جميعاً أن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم جزء لا يتجزأ من أمر الله، وأن لا فرق بين أمر الله وأمر رسوله، وأن الذين يريدون أن يفرّقوا بين الله ورسوله مفتأتون على الله وعلى الدين الذي أنزله لعباده فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾. وقال عز وجل: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾. وقال سبحانه وتعالى في مكان آخر: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾. وقال عز وجل: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾.

ولله عز وجل حكمة باهرة في هذا التأكيد وفي هذا البيان، فقد علم عز وجل أن في الناس ناساً سيأتون في وقت ما من الزمن، يحدِثون في هذا الدين ما لم يأذن به الله سبحانه وتعالى، ويخطّطون لمسخه وتشويهه والقضاء عليه بطريقة منكرة مبتدعة هي التفريق بين كتاب الله عز وجل القرآن وبين سنة رسوله محمدٍ عليه الصلاة والسلام، ولقد نظرنا فوجدنا أن هذه الفئة قد ظهرت فعلاً، وأن في الناس من يصطنعون كذباً التقديس العظيم لكتاب الله القرآن، من حيث يهملون سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ويلقونها ورائهم ظهرياً، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال: ﴿يوشكُ رجلٌ متكئاً على أريكته يُحدَث بحديث مني. فيقول: بيننا وبينكم كتاب الله، فما وجدنا فيه من حلال حللناه، وما وجدنا فيه من حرام حرمناه﴾ ثم قال عليه الصلاة والسلام: ﴿ألا وإن الذي حرمه رسول الله مثل الذي حرمه الله﴾. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه﴾.

من أجل هذا يؤكد بيان الله عز وجل على ضرورة طاعة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل ما يأمر وفي كل ما ينهى، ولقد قال عليه الصلاة والسلام فيما رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه وغيرهم: ﴿عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين﴾، وما هذا إلا تأكيدٌ على ضرورة اتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأن الخلفاء الراشدين هم مظهر يجسد التمسك بسيرة رسول الله صلى

الله عليه وسلم، فما كان أمر رسول الله باتباع خلفائه الراشدين إلا لأنهم نموذج أسمى في التمسك بسيرة رسول الله وبسنة المصطفى عليه الصلاة والسلام.

غير أن اتباع النبي عليه الصلاة والسلام رهنٌ بمحبته، رهنٌ بدراسة سيرته، رهنٌ بتبين معالم نبوته. فكل من غاب أو أعرض عن دراسة سيرة المصطفى عليه الصلاة والسلام ومن ثم أعرض عن معالم النبوة في حياته، لن يجد سبيلاً إلى محبته، ولن يتسرب معنى محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قلبه، ومن ثم فهو لن ينظر إليه إلا على أنه مصلح، جاء ومضى وذهب دوره مع المصلحين الذين ذهبت أدوارهم. وانظروا تجدون أن رحب الأرض مليء بالناس الذين يجعلون من أنفسهم مؤمنين مسلمين، ولكنهم ينظرون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من خلال هذا المنظار.

الداء الذي يعانيه هؤلاء أنهم أعرضوا عن دراسة سيرة المصطفى عليه الصلاة والسلام، بل أقول أعرضوا عن دراسة شمائله عليه الصلاة والسلام، ولقد اهتم سلف هذه الأمة بالتركيز على جانب متميز من سيرته عليه الصلاة والسلام، وهو الجانب الذي سمي بالشمائل، أي الجانب الذي يبرز صفات رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخلاقه الشخصية، في بيته مع أسرته مع أصحابه مع الأباعد من الناس والأقربين منهم، هي تلك الدراسات التي تبرز لنا خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم في جده في مزحه في طعامه في شرابه في رقاده في يقظته في كل الصفات والأخلاق التي حرمنا من رؤيتها، لأننا حرمنا من رؤية رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولقد كان السلف رضوان الله عليهم يعكفون على دراسة هذه الشمائل وكم ألفت فيها كتب، أما المسلمون اليوم فهم زاهدون كل الزهد في دراسة شمائل رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل ما أكثر ما رأينا من يتأفف عندما يسمع شيئاً من شمائل رسول الله صلى الله عليه وسلم في مولد على لسان واحد من هؤلاء القارئين للمولد أو المنشدين، ما أكثر ما رأينا من يتأفف إذا وصف شكل رسول الله إذا وصف طول رسول الله إذا وصفت مشية رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنما ورثنا هذه الصفات من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان سيدنا علي واحداً من أبرز من اهتم بدراسة هذه الصفات ونقلها إلى من بعده ترى.

هل يمكن أن يتأفف المحب لرسول الله ممن يتحدث عن صفات رسول الله، وهل كان المحب إلا منتشياً طروباً لحديث من يتحدث عن محبوبه، لحديث من يصف له محبوبه، فإن دل هذا على شيء فإنما يدل على فراغ أفئدة هؤلاء الناس من حب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإذا فرغ فؤاد الإنسان من حب رسول الله، فهيهات هيهات أن يشعر بشيءٍ من محبة الله عز وجل، لأن بين هاتين المحبتين تلازماً كبيراً، لا يحب اللهَ حباً حقيقياً إلا من أحب رسوله، ولا يحب رسول الله صلى الله عليه وسلم الحب الذي علمنا إياه رسول الله إلا من أحب الله عز وجل أولاً. وانظروا كيف يقارن سيدنا رسول الله بين هذين الحبين قائلاً: ﴿أحبوا الله لما يغذوكم من نعمه وأحبوني لحب الله إياي﴾، فكيف يمكن أن ينفصل حب مولانا وخالقنا عن حب نبينا ورسولنا محمد عليه الصلاة والسلام.

ولما فرغت أفئدة كثير من المسلمين عن هذا الحب واتجهت بالقال والقيل للتعويض عن هذا الحب، أعرضنا عن كثير وكثير من سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتُهنا في الشعاب المضللة والمفَرِّقة، ولو أن محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت جاثمة في سويداء نفوسنا؛ لظهرت آثار ذلك. وفي مقدمة هذه الآثار وحدة الأمة؛ ذلك لأن عدداً من الناس عندما تجمعهم محبة شخص واحد لا بد أن يتآلفوا. فإذا كانت هذه المجموعة أمة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان كل منهم يفيض قلبه حباً لرسول الله صلى الله عليه وسلم فلا بد أن تمتد شبكة التآلف بين أشخاص هؤلاء الناس، ولا بد أن يصبحوا كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كالجسد الواحد. ولكن لما فرغت أوعية قلوبنا عن حب رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا بد لها أن تمتلأ بحب آخر. كان لا بد أن تمتلأ أفئدتنا بمحبة ذواتنا أشخاصنا أنانياتنا أهوائنا، فظهر التنافس وظهر الخصام وظهرت الأحقاد وظهر الغل، ذلك لأن هذا هو دخان تلك المحبة التي تأتي بعد فراغ الأفئدة من محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولما فرغت أفئدتنا من محبة رسول الله أعرضنا عن سلوكه في الدعوة إلى الله، وكم وكم نشعر بالبعد الكبير المخجل بين سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم داعياً إلى الله معرّفاً للناس على دين الله وواقعنا نحن المسلمين، – لا الفسقة – وواقعنا نحن المسلمين اليوم.

جهاد رسول الله الأعظم كان ألقه إنما يبرز في الدعوة إلى الله في التعريف بدين الله والضنى الذي طاف حول كيان رسول الله من أول حياته إلى آخرها إنما كانت بسبب جهاده في الدعوة هذه، من منكم لم يقف على أعظم معنى من معاني هذه الدعوة بل الجهاد المتألق في هذه الدعوة من خلال هجرة رسول الله إلى الطائف ثم رجوعه منها، ولكن ما أكثر الذين لم يقرأوا وما أكثر الذين لم يعرفوا. هذه الدعوة التي نهض بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، أورثها كنزاً ثميناً وسلاحاً فعالاً لأصحابه الذين أحبوه الحب الحقيقي، فكانوا من بعده دعاة إلى الله، وأورث أصحاب رسول الله هذا السلاح لمن بعدهم، فكانوا خير دعاة إلى الله، ولا والله ما فتحت مشارق الأرض ومغاربها بسيوف، ولكنها فتحت بالدعوة إلى الله عز وجل نطقاً وحواراً وصبراً ومصابرةً، أما القتال فلم يكن إلا حِصناً لهذه الدعوة. وعندما غزى التتار مجتمعاتنا الإسلامية غُلب المسلمون تحت قهر الأسلحة المادية وتحت سنابك خيول التتار والمغول. ولكن ما الذي نصر المسلمين ما الذي نصر المسلمين على جحافل التتار؟

الذي نصر المسلمين على جحافل التتار دعوة المسلمين التتار إلى الله عز وجل، دخل فلول المسلمين في معسكرات التتار غير مبالين بالقتل، غير مبالين بالأخطار، يحاورون، ويعرفون على دين الله، ويشرحون لهم كتاب الله. دخل بريق هذا الدين في أفئدتهم واحداً تلو الآخر وإذا بعدوان التتار يذوب، وإذا بالتتار كلهم يتحولون بعد ذلك جنداً من جنود الإسلام. ما هو السلاح البتار الذي نصر المسلمين عير تاريخ الإسلام منذ بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن منينا بالذل؟ الدعوة! الدعوة التي كانت هي أساس الجهاد، ونظرنا اليوم فوجدنا أننا لا على الدعوة التي جاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من خلالها أبقينا، ولا على الجهاد القتالي عثرنا، وإنما أصبح حديثنا حلماً من الأحلام.

تعالوا أيها الأخوة وأنتم أحباب رسول الله فيما يفترض، فقارنوا بين جهاد الدعوة في حياة رسول الله وبين جهادنا نحن، قارنوا.. أين هم المسلمون اليوم الذين يطرقون باب الضالين والتائهين والفاسقين ولو كان في طرق أبوابهم خطر وأي خطر ليرشدوا ليعلموا ليذكروا؟ ألم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل هذا؟ أين هم الذين يرحلون إلى أماكن نائية كبعد الطائف من مكة وبينهما تضاريس من الطرق

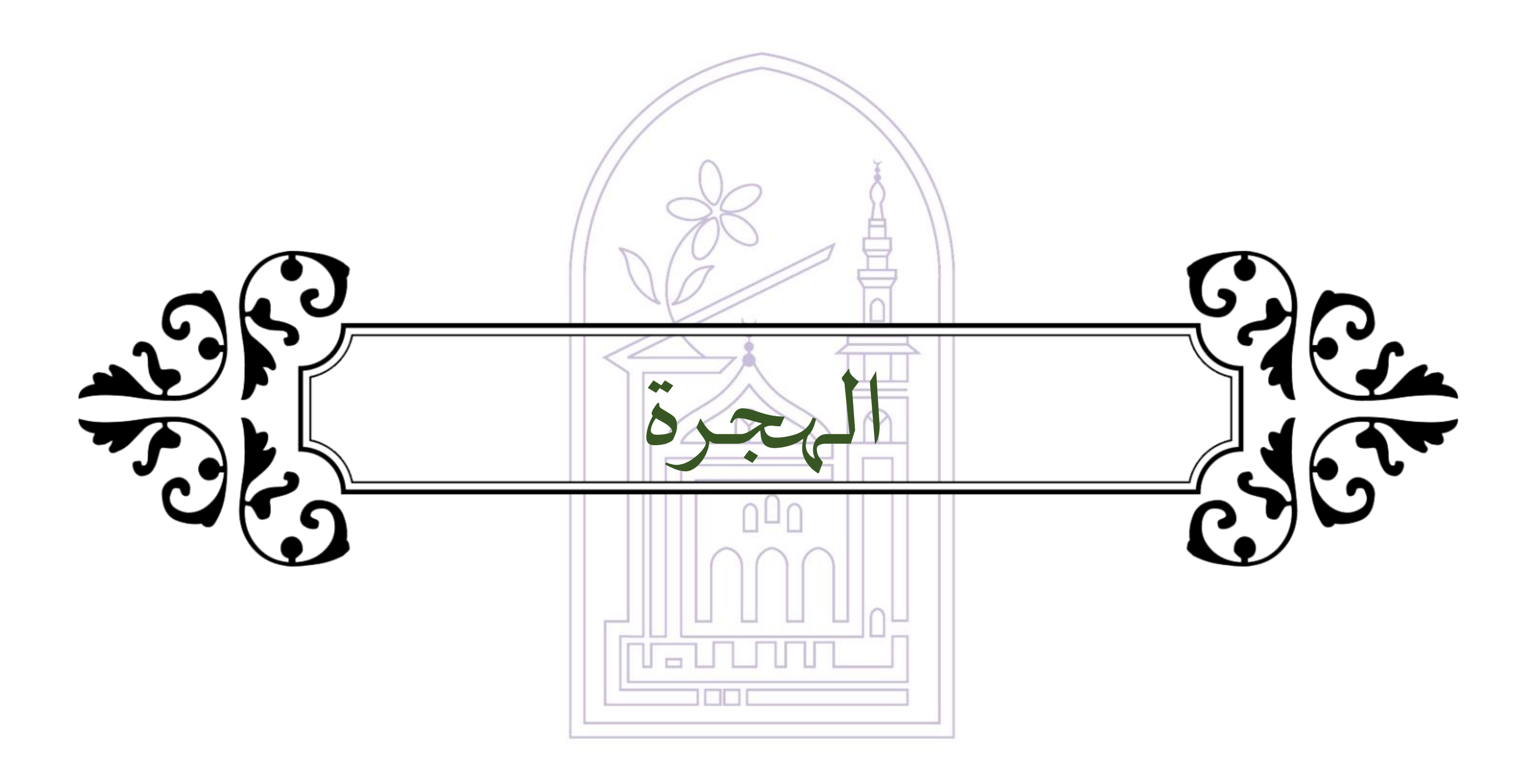
التي تدمي القدمين، والتي تذيب الجسم. أين هم الذين يرحلون رحيل رسول الله صلى الله عليه وسلم ليبثوا رسالة الله من خلال كلمة حلوة يقولونها؟؟!

لقد أغمدنا سيوف الدعوة عندما أغمدنا ألسنتنا، وتركنا هذه الدعوة ذلك لأن أفئدتنا فرغت من محبة رسول الله، ومن ثم فرغت من التأسي برسول الله صلى الله عليه وسلم، إذا أردنا أن نشم رائحة الحب وعبقه الحقيقي لرسول الله، فينبغي أن نتشمم هذه الرائحة ويا للأسف لدى الأعاجم.

في الهند بوسعنا أن نجد عبق محبة رسول الله في قلوب كثير من أولئك الأعاجم، في الغرب حيث يدخل الرجل اليوم في رحاب الله ويصبح في الغد القريب كأنه واحد من أصحاب رسول الله، بوسعكم أن تشموا رائحة ذلك العبق عبق محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن من أبرز آثار هذا العبق سعي أولئك الناس في فجاج الدعوة إلى الله.

صورة لا يمكن أن ينساها المسلم تبعث في وقت واحد بنشوة الطرب وبمشاعر مريرة من الأسف، الغربي الذي يدخل في رحاب الإسلام يتحول داعياً إلى الله ويدعو في من يدعو المسلمين التائهين في تلك الفجاج، المسلمون التائهون في تلك الفجاج عاكفون على جمع الأموال، عاكفون على مصالحهم الدنيوية، والمسلمون الذين كانوا إلى الأمس الدابر تائهين ضالين من أولئك الأوربيين أو الأمريكان أو ما لف لفهم؛ ما إن يذوق الواحد منهم لذة محبة الله ثم لذة محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يطوي نعيمه كله ويلقيه وراءه ظهرياً، ويتجه إلى بني جلدته بالدعوة إلى الله. فإذا رأى فيهم مسلماً عربياً تائهاً ذكره بالله، هذا شيء مؤلم بمقدار ما هو مطرب أيضاً. ولكني أعود فأقول: أما نحن فقد ضيعنا واجبنا يوم فرغت أفئدتنا من محبة رسول الله بعد أن فرغت من محبة الله. أقول قولي هذا واستغفر الله العظيم.


المناسبات


الهجرة

٣٠٣- أهمية التاريخ الهجري في حياة المسلمين | ١٩٨٤/٠٩/٢٨

وردَ عن رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلّم أنَّ من أشراطِ السّاعة أن يتقاربَ الزّمن، ولقد عشنا ورأينا هذا الذي أخبرَ عنهُ رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم، فها نحنُ نرى كيفَ يمرُّ الشّهرُ وكأنّهُ يوم، وها نحنُ نرى كيفَ يمرُّ العامُ وكأنّهُ شهر، ولسوفَ نرى عندما ينقضي العمرُ كلّه وكأننا لم نلبث في هذه الدّنيا إلا نزراً يسيراً.

بالأمس استقبلنا عاماً هجريّاً جديداً وودّعنا نظيره، ومنذُ يومين فتحنا أبصارنا لننظرَ أننا قد تجاوزنا عاماً بأكمله، وأننا طوينا من أعمارنا سنةً كاملة، فها نحنُ نستقبلُ عاماً هجريّاً جديداً، ولستُ الآنَ بصددِ أن أبيّن لماذا تتقاربُ الأزمنة قبيلَ قيامِ السّاعة، وما السّببُ العلميُّ لذلك، إنَّ هنالكَ لأسباباً كثيرة وكلّها أسبابٌ علميّةٌ حقيقيّة، ولكنّي الآن لستُ بصددِ الخوضِ في ذلك، ولعلّنا نتكلّمُ في هذا في مناسبةٍ أخرى إذا شاءَ اللّهُ عزَّ وجلّ، ولكنّي أريد أن أنبّه نفسي وأنبّهكم إلى أهمّيّةِ الهجرةِ المشرّفة في حياةِ المسلمينَ أوّلاً، ثانياً أريدُ أن أذكّركم بأهمّيّةِ التّاريخِ الهجريّ وأهمّيّةِ رصدِ سنواتِ الزّمنِ في تاريخها الهجريّ، وهذا شيءٌ داخلٌ في صميمِ الدّين، وهو من أهمِّ ما ينبغي للمسلمينَ أن يتنبّهوا إليه ولا يبتغوا عنهُ بديلاً.

أما أهميّةُ الهجرةِ في حياةِ المسلمين فلا أحسبُ أنَّ هنالكَ نعمةً أسداها اللّهُ عزَّ وجلّ لأصحابِ رسولِ اللهِ صلى اللّهُ عليهِ وسلّم بعدَ نعمةِ الإسلام والإيمانِ به عزَّ وجلّ أجلُّ وأرفع من إكرامِ اللهِ عزَّ وجلّ لهم إذ أخرجهم من أرضِ الشّركِ وبوّأهم في تلكَ المدينةِ التي اختارها اللّهُ سبحانهُ وتعالى لهم لتكونَ فاتحةَ عهدٍ إسلاميٍّ في العالمِ كلّه، ولتكونَ تلكَ الأرض مشرقَ دولة ومبعثَ مجتمعٍ إسلاميٍّ عظيم تشرقُ بنورهِ الأرضُ كلّها، ما أظنُّ أنَّ هنالكَ نعمةً أسداها اللّهُ عزَّ وجلّ لأصحابِ رسولِ الله بعد الإسلام أجلُّ من هذه النّعمة، بل ما أظنّ أنَّ هنالك محنةً امتُحنَ بها أصحابُ رسولِ اللهِ صلى اللّهُ عليهِ وسلّم فنجحوا فيها كمحنةِ إخراجِ الله عزَّ وجلَّ لهم من ديارهم وأوطانهم، وتقطيعهم عن أرحامهم، وعن أموالهم المنقولةِ وغيرِ المنقولة في سبيلِ شيءٍ واحد ألا وهو أن تسلم لهم العقيدةُ الصّحيحة وأن يستمرّوا على اتّباعِ نبيّهم عليهِ

الصّلاةُ والسّلام، ما من محنةٍ ابتلى اللهُ عزَّ وجلّ بها أصحابَ رسولِ الله صلى اللهُ عليهِ وسلّم فصمدوا لها صموداً تامّاً كتلكَ المحنة، أمرهم رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلّم بالهجرةِ فقالوا لبّيك.

وماذا كانت تعني الهجرة؟ تعني أن ينظروا إلى دينِ اللهِ الذي آمنوا به، فيتمسكوا به ويتركوا في سبيله الوطن، وقد علمتم كم يتعشّقُ الإنسانُ إلى وطنه، وأن يتركوا في سبيلهِ الأرضَ والعقار، وإنَّكم لتعلمونَ مدى ارتباطِ الإنسانِ بأرضهِ التي يملكها، وأن يتركوا في سبيلِ هذه العقيدة الرّحِم، الأقارب إذا اقتضى الأمر، وإنَّكم لتعلمونَ أنَّ تقطيعَ القلبِ والكبد ربّما كانَ أهونَ من ذلك، فاستجابوا جميعاً لأمرِ اللهِ عزَّ وجلّ وتركوا الوطن، واستدبروا الأرض، ونفضوا أيديهم من الدّنيا، بل تركَ الزّوجُ زوجته، وتركَ الأبُ أولاده، وتركَ القريبُ أقاربه في سبيلِ أن لا يتعدوا عن رسولهم محمّدٍ عليهِ الصّلاةُ والسّلام، وفي سبيلِ أن تسلمَ لهم العقيدة.

فلما استجابوا لأمرِ اللهِ عزَّ وجلّ استجابَ اللهُ دعاءهم فقال عزَّ من قائل: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُواْ وَقُتِلُواْ لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَاباً مِّن عِندِ اللّهِ وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾.

ومن أجلِ هذا، ولأنَّ أصحابَ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلّم علموا عظمَ هذه النّعمةِ التي أسداها اللهُ إليهم، وعلموا مدى توفيقِ الله إذ حالفهم في خروجهم عن ديارهم في سبيلِ اللهِ عزَّ وجلّ لأجلِ أنّهم قدّروا هذه النّعمةَ حقَّ تقديرها، فقد كانوا لا يرونَ لحياتهم تاريخاً غيرَ تاريخِ الهجرة.

كانَ الرّجلُ من أصحابِ رسولِ الله صلى اللهُ عليهِ وسلّم إذا أرادَ أن يؤرّخَ لحادثةٍ أرّخها بما قبلَ الهجرةِ بكذا، أو بما بعدَ الهجرةِ بكذا، إذا لم يكن أحدهم يرى في الزّمنِ معلمةً بارزةً تستأهلُ الوقوفَ عندها، وتستأهلُ دورانَ الأحداثِ حولها أجلَّ وأرفعَ من الهجرة، بل لقد رُويَ أنَّ وفدَ نصارى نجران عندما جاءَ إلى رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلّم وأمرَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلّم عليّاً أن يكتبَ بينهم وبين المسلمين كتاباً، أمرَ المصطفى عليهِ الصّلاةُ والسّلام أن يؤرّخَ هذا الكتاب بكلمةِ: (كُتبَ بعدَ خمسٍ من

الهجرة)، أي بعدَ مرورِ خمسِ سنواتٍ من الهجرة، وهكذا فإنَّ أوّلَ من استعملَ التّاريخَ الهجريّ هو المصطفى عليهِ الصّلاةُ والسّلام، وقد درجَ الصّحابةُ جميعاً على منواله وإن لم يكن هذا التّأريخُ قد اتّخذَ شكلهُ الرّسميّ.

فلما رحلَ المصطفى عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ إلى الرّفيقِ الأعلى، وجاءَ من بعدهِ أبو بكرٍ ثمَّ عمر رضي اللهُ عنهما، جمعَ عمرُ في يومٍ من الأيّامِ مجلسَ شوراه، وطلبَ منهم الرّأي في إبداءِ تاريخٍ يعتمدونهُ في قضاياهم الماليّة والاجتماعيّة والسّياسيّةِ المختلفة، فأجمع أمرهم على أن يتّخذوا من الهجرة، ولا شيء غير الهجرة، أجمع أمرهم على أن يتّخذوا من الهجرةِ تاريخاً لهم، يؤرّخون بالعامِ الهجريِّ بدءاً من شهرِ محرّم، أي قبلَ الهجرةِ بشهرينِ وبضعةِ أيّام، يؤرّخون بهذه الهجرةِ أحداثهم كلّها، وهكذا اجتمعت كلمةُ أصحابِ رسولِ اللهِ جميعاً، ثمَّ اجتمعت كلمةُ التّابعينَ من بعدهم جميعاً، ثمَّ اجتمعت كلمةُ الأجيالِ الإسلاميّةِ من بعدهم جميعاً إلى يومنا هذا، أنّ على المسلمين إذا أرادوا أن يتبيّنوا تاريخهم وأن يحدّدوا معا لمَ أحداثهم ألا يبتغوا عن الهجرةِ بديلاً، وأن لا يستعيضوا عن مقياسِ الهجرةِ أيَّ مقياسٍ زمنيٍّ يعتمدون عليه، وكيفَ يحقُّ لهم أن يفعلوا هذا والهجرةُ تذكّرهم بأعظمِ نعمة، بل كيفَ يفعلونَ هذا ورسولُ الله صلى اللهُ عليهِ وسلّم هو أوّلُ من جعلَ الهجرةَ تأريخاً عندما كتبَ الكتابَ بينهُ وبينَ وفدِ نصارى نجران.

إذا علمنا هذا يا عبادَ الله فلنتساءل بعدَ ذلك: أيجوزُ لنا اليوم أن نطوي الاعتمادَ على هذا التّأريخِ الهجريّ بعدَ أن اعتمدهُ رسولُ الله، وبعدَ أن اعتمدهُ أصحابُ رسولِ الله وبعدَ أن أكّدَ ذلكَ عمرُ بنُ الخطّاب فتمَّ ذلكَ إجماعاً، أيجوزُ للمسلمينَ هذا؟ لقد علمنا أنَّ إجماعَ المسلمينَ حجّةٌ قاطعة، ولا يجوزُ للمسلمين إذا أجمعت الأمّةُ الإسلاميّةُ على أمر، أن يكسروا طوقَ هذا الإجماع، ثبتَ ذلكَ بنصٍّ صريحٍ بل بنصوصٍ صريحة من كتابِ اللهِ عزَّ وجلّ من ذلك قولُ اللهِ سبحانهُ وتعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾، السّبيلُ الذي أجمعَ عليهِ سائرُ المسلمين في عصرٍ من العصور يغدو حكماً إجماعياً يأمرُ به اللهُ عزَّ وجلّ أمراً قطعيّاً ويحذّرُ من التّحوّلِ عنه.

أرأيتم إذاً؟ بعدَ هذا، هل يجوزُ لنا أن نتحوّلَ عن الاعتمادِ إلى الهجرة، فنعتمدَ على عامِ وفاةِ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلّم مثلاً؟ ومن ذا الذي يفعلُ هذا؟ لماذا كانَ المسلمونَ إلى هذا العصر يؤرّخونَ

أحداثهم بالهجرة؟ لأنَّ الهجرة أعظمُ ما يعتزُّ بهِ المسلم، ولأنَّ الهجرة أعظمُ نعمةٍ أسداها اللهُ لعبادهِ المسلمين، والإنسانُ عندما يؤرّخُ أحداثه يؤرّخها عادة بأعزِّ ما يعتزُّ به.

من ذا الذي يعتزُّ بالأحدوثة التي لا يمكنُ أن نرى مصيبةً هزَّتِ الدّنيا أجمع؟ من ذا الذي يمكنُ أن يتّخذَ من هذه الأحدوثةِ تاريخاً يعتزُّ به؟ هل مرّت على الإنسانيّةِ مصيبةٌ أجلّ من افتقادها رسولَ الله صلى اللهُ عليهِ وسلّم؟ وقد علمنا أنَّ على الإنسان إذا نزلت بهِ مصيبةٌ ما فأرادَ أن يعزّيَ نفسهُ تجاهها، عليهِ أن يتذكّرَ مصيبةَ المسلمينَ جميعاً في افتقادهم رسولَ اللهِ، فكلُّ مصيبةٍ تغدو بعدَ ذلكَ جللاً وهيّناً، من ذا الذي يجرؤ أن يقولَ لا بل نحنُ نعتزُّ بالعامِ الذي توفّيَ فيهِ رسولُ الله، فنتّخذُ من ذلك معلمةً لتاريخنا ومعلمةً لأحداثنا، يرسخُ بذلك ما أمرَ به رسولُ اللهِ عليّاً عندما كانَ يكتب كتابَ صلحٍ بينهُ وبينَ وفدِ نصارى نجران وينسخُ بذلك إجماعاً استقرَّ أمره عبرَ أجيالٍ متطاولةٍ من الزّمن؟ أو من ذا الذي يؤثرُ على هذا التاريخ الذي أمرَ بهِ المصطفى عليهِ الصّلاةُ والسّلام التّاريخَ الميلاديَّ مثلاً؟ ذلك التّاريخ الذي تعتزُّ به أمّةٌ لا شأنَ لنا بها ولا شأنَ لها بنا؟ يعتزُّ به أناسٌ ليسوا من أبناءِ جلدتنا؟ من ذا الذي يتشرّفُ بالإسلام ويتشرّفُ بنسبتهِ إلى رسولِ الله صلى اللهُ عليهِ وسلّم ثمَّ يمحوا تاريخَ الهجرةِ من ذهنه ويثبّتُ التّاريخَ الميلاديَّ في فكرهِ أو مفكّرته؟ ثمَّ إنّا قد علمنا أنَّ كلَّ الأحكامِ الشّرعيّةِ المنوطةِ بأزمانٍ محدّدة إنما تناطُ بالعامِ الهجريّ، تناطُ بهذه الأشهرِ القمريّةِ المنوطةِ بعامها الهجريّ، على هذا ينبغي أن يعلم أولئك الذي يدفعونَ زكاةَ أموالهم، وهكذا ينبغي أن يؤرّخ كلُّ من ألزمَ بحقيقةٍ أو بحكمٍ شرعيٍّ منوط بزمنٍ معيّن.

أقولُ قولي هذا وأسألُ اللهَ العليَّ العظيم أن يجعلَ ظاهرنا كباطننا، وأن يجعلَ ظواهرنا وبواطننا مصبوغةً بصبغةِ العبوديّةِ له، وأن يرزقنا الاستمرارَ على هديه، فاستغفروهُ يغفر لكم...

٣٠٤- مدلولات ضياع التاريخ الهجري.. واستبداله بالميلادي | ١٩٩١/٠٧/١٢

لقد أظلّكم عامٌ هجريٌّ جديد، هوَ أساسُ مجدِ المسلمينَ وهوَ مصدرُ تاريخهم، وهوَ العمودُ لفقريُّ في وحدةِ التّاريخِ الإسلاميِّ وجمعِ شملهِ زَمَناً كما قضى اللهُ سبحانهُ وتعالى في جمعِ شملهِ مكاناً.

وبمقدارِ ما جعلَ اللهُ سبحانهُ وتعالى لهذا التّاريخِ من شارةٍ عظيمةٍ تدلُّ على أهمّيّةِ ماضي المسلمينَ وتدلُّ على تاريخِهِمُ الحضاريِّ وعلى ميلادِ وجودِهمُ الإنسانيِّ الحقيقيّ، فإنَّ المسلمينَ عامّةً أو إنَّ جُلَّ المسلمينَ في غفلةٍ كبرى عن هذهِ الحقيقة. إنَّ العامَ الهجريَّ الذي أتحدَّثُ عنهُ يتكوَّنُ من أشهرٍ هيَ قِوامُ هذا العامِ وأجزاؤهُ ككُلّ، والنّاسُ في غفلةٍ تامّةٍ عن هذهِ الأشهرِ التي هيَ العمودُ الفقريُّ لهذا العام. ثمَّ إنَّ هذا العامَ الهجريَّ من حيثُ إنّهُ كلٌّ متكرّرٌ في كلِّ عامٍ هوَ الأساس، والذي يشكِّلُ المُنطَلَقَ الأوّلَ لوجودِ الأمّةِ الإسلاميّةِ بل لوجودِ دولةٍ إسلاميّةٍ فوقَ هذهِ الأرض، والنّاسُ أيضاً عن تصوُّرِ هذا الكلِّ في غفلةٍ تامّة. فلا هم يقدِّرونَ أشهرَ هذا العامِ قدرَها ويستوعبونَ بأفكارهم مرورها الواحدَ إثرَ الآخر، ولا هم يقفونَ عندَ معالمِ مرورِ العامِ إثرَ العامِ في سلسلةِ هذهِ الأعوامِ الهجريّةِ لتذكِّرَهم هذهِ السّلسلةُ بوجودهم وعُمرِ وجودهم، ولتُذَكِّرَهم هذهِ السّلسلةُ بهجرةِ نبيِّهم محمَّدٍ عليهِ الصّلاةُ والسّلامِ وميلادِ وجودِ هذهِ الأمّةِ الإسلاميّةِ كدولةٍ فوقَ هذهِ الأرض.

لا المسلمونَ يتذكّرونَ أجزاءَ هذا العامِ شهوراً ولا يتذكّرونَ كلّيّاتِ هذا العامِ كحلقاتٍ متّصلة تشكِّلُ سلسلةً زمنيّةً واحدة، وهم بدلاً عن ذلكَ غارقونَ في بحارٍ متلاطمةٍ من التّقلُّبِ في حياةِ الآخرين، والتنفّسِ بهواءِ الأممِ الأخرى، والتّباهي بحضاراتِ الدُّوَلِ التي لا تمتدُّ أيُّ جسورٍ واصلةٍ بيننا وبينهم قَطّ.

الأشهرُ المُعتَدُّ بها في كتابِ اللهِ هيَ أشهرُ هذا العام، وكلُّكم يقرأُ في كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ قوله: ﴿إنَّ عِدَّةَ الشّهورِ عندَ اللهِ اثنا عَشَرَ شهراً في كتابِ اللهِ يومَ خلقَ السّماواتِ والأرضَ منها أربعةٌ حُرُمٌ فلا تظلموا فيهنَّ أنفسَكم وقاتلوا المشركينَ كافّةً كما يقاتلونكم كافّة واعلموا أنَّ اللهَ معَ المتّقين﴾.

تلكَ هيَ الأشهرُ التي نوَّهَ بها كتابُ اللهِ عزَّ وجلّ والتي أقرّها سبحانهُ وتعالى في محكمِ تبيانه، ولكنَّ النّاسَ عن هذهِ الأشهرِ في غفلةٍ تامّة، بل إنّي لأعلمُ أنَّ في النّاسِ لا بل في المثقّفينَ من لو سألتَهُ أن يعرِضَ

لكَ أسماءَ هذهِ الأشهرِ متسلسلةً تباعاً لم يجد سبيلاً إلى ذكرِها لكَ ولم يستوعِب عقلهُ حفظَها متتاليةً أبداً، ولكِنَّكَ لو سألتَهُ أن يُحَدِّثَكَ عن الأشهرِ الأخرى وأن يذكُرَ لكَ أسماءَها تباعاً متواليةً لقالَ لكَ: إنَّها من البدهيّاتِ التي يعرفُها الأطفال. فعلامَ تدلُّ هذهِ الظّاهرة؟ تدلُّ باختصارٍ – ولا وقتَ للإطالة – على أنَّ نفوسَ هذهِ الأمّةِ لا تزالُ مناخاً صالحاً للاستعمار، وشرُّ الاستعمارِ ذلكَ الاستعمارُ الذي تتهاوى بل تستخذي لهُ النّفوس، قابليّةُ الاستعمارِ هيَ الاستعمارُ الحقيقيّ.

ولو أنَّكَ سألتَ هؤلاءِ المثقّفينَ أيضاً عن هذا العامِ الهجريِّ الذي مضى وانصرم: كم عددُ أو ماذا يشكِّلُ العامُ الذي مضى في سلسلةِ الأعوامِ المدبرةِ من عمرِ هذهِ الأمّة؟ وماذا يشكِّلُ العامُ الجديدُ في هذهِ السّلسلة؟ لفكَّرَ وتأمَّلَ ثمَّ لم يأتِ من تفكيرهِ بشيء، ذلكَ لأنَّ الرّجلَ إنّما يحصي الأعوامَ الأخرى التي تتحدّثُ عن تاريخِ الآخرينَ وعن حضاراتِ الآخرين، أمّا ثيابهُ التي تعبِّرُ عن كيانهِ وعن حجمهِ وقالَبِهِ فهوَ متبرِّءٌ منه، ويتحدَّثُ عن جغرافيةِ الأممِ الأخرى، وعن تاريخِ الأممِ الأخرى، وعن حضاراتِ الأممِ الأخرى، وكأنّهُ مستأجرٌ ليكونَ دلّالاً لتلكَ التّواريخِ ولتلكَ الحضارات، وكأنّهُ أجيرٌ ذليلٌ قيلَ لهُ: تعالَ فاحرس هذهِ المزرعةَ التي يملكُها عدوٌّ لك، ولسوفَ يعطيكَ في آخرِ النّهارِ بعضَ دريهمات مع صفعةٍ على يمينِ وجهِكَ وشِماله، ويقبلُ هذا الأجيرُ الذّليلُ مستخذياً ويجرُّ نهارهُ في أطرافِ هذهِ المزرعةِ يُحصي طولها وعرضها، ويحصي شجيراتها وتبائعَها، أمّا أرضهُ التي هيَ ملكهُ والتي هيَ ميراثهُ من آبائهِ وأجدادهِ فليسَ بينهُ وبينها أيُّ صلة، ولا يعرفُ لها من مصير، فضلاً عن أن يحافظَ عليها أو يرعاها، وفضلاً عن أن يكلِّفَ عينيهِ بأن يرسلَهُما بشيءٍ من المحافظةِ أو الدّرايةِ بتلكَ الممتلكات.

هذا هوَ واقعُنا المستخذي، هذا هو واقعُنا المتهالك على وجود الآخرين. أمّا نحنُ فأينَ وجودُنا؟

وجودُنا ولا أتحدَّثُ عن الوجودِ الفلسفيِّ الذي يتكلَّمُ عنهُ علماءُ الفلسفة، هذا شيءٌ موجودٌ في كيانِ كلِّ إنسان.. إنّما أتحدَّثُ عن الوجودِ الحضاريّ، الوجودِ الاجتماعيّ، ترى ما هو وجودِ هذهِ الأمّةِ حضاريّاً؟ ما هوَ وجودِ هذهِ الأمّةِ اجتماعيّاً؟ لا وجودَ لها قَطّ، وجودُها قد تحوَّلَ وأصبحَ ظلّاً لوجودِ الآخرين، وجودُنا الحضاريُّ الذي كانَ بالأمسِ مظلّةً تتّسعُ ثمَّ تتّسعُ حتّى تشملَ أممَ العالمِ ودُوَلَهُ أجمع. هذهِ المظلّةُ التي كانت مصدرَ اعتزازِنا بالأمسِ تحوّلت إلى ظلّ، تحوّلت إلى ظلٍّ تابعٍ ذليلٍ لوجودِ الآخرين.

قد يقولُ أحدُنا: إنّها التّجارةُ وإداراتُ الأعمالِ المختلفةِ المُناطةِ بذلكَ العامِ الميلاديِّ الآخر، بل تلكَ الإداراتُ تفرضُ علينا أن نكونَ متّبعينَ لتلكَ الأشهرِ الشّمسيّةِ الأخرى، فما الحيلةُ وإنَّ أعمالنا تفرضُ علينا أن نلتزمَ بذلكَ المقياسِ الزّمنيِّ الذي يملكهُ الآخرون، لا بهذا المقياسِ الزّمنيِّ الذي نملكهُ نحن؟ والجواب: وما هي الصّعوبةُ ستُحمّلُها لعقلِكَ في أن ترعى مصالحكَ الدّنيويّةَ وتغطّيَها بذلكَ التّاريخ؟ ثمَّ ترعى وجودَكَ الذّاتيَّ، وجودَكَ الحضاريّ، وجودَكَ التّاريخيّ، فتغذّيَ هذا الوجودَ بمعرفتِكَ لسلسلةِ هذهِ الأعوامِ الهجريّة، ولسلسلةِ أجزاءِ كلِّ عامٍ من هذهِ الأشهرِ القمريّة.

وأيُّ ضيرٍ في أن تُحَمِّلَ عقلكَ هذهِ المعادلةَ الرّياضيّةَ التي ينوءُ بها الكبارُ والصّغارُ في تصوُّرِك؟ الطّفلُ في مدرستهِ يستطيعُ أن يستوعبَ هذا وذاك، ومع هذا فإنَّ الدّافعَ الذي يفجّرُ في العقلِ طاقتهُ إنّما هو إيمانُ الإنسانِ بنفسه، فإذا كانَ الإنسانُ مؤمناً بوجودهِ الحضاريّ، مؤمناً بوجودِ أمّته، مؤمناً بمقاييسِ هذا الوجودِ الزّمنيّة، فإنَّ عقلهُ يكونَ تابعاً لهذهِ الدّوافعِ المعتدّةِ الكامنةِ بينَ جوانحه، وما أسهلَ عليهِ أن يجدَ تاريخَهُ الحضاريَّ ماثلاً أينما ذهبَ نُصبَ عينيهِ ومهما كانت مصالحهُ الدّنيويّةُ تقتضيهِ أن يعرفَ تاريخاً إضافيّاً ثانياً فإنَّ معرفتَهُ لهذا التّاريخِ الإضافيِّ لا يمكنُ أن يكونَ ماسخاً في يومٍ من الأيّامِ لذاكرتهِ الحضاريّة، لا يمكنُ أن يكونَ ماسخاً في يومٍ من الأيّامِ لذاكرةِ عزّتهِ بتاريخهِ ودينهِ ونسبتهِ إلى نبيِّهِ محمَّدٍ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم.

أليسَ هوَ ممّن يقرأُ كتابَ الله؟ أليسَ هوَ ممّن يعتزُّ بتلاوةِ كتابِ اللهِ وفيهِ هذهِ الآيةُ التي تلوتُها عليكم؟ ألا يرى هذا الإنسانُ أولئكَ الآخرينَ الذينَ يعيشونَ تحتَ مظلّةِ الحضاراتِ الغربيّةِ الجانحةِ كيفَ يحفظونَ ثقافاتهمُ الدّينيّةَ وهم يعلمونَ أنّها ثقافاتٌ باطلة سخيفةٌ مهترئة، ومعَ ذلكَ يحفظونها، ومعَ ذلكَ يعتزّونَ بحفظهم لها، لأنّها وإن كانت من حيثُ كونها ديناً سخيفةٌ للغاية، إلا أنّهم يعتزّونَ بها تراثاً. المجامعُ الكنسيّةُ وتاريخُها لا يستمدُّ جزئيّةً منها عن ذهنِ واحدٍ منهم، التّواريخُ المنوطةُ بأحداثٍ دينيّةٍ متسلسلةٍ إلى يومِنا هذا محفوظةٌ في أذهانهم ولا يمكنُ لأيِّ عاديةٍ من العوادي أن تأتيَ على ذاكرتهم هذهِ بأيِّ نسيان، لماذا؟ لأنّهم يعتزّونَ بوجودهمُ الحضاريِّ بقطعِ النّظرِ عن الدّين. نحنُ نعتزُّ أوّلاً بدينٍ لا يمكنُ أن يُلحِقَ بهِ إنسانٌ ما في يومٍ من الأيّامِ تهمةَ أيِّ بطلان، نعتزُّ بدينٍ لا يمكنُ لأيِّ إنسانٍ أن يُلحِقَ بهِ يوماً ما معنىً من معاني الأسطورة، معنىً من معاني الشّرودِ عن موازينِ العلم، وهذا ما لا يملكهُ الغربيّون.

ثمَّ إنّنا نملكُ من تاريخِنا الإسلاميِّ معنى وجودِنا، إن كانت لدينا بقيّةُ أنفاسٍ من العزّةِ تصعدُ وتهبطُ وراءَ صدورِنا، فإنَّ هذهِ البقيّةَ — واللهِ – ليست إلا من موروثاتِ هذا الدّين، ولولا امتدادُ بقايا هذا الدّينِ إلى نفوسِنا تجعلُنا نرفعُ رؤوسَنا عالياً بينَ الحينِ والآخر، لرأينا أنفسَنا وقد انعدمنا بينَ ماضِغَي الدّهر، ولرأينا أنفسَنا وقد ذبنا وأصبحنا سُحاقَةً تحتَ أقدامِ الأممِ والدُّوَل، وعواملُ ذلكَ متكرّرةٌ مرئيّةٌ كلَّ يومٍ هنا وهناك. ولكنّا على الرّغمِ من ذلكَ نملكُ ما نصنعُ بهِ الرّؤوسَ عالية.

ترى ما السّرّ؟ بأيِّ ثروةٍ نرفعُ رؤوسَنا؟ وبأيِّ عزّةٍ نبقي على أنفسِنا؟ إنَّ العاملَ لذلكَ وهذا معروف: عاملٌ واحدٌ: أنّنا نملكُ ديناً كشفَ حضاراتِ العالمِ أجمع، واستبقى من ذلكَ كلِّهِ حضارةً واحدةً هيَ حضارةُ هذا الدّين. أنّنا نملكُ سرّاً بهِ تحوَّلت أشتاتُ هذهِ الأمّةِ إلى أمّةٍ واحدة. سواءٌ كانَ ذلكَ لغزاً في أذهانِ الآخرين، أو كانَ شيئاً مفسّراً ومُحلّلاً، لكنَّ هذا هو الواقع، وسرُّ ذلكَ يكمنُ في بعثةِ رسولِ الله، سرُّ ذلكَ يكمنُ في يومِ الهجرة، يومَ هاجرَ رسولُ اللهِ إلى المدينةِ وكانَ ذلكَ إيذاناً لبزوغِ شمسِ الدّولةِ الإسلاميّة، فوقَ أوّلِ أرضٍ إسلاميّةٍ وهيَ المدينة.

تاريخُنا هذا يتجسَّدُ في هذا العامِ الهجريِّ.. تاريخُنا يتجسَّدُ في إجماعِ الأمّةِ في عصرِ عمرَ بنِ الخطّابِ رضيَ اللهُ عنهُ يومَ اجتمعت كلمتهُم على أن يجعلوا تاريَخ أعمالهم، تاريخَ أفعالهم، الرّصيدَ الذي يحصي حركاتهم وسكناتهم ويجعلُها ثابتةً مستقرّةً في التّاريخ، يومَ أجمعوا على أن تكونَ شارةُ ذلكَ كلِّهِ متمثّلةً في العامِ الهجريّ، متمثّلةً في شعارِ هجرةِ المصطفى صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم من دارِ الكفرِ إلى دارِ الإسلام.

ولكن يا عجباً، يا عجباً للمسلمينَ اليومَ الذينَ لا يكتفونَ بأن يُخضِعوا أنفسهم لسياطِ الذُّلِّ التي تتهاوى على ظهورهم من يمينٍ وشمال، بل يزيدونَ على ذلكَ أنّهم يخلعونَ ثيابهُم التي أعزّهمُ اللهُ عزَّ وجلَّ بها، ويمثلونَ أمامَ أعدائهم هكذا في العراء، إن كانَ إجماعُ الأمّةِ قد رفعَ الرّأسَ عالياً وجعلَ من تاجِ هجرةِ رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ روحَ التّاريخِ الإسلاميّ، روحَ التّاريخِ الإسلاميِّ ورصيدها. فإنَّ في المسلمينَ اليومَ من يأتي فيقولُ: لا، بل لنجعل من يومِ موتِ رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ هذا التّاريخ.

عُمَرَ بنُ الخطّابِ وأصحابُ رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يرفعونَ الرّأسَ عالياً بذلكَ اليومِ الذي أُقيمَ فيهِ أوَّلُ حجرٍ أساسيٍّ لبناءِ الدّولةِ الإسلاميّةِ فوقَ أوّلِ أرضٍ إسلاميّةٍ هيَ المدينة. وفي المسلمينَ اليومَ

من يقولُ: لا، بل لنعتزَّ بذلكَ اليومِ الذي رحلَ فيهِ رسولُ اللهِ عن هذهِ الدّنيا. ترى ما البعدُ الذّليلُ الذي يكمنُ وراءَ هذا المصيرِ الذي تهاوت إليهِ هذهِ الأمّة؟ هذا ما سيجيبُ عنهُ التّاريخُ المقبل، ونسألُ اللهَ العفوَ والعافيةَ لأمّتنا.

أقولُ قولي هذا وأستغفرُ اللهُ العظيم...



٣٠٥- الهجرة إلى دار الإسلام دليل على صدق الإيمان | ١٩٩٢/٠٧/٠٣

يحتفلُ العا لمُ الإسلاميُّ كلّهُ في هذه الأيّام بعامٍ هجريٍّ جديدٍ أقبلَ يذكّرهم بمعلمةٍ من معا لم الإسلام، وبمشهدٍ عظيمٍ خطيرٍ من مشاهدِ السّيرةِ النّبويّةِ المعطّرة، ونحنُ في مثلِ هذه المناسبات لا بدَّ أن نذكّر بأننا لسنا من الاحتفالات الشّكليّةِ بتاريخنا بشيء، فهنالك أناسٌ يحتفلون بذكرياتهم الدّينيّةِ أو التّاريخيّة باحتفالاتٍ تقليديّة، ولكنّنا لسنا من هذا المنهجِ في شيء، ذلك لأننا إذا احتفلنا بشيءٍ من هذه الذّكريات فإنما نفعلُ ذلك تقرّباً إلى اللهِ سبحانهُ وتعالى وسيراً إلى مرضاته، ولقد علمتم أنَّ اللهَ عزَّ وجلّ لا يقيمُ وزناً لهذه الشّؤونِ والأعمالِ التّقليديّة، وسمعتم مراراً وتكراراً قولَ سيّدنا رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلّم: ﴿إنَّ اللهَ لا ينظرُ إلى صوركم ولا إلى أجسادكم ولكن ينظرُ إلى قلوبكم﴾.

ولكن في الوقتِ الذي ننكر ونحذّر من أن ننهجَ هذا التّقليديَّ في الاحتفالِ بذكرياتنا ومشاهدِ تاريخنا العظيمِ الأغرّ، فإننا في الوقتِ ذاته نهيب لضرورةٍ أن نقفَ أمامَ هذه الذّكريات، لا وقفةً تقليديّةً لا معنى ولا قيمةَ لها، وإنما علينا أن نقفَ أمامها لنأخذَ منها الدّروسَ والعبر، ثمَّ لنبادر فنتّخذَ من هذه الدّروسِ والعبر منهجاً عمليّاً وسلوكيّاً في حياتنا، نقوّمُ بهذا المنهجِ المنحرفَ في سلوكنا، ونصلحُ بهذا المنهج الفاسدَ من تصوّراتنا وأعمالنا، وعندئذٍ نكونُ قد سلكنا مع تاريخنا، وفي صلتنا بنبيّنا سيّدنا محمّدٍ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم النّهجَ الذي يرضي اللهَ عزَّ وجلّ والذي يرضي رسولهُ عليهِ الصّلاةُ والسّلام.

أريدُ أن أوضحَ لكم باختصارٍ أيها الإخوة أنَّ هجرةَ سيّدنا رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلّم من مكّةَ إلى المدينة تتضمّنُ فيما تتضمّن معنيينِ عظيمين ينبغي أن نتنبّهَ إليهما، لأنَّ لهما علاقةً وأيَّ علاقةٍ بواقعنا اليوم.

المعنى الأوّل، يتّصلُ بشخصيّةِ سيّدنا رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلّم ويلقي الضّوءَ على هويّته ويؤكّدُ نبوّتهُ ورسالتهُ التي تنزّلت عليه وحياً من عندِ اللهِ سبحانهُ وتعالى.

وإنّكم لتعلمون أو ينبغي أن تعلموا أنّهُ لم يكن هناك خلالَ التّاريخِ المنصرم، عبرَ الأجيالِ التي انقرضت، لم يكن هنالكَ من يفسّرُ نبوّةَ سيّدنا رسولِ الله صلى اللهُ عليهِ وسلّم بأنّها رسالةٌ قوميّةٌ أخذها

المصطفى صلى اللهُ عليهِ وسلّم ورضعَ لبانها من قومه، وأخذّ وحيها من جماعته في مكّة، لم يكن هنالكَ في الأجيالِ السّابقةِ من يفسّرُ النّبوّةَ هذا التّفسيرَ المفترى حتّى جاء هذا العصر، فرأينا لأوّلِ مرّة من يزعم بأنَّ سيّدنا محمّداً صلى اللهُ عليهِ وسلّم إنما كانت رسالتهُ انعكاساً لآمالٍ وترّهاتٍ كانت تفور وتصولُ بينَ جوانحِ قومهِ وإخوانهِ في مكّة، انعكست هذه الآمالُ والتّرّهاتُ على شخصِ المصطفى صلى اللهُ عليهِ وسلّم فكانت رسالتهُ تعبيراً عن أمانيّهم ورغائبهم.

في عصرنا اليوم رأينا من يتواقح ويفسّر نبوّةَ رسولِ الله بهذا الشّكل، وإنّهم ليعلمون كما تعلمون أنّهم كاذبونَ في هذا التّصوّر، ويشاءُ الباري سبحانهُ وتعالى بحكمته الباهرة وبعلمهِ الذي يتّسعُ للغيب، للماضي والحاضرِ والمستقبلِ كلّه، أن يجعلَ من هجرةِ سيّدنا رسولِ الله صلى اللهُ عليهِ وسلّم أداةً تقطعُ ألسنةَ هؤلاءِ المتخرصين، وتمزّقُ هذه الفِريَةَ على لسانهم أو في الأوراقِ التي يكتبونها وينشرونها في العالمِ الذي من حولهم.

لماذا يهاجرُ المصطفى عليهِ الصّلاةُ والسّلام إن كانت دعوتهُ انسجاماً مع آمالِ قومهِ في مكّة؟ لماذا يضطرُّ إلى أن يهاجر مكّة المكرّمة بعدَ مضيِّ ثلاثةَ عشرَ عاماً من المحاولة ومن المصاولة ومن المحاورة؟ لماذا جاءت جهوده كلّها كجهودِ معولٍ صدئ يحاولُ صاحبهُ أن يحطّمَ به صخرةً عاتية؟ لو أنَّ دعوةَ سيّدنا رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلّم إنما انبثقت من أرضِ مكّة ولم تنزل إليهِ وحياً من سمائها، إذاً لما احتاجَ لأن يهاجر، ولرأى في أهل مكّة خيرَ من يستجيبُ لدعوته وينسجمُ مع رسالته، ولكنَّ اللهَ العليَّ العظيم أثبت لهؤلاء المفترين أنَّ سيّدنا رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلّم إنما تلقى هذه الرّسالةَ وحياً من ربّه ولم تتفجّر من تحتِ قدمهِ من أذهانِ قومه وأصحابهِ من حوله، وآيةُ ذلك أنَّ النّصرَ الذي جاءه وأنَّ الانسجامَ الذي تلقّاهُ مع دعوته ورسالته إنما جاءه من هناك، من صقعٍ بعيدٍ ناءٍ لم يكن يتوقّعُ سيّدنا رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلّم أن ينبتَ لهُ النّصرُ من هناك.

وهكذا فقد كانت هجرةُ المصطفى صلى اللهُ عليهِ وسلّم التي اضطرَّ إليها فعلاً، من مكّةَ إلى المدينة تكذيباً تاريخيّاً قضى اللهُ عزَّ وجلّ به قبلَ أربعةَ عشرَ قرناً من ولادةِ هذه الفِرْيَةْ التي يكذبُ بها أصحابها على اللهِ وعلى رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلّم.

وأمّا الحكمةُ الثّانية والمتعلّقةُ هي الأخرى بحياتنا اليوم، فهي أنَّ اللهَ عزَّ وجلّ شاءَ أن يجعلَ في عملِ سيّدنا رسولِ الله صلى اللهُ عليهِ وسلّم وفي عملِ أصحابهِ من حوله درساً وبياناً لنا نحنُ المسلمين، يقولُ بلسانِ الحالِ الذي هو أفصحُ كثيراً من لسانِ المقال: إنَّ الإيمانَ أو الإسلامَ ليسَ بالتّمنّي ولا بالتحلّي ولا بالكلامِ الفارغِ الذي لا يكلّفُ صاحبهُ شيئاً، وإنما يصدقُ المسلمُ في إسلامهِ عندما يذكر قيمةَ هذا الإسلامِ الذي يصدقُ به تضحيةً، إنما يثبتُ صدقُ هذا الإنسانِ المسلم عندما يجدُ أمامهُ تضاريسَ الشّهوات والأهواءِ واقفةً كالعقبةِ الكؤودِ أمامه، إما أن يقفَ دونها فيضحّي بإيمانه المزعوم، وإما أن يتجاوزَ هذه العقبات ويحطّمها فيضحّيَ عندئذٍ بشهواته وأهوائه في سبيلِ إيمانه وإسلامهِ للهِ سبحانهُ وتعالى، هكذا يثبت المسلمون صدقَ إسلامهم أو لا، فإنهم لا شكَّ يعبّرونَ عن كذبهم في دعوى هذا الإيمانِ والإسلام، ماذا كلّفت الهجرةُ رسولَ اللهِ وأصحابه؟ كلّفتهُ أن يترك الوطن، والوطنُ حبيبٌ إلى نفوسِ أصحابه، كلّفتهُ وكلّفتهم أن يتركوا في مكّةَ الأموال والمدّخرات والذّخر الوفير والعقارات، والبساتين والحدائق والدور، أن ينفضوا أيديهم من ذلك كلّه، وأن يرحلوا إلى اللهِ عراةً إلا من الإيمانِ به.

هكذا شاءت الأقدار، وهكذا وضعهم اللهُ سبحانهُ وتعالى أمامَ هذه العقبات، ثمَّ إنَّ اللهَ أعلنَ لنا ونبّهنا إلى كيفيّةِ الصدق. صدقوا ما عاهدوا اللهَ عليه، وآثروا الباقيَ على الفاني، تركَ أولئكَ الذينَ هاجروا مع رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلّم كلَّ ما يملكون لأنّهم اضطرّوا كما تعلمونَ إلى ذلك.

ولعلّكم تعلمون أنَّ صهيباً الرّوميّ، وكانَ قد تزوّجَ في مكّة هاجرَ هو الآخرَ إلى رسولِ الله ومعهُ حفنة يسيرةٌ من المالِ وزوجته، فخرجَ لهُ كمينٌ من المشركينَ في الطّريق فقالوا: (جئتَ إلينا صعلوكاً لا مالَ لك ولا زوجة، فتزوّجتَ من عندنا وجمعتَ هذا المال لدينا، أفتريدُ ان تمضيَ بذلكَ كلّه إلى صاحبك)؟ جرّدوهُ من الزّوجة، وجرّدوهُ من المال، ولكنَّ صهيباً رضيَ بذلكَ كلّه ورحلَ وهو قريرُ العينِ والقلبِ إلى اللهِ عزَّ وجلّ، عارياً إلا من أغلى ما يغني الإنسان، ألا وهو إيمانهُ باللهِ وإيمانهُ برسولِ الله.

هكذا يعلّمنا اللهُ ويعلّمُ أجيالَ الدّعاة بل أجيالَ المدّعينَ أنّهم مسلمون، أنَّ الإسلامَ هكذا يكون، ومن كانَ سائراً على هذا النّهج فبوسعهِ أن يقولَ أنّهُ مسلمٌ صادق، وإلا فليعلم بأنّه مدّعٍ، أقولُ إنَّ هذه الفائدة أو هذا المعنى الثاني مما يخصنا نحنُ المسلمين اليوم، لأنَّ أكثرَ المسلمينَ في هذا اليوم التقطوا من الإسلامِ ما لا يكلّفهم شروى نقير، تعملوا من الإسلام مع الألفاظِ والشّعاراتِ والكلماتِ الفارغة، حتى

إذا رأوا أنفسهم أمام ما يكلّفهم شططاً أو قريباً من الشّطط، أعرضوا وتجاهلوا وتناسوا واكتفوا بالادّعاءاتِ والكلماتِ التي لا تكلّفهم رأسَ مال، هذا هو واقعُ أكثر ولا أقولُ كلّ المسلمينَ في عصرنا اليوم. \

فأينَ هي صلتنا بجيلِ الهجرة؟ أين هي صلتنا برسولِ الهجرةِ سيّدنا محمّدٍ عليهِ الصّلاةُ والسّلام، لقد أثمرت الهجرة بسبب هذا المعنى الذي قلتهُ لكم ثماراً عجيبةً وغريبة، أبدلهم اللهُ بدلاً من الوطنِ الذي تركوهُ فعلاً أوطاناً كثيرة، أبدلهم اللهُ عزَّ وجلّ بدلاً من المال اليسير كنوزاً من الخيراتِ سيقت إليهم من بلاد الرّومِ والفرس، أبدلهم اللهُ عزَّ وجلَّ بدلاً من ذلك الشّتات قوّةً ووحدةً وتضامناً، أمّا نحنُ الذينَ وُضعنا على رأسِ هذا الطّريق، ولكنّا آثرنا الشّهواتِ والأهواء، فليسَ لنا أن نسألَ الله ثماراً كتلكَ الثّمار التي أكرمَ اللهُ بها جيلَ الهجرة، ليسَ لنا أبداً أن نقول: إننا مستضعفونَ فأينَ هو نصرُ الله منّا؟ ليسَ لنا أبداً أن نقولَ: إننا أذلّاء فأينَ هو إعزازُ اللهِ عزَّ وجلّ لنا؟ ما الذي أعطيتموهُ ربَّكم لتمدّوا أيديكم إليه فتطالبوهُ بهذا كلّه؟

إنَّ فينا من يضيقُ ذرعاً حتّى بالنُّصحِ أيّها الإخوة، فكيفَ نتصوّر أنَّ لنا أن ننطقَ بألسنةٍ تطلبُ من اللهِ سبحانهُ وتعالى ما لم يحقّقهُ لنا كما حقّقهُ لتلكَ الأجيال؟ منذُ أسبوعين أو ثلاثةِ أسابيع تحدّثتُ عن التّجّار الذينَ آثروا أن ينسوا أوامرَ الله وأخلاقَ الإسلام في نطاقِ دعايتهم التي يعكفون عليها لتجاراتهم، آثروا أن يحققوا هذه الدعاية ولو كانت على حسابِ الأخلاق، ولقد بلغني أنَّ في هؤلاءِ التّجّار من ضاقوا ذرعاً بهذه النّصيحة، من ضاقوا ذرعاً بهذا المعروفِ الذي أمرتهم به وذلك المنكرِ الذي حذّرتهم منه.

ولقد قيلَ لي إنَّ منهم من قال: أليسَ لهُ شيءٌ يتحدّثُ عنهُ إلا هذا الموضوع؟ إذا كان تجارنا المسلمون يضيقون ذرعاً بالنّصح، يضيقونَ ذرعاً بالأمرِ بالمعروفِ والنّهيِ عن المنكر، فضلاً عن أن يسمعوه فضلاً عن أن يطبّقوه، ففيمَ نطالبُ اللهَ عزَّ وجلّ بشيءٍ لم ندفع ثمنه؟ فيمَ نطالبُ اللهَ عزَّ وجلّ بأن يرفعَ عن كواهلنا هذا القسط من الذّل ونحنُ لم ندفع شيئاً من قيمةِ العزّةِ التي نطمحُ إليها بشكلٍ من الأشكال؟ قلتُ لنفسي: إذا كانت كلُّ شريحةٍ من الناسِ تضيقُ ذرعاً بالمنكرِ الذي أذكّرها به، هذه تضيقُ ذرعاً بالمنكرِ الذي تلبّست به وتقولُ أو ترسلُ إليَّ كلاماً مفادهُ أليسَ لكَ شيءٌ آخرُ تتحدّثُ عنه، والشّريحةُ الثّانيةُ هكذا، والثّالثةُ هكذا، والرّابعةُ هكذا، إذاً فمن هم الذي نأمرهم بالمعروفِ وننهاهم عن المنكر والكلُّ يضيقُ ذرعاً؟

بقيت شريحة واحدة، ألا وهي شريحةُ القادةِ والحكّام، إذا تحدّثتُ عنهم صفّقَ الجميع، وإذا ذكّرتُ النّاس بالانحرافاتِ أو المنكراتِ التي قد ينحطُّ فيها بعضهم أو كلّهم صرتُ بطلاً في أعينِ وقلوبِ الجميع، أفهذا هو الصّدقُ مع الله؟ ألا نرجعُ إلى أنفسنا لنتّهمها: لماذا أضيقُ ذرعاً بأن يشارَ إليَّ بالبنان بلطفٍ وبتذكرةٍ محبّة؟ لماذا أضيقُ ذرعاً بأمرٍ بمعروفٍ ونهيٍ عن منكر؟ وقد أمرنا اللهُ عزَّ وجلّ بذلك.

عندما يكونُ هذا واقعنا فلنعلم أنّهُ ليسَ لنا أن نطالبَ اللهَ بشيء، تعاملنا مع اللهِ بالشّعارات وهو يتعاملُ معنا أيضاً مع الشعارات، فخذوا من الشّعاراتِ ما طابَ لكم واعتصروا من الشّعاراتِ ما يمكنُ أن تجعلوا منهُ مصدرَ عزٍّ لكم، واعتصروا منها ما يمكنُ أن يكونَ مصدرَ وحدةٍ لكم، أقولُ قولي هذا وأستغفرُ اللهَ العظيم...



٣٠٦- لهذه الأسباب كانت الهجرة تبعث على الاعتزاز والفخار | ١٩٩٤/٠٦/١٠

ها نحن قد ودعنا عاماً انصرم، واستقبلنا عاماً جديداً اقتطع من عمر كل منا عاماً كاملاً، وقرَّبنا إلى الموت عاماً كاملاً، وإذا قلنا: إننا قد ودّعنا عاماً واستقبلنا عاماً فلست بحاجةٍ إلى أن أقيده بعامٍ هجري، ذلك لأن العام إذا أُطلق في المجتمع الإسلامي وفي مصطلح الإنسان المسلم الذي وعى إسلامه، ما ينبغي أن يفهم من هذا العام إلا أنه العام الهجري؛ ذلك لأنه الميقات الذي يُبرز وجود هذه الأمة ويحدد معالمها، وهو التاريخ الذي تعتز به هذه الأمة، والذي أناط الله سبحانه وتعالى وجودها الاعتباري به، فما أظن أن المسلم بحاجة إلى أن يحار أي المعنيين نعني بكلمة العام. لو أن الإنسان كان واقفاً بين الإسلام والكفر أو بين الثقافة الإسلامية والثقافات الأخرى، لكان له أن يحار ويتساءل، ولكن المسلم المعتز بإسلامه يعلم أن عامه هو هذا، وأن تاريخه هو هذا.

وأظن أنكم جميعاً تعلمون أن المسلمين اجتمعوا ليتساءلوا عن ميقاتٍ زمني أو مقياس زمني يحددون به تاريخهم والأحداث التي تمر بهم، فاجتمعت كلمتهم – وذلك في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه – على أن يكون التاريخ الهجري الذي يبدأ بهذا الشهر المبارك؛ الذي يبدأ بهجرة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المِعْلمة التي ترتبط بها الأحداث، والتي تتبين بها مواقيت التاريخ، وما أظن أن هنالك مسألةً تم الإجماع عليها في حياة الصحابة كإجماعهم على أن يكون تاريخ هذه الأمة منوطاً بهجرة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكةَ إلى المدينة.

فكل من أراد أن يتلاعب بهذا التاريخ أو أن ينقض ما أبرمه عمر مع المسلمين عامةً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو مفتأتٌ على هذا الدين، وهو عميلٌ يتقنع بقناع وطنيةٍ أو عروبةٍ أو إسلام. ولا شك أن الإجماع الذي تم وانقضى وترسّخ لا يملك أحدٌ أن ينقضه إلى يوم القيامة. ولكن ما هو السر الذي جعل المسلمين يعتزون بعامهم الهجري هذا؟ ما هو السر الذي جعل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يستعرضون مشاهد السيرة النبوية منذ ولادة المصطفى عليه الصلاة والسلام إلى يوم وفاته فلم يجدوا بين هذه المشاهد مشهداً يعتز به المسلم، ومن ثم يجدر أن ترتبط أحداث التاريخ كلها به

سوى هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة؟ ما السر في اجتماعهم على هذا وفي اعتزازهم بهذا المشهد دون غيره من مشاهد السيرة النبوية؟

السر أيها الأخوة يتمثل في سلسلة كثيرة مكونة من حلقات متعددة كلٌ منهل يبعث المسلم على الاعتزاز بهذا المشهد من مشاهد السيرة النبوية، وكلٌ منها يبعث على أن يربط نفسه بهذا المشهد أيما ارتباط مهما كانت الدنيا التي يتقلب فيها، ومهما كانت الأوضاع التي تطورت به:

أولاً: هجرة النبي عليه الصلاة والسلام جسدت أبرز معنىً من معاني العصمة التي تعهد الله عز وجل بها لرسوله سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، ولعل هذه العصمة قد خُلِّدت في قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ ولقد قوّض الله سبحانه وتعالى مكرهم، وإنكم لتعلمون كيف مكروا به، وأنفذ الله رسوله صلى الله عليه وسلم من بين خططهم الماكرة، وأخرجه من ظلمات كفرهم وضلالهم إلى صعيد الإيمان إلى صعيد الدين إلى أول دارٍ أكرم الله سبحانه وتعالى الأمة بها. فهذه أول مكرمة بل هذا أول سرٍ من أسرار ارتباط المسلمين بتاريخ هجرتهم.

السر الثاني: أن المسلمين عندما كانوا يعيشون مع رسولهم صلى الله عليه وسلم في مكة لم تكن لهم دارٌ تجمعهم، فلم تكن هنالك دار إسلام قط، ولكن وُجدت هذه الدارُ وولدت بهجرة المسلمين ثم بهجرة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة، عندئذٍ أكرم الله سبحانه وتعالى بهذه الهجرة هذه الأمة بأول دار إسلام، وشاء الله عز وجل أن تكون المدينة المنورة التي كانت تسمى بيثرب أول دار إسلام، فهذه الحلقة الثانية تمثل السر الثاني من أسرار الاعتزاز الذي لابد أن يشعر به كل مسلم صادقٍ مع الله سبحانه وتعالى في إسلامه.

السر الثالث: وهو الذي يشكل الحلقة الثالثة، أن الله عز وجل شاء أن يكرم هذه الأمة بأول دولة تحققت، وقام نسيجها متكاملاً مع هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من المسلمين إلى المدينة المنورة، عندما كان المسلمون في مكة لم تكن لهم دولة، وكيف تنشئ لهم دولة وليست لهم أرض

والدولة إنما تقوم على ثلاث أركان: أرضٍ يمتلكها المسلمون، ومجتمعٍ متضافر يتكون من هذه الأمة المسلمة، ونظام سلطوي يحقق معنى ارتباط هذه الأمة بتلك الأرض.

وعندما كان المسلمون في مكة المكرمة لم تكن لهم أرضٌ يرجعون إليها ويرتبطون بها، ولم تكن لهم دولة ولم تكن لهم جامعة، ثم أكرم الله سبحانه وتعالى رسوله ومعه أصحابه المهاجرون بالهجرة إلى المدينة المنورة، كان ذلك إيذاناً بنشأة أول دولةٍ إسلامية وجد المجتمع الإسلامي فوق دار الإسلام ثم وجد النظام الذي جسّد علاقة هذه الجماعة المسلمة بتلك الأرض.

وبالأمس كنا نتحدث عن تلك الوثيقة أي الدستور الذي اكتتبه – أي أملاه رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه، فنظم بذلك المصطفى عليه الصلاة والسلام علاقة المسلمين بعضهم مع بعض، ونظّم بذلك علاقة المسلمين بمن جاورهم من اليهود أو غير اليهود، وهكذا فنحن أمام حلقة ثالثةٍ تشكل السر الثالث من أسرار اعتزاز المسلم بهجرة المصطفى صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة المنورة.

الحلقة الرابعة: أن هذه الهجرة كانت الفجر الذي انبثقت منه حقيقة الأمة؛ معنى الأمة. فما كان المسلمون قبل ذلك قد تهيأوا ليكونوا أمةً واحدة عندما كانوا يتقلبون في فجاج الكفر وبين أودية التيه والضلال في مكة، حتى إذا استقر بهم المقام في المدينة المنورة بزغت حقيقة الأمة من تلك الهجرة، ولذلك فلقد كان أول بندٍ من بنود تلك الوثيقة هي إعلان المصطفى صلى الله عليه وسلم عن ولادة الأمة؛ الأمة الإسلامية، وانظروا ماذا يقول عليه الصلاة والسلام في هذا البند: ﴿المسلمون من مكة ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم أمة واحدة من دون الناس جميعاً﴾ ﴿المسلمون من مكة ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم أمة واحدة من دون الناس جميعاً﴾، وهكذا نحن أمام حلقة رابعة من حلقات هذه السلسلة التي تبعث المسلم على الاعتزاز – وأي اعتزاز – بهذه الهجرة النبوية التي تجعل المسلم الصادق مع إسلامه لا يستطيع أن يتبين بين مشاهد السيرة النبوية منذ يوم الولادة إلى الوفاة مشهداً يبعث على اعتزازٍ وعلى فخار وعلى مجدٍ وعلى نشوة تطوف بنفس هذا الإنسان المسلم كمشهد هجرة المصطفى عليه الصلاة والسلام من مكة إلى المدينة المنورة.

نحن ندرس اليوم تاريخ هذه الأمة من خلال دراسة دولة، ولكن هذه الدولة ما ولدت إلا مع الهجرة، ونحن ندرس تاريخ هذه الأمة من خلال دراسة نظام؛ نظامٍ سياسي سلطويٍ متكامل، ولكن هذا النظام لم يتحقق ولم يتكامل إلا مع الهجرة، نحن ندرس سيرة هذه الأمة – تاريخ هذه الأمة – من خلال وحدة هذه الجماعة المسلمة، ولكننا لا نستبين هذه الوحدة إلا من خلال هجرة المصطفى عليه الصلاة والسلام إلى المدينة المنورة. ألا تلاحظون هذه المعاني البديهية أيها الأخوة؟

هي التي حفزت سلفكم الصالح، هي التي دعت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن يجمعوا على أن تكون الهجرة هي المِعْلمة التي يرتبط بها تاريخ هذه الأمة. فهل لديكم من رأي في أن الإنسان الذي يريد أن ينسخ معالم هذه الهجرة من الأذهان، والذي يريد أن يمزق مظاهر فخار هذه الأمة في حلقات هذه السلسلة، والذي يريد أن يذيب معنى الهجرة من أذهان المسلمين وتاريخهم. هل من ريبٍ لديكم من أنه إنسان عميل؟ هل من ريب لديكم في أنه إنسان يتظاهر – ربما – بأنه مسلم، ولكنه خادمٍ – وأي خادم – لأولئك الذين يحاربون دين الله عز وجل قائمين قاعدين غادين رائحين ممسين مبكرين؟؟

بعد هذا.. ينبغي أن نستشعر ألمنا من أننا عندما ننظر إلى مشاعر هذه الأمة التي هي من سلالة ذلك السلف الصالح، هذه الأمة التي لا تزال تتفيء ظلال أمجاد الهجرة، عندما ننظر إلى هذه الأمة في يوم كهذا اليوم، وقد انقضى العام الفائت ودخلت هذه الأمة إلى دهليز عام جديد، ولا أقول هجري لأن البداهة تعلن ذلك، أنظر فلا أجد لدى هذه الأمة ما يدل على أنها شعرت بحدث، شعرت بشيء، شعرت بأن شيئاً قد وقع يبعث على افتخار، يبعث على وقفة تأمل وتدبر، لا ألاحظ شيئاً من هذا أبداً بشكل من الأشكال!! ويدفعني هذا الشعور إلى أن أقارن حال هذه الأمة المسلمة، إلى أن أقارن حالها عندما تودع عاماً هجري وتستقبل عاماً جديداً، مع حالها يوم ودعت بالأمس عاماً ميلادياً واستقبلت عاماً ميلادياً آخر. عندما أقارن.. أجد نفسي وكأني أمام أمة لا ترتبط بتاريخها الأغر بأي رباط!

هذا هو الواقع الذي نشاهده، ولست بصدد أمرٍ تقليدي يتكرر في كل عام، ولكني بصدد المشاعر التي ينبغي أن تعلن عن نفسها. قبل أمس الدابر استيقظت في جنح الليل على أصوات مفاجئة لم أكن أتوقعها على أصوات انفجارات ودويٍ ينطلق من هنا وهنا. قلت في نفسي: ما الذي حدث!؟ ورأيتني

أتألل سروراً. قلت في نفسي: إنه وعي جديد أكرم الله به هذه الأمة، إنها شباب هذه الأمة عرفت أنها تودع عاماً هجرياً وتستقبل عاماً هجرياً جديداً، ولقد غارت على هذا العام تجاه تصرفات المسلمين في جنح الليل عندما يمر عام ميلادي ليأتي من بعده عام جديد، فذلك هو السر في انبعاث هؤلاء الشباب ليعبروا عن ارتباطهم بتاريخهم الهجري، وتهلل فكري سروراً. ولكن السرور لم يتكامل فقد علمت أن الأمر أهون من ذلك، علمت أن كل هذا وأكثر من هذا يتم في حياة هذه الأمة بسبب عوامل لعب من جراء عبث، وسبحان من جعل العبث هو الذي يتحكم اليوم في هذه الأمة، ألا ترون أن هذا الواقع يبعث على ألم يذيب الحشاشة؟ وألا ترون بعد هذا أن هذا الواقع يبرز الحيثيات الدقيقة لتخلي الله عز وجل عنا؟ وكم وكم من إنسان يتساءل لماذا تخلى الله عز وجل ونحن تلك الأمة التي كانت خير أمة أخرجت للناس، ألا ترون في هذا الواقع خير جواب عن هذا السؤال.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.





٣٠٧- عندما يهتم المسلمون بما ألزم الله به ذاته ويُعرضون عما ألزمهم به | ١٩٩٧/٠٥/٠٩

كم يتمنى الإنسان المؤمن المسلم أن لو احتفل الناس بقدوم العام الهجري الجديد كما يحتفلون هم أنفسهم بدخول عامٍ ميلادي جديد.

كلٌ منا عندما يقارن بذهنه بين استقبال المسلمين – ولا أقول غير المسلمين – لدخول عامٍ ميلادي جديد، واستقبالهم لعام ٍهجري جديد يجدون ما هو المخزي، وما هو المؤلم والمخجل لكل إنسان مؤمن أمام مولاه وخالقه سبحانه وتعالى.

في المناسبة الأولى تهيج الدنيا، ويقوم الصخب في المجتمعات والأسواق والأندية والمنازل والبيوت ووسائل الإعلام ولا يكاد ينتهي هذا الصخب. وفي المرة الثانية تمر هذه المناسبة ولا يكاد يشعر بها إلا المتحرق على دين الله سبحانه وتعالى والمرتبط ارتباطاً ثقافياً متميزاً بتاريخ هذه الأمة.

وأنا لا أعني بهذه الأمنية أن يحتفل المسلمون بدخول العام الهجري بالطريقة ذاتها التي يحتفلون بها بدخول عامٍ ميلادي، أي إنني لا أعني أن يستقبل المسلمون دخول هذا اليوم من أول عامٍ هجري جديد بالصخب والضجيج واللهو؛ إن في الشوارع والأسواق والمحال التجارية وزخرفتها، وإن بالبيوت، وإن في أجهزة الإعلام، ولكني أعني بالاحتفاء الذي لابد منه بهذه المناسبة أن تُحشد عقول المسلمين بالعبر والعظات والدروس التي ينبغي أن يتبينوها في هذه المناسبة، وأن تحتفل أجهزة الإعلام على مستوى العالم العربي والإسلامي أجمع، وأن تهتم اهتماماً بالغاً بدخول هذا اليوم الأغر، وبتجدد هذه الذكرى المقدسة والعزيزة على تاريخ هذه الأمة، فيشعر المسلمون أن لسانهم الناطق ولسان المسلمين الذي ينطق باسمهم إنما هو أجهزة الإعلام، يشعر المسلمون أن ألسنتهم هذه متجهة اتجاهاً متميزاً لملئ الأفكار والأذهان بالدروس والعظات التي ينبغي أن يستفيدها المسلمون من هذه المناسبة الجليلة، ثم أن يجعلوا من ذلك دواءً ناجعاً لأمراضهم التي يعانونها في هذا اليوم.

وغير خافٍ على أي مسلم أن المسلمين الذين كانوا قبلنا من السلف الصالح لم يجعلوا من ميقات أول عام من هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم معلمة تاريخية يربطون بها أحداثهم المتجددة إلا لأن هذه المعلمة تحمل دلالات كبيرة وتحمل دروساً متجددة عظيمة، مهما تقدم المسلمون أو تخلفوا لن يستغنوا عن الوقوف أمام عبرها، ولن يستغنوا عن الاستفادة منها بشكل من الأشكال، ولذلك جعل السلف الصالح بإجماعٍ جليلٍ منهم جعلوا من هذه المناسبة معلمة تاريخية يربطون بها حوادث التاريخ الإسلامي من بعد إلى يومنا هذا.

وأنا ألفت النظر أيها الإخوة إلى درسٍ واحدٍ من هذه الدروس الهامة، كم كان يجدر بالمسلمين أن يستفيدوا من هذا الدرس لإصلاح أخطائهم ولمعالجة أمراضهم، ما هو فرق ما بين المسلمين قبل أن يهاجروا من مكة إلى المدينة وبعد أن هاجروا واستقر بهم المقام في المدينة المنورة؟ ما الفرق بين حال المسلمين قبل الهجرة وحالهم بعدها؟

أما قبل الهجرة فلم يكن للمسلمين أرضٌ يملكونها، فلما هاجروا أورثهم الله سبحانه وتعالى الأرض التي أصبحت تُسمى بالاصطلاح الفقهي دار الإسلام، لم يكن المسلمون يظهرون في مظهر وحدةً تستظل في ظل دولة وحكومة، فلما هاجر المسلمون من مكة إلى المدينة أنعم الله عز وجل عليهم بالوحدة التي ظهرت وتكتلت تحت مظلة دولة وحكومة إسلامية.

قبل أن يهاجر المسلمون من مكة إلى المدينة لم يكن لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلا شخصية واحدة، هي شخصية النبي والرسول المبلغ عن الله عز وجل، فلما هاجر وهاجر معه أصحابه إلى المدينة أصبح المصطفى صلى الله عليه وسلم ذا شخصيتين اثنتين، فهو اليوم رسولٌ مبلغٌ من الله عز وجل وهو في الوقت ذاته أول رئيس دولة لأول حكومة إسلامية.

هذا الفرق الكبير الغريب العجيب بين واقعين للمسلمين أحدهما كان قبل الهجرة والثاني أورثه الله سبحانه وتعالى للمسلمين بعد الهجرة، كيف جاء؟ وكيف تحقق؟

وأنا أسأل وينبغي لكل مسلم أن يسأل، هل كان المسلمون وهم في مكة يُخططون لتلك الدولة التي أكرمهم الله بها بعد الهجرة؟ هذه واحدة.

هل كان المسلمون وهم مبعثرون في مكة يخططون لأن يمتلكوا أرضاً تُسمى دار إسلام؛ فكانوا يسهرون لياليهم ويتعبون أيامهم في وضع الخطط لأخذ هذه الأرض واقتناصها؟

هل كان المسلمون وهم في مكة يخططون لأن يجعلوا من نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم رئيس دولة بعد أن كان وهو بين ظهرانيهم مجرد رسول مبلغٍ عن الله؟

أعتقد أن كلاً منكم يعلم الجواب، لم يكن يخطر في بال المسلمين شيء من هذا، فالمسلمون وهم قلة بين المشركين في مكة المكرمة وعلى رأسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، لم يفكروا ذات يومٍ بأن يخططوا لاقتناص أرضٍ وامتلاكها وإقامة دولة عليها، لم يخططوا لذلك أبداً. وإنما كان قصارى همهم وإنما كان كل جهدهم متجهاً إلى شيءٍ واحد، هو إبلاغ رسالات الله سبحانه وتعالى، والقيام بواجب الدعوة إلى دين الله عز وجل، ثم الصبر والمصابرة في طريق هذه المهمة التي كلفهم الله سبحانه وتعالى بها، وعلى رأسهم سيدنا محمدٌ صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

كل المسلمين الذين كانوا في مكة لم يكونوا يفكرون إلا بهذا الهم، ولم يكونوا يشغلون بالهم إلا بهذا الواجب، فكان هذا ديدنهم يشرقون ويغربون داخل ذلك المجتمع الصغير مكة، ومن حول مكة تلك القبائل القريبة نسبياً، كانوا يتحركون ضمن هذه الساحة دعاة إلى الله، معرفين بدين الله سبحانه وتعالى، وقد حمّل كلٌ منهم نفسه واجب الصبر وواجب المصابرة، ورأينا بل نظر الله عز وجل إلى واقعهم فرأى الصدق في سلوكهم، ورأى الجهد بل الجهاد في صبرهم ومصابرتهم، شاء الله عز وجل أن يبتليهم بالمعذبين وبالمستهزئين وبالمسيئين بكل أنواع الإساءات، وعلى رأس من أُسيء إليه بكل هذه الإساءات سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم. فصبروا وتحملوا ومات منهم من مات تحت وطأة هذا العذاب، وبقي من بقي وهو ثابتٌ صامد يتلقى العذاب ويحتسبه عند الله سبحانه وتعالى.

هكذا كان عملهم وهذا كان هدفهم وعلى هذا النهج ساروا ولم يكن يخطر في بال أيٍ منهم أن يُخطط لإيجاد دولة، لإقامة مجتمع، لإمتلاك أرض، أو لما وراءَ ذلك من الذيول التي تعلمون.

ونظر الله عز وجل إليهم فوجد الصدق في عملهم، ورأى الإخلاص لدين الله في سلوكهم، ورأى ثباتهم على الجهاد الذي كان هو أساس الجهاد القتالي بعد الهجرة، فأعطاهم الله عز وجل هذا الذي أعطاهم عندما كتب لهم الهجرة إلى المدينة المنورة.

انظروا أيها الإخوة هما مهمتان: أما أولاهما فكلف الله بها عباده، وأما الأخرى فأخذها الله عز وجل على ذاته وألزم بها ذاته العلية. المهمة التي كلف الله بها عباده (الدعوة إلى الله): ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾. تلك هي المهمة التي شرف الله سبحانه وتعالى بها كل من دخل بالإسلام وعاش مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك المجتمع الجاهلي المظلم.

وأما المهمة التي ألزم الله بها ذاته العلية فهي أن يورثهم الأرض بعد أن يجد ثباتهم وصبرهم على هذا، وأن يُملكهم الدولة، وأن يثبت دعائم وجودهم ويرسخها فوق الأرض، وأن يُملكهم كل ما يمتلكه أعداؤهم، هذا ما ألزم الله عز وجل به ذاته العلية.

ولما وفّى أولئك المسلمون بما ألزمهم الله به، وفّى لهم الله عز وجل بما ألزم به ذاته، ونظرنا فوجدنا أنفسنا أمام مصداق قول الله عز وجل: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾، ونظرنا فوجدنا أنفسنا أمام قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾. وهذا شيءٌ ألزم الله عز وجل به ذاته، ولكن بعد أن يوفي المسلمون بما ألزم الله سبحانه وتعالى كلاً منهم به. هذا الدرس أيها الإخوة.. أين واقع المسلمين منه؟

ننظر إلى الواقع الذي يعيشه المسلمون – ولا أتحدث عن غير المسلمين – ونتأمل لدى المقارنة بين واقعهم اليوم وواقع أصحاب رسول الله بالأمس، فنجد المسلمين يسيرون في طريق معاكسة تماماً للطريقة التي كان عليها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم. ألزم الله أولئك المؤمنين بأن يكونوا أُمناء على الدعوة إلى الله، صابرين على إبلاغ رسالات الله عز وجل، يتحملون في سبيلها كل عنت وكل شدة من الشدائد، ويحتسبون ذلك عند الله عز وجل، ولم يُلزمهم بأن يُخططوا لشيءٍ غير ذلك. أما الله عز وجل فألزم ذاته بأن يُملكهم الأرض؛ يحقق لهم دار الإسلام، وأن يُقيم لهم الدولة، وأن يُسيج هذه الدولة بسياج القوة والحماية. وتنظر إلى واقع المسلمين وإذا بهم يهتمون كل الاهتمام بالوظيفة التي ألزم الله ذاته العلية

بها ويُعرضون كل الإعراض عن الوظيفة التي ألزمهم الله عز وجل بها. ألا تنظرون إلى هذا الواقع؟ هذا هو واقع المسلمون اليوم.

أين هم أولئك الذين ينصبون ويجاهدون في إبلاغ رسالات الله عز وجل في القرى في المدن؟

أين هم الذين يطرقون أبواب الأسر التي هي في ظمأ، ظمأ إلى معرفة دين الله عز وجل؟

أين هم الذين يُجددون سيرة أصحاب رسول الله كمصعب وغير مصعب وحمزة في الدعوة إلى الله وإبلاغ رسالات الله وتنفيذ قول رسول الله: «بلغوا عني ولو آية فرب مبلغ أوعى من سامع»؟

لن تجد إلا على الوجه النادر، وما أشبه هذا الوجه النادر ببوارق تبرق في ليلة ظلماء، هذا هو الواقع.

وعندما يناقش أحدنا واحد من هؤلاء الناس، لماذا لا تدعو إلى الله؟ انظر إلى سيرة رسول الله إلى سيرة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف كان حالهم؟ وكيف كان شأنهم؟ ماذا يجيب وماذا يقول لك؟

يقول لك: لا فائدة من الدعوة، ولا من الأمر بالمعروف ولا من النهي عن المنكر، كل ذلك هباء حتى تُقام الدولة الإسلامية أولاً، ينبغي أن تُقام الدولة أولاً، وبعد ذلك ينجح الدعاة في الدعوة إلى الله.

تُصغي إلى هذا الكلام العجيب وتتأمل في كلامه وكأنه يُخطئ رب العالمين، كأنه يقول: إن الله عز وجل لم يكن على صواب، عندما أمر عباده أصحاب رسول الله بأن يتركوا مسألة الدولة والأرض وما إلى ذلك وأن يبذلوا جهدهم كله في إبلاغ رسالات الله والدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن يصبروا ويصمدوا ويجعلوا ذلك كله احتساباً لوجه الله عز وجل. كأنهم يقولون: إن خطة رب العالمين لم تكن صواباً، بل الصحيح هو أن على أولئك المسلمين كانوا أن يطرقوا أبواب الدولة أولاً، وأن يقيموا الحكومة أولاً، وبعد ذلك ينجحون في الدعوة إلى الله عز وجل.

هذا الواقع الذي تراه في حال أكثر المسلمين اليوم يترجم على آذان الناس جميعاً هذه الترجمة. فهل هنالك جريمة أخطر من هذه الجريمة؟

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ جعل الله من رسوله قدوة لنا أسوة لنا، علمنا من خلال سير أصحابه كيف نسير، وكيف نتبع، أفنجح أولئك الصحابة على الرغم من أن هؤلاء المسلمين اليوم يخطئونهم؟ أفنجحوا أم لم ينجحوا؟ إن هي إلا سنوات؛ ثلاثة عشر عاماً حتى أثمر سعيهم وجهادهم الدولة والأرض والحماية والقوة والحكومة. وكان كل ذلك ثمرة ربانية.

المسألة تحتاج أيها الإخوة إلى تنسيق، والمنسق لسنا نحن، المنسق هو الله سبحانه وتعالى. الرب يقول: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ يقول: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، ثم إن الله سبحانه وتعالى ألزم ذاته بالنتائج، إن أنتم فعلتم ذلك ورثتكم الأرض، أعطيتكم الدولة، ملكتكم كل شيء. فمال هؤلاء الإخوة لا يفهمون كلام الله سبحانه وتعالى؟! ومالهم عن التذكرة معرضون!؟ لماذا لا يجعلون من سيرة رسول الله أسوة لهم!؟

هذا هو الدرس الواحد من دروسٍ كثيرة نقتبسه من هجرة المصطفى صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة.

ألا ليت المسلمين على كل مستوياتهم حكاماً وشعوباً يحتفلون بدخول هذا العام الهجري المقدس الاحتفال المناسب لقيمة بدء هذا العام، ليت أنهم يجندون وسائل الإعلام كلها، ليت أنهم يجندون كل الأبواق الثقافية، ليت أنهم يجندون سائر الأنشطة لتوجيه المسلمين إلى العلاجات التي تتكفل بتضميد جراحاتهم، إذاً لو فعلوا ذلك ابتغاء مرضاة الله عز وجل لجمع الله منهم الشمل، ولقوّم فيهم الاعوجاج، ولأعادهم إلى حظيرة الأمن والسلام. أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

٣٠٨- لو أنها استنطقت.. هذا ما ستقوله لنا ذكرى الهجرة | ١٩٩٩/٠٤/١٦

ها هي ذي فاتحة العام الهجري الجديد تمر، تمر بالعالم الإسلامي يتيمةً في أسرتها غريبةً في عالمها، لا يشعر بانقضاء ذلك العام الذي مضى ودخول العام الجديد الذي أقبل إلا قلة يسيرة ثم يسيرة من الناس. أما عامة أهل المجتمع والعالم الإسلامي ففي شغلٍ شاغل عن الهجرة وعامها، وفي شغلٍ شاغل عن بداية هذه السنة ونهايتها، وفي شغلٍ شاغل عن عبر هذا العام وعظاته. يمر آخر هذا العام ثم يقبل أوله في مجتمعه في أسرته بين أهله يتيماً غريباً بل أكثر من غريب. أين هي الاحتفالات والاهتمامات التي ما زلنا نتذكر أصداءها في مناسبات مشابهة مرت؟ أين هو الطنين والرنين؟ أين هي المشاعر الجياشة التي تهتاج في نفوس المسلمين لذكرى هجرة رسول الله صلى الله وما جرّته معها من ذيول العبر والعظات والدروس والانتصارات؟ لا شيء. هذا هو حال عاملنا الإسلامي وهذا هو حال الأسرة الإسلامية في قلب هذا العالم الذي يتماوج بالهرج والمرج كما تلاحظون. ومعلمة الهجرة ما هي أيها الإخوة؟

معلمة الهجرة هي معلمة ولادة الدولة الإسلامية التي تجددت ببعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

هجرة المصطفى عليه الصلاة والسلام هي معلمة تاريخ هذه الأمة، بهذه المعلمة نحصي التاريخ ونعده من ألف باءه إلى نهايته.

هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم هي الفيصل الحاسم بين ماضٍ من الفقر المتقع وآت من الغنى الذي لفت أنظار العالم أجمع.

معلمة الهجرة هي الفيصل الحاسم بين ماضٍ من الشتات والتفرق والتشرذم والتخاصم وبين آت من الوحدة والتماسك التي غدت مضرب المثل.

معلمة الهجرة هي الفاصل الحاسم بين ماضٍ من الضعف والمهانة وآتٍ من القوة والعزة التي كانت مضرب المثل في العالم.

تلك هي معلمة الهجرة التي أكرم الله بها هذه الأمة من خلال شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي المعلمة التي خلّد بيان الله عز وجل حديثه عنها في قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ

﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ فما هي نسبة العالم الإسلامي اليوم إلى هذه المعلمة التي أعزتهم بعد ذل، ووحدتهم بعد شتات، وأغنتهم بعد فقر؟

تنظر إلى العالم الإسلامي اليوم فتجده معرضاً عن هذا النسب، متجاهلاً لهذا الدرس، متجاهلاً لهذه القيمة كلها. أليس هذا هو واقع العالم الإسلامي اليوم؟ هل هنالك من مبالغة إن قلت إن هذه المعلمة تمر بنا اليوم في نهاية عام مضى ومقتبل عام جديد، تمر بنا يتيمة في أسرتها، غريبة في عالمها ليس هنالك أي مبالغة.

لو أن هذه الأمة كانت أمينةً على معاني الهجرة لبقي غناها الذي ورثته إياها الهجرة النبوية الشريفة ولبقيت عزتها التي ورثتها إياها الهجرة النبوية الشريفة، ولبقيت وحدتها التي ورثتها إياها الهجرة النبوية الشريفة. ولكن لما خلع العالم الإسلامي متجسداً في مظهر حكامه وأكثر أهله لما خلعوا هذا الشرف وألقوه وراءهم ظهرياً قال لهم الله: لقد أسلمتكم إلى ما تشاؤون.

كانت العبرة التي يأخذها المسلمون من السلف الصالح من الهجرة عبرةً إيجابية، واليوم غدت العبرة التي نأخذها من الهجرة ويا للأسف عبرةً سلبية بكل معنى الكلمة. سل أكثر من تريد أن تسألهم من المسلمين اليوم عن اسم هذا الشهر الذي يمر بهم من الأشهر الهجرية؟ لن يستطيع أن يعطيك جواباً إلا بعد أن يعود فيتعلم ثم يُخبر، بل لو سألتهم عن العام الهجري الذي يمرون به لن يعطيك جواباً لأنه غريبٌ عن عامه الهجري معانقٌ لذلك العام الآخر. أليس هذا هو الواقع المرئي؟ وأصغي جيداً إلى أجهزة الإعلام في العالم الإسلامي كله تجد كيف أن اسم العام الهجري يمر ذليلاً.. ولا يمكن أن يذل عند الله، غريباً.. ولا يمكن أن يكون غريباً في سماوات الله عز وجل، يتيماً.. ولا يمكن أن يكون يتيماً في ميزان الله عز وجل، لكنه يتيمٌ اليوم بقرارٍ من العالم الإسلامي الذي قضاه في حق نفسه.

من هنا أيها الإخوة حاقت بنا المهانة التي نتأفف منها، ولو أننا فكرنا وقدرنا وتأملنا لوجدنا يقيناً وبدون ريب أن الغرب ليس هو الذي أبرم قضؤه الجائر في حقنا أن يذلنا ويهيننا ويقطع أوصالنا، ولكننا نحن المسلمين الذي أبرمنا هذا الحكم في حق أنفسنا، ثم إن الغرب جاء لينفذ ما قد قضيناه نحن. نحن الذين قضينا والغرب هو الذي ينفذ. هذا هو الواقع.

قال لنا عدونا في الغرب: دعوا حضارتكم الإسلامية وتعالوا اتبعوا الحضارة التي تملئ رحب العالم ألقاً، قلنا: نعم لكم ما تطلبون وهذا هو الحق.

قال لنا الغرب الذي يعادينا ويحقد علينا وعلى كل شيء في تاريخنا: دعوكم من الإسلام الذي تقادم عهده، طوروه وبدلوه وغيروه وتعالوا إلى النظم العجيبة العلمية والعلمانية التي تورثكم عزةً ما بعدها عزة، قلنا: نعم لكم ما تريدون حباً وكرامة، فعلنا ما يقول.

قال لنا العدو الذي يفيض قلبه حقداً علينا وعلى تاريخنا وديننا: دعوكم من محور الدين الجامع هنالك محاور أخرى كثيرة متطورة تجمع الأمة وتقيم الوحدة، هنالك محاور القوم، محاور وحدة اللغة، وحدة المصير وما إلى ذلك... دعوكم من الدين الذي يثير عليكم الأقليات المختلفة، قلنا: حباً وكرامة.

هذا هو الحق... سرنا وراءهم تماماً أذلاء خاضعين كلما وجه إلينا تعليماً من تعليماتهم رفعنا أيدي الاستسلام المهينة لهم وقلنا نعم حباً وكرامة. فلماذا نستنكر إذا جاءت النتيجة الطبيعية لهذا كله؟ لماذا نستنكر إذا جاء هذا العدو بعد هذا كله فقطع أوصالنا ومزق كياناتنا وسحقنا وأقام المذابح للقضاء علينا ولتطهير الجيوب الإسلامية في مجتمعاته؟ لماذا تنكرون النتيجة الطبيعية للمقدمات التي أنتم كنتم أبطالها وأنتم الذين قررتموها؟ والمقدمات المنطقية لابد أن تثمر نتائجها المنطقية.

أما هجرة المصطفى صلى الله عليه وسلم فكانت ولا تزال تقول لنا من وراء حواجز القرون: تعالوا إلى النهج الذي أعز أسلافكم وأنا الكفيلة بأنه سيعزكم اليوم. تعالوا فالتزموا بما التزم به أولئك الذين أعرضوا عن الدنيا في سبيل الله، أعرضوا عن الوطن في سبيل العقيدة. أرأيتم كيف أن الهجرة أعادت إليهم الوطن عندما بقيت لهم العقيدة، تعالوا أفعل بكم هذا النصر ذاته، أحقق لكم هذا الأمر هو ذاته، أعرضتم.

قالت لنا الهجرة ببليغ البيان: تعالوا فكونوا أمناء على معنى الهجرة كما كان أسلافكم أمناء عليها، تستغنون بعد فقر يبقى لكم ماضي غناكم ويضيف الله عز وجل إليه غنى جديداً، أرأيتم إلى أسلافكم الفقراء يوم نفضوا أيديهم من الدنيا كلها من البساتين والعقارات المنقولة والغير منقولة في سبيل الهجرة من أجل العقيدة، من أجل المبدأ. أرأيتم كيف أن الله أعاد إليهم الأموال وأعاد إليهم أضعاف أضعافها.

ها أنا ذا إن كنتم أمناء على هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعانيها أضمن بكم الغنى بعد الفقر أعيد إليكم مجدكم السابق، أعرضنا عن ذلك كله.

أهابت بنا هجرة رسول الله ويحكم التفتوا إلي هذا هو معين عزكم، هذا هو مصدر قوتكم، من هنا تستطيعون أن تدخلوا الرعب في قلوب أعدائكم، ونظرنا فلم نجد أذناً تصغي إلى هذا الكلام بشكلٍ من الأشكال. بل رأينا معلمة الهجرة تخب فيما بيننا يتيمةً في عالمها الإسلامي من شرقه إلى غربه، غريبة في هذا العالم من شماله إلى جنوبه. كلنا يلاحظ هذا المعنى أيها الإخوة. فهل بقي لنا لسانٌ يعتب على الله؟

إذا كنا نسمع أو نرى ما الذي يحدث لإخوة لنا هنا أو هناك، ما ينبغي أن نكون متجاهلين لجرائمنا إلى هذا الحد؛ نجرم في حق أنفسنا ثم نعتب على الله! نحكم على أنفسنا بالانتحار بالذل بالضيع بالفرقة بالهوان ثم نعتب على الله لماذا سلط علينا هؤلاء الناس أو أولئك!

قلت لكم أيها الإخوة لا والله ليس هنالك عدوٌ يملك أن يقضي بحكم بحق العالم الإسلامي لكن العالم الإسلامي هو الذي قضى بملئ اختياره وحريته بأن يحكم على نفسه بالانتحار المهين البطيء الذليل، ثم جاء العدو فنفذ. نحن الذين حكمنا وجاء العدو لينفذ ما قد حكمنا به وخير الكلام ما قل ودل، ولا أجدني في هذا الموقف أمام هذا العبرة التي تمر بنا أو نمر بها لا أجدني أستطيع أن أقول مزيداً على هذا الكلام

أقول قولي هذا وأستغفر الله.

٣٠٩- التنكر لمعاني الهجرة وعظاتها | ٢٠٠٩/٠١/٠٢

كنا نتوقع أن يستقبل عالمنا الإسلامي فاتحةَ العام الهجري بتجديد البيعة لله سبحانه وتعالى وبمزيد من الالتزام بعظات الهجرة ودروسها التي تركها لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من ورائه ولكنا ويا للأسف فوجئنا بنقيض ذلك، فوجئنا بما قد رأيناه من أن معظم قادة العالم العربي والإسلامي متنكرون لمعاني الهجرى وعظاتها، معرضون عنها مستخفون بها.

أوصانا رسول الله صلى الله عليه وسلم من خلال هجرته من مكة إلى المدينة بأن نضحي بالدنيا كلها، بمظاهر الرئاسة فيها وكل أنواع المشتهيات والأهواء التي تتألق فيها في سبيل القيم الإنسانية والمبادئ التي شرفنا الله سبحانه وتعالى بها. وننظر وإذا بجل هؤلاء القادة يسيرون على النقيض من وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم، يضحون بالمبادئ الإنسانية والقيم السامية الراسخة في سبيل المشتهيات والأهواء وفي سبيل استبقاء الكراسي والعروش.

أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم مَنْ بعده من خلال هجرته من مكة إلى المدينة ومن خلال إعلانه الأخوة الإسلامية وترسيخه لجذورها في أول دولة إسلامية أقامها رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصى بأن نكون أمناء على هذه الأخوة وأن نؤدي حقوقها، وننظر وإذ بجل قادة عالمنا العربي والإسلامي يتنكرون لهذه الأخوة ويتنكرون لوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم ويضحون بأخوة الإسلام في سبيل ترسيخ الكراسي وفي سبيل مزيد من نسج الشهوات والأهواء والأموال.

أما قول الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠] فقد أصبح أمراً منسياً يُتْلَى ويُعمَلُ بنقيضه، يُسمَع ويُستَخَفُّ بشأنه. عباد الله إن هذا القتل الذي يستحر اليوم بالأطفال والنساء والشيوخ وكل البرآء، هذا القتل الذي تحول إلى معين لدم لا يجف، ليس مصدره بقعة معينة، ليس المعني به أهالي غزة وإنما المعني بهذا القتل الذي يستحر العالم الإسلامي كله وإنما أهل غزة هو الرمز الأقدس لهذا العالم الإسلامي ولهذا الهدف المرسوم الذي لم يعد خفياً على أحد.

وإن المساجد التي هُدِّمَتْ فيها والمصاحف التي مُزِّقَتْ على أرضها ليس المعني بها بقعة معينة وإنما المعني بها القضاء على الإسلام كله حيثما وُجِد وأينما انتشرت شمسه وإلى أي جهة وصلة أشعته، وإنما غزة وأهل غزة هو الرمز الأقدس لهذا الهدف المرسوم يا عباد الله.

وإن قوى الشر التي تتربص بالأبرياء وتفعل فعلها الذي تذوب له أفئدة الوحوش في أدغالها، هذه القوى ليست متمثلة في شرذمة من الناس أبداً وإنما هي حصيلة الفئات العالمية كلها تلك التي اجتمعت على عداوة الإسلام وتلك التي تضافرت جهودها بدافعٍ من الأحقاد والضغائن للقضاء على هذه الشمس الساطعة التي انتشرت أشعتها في آفاق الدنيا، وما إسرائيل وذيولها من الأتباع الخونة إذا الرمز الأقذر لهذه القوى التي تفعل فعلها اليوم.

هما رمزان اثنان؛ غزة الرمز الأقدس للعالم الإسلامي الذي يُراد القضاء عليه، الرمز الأقدس للإسلام الذي يُراد إطفاء نوره، أما الرمز الأقذر فهو إسرائيل وذيولها من الخونة، إسرائيل هذه رمز لقوى الشر المتضافرة في الجهات الأربع للعالم والتي قررت قرارها وأجمعت على أن تقضي على هذا الإسلام أينما وجد وأن تقضي على خطره وأن تتخلص من الاضطراب الذي تعاني منه من جراء خطر انتشار الإسلام هنا وهناك. عباد الله في الوقت الذي أشرقت شمس عامٍ هجري جديد والأمة الإسلامية تعيش ذكرى هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعيش ذكرى أول دولة إسلامية مسالمة أقامها رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، في فاتحة هذا العام وأمتنا الإسلامية تعيش ذكريات هجرة المصطفى صلى الله عليه وسلم ننظر فماذا نرى؟

نرى أقنعة الإسلام الزائفة وهي تتساقط من وجوه أولئك الذين كانوا، وربما لا يزالون، يتظاهرون بالإسلام، اليوم تتساقط هذه الأقنعة، اليوم أمام هذا الامتحان الرباني، امتحان الدعوة إلى الانتصار للإسلام، إلى الانتصار للقيم، إلى الانتصار للسلم الذي دعا إليه ربنا من خلال بعثة كل الرسل والأنبياء والإسلام يدعوا إلى الانتصار للإخوة المظلومين الذين يُقَتَّلون وتُسْفَكُ دماؤهم صباح مساء، ننظر وإذا بهم ينحازون إلى صفوف العدو الأرعن، ننظر وإذا بأقنعة الإسلام التي كم وكم خُدِعْنَا بها تتساقط من وجوههم، ولكأنهم يقولون إن بلسان القول أو بلسان الحال لمن يدعوهم إلى أن يحققوا العهد الذي

أُقيم في أعناقهم لكأنهم يقولون ومن قال لكم إننا نمثل هذه الأمة التي نتربع على كرسي فوق صدرها، إننا نمثل قوى الشر، إننا نمثل إسرائيل التي هي الرمز الأقذر والأنجس لقوى الشر في العالم كله.

هذه المحنة يا عباد الله لها ظاهر وباطن، لها مظهر جلي ولها باطن خفي، أما الظاهر الجلي فمأساة تتقطع لها القلوب، محنة ما أظن أن تاريخنا الإسلامي بحلوه ومره سجل مثل هذه الظاهرة، الخيانات الكثيرة التي مرت في العالم الإسلامي إن في ربوع غربنا الإسلامي أو في ربوع شرقنا هذا كثيرة ولكنها ما بلغت هذا المبلغ قط، هذا هو الظاهر محنة وبلاء أما الباطن فإنما هو منحة من منح الله عز وجل ليستبين الصادق من الكاذب ولكي تتمزق أقنعة النفاق يا عباد الله.

أما غزة وأهاليها فلا أستطيع أن أرسل إليهم من فوق هذا المكان إلا عزاءً واحداً يتمثل في آيتين في كتاب الله عز وجل أرجو أن يبلغ كل منهما آذان هؤلاء الإخوة الصامدين الصابرين، أما الأولى فقول الله عز وجل: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ، وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤١]، وأما الآية الثانية فهي قول الله عز وجل ولكأنما أنزلت في هذا العصر خطاباً لهؤلاء الإخوة تبريداً للظى قلوبهم: ﴿إِلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠]

لاحظوا أيها الإخوة فرق ما بين هاتين الجملتين لتدركوا المدى البعيد من معنى كل منهما ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى﴾ لم يقل وكلمة الله العليا، لم يسلط عليها الجعل الزماني الخاص بوقت معين وإنما جعلها جملة مستأنفة ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ في كل عهد وفي كل وقت علم ذلك من علم وجهله من جهل.

أما قادة العالم العربي والإسلامي فأقول لهم، ولست أنا القائل ولكنه الإسلام، ولكنه إنذار الله عز وجل أو تبشيره، ولكل أن يسلك أحد السبيلين أقول لهؤلاء: عمر الزمن قصير فما بلك بعمر الإنسان، ولعل الواحد منهم يكمن موته خلف أذنه، ولعله سيصبح غداً ولن يمسي، ترى ما هي الكنوز التي سيرحل

بها إلى الله؟ أين سيحمل كرسيه عندما يرحل إلى الله عز وجل من خلال القبر الذي سيتمدد فيه ثم من خلال الموقف الذي يقف بين يدي مولانا رب العالمين فيه، من ذا الذي يظن منهم أنه سيقف أمام الله جالساً على عرشه متربعاً على كرسيه، لن ترحل إلى الله إلا عارياً من ذلك كله كما قال الله سبحانه وتعالى، لن ترحل إلى الله عز وجل إلا فقيراً من ذلك كله، ويحك تدارك الساعات الباقية من عمرك قبل أن ترحل إلى الله وتجتر الشقاء الذي لا نهاية له، إخوانك الذين يلتجئون إليك ويستنصرون الله عز وجل عن طريقك ينبغي أن تعلم أن النصر إنما هو من عند الله ولكنه ابتلاء يبتلي الله عباده بعباده من أجل أن يثيب هؤلاء بهؤلاء أو أن يعذب هؤلاء بجريمتهم في حق هؤلاء.

يا عجباً لحال إنسان أغمض عينية عن الحقيقة الساطعة، خذ المال ولكن لا تعبده، اجلس على الكرسي الذي أقامك الله فيه ولكن لا تعبد كرسيك صباح مساء، أنت راحل عن هذه الدنيا ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً، لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً، وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً﴾ [مريم: ٩٢-٩٥]، سترحل إلى الله بشيء واحد، بعملك الصالح، بخدمتك لإخوانك، بتحقيقك وتنفيذك لمولاك إذ يقول: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠] ﴿أَصْلِحُوا﴾

يا عجباً لمن يسمع كلام الله ويصك أذنيه ثم يأبى إلا أن يفسد ما بينه وبين أخويه، يستصرخه إخوانه في الله أن يفتحوا السبل أمامهم، أمام مرضاهم، أمام جرحاهم، أمام المحتاجين منهم، ليصافح الأخ أخاه، ليعانق الأخ أخاه، ليعين الأخ أخاه فلا يستجيب هؤلاء القادة إلا بإغلاق الأذن وبإغلاق السبل أما إسرائيل فتأمر لتطاع، تحكم ليُنْغَضَ لها الرأس بذل. هذه المحنة أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل منها عبرة وأسأله سبحانه وتعالى أن يوفقنا لأن نقطف منها العبرة. أما شامنا هذه فأسأل الله سبحانه وتعالى لها مزيداً من الصبر، أسأل الله سبحانه وتعالى لها مزيداً من التوفيق، أن تمد ما أمكن أن تمده من جسور التعاون، من جسور النصر، من جسور الأخوة التي أمرنا الله عز وجل بها وأسأل الله عز وجل أن يجعل دوافعنا جميعاً بلوغ مرضاة الله، استنزال رضى الله سبحانه وتعالى، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم فاستغفروه يغفر لكم.

الحمد لله حمداً كثيراً كما أمر وأشهد أن لا إله إلا الله إقراراً بربوبيته وإرغاماً لمن جحد به وكفر وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وصفيه وخليله، خير نبي أرسله، أرسله الله إلى العالم كله بشيراً ونذيراً.

عباد الله اتقوا الله فيما أمر وانتهوا عما نهى عنه وزجر وأخرجوا حب الدنيا من قلوبكم فإنه إذا استولى أسر. أيها الإخوة ما أظن إلا أن قلوبكم قد فاضت بالمشاعر الحارة المؤلمة، وما أظن إلا أنها تنتظر أن تعبروا عنها بما يثلج صدروكم وبما يخفف لظى هذه الحرقة في أفئدتكم.

لقد أصغيتم إلى الكلمات التي قلتُهَا وآن الآن أن تعبروا أنتم عن مشاعركم المهتاجة التي إن دلت على شيء فإنما تدل على مزيد من الإيمان بالله ومن التعلق بمعنى الأخوة في سبيل الله. بعد أن ننتهي من صلاة الجمعة بوسعكم أن تجتمعوا في صحن هذا المسجد لترفعوا أصواتكم معبرين عن مشاعركم ولتطلقوا زفراتكم ترفعونها إلى عنان السماء، تبعثونها أدعية ضارعة إلى الله عز وجل أن يستجيب، زفرات بوسعكم أن ترفعوها وأن تنشروها في الآفاق لعلها تبلغ آذان القادة الراقدين ربما أيقظتهم زفرة من هذه الزفرات وربما نبهتهم قبل حلول الممات، ربما. اخرجوا بعد صلاة الجمعة إلى ساحة هذا المسجد لتعلنوها صرخةً في صَرَخَات، معنىً في معانٍ، أخوة واحدة تعبرون بها وتعلمونها الذين دأبهم أن يتشرذموا وأن يتفرقوا، وأسأل الله عز وجل أن يجعل منا من يدعو فيستجاب لدعائه. وشيء آخر أريد أن أقوله لكم، هي سنة ماضية علَّمَنَا إياها رسول الله صلى الله عليه وسلم في مثل هذه الحال وفي مثل هذا الكرب الخانق أن ندعوَ بدعاء النازلة عند الاعتدال في الركعة الأخيرة من الصلاة أي عند الاعتدال من الركعة الثانية من صلاة الجمعة الآن هو دعاء النازلة نستجيب فيها لأمر الله سبحانه وتعالى، وكلكم يؤمن ولا شك أن فيكم من سيستجيب الله عز وجل دعاءه.

٣١٠- الهجرة: دروس وعظات | ٢٠٠٩/١٢/١٨

وهكذا تمر بنا مرة أخرى ذكرى هجرة المصطفى صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة يحتضنها عام هجري جديد، تمر بنا هذه الذكرى كعادتها في صمت وتواضع لا تُعَبِّرُ عنها إلا العطلة الرسمية التي تلفت الأنظار وتنبه السادرين وتوقظ الغافلين، ولعله صمت تواضع وخشية ولعله صمت تدبر وتأمل، إذاً تعالوا نستثمر هذا الصمت، نستثمره لاقتطاف العبرة وللوقوف أمام بعضٍ من دروس هجرة المصطفى صلى الله عليه وسلم هذه.

عباد الله دعونا نتساءل أفكانت هجرة النبي عليه الصلاة والسلام اجتواءً من مكان لأنه فضَّل عليه مكاناً آخر؟ معاذ الله، لم يكن فضل مكة أقل من فضل المدينة المنورة عند الله وعند رسوله، إذاً ما الذي دعا المصطفى صلى الله عليه وسلم إلى أن يهجر مكة وهي البلدة ذات القداسة التي لا ريب فيها؟ الذي دعاه إلى أن يهاجر عنها الابتعاد عما يبغض الله، الابتعاد عن رؤية المحرمات التي لم يعد يستطيع القضاء عليها، الذي دعاه إلى الهجرة أن المدينة المنورة تنتظره ليشيد عليها أول دولة من دول الإسلام، ليشيد عليها المجتمع الإسلامي الذي يحتضن ويتبنى مبادئ الإسلام وشرائعه والذي يَبْتَعِدُ ويُبْعِدُ سائر ما حرمه الله سبحانه وتعالى عن تلك الأرض.

إذاً هجرة المصطفى صلى الله عليه وسلم لم تكن اجتواءً لمكان لأنه فضل مكاناً آخر عليه ولكن هجرته كانت إلى تلك الأرض التي يتسنى له فيها أن يطبق مبادئ الإسلام وأن ينفذ شرائع الله عز وجل وأن يطهرها من الموبقات والمحرمات، وإذا كان الأمر كذلك فالهجرة بهذا المعنى باقية إلى يوم القيامة لأنه مبدأ نطق به المصطفى صلى الله عليه وسلم بسلوكه قبل أن ينطق به بلسانه أن الأرض التي يجد المسلم نفسه فيها غريباً لا يستطيع أن ينفذ فيها أوامر الله ولا يستطيع فيها أن يتقي رشاش المعاصي التي قد تصيبه من هنا أو هناك.

إذاً ينبغي بل يجب عليه أن يدع تلك الأرض ويهاجر منها كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يبتغي أرضاً أخرى يستطيع فيها أن يؤدي رسالة الله، يستطيع فيها أن يبتعد عما حرَّمَ الله سبحانه وتعالى،

هذا الذي فعله المصطفى هو ذاته الذي ينطق به بيان الله القائل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً، إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً﴾ [النساء: ٩٧-٩٨].

والآن ونحن نمر بهذه الذكرى أو قل إن هذه الذكرى العزيزة تمر بنا كما قلت لكم في خشوعٍ وهدوءٍ وتواضعٍ وصمتٍ أين هم الذين يقطفون منها ثمار العبرة؟ أين هم المسلمون الذين يقطفون من هذه الذكرى الدروس والعظات التي نطق بها رسول الله بسلوكه والتي بيَّنَها بيان الله عز وجل بأبلغ بيان؟ كثيرون هم المسلمون الذين طاب لهم المقام في مجتمعات الإسلام فيها غريب بل الإسلام فيها محكومٌ وليس حاكماً يقول أحدهم إن بلسان حاله أو بلسان مقاله إن تطبيق الإسلام الذي أمر الله عز وجل به لا يتأتَّى مع العيش الذي ينبغي أن نوفره لأنفسنا، العيش المترف، العيش الباذخ، إذاً فلنغمض العين عن كثير مما أمر الله به مما لا يتأتَّى لنا تنفيذه في هذا المكان الغريب، إن المجتمع ليس مجتمعاً إسلامياً وإن التيارات الحاكمة فيه ليست تيارات مهتدية بهدي الإسلام.

إذاً فلنغمض العين ولنصدر الفتوى التي تنطق بأن الربا لم يعد محرماً ذلك لأن الضرورة تقتضي ذلك، وما الضرورة؟ الضرورة هي البقاء مع العيش الباذخ، الضرورة هي التقلب بنعيم ورغدٍ من العيش، هذه هي الضرورة، إن النظام الإسلامي للأسرة لا يتأتَّى تطبيقه هناك ولابد من البقاء إذاً فلنغمض العين عن كثيرٍ مما شرع الله عز وجل من أحكامٍ تتعلق بالأسرة ولنصدر الفتوى المؤكدة بأنه لا حرج من أن تتزوج الفتاة المسلمة من رجل غير مسلم مخالفين لنص كتاب الله سبحانه وتعالى، ويقول قائلهم إننا نعيش في مجتمع الإسلام فيه غريب ولا يتأتَّى لنا أن ننفذ ما قد أمر الله مما نقرؤه في محكم تبيانه أو مما نردده على لسان نبيه محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم إذاً فلا حرج من أن نحتك بالمحرمات ونجالس العصاة ونجلس مع المعاصي، لا حرج من أن نرى المعاصي في المجالس ولا حرج من أن نرى محرمات الله عز وجل تُنْتَهَك لأننا نعيش في مجتمع لا يعرف معنى للإيمان ولا للإسلام والضرورة تقتضينا البقاء.

ما هي الضرورة؟ الضرورة كما قلت لكم أن الواحد منهم لا يتأتَّى منه أن يترك عيشه الباذخ، لا يتأتَّى منه أن يترك نعيمه الذي يتقلب فيه، لقد تعود على ذلك ولابد أن يبقى وأن يستمرئ هذه الحياة التي اعتاد عليها.

رسول الله صلى الله عليه وسلم يستجيب لأمر ربه فيهاجر الأرض التي أحبها، يهجرها، الأرض المقدسة التي لا تقل قداسةً عن المدينة المنورة لأنه يريد أن يهجر المعاصي، يريد أن يهجر المحرمات، بل لأن عليه أن يبتعد عن رؤية المحرم الذي لا يستطيع إنكاره ولا يستطيع القضاء عليه، هكذا يفعل رسول الله وهكذا يوصينا وهكذا يعلمنا بل هكذا يأمرنا كتاب الله عز وجل وفي المسلمين كثرة كاثرة تعرض عن هذا الذي فعله رسول الله وتتناسى في يوم ذكراه، يوم هجرته هذا المعنى الذي أقوله لكم، تُصَنَّعُ الفتاوى تلو الفتاوى تلوى الفتاوى حسب الطلب، حسب ما تقتضيه الظروف.

وشيءٌ آخر يا عباد الله، كثيرون هم الذين يقيمون في تلك المجتمعات يخدمون إن باختصاصاتهم العلمية وإن بأعمالهم الوظيفية المختلفة يخدمون أولئك الذين يخططون للقضاء على حضارتنا، يخططون للقضاء على حقوقنا، يخططون لترسيخ أقدام الصهيونية العاتية وربيبتها إسرائيل في بلادنا ومع ذلك فإن حسهم الديني لا يدعوهم إلى أن يتركوا ذلك المكان وأن يوفروا علومهم لبلدهم وأن يوفروا اختصاصاتهم لمجتمعاتهم الإسلامية، ذهبوا إلى هناك ليتعلموا، تعلموا وتخصصوا ثم إن المقام طاب لهم هناك لأن العيش هنالك رغيد ولأن المال الوفير وفير بل أكثر من وفير والنفس تتعشق ذلك كله ولذلك طاب لهم أن يعرضوا عن نداء رسول الله بل طاب لهم أن يعرضوا عن أمر الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [النساء: ٩٧].

والعجب أيها الإخوة أنني رأيت في هؤلاء الناس من يقرأ آيةً في كتاب الله عز وجل ثم إنه يستنكر أنه لا يجد مصداقها، الآية التي تلاها هي قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦]، قال قائلهم ها هم ينفقون أموالهم ثم إنهم يَغْلِبُون ولا يُغْلَبُون، وأقول في الجواب: اقرأ الآية التي تليها مباشرة فإن فيها الجواب عن سؤالك يا هذا ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ﴾ [الأنفال: ٣٧]، ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [الأنفال:٣٧]، أرني الطيب وكيف يتميز من

الخبيث لأريك كيف يتغلب الطيب على الخبيث ولكن عندما أنظر فأجد أن الخبيث قد امتزج بالطيب بل تمازجا حتى إنك لا تستطيع أن تستبين فرقاً بينهما فليس لك أن تعترض على بيان الله قط، هذه عبرة من العبر بل هو درس من الدروس التي ينبغي أن نقف عندها وأن تتشبع عقولنا منها ثم نطبقها في حياتنا.

فهل عسيتم يا عباد الله أن تجددوا اليوم البيعة مع مولانا وخالقنا، أن نكون على قدم المصطفى صلى الله عليه وسلم فيما فعل، الضرورة! الضرورة هناك وليست الضرورة متمثلة في حياة من يستمرئون العيش الرغيد في المجتمعات الغربية، الضرورة تتمثل في أولئك الذين تركوا بيوتهم، تركوا بلغة عيشهم بل فيهم من ترك زوجته، من ترك ضروريات عيشه ليلحق بحبيبه المصطفى، ليوجَدَ فوق أرض يستطيع أن يتنفس فيها الصعداء معبراً عن استجابته لأمر الله عز وجل، هكذا يكون المسلمون الصادقون، وعندما نعيد سيرة ذلك الرعيل الأول بسلوكنا فلسوف نجد مصداق قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ [لأنفال: ٣٦]

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.


عاشوراء

٣١١- سر فضيلة يوم عاشوراء؟ | ١٩٩٢/٠٧/١٠

أحب أن أجعل موضوع حديثي اليوم نقطتين اثنتين لا أزيد عليهما إن شاء الله.

أما النقطة الأولى: فحديث وجيز عن عاشوراء وعن أصل هذه المناسبة وسرّ فضيلة هذا اليوم، فلقد صح أن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لما هاجر من مكة إلى المدنية سمع أن اليهود يصومون يوم عاشوراء اليوم العاشر من محرم، وأرسل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم من يسأل لماذا يصومون هذا اليوم، فكان الجواب أن الله سبحانه وتعالى أنجى في هذا اليوم موسى من فرعون. فقال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: نحن أحق بموسى منهم، ولما كان يوم عاشوراء أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم من ينادي في الناس أنه من كان صائماً فليتم صومه، ومن كان مفطر فليمسك بقية هذا اليوم، وأصبح صوم يوم عاشوراء منذ ذلك الحين واجباً فرضاً، واستمر الأمر على كذلك حتى أنزل الله سبحانه في كتابه فريضة صوم رمضان، عندئذ نُسخ صوم يوم عاشوراء بصوم شهر رمضان المبارك، واستقر صوم عاشوراء سنّة مندوبة ندب إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ينبغي إذا مرّ هذا اليوم المبارك أن نعلم المناسبة وأن نعلم صلة هذا اليوم بهذا الذي ذكرته لكم، فإذا وقع في هذا اليوم أمر مؤلمٌ للمسلمين، وعرض عارض بعد ذلك كمقتل سيدنا الحسين رضي الله عنه في هذا اليوم، فلا ينبغي أن ينسينا هذا الحادث المناسبة الأصلية لهذا اليوم ما ينبغي أن تكون هذه الحادثة على ضخامتها وعلى شدة وقعها على نفوس المؤمنين جميعاً ما ينبغي أن تخنق أصل قيمة هذا اليوم، بل ينبغي أن نبقى مشدودين إلى هذا الذي ذكرته لكم، فإذا احتفلنا بهذا اليوم صائمين داعين مهللين ذاكرين فينبغي أن سرّ هذا الاحتفال هذا الذي قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم. أما ما حدث بعد ذلك من أمور مؤلمة أخرى فهي مؤلمة حقاً، ومشاعر المسلمين في ذلك واحدة لا تتجزأ، لكن ما ينبغي أن نأخذ هذه المناسبة من مهيعها وأساسها ونلصقها بحادثة جاءت عرضاً. هذه هي المسألة الأولى التي أحببت أن ألفت النظر إليها.

أما المسألة الثانية فهي مناسبة يجدر أن نتنبهه إليها في أوائل كل صيف عندما تغلق المدارس أبوابها، وتنتهي أنشطة الطلاب والطالبات المتجهة إلى دراساتهم ودراستهم، عندما يقبل الشباب إلى ساحة من الفراغ رهيبة في هذه الأشهر من القيظ، يتفتح بابان اثنان أمام هؤلاء الشباب.

الباب الأول عليه شياطين من الإنس والجن يدعون هؤلاء الفتية ذكوراً وإناثاً إلى الولوج في هذا الباب، فإذا ولجوا وولجن رأوا داخل هذا الباب من الأمور ومن الأسباب التي تتخطف الإنسان من ساحة الرشد وتزج به في إلى أودية الضلال والضياع، رأى هؤلاء الفتيان أنواعاً لا تحصر من هذه الأمور التي تفنن فيها شياطين الإنس والجن، وإلى جانب هذا الباب بابٌ آخر في الطرف الثاني.

هذا الباب الثاني عليه أناسٌ يغارون على دين الله عز وجل ويغارون على حرمات الله سبحانه وتعالى يدعون هؤلاء الفتية إلى أن يملؤوا فراغ هذه الأشهر بما يرضي الله سبحانه وتعالى، بما يزيدهم رشداً بما يزيدهم ثقافة وعلماً، بما يحصّنهم من خطاطيف الضلالة والبغي المتمثلة كما قلت لكم بشياطين الإنس والجن، هذان البابان يتفتحان في مثل هذه الأيام من كل عام، والشيء الذي ينبغي أن نقوله وأن نتناصح على أساسه، هو أن على الآباء جميعاً أن يوجهوا أبنائهم في هذه الأشهر إلى ما يرضي الله سبحانه وتعالى، ينبغي أن يوجهوهم إلى الساحة التي تزيدهم ثقافةً وعلماً، وتزيدهم حباً من الله سبحانه وتعالى ومخافةً من الله، وتزيدهم شعوراً بهوياتهم وإنسانيتهم ونتيجة السلوك في هذا الطريق أن الواحد منهم يرجع بخير الدنيا والآخرة يرجع بربح في الدنيا عاجل وبربح آخر من مرضاة الله عز وجل آجل. والسبل إلى ذلك ميسرة ومفتحة في مجتمعنا ولله الحمد، ولكن الأمر يحتاج إلى من يبحث وإلى من يغار، من يغار على أهله وأولاده ويحافظ عليهم من القوارص، ومن هؤلاء الخطاطيف الذين أحدثكم عنهم.

ولا شك أنه بمقدار ما ينشط جند الله سبحانه وتعالى في هذه الأيام لحماية الجيل من كل سوء وانحراف، فإن هنالك فئات أخرى تنشط هي الأخرى نشاطها. ذلك لأن بينها وبين شياطين الإنس بل بين أعداء الله عز وجل عهوداً ومواثيق خفية أو معلنة. فما الموقف الذي ينبغي أن يتخذه كل أبٍ ناصح؟

الموقف هو هذا الذي أقوله لكم، وإذا عزت السبل أمام الشباب في أشهر البطالة هذه فما أيسر لهؤلاء الشباب أن يتخذوا من بيوت الله عز وجل مثابة لقاء بل تلاقٍ ومثابة درس بل تدارس. فكيف

وإن هنالك سبل كثيرة أخرى تنسي هؤلاء الشباب أوقات فراغهم وتجعلهم إن هم استجابوا لأمر الله عز وجل سعداء في دنياهم وآخرتهم. ولكن يظل الإنسان رغم هذا كله مشدوداً إلى عاملين اثنين.

العامل الأول هو اللامبالاة وذلك هو العامل الذي يتمثل بحياة الآباء والأمهات، اللامبالاة وعدم الاهتمام بالواقع أو المنهاج الذي سيتخذه أولادهم في هذه الأيام أو هذه الأشهر، ولا يمكن لإنسان أن يحتضن هذه اللامبالاة وأن يتعامل مع أولاده على أساسها إلا إذا كان محجوباً عن ربه وخالقه سبحانه وتعالى، وسيان بعد ذلك أن يكون من المصلين أو أن يكون من غير المصلين.

العامل الثاني هو العامل الغريزي الذي يستثير كل إنسان منا وهذا العامل الغريزي يمثل الورقة الرابحة الأولى والأخيرة التي يلعب بها أعداء الله سبحانه وتعالى، المتربصون بأولادنا والمتربصون بشبابنا. ولقد علمت أيها الإخوة وتبين لكم جميعاً أن الإنسان الذي يستجيب إجابة كيفية لغرائزه لابد أن يضيع لا بد أن بين ماضغي الشقاء، وهذه حقيقة لا إشكال فيها ولا ريب فيها ولقد رأينا كثيرين من الشباب استجابوا لغرائزهم في بادئ الأمر عن طريق استجابةٍ جزئية لبرامج ومناهج تعقد عادة خلال الصيف بعد أن تغلق المدارس أبوابها. فماذا كانت العاقبة؟

جرتهم الخطوة الأولى إلى خطوات وجرتهم الخطوات الأولى إلى إنزلاق في أودية، ولما انزلقوا في تلك الأودية، لم يعودوا يستطيعون أن يملكوا لا رشدهم الدنيوي، ولا يستطيعون أن يلتفتوا عائدين إلى صراط الله الذي كانوا يتمسكون به، ووقعوا هكذا بين ماضغي الشقاء كما قلت لكم، الشقاء الدنيوي الأول والشقاء الأخروي ثانياً.

وما أعجب وأغرب كلام الأب أو الآباء الذين يلجؤون لمثلي عندما يقعون في ضيق أو عندما يقع أولادهم في مضايق ويسأل الواحد منهم واحدٍ مثلي: ماذا أعمل وكيف أصنع؟

وكأن مفتاح حل هذه المشكلات إنما هو بيد إنسان مثلي فقط، دون أن يتبين هذا الإنسان أنه مسؤول قبلي عن أولاده، ودون أن يذكر كلام سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته﴾ ما معنى أن يسألني سائل عن حكم ابنته عندما تُزج في معسكر، وتجبر على أن

تعصي الله بحجابها ما معنى هذا السؤال اسأل ربك. ولا تسأل عبداً مثلي.. ولقد سألت ربك عندما قرأت كتابه، وسمعت تنزيله، وتبين لك قراره !!

إذاً أنت الحكم العدل في هذه القضية، وأنت الذي تستطيع أن تبرم، فإما أن تستجيب لأمر الله عز وجل، وإما أن تستجيب لأمر غير الله عز وجل أنت الذي يمكنك أن تحل مشكلتك لأنك مسلمٌ مثلي، تعلم دين الله عز وجل كما أعلم، وعندما تواكل المسلمين في نطاق المسؤوليات التي وزّعها الله عز وجل عليهم، وعندما التجأ أناسٌ فأسندوا ظهورهم إلى جدران اللامبالاة واللامسؤولية، ثم ألقوا التبعات كلها على فئات من أمثالي. يوم فعل المسلمون هذا وكلهم الله إلى أنفسهم، وجعلهم يتيهون في دائرة مفرغة، وكأنهم كأنهم لا يعرفون كيف يخرجون من هذه الدائرة المفرغة، وهم يستطيعون أن يخرجوا لو شاؤوا.

وقد قلت مرة أن الله عز وجل لم يقل لا في توراة ولا في إنجيل ولا زبورٍ ولا فرقان إن الله عز وجل أعطى صلاحيةً لبعض عباده أن يحملوا عباده الآخرين على أكتافهم ويدخلوهم الجنة، أبداً لم يعطي الله عز وجل هذه الصلاحية لبعض عباده أن يفعلوا بالآخرين هذا. بل قال في محكم كتابه: ﴿كُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً * اقْرَأْ كَتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾ الإسراء

لن تقرأ يوم القيامة كتابي ولن أقرأ كتابك ولن تتحمل من ذلك وزراً ارتكبته ولن أتحمل وزراً أنت الذي ارتكبته

كل ما في الأمر أن علي أن أقف مثل هذا الموقف، فأقول لك مثل هذا الكلام. تلك هي المسألة الثانية وأسأل الله عز وجل أن يلهمنا الرشد وأن يغرس في أفئدتنا خوفه، وحبه والإخلاص لوجه أقول قولي هذا واستغفر الله.

٣١٢- ليس الدواء بالبكاء بل أن أحيل الهدم إلى بناء | ١٩٩٤/٠٦/١٧

حدثتكم في الأسبوع الماضي عن بداءة العام الهجري الجديد وما ينبغي أن نتمثله في هذه البداءة من معانٍ ودروسٍ وعِبر. واليوم أحدثكم عن شيء آخر يتعلق أيضا بالعام الهجري الجديد أو يتعلق بأول شهرٍ من هذا العام الهجري الجديد، فأنتم في اليوم التاسع أو الثامن من شهر محرم الحرام.

وقد صح عن المصطفى عليه الصلاة والسلام أنه لَمّا هاجر إلى المدينة المنورة واستقر بها، سمع أن اليهود يصومون اليوم العاشر من شهر محرم. فسأل المصطفى عليه الصلاة والسلام عن السبب؟ فقيل له: إنه اليوم الذي أنجى الله فيه موسى وأصحابه من فرعون. فقال عليه الصلاة والسلام: ﴿نحن أحق بموسى منهم﴾ وأمر عليه الصلاة والسلام منادياً أن ينادي بين الناس أن من كان صائماً فليتم صومه، ومن لم يكن صائماً في هذا اليوم فليمسك عن الطعام بقية يومه. وهكذا فإن صوم يوم عاشوراء – أي اليوم العاشر من شهر المحرم – كان واجباً في صدر الإسلام، واستمر واجباً ردحاً من الزمن، حتى إذا شرع الله سبحانه وتعالى صيام رمضان، نسخ وجوب صوم رمضان وجوب صوم عاشوراء، وتحول صوم يوم عاشوراء إلى عمل مندوب، واستمر الحال على ذلك إلى يوم القيامة، فصوم اليوم العاشر من شهر المحرم أمرٌ مندوب بل قد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: ﴿لأن عشت لقابل لأصومن تاسوعاء أيضاً﴾، أي لأتبعن به صوم اليوم التاسع من شهر محرم.

تلك هي فضيلة ذلك اليوم فيما نعلم، وفيما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتلك هي المناسبة التي اقتضت أمر المصطفى عليه الصلاة والسلام الناس أن يصوموا يوم العاشر من محرم سواءٌ كان فرضاً كما كانت عليه الحال في بدءِ الإسلام، أو استقر سنةً كما آل إليه الأمر فيما بعد. ولا نعلم أن هنالك سبباً آخر لفضيلة هذا اليوم إلا هذا الذي صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونحن مُتبعون ولسنا مبتدعين، نتبع المصطفى عليه الصلاة والسلام في أفعاله، ونتبعه أيضاً في أقواله ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً، أما التزيدات التي قد يمكن أن تلحق إلحاقاً بالدين وما هي منه، فلسنا من ذلك في شيءٍ قط.

هنالك من قد يربط يوم عاشوراء بمآسٍ وقعت في تاريخ المسلمين، وهي مآسٍ فعلاً، وكلنا نعلم أنها مآسٍ وكلنا نجزع لها، فهنالك من قد يربط بين يوم عاشوراء وبين اليوم الذي قتل فيه الحسين رضي الله تعالى عنه، هذه الرابطة رابطةٌ تاريخية لا تُنكر، والأسى الذي ينبغي أن يفيض به قلب كل مسلم لمقتل الحسين حقيقة لا تنكر، ومن لم يستشعر قلبه هذا الأسى ربما كان ذلك دليلاً على ضعفٍ في يقينه بالله وحبه لرسول الله صلى الله عليه وسلم وآل بيته، ولكن ينبغي أن نعلم أيها الأخوة أنه ما من يومٍ من أيام السنة إلا وهو مغروس بمصائب تاريخية في حياة المسلمين، فلو أردنا أن نحصي هذه الأيام عدا ولو أردنا أن نربط هذه الأيام بالمصائب التي حاقت بأساطين المسلمين وبرجالٍ عظماء من الرعيل الأول، لرأينا أن على المسلمين أن يقيموا في كل يوم حداداً.

فإن اليوم الذي قُتل فيه الحسين يوم مصيبة، إن اليوم الذي قُتل فيه الحسن بالسم يوم مصيبة، وإن اليوم الذي قُتل فيه سيدنا علي رضي الله عنه يوم مصيبة، وإن اليوم الذي قُتل فيه عثمان رضي الله عنه يوم مصيبة، وإن اليوم الذي قُتل فيه عمر يوم مصيبة، وإن اليوم الذي تُوفي فيه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم مصيبة؛ وأي مصيبة. ولو أردنا أن نحصي ولو أردنا أن نتحدث عن المصائب التي حاقت بالمسلمين والضحايا الذين تساقطوا في سبيل دين الله عز وجل، لرأينا شيئاً لا يُحصى، ولرأينا أيام السنة كلها مغموسة بدماء هؤلاء الضحايا.

أأُحدثكم عن يوم الرجيع؟ أم أُحدثكم عن يوم بئر معونة؟ أم أُحدثكم عن يوم شهداء الحرة؟ عن من أحدثكم؟ ولكن ما هو الواجب الذي ينبغي أن يفعله المؤمن عندما يريد أن يتفاعل مع أشجانه ومع أحزانه للمصائب التاريخية التي حاقت بالمسلمين؟ ماذا ينبغي أن يصنع العاقل عندما يرى أن يد البغي قد امتدت فأتلفت وأفسدت وهدمت وفعلت ما يمكن أن يتقطر له قلب المؤمن أساً وألماً؟ ماذا يقول عقل العاقل؟

يقول ما يقوله ذلك العربي في الجاهلية – وأنا لا أستشهد بكلامه بتحريم حلال أو لإباحة محرم، ولكني أستشهد بكلامه في اللجوء إلى العقل وتدبيره. يوم قال امرؤ القيس: (اليوم خمرٌ وغداً أمر)، أي إن إذا أردت أن أعلن عن حدادي وحزني وجزعي لقريب قد تخطفته يد المنون بواسطة عدوان مبيّت، فليس البكاء هو الدواء، وليس هو النحيب أو الجزع هو الدواء الناجع، وإنما الدواء الناجع أن أخطط،

وأن أحيل الهدم إلى بناء، وأن أحول الفساد إلى إصلاح، عندئذٍ أكون قد شفيت غليلي. هذا ما يقوله المنطق – بقطع النظر عن هذه الكلمة وطابعها الجاهلي.

ما هو العلاج الذي ينبغي أن يعالج به الإنسان المسلم مصائب تاريخ المسلمين؟ وهي لسوء الحظ مصائب ممتدة إلى يومنا هذا. هل العلاج أن نثور بالنحيب والعويل؟ هل العلاج أن نصيح الصيحات المتتابعة إلى يوم الدين؟ هل العلاج أن نفعل بأنفسنا ما يمكن أن يكون سبباً لشماتة الشامتين، ولمزيدٍ من فرح أعداء الدين؟ أعتقد أن كل عاقل يعلم الجواب عن سؤالي هذا.

العلاج: هو أن ننظر نحن المسلمين إلى أولئك الذين فعلوا هذه الأفاعيل بذلك الرعيل الأول، لا كراهية منهم لأولئك الأشخاص، وإنما كراهية منهم لهذا الدين العظيم الذي ابتعث الله به الرسل والأنبياء جميعاً. العلاج: هو أن نكون خير سندٍ لهذا الدين. العلاج: هو أن نصلح ما حاول أولئك الناس أن يفسدوه وما يحاولون اليوم أن يفسدوه. العلاج: هو أن نعود إلى حال هذه الأمة التي تشرذمت وتفرقت وتدابرت فئاتها حتى أصبحت مضرب المثل للتدابر فنعيدها إلى وحدتها السالفة، ونعيدها إلى حصن عزها الدابر، نعيدها إلى أمسها العظيم الذي أكرمها الله سبحانه وتعالى به. هذا هو العلاج، هذا هو الشيء الذي يفتت أكباد أولئك الأعداء، وهم مستمرون وسلسلة عدوانهم مستمرة.

ترى لو أن عدواً أقبل إلى داري فحطمها وحولها إلى أنقاض، وأخذ يشفي غليله بالنظر إلي وقد أصبحت في العراء. ترى ماذا عسى أن يضره أن يجدني وأنا أنوح وأنا أبكي وأنتحب بين أنقاض تلك الدار؟ سيزداد فرحاً، ولسوف يزداد شماتةً بي، ولكن الشيء الذي يُقِضُ مضجعه؛ الشيء الذي يحيل سروره إلى أسىً وجزع هو أن أقوم صامتاً فأخطط لإعادة بناء الدار، وأجمع لذلك أعواني وأرحامي وأقاربي لأمد إليهم يد التعاون، ويمدوا إلي يد التعاون ثم نبذل كل جهدٍ عضليٍ وماديٍ وفكريٍ متعاونين متحدين لنعود خلال أيامٍ فنعيد هذه الدار إلى أحسن مما كانت. هذا هو الشيء الذي يؤلم ذلك العدو، وهو الشيء الذي يجعله يتصاغر في نفسه ويدرك أن كيده قد عاد إليه.

ولكن أيها الأخوة تعالوا فانظروا إلى واقع المسلمين اليوم، لا يكفي أن نَعُدَّ المصائب التاريخية التي حاقت بهم، فإن شراً من هذه المصائب كلها المصيبة التي يتقلبون في حمأتها، المصيبة الكبرى أنهم يتقلبون

في حمأة هذه المصيبة وكأنهم ينتشون بهذا التقلُّب، المصيبة الكبرى أنهم يركنون إلى قاع هذه الأنقاض وكأنهم يستريحون إلى ذلك، ويجدون في أنفسهم الراحة – كل الراحة – ولا تجد من يقوم فينادي ويدعو هؤلاء الناس أن قوموا فعالجوا مصيبتكم بعمل، عالجوا مصيبتكم بإصلاح. أفسد العدو حياتكم فأصلحوها، هدّمَ العدو داركم عودوا فابتنوها، أساء العدو إليكم فأذلكم عودوا فاجمعوا نسيج عزكم.

المصيبة الكبرى أن العالم الإسلامي يرى مصائبه وهو يجترها بلَذّة، أليس كذلك أيها الناس؟ ماذا عسى أن يفيدني أن أنوح لمقتل أي واحد من أبطال هذه الأمة، وكلٌ منهم فلذة كبدٍ في حياة المسلمين؟ ماذا يفيدنا أن نستبدل بالعمل نواحاً. أليس هذا العمل الذي يقوم به المغفلون! أليس هذا مبعث آخر للسرور الذي يندلق إلى أفئدة الأعداء! وكم وكم قرأت كلماتٍ تنم عن فرح ما مثله فرح، وعن مرحٍ ما مثله مرح، وعن شماتةٍ ما مثلها شماتة، كتبها أعداءٌ لنا يعيشون هذا اليوم وهم يُصورون حالة هذه الأمة التي آلت إلى غفلة منقطعة النظير. مغفلون يعيشون مع مصائبهم التاريخية يجترونها دون أن يتخذوا من أوقاتهم وفراغهم مثابةً لإعادة بناء، مثابةً لإصلاح حال، مثابةً لفكر وتدبر.

ونحن أيها الأخوة لو كنا نعيش مع ظلمات تلك المصائب الماضية ونحن مُبَرّؤون اليوم من مصائب جديدة، لربما لربما كان الخطب هيناً ليناً، ولكن مصائبنا التي تحيق بنا اليوم شرٌ من كل تلك المصائب التي استدبرناها بالأمس، مصائب الأمس ضحايا، وما أكثر ما تكون الضحايا درجات في سلم الصعود إلى العزة هكذا أعلن الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾

هذه مصيبة بسيطة ومبررة وهذا بيان الله عز وجل يوضح ذلك، ولكن مصيبة المصائب أن تتأملوا فتجدوا أن دول البغي كلها تحيط بكم، وأن أيدي المكر كلها تتصافح للكيد ضدكم، وأن كل الوسائل الفكرية والمادية والغريزية بكل أنواعها المتطورة تتجمع لتكون أسلحةً فتّاكة ضد هذه الأمة، ضد بقايا إسلامها، هذه المصائب التي تَجّدُ يوماً بعد يوم، هذا البغي الذي يحيط بنا: هي المصيبة التي ينبغي أن تشغل بالنا. هي المصيبة التي ينبغي أن تجمع أمرنا من شتات، فأين هم الذين يجزعون على شهداء الأمس يتقطعون ألماً من مصائب اليوم؟ الذين يجزعون من أجل دين الله عز وجل على شهداء الأمس ينبغي أن

يعلنوا الدليل على ذلك من آلامهم المبَرِّحة اتجاه مصائب اليوم، وعندئذٍ فلا بد أن تُنهِضهم الآلام إلى عمل، لابد أن تنهضهم الآلام إلى اتحاد، إلى جمع شمل.

وهل أنا بحاجة أيها الأخوة أن أضعكم أمام الدليل — لا الأدلة الكثيرة – على أنكم مستهدفون العالم الإسلامي مستهدف، لا سيما العالم العربي منه والعالم العربي مستهدف، لا سيما هذا القطر الإسلامي بصورة خاصة، علم ذلك من علم و جهل ذلك من جهل.

إن الذين يتبرمون بالطمأنينة وبالهدوء يتصورون أن هذه الطمأنينة حبلى وستلد إسلاماً واعياً عما قريب، الإسلام كان ولا يزال صنو هذه البلدة، كان ولا يزال الظل الملازم لهذه الأمة في هذه الأرض المقَدسة. هنالك من يتبرم بالأمن بالطمأنينة بالتوجه الإسلامي الهادئ الهادف الواعي المتسامي على الغرائز، المتسامي على التدابر، المتسامي على الشِقاق، هنالك من يضيق ذرعاً بهذا ويُخطط لهذا، وهنالك من يسرب الأيدي تلو الأيدي مقنعة وغير مُقنّعة للإفساد، لإفساد النفوس لإفساد الضمائر لإفساد العقول للإيقاع بين الفئات... كل هذا موجود. والأدلة على ذلك قائمة. ولكن ما المراد من هذا؟

المراد من هذا أن ندع ماضينا لله، وأن نعلم أن محكمةً ستعقد عما قريب وأن ديّان السموات والأرض هو حاكمها، فلندع الماضي لرب الماضي والحاضر والمستقبل، وللنظر إلى ما كلّفنا الله سبحانه وتعالى بالنظر فيه: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لكن تعالوا فانظروا إلى المآسي التي تعانون منها، تعالوا فانظروا إلى تلك الأمم التي أحاطت بكم كإحاطة السوار بالمعصم، لا بل ليس هنالك تشبيهٌ أبلغ من تشبيه رسول الله صلى الله عليه وسلم كإحاطة الآكلين بالمائدة ﴿ستداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها﴾ هذه هي المصيبة.. دعوا الماضي لرب الماضي، فإن كنتم أقوياء وإن كنتم فعلاً تستشعرون الأسى، وتغارون على الحق وتتألمون من الظلم، فهذا هو الظلم الذي ينبغي أن تتألموا منه.

هنالك أمم أحاطت بنا، وكل فئةٍ من هذه الأمة تحاول أن تجعل منا لقمة سائغة لها، وما أعظم هذا الكلام الذي يقوله سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ففَكروا أيها الأخوة وقَدروا، واجمعوا أمركم من شتات، وابنوا هذه الأمة من جديد على النهج الذي رسمه الله عز وجل، واعلموا أن دائنا كامنٌ في نفوسنا

وليس داءنا الذي يترائى من حولنا، وبالأمس شرحت ولسوف أظل اشرح قول الله عز وجل: ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يُغيروا ما بأنفسهم﴾. أقول قولي هذا وأستغفر الله.





المولد النبوي

٣١٢- أحبوني لحب الله إياي | ٢٠٠٨/٠٣/١٤

في فصل الربيع من كل عام تنتشي النفس الإنسانية لعودة الخضرة يانعة زاهية كُسِيَتْ بها الأشجار من جديد، وتنتشي لعبق الورود والزهور والرياحين تنبعث في الآفاق من جديد، تلك هي الطبيعة الإنسانية التي لا شذوذ فيها، وفي شهر ربيع الأنور تنتشي الأرواح وتنتشي القلوب لعودة الذكرى، لعودة ذكرى مولد حبيبنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وتهتاج بين الجوانح مشاعر الشوق إليه ومشاعر الحنين إلى رؤيته، وتهتاج المشاعر نشوةً بسبب حواجز القرون التي امتدت بيننا وبينه فحيل بيننا وبين أن تكتحل عيوننا بمرآه، هذه مشاعر إنسانية لا مرد لها ولا مجال للنقاش فيها، ولعلكم تعلمون يا عباد الله أن الإيمان بالله سبحانه وتعالى يتوقف على ركنين اثنين لا غنى عنهما، أما الركن الأول فهو اليقين العقلاني بالله عز وجل ورسله وكتبه واليوم الآخر وأما الركن الثاني فهي المحبة إذ تهيمن على الفؤاد لله عز وجل أولاً ومن ثم لرسوله المصطفى صلى الله عليه وسلم ثانياً، أما الدليل على محبة الله عز وجل وأنها أحد الركنين اللذين لا غنى عنهما فقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ﴾.

وأما حب المصطفى صلى الله عليه وسلم فدليل ذلك قول رسول صلى الله عليه وسلم فيما رواه الترمذي والحاكم على شرط الشيخين من حديث عبد الله بن عباس ﴿أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه وأحبوني لحب الله إياي﴾، وإنما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الكلام تبليغاً لأمرٍ حمَّله الله عز وجل إياه ولم يقله إعجاباً بنفسه واستكباراً، حاشى لله ذلك، هذه المحبة يا عباد الله لابد أن تستثير بين الجوانح مشاعر الذكرى كلما اهتاجت عواملها أمام المشاعر الإنسانية، وعوامل الذكرى ليست محصورة في ذكرى ولادة رسول الله بل ما أكثر المنبهات والمذكرات التي تشد العاطفة الإنسانية المؤمنة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحنين والحب.

قالوا إن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكونوا يحتفون بذكراه بعد وفاته، قال في الناس قائل هذا الكلام، من ذا الذي قال ذلك؟ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا أشد الناس

انجذاباً إلى ذكراه بعد وفاته، ما منهم من واحد مرَّ على شجرة عَلِمَ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نام في ظلها أو صلى ركعتين عندها إلا واستبد به الحنين إلى رسول الله لمرأى هذه الشجرة ولربما تمدد فنام في المكان الذي نام فيه رسول الله ولربما وقف فصلى في المكان الذي صلى فيه رسول الله، وما من واحد وقف على مكانٍ وقف عنده رسول الله ذاهباً إلى غزوٍ أو آيباً من غزو إلا وهيَّجَ ذلك المكان ذكرى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين جوانحه، بل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو سيد من ألهبت بين جوانحه مشاعر الذكريات المقدسة، ألا تعلمون أنه صلى الله عليه وسلم عندما قفل عائداً من غزوة تبوك ولاحت أمامه طيبة ببيوتها ولاح أمامه الجبل الأشم أحد قال صلى الله عليه وسلم وقد اهتاجت مشاعر الذكرى والحنين بين جوانحه: ﴿هذه طابة وهذا أحد جبل يحبنا ونحبه﴾، هل قال المصطفى صلى الله عليه وسلم هذا الكلام إلا ترجماناً لشوقٍ استبد به إلى ذكرى يوم أحد! هل قال هذا الكلام متغزلاً بجبل أحد إلا لأن سفحه يحتضن شهداء غزوة أحد!

قال قائلون أصحاب رسول صلى الله عليه وسلم لم يكونوا يعرفون إحياء الذكريات، أين هذا الكلام الشارد عن الحقيقة والواقع من الواقع التاريخي الذي لا يجهله من كانت له ثقافة ما بل معرفة ما بسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيرة أصحابه، بل العبادات يا عباد الله أو جلها إنما هي إحياء لذكريات، الطواف الذي أمر الله عز وجل به عباده إنما هو إحياء لذكرى خليل الله إبراهيم إذا أقام بنيان البيت مع ابنه إسماعيل ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، وهل صلاة الركعتين عند المقام إلا إحياء لذكرى مقام سيدنا إبراهيم، وهل السعي الذي تسعونه بين الصفا والمروة إلا إحياء لذكرى زوجة سيدنا إبراهيم وهي تنتقل من هنا وهناك بحثاً عن ماء تُرْوي به غُلَّةَ ابنها الصغير!

الذكريات ثمرة لحب، الذكريات عبق يفوح من رائحة الحب، فمن اهتاجت بين جوانحه محبة الله عز وجل ومن ثم محبة رسول صلى الله عليه وسلم لابد أن تفوح رائحة الذكريات لأدنى مناسبة، إن لمناسبة مولده أو لمناسبة هجرته أو لمرأى أثرٍ من آثاره، ذلك هو منطق الحب، ومنطق الحب انفعال قسري وليس فعلاً اختيارياً يا عباد الله.

لعل فينا من يقول فكيف السبيل إلى أن أطرد محبة الأغيار، الدنيا والشهوات والأهواء، التي هيمنت على قلبي ومشاعري لأستقبل بمشاعري محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقول في الجواب: الأمر يسير يا عباد الله، ألا تؤمنون بأن الحب مبادلة ما بين قلب وقلب؟ إذا أحبك زيد من الناس وعلمت يقيناً أنه يحبك ألا تبادله حباً بحب؟ ليس لك اختيار في هذا.

أما علمتم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أحبكم يا عباد الله؟ أجل، ألا تعلمون أننا وقد شرفنا الله عز وجل بالإيمان به وشرفنا الله بحب رسوله وشرفنا الله بالإيمان برسوله صلى الله عليه وسلم وأنه جعلنا من أمته، ألا تعلمون أنه صلى الله عليه وسلم قد استبد به الحنين إليكم وعبَّرَ عن اشتياقه الشديد إليكم؟

﴿روى الإمام مالك في موطئه أن رسول صلى الله عليه وسلم خرج قبيل وفاته إلى البقيع فسلم على أهل البقيع ثم قال، وحوله ثلة من أصحابه: وددت لو أني رأيت إخواننا فقال له أحد أصحابه ألسنا إخوانك يا رسول الله؟ قال: بل أنتم أصحابي وإخواني أولئك الذين لم يلحقوا بعد وسأكون فرطاً لهم على الحوض، أي سأستقبلهم على الحوض، قال قائل منهم: أو تعرفهم يا رسول الله؟ كيف تعرف من لم ترهم؟ قال أرأيتم لو أن رجلاً له خيول غرٌّ محجلة بين خيول دهم بهم، أي سوداء، أفكان يعرفها؟ قالوا: نعم قال: فأنا أعرفهم غرَّاً محجلين من آثار الوضوء﴾، عندما تعلمون يا عباد الله أن محمداً صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين وأحب الرسل إلى الله قد اشتاق إليكم وعبَّرَ عن تحنانه إليكم أفلا تبادلونه حباً بحب؟ لا يمكن للإنسان أن يكون صاحب اختيار في هذا، الرسول الذي يقول وددت لو أني رأيت إخواننا، هذا الكلام عندما يقرع سمعي لابد أن تتفجر بين جوانحي مشاعر الشوق إليه، مشاعر الحنين إليه، هذا هو السبيل، بل هو أقصر سبيل إلى أن نطرد محبة الدنيا، محبة الأغيار من بين جوانحنا لنستقبل بهذا القلب الذي هو وعاء مقدس محبة الله عز وجل ومن ثم محبة رسوله المصطفى صلى الله عليه وسلم، على أن انفعال القلب بالذكرى وانفعال المشاعر بالحنين ينبغي أن نعلم أنه وسيلة إلى غاية وليس غاية بحد ذاتها.

إن الحب، حب الله عز وجل وحب رسوله المصطفى صلى الله عليه وسلم وسيلة نتخذها لتضميد جراحاتنا، لعلاج مشكلاتنا، لتحطيم السدود القائمة بيننا وبين مولانا سبحانه وتعالى، فمن استعمل الوسيلة أداة لغاية كانت قدسية الوسيلة من قدسية الغاية، أرأيتم إلى الذي يريد أن يقوم من الليل فيتهجد

وهو لا يستطيع أن يغالب رقاده باليقظة يضع عند رأسه منبهاً، عندما يوقظه المنبه فينهض للوقوف بين يديه أنعم بهذا المنبه سبيلاً إلى تلك الغاية القدسية، ولكن إذا اتخذ هذا المنبه غايةً بحد ذاتها يوقظه المنبه فيسكته ليعود فيرقد فإن هذا المنبه أصبح عبثاً من العبث وقد انقطع عن غايته التي اتُّخِذَ من أجلها، الحب كذلك، الذكريات التي تهتاج بين جوانحنا فنتفاعل معها كذلك، عباد الله أنتم تعلمون أن حياتنا الاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية والدينية قد فاضت بالمشكلات المختلفة والخطط الرامية من بعيد ومن قريب إلى الإيقاع بنا دينياً، أخلاقياً، اقتصادياً، اجتماعياً كثيرة متنوعة متعددة فما الخلاص من هذه المشكلات؟

بكلمة واحدة أقول لكم: البوابة الكبرى التي ينبغي أن نجتازها إلى حل هذه المشكلات بعد الإيمان العقلاني بالله عز وجل إنما هو الحب، إذا فاضت محبة الله ومن ثم محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الجوانح طردت هذه المحبة الرعونات، طردت العصبيات، طردت الاستكبار، طردت الأثَرَة وجعلت هؤلاء المحبين لله ومن ثم لرسوله يقفون تحت مظلة قول الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ ومن ثم يجدون أنفسهم قد تجاوزوا هذه البوابة القدسية الكبرى إلى بوابة متفرعة عنها هي بوابة الأخوة في الله سبحانه وتعالى، تنقطع مشكلات ما بين المجتمع المسلم والمجتمع المسلم، تزول الرعونات والخلافات وأسباب الشقاق التي تثور ما بين فئات الأمة الإسلامية والعربية الواحدة، كل ذلك يذوب وينمحي في ضرام هذا الحب لله ورسوله ومن ثم في ضرام الأخوة التي يسري نسبها بين عباد الله المؤمنين جميعا، فإذا تحقق لحمة الأخوة وانتهت عوامل الشقاق وذابت وزالت إلى غير رجعة تفجرت من خلال ذلك القوة وأسبابها وحُلِّت المشكلات كلها وتغلبت الأمة على سائر الخطط الرامية إلى الإيقاع بها، هذا هو العلاج، إنه علاج قريب يا عباد الله ماثل أمامكم، موضوع على مقربة من أيديكم علم ذلك من علم وجهل ذلك من جهل، وليت أن قادة الأمة العربية والإسلامية يعلمون هذه الحقيقة ويجتازون إلى حل مشكلاتهم بوابة الحب لله ورسوله أولاً ثم بوابة الأخوة في الله سبحانه وتعالى ثانياً وإذا بالمشكلات كلها قد حُلِّتْ، وإذا بالواقع الذي وعدنا به الله سبحانه وتعالى إذ قال: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ قد غدا حقيقة ماثلة أمام أبصارنا، أقول قولي هذا وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.



٣١٣- واعلموا أن فيكم رسول الله صلى الله عليه وسلم | ٢٠١٠/٠٢/١٩

في هذا الشهر شهر ربيعٍ الأنور تهب رياح أقدس ذكرى، ذكرى ولادة الحبيب الأعظم خاتم الرسل والنبيين محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، في هذا الشهر المبارك تهتاج مشاعر الشجو والحنين بين جوانح كل من عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسرت مشاعرُ من مشاعرِ الحب إلى قلبه، في هذا الشهر يشد الحنين والشجو كل الناس من أمة المصطفى صلى الله عليه وعلى آله وسلم إلى مرابع سيرته النبوية، إلى مشاهد حياته القدسية، في هذا الشهر المبارك تستيقظ مشاعر الحب لدى كل من قال بلسانه المصدق لقلبه: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله

ولكني أحب أن أقول لكم يا عباد الله: إننا لم ننفصل عن حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم تحجزنا عن حياته القرون والسنوات المتباعدة كما قد نتصور أو كما قد يُخَيَّلُ إلى كثير منا، إن محمداً صلى الله عليه وعلى آله وسلم لا يزال فينا، ولا أقول معنا بل إنه صلى الله عليه وسلم حيٌّ في مشاعرنا، هو صلى الله عليه وعلى آله حَيٌّ في قلوبنا، هذا كلام الله عز وجل، وليس تخيلاً مني أو افتئاتاً وتصوراً على لساني، ألم يقل ربنا سبحانه وتعالى خطاباً لنا جميعاً: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ ولعلكم تعلمون أن القرآن إنما تنزل خطاباً لأمة محمد صلى الله عليه وسلم جمعاء في كل الظروف، في كل الأماكن وفي كل الأزمنة، فهو ليس خطاباً لأصحاب رسول الله وحدهم، وليس خطاباً لقرن أو قرنين من الزمن ذلك الذي يُنْعَتُ بعصر السلف، وإنما هو خطاب لكل من بُعِثَ إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فآمنوا به، واستنّوا سنّتَه، وبايعوه على السير على النهج الذي بُعِثَ به

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ دعوني أقف اليوم عند هذه الجملة في مفتتح هذه الآية ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ﴾، أما أصحابه البررة الكرام فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم بجسده وروحه، كانوا يجلسون إليه، وكانوا يسمعون منه، وكانت أعينهم تكتحل بمرآه، فهو فيهم جسداً وروحاً وبياناً ونطقاً ونصحاً، ولكن فما معنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

لا يزال في الناس الذين جاؤوا من بعد عصر الصحابة؟ ما معنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يزال حياً فينا وليس معنا فقط؟

إنها معية الحب –يا عباد الله– معية حب المصطفى لأمته، لكل من سيأتي مع الزمن مؤمناً به ملتزماً بأوامره إلى أن تقوم الساعة، إنها معية الحنين منه عليه الصلاة والسلام إلى أولئك الذين آمنوا به ولم يرهم ولم يروه، إنها معية الشوق إلى أولئك الذين استبدَّ به صلى الله عليه وسلم الحنين إليهم، إنها معية الدعاء لهم، معية الدعاء الضارع لهم متجهاً بدعائه إلى الله سبحانه وتعالى، وأَنْعِم بها من معية، ألم تسمعوا ما قد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه تلا قول الله عز وجل على لسان عيسى بن مريم على نبينا وعليه الصلاة والسلام ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ثم تلا قول الله عز وجل على لسان إبراهيم الخليل ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ استبدَّ به الحنين عندئذٍ إلى أمته، إلى الناس الذين لم يرهم والذين سيأتون من بعده.

بكى عليه الصلاة والسلام وقال: «اللهم أمتي، اللهم أمتي، جاءه جبريل يسأله: ما الذي يبكيك يا محمد؟ فقال: أمتي، فأوحى الله عز وجل إليه عن طريق جبريل يقول له: لن نسوءك في أمتك». ألم يبلغكم ما ورد في الصحيح أيضاً مما رواه مالك في موطئه وغيره أنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم زار البقيع قبيل وفاته، فسلم على أهل البقيع، ثم قال: «وددت لو أني رأيت إخواننا، قال له أحد أصحابه الذين كانوا من حوله: ألسنا إخوانك يا رسول الله؟ قال: بل أنتم أصحابي، وإخواني أولئك الذين لم يلحقوا بعد، وسأكون فَرَطَاً لهم على الحوض، سأستقبلهم على الحوض، قالوا له: أوتعرفهم يا رسول الله؟ كيف وأنت لم ترهم؟ قال: أرأيتم لو أن رجلاً له خيولٌ غرٌّ محجلة وسط خيول دهم بهم –أي سوداء– أفكان يعرفها؟ قالوا: نعم. قال: فأنا أعرفهم غُرَّاً من آثار الوضوء »

أليست هذه معيةً يا عباد الله؟ أليس هذا مصداق قوله عز وجل خطاباً لنا: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾، أَنْعِم بها من معية الحنين منه صلى الله عليه وسلم إلينا، نحن الذين تشرفنا بالإيمان به، ولكن أعيننا لم تكتحل برؤيته، أَنْعِم بها من معيةٍ تلك التي تجعل المصطفى صلى الله عليه وسلم يتشوق إلينا، أَنْعِم بها من معية تلك التي يعدنا من خلالها المصطفى صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه سيستقبلنا على

الحوض، وأنه سيسقينا من يده الشريفة شربة لا نظمأ بعدها، ولا ريب أن ذلك عنوان لشيء أجلّ وأعظم ألا وهي الشفاعة التي سيكرمنا الله سبحانه وتعالى بها عن طريق رسوله المصطفى صلى الله عليه وسلم، فتلك هي المعية التي عبَّر عنها البيان الإلهي خطاباً لنا ولأمته جمعاء ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾

تلك هي المعية التي بينها الباري سبحانه وتعالى، والتي تتجه من رسول الله إلينا حنيناً وشوقاً وحباً، فأين هي المعية التي ترقى منا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ أين هو الحنين الذي يستبد بقلوبنا إلى حبيبنا محمد صلى الله عليه وسلم؟ أين هو الشجو الذي يهيمن على القلبِ، قلوبِنا التي يفترض أن تكون ملتاعة بالشوق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ أين هو مصداق هذا الحنين إن قلنا: نعم إننا لنشعر بالحنين؟ مصداق الحنين أن نسير على النهج الذي سار عليه رسول الله، مصداق الحنين أن نلتزم بالأوامر والوصايا التي تركها لنا من بعده رسول الله، إن مصداق الحنين والشوق إلى رسول الله أن نلتزم بوصاياه التي وجهها إلينا، بل إلى أمته جمعاء يوم كان يؤدي حجة الوداع، ويوم خاطب أجيال المسلمين الآتين من بعد من خلال خطابه المودع المليء بالوصايا والنصائح والأوامر، أين هو الالتزام بهذا الذي أوصانا به رسول الله وتركه وصيةً علَّقها بأعناقنا من بعده؟ أين؟

ألا ولتعلموا يا عباد الله أن المصطفى صلى الله عليه وسلم ليس ذا شخصية واحدة كما يتصور كثيرٌ من الناس اليوم أنه رسول بُعِثَ إلى الناس، فهو يبلغ عن الله عز وجل ما يوحَى به إليه وانتهى الأمر، لا، تلك هي شخصية النبوة، وهذه حقيقة، ولكن له شخصية أخرى وُجِدَتْ بل وُلِدَتْ عندما هاجر المصطفى صلى الله عليه وعلى آله وسلم إلى المدينة، وأقام أول دولة إسلامية شهدتها أمة المصطفى صلى الله عليه وسلم بعد بعثته المشرفة، الشخصية الثانية للمصطفى صلى الله عليه وسلم أنه كان إمام المسلمين، أنه كان رئيس دولة، بهذه الشخصية كان يُجَيِّشُ الجيوش، بهذه الشخصية كان يعلن الحرب عندما يجد أن الضرورةَ داعيةٌ إلى إعلانها، بهذه الشخصية كان يبرم الصلح، بهذه الشخصية كان يسوس حال الغنائم والأسرى، بهذه الشخصية كان يُقْطِعُ ويُمَلِّكُ، هي شخصية إمام المسلمين، هي شخصية رئيس الدولة، وعندما لحق رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى انقطعت البعثة لأنه خاتم الرسل والنبيين، ولكن لم تنقطع حقيقة الشخصية الثانية، بقيت متسلسلة إلى يومنا هذا، ولسوف تبقى متسلسلة إلى أن تقوم الساعة، ما معنى خلافة أبي بكر لرسول الله؟ أما البعثة فقد انتهت، ومعاذ الله أن يأتيَ نبيٌّ بعد

المصطفى، إنها خلافة رئاسة الدولة تسلسلت منه إلى أبي بكر فعمر فعثمان فعليٍّ، وينبغي أن نعلم من هنا أن الإسلام دينٌ ودولة، أن الإسلام دينٌ يتمثل في الوحي الذي أنزله الله عز وجل على رسوله محمدٍ صلى الله عليه وسلم هدياً وتشريعاً، وهو دولة تتمثل في الإمامة التي أناطها رب العالمين بشخص محمدٍ صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ثم آلت من بعده إلى من ينبغي أن يكونوا حراساً على دين الله، حراساً على أوطان المسلمين، حراساً على الحقوق ألا تُغْتَصَب، حراساً على كيان الأمة الإسلامية المتمثلة في الدولة الإسلامية التي ينبغي أن تبذل كل ما تملك في سبيل ردع ورد العدوان الذي يطمع في النيل منها، ينبغي أن نتمثل هاتين الشخصيتين في حياة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، أما بقية الآية، وأما المعاني الكثيرة التي تحضنها الجمل التالية منها، فأرجو أن يوفقنا الله سبحانه وتعالى للعودة إليها في موقف آخر.

أقول قولي هذا واستغفر الله العظيم.

٣١٤- لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم | ٢٠١٠/٠٢/٢٦

مع استمرار نفحات ذكرى مولد المصطفى التي تهب علينا رياحها القدسية تعالوا نستمر في الإصغاء إلى هذا البيان الإلهي الذي يخاطبنا فيه قائلاً: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾. علمنا بالأمس أن محمداً صلى الله عليه وسلم هو فينا ومعنا وأن صلته بنا لم تنقطع، كانت بالأمس مع أصحابه البررة الكرام صلة جسم ورؤية وروح وهي اليوم معنا صلة حنين وشوقٍ وحب ومراقبة ولكن فاسمعوا كلام الله سبحانه وتعالى بعد ذلك وهو يصف لنا جانباً من رحمته بأمته ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾، كثيراً ما كان الصحابة تدفعهم محبة الله ورسوله إلى أن يُحَمِّلُوا أنفسهم أكثر مما يطيقون بل أكثر مما كُلِّفُوا به فكان المصطفى صلى الله عليه وسلم يمنعهم من ذلك مبيناً أن طاقة الإنسان أقل بكثير من حبه، قد يكون حب العبد للرب قوياً جداً يجعله يحلم بأن ينهض بالخوارق والمعجزات التي تتكافأ مع حبه ولكن الله ابتلى الإنسان بالضعف ﴿وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾.

﴿جاءه كعب بن مالك رضي الله عنه، وقد كان من المتخلفين عن غزوة تبوك، جاءه بعد أن تاب الله عز وجل عليه يُهْرَعُ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلاً: يا رسول الله إن من توبة الله عليَّ أن أنخلع من مالي كله صدقة، قال له المصطفى صلى الله عليه وسلم: بل أمسك عليك بعض مالك فذلك خيرٌ لك﴾، أي نعم إن حبك هذا يدفعك إلى أن تضحي بكل شيء في سبيل التعبير عن حبك، عن عبوديتك لله ولكن كيانك الجسمي الذي أقامه الله عز وجل في كيان كل إنسان لا يقوى على ذلك.

﴿ويروي الإمام مسلم وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه خطب في الناس فقال: يا أيها الناس إن الله قد فرض عليكم الحج فحجوا فقال رجل يا رسول الله ألكل عام؟ سكت عنه المصطفى صلى الله عليه وسلم حتى رددها الرجل ثلاثاً فقال: لو قلت نعم لوجبت ولا تستطيعون أيها الناس اتركوني ما تركتكم إذا أمرتكم بأمرٍ فافعلوه ما استطعتم وإن نهيتكم عن شيء فدعوه، فذلك هو معنى قول الله عز

وجل: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾، إنها الرحمة التي أودعها الله عز وجل في قلب رسوله لأمته يبلغهم رسالات الله ولكنه في الوقت ذاته يعطف عليهم ويحنو عليهم، لا يريد أن يُحَمِّلوا أنفسهم شططاً، ما يريد أن يُحَمِّلوا أنفسهم عنتاً ولكن ما البديل؟ إذا كان الإنسان تهتاج بين جوانحه مشاعر الحب ولا يستطيع أن يُبْرِدَ لظى حبه إلا بالنهوض بكل ما يحلم به ولو لم يكن قادراً على ذلك ما الذي يُبْرِدُ لظى حبه في هذه الحال؟ يأتي الجواب عن هذا في بيان الله القائل: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِيقُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾.

ما المعنى يا عباد الله؟ أي إن هنالك ما قد يشفع لكم في عجزكم عن القيام بما تحلمون به، هنالك ما يشفع لكم في عجزكم عن القيام بحق حبكم المهتاج بين جوانحكم لله سبحانه وتعالى، صحيح أن هذا الحب يدعوكم إلى أن تقوموا الليل كله تساهروه ساجدين راكعين مناجين لله، صحيح أن هذا الحب يدعوكم إلى أن تخلعوا عن أن أنفسكم انتسابكم إلى المال كله كما أراد أن يفعل كعب ولكن هنالك شيئاً يعيضكم عن ذلك كله، إنه هذا الإيمان الذي حببه إلى قلوبكم، إنه هذا الذي غرسه الله في قلوبكم من كراهية الفسق والعصيان والكفر، ربما قال قائل: ولكن المؤمن في كثيرٍ من الأحيان يعصي والمؤمن في كثيرٍ من الأحيان ينحط في الفسق والمؤمن في كثيرٍ من الأحيان يشرد عن أوامر الله سبحانه وتعالى فكيف يكون ذلك عوضاً له عن القيام بضريبة الحب الذي يهتاج لظاه بين جوانحه؟

تعالوا فتأملوا في الجواب الذي تعنيه هذه الآية يا عباد الله، الإنسان المؤمن لا يكون مؤمناً إلا والإيمان مرتكزٌ في زاوية الحب من فؤاده، لا يكون الإنسان مؤمناً إلا وهو كارهٌ للعصيان، كارٌ للفسوق والكفر ولكن كيف يفعل ذلك، كيف يعصي إذاً؟ قد يندلق إلى المعصية بسائقٍ من شهوته، بسائق من غريزته التي ابتلى الله الإنسانَ بها، قد يشرد عن صراط الله عز وجل وهو مؤمن بسائق من الغريزة التي تهتاج فتتغلب عليه في كثيرٍ من الأحيان ولكنه في الوقت ذاته وهو مؤمن يكره هذا الذي اندلق فيه، يكره هذا الذي زلَّتْ به القدم إليه، يكره ذلك، هذه الكراهة تحفزه بعد أن وقع في ما وقع من عصيان إلى أن يقبل إلى الله عز وجل تائباً، تحفزه هذه الحالة من كراهية المعصية التي ارتكبها، من كراهية الفسوق الذي جنح إليه، تحفزه هذه الكراهية إلى أن يقبل إلى الله متألماً نادماً باكياً تائباً وإذا بالذنب قد ذهب وإذا بالمعصية

قد ذابت وقبل الله سبحانه وتعالى أوبته إلى رحاب الله سبحانه وتعالى، هذا معنى قوله عز وجل: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِيقُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾.

لا يقولن قائل كيف هذا وفي المؤمنين من يرتكبون المعاصي والأوزار ويجنحون إلى الفسوق والعصيان؟ أجل ولكنهم في الوقت ذاته يكرهون هذا الذي وقعوا فيه ويتألمون من هذا الذي غُلِبَ على أمرهم، يتألمون من هذه الغريزة التي اهتاجت بين جوانحهم فدفعتهم إلى العصيان ومن ثم يعودون إلى رحاب الله تائبين، يعودون إلى رحاب الله سبحانه وتعالى راجعين مستغفرين. هذا الذي يقوله لنا الله عز وجل ما مؤداه يا عباد الله؟ معناه لا أُحَمِّلُكُم عنتاً، هذا كلام الله عز وجل، لا أُحَمِّلُكُم عنتاً في هذا الذي كلفتكم به، نعم إن مشاعر الحب إذا اهتاجت في القلب دفعت صاحب هذا الحب إلى أن يفعل المعجزات ليعلن بذلك عن حبه، يدفعه ذلك إلى أن ينفذ كل ما يمكن أن يجعله ضحيةً لحبه ليعلن بذلك لله عن حبه، حبه يدفعه إلى هذا ولكن ضعفه الذي ابتلاه الله عز وجل به يقف في طريقه بالمرصاد يمنعه من أن ينفذ ما قد فعل، نعم لقد كان ذلك الرجل الصالح المحب لله عز وجل يردد كلمة ما يفتأ يعبر بها عن حبه لله يقول:

وليس لي في سواك قصدٌ فكيف ما شئت فامتحني

منطق الحب كان يحرك لسانه بهذه النجوى لله عز وجل ولكن هل استطاع أن ينجح في الامتحان، جاء الجواب من الله له، من الإله الرحمن الرحيم، ابتلاه الله بمرض، ابتلاه الله بحصر البول، صبر ثم إنه صبر ثم إن صبره نفد ثم إنه تَذَكَّر أن بين حبه المهتاج بين جوانحه وبين الحالة الجسمية التي أقامه الله فيها تناقضاً، الحب يدفعه إلى أن يفعل المعجزات والضعف الجسمي يقول له لا، علم أنه أخطأ في هذا فكان يخرج إلى السوق يلقى الأطفال يعطيهم الحلوى ويقول ادعوا الله لعمكم الكذاب، إنه ليس كذاباً ولكن منطق الحب تغلب عليه وأنطق لسانه بهذا الذي قال إلا أن ضعفه وكينونته الجسمية كل ذلك كان مناقضاً للحالة التي كان يعبر بها عن حبه. هذا هو الذي يعنيه بيان الله، أي لكم في هذا الحب الذي غرسه الله بين جوانحكم، حب الإيمان بالله عز وجل، لكم في هذا الذي غرسه الله عز وجل بين جوانحكم من كراهية الكفر، كراهية العصيان والفسوق ما يغني عن أن تستجيبوا للحب الصادق المهيمن على قلوبكم فتحاولوا أن تضحوا بجسومكم أو أن تتركوا أموالكم كلها وأن تنخلعوا عنها نهائياً، لكم في ذلك

غنى، ما الذي يغنيكم عن ذلك؟ حب الإيمان، كراهية الكفر والفسوق والعصيان، هذا سيكون شفيعاً لكم وسيدفعكم هذا الحب إلى التوبة والأوبة. وإن الله سبحانه وتعالى عندما هيَّأ جنان الخلد لعباده الطائعين لم يهيئ هذا النعيم للمعصومين أبداً، لم يهيئ هذا النعيم لمن ارتقوا إلى درجة الملائكية وإنما قال: ﴿مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ والأواب صيغة مبالغةٌ من آيب وكلمة آيب يعني راجع ومعنى الآية ﴿هذا﴾، أي هذا النعيم ما توعدون لكل رجاعٍ إلى الله سبحانه وتعالى، ولا يكون العبد رجاعاً إلى الله إلا إذا كان كثير الشرود عن الله.

المؤمن واهن راقع فطوبى لمن مات على رقعه. أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل من الإيمان الذي زيَّنَ به قلوبَنا ومن كراهية الكفر والفسوق والعصيان شفيعاً لنا إذا أُبْنَا إليه يوم يقوم الناس لرب العالمين.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.



٣١٥- واقع المسلمين في ذكرى المولد | ١٩٨٥/١١/٢٢

ها هو الزّمنُ قد استدار، وها هو ذا قد عاد ليعيدَ إلينا ذكرى مولدِ المصطفى عليهِ الصّلاةُ والسّلام، وذكرى بعثتهِ إلى العالم، وذكرى الرّحمةِ الإلهيّةِ الغامرة التي انتشرت بينَ الخلائقِ جميعاً مع بعثةِ المصطفى عليهِ الصّلاةُ والسّلام، ها هو ذا شهرُ المولدِ المبارك قد أظلّكم من جديد، وها هم النّاسُ قد عادوا إلى الاحتفالِ بمولدِ المصطفى عليهِ الصّلاةُ والسّلام على شتّى المستويات، وفي كلِّ الأماكنِ والبقاع، وليسَ بدعاً من الأمر ولا شيئاً عجيباً في السّلوك أن يحتفلَ المسلمونَ بذكرى مولدِ رسولهم وحبيبهم محمّدٍ عليهِ الصّلاةُ والسّلام، فذلكَ أدنى ما يمكنُ أن يعدَّ شعاراً يدلُّ على المحبّة، ولا يمكنُ أن نتصوّرَ أنَّ من حقِّ الأممِ والشّعوب أن تحتفلَ بذكرى ملوكها ورؤسائها وأن تنفقَ على ذلكَ المالَ الوفير، ثمَّ تقف دونَ الاحتفالِ بذكرى مولدِ محمّدٍ عليهِ الصّلاةُ والسّلام، وتعرضُ عن ذلكَ أو ترى إنكارَ ذلك. لا يمكنُ إطلاقاً لهذينِ النّقيضينِ أن يجتمعا في قلبِ مؤمن، فكما تندفعُ الأمم للاحتفالِ بذكرياتِ ملوكها ورؤسائها، فمن بابٍ أولى من الطّبيعيِّ لها أن تندفعَ بدافعٍ من نوعِ هذا الحبِّ ذاته، فتحتفلَ بذكرى مولدِ رسولها محمّدٍ عليهِ الصّلاةُ والسّلام بالطّريقةِ المشروعة، وبالسّبيلِ الذي لا يعقبُ ضرراً، وبالأسلوبِ المتّفقِ مع شرعِ اللهِ عزَّ وجلّ، كلُّ هذا أمرٌ طبيعيّ وشيءٌ محمود.

ولكنَّ الأمرَ العجيبَ حقّاً: أن ترى أنَّ المسلمينَ كلّما ازدادوا ابتهاجاً بذكرى مولدِ الرّسولِ عليهِ الصّلاةُ والسّلام، وكلّما أمعنوا بالاحتفالِ في ذكرى مولدهِ في مثلِ هذا الشّهرِ المبارك: كلّما عادوا القهرى، وكلّما تراخوا عن اتّباعِ سنّتهِ والتمسّكِ بشرعه، الأمرُ العجيبُ حقّاً أنّهُ بمقدارِ ما يقبلونَ على الاحتفالِ والاحتفاء بذكرى مولدِ رسولِ اللهِ عليهِ الصّلاةُ والسّلام، بمقدارِ ذلك يمعنونَ في التّغييرِ والتّبديل، ويمعنونَ في التّلاعبِ بشرعِ اللهِ سبحانهُ وتعالى وفي الإعراضِ عنه، بدوافعَ وأساليبَ وأسماءٍ شتّى، هذا هو الأمرُ الغريبُ في حالِ هذه الأمّة.

وكلّما رأيتُ الزّمنَ قد استدار، وكلّما هبّت روائحُ ذكرى مولدِ رسولِ اللهِ عليهِ الصّلاةُ والسّلام في هذا الشّهرِ المبارك، وتذكّرتُ هذا التّناقضَ العجيبَ بينَ احتفالاتِ المسلمينَ الشّكليّة وبينَ واقعهم الفعليّ،

تذكّرتُ حديثاً لرسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلّمَ يأخذُ بمجامعِ القلوب، وتقشعرُّ لهولِهِ الألبابُ والنّفوس، وهو حديثٌ صحيح بل هو من أصحِّ الأحاديثِ المرويّةِ عن رسولِ الله صلّى اللهُ عليهِ وسلّم. يروي الإمامُ مسلمٌ في صحيحه ومالكٌ في موطَّئه وغيرهما عن أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلّمَ وقفَ في البقيعِ ذاتَ يومٍ وحولهُ كوكبةٌ من أصحابه فقال: ﴿واشوقاهُ إلى إخواني. قالَ لهُ بعضُ أصحابه: (ألسنا إخوانكَ يا رسولَ الله)؟ قالَ: بل أنتم أصحابي، وإخواني أولئكَ الذينَ لم يلحقوا بعد، وسأكونُ فرطاً لهم على الحوض. قالَ لهُ قائلٌ عليهِ الصّلاةُ والسّلام: (أو تعرفهم يا رسولَ الله)؟ قالَ النّبيُّ صلى اللهُ عليهِ وسلّم: أرأيتم لو أنَّ رجلاً لهُ خيولٌ غرٌّ محجّلة في خيلٍ دُهْمٍ بُهْمْ، أفكانَ يعرفها؟ قالوا: (نعم يا رسولَ الله). قال: فأنا أعرفهم غرّاً محجّلينَ من آثارِ الوضوء. ألا ليذادنَّ رجالٌ عن حوضي –أي ليُطردونَ عن حوضي– كما يُذادُ البعيرُ الضّال الذي اقتحمَ بينَ إبلِ قومٍ وهو ليسَ منهم، ليُذادنَّ أناسٌ عن حوضي كما يُذادُ البعيرُ الضّال، فأقولُ ألا هَلُمّ ألا هَلُمّ، فيُقالُ لي: (إنّكَ لا تدري كم بدّلوا من بعدك). فأقول: فسحقاً فسحقاً فسُحقا﴾.

كلّما استدارَ الزّمن وعادَ شهرُ ربيعِ الأوّل ورأيتُ مباهجَ المسلمين الظّاهرةَ والشّكليّة بمولدِ المصطفى عليهِ الصّلاةُ والسّلام ثمَّ أمعنتُ النّظرَ في واقعهم المخزي وسلوكهم البعيدِ البعيدِ عن شرعِ اللهِ وهديِ رسولِ الله صلى اللهُ عليهِ وسلّم تذكّرتُ هذا الحديث، كانَ من الممكن أن يكونَ فألَ خيرٍ لنا، وأن يكونَ عنوانَ بشرى سارّةٍ لقلوبنا. ولكنّا بأيدينا حوّلنا دلالةَ هذا الحديث فجعلناهُ من أعظمِ التّهديداتِ المخيفةِ لنا.

لو لم نغيّر في شرعِ الله، لو كنّا أمناءَ على دينِ الله لو كنّا أمناء على سنّةِ المصطفى عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ في بيوتنا، في أنفسنا، معَ أهلينا وأولادنا، في علاقاتنا مع إخواننا، في علاقاتنا معَ المالِ والدّرهمِ والدّينار، لو أنّنا كنّا على هذه الشّاكلة لكانَ حريّاً بنا أن ننتشيَ ونحنُ نسمعُ هذا الحديث، وأن نتأمّلَ خيراً، وأن نعدَّ أنفسنا مع إخوانِ رسولِ الله عليهِ الصّلاةُ والسّلام الذينَ اشتاقَ إليهم وحنَّ إلى رؤياهم وأعلنَ أنّهُ سيكونُ فرطاً لهم. ولكنّا بمحضِ اختيارنا، وبما جنتهُ أيدينا، شئنا أن نكون على خلافِ ذلك، فأمعنّا تغييراً وتبديلاً وتلاعباً بدينِ اللهِ عزَّ وجلّ، وهكذا حكمنا على أنفسنا أن نكونَ من تلكَ الثّلّةِ الأخرى التي أشارَ إليها المصطفى عليهِ الصّلاةُ والسّلام، عندما قال: ﴿ألا وليذادنَّ قومٌ عن حوضي كما يزادُ البعيرُ الضّالّ، فأقولَ: ألا هلمَّ ألا هلمّ. فيقال: إنّكَ لا تدري كم بدّلوا من بعدك﴾.

ما كانَ أغنانا أن نزجَّ بأنفسنا فنصبحَ من هؤلاءِ النّاس، وما كانَ أولانا أن نكونَ من المحافظينَ على شرعِ الله، المتمسّكينَ بهديِ رسولِ الله صلّى اللهُ عليهِ وسلّم. ولكن انظروا يا عبادَ الله، انظروا إلى أقوالنا وابتهاجاتنا كيفَ تسير، وإلى سلوكنا بأيِّ وادٍ ينحطّ، كلّنا يتعاملُ بالرّبا، إن لم يكن كلّنا فأكثرنا، وليتَ أنَّ الأمرَ وقف عندَ التوغل في هذا السّلوك، معَ الاعترافِ بأنّنا مقصّرونَ ومذنبون، ولكن يشاءُ أكثرنا إلّا أن يبرّر، ويأبى أكثرنا إلا أن يستخرجَ الفتاوي الكاذبة من أجلِ أن يبرّرَ بذلك ابتعادهُ عن دينِ اللهِ عزَّ وجلّ، وتمزيقه لواجبٍ من واجباتِ اللهِ سبحانهُ وتعالى.

كلّنا ننظر إلى آدابِ الإسلامِ في بيوتنا، فنجدُ أنَّ هذه الآدابَ مطرودة، مطرودةٌ من بيوتنا، الاختلاطُ المشين بينَ الرّجالِ والنّساءِ الأجانب، أمرٌ معروف في بيوتِ المسلمينَ الحجّاج المصلّين المحتفلينِ بموالدِ المصطفى عليهِ الصّلاةُ والسّلام. وإذا قامَ شابٌّ غيورٌ على دينِ الله يذكّرُ أباه بأنَّ هذا الاختلاطَ غيرُ جائز، أبناءُ العمومةِ وبناتُ العمومةِ وأبناءُ الخؤولةِ وبناتُ الخؤولة، أجانبٌ بعضُها مع بعض، اهتاجَ الوالدُ عليهِ وماج، وأزبدَ وأروى، وأعلنَ غضبهُ على الولد، وهو إنسانٌ يزعمُ أنّهُ مسلم، إنسانٌ يزعم أنّهُ متديّن، نعم..

انظروا إلى واقعنا يا عبادَ الله، كم بدّلنا من الأحكامِ الإسلاميّةِ المعروفة باسمِ التّطويرِ والتّغييرِ والتّبديل، وبدعوى أنَّ الأحكامَ تتبدّلُ بتبدّلِ الأزمان، وهي قاعدةٌ صحيحة لو أنّا وضعنا فيها معناها الذي وضعهُ فيها دينُ اللهِ عزَّ وجلّ، والّذي نبّهنا إليهِ علماؤنا وأئمّتنا رحمهمُ اللهُ سبحانهُ وتعالى.

وتنظر إلى واقعِ المسلمينَ في أسواقهم وتجاراتهم فتجدُ المباح: هو كلُّ ما تطولهُ يدُ التّاجر، أيّاً كان ومهما كانَ شكله، أمّا المحرّم: فهوَ ما لا يستطيع أن تمتدَّ يدُ التّاجرِ إليه. أمّا دينُ اللهِ عزَّ وجلّ فموضوعٌ على الرّفوف، نتذكّرهُ عندما نريدُ أن نتسابقَ إلى العُمَر، نتذكّرهُ عندما نريدُ أن نُهرَعَ إلى الحجّ ونجعلُ أقدامنا تلتصقُ بظهورنا ركضاً وراءَ الحجِّ إلى بيتِ اللهِ الحرام. أمّا معاملاتنا الماليّة، وأمّا الغشّ، وأمّا الخداع، وأمّا الكيدُ في المعاملة فحدّث ولا حرج وكلُّ ذلكَ يقعُ في صفوفِ الحجّاج والذينَ يتظاهرونَ بمظهرِ التّديّن قبلَ أن يظهرَ في صفوفِ الآخرين.

ماذا أقول؟ هذا الحديثُ في هذا الموضوع حديثٌ ذو شجون، وشرحهُ طويلُ الذّيل، وهو يزيدنا ألماً فوقَ ألم، ولكنّي أعودُ فأقول: ليسَ عجيباً أن يحتفلَ المسلمونَ بذكرى مولدِ حبيبهم عليهِ الصّلاةُ والسّلام فهذا شأنُ كلِّ أمّةٍ ترتبطُ ارتباطاً وثيقاً برسولها محمّدٍ عليهِ الصّلاةُ والسّلام، ولكنَّ العجيبَ حقّاً أن يناقضَ المسلمونَ أنفسهم، وأن يعلنوا أنّهم مسلمونَ بالأقوالِ وزخرفِ القولِ والشّعارات، ولكنّهم ليسوا بمسلمين عندما يكلّفهم الإسلامُ شيئاً من حظوظهم، وشيئاً من أهوائهم، ولكنَّ اللهَ عزَّ وجلّ إنّما يذكّرنا بالعمل، وينبّهنا إلى الاستمساك والرّشدِ بالفعل قبلَ أن يذكّرنا بالأقوالِ والشّعارات، ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾. يهدي بهِ الله لا من رفعَ شعاراته، يهدي بهِ الله لا من جمّلَ لسانهُ بالاحتفالات، يهدي بهِ الله من اتّبعَ رضوانه سُبُلَ السّلام. يقولُ اللهُ عزَّ وجلّ: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾. والاعتصام: التّمسّك بحبلِ الله، وحبلُ اللهِ شرع، وحبلُ اللهِ السّلوكُ الفعليّ وليسَ الدّعاويَ القوليّة.

أسألُ اللهَ عزَّ وجلّ أن يصلحَ أحوالنا وأن يعيدنا إلى رشدنا، وأن يتكرّمَ علينا فيجعلنا من إخوانِ رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم المتّبعينَ لشرعه، لا من أولئكَ الّذينَ سيُطرَدُونَ عن حوضهِ يومَ القيامة، أقولُ قولي هذا وأستغفرُ اللهَ العظيم...

ولكن الأمر العجيب حقاً: أن ترى أن المسلمين كلما ازدادوا ابتهاجاً بذكرى مولد الرسول عليه الصلاة والسلام، وكلما أمعنوا بالاحتفال في ذكرى مولده في مثل هذا الشهر المبارك: كلما عادوا القهقرى، وكلّما تراخوا عن اتباع سنته والتمسك بشرعه.

٣١٦- في شهرِ ربيع تهبُّ رياحُ حبِّ رسولِ اللهِ | ١٩٨٨/١٠/٢١

في شهرِ رمضان تهبُّ رياحُ الإيمانِ باللهِ عزَّ وجلّ، وفي شهرِ ربيع تهبُّ رياحُ حبِّ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلّم، والإيمانُ والحبُّ متلازمانِ يكمّلُ الواحدُ منهما الآخر، فلا يفيدُ إيمانٌ وقرَ في عقلِ صاحبه إن لم يسكن في قلبهِ الحبّ، ولا معنى لهذا الحبّ إن لم يُغرَز في تربةِ الإيمانِ باللهِ سبحانهُ وتعالى.

ولكنَّ الحبّ كانَ ولا يزالُ هو القائد، وهو المهيّجَ والمحرّك. فإذا تمتّعَ الإنسانُ بالإيمانِ باللهِ سبحانهُ وتعالى، واستقرَّ هذا الإيمانُ قراراً في عقله، ولم يثمر هذا الإيمانُ حبّاً للهِ عزَّ وجلّ ومن ثمَّ حبّاً لرسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلّم، فإنَّ هذا الإيمان لا يمكنُ أن يصلحَ من أمرِ صاحبهِ فاسداً، ولا يمكنُ أن يقوّمَ في حياتهِ معوجّاً، وهذا الإيمانُ أشبهُ ما يكونُ بالشّجرةِ الّتي لا تثمر.

وهكذا فقد كانَ الحبّ – حبُّ اللهِ عزَّ وجلّ – ومن ثمَّ حبُّ رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم هو ثمرةُ الإيمان.

وكما أنَّ الشّجرةَ لا قيمةَ لها إن لم تثمر، فإنَّ الإيمانَ الأعزل لا قيمةَ لهُ إن لم يتوَّج بالحبِّ الحقيقيّ للهِ ولرسولِ الله صلّى اللهُ عليهِ وسلّم.

ولأمرٍ ما عندما نعودُ إلى كتابِ اللهِ عزَّ وجلّ ونقفُ على الآياتِ التي يصفُ اللهُ فيها نبيّهُ ورسولَهُ محمّداً عليهِ الصّلاةُ والسّلام، نجدُ أنَّ البيانَ الإلهيّ يستثيرُ القلوبَ إلى حبِّ هذا الرّسولِ العظيم أكثرَ مما يستثيرُ العقولَ إلى الإيمانِ بنبوّته. فأنتَ تقرأ في كتابِ اللهِ عزَّ وجلّ عن رسوله صلى اللهُ عليهِ وسلّمَ هذا الكلام: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾. وتقرأُ قولَ اللهِ سبحانهُ وتعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾. وتقرأُ قولهُ عزَّ وجلّ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾. وكلُّ هذه الكلمات إنّما تثيرُ كوامنَ الحبِّ في القلب لهذا الذي يصفهُ اللهُ تعالى بهذه النّعوت.

ولكنّكَ بالمقابل لا تجدُ أنَّ القرآنَ يركّزُ مثلَ هذا التّركيز على حوافزِ الإيمانِ العقليِّ برسولِ الله صلى اللهُ عليهِ وسلّم، لأنَّ هذا الإيمانَ يستقلُّ بهِ العقلُ إن فكّر، ويكفي لدخولِ الإيمانِ وتسرّبهِ إلى الفِكرِ والعقل أن يتأمّلَ الإنسانُ تأمّلاً موضوعيّاً حرّاً في شواهد النبوّةِ من حياة رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلّم،

ولكنَّ الذي يحتاجُ إلى تمكين، والذي يحتاجُ إلى دفع إنّما هو الحبّ، الحبُّ الذي ينبغي أن يستقرَّ في القلب. لأنَّ ضمنَ هذا الحبِّ عقباتٌ كثيرة لا توجدُ أمثالُ هذه العقباتِ في طريقِ العقل.

دون حبِّ رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم حبُّ الشّهوات، حبُّ الأهواء، حبُّ المناصبِ والرّئاسةِ والزّعامة والعصبيّة بأنواعها وأشكالها، هذه عقباتٌ تقفُ حائلاً بينَ القلبِ وصاحبِهِ فتصدّهُ عن حبِّ الله عزَّ وجلَّ، ومن ثمَّ عن حبِّ رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم، ذلكَ لأنَّ هذا الإنسانَ يُواجَهُ في طريقه بحبٍّ أقوى.. ألا وهوَ حبُّ الدّنيا بكلِّ ما تتنوّعُ إليهِ الدّنيا من فروعٍ وأقسام.

حبُّ رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم هو ثمرةُ الإيمانِ بنبوّته. فمن لم يُشرِب قلبهُ بمعاني هذا الحبّ، لم يستفد شيئاً من الإيمانِ بنبوّتِهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم. والفرقُ بيننا وبينَ أصحابِ رسولِ اللهِ رضوانُ اللهِ عليهم، أنّهم تميّزوا عنّا بهذا الحبّ.

أمّا الإيمانُ العقليّ فنحنُ نحمدُ اللهَ عزَّ وجلَّ على أنّنا وإيّاهم مؤمنونَ بعقولنا بنبوّته، ولكنّهم تجاوزونا إلى شيءٍ آخرَ تخلّفنا عنهم فيه، وقرت محبّةٌ عظيمةٌ هائلةٌ لرسولِ اللهِ بينَ جوانحهم طغت على محبّةِ الدّنيا وشهواتها وأهوائها فبدت منهم تلكَ الخوارقُ التي علمتم، ودانوا بالولاءِ لرسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلّم كما تعرفون، وضحّوا بكلِّ غالٍ ورخيص في سبيلِ أمرِ اللهِ ومن ثمَّ في سبيلِ أمرِ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلّم. أمّا نحنُ فتخلّفنا ولم نستطع أن نرقى إلى ذلك الصّعيد لأنَّ الأهواءَ شدّتنا إلى الأدنى، لأنَّ الدنيا حبستنا، ولأنَّ أهواءنا وعصبيّاتنا صفّدتنا بالأغلالِ الثّقيلة، لم نستطع أن نتحرّك كما تحرّك أصحابُ رسولِ الله صلى اللهُ عليهِ وسلّم.

وإذا وقرَ حبُّ رسولِ اللهِ في قلبِ المؤمن فحدّث عن آثارِ هذا الحبِّ ولا حرج، وليسَ ثمّةَ قانونٌ يسمو على قانونِ هذا الحبّ، فلا يقال لمن تصرّفَ بسائقٍ من حبِّه لرسولِ الله: (لِمَ)، ولا يُقالُ لهُ: (هذا جائزٌ وذاكَ غيرُ جائز)، لأنَّ منطقَ الحبِّ فوقَ كلِّ منطق، ولأنَّ قانونهُ لا يسمو عليهِ أيُّ قانون، فقد شربت امرأةٌ من أصحابِ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلّم بولَ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلّم، اندفعت إلى ذلكَ بسائقٍ من الحب، فما أنكرَ رسولُ اللهِ عليها، لأنَّ المنطقَ يمنع من هذا الإنكار، إنها انساقت إلى ذلكَ بسائقِ حبّ.

ولقد علمتم أنَّ في أصحابِ رسولِ الله صلى اللهُ عليهِ وسلّم من قد كانوا يتباركونَ بنخامته وبوضوئه مع العلمِ بأنَّ المصطفى عليهِ الصّلاةُ والسّلام ألا يُريَ أصحابهُ من نفسهِ إلا ما تقرُّ به العين، وكانَ حريصاً على ألا يشمَّ أحدٌ منهُ إلا أطيبَ رائحة، ولكنَّه الحب دفعهم إلى هذا وأكثر، وما أنكرَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلّم، إذ ليسَ ثمّةَ قانونٌ أسمى من قانونِ الحبِّ هذا.

ولقد عمدَ رجلٌ من أصحابِ رسولِ اللهِ وهو سوادة رضي اللهُ عنه قبيلَ ابتداءِ المسلمينَ بالقتالِ يومَ أحد، عمدَ إلى بطنِ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلّم فهجمَ عليهِ يقبّله، وربّما استشنعَ أحدنا هذا الفعل، ولكنَّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلّمَ لم ينكر عليهِ ذلك، كلُّ ما في الأمر أنّهُ سأله: ﴿ويحكَ ما الذي حملكَ على هذا يا سوادة؟ قال: يا رسولَ الله لقد خشيت أن يكونَ هذا اليوم هو آخرَ عهدي بك، فأحببتُ أن يكونَ آخرَ عهدي بك أن يلتصقَ جسدي بجسدك﴾. سُلطةُ الحب لا يمكن أن يسكتهُ أيُّ قانونٍ ولا أيُّ منطق.

وإذا رأيتَ في محبّي رسولِ الله صلى اللهُ عليهِ وسلّم من تفوح حولَ قلوبهم ومشاعرهم في شهرِ ربيعٍ هذا رائحةُ الذّكرى، ذكرى ولادةِ رسولِ الله صلى اللهُ عليهِ وسلّم، فتهيجهم هذه الرّوائح وهذه الرّياح وتستثيرهم وتدفعهم إلى ما قد تدفعهم إليه من احتفالاتٍ ولقاءاتٍ وكلماتٍ وقرباتٍ أيّاً كانَ نوعها، فلا سبيلَ للإنكار على شيءٍ من ذلك، لأنّهُ منطقُ الحبّ، وأعني بمنطقِ الحبّ ذلكَ المنطقَ الصّادق الذي ينبعُ والذي يتعالى من بينِ الجوانح بدافعٍ حقيقيٍّ خالٍ وخالص عن الشّوائبِ المختلفةِ المتنوّعة. لا يمكنُ لإنسانٍ أن ينكر، ولو أنَّ إنساناً زارَ مثوى رسولِ الله صلى اللهُ عليهِ وسلّم وألزمَ عقلهُ بكلِّ أدبٍ واحتشامٍ واحترام، ولكنَّ هائجَ الحبّ تغلّبَ على هذا القرار، وتغلّبَ على هذه الضّوابطِ العقليّة في كيانه فصاحَ وهاجَ وماج، فإنّكَ لن تجدَ منطقاً يتغلّبُ عليهِ ويسكتهُ في تلكَ اللحظة، هذه حقيقةٌ لا ريبَ فيها يا عبادَ الله.

فلا ريب أن من شأنِ الإنسانُ المحبّ أن يحتفلَ بذكرى مولدِ رسولِ الله صلى اللهُ عليهِ وسلّم، والدّستورُ الذي يدفعهُ إلى هذا، وبوسعهِ أن يطمئنَّ إليه أن يراجعَ قلبه فيتساءل: ما الذي حملهُ على ذلك؟ أهوَ رياءٌ؟ أهيَ سمعةٌ؟ أم مصلحةٌ؟ أم غرضٌ دنيويّ؟ فليعلم أنَّ أمرهُ مرميٌّ عُرضَ الحائط، ولن ينظرَ إليهِ اللهُ ولا رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلّم. أمّا إن عادَ إلى قلبه ووجدَ أنَّ الحوافزَ التي دفعتهُ إلى ذلك: نارٌ

تهيجُ بينَ جوانحه، وحبٌّ للهِ تعالى أضرمه في فؤاده، والإنسانُ لا يكذّبُ شعوره، إن علمَ أنَّ هذا هو الدّافع فليهنأ أنّهُ بهذا يتقرّبُ إلى الله ورسوله.

وإن قالَ قائل: فأينَ هو الدّليل؟ وأينَ هي الحجّة؟ وأينَ هي المشروعيّة؟ قل له: أنتَ تعيش في عالمِ العقلانيات، وأنتَ تتحدّث عن الأحكام التي تتعلق بالواقعِ الفكريِّ والعقلانيّ، أمّا نحنُ فنتحدّثُ عن دائرةِ الحبِّ التي إن زُجَّ الإنسانُ فيها كانَ معزوراً أيّاً كانَ العملُ الذي قامَ به.

على أنَّ رسولَ الله صلّى اللهُ عليهِ وسلّم كانَ يصومُ يومَ الإثنين، وقد وردَ في الصّحيحِ أنّهُ سُئل: لماذا تصومُ يومَ الإثنين؟ قال: «ذلكَ يومٌ وُلدتُ فيه».

ولو لم يكن هنالك من المعتمدات والأدلّة على أنَّ يومَ ميلادِ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلّم يومٌ مقدّسٌ من الزّمن، ويومٌ أزهر من الدهر، لو لم يكن ثمّةَ دليلٌ على هذا غيرُ هذا الحديث لكفى، ولكانَ النّاسُ جميعاً – لا أقولُ معزورين- بل ينبغي أن يندفعوا إلى أن يجعلوا من شهرِ ربيعٍ كلّه مثابةَ احتفاءٍ واحتفالٍ وسرورٍ برسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلّم، لا نشترطُ لذلك إلا شرطاً واحداً: ألا وهو أن يعودوا إلى قلوبهم فينقّوا هذه القلوبَ من الشّوائب، وأن يلاحظوا أفئدتهم فيتأكّدوا أنَّ حوافزهم هي الحبّ ولا شيءَ غيرُ الحبّ. ونحنُ نعلمُ أنَّ لكلِّ شيءٍ دليلاً، فإذا كانَ الدّافعُ هو هذا الحبّ، الحبُّ الذي يدفعُ الإنسانَ إلى الاحتفالِ بذكرى رسولِ الله يدفعهُ من بابٍ أولى إلى الانضباط بأمرِ رسولِ الله.

كيفَ يدفعني الحبّ إلى أن أنفقَ المالَ سخيّاً وأنا أنتشي بذكرى مولدِ رسولِ الله، ثمَّ لا يدفعني هذا الحبّ إلى أن أخرجَ زكاةَ مالي؟ ثمَّ لا يدفعني هذا الحبّ إلى أن أفطمَ نفسي عن الرّبا؟ ثمَّ لا يدفعني هذا الحبّ إلى أفطمَ جيبي عن الغلوّ وعن الغشِّ في المعاملة؟ كيف؟ كيفَ يدفعني الحبُّ إلى شيء ثمَّ يأخذ في كياني فلا يدفعني إلى ما هو أهمُّ من ذلك؟

بقيَ شيءٌ واحد: ما زالَ كثيرٌ من الإخوةِ يقعونَ في إشكالٍ فيهِ ويسألون: هنالكَ من يزعم أنَّ الاحتفالَ بذكرى مولدِ رسولِ اللهِ بدعة فما الحقُّ في هذا؟ أسئلةٌ لا تنتهي وما تزالُ تتكرّرُ على الأسماع. نقولُ بعدَ الذي قلته، والكلامُ الذي قلتهُ هو الأساس، لكنّنا نضيفُ إلى ذلك: أنَّ من احتفى واحتفل بذكرى مولدِ رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم معتقداً أنَّ ذلكَ ثابتٌ في سنّته، وأنَّ ذلكَ ثابتٌ ومستقرٌّ

بنصٍّ من كتابِ اللهِ أو نَصٍّ من سنّةِ رسولِ الله أو أنّهُ ثابتٌ بإجماع فقد أخطأ وابتدعَ ولا شكّ، لأنَّ هذا لم يثبت لا في كتابٍ ولا في سنّةٍ ولا استقرَّ عليهِ إجماع.

أمّا إن اندفعَ إلى هذا الاحتفاءِ والاحتفال بدافعٍ من هذا الحبِّ الذي قلت، وهو يعلم أنّهُ يقومُ بنشاطٍ اجتماعيٍّ يبتغى منهُ خيرٌ دينيّ. إذا كانَ هذا هو رائده وهذا دافعه فلا شكَّ أنّهُ مأجورٌ ومثابٌ على هذا العمل، والأمرُ في ذلك كإقامة المؤسسات التّعليميّةِ التي يبتغى من ورائها خدمةُ شريعةِ الله، كإقامةِ المرافقِ الثّقافيّة التي يبتغى منها تزويدُ المسلمينَ بالفكرِ الإسلاميّ، أنشطةٌ اجتماعيّة يبتغى منها خيرٌ دينيّ، وكالمؤتمرات التي تنفقُ عليها الأموال السّخيّة لذكرى ولادةِ فلانٍ أو فلانٍ أو فلانٍ من أعلامِ المسلمينَ وأطفالهم وتنفقُ على ذلكَ الأموالَ السّخيّة، نشاطاتٌ اجتماعيّة ولكن يبتغى من وراءِ ذلكَ خيرٌ دينيّ. إذا كانَ هذا هو الدّافع فلا شكَّ أن الاحتفاء بمولدِ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلّم في مثلِ هذا الشّهر يقعُ في مقدّمةِ قائمةِ هذه الأنشطةِ الاجتماعيّةِ كلّها، ولا يمكن أن يخالف في ذلك إلا إنسانٌ فرغَ قلبهُ من كوامن الحبّ، ومثلُ هذا الإنسانِ لا يُنَاقَشْ لأنّكَ لا تملكُ جسوراً واصلةً بينكَ وبينه.

أقولُ قولي هذا وأسألُ اللهَ سبحانهُ وتعالى أن يجعلَ رائدنا الإخلاصَ لوجهه، وأن يتوّجَ حبّنا بالانضباط بسنّةِ رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم والسّيرِ على نهجه، أقولُ قولي هذا وأستغفرُ اللهَ العظيم...

حب الله عز وجل ومن ثم حب رسوله هو ثمرة الإيمان.

الإيمان يستقل به العقل إن فكر، ويكفي لدخول الإيمان إلى الفكر والعقل أن يتأمّل الإنسان تأملاً موضوعياً حراً في شواهد النبوة من حياة رسولِ الله، ولكن الذي يحتاج إلى تمكين، والذي يحتاج إلى دفع إنما هو الحب.

٣١٧- تأصيل فقهي لمشروعية الاحتفال بالمولد | ١٩٩١/٠٩/٢٧

إنَّ من بَدَهيّاتِ هذا الدّينِ التي لا يجهلُها أيُّ مسلمٍ: أنَّ اللهَ سبحانهُ وتعالى أقامَ هذا الدّينَ المعظَّمَ على أساسينِ اثنين: أوَّلُهما مبادئُ كلّيّةٌ ساطعةٌ لا يمكنُ أن يتسرَّبَ إليها كلام، ولا يمكنُ أن تكونَ محطَّ نظرٍ أو اجتهاد. الأساسُ الثّاني ساحةٌ اجتهاديّةٌ لحكمةٍ بالغةٍ تركها اللهُ سبحانهُ وتعالى تحتَ أبصارِ المسلمينَ الصّادقينَ وبصائرهم، يجتهدونَ فيها حسبَ رؤيتهم ومَلَكاتِهِمُ الإسلاميّة، وحسبَ ما يجدُّ منَ المصالحِ المتطوّرةِ المختلفةِ إلى أن يأتيَ أمرُ اللهِ سبحانهُ وتعالى وتقومَ السّاعة.

هذهِ حقيقةٌ لا مريةَ فيها، ومن أكبرِ الأدلَّةِ على هذا الأساس الثاني الذي يتمثّلُ في هذهِ السّاحةِ الاجتهاديّةِ قولُ المصطفى عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ فيما رواهُ مسلمٌ في صحيحهِ وغيرُه: ﴿إذا اجتهدَ الحاكمُ فأصابَ فلهُ أجران، وإذا اجتهدَ الحاكمُ فأخطأَ فلهُ أجرٌ واحد﴾.

إنّكم تلاحظونَ كما لاحظَ العلماءُ جميعاً من قبل، منذُ أن سمعوا هذا الكلامَ من فمِ رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلى يومِنا هذا: أنَّ المصطفى عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ يقرِّرُ أوّلاً أنَّ في هذا الدّينِ جانباً اجتهاديّاً يفور بأحكامٍ كثيرةٍ خاضعةٍ للنّظرِ والاجتهاد، ومن ثمَّ فهيَ خاضعةٌ للاختلافِ أيضاً، ذلكَ لأنَّ كلَّ أمرٍ أخضعهُ اللهُ عزَّ وجلَّ لاجتهادِ عبادهِ فهوَ بدونِ ريبٍ خاضعٌ للخلافِ أيضاً في ذلك. وإذا كانَ الباري عزَّ وجلَّ قد شاءَ ببالغِ حكمتهِ أن يكونَ هذا الجانبُ من جوانبِ دينهِ العظيمِ خاضعاً لاجتهادِ عبادهِ بدلاً من أن يكونَ مبتوتاً فيهِ ببيانٍ حاسمٍ جازمٍ من لَدُنه. ومعنى ذلكَ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ ما فتحَ بابَ الاجتهادِ في هذهِ القضايا إلا وفتحَ إليها بابَ الخلافِ في الرأيِ أيضاً.

فكما شرعَ اللهُ سبحانهُ وتعالى في هذهِ السّاحةِ الاجتهاد، شرعَ في الوقتِ ذاتهِ في هذهِ السّاحةِ ذاتها الاختلاف، ومن ثمَّ فهو اختلافٌ تعاونيٌّ لا اختلافُ شقاقٍ وتمسُّكٍ وتنازع، هو اختلافٌ اجتهاديٌّ يثابُ عليهِ المختلفونَ جميعاً، بمن فيهمُ المصيبُ والمخطئُ بتصريحِ كلامِ رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وبيانه، أفي هذا البيانِ من ريبٍ أيُّها الإخوة؟ أم هنالكَ من يشكُّ في كَلِمِ رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وقولهِ؟

ولكنّا على الرّغمِ من هذا البيانِ الواضح، وعلى الرّغمِ من هذهِ الحقيقةِ التي لم يجهلها الأجيالُ السّابقةُ منَ المسلمينَ إلى يومِنا هذا، ما نزالُ نرى أبواباً من الفتنِ تُفَتَّحُ بدلاً من أن تُغلَق، وما هيَ هذهِ الأبواب؟ أبوابٌ تمرَّرُ منها الفتنةُ عبرَ ما شرعَ اللهُ عزَّ وجلّ، وعبرَ ما استنَّهُ رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم. لأنَّ اللهَ سبحانهُ وتعالى شاءَ بعظيمِ حكمتهِ أن يكونَ في الإسلامِ جانبٌ لم يمدَّ فيهِ الشّارع بل تركهُ لاجتهادِ المجتهدين، جاءَ من جعلَ هذا البابَ منفذاً إلى فتنة، ولأنَّ اللهَ سبحانهُ وتعالى شاءَ أن يكونَ هذا الاجتهادُ مبعثاً للاختلافِ وأوصاهم أن يكونَ اختلافهم اختلافاً تعاونيّاً كما قلت، جاءَ من نكَّسَ فجعلَ هذا الاختلافَ اختلافاً عدوانيّاً.

على الرّغمِ من هذهِ الحقيقةِ الواضحةِ نجدُ من يتسرَّبُ إلى ساحةِ الاجتهادِ هذهِ ولا حرجَ في ذلكَ ولا عتب عليه، ولكنّهُ بدلاً من أن يدخلَ إلى ساحةِ الاجتهادِ فيغنيَ هذهِ السّاحةَ بآرائهِ ثمَّ يتركَ للآخرينَ اجتهاداتهم أيضاً، بدلاً عن ذلكَ يدخلُ إلى هذهِ السّاحةِ كما يدخلُ الملاكمُ ساحةَ اللعبِ يتباهى بعضلاتهِ العلميّةِ من أجلِ أن يلكمَ الآراءَ الأخرى فيقضيَ عليها إنِ استطاعَ إلى ذلكَ سبيلاً.

في كلِّ وقت، وفي كلِّ مناسبة، وعلى الرَّغمِ من تكرارنا وتأكيدِنا لهذهِ الحقيقةِ البدهيّةِ الواضحة، وعلى الرّغمِ من أنّنا نسيرُ في هذهِ السّاحةِ نجتهدُ فيما نبتغي أن نجتهدَ فيه، ونسألُ اللهَ أن لا يحرِمَنا منَ الأجرِ الواحدِ إن أخطأنا، وأن يكتُبَ لنا كمالَ الأجرينِ إن أصبنا. وننظرُ إلى إخواننا الذينَ سلكوا مسالكَ أخرى في الاجتهاد، فندعو اللهَ لهم بمثلِ ما دَعَونا لأنفسِنا، ثمَّ نمسكُ ألسنتنا عن قالةِ السّوء، وعن التّجريم، وعن التّخطيء، وعن التّضليلِ والتبديع في حقِّهم.

على الرّغمِ من هذا كلِّهِ نجدُ من يدخلُ إلى هذهِ السّاحةِ كما قلتُ لكم دخولَ الملاكمِ إلى ساحةِ اللعب، وبدلاً من أن يجتهدَ ويقولَ: لا أدري لعلّي أصبتُ أو أخطأت، يجعلُ من اجتهادهِ سيفاً بتّاراً إن استطاعَ قطَّعَ بهِ أوصلةَ الآخرين.

كلَّما جاءَ شهرُ ربيع اجتهدنا ورأينا أنَّ من الخيرِ أن نحتفي بذكرى مولدِ رسولِ الله، وأنَّ منَ الخيرِ أن نعودَ فننتعشَ بسيرةِ المصطفى عليهِ الصلاةُ والسّلام، سيَّما وأنَّ ملاهيَ الدُّنيا ومشاغلَها تُقيمَ بيننا وبينَ سيِّدِنا رسولِ اللهِ حواجبَ صفيقةً تجعلُنا ننسى صلتَنا بهذا السّيِّدِ العظيم، بهذا النّبيِّ المبجَّلِ خاتمِ الرُّسُلِ

والأنبياء، نجتهدُ في هذا الطّريقِ ونقول: إن أصبنا فلنا أجرانِ بإذنِ الله، وإن أخطأنا فلن نحرمَ منَ الأجرِ الواحدِ على كلِّ حال. ولكنَّ إخوةً لنا.. يسخرون، وينكرون، ويبسطونَ ألسنتهم بما يخرجُ عن معنى الإسلام. يأتي من يقول: إنَّ رسولَ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وُلِدَ مرّةً واحدة، فمالكم تولِّدونَهُ كلَّ عامٍ وكلَّ عامٍ كذا وكذا مرّة؟ وكلُّكم يعلمُ أنَّ هذا الكلامَ لا يمكنُ إدخالهُ في معنىً من معاني الدّين، إنّهُ كلامُ سخريةٍ في شكلهِ ومضمونه. هذا الذي يقولُ هذا الكلامَ يعلمُ تماماً أنّهُ إذا كانَ يقصدُ بالولادةِ المعنى الحقيقيّ، فإنَّ أيّاً من النّاسِ لم يزعُم أنَّ رسولَ اللهِ وُلِدَ أكثرَ من مرّة، وُلِدَ ولادةً واحدةً ثمَّ توفيّ وفاةً واحدة، وليسَ هنالكَ أحدٌ ممّن يقيمُ الاحتفالاتِ بذكر سيدِّنا رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يزعمُ أنّهُ بهذا الاحتفالِ استولدهُ من أمِّهِ من جديد، لا لا، حتّى يناقشَنا هذا القائلُ بهذا الكلام.

بقيَ معنىً واحدٌ لهذا الكلام، ما هوَ هذا المعنى؟ أن نستولدَهُ بعقولنا تذكُّراً، أن نستعيدَ ولادتهُ بألبابِنا تذكُّراً بعدَ نسيان، تذكُّراً بعدَ غفلة، فما الذي يضيرهُ وقد حالت كما قلتُ لكمُ الملهياتُ والمنسياتُ وحجبت ذكرى حبيبنا عنّا عاماً كاملاً بما تعلمونَ من أسبابِ الملهياتِ الدّنيويّةِ وشواغلِها؟ ما الذي يقضُّ مضجعه؟ أن نمزِّقَ هذهِ الحُجُبَ في هذا الشّهرِ لنستولدَهُ ذكراً في عقولنا، وذكراً في نفوسِنا وألبابنا، أَيسعدهُ وقد أُسدِلَت فيما بيننا وبينهُ حُجُبُ النّسيانِ وحُجُبُ الإعراضِ وحُجُبُ الاستغراقِ في الملهياتِ والمنسيات، حُجُبُ الاستغراقِ في الشّهواتِ والتّجارةِ والمالِ وما تعلمون، أيسعدهُ أن نبقى على هذهِ الحال؟ وأن لا نعودَ فننتعشَ بذكرى نبيِّنا محمَّدٍ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في كلِّ عامٍ مرّةً لعلّنا بهذا نقفزُ فوقَ هذهِ الحواجزِ فنبقى دائماً معَ رسولنا محمَّدٍ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم في الذّكرى؟ بل ما يضرُّهُ وماذا يضيرهُ أن نتجاوزَ ونقفزَ فوقَ مرحلةِ وفاتهِ فنكونَ معهُ وكأنّهُ لا يزالُ في حياتهِ ذكراً وتصوّراً وعيشاً مع أوامرهِ ونواهيه؟ ماذا يضيرُ في هذا؟

هب أنّنا اجتهدنا فأخطأنا، واجتهدتَ فأصبت، لماذا تضنُّ علينا بالأجرِ الواحدِ وقد أكرمكَ اللهُ بالأجرين؟ ثمَّ ما الذي جعلكَ تكذب بأنّكَ اطّلعتَ على الغيبِ فكنتَ أنتَ الحائزَ على الأجرينِ وكنّا نحنُ الحائزينَ على الأجرِ الواحد؟ لو أنّنا في هذهِ الدّنيا عرفنا من المخطئُ ومن المصيبُ إذاً لم تعد هذهِ المسألةُ مسألةً اجتهادية، لأنَّ الحقَّ قد اتّضحَ فيها، وليسَ معنى كونِ هذا الأمرِ وأمثالهِ أمراً اجتهاديّاً إلا لأنَّ الاحتمالاتِ المختلفةَ تدورُ من حولهِ فتتغشّاه.

وبذلك: فقد كانَ المصيبُ قابلاً لأن يكونَ مخطئاً، وكانَ المخطئُ قابلاً لأن يكونَ مصيباً، ورحمةُ اللهِ عزَّ وجلَّ وسّعت لنا هذهِ السّاحةَ لتضمَّ الجميعَ في دائرةِ رحمته. فمالكَ تضيِّقُ هذهِ الرّحمة؟

وشيءٌ آخر: نحنُ نعلمُ أنَّ من قواعدِ هذا الدّينِ التي لم يختلف فيها العلماءُ قَطّ: أنَّ للمبادئِ وللأحكامِ المختلفةِ أحكامٌ ذرائعيّة، فرُبَّ أمرٍ مباحٍ تحوَّلَ إلى محرَّمٍ لأنّهُ آل إلى أن يكونَ ذريعةً لمحرَّم، وربَّ أمرٍ مباحٍ آلَ إلى مندوبٍ بل واجبٍ لأنّهُ أصبحَ ذريعةً لمندوبٍ أو واجب. الأشياءُ تُعطى أحكامَها عندما يسكت الشّارعُ عن أحكامها مباشرةً، حتّى الذّرائعُ المرتبطة بها، فإذا اجتمعَ النّاسُ لأمرٍ منَ الأمورِ ولم يكن للشّارعِ في ذلكَ نصٌّ قاطع، ننظرُ إلى النّتائجِ المنبثقةِ عن هذا الاجتماع، إذا كانت نتائج مخالفةً لدينِ اللهِ عزَّ وجلَّ تزجّهم في معصية، تحملهم على منكر، فإنَّ هذا المباحَ يصبحُ محرَّماً. أمّا إذا رأينا أنَّ هذا الاجتماعَ الذي لم تكن لهُ سابقةُ عهدٍ ولم يكن معروفاً لا في عصرِ الصّحابةِ ولا التّابعينَ ولا من بعدَهم، ولكنّا نظرنا فرأيناهُ يخرجُ نتائجَ ترضي اللهَ عزَّ وجلَّ في ساحةِ المندوباتِ أو في ساحةِ الواجباتِ فإنَّ هذا العملَ المباحَ يصبحُ مندوباً أو يصبحُ واجباً. قرأنا هذا في بحثِ الذّرائع، وأجمعَ عليهِ العلماءُ جميعاً، فلنفرض أنَّ احتفاءَ المسلمينَ برسولهم بدعةٌ لم ترد في الدّينِ قَطّ، ليسَ عليها نصٌّ لا في القرآنِ ولا في السّنّة، ولكن أليست لنا عقول؟ نتتبّعُ عن طريقِ عقولِنا نتائجَ هذهِ الاحتفاءات؟ منِ الذي يجهلُ منكم أنَّ هذهِ الاحتفالاتِ – سواءٌ عُقدت في بيوتٍ أو مساجد – من الذي يجهلُ أنّها أثمرت ثماراً طيّبةً عظيمة؟ ومنِ الذي يجهلُ أنَّ كثيراً من بيوتاتِ الشّامِ أكرمها اللهُ بالهدايةِ والرّشدِ بعدَ أن كانت غريقةً في بحارِ الضّلالِ والتّيهِ بفضلِ هذهِ الاحتفالاتِ أو سمِّها الموالدَ كما تحبّ.

إذاً: فنحنُ ننظرُ إلى اجتماعاتِ النّاسِ وإلى أعمالهم وأنشطتهمُ المختلفةِ حسبما ننتهي إليهِ من نتائج، هذهِ النّتائجُ هيَ التي تلوّنُ هذهِ الأعمالَ إن بلونِ الطّاعاتِ وإن بلونِ المعاصي.

وشيءٌ أخيرٌ وأخير، وكم أودُّ أن لا نحتاجَ إلى إعادةِ هذا الكلام، نحنُ عندما نجتمعُ معَ إخوةٍ لنا في مسجدٍ أو في دارٍ نتلو سيرةَ رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ما زعمنا يوماً منَ الأيّامِ أنّهُ عملٌ مسنونٌ نصَّ عليهِ الشّارعُ كصلاةِ الضّحى أو كصلاةِ الجمعةِ مثلاً، بل كنّا ولا نزالُ نقولُ هيَ أنشطةٌ اجتماعيّة، إلا أنَّ لهذهِ الأنشطةِ الاجتماعيّةِ آثاراً دينيّةً إيجابيّة، ولما رأينا أنَّ هذهِ الأنشطةَ لها آثارُها الدّينيّةُ المفيدة، وكنّا نحبُّ لديننا الخيرَ ولأنفسِنا الخيرَ من خلالِ هذا الدّين، لا واللهِ لم يكن لدينا اختيارٌ في أن نفتّحَ

السّبيلَ إلى هذهِ الاحتفالات، وإنّنا لنشعرُ أنّنا خونةٌ في حقِّ دينِنا أن نغلقَ أبوابَ هذهِ الاحتفالاتِ ونحنُ نعلمُ نتائجَها الإيجابيّةَ المفيدةَ في هدايةِ النّاس، في ترقيقِ قلوبِهم، في ربطِ قلوبِهم بنبيّهم محمَّدٍ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم، في انتهازِ الفرصةِ في الأمرِ بمعروف، بالنّهيِ عن منكر.

ولكنّي أعودُ فأقول: هب أنّنا اجتهدنا فأخطأنا، أليستِ المسألةُ مسألةً اجتهاديّة؟ فما لهؤلاء الإخوةِ يغلقونَ ساحةً فتحها الله؟ ثمَّ ما لهؤلاءِ الإخوةِ يحرموننا من أجرٍ أكرمنا بهِ اللهُ سبحانهُ وتعالى؟ ومالهم كلَّما جاءت مناسبة فتحوا بابَ فتنةٍ عن طريقِ سخرية، أو فتحوا بابَ سخريةٍ عن طريق تفتيلِ العضلاتِ العلميّة، ونعوذُ باللهِ من أن يتحوَّلَ العلمُ الذي أكرمنا بهِ إلى تفتيلِ عضلاتٍ كالملاكمينَ الذينَ يتصارعونَ في ساحةِ الملاكمة، أقولُ قولي هذا وأستغفرُ اللهَ العظيمَ لي ولكم..



٣١٨- أين هي ثمرة احتفالنا بعيد المولد في حياتنا | ١٩٩٣/٠٩/٠٣

تعلمون أن هذا الشهر المبارك هو شهر مولد المصطفى صلى الله عليه وسلم، ولقد كان الناس فيما مضى يحتفلون في يومٍ واحد من هذا الشهر باعتبار أنه يوم مولد المصطفى عليه الصلاة والسلام، ولكن الناس بعد ذلك انتقلوا من الاحتفال باليوم الواحد إلى الاحتفال بالشهر كله على أنه شهر ولادة المصطفى صلى الله عليه وسلم، بل إن في الناس من أخذوا يحتفلون بهذين الشهرين ربيع الأول والذي يليه على اعتبار أنهما شهرا مولد المصطفى صلى الله عليه وسلم، ولقد قلنا ولا نزال نتفاءل بهذا الاحتفال لاسيما عندما يكون متصاعداً من الاحتفال باليوم إلى الاحتفال بالشهر إلى الاحتفال بالشهرين، وكنا نقول إنا هذا لدليلٌ نابضٌ بيّن على حب هؤلاء الناس لرسولهم محمدٍ صلى الله عليه وسلم.

ولكنا أخذنا ننتظر ثمار هذه الاحتفالات وظللنا ننتظر وننتظر دون أن نجد لهذه الاحتفالات إلا ثماراً قليلة. فهل نعود إلى اليأس من بعد التفاؤل؟ وهل نحارب هذا الاحتفال بعد الترحيب؟ أم ما هو الموقف الذي ينبغي أن نتخذه؟ وكيف يمكن أن نتجاوب شعوراً وعاطفةً مع احتفالات الناس بمولد المصطفى صلى الله عليه وسلم طوال شهرٍ أو شهرين من الزمن؟ ونحن عندما نلتفت عن يميننا وشمالنا لا نجد إلا ما يخالف هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن رأينا بوارق الاقتداء به؛ رأيناها بوارق غريبة ورأيناها خطواتٍ عجيبة، ورأينا مظهر الشذوذ في ذلك كله بالنسبة لما عليه أكثر الناس اليوم.

إن الإنسان المسلم في مثل هذا الشهر المبارك ليشعر بالحزن والأسى وهو يحتفل بمولد رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من أن يشعر بالأمل والتفاؤل، ذلك لأنه يقارن بين ما كان عليه رسول الله وماكان يوصي به رسول الله صلى الله عليه وسلم وما عليه المسلمون اليوم، فيجد بعداً شاسعاً ثم ينظر فلا يجد إلا مزيداً من هذا البعد، ولا يجد هذا البعد مع الأيام إلا وهو يزداد اتساعاً، فكيف لا يكون الاحتفال بذكرى رسول الله صلى الله عليه وسلم مبعث أسى وحزنٍ في فؤاد من ينشد الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم؟!

لقد كان عليه الصلاة والسلام في حياته التي يسلكها مثال الترفع عن زهرة الحياة الدنيا، ومثال التقلب –لا أقول في العدم والفقر فحاشى أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم فقيراً ولكنه كان مثال التقلب– في الاستغناء عن الدنيا ومظاهرها المختلفة كلها، ولأمر ما آثر المصطفى صلى الله عليه وسلم أن يكون هذا نموذج حياته فلم يكن عليه الصلاة والسلام يتمتع إلا بما يتقلب به الفقراء في بيوتهم، ولم يكن يشبع المصطفى صلى الله عليه وسلم من لونين قط من الطعام جمعهما عنده ذات يوم، وهو الذي راودته جبال الشم أن تتحول بين يديه ذهباً، ذلك كله من أجل أن يعلّم أمته أن لا تأسرهم الدنيا، ومن أجل أن يوضح لهم أن أعداء المسلمين في المستقبل القادم سيحاولون أن ينصبوا لهم سلسلة كمائن عن طريق الدنيا وشهواتها وأهوائها. ألم يقل لهم في الحديث الصحيح: ﴿أبشروا وأمّلوا خيراً فوالله ما الفقر أخشى عليكم ولكني أخشى عليكم الدنيا أن تفتح عليكم فتنافسوها كما تنافسها مَن قبلكم فتهلككم كما أهلكتهم﴾

فأين هو الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم، إننا نلتفت إلى حال كثير ممن يحتفلون بذكرى مولد رسول الله أو سيحتفلون، فنجدهم يتقلبون في زُخرف من الدنيا لا أول له ولا آخر، ونجد أن التباهي والتفاخر هو طريق المنافسة بينهم وبين الأنداد، وما أكثر المظاهر التي مرّت بنا والتي تشهد على بعدنا عن هدي المصطفى صلى الله عليه وسلم. فما قيمة أن نحتفل بذكراه ونحن نعاني من هذه الفجوة الكبرى بيننا وبينه.

كان عليه الصلاة والسلام يشد على بطنه الحجر والحجرين من شدة الجوع، وفي مجتمعاتنا من ينصب الموائد الفخمة الضخمة التي تتجمع عليها ألوان مختلفة التي لا تحصى وتشم من خلال هذه الموائد رائحة التباهي والتفاخر أكثر مما تشم رائحة الطعام الذي تطعمه. كيف لا نخجل من حبيبنا محمدٍ عليه الصلاة والسلام عندما نرى أن علاقته بالدنيا كانت على ذلك النحو من الترفع والابتعاد؟ وحياتنا على هذه الحال من التقلب في حمأة الدنيا وشهواتها وأهوائها؟

وأنا لست ممن يحرم المباح، ولكنني ممن يُذكر بأن المباح يصبح حراماً عندما يستعمله الإنسان للمباهات، وكم قلت هذا وكم أوضحت هذا، ما قيمة أن نحتفل بذكرى مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم خلال يومٍ من شهر أو خلال شهرٍ من شهرين أو خلال شهرين كاملين، إذا كانت سيرة المصطفى

صلى الله عليه وسلم تنبض في البكور والآصال بالدعوة إلى الله، وتبليغ دين الله وقيامه بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في بيته في أسرته في أولاده، بعيداً عن ظل أي مصلحة بعيداً عن اتباع أي غاية، بعيداً عن مزج الدين بالسياسة.. أجل بعيداً عن ذلك كله، وإنما يندفع إلى ذلك بقصدٍ واحدٍ لا ثاني له ولا شائبة فيه، ألا وهو استنزال رضا الله سبحانه وتعالى وتطبيق قوله: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

ولقد رأينا كيف تجسد عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا، في دعوته إلى أهل بيته وفي إعلانه أنه لن يفيدهم يوم القيامة شروا نقير، وأنه لن يغني عنهم من الله غناء، وكم كرر هذا وأعاد آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، ثم انتقل يُبلِّغ قومه ثم انتقل يُبلِّغ الدنيا كلها المعمورة التي من حوله، وننظر إلى واقعنا فنجد أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مطويان من حياتنا في بيوتنا وفي مجتمعاتنا وفي أنديتنا وفي لقاءاتنا بين الرفقة والأصحاب.

أين هم الآمرون بالمعروف؟ وأين هم الناهون عن المنكر في بيوتهم؟ ننظر فنجد أن الإهمال قد حل محل اتباع سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لم يعد يبالي أبٌ بمصير ابنته، وإنما يبالي من هذا المصير بشيءٍ واحد، أن ترقص الدنيا أمامها بمستقبلٍ زاهر، وأن يجد أن سيرها في طريق عملها الدراسي أو غير الدراسي سيأتيه في المستقبل القريب أو البعيد بما يُطمئن دنياه وبما يُطمئن رغد عيشه، ولكن مهما كانت هذه الطرق التي تعيش فيها ابنته أو أولاده ملتويةً، مهما شياطين الإنس والجن تترصد في منحنيات هذه الطرق، ومهما كانت السبل لا ترضي الله عز وجل، فإن الشعار الذي يرتفع إذا ذكر الدين، هو إن للدين رباً يحميه.

إن للدين رباً يحميه أجل.. وليس للرب حاجة إلى عباده قط ولكننا نحن المحتاجون إلى رحمة الله عن طريق قيامنا بما أمر الله عز وجل به ولقد قال الله عز وجل: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ﴾ فكان حقاً علينا أن نقتضي برسول الله صلى الله عليه وسلم. لماذا لم يقل المصطفى معرضاً عمّا كلّفه الله به: إن للدين رباً يحميه؟ أليس لدنياك أيضاً ربٌ يحميها؟ أليس لمستقبلك ومستقبل ابنتك وأولادك أيضاً ربٌ يحمي ذلك كله؟ لماذا نسيت الله عز وجل وأنت تتلهث على مصير رزقك ورزق أولادك وبناتك وتذكرت قدرة الله فقط عندما يُكلفك الله بخدمة دينه. أين هي الدعوة إلى

الله أيها الأخوة؟ أين هي الدعوة إلى الله عز وجل التي تتمثل في قوله ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾؟ أين هم المبلغون عن الله طبقاً لما أمر رسول الله وناسب ﴿نضّر الله امرءً سمع مني مقالةً فأبلغها كما سمعها﴾؟ أين هم المقتدون برسول الله وبأصحاب رسول الله؟ أين هي الدعوة؟ أين هم الدعاة؟ ما أكثر الذين يتحركون باسم الإسلام وما أقل الذين يدعون إلى الله سبحانه وتعالى.

ولعلكم جميعاً تعرفون الفرق بين الدعوة إلى الله كما كان يفعل رسول الله وكما كان يفعل أصحاب رسول الله، والتحرك المتراوح في مكانه باسم الإسلام، ما أعظم الفرق بين هذا وذاك. لقد سخرنا الإسلام لأهواءٍ كثيرة ما أكثرها وما أكثر أنواعها، سخّرنا الإسلام لآمال الرئاسة والزعامة وما أكثرها تنوعاً، سخرنا الإسلام لآمالٍ سياسية. قلنا: سنجعل من السياسة خادماً للإسلام، وفتحنا أعيننا بعد لحظات لنجد أننا جعلنا الإسلام خادماً للسياسة كما ترون في مشارق الأرض ومغاربها، ننظر إلى هذا الواقع وننظر إلى سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم فنجد بينهما بعد المشرقين.

العالم الإسلامي يتمزق، والقوى الشريرة تزيده تمزقاً والمسلمون في غفلةٍ عن دينهم، هم بين غني مترف يتقلب من غناه في سَكرٍ بل في سُكرٍ لا نهاية له، وبين فقيرٍ صدّه فقره عن تذكر دينه، وحجبه فقره عن تذكر إسلامه. وصدق رسول الله القائل: ﴿كاد الفقر أن يكون كفراً﴾. وما يخال المعنى الذي قاله رسول الله إلا مصداق لهذا الواقع عندما قال: ﴿فوَاللهِ مَا الفَقْرَ أَخْشَى عليكُمْ ولكنِّي أَخْشَى أن تُبْسَطَ الدُّنْيا عليكُمْ كما بُسِطَتْ على مَنْ كَانَ قبلَكُم فتَنَافَسُوها كَما تَنافَسُوها فتُهْلِكَكُمْ كما أهلَكَتْهُم﴾. وكيف يكون الإهلاك عندما تُفتح الدنيا ويتنافس القوم في سبيلها، يتحول هؤلاء الناس إلى فئاتٍ حسب قواهم المختلفة، فإنسان مجل سباقٌ في هذا الطريق الغير مقدس إلى الدنيا، وإنسان تخلف، وإنسانٌ تخلف كثيراً فحاق فيه الفقر هناك.

وهكذا فإن المجتمع الذي يتنافس فيه الناس في سبيل الدنيا يتحول إلى فريقين، فريقٍ يعاني من فقرٍ متقع وفريق آخر يعاني من مالٍ بل غنىً طائل كبير يرقى به إلى درجة عجيبة وخطيرة من الطغيان، وبانقداح هذين الواقعين المتناقضين يحيق الهلاك، وهذا ما نعانيه اليوم. فقرٌ متقع ينادي بلسان الحال هؤلاء الأغنياء

السكارى ألا أنصفوا مجتمعكم الإسلامي وسدوا هذه الثغرات التي فتحها الشيطان فيما بيننا وبينكم فليس هنالك من مجيب.

الدنيا تجعل من هذا الإنسان الغني السكران بماله إنساناً عجيباً إنساناً متناقضاً، إذا دعى الداعي إلى التفاخر والتباهي فتح يديه وجيوبه كلها وانتثر المال بالملايين متمثلاً على موائد، متمثلاً في حفلات فإذا طوي هذا الواقع ونُشر واقع آخر وجاء من يدعو هؤلاء الأغنياء إلى إنصاف الفقراء المتقعين؛ بسكن يؤون إليه بكن من السكن المعنوي الذي دعا إليه الله عز وجل يحققونه في حياتهم، ببلغة من العيش يحققونها في بيوتهم، وجدت أن الأيدي المفتحة انقبضت وأن الجيوب انكمشت وأن الصناديق أقفلت وأن الألسن بدأت تشكو من قلة السيولة. هذا هو واقعنا فحدثوني وأجيبوني بأي وجهٍ نقبل إلى رسول الله بالاحتفال بذكراه، وكيف بنا أن لا نخجل منه عندما تحتفل الفئات والجماعات بذكرى مولده وهذا واقعنا.

الإنسان الذي يرى نفسه بعيداً عن الله ينبغي أن يداري بعده بشيء من الخجل، ولكن أسوء ما يمكن أن يصل إليه العاصي هو أن يضم إلى عصيانه البعد عن الخجل والتنزه والتحرر عن الحياء. أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا من أولي الأفعال المقربة إلى الله، وأن لا يجعلنا من أولي الدعاوي الكاذبة التي تصدنا عن الله فاستغفروه يغفر لكم.

٣١٩- حقائق ينبغي أن تذيب المتنكرين للمولد خجلاً | ١٩٩٥/٠٨/١١

مما لا ريب فيه ومما اتفقت عليه الأمة أن المكان الذي تشرّف بولادة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه من خير أمكنة الدنيا وبقاعها، ومما لا ريب فيه ومما اتفقت عليه الأمة أيضاً أن المكان الذي دُفن فيه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خير أمكنة الدنيا وخير بقاعها على الإطلاق. ولقد كان الناس ولا يزالون يتيمنون الدار التي ولد فيها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخلون إليها وقد أدركوا أنها من خير بقاع الأرض؛ يتيمنون فيها البركة والخير.

وإذا كان هذا من المعلوم ومن المتفق عليه عند العلماء جميعاً، فلا شك أنّ الزمان صنو المكان لا فرق بين الظرفين المكاني والزماني، إذا كان المكان الذي وِلِدَ فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم من خير بقاع الدنيا، فلا شك أن الزمان الذي ولِد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم في تلك البقعة من خير أزمنة الدهر أجمع - إن لم يكن خيرها جميعاً. ولا أعتقد أنّ في هذا الكلام المنطقي ما يثير شبهة أو ما يتسع لأي نقاش وجدل.

إذا كان المكان الذي ولد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم من خير بقاع الدنيا، فلماذا لا يكون الزمان الذي ولد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم في تلك البقعة من خير أزمنة الدنيا أيضاً؟!

ومن هنا حق للمسلمين أن يحتفلوا بمقدم هذا الزمان الذي يُذكرهم بولادة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما يحق لهم أن يحتفوا ويحتفلوا بالمكان الذي ولد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما يحق لهم أن يحترموا ويُقدسوا المكان الذي دُفن فيه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ لا فرق بين ظرف زمني وظرف مكاني أبداً. وقد علمنا أن الله عز وجل فاضل بين الأزمنة لأمثال هذه العوارض كما فاضل بين الأمكنة، وليس هنالك أي فرقٍ بين زمان ومكان قط.

ومع ذلك أيها الأخوة.. فما من عام تشرق فيه شمس هذا الشهر على المسلمين، ويمر فيه يوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول إلا ويثور الجدل اللانهاية له، وخصام لا معنى له حول مشروعية الاحتفاء والاحتفال بالزمن الذي ولد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم. تثور المجادلات في هذا الشهر وتسير في

طريقٍ مسدود، وتنبعث من قلوب حاقدة لا من عقول مستشكلة، وإنها مصيبة من أكبر المصائب التي حاقت بهذه الأمة، وكان من الممكن أن ينتهي الجدل والخصام إذا لم يجد المسلمون سبيلاً للاتفاق في هذا الأمر الخطير جداً، كان هنالك سبيلٌ لإنهاء هذا الجدل ألا وهو السبيل الذي نبه إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما أعلن في الحديث الصحيح المتفق عليه: أن الإنسان إذا اجتهد في أمرٍ اجتهاديٍ فأصاب فله أجران وإن أخطأ فله أجرٌ واحد، وعندئذٍ يُعذر هذا صاحبه ويعذر ذاك صاحبه وينتهي الجدل وينتهي اللجج والخصام في هذا الأمر.

ولكن حتى لو أن أحد الطرفين سكت وأنهى الأمر فإن الطرف الثاني لا يريد أن يُنهي هذا الجدل أبداً، ويأبي إلا أن يثيره لججاً لا نهاية له، ويأبى إلا أن يُثير من ذلك فتنة دهماء، لا بد أن يُقنع هذه الأمة كلها بقضها وقضيضها أن اليوم الذي ولد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ليست له أي مزية عن الأيام الأخرى، ومن ثم فإن الاحتفال بذكرى ولادة رسول الله تقديراً لهذا اليوم وتقديراً لصاحب هذه الذكرى أمر لا يجوز، وأمرٌ مبتدع، والإنسان يخرج به عن صراط الله سبحانه وتعالى ويتنكب عن المحجة البيضاء، لا بد أن تُقنع هذه الشرذمة هذه الأمة الإسلامية كلها بما يراه عقلها الفاسد، ورسول الله يقول: ﴿إذا اجتهد الحاكم أو المجتهد فأصاب فلها أجران وإن أخطأ فله أجر واحد﴾.

إن كنت يا هذا مجتهداً ومصيباً في اجتهادك فاهنأ بأجرين كتبه الله لك، ولك أو عليك أن تهنئنا بأجر قد كتبه الله لنا، واترك ساحة هذا البحث وابحث عن مسألة أخرى تهم المسلمين وتجمع شملهم، وإن كنا نحن المصيبين وأنت المخطئ فإن علينا أن نهنئك بأنك قد حزت على أجرٍ واحد أو على نصف الأجر الذي يناله المصيب، وما عليك إلا أن تبحث عن موضوع آخر وأن نبحث نحن أيضاً عن موضوع آخر. هذا السبيل ينهي اللجج وينهي الجدل لو أن الأطراف أو الطرف الأدهى والذي يأبى إلا أن يسوق الناس كلهم وراء اجتهاده، لو أنهم التجؤا إلى هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قصارى ما في الأمر أنه أمرٌ اجتهادي، والمصيب له أجران والمخطئ له أجر، هذا ليس من الأمور المعروفة من الدين بالضرورة حتى يتنكر المخطئ عن المحجة البيضاء ويبتعد عن صراط الله تعالى، ومع ذلك فإن أبى هذا الطرف إلا أن يثيرها فتنة، وإن أبى إلا أن يُصدع الصف الإسلامي – إن كان هنالك صف

إسلامي باقٍ، إن أبى إلا أن يُصدع الصف الإسلامي بهذه المسألة، فإننا نلتفت إلى منطق العلم لنقول له:

إن احتفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأزمنة التي شهدت أعمالاً قدسية ورحماتٍ ربّانيّة ومواقف لأنبياء ورسل.. إن احتفاء سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا شيءٌ لا ينكر، ويعرفه كل من كانت له ثقافةً راشدة في دين الله عز وجل، وإلا فمن هو هذا الإنسان المثقف اليقظ الذي يغيب عنه حديث مسلم في صحيحه من رواية ابن عباس ومن رواية أبو موسى الأشعري ومن رواية عائشة رضي الله عنهم جميعاً، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قدِمَ المدينة رأى اليهود يصومون يوم عاشوراء، فسألهم عن ذلك. قالوا: هذا يومٌ صالح أنجى الله سبحانه وتعالى فيه موسى وبني إسرائيل من فرعون، فنحن نصومه احتفاءً بذلك اليوم أو بهذه الذكرى، قال عليه الصلاة والسلام: ﴿نحن أحق بموسى منكم﴾ وأمر رجلاً من قبيلة أسلم أن ينادي في الناس – وكان اليوم يوم عاشوراء – من كان قد أكل يومه هذا فليمسك بقية اليوم ومن أصبح صائماً فليتم صومه. أليس هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم احتفالاً بذكرى زمنية تعود إلى الزمن الذي أنجى الله عز وجل فيه موسى ومن معه من بني إسرائيل.

كيف جاز لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحتفل بذكرى نجاة أخيه سيدنا موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام؟ وأن يأمر أصحابه بذلك عن طريق صوم ذلك اليوم ولا يحق لنا أن نفعل ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم احتفاءً بالذكرى الزمنية لمولد من؟ رسول الله صلى الله عليه وسلم؟

بل من ذا الذي يجهل أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصوم يوم الاثنين، ولما سُئل عن ذلك قال كما ورد في الحديث الصحيح: ﴿ذاك يومٌ وُلدت فيه﴾ فهو صلى الله عليه وسلم يحتفي بذكرى ولادته ويصوم لا في يوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول لكل عام، لا، بل يصوم يوم الاثنين من كل أسبوع؛ لأنه اليوم الزمني الذي شهد ولادة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

هذه الأدلة أيها الأخوة لا مجال للجدل فيها، ولا مجال في المراء في أمرها، ومع ذلك فنحن لا نريد أن نطيل الجدل مع من يأبى إلا أن يسوق الناس وراءه، ولكنّا نقول لهم: هنيئاً لكم اجتهادكم، ولكن دعوا لنا اجتهادنا، والأمران اجتهاديان. أنتم مثابون ونحن مثابون، ونحن لا نستعجل فنقول: أننا نحن

المصيبون وأنتم المخطئون. لا، أي كان منا المصيب وأي كان منا المخطئ فالكل مثاب، ومعنى أن الكل مثاب أن رحمة الله عز وجل تطوف بالطرفين، تطوف بالكل، وأن الله سبحانه وتعالى يبارك عمل هؤلاء وهؤلاء. فما لكم يا أيها الناس تضيقون واسعاً؟ ومالكم تحجرون رحمةً كبيرةً من رحمات الله؟ ثم مالكم تضيقون السبل على من يريد أن يعبّر عن حبه لرسول الله صلى الله عليه وسلم باحتفائه واحتفاله بذكرى ولادته الزمنية، كما أجمعت الأمة كلها على تقديس المكان الذي دُفن فيه رسول الله، والذي ولد فيه رسول الله، بل يخيل إليَّ أنه لو كان هنالك تفاضلٌ بين المكان الذي ولد فيه رسول الله، وأشرق وجوده من تلك البقعة على العالم كله، وبين المكان الذي دُفن فيه رسول الله لكان المنطق يقتضي أن يكون المكان الذي ولد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم أجلّ رتبةً وأقدس مكانةً عند الله سبحانه وتعالى.

فهل لهؤلاء الأخوة الذين شاؤوا أن يتجهوا إلى اجتهاد رأوه، أن يتركونا وشأننا؟ هل لهم أن يتعاونوا معنا في رعاية بقايا وحدة هذه الأمة بقايا هذه الأطلال من وحدة الصف الإسلامي؟ أما آن أن يذوقوا الغيرة على وحدة هذه الأمة بدلاً من أن يذوقوا أنانيتهم في الانتصار لآرائهم؟ سواءٌ كانت هذه الآراء مصيبةً أو كانت مخطئة؟

أما آن للواحد منهم أن يعود لنفسه فيستحي ويخجل عندما يذكر أن أصحابه وجماعته والقائمين بأمر هذا المذهب والترويج له في العالم قد احتفلوا قبل سنوات مضت بذكرى ولادة محمد بن عبد الوهاب، وأنفقوا على ذلك الأموال الطائلة، ودعوا إلى ذلك العلماء من الأقطار وكنت واحداً ممن دُعي، أفيكون هذا العمل لصالح محمد بن عبد الوهاب رحمه الله عملاً مبروراً ثم يكون هذا العمل ذاته لصالح محمد بن عبد الله سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عملاً سيئاً متنكباً عن صراط الله. كيف هذا أيها الأخوة؟! أي عاقلٍ ممكن أن يصدق هذا الأمر؟

تنفق الأموال الطائلة، الأموال الطائلة التي تبلغ الملايين على تجميع الناس تحت مظلة مؤتمرٍ لذكرى ولادة صالحٍ من الصالحين أياً كان وهو محمد بن عبد الوهاب الذي ينسب إليه المذهب الوهابي اليوم، تُنفق الأموال الطائلة على الاحتفاء بذكراه هناك، ولا يجوز لنا أن نحتفي بذكرى مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم لا عن طريق صرف الملايين، لا. عن طريق الاجتماع على سماع قصة ولادته عن سماع أطرافٍ

من سيرته، أن نجتمع في مجلسٍ كهذا المجلس لنتواصى بالتمسك بسنته لنتواصى بتجديد البيعة معه، لا يحق لنا هذا؟ ويحق لأولئك أن يصرفوا الملايين الطائلة على مثل هذا العمل.

ومع ذلك فلنفرض أننا نحن المخطئون، وأولئك المصيبون نحن مخطئون في اجتهاد وهنأنا رسول الله بأن لنا أجر، وهم مصيبون في الاجتهاد ونحن ورسول الله نهنئهم بأن لهم ضعف الأجر الذي أخذناه. إذاً الكل مأجورون، والكل يتحركون في ساحة الرحمة الإلهية. لماذا؟ وليتني أسمع جواباً عن هذا السؤال المكرر لماذا ثم لماذا تسعى هذه الفئة لتقويض البقية الباقية من وحدة الأمة؟ لماذا تستثير الوسائل المختلفة من أجل إيجادِ مزيدٍ من عوامل التدابر والشقاق وإدخال مشاعر البغضاء والأحقاد في النفوس ونحن بحاجةٍ ماسةٍ إلى مزيدٍ من الحب، نحن بحاجة ماسة إلى مزيدٍ من التآلف إلى مزيدٍ من التضامن حتى نتلاقى تحت مظلة هذا الحب، لعمل ينبغي أن نخططه ونقف به في وجه هذه العداوات التي تحاك ضدنا من مشرق الدنيا إلى مغربها.

أعتقد أن هذا الكلام الذي أقوله لا يخفى على عاقلٍ أيها الأخوة وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يعيدنا إلى حظيرة دينه القويم فاستغفروه يغفر لكم.

٣٢٠- هل الاحتفال بذكرى المولد بدعة؟ | ١٩٩٦/٠٧/١٩

في مستهل كل شهر ربيع من كل عام تتجدد أشواق المؤمنين إلى حبيبهم المصطفى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتتضاعف الرغبة لديهم في الرجوع إلى سيرته ودراسة حياته والتبرك بهذه الرحمة التي أغدقها الله علينا في بعثته.

ومع توجه هؤلاء الناس إلى هذه المشاعر في مستهل هذا الشهر من كل عام، يتجدد أيضاً ذلك الجدل العقيم الذي لا ينضبط ولا يريد أن ينضبط بأيٍ من موازين العلم والنظر والمنطق، حول مدى شرعية الاحتفاء والاحتفال بذكرى مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم. وحول مدى شرعية الاجتماع على الإصغاء إلى سيرة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم. في هذه المناسبة من كل عام تتجدد أنشطة بعضٍ من الناس بأعيانهم لينعتوا سواد هذه الأمة بالاستغراق في البدعة والبعد عن الشريعة والعكوف على المحرم، ذلك كله لأنهم يحبون أن يعبروا عن حبهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم، في كل مناسبة، ومناسبة ولادته واحدة منها.

وأنا أحب في هذا الموقف أن أوضح لكم بضوابط العلم مدى شرعية هذا الذي يحتفل به المسلمون، لا أقول في هذا الشهر من كل عام بل في كل مناسبة وكل ما أرادوا أن يجددوا بيعتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

يقول هؤلاء المجادلون إن الاحتفال بذكرى مولد رسول الله بدعة، فما هي البدعة أيها الإخوة؟ سلوهم ما هي البدعة؟

البدعة فيما قاله العلماء: هو طريقة في الدين أو العبادة مخترعة، يراد بالسلوك عليها مضاهاة الشريعة مبالغة في التعبد، هذا هو تعريف العلماء وفي مقدمتهم الإمام الشاطبي للبدعة. إذاً البدعة هي طريقةٌ في العبادة يخترعها الإنسان على أنها في زعمه ويقينه عبادة، وهي ليست كذلك. يضاهي بها أي يُقلد بها شريعة الله سبحانه وتعالى. هذا هو معنى البدعة.

إذاً العادات التي يعتادها الناس في أقوالهم أو سلوكاتهم المختلفة لا يمكن أن تكون بدعة، لأنها ليست طريقةً في العبادة مخترعة، الثياب التي تتطور في حياة الناس، البيوت التي يتطور عمرانها في حياة الناس، وسائل النقل التي تتطور، الدعوة إلى مؤتمرات وندوات وإقامة جامعات وتأليف كتب وطباعتها ونشرها بين الناس.. كلها أمور مستجدة ولكنها لا تدخل في معنى البدعة، لأن الناس الذين يفعلون ذلك لا يخطر ببالهم أنهم يمارسون من خلالها عبادة، الثياب، الأبنية، وسائل النقل، العادات المختلفة المتطورة في المآكل وفي الملابس وفي المؤتمرات والندوات العلمية التي لم تكن معروفةً من قبل.. ليست بدعةً، لأن الذين يمارسونها لا يمارسونها على أنها عبادة كالصلاة، كالحج، كالصوم، كالزكاة ونحو ذلك ولكنها عادات.

نعم هذه العادات بعد ذلك تتفاوت في قيمتها عند الله عز وجل بمقدار نتائجها إيجاباً وسلباً. فالمؤتمرات التي تعقد إذا كانت لها آثارٌ مفيدة للدين، عملٌ محبب وأمرٌ جيد. والندوات التي تصب في فائدةٍ دينية وعلمية يرضاها الله عملٌ جيد. والجامعات التي تُنشأ عملٌ جيدٌ إذا كانت في خدمة الحقائق الإسلامية، أما إذا كان ذلك كله يتجه إلى كيدٍ إلى الإسلام أو محاربة لدين الله عز وجل فهي أمورٌ محرمة، لا لأنها بدعة ولكن لأنها تنتج آثاراً لا يرضى عنها الله سبحانه وتعالى.

والآن تعالوا نتساءل: هل الموالد التي يجتمع الناس للإصغاء إلى سيرة رسول الله من خلالها هل هي عبادة؟ وهل يتصور المجتمعون أنهم بهذا يمارسون عبادةً كالحج والصلاة والصوم؟ إن كان هنالك من يعتقد ذلك فهو مبتدعٌ حقاً، ولكن من هو هذا الذي يتصور أن تداعي الناس واجتماعهم من أجل تذكر سيرة رسول الله وتجديد محبته في الأفئدة؟ من هو هذا الذي يتصور أنها عبادة من العبادات تُمارس كما يمارس المسلمون صلاتهم وحجهم وزكاتهم؟ إطلاقاً هذا غير موجود.. والذين يمارسون عملاً من الأعمال هم أدرى الناس بما يعتقدونه. فأما الذي يقول: لا إنك تعتقد أنك تمارس من خلال هذا المولد عبادة فهو مفتئتٌ، متى دخلت قلبي؟ ومتى عرفت أنني أعتقد أن هذا التلاقي عبادة؟ أنا الذي أعلم أنني أقصد بها العبادة أم أقصد بها نشاطاً اجتماعياً يحقق خيراً دينياً.

الإنسان الذي يفرض علي حكمه، بل على قلبي حكمه، مفتئتٌ في حق الله سبحانه وتعالى وشرعه، لك أن تقول: إياك أن تعتقد أن هذا العمل عبادة من العبادات، لك هذا، بل اعلم أنه نشاطٌ اجتماعي كأنشطة اجتماعية كثيرة أخرى، ولكن يُبتغى من وراء ذلك خيرٌ دينيٌ في هذا الاجتماع، لك أن تقول

هذا وهذا كلامٌ يوضع على العين والرأس. أما أن يأتي من يقوم ويقعد ويكرر ولا يزال يكرر بأن هذه الموالد بدع أو بدعة لأن الذين يجتمعون من أجلها إنما يقصدون أنهم يمارسون بها عبادة من العبادات، مفتئتون على الله عندما قرروا أن يدخلوا قلوب الناس ويفتئتوا على قلوبهم وقد أبعد الله سبحانه وتعالى البواطن، فلا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى، وصاحب هذا القصد وصاحب هذا القلب.

ثم إن الابتهاج بذكرى مولد رسول الله من حيث هو شعور بالابتهاج، لم يقل قائل: أنه أمرٌ مبتدع. الشعور بالابتهاج انفعالٌ أيها الإخوة وليس فعل طوعي. مرت مناسبة عزيزة علي ابتهجت بسببها، أي شعرت بسرور وفرح غامر، من الذي يستطيع أن يقول باسم الله وباسم شرعه: أن هذا الشعور بدعة، وهل أملك أن أصد هذا الشعور من الفؤاد؟

حسناً رسول الله ابتهج بالمناسبة التي مرت في حياته ألا وهي مناسبة ولادته. رُؤي المصطفى صلى الله عليه وسلم –كما ورد في الحديث الصحيح – الذي رواه الإمام أحمد وغيره بسندٍ صحيح، رُؤي في يوم الثاني عشر من شهر ربيعٍ الأول صائماً فسُئل عن سبب ذلك. قال: ﴿ذلك يومٌ ولدت فيه﴾.

انظروا إلى ابتهاج رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه المناسبة، بل انظروا كيف عبر رسول الله عن ابتهاجه بهذه المناسبة بصوم هذا اليوم. فمن هذا الذي يملك أن يصد أمة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الابتهاج بيوم ولادته! ثم من ذا الذي يملك أن يصد أمة المصطفى صلى الله عليه وسلم عن التعبير عن هذا الابتهاج! وكيف يكون التعبير عن هذا الابتهاج يا ترى؟ كيف يكون؟

لا شك أن خير وسيلة للتعبير عن هذا الابتهاج أن نعود فنصغي إلى سيرة رسول الله، أن نعود فنصغي إلى شمائله وحياته، أن نعود فنُثني على رسول الله بما هو أهله أو نصغي على الثناء على رسول الله صلى الله عليه وسلم بما هو أهله. هكذا يكون الابتهاج بذكرى مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكن على أن نعلم ونحن نعلم أن هذا الابتهاج ليس عبادةً كعبادات الصلاة والصوم والحج والنسك وغير ذلك... ولكنه شعورٌ من الابتهاج غامر يدعونا إلى نشاطٍ اجتماعيٍ يبتغى من وراءه خيرٌ ديني.

ولقد قلت لكم فيما أذكر: أنني دعيت مرة من قبل من ينكر علينا هذه الموالد ومن يعدها بدعاً دُعيت من قبلهم إلى مؤتمر يُعقد بمناسبة مرور كذا عام على ولادة محمد بن عبد الوهاب، ولقد أُنفق على

هذا المؤتمر ملايين التي لا أحصيها ولا أعلمها، أرسلت إلى الداعين أقول لهم: إن هذا العمل بدعة فيما تقولون، ومن مقتضى ذلك أن لا أستجيب لدعوتكم، ولكن يا عجباً كيف يكون هذا العمل بدعةً عندما تكون لصالح محمد رسول الله ثم يكون عملاً مبروراً عندما يكون لصالح محمد بن عبد الوهاب!؟ كيف هذا؟

كيف يكون الاحتفال بذكرى محمدٍ رسول الله بدعة، ثم يكون الاحتفال بذكرى مرور كذا عامٍ على ولادة محمد بن عبد الوهاب عملاً مبروراً مشكوراً ومأجوراً؟! وما هي القاعدة العلمية التي قررت أن هذا بدعة وهذا ليس ببدعة؟! أمرٌ واضح، ونحن لا ننكر عليهم ما فعلوا، لأننا نعلم أن هذا المؤتمر كأمثاله من المؤتمرات ليس عبادةً، وإنما هو نشاط اجتماعي يُبتغى من ورائه خيرٌ ديني إن شاء الله، فنحن لا ننكر عليهم، ولكن لماذا يُنكرون علينا عندما نعلن عن ابتهاجنا بمولد رسول الله كما ابتهج رسول الله في يوم ولادته؟ لماذا؟

نعم. يُشترط لكل احتفال بمؤتمر أو ندوة أو لقاء لأي كان أو مولد، أن يكون المجلس خالياً عن المنكرات وأن يكون المجلس خالياً من المحرمات، هذا شرط لابد منه، ذلك لأن كل عادة من العادات إنما تُعد نافذةً مسموحاً بها شرعاً إذا لم تختلط بهذه العادة أعمالٌ محرمة، فأما تلك الموالد التي تُقام في بعض البلاد العربية الأخرى وتشيع فيها سفاهات ومنكرات محرمة فلسنا منها في شيء، وما هي بالموالد التي نتحدث عنها أبداً، ونحن أول من يُنكرها بل ننزه مولد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها.

فإذا ما كان المجلس نقياً صافياً عن الشوائب وكان سدى ولحمة هذا المجلس الإصغاء إلى مشاهد من سيرة رسول الله، مشاهد من شمائل سيدنا رسول الله، الإصغاء إلى مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم بالطريقة الشرعية التي أذن بها الله سبحانه وتعالى فبخٍ بخٍ بهذا العمل. وما أحسن هذه العادة التي تُثمر خيراً دينياً كبيراً، وكم رأينا ونرى من منحرفين اصطلحوا مع الله في مناسبات كهذه المناسبات في مناسبات موالد، وما أكثر ما رأينا أناساً جددوا عهدهم مع الله عز وجل أن يلتزموا بأوامره بعد شرود، وأن يسيروا على صراطه بعد انحراف، كل ذلك بفضل اللقاءات التي هي عادة، ولكنها عادةٌ مباركة تُحقق خيراً دينياً.

فإن قال قائل: إن تخصيص يوم الثاني عشر من ربيعٍ الأول لهذا العمل هو البدعة. قلنا لهم: ومن قال لكم أننا ننسى رسول الله خلال العام كله فلا نذكره إلا في يوم الثاني عشر، من قال هذا؟ من قال لكم: إننا لا نهرع إلى الاحتفال بذكرى مولد رسول الله في كل مناسبة في عقودنا في زفافاتنا في أفراحنا في أتراحنا في كل مناسبة من قال هذا؟ على أن لهذا الشهر خصوصية لا تنكر، فإن الله عز وجل قد فاوت بين الأزمنة كما فاوت بين الأمكنة، وإذا كان هنالك فضلٌ لمكانٍ لسر أودعه الله فيه كعرفة، وفضلٌ لمكان أودع الله فيه سراً عظيماً كالمكان الذي يثوي فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، أفلا يودع الله عز وجل سراً في الزمان الذي يذكرنا بيوم ولادة رسول الله صلى الله عليه وسلم؟

ما الفرق أيها الإخوة بين المكان الذي يحتضن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قبره، والزمان الذي يحتضن ولادة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو اليوم الثاني عشر من ربيع، قل لي ما الفرق حتى تحترم المكان ولا تحترم الزمان. ولكن لعلهم يقولون ومن قال لكم: إننا نحترم المكان، إننا لا نحترم لا مكاناً ولا زماناً.

هذا القدر من الرد على هذا الجدل كافٍ أيها الإخوة، نحن رواد علم ولا نجادل إلا بعلم، تلك هي البدعة كما قد عرفتم معناها، وهذا الاحتفال أبعد ما يكون عن البدعة لأنها عادة وليست عبادة، فمن أبى إلا أن يحكم على ضمائرنا كما يحكم الله عز وجل بأننا نريد بذلك عبادةً فهم مفتئتون كاذبون.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

البدعة هي طريقةٌ في العبادة يخترعها الإنسان على أنها في زعمه عبادة، وهي ليست كذلك. يضاهي بها أي يُقلد بها شريعة الله فمن الذي يتصور أن تداعي الناس واجتماعهم من أجل تذكر سيرة رسول الله عبادة إنما هي نشاطٌ اجتماعيٌ يحقق خيراً دينياً، الشعور بالابتهاج بذكرى المولد انفعالٌ قسري أيها الإخوة وليس فعل طوعي.

٣٢١- محبتنا لرسول الله... دعوى تحتاج لبرهان | ١٩٩٧/٠٧/٢٥

لقد دأب عامّة المسلمين على الاحتفال بذكرى مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم خلال هذا الشهر المبارك من كل عام. ولا شك أن هذا عملٌ مبرور، وليس في الناس من يملك منطقاً يستطيع أن يعتمد عليه في الانكار على من يريد أن يفتخر بانتمائه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو أن يثني عليه بمناسبة أو بدون مناسبة، أو أن يسعى إلى تجديد البيعة له وترسيخ محبته بين جوانحه، ليس في الناس من يستطيع أن يمنع المسلمين عن أن يُعبروا عن مشاعرهم هذه بمناسبة أو بغير مناسبة.

ومن العجيب أن في الناس الذين يحتفلون بذكريات ملوكهم خلال كل عام، ملوكهم الغائبين أو الحاضرين، عندما تمر ذكرى ولادةٍ أو وفاة لأحدهم في هؤلاء الذين يحتفلون بذكرى ملوكهم ويستنطقون الجرائد بهذه الذكريات وبالحديث عن مناقب أولئك الملوك، من ينكر مثل هذا العمل ذاته عندما يكون احتفاءً بذكرى مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا يدري العاقل لماذا يُبيحون هذا الأمر لملوكهم ولرؤسائهم، ويستنطقون صحفهم بالعناوين العريضة الكبرى؛ حديثاً عن نعوت ملوكهم بمناسبة مرور يوم ولادتهم وذكراها ثم يمنعون هذا الحق عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو يمنعون عامة المسلمين أن يمارسوا مثل هذا الحق اتجاه من هو أعلى من ملكٍ ومن رئيس وحاكم، ألا وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم.

إذاً لا يستطيع أحدٌ أن يمنع المسلمين من أن يحتفلوا بطرقهم الخاصة بذكرى مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكن ينبغي أن نعلم أن هذه الاحتفالات كلها إن هي إلا تعبيرٌ عن أن هؤلاء المسلمين لا يزالون أتباعاً لرسول الله، وأن هؤلاء المسلمين يسيرون على هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنهم في كل عامٍ في مثل هذه الأيام يجددون البيعة لنبيّهم صلى الله عليه وسلم.

هذه الاحتفالات لا تعبر إلا عن هذا المعنى، وهذا الكلام لكل مسلمٍ أن يقوله ولا شك، ولكن ينبغي أن نعلم أن هذا الكلام دعوى، فإما أن يكون صاحبها صادقاً وإما أن يكون كاذباً. لك أن تقول في مثل هذه المناسبات: إني أفتخر بانتسابي إلى محمد بن عبد الله خاتم الرسل والأنبياء، ولك أن تعبر عن

إعجابك به وعن حبك له في مثل هذه المناسبة، ولك أن تعبر عن التزامك بالسير على صراطه، ولكن لا تنسى أن هذا كله دعوى تطرحها، ثم إما أن يصدق سلوكك هذه الدعوى أو يكذبها، هذا ما ينبغي أن نقف عنده، يجب أن نتساءل هل تُطابق دعاوينا في مثل هذه الاحتفالات والمناسبات سلوكاتنا وأعمالنا؟

إن كانت مطابقةً فهذا مما يرفع الرأس عالياً ومما يبعث في النفس تفاؤلاً كبيراً. أما إن كانت الدعاوي في واد والأعمال والسلوكات في وادٍ آخر، فلا شك أن المصيبة كبيرة وأن هذه الاحتفالات ستصبح غداً شاهداً علينا بدلاً من أن تكون شاهداً لنا.

عندما ننظر إلى أجهزة الإعلام التي تُغطي العالم العربي والإسلامي كله، نجد الكل يلتقي على الاحتفال بذكرى مولد المصطفى صلى الله عليه وسلم في هذه الأيام. إذاً هنالك شيءٌ يجمعهم هذا الأمر الذي يجمعهم هو اتفاقهم على الافتخار بنبيهم محمدٍ عليه الصلاة والسلام، وعلى تعبيرهم عن إعجابهم به ومحبتهم له واتباعهم لسلوكه وسيرته. فانظر بعد ذلك إلى الواقع تجد أن الواقع يتناقض كلياً أو جزئياً مع ما تترجمه هذه الاحتفالات.

رسول الله صلى الله عليه وسلم دعى فيما دعى إليه إلى جمع الكلمة ونبذ الفرقة وتحطيم أسباب التمزق والخلافات والشتات، هذا ما دعى إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم مستعيناً بكلام الله عز وجل وبيانه الصريح الواضح ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾، وتنظر إلى هؤلاء الذين اجتمعت كلمتهم جميعاً على الاحتفال بذكرى نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم، تنظر إلى واقعهم وإذا بهم متدابرون، وإذا بهم متفرقون، وإذا بهم متخاصمون. شيءٌ عجيب لا يمكن للمنطق أن يحلله أو أن يفهم له تأويلاً.

أما ظاهرة هذا الاحتفال الجامع فينبغي أن يكون عنصراً جاذباً؛ يجذب هؤلاء الناس جميعاً من شتات ويجعلهم يسيرون على نهجٍ واحد ويلتقون على صراط واحد. هذا ما يقتضيه التقاؤهم جميعاً على الاحتفال بذكرى مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولكن تعال فانظر إلى واقعهم تجد كل فئة تسلك وادياً،

تجد كل دولة تتغنى بمبدأٍ وسلوكٍ ومنهج، وتنظر إلى هذه الجامع المشترك فلا تجد له أي سلطان على حياتهم بشكل من الأشكال.

كيف يكون هذا الاحتفال وهذا الاحتفاء بذكرى المصطفى صلى الله عليه وسلم عملاً مرضياً لرسول الله؟ وكيف يكون عملاً مرضياً لله سبحانه وتعالى؟

هذا بكل ما يمكن أن نعبر عنه بعبارةٍ بسيطة وجيزة نوعٌ من الخداع لرسول الله صلى الله عليه وسلم. نُقيم الاحتفالات من أقصى شرقنا الإسلامي إلى أقصى غربه، ومن أقصى شماله إلى جنوبه وتُصغي إلى الكلمات النيرانية التي تتفجر كالبراكين من أفواه المتكلمين، وأجهزة الإعلام كلها تتناقل، يُخيل إليك أن هذه فعلاً أمة واحدة، وأنها تسير على صراط واحد، وأنها غداً سترمي هذا العدو الرابط على أرضنا والمغتصب لحقوقنا سترميه عن سهم واحد وعن قوس واحد، ذلك لأنهم جميعاً يقفون تحت مظلة الإيمان بالله والالتزام بسنة محمدٍ رسول الله صلى الله عليه وسلم. حتى إذا زالت هذه المناسبة وصمت المتكلمون وانتهت أجهزة الإعلام من نقل هذه العبارات ودخلت في برامجها التقليدية الأخرى، نظرت وإذا بكل واحد منهم يسلك طريقاً مناقضاً لطريق الآخر، ذاك يُصر على أن يمد يده الاقتصادية لإسرائيل ويُصر على أن يمضي في تنفيذ الخطة الشيطانية التي تغضب الله وتُغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبالأمس كان يقيم احتفالاً بذكرى مولد رسول الله. والآخر ماضٍ في تمكين الروابط وفي تمتين أواصر الصداقة والود الذي يعجز التعبير البلاغي عن تصويره، بينه وبين هذا العدو الرابض على أرضنا والمستلب لحقوقنا، وبالأمس كان يحتفل بذكرى مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم. وانظر إلى بقية الفئات والناس تجد الصورة التي أحدثك عنها.

أما أن نعبر عن مكنون حبنا لرسول الله فلا يستطيع أحد أن ينكر ذلك حتى ولو كان هذا نفاقاً، وأما الثمرة التي ينبغي أن ننتظرها من وراء هذا الكلام فشيء آخر، لا ثمرة لهذا الكلام في هذا العصر أبداً، وهذا هو الذي جعل إسرائيل ذاتها تحتفل هي الأخرى بمولد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ذلك لأنها نظرت فوجدت أن الأمر لا يكلف شيئاً، لا يمكن أن يجعل الآخرين بهذه الاحتفالات يمارسون عملاً يُهدد أمنها أو يمارسون عملاً يُطبق بيد الخناق عليها، علمت هذا علمت أنه عبارة عن كلام من الكلام فإذاً، فلماذا لا تفعل هي الأخرى هذا الأمر لكي تزيد ما تخادع به المسلمين ولكي تزيد وسائلها

في مكرهم بألوان جديدة من المكر. نظرت إسرائيل فوجدت أنها تسطيع بكل سهولة أن تجمع بين الأمس الذي دنست فيه سمعة رسول الله صلى الله عليه وسلم بزعمها، ولا يمكن أن يُدنس شيء من مكانة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبين أن تحتفل اليوم بذكرى مولده. لا إشكال إطلاقاً في أن تجمع إسرائيل بين التعبير عن حقدها على رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين أن ترضي هؤلاء المسلمين التقليديين بالاحتفال بذكرى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما دام أن الأمر كلامٌ من الكلام، ومادام أن الكلام يُعبر عن حقيقةٍ تتجه ذات اليمين والفعل يتجه ذات الشمال.

تلك هي المشكلة التي يعاني منها المسلمون؛ أنهم يستخدمون الإسلام لمصالحهم بدلاً من أن يخدموا الإسلام بأنفسهم، وتأملوا في الفرق بين الواقعين.

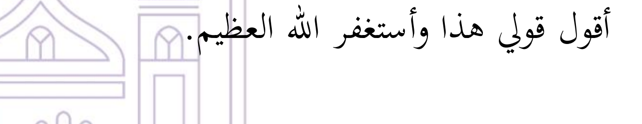
المسلمون الذين كانوا قبلنا، كانوا يخدمون الإسلام بجسومهم وبأرواحهم وبأموالهم وبكل ما يملكون، فكانوا بكل ما يملكونه من أمورٍ خدماً لدين الله سبحانه وتعالى. أما المسلمون اليوم أو أكثر المسلمين اليوم فهم يستخدمون الإسلام لأنفسهم، يجدون أن الإسلام بريقٌ أخّاذ وأنه سمعة عطرة وأن بوسع المسلمين اليوم أن يجعلوا منه سبيلاً آخر لرفع مكانتهم بين الناس، ولجعل الناس ينظرون إليهم على أن لهم تاريخاً مجيداً، وأنهم يملكون حضارةً تليدة خالدة، وهكذا يستخدمون الإسلام لمصالحهم يستخدمون الإسلام عن طريق هذه الاحتفالات، يستخدمون الإسلام عن طريق الحديث عن أمجاده، يستخدمون الإسلام عن طريق المجامع التي يُنشؤونها، يستخدمون الإسلام عن طريق المؤتمرات التي يعقدونها. ولماذا لا يستخدمونه!؟ إذا كان بوسعهم أن يجعلوا منه مطيةً يُسيرونها إلى الجهة التي تتفق مع رغائبهم ومصالحهم، حتى إذا تناقض الإسلام مع مصالحهم أعرضوا ونسوا هذا الإسلام الذي كانوا يتباهون به.

ولو أن الإنسان إنما كان يعامل في هذا أخاه الإنسان لكانت المشكلة بسيطة، فما أيسر أن يخدع الإنسان صاحبه، وفي التاريخ كثيرٌ من هذه الصور، كم خُدع الناس بالناس؟ ولكن الأمر هنا ليس كذلك إن هؤلاء عندما يفعلون هذا إنما يخادعون رب هذا الدين، إنما يُخادعون الإله الذي نزّل هذا الدين على عباده.

كيف يُمكن أن يُستخدم الإسلام لمصلحة؟ كيف يمكن أن أستخدم الإسلام لأهوائي لشهواتي وملاذي ومن ثم أسيّره كما أشاء، أُسيره في الطريق الذي يتفق مع أهوائي، وأصرفه عن الطرق التي لا تتفق مع أهوائي، وهذا هو المعنى الذي يتداوله الناس لكلمة تجديد الدين.. تطوير الدين.. تحديث الدين.. عصرنة الدين، أي استخدام الدين لمصالحنا ولأهوائنا.

وإذا ظل المسلمون سائرين على هذا النهج، فلن تُحل لهم مشكلة، ولن تذوب لهم معضلة، ولن يتحول ذلهم الذي ران على أرضهم إلى شيءٍ من العز، بل لسوف ينتقلون من ذلٍ إلى ذلٍ إلى ذل، ولسوف يتجاوزون شقاقاً وتفرقاً إلى شقاقٍ أكثر، وإلى تفرق أدهى، ذلك لأنها هي النتيجة التي لابد منها لمن يستخدم الإسلام لمصالحه بدلاً من أن يخدم الإسلام بنفسه وبماله وبكل ما يملك. والله سبحانه وتعالى طيبٌ لا يقبل إلا طيبا، والله عز وجل أمرنا أن نقتدي برسولنا بالفعل لا بأقوال فارغةٍ لا ترصدها الأعمال ولا تؤيدها. قال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ والأُسوة ليس معناها الكلام الفارغ وإنما معنى الأسوة القدوة في الفعل والسلوك.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.



٣٢٢- الانضباط بوصايا رسول الله هو الاحتفال الحقيقي | ٢٠٠٩/٠٣/٢٠

مررت صباح هذا اليوم بسوق الحميدية هذا فأعجبني مار أريت من انغماسه بمظاهر الزينة ابتهاجاً لذكرى مولد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ولكن سرعان ما قفز إلى ذهني تساؤل، تساءلت ترى هل تترجم هذه الزينة الجميلة انقياد أصحاب هذا السوق والأسواق الأخرى لوصايا رسول الله صلى الله عليه وسلم في المعاملة؟ هل تترجم هذه الزينة حقاً انقياد أصحاب هذا السوق والأسواق الأخرى للنهج الذي رسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمته من بعده في التعامل، في العلاقات الاجتماعية والاقتصادية المختلفة؟

ولعلكم تعلمون يا عباد الله حقيقةً ما ينبغي أن يجهلها أحد وهي أن الإسلام بعقائده وبعباداته وبشرائعه إنما جعله الله سبحانه وتعالى خادماً لحماية هذه الأسرة الإنسانية من العلاقات السيئة ولحماية الفطرة الإنسانية الداعية إلى الوئام والداعية إلى الحب والوفاق والداعية إلى التعاون في سبيل إسعاد الفرد والمجتمع، ولو علم الله عز وجل أن هنالك علاجاً خيراً من علاج هذا الدين لحماية الأسرة الإنسانية من كل سوء ولِمَدِّ جسور الود والوفاق فيما بينها لوجَّهَ عباده إلى ذلك الدواء، وعدت أتساءل هل هذه الزينة وأمثالُها ترجمة دقيقة للانقياد لما تركنا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم القائل: تركتكم على بيضاء نقية ظاهرها كباطنها لا يزيغ عنها إلا فاجر، عندما نعود إلى هذه الوصايا التي أوصانا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم نجد أن الدين إنما يتمثل في المعاملة ونجد أن شرائع الإسلام تصب جميعها في الأخلاق الفاضلة، وصدق رسول الله القائل: إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق.

وإن الوصايا التي تركَنَا عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ووضعها أمانة في أعناقنا كثيرة يضيق عن استعراضها هذا الوقت المبارك الذي نتلاقى فيه للتوصية والتذاكر بشأن هذا الدين، يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم فيما يرويه أحمد والحاكم في مستدركه من حديث علي: من احتكر الطعام أربعين يوماً فقد بَرِئَ من الله وبَرِئَ الله عز وجل منه، ويقول فيما يرويه مسلم في صحيحه أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل السوق يوماً فوجد رجلاً يبيع طعاماً فأعجبه فأدخل يده فيه فرأى بللاً فقال عليه الصلاة

والسلام للرجل ما هذا يا بائع الطعام؟ فقال أصابته السماء أي أصابه مطر فقال له: هلا جعلته من فوق لكي يراه الناس، من غشنا فليس منا، والحديث يرويه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ويروي جرير بن عبد الله فيما اتفق عليه الشيخان، قال عندما بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام وذهبت لأنصرف جذبني رسول الله صلى الله عليه وسلم من ثوبي فعدت فاشترط عليَّ النصيحة لكل مسلم أي في المعاملة، ويروي واثلة بن الأسقع أن النبي صلى الله عليه وسلم قال فيما يرويه الحاكم والبيهقي بسند صحيح أنه صلى الله عليه وسلم قال: لا يحل لامرئ أن يبيع متاعاً إلا أن يبين ما فيه من عيب، وفي رواية إلا أن يبين ما فيه من آفة، والأحاديث في هذا كثيرة يا عباد الله.

إن الدين في عقائده وعباداته وشرائعه إنما يصب في هذه المعاملة، تعالوا نتساءل مرة أخرى ترى هل الزينة التي غُمِسَتْ أسواقنا في هذا الشهر الأغر فيها هل هي ترجمة صحيحة دقيقة للانضباط بوصايا رسول الله هذه؟ هل هي ترجمة دقيقة لبيعة صادقة مع الله سبحانه وتعالى ثم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ يقول ربنا جل جلاله: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ [الاسراء: ٣٥]، ويقول: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ، أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ [الرحمن:٧-٨]، ويقول: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ، الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ، وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ، أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ﴾ [المطففين: ٤].

عباد الله تعالوا نخترق الظواهر إلى شيء من الباطن لا إلى الباطن كله، ماذا نجد؟ نجد إعراضاً خطيراً عن هذا الذي أوصى به رسول الله، عن هذا الذي أمر به رسول الله بعد أن أمر به الله سبحانه وتعالى، مصانعنا منطوية على كثير من الغش ولا مجال لتفصيل القول في ذلك، مزارعنا منطوية على كثير من الزغل والغش والآفات التي تسري بأخطر الأمراض إلى الجسوم، ادخل إلى أي مزرعة من هذه المزارع أو إلى أكثرها تجد هذه المبالغة الزائدة في استعمال المبيدات، في استعمال الأسمدة الكيميائية التي من شأنها أن تملأ جيوب أصحابها بالمال وأن تملأ جسوم الآكلين بالأمراض الوبيلة الخطيرة، هل أنا مبالغ في هذا الذي أقوله لكم؟ يقول ربنا عز وجل: ﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا﴾ [لأعراف: ٥٦]

أي أصلحت لكم الأرض وجعلتها أداة لرزق وفير وطعامٍ نقيٍّ طاهرٍ مطهر، تتنزل الأمطار من السماء فتسري من ظاهر الأرض إلى باطنها منقاة مصفاة من الشوائب ثم تستقر في خزائن داخل هذه

الأرض ثم إنكم تشربون منها الماء النقي فمالكم أفسدتم هذه التربة حتى أصبح الماء يمتزج بهذه الآفات الخطيرة الوبيلة التي تبعث أمراضاً متنوعة مختلفة في الجسوم؟ ادخل إلى أي مدجنة من هذه المداجن ماذا ترى؟ ترى الأغذية الهرمونية التي تضمن لأصحاب هذه المداجن المال الوفير تفيض به جيوبهم وتضمن المرض الخطير يسرى في جسوم الآكلين، أليس هذا الذي أقوله أمراً مرئياً ظاهراً يا عباد الله؟

قوانينا ترعى حقوق الناس جميعاً، ترعى حقوق المتعاملين على اختلافهم ولكن ما أكثر الذين يحاولون أن يشلوا فاعلية هذه القوانين بالرشوة، وما أكثر أصنافها وأنواعها، فإن جاء من يحذِّر من القوانين والذين وضعوها والمتربصين بالمتلاعبين بها قال الكلام الذي يدل على الاستهانة التامة بهذه القوانين كلها، وإن جاء من يحذره من وقفة قريبة لا ريب فيها بين يدي الله عز وجل تدلل قائلاً إن الله غفور ورحيم، وليس هذا من قبيل الرجاء بعفو الله وإنما هو من قبيل الدلال على الله سبحانه وتعالى، نعم إن الله سبحانه وتعالى يتوب على عباده عندما يقصرون في أداء حقوقه ولكن من قال إن الله سبحانه وتعالى يغفر لعباده إهدارهم لحقوق عباده.

مرة أخرى أقول لكم حقوق الله مبنية على المسامحة أما حقوق العباد فمبنية على المشاحة، في هذا الشهر الأغر في مناسبة هذه الذكرى التي نحتفي بها وما قلت يوماً ولا يمكن أن أقول إن إعلان الفرحة بذكرى مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر غير شرعي بل هو أمر شرعي بل هو ترجمة الحب لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ولكن إما أن يكون هذا الذي يرفع مظاهر الفرحة بذكرى مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم صادقاً وإما أن يكون كاذباً، فإن كان صادقاً أجزل الله سبحانه وتعالى له المثوبة والأجر على هذه الزينة التي يعبر بها عن مكنون قلبه وعن فرحته بذكرى مولد رسول الله وأثابه الله عز وجل بصدق تعبيره أيضاً، بانطباق ظاهر قوله على واقع سلوكه وتعامله مع عباد الله عز وجل، أما إن كان كاذباً فعقابه بين يدي الله عز وجل شديد يا عباد الله.

وبالأمس قلت لكم إن المصطفى صلى الله عليه وسلم إذ يستقبل أمته على حوضه يوم القيامة يجد أناساً من الناس يُطردون كما يُطرد البعير الضال فيقول ألا هلم ألا هلم فيقال له إنك لا تدري كم بدلوا من بعدك، أوصيتهم بصدق التعامل فوضعوا وصيتك وراءهم ظهرياً، قلتَ لهم من غش فليس منا، غشوا وألقوا وصيتك وراءهم ظهرياً، أمرتهم بصدق التعامل فغشوا وكذبوا في التعامل وفعلوا كل ما يضمن لهم

الربح ولم يسألوا عن كل ما قد يسبب لعباد الله عز وجل الأمراض الخطيرة التي تودي بهم إلى الهلاك ومن ثم فإن عاقبة هؤلاء أن يطردوا من حوض رسول الله، وطردهم من حوض رسول الله إنما هو ترجمة لطرد الله لهم عن جنته، عقابهم وبيل، وأغلب الظن أن الذين يموتون ويرحلون عن هذه الدنيا وهم عاكفون على هذا الذي أقوله لكم أغلب الظن أن إيمانهم سيفارقهم وأنهم لن يموتوا على كلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله.

فيا عباد الله عودوا، جددوا البيعة مع رسولكم محمد صلى الله عليه وسلم، اجعلوا هذه البيعة تتويجاً للزينة التي تعبرون بها عن فرحتكم، اجعلوا هذه البيعة تتويجاً للاحتفالات التي تعبرون بها عن فرحتكم، بايعوا المصطفى صلى الله عليه وسلم مجدداً ونفذوا بيعتكم كي لا تكون كلاماً يدور على اللسان ثم يكون القلب بعيداً عن هذا الذي نطق به اللسان، اللهم أصلح لنا شؤوننا كلها، اللهم ألهمنا أن نجدد البيعة لك وأن نجدد البيعة لرسولك محمد صلى الله عليه وسلم في الشهر المبارك الأغر، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

٣٢٣- عبّر عن حبك وحنينك لرسول الله بالطريقة التي تشاء |

٢٠١١/٠٢/١٨

لقد علمتم أن الإيمان بالله ورسوله لا يتم إلا بالنهوض على ركنين لابدَّ منهما. أما أولهما فاليقين الذي يحتضنه العقل، وأما الثاني فالحب الذي يهيمن على القلب. إيمان بعقل عارٍ عن الحب لا يُعَدُّ إيماناً في ميزان الله عزَّ وجلَّ يوم القيامة، وإيمان يتمثل في حبٍّ لا يحتضنه يقين عقلي ليس إيماناً في ميزان الله عزَّ وجلَّ قط. وحديثنا اليوم عن الركن الثاني ألا وهو الحبُّ، وحديثنا عن حبِّ رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي هو فرعٌ عن حب الله عزَّ وجلّ.

لا يُعَدُّ الإنسان مؤمناً بمجرّد يقينه العقليّ بأنّ محمداً رسولٌ حقاً، بل لابدّ من أن تهيمن محبة رسول الله على قلبه، ولقد سمعتم بالأمس الحديث المتفق عليه: ﴿لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ماله وولده والناس أجمعين﴾ قالها رسول الله صلى الله عليه وسلم مبلغاً عن الله ولم يقلها استكباراً أو بدافع من الأنانية قط.

وإذا تبيّنَت هذه الحقيقة يا عباد الله فإن من شأن الحب أيّاً كان نوعه وأيّاً كان المحبوب أن يحتضن كل ما يُذَكِّرُ بالمحبوب، هذه حقيقة لا يستطيع أن ينكرها لا المؤمن ولا الفاجر ولا الملحد أو الفاسق، فمن أحب كائناً ما لابد أن يحنَّ إلى كل ما يذكره بذلك المحبوب ولابدّ أن يهتاج شوقه إلى المحبوب كلّما رأى ما يذكِّرُه به بل كلما مرَّ بما يذكّره به من مكان أو زمان، لا مجال للنقاش في هذه الحقيقة يا عباد الله. فمن أحب شخصاً ما حباً حقيقياً إذا رأى شيئاً مما يخصّه كثوب، كنعل، ككتاب، كأي شيءٍ يتعلق به إذا رآه اهتاجت من جرّاء ذلك الذكرى في قلبه واهتاج الحنين إلى محبوبه من جراء ذلك، إذا مرَّ بمنزل المحبوب اهتاج الحنين إلى المحبوب لدى مرأى ذلك المرء ذلك المنزل وإذا رأى أي أثر من آثاره اهتاج في قلبه الحب لذلك الذي هيمن حبه على قلبه، وإذا مرَّ بزمان أرَّخَهُ بينه وبين نفسه تمَّ في ذلك الزمان أو تلك الساعة لقاء مع محبوبه هيَّجته تلك الساعة إلى ذكريات لا يستطيع أن ينساها أو أن يتناساها، أفي الناس من ينكر هذه الحقيقة يا عباد الله؟

ما أظن في العقلاء من يُنكر هذه الحقيقة التي نتفاعل معها جميعاً لا باختيار منّا بل بانفعال قسري كما تقولون. فتعالوا إلى القلب الذي هيمنت عليه محبة رسول صلى الله عليه وعلى آله وسلّم، هيمنت محبة رسول الله حقاً على قلبه ورأى الثوب الذي كان يرتديه رسول الله، ماذا يفعل مرأى ذلك الثوب أمام عينيه وقد رآه؟ لابد أن يهتاج من جوارحه من أقصى جوانح قلبه الحنينُ إلى المصطفى صلى الله عليه وسلم ولابدّ أن يُبَرِّحَه الشوق إليه.

رأى المنزل الذي وُلد فيه رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، رأى الغار الذي رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم هجرته، مرَّ باليوم الذي وُلد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يحبّ رسول الله، ماذا تفعل به هذه المذكّرات كلّها من زمان أو مكان؟ لا ريب يا عباد الله أن هذه المذكرات تقدح – لا أقول زناد الحبّ، الحبّ موجود – ولكنها تقدح زناد الشوق المبرح إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمن أنكر ذلك فقد أنكر سببه وهو الحبّ.

هذه الأمور التي تذكر الإنسان بأمر من أمور الدين أو بماضٍ من ماضي الرسل والأنبياء شاء الله عز وجل أن يُعْجَنَ كثيرٌ منه بالعبادات، أنتم تقرؤون قول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ اللّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٥٨]. ما معنى هذا الكلام؟

﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ اللّهِ﴾ معلمة من المعالم التي شاء الله عز وجل أن تصطبغ بها حقيقة دينيّة منذ واقعة جرت في أيّام خليل الرحمن سيّدنا إبراهيم على نبيّنا وعليه الصلاة والسلام يوم شاء الله عزّ وجلّ أن يترك زوجته وطفله في ذلك المكان بين الصفا والمروة، تبعته الزوجة وهي تقول إلى أين تَدَعُنَا؟ لم يردّ، إلى أين؟ لم يرد، قالت له: آالله أمرك بهذا؟ أشار إليها أن نعم، قالت: لن يتركنا الله إذاً. واشتد عليها وعلى وليدها الظمأ بعد لأْيٍ وبعد حين فراحت تبحث عن الماء، راحت تسعى صاعدةً إلى الصفا راجعةً إلى المروة عائدةً إلى الصفا راجعةً إلى المروة فشاء الله عز وجل أن يبعث ملكه جبريل على نبينا وعليه الصلاة والسلام فضرب بجناحه الأرض وإذا بالماء ينهمر وينفجر من تلك البقعة وذلكم هو ماء زمزم، من هنا جعل الله عز وجل من الصفا والمروة شعيرتين من الشعائر، لماذا؟ لأنها تحمل ذكرى، إذاً

فبيان الله عز وجل يعلّمنا كيف نحتفل بالذكريات التي تربط ما بيننا وبين ماضٍ يبرز معنى عبودية كثيرٍ أنبياء الله ورسله فوق هذه الأرض.

﴿وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥].

لماذا مقام إبراهيم بالذات؟ إحياءً لذكرى وقوفه في ذلك المكان وصلاته في ذلك المكان.

لماذا الطّواف حول بيت الله العتيق وقد علمنا أن البيت حجارة لا تنفع ولا تضر كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ لكنّ الأمر يحمل ذكرى وبيانُ الله عز وجل يأمرنا أن نحتضن الذكريات التي ترتبط بعاطفة، ترتبط بِوِدٍّ، التي تغذي مزيداً من الحبّ الذي ينبغي أن يهيمن على الفؤاد.

تعالوا ننظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف كان يحتفي بالذكريات المرتبطة بماضٍ عزيزٍ على القلب، بماضٍ يُذكّر بالله عزّ وجلّ وحرماته.

رُئِيَ المصطفى صلى الله عليه وسلم صائماً يوم الاثنين، سُئِلَ عن ذلك، قال: ﴿ذلك يوم ولدت فيه﴾. إذاً هو يحتفي بيوم ميلاده والحديث صحيح يا عباد الله.

هاجر المصطفى صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وسمع أن يهوداً يصومون يوم عاشوراء وقد مرَّ ذلك اليوم فعلاً، سأل عن السبب، قيل له: إنه اليوم الذي أنجى الله عز وجل فيه موسى ومن معه من فرعون وقومه، وتأكّد المصطفى صلى الله عليه وسلم من ذلك فقال: ﴿نحن أولى بموسى من بني إسرائيل﴾ وأمر أصحابه بالصوم ذلك اليوم وأمر من كان مفطراً أن يمسك إلى المساء، إنها الذكرى وإنه إحياء من رسول الله صلى الله عليه وسلم لتلك الذكرى.

اسمعوا يا عباد الله وتأملوا بقلوبكم بأبصاركم وبصائركم. رجع المصطفى صلى الله عليه وسلم من غزوة تبوك ولمّا دنا من المدينة المنورة وبدت طلائع بيوتها قال صلى الله عليه وسلم: ﴿هذه طابة﴾ ثم التفت إلى أحد وقال: ﴿وهذا أحد جبل يحبّنا ونحبّه﴾، لماذا هذا الغزل من رسول الله صلى الله عليه وسلم بجبلٍ هو الصخر الصلد، لا يعي ولا يفهم، هو رمز للجمادات؟ ﴿جبلٌ يحبنا ونحبه﴾؟! لأنه يحمل ذكرى أولئك الشهداء الذين دُفنوا في سفح ذلك الجبل، أولئك الذين يحتضنهم، يحتضن دماءهم الزكيّة، سفح ذلك الجبل.

إذاً هي الذكرى عزيزةٌ على القلب. وإذا كان القلب يحتضن حبّاً أيّاً فلا بدّ أن يحتضن ذكريات هذا الحب، بينهما تلازم دائم يا عباد الله، لا ينبغي لأحدٍ أن يشكّ أو أن يرتاب في هذا مادام أنه من البشر ومادام أن إنسانيته لم يتسرّب إليها شذوذٌ قط.

إذاً فإذا كنا نعلم – وهذا ما أعلمه – أننا جميعاً نتمتع بقسطٍ – وأرجو أن يكون وافراً – من حبّنا لرسولنا محمّد صلى الله عليه وسلم، إذا ثبت أن أفئدتنا تحتضن هذا الحب أفيُعقل أن نمرّ بذكرى من ذكرياته إن بذكريات مكانيّة أو زمانيّة أو بمتاعٍ أو أيّ شيء آخر هل يعقل ألا تحرك هذه الذكريات الزمانيّة أو المكانيّة حقيقة الحب المهيمن على قلوبنا؟ هل يعقل ألا يتحول هذا الحب إلى حنين وشوق إلى هذا الحبيب الذي آمنا به ولم تكتحل أعيننا برؤيته؟ أفيُعقل هذا يا هؤلاء الناس؟ لا يُعقل، لابد أن يستبد الحنين إذا مرَّ بنا ذلك اليوم الذي ولد فيه رسول الله، ذلك اليوم الذي آذن الله عز وجل فيه أن يجعل من وجوده بيننا رحمة للعالمين. يا سبحان الله! حسناً اهتاجت مشاعر الحب بين جوانحنا لمناسبة هذه الذكرى – مكانيّة كانت أو زمانيّة – هل يمكن للحنين الذي يهتاج في الفؤاد، هل يمكن للشوق الذي يهيمن على القلب أن يختفي إذاً لاختنق الإنسان، لابد أن يُعبّر عن حنينه، لابد أن يُعبّر عن اهتياجه، لابدّ أن يُعبّر عن شوقه، كيف يُعبّر؟ له أن يُعبّر بالطريقة التي يشاء، له أن يُعبّر بالآهة، له أن يُعبّر بالنغمة، له أن يُعبّر بالصوم كما فعل رسول الله، له أن يعبر بأي طريقة يُبْرِدُ بها لظى حنينه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، يجلس مع إخوانه كما كان يقول ذلك الصحابيّ: تعالوا بنا نؤمن ساعة، يجمع إخوانه على تلاوة شمائل رسول الله، على تلاوة سيرة رسول الله، على الثناء على الله الذي ابتعث لنا حبيبه محمّداً رسول الله، عندئذٍ يبرد لظى قلبه وحنين فؤاده المهتاج بسبب هذه الذكرى التي مرّت به.

إذاً يا عباد الله لنا – بل لا أقول لنا – لا نستطيع إلا أن نُعبّر عن الشوق الذي يهيمن في أفئدتنا لمرور ذكرى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأيّ طريقة ترضي الله سبحانه وتعالى، المهمّ ألا تكون الطريقة ممّا لا يتّفق مع شرع الله سبحانه وتعالى.

نعم هذه حقيقة فرغنا منها يا عباد الله ولا نقولها لنناقش بها قساة القلوب فهؤلاء لا يناقَشون، وماذا عسى أن يفيد نقاشك لأولئك القساة القلوب ولقد كان جبلُ أحد أَحَنَّ من أصحاب هؤلاء القلوب، ولقد كان جبل أحد الذي تغزل به رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر ليناً من قلوب هؤلاء الناس اليوم،

لكنني أقول هذا الكلام لأعبّر من خلال ذلك بجزء من اشتياقي إلى رسول الله، وأعتقد أنكم تطربون لسماع هذا الكلام لأنكم ترون فيه شيئاً يبرز لظى اشتياقكم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فإن أنكر من أنكر هذا الذي أقول فإنّهم في الحقيقة لا يُنكرون التعبير في هذه المناسبة عن حبّنا لرسول الله، لا يُنكرون التعبير عن الشوق اللاهب الذي يُهيمن لدى مرور هذه الذكرى برسول الله ولكنّهم ينكرون مصدر ذلك ألا وهو حبُّ رسول الله، هذا ما أجزم به، ولا أدَلَّ على ذلك من أنك تتبع حال هؤلاء الناس فلا ترى فيهم من يقوم قبيل الفجر ليقف بين يدي الله مُستغفراً، لا تجد فيهم من يرقّ منه القلب والفؤاد في تلك الساعة من السحر ليبكي ويتخشّع ويتضاءل يستنزل الرحمات من الله عز وجل، لا تجد فيهم من إذا صلى جلس متأدباً في مكان صلاته يتلو أوراد الصلاة البعدية ثم يبسط كفيه بذل وضراعة إلى الله، لا، بل إنّ أحدهم ليقول: إن بسط الكف إلى سماء الرحمة الإلهية بدعة إذاً كان رسول الله مبتدعاً عندما قال: ﴿إن ربّكم حييٌّ كريم يستحي من عباده إذا بسطوا أكفهم إليه أن يردها خائبة﴾، إذاً كان رسول الله مبتدعاً حينما بسط كفيه إلى السماء ليلة بدر، إذاً رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مبتدعاً عندما صلى بالقوم صلاة الاستسقاء وبسط كفيه إلى السماء يستنزل رحمة الله سبحانه وتعالى.

عباد الله: اهنؤوا بأن الله عز وجل غرس محبة رسول الله في قلوبكم، إذاً أبشركم وأبشر نفسي بأننا سنكون غداً من الإخوان الذين تشوّق إليهم رسول الله يوم قال: ﴿وددت أني لو رأيت إخواننا﴾. اللهم اجعلنا بمنِّكَ وجودك من إخوان حبيبك المصطفى الذين تشوق إليهم ولم يرهم، ليست لنا في سبيل هذا الدعاء بضاعة إلا بضاعة الحب والتعبير عن هذا الحب في يوم ذكراه، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

٣٢٤- العلاقة بين الاحتفال بذكرى مولد رسول الله وواقع الأمة | ٢٠١١/٠٢/١١

ها هو ذا شهر ربيع قد أقبل من جديد يحمل في طياته عبق الذكرى، ذكرى ولادة حبيبنا محمد صلى الله عليه وسلم، وهاهم المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها يتهيئون للاحتفال بهذه الذكرى لإلقاء الخطب الرنانة والقصائد الرائعة والكلمات ذات التأثير والمضمون، ولسوف تجند لذلك وسائل الإعلام على اختلافها، ولكني أتساءل – يا عباد الله – عن العلاقة بين هذا الاحتفال المتكرر الذي نسعد به في كل عام وبين واقع الأمة الإسلامية المعرضة عن معظم ما قد جاء به محمد صلى الله عليه وسلم المفتونة بمعظم ما تُسْفِيْه علينا رياح الغرب والشرق من هنا وهناك. ترى هل يقربنا هذا إلى الله عز وجل ورسوله أم إنه يحقق العكس في حياتنا؟ إنني لأشعر أن هذه الاحتفالات الكلامية المتنوعة والمتفننة مع واقعنا الذي وصفت لا يقربنا إلى الله عز وجل، بل إنه ليفرض الخجل من رسول الله صلى الله عليه وسلم، إنه ليفرض علينا أن نستغرق في الاستحياء والخجل من أن نخاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم بكلام لا يؤيده السلوك.

إنكم لتعلمون أنه صلى الله عليه وسلم وَضَعَنَا أمام جملة من الوصايا والمبادئ، الأوامر والنواهي، وأكد لنا أننا إن أخذنا أنفسنا بهذه الوصايا والأوامر فلن يتخلى الله عز وجل عنا ولسوف تتحقق مصالحنا الدنيوية ولسوف يضمن الله لنا مصالح العقبى وسعادة الآخرة أيضاً.

ولكن بعد أن رحل المصطفى صلى الله عليه وسلم ورحل الرعيل الأول ثم الثاني ثم الثالث ثم جاء الرابع ﴿خَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾ كما يقول ربنا سبحانه وتعالى، نسوا أو تناسوا معظم تلك الوصايا، نسوا أو تناسوا معظم تلك الأوامر والنواهي. وإنكم تعلمون أنه صلى الله عليه وسلم قال فيما صح عنه في حديث طويل:

﴿ألا لَيُذَادنَّ رجال عن حوضي -أي ليُطردن رجال عن حوضي- كما يذاد البعير الضال فأقول: ألا هلموا ألا هلموا فيقال إنك لا تدري كم بدلوا من بعدك، فأقول: فسحقاً فسحقاً فسحقاً﴾

وها أنتم ترون يا عباد الله كيف أنَّا ممعنون في تبديل ما أمرنا الله سبحانه وتعالى بالمحافظة عليه، ما أمرنا الله سبحانه وتعالى بأن نكون أمناء وثابتين عليه. ها أنتم ترون المطامع التي تدعونا عن يمين وشمال إلى أن نغير ونبدل ما قد ائتمنه الله سبحانه وتعالى علينا من أوامر.

إنكم لتعلمون أن المصطفى صلى الله عليه وسلم قال فيما صح عنه: ﴿لتجدن أَثَرَةً من بعدي فاصبروا حتى تلقوني على الحوض﴾ قالها في وصية مؤثرة كل التأثير، ونظرنا إلى أنفسنا وذا بنا نَكَّسْنَا هذه الوصية أيضاً، استبدلنا بالإيثار الأَثَرَة والاستئثار وبدلاً من أن نصبر على اللأواء ونصبر على التمسك بالمبدأ الذي أمرنا الله عز وجل به ضجت منا النفوس والأهواء وأسرعنا نعانق أهواءنا وشهواتنا على النقيض مما أوصانا به رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولقد صح – يا عباد الله – أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرَّ مع بعضٍ من أصحابه بِجَدْيٍ ميت ملقى في الطريق فأمسك بأذنه وقال: ﴿من يشتري مني هذا بدرهم) قالوا: يا رسول الله إننا لا نحبه بشيء وماذا نصنع به؟ قال صلى الله عليه وسلم: لله أشد كراهية للدنيا بهذا عليكم﴾. سمعنا هذا الذي يقوله رسول صلى الله عليه وسلم وإذا بنا نضع هذه الدنيا التي قال عنها رسول الله هذا الذي قال نضعها من أفئدتنا في المركز الأول من الحب، ألا ترون ها نحن نُهْرَع مساء صباح لجمع المزيد لا نفرق بين أن يكون سبيل ذلك حلالاً أو حراماً ونظرنا فإذا بنا نجسد الكلام الذي قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿لو كان لابن آدم وادٍ من مالٍ لابتغى إليه ثانياً ولو كان له واديان من مال لابتغى إليهما ثالثاً ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب﴾ لا يغنيه إلا الموت، لا يحجبه عن هذا الحب إلا القبر الذي ينتظره.

هذا هو حالنا بعد أن حدثنا رسول الله عن الدنيا وقيمتها وهو يشبهها بهذا الجدي الميت.

رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لكم: ﴿لا يؤمن أحدكم بالله حتى أكون أحب إليه من ماله وولده والناس أجمعين﴾ وفي رواية صحيحة ﴿ونفسه التي بين جنبيه﴾ ونظرنا وإذا بنا نجعل أفئدتنا لحب كل شيء إلا لحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، أجل هنالك حب تقليدي مكانه اللسان الذي يمدح، مكانه اللسان الذي يثني، أما القلب فقد هيمنت عليه الدنيا، هيمنت عليه الشهوات والأهواء.

عباد الله: إنني أتساءل ترى إذا دُعِيْتُ إلى كلام في مثل هذه المناسبة التي سَنَشْرُفُ بها عما قريب هل الخليق بي أن أتكلم أم الخليق بي أن أصمت الصمت المعبر عن الخجل، الصمت المعبر عن الإقرار بما انتهت إليه حالتنا وبالتضييع الذي أوغلنا فيه لوصايا رسول الله وأوامره التي أكدها فيما بيننا؟ أعتقد أن الأَوْلَى بي هو الصمت، ذلك لأنني إن تكلمت وتحدثت عن الحب الذي لا أجد مصداقاً له وتحدثت عن الاشتياق إلى رسول الله الذي أجد أن بيني وبين رسول الله جدراناً من الأهواء والشهوات والدنيا التي هيمنت على كياني فلسوف أشعر بالكذب ولسوف أشعر بأنني أضع على وجهي قناعاً يناقض ما قد هيمن على قلبي، وأنا أتحدث عن نفسي يا عباد الله، أنا أتصور أن المصطفى صلى الله عليه وسلم ينادينا من بعيد في عالمه البرزخي، في حياته البرزخية: لقد قلت لكم وأنا أودع الدنيا من خلالكم لقد تركتكم على بيضاء نقية ظاهرها كباطنها ما يزيغ عنها إلا هالك فلماذا زُغتم عن هذا الذي تركتكم عليه؟ لماذا استعضتم عن ما يسيل لعابكم عليه مما يبرق أمام أعينكم في شرق أو غرب؟

يقول لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لو علم المسلمون ما في العتمة والفجر» أي لو علموا ما في الخروج لصلاة العشاء وصلاة الفجر إلى المسجد لشهود الجماعة «لأتوهما ولو حبواً» ونظرنا إلى أنفسنا عندما يقبل المساء تتوازعنا السهرات، تتوازعنا المقاصف، تتوازعنا أماكن اللهو ويستمر ذلك بنا إلى هزيع أخير من الليل ثم نعود وقد امتلأ النعاس بأعيننا، فإذا جاء وقت الفجر وفتحت المساجد لاستقبال الوافدين إلى المسجد نظرت وإذا بمعظم هذه المساجد يكاد يكون فارغاً إلا من قلة من الشباب تحرقت قلوبهم وهيمن حبُّ الله عز وجل على قلوبهم، قلة، أما عِلْيَةُ القوم، أما الطبقة الأولى من الناس، أما رجال الأعمال أو أكثرهم أقول فهم في شغل شاغل عن هذا الذي قاله رسول الله: «لأتوهما ولو حبواً» . وإني لأتأمل كيف كانت الطرقات إلى المساجد في عهد رسول الله؟ كانت مظلمة، كانت مليئة بالوحل ومع ذلك فقد كانوا يتسابقون إلى المساجد لشهود صلاة العتمة والفجر، أما اليوم فالطرق معبدة، الطرق واسعة مليئة بالأضواء والمساجد كثيرة وقريبة ومع ذلك فإن عِلْيَةَ القوم وإن أكثر الناس في شغل شاغل عن هذا الذي قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم.

أيها الإخوة: فرق ما بيننا اليوم وما بين الرعيل الأول يتجسد في هذا المشهد الذي ترونه في شخص عمر بن الخطاب يوم وفد إلى الشام استجابة لرجال الدين المسيحي فيها وقد أصرَّ على أن لا يترك مرقعته

التي كان يفضل لبسها دون غيرها. عاتبه أبو عبيدة عتاباً رقيقاً، قال له عمر: أوَّه يا أبا عبيدة لو غيرك قالها، نحن قوم أعزنا الله بالإسلام فمهما ابتغينا العز بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله.

هل تأملتم في معنى هذا الكلام؟ هل تأملتم في المعنى الذي تترجمه هذه الكلمات؟ إنه يقول: إن هذا التاج الذي يتألق فوق رؤوسنا لم ننسجه بمالٍ ملكنا، لم ننسجه بحضارةٍ امتلكناها، لم ننسجه بقوة تَغَلَّبْنَا بها، إنما الذي نسجه يد الله وإنما الذي شرَّفَنَا به ووضعه فوق رؤوسنا هو الله عندما بايعناه صادقين على الإسلام الذي شرفنا به، فلئن سَكِرْنَا بهذا التاج ونسينا المتَوِّج ولئن سكرنا بالنعم، بالحضارة، بالغنى الذي مُتِّعْنَا به ونسينا اليد التي أعطت إذاً فذلك لؤم هو من شر أنواع اللؤم. لا، لسوف يظل الناس جميعاً يعلمون أن عرب الجزيرة لم يرقوا إلى سُلَّمِ الحضارة بجهد وإنما قفز بهم قضاء الله عز وجل إلى أعلى صعد الحضارة عندما التزموا صادقين بهذا الدين.

اليوم ننظر إلى التاج الذي يُزهى به تاريخنا – تاريخ هذه الأمة – ننتشي بالتاج نعم ولكنا نسينا المتوِّج. عباد الله: أيجوز هذا؟ نتحدث عن تاريخ الأمة الإسلامية، نتحدث عن الحضارة العربية التي تغلبت في يوم ما على سائر الحضارات والعلماء الغربيون لا يزالون يعدُّون ذلك لغزاً يستعصي على الشرح والفهم، نحن نتباهى بهذا التاريخ، نتباهى بهذا التاج ولكنا أعرضنا عن المتوِّج، أعرضنا عن الذي شرفنا بهذا التاج وشردت أعيننا إلى بعيدٍ بعيد، شردت أعيننا إلى التقاليد الممجوجة، شردت أعيننا إلى الأهواء وعما قريب ستودعنا الأهواء أو نودعها، وعما قريب سنرحل ولسوف يجد كل واحد منا مقره في حفرة ضيقة لا تكاد تتسع إلا له، ولسوف نحيا ونعود لنقف بين يدي رب العالمين فماذا أنتم قائلون؟ أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

٣٢٥- مأساة الأيدي التي انفضت عن رسول الله وامتدت بالبيعة إلى أعدائه

| ٢٠١٣/٠٢/٠١

مازلنا مع شهر ربيع الأول بل الأنور نتمتع باستضافة هذه الذكرى العزيزة لنا، ذكرى ولادة أفضل الخلق على الله سبحانه وتعالى وأحبهم إليه، محمد بن عبد الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فلنقبل إذاً من مائدة هذه الاستضافة على التمتع بالغذاء الذي يزيدنا حباً له وتعلقاً به وحنيناً إليه وتمسكاً بهديه وشرعه، ألا ولتعلموا يا عباد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يزال معنا، ما يزال مع أمته أمة الاستجابة، ما يزال معنا برعايته لنا وباهتمامه بنا وبشوقه وتحنانه إلينا وبدعائه لنا، وإنها لمعية حقيقية ينبغي أن لا نرتاب فيها. ربما قال قائل: ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات، ألم يقل الله عز وجل: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠].

فأين هي معية الميت منا، وهل هو في ذلك إلا كسائر الذين عاشوا ردحاً من الزمن ثم ماتوا؟ والجواب الذي ينبغي أن نتوجه به إلى هؤلاء الإخوة بيان الله عز وجل أولاً وشرح رسول الله وتأكيده لهذا البيان ثانياً. أما بيان الله فهو قوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ٧]

وهو قوله مرة أخرى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوَاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقاً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ، وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠٠-١٠١]

مما لا ريب فيه أن النداء القرآني القائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوَاْ﴾ إنما يتوجه دائماً إلى سائر المؤمنين على اختلاف عصورهم إلى يوم القيامة. كلما قال البيان الإلهي: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوَاْ﴾ فهو خطاب للمؤمنين جميعاً. إذاً يقول الله عز وجل لنا وللأجيال الآتية والمتصرمة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوَاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقاً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ﴾ والمراد بهذا الفريق كما أجمع المفسرون اليهود، ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ إذاً يقول لنا كتاب الله عز وجل أن رسول الله فينا، هذا هو البرهان الأول.

البرهان الثاني بيان المصطفى لكلام الله عز وجل، إذ يقول فيما يرويه البزار بسند رجاله كلهم رجال الصحيح، وابن سعد بطريق آخر وابن إسحاق بطريق آخر عن المصطفى صلى الله عليه وسلم أنه قال: ﴿حياتي خير لكم ومماتي خير لكم، أما حياتي فأسن لكم السنن وأشرع لكم الشرائع، وأما مماتي فإن أعمالكم تعرض عليّ فما رأيت منها حسناً حمدت الله عليه وما رأيت منها سيئاً استغفرت الله لكم﴾ أفبعد هذا البيان الذي يبينه لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من بيان؟! قولوا إذاً للذين يؤكدون أن المصطفى صلى الله عليه وسلم انقطعت صلته بنا وأن العصى التي يهش بها الرجل إبله خير من المصطفى صلى الله عليه وسلم الذي رحل عنا، قولوا له هذا الكلام الذي ذكرت، سلوه لماذا يجلس في صلاته عند التشهد قائلاً: (السلام عليك أيها النبي) كيف يسلم على من انقطعت صلته بنا ولم يعد موجوداً وعاد كالعصا التي يهش بها الراعي أغنامه، نعم.

عباد الله: إن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا كما يقولون المؤرخون جميعاً وكما ذكر كل من رأوهم حتى من المشركين كانوا مثال التعلق برسول الله، كانوا مثال الحب له والتعشق له، لم يكونوا يصبرون عن الابتعاد عنه ساعة حتى يعودوا إليه فيجلسوا إليه، والحديث في هذا ذو شجون، والسؤال الذي أتوجه به إلى نفسي وإليكم جميعاً: ما هو نصيبنا نحن يا عباد الله من هذا الحب لرسول الله؟ ما هو نصيبنا من ذلك الاشتياق إلى رسول الله؟ ما هو نصيبنا من التعلق برسول الله وهدي رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ مرة أخرى أسمع من يقول: ولكن الصحابة رأوا رسول الله وجلسوا إليه وسمعوا منه فكان حقاً عليهم أن يحبوه وكان حقاً عليهم أن يتعلقوا به أما نحن فقد حيل بيننا وبين رؤيته، لم يُتَحْ لنا أن نجلس إليه، لم يُتَحْ لنا أن نسمع منه فمن أين تسري عوامل الحب له والتعلق به والتحنان إليه وتلك هي حالنا نحن، هكذا يقول قائلهم.

وأقول يا عباد الله في الجواب عن هذا الكلام العجيب: بل العكس هو الذي يقره المنطق، إن المحب إذا أكثر من جلوسه إلى محبوبه وإذا كان دائم الرؤية له والسماع منه فالمفروض أن تبرد لظى اشتياقه إليه والمفروض في هذه الحالة أن يبرد هذا التحنان الذي من شأن البعيد أن يشعر بنيرانه ولواعجه، المفروض من أصحاب رسول الله وهم دائماً يجلسون إليه أن يبرد لظى اشتياقهم له، أما نحن وقد عرفنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، درسنا سيرته، عرفناه في أخلاقه، عرفنا في صفاته التي تعشقه من أجلها أصحابه،

عرفنا كل ذلك ونظرنا وقد حيل بيننا وبين رؤيته المفروض أن تلتهب بين جوانحنا نيران الاشتياق إليه، المفروض أن تتلظى لواعج الرغبة في أن نراه، في أن نسمع منه.

نعم يا عباد الله، إن أبصارنا لم تر ولم تكتحل بمرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن بصائرنا رأت فيه كل ما رآه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكن بصائرنا رأت رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي هو مضرب الإنسانية كلها في الخلق الرفيع السامي العجيب، والذي هو مضرب المثل في الحب لأمته، والذي هو مضرب المثل في اللطف في المعاملة، مضرب المثل في الذوق الرفيع، مضرب المثل في كل ما يدعو القلب في تعشق صاحب هذه الصفات، نعم أبصارنا لم تكتحل بمرأى رسول الله ولكن بصائرنا رأت فيه هذه المزايا كلها فكيف لا نهواه، كيف لا نتعشقه؟ وكأني ببعض منكم يتساءل: ما هي هذه الصفات التي تتحدث عنها؟ لم يُتَح لهم أن يدرسوا سيرة رسول الله، وإن هذا لمبعث أسف شديد.

أأضعكم أمام نماذج يا أيها الإخوة من سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم التي تدعوا القلب إلى أن يتعشقه، الوقت ضيق ولا يتسع ولكن أستعرض بسرعة بعض هذه المشاهد التي تحرك نياط الحب والشوق والتحنان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرى أصحابه يتعبون وكان أولهم تعباً، وكان يراهم يجوعون فكان أولهم جوعاً بل وأكثرهم جوعاً. في غزوة الخندق وأصحاب رسول الله يتسابقون إلى حفر الخندق يستأذن بعضهم بين والحين والآخر إلى بيته لينال بعض الراحة أو ليأكل شيئاً من الطعام ورسول الله لا يدع العمل، رسول الله يحفر، ينقل التراب وقد عصب بطنه الشريف بحجر من الجوع، رأى جابر فيه هذا الذي أهمه وأغمه، دعاه سراً وثلة يسيرة من أصحابه إلى طعيم في داره، جدي فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أن يدعو جميع الأنصار والمهاجرين إلى بيت جابر، ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت جابر لا طاعماً في مقدمة الآكلين بل خادماً، جلس عليه الصلاة والسلام خلف برمة الطعام يخدم وإن بطنه لمعصب بحجر من شدة الجوع، يطلب القصعة تلو القصعة يملؤها بالمرق واللحم والخبز ويقول أعطها لهذه الفئة، أعط القصعة الثانية للفئة الأخرى ويتمتع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنظر الآكلين، لماذا فعل ذلك؟ خشي ألا يكفي الطعام للجميع وأن يقوم بعضهم جياعاً فآثرهم على نفسه وأبى إلى أن

يكون هو الجائع الذي لا يبقى له شيء من الطعام، ولكن الله كان أكرم من كل نبي ومن كل رسول، أليس هو الذي وضع الكرم والحب والرحمة بين جوانح رسول الله؟ قام رسول الله وهو يخدم القوم عن البرمة، يقول جابر: والله لقد قام رسول الله وإن برمتنا لتغط باللحم وإن عجيننا ليخبز وقال كلوا وأطعموا فإن الناس قد أصابتهم مجاعة. كيف لا أعشق رسول الله؟ كيف لا تحبون رسول الله.

بعد الفتح بل بعيد الفتح اهتاجت عوامل الحسب في نفوس أكبر قبيلة من قبائل العرب هذيل، وأقبلوا ليقاتلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم والتقى رسول الله معهم في وادي حنين وكان قد أسلم من أهل مكة آنذاك ما لا يقل عن ألفي مسلم، اشتركوا مع رسول الله لأول مرة في غزوة حنين، ونصر الله المسلمين، وأعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم هؤلاء الذي أسلموا حديثاً أكثر مما أعطى غيرهم تنفيذاً لأمر الله عز وجل الداعي إلى إكرام المؤلفة قلوبهم.

اجتمعت ثلة من الأنصار وأخذوا في همس فيما بينهم يعتبون على رسول الله قائلين: يغفر الله لرسوله يعطي أقواماً ويدعنا وسيوفنا تقطر من دمائهم إلى الأمس القريب، بلغ رسولَ الله هذا الكلام فجمع الأنصار وحدهم دون سائر الناس في واد وألقى فيهم هذه الكلمات – تمنيت لو أن كلَّ منكم حفظها، تمنيت لو أن كلَّ منكم رددها ليرى فيها نبضات الحب، نبضات اللطف، نبضات الذوق الرفيع – أثنى على الله عز وجل ثم قال:

يا معشر الأنصار ما قالةٌ بلغتني عنكم؟ ألم آتيكم ضُلالاً فهداكم الله بي، ومتفرقين فجمعكم الله بي وعالة فأغناكم الله بي؟ كلما قال من ذلك شيئاً أجابوه: بلى لله ولرسول المنة والفضل، سكت رسول الله، ثم قال: ألا تجيبونني يا معشر الأنصار؟ قالوا: نقول بلى يا رسول الله، لله ولرسوله المنة والفضل، عاد يقول: ألا تجيبونني يا معشر الأنصار؟ قالوا مرة ثانية: أجبنا يا رسول الله، لله ولرسوله المنة والفضل، قال: ألا تجيبونني يا معشر الأنصار؟ فوالله لو شئتم لقلتم فلَصَدَقْتم ولصُدِّقْتم أتيتنا طريداً فآويناك، مخذولاً فنصرناك، مكذباً فصدقناك، عائلاً فواسيناك، قولوها، قالوا: لا، بل لله ولرسوله المنة والفضل، ثم قال لهم: أوجدتم يا معشر الأنصار في نفوسكم من أجل لعاعة من المال تألفت بها قلوب أقوام ليسلموا – اللعاعة نبات معروف في الجزيرة العربية سرعان ما يذبل – أوجدتم في نفوسكم من أجل لعاعة من المال تألفت بها قلوب أقوام ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم، ألا ترضون أن يرجع الناس إلى رحالهم بالشاة والبعير

وترجعوا إلى رحالكم – إلى المدينة – برسول الله، فوالله لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به، والذي نفسي بيده لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار، الناس دثاري والأنصاري شعاري، ولو سلك الناس وادياً وسلك الأنصار وادياً لسلكت مسلك الأنصار، ألا فاصبروا، ستجدون أثرة من بعدي، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض، الله ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار.

أرأيتم إلى هذه النفسية العجيبة المتسامية التي تتلألأ خلال هذه الكلمات، أرأيتم إلى هذا الذوق، أرأيتم إلى هذا الحب. أجل هذا هو رسول الله. صحيح أننا لم نره ولكننا رأينا فيه هذه الصفات ببصائرنا ورأيناه كيف يحن إلينا، أجل ألم يقل في الحديث الصحيح: «وددت لو أني رأيت إخواننا» قال قائلهم: ألسنا إخوانك يا رسول الله؟ قال: «بل أنتم أصحابي وإخواني الذي لم يلحقوا بعد» أرجوا وأسأل الله أن أكون وأنتم وكل المسلمين الذين صبروا على الأثرة التي حدث عنها رسول الله وثبتوا على صراط الله أسأل الله أن يكتبنا جميعاً من إخوانه الذين تشوق إليهم.

بقي يا عباد الله أن عليَّ أن أتوجه بعد هذه التذكرة التي تجعل الأفئدة حقيقة تتعشق رسول الله وتحن إليه، بقي أن أتوجه إليه بهتاف يخترق القرون ويصل إلى أذني رسول الله صلى الله عليه وسلم، أتوجه إليه بهتاف لا ينبعث من حلقي بل ينبعث من أغوار قلبي، من أغوار صدر يحن ويئن ويتألم، أقولها باسم وباسمكم جميعاً: مولاي يا رسول الله، إن في أمتك أمة الاستجابة رجالاً يديرون الأمور، يديرون شؤون المسلمين قد أعرضوا عنك بعد إقبال، قد قبضوا أيديهم عنك بعد بيعة، توجهوا بعد أن أعرضوا عنك إلى أعدائك، إلى أحفاد أعدائك الذين خططوا لقتلك، توجهوا بالود والبيعة إلى أحفاد أولئك الذين سمموا الطعام وقدموه لك ليقتلوك به، قلب يتألم يا رسول الله من هذا الذي أراه بعيني ويكاد العقل لا يصدق، أناس مسلمون ذاقوا لذة الإسلام، مؤمنون لا ريب أنهم ذاقوا لذة الإيمان، عرفوك كما عرفناك، ما بالهم يا رسول الله وقد أعرضوا عن هديك، اتجهوا بالود والاستجابة والخدمة لأحفاد أعداء الله، لأحفاد أعدائك يا رسول الله، ها هم أولئك وقد جندوا أنفسهم خداماً وعبيداً لأوامر إسرائيل، حفدة أولئك الذين أرادوا أن يقذفوك بحجارة فوق السطح الذي كنت واقفاً في ظله، أحفاد أولئك الذين قرروا أن يقتلوك بالسم الناعق في الطعام الذي قُدِّمَ إليك، إنهم اليوم قد قرروا أن يكونوا خدماً بل عبيداً لقرارات إسرائيل وما هي قرارات إسرائيل؟ هل هي إلى السعي اللاهث المتجه إلى خنق الإسلام في كيان المسلمين، هل هو إلى

السعي اللاهث كما ترون لتمزيق بقايا الوحدة المتنامية في كيان المسلمين؟ مؤسسات الإسلام تحولت إلى مؤسسات لخدمة هذا العدو وأحفاد أعدائك يا رسول الله، منظمة التعاون الإسلامي ها هي قد تحولت إلى منظمة التعاون الإسرائيلي، الجامعة العربية هذه الجامعة التي تعلن أنها تجمع نثار العرب وهل العرب إلا قلب الإسلام، وهل العرب إلى لباب المسلمين، الجامعة العربية تحولت إلى جامعة للدول الكبرى وللدول الإقليمية التي تتربص بالإسلام.

سيدي رسول الله أشكو إليك هذا، لا أطلب منك الدعاء عليهم فأنت لم تُبْعَثْ لعَّاناً ولم تُبْعَثْ حاقداً ولكني أسألك أن تدعو لهم، ادع الله لهم يا سيدي يا رسول الله وقد علمت مما ذكرت لإخواني الآن أن يبلغك ما نقوله وما نفعله، اسألِ الله عز وجل متضرعاً، متضرعاً، متضرعاً أن يهديهم، أن يعيدهم إلى سنن الرشد، أن يعودوا فيقبضوا أيديهم عن أعدائك وأعداء دينك ويعودوا يوجهوا قلوبهم ثم أيديهم إليك يا رسول الله، يجددون البيعة قبل أن تزول الفرصة، وإني لأذكر جيداً كلمة قالها واحدٌ من هؤلاء الذي نسي إسلامه ويا للعجب، كنت في ضيافة عنده، راح يردد هذا الحديث برطانته الأعجمية: ﴿المسلم للمسلم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا﴾ ووالله لم يتبين لي أنه يهزأ بهذا الكلام إلا فيما بعد عندما رأيته يتعاون مع إسرائيل ومع خدم إسرائيل لإرسال حمم الموت إلينا من أقصى الشمال كما يفعل ذلك أناس في الجنوب.

يا رسول الله: هتاف ينطلق من أعماق الصدور إلى أذنيك بل إلى قلبك: سل ربك أن يعود فيدخل الهداية في قلوب هؤلاء الإخوة، سل ربك أن يوقظهم إلى العودة – والعود أحمد – أن يعودوا إلى صراطك، أن يسعوا سعيهم اللاهث لتوحيد الأمة بدلاً من أن يبذروا بذور مزيد من الشقاق فيها، هذه كلمتي أرسلها باسمي وباسمكم هتافاً من وراء القرون إلى حبيبنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ولا ريب أنها بلغته وها نحن ننتظر حسن الإجابة وبشرى التوفيق، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم..



رجب

٣٢٦- قصة شهر رجب مع صلة الرحم | ١٩٩٩/١٠/١٥

لقد أظلكم شهرٌ من الأشهر المتميزة بين أشهر العام، نوه بها كتاب الله سبحانه وتعالى ونبه إليها رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم في خطبته التي ألقاها يوم حج الوداع، نبه إلى الأشهر الحرم قائلاً: (منها ثلاث متواليات ذو الحجة وذو القعدة ومحرم ورجب شهر مضر الذي بين جمادى وشعبان).

كان النبي صلى الله عليه وسلم ينوه بأهمية هذه الأشهر الحرم، وما سميت حرماً إلا لأن لها حرمة متميزة بين أشهر العام، وكثيراً ما تمر هذه الأشهر بالمسلمين بمختلف بلادهم وأصقاعهم دون أن يتبينوا أهميتها ودون أن يحفلوا بها، ورجب الذي أظلكم اليوم واحدٌ من هذه الأشهر. ومعنى كونها أشهراً حرماً.. أن الإنسان ينبغي أن يعلم أن القربات التي يتقرب بها إلى الله سبحانه وتعالى يؤجره الله عز وجل عليها أجوراً مضاعفة، وأن الآثام والمعاصي التي يرتكبها في هذه الأشهر في جنب الله سبحانه وتعالى يعاقبه الله سبحانه وتعالى عليها عقوبات مضاعفة، هذا باختصار معنى صفة الحرام في هذه الأشهر.

وعندما نتحدث عن القربات ينبغي أن نذكر دائماً بأن أجلّ القربات تلك التي تتمثل في رعاية حقوق عباد الله سبحانه وتعالى، وعندما نتحدث عن المعاصي والأوزار ينبغي أن نعلم أن أخطر المعاصي والأوزار تلك التي يتم من خلالها إهدار حقوق الناس أو حقوق عباد الله سبحانه وتعالى، وكم قلت وذكرت بأن حقوق الله مبنية على المسامحة وحقوق العباد مبنية على المشاحة، لو أن الإنسان رحل إلى الله سبحانه وتعالى بأوزارٍ كثيرة مما بينه وبين الله سبحانه وتعالى فاحتمال مغفرتها كبيرٌ جداً، ولكن الإنسان إذا رحل إلى الله عز وجل وكيانه منطوٍ على إهدار حق من حقوق العباد أياً كانوا، فقد توعد الله سبحانه وتعالى هذا الإنسان أن لا يزحزحه عن الموقف حتى يسامحه صاحب الحق، فإن لم يسامحه صاحب الحق أُخذ من سيئات صاحب هذا الحق وطرح في سيئات هذا الذي أهدر له في دار الدنيا حقوقه. والأشهر الحرم من الأشهر التي ينبغي للإنسان أن يرعى فيها حقوق العباد وأن يعلم أن حق الله منطوٍ في حقوق العباد.

كانت إذا أهلت هذه الأشهر أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فأُغمدت أسلحة القتال، حتى بين المسلمين والمشركين، فما بالكم بالعلاقة السارية بين المسلمين بعضهم مع بعض، واليوم عندما نجد أن شهراً من هذه الأشهر قد أطل على المسلمين، ينبغي أن نذكر أنفسنا وأن نذكر إخواننا جميعاً بأن يعودوا إلى وشيجة الإنسانية وعلاقاتها، أهي قائمة بينهم وبين إخوانهم على الأسس الإسلامية التي جاء بها هذا الدين الحنيف، أم هي مهتزة متلجلجة؟

ومقياس هذا أيها الإخوة أن يعود الإنسان منا إلى فؤاده وإلى قلبه، فإن وجد فؤاده باتجاه عباد الله سبحانه وتعالى سالماً وسليماً لا ينطوي على غل، لا ينطوي على حقد وضغينة، فمعنى ذلك أنه مؤدٍ لحقوق هؤلاء الناس، ولكن إذا شعر – وكل منا يعلم بنفسه – أن قلبه منطو على زغل وأن فيه نقاط سوداء اتجاه اخوانه الأباعد من المسلمين فضلاً عن الأقارب من ذوي الأرحام، فليعلم أنه محجوب عن رحمة الله سبحانه وتعالى، في أعم الأحوال عندما يركن إلى هذا الوضع الذي هو فيه، فكيف عندما يطل شهرٌ من هذه الأشهر الحرم؟

كثيرون هم أيها الإخوة الذين يتذرعون عندما تسوء العلاقة بينهم وبين إخوة لهم، أو أقارب وأرحام لهم، يتذرعون بأن لهم عذراً في ذلك ويتحدثون عن هذه الأعذار طويلاً، وكلها تصب في علاقات مالية، تصب في خلافات من أجل ميراث، تصب في خلافات من أجل نتائج شركة قامت ثم التغت وفسخت، قامت من أجل علاقات بدأت ثم لم تسير على نهجها كما كان ينبغي، علاقات من هذا القبيل يتذرع المهدرون لحقوق إخوانهم وأقاربهم وذوي رحمهم بأنهم ظُلموا وبأنهم قد أُسيء إليهم.

هذا الكلام أيها الإخوة إذا أراد صاحب هذا الحق أن يتورع وأن يحطاط لدينه فليعلم أن عليه أن يغمض العين وأن يحيل حقه من هؤلاء الذين يطالبهم به إلى الله سبحانه وتعالى، ولينفذ وصية الله سبحانه وتعالى إذ يقول فيها: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾. وقال بعد ذلك: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾. وأما إن لم يرد أن يحطاط لنفسه، فليلجأ إلى ميزان الشريعة وما أكثر الذين يهدرون ميزان الشريعة، ويُعرضون عن أوامر الله سبحانه وتعالى إشفاءً لغليل أفئدتهم، وسيراً وراء غرائزهم وطبائعهم، وسيراً وراء اهتياج الحفيظة التي بين جوانحهم. أكثر ما يمكن أن ترى من علاقات بين الناس وأقاربهم؛ علاقات بين الناس

وذوي أرحامهم، مهتزة ليست سائرةً على النهج الذي أمر الله سبحانه وتعالى به، والأسباب ليت أنها أسباب دينية، وليت أن السبب يتمثل في أن الصديق رأى صديقه على منكرٍ فذكره فلم يرعوي فأعرض عنه، إذاً لكان هذا مظهر غيرة على دين الله سبحانه وتعالى، ليت أن هذه الحال بين الرجل وأقاربه وذوي رحمه، كان مرده إلى هذا الذي نقول، لا بل لقد استقرأت ولاحظت وسمعت ورأيت فعلمت أن جل أسباب الخصام بل جل أسباب الأحقاد الكامنة بين الجوانح، مرد ذلك إلى الدنيا، مرد ذلك إلى أهواء، مرد ذلك إلى رعونةٍ من رعونات النفس.

وقد تجد الكثير من هؤلاء الناس يهرعون إلى المساجد يهرعون إلى مجالس العلم، قد تجد كثير من هؤلاء الناس يلهجون بالدين والحديث عنه، ولكن ما أيسر على الإنسان أن يهرع إلى المسجد فيتعود على الصلاة ويعود جسمه على حركات الركوع والسجود خلال أيامٍ معدودة فقط، ولكن ما أصعب أن يكون الإنسان رقيباً على قلبه حارساً على فؤاده أن يبقى أبيض نقياً اتجاه سائر إخوانه المسلمين فضلاً عن أقاربه وذوي أرحامه، ما أصعب أن يبقى الإنسان حارساً على فؤاده وأن يستمر في حراسته هذه إلى أن يأتي ملك الموت فينقله عن هذه الدنيا إلى رحاب الله عز وجل، وعندئذٍ يرحل إلى الله بقلبٍ سليم كما دعا أبو الأنبياء ابراهيم على نبينا وعليه الصلاة والسلام.

الأشهر الحرم ورجب واحد منها، ينبغي أن تُذكرنا أيها الإخوة بهذه الحقيقة، حقوق الله قسمان: حقٌ عادي وحقٌ مضاعف، حق الله المضاعف هو ما بينك وبين إخوانك، هو حق الله، ولكن الله سبحانه وتعالى أقام لنفسه حقاً فيما بينك وبين أخيك من علاقات.

ما أصعب وأغرب من حال الإنسان المسلم أن يدخل شهر كهذا الشهر المبارك عليه، وهو واقعٌ فيما حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم منه إذ قال: ﴿لا يحل لمرء أن يهجر أخاه فوق ثلاث، يقبل هذا فيعرض ويقبل هذا فيعرض وخيرهما الذي يبدأ صاحبه بالسلام﴾، وأنا أعلم أن بيننا في هذه المحلة، ومن حولنا، بل أعلم أن كثيراً ممن يغشون مساجدنا هذه قد تقطعت صلة القربى وصلة الأخوة الإسلامية مما بينهم وبين إخوة في الله، وكأنهم لم يسمعوا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا، بل سمعوا ولكن رعونات نفوسهم تغلبت على تحذير رسول الله صلى الله عليه وسلم، حسناً كان ذلك في الأوقات العامة، واليوم وقد أطل علينا هذا الشهر الحرام، هذا الشهر الذي كان يأمر رسول الله صلى الله عليه

وسلم أن تغمد أسلحة القتال فيه بين المسلمين والمشركين، كيف يمكن أن نستقبل مثل هذا الزمن المبارك وعلاقة ما بيننا وبين إخواننا قائمة على هذا الأمر من أجل لعاعة من المال كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم!؟ بل كيف يمكن أن تكون الصلاة التقليدية في حركاتها شاهداً على أن مثل هذا الإنسان مخلص في دينه لله سبحانه وتعالى، الإخلاص يبرز هنا، الإخلاص يبرز في علاقة الإنسان مع أخيه الإنسان.

خلافٌ مالي... أحل هذا الخلاف إلى الله يعطك الله سبحانه وتعالى ما فاتك مضاعفاً، والله لا يجرب، لكني على يقين من هذا وأضمن هذه الحقيقة.

أساء إليك بكلمة... أحل ذلك إلى الله وتقرب إلى الله بتنفيذ وصيته ﴿ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾.

هذا عندما تكون العلاقة بينك وبين جارٍ لك أو بين أخ لك في الله. فكيف عندما تكون العلاقة بينك وبين قريبٍ لك؟ بين ذي رحمٍ من أرحامك؟!

أتعلم أن قطيعة الرحم من أكبر الكبائر؟

أتعلم أن قطيعة الرحم كما أجمع العلماء جميعاً تساوي ارتكاب الفواحش وشرب الخمر وقذف المحصنات وغير ذلك؟

أتعلم أن قطيعة الرحم أمرٌ حذر الله عز وجل منه في محكم تبيانه بأساليب مخيفة شتى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾. وقف العلماء في دهشة أمام هذا الاقتران ﴿واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام﴾، جعل تقوى الأرحام مقرونة بشكل مباشر مع تقوى الله سبحانه وتعالى، دون أن تكون أداة العطف أداة ترتيب كثم والفاء، لا، استعمل البيان الإلهي الواو ﴿واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام﴾ ثم قال: ﴿إن الله كان عليكم رقيباً﴾.

الإنسان الذي فاض قلبه إيماناً بالله وخوفاً من الله وحباً في الجملة لله سبحانه وتعالى لابد أن يضع المال الذي كان سبب خلافاً تحت قدمه، أن يضع الكلمة النابية التي كانت سبب الخلاف وراء ظهره أن

يضع الأسباب كلها أياً كانت للوقيعة بينه وبين إخوانه أو جيرانه أو أقاربه وذوي رحمه؛ يلقي ذلك كله وراءه ظهرياً تقرباً إلى الله عز وجل وخوفاً من هذا العقاب الذي يتهدد به هؤلاء المعرضين عن هذا الأمر المقدس في تبيان الله سبحانه وتعالى وحكمه.

أيها الإخوة سلسلة من المناسبات الزمنية تمر، كل حلقة منها تذكر كل حلقة منها تذكر بما ذكرت به الحلقة الأولى، وإذا تأملتم وجدتم أن محور هذه التذكرة كلها إنما هي رعاية حقوق العباد. أشهر الحرم تدور على هذا المحور، شهر شعبان وفيه ليلة النصف من شعبان تدور على هذا المحور، أجل ولعلكم جميعاً تعلمون أن الله عز وجل يطلع على عباده في ليلة النصف من شعبان فيقول: ألا هل من داعٍ فأستجيب له ألا هل من مستغفر فأغفر له، يستجيب للداعين ويرجئ أهل الأحقاد وقاطعي الرحم على ما هم فيه. كذلكم إذا جاء رمضان، كذلكم إذا جاءت الأشهر الحرم، كذلكم إذا جاء موسم الحج... هذه السلسلة من المناسبات كلها يدور على محور واحد ألا وهو رعاية حقوق العباد، الدين كله من عقائده إلى أحكامه إلى آدابه إنما جاء من أجل تغذية الشبكة الإنسانية بصلة القربى، من أجل جعل الأسرة الإنسانية أسرة متآلفةً متحابة.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

٣٢٧- نصيحة بين يدي شهر رجب | ٢٠١٢/٠٥/١٨

إن الإسلام لا يتحقق وجوده فعالاً راسخاً إلا إذا انطلق أوله من جذعٍ راسخٍ يستقر في طوايا القلب وانتهى آخره إلا سلوكات مما شرع الله عز وجل وأمر به وحراسة للمبادئ والقيم، وتلك سنة من سنن الله سبحانه وتعالى في كونه.

ما من حقيقة تستطع ظاهرة للأعين راسخة ثابتة إلا ولها جذور باطنة خفية. الجبل الأشم الذي يقاوم الرياح العاتية والزعازع والزلازل ما الذي يجعله راسخاً بهذا الشكل المتغلب؟ إن الذي يجعله راسخاً إنما هو هذا القدر الذي نراه على ظاهر الأرض إذ يكون مبثوثاً بشكل مخروطي في داخل الأرض، فذلك الجزء الخفي من الجبل هو الذي يبعث فيما نراه من مظاهر الجبال الاستقرار والثبات. والشجرة المعطاءة الوارفة الظلال ما الذي يجعلها تتنامى وتعطي ثمارها الشهية؟ إن الذي يجعلها كذلك إنما هو الجذور إذ تتشابك في تربة الأرض وتسري في أغواره. والبناء الباسق العظيم الذي يزدحم بسكانه في الأعلى وفي الأوسط والأدنى ما الذي يجعلهم يستقرون فيه آمنين مطمئنين؟

إن الأساس الخفي الراسخ الذي يبعث في ذلك البناء القوة وسر الثبات، أجل تلك هي سنة من سنن رب العالمين سبحانه وتعالى، ما من ظاهر تراه العين إلا وله باطن يحمله، والظاهر محمول وليس حاملاً، أقول هذا بين يدي ما أريد أن أقوله لكل واحد منكم بل ما ينبغي أن أقوله لنفسي، من كان يريد أن يتبين مدى رسوخ الإسلام في كيانه الظاهري فليعد إلى الباطن وليعد إلى طوايا قلبه وليبحث عن جذور ذلك الإسلام الذي يتبدى ظاهراً من السلوك والأعمال العضوية فإن وجد هذه الجذور راسخة في طوايا القلب فليحمد الله عز وجل على أن إسلامه حقيقة، مظهر وروح، شكل ومضمون، أما إن عاد فبحث عن جذور هذا الإسلام في طوايا قلبه ولم يجد في فؤاده إلا التعلق بالأهواء والشهوات، إلا الرعونات، إلا العصبيات، إلا حظوظ النفس والهوى فليعلم أنه ليس من الإسلام الذي أمر الله عز وجل به في شيء، إن إسلامه أشبه ما يكون بشجرة أثبتت على ظاهر من الأرض دون أن يكون لجذورها نصيب من

باطنها، ماذا تنتظر بهذه الشجرة التي أثبتت شكلاً على ظاهر الأرض إلا أن تسفيها الرياح ذات اليمين أو ذات الشمال، كذلكم الإسلام.

ولا شك أن فينا من قد يسأل أيها الإخوة ما هو الباطن الذي ينبغي أن نضمنه لإسلامنا الظاهري؟ كيف يمكن أن نحصل على جذور خفية تستقر في بواطن أفئدتنا لتبعث في إسلامنا الظاهري حقيقته وروحه وفاعليته؟ الجواب عن هذا أيها الإخوة – وينبغي أن أختصر القول جهد الاستطاعة – إن السبيل إلى حصول هذا الباطن يتمثل في خطوتين اثنتين، أن يعرف المسلم ربه، فالمسلم الذي لم يعرف بعد ربه ليس مسلماً حقيقة.

لمن هو مسلم؟ المسلم الذي لا يعرف ربه هو مسلم في الحقيقة لأهوائه، لرعوناته، لملاذه، إذاً الخطوة الأولى أن يعرف المسلم ربه، يعرفه بصفاته، يعرفه بأسمائه الحسنى، يعرفه بنعمه التي تتوالى إليه، يعرفه برسائل الحب التي لا تنقطع سلسلتها عنه، يعرفه بذلك، فإذا عرفه وتبينه انقدحت له من هذه المعرفة مشاعر الحب لهذا الإله جل جلاله، ولقد قلت بالأمس كلاماً أعيد طرفاً منه اليوم، من ربط نعم الله عز وجل بذاته العلية لابد أن يعشق الله سبحانه وتعالى، ذلك لأن الإنسان في كل دقيقة يستقبل نعمة جديدة من عند الله سبحانه وتعالى، فإذا أتيح له أن يكون يقظاً يربط هذه النعم بالمنعم، يربط رسائل الحب بمرسلها كيف تتصور أن يؤول حال هذا الإنسان وإلام سيتحول قلبه؟ لا شك أن المحبة التي فطر اللهُ الإنسانَ عليها لخالقه عز وجل ستستيقظ وسينقدح زنادها يا عباد الله.

وأقول لكم شيئاً آخر: إن عوامل الحب في حياة الإنسان لا تزيد على ثلاثة عوامل، أحدها الجمال، وهل في الكون أجمل ممن خلق الجمال؟ ثانيها الإحسان، وهل في الكون من يحسن إليك غيره؟ ثالثها العظمة، وهل ينبهر الإنسان بعظمة مخلوق مع وجود هذا الخالق الذي خلق فأبدع فصور؟ هذه هي عوامل الحب، وكلها مجمتعة بل محصورة في ذات الله سبحانه وتعالى، فإذا ربطت نعم الله عز وجل الوافدة إليك بالمنعم – ولا أريد أن أعدد هذه النعم، وهل يتسع الزمن لتعدادها؟ هل يتسع العمر لبيانها – أجل إن ربطت هذه النعم بالمنعم عشقت الله سبحانه وتعالى، فضلاً عن صور الجمال التي أكرمك الله عز وجل بها، منها ما أكرم عينيك بها، ومنها ما أكرم فمك به، ومنها ما أكرم شمك وأنفك به، ومنها ما

أكرم سمعك به، كل ذلك صور من الجمال يمتعك الله سبحانه وتعالى بها، وكلكم يعلم ذلك، فإذا عرفت الله عز وجل إذاً بصفاته ولطفه ونعمه التي تفد إليك لابد أن تحبه.

وإذا أحببته طردت محبتك له محبة الأغيار كلها، طردت محبتك للخالق سبحانه وتعالى محبة الدرهم والدينار، محبة الدنيا بكل ما فيها، محبة الذات، محبة العصبية والأهواء، نعم ويصبح عندئذٍ قلبك وعاءً قدسياً لحب واحد لا ثاني له ألا وهو حبك لله سبحانه وتعالى، عندئذٍ يسري سر هذا الجذع الذي هيمن على قلبك إلى السلوكات الظاهرة في كيانك، عندئذٍ يكون انقيادك لأمر الله عز وجل انقياداً في الظاهر والباطن، ولكأنك تقول ما قاله موسى الكليم ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ [طه: ٨٤].

عندئذٍ يكون انقيادك لأوامره، حراستك للقيم وللمبادئ، كل ذلك منبعثاً من حرقة في فؤادك، من شوقٍ إلى مولاك وخالقك سبحانه وتعالى، هذا هو الجواب عن هذا السؤال يا عباد الله. وإذا كان هذا الكلام واضحاً فما أحوج إخوة لنا من بعيد أو قريب أن يتبينوه. وأنا عندما أقول ما أحوج إخوة لنا والله يعلم أن هذا الشعور الذي أعبر عنه بهذه الكلمة لا ينبثق إلا من إشفاق، لا ينبثق إلا من تحنان، هؤلاء الإخوة الذين حُجِبُوا عن محبوبهم الحقيقي، هؤلاء الإخوة الذين هيمنت الدنيا على أفئدتهم أشكالاً وألواناً، من عصبية، من استكبار، من تعشق للمال، من حقد وضغينة يهتاجان في الفؤاد، مرض أسأل الله سبحانه وتعالى أن يعافيني ويعافيكم ويعافي هؤلاء الإخوة من ذلك، هذا الداء هو الذي يجعلهم يمعنون في القتل، هو الذي يجعلهم يمعنون بسفك الدماء، دماء من؟ برآء آمنين، كم وكم فكرت وفكر غيري ترى ما الفائدة التي يعود بها هؤلاء الإخوة إذ يرون أن الثكل قد داهم نساءً ما كُنَّ ثاكلات، كُنَّ سعيدات في بيوتهم مع أزواجهن وأهلهن، ماذا استفادوا عندما جعلوا اليتم يفَاجّئ به أطفال صغار كانوا آمنين في حجور آبائهم وأماتهم وإذا بهم ينظرون ليجدوا أنفسهم يتقلبون في بيداء موحشة من اليتم لا حد لها.

أنا أسأل بم رجع هؤلاء الإخوة؟ ما الربح الذي رجعوا به؟ إن كانت هنالك فائدة رجعوا بها تتسامى وتعلو على هذا الأسى الذي تسببوه لأناسٍ برآء آمنين فلعل المنطق بشكل ما يدافع عنهم، ولكن أعود فأسأل ما الربح المالي الذي عادوا به من وراء هذا الأمر؟ قيل لي إنها مخدرات أخذوها فهيجت أعصابهم وجعلتهم يشمئزون من الحياة وجعلتهم يعشقون الدم ورؤيته والقتل ومظاهره، قلت: لا، الإنسان إنسان ولا يمكن أن تُمْسَخَ إنسانية الإنسان بهذا الشكل العجيب له. إذاً السؤال وارد، وأنا أقول: إن هؤلاء الإخوة

مؤمنون بالله وإن لم يكونوا كذلك فبوسعهم أن يقولوا لسنا من الله ومن دينه في شيء، لكننا لا نقول هذا، نقول إنهم مؤمنون بالله، كيف إذاً يمزقون حرمات الله، يقول لهم مولاهم وخالقهم: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً﴾ [النساء: ٩٣].

كيف يمكن أن أكون مؤمناً بالله وأتحمل هذا التهديد وهذا الوعيد وهذا الغضب الذي يترائى من خلال ألفاظ هذه الآية؟ هذا شيء، شيءٌ آخر، شهر رجب يطل وعما قريب سيهل، وشهر رجب واحد من الأشهر الحرم التي حرم الله سبحانه وتعالى في آيات متعددة ابتداء القتل فيها ولو كان بحق، ولكن من قوتل له أن يدافع عن ذلك

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَات وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلاَ تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦]. أي لا يقتلن الواحد منكم أخاه فإن قتله لأخيه بمثابة قتله لنفسه وإنما ظلم نفسه بذلك.

ذكر الباري سبحانه وتعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢١٧]. أي من أكبر الكبائر أن يقتل إنسان إنساناً بحق أو بدون حق، أن يبدأ قتالاً بهذا الشهر.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحِلُّواْ شَعَآئِرَ اللّهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ [المائدة: ٢]. الآيات كثيرة.

أقول من منطلق الشفقة لهؤلاء الإخوة الذين غُرِّرَ بهم: ها أنتم تورطتم ولكن الفرصة لا تزال سانحة، وشهر رجب يطل وبعد ثلاثة أيام أو أقل سيهل، ما موقفكم؟ ألسوف تظلون تحادون الله عز وجل، ألسوف تستخفون بأمر الله عز وجل؟ ما أعتقد، ألسوف تظلون تستهترون بهذا التحذير الرباني وفي سبيل ماذا استهترتم؟ ما الفائدة التي عدتم بها؟ لا يا أيها الإخوة، اصطلحوا مع الله مع افتتاح هذا الشهر المبارك أول الأشهر الحرم، عودوا إلى الله، اصطلحوا مع الله، إن كنتم تبحثون عن رزق فابتغوا عند الله الرزق وأنا الكفيل بأن الله سيرزقكم مع الإسعاد بدلاً من أن يرزقكم فتختنقوا بذلك الرزق. إن كنتم تريدون المتعة فلسوف يكرمكم بالمتعة المباحة المشروعة من سبلها التي تسعدكم في العاجلة والآجلة، نعم.

أما أولئك الأباعد الذين ينفخون في نيران هذه المقتلة غير عابئين لا بالأشهر الحرم، غير عابئين بالبرآء، غير عابئين بالدماء الزكية البريئة التي تراق أقول لهؤلاء: اصطلحوا مع الله وأعتقد أن بينكم وبين

الله ربما لا أقول خيطاً بل إن بينكم وبين الله خيوطاً تستطيعون أن تتمسكوا بها فتعودوا إلى صلح فعالٍ حقيقي مع الله سبحانه وتعالى، ما لكم ولأناس برآء، لماذا ترسلون إليهم نيران القتل؟ لماذا تنفخون وأنتم في دياركم البعيدة أو القريبة تنفخون في نيران الفتنة عن طريق المال الذي ترسلونه، عن طريق الأسلحة التي تحشدون؟ لماذا؟ ما الفائدة التي ستعودون بها؟

أما إن كان هذا الكلام لا يسري إلى أفئدتكم فأنا أحذركم أيها الإخوة أحذركم من سهام الأسحار، سهام الأسحار لا تخطئ، سهام الأسحار مسمومة، سهام الأسحار تتعالى من أفواه الباكيات المحزونات المظلومات الثكلى، سهام الأسحار تتعالى من أفواه اليتامى صغاراً وكباراً، سهام الأسحار — افتحوا آذانكم جيداً — ستسمعون في ساعات السحر كيف تتعالى الصيحات إلى الله، صيحات المظلومين، صيحات المنكوبين.

أيها الإخوة خذوها كلمة فيها كثير من العبرة: إنكم لا تستطيعون أن تنطحوا بهذا الذي تفعلون جدران نظام ولكنكم إنما تفعلون بهذا الذي تفعلون هدر الدماء الزكية، قتل البرآء، قتل الأطفال، قتل الأمهات، ما أبعد هذا عن ذاك.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يكرمنا عوداً صادقاً إلى دينه القويم. اللهم اشهد أني ما أقول هذا إلا من منطلق الشفقة على عبادك التائهين والمستقيمين، لا أقول هذا إلا من منطلق الرحمة بهم وهكذا ربيتني يا مولاي، هكذا نشأتني، أقول هذا من منطلق الرحمة، فيا ذا الجلال والإكرام اهدنا واهدهم إلى سواء صراطك المستقيم.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.


الإسراء والمعراج

٣٢٨- مشكلات يغض المحتفلون بذكرى الإسراء والمعراج الطرف عنها |

١٩٨٤/٠٥/٠٤

منذ أيام احتفل العالم الإسلامي بذكرى الإسراء والمعراج وأقيمت الحفلات الكثيرة في أقطار إسلامية شتى بهذه المناسبة، ودارت الأحاديث كلها في هذه الاحتفالات حول بيت المقدس والمسجد الأقصى، وضرورة أن يهبّ المسلمون لاستعادته وربط الخطباء بين ذكرى الإسراء والمعراج وبين قداسة المسجد الأقصى وبين مصيبة استلاب اليهود له من المسلمين، وعند هذا وقف حديث الخطباء ووقف كلام المتكلمين والمتحمسين مع أن ذكر الإسراء والمعراج كما أنها تذكر بالمسجد الأقصى فهي تذكر أيضاً بالصلوات الخمس التي أمر الله عز وجل بها عباده في تلك الليلة، وتذكرهم بكثير من المحرمات التي جسدت أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم عقوباتها، وتذكرهم بكثير من الواجبات التي جسدت أمام عين رسول الله صلى الله عليه وسلم في تلك الليلة مثوباتها، ومع هذا فإن الناس الذين احتفلوا بهذه الذكرى في معظم أقطار العالم الإسلامي، لم يبصروا مما توحي به هذه الذكرى إلا مشكلة المسجد الأقصى، وإلا مشكلة الأرض المقدسة التي استلبت واغتصبت من أيدي المسلمين فعلى ما تدل هذه الظاهرة؟ ولماذا ينتقي المحتفلون مسألة واحدةً مما تذكرنا بها أو مما تذكرنا به حادثت الإسراء والمعراج ويغضون الطرف عن المسائل الأخرى؟

إن من المعلوم أن الله عز وجل أمر عباده بخمس صلوات في اليوم والليلة، في الليلة التي أسري بها برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى البيت المقدس، ثم عرج به إلى السماوات العلا ومن المعلوم أن صلة ما بين العبد وربه لا تتمثل بادئ ذي بدء إلا بهذه الصلاة ومن المعلوم أن الانسان لم يستطيع أن يستعين في تنفيذ أمر الله عز وجل به إلا إذا استعان ذلك بالصلاة، يؤديها على وجهها ألم يقل مولانا عز وجل في محكم كتابه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ﴾ ألم يقل الله عز وجل في محكم كتابه: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ ألم يأمر الله عز وجل عباده بالصلاة كلما أمرهم بالإيمان حتى أصبحت رابطة ما بين الإيمان والصلاة، رابطةً قويةً في كتاب الله عز وجل.. وهل يمكن للإنسان أن يستعرض حوادث الإسراء والمعراج ثم لا يتذكر أهمية هذه الفريضة التي فرضها الله علينا وأناطها بأعناقنا، فلماذا ننسى في هذه المناسبة أقدس واجب من الواجبات العبادية التي

كلف الله بها عباده؟ ونتذكر فقط أن نجعل من هذه الحادثة أداة طنين ورنين لنستنهض به عواطف المسلمين من أجل استعادة الأرض المقدسة. لماذا؟

ألم يجسد لنا ذكر الإسراء والمعراج عظم جرم الذي يقترفه آكل الربا.. ألم تحدثنا ذكرى الإسراء والمعراج عن الجريمة الكبرى التي يقترفها مرتكبوا الفواحش الذين نسوا أمر الله عز وجل ونهيه.. ألم تجسد لنا ذكرى الإسراء والمعراج كثيراً من الواجبات التي حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها من خلال مشاهداته.. فلماذا نتجاهلها جميعاً ثم نجعل ذكر الإسراء والمعراج فقط لسان ناطقاً عن البيت المقدس وما يتعلق بالبيت المقدس؟ ولماذا شرّف الله رسوله بهذه الخارقة؟ ولماذا أكرم الله رسوله بالإسراء إلى بيت المقدس وبالعروج إلى السماوات العلا؟

أكرمه الله تعالى بهذا حتى يلفت ذلك نظرنا إلى أن محمد صلى الله عليه وسلم مؤيدٌ من قبل الله عز وجل وأنه رسوله الصادق الأمين وأنه لم يفتئت على ربه شرعاً بلّغه ولا رسالة أخبرنا إياها، حادثة الإسراء والمعراج من أكبر الأدلة المؤيدة بنبوة رسول الله، فالحكمة هي أن نزداد يقيناً بنبوته ونزداد إيماناً برسالته لكي يزيدنا هذا الإيمان تمسكاً بهديه وارتباطاً بسنته وسيراً على هديه وصراطه الذي بلغنا إياه من عند رب العالمين سبحانه وتعالى، فلئن احتفلنا بذكرى الإسراء والمعراج ولم تزدنا هذه الذكرى إيماناً بنبوة رسول الله، وبالتالي تمسّكاً بشرعة رسول الله وتمسّكاً بما أوصانا باتباعه رسول الله صلى الله عليه وسلم بدءاً من الصلوات الخمس إلى بقية الأوامر إلى اجتناب سائر النواهي والمنكرات، إن لم تفدنا هذه الذكرى زيادة إيمانٍ برسول الله وزيادة تمسكٍ بشرع الله فماذا صنعنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نحتفل بهذه الذكرى؟ وماذا يغني أن نتحدث عن أرض استلبت عن المسجد الأقصى أو عن غير المسجد الأقصى وما أعظم مصائبنا وما أكثرها؟

ماذا يجدينا ذلك إن لم نؤسس إن لم نقم هذا المعنى على أساسٍ من شدَّةِ ارتباطنا برسول الله من شدَّةِ تمسكنا بهديه، من تجديد إيماننا به من تحريم ما حرَّم من أن نوجب علينا، ما أوجب من أن نقبل إلى الصلوات الخمس فنؤديها كما أمرنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ألم يُقبل المصطفى عليه الصلاة والسلام في اليوم الثاني بعد هبوطه من السماوات العلا ألم يقبل إلى أصحابه يعلمهم كيف يصلون يعلمهم متى يبدأ وقت الصلاة ومتى ينتهي؟ وهل تركت ذكرى الإسراء والمعراج أثراً عملياً في حياة المسلمين أقدس

من هذا الأثر؟ أثر إقبالهم على الله في اليوم خمس مرات يصلون يدعون ويتضرعون ويسجدون بين يدي الله عز وجل.

أريد أن أقول من خلال هذا الكلام إن لكل شيء مفتاح، وإن الدخول إلى أي ساحةٍ لا يصلح إلا إذا تم الدخول إليها من بابها، ومفتاح استعادة أرضنا السليبة ومفتاح استعادة عزنا الثالث إنهما هو الدينونة لله، والخضوع لأمر الله، وإقامة الصلة بيننا وبين الله، ولا يمكن أن تقوم هذه الصلة بيننا وبين الله إذا ضيعنا الصلاة وارتكبنا المنكرات أ لم يقل لنا ربنا عز وجل: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً﴾

رتّب الله هذا الوعيد على ذلك الترك خلف من بعدهم خلفٌ أضاعوا الصلاة وقد أضعناها واتبعوا الشهوات، وقد اتبعناها. ماذا يقول الله بعد ذلك: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً﴾ سوف يلقون ضلالاً، سوف يقعون في تيه. نحن واقعون في تيه.. تيهنا هو هذه المصائب التي نعاني منها.. تيهنا هو تسليط الله علينا أراذل الأمم، اليهود استلبوا أرضنا وانتقصوا من ديارنا ومزقوا حرماتنا واستلبوا عزتنا، هذا هو جزء من معنى قول الله عز وجل: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً﴾. إذا أردنا أن نتخلص من هذا الغي، إذا أردنا أن ننجو من هذا التيه ماذا نصنع؟ نسلك السبل من بابه؛ ونفتح الباب بمفتاح الله عز وجل، يأمرنا بأن لا نضيع صلاةً وأن لا نضيع أمراً أمرنا به، أن نقيم إسلامنا كما أمرنا الله عز جل، فإن فعلنا ذلك فإن الله قد ألزم نفسه بأن يعيد إلينا مقدساتنا، وأن يعيد إلينا أرضنا السليبة، وأن يعيد إلينا ديارنا.. نعم هكذا ألزم الله ذاته إن نحن وفّينا بما التزمنا به لله عز جل أ لم يقل الله عز وجل: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً﴾

أليس هذا وعد الله وعد الله قطعه على نفسه أ لم يقل الله عز وجل: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ، وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ هكذا يقول الله عز وجل. وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ... هذا كلام الكافرين ينقله الله لنا ثم ينقل على أعقابه وعده لنا لتخرجن من أرضنا: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِن

بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ ولكن هذا لا يكون بشكل عشوائي، ولا يكون بالأماني ولا يكون بالأحلام وبالخطب الرنانة وإنما يكون بما قاله الله عز وجل: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ فهل خِفنا مقام الله عز وجل، هل خِفنا وعيد الله عز وجل، يا عجباً لمن يحتفل بذكرى الإسراء والمعراج، ثم لا يذكر أن رسول هذا الإسراء والمعراج ائتمننا في تلك الليلة على صلوات وربط الله هذه الصلوات بأمانينا ورغائبنا.

فإذا أردنا حقاً أن نستعيد أرضاً سليبة أو عزاً غابراً فلا سبيل إلى ذلك إلا بأن نعود إلى الإسلام، وأن نقف تحت مظلة ذكرى الإسراء والمعراج وقفةَ إيمانٍ بربٍّ سبحانه وتعالى ووقفة عبودية له فنأخذ كل ما أمرنا الله سبحان وتعالى به، أما إن لم نفعل ذلك، وأما إن اعتبرنا أنفسنا نتطور لنتجاوز الإسلام ولنبتعد عنه ولنغرق أنفسنا في تقاليد آسنةٍ مما يأتينا من الشرق أو الغرب، فماذا يفيدنا بعد ذلك أن نأخذ من ذكرى الإسراء والمعراج، ما يمكن أن نجعله مجرد دعاية لأمرنا.

لا يجتمع أمر هذه الأمة ولا يمكن أن تستعيد شيئاً من حقوقها إلا إذا عادت إلى صراط الله عز وجل، علم هذا من علم وجهله من جهل، ويا للعجب.. إن اليهود وضعهم الله عبرةً أمام أبصارنا لا يخطون خطوةً لإيذائنا ولاستلاب حقوقنا إلا ويجعلون من التوراة رائداً لهم، ولا يسيرون خطوةً في سبيل أن يوسعوا أرضهم على حساب حقوق هذه الأمة، إلا ويجعلون دافعهم الخفي والعلني هو الدافع الديني، يأبون أن يتنازلوا عن هذا المعنى الديني الرائد لهم شروا نقير. وكلكم يعلم ذلك وكلكم يعلم أنهم عندما يسيرون إلى أمانيهم وأحلامهم، فإنما يسيرون بدافعٍ مما تعدهم به توراتهم، ويسيرون بدافع من أمانيهم الدينية ننظر فنجد أولئك المبطلين يحكمون دينهم الباطل، أما نحن فقد أكرمنا الله بالحق ووعدنا إن اتبعنا هذا الحق أن يعيد إلينا العزة ويمتعنا بالوحدة ويعيد إلينا الكرامة، لا نتبع ديننا كما يتبع أولئك دينهم ولا نحكم شرعتنا في حل مشكلاتنا كما يحكم أولئك شرعتهم الباطلة في حل مشكلاتهم، كانت نتيجة ذلك أن سلّط الله علينا هذا البلاء وأن سلط علينا هذه الشراذم عبرةً لأولي الألباب، فأين هم المعتبرون وأين هم الذين يعلمون أن الله سبحانه وتعالى عادل لا يمكن لنواميسه أن تشذ، ولا يمكن لقوانينه أن تختلف في عصر من العصور.

٣٢٩- سبيل القضاء على مشكلاتُ العالم الإسلامي | ١٩٩٣/٠١/١٥

يحتفلُ المسلمونَ في الأيامِ القليلةِ القادمة بذكرى الإسراء والمعراج كما هو الشأنُ في كل عام، وبقطعِ النظر عن الميقاتِ الدقيقِ المحدَّدِ لهذه المَكرُمة التي أكرم اللهُ بها رسولَهُ محمَّداً صلّى الله عليه وسلّم، وبقطعِ النظرِ عن خلاف العلماءِ وعلماءِ التَّاريخِ حولَ ميقاتِ هذهِ المَكرُمة، فإنَّنا نرى أنَّهُ من الخير أن يحتفي المسلمون كل عامٍ بهذه الذكرى، وإننا لنرى أنها فضيلةٌ من الفضائلِ أن ينتهز المسلمونَ أي مناسبة من المناسبات التاريخية المتألقة في حياة المسلمين أو في سيرة سيدنا محمَّدٍ رسولِ الله صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم، فيجعل من تلكَ المناسبةِ فرصةً للتَّلاقي وللمذاكرةِ في شؤونهم وشؤون دينهم وللتناصح، ولكي يسير أو يشيع فيما بينهم واجبٌ طالما قد أغفلوا أو تغافلوا عنه، وهو واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولذلكَ فلا داعيَ إلى أن نتساءلَ في أي يومٍ أو في أي شهرٍ أو في أي سنةٍ كانت مكرمةُ الإسراءِ والمعراجِ التي ميَّزَ اللهُ بها رسولَهُ محمَّداً صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عن سائرِ الرُّسُلِ والأنبياء، ذلكَ لأنّنا في هذا المقام لسنا في معرضِ تحقيقِ حادثة تاريخية، وإنما نحن في معرض انتهازِ مناسَبَةٍ وابتهالِ فرصةٍ لكي نجتمع فنتذاكرَ شؤوننا ولكي نتذكَّر في خير سبيل يعيدنا إلى رشدنا.

ومشكلات المسلمين التي تستدعي منهم التلاقي والتشاور والتذاكر، مشكلات كثيرة، قريبةٌ وبعيدة، منها ما هو جاثمٌ على صدورهم وفي عقرِ دورهم، ومنها ما هو قريبٌ منهم جداً، ومنها ما هو بعيدٌ ولكنَّهُ داخلٌ في حدودِ عالمنا الإسلامي هذا الذي وصفه رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وشبَّههُ بالجسدِ الواحدِ الذي إذا شكى منه عضوٌ تداعى لهُ سائرُ الجسدِ بالسَّهَرِ والحمّى.

ونظراً إلى أن هذا الجسد الواحد قد تقسَّمَ وتشرذَمَ وتحوَّل إلى ما يشبهُ أعضاءً متفرّقةً متنابذةً لا يشعر عضوٌ منها بألمِ عضوٍ آخرَ نظراً إلى أنَّ هذا هو واقعُنا في هذه الأيام. فإنَّ علينا وقد بقي فينا رمقٌ وبقيت فينا نسبةٌ ما إلى هذا الدينِ الإسلاميِّ الحنيفِ ينبغي أن ننتهز فرصاً كهذه لنعود فنسعى جهدنا من أجل أن نلمَّ شعثَنا، ومن أجل أن نعيد هذه الأعضاء فنجعل منها كتلة واحدةً لعلَّ الحياةَ تسري في أوصالِها،

ولعلَّ اللهَ سبحانهُ وتعالى يوفِّقُنا لأن نستعيد هذا المعنى الذي وصفنَا رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بهِ إذ قال: «المسلمون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى».

أجل، إنَّ مشكلاتِ المسلمينَ اليومَ كثيرةٌ جداً أيها الأخوة، وإنَّ الانسان ليحارُ بأيِّ هذهِ المشكلاتِ يبدأ.. ولكنَّ الأمر لا يقفُ عندَ هذا الحدّ، وليست المشكلة كامنةً في أن علينا أن نبدأ بهذه المشكلة أو تلك، وإنما المهمُّ جداً: أن نبحثَ عن الحلولِ لهذهِ المشاكلِ إذا تذكرناها.

قلتُ مرّةً: إنَّ منَ اليسيرِ عليَّ أن أستثير حماسةَ النَّاسِ وأن أجعلَ من كلٍّ منهم ما يشبهُ الشواظَ واللهبَ إذا ما أردتُ أن أصفَ مشكلةً من المشكلاتِ الإسلاميّةِ التي يعاني منها العالَمُ الإسلاميُّ قريباً أو بعيداً عنّا، لكن هذا لا يرضي الله عزَّ وجل.. إنّما الذي يرضي اللهَ أن نجعل من الحديث عن مشكلاتِنا مقدمةً لبيانِ سبيلِ الحلِّ إليها لا بدَّ أن نتبيَّنَ الحلّ، المشكلاتُ معروفةٌ والحديثُ عنها قديمٌ وليسَ جديداً، والناسُ عندما يتكلَّمونَ عن هذهِ المشكلاتِ إنَّما يتبارونَ في ساحةٍ من البلاغة، وإنما يتنافسون في ساحة من التسابقِ من أجل اكتسابِ العقولِ والقلوبِ في نطاقِ البلاغةِ والبيانِ وسحرِ الحديث المؤثِّر، وهذا لا يفيدُ المسلمينَ شيئاً هو استغلالٌ للإسلامِ وليسَ خدمةً للإسلامِ ولا المسلمين.

هذهِ المشكلاتُ بقضِّها وقضيضِها على اختلافها وعلى تنوُّعها وقربِها أو بعدها عنّا ما سبيلُ القضاءِ عليها؟ أو ما سبيلُ الدخولِ في طريقةٍ ما إلى مقاومتها؟ ينبغي أن نعلمَ أيها الأخوة أن سبيلَنا إلى ذلكَ سبيلٌ واحدٌ لا ثاني له، ألا وهوَ: أن يتضامنَ المسلمونَ باسمِ هذا الدين، وأن ينبُذُوا عواملَ الفُرقةِ التي ضربت بجذورِها فيما بينَهم، وأن يعودَ كلٌّ منّا إلى رشدِهِ ويتساءل هل هوَ مخلصٌ لوجهِ اللهِ عزَّ وجلَّ فيما يستثيرهُ من عواملِ التّفرقةِ بينَ المسلمين. هذا هو الدواء وهو العلاج، وهو علاجٌ واضحٌ وبسيطٌ لا يحتاجُ إلى كثير ترجمةٍ ولا يحتاج إلى كثير فلسفة، ولحسن الحظِّ كما قلتُ قبلَ أيّامٍ أنَّ هذا العلاجَ واقعٌ تحتَ طاقتِنا وهو مِلكُ أيدينا، فنحن نملكُ إذا شئنا أن نتضامنَ ونملكُ أن لا نتضامن، وإذا كان الأمرُ كذلكَ فينبغي أن نتساءل ما السَّبيلُ إلى أن يتضامنَ المسلمونَ ويتّحدوا ويتآلفوا والكل يعلن أنهم مسلمون؟ الكلُّ يعلن أنه مؤمن بالله عز وجل، إذاً فالكلُّ مؤمن بضرورةِ اتّباعِ أمرِ اللهِ عزَّ وجلَّ القائل: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾.

كلُّنا يردد هذا البيانَ الإلهيَّ العظيمَ وهذا التكليفَ الذي وضعهُ اللهُ سبحانهُ وتعالى في أعناقِنا.

مصيبتُنا أيُّها الإخوةُ لا تكمن في أولئك الناس الذين رُحِّلوا من دورِهِم وبيوتِهِم لتستقبلهمُ الأرضُ العراءُ بل لتستقبلهم الأمراض فيتساقطوا واحداً إثرَ آخرٍ في براثن المرضِ المهلك، نعم هي مصيبةٌ لكنَّها فرعٌ عن مصيبةٍ كبرى، المصيبة الكبرى: هي واقعُنا القذرُ الذي سبَّبَ هذه المصيبة، والمصيبةُ الكبرى لا تكمنُ في تلكَ الحربِ الضَّروسِ الَّتي ما تزالُ تشتعل هناك بين المسلمين وأعداء المسلمين، تلك الحربُ التي شاءَت خططُ أعداءِ اللهِ عزَّ وجلَّ أن لا تدورَ رحاها إلّا على المسلمينَ والعالمُ كلّه يرى وينظر، أجل إنّها مصيبةٌ لكنها هيَ الأخرى فرعٌ عن مصيبة كبرى يعاني منها المسلمون.

ويا عجباً لأناسٍ عميَت أبصارُهُم عن جذعِ المصيبةِ الكبرى، ثم أخذوا يحلِقونَ في فروعِها وأغصانِها وجزئياتها الطّبيعية، عجباً، عجباً لا ينتهي لأناس عميت أبصارهم عن رؤية اللهب الذي يتصاعد من زوايا دارِهم ولكنَّهم أخذوا يحلِقون في دخانِ هذا اللهب ويتحدثون عن آثار هذا الدخان وضرر هذا الدخان هذا هو واقعنا وكم قيل لي: ألا تتكلم عن البوسنة والهرسك؟ ألا تتكلم عن هؤلاء الفلسطينيين الذين أجلوا وأخرجوا عن دورهم بغير ذنب وبغير حقّ؟

وإن هذا الطَّلب لعجبٌ ما بعدَه عجبٌ أيضاً وكأنَّ هؤلاءِ الإخوةَ يريدون منّي أن أنسى السرطان المستشري في جسم هذه الأمة وأن أتحدث بدلاً عن ذلك عن آثار هذا السرطان سواءً كان صداعاً في الرأس أو كان اصفراراً في الوجه أو كان أيّاً من الأشياء الناتجة الأخرى عن هذا المرض، لا يهمني أن أتحدَّثَ عن دخانٍ لنيرانٍ تضطرب، إنّما الذي يهمُّني أن أتحدَّثَ عن هذهِ النَّارِ ما الذي ألهبَهَا؟ وما الذي أوقدها؟ ومن ثمَّ ما الذي يقضي عليها؟ نحنُ مسلمون، هل نحن مسلمون فعلاً؟ أولُ معنىً من معاني الإسلامِ وأوَّلُ أثرٍ من آثارهِ في حياةِ ثلةٍ من المسلمينَ هو التّضامن، وهو التكافلُ والتعاون، وهو الاصطباغُ بقولِ اللهِ عزَّ وجلّ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾، فأين هوَ الاصطباغُ بهذا المعنى أيُّها الأخوة؟

هنالك على البعدِ أو على القربِ منابرُ تعتزُّ في كلِّ أسبوعٍ بالحديثِ عن البوسنة والهرسك ربما، لكنَّ هذه المنابرَ ذاتَها هي التي تصدِّع صفوف المسلمين، وهيَ الّتي تتَّهمُ المسلمينَ بالكفرِ والشّرك والتبديعِ ونحوِ

ذلك، وهيَ التي تجعلُ من جسمِ الكتلة الإسلاميّةِ الواحدةِ مِزَقاً متفرقةً شتّى: هؤلاء أشاعرُ وأولئك متصوِّفةٌ وأولئك وأولئك وأولئك. ترى ماذا نصنع بعد هذا؟ هل نتجه من أجل مقاومةِ هذا التفريقِ ومن أجل ردعِ هذا الصدع؟ أم نتَّجهُ إلى الجهةِ الأخرى من أجلِ مقاومةِ هذا العدوانِ المستشري بين المسلمين؟ وهل يستطيعُ المسلمونَ أن يقاوِموا عدواناً اتجهَ إليهم قبلَ أن يوحِّدوا صفوفهم؟ وهل أقدم رسولُ الله صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ على عملٍ ما من هذه الأعمال الجهادية إلا بعد أن نظر إلى أصحابه من حوله وقد اتحدت كلمتهم واجتمع شملهم ووحَّد هذا الإسلام العظيم ما بينهم؟ ترى لو لم يتحقق لهم ذلكَ أفكانَ يتَّجهُ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليهِ وسلَّمَ إلى الأشواطِ الأخرى وهوَ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلمَ؟ كان يعلمنا وكان يخطِّطُ لنا وكان يرشدُنا.

ترى ما هي الجدوى من أن نخطِّطَ للكلامِ النظريِّ من أجلِ القضاءِ على عدوانٍ يستشري فعلاً ضدَّ إسلامِ المسلمينَ، وقد تحوَّلَ المسلمونَ على مستوى الشُّعوبِ مع حكَّامهم وعلى مستوى القادة بعضهم تجاه بعض؟ تحوَّلوا إلى مِزَق، وتحولوا إلى فئاتٍ متصارعة، إذا كان المسلمونَ قد تحولوا إلى فئاتٍ يتصارعونَ فمالِ أعدائهم لا ينقلبونَ همُ الآخرونَ إلى العملِ ذاته؟ شيءٌ غريبٌ أن نعجبَ إذا كان المسلمونَ قد أصبحت مهمَّتُهُم أن يحارب بعضهم بعضاً إن بالقيل وإن بغير القيل، لماذا تتعجَّبُ من أن يفعل أعداءُ المسلمينَ بهم ما يفعلُهُ المسلمونَ بعضَهم مع بعض؟ لماذا؟ لو كان المسلمون يداً واحدة، لو كانوا صفاً واحداً، لو كانوا قلباً واحداً وكانت وحدتهم تنبثق من الاصطباغِ بحقيقةِ العبوديَّةِ للهِ عزَّ وجلَّ لرأيتَ أنَّ اللهَ سبحانهُ وتعالى كفَّ أيديَ أعدائِهم عنهُم كما كفَّ أيديَهم عن ذلكَ الرعيلِ الأوَّل عندما كانوا مسلمين حقاً، بل عندما كانوا متفقين ومتساندين.

ومن أين يأتي هذا التضامن أيها الإخوة؟ يأتي التضامنُ من معرفةِ أنَّ الإسلامَ ليسَ مجرَّدَ نظامٍ وإنَّما هوَ قبلُ ذلكَ عبوديّةٌ راضيةٌ خاضعةٌ للهِ عزَّ وجلّ.

بالتَّعاونِ على كلِّ المستوياتِ اتّحدت الجماعاتُ الإسلاميّةُ فيما بينَها وتضامَنَت الجماعاتُ الإسلاميّةِ مع قادتِها واتَّحدت أو تضامنت قادةُ المسلمينَ بعضُهم مع بعض، ولكن طالما كنّا نتصوَّرُ ونحنُ مسلمونَ نناديِ بالإسلام، طالما كنّا نتصورُ الإسلامَ مجرَّد نظامٍ فوقيٍّ مجرَّد، منهجَ حياةٍ مجرّد، بضعةَ قوانين، فإنَّ هذا التصوُّرَ لا يمكنُ أن يقضيَ على أيِّ مشكلةٍ في حياتنا لأننا لم نتعامل مع الإسلام الذي ارتضاهُ اللهُ لنا.

لم نتعامل مع الإسلامِ الذي قال اللهُ عزَّ وجل عنه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾. نحن نتعاملُ مع ثمرةٍ من ثمارِ الإسلام ولكنّنا لا نتعاملُ مع شجرتهِ بدئاً من الجذعِ الضّاربِ جذورَهُ في القلبِ وصعوداً إلى هذه الثمار.

المسلمونَ أو أكثرُ المسلمينَ اليومَ إنّما يحلمونَ بإسلامٍ حضاريٍّ يحلمونَ بإسلامِ النّظام، يحلمونَ بالإسلام المنهج، وباختصار: يحلمونَ بالإسلام الحضاريِّ المتألِّق، أو يحلمونَ بأن يقطُفُوا الثّمارَ دونَ أن يتعبِوا أنفسهم في إيجاد هذه الثمار وفي استنباتها. أمّا المسلمون من قَبلِنا فلا واللهِ لم يكونوا يحلمون بالثّمار، ولكنهم كانوا يحلمون بأن يغرِسوا شجرةَ العبودية لله بين حنايا ضلوعهم وأن يكونوا في حالٍ يطمئنّونَ إلى أنَّ اللهَ راضٍ عنهم فيها ثم إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ أكرمهم بهذهِ الثِّمار، فإذا عدنا إلى ما كانَ عليهِ أولئِكَ الصّحابة، إلى ما كان عليهِ ذلك الرّعيلُ الأوَّل ورعينا إسلامِنا انتماءً بالعبودية إلى الله وامتثالاً إليهِ ثمَّ افترضنا هذه الحقيقة، فإن هذه الحقيقةَ سرعانَ ما تجمعُنا وسرعانَ ما تؤلِّفُ بين أشتاتِنا على كلِّ المستويات وعلى سائر المستويات، وعندئذٍ يقذفُ اللهُ سبحانهُ وتعالى الرُّعبَ في قلوبِ أعدائنا.

ويا عجباً بل أقولُ: إنّهُ لعجبٌ لا ينتهي من أن يدرِكَ هذهِ الحقيقةَ أعداءُ الإسلام ثمَّ لا يدرِكَها المسلمون، أدركَها أعداءُ الإسلامِ فبدأوا قبلَ أن يحارِبونا بتقطيعِ أوصالِنا وبتمزيقِ شملِنا، ولمَّا تحقَّقَ لهم ما طلبوا بدأوا بعد ذلك بالحربِ التي تعرفون، وغاب عنا ما لم يغِب عن أعدائنا، ونسينا أن قوتنا في تضامننا، ونسينا أن إسلامنا إنّما يعني وحدتنا لأن الناس إذا آلَ إلى عبادٍ لله بالسلوك الاختياري لا بدَّ أن تؤول حياتهم إلى وحدةٍ متضامنةٍ متكافلة، لم نعي هذا المعنى بالوقتِ الذي وعاه أعداؤُنا وإنما حططنا أنفسنا في طريقٍ يناقضُ ذلك، وأمعنّا في تقطيع أوصالِنا، وأمعنّا في تحويل إسلامِنا إلى إسلاماتٍ شتّى، ويأتي من يقول لي بالأمس: ألا سبيلٌ إلى القضاءِ على هذه الخلافات الاجتهادية؟ وكأن الخلافاتَ الاجتهاديّةَ هي الجرثومةُ التي تفتكُ في حياتِنا، وهذه أيضاً من المصائب: هذه الخلافاتُ الاجتهاديّةُ موجودةٌ في عصر رسول الله، موجودةٌ في عصرِ الصّحابة، موجودةٌ في العصرِ الذهبيِّ في حياةِ المسلمين، إذاً هيَ ليست جرثومةً بل هي أبوابُ غنىً وثروة. ولكن المصيبة لا تكمن في هذه الخلافات، المصيبةُ تكمنُ في القلوبِ التي لم تتطهَّر، في النّفوس التي لم تُزكى، ولو شئتَ أن تأتيَ بكميّةٍ من العسلِ الذي جعلهُ اللهُ شفاءً للنّاسِ

فأفرغتَهُ في وعاءٍ قذر، في وعاءٍ متنجِّس، أفتغلبُ طهارةُ العسلِ النّجاسةَ أم تغلبُ النجاسةُ طهارةَ العسل؟ العسلُ يفسُدُ.

فما قيمةُ أن أحتضنَ أموراً خلافيّةً إذا كانت هذهِ الأمورُ الخلافيّةُ تجتمعُ في فؤادي مع مشاعرٍ من الأحقاد، من الضّغائن، منَ الرّياء، منَ العُجب، منَ السَّعيِ وراء المصلحةِ الشخصية، وراء الأنانية، هذا هو الذي يجعلُني أقول: الإسلامُ الحقُّ هو العبوديّة لله، لأنَّ الذي يحرقُ هذه المشاعرَ كلَّها إنّما هو شعورُ الإنسانِ بعبوديّتِهِ لله، فإذا شعرتُ بأنّي عبدٌ للهِ سَحَقَ هذا الشُّعورُ كبريائي، سَحَقَ عصبيَّتي، سَحَقَ حقدي، سحق أنانيّتي، سَحَقَ كلَّ هذهِ المعاني القذرةِ التي قذَّرت وعاء قلبي.

ولذلكَ يخيَّلُ إلى كثيرٍ من النَّاسِ أنَّ هذهِ الخلافاتِ الاجتهاديَّةَ هيَ الّتي صَدَّعت صفوفَ المسلمين، هيَ لم تصدع لكنّها صادفت منبتاً سيئاً فتحولت هذه الخلافات إلى ما يقتضيه هذا المنبت، ورحمَ اللهُ الإمامَ الغزاليَّ القائل: (زيادةُ العلمِ في الرَّجُلِ السيِّءِ كزيادةِ الماءِ في أصول الحنظلِ كلَّما ازدادَ ريّاً ازدادَ مرارة). أسألُ اللهَ سبحانهُ وتعالى أن يجعلَ من هذهِ المصائبِ التي ابتلانا بها سببَ يقظةٍ في حياتِنا وسرَّ تأديبٍ للرّجوعِ إلى دينِنا، وأسألُ اللهَ عزَّ وجلَّ أن يرزقَنا الإخلاصَ في دينِه، أقولُ قولي هذا وأستغفرُ اللهَ العظيم...

أن يتضامن المسلمون باسم هذا الدين، وأن ينبذوا عوامل الفرقة التي ضربت بجذورها فيما بينهم، وأن يعود كل منا إلى رشده ويتساءل هل هو مخلص لوجه الله عز وجل فيما يستثيره من عوامل التفرقة بين المسلمين

٣٣٠- الحديث عن الإسراء والمعراج في ظل واقع مُخْجِل | ١٩٩٤/١٢/٣٠

لقد دأبت عادة الخطباء والمتكلمين أن يتحدثوا في مثل هذه الأيام من كل عام عن مكرمة الإسراء والمعراج التي اختص الله بها رسوله محمداً صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ولقد كنا نتحدث عن هذه المناسبة في مثل هذه الأيام ونحن مشحونون بالأمل؛ الأمل الذي نرى دلائله بارزة أمامنا في نهوض المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها لحماية الإسلام ولرعاية حقه ولاستعادة ما سلب من أرضه، فكان الحديث عن الإسراء والمعراج مصحوباً بغليان الشعور الإسلامي المتجه إلى استعادة الحق واستعادة الأرض.

ولكننا في هذا العام عندما نريد أن نتحدث عن دروس الإسراء والمعراج نجد أنفسنا في تراجعٍ بدلاً من الإقبال، ونجد أنفسنا ومن حولنا الكثير والكثير من الأيدي التي ترتفع بالاستسلام، أمام هذه الحالة التي نراها من حولنا، إن التفتنا يميناً أو التفتنا شمالاً. كيف يمكن أن تكون النفس؟ وكيف يمكن أن يكون البال والفكر منسجمين في الحديث عن هذه المناسبة القدسية الكبرى؟ كيف يكون الإنسان وهو غريق في بحار الخجل من الله سبحانه وتعالى؛ عندما يجد أكثر المسلمين من حوله وقد نكصوا على أعقابهم وتركوا الأمانة التي علقها الله عز وجل في أعناقهم، ورفعوا – كما قلت لكم – أيديهم بالاستسلام بعد أن كانت أيديهم مليئة بالقوة والسلاح الذين يتجهوا بهما المسلمون سعياً لاستعادة الحق لا أكثر، ولاستعادة المقدسات لا أكثر من ذلك. إن الإنسان ليخجل وإني لأشعر بالحياء من الله عندما أريد أن أتكلم عن دروس الإسراء والمعراج.

ألا تلاحظون أيها الأخوة كيف تتزايد الأيدي من حولنا للاستسلام، في كل أسبوع تسمع نبأً جديداً وفي كل فترة مقبلة تسمع خبراً عن جهة جديدة، لا أقول: آمنت بالسلم بل رفعت يدها بالاستسلام، العدو جاثم، والقدس التي يتحدث عنه الخطباء بمناسبة الإسراء والمعراج سليبة، والعدو لا يزال مستشرياً في طغيانه وبغيه، ولا يزال يؤكد أن يده لن تنحسر عن هذه البقعة الإسلامية المقدسة، ثم يدعو بعد ذلك ومع ذلك إلى أن نسالمه؛ أي يدعونا إلى أن نستسلم لقراره هذا. تلك هي الترجمة الحقيقية لدعوى السلم سواء جاءت من أمريكا أو ظهرت من إسرائيل، هي دعوة إلى أن نستسلم لقراراته، يده لن تنحسر عن

قدسنا التي هي ملك الإسلام، وطغيانه لن يتقلص شيء منه، ومستوطناته ستظل كما هي. ومع ذلك تعالوا فاستسلموا لقرارنا هذا، والمسلمون من حولنا لا تزال أيديهم ترتفع استجابة لهذه الدعوة. كيف نتكلم عن الإسراء والمعراج؟ وكيف نتجه بوجوهنا إلى المصطفى صلى الله عليه وسلم وهي ملطخة ببقع الخجل من هذا النكوص على أعقابنا ومن هذا الواقع الدامي الذي نعيشه.

قلت لكم بالأمس أيها الأخوة: إن الإسلام هو دين السلم وهل من دليل على هذا أوضح وأقوى من اسم السلام، من اسم الإسلام. وهل من دليل على هذا أوضح من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ فلئن بحثت عن من يصدق في ترسيخ دعائم السلام في الأرض، فانظر إلى الإسلام والمسلمين، وانظر إلى تاريخ الإسلام يحدثك عن صدق اتجاه الإسلام والمسلمين إلى ترسيخ دعائم السلم في الأرض. ولو أردنا أن نفتح ملف التاريخ لنبرز الحقائق الدالة على هذا، لضاق بنا الحديث، ولكن الإسلام الذي دعى إلى السلم علمنا كيف نغرس فسيلة السلم فوق أرفع روابي الأرض. هذا الإسلام علمنا أن السلم لا تستنبت بذوره إلا في مناخ العدل، فحيثما وجد العدل لا بد أن يخضر السلم فوق تلك التربة، وحيثما فُقد العدل فلا بد أن يزهق السلم ولابد أن يتحقق في مكان ذلك الطغيان والبغي والعدوان.

هذه هي الحقيقة وهكذا علمنا إسلامنا وهكذا سار المسلمون من قبل عندما غرسوا نبات السلم فأينع مخضراً فوق روابي الأرض الإسلامية كلها، سلوا التاريخ، سلوا البقاع التي وصل إليها الإسلام، حيث يقتل المسلمون اليوم حيث تسيل الدماء الزكية لقد استظلت تلك المناطق بالإسلام هل ضاق المسلمون ذرعاً بغير المسلمين بتلك البقاع؟ هل حصد المسلمون النصارى واليهود ومن لف لفهم لأنهم يشكلون بقعاً بين المسلمين زرقاء أو سوداء أو حمراء هل فعلوا ذلك؟ لا بل مدوا رواق العدل في هذه المناطق كلها، لما مد رواق العدل استنبت من خلال ذلك السلم، فنحن الذين نعلم الناس كيف يتحقق السلم فوق الأرض، وتلك هي مهمتنا وتلك هي رسالتنا، ولكننا عندما ندعو إلى ذلك ونخطو خطواتنا في سبيل ذلك، نعلم أن النبات لا يمكن أن يستنبت إلا في تربة مناسبة. هل يمكن أن تنبت جذعاً فوق صخر؟ لا يمكن هذا والتربة المناسبة للسلم إنما هي تربة العدل فأين هو العدل؟

عندما يكون هذا العدو الجاثم في أرضنا لا يزال يمد رواق طغيانه ولا يزال يرسخ مستوطناته التي اغتصبها من المسلمين، ولا يزال يؤكد في اليوم بعد اليوم أن القدس الإسلامية لن تعود إلى حظيرة الإسلام، أجل أن القدس الإسلامية لن تعود إلى حظيرة الإسلام. كيف يتوقع أن تكون هذا الطغيان حقلاً لسلمٍ يمكن أن يستنبت فيه؟

نعم هنالك مستسلمون من حولنا، ونسأل الله سبحانه وتعالى أن لا يتسرب هذا الاستسلام إلى أرضنا، ونسأل الله سبحانه وتعالى أن لا يتسرب هذا الاستسلام إلى هذه الأرض المكلوءة بحماية الله كما لا نعلم كيف يمكن؟ هؤلاء المستسلمون ليسوا هم ربما الذي ينطق التاريخ من خلالهم أبداً، هؤلاء المستسلمون سيزهقون، ومن وراء هؤلاء مسلمون لكنهم مسلمون لله مسلمون لدين الله مسلمون لسلطان الله ولأمر الله، فإن تكلموا فباسم الله يتكلمون، وإن تصرفوا فعلى هديٍ من شرعة الله سبحانه وتعالى يتصرفون، ولا يمكن إطلاقاً لاستسلام مهين أن يكون رداءً لإسلام كريم، لا يمكن أن يتحقق هذا بشكل من الأشكال؟ من هو هذا الغر؟ من هو هذا المغفل الجبان؟ الذي يؤمن بأن أمريكا ودول البغي هناك تصنع حقيقة السلم هنا من؟ من هو الذي يصدق؟ كيف يمكن لسلطان الغرب الذي يمزق السلم والذي يحرقه في أتون تلك الحرب الظالمة الضارية التي يذبح فيها المسلمون البرءاء ثم يبيعون السلم في بلادنا هنا، الذين يذبحون السلم ويقطعونه إرباً إرباً في الغرب لا يمكن أن يكونوا رواد سلم حقيقي هنا في الشرق إطلاقاً. كيف يمكن أن نصدق أن تنظر أمريكا إلى هؤلاء المسلمين الذين يذبحون في تلك البلاد الإسلامية وهم برئاء من كل ذنب آمنون في ديارهم لا يريدون إلا الحق الذي أذعنت به الدنيا، لا يطلبون أكثر من تقرير المصير، وقد طالب بالأمس أناس غير مسلمين بتقرير المصير فرفعت روسيا يد الاستسلام لهم، وهؤلاء يطالبون بتقرير المصير فقط، لا يبغون لا يطغون لا يقتنصون حقاً من صاحب حق لا يسيئون لا يضيقون سبيلاً لسلم عالمي قط فيم يذبحون؟ فيم يقتلون؟ فيما تهدم دورهم بل قراهم بل مدنهم؟

هؤلاء الذين يفعلون هذا أو يباركون هذا هم الذين يبيعوننا السلم هنا، أفيمكن أن يكون إنسان عاقل مصدق لهذا الذي يجري. السلم لا يتجزأ أيها الأخوة. والإنسان أو الدولة التي تريد أن تقوم دلالاً لبضاعة السلم في العالم ينبغي أن تغار على السلم الذي يمزق هناك دون أي موجب ودون أي سبب قط، روسيا تفعل فعلها هذا وكأنها الوحيدة على مسرح العالم. أين أمريكا التي ترسل رسلها في كل أسبوع

أو أسبوعين إلينا ليستنهضونا إلى السلم مالها لا تستنهض روسيا إلى السلم! مالها تستنهض أولئك الأوغاد ليوقفوا مجزرتهم المتجهة إلى أناس برئاء لم يقتنصوا أرضاً لم يقتنصوا قدساً! لم يقتنصوا حقاً لآخر بشكل من الأشكال آمنون في عقر دورهم مالها لا تعلم روسيا السلم كما تعلمنا هنا؟

قيل لي: لماذا لا نتكلم عن مآسي المسلمين في تلك الديار في الخطب والدروس ونحو ذلك؟ قلت: وهل صمتُ مرة عن مشكلة المسلمين في تلك الديار حتى أعود وأتكلم بعد صمت؟ إنني كلما تكلمت عن مشكلات المسلمين فأنا أتكلم عن البوسنة والهرسك من خلال ذلك، إنني كلما تكلمت عن مأساة تجزأ المسلمين وتألب بعضهم على بعض فأنا إنما أتكلم عن مصائب البوسنة والهرسك والشيشان وغيره، والذي يريد أن يتكلم عن مآسي المسلمين ينبغي أن يعلم كيف يخطط للحديث عن هذه المآسي، تماماً كما خطط أعداؤنا لتلك المآسي، أعداؤنا الذين يمزقزن السلم هناك ويحاولون أن يعدموا الإسلام من جذوره هناك. ماذا صنعوا قبل ذلك؟ قطعونا إرباً إرب جعلوا كل شريحة تقف بالمرصاد أمام الشريحة الأخرى، استثاروا وهيجوا الخصومات والتناقضات بين المسلمين في كل بلدة إسلامية، طبقوا ما ينص عليه تقرير مجلس الأمن القومي الأمريكي الذي أعلن في عام ٩٢، والذي يقول ينبغي إثارة التناقضات بين المسلمين في كل دولة إسلامية حتى تتآكل قواها.

عندما أتحدث أدعوا أبناء أمتي وديني إلى أن يتحدوا إلى أن ينهوا هذا الخصام إلى أن يفكوا الاشتباك إلى أن يعودوا أمة واحدة إلى أن يطبقوا قول الله عز وجل: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾، فأنا أتحدث عن مشكلة البوسنة والهرسك وليس الحديث عن هذه المشكلة أن أمسك مسبحة وأقول: البوسنة والهرسك البوسنة والهرسك، وليس الحديث عن مشكلة المسلمين هناك أن أستثير العواطف لدى المسلمين وأحيلها إلى لهب يتلظا حتى إذا سألوني ما العمل؟ قلت لهم: تلك مهمتي أن أستثيركم وأمضي كثيرون هم الذين يقولون بهذه الطريقة عن مآسي المسلمين لكن هذا ليس سبيلاً، السبيل أن أتحدث عن المنهج الطريق الذي ينبغي أن نسلكه لحل معضلة المسلمين هناك.

أما والله الذي لا إله إلا هو لو كان المسلمون اليوم متضامنين على مستوى الشعوب والفئات والجماعات الإسلامية وعلى مستوى الحكام والقيادات لما جرأ أولئك الأوغاد أن يفعلوا فعلهم وأن يثيروا هذه المصائب وهذه المجازر في صفوف المسلمين هناك قط، علم ذلك من علم وجهل ذلك من جهل.

ولكننا لما خضعنا لتلك المخططات التي رسمت في ظلام ليل في الغرب هناك، وانصعنا لإرادتهم ولتصرفاتهم طلبوا منا أن نصبح مزقاً متدابرة. قلنا: نعم سنصبح كذلك وأصبحنا كذلك، عندما طلبوا أن يصبح المسلمون الذين هم متمسكون بحبل واحد يسيرون على صراط واحد ملتزمون بشرعة واحدة عندما طلبوا منا أن نصبح فئات متناقضة متصارعة يذبح المسلم أخاه المسلم، قلنا: نعم لبيك ها نحن قد فعلنا ذلك. عندما استجبنا لتلك الخطط، ولدت مآسي المسلمين في البوسنة والهرسك وما حولها وما بعدها وقبلها، فإذا أردت أن أتكلم عن مآسي المسلمين فينبغي أن أدخل البوابة المنطقية إلى الحديث عنها، والبوابة المنطقية هي هذا الذي أدعوا إليه دائماً:

أيها المسلمون أسقطوا حواجز الفرقة مما بينكم. أيها المسلمون عودوا إلى جذع وحدتكم واتركوا الأغصان التي جعلتم من كل غصن منها سلاحاً يمسك به المسلم لينحط به عدواناً على ظهر أخيه المسلم، حديثي عن البوسنة والهرسك أن أنادي المسلمين حكاماً وشعوباً أن يعودوا فيتضامنوا، إن لم يستطيعوا أن يتحدوا وأن لا يجعلوا تضامنهم تكتيكاً بل أن يجعلوا تضامنهم شرعة ومنهاجاً ومبدأً لا يمكن أن يتحول عنه، وإلا فإن المسلمين لا بد أن يصبحوا مضغاً مضغاً مضغ ولا بد أن يزدرد أعداء المسلمين هذه المضغ واحدة إثر أخرى، كل مسلم يعلم هذه الحقيقة، ولا يمكن حتى للمغفلين أن يجهلوها هذه هي الكلمة التي يمكن أن نقولها بمناسبة الإسراء والمعراج. ونصيحتي لنفسي ولكل مسلم أن ندعوا أنفسنا وإخواننا إلى أن يتحدوا، إلى أن يطبقوا أمر الله، إلى أن يرعو إلى كلام الله ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ هذه الآية تنطبق ويااللأسف علينا اليوم.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

٣٣١- لو صدق المسلمون باحتفالهم بذكرى الإسراء والمعراج... |

١٩٩٦/١٢/٠٦

يحتفل العالم الإسلامي في هذه الأيام كما تعلمون بذكرى الإسراء والمعراج، والعلماء مختلفون في ميقات هذه المكرمة التي أكرم الله سبحانه وتعالى بها نبيه سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم. ولكن كثيراً من المؤرخين ومنهم ابن سعدٍ في طبقاته جزموا بأن ذلك كان قبل هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة بثمانية عشر شهرا.

وإذا علمنا أنه صلى الله عليه وسلم خرج من مكة متجهاً إلى المدينة في أول ربيعٍ الأول، علمنا أن ميقات هذه المكرمة التي أكرم الله بها رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم كان في أواخر هذا الشهر المبارك، كان في أواخر شهر رجب. فليس خطأً ما اعتاده الناس اليوم من احتفالهم واحتفائهم في هذه الأيام الأخيرة من هذا الشهر المبارك بذكرى الإسراء والمعراج، وإن لم يرد حديثٌ صحيحٌ أو غير صحيح فيما يتعلق بصيامه.

وبعد.. فإني أجزم أيها الأخوة أن المسلمين لو صدقوا في احتفالهم بهذه الذكرى المباركة من منطلق استرضاء الله سبحانه وتعالى، وانطلاقاً من تحققهم بما أمرهم الله سبحانه وتعالى وكلفهم به، لكان ذلك كافياً وحده لأن يجمع شمل هذه الأمة من شتات، وأن يؤلف بين أفرادها وجماعاتها وأن يعيدها مرةً أخرى إلى صراط الله سبحانه وتعالى الواحد والموحد. لو أن احتفال المسلمين اليوم بهذه الذكرى كان احتفالاً حقيقياً لا تقليدياً، ولو ابتغي من وراء ذلك مرضاة الله سبحانه وتعالى.

ولرأينا من وراء ذلك أيضاً نتيجةً أخرى: لرأينا أن المسلمين وقد اتحدوا، وقد عادوا إلى صراط الله سبحانه وتعالى الواحد والموحد كما قلت، لرأينا أنهم عادوا يمتلكون القوة التي يستطيعون أن يحصنوا بها حقوقهم، وأن يستعيدوا بهذه القوة ما استلب من أوطانهم.

ولكن الأمر كما تعلمون أيها الإخوة تحول من عملٍ يُبتغى به رضى الله سبحانه وتعالى إلى مظاهر تقليدية يُبتغى بها المحافظة على التراث، يبتغى بها المحافظة على عاداتٍ وتقاليد قد نراها مقدسةً يجب الإبقاء عليها. هذا هو الدافع الأغلب الذي يحمل هذه الأمة على أن لا تنس ذكرياتها العزيزة، وأن تلتفت بين الحين والآخر إلى معالم تاريخها الأغر، فترفع الرأس بهذه المعالم عالياً، هذا الدافع لا علاقة له برضى الله سبحانه وتعالى.

قلنا مراراً ونقولها دائماً: علاقتنا بالله عز وجل إنما تنطلق من هويتنا التي تُلخص في أنها تعلن أننا عبيدٌ مملوكون لله سبحانه وتعالى، وأن الله سبحانه وتعالى هو مولانا الذي لا مولى لنا سواه، هذه هي الحقيقة التي ينبغي أن ننطلق منها إلى وظائفنا وإلى أعمالنا وإلى احتفالاتنا واحتفاءاتنا بأمثال هذه الذكريات المباركة، ولكن هذا الشعور غاض أو كاد أن يغيض من نفوس الكثرة الكاثرة من المسلمين في هذا العصر.

من هم الذين يتلمسون مكان عبوديتهم لله عز وجل، فيستثيرون مشاعر هذه العبودية ويوقظون كوامنها ثم يصطبغون بحقيقتها؟ ثم إنهم يقفون من معتقداتهم وسلوكهم تحت مظلة ربوبية الله عز وجل، وقد علموا أن الله هو مولاهم الذي لا مولى لهم سواه؟ ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾

هؤلاء الذين يصطبغون بهذه الحقيقة غدوا قلة – أيها الإخوة – في هذا العصر، وأصبح ارتباط أكثر المسلمين اليوم بتاريخهم الإسلامي ارتباط اعتزاز أمةٍ بتاريخها، أصبح هذا الارتباط أشبه ما يكون باعتزاز أي أمة من الناس بماضٍ أغر يُذكر ويبعث النشوة في رؤوس الأحفاد الذين جاؤوا من بعد ذلك السلف.

الغرب أيضاً يحتفلون مثل هذا الاحتفال، الدول الباغية البعيدة عن دين الله عز وجل هي الأخرى تعتز بأمجادها التاريخية مهما كانت متطورةً وبعيدةً عنها في السلوك والتطبيق؛ عملٌ تقليدي دأبت الأمم كلها على السير على منواله.

وإلا فحدثوني أيها الإخوة كيف يمكن أن يجتمع نقيضان في حياة أي أمة من الأمم فضلاً عن المسلمين؟ كيف يمكن أن نحتفي بذكرى إسراء سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيت المقدس،

ثم بذكرى العروج بها إلى السموات العلى، وقد علمنا أنه رسول الله، وأنه الإنسان الذي أوحي إليه بشرعٍ من قبل الله سبحانه وتعالى؟

كيف يمكن أن نجمع بين احتفالنا بهذه الذكرى وبين إعراضنا كل الإعراض تقريباً عن التعاليم التي وضعها بين أيدينا؟ وعن الوصايا الذي تركها لنا بعد رحيله إلى الرفيق الأعلى؟

كيف يمكن إذا ذُكرنا بمعالم هذا الدين ومبادئه السلوكية والأخلاقية المختلفة والمتنوعة، نترك ونتأبى على هذه التعاليم مؤثرين الانصياع لأولئك الآخرين الذين ما فتئوا يحاربون هذا الدين ويحاربون رسول هذا الدين محمداً صلى الله عليه وسلم؟ كيف يمكن أن يجتمع هذان النقيضان؟

كيف يمكن أن أحتفل مفتخراً معتزاً بذكرى الإسراء والمعراج – وهي مكرمة عظيمة غريبة أيد الله بها رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم – حتى إذا دعيت إلى تطبيق أوامره تأبيت، بل ثرت ربما على هذه التعاليم، حتى إذا ذُكِّرت بمنهجه بالفضيلة التي تحلّى بها ثم علمنا كيف نثبت عليها، نتأبى عليها، ونوثر تلك العادات الآسنة التي يزدهي بها الغرب أو الشرق محاربين بل مبتعدين كل الابتعاد عن هذه التعاليم التي لم يعلمنا إياها رسول الله اختراعاً من رأسه، وإنما إبلاغاً أبلغنا إياها من ربه ومولاه سبحانه وتعالى. أنا لا أعلم كيف يمكن أن يجتمع هذان النقيضان؟ اللهم إلا أن يكون التحليل كما قد قلت لكم.

احتفالاتنا غدت عملاً تقليدياً، غدت تعبيراً عن اعتزازنا بالتاريخ لأنه تاريخ، غدت تعبيراً عن ارتباطنا بأمجادٍ سابقة نعتز بها كما تعتز أي أمة بأمجاد سابقة لها، كما تعتز فرنسا بثورتها الفرنسية رغم أنها تطورت ثم تطورت وابتعدت عن عادات أولئك الذين قاموا بتلك الثورة قبل أكثر من قرنين من الزمن. هذا هو معنى احتفال المسلمين بذكرياتهم الدينية أياً كانت.

ومن ثم – أيها الإخوة – يصح أن نقول إن الإسلام غريبٌ في بلاد المسلمين، وكما قد قلت أكثر من مرة: إن غربة الإسلام في بلاد المسلمين ليست أقل من غربته في بلاد الغرب أبداً، بل أكاد أقول في بعض الأحيان: إن غربة الإسلام في بلادنا الإسلامية أصبحت أشد، وأصبح الإسلام الذي كانت معالمه تاجاً تتوج به هذه البلاد، أصبح هذا الإسلام كسائحٍ غريبٍ غريب يجوب أطراف مدينةٍ لا علم له بها،

ولا علم للناس بهذا السائح الذي يخب في شوارعها وفي أسواقها. أكاد أقول إن غربة الإسلام في بلاد المسلمين غدت أكثر سوءً من غربته في بلد الغرب.

ولقد كنت ولا أزال أقول: يا عجباً إن ذلك الصراع الذي قام في فترةٍ من الفترات في فرنسا بين العقيدة الإسلامية التي تتمثل في الحشمة والحجاب الذي ينبغي أن يوضع على رأس الفتاة وأن تعتز به الفتاة، قام صراعٌ بين هذه الحشمة الإسلامية وبين تيارات من العادات المخالفة في فرنسا، وسار هذا الصراع ردحاً من الزمن، ثم ماذا كانت النتيجة؟ كانت النتيجة أن انتصر الحق، أن انتصرت الفضيلة بالنسبة لأصحابها، كانت النتيجة أن انتصرت الحشمة، كانت النتيجة أن انتصر الحجاب الإسلامي السليم الذي لا افراط فيه ولا تفريط، انتصر ذلك في بلاد الكفر، وأنغضَ أولئك الذين كانوا يواجهون هذا باشمئزاز، انغضوا الرؤوس وأعلنوا عن الحرية التي ينبغي أن تترك فسيحة المجال لكل من أراد أن يمارس حريته كما يشاء.

وها هي ذي فرنسا – أيها الإخوة – تنطق بلسان الحال أن للإسلام أن يعبر عن ذاته كما يشاء ضمن ساحة الحرية، ونحن لا نخالف هذا القيد ولا الشرط أبداً. أعلنت فرنسا أن للإسلام أن يعلن عن وجوده وبأجمل حلية وبأبرز شعارٍ من شعارات الفضيلة، ألا وهو شعار الحشمة. أعلنت فرنسا أن للإسلام أن يعلن عن شعاره هذا في المدرسة في الثانوية وفي الجامعة، وما ينبغي أن يضيق السبيل على هذه الفضيلة أبداً.

إذاً الإسلام ليس غريباً كل الغربة في ديار الغرب، بل الإسلام غريب في كثيرٍ من الأصقاع العربية والإسلامية أكثر مما هو غريبٌ في بلاد الغرب التي لم تفتح بعد فتحاً إسلامياً، والتي نعلم أن كثيراً من بقاعها تعلن العلمانية منهجاً لها.

أيها الإخوة.. النتيجة التي ينبغي أن ننتهي إليها، هي أننا نحن المسلمين طالما كان ارتباطنا بالإسلام ارتباطاً تقليدياً، طالما كان اعتزازنا من الإسلام بشعارات وبأقوال حتى إذا بحثنا عن مضمونات لها لم نعثر على شيء، فإننا لن نجني من هذا الإسلام شيئاً مما وعدنا به رب هذا الإسلام. ولكن إذا آل اعتزازنا بالإسلام إلى عملٍ وتطبيق، وإذا فسرنا تمسكنا بالشعارات بتمسكنا بما تحتها من مضامين وتطبيقات،

فأنا أضمن – بعد الضمانة التي ضمنها رب العالمين لعباده – أن يبدل الله ذلنا عزاً، وأن ينهي تشردنا وشتاتنا ويجمع شملنا بعد ذلك، وأن يعيد إلينا حقوقنا التي استلبت منا، وأنا بذلك ضمين وكفيل، وما قيمة أن يضمن إنسانٌ مثلي هذا إلا أن تكون ضمانته ترديداً وصدىً لضمانة الله سبحانه وتعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾. ولكنكم جميعاً تعلمون متى يكون ذلك أيها الأخوة؟ متى يكون المستضعفون هم الأقوياء والوارثين؟

عندما يعتز المستضعفون بدين الله، وعندما يستمسكون بحبل الله، وعندما يعتصمون بالمبادئ التي أوحى إلينا بها الله سبحانه وتعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.




ليلة النصف من شعبان

٣٣٢- فضيلة ليلة النصف من شعبان لا تشمل صاحب قلب حاقد | ١٩٩١/٠٣/٢٩

لقد صحَّ عن النّبيِّ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنّهُ لم يكن يعظّمُ شهراً من الشّهورِ ويحتفي بهِ بعدَ شهرِ رمضانَ المباركِ كما يعظّمُ ويحتفي بشهرِ شعبان.

ولقد روى النّسائيُّ من حديثِ أسامةَ بنِ زيدٍ رضيَ اللهُ عنهما أنّهُ قالَ لرسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم: يا رسولَ الله، ما نراكَ تصومُ شهراً كما تصومُ في شهرِ شعبان -أي ما نراكَ تكثرُ الصّومَ في شهرٍ كما تكثرهُ في شهرِ شعبان- فقالَ عليهِ الصّلاةُ والسّلام: ﴿ذلكَ شهرٌ يغفلُ عنهُ النّاس بينَ رجبَ ورمضان، وهو شهرٌ ترتفعُ فيهِ الأعمالُ إلى اللهِ سبحانهُ وتعالى، فأحبُّ أن يرتفعَ عملي إلى اللهِ عزَّ وجلَّ وأنا صائم﴾.

ولقد روى الإمامُ أحمد عن عبدِ اللهِ بنِ عمروٍ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّ رسولَ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قال: ﴿يطّلعُ اللهُ على عبادهِ ليلةَ النّصفِ من شعبان: فيستغفرُ للمستغفرين ويسترحمُ المسترحمين، إلا صاحبَ شحناءٍ وقاتلَ نفس﴾. -أي إلا من كانَ ينطوي قلبهُ على غلٍّ وضغينة، وقاتل نفسٍ لغيرِ حقّ.

وقد روت عائشةُ رضيَ اللهُ عنها فيما رواهُ البيهقيُّ أنّها قالت: قامَ رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ ليلةً فصلّى فأكثرَ من الصّلاةِ وسجدَ فأطالَ في سجودهِ حتّى ظننتُ أنّهُ قد قُبض. فقمتُ فحرّكتُ إبهامهُ فتحرّكَ فرجعت، فسمعتهُ يقولُ في سجوده: ﴿اللهمَّ إنّي أعوذُ بعفوكَ من عقابك، وأعوذُ برضاكَ من سخطك، وأعوذُ بكَ منك، لا أحصي ثناءً عليك أنتَ كما أثنيتَ على نفسك﴾. فلمّا قامَ من سجودهِ وانتهى من صلاتهِ التفتَ إليَّ قائلاً: ﴿يا عائشة أظننتِ أنَّ النّبيَّ -صلّى اللهُ عليهِ وسلّم- قد خاسَ بكِ﴾؟ فقالت: لا يا رسولَ الله، ولكنّني ظننتُ أنّكَ قد قُبضتَ من طولِ سجودك. فقالَ لها: ﴿أتعلمينَ أيُّ ليلةٍ هذه؟ إنّها ليلةُ النّصفِ من شعبان، يطّلعُ اللهُ عزَّ وجلَّ فيها على عباده، فيغفرُ للمستغفرين، ويسترحمُ المسترحمين، ويؤخّرُ أهلَ الحقدِ كما هم﴾.

هذه الأحاديثُ تدلُّنا على أمرينِ اثنين:

أوّلُهُما: فضيلةُ هذا الشّهرِ عموماً. ثانيهما: فضيلةُ ليلةِ النّصفِ من شعبانَ خصوصاً.

كما يدلُّ هذا الذي يقولهُ لنا رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ على أمرٍ آخرَ أجلَّ وأخطر، لو تنبّهْنا إليهِ وتأمّلناه. يدلُّنا كلامُ المصطفى عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ في هذه الأحاديثِ وغيرِها على أنَّ هنالكَ تفاعلاً وتداخلاً تامّاً، بل وحدةً كاملةً بينَ العباداتِ التي نتصوّرُها هي وحدها عباداتٍ يُتَقَرَّبُ بها إلى اللهِ عزَّ وجلّ، وبينَ الواجباتِ الإنسانيّةِ والخدماتِ الإنسانيّةِ التي ندبَ اللهُ سبحانهُ وتعالى إليها عباده.

كلامُ المصطفى عليهِ الصّلاةُ والسّلام في هذهِ الأحاديثِ وغيرِها ينبّهنا إلى أنَّ العبادةَ التي خلقَ اللهُ الإنسانَ لممارستِها ليست عبارةً عن الشّعاراتِ المحصورةِ المعدودةِ ممّا يسمّيهِ العوامُّ عبادات. وإنّما العبادة: هي أن يتقرّبَ الإنسانُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ بكلِّ عملٍ إنسانيٍّ يُصلحُ حالَ المسلمينَ ويبعدهم عن الفسادِ وأسبابِه. فمهما أقبلَ الإنسانُ إلى الأعمالِ الإنسانيّةِ يرعاها من أجلِ رضى اللهِ سبحانهُ وتعالى، ومهما كانَ حارساً على المجتمعِ الإنسانيِّ لإبعادهِ عن المفاسدِ ولتحقيقِ وجوهِ المصلحةِ فيه، ومهما كانَ الإنسانُ مقبلاً إلى إخوانهِ بقلبٍ سليمٍ من الضّغائن، سليمٍ من الأحقاد، فهو متعبّدٌ متبتّلٌ للهِ سبحانهُ وتعالى. ومهما كانَ الإنسانُ منبتّاً عن مجتمعهِ، قد حصرَ نفسهُ من حياتهِ التي أقامهُ اللهُ فيها ببضعٍ من الشّعائرِ يظنُّها الجسرَ الوحيدَ بينهُ وبينَ الجنّة، من صلاةٍ أو صيامٍ أو نسكٍ وغيرِ ذلك، حتّى إذا حانَ لهُ التّعاملُ مع عبادِ اللهِ تعاملَ معهم على أساسٍ من رغباتِهِ ورعوناتِهِ وأنانيّتِهِ وحظوظِ نفسه، وإذا ذُكِّرَ قالَ إنَّ الدّنيا مكوّنةٌ من شطرين:

الشّطرُ الأوّل: محرابٌ يتعبّدُ الإنسانُ فيهِ ربّه. والشّطرُ الثّاني: سوقٌ يقبلُ الإنسانُ فيها إلى مصالحهِ ودنياه.

هذا تصوّرٌ بشع، وتصوّرٌ مناقضٌ لما جاءَ بهِ الرّسلُ والأنبياء، ولما أوحى اللهُ عزَّ وجلَّ بهِ إلى نبيّهِ محمّدٍ عليهِ الصّلاةُ والسّلام، ولما نقرَؤُهُ في كتابِ اللهِ سبحانه. ألم تقرؤوا قولَ اللهِ عزَّ وجلّ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ، وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِيالْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾. هذا الإنسانُ الذي ينعى عليهِ اللهُ سبحانهُ

وتعالى دعواهُ العريضةَ أنّهُ مؤمنٌ وأنّهُ متعبّدٌ وأنّهُ متبتّل. يردُّ اللهُ سبحانهُ وتعالى عليهِ دعواهُ هذهِ ببرهانٍ لا من العباداتِ التي تؤدّى في المحاريبِ والمساجد. ولكن يردُّ عليهِ برهانهُ بسعيهِ في مناكبِ الأرضِ عندما يفسدُ ما هوَ صالح، وعندما يسيءُ إلى إخوانه، وعندما يشيعُ العبثَ في المجتمعِ أيّاً كانَ نوعُ هذا العبث.

هذا الدّليلُ القويُّ الذي يوضحُ أنَّ دعواهُ باطلة، وأنّهُ مُفْتَئِتٌ على اللهِ سبحانهُ وتعالى.

وانظروا وتأمّلوا مرّةً أخرى في هذا البيانِ الإلهيّ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾. ربّما كانَ كثيرَ ذكرٍ وأوراد، وربّما كانَ كلامهُ مصبوغاً بكلامِ اللهِ وكلامِ رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم. ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ، وَإِذَا تَوَلَّىٰ﴾، هذا هو الدّليلُ على صدقهِ أو كذبه: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِيالْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾.

هذا الذي يقولهُ لنا رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عن فضيلةِ شعبانَ وفضيلةِ ليلةِ النّصفِ من شعبانَ يوضحُ لنا التّمازجَ والتّداخلَ بينَ تعاملِ الإنسانِ مع أخيهِ الإنسان، وبين الإقبالِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ متبتّلاً، تبتّلكَ سبيلٌ إلى التّعاونِ الإنسانيِّ ما بينكَ وبينَ أخيك. صلاتُكَ ونُسُكُكَ وصيامكَ وحجُّكَ وزكاتُكْ، كلُّ ذلكَ غذاءٌ لتطهيرِ القلبِ من الشّوائبِ حتّى تستطيعَ أن تتعاملَ مع إخوانكَ معاملةً أخويّةً صافيةً عن كدوراتِ الأحقادِ والضّغائن. فلئن كانَ الإنسانُ متعبِّداً لربِّهِ في الظّاهرِ ولكنَّ قلبَهُ مليءٌ بالأحقادِ على عبادِ الله، ماذا عسى أن تفيدَهُ عباداتُه؟ وماذا عسى أن يفيدَهُ نسكُه؟ ولذلكَ أعلنَ المصطفى عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ أنَّ الإنسانَ مهما بلغَ في عبادتهِ ومهما بلغَ في نُسُكهِ وصلاتهِ وصيامه، ومهما التقطَ الفرص، ومهما أقبلَ إلى اللهِ في مواسمِ العبادةِ كهذا الشّهرِ مثلاً أو كليلةِ النّصفِ من شعبانَ ولكنَّ قلبهُ كانَ منطوياً على بغضاء، كانَ منطوياً على حقد، كانَ منطوياً على أنانيّةٍ أو مكرٍ بعبادِ اللهِ عزَّ وجلَّ من إخوانهِ فإنَّ اللهَ لا يقبلُ صيامهُ ولا زكاته، ولا ينظرُ إليه، ولا يستجيبُ لهُ دعاءَه، ويؤخّرُهُ ويجمّدُ دعواهُ إلى أن يصلحَ حاله، وإلى أن يعودَ إلى إخوانهِ الذينَ أساءَ إليهم للإصلاحِ والمسامحة. ذلكَ لأنَّ دينَ اللهِ عزَّ وجلَّ قائمٌ في كلِّ مبادئهِ الفكريّةِ الاعتقاديّةِ والسّلوكيّةِ العباديّةِ قائمٌ على الأسبابِ التي تصلحُ حالَ المسلمين وتجمعُ أمرهم وتلمُّ شعثهم وتزيلُ أسبابَ البغضاءِ وتذيبُها ممّا بينهم.

على هذا المحورِ يدورُ محورُ دينُ اللهِ عزَّ وجلّ. وأسألُ اللهَ سبحانهُ أن يجعلنا ممّن يتأمّلُ في كلامِ المصطفى ليصلَ إلى الشّغافِ الذي يقفُ عندهُ في بيانهِ ووصاياهُ وإرشاداتهِ لنا.

أمّا صيامُ يومِ النّصفِ من شعبان أيُّها الإخوةُ فلم نجد دليلاً خاصّاً على استحبابِ صيامِ هذا اليومِ بالذّات، نعم صيامهُ يدخلُ في عمومِ ما تحدَّثَ عنهُ رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ من فضيلةِ صيامِ هذا الشّهرِ والإكثارِ من الصّومِ فيه. مع العلمِ بأنَّ الإنسانَ لا يجوزُ لهُ أن يبدأَ صياماً في هذا الشّهرِ بعدَ دخولِ النّصفِ الثّاني منه، فإن أرادَ فليبدأِ الصّيامَ قبلَ ذلك.

أسألُ اللهَ سبحانهُ وتعالى أن يجعلنا من عبادهِ المرحومينَ إذا استرحموا، وأن يجعلنا من عبادهِ المغفورينَ إذا استغفروا، وأن يجعلنا من المجابينَ إذا دعوا وطلبوا، أقولُ قولي هذا وأستغفرُ اللهَ العظيم...



٣٣٣- شروط لا بد منها لاغتنام شهر شعبان | ١٩٩٢/٠٢/١٤

إنكم لتعلمون أن هذا الشهر هو شهر شعبان المبارك، وأنه الشهر الذي كان يحفِل به رسول الله صلى الله عليه وسلم ويهتم لمقدمه. روى النسائي من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما، أنه رضي الله عنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: يارسول الله، ما رأيناك تصوم في شهرٍ كما تصوم في شهر شعبان. فقال عليه الصلاة والسلام: ﴿ذلك شهرٌ يغفل عنه الناس وهو شهرٌ ترتفع فيه الأعمال إلى الله سبحانه وتعالى وأحب أن يرتفع عملي إلى الله عز وجل وأنا صائم﴾. ولقد روى البيهقي بسندٍ جيد عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة فصلى فأطال السجود حتى ظننت أنه قد قُبِض، فقمت وحركت اصبع قدمه فتحرك، أي فعلمت أنه صلى الله عليه وسلم بخير، فعدت وسمعته يقول في دعاء سجوده: ﴿اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بعافيتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك﴾ فلما انتهى من صلاته قال عليه الصلاة والسلام لعائشة رضي الله عنها: ﴿أظننت أني أخيس بك؟ أتعلمين أي ليلة هذه﴾ قالت: الله ورسوله أعلم. قال: ﴿إنها ليلة النصف من شعبان، ينزل الله سبحانه وتعالى فيها إلى السماء الدنيا﴾ وليس لنزول الله عز وجل أي كيف، والله أعلم بهذا النزول ﴿فيقول: ألا من مستغفر فأغفر له، ألا من داعٍ فأجيب دعائه، ويؤخر أهل الحقد كما هم﴾ هذا الذي فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم وقاله في هذين الحديثين الشريفين، يدلان على أهمية بالغة لهذا الشهر المبارك، وأحرى الناس بانتهاز فرص الأزمنة المباركة هم المقصرون من أمثالنا في جنب الله سبحانه وتعالى.

فالإنسان الذي وفقه الله سبحانه وتعالى للإقبال إلى الله عز وجل دائماً وفي سائر الأوقات وفي سائر التقلبات قد لا يهمه أن يصطفي وقتاً على وقت، لأنه في كل الساعات مقبلٌ إلى الله عز وجل غير مدبر، ولأنه في كل الأوقات متجه إلى الله عز وجل. ولكن المقصرين من أمثالنا هم أولى الناس بالتقاط هذه الأزمنة الفاضلة حتى يكثفوا الطاعات فيها، وحتى يكثفوا فيها القربات، فلعل طاعةً في وقت مبارك تغطي أوقاتاً كثيرة أخرى، ولعل إقبالاً إلى الله عز وجل من المقصرين والعصاة في وقت مبارك في شهر مبارك كهذا الشهر، يكون شفيعاً لصاحبه تجاه تقصيره في الأوقات الأخرى وفي الأزمنة الباقية الأخرى.

وإن كان الله سبحانه وتعالى إنما يتقبل من عبده العمل الصافي عن الشوائب، والعمل الذي يقصد به الإنسان توبةً لا تنكث وإقبالاً لا رجعة فيه، ولكن الإنسان المقصر دأبه أن ينتهز الفرص فهلا انتهزنا فرصة هذا الشهر المبارك لنصلح فيه ما أفسدنا ولنقوم ما اعوج من سلوكنا؟

شيءٌ آخر ينبغي أن يلفت أنظارنا، انظروا إلى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتحدث عن فضيلة ليلة النصف من شعبان، ويُبين كيف أن الإقبال على الله سبحانه وتعالى في هذا الشهر بالطاعات والقربات مبرور، وكيف أن الله هو الذي يتعرض لعباده ويذكرهم أن يسألوه فيجيبهم، وأن يستغفروه فيغفر لهم ولكنه مع ذلك قال: «ويؤخر أهل الحقد كما هم» فماذا يعني هذا الكلام؟ يعني هذا الكلام أن محور الطاعات وأن محور سائر القربات من صلاة وصيامٍ وذكرٍ وابتهالٍ ودعاءٍ.. محور ذلك كله إنما هو سلامةُ القلب، إنما هو القلب الخالي من الضغائن، ومن الأحقاد، ومن سوء المعاملة تجاه الأقربين وغير الأقربين. فأما الانسان الذي يُكثر من صلواته وقرباته ودعائه، ولكن له قلباً مليئاً بسواد الأحقاد والكراهية، أو يعامل الناس معاملة سيئة، أو كان عاقاً لأحد أبويه، أو كان قاطعاً لرحم، فإن الله عز وجل يجمّد طاعاته كلها، ولن تفيده تلك الطاعات شروا نقيرٍ أبداً.

هذا كلامٌ ينبغي أن يسترعي انتباهنا وما أكثر ما يُذَكرنا به رسولنا صلى الله عليه وسلم، بل يذكرنا به كتاب الله سبحانه وتعالى، والناس عن هذا معرضون.

كثيرون هم الذين يُصَلون كثيراً، ويصومون كثيراً، ويحضرون دروس الموعظة والعلم الشرعي في كثيرٍ من الأحيان، ولكن معاملاتهم لإخوانهم أو للأقربين أو لأرحامهم معاملة سيئة تنم عن قلب مريض، أتتصورون أن طاعات هؤلاء الناس تفيدهم شروا نقير؟ لن تفيدهم أبداً. الشاب الذي رضي أن يكون عاقاً لأحد أبويه؛ لوالده أو لوالدته، يأمره أحدهما فلا يصغي، يوصيه أحدهما فَيُعرض، يتعرض الواحد منهما له بأن يذكره بالبر وأن يذكره بالإحسان الذي أمر الله عز وجل به فيلوي رأسه يميناً أو يساراً مستكبراً معانداً، ثم إنه يركض إلى المساجد يصلي أو ليحضر الدروس أو لينشر المواعظ بين الناس كإنسان مثلي.

ترى أيهما أبلغ تأثيراً في ميزان الله حسناته الشكلية هذه أم إساءته العملية تلك، هذه الحسنات من الطاعات من القربات من الأذكار إنما جعلها الله خادماً لتطهير القلب، إنما جعلها الله سبحانه وتعالى وسيلة لحسن المعاملة، فإذا كان الإنسانُ مسيئاً في معاملته للأقربين أو للأبعدين من الناس، فلا يمكن لطاعاته أن تفيده شروا نقير، ولا يمكن لقرباته حتى ولو كانت في ليلة النصف من شعبان –كما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم – أن تفيده شيئاً.

وكيف أكون صادقاً مع الله عز وجل وأنا أعلم أن الله سبحانه وتعالى يأمرني في كتابه قائلاً: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾. كيف أكون صادقاً مع الله عز وجل إذ أصغي إلى كلامه هذا ثم أعرض عنه، فأعامل أبويّ أو أحداً منهما بالعقوق، وأحطم هذه الوصية الربانية ثم أغطي عقوقي مع الله ومع أبويّ بكثرة صلاة أو بإقبال إلى الدروس، أو بكثرة صيام، أو بكثرة حج، أو بكثرة صدقة. هذا العمل الطيب لن يغطي ذلك العمل السيء، وهذا الشكل من الطاعات لا يمكن أن يكون شفيعاً لذلك المضمون من السيئات.

وكما قلت لكم: إن الله ما تعبدنا بما تعبدنا به من عقائد ومن قربات وطاعات ظاهرة، إلا ليكون ذلك كله سبيلاً إلى غسل أفئدتنا من السواد المتمثل في الكراهية أو في الحقد أو في الضغائن، ثم ليكون بعد ذلك كله سبيلاً إلى أن تمتدد شبكة المودة وشبكة المحبة في الدائرة الصغيرة التي تتمثل في الأسرة، ثم في الدائرة الكبيرة التي تتمثل في المجتمع، بحيث يشيع حسن التعامل بين الناس بدلاً من سوء التعامل، وبحيث تشيع الثقة فيما بينهم بدلاً من نقيضها.

الدين الذي ابتعث الله عز وجل به الرسل والأنبياء، إنما جعله الله سبحانه وتعالى أداةً لتصعيد الأخلاق ولرفع مستوى الطبائع إلى المستوى اللائق الذي ارتضاه الله سبحانه وتعالى لعباده.

ومرة أخرى ينبغي أن نقف ولا ننس أمام هذه الكلمة المخيفة العجيبة التي قالها رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي ترويه عائشة إذ قال: ﴿أتدرين يا عائشة أي ليلة هذه﴾ قالت: الله ورسوله أعلم. قال: ﴿إنها ليلة النصف من شعبان ينزل الله فيها إلى السماء الدنيا فيقول: ألا هل من مستغفرٍ

فأغفر له ألا هل من داعٍ فأجيب دعائه ويؤخر أهل الحقد كما هم﴾. أي وإن دعوا وإن استغفروا وإن صلوا وإن صاموا وإن أقبلوا إلى الله بصور الطاعات، لأن طاعة تستبطن عقوقاً ليست بطاعة صحيحة أبداً، وهي أشبه بالنفاق منها بحسن التعامل مع الله عز وجل. أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.



٣٣٤- نفحات شهر شعبان في ظل ما نتقلب به من محن وأزما|

١٩٩٥/01/١٣

إنّ الله سبحانه وتعالى يحب من عبادِه أن يُكثروا من الالتجاء إليه، والتضرع بين يديه، والتذلل في رحابه؛ ذلك لأن الإنسان مهما وصف نفسه بالعبودية لله عز وجل لن يبرهن على صدق دعواه هذه إلا إذا كان كثير الالتجاء إلى الله، كثير التضرع بين يديه، كثير التبتل، كثير التذلل في رحابه.

ومن أجل هذا فقد اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن يبتلي الله عز وجل عبادَه بين الحين والآخر بألوان من المحن والشدائد، حتى تكون هذه الشدائد مُذكِّرة لهم بما يجب لهم أن يفعلوه، ذلك لأن الإنسان إذا وجد نفسه حياته كلها مملوءً بالنعم والأُعطيات، ووجد ساعات حياته فيّاضة بالأمن والطمأنينة، ونظر فوجد أن الأخطار كلها بعيدة عنه، في مثل هذه الحال لن يجد ما يبعثه إلى التجاء أو تضرع بين يدي الله عز وجل، وصدق الله القائل في مُحكم كتابه: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ، أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾

والإنسان من شأنه أن يأخذ به الفرح والمرح إذا وجد أن نعم الله لا تنقطع عنه، وأن أخطار الدنيا بعيدة عنه. فكان من مظاهر حكمة الله، بل من أبرز مظاهر رحمة الله بعباده أن يبعث بين الحين والآخر إلى الإنسان ما يحمله على اليقظة، لكي يلتجئ إلى الله ويتضرع بين يديه.

صحيحٌ أن الإنسان فقير إلى الله في كل أحواله، في حال صحته ورغده وغناه، ولكن الإنسان ينسى حقيقته إذا وجد أن النعمة دائماً لا تفارقه، فمن أجل هذا لا بد له من مُذَكِّرات، والمذَكِّرات التي تعيد الإنسان إلى هويته وتعرّفه بحقيقته عبداً ضعيفاً مهيناً لله عز وجل، إنما هي المصائب والمحن. ونسأل الله العفو والعافية.

هذه المصائب هي التي توقظ الإنسان، وهي التي تذكره بحقيقته سواء كانت مصائب كُليّة أو مصائب من نوع المحن والابتلاءات الخاصة أو الجزئية، ونقطة الضعف في حياة المسلمين اليوم أنهم قلما يلتجؤون إلى الله، وقلما يتضرعون بين يدي الله سبحانه وتعالى على الرغم من أن كثيراً من الأزمات تمر بهم، وأن

كثيراً من الرزايا تحيق بهم، ولكنهم مع ذلك وفي أكثر الأحيان بعيدون ساهون عن هذا المعنى الذي ينبهنا إليه الله عز وجل من خلال قوله: ﴿وتبتل إليه تبتيلاً﴾. والتبتل هو شدة الضراعة بين يدي الله عز وجل، وإذا ابتلي الإنسان بقسوة القلب هذه حتى لم تعد الرزايا والمحن توقفه وتجعله يتذلل مستغفراً آيباً إلى الله، فقد تودّع من هذا الإنسان الذي غدا شأنه بهذا الشكل.

وقد جعل الله سبحانه وتعالى وهذه من مظاهر رحمته الكبرى، جعل الله سبحانه وتعالى في عمر الإنسان وعلى مدى مراحل حياته معالم بوسعه أن يقف عندها ليتذكر الله سبحانه وتعالى، وليرى هنالك شدة مغفرة الله سبحانه وتعالى ورحمته به، فكأن الإنسان عندما يقطع عمره هذا سيراً من الدنيا إلى الآخرة، كأنه يسير في طريقٍ بين مدينتين يجد بين كل مرحلة وأخرى استراحة يقف عندها ليستعيد قوته وليستعيد نشاطه وليعود إلى بعض ما قد يحتاج إليه فيصلح من شأن نفسه، تماماً العمر كذلك...

جعل الله سبحانه وتعالى وأنت تجتاز حياتك هذه من الدنيا إلى الآخرة، جعل لك في طريقك إلى الله معالم زمانية ومعالم مكانية؛ لتقف عندها وقد ذكرتك هذه المعالم بالله، وذكرتك بعظيم رحمة الله إن كنت قد شردت عنه، وذكرتك بعظيم مغفرته إن كنت قد ارتكبت شيئاً من الأوزار والمعاصي في جنبه سبحانه وتعالى. تقف أمام هذه الاستراحة أو عندها فتضرع وتلتجئ وتستغيث وتسأل الله سبحانه وتعالى أن يغفر لك ذنبك وأن يُصلح لك حالك، وإذا بك قد غدوت كيوم ولدتك أمك تعاود السير في طريقك إلى الله وأنت نشيط، وقد زايلتك المعاصي التي أثقلت كواهلك، حتى إذا وصلت إلى معلمة أخرى وقد تعلقت بك أشوابٌ من المعاصي الأخرى تقف عند تلك المعلمة الثانية مستغفراً متضرعاً متبتلاً آيباً إلى الله سبحانه وتعالى.

هذه المعالم قلّ من ينتبه إليها، وهذه المعالم قلّ من يقف عندها ليجدد عهده مع الله وليجدد اصطلاحه مع الله سبحانه وتعالى.

ونحن أيها الأخوة في مَعلمة اليوم من هذه المعالم على طريقنا ونحن غادون وآيبون وذاهبون إلى الله سبحانه وتعالى، هذه المعلمة تتمثل في هذا الشهر العظيم، شهر شعبان المبارك، هذه المعلمة الكبرى مثابة التجاء إلى الله لمن أراد أن يعود فيلقي عن كاهله عبء الأوزار التي تحملها، ولقد صحّ عن رسول الله

صلى الله عليه وسلم أحاديث كثيرة بفضل هذا الشهر، وصحت عنه أحاديث كثيرة في فضل لباب هذا الشهر ألا وهو ليلة النصف من شعبان ويوم النصف من شعبان أيضاً. روى النسائي من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: قلت يا رسول الله ما رأيتك تصوم من شهرٍ كشهر شعبان. فقال عليه الصلاة والسلام: ﴿ذلك شهرٌ يغفل عنه الناس وفيه ترتفع الأعمال إلى الله سبحانه وتعالى فأحب أن يرتفع عملي إلى الله وأنا صائم﴾.

هذا الحديث ومثله كثير.. يبين لنا فضيلة هذا الشهر كله من أوله إلى آخره، وهو معلمة في طريقنا في رحلة عمرنا إلى الله سبحانه وتعالى، وأحاديث أُخرى وردت في فضيلة ليلة النصف من شعبان. يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه الطبراني في معجمه وابن حبان في صحيحه من حديث معاذ بن جبل: ﴿إذا كان ليلة النصف من شعبان فصوموا يومها وقوموا ليلها، فإن الله سبحانه وتعالى يطِّلع إلى عباده في تلك الليلة فيغفر للجميع إلا لمشركٍ أو حاقد﴾.

وقد روى البيهقي عن العلاء بن الحارث عن عائشة رضي الله عنها قالت: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلةً يصلي فسجد فأطال السجود، فخشيت أنه قد قُبض، فقمت فحركت إصبعه فتحرك فعدت، فلما قام من سجوده وانتهى من صلاته. قال لي يا عائشة: ﴿أظننتي أني أخيس بكِ – أي أنني غدرت بكِ وذهبت في ليلتك إلى مكان آخر– قلتُ: لا والله يا رسول الله، ولكني خشيت أنك قد قبضت، أي من كثرة تأخرك وتلبثك في سجودك. فقال: أتدرين أي ليلة هذه؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: إنها ليلة النصف من شعبان ينزل الله سبحانه وتعالى فيها إلى السماء الدنيا فيقول: هل من مستغفر فأغفر له، هل من مسترحم فأرحمه؟ ويؤخر أهل الحقد كما هم﴾، أي يؤخر أصحاب القلوب التي غشتها الأحقاد والضغائن ولم تجد من التزكية ما يعيدها إلى صفائها ونقائها يتركهم الله سبحانه وتعالى كما هم.

أعود فأقول هذه معلمة إذاً من المعالم التي تنادينا، ونحن نسير إلى الله في طريق هذا العمر الذي قيضه الله عز وجل لنا، وما أحوجنا إلى أن نتحول إلى هذه المعالم أو الاستراحات، فآثامنا كثيرة ومصائبنا شتى، وقلوبنا قاسية، وأزماتنا متسلسلة لا تتناهى، ولا سبيل للخروج من هذه المعضلات وللتحرر من هذه المعاصي وللتخلص من هذه الأزمات إلا أن نتحول إلى هذه المعالم فنجأر إلى الله بالشكوى ونصدق

بالالتجاء إليه سبحانه وتعالى بقلوبٍ فيّاضة بمشاعر العبودية لله عز وجل، وقد فرغت من حب الأغيار والخوف من الأغيار، وتعظيم الأغيار، وتهيأت لمحبة الله الواحد القهار، الذي لا إله سواه.

ما أحوجنا إلى أن ندعو ونلتجئ إلى الله سبحانه وتعالى ليُصلح شؤوننا، وليُصلح شؤون إخوان لنا، وليرحمنا وليغفر لنا وليعيدنا إلى صراط الوئام وصراط الحب والاتفاق، كل هذه المصائب نلتفت يمنة ويسرة نجدها وقد تحولت من حياتنا إلى ما يشبه سحب متراكمة سوداء غشّت على حياتنا، وتسلل منها الظلام إلى قلوبنا، والعجيب أننا عندما نتذكر هذه المآسي أياً كانت نعالجها بعقولنا فقط، نعالجها بأفكارنا، نعالجها بتصوراتنا بالجدل بالحوار. ولكننا لا نتذكر أبداً أن نعالجها بالاستجابة لقول الله عز وجل: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ والفرار إلى الله كيف يكون؟

يكون بالتضرع كما قلت لكم بين يديه، الفرار إلى الله بأن تتجرد عن قواك الفكرية والعضلية والعقلية وأن تقول بكل: اللهم لا حول لي ولا قوة إلا بك، وقد التجأت إليك وأنا كتلة من الضعف، وأنا استرحمك فارحمني، أسألك اللهم أن تغفر لي فاغفر لي، أسألك اللهم أن تصلح حال هذه الأمة فأصلح اللهم حالها، أسألك اللهم أن تجمع إخواني المؤمنين هنا وهناك وهناك على صراطك فاجمع اللهم شملها، اللهم إني أسألك أن ترفع أيدي أعدائك عن عبادك الصالحين وأنت المستجاب، وأنت الذي يلجئ إليك العباد وأنت الملجئ ولا ملجئ سواك، لقد تجردنا من كل حول ومن كل طاقة ومن كل ما قد يتراءى لنا أنا نملكه... أين هم الذين يمضون ليلهم بهذا الدعاء.

تأملوا أيها الأخوة، لا أقول في حال الفاسقين، فالفاسقون قد حجبوا عن هذه الحقيقة التي نقولها، ويوشك بإذن الله أن يرتفع الحجاب يوماً ما عنهم، ولكني أتحدث عن كثير من المسلمين. غدا الإسلام في حياتنا إسلاماً فكرياً، غدا الإسلام في حياة كثيراً منا إسلام أخذٍ ورد، إسلاماً عقلانياً. ونحن لا نبخس بشأن العقل أبداً، لكننا نجعل العقل خادماً للقلب والوجدان، العقل ينبغي أن يكون سراجاً يوصلنا إلى هذه المعالم التي حدثتكم عنها، فنقبع في محاريب هذه المعالم بصدق الالتجاء إلى الله، وبصدق التضرع إلى الله. أين نحن من قول الله عز وجل: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾.

نحن نعلم أن هنالك أخوة لنا في أطراف هذا العا لم لا تمر ساعة إلا وفيهم من يتذلل بصدق وإخلاص في الالتجاء إلى الله سبحانه وتعالى، نعلم أن هنالك عيوناً تذوب بكاءً بين يدي الله سبحانه وتعالى تستنزل من سمائه النصر، تستنزل من عليائه القوة، تستنزل من عليائه الغضب لأعداء الله سبحانه وتعالى وأعدائهم، هؤلاء الذين تجلت وحوش الغابات أمامهم وكأنهم خير من البشر جميعاً، فلماذا لا نؤمّن على دعائهم إن لم ندعوا مثلهم؟ لماذا يكون نصيبنا الفكر والبحث والنقاش فقط؟ وأولئك رأس مالهم صدق الالتجاء إلى الله عز وجل؟

أولئك شدوا أنفسهم إلى ماضي رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم كان يجأر طوال الليل يتضرع إلى الله عز وجل أن ينصر عصابة المسلمين، وأن يحقق الوعد الذي قطعه لهم ليلة بدر، يوم كان يدعو الله سبحانه وتعالى في ظلمات الليل يوم الأحزاب، يوم كانت الريح تزمجر في معسكر المشركين استجابةً لأمر الله سبحانه وتعالى، لماذا لا يكون شأننا كشأنهم؟ لماذا لا نتلقى الدروس منهم!!؟ وما أحوجنا اليوم إلى أن نتلقى الدروس التي تخترق غفلاتنا، وتخترق سوء حالنا، وتجعلنا ننتقل من الإسلام الكلامي، الإسلام النظري إلى الإسلام الفعلي، إلى الإسلام الذي يصل القلب بالله سبحانه وتعالى.

وإنا أمام استراحة في طريقنا إلى الله سبحانه وتعالى من جملة هذه الاستراحات الكثيرة، هي استراحة شهر شعبان، هي هذه المعلمة التي حدثتكم عنها فلنملأ هذا الشهر المبارك أو الباقي من هذا الشهر بصدق التضرع إلى الله، بصدق الالتجاء إلى الله عز وجل، أن يصلح الله حالنا وأن يرأف بنا وأن يرحمنا، وأن يرفع الضراء عنا وعن إخواننا جميعاً، ثم نلجئ إلى الله سبحانه وتعالى أن يصلح حال إخواننا المسلمين جميعاً في مشارق الأرض ومغاربها، لئن لم نكن نستطيع أن نشارك أولئك الناس في قطراتٍ من الدم نريقها، فإن بوسعنا أن نشترك معهم بالدعاء؛ دعاءٍ صادق واجف ينطلق من الأعماق، ولعل صدق الدعاء يكون انجع من الاشتراك بالدماء

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

٣٣٥- عبادة في الهرج كهجرة إلي | ١٩٩٩/١١/١٩

لقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في أحاديث كثيرة أن من أشراط الساعة أن يكثر الهرج، والهرج هو الفتن التي تبعث على الظلم وعلى القتل بدون حق، وقد قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض هذه الأحاديث: ما الهرج يا رسول الله؟ قال: ﴿أن يستحر القتل﴾ أي أن يكثر القتل. وهذه العلامة التي أنبأ عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرٌ واقعٌ كما نرى، وهو علامة من العلامات التي حدث عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ووقعت كما أنبأ عليه الصلاة والسلام. والفتن التي تدور رحاها على العالم والمصائب والرزايا التي تتسبب عن ظلم الإنسان لأخيه الإنسان، والقتل الذي يتزايد في أطراف العالم كله هو مصداق قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿إن من أشراط الساعة أن يكثر الهرج﴾.

ولكن ما من مصيبةٍ أنبأ عنها الله عز وجل في كتابه أو تحدث عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما صح من سننه، إلا وقد جعل الله سبحانه وتعالى إلى جانب ذلك علاجاً لهذه المصيبة ووسيلةً للتخلص منها والابتعاد عنها، فالمصائب كالأمراض أو الأدواء التي يبتلي الله سبحانه وتعالى بها عباده، وقد أنبأنا المصطفى صلى الله عليه وسلم ﴿أن الله ما أنزل داءً إلا وأنزل له دواءً، إلا السام﴾ – يعني إلا الموت، فبمقدار ما يوجد في الكون من أدواء وأمراض، أوجد الله في مقابلها العلاجات التي تشفي من تلك الأمراض، كذلكم المصائب مهما كثرت المصائب وتعرض لها الإنسان، فإن الله عز وجل حعل أمام الإنسان وسيلة يستطيع أن يتخلص بها من وقع تلك المصائب وشدتها.

ومن أهم العلاجات التي أنبأ بها رسول الله صلى الله عليه وسلم للتوقي من الهرج الذي تحدث عنه والابتعاد عنه، الإقبال إلى العبادة، كثرة التبتل والعبودية لله سبحانه وتعالى.

ولقد صح عن النبي عليه الصلاة والسلام فيما رواه مسلم في صحيحه وأحمد وغيرهما أنه صلى الله عليه وسلم قال: ﴿عبادة في الهرج كهجرة إلي أو العبادة في الهرج كهجرة إلي﴾، أي إذا كثر القتل وكثرت الفتن التي هي من أشراط الساعة، ولاذ الإنسان منها بكثرة العبادة والتبتل والإقبال على الله سبحانه

وتعالى، فإن الله يجعل له من ذلك منجاة من وقع تلك المصائب، بل إن هذه العبادة في مثل هذه الحال يتضاعف أجرها ويزداد ثوابها، حتى إن ثواب هذه العبادة يصبح كهجرة إلى المصطفى صلى الله عليه وسلم، عندما كانت الهجرة واجبة وقبل أن يقول: ﴿لا هجرة بعد الفتح ولكن عبادةً ونية أو جهادٌ ونية﴾.

أيها الإخوة بمقدار ما تتكاثر هذه الفتن من حولنا اليوم ونسأل الله سبحانه وتعالى أن يعافينا منها بمقدار ما يكثر الإعراض عن هذا الدواء الذي تحدث عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، بمقدار ما يكثر الإعراض عن التبتل والعبادة لله سبحانه وتعالى، وليس المراد بالعبادة طقوساً تعوّد الإنسان عليها في حياته، وإنما المراد بالعبادة صدق العبودية لله عز وجل والتبتل والتضرع لله عز وجل، وإنما مرد ذلك إلى أن تصطبغ المشاعر لا أن يصطبغ اللسان أو أن تصطبغ الأعضاء بمظاهر هذه العبادة أو العبودية.

الإسلام غدا مجموعة مظاهر مجموعة نظم مجموعة حركات وأنشطة، أما الجذور التي تتصل بالفؤاد فالقلب فارغٌ عن معنى العبودية والتبتل والتذلل لله سبحانه وتعالى، وإذا كان الإقبال على صدق العبودية الواجفة لله عز وجل من الضروريات التي لابد منها في الأزمنة الخالية، فإن ضرورة الإقبال إلى هذه العبادة تتضاعف اليوم ذلك لأننا نعيش الفترة التي أنبأ عنها رسول الله.

نحن نعيش الأيام القريبة بل المجاورة لقيام الساعة، وهذه هي أنباء الهرج والمرج تسمعونها وكثيراً ما ترونها بوسائلكم المختلفة المتنوعة، تمر المناسبات تلو المناسبات وجل المسلمين غافلون عن هذه المناسبات، والزمن كله في هذه الأعصر الأخيرة مناسبة هذه الفترة التي نجد بها مصداق كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم مناسبة تدعو إلى صدق التبتل وإلى صدق الإنابة والتوبة إلى الله عز وجل وصدق الإلتجاء والتضرع لله سبحانه وتعالى، ومع ذلك فما أكثر المسلمين التائهين والغافلين عن هذه المناسبات التي تمر.

ودعوني أقول لكم عن مناسبة صغيرة تمر ضمن هذه المناسبة الكبيرة: هذا الشهر الذي نمر به أو يمر بنا شهر شعبان من هو الأولى بمثل هذه فرصة هذا الشهر والإقبال فيه على الله، نحن أم رسول الله صلى الله عليه وسلم. رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي قال له الله عز وجل: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾، وهو الذي قال له الله عز وجل: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ ولا ذنب له

– أما نحن فمرهقون بالمعاصي والأوزار، ثم إننا نعيش عصر هذا الاختناق الذي ترون، كل ما حولنا ينبهنا ويدعونا إلى كثرة الإلتجاء إلى الله وإلى الإسراع للتوبة إلى الله عز وجل، وننظر فنجد أن السادرين على غيهم لايزالون سادرين، وأن المنكبين على لهوهم ومعاصيهم لا يزالون مستغرقين في ذلك، ومهما ارتفعت أصوات النذر، ومهما تجلت آيات الله عز وجل فننظر فإذا بهؤلاء التائهين لا يزدادون إلا تيهاً.

شهر شعبان، سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سبب كثرة الصيام فيه، قال: ﴿ذلك شهرٌ يغفل عنه كثيرٌ من الناس بين رجب ورمضان وهو شهر ترتفع فيه الأعمال إلى الله فأحب أن يرتفع عملي إلى الله وأنا صائم﴾.

وقد ورد بسند ضعيف فيما رواه ابن ماجه عن علي رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال: ﴿إذا كانت ليلة النصف من شعبان فقوموا ليلها وصوموا نهارها، فإن الله ينزل في كل ليلة من هذا الشهر إلى السماء الدنيا فيقول: ألا هل من مستغفر فأغفر له ألا هل من داع فأستجيب له﴾

وقد روى البيهقي بسند صحيح من حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة فصلى، فأطال السجود، فظننت أنه قد قبض فقمت فحركت اصبعه فتحرك، فرجعت – أي اطمأننت ورجعت، فسمعته يقول في سجوده: ﴿اللهم إني أعوذ بعفوك من عقوبتك وأعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بك منك لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك –فلما قام من سجوده وأتم صلاته– قال: يا عائشة أظننت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد خاس بكي؟ قالت: لا والله يا رسول الله ولكني خشيت أو ظننت أنك قد قبضت فقال أتعلمين أي ليلة هذه؟ قالت الله ورسوله أعلم، قال لها: هذه ليلة النصف من شعبان يطلع الله سبحانه وتعالى فيها على عباده فيقول ألا من داعٍ فأستجيب له ألا هل من مستغفر فأغفر له ويؤخر أهل القطيعة والأحقاد فيما هم فيه﴾.

هذه الفرصة تمر بنا ولسوف تأتي بعدها فرصة أخرى، وفرص الرحمة الإلهية سلسلة لا تنقطع. لكن أين هم الذين ينتهزون فرص هذه الأبواب المفتحة التي ينادي الله عز وجل فيها عباده أن يتوبوا إليه حتى يتوب عليهم؟ وأن يستغفروه حتى يغفر لهم؟ لا نجد!

نجد التيه لا يزال مطبقاً، ونجد القلوب القاسية لا تزال تستمر وتزداد قسوة، ولا يقولن قائل وهاهي ذي المساجد تفيض بالمصلين فيها. وهل المصلون إلا هؤلاء التائبون العابدون الحامدون؟ هؤلاء قلة أيها الإخوة، تجاوزوا صور هذه المساجد ومن فيها وانظروا إلى الكثرة الكاثرة هناك في الفنادق في كل ليلة، في أماكن اللهو من كل ليلة، بل إلى البيوتات في كل ليلة، انظروا إلى الأسواق وما فيها من مظاهر اللهو وما فيها من انغماس في الدنيا ونسيان الله عز وجل ونسيان اليوم الآخر، تلك هي الكثرة الكاثرة، وهذه هي المصيبة الكبرى.

نحن نقول ونكرر القول... وأحسب أن ما أقوله يصك أسماع هؤلاء الإخوة الشاردين وما أكثرهم، وكلامي وكلام غيري يلاحقهم، ولكن هل سمعتم أن واحداً منهم أقلع عن غيه؟ استيقظ من غفلاته؟ تاب إلى الله سبحانه وتعالى من شروده ومعاصيه وأهوائه؟ أنا أسأل عن أولئك الناس.

الصورة التي نراها لا تدل على شيء من ذلك، هي صورة قاتمة لا تبعث على اليأس، لكنها تبعث على الخوف الشديد من مقت الله سبحانه وتعالى وسخطه.

والمصائب التي يرسلها الله على عباده قسمان:

قسم منها يأتي مظهر انتقام لأولئك الذين انبتت صلتهم عن الله عز وجل، ولا تأتي إلا بعد أن فتح الله عز وجل عليهم الأبواب على مصارعها ردحاً طويلاً من الزمن.

القسم الثاني مصائب هي أشبه بسياط التأديب يبعثها الله عز وجل بين الحين والآخر على عباده المؤمنين به والتائهين عنه المنتمين إليه والشاردين عن صراطه، كما هي الحال بالنسبة لنا، يبعث الله عز وجل عليهم المصائب لتوقظهم فأين هم الذين يستيقظون؟

المصائب التي نراها اليوم مصائب نراها مخيفة فوق رؤوسنا ونراها من حولنا ونرى أخطارها تحت أقدامنا، نراها فوقنا في مظهر هذا الصيف اللاهب الذي استمر واخترق أشهر الشتاء كما ترون، نرى هذه المصائب من حولنا فيما تعلمون وتسمعون ويوشك أن تتسرب هذه المصائب إلينا، نرى خطر هذه المصائب في الأرض التي نمشي فوقها، من الذي يطمأن إلى أن البقعة التي تمشي فوقها لن تتزلزل بك ولن

تبتلعك وتجعلك أثراً بعد عين؟ أليس الله هو القائل: ﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾.

هذا هو الإنسان محور تدور عليه المصائب من كل جانب، ومع ذلك ننظر فنجد أن القلة المقبلة إلى الله عز وجل مقبلة جهد استطاعتها وليت أنها كانت أحسن حالاً مما هي عليه الآن.

أما الكثرة الكاثرة فأناس أضافوا إلى المعاصي الاستكبار على الله، أضافوا إلى المعاصي العناد، وقد يخيل إلي أنه قد صدق عليهم قول الله عز وجل: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ، لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ هؤلاء أيها الإخوة ينبغي أن يتوبوا ينبغي أن يرعووا، فإن لم يتوبوا إلى الله وإن لم يلجأوا إلى صدق العبودية لله في أزمنة الهرج هذه، فإن القلة التي تلجأ إلى الله لا جدوى من لجوئها إليه.

ألم يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم سألته زينب: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: ﴿نعم إذا كثر الخبث﴾. لابد لهذا الخبث أن يعود فيطهر نفسه، لابد أن يعود إلى الله عز وجل، وكم أقول ولكن كلامي لا يرسخ في الأذهان: إن التجاء القلة اليسيرة إلى الله مع بقاء الكثرة الكاثرة في طريق انحرافها عن الله لا يجدي. وقد ضربت بالأمس مثلاً وأعيده: لو أن رجلاً أساء الأدب في حق ملك من الملوك، وتصرف تصرفات غير لائقة وجاؤه بعض من بينهم وبين الملك صحبة وخلة وحب فقالوا لهذا الإنسان تعال بنا نمضي إلى الملك الذي أسأت إليه لنتوسط لك في أن يسامحك ويصفح عنك، فقال هذا الإنسان الذي أساء: اذهبوا وتوسطوا لي، أما أنا فلن أذهب معك ولن أجرح كرامتي بالوقوف بين يديه. قالوا له: تعال قل كلمة واحدة اعتذر وأره حسن نيتك ونحن سنتكفل بأن يصفح عنك، قال: لا ليست لي حاجة إلى ذلك، لكن أنتم اذهبوا فاستصفحوا وتوسطوا لي بأن يصفح عني. هل يمكن لهذه الوساطة أن تنجح؟ هل يمكن لهذه الوساطة أن تثمر؟

هذه هي حالنا أيها الإخوة ولا داعي إلى أن أطيل.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

٣٣٦- فلننتهز فرصة شعبان | ١٩٩٩/١١/٢٦

أذكركم بما قلته الأسبوع الماضي من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في أصح ما ورد من فضائل شهر شعبان عندما سُئل عليه الصلاة والسلام عن السبب في إكثاره الصوم فيه قال: ﴿ذلك شهرٌ يغفل الناس عنه بين رجب ورمضان وهو شهرٌ ترتفع فيه الأعمال إلى الله فأحب أن يرتفع عملي إلى الله وأنا صائم﴾.

هذا الذي يقوله لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من شأنه أن يدفع كل إنسانٍ بينه وبين الله خيطٌ من الإيمان، من شأنه أن يدفع هذا الإنسان إلى الرجوع إلى الله إن كان شارداً عن هديه، وإلى الإصطلاح معه إن كان معرضاً عن أوامره، يتوب إلى الله من سيئاته حتى لا ترتفع السيئات والمعاصي التي تثير مقت الله سبحانه وتعالى وغضبه، ومن المعقول بالنسبة لأي إنسانٍ بينه وبين الله أوهى خيوط الإيمان أن يبذل كل ما يملك وأن يبذل كل جهد في سبيل أن ترتفع أعماله الصالحة إلى الله عز وجل، والمأمول في هذه الحال أن تمحو الصالحات من الأعمال في هذا الشهر ما سلف قبل ذلك من الموبقات والآثام مهما كثرت ومهما تطاول عليها الأمد ومهما استمرت.

أذكركم وأذكر نفسي بضرورة الرجوع إلى الله سبحانه وتعالى لإصلاح الأمر وللتوبة الصادقة إلى الله عز وجل وللعزم الصحيح الصادق على أن لا يعود أحدنا إلى ما سلف من موبقاتٍ وآثامٍ وتقصيرات في جنب الله عز وجل. وأنا أُسائل نفسي... إذا كان المصطفى صلى الله عليه وسلم يهتم هذا الاهتمام بمثل هذا الشهر ويعود فيحاسب نفسه ويراقب أعماله كي ترتفع صافيةً عن الشوائب إلى الله، وهو المعصوم عن السيئات والأوزار، فكيف ينبغي أن يكون حال أحدنا ونحن مغموسون في أيامنا ولياليناً بالموبقات وما أكثرها، بالانحرافات وما أخطرها، وبحالات كثيرة من النسيان والغفلة، سعياً وراء شهواتنا وتجاراتنا وأموالنا ودنيانا. كيف ينبغي أن يكون حال أحدانا إذا قايسنا بين أنفسنا وبين هذا الذي يقوله رسول الله صلى الله عليه وسلم؟

أيها الإخوة أريد أن يعلم كل واحدٍ منكم أن ما يجري في هذا العالم من مصائب تنحط على المسلمين في مختلف أصقاعه ومختلف بلاده، مهما تنوعت هذه المصائب، إنما هي من شؤمنا نحن إنما هي من شؤم معاصينا، شؤم أوزارنا، شؤم ابتعادنا عن أوامر الله وانغماسنا في ما قد نهى الله عز وجل عنه. وأنا لا أبالغ في هذا وأرجو إذا لاحظنا ظلم الظالمين للمسلمين أياً كانوا على مقربة منا أو بعيداً عنا ينبغي أن نبدأ فنحاسب أنفسنا وأن نعلم أننا نحن المسؤولون عن هذه العصي التي تتهاوى على ظهور عباد الله المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها سواءٌ كانوا جيران لنا أو كانوا بعيدين عنا وما ينبغي أن نأخذ المناظير وننظر من خلالها إلى البعيد والبعيد ونتحدث عن ظلم الظالمين وسفاهة السفهاء وإجرام المجرمين ثم نضع أنفسنا من ذلك في أبراج عاجية بعيدين عن المسؤولية وكأننا ملائكةٌ نُظلم ولا نظلم، يُساء إلينا ولا نسيء، لو لم نسئ إلى الله عز وجل لما سلط الله عز وجل علينا من يسيء إلينا.

وقد روى الطبراني في الأوسط بسندٍ صحيح «الظالم عدل الله في الأرض ينتقم به ثم ينتقم منه»، وقد روي هذا الحديث بألفاظٍ عدة وبطرق مختلفة، هذه الألفاظ أصحها، «الظالم عدل الله في الأرض ينتقم به» كما ترون «ثم ينتقم منه». تأتي الساعة التي لا مرد لها عندما ينتقم الله سبحانه وتعالى من أولئك الفجرة، من أولئك الظالمين. ولكن لماذا يسلط الله أولئك الظالمين علينا أو على إخوة لنا بعدوا أو قربوا لماذا؟ لأن المسألة تعود إلى شؤمنا نحن. هذا الظلم نتيجة نسيج معاصينا التي تراكبت ثم تراكبت وتزايدت فكان من جراء ذلك هذا الواقع الذي ترون.

عندما يمر شهرٌ كهذا الشهر المبارك وننظر من حولنا فنجد أن العاصين لا يزالون عاكفين على معاصيهم، وأن السادرين في غيهم لا يزالون يعانقون غيهم، وأن الفسقة والفجرة لا يزالون كما هم، وأن الذين يمدون ألسنتهم بمقالة السوء عن الإسلام باسم العلم أو باسم العلمانية أو العولمة إلى آخر تلك الكلمات التي تتزايد؛ عندما نجد هذه الظاهرة ينبغي أن نعلم أن بمقدار ما تكون أبواب الرحمة الإلهية في هذه المناسبات مفتحة تتهيأ وسائل الانتقام أيضاً، فإما أن ننتهز الفرصة ونستغل هذه الأبواب المفتحة أمامنا وهذا النداء الذي يبلغنا إياه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنتوب إلى الله من سيئات أعمالنا، وسوء تصرفاتنا، ونحسن علاقة ما بيننا وبين الله وبيننا وبين عباد الله سبحانه وتعالى، أو إذا ركبنا رؤوسنا ومرت المناسبة تلو المناسبة، والفرصة تلو الفرصة ونحن معرضون سادرون، أو نحن مستكبرون على هذا

الذي يُنبئنا عنه بيان الله أو يخبرنا به رسول الله صلى الله عليه وسلم، فينبغي أن نتوقع المزيد من الظلم الذي يحيق بنا أو بإخواننا، وتلك هي سنة الله تعالى في الأرض.

بدلاً من أن يستيقظوا إلى ما فيه من عبرة وإلى ما فيه من عظة يطلقون لعقولهم العنان في التفلسف في معنى هذا الكلام كيف ترتفع الأعمال إلى الله وما معنى ارتفاعها؟ وهل الله سبحانه وتعالى بحاجة إلى أن ترتفع إليه الأعمال وتجد من يؤول ومن يتمشدق في ربط التصورات الكثيرة بهذا الكلام واتخاذ ذيول له ما أنزل الله بها من سلطان، بدلاً من أن تدخل الخشية إلى قلبه من هذا الكلام الذي يقوله رسول الله في أحاديث كثيرة شتى ويغمض العين، ويقول صدق الله وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويحيل تفسير هذا الأمر الغيبي إلى الله، بدلاً من أن يقبل إلى الله تائباً مرعوياً، يبقى في مكانه ويطلق لسانه يتمشدق بالتأويلات. تحرك بسلوكك إلى الله بدلاً من أن تبقى جاثماً في مكانك وتتفلسف أمام الناس لتظهر لهم قدرتك الكلامية وفلسفتك الفكرية.

نظير ذلك من يسمع عن المكرمات التي أكرم الله عز وجل بها رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم والخوارق التي أكرمه بها، ومن ذلك الإسراء والمعراج يأتي من يتمشدق فيقول على أسماع الناس: إنه إنما ارتقى بجسمه الأثيري نعم ونحو ذلك، من قال لك هذا؟ في أي آية في كتاب الله قرأت وفي أي حديث من أحاديث رسول الله سمعن ومتى همس لك رسول الله بهذا فأنبأك بما لا يعلمه السلف والخلف.

أمرٌ غيبي سواءٌ كان ما يتعلق بإسراء رسول الله وكيفية ذلك أو بارتفاع الأعمال إلى الله عز وجل. هذه الأمور الغيبية نتلقاها من الصادق المصدوق كما نبلغها، ثم نكل كيفية ذلك إلى علام الغيوب، هذه ليست من الأمور المادية الخاضعة للتجربة والمشاهدة حتى نعمل فيها فلسفتنا ونتسابق إلى ذلك باعتصار عقولنا وكلامنا، لو كان موضوعاً خاضعاً للتجربة والمشاهدة لتسابقنا ولكنه أمرٌ غيبي. نقول: سمعنا وأطعنا.

أسري برسول الله جسداً وروحاً لم يقل عليه الصلاة والسلام بجسدي الأسيري أو بغير الأسيري أو نحو ذلك ومن ثم فإن هذا الكلام بهذا الشكل المتنطع لا معنى له إلا المباهاة وإلا العمل على رفع درجات

هذا الإنسان أمام الناس ليزداد شهرةً ولتتجه إليه الأصابع بمزية لم تُعهد في غيره من الناس، السلوك هو المطلوب.

أنبأنا المصطفى صلى الله عليه وسلم أن شهر شعبان شهرٌ ترتفع فيه الأعمال إلى الله، صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنبأنا رسول الله أن الله ينزل إلى السماء الدنيا ويطلع على عباده فيقول: ﴿ألا من مستغفر فأغفر له، ألا هل من تائب فأتوب عليه، ألا هل من داع فأستجيب له﴾ صدق رسول الله، أنت الذي ستشرح وستقول كيف يكون النزول!؟

أنت لا تعلم كما قال الإمام الغزالي كيف تأكل، أنت شرب الماء لا تتقنه، كيف تزدرد الطعام لا تعرفه، لا تعلم شيئاً من طواياك، تريد أن تسلط المناظير على هذه الأحاديث الغيبية التي أنبأنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من خلالها بأمر هو الصادق المصدوق في ذلك، هذا من عمل الشيطان.

بدلاً من أن نتجه بقلوبٍ واجفة وبأحاسيس خاشعة إلى الله لنتوب ولنؤب ولنحاسب أنفسنا في كل يومٍ: ما هي الأعمال التي تصاعد إلى الله عز وجل في مساءه، ثم نعود إلى أنفسنا فنتوب إلى الله من سيئاتنا وأوزارنا، ونصلح فيما بيننا وبينه في مستقبل حياتنا، بدلاً من ذلك نراوح في مكاننا ثم نلغو لنلفت الأنظار إلى أنفسنا أننا متفلسفون، وأننا نعلم ما لا يعلمه الآخرون من خلفيات هذا الكلام.

أيها الإخوة إذاً ينبغي أن نزداد إقبالاً إلى الله عز وجل خلال هذا الشهر ثم أن نزداد إقبالاً إلى الله إذا ودعناه لنستقبل بعد ذلك شهر رمضان. وأقول لكم بعد هذا بناءً على توجيهٍ واهتمام من السيد الرئيس حافظ الأسد بل بناءً على أمرٍ صدر منه مباشرةً أدعوكم إلى صلاة الاستسقاء التي ستقام يوم الجمعة الآتي إن شاء الله في تمام الساعة التاسعة الاجتماع والصلاة ستكون في تمام التاسعة والنصف إن شاء الله تعالى على أن نباشر المقدمات التي لا بد منها بين يدي هذه الصلاة وهذا أيضاً بتوجيهٍ من السيد الرئيس فنتوب إلى الله جميعاً من الأوزار كلها ونعود بالمظالم إلى أصحابها ونعيد الحقوق المالية والمعنوية إلى أصحابها جهد الاستطاعة ونصوم أربعة أيام بدءاً من يوم الثلاثاء فالأربعاء فالخميس فالجمعة ولا يقولن قائل إننا قد دخلنا في النصف الثاني من شهر شعبان ولا يجوز الصيام فيه ذلك الصيام الذي لا سبب له أما هذا الصوم فله سبب وهو صلاة الاستسقاء والمأمول أن تستجيب هذه البلدة بقبضها

وقضيضها لنداء الله أولاً ولأمر الله سبحانه وتعالى أولاً ثم لتذكرة السيد الرئيس ثانياً والمأمول أن يستجيب الله سبحانه وتعالى لنا. ومع ذلك فنحن عبيد مهمتنا أن نلجئ دائماً إلى الله وأن نمد يد الفقر إليه أياً كانت النتيجة نحن عبيد الافتقار مهمتنا السؤال مهمتنا التضرع مهمتنا أن نلتصق بأبواب الله بباب الله عز وجل وكرمه ولن نبارحه إلى أي باب آخر لأنه ليس لنا أو أمامنا أي باب غير باب الله عز وجل. أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.



٣٣٧- منطق الاحتياط | ٢٠٠٨/٠٨/٠٨

أرأيتم إلى رجل أصيب بمرض عضال أقامه من الألم والضجر بين الموت والحياة، إنه يبحث جاهداً عن أي وسيلة يُقَال إنها قد تحقق له الشفاء، ويبحث جاهداً عن أي طبيب مهما سمت مصداقيته أو تدانت يُقَال إنه ربما كان على يديه الشفاء، يحتاط لنفسه هذا المريض، يطرق سائر الأبواب، ويخترق جميع الاحتمالات أملاً في الشفاء من الداء الذي يعاني منه، كذلكم المسلم الصادق في إسلامه الذي وجد نفسه مثقلاً تحت أعباء المعاصي والأوزار، رأى نفسه شارداً عن صراط الله عز وجل، تغلبت نفسه الأمارة بالسوء عليه، إنه يعاني -عندما يكون مسلماً صادقاً في إسلامه- من حياء شديدٍ من الله عز وجل، وخوفٍ شديد من عقابه، وإنه يظل خائفاً من أن يرحل إلى الله عز وجل وهو مدنس بأوزاره ومعاصيه هذه. ماذا يفعل هذا المسلم؟ هو الآخر يلجأ إلى كل باب من الأبواب المحتملة أن يكون في الولوج إليها مغفرة الله ورضوانه. ما يسمع من دعاء مأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم صح سنده أو حسن أو ضعف إلا ويتخذ لنفسه ورداً من هذا الدعاء في البكور والآصال، وما يسمع عن عبادة أُثِرت عن المصطفى صلى الله عليه وسلم، وقيل له إن هو أقبل إليها متضرعاً ملتجئاً إلى الله سبحانه وتعالى صفح عنه أوزاره، وطهره من دنس معاصيه إلا ويلجأ إلى تلك الوسيلة. شأن هذا المسلم الذي وقع تحت أعباء المعاصي والأوزار كشأن ذلك المريض تماماً.

هذا شأن كل مسلم يا عباد الله، لم يُحْبَس الإسلام فكراً في عقله، بل هيمن أيضاً وجداناً وعاطفة على فؤاده وقلبه، فكان قلبه فياضاً بالخوف من الله، بالتعظيم لحرمات الله، بالمحبة لله سبحانه وتعالى، والمؤمن مهما كان قبله مليئاً بمشاعر التعظيم الله سبحانه وتعالى غير معصوم، يمكن أن تزل به القدم، ويمكن أن يرتكب المعاصي والأوزار، إنه يحتاط لنفسه، إنه يطرق الأبواب كلها مهما كان الأمل قوياً أو ضعيفاً، إنه يتمسك بالمأثورات كلها مهما كان سندها قوياً أو ضعيفاً، هذا هو منطق الاحتياط يا عباد الله، هل في هذا الأمر من شك أو ريب.

أقول هذا -يا عباد الله- ونحن أمام فرصة من هذه الفرص التي ينتهزها العاصون من عباد الله عز وجل، وكلنا ذاك الرجل، ليس فينا من يستطيع أن يقول: إنه لم يتدنس بدنس المعاصي قط، إنها شهر شعبان المبارك، هذا الشهر الذي وردت أحاديث كثيرة في فضله، منها الصحيح المتفق عليه، ومنها الحسن، ومنها الضعيف، ولربما كان هنالك أحاديث متناهية في الضعف.

ورد فيما رواه الشيخان من حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت: إن رسول صلى الله عليه وسلم كان يصوم، أي يكثر من الصيام، حتى نقول: ﴿إنه لن يفطر، وكان يفطر، أي يكثر من الإفطار، حتى نقول إنه لن يصوم، وما رؤي رسول الله صلى الله عليه وسلم في شهر أكثر صوماً منه في هذا الشهر، أي في شهر شعبان﴾.

وقد روى النسائي في سننه أنه صلى الله عليه وسلم سُئِل عن سبب إكثاره للصوم في شهر شعبان فقال: ﴿ذلك شهر ترفع فيه الأعمال إلى الله، وأنا أحب أن يرتفع عملي إلى الله وأنا صائم﴾ وروى البيهقي في سننه من حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة فصلى، فسجد فأطال السجود، حتى ظننت أنه قد قُبِضَ، فقمت فحركت إصبعه فتحرك، فاطمأنت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: فسمعته يقول في سجوده: ﴿اللهم إني أعوذ بعفوك من عقابك، وأعوذ بعافيتك من سخطك، وأعوذ بك منك لا أحصي ثناءً عليك، فلما انتهى من صلاته قال لي: يا عائشة أظننت أن النبي قد خاسَ بك؟ قلت: لا يا رسول الله، ولكني ظننت أنك قد قبضت لطول سجودك، قال: أتدرين أي ليلة هذه؟ قالت: الله أعلم، قال: إنها ليلة النصف من شعبان، يطلع الله عز وجل فيها على عباده فيقول: ألا هل من مستغفر فأغفر له؟ ألا هل من داعٍ فأستجيب له؟ ويترك أهل الحقد كما هم﴾. يقول البيهقي: هذا الحديث من مراسيل العلاء عن عائشة رضي الله عنها، وهو إرسال جيد، ومع ذلك فلعل في هذا الحديث ضعف. وورد أيضاً فيما يرويه ابن ماجه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: ﴿إذا كانت ليلة النصف من شعبان فقوموا ليلها وصوموا نهارها﴾. هذا حديث ضعيف ولربما كان بالغ الضعف.

ولكنني أعود -يا عباد الله- إلى القاعدة التي انطلقنا منها، بل ينطلق منها كل إنسان وقع من أمره في ضنك إن كان ضنكاً يتعلق بالجسد كالأمراض، أو كان ضنكاً يتعلق بالروح وبصلة ما بينه وبين الله

ماذا يصنع هذا الإنسان؟ إنه يحتاط لنفسه، ما يسمع من باب إن ولج فيه، ربما كان ولوجه في هذا الباب سبباً من أسباب شفائه الجسدي، أو مغفرة الله له من الذنوب إلا وولج في هذا الباب، ما يُذَكَّرَ بحديث صح أو حسن أو ضعف يتعلق مضمونه بدواء يتعلق بمرضه الذي يعاني منه إلا ويحتاط لنفسه، فيستعمل هذا الدواء الذي ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. إن كان الحديث صحيحاً فإن إقباله على هذا الدواء الذي يتضمنه هذا الحديث سيجديه وسينفعه وسيكون سبباً لمغفرة الله له، وإن كان في الواقع ونفس الأمر حديثاً غير ثابت لم يقله رسول الله صلى الله عليه وسلم فهي عبادة ساقه إليها حسن ظنه، ساقته إليها نيته ﴿وإنما الأعمال بالنيات﴾ كما قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

أقول هذا وأنا أنصح إخواناً لنا إذا جاءت مناسبة هذا الشهر المبارك أو مناسبة ليلة النصف من شعبان ضيعوا أوقاتهم بالقيل والقال؛ إنه حديث ضعيف، وإن فلاناً قد قال فيه كذا، وفلان صححه، ولكن رُدَّ عليه بكذا وكذا وكذا، هذا تضييع للوقت يضحك الشيطان به علينا، نحن نعلم أنه ضعيف لكنه ليس موضوعاً، ومعنى الحديث الضعيف أن احتمال نطق رسول الله به وارد، ولكنه ربما كان نسبة عشرين بالمئة أو ثلاثين بالمئة أو ربما عشرة بالمئة إذاً أنا مريض، أنا أتمسك بهذا العشرين بالمئة، وأستجدي الله سبحانه وتعالى مغفرته لي، إن لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قال ذلك فلعل الله سبحانه وتعالى يشفع لي بحسن ظني.

هذا منطق لا يناقش فيه أحد -يا عباد الله- أنا الآن، وأضرب المثل بنفسي بلغني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: ﴿من صلى عليَّ في ليلة الجمعة بهذه الصيغة؛ اللهم صل على محمد النبي الأمي الحبيب العالي القدر العظيم الجاه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً. كنت أُلْحِدُهُ بيدي﴾. هذا حديث ضعيف، وأنا أعلم أنه ضعيف، لكن معنى أنه ضعيف أن احتمال أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قاله وارد ولو كان بنسبة عشرة أو عشرين بالمئة. إنني عندما أسمع هذا الكلام لا بد أن أصلي في هذه الليلة الغراء على حبيبنا المصطفى صلى الله عليه وسلم بهذه الصيغة، وأنا أقول لربي: يا ربي قد بلغني عن رسولك أنه قال كذا، فإن كان قد قال ذلك حقاً فلأنل هذه المزية التي وعد بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن لم يكن قد قال ذلك فاشفع لي بحسن ظني بأن رسولك محمداً قد قال هذا، وأكرمني بهذه المثوبة.

المؤمن يا عباد الله أحد رجلين، رجل قد حُبِسَتْ حقائق الإيمان فكراً في عقله وبقي قلبه وعاءً للشهوات، للأهواء، للمصالح الشخصية الذاتية أو للعصبيات المذهبية، ورجل آخر غُرِسَتْ حقائق الإيمان يقيناً وعقيدة في عقله، ثم تحولت هذه العقيدة وجداناً إلى قلبه، أصبح قلبه وعاءً طاهراً يفيض بحب الله، يفيض بتعظيم الله، يفيض بالمخافة من الله، ذلك الشخص الأول يقف عند ما يسميه الأحاديث الضعيفة، يناقش ويزجي وقتاً طويلاً، يضيع وقتاً طويلاً في المناقشة في هذا الموضوع انتصاراً للذات، أجل انتصاراً للذات، أما هذا الإنسان الثاني الذي فاض قلبه -كما قلت لكم- حباً وتعظيماً ومخافةً من الله سبحانه وتعالى، فهو دائماً يقف أمام مرآة ذاته، ويحاسِبُ نفسه قبل أن يحاسَبَ، يعلم أنه مثقلاً بالأوزار والمعاصي حتى ولو أنه كان يؤدي الصلوات المكتوبة، ويؤدي الفرائض المكتوبة، هو يرى أنه لم يؤدَّها على النحو المطلوب، لم يرتقِ بها إلى مستوى أداء حقوق الله، ولاسيما وهو يقرأ كلام الله القائل: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠]

أي يؤتون ما آتوا من العبادات، من الطاعات وقلوبهم وجلة، يقول الواحد منهم/ يا ربي هل قبلت صلاتي؟ هل قبلت صيامي؟ إنني لم أستطع أو أُأَدِّيَها كما ينبغي، إنني لم أستطع أن أرقى بها إلى مستوى حقوقك عليَّ وربوبيَّتِك لي، أجل إنه يخشى من أن يرحل إلى الله عز وجل وقد ردَّ طاعاته إليه في وجهه، هذا الإنسان يحتاط كذلك المريض، يحتاط، يتعلق بالأحاديث الضعيفة ما لم يكن فيها ما يخالف حكماً ثابتاً مقرراً في كتاب الله أو سنة رسول الله. أسأل الله عز وجل أن يوفقنا لأداء حقوق هذا الشهر المبارك، وأسأله سبحانه وتعالى أن يجعل من الأوقات المباركة التي يتجلى فيها الله على عباده شفيعاً لنا، أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم.

٣٣٨- غذاء الروح | ٢٠٠٨/٠٨/١٥

إن من الحقائق الهامة التي يجب على الإنسان أن يعرفها عن ذاته أن الإنسان أياً كان مؤلف من ثلاثة عناصر، من القفص الجسدي الذي يروح ويغدو به دائماً، ومن الغرائز الحيوانية التي غرسها الله سبحانه وتعالى ابتلاءً له في كيانه، ومن الروح الهابطة إليه من الملأ الأعلى تلك التي تحدث عنها بيان الله عز وجل بقوله يخاطب الملائكة: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩].

وإن من شأن الإنسان، إلا من رحم ربك، أن يذهب كل مذهب في العناية بالقفص الجسدي الذي يراه صباح مساء في مرآة ذاته وأن يُعْنَى العناية التامة بالغرائز الحيوانية المثبتة في كيانه، لا يألو جهداً عن تقديم الغذاء المطلوب لكل من جسده ولكل من غرائزه الحيوانية بل إنه ليتفنن في ذلك ويذهب في تقديم هذا الغذاء لكل من هذين العنصرين كل مذهب.

أما الروح وهو العنصر الفعال الأول في كيان الإنسان فإن الإنسان، إلا من رحم ربك، غافل عن حاجات هذه الروح، غافل عن الغذاء الذي ينبغي أن يقدمه لها، بل إن كثيراً من العلماء في هذا العصر إذا سمعوا كلمة عن الروح أو الروحانيات استخفوا بها وجادلوا في ذلك وحاولوا أن يقنعوا الآخرين بأن العلم لا يؤمن إلا بما تراه العين أو تسمعه الأذن أو يشمه الأنف أو يحس به الذوق أي إلا بشؤون المادة أما ما وراء ذلك فهؤلاء ينكرونه ويستخفون به.

ونحن ينبغي أن نعلم أيها الإخوة أن العنصر الفعال في كيان الإنسان ليس هذا القفص الجسدي وليست الغرائز الحيوانية التي حدثتكم عنها وإنما العنصر الفعال في كيانك يا ابن آدم إنما هو هذه الروح، تنعكس على حجيرات الدماغ فيتكون لك من ذلك الفكر والوعي، ويسري إلى نسيج الخلايا في كيانك فيتكون لك من ذلك الإحساس، وينعكس على عضلة القلب فيتكون لك من ذلك الوجدان، تتكون العواطف الدافعة والرادعة والممجدة.

هذه هي الروح وهذا هو فعلها في كيانك. فقولوا لمن يستخف بالروح ومن ثم يهمل الغذاء الذي تحتاجه هذه الروح قولوا له عندما تخرج من غرفتك صباحاً إلى الشرفة الملتصقة بها وتبعث عينيك إلى الآفاق الواسعة ما الذي تشعر به؟ إنك تشعر بانتعاش عجيب وكأن حياة جديدة سرت في كيانك، هذا الانتعاش أهو من أثر القفص الجسدي؟ هذا الانتعاش أهو من شعور الغرائز الحيوانية؟ لا، إنه انتعاش الروح الحبيسة في هذا القفص الجسدي، نَظَرَتْ من خلال عينيك إلى هذه الآفاق الواسعة فتذكرت العالم الواسع الذي كانت تجوب فيه قبل أن يقضى عليها بالاحتباس إلى حين في قفصك بل في محبسك الجسدي هذا، قولوا لهذا يستخف بالروح وحقائقها ما الذي ينعشك بل يطربك عندما تصغي إلى نغمات شجية تجعلك تحن إلى المجهول وتجعلك تتشوق إلى ما لا تدري؟ أهو شعور القفص الجسدي أم هو شعور الغرائز الحيوانية؟ لا، إنه حنين الروح استبد بها الشوق عندما سمعت هذا الصوت الشجي بأنغامه الشجية تذكرت خطاب الله عز وجل الذي لا يزال صداه يرن في كيان الروح أياً كانت هذه الروح، ذلك العهد الذي أشار إليه بيان ربنا القائل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [لأعراف: ١٧٢].

خطاب قديم منذ عهد الذر وجهه الله مباشرة إلى هذه الروح الإنسانية، إنها لا تزال تطرب، إنها لا تزال تشعر بالحنين والشجو لهذا الخطاب الرباني ولكنها اليوم حُبِسَتْ في هذا القفص الجسدي، فيا عجباً لمن يزعم أنه يتعامل مع العلم ثم إنه يعمي عينيه عن هذه الحقيقة العلمية الجاثمة في كيانه، يعمي عينيه عن هذه الحقيقة العلمية التي ينبغي أن يشعر بها صباح مساء. هذه الروح أيها الإخوة ليست من جنس الأرواح التي تتمتع بها الحيوانات، إنه سر من أسرار الله أهبطه الله سبحانه وتعالى إلى كيانك يا ابن آدم إلى حين والمطلوب منك أن تقدم لهذه الروح غذاءها، ورحم الله أبا علي بن سينا يوم عبر عن هذه الحقيقة بقصيدته السائرة المعروفة والتي بدأها بقوله عن الروح.

هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تعزز وتمنع

غذاء الروح أيها الإخوة أهملناه أيما إهمال ومن ثم فإنها تعاني داخل هذا السجن الجسدي لا من البعد عن عالمها الذي كانت تتنقل فيه فقط بل هي اليوم بعيدة حتى عن غذائها، تغذي جسمك بما يتطلبه مما تعرف وتغذي غرائزك الحيوانية وأنت تعرفها بكل ما تستطيع من الوسائل، أين هو غذاء الروح؟

ولعلك تسأل ما هو غذاء الروح؟ تستطيع أن تعلم الجواب عندما تعلم العالم الذي أُهْبِطَتْ الروح منه إلى جسدك، إنه العالم العلوي، إنه عالم الملأ الأعلى، إنه اليوم أصبح بعيداً عن ذلك العالم يحتاج إلى من يذكرها به، يحتاج إلى من يحدثها عنه، إنه ذكر الله عز وجل، إنه الإكثار من الإقبال على خطاب الله عز وجل تتلوه صباح مساء، إنك بهذا تقدم للروح غذاءً وأيَّ غذاء، إنه الإكثار من ذكر الله سبحانه وتعالى متمثلاً في التسبيح، في الحمد، في الاستغفار، في التهليل والتوحيد في البكور والآصال، إنه الغذاء الذي يجعل الروح تنتعش أيما انتعاش يا عباد الله.

إن غذاء الروح يتمثل في انتهاز الفرص، في انتهاز أيام تتجلى فيها على الإنسان نفحات وأي نفحات من لدن مولاه وخالقه.

ولعلكم تعلمون أنه قد ورد في الأثر: ﴿إن لله في أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها﴾، لا تتعرض لها بجسمك ولا تتعرض لها بغرائزك بل تعرض لها بروحك كليلة القدر التي نحن على موعد منها، وكهذا الشهر الذي سيقبل إلينا عما قريب شهر رمضان الذي نَوَّهَ بفضله القرآن وكليلة النصف من شعبان التي حدثتكم عنها في الأسبوع الماضي، نعم إن الحديث الذي رُوِيَ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك ضعيف ولا داعي إلى أن يسابقنا من يفتل عضلات العلم والمعرفة أمامنا ليتفنن ببيان ضعفه، نحن نقول إنه ضعيف، ﴿إذا كانت ليلة النصف من شعبان فقوموا ليلها وصوموا نهارها﴾، ولكننا نحتاط لديننا، قلت لكم إننا مرضى، والمريض يبحث عن أي احتمال لنجاح في دواء، إن لم يفدني هذا الدواء فلن يضرني، لعل المصطفى قال هذا الكلام واحتمال أنه قد قاله وارد إن بنسبة عشرة في المئة أو عشرين في المئة أو أقل أو أكثر، إذاً فاحتياطي لتقديم الغذاء لروحي يقتضي أن أهتبل هذه الفرصة وأن أقوم ليلها وأصوم نهارها وأقول يا رب هذا ما بلغني عن نبيك محمد صلى الله عليه وسلم فاقبله مني إن كان قد قاله أو لم يقله إنها قربة أتقرب بها إليك، إنها غذاء مما ينبغي أن أتقدم به إلى روحي.

أرأيتم يا عباد الله إن نحن قدمنا إلى الروح غذاءها هذا المتمثل فيما أقوله لكم ما الذي سيحدث، ما النتيجة التي ستتحقق؟ النتيجة أن الروح تقوى ثم إنها تزداد قوة وتزداد قوة إلى أن تتغلب على الغرائز الحيوانية التي تهتاج بين جوانحك، كنت يُخَيَّلُ إليك أنه هنالك وحياً واحداً في كيانك إنه وحي الغرائز يدعوك إلى أن تأخذ حظك الأوفى من شهواتك وأهوائك ولم تكن تشعر بوحي آخر قط، أما اليوم وقد

أخذت تقدم للروح غذاءها باستمرار وباستمرار ودوام فإن النتيجة هي أن الروح تقوى ثم تقوى وإن مشاعر الحنين إلى مولاك وخالقك هو الذي يستبد بك ويتغلب عليك، وإن مراقبتك لمولاك عن طريق هذه الروح هي التي تهيمن عليك وتعود الغرائز فتتقلص ثم تتقلص فاعليتها وعندئذٍ تستطيع أن تتحكم بغرائزك وأهوائك، كنت فيما مضى إذا أطربك الصوت الشجي وأنعشتك الكلمات التي فيها غزل أو أي شيء كانت غرائزك هي التي تفسرها ومن ثم كنت تطرب ويهتز منك الرأس عندما تسمع من يقول:

**لي لذة في ذلتي وخضوعي	وأحب بين يديكِ سفك دموعي**

أما اليوم وقد انتعشت روحك بالغذاء الذي تقدمه لها، انتعشت وقويت فإنك اليوم عندما تسمع هذا الكلام تسمعه بهذا الشكل:

**لي لذة في ذلتي وخضوعي (إليك يا رب)	وأحب بين يديكَ سفك دموعي**

أرأيتم كيف يتحول الإنسان من حالٍ إلى حال، أيها الإخوة دعونا نقبل إلى الروح التي طال احتباسها في هذا القفص الجسدي، أنعشوها، ذَكِّروها بالعالم الذي أُهْبِطَتْ منه، قدموا لها غذاءها تنعشكم وتسعدكم وتحقق لكم سعادة العاجلة والآجلة، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.



٣٣٩- المسلم يحتاط لدينه | ٢٠٠٩/٠٧/٣١

إن المسلم أحد رجلين: فإما أن يكون الإسلام الذي هيمن يقيناً على عقله وفكره تحول عاطفة من الحب والمهابة والتعظيم لله إلى قلبه، وإما أن يكون من ذلك الفريق الذي احتُبِسَ الإيمان واليقين العقلي في طوايا فكره، وبقي قلبه الذي هو مَكمَن العواطف نهباً لحب الشهوات والأهواء والرغائب وللأغيار جملة. فأما الرجل الأول الذي انتقل اليقين الإيماني من داخل عقله فكراً واعتقاداً، وهيمن على قلبه حباً وتعظيماً ومهابةً، فالشأن فيه أن يكون دائم الخوف والوجل من الله عز وجل، والشأن فيه أن يكون قلبه نابضاً دائماً بمحبة الله، وأن يكون كثير الاشتياق إلى الله عز وجل، ومن ثَمَّ فإنه كلما لاح له ما يمكن أن يكون سبيلاً لمزيد قربه من الله، أو يكون سبيلاً لصفح الله عز وجل عنه سعى إلى هذا السبيل، واتخذه غير مبالٍ بأن يكون هذا السبيل حديثاً صحيحاً أو ضعيفاً أو حسناً، أليس هذا الذي رآه يدخل في فضائل الأعمال الثابتة ثبوتاً يقينياً بكتاب الله وسنة رسوله بما لا يدع مجالاً للشك؟ إذاً فلا عليه أن يكون هذا السبيل الذي لاح له حديثاً ضعيفاً أو ربما منكراً أو ربما حسناً، شأن الإنسان المحب أن يحتاط، شأن الخائف من مولاه وخالقه أن يكون كثير الاحتياط لله سبحانه وتعالى.

هذه الحقيقة التي أقولها لكم تتجسد واضحة في فضائل هذا الشهر المبارك، شهر شعبان، فقد وردت أحاديث صحيحة في فضل هذا الشهر عموماً، وفي فضل الإقبال عليه بالعبادات المختلفة، ووردت أحاديث ضعيفة أيضاً في فضله، ولكن المحتاط لا يبالي ولا ينظر، لأنه يعيش في همٍّ من اليوم الذي سيقف فيه بين يدي الله، ولأنه يشعر دائماً بأنه مقصّر، وبأن عليه أن يبحث يميناً وشمالاً عن أي وسيلة يتفادى بها تقصيره.

ورد فيما اتفق عليه الشيخان من حديث عائشة رضي الله تعالى عنها أنه صلى الله عليه وسلم كان يفطر حتى يظن الصحابة أنه لن يصوم، ويصوم ويستمر صائماً حتى يُظَنَّ أنه لن يفطر، وما رُئيَ في شهر أكثر منه صياماً منه في شهر شعبان، ولقد سُئِلَ عن ذلك فقال: «ذلك شهر يغفل عنه الناس بين رجب

ورمضان، وهو شهر تُرْفَعُ فيه الأعمال إلى الله، فأحب أن يُرفع عملي فيه إلى الله وأنا صائم﴾. الحديث متفق عليه، وهو يعبر عن فضيلة هذا الشهر من أوله إلى آخره.

ويروي البيهقي من حديث عائشة رضي الله عنها أيضاً أنه صلى الله عليه وسلم قال: ﴿أتاني جبريل فقال: هذه ليلة النصف من شعبان، يعتق الله عز وجل فيها من الناس بقدر شعر غنم بني كلب–أي قبيلة اسمها قبيلة بني كلب، أي يعتق الله عز وجل عدداً لا يحصى في هذه الليلة من النار– لا يطلع الله عز وجل فيها على مشركٍ، ولا مشاحنٍ، ولا قاطع رحم، ولا مسبل، ولا مدمن خمر﴾، والحديث ربما كان صحيحاً أو ضعيفاً إلى آخر ما هنالك، ولا أريد أن أدخل في هذا الفن الذي لست بصدده الآن.

وروى البيهقي أيضاً عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة فصلى فسجد وأطال السجود حتى ظننت أنه قد قُبِضَ، فقمت إليه وحرَّكْتُ إصبعه أي إصبع قدمه فتحرك، فرجعت وسمعته يقول: ﴿إني أعوذ بعفوك من عقوبتك، وأعوذ بك منك لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك. فلما انتهى من صلاته قال لي: يا عائشة أظننتِ أن النبي قد خاس بك؟ قلت: لا يا رسول الله، ولكني خشيت أنك قد قُبِضّتَ، فقال: أتدرين أي ليلة هذه؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: إنها ليلة النصف من شعبان، يطلع الله فيها على عباده، فيقول: ألا هل من مستغفر فأغفر له؟ ألا هل من سائل فأعطيه؟ ألا هل من داعٍ فأستجيب له؟ ويترك أهل الشحناء والأحقاد كما هم﴾. الحديث مرسل، نعم، ويقول البيهقي: هو من مراسيل العلاء بن الحارث، وهو من المراسيل الجيدة، ولكني أفترض أنه حديث ضعيف.

إن المؤمن الذي تحول الإيمان العقلاني في رأسه إلى عاطفة من الحب مهتاجة، ومن التعظيم والمهابة لله عز وجل كيف يكون شأنه؟ ألا يكون محتاطاً لدينه؟ ألا يكون متحوطاً باحثاً عن أي سبيل يمكن أن يجد فيها الصفح عن ذنوبه من الله سبحانه وتعالى؟ الصوم عبادة من العبادات التي يُتَقَرَّبُ بها إلى الله في أي يوم كان، وفي أي شهر كان، وقيام الليل من العبادات المندوبة لنا والمفروضة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولنفرض أن الحديث ضعيف، بل هنالك حديث آخر تم الاتفاق على ضعفه: ﴿إذا كانت ليلة النصف من شعبان فقوموا ليلها وصوموا نهارها﴾ ولكني إنسان أخاف من مولاي، وأشعر

بتقصيري، وسمعت أن الله عز وجل يطّلع في هذه الليلة على عباده العصاة التائهين الذين يتعرضون لمغفرة الله عز وجل وعفوه، فيتوب عليهم، ويصفح عنهم، ألا أحتاط يا عباد الله؟

قيل لي: هذا الحديث ضعيف، أترك هذا الكلام للذين يبحثون عنه في المجالس الأكاديمية العلمية، وأحاول أن أتمسك بهذا الحديث الضعيف، لأن الحرقة تدعوني إلى أن أحتاط، وأنا أعلم أن الصلاة عبادة، الصلاة خير مشروع فأكثر منها أو أقل، الصوم قربة، والصوم جنة، وقيام الليل وما أدراك ما قيام الليل، هل يصبر على قيام الليل إلا من غُرِسَتْ في أفئدتهم محبة الله، فوقفوا ينتشون بلذة مخاطبته ومناجاته، يا عجباً يا عجباً لمن يحجب نفسه عن هذه الطاعة التي أجمع العلماء على أنها قربة إلى الله عز وجل، ثم إنه يحجب نفسه عنها بالحديث عن صحة هذا الحديث أو ضعفه أو أو... إلى آخر ما هنالك.

أمرٌ غريبٌ يا عباد الله، نعم لو ورد هذا الحديث الضعيف في أمرٍ هو بين الحل والحرمة إذن لكان من الواجب أن نتحرى صحته، لكن هذا أمرٌ يتعلق بموضوع لا شك في أنه من القُربِ إلى الله، من العبادات التي يتقرب بها الإنسان إلى الله، ليلة النصف من شعبان أليست ليلة من ليالي شعبان؟ أليست ليلة من تلك الليالي التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم الليل فيها؟ أليس صيام نصف من شعبان صيام يوم من هذا الشهر الذي كان رسول الله يُكْثِر الصيام فيه؟

أيها الإخوة، إياكم أن تصغوا السمع إلى من حبس حقائق الإيمان فكراً في عقله، ثم جعل قلبه نهباً لحب الشهوات، لحب الأغيار، لحب الرغائب، لحب الشهرة، لحب ما تعرفون من كل ما هو بعيد ومن كل ما يحجب الإنسان عن الله عز وجل، إياكم أن تصغوا السمع إلى هؤلاء، حاولوا جاهدين أن تكونوا ممن اتجهوا إلى الله عز وجل بجناحين اثنين نرقى بهما إلى الله: جناح الإيمان العقلاني الذي لا غنى عنه أبداً، وجناح الحب، جناح العاطفة التي تتمثل في محبة الله، وتتمثل في الخوف من الله، وتتمثل في مهابته، لن يصل إنسان إلى الله عز وجل إلا بهذين الجناحين.

يا عباد الله، الفكر أمرٌ ضروري، العقل هو الميزان الذي وهبنا الله إياه للتفريق بين الحق والباطل، ولكن العلم -كما قال العلماء- صفة مُعْلِمَة وليست صفة مؤثرة، العلم صفة كاشفة تكشف لك الحق

والباطل، تقول لك صفة العلم: هذا هو الحق، وهذا هو الباطل، ولكن العلم لا يُنْهِضُكَ إلى السير في طريق الحق والابتعاد عن ذلك الطريق الآخر.

العلم مصباح، أرأيت إلى المصباح الذي في مُقَدَّمَة السيارة أهو الذي يسيرها؟ إن الذي يحرك الإنسان ويجعله يسعى قدماً إلى مرضاة الله القلبُ الفيّاضُ بعاطفة الحب لله، المهابة والتعظيم لله، الخوف من الله عز وجل، هذا هو الوقود الذي يحركنا إلى الله عز وجل، وعندما يوجد هذا الوقود، ثم نجد أنفسنا أمام أحاديث نجد فيها أدوية لأمراضنا، أجل نجد فيها ضماداً لجراحاتنا، لا نسأل أهي أحاديث صحيحة أم ضعيفة ما دامت تتضمن قربات اتفق العلماء على أنها قربات تقرب الإنسان إلى الله، ودلائل هذا الذي أقوله لكم تتجسد لكن متى؟ عندما يقع الإنسان في سياق الموت، عندئذٍ يتبين لكل منا أن حقائق العلم مهما حُشِيَ بها الدماغ، ومهما تكاثرت فلسفات اليقين والإيمان بالله، ولكن القلب كان غافلاً عن ذلك كله، كان القلب مستعمراً للرعونات والأهواء والشهوات، فإن الأفكار التي كانت محشوة في داخل الدماغ تتطاير عند آلام الموت، تغيب عنك يا أخي، الأفكار التي كنت قد حشوت بها دماغك تزول من شدة السكرات التي شاء الله أن يبتلينا بها، ولكن الذي يطفو على فكرك آنذاك، وربما يطفوا على لسانك هو الحب، هو التعظيم، فانظر من الذي تمحضه حبك؟ انظر من الذي تعظمه آناء الليل وأطراف النهار؟ إن كنت تحب شهواتك، أهواءك، رعوناتك فاعلم أنها هي التي ستطفوا على لسانك، ولسوف تهتف بها وأنت ترحل من هذه الدنيا إلى الله، أما أفكارك فتطوى وتذهب أدراج الرياح، أما إن كنت ممن جعل قلبه وقفاً لحب واحدٍ لا ثاني له هو الله، أما إن كنت جعلت قلبك وقفاً لتعظيم واحدٍ هو مولاك الذي خلقني وخلقك، أما إن كنت جعلت قلبك وقفاً لمخافة واحدٍ لا ثاني له، فأهنئك بأن الرحلة إلى الله عز وجل تحمل لك بشائر شتى.

قولوا لمثل هؤلاء الذين يذكروننا ويعلموننا في مثل هذا الشهر بل في مثل هذه المناسبة أن هذا الحديث ضعيف وهذا مرسل وهذا عظيم النكارة وهذا... قولوا له: حدِّثْنَا عن هذا الذي تقول عندما يكون الحديث في أمر وقع الخلاف بين إباحته وحرمته، عندئذٍ نحتاط بالابتعاد عنه، لكن عندما يكون مضمون الحديث الضعيف متعلق بعبادة قد اتُّفِقَ عليها، يتعلق بقربة كم وكم دعانا رسول الله صلى الله عليه وسلم إليها، فالأمر هنا لا مجال فيه للحديث عن ضعف وقوة.

اللهم إنا نسألك أن تجعل قلوبنا وقفاً لحبك، حتى نجعل من حبنا لك شفيعاً بين يدي تقصيرنا وسوء حالنا إن رحلنا إليك وإن وقفنا بين يديك يوم يقوم الناس لرب العالمين، أقول قول هذا، وأستغفر الله العظيم.




رمضان

٣٤٠- خسارة العاصي في شهر رمضان | ١٩٨٥/٠٦/١٤

ثلاثةُ أو أربعةُ أيّامٍ بقينَ من أجَلِ هذا الشّهرِ المبارك، وينقضي من بعدها شهرُ رمضان، ويفطرُ الصّائم، ويشبعُ الجائع، ويرتوي الظمآن، ويعودُ الصّائمُ الملتزمُ بأمرِ اللهِ عزَّ وجلّ سواءً بسواء، مثلَ ذاكَ الذي أعرضَ عن أمرِ اللهِ سبحانهُ وتعالى خلالَ هذا الشّهر، فلم يلبِّ لهُ أمراً، ولم يحقّق لهُ نداءً، كلا الفريقين يعودانِ من حيثُ الواقعُ البشريّ بمستوىً واحد، إلا أنَّ أحدهما فازَ بالأجرِ العظيمِ عندَ اللهِ سبحانهُ وتعالى، وأصلحَ اللهُ بهذا الصّيامِ سريرتهُ ونفسه. والآخرُ باءَ بغضبِ اللهِ سبحانهُ وتعالى وشديدِ عقابه.

ألا فقولوا يا عبادَ الله ما هو الرّبحُ الذي ربحهُ العاصي؟ وما هو الخسران الذي خسرهُ الطّائع؟ ما هو الرّبحُ الذي عادَ بهِ ذاكَ الذي قطعَ هذا الشّهرَ المبارك، مجاهراً بالإفطار، معرضاً عن أمرِ اللهِ سبحانهُ وتعالى، ناسياً نفسهُ وناسياً حقوقَ مولاهُ عليه، ماذا ربح؟ وما هي الحصيلةُ التي عادَ بها؟

لذّةُ المعصيةِ عَرَضٌ زائل، وهوى النّفس ظلٌّ يزول، والأمرُ كما قالت تلكَ المرأةُ الصّالحة: كم من معصيةٍ ذهبت لذّتها وبقيَ حسابها.

نعم، ما هو هذا الرّبحُ الذي عادَ بهِ هذا الإنسان؟ الذي قطعَ الصّلةَ بينهُ وبين مولاه، فساحَ في أرجاءِ هذه الدّنيا كما يسيحُ العبدُ الآبق، وما هي الخسارةُ التي عادَ بها من أتعبَ نفسهُ في أيّامِ هذا الشّهر؟ فأجاعَ نفسه، مستشعراً أنهُ يطبّقُ أمرَ مولاه، وأظمأَ حلقه، مستشعراً أنهُ يعبّرُ بهذا عن الانصياعِ لأمرِ مولاهُ عزّ وجلّ، يعودُ بعدَ ذلكَ بالرّزقِ العظيم، والأجرِ الخفيِّ الذي لا يعلمُ حقيقته.

كم من مصيبةٍ يبعدها الله عزَّ وجلّ عن هذا الإنسان الذي اصطلحَ مع ربّهِ خلالَ هذا الشّهر، وكم من نعمةٍ يزجيها إليهِ وهو لا يدري، وكم من كربٍ يبعدهُ اللهُ سبحانهُ وتعالى عن قلبهِ وفؤاده، هذا بالنّسبةِ للعاجلةِ الدّنيا، فكيفَ بالأجرِ الذي يدّخرهُ اللهُ غداً يومَ القيامة؟ كيفَ إذا قام عندما ينادي منادي الله سبحانهُ وتعالى بالأرواحِ أن تعودَ إلى أجسادها، ووقفَ بينَ يدي المولى عزّ وجلّ، وسمعَ النّداءَ الذي يتّجهُ إليهِ وإلى إخوانهِ من أمثالهِ قائلاً: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾، ماذا سيذكرُ أحدنا

آنذاك؟ من صعوبةِ هذه الأيام، ماذا عسى أن يذكر من المشقّاتِ التي تحمّلها، كلُّ ذلكَ ينقضي وتبقى لذّةٌ لا انقضاءَ لها، تبقى سعادةٌ لا تنطوي هي سعادةُ رضى الله عن العبد، سعادةُ دخولِ الإنسان في هذه الآية الكريمة: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا﴾، يقولها ربُّ العالمين لعباده: ﴿هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾.

عبادَ الله: لا أتصوَّرُ انقضاءَ هذا الشّهر المبارك إلا كمثلِ انقضاءِ هذه الدّنيا.

هذا الشّهرُ مثابةُ ابتلاء، ومثابةُ عمل كلّفَ اللهُ عزَّ وجلَّ به عباده، ثلاثونَ يوماً، أيّامٌ معدوداتٌكما قالَ اللهُ عزّ وجلَّ عنهن، وينقضي الشهر، وتحيقُ الفرحةُ بمن التزمَ أوامرَ اللهِ عزَّ وجلّ خلاله، انقضاءُ هذا الشّهرِ الصّغير ذي الأيامِ المحدودة كانقضاءِ الدّنيا تماماً، إننا لنرى عمرَ الدّنيا ونحنُ نسيحُ في أرجائها الآن عمراً كبيراً متطاولاً، ولكن غداً إذا خرجنا من دائرتها، وإذا تخطّفنا الموت، وانصاعَ ملكُ الموتِ لأمرِ اللهِ عزَّ وجلّ الذي أخبرنا عنهُ في قوله: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾.

إذا تخطَّفَنا ملَكُ الموت، وخرجنا من دائرةِ هذه الدّنيا، ونظرنا إليها بعينِ الذّكرى، فلسوفَ نجدُ أنّها هي الأخرى قصيرةٌ كقِصَرِ شهرِ رمضانَ بعدَ زواله، ولسوفَ يصبحُ الإنسان بعدَ خروجهِ من إطارِ هذه الدّنيا أحدَ رجلين:

رجلٍ وفّقهُ اللهُ عزَّ وجلّ للانصياعِ لأمرِ اللهِ عزَّ وجلّ جهدَ الاستطاعة، فهذا إنسانٌ فرحٌ جزل، هذا إنسانٌ ينطقُ كلُّ ذرّةٍ من كيانهِ بحمدِ الله، على أنّهُ وُفِّق، وعلى أنّهُ استقامَ ولم ينحرف، وعلى أنهُ سارَ جهدَ استطاعته على صراطِ الله، وإلا فكم كانت عاقبتهُ وبيلةً لو أنهُ انحرف، وحسبها من فرحةٍ تخلقُ السّعادةَ في كيانه.

ورجلٍ آخر ينظر بعين المفاجأة إلى الماضي وإلى الحاضر، ويرى نفسهُ وقد حاقت عليهِ خدعةُ الشّيطان، يرى نفسهُ وقد خسرَ ذاته قبلَ أن يخسرَ أوامرَ ربّه، خسرَ سعادته، فهو الشّقاء يجترّهُ إلى ما لا نهاية، والآلامُ التي تمزّقُ كبدهُ إلى ما لا نهاية، وإنّهُ ليقولُ بلسانِ الحالِ والمقال: ﴿رَبِّ ارْجِعُون، لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ﴾، لكن هذا هو الدّعاءُ الذي لا يستجاب، نعم، هذا هو الاستثناءُ الوحيد من قولِ اللهِ عزَّ وجلّ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾.

إذا انقضت هذه الدّنيا، وحالَ حَيلُ الإنسان، ووقفَ بينَ يدي مولاهُ عزَّ وجلّ، وأصبحَ بصرهُ كما قالَ اللهُ حديداً، يُبصرُ الغائب، ويرى ما كان يسخرُ منه، عندئذٍ إذا دعا الله فتلكَ دعوةٌ لا تستجاب، وإنما من ورائهِ شيءٌ واحد: هو العذابُ الأليمُ الذي يتربّصُ به.

انقضاءُ الدّنيا كانقضاءِ هذا الشّهر، والمخدوع هو ذاكَ الذي خُدع بالطّرقِ الصّبيانيّة، أجل الطُّرُقِ الصّبيانيّةِ ذاتها، ذلكَ الطّفل الذي يحميهِ أهله عن ألوانٍ من الطّعامِ لأنّهُ مريض، ويجرّعونهُ الدّواءَ لأنهُ علاجه، ولكنَّ لعابَ هذا الطّفلِ الصّغير يسيلُ على المشتهياتِ أمامه، فهوَ لا يملكُ قوّةَ إرادةٍ ليستجيبَ بها لأمرِ الطّبيب، وإذا وُضعَ أمامَ الدّواء تميّزَ منهُ غيظاً، وتمعَّرَ منهُ وجهه، وابتعدَ فارّاً من هذا الدّواءِ ومرارته، تلكَ هي المشاعرُ الصّبيانيّة التي يتحرّرُ منها العقلاء، ولكنّ هناكَ صبياناً كباراً، لا يزالُ عمرُ المراهقةِ يستعبدهم، لا يزالُ لعابهم يسيل على معاصي الله عزَّ وجلّ، ولا يزالون يجزعون من مرارةِ الدّواء الذي يأخذهم به طبيبهم، نعم.

فاحمدِ الله يا أخي المسلم، على أن وفّقك للاستقامةِ على أمره، واهنأ بأنَّ عمرَ الدّنيا قصير، نعم، وأن الحياةَ التي نقبلُ إليها هي الحيوانُ الحقيقيُّ كما قالَ اللهُ عزَّ وجلّ.

لقد انقضى هذا الشهر أو كادَ ينقضي، وأنا ألتفتُ الآن بعينِ الخيال، إلى المئات التي تضرب بأمثالها من المسلمين الذين نراهم يجوبون شوارع هذه البلدة أيامَ هذا الشّهرِ المبارك، والدخائن على أفواههم، وهم يجترّونَ طعامَ الإفطار، وشهرُ رمضانَ غريبٌ مزدرىً فيما بينهم، ننظر بأعيننا أو أعين الخيال، وكلّكم رأى هذا الذي أقول، المطاعمَ المليئةَ بروّادها، والأنديةَ المليئةَ بالمفطرين، رأينا كلَّ ذلك، فماذا عسى استفادَ هؤلاء النّاس؟

بل رأيتُ أكثرَ من هذا كما قلتُ بالأمس، رأينا الشّرطة الذينَ كانوا يُكلّفونَ بالأمسِ القريبِ بملاحقةِ المفطرين ومعاقبتهم، رأيناهم هم يمارسونَ الإفطار، ورأينا الدّخائنَ على أفواههم، ولقد قلتُ في نفسي يا عجباً، سبحانَ من يُبدِّلُ ولا يتبدّل، أينَ أولئكَ الشّرطة الذينَ كانوا بالأمسِ يلاحقونَ المفطرين ويسوقونهم إلى العقاب الرّمزيِّ أو الحقيقيّ؟ لقد انقلبَ المراقبونَ إلى لصوص، لقد انقلبَ أولئكَ المعاقبون إلى أولئكَ المجرمين، وكأنَّ البلدة غيرُ البلدة التي عهدناها، وكأنَّ الشّامَ ليست الشّامَ المقدّسةَ التي كرّمها اللهُ عزَّ وجلَّ

ونوّهَ بقداستها، انقضى هذا الشّهرُ المبارك، فليقل لي أولئكَ الذينَ كانوا يمزّقونَ حرمةَ هذا الشّهر، بأيِّ خيرٍ رجعوا؟ وبأيِّ ربحٍ عادوا؟ نعم، وغداً سيموتون، وستلتقطهم القبور، ثمَّ سيعودونَ واقفينَ بينَ يدي اللهِ عزَّ وجلّ، فماذا عسى أن يكونَ جوابُ هؤلاءِ الصّبية المراهقين، الذينَ كانَ يسيلُ لعابهم في الدّنيا على المشتهياتِ الدّنيئة، على المعاصي المبتذلة؟ أولئك الذين كانوا لا يملكونَ من قوّةِ الإرادة ما يعبّرونَ به عن حقائق هويّاتهم، ما يعبّرونَ به عن انصياعهم لمولاهم، ما يُنطقونَ به أنفسهم بأنهم عبيد، للهِ عزَّ وجلّ، وأنا أقولُ يا عبادَ الله كما أقولُ دائماً، المعصيةُ قسمان:

هيكلُ المعصيةِ وسرها، أمّا هيكلُ المعصيةِ فأمرها يسير عندَ اللهِ عزَّ وجلّ، وماذا أعني بهيكلِ المعصية؟

هيكلُ المعصية: الضّعف الذي يسوقُ الإنسانَ إلى الانحراف، فيقعُ في الخطيئةِ وهو لها كاره، يُفطِرُ وهو يخجلُ من نفسه، ويقولُ بينهُ وبينَ نفسهِ لقد أسأتُ وكلُّ النّاسِ خيرٌ منّي، هذا من ارتكبَ هيكلَ المعصية.

أمّا روحُ المعصية: فهي التّباهي بها، هي تبريرها، هي أن يجاهرَ الإنسانُ بهذه المعصية، يخرجُ من داره ويقولُ هذا أنا ذا، هكذا ينبغي أن يفعلَ الآخرونَ مثلي، نعم، هذه هي المعصيةُ الكبرى التي تستنزلُ غضبَ الرّبّ، لا على هذا الإنسانِ المتجبّرِ وحده، بل على المحيط الذي يعيشُ فيهِ أيضاً هذا الإنسان.

أسألُ اللهَ سبحانهُ وتعالى أن يختمَ حياتنا بأحبِّ الأعمالِ إليه، وأسألُ اللهَ سبحانُ وتعالى أن يسلِّمَ رمضانَ لنا وأن يتسلّمهُ منّا متقبّلاً، وأن يكتبنا بفضلهِ ومنّهِ وكرمهِ من عتقاء هذا الشّهرِ المبارك، أقولُ قولي هذا وأستغفرُ اللهَ العظيم...

٣٤١- نشاطنا المعكوس ما بين أوَّلِ شهرِ رمضان وآخره | ١٩٨٥/٠٦/٠٧

إنَّ من عادةِ أكثرِ الناس، أنَّهُ إذا دخلَ شهرُ رمضانَ المبارك، هُرِعُوا إلى المساجد، وأقبلوا نشيطينَ إلى صلاةِ التَّراويح، واستأنسوا بهذا الشهرِ وقدومه، واتَّجهوا للقيامِ بحقّهِ على خيرِ وجه، حتَّى إذا مرَّ من هذا الشهرِ أسبوعٌ أو أسبوعان، فترَ النَّشاط، وتناقصَ الإقبال، وتنظرُ إلى المساجدِ التي كانت مكتظَّةً بالمصلِّينَ والقائمينَ في أوَّلِ الشّهر، وإذا بها قد أصبحت فارغةً إلا من نصفِ الذين كانوا يملؤونها، وإذا مضى الأسبوعُ الثّالث، وكادَ أن يدخلَ العشرُ الأخير، رأيتَ أكثرَ المساجد، وقد كادت أن تصبحَ فارغة، أينَ ذلكَ النشاط؟ وأينَ ذلكَ الإقبال؟ وذلكَ الاستئناسُ بإقبالِ شهرِ رمضان؟ أينَ هذا مما سمعناهُ عن المصطفى عليهِ الصلاةُ والسلام؟ ومن وصفهِ لهذا الشهرِ المبارك؟

كان النبيُّ عليهِ الصلاةُ والسلام فيما صحَّ عنهُ أجودَ الناس، وكانَ أجودَ ما يكونُ في شهرِ رمضان، وكانَ أجودَ ما يكون في العشرِ الأخيرِ من هذا الشهر، كانَ عطاؤهُ عليهِ الصلاةُ والسلام كالريحِ المرسلة، في هذه الأيامِ التي تفدُ إلينا، وقد صحَّ عنهُ عليهِ الصلاةُ والسلام أنهُ كانَ إذا دخلَ العشرُ الأخيرُ من هذا الشهرِ المبارك، طوى الفراش، وشدَّ المئزر، ولازمَ المسجد، وابتعدَ عن الدنيا وأسبابها، وكان يقولُ فيما يرويهِ الشيخان: ﴿التمسوا ليلة القدر في العشرِ الأخيرِ من شهرِ رمضان، في ليلةِ إحدى وعشرين، أو ثلاثٍ وعشرين، أو خمسٍ وعشرين، أو تسعٍ وعشرين، أو آخرِ ليلةٍ من ليالي رمضان﴾، وكان يقولُ عليهِ الصلاةُ والسلام: ﴿من قامَ ليلةَ القدرِ إيماناً واحتساباً، غُفِرَ لهُ ما تقدَّمَ من ذنوبه، مهما كانت ذنوبُه﴾، روى ذلكَ الشيخان، البخاريُّ ومسلم.

قارنوا يا عبادَ اللهِ بينَ واقعنا، نشاطنا المعكوس ما بين أوَّلِ هذا الشهرِ وآخره، وبينَ وصيَّةِ المصطفى عليهِ الصلاةُ والسلام وعمله، علامَ يدلُّ واقعُنا الذي وصفتْ؟

إنهُ إن دلَّ على شيء، فإنما يدلّ على أنَّ إقبالنا إلى المساجد، وسعيَنا لقيامِ ليالي رمضان، إنما هو من قبيلِ إمتاعِ النفسِ بشيءٍ جديد، ومن قبيلِ نشاطٍ نفسيٍّ لا استجابةٍ قلبيّةٍ للهِ عزَّ وجل.

شهرٌ جديد، لهُ طابعٌ معيّن، ولهُ تقاليدُ معروفة، والناسُ يحبُّونَ الجديد، ولذلكَ تجدهم شباباً وشيباً وأطفالاً يهرعونَ إلى المساجد، وتغصُّ بهم المساجد، ويرى الإنسانُ هذه الحال فيأملُ خيراً، ويتفاءَلُ بالكثيرِ من رحمةِ اللهِ عزَّ وجل، ولكن عندما تأتي الأيامُ الفضلى من هذا الشهر، وعندما تأتي تلك الليالي التي ينبغي أن يتعرَّضَ الإنسانُ فيها لرحمةِ اللهِ عزَّ وجل، إذ تتضاعفُ فيها الرحمة، فلئن كان في كلِّ ليلةٍ عددٌ كبيرٌ من العتقاءِ يعتقهمُ اللهُ منَ النيرانِ في شهر رمضان، فإنَّ اللهَ عزَّ وجلّ يعتقُ في ليالي العشرِ الأخير بمقدارِ ما أعتقَ في تلكَ الليالي المدبراتِ كلّها.

كيفَ يرضى المسلم أن يقبلَ في أوائلِ هذا الشهرِ نشيطاً مستأنساً إلى المساجد، ثمَّ يعلن بواقع حالهِ عن مللِه وسآمته، فيتركُ صلاةَ التراويح، ويتركُ حضورَ الجماعات، ويتركُ ما كانَ مشتغلاً بهِ مقبلاً إليهِ منَ الطّاعات؟ ربّما كانَ يقبلُ على تلاوةِ القرآنِ بهمّةٍ في العشرِ الأوّلِ من هذا الشهر، فإذا انتصفَ الشهر، ترك أو تناقصَ إقبالهُ على التلاوة، أخشى أن يكون هذا دليلاً على أنَّ أعمالنا غيرُ صادقة، وأننا لا نبتغي بها وجهَ اللهِ عزَّ وجلّ، وأنَّ الهوى هو الذي يسوقُنا، وأنَّهُ هو قائدُنا، أخشى أن يكونَ الأمرُ كذلك، وعلى الإنسانِ أن يمحص نيّته، والإنسانُ كما قالَ اللهُ عزَّ وجلّ عنه: ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾.

عبادَ الله: إنني أوصيكم وأوصي نفسي، بأن نضاعفَ من نشاطنا فيما تبقى من هذا الشهر، وأن نضاعفَ من إقبالنا على اللهِ عزَّ وجلّ في الليالي المتبقّيةِ منه، إن كانَ إقبالنا على الطاعات فلنضاعف ذلك بدلاً من أن ننقصَ هذا الإقبال، وإن كانَ ابتعاداً عن المحرماتِ والمكروهات، فلنحمل أنفسنا على مزيدٍ من الشدّةِ في هذه الأيّامِ والليالي المتبقّية، لا تَدَعُوا صلاةَ التراويحِ لسأمةٍ أو ملل، أذكرُ في أوائلِ هذا الشهر، أنَّ مسجدكم هذا كانَ يمتلئ بالمصلين، لا صلاة العشاء بل صلاة التراويح، أما اليوم فأنظرُ إلى الثابتين في صلاةِ التراويح، فلا أجدُ منهم إلا الثلث، والثلثُ كثير، لماذا هذه الظاهرة؟ لماذا هذا الزهد؟ رسولكم المصطفى عليه الصلاةُ والسلام، كان إذا أقبلَ العشرُ الأخيرُ يضاعفُ من طاعاته، يضاعفُ من جهوده، يضاعفُ من كلِّ خيرٍ يوفّقهُ اللهُ عزَّ وجلّ له، وأنتم تُدبرونَ وتنقصونَ وتعكسونَ ما كانَ يفعلهُ نبيّكم عليهِ الصلاةُ والسلام.

ليلةُ القدر، وحسبكم منها ما قالهُ اللهُ عزَّ وجلّ عنها في محكمِ تبيانه: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ، لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ، تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ، سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾.

خصيصةٌ من خصائصِ هذهِ الأمة كما وردَ في الصحيح، إكرامُ اللهِ لنا في هذهِ الليلة، مزيّةٌ ما أكرمت بها أمّةٌ غيرُ هذه الأمّة، فاحمدوا اللهَ عزَّ وجلَّ على هذه النّعمة، وحاولوا أن تنتهزوا هذه الفرصة وأن لا تفوتكم، ولئن كنّا عاجزينَ عن قيامِ ليلها حقَّ قيامٍ كما كانَ يفعلُ المصطفى عليهِ الصلاةُ والسلام، فلقد وردَ في الصحيح أنَّ اللهَ عزَّ وجل يعطي ثوابَ القيامِ الكامل لمن شهدَ صلاةَ الجماعةِ ليلها، وقامَ القيامَ الذي سنَّهُ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم في تلكَ الليلة، أي صلاة التراويح، شهدها مع الجماعة، ثمَّ شهدَ صلاةَ الفجرِ أيضاً مع الجماعة، ولم يرتكب فيما بينهما محرّماً من المحرّمات، فالمظنون بكرمِ اللهِ عزَّ وجل، أن يسجّلَ هذا الإنسانَ في القائمين، وأن يدّخرَ لهُ أجرَ من قامَ ليلةَ القدر.

ومن مظاهرِ رحمةِ اللهِ بعباده، أنَّهُ أخفى هذه الليلة، نعم، تلكَ ظاهرةٌ من ظواهرِ الرّحمةِ الإلهيّةِ بعباده، حتَّى يدعوهم ذلكَ إلى مزيدٍ من الإقبال، وحتّى يدعوهم ذلكَ إلى مزيدٍ من الاحتياط، لعلَّ ليلةَ القدرِ تكونُ اليوم تكونُ غداً تكونُ بعدَ غد، وما أدري، لعلَّ الليلةَ هي ليلةَ الحادي والعشرين أو لعلَّ الغد، ومن ذا الذي يعلمُ ويقطع ذلك؟ وصدقَ المصطفى عليهِ الصلاةُ والسلامُ عندما قال: ﴿عجبَ ربّكم من قومٍ يقادونَ إلى الجنّةِ بالسلاسل﴾، هذا مظهرٌ من مظاهرِ سوقِ اللهِ لنا إلى جنانه، أن أخفى عنّا ليلةَ القدر حتّى تدعونا الحيطة إلى أن نعمّر ليالي هذا الشهر، بل الليالي المتبقّية من هذا الشهر، بمزيدٍ من النشاط، بمزيدٍ من الإقبال، بمزيدٍ من الطاعات، بمزيدٍ من التنزّهِ عن المحرّمات.

ولا بدَّ ان أذكّركم بعدها بما أنتم مقبلون عليه، من شعيرةِ زكاةِ الفطر، التي جعلها اللهُ سبحانهُ وتعالى فريضة على المسلمينَ بشروطٍ سأتحدّثُ عنها، وردَ ذلكَ في الصحيح، عن عبدِ اللهِ بنِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ قال: فرضَ اللهُ سبحانهُ وتعالى زكاةَ الفطرِ صاعاً، من بُرٍّ أو شعيرٍ أو تمرٍ على كلِّ مسلمٍ حرٍّ وعبدٍ، ذكرٍ وأنثى. وورد عن أبي سعيدٍ الخدريِّ رضيَ اللهُ عنهُ قال: كنّا نخرجُ زكاةَ الفطرِ صاعاً من تمرٍ أو صاعاً من شعيرٍ أو صاعاً من بُرٍّ أو صاعاً من أقِطٍ، فما زلتُ أخرجُ ذلكَ كلَّ عامٍ ما حييت.

وقد قرّرَ العلماءُ أنَّ من شروطِ وجوبها أن يكونَ الإنسانُ مسلماً، وأن يكونَ هذا المبلغُ الذي كلّفهُ اللهُ عزَّ وجلّ بإخراجهِ والذي سأحددهُ لكم، فائضاً عن نفقتهِ ونفقةِ من جعلهُ اللهُ مسؤولاً عنهم، يومَ العيدِ وليلته، فإذا بقيت بقيّةٌ لديهِ، زائدةٌ عن نفقته ونفقةِ عياله، ومسكنٍ هو بحاجةٍ إليه، فقد وجبَ عليهِ إخراجُ زكاةِ الفطر، عن نفسهِ أولاً، ثمَّ عن كلِّ من هو مسؤولٌ عنهم ثانياً.

وإنما تجبُ صدقةُ الفطرِ هذه بمغيبِ شمسِ آخرِ يومٍ من أيامِ شهرِ رمضان، أي بدخولِ ليلةِ الفطر، عندَ ذلك، يتعيَّنُ الوجوب، فلا تجبُ زكاةُ الفطرِ مثلاً على من ولدَ بعدَ مغيبِ شمسِ ذلكَ اليوم، ولا تجبُ على من مات قبلَ غروبِ شمسِ ذلكَ اليوم، هذا عندَ الإمامِ الشافعيّ، أمّا عندَ الإمامِ أبو حنيفة، فقالَ إنها تجبُ ببزوغِ صبحِ يومِ الفطر، كما أنَّ الإمامَ أبا حنيفة جعلَ من شرطِ وجوبها أن يكونَ الرجلُ يملكُ نصاباً، أي غنيّاً يملكُ نصاباً زكويّاً، فإذا ملكَ هذا النّصاب، فقد وجبَ عليهِ إخراجُ زكاةِ الفطرِ عن نفسهِ وعمَّن جعلهُ اللهُ مسؤولاً عنهم.

زكاةُ الفطرِ تُخرَجُ من غالبِ قوتِ البلد، وغالبُ قوتِ البلدِ اليوم كما تعلمونَ هو البُر، وقد حُدِّد كما سمعتم من حديثِ أبي سعيدٍ الخُدريّ، وسيّدنا عبدِ اللهِ بنِ عمر حُدِّدَ بصاعٍ من غالبِ قوتِ البلد، وعندَ الإمامِ أبي حنيفة: نصفُ صاع، ولكنَّ الصّاعَ عندهُ أكبر فالكمّيّةُ تتقاربُ أخيراً.

وإذا أردنا ان نحددَ الصّاعَ كيلاً، فهوَ كما قالهُ العلماء: عبارةٌ عن أربعِ حفناتٍ بكفِّ رجلٍ معتدل، أربع حفنات، وأمّا إذا أردنا أن نحوِّلَ هذا الكيلَ إلى وزن، الوزنِ المتعارفِ عليهِ في عصرنا اليوم، فهو لا يزيدُ على كلِّ حال، عندَ الإمامِ أبي حنيفة وعندَ الإمامِ الشافعيّ، لا يزيدُ على ألفي غرام، أي لا يزيدُ على اثنين كيلو من غالبِ قوتِ البلد، فانظروا كم يساوي كيلو البُر في هذه الأيام، تستطيعونَ أن تحدّدوا المبلغ الذي فرضهُ اللهُ سبحانهُ وتعالى عليكم، ولا بأس أن نقلّدَ مذهبَ الإمامِ أبي حنيفة رحمهُ اللهُ تعالى، فنخرجَ قيمةَ هذا القوت بدلاً من أن نخرجَ القيمةَ ذاتها، لأنَّ ذلكَ هو الأفضل، وهوَ الأولى للمحتاجينَ في هذهِ الأيام، أسألُ اللهَ سبحانهُ وتعالى أن يوفّقنا في أواخرِ هذا الشهر لمزيدٍ من الطّاعة، ولمزيدٍ من الإقبالِ على اللهِ عزَّ وجل، كما أسألُ اللهَ لي ولكمُ الثبات، الثباتَ على ما وفّقنا إليه، ذلكَ هو عنوانُ قبول اللهِ عزَّ وجلّ، فمن رأى نفسهُ وقد تابَ في هذا الشهرِ وآبَ إلى الله، منشرحاً للاستقامة، مُوفَّقاً للثبات، فليعلمْ أنَّهُ مقبولٌ عندَ اللهِ عزَّ وجلّ، أمّا إن نكص الإنسانُ على عقبه، وارتدَّ إلى سوءِ حاله،

فأسألُ اللهَ لهُ وليَ العافية، وأسألُ اللهَ سبحانهُ وتعالى لنا جميعاً أن يبعدنا عن مطارحِ الرّدى، وأن يجعلنا من المقبولين، وأن يتغمّدنا بألطافهِ الخفيّة، فاستغفروهُ يغفر لكم، فيا فوزَ المستغفرين.



٣٤٢- تذكرة بين يدي شهر رمضان لمن يبحث عن رحمة الله في زمن الشدائد

| ١٩٨٨/٠٤/٢٩

إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قد أقامَ الإنسانَ في هذه الحياةِ الدّنيا لحكمةٍ باهرةٍ عظيمةٍ هي الابتلاء، ولقد قضى اللهُ عزَّ وجلّ أن يكونَ الإنسانُ في هذه الدّنيا ابتلاءً لأخيهِ الإنسان، فقالَ عزَّ وجلَّ في محكمِ تبيانه: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾.

ومظاهرُ ابتلاءِ الإنسانِ بأخيهِ الإنسانِ كثيرة، ولكنّي ألفتُ النّظرَ اليومَ إلى أهمّها وأخطرها. لقد فاوت اللهُ سبحانهُ وتعالى بينَ عبادهِ في دارِ الدّنيا في الرّزقِ والمالِ والغنا، ثمَّ ابتلى الغنيَّ بالفقيرِ وابتلى الفقيرَ بالغنيّ. ابتلى الغنيَّ بالفقيرِ ليعطيَ وينفق، وابتلى الفقيرَ بالغنى وبالغنيّ ليتعفّفَ ويتعالى وتكونَ يدهُ اليدَ العليا.

وقد كانَ اللهُ عزَّ وجلَّ قادراً وهو الغنيُّ عن كلِّ شيءٍ أن يُغنِيَ هذا وذاك من فضله، ولكنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ كما قلتُ لكم أرادَ أن يبتليَ العبادَ بعضهم ببعضٍ ليثيبهم إن أدّوا واجبَ الابتلاء، وليعاقبهم إن نكصوا على أعقابهم وتمرّدوا على حكمِ اللهِ عزَّ وجلَّ وعبوديّتهِ للدّيّانِ سبحانهُ وتعالى.

وقد أنبأنا اللهُ عزَّ وجلَّ عن اعتراضٍ اعترضَ بِهِ المشركون عندما سمعوا أنَّ رسولَ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم يأمرُ الأغنياءَ أن يعودوا بفضولِ أموالهم على الفقراء، اعترضوا وقالوا: ولماذا نعطي وأنتَ تقولُ إنَّ اللهَ غنيٌّ كريم وأنّهُ هو الرّزّاق؟ فأحرى بهؤلاءِ الفقراء أن يطلبوا من اللهِ مباشرةً. وقد سجّلَ البيانُ الإلهيُّ اعتراضهم هذا للعبرة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ. ..أَنُطْعِمُمَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

وتأمّلوا يا عبادَ الله في كتابِ اللهِ من أوّلِهِ إلى آخره، هل تجدونَ فيهِ آيةً نصَّ البيانُ الإلهيُّ فيها على أنَّ الإنسانَ يملك مالاً؟ أبداً، لن تجدوا هذا الكلامَ أبداً، على الرّغمِ من أنَّ خيالَ الإنسانِ دائماً يُخَيِّلُ إليهِ أنّهُ يملكُ ما يحويهِ من رزق، إنّما التّعبيرُ الإلهيُّ يدورُ بينَ عبارتينِ اثنتين، منها قولهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾، يذكّركَ اللهُ عزَّ وجلَّ بأنّكَ مستخلفٌ في المالِ الذي وضعهُ تحت يدك، أو

يقولُ بمكانٍ آخر: ﴿وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾، فهو أيضاً استخلاف وأمانةٌ أودعها اللهُ عزَّ وجلَّ تحتَ يدك.

فما الموقف بالنّسبةِ لإنسانٍ سمعَ كتابَ الله، وعلمَ أنَّ المالكَ هو الله، وعلمَ أنَّ هذه الدّنيا دارُ ابتلاء وأنَّ اللهَ فاوتَ بينَ النّاسِ في الرّزقِ حتّى يبتليَ بعضهم ببعض. ومع ذلكَ أعرضَ عن كلامِ الله عزَّ وجلَّ وحكمه، وجعلَ من المالِ الذي استخلفهُ اللهُ عزَّ وجلَّ عليهِ حجاباً صفيقاً بينهُ وبينَ ربِّ العالمين، فهو معرضٌ عن أمره، مبتعدٌ عن حكمه، متباهٍ بالمالِ الذي يملك، يمرُّ عليهِ العامُ إثرَ العامِ ونداءُ اللهِ يلاحقه وهو معرضٌ لا يستجيب. ويسمعُ بينَ الحينِ والآخرِ كلامَ اللهِ عزَّ وجلّ: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ، يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾. ومع ذلك فإنَّ سُكرَ المال الذي متّعهُ اللهُ عزَّ وجلَّ به يمنعهُ من أن يشعرَ بخطورةِ هذا الإنذارِ وبجسامةِ هذا الوعيد.

عبادَ الله: ما الذي يمنعُ الإنسانَ من أن يعودَ إلى إخوانهِ بحقٍّ وضعهُ اللهُ في عنقه؟ ما الذي يمنعهُ من ذلك؟ خوفُ الفقر؟ إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ ضمنَ لكَ أن يغنيكَ بما تفعل، وأن يجعلهُ تجارةً رابحةً لكَّ في الدّنيا قبلَ الآخرة. وقد أكّدَ ذلكَ المصطفى عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ إذ قال: ﴿ما نقصَ مالٌ من صدقة﴾. ما الذي يمنعُ هذا الإنسان؟ دعوى أنّهُ مالك؟ إنّهُ ليسَ مالكاً لشيء، إنّهُ لا يملكُ ذاته حتّى يملكَ ما يزعمُ أنّهُ ماله، اللهُ عزَّ وجلَّ هو المالك وما ينبغي أن يشعرَ المعطي بأيِّ منّةٍ على المعطى، بل إنّهُ يؤدّي وظيفةً كلّفهُ اللهُ سبحانهُ وتعالى بها.

وسمّى اللهُ سبحانهُ وتعالى هذا القدرَ الذي فرضهُ في مالِ الأغنياءِ حقّاً، بل إنَّ رسولَ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم يزيدُ هذا بياناً فيقولُ فيما يرويهِ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ بسندٍ صحيحٍ عن رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم: ﴿إنَّ اللهَ فرضَ على الأغنياءِ في أموالهم بالقدرِ الذي يسعُ فقراءهم، ولن يُجهَدَ الفقراءُ إذا جاعوا أو عَروا إلا بما يصنعُ أغنياءُهم، وإنَّ اللهَ يحاسبهم على ذلكَ فمعذّبهم عذاباً شديداً﴾. وقد روى أبو داوودُ في مراسيله وروى الطّبرانيُّ والبيهقيُّ عن كثيرٍ من الصّحابةِ مرفوعاً عن رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم أنّهُ قال: ﴿حصّنوا أموالكم بالزّكاة﴾، واسمعوا كلامَ رسولِ اللهِ أيّها الإخوة: ﴿حصّنوا أموالكم بالزّكاة، وداووا مرضاكم بالصّدقة، واستقبلوا أمواجَ البلاءِ بالتّضرّعِ والدّعاء﴾. ولقد كانَ رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ

وسلّمَ كثيرَ الجودِ في عامّةِ حياتهِ ولكنّهُ كانَ أكثرَ النّاسِ جوداً وأكثرَ ما يكونُ جوداً في هذا الشّهرِ المبارك، كانت يدهُ كالرّيحِ المرسلة، وهذا هو الشّهرُ الذي يذكّرنا بهِ القرآن، والذي كانت هذه هي صفةُ رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم فيه.

فيا عبادَ الله: أما تحبّونَ أن يرحمكمُ اللهُ وأنتمُ الذين تتأفّفونَ من الشّدائد؟ وأنتم الذي تسألونَ عن رحمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ وعن مصيرها؟ وعن سببِ هذه الشّدائدِ التي حاقت بنا بدلَ الرّخاء؟ ألا تحبّونَ أن تتنزّلَ عليكم رحماتُ اللهِ عزَّ وجلّ؟ إذاً فاسمعوا قولَ رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم، وقد ذكرَ ذلكَ مراراً ورُوِيَ بطرقٍ عديدة: ﴿من لا يَرحَم لا يُرحَم﴾. لن يرحمَ اللهُ سبحانهُ وتعالى أناساً كلّفهم أن يتراحموا فلم يتراحموا، وإذا كنّا نجدُ بعدنا عن التّراحم، وإذا كنّا ننظرُ فنجد أنَّ خمساً وتسعينَ بالمئةِ فيما قد قيلَ لي من قِبَلِ كثيرٍ من الثّقاتِ من النّاس الذينَ يملكونَ أنصباءَ الزّكاة لا يعودونَ بشيءٍ من هذه الحقوقِ إلى مستحقّيها، على الرّغمِ من أنَّ أحدهم يرى واقعَ الأمّة ويرى حالةَ النّاس ويرى الشّدائدَ التي تحوقُ بهم، وبدلاً من أن يعودَ هؤلاءِ النّاسِ بهذه الفضولِ إلى المحتاجينَ حقّاً ألزمهمُ اللهُ عزَّ وجلَّ به، بدلاً من ذلك ينثرونَ المالَ يميناً ويساراً في بذخٍ لا يتصوّرهُ الوهمُ والخيال، ينثرونهُ في سبيلِ الشّيطان. شحٌّ أمامَ أمرِ اللهِ سبحانهُ وتعالى، وكرمٌ وجودٌ أمامَ نداءِ الشّيطان، كيفَ تنتظرُ أمّةٌ هذا شأنها وهذه حالها أن يرحمها اللهُ عزَّ وجلّ؟ وأن يكرمها بالخير والبركةِ والنّماء؟

لقد حدّثني صديقٌ أثقُ بهِ عن قريبٍ لهُ من أغنياءِ هذه البلدة، ذهبَ فطافَ حولَ الدّنيا هو وأسرتهُ وأنفقَ في ذلكَ الملايين، قالَ لهُ قريبهُ هذا -المؤمن الملتزم بأوامرِ اللهِ عزَّ وجلّ- قالَ لهُ: أرجو أن تكونَ ممّن يؤّدون حقوقَ اللهِ عزَّ وجلَّ ويخرجونَ زكاةَ أموالهم. فقالَ لهُ قريبهُ الغنيّ في صلف وكبرياء: وهل مجنونٌ أنا حتّى أضيّعَ أكثرَ من مليون في كلِّ عام؟! نعم.. ليسَ بمجنونٍ عندما يستجيبُ لنداءِ الشّيطان وينفقُ الأموالَ بغيرِ عدٍّ ولا حسابٍ على البذخِ والمحرّمات. فإذا نادى منادي الله وإذا أمرهُ اللهُ أن يحصّنَ مالهُ بالصّدقة وضمنَ اللهُ لهُ أن يعوّضهُ بدلاً من القرشِ عشرةً أو أكثر، عدَّ نفسهُ مجنوناً إن هو انصاعَ لأمرِ اللهِ عزَّ وجلّ.

وهذا نموذجٌ يا عبادَ الله، وقيسوا على هذا النّموذجِ الكثيرَ من الصّور، ماذا تنتظرونَ من أمّةٍ هذا غالبُ شأنِ معظمها؟ وكيفَ تنتظرون أن تتنزّلَ عليها الرّحمة من اللهِ سبحانهُ وتعالى؟ ولكن ألا تسألون

عن مصيرِ هذا الإنسانِ الذي قالَ هذا الكلامَ؟ إنّهُ اليومَ ممدودٌ على فراشِ المرض، وإنّهُ يعاني من شللٍ في جسمه، تلكَ هي سياطُ ربِّ العالمينَ سبحانهُ وتعالى.

ماذا يفيدكَ المالُ يا ابنَ آدم إن لم يمتّعكَ اللهُ بعافيةٍ تجعلك تجعلُكَ تتذوّقُ نعيمَ هذا المال؟ ومن أينَ تأتيكَ العافية؟ ماذا تستفيدُ من هذا المال إن جعلَ اللهُ عزَّ وجلَّ وسيلةَ إنفاقه على الأمراض وعلى العاهات وعلى المصائب التي تطوفُ من حولك؟ وماذا تخسرُ من مالك - قلَّ أو كثُر- عندما تؤدّي حقَّ اللهِ سبحانهُ وتعالى الذي أمركَ بهِ في إنفاقهِ وفي طرقِ عطائه، وقد ضمن اللهُ عزَّ وجلَّ لكَ أن يعوّض، وضمنَ اللهُ عزَّ وجلَّ لكَ أن يجعلَ من هذا العطاءِ رأسَ مالٍ لربحٍ وفير، وسَلُوا الذين تعوّدوا على أداءِ حقوقِ الله، وسلوا الذينَ يراقبونَ المالَ الذي يدخلُ إليهم ليؤدّوا حقوقَ اللهِ المترتّبة على أعناقهم، سَلُوهم: أيّةَ تجارةٍ يرونها في دارِ الدّنيا؟ وسَلُوهم: كم يُضاعفُ اللهُ سبحانهُ وتعالى لهم؟

أيّها النّاس: شهرُ رمضانَ هذا شهرُ العطاء، شهرُ الكرم، شهرُ الرّحمة، فتأسَّوا برسولكم محمّدٍ عليهِ الصّلاةُ والسّلام، وتنزّهوا عن الشُّحِّ الذي ابتلى اللهُ عزَّ وجلَّ بهِ عبده، وقد قالَ عزَّ من قائل: ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، والسّبيلُ إلى هذا التّوقّي يسير..

أسألُ اللهَ سبحانهُ وتعالى أن يكرمنا بالتّراحم حتّى يكرمنا برحمتهِ الغامرةِ الواسعة، وأسألُ اللهَ سبحانهُ وتعالى أن يرفعَ عنّا مقتهُ وغضبه، فاستغفروهُ يغفر لكم، فيا فوزَ المستغفرينَ ويا نجاةَ التّائبين..

٣٤٣- وآتوهم من مال الله الذي آتاكم | ١٩٨٩/٠٤/٢٨

لقد صحَّ عن المصطفى صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم أنّهُ كانَ إذا دخلَ العشرُ الأخيرُ من شهرِ رمضانَ المبارك: طوى الفراش، وشدَّ المئزَر، وأقبلَ إلى اللهِ سبحانهُ وتعالى يبالغُ في العبادةِ والتّضرّعِ والتّبتّلِ بينَ يديهِ عزَّ وجلّ.

وقد صحَّ عنهُ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنّهُ كانَ كثيرَ الجود، ولكنّهُ كانَ أجودَ ما يكونُ في هذا الشّهرِ المبارك، ثمَّ كانَ أجودَ ما يكونُ في هذا العشرِ الأخيرِ من هذا الشّهرِ المبارك.

ولقد صحَّ عنهُ أيضاً صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنّهُ قالَ عن ليلةِ القدر: «التمِسوها في العشرِ الأخيرِ من هذا الشّهرِ في ليالي: الحادي والعشرين، والثّالثِ والعشرين، والخامسِ والعشرين، والسّابعِ والعشرين، والتّاسعِ والعشرين».

ومن عجبٍ أيُّها الإخوة: أنَّ كثيراً منَ النّاس يقبلون في أوائل شهر رمضان المبارك إلى المساجدِ وإلى الطّاعاتِ بمزيدٍ من النّشاطِ والإقبالِ على اللهِ سبحانهُ وتعالى. حتّى إذا دخلَ هذا العشر الأخير فترت هِمَمُهُم، وتراجعوا بعدَ إقبال، وفرغَ كثيرٌ من المساجدِ منهم، مع أن الأمرَ يقتضي العكس تماماً.. الأمرُ يقتضي أن يزدادَ النّشاطُ منهم في هذا العشرِ الأخير، وأن يزدادوا إقبالاً على اللهِ سبحانهُ وتعالى، وأن تتضاعفَ لديهمُ الهِمَم. واللهُ هوَ المسؤولُ والمُستعانُ أن يوفِّقَنا لأداءِ هذا الشّهرِ كما ينبغي وكما طلبَ اللهُ سبحانهُ وتعالى منّا، ثمَّ أن نؤدّيَ حقوقَ هذا العشرِ الأخيرِ على خيرِ وجه.

الحديثُ عن فضائلِ هذا الشّهرِ والعشرِ الأخيرِ منهُ حديثٌ طويل، والفضائلُ كثيرةٌ لا تكادُ تحصى، ولكنّي أريدُ أن ألفتَ نظري ونظركم إلى شيءٍ واحدٍ في مقامي هذا: هوَ كرمُ المصطفى صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ الشّديد، ومضاعفةُ كرمهِ في هذا الشّهر، بل في هذا العشرِ الأخير. وقد كانَ رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قدوتَنا، وكانَ قائدَنا على صراطِ اللهِ سبحانهُ وتعالى. فرحمَ اللهُ امرَءاً اقتدى برسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم. ورحمَ اللهُ امرَءاً مسلماً برهنَ على صدقِ إسلامهِ باليدِ التي يبذُلُها ويفتحُها معطاءةً كريمةً متّكلاً على اللهِ سبحانهُ وتعالى.

ألا وإنَّ سائرَ العباداتِ أيُّها الإخوة قد تكونُ أمراً تقليديّاً، وقد تتحوَّلُ إلى عادةٍ ميتةٍ في كيانِ الإنسان، كلُّ عبادةٍ إلا البذلُ والسّخاء. فلا يمكنُ أن يتحوَّلُ البذلُ والسّخاءُ إلى عادةٍ ميتةٍ أو إلى تقليدٍ لا معنى له، لأنَّ الذي يعطي ولا يخشى الفقرَ لا يمكنُ أن يفعلَ ذلكَ إلا من منطلقِ ثقتهِ باللهِ عزَّ وجلّ. الذي لا يؤمنُ باللهِ الإيمانَ الحقيقيَّ لا يثقُ به. والذي لا يثقُ بهِ هوَ أشدُّ ما يكونُ بخلاً وأشدُّ ما يكونُ حرصاً على المال.

فإن وجدتَ إنساناً لا يحرصُ على المال، ويبذله، ويعطيهِ ذاتَ اليمينِ وذاتَ الشّمال، فاعلم أنّهُ مؤمنٌ باللهِ إيماناً حقيقيّاً، ومن ثمَّ فهوَ واثقٌ بوعدِ اللهِ عزَّ وجلّ. ولقد قالَ اللهُ سبحانهُ وتعالى: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ . هذا وعدُ اللهِ سبحانهُ وتعالى، واللهُ عزَّ وجلَّ لا يخلفُ الميعاد.

فالإنسانُ أحدُ رجلين: إمّا أن يكونَ مؤمناً بالله، ذا ثقةٍ بكلامِ الله، هذا الإنسانُ لا يبالي أبداً مهما بذلَ ومهما أعطى، لأنّهُ يعلمُ أنَّ اللهَ يراه، وأنَّ اللهَ مطّلعٌ عليه. ومهما بلغَ الكرمُ بالإنسانِ فإنَّ اللهَ أكرمُ منه. ومهما بلغت رحمةُ الإنسانِ بالإنسانِ فإنَّ اللهَ أرحمُ منَ الرّاحمِ والمرحومِ معاً. هذا ما أريدُ أن أنبّهكم إليهِ أيُّها الإخوة.

نحنُ نعاني من مصائبَ شتّى، ونعاني من أنواعٍ من الضّيقِ كثيرة. ولكن ما من مصيبةٍ يعاني منها النّاسُ إلا وهيَ ثمرةُ أعمالهم، وثمرةُ انحرافهم. وهكذا بيَّنَ اللهُ سبحانهُ وتعالى لنا وقرَّرَ وأوضح. وإذا كانَ الأمرُ كذلك: فإنَّ أنجعَ دواءٍ لرفعِ البلاء، وإنَّ أعظمَ دواءٍ لنقلِ الإنسانِ من الشّدّةِ إلى الرّخاء، إنّما هوَ التّراحمُ الحقيقيُّ إذ يشيعُ بينَ فئاتِ المسلمينَ بعضِهم تجاهَ بعض. فمن رَحِمَ رُحِمْ. ومن لا يَرحَم لا يُرحَم. هكذا يقولُ المصطفى صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم. والنّاسُ كلُّهم -إن نظرنا إلى الموضوعِ نظرةً نسبيّة- أغنياء، فما من إنسانٍ مهما كانَ فقيراً إلا وهوَ أغنى ممّن كانَ دونَهُ في الغِنى.

وهكذا فإنَّ الإنسانَ أيّاً كانَ مستواهُ يجدُ نفسهُ مكلّفاً بالعطاء، وبهذا المعنى تمتدُّ سلسلةُ التّكافلِ والتّضامنِ في مجتمعٍ يشيعُ فيهِ الإسلامُ الحقيقيُّ والإيمانُ الحقيقيُّ باللهِ سبحانهُ وتعالى. وأنا لا أتكلَّمُ الآنَ عن الزّكاة، فالزّكاةُ ضريبةٌ مرسومةٌ في مالِ الإنسان، وهيَ ليست مالَهُ أبداً، إنّما هيَ حقٌّ لمن سمّاهمُ اللهُ

سبحانهُ وتعالى في محكمِ كتابه، ولا يُتَصَوَّرُ أن يكونَ هنالكَ مسلمٌ يمرُّ عليهِ العامُ وفي مالهِ حقٌّ ترتّبَ عليهِ زكاةً ثمَّ لا يدفعُ زكاةَ مالِه. لا أتصوَّرُ أنَّ ثمّةَ مسلماً يسيرُ على هذا النّهجِ المنحرفِ قَطّ. ولكنّي أتحدّثُ عمّا وراءَ الزّكاة، وقد قالَ المصطفى صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم: ﴿إنَّ في المالِ حقّاً سوى الزّكاة﴾.

وقد يظنُّ الإنسانُ أنّهُ عندما يُخرجُ المالَ من جيبهِ ليعطيَهُ للمستحقِّين والفقراء، قد يتصوَّرُ أنّهُ اقتطعَ شيئاً من مالهِ الذي يملكُه، وهذا خطأٌ كبير.. بل إنّهُ ليكادُ يكونُ جريمةً في التّصوُّرِ. إنَّ الباريَ عزَّ وجلَّ تحدَّثَ في محكمِ كتابهِ كثيراً عنِ المالِ الذي يدخلُ حوزةَ الإنسان، ولكنّي –وقد استعرضتُ كتابَ اللهِ من أوّلهِ إلى آخرِه– لم أجدِ البيانَ الإلهيَّ مرّةً واحدةً يصفُ هذا المالَ الذي وضعهُ بينَ يديكَ بأنّهُ ملكُك، أبداً لم أجد هذا. إنّما يقولُ اللهُ سبحانهُ وتعالى: ﴿وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾. أو يقول: ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾، من أجلِ أن يجتثَّ من ذهنكَ هذا التّصوُّرَ الخاطئ، المالُ ليسَ مالكَ وإنّما أنتَ قَيِّمٌ عليه، وما أعطاكَ اللهُ عزَّ وجلَّ إيّاهُ ليسَ من ممتلكاتك، فأنتَ لا تملكُ نفسكَ فضلاً عن أن تمتلكَ شيئاً وضعهُ اللهُ عزَّ وجلَّ تحتَ يديك، إنّما أنت مؤتمنٌ على هذا المال، وأنتَ مبتلىً بهذا المال، ترى هل تثقُ باللهِ عزَّ وجلّ؟ ترى هل تبرهنُ على صدقِ إيمانِكَ باللهِ فتبذلهُ سخيّاً ذاتَ اليمينِ وذاتَ الشّمال، ثمَّ تمدُّ اليدَ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ تطلبُ منهُ العِوَض؟ إذاً أنتَ مؤمنٌ حقّاً، وأنتَ زاهدٌ حقّاً. وقد وردَ عن المصطفى عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ أنّهُ قال: ﴿ليستِ الزّهادةُ في تحريمِ الحلالِ ولا في إضاعةِ المال، ولكنَّ الزّهادةَ أن تكونَ أوثقَ بما في يدِ اللهِ ممّا في يدك﴾. تلكَ هيَ الزّهادة: أن تكونَ ثقتُكَ بما في يدِ اللهِ أكثرَ من ثقتِكَ بالمالِ الذي في يدك.

هذا المعنى ينبغي أن نتفهّمهُ جيّداً أيُّها الإخوة، وينبغي إذا كنّا ندّعي الإيمانَ باللهِ عزَّ وجلَّ أن نضعَ إيماننا في هذا الميزان، وفي محكِّ هذهِ التّجربة. ثمَّ لينظر كلُّ واحدٍ منّا النّتيجة، فإمّا أن يصنّفَ نفسَهُ معَ الأدعياءِ الكاذبين. وإمّا أن يصنِّفَ نفسَهُ حامداً شاكراً اللهَ عزَّ وجلَّ معَ المؤمنينَ الصّادقينَ باللهِ سبحانهُ وتعالى.

ثمَّ يا أيُّها النّاس: من ذا الذي يتصوَّرُ أنَّ مسلماً يمدُّ يدَ السّخاءِ إلى محتاج، ثمَّ إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يدعُ تلكَ الثّغرةَ التي تكوّنت لديهِ من عطائهِ، يدعُها كما هي؟ متى كانَ هذا من شأنِ اللهِ سبحانهُ وتعالى؟ اللهُ لا تنفدُ خزائنهُ، بل كلُّ من سارَ في هذا الطّريقِ عَلِمْ، عَلِمَ عِلْمَ اليقين، ورأى حقَّ اليقين، أنّهُ ما من

إنسانٍ يعطي درهماً في سبيلِ اللهِ سبحانهُ وتعالى إلا ويعطيهِ اللهُ عزَّ وجلَّ قبلَ أن يبيتَ عليهِ اليوم، يعطيهِ أضعافَ ذلك.. عشرةَ أضعافٍ فما يزيدُ عن ذلك، إنَّ اللهَ لا يبقي عليهِ منّةً لعبده. هذهِ الحقيقةُ ينبغي أن نعلمها.

ثمَّ إنَّ اللهَ ابتلانا، ابتلى كلّاً منّا بالآخر، ذلكَ هوَ قرارُ الله: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾. جعلَ الغنيَّ فتنةً للفقير، والفقيرَ فتنةً للغنيّ، وكانَ اللهُ قادراً على أن يغنيَ الفقيرَ دونَ أن يُحوجَهُ إليك. ولكنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ علّقَ النّاسَ بعضهم ببعضٍ وجعلَ كلّاً منهم مادّةَ ابتلاء بالآخر. فلا تكوننَّ عقولكم من الغباءِ كعقولِ أولئكَ المشركينَ الذينَ كانَ رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يحملهم على البذلِ والعطاء، فيتمرّدونَ على قولهِ قائلينَ كما روى اللهُ عزَّ وجلَّ عنهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ. ..أَنُطْعِمُمَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

الباري عزَّ وجلَّ قادرٌ أن يعطي. ولكن لو أنَّ اللهَ أغنى النّاسَ جميعاً، إذاً لانفكّت آصرةُ التّعاونِ بينَ النّاس، ومن ثمَّ لزالَ معنى افتتانِ النّاسِ بعضهم ببعض. والدّنيا حقلُ ابتلاء، وأساسُ امتحان. ولكن الإنسانُ الذي يسيرُ على نهجِ اللهِ عزَّ وجلّ، ويثقُ باللهِ فيعطي، لا يمكنُ أن يخسرَ لا من دينهِ ولا من دنياهُ شيئاً. لا بدَّ أن يفوزَ بربحٍ آجلٍ وعاجلٍ معاً. فأيُّ حماقةٍ تلكَ التي يتّصفُ بها من يعرضُ عن أمرِ اللهِ عزَّ وجلَّ متعلّقاً بحبالِ الوهم، يتعلَّقُ بالوهمِ وهوَ يحسبهُ حقيقة. وهوَ بهذا التّعلّقِ أفسدَ دنياهُ وآخرته، وأبعدَ نفسهُ عن سعادة عاجلهِ وآجله. ثمَّ اسمعوا ما يقولهُ المصطفى عليهِ الصّلاةُ والسّلام: ﴿ألا إنَّ اللهَ قد فرضَ في مالِ الأغنياءِ بالقدرِ الذي يسعُ فقراءهم، ولن يُجهدَ الفقراءُ إذا جاعوا أو عروا إلا بما يصنعُ أغنياؤهم، وإنَّ اللهَ محاسبُهم على ذلكَ حساباً عسيراً﴾.

أسألُ اللهَ سبحانهُ وتعالى أن يوفّقنا للاقتداءِ بنبيِّنا محمّدٍ عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ في سائرِ أحوالِنا عامّةً، وفي هذا العشرِ الأخيرِ من هذا الشّهرِ المباركِ خاصّةً. وأن يتجلّى ذلكَ في مزيدٍ من الإقبالِ على اللهِ في بقايا هذا الشّهر، وفي الكرمِ الذي يبرهنُ على صدقِ إيماننا باللهِ سبحانهُ وتعالى حتّى يشيعَ التّعاونُ بينَ المسلمين، وتشيعَ حقيقةُ التّراحمِ فيما بينهم فيرتفعَ البلاء، ويبدلُ اللهُ عزَّ وجلَّ شدّتنا برخاء. أقولُ قولي هذا وأستغفرُ اللهَ العظيم..

٣٤٤- حال من اغتنم شهر رمضان وحال من فرط به | ١٩٨٩/٠٥/٠٥

لعلَّ هذا اليومَ هوَ آخرُ أيّامِ شهرِ رمضانَ المبارك. وأرى في كلِّ عامٍ عندما أصل إلى آخرُ هذا الشّهرِ المبارَكِ أقرنُ دون شعورٍ منّي: بينَ نهايةِ هذا الشّهرِ من العام، وبينَ نهايةِ العمرِ الإنسانيِّ من الحياةِ الدّنيا. كما أقرنُ بدون شعورٍ منّي: بينَ مشاعرِ الفرحةِ في عيدِ الفطر، وإقبالِ النّاسِ على الطّعامِ والشّرابِ بعدَ ابتعادهم عنهما طيلةَ شهرٍ كامل، أجدُني أقرنُ بينَ هذا وبينَ الفرحةِ التي يدخلُها اللهُ عزَّ وجلَّ في قلوبِ الصّالحينَ من عبادهِ يومَ القيامة.

ولعل من حكم هذا الشّهر، ربطَ الصّلةِ بينَ الدّنيا والآخرةِ وبينَ مصيرِ الإنسانِ في الدّنيا والآخرةِ بعدَ هذا الشّهرِ وبعدَ الموت.

لا شكَّ أنَّ النّاسَ فريقان: فريقٌ أقبلَ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ خلالَ هذا الشّهرِ المنصرمِ فصبرَ ابتغاءَ الوصولِ إلى مرضاةِ الله، وعانى من شدّةِ الجوعِ أو العطشِ ورأى نفسهُ متعباً مكدوداً أمامَ العملِ الذي يقومُ به، والجهودِ التي أقامهُ اللهُ عزَّ وجلَّ عليها، فلم يشأ أن يجعلَ من أتعابهِ وأعمالهِ ووظائفهِ حجّةً لإفطاره، بل صبرَ وقالَ في نفسهِ: إن هيَ إلا أيّامٌ معدودةٌ كما قالَ اللهُ سبحانهُ وتعالى، وها هوَ ذا قدِ انتهى الشّهرُ، وقد انقضتِ الأيّامُ المعدودة. ترى ماذا بقيَ من أتعابِ الصّومِ في الأيّامِ الثّلاثينَ التي مضت؟ ماذا بقيَ من رواسب الظّمأِ أو الجوعِ في نفوسِ الصّائمين؟ لم يبقَ من ذلكَ شيءٌ قطّ، واستقرَّ في مكانِ التّعبِ الأجرُ العظيم، والرضى الكبيرُ منَ اللهِ سبحانهُ وتعالى.

فئةٌ أخرى منَ النّاسِ لم تجدِ القدرةَ على هذا الصّبر، بل انحطت عائدة إلى طفولتِها، بل إلى شر من كثير من أنواع الطفولة. هؤلاءِ النّاسُ نزّت شهواتُهم في هذا الشّهر، وألحّت عليهم، وسالَ لعابُهم على الطّعام، وعلى الشّراب، وكانوا كحالةِ الطّفلِ الصّغيرِ عندما يُذَكَّرُ بالطّعامِ أو يرى الطّعام. هؤلاءِ النّاس لم يصبروا، ولم يشاؤوا أن يستجيبوا لأمرِ اللهِ سبحانهُ وتعالى أو أن يحصّلوا على مرضاته. ولكن ها هوَ الشّهرُ

قد انقضى. هؤلاءِ الآخرون، ترى ماذا بقيَ في أعماقِ نفوسهم من براثنِ شهواتهم وأهوائهم التي اقتطفوها؟ ماذا بقيَ لهم من رواسبِ اللذائذِ التي اشتروها؟

ننظرُ إلى هذا الفريقِ وذاك، فنجدُ الفريقينِ قد عادا بنتيجةٍ واحدة، اللهمَّ إلا شيءٌ واحدٌ افترقَ كلٌّ منهما بسببهِ عن الآخر، ألا وهوَ: أنَّ الصّائمينَ الذينَ أعلنوا من خلالِ صومهم عن تمسّكهم بأمرِ الله، وعن عبوديّتهم لله، وعن صبرهم على اتّباعِ أوامرِ الله. فازوا بأجرٍ عظيم، وسجلوا لأنفسهم شهادةً لا تنقضي ولا تنحصر.

أمّا الآخرونَ فقد سجّلوا لأنفسهم أو على أنفسهم شقاءً ووبيلاً، وسجّلوا على أنفسهم غضباً من اللهِ عزَّ وجلَّ عظيماً. ترى ما هو الربح الذي عاد به هؤلاء الذين أسخطوا الله.. وما هي الخسارة الذي عاد بها أولئك الذين أرضوا الله سبحانه وتعالى.

أقول: ما أشبهَ انقضاءِ شهرِ الصّومِ بانقضاءِ العمر. العمرُ شهرُ صومٍ أيّها النّاس، وكما أنّكَ تجدُ أنَّ جهد الصّوم بالامتناعِ عن الطّعامِ والشّرابِ تلاشت في نهايةِ هذا الشّهر، ثمَّ ذبُلت، ثمَّ أصبحت لا شيءَ أمامَ النّتيجةِ التي يعودُ بها المؤمنُ الصّالح. فكذلكَ العُمرُ إذا انقضى، مهما أجهدت نفسكَ في سبيلِ مرضاةِ الله، ومهما بذلت العمر جهاداً في هذا في سبيلِ اتّباعِ أوامرِ اللهِ عزَّ وجلّ، سوف تنقضي الحياة. وإذا انقضت فلسوفَ تجدُ أنَّ كلَّ الجهودِ التي بذلتَها لا شيء، وأنَّ كلَّ الأجهاد التي تحملتها لا شيء، ولسوفَ تجدُ نفسكَ أمامَ كلمةِ المصطفى عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ عندما عادَ إلى دارهِ وسأل: ﴿أبقيَ عندكم من اللحمِ شيء؟ وكانَ عندَ رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ شيءٌ من اللحم. فقالت لهُ عائشة: ذهبَ كلُّها إلا كتفُها. فقالَ عليهِ الصّلاةُ والسّلام: بل بقيَ كلُّها إلا كتفُها﴾.

هذهِ الكلمةُ الجامعةُ التي قالَها رسولُ الله، تنطبقُ على العُمُرِ كلِّه، المالُ الذي دفعتَهُ ابتغاءَ مرضاةِ الله، فسوفَ تجدُ غداً أنّهُ هو الباقي. والذي ادّخرتَهُ في جيبكَ فسوفَ تجدُ أنّهُ هوَ الذي اضمحلَّ ومضى، ولم يفدكَ شيئاً بل كانَ عبئاً عليك. ولسوفَ تجدُ أنَّ التّعبَ الذي بذلتَه، والرّاحةَ التي بدّدتَها، هو الذي بقيَ لك، وهوَ الذي يدافع عنك، وهوَ رأسُ مالكَ الباقي. ولسوفَ تجدُ أنَّ الرّاحةَ التي وفّرتَها لنفسكَ في يومٍ من أيّامِ شبابك، هو الذي مضى وانقضى وهوَ الذي خسرتَهُ حقيقةً. ولكن يا للأسف لا يعرفها الإنسانُ

معرفةَ إحساس وشعور إلا عندَ الموت. ولكنّهُ قبلَ ذلكَ محجوبٌ عن هذا الإحساسِ بالدّنيا وأهوائها وتقلّباتها وشهواتها.

ولكنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ الحكيمَ الرّحيمَ يمزّقُ هذهِ الحجب ببياناتهِ الساطعة، الواضحة، من خلالِ كلامهِ القديم، وبيانهِ المبين. انظروا إلى حديثهِ عن أولئكَ الذينَ يرحلونَ عن الدّنيا وقد رضيَ اللهُ سبحانهُ وتعالى عنهم، انظروا إلى حديثهِ عنهم: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمْ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ، إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ، فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ، فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ، قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ، كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾.

هذهِ الصّورةُ توضحُ لنا ضآلةَ التعبِ الذي يلقمه الإنسانُ في دارِ الدّنيا أمامَ جزالةِ السّعادةِ التي تنتظرهُ يومَ القيامة. ولكن علمَ ذلكَ من علمَ وجهلهُ من جَهل، وسيعلمهُ النّاسُ جميعاً غداً. أما الآخرون.. فانظر إلى قولِ اللهِ سبحانهُ وتعالى –وما أكثرَ ما يتحدّثُ عنهم–: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾. أعِدنا إلى الدّارِ الدّنيا لنصلحَ ما أفسدنا، ولنقوّمَ الاعوجاجَ الذي تركناهُ من ورائنا. ولكنَّ الألمَ الذي لا ألمَ مثلَه: أنّها أمنيةٌ لن تتحقّق، وأنّهُ حلمٌ يتقاصر الكونُ كلُّهُ عن تطبيقهِ وتنفيذه.

انظروا إلى قولِ اللهِ عزَّ وجلَّ في مكانٍ آخر: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ﴾ كنايةً عن الإنسانِ الذي ختم لهُ بالشّقاء، وأعرضَ عن النذيرِ والبشير: ﴿ أَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ، وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ، يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ، مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ﴾. صحيحٌ أنّهُ تركَ كنوزاً في دارِ الدّنيا كانَ يتباهى بها، وكانَ يمنعُ رفدها. ولكن ها هوَ ذا يسألُ: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ﴾؟ كلُّه ذهبَ كما قالَ المصطفى عليهِ الصّلاةُ والسّلام ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ وما النّتيجة؟ ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ، ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ، ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ، إِنَّهُ كَانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ، وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ، فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ، وَلا طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ، لا يَأْكُلُهُ إِلاَّ الْخَاطِئونَ﴾.

ترى هل نستطيعُ أن نأخذَ هذهِ العبرةَ ونجسّدها في آخرِ يومٍ من أيّامِ هذا الشّهرِ المبارك؟ وأن نغمضَ العينَ لنتصوَّرَ أنَّ هذا الشّهرَ فعلاً يصوّرُ لنا العمرَ كلّه؟ وأنَّ العيدَ الذي يليهِ يصوّرُ إقبال الإنسانِ الذي

خُتمَ لهُ بالصّلاحِ والتّقوى إلى الله، وقد أدخلَ اللهُ في قلبهِ فرحةَ الخلود. هل بوسعنا أن نعتبر؟ وهل بوسعنا إذا ودعنا هذا الشّهرَ المباركَ أن نبايعهُ ونبايعَ اللهَ على الاستقامةِ الدّائمة؟ وعلى أن تظلَّ بيعَتُنا قائمةً أمامَ اللهِ إلى أن يطرقَ بابَنا ملكُ الموت؟ أسألُ اللهَ عزَّ وجلَّ لنا جميعاً الثّبات، وأسألُ اللهَ سبحانهُ وتعالى أن يهديَنا سواءَ صراطه، فاستغفروهُ يغفر لكم.



٣٤٥- الإخلاص.. روح الطاعات | ١٩٩٠/٠٤/٢٠

إنَّ الإنسانَ السّاذجَ الذي يقدّرُ الأمورَ ببصره ينظرُ إلى البناءِ الشّامخِ فيحسِبهُ قائماً على أدوارِهِ وطبقاتِهِ وحجارتِهِ المتراصفةِ المتلألئة. ولكنَّ العاقلَ الذي يدركُ خفايا الأمورِ يعلمُ أنَّ هذا البناءَ لا يمسكهُ إلا سرٌّ خفيٌّ في باطنِ الأرض، ذلكَ السّرُّ هو الذي يسمّى الأساس. وهي سنّةٌ من سننِ اللهِ الماضيةِ في الكون: بقاءُ الشّيءِ لا يكونُ بمظهره وإنّما يكونُ بسرّه أيّاً كانَ هذا الشّيء من أشياءِ الدّنيا أو من أشياءِ الآخرة، وحديثُنا عن الآخرةِ وخطى الإنسانِ في هذه الدّنيا إلى الله، والطّاعاتِ والقُربُاتِ التي يتقرّبُ بها ويؤدّيها بينَ يدي مولاهُ وخالقهِ عزَّ وجلّ. ما الذي يفيدُني من قُربُاتي؟ أهو مظاهرُ هذه القُربُات؟ مظاهرُ هذه الكلماتِ التي أقولُها لكم؟ أم هنالكَ سرٌّ خفيٌّ هو الذي يدنيني إلى الله؟ وهو الذي يقرّبني إليه؟ إنَّ مردَّ ذلكَ إلى السّرِّ الخفيّ، لا إلى المظهرِ المرئيّ، والسّرُّ الخفيُّ هنا إنّما هو الإخلاصُ لوجهِ اللهِ سبحانهُ وتعالى..

بالإخلاصِ تسري روحُ الطّاعاتِ في مظاهرِها، وبفقدِ الإخلاص أو بدخولِ العكرِ وشوائبِ الأهواءِ والشّهواتِ والأغراضِ والأمزجةِ والمصالح تتقاصرُ هذه الطّاعاتُ عن أداءِ مقاصدِها، فليتَ أنّنا إذ نسعى إلى اللهِ سبحانهُ وتعالى بأعمالنا الظاهرة، وبقرباتنا المكشوفةِ الواضحة، ليتَ أنّنا نتحسّسُ مكانَ الإخلاصِ للهِ بينَ جوانحنا، وليتَ أنّنا إذ غفلنا عن هذا الأساس ذكّرتنا بهِ آياتٌ في كتابِ اللهِ عزَّ وجلّ، وما أكثرَ ما يذكّرنا بذلكَ في كلامِ اللهِ عزَّ وجلّ، لقد قرأتم جميعاً أو سمعتم قولَ اللهِ عزَّ وجلّ: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾. وقرأنا جميعاً قولَ اللهِ وتعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلا صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾.

مظهرُ البناءِ هو العملُ الصّالح، وأساسهُ الخفيُّ هو الإخلاصُ الذي عبّرَ عنهُ البيانُ الإلهيُّ بقولهِ عزَّ وجلّ: ﴿وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾. لا يُدخِل إلى هذا العملِ مزاجاً من أمزجته، ولا شهوةً من شهواته، ولا غرضاً من أغراضه. إنَّ هذا العملَ وإن كانَ قليلاً في مظهرِهِ فما أسرعَ ما يوصلُ صاحبهُ إلى ربّهِ وخالقهِ

وهو عنهُ راضٍ، ولكنَّ الأعمالَ مهما كَثُرت ومهما تضاعفت ومهما أنفقَ الإنسانُ وقتهُ وجهده ذاهباً آيباً، ولكنَّ أعمالهُ كانت خليّةً عن الشّركِ الخفيِّ، فإنَّ هذه الأعمالَ واللهِ لا تقرّبُ صاحبها إلى اللهِ شروى نقير.

بالإخلاصِ لوجهِ اللهِ يدخلُ كلامُ النّاصحِ للقلوب، وبالإخلاصِ لوجهِ اللهِ سبحانهُ وتعالى تجتمعُ وتتآلفُ النّفوس، ولا تبقى مظاهرُ فرقةٍ أو تدابرٍ بينَ الجماعات، وبالإخلاصِ لوجهِ اللهِ سبحانهُ وتعالى يتجلّى اللهُ سبحانهُ وتعالى على عبادهِ بالرّحمةِ والغفران، وبالإخلاصِ للهِ عزَّ وجلّ يختفي الجدلُ والشّحناء، وبالإخلاصِ لوجهِ اللهِ سبحانهُ وتعالى تذوبُ مشكلاتُ المسلمينَ الاجتماعيّةُ منها والاقتصاديّةُ أيّاً كانَ نوعُها وأيّاً كانَت أسماؤها.

ولئن كنّا فقدنا في هذا العصرِ أعزَّ ما نملك، بل أعزَّ ما ملّكنا اللهُ إيّاهُ إذ شرّفنا بهذا الدّين، فأصدقكُمُ القول أنّنا إنّما فقدنا هذا السّر، فقدنا الإخلاصَ للهِ سبحانهُ وتعالى، فقدناهُ عندما نتكلّمُ لنعرّفَ النّاسَ بالإسلامِ وندعوَ إليه، وفقدناهُ عندما نسمعُ ونصغي إلى هؤلاءِ الذينَ يتكلّمون. أمزجتُنا هي التي تدفعُنا إن تكلّمنا وإن سمعنا. فيالله، كيفَ يصلُ الإنسانُ إلى اللهِ وهو محجوبٌ عنهُ بأمزجته؟ نعم، لا يمكنُ أن يرحلَ الإنسانُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ وهو مكبّلٌ بشهواتهِ وأهوائهِ كما قالَ ابنُ عطاءِ اللهِ في حكمه. نعم.

كيفَ يمكنُ للإنسانِ أن يدخلَ ملكوتَ اللهِ سبحانهُ وتعالى وهو لم يتطهّر من شهواتهِ وأهوائهِ وفيحِ نفسهِ إذ تتسرّبُ إلى أعمالهِ وأقواله. وليستِ المصيبةُ على كلِّ حالٍ هنا، إنّما المصيبةُ الأطمّ أن يكونَ أحدُنا على هذه الحال ثمَّ لا يكتشفَ حالَه. المصيبةُ أن أتكلّم وشهواتي هي التي تدفعُني إلى الكلام، ثمَّ إنّني لا أحسُّ بأنَّ شهواتي هي التي تنطقني، وأنَّ مزاجي هو الذي يدفعني. المصيبةُ الأدهى: أنّنا عندما نسمع وننصت، ننصتُ بآذانٍ ملؤها موازينُ الشّهواتِ والأهواءِ والأمزجةِ والرّغبات، ولكن ليتَ أنّا شعرنا بأنَّ هنالكَ شيئاً قد تسرّبَ إلى مكمنِ الإخلاصِ في نفوسنا، فإنَّ الدّاعيَ إذا تشخّص من اليسيرِ أن يبحثَ لهُ صاحبهُ عن دواء، لكن ماذا تفعلُ بداءٍ لم يستطع صاحبهُ أن يشعرَ بهِ ومن ثمَّ لم يسعَ إلى تشخيصه؟

أسألُ اللهَ سبحانهُ وتعالى أن يرزقنا نعمةَ الإخلاصِ لوجهه، وقد وردَ في الأثرِ أنَّ الإخلاصَ سرٌّ من أسرارِ اللهِ عزَّ وجلَّ يودعهُ اللهُ في قلبِ من أحبَّ من عباده، فاللهمَّ لا حيلةَ لنا. والأمرُ على هذه الشّاكلة، إلا أنّ نتضرّعُ إليكَ أن تحبّنا وأن تكلأنا بلطفكَ وبرحمتكَ حتّى يسريَ هذا السّرُّ من خلالِ هذا الحبِّ إلى قلوبنا.

وبعدُ أيّها الإخوة، فقد بقيت أيّامٌ معدوداتٌ من هذا الشّهرِ المبارك، أعيذُكم بالله أن تعبّروا عن احتفائكم ببقايا هذه الأيّامِ من هذا الشّهر المبارك بكسلٍ كما أراهُ في كلِّ عام، بعدَ أن تمتلئَ المساجدُ بالمصلّين يتناقصُ المصلّونَ رويداً رويداً، لأنّهم كانوا في أوّلِ الشّهرِ نشيطين، فلمّا أصبحَ الزّمنُ في آخرهِ شعروا بالكسلِ وشعروا بالملل، إذاً لم يكن الشّيءُ الذي يدفعُنا محبّةً للهِ عزَّ وجلّ وإخلاصٌ لوجهه، ولكنّهُ مزاجٌ ونشاط، ونشاطُ الإنسانِ يخضعُ لنواميسِ النّفسِ ولطبيعةِ الذّات، أمّا لو كانَ النّشاطُ منزّلاً من عندِ اللهِ عزَّ وجلّ: سرّاً من أسرارِ الإخلاص، فإنَّ الإنسانَ كلّما خطا إلى اللهِ كلّما ازدادَ نشاطا، وكلّما ازدادَ شعوراً بلذّةِ العبادة كلّما ازدادَ فيها إمعاناً.

في هذه الأيّامِ ليلةُ القدر، وفي هذه الأيّامِ يتضاعفُ الإقبالُ على اللهِ عزَّ وجلّ، وفي هذه الأيّام ينادي داعي اللهِ سبحانهُ وتعالى الإنسانَ أن يلوّنَ من ألوانِ طاعاتهِ وقرباتهِ إلى الله، وأن لا يحصرها في نوعٍ واحدٍ كالصّلاةِ والصّيامِ مثلاً، بل يريدُ رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ منا في هذا الشّهر أن نفتحَ أيدينا ليندلقَ المالُ منه إلى جيوبِ المحتاجين، إلى جيوبِ الفقراء، يطّلعُ اللهُ عزَّ وجلَّ علينا ويراقبنا، يبتلي اللهُ سبحانهُ وتعالى الغنيَّ بالفقير والفقيرَ بالغنيّ. ترى ماذا يصنعُ الأغنياءُ وقد ابتلاهمُ اللهُ بالمال؟ ماذا يصنعُ الفقراءُ وقد أمرهمُ اللهُ سبحانهُ وتعالى بالتّعفّف، وهذا الشّهرُ ينادي..

أيّها النّاس، واللهِ لو أنَّ أحدكم خرجَ من مالهِ لضاعفَ اللهُ سبحانهُ وتعالى لهُ مالَهُ كلّه، ولا يمكنُ لإنسانٍ أن يجاريَ اللهَ في الكرم، أو أن يسابقهُ في عطاء. كيف وهو القائل: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾؟ ولكنَّ الأمرَ كما قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ﴾.

أسألُ اللهَ عزَّ وجلّ أن يهبنا من حُرقةِ الإخلاص ما يقطعُ صلتنا بهذا الشّح ويصلُ أفئدتنا ثقةً باللهِ سبحانهُ وتعالى، ويجعلُنا نطمئنُّ أنَّ خزائنَ اللهِ عزَّ وجلَّ مفتوحة، نعم.

اجعلوا من هذا الشّهرِ مثابةً لقربةٍ من هذا النّوع، على التّاجرِ أن يجعلَ تجارتهُ في هذا الشّهرِ موسماً بينهُ وبينَ الله، لا موسماً بينهُ وبينَ عبادِ اللهِ سبحانهُ وتعالى، على كلِّ إنسانٍ وهو يريدُ أن يدفعَ زكاةَ ماله أن لا يعتصرَ ذهنهُ ليحتالَ على الله: كيفَ أدفعُ زكاةَ مالي لابني أو لفلانٍ أو لفلانٍ؟ وهو يدفعُ لهُ شاءَ أم أبى..

ادفعها كما أمرَ الله، أخرجها على النّهجِ الذي شرعهُ الله، واذكر وأنتَ تفعلُ ذلكَ قولَ اللهِ عزَّ وجلّ: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾.

من هذا الذي يتوخّى أن يكرمهُ اللهُ بمغفرةٍ وهو يلملمُ من مالهِ أسوأه ثمَّ يبعثهُ إلى الفقراءِ والمحتاجين؟ واللهِ إنَّ هذا ليذكّرني بحيلِ بني إسرائيل يومَ منعهمُ اللهُ عزَّ وجلَّ عن الصّيدِ يومَ السّبت، فاحتالوا على اللهِ بما علمتم من الحيل، فكانَ مكرُ اللهِ سبحانهُ وتعالى أشدَّ من مكرهم.

اللهمَّ لا تبتلنا، اللهمَّ إنّا نعوذُ بكَ من مكرك، اللهمَّ اقطع دابرَ الشّحِّ في نفوسِنا، اللهمَّ اجعلنا ممّن يضحّي بدنياهُ في سبيلِ مرضاتك، أقولُ قولي هذا وأستغفرُ اللهَ العظيم...



٣٤٦- بمناسبة رمضان: البوابة التي دخل منها الصحابة إلى فتح مكة | ١٩٩٤/٠٢/٢٥

لقد دأب كثيرٌ من المسلمين أن يتحدثوا في هذا الشهر المبارك وفي هذه الأيام الخاصة منه عن بطولتين عظيمتين توَّج الله سبحانه وتعالى بهما تاريخ هذه الأمة:

أولاهما: تلك البطولة التي أكرم الله بها المسلمين في غزوة بدر، والثانية: تلك التي أكرم الله المسلمين بها في فتح مكة، وليست هذه الذكرى ولا الحديث عنها مبعث نقد، ولكن المسألة تتعلق بكيفية التحدث عن هذه الذكريات.

كثيراً من المسلمين يتحدثون في هذا الشهر المبارك عن هذه البطولات الإسلامية التي أكرم الله عز وجل بها الرعيل الأول من هذه الأمة بطريقة تجعلهم يستشعرون بالعوض عن الذل الذي حاق بهم، وتجعلهم يستشعرون بأن المكرمة التي أكرم الله بها آبائهم أو أجدادهم ساريةٌ إليهم أيضاً، ثم إنهم يتفرقون عن الحديث عن هذه البطولات وكأنهم أخذوا منها غذاءً لأنفسهم، وكأنهم أخذوا منها ما يعوضهم عن الذل الذي حاق بهم، والمهانة التي تطوف في حياتهم.

والحديث عن ذكريات المسلمين وبطولاتهم بهذا الشكل حديثٌ خطير وطريقة جانحة لا يقرها منطق ولا يؤيدها دين. ينبغي أن نعلم أن الله سبحانه وتعالى ما أكرم هذه الأمة بنعمةٍ إلا وقد دفعت ثمن هذه النعمة، وينبغي أن نعلم أن الله سبحانه وتعالى ما توّج حياة سلف هذه الأمة بالبطولات التي نتحدث عنها إلا لأنهم شدوا أنفسهم إلى حيث أصبحوا أهلاً لتلك البطولات، فماذا عسى أن يفيدنا الحديث عن فتح مكة أو عن غزوة بدر أو عن غيرهما ونحن هابطون إلى الدرك الأسفل من الذل والمهانة، راضون بهذه الحالة التي حاقت بنا؛ نتخبط في أودية التيه تخبط الإنسان الذي يتحرك في ظلامٍ دامس، وليس أمامه أي قبس من النور يستضيء به.

الحديث عن هذه البطولات مفيد مفيدٌ جداً إذا كان الهدف من وراء ذلك أن نأخذَ العبرة أن نعلم المغارم التي دفعها أولئك المسلمون حتى وصلوا من وراء ذلك إلى تلك المغانم، الحديث عن هذه الذكريات

مفيدٌ جداً إذا أخذنا منها العبر لأنفسنا فسلكنا مسالك أولئك الناس، أولئك السلف الصالح، وسرنا وراء خطاهم وتتبعنا السير الذي كانوا يسيرون، هذا العمل مفيدٌ جداً، ذلك لأن النهج هو الذي سيعيد إلينا هذه المكرمة التي أكرم الله بنا أجدادنا السالفين السابقين.

الحديث عن فتح مكة حديث يبعث النشوة في الرؤوس فعلاً، وحديثٌ يبعث الطرب في العقول، ولكن ماذا عسى أن تفيدنا هذه النشوة؟ وماذا عسى أن يفيدنا هذا الطرب؟ مهما كانت ذكريات فتح مكة عظيمةً باعثةً للنشوة في النفس فإن غصص المهانة التي نعاني منها متغلبة على ذلك، ولكن بوسعنا أن نستفيد شيئاً آخر غير النشوة والطرب اللذين يركن إليهما كثيرٌ من الذين يتكلمون ومن البلغاء الذين يخطبون، هنالك شيءٌ آخر مفيدٌ فعلاً هو أن نتساءل: كيف كان فتح مكة؟ وما هي البوابة العريضة التي دخل منها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ذلك الفتح؟ إذا تساءلنا عن هذا الأمر ووعينا الجواب عنه وعاهدنا الله عز وجل أن نفعل ما فعل أولئك الناس، فلا شك أننا سنعود بربحٍ كبيرٍ جداً، ونحن إذا تأملنا في هذه البوابة التي وصل منها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الفتح في هذا الشهر المبارك، سنجد أن هذه البوابة تتمثل في شيء واحد، هو انتصار أولئك المسلمين على أنفسهم. في حين أن كثيراً من المسلمين يتصورون أن هذه البوابة تتمثل في انتصار المسلمين لأنفسهم، وفرقٌ كبير كبيرٌ جداً بين أن يسعى الإنسان لكي ينتصر على نفسه وبين أن يسعى لينتصر لنفسه.

أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما توّجهم الله بتلك البطولة وما خضع المشركون هذا الخضوع لهم وهم يدخلون زرافاتٍ ووحدانٍ إلى مكة، وما أدخل مهابة المسلمين في قلوب أولئك المشركين إلا بعد أن نجح أولئك المسلمون في انتصارهم على أنفسهم. متى انتصر أولئك المسلمون على أنفسهم؟ متى سحقوها تحت أقدامهم؟

يوم صلح الحديبية، ذلك الصلح الذي جعل الله عز وجل منه التمهيد الكبير لفتح مكة، بل ذلك الصلح الذي سماه الله سبحانه وتعالى فتحاً ألم يقل: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا، لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ متى نزل هذا الكلام؟ نزل يوم صلح الحديبية، إذن من المعني بالفتح صلح الحديبية، وصلح الحديبية لم يكن فتحاً لحصن ولا اقتحاماً لأسوار بلد، ولكنه كان شيئاً أعظم من ذلك. كان صلح الحديبية يتمثل في انتصار أولئك المسلمين على

أنفسهم وتساميهم على أهوائهم وشهواتهم بارك الله لهم ذلك الجهاد الأغر وسمّاهُ فتحاً، بل ذهب البيان الإلهي في التعبير عن هذا الصلح بالفتح مذهباً جعل فتح مكة يضئل ويتصاغر أمام هذا الصلح الذي سماه الله سبحانه وتعالى فتحاً. لماذا كان فتحاً؟ لأن المسلمين آنذاك انتصروا على أنفسهم، ظهر المشركون بمظهر المستكبر العاتي ووقفوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم موقف المتحدي كما تعلمون، وأملوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم شروطهم، وكان فيما نص عليه من تلك الشروط أن يرجع المسلمون في ذلك العام من منتصف طريقهم إلى مكة إلى المدينة المنورة دون أن يعتمروا ودون أن يحققوا أهدافهم السلمية وكان من جملة شرائطهم ألا يعودوا في العام الذي يأتي إلا وهم مجردون عن الأسلحة، ليس معهم إلا السيوف في أغمادها ولا يقيمون في مكة إلا ثلاثة أيام ثم يُرَحلونَ عنها، وكان من جملة شروطهم أن كل من تسرب من المشركين إلى المدينة مؤمناً فإن على المسلمين أن يعيدوه وألا يقوه فيما بينهم، أما الذي يأتي من المدينة المنورة إلى مكة لاجئاً إليهم فلهم أن يرحبوا به ويقيموه فيما بينهم هذه الشروط كان فيها مهانة وأي مهانة لنفوس المسلمين، وكان فيها جرحٌ وأي جرح لمشاعرهم، ولكنها فتنة ابتلاهم الله عز وجل بها موقف وضعه الله أمامهم ووضعهم أمامه.

ترى هل سينتصرون في هذه الحالة بدافع من الرعونة لأنفسهم وقد مزجوا الانتصار لله عز وجل مع الانتصار للنفس، أم سيترفعون على أهوائهم ونفوسهم ويجندون كرامتهم وحظوظهم ونفوسهم ومبتغياتهم وأهوائهم يجندون ذلك كله لدين الله عز وجل وللمآل الذي ينتصر فيه دين الله سبحانه وتعالى، فتنة ابتلاهم الله سبحانه وتعالى بها. فكيف كان موقف المسلمين بقيادة سيدنا رسول الله وبتعليمٍ وإرشادٍ منه لهم؟

كان موقف المسلمين بعد شيء من التلجلج والاضطراب الخضوع لأمر الله، والخضوع لما علمهم إياه رسول الله والخضوع للتربية التي رباهم عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم، رضي بكل تلك الشروط، رضي بكل تلك الترفعات ومظاهر العلو والاستكبار التي تجلت في مواقف أولئك المشركين الذين صدوا المسلمين عن المسجد الحرام، رضي رسول الله بهذا. لماذا رضي بهذا؟ لأنه نظر فوجد أن ثمن الفتح ثمن الانتصار لدين الله يكمن في هذا الرضى، يكمن في الرضى بأن تجرح النفوس، يكمن في أن يقبلوا في

المهانة، يكمن في أن يقبلوا بالذل، ورب ذل كان هو التربة اليانعة للعز، ورب مهانة تبدو في ظاهر الأمر مهانة وهي في عاقبة الأمر عز.

هكذا ربى رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه، وهكذا قال لهم: نعم الذي يأتي من مكة إلينا فإن الله سيجعل له فرجاً ومخرجاً، وأرض الله واسعة. أما الذي يذهب منا إليهم فلا رده الله، ماذا عسى أن نستفيد من إنسان رغب عنا ومال إلى غيرنا، وهكذا ربى رسول الله أصحابه، قبلوا عادوا من منتصف الطريق إلى المدينة، لم يعتمروا، لم تكتحل أعينهم بمرأى مكة والبيت الحرام كما كان يطيب لهم، قبلوا بالشروط التي فيها مهانة للنفس، لا للدين.. قبلوا بذلك كله محتسبين أجرهم عند الله، متجهين بهذا إلى نية صافية لمرضاة الله سبحانه وتعالى.

هذه هي البوابة التي أظفر الله المسلمين من ورائها بفتح مكة، ومن ثم سمى الله هذا التمهيد فتحاً كما لم يسم فتح مكة فتحاً عندما نتكلم عن فتح مكة في هذا الشهر، ونتحدث ببليغ الكلام عن دخول رسول الله مكة ومعه أصحابه من ثنية كداء ومن هنا وهناك، وعندما نتكلم ببليغ الكلام عن خشوع المشركين وذلهم أمام هيبة الداخلين إلى مكة نشوة في النفس، سرعان ما تتبدد لننظر إلى أنفسنا ونحن معلقون بأودية التيه والضلال والذل والمهانة، ولكن إذا أردنا أن نتحدث في هذا الشهر المبارك عن هذا الفتح فلنتحدث عن الثمن، فلنتحدث عن الجهاد الخفي الذي كان قبل ذلك والذي سماه الله فتحاً وأي فتح، سماه الله فتحاً مبيناً.

لقد ورد في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عائد في طريقه من صلح الحديبية إلى المدينة المنورة استدعى عمر وتلى عليه سورة الفتح التي نزلت بكاملها في ذلك اليوم. فقال عمر: أفتحٌ هو يا رسول الله. قال: نعم. أفكان موقفنا هذا فتحاً، الذي أظهرنا بمظهر الضعف، وظهر بمظهر الاستكانة أهو فتحٌ. قال: نعم هو فتح.

أيها الأخوة آن لنا أن نفرق بين الجهاد الذي ننتصر فيه على أنفسنا على أنفسنا ضد أنفسنا، والجهاد الذي ننتصر فيه لأنفسنا، ألا تلاحظون كم تداخلت الصور وكم تمازجت النيات والمشاعر، ألا تلاحظون هذا.

أما إن المسلم لن يرقى إلى درجة الربانية بحياته إلا بعد أن يكون رقيباً على نفسه يتبين الخيط الدقيق الذي يفصل بين قصده المتجه إلى مرضاة الله، قصده المتجه إلى خدمة دين الله وقصده الذي يتجه إلى إرواء غليله لإرواء ظمأ نفسه، ينبغي أن نفرق بين هاتين الحالتين، كما فرق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ورد في بعض الآثار أن علياً رضي الله تعالى عنه صارع أحد المشركين من زعانفة المشركين، فصعد سيدنا عليٌ رضي الله عنه فما كان من المشرك إلا أن بصق في وجه سيدنا علي الذي كان قد استعلى فوقه وصرعه ليقضي عليه، فما إن فعل المشرك هذا حتى قام عنه سيدنا علي، وعجب المشرك وسأله فيما فعلت ذلك؟ وقد أصبح الرجل تحت قبضة سيفه. قال كنت أصارعك بدافع من الانتصار لدين الله، فلما فعلت فعلتك اهتاجت عوامل الانتصار لنفسي، فخشيت أن يكون عملي انتصاراً للنفس، فابتعدت عما كنت قد عزمت عليه.

هذه القصة تجسد لنا واجباً ينبغي أن نقف أمامه لنطبقه، أما إن الجهاد الأعظم والأعظم والأعظم هو أن يبدأ المسلمون فيجاهدوا أنفسهم، يترفعوا فوق شوائب نفوسهم فإذا وصلوا إلى ما وصل إليه أولئك الربانيون أكرمناهم بالبطولة كما أكرمنا أولئك بالبطولة.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

٣٤٧- هل ستثمر غراس شهر رمضان في قلوبنا!؟ | ١٩٩٦/٠٢/٠٢

إنه لجميلٌ حقاً أن تزدحم المساجد في مثل هذا الشهر المبارك بالمصلين بالراكعين والساجدين، وإنه لجميلٌ حقاً أن يتسابق الناس رجالاً ونساءً إلى المساجد للقيام بالقيام الذي ندبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه في هذا الشهر، وإنه لجميلٌ حقاً أن يُقبل الناس إلى تلاوة كتاب الله سبحانه وتعالى وأن يُكثر الإنسان منا من قراءة كتاب الله عز وجل في البكور والآصال... كل ذلك من أبرز مظاهر القرب إلى الله سبحانه وتعالى، ومن أبرز ما يتعلق بشعائر هذا الشهر المبارك.

ولكن هذا كله أشبه ما يكون بغراسٍ فاضت به الأرض، فاخضرّ وجه الأرض بهذا الغراس، إنه لمنظر جميل حقاً، وإن الآمال لتزدهر بمرأى هذا الغراس وهذه الخضرة التي أينعت في وجه هذه الأرض، ولكن الأمل ينتظر أن يزدهر هذا الشيء بثماره، فالغراس يبعث على الأمل لا لذاته ولكن للثمار المرجوة من وراءه.

وهكذا فإن إقبال الناس إلى المساجد في هذا الشهر، وإن ازدحام المساجد بالمصلين والراكعين والساجدين، وإن كثرة الإقبال إلى كتاب الله سبحانه وتعالى قراءةً وتدارساً.. كل ذلك أشبه ما يكون بغراسٍ أينعت في الأرض والآمال لا تتعلق بهذه الغراس وإنما تتعلق بالثمار الآتية من وراءه، فما هي ثمار الإقبال على المساجد في هذا الشهر؟ ما هي ثمار الإقبال إلى كتاب الله سبحانه وتعالى؟ ما هي ثمار الإقبال إلى المساجد لصلاة التراويح وقراءة جزءٍ من كتاب الله عز وجل في كل ليلة؟

ثمار ذلك أيها الإخوة أن تتطهر قلوبنا من حب الدنيا، وأن تقبل إلى الله سبحانه وتعالى خليةً طاهرةً نقية، إن أمرنا الله عز وجل بعبادة فمن أجل تطهير أفئدتنا يأمرنا الله بها، وإن أمرنا الله عز وجل بكثرة الركوع والسجود، فلهذه الحكمة يأمر، وإن أمرنا الله عز وجل بكثرة التبتل والذكر بين يديه فمن أجل تطهير قلوبنا من محبة الدنيا يأمرنا الله سبحانه وتعالى بذلك كله.

وقد قال لنا الباري سبحانه وتعالى فيما خاطبنا به بمحكم تبيانه: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ﴾ هكذا قضى الله عز وجل، قضى الله سبحانه وتعالى أن يحبب إلينا الدنيا، ثم قضى الله عز وجل أن يبتلينا

بالشح، فيجعلنا نتكالب على المال بعد أن جعلنا الله سبحانه وتعالى نحبه ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ ما الحكمة من هذا؟

الحكمة من هذا أن يوجهنا إلى الدواء الذي يحررنا من حبنا للدنيا وللمال، ثم يوجهنا إلى الدواء الذي يحررنا من الشح الذي ابتلانا الله سبحانه وتعالى به، الصلاة السجود الركوع كثرة قراءة القرآن الوقوف خلف الإمام بإصغاءٍ إلى تلاوة كتاب الله سبحانه وتعالى بمقدار جزءٍ في كل ليلة.. كل ذلك أدوية كل ذلك سبل من أجل أن يطهر الإنسان قلبه بهذه السبل من محبته للدنيا، ومن أجل أن يتحرر من الشح الذي ابتلانا الله سبحانه وتعالى به، فهل أينع هذا الغراس ثماراً؟ هل حقق هذا الغراس الذي يبعث السرور فعلاً في النفوس؟ هل حقق هذه الثمار التي ينتظرها الله سبحانه وتعالى منا؟ يقول الله عز وجل في مكانٍ آخر: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾؛ قال أولاً: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ﴾ ثم قال: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

وللإنسان أن يقول: ولكن يا رب ابتليتني بالشح، فكيف السبيل إلى أن أتوقى ما قد ابتليتني به؟

السبيل هذا الذي أمرك الله عز وجل به، كثرة الركوع والسجود صلاة التراويح في هذا الشهر الإقبال إلى كتاب الله سبحانه وتعالى قراءةً أو إصغاءً. ما المراد منه؟ المراد منه أن تعالج جراحك المراد منه أن تحرر نفسك من شحك، ولقد ابتلانا الله سبحانه وتعالى بالمال، وملكنا إياه فيما نزعم، ولكن الله لم يقل ولا في آية من كتابه أننا امتلكنا مالاً، إطلاقاً، إن حدّث عن صلة الإنسان بالمال. إما أن يقول: ﴿وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾. وإما أن يقول: ﴿أَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ هل رأيتم في كتاب الله آيةً يعلن البيان الإلهي فيها أن الإنسان يملك مالاً؟ لن تجدوا إطلاقاً. ولكن الله عز وجل مع ذلك قضى بأن يكون الإنسان محباً للمال، كي يبحث عن العلاج فيستعمله ومن ثم كي يتخلص من هذا الداء العضال.

والله الذي لا إله إلا هو لو قرأنا كتاب الله سبحانه وتعالى وختمناه في كل يوم مرة من هذا الشهر، ثم مضى هذا الشهر وقلوبنا متعلقةٌ بالدنيا، ونحن في سجن هذا الشح الذي ابتلانا الله عز وجل به، لن يفيدنا كتاب الله عز وجل شيئاً.

اسمعوا هذه الكلمات التي قالها حارثةُ رضي الله عنه لرسول الله يوم سأله صلى الله عليه وسلم: ﴿كيف أصبحت يا حارثة﴾؟ قال: أصبحت مؤمناً حقاً. قال: ﴿ويحك إن لكل شيء حقيقة فما حقيقة إيمانك﴾ ما الدليل على إيمانك؟ لم يقل أصبحت مكثر من الصلاة، لم يقل إنني أقرأ كتاب الله من ألفه إلى يائه في كل يومٍ مرة، ما قال هذا، وإنما قال: عزفت نفسي عن الدنيا، وكأني بعرش ربي بارزاً، وكأني بأهل الجنة ينعمون في نعيمها، وكأني بأهل النار يتعاوون فيها. هذا ما قاله حارثة. فماذا أجابه رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: ﴿أبصرت فالزم﴾. تلك هي الحقيقة.

هذه هي النتيجة من كثرة الصلاة من كثرة العبادة من كثرة التبتل من كثرة ذكر الله سبحانه وتعالى، وإنني لأعجب لإنسانٍ يقرأ الكثير والكثير من كتاب الله عز وجل، وإني لأكثر عجباً من إنسانٍ يتجه إلى المساجد التي يُتلى فيها كل ليلة جزء من كتاب الله عز وجل، ثم يصلي ويركع ويسجد ويدعو ويتبتل، فإذا طرق بابه طارقٌ يطلب منه شيئاً من حق الله سبحانه وتعالى في ماله، تبرم وأعرض وأظهر الضجر وربما اعتذر بأنه لا توجد سيولة. كيف يمكن أن أتصور غراساً يفيد إذا لم أجد الثمار وقد ازدهرت في أعلى الغراس. ماذا أصنع بالشجر الذي لا يُثمر؟ هل مآل هذا الشجر إلا إلى الحريق أيها الإخوة.

مصيبة المسلمين أيها الإخوة أنهم في أحسن أحوالهم يملؤون المساجد، وهذا ما نحمد الله عز وجل عليه، ولكننا عندما ننظر إلى التضامن الذي هو أساس ديننا الإسلامي العظيم، إلى التكافل الذي هو دعامة هذا الدين، لا نجد أحداً من المسلمين في هذه الساحة إلا القلة النادرة، الكل يشكو، الكل يتأفف من سوء الحالة الاقتصادية، الكل يشكو من عدم وجود السيولة، وكلمة السيولة كلمة يدرك معناها وأبعادها التجار، وما أكثر ما يعتذرون بها. ولكنني أتساءل: ترى هل سيقبل الله سبحانه وتعالى المعذرة من خلال ترديد هذه الكلمات؟

أيها الإخوة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الناس، وكان في جوده كالريح المرسلة، وكان أجود ما يكون في هذا الشهر. فإن أردتم أن تتقربوا إلى الله سبحانه وتعالى بطاعةٍ يرضاها، وإن أردتم أن تختصروا المسافة في العبادة بينكم وبين الله عز وجل، فتحرروا من الشح، وكونوا مظهراً لقول الله عز وجل: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. وما أيسر أن يتخلص الإنسان من شح نفسه بالعقيدة الإيمانية التي توج الله سبحانه وتعالى أفئدتنا وقلوبنا بها.

أنا أعجب من إنسانٍ يدعي أنه مؤمن بالله، وأنه مصطبغٌ بأركان الإيمان كما أراد الله عز وجل، ثم إنه يتكالب على المال ويشح به، هذا نقيض ذاك..

إيماني بالله يعني أن الله هو الرزاق.

إيماني بالله يعني اليقين بقول الله تعالى: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾.

إيماني بالله يعني اليقين بقول الله سبحانه وتعالى: ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾.

إيماني بالله يقتضي أن أعلم أن هذه الدنيا زائلة، وأنها لا تساوي عند الله جناح بعوضة.

فكيف يجتمع ايماني بالله عز وجل مع نقيض ذلك كله؟

أنا مؤمنٌ بالله وأتكالب على المال، أنا مؤمنٌ بالله ويمر العام ولا أفكر بحق الله سبحانه وتعالى في المال الذي عندي، يمر العام وأنا مؤمنٌ بالله سبحانه وتعالى ويدعو هذا الشهر المتبتلين والقائمين والراكعين والساجدين إلى أن يأتسوا ويقتدوا برسول الله صلى الله عليه وسلم فلا نجد إنساناً هناك.

أيها الإخوة إن الله عز وجل قال في محكم تبيانه: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾، ومن مظاهر هذه الفتنة أن الله ابتلى الغني بالفقير، وابتلى الفقير بالغني، ولو شاء الله عز وجل لبسط مائدته أمام الجميع فتساوى الناس في المال، ولكن الابتلاء يختفي عندئذٍ.

ابتلى الله عز وجل الغني بالفقير الذي يراه عن يمينه وشماله وفي السوق وفي الصباح والمساء. ترى هل سيقتطع من ماله الذي يشح به ليعطي هذا الإنسان الفقير ويعلو به من مستوى الفقر إلى مستوى الكفاية؟

وابتلى الله الفقير بالغني هل سيذكر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم أن اليد العليا خير من اليد السفلى. هل سيصبر؟ هل سيتعفف؟ وهكذا..

هذه حقيقة الدنيا، وهكذا يسير الإنسان إلى الله سبحانه وتعالى وأنا أتحدث عن حق الله سبحانه وتعالى في أموال الأغنياء، وربما تصور الكثير منا أن هذا المسجد لا يضم بين جنباته إلا الفقراء، ليس الأمر كذلك أيها الإخوة فالفقر أمرٌ نسبي والغنى أمر نسبي، كل واحد منا غني بالنسبة لمن دونه، وفقير

بالنسبة لمن فوقه، وهكذا فكل إنسانٍ مكلف بأن يعود بفضل من زاده أو ماله إلى من كان دونه، وكل منا يستطيع أن يرى من الناس من هو دونه في المستوى المعيشي.

ولكن ما ينبغي أن تنظر دائماً إلى من هو أعلى منك حتى يحجبك كذلك عن النظر إلى من هو دونك، إذا سرنا على هذا النهج، فكلٌ منا يتمتع بجزء من الغنى، نعم وكل منا ينبغي أن يصغي للاصطباغ والخضوع والانقياد لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾.

كل منا نبغي أن يصغي إلى كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم في خوفٍ وهلع: ﴿إن الله عز وجل قد جعل في مال الأغنياء بالقدر الذي يسع فقراءه، وإن الفقراء لن يجهدوا إذا جاعوا أو عروا إلا بما يصنع أغنياءهم، وإن الله محاسبهم على ذلك حساباً عسيراً﴾.

وخلاصة هذا الكلام الذي أريد أن أقوله أن المسألة أمام الله عز وجل ليست بكثرة الركوع والسجود، وليست بكثرة قراءة كتاب الله عز وجل، وليست بحمل المصحف خلف الإمام في صلاة التراويح، كل ذلك سبل ووسائل.. إنما الأمر يظهر جلياً بمقياسٍ إلى قرب الإنسان من الله أو بعده من الله؛ إنما يتبين ذلك كله بمدى تحرر الإنسان من شحه، عندما أنظر إلى الدنيا نظر حارثة رضي الله عنه كطعامٍ عفن أكلت وشبعت منه وبقي منه بقية أتركها وراء ظهري، عندما أنظر إلى الدنيا على أنها عرضٌ زائل عندما يستوي لدي أن أنفق الملايين في سبيل الله عز وجل لمن هم بحاجة إليها، أو أن أدخرها في صندوقي، عندما يستوي هذا وذاك، هذا هو القرب الموصل إلى الله سبحانه وتعالى.

فانظر يا أخي المسلم إذا وجدت نفسك قد وصلت إلى حالةٍ رأيت أن الآلاف أو الملايين التي تملكها لا فرق بين أن تحل في جيب إنسانٍ فقيرٍ أمر الله بإكرامه، وبين أن تحل في جيبك، عندما تصل إلى هذه الحالة. اعلم أن الله قد تقبل منك عملك.

نعم.. ومع ذلك فالدرجة التي هي أعلى من هذا بكثير، هي أن ترى أن المال الذي يخبئ في جيبك، ليس إلا ترة عليك، وليس إلا عبئاً تحمله على ظهرك، أما المال الذي يودع في جيب فقير أمرك الله سبحانه وتعالى بالنظر إلى حاله، فذلك هو الغنى الذي يكرمك به، وذلك هو الينبوع الذي لا يمكن أن يجف بشكل من الأشكال. ألم تسمعوا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم دخل داره وسأل عن بقايا

لحم كانت في الدار. قالوا: يا رسول الله ذهب كلها إلا الكتف، أي تصدقوا بالجميع إلا الكتف، فقال: ﴿بقيت كلها إلا الكتف﴾. ما أنفقتموه هو الباقي، وما بقي هو العبء الذي نتحمله.

هذا هو المطلوب منا أيها الإخوة، ﴿وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾، ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾، لا تتصوروا أنكم تملكون في هذه الدنيا شيئاً، والله الذي لا إله إلا هو إن الإنسان لا يملك في هذا المعبر الذي يحده من طرف يوم الولادة ويحده من الطرف الآخر يوم الممات، لا يملك إلا عمله، لا يملك إلا ذلك الكفن الذي ينزل به في حفرته، هذا ما تملكه. أما كل ما وراء ذلك فشيء ابتلاك الله عز وجل به. ترى هل ستنفذ فيه حكم الله؟ هل ستكون من الكرم مقتدياً برسول الله صلى الله عليه وسلم؟ هل ستعطي وأنت تذكر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما روي عنه: ﴿أنفق بلالاً ولا تخشى من ذي العرش إقلالاً﴾.

أقول قولي هذا وأسأل الله العظيم أن يتقبل منا أعمالنا وأن يتوج عباداتنا بالكرم وبإعطاء حق الله سبحانه وتعالى في أموالنا.

٣٤٨- من الذي يقبل الله طاعاته في شهر رمضان؟ | ١٩٩٧/٠١/١٠

روى ابنُ خزيمةَ في صحيحه، والبيهقيُّ في سننهِ من حديثِ سلمانَ الفارسيِّ بسندٍ صحيحٍ أنّهُ قال: خَطَبنا رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في آخرِ يومٍ من شعبانَ فقال: ﴿أيُّها النّاس: قد أظلّكم شهرٌ عظيمٌ مبارك، شهرٌ فيهِ ليلةٌ خيرٌ من ألفِ شهر، شهرٌ جعلَ اللهُ سبحانهُ وتعالى صيامهُ فريضة، وقيامَ ليلهِ تطوُّعاً. وهوَ شهرُ الصّبر، والصّبرُ جزاؤهُ الجنّة. وهوَ شهرُ المواساة، من فطَّرَ فيهِ صائماً غُفِرت لهُ ذنوبُهُ وكانَ عتقاً لهُ من النّار. قالَ بعضُهم: يا رسولَ الله، ليسَ كلُّنا يقدرُ أن يفطّرَ الصّائم. فقالَ عليهِ الصّلاةُ والسّلام: يعطي اللهُ ذلكَ الثّوابَ كلّهُ لمن فَطَّرَ صائماً بتمرةٍ أو بشربةِ ماءٍ أو بمذقةِ لبن﴾.

هذا الحديثُ الذي ذكرهُ رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ من خطبةٍ لهُ في يومٍ كهذا اليومِ تقريباً، في آخرِ يومٍ من شعبان. يدلُّنا على الحكمةِ الكبرى من قيمةِ هذا الشّهرِ وفضيلته، وينبّهنا إلى محورِ الثّوابِ الذي خبَّأهُ اللهُ سبحانهُ وتعالى في هذا الشّهر.

إذا تأمّلنا أيُّها الإخوة، علمنا أنَّ محورَ الثّوابِ في هذا الشّهرِ لا يتمثَّلُ في كثرةِ الطّاعاتِ في مظاهرِها التّقليديّةِ المعروفة. ولا يتمثّلُ في كثرةِ العكوفِ على قرءة كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ في مظهرِهِ الشّكليّ. وإنّما تتمثَّلُ قيمةُ هذا الشّهرِ فيما نبَّهَ إليهِ رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ من أنّهُ شهرُ المواساة، أي إنّهُ شهرُ تجديدِ الألفةِ والودادِ بينَ المسلمينَ بعضهم مع بعض. شهرٌ يهيبُ اللهُ عزَّ وجلَّ فيهِ عبادهُ بأن يجدّدوا نسيجَ المحبّةِ فيما بينهم. وبأن يطهّروا هذا النّسيجَ ممّا علقَ بهِ خلالَ العامِ المنصرِّم، من أحقاد، من ضغائن، من تارات، من حقوقٍ ضُيِّعت، من ألسنةٍ نطقت بغيبةٍ أو نميمة. هذا هوَ محورُ المثوبةِ التي غرسَها أو خبّأها اللهُ سبحانهُ وتعالى لعبادهِ في هذا الشّهر.

فإن شَرَعَ اللهُ سبحانهُ وتعالى فيهِ الصّيام، فالصّيامُ خادمٌ لهذا الهدف. وإن أهابَ اللهُ عزَّ وجلَّ فيهِ عبادهُ بقيامِ ليله، فقيامُ ليلهِ أيضاً خادمٌ لهذا الهدف. وإن أمرَ فيهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ النّاسَ بالإكثارِ من تلاوةِ القرآنِ والابتعادِ عن المحرّماتِ، فمن أجلِ تحقيقِ هذا الهدفِ أيضاً. والأحاديثُ الأُخرى كلُّها تؤكّدُ هذا المعنى الذي نقول. وكأنَّ اللهَ سبحانهُ وتعالى جلّت رحمتهُ ينظرُ إلى عبادهِ وقد علمَ أنّهم

خطّاؤون، وعلمَ أنَّ علاقاتِ ما بينهم تتسرَّبُ إليها لأسبابٍ كثيرة. كثيرٌ من البغضاء، وكثيرٌ من الأحقاد، وربَّما عدى البعضُ منهم على الآخرِ فاستلبَ منهُ حقَّه، سواءً كانَ حقّاً ماديّاً أو حقّاً معنويّاً، علمَ اللهُ عزَّ وجلَّ أنَّ عبادهُ معرّضونَ لهذا بسببِ ضعفٍ رُكِّبَ فيهم، وبسببِ أنَّهم خطّاؤونَ كما قالَ عليهِ الصّلاةُ والسّلام. فجعلَ اللهُ عزَّ وجلَّ بفضلهِ وسابغِ رحمتهِ من هذا الشّهرِ المباركِ فرصةً لترميمِ العلاقاتِ التي ساءَت وتفتّحت فيها الثّغراتُ خلالَ العام.

وكأنَّ اللهَ سبحانهُ وتعالى ينادي عبادهُ، بل هوَ يناديهم فعلاً بلسانِ رسولِهِ محمّدٍ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أن: أقبِلوا فرمِّموا هذا السّوءَ الذي وقعتم فيهِ في العامِ الماضي. سدّوا هذهِ الثّغرات. جدّدوا الألفةَ التي أقمتُ الإسلامَ على محورِها فيما بينكم. طهّروا صِلاتِ ما بينكم من السّخائم، ومن البغضاء. ليعُد كلٌّ منكم فليحاسب نفسه: كم ضيَّعَ من حقوقِ إخوانهِ خلالَ العامِ الماضي؟ وكم أساءَ إلى أناس؟ وكم حرَّكَ لسانهُ بقالةِ سوءٍ في حقِّ هذا وهذا وذاك؟

إنَّ اللهَ سبحانهُ وتعالى أعلنَها فرصةً في هذا الشّهر، يغفرُ اللهُ سبحانهُ وتعالى للتّائبين، وللمقبلينَ إلى اللهِ عزَّ وجلّ، ولمن يريدونَ أن يصلحوا علاقةَ ما بينهم وبينَ إخوانهم.

هذا المعنى هو الأساسُ الذي يدورُ عليهِ محورُ المثوبةِ والطّاعاتِ والعباداتِ التي يهيبُ اللهُ عزَّ وجلَّ بعبادهِ أن يقبلوا إليها خلالَ هذا الشّهرِ المبارك.

ولذلكَ فلتعلموا أنَّ الإنسانَ الذي دخلَ عليهِ شهرُ رمضانَ وهوَ مثقلٌ بحقوقِ الآخرين، وهوَ مُثقَلُ النّفسِ بمشاعرِ بغضاء، بمشاعرِ أحقاد، وترات أو نحوِ ذلك، لن يفيدَهُ شيئاً إقبالهُ على كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ، لن يفيدَهُ شيئاً أن يُهرَعَ إلى المساجدِ ويصلِّيَ في الصّفوفِ الأماميّةِ راكعاً ساجداً، لن يفيدَهُ شيئاً أن يُظمِئَ نهارَهُ ويجيعَهُ وهوَ صائمٌ متقرّباً إلى اللهِ عزَّ وجلَّ بزعمه.

حقوقُ اللهِ أيّها الإخوة مبنيّةٌ على المسامحة، أمّا حقوقُ العبادِ فمبنيّةٌ على المُشاحّة. ألم تسمعوا حديثَ رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وهو يحدّثُ عن فضيلةِ ليلةِ القدرِ التي هيَ خيرٌ من ألفِ شهر؟ وكيفَ يَطّلعُ اللهُ سبحانهُ وتعالى فيها على عبادهِ فينادي يقولُ: ﴿ألا هل من مستغفرٍ لأغفرَ له؟ ألا هل من داعٍ فأجيبه؟﴾. ويُرجئُ أهلَ الأحقادِ على ما هم عليه، أي: لا يستجيبُ لهم، ولا يحقّقُ سؤلهم، ولا

يجيبهم إلى دعائهم بشكلٍ من الأشكالِ وإن أمضوا الليلَ راكعينَ ساجدينَ مبتهلينَ متضرّعين. وكأنَّ اللهَ سبحانهُ وتعالى يقولُ لهم: لو صَفَت نواياكُم لدفعكم هذا الصّفاءُ إلى أن تطهّروا صلةَ ما بينكم، فأنتم تعلمونَ أنّني قد أعلنتُ أنَّ النّاسَ كلَّهم عيالٌ للهِ سبحانهُ وتعالى، وأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يغارُ على عيالهِ أي على عباده.

ومن ثمَّ، فالأمرُ كما قالَ رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم: ﴿الخلقُ كلُّهم عيالُ الله، فأحبّهم إلى اللهِ أنفعُهم لعياله﴾.

شهرُ رمضانَ هذهِ هي مهمّته: فرصةٌ لتطهيرِ العلاقات. فرصةٌ لإزالةِ السّخائمِ ومشاعرِ البغضاءِ والأحقادِ منَ النّفوس. فرصةٌ لأن يعودَ الإنسانُ إلى حسابهِ لا معَ اللهِ – فاللهُ غفور– ولكن معَ النّاس: كم من حقوقٍ أكلَها أو ضيّعها؟ وكم من كلماتٍ افتراها لسانهُ غيبةً أو كذباً أو نميمة؟ شهرُ رمضانَ فرصةٌ للرّجوعِ إلى هذا الحساب. ولذلكَ يقولُ المصطفى صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم: ﴿وهوَ شهرُ المواساة﴾. ما قيمةُ أن أُفَطِّرَ صائماً أو أن تُفَطِّرَ أنتَ صائماً؟ ما قيمةُ أن ألقاكَ بتمرةٍ أُفَطِّرُكَ عليها وأنتَ تستطيعُ أن تفطّرَ نفسكَ بتمراتٍ لا بتمرة؟ قيمةُ ذلكَ: أنّها تفتحُ الأفئدةَ لتجديدِ الحبّ. قيمةُ ذلك: أنَّ الإنسانَ عندما يلقى أخاهُ الإنسانَ وقد أُذِّنَ لصلاةِ المغربِ ودخلت لحظةُ الإفطارِ وجاءَ فَهُرِعَ إليهِ بكأسٍ من الماء، قيمةُ ذلك: أنَّ هذا العملَ يفتحُ الأفئدةَ مجدّداً للحبّ. ما قيمةُ أن أفطِّرَ صائماً على مزقةِ لبنٍ ممزوجٍ بماء؟ كلُّ النّاسِ يستطيعونَ أن يفعلوا ذلك. ولكنَّ المعنى الذي رمى إليهِ رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّ الإنسانَ مدعوٌّ في هذا الشّهرِ إلى أن يطرقَ أبوابَ قلوبِ إخوانه، لكي يلجَ إليها من جديدٍ بالحبّ، بالوداد. كيفَ أطرقُ بابَ قلبكَ وكيفَ تطرقُ بابَ قلبي بمثلِ هذهِ المواساةِ ولو كانت شكليّة؟ ولكنَّ هذا يأتي بعدَ أداءِ الحقوق. أمّا أن أكونَ قد نهبتُ مالكَ أو افتريتُ عليكَ أو نهشتُ عرضكَ بغيبةٍ ثمَّ آتي لأقدّمَ لكَ شربةَ ماءٍ تفطرُ عليها.. لا. هذا أشبهُ ما يكونُ بالسّخرية.

ابدأ قبلَ كلِّ شيءٍ فطهّرِ العلاقة، أزل أسبابَ هذهِ البغضاء، أعد الحقوقَ إلى أصحابِها، هذا هو التّخلية. ثمَّ ابدأ بالتّحليةِ بعدَ ذلكَ بالمواساةِ التي عبَّرَ عنها رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بهذا الذي قال.

إذا عرفنا هذا أيّها الإخوة، فاعجبوا لأناسٍ يجعلونَ من شهرِ رمضانَ المباركِ مناسبةً لحشوِ الأفئدةِ بمزيدٍ من أسبابِ البغضاء، بمزيدٍ من الضّغائن. اعجبوا لأناسٍ يجعلونَ من شهرِ رمضانَ المباركِ مناسبةٍ لتقطيعِ بقايا نسيجِ الحبِّ والودِّ بينَ المسلمين. إذا دخلَ هذا الشّهرُ جرَّدَ الكثيرُ من هؤلاءِ النّاسِ من لسانهِ حساماً أو سيفاً ليقارعَ وليخاصمَ بهِ المسلمين، يخاصمُهم في كلِّ شيء. يتّخذُ من قيامِ الليلِ الذي جعلهُ رسولُ اللهِ تطوُّعاً أداةً لإثارةِ البغضاءِ بينهُ وبينَ إخوانهِ المسلمين: (لا تصلّوا عشرين ركعة – أنتم مبتدعون – أنتم ضالّون – أنتم مشركون).. إلى آخرِ ما تعرفون.

وكم من خصوماتٍ قامت في المساجدِ بينَ إخوةٍ مسلمينَ في شهرِ رمضانَ المباركِ الذي جعلهُ اللهُ فرصةً لتجديدِ الحبّ. كم من أناسٍ جعلوا هذا الشّهرَ فرصةً لتجديدِ البغضاءِ على عكسِ ما أمرَ بهِ رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم. والمسلمُ الذي وعى إسلامهُ وأخلصَ لربِّهِ وعرفَ أنَّ الحبَّ في اللهِ هو محورُ هذا الدّينِ كلِّه، يعلمُ أنَّ رسولَ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قال: ﴿الصّلاةُ خيرُ مشروع﴾، فأكثِر منها أو أقِلَّ. يمرُّ أمامَ هذا الاجتهادِ ولا يبالي ويباركُ لكلٍّ اجتهاده: صلِّ عشرين ركعة، صلِّ ثماني ركعات، عشراً، لا تصلِّ أكثرَ من الفريضة، أنتَ أخي، أنتَ مسلم، وصلةُ ما بيني وبينكَ من حبٍّ أجلُّ وأجلُّ وأجلُّ من التّطوّعاتِ كلِّها، فضلاً عن الخصامِ في سبيلِها.

اعجبوا أيُّها الإخوة لأناسٍ يجعلونَ من هذا الشّهرِ المباركِ مثابةَ جدلٍ لا يمكنُ أن يسكتَ عنهُ أصحابهُ حتّى يوصلَ المجادِلِينَ إلى البغضاء، إلى الأحقادِ والضّغائن. وإسلامُنا إنّما جاءَ لنقيضِ ذلك، وقد قلتُ لكم مرّةً إنَّ في الدّينِ الإسلاميِّ مبادئَ لا مجالَ للاجتهادِ فيها، ينبغي أن نتّفقَ جميعاً عليه. وفيها حواشٍ كثيرة من الجزئيّاتِ الاجتهاديّةِ قد يختلفُ فيها المجتهدونَ ولكلٍّ أجرُه، والأجيالُ السّابقةُ من المسلمينَ اجتهدوا واختلفوا ولم يتشاحنوا، ولم يتباغضوا، ولم يتّهم أحدٌ منهم أحداً إطلاقاً. ويأتي في المسلمينَ اليومَ ثلّةٌ عجيبةٌ تحاولُ أن تجعلَ من تلكَ الاجتهاداتِ التي ما كانت في يومٍ من الأيّامِ سبباً لخصام، تحاولُ أن تجعلَ منها سبباً لخصامٍ وشقاقٍ وفُرقة. كأنَّ الوسائلَ التي يتّخذُها أعداءُ الدّينِ مشرّقينَ ومغرّبينَ لتفتيتِ وحدةِ المسلمين، ولتمزيقِ بقايا المودّةِ القائمةِ بينهم كأنَّ تلكَ الوسائلَ غير كافية. ومن ثمَّ فيأتي هؤلاءِ النّاس لينفخوا في نيرانِ أولئكَ الأعداءِ وليستثيروا مزيداً من اللهب.

ألا فلتعلموا أيُّها الإخوة أنَّ شهرَ رمضانَ المبارك شهرُ الوحدة، شهرُ المواساة، شهرُ تجديدِ الألفة، شهرُ ترميمِ العلاقاتِ الودّيّةِ بينَ المسلمين، قيامُ الليلِ في المساجد، الإكثارُ من تلاوةِ القرآن، الصّيام، كلُّ ذلكَ وسائلُ تصبُّ في هذا المعنى..



٣٤٩- معيار للقبول عند الله في هذا الشهر | ١٩٩٨/٠١/٠٢

لقد صح أن النبي صلى الله عليه وسلم كان من أبرز صفاته الجود، ولقد كان صلى الله عليه وسلم أجود ما يكون في هذا الشهر المبارك، كان كالريح المرسلة. على أنه صلى الله عليه وسلم، كان في كل أوقاته المثل الأعلى للزهد وللتخلي عن المال ونَشَب هذه الحياة، ولم يكن صلى الله عليه وسلم ليبقي عنده في ليلة واحدة شيئاً مما أفاء الله سبحانه وتعالى عليه من أموال الدنيا حتى يرسلها ويوزعها بين المستحقين. ولكنه صلى الله عليه وسلم مع ذلك كان أكثر ما يكون جوداً بالمال وتوزيعاً له في هذا الشهر المبارك.

وربما تساءل الإنسان عن العلاقة بين شهر رمضان وكثرة الجود بالمال وتوزيعه بين المحتاجين، ما هي العلاقة السارية بين هذا الشهر المبارك وهذه الصفة التي ينبغي أن يتصف بها كل مسلم؟

العلاقة أيها الإخوة واضحة ومعروفة. في شهر رمضان تكثر الطاعات وتتنوع فهنالك طاعة الصوم وهي عبادة فريدة من نوعها، عبادة سلبية مستمرة من الصباح حتى المساء، وهنالك عبادة الصلاة وقيام الليل أي التراويح التي ندبنا إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهنالك تلاوة القرآن، وأنتم تعلمون الرابطة الوثقى بين شهر رمضان المبارك وبين كتاب الله سبحانه وتعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ ففي شهر رمضان يقبل الإنسان على أنواعٍ شتى من الطاعات متنوعة مختلفة وإذا تكاثرت هذه الطاعات في كيانه، أورثته الثمرة الأولى التي نهدف إليها جميعاً من خلال القربات والطاعات التي يأمرنا بها الله عز وجل. فما هي هذه الثمرة؟ إنها ثمرة الإيمان بالله عز وجل زيادة الإيمان بالله، وزيادة الثقة بالله سبحانه وتعالى، وزيادة اليقين بوجود الله سبحانه وتعالى ووحدانيته وبأنه هو الفعال الوحيد في هذا الكون.

ففي شهر رمضان تكثر الطاعات وتتنوع، ومن ثم فإن الإنسان يقطف ثمار هذه الطاعات إن كان مقبلاً إليها بإخلاص، وإن كان سائراً على صراط الله سبحانه وتعالى في هذا الشهر المبارك، وإذا ازداد إيمان الإنسان بالله، وازدادت ثقته بالله، وازداد يقينه بالله سبحانه وتعالى أورثه هذا الإيمان زهداً في الدنيا، أورثه هذا الإيمان ترفعاً فوق زينة هذه الحياة الدنيا؛ هما أمران متلازمان، كل ما ازداد الإنسان يقيناً بالله

عز وجل ازداد زهده في هذه الدنيا وازداد إقباله على الله سبحانه وتعالى وإعراضه عن زينة هذه الحياة الدنيا بكل أشكالها وألوانها، وكلما ضعف إيمان الإنسان بالله عز وجل كلما ازداد تعلقاً بالمال. هذه حقيقة واضحة ومعروفة.

والإنسان في هذا الشهر المبارك من خلال الطاعات المتنوعة الكثيرة التي يقبل إليها، لا بد أن يزداد إيماناً بالله، ولابد أن يزداد يقيناً بالله سبحانه وتعالى، فإذا ازداد يقينه بالله فاض قلبه ثقة بالله عز وجل، ومن ثم فإنه يتعلق بالمعطي ولا يتعلق بالمال الذي أعطاه الله سبحانه وتعالى إياه.

هذا الإنسان من خلال طاعاته وقرباته يزهد في المال كثيراً كان أو قليلاً الذي أعطاه الله سبحانه وتعالى ومن ثم فهو يوزعه وينثره بين المحتاجين بين عباد الله عز وجل، تلك هي العلاقة بين شهر رمضان المبارك وبين الجود الذي كان يتصف به رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي ينبغي أن يتصف به كل مسلم بل ينبغي أن يزداد اتصافاً به في هذا الشهر المبارك. من أين يأتي الزهد؟

الزهد لا يأتي من طبعٍ موروثٍ عند الإنسان وإنما يأتي من يقينه بأن الله هو المعطي وهو الذي يخلف وهو الذي يعوض، فكلما ازداد يقينك بأن الله سبحانه وتعالى سيعطيك بدلاً مما أنفقت، كلما ازداد إيمانك بهذا ازددت زهداً بالمال الذي تحت يديك. وهذا معنى كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه الترمذي وأبو داود وغيرهما أنه صلى الله عليه وسلم قال: ﴿ليست الزهادة في تحريم الحلال ولا في إضاعة المال، ولكن الزهادة أن تكون بما في يد الله أوثق مما في يدك﴾.

الزهد أن تكون واثقاً بأن لك مالاً كبيراً وكثيراً عند الله وأن تكون متعلقاً بذلك لا بالمال الذي جمعته في درجك أو صندوقك أو جيبك. من أين يأتي هذا الزهد؟

يأتي هذا الزهد من كثرة الإقبال على الله من كثرة العبادة من كثرة الطاعة... ومن ثم فإذا أراد أحدنا أن يتساءل هل قبل الله عز وجل منه عباداته في هذا الشهر؟ هل هو مقبلٌ إلى الله بصدق ومن ثم فإن الله عز وجل يقبل منه طاعاته وعباداته؟ لك على هذا دليل واحد لا ثاني له، إن رأيت أن الشح الذي تتصف به تناقص وأن السخاء الذي أمرك الله عز وجل به تزايد، وإن رأيت أنك زهدت بالدنيا وما فيها وتعلقت بالله وبما عند الله، فاعلم أن طاعاتك مقبولة، واعلم أن صيامك مقبول، واعلم أن قيامك

مقبول... لأن ذلك كله زاد الإيمان الذي بين جوانحك، ومن ثم فقد تعلقت بالله عز وجل بدلاً من أن تتعلق بالمال الذي بين يديك. أما إن رأيت أن عباداتك وأن صومك وأن قيامك في المسجد لم يزدك إلا تكالباً على المال وشحاً به، فاعلم أن هنالك زغلاً قد داخل طاعاتك وعباداتك.

لا يمكن للإيمان إلا أن تكون له شواهد وبراهين وقد قال حارثة ذات يوم وقد سأله رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿كيف أصبحت يا حارثة؟ قال أصبحت مؤمناً حقاً، قال له رسول الله: ويحك إن لكل شيء حقيقة -أي دليلاً- فما حقيقة إيمانك؟ قال: عزفت نفسي عن الدنيا، فأظمأت نهاري وقمت ليلي، وكأني بعرش ربي بارزة، وكأني بأهل الجنة ينعمون فيها وكأني بأهل النار يتعاوون فيها، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: أبصرت فالزم﴾. هذا البرهان لابد أن نستبينه جميعاً بين جوانحنا عندما نقول: إننا مؤمنون بالله سبحانه وتعالى.

ومهما كان الإنسان بعيداً عن السخاء، ومهما كان الإنسان متكالباً على المال، فينبغي أن تنعكس الآية في هذا الشهر المبارك. ينبغي إذا كان الإنسان مقبلاً إلى الله حقاً أن يزداد سخاء وأن يتحرر من شحه ومن تكالبه على المال؛ لا لأننا لا نحب المال لا بل الله عز وجل يقول عن الإنسان: ﴿وإنه لحب الخير لشديد﴾. ولكن الإنسان الذي يحب المال عندما يكون حصيفاً يتعلق بالمنبع الذي يأتي منه المال، ولا يتعلق بالفروع التي ظهرت فيها الأموال والمنبع الذي يأتي منه المال من هو أو ما هو؟ هو الله سبحانه وتعالى. كل مؤمن يعلم هذه الحقيقة. ألم يقل الله عز وجل: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

فالإنسان الذي يحب المال وهو مؤمن بالله ينبغي أن يتعلق قلبه بمعين المال، والمصدر الذي يأتي منه المال، وإنما المصدر الذي يأتي منه المال هو الله سبحانه وتعالى، يعلم كل عاقل هذه الحقيقة عندما يكون مؤمناً بالله سبحانه وتعالى ومؤمناً بأنه هو الذي يقول هذا الكلام لعباده.

فيا عباد الله راجعوا مقياس قبول الله لعباداتكم متمثلاً في هذا الذي أقوله لكم. إن رأيتم أن الشح قد تحررتم منه، وأنكم قد اتجهتم إلى مزيدٍ من السخاء والجود كما كان عليه حال رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهنأوا بأن الله قد قبل طاعاتكم وأن هذه العبادة قد أثمرت مزيداً من الإيمان بالله، ومزيداً من

الثقة بما عند الله سبحانه وتعالى، وبما يعد الله سبحانه وتعالى به عباده، وما أظن إلا أننا جميعاً نطرق باب القبول بطاعاتنا وعباداتنا.

كونوا كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، تجردوا عن الشح، وأنفقوا ما أكرمكم الله به من مال، إن كان قليلاً فاستزيدوه بالنفقة، وإن كان كثيراً فاشكروا الله سبحانه وتعالى بهذه النفقة.

ولقد كانت عائشة رضي الله تعالى عنها إذا وجدت أن رزقها قد ضاق، وأن المال قد قل بين يديها استقدمت المزيد من المال بالنفقة، كانت تنفق القليل الموجود لديها لتطرق بذلك باب كرم الله سبحانه وتعالى، وأنتم تعلمون أن الله جعل هذه الدنيا دار ابتلاء؛ ابتلى الغني في هذه الدار بالفقير، وابتلى الفقير بالغني، ثم إن الله عز وجل كلف الفقير أن يعف وكلف الغني أن يعطي وأن يكرم.

وما من إنسان إلا وفيه هاتان الصفتان الغنى والفقر، ذلك لأن الأمر نسبي كل من نراه فقيراً هو غني بالنسبة لما دونه، وكل من كان غنياً كان فقيراً بالنسبة لمن كان فوقه، ثم إن الناس جميعاً إذا نظرت إليهم نظرة كلية، كلهم فقراء، ذلك لأن أحداً منهم لا يملك شيئاً، وإنما هي وديعة استودع الله سبحانه وتعالى أمواله بين عباده. إذاً فكل إنسانٍ مدعوٌ إلى أن يكون كريماً في هذا الشهر، الفقر نسبي والغنى نسبي.

وما من إنسان من الذين آمنوا بالله عز وجل وشرفهم الله بهذا الشهر المبارك وأقبل إلى الله سبحانه وتعالى صائماً قائماً قارئاً كتاب الله عز وجل إلا ومن شأنه أن يلتفت إلى من حوله، وأن يبحث وأن ينبش عن الفقراء، ولا سيما أولئك الأعفاء أولئك الذين اتصفوا بكلام الله سبحانه وتعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ﴾.

على كل مسلم أن يبحث عمن حوله من هؤلاء الفقراء وأن يعطيهم من ذات يده، وأن يكرمهم سواء بالمال الذي فرضه الله عليه زكاةً أو بما وراء ذلك من الصدقات والمبرات، وأنا أقولها حقيقة لا ريب فيها والله لا يجرب بل ينبغي أن نثق بسنته وأن نثق بوعده: ما من إنسان حاول أن يستجر المال بواسطة النفقة يقصد بها وجه الله سبحانه وتعالى إلا أكرمه الله سبحانه وتعالى بأضعاف ما أنفق. هذه حقيقة لا

ريب فيها ولا شك فيها وهل يمكن أن يساورنا شك في كلام الله عز وجل القائل: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

أيها الإخوة هنالك فقر والفقر منتشر، ولكن لم يتسبب الفقر إلا من إعراضنا عما فرضه الله عز وجل علينا، ولو أن الناس أعطوا حق الله سبحانه وتعالى المترتب عليهم في أموالهم لمن يستحقونها هذه الحقوق لما وجدنا فقراً في مجتمعنا الإسلامي قط. إذاً ينبغي أن نعلم أن الفقر إذا ازداد فإنما هي مسؤوليتنا نحن وهي مؤشرٌ على تقصيرنا نحن بجنب الله سبحانه وتعالى.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.



٣٥٠- التراحم أساس العبادة | ١٩٩٩/٠١/١٥

إن الله عز وجل أقام صلاح المجتمعات كلها على أساسٍ واحدٍ لابد منه ألا وهو التراحم، لا فرق في ذلك بين المجتمعات الإنسانية والمجتمعات الحيوانية على اختلافها. فحيثما وجد شرط التراحم صلح المجتمع، وحيثما اختفى التراحم فسد المجتمع.

وعندما ننظر إلى المجتمعات الحيوانية على اختلافها نجد أن هذا الشرط موفور، نجد أن هذا الشرط موفورٌ بدافعٍ من الغريزة وبدافعٍ من الضرورة الفطرية التي فطر الله سبحانه وتعالى الحيوانات العجماوات عليها. ألم تلاحظوا نظام حياتها سواءٌ تلك التي تعيش في أعماق البحار أو تلك التي تعيش في الغابات أو على الأعشاش المقامة في باطن الأشجار، ألم تلاحظوا أن التراحم هو سدى ولحمة حياتها واستمرارية حياتها. هذا شيء نلاحظه جميعاً ولا تكاد تجد لهذا التراحم شذوذاً، لأنه ينبثق من الغريزة، ينبثق من الفطرة الحتمية التي لا اختيار للحيوانات في جلبها إليها ولا في ردها عنها.

ولكنا عندما ننظر إلى شرط التراحم في المجتمعات الإنسانية ننظر فنجد أنه شرطٌ متخلخل، كثيراً ما يغيب وربما وجد آناً واختفى آناً، وربما وجد من أجل مصالح ذاتية فإذا اختفت المصالح اختفى التراحم أيضاً، وإنه لأمرٌ مثيرٌ للعجب أن ننظر إلى عالم البهائم وإذا بشرط التراحم موفورٌ بأدق معانيه، فإذا نظرنا إلى هذا الشرط في عالم الإنسان وفي المجتمعات الإنسانية ننظر فنجد أن هذا الشرط غائبٌ في أكثر الأحيان.

وإذا قال قائل: ولكن الإفتراس شأنٌ من شؤون الحيوانات، فإن الجواب هو أن الإفتراس وظيفة غريزية أقامها الله سبحانه وتعالى في حياة بعض الحيوانات من أجل استمرار وجودها، وآية ذلك أن هذا الحيوان المفترس إذا شعر بالشبع ورأى أن طعامه موفور زالت عنه طبيعة الإفتراس وأصبح حيواناً مسالماً أليفاً، فإذا عاوده الجوع كانت الحكمة الإلهية تقتضي أن تعاوده هذه الطبيعة من أجل استمرار الوجود. أما في حياة المجتمعات الإنسانية فالأمر يختلف كل الاختلاف، التراحم في المجتمعات الإنسانية واجب خاطب الله سبحانه وتعالى به عباده وليس غريزةً فطريةً غرزها الله سبحانه وتعالى بشكلٍ حتمي في قلوب العباد

ونفوسهم كالحيوانات العجماوات، ونظراً إلى أن الله سبحانه وتعالى كرمّ الإنسان هذا التكريم وجعل التراحم شرعةً خاطبه بها وأمره بها، فإن الإنسان حرٌ في أن يمارس هذا الواجب أو أن لا يمارسه، فمن وعى أمر الله سبحانه وتعالى ومن أدرك عبوديته لله سبحانه إنبثق التراحم بين جوانحه وحقق هذا الشرط الذي خاطبه الله سبحانه وتعالى به، ومن ثم يتلألأ معنى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿وكونوا عباد الله إخوانا﴾.

أما أولئك الذين اختفت مشاعر عبوديتهم لله سبحانه وتعالى بين جوانحهم، ولم يتصور الواحد منهم إلا أنه حرٌ يملك زمام نفسه ويملك مصيره وأنه هو الولي لذاته، فالمجتمع الذي فيه أفرادٌ بهذا الشكل لابد أن يختفي التراحم من ما بينهم، وإذا اختفى التراحم فمعنى ذلك أن أوامر الله سبحانه وتعالى اختفت ولم تجد سبيلاً لتنفيذها، وفي هذه الحال لابد أن تختفي رحمة الله عز وجل أيضاً عنه، ذلك لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوضح لنا في أكثر من حديث وأكثر من مناسبة العلاقة اللزومية بين تراحم الناس فيما بينهم وبين رحمة الله سبحانه وتعالى لهم، كلما تراحم الناس رحمهم الله وكلما اختفى التراحم فيما بينهم تقلصت عنهم – لا أقول انفصلت ولكن تقلصت عنهم – رحمة الله سبحانه وتعالى. ولذلك يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق عليه: ﴿من لا يرحم لا يُرحم﴾.

ونحن أيها الإخوة بمقدار ما تزيغ أبصارنا عن شريعة الله سبحانه وتعالى وبمقدار ما نولي ظهورنا لتعاليم هذا الدين الحنيف يختفي مبدأ التراحم مما بيننا. بل أقول شيئاً آخر: بمقدار ما تتحول قلوبنا إلى أوعيةٍ لمحبة الدنيا والشهوات والأهواء يختفي مبدأ التراحم، وبمقدار ما تكون قلوبنا مغرساً لمحبة الله سبحانه وتعالى يشع فيما بيننا ويشع مبدأ التراحم. هذا القانون لا شذوذ فيه إطلاقاً، فما هو واقعنا الذي نمر به اليوم أيها الإخوة لا سيما ونحن نتكلم في الأيام الأخيرة من هذا الشهر المبارك الذي كان ولا يزال أول وأعظم شعارٍ من شعاراته التراحم بين الصائمين وبين من يستظلون بظل هذا الشهر المبارك؟

لا أريد أن أُفصل القول وأطيل في الحديث ولكن أريد أن أضعكم أمام مقارنة، بالأمس وقبل أقل من شهرين، صُرفت أموالٌ كثيرة وعجيبة بلغت مئات الملايين ولا نريد أن نحصي ونحصر كما فعلت بعض وكالات الأنباء، صُرفت مئات الملايين من أجل المصالح الذاتية، ومن أجل المغانم الشخصية، وجاء بعد ذلك الشهر المبارك هذا الشهر، شهر رمضان. ونادى هذا الشهر بلسان حاله الناس جميعاً الصائمين

الذين يقبلون على أداء حقوق هذا الشهر ناداهم ولفت أنظارهم إلى ضرورة التراحم، ونبه إلى وجود محتاجين بين ظهرانيهم وجود فقراء مدقعين يبيتون على الطوى، وجود فقراء يحتاجون إلى سكنٍ أياً كان فلا يجدون، يحتاجون إلى سكنٍ نفسيٍ إلى أسرة يركنون إليها فلا يجدون السبيل إلى ذلك. ديننا الحنيف ينادينا وهذا الشهر يذكرنا، فماذا فعل أولئك الذين بذلوا تلك المئات من الملايين استجابةً لدعوة التراحم التي يخاطبنا بها الله؟ استجابةً لدعوة هذا الشهر المبارك، ماذا أُنفق في سبيل سد ثغرات الفقر والحاجة في مجتمعاتنا؟ ماذا أنفق بالنسبة لمئات الملايين التي أهدرت من أجل المصالح الشخصية؟ كلكم يعلم الجواب..

كم من أناسٍ فتحوا أكفهم بكرمٍ عجيب وغريب لم تشهد هذه البلدة مثيلاً له قبل شهرين، فلما طاف بهم طائفون من المسلمين في هذه البلدة يطلبون منهم أن يمدوا أيديهم لشيءٍ من ذلك الكرم من أجل حق الفقراء والمحتاجين عادوا إلى الإعتذار وعادوا إلى النغمة المعروفة وعادوا إلى التأفف من أن الوضع الإقتصادي سيء وأن السيولة مختفية إلى آخر هذه العبارات التي تعرفون. وأنتم ترون مدى الحاجة التي تطوف بكثيرٍ من الناس في مجتمعاتنا اليوم وتلك هي سنة الله، لابد أن يبتلي الله الأغنياء بفقراء إلى جانبهم، ماذا سيصنعون؟ ولا بد أن يبتلي الله سبحانه وتعالى هؤلاء الفقراء بالأغنياء أيضاً هل سيتعففون؟ تلك هي سنة رب العالمين سبحانه وتعالى. باختصارٍ أقول اختفى التراحم مما بيننا والقدر الذي ربما يوجد قدرٌ ضئيل جداً جداً بالنسبة للإمكانات التي يملكها الناس في هذه البلدة، وقد كانت الإمكانات مختفية بالأمس لكنها ظهرت عند تجربة التنافس على المصالح الشخصية وأن الأموال كثيرة ويمكن أن تهدر مئات الملايين خلال أسبوع، ظهر هذا كله إذن فالإمكانات موجودة والسيولة موجودة والوضع الإقتصادي مزدهرٌ ولله الحمد وإلا لما تأتى ذلك الأمر الذي رأيناه وعجبنا له بل عجبت له وكالات الأنباء أجل، فإذا لم نتراحم ما النتيجة؟

النتيجة كما أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم هي أن رحمة الله ستتقلص عنا، رحمة الله لن تنفصل عن أحد لأنها لو انفصلت لهلك الكون. الأم لا بد أن ترحم وليدها والأب لابد أن يرحم ابنه وأصل التراحم لابد أن يوجد، والله سبحانه وتعالى بهذا التراحم يرحم عباده، ولكن عندما يقع المجتمع بهذا الوضع الذي أقول تتقلص رحمة الله سبحانه وتعالى عن عباده ويزجهم في هذه الحال الذي ترون. فكيف إذا أضيف إلى اختفاء التراحم اختفاء الالتجاء إلى الله!؟

التراحم غير موجود والالتجاء إلى الله على المستوى العام - لا على المستوى الجزئي هنا وهناك - أيضاً غير موجود، فكيف نتوقع أن تسري إلينا رحمة الله سبحانه وتعالى هابطةً من عليائه؟ وأي منطقٍ هذا الذي يجعلنا أن نتوقع أن يرحمنا الله حيث لا نتراحم؟ وأي منطق هذا الذي يجعلنا نتوقع أن يرحمنا الله عز وجل حيث لا نلجئ إليه ولا نستغفره؟

أيها الإخوة ينبغي أن أذكركم وأنتم في الساعات الأخيرة من هذا الشهر بأن علينا أن نصلح حالنا قبل أن يرحل هذا الشهر عنا شاهداً علينا إلى الله سبحانه وتعالى، ينبغي أن أُذكر وتذكروا هؤلاء الذين أنفقوا مئات الملايين بالأمس على أنفسهم وعلى مصالحهم الشخصية ينبغي أن نذكرهم بالحق الذي يلاحقهم قبل أن يشتد عليهم الخناق وقبل أن يشتد الخناق على هذه الأمة بسببهم أيضاً، ينبغي أن يعودوا إلى الله سبحانه وتعالى وينبغي أن يتعاملوا مع آداب هذا الشرع الحنيف، حرام حرامٌ أن تكون الحيوانات في غاباتها أشد تراحماً من بني الإنسان. وأي مجتمع إنساني؟ المجتمع الإنساني الذي يزعم أنه يرعوي إلى دين الله ويصغي إلى أوامر الله عز وجل. حرامٌ أن تكون مجتمعات البهائم أكثر تراحماً من المجتمعات الإنسانية، أجل.

في هذا الشهر المبارك شعائر كلها تصب في التراحم لا سيما الشعيرة المتكرمة التي تعرفونها، زكاة الفطر فيما شرعها الله عز وجل، قدرٌ ضئيلٌ من المال جعل الله سبحانه وتعالى منه حافزاً من أجل تجديد شبكة تراحمٍ تسري بين الناس جميعاً، زكاة المال لا يخاطب بها إلا الموسرون، ولكن زكاة الفطر يخاطب بها تقريباً كل الناس لأن شرطها الإسلام وأن يمتلك هذا الإنسان المسلم إذا غابت شمس آخر يوم من أيام رمضان عليه أن يمتلك النفقة التي يحتاج إليها لنفسه ولأسرته خلال يوم وليلة العيد، فإذا زاد ما يملك على ذلك فقد وجبت عليه زكاة الفطر. من الذي لا يملك أكثر من هذا القدر البسيط؟

إذن زكاة الفطر شرعة خاطب الله عز وجل بها الناس جميعاً، ثم هي قدرٌ ضئيل قدرٌ ضئيل جداً، عبارة عن صاع من غالب قوت البلد، والصاع يساوي اثنين كيلو في هذا العصر، غالب قوت البلد هو البر لا بد أن فينا من يسأل فيقول: يا رب وماذا عسى أن يصنع هذا القدر الضئيل؟ قيمة اثنين كيلو من القمح أعطيها لفقير عن نفسي وعن أهلي وعن أولادي لا تغني فقيراً ولا تصلح حالاً، ما الحكمة؟

لاحظوا أولاً جعل الله سبحانه وتعالى زكاة الفطرساريةً مسؤوليتها للناس جميعاً، ثم جعل القدر الذي يطالب بإخراجه قدراً أيضاً يسيراً من أجل أن تشيع هذه الشعيرة بين الناس جميعاً، فما من إنسانٍ إلا وهو يعطي زكاة فطره لجاره لمحتاج وهكذا... وربما أخذ بيد وأعطى بيد، أجل ربما كان فقيراً يأخذ زكاة فطره من فلان ويعطي زكاة فطره لفلان آخر، وهكذا تشيع شبكة التراحم من جديد إن أصابها تقادم تجددت، إن أصابها غبار من أحقاد وضغائن زال الغبار من جراء ذلك. كل هذا يعني أن التراحم هو أساس العبادة، التراحم أساس صيام شهر رمضان، التراحم هو أساس زكاة الفطر، فكم وكم يتيه الناس بل يرتكبون في حق الله قبل العبادة الجرائم عندما يغضون الطرف عن هذا المبدأ الذي جعل الله أكثر شعائر الدين خادماً له ألا وهو مبدأ التراحم، من لا يرحم لا يُرحم.



أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.



٣٥١- نهاية شهر رمضان | ٢٠٠٧/١٠/١٢

فيا عباد الله، مسألتان تقتضي المناسبة أن أتحدث إليكم فيهما، المسألة الأولى: أن كثيراً من الناس اعتادوا في أول شهر رمضان وفي آخره أن يجعلوا من الحديث عن بداءة الشهر ونهايته فاكهة مجالسهم، يجتمعون ويتداولونَ التساؤلَ، أفكانت بداءة الشهر عندنا صحيحة أم لم تكن صحيحة؟ أفكان إخطارنا في نهاية هذا الشهر صحيحاً أم لا؟ إن الدولة الفلانية والفلانية لم تفطرا، أو أفطرتا ولم نفطر نحن، فأيهم الصحيح وأيهم المخطئ؟ ويتحول الحديث في هذا الأمر إلى تسلية ممتدة، ولربما تحولت التسلية إلى باب للفتنة، ووسيلة للشقاق والخلاف، وكم رأينا أناساً لم يقتنعوا بما أعلنه المسؤولون عن نهاية الصوم وبداءة العيد، فواصلوا الصوم فيما بينهم وبين أنفسهم، وكم رأينا أناساً لم يقتنعوا بما أعلنه المسؤولون عن بداءة شهر رمضان، فقرروا الإخطار فيما بينهم وبين أنفسهم، وهذه ظاهرة تتكرر في كل عام، وينبغي أن نقف عند هذه الظاهرة بكلمة تلفت أنظارنا جميعاً إلى الحق الذي ينبغي علينا أن نتمسك به.

هذا الخوض – يا عباد الله – في هذا الأمر من اللغو الباطل، وهو دخول فيما لا يعني، وقد قال المصطفى صلى الله عليه وسلم فيما صح عنه: «من حُسنِ إسلام المرء تركُه ما لا يعنيه». الواجبات التي خاطب الله عز وجل بها عباده قسمان اثنان: قسم منها خاطب الله عز وجل به الأفرادَ مباشرة، فكل واحد منا مسؤول عن تمحيص الأمر فيما خاطبه الله عز وجل به.

والقسم الثاني خاطب الله عز وجل به عباده عن طريق أئمة المسلمين، وعن طريق أولياء أمورهم، ومن ثَم فإن المسؤولية في هذا القسم الثاني يتحملها أولياء أمور المسلمين، يتحملها ولي أمر المسلمين، إن أصاب فذاك، وإن أخطأ فذنبه على جنبه، وفي كلتا الحالتين إن هو أصاب أو أخطأ فلا يجوز لعامة الناس إلا الاتباع، لا يجوز لعامة المسلمين وأفرادهم إلا الانقياد لما يمليه عليه ولي أمر المؤمنين، وذلك انقياد لقول الله سبحانه وتعالى في محكم تبيانه: ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

من ثَم فلا يجوز لي وقد أعلن ولي أمر المسلمين أن الصوم ينتهي بمساء هذا اليوم، وأن أول أيام العيد هو الغد، لا يجوز لي أن أتدخل في هذا الأمر باجتهاد، ولا يجوز لي أن أجعل من هذا الموضوع تسلية أو فاكهة مجالس بيني وبين الآخرين، ولا يجوز لي أن أقارن بين دولة ودولة أخرى، لماذا أفطر أولئك وصمنا؟ ولماذا حصل هذا الخلاف؟ هذا باب يفتحه الشيطان، وليس من وراء هذا الباب الذي يفتحه الشيطان إلا الشقاق وإلا الخلاف.

أمر لم يكلِّفْك الله سبحانه وتعالى الدخولَ فيه، لم يُحَمِّلك الله سبحانه وتعالى مسؤولية وجع رأسك في هذا الأمر، فلماذا تتصدر المجالس لتنفق الوقت الطويل أو القصير في الرأي الذي تبديه وفي القرار الذي تمليه؟ أمر يدخل فيما لا يعنيك وقد نهاك الله سبحانه وتعالى عنه، ومن ثَم فكم أتمنى لو أن هذه العادة المستمرة في كل عام طويت وانتهت، ولكنها إلى اليوم لم تنطوِ، ما من عام يُقْبِل فيه شهر رمضان إلا ونجد الحديث والجدل يمتد في اليوم الأول والثاني والثالث منه، أكانت البداءة صحيحة أم ليست صحيحة؟ أفطرت الدولة الفلانية، والدولة الفلانية صامت، من صومها الصحيح؟ في حين أن الله عز وجل أراحنا عن هذه المسألة، ذلك لأن الله عز وجل حكيم.

الأمور الاجتماعية لم يجعلْها الله عز وجل منوطة بالأفراد، وإنما جعلها الله عز وجل منوطة بالقادة وأولي الأمر، تقولون: ربما أخطأ ولي الأمر. خطؤهم لسنا نحن المسؤولين عنه، خطؤهم على جنبهم، أما نحن فمكلفون بالانقياد لهم، مكلفون بطاعتهم بآيات كثيرة متعددة في كتاب الله سبحانه وتعالى، وبأحاديث كثيرة ذكرها لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

أقول هذا أوصي نفسي وأوصيكم إذا رأيتم من يجالسكم غداً ليستثير من هذا الموضوع تسلية له، أوصيكم بأن تغلقوا باب الحديث في هذا، قولوا: أمر لا يعنينا لم نتدخل فيه، أمر أراحنا الله عز وجل منه لن نتعب أنفسنا به، هذا لغو من الكلام، نخوض في أمر يفيدنا، نخوض في أمر أناطه الله سبحانه وتعالى بنا، وما أكثر الأمور التي نحن بحاجة إلى أن نتبادل أطراف الحديث فيها.

أما المسألة الثانية التي تقتضيها المناسبة أيضاً فهي مناسبة زكاة الفطر، هذه شعيرة عامة – يا عباد الله – جعل الله سبحانه وتعالى منها باباً يلج فيه كل المسلمين تقريباً، ولكأني أرى الحكمة واضحة جلية

في هذا. الحكمة هي أن تمتد وشيجة الألفة، أن تمتد وشيجة الحب، شبكة المودة والقربى بين هذه الأسرة الإنسانية المسلمة، دون أن يشرد عنها شارد، ودون أن يشذّ عنها فرد من الناس.

زكاة الفطر شرعها الله سبحانه وتعالى وأوجبها على كل من دخلت عليه ليلة العيد وهو لا يزال حياً، إذن أصبحت زكاة الفطر هذه واجبة عليه، ومن وجبت عليه زكاة الفطر وجبت أيضاً عليه لمن تلزمه نفقته كالزوجة والأولاد، ويُسَن إخراجها كما تعلمون قبيل صلاة العيد، ويحرم تأخيرها عن يوم العيد، وهذا كلام مكرور نكرره ونذكر به في كل مناسبة، أما الشرط الذي لا بد منه لوجوب هذه الشعيرة فهي أن يملك الإنسان من المال ما يزيد على احتياجاته لنفسه ولأسرته في ليلة العيد ويومه، ومن ذا الذي لا تزيد ممتلكاته المالية على هذا الذي يحتاج إليه الإنسان؟ إذن ما منا إلا وهو مكلف تقريباً بإخراج زكاة الفطر، من كانت عنده نفقة أهله ونفقة نفسه التي يحتاج إليها ليلة العيد ويومه، ووجد مزيداً على ذلك، فقد وجب عليه إخراج زكاة الفطر.

وهنا أذكركم بسؤال يسأله كثير من الناس في كل عام: كم هي زكاة الفكر في هذه السنة؟ وكأن مقدار زكاة الفطر يختلف من عام إلى عام، من الذي قال هذا؟ زكاة الفطر لا تختلف من عام إلى عام منذ أن شرعها الله عز وجل إلى يوم القيامة؛ هي صاع من غالب قوت البلد كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، أي ملء صاع من قوت البلد التي يُخْرَج الزكاة فيها، هذه هي زكاة الفطر، وهذا هو مقدارها، لا تزداد ولا تنقص، وغالب قوت البلد كما تعلمون عندنا هو الحنطة، وصاع من الحنطة لا يزيد على ألفي غرام، وهو حديث مكرور ومعاد ذكرته مراراً وتكراراً، فلينظر كل واحد منكم كم يساوي هذا القدر من الحنطة من المال، وليخرج زكاة فطره بهذا القدر، هذا القدر لا يختلف من عام إلى عام، ولكن على كل منا أن ينظر كم هو ثمن هذا القدر من الحنطة في هذا العام، هل اختلف عن العام الماضي أو لم يختلف؟ هذا شيء يتعلق بالسوق ولا يتعلق بحكم الشرع.

هذه الشعيرة يا عباد الله هي شعيرة صغيرة في كَمها، ولكنها كبيرة جداً جداً في آثارها، وكبيرة جداً في نتائجها، ولكأن الله عز وجل يطلب منا من خلال هذه الشعيرة أن نفتح قلوبنا لإخواننا، وأن نزيل كل ما يمكن أن يتجمع في أفئدتنا من مشاعر البغضاء، من مشاعر الحقد والضغينة، وأن نحيل قلوبنا هذه

إلى قلوب نقية بيضاء، لا تجاه أقاربنا وأرحامنا، بل تجاه إخواننا المسلمين جميعاً، بل تجاه إخواننا في الإنسانية جمعاء، أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم، فاستغفروه يغفر لكم.



٣٥٢- بين يدي شهر رمضان المبارك | ٢٩/٠٨/٢٠٠٨

في مثل هذه الأيام وقبل حلول شهر رمضان المبارك بأيام قليلة وربما بساعات خَطَبَ رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبة جامعة فيما يرويه ابن خزيمة في صحيحه من حديث سلمان الفارسي كان في مقدمة خطابه قوله: ﴿أيها الناس قد أظلكم شهر عظيم مبارك، شهر فيه ليلة خير من ألف شهر، شهر جعل الله سبحانه وتعالى صيامه فريضة وجعل قيامه نافلة، جعل الله سبحانه وتعالى توجه العبد إلى الله بخصلة من خصال الخير بمثابة أداء فريضة في سواه والتقرب إلى الله عز وجل فيه بفريضة كالتقرب إلى الله سبحانه وتعالى بسبعين فريضة فيما سواه﴾.

عباد الله إن هذا الذي خاطب به رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس إنما خاطب به الأجيال كلها من خلال أصحابه البررة الذين كانوا يصغون إلى حديثه، وخطابه الذي قاله في مثل هذه الأيام يتضمن بيان أن هذا الشهر المبارك ينطوي على حقين اثنين مثبتين في عنق كل من آمن بالله وآمن برسله وكتابه، أما الحق الأول منهما فالقيام بالعبادات المتميزة عن غيرها في هذا الشهر المبارك وفي مقدمتها صيام أيامه وقيام لياليه، وقد نبه البيان الإلهي إلى هذا الحق بقوله في محكم تبيانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣] إلى آخر الآيات.

أما الحق الثاني فهو رعاية حرمة هذا الشهر ورعاية شعائره وعدم التعرض لشعائر هذا الشهر وقدسيته وحرمته بأي سوء وبأي ما يجرح أو يسيء أو يؤذي وقد نبه البيان الإلهي إلى هذا الحق الثاني ألا وهو رعاية شعائر هذا الشهر إذ قال: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]، الآية الأولى نبه فيها الله عز وجل إلى حق العبادة الكامن في أعناق الناس في هذا الشهر أما الآية الثانية فنبه الله عز وجل فيها إلى شعائر هذا الشهر وضرورة حراسته وعدم التعرض لحرمته وشعائره بأي سوء وصدق الله القائل: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

تعالوا يا عباد الله نقف وقفة قصيرة أمام كل من هذين الحقين الذي ينطوي عليهما هذا الشهر المبارك، العبادة المتميزة فيه عن العبادات الأخرى ما هي؟ هي الصوم أولاً يا عباد الله، وفيم تميز الصوم عن العبادات الأخرى حتى إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لنا في الحديث القدسي المتفق عليه: ﴿كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فهو لي وأنا أجزي به﴾، من أين انبثق هذا الفرق الكبير بين الصوم وبين العبادات الأخرى؟ سائر العبادات الأخرى عبادات ظاهرة تتلبس بالأعضاء حركة ذهاباً، إياباً، قياماً، قعوداً، أعمال مجلوة أمام الأبصار ومن ثم فإن قيادة هذه الطاعات وهذه العبادات بيد صاحبها، بإمكانه أن يجعلها صافية عن الشوائب وأن يتوجه بها إلى هدف واحد هو استنزال مرضاة الله فقط وبإمكانه أن يجعلها مطية لمغانمه ومصالحه وأهدافه الدنيوية أي بإمكانه أن يجعل أعماله كلها مرآة للناس، أما الصوم فهو عبادة سلبية لا يتراءى فيها شيء أمام الأنظار ومن ثم فإن الرياء لا يمكن أن يتسرب إلى صوم حقيقي صامه الإنسان من الصباح إلى المساء، لا يتأتى ذلك، المرائي الذي يري الناس أنه صائم سرعان ما يدخل إلى داره ويغلق الباب وراءه ويأكل ويشرب كما يشاء ومن ثم فهو ليس بصائم، أما ذاك الذي يصوم حقاً ويمسك عن الطعام والشراب من لمعة الفجر إلى المساء فلا يمكن إلا أن يكون عمله لله سبحانه وتعالى، هذا معنى حبيبنا المصطفى في الحديث القدسي يروي عن الله: ﴿كل عمل ابن آدم له -أي هو الذي يقوده، بإمكانه أن يجعله صافياً من الشوائب وبإمكانه أن يجعله مطية لرغائبه الدنيوية- إلا الصوم فهو لي وأنا أجزي به﴾.

وإنني لأسأل الله لي ولكم أن يوفقنا لأداء هذه العبادة المتميزة عن سائر العبادات الأخرى على النحو الذي يرضيه وأسأله عز وجل أن يقلبها هدية منا ترتفع إلى علياء ربوبيته، تعالوا بنا إلى الحق الثاني، الحق المتمثل في حماية شعائر هذا الشهر، في حماية قدسية هذا الشهر، يتجلى واجب هذه الحماية الذي أناطه الله بأعناقنا يا عباد الله في أن ننبه أنفسنا وإخواننا جميعاً إلى أنه ما ينبغي أن تكون هنالك مجاهرة بالإفطار في الأسواق، في الميادين، في المرافق العامة المختلفة، المعصية التي يرتكبها الإنسان بينه وبين ربه سرعان ما يتوب الله عز وجل على فاعلها أما المعصية التي يجاهر بها الإنسان الناس بل يجاهر بها ربه فهي معصية خطيرة جداً تستنزل غضب الله عز وجل ربما لا على هذا المجاهر فقط بل الأمة كلها التي يوجد فيها هؤلاء المجاهِرون المسْتَهْتَرُون، ينبغي أن يقال لهؤلاء المجاهرين، ينبغي أن يقال لكل واحد منهم يا هذا

بوسعك أن تدخل دارك فتمارس معصيتك كما تشاء بينك وبين ربك ولربما غفرها الله لك أما أن تصر على أن تجاهر بهذه المعصية أمام الناس فإنه لون من أشنع ألوان الاستكبار على الله سبحانه وتعالى، ينبغي أن نتعاون جميعاً على أن نطهر أسواقنا، مرافقنا، ميادييننا من هذه المجاهرة التي تستنزل غضب الرب.

المظهر الثاني الذي تتجلى فيه حماية قدسية هذا الشهر وحماية شعائره هي ضرورة ألا يستعلن أصحاب المقاهي وأصحاب المطاعم بأنشطتهم المخالفة لهذا الشهر، المخالفة للعبادة الأولى المتميزة في هذا الشهر، مقاهٍ تُنْثَر مناضدها وكراسيها أمام الناس، أمام الغادين والرائحين والكل ينظر إلى مظاهر اختراق الناس لعشيرة هذا الشهر، ينبغي ألا يستعلن هؤلاء الناس بأنشطتهم هذه في هذا الشهر، وأنا لا أقول ينبغي إغلاق المطاعم، هنالك مرضى وهنالك سائحون ومسافرون ولكن ينبغي أن تُحْجَزَ النوافذ والأبواب لهذه المطاعم عن رؤية الرائين، ينبغي أن تحجب هذه المطاعم وأن يحجب دخائلها عن رؤية الناظرين الذاهبين والآيبين، هذا مظهر من مظاهر حرمة الشعائر ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج:٣٢].

شيء ثالث لا تتكامل رعاية شعائر هذا الشهر إلا به، لا تتكامل حماية قدسية هذا الشهر مظهراً إلا به هو ضرورة تنبيه أصحاب الأندية الليلية إلى أن يضعوا شيئاً من الكوابح بينهم وبين غضب الله عز وجل في هذا الشهر المبارك، الأندية الليلية نحن لا نتحدث عنها في الأوقات العامة ولكن لابد أن نُذَكِّرَ أنفسنا ونذكر إخواننا جميعاً تذكرة تنبثق من حب، تذكرة تنبثق من غيرة نقول لهم أيها الإخوة في هذا الشهر المبارك أعرضوا عن نواديكم، توجهوا إلى الله، أصلحوا ما بينكم وبين الله، اجعلوا بينكم وبين الله إن لم أقل جسراً، اجعلوا بينكم وبين الله خيطاً لعل هذا الخيط يفيدكم عند الموت، لعل هذا الخيط يشدكم إلى رحمة الله عند الفوت، عند الرحيل من هذه الحياة الدنيا، ما لهذه النوادي تتكاثر ثم تتكاثر في ضواحي شامنا القدسية العزيزة.

أيها الإخوة ينبغي ألا نُحَمِّلَ مسؤولياتنا مشاجب غيرنا ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام: ١٦٤]، إنها مسؤولية كل فرد فرد، أقولها لنفسي وأقولها لكم وأقولها لسائر الإخوة ينبغي أن نتقي غضب الله، هذا الذي أقوله لكم إن لم ننتبه إليه وإن لم نراعي شعائر هذا الشهر والقدسية المتلألئة لهذا الشهر فإننا نستنزل بذلك غضب الله وإذا تعرضت الأمة لغضب الله فحدث عن المصائب التي قد يبتليها الله سبحانه

وتعالى من جراء هذا الغضب ولا حرج، نحن أمة نعاني من مشكلات، نحن في شامنا هذه متعَرَّضُون لكل أنواع الأذى بسبب مواقفنا الصامدة، بسبب استقامتنا على الواجب القدسي الذي أمر الله عز وجل به والذي تستلزمه حماية الأمة، حماية الأرض، حماية العرض، حماية حرية الذات ومن ثم فإن الخطط الرامية إلى الإيقاع بنا كثيرة يا عباد الله، ما الخلاص منها؟ لابد من القيام بالواجبات المادية والإعداد كما قال الله ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [لأنفال: ٦٠]

لكن ذلك كله بمثابة الجسد، أرأيتم إلى جسد انفكت عنه روحه ماذا عسى أن يصنع هذا الجسد، روح هذه الجهود كلها إنما تتمثل في الالتجاء إلى الله، تعالوا بنا يا عباد الله نهتبل فرصة هذا الشهر المبارك نطرق باب الله بذل العبودية له وقد أُبْنَا جميعاً إليه واصطلحنا جميعاً معه وجددنا البيعة لمولانا الأجل الأوحد على كل المستويات، على كل الأصعدة نتضرع إليه، كلنا عبيد، كلنا مملوكون لله عز وجل نستنزل نصره، نستنزل رضاه، نستنزل إكرامه، نتعرض لاستجابته للدعاء، وشهر رمضان شهر الاستجابة للدعاء أيها الإخوة.

هما ثلاث آيات، الآية الأولى أمر الله سبحانه وتعالى فيها العباد بأداء حق العبادة في هذا الشهر، الآية الثانية أمر الله سبحانه وتعالى فيها عباده بحماية قدسية هذا الشهر، بحماية شعائر هذا الشهر، أما الآية الثالثة فهي بشارة من الله للعباد، هي هدية من الله للعباد عندما يصومون وعندما يرعون حق هذا الشهر ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦]، انظروا إلى تساوق هاتين الآمرتين ثم انظروا إلى الهدية التي يكرمنا الله عز وجل بها عندما نؤدي الواجب الأول ونؤدي الواجب الثاني، الدعاء مستجاب، الالتجاء إلى الله عز وجل مجاب، التجئوا إلى الله بصدق، أقولها لنفسي وأقولها لكم وأقولها لأمتنا جمعاء بدءاً من قادتنا إلى القاعدة الشعبية فيها تعالوا إلى باب الله ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الذريات: ٥٠]

ولسوف تجدون مظاهر التوفيق، مظاهر الحماية، مظاهر التأييد بكل أنواعه يكرم الله عز وجل بها هذه الأمة أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

٣٥٣- الفساد المستشري | ٢٠٠٨/٠٩/١٢

يتفاقم في هذه الأيام من هذا الشهر المبارك الحديث عن الفساد المستشري في كثير من مجتمعاتنا العربية والإسلامية لاسيما ذلك الذي يتمثل في اتساع الهوة وعمقها بين فئات الأغنياء الموسرين وبين أصحاب الضرورات المعيشية من الفقراء المعوزين، وكثيراً ما عوتبتُ لتقصيري في الحديث عن هذه المشكلة وعدم معالجتها، والحقيقة أن الذي كان ولا يزال سبباً لتقصيري في معالجة هذه المشكلة أنني إذا أردت أن أتحدث عن الداء فلا بد أن أُتْبِعَ الحديث عنه بوصف الدواء والذي أعتقده أن الذين ينبغي أن يستعملوا الدواء معرضون عنه ولسوف يظلون معرضين عنه ومع ذلك فإنني أتصور أنني ربما كنت مبالغاً في إساءة الظن.

وهاأنذا سأحاول في هذا الموقف يا عباد الله أن أتحدث عن هذه المشكلة وأرسم العلاج الذي لابد منه للتغلب عليها، أما وصف المشكلة، وصف الفساد المستشري فأعتقد أنه لا داعيَ إلى الإطالة في ذكره فالحديث عنه مكرور ومعاد ومكرر وقد شبعت الآذان والأسماع من الحديث عنه أما الدواء الناجع الذي لابد منه فقد لخصه المصطفى صلى الله عليه وعلى آله وسلم في كلمات يسيرة وذلك في الحديث الذي يرويه أحمد والترمذي وأبو داود والحاكم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أنه صلى الله عليه وسلم قال: ﴿من لا يَرْحَمْ لا يُرْحَمْ، الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمْكم من في السماء﴾.

هذا هو العلاج باختصار أيها الإخوة وموقفي الساعة أن أشرح هذا الملخص الذي ذكره لنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، إن الرحمة التي نبَّهَنَا إليها رسول الله وأمرنا بها تتمثل في درجات كثيرة متتابعة أدناها وأولها أن يؤديَ المسلمون الموسرون حقوق الله سبحانه وتعالى في أموالهم لأصحاب هذه الحقوق وذلك يتمثل في زكاة المال، هذه هي الدرجة الدنيا والأولى من التراحم الذي نبهنا إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد أوضح لنا البيان الإلهي أن هذا الحق المتمثل في ما يتصور أنه مال للغني هو ليس ماله وإنما هو مال ذلك الفقير أُودِعَ في صندوقه، ﴿وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ [النور: ٣٣]،

﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧]، فهل الموسرون أو أكثرهم يؤدون هذا الحق المتمثل في صناديقهم وأموالهم لله عز وجل عن طريق إعطائه للمعوزين والمحتاجين؟

أنا أقول لكم يا عباد الله بصريح القول: على الرغم من أن كثيراً من الموسرين يتسابقون إلى إقامة المآدب الكبيرة في المزارع الواسعة بالمناسبات المختلفة التي تمر فإن هذا الكرم يختفي ويظهر في مكانه الشح عندما يُدْعَى الواحد منهم إلى بذل حق الله سبحانه وتعالى في ماله، عندما يدعى الواحد منهم إلى بذل هذا الحق الذي أودعه الله سبحانه وتعالى في ماله أمانة للفقراء.

ما أكثر ما رأيت الكرم الذي يتلألأ عندما تلوح المصالح والمغانم الدنيوية والآمال التي من ورائها ثم كم رأيت كيف يختفي هذا الكرم المتلألئ وينتشر في مكانه الشح العجيب مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨]، ولربما اعتذر أحدهم بمثل ما اعتذر به المشركون من قبل، لربما قال قائلهم: لماذا أودع الله سبحانه وتعالى حق الفقراء في صناديق الأغنياء ثم طلب من الأغنياء أن يعيدوا هذا الحق إليهم؟ لماذا لم يضع هذا الحق رأساً في جيوب الفقراء؟ وصدق الله القائل وهو يروي حديث المشركين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [يّس: ٤٧].

ولربما قال قائل أيضاً يا عباد الله أين أنت من المؤسسات الخيرية الكثيرة التي تنثر وتنشر في كل يوم ربما مئات الوجبات الغذائية تطرق بها أبواب الفقراء والمعوزين؟ وأقول في الجواب: نعم وجزا الله هذه المؤسسات وأصحابها خيراً ولكن هذه الوجبات تشبع الجائع ولا تغني الفقير، ولله عز وجل حكمة عندما أمر بدفع زكاة المال المتمثل في السيولة المالية، ليس الهدف من المشرع أن يشبع الفقير الجائع على أن يبقى في مكانه يراوح في مكان فقره، ليس هذا هو المراد وإنما المراد من بذل هذا الحق للفقراء أن يتحول الفقراء شيئاً فشيئاً عن طريق ذلك إلى مستوى الغنى، والقاعدة الفقهية في هذا الأمر تقول: إذا أعطيتم فأغنوا، والوقت لا يتسع للحديث عن آداب إخراج الزكاة وكيف ينبغي أن تكون وكيف السبيل إلى أن يستغني بها الفقراء شيئاً فشيئاً ويتحولوا من الفقر إلى الغنى، أما الوجبات فهي تعود الفقير على أن يرضى ببؤسه وكأنه يسمع قول الشاعر: واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي.

يا عباد الله هذا هو الدواء الذي وصفه لنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ثم زاده بياناً عندما قال بصريح القول: ﴿إن الله فرض في أموال الأغنياء بالقدر الذي يسع فقرائهم ألا وإن الفقراء إذا جُهْدُوا فجاعوا وعروا لن يكون ذلك إلا بما يفعل أغنياؤهم، ألا وإن الله محاسبهم حساباً شديداً فمعذبهم عذاباً كبيراً﴾، فرق كبير بين أن أبذل المال في سبيل أن أحقق لنفسي هالة بين الناس وفي سبيل أن أتصيد من وراء ذلك مصلحة دنيوية أخطط لها وبين أن أتعامل مع الله في خلوة لا يراني إلا الله سبحانه وتعالى، أنظر إلى المال الذي متعني الله عز وجل به وأصغي إلى قوله: ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧] وأقول بيني وبين ربي إذاً أنا خليفة على هذا المال عنك يا رب، هو ليس مالي ولكنه مالك ائتمنتني عليه لبيك لبيك يا مولاي، إن للفقراء، بل هو لك، حقاً في هذا المال فلسوف أُخْرِجُ هذا الحق بحساب دقيق بل أزيد عليه وألقى هؤلاء الذين ابتليتني بهم وأنت القائل: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً﴾ [الفرقان: ٢٠].

أخرج فأطرق باب هؤلاء الإخوة وأنا أشعرهم بأنهم هم المتفضلون عندما يقبلون هذا الحق وأشعرهم بالأخوة السارية بيني وبينهم وأنا في هذا إنما أتعامل مع الله عز وجل ولكأني بهذا الغني وهو يعطي حق الله عز وجل لهؤلاء المعوزين يقول للواحد منهم أنا لم أعطك هذا المال لكنه أعطيت لله ولكأن الفقير يقول وأنا لم آخذه منك وإنما أخذته من الله، عندما يرقى المجتمع إلى مستوى هذا التراحم فاعلموا أن المشكلة تذوب وتمحي، علاج هذه المشكلة التراحم يا عباد الله، وإن صوم رمضان معين بل ينبوع لهذا التراحم، إذا شعر الصائم بالجوع أيقظه الجوع إلى عبوديته لله وعلم أنه محبوس عن الطعام والشراب بسبب عبوديته لله، ثم إن عبوديته لله إذا استيقظت ساقته إلى الرحمة، عبودية تنبثق من الصوم والرحمة تنبثق من هذه العبودية، ولكن ماذا أقول؟ كثير من هؤلاء الصائمين الموسرين يتعرضون لنفحات الرحمة الإلهية في النهار من خلال صومهم ولكنهم في المساء يتعرضون للملهيات والمنسيات ويقبلون إلى ما يسمى بالسهرات الرمضانية في الليل، في النهار تنتعش أرواحهم بمشاعر العبودية الراحمة وفي المساء تعود فتقسو قلوبهم بسبب هذه السهرات الرمضانية التي لا داعيَ إلى أن أصفها لكم.

يا عباد الله اجعلوا سهراتكم الرمضانية قربة إلى الله، لا تجعلوها قربى إلى النفس وغوائلها، اجعلوا سهراتكم الرمضانية سهراتٍ تنفقونها ركعاً وسجداً لله سبحانه وتعالى، اجعلوا سهراتكم الرمضانية بيعةً

جديدة مع الله عز وجل تجددون فيها التوبة، تجددون فيها الاستغفار وأنا أعلم أن الله عز وجل يقول لبيك، أسأل الله عز وجل أن يُقْدِرَنَا على استعمال العلاج، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.



٣٥٤- الثبات على الاستقامة | ٢٠٠٨/٠٩/٢٦

ما هي إلا أيام ثلاثة ولسوف يغيب عنا إشراق هذا الشهر المبارك ولسوف ينطوي عنا بساط أنسه ولسوف تتحول أيامه إلى ذكريات تطوف بالأذهان ولكن سنة الله سبحانه وتعالى ماضية في كونه وخلائقه، لابد أن يتكرر هذا الشهر كل عام ما دام كل من الفرقدين، الليل والنهار، يتناوبان ومادام الفلك يقوم بالواجب الذي أناطه الله سبحانه وتعالى به ولكن إذا عاد هذا الشهر وانتشر إشراقه مرة ثانية في ربوع الأرض ترى أنكون نحن ممن يعيش ولا يزال على ظهرها أم سنكون ممن تحولوا إلى جثة هامدة داخل بطنها؟ هذا مما لا يعلمه أي منا قط ولا يملك الإنسان أي مقياس يدل على طول حياته أو قصرها، لا الشباب في حياة الإنسان برهان على طول حياته ولا الشيخوخة دليل على قصر حياته وأن الموت قد دنا منه، أمر مغيب اختص الله سبحانه وتعالى به ذاتَهُ العلية، إذاً فنحن لا نعلم هل بوسعنا أن نستقبل هذا الشهر مرة أخرى ونحن أحياء نتقلب فوق هذه الأرض أم لن يتاحَ لنا ذلك.

إذاً تعالوا يا عباد الله نبذل الجهد ونعاهد المولى سبحانه وتعالى على أن لا نفسد الصلاح الذي حققناه وعلى أن لا نتحول إلى الاعوجاج بعد الاستقامة على أمر الله، المفروض يا عباد الله أننا اصطلحنا مع الله عز وجل في ظلال هذا الشهر، جددنا البيعة له، استغفرناه من ذنوبنا كلها، والشيء الذي لا نرتاب فيه أن الله سبحانه وتعالى قد قبل أوبة الآيبين وقبل توبة التائبين وغفر للمستغفرين.

فيا عباد الله ينبغي على كل منا أن يبذل قصارى ما يملك من جهد في سبيل ألا تعود هذه الصفحة البيضاء النقية بعفو الله ومغفرته إلى شائبة سواد بعد ذلك بسبب سوء السلوك، علينا أن نعاهد الله عز وجل على الثبات على ما قد اصطلحنا عليه معه من أجل أن نرحل إلى الله عز وجل وصحائفنا بيضاء نقية ولا ندري متى تكون ساعة الرحيل إلى الله، لا ندري أهي بعد أيام أو بعد ساعات أو بعد أشهر أو سنوات، رزقنا الله سبحانه وتعالى حسن الأوبة إليه ورزقنا المغفرة التامة من خلال هذا المغتسل النقي في ظلال هذا الشهر المبارك فما ينبغي أن نفسد ما أصلحنا وما ينبغي أن نسلك طريق الاعوجاج بعد الاستقامة التي عاهدنا الله سبحانه وتعالى عليها، ولكن لعل فينا من قد يسأل فكيف السبيل إلى أن نظل

على هذه الاستقامة مترفعين فوق المغريات والأهواء والشهوات؟ كيف السبيل إلى أن نحافظ على ذخر هذا الشهر الذي أورثنا الله عز وجل إياه إلى أن تحين ساعة الارتحال إليه؟

السبيل يا عباد الله يمكن أن يلخص بواجبين اثنين أولهما أداء حق الربوبية الكامن لله في أعناقنا، الثاني أداء حقوق العباد لله سبحانه وتعالى علينا، أما حق الله سبحانه وتعالى فإمكاننا أن نحققه وأن نصطبغ به بطريقة واحدة هي جماع الأمر كله ألا وهي أن نصطبغ بحقيقة العبودية لله سبحانه وتعالى، أن نستيقن أننا عبيد مملوكون لله عز وجل لا يتأتى منا سعي إلى نفع أو ابتعاد عن ضر إلا عن طريق كرم الله سبحانه وتعالى ومَنْحِهِ وعطائه بحيث ندرك أننا ممن قال الله سبحانه وتعالى عنهم في محكم تبيانه: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، بحيث نعلم وندرك أننا ممن قال الله عز وجل عنهم: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ﴾ [المائدة: ٥٥].

إذا أدرك الإنسان عبوديته الضارعة الكاملة لله سبحانه وتعالى أدرك أن له ولياً واحداً لا ثاني له هو الله جل جلاله ذاك الذي أنا عبده، عبوديتي لله عز وجل تساوي ولايته لي، عبوديتي لله عز وجل تستلزم الدخول تحت سلطان ولايته لي، هو وحده وليٌّ من دون الخلائق أجمع، هو المالك لأمري، هو الذي يقودني ويتصرف بي كما يشاء، إذا أدركنا هذه الحقيقة وهيمن هذا اليقين على مشاعرنا وعلى قلوبنا فإن الاستقامة على دين الله تصبح أمراً يسيراً، وحراسة الصحيفة النقية أن تبقى نقية تصبح أمراً بسيطاً وسهلاً، وإذا رحل هذا الإنسان المصطبغ بذل عبوديته لله إلى الله لقي رباً كريماً غفوراً رحيماً حتى وإن زلت به القدم في الطريق، حتى وإن تغلب عليه الوقوع في الخطأ وهو يسير إلى الله عز وجل، عبوديته تشفع له، ولكن لعل فينا من يقول فأنى لي أن أصطبغ بهذا الشعور؟

سبيل ذلك سهل سائغ يا عباد الله، سبيل ذلك أن يشعر الإنسان فاقَتَه وفقرَهُ الكلي، وهل من صعوبة في استشعار الإنسان بذلك، هل في الناس من يخيل إليه أنه القوي الذي لا يُغلَب، أنه الغني الذي لا يفتقر، أنه الباقي الذي لا انتهاء له، كلنا نعلم بعد الإيمان بالله عز وجل أن حياتنا لحظةً فلحظةً فلحظةً إنما تأتي بمدد من الله عز وجل وأن عافيتنا لحظة فلحظة فلحظة إنما تأتينا بإمدادٍ من الله سبحانه وتعالى وأن المال الذي يأتيك والذي تتخيل أنك تملكه إنما يكرمك الله سبحانه وتعالى به كما يشاء، يرزقك إن شاء ويستل الرزق الذي أعطاك إياه في لحظة واحدة يستله منك إن شاء، إذا أدركت فاقتك

هذه وإذا أدركت أنك لا شيء في مملكة الله ولكنك كل شيء بعطاء الله سبحانه وتعالى دخلت في باب العبودية لله سبحانه وتعالى وأدركت أنك عبد مملوك لله سبحانه وتعالى، وإذا دخل الإنسان في ساحة العبودية لله عن طريق شعوره بفاقته الحقيقية وافتقاره الدائم فإن عبوديته لله تسلمه إلى محبة الله عز وجل، بينهما تلازم لا انفكاك له يا عباد الله.

عرفتُ أني عبد مملوك لله وأن كل ما يأتيني إنما يأتيني برفد من الله سبحانه وتعالى وأن الله عز وجل إذا شاء أخذ ما وهب واسترد ما أعطى، عندما أدرك هذا وأنظر فأجد أن العافية التي أتمتع بها من فرقي إلى قدمي وأنظر فأجد الوعي الذي يكرمني الله عز وجل به في رأسي وأنظر إلى السمع الذي أتمتع به والبصر الذي يكرمني الله عز وجل به واللسان الذي يتدفق كلاماً في فمي كما تسمعون وعندما أنظر فأجد أن رقادي إنما يأتيني بفضله ويقظتي بعد ذلك إنما تأتيني بإكرام منه والمال الذي يأتيني إنما يأتيني بإكرامه وعطائه فإن هذا يفجر مشاعر الحب لله الذي أعطى والذي أنعم والذي بيده كل شيء، ومن هنا كان الإنسان الذي يرى الدنيا التي من حوله متمثلة في المغريات والشهوات والأهواء فيمنحُهَا قلبَهُ حباً بدلاً من أن يمنح قلبَهُ مولاه الذي أعطاه هذه النعم، هذا الإنسان لئيم، هذا الإنسان بعيد عن رحمة الله عز وجل، وصدق الله القائل: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

هذا الكلام يُقَال لنا ومعناه أيها الناس ادخلوا في باب العبودية لله تنقلكم العبودية لله عز وجل إلى صعيد المحبة لله وعندئذٍ تضعون أرزاق الله وعطاءه وراءكم ظهرياً وتلتفتون بالحب والتعظيم والمهابة إلى المنعم هذا الله أعطاك، وصدق الله القائل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، هذا هو السبيل الأول لبقاء صحائفنا بيضاء نقية عند رحيلنا إلى الله عز وجل، أن نصطبغ بحقيقة العبودية لله، سبيل ذلك أن نعلم فاقتنا وفقرنا لله عز وجل، هذه الفاقة تدخلنا في باب العبودية وباب العبودية تسلمنا إلى الحب للواحد الذي لا ثاني له.

فإن قست القلوب يا عباد الله، وإن كان هذا الكلام غير كافٍ لكي نعلم هوياتنا فنصطبغ بها ونقف في محراب العبودية لله فإني أنصح هذا الإنسان أن يغدو في يوم ما إلى أي مشفى قريب منه لينظر

إلى شحوب المرضى وأشكالهم المضنية، ليصغي السمع إلى أنَّاتِهِم المرتفعة إلى عنان السماء وليتصور كيف كان كل واحد من هؤلاء المرضى قبل أيام أو شهور ولْيَعُدْ إلى نفسه فليتساءل أهو ضامن إذا أمسى ذات ليلة ألا يصبح وقد توضع مرض من هذه الأمراض بين جوانحه، هل يملك قوة ذاتية لرد هذه الغائلة عنه، هل يملك وسيلة ليتسامى بها عن هذه الحال.

فإن كان القلب أقسى من أن يزجه هذا المنظر في هويته ويعود إلى نفسه مؤمناً بأنه عبدٌ لله فليسر مع جنازة من الجنائز التي ينتظر بها الحفرة التي فتحت فمها له، ما الذي يوجد داخل هذا الصندوق الذي يحمل إلى حفرته، لعله فتاة كانت أثناء حياتها مضرب المثل في الجمال، كانت تتمتع بقامة ميساء، كان يُضْرَبُ بها المثل ما بالها اليوم وقد أصبحت هيكلاً عظمياً يثير منظره الرعب، أو لعل ما في داخل هذا الصندوق قائد عظيم، إنسان مهيب كان بالأمس إذا حكم خضع الجميع لحكمه وإذا سار دخلت هيبته في قلوب الرائين له، يقضي بما يشاء ويحكم بما يريد، ذا صولة وصولجان، ما باله اليوم! أصبح متمدداً داخل هذا الصندوق قفصاً عظمياً لا حراك به، ألست أنت الذي ستؤول إلى هذه الحال! إذاً أنت في قبضة كائل، من هو هذا الذي أنت في قبضته، إنه الله، إنه مولاك ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [محمد: ١١].

فإذا كان هذا الذي أقول هو أيضاً لا يرقق قلبك ولا يعيدك إلى هويتك فاعلم أنك إذاً ممن قال الله عز وجل عنهم: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤].

هذا هو السبيل الأول؛ أداء حق الله، حق الله يتمثل في العبودية لله وعبوديتك لله تسلمك إلى الحب لله وحبك لله يزجك في سعادة ما مثلها سعادة، أما الشرط الثاني فيتمثل في أداء حقوق العباد ولكن لعل الوقت يا عباد الله ضاق عن الدخول في الحديث مفصلاً في هذا الشرط الثاني فلنرجئ الحديث عن حقوق العباد وما أناطه الله في أعناقنا تجاههم إلى فرصة قادمة، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم فاستغفروه يغفر لكم.

٣٥٥- حقوق شهر رمضان على المجتمع | ٢٠٠٩/٠٨/٢١

حقيقة لَفَتُّ إليها الأنظار بالأمس، وأرى أن من الخير أن ألفتَ إليها أنظاركم أنتم أيضاً اليوم، ولعلي سأعيد بيان هذه الحقيقة وسألفت الأنظار إليها في كل مناسبة خلال شهر رمضان المبارك هذا. شهر رمضان الذي وفد إلينا من جديد هو ضيف كما تعلمون، وفد إلينا من عند رب العالمين سبحانه وتعالى، وإنه لمن المعلوم أن من شأن أولي المروءات وأصحاب الشهامة أن يكرموا ضيوفهم الإكرام اللائق بشهامتهم، الإكرام اللائق بمشاعرهم الإنسانية وبمروءاتهم، فكيف عندما يكون هذا الضيف وافداً إلينا من لدن رب العالمين سبحانه وتعالى.

أنا لا أريد أن أحدثكم في هذه المناسبة عن الحقوق التي أناطها الله عز وجل في أعناق الأفراد أمام مَقْدَمِ هذا الضيف، هذا الشهر المبارك الذي خلَّدَ القرآن الكريم اسمه كما لم يذكر اسم أي شهر آخر من أشهر العام، لن أتحدث عن حقوق هذا الشهر في أعناق الأفراد، الصيام معروف، واجب أناطه الله في عنق كل فرد منا، قيامه الذي ندبه إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم، قيام ليله معروف، الإقبال فيه إلى الأذكار وإلى الإكثار من تلاوة القرآن أيضاً معروف، والابتعاد فيه عن المحرمات كل ذلك أمر معروف، ولكني أريد أن أحدثكم عن حقوق هذا الشهر على المجتمع، وإنما أعني بالمجتمع الشخصية الاعتبارية كما يُعَبِّرُ القانونيون، أعني بالشخصية الاعتبارية للمجتمع أسواقه، شوارعه، ميادينه، حوانيته، دوائره الرسمية، أبهاء الفنادق التي فيه، هذا ما أعنيه بكلمة المجتمع، والمجتمع بهذا المعنى الذي أقوله لكم إنما هو شخصية اعتبارية تختلف عن الأفراد الذين خاطبهم البيان الإلهي بواجبات هذا الشهر، كما أن على الأفراد أن يصوموا شهر رمضان، فعلى المجتمع هو أيضاً أن يصوم هذا الشهر، وصيام المجتمع لرمضان يختلف اختلافاً جذرياً عن صيام الأفراد من أمثالنا لهذا الشهر.

معنى صيام المجتمع لشهر رمضان المبارك أن تدخل إلى أسواقه فلا تجد فيه ما يتنافى مع قدسية هذا الشهر، مهما نظرت يميناً أو شمالاً لن تجد ما يتناقض مع قدسية هذا الشهر، صيام المجتمع لشهر رمضان يعني أن تنظر إلى المطاعم والحوانيت المفتحة عن يمينك وشمالك فلا تجد فيها ما يتحدى شهر الصوم، لا

تجد فيها ما يتحدى شعار هذا الشهر، ما يتحدى قدسية هذا الشهر، معنى صيام المجتمع لشهر الصوم أن تدخل إلى دوائره المختلفة، فلا تجد أطباق الشاي وفناجين القهوة تدخل ملأى وتخرج فارغة، معنى صيام المجتمع لشهر رمضان المبارك أن تنظر إلى أبهاء الفنادق فلا تجد فيها من اللهو ما يتناقض مع قدسية هذا الشهر، لا تجد فيها من الصخب والانحطاط إلى أسوأ معاني ما يسمونه الفن ما يتناقض مع قدسية هذا الشهر المبارك.

وأنا أريد أن أُذَكِّرَ نفسي وأذكركم وأذكر مجتمعاتنا أن الله عز وجل كما أمر الأفراد بصيام هذا الشهر، ومعنى صيام الأفراد له معروف، كذلك أمر المجتمع من حيث هو شخصية اعتبارية أن يتمثل هو أيضاً فيه شهر رمضان، أن يكون هو أيضاً من الصائمين في هذا الشهر المبارك، أما أن أسير في المجتمع، أسير في شوارعه، أسواقه، ساحاته، ميادينه فأنظر وإذا بي أجد بين كل آنٍ وآخر من يشرع دخينته إلى فيه في صَلَفٍ وفي استكبار وإباء، ناسياً أنه يتقلب في أقدس شهر من شهور العام، فهذا يعني تمزيق قدسية هذا الشهر، وهذا يعني تمزيق شعيرة هذا الشهر المبارك وربنا يقول: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢]. نعم، إذا دخلت إلى دائرة من الدوائر، وظننت أنك ودعت رمضان خارج هذه الدائرة، أما في داخلها فأنت في شهر آخر من أشهر العام، فاعلم أن المجتمع إذاً لم يصم الصوم الذي كلفه الله عز وجل به.

وهنا أحب أيها الإخوة أن أضعكم أمام حقيقتين كي لا يقع الالتباس بينهما في ذهن أيٍّ منا، فرق كبير بين أن يعصي العبدُ ربَّه بينه وبين مولاه، يفطر ولا يصوم الشهر، يعرض عن الصلاة التي أمره الله عز وجل بها لا يصليها، لكنه يفعل ذلك بينه وبين مولاه، هذه المعصية أَمْرُهَا إلى الله، والمجتمع لا يتدخل فيها إلا بطريقة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبشرط أن يكون ذلك مضمخاً أيضاً باللطف وبالحكمة والموعظة الحسنة، وليس لأحدنا أن يجبر عاصياً الإقلاعَ عن معصيته، لكن علينا أن ننصح، وعلينا أن نُذَكِّرَ بدافع من الغيرة والشفقة والحب، هذا عن المعصية التي يرتكبها الإنسان بينه وبين مولاه وخالقه، أما أن يجاهر الإنسان بالمعصية، يخرج في بياض أيام رمضان، والناس صائمون، وقدسية هذا الشهر تتألق، فيأبى إلا أن يعلن معصيته هذه، ويأبى إلا أن يرفع دخينته -كما قلت لكم- إلى فيه مستكبراً مبرراً معرضاً عن قدسية هذا الشهر، معرضاً عن الأذى الذي يواجه به مشاعر الصائمين، الإجهار بالمعصية معصية

مستقلة، ولربما لا يغفرها الله، أما المعصية التي يجترها الإنسان بينه وبين مولاه وخالقه، فما أوسع باب المغفرة، ولا نملك أمامها إلا ما قد حدثتكم، ولكن عندما نجد أن هذا الضيف العزيز قد وفد إلينا من لدن مولانا رب العالمين سبحانه وتعالى.

وقد ذَكَّرَنَا ربُّنا في سورة البقرة بحقوق هذا الشهر في أعناقنا، ذَكَّرَنَا بقدسية هذا الشهر التي ينبغي أن يصطبغ بها مجتمعنا، عندما نجد من يأبى أن يفطر هذا اليوم بينه وبين نفسه، بل يُصِر على أن يجاهر بإفطاره هذا لكي يشفي غليله بتمزيق قدسية الشهر، ولكي يشفي غليله بالإساءة إلى مشاعر الصائمين، فهذا صاحب جنحة يُعَاقَبُ عليها، لأنه ارتكب مما ينبغي أن يُعَاقَبَ عليه أمرين اثنين؛ تمزيق قدسية الشهر، والإساءة إلى مشاعر الصائمين، فهو يتحداهم، وهو يبرز لهم نوعاً من المحاربة لمبدئهم، نوعاً من الحرابة لالتزامهم بأوامر الله، وهو يعلن بذلك عن استخفافه لدين الله عز وجل وشرعه، وهو لون من ألوان الاستكبار الذي يحذر بيان الله عز وجل منه.

هذا ما ينبغي أن أُذَكِّرَ نفسي وأُذَكِّرَكُم به، ينبغي أن نكون حراساً على مجتمعاتنا لكي تكون مجتمعاتنا هي الأخرى صائمة كما يصوم الأفراد، صوم الأفراد معلوم وصوم المجتمع حدثتكم عنه.

وإني لأَذْكُرُ عهداً مرَّ بهذه البلدة المباركة كان الذي يُتَلَبَّسُ بالمجاهرة بالإفطار في الأسواق والشوارع هكذا علناً كان يُسْجَنُ إلى آخر هذا الشهر، لأنه تلبَّسَ بأمرين اثنين ينبغي أن يُعَاقَبَ عليهما؛ أولاً تمزيق قدسية هذا الشهر، ثانياً الإساءة إلى مشاعر الصائمين، وكأن رب العالمين يقول له: يا هذا كان بوسعك أن تدخل دارك فتأكل ما طاب لك من الطعام، كان بوسعك أن تمارس إفطارك بينك وبين مولاك، ولعلك تجد رباً كريماً غفوراً يغفر لك، أما أن تضيف إلى هذا الذي فعلته الاستكبار على الله بالمعصية، الاستكبار على المجتمع الصائم المصطبغ بقدسية هذا الشهر، فهذا أمر آخر، والعقاب عليه عند الله عز وجل وبيل، وصدق الله القائل: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً﴾ [الأعراف: ١٤٦] هذا كلام الله، والاستكبار إنما يكون بأن يعصي العبد ربه مع الصلف والتبرير والاستخفاف، هذا معنى الاستكبار الذي يحدث عنه بيان الله.

عباد الله، لقد وفد هذا الشهر المبارك مرة أخرى، ولا ندري هل نعيش عودته ثانية أم لا، لعلي أنا ممن لن يعيش عودته ثانية، إذاً فلننتهز الفرصة، إن كنا تائهين تعالوا ننهي أيام تيهنا، تعالوا نصطلح مع ربنا عز وجل، إن كنا شاردين ملتبسين بالعصيان تعالوا نطهر أنفسنا من دنس هذا العصيان، مغتسل التوبة أمامنا موجود، وباب الرجوع إلى الله مفتوح، ولاسيما هذا الشهر المبارك الذي جعله الله عز وجل مثابة رجوعٍ إلى الله واصطلاح مع الله سبحانه وتعالى. غداً إذا طرق بابنا ملكُ الموت وآذنَنَا بالرحيل نكون قد أخذنا معنا إلى الله عز وجل بطاقة التوبة، بطاقة الإنابة إلى الله، أقول هذا لنفسي ولكل فردٍ منكم على كل المستويات وعلى كل الدرجات، نحن راحلون، نحن ذاهبون من هذه الحياة الدنيا، نحن نعيش في مستودع وغداً نتجه إلى المستقر ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ [الأنعام: ٩٨]، يا عباد الله آتوا المستقر حقه كما أعطيتم المستودع الدنيوي أيضاً حقه.



أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

٣٥٦- مكيدة للصائمين في رمضان | ٢٠١٠/٠٨/١٣

أرأيتم كيف أقبل هذا الشهر المبارك، شهر الرحمة الإلهية - شهر النفحات القدسية - كيف أقبل إلى عباد الله عز وجل مصحوباً بألطافه العظيمة، أرأيتم كيف اختفى الحرور اللاهب وظهرت في مكان ذلك النسمات المنعشة في ليلٍ ونهار. ذلك هو نموذج لرحمة الله عز وجل ولطفه.

لقد توقع المتوقعون وخاف كثير من الناس من أن تُقْبِلَ واجبات هذا الشهر إلى عباد الله ممزوجة بشدة هذا الجو اللاهب ولكنهم أخطأوا إذ لم يعلموا سنن رب العالمين عز وجل. لقد تغلبت الألطاف الإلهية على التوقعات الجوية وعلى أرصادها.

فتعالوا — يا عباد الله — نشكر هذا الإله الخالق اللطيف العليم الشكر اللائق بذل عبوديتنا له، الشكر اللائق برحمته الغامرة وبلطفه الذي لا حدَّ له.

عباد الله إنكم: سمعتم الكثير الكثير عن الأجر العظيم الذي يناله المقبلون إلى الله عز وجل في هذا الشهر، يؤدون واجباته ويتحلون بآدابه، ولا أريد أن أعيد هذا الذي عرفتموه وسمعتموه مراراً وتكراراً، لكنني أريد أن الفت أنظاركم إلى حقيقة هي من الأهمية بمكان، إنه بمقدار ما يعظم أجر المقبلين على الله في هذا الشهر والذاكرين له والمصطبغين بآدابه فإن التائهين عن هذا الشهر والمعرضين عن واجباته وآدابه يتعرضون لسخط كبير قد لا يتوقعه أحدٌ من الناس.

وهكذا فإن معالم الرحمة الإلهية التي تمر بنا خلال هذا العام لها وجهان اثنان: وجه من الأجر العظيم يناله المقبلون إلى الله في هذه المعالم، ووجه آخر من السخط الإلهي القاتم يتعرض له المستخِفُّون بهذه المعالم والتائهون عنها، ألا فلتعلموا هذه الحقيقة يا عباد الله.

إذا علمتم ذلك فلتعلموا أن هنالك مكيدة تحاك لهذه الأمة ولعباد الله الصالحين خلال أحد عشر شهراً من العام، يعكف أصحاب هذه المكيدة من شياطين الإنس والجن على تحضيرها وحبكها من أجل أن تُصَبَّ هذه المكيدة في هذا الشهر، في شهر رمضان المبارك. ألا فاحذروا على أنفسكم من هذه المكيدة الرعناء التي يعكف على تحضيرها — كما قلت لكم — أحد عشر شهراً من العام لتُصَبَّ هذه

المكيدة في هذا الشهر فيتقطع عباد الله عز وجل منه ويُغَيَّبُوا من شهر رمضان وواجباته وآدابه ومن ثم ليتعرضوا للسخط الذي حدثتكم عنه.

إنها مكيدة المسلسلات التي تُصَاغُ – كما قلت لكم – خلال العام من أجل صبها في هذا الشهر، من أجل جعلها حجاباً يحجب العبد المسلم في هذا الشهر عن الله عز وجل، ينشغل بها ويعرض بها عن الله سبحانه وتعالى وهكذا يبوء بسخطٍ كبير من الله بدلاً من أن ينال الأجر العظيم بسبب ذكره لله وإقباله على الله عز وجل.

عباد الله: إن الإنسان لا ينأى عن الله عز وجل ولا يُحْرَمُ من رحماته بسبب المعاصي وإنما يُحْرَمُ من ألطاف الله عز وجل ويتعرض لسخط الله عندما يغيب عن ذكر الله عز وجل وعندما تلهيه مشاغل الدنيا وأهواؤها عن ذكره لله عز وجل، وتلك هي المكيدة التي أحدثكم عنها، ألا فاسمعوا ما يقوله الله عز وجل: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤] ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾. لم يقل من تورط في المعاصي، كل بني آدم خطاء والله يتوب على من تاب ولكن المعرض عن ذكر الله عز وجل بعيد عن رحمة الله، محكوم عليه بالاحتجاب عن ألطاف الله. ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى، قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً، قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى﴾ [طه: ١٢٤-١٢٦].

لا تُنْسِيَنَّكُم المسلسلات – وأقولها بصراحة – لا تُنْسِيَنَّكُم ذكرَ الله عز وجل، لا تُنْسِيَنَّكُم الإقبالَ على رحمات الله عز وجل التي تلاحقكم في هذا الشهر فتتحول رحماته في حقكم إلى سخط، أقولها وأنا أعلم ما أقول لكم يا عباد الله.

قاطعوا في هذا الشهر المبارك هذه الملهيات كلها وأنتم بذلك تحكمون بفشلها.

ما الذي يجعل هذه المسلسلات تنجح كما يقولون؟ إقبالكم هو سر نجاحها يا عباد الله.

ألا – وإني أخبركم – بأن في هذه المسلسلات ما توضعت فها أوبئة وأمراض خبيثة ستسري عما قريب إلى جسوم أصحاب هذه المسلسلات، منتجيها، مخرجيها، ممثليها، فإياكم وإياها. ابتعدوا عنها لا تصيبنكم عدواها يا عباد الله، وأنا أقول وأعلم ما أقول.

لقد علمت أن في هذه المسلسلات ما يستنزل غضب الله وسخطه بل مقته وعذابه، ولقد علمت أن هذه المسلسلات قد توضعت فيها جراثيم أوبئة وأمراض خبيثة ستسري عما قريب إلى جسوم أصحابها. ابتعدوا عنها، أنا ناصح، ابتعدوا عنها لا تصيبنكم عدواها يا عباد الله.

عباد الله: نحن خطاؤون وهكذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكنا – ولله الحمد – لسنا ممن يعرضون عن التوبة، قد نكون خطائين ولكنا في الوقت نفسه توابون بحمد الله.

فإذا كان الضعف قد حملنا على أن تزل بنا القدم بين الحين والآخر فلنداو هذه الحالة التي هي نتيجة ضعف وصفه الله عز وجل بنا فلنداو ذلك بالتوبة، فلنداو ذلك بالخضوع والالتجاء إلى الله سبحانه وتعالى. الله عز جل يغفر الذنوب، ومن ذا الذي يغفر الذنوب إلا الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

ولكن يغفر الذنوب جميعاً لمن أقبل إلى الله، لمن التفت إلى الله سبحانه وتعالى، وهذا الشهر مثابة التفاتة إلى الله، هذا الشهر دعوة من الله للعصاة والمارقين والمرتكبين للكبائر المختلفة يقول لهم الله: ألا أقبلوا إلي أصفح عنكم، ألا أقبلوا إلي أغفر لكم ذنوبكم، ألا أقبلوا إلي أُبَيِّض الصحائف السود من أعمالكم.

فما المطلوب منا؟ المطلوب منا ألا نغفل عن ذكر الله سبحانه وتعالى، ومعنى عدم غفلتنا عن ذكر الله أن يقودنا ذكره إلى التوبة أو أن يقودنا ذكره إلى الالتجاء إلى الله والتضرع على أعتاب الله.

سألني شاب منذ حين قال لي: أنا لا أحب أن أعصي الله لكنني ضعيف وشهواتي عارمة تتغلب عليَّ، أتوب إلى الله ثم إنني أعود إلى المعصية، ماذا أصنع؟ وأخذ يتضرع ويتوسل، قلت له: أرأيت إلى هذا الموقف الذي تقفه، قف هذا الموقف ذاته لكن لا أمامي ولا أمام عبدٍ مثلي ولكن أمام ربك، مولاك وخالقك، هذه الشكوى تقدم بها إلى من فطرك، إلى من ابتلاك بهذه الشهوات والأهواء، قل له: مولاي لا أحب أن أعصيك ولكنني مندفع بالشهوات التي ابتليتني بها فيا رب لا حول لي ولا قوة إلا بعونك، حررني يا ربي من هذه الشهوات والأهواء.

التجأَ إلى الله وهو عاصٍ وهو مسرف على نفسه، أي ذكر الله سبحانه وتعالى والتجأ وثابر على ذلك، أجابه الله لبيك، انتشله من أهوائه، انتشله من شهواته، انتشله من سوء حاله وأصبح الإنسان الذي يتلألأ قلبه طافحاً بتجليات الرحمات الإلهية، كلنا ذاك الرجل يا عباد الله.

شهر رمضان هو الفرصة التي يفتح الله عز وجل فيها الأبواب للعصاة، للمارقين، لمرتكبي الكبائر لكن لا للمستكبرين، لا للمعاندين، لا للذين يعكفون طوال العام على الكيد لدين الله، على الاستهزاء بكتاب الله، لا. هؤلاء أعلن البيان الإلهي في قرآنه أنهم مطرودون من رحمة الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٠] وأنا يكون ذلك.

هذه نصيحة أزجيها أولاً لنفسي ثم إنني أقدمها تقديم المحب لإخواني: قاطعوا ما يشغلكم عن الله في هذا الشهر، قاطعوا المسلسلات التي تُصاغ خلال العام لكي تبعد المسلمين في هذا الشهر عن الله سبحانه وتعالى.

وأنا أقول: إن هؤلاء الذين يوغلون في هذه الأعمال التي يحاربون بها الله قبل أن يحاربوا بها دين الله عز وجل، إنها نذيرٌ لعقاب شديد، إنها نذير لسخطٍ رباني أسأل الله أن يبعده عن هذه البلدة المباركة، نعم هي بلدة مباركة، ومعنى أنها بلدة مباركة أن الله أقام فيها من يكونون حراساً لدين الله، من يكونون حراساً لشريعة الله عز وجل.

بلدتنا لن تقبل مسلسلات تحارب دين الله وأنا أعلم ذلك يا عباد الله ولكن الفضائيات الكثيرة من حولكم ترسل ما تزال سمومها فكيف السبيل؟ السبيل أن تحصنوا أنفسكم.

هنالك مسلسلات توضعت فيها – وأنا أعني ما أقول – جراثيم لأمراض وأوبئة خبيثة ستسري عما قريب إلى جسوم أصحابها فإياكم وإياها، لا تعرضوا أنفسكم لعدواها.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

٣٥٧- بماذا نستقبل شهر رمضان المبارك | ٢٠١١/٠٧/٢٩

إن هي إلا ساعات ويكرمنا الله سبحانه وتعالى بمقدم شهره المعظم، شهر رمضان المبارك، وإنها لهدية ما أعظمَها وما أجلَّها، فما هو أول ما ينبغي أن نستقبل به هذا الشهر المعظم يا عباد الله؟

إنه التوبة، التوبة من سائر الأدران والمعاصي والآثام، أدعو إلى ذلك نفسي، وأدعو إلى ذلك قادة أمتنا لاسيما في هذه البلدة المباركة، وأدعو إلى ذلك المسلمين عامة، أدعوهم جميعاً إلى التوبة النصوح، إلى تجديد البيعة مع الله سبحانه وتعالى، إلى الاصطلاح مع أوامره وشرائعه وأحكامه، أدعو المتظالمين إلى أن يقلعوا عن الظلم أياً كان نوعه وأياً كان مصدره وأياً كان سببه.

أدعو قادة الأمة إلى أن يكونوا – وقد شرفهم الله سبحانه وتعالى بحراسة شعائر هذا الشهر ومعانيه وحقوقه وقيمه – وأدعوهم – وقد شرفهم الله بذلك – إلى حماية شعائر هذا الشهر، في الشوارع، في الميادين، في المحال، في الدوائر، وأُذَكِّرُ نفسي وأذكرهم بأن الله عز وجل أعطى الحرية للإنسان وللمسلم أن يستجيب لأمر الله فيصوم أو ألا يستجيب فيفطر، ولكن لا يجوز أن يجعل من حريته هذه سبباً يمزق به شعائر هذا الشهر، ما ينبغي أن يجعل من حريته هذه أداةً للاستخفاف وللاستهتار بحقوق هذا الشهر.

أدعوا المسلمين عامة إلى أن ينهضوا بحقوق هذا الشهر الذي شرَّفَنَا الله سبحانه وتعالى به.

أما الإمعان في الفتن التي سماها الله سبحانه وتعالى الهرج – أي القتل الذي يتسلسل بعضه من بعض دون مبرر له إلا الغيظ، إلا الثأر، إلا العصبية للمذهب وللطائفة – أما الإمعان بهذا الهرج – طبقاً للتسمية التي سماها رسول الله صلى الله عليه وسلم – فما أعلم أن مسلماً آمن بالله ورسوله وقرأ كتاب الله وعرف قيمة هذا الشهر يتوجه إليه بهذه اللطمة السوداء، ما أعلم أن مسلماً آمن بالله حقاً وآمن برسول الله حقاً وتلا كتاب الله سبحانه وتعالى ثم إنه يصر على أن يستقبل هذا الشهر بهذه اللطمة السوداء، وحاشى أن يَسْوَدَّ وجهُ رمضان الأغر لأي سبب من هذه الأسباب كلها يا عباد الله، فكيف إذا علم هذا المسلم بأنه إنما يحقق بهذه الفتنة التي سماها الله عز وجل الهرج إنما يحقق أماني العدوان الخارجي، إنما يستجيب للعدوان الخارجي المعلن والذي يهدف إلى اجتثاث الإسلام من أرضه ويهدف

إلى اغتصاب الحقوق والثروات من أصحابها. كيف يتأتى للمسلم أن يستجيب لهؤلاء الذين يمعنون في العمل على إهلاكه وإهلاك أمته ثم إنني أعلم أنهم يهدفون إلى اجتثاث هذا الدين الذي شرفني الله عز وجل به، يهدفون إلى اجتثاثه من الأرض، والذي قرأ تقرير وليم كليفورد الذي يعلن عن هذه الغاية يعلم حقيقة ما أقول ويعلم أنني لست مبالغاً ولا مفتئتاً.

مسلمون ويحاولوا أن يلطموا أَلَقَ هذا الشهر بهذه الفتنة التي سماها رسول الله صلى الله عليه وسلم الهرج؟!

مسلمون ويبايعون برنارد ليفي بدلاً من أن يبايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أن يبايعوا قِيَمَ هذا الشهر وحقوق هذا الشهر بل بدلاً من أن يبايعوا الله سبحانه وتعالى ويجددوا البيعة له، كيف؟!

مسلمون وتمتد أيديهم حكماً أو حقيقة إلى مبايعة، أجل برنارد ليفي ذي الشخصيتين المزدوجتين الإسرائيلية والفرنسية – هذا الذي يراهن على المصير الذي ينتظره لهذه البلدة الواحدة؟!

من هو هذا المسلم الذي يرضى أن يجعل من نفسه جنداً لهذا العدوان الخارجي العجيب الذي يهدف إلى تحطيم هذه الكتلة الواحدة لأمتنا في هذه البلدة المباركة ليحيلها إلى مُضَغٍ، إلى لقيمات تُمْضَغُ ثم تُبْتَلَع؟!

مسلمون ويُعَبِّدُون الطريق أمام هذا وأمثاله – ولا أريد أن أعيد ذكر هذه الأسماء – يُعَبِّدُون الطريق علانية أمام هذا وأمثاله للكيد لهذه الأمة متحققاً في دينها ودنياها معاً؟! لا يتأتّى هذا.

وأنا أقول – يا عباد الله – مسلمون ويمعنون في هذا؟! هذا مستحيل.

بين شهر رمضان الذي ابتعثه الله سبحانه وتعالى وعاء رحمة، وعاء تراحم وعتق من عذاب الله وبين هذا العمل الأرعن تناقض حاد لا يمكن أن يتحقق. ولكني أقول لهؤلاء الإخوة: كثيراً ما ينحط أحدنا وهو مسلم، وهو مؤمن بالله عز وجل في غفلات من جراء رعونات، من جراء أزمات نفسية، من جراء بطالة، من جراء أطياف شقاء تطوف بالرؤوس، كثيراً ما ينسى أحدنا هويته الإيمانية فيمعن وهو ناسٍ لحقيقته في السير في طرق من هذا القبيل لكنه سرعان ما يعود، سرعان ما يتذكر ولئن لم يوجد ما يذكره فيكفي أن يكون له من هذا الشهر – شهر الله عز وجل – ما يذكره من نسيان وما يوقظه من غفلة،

أجل إنني لأتصور ولا أتخيل، أتصوره حقيقة أن هؤلاء الإخوة سيستيقظون من غفلاتهم وستستيقظ فطرة الإيمان بين جوانحهم ولسوف يؤوبون ويتوبون وإن لسان حال أحدهم ليقول: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ [طه: ٨٤]. لسوف يؤوبون خاضعين مطأطئي الرؤوس لقرار الله القائل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]. ولسوف يخضعون سلوكهم لأمر الله القائل: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠].

ليس بين التيه الذي يقع أحدنا فيه وبين الاصطلاح مع الله إلا لحظات، التفاتة يلتفتها الإنسان إلى الله وإذا بالكرم الإلهي يقول له: أقبل فأنت مقبول.

أقول لهؤلاء الإخوة: إن كانت الأزمة بطالة، إن كانت الأزمة نفسية فأنا أبشركم وأطمئنكم بأنكم إن أقبلتم إلى الله وجددتم الاصطلاح معه وجددتم التوبة إليه والإيمان به فلسوف يغنيكم من فقر ولسوف يعطيكم بعد منع ولسوف يحقق لكم رغد العيش وطمأنينة النفس، ربنا هكذا يتعامل مع عباده، إن خطوت إلى الله خطوة أقبل إليك الله سبحانه وتعالى ذراعاً، وإن أقبلت إليه ذراعاً أقبل الله عز جل إليك باعاً، أقول هذا لهؤلاء الإخوة وإنني لأعتقد أن كلامي هذا سيوقظ كوامن الفطرة الكامنة بين جوانحهم، وإنهم لإخوة مؤمنون بالله سبحانه وتعالى فيما أعتقد.

أما نحن – يا عباد الله – فأذكركم بما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال: ﴿عبادة في الهرج كهجرة إلي﴾.

العبادة أثناء الفتن تتضاعف قيمتها، تصبح قيمتها كقيمة من هاجر من مكة إلى المدينة فراراً من دار الكفر لحاقاً برسول الله صلى الله عليه وسلم. فإذا عرفتم هذه الحقيقة فأنا – يا عباد الله – أدعو نفسي ثم أدعوكم جميعاً إلى أن تضاعفوا من طاعاتكم وعباداتكم في هذا الشهر.

من كان منكم يصلي التراويح ثمانية فليصلها في هذا الشهر عشرين كاملة، ومن كان لا يصليها أو يصليها في بيته فليخرج وليشهد الجماعة وليصلها جماعةً في المساجد التي تتألق بعبادة الله عز وجل.

ومن كان يتلو من كتاب الله عز وجل صفحات فليتل في كل يوم من كتاب الله جزءاً ومن كان يتلو منه الجزء الكامل فليتله جزأين.

وإذا كانت الشوارع في ليالي رمضان تفيض وتتألق بالساعين والساعيات إلى بيوت الله لكي يركعوا ويسجدوا ويؤوبوا ويتوبوا إلى الله فلتضاعف كمية هؤلاء الذين تتألق بهم الشوارع والطرق المؤدية إلى بيوت الله عز وجل.

إياكم وأن تصبح المساجد موحشة في ليالي رمضان، لا أتخيل ذلك أبداً، لا أتصور ذلك أبداً، وإن ربنا لأرحم بنا من أن يدع سبيلاً من السبل يحقق هذا الذي أقول، وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يعيذنا منه.

وإذا وفقنا الله فأدينا حقوق هذا الشهر قياماً في لياليه فلنعد بعد ذلك دون أن نلوث إقبالنا إلى الله بشيء من الشوائب، نعود إلى بيوتنا من حيث جئنا، جئنا وقلوبنا طاهرة لا نرضى إلا بقبول من الله يتنزل علينا من عليائه، ونعود إلى بيوتنا ونحن لا ننتظر إلا هذا القبول. إياكم وأن تُسْتَدْرَجُوا إلى الكمين، لقد تبين أنها عبارة عن دعوة إلى كمين ولقد رأيتم ما وراء الكمين، إنها خطة برنارد ليفي أيها الإخوة، إياكم يا عباد الله. ولقد علمتم – وهذا حكم لا أعلم فيه خلاف – أن أي تظاهرة من هذا القبيل تكون ذريعة إلى هذه الفتنة فإنها محرمة قولاً واحداً بقرار من كتاب الله، وببيان من رسول الله، وبإجماعٍ من العلماء والمسلمين عامة.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

٣٥٨- الاصطلاح مع رمضان وتعهد كتاب الله تعالى | ٢٠١١/٠٨/١٢

لقد علمنا أن ربيع الأرض إنما هو الغيث الذي يهمي إليها من السماء، ولقد علمنا جميعاً أن الأرض تكون هامدة، موحشة المظهر، مستحجرة قاسية، فإذا هما عليها هذا الغيث من السماء تحولت من مواتٍ إلى حياةٍ وربت وازدهرت وأنبتت كما قال الله عز وجل: ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

ولكن فما هو ربيع القلب؟ ربيع القلب – يا عباد الله – إنما هو الكتاب الذي يتضمن خطاب الله سبحانه وتعالى لعباده، كتابه الذي يتضمن خطابه للنخبة التي كرَّمها الله عز وجل من خليقته، هذا هو ربيع القلب.

إن القلب الذي لم يُتَحْ له أن يتشبع بهذا الغيث وبقي محروماً من خطاب الله سبحانه وتعالى، محجوباً عنه، يستحجر كما تستحجر الأرض التي حُرِمَتْ من قطر السماء، ويقسو القلب كما تقسو تلك الأرض، تتكدن بل تتحجر، هذه حقيقة ينبغي أن نتبينها جميعاً يا عباد الله.

لا يمكن لإنسان جعل من لسانه وسيلة إلى قلبه، يهدي إلى فؤاده خطاب الله عز وجل، يتلوه آناء الليل وأطراف النهار، أو يجعل لنفسه ورداً دائماً من تلاوة كتاب الله وتدبر خطابه، لا يمكن لصاحب هذا القلب إلا أن يتمتع بكل ما بكل ما ينبغي أن يتمتع به العبد المؤمن، يكون موصول الصلة بالله عز وجل دائماً، يتمتع برقة لا تأتي من طبع ولا تربية ولا أسباب مادية وإنما تأتي من غذاء القرآن الذي يتعهد نفسه صاحب هذا القلب به، هذه حقيقة أقولها لكم باختصار. ومن أجل هذا المعنى أمرنا الله سبحانه وتعالى في أكثر من آية بأن نقبل إلى خطاب الله عز وجل فنتلوه ونتدبره، تأملوا في قوله سبحانه: ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَداً﴾ [الكهف: ٢٧].

تأملوا في الخطاب الذي وجَّهَهُ ربنا سبحانه وتعالى إلى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم في الأيام الأولى من بعثته يقول له: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾ [المزمل: ١–٥].

هذا هو القول الثقيل، يأمر الله عز وجل بالتوجه إليه تالياً متدبراً رسوله، يأمر الله عز وجل بالتوجه إليه عباده جميعاً.

والآن تعالوا نتساءل – يا عباد الله – أين هي علاقتنا بكتاب الله سبحانه وتعالى، أين هو الموقف الذي نقفه جميعاً أو أقول أكثر من ينبغي أن نعدهم مؤمنين مسلمين لله سبحانه وتعالى، تعالوا نتساءل عن موقفهم من هذا الخطاب الرباني.

الذي أعلمه – وأظن أنني لست مبالغاً – أن في المسلمين من يمر عليه العام تلو العام والمصحف لا يتحرك من زاوية داره قط، والذي أعلم – وقد رأيت نماذج من هذا بعيني – أن في المسلمين من يتراكم الغبار على المصحف المستودع في داره دون أن يلتفت أهل الدار حتى إلى تنظيفه من الغبار الذي تراكم عليه، والذي أعرفه أن في المسلمين – وهم كُثُر – من لا يستطيع أن يقيم لسانه على تلاوة آيةٍ واحدة دون تلعثم من كلام الله سبحانه وتعالى، والذي أعلم هو أن في المسلمين من لا يستطيع أن يفرق بين الكثير والكثير من آي الكتاب المبين وأحاديث ذكرها رسول الله صلى الله عليه وسلم أو آثار رويت من أفرادٍ من الصحابة أو التابعين. هل أنا مبالغ – يا عباد الله – في هذا الذي أقوله لكم؟! أرجو أن أكون مخطئاً أو مبالغاً ولكن هذا ما أعلمه وأتيقنه.

فإذا عدنا إلى هذه الأيام التي تمر بنا أو التي نمر بها، إذا عدنا إلى هذا الشهر – شهر الله – المعظم في بيان الله وكتابه وعلمنا أن هذا القرآن نزل جملة واحدة في هذا الشهر إلى السماء الدنيا وأُثْبِتَ كاملاً في اللوح المحفوظ خلال هذا الشهر، وإذا علمنا أن أهم ما يتقرب به الإنسان في هذا الشهر إلى الله عز وجل إنما هو العكوف على تلاوة خطابه، على تلاوة كتابه، لاسيما في جنح الليل، لاسيما أثناء الصلاة، إذا علمنا ذلك ثم عدنا إلى هذا الواقع الذي وصفته لكم فما الذي نتوقعه يا عباد الله إذاً؟!

نعم شهر رمضان شهر الرحمة، شهر التجليات الإلهية يتجلى فيها الله عز وجل على عباده بالرحمة، لكن ألا فلتعلموا يا عباد الله أن لهذا الشهر المعظم عند الله وجهين اثنين، أما الوجه الأول فهو وجه الرحمة المهداة إلى عباد الله، لكن إلى من؟ إلى الذين أقبلوا على كتاب الله عز وجل أو إلى الذين تابوا بعد إعراض وأقبلوا إلى الله عز وجل وتذكروه بعد نسيان، أقبلوا إلى الله عز وجل فتداركوا ما فاتهم. رمضان

يقبل إلى الناس بهذا الوجه عندما يتوافر هذا المعنى الذي أقوله لكم يا عباد الله، وعندما يتراحم المسلمون، ورسول الله يقول: ﴿من لا يَرْحَم لا يُرْحَم﴾.

فأما الوجه الثاني لهذا الشهر المعظم فذلك هو شهر الانتقام، هو شهر الوعيد الذي يتضمنه هذا الشهر آتياً من عند الله سبحانه وتعالى، ولقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه الحاكم بشرط الشيخين وغيره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ﴿جاءني جبريل فقال من أدرك رمضان ولم يُغْفَر له فأبعده الله فقال له رسول الله: آمين﴾.

ولكن من هو هذا الذي يدرك شهر رمضان ثم لا يُغْفَرُ له فيبعده الله عز وجل من رحمته – ولتعلموا يا عباد الله أن الإبعاد والطرد واللعن هذه الكلمات مترادفة سواء، فمن أُبْعِدَ عن رحمة الله فقد طُرِد ومن طُرِدَ فقد لُعِن – من هو هذا الإنسان الذي يدرك شهر رمضان ثم إنه يكون طريداً من رحمة الله، طريداً من فضله وإكرامه؟ هو ذاك الذي يستقبل رمضان باستخفاف، هو ذاك الذي يستقبل شعائره وحقوقه باستكبار، هو ذاك الذي يستقبل أوامره بتمزيق، وليت أنه يمزقها في دويرة أهله بينه وبين نفسه، لا، إنه يحرص على أن يمزق شعائر هذا الشهر المبارك – وهي شعائر الله – يحرص أن يمزقها على رؤوس الأشهاد، يحرص على أن يمزقها في الأسواق أو في الدوائر، وهكذا. هؤلاء هم الذين عناهم جبريل عندما دعا عليهم بل أخبر قائلاً: ﴿من أدرك رمضان فلم يُغْفَر له فأبعده الله سبحانه وتعالى﴾.

عباد الله: إذاً لشهر رمضان وجهان اثنان، وجه ملؤه الرحمة، ملؤه المغفرة، وله الوجه الآخر الذي يبعث بالتهديد والوعيد.

أنا أدعو نفسي وأدعوكم جميعاً وأدعو كل مؤمن بالله عز وجل وأدعو كل من يعلم أنه مصطبغ بذل العبودية لله عز وجل أن نتعرض للوجه الأول لهذا الشهر.

تعالوا – يا عباد الله – إن كنا إلى هذا اليوم تائهين فلنبدأ حياة جديدة ولنقطع سبيل هذا التيه بيننا وبين الله ولنصطلح معه وليقل كل منا إن بلسانه أو بلسان حاله: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ [طه: ٨٤]. والله عز وجل يقبل توبة التائبين.

إن كنا قد أعرضنا عن كثير من الأوامر وأركان الإسلام من صلاة ونسك وغير ذلك فما أيسر أن نعود إلى الله ونصطلح معه وإذا بالوجه المشرق الأنور لرمضان يبشرنا بالتوبة، يبشرنا بقبول الله عز وجل. تعالوا نتب إلى الله، تعالوا نستغفر من ذنوب الليالي والأيام، نعم، وأنتم تعلمون أن الله سبحانه وتعالى يقبل توبة التائبين، وعندما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

إنما كان يعني التائبين العائدين إلى الله عز وجل، أما الذين يستكبرون على الله عز وجل ويلحون على أن يستمروا في تيههم فهؤلاء لا تعنيهم هذه الآية قط. شهر رمضان كاد أن ينتصف وكدنا أن نصل إل سويداء قلبه، تعالوا نصطلح مع الله يا عباد الله، نحن إن اصطلحنا حقاً مع الله عز وجل أصلح أمورنا، إن اصطلحنا مع الله عز وجل حقاً رفع هذه الفتن مما بيننا، إن اصطلحنا مع الله سبحانه وتعالى حقاً أعاد الوئام، أعاد الأمن والسلام إلى ربوع بلادنا.

عباد الله: لا تحجبنكم الأسباب المادية الشكلية عن المسبب، الأسباب موجودة لكن اخترقوها لتروا المسبب، لتروا الإله الذي يبتلي عباده بعصي التأديب، ووالله إنها لعصي رحمه وإن بدت أنها عصي مؤلمة، تعالوا نخترق هذه المظاهر – وما ينبغي أن نسجن أنفسنا داخلها – لنقف أمام الله عز وجل ولنمد يد البيعة إلى الله عز وجل من جديد.

عباد الله: كم وكم سألت نفسي السؤال التالي وها أنا أوجه هذا السؤال إلى كل واحد منكم ليعود به إلى نفسه: أنا الآن أشتهي أموراً كثيرة في حياتي التي أعيشها وألقي زمام أهوائي إلى كثير من الملاذ التي أتمناها، تقودني العصبية، تقودني الرغائب والأهواء، ولكن عما قريب سأتمدد على فراش المرض ولسوف يطرق بابي ملك الموت ولسوف أراه بعيني ولسوف يراه كل واحد منكم، ترى هل ستبقى هذه الأهواء آنذاك مهيمنة على كياني كما هي الآن؟ ترى هل ستكون عصبيتي هي المتحكمة بي آنذاك كما أنها متحكمة بي الآن؟ ترى هل سأظل محجوباً بعا لم الأسباب عن مسببها كما أُحْجَبُ بها الآن؟ لا يا عباد الله، ستتمزق الحجب ولسوف أجد نفسي أمام جبروت الله سبحانه وتعالى، ألا تعلمون هذا؟ ألا تعلمون بيان الله سبحانه وتعالى: ﴿وَجَاءتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ، وَنُفِخَ فِي

الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ، وَجَاءتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ، لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ١٩-٢٢].

هذا السؤال كم وكم طرحته على نفسي – ولعل هذا السؤال الذي أكرره بين الحين والآخر يشكل عاملاً من عوامل التربية الإلهية لي – هلا سألتم أنفسكم أنتم أيضاً هذا السؤال أيها الإخوة؟

نحن اليوم نتحرك فوق هذه الأرض وعلى ظاهرها وغداً سنكون في باطنها، تأملوا في هذا الذي أقوله لكم. ألا فلتعلموا يا عباد الله أن قصورنا إنما هي قبورنا، أجل أقولها لنفسي ولكم قصورنا قبورنا فلنتهيأ لتلك القصور، أقول قولي هذا وأستغفر الله.



٣٥٩- الهدية المخبأة والهدية الناجزة | ٢٠١١/٠٨/٢٦

لقد جرت سنة الله سبحانه وتعالى في عباده أن يصطفي في كل يومٍ من أيام رمضان لنفسه عتقاء من النار لا يحصي عددهم إلا الله، فإذا جاءت الليلة الأخيرة من شهر رمضان أعتق الله سبحانه وتعالى بقدر كل من أعتق من أول الشهر إلى آخره، ورد بذلك الخبر الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في السنن وغيرها، تلك الهدية المخبأة أيها الإخوة من الله سبحانه وتعالى لعباده في أخريات هذا الشهر المبارك، وأعظم بها من هدية، يتحول التائهون وربما المارقون والضالون والجانحون عن صراط الله عز وجل إلى المغفرة، إلى العفو، إلى الإكرام الرباني، لكنها هدية مخبأة إلى يوم يقوم الناس فيه لرب العالمين، فماذا عن الهدية الناجزة التي سيكرمنا الله عز وجل بها في خواتيم هذا الشهر المبارك يا عباد الله؟

إن الهدية الناجزة هي هدية الفرج بعد الشدة، هدية اليسر بعد العسر، هدية عودة الأمن والسلم وطمأنينة البال إلى ربوع بلادنا المباركة هذه يا عباد الله.

ولماذا نستبعد ذلك إذا كانت رحمة الله سبحانه وتعالى اتسعت لأن يعتق التائهين، العاكفين على العصيان، السائحين في أودية الجهالة والضلال، إذا كانت رحمة الله الواسعة اقتضت أن ينتشلهم من تيههم في يومٍ واحد وربما في لحظة واحدة فيجعلهم من المعتقين من ناره لا لسبب إنما لأنهم صاموا هذا الشهر، إذا كانت رحمة الله عز وجل قد اتسعت لذلك فكيف لا تتسع لأن يكرمنا بهدية ناجزة نراها في دنيانا هذه، ننظر فنجد أنه سبحانه وتعالى أهدى إلينا الفرج بعد الشدة، أهدى إلينا اليسر بعد العسر، أهدى إلينا الأمن والسلم بعد الاضطراب والفتنة التي هاجت وماجت.

وهل أتوقع هذا أملاً من رحمة الله دون دليل آخر أعتمد عليه؟ لا يا عباد الله، فإن هنالك دليلاً قاطعاً يجعلنا نطمئن إلى أن هذه الهدية آتية وناجزة، ألم تتدبروا في هذا الذي يقوله الله سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]. تدبروا هذا الكلام.

﴿الَّذِينَ آمَنُواْ﴾ ولقد آمنا، ونحن معتزون باليقين بأننا عبيد مملوكون لله عز وجل، وبأن إلهنا قيوم السموات والأرض إله واحد لا شريك له إليه المرجع والمآل، إذا فنحن مؤمنون، لكنه قال: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ أي لم يخلطوا إيمانهم بظلم، هذا هو الشرط الذي يجب أن نقف عنده وأن نعود به إلى أنفسنا لنتساءل أخضعنا أنفسنا لهذا الشرط؟! ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾، هما ظلمان اثنان لا ثالث لهما، ظلم الإنسان لنفسه، وظلمه لإخوانه.

أما ظلم الإنسان لنفسه فيعني الاستكبار على الله سبحانه وتعالى، وما أكثر صور الاستكبار وما أكثر شواهده ودوافعه، من الظلم للنفس أن ينحط الإنسان في المعاصي ثم لا يقلع عنها، كل إنسان معرض لأن يقع في المعاصي لكن المؤمن يقع فيها ثم يقلع عنها، نعم تزل به القدم إلى الانحراف لكن عبوديته لله سرعان ما تنتشله من ذلك الانحراف.

ظلم الإنسان لنفسه أن يجنح عن الأوامر التي أمره الله عز وجل بها فيتجاهلها أو يلقيها وراءه ظهرياً، هذا هو الظلم للنفس.

أما ظلم الإنسان للآخرين فهو كما تعلمون كل نوعٍ من أنواع الأذى يسري من الإنسان إلى أخيه في الإنسانية أياً كان هذا الإنسان هو من الظلم بمكان، كل إساءة تتمثل في الإساءة في المعاملة، تتمثل بالإساءة في الكذب ونقض العهود، تتمثل في الاستخفاف والاستهزاء واللمز والغمز، كل ذلك من أنواع الظلم.

من ظلم الإنسان لغيره أن ينحط في نفخ نيران الفتن، ينفخ في نيرانها هنا وهناك، هذا هو الظلم الثاني. وربنا عز وجل ألزم ذاته العلية بأن يمد رواق الأمن في حياة عباده المؤمنين بشرط واحد؛ أن يترفعوا على الظلم وأن لا يظلموا أنفسهم بالمعنى الذي ذكرت لكم وألا ينحطوا في ظلم إخوانهم في الإنسانية، وتفصيل هذا الكلام طويل الذيل والوقت لا يتسع لذلك أيها الإخوة.

مطلوب منا أيها الإخوة – وأنا أبدأ بنفسي – لكي يكرمنا الله بهذا الأمن الذي ألزم ذاته العلية به أن نطهر أنفسنا من الظلم الذاتي، أن نطهر أنفسنا من الظلم للذات.

تعالوا أن نعاهد الله عز وجل على أن نترفع عن العصيان، فإن زلت بنا القدم فلنسرع إلى التوبة والإنابة إلى الله والله يقبل توبة التائبين مهما كانت المعاصي كثيرة.

تعالوا أيها الإخوة نقطع صلة ما بيننا وبين الشيطان إذ يهمس ويوسوس إليها أن نظلم إخواننا من أجل أن ننتصر لأنفسنا على حسابهم، من أجل أن نضحي بهم لربح بسيط نعود به إلى جيوبنا أو إلى سمعتنا أو إلى أنفسنا، لا أيها الإخوة. الرقيب العتيد يحذرنا من هذا. إن نحن أوغلنا في ذلك فلنعلم أن ضمانة الأمن تزول وأن رواق الأمن سينطوي.

لعل فيكم أيها الإخوة من يبادر فيسألني: وماذا عن واجب المسؤولين؟ أنت تتحدث عن الناس والأمة والشعب ولكن أليس هنالك ما يقتضي تذكير المسؤولين أيضاً بالواجب المنوط في أعناقهم؟ والجواب أيها الإخوة أولاً: ما قد ذكرته لكم قبل حين من أن لكل مقام مقالاً. عندما أجدني أمام القاعدة الشعبية فينبغي أن يكون حديثي لها وينبغي أن يكون نصحي موجه إليها وينبغي أن يكون تحذيري لها من أن يزل بها القدم فيما يغضب الله عز وجل، فإذا رأيتُني بعد حين أمام المسؤولين فواجبي عندئذٍ أن أذكرهم بواجبهم المنوط في أعناقهم.

وبالأمس تحقق لقاء من هذا القبيل، تحقق لقاء مع رئيس هذه الأمة وقام من يناشد الرئيس أن يفي بالعهد الذي أناطه الله في عنقه تجاه الإسلام وقام من ذكره بأن الإسلام ليست كلمة عابرة يقولها الإنسان لكنه عهدٌ ما بين العبد وربه: ﴿وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [المائدة: ٧].

قام من ناشده أن يعلن غيرته على الإسلام وأن يكون حارساً على حدوده وأحكامه وآدابه، قام من ناشده أن يضرب على يد من يمارسون مع المعتقلين الكفر والتكفير، نعم، وكان الجواب مطابقاً للظن الذي ظننا به جميعاً، أعلن عن التزامه بما ألزمه الله به، أعلن عن شرفه الذي لن يتنازل عنه حارساً لدين الله عز وجل، وأعلن فوق هذا الذي ذُكِّرَ به عن أن الدستور الجديد لن يكون إلا تعبيراً عن الهوية الإسلامية لهذه الأمة، لن يكون إلا تعبيراً للهوية الدينية لهذه الأمة، ولسوف يحاسب القلة – نعم هم قلة – الذين تجاوزوا الحد فوقعوا في الكفر والتكفير.

ولكني أقول أيها الإخوة ربما كان الكلام المرذول الساقط الذي تنبو الآذان عن سماعه ويتعالى الذوق الإنساني عن تصوره مشابهاً بل قريباً لهذا التكفير الذي نتحدث عنه، لاسيما عندما يكون هذا الكلام النابي يُعْلَنُ في الشوارع، عندما يتحول إلى شعار يُسْتَعْلَنُ به في الشوارع، ترى أي إنسانية تقره؟ ترى أي ذوقٍ يقره؟ ترى أي منطق يقره؟ وأنتم تعلمون قانون الفعل وردات الفعل، ومع ذلك فكل مأخوذٌ بجرمه.

﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام: ١٦٤]. لكن ينبغي أن نعلم هذه الحقيقة يا عباد الله.

إذاً أعود فأقول لكم: نحن موعودون من قبل ربنا سبحانه وتعالى بأمن سيمتد رواقه، ولقد بدأ رواقه يمتد، ولقد استعلن البيان الإلهي ذلك من خلال قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ﴾ [الأنعام: ٨٢]. في دار الدنيا ﴿أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

ولكني أعود فأقول أذكِّر نفسي وأذكِّركم بألا نوغل في الظلم، بألا ننحط في أودية الظلم لا في حق أنفسنا استكباراً على الله وإمعاناً في الدخول في أقبية المعاصي المظلمة، وألا ننحط في ظلم إخواننا، وظلم الآخرين كثير.

كلمتي الأخيرة التي ينبغي أن تبقى في أذهاننا جميعاً أن مسؤولية الأمة وإن انقسمت إلى قسمين هي في الحقيقة واحدة وستظل واحد، ذلك بأن هذه الأمة بقضها وقضيضها أمة واحدة، كلها بعضها من بعض، فلئن رأيتم تقصيراً في سدة الحكم فلتعلموا أنه انعكاس من تقصير القاعدة الشعبية، ولئن رأيتم تقصيراً مستمراً في القاعدة الشعبية فلتعلموا أنه مظهر لتقصير من المسؤولين، ورحم الله الحسن البصري ورضي الله عنه، رأى رجلاً يسب الحجاج، قال له: لا تقل ذلك يرحمك الله فإني أخشى إن هلك الحجاج أن يتولاكم القردة والخنازير، روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: ﴿عمالكم أعمالكم، كما تكونوا يولى عليك﴾، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

أيها الإخوة مرةً أخرى أقول لكم إن هذه الفتنة قد ولَّتْ لتدبر، ولكن حذار من أن تعود فتتجدد ولن تجدد إلا بالسبب الذي قد ذكرته لكم، فاحرصوا على أن تصطلحوا مع الله على كل المستويات الاصطلاح الحقيقي يا عباد الله، وأنا أقول من هنا كلمتي لأولئك الذين يوغلون في القتل وقد تلثموا وتنكروا أقول لهم: ويحكم إن كنتم تتمتعون بذرة باقية من الإيمان الفطري بالله عز وجل فلتوقظكم هذه

الفطرة الإيمانية إلى عودٍ حميدٍ إلى الله واعلموا أن ربكم يقبل التوبة، لكم أسوة بمن قتل تسعة وتسعين نفساً ثم إنه طرق باب التوبة والإنابة فقال له الله لبيك، عودوا يا ناس إلى الله، لا تمسخوا إنسانيتكم إلى وحشية لا عهد لكم بها، لا تعودوا تنظرون إلى أنفسكم وقد نبتت فيها المخالب والأنياب، بينكم وبين الرجوع إلى الله لحظات، عودوا إلى الله، عودوا إلى وطنكم، عودوا إلى أرضكم المباركة، إن لم تعودوا فلتعلموا أن الندم، بل نيران الندم قريب منكم، وأنتم لا تعلمون إذا وقعتم في نيران هذا الندم أي ندم سيكون ذلك، كيف ستكون حالكم، أنتم لا تعلمون، ربما كان ألماً ينشد أحدكم معه الموت ولا يجد، لكني أحسن الظن، أقول أنتم إخوة، إنسانيتنا هي قربى ما بيننا، عودوا إلى الله في خواتيم هذا الشهر، توبوا بينكم وبين الله في خواتيم هذا الشهر، وإذا بكم ارتفعتم ثم ارتفعتم إلى مصافي الملائكة والله يغفر الذنوب جميعاً.

٣٦٠- نصيحة بين يدي رمضان | ٢٠١٢/٠٧/٢٠

إن هي إلا ساعات ولسوف نستقبل ويستقبل العالم الإسلامي كله شهر الله العظيم شهر رمضان المبارك، سنستقبله وأنا على يقين أنه يحمل في طيه بشائر الفرج بعد الشدة واليسر بعد العسر.. أقول إنني على يقين بذلك ولا غرو فإن الله عز وجل يقول فيما يرويه رسول الله عن ربه في الحديث القدسي ﴿أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء﴾ فكيف إذا كان الأمر يقيناً وليس ظناً؟!

هذا ما سيحمله لنا شهر الله المعظم من البشائر فما الذي ستحملون له وأنتم تستقبلونه من الهدايا؟.. لو سألنا هذا الشهر المعظم عن خير هدية ينبغي أن نتقدم بها إليه، لكان الجواب الهدية الوحيدة التي ينتظرها منا شهر الله عز وجل هي التوبة النصوح أولاً إلى الله ثم القيام بحقوق هذا الشهر المتمثل في صيام أيامه وقيام لياليه.. تلك هي الهدية التي ينتظرها منا شهر الله سبحانه وتعالى.. أولاً التوبة النصوح وهي توبة يطالب الله عز وجل بها دائماً لا في ميقاتٍ أو شهرٍ معين.. يطالب بها عباده جميعاً حتى الرسل والأنبياء.. ألم يقل: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ألم يقل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحاً﴾

لقد شمل هذا الأمر حتى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وهو القائل فيما صح عنه: ﴿إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم مئة مرة﴾. إذاً فتعالوا أذكركم بالجزء الأول من هذه الهدية التي ينبغي أن نستقبل بها شهر رمضان، التوبة الصادقة النصوحة إلى الله يدعونا الله عز وجل جميعاً إلى أن نتمم لشهره شهر رمضان هذه الهدية، هي دعوة إلى القادة إلى ولاة الأمر إلى الجيش إلى الأمة بشتى فئاتها، إذا كان رسول الله مدعو إلى ذلك فكيف لا تكون هذه الفئات كلها مدعوين إلى توبة صادقة نصوحة بين يدي الله سبحانه وتعالى.

وأقول لكم إن التوبة التي ينتظرها الله منا مع مقدم هذا الشهر المبارك ليست التوبة التقليدية المتمثلة في كلمات يكررها بعض الناس على ألسنتهم، ثم إنهم لا يلتفتون إلى واقعهم ليصلحوا أحوالهم، ليصلحوا ما بأنفسهم وليقيموا منها ما اعوج لا يا عباد الله، نحن مدعوون الآن إلى أن نجدد البيعة مع الله عز وجل ونحن نتصور أن بيننا وبين الرحيل عن هذه الحياة الدنيا ساعات بل دقائق معدودات فكيف تكون توبتنا إلى الله عز وجل عندئذ.

نعم هذا هو المطلوب منا جميعاً أدعو نفسي أولاً وأدعو أولي الأمر بكل فئاتهم ثانياً وأدعو جيشنا ثالثاً أو رابعاً وأدعو هذه الأمة جمعاء.

وبعد يا عباد الله يطيب لي أن أتوجه الساعة من على هذا المنبر إلى جيشنا الشامخ كما قلت بإيمانه الشامخ بجبهته التي لا تلين ولا تذل ولا تهون لأي عدو من الأعداء أقول لرجال هذا الجيش كلهم، إنكم تتحملون اليوم تبعة لا أظن أن في جيوش العالم بل في دول العالم من تحمل مثلها قبل اليوم ولقد عدت إلى التاريخ القصي القديم والحديث فلم أعثر على جيش في دولة قد تحمل هذه التبعة إلى اليوم وشاء الله عز وجل أن يتحملها جيشنا.

إن هذه التبعة تتمثل في حرب كما قالوا كونية فعلاً تتجه إليه من أطراف العالم أجمع تستعمل فيه الأسلحة المتنوعة كلها المادية والمعنوية والالكترونية والإعلامية.

أمام هذه التبعة الخاصة المتميزة التي يتحملها جيشنا اليوم ينبغي بالمقابل أن يتحلى بمزية تتكافأ مع هذه التبعة ويتكون منهما ميزان عدل متكافئ، ما هي هذه المزية التي ينبغي أن يتحلى بها جيشنا بصورة خاصة ربما، كما أنه يتحمل هذه التبعة اليوم بصورة خاصة. إن هذه المزية تتلخص في أن ما يتمتع جيشنا به من الجبهة الناصعة الشامخة لابد من أن يتوج هذا الشموخ بذل العبودية لله ولابد أن يتوج هذا الشموخ بذل السجود لمولانا وخالقنا جل جلاله، وعندئذ يتحقق ما نصبوا إليه وعندئذ يضرب هذا الجيش المثل الأعلى في التعالي والتغلب على سائر القوى التي تتوافد إليه من شرق وغرب وشمال وجنوب عندئذ يستطيع أن يحقق الخوارق والمعجزات لا بل سيخلق الله عز وجل على يديه الخوارق والمعجزات.

شموخ الجبهة شيء نعتز به نعتز به في تلك المزية التي يتمتع به نادرة فعلاً هذا الجيش ولكن هذا الشموخ امام هذه التبعة الخاصة لا سيما التي يتحملها لا بد من أن يتوج شموخ هذه الجباه بالسجود لله لا بد ان يتوج هذا الشموخ بذل العبودية لله عز وجل لا بد أن تصبح الثغور التي يرابط فيها هؤلاء الجنود البواسل لا بد أن تكون ممتزجة مع محاريب التبتل لله عز وجل، لا بد أن تكون الثغور مآل ارتباط بالله عز وجل مآل استنزال للنصر من علياءه ألن تقرؤوا قول الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥].

أقول لهؤلاء الأخوة وأنا أعتز بجباههم المرتفعة الشامخة التي لم تهن في يوم من الأيام لعدو ولم تركن إلى لذة طعام أو شراب أو نحو ذلك يخدع بها كما يخدع الآخرون أقول لهم إنكم إن ارتبطتم بالله جعلتم من ثغوركم محاريب ترتبطون فيها بالله عز وجل تستنزلون النصر منه تصطبغون بذل عبوديتكم لله فإن الله عز وجل يتجلى عليكم عندئذ بصفة قاهريته يتجلى عليكم بصفة انتقامه يتجلى عليكم بصفة جبروته.. أقول هذا وأنا الضامن لما أقول.. فإذا جربتم الأعداء أيا كانوا فإنهم لن يروا في أشخاصكم بشراً من الناس ولكنهم سيرون في أشخاصكم جبروت الله ولسوف يرون في أشخاصكم قاهرية الله ولسوف يكون هذا أعتى سلاح تستعملونه من حيث تدرون أو لا تدرون للنصر العاجل الذي سيكرمكم الله به أأريكم شاهد على ذلك من كتاب الله؟ أ لم تقرؤوا قوله: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللّهَ رَمَى﴾.

أما وقفتم عند هذه الآية بشيء من التفكير؟ لم تكن عن طريق الأيدي التي رمت ولكن هذا الكلام عن طريق تجلي الله عز وجل بصفة قاهريته بصفة انتقامه أ لم تقرؤوا قول الله عز وجل: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٤].

أ لم تسمعوا كلام رسول الله يقول فيما اتفق عليه الشيخان ﴿أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي﴾، أول هذه الأمور الخمس ﴿نصرت بالرعب مسيرة شهر﴾ كيف نصر بالرعب؟ أي أن الله عز وجل جعل

مظهر جبروته جل جلاله جعل مظهر قاهريته جل جلاله جعل مظهر انتقامه جل جلاله تتجلى في رسول الله وأصحابه والذين جاؤوا من بعده وهكذا يدخل الله الرعب في قلوب أعداء الله عز وجل بهذا السلاح.

هذا السلاح أيها الأخوة.. إنه أمضى سلاح لا سيما في هذا المنعطف الذي نمر به اليوم.. الوقت يضيق والشواهد التي تجسد هذا الكلام الحقيقي كثيرة لكن أضع أمامكم نموذجاً واحد.

عبد الرحمن الداخل الذي ظهر من هذا المشرق متجهاً إلى المغرب وصل إلى أقصى المغرب ونزل ضيفاً عند أقاربه وبني خؤولته وعمومته قبائل من البربر أدقوا به وأحبوه لعبادته العجيبة لتواضعه الغريب لخدمته الكثيرة لذكره مولانا وخالقنا جل جلاله، كان قائم الليل كان خادماً لعباد الله أحدقوا به مضى بهم إلى الأندلس وما استقر بهم القوم في الأندلس حتى احبه أناس كثيرون ممن لا يعلمون الشريعة الإسلامية أحبوه ثم ركنوا إليه ثم دخلوا الإسلام وهكذا قامت دولة الإسلام على يد قائدها ولم يكن له من العمر أكثر من ٢٥ عاماً وسمع الملك الأول في عالم الفرنجة آنذاك شارلمان سمع بأن دويلة إسلامية ولدت في الأندلس فتوجه بجيشه ذي الجنسيات والمذاهب المختلفة إلى أن وصل إلى حيث أقام عبد الرحمن الداخل دويلته الإسلامية وقامت المعركة.. ما الذي جعل شارلمان يولي الأدبار؟ شيء عجيب شيء غريب إلى اليوم لا تعلم أوروبا سببه لأنه عندما نظر إلى عبد الرحمن الداخل لم يجد فيه شاباً من الناس لا يتجاوز عمره الخامس والعشرين عاماً وإنما نظر فوجد فيه قاهرية الله وجد فيه جبروت الله وجد فيه انتقام الله داخله الرعب داخله الهلع وعاد منهزماً من حيث جاء وهكذا جللت حياة شارلمان سحابة من السواد حياته لم تفارقه بعد ذلك إلى أن مات هذا مثال أقوله لكم.

أعود مرة أخرى أتوجه إلى جيشنا بعد التعزية التي تقدمت بها إليه باسمي وباسمكم وباسم هذا الشهر ألم يجعل الله هذا الشهر شهر رحمة كم أنبأنا رسول الله.

أقول بعد ذلك اجعلوا من ثغوركم التي توارون فيها محاريب تتصلون بها إلى الله عز وجل اتصال العبد بربه توبوا إلى الله عز وجل أو جددوا التوبة إلى الله عز وجل مع دخول هذا الشهر المبارك جددوا البيعة مع الله عز وجل أن نكون جنوداً لمولانا وخالقنا وأنتم عبيد له قبل أن تكونوا جنوداً لإخوانكم من البشر

أقول لكل فرد فرد من جيشنا الذي اعتز به أعتز بأنه لم يدن لعدو إلى الآن أقول كونوا أحفاد أمناء لخالد للقعقاع لعمرو بن العاص كونوا أحفاداً لأولئك ولا أعني النسب البشري لا. أعني الارتباط بالمنهج الارتباط بالسلوك الارتباط بالمبدأ والقيم وأنا أقول بعد هذا أنا الضامن بأن الله عز وجل سيكرمنا جميعاً بأعاجيب النصر بخوارق النصر..





ليلة القدر

٣٦١- أمران مهمان ليلة القدر وقتها وخصوصيتها، الزكاة فرضيتها ودورها | ٢٠٠٧/٠٩/٢٨

هما أمران تقتضي المناسبة أن أتحدث عنهما، وأن ألفت أنظاركم إليهما، أما الأمر الأول فهو ليلة القدر التي أنبأ بيان الله سبحانه وتعالى عن أهميتها وعن عظيم فضلها، وذلك عندما قال: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: ٣] أنزل في حقها سورة مستقلة كاملة. كثيرون هم الذين يتصورون في هذا العصر أن ليلةَ القدر منوطةٌ بليلة السابع والعشرين من شهر رمضان، استقر هذا في أذهان كثير من الناس. والسبب في ذلك هذا الاحتفال المتكرر المنوط بهذه الليلة لا يتقدم عنها ولا يتأخر، كان من نتيجة ذلك أن وقر في أذهان كثير من الناس أن ليلة القدر هي هذه، وكان من آثار ذلك أن أعرض هؤلاء الناس عن التماسها في الليالي الأخرى، في حين أن المصطفى صلى الله عليه وسلم أنبأ أنها واردة في ليالي رمضان كلها، ولكن قال: ﴿التمسوها في العشر الأخير من شهر رمضان﴾.

وأنا أبرر هذا الاحتفال المتكرر في ليلة السابع والعشرين، على كلٍّ هي دعوة إلى عبادة، ودعوة إلى تعرُّض لرحمة من رحمات الله سبحانه وتعالى في هذه الليلة، ولكن ينبغي أن تعلموا وألا تنسوا أن ليلة القدر ليست محصورة في ليلة السابع والعشرين من رمضان، بل احتمال وجودها في هذه الليلة وفي غيرها سواء، ومن ثَمّ فمن الخير للإنسان أن يحتفي بها في هذه الليلة التي يحتفل بها المسلمون في كثير من البلاد العربية والإسلامية، ولكن على ألا يكون هذا سبباً في إعراضهم عن التماسها في الليالي الأخرى، ولا سيما في الليالي المفرَدَة، ليلة الحادي والعشرين، الثالث والعشرين، الخامس والعشرين، السابع والعشرين، التاسع والعشرين

هذه ناحية. ومن ناحية أخرى ينبغي أن نتنبه إليها، أن فضيلة هذه الليلة ليست آتية من طبيعتها، وليست نابعة من طبيعة الزمن، وإنما هي آتية من تجليات الله سبحانه وتعالى على عباده في هذه الليلة، ﴿إِنّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ، وَما أَدْراكَ ما لَيْلَةُ الْقَدْرِ، لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: ١-٣]. من أين جاءت هذه الخيرية؟ هل جاءت من طبيعة زمن؟ الأزمنة كلُّها واحدةٌ، لا فرق بين زمن وزمن،

كما أنه لا فرق بين مكان ومكان من حيث الطبيعة، من حيث التربة، ولكنّ الخيرية آتية من تجليات الله سبحانه وتعالى على عباده فيها، ولذلك ثبت أن ليلة القدر تنتقل من ليلة من ليالي رمضان إلى التي تليها أو التي قبلها مع مرور السنوات وتطاولها

أما الأمر الثاني الذي أعود إلى بيانه بعد أن ذكرته ونبَّهت إليه في الأسبوع الماضي، فهو ضرورة تذكُّر فريضة من الفرائض الإسلامية الكبرى، بل ركن من الأركان الإسلامية العظمى، ألا وهو ركن الزكاة، وأنتم تعلمون أن ركن الزكاة هذا منوط برمضان، ذلك لأن الزكاة إنما يبتغي بها السنة الهجرية، ولا يبتغي بها السنوات الميلادية كما تعلمون، وأفضل ميقات لإخراج الإنسان زكاة ماله إنما هو هذا الشهر، الذي ينبغي للإنسان أن يتخلص فيه من بخله، وينبغي أن يتخلص فيه من شحه، وأنتم تعلمون أن أجر المنفق في هذا الشهر لا يَقِل عن أجر الصائم، بل لعله يزيد أيضاً.

هذه حقيقة لا داعي إلى تكرار التنبيه إليها، فهي حقيقة تتكرر على أسماعكم في كل عام، ولكن هنالك مداخل للشيطان – يا عباد الله – ينبغي أن نكون على حذر منها، وينبغي أن نتنبه إليها دائماً، ليست وسيلة الشيطان دائماً الصَّد عن الطاعة التي أمر الله عز وجل، كثيراً ما لا يستطيع الشيطان أن يصدك عن الطاعة، ولكن هنالك وسائل أخرى خفية لا يتنبه إليها إلا من كان حذراً على نفسه من مكائد الشيطان، هنالك خطط شيطانية تنتهي إلى شل فاعلية الزكاة، تنتهي إلى مسخ وجود الزكاة، بحسب الصورة الزكاة موجودة، وتتألق فاعليتها في المجتمعات، لكن اخترقِ الصورة تجد أن الزكاةَ قد شُلَّت، وأن وجودها مُسِخ، وأن سبيلها إلى الفقراء قد تقطَّع.

من هذه الوسائل الشيطانية؛ أن تجد صاحب المال قد تعلقت زكاته بالسيولة المالية التي في صندوقه يُعْرِض عن إخراج زكاة ماله من هذه السيولة التي تعلقت الزكاة بها، ويعقد أو يبسط الموائد الرمضانية – كما قد قلت لكم بالأمس – يرسل الأموال الكثيرة أو القليلة إلى هنا وهناك، حيث تبسط الموائد الرمضانية المختلفة، وبالأسماء المتنوعة، ثم إنه يَحْسِب ذلك على الله زكاة، بل يمتن على الله عز وجل بأنه قد أخرج زكاة ماله، أفتعتبر هذه العملية دفعاً للزكاة؟ هذا هو المسخ لزكاة المال، وتلك هي الوسيلة لشل فاعليتها، أموال كثيرة تدفع في سبيل الموائد الرمضانية – وهذا شيء جيد.

وقد أنبأنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الأجر العظيم الذي يدخره الله لمن أفطر صائماً – ولكن من قال: إن المصطفى صلى الله عليه وسلم قصد بذلك أن تُفْطِر صائماً من مال زكاتك؟ من الذي قال هذا؟ تُفْطِر الصائم ثم تقول لله عز وجل: لقد أعطيت زكاة مالي. متى؟ أَفْطَرتُ هذا الصائم بالأمس، والصائم الآخر، وأَفْطَرتُ كثيراً من الناس، وبسطت لهم مائدة متنوعة. هذا لا يُعَدُّ زكاة قط، لإفطار الصائم طريق يصل الإنسان من ورائه إلى الأجر الذي يدخره الله له يوم القيامة، لكنه مختلف كلياً عن طريق الزكاة، وللزكاة طريق آخر، فمن خلط هذا بذاك، ومن أَفْطَرَ الصائم بمال كثيرٍ أو قليلٍ، ثم احتسبه على الله زكاةً، باء بوزر كبير – قولوها على لساني – بدلاً من أن يكتب الله له الأجر الوفير

الزكاة – أيها الإخوة – تتعلق بالمال، ويجب أن يُخْرِج الإنسان الزماة من جنس المال الذي تعلقت به الزكاة، عندك قَدْرٌ من السيولة المالية التي تتعلق بالنقدين الفضة أو الذهب، أو التي تتعلق بالأوراق النقدية التي حَلَّت اليوم محل الذهب والفضة، إذن ينبغي أن تُخْرِج الزكاة من هذه الأموال، ينبغي أن تُخْرِج الزكاة من جنس ما تعلقت به الزكاة، لك أرض أنتجت زراعة كثيرة، تعلقت الزراعة بهذا المزروع بهذا المسْتَحْصَد، ينبغي أن تُخْرِج الزكاة من عين ما تعلقت به هذا المال.

ولذلك انظروا – يا عباد الله – إلى الوسائل التي كانت تمر من خلالها أموال الزكاة من جيوب الأغنياء إلى أفواه الفقراء، فأجد أن هذه السبل تقلصت، وأنظر فأجد أن هذا الاندفاع الزكوي تراجع، وأسأل ما السبب؟ السبب أن هذه الوسيلة تحولت إلى الموائد الرمضانية، هذا هو شلل الزكاة، حتى ما يسمى بصندوق حفظ النعمة، عمل عظيم جداً، كل ما يمكن أن نتصور من الوسائل التي تتم تحت اسم حفظ النعمة أمر رائع، لكن صمام الأمان في ذلك ألا يكون هذا عن طريق أموال الزكاة، أموال الزكاة لها طريق، وهذه الأموال المتمثلة في الأطعمة التي ترسل إلى الفقراء في الأدوية فيما يشبه ذلك له طريق آخر

وانظروا – يا عباد الله – إلى سيرة سلفنا الصالح، كم كان الكرم جلياً في حياتهم، وعلاقة ما بين الأغنياء والفقراء، الزكاة كانت جانباً من هذه الجوانب، زاوية من هذه الزوايا، الجوانب الأخرى الكثيرة كانت مختلفة عن الزكاة؛ الأموال الوقفية المختلفة، الأطعمة المتنوعة الكثيرة، الأموال التي تُغْدَق على الفقراء، كل ذلك كان يتم بمنأىً عن الزكاة، بعيداً عن الزكاة، تحت قاعدة ﴿إن في المال حقاً سوى الزكاة﴾. ننظر ونقارن بين ما كان عليه سلفنا الصالح بالأمس وما آل إليه حال المسلمين اليوم. ماذا

أجد؟ أجد شيئاً يخيف، في الظاهر هو قربى إلى الله، وفي الباطن يستنزل غضب الله، موائد رمضانية لا أدري من الذين يجتمعون عليها، ومن أي حَدَب ودرب اجتمعوا عليها، ومن هم. أَعُدُّها زكاة؟! أَدْفَع مليون من المال في سبيل بسط مائدة رمضانية ثم أسجل مساءً على الله عز وجل أنني دفعت مليون ليرة زكاة من حسابي؟ والله سبحانه وتعالى مُطَّلع، يرى الحقائق.

يا عباد الله.. أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل أعمالنا خالصةً لوجهه، وأسأل الله عز وجل أن يطهّر قلوبنا من الرياء، ومن النفاق وألا يجعلنا ممن يستخدم الدين أُطُراً من أجل المصالح، من أجل المصالح الدنيوية، من أجل المظاهر، من أجل السمعة، اللهم ارزقنا الإخلاص لوجهك، اللهم طهِّر قلوبنا من الشوائب يا ربَّ العالمين، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.



٣٦٢- يا باغي الخير أقبل | ٢٠٠٨/٠٩/١٩

مع دخول هذا العشر الأخير من شهر رمضان المبارك يتسابق إلى الصائم نداءان اثنان أحدهما يقول يا باغي الخير أقبل، ثانيهما يقول يا باغي المتعة والتسالي الرمضانية أقبل، النداء الأول يقول يا باغي الخير أقبل إلى محراب العبودية لمولاك وخالقك، اركع مع الراكعين، اسجد مع الساجدين، استغفر الله عز وجل وتب إليه وادعه بما شئت فهو مقبل إليك، يغفر الذنب الذي تستغفر منه، يقبل التوبة التي تقبل بها إليه، يجيب دعاءك ويحقق رجاءك، وأما النداء الثاني فيقول يا باغي المتعة والتسالي الرمضانية صالات المطاعم بكل ما فيها من منسيات وملهيات تنتظرك، أبهاء الفنادق كل ذلك قد ازين بمناسبة هذا الشهر، شهر رمضان، أقبل إلى الملهيات الرمضانية المتنوعة المختلفة، سلِّ رمضانك من المساء إلى السحور فإلى لمعة الفجر.

ترى يا عباد الله أي الندائين يلقى استجابة من عباد الله الصائمين في هذا الشهر المبارك، قبل أن أجيب ما ينبغي أن نحجز أعيننا عن الإجابة الحقيقية بصور المساجد التي تزدهي بالمصلين، المساجد التي يقبل إليها الراكعون الساجدون، تعالوا نخترق هذه الصور التي نعرفها ونألفها جميعاً، تعالوا نخترق هذه الصور إلى ما وراءها ماذا نجد؟ نجد سائر المطاعم، سائر المقاهي، أبهاء الفنادق على اختلافها نجدها جميعاً تغص بالوافدين إليها من أجل المتعة، من أجل التسالي الرمضانية، من أجل الملهيات الرمضانية، الموائد التي تُحجز تُحْجَز قبل أسبوع، كل هذه الأماكن تغص، تغص بمن؟ بهؤلاء الذين يستجيبون لهذا النداء الثاني لاسيما تلك الطبقات التي تسمى مخملية وليت أنها فعلاً كانت مخملية، تلك الطبقات التي أكرمها الله عز وجل بالنعم فأبطرتها النعمة بدلاً من أن تقودها إلى شكر الله سبحانه وتعالى.

ولربما كان في هؤلاء الذين يتسابقون إلى هذه الصالات والمطاعم من أجل التمتع بالملهيات الرمضانية ربما كان فيهم من يفتتح أمسيته وسهره بركعات يركعها مع المصلين في المسجد ثم إنه يتجه إلى المائدة التي كان قد حجزها وقد أيقن أنه كفَّرَ سلفاً عن هذا الذي هو مقبل إليه، ألم يقل رسول الله صلى الله عليه

وسلم: من قام رمضان إيماناً واحتساباً غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه، وفي رواية، غفر له ما تقدم وتأخر، إذاً فليذهب إلى سهراته مطمئن البال لأنه كفَّر عن هذا الوزر الذي هو مقبل إليه، ربما كان في الصائمين من يطمئن نفسه بهذه الفلسفة.

ولكن يا عباد الله ينبغي أن تعلموا وأن يعلم هؤلاء الإخوة أن سر القبول لا يكمن في حركات الراكعين والساجدين، السر الذي به يغفر الله عز وجل الذنوب السابقة واللاحقة لا يكمن في حركات الجسد صاعداً راكعاً جالساً وإنما يكمن في العامل الخفي الذي يقوده إلى هذه الحركات، السر، سر القبول، سر التوبة يكمن في العبودية التي تهيمن على القلب والتي هي مزيج حب للخالق وتعظيم له ومخافة منه ويقيناً بمملوكيته لهذا الإله، هذا السر عندما يكون هو الدافع إلى ركوع الراكعين وسجود الساجدين هذا السر هو السبب في أن الله عز وجل يغفر لهذا الإنسان ذنوبه السابقة ولربما اللاحقة أيضاً ولكن فلنعلم أن الذي يقوده إلى محراب العبودية لله، عبوديته الضارعة لله سبحانه وتعالى، يقينه بمملوكيته لله، يقينه بأنه سيقف عما قريب وقفة ضراعة وذل بين يدي الله، يقينه بقول الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦].

عندما يكون هذا هو الدافع لهذا الإنسان لأن يركع مع الراكعين ويسجد مع الساجدين وأن يقوم ليالي رمضان فهيهات هيهات أن يُفْسِدَ بعد ما أصلح، هيهات أن يُفْسِدَ إقباله إلى الله سبحانه وتعالى بالتوجه بعد ذلك إلى ليل المنسيات والملهيات هيهات، إذا دعاه شيطان من شياطين الإنس، وشياطين الجن مصفدة في هذا الشهر، إذا دعاه شيطان من شياطين الإنس إلى تلك الملهيات الرمضانية قال له: مه أنا عبد مملوك لله لا أخالف أمره، حبي لله عز وجل يمنعني من أن أخونه، تعظيمي لله عز وجل يمنعني من أن أكون ذا وجهين، وجهٍ كنت به أصلي له ووجهٍ آخر كنت به أعرض عنه لا يمكن.

وانظروا يا عباد الله إلى هذا المعنى كيف يتجلى في كلام الله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ، تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [ابراهيم: ٢٥]، هذه الشجرة ليس السر في الأغصان التي تتراءى لك في أعلاها وإنما السر في الجذور الخفية الكامنة

وسط التربة، هذه العبادة كهذه الشجرة، سر العبادة كامن في جذورها، كامن في أساسها الخفي، أساس العبادة عبودية الإنسان لله سبحانه وتعالى، أساس العبادة أن العبد يعلم أنه سائر إلى الله ولا يعلم متى تأتي ساعة خروجه من هذه الدنيا وإقباله إلى الله، هو واقف كما قلت مراراً في طابور أمام بوابة الموت، لا يعلم أهو واقف في مؤخرة الطابور أم في مقدمتها أم في منتصفها، ربما دعاه الداعي بعد ساعات، أأعصي الله وأنا راحل إليه! أأفسد صيامي الذي جعله الله مرقاةً لحبه لي، سبيلاً لمغفرته لي، سبيلاً لاستجابته لدعائي، أأفسده بالاستجابة لشياطين الإنس، أأفسده لهذه المغريات التي يُعْلَن عنها صباح ومساء وكأن شهر رمضان شهر عقده الله عز وجل للهو وللإقبال فيه على المنسيات والملهيات، ملهيات تُخْتَرَعُ اختراعاً لتنسب إلى شهر رمضان المبارك وفي أي الليالي، في الليالي التي فيها ليلة هي خير من ألف شهر كما قال ربنا سبحانه وتعالى، هذه الليالي العشر استقبلوا فيها هذه الليلة المباركة، ولحكمة باهرة عالية أخفاها الله عز وجل عنا كي نقبل إلى الله في كل ليلة من لياليها نتلمسها كي نتأمل أننا قد نصيبها ونتصيدها في أي ساعة من الساعات وربك يقبل، وربك يعطيك الأجر الوافر في كل ليلة على هذا الذي قد أصبت، وقد صح عن أحمد ما يرويه في مسنده عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: التمسوها في ليلة الحادي والعشرين أو الثالث والعشرين أو الخامس والعشرين أو السابع والعشرين أو التاسع والعشرين أو آخر رمضان وهذا يعني أن ليلة القدر ليست حكراً ولا محصورة في ليلة السابع والعشرين كما يظن البعض ولكنا نتصيدها في كل ساعة من الساعات، أيجدر بالإنسان الذي عرف ربه وفاض قلبه عبودية لله أن يجعل من هذه الليالي ساعة إقبال إلى لهوه، ساعة إقبال إلى شهواته يا عباد الله.

بقي أن أقول لكم شيئاً هو جواب عن أناس فيهم من يستشكلون الأمر بحسن نية وفيهم من يتصيدون هذا الإشكال ليعكروا صفو العقائد الإيمانية في أفئدة أصحابها، يقول أحدهم: كيف يمكن أن تكون هنالك ليلة خاصة هي ليلة القدر عند الله وقد علمنا أن الليالي والأيام تتناوب في الكرة الأرضية، فالساعة التي هي منتصف الليل هنا ربما كانت في الجهة المقابلة من الأرض هي منتصف النهار هناك فكيف تكون ليلة القدر هنا في منتصف الليل وتكون في رابعة النهار هناك، هذا كلام من يظن أن سر ليلة القدر كامن في طبيعة الزمان، في طبيعة الفلك، الشمس والقمر الدائرين، لا يا عباد الله، الأزمنة كلها

بحد ذاتها سواء والأمكنة كلها في حد ذاتها سواء، تربة عرفة كتربة أي مكان في عالم الله سبحانه وتعالى، كذلكم الأزمنة، وإنما ينبعث فضل ليلة القدر من تجليات الله عز وجل على عباده في تلك الليلة، يتجلى الله عز وجل على عباده في هذا الصقع من العالم في الليلة التي يشاء، يقبل فيها على عباده ليقبلوا إليه، ويتجلى الله عز وجل على عباده في صقع آخر في ليلة أخرى وهكذا فالله سبحانه وتعالى الذي ناوب بين أزمنة الليل والنهار يعلم كيف يوزع قيمة هذه الليلة بين عباده سواء كانوا في مشارق الأرض أو في مغاربها، هذه اللوثة لا يجوز أن تلتصق بعقل إنسان أسلم عقله ويقينه لله عز وجل.

وأعود فأقول لكم إن الذي يشفع لنا غداً بين يدي الله يوم القيامة هو سر العبادات لا مظهر العبادات، الذي يشفع لنا غداً بين يدي الله عز وجل يوم القيامة هو عبوديتنا لله عز وجل إذ تقودنا إلى الركوع والسجود، هي يقيننا بمملوكيتنا لله سبحانه وتعالى، هي مشاعر الحب، مشاعر التعظيم، مشاعر المهابة والخوف إذ تهيمن على قلب الإنسان، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم فاستغفروه يغفر لكم.

٣٦٣- ليلة القدر وسياسة الإنفاق والزكاة | ٢٠١٠/٠٩/٠٣

هما أمران اثنان ينبغي أن أذكر نفسي وأذكركم جميعاً بهما.

أما الأمر فهو ما تعلمون من أننا نعيش أفضل أيام هذا الشهر، تلك الأيام والليالي التي أكد المصطفى صلى الله عليه وسلم أن فيها ليلة هي خير من ألف شهر كما قال الله سبحانه وتعالى، ولعلكم تعلمون أو سمعتم أن الإمام أحمد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: ﴿التمسوا ليلة القدر في ليالي الواحد والعشرين وثالث وعشرين وخامس وعشرين وسابع وعشرين وتاسع وعشرين من هذا الشهر المبارك﴾

وهذا يعني أن ليلة القدر ليست محصورة كما يتوهم كثير من الناس في ليلة السابع والعشرين من هذا الشهر المبارك.

الشيء الذي أريد أن الفت نظركم إليه هو أن في الناس من يتسلون بالجدل حول هذه الليلة – ليلة القدر – بدلاً من أن ينتهزوا الفرصة التي دعا إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم. تنظر إلى أحدهم وقد ألقى في جلسته ركبة على أخرى وراح يناقش قائلاً: كيف تكون هنالك ليلة بحد ذاتها هي ليلة القدر وهي خير من ألف شهر في حين أن الليالي والأيام تتوازعُ الكرةَ الأرضية في تبادل مستمر؟ هكذا يقول وهو يظن أنه بهذا الكلام قد نسف بيان الله عز وجل وزلزل عقائد المؤمنين في قلوبهم والواقع – أيها الإخوة – أن هذه جهالة طامَّة وينبغي أن ألفت النظر إلى البديهة التي ينبغي ألا تغيب عن بال أي عاقل فضلاً عن عا لم.

إن فضيلة ليلة القدر لا تكمن في جوهر الزمان نهائياً فالأزمنة كلها في جوهرها واحدة، الأزمنة التي تتمثل في حركة الفلك لا فرق بين زمان وزمان فيها قط وإنما تكمن أهمية هذه الليلة أو فضيلة هذه الليلة في تجليات الله سبحانه وتعالى على عباده فيها بالرحمة والصفح والمغفرة واستجابة الدعاء، يتجلى الله عز

وجل فيها على عباده جميعاً الطائعين والعاصين كلهم بشرط واحد هو أن يلتفت الإنسان إلى الله في هذه الليلة وأن يُقْبِلَ إليه كما يُقْبِلُ الله سبحانه وتعالى إليه بالرحمة والصفح والمغفرة واستجابة الدعاء.

إذاً فسر ليلة القدر ليس كامناً في زمنٍ معين حتى يرد هذا الإشكال وإنما السر كامن في الرحمة الإلهية المتنزلة من السماء.

فلو فرضنا أن ليلة القدر تكمن في الليلة الحادية والعشرين من هذا الشهر فإن الله يتجلى على عباده في الليلة الحادية والعشرين هنا ويتجلى على عباده في الليلة الحادية والعشرين في أمريكا ويتجلى على عباده في الليلة الحادية والعشرين في أوروبا وهكذا. فهذا هو الأمر الأول الذي ينبغي أن نتبينه. ولو أن الإنسان وقف أمام هويته، وقف أمام مرآة ذاته وتذكر أنه عبد مملوك لله عز وجل لما سخر ببيان يؤكده الله عز وجل وأفرد لذلك سورة برأسها. ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ. وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ. لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: ١-٣]

لكنه العتو والاستكبار على الله عز وجل يجعل أحدهم يجلس ليزجي الوقت وليتسلى بالجدل بدلاً من أن يعود فيدرس ويتعلم ما قد بيَّنَهُ الله عز وجل لنا في محكم تبيانه وما قد ذكره لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في أحاديثه.

وأما الأمر الثاني فهو ما ينبغي أن أعود فأذكركم به مرة أخرى. على الموسرين والأغنياء الذين متعهم الله بالمزيد والمزيد من المال أن يعلموا أنهم لا يملكون شيئاً من هذا المال الذي وضعه الله عز وجل تحت أيديهم، عليهم أن يعلموا الحقيقة التالية يا عباد الله.

هذا المال الذي وضعه الله عز وجل كثيراً وفيراً تحت يد فلانٍ من الناس الأغنياء قسمان اثنان.

أما القسم الأول منه فأعطاه الله عز وجل إياه ليمتع به نفسه وأهله وأسرته وذويه وليحقق بواسطة ذلك لنفسه ولأسرته المعيشة والحياة الرخية.

وأما القسم الثاني فهو وديعة، واسمعوا ما أقول لكم يا عباد الله: وديعة استودعه الله سبحانه وتعالى لديه لأناس آخرين، ائتمنه على هذا المال ليؤديه إليهم، من هم الذين استودع الله هذا المال عنده لصالحهم؟ إنهم من يُسَمَّوْنَ الفقراء وأنا أقول من يُسَمَّوْنَ الفقراء ولا أقول الفقراء لأن الأغنياء الذين نسوا هذه العهدة التي وضعها الله عز وجل بين أيديهم هم الذين جعلوا هذا الصنف الثاني يُسَمَّوْنَ فقراء، ولو أنهم أعادوا الحق إلى أصحابه إذاً لرأينا أن الجميع يعيشون في ظل الرخاء والكفاية.

أرأيتم إلى رجل نزل ضيفاً عند ثريٍّ كبير ولما أراد الضيف أن يرحل أعطاه بُلْغَةً كبيرة من المال قال هذا لك وهذا القسم الثاني تعطيه إذا ذهبت إلى بلدك لفلان وفلان وفلانٍ وفلان، إنها وديعة أُحَمِّلُكَ الائتمان بها وإعطاءها لأصحابها. كذلكم هؤلاء الأغنياء الموسرون الذين يخيل إليهم أنهم يملكون المال لا يملكون شيئاً، قسم منه متعهم الله عز وجل به متعةً لأنفسهم وذويهم وقسم استودعه الله عز وجل لديهم لِمُلاَّكِهِ، لأصحابه وهم من يُسَمَّوْن الفقراء. ألا فليعلم هؤلاء الموسرون ألا وليُذَكَّرُوا إن لم يكونوا يتذكرون أن مزارعهم التي يتقلبون فيها لهؤلاء الفقراء شركة فيها، ليعلموا أن بيوتهم التي يتمتعون فيها للفقراء شركة في هذه البيوت التي يسكنون فيها، لا أقول السيارة بل السيارات التي تجثم في كل مساء حول الدار ليعلموا أن لهؤلاء الفقراء شركة حقيقية فيها.

كيف، قد يقول قائل: وهل في سيارة يملكها صاحبها لاستعماله الشخصي زكاة؟ وهل على الدار التي أسكنها زكاة؟ نعم لا زكاة فيها ولكن اسمع: إن الملايين التي اشتريت بها المزرعة والتي اشتريت بها الدار الفارهة والتي اشتريت بها السيارات الفارهة المتنوعة هذه الملايين التي اشتريت بها هذا كله إنما هو صنفان اثنان كما قلت لكم؛ صنف متعك الله عز وجل به لتعود به رخاءً إلى نفسك وإلى أسرتك وصنف ائتمنك الله عليه هو النسبة التي تعرفون اثنين ونصف في المئة من هذه الملايين الكثيرة ولكنك لم تعد بهذه النسبة إلى أربابها، لم تُسَلِّمْ الوديعة إلى أصحابها فأصبح كل شيءٍ تشتريه بهذا المال شركة بينك وبين هؤلاء الفقراء.

ولتعلموا – يا عباد الله – أن الفقهاء اتفقوا على أن الإنسان الذي تعلَّقَ بماله حقٌّ للفقراء ثم أراد أن يبيعه قبل أن يعطي لأصحاب الحق حقهم لا يصح البيع في هذا الجزء الذي لا يملكه، البيع لا يصح في هذا الجزء الذي لا يتمتع به، حقيقة ينبغي أن تعلموها، قانون بل قاعدة فقهية لا إشكال فيها ولا ريب، ولقد ذَكَّرْتُكُمْ من قبل بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم القائل: ﴿إن الله جعل في أموال الأغنياء بالقدر الذي يسع فقراءهم وإن الفقراء إذا جَهِدُوا فعروا أو جاعوا إنما يكون ذلك بما يفعل أغنياؤهم وإن الله محاسبهم فمعاقبهم على ذلك عقاباً كبيراً﴾.

قولوا لهؤلاء الموسرين وما أظن أنهم يوجَدون في أمثال هذه المجالس لأن أعباء الدنيا أثقلتهم عن التحرك والمجيء إلى هذه الأماكن وأمثالها للرجوع إلى حقيقة العبودية القائمة في كياناتهم لله عز وجل، قولوا لهم المال ليس مالكم، المال مال الله، ألا تقرؤون القرآن، ﴿وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ [النور: ٣٣]

المال مال الله لكن الله عز وجل كرماً منه وإحساناً متعك بجزء كبير منه وقال عد به إلى أهلك ونفسك وأسرتك، أما الجزء الآخر قال له هذه وديعة، إنها وديعة أَعِدْ هذه الوديعة إلى أصحابها، نحن نقول هؤلاء فقراء ومساكين، من أين التصقت بهم هذه التسمية؟ منا نحن لما حبسنا هذه الوديعة في جيوبنا وصناديقنا ولم نعدها إلى أصحابها نظرنا إليهم فوجدناهم أصبحوا فقراء، من الذي جعلهم فقراء؟ نعم الله عز وجل هو مسبب الأسباب ولكني لما حبستُ الوديعة عن أصحابها ولما حبسها الثاني والثالث والرابع تحقق الفقر عند هؤلاء وغداً يأتي يوم الحساب.

عباد الله: كم وكم أتمنى أن تستيقظ الإنسانية بين جوانح هؤلاء الموسرين الذين كلما ازدادت نعمة الله عز وجل عليهم ازدادت قلوبهم قسوة. يا عجباً أتمنى لو أن إنسانيتهم تحركت فاستيقظت فساقتهم إلى بيوتٍ في ضواحي هذه المدينة مدينتكم مدينة دمشق، دخلوا إلى هذه الكهوف، دخلوا إلى هذه المغاور، دخلوا إلى أماكن هي بالقبور أشبه منها بالبيوت، نعم هي بالقبور أشبه منها بالبيوت من الذي يسكنونها أناس من أمثالنا وأمثالكم، ولا والله إن في هذه البيوت ما لا يرضى كثير من الحيوانات أن يستقر فيها.

تمنيت لو أن هؤلاء الموسرين ساقتهم أقدامهم إلى هذه الأماكن ونظروا إلى إخوةٍ لهم يموتون موتاً متقطعاً، لماذا؟ لأنهم حبسوا ودائعهم التي هي ملك لهم بقرار من الله في جيوبهم وصناديقهم.

يا هذا كيف يتأتى لك أن ترقد الليل وأنت تنظر إلى ما جنته يداك من هذه الظاهرة؟ كيف يتأتى لك أن تضع اللقمة في يدك فتستسيغها وأنت تعلم أن هذا الذي رأته عيناك إنما هو نتيجة جريمتك أنت عندما حبست هذه الوديعة في صندوقك ولم تعد بها إلى أصحابها؟ كيف يمكن أن يهنأ لك مقام؟ كيف يمكن أن يهنأ لك عيش عندما تعود من هذه الرحلة بل من هذه الطوفة التي أحدثكم عنها؟ ولكنني أعلم وأنتم تعلمون أن هؤلاء الذين أكرمهم الله ومتعهم الله بالمال الوفير الوفير لا يمكن أن يلتفتوا إلى هؤلاء الناس لأنهم لا يريدون أن يعكروا متعتهم، لا يريدون أن يعكروا صفو معيشتهم. إنهم إذا نظروا فوجدوا حال هؤلاء الذين يعيشون في الضنك، إذا نظروا فوجدوا حالهم ربما يتخيلون أنهم يكدرون صفو حياتهم، يكدرون صفو نعيمهم ولذلك فالحل أن يطرحوا هذا الواقع وراءهم ظهرياً وأن ينسوا أو يتناسوا وجود هؤلاء الذين يموتون موتاً بطيئاً.

والله الذي لا إله إلا هو إن هنالك إخوة لكم كان دأبهم في هذا الشهر أن يطوفوا في هذه الأماكن وأن يتنقلوا ضمن هذه البيوتات إن جاز التعبير عنها بالبيوتات ولكن هذا الذي فعلوه عاد إليهم بنشوة ما مثلها نشوة، لم يعكر أبداً صفو نعيمهم بل أدخل في كيانهم نشوة لا يمكن للإنسان أن يحققها بأي وسيلة من الوسائل المادية.

دخلوا هذه البيوتات ورأوا هذا الوضع الذي وصفته لكم، أخرج الواحد منهم من جيبه ما استطاع أن يخرج، ما استطاع أن يأتي به وقذفه فيما بينهم وإذا البأساء قد تحولت إلى رخاء وإذا الأسى الذي خيم على الوجوه قد تحول إلى فرحة وإذا الصغار يرقصون وإذا الكبار يفرحون.

استطعت بهذا العمل أن تدخل الفرحة في قلوب كئيبة، ما قيمة المال أيها الإخوة إن لم يُجَنَّدْ لمثل هذا؟ ما قيمة المال إن حبسته في صندوقي أو اكتنزته هنا وهنا وهناك في المصارف العالمية المختلفة ولم أعد به إلى هؤلاء الذين استودع الله لديَّ أموالهم، ما قيمة ذلك؟ غداً سأرحل. قولوا لهؤلاء: إنها أيام أو

أشهر أو سنوات وغداً سترحل من هذه الدنيا ولن تنالوا منها إلا ما طعمتم، إلا ما ارتديتم، إلا ما أكلتم والباقي ماذا تصنعون به؟ والله إنه لن يكون إلا عبئاً ثقيلاً أمامكم يوم القيامة ولن تجدوا من وراء هذا الذي جمعتموه فلن تستفيدوا منه لا لطعام ولا لشراب ولا لكساء لن تجدوا من وراء ذلك إلا نيراناً تلتهب.

ترى هل في هذا المسجد ناسٌ من هؤلاء الناس يسمعون كلامي؟ هل يمكن لأناس من هؤلاء الناس أن يبلغهم هذا الذي أقول؟ لعل هذا الذي أقول يرقق قلوبهم القاسية، لعل هذا الذي أقول يوقظ إنسانيتهم الغافلة

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يكرمنا بالتراحم حتى يكرمنا برحمته. أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.



عيد الفطر

٣٦٤- وصية هذا العيد | عام ١٩٨٩

إنَّ مبنى هذا الدّينِ كلّه في جملةِ عقائده وأحكامهِ وآدابه، على جمعِ هذه الأمّة على كلمةٍ واحدة، وتكوين الرّابطةِ الإنسانيّةِ فيما بينها، وسحبِ أسبابِ الخلافاتِ مما بينها، فلئن وجدتم أنَّ اللهَ عزَّ وجلّ يأمرُ عبادهُ بمعرفةِ ربّهم وتوحيده، فإنَّ الفائدةَ تصبُّ من وراءِ ذلكَ في هذا الهدف.

وإن رأيتم أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يأمرُ عبادهُ بأن يكونوا قانتين خاشعين عابدينَ له، فإنَّ ذلكَ أيضاً يصبُّ في هذا الهدف.

وإن رأيتم أنَّ اللهَ سبحانهُ وتعالى جعلَ للأزمنةِ مواسم، كما جعلَ للأمكنةِ مقدّساتٍ سامية، فإنَّ ذلكَ أيضاً يصبُّ في هذا الهدف.

وما العيد الذي جعلهُ الله سبحانهُ وتعالى مثابةَ لقاءٍ وتضامنٍ وإعادةِ ألفةٍ بينَ المسلمين، إلا أساساً لهذا المعنى أيضاً؟

ولقد سبقَ من تقديسِ الإسلامِ لجمعِ الكلمة وإقامةِ الرّابطةِ الإسلاميّةِ فيما بينِ عبادِ اللهِ سبحانهُ وتعالى، أن جعلَ أعظمَ العبادات وأجلّها وأبرزها في الشّعائر أساساً لهذه الوحدة، فلقد شرعَ اللهُ سبحانهُ وتعالى اجتماعَ المسلمين على مستوى الحيِّ الواحد، وجعلَ ضمانةً لذلك مشروعيّةَ صلاةِ الجماعة.

كما شرعَ اللهُ سبحانهُ وتعالى لهم الاجتماع والتّلاقيَ والتآلف على مستوى البلدةِ كلها وضمن ذلك إذ شرعَ لهم صلاةَ الجمعة، التي تتكررُ في كلِّ أسبوعٍ مرّة.

ثمَّ إنّهُ شرعَ لهم التّلاقيَ والتّآلف والاتّحاد على مستوى العالم كلّه، وشرعَ لذلك الحجَّ إلى بيتهِ الحرام، وجعلهُ يتكررُ في العامِ مرّةً واحدة، فانظروا إلى مدى أهمّيّةِ التآلفِ في ميزانِ النّظرِ الإلهي، وانظروا إلى قدسيّةِ اتّحادِ المسلمين في ميزانِ مرضاةِ اللهِ سبحانهُ وتعالى.

بل انظروا كيفَ يتجلّى ذلكَ واضحاً في قولهِ عزَّ وجلّ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ وفي قولهِ سبحانهُ وتعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ إلى آخرِ الآية.

ينبغي أن نتمكّنَ هذ المعنى ونتفهّمَ قدسيّتهُ في صبيحةِ مثلِ هذا اليوم، ما العيد، وما الفائدةُ التي يعودُ بها الإنسانُ من وراءِ هذا العيدِ الذي شرعهُ اللهُ؟ والذي أعلنَ في كتابه أنهُ يتجلى على عباده في هذا اليوم بالرّحمة والمغفرة، وقبول ما تقرّبوا به إلى الله في شهرهم السّالف.

ما الفائدةُ التي يعودُ النّاسُ بها من وراءِ هذا العيد؟ الفائدةُ العظمى هي أن هذا اليوم يعيدُ ما تناثر من تماسكهم ووحدةِ كلمتهم، هذا اليوم يجمعُ شملهم من جديد، ويسدُّ ما تفتّحَ من الثّغراتِ في حياتهم لأسبابٍ شتّى، ويعيدهم مرّةً أخرى إلى الوئامِ وإلى وحدةِ الشّمل.

معنى العيد أنّهُ يعيد المسلمينَ مرّةً أخرى، على صراطِ اللهِ العزيزِ الحميد، فإذا عرفنا هذا المعنى القدسيّ من خلالِ هذا اليومِ المبارك، أدركنا ضرورةَ السّعيِ إلى تحقيقِ هذا المعنى، وإلى إعادةِ هذا الشّمل إلى المعنى الذي يريدهُ اللهُ عزَّ وجلّ، ألا كم من أُسَرٍ مسلمةٍ تعاني من التّفكّك والاضمحلالِ والتّدابر؟ يمرُّ بنا هذا العيد، وأفرادُ هذه الأسرة غيرُ عابئينَ بنداءِ اللهِ عزَّ وجلّ لهم، أن يصلحوا من شأنهم، وأن يعيدوا وحدتهم إلى ما ينبغي أن تكون عليه من تآلفٍ.

ألا وكم من إخوةٍ وأصدقاء شاعتِ الفُرقةُ بينهم بدلاً من الحبِّ والوئام، وشاعتِ القطيعةُ فيما بينهم بدلاً من المودّةِ والقربى، يمرُّ بهم هذا اليوم فلا تحرِّكُ قدسيّةُ هذا اليومِ في فؤادهم ذرّةً واحدة، هؤلاء الناسُ إن مرَّ بهم مثلُ هذا اليوم وهم على حالتهم من التّدابر والتّقاطع، هؤلاء الناس يعدون السّبيلَ الواضح من سلوكهم على غضبِ الله عليهم، وعلى مقتهِ لهم، وأسألُ اللهَ سبحانهُ وتعالى العفوَ والعافية من قطيعةٍ تتمثّلُ في أخطرِ أنواعها: ألا وهي قطيعةُ الرّحم، ونسألُ اللهَ العفوَ والعافية من أن نصغيَ إلى كلامِ اللهِ هذا ثمَّ نعطيهُ ظهورنا ولا نصغي إلى خطورته: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءًوَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾.

وصيّةُ هذا العيد التي تفدُ إلى كلِّ قلب، والتي تهمسُ همسةَ رقّةٍ إلى كلِّ أذن، أنَّ على كلِّ مسلمٍ أن ينظرَ إلى الشّمل الذي يربطهُ بإخوانه، بأفرادِ أسرته، بأصدقائه، بأهلِ حيّه، يعيدُ هذا الشّملَ مرّةً أخرى

إلى النّسقِ السّليم، وإلى البناء الثّابت الرّاسخ القويم، تلكَ هي الحكمةُ من هذا اليوم، وهذا هو خطاب هذا العيدِ المباركِ يا عبادَ الله.

ويقيناً لو كانَ هنالكَ سبيل لجمعِ كلمةِ عبادِ اللهِ عزَّ وجلّ تحتَ مظلّةٍ غيرِ مظلّةِ هذا الدّين، لأمرهم الله بالخضوعِ لتلكَ المظلة، ولجعل ذلكَ بديلاً لهم عن الإسلام.

ولكنَّ اللهَ العليمَ الحكيم علم أنّهُ لا يمكن أن يجتمعَ شملُ عبادهِ فوقَ هذه الأرض وقد خُلِقوا بطبائعَ شتّى، وميولٍ مختلفة، وبأنانيّاتٍ متنوّعة، علمَ اللهُ أنهُ لا يمكن أن توجدَ جامعةٌ تضفرهم وتؤلّفُ ما بينهم، إلا جامعةُ الخضوعِ لوحدانيّةِ اللهِ عزَّ وجلّ، والسّير على منهجِ العبوديّةِ للهِ عزَّ وجلّ، وقد وضعَ اللهُ أمامنا لكي ندركَ هذه الحقيقة نموذجاً صغيراً بهذا المعنى، ألا وهوَ: الأسرةُ الصّغيرة، أرأيتم إلى الأسرةِ التي تتكوّنُ من أبوينِ وأولادٍ شتّى، إنَّ هذه الأسرة لا يمكن أن تسعد إلا إذا اجتمعَ شملُها، ولكن ما ضمانةُ اجتماعِ شملِ هذه الأسرة، لا ضمانةَ إلى ذلك إلا خضوعُ أفرادِ هذه الأسرة لربِّ هذه الأسرة.

فعندما يخضعُ الصّغارُ والكبارُ والذكور والإناث لرب هذه الأسرة يجتمعُ شملُ أفرادها، ومن ثمَّ يسعدون، وما زادَ انَّ أفرادَ هذه الأسرة لا يتعرّفونَ على ربٍّ لهم، ومن ثمَّ لا يدينون له بالولاء والطّواعية، فإنّهم يتفرّقونَ ويتبدّدون، ويتنافسونَ فيما بينهم وتشيعُ بينهم البغضاء، وهكذا يشيعُ من ثمَّ بينهم الشّقاء، ما ينطبقُ على واقعِ الأسرةِ الصّغيرةِ هذه، هو ذاته الذي ينطبقُ على واقعِ الأسرةِ الإنسانيّةِ الكبيرة. كذلكم النّاس فوقَ هذه الأرض مدعوونَ إلى أن يجتمعَ يشملهم لكي يسعدَ بعضهم ببعض، ولا يتمُّ ذلك إلا إذا دانوا بالولاءِ والطّواعيةِ لربِّ هذه الأسرةِ الكبيرة، فمن ربُّ هذه الأسرةِ الإنسانيّة؟ اللهُ الواحدُ الأحد. تماماً كما أنَّ اللهَ أقامَ قيوماً ورباً مجازياً للأسرةِ الصّغيرة وأعلمنا أنَّ سلامةَ هذه الأسرةِ الصّغيرة لا تتمُّ إلا بالتآلف، ولا يتمُّ التآلف إلا بالبرِّ لربِّ هذه الأسرة، من الذي يشكُّ في هذه الحقيقة؟

فلنجدد ولاءنا لربِّ هذه الأسرةِ الإنسانيّة بل لربِّ هذا الكونِ كلّه. ولنصطلح مع اللهِ عزَّ وجلّ إن كنّا قد نسيناه، وإن كنّا قد أعرضنا عنهُ فيما مضى من أيّامِ حياتنا، لكي نعيد علاقتنا مع إخواننا فوقَ هذه الأرضِ جميعاً على أساسٍ من الوئام، وعلى أساسٍ من التآلف والعطفِ والتّراحم.

أقولُ قولي هذا وأسألُ اللهَ عزَّ وجلّ أن يجعلَ من توحيدنا الخالصِ لربّنا أساساً لهذا المعنى القدسيِّ الذي نتحدّثُ عنه، فاستغفروهُ يغفر لكم.



٣٦٥- فرصة قد لا تعود وأحكام زكاة الفطر | ١٩٩١/٠٤/١٢

لئن كانَ شهرُ رمضان المبارك هو خيرُ شهورِ السنةِ على الإطلاق، فإنَّ العشرَ الأخيرَ من هذا الشهر هي أفضلُ أيامِ الشهرِ على الإطلاق، وذلك لأنَّ رحمةَ اللهِ سبحانهُ وتعالى تتضاعفُ في هذهِ الأيامِ لعباده، ولأنَّ اللهَ تعالى أودعَ في هذهِ الليالي ليلةً وصفها اللهُ تعالى بأنها خيرٌ من ألفِ شهر، ألا وهيَ ليلةُ القدرِ كما تعرفون، وليسَ صحيحاً ما يتصورهُ أو ما يتوهّمهُ بعضُ الناس من أنَّ ليلةَ القدرِ محصورةٌ في ليلةِ السابعِ والعشرينَ من هذا الشهر، فهم يحصرونَ احتفالاتهم واحتفاءاتهم بها في هذا الميقاتِ دونَ غيره، بل سئلَ عن ذلكَ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم فقال: ﴿التمسوها في العشرِ الأخير التمسوها في ليالي الوتر، في ليلةِ واحدٍ وَ عشرين، ثلاثٍ وعشرين، خمسٍ وعشرين، سبعٍ وعشرين، تسعٍ وعشرين﴾.

هذهِ الليالي كلها مجالٌ واسع ومدارٌ لاحتمالٍ كبير أن تكونَ كلُّ ليلةٍ منها هيَ ليلةُ القدر، ولعلَّ الحكمة في إخفاءِ اللهِ سبحانهُ وتعالى هذهِ الليلة وميقاتها من هذا الشهر بل منَ العامِ كله أن يحاولَ الإنسانُ جهدَ استطاعته أن يستغلَّ كلَّ ليلةٍ منَ الليالي التي تمرُّ بعمره، بل كلَّ ساعةٍ منَ الساعاتِ التي ملكهُ اللهُ عزَّ وجلَّ إياها ليُقبلَ فيها على اللهِ عزَّ وجلّ، وليصلحَ فيها من شأنه، وليقومَ فيها من اعوجاجه، وليتوبَ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ من أيِّ ذنبٍ قد فرطَ منه. تلكَ هيَ الحكمة من إخفاءِ اللهِ سبحانهُ وتعالى ميقاتَ هذهِ الليلة أمامَ العبد بالنسبةِ لا لهذا الشهر فقط بل بالنسبةِ للعامِ كله.

وأحبُّ أن نعلمَ أيها الإخوة أنَّ فضيلةَ ليلةِ القدر، بل إنَّ فضيلةَ أيِّ ليلةٍ منَ الليالي ليست نابعةً من جوهرِ الوقتِ ذاته، وإنما هيَ آتيةٌ من تجلي اللهِ سبحانهُ وتعالى على عبادهِ بالرحمة في وقتٍ دونَ وقت أو في وقتٍ أكثرَ من أوقاتٍ أخرى؛ الأزمنةُ كلها في الأصلِ واحدة بالنسبةِ لجوهرها وبالنسبةِ لحقيقتها العلمية، والأمكنةُ كلها في الأصلِ واحدة بالنسبةِ لجوهرها وماهيّتِها الحقيقية. ولكنَّ المكانَ يشرف بتشريف الله عزَّ وجل له، والزمانُ يشرف بتشريفِ اللهِ سبحانهُ وتعالى له.

وإذا علمنا هذهِ الحقيقة، سُدَّتِ السُّبُلُ أمامَ من يريدونَ أن يستشكلوا أو يثيروا الشبهاتِ أمامَ بعضِ العقول، عندما يسألُ أحدهم: كيفَ يمكن أن نحددَ ليلةَ القدرِ مثلاً ومواقيتُ الأزمنةِ متخالفةٌ متناوبةٌ فوقَ

هذهِ الأرض وميقاتُ الليلِ هنا ميقاتُ نهارٍ هناك؟ وكيفَ يمكنُ أن نتصورَ الأمرَ على هذا النحو و الأمرُ جارٍ على هذهِ الحقيقة؟ هذا الإشكال كانَ منَ الممكنِ أن يرسخَ في الذهنِ وأن يكونَ إشكالاً حقيقياً لو أنَّ سرَّ هذهِ الليلة نابعٌ منَ الليلةِ ذاتها، إذاً لقلنا كيفَ وجدَ هذا السرُّ هنا ولم يوجد هناك؟

ولكنَّ الأمرَ كما قلت لكم، تجلٍّ منَ اللهِ عزَّ وجلَّ على عباده في مواقيتَ متنوعة، ومنَ اليسير أن يتجلى اللهُ عزَّ وجلَّ على عبادهِ بالرحمةِ في ليلةٍ من ليالي هذا الشهرِ هنا، ويتجلى على عبادهِ في ليلةٍ أخرى من ليالي هذا الشهرِ في أيِّ مكانٍ آخر، وأن يتجلى على عباده بالرحمةِ ذاتها في أيِّ ليلةٍ أخرى في مكانٍ ثالث، والأمرُ كلهُ عائدٌ إلى رحمةِ اللهِ سبحانهُ وتعالى، وإلى مواقيت نثرها بينَ الأزمنة، بل إلى معالم نثرها بينَ الأمكنة ليجعلَ الناسُ من هذهِ المعالمِ الزمنيةِ وهذهِ المعالمِ المكانيةِ فرصاً يقبلونَ فيها إلى اللهِ سبحانهُ وتعالى. معَ العلمِ بأنَّ هذهِ الفرصَ لا تتناهى، فما من معلمةٍ زمنيةٍ تمر ويغفلُ الإنسانُ عنها إلا ويردفها اللهُ جلت رحمتهُ بمعلمةٍ أخرى ينادي العبد: ألا هلمّ إن كنتَ لم تستطع أن تنتهزَ الفرصةَ التي خلت، فإذا ذهبت الفرصةُ الثانية أعقبتها الرحمةُ الإلهية بفرصةٍ ثالثة، والأمرُ كله عائد إلى أبوابٍ منَ الرحمةِ الإلهية المفتحة أمامَ عبادِ اللهِ جميعاً. وكلُّ عبادِ الله مدعوّون للدخولِ في هذهِ الأبواب إلا من أبى، الذي أبى أن يلجَ هذهِ الأبوابَ الربانية فقد حكمَ على نفسه بالشقاء، وهوَ القاسي في حقِّ ذاته. انهالت عليهِ الرحمةُ الإلهية وطافت بهِ من كلِّ جانب ولكنهُ ابتعدَ عنها، ثمَّ ابتعدَ عنها، ولا يبتعدُ الإنسانُ عن رحمةِ اللهِ عزَّ وجل إلا بعاملٍ واحد هو التكبرُ على اللهِ سبحانهُ وتعالى.

إنني أدعو نفسي وأدعوكم يا عبادَ الله إلى أن ننتهزَ هذهِ الفرص السانحة التي قد لا تعود، قد لا تعودُ لا لأنَّ أبوابَ الرحمةِ الإلهية توصد، ولكن لأنَّ الأجلَ ربما كانَ قد أزف. من منا يدري أنَّ أجلهُ بعيدٌ وبعيد، وأنَّ مزرعةَ عمرهِ يمكن أن تغرسَ فيها فرصٌ كثيرةٌ أخرى؟ من منّا الذي يعلم أنَّ الموتَ لا يكمنُ خلفَ أذنه، و أنَّ بينهُ وبينَ حَينِه ولقائه معَ اللهِ عزَّ وجلَّ ساعات بل ربما دقائق؟

ومن ثمَّ فإنَّ على الإنسان إذا وجدَ أمامهُ فرصةً سانحة، وأبواباً من رحمةِ اللهِ مفتّحة، عليهِ أن ينتهزَ هذهِ الفرص وهوَ يفترضُ أنها ربما كانت آخرَ فرصةٍ في حياته.

هذا شيء، وشيءٌ آخر ينبغي أن أذكرَ نفسي وأذكركم به هوَ الشعيرةُ الكبرى لهذا الشهرِ المبارك، هيَ الشعيرةُ الكبرى بالنسبةِ لأجرها وبالنسبةِ لأهميتها في ديننا الإسلاميِّ الحنيف، ولكنّها شعيرةٌ صغيرة بالنسبةِ لكلفتها وبالنسبةِ للجهد الذي ينبغي للإنسانِ أن يبذلهُ في سبيله، إنها شعيرةُ زكاةِ الفطر، شيءٌ افترضهُ اللهُ سبحانهُ وتعالى على الناس، وعلّقها اللهُ عزَّ و جلَّ في رقابِ الناسِ جميعاً. فأما المستقلُّ بأمرِ نفسهِ فهوَ مسؤولٌ عن إخراجها بذاته. وأما من كانت مسؤوليّتهُ عائدةً إلى من أمرهُ اللهُ عزَّ وجلَّ بالإنفاقِ عليهِ والولاية، هو الذي يُكَلَّفُ بإخراجها عنه، هو من كلّفهُ اللهُ سبحانهُ وتعالى بالإنفاقِ عليه. وإذاً، فهذهِ الشّعيرةُ منوطةٌ بعنقِ النّاسِ جميعاً، ويستقرُّ وجوبُها بمغيبِ شمسِ آخرِ يومٍ من أيّامِ شهرِ رمضانَ المبارك. ولكنَّ الإنسانَ يملكُ أن يخرجَها بدءاً من أوّلِ الشّهرِ إلى صباحِ عيدِ الفطر.

زكاةُ الفطرِ هذهِ هي في الأصلِ عبارةٌ عن صاعٍ من غالبِ قوتِ البلد، وأنتم تعلمونَ أنَّ غالبَ قوتِ البلدِ عندنا هوَ البُرّ، والصّاعُ عبارةٌ تقريباً عن أربعِ حفَناتٍ كبير، وإذا قدّرنا هذهِ الحفناتِ الأربعَ بالوزنِ فهيَ لا تزيدُ عن ألفي غرام. فانظروا يا عبادَ اللهِ إلى قيمةِ ألفي غرامٍ من البُرِّ كم هيَ؟ تلكَ هي زكاةُ الفطرِ التي افترضها اللهُ سبحانهُ وتعالى على كلٍّ منّا ممّن يستقلُّ بأمرِ نفسه. وفرضَها اللهُ عزَّ وجلَّ علينا لكلِّ من وكلَ اللهُ إلينا أمرَ الإنفاقِ عليه.

إذاً، الأصلُ أن يخرجَ الإنسانُ هذا القوت. ولكن قالَ العلماء، أو قالَ كثيرٌ منهم: إذا كانتِ المنفعةُ للفقيرِ كاملةً في قيمةِ هذا القوتِ فليكن إخراجُ زكاةِ الفطرِ منَ القيمة، أي من أحدِ النّقدينِ أو ما يقومُ مقامه.

ومن عجبٍ أنّني أسمعُ في هذا العامِ سؤالاً يتكرّرُ لم أسمعهُ في السّنواتِ الماضيةِ من قبل: هل يجوزُ إخراجُ زكاةِ الفطرِ متاعاً من الأمتعة؟ صاحبُ المكتبِ يقترحُ أن يُخرجَ كتباً يوزّعُها كزكاةِ فطر، وصاحبُ محلٍّ تجاريٍّ يبيعُ فيهِ الأقمشةَ يتمنّى أو يقترحُ أن لو جازَ أن يخرجَ أقمشةً كزكاةِ فطر، هذهِ الأسئلةُ تنمُّ عن رغبةٍ في التّحايلِ على دينِ اللهِ عزَّ وجلَّ. زكاةُ الفطرِ متعلّقةٌ في الأصلِ بغالبِ قوتِ البلد، ينبغي إخراجُ هذا القوت. ولكنَّ الضّرورةَ اقتضت في عصرنا هذا أن نستبدلَ بالقوتِ ثمنه، والثّمنُ هو القيمة ولا شيءَ غيرُ القيمة. ينبغي أن نعلمَ هذهِ الحقيقةَ يا عبادَ الله.

والمعنى الكبيرُ الذي ينبغي أن ننتبهَ إليهِ من هذهِ الشّعيرةِ التي افترضها اللهُ عزَّ وجلَّ علينا بل شرّفنا اللهُ عزَّ وجلَّ بها: هو التّضامنُ الاجتماعيُّ الذي هو من الأوامرِ الإلهيّة. هذهِ الأوامرُ الإلهيّةُ على اختلافها تصبُّ في هدفٍ واحد: أن يكونَ المجتمعُ الإسلاميُّ مجتمعاً متضامناً متكافلاً، وأن يتحمّلَ بعضهم مسؤوليّةَ بعض. ولقد ابتلى اللهُ سبحانهُ وتعالى عبادهُ بثغراتٍ من أجلِ أن ينظرَ إليهم هل ينهضونَ إلى سدِّ هذهِ الثّغرة؟ أم إنّهم يتقاعسونَ ويعرضونَ ويحصرونَ أنفسهم منَ الإسلامِ في ركعات، أو في تسبيحاتٍ وصلوات؟ هذا المعنى ينبغي أن ندركه.

وينبغي أن نعلمَ جيّداً أنّهُ لا يمكنُ أن يتسرَّبَ جوع إلى المجتمعِ الإسلاميّ، ولا يمكنُ أن يتسرَّبَ إليهِ فقرٌ إلا بتقصيرٍ فرطَ من كثيرٍ من المسلمينَ الذينَ كلّفهم اللهُ بأوامرَ محدّدةٍ فتقاعسوا عن هذه الأوامر. ألم تسمعوا قولَ رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم: ﴿إنَّ اللهَ جعلَ في مالِ الأغنياءِ بالقدرِ الذي يسعُ فقراءه، ولن يُجهَدَ الفقراءُ إذا جاعوا أو عروا إلا بما يفعلُ أغنياؤهم، وإنَّ اللهَ محاسبهم على ذلكَ فمعذّبهم عذاباً كبيراً﴾.

ومرّةً أخرى وأخرى أجدُني مضطراً إلى القول: أسألُ عن أعدادِ الجمعيّاتِ الخيريّة: فلا أرها إلا في تزايد، عشراتُ الجمعيّاتِ الخيريّة. وأسألُ عن أعمالِ هذهِ الجمعيّاتِ الخيريّةِ وآثارِها في هذهِ البلدة: فلا أرى من هذهِ الآثارِ شيئاً، بل لعلّي لا أرى من آثارِها إلا النّذرَ اليسير. جمعيّاتٌ خيريّة تضعُ أيديها على أموالٍ وفيرةٍ وكثيرة، ماذا تصنعُ بهذهِ الأموال؟ ولماذا لا نجدُ هذهِ الجمعيّاتِ تمتصُّ الفقرَ والفقراءَ الذينَ يطرقونَ كلَّ بابٍ إلا أبوابَ هذهِ الجمعيّات؟ ويسألونَ النّجدةَ أمامَ كلِّ مظنّةِ خيرٍ إلا أمامَ هؤلاءِ النّاس؟ ونسألهم: لماذا لا تذهبونَ إلى هذهِ الجمعيّات؟ هم المكلّفونَ بكم، هم القائمونَ على أمركم، هم المتفرّغونَ لشؤونكم، أموالُكم بينَ أيديهم. وتأتينا الشّكوى أنّهم لا يلتفتونَ إليهم قَطّ، وأنّهم عندَ الشّدّةِ وعندَ الإكثارِ عليهم والضّغطِ الشّديدِ يعطونهمُ النّذرَ اليسيرَ كما يعطي الإنسانُ لقيمةً من أجلِ أن يسكتَ إنساناً يلاحقهُ بالسّؤال.

فالشّكوى إلى اللهِ أوّلاً من هذا الواقعِ المرير، والنّصيحةُ إلى هذهِ الجمعيّاتِ ثانياً أن يتّقوا اللهَ وأن لا ينيموا أموالَ عبادِ اللهِ بينَ أيديهم، ولا في أدراجِ بُنوك. ليتّقوا الله، وليسدّوا بهذهِ الأموالِ وإن كانَ ذلكَ بينَ عشيّةٍ وضُحاها، ليسدّوا بهذهِ الأموالِ الثّغراتِ وما أكثرها وما أخطرها.

ثغراتُ الفقر: متمثّلاً في جوعٍ وسَغَب، متمثّلاً في حاجةٍ ماسّةٍ إلى سكن، متمثّلاً في حاجةٍ ماسّةٍ إلى زواج، متمثّلاً في حاجةٍ ماسّةٍ إلى استشفاءٍ من أمراض. أينَ هؤلاءِ النّاسِ من هؤلاءِ الفقراءِ الذينَ ترتفعُ شَكَاتُهم إلى السّماءِ ولا مجيبَ لهم؟ أقولُ قولي هذا وأستغفرُ اللهَ، فاستغفروهُ يغفر لكم.



٣٦٦- الخواطر.. أجلُّ ما يتقرب به العبد إلى الله | ١٩٩٦/٠٢/١٦

لعلكم تعلمون أن من أهم الشعائر التي فرضها الله سبحانه وتعالى عند نهاية هذا الشهر المبارك وبداءة عيد الفطر السعيد الذي أكرم الله عز وجل به هذه الأمة، لعلكم جميعاً تعلمون أن من أهم الشعائر التي افترضها الله عز وجل على الناس في هذا الميقات زكاة الفطر، وزكاة الفطر هذه جعل الله عز وجل ميقاتها بين نهاية شهر رمضان ودخول يوم العيد، فكل من أهلّ عليه هلال العيد وخُتم عنه شهر رمضان المبارك فقد فرض الله سبحانه وتعالى عليه في ماله ما يسمى بزكاة الفطر، عنه وعن كل من أمر الله سبحانه وتعالى أن ينفق عليهم من زوجٍ وأولادٍ ونحو ذلك.

ولعلكم جميعاً تعلمون أيضاً أن زكاة الفطر هذه إنما فرضها الله سبحانه وتعالى في غالب قوت البلد الذي يسكن هذا الإنسان المكلف فيه، وذلك لما رواه أبو سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: ﴿افترض رسول الله صلى الله عليه وسلم زكاة الفطر صاعاً من شعيرٍ أو تمرٍ أو برٍ أو أقط، فلا أزال أُخرجه ما حييت﴾ واستظهر العلماء من ذلك أن هذا التنويع الذي ذكره الله أبو سعيدٍ الخدري إنما يدل على أن المطلوب هو أن يُخرج زكاة الفطر من غالب قوت البلد الذي يعيش هذا الإنسان فيه، فإن كان براً فبر أو شعيراً فشعير أو تمراً فتمر، وإن تعددت الأصناف وتساوت كانت له الحق أن يُخرج ما شاء منه.

ولقد جعل الله سبحانه وتعالى هذه الصدقة شعيرةً من شعائر يوم العيد المبارك، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بإخراجها قبل خروج المسلمين إلى صلاة العيد، وذلك لما رواه البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر أن تخرج صدقة الفطر قبل الخروج إلى الصلاة)، أي قبل خروج الناس إلى صلاة العيد فإذا أخرها الإنسان عن ذلك عصى وإذا أخرها عن يوم العيد لم تعد صدقة فطر، وإنما تصبح صدقةً من الصدقات، واستقرت إثماً في عنق هذا الإنسان.

أما الشرائط التي ينبغي أن تتوفر لكي يُكلف الإنسان بإخراج هذه الصدقة، فهي شرائط يسيرة ما أظن في الناس من لا تنطبق عليهم هذه الشرائط:

كل إنسانٍ أدبر عنه شهر رمضان، وأقبل عليه يوم العيد، وهو يملك من النفقة ما يحتاج إليه في يوم العيد وليلته لنفسه ولأسرته التي كلفه الله سبحانه وتعالى الإنفاق عليها، وزاد عن ذلك شيء فقد وجب عليه أن يُخرج صدقة الفطر.

كل إنسانٍ يملك سكناً أو يسكن في سكن بأجرةٍ أو بأي وسيلة من الوسائل، ووجد أنه يمتلك المال الكافي ليعود به على نفسه وعلى أسرته التي كلفه الله الإنفاق عليها يوم العيد وليلته فقط، وازدادت عن ذلك زيادة فقد وجب عليه أن يخرج صدقة الفطر.

ومن هنا ندرك أن الله عز وجل جعل هذه الشعيرة عامةً يُخاطب بها الناس جميعاً؛ ذلك لأنك لا تكاد تجد إنساناً لا يملك النفقة الكافية في هذه الساعات، ساعات العيد التي ينبغي أن يعود بها على نفسه وعلى من ينبغي أن يعيلهم.

فما هي الحكمة أيها الإخوة؟ ما هي الحكمة من أن الله عز وجل جعل هذه الشعيرة عامةً تصيب الناس جميعاً على خلاف زكاة المال؟ وما الحكمة من أن الله عز وجل جعل مقدارها مقداراً يسيراً؛ إذ زكاة الفطر عن كل إنسانٍ لا تزيد على أن تكون صاعاً من غالب قوت البلد الذي هو فيه، والصاع لا يتجاوز ألفي غرام أي كيلوين فقط من غالب قوت البلد؟ كل إنسانٍ يستطيع أن يدفع هذا المقدار عن نفسه وعن من كلفه الله سبحانه وتعالى الإنفاق عليه. ما الحكمة أيها الإخوة؟

الحكمة هي أن تنظف القلوب التي قد يكون ران عليها حقدٌ أو ران عليها ضغائن أو تسربت إليها مشاعر من الغضب، مشاعرٌ من البغضاء اتجاه المسلمين بعضهم مع بعض، في هذه الحالة وشهر رمضان قد أقبل ثم أدبر، والعيد على الأبواب، ينبغي أن يسارع المسلمون جميعاً إلى اتخاذ أقرب الوسائل لتطهير قلوبهم من الشحناء ومن البغضاء، وأن يسارعوا إلى إعادتها بيضاء نقية كما أمر الله سبحانه وتعالى فما السبيل إلى ذلك؟

السبيل إلى ذلك هو أن يتلاقى المسلمون جميعاً فقراء وأغنياء مهما كانت أحوالهم أن يتلاقى المسلمون جميعاً بأي وسيلة من الوسائل الإنسانية تساعد على تطهير القلوب من السخائم، تساعد على تطهير

القلوب من الشحناء والبغضاء، والوسيلة التي شرعها الله سبحانه وتعالى لذلك بالإضافة إلى زكاة المال التي هي محصورةٌ في طبقةٍ معينة من الناس وسيلة ذلك إنما هي زكاة الفطر.

هذا هو السبب في أن الله عز وجل جعل لها شرائط خفيفة تنال الناس جميعاً، وهذا هو السبب في أن الله عز وجل جعل مقدارها مقداراً يسيراً لا يرهق أحداً من الناس إطلاقاً إعطاؤه.

فانظروا أيها الإخوة إلى النتيجة التي نريد أن نصل إليها بعد هذا الكلام البسيط مسألة فقهية شرعها الله عز وجل. لاحظوا أن الله عز وجل ما شرع ما شرع من العبادات إلا خدمةً لعلاقة الناس بعضهم مع بعض أن تسير على نهجٍ إنساني سوي، بل ما شرع الله ما شرع من أحكام المعاملات المختلفة إلا خدمة لهذه العلاقة أن ترقى إلى مستوى الصلة الإنسانية الوثقى، بل إن الله عز وجل ما ألزم عباده بعقائد الإسلام وافترض عليهم أن يدينوا بمشاعر العبودية لله عز وجل إلا في سبيل أن تتطهر قلوبهم وأن تصبح قلوباً صافية عن الشوائب، بل أن تصبح قلوباً سليمة كما وصف الله سبحانه وتعالى على لسان خليله سيدنا ابراهيم.

ومن هنا نعلم أن الإنسان الذي يتقرب إلى الله بنسك بعبادات بصدقات بحجٍ بنحو ذلك من العبادات التي شرعها الله عز وجل، ثم يعود إلى قلبه فيراه لا يزال مليئاً بالضغائن مليئاً بالشحناء أو الأحقاد، فليعلم هذا الإنسان أن طاعاته لا تكاد تقبل؛ ذلك لأنها لم تحقق الحكمة التي من أجلها شُرعت، وإنما شرع الله سبحانه وتعالى هذه الطاعات كلها من أجل أن تغدو قلوب الناس قلوباً صافية، قلوباً سليمة.

وما أعلم طاعة يتقرب بها الإنسان إلى الله عز وجل كجبر الخواطر كإدخال الفرح إلى القلوب المكلومة أو الحزينة، ما أعلم قط طاعة يتقرب بها الإنسان إلى الله أجل من هذه القرب، بشرط واحد هو أن يكون هدف هذا الإنسان استنزال رضا الله سبحانه وتعالى عنه.

قد تكون العبادات قليلة، قد تكون الطاعات غير كثيرة، قد لا يكون هذا الإنسان مما يقوم الليل أو ممن يتهجد أو يصلي صلاة التسابيح، وقد لا يكون ممن يسعى إلى ليال الإحياء هنا وهناك كما هي العادة الحديثة نعم في هذه البلدان وأمثالها، قد لا يكون متحلياً بشيء من ذلك، لكن إذا وفقه الله عز

وجل إلى أن يكون جباراً للخواطر الكثيرة، إذا وفقه الله عز وجل لأن يكون خادماً لهذه الأفئدة يجلو عنها قتامى الحزن، يجلو عنها الشعور بالآلام والمصائب وكان قصده بذلك رضا الله، فليعلم أنه محبوب من قبل الله سبحانه وتعالى.

وما ورث الإنسان وصفاً من الصفات التي أكرمه الله بها أدل على محبة الله له من وصف الحنان، وقديماً وصف الله سبحانه وتعالى سيدنا يحيى بصفات فلما وصفه بالحنان نسب هذه الصفة إلى ذاته العلية ألم تسمعوا قوله عز وجل: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً وَحَنَاناً مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيّا﴾ لماذا قال ﴿وَحَنَاناً مِّن لَّدُنَّا﴾ خصّ صفة الحنان بهذه الصفة باللدنية بهذه النسبة إلى ذاته ليبرز أهمية هذه الصفة، وليبرز أنها خصيصة حب من الله سبحانه وتعالى ليحيى.

أقول هذا الكلام أيها الإخوة لأننا نقف على مشارف بل ساعاتٍ نودع هذا الشهر، ونستقبل فيها يوم العيد، هذا التلاقي بين شهر مضى وبين عيد يأتي إنما ينقدح من تلاقيهما هذا الشعور الذي أقوله لكم.

كل مسلم ينبغي أن يعود إلى قلبه ويستشعر معنى الحنان في كيانه، ثم ينبغي أن يتساءل هل وضع هذا الشعور من حياته موضع التنفيذ في كيانه، ثم ينبغي أن يتساءل هل وضع هذا الشعور من حياته موضع التنفيذ اتجاه أهله، زوجه، أولاده، بناته والأقربون أولى أن ينالوا هذه الصفة ممن متعه الله سبحانه وتعالى بشيءٍ من الحنان. ثم ليتساءل: هل أكرمه الله سبحانه وتعالى بالقدرة على أن يعود بهذا الشعور إلى الآخرين إلى المنكوبين إلى الحزانى من الناس إلى الفقراء؟

إن رأى أن الله سبحانه وتعالى أقدره على أن يكون سبيلاً إلى إدخال الفرحة في قلوب أهله وأسرته والأقربين من حوله أو الأبعدين من سائر الناس، فليهنئ أنه ممن أحبه الله سبحانه وتعالى، أما إن وجد أنه ضيق الصدر بهذا الشعور، أما إن وجد أنه لا يستطيع أن يعامل الناس بالطريقة التي يدخل السرور بها إلى أفئدتهم، فليكن من صلته مع الله على حذر، ولا يخدعن بكثرة صلاته إن كان مكثراً للصلاة ولا يتصورن أن كثرة أذكاره أو كثرة حجه أو كثرة نسكه أو أن شيئاً من ذلك يقربه إلى الله سبحانه وتعالى.

أيها الإخوة يقول الله عز وجل في محكم تبيانه: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً﴾ ومعنى هذا الكلام أن الله عز وجل جعل الإنسان مادة امتحان للإنسان، فجعلك مادة امتحان لي، وجعلني مادة امتحان لك؛ جعلك مادة امتحان لي ابتلاك بمصائب بفقر بضنك ثم إنه ندبني إلى أن أفعل كل ما أملك لأزيح عن قلبك هذه المشاعر، وابتلاك الله أيضاً عز وجل بي... والكلام في هذا طويلٌ وأظنني قد شرحت جوانباً منه مراراً، والله عز وجل قادر على أن يجعل قلوب الناس كلها تمتلئ فرحاً وسروراً، ولكن الله عز وجل شاء أن يكون مفاتيح ذلك بيد عباده، أعطاني الله سبحانه وتعالى مفتاح إدخال السرور على قلبك، وأقدرني على إدارة هذا المفتاح لكي يكسبني الأجر عن طريق ذلك، وأقدرك الله عز وجل على هذا بالنسبة لي... تلك هي سنة رب العالمين في هذه الدنيا أيها الإخوة.

فحققوا هذا المعنى في حياتكم، واجعلوا من تلاقي نهاية هذا الشهر وإقبال العيد بعد ذلك مثابةً لبدءٍ في هذا الطريق، واعلموا أن الله ما شرع زكاة الفطر إلا من أجل هذا المعنى، صاع من غالب قوت البلد أو قيمة هذا الصاع ماذا عسى ان يفعل لن يغني فقيراً أخذ ولن يفقر غنياً أعطى بشكلٍ من الأشكال، لكنها صلة القربى لكنها صلة تعلن عن نفسها لكنه معنى من معاني الابتسام معنى من معاني الحنان والسرور، وهذا ما يقرب الإنسان إلى الله سبحانه وتعالى.

فيا أيها الإخوة اجعلوا رأس مالكم في القرب إلى الله عز وجل إدخال السرور على أهليكم وعلى أولادكم ثم أقاربكم ثم سائر الناس من حولكم، بالكلمة الطيبة إن لم تستطيعوا بالمال والله عز وجل عندما أمر بالصدقات لم يأمر بها من أجل أن يعود الإنسان بكمٍ ورقمٍ مالي على زيد من الناس الله غني حليم، ولكن الله عز وجل أمر بذلك من أجل أن تتلاحم النفوس وتتقارب القلوب أ لم تصغوا إلى قوله عز وجل: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾.

إن الله عز وجل يريد أن تستخدم المال تعبيراً عن حبك تعبيراً عن حنانك تعبيراً عن رقة شعورك، اتجاه إخوانك تعبيراً عن أنك تواجههم بقلبٍ أبيض سا لمٍ من كل غش وضغينة.

أسأل الله عز وجل أن يحققنا بهذه الصفة.

٣٦٧- فرحة المؤمن | ٢٠٠٧/١٠/١٣

في هذا اليوم الأغر تشيع الفرحة في قلوب عباد الله المؤمنين الذين رأوا أنهم أنجزوا ما قد طُلِبَ منهم في هذا الشهر المبارك الذي ودعناه بالأمس، يفرحون برحمة الله عز وجل لهم، يفرحون بالأمل في قبول الله عز وجل لصلواتهم وصومهم وقيامهم، يفرحون بالأمل بعتق الله عز وجل لهم مِنْ عذابه ونيرانه، وإنها لفرحة يشعر بها كلٌّ منا، ولعلها الدليل الأقوى على تجليات الله عز وجل على عباده بالرحمة واللطف، فانشراح صدر الإنسان في هذا اليوم وشعوره بالفرحة إنما هو ثمرة لتجليات الله سبحانه وتعالى في هذا اليوم المبارك، إنها فرحة يتقرب بها الإنسان إلى الله عز وجل، ولكن فينا مَنْ قد يشعر بمشكلة، إنه يقرأ في كتاب الله عز وجل قوله: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾. ويقرأ أيضاً قول الله سبحانه وتعالى وهو يحدثنا عن قارون: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾.

فكيف يتم الجمع بين هذين الخطابين الربانيين؟ كيف يتم الجمع بين نهي الله سبحانه وتعالى عباده عن الفرح وبين أمر الله عز وجل لهم في مكان آخر بالفرح؟

والجواب يا عباد الله: أن الفرحة التي تغمر أفئدة الناس المؤمنين بالله عز وجل في هذا اليوم ليست فرحة منبثقة عن مزاج نفساني، ليست فرحة منبثقة عن مشاعر اللهو وعن دوافع الأهواء والشهوات المستكنة بين الجوانح؛ تلك هي الفرحة التي حذر الله عز وجل منها؛ الفرحة المزاجية التي هي ثمرة لهو اللاهين، وثمرة انقياد الإنسان لشهواته ورعوناته عندما تتفتح سبلها أمامه واسعة عريضة، يفرح بها ويسكر بها ويحجب بها عن الله سبحانه وتعالى.

المؤمن لا يعلم هذه الفرحة، ليس لهذه الفرحة سبيل إلى قلبه قط، المؤمن الذي يتعامل مع إيمانه، عقيدةً أولاً ثم سلوكاً وانقياداً لأمر الله سبحانه وتعالى ثانياً، وكيف يفرح المؤمن هذا النوع مِنَ الفرح، الفرح المنبثق مِنَ الرعونات النفسية، الفرح المنبثق مِنَ الاستكبار على الآخرين، الفرح المنبثق مِنْ نِعَمِ الله عز وجل إذ يسكر بها ويحجب بها عن المنعم الأجَلِّ ألا وهو الله سبحانه وتعالى. كيف يمكن أن تسري هذه الفرحة إلى قلب الإنسان الذي عرف الله عز وجل وهو يعلم أنه عبده، وهو يعلم أنه لا يملك شيئاً مما

يريد أن يفرح به، لا يملك شيئاً مِنَ المال الذي يريد أن يسكر ويتطوح به، لا يملك شيئاً مِنَ القوة التي تسري أمانةً ووديعة في كيانه.

المؤمن يعلم أنه عبد لله سبحانه وتعالى ومِنْ ثَمَّ فإن عبوديته لله تحجبه عن هذا النوع مِنَ الفرح، إنها الرعونة التي يعرفها مَنْ جهل الله، أما الذين عرفوا الله عز وجل فلا يعلمون هذا النوع مِنَ الفرح، وهو الذي نهى الله سبحانه وتعالى قارونَ وأمثالَه منه: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾، أي لا تفرح بهذا الذي أعطاك الله عز وجل إياه فرحَ المستكبرين، فرح المتطاولين على الله سبحانه وتعالى. أما فرحة المؤمن التي دعا إليها الله عز وجل عندما قال: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ فإنها نوع مِنَ العبادة يتقرب بها الإنسان إلى الله عز وجل. فرح المؤمن وظيفة عقلانية تنبثق مِنْ عقله أولاً ثم يصطبغ بها كيانه ثانياً.

فرح المؤمن بالله عز وجل ينبثق مِنْ شعوره بأن الله عز وجل قد قَبِله، وهل هنالك فرحة تغمر الإنسان لسبب مِنَ الأسباب أجلّ مِنْ هذا السبب؟ عندما تأتيك البشارة مِنَ الله عز وجل أن الله سبحانه وتعالى قد قَبِلك، قبِل صيامك، قبِل قيامك، قبِل صلواتك، وقبِل دعائك والتجاءك إليه عز وجل فأصبحْت مقبولاً لديه. هل هنالك فرحة تغمر كيان الإنسان أجلّ من هذه الفرحة إذ يتلقى هذه البشارة مِنْ مولاه وخالقه؟ عندما يشعر العبد في هذا اليوم المبارك الأغر بالتجليات الرحمانية مِنَ الله سبحانه وتعالى على عباده إذ يكرمهم بأجزيتهم مقابل طاعاتهم وقرباتهم وإنابتهم إلى الله سبحانه وتعالى. عندما يشعر العبد المؤمن بأن الله سبحانه وتعالى يتجلى عليه بتجلي رحمة، كيف لا تغمره الفرحة الآتية مِنْ عند الله سبحانه وتعالى؟ بل إن أحدنا، عندما يقرأ كلام الله سبحانه وتعالى في محكم تبيانه وهو يخاطب عباده أو يتحدث عن عباده المؤمنين به، المستقيمين على أمره، عندما يسمع نداء الله أو خطاب الله يقول: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾

ويتأمل فيشعر بانتمائه إلى الله عز وجل مِنْ خلال هذا الخطاب الرباني، ولييّ هو الله عز وجل. أنا منسوب إلى الله سبحانه وتعالى عن طريق هذه الولاية، إذن أنا لست ميتماً في جنبات الأرض، أنا لست تائهاً في هذا الكون، أنا منسوب إلى الله عز وجل، كيف لا تغمرني الفرحة عندما أرى هذا النسب يعلنه بيان الله سبحانه وتعالى لي؟ كم وكم مِنْ فرقٍ بين تلك الفرحة الهابطة القذرة التي تنبع مِنْ سخائم النفس

وأهوائها والمشاعر الحيوانية المستكنّة في كيان الإنسان وبين الفرحة الهابطة مِنْ علياء الربوبية؛ تجلياتٍ رحمانية إلى قلب العبد المؤمن بالله سبحانه وتعالى.

ومِنْ هنا نعلم، يا عباد الله، كيف تلتقي هذه الفرحة التي هي وظيفة نتقرب بها إلى الله عز وجل مع مشاعر الأسى والحزن لعباد الله عز وجل المنكوبين الذين تطوف بهم المحن والشدائد، كم وكم تصور أناس أن الجمع بين هذين الأمرين غير ممكن فهما نقيضان، كيف آسى على إخوان لي تطوف بهم المحن والشدائد وأفرح في الوقت ذاته بأنني أتلقى البشائر مِنَ الله سبحانه وتعالى؟ لا، هذه وظيفة وتلك وظيفة، وهما يتعانقان ويتناغمان وبينهما كامل الانسجام، عندما أفرح بتوفيق الله لي وعندما أفرح بنسبي إلى الله عبداً وبولاية الله سبحانه وتعالى لي حماية وتوفيقاً فهي وظيفة عقلانية تستقر في عقلي ثم تهبط إلى كياني، وعندما أشعر بالألم والأسى بسبب واقع إخوة لي يعانون مِنَ الشدائد ما يعانون فهو أيضاً وظيفة أتقرب بها إلى الله سبحانه وتعالى، والعبد المؤمن لا يتقلب يميناً أو شمالاً إلا وهو يؤدي في ذلك وظيفة يتقرب بها إلى الله عز وجل، مشاعره كلها قربات، سلوكه كله قربة إلى الله سبحانه وتعالى، عندما يعي المؤمن إيمانه وعندما يخضع في واقعه وسلوكه لحقائق إيمانه بالله سبحانه وتعالى.

فهنيئاً لنا نحن المسلمين أن جعلنا الله سبحانه وتعالى نتقرب إليه في هذا اليوم بالفرحة الغامرة التي تهيمن على أفئدتنا، وهنيئاً لنا إذ جعل في أفئدتنا أماكن مهيئة لاستقبال الحزن والأسى بسبب إخوة لنا يعانون ما يعانون. قلب المؤمن يتسع لهذا وذاك، لأن فرحة المؤمن كما قلت لكم ليست فرحة مزاجية كفرحة أولئك الذين لا يعرفون مولاهم وخالقهم، يتطوحون في ليالي الشهوات والأهواء وهم تائهون عن هوياتهم، تائهون عن أنفسهم، لا، المؤمن لا يعلم هذا قط ولا يمكن أن يسير في هذا الطريق ولا خطوة واحدة، إنما المؤمن هو ذاك الذي اصطبغ كيانه بمعنى العبودية لله سبحانه وتعالى ومِنْ ثَمَّ تهيأ قلبه واتسع لكل ما يرضي الله سبحانه وتعالى، مَنْ لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم، إذن لابد للمؤمن أن يهتم بأمر الآخرين ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ إذن لابد إذن لابد أن أفرح بما يفرحني به الله سبحانه وتعالى، يبشرني الله برحمته كيف لا أفرح به، يبشرني الله عز وجل بفضله كيف لا أفرح بهذا الفضل الذي يمتعني به ويبشرني به؟ هذا هو الجواب عن مثل هذا السؤال وهي مزية يمتاز بها عباد الله المؤمنون به. لا يعرف هذه المزية أحد غير الذين اصطفاهم الله عز وجل لمعرفته، اصطفاهم لأن يكون هو وليهم

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَالنُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ ثم إن الله يلقننا هذه الحقيقة فيقول: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ﴾ هكذا ؛أي قولوها ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ﴾ وعندما يقولها الإنسان يستخرج هذه الكلمة مِنْ قلبه كيف لا يفرح؟ هذه الفرحة هي ذاتها الفرحة التي يشعر بها الإنسان عندما يسمع نداء الله وهو يقول: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ هذا الذي يخاطبنا الله عز وجل به ينسبنا إليه عباداً ﴿يَا عِبَادِيَ﴾، أَجَلُّ ما يمكن أن يبعث مشاعر الفرحة الغامرة التي قد تسكر لكنها تسكر بالله ولا تسكر عن الله سبحانه وتعالى، نعم.

ورحم الله ذاك الذي قال:

ومما زادني فرحاً وتيهاً وكدت بأخمصي أطأ الثري

دخولي تحت قولك يا عبادي وأن صيرت أحمد لي نبيا

فاللهم أتم فرحتنا بك في هذا اليوم المبارك يا ذا الجلال والإكرام، تَوِّج اللهم فرحة عبادك المؤمنين بك في هذا الصباح الأغر بنصر مؤزر قريب أنت أهل له وإن لم نكن نحن أهلاً له، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

٣٦٨- أَعْظِمْ بها من هدية | ٢٠٠٩/٠٩/١٩

لقد وَدَّعَنَا بالأمس رمضان وودَّعْنَاه، ولقد كان الناس الذين استقبلوه واحتفوا به ثم ودعوه فريقين اثنين: أما الفريق الأول فهو ذاك الذي عرف أفراده حقوق هذا الشهر وأدوها جهد استطاعتهم، فصاموا نهاره، وقاموا ليله، وابتعدوا عما حرم الله سبحانه وتعالى، فهؤلاء يتقاضون في صبيحة هذا اليوم –كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم– جوائزهم وأجورهم، يتقاضونها ولكنهم لا يستلمونها إلا يوم القيامة، يوم يقوم الناس لرب العالمين، ذلك قرار الله عز وجل القائل: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وهو قراره الذي أكده قائلاً: ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧].

وأما الفريق الثاني فهم أيضاً فئتان اثنتان: فئة أعرضت عن حقوق هذا الشهر استكباراً، وأغضت الطرف عن الواجبات التي ذَكَّرَنَا الله سبحانه وتعالى بها استخفافاً، فهؤلاء هم الذين قال الله سبحانه وتعالى عنهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠] ويدخلون في معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

وفئة أخرى أعرضت وقصَّرَتْ، ولكن العامل الذي حدى بها إلى التقصير تغلب النفس الأمارة، تغلب الرعونات النفسية، وهم يعلمون أنهم عبيد مملوكون لله عز وجل، ويعلمون حق العبودية في أعناقهم، لكنه الضعف الذي أكده بيان الله إذ قال: ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً﴾ [النساء: ٢٨] ولا شك أن هذه الفئة من الناس عندما تقصر في جنب الله عز وجل، أو عندما تقصر في أداء شهر رمضان المبارك، فإن مشاعر عبوديتها لله تستيقظ بين جوانحها، ولا ريب أن الواحد منهم يقول إن بلسان قوله أو بلسان حاله: اللهم إني ما عصيتك حين عصيتك استكباراً على أمرك، ولكنه الضعف الذي ابتليتني به.................)

بالمغفرة منك والتوبة إليك، ولا ريب أن الله عز وجل يقبل التوبة ويعفو عن التقصير، ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح فيما يرويه عن ربه عز وجل: ﴿يقول الله عز وجل: أذنب عبدي ذنباً، فقال: أي رب لقد أذنبت ذنباً فاغفر لي ذنبي، قال الله عز وجل: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به فقد غفرت لعبدي، ثم إنه يذنب ذنباً ثانياً فيقول: أي رب لقد أذنبت ذنباً فاغفر لي ذنبي، يقول الله عز وجل: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به فقد غفرت لعبدي، ويذنب بعد ذلك ذنباً آخر فيقول: أي رب لقد أذنب ذنباً، يقول الله عز وجل: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به، فليفعل عبدي ما يشاء فقد غفرت له﴾.

والمعنى الدقيق لهذا أن هذا العبد ما دامت عبوديته مستيقظة بين جوانحه، فإنها ستدعوه إلى الندم، ولسوف تدعوه إلى التوبة، ولسوف يرى رباً صفوحاً غفوراً حتى ولو عاود الكرة والكرة والكرة، ما دامت عبوديته في كل مرة تستيقظ بين جوانحه، وتشعره بالأسى والندم والتوبة، فلن يجد إلا رباً غفوراً رحيماً ينبغي أن نتبين هذه الحقيقة أيها الإخوة، أما الاستكبار على الله ما أظن أن عبداً نظر إلى مرآة ذاته وعلم هويته ضعيفاً من الفرق إلى القدم ثم إنه يستكبر، لا يمكن إن أخذته السكرة في ساعة من الساعات أو في يوم من الأيام أن يصحو من السكرة، وأن يعود إلى هويته كائناً مكوناً من ضعفٍ متراكم خُلِقَ من ضعف، ويتقلب في مهاب من الضعف، ويرحل إلى الله عبداً ضعيفاً.

هذا عن الجائزة التي ادخرها الله عز وجل لعباده، وأسأله عز وجل أن يجعلني ويجعلكم جميعاً ممن سينالها غداً إذا قام الناس لرب العالمين، أما الهدية التي دعا إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم في مثل هذا اليوم فهي هدية لا تتجه إلى فردٍ أو أفراد ولا إلى جماعة، ولكنها هدية تتجه في صباح هذا اليوم إلى قطرنا العربي الإسلامي السوري، بل إلى سائر العالم العربي والإسلامي، هذه الهدية أقبل إلينا بها السيد رئيس هذه الدولة، أقبل إلينا بعد رحلة قصيرة في ساعاتها، ولكنها عظيمة وذات خطورة بالغة في آثارها وأهميتها، هي هدية تتمثل في تقارب ثم تعاون ثم تلاحم، كل ذلك تم بتخطيط ثم بغرس لبذور هذه الهدية البالغة، ثم لإنضاجها ثم لإيناعها من قِبَل السيد الرئيس، هو التقارب والتعاون، فالتلاحم مع من؟ مع جيران لنا تربطنا بهم رحم الإسلام، ويجمعنا معهم التاريخ الواحد، وتجمعنا معهم الحضارة الإسلامية التالدة الجديدة الباقية، تجمعنا معهم وحدة الإقليم، هذا التقارب فالتعاون فالتلاحم هدية بل أعْظِمْ بها من هدية

ينبغي أن نشكر الله سبحانه وتعالى عليها، ثم إنها ليست وليدة رغبة في مصلحة عابرة، مثل هذا التلاقي يبدأ ويشتد، ثم إنه يبرد ويختفي عندما تزول المصالح، إنه تلاقٍ يقوم على أساس متين من المبادئ والقيم المشتركة، يقوم على أساس من المبادئ والأخلاق المشتركة، مثل هذا التلاحم أو التقارب لا بد أن يكون المبدأ فيه الحصن الواقي لمصالح الفريقين، ربما بدأت المصالح بسيطة قليلة، ولكنها سرعان ما تتنامى وتقوى ويشتد سوقها، هذا التقارب –أيها الإخوة– ينبغي أن نتبين مداه، وينبغي أن نجني الدرس البليغ منه.

منذ قرابة قرن قامت معاهدة لعلكم تعرفونها، معاهدة (لوزان) نصت على ضرورة اجتثاث الإسلام من جذوره في حاضرة الخلافة، نصت على أن القرآن ينبغي أن يُطْوَى، وأن الأذان ينبغي أن يُمْنَع، وأن المظاهر الإسلامية ينبغي أن تختفي، وينبغي خلال ثلاثين عاماً على الأكثر أن يُجْتَثَّ الإسلام من جذوره من حاضرة الخلافة، وسارت الجهة التي التزمت بهذه المعاهدة في هذا الطريق، مُنِعَتْ تلاوة القرآن ردحاً من الزمن، مُنِعَ الأذان ردحاً من الزمن، ولكن إلامَ الأمر بعد ذلك يا عباد الله؟ ها هي ذي حاضرة الخلافة وما حولها (تركية) يصدح المؤذنون في كل يوم خمس مرات في أعلى الربا والمآذن، ها هو ذا كتاب الله عز وجل يُرَتَّل من حلوق أولئك الذين يتفاعلون مع كتاب الله تفاعلاً عجيباً، يتلو أحدهم كتاب الله عز وجل ودموعه هي التي تترجم ما يتلو، ها هم أولئك عادوا إلى الفطرة الإسلامية، وعاد الإسلام قوياً متلألئاً، وعادت الثقافة والمعارف الإسلامية المختلفة عادت تملأ رحاب الجامعات، بل إن كثيراً من الناس في شرق العالم الإسلامي وغربه ينتجعون معرفة الحقائق والثقافة الإسلامية هناك، ما الشيء الذي أريد أن أنتهي إليه؟ هو أن الناس قد يخططون، ولكن خطط الناس تحتضنها خطة رب العالمين سبحانه وتعالى، أرأيتم إلى سفينة عملاقة تمخر عباب البحر متجهة إلى الشرق مثلاً، إنك لتنظر إلى الناس الذين يتحركون على سطح هذه السفينة ذاهبين آيبين ترصد عيناك حركة أولئك الصغار، ولكن عينيك لا ترصدان حركة السفينة العملاقة، ما قيمة أولئك الذين يتحركون غادين رائحين والسفينة تحتضن حركاتهم وتستوعب تنقلاتهم؟! سفينة الكون يديرها رب العالمين سبحانه وتعالى، فليخطط الذين يكيدون للإسلام صباح مساء ما يشاؤون، وليضعوا التصورات المختلفة للتربص بدين الله وبالحضارة الإسلامية كما يحبون، إن الذي سيتحقق هو قول الله عز وجل: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: ٨].

وأنت يا سيادة الرئيس أهنئك أن سخرك الله سبحانه وتعالى لهذا، سخرك لجمع الشمل ولم يسخرك لنقيضه، سخرك لوصل الرحم الإنساني ولم يسخرك لنقيض ذلك، سخرك لمد رواق السلم المتأسس على المبادئ والقيم والأخلاق ولم يسخرك للنقيض كما هو شأن كثيرٍ من الناس، ما الذي بقي؟ بقي يا سيدي أن تشكر الله في السر قبل العلن، اشكر الله عز وجل أن سخرك لهذا الأمر الذي يعود جدواه إلى أجيالٍ فأجيال، وما أظن إلا أن هذا الذي أقدرك عليه وسَيَّرَكَ فيه ما نظن إلا أنه دليل على محبة الله لك، نعم، وكيف لا يحب الله عز وجل من التزم السير على صراطه؟! كيف لا يحب الله عز وجل من يخدم دينه مثل هذه الخدمة الجُلَّى؟! أسأل الله سبحانه وتعالى أن يكرم عالمنا الإسلامي عامة، وقطرنا السوري خاصة بثمرات هذه الهدية وأَعْظِمْ بها من هدية، بالأمس تلقاها منك علماء هذه البلدة في المأدبة السنوية التي تقيمها، واليوم آن لقطرنا العربي الإسلامي أن يتلقاها منك هدية العيد، الهدية التي دعانا إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بعد هذه الهدية هدية، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

٣٦٩- المبعدون عن رحمة الله عز وجل | ٢٠١٠/٠٩/١٠

الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر.

الله أكبر من كيد الكائدين، الله أكبر من مكر الماكرين، الله أكبر من زيغ الزائغين، الله أكبر من سخرية الساخرين، الله أبكر، ربنا القائل: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: ٨].

سبحان ربي العلي الأعلى الوهاب، سبحان ربي المسَبَّح بكل لسان، سبحان الله والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر. الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر.

يشعر كل مؤمن أدى شيئاً من حقوق هذا الشهر أو كل حقوقه، يشعر بتجليات الله سبحانه وتعالى الرحمانية على عباده، يشعر بتجليات الله سبحانه وتعالى بالمغفرة الواسعة على عباده في هذا الشهر، وكيف لا يقبل إليهم بالرحمة الغامرة وبالمغفرة الواسعة جزاءً وفاقاً على صبرهم على الصيام ومواظبتهم على القيام ودعائهم في الأسحار وفي أخص الأوقات. كيف لا يكرمهم الله سبحانه وتعالى في أعقاب هذا الشهر المبارك وقد طرقوا بابه، ومتى كان بابه يُغْلَق دون أحدٍ من الناس، كيف لا يغفر لهم سيئاتهم كلها عظمت أو صغرت وقد التصقوا بأعتاب كرمه وجوده. هذا ما قد وعد الله سبحانه وتعالى به عباده الطائعين الذين استقبلوا هذا الشهر وقاموا بحقه – لا أقول حق القيام – بل أقول قاموا بحقه جهد الاستطاعة. هذا عن المؤمنين الذين وفَّقهم الله سبحانه وتعالى ليؤدوا حقوق هذا الشهر كاملة أو منقوصة.

ولكن ماذا عن أولئك الذين أدركهم هذا الشهر المبارك وهم معرضون عنه، أدركهم هذا الشهر المبارك وهم مستخفون به، أجل مستخفون به، أدركهم شهر القرآن الذي تنزل في هذا الشهر المبارك على السماء الدنيا، أدركهم هذا الشهر شهر القرآن وهم يسخرون بالقرآن ويستخفون بآياته، ماذا عن أولئك.

الجواب عند رسول الله صلى الله عليه وسلم القائل فيما صح عنه: ﴿من أدركه رمضان ولم يُغْفَرْ له فأبعده الله أبعده الله﴾.

من أدركه رمضان ولم يُغْفَر له، ترى من هو هذا الذي يدركه رمضان ولا يغفر له، أهو المقصر؟ لا يا عباد الله، إن رحمة الله عز وجل تلحق بالمقصرين قبل أن تلحق غيرهم، وإذا لم يغفر الله للمقصرين فلمن يغفر. هل الذين لم يغفر الله لهم خلال هذا الشهر أولئك الذين لم يُتِحْ لهم أن يقوموا الليل؟ لا. إن الله سبحانه وتعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها، إذاً من هم الذين أدركهم شهر رمضان ولم يُغْفَر لهم.

كما قلت لكم هم المستخفون بهذا الشهر، هم المستهزئون بشعائره، بل هم الساخرون بقرآنه، بالقرآن الذي نزل في هذا الشهر المبارك، هم أولئك الذين يخططون طوال العام لحجب إخوانهم المسلمين عن حقوق هذا الشهر، لحجب إخوانهم عن الوقوف بين يدي الله، لحجب إخوانهم عن الإصغاء إلى كلام الله سبحانه وتعالى، هم أولئك الذين إذا ذُكِّرُوا بالصيام أعرضوا عن المذَكِّرِ وتباهوا واستكبروا على المشرع، هم أولئك الذين يخططون – وما أطول ما يخططون وما أكثر ما يعكفون على خططهم – لحجب هذه الأمة المسلمة لاسيما في هذه البلدة المباركة عن دين الله سبحانه وتعالى، هم الذين لم يغفر الله لهم في هذا الشهر ومن ثم يدعو رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه بالطرد من رحمته أي باللعن، من أدركه قال ولم يغفر له فأبعده الله، أبعده الله عن ماذا؟ عن رحمته، وما أعلم أن رسول الله دعا على أحد قط من العصاة، ما أعلم أن رسول الله دعا على أحد من المقصرين، الآثمين، يدعو لهم ويشفق عليهم ويفيض قلبهم رحمة بهم، أما هؤلاء الذين يدعو رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم بالطرد فهم المستكبرون، هم الذين يعلمون ولكنهم يخلطون على الحق، يعلمون أن كتاب الله حق ولكنهم يكيدون في الوقت ذاته لكتاب الله سبحانه وتعالى، هؤلاء هم الذين دعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم.

حتى الآثمون الذين كان كفرهم عن جهلٍ وعن سوء إدراك لم يكن من دأب رسول الله أن يدعو عليهم وإنما كان يدعو لهم، ولما سأله أحد أصحابه أن يدعو على أهل الطائف – ولم يكونوا قد أسلموا بعد – رفع يده وقال: اللهم اهد ثقيفاً وات بهم مؤمنين. ولكن المشكلة – يا عباد الله – أن هؤلاء المستخفين بدين الله والمستهزئين بشرائعه وشعائره والساخرين من قرآنه يتجهوا وشأنهم ولم يُضْرَب على أيديهم ولم يقف في وجههم من ينكر فيوشك أن يعود غضب الله عز وجل وأن يعم المستخفين المستكبرين وأن ينتشر غضبه إلى من حولهم من الذين يرون وهم ساكتين، من الذين لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون

عن المنكر، وصدق الله القائل: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦]

﴿فَأَخَذْنَاهُم﴾ قال المفسرون أي أخذ الله هؤلاء وكلّ من كان معهم وإن لم يكونوا على شاكلتهم لكنّهم كانوا ساكتين، لم يكونوا يَصدعون بالحقّ ولم يكونوا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر، وصدق الله القائل: ﴿وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥].

إنني في هذا الموقف، في هذا الصباح المبارك من هذا اليوم الأغرّ، لا أملك إلا أن أتوجّه إلى الله سبحانه وتعالى وهو الذي يهدي التائهين وهو الذي يضع الهداية في قلوب المارقين لا يسعني إلا أن أتوجّه إلى الله قائلاً: اللهم اهدهم فيمن هديت، اللهم لا تهلكنا بجريرة غيرنا يا رب العالمين، اللهم لا تهلكنا بجريرة من يتّخذون من كتاب الله عز وجل شعارات للسخرية، اللهم لا تهلكنا بجريرة من يتخذون من كلمات الله سبحانه وتعالى جُملاً لاستثارة فتنة، لاستثارة رِيب وشكوك.

شيء آخر أقوله: شامنا هذه والله الذي لا إله له مهما حيكت لها أنواع المكر، مهما حيكت لها الخطط الرامية إلى إبعاد أهلها عما تعتزّ به من الالتزام بكتاب ربها وسنّة نبيها، فإن هذه الخطط لن تبوء إلا بالخزي والوبال، شامنا أليست هي التي تحدّث عنها رسول الله، أليست هي التي قال الله عنها في محكم كتابه عن سيّدنا ابراهيم: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١]

نعم هي الشام، أنجى الله سبحانه وتعالى ابراهيم من كيد نمرود إلى أحضان الشام، جعل مستقره في الشام، جعل حصنه الذي أبعده عن كيد نمرود وغيره، هذه الشام، إذا كان الله سبحانه وتعالى أعاد كيد نمرود إلى صدره ونحره أفيستطيع أحفاد نمرود وتلامذته اليوم أن يكيدوا للشام، أن يكيدوا للشام وأهله، الشام التي تحدث عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم بأحاديث كثيرة، وقلب الشام إنما هو هذا المكان الذي شرّفكم الله عز وجل به إنه دمشق، صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم القائل: ﴿فسطاط المسلمين يوم الملحمة الكبرى على أرض يقال لها الغوطة إلى جانبها مدينة اسمها دمشق هي خير منازل المسلمين يومئذ﴾، فليعكف.

الكائدون ما شاؤوا على كيدهم، وليتفننوا في كيدهم كما يشاؤوا وليصبوا كيدهم في أفانين مما تعرفون وما لا تعرفون، فلا والله لن يعود هذا الجذر إلا سهاماً إلى نحورهم، أما شمس الإسلام فلسوف تظل ساطعة وسوف تظل تتلألأ، أقول قولي هذا وأحمد الله على أن أقامنا من عالمنا في هذه الأرض فوق هذه الأرض المباركة، وأسأله أن يجعلنا أعين حارسة لبركة هذه الأرض، أقول قولي هذه وأستغفر الله العظيم.



٣٧٠- عندما يفتقد الإنسان للفطرة الإيمانية | ٢٠١١/٠٨/٣٠

الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر.

سبحان الله العلي الديان، سبحان الله المسبِّحِ في كل مكان، سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله والله أكبر. الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر.

فإن الشعيرة العظمى في صباح هذا اليوم وأمثاله إنما هي شعيرة الرحمة، رحمة الله سبحانه وتعالى بعباده متمثلة بصور شتى من أهمها العتق من النار والصفح والعفو عن الآثام، رحمة الآباء والأمهات بالأولاد، رحمة الأغنياء بالفقراء، رحمة الأقوياء بالضعفاء، رحمة المسلمين إذ تشيع فيما بينهم جميعاً. تلك هي شعيرة هذا اليوم الأغر الذي يطلع علينا ممزوجاً بالرحمات الربانية ومكرمة الصفح من الآثام.

ولكني أريد أن ألفت النظر إلى أن هذه الرحمة ليست من صفات الناس في الحقيقة إنما هي من صفات الله عز وجل. فلا رحمة الأبوين بالأولاد ولا رحمة الأغنياء بالفقراء ولا رحمة الأقوياء بالضعفاء ولا رحمة الحيوانات المختلفة بصغارها، ليست رحمة واحدة من هذه الرحمات صادرة من المخلوق أيّاً كان هذا المخلوق وإنما هي من صفات الخالق جلَّ جلاله، هي محصورة في ذاته العلية، هو الرحمن، هو الرحيم، هو الذي وزع جزءاً من رحمته هذه بين عباده، بل وزع هذا الجزء بين الأحياء جميعاً على اختلافهم. لكن فينا من قد يقول ولكني أشعر بأنني أنا الذي أرحم أولادي وأشعر باللين الذي يهتاج بين جوانحي فيدفعني إلى الإكرام، إلى العطاء، إلى المنن والمنح، إذا لماذا لا تكون هذه الرحمة صفة نابعة من كياني؟

لا يا عباد الله، هي غلطة ينبغي أن نصححها. الرحمة آتية من عند الله عز وجل ولكن إذا استيقظت الفطرة الإيمانية بين جوانح الإنسان تجلى الله سبحانه وتعالى على صاحب هذه الفطرة بصفات شتى كلها لذاته عز وجل، منها صفة الرحمة تسري صفة الرحمة من مولانا عز وجل إلى فؤاد هذا الذي استيقظت الفطرة الإيمانية بين جوانحه فبرحمة الله يشفق على أولاده، وبرحمة الله عز وجل يشفق على الضعفاء والمساكين واليتامى والفقراء، ألم تقرؤوا قول الله عز وجل خطاباً لرسوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

لاحظوا، ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ﴾، نسب الله عز وجل رحمةَ المصطفى إلى ذاته العلية ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾، لم يكن لين المصطفى ولطفه مع الآخرين مسلمين كانوا أو غير مسلمين إلا نتيجة وثمرة لرحمة الله عز وجل، فلتعلموا إذاً أن الرحمة التي تشيع في صباح هذا اليوم سواء تلك الهابطة من سماء الله عز وجل؛ صفحاً، مغفرة، إعتاقاً من النار أو تلك التي تشيع بين الناس بعضهم مع بعض كل ذلك أيها الإخوة معينه رحمة الله سبحانه وتعالى.

ألا فلنعلم هذه الحقيقة أولاً لنزداد شكراً لله ولنعلم أننا نتقلب في حياتنا الدنيا هذه في بحار لا شطآن لها من رحمة الله عز وجل وصفحه وغفرانه، ولكن إذا اختنقت الفطرة الإيمانية بين الجوانح بسائق الاستكبار – ولا تختنق الفطرة الإيمانية بين جوانحنا بسبب المعاصي أولاً وإنما تختنق بسائق الاستكبار على الله – إذا تمادى الإنسان في الاستكبار على الله عز وجل اختنقت هذه الفطرة وإذا اختنقت الفطرة انقطعت صلة ما بين العبد وربه فلم تعد هنالك صلة بين رحمة الله وفؤاد هذا الإنسان بسبب اختناق الفطرة الإيمانية في كيانه، فإذا انقطعت هذه الصلة بين العبد وربه لهذا السبب تحول هذا الإنسان إلى النقيض من الإنسان الذي يتصف بالرحمة واللطف والأناة. ولا أعلم – بل إن العلماء قرروا – أنه لا يوجد في مخلوقات الله عز وجل من هو أعتى وأظلم وأطغى من الإنسان عندما تنقطع مما بينه وبين الله سبحانه وتعالى صلة الرحمة الآتية من لدنه والسارية في كيانه.

إذا اختنقت الفطرة بسائق من الاستكبار على الله عز وجل حل في محل مشاعر الرحمة الآتية من عند الله عز وجل الطغيان والبغي والظلم، فحدث عن ظلم هذا الإنسان ولا حرج، تحدث عن طغيانه ولا حرج. في الناس من يشبهون أمثال هذا الطاغية بالوحوش، بما يسمونه الوحوش، وإنه لظلم شنيع للوحوش. كلمة الوحوش أيها الإخوة لا تعني معنى من معاني الظلم وإنما تعني اسماً من الأسماء التي تطلق على الحيوانات التي خلقها عز وجل تعيش في مناكب الأرض.

الوحوش ينبغي أن نتعلم منها الرحمة، ينبغ أن نتعلم منها اللطف والأناة، ورحمة الله عز وجل كما تسري من سمائه إلى قلوب عباده المتطامنين لذل العبودية له تسري أيضاً إلى أفئدة الحيوانات كلها، فالحيوان الذي يحنو على صغاره إنما يحنو على صغاره برحمة آتيةٍ من عند الله سبحانه وتعالى، الوحوش إذا افترست فافتراسها طبق قانون مرده إلى ضرورة إبقائها على حياتها، الافتراس عبارة عن منهج قانوني رسمه

الله عز وجل لها كالمنهج الذي نعتمد عليه في اصطياد الحيوانات والسعي إلى أن تكون غذاءً لنا في صباحنا ومسائنا، وآية ذلك أن الحيوان إذا أحس بالشبع زايلته طبيعة الافتراس وانفصلت عنه وقعد رابضاً في مكانه تمر به الحيوانات من هنا وهناك غير آبهٍ بها ولا ملتفت إليها لأن الافتراس في حياة هذا الذي نسميه وحشاً ليس عبارة عن بغي كالذي يتصف به الإنسان وإنما هو عبارة عن قانون للإبقاء على الذات، هذه هي الحقيقة التي ينبغي أن نعلمها.

فإذا وجدنا أنفسنا يا عباد الله في صباح هذا اليوم أمام أمرين متناقضين؛ عالم من المصطبغين بذل العبودية لله قد أحنوا الرأس لسلطان الله عز وجل ففاضت أفئدتهم رحمة، تجلى الله عز وجل عليهم برحمته وعبروا عن هذه الرحمة في صباح هذا اليوم بكل ما يملكون، سواء لما بينهم وبين أولادهم وأسرهم أو بالنسبة لما بينهم وبين إخوانهم، إذا نظرنا فوجدنا هذه الصورة ثم التفتنا فوجدنا نقيضاً لها، وكلا النقيضين ينبثق من عالم الأناسي، ينبثق من الإنسان، الصورة الأخرى صورة أناسٍ لم يعلموا للرحمة رائحة ولم يعلموا للطف الإنساني معنى وإنما استمرؤوا القتل والفتك، استمرؤوا إثارة الفتن، استمرؤوا كل ما يمكن أن يكون سبباً لدوران رحى الهلاك والقتل على عباد الله عز وجل، يطربون لمرأى الدماء تسيل في الأزقة والشوارع، يتمتعون بأصوات الأنين تنبعث من صدور الأطفال اليتامى والأمهات الأرامل، يستمتعون بالشقاء، ينسجون أسبابه هنا وهناك.

يا عجباً هل هنالك بقايا من المسخ الذي حدثنا الله عز وجل عنه في محكم تبيانه عندما تكلم عن ماضٍ قديم قصي؟! هل يمكن للإنسان أن يمسخ لا في ظاهره فقط بل في كينونته الإنسانية أيضاً؟! سبحانك ربي، هذا شأن الإنسان، عندما يتعرف إلى مولاه يصبح خيراً من الملائكة، وعندما ينكص على عقبيه ويتجاهل مولاه ويستكبر عليه يصبح شراً من الخلائق كلها، تلك هي سيرة الإنسان باختصار.

واليوم نحن نستقبل من مولانا وخالقنا الهدية العظمى، هدية العتق من النار، عتق العصاة لا المستكبرين، وهذه حقيقة لا ريب فيها، ونستقبل أيضاً بحمد الله وتوفيقه والأمل الذي لا يخبو ولا ينقطع ننتظر الهدية الثانية أيضاً، هدية الفرج بعد الشدة، اليسر بعد العسر، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.





العشر من ذي الحجة

٣٧١- من هم الذين يقبل الله طاعاتهم في هذا العشر؟ | ١٩٩٣/٠٥/٢٨

إننا نمرُّ من هذا الشّهرِ المبارك بتلكَ الأيّامِ الفاضلةِ التي أقسمَ اللهُ عزَّ وجلّ بلياليها في محكمِ تبيانه، وذلكَ في قولِه عزَّ وجلّ: ﴿وَالْفَجْرِ، وَلَيَالٍ عَشْرٍ، وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ، وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ، هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ﴾. إنّها ليالي العشرِ الأوّلِ من ذي الحجّة، وهي الليالي التي أقسمَ بها اللهُ عزَّ وجلّ، وليسَ لقسمِ اللهِ عزَّ وجلّ بشيءٍ يقسمُ بهِ إلا معنىً واحد: هو التّنويهُ بأهمّيّتِهِ وخطورتِهِ وجليلِ مكانتِهِ عندَ اللهِ سبحانهُ وتعالى.

فجديرٌ بالإنسانِ أن يعلم أنَّ لهذه الليالي التي يقسمُ بها اللهُ عزَّ وجلّ خطورةً كبرى وأهمّيّةً عظمى، والفائدةُ التي ينبغي أن يجنيها الإنسانُ من معرفةِ هذا المعنى لقسمِ اللهِ سبحانهُ وتعالى بهذه الليالي، أن يُقبلَ إليها فيملأها بالطّاعات، بدءاً من التّوبةِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ عن المعاصي والأوزارِ كلّها، يملؤها بالقرباتِ إلى الله عزَّ وجلّ بنيّةٍ صافيةٍ من الشّوائب، وبعزمٍ على الثّباتِ على صراطِ اللهِ سبحانهُ وتعالى، هذا هو المعنى الذي يلفتُ البيانُ الإلهيُّ نظرنا إليه من خلالِ هذا القَسَم بهذه الليالي المباركة، وهي ليالٍ تتبعها أيّامها كما هو معلوم.

ولقد ثبتَ في الصّحيحِ عن رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم أنَّ أفضلَ أيّامِ هذا العشرِ المبارك هو اليومُ التّاسعُ من شهر ذي الحجّة، اليوم الذي يعقبُهُ الليلةُ العاشرة من الليالي التي أقسمَ اللهُ سبحانهُ وتعالى بها، فيومُ التّاسعِ من ذي الحجّة هو يومُ عرفة، وهو أفضلُ هذه الليالي أو هذه الأيّام التي افتُتحَ بها هذا الشّهرُ المبارك، وقد روى أبو قتادة رضي اللهُ عنه عن رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم فيما رواهُ مسلمٌ في صحيحه ورواهُ أبو داوود وابنُ ماجه وآخرون أنّهُ صلى اللهُ عليهِ وسلّم سُئلَ عن صومِ يومِ عرفة، فقال: ﴿هو – أي صومُ يومِ عرفة – كفارةٌ لسنةٍ ماضية وباقية﴾. وقد تكرّرَ هذا الحديثُ وهذا التّنويهُ بأهمّيّةِ فضلِ يومِ عرفةِ وصيامِ يومِ عرفة في أحاديثَ كثيرةٍ جدّاً، ومن أشهرها وأصحّها ما رواهُ الإمامُ البخاريُّ عن عبدِ اللهِ بنِ عبّاس عن رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ أنّهُ قال: ﴿ما من أيّامٍ العملُ الصّالحُ فيها خيرٌ

وأفضلُ من هذه الأيّام أي من عشرِ ذي الحجّة، قالَ لهُ أحدُ الصّحابةِ: ولا الجهادُ في سبيلِ اللهِ يا رسولَ الله؟ قالَ: ولا الجهادُ في سبيلِ الله إلا أن يخرج إنسانٌ بمالهِ ونفسهِ فلا يعودُ من ذلكَ بشيء﴾.

أيها الإخوة: هذه الليالي التي يقسمُ بها اللهُ عزَّ وجلّ والتي يتبعها أيّامها متوّجةً بيومِ عرفة الذي نحنُ على ميعادٍ معه فرصةٌ عظيمةٌ مباركة ينبغي للمسلمين ألا يضيّعوها، وينبغي لكلِّ إنسانٍ يشعرُ بالأسى والأسفِ من بُعدهِ عن الله عزَّ وجلّ ومن انحرافه عن صراطِ اللهِ سبحانهُ وتعالى، أن يعلمَ أنّهُ من هذه الأيامِ المباركةِ أمامَ فرصة، وأنّهُ إن أحسنَ انتهازها فلسوفَ يكفّرُ اللهُ عزَّ وجلّ عن سيّئاتهِ أجمع، ويخلقهُ في هذه الدّنيا خلقاً جديداً، وما عليهِ بعدَ ذلك إلا أن يستقيم على صراطِ اللهِ سبحانهُ وتعالى، وأن يصدقَ مع اللهِ عزَّ وجلّ في العزمِ على الاستقامةِ على هديهِ والالتزامِ بأوامرهِ سبحانهُ وتعالى.

والعملُ الصّالحُ في هذه الأيّام – وهو ما أشارَ إليه رسول الله صلى الله عليه وسلّم – يبدأ بالتّوبةِ من المعاصي، فليسَ هنالكَ عملٌ صالحٌ أجلّ ولا أعظم من أن يقلع الإنسانُ عن معاصيه، وما هي جدوى الطّاعات إن غُرست في تربةٍ من المعاصي والمحرّمات، العملُ الصّالح لا بدَّ لهُ من مناخٍ صالح، والمناخُ الصّالح هو القلبُ الذي تطهّرَ من أدرانه والذي سما عن معاصيهِ وأهوائه بالتّوبةِ والإنابةِ إلى اللهِ سبحانهُ وتعالى، فإذا صدقَ الإنسانُ في توبتهِ من الأوزارِ والمعاصي كلّها فإنَّ الطّاعاتِ الإيجابيّةَ عندئذٍ تفعلُ فعلها.

وأمّا إن أقبلَ الإنسانُ على الطّاعات وهو مضمّخٌ بالأوزارِ والمعاصي فما أشبهَ عملَ هذا الإنسان بمن يعملُ إلى وعاءٍ قد ضُمّخَ بالأقذارِ المختلفة، ثمَّ يأتي فيملؤ هذا الوعاءَ كما هو بأطيبِ الطّعام، لقد فسدَ هذا الطّعامُ بهذا العمل، لابدَّ قبلَ كلِّ شيءٍ من غسلِ هذا الوعاء ومن تطهيرِهِ من الأقذارِ التي كانت عالقةً به، حتى إذا تطهّرَ الوعاء يحينُ بعدَ ذلك أن يُملأَ بالطّعامَ الطيّب.

كذلكمُ الإنسان: وعاءٌ.. فانظر إلى هذا الوعاءِ بمَ كانَ مملوءاً؟ طهّرهُ قبلَ كلِّ شيءٍ من الأدرانِ والمعاصي، بالتّوبةِ الصّادقةِ والإنابةِ إلى الله، وإعادةِ حقوقِ النّاسِ إليهم، ثمَّ أقبل بعدَ ذلكَ إلى العملِ الصّالحِ كما قالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلّم واملأ هذه الأيّامِ والليالِيَ بالعملِ الصّالح.

وكما نقولُ دائماً: التّوبةُ تتمثّلُ في عزمٍ على عدمِ الرّجوعِ إلى المعاصي التي نهى اللهُ عزَّ وجلّ عنها، وفي تصميمٍ على إعادةِ حقوقِ النّاسِ إليهم، فالتّائب الذي أُثقلَ ظهرهُ بحقوقِ النّاس ثمَّ إنّهُ لم يهتمَّ بإعادةِ هذه الحقوق إليهم، لا تغني توبتهُ عنهُ شيئاً. وكم قلنا وأعدنا: إنَّ حقوقَ اللهِ مبنيّةٌ على المسامحة ولكنَّ حقوقَ العباد مبنيّةٌ على المشاحّة، بل إنَّ الذينَ يشدّونَ الرّحالَ إلى بيتِ اللهِ الحرام بقصدِ الحجِ والقيامِ بمناسكه لا يغنيهم حجّهم عنهم شيئاً إذا ذهبوا وهم مثقلون بحقوقِ النّاس، بل لقد قلنا مراراً: لا يجوزُ للإنسان أن يخرجَ مسافراً عن وطنهِ وبلدتهِ وعليهِ حقٌّ لإنسان. لا يجوزُ ذلكَ إلا بعدَ أن يحلّلَ نفسهُ من حقِّ هذا الإنسانِ أو أن يستسمحهُ، وبعدَ ذلكَ يجوزُ لهُ الخروجُ إلى السّفر سواءٌ كانَ هذا السّفرُ سفرَ طاعة أو سفرَ متعة، حتّى الجهادُ في سبيلِ الله، لا يجوزُ للإنسانِ أن يخرجَ من بلدهِ وعليهِ حقٌّ لزيدٍ من النّاس إلا بعدَ أن يعيدَ إليهِ هذا الحقّ كاملاً غيرَ منقوص أو بعدَ أن يستسمحهُ فيسامحهُ ذلكَ الإنسان.

هذا القانونُ الرّبّانيُّ إن دلَّ على شيءٍ فإنّما يدلُّ على أنَّ هذا الدّينَ الّذي شرَّفَ اللهُ عزَّ وجلّ به عباده إنّما كلّفنا به من أجلِ أن تحسُنَ صلةُ الإنسانِ بأخيهِ الإنسان، ومن أجلِ أن تتحوّلَ علاقةُ النّاسِ بعضهم مع بعض إلى علاقةِ أسرةٍ متآلفةٍ متماسكة، تلكَ هي مهمّةُ الدّينِ في حياةِ الإنسان، فما جدوى أن يصلّيَ إنسانٌ ويركع وهو إنسانٌ يسخّرُ نفسهُ لتقطيعِ صلةِ القربى بينهُ وبينَ عبادِ اللهِ عزَّ وجلّ؟ ما جدوى أن يذكرَ الإنسانُ ربّهُ بلسانٍ تقليديّ ثمَّ إنّهُ يمعنُ في استلابِ حقوقِ النّاسِ المادّيّةِ والمعنويّة؟ يمعنُ في الكيدِ لهم، يمعنُ في مخادعتهم، يمعنُ في الكذبِ عليهم في التّعاملِ وفي غشّهم في البيعِ والشّراء، ما جدوى أن يصلّيَ كثيراً وأن يذكرَ كثيراً إذا كانت صلاتهُ لا تخيفهُ من هذا الانحرافِ الكبير عن اللهِ عزَّ وجلّ؟ ما جدوى أن يصلّيَ الإنسانُ كثيراً ويركع إذا لم يكن يشعرُ بأيِّ خطرٍ من قولِ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلّم: ﴿من غشَّ فليسَ منّا﴾؟ إذا لم يكن يشعرُ بأيِّ خوفٍ من قولِ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلّم: ﴿المسلمُ من سلمَ المسلمونَ من لسانهِ ويده﴾؟ وانظروا إلى الفصلِ في هذه الجملة: ﴿المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده﴾، وهذا الذي أقولُ ليسَ تهويناً للطاعات ولا إغراءً للناسِ بتركِ الصّلواتِ ماداموا مثقلين بحقوق البشر، ولكنّي أقول: إنَّ هنالكَ إيماناً وهنالكَ نفاقاً، والنّفاقُ أيضاً درجات كما قالَ رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلّم، فلينظرِ الإنسانُ إلى كيانه، ولينظر إلى دخائلِ نفسه، هل فيهِ خصلةٌ كما قالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلّم من خصالِ النّفاق؟

إن رأى أنّهُ يخفُّ إلى المساجد عندَ مواقيتِ الصّلوات، ولكنّهُ يخفُّ إلى الكذبِ على النّاس، وغشّهم وخداعهم وأكلِ حقوقهم دونَ أن يخيفهُ ذلك من اللهِ شيئاً، فليعلم أنَّ قلبهُ منطوٍ على خصلةٍ من خصالِ النّفاق. ذلكَ لأنّني لن أكونَ صادقاً مع الله إذا سجدتُ بين يديه وقلت: سبحان ربّيَ الأعلى وبحمده، أو وقفتُ بينَ يديهِ قائلاً: إيّاكَ نعبدُ وإيّاكَ نستعين، وبعدَ قليلٍ أرسمُ خطّةً للكذبِ على النّاسِ واستلابِ حقوقهم الماديّةِ والمعنويّة، أين هو الخوفُ من الله الذي كنتَ تدّعيهِ قبلَ قليلٍ في قولك: إيّاكَ نعبد وإيّاكَ نستعين؟ إنّكَ تكذبُ على الله.

هذا هو المعنى الذي نذكّرُ به، الحجُّ إلى بيتِ اللهِ الحرام يكفّر، ولكنّهُ يكفّرُ الأوزار التي تكونُ بينَ العبدِ وبينَ ربّه، أمّا حقوقُ العبادِ فلا بدَّ من أدائها، وهذه الأيّامُ المباركاتُ من هذا الشّهرِ المبارك للطاعاتِ فيها أضعافٌ وأضعافٌ من الأجر الذي ينالهُ الإنسانُ في أوقاتٍ أخرى، ولكنَّ هذه الطّاعاتِ كلّها لابدَّ أن تؤسّسَ على أرضيّةٍ هي إعادةُ حقوقِ النّاسِ إليهم أو استسماحهم، فإذا تمَّ هذا المعنى فذلكَ هو المناخُ السّليم الذي يمكنُ أن يتقبّلَ اللهُ سبحانهُ وتعالى من ورائهِ طاعةَ العبد إذا أرادَ أن يطيعه. وما ابتليَ المسلمونَ بما ابتلوا بهِ من ذلٍ ومهانة، وما سلّطَ اللهُ عزَّ وجلّ عليهم أعداءهم هنا وهناك إلا لهذه المعاملة التي يعاملُ بها المسلمونَ ربّهم، يرفعونَ شعاراتِ الإسلام والعبادةِ الصّوريّةِ لهُ ظاهراً، ويمعنونَ في الكيدِ للإسلام وتمزيقِ أوامرِ اللهِ عزَّ وجلّ في نطاقِ الحقوق السّاريةِ مع النّاسِ بعضهم مع بعض باطناً.

عندما تدعى إلى أن تذكرَ الله دونَ أن يكلّفكَ ذلكَ شيئاً من مالك، جاهك، حظوظك، تظهر الورع والحبَّ للهِ عزَّ وجلّ والعاطفةَ الإسلاميّةَ الحارّةَ المتّقدة، فإذا حانَ الحديث عن الحقوق الماليّة ودقّتها، أعرضتَ ونسيت وتكوّنت منكَ شخصيّةٌ ثانية غيرُ تلكَ الشّخصيّةِ الأولى، هذا واقعُ المسلمين اليوم، أصبحوا ذئاباً سُلّطَ كلُّ ذئبٍ على الآخر، وأمامي صور لا تتناهى من هذه المعاني ولعلَّ أبطالَ هذه الصّور حجّاج، مصلّون، يذكرونَ الله، ولكنّها صور ظاهريّةٌ وشكليّة، واللهُ يعاملُ عبادهُ كما يعاملونه. فإذا تأففنا من تسلّطِ الأعداءِ علينا، فلنتأفف قبلَ ذلك من تسلّطِ المسلمين بعضهم على بعض، فلنتأفف قبلَ ذلك من الكيدِ الذي يخططهُ كلُّ مسلمٍ لجارهِ المسلم، وكلّكم يعلمُ صوراً كثيرةً لهذا الذي أقول، أقولُ قولي هذا وأستغفرُ اللهَ العظيم...

٣٧٢- ما هو العمل الصالح المطلوب في هذا العشر؟ | ١٩٩٩/٠٣/١٩

يقول النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿ما من أيامٍ العملُ الصالح فيها خيرٌ منه –أي من هذا العمل الصالح– منه في خير هذه الأيام﴾ التي أنتم فيها. فهل أكثرنا من الأعمال الصالحة التي يحبها الله عز وجل والتي يتضاعف إكرام الله للعبد عليها في هذه الأيام. والعمل الصالح كلمةٌ عامة شاملة ليس كما يفهمها كثيرٌ من الناس محصورةً في العبادات التي غدت تقليدية ً ليست محصورةً لا في كثيرٍ من الصلاة، ولا في كثيرٍ من الصيام ولا في كثيرٍ من قراءة القرآن ولا في الإكثار من الحج إلى بيت الله الحرام. كلمة العمل الصالح كلمةٌ شاملةٌ لهذه الطاعات ولغيرها. كل عملٍ يفيد المجتمع الإنساني ويعود إلى الناس جميعاً بالخير والفائدة فهو من العمل الصالح الذي يأمر الله سبحانه وتعالى به، وإذا تُوج هذا العمل بالنية الحسنة وبالقصد إلى اتباع مرضاة الله عز وجل، فهو من لب العبادات التي يأمر الله سبحانه وتعالى بها عباده.

أقول هذا لأن في الناس كثيرين يتصورون أن العمل الصالح الذي يقرب العبد إلى الله إنما هي قائمة هذه العبادات التي تمارس أو يمارس أكثرها في المساجد، فإذا خرج الإنسان إلى المجتمع أو إذا عاد إلى داره فلا شأن لله سبحانه وتعالى بما يمارسه الإنسان من الأعمال الأخرى، وهذا خطأٌ كبيرٌ فادح في فهم دين الله سبحانه وتعالى. أوامر الله تلاحقك أنّا ذهبت:

إن كنت مع أهلك وأولادك فأوامر الله تلاحقك بأن تعبد الله سبحانه وتعالى من خلال رعايتك لأهلك وأولادك، من خلال إدخالك السرور على أهلك وأولادك، من خلال خدمتك لهم، من خلال رعايتك إياهم، من خلال عطفك عليهم من خلال إسعادك لهم.

فإذا خرجت إلى السوق لتشتغل بالتجارة أو الصناعة أو الزراعة تلاحقك العبادة، عبادتك أن تخدم المجتمع بما أهلك الله له، لما أقامك عليه من الشؤون، تتاجر لتكون خادماً لمصالح الناس، تصنع لتكون خادماً لحاجات الناس ومنافعهم، تزرع للقصد ذاته، ثم إنك تنهج من خلال ذلك النهج الذي أمرك الله

عز وجل به فلا تغش من خلال هذه الخدمة للمجتمع، ولا تخدع من خلال هذا السعي من خلال أداءك وظيفتك لخدمة المجتمع ولا تكذب ولا تغر ولا تفعل ما قد نهاك الله سبحانه وتعالى عنه.

فإذا صاحبت أصدقاءك وجالستهم في أسمارك وفي جلسات أخرى، ينبغي أن تعلم أن العمل الصالح الذي أمرك الله به يلاحقك أيضاً إلى تلك الأحوال التي تجالس فيها أصدقاءك وزملاءك، تأمر بالمعروف، تنهى عن المنكر، الدين النصيحة أينما كنت ينبغي أن تنصح نفسك أولاً ثم تنصح خاصة أهلك ثانياً، ثم تنصح من يلوذون بك ثالثاً وهكذا... فما من حال يتقلب فيها الإنسان إلا وتلاحقه أوامر الله سبحانه وتعالى.

إن كنت ممن قد زجهم الله في معتركات السياسة، فعملك عبادة من العبادات التي ينبغي أن ترعى فيها أوامر الله سبحانه وتعالى وأحكامه. ما من وضع يتقلب فيه الإنسان إلا وهو مكلف بالعمل الصالح.

فالعمل الصالح ليس كما يفهم بعض الناس، يصلي الركعات التي طلبت منه، يقرأ شيئاً من كتاب الله عز وجل كما ألزم به ذاته، ثم إنه إذا خرج إلى السوق عافس وفعل ما طاب له لأن الدين قد انفصل عنه ودخل في الدنيا. ونحن لسنا من شيءٍ لذلك الكلام المجنون الذي لا معنى له: أعطي مال قيصر وما لله لله، كل شيء لله قيصر كله ملك لله سبحانه وتعالى. هذا الكلام لا يمكن لعاقل أن يعيه. متى كان الكون شركة بين قيصر وبين رب العالمين سبحانه وتعالى؟ أنت في كل حالةٍ مكلفٌ بالعمل الصالح، وملاك هذا كله أيها الإخوة الخُلق الإنساني الراشد. هذا هو الجزء الذي تتفرع عنه سائر الأعمال الصالحة التي كلفنا الله سبحانه وتعالى بها، الخُلق الإنساني السليم.

ولعلكم جميعاً تعلمون الحديث الصحيح المشهور: ﴿إنما بُعثت لأتمم مكارمَ الأخلاق﴾

فإن رأيت أن الله عز وجل يأمرك أن تصحح عقائدك وأن تفهم الكون كما هو عليه، ففي سبيل أن تصلح من خُلقك.

وإن رأيت أن الله عز وجل أمرك بالصلاة ﴿وأقم الصلاة لذكري﴾ وأمرك بالإكثار من ذكره، فلكي يكون ذلك غذاءً لخلقك الإنساني السليم.

وإن رأيت أن الله سبحانه وتعالى نهاك عن طائفة من المحرمات فاعلم أن ذلك كله إنما يدور على محور شيءٍ واحد هو أن يتخلق هذا الإنسان المسلم بالأخلاق الإنسانية السليمة الراشدة لا قيمة للعمل الصالح إن لم يستنبت في تربة من الأخلاق الإنسانية الراشدة إطلاقاً.

العمل الصالح هو ذاك الذي يخضرّ ويستنبت في تربة الخلق الإنساني السليم، ثم إن هذا الخلق تنبثق عنه الأعمال الصالحة كلها، وعندما يكون الإنسان ملتزماً الأخلاق الإنسانية السليمة والقويمة التي جاء الدين من أجلها فكل ما يصدر من الإنسان عملٌ صالح. والإنسان الذي يسير في المجتمع وهو يمارس الأعمال الصالحة هو الإنسان المحبوب عند الله وهو الذي لابد أن يكتب الله له سعادة الدارين.

انظروا إلى قول الله عز وجل: ﴿وَالْعَصْرِ، إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ، إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾.

في هذه الأيام ينبغي أن نتقرب إلى الله عز وجل بكل الأعمال الصالحة كلٌ بحسب ما أقامه الله عز وجل فيه، فالصانع بالإضافة إلى العبادات المتكررة التي أمرنا بها ينبغي أن يجعل من صنعته التي أقامه الله عز وجل قربى إلى الله سبحانه وتعالى، كذلكم التاجر كذلكم الزارع، كذلكم القائد، كذلكم الزعيم، كذلكم السياسي وهكذا.. أما الجامع المشترك فهو العبادات التي خاطبنا الله سبحانه وتعالى بها بل هي جزءٌ من العبادات، ثم إنها الجزء الثاني من الجامع المشترك: واجب الإنسان تجاه أهله اتجاه أسرته، واجبه في أن يجعل من نفسه أداةً لإسعاد أهله وذريته وأولاده.

خرج عبد الله بن المبارك إلى الجهادِ مرةً مع ثلة من أصحابه وفي إحدى الليالي وأمام ثغرٍ من الثغور فسأله أحد أصحابه هل في الناس من يؤدون عملاً أقرب إلى الله مما نحن فيه؟ ثغرٌ نحن واقفون فيه جهادٌ في سبيل الله قائمون به ودراسةٌ لكتاب الله عز وجل في جنح الليل، هل هنالك عملٌ أفضل من هذا العمل الذي نحن فيه؟ قال نعم، قالوا ما هو؟ قال رجلٌ قام من الليل له زوجة وصبيةٌ وأولاد فتفقد أحوالهم في جنح الليل وأعاد الأغطية عليهم يحاذر عليهم من برد الشتاء ثم عاد إلى مضجعه فهذا الرجل في أسرته هذه عمله خيرٌ من عملنا نحن. لا ريب أن هذا تواضعٌ جمٌ وكبيرٌ من عبد الله بن المبارك حتى لا تزهى به نفسه لكنه يقول كلاماً أكده بيان الله وأكدته سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم كل عملٍ تتجه به

إلى مرضاة الله سلمٌ يوصلك إلى رضى الله والمهم أن تفعل كما أمر الله وأن تنطلق إلى هذا السلم من الخلق الإنساني الرشيد وعندئذٍ نكون قد استجبنا لهذه النفحة التي يتجه الله عز وجل من خلالها إلى عباده بالرحمات في هذه الأيام المباركة.

٣٧٣- العمل الصالح | ٢٠٠٨/١٢/٠٥

لا يأسفن أحدٌ منكم رغب أن يكون من الحجاج إلى بيت الله الحرام ثم لم يكتب له نصيب في ذلك، ولا يقولن في نفسه إنه قد حُرِمَ من خير أكرم الله عز وجل الآخرين من أمثاله فرب إنسان اتجه حاجاً إلى بيت الله الحرام وليس له من حجه إلا التعب والجهد لأنه لم يوف هذا الحج شروطه ولم يلتزم بآدابه ولم يلتزم بضوابط سُلَّمِ الأولويات فيما شرع الله وأمر، ورب رجل قعد في دويرة أهله محروماً من الحج في الظاهر ولكن الله سبحانه وتعالى كتب له مثوبة الحج كاملة غير منقوصة لأنه ضبط نفسه بسلم الأولويات فيما شرع الله سبحانه وتعالى وأمر، هذا من جانب، أما من جانب آخر فإن الله عز وجل أرحم وأعدل من أن يكرم ثلة من عباده بفرصة سانحة لخير يصلون إليه ويتمتعون به في حين أنه يحرم ثلة أخرى من عباده من تلك الفرصة السانحة.

لا يا عباد الله، لئن فات الذين قعدوا في دورهم وبلادهم في هذه الأيام ولم يُتَح لهم الحج إلى بيت الله الحرام، لم يُتَح لهم أن يتمتعوا بمزايا المكان فإن الله عز وجل قد متعهم أينما كانوا بمزايا الزمان، هذه الأيام الأولى من شهر ذي الحجة هي تلك التي أقسم الله عز وجل في محكم تبيانه بلياليها، هي أيام تلحق المسلمين أينما كانوا وتقدم لهم الفرصة السانحة تماماً دون نقص أينما وجدوا، ألم تقرؤوا قول الله عز وجل: ﴿وَالْفَجْرِ، وَلَيَالٍ عَشْرٍ، وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ، وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ، هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ﴾ [الفجر: ١-٥]، إن هذه الليالي التي أقسم الله بها عز وجل إنما هي الليالي الأولى العشر الأول من ليالي ذي الحجة والأيام تتبع لياليها، ولعلكم تعلمون أن القسم في كتاب الله عز وجل تنويه بشرف المقسم به وقدسيته، فأينما كان المسلم في هذه الأيام الفرصة سانحة أمامه للوصول إلى كل ما قد يناله الحجيج وهم في ذرى عرفة أو حول بيت الله العتيق، ولقد أكد لنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم هذا المعنى الذي

تضمنه بيان الله عز وجل فيما قاله فيما رواه الشيخان من حديث عبد الله بن عباس: ﴿ما من أيام العمل الصالح فيهن خير من هذه الأيام، الأيام الأولى من عشر ذي الحجة، قالوا ولا الجهاد في سبيل الله يا رسول الله قال: ولا الجهاد في سبيل الله إلا رجلاً خرج بدمه وماله فلم يرجع من ذلك بشي﴾، إذاً ففرصة الأجر العظيم والمثوبة الكبرى مفتحة أبوابها للناس جميعاً أينما وجدوا ورحمة الله عز وجل لا تتحيز لقوم دون قوم أبداً.

ولكني أريد أن ألفت نظري وأنظاركم يا عباد الله إلى هذا الذي يقوله رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما من أيام العمل الصالح فيهن خير من هذه الأيام، لاحظوا أنه صلى الله عليه وسلم لم يقل ما من أيام الصلاة فيها خير منها في هذه الأيام، لم يقل ما من أيام الصوم أو الزكاة أو الحج وإنما قال العمل الصالح، ما من أيام العمل الصالح فيهن خيرٌ من هذه الأيام، والعمل الصالح هي الكلمة التي يرددها بيان الله عز وجل في كل مناسبة إذ ينبه عباده إلى الوظيفة التي أنيطت بهم فوق هذه الأرض في حياتهم الدنيا، العمل الصالح، العمل الصالح كل جهد يقوم به الإنسان يصلح به ما بينه وبين إخوانه في الإنسانية، كل جهدٍ يقوم به الإنسان يُحَصِّلُ الصلاح الذي قيضه الله وأقامه في الأرض ويبعد عنها أسباب الفساد، كل ذلك من العمل الصالح، العدل جزء من العمل الصالح، الابتعاد عن الظلم والغش والنميمة والخداع جزء من العمل الصالح، المحافظة على البيئة أي المحافظة على صلاح الأرض التي سَلَّمَنَا الله إياها صالحة جزء لا يتجزأ من العمل الصالح يا عباد الله.

فيا عجباً لأناس فهموا من الإسلام بل التقطوا من الإسلام طائفة من الأعمال مارسوها طقوساً ولم يمارسوها قيماً أو مبادئاً، فهموا من الإسلام جملة ركوع وسجود، فهموا من الإسلام صياماً ربما في أيام فاضلة غير شهر رمضان، فهموا من الإسلام الذهاب المتكرر كل عام إلى الحج، فهموا من الإسلام السبحة التي تتفرقع في اليد وكلمات التسبيح التي تُدَبَّجُ بها الألسن ثم إنهم حصروا نفسهم في هذا، أما الفساد والإفساد فلم يقيموا لشيء من ذلك وزنا، أما الغش والخديعة والكذب والافتراء في المعاملة فلم يقيموا لكل ذلك وزنا، وأما الظلم فلم يقيموا لشيء من ذلك وزنا، أليس إنه يحج كل عام إلى بيت الله الحرام! إذاً فلا شك أن الحج سيُكَفِّرُ عنه تلك السيئات كلها، ما أكثر الذين يروحون ويغدون حجاجاً إلى بيت الله الحرام كل عام والحج عندهم ممحاة لمحو الآثام التي ارتكبوها خلال العام وأيامه وأشهره، من

الذي قال إن الله يقبل حجاً من هذا القبيل؟ من الذي قال إن الإسلام جملة عبادات طقوسية يمارسها الإنسان ثم لا عليه أن يظلم أخاه الإنسان، لا عليه أن يفسد في الأرض بعد أن أصلحها الله عز وجل؟

لا يا عباد الله، ما ينبغي أن نفهم هذا الفهم المنكس لكتاب الله عز وجل، اقرؤوا قول الله في كتابه، كم وكم كرر التحذير من الإفساد في الأرض: ﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا﴾ [الأعراف: ٨٥]، ويقول جل جلاله: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧]، وصدق الله القائل: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم: ٤١].

أين الذين يتدبرون هذا الكلام الرباني الذي تنخلع له الأفئدة، أفئدة من عرف ربه وعرف ذل عبوديته لله سبحانه وتعالى، الإنسان الذي يبتغي أن يصل إلى مرضاة الله عز وجل هو ذاك الذي يتمسك بموازين العدل وينأى عن الظلم وأسبابه، الإنسان الذي يريد أن يصل إلى مرضاة الله عز وجل هو ذاك الذي يقيم ما بينه وبين عباد الله جسور الأُلفة والود، جسور السماحة، جسور المحبة التي جعلها الله في قلوبنا فرعاً عن محبته عز وجل، الإنسان الذي يبتغي الوصول إلى مرضاة الله عز وجل هو ذاك الذي يحافظ على صلاحية الأرض للعيش والطمأنينة واستنشاق الهواء الطاهر النظيف.

لا يمكن إطلاقاً يا عباد الله أن يرحل إلى الله إنسان أفسد البيئة بكل ما تعلمون من وسائل من أجل أن ينال مزيداً من الربح في جيبه، من أن أجل أن ينال مزيداً من الرفاهية في حياته، يفسد الزرع والنسل، يفسد الأرض، يفسد الهواء الذي ننتعش به عن طريق المبيدات المختلفة بأنواعها والأسمدة الكيميائية المختلفة بأنواعها وهو يعلم أنه يقدم من وراء ذلك لإخوانه في الإنسانية سموماً، وهو يعلم أنه المسؤول عن طابور الأمراض الخبيثة التي يراها بعينيه أمام أبواب المستشفيات الكثيرة المختلفة.

أتظن يا هذا أنك راحل إلى الله بشفاعة من صلاتك، بشفاعة من ركوعك وسجودك! خسئت إن كنت تعلم هذا، صدق رسول الله القائل فيما اتفق عليه الشيخان: ﴿أتعلمون من المفلس فيكم، قالوا

المفسد فينا من لا درهم له ولا دينار ولا متاع، قال: المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وصدقة وحج، يأتي وقد شتم هذا وقد ظلم هذا وضرب هذا وغش هذا وسفك دم هذا، فيؤخذ من حسناته لهذا وهذا وذاك حتى إذا لم تبق له حسنات أُخِذَتْ من ذنوبهم فطرحت عليه ثم طُرِحَ به في النار﴾، مصلون، صائمون، يحجون كل عام إلى بيت الله الحرام لكنهم لا يقيمون للعدالة وزنا، لا يقيمون للإخوة، لا أقول الإسلامية فقط، بل الإنسانية أيضاً وزناً، هؤلاء لا يقبل الله منهم يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً.

عباد الله اعلموا أن حقوق الله مبنية على المسامحة ولكن حقوق العباد مبنية على المشاحة، لا يقبل الله من الإنسان الذي رحل إلى الله وعنقه مثقلة بالمظالم، عنقه مثقل بالإساءات، بالأعمال التجارية التي يبتغي من ورائها أن يمتع نفسه على حساب سعادة الآخرين، على حساب عافية الآخرين، على حساب صحة الآخرين، هؤلاء هم حشو جهنم يوم القيامة، عرف هذا من عرف وجهله من جهل.

كم وكم يقال لي يا عباد الله ألا نتداعى إلى صلاة الاستسقاء، وأقول ينبغي أن نتداعى إلى صلاة الاستسقاء لكن هل سمعتم أن في الناس من يقبل إلى الصلاة المفروضة ليصليها فَيُهْرَعُ إليها قبل أداء شروطها، يهرع إليها قبل أن يتطهر، يهرع إليها قبل أن ينظف ثوبه والمكان الذي يقف عليه، وهل يقبل الله صلاة هُرِعَ إليها زيد من الناس بهذا الشكل! إنه بمثابة من يسخر من شيء شرعه الله عز وجل، صلاة الاستسقاء لها شروط لابد منها، من أهم وأولى شروطها أداء الحقوق إلى أصحابها، الانعتاق من الظلم وما أكثر أنواع المظالم، التوبة إلى الله سبحانه وتعالى بعد رد المظالم، ألا يعود هذا الإنسان إلى مثل ما قد فعل وأثم، عندما تؤدى هذه الشروط كلنا سَنُهْرَعُ إلى صلاة الاستسقاء، وعندما يأتي من يسألني فيقول ولكن ها هي ذي ديار من ديار الله الواسعة يكرمها الله بالأمطار السخية والثلوج الكثيرة أقول إن الله عز وجل يحب العدل ويثيب إليه إن في الدنيا وإن في الآخرة وإن كان العادل كافراً وإن الله عز وجل يكره الظلم ويعاقب عليه إن في الدنيا وإن في الآخرة وإن كان الظالم مسلماً، ينبغي أن نعلم هذه الحقيقة يا عباد الله.

قلت في الأسبوع الماضي إن هنالك ثنائية في حياة المسلمين ينبغي أن يتحرروا منها وأعود إلى ما قد ذكرت فأنا الآن من هذه المشكلة التي أقولها لكم أمام مظهر آخر من مظاهر الثنائية، نحن مسلمون

عندما نُهْرَعُ في موسم الحج إلى بيت الله الحرام، مسلمون عندما نُهْرَعُ إلى المساجد وربما امتلأت المساجد بنا لاسيما في شهر رمضان، مسلمون عندما نصوم لا الشهر المبارك رمضان بل نصوم الاثنين والخميس أيضاً ولكن يغيب الإسلام عندما ندخل إلى سوق المعاملة، يغيب الإسلام كله عندما ننظر إلى التعامل المالي والتجاري بين الناس، يغيب الإسلام كله عندما ندخل إلى المزارع وننظر إلى هؤلاء الذين يزرعون ويفلحون ويضعون نصب أعينهم جيوبهم فقط وعلى حساب العافية على حساب عافية المرضى الذين يرحلون رحلة بطيئة ثم بطيئة إلى القبر والموت ونحن المسؤولون، والله الذي لا إله إلا هو ليسألن الله سبحانه وتعالى هؤلاء الظالمين عن هؤلاء المظلومين الذين سُفِكَت دماؤهم بالمرض العضال وهم الذين تسببوا في ذلك.



بلغوا يا عباد الله عني، بلغوا هؤلاء أن يتوبوا إلى الله عز وجل وأن يعلموا أن الله هو الرزاق: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ﴾ [الذريات: ٥٧]، ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذريات: ٥٨]

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

٣٧٤- مائدة الإكرام والقبول | ٢٠٠٩/١١/٢٠

في الناس من تفتحت أمامهم السبل فاتجهوا حجاجاً إلى بيت الله الحرام، ولا حديث لنا الآن عن نوع هذه السبل ما هي، وفي الناس من لم يُتَحْ لهم ذلك، إما لأن السبل تقطعت دونهم، أو لأنهم قد آثروا القيام بما هو أوجب وأهم، آثروا الركون إلى مبدأ سُلَّمِ الأولويات، وجدوا أن الوظائف التي أقامهم الله عز وجل عليها لا مندوحة منها، ولا سبيل للفرار عنها، وجدوا أن المهمة التي أنيطت بهم إن تركوها لا يوجد من يسدها من بعدهم، فهؤلاء قعدت بهم الظروف والأعذار عن التوجه حجاجاً إلى بيت الله الحرام، ولعلهم يشعرون في هذه الأيام بلظى الشوق إلى بيت الله الحرام، ويشعرون بألم الاشتياق إلى زيارة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولعلهم يتصورون أن الأجر الذي قد أتاحه الله سبحانه وتعالى لحجاج بيته قد حُرِمُوا منه، والأمر ليس كذلك يا عباد الله، كان الله ولا يزال أرحم بعباده من أن يفتح لفئة منهم مائدة إكرامه ويحرم الآخرين منها، ربنا سبحانه وتعالى ذو رحمة، ورحمته شاملة للناس كلهم أينما كانوا، سواء الذين أُتِيحَ لهم أن يتوجهوا حجاجاً إلى بيت الله الحرام، أو أولئك الذين قعدت بهم الأعذار، فلم يُتِحْ لهم ذلك.

لئن كان الأجر الذي يناله الطائفون والعاكفون والساعون والزائرون للمصطفى صلى الله عليه وسلم، لئن كان أجرهم منوطاً بالأماكن التي اتجهوا إليها، فإن هنالك أجراً آخر جعله الله يلاحق المحرومين من هذا النسك، يلاحقهم أينما كانوا، يلاحقهم في سائر المدن التي يعيشون فيها، في سائر الأماكن التي يتقلبون فيها، ما مصدر هذا الأجر يا عباد الله؟ مصدره هذه الليالي والأيام من أول شهر ذي الحجة التي أقسم بها الله سبحانه وتعالى في محكم تبيانه، أقسم بلياليها قائلاً: ﴿وَالْفَجْرِ، وَلَيَالٍ عَشْرٍ، وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ، وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ، هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ﴾ [الفجر: ١-٥]

أَقسَمَ الله عز وجل بالليالي الأولى من شهر ذي الحجة، وتتبعها أيامها كما تعلمون، وإنما أقسم بها ليلفت أنظارنا إلى قدسيتها، إلى المعاني العظيمة التي أناطها الله عز وجل بها، إلى التجليات الرحمانية التي يتمتع بها من يعيشون في هذه الأيام والليالي أينما كانوا وفي أي بقعة وُجِدُوا، فلئن حُرِمَ ناسٌ من الناس

عن التوجه إلى بيت الله الحرام، فإنهم لم يُحْرَمُوا من الأجر الوفير لذلك قط، ومصادر الأجر تتنوع، مصدر الأجر لأولئك الناس طوافهم وسعيهم ووقوفهم وزيارتهم، أما مصدر الأجر للناس الآخرين الذين يتناثرون في بقاعهم، في مدنهم، في قراهم، فإن الأجر هو الذي يلاحقهم، الزمان هو الذي يلاحقهم، وكأن الله عز وجل يقول لهم: لئن بُسِطَتْ مائدة الإكرام والقبول للحجاج، فإن مائدة هذا الإكرام تلاحقكم أينما كنتم متمثلة في هذه الليالي التي أقسم الله عز وجل بها.

وقد شرح المصطفى صلى الله عليه وسلم ذلك وأكده قائلاً في الحديث الذي يرويه البخاري وغيره من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿ما من أيام العمل الصالح فيها خيرٌ منه في هذه الأيام، قال أحد الصحابة: يا رسول الله ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجلاً خرج بنفسه وماله فلم يعد من ذلك بشيء﴾.

عباد الله تعالوا نقف أمام هذا الذي يقوله رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد القسم الذي أقسم به الباري سبحانه وتعالى، تعالوا نتبين ما في طوايا هذه الأيام من أجرٍ وفير، وقد حُرِمْنَا من التوجه حجاجاً إلى بيت الله الحرام، ولربما كان القاعد له من الأجر ما يساوي أجر الحاج بل ربما يزيد، ينبغي أن نكون على بينة من هذه الحقيقة، كل ما في الأمر أنه ينبغي أن نتهيأ لملء هذه الأيام والليالي بما ذكره المصطفى صلى الله عليه وسلم من الأعمال الصالحة التي تقرب العبد إلى الله سبحانه وتعالى، وانظروا إلى دقيق كلامه:﴿ ما من أيام العمل الصالح فيها خيرٌ منه في هذه الأيام﴾، لم يقل: العبادة خيرٌ منها في هذه الأيام، وإنما قال: العمل الصالح، والعمل الصالح هذه الكلمة تحوي كل ما فيه صلاح الإنسانية جمعاء، كل ما فيه صلاح الفرد والمجتمع، دون تفريق بين مستويات، ودون تفريق بين مذاهب، ودون تفريق بين أفكار وقيم، العمل الصالح هو ذلك الثوب الذي يتفق ويتسق مع الفطرة الإنسانية، مع الحاجات الإنسانية السليمة، فكل عمل صالح للإنسانية يتقرب به الإنسان إلى الله عز وجل وقصده من وراء ذلك أن ينال رضا الله، أن ينال الفوز برحمة الله عز وجل، فلسوف يجد أن المكرمة التي أكرمه الله عز وجل بها لا تقل عن مكرمة أولئك الذين اتجهوا طائفين ببيت الله، لا يقل عن أولئك الذين يقفون يسلمون من دوننا على رسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

ولكن تأملوا مرة أخرى في كلمة العمل الصالح، العمل الصالح يبدأ كما تعلمون بأداء حقوق الله عز وجل، بل لعلي لا أكون مبالغاً إن قلت لكم: البداءة بالعبادات التي هي حقوق الله تعالى مدخلٌ، مجرد مدخل إلى الأعمال الصالحة، ثم إن قيامَ الإنسان الذي أنيطت به وظيفة يخدم بها هذه الأمة عملٌ من أجل الأعمال الصالحة، عندما يؤدي هذا العمل وهو يقول بلسان حاله: أي رب إنني إنما أتقرب بخدمة عبادك إليك، إن دخول الرجل عائداً من عمله إلى داره وهو يحمل بشاشة وجهه ولطف معاملته مع أهله، زوجه، أولاده، من أجلِّ الأعمال الصالحة التي يتقرب بها الإنسان إلى الله عز وجل، ولا أشكّ أن أجْرَ هذه البشاشة وهذا اللطف في المعاملة لا يقِلّ عن أجر الساعين بين الصفا والمروة في هذه الأيام، إن ذاك الذي يغدو في صباحه الباكر إلى عمله نشيطاً ليكسب من وراء علمه المباح، عمله المشروع رزقاً يعود به إلى أهله هو من أجلِّ الأعمال الصالحة، بل وصف الله سبحانه وتعالى القائم بهذا العمل بالجهاد ووصفه بالمجاهد نعم، الإنسان الذي يؤدي وظيفة أنيطت به في مسجد، أنيطت به في مكان عبادة، يؤدي دروسه التي كُلِّفَ بها، يقوم بمثل هذا الموقف الذي أقفه بينكم، وهو إنما يتلمس رضا الله، ويتلمس القرب من الله لا يقل أجره عن أجر الطائفين ببيت الله الحرام.

ولكن فلتعلموا –يا عباد الله– أن أول خطوة إلى الأعمال الصالحة إنما تبدأ بتنقية النفس من السلوك والمحرمات، تلك هي الخطوة الأولى، وصدق من قال: التخلية قبل التحلية، عندما تريد أن تملأ إناءك بطعام أو بحلوى فابدأ قبل ذلك بتطهير هذا الإناء، وإلا فلسوف يتغلب رجس الإناء على الطعام اللذيذ الذي فيه، نعم التخلية قبل التحلية، ماذا عسى أن تفيد الإنسانَ طاعاتُه أو قرباته إذا كان لا تزال محالفته للشيطان قائمة، إذا كانت معاصيه لا تزال مستمرة، إذا كانت أخلاقه الفاجرة متغلبة على أخلاقه الإنسانية الحميدة؟ ربما صام هذا الإنسان وقام، لكن صيامه لا يقربه إلى الله شروى نقير.

أجل، عباد الله، إن الأعمال الصالحة على اختلافها كلها يدور على محور واحد ألا وهو الأخلاق الفاضلة، حسن الخلق، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم القائل: ﴿اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن﴾، لم يقل: خالق المؤمنين، لم يقل: خالق المسلمين، لم يقل خالق: الأقارب والجيران: وإنما قال: ﴿خالق الناس بخلق حسن﴾

كأني بكثير منكم، وأنا أقول لمن يشاهدني أو لمن يسمعني: كأني بكثيرٍ منكم يحمل أوقاراً من الآثام والذنوب، لا الآثام والذنوب المتمثلة في تضييع حقوق الله، فالله يغفر، ولكنها آثام وأوقارٌ من الذنوب تتمثل في تضييع لحقوق العباد، في ظلم للعباد، ما أكثر الرجال الذين إذا عادوا مساءً إلى دورهم اختلقوا أسباب الوقيعة والظلم، اختلقوا أسباب الظلم للمرأة المسكينة التي تنتظر قدوم زوجها، والتي لا تألوا جهداً في خدمة المنزل وفي خدمة رب البيت، لكن الفجور هو الذي يصادفها، الفجور هو الذي تستقبله في المساء، وكم سمعت ورأيت من نساء قُطِّعَتْ منهن العظام، وبُتِرَتْ منهن الأعضاء بسبب ظلم الرجال، ماذا عسى أن يفيد إقبال هؤلاء الناس إلى الله في العشر الأول من ذي الحجة؟! يقول الله لهم بلسان الحال: ابتعدوا عن حظيرة هذه المائدة مأزورين غير مأجورين، والبلاء الأطم الذي ينتظرهم إنما هو يوم تقوم الساعة، كم من أناس يولغون في حقوق الآخرين، ويتقلبون في نشوةٍ ما مثلها نشوة في استلاب هذه الحقوق بألوان من المكر شتى، بألوان من الخداع شتى، عاكفون على هذه الحال، لا يوقظهم من حالهم هذه لا الأيام ولا الليالي التي أقسم الله سبحانه وتعالى بها، ولنفرض أن هؤلاء صاموا هذا العشر كله وقاموا الليل كله، الله غني عن عبادة هؤلاء الناس، وإذا أمرنا الله بصلاةٍ أو نسك فإنما يأمرنا بذلك لكي يرقق هذا النسك قلوبنا فنتعامل فيما بيننا بود، نتعامل فيما بيننا بشفافية.

أجل وإذا قلت هذا الكلام فالرجال والنساء في هذا الميزان سواء، حقوق الله مبنية على المسامحة – كما قلت لكم بالأمس– أما حقوق العباد فمبنية على المشاحة، أقول في هذا الموقف، في هذا اليوم الأغر من هذا العشر الذي أقسم الله عز وجل به لهؤلاء الناس: يا أيها الظالمون لأهليكم، يا أيها الظالمون لأقاربكم، يا أيها الآكلون لحقوق إخوانكم انتظروا بلاءً ساحقاً ماحقاً إن لم تتوبوا إلى الله سبحانه وتعالى، وصدق الله القائل: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣] سواء في دار الدنيا أو يوم القيامة، وأقول لنفسي ولهؤلاء الناس جميعاً: أما إن ضجعة الموت قريبة، والبعيد قريب ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً، وَنَرَاهُ قَرِيباً﴾ [المعارج: ٦-٧].

ولسوف نتمدد عندما يفد إلينا ملك الموت، تُرى كم ستأكل الندامة قلبك يا هذا الذي تستمرء الظلم في حياتك اليوم إن مع أهلك أو مع أولادك أو مع إخوانك؟! لماذا تتهيأ لنار تلك الندامة وتنضج نيرانها اليوم من أجل أن تتقلب في أوارها غداً ساعة لن تفيدك الندامة، تتمنى لو أنك رجعت لتستسمح

المظلومين، تتمنى لو أنك رجعت لتقبّل قدم زوجتك التي أسأت إليها وضربتها حتى التحطيم، أجل لماذا لا نرعوي اليوم، والفرصة سانحة، ونداء الله عز وجل يقول: عودة إلى الحق.

هذه الليالي تهيب بنا أولاً أن نبدأ بالتخلية، نتحرر من الآثام، نتحرر من الظلم، نتحرر من الإساءة إلى الآخرين أياً كانوا، بعد التخلية تبدأ التحلية، نتقرب إلى الله بالعبادات، بالطاعات، بالأعمال الصالحة كلها وما أكثرها وما أكثر تنوعها، أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم، فاستغفروه يغفر لكم.





يوم عرفة

٣٧٥- دعوة لانتهاز فرصة يوم عرفة | ١٩٧٩/٠٦/٠١

حدّثتكم في الأسبوعِ الماضي عن فضلِ العشرِ الأوّلِ من شهرِ ذي الحجّة، وذكّرتكم بقولِ اللهِ عزَّ وجلّ: ﴿ووَالْفَجْرِ، وَلَيَالٍ عَشْرٍ، وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ، وَالَّيْلِ إِذَا يَسْرِ، هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ﴾ أما اليوم فأذكّركم بذروة الفضلِ في هذه الأيّامِ المباركات، ألا وهو يومُ عرفة، الذي ألمحَ إليهِ البيانُ الإلهيُّ بكلمةِ الوَتْر: ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ،﴾ أي الوترِ من هذه الأيام، والمقصودُ منهُ كما ذكرهُ جلُّ علماءِ التّفسير يومُ عرفة، يومُ عرفةَ هذا هو محورُ الفضلِ الذي ثبتَ لهذه الليالي العشر، وهو اليومُ الأغرُّ من هذا الشّهرِ المبارك، بل هو اليومُ الأغرّ من أيّامِ السّنةِ كلّها، فقد وردَ عن جابرٍ عن رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ فيما يرويهِ البيهقيُّ وأبو يعلى والطّبرانيُّ وغيرهم أنَّ رسولَ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ قال: ﴿إذا كانَ يومُ عرفة، فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يباهي بأهلِ الأرضِ الملائكة فيقول: (انظروا إلى عبادي أتوني شعثاً غبراً ضاجّين من كلِّ فجٍّ عميق، أشهدكم أنّي قد غفرتُ لهم)، فيقولُ الملائكة: (إنَّ فيهم فلاناً مرهقاً) أي مغموساً بالمعاصي والآثام، (وفلاناً وفلانة)، فيقولُ اللهُ لهم: (قد غفرتُ لهم جميعاً). يقولُ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلّم: (فلم يُرَ يومٌ أكثرُ فيهِ عتيقاً من النّارِ من يومِ عرفة)﴾.

وفيما رواهُ مالكٌ في موطّئه وابنُ ماجه، أنَّ رسولَ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ قال: ﴿ما رؤيَ الشّيطانُ في يومٍ هو أحقرُ ولا أدحرُ ولا أصغرُ ولا أغيظُ منهُ في يومِ عرفة، وما ذلكَ إلا لما يرى من رحمةِ اللهِ سبحانهُ وتعالى المنزّلةِ على عباده﴾.

وهذا اليوم الذي نوّهَ رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ بمزيّتِهِ وفضله ليسَ وقفاً - هذا الفضل الذي فيه - على طائفةٍ من النّاسِ دونَ طائفة، فهوَ ليسَ فضلاً على الحجيج، ليسَ فضلاً موقوفاً عليهم دونَ غيرهم، وإنّما فضلُ هذا اليوم ينالهُ النّاسُ جميعاً في مشارقِ الأرضِ ومغاربها، إلا من أعلن عن غناهُ عن رحمةِ الله سبحانهُ وتعالى، فمن أعلنَ عن غناهُ عن اللهِ عزَّ وجلّ فاللهُ أشدُّ غناً عنه، وكيفَ يعلنُ الإنسانُ غناهُ عن اللهِ سبحانهُ وتعالى؟

يعلنُ الإنسانُ عن غناهُ عن الله بشيءٍ أعظمَ دلالةً من القول، يعلنُ عن ذلكَ بالفعل، وذلكَ بإعراضهِ عن اللهِ عزَّ وجلّ في هذا اليوم، وانغماسهِ في مزيدٍ من المنسياتِ والملهيات، وما رأيتُ صورةً أعجب – أيّها النّاس – ولا أغرب من صورةِ إنسانٍ تعلمُ كلُّ ذرّةٍ من كيانهِ أنّها في غايةِ الفقرِ إلى اللهِ عزَّ وجلّ حالاً ومآلاً، ويسمع عن رحمةِ اللهِ سبحانهُ وتعالى المنزّلةِ على عباده في هذا اليوم فيعرضُ عن هذه الرّحمة، ويلهو ويستكبرُ فوقها.

وإنَّ من أعظمِ وأغربِ الصّورِ التي تجسّدُ هذا المعنى، صورُ أناسٍ تجدهم يومَ عرفة في رحابِ عرفة وهم مشغولون عن الله بكلِّ شيء بدلاً من أن يكونوا مشغولينَ باللهِ عن كلِّ شيء، تجدهم منغمسينَ بالطّعامِ والشّرابِ آناً، وبالأحاديثِ الملهيةِ التي يتجاذبونها فيما بينهم آناً، وبالضّحكِ والنّكتِ آناً آخر، يتصوّرونَ أنّهم في ذلكَ اليومِ إنّما ينتهزونَ فرصةَ نزهةٍ أتيحت لهم، فهم منغمسونَ في معنى اللهوِ في ذلكَ المكان الذي لن تجدَ مكاناً أفضلَ منهُ فوقَ الأرضِ ربّما، حاشا المكانُ الذي دُفِنَ فيهِ رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم، وفي ذلكَ الزّمان الذي لن تجدَ زماناً أفضلَ منهُ يستطيعُ الإنسانُ أن يتقرّبَ فيهِ إلى مولاهُ وخالقه.

فماذا يقولُ حالُ هؤلاءِ النّاس المعرضينَ عن اللهِ بموائدهم وأطعمتهم، وفكاهاتهم وأحاديثهم ولهوهم؟ هؤلاءِ الذينَ اتّخذوا من مكانِ عرفة مكانَ نزهةٍ لهم كأيِّ نزهةٍ يرحلُ إليها النّاسُ في يومٍ من الأيّام. أليسَ معنى تصرّفهم هذا بكلِّ وضوحٍ وبكلِّ دلالةٍ قاطعةٍ أنّهم أغنياءُ عن الله، أنّهم أغنياءُ عن مائدةِ اللهِ سبحانهُ وتعالى ورحمته، المولى ينادي ويقولُ لهم: ألا هلمَّ ألا هلُم.. وهؤلاءِ النّاس معرضونَ عن نداءِ اللهِ عزَّ وجلّ، مع أنّهم أفقرُ ما يكونون إلى شيءٍ من رحمةِ اللهِ عزَّ وجل إن في دنياهم أو في أُخراهم.

ومَثَلُ حالِ هؤلاء الذينَ يعرضونَ عن اللهِ وهم في ألبسةِ الإحرامِ وأرديته، حالُ الآخرينَ من إخوانهم الذين ينتشرون في شتّى بقاعِ الأرض إذا جاءَ ذلكَ اليومُ المبارك، فالتّاجرُ مغموسٌ في صفقات بيعه وشرائه، والإنسانُ المتعوّدُ على اللهوِ منصرفٌ إلى لهوهِ كالعادةِ تماماً، والأسرةُ المعرضةُ عن الله، المعرضةُ عن مصيرها وعن عبوديّتها للهِ عزَّ وجلّ، يمرُّ بها هذا اليوم دونَ أن تشعرَ بأيِّ معنىً لقسديّته، ودونَ أن تشعرَ بأيِّ معنىً للرحمةِ الإلهيّةِ التي تطرقُ بابَ هذه الأسرة، ولكنَّ هذه الأسرة برجالها ونسائها عن رحمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ في سهوٍ ولغو، لأنّها تعلنُ بذلكَ أنّها غنيّةٌ عن رحمةِ اللهِ سبحانهُ وتعالى.

هذا اليومُ إذا جاءنا ينبغي أن نستعدَّ لهُ قدرَ شعورنا بالفقرِ إلى الله، فإن لم نكن فقراءَ إلى اللهِ عزَّ وجلّ فذلكَ شيءٌ آخر، ولكن فليقل لي أيٌّ منكم، بل أيٌّ ممن يسمعُ كلاميَ السّاعة، بل أيٌّ من النّاس من مؤمنين أو غيرِ مؤمنين. من هو هذا السّكران الذي يجرؤُ أن يقولَ أنّهُ في غنىً عن الله؟ من هو هذا الذي يستطيع أن يقفَ متحدّياً لقولِ اللهِ عزَّ وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾، من هو الذي يجرؤ أن يقفَ بشيءٍ من التّحدّي أمامَ كلامِ اللهِ عزَّ وجلّ هذا؟ ما منّا من أحدٍ يستطيع إلا أن يوقّعَ على كلامِ ربِّ العالمين وأن يعلنَ عن فقرهِ إلى الله سواءً كانَ هذا الإنسانُ صالحاً أو فاسقاً، مستقيماً أم منحرفاً، مؤمناً أم كافراً، كلُّ النّاسِ فقراءُ إلى الله، فإذا كنّا فقراءَ إلى الله واللهُ عزَّ وجلّ ينادينا في كلِّ ساعة لا سيّما يومَ عرفة، ألا فأقبلوا إليَّ فقط إقبالَ العبدِ إلى مولاه أغفر لكم كلَّ شيء.

فلماذا ونحنُ فقراءُ إلى الله لا ننتهزُ فرصةَ هذا اليوم ونحنُ لا ندري متى سيطرقُ الموتُ بابنا؟ ولا ندري متى سنودّعُ هذه الدّنيا ونرحلُ عنها إلى اللهِ عزَّ وجلّ؟ أليسَ خيراً لكلٍّ منّا أن يرحلَ إلى اللهِ بصفحةٍ بيضاءَ ناصعة؟ أليسَ خيراً لكلٍّ منّا وقد اسودّت صفحاتُ أيّامهِ ولياليهِ بالمعاصي أن نبيّضها ونغسلها في هذا اليومِ المبارك؟ وإذا هو آيلٌ إلى اللهِ عزَّ وجلّ كيومَ ولدتهُ أمّه، اللهم إلا إذا كانَ في عنقه ظلامةٌ لمظلوم.

وقد صحَّ عن المصطفى عليهِ الصّلاةُ والسّلام استحبابُ صومِ هذا اليومِ المبارك، اللهمَّ إلا للحجيج. فلقد وردَ في صحيحِ مسلمٍ وغيره عن رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم أنّهُ قال: ﴿صيامُ يومِ عرفة كفّارةٌ لسنةٍ قبلها ولسنةٍ بعدها﴾ رُويَ ذلكَ بطرقٍ شتّى. وقد روى عطاءٌ الخراسانيُّ عن عبدِ الرّحمنِ بنِ أبي بكرٍ رضيَ اللهُ عنهما قال: دخلتُ على عائشة رضيَ اللهُ عنها يومَ عرفةَ وهي صائمة والماءُ يُرَشُّ عليها، أي من الإجهاد، فقلتُ لها: أفطري. قلت: أفطرُ في هذا اليوم وقد سمعتُ رسولَ الله صلّى اللهُ عليهِ وسلّم يقول: ﴿صيامُ يومِ عرفةَ كفّارةٌ لسنةٍ قبلها﴾! فلننتهز فرصةَ هذا اليومِ أولاً بالتّوبة الصّادقة والإنابةِ إلى الله، ثمَّ بملءِ هذا اليومِ بما نستطيع من أنواعِ القُربُاتِ إلى الله على أن تكونَ نيّاتُنا في ذلكَ صافيةً خالصة. ولنجهد جهدنا أن نكونَ صائمينَ في هذا اليوم حتّى ترتفعَ أعمالنا إن وفّقنا اللهُ لشيءٍ من الأعمال حتّى ترتفعَ أعمالنا إلى اللهِ ونحنُ صائمون، فنحنُ الفقراءُ إلى الله واللهُ الغنيُّ عنّا، الرّحيمُ بنا، فاللهمَّ ارحمنا برحمتكَ التي وسعت كلَّ شيء. فاستغفروهُ يغفر لكم.

٣٧٦- هذا هو يومُ عرفة | ١٩٩١/٠٦/٢١

هذا هو يومُ عرفة، هو اليومُ الذي يشكِّلُ بينَ أيّامِ السّنةِ كلِّها ما يشبهُ واسطةَ العقدِ من حبّاتِ العقدِ كلِّه، هو اليومُ الذي أعلنَ فيهِ رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في الحديثِ الصّحيحِ أنّهُ: ﴿ما من يومٍ أفضلُ عندَ اللهِ سبحانهُ وتعالى من يومِ عرفة، وخيرُ الدّعاءِ دعاءُ يومِ عرفة﴾ ما من يومٍ يتقبَّلُ اللهُ فيهِ دعاءِ عبادهِ ويرتضي إقبالهم إليهِ بالعبوديّةِ والذّلِّ والدّعاءِ والمسألةِ كما يرضى عنهم في هذا اليوم. وقد روى الإمامُ مالكٌ والبيهقيُّ عن طلحةَ بنِ عبيدِ اللهِ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قال: ﴿ما رؤيَ الشّيطانُ في يومٍ هو فيهِ أصغرُ ولا أدحرُ ولا أحقرُ ولا أغيظُ منهُ في يومِ عرفة، وما ذلكَ إلا لما يرى من تنزِّلِ رحماتِ اللهِ سبحانهُ وتعالى، ومن تجاوزِ اللهِ عن الذّنوبِ العظامِ في هذا اليوم﴾.

وإنَّ أحدَنا ليسألُ وهو يصغي إلى هذهِ المظاهرِ من فضلِ هذا اليومِ المباركِ الجليل: أهيَ فضيلةٌ خاصّةٌ بمن شهدَ الموقفَ في يومِ عرفة؟ أم هيَ فضيلةٌ عامّةٌ تمتدُّ للمؤمنينَ والمسلمينَ جميعاً أينما وُجدوا؟ سواءٌ منهم من أُتيحَ لهُ أن يذهبَ حاجّاً إلى بيتِ اللهِ الحرامِ ويقفَ هذا اليومَ في الموقفِ أو من لم يُتَح لهم ذلك؟ كلامُ المصطفى عليهِ الصّلاةُ والسّلام كلامٌ عامٌّ يشملُ المسلمينَ جميعاً أينما وُجدوا، فهو لم يقيِّد هذهِ الفضيلةَ بموقفٍ مكانيّ، ولا بنُسُكٍ وطاعاتٍ معيّنة. ألم يقل عليهِ الصّلاةُ والسّلام: ﴿خيرُ الدّعاءِ دعاءُ يومِ عرفة، وأفضلُ ما قلتُ أنا والنّبيّونَ من قبلي: لا إلهَ إلا الله﴾. وإذا كانَ خيرُ الدّعاءِ دعاءَ يومِ عرفة، فتلكَ الخيريّةُ عامّةٌ لهذا اليومِ بقطعِ النّظرِ عن طبيعةِ المكان، بقطعِ النّظرِ عن البلدةِ أو القريةِ أو الأرضِ التي يوجدُ فيها الإنسانُ في هذا اليوم، والمهمُّ أينما وُجِدَ هذا الإنسان، المهمُّ أن يُقبِلَ إلى اللهِ سبحانهُ وتعالى، وأن ينتهزَ فرصةَ إقبالِ اللهِ عزَّ وجلَّ على عبادهِ فيُقبِلَ هو أيضاً إلى اللهِ سبحانهُ وتعالى.

وإنّني لأقفُ أمامَ هذهِ الكلماتِ التي يقولُها المصطفى عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ عن الشّيطانِ في هذا اليوم: ﴿ما رؤيَ الشّيطانُ في يومٍ هو فيهِ أصغرُ ولا أدحرُ ولا أحقرُ ولا أغيظُ منهُ في يومِ عرفة﴾. ولقد علمتم أنَّ أشنعَ صفةٍ وصفَ بها اللهُ سبحانهُ وتعالى الشّيطانَ هي الكِبر، كما علمتم أنَّ أوّلَ سببٍ لطردِ

اللهِ سبحانهُ وتعالى الشّيطانَ من ساحةِ رحمتِهِ إنّما هو تكبّرهُ على اللهِ عزَّ وجلَّ عندما تأبّى على اللهِ ورفضَ أن يطيعَ أمره.

وإذا كانَ هذا هو أهمَّ صفاتِ الشّيطانِ التي اقتضت طردَهُ من رحمةِ للهِ سبحانهُ وتعالى، فإنَّ هذا اليوم – يومَ عرفة – ليومٌ عجيبٌ حقّاً من عمرِ الدّهر، عندما يستطيعُ هذا اليومُ بما فيهِ من أسرارٍ وبما فيهِ من مظاهرِ التّجلّي الإلهيِّ على عباده، عندما يستطيعُ هذا اليومُ بأسرارهِ هذهِ أن يُفرِغَ هذهِ المعاني – معانيَ الكبرياء – من باطنِ الشّيطان، وأن يحيلَهُ في هذا اليوم بل يحيلُهُ هذا اليومُ ذاتهُ بما فيهِ من أسرار من ذلكَ المخلوقِ المتعجرفِ المتكبّرِ المتأبّي لا على عبادِ الله، بل على اللهِ سبحانهُ وتعالى ذاتِه. إنّهُ ليومٌ عظيمٌ من الدّهر، هذا اليومُ الذي استطاعَ أن يُفرِغَ الشّيطانَ من عظمتِهِ وكبريائهِ وعجرفتهِ وتعاظُمه، وإذا هو بسرِّ هذا اليومِ أصغرُ وأدحرُ وأحقرُ وأغيظُ ما ترى.

وإذا كانَ أثرُ هذا اليومِ على الشّيطانِ هكذا، إذاً كيفَ ينبغي أن يكونَ أثرُ هذا اليومِ على عبادِ اللهِ عزَّ وجلّ؟ كيفَ ينبغي أن يكونَ أثرُ هذا اليومِ على أولئكَ الذينَ طُرِدَ الشّيطانُ من رحمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ من أجلهم؟ ينبغي أن يكونَ لهذا اليومِ سلطانٌ وأيُّ سلطانٍ على نفوسِنا، ينبغي أن تنبعثَ من نفوسِ المسلمينَ نشوةٌ عارمة، وسعادةٌ باسقة، ولذّةٌ لا تعدلُها لذّةٌ عندما يجدُ نفسَهُ قريباً إلى الله، مكلوءاً برحمةِ اللهِ عزَّ وجلّ، تفيضُ تجلّياتُ اللهِ سبحانهُ وتعالى عليهِ من أنحائه، وشرُّ النّاسِ في هذا اليومِ من كانَ شأنهُ شأنَ هذا الشّيطانِ الذي لم يمرَّ عليهِ يومٌ كهذا اليومِ وهو في حالةٍ من الصّغارِ والمهانةِ والذّلِّ والحقارةِ والاندحارِ كما يقولُ رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم.

إنَّ العجبَ كلَّ العجبِ أيُّها الإخوةُ من أن يمرَّ بالإنسانِ هذا اليومُ المباركُ الذي يصفهُ رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بهذا الوصفِ ويصفُ حالةَ الشّيطانِ فيهِ بهذهِ الشّاكلة، العجبُ العُجابُ من إنسانٍ يمرُّ بهِ هذا اليومُ وهوَ لا يلتفتُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ ليعودَ إليهِ بالاصطلاح، وهو عاكفٌ على إعراضهِ ونسيانهِ وذهوله، لا ذهولهِ عن اللهِ عزَّ وجلَّ بل ذهولهِ عن نفسه.

وإن أنسى فإنّي لا أنسى أبداً ذلكَ المشهدَ الذي حدّثتكم عنهُ مرّةً والذي يتكرّرُ في الذّهنِ كلّما تكرّرت تلاوةُ كتابِ اللهِ سبحانهُ وتعالى عندما يقولُ اللهُ سبحانهُ وتعالى مصوِّراً هذا المشهد: ﴿وَإِذْ قُلْنَا

لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إلا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلا﴾.

ما تأمّلتُ في هذا الكلامِ الرّبّانيِّ مرّةً إلا وشعرتُ أنَّ الخجلَ ينبغي أن يخنُقَ الإنسانَ وينبغي أن يجتاحهُ كلّيّاً من فرقِهِ إلى قدمهِ من اللهِ سبحانهُ وتعالى. أرأيتم إلى هذا الكلامِ العجيب، يحدِّثُنا ربُّنا عزَّ وجلَّ عن تكريمهِ العظيمِ للإنسان، وذلكَ عندما أمرَ هذا الشّيطانَ الذي يتحدّثُ عنهُ رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وعن حالهِ في هذا اليوم، عندما أمرهُ بالسّجودِ لآدمَ سجودَ تكريمٍ وتبجيلٍ وتقدير، وإنّهُ في الحقيقةِ سجودٌ لهذهِ الخليقةِ كلِّها متمثّلةً في أبي الأنبياءِ وأبي البشرِ آدمَ عليِ الصّلاةُ والسّلام، كرّمكَ اللهُ يا ابنَ آدمَ إذ أمرَ الشّيطانَ بالسّجودِ لك. ولكنَّ الشّيطانَ استكبرَ وكانَ من الفاسقين، ورفضَ أن يكرِّمَ هذا الإنسانَ الذي كرّمهُ الله، ورفضَ أن يبجِّلَ هذا الإنسانَ الذي بجّلهُ الله، واهتاجتِ الكبرياءُ بينَ جوانحه، بل اهتاجتِ العداوةُ والبغضاءُ لهذا الإنسانِ بينَ جوانحِ ذلكَ الشّيطان.

وهنا يُساءِلُ البيانُ الإلهيُّ الإنسانَ قائلاً: ﴿فَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾؟! أنا الذي كرّمتكم وأمرتُ هذا الشّيطانَ بالسّجودِ لكم فاستكبرَ واهتاجتِ العداوةُ بينَ جوانحهِ لكم، ومعَ هذا تعرضونَ عن الإلهِ الذي كرّمكم وتقبلونَ بالولاءِ إلى هذا الشّيطانِ الذي عاداكم؟! كيفَ هذا؟ ﴿فَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلا﴾. بئسَ أن يستبدلَ الإنسانُ الظّالمُ ولايةَ الشّيطانِ بولايةِ اللهِ سبحانهُ وتعالى، بئسَ أن يستبدلَ الإنسانُ الظّالم، الظّالمُ لمن؟ لنفسه، بئسَ أن يستبدلَ هذا الإنسانُ الظّالمُ بولايةِ اللهِ الذي أحبَّه، بولايةِ اللهِ الذي كرَّمه، بولايةِ اللهِ الذي رفعَ مقامه، يستبدلُ بهذهِ الولايةِ ولايةَ الشّيطانِ الذي أعلنَ العدوانَ له، أعلنَ الكبرياءَ عليه، أعلنَ أنّهُ سيقفُ لهم على صراطِ اللهِ المستقيم، وآلى على نفسهِ أنّهُ سيبذلُ كلَّ جهدٍ في سبيلِ ألّا يجدَ ربُّنا سبحانهُ وتعالى واحداً من عبادهِ لهُ شاكراً.

كلَّما تلوتُ هذهِ الآياتِ استبدَّ بيَ الحزن، وفاضَ في كياني شعورٌ من الخزيِ والألمِ والخجلِ من اللهِ سبحانهُ وتعالى، وهل هنالكَ شرٌّ من هذا اللّؤم: أن يحسنَ إليكَ اللهُ فتعرضَ عنه؟ وأن يلطمكَ الشّيطانُ بلطمةِ عدوانهِ فتقبلَ إليهِ وتواريَهُ وتُقَبِّلُ منهُ اليدَ والرِّجْلَ والكيان؟

ومع ذلكَ فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يدعو عبادهُ بينَ كلِّ يومٍ وآخرَ أن يستيقظوا من رُقادهم، وأن ينفضوا غاشيةَ هذهِ الغفلةِ وهذا الغباءِ عن عقولهم وكيانهم فيقبلوا إلى اللهِ سبحانهُ وتعالى، إذا كانَ الشّيطانُ في هذا اليومِ قد تصاغرَ وتضاءَلَ ذلّاً وغيظاً من رحمةِ اللهِ التي تتدفّقُ لعامّةِ عباده، إذاً كيفَ ينبغي أن يكونَ أثرُ هذا اليومِ علينا؟ كيفَ ينبغي أن يكونَ أثرُ هذا اليومِ علينا إقبالاً إلى الله؟ وإنابةً إليه؟ وعوداً إلى صراطه؟ واصطلاحاً معهُ وتطهيراً للقلوبِ من كلِّ الأدرانِ التي كانت تحجبُنا عنهُ وعن رؤيته؟ ثم نملأُ وعاءَ قلوبِنا الطّاهرِ بمحبّةِ هذا الإله، بتعظيمِ هذا الإله، بالخشيةِ من هذا الإله، ثمَّ نبرهنُ على صدقِ مشاعرِنا هذهِ بالسّيرِ على صراطه، بالالتزامِ بأوامره، بالتّمسُّكِ بوصاياه، بالابتعادِ عن النّواهي التي نهانا عنها ونحنُ واثقونَ متأكِّدونَ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ ما أمرنا بما أمرَ إلّا لأنَّ في ذلكَ سعادتَنا، وما نهانا عمّا نهى إلّا لأنَّ في ارتكابِ تلكَ النّواهي شقاءنا الوبيل. هكذا، هكذا ينبغي أن يكونَ أثرُ هذا اليوم –يومِ عرفة– على عبادِ اللهِ المؤمنينَ به، أو الذينَ يدّعونَ أنّهم مؤمنونَ به.

أسألُ اللهَ سبحانهُ وتعالى ألّا يحرمنا من أجرِ هذا اليوم، ومن فضيلةِ هذهِ السّاعاتِ المباركة، وأن يكتبَنا في هذا اليومِ من المرحومينَ ومن المغفورِ لهم، وأن يعتقنا اللهُ سبحانهُ وتعالى من آثامِنا ومن شرورِ أنفسِنا. أقولُ قولي هذا وأستغفرُ اللهَ العظيم.

٣٧٧- بتحقق هذا الشرط يثمر يوم عرفة أثره المنشود | ١٩٩٤/٠٥/٢٠

لعل الإنسان المسلم عندما يعيش في يومٍ كهذا اليوم المفضل المبجل عند الله سبحانه وتعالى، والذي لم نجد في أيام السنة كلها يوماً أفضل منه، ألا وهو يوم عرفة، لعل شعور الإنسان المسلم في هذا اليوم يتوازعه أمران اثنان:

أحدهما: الاستئناس بكرم الله سبحانه وتعالى ورحمته وتجلياته الكريمة على عباده في هذا اليوم، كما ورد في أحاديث صحيحة كثيرة.

والأمر الثاني الذي يجتذب شعوره هو: الألم الذي لابد أن ينبعث في قلبه في هذا اليوم المبارك من أن هذه الأمة غدت وكأنها ليست على مستوى هذه الرحمة، وليست على مستوى هذا الكرم الذي يتجلى به الله سبحانه وتعالى على عباده في هذا اليوم.

لا بد أن يشعر الإنسان المسلم بهذين الشعورين المتناقضين، مرةً ينظر فيتفاءل، ولكنه ما يلبث أن يعود فيتشاءم؛ يتفاءل من الكرم الهابط من الله عز وجل على عباده في هذا اليوم، ويتشاءم من السوء الصاعد من العباد في هذا اليوم وغير هذا اليوم إلى رقابة الله سبحانه وتعالى إلى السماوات العلى.

يوم عرفة يومٌ فريدٌ من الدهر كله وكما قد قلت بالأمس إن هذا اليوم يشبه واسطة العقد من عقد يتألق في جِيد الكون كله، هذا هو يوم عرفة وعندما يجتمع مع فضل يوم عرفة فضل مكان عرفة، وعندما يتلاقى المسلمون مع أفضل زمانٍ هو هذا اليوم مع أفضل مكانٍ هو عرفة، التي اعتبرها رسول الله صلى الله عليه وسلم محور الحج كله، فلا بد أن نشعر وأن نلاحظ أن الله سبحانه وتعالى أكرم هذه الأمة من هذا الزمن وذلك المكان بينبوع للاتحاد ينبوعٍ للتضامن ينبوعٍ لسد الثغرات التي يمكن أن تتفتح بواسطة مساعي شياطين الإنس أو شياطين الجن، وهذه من أجل النعم التي أسداها الله سبحانه وتعالى إلى عباده.

فلكأن الله عز وجل يقول لعباده مهما اختلفتم أثناء العام، ومهما تشاجرتم، ومهما نسيتم الجاذب الذي ينبغي أن يجمعكم إلى محور الأمة الواحدة، فها أنا ذا أقدم لكم في كل عام دواءً يزيل خلافاتكم

ويقضي على صراعاتكم ويجمعكم مرة أخرى تحت مظلة هذا الدين القويم، فلا شك أن من مقتضى هذا الزمن المبارك وذلك المكان المبارك أن يتلاقى الزمان والمكان على إذابة أسباب الخلافات مهما كانت عظيمة ومهما كانت خطيرة، هذا هو إكرام الله.

وعندما ننظر إلى شعائر الحج وإلى المعاني التي تتجمع من هذه الشعائر في يوم عرفة لدى اجتماع المسلمين وتلاقيهم في ذلك المكان المقدس المبارك، ندرك كيف أن الله سبحانه وتعالى يقبل على عباده ليصالحهم مباشرة ليزيل بقايا الضغائن والأحقاد مما بينهم دون وسيط، ولكنك تنظر إلى هذه الأمة وتتأمل في هذا الدواء الذي أكرمها الله سبحانه وتعالى به، وإذا بها تعود إلى واقعها كما كانت، وإذا بها تجتر خصوماتها وتجتر عداواتها فيما بينها كما كانت، لا الدواء أفاد، ولا مكان عرفة جمع، ولا زمان عرفة أصلح، هذا هو مبعث الألم، وهو مبعث التشاؤم من واقع المسلمين.

الدواء موجود بل إن تجلي الله عز وجل على عباده هو أشبه ما يكون – ولله المثل الأعلى – بقائدٍ أقبل هو مباشرةً ليصلح ما بين جنوده وليعود فيألف بين قلوبهم وأفئدتهم، ولكن الجنود غير منصاعين، مدبرون عن نصائح القائد مدبرون عن المحبة التي يوزعها فيما بينهم لتجذبهم إلى محور هذا الحب، هذا هو واقعنا اليوم. فإلى أي الجانبين ننحاز؟ وأي الشعورين نفضل؟ أنفضل الأمل برحمة الله سبحانه وتعالى أم نركن إلى نقيض ذلك بناءً على الواقع المشاهد الذي تراه أعيننا.

أما الدعاء في يوم عرفة فهو دعاءٌ مستجاب، ولقد قال عليه الصلاة والسلام فيما رواه الترمذي بسندٍ صحيح: ﴿خير الدعاء دعاء يوم عرفة، وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحي ويميت وهو على كل شيء قدير﴾. ولقد ذَكرتُ بالأمس بحديث هو جزء من خطبة خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس يوم عرفة فقال: ﴿أيها الناس إن الله تطول عليكم في هذا اليوم – أي تكرم عليكم – فغفر لكم، إلا التبعات التي فيما بينكم، وإن الله عز وجل قد وهب مسيئكم لمحسنكم وأعطى لمحسنكم كل ما سأل﴾.

لا شك أن الأبواب مفتحة وأن الإنسان إذا طهر قلبه بهذا الشرط، طهر قلبه من الأدران وصدق في التوبة إلى الله، ثم مد كف الضراعة إلى الله ودعاه، فإن الله يستجيب. لا سيما إذا دعى لنفسه ولخاصته

كما ورد في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فانظروا وتأملوا لو أن المسلمين جميعاً في هذا اليوم صفّوا قلوبهم من الشوائب، وصدقوا الله عز وجل في التوبة والاستغفار، ثم مدّ كل منهم كف الضراعة إلى الله عز وجل داعياً أن يصلح الله شأنه، إذاً فحصيلة هذه الدعوات كلها أن يصلح الله شأن هذه الأمة أجمع.

ولكن لا يصلح شأن هذه الأمة!؟ ليس هنالك ظلمٌ من الله حاشى أن يظلم الله عباده، بل إن الله عز وجل لا يعاملهم بحدود العدالة فقط بل يتجاوزها إلى الرحمة أيضاً وإلى المغفرة، ولكن السبب في أن المآسي التي يعاني منها المسلمون لا تزال موجودة قبل يوم عرفة وبعد يوم عرفة، قبل الوقوف بعرفة وبعد الوقوف بها؛ السبب أن القلوب ليست صافية، وأن الأفئدة لم تتطهر من الشوائب، ومن ثم فلم يتحقق صدق الإنابة إلى الله عز وجل، فأنّا يستجاب دعاءٌ أقبل فيه الإنسان إلى الله على زغل.

هذا هو السبب فضلاً عن أناسٍ يمر بهم هذا اليوم، ولا يعبؤون به، يمر بهم هذا اليوم ويتذكرون الحجيج ويتذكرون وقفة عرفة ولا يقيمون لذلك كله وزناً وهم مسلمون وهم مؤمنون، إذاً كيف يمكن لهذا الدواء الذي وصفه الله لنا ووضعه أمامنا. كيف يمكن أن يطهرنا من هذا الدنس؟ وكيف يمكن أن يجمعنا من شتات؟

أيها الإخوة إن الإنسان عندما يتذكر الحج إلى بيت الله الحرام، يعيش في معانٍ هي أشبه بالسخرية منها بالجد، عندما يجد الجموع المحتشدة حول الكعبة وكأنها تتلاصق وكأنها جاءت لتعبر أمام الله عز وجل عن تضامنها الحقيقي، ثم نتأمل في الواقع الذي يفور ويثور وراء ذلك، وإذا بالدماء تنساب بين الإخوة، وإذا بآلاف القتلى يتطوحون هنا وهناك. ماذا يعني هذا كله أمام هذا التلاقي حول بيت الله الحرام؟ أما ينبغي أن يخجل هؤلاء الناس عندما يتحدثون عن الحج؟!

أنا أعلم أنكم وأنتم تعلمون أننا جميعاً سنسمع في مساء هذا اليوم كلمات الدول العربية والإسلامية، كلٌ ينطق باسم دولته يتحدث عن الإسلام، يتحدث عن الحج، يتحدث عن عرفة، صوت اليمن ستسمعونه اليوم، وصوت مصر وصوت شمال إفريقيا بكل جهاته، وصوت الأفغانيين ربما وأصوات كثيرة وكثيرة ستسمعونها، فإن أصغيت أطربك ما تسمع كلٌ يتكلم عن الإسلام. وكيف أنه يجمع من نثار

ويؤلف القلوب من شتات، ولكنك تلتفت إلى الواقع فتجد شيئاً مخزياً، ألا ليت أن يوم لم نشأ أن نتحول عن واقعنا المخزي، ليت أننا صمتنا وليت أننا لم نتفاخر ونتباهى بكلامٍ يكذبه واقعنا، حتى غدا كلامنا أشبه بالسخرية منه بالجد.

هذا هو الشعور الذي لا بد أن ينتاب الإنسان في يوم عرفة، ولابد أن ينتاب الحاج أيضاً وهم يدعون ويلبون ويقبلون إلى الله عز وجل وقد مثلوا من أنفسهم مظهر أمةٍ متحدة.

وقد ذكّرت بالأمس بحديث من الخطورة بمكان ومن الأهمية بمكان، وهو ما رواه مسلم والإمام أحمد وآخرون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن الله زوى لي الأرض فأراني مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها، وإني سألت ربي أن لا يهلك أمتي بسنَةٍ عامة –أي بقحط عام يأتي عليها كلها– وسألت ربي أن لا يسلط عليها عدواً من غيرهم، فيهلكهم بعامة، وسألت ربي أن لا يجعل بأسهم بينهم. فقال لي الله: يا محمد إني إذا قضيت قضاءً فلا مرد له، لقد أعطيتك لأمتك أن لا أهلكها بسنة عامة، وأعطيتك لأمتك أن لا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم، حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً، وبعضهم يقتل بعضاً، وبعضهم يسبي بعضاً».

أليس من المخجل ومن المذيب أن نسمع كلام رسول الله هذا، وننظر فنجد أننا نحن الذين صدق علينا هذا الذي يقوله عليه الصلاة والسلام.

بالأمس قال لي قائل: أليس في هذا الحديث ما يشعر بأن هذه الأمة ليس لها خيار قد قضى الله عز وجل عليها بأن تتهارج، وبأن يُهلك بعضها بعضاً، وكأن هذا الحديث يذكرنا بمعذرة وكأنه يدفعنا إلى أن نقول هذا قضاؤك يا رب. فكيف الخروج والهروب من قضاء أنت الذي قضيته؟ قلت: لا يا هذا، هذا سوء فهمٍ منك وسوء ثقافة إسلامية ابتلينا بها. هل الله عز وجل يسلط عدواً على أمة مؤمنة بدون سبب بدون جريمة ارتكبتها هذه الأمة؟ هل أهلك الله أمة من الأمم البائدة بسنةٍ عامة أو بصيحة أو بحصباء أو بغرق إلا بعد أن ارتكبت جرائم لا جريمة واحدة. لا يهلك الله قوماً بعد أن هداهم إلا بإجرام، ولكن الله كرماً منه وتمييزاً لنا عن غيرنا أبى أن يجعل عقابنا يتجلى في تسليط أمةٍ من الأمم الضالة التائهة الملحدة على هذه الأمة؛ بحيث يُهلكها ذلك العدو أجمع.

إذا ما ارتكبت هذه الأمة موجب الهلاك، إذا ما ارتكبت الجرائم التي كان يرتكبها الآخرون، فإن الله عز وجل يجعل عقابها أن يتسلط بعضها على بعض. متى كان الله يسلط بعضٌ من هذه الأمة على بعض بدون جريرة؟ كيف كيف هذا؟ أتتصورون أن أهل اليمن يتقاتلون بهذا الشكل الضاري، وأن المسلمين في أفغانستان يتقاتلون بهذا الشكل المهلك، وأن الآخرين هنا وهناك يفعلون ذلك كله لأن الله أحب لهم أن ينتقلوا من الأمن إلى البأس؟ من الذي يقول هذا الكلام؟ لا والله، ليس من شأن الله ولا من عادته أن ينقل أمة من مهيع الطمأنينة إلى ساعة بأسٍ وشدة إلا أنها ارتكبت ثم ارتكبت ما يغضب الله سبحانه وتعالى.

وانظروا إلى عوامل هذا التهارج تستبينون منها الجريمة نفسها، فالجريمة متفاعلة مع العقاب، هؤلاء الذين يتقاتلون، أفكانوا يتقاتلون لو أن خشية الله كانت قد هيمنت على قلوبهم!؟ أفكانوا يتقاتلون لو أن الدين الإسلامي كان هو المنهج الذي يسلكونه وبايعوا الله عليه؟! وانظروا إلى العوامل وانظروا إلى الأصابع الدخيلة تعرفون الجواب عن هذا الكلام.

وما أقوله عن هذا المثل أقوله عن أمثلة أخرى، ولا تغرنكم كلمات كانت تقال عن روائح مسكٍ وغير ذلك وغير ذلك فيما يتعلق بجهاد الأفغانيين ضد العدو المداهم. لكن انظروا إلى ما يجري اليوم. الكل مسلمون، ولكن لا يمكن لمسلمَين أن يتقابلا فيتقاتلا، ورسول الله قال هذا الكلام إلا لأن زغلاً خطيراً قد فاضت به قلوبهم من قبل، هذا الزغل فعل فعله، هذا الزغل جعل النفوس هي التي تتسامى لنيل حظوظها، هذا الزغل هو الذي دفعهم إلى الجناية التي سببت لهم هذا العقاب، ولا يمكن لمسلمين أن يقاتل بعضهم بعضاً وهم مسلمون تحت أية مظلة من المظلات، وتحت أي اسمٍ من الأسماء، إلا لأن غضباً من الله سبحانه وتعالى قد حاق بهم، وعندما ينحسر هذا الغضب ستجد دلائل ذلك.

دلائل ذلك أن يعود الأخ فيعانق أخاه، وأن يعود كلٌ منهم إلى القاسم المشترك ألا وهو شهادة أن لا إله إلا الله، ألا وهو اتجاه الجميع إلى قبلة الله سبحانه وتعالى، حسبكم بهذا حصانةً للدماء، حسبكم بهذا نسيج ودٍ وحبٍ يتلاقى سداه ولحمته بين الناس. أنا إن أردت أن ألتقط عوامل الخلاف بيني وبين إخوتي لأجعل من ذلك حجة لمقاتلتهم فما أكثر ما أجد، كثيرة هي مظاهر الخلاف إن أردت أن أحتج

بها، ولكن هل أعطاني الشارع الإذن في أن ألتقط أسباب الخلاف فأجعلها حجةً لأدير بها رحى الهلاك على إخواني المسلمين. من الذي قال هذا؟

ينبغي أن أنجذب إلى القاسم المشترك ألا وهو الجزع، ولا يجوز أبداً لكي أقاتل ولكي أصدّع وحدة الأمة أن ألتقط موجبات هذا التصديع، وتلك هي الجريمة الكبرى التي يقع فيها المسلمون اليوم.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم فاستغفروه.



٣٧٨- يوم عرفة لمن عرفه | ١٩٩٩/٠٣/٢٦

إن من عظيم رحمة الله سبحانه وتعالى بعباده أن جعل من يوم عرفة ميقاتاً لفضيلةٍ خاصةٍ تميز بها وجعل هذا الميقات متصلاً بالزمان والمكان معاً. فيوم عرفة يومٌ متميز من عمر العام كله، والفضيلة التي تكمن في هذا اليوم فضيلة كبرى، ودل على ذلك كتاب الله عز وجل والصحاح من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

غير أن هذه الفضيلة ليست محصورةً في الزمان كما أنها ليست محصورةً في المكان، فيوم عرفة يومٌ مبارك له أسراره المودعة فيه لينال هذا الفضل كل الناس، كل الذين يعيشون فوق هذه الأرض في أي بقعةٍ كانوا وفي أي مكان وجدوا. ويوم عرفة ميقاتٌ لفضيلةٍ مكانية أيضاً ألا وهو عرفة، ذلك المكان الذي يجتمع فيه الحجيج الساعة في هذا اليوم، ذلك فضل زماني وهذا فضلٌ مكاني. فأين تظهر رحمة الله في هذا التوزيع الذي ترون؟

لو كانت المزية خاصةً بعرفة حيث يجتمع الحجيج لحرم منها الذين قصُرت حظوظهم عن الحج إلى بيت الله الحرام ولما نالوا شيئاً من مزية هذا اليوم المبارك قط، ولكن الله سبحانه وتعالى جعلها مزيتين اثنتين، مزيةً مكانية يتفيء ظلالها الحجيج، ومزيةً زمانية يتفيء ظلالها عباد الله جميعاً أينما وجدوا وحيثما حلو. فمن اتجه في هذا اليوم المبارك ليؤدي حقه وليتقرب فيه إلى الله عز وجل بما يرضيه وبدأ عمله هذا بتوبةٍ صادقةٍ ينيب فيها إلى الله سبحانه وتعالى، أكرمه الله سبحانه وتعالى كما يكرم أولئك الذين اجتمعوا في أرض عرفة، لا ينقص من أجر هؤلاء شيء، ذلك لأن الله سبحانه وتعالى لم يجعل تجلياته محصورةً في مكان اسمه عرفة فقط، وإنما جعل تجلياته منتشرة منتثرةً في بقاع الأرض أجمع في هذا اليوم المبارك.

فلا يندبن حظه من وجد أن الظروف لم تُتح له الحج إلى بيت الله الحرام، وأن أسبابه قصرت به عن أداء هذا النسك، ولا يشعرن قلبه بالحنين إلى عرفة حيث يجتمع ويزدحم الحجيج في هذا اليوم فإن الله عز وجل قد جعل له عوضاً عما فاته، والعوض الذي جعله الله سبحانه وتعالى له عما فاته هو هذا اليوم المبارك بقطع النظر عن المكان الخاص، فهو يومٌ يلاحق فضله الناس جميعاً أينما كانوا بشرطٍ واحد، هو

أن يُقبل الناس إلى الله سبحانه وتعالى وأن يفتتحوا إقبالهم بتوبةٍ صادقةٍ إلى الله عز وجل يطهرون القلب من خلال هذه التوبة مما قد علق به من الشحناء والبغضاء والأحقاد والحسد والكراهية ونحو ذلك، ويطهرون الأعضاء مما قد علق بها من المحرمات التي كان راكناً إليها أو عاكفاً عليها، ثم يتجه إلى الله سبحانه وتعالى بالقربات وما أكثرها وما أكثر أنواعها.

وقد قلنا أن العمل الصالح أياً كان قربةٌ عظيمةٌ وجليلةٌ يتقرب بها الإنسان إلى الله بشرطِ لأن يكون عمله خالصاً لله وأن لا يبتغي من عمله وتقربه هذا أي مصلحةٍ دنيوية، وإنما يبتغي بذلك استنزال رضى الله سبحانه وتعالى عنه.

وإذا اجتمعت فضيلة يوم عرفة مع فضيلة يوم الجمعة فأعظم بذلك من فرصة سانحة قلما يتهيئ مثلها في الزمن، كلكم يعلم أن يوم الجمعة هو اليوم المبارك من كل أسبوع، ولقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم التنبيه إلى فضائل هذا اليوم والدعوة إلى الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم في الليلة واليوم الزهراوين، أجل. فما بالك إذا اجتمعت فضيلة يوم عرفة مع فضيلة يوم الجمعة في ميقاتٍ زماني واحد ينبغي للإنسان إذا كان عاقلاً أياً كانت حاله أن ينتهز هذه الفرصة التي ربما لن تسنح له ثانيةً قط وربما لن يتسع عمره لتكرار هذه المزية المزدوجة بعد هذه الفرصة قط. فالعاقل هو ذاك الذي ينتهز الفرصة ينفض كيانه من المعاصي والأوزار ويقبل على الله قائلاً: لبيك اللهم لبيك، اقبلني وافداً إليك، اقبلني واقفاً بين يديك، اقبلني متجلبباً بذل العبودية لك. ولا شك أن الله عز وجل يستجيب دعاءه ويقول له: لبيك. والله سبحانه وتعالى حيي يستحي كما ورد في الصحيح ﴿إذا بسط العبد كفيه إلى الله عز وجل بدعاءٍ ضارع أن يردهما خائبتين﴾.

أما ما يتردد على ألسن الناس من أحاديث أو من حديث عن فضيلة يوم عرفة عندما يجتمع هذا اليوم مع يوم الجمعة، فهو لم يصح وينبغي أن يعلم الناس ذلك، وما يعبر عنه الناس بكلمة الحج الأكبر عندما يصادف ذلك يوماً كهذا اليوم ليس إلا استنباطاً من شيءٍ يستطيع أن يعرفه كل مسلم، وهو أن فضيلة الجمعة إذا اجتمعت والتقت مع فضيلة يوم عرفة تضاعف الفضل وتضاعف الأجر، هذا كلام صحيح وهذا فهمٌ سليم وربما سمي الحج عندئذٍ بالحج الأكبر لهذا السبب. أما ما قد يرويه بعض الناس إن بالشفاه أو في الكتب من أحاديث تتعلق بفضل هذا اليوم عندما يجتمع يوم عرفة مع يوم الجمعة فلم

يصح في ذلك شيء. ولكننا نعلم أن المزيتين عندما يجتمعان في ميقات واحد لابد أن يتضاعف بسبب ذلك أجر العبادة وأجر الإقبال على الله سبحانه وتعالى.

أيها الإخوة إن الإنسان عندما يمر بمناسباتٍ كهذه المناسبة يتجلى الله عز وجل فيها على عباده بالرحمة ويفتح أبواب إكرامه وجوده للمقبلين إليه وإن سودوا صحائفهم قبل ذلك بالمعاصي والآثام، عندما نمر بمناسباتٍ كهذه المناسبة كم وكم يتمنى الإنسان أن يجد إخوانه الشاردين عن صراط الله عز وجل والتائهين في أودية الضلال والذين حجبوا أنفسهم عن الله عز وجل بالمعاصي والآثام سواءٌ منها الفكرية أو السلوكية، كم يتمنى الإنسان أن يجد هؤلاء الإخوة وقد عادوا عن شرودهم ورجعوا عن غيهم وعادوا إلى صراط الله العزيز الحميد يناجون ويلتجؤون إلى الله عز وجل أن يقبلهم. هذا ما تقر له عين كل إنسان مسلم.

أن تجد المقبلين على الله عز وجب دائماً يزدادون إقبالاً على الله سبحانه وتعالى في هذا اليوم، هذا شيء مألوف ومنظرٌ معروف ولكن الشيء الغريب والذي يطرب النفس وتقر له العين ويملئ القلب سروراً وفرحاً أن تجد هؤلاء التائهين والشاردين بل المستكبرين على الله سبحانه وتعالى الجانحين عن صراط الله العزيز الحميد وقد أقبلوا إلى الله سبحانه وتعالى إقبال التائب إقبال الراجع الآيب وقد تهللت وجوههم بسيمة التوبة والإقبال على الله عز وجل، وتألق سيما رحمة الله سبحانه وتعالى مزدهرةً على وجوههم. هذا هو المنظر الذي لا يمكن أن تجد أجمل منه، وهذا هو الشيء الذي يبعث في النفس سروراً لن تجد أبلغ منه.

لكن أين هم هؤلاء الذين عكفوا عن انحرافاتهم في الأوقات العامة المختلفة، ثم إنهم ظلوا يعكفون على غيهم وضلالهم في مثل هذه الأوقات المتميزة الخاصة التي ما من مسلم إلا ويشم عبق تجليات الله سبحانه وتعالى فيها؟ لماذا لا يعودون إلى الله؟ لماذا لا يعودون عن شرودهم ومجتمعاتنا وإن كانت تزداد ولله الحمد بالمقبلين على الله وبالعائدين إلى صراط الله سبحانه وتعالى وبرجال أو شباب الصحوة الإسلامية كما يقولون؟ إلا أن مجتمعاتنا أيضاً تغص بالشاردين وبالمنحرفين وبالتائهين وبالذين كانوا ولا يزالون يستخفون بدين الله سبحانه وتعالى ويستخفون بأوامره ولا يلقون بالاً إلى شرائعه. يصغون السمع إلى خطط الغرب الماكرة المتربصة بالإسلام ويجعلون من أنفسهم جنوداً لهم ولكنهم لا يفكرون في ساعة ولا

مثل هذه الساعة القدسية أن يعتقوا أنفسهم من ذل العبودية لأولئك وأن يجعلوا من أنفسهم عبيداً لله مجندين في تنفيذ أوامر الله لخدمة دين الله سبحانه وتعالى.

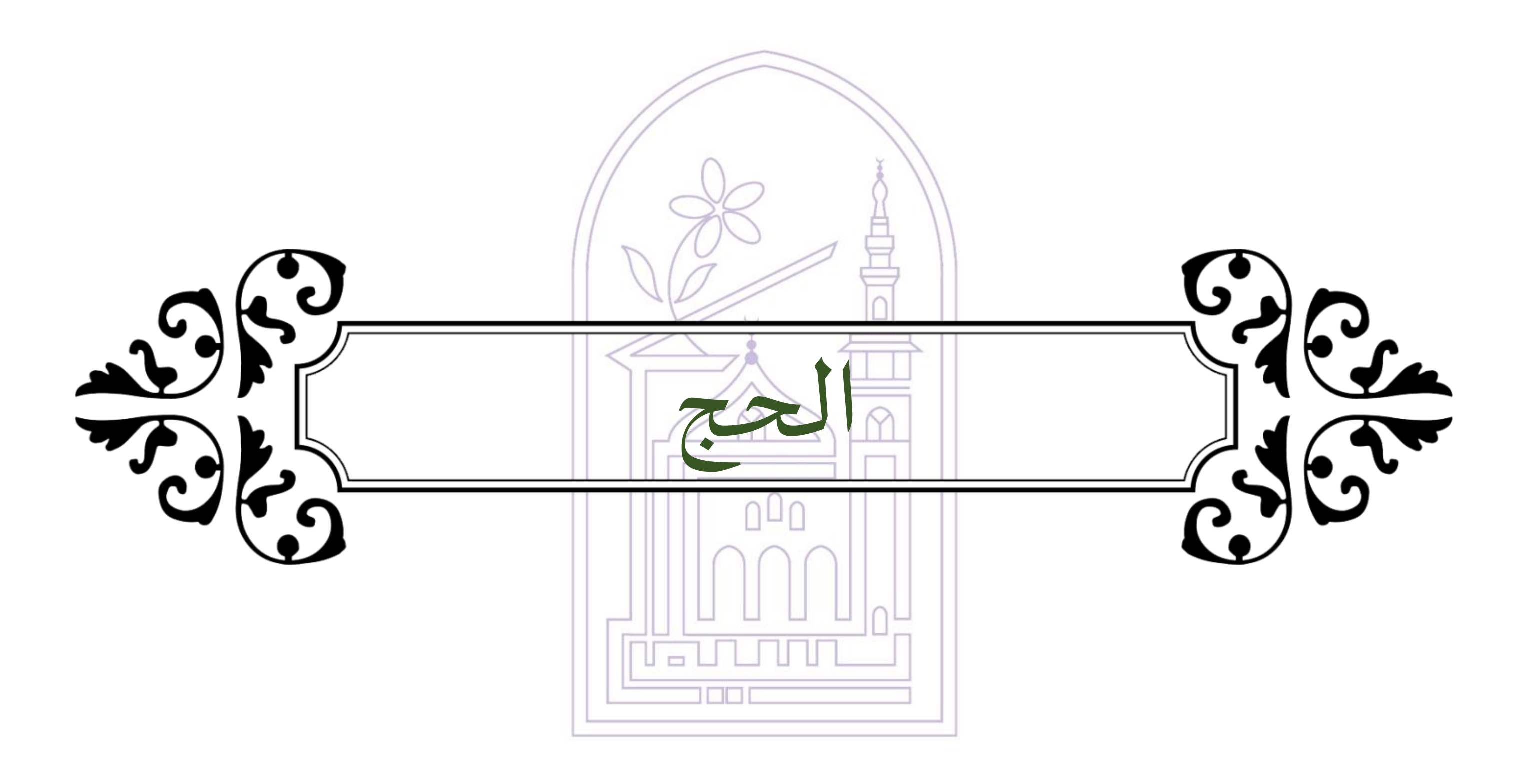
نحن ننتظر في مثل هذه المناسبات العطرة في مثل هذه الساعات التي يتجلى الله عز وجل فيها برحمته على عباده جميعاً، ننتظر من هؤلاء الإخوة الشاردين أوبةً إلى الله سبحانه وتعالى، ننتظر منهم أن يشعروا أو أن يستشعروا بالخجل والحياء من هذا العتب الرقيق الذي يفيض به كلام الله عز وجل ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾. ما أتصور أن إنساناً ينطوي كيانه على شيءٍ ولو يسير من رائحة الإيمان بالله عز وجل ثم يسمع هذا العتب الرقيق الذي يخاطب الله عز وجل به عباده إلا ويذوب حياءً وخجلاً من الله عز وجل.

انظر ماذا يقول لك مولاك، انظر إلى هذا الاستفهام الرقيق العذب: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ كم وكم تسمعون التذكرة تلو التذكرة تلو التذكرة؟ كم وكم تسمعون الكلام الذي يحبب إليكم الإيمان ويقربه إلى قلوبكم؟ كم وكم تسمعون الكلام الذي يحذر مما أنتم مقبلون عليه بعد الموت أما آن أن تتأثروا بهذه المذكرات؟!

أما آن أن تفتحوا عقولكم ولكلام مولاكم وخالقكم الذي يلاحقكم بالنصيحة وأنتم تفرون؟!

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ بلا لقد آن يا رب، هذا ما تتطلع إليه آذاننا ننتظر تلك اللحظة التي يقول فيها إخواننا الشاردون على اختلاف مستوياتهم وعلى اختلاف فئاتهم أن يقولوا بقلوبهم وألسنتهم بلا قد آن يا رب، وها نحن نعود إليك فاقبلنا عند بابك.

أجل أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا ممن ينتهزون هذه الفرص المباركة وأن يقبلنا عنده وأن يكرمنا بما أكرم به أولئك الحجيج الذين أُتيح لهم أن يرحلوا إلى بيت الله الحرام. أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم. أسأل الله سبحانه وتعالى أن يسخرنا جميعاً للأعمال الصالحة التي ترضيه فاستغفروه يغفر لكم.



الحج

٣٧٩- إلى الممنوعين من الحج | ١٩٨٩/٠٦/٢٣

لا شكَّ أنَّ الحجَّ إلى بيتِ اللهِ الحرامِ شعيرةٌ من شعائرِ الإسلام، بل هو ركنٌ من أركانِ الإسلام. وحسبُكم دليلاً على ذلكَ بل برهاناً على أهمّيةِ هذهِ الشّعيرةِ قولُ اللهِ سبحانهُ وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾. والنّداءُ الذي وجّههُ اللهُ سبحانهُ وتعالى لخليلهِ إبراهيمَ على نبيِّنا وعليهِ الصّلاةُ والسّلام: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾.

ولكن ينبغي أن نعلمَ أنَّ وجوبَ الحجِّ إلى بيتِ اللهِ الحرامِ يتوقّفُ على شرائطَ لا بدَّ من معرفتِها، وإنَّ جوازَ الحجِّ إلى بيتِ اللهِ الحرامِ لهُ شروطٌ معيّنةٌ لا بدَّ من معرفتها. ولسنا الآنَ بصددِ بيانِ تلكَ الشّروطِ ولا هذه، ولكنَّ الإنسانَ الذي يريدُ أن يتقرّبَ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ بهذا النُّسُكِ ينبغي بادئَ ذي بدءٍ أن يعكفَ على معرفةِ الشّرائطِ التي عندها يستقرُّ وجوبُ هذهِ الشّعيرة، كما ينبغي أن يتعرَّفَ على الشّروطِ والأسبابِ التي عندَ توافُرِها يحلُّ لهُ الحجُّ إلى بيتِ اللهِ الحرام.

إنَّ من النّاسِ من يتّجهونَ إلى الحجِّ ظنّاً منهم أنّهم يتقرّبونَ بذلكَ إلى الله، وما عرفوا أنّهم بذلكَ بَعُدوا عن اللهِ عزَّ وجلّ، ذلكَ لأنَّ بعضاً أو كثيراً من شرائطِ إباحةِ هذا الحجِّ لم تتحقّق لديهم. ومعَ هذا وذاك، فإنَّ الإنسانَ كثيراً ما يتهيّأُ لأداءِ هذا النُّسُك، ويتّجهُ بقلبهِ وعواطفهِ إلى الاستجابةِ لنداءِ اللهِ سبحانهُ وتعالى، ثمَّ تحولُ العقباتُ المختلفةُ دونَ ذلك، ويُصَدُّ عن بلوغِ غايتهِ هذهِ كما صدَّ المشركونَ يوماً ما رسولَ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وأصحابهُ عن البيتِ الحرامِ يومَ أن توجّهَ المصطفى عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ ومعهُ ثلّةٌ كبيرةٌ من أصحابهِ معتمرينَ إلى مكّةَ المكرّمة، فما العملُ في هذهِ الحال؟

الإخلاصُ لوجهِ اللهِ هو الذي يحلُّ المشكلةَ ويذيبُ المعضِلة، فإن وُجِدَ الإخلاصُ للهِ عزَّ وجلَّ لا إشكالَ أبداً، ولكنَّ الإخلاصَ إن لم يتوافر أو كانَ ضعيفاً فما أصعبها من مشكلةٍ لا حلَّ لها.

إذا كانتِ العواطفُ النّفسيّةُ هي الحافز، وإذا كانت الرّغبةُ التي ترتبطُ وتتّصلُ بمصلحةٍ ما من مصالحِ الإنسانِ النّفسيّةِ أو المادّيّةِ هي المحرّكُ والمهيِّج، ثمَّ قامت عقبةٌ تمنعهُ عن بلوغِ هدفهِ وتحقيقِ مأربهِ وهوَ في الظّاهرِ حجٌّ إلى بيتِ اللهِ الحرام، فإنَّ الهمَّ يفيضُ في قلبه، وإنَّ الحزنَ يقيمهُ ولا يُقعِده، وإنَّ الألم يطوفُ

بأركانِ فؤادهِ ونفسه، ذلكَ لأنَّ أمنيةً نفسيّةً اهتاجت بينَ جوانحهِ لم تتحقّق، ولأنَّ هدفاً يأوي ويتّصلُ بمصلحةٍ من مصالحِ النّفسِ والكيانِ قامت بينَ جوانحهِ ثمَّ لم يملك تحقيقاً لهذهِ المصالح.

أمّا إن كانَ هذا الإنسانُ مخلصاً للهِ عزَّ وجلَّ فيما عزمَ عليهِ لا هدفَ لهُ من وراءِ ذلكَ إلا أن ينالَ رضى الله، وإلا أن يسجّلَ في صحائفهِ بعضاً من البرِّ الذي يقرِّبهُ إلى اللهِ سبحانهُ وتعالى غداً، فإنَّ هذا الإنسانَ لا يعاني من أيِّ مشكلةٍ إن لم يتحقّق لهُ ما هدفَ إليه، ولا يمكنُ أن يشعرَ بأيِّ ألمٍ في كيانهِ إن لم يكن في قضاءِ اللهِ سبحانهُ وتعالى أن يحقِّقَ لهُ ما قصد، إذا كنتُ قد أخلصتُ للهِ في هذا العملِ فإنّني لا شكَّ أدركُ أنَّ النّيّةَ كثيراً ما - بل دائماً - تحلُّ محلَّ العمل، وهذا معنى القاعدةِ السّليمةِ الصّحيحة: (نيّةُ المرءِ خيرٌ من عمله).

ليسَ معنى هذا الكلامِ أنَّ الإنسانَ إذا نوى الخيرَ فلهُ أن ينسخَ العملَ بالنّيّة، هذا تلاعبٌ بالقاعدة، ولكنَّ معنى هذا الكلامِ أنَّ الإنسانَ إذا قصدَ الخيرَ الذي شرعهُ اللهُ عزَّ وجلَّ وابتغى بذلكَ رضى اللهِ وحده، وسعى سعيهُ من أجلِ إنجازِ ما قصدَ إليه، ثمَّ قامتِ العقباتُ بينهُ وبينَ ذلكَ الخيرِ الذي ابتغاهُ فلم يستطع تطبيقاً لذلك، فإنَّ النّيّةَ التي قصدَ بها وجهَ اللهِ تحلُّ محلَّ عمله، وتملأُ ذلكَ الفراغَ كلّه، ويكتبُ اللهُ لهُ الأجرَ الذي كانَ يكتبهُ لهُ فيما لو أنّهُ وُفِّقَ لهذا العملِ كاملاً غيرَ منقوص. هذا عندما يتوافرُ الإخلاصُ لوجهِ اللهِ سبحانهُ وتعالى.

فإذا كانَ هدفي مرضاةَ اللهِ سبحانهُ وتعالى، وليسَ قصدي أن تكتحلَ عينايَ بالكعبةِ ومنظرِها، ولا أن أجدَ نفسي بينَ الحجيجِ في ذُرى عرفاتَ أو في سفوحِ مِنى أو في أيِّ جهةٍ من الجهات، إنّما الهدفُ أن أجعلَ من ذلكَ كلِّهِ وسيلةً لرضى اللهِ سبحانهُ وتعالى، فإذا كانَ هذا القصدُ موفوراً فإنَّ ينبوعَ الأجرِ هو هذا القصد، وإنَّ مناطَ رضى اللهِ عزَّ وجلَّ هو هذا القصد، وهذا معنى قولهم: **نيّةُ المرءِ خيرٌ من عمله**.

بل كثيراً ما يكونُ القصدُ إلى الحجِّ عندما تتقطّعُ الأسبابُ بصاحبِ هذهِ النّيّةِ عن بلوغ ما قصد، ربّما تكونُ هذهِ النّيّةُ أبعد على الأجرِ والمثوبةِ ممّا لو حجَّ فعلاً إلى بيتِ اللهِ الحرام، كيفَ ذلك؟ عندما تتوافرُ النّيّةُ ابتغاءَ مرضاةِ اللهِ وحده، ثمَّ لا يكتبُ اللهُ عزَّ وجلَّ ليَ الحّجَ الذي قصدتُه، من المتوقّعِ أن يهزّنيَ

الشّوقُ إلى تلكَ الأماكن، ومنَ المتوقّعِ أن يفيضَ قلبي حنيناً إلى بيت اللهِ الحرام، وإذا جاءَ يومُ عرفةَ ربّما أجدُ نفسي مشدوداً بكلِّ مشاعري إلى تلكَ الأماكنِ المقدّسة. هذهِ المشاعرُ المحرقةُ للكيان، الممضّة للنّفسِ والعواطف، كلُّها مأجورٌ عليه، فالنّيّةُ مصدرُ أجرٍ ومنبعُ رضاً من اللهِ سبحانهُ وتعالى، وهذا التّشوُّقُ الذي يشعرُ بهِ الإنسانُ يوماً فيوماً، كلُّ ذلكَ شيءٌ مأجورٌ عليه. ولو أنَّ هذا الإنسانَ كُتبَ لهُ الحجُّ ربَّما لم يكن يشعرُ بشيءٍ من هذا الحنين، لو أنَّ هذا الإنسانَ كُتِبَ لهُ أن يُنجِزَ ما قصدَ وأن يُحقِّقَ ما اشتاقَ إليهِ لأطفأَ سعيُهُ حرارةَ شوقه، ومن ثمَّ: فإنَّ الأجرَ يكونُ على الحجِّ وحدهُ ولا أجرَ لهُ على شوقٍ مفقود.

ومن هنا قالَ العلماءُ الرّبّانيّونَ وكثيراً ما كرَّرَ هذا الكلامَ أكثرُ من واحد: (لأن يكونَ جسمي هنا وقلبي يطوفُ ببيتِ اللهِ الحرامِ خيرٌ لي من أن يكونَ جسمي هناكَ وقلبي وعواطفي تطوفُ بدويرةِ أهلي وموطني وأسرتي). ما معنى هذا الكلام؟ معنى هذا الكلام: أنَّ اللهَ ينظرُ إلى القلب وإلى المشاعر، فإذا علمَ اللهَ من عبدهِ صدقَ طلب، وأنَّ طلبهُ صافٍ عن الشّوائبِ لم تمتزج بهِ كُدُراتُ رغائبَ نفسيّة، ولا حظوظٌ جسديّةٍ وإنسانيّة، فإنَّ اللهَ سبحانهُ وتعالى يكتبُ لهُ الأجرَ كاملاً. فإذا علمَ اللهُ اشتياقه، وعلمَ اللهُ حنينه إلى تلكَ الرّبوعِ أو إلى مثوى رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم، كتبَ اللهُ عزَّ وجلَّ بالإضافةِ إلى ذلكَ لهُ أجراً آخر.

وهكذا فإنَّ الإخلاصَ يحلُّ المشكلات، وما أكثرَ الذينَ حاولوا الحجَّ إلى بيتِ اللهِ الحرامِ وسعوا سعياً لاهثاً إلى ذلكَ ثمَّ إنَّ الأسبابَ تقطّعت دونهم ولم يتحقّق لهم ما رغبوا فيه، جلَس الواحدُ منهم في عُقرِ دارهِ راضياً حامداً شاكراً لأنَّهُ لم يقصد أمراً مادّيّاً وإنّما قصدَ رضى الله، وهو يعلم أنّهُ قد سعى سعيه، ومحّضَ نيّتهُ، ووجّهَ قلبهُ إلى ما يرضي الله، فإذا قبلَ اللهُ عزَّ وجلَّ منهُ ذلكَ فأنعم بهذا القصدِ من حجٍّ مبرور.

ينبغي أن نتصوَّرَ هذا أيُّها الإخوة، وينبغي أن نعالجَ مظاهِرَ أعمالِنا بالإخلاصِ النّابضِ في قلوبِنا، ولعلَّ هذهِ مشكلةُ المشاكلِ في كثيرٍ من الأحيانِ وبالنّسبةِ لكثيرٍ من النّاس. نحنُ نعيشُ عصراً تحوّلَ فيهِ كثيرٌ من الطّاعاتِ المبرورةِ إلى صورٍ وطقوسٍ وأشكالٍ رُبطت بها منافعُ مادّيّة، ونيطت بها رغائب غريزيّة، تحوّلت هذه الطّاعاتُ بسببِ ذلكَ إلى أشكالٍ لها رسومُ الطّاعاتِ ولكنّها فارغةٌ عن روحها وحقيقتها. والحجُّ واحدٌ من هذهِ المناسكِ وهذهِ المشاعر، ينبغي أن نعالجَ هذا الأمر، ومعالجتهُ أن يعودَ الإنسانُ إلى

قصده، ﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾. يستطيعُ أن يعلمَ دوافعهُ ويستطيعُ أن يعلم مقصدهُ ومنابعَ رغائبه.

وإذا عرفنا هذا أدركنا السِّرَ في الفرقِ بينَ هذا العصرِ والعصورِ السّابقة، لو رأينا ترجمةَ كثيرٍ من العلماءِ الرّبّانيّينَ والأئمةِ الصّالحينَ الذينَ كانوا يعيشونَ في مناطقَ قريبةٍ من بيتِ اللهِ الحرام، وتساءلنا عن عددِ الحجّاتِ التي حجّها كلٌ منهم، قد لا نجدُ أنَّ الواحدَ منهم حجَّ أكثرَ من أصابعِ اليدِ الواحدة، هذا إن أتيحَ لهُ ذلك. بينما نحنُ نجدُ في عصرِنا اليومَ أنّ عامّةَ النّاسِ يُتاحُ لكثيرٍ منهم أن يحجّوا في كلِّ عامٍ مرّةً لبيتِ اللهِ الحرام. أمّا إذا عددتَ العُمُراتِ التي يُوَفّقُ لها كثيرٌ منهم لإنجازها، فقد تكونُ هذهِ المناسكُ لا حسابَ لها ولا تخضعُ لإحصاء.

كيفَ هذا؟ أولئكَ الرّبّانيّونَ لم يُكتبْ لهم من ذلكَ إلا النّذرُ القليل القليل، وفيهم من لم يحجَّ إلا مرّةً واحدة، وكثيرٌ منهم كانَ يعيشُ في أماكنَ قريبة من مكّةَ المكرّمةِ والمدينةِ المنوّرة. المرجع: هذا الذي قُلت: ليسَ المهمُّ أن يرتحلَ الجسدُ ذهباً آيباً، إنّما المهمُّ أن تكونَ أشواقُ الفؤادِ متلظّيةً، وأن تكونَ هذهِ الأشواقُ صافيةً من أيِّ شائبة، كاملةَ الاحتراقِ لوجهِ اللهِ سبحانهُ وتعالى. هذا الفارقُ هو الذي جعلَ مظاهرَ هذهِ المناسكِ قليلةً في حياةِ أولئكَ الرّبّانيّين، وكثيرةً في حياةٍ كثيرٍ من عوامِّ المسلمينَ في هذا العصر.

أسألُ اللهَ عزَّ وجلَّ أن يجعلَ أعمالنا خالصةً لوجهِ اللهِ عزَّ وجلّ، وأن يرزقَنا السِّر الذي هو عنوانُ محبّةِ اللهِ للعبد، ألا وهو الإخلاص. فاستغفروهُ يغفر لكم..

٣٨٠- هذه الأيام المباركة فرصة.. لا تُضيّعوها | ١٩٨٩/٠٦/٣٠

أنتم مقبلونَ عمّا قريبٍ على أيّامٍ مباركةٍ معظّمةٍ عندَ اللهِ سبحانهُ وتعالى، أقسمَ اللهُ عزَّ وجلَّ بلياليها تنويهاً بشرفِ هذهِ الأيّام، وتنويهاً بمكانتِها عندَ اللهِ سبحانهُ وتعالى، وعِظَمِ أجرِ الطّاعاتِ التي يتقرّبُ بها الإنسانُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ في هذهِ الأيّام. تلكَ هيَ أيّامُ العشرِ الأوّلِ من شهرِ ذي الحجّة، وتلكَ هي الليالي التي قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ عنها في محكمِ تبيانه: ﴿وَالْفَجْرِ، وَلَيَالٍ عَشْرٍ، وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ، وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ، هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ﴾.

والقَسَمُ الذي يقسمُ اللهُ عزَّ وجلَّ بهِ قسمٌ مجازيٌّ ليسَ من نوعِ القَسَمِ الذي يقسمُ بهِ الإنسان، ذلكَ لأنّهُ لا يوجدُ شيءٌ بعدَ اللهِ عزَّ وجلَّ أجلُّ وأسمى يجعلُ اللهُ عزَّ وجلَّ منهُ حكماً وشاهداً بينهُ وبينَ عباده. ولكنَّ القَسَمَ القرآنيَّ تنويهٌ بعِظَمِ المُقسَمِ بهِ عندَ اللهِ سبحانهُ وتعالى، وإشارةٌ إلى علوِّ مكانته، ودفعٌ للعبدِ إلى الاهتمامِ بهذا المُقسَمِ بهِ والاحتفاءِ به، فكأنَّ اللهَ سبحانهُ وتعالى ينبّهُ عبادهُ إلى أنَّ هذهِ اللياليَ التي تقبلُ على الإنسانِ في أوّلِ هذا الشّهرِ المباركِ ليالٍ فريدةٌ من العامِ كلِّه، فما ينبغي أن تمرَّ بالإنسانِ وهوَ ساهٍ فيها، شاردٌ عن هويّتهِ وعن ربِّهِ سبحانهُ وتعالى. وقد شرحَ المصطفى صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وأكّدَ هذهِ الحقيقةَ التي نوَّهَ بها كتابُ اللهِ عزَّ وجلَّ إذ قالَ في الحديثِ الصّحيح: ﴿ما من أيّامٍ العملُ الصّالحُ فيه أقربُ إلى الله سبحانهُ وتعالى منهُ في هذهِ الأيّام، أي في الأيّامِ العشرِ الأولى من شهرِ ذي الحجّة، قالوا: ولا الجهادُ في سبيلِ اللهِ يا رسولَ الله؟ قالَ: ولا الجهادُ في سبيلِ الله، إلا رجلٌ خرجَ بنفسهِ ومالهِ فلم يعد من ذلكَ بشيء﴾.

ألفتُ نظري ونظركم يا عبادَ اللهِ إلى هذهِ الأيّامِ المباركةِ المقبلة، مع العلمِ بأنَّ الأيّامَ واللياليَ في جوهرها شيءٌ واحد، فالزّمنُ واحدٌ في حقيقته، ولكنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ كما فاوتَ في الرُّتبةِ بينَ الأماكنِ على الرّغمِ من وحدةِ جوهرِ الأماكنِ وفضيلتِها، فقد فاوتَ أيضاً بينَ الأزمنةِ كما يشاءُ وللحكمةِ التي يشاؤها اللهُ سبحانهُ وتعالى. وهيَ على كلِّ حالٍ مظهرٌ من مظاهرِ رحمةِ اللهِ عزَّ وجلّ، فرصةٌ إثرَ فرصة يعلنُ اللهُ عزَّ وجلَّ عنها لعبادهِ العاصينَ والشّاردينَ والتّائهينَ عن اللهِ عزَّ وجلَّ أن يلتفتوا إلى الله ويصطلحوا معه، فإنَّ

الصّلحَ مع اللهِ عزَّ وجلَّ لا يكلِّفُ الإنسانَ أكثرَ من قلبٍ سليمٍ طاهر، وأكثرَ من لفتةٍ صادقةٍ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ للانصياع، وبمعاهدةِ النّفسِ على الرّجوعِ إلى صراطِ اللهِ سبحانهُ وتعالى.

وكثيراً ما يُقالُ لي في المناسبات: كم تكرّرونَ الحديثَ عن هذهِ الليالي وفي المناسبات؟ وكم تتكلّمونَ عن الآياتِ والأحاديثِ الواردةِ في شأنِها؟ حتّى لقد غدا الحديثُ عن الليالي العشرِ الأولى من ذي الحجّةِ في خطبةٍ كهذهِ الخُطبة أشبهَ ما يكونُ بحديثٍ تقليديّ، فلماذا كلُّ هذا التّكرارِ وقد وعى النّاسُ وعرفوا؟ فما هو الجوابُ الذي ينبغي أن يسمعهُ هؤلاءِ الإخوةُ الذينَ يتبرّمونَ بهذا الكلامِ الذي نعيدهُ كلّما حانَ ميقاتُه؟ الجواب: أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ إنّما ندبَ عبادَهُ إلى الاصطلاحِ معهُ وإلى الإكثارِ من الإقبالِ إليهِ بالطّاعةِ والعبادةِ في هذهِ الأيّامِ تغذيةً لحقائقِ عبوديّتهم للهِ عزَّ وجلّ.

فإذا كانت عبوديّتُنا للهِ سبحانهُ وتعالى تتبدَّلُ وتتغيّرُ مع تطوّرِ الأزمنة، كنّا بالأمسِ عبيداً للهِ إذ كنّا فقراءَ وأصبحنا اليومَ أحراراً إذ تحوَّلنا إلى أغنياء، إن كانَ الأمرُ كذلكَ فما ينبغي أن نكرِّرَ شيئاً فاتَ ميقاتُهُ وفاتت أسبابُ الحديثِ عنه. أمّا إن كانت عبوديَّتُنا للهِ عزَّ وجلَّ ملتصقةً بكياناتِنا ظاهراً وباطناً، نحنُ عبيدٌ للهِ عزَّ وجلَّ في كلِّ تقلُّباتِنا وأحوالِنا في حالةِ الفقرِ وفي حالةِ الغنى إن كانَ هناكَ غنى، في حالةِ إقبالِ الدّهرِ إلينا وإدبارِه عنّا، عندما كنّا أطفالاً رُضّعَ ثمَّ تحوَّلنا إلى شبابٍ أقوياءَ تنبضُ القوّةُ بينَ جوانحنا. إذا كانت أحوالُنا المتبدّلةُ هذهِ تتحرَّكُ تحتَ مظلّةِ عبوديّةٍ مستمرّةٍ في كياناتِنا للهِ عزَّ وجلّ. إذاً فينبغي أن تكونَ هذهِ التّذكرةُ أيضاً مستمرّة، ما دامت عبوديّتُنا للهِ مستمرّةً إذاً ينبغي أن يكونَ التّذكيرُ بغذاءِ هذهِ العبوديّةِ أيضاً مستمرّاً.

لماذا لا تتبرّمُ من تكرارِ الحديثِ عن المواسمِ والأمطارِ على الرّغمِ من أنَّ الحديثَ عن ذلكَ قد أصبحَ حديثاً تقليديّاً كما تولُ من كثرةِ تكراره؟ لماذا لا تتبرّم؟ ولماذا لا يعلنُ الإنسانُ أنَّهُ قد تطوَّرَ وتحرَّرَ من الحاجةِ إلى قطرِ السّماءِ ونباتِ الأرض؟ لأنَّ الإنسانَ كانَ ولا يزالُ ذا فمٍ فاغرٍ يحتاجُ إلى طعام، يحتاجُ إلى شرابٍ على الرّغمِ من تقلّباتهِ وصعودهِ وهبوطه، فكذلكم عبوديّةُ الإنسانِ لله، صبغةٌ لاصقةٌ بهِ مهما ارتفعَ إلى أعلى درجاتِ العزِّ ومهما هبطَ إلى أدنى دركاتِ الذُّلِّ والحطّة فهو عبدٌ لله، ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا، لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾.

إذا كانَ الأمرُ كذلك، فكما أنّ الإنسانَ يحتاجُ إلى أشعّةِ الشّمسِ مهما كانت ظروفهُ وطالما كانَ حيّاً، فهو كذلكَ بحاجةٍ إلى أن يغذّيَ عبوديّتهُ للهِ بالطّاعةِ والتّذلّلِ والتّبتّل طالما كانَ حيّاً تتصاعدُ الأنفاسُ وتهبطُ وراءَ صدره.

وهيَ فرصةٌ سانحةٌ أكرمنا اللهُ عزَّ وجلَّ بها، يطّلعُ اللهُ عزَّ وجلَّ فيها على عبادهِ العُصاةِ يناديهم بلسانِ الحالِ أن: أقبِلوا فقد رفعتُ ممّا بيني وبينكم الحُجُبَ والأستار، ولا يحتاجُ الأمرُ منكم إلا إلى لفتةِ صدق، وإلا إلى عزيمةِ قلب. أفنتركُ هذهِ الفرصةَ تفوتُنا يا عبادَ اللهِ وربُّنا الذي هو وليُّنا ومالكُنا من دونِ الخلائقِ أجمع ينادينا؟

أسألُ اللهَ سبحانهُ وتعالى أن يجعلَ من هذهِ الأيّامِ المقبلةِ إلينا فرصةَ اصطلاحٍ حقيقيٍّ مع اللهِ سبحانهُ وتعالى، وأن يجعلها مناسبةَ توبةٍ وأوبةٍ صادقةٍ إلى اللهِ عزَّ وجلّ، أقولُ قولي هذا وأستغفرُ اللهَ العظيمَ فاستغفروهُ يغفر لكم...

٣٨١- هكذا يُستغل الحج لتحقيق مزيد من الشقاق والخلاف | عام ١٩٩٢

ما من شكٍّ في أنَّ الحجَّ إلى بيتِ اللهِ الحرامِ ركنٌ من أركانِ الإسلام، وقد تبيَّنَ هذا وعُلِمَ ممّا عُلِمَ من أحكامِ وحقائقِ الإسلامِ الضّروريّةِ البدهيّةِ التي لا يرتابُ فيها مسلم، وكلامُ اللهِ سبحانهُ وتعالى في وجوبِ الحجِّ على المستطيعينَ صريحٌ. إذ قالَ في محكَمِ كتابهِ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾. وهذا الكلامُ مكرّرٌ في أكثرَ من موضعٍ في كتابِ اللهِ سبحانهُ وتعالى.

ولكن ينبغي أن نعلمَ أيضاً أنَّ واقعَ هذا الحجِّ إلى بيتِ اللهِ الحرامِ في هذا العصرِ كظاهرةٍ متبيّنةٍ يراها المسلمون، إنّما تجسِّدُ حقيقةَ ما قالهُ رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في حديثهِ الصّحيح: ﴿ستداعى عليكمُ الأممُ كما تداعى الأكلةُ إلى قصعتها﴾، إلى أن قالَ عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ جواباً عن سؤالِ سائل: أمن قلّةٍ نحنُ يا رسولَ اللهِ يومئذ؟ قال: ﴿بل أنتم كثيرٌ ولكنّكم غثاءٌ كغثاءِ السّيل، وسينزعنَّ اللهُ الرّهبةَ منكم من قلوبِ أعدائكم، وسيقذفنَّ في قلوبكمُ الوهن﴾. ولمّا سألهُ أحدهم عن الوهنِ قال: ﴿حبُّ الدّنيا _أو الحياة_ وكراهيةُ الموت﴾.

فنحنُ لا نجدُ صورةً تتجسّدُ فيها هذهِ الصّفةُ التي وصفَ رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بها مآلَ المسلمينَ كما تتجسّدُ في واقعِ الحجِّ في هذا العصرِ إلى بيتِ اللهِ الحرام. أمّا الكثرةُ فحدِّث عنها ولا حرج، فالمقبلونَ إلى الحجِّ من كلِّ حدبٍ وصوبٍ كثيرونَ وهم في تكاثرٍ وازدياد، وأمّا الغايةُ التي وظَّفَ اللهُ سبحانهُ وتعالى الحجَّ من أجلِها، فإنّها لا أقولُ في تناقص بل في انعدامٍ كلّيّ، وإذا لاحظنا هذهِ الحقيقة: تزايدُ العددِ من حيثُ الكمّ، وتناقصُ أو انعدامُ الوظيفةِ التي وظّفَ اللهُ سبحانهُ وتعالى الحجَّ إلى بيتهِ الحرامِ من أجلِها، لاحظنا فعلاً أنَّ واقعَ الحجِّ في هذا العصرِ تجسيدٌ لقولهِ عليهِ الصّلاةُ والسّلام: ﴿بل أنتم كثيرٌ ولكنّكم غثاءٌ كغثاءِ السّيل﴾.

لو أنَّ هذهِ الكثرةَ من الحجيجِ في كلِّ عامٍ وهيَ تزدحمُ حولَ بيتِ اللهِ العتيق، أو تفيضُ بها أرضُ عرفة، أو تفيضُ بها بقاعُ مِنى، لو أنَّ هذهِ الكثرةَ الكاثرةَ كانت فعلاً تسيرُ على نهجِ الإسلامِ وكانت تهتدي فعلاً بكتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ وبسنّةِ رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم، إذاً لحقّقَ اللهُ عزَّ وجلَّ من هذهِ الكثرةِ

الإيمانيّةِ حزاماً يقي المسلمينَ من كلِّ سوء، ولجعلَ اللهُ سبحانهُ وتعالى من هذهِ الكثرةِ العظمى حصناً يتحصّنُ بهِ المسلمونَ بل يحصِّنونَ بهِ عزّهم وقوّتهم وغناهم ووحدتهم. ولكنّنا ننظرُ إلى هذهِ الكثرةِ الكثيرةِ فعلاً التي يتباهى بها الكمُّ العدديّ، وننظرُ إلى رصيدِ هذه الكثرةِ فلا نرى شيئاً، بل نرى ما هو مخزٍ، ونرى ما يؤكِّدُ تفرُّقَ المسلمين وتشتّتهم وضياعهم على الرّغمِ من أنَّ بيتَ اللهِ العتيقِ يدعوهم إلى الاتّحادِ والوئام، وعلى الرّغمِ من أنَّ كلَّ شعارٍ من شعائرِ الحجِّ وأنَّ كلَّ عملٍ من أعمالهِ وأنَّ كلَّ ركنٍ من أركانهِ يهيبُ بالمسلمين أن يتّحدوا، ويهيبُ بالمسلمين أن يكونوا لا يداً واحدةً بل قلباً واحداً أيضاً.

ولكن كأنّهم يجتمعونَ هناكَ ليعلنوا مزيداً من عواملِ فرقتهم، وكأنّهم يتقاطرونَ من كلِّ حدبٍ وصوبٍ إلى هناكَ لتحفرَ كلُّ فئةٍ مزيداً من الأخاديدِ التي تفرِّقُ ما بينَ الفئةِ والفئةِ الأخرى، ألا تسمعونَ إلى الشّعارات؟ إلى الآراءِ التي يزدهي كلُّ فرقةٍ بها كيفَ تتسامى وكيفَ تتباهى بها أثناءَ موسمِ الحجِّ إلى بيتِ اللهِ الحرام؟ الحجُّ إلى بيتِ اللهِ الحرام، بمقدارِ ما هو ركنٌ من أركانِ الإسلامِ بمقدارِ ما هو مَعينٌ ثَرٌّ لاتّحادِ المسلمينَ ولاجتماعِ شملهم ولتضافرِ قواهم واجتماعِ كلمتهم على صراطٍ سواء، والذي نراهُ اليومَ من الحجِّ مظاهرُه، والذي نفتقدهُ من الحجِّ آثارهُ ووظائفه، وإذا تبيَّنَ لنا هذا علمنا أنَّ المسلمينَ يعانونَ من بلاءٍ وبيلٍ جدّاً، بل يعانونَ من سرطانٍ خطيرٍ جدّاً لا يستشري في جسمِ مجتمع، وإنّما يستشري في جسمِ الإسلامِ ذاته، يستشري في جسمِ الإسلامِ ذاته.

وأنا عندما أقولُ هذا الكلامَ أتمثّلُ حجّةَ رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وما حجَّ حجّةً غيرَها، وأنظرُ إلى عمله، وأنظرُ إلى هديهِ الذي كانَ ينثرهُ وينشرهُ من حولهِ وقد ازدحمَ المسلمونَ وأحدقوا بهِ من كلِّ حدبٍ وصوب، وأنظرُ إلى وصايا رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وكانَ بوسعِ المصطفى عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ وهوَ يخطبُ خطبةَ الوداعِ التي ودَّعَ بها المسلمينَ في ذلكَ الموقف، كانَ بوسعهِ أن يقفَ بهم على دقائقِ الأحكامِ الإسلاميّة، وكانَ بوسعهِ أن يضعَ لهم ضمنَ الخطوطِ العريضةِ الخطوطَ التّفصيليّةَ الدّقيقةَ أيضاً، وكانَ بوسعهِ أن يضعَ على كلِّ حرفٍ نقطتهُ أو نقاطهُ لكي لا يختلفَ المسلمونَ في هذهِ الدّقائقِ من بعد.

ولكنّي أصغي إلى خطابهِ هذا فلا أراهُ عرَّجَ على شيءٍ من هذهِ القضايا التّفصيليّة، ولا أراهُ وقفَ عندَ مسألةٍ من هذهِ المسائلِ الاجتهاديّة، وإنّما رسمَ للمسلمين المبادِئَ الكلّيّة، ووضعهم أمامَ الخطوطِ

العريضةِ، واعتصرَ لهم من الإسلامِ الجذورَ المجمّعة، وتركهم من فروعها أمامَ ما قد يجتهدونَ بهِ وأمامَ ما قد يتقرّبونَ إلى اللهِ سبحانهُ وتعالى بأفهامهمُ الاجتهاديّةِ فيه، وبوسعِ كلٍّ منكم أن يعودَ إلى خطابهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في حجّةِ الوداعِ يومَ عرفةَ ليتبيَّنَ هذا الذي أقول، وبوسعهِ أن يتساءل: لماذا لم يُرِح رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ المسلمينَ من اختلافاتهم في المسائلِ الاجتهاديّةِ الفرعيّة؟ والمظنونُ برسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم – إن لم يكن المُتَأَكَّد – أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قد أوحى إليهِ وألهمهُ الاختلافاتِ التي ستؤولُ إليها حالُ أمّتهِ من بعد، فلماذا وقد أُلهِمَ ذلك -يقيناً، لماذا لم يَضَعِ المصطفى صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لهم الحقائقَ التي هيَ الصّوابُ الذي لا يوجدُ بعدهُ إلا باطلٌ أمامَ طُرُقِ المسلمينَ وأمامَ سبلهمُ الاجتهاديّة؟ لماذا صمت؟

صمتَ عن ذلكَ كلّهِ وإنّما ركّزَ وأكَّدَ الأمورَ الأساسيّة، المبادئَ القاطعةَ التي لا يمكنُ أن يطوفَ حولَها خلاف، فماذا يعني ذلك؟ يعني هذا: أنَّ على المسلمينَ قبلَ أن يتشاجروا في القضايا الاجتهاديّةِ الجزئيّةِ الخلافيّة، عليهم قبلَ هذا أن يجتمعوا على هذهِ المبادئِ الأساسيّةِ الكلّيّة. فإذا لم يجتمعوا على هذهِ المبادئِ الأساسيّةِ ولم يوطِّدوها في تربةِ عقائدهمُ الإيمانيّة، فلا خيرَ في أنشطتهمُ الاجتهاديّةِ في الفروعِ بعدَ ذلك، ومهما اجتهدوا بعدَ هذا في المسائلِ الفرعيّةِ والقضايا الجزئيّة، فإنَّ أنشطتهم هذهِ لن تعودَ إليهم إلا بالخُسران، ولن تعودَ إليهم إلا بالضّرر. ولكنَّ المسلمينَ إن ساروا وراءَ هدي رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فجعلوا من كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ ومبادئهِ الكلّيّةِ الرّاسخةِ دعامةَ حياتهم، ومن سنّةِ رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بيانَ كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ فيما بينهم، ومن المبادئِ الكلّيّةِ العامّةِ المتمثّلةِ في الشّريعةِ الإسلاميّة، جعلوا من ذلكَ دستورَ حياتهم، سواءٌ في الأمورِ الاعتقاديّةِ أو في التّطبيقاتِ والأمورِ السّلوكيّة، إن هم بدؤوا بهذا الأمرِ فرسّخوهُ في أفئدتهم واجتمعت عليهِ كلمتهم، فإنَّ موقفهم من تلكَ القضايا الجزئيّةِ موقفٌ لا يعودُ بأيِّ ضرر، سواءٌ اتّحدوا أو اختلفوا، سواءً اتّفقوا أو لم يتّفقوا، تلكَ هي وصيّةُ رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم.

ولكن إلامَ آلَ حالُ المسلمينَ الذينَ يسمعونَ هذهِ الوصيّةِ والذينَ يتأمّلونَها والمفروضُ أنّهم يتدبّرونَها؟ إلامَ آلَ حالُ هؤلاءِ المسلمين؟ آلَ حالهم إلى السّيرِ في طريقٍ مناقضٍ لما خطّطهُ رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم، أمرهم بالاجتماعِ على الجذورِ ولكنَّ المسلمينَ اليومَ أعرضوا عن الجذورِ وراحوا يشتغلونَ بمتاهاتِ

الفروع، أمرهم رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أن يجتمعوا على هذهِ المبادئِ الكلّيّةِ التي لا يسعهم أن يختلفوا فيها، وتركَ لهمُ الخلافَ وتركَ لهمُ الاجتهادَ في تلكَ القضايا الجزئيّةِ المتفرّعةِ الاجتهاديّة، فكانَ حالُ هؤلاءِ المسلمينَ أنّهم لم يتسامحوا فيما سامحَ فيهِ رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في الخلافِ والاجتهادِ في تلكَ القضايا الجزئيّةِ وأعرضوا كلَّ الإعراضِ عن تلكَ المبادئِ الكلّيّة، ومن ثمَّ فإنّنا عندما ننظرُ إلى أنشطةِ الحجيجِ في تلكَ البقاعِ المقدّسةِ نلاحظُ ظاهرةَ التّهارجِ تحتَ مظلّةِ هذهِ الشّعيرةِ التي جعلَها اللهُ سبيلاً للاتّحادِ أكثرَ ممّا نرى ظاهرةَ الاتّحادِ والتّضامنِ والاتّفاق، وإنَّ هذهِ لكارثةٌ ما بعدَها كارثةٌ أيّها الإخوة.

أن تجمعنا مظلّةُ هذهِ الشّعيرةِ القدسيّةِ العظمى، وأن نكونَ في السّاعاتِ التي وظّفَ اللهُ عزَّ وجلَّ هذهِ الشّعيرةَ فيها لجمعِ المسلمين، نكونُ في الوقتِ الذي نتفيّأُ ظلالَ هذهِ الشّعيرةِ أكثرَ ما نكونُ تهارجاً وأكثرَ ما نكونُ تخاصماً، في كلِّ بقعةٍ من البقاعِ تسمعُ شعاراتِ التّهارج، تسمعُ شعاراتِ التّكفير، تسمعُ شعاراتِ التّبديعِ فوقَ كلِّ منبرٍ ومن فمِ كلِّ خطيبٍ حتّى الأطفالُ الصّغار، إي والله، حتّى الأطفالُ الصّغارُ الذينَ لم يبلغوا سنَّ الرّشدِ يلقَّنونَ كلماتِ التّبديع، يلقَّنونَ كلماتِ التّشريك، ويُدفَعُ الواحدُ منهم إلى هنا وإلى هناكَ ليقولَ ما قد حُفِّظَ، وليتّهِمَ النّاسَ الذينَ من حولِهِ بما قد لُقِّنَ أن يتّهمهم به، ولو سألتَ هذا الطِّفل: ماذا تعني بما تقول؟ لم يعِي جواباً.

هذا واقعٌ رأيناه، وهذهِ كارثةٌ شاهدناها، والحجُّ الذي شرعهُ اللهُ إنّما شرعهُ اللهُ لتذويبِ أسبابِ الخلاف، شرعهُ اللهُ عزَّ وجلَّ ليجتمعَ المسلمونَ من هذهِ الشّعيرةِ على كلمةٍ سواء، شرعهُ اللهُ عزَّ وجلَّ ليدفنوا قضاياهمُ الاجتهاديّةَ في تربةِ عبوديّتهم لله، وما جاؤوا إلى هذا المكانِ إلا ليعانقوا هذهِ العبوديّةَ ثمَّ ينصاعوا إلى المبادئِ الأساسيّةِ العظمى التي لا يمكنُ للأمّةِ الإسلاميّةِ أن تختلفَ حولها يوماً من الأيّام. هذهِ هي مشكلةُ هذهِ الشّعيرةِ الإسلاميّة، من المسؤولُ عنها؟

ليسَ هذا هو المهمّ، كلُّ مسلمٍ مسؤولٌ عن هذهِ الكارثة، كلُّنا ينبغي أن نستشعرَها، وكلُّنا ينبغي أن نعلمَ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ ما شرعَ ركناً من أركانِ الإسلامِ الخمسِ إلا ليكونَ هذا الرّكنُ خادماً لهدفٍ قدسيٍّ يتمثّلُ في جمعِ كلمةِ الأسرةِ الإنسانيّةِ على نهجٍ واحد، في أن تتساقطَ عواملُ البغضاءِ والشّحناءِ من قلوبِ أفرادِ هذهِ الأسرةِ فتجتمعَ هذهِ الأفئدةُ على صراطٍ سواء، على مشاعرَ ربّانيّةٍ واحدة. فإذا كانتِ الصّلاةُ

شرعها اللهُ من أجلِ إيصالِ المصلّينَ إلى هذا الهدف، وإذا كانَ الصّيامُ لهذا الهدف، وإذا كانتِ الزّكاةُ لهذا الهدف، وإذا كانَ الحجُّ تاجاً في تحقيقِ هذا الهدفِ أيضاً، فلماذا يعرضُ المسلمونَ عن الأهدافِ التي ربطَ اللهُ هذهِ الأركانَ بها؟ ولماذا يمعنونَ في أن يلتذّوا في خلقِ عواملِ الفرقةِ والشّقاقِ بينَ المسلمين؟

أسألُ اللهَ سبحانهُ وتعالى أن يبصِّرَنا بحقيقةِ دينِنا وأن يُسقِطَ عصبيّاتِنا لأنفسنا، وأن يُسقِطَ حوافزَ انتصارِنا لذواتِنا. هذا الدّاءُ الخفيّ، الخفيُّ جدّاً، والذي سُتِرَ ثمَّ سُتِرَ ثمَّ سُتِرَ بأقنعةٍ إسلاميّةٍ متنوّعةٍ كثيرة، ولو كشفنا هذهِ الأقنعةَ لرأينا، أنَّ كلَّ فئةٍ من هذهِ الفئاتِ إنّما تسعى لاهثةً لتحقيقِ ذاتِها، لتحقيقِ سيادتِها في نطاقِ هذهِ الحلبةِ الصّراعيّةِ في أمرٍ جعلهُ اللهُ سبحانهُ وتعالى مثابةَ وحدةٍ ومثابةَ ألفة.



أقولُ قولي هذا وأستغفرُ اللهَ العظيم...



٣٨٢- الرجوع إلى الله في هذا العشر ضرورة حتمية | ١٩٩٦/٠٤/٢٦

إنكم لتعلمون أنكم تمرون بخواتيم هذا العشر المبارك، هذه الأيام التي أقسم الله سبحانه وتعالى بمحكم تبيانه، وهي العشر الأول من شهر ذي الحجة، وهي الأيام والليالي التي قال الله عز وجل فيهن: ﴿وَالْفَجْرِ، وَلَيَالٍ عَشْرٍ، وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ، وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ، هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ﴾

وقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: ﴿ما من أيامٍ العمل الصالح فيها أفضل منه في هذه الأيام أي في هذه الأيام العشرة، قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله يا رسول الله. قال: ولا الجهاد، إلا رجلٌ خرج بنفسه وماله فلم يعد من ذلك بشيء﴾.

أما يوم عرفة وهو تاسع هذه الأيام فقد ميز الله سبحانه وتعالى الحديث عنها فضلاً عن عموم الكلام الذي يسري على هذا اليوم أيضاً، باستحباب صومه. وقد روى مسلم وغيره من حديث أبي قتادة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سُئلَ عن صوم يوم عرفة فقال: ﴿هو كفارة عن سنة مضت وسنة آتية﴾ وقد ورد هذا الحديث بألفاظٍ متقاربة بطرقٍ كثيرةٍ شتى؛ يؤكد فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم أن صوم يوم عرفة إذا كان احتساباً لله سبحانه وتعالى يكون كفارة لذنوب السنة الماضية وكفارة للذنوب التي قد ينزلق إليها الإنسان في السنة الآتية.

وخلاصة ما ينبغي أن نعلم أننا نمر بأيامٍ متميزة خاصة من أيام العام، ويأتي بعد ذلك عيد الأضحى وأيام التشريق، وهي كلها أوعية جعلها الله سبحانه وتعالى بين يدي الإنسان ليملأها بالقربات وليملأها بالطاعات والعبادات، ومن ثم فإن الإنسان بوسعه أن يتدارك ما فاته من الحج إلى بيت الله الحرام أينما كان مقامه، بوسعه أن ينال المثوبة ذاتها إن هو انتهز هذه الفرصة التي نبهنا إليها كتاب الله سبحانه وتعالى وأرشدنا إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وإذا كان استعمال هذا الوقت أو هذه الأزمان المباركة في المثوبة يُضاعف من الأجر ويُضاعف من المثوبة، فإن استعمال هذه الأوقات في نقيض ذلك من المعاصي والمحرمات يحقق عكس ذلك تماماً، فكما أن الإنسان يتضاعف قربه من الله سبحانه وتعالى بالخطى التي يخطوها إلى الله بطاعاته وعباداته، فإن

المعاصي التي يرتكبها تُضاعف من بعده عن الله سبحانه وتعالى أيضاً في هذه الأيام.

هذا بالإضافة إلى شيءٍ آخر أيها الإخوة، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما صح عنه: ﴿عبادةٌ في الهرج كهجرة إليّ﴾ والهرج كما قال علماء الحديث وشُرّاحه: هو الفتن والقتال، يقول عليه الصلاة والسلام: إقبال الإنسان إلى الله عز وجل بالطاعة والتبتل والعبادة والدعاء والتضرع أيام الفتن وأيام الاقتتال أشبه ما يكون في درجة ذلك كهجرة أحدكم إلي.

وإنكم لتعلمون مثوبة الهجرة إلى الله وإلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأعتقد أننا جميعاً نعلم أننا نمر بأسوأ ساعات الهرج والمرج، فالفتن مُدلَهِمّة، وقتال العدو الشرس للمظلومين البرئآء مستمر، فإذا لاحظنا هذا المعنى الثاني بالإضافة إلى قيمة هذا الوقت الذي نبهنا إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم نُدرك أنه ينبغي حتى على المستغرق في لهوه وعلى المستغرق في فسوقه وعصيانه، ينبغي أن يجد من الحوافز ما يدعوه إلى الإقبال إلى الله عز وجل والإقلاع عن لهوه وعصيانه ومجونه وفسقه؛ ذلك لأنه إن لم يندفع إلى ذلك بسائق من فضيلة هذه الساعات، اندفع إلى ذلك بسائقٍ من هذا الكلام الذي يقوله المصطفى عليه الصلاة والسلام.

وإذا رأى الإنسان في خِضم الفتن، وإذا رأى أن أعداءه يُحيطون به من كل جانب، وإذا رأى المكائد تحوك ضد المسلمين، وإذا رأى أن البرئآء والآمنين والآمنات من الكبار والصغار يُشردون عن بيوتهم فلم يدفعه ذلك إلى الرجوع إلى الله وإلى التبتل بين يدي الله عز وجل. فما أحسب أن هذا الإنسان سيجد بعد ذلك فرصة أخرى للإقبال على الله سبحانه وتعالى.

أيها الإخوة زبدة هذا الكلام الذي أقوله لكم، أن علينا أن نتواصى جميعاً بل على كلٍ منكم أن يكون لساناً ناطقاً ونبراساً منيراً بين إخوانه وأصدقائه، في السوق الذي يكون فيه، بين زملائه وإخوانه الذين يجالسهم، ينبغي أن يكون لساناً ناطقاً منبهاً إلى هذه الحقيقة التي نقولها. ينبغي أن يُقلع أصحاب اللهو عن لهوهم، ينبغي أن يُقلع الدعاة إلى الإباحية عن دعوتهم هذه، وينبغي أن يجأر الكل بتبتل ضارع إلى الله عز وجل لينالوا نصيباً من قوله عليه الصلاة والسلام: ﴿عبادةٌ في الهرج كهجرةٍ إلي﴾.

ومع ذلك وعلى الرغم من هذه الوصية التي ينبغي أن نتواصى بها جميعاً، فالخطر الأكبر أيها الإخوة

لا يتبدى من مظهر عدوٍ شرس يُصر على القتال، ويُصر على أن يمارس الإرهاب بأحط صوره الشخصية والشكلية والوحشية التي ما مثلها، ولكن الخطورة تتمثل فيما يجرنا إلى هذا الوضع أو فيما يجر العدو إلى ذلك، الخطورة كل الخطورة تكمن في أننا ننظر في هذه الساعات ذاتها فنجد من يظل عاكفاً على لهوه وعصيانه، نجد من يُتاجر بالإباحية كسبيلٍ يجمع من وراءها المال، البرئآء الآمنون يُشردون ويُقَتلون وبيوتهم لا أقول تُحتل بل تُنسف، وبيننا من يلهث وراء التجارة، وليت أنها كانت تجارة عن طريق مشروع وإنساني سامٍ، تجارة رخيصة تجارة دنيئة عن طريق ترويج أسباب الإباحية بأسوأ صورها وأشكالها، لو أن الإنسان استمرأ هذه الحال في ساعات الرخاء لقلنا أنها مظهر من مظاهر الضعف الإنساني، أما أن يستمرأ الإنسان هذه الحالة، وهذه الشدائد تطوف بنا، وهذه الفتن تدور رحاها علينا، وهذا الهرج والمرج كما تسمعون بل كما ترون، أن نجد أناساً في هذه الحالة يلهثون ويسيل منهم اللعاب في سبيل جمع المال عن طريق التجارة بالإباحية وبالتحلل من المبادئ والقيم، هذا هو الخطر الأشد، وهذا هو الذي يُطمع العدو فينا، وهذا هو الذي يفتح السبل ما بيننا وبينه أيها الإخوة. هذا الكلام لا يمكن أن يجهله عاقلٌ بشكلٍ من الأشكال.

قيل لي: وكدت أن لا أصدق – في هذه الأيام والعواطف مشدودة إلى حال إخوان لنا قريباً منا كما تعلمون والعقول كلها تُفكر وتقدر وتتسائل عن سبييل الفرج في هذه الحال، يُقال لي: إن هنالك من ينثر وينشر بطاقات يدعو الشباب فيها مجاناً إلى جلساتٍ وحفلاتٍ مليئة بالفجور، مليئة بالخنى، مليئة بالميوعة وأسبابها، دعوةٌ إلى حفلات مجانية، ولعلكم تعلمون نماذج منها تُنثر وتُنشر بطاقاتها في الصيف، لكن اليوم لا في الصيف بل في هذه الأيام، ولعل المناسبة أن عدواً يحاول أن يفتك بهذه الأمة ماضٍ في نسف البيوت وفي تشريد الأُسر، لعل هذه هي المناسبة أيها الإخوة. هؤلاء من أبناء جلدتنا بحسب الظاهر؛ يدعون شبابنا ذكوراً وإناثاً إلى هذه الحفلات تتويج ملكة الجمال، مسابقة أجمل رقصة، إلى آخر الكلمات التي تعرفون والتي لا أريد أن أدنس هذا المكان المقدس بعباراتها.

إنني لأتساءل: ما هي قيمة الوطنية أو ما هو نصيب الوطنية إن كانوا يتعاملون بالوطنية أو بالقومية؟! إن كانوا يتعاملون بالقومية، أو الشرف إن كانوا يشعرون بشيء من الشرف، أو الدين إن كان لديهم شيءٌ من الدين واحترامه، ما نصيب هؤلاء من هذا كله. بل كيف يستقيم أن يتصور كل منا هذه الصور التي تقشعر لها القلوب، وكلكم رأى صوراً منها في الأجهزة الإعلامية المرئية؟

كيف يتسنى؟ بل كيف يكون هذا الإنسان إنساناً؟ وكيف يكون هذا الإنسان متفاعلاً مع بلده ووطنه وأمته، ثم يكون همه الأوحد أن يقتنص المال عن طريق ترويج الخنى، عن طريق ترويج الإباحية وأسبابها في هذه الأيام بالذات أيها الإخوة؟!. كيف يمكن لإنسان يتفاعل شعورياً أو عاطفياً أو إنسانياً مع الساعات التي يمضيها رئيس هذه الدولة منذ أيام ليل ونهار، لا يهدأ ولا يستريح في سبيل صد العدوان، وفي سبيل درء الأخطار، وفي سبيل المحافظة على عزة هذه البلدة وهذه الدولة وهذه الأمة، وإن اقتضى ذلك أن لا يستقبل أكبر مسؤول لأكبر دولة؟ كيف يمكن أن أتفاعل عاطفياً مع إنسانٍ يمضي وقته كله في سبيل حل هذه المعضلة إذا كنت أستغل هذه الفرصة من أجل أن أدعو الناس إلى حفلات ماجنة، إلى حفلات داعرة من أجل أن آخذ المال، ومن أجل أن لعابي يسيل على أموالٍ محرمة أملأ بها جيبي. هل يمكن أن تتصوروا الصَغار أيها الإخوة والذل في أسوء وأحط من هذا المظهر.

إسرائيل أيها الإخوة عندما تدعو إلى ما يسمى بالسلم ما هو أملها من وراء ذلك؟ أملها وكما أعلنت وكم كررت – أملها ما يسمى بالتطبيع، وما هو أملها من وراء التطبيع؟ أملها أن تمتص الثروات الاقتصادية لهذه البلدة وأن تنفث في مقابل ذلك روح الإباحية فيها، هذا هو شهيقها وذلك هو زفيرها، تشهق لامتصاص الثروات الاقتصادية التي متعنا الله عز وجل إياها. وتزفر ببث أسباب الإباحية لدينا، انظروا إلى النموذج الذي يُجسد هذا كله لدى جيران لنا، انظروا إلى الملاهي التي تفتحت، انظروا إلى الدور التي وجدت ولم تكون موجودةً من قبل، انظروا إلى الخطط الإباحية التي تُطبق تحت مظلة السلم بل تحت مظلة التطبيع، هذا هو الدافع لإسرائيل ما يسمى بسلمها الذي تحلم به وهذا هو المعنى الوحيد للتطبيع الذي تنادي به، وإذا كنا نجد من أبناء جلدتنا اليوم من يفعلون هذا، فإن إسرائيل لا شك أنها تصفق، لأن الله قد أرسل إليها خدماً يحققون آمالها بدون قيمة، يحققون رغائبها بدون كلفة، أجل هذا هو الهدف أيها الإخوة.

وصيتي التي لابد أن أقولها لكم ونحن جميعاً لا نملك أمام هذا الهرج وهذه الفتن الحمراء إلا الدعاء ولا نملك إلا التضرع والإقبال على الله عز وجل. وصيتي أيها الإخوة أولاً أن نقبل إلى الله سبحانه وتعالى فنتبتل وندعو ونتضرع حتى يصيبنا نصيبٌ من قوله عليه الصلاة والسلام ﴿عبادةٌ في الهرج كهجرةٍ إلي﴾.

ووصيتي الثانية: إذا رأيتم هؤلاء الصعاليك، إذا رأيتم هؤلاء الذين يروجون في هذه الأيام لما تخطط

له إسرائيل من وراء التطبيع أن تحطموا وسائلهم بكل ما تملكون، نحن لا نستطيع في هذا الجو اللاهب أن نفعل شيئاً مادياً، من وراء الدعاء ولا نستطيع أن ندعم موقف رئيس هذه الدولة الذي كان ولا يزال يصنع بمواقفه العزة لهذه الأمة، لا نملك أن ندعم مواقفه إلا بهذا السبيل، فكونوا حُرّاساً أيها الإخوة للقيم في بلدتكم، كونوا حُرّاساً للأخلاق على أرضكم. إياكم وهؤلاء الناس.

قد تجدون صوراً تنطق بألفاظ العربية وقد تجدون مظاهر تنتمي إلى وطن عربي وإسلامي، ولكن احذروا فما أكثر ما تستقطب هذه الصور خدماً لإسرائيل.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم ..



٣٨٣- الحجاج المزيفون | ١٩٩٨/٠٣/٢٠

إن الله سبحانه وتعالى جعل السبيل إلى قبول الطاعات والقربات التي يتقرب بها الإنسان إلى الله سبحانه وتعالى محصورةً في سبيل الإخلاص أولاً، ثم في أن يستعين الإنسان على هذه الطاعة إن كانت من الطاعات المالية بالكسب الحلال، الذي جمعه من طريقٍ مشروع واكتسبه بوسائل قد أذن الله سبحانه وتعالى له بها؛ فالعبادات التي مزجت بمالٍ محرم مرفوضة معادة إلى صاحبها، والإنسان الذي يظن أنه يستطيع أن يجعل من عباداته وقرباته الجسدية شفيعاً بين يدي اكتساباته المالية المنحرفة إنسانٌ مخدوع وإنسان قد تلبس به الشيطان ووسوس إليه الباطل. لم يجعل الله سبحانه وتعالى إطلاقاً من عبادةٍ من العبادات شفيعاً لوزرٍ ماليٍ قد يرتكبه الإنسان. يجب أن يعلم كل منكم هذه الحقيقة.

فلا يتخيلن مسلمٌ أنه إن غش الناس بمعاملاته وإن سرق أو تلصص أو ارتشى أو خدع وخادع فلسوف يطهر نفسه غداً من ذلك كله بركعات أو بحجٍ إلى بيت الله الحرام، ذلك لأن الله طيبٌ لا يقبل إلا طيباً كما قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل فلتعلم أنك مهما رفعت يديك تبسطهما إلى السماء بالدعاء لن يُقبل دعاؤك ولسوف يرد الله سبحانه وتعالى دعاءك عليك. ألم يقل المصطفى صلى الله عليه وسلم في آخر هذا الحديث ذاته ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يبسط يديه إلى السماء يقول: يا رب يا رب ومأكله حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب له.

كثيرون هم أيها الإخوة الذين حمّلوا كواهلهم أوزاراً ثقيلة من المحرمات المالية، جنوا أموالاً بغير وجهٍ شرعي، اقتنصوا أموالاً بغير الطريق الذي أذن الله سبحانه وتعالى به، ظلموا أناساً بغشٍ وخديعة أخذوا بهما أموالهم، حتى إذا جاء موسم الحج فكر هذا الإنسان وأمثاله أنه يستطيع أن يلقي هذه الأوزار كلها عن كاهله إن هو ذهب حاجاً إلى بيت الله الحرام وطاف مع الطائفين وسعى مع الساعين.. ولسوف يستطيع عندئذٍ أن يلقي هذه الأثقال كلها في بيت الله الحرام ويرجع خفيفاً معافاً قد تاب الله عز وجل عليه.

لا يتصورن إنسانٌ هذا، إنها رقية شيطان، بل إن حجه لن يكون مقبولاً كما قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه الطبراني بالأوسط من حديث أبي هريرة مرفوعاً ورواه الأصبهاني مرسلاً من حديث سالم بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ﴿إذا خرج الحاج حاجاً بنفقة طيبة، ووضع رجله في الغرز وقال: لبيك اللهم لبيك. نادى منادٍ من السماء يقول: لبيك وسعديك نفقتك حلال وراحلتك حلال وحجك مبرورٌ غير مأزور. وإذا خرج الحاج حاجاً بنفقة خبيثة ووضع رجله في الغرز قائلاً: لبيك اللهم لبيك. نادى منادٍ من السماء يقول: لا لبيك ولا سعديك نفقتك حرام وراحلتك حرام وحجك مأزورٌ غير مأجور﴾، هذا كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وليت أن هؤلاء الذين يلهثون وراء جمع المال من كل جهة من كل حدب وصوب من حلالٍ أو حرام، سواء اقتضاهم ذلك أن يظلموا أناساً برئاء أو أن يخدعوا أناساً مغفلين أو أن يغشوا أو أن يرتشوا، هؤلاء الذين يتصورون أن الحج إلى بيت الله الحرام بمثابة مغتسلٍ أو ماء يغسلون به قذارة أعمالهم وتصرفاتهم، فليعلموا أنهم بحجهم هذا يزدادون بعداً من الله سبحانه وتعالى؛ إذ إنهم في ذلك كالذين يخادعون الله سبحانه وتعالى، ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ﴾ كم ينطبق هذا الكلام على حالِ كثيرٍ ممن يفيض بيت الله الحرام بهم في كل عام.

ينبغي أن نعلم أيها الإخوة أن القاعدة التي نكررها كثيراً بكل مناسبة هي المحكم بسير الإنسان في هذه الحياة الدنيا مع الله، حقوق الله مبنية على المسامحة، لو أن إنساناً أمكنه أن يحج إلى بيت الله الحرام بهذا العصر ولم يحج، أغلب الظن أن الله لن يحاسبه ولن يحمله مسؤولية عدم ذهابه حاجاً إلى بيت الله الحرام، لو أن إنساناً مات وقد قصر في بعض عباداته، وقد قصر في بعض قرباته التي بينه وبين الله عز وجل، فأغلب الظن أن الله عز وجل سيعفو، ولن يؤاخذه. ولكن فلتعلموا أن حقوق العباد مبنية على المشاحة، لو أن الإنسان رحل من هذه الدنيا وعليه درهم؛ درهم واحد لعبد من عباد الله سبحانه وتعالى اقتنصه منه ظلماً أو بغشٍ أو بخداعٍ أو رشوة فلا والله لا بد أن يبقى في الموقف بين يدي الله سبحانه وتعالى حتى يعاقب لقاء هذا الدرهم الذي اقتنصه بدون حق أو حتى يعفو صاحب هذا الحق منه.

فما بالكم بالأموال الطائلة التي تقتنص من أصحابها ظلماً؟! ما بالكم بالملايين التي يكدسها كثيرٌ من الرجال والتجار بوسائل محرمة من غش من خديعة من تلاعبٍ بالشريعة وتلاعبٍ بالقوانين أيضاً..؟ من اتفاقات بينهم وبين كثيرٍ من الموظفين؟؟ ويذهب ضحية هذه الاتفاقات برءاء مساكين فقراء.

أيظن هؤلاء الناس أنهم إن توجهوا إلى القبلة ببعض الركعات غفر الله لهم وتجاوز عن حقوق العباد التي تراكمت في أعناقهم!! بئس ما يتصورون.

أيتصور أحدهم أنه إذا ذهب حاجاً إلى بيت الله الحرام ورجع بلقب الحاج فلان يزدهي به بين الناس فإن الله سبحانه وتعالى سيذيب جرائمه التي ارتكبها في حق عباد الله عز وجل!! بئس ما يتصورون هؤلاء الناس لا سيما الجرائم المالية. ينبغي أن نعلم هذه الحقيقة أيها الإخوة.

وهاهنا حكمٌ شرعي يلتبس على كثيرٍ من الناس ينبغي أن نشير إليه. لعل قائلاً يقول: فإذا اجتمعت لدي أموالٌ جمعتها من طرق محرمة أما يحق لي أن أحج بها؟ أما يحق لي أن أتصدق بها؟ أما يحق لي أن أنفق منها على أهلي وعلى أولادي؟ ما الجواب عن هذا أيها الإخوة؟

لاحظوا القاعدة الفقهية التي ينبغي أن يعلمها كل مسلم، المال الخبيث الذي جمعه إنسان بوسائل محرمة، لا يملكها هذا الإنسان، هو وضع يده عليها ولكنه لا يعد في شريعة الله مالكاً لها، ومن ثَم فإن سائر التصرفات التي يتصور بها مالك هذا المال ظناً ووهماً منه؛ سائر ما يعود به هذا الإنسان على من كلفه الله بالإنفاق عليهم ما ينبغي أن يُصرف المال إلى شيء من ذلك. هو مكلف بأن ينفق على أهله لا يجوز أن ينفق من هذا المال على أهله، لأنه ليس مالكاً له، وإنما ينفق الرجل على أهله وأولاده مما امتلك.

لا يجوز له أن يحج به لأنه إنما يحج بالمال الذي يمتلكه، أما هذا المال الخبيث فإنه لا يمتلكه، ولذلك لا يجوز أن يمتلكه لا يجوز أن يحج به.

جاء ميقات الزكاة وأراد أن يزكي، لا يحق له أن يزكي بهذا المال، لأنني إن عندما أزكي أزكي من المال الذي أملكه، أما هذا الذي اقتنصته اقتناصاً بالوسائل التي حدثتكم عنها فأنا لم أملكه، فكيف أزكي مالي منه وهكذا... إذاً ما مصير هذا المال؟

مصير هذا المال أنه ينبغي أن يعود إلى أصحابه الذين هم ملاكه، فإن عرفت هؤلاء الناس الذين غششتهم وخدعتهم أو اقتنصت المال بالطرق المحرمة منهم بعلمٍ منهم أو بغير علم، ينبغي أن تعيد هذا المال إليهم بأي طريقة أمكنك. أما إن لم يكن هنالك سبيل إلى إعادة المال إلى أصحابه كأن يكون أصحابه متناثرين بين سمع الدنيا وبصرها لا تعرفهم ولا تعرف مصائرهم، فقد قال علماء الشريعة: إن هذا المال يصبح في حكم الأموال الضائعة، أنت لا تملكه على أي حال لا تستطيع أن تشتري به لنفسك طعاماً ولا لأهلك ولا لضيوفك لأنك لا تملكه، ولن تستطيع أن تعيده إلى أصحابه، ما السبيل؟ السبيل أن نعود بهذا المال إلى ما ينبغي أن تعود إليه الأموال الضائعة، والأموال الضائعة التي لا نعرف أصحابها يجب أن تعود إلى مصالح المسلمين المتنوعة المختلفة، وفي مقدمة المصالح الفقراء.

ولكن إياك أن تتصور أنك عندما تعطي هذا المال للفقراء تكون بذلك قد أحرزت لنفسك أجراً بهذه الصدقة، هذا لو كنت مالكاً لهذا المال أجل عندئذٍ تحرز بذلك لنفسك أجراً، ولكنك مؤتمنٌ أن تعيد هذا المال إلى أصحابه، أنت مجرد مقتنص ومهمتك أن تعيد المال إلى أصحابه، لم تعلم أصحابه تعيده إلى مصالح المسلمين، مصالح المسلمين هي التي تملك هذه الأموال، وفي كلتا الحالتين ليس لك على هذا أي أجر بشكل من الأشكال.

ينبغي للتجار الذين يصفقون في السوق أن يعرفوا هذا الحكم، ينبغي أن يعرفوا أحكام الحلال والحرام، ما ينبغي أيها الإخوة لمسلم يخادع الله بركعات يخادع الله بالذهاب إلى العمرة أو الحج ثم إنه يمضي العالم كله لاهثاً وراء المال يسيل لعابه على صفقات تجارية من أي وسيلة جاءت وبأي طريقة جاء المال ودخل جيبه. وكم من مظلومين في هذه البلدة يأنون ويرزحون تحت الظلم، لا ظلم دولة ولا ظلم قانون ولكن ظلم حجاج مزيفين يزعمون أنهم حجاج إلى بيت الله الحرام، يقتنصون منهم الأموال بالخداع وبالغش وبالوسائل العجيبة المتنوعة، ينبغي أن يعلم هؤلاء الذين يسيل لعابهم على المال الحرام من أي جهة لاح، ينبغي أن يعلموا أنهم آيلون إلى الله، وأنهم راجعون إليه، وأن لهم وقفة بين يديه، عندئذٍ لن ينفعهم المال ولا البنون. ولكن الذي ينفعهم شيء واحد هو أن يكونوا قد طهروا أنفسهم وجيوبهم وصناديقهم في دار الدنيا مما قد حرم الله سبحانه وتعالى.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

٣٨٤- لذا.. لن أذكركم بفريضة الحج | ١٩٩٩/٠٢/٢٦

لقد دأب كثيرٌ من المرشدين والخطباء أن يُذَكِّروا الناس في مثل هذه الأيام بالآيات التي تدعو الناس إلى الحج إلى بيت الله الحرام، كما يذكروهم بالأحاديث النبوية الكثيرة التي تهيجهم شوقاً للحج إلى بيت الله الحرام ولأداء المناسك التي هي جزءٌ لا يتجزأ من دين الله سبحانه وتعالى، ولكني أعتقد أننا لسنا بحاجة بهذا العصر في هذه السنوات إلى أن نذكر الناس بشيءٍ من الآيات أو الأحاديث التي تأجج الشوق إلى زيارة بيت الله الحرام وأداء مناسك الحج، ذلك لأن الناس بدون هذه المشوقات يتسابقون ويتنافسون ويسلكون كل السبل الممكنة وربما غير الممكنة في سبيل أداء هذا النسك. وأعتقد أن المسلمين لو تسابقوا وتنافسوا إلى أداء ما ترتبت عليهم من حقوقٍ للعباد كما يتسابقون ويتنافسون في طريق الحج إلى بيت الله الحرام، لأصلح الله عز وجل شأن المسلمين، ولجمع شملهم ولسدت الثغرات الخطيرة المتفتحة فيما بينها.

ولكن يا عجباً لحال كثيرٍ من المسلمين اليوم، تتجمع لواعج الدين في نفوسهم وتهتاج الأشواق الربانية بين جوانحهم لتتخذ خطاً واحداً لا ثاني له، ألا وهو السير حجاجاً إلى بيت الله الحرام، فإذا نظر الإنسان إلى مظاهر أشواقٍ في التصرفات الأخرى في الأعمال الأخرى، في الوصايا الأخرى من الله سبحانه وتعالى لعباده، وجدت أكثر هؤلاء الناس بعيدين تائهين لا تتحرك جوانحهم بشيءٍ من ذلك الشوق الذي يعتلج بين جوانحهم كلما دنى موسم الحج إلى بيت الله الحرام.

وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أن القصد ليس وجه الله سبحانه وتعالى، وإنما هنالك أغراض أخرى يتأبطها أكثر هؤلاء الناس الذين يتجهون في الظاهر حجاجاً إلى بيت الله الحرام، وإلا فإن الشوق إلى الله عز وجل لا يتجزأ، إن الشوق إلى الله عز وجل لا يمكن أن يترجم إلا بأداء سائر الواجبات التي خاطب الله سبحانه وتعالى بها هؤلاء المتشوقين وهؤلاء الذين تلتاع قلوبهم شوقاً إلى رؤية بيت الله الحرام كما يقولون.

الشوق إلى دين الله لا يتجزأ.. والإنسان الذي اشتد به الشوق إلى أن يرى بيت الله الحرام إنما اشتد شوقه في الحقيقة إلى الله سبحانه وتعالى، والذي اشتد حبه لله واشتياقه إليه لا بد أن يترجم ذلك بأداء حقوق العباد، لا بد أن يترجم ذلك في السير بكل شؤونه وفي كل أعماله على النحو الذي أمر الله سبحانه وتعالى به.

الإنسان الذي حركه وهيجه الشوق إلى الحج لا يمكن – إن كان مخلصاً لله عز وجل – أن يخطو خطوة لأداء هذه المناسك بشكل لا يرضي الله سبحانه وتعالى.

ما أكثر الذين يصطنعون الحِرَف التي يخدم بها الحاج عباد الله هناك وهو لا يمت إلى تلك الحرفة بصلة. وإنما هي خطة ترسم ما بينه وبين المنتفعين بوسائل من الدفع والأموال من أجل أن يغطى هذا الإنسان بحرفة لا علاقة له به ومن ثم يتاح له أن يؤدي مناسك الحج.

وكم وكم أُسأل عن هذا الأمر الذي لا داعي ولا حاجة إلى السؤال عنه. لو كان الدافع هو وجه الله سبحانه وتعالى لعرف هذا الإنسان أنه بهذا العمل يغضب الله سبحانه وتعالى ولا يرضيه، كم من أناسٍ يعرفون أن الرشوة محرمة وأنها من الكبائر وأن الله عز وجل نهى عنها وأنه من أكل المال بالباطل وقد قال الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾، ثم يُغمض الواحد منهم عينيه ويدفع الرشوة هنا والرشوة هنا، لماذا؟ لأنه شديد الشوق إلى رؤية بيت الله الحرام. كيف يمكن لهذا الإنسان أن يكون صادقاً مع نفسه؟

كم من أطباء يذهبون باسم الطب ثم لا ينتفع الحجيج من طبهم شروى نقير؟

وكم من حرفيين وليسوا بحرفيين إلا بالاسم يغطون أنفسهم بهذه الحرفة ليتاح لهم أن يحجوا إلى بيت الله الحرام ولا يستفيد الحجيج من الحرفة التي ألصقت بهم شروى نقير بل كم من أناسٍ يذهبون باسم الإرشاد وباسم التوجيه والتعليم ولا يستفيد الحجيج من إرشادهم شروى نقير؟

كيف يمكن أن نفهم أن هذا العمل إنما يدفع إليه إخلاصاً لوجه الله عز وجل؟ أليس من الحق أن نقول لو أن الناس تنافسوا وتسابقوا سعياً إلى أداء ما ترتبت عليهم من حقوقٍ للعباد في نطاق التعامل

كما يتنافسون ويتسابقون في مواسم الحج سعياً للحج إلى بيت الله الحرام لاجتمع شمل المسلمين ولصلح حالهم ولتجلى الله سبحانه وتعالى عليهم بالرحمة.

أيها الإخوة ورد في الصحيح من حديث أبي هريرة من رواية الطبراني والحاكم على شرط الشيخين أن الرجل الذي يتجه إلى بيت الله الحرام بنفقة محرمة إذا وضع رجله في الغُرز - أي في ركاب الناقة أو الراحلة التي تقله إلى بيت الله الحرام – وقال: لبيك اللهم لبيك. نادى ملكٌ: لا لبيك ولا سعديك مالك حرام ونفقتك حرام. وكم يردد هذا الملك في هذا العصر هذا الجواب لكثيرٍ ممن يقولون لبيك لبيك؟

يا هذا الذي تعلن عن شوقك إلى بيت الله الحرام، هل ترجمت شوقك هذا إلى الله - وأنت تاجر - في الابتعاد عن الخديعة والغش والربا وألوان المكر المعروفة والمعهودة في الأسواق؟

هل ابتعدت عن الرشوة إعطاءً وأخذاً وأنت تعلن عن شوقك إلى بيت الله الحرام؟

هل عدت إلى كتب الشريعة الإسلامية ووقفت على الشروط التي لا بد منها لكي يتعلق الحج ركناً بعنق الإنسان المسلم؟

وهل عدت إلى الشروط التي يتحدث عنها علماء الشريعة الإسلامية لصحة الحج ولكي لا يتلبس الإنسان من خلال حجه بمعصيةٍ أخطر وأشد من هذا الحج الذي يريد أن يذهب إليه؟ ما أقل الذين يبحثون عن هذه الشروط وما أكثر الذين يغمضون أعينهم عنها. علماء الشريعة الإسلامية يذكرون أنه لا يجوز للإنسان الذي ترتبت عليه ديون في ذمته أن يسافر خارج بلده إلا إذا وفّى هذه الديون أو استمسح واستأذن أصحابها فأذنوا له. وكم وكم هم الحجاج الذين يتجهون حجاجاً لأداء مناسك الحج وقد أثقلت كواهلهم بالديون فلا هم يستأذنون ولا هم يوفون ذممهم. لا يمكن لمثل هؤلاء الناس إذا تلمسوا مكمن الإخلاص لله بين جوانحهم أن يجدوا أثراً لهذا الإخلاص.

المخلص لله يبحث دائماً عن مقومات الرضا عن العمل الذي يقوم به، هل قمتُ بهذا العمل كما أمر الله؟ هل أديته كما افترض الله سبحانه وتعالى علي؟ هل التزمت بالشرائط التي يأمرني بها الله عز وجل؟

نساءٌ أيها الإخوة يحرصن الحرص الشديد؛ يزعمن بأنه بدافع الشوق بدافع هياج عاطفي لزيارة بيت الله الحرام يخترقن حواجز الشروط كلها، يخترقن حواجز الآداب الإسلامية كلها، لا تبالي الواحدة منهم بحرامٍ أو حلال في سبيل أن تجد نفسها قد دخلت في مجموعة هؤلاء الحجيج.

قد تكون تمر بعدة ومع ذلك تغمض العين وتبحث عن وسيلة ما لتذهب.

قد لا تجد القريب الذي ينبغي أن تسافر معه أو لا تجد النسوة الثقات اللائي ينبغي أن تسافر معهن إذا كان الحج فريضة اللهم، ومع ذلك فهي لا تبالي بأن تخترق هذه الآداب والشروط لأنه الشوق يهتاج بها، أجل. المرأة التي أدت مناسك الحج وأدت الفريضة الأولى لا يجوز لها أن تسافر إطلاقاً إلا مع ذي رحم إلا مع قريبٍ لها، ولا يجوز أن تختلق القرابة إختلاقاً كما تفعل كثيرٌ من النساء. هذا شيء لم يأمرني له الله عز وجل به، لماذا أتكلف ورسول الله يقول: ﴿أنا وأتقياء أمتي برءاء من التكلف﴾.

لذا أيها الإخوة أنا لست ممن يذكركم بالأحاديث التي تؤجج مزيداً من الشوق بين جوانحكم لزيارة بيت الله، ولست ممن يذكركم بالآيات القرآنية التي تحرك أسباب الهياج وأسباب الالتياع للتوجه إلى بيت الله الحرام، بل أولى من هذا أن أذكركم بالكوابح، أُذكركم بالضوابط، أذكركم بالشرط الأساسي ألا وهو الإخلاص لوجه الله: ﴿إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً﴾، وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه يأتي زمان على الناس يحج أصحاب الحرف المختلفة إلى بيت الله الحرام ليجعل كلٌ من الحج خادم لحرفته، أجل هذا مما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم وننظر فنجد مصداق كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم يُطبق اليوم ويتسع ولا يزال يتسع. اللهم ارزقنا الإخلاص لوجهك الكريم.

استغفروا الله سبحانه وتعالى يغفر لكم فيا فوز المستغفرين ويا نجاة التائبين.

٣٨٥- حجاج.. لكنهم يعودون بالوزر لا بالأجر | ٠٤/٠٢/٢٠٠٠

تعلمون أن الحج ركنٌ من أركان الإسلام، وكلكم قرأ أو سمع قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾. ومن رحمة الله عز وجل بعباده أن قرن هذا الركن بشرط هو الاستطاعة، وللاستطاعة وجوه ومعان وأنواع كثيرة، فمن لم تتوفر لديه الاستطاعة بأنواعها سقطت عنه هذه الفريضة ولم يحاسبه الله سبحانه وتعالى على تفويته لهذا الركن.

ولست بصدد الحديث عن الاستطاعة وأنواعها وتفاصيلها، ولكني ألفت النظر إلى أن من وجوه الاستطاعة الهامة أن لا يستلزم حج الإنسان ارتكاب معصية، أي لا يتوقف حجه إلى بيت الله الحرام على ارتكاب معصية نهى الله سبحانه وتعالى عنها، فإن علم أن حجه يستلزم تلك المعصية سقطت عنه تلك الفريضة بل تحولت هذه الفريضة عندئذٍ إلى عملٍ محرم، لأن من القواعد الفقهية (أن كل ما استلزم محرماً يُصبح هو الآخر محرماً) الطريق إلى المحرم محرماً.

مثال ذلك: أن يُقال لهذا الإنسان الحاج تعال ألبسك صبغة الإنسان الطبيب الذي يخدم الحجيج بطبه وأيسر لك الحج إلى بيت الله الحرام وهو ليس بطبيب؛ يتزيا بزي الأطباء أو يخلع على نفسه سمة الأطباء ليفتح بذلك نفسه سبيلاً للحج إلى بيت الله الحرام، إذاً توقف حجه على شهادة زور أو على أمر مزيف أو على شخصية كاذبة. أولاً هذا الإنسان إذا توقف حجه على هذا الأمر لم يعد حجه واجباً، ثانياً تحول حجه في هذه الحالة إلى عملٍ محرم.

كذلكم لو قيل لزيد من الناس: سأيسر لك السفر إلى الحج على أن تكون سمتك سمة قصابٍ يعين الناس لذبح هديهم وضحاياهم وما إلى ذلك، وهو ليس من هذه الصنعة في شيء، وهو يعلم أنه إذا ذهب لن يقوم بهذا العمل إطلاقاً. كذلك إذا توقف حجه على أن يصبغ نفسه بهذه السمة الكاذبة لم

يعد حجه واجباً بل تحول عندئذٍ إلى محرم، لأنه يحرم على الإنسان أن يخلع على نفسه صفةً يكذب بها على الناس وإذا كان هذا العمل محرماً فما استلزمه أيضاً يصبح محرماً.

مثال ذلك أيضاً أن يتوقف حج هذا الإنسان على رشوة يدفعها لهؤلاء الذين يتنافسون في موسم الحج ويتسابقون إلى أعمال تجارية مربحة هائلة، إذا توقف حجه على عملٍ من هذا القبيل سقط الوجوب أولاً عن عنقه، ثم إن هذه الفريضة تحولت عندئذٍ إلى محرم، وأنتم تعلمون أن الرشوة من أخطر المحرمات التي نهى الله سبحانه وتعالى عنها، وهي محرمة على الآخذ وعلى المعطي كلاهما ضالعان في ارتكاب هذه المعصية.

وينبغي أن تعلموا الفرق بين الأجرة التي ينبغي أن يدفعها الحجيج لوصوله إلى بيت الله الحرام ولأداءه المناسك وبين الرشوة، فكل ما دخل تحت اسم الأجرة – سواءٌ أجرة أداة الركب أو أجرة السكن أو الخدمات المختلفة المتنوعة أو النفقات – التي يحتاج إليها الحاج كل ذلك داخلٌ تحت الأجرة أو التكاليف المشروعة، أما ما وراء ذلك كأن يستغل زيد من الناس.

وأقولها بوضوح وأضع النقاط على الحروف حتى لا يبقى الكلام ملتبساً يأتي من يستغل تأشيرات دخول بسبب سمعته وبسبب مركزه وبسبب صلته ببعض المسؤولين؛ يعمد إلى تأشيرات الخروج التي منحها بسبب مركزه يبيعها لزيد ولعمر ولفلان من الناس بالغة قيمة هذه التأشيرات ما بلغت؛ يجعل من ذلك تجارة رابحة ليذهب هؤلاء الناس من وراء تجارته حجاجاً لبيت الله الحرام، هذه رشوة محرمة بالاتفاق ولا أعلم اختلافاً بين العلماء في أن هذا العمل محرم. ثانياً الذي يعين هؤلاء الناس الذين يتاجرون بطريقةٍ ملتوية غير مشروعة ضالعون معهم في ارتكاب هذا المحرم.

وإذا جاء من يقول إنني شديد الشوق إلى بيت الله الحرام وإنني مستعد أن أدفع هذا المال بالغ ما بلغ في سبيل أن أروي ظمأي وأن أذهب أرى بيت الله الحرام وأزور رسول الله صلى الله عليه وسلم. نقول له: هذه المشاعر إن هي إلا رقية شيطان ينفخها الشيطان نيران بين جوانحك، الشوق والحنين إلى بيت الله الحرام وإلى زيارة رسول الله صلى الله عليه وسلم كل ذلك لا يجوز أن يترجمه إلا الشرع، لا يجوز أن يفسر إلا بأحكام الشريعة الإسلامية. والمقياس الصحيح لشوق الإنسان هو هذا، ذلك لأن الذي يتشوق

لبيت الله الحرام يتشوق إليه رغبة في مرضاة الله عز وجل وإلا فما فائدة هذه الحجارة المتراصفة؟ ما قيمتها إن لم تكن سبيلاً لبلوغ مرضاة الله، فإذا عرفت أن ذهابي لذلك المكان يبعدني عن الله عز وجل ويحملني أوزاراً بدلاً من أن يقربني إلى الله عز وجل فالأعلم أن هذا الشوق ليس شوقاً دينياً إنما هو شوقٌ نفسيٌ كشوق أحدنا إلى أثرٍ من آثار التاريخ سمع به ولم يره، كشوق أحدنا إلى تاج محل في الهند أو إلى الأهرامات في مصر، يشتاق إلى أن يذهب لذلك المكان فيرى هذا الذي يتحدث الناس عنه هل هو شوق ديني لا. كذلكم الشوق إلى زيارة مكة أو المدينة عندما يكون منفصلاً عن قواعد الشرع ليس شوقاً دينياً وإنما هو شوقٌ نفسي شوقٌ دنيوي يهتاج بين جوانح أحدنا كشوقه إلى أي رحلة يبتغي من ورائها حظاً من حظوظ نفسه.

وإنكم لتعلمون أن الحج ومواسمه تحولت في هذه الأعوام الأخيرة إلى ساحة نادرة لتجارة نادرة ما مثلها، ولا أريد أن أفيض في بيان الفرص التي تسنح كالبرق الخاطف، فتمتلئ بها جيوب الناس أموالاً من وراء استغلال هذه المشاعر التي تسمى مشاعر الشوق إلى بيت الله الحرام، عندما تأتي تأشيرة دخول من دولة ما لإنسان ما ثم آتي أنا فأجعل من نفسي وسيطاً بين الدولة التي منحت هذه التأشيرة وبين هذا الذي يريد أن يستفيد منها، فأجعل من نفسي واسطة أطلب بناءً على هذا الشيء مبلغاً كبيراً أم صغيراً من المال، ذلك لأن لي حظوة في سفارة من السفارات، لأن لي حظوةً عند مسؤول من المسؤولين؛ أُمنح كذا تأشيرة وأعود إلى الناس فأبيع ذلك كله بالمبلغ الذي يقتضيه صندوق العرض والطلب. هذا العمل بالنسبة لي عمل محرم لا شك في هذا ولا ريب، وهو من أخطر الأعمال التي يحذر ديننا ويحذر ربنا عز وجل منها، فإذا من جاء من يساعدني على هذا العمل المحرم ويشتري مني هذه البضاعة التي لا قيمة لها إطلاقاً بهذا المال الذي أطلبه فقد أعانني على هذا المحرم، ومن أعان على محرم فهو كمن ارتكب المحرم ذاته.

هذا الكلام واضح أيها الإخوة وقد روي عن المصطفى صلى الله عليه وسلم وهو يتحدث عن أشراط الساعة أنه: سيأتي زمنٌ يتسابق الناس فيه إلى الحج للتجارة، وقد صدق رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم. ما أكثر ما تهتاج مساعي الأهداف التجارية في مثل هذه الأيام بالوسائل المختلفة، فإن رأيتم أو سمعتم من يبرر هذا العمل ويهونه للناس الذين يريدون أن يحجوا، أو يقول لهم لا حرج ولا مانع

لأن هذا شرط من شروط الاستطاعة، وإذا كان هذا الشرط موفوراً لديك وإذا كان المال الذي ينبغي أن تدفعه لهذا الوسيط موفوراً فقد وجدت الاستطاعة. إذا سمعتم من يقول ويلغو بمثل هذا الكلام فاعلموا أنه هو الآخر تاجر، واعلموا أن هو الآخر يسيل لعابه على حظوة مالية من هذا القبيل فإياكم وإياه.

أيها الإخوة إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً لا سيما التوجه إلى بيت الله الحرام، عندما يتوجه الإنسان حاجاً إلى بيت الله الحرام ينبغي أن يطيب مأكله، وينبغي أن يطيب مشربه، وينبغي أن يكون ماله نقاية الحلال لا الحلال فقط، بل ينبغي أن يكون ماله الذي هيأه لهذا الأمر من نقاية الحلال، وينبغي أن يعلم إلى أين يصرف هذا المال، ولا شك أن سبيل معرفة ذلك أن يعود فيدرس تفاصيل أحكام الحج إلى بيت الله الحرام لا سيما شروط وجوب الحج وشروط صحة الحج وجوازه، لابد للحاج أن يتعلم ذلك كله، ثم لابد أن يتعلم سير المناسك مراحل المناسك، ولا أشك أن الذي يقفز قفزاً فوق هذا ذاهباً للحج ولزيارة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو لا يعلم ما هي شروط وجوب الحج وما هي شروط جوازه وشروط صحته، ثم هو لا يعلم مراحل النسك المعقدة كيف يصنع وكيف يفعل، وما هي محرمات الإحرام وما هي الواجبات، لا شك أن هذا الإنسان ليس مخلصاً لله، لأنه لو أخلص لله لدفعه إخلاصه للعلم قبل العمل، ومن قفز للعمل لاهياً ساهياً عن العلم فذلك لأن هوىً من أهواء النفس دفعه إلى هذا القفز.

والحج ما أكثر الأهواء التي تتسرب إلى نفوسنا وتدفعنا إليه؟ لا شك أن هنالك حظوة نفسية كبيرة في أعمال الحج، ولا شك أن رحلة يوفق الله سبحانه وتعالى إلى ذلك المكان وإلى تلك المشاهد إنها لرحلة طريفة، إنها لرحلة ممتعة، وإنها لرحلة تمتع النفس وتمتع العين لكن هل هذا هو الذي يقرب الإنسان إلى الله؟ لا.. الذي يقرب الإنسان إلى الله هو الدافع الذي يدفعك إلى العلم أولاً، إلى أن تدرس هذه الشعيرة دراسة دقيقة وإلى أن تتبين خطواتك وأنت تسعى جاهداً للحج إلى بيت الله الحرام.

قيل لك: إن سنك لا تيسر لك الحج في هذا العام إلى بيت الله الحرام إذاً لم تملك الاستطاعة.

جاءك من قال أعطني مبلغاً من المال سأهيء لك سبيلاً للذهاب رشوة. هل يجوز لك أن تدفع هذا المال له؟ لا يجوز. هو سيتوسط لدى المسؤولين بوسائله الأدبية المختلفة ويضع المال في جيبه، وكنت أنت عوناً له على ارتكاب هذا العمل المحرم.

احتسب أجرك عند الله وقل لربك عز وجل: أي رب إنك لتعلم أنني مشتاق إلى زيارة بيتك وزيارة نبيك، ولكني أكثر من ذلك شوقاً إلى التمسك بأوامرك. عندئذٍ يكتب الله عز وجل لك الأجر على حجٍ لم تحجه، ورب عملٍ كتب الله سبحانه وتعالى الأجر لصاحبه وهو لم يفعله، لأن الله اطلع على قصده وعلم لو أن الظروف لو واتته لفعل.

أقول قولي هذا وأسأل الله عز وجل أن يرقنا الإخلاص لوجهه فاستغفروه يغفر لكم.



٣٨٦- الطاعة المبرورة إذا استلزمت ارتكاب معصية غدت معصية | ٢٠٠٧/١١/١٦

يقول مولانا سبحانه وتعالى في محكم تبيانه: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُوماتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدالَ فِي الْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧]. الفسوق كما تعلمون هو الشرود والخروج عن أوامر الله سبحانه وتعالى، والتلبُّسُ بما قد حَرَّم ونهى عنه، وها أنتم ترون وتسمعون كيف أن الله سبحانه وتعالى ينهى عن الفسوق في الحج، والنهي عن الفسوق في الحج شامل لحالتين اثنتين؛ أن يتلبس الإنسان أثناء مناسكه بالفسوق، أو أن يكون اتجاهُه إلى الحج وسيرُه إليه متلبساً بالفسوق. كلاهما داخل في هذا الذي ينهى الله سبحانه وتعالى عنه، فمن وجد أن الطرق إلى الحج لبيت الله الحرام مغلقة، وليس أمامه إلا طريقٌ فيه فسوق، وفيه عصيان، فقد تلبس بهذا الذي نهى الله عز وجل عنه، تماماً كما لو ارتكب أسباب الفسوق أثناء مناسك الحج وأدائه له.

ومن هنا اتفق علماء الشريعة الإسلامية على قاعدة لا نعلم فيها خلافاً؛ وهي أن الطاعة المبرورة إذا استلزمت ارتكابات محرم تحولت الطاعة من جراء ذلك إلى معصية، وتحول استحقاق الطائع المثوبة إلى استحقاقه العقاب من جراء ذلك، المعصية التي تتوقف الطاعة عليها تُهْدِر معنى الطاعة، وتُحِيلُها إلى معصية، فالإنسان الذي يريد أن يصلي صلاة يتقرب بها إلى الله عز وجل، إذا التزمت صلاته أن يغتصب أرضاً ويقفَ فيصليَ عليها، تحولت صلاته إلى معصية، وتحول الأجر الذي كان ينتظره إلى عقاب ينبغي أن يتوقعه، بل في الفقهاء من قرر بطلان هذه الصلاة، وإذا توقفت تلاوتك لكتاب الله عز وجل على أن تغتصب مصحفاً من صاحبه فتقرأ فيه دون إذن منه تحولت الطاعة التي تتلبس بها، – فيما تظن وهي تلاوتك لكتاب الله عز وجل – إلى معصية.

قاعدة ينبغي أن نعرفها تتحقق في كل أنواع الطاعات؛ ما من طاعة تؤديها لتتقرب بها إلى الله إلا ويشترط أن يكون الطريق إليها طريقاً مبروراً، وأن يكون سبيلك إلى أداء هذه الطاعة سبيلاً صافياً عن شوائب المحرمات، ينبغي أن نعلم هذه القاعدة، إذا علمناها فلنتساءل: ما حكم الحج الذي يتوقَّف على

مُحَرَّم؟ الذي يتوقف على فسوق يرتكبه الحاج؟ مما لا ريب فيه ن هذا الحج يتحول من طاعة إلى معصية، الإنسان الذي سُدّتْ أمامه السبل لبلوغ بيت الله الحرام، ولم يجد أمامه إلا سبيلاً واحداً؛ سبيل دفع الرشوة لزيدٍ من الناس، ينبغي أن يعلم أنه إن فعل ذلك فإنه قد حوَّل هذه الطاعة الكبرى المبرورة إلى معصية؛ ذلك لأنه ربط بين هذه الطاعة المبرورة وهذا العمل المحرم بالاتفاق، والله طيب لا يقبل إلا طيباً يا عباد الله.

وما أكثرَ الذين يُهْرَعون في هذا العصر، في هذه السنوات حجاجاً إلى بيت الله الحرام، وهم يرتكبون في طريقهم إلى هذه الطاعة هذه المعصية الخطيرة؛ الرشوة، والرشوة أمر محرم كما تعلمون، التأشيرات التي تباع في الأسواق السوداء رشوة من أخطر أنواع الرشوات، لا يجوز للإنسان أن يتقرب إلى الله بما قد حرمه، لا يجوز للإنسان أن يتقرب إلى مولاه وخالقه بمعصية حذَّره الله سبحانه وتعالى منها، أولئك الذي يتجهون ويُهْرَعون إلى بيت الله الحرام حجاجاً، ويتقنَّعون بأقنعة كاذبة؛ يجعل الواحدُ منهم نفسه صاحب صنعة؛ جزاراً، صاحبَ صنعة يحتاج أولئك الناس إلى أصحابها هناك، وما هو من هذه الصنعة بشيء، ولا علاقة له بها قط، وهو إن ذهب حاجاً إلى بيت الله الحرام لن يمارس ذلك بشكل من الأشكال، عمل محرم تدخل في شهادة الزور وادعاءات الزور، ولا يجوز إطلاقاً لإنسان أن يتقرب إلى الله بحج أو صلاة أو نسك عن طريقِ أمرٍ حرَّمهُ الله سبحانه وتعالى عليه، هذا ما يقرره فقهاء الشريعة الإسلامية، بل هذا ما قرره بيان الله عز وجل عندما نهى عن الفسوق في الحج، عندما أمر بأن يكون هنالك فاصل بين الحج المبرور والفسوق، سواء كان الفسوق في الطريق إليه، أو كان الفسوق داخلاً في مناسك الحج.

عندما تكون القصود متجهة إلى مرضاة الله، صافية عن حظوظ النفس لا يمكن للحاج أن تنزلق قدماه إلى هذا المحرم، لا يمكن أن يبذل ماله، ولا أن يبذل جهده في عمل يُخيَّل إليه أنه يتقرَّب به إلى الله، وهو إنما يرتكب بذلك عملاً محذوراً، نعم حجه صحيح، ولكنه لا يملك أي ثواب على هذا الحج، بل إنه يتحمَّلُ بدلاً عن الثواب الوزر والعقاب، وينبغي أن نعلم أنه لا تعارُضَ بين أن تكون العبادة صحيحة وأن يتحمل الإنسان الوزر عليها، الصلاة في الأرض المغصوبة صحيحة عند جمهور العلماء، ولكن لا ثواب للمصلي عليها، بل يتحمل الوزر بسبب أنه شَغَل بهذه الصلاةِ أرضاً ليست ملكاً له، ودون إذن صاحبها، وتلاوة القرآن عمل مبرور، لكنك لو أخذت مصحفاً لتقرأ به كتاب الله عز وجل دون إذن

صاحبه، بل أعلن لك أنه غير راضٍ بذلك، فإن تلاوتك لكتاب الله عز وجل تكون مناط وزرٍ وعقاب؛ لأنك ربطت بين طاعة ومعصية. وحقوق الله مبنية على المسامحة لكنَّ حقوق العباد مَبْنية على المشاحَّة. لا تُصَلِّ في الأرض المغصوبة، وإنك إن صليت فالله سبحانه وتعالى يستغني عن صلاتك هذه، لكنه يُحَمِّلُكَ وزراً بسبب إهدارك لحقوق الآخرين.

أمر الحج إلى بيت الله الحرام داخل في هذه القاعدة، ولقد ذكرتُ هذا في العام الماضي والذي قبله، ولقد بَيَّنْتُ ذلك – يا عباد الله – في كتابات ومناسبات، ومع ذلك أنظر وأسمع وإذا بهذه الظاهرة المحَرَّمة تتنامى بدلاً من أن تتقلص وتتراجع، ما أكثرَ الذين يدفعون الرشاوى وهم يتصوَّرون أنهم يرحلون حجاجاً إلى بيت الله الحرام ليكتسبوا الأجر، ما أكثرَ الذين يرتدونَ أقنعة الصناعات المختلفة التي لا علاقة لهم بها، أي يلبسون أقنعة الزور التي حرمها الله سبحانه وتعالى من أجل – فيما يزعم – أن يذهب حاجاً إلى بيت الله الحرام. هذا الأمر لا يمكن أن يُعالَجَ إلا بالرجوع إلى الدوافع الخفية، عندما تكون الدوافع الخفية للعبادة والحج إلى بيت الله الحرام صافيةً عن الشوائب، لا يُبْتَغى بها إلا مرضاةُ الله، الأمر محلول، والانقياد إلى أمر الله عز وجل نافذ، ولكن عندما تكون الصورةُ صورةَ عبادة، والهدفُ من وراء ذلك تنفيذَ حظ من حظوظ النفس، تغذيةَ شهوة من شهوات النفس، فما أكثر الذين يستمعون هذا الكلام ثم يضربون عنه صفحاً، والله عز وجل طيب لا يقبل إلا طيباً. أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم.

٣٨٧- يأتي على الناس زمان يدعو الرجل فيه لخاصّة نفسه فيستجاب له ويدعو لعامة المسلمين فلا يستجاب له | ٢٠٠٧/١٢/١٩

كلنا نستقبل في صباح هذا اليوم تجليات الرحمة الإلهية مقبلة إلى عباده جميعاً في مشارق الأرض ومغاربها، لا يستثنى منهم إلا من استكبر على الله وعتى عتوّه الدائم وأنكر هويته عبداً مملوكاً ضارعاً لله سبحانه وتعالى. إنها تجليات رحمانيةٌ ليست حكراً للحجيج في عرفة بل هي متسعة شاملة لعباد الله جميعاً في مشارق الأرض ومغاربها، ينال هذه الرحمات كل من تعرض لها ويُحرم منها كل من استكبر عليها وأعرض عنها. ولكن أحب أن أجيب عن سؤال يتطارحه كثير من الناس في مثل هذا اليوم عندما يجدون الكم الهائل من عباد الله المؤمنين الذين جاؤوا من مشارق الأرض ومغاربها إلى بيت الله الحرام طائفين، راكعين، ساعين، مبتهلين، متضرعين؛ إنهم ليسوا مئات ولا ألوفاً ولكنهم ملايين.

يتساءل كثير منا: كيف لا تستجاب أدعية هؤلاء الذين أقبلوا تسوقهم مشاعر العبودية لله، يدعون لهذه الأمة بالنصر والتأييد، وننظر عندما يعود كل منهم إلى دويرة أهله، إلى بلده، ينفض الجمع، ويتفرق كل إلى المكان الذي أتى منه وننظر إلى حال المسلمين فنجد أنها كما كانت؟. أين هي استجابة الله عز وجل لدعائهم والكل ضارع، والكل متبتل، والكل خاشع، والكل يدعو لهذه الأمة أن يضمد الباري عز وجل جراحاتها وأن يوقف نزيفها ولكننا ننظر فلا نجد أثراً بيِّناً لهذه الأدعية الكثيرة التي تصَّاعد إلى السماء في مثل هذا اليوم، فما الجواب عن ذلك؟ ورد في الأثر–يا عباد الله– أنه﴿ يأتي على الناس زمان يدعو الرجل فيه لخاصّة نفسه فيستجاب له ويدعو لعامة المسلمين فلا يستجاب له﴾. هذا الأثر هو الذي يتضمن الجواب عن هذا السؤال. يدعو الرجل لخاصة نفسه؛ سرعان ما يجد دلائل الاستجابة، يعود فيدعو لعامة المسلمين ولكنه لا يجد شيئاً من هذه الاستجابة التي وجدها في نفسه وخاصته.

سبب ذلك؛ أن هناك شروطاً لابد منها ينبغي أن تتحقق بين يدي الدعاء، وهي شروط معروفة ذكرناها وكررنا الحديث عنها في مناسبات كثيرة مرَّت. إذا تحققت هذه الشروط تحققت الاستجابة، أما إن لم تتحقق هذه الشروط في شخص الداعي فالأمر عائد إلى فضل الله عز وجل وحكمه، والمفروض ألا

يستجاب الدعاء في هذه الحال. الإنسان الذي يدعو لنفسه يملك أن يحقق شرائط الاستجابة في شخصه؛ يملك أن يتوب إلى الله، يملك أن يعاهد الله عز وجل ألا يعود إلى المعاصي التي كان عاكفاً عليها، يملك أن يعيد الحقوق إلى أربابها ومن ثم يدعو فتأتي الاستجابة.

ولكن عندما أدعو الله عز وجل لعامة المسلمين من لي بأن يستجيب هؤلاء المسلمون جميعاً لله قبل أن يستجيب الله دعاءهم فيصلح الفاسد ويُقَوِّمُ الاعوجاج ويتوب إلى الله عز وجل ويعيد الحقوق إلى أصحابها ويجددون بيعتهم لله عز وجل سائرين على أمره، منتهيين عما نهى؟. أنت تدعو لهؤلاء الناس ولكن مَنْ لك بأن يستجيب هؤلاء الناس لله ويحققوا شروط الاستجابة في أنفسهم؟ نظراً إلى أن هذا الشرط غير محقق؛لذلك صح كلام هؤلاء الذين قالوا- وقد صح ما قالوا-: ﴿يأتي على الناس زمان يدعو الرجل فيه لخاصة نفسه فيستجاب له ويدعو لعامة المسلمين فلا يستجاب له﴾.

كأن ملكاً يقول له: دعوتَ لنفسك بعد أن حققتَ شرائط الاستجابة وها هي ذي الاستجابة وصَلَتْكَ،أما هؤلاء المسلمون الذين تدعو لهم فَمُرْهُمْ قبل أن تدعو لهم أن يحققوا شروط الاستجابة؛ أن يحققوا شروط استجابة الدعاء التزاماً بأوامر الله، انتهاءً عما نهى الله عز وجل؛ عندئذٍ يستجيب الله عز وجل دعاءك لهم كما استجاب دعاءك لنفسك.

وننظر إلى المسلمين اليوم؛ إنهم مسلمون في الانتماء؛ نعم، إنهم مسلمون في ترداد شهادة أن لا إله إ لا الله، نعم ولكننا ننظر إلى واقع الحال، ننظر إلى السلوك، ننظر إلى ولايتهم لمن هي؟ أهي لله عز وجل أم لأعداء الله سبحانه وتعالى؟ ننظر ونتأمل فنجد أن الإسلام في حياتهم وعاء يتمثل في كلمات، وننظر إلى داخل هذا الوعاء فلا نجد شيئاً، لا، ليت أننا وجدناه فارغاً، نجده مليئاً بما يتنافى مع أوامر الله سبحانه وتعالى؛ حذّرنا الله سبحانه وتعالى من أن نخضع بالولاية لأعداء الله عز وجل، قال: ﴿ لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ وننظر وإذا بمعظم المسلمين خاضعين لولاية أعداء الله عز وجل؛ إن وجدوا الأوامر آتيةً من عند الله عز وجل أعرضوا عنها،وإن وجدوها آتية من لدن أعداء الله عز وجل طأطؤوا الرأس لها وخضعوا لها. ننظر فنجد أن الالتزام الحقيقي بأوامر الله وأحكامه، بشرعته، بأنظمته، بالأخلاق الإسلامية قد طُوِيَ ذلك كله واستبدل به بما يسمى

الحداثة، استبدل به ما يسمى التوجه إلى الأليق والأنسب، الأليق في نظر مَنْ؟ في نظر أعداء الله، والأنسب في نظر مَنْ؟ في نظر أعداء الله سبحانه وتعالى.

أمرنا الله سبحانه وتعالى وقد أكرمنا بأرض جعلها كنزاً للمدخرات، جعلها كنزاً للخيرات، أكرمنا الله سبحانه وتعالى بهذا كله فجعلَنا- لا أقول من أغنى عباد الله في الأرض- بل جعلنا أغنى عباد الله عز وجل في الأرض، وأمرنا الله سبحانه وتعالى أن نسخِّر كنوز الأرض، الظاهرة والباطنة، أمرنا الله أن نسخِّرها لما يرضيه، أن نسخِّرها لإقامة المجتمع الإسلامي، أن نسخِّرها لجمع الشمل وتحطيم أسباب الفُرقة؛ وننظر وإذا بهذه الكنوز تُقَدَّم مالاً حلالاً زلالاً لأعداء الله سبحانه وتعالى، ننظر فنجد أننا، وقد متَّعنا الله عز وجل بالغنى الذي لم يُمَتِّع به أحداً من عباده، ننظر فنجد جُلَّ المسلمين قد خلعوا هذه الخلعة التي ميزهم الله بها وقدَّموها إلى أعداء الله وارتضوا لأنفسهم الفقر بعد الغنى الذي متَّعهم الله عز وجل به.

يقولون:إن المسلمين يعانون من الضَّنْك، يعانون من الفقر، ولا والله ليس على وجه الأرض أمة أغنى من الأمة الإسلامية. وآية ذلك؛ أن الله عز وجل لم يجعل كنوز الأرض إلا تحت أقدام المسلمين، لم يجعل الله عز وجل الطاقات التي تتفجَّر كنوزاً وأموالاً لا تنتهي إلا تحت أقدام المسلمين، ولكن المسلمين عندما ارتضوا لأنفسهم المهانة بخضوعهم لسلطان غير سلطان الله، بخضوعهم لولاية غير ولاية الله عز وجل لهم؛ تحوَّل غناهم إلى فقر مُدْقِع،وتحوَّل عزّهم إلى ذل ومهانة،فأنَّى يستجاب لي عندما أدعو الله لهذه الأمة الإسلامية التي آل أمرها إلى ما ترون؟ صح فعلاً كلام من قال: (يأتي على الناس زمان يدعو الرجل فيه لخاصَّة نفسه فيستجاب له، ويدعو لعامة المسلمين فلا يستجاب له).

قلت قبل أيام:إن الوكالة -فيما درسناه وعرفناه من أحكام الشريعة الإسلامية- واردة ومشروعة في المعاملات المالية، في المعاملات التجارية، في الشركات، في البيوع، في الإيجار، في الرهن، في نحو ذلك،ولكن ما عهدنا أن الوكالة مشروعة في العبادة، ما عهدنا- فيما درسناه من أحكام ديننا الحنيف- أن الوكالة مشروعة في الالتجاء إلى الله، في التوبة إلى الله عز وجل. كيف يُتَصَّور أن أقول لإخوة لي: توبوا إلى الله بدلاً عني وادعوا الله لي كي يستجيب دعائي، التجئوا إلى الله بدلاً عني ثم ادعوا الله عز وجل أن يخلصني من هذا الذل الذي أعاني منه؟.

أيقبل الله هذا الكلام؟! ألستَ عبداً كأخيك هذا الذي توكّله بهذا الأمر؟! ألستَ أنت أيضاً مكلفاً بالتوبة والإنابة إلى الله؟! ألست أنت الآخر مكلفاً بأن تلتجئ إلى الله وتلتصق بأعتابه وتنكسر بالذل والمهانة عند أعتابه؟! كيف يتأتّى التوكيل في مثل هذه الأمور؟! لسان حال الأمة هكذا يقول. جُلّ المسلمين التائهين عن صراط الله عز وجل البعيدين عن أوامره في أحسن أحوالهم يقولون لهؤلاء القلة الذين يتجهون حجاجاً إلى بيت الله الحرام: التجئوا عنا إلى الله عز وجل، ادعوا الله عنا لله سبحانه وتعالى، توبوا لله عنا، أما نحن فلسوف نظل عاكفين على غينا، لسوف نظل عاكفين على شؤوننا. هذا هو السبب- أيها الإخوة- في أن الملايين التي تتقاطر مزدحمة حول بيت الله الحرام وتجتمع في ذُرى عرفة يدعون الله عز وجل لهذه الأمة فلا تجد أثراً لدعائهم. فلا يستشكلنَّ أحد هذا ولا يرتابنَّ أحد في رحمة الله وفضله ولا يدخلن الشك في قلب أي منكم في كلام الله عز وجل القائل: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾.أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر. الحمد لله حمداً يوافي نعمه ويكافئ مزيده. يا ربنا لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وصفيه وخليله خير نبي أرسله. اللهم صل على عبدك ونبيك محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه صلاة وسلاماً دائمين متلازمين إلى يوم الدين. عباد الله: ظاهرةٌ لابد أن ألفت النظر إليها؛ يُخَيَّلُ أن هناك ديناً جديداً لا عهد لنا به نراه في هذه السنوات؛ إنه يتمثل هذا الدين الجديد الغريب العجيب، يتمثل في زيارة القبور في مثل هذا اليوم صباح عيد الأضحى العيد المبارك. أنظر إلى هذه الظاهرة، أناس يهرعون سراعاً إلى ماذا؟ إلى المساجد ليُصَلُّوا؟! لا. إلى العبادات ليركعوا ويسجدوا؟! لا. وإنما إلى القبور.

أنا أعلم أن في الناس مَنْ لا يُصَلَّون، مَنْ لا يلتفتون إلى القبلة، ولكن إذا أشرقت شمس هذا اليوم خرجوا من فرشهم سراعاً يحملون هذه الخضرة، هذه الحشائش الخضراء ويهرعون إلى هذه القبور. ما الذي يدعوكم إلى ذلك؟ أهو الخوف من الله؟ معاذ الله.

لو كان السائق إلى ذلك الخوف من الله لهرعوا إلى المساجد قبل ذلك. أهو استجابة لسنة واردة عن رسول؟ أبداً. لم نقرأ في دين الله، لا في قرآنه ولا في سنة رسوله ولا فيما قاله العلماء أنه يسن زيارة القبور

صباح العيد نهائياً. نعم. ويخيل إلي أن الشيطان يقهقه في صباح هذا اليوم ضاحكاً على هؤلاء الناس، وأنظر إليهم شباباً، شيوخاً، كهولاً مسرعين متجهين إلى هذه القبور، تنظر إلى هذه المقابر وإذا هي قد ازدحمت بهؤلاء الوافدين. ما هو دافعكم؟ دافع ديني متصل بالإسلام؟

لا. يخيل إلي أنه دين جديد. دين التوجه إلى زيارة القبور صباح العيد هكذا دون أي ارتباط بكتاب الله وسنة رسوله. وكما قلت لكم: جُلُّ هؤلاء الناس تائهون عن دين الله؛ فيهم من لا يصلي، فيهم من لا يعرف شيئاً عن الواجبات الدينية التي خاطبهم الله بها والنواهي التي نهاهم الله عز وجل عنها. هناك أمر عام وارد عن رسول الله يقول: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها»، وقال العلماء: إن حكمة هذه الزيارة أنها تثير العبرة، أنها تجعل الإنسان يذكر المآل الذي هو صائر إليه ومن ثم تصغر قيمة الدنيا أمام بصره وبصيرته وهو أمر عام لم يقيده الله سبحانه وتعالى في صباح عيد الأضحى ولا عيد الفطر بشكل من الأشكال.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل أعمالنا منضبطة بالعلوم التي هي أساس الدين، وأسأل الله عز وجل أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه وأن يحررنا من التقاليد العَفِنة والعادات الآسنة.

٣٨٨- سلم الأولويات وشروط صحة الحج | ٢٠٠٨/١١/٠٧

دأب كثير من الخطباء والوعاظ في مثل هذه الأيام من كل سنة على تشجيع الناس إلى التوجه حجاجاً إلى بيت الله الحرام، يستثيرون من بين جوانحهم مشاعر الشوق والحنين إلى بيت الله الحرام وإلى زيارة سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم خير الأنام، والحقيقة أننا في هذه العصور المتأخرة لسنا بحاجة إلى استثارة هذه العواطف والأشجان في قلوب الناس من أجل أن يزدادوا شوقاً إلى الحج والتوجه إلى بيت الله الحرام، ذلك لأن وسائل أداء هذا النسك أصبحت يسيرة سهلة ولأن الحوافز الدنيوية المتنوعة المختلفة أصبحت تستقل بدفع أكثر الناس إلى الحج إلى بيت الله الحرام ثانية وثالثة ورابعة وربما في كل عام.

نحن نلاحظ يا عباد الله أننا نعيش الفترة التي يتجلى فيها مصداق كلام رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فيما رواه الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال: ﴿يأتي على الناس زمان يحج فيه الأغنياء للنزهة والمتوسطون للتجارة والقرُّاء للرياء والفقراء للمسألة﴾، خيرٌ من أن نستثير العواطف الجياشة المتجهة بالشوق إلى بيت الله الحرام ومثوى حبيبه محمد صلى الله عليه وسلم، أقول: خير من ذلك أن نبين للناس في هذه المناسبة شرائط وجوب الحج، بل شرائط صحة الحج إلى بيت الله الحرام، خيرٌ من هذا أن نُذَكِّرَ عباد الله عز وجل بأن يلجأوا إلى مبدأ سلم الأولويات عندما تتزاحم الواجبات أو تتزاحم السنن أو الأمور المشروعة، نحن في هذا المنعطف الذي أحدثكم عنه بحاجة ماسة إلى أن نحدث الناس عن هذه الأمور الهامة يا عباد الله.

أنا أنظر إلى كثير من المساجد في موسم الحج إلى بيت الله الحرام فأجد أن خطيب المسجد غائب وأن أحداً لم يحل محله بالشكل الذي يرضي الله عز وجل، وأنظر فأرى أن إمام هذا المسجد غائب ولا أجد من قد حل محله أو سَدَّ مَسَدَّهُ على النحو الذي يرضي الله سبحانه وتعالى، وأتأمل في دوائر الموظفين وإذا بكثير من هؤلاء الموظفين غائبون عن مهامهم المنوطة بأعناقهم، غائبون عن الوظائف التي كُلِّفُوا بها فأصبحت واجباً ملقىً على كواهلهم، أين هؤلاء الناس الذين كُلِّفُوا بهذه المهام؟ إنهم توجهوا حُجاجاً

إلى بيت الله الحرام ولربما كان الواحد منهم قد حج مثنى وثلاث ورباع وأكثر لكنه، كما يقولون، الشوق اللاهب يحدو بهم إلى بيت الله الحرام وزيارة المصطفى صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وأنا لا أستطيع أن أدخل إلى القلوب وأنبش أسرارها ولا أستطيع أن أتهم هؤلاء الإخوة بالمبالغة أو الكذب ولعلهم صادقون في الشوق الذي يتحرك بين جوانحهم ولكنا علينا جميعاً في هذه الحالة أن نعكف على معرفة أحكام الشريعة الإسلامية وأن نتبين واجبنا في مثل هذه الحالة لاسيما عندما تزدحم أمامنا الواجبات، مكلفون نحن في هذه الحالة بأن نلجأ إلى سُلَّمِ الأولويات.

أنا حججت إلى بيت الله الحرام مرة وثنتين وثلاث مرات مثلاً وأنا مكلف بمثل هذا الموقف الذي أقف فيه وقد دُعِيت اليوم إلى الحج ثانية أو ثالثة أو رابعة، ما الذي تقوله لي شريعة الله عز وجل؟ يضعني الباري عز وجل أمام سُلَّمِ الأولويات، الذي يدعوني إليه الباري سبحانه وتعالى في هذه الحالة هو أن أعكف على المهمة التي أُنيطَتْ بي، هو أن أمضي في هذه الوظيفة التي أقامني الله عز وجل عليها، سُلَّمُ الأولويات في دين الله عز وجل، هكذا يقول لي، والشوق الذي يحدو بي إلى بيت الله الحرام، هذا الشوق لن يذهب سدىً يا عباد الله، سيكتب الله لي الأجر على هذه الحرقة التي تهتاج بين جوانحي وسيكتب الله عز وجل لي الأجر على الشوق الذي يقيمني ولا يقعدني إلى مثوى رسول الله صلى الله عليه وسلم، إن لسان حالي يقول يا رب أنت إلهي المطلع على ما في نفسي وعلى ما يجول في خاطري وعلى اللهب الذي يتصاعد بين جوانحي شوقاً إلى بيتك وإلى زيارة نبيك محمد صلى الله عليه وسلم ولكنك أقمتني في هذه الوظيفة لخدمة الناس، لتوجيههم فأنا أستجيب لأمرك وأضع شوقي إلى بيتك الحرام أمانة بين يديك، لن يُضَيِّعَ الله عز وجل شوقك أبداً.

هذا المعنى أيها الإخوة ينبغي أن نُذَكِّرَ به في مثل هذا الموسم من كل عام إخواننا الذين يتحركون بدافع من الشوق إلى بيت الله الحرام، هذا شيء، شيءٌ آخر ينبغي أن نعود به إلى الشريعة الإسلامية، إلى الشروط التي ينبغي أن تتوفر لصحة الحج، ولا أقول لوجوب الحج، رُبَّ رجل يُخَيل إليه أنه يتجه حاجاً إلى بيت الله الحرام وأنه قد جنى من وراء سعيه وجهده مثوبة يدخرها لنفسه عند الله ولكنه يعود بإثم يتحمله بدلاً من أن يعود بثواب يكرمه الله عز وجل به، الذين يشترون تأشيرات الدخول بالسوق السوداء، الذي لم يُتَحْ لهم أن ييسروا أو أن يفتحوا سبل ذهابهم إلى بيت الله الحرام إلا بالرشاوي، وما أكثر أنواعها،

هؤلاء يتحملون من ذلك وزراً كبيراً، لا يجوز لهم أن يخلطوا عملاً محرماً في الطريق إلى شعيرة من شعائر الله سبحانه وتعالى التي أمرنا الله بها، إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً يا عباد الله.

يأتي أحدهم فيصطنع لنفسه حرفة ما هو بأهل لها، يصطنع لنفسه حرفة من الحرف التي يوفد بها كثير من الناس إلى بيت الله الحرام من أجل أن يخدموا الحجيج؛ ممرضين، أطباء، خدمات تتعلق بالجزارة ونحوها، ما أكثر الذين يصطنعون حرفة من هذه الحرف وما هم منها بشيء وإنما يفعلون ذلك في سبيل أن يتخذوا من ذلك غطاءً يبرر توجههم إلى بيت الله الحرام، أفأنت حقاً قد ألزمت نفسك أن تخدم الحجيج من خلال هذه الحرفة التي لست أهلاً لها؟ هو يعلم أنه إذا ذهب نسي هذا الغطاء الذي غطى نفسه به إذ كان هنا، هذا العمل محرم يا عباد الله.

والعمل الذي يمارسه أحدنا قربى إلى الله عز وجل ينبغي أن يعود الواحد منا في ذلك إلى قلبه أهو مندفع إلى ذلك بدافعٍ واحد لا ثاني له هو استنزال مرضاة الله إذاً ينبغي أن يكون عمله منضبطاً بشريعة الله، الإنسان الذي ركبته الديون وقد حج قبل اليوم إلى بيت الله الحرام لا يجوز له شرعاً أن يخرج من دويرة أهله إلى حجٍ أو إلى غير ذلك إلا بعد أن يستأذن من الدائن الذي قد استدان منه المال قلَّ الدين أو كثر فإذا أذن له ذهب وإن لم يأذن له فليس له الحق في دين الله عز وجل أن يتجه لا إلى حجٍّ ولا إلى غيره وما أكثر الذين يجهلون أو يتجاهلون هذه الحقيقة التي نقولها يا عباد الله.

نحن نقرأ كتاب الله ولكن ترى هل نتدبره عندما نقرأه؟ كلنا يقرأ أو يسمع قول الله عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾ [الكهف: ١١٠]، يجعل عمله لوجهه فقط ولا يجوز أن أخلط دافعين اثنين إلى عملي الذي أنهض به، الدافع الرئيسي هو مرضاة الله وأخلط به دافعاً ثانياً آخر، مصلحة من مصالحي الدنيوية، إذا امتزج هذا بذاك فسد العمل كله ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾.

الإخلاص لدين الله عز وجل هو روح الطاعة، تصور جسداً استلت منه روحه ماذا يعني هذا الجسد، مآله أن يدفن ويتحلل بعد ذلك ويستحيل إلى تراب، الطاعة كهذا الجسد لا يمكن أن تحيا الطاعة وتقرب

صاحبها إلى الله عز وجل إذا خلا قصد الإنسان إليها من الإخلاص الصافي عن الشوائب لله سبحانه وتعالى، وإذا تحققت نعمة الإخلاص فإن كل أعمال العبد يصبح قربى لله سبحانه وتعالى، إذا أكرمك الله بهذا الكنز يا أخي، إذا متعك بنعمة الإخلاص لوجهه فإن ذهابك إلى السوق كادحاً مرتزقاً عبادة يكرمك الله سبحانه وتعالى عليها بالمثوبة والأجر، إذا عدت إلى دارك مساءً تؤنس أهلك وتكرمهم بالعطاء فتلك عبادة يكرمك الله سبحانه وتعالى بها، إذا غدوت في صباح اليوم الثاني إلى وظيفتك وعملك الذي أنيط بك فإن هذا العمل عبادة ثالثة أخرى يكرمك الله سبحانه وتعالى بالأجر الوفير عليها، إذا ذهبت إلى جامعتك متعلماً أو معلماً فإن الله عز وجل يجعل منك متعبداً له كل ذلك بموجب شيء واحد، هذا القلب الذي احتضن هدفاً واحداً لا ثاني له استنزال رضى الله سبحانه وتعالى، أجل.

هذا الإخلاص أيها الإخوة ينبغي أن نبحث عن مكانه بين جوانحنا، ولقد ورد في الأثر أن الإخلاص نعمة يكرم الله سبحانه وتعالى بها من أحب من عباده، قيل لي ولكن محبة الله للعبد لا سبيل لنا إلى ذلك إذاً فالإخلاص هو الآخر لا سبيل لنا إليه، إذا أحبنا أخلصنا وإذا لم يحبنا هيهات أن ندرك هذه النعمة أو أن نحصلها بطريقة ما، فمال الجواب يا عباد الله؟ بوسع كلٍّ منا أن ينال محبة الله سبحانه وتعالى، اربط النعم التي تفد إليك بالمنعم، اربط هذه النعم التي لا تنقطع سلسلتها بالمنعم المتفضل عليك تجد أن معنى من معاني الشوق إلى الله عز وجل تفجر بين جوانحك وليس ذلك إلا أثراً من آثار محبة الله سبحانه وتعالى لك، ألم تقرأ قول الله عز وجل: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ، فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢]، اذكروني بالشكر على النعم التي تفد إليكم أذكركم باللطف، أذكركم بالحب، السبيل إلى محبة الله لنا مفتوح وميسر وهو لا يحتاج إلا إلى هذا الذي أقوله لكم يا عباد الله.

وأعود إلى كنت ما بصدده، الحج إلى بيت الله فريضة ولها شروطها، لها شروط وجوبها ثم لها شروط الصحة، أما الذي حج مرتين وثلاث أو أربع مرات وكان دأبه أن يذهب في كل عام حاجاً إلى بيت الله الحرام فليعد ولينظر إلى مبدأ سلم الأولويات في دين الله عز وجل، العمر قصير والواجبات كثيرة، التقط من الواجبات ما هو أهم، ما هو أقرب إلى مرضاة الله عز وجل، حقوق العباد مقدمة على حقوق الرب،

حقوق العباد مبنية على المشاحة أما حقوق الرب فمبنية على المسامحة، وأنا أعلم قصصاً في تاريخنا الغابر وقد استعيدت في عصرنا الحاضر.

أناساً لم يتح لهم أن يحجوا إلى بيت الله الحرام، جمع أحدهم المال شيئاً فشيئاً فشيئاً وهو في شوقٍ شديد إلى اليوم الذي يتاح له أن يذهب حاجاً إلى بيت الله الحرام وقبيل أن يخطو الخطوة الأولى فرحاً نظر فوجد أسرة فقيرة إلى جانبه بحاجة ماسة إلى معونة مالية، عاتب نفسه ورأى أنه يستحق عقاب الله عز وجل لأن هذه الأسرة بجواره ولم يكن قد علم شأنها، قدم هذا المال كله لهذه الأسرة وقعد يجتر شوقه، قعد يجتر حنينه إلى بيت الله الحرام، قَبِلَ الله تعالى حج أولئك الحجاج كلهم بشفاعة هذا الذي لم يحج، ألا فلنعلم أيها الإخوة أن الشوق له أجره المستقل، والشوق لا يعني أن ننفذه ونحن نغمض أعيننا عن الواجب الذي كلفنا الله عز وجل به، أسأل الله عز وجل أن يكرمني وإياكم بنعمة الإخلاص لوجهه وألا يميتنا إلا ونحن نستمسك بنعمة هذا الإخلاص الذي نرجو أن يكون شفيعنا بين يدي مولانا وخالقنا إذا قام الناس غداً لرب العالمين، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

٣٨٩- شروط صحة الحج ووجوبه | ٢٠٠٩/١١/٠٦

دأب كثير من الخطباء والوعاظ والمرشدين في مثل هذه الأيام من كل عام على تشجيع الناس إلى التوجه إلى بيت الله الحرام لأداء نسك الحج، وإلى إيقاظ مشاعر الشوق والتوق إلى بيت الله الحرام، وإلى مثوى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم. والحقيقة أن الناس أو أكثرهم لم يعودوا اليوم بحاجة إلى من يشجعهم إلى أداء هذا النسك، ولم يعودوا بحاجة إلى من يوقظ في قلوبهم أو بين جوانحهم مشاعر الشوق إلى بيت الله الحرام، فلقد سَهُلَتْ أسباب القيام بهذا النسك، وتكاثرت المصالح المختلفة التي تقتضيهم التوجه متسابقين بل متزاحمين إلى أداء هذا النسك، كثيرون منهم قد أدَّوا فريضة الحج مثنى وثلاث ورباع، والكثير ممن لم يؤدِّ بعدُ فريضة هذا الحج لم يكلفهم الله سبحانه وتعالى بها، ولم تتحقق فيهم شرائط وجوبها، ولذلك فإن الأحرى بأمثالنا من الخطباء والموجهين والوعاظ أو يوجِّهوا الناس إلى الشرائط التي لا بد من توفرها لصحة الحج، أحرى بنا أن نوجّه الناس إلى الشرائط التي لا بد من توفرها لكي يصبح الحج إلى بيت الله بالنسبة لهم مباحاً غير محرم، هذا ما ينبغي أن يدأب عليه المرشدون والخطباء والوعاظ في هذا العصر، وصدق رسول الله القائل فيما رواه الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال: ﴿يأتي على الناس زمان يحج فيه الأغنياء للنزهة والمتوسطون للتجارة والقرُّاء للرياء والفقراء للمسألة﴾.

وها نحن نرى مصداق ما قاله رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بأبي هو وأمي أحرى بنا أن نوجّه الناس إلى ضرورة الالتزام بسلم الأولويات، عندما يجد أحدنا المصالح الدينية وقد تزاحمت وتعارضت ما السبيل في هذه الحالة؟ هنالك قانون شرعي يُلَخَّصُ بهذا الشعار: ضرورة اتباع سلم الأولويات في المصالح.

إننا في موسم الحج نطوف بالمساجد أو بأكثرها فنجد أن كثيراً منها قد خلت من خطبائها، وخلت من أئمتها، وننظر أو نبحث عن البديل فلا نجد بديلاً يحل شرعاً محل ذلك الذي غاب عن وظيفته متجهاً إلى بيت الله الحرام، نتفقد الوظائف والقائمين عليها في الدوائر، فنجد أن كثيراً منهم قد غاب

عن أداء وظيفته، وتعطلت من جراء ذلك مصالح الناس، أخذ كل واحد منهم إجازة ليريح نفسه بها تحت غطاء الحج إلى بيت الله الحرام، ولعله حجَّ مرة وأخرى وثالثة، ننظر فنجد أن كثيرين ممن يتجهون متسابقين إلى بيت الله الحرام يغطون أنفسهم لتبرير حجهم بِحِرَفٍ ليسوا منها في شيء، ولا يتأتى منهم القيام بأي شيء منها، في سبيل أن يجدوا مبرراً للذهاب حجاجاً إلى بيت الله الحرام، ونحن نعلم، وينبغي أن يعلم كل مسلم أن هذا تزييف محرم، وأنه يُحَمِّلُ صاحبه عقوبة ووزراً بدلاً من أن يُحَمِّلَ صاحبه مثوبة وأجراً.

نعم يا عباد الله، ننظر فنجد أناساً يبتاعون تأشيرة الدخول بسوق السوداء، يبتاعون تأشيرات الدخول بأضعاف ما كلَّفَتْ، ولقد ذكر الفقهاء في باب الحج عن تعداد شروط، لا أقول: وجوب الحج، بل صحة الحج، يشترط ألا يتسبب عن حجه دفع الرشاوي.

هذا ما ينبغي أن ننبه إليه الناس يا عباد الله، كثيرون هم الذين يتجهون في مثل هذه الأيام حجاجاً إلى بيت الله الحرام، وقد تحمّلت ذممهم ديوناً مالية لأناس، هل استأذنوا الدائنين في أن يسافروا متجهين إلى حج بيت الله الحرام وهم مدينون لهم؟ أجمع الفقهاء على أنه لا يجوز للمدين أن يسافر من بلده إلا بإذن الدائن، فإن أذن له سافر أياً كان سفره لدنياً أو لدين، وإن لم يأذن له لا يجوز له أن يسافر حتى ولو لم يكن قد حج إلى بيت الله الحرام بعد.

عباد الله أصل كل عبادة وأساس كل قربة الإخلاص لله عز وجل وصدق الله القائل: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، صدق الله القائل: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدا﴾ [الكهف: ١١٠]. أي لا يمزج توجهه إلى العبادة برغبة دنيوية، لا يمزج حجه إلى بيت الله الحرام بمصلحة دنيوية كتلك المصالح التي عددها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وخرق بها أسوار الزمن معبراً عن واقعنا في هذا العصر أجل عباد الله إذا رحلنا إلى الله عز وجل، ووقفنا بين يديه غداً، واطلع على قلوبنا، فوجد فيها نبضات الإخلاص، وحرقة التوجه إلى الله، فقد غفر الذنوب كلها، ولكن إن رأى الله عز وجل في فؤاد العبد أمانِيَ وأغراضاً ومصالحَ وأهدافاً دنيوية أخرى مزجها بالطاعات التي أمره الله عز وجل بها، فإن

الله أغنى الشريكين عن هذه العبادة التي يؤديها هذا الإنسان. هذا ما ينبغي أن نلفت أنظار الذين يتسابقون في هذا العصر حجاجاً إلى بيت الله الحرام.

شيءٌ آخر ينبغي أن أقوله لنفسي وأقوله لكل منكم، كثيرون هم الذين يتقلّبون خلال العام بكثير من المعاصي المحرمة، غِشٌّ في المعاملة، أغذية فاسدة يقدمونها إلى الفقراء والمحتاجين مما يسبب الأمراض المختلفة التي تعرفون، حقوق يأكلونها لأصحابها في سبيل جمع مزيد من المال، وفي سبيل تحقيق مزيد من الرعونات والشهوات، فإذا جاء موسم الحج إلى بيت الله الحرام، شدَّ الرحال إلى هناك، موقناً أنه سيلقي بذنوبه هناك ويعود طاهراً مطهراً منها، لأنه سمع أن الحج المبرور يغفر الذنوب كلها، نعم الحج المبرور يغفر الذنوب كلها، أو يغفر الله عز وجل لصاحبه الذنوب كلها، لكن أي ذنوب، الذنوب التي تكون بين العبد وربه، الذنوب التي يكون الإنسان قد أهدر من خلالها حقوق الله، أما حقوق العباد – وما أكثر الحقوق التي يهدرها اليوم مسلمون لإخوانهم ولا أريد أن أعدد، كلكم يعلمها – فهذه لا الحج يزيلها ولا أي قربة من القرب التي يتقرب بها الإنسان إلى الله يزيلها، لا بد من وقفة بين يدي الله عز وجل، ولا بد أن يأخذه الله عز وجل بجريرة هذه الحقوق التي أكلها للناس، لا بد أن يأخذه بجريرة الظلم الذي توغل فيه لإخوانه، ومن أشنع أنواع الظلم الأغذية الفاسدة، وما أكثر أسباب فسادها التي يغمض أناس أعينهم عن الجريرة العظمى التي يتحملونها أمام الله في سبيل أن تمتلئ جيوبهم.

هل أعدد هذه الأعمال أيها الإخوة؟ لستم بحاجة إليها، تهريب السلع عندما تكون سبباً لغلاء قيمتها جريمة وأي جريمة، نحن ندعو الأمة إلى أن تتراحم، ندعو الأمة إلى أن يرحم فئاتُها فئاتِها الأخرى، هذا معنى التراحم، يرحم القادة رعاياهم، يرحم الناس بعضهم بعضاً، ولكن عندما يسيل لعاب زيد من الناس على مزيد من المال يجمعه في صندوقه أو جيبه، ويجد أن سلعة من السلع ثمنها غالٍ ومرتفع في البلاد التي حولنا وهي هنا رخيصة يمعن في تهريبها من النوافذ المختلفة هنا وهناك، وإذا بهذه السلعة بشكل آنيٍّ قد ارتفعت قيمتها، من المسؤول عن ذلك؟ أنت يا أيها المهرب، حجك إلى بيت الله الحرام ولو ذهبت حاجاً إليه في كل عام لا يمكن أن يخفف عنك شروى نقير من هذا الوزر الذي تحملته مهما تقربت إلى الله عز وجل، حقوق العباد مبنية على المشاحة، لن يسامحك الله فيها قط.

هذه الكلمات ينبغي أن نذكِّرَ بها أنفسنا وإخواننا في هذا الموسم، وليت إخواننا الدعاة إلى الله، الخطباء والواعظين، ذكّروا إخوانهم بهذه الأمور الهامة الخطيرة في حياتنا، أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم.

٣٩٠- صفات الحج المبرور وأثره في حل مشكلات الأمة | ٢٠١١/١٠/٢٨

إن مشاكلنا متفاقمة متزايدة كما ترون اليوم، بل إنها لمشكلات العالم الإسلامي الأجمع، وإننا لننظر فنجد أنفسنا في اليوم الذي وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم بدقة إذ قال: ﴿ستداعى عليكم الأمم – أي الدول – كما تداعى الأكلة إلى قصعتها قالوا: أمن قلة نحن يا رسول الله يومئذ؟ قال: بل أنتم كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل﴾.

ولاشك أن المشكلات أياً كان نوعها يجب أن تُعالَج، وإن من بين العلاج الوسائل المادية المعروفة، ولكن فلنعلم جميعاً يا عباد الله أن هذه الوسائل المادية مهما كثرت وتوافرت لن تغني المسلمين شيئاً عن العلاج الأول الأوحد ألا وهو علاج الالتجاء إلى الله والفرار إلى الله سبحانه وتعالى. ولحسن الحظ ننظر فنجد أن موسم الالتجاء إلى الله وموسم التضرع على بابه ها هو ذا قد عاد، فنحن اليوم نعيش في الأشهر الحرم، نعيش في قدسية هذه الأشهر التي نوَّه بفضلها بيان الله عز وجل، وها هو ذا موسم الحج إلى بيت الله الحرام قد عاد وآب، إذاً فإن الأبواب اليوم مفتحة أمام أول علاج – بل أكبر علاج – للتخلص من المشكلات التي رانت علينا بل التي تطوف بالعالم الإسلامي أجمع.

ولكن ينبغي أن أنبه وأن أُذَكِّر بأنه ليس كل من توجَّه حاجاً إلى بيت الله الحرام أتيح له أن يعالج نفسه أو يعالج أمته بهذا العلاج، علاج التضرع والالتجاء والفرار إلى الله عز وجل. ليست العبرة يا عباد الله بالحج المبرور أن يرتدي أحدنا ثياب الإحرام وأن يقول بلسانه لبيك ولبيك، وليس العبرة بالحج المبرور أن يندمج مع الناس الطائفين حول بيت الله الحرام فيطوف كما يطوفون ويتحرك كما يتحركون. كم من أناس يتوجهون في هذه الأيام حجاجاً في الظاهر إلى بيت الله الحرام ولكن المقصد الذي استقر في قلوبهم وجنبات نفوسهم أبعد ما يكون عن معنى الالتجاء إلى الله بل عن معنى العبادة والعبودية لله. فيهم من

قد استبد بهم الشوق إلى لقاء رفقة، إلى لقاء أقارب وأرحام برَّحَ بهم الشوق إلى لقائهم، يذهبون حجاجاً إلى بيت الله الحرام من أجل هذا الغرض.

فيهم الذين وجدوا أن هذه الرحلة تعود لهم بربح مالي كبير، يذهبون بقصد التجارة.

فيهم أناس علموا أن منهاج رحلتهم ستضمن سهرات ومتع وليالي أنس وسمر وطرب، تشدهم الرغبة إلى الحج ابتغاء هذا.

أفيُعد هؤلاء في ميزان الله عز وجل حجاجا؟ أفيتأتى لأحدهم أن يلتجئ إلى الله وقد أعرض عن الدنيا ونسيها وأقبل يتذكر عرصات القيامة؟ لا أيها الإخوة، لن يتأتى منه ذلك.

فيهم من توجه حاجاً إلى بيت الله الحرام لكنه سلك إلى ذلك سبيلاً غير شرعي، دفع المال الكثير أو القليل رشوة من أجل تأشيرة الدخول، اشتراها بسعر السوق السوداء.

فيهم الناس الذين غطوا أنفسهم بمهن، ذهبوا باسم هذه المهن إذ لم يتأت لهم أن يذهبوا إلا عن طريق هذه النافذة وما هم من هذه المهن بشيء ولا شأن لهم بها قط، وإنكم لتعلمون هذا، والله عز وجل طيب لا يقبل إلا طيباً.

فيهم أناس ركبتهم الديون وتوجهوا حاجين إلى بيت الله الحرام دون أن يستأذنوا أصحاب هذه الديون وقد علم كل دارس لشريعة الله جل جلاله أن المدين لا يجوز أن يتحرك من الأرض التي فيها دائنون إلا بعد أن يوفي لهم حقوقهم أو أن يستأذنهم.

هؤلاء هم حجاج في الظاهر ويكثرون سواد الحجيج، ولكن فلتعلموا أن حل المشكلة ليس بيد هؤلاء أبداً، يعودون كما ذهبوا، بل لعلهم يعودون بأوزار لم يكونوا يتحملونها عندما ذهبوا.

إنما الحاج هو ذاك الذي نظر إلى قلبه فطهره من سائر الغايات والأهداف الدنيوية وملأه بالإخلاص لوجه الله عز وجل، نظر إلى الطريق الذي شرعه الله عز وجل للحج فسلك هذا الطريق ولم يحد عن هذا الطريق المشروع يمنة ولا يسرة، لاحظ سُلَّمَ الأولويات في الشريعة الإسلامية، علم أنه قد حج قبل اليوم مثنى وثلاث ورباع وعلم أنه إن توجه اليوم حاجاً إلى بيت الله الحرام فلسوف تُغلَق أبواب مصالح للناس،

لعباد الله عز وجل بسبب غيابه ولا بديل عنه يقوم مقامه، أدرك هذا فقيَّد نفسه بضوابط الشرع واتجه حاجاً إلى بيت الله الحرام بهذا الدافع الطاهر المنقى عن الشوائب والأدران، هؤلاء هم الذين نرجو أن تُحَل مشكلات العالم الإسلامي عندما يصلون إلى بيت الله الحرام، عندما يقفون في يوم عرفة في ذلك اليوم المصغر عن اليوم الذي يقوم فيه الناس لرب العالمين، هؤلاء هم الذين يُرجَى أن تكون مفاتيح حل مشكلات العالم الإسلامي بأيديهم.

أقول لهذا الذي ينضبط بسلوكه وقصده إذ يتجه حاجاً إلى بيت الله الحرام: يا أخي إذا رأيت نفسك قد وصلت إلى بيت الله الحرام واكتحلت عيناك بمرآه ورأيت نفسك تطوف ببيت الله مع الطائفين فتصور أنك إنما تطوف حول القيم التي وضعها الله عز وجل أمانةً في عنقك، تصور أنك تطوف حول ذل العبودية لله متجهاً بهذا الذل إلى قيوم السموات والأرض. تذكر وأنت تطوف حول هذه الأحجار قول المصطفى صلى الله عليه وسلم وهو يطوف طوافك هذا: ﴿لبيك اللهم حقاً وصدقاً، لبيك اللهم تعبداً ورقا﴾.

أطوف لأنك أمرتني بذلك، أدور حول هذه البنيَّة لأنك أنت الذي أمرتني بذلك. فإذا أتيح لك أن تلصق صدرك بالملتزم وبسطت يديك يميناً وشمالاً على الملتزم فتصور أنك تسأل الله عز وجل أن يأخذك من نفسك إليه، تصور أنك تسأل الله سبحانه وتعالى بذلك عبوديتك له وبعظيم افتقارك إليه أنك تترامى في ساحة رحمته وأنك تلصق نفسك بوابل فضله وكرمه وجوده وادع الله بكل ما يتحرك به لسانك لنفسك، لذويك، لإخوانك في الإنسانية، لإخوانك في العالم الإسلامي، واسأل الله سبحانه وتعالى لهم الحل السريع لمشكلاتهم والكرم الواسع الذي يتجلى في مثل هذه الأيام عليهم برحماته. فإذا توجهت بعد ذلك إلى رابيتي الصفا والمروة وأخذت تسعى مع الساعين بينهما فتصور وأنت تسعى بين هاتين الرابيتين أنك تقول لمولاك عز وجل ما قاله كليمه من قبل: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ [طه: ٨٤].

تذكر وأنت تسعى سعيك هذا وتصور أنك تقول لمولاك ها أنا قد جئت من دويرة أهلي ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ [طه: ٨٤]، فإذا وصلت إلى رابية المروة فقف هناك واعلم أن شآبيب الرحمة الإلهية تنهمر هناك ولا تنقطع ارفع يديك، ابسط كفيك إلى سماء الرحمة الإلهية، ادع الله واجعل من عبوديتك

قربى بين يدي دعائك، لا تجعل من أعمالك المختلفة شفيعاً بل اجعل عبوديتك لله عز وجل هي الشفيع بين يدي دعائك، ادع الله لنفسك ولذويك ولإخوانك في الإنسانية وفي الإسلام، ادع الله للعالم الإسلامي.

وإذا جاء ذلك اليوم المصغر من أيام القيامة، تلك الأيام التي يعدنا بل يتوعد في كثير من الأحيان بها ربنا عز وجل ووقفت مع عباد الله عز وجل في ذرا عرفة وانس الدنيا كلها يا أُخيّ، انس علاقتك بالأرض الفانية، انس علاقتك بكل شيء في هذه الدنيا وتذكر رحلتك إلى الله، تذكر وقفتك التي لا ريب فيها بين يدي الله سبحانه وتعالى.

في تلك الساعة تصور أنك تقف بين يدي الله للحساب، وإنها لوقفة قادمة لا ريب فيها، تصور أن الجنة أمامك وأن عذاب الله وسعيره أيضاً أمامك ولا تدري إلى أي المصيرين ستنتهي، كيف يكون حالك آنذاك؟ تصور أنك في تلك الساعة، ناجِ الله، قل له: أي رب لقد سترتني في دنياي فأسبغ وأدم علي سترك إذ يقوم الناس لرب العالمين، سترتني ولم تفضحني ها أنا قد جئتك مثقلاً بالأوزار، أوزار أنت تعلمها ولكن عبادك لا يعلمونها، أنت الستير، أسألك اللهم كما أسبغت سترك علي في دنياي أن تسترني يوم يقوم الناس لرب العالمين، يوم أقف هذه الوقفة بين يديك، أسألك اللهم بذل عبوديتي لك وبرحمتك التي وسعت كل شيء أن ترحم عبادك البائسين التائهين في جنبات الأرض، ألهمهم أن يعودوا إلى رشدهم، ألهمهم أن يعودوا إلى صراطك القويم كما أعدت أولئك الناس الشاردين عن صراطك إذ بعثت إليهم خاتم النبيين والمرسلين فجعلت منهم أمة واحدة هلا جعلت من عبادك اليوم أمة واحدة كما كانوا بالأمس.

وإن الله عز وجل سيكرمك ولاشك بعد هذا أو قبل هذا بزيارة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومسجده، فإذا تغسلت وتطيبت ودخلت مسجد رسول الله وركعت الركعتين تصور أنك في ضيافة رسول الله حقاً، واعلم أن رسول الله حي لا ريب فيه ولاشك، يا عجباً لمن يقرأ قول الله تعالى: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

يؤمن بحياة الشهداء أشكالاً وألواناً ويضن بهذه الصفة لرسول الله وهو سيد الشهداء. يا عجباً لمن يضن بالحياة الحقيقية التي يتمتع بها رسول الله اليوم وإنها لحياة أشد وأبلغ وأكثر فاعلية من حياتنا نحن.

سلِّمْ على رسول الله وقل له أشهد يا رسول الله أنك قد بلغت الرسالة ونصحت الأمة فجزاك الله عن أمتك خير ما جُزِيَ نبي عن أمته، ها أنا قد هُدِيت ولولا فضلك لما اهتديت، لولا الرسالة التي بلغتها الآفاق لكنت أتطوح في ظلمات الضلال والتيه اليوم، ثم اشك إلى رسول الله، اشك إلى رسولك المجتبى صلى الله عليه وسلم حالك وحال أمته، قل له: يا رسول الله كم بكيت وأنت تناجي ربك قائلاً أمتي أمتي حتى جاءك الوحي عن طريق جبريل يقول: يقول لك الله لن نسوءك في أمتك، قل له: ها هي ذي أمتك تعاني من المشكلات ألوانا، ها هي ذي أمتك قد حل بها ما قد وعدت، ما قد ذكرت، ها هي ذي دول البغي تطوف حولها كما تطوف الأكلة على قصعتهم وعلى مائدة طعامهم فهلا ناجيت ربك اليوم كما ناجيته بالأمس أمتي أمتي، هلا أقبلت إلى الله وتضرعت كما كنت تتضرع حباً لأمتك وشفقة لأمتك أن ينقذها الله عز وجل من براثن هؤلاء الطغاة، يا رسول الله إن أعداء دينك وأعداء مولاك وخالقك وأعداءك يا رسول الله قد تحكموا برقاب المسلمين اليوم وها هي ذي الأنياب منهم تبضع وتمزق وحدة المسلمين، ها هي ذي المخالب منهم تقطع أوصال المسلمين، وهاهم أولئك يستقدمون جنوداً لهم في سبيل ذلك، قل: يا رسول الله لن أتحول من موقفي ضيفاً لديك وأنا ضيفك وأنت الكريم حتى تقبل إلى ربك فتسأله أن ينقذ عباده المسلمين مما أصابهم، أن تنقذ عبادك المسلمين من الضيم الذي طاف بهم.

هذا هو الحج المبرور، إذا أتيح لك وأنت تتجه إلى بيت الله الحرام أن تتطهر قلبك من النيات والشوائب السيئة وإذا أتيح لك أن تسلك الطريق المشروع المنضبط بأوامر الله وإذا أتيح لك أن تذهب ملتجئاً إلى الله وأن تعود متجلبباً بذل العبودية لله فاهنأ بحج مبرور ومقبول تعود منه إلى بيتك وكأنك خُلِقْتَ اليوم ليس عليك من وزر تَسْوَدُّ به صحائفك. أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا من عباده المخلصين، وأسأله عز وجل أن يجعلنا من الملتزمين بأوامره والمنتهين عن نواهيه، أقول قولي هذا وأستغفر الله.

٣٩١- واحسرتاه على من أضاع هذه الأيام وما بقي منها بالفساد والإفساد | ٢٠١١/١١/٠٤

إن شهر ذا الحجة هذا واحد من الأشهر الحرم التي نوه به كتاب الله عز وجل في أكثر من موضع، وأعلن أنه معلمة بين أشهر العام للأمن والسلم والتراحم فقال عز من قائل: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَات وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلاَ تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦].

جعل البيان الإلهي أفراد المجتمع الإنساني بمثابة النفس الواحدة وحذر وبالغ في التحذير من أن يتظالم أصحاب النفس الواحدة لاسيما في هذه الأشهر الحرم ذاتها، وقال جل جلاله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢١٧].

أي يتضاعف وزر القتل ووزر الظلم في الأشهر الحرم، ويحذر الله سبحانه وتعالى الذين يتَحَدَّون مزية هذه الأشهر فيمعنون بالظلم لأنفسهم والقتل والإفساد ونحو ذلك.

وإن الأيام التي نمر بها يا عباد الله من هذا الشهر الحرام هي تلك الأيام والليالي التي أقسم بها الله عز وجل في محكم تبيانه عندما قال: ﴿وَالْفَجْرِ، وَلَيَالٍ عَشْرٍ، وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ، وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ، هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾ [الفجر: ١-٥].

إنها الأيام والليالي الأولى من شهر ذي الحجة التي نمر بها، وهي جزء من الأشهر الحرم، وقد بالغ البيان الإلهي في خصوصية هذه الأيام والليالي ونبه المصطفى صلى الله عليه وسلم إلى ذلك عندما قال: ﴿ما من أيام العمل الصالح فيهن أحب إلى الله منه في هذه الأيام﴾.

وكما أوضح أهمية العمل الصالح في هذه الأيام وقد بيَّنَ لنا المصطفى صلى الله عليه وسلم خطورة العمل الطالح إذ يتحدى به العبد مولاه وخالقه فيحشو هذه الأيام والليالي القدسية بسخط الله سبحانه وتعالى.

ألا وتعلموا يا عباد الله أن هذه الساعات الوضيئة التي نستقبلها بين يدي يوم عرفة ويوم عيد الأضحى، هذه الساعات الوضيئة هي براعة استهلال بين يدي الرحمة الإلهية العظمى التي يُذَكَّرُنَا بها الله عز وجل من خلال أمره لنا بالتراحم، ألا تعلموا قدسية هذه الساعات التي نستقبلها الآن والتي تمتد إلى يوم عرفة ثم إنها تمتد إلى صباح عيد الأضحى؟ إنها كما قلت لكم براعة استهلال تُذَكِّرُنَا بواجب التراحم من خلال الرحمة التي يغدقها الله سبحانه وتعالى على عباده في هذه الأيام، إنها مناسبات ثلاث متداخلة كلها يهيب بالمسلمين أن يعودوا إلى الله فيتوبوا إليه ويصطلحوا معه وأن يعلنوا دخلوهم في السلم كافة كما أمر عز وجل. هذه المناسبات الثلاث تهيب بنا – أيها الإخوة – أن نقبل إلى الله وأن نصحو من ذنوبنا وأخطاءنا وانحرافاتنا.

عباد الله: إن من عرف الله أحبه، ومن أحب الله أحب عباده، هذه حقيقة لا مرية فيها، وكيف لا يحب من عرف الله وأحبه، كيف لا يحب عباده الذين أعلن الله عز وجل عن تكريمه لهم إذ قال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٠].

وإني أقول لكم بحق: لقد عرفني الباري سبحانه وتعالى على ذاته – وهذا فضل كبير منه – ومن ثم فقد غرس في قلبي قدراً كبيراً من حبه فكيف لا أحب عباده؟! كيف لا أحب عباده الذين كرمهم وقد غرس الله عز وجل في قلبي حبه؟!

تعالوا نجدد معرفتنا لهذا الإله، إن لم نكن قد عرفناه بعد، تعالوا نغرس في أفئدتنا حبه، وهل الفؤاد إلا وعاء لحب الله؟! تعالوا يا عباد الله نغرس في أفئدتنا الفرع الذي لابد أن يتفرع من أصل محبة العبد للرب عز وجل، محبة الإنسان لعباد الله سبحانه وتعالى. كيف نعبر عن حبنا لعباد الله الذين أكرمهم الله سبحانه وتعالى كما قلت لكم؟

تأملت ورأيت وعلمت أن خير سبيل نعبر به عن حبنا لعباد الله ذلك المتفرع عن حبنا لله عز وجل هو النصيحة، كل من عرف الله أحبه، وكل من أحب الله أحب عباده ومن ثم لابد أن يقيم حياته كلها على خدمة عباد الله والنصح لهم، تعالوا نتناصح، رسولنا المصطفى يقول: ﴿الدين النصيحة قالوا: لمن؟ قال: لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم﴾.

معنى النصيحة لله أي الانقياد لأمر الله سبحانه وتعالى إذ نتجه إلى عباده بالتناصح، الانقياد لأمر الله فيما قد شرع وفيما قد أمر وفيما قد نهى. تعالوا إذاً نتناصح يا عباد الله.

إن هذا الدين في معتقداته وفي أحكامه السلوكية كلها إذ يطوف على محور واحد هو محور الدعوة إلى الإصلاح والابتعاد عن الفساد والإفساد، ومن ثم فقد جعل البيان الإلهي الدليل الأوحد على صدق العبد في التزامه بأوامر الله والسير على صراطه، جعل الدليل الأوحد على ذلك أن يبذل كل ما يملك من جهد لبناء الإصلاح فوق هذه الأرض التي أقامه الله عليها ولاجتثاث الفساد وأسباب الفساد أياً كانت، فإن هو سار على هذا النهج فهو صادق فيما أعلن عن عبوديته لله وإيمانه به وإن هو تجاهل ذلك فهو كاذب فيما ادعى، وصدق الله القائل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ، وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٤-٢٠٥]. وصدق الله القائل: ﴿وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦].

وانظروا إلى النصيحة التي وجهها إلى قارون فأعرض عنها واستكبر وكان عقابه أن خسف الله به وبداره وبممتلكاته الأرض، ألم يقل له: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧].

كانت جريمة قارون أنه استكبر على هذه التذكرة فأوغل في الفساد ثم أوغل في الفساد وأعلن الباري عز وجل قائلاً: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ المنتَصِرِينَ﴾ [القصص: ٨١].

يا عباد الله إن بين الإفساد وبين الإصلاح تناقضاً حاداً، ولا يمكن للنقيض أن يحتضن نقيضه قط، لا يمكن لعاقل أن يتصور أن بالإمكان أن يقام الفساد أساساً لبنيان الإصلاح، من ذا الذي يتصور ذلك؟! ليس في العقلاء من يتصور أن دعائم الفساد والتخريب هي التي تكون أركاناً لبنيان الصلاح أو الإصلاح، لا يتأتى ذلك، لا يحتضن النقيض نقيضه بشكل من الأشكال يا عباد الله.

والخالق عز وجل غني عن عباده ولكنه يُبَصِّرُ عباده بالسبل التي تمد فيما بينهم آصرة الود، آصرة الحب ويهيب بهم أن يتمسكوا بهذه الآصرة وأن ينهجوا النهج الذي شرعه الله لهم لكي تكون هذه الأرض مهداً للسعادة ولا تكون سبباً للتهارج والتقاتل. أعود فأقول وأُذَكِّر بكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿الدين النصيحة﴾ لمن ﴿لأئمة المسلمين وعامتهم﴾.

وها أنا أتوجه بهذه النصيحة إلى نفسي أولاً ثم إلى أئمة المسلمين في هذه البلدة وعامتهم، أجل، ولا أتوجه بهذا إلى نفسي وإليهم جميعاً إلا من منطلق حبي لله أولاً ثم حبي لعباد الله ثانياً:

عباد الله أياً كنتم: الإصلاح الإصلاح، التسامي التسامي فوق مهايع التخريب والفساد، إياكم وأن توغلوا فيما أوغلت به بنو إسرائيل إذ ذَكَّرَهُم الله عز وجل فاستكبروا على تذكرته، ألم يقل: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً﴾ [المائدة: ٣٢].

استكبروا على هذا فكانت العاقبة أن أعلن الله عز وجل لعنته على هؤلاء، اقرؤوا كتاب الله، اقرؤوا قوله بعد ذلك: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً﴾ [النساء: ٩٣].

أجل أقول هذا لكل مؤمن، أقول هذا لكل إنسان: ما ينبغي أن تمتد اليد — اليد الإنسانية — إلى أخٍ في الإنسانية بقتل، بظلم، بإساءة، أياً كان هذا القاتل وأياً كان هذا المقتول، مهما كانت مكانته وسدته في المجتمع إلا بحق، وأنتم تعلمون ضوابط الشريعة الإسلامية بل الضوابط الإنسانية التي توضح لنا الحق، فكيف بمن نسي وصايا الله وأوامره وكيف بمن يتحدى هذه الأوامر ومتى؟! في الأشهر الحرم! ومتى؟! في العشر الأفضل الأفضل من كل الليالي من هذا الشهر الذي هو واحد من الأشهر الحرم،

ومتى؟! في تلك الساعات الوضيئة التي هي براعة استهلال بين يدي يوم عرفة، بين يدي يوم عيد الأضحى، تلك الساعات التي يتجلى ربكم فيها عليكم برحمته لكن من خلال دعوته لكم إلى أن تتراحموا.

يا عباد الله: أدعو نفسي أولاً وأدعو كل أخٍ لي في الإنسانية ثانياً غرس الله في قلبي تكريمه بعد أن كرَّمه الله وغرس في قلبي وده بعد أن أحبه الله، أدعو نفسي وأدعو كل واحد منكم إلى أن نصطلح مع الله في هذه الساعات، إلى أن نؤوب إلى الله عز وجل في هذه الساعات، لا أتصور أن فينا من يعشق الإفساد والتخريب، لا أتصور، كيف أكون إنساناً ثم إني أطرب وأنتشي بمظاهر التخريب والفساد والقتل، كيف؟! حتى لو كنت مسؤولاً، حتى لو كانت لي مرتبة أياً كانت في المجتمع الإنساني، لا يمكن. لابد أن يكون الإنسان وهو إنسان ممن يطمح إلى الإصلاح، ممن يطمح إلى محاربة الفساد والإفساد، قد نخطئ، كلنا يخطئ، وقد يوغل في طريق حسبه يؤدي إلى الغاية فتبين أنه طريق لا يؤدي إلى الغاية، ولكن العود بابه مفتوح والتوبة بابها مفتوحة، ومن يقبل التوبة إلا الله، من ذا الذي يغفر الذنوب إلا الله.

عباد الله: أجدني في هذه الأشهر الحرم، وفي هذه الأيام المباركة، في هذه الليالي التي أقسم الله عز وجل بها وفي هذه الساعات التي هي براعة استهلال بين يدي يوم عرفة ويوم عيد الأضحى المبارك أجدني مدعواً إلى أن أقبل إلى الله فأعلن اصطلاحي الجديد معه، أعلن توبتي إليه أنا لأنني مثقل بالأوزار فعلاً، أجدني مدعوٌّ وبيني وبين الموت لا أدري كم من المسافات الزمانية أجدني مدعواً إلى أن أعلن توبتي وإنابتي إلى الله، فهلا اشتركنا يا عباد الله في أن نطرق باب الله الذي لا يُغْلَق نقول: ها قد عدنا إليك يا رب العالمين، ها قد تبنا إليك يا رب العالمين فاقبل الله توبة التائبين، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

٣٩٢- عزاءٌ موجه للمحرومين من الحج | ٢٠١٢/١٠/١٩

أعود فأحدثكم مرة أخرى عن هذه الأيام والليالي العشر التي أقسم الله عز وجل بها في محكم تبيانه إذ قال: ﴿وَالْفَجْرِ، وَلَيَالٍ عَشْرٍ، وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ، وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ، هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾ [الفجر: ١ – ٥]

أحدثكم عن هذه الأيام والليالي التي تمر بنا والتي نعيش في رحابها، هي الأيام والليالي التي تحدث عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه وهو يتحدث عن فضل هذه الأيام التي نمر بها: ﴿ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله سبحانه وتعالى منه في هذه الأيام﴾، ولاحظوا أيها الإخوة أن رسول صلى الله عليه وسلم عَبَّرَ بأوسع كلمة جامعة وهي ﴿العمل الصالح﴾، كلمة العمل الصالح تشمل فيما تشمل أولاً العبادات التي أمر الله عز وجل بها في محكم تبيانه وبينها رسول الله في الثابت الصحيح من سنته، ثم إن هذه الكلمة تحتضن وتشمل كل ما يصلح المجتمع الإنساني فرداً وجماعة إلى أن تنتهي هذه الأعمال الصالحة بإماطة الأذى عن الطريق كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما من عمل صالح يحقق الخير للإنسانية فرداً أو مجتمعاً يؤديه الإنسان ابتغاء مرضاة الله عز وجل إلا وضاعف له الله سبحانه وتعالى أجر ذلك أضعافاً لا تحصى، لا تتبين هذه الأضعاف إلا عندما نقف بين يدي رب العالمين سبحانه وتعالى.

ولكن فلتعلموا يا عباد الله أن الله عز وجل بمقدار ما يزداد رضاً عن الأعمال الصالحة إذ يتقرب بها المؤمن في هذه الأيام إلى الله عز وجل فإن الله عز وجل يزداد سخطاً بقيام العبد بالسيئ من الأعمال، الأعمال التي تسيء إلى الإنسانية أو بالإعراض عن أوامر الله سبحانه وتعالى التي نص عليها في محكم تبيانه، بمقدار ما يكرم الله العبد إذ يعمل العمل الصالح في هذه الأيام يسخط الله عز وجل على الذي يسيء إلى الإنسانية في هذه الأيام، فما بالك باليوم الذي تُوِّجَتْ فيه هذه الأيام والليالي ألا وهو يوم عرفة وهو الوتر الذي أقسم الله عز وجل به، يوم عرفة وما أدراك ما هذا اليوم، لا أريد أن أطيل في الحديث

عنه ولكن بوسعكم أيها الإخوة أن تنالوا كل ما فيه من أسرار وأن تتعرضوا لكل ما فيه من رحمات للإقبال فيه إلى الله بكل ما يمكن أن تقبلوا فيه من الأعمال الصالحة وفي مقدمة ذلك صيام ذلك اليوم، وقد في صحيح مسلم وغيره - أصحاب السنن كلهم - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ﴿صيام يوم عرفة أحتسب على الله عز وجل أن فيه كفارة سنة آتية وأن فيه كفارة سنة ماضية﴾.

هنا لابد أن أقول: إن لنا إخوة وأخوات كانوا يحلمون إلى ما قبل أيام قليلة بأن يكون لهم نصيب في استضافة الله سبحانه وتعالى لهم في رحاب مكة، كانوا يحملون بأن يغدوا ويروحوا إلى بيت الله سبحانه وتعالى في هذه الأيام طائفين مصلين راكعين ساجدين، كانوا يحلمون ليل نهار بأن تحتضنهم ذرا عرفة كما تحتضن الحجيج أجمع وبأن بوسعهم آنذاك أن يشكوا إلى الله شؤونهم ما وسعتهم الشكوى وأن يبكوا بين يدي الله ما وسعهم البكاء، كانوا يحلمون بهذا، وفجأة حيل بينهم وبين هذا الذي كانوا يحلمون به، وفجأة أوصد الباب الذي لم يوصد منذ بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هذا اليوم في وجه هؤلاء الذي كانوا يحلمون بأن يكون لهم نصيب من هذه الطاعة، نصيب من هذه المقربة إلى الله سبحانه وتعالى.

وأنا أريد في مقامي هذا أن أبلغهم تعزية أرجو أنها ستخفف من لواعج الألم الذي فاجأهم، أرجو أن تخفف هذه التعزية من لظى الخيبة التي مُنُوا بها، أقول وأرجو وآمل أن يسمعوا هذا الذي سأقوله: عبد الله بن المبارك رجل من كبار الصالحين بل من كبار الأولياء – ولا أتألَّى على الله – لا أستطيع أن أتحدث اليوم في هذا المقام عن مناقبه، يقول: كنت في العام الماضي حاجاً إلى بيت الله الحرام وفي ليلة من ليالي منى رأيتني في الرؤيا نائماً وعند رأسي اثنان يتحدثان يقول الواحد منهما للآخر: أتدري كم هم الذين قَبِلَ الله حجهم في هذا العام؟ قال الثاني: لا، قال: إن كثيراً منهم لم يقبل الله حجهم ولكن صفح الله عنهم جميعاً وقبل حجهم جميعاً بفضل موفق الإسكافي الشامي على أنه لم يحج، يقول عبد الله بن المبارك: فاستيقظت وليس لي هَمٌّ إلا أن أعود فأعثر على هذا الرجل وأعلم قصته والسبب في هذا الفضل العظيم الذي أكرمه الله به، واتجهت إلى الشام وأخذت أبحث وأبحث وأبحث وصبرت إلى أن عثرت على موفق الإسكافي الشامي، سألته ما خبرك مع الحج، أحججت؟ قال: لا، قال: فحدثني عن قصتك، قال: وما السبب؟ قال: حدثني فإن حدثتني فسأخبرك، قال له: أنا عملي إسكاف وكان من شأني منذ أول العامل أن أدخر كل ما يزيد من نفقات بيتي في مكان أرجو أن أحج به في نهاية العام أو الذي يليه إلى بيت الله

الحرام، ولما دنا الموسم نظرت فوجدت أن المبالغ التي ادخرتها يمكن أن تفي بحاجتي إلى الحج إلى بيت الله الحرام، فأخذت أعد العدة، وبينما أنا عائد إلى الدار ذات يوم استقبلتني امرأتي وكانت حاملاً ونظرت فإذا برائحة الشواء تفوح في الدار، أعطتني وعاءً وقالت لي: اذهب فاطرق باب جيراننا وحدثهم عن وضعي وأنني بحاجة إلى شيء من هذا الشواء الذي تفوح رائحته، فأخذت الوعاء وطرقت الباب، خرجت امرأة وحدثتني من وراء الباب، قلت لها وحدثتها وطلبت منها أن تضع شيئاً من الشواء في هذا الوعاء، نظرت وتلبثت ثم قالت: سأعطيك ولكن دعني أخبرك عن قصتي وأنا مضطرة أن أخبرك عنها، فإن رأيت أن ذلك يصلح لكم أعطيتك، قال: ما القصة؟ قالت: مات زوجي منذ فترة طويلة ونفدت النفقة منذ أسابيع وأولادي يتضورون اليوم جوعاً ونظرت وإذا بالهلاك يطرق بابهم ويتهددهم، نظرت فوجدت على مقربة منا شاة قد نفقت وألقاها أصحابها، أخذت قطعة منها وجئت بها إلى البيت لأقدم لهم منها طعاماً يحميهم من الهلاك ويسد رمقهم، يقول الإسكاف: فرجعت وأنا ألطم وجهي، قلت في نفسي: هذه جارتي تعاني وأولادها من هذا السغب الذي كاد أن يوديهم إلى الهلاك وأنا أجمع المال من أجل أن أحج به إلى بيت الله الحرام، أخذت هذا المبلغ الفائض لدي كله وعدت فطرقت بابها وقلت لها: خذي هذا مالٌ أرسله الله عز وجل إليك، قال له عبد الله بن المبارك: أبشرك بأن الله لم يكتب لك أنت حجة فقط بل قبل حجة الحجيج أجمع بسببك أنت.

أقول لهؤلاء الإخوة والأخوات الذين وضعوا كل همهم في أن يكونوا حجاجاً في هذا العام إلى بيت الله الحرام، هَيَّأوا النفقة وهَيَّأوا الزاد وتهيأوا لهذا الذي كانوا يحلمون به فحيل بينهم وبين ذلك: ألا تريدون من وراء ذلك مرضاة الله، ألا تريدون من وراء ذلك الأجر العظيم المدخر لكم عند الله، افعلوا هذا فعله موفق الإسكاف يجعل الله عز وجل من حجكم كفارة لذنوب كثير من الحجاج الذين قد لا يقبل الله عز وجل حجهم، ألستم قد وضعتم نصب أعينكم أن تنفقوا هذا المال في التوجه إلى بيت الله الحرام حجاجاً؟ نعم قولاً واحداً، بوسعكم أن تتوجهوا به إلى ما يزيدكم أجراً عن الله عز وجل، ألا ترون الحاجات، ألا ترون النكبات، ألا ترون الناس الذين شُرِّدُوا من ديارهم، ألا ترون إلى البيوتات التي خُرِّبَتْ، ألا ترون إلى الناس الذين يلتفتون يميناً وشمالاً يبحثون عن شيء من المال يعودون به فيرممون به بيوتهم؟ عودوا أيها الإخوة والأخوات بهذا المال الذي عزمتم أن تحجوا به إلى بيت الله الحرام، عودوا به إلى هؤلاء المحتاجين

وأنا الضمين وأنا الكفيل أن يكتب لكم الله عز وجل الأجر الذي كتبه لموفق الإسكافي، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

عباد الله: لعله قد بلغكم أن مشيخة في بلدة عربية مجاروة لنا أفتت على سمع العالم العربي والإسلامي أجمع بكفر سوريا وبردتها وبأن على العالم الإسلامي أجمع أن يتجه بقتالها في سبيل الله عز وجل وأن على الموسرين أن يقدموا العون لهؤلاء متمثلاً في مالٍ، متمثلاً في سلاحٍ يعينون به المقاتلين الذين يجب أن يتجهوا مجاهدين في سبيل الله أما الكفر أو الردة التي وقعت في سوريا.

والذي أريد أن أقوله أمران اثنان أيها الإخوة:

أولاً: ما هي المحكمة التي نطقت بهذا الحكم وعلام اعتمدت من رؤية رأتها أو كلام كفري سمعته أو شهادة من أناس شهدوا بهذا الكفر؟ وهذا ما نص عليه علماء الشريعة الإسلامية، ما هي هذه المحكمة التي نطقت بهذا الحكم؟ وعلى أي أساس من قولٍ سمعوه أو من فعل رأوه أو من شهادة شهود شهدوا بذلك؟

الأمر الثاني: أننا لم نر في هؤلاء الذين أُرْسِلُوا إلينا من قبلهم من ذَكَّرَنَا بالتوبة، من استنطقَنَا بالشهادة وإنما رأينا فيهم من يرتكبون الفواحش والموبقات، رأينا فيهم من يعكفون على المخدرات، رأينا فيهم من يسددون رصاص القتل إلى المصلين في صلاتهم، إلى الراكعين الساجدين أثناء توجههم إلى الله، رأينا فيهم من يقصدوا إلى دور العبادة من مساجد وكنائس يحطمونها، يلصقون بها أسباب الاتقاد وأسباب الاحتراق، وحسبكم نموذجاً لذلك ما جرى بالجامع الأموي الكبير في حلب من شناعات صارخة دوَّتْ على سمع العالم أجمع، قواذف احترقت بها جدران المسجد، وُجِدَ من دخل باسم الجهاد إلى هذه المساجد بنعالهم القذرة، دُنِّسَتْ الفرش أيما تدنيس، توجهوا إلى خزائن المصاحف، حطموها، أخرجوا منها المصاحف وألقوها أرضاً، نعم ألقوها أرضاً، واتجهوا إلى الآثار النبوية المتمثلة في شعرات توارثناها من عصر الصحابة، أجل من عصر الصحابة، إلى هذا اليوم، شعرات النبي صلى الله عليه وسلم، أقبلوا إلى هذه الآثار النبوية فحطموها، أهذا هو مظهر الجهاد في سبيل الله؟! ومن العجب الذي يبكي وربما يضحك أن المجاهدين الذين أُرْسِلُوا إلينا يمعنون في بيوت الله وفي مقدمتها هذا الجامع الأموي تخريباً وتحريقاً وتمزيقاً وتدنيساً،

والذين اتهموا بالكفر والردة لا يقر لهم قرار حتى يبدؤوا فعلاً بإعادة هذا المسجد الجامع إلى شأنه، لا يقر لهم قرار حتى يشكلوا اللجان المعنية والميزانية التي لابد منها والوسائل التي ينبغي البداءة بها منذ فجر حصول هذه النكبة وها هم ألاء يفعلون، أليس عجيباً أن يمعن المجاهدون في التخريب وأن يمعن الذين يُتَّهَمُونَ بالكفر بإشادة المسجد وعمارته، أغلب الظن، بل أقول أغلب الظن، أنا متيقن أن سوريا لو غرست في قلب إسرائيل سفيراً لها وأرسلت معه كتاباً إلى رئيس إسرائيل تصافيه الود وتغازله في الحب وتنعته بالصديق العزيز وتعده بتنفيذ كل ما تتطلع إليه إسرائيل من مصالح لها وحاجيات لها إذاً لعثر هؤلاء على إيماننا الضائع ولعثروا على إسلامنا وهويتنا التي كانت خفية ضائعة عنهم، على أن هويتنا لا تضيع وكيف تضيع ورسول الله قال عن الشام في حديث صحيح نعم: ﴿هي خيرة الله من أرضه يجتبي إليها خيرته من عباده﴾ هذه الشهادة نعتز بها.

ماذا بقي يا عباد الله؟ بقي أن أقول شيئاً أتوجه به إلى جيشنا العزيز الغالي أجل أجل العزيز الغالي بما أتوجه به إلى نفسي وإليكم إلى قادة هذه الأمة جمعاء أدعوهم قيادة وضباطاً وجنوداً إلى التوبة بين يدي الله سبحانه وتعالى، أدعوهم إلى الاصطلاح مع الله سبحانه وتعالى، أدعوهم إلى تنفيذ أوامر الله سبحانه وتعالى جهد الاستطاعة، أدعوهم إلى التسامي عن كل ما قد حرم الله سبحانه وتعالى، ألا فليعلموا أنهم أقرب الفئات كلها إلى لقاء الله، بينهم وبين الشهادة، بينهم وبين لقاء الله ربما دقائق فهم أحرى الناس بأن يتهيئوا للقاء الله بأن يتهيئوا للقاء الله عز وجل، أعدهم وأنا الضامن إن هم فعلوا ذلك أنهم سيكونون مصداقاً لكلام رسول الله القائل في الحديث الصحيح: ﴿نُصِرْتُ بالرعب إلى مسيرة شهر﴾ ولقد قال العلماء إن هذا ليس أمراً خاصاً برسول الله بل ينطبق عليه وعلى جنود المسلمين إلى يوم القيامة، فكونوا كما أقول لكم تكونوا ورَّاثاً لهذه المزية التي خص الله عز وجل بها رسوله، كونوا كما أقول لكم بل كما يقول الله سبحانه وتعالى ولسوف يكون كل منكم مصداقاً لكلام الله عز وجل: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٤].

يا أيها الإخوة ألا فلتعلموا أن أعتى سلاح يرعب العدو هو سلاح الالتجاء إلى الله، لاسيما عندما يكون هذا الالتجاء صادراً مِنْ مَنْ؟ مِنْ مَنْ يواجهونهم، هذه هي كلمتي الأخيرة وليسمع الذين ينعتوننا بالكفر، وليسمع الذين ينعتوننا بالردة، لا يمكن أن نولي وجهنا إلى شطر الغرب، لا يمكن أن نولي وجهنا

إلا إلى مرضاة الله عز وجل، وصدق الله القائل: ﴿اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

هذا هو ولينا، محمد نبينا، ومولانا الله ولينا، أما هذه الفتوى التي لا نشك في أنها صدرت من البيت الأبيض الأمريكي وحظيت بتوقيع إسرائيل فلسنا منها في شيء، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.




عيد الأضحى

٣٩٣- التكبير... حقيقته وأثره | ١٩٩٤/٠٥/٢١

لأمرٍ ما جعل الله سبحانه وتعالى شعار صباح هذا اليوم المبارك التكبير، بل لأمرٍ ما جعل الله سبحانه وتعالى شعار هذه الأيام كلها بدءاً من فجر يوم عرفة إلى نهاية أيام التشريق التكبير المتواصل لكل مناسبة، وإثر كل صلاة، ترى ما الحكمة من ذلك؟

في هذا اليوم لا سيما في العصر الذي نعيش فيه حيث المآسي الكثيرة المتنوعة التي تطوف بالمسلمين، والتي تتسرب إلى حنايا قلوبهم فترمضهم بالآلام المتنوعة...

في هذا اليوم من هذا العصر الذي تكاثرت المصائب على المسلمين فيه، وتنوعت بل تنوعت ينابيعها من داخلٍ ومن خارج...

في هذا اليوم حيث المصائب التي تتوالى على المسلمين بكل أنواعها وأشكالها، لن يجد المسلم أمامه من عزاءٍ يصغر من حجم هذه الآلام والمصائب سوى عزاءٍ واحد هو أن يتذكر أن الله عز وجل أكبر وأجل من كل ما يطوف بالأمة الإسلامية اليوم من مآسٍ ومصائب.

فإذا كَبر الإنسان ربه ووعى معنى تكبيره لله، أدرك معنى العزاء في هذه الكلمات القدسية اتجاه المصائب التي تتناوش المسلمين اليوم، وهي كما قلت لكم مصائب متنوعة كثيرة شتى، وإن كنت أعلم أن ينبوع هذه المصائب شيءٌ واحد مرده إلى نفوسنا مرده إلى نفوسنا التي ضاعت منها معالم التزكية وتسربت إليها ظلمات الأدران المتنوعة المختلفة، فكان من هذه الأدران التي هيمنت على قلوبنا، كان من ذلك ما ترون من المصائب المتنوعة التي يبدو البعض منها وكأنها مصائب آتية إلينا من خارج هذه الأمة، والبعض منها نابع من مجتمعاتنا كل هذه المصائب مردُها إلى نفوسنا، ألم تقرأوا قول الله عز وجل ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ أو قوله عز وجل ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾؟

أمام هذه المأساة التي وقع فيها المسلمون، ما هي النافذة التي ينتعش أمامها المسلم؟ هي أن يتذكر كبرياء الله عز وجل، هي أن يتذكر أن الله عز وجل أكبر من هذه الأهواء والأدران التي هيمنت على

نفوس المسلمين، وأن الله عز وجل أكبر من خطط الأعداء الذين استهانوا بالمسلمين، لما رأوا فيحَ هذه الأدران التي تتعالى من سويداء قلوبهم، والله أكبر وأجل من كل قوة تتربص بإسلام المسلمين، والله أكبر وأجل من كل مكيدة تخطط بليلٍ أو بغير الليل من أجل المسلمين، فالله سبحانه وتعالى موجود ولا يزال سلطانه هو هو، ولا تزال سننه الماضية هي هي، ولكن المسلمين قد غفلوا عن هذه الحقائق، ولما غفلوا عن هذه الحقائق تناسوا ولاية الله عز وجل لهم، تناسوا الكلمة القدسية التي لقننا الله إياها عندما قال: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللّهُ﴾ هكذا علمنا الله عز وجل أن نقول.

وهكذا أمرنا أن نعلم عندما قال في الآية الأخرى بصريح العبارة وبطريقة آمرة ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ﴾ عندما نسينا هذه الحقيقة تولينا أعداء هذا الدين واستسلمنا لشهواتٍ وأهواء، واستسلمنا لخطط ومكائد بعد أن هيمنت الأدران التي حدثتكم عنها على نفوسنا، نسينا أن الله سبحانه وتعالى هو الولي الذي لا ولي سواه، وأنه صاحب القوة التي تذوب أمامه سائر القوى، نسينا ذلك فوقعنا من مغبة هذا النسيان في الآلام والمصائب، ما العزاء؟ بل ما هو الدواء؟ الدواء هو أن نعود فنتذكر لا سيما في مثل هذا الصباح، في مثل هذه المناسبة، أن نتذكر أن الله أكبر من كل شيء، إن تصورنا وتذكرنا جموح نفوسنا وأهوائها، فلنتذكر أن الله أكبر من ذلك، ومن ثم فإنه المأمول أن يشفينا من أمراضنا النفسية.

وإن تذكرنا تكاثر الأعداء من حولنا فلنتذكر أن الله عز وجل أكبر من كل شيء، أكبر من عدوان المعتدين، وأكبر من كيد الكائدين، وأكبر من كل ما يتربص بالمسلمين وإسلامهم، هذا معنى التكبير في هذا الصباح، ولكن الناس بعد هذا أحد رجلين، رجل يكبر ولا يعلم ماذا يقول، يرفع صوته مجلجلاً بالتكبير ونفسه زائغة وأهوائه مستشرية هذا التكبير بالنسبة لهذا الإنسان ليس أكثر من شعار ميت لا قيمة له ولا يحرك في كيان الإنسان ساكناً، أو رجل آخر عندما ينطق بالتكبير قائلاً الله أكبر، تسري جذور هذه الكلمة إلى أعماق نفسه وقلبه فتهز فؤاده هزاً وتنفضه من كل ما قد ران عليه من أهواء وشهوات وأدران،

عندما يقول الله أكبر من أنا؟ أنا عبد ذليلٌ بين يدي الله عز وجل، لا طاقة لي ولا حول أستسلم بكل كياني وبكل شراشري وبكل ظواهري وبكل بواطني لمن يده الأمر كله ولمن إليه المرجع كله، أستسلم إليه وقد أيقنت أنني لا شيء أمام قدرة الله سبحانه وتعالى وسلطانه، وبمقدار ما يضئل الإنسان وهو يعبر

عن تكبيره لله عز وجل بنبضات قلبه تضيع وتذوب وتصغر وتضائل قوى العالم أجمع، عندما يقول الله أكبر الله أكبر وهو يعي ما يقول يستيقظ إلى أن الكون لا شيء وأن كل قوى الشر لا شيء، وأن سائر كيد الكائدين وأن سائر القوى المتربصة بالإسلام وأن سائر مظاهر التشاكس التي تسري وتجري بين المسلمين بعضهم مع بعض كل ذلك لا شيء، أمام سلطان الله سبحانه وتعالى وقوته.

فإذا وعى الإنسان هذا التكبير وكرره تحققت له من ذلك العبودية التي تتفجر بالتوحيد الخالص لله سبحانه وتعالى، التوحيد الخالص لله عز وجل هو منبع كل قوة بعد ضعف، وهو منبع كل وحدة بعد شتات، وهو منبع كل عز بعد ذل، ولعل فينا من يقول إن الدنيا كلها اليوم تكبر، إن العالم الإسلامي كله اليوم يكبر، وإن إذاعات العالم كلها تهتز بالتكبير، فأين هو أثر هذا التكبير؟ ألم أقل لكم أيها الأخوة، إن إسلامنا قد غدا اليوم كلمات تتردد على ألسنا وشعارات نجمل بها مظاهرنا، أما قلوبنا ففتشوا عنها تجدوها مليئة بالأدران التي حدثتكم عنها مليئة بحب الدنيا وما أكثر أنواع الدنيا والدنيا ليست مجرد درهم ودينار، قلوبنا مليئة بمعانٍ كثيرة للحسد والضغائن والبغضاء والأنانية المستشرية، كلنا يعلم هذه الحقيقة، عندما نقول الله أكبر تأتي هذه الكلمة غطاءً لهذه المشاعر ولهذه الأدران، ولا تأتي نسفاً لها وتصحيحاً،

ومن ثم فما عسى أن يفعل التكبير عندما يصبح في حياة المسلمين فناً؟!

ماذا عسى يفيدهم التكبير عندما يصبح أنشودة تطرب منها الآذان فقط؟!

بل الأمر كما قلت لكم بالأمس.. ماذا عسى أن يستفيد المسلمون من تزاحمهم حول الحجر الأسود أو حول الكعبة المشرفة؟!

بل ماذا عسى أن يستفيدوا من تجمعهم فوق أرض عرفة وكأنها كما قلت كف الرحمن سبحانه وتعالى يتزاحم فوقه المسلمون؟!

ماذا عسى أن يفيدهم ذلك كله؟! وإنما الذي يتلاقى منهم هذه الجسور، أما أمانيهم وأحلامهم وأفكارهم فهي زائغة منصرفة إلى شهوات إلى أهواء إلى حظوظ نفس، وليت أن هذه القلوب قد خرجت من معاني ستر الله سبحانه وتعالى وكنفه، لكي نرى التشاكس بل التناقض الكبير بين ألسنتنا وقلوبنا

ولكن الله كان ولايزال سِتيراً كان الله عز وجل ولا يزال رحيماً ولطيفاً بعباده لا يفضحهم في هذه الحياة الدنيا، لكن لو أننا رأينا الأفئدة وما فيها، وقارنا بينها وبين هذه الألسن، لرأينا شيئاً عجباً من مظاهر التناقض والتشاكس، ولذلك فإن تكبيرنا لا يؤثر، وإن هذا التكبير مهما اجتمعت عليه الألسن، ومهما انتقل عبر الأثير من عالم إلى عالم لا يهز ساكناً ولا يخيف عدواً، وبالأمس كانت تكبيرةٌ واحدة تخيف أمة متكاملة من أعداء هذا الدين. أمام هذا الواقع أيها الأخوة، وفي يوم كهذا اليوم ما هي وظيفتنا؟ وظيفتنا أن نبدأ فنطهر قلوبنا حيث منبع هذه الآلام والأسقام والأدران وحيث المظهر الذي أطمع أعداء الله عز وجل بنا نطهر قلوبنا ونزكي نفوسنا، وأين هم الذين إذا أرادوا أن يصلحوا أمتهم أو إذا أرادوا أن يسيروا في طريق بناء مجتمعهم على النحو الذي يرضي الله عز وجل؟!

أين هم الذين يعرفون أن المبدأ إنما هو هنا؟! وأن الخطة إنما تبدأ بإصلاح هذه القلوب على الرغم من أن الله قال وكرر ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ نحن حتى عندما نريد أن نصلح، نصلح ظواهر أمورنا ولا نعود إلى تأسيس بنياننا قط، كل بناءٍ ينهض على ركام من الأتربة وعلى طم وردم ينبغي أن لا يفاجئ صاحب هذا البناء إذا رأى أن التصدع قد ظهر في جدرانه عما قريب، نحن أقمنا جدراً ظاهرها شيء يلفت النظر ويبرق مرآه في العين ولكنها جدرٌ غير قائمة على أساس، والأساس هو هذا الفؤاد، لما أعرضنا عن هذا الأساس كانت النتيجة أن تصدع بناؤنا وسرعان ما تسرب إلى داخله العدو كما تلاحظون وكما ترون.

بلادنا الإسلامية اليوم مسرح لتحرك أعداء هذا الدين، قدراتنا إنما هي سلاح من الأسلحة في أيدي أعداء هذا الدين، أموالنا متعة وأي متعة تتقلب أو يتقلب فيها أعداء هذا الدين، ونحن لا نزال مسلمون فيما ندعي ونقول ولا نزال نتذكر ونُذكر بمعنى قول الله عز وجل ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا﴾ لا نزال نذكر ونتذكر هذا كله، ولكنا مع ذلك إنما ننصاع لشهواتنا وأهوائنا، عندما نتهيأ لأن نرقى إلى مستواً نضحي فيه بشهواتنا وأهوائنا في سبيل مرضات ربنا يبدأ الصلاح عندئذ، وتسري خطوات الصلاح بطريقة من المعجزات بل بسلسلة من المكرمات الإلهية، أين هم الذين يضحون ونحن في ذكرى التضحية في هذا اليوم؟! أين هم الذين يضحون بأهوائهم بحظوظ أنفسهم؟!

ولعلي قلت لكم أكثر من مرة إن هذا اليوم يوم عيد الأضحى المبارك وعاءٌ يفيض بنماذج كبيرة وجليلة من التضحيات في سبيل الله سبحانه وتعالى، وسيّد من ضحى في هذا اليوم المبارك، وفي مناسبة هذا اليوم المبارك، إنما هو خليل الرحمن إبراهيم، ألا تعلمون كم ضحى لكن بما ضحى؟ ضحى بهواه، ضحى بشهواته، ضحى بال أنا الكامنة بين جوارحه، ضحى أولاً وضحى ثانياً وضحى ثالثاً، حتى شهد له البيان الإلهي الشهادة الكبرى التي تخترق اليوم حواجز الدهور والقرون وكان ذلك مثلاً يحتذى لكل مسلم ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾

كلامٌ واضح ودستور عظيم إمامة هذا الكون لمن تكون؟ لن تكون لغرب ولا لشرق وإنما تكون لمن امتحنه الله سبحانه وتعالى فكان على مستوى الامتحان، كيف يكون على مستوى الامتحان؟ بأن ينتزع أهوائه وحظوظ نفسه فيضعها تحت قدميه، ويسير في الطريق التي ترضي الله عز وجل، وعندما أثاب الله هذا المضحي بهذه النتيجة والثمرة لم يكن الأمر خاصاً لإبراهيم، بل هي سنة ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ كان جزاء ذلك أن جعله إماماً لهذا الكون، ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً﴾ والناس من بعده كل من سار على هذا النهج فهو إمام، ولن يستطيع أحدٌ أن ينتزع مقود الإمامة منه أبداً، ولكن كل من تاه عن هذا الطريق لن ينال حظوة، ولو كان من ذرية إبراهيم، ولو كان من ذرية محمد عليه الصلاة والسلام.

فهل ضحينا أيها الأخوة عندما نتخالف اليوم على شتى المسارح الإسلامية نتخالف في سبيل الله أم نتخالف انتصاراً لأهوائنا ونفوسنا؟! والله إنكم لتعلمون أننا نتخالف انتصاراً لأهوائنا ونفوسنا، ذلك لأن المسلمين من قبل كانوا يختلفون ولكن التخالف لم يكن يبعث فيهم تهارجاً لم يكن المتخالفون في الرأي يتخذون من آرائهم الخاصة بهم أسلحة فتاكة، ليجعلوا منها عدة قتل وإساءةٍ وتسلطٍ على الآخرين بل تكفيرٍ وما إلى ذلك للآخرين، كل هذه الخلافات المستشرية اليوم كانت موجودة بالأمس، ولكن المسلمين كانوا يمارسون من هذه الاختلافات وظيفة أقامهم الله عليها ثم إن كلاً منهم يعذر صاحبه، لأن مبعث هذه الاختلافات لم يكن حظ نفس لم يكن هوىً من الأهواء، ولذلك فكان المتخالفون متعانقين دائماً،

كانوا متفقين دائماً، ولم يكن فريقٌ منهم يسلم فريقاً إلى عدو، لم تكن فئة منهم تسلم فئة من هؤلاء المسلمين إلى عدو متى حصل هذا؟! في أي تاريخٍ حصل؟!

كان المتخالفون يعذر بعضهم بعضاً تماماً كما لو أن أربعة من المسافرين اختلفوا في اتجاه القبلة في سواد ليل مظلم، فاجتهدوا كما أمر الله فهدي كل منهم إلى جهة من الجهات، ونفذ كل منهم ما أمر الله صلى هذا في هذه الجهة وصلى الآخر في الجهة الثانية، وصلى الآخر في الجهة الثالثة، وصلى الرابع في الجهة الرابعة، وظيفةٌ أقامهم الله عليها فأقاموها كما أمر، ولما انتهوا من صلاتهم عادوا متعانقين، عادوا متآخيين، عادوا متعاونين، لأن هذا الذي تم لم يكن انتصاراً للذات، وإنما كان انتصاراً لأمر الله، وتطبيقاً لما قد قضى به الله عز وجل، أما اليوم فالمسألة ذاتها تقع، ولكن كلاً منا يجعل من رأيه سلاحاً ليبتر به حياة صاحبه، يجعل من رأيه سلاحاً ليجعل منه سلماً يستعلي به على كيان صاحبه، ولما رأى الأعداء هذا، صفو ثم اتخذوا من هذه الظاهرة أحبولة وأي أحبولة، وراحوا ينفخون فيما بيننا مزيداً من أسباب الخلاف والتهارج وحاق فينا قول الله عز وجل: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾

أقول قولي هذا وأستغفر الله.

٣٩٤- سيدنا إبراهيم... دروس في الصبر | ٢٠٠٨/١٢/٠٨

في صبيحة هذا اليوم الأغر تهب ذكرى أبي الأنبياء سيدنا إبراهيم خليل الرحمن، وما من معلمة من معالم الحج إلى بيت الله العتيق وما من شعيرة من شعائره إلا وهي ناطقة بذكرى أبي الأنبياء إبراهيم على نبينا وعليه الصلاة والسلام، ولله في ذلك حكمة باهرة، ولقد كانت الذكريات ولا تزال جسراً ممتداً بين الماضي والحاضر، بين القديم والجديد، يتلقى المتأخرون منها دروساً وعبراً مما جرى بالسابقين وجديرٌ بنا نحن المسلمين يا عباد الله أن نوظف هذه الذكرى التي أحياها ربنا سبحانه وتعالى من خلال شعائر الحج إلى بيت الله الحرام جدير بنا أن نحتفي بها وأن نتلقى منها دروساً وعبراً وسبلاً نعالج بها مشكلاتنا وأدواءنا وما أكثرها. كلنا نقرأ بيان الله عز وجل القائل: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً﴾ [البقرة: ١٢٤]، هل تأملتم في هذه الكلمات التي ابتلى اللهُ عز وجل بها نبيَّه إبراهيم ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾، نجح في الابتلاء وكان على مستوى ما طلبه منه مولاه جل جلاله.

بماذا ابتلاه الله عز وجل؟ ابتلاه الله سبحانه وتعالى أولاً بأن يهجر قومه إلى بلاد الشام، ترك زوجه وترك طفله الصغير في أرض غير ذي زرع تاركاً أهله لله سبحانه وتعالى مستجيباً لما طلب، ابتلاه الله سبحانه وتعالى بالنمرود، أرسله الله سبحانه وتعالى إليه، حطم الآلهة المزيفة التي كانت تُعْبَدُ من دون الله سبحانه وتعالى، واجتمعت محكمة النمرود فحكموا عليه بالإحراق بالنار وأوقدت النيران كما تعلمون يا عباد الله ووضِعَ خليل الرحمن في القاذف وجيء به لِيُقْذَفَ في نار ملتهبة متصاعدة إلى عنان السماء وجاءه جبريل يسأله قائلاً أليست لك حاجة قال: أما إليك فلا. أما إليك فلا؛ كان إبراهيم آنذاك يتقلب في ساعة من وحدة الشهود لا يرى في الكون كله إلا المدبر الأوحد وهو الله عز وجل فلما قُذِفَ به وقد أتم هذا الابتلاء على خير وجه جاءت محكمة الله قائلة: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [الانبياء: ٦٩]، ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ، قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾.

عَلَّمَنَا الله يا عباد الله أن محكمة الله هي الغالبة وأن حكم الله دائماً هو النافذ. ابتلاه الله عز وجل بعد ذلك بابنه، بفلذة كبده إسماعيل، أَمَرَهُ بالذبح، وما هو إلا ابتلاء لِيُرِيَنَا الله، لا لِيُرِيَه، لِيُرِيَنَا الله عز وجل كيف تكون حقيقة العبودية لله وكيف تكون الاستجابة الحقيقية لسلطان الله عز وجل وأمره وكيف ينبغي أن يبرهن من يقول أنا عبد الله، كيف ينبغي أن يبرهن على ذلك بأن يضحي بكل شيء في سبيل هذا الذي يدعيه ويعلنه. نجح إبراهيم خليل الرحمن في تلك الابتلاءات كلها، كان عبداً يعلن عن أنه لا يملك شيئاً إلا عبوديته لله سبحانه وتعالى. تلك هي الكلمات التي أشار إليها بيان الله ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً﴾ [البقرة: ١٢٤].

فما الدرس الذي ينبغي أن نتلقاه من ذلك إن في ذرى عرفة أو حول بيت الله العتيق أو في أي معلمة من تلك الديار المباركة أو في أي صقع من أصقاع عالمنا الإسلامي هذا، ما هو الدرس الذي ينبغي أن نتلقاه في صبيحة هذا اليوم الأغر من هذا الذي ينبئنا به بيان الله؟ إنه التضحية يا عباد الله، يعلمنا الله عز وجل كيف ينبغي أن يمارس العبد عبوديته لله، لا بالدعاوى الكلامية، لا بالطقوس السلوكية وحدها بل ينبغي أن يعلن عن عبوديته لله عز وجل بأن يضحي بكل ما يملك وبكل ما يحب وبكل ما يعتز به في سبيل محبوبه الأول، في سبيل عزيزه الأقدس، هذا ما ينبئنا عنه بيان الله ويدعونا إليه.

وليس المطلوب منا يا عباد الله إذ نتلقى هذا الدرس في صبيحة هذا اليوم من ذكرى أبي الأنبياء إبراهيم أن نضحي بمثل ما ضحى به سيدنا إبراهيم، ليس المطلوب منا أن نستسلم لمن يقذفنا في النار، ليس المطلوب منا أن نذبح وليداً ولا طفلاً وإنما يكفي أن نضحي بحظوظنا الشخصية، المطلوب منا أن نضحي بمصالحنا الآنية الدنيوية وأن نؤثر عليها أمر الله، لا بل أن نؤثر عليها المصلحة الباقية. المطلوب منا يا عباد الله أن نضحي بالفاني في سبيل الباقي، أن نضحي بحظوظنا الذاهبة الآيلة وأن نستبقي ما يكون ضمانة لسعادتنا وسعادة أمتنا.

ما هي الابتلاءات التي يبتلينا الله عز وجل بها اليوم في مقابل تلك الابتلاءات الثقيلة التي ابتلى الله عز وجل بها خليله إبراهيم؟ إنه يبتلينا بالصبر على المكاره التي نراها، يبتلينا الله عز وجل بالأخلاق الإنسانية الراشدة عندما يتعامل الواحد منا مع أخيه إن في الإسلام أو في الإنسانية، ألا نغش، ألا نخدع، ألا نملأ جيوبنا أو صناديقنا بالأموال على حساب صحة إخواننا، على حساب عافيتهم. يريد الله عز

وجل منا أن نضحي بحظوظ النفس وبراحة البال في سبيل أن نبقي على إخواننا أعزة، في سبيل أن ننتصر لهم ضد العدو المشترك الذي استلب ديارهم واغتصب حقوقهم، هذا ما يطالبنا به الله عز وجل. ولو أننا نجحنا في هذا الذي يبتلينا الله عز وجل به لرفع لنا الله عز وجل عنده مكاناً عليا، ولكن أين هم الذين يتلقون هذا الدرس في مثل هذا الصباح الأغر ليعودوا فيقولوا لمولاهم عز وجل لبيك وسعديك ها نحن نسير على خطى أبي الأنبياء إبراهيم.

إخواننا في فلسطين أو في غزة لماذا يعانون من هذا الذي يعانوا! أهو عجزٌ، والعياذ بالله، من المولى سبحانه وتعالى أن ينتصر لهم! معاذ الله، ولكنه من نوع الابتلاء الذي ابتلى الله عز وجل به أبا الأنبياء إبراهيم، ترى هل نبرهن على صدق إسلامنا، هل نبرهن على صدق عبوديتنا لله عز وجل، هل نبرهن على أننا فعلاً مستمسكون بكتاب الله الذي يُتْلَى على مسامعنا وفي الأقنية المختلفة الكثيرة آناء الليل وأطراف النهار! ولكن ما الذي نراه؟ نرى الثنائية التي حدثتكم عنها في الأسبوع الماضي والذي قبله.

مسلمون بألسنتنا، مسلمون بحركات الركوع والسجود إن ركعنا أو سجدنا، مسلمون بطبع المزيد والمزيد من المصاحف وبالإكثار من الأقنية التي يُتْلَى فيها كتاب الله صباح مساء ولكن عندما ننظر إلى هذا الابتلاء الذي ابتلانا الله عز وجل به، إخوة لنا محاصرون عن شمال وجنوب، محاصرون عن طريق أعدائنا وعن طريق إخواننا، يموتون موتاً بطيئاً بالوسائل والأمراض المختلفة التي لا داعي إلى ذكرها ونداء الله عز وجل يصك أسماعنا وأسماعهم أن انتصروا لدين الله، أن انتصروا لإخوانكم الذين يُضْطَّهَدون ويُحَاصَرَون ويُقَتَّلُون تقتيلاً بطيئاً، سيروا خطوات وئيدة بسيطة في الطريق التي سار فيها أبو الأنبياء إبراهيم، وخطب هذا اليوم الرنانة تُسْمَعُ في صقع وتهتز من تحتها المنابر في كل مسجد هنا وهناك ولكن إخوانكم في غزة يُخْنَقْون ويُقَتَّلُون ويُحَاصَرُون ولا من مستجيب قط، يُحَاصَرُون من قبل أعدائنا وأعداء الله ويُحَاصَرُون من قبل إخواننا وإخوانهم في الله.

كيف يمكن أيها الإخوة أن نخاطب الله عز وجل في صبيحة مثل هذا اليوم الأغر الذي تفوح فيها ذكرى أبي الأنبياء إبراهيم، هذه الذكرى التي يضعنا الله منها أمام مبدأ التضحية، والله لا يريد منا أن نضحي بمثل ما ضحى به إبراهيم لكنه يريد منا الصدق في سيرنا على صراطه، يريد منا ألا نخدع ولا نغش ولا تُكَذِّبَ ألسنتُنا قلوبَنا، يريد الله عز وجل منا إذا وجدنا أن الله قد ابتلانا بهؤلاء الأعداء، لكي يتبين

صدقُ الصادقين وكذبُ الكاذبين، يريد الله عز وجل منا أن نعلن أننا عبيده، أن نقول له يا رب ها قد عدنا إليك وها قد جرَّدْنا كل قوانا في سبيل أن ننتصر لدينك من خلال الانتصار لإخواننا.

إخواننا هناك يستصرخون وينادون إخوانهم في الله، أولئك الذين قال الله عنهم ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ [الحجرات: ١٠]، ولا من مجيب، ولا من مجيب قط، إنما هنالك شيء آخر، هنالك وعدٌ يُنَفَّذُ بين المسلمين وأعداء الدين، قدسية من الوعد ينبغي أن تُنَفَّذ، والشيطان هو الشاهد وهو الموقع، أما الصدق مع الله فغائب ومطوي!

ماذا أقول أيها الإخوة في صبيحة هذا اليوم الذي سيعود فيه كل واحد منكم إلى داره وهو يرى ألق الفرحة في هذا الصباح يرتسم على وجوه الصغار والكبار، كيف؟ كيف يمكن ألا تصبح هذه الفرحة غصة في الحلق عندما نتذكر إخواننا هؤلاء! بل كيف نواجه مولانا وربنا غداً إذا سألنا أين هو مصداق دعواكم، إذا سألنا اللهُ عز وجل حكاماً ومحكومين، قادة وشعوباً، ابتليتكم بأعدائي وطلبت منكم الانتصار لديني ووعدتكم النصر إن أنتم صدقتم في التوجه إلى ما أردت، فهلا استجبتم لدعائي، هلا كنتم صادقين، هلا وضعتم في حجكم إلى بيت الله الحرام معناه الذي أردت أن تضعوه، هلا تحولتم من التعامل مع الطقوس إلى التعامل مع الرب سبحانه وتعالى.

أنا لا أقول إن هنالك تناقضاً بين الفرحة الغامرة في دار كل مسلم وبين الأسى الذي يعتصر القلوب لحال إخواننا هؤلاء ذلك لأن قلب المسلم يتسع لهذا وذاك. فرحتنا ليست عبارة عن رعونة إنما هي وظيفة نتقرب بها إلى الله، والأسى الذي يعتصر قلوبنا ليس كمداً نفسياً ولكنه هو الآخر قربى نتقرب بها إلى الله، والعبد المؤمن يسير إلى الله بفرحته التي يحتسبها أجراً عند الله ويسير إلى الله عز وجل بمأساته التي يحتسبها عند الله ولكننا نريد أن نضع المعاني في ألفاظها، نريد أيها الإخوة أن نغمض أعيننا ثم نفتحها وإذا بقادةٍ من حولنا قد آبوا إلى الله وعادوا فاصطلحوا مع الله وعادوا يبايعون مولاهم وربهم وينفضون اليد عن مصافحة أعداء الله عز وجل. أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

٣٩٥- ثمرات الحب | ٢٠٠٩/١١/٢٧

هذا هو اليوم الأغر، اليوم المبارك الذي يتجلى فيه الله سبحانه وتعالى على عباده جميعاً أينما كانوا وحيثما حلوا بالرحمة وبالإكرام والمغفرة بل بالحب، ولقد علمنا أن الله سبحانه وتعالى خلق هذا الإنسان على عينيه، خلقه مكرماً، خلقه معزّزاً، والكل داخلون في هذا التكريم الذي ميّزهم الله عز وجل به إلا من أبى، وإنما يأبى هذا التكريم من استكبر وعتا، والله أكبر والله أكبر والله أكبر.

عباد الله مما لا ريب فيه أن العبد المؤمن عندما يتنبه في هذا اليوم المبارك إلى النعمة العظمى التي أسداها الله عز وجل إليه، وأجلُّ نعمة تتمثل في الحب، وهل من ريب في أن الله تعالى يحب عباده المؤمنين به؟ لولا حبه لهم ما أكرمهم بالإيمان به، لولا حبه لهم ما فتح قلوبهم للعبودية له وللانقياد لأمره. إذا عرفنا هذا، وإذا تبين لنا أن الله سبحانه وتعالى يتجلى على عباده في هذا اليوم بمزيد من الإكرام وبمزيد من الإنعام بل بمزيد من الحب، يغفر للمستغفرين، ويرحم المسترحمين، ويجيب دعاء المضطرين، إذاً أفلا نبادل مولانا حباً بحب؟ أفلا نبادله حباً بمثل حبه لنا كي نكون ممن قال الله عز وجل عنهم: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤].

لقد أحبنا الله إذ أكرمنا بالإيمان، أحبنا الله إذ أكرمنا بمعرفته، إذ أكرمنا الله سبحانه وتعالى بالسجود لوجهه، أفلا نبادله إذاً حباً بحب؟ تعالوا نبايع مولانا جل جلاله في هذا اليوم على أن نقابل حبه بمثل حبه، تعالوا نجدد البيعة لله عز وجل لا بألسنتا فقط بل بقلوبنا النابضة، وأنتم تعلمون أن الحب لا بد أن تكون له ثمار، ولا بد أن تتجلى له نتائج، ونحن نعلم جميعاً أن الله عز وجل غنيٌّ عن عباده لا يحتاج إلى أيٍّ منهم، وكيف يحتاج الخالق إلى المخلوق؟! بل المخلوق دائماً هو المحتاج إلى خالقه، إذاً فما ثمرات حبنا لله عز وجل؟ حب الله عز وجل لنا ثمراته المغفرة، ثمراته الرحمة، ثمراته الإكرام، ثمراته الاستجابة لدعاء الداعين، ولكن ما هي ثمرات حبنا لله عز وجل؟ ثمرات حبنا لله عز وجل هي الانقياد لأمره، وأجلُّ مظاهر الاستجابة التي تُعَدُّ ثمرة مباشرةِ لحب العبد لمولاه عز وجل هي أن يتواصل هؤلاء المسلمون الذين أحبوا الله عز وجل يعبرون عن حبهم بوشيجة الحب التي تصل ما بين عباد الله عز وجل جميعاً، فمن أحب الله

عز وجل لا بد أن يترجم حبه لله سبحانه وتعالى بتجديد مَدِّ الآصرة وجسور المودة بينه وبين عباد الله جميعاً بدءاً، بأخصِّ الفئات المتصلة به، ثم تدرجاً بعد ذلك إلى مَنْ وراءهم فمن وراءهم فمن وراءهم.

ومن هم أخص الناس وأقربهم إليك يا أخي المؤمن أهل بيتك، إذاً ترجِمْ محبتك لله سبحانه وتعالى بتجديد صلة الودِّ والقربى بينك وبين زوجك، بينك وبين أولادك، إن كنت تعلم أنك قد ارتكبت ظلماً، وأنك قد جنحت عن أداء حقوق الود والعدالة لأيٍّ من أفراد أسرتك، زوجك وأولادك عدْ إلى الله عز وجل في صباح هذا اليوم الأغر، وتب إليه سبحانه وتعالى، وأبدل ظلمك لزوجك وداً وعدلاً وحباً وتحناناً، إن أنت فعلت ذلك فقد برهنت على حبك لله سبحانه وتعالى، وإن أنت ركبت رأسك، واستجبت لرعونات نفسك، وكنت الظالم لأهلك في دارك، وكنت الظالم لزوجك وأولادك، فاعلم أن قلبك فارغ من محبة الله عز وجل، ولعل هذا سيكون دليلاً على أن الله سبحانه وتعالى سيقطع حبل محبته لك.

لعل في الناس من يعتذرون فيقول أحدهم: ولكني أشعر بالكراهية لزوجتي، ويقول الله عز وجل ردّاً على مثل هذا الاعتذار ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً﴾ [النساء: ١٩].

أمامي صورٌ تقشعر لها الأبدان لا يكاد يصدقها العقل في معاملات وحشية عجيبة يعاملها رجال مؤمنون يصلّون ويركعون ويسجدون لله عز وجل لزوجاتهم، وربما لأولادهم في بيوتهم أيضاً، توبوا إلى الله أيها الإخوة، وأنبئوا هؤلاء الناس أن يعودوا إلى الله قبل أن تفوت الفرصة السانحة.

هذه هي الدرجة الأولى، تجديد المحبة لمن هم على مقربة منك، لمن هم في دارك تراهم في الصباح والمساء، أما الدرجة الثانية من القربى التي ينبغي أن تُتَرْجِمَ محبتنا لله سبحانه وتعالى فهي النظر إلى الأقارب والأرحام الذين من حولك، من هم أرحامنا؟ كل من يَصِلُون إليك بصلة القربى، كل من تمتدّ جسور القربى بينك وبينهم، كلهم يدخلون في الرحم التي أمر الله سبحانه وتعالى وأوصى برعايتها والمحافظة عليها، في صبيحة هذا اليوم ينبغي أن يعود كل واحد منا فيتساءل: أفي الأقارب الذين من حولي من قد قطعت الصلة بيني وبينهم لأي سبب من الأسباب؟ إذاً فلأتدارك ولأعد إلى هذه الصلة التي قطعتها لأوصلها على أحسن حال، وبعبارة تدل على صدق محبتي لله سبحانه وتعالى، ومن ثم لأرحامي وأقاربي أياً كان

السبب، وأياً كان الموجب، لا يمكن أن يقطع أحدهم صلته بأرحامه إلا بسبب وساوسٍ من الشيطان قد هيمن على قلبه، إلا بسبب رعوناتٍ نفسيةٍ تسلطت عليه فهيمنت عليه هذه هي الدرجة الثانية، أما الدرجة الثالثة التي ينبغي أن نعود بها دليلاً على حبنا لله عز وجل فهي النظر إلى الإخوة المؤمنين الذين نبَّهَنَا الله سبحانه وتعالى إلى صلة القربى بيننا وبينهم إذ قال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠]، كم في هؤلاء الإخوة الذين نراهم صباح مساء أينما كانوا وحيثما حلوا، كم في هؤلاء من قد ابتلانا الله عز وجل بهم، أكرمك بالمال وابتلاهم بالفقر، أكرمك بالعافية وابتلاهم بالأمراض المختلفة، وربك سبحانه وتعالى يأمر وينظر أتنفذ أمره لكي تبرهن على حبك لله عز وجل، أم تلتفت إلى نفسك وتنسى هؤلاء الذين ابتلاك الله عز وجل بهم.

عباد الله لقد خلقنا الله عز وجل وغرس في أفئدتنا رحمة من رحمته، وحناناً من كرمه ولطفه، فمن تلمّس هذه الرحمة في كيانه فلم يجدها فاعلم أن قد مُسِخَ نوعاً من المسخ، كم وكم نجد بين ظهرانينا من فقراء، لعل فيهم كثيراً يبحثون في هذا اليوم لا عن ثوبٍ جديد يكرمون به أطفالهم، ويُفَرِّحُونَ به أولادهم، بل يبحثون عن لقمة طعامٍ سائغة فلا يجدونها، وأنت الذي أكرمك الله بالمال أياً كان مستواك في ذلك، أنت الذي أكرمك الله بأسباب الرحمة التي تسديها إلى أولادك، أكرمك الله عز وجل بأسباب الفرحة التي تدخلها إلى قلوب أولادك، فماذا عن حال هذه الأسر الأخرى.

ألا تعلمون –أيها الإخوة– أن العيد الذي يدخل بيوت الناس اليوم ليجدد الفرحة في حياتهم، وليدخل أسباب المودة فيما بينهم، ألا تعلموا أن هنالك بيوتات ثكلى؟ ألا تعلموا أن هنالك بيوتات يرمق الآباء والأمهات إلى أولادهم بعيونٍ دامعة، وينتظر الأولاد أن يجدوا ما يفرحهم، يلتفتون يميناً وشمالاً فلا يجدون، ولو شاء الله أغناهم عنكم، ولكن الله عز وجل ابتلانا بهم، ترى ماذا سيكون موقفنا؟ هل سنبرهن على صدق حبنا لله عز وجل أم لا.

في الناس الذي يعيشون بين ظهرانينا من يعانون من أمراضٍ وبيلة، ويلتفتون إلى المال الذي ينبغي أن يوفروه من أجل الأدوية الضرورية في هذا المرض الذي يعانون منه فلا يجدون، ينظرون فيجدون أن المرض يتسلل إليهم رويداً رويداً، وأن الذبول يزداد، وأن النحول يتضاعف، وأن الموت يطرق الأبواب دون أن يستطيعوا أن يواجهوا ذلك كله بمثل ما نواجه به أولادنا وأهلينا، لا يملكون قدرة على شراء دواء لمريض،

ابتلانا الله عز وجل بهم، ترى ماذا سنصنع؟ هل سنقدم شيئاً من المال الذي نملكه -لا نحن لا نملكه، نحن خلفاء عن الله لهذا المال- إلى هؤلاء الفقراء أم لا.

أما أولئك الآخرون الذين نعلم آلامهم عن بعد، أما أولئك الذين تُهَدَّمُ بيوتهم في مثل هذه الأيام، ويُرَحَّلون عنها وعن أوطانهم شاؤوا أم أبوا، كانوا بالأمس يعيشون مجتمعين في هذه الدور أياً كانت الزوج والزوجة والأولاد وإذا بهم اليوم شاردون، كانوا بالأمس لهم دارٌ يسكنونها، واليوم كأنهم خلقٌ جديد ليست لهم دار، ليس لهم مسكن وإنما يملكون العراء وبرده، يملكون الأسى ومظاهره وآثاره أجل.

ماذا أقول؟ هل أحملكم وأحمل نفسي مسؤولية ذلك، لا يكلف الله نفساً إلا وسعها، نحن نملك الأسى الذي يهيمن على الكيان، نحن نملك الضنى الذي يسري إلى القلوب أما أن نبدل الأمر فلا نملك، من الذين يملكون هذا؟ قادة هذه الأمة.

يا عجباً كيف يُمْسَخُ الإنسان ليتحول إلى وحش؟ أنا لا أدري، ولكن الله يفعل ما يشاء. قادة هذه الأمة يعيشون عيش المترفين، يجمعون المال، ثم يجمعون، ثم لا يشبعون، يعيشون متقلّبين في نِعَمٍ، بل في أفانين من النِّعَمِ لا تنتهي، ويرون مظاهر هذا البؤس العجيب الذي يقع فيه إخوانٌ لهم، إن لم أقل في الإيمان بالله ففي البشرية، في الإنسانية، وهم قادرون على أن ينجدوهم بأي وسيلة من الوسائل لو اجتمعوا واتفقوا، لو أنهم أشعروا أنفسهم المسؤولية التي حمّلهم الله عز وجل إيّاها، بل التي حمّلتهم الإنسانية إيّاها، لو أنهم أشعروا أنفسهم بهذه المسؤولية، وقادتهم المسؤولية إلى أن يجتمعوا فيتلاقوا، فيتفقوا فيضربوا على يد هؤلاء العتاة الطغاة الظالمين، وما أكثر أنواع الضرب على أيديهم، يكفي القطيعة التي ينبغي أن يحققوها بعد هذا التواصل الأرعن الذي يغضب اللهَ سبحانه وتعالى، العلاقات قائمة مزدهرة بين هؤلاء الطغاة الظالمين وبين كثيرٍ من قادة هذه الأمة، يا عجباً لهؤلاء الناس كيف يستطيعون أن يضعوا اللقمة في أفواههم ثم يزدردوها في حلوقهم وهم يرون هذه المأساة، أتعلمون أن كثيراً من إخوانكم شُرِّدُوا في هذه الأيام عن بيوتهم، ليس لهم إلا العراء، ليس لهم إلا برد هذا الشتاء، ليس لهم إلا الأمطار التي تهمي عليهم، ليس لهم إلا أن يتقلبوا في الوحل ويجعلوا منه مهاداً بعد المهاد الذي كانوا يملكوه؟.

حسناً من نحن؟ ألسنا بشراً؟ ألسنا أناسي؟ ألسنا أولئك الذين قذف الله في قلوبنا رحمة من رحمته؟ لعل هذه الرحمة اجتثت من قلوبنا.

أعود فأقول: أما ينبغي أن نبادل مولانا حباً بحب؟ أما الله عز وجل فقد أحبنا، وأنا أشهد على ذلك، أكبر دليل على ذلك أنه أكرمنا بالإيمان، أكرمنا بالإسلام أكرمنا بالاجتماع في هذا المكان في هذه الصبيحة الغراء، أكرمنا بالسجود لوجهه، وهذا دليل ما بعده دليل على أنه يحبنا، ولكن أين هي مبادلة الحب للحب؟ أين الدليل على أننا نحبه كما أحبنا؟ الدليل الأوحد هو أن نعود فنجمع شملنا، وجمع الشمل إنما له عبارة واحدة، ترجمان واحد هو الرعاية، هو الرحمة بدءاً من الأسرة والزوجة والأولاد، ثم إلى من يحيطون بنا من الأقارب أو الأباعد الناس الإخوة الذين ابتلانا الله عز وجل بهم، فقراء، مرضى، منكوبون، وتأتي المصيبة الكبرى أولئك الإخوة الذين تدور عليهم رحى المصائب العجيبة المختلفة، أما نحن فلا نملك إلا الدعاء لهم، وأما قادة المسلمين، فأسأل الله سبحانه وتعالى أن يصلح حالهم، أسأل الله سبحانه وتعالى أن يهديهم لا نملك إلا هذا، أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم.



٣٩٦- شرائط الاستجابة | ٢٠١٠/١١/١٦

الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر.

الله أكبر من بغي الباغين واستكبار المستكبرين، الله أكبر من الخطط الكائدة لدين الله ولعباده المؤمنين، الله أكبر القائل: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: ٨].

سبحان الله ملء الميزان، سبحان الله المسَبَّحِ في كل مكان، سبحان الله الملك الديان، سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر. الله أكبر، الله أكبر.

ما يقارب ثلاثة ملايين من المسلمين وقفوا بالأمس على أرض عرفة وذراها يجأرون إلى الله سبحانه وتعالى بالخشية والدعاء، يرفعون أكفهم إلى سماوات الله سبحانه وتعالى يستنزلون مرضاته ويستدفعون نقمه ويسألونه لإخوانهم في مشارق الأرض ومغاربها النصر والحماية والتوفيق والتأييد، يسألون للمسلمين ولقادة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها الحماية والتأييد والتوفيق.

والفتنة التي قد تتسرب إلى بال كثيرٍ من المسلمين في مثل هذه الحال هي أن فينا من يقول: فها هم ألاء على كثرتهم وقفوا يدعون الله عز وجل في يومٍ لا يُرَدُّ فيه الدعاء وفي مكان لا يُرَدُّ فيه الدعاء. وقفوا يدعون الله عز وجل من صباح يوم عرفة إلى مساء ذلك اليوم للمسلمين ولقادة المسلمين وللأمة الإسلامية، وها نحن ننظر فلا نجد مظهراً لاستجابة دعاء دليلاً على أن الله سبحانه وتعالى قد لبَّاهم في ما طلبوا وسألوا، فأين هي القاعدة القائلة بأن الدعاء في هذا اليوم لا يُرَدّ وبأن الدعاء في عرفة لا يمكن أن يُرَدَّ، هذه فتنة قد يدخلها الشيطان في أذهان كثيرٍ من الناس وربما بعثت نوعاً من الريبة بالإيمان بالله عز وجل في نفوسهم. وأريد أن أجيب عن هذا السؤال بما يحصن الإنسانَ المسلم ضد كل وسوسةٍ من وساوس شياطين الإنس أو الجن.

أما دعاء الحجيج لأنفسهم فإنه مستجاب فيما لو حققوا شرائط الاستجابة، وشرائط الاستجابة تتلخص في أن يبدأ الداعي فيتوب إلى الله عز وجل أولاً من سائر الذنوب والمعاصي والشرط الثاني أن

يرد المظالم إلى أصحابها أو أن يستسمح المظلومين فيسامحوه، فإن فعل الداعي ذلك وأقبل إلى الله عز وجل ودخل إليه من باب التوبة وباب رد المظالم فلا يمكن إلا أن يستجيب الله عز وجل له دعاءه الذي يدعوه لنفسه.

ولكن حتى الحجيج، حتى الذين يدعون لأنفسهم لو أن أحدهم لم يتب إلى الله عز وجل من ذنوبه ولو علم أن في عنقه حقوقاً للآخرين لم يؤدها لهم ولم يسامحوه بها فإنه لا يستجيب دعاءه، أما قرأتم قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

لاحظوا أيها الإخوة كيف قَرَنَ استجابته لك باستجابتك له ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي﴾.

إن كنت تريد أن يستجيب الله دعاءك فاستجب أمره لك، استجب لوصاياه التي أوصاك بها.

أما دعاء الحجيج وغير الحجيج للمسلمين عامة في مشارق الأرض ومغاربها، أما دعاء الحجيج لقادة المسلمين فشيء آخر.

قلت إنه لابد لاستجابة الله الدعاء من تحقق هذين الشرطين؛ لابد من توبة الداعي إلى الله ولابد من إنابته بلسانه وقلبه ولابد من رد المظالم إلى أصحابها، فهب أن الداعيَ فعل ذلك في حق نفسه، يستجيب الله دعاءه في حق نفسه، ولكن من لك بأن يحقق المسلمون الآخرون شرط الاستجابة إذ تدعو الله لهم في جنبات الأرض، كثيرٌ من المسلمين المستكبرين على الله، كثيرٌ من المسلمين الذين أوغلوا في العصيان واستمرؤوه وبرروه لأنفسهم على اختلاف فئاتهم وعلى اختلاف درجاتهم. كيف يستجيب الله دعائي لهم وهم على هذه الحال؟ كيف يستجيب الله عز وجل دعائي لهم وهم موغلون في المعاصي، لا من حيث السلوك فقط بل إنهم يبررون أيضاً معاصيهم ويرون أنهم على حقٍّ في ارتكابها، في مثل هذه الحالة لا يُستجاب الدعاء. وهذا هو الجواب عن السؤال الذي يطوف بأذهان كثيرٍ من الناس اليوم.

على أنني أقول لكم – يا عباد الله – إن الإنسان إذ يعصي الله عز وجل أحد رجلين، إما أنه يندفع إلى العصيان بسائق من الضعف، بسائق من تغلب شهواته ونفسه الأمارة بالسوء عليه ولاشك أن لسان حال هذا العاصي يقول لربه: اللهم إنني أعلم أني قد عصيتك وأعلم أنني قد أصبحت مستحقاً لعقابك

ولكنني والله ما عصيتك استكباراً وما عصيتك وأنا أبرر معصيتي لكنها نفسي الأمارة تغلبت عليَّ، لكنه الضعف الذي وصفت عبادك به إذ قلت: ﴿وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً﴾ [النساء: ٢٨].

مثل هذا الإنسان لابد أن يغفر الله له، ولابد أن يأتي يومٌ قبل رحيله من هذه الدنيا وقد تاب وآب إلى الله واصطلح مع الله عز وجل.

ورجل آخر يعصي الله عز وجل وهو يبرر عصيانه، يرتكب الموبقات وهو يفلسف الموبقات التي يرتكبها ويرى أنه في ارتكابها على حق، يستكبر على الله سبحانه وتعالى، إذا ذُكِّرَ بأوامر الله عز وجل ربما سَخِرَ بالمذَكِّرِ واستهزأ به وإذا ذُكِّرَ بآياتٍ من كلام الله عز وجل ربما قال الكلام الذي لو قاله أحدنا لكفر. مثل هذا الإنسان لا يمكن أن يقبل الله الدعاءَ له لأن الحجاب الذي يحجبه عن الله عز وجل لا يتمثل في عصيان، الله يغفر الذنوب جميعاً كما قال، وإنما يتمثل في استكبارٍ وعناد، يتمثل في استكبار هذا الإنسان على الله عز وجل. ولقد بَيَّنَ كتاب الله وكرر أن المستكبرين ﴿لاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾، هكذا قال الله عز وجل ويقول:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَن يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً﴾ [الكهف: ٥٧].

من هنا ننظر فنجد الملايين الذين اجتمعوا في ذرا عرفات يجأرون إلى الله بالدعاء والبكاء والتضرع لأنفسهم ولإخوانهم وللمسلمين في بقاع الأرض جمعاء وننظر إلى حال المسلمين وإذا بهم ينتقلون من حالة إلى حالة أسوأ منها.

لا يوسوسنَّ الشيطان إلى أيِّ واحدٍ منكم فيقول: ها هم أولاء دَعَوا الله في يوم الاستجابة وفي مكان الاستجابة باكين متضرعين فلم يُسْتَجَبْ لهم.

الله يستجيب ولكن إذا تحققت شروط الاستجابة.

من هنا — يا عباد الله — لا أمل في أن نسأل الله عز وجل السقيا – وأنتم ترون الحالة التي نمر بها والخطر الذي يحدق بنا — إلا إذا تحققت شروط الاستجابة، لأن الأمطار التي تهمي من سماء الله إلى أرضه لن يكون رزقاً لي ولك أنت فقط وإنما هو رزق آتٍ للناس جميعاً، للتائهين وللشاردين وللمستكبرين

ومن ثم فمثل هذا الدعاء الذي يتضمن رجاءً من الله عز وجل أن يرفع البلاء عن الأمة جمعاء لابد لذلك من شروط.

ولقد حدثتكم عن ذلك الصحابي الذي جاء إلى رسول الله يسأله الدعاء له فقال له: ﴿أعني على نفسك بكثرة السجود﴾. لعل المصطفى صلى الله عليه وسلم رأى فيه انحرافاً ورأى فيه تقصيراً فأراد أن يذَكِّرَهُ بضرورة الاستقامة أولاً والتوبة إلى الله ثانياً لكي يستجيب الله دعاء مَنْ، دعاءَ رسوله محمدٍ صلى الله عليه وسلم، فما بالك بدعاء أمثالنا.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يلهم أمتنا الإسلامية جمعاء في مشارق الأرض ومغاربها قادة وشعوباً أن يؤوبوا إلى ربهم وأن يُصْلِحُوا حالهم وأن يصطلحوا مع الله سبحانه وتعالى وعندئذٍ سينصرهم الله وسيؤيدهم بروحٍ من لدنه كما أيَّدَ الرعيل الأول من أصحاب رسول الله ثم الذين جاؤوا على أعقابهم ثم الذين جاؤوا على أعقابهم.

أما إذا بقينا على هذه الحال، قادة المسلمين في بقاع الأرض المختلفة يلهثون وراء التائهين والشاردين عن دين الله، يتبعونهم إتباع الأعمى ويسيرون وراءهم وقد تبرموا من الدين الذي شرفهم الله عز وجل به، ينادون بالحداثة آناً والعلمانية آناً آخر وهم في كل مناسبة ينفضون أفكارهم وعقولهم أمام دول الغرب من بقايا الانتماء إلى الدين وإلى الإسلام أنَّى لهؤلاء الناس أن يكتب الله لهم التأييد وأنَّى لهم أن تُفْتَحَ أمامهم أبواب الصعود إلى مدارج العز ومدارج التأييد الذي كانت أجدادهم قد تبوؤوها.

هذه الحقيقة ينبغي أن نتبيَّنها ولا يقولن قائل: ها هم أولاء الغربيون التائهون عن الله الجاحدون بدين الله عز وجل يسرحون ويمرحون ويتقلبون في النعم، لقد أجبت عن هذا السؤال في موقف سابق ولعلي أعود فأشرحه شرحاً جديداً في موعدٍ لاحقٍ إن شاء الله تعالى. أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم فاستغفروه يغفر لكم.

٣٩٧- الحكمة من شرعة الحج | ٢٠١١/١١/٠٦

الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر. الله أكبر برحمته من معصية العاصين، الله أكبر بجبروته وانتقامه من طغيان الطغاة والمتجبرين، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر.

سبحان الله ملء الميزان، سبحان الله المسَبَّحِ في كل مكان، سبحان الله المسَبَّحِ على كل لسان، سبحان الله وبحمده و الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر.

ما يزال أعداد الحجيج تتزايد في كل عام بحمد الله سبحانه وتعالى، وعندما ننظر فنجد أن العالم الإسلامي كله يهدر متجهاً إلى بيت الله الحرام، متجهاً إلى ذرى عرفة، متجهاً إلى مثوى رسول الله صلى الله عليه وسلم يهيمن التفاؤل على مشاعر المسلمين أجمع ويهيمن عليهم الشعور بأن المسلمين ولله الحمد ما يزالون بخير. ولو أن هذا الكم الكبير من المسلمين الذين يتقاطرون من شتى أطراف العالم إلى بيت الله الحرام اتجهوا إليه بدوافع خالصة وأفئدة مخلصة وبسلوك مستقيم ملتزم بأوامر الله سبحانه وتعالى لتكون منهم تيار كبير مهيمن ذو سلطان على العالم كله ولَتَكَوَّنَ من ذلك التيار قبس من الهداية يهيمن ويشرق لا أقول في ربوع العالم الإسلامي فقط بل في العالم الإنساني أجمع، ولكنك تنظر، بل الدنيا كلها تنظر فتجد أرقاماً كبيرة وكثيرة جداً من الناس تسيل بهم السبل والطرق إلى مكة، إلى بيت الله الحرام ذاهبين طائفين معتمرين ثم ما تلبث هذه الأرقام ذاتها أن تَكِرَّ عائدة في هذه السبل نفسها التي تتزاحم وتسيل بهم.

وهكذا في كل عام تسيل بهم السبل والطرقات أرقاماً كبيرة شتى وهم يحملون أوقاراً من المشكلات في أنفسهم بل وعلى كواهلهم، يتجهون إلى بيت الله الحرام والعصبيات ملء نفوسهم، والخلافات المستشرية مهيمنة على حياتهم، والأهواء هي التي تأخذ منهم بالزمام، ثم إنهم يعودون كما ذهبوا، يعودون بالعصبيات ذاتها، يعودون بالخلاف والأهواء ذاتها، وهكذا دواليك.

ونحن نعلم أن الله عز وجل إنما شرع فريضة الحج هذه – وإنها لأهم عبادة من العبادات التي حمل مسؤوليتها عباد الله جميعاً – إنما شرع الله الحج في كل عام لينبثق عنه مؤتمر يتداعى إليه المسلمون من شتى أقطار العالم، يجعلون منه القائد لحياتهم والمهيمن على سلوكهم والمفتاح لحل مشكلاتهم، تلك هي الحكمة من شرعة الحج التي أمر الله سبحانه وتعالى بها عباده، ودونكم فانظروا إلى حجة المصطفى صلى الله عليه وسلم ألم تكن مؤتمراً هيمنت قراراته على العالم إذ ذاك؟ وانظروا إلى الحجيج في عصر الخلافة الراشدة – بل في العصور التي تلت – هل كان الحج إلا ساحة لمؤتمر عالمي ينعقد ليقود العالم كله إلى الطريق الذي شرعه الله، إلى النهج الذي رسمه الله، فما بال هذه الشعيرة قد آلت إلى شكل بدون مضمون، ما بال هذه الشعيرة قد آلت إلى مظهر بدون روح؟ أجاب عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما قال فيما رواه الديلمي في مسند الفردوس: ﴿يأتي على الناس زمان يحج فيه الأغنياء للنزهة، ويحج فيه المتوسطون للتجارة، ويحج فيه القراء للرياء، ويحج فيه الفقراء للمسألة﴾.

هذا كلام رسول الله ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر بعين دقيقة أكثر من دقة ما ننظر نحن إلى هذا الواقع الذي نحن فيه، تلك هي الإجابة أيها الإخوة عن هذا السؤال، إنها إجابة لم تصدر إلا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولقد زاد المصطفى صلى الله عليه وسلم هذا الجواب إيضاحاً عندما قال فيما صح عنه: ﴿ستداعى عليكم الأمم – أي الدول – كما تداعى الأكلة إلى قصعتها – إلى مائدتها – قالوا: أمن قلة نحن يا رسول الله يومئذ، قال: بل أنتم كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله الرهبة من قلوب أعدائكم وليقذفن في قلوبكم الوهن، قالوا: ما الوهن يا رسول الله؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت﴾.

ألا ترون إلى هذا الجواب الدقيق؟ تأملوه ثم انظروا إلى مصداقه في حياتنا التي نعيشها. صحيح أن الأرقام كبيرة، وأن الحجيج يبلغون ربما ما لا يقل عن ثلاثة ملايين، كل ذلك صحيح ولكنها أرقام من الغثاء كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلماذا ألقى الله سبحانه وتعالى في قلوبنا المخافة والهيبة من أعدائنا، ولماذا انتزع الله سبحانه وتعالى الرهبة من قلوبهم تجاهنا؟ الجواب هنا نحن الذين نعرفه، نحن الذين نعيشه يا عباد الله.

تأملوا في المشكلات التي تعصف بالعالم الإسلامي من الذي يستثيرها؟ إنهم أعداء الله عز وجل وأعداء دينه ومن ثم إنهم أعداء عباد الله المسلمين. حسناً، فمن هم الذين يعالجون هذه المشكلات وبأي منهجٍ يعالجونه؟ إن الذين يعالجون المشكلات إنما يعالجونها بوحي من أولئك الذين يستثيرونها.

جُلُّ المسلمين الذين يسمون مسلمين يُقْدِمُون إلى حل المشكلات التي تعصف بعالمنا الإسلامي لكنهم يستوحون حلها من أولئك الأعداء الذين أثاروها، وليت أنهم يستلهمون حلها من الإله الذين يدينون له بالعبادة والعبودية، ليت أنهم إذ يتجهون إلى حل مشكلاتهم يعلنون أنهم خاضعون لمولى واحد لا ثاني له، يرددون قول الله الذي يلقننا إياه: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ﴾ [الأعراف: ١٩٦]. هكذا علَّمنا الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦].

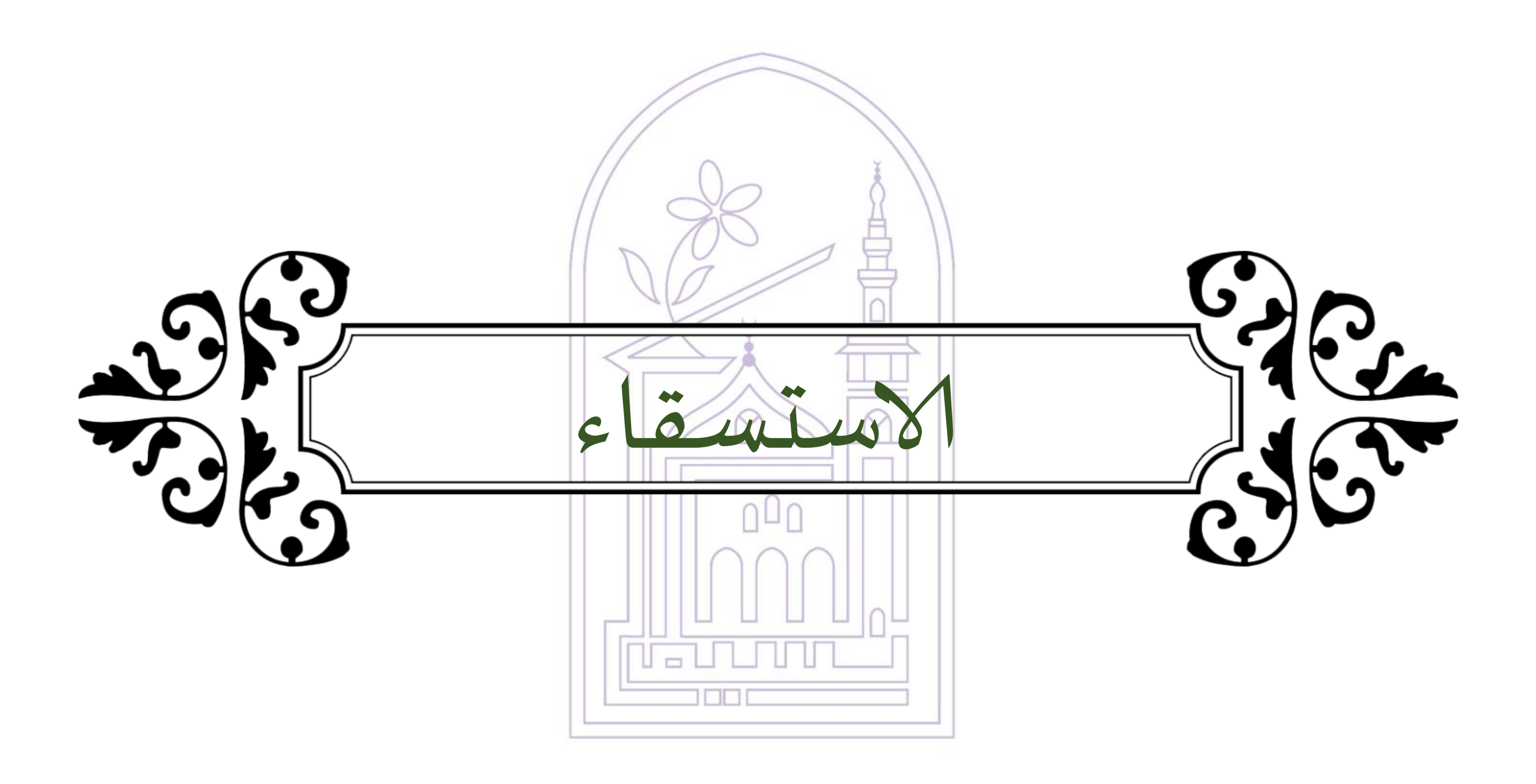
ولكن سلوكنا ونهجنا يقول بلسان الحال: إن أولياءنا هم أولئك الذين أثاروا هذه المشكلات فيما بيننا، أثاروها فتطامنا لها، أردنا أن نحلها، استوحينا الحلول عن طريقهم، ألا ترون إلى ذلك؟! ألا ترون إلى هذا النهج؟!

إسرائيل هيمنت على ربوع العالم الإسلامي، هيمنت على بقعة مقدسة منه في الظاهر ولكنها هيمنت على العالم العربي والإسلامي كشبكة واحدة في الحقيقة والباطن. عندما نريد أن نحل مشكلاتنا نستلهم الحل من هذا العدو الذي اغتصب الديار، نستلهم الحل من هذا العدو الذي سلب الحقوق، نستلهم الحل من هذا العدو الذي مازال يتمطى ويتوسع فيما يغتصب وفيما يطرد، وكلكم يعلم ذلك. نستلهم الحلول من هذا العدو لكن لا عن طريقه مباشرة وإنما عن طريق الخادم الأول له ألا وهو الأمريكان.

هذا واقعنا باختصار، بدلاً من أن نطرق باب الله ونحن نتجه إلى بيته الحرام طائفين، نطرق باب العدو الأرعن، ماذا تأمر، ماذا نصنع، ويأتي الأمر من هناك بعد أن يُستَشَار العدو الأرعن الذي يتمطى ويتربع على ممتلكاتنا هنا، تأتي الأوامر بالمنهج الذي ينبغي أن نسلكه وتنظر فتجد أن المعظم – لا أقول الكل – يقول إن بلسان الحال أو بلسان القول لبيك سنفعل، ولكن المظاهر لا تزال كما كانت، شعائر الإسلام ترتفع وكلمات الإسلام تُرَدَّد والتقاليد لا تزال تُنَفَّذ ومن أولها الحج.

من هنا كانت الأعداد في كل عام تتزايد وتتزايد، ملايين، ومن هنا كانت ذرى عرفات تحتضن هذه الملايين ثم تنظر فتتذكر المثل العربي القائل: أسمع جعجعة ولا أرى طحنا، أسمع هديراً ولا أتبين توجهاً إسلامياً يرضي الله سبحانه وتعالى.

ومع هذا فإنني لا أريد أن أُدْخِلَ بهذا الكلام اليأس لا إلى قلبي ولا إلى قلوبكم، أجل، لا أريد أن نترك أفئدتنا لسلطان اليأس يهيمن عليها، ﴿الخير فِيَّ وفي أمتي إلى يوم القيامة﴾ هكذا يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم، أملنا معقود بهذه القلة التي أخبر عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومهما انحرف الناس المسلمون تائهين عن يمين السبيل أو عن يساره، فإن المصطفى بشَّرنا بأن شامنا هذه ستبقى على العهد، فيها الأبدال الذين أعلن المصطفى عن وجودهم في أربعة أحاديث صحيحة، كلما توفي منهم واحد أبدل الله به غيره، أملنا كبير بأن الصالحين من عباد الله عز جل سيجلعهم الله شفعاء للطالحين وإن كثروا، فاللهم لا تأخذنا بجريرة فعالنا، اللهم هب طالحينا لصالحينا، اللهم أدخل إلى مظاهر الشعائر التي لا نزال نتمسك بها قبساً من روحانية الإخلاص لذاتك العلية، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.


الاستسقاء

٣٩٨- المصيبةَ أن تقسو القلوب فلا تشكر الله | ١٩٨٧/١٢/٠٤

إنَّ اللهَ سبحانهُ وتعالى حكيمٌ وعليمٌ بعباده، ومن أسمائهِ جلَّ جلاله (الرّبّ)، وكلمةُ الرّبّ مبالغةٌ من المربّي، فاللهُ سبحانهُ وتعالى يربّي عبادهُ بأدقِّ مناهجِ التّربيةِ وأصولها.

لقد علمَ اللهُ سبحانهُ وتعالى من حالِ عباده أنّهُ إن أسلمهم للغنى والخيرِ والرّخاءِ دائماً لطغوا وبغوا، وأنّهُ لو تركهم للشّرورِ والمصائبِ دائماً ليَئِسُوا ووقعوا في حالةٍ من اليأسِ والشّدّة، ولذلكَ قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ عنهم في الحالةِ الأولى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ، أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾، وقالَ عنِ الإنسانِ في الحالةِ الثّانية: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا﴾. فلا الخيرُ الدّائمُ علاجٌ صالحٌ له، ولا الشّرُّ الدّائمُ علاجٌ صالحٌ له، ولذلكَ كانَ من سنّةِ الباري سبحانهُ وتعالى أن يأخذَ عبادهُ بالرّخاءِ آناً وبالشّدائدِ آناً آخر، ألم يقل في محكمِ كتابه: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾، حتّى يتكوّنَ من هذا التّقلّب الذي يقعُ فيهِ الإنسانُ بأمرٍ من اللهِ سبحانهُ وتعالى وتدبيره ما بينَ ضرّاءٍ وشدّة حتّى يكونَ لهُ من ذلك أعظمُ ما يذكّرهُ بعبوديّتهِ للهِ عزَّ وجلّ، فهوَ في حالةِ الرّخاء يتذكّرُ الشّدّة، فيلجأُ إلى اللهِ عزَّ وجلّ أن يديمَ لهُ رخاءَهُ هذا، وهو في حالةِ الشّدّة يذكرُ فضلَ اللهِ سبحانهُ وتعالى وكرمهُ وفضله، فهو يسألُ اللهَ سبحانهُ وتعالى من كرمهِ وجوده، وإنّها لمظهرٌ من أدقِّ مظاهرِ تربيةِ اللهِ عزَّ وجلَّ لعباده.

ومن هنا كانَ النّاس ولا يزالون يرونَ أنفسهم ما بينَ مدٍّ وجزر من عطاءِ اللهِ سبحانهُ وتعالى وكرمه، أو من شدائدهِ وامتحاناتهِ وابتلاءاته.

منذُ فترة استقبلَ النّاسُ أوّلَ هذا الموسم بأمطارٍ سخيّةٍ وافرةٍ كثيرة، وسرعانَ ما استبشرَ النّاس وتأمّلوا خيراً وتصوّروا أنّهم أمامَ موسمٍ معطاء وأمامَ خيراتٍ كثيرة، ولكنَّ اللهَ سبحانهُ وتعالى غيَّرَ الأمرَ وبدّله، ومرّت أسابيع قد عدنا خلالها إلى الصّيفِ اللاهب، انقطعت تلكَ الأمطار، وانقطعَ ذلكَ الرّزق، وتهددت الأرضُ بالمحل، وظهرَ ظمأُ الأرضِ إلى كرمِ اللهِ سبحانهُ وتعالى، فما الحكمةُ من ذلكَ العطاءِ أوّلاً وهذا القبض ثانياً؟ أو من هذا المدّ أوّلاً وهذا الجزرِ ثانياً؟

الحكمة هي أن لا يُسلِمَ الإنسانُ نفسهُ إلى أمورِ الطّبيعةِ لا في عطائها ولا في منعها، وأن يتذكّرَ أنَّ من وراءِ الكونِ مكوّناً، وأنَّ من وراءِ العطاءِ معطياً، وأنَّ المسألةَ ليست مسألةً آليّةً أبداً، حتّى يكونَ هذا دافعاً للإنسان إلى أن يرحلَ إلى اللهِ عزَّ وجلّ، ويمدَّ يدَ السّؤالِ إلى الله، ويلحَ أمامَ بابهِ بالدّعاء، تلكَ هي الحكمةُ يا عبادَ الله.

ولكنَّ المصيبةَ الكبرى: أن يمرَّ على النّاسِ حالٌ يكونونَ فيها من القسوة والبعدِ عنِ الله، بحيثُ لا عطاءُ اللهِ يذكّرهم بالشّكر، ولا منعهُ لهم يذكّرهم بالالتجاءِ والدّعاء. ولعلّها حالتنا التي نمرُّ بها الآن.

عندما يعطينا اللهُ من فضله، وعندما يكرمنا اللهُ سبحانهُ وتعالى ويخرجُ لنا من كنوزه، لا نذكرُ الحمد، ولا نتذكّرُهُ بالشّكر. وعندما يبتلينا اللهُ سبحانهُ وتعالى بنقيضِ ذلك، وعندما نجدُ أنَّ الأعشابَ قد ذبلت وأنَّ الأرضَ أخذت ترمق السّماء وهي تشكوا ظمأها، وعندما نجد أنَّ كثيراً من الشّدائدِ تتهدّدنا وتتسلّلُ إلينا أيضاً لا نذكرُ اللهَ عزَّ وجلّ، لا نذكرهُ في الحالةِ الأولى شاكرين، ولا نذكرهُ في الحالةِ الأخرى متضرّعينَ وداعين، وإنّها لحالةٌ تنبئُ بهلاكٍ شديد، وتنذرُ ببعدٍ عن اللهُ يبعثُ على شقاءٍ وبيل، وما أجدرَ بالإنسانِ في مثلِ هذه الحالة أن يتأمّلَ ذاته، وأن يتأمّلَ واقعهُ وحقيقةَ الكونِ الذي يعيشُ فيه.

ترى: لو أنَّ اللهَ سبحانهُ وتعالى ابتلانا بهذه الشّدائدِ التي نمرُّ بها، ولو لم يأذن لسمائهِ أن تمطر ولا لأرضهِ أن تنبت ولا للنباتِ أن يحافظَ على ثماره، ترى إلى أيِّ مصيرٍ نلجأ؟ هل من إلهٍ غيرِ الله نأخذُ منهُ رزقنا ونأخذُ منهُ رخاءَنا؟ هل علومُ الأرضِ كلّها -على اختلافها- هل تعيضنا عن الشّقاءِ الذي قد يحيطُ بنا؟ على الإنسانِ العاقلِ أن يسألَ نفسه، وأن لا يبقى محجوباً في تلافيفِ خبائه وبلادته، لا يمكنُ للعاقلِ أن يجيبَ إلا جواباً واحداً ألا وهو إنَّ ينبوعَ العطاءِ هو الله، ومصدرُ الابتلاءِ هو اللهُ سبحانهُ وتعالى.

فإنْ عزَّ على العاقلِ أن يعلمَ هذه الحقيقة ذكّرتهُ آياتُ كتابِ الله، إن كانَ يقرأُ كتابَ الله: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾، انظروا إلى تحدّي بيانِ اللهِ عزَّ وجلّ، انظروا إلى هذا الاستفهام الذي ينبعثُ فيهِ معنى التّحدّي ومعنى من معاني جلالِ الرّبوبيّةِ الأخّاذ: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾؟ إن لم يأمر الله السّماءَ بأن تمطر كما قلت ولم يأمرِ الأرضَ

بأن تنبت، التجئوا ما شئتم أن تلتجئوا، إلى الاختراعاتِ والابتداعاتِ وعلومِ الشّرقِ والغرب، فوالله لن يزيدكم ذلكَ كلّهُ إلا شقاءً، ولن تنتقلوا إلا من حرمانٍ إلى حرمان.

وقديماً وحديثاً، قالَ لنا الأغبياءُ المغفّلون: إنَّ هنالكَ قنابل تتفجّرُ في السّماء فتُهطِلُ الأمطارَ حيثُ شئنا، ولا يزالُ فريقٌ من المغفّلينَ البُله يقولونَ هذا الكلام.

أينَ هو الرصين الذي يصدّق هذه الخرافة؟ ماللملايين تتضوّرُ جوعاً هنا وهناك؟ ومالها تقفُ على حافّةِ الهلاكِ والموت؟ مالأراضي المحيطةِ بنا غرباً وشرقاً ممحلةٌ مُجدبة؟ ومن حولِ هذه الأراضي يكون المخترعونَ والعلماءُ والباحثون؟ لماذا يتهدّدُ الموتُ الجياعَ في افريقيا وغيرِ افريقيا؟ لماذا لا يقبلُ هؤلاءِ المدّعون ومن وراءِهم جنودهم المغفّلون من أجلِ أن يغيّروا هذه الآلامَ إلى لذّةٍ وسعادة، ومن أجلِ أن يبدلوا الشّدّةَ رخاءً؟ ذلكَ لأنَّ الكلَّ خاضعٌ طوعاً أو كرهاً لهذا القرارِ الرّبّانيّ: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾، وربّنا عزَّ وجلّ يريدُ منّا أن نتحقّقَ بعبوديّتنا، والعبوديّةُ لا تتحقّق إلا بالالتجاءِ إلى الله، والالتجاءُ إلى الله لا يفورُ بينَ جوانحِ الإنسانِ إلا إذا مسّهُ الضُّرّ، إلا إذا شعرَ بحاله، إلا إذا شعرَ بالألم، إلا إذا شعرَ بشبحِ الجوع يتهدّدهُ من بعيدٍ أو قريب، سواءٌ كانَ هذا الإنسانُ صالحاً أم طالحاً، سواءٌ كانَ مذنباً أو غيرَ مذنب، يريدُ اللهُ عزَّ وجلَّ أن يذكّرَ عبادهُ بالالتجاءِ إليه، ومن ثمَّ فهو ينقلهم ما بينَ رخاءٍ وشدّة، رخاءٌ آناً ليذكروا اللهَ بالشّكر، وشدّةٌ آناً ليذكروا اللهَ بالضّراعةِ والدّعاء.

ولذلك فقد مرّت على الصّحابةِ رضوانُ اللهِ عليهم في عهدِ عمرَ بنِ الخطّاب فترة أمحلت فيها الأرض، واحتبسَ فيها قطرُ السّماء، وأصحابُ رسولِ اللهِ هم من تعلمون، وأميرُ المؤمنينَ عمر ذلكَ الإنسانُ السّائرُ على قدمِ رسولِ الله صلى اللهُ عليهِ وسلّم، ولكنّها سنّةُ اللهِ في عباده، لا بدَّ أن يبتليهم بما يذكّرهم بالالتجاءِ إلى الله ثمَّ بما يذكّرهم بشكرِ الله. استمرّت بهم هذه الحالة مدّةً وقد روى ابنُ كثيرٍ وصحّحَ هذه الرّواية: أنَّ أعرابيّاً ذبحَ شاةً ونظرَ فإذا بعظامها محمرّة من شدّةِ الجوعِ. فصاحَ قائلاً: وامحمّداه، وذهبَ إلى قبرِ المصطفى صلى اللهُ عليهِ وسلّمَ فقال: يا رسولَ الله استسقِ لأمّتك. فرأى الأعرابيُّ تلكَ الليلةَ رسولَ اللهِ في الرّؤية، وقالَ لهُ: أبشر إنّكم ستسقون، ولكن ائتِ عمر فقل لهُ: الكَيْسَ الكَيْسْ. وقامَ الأعرابيُّ من نومهِ للتو وذهبَ إلى أميرِ المؤمنينَ عمر فأخبرهُ بما رأى، وعلمَ عمرُ تأويلَ الرّؤيا، وعلمَ أنّها تذكرةٌ من رسولِ اللهِ لهُ أن يخرجَ بالصّحابةِ إلى الصّحراءِ فيتضرّعوا إلى الله. بكى عمر وأخذَ يستغفرُ اللهَ

عزَّ وجلّ وكأنّهُ اتّهَمَ نفسهُ بالنّسيان وسرعانَ ما نادى في أصحابِ رسولِ الله، فخرجوا يلتجؤونَ إلى الله، ويتضرّعونَ عندَ بابِ الله، ويمدّونَ أكفَّ الحاجةِ إلى الله وهم من تعلمون. هم أصحابُ رسولِ الله، وأميرهم عمرُ بن الخطّاب أميرُ المؤمنين، ومع ذلك ما اختلفت سنّةُ اللهِ في حقّهم، أتختلفُ في حقّنا نحن العصاة، البعيدينَ عن الله، المسرفينَ على أنفسنا، أولئكَ الذينَ ركبنا متنَ الشّططِ في أمورنا السّلوكيّةِ والاعتقاديّة؟ كيفَ يكونُ حالنا؟

فمالنا لا نلتجئُ إلى اللهِ كما التجأَ أولئكَ الصّحابةُ على أقلِّ تقدير؟ وكما ذكّرَ رسولُ اللهِ عمرَ وقالَ لهُ: الكَيسَ الكَيس، أي اخرج فادعُ اللهَ سبحانهُ وتعالى واسألهُ واتّجه إليه، فإنَّ رسولَ اللهِ يذكّرنا نحنُ أيضاً من خلالِ كلِّ شيء، ومن خلالِ كلِّ أدب، ومن خلالِ كلِّ مظاهرِ البؤسِ والشّدائدِ على اختلافها.

يذكّرنا رسولُ اللهِ بالكَيْس، أن نلتجئَ إلى الله، وأن نتضرّعَ إليه، يصلحِ اللهُ عزَّ وجلَّ شأننا، ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا، يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا، وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾، فاللهم ارزقنا اليقينَ كما ترضى، واللهمَ ارزقنا الالتجاءَ إليك، اللهمَّ لا تحجبنا عنكَ بنعمةٍ تكرمنا بها ولا بشدّةٍ تبتلينا بها، فاستغفروهُ يغفر لكم...

٣٩٩- لهذا ينبغي أن نهرع إلى صلاة الاستسقاء | ١٩٨٩/٠٣/٠٣

اعتادَ الخطباءُ في مثلِ هذا اليوم أن يتحدّثوا عن ذكرى الإسراءِ والمعراج، ومن يتكلّمُ عن قصّةِ هذه الخارقةِ التي أكرمَ اللهُ عزَّ وجلَّ بها نبيّهُ محمّداً عليهِ الصّلاةُ والسّلام.

وقد غدا الحديثُ عن هذه الذّكرى في مثلِ هذا اليومِ أشبهَ ما يكونُ بحديثٍ تقليديٍّ مكرّرٍ مُعَاد. ومعَ ذلكَ فقد فكّرتُ في أن أسيرَ على هذه العادة، وأن لا أخالفَ نهجاً اعتادَ النّاسُ سماعه، واعتادَ الخطباءُ السّيرَ فيه.

ولكنّي فكّرت.. فاختجلت – والحقَّ أقولُ لكم – اختجلتُ من رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم أن أتظاهرَ بالاهتمامِ بذكراه والحديثِ عن خوارقه، وأن أقولَ في ذلكَ كلاماً منمّقاً.

ومع ذلكَ فأنظر وإذا بأهمِّ سنّةٍ من سننِ المصطفى عليهِ الصّلاةُ والسّلامِ مُهدَرَة، وإذا بأهمِّ شعائرِهِ التي يدعونا إليها هذا الظّرفُ ذاتُه مطويّاً وملقىً وراءَ الأظهُر. اختجلتُ بنفسي أن يكونَ كلامي نفاقاً، وأن أتحدّثَ عن ذكرى الإسراءِ والمعراج، ولا يكونُ حديثي إلا مساهمةً في نسجِ إطارٍ كاذبٍ لاتّباعٍ مزعومٍ كاذب لسنّةِ المصطفى عليهِ الصّلاةُ والسّلام.

نحنُ بأيِّ عامٍ نمرّ؟ وأيِّ الفترات تمرُّ بنا؟ أنحنُ في صيفٍ قائظٍ؟ أم في شتاءٍ ماطر؟ هل لأحدٍ منّا عهدٌ بمثلِ هذه الأيّام التي تطاولَ أمدُها؟ ألا ترونَ أنَّ الإنسانَ الذي يزعمُ أنّهُ مؤمنٌ باللهِ عزَّ وجلَّ يقفُ على شفا جرفٍ من هلاك؟ ألا تسمعون حديثَ أربابِ الأرضِ والزّرعِ والأغنام والهلعِ الذي يطوفُ بقلوبهم؟ من أقصى البلادِ إلى أقصاها لا تجدُ قطرةَ مطر، ولا تجدُ مزقة سحابٍ تبشّرُ بمطر، ومع ذلك فالخطباءُ يطنطنون بالحديثِ عن ذكرى الإسراءِ والمعراج. حديثٌ تقليديّ لا يبتغى منهُ إلا التّجمّلُ والتظرف.

ولا ريبَ أنَّ المصطفى صلّى اللهُ عليهِ وسلّم بريءٌ من مثلِ هذا، أينَ نحنُ من سنّةِ رسولِ الله عليهِ الصّلاةُ والسّلام يومَ حُبِسَ القَطْر فدعا أصحابهُ – وهو رسولُ الله صلى اللهُ عليهِ وسلّم– وخرجوا إلى ظاهرِ المدينة متجلببينَ برداءِ الذّلِّ للهِ عزَّ وجلّ، وخطبَ عليهمُ المصطفى عليهِ الصّلاةُ والسّلام متضرّعاً

متذلّلاً باكياً، وأصحابهُ البررةُ الكرام يؤمّنونَ في ذلٍّ متناهٍ على دعائه. ومن هم؟! أصحابُ رسولِ الله. ومن هوَ!! خيرُ الخلائقِ عندَ اللهِ سبحانهُ وتعالى.

هكذا علّمنا رسولُ اللهِ بفعله، بل هكذا علّمنا رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم بقوله.

وقد مرَّ بنا عهدٌ أخطرُ ممّا مرَّ برسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ وأصحابه. وها نحنُ ننظرُ فنجدُ أنَّ حيلةَ الإنسانِ قد انقطعت، وأنَّ طاقةَ العلمِ قد خانته، وأنَّ وسائلَ الدّنيا والأسبابَ المادّيّةَ كلّها قد تقلّصت وتقاصرت وخانتِ الإنسان، ولم يبقَ إلا أن نرمقَ بطرفِنا إلى اللهِ عزَّ وجلّ.

ومع ذلك فأينَ المؤمنونَ بهذه الحقيقة يضعونَ إيمانهم هذا موضعَ التّنفيذ؟ أينَ أولئكَ الذين يصيحونَ ويزبدونَ ويرغون في الحديثِ عن ذكرى الإسراءِ والمعراج ينفّذونَ سنّةً واحدةً من سننِ رسولِ الله صلى اللهُ عليهِ وسلّم؟ وليتَ أنَّ الأمرَ وقفَ عندَ هذا أيّها الإخوة..

الأمرُ الأنكى والأشدُّ من هذا أن أسمعَ وقد سمعتُها مراراً من أناسٍ أسكرتهم كلماتُ العلم وهم من أفقرِ الفقراء إلى العلمِ وحقيقته، مصيبةُ المصائب أن أسمعَ من إنسانٍ سكرانٍ بكلمات العلم، أسمعهُ يقول: نحنُ اليومَ نسينا العلم، وإذا وجدنا أنّنا أصبحنا بحاجةٍ إلى الماء هُرِعنا إلى الاستسقاء. كأنَّ الاستسقاءَ كلُّ شيء، المسلمونَ تركوا العلم ولحقوا بالاستسقاء، كأنَّ المسلمينَ في كلِّ أسبوعٍ يخرجونَ فيستسقون، وكأنَّ المسلمينَ طووا وسائلَ بحثهم وطرقَ الدّرايةِ والعلمِ في حياتهم ووقفوا أعمارهم كلّها عندَ محاريبِ الاستسقاءِ فقط. ما هذا الكلامُ العجيب؟!

أينَ همُ الذين يتضرّعونَ إلى اللهِ في بيوتهم ومساجدهم؟ فضلاً عن أن يلبّوا المصطفى عليهِ الصّلاةُ والسّلام في صلاةِ استسقاءٍ كما شرعَ وكما أمر؟ أينَ هؤلاءِ النّاس؟ والسّكرانُ يقولُ كلاماً مفصولاً عن عقله، متى أمرَ الإسلام أن نجعلَ الاستسقاءَ والدّعاءَ بدلاً عن العلم؟ وهل علّمنا السّيرَ في مناكبِ الأرض واللجوءَ إلى موازينِ العلمِ غيرُ الإسلام؟ وهل شرّفَ المسلمينَ بالعلم بكلِّ أنواعهِ إلا الإسلام؟ ولكن أما علمتَ يا أخي أنَّ تاجَ العلمِ هوَ اللجوءُ إلى الله؟ أما علمتَ أنَّ روحَ العلم إنما هو الخضوعُ لسلطانِ الله والاستغاثةُ بالله ومدُّ اليدِ دعاءً واجفاً إلى الله؟ ماذا يفيدكَ العلم؟ اللهُ عزَّ وجلَّ هو القائل: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾؟

علمُك لا يفيدُكَ إلا أن تتشمّمَ وتبحثَ عن عروقِ الأرضِ ومكامنِ الماءِ فيها، ابحث! وقد أمركَ اللهُ بذلك، ولكن ماذا تصنعُ إن حفرت ووجدتَ أنَّ الماءَ قد غاب وأنَّ اللهَ قد ذهبَ بهذه الينابيع؟ ماذا يفيدُكَ العلم؟ العلمُ معول، معولٌ لا أكثر، والمعولُ ماذا يصنع؟ يحفر. ولكن إن لم تجد الموضوعَ الذي تلحظه في باطنِ الأرض ماذا يفيدك معولك؟ الباري عزَّ وجلَّ علّمنا كيفَ نبني السّدود، علّمنا التّقنيةَ التي لم يصل إليها كثيرٌ من العلماءِ اليوم واقرؤوا خواتيمَ سورةِ الكهف وما أوحى اللهُ عزَّ وجلَّ بهِ إلى الإسكندر وهوَ يستجيبُ إلى طلبِ أممٍ دعتهُ إلى بناءِ سدّ، منِ الذي يعلمُ كيفَ بنى هذا السّدّ؟ ولكن أعودُ فأقول: ماذا يفيدُكَ العلمُ إن جهلتَ اللهَ عزَّ وجلّ؟

عمرُ بن الخطّاب رضيَ اللهُ عنه كانَ بشطرٍ من فكرهِ يديرُ شؤونَ الأمّةِ الإسلاميّة، وبشطرٍ آخرَ يهندسُ لبناءِ المُدُن. بنى الكوفةَ والبصرة، هو الذي أشرفَ على هندستها، مدَّ عروقَ المياهِ ومدَّ شبكةَ المياهِ في أكثرَ من بلدة. ولكن هل أغنتهُ هذه الأعمالُ عن اللجوءِ إلى اللهِ عامَ الرّمادة؟

جاءَ عامُ الرّمادة وأُقحِطَ النّاس، ماذا يصنعُ العلم؟ لا بدَّ من اللجوءِ إلى الله خالقِ العلم، وخالقِ المياه، ومودعِ المياهَ تجاويفَ الأرض. وانظروا إلى الحديثِ الصّحيحِ الذي يرويهِ علماءُ الحديثِ ويصحّحهُ ابنُ كثير: أنَّ بلالَ بنَ الحارثِ رضيَ اللهُ عنه أرادَ أن يذبحَ شاةً عامَ الرّمادةِ لأهله، فذبحها وإذا بعظامها حمراء من شدّةِ الهزال، فمضى رأساً إلى قبرِ المصطفى صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ وناداهُ: يا محمّداه استسقِ لأمّتك. وباتَ تلكَ الليلة – بلالُ بنُ الحارث – ورأى رسولَ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ يبشّرهُ قائلاً: ﴿إنّكم ستُسقَون، فأتِ عُمَر وقل لهُ: يقولُ لكَ رسولُ الله: عهدي بكَ أنّكَ وفيُّ العهد، شديدُ العَقد، فالكَيسَ الكَيسَ يا عُمر﴾. ولمّا أصبحَ بلال جاءَ إلى عمرَ بنِ الخطّاب وأنبأهُ بما حصل فبكى عمر، وجمعَ النّاسَ في المسجد وأنبأهم بكلامِ رسولِ اللهِ في الرّؤيا وقالَ: ماذا تفهمونَ من هذا الكلام؟ وفهمَ المسلمونَ وصاحوا في المسجدِ قائلين: إنَّ رسولَ اللهِ استبطأ استسقاءك فاخرُج بنا لنستسقِ. وخرجَ عمر بالقض والقضيض من جموعِ المسلمين. هنالكَ علمٌ وهندسةٌ وشبكةُ مياه، وهنا استسقاء، وهذا تاجٌ لذاك. ولا ينفعُ أيُّ عملٍ علميّ إن لم يصل صاحبُهُ قلبَهُ باللهِ عزَّ وجلّ. خرجَ فاستسقى وبكى ودعا وقالَ: اللهمَّ عجزت أبصارنا، وعجزَ منّا الحولُ والقوّة، وعجزت أنفسنا ولا حولَ ولا قوّةَ إلا بك، فاسقنا اللهمَّ من

غيثك، وأكرم بلادكَ برحمتك. فما رجعوا إلى المدينة إلا وقد أمطرتِ السّماءُ وتواصلَ المطرُ حتّى الجدب منَ الأرض.

خيرٌ من الحديثِ التّقليديِّ عن ذكرى الإسراءِ والمعراج أن نعالجَ المصيبة التي أحاقت بنا وأن نتبيّنَ جذورَ هذه المصيبة، ألا وهي الإعراضُ عن الله، نسيانُ أوامرِ اللهِ عزَّ وجلّ. والمصيبةُ الأدهى من هذا أنّنا عندما نسمعُ طرقاتِ المصيبةِ تقرعُ أبوابنا ونرى أعاجيبَ هذا الضغط الذي يتوالى علينا: لا يلتفتُ إنسانٌ بدهشة، ولا يستصرخُ إنسانٌ صاحبهُ إلى عمل، ولا نسمعُ صيحةً تندفعُ إلى تنفيذِ وصيّةِ رسولِ الله صلّى اللهُ عليهِ وسلّم. تلكَ هي المصيبةُ الأنكى.

عادةُ ربِّ العالمينَ سبحانهُ وتعالى أنّهُ يأخذُ عبادهُ بالشّدائد، هو القائل: ﴿ونبلوكم بالشّرِّ والخيرِ فتنة وإلينا تُرجَعون﴾. والحكمةُ من هذا أن يتبيَّنَ معنى العبوديّةِ عندَ عبادِ اللهِ عزَّ وجلّ، فتفوحَ رائحةُ هذه العبوديّةِ بينَ جوانحهم ويصيحوا وترتفعَ منهم الأصوات وتُبحَّ منهم الحناجر وهم يبكونَ ويتضرّعونَ إلى اللهِ عزَّ وجلّ.

لعلّكم تتساءلون: إنّنا في هذا المسجدِ ندعوا، وفي أماكنَ أخرى قد ندعوا، ولكن أيّها الإخوة قارنوا بينَ هؤلاءِ الذينَ يمدّونَ أكفّهم إلى اللهِ داعينَ متضرّعين وهم قلّةٌ قلّةٌ لا تبلغُ نسبةَ واحدٍ إلى مئة، وبينَ أولئكَ السّادرينَ في غيّهم، التّائهينَ عن ربّهم، المتكبّرينَ على اللهِ وسلطانه، هؤلاءِ الذين يتمشدقون قائلين: نحنُ في عصرِ العلم ولا نعرفُ إلا أن نعالجَ مشكلاتنا إلا بالاستسقاء. أقولُ قولي هذا وأستغفرُ اللهَ العظيم...

٤٠٠- تحذيرات نبوية نبه إليها الإمام الشهيد قبل ٢٥ عاماً | ١٩٩٠/٠٩/٢٠

يعتذرُ بعضُ النّاسِ اليومَ عن تقصيرهم في الرّجوعِ إلى اللهِ سبحانهُ وتعالى والانضباطِ بأوامرِه بأنّهم يعيشونَ عصرَ فتن، وأنّهم يتقلّبونَ بينَ مغرياتٍ وبينَ مهيِّجاتٍ من شأنِها أن تبعدهم عن صراطِ اللهِ سبحانهُ وتعالى. أمّا الرّعيلُ الأوّلُ من المسلمين – أصحابُ رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم – فقد كانَ سبيلُهم إلى الوصولِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ معبّداً ميسوراً، وكانت رؤيتُهم لرسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ تملأُ أفئدتهم حبّاً للهِ ومخافةً منه، وتطهّرُ هذه الأفئدةَ لدى النّظرةِ الأولى من كلِّ سوء، ثمَّ إنّهم لم يكونوا ليتعرّضوا لفتنٍ كهذهِ الفتن، ولمغرياتٍ ومهيّجاتٍ كالّتي نعاني منها اليوم. هذا ما يعتذرُ بهِ كثيرٌ من النّاسِ اليومَ إن عوتبوا في تقصيرِهم وبعدِهم عن اللهِ عزَّ وجلَّ.

ونقولُ أيُّها الإخوة: إنَّ عدالةَ اللهِ عزَّ وجلَّ أدقُّ من أن تفرّقَ بينَ جيلٍ وجيلٍ من عباده، وإنَّ رحمةَ اللهِ عزَّ وجلَّ متّسعةٌ منبسطةٌ على النّاسِ جميعاً منذُ أن أوجدَ اللهُ هذهِ الخليقةَ فوقَ هذهِ الأرضِ إلى أن يرثَ اللهُ الأرضَ ومن عليها.

ولئن كانَ رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بينَ ظهراني أصحابه، فكانت لهم من ذلكَ شعلةٌ تضيءُ قلوبهم، وتيسّرُ سبيلهم إلى الله، فإنَّ أموراً أخرى تحجزهم عن هذا الوصولِ إلى اللهِ عزَّ وجلّ. أنسيتمُ الجهادَ الذي كانوا ينامونَ عليهِ ويستيقظونَ على أوامرِه ومقتضياتِهِ في كلِّ صباحٍ ومساء؟ أنسيتم أنَّ الإسلامَ الذي كانوا يتمسّكونَ بهِ إنّما أينعَ وسطَ واحةٍ تحيطُ بها النّيرانُ من كلِّ جانب؟ أنسيتم أنَّ كثيراً منهم كانت نهايةُ حياتهم استشهاداً في سبيلِ الله؟ أنسيتم أنَّ حياةَ كثيرٍ منهم كانت شظفاً في العيش؟ وكانت عُجباً من أسبابِ الحياة؟ فلم يكونوا يتمتّعونَ ولا باليسيرِ اليسيرِ ممّا تتمتّعونَ بهِ من نعيم. ومع ذلكَ كلّهِ خاضوا غمارَ تلكَ الصّعوباتِ إلى اللهِ سبحانهُ وتعالى، واقتحموا كلَّ أنواعِ الجهادِ الذي أمرهمُ اللهُ به. امتثالاً لعظمة الله ووحدانيته، يقيناً بأن الله هو قائد الكون، وبأنه محرك لكل ما يجري فيه، وبأن محمداً عليه الصلاة والسلام بأنه لم يكن ينطق عن هوى. ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾.

ألم يُسأل رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عن أشراطِ السّاعةِ فقال: ﴿أن تلدَ الأَمَةُ ربَّتها، وأن تجدَ الحفاةَ العراةَ العالةَ رعاءَ الشّاةِ يتطاولونَ في البنيان﴾. ومنذا الذي سمعَ أو رأى أو عرفَ من المؤرّخينَ وعلماءِ الاجتماع: أنَّ الذينَ كانوا يبنونَ البناياتِ الباسقة أيّامَ المصطفى عليهِ الصّلاةُ والسّلام أو من بعدهِ بيسير كانوا يتطاولونَ في البنيان؟ ما عرفتِ الهندسةُ المعماريّةُ عَظَمَةً في البنيانِ إلا العَظَمَةُ الأفقيّة، أمّا التّطاولُ فشيءٌ حديثٌ يعرفهُ العصرُ الحديث. تلكَ معجزةٌ من معجزاتِ رسولِ اللهِ تجسد معنى النّبوّةِ في حياته.

ألم يقلِ المصطفى عليهِ الصّلاةُ والسّلام ﴿صنفانِ من أمّتي لم أرهما قَطّ: نساءٌ كاسياتٌ عارياتٌ مائلاتٌ مميلات، رؤوسهنَّ كأسنمةِ البُختِ المائلة. ورجالٌ يحملونَ سياطاً كأذنابِ البقرِ يضربونَ بها النّاس. أولئكَ لا يجدونَ ريحَ الجنّة، وإنَّ ريحَ الجنّةِ لتفوحُ من مسيرةِ كذا وكذا عام﴾؟ والحديثُ صحيح.

ألم يقل رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: ﴿لا تقومُ السّاعةُ حتّى يتباهى النّاسُ بزخرفةِ المساجد﴾؟ ألم يقل رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فيما رواهُ البخاريُّ وغيره: ﴿سيتقاربُ الزّمن﴾؟ وانظروا كيفَ يتحدّثُ عن أمورٍ نعيشُها: ﴿سيتقاربُ الزّمن، وينقصُ العمل، ويفشو الشُّح، وتكثرُ الفتن، ويشيعُ الهرجُ والمرج، قيلَ: ما الهرجُ وما المرج؟ قالَ: القتلُ القتل﴾.

وها نحنُ نرى كيفَ يتقاربُ الزّمن، وإنَّ العالمَ والطّبيبَ والمثقّف، بل إنَّ كلَّ فئاتِ النّاسِ ليحسّونَ أنَّ الأشهرَ تمرُّ مرّاً سريعاً كما الأيّام، وأنَّ السّنواتِ تمرُّ مسرعةً كأنّها شهور. ولكنَّ العلماءَ يبحثونَ عن تحليلِ هذهِ الظّاهرةِ: أهيَ الشّمسُ تسرعُ في مسيرِها أكثرَ ممّا كانت تسرع؟ أم هيَ الأرضُ ازدادتِ سرعتُها وازدادَ دورانُها عمّا كانت عليه؟ أم هوَ ماذا؟ لا يعلمُ هذا التّحليلَ أحد. إنّما هيَ ظاهرةٌ يلمسُها كلُّ إنسانٍ بحسّه، ﴿سيتقاربُ الزّمن، وينقصُ العمل﴾، وإنّكم لترونَ كيفَ نقصَ العمل. الدّعاوي كثيرة، والكلماتُ عريضة، والأقوالُ الخطابيّةُ ممّا تسمعونَ الآنَ كثيرةٌ جدّاً. لكن انظروا إلى الأعمال، انظروا إلى الأعمالِ التي زالت ثمَّ زالت ثمَّ لم يبقَ منها إلا أثرٌ بعدَ عين. نتكلَّمُ عن الإسلامِ وعن الصّلواتِ وعن ضرورةِ السّعيِ إلى مرضاةِ الله، لكن منذا الذي يدفعُ زكاةَ مالهِ كما أمر؟

نتكلَّمُ عن الأخلاقِ التي هي لبابُ الإسلامِ والتي قالَ عنها المصطفى: ﴿إنّما بُعِثتُ لأتمّمَ مكارمَ الأخلاق﴾، نتكلَمُ كثيراً. لكن انظروا إلى واقعِ النّاسِ وعلاقاتِهم بعضهم مع بعضٍ في البيوت، أو في الأسواق، أو في صلة ما بينَ فئاتهم من أعلى فئة إلى أدنى فئة من الناس فلا تكادُ تجدُ أثراً لهذهِ الأخلاق.

نتكلَّمُ عن العبوديّةِ ومعناها ونتقنُ الحديثَ عن ذلكَ أكثرَ ممّا أتقنهُ أصحابُ رسولِ الله. لكن أينَ من يصطبغُ بحقيقةِ العبوديّةِ لله؟ ﴿وسيقلُّ العمل، ويفشو الشُّحّ﴾. أي: ستجدُ المالَ كثيراً، ولكنَّ هذا المالَ مختنقٌ بيدٍ من الشّحِّ، تقبضُ على هذا المالِ حتّى الاختناق. كلامٌ عجيبٌ دقيق، يقولهُ المصطفى عليهِ الصّلاةُ والسّلام، ولقد قلتُ وكررت: كلاماً علميّاً يشهدُ لهُ علمُ الاجتماعِ وعلماؤه: أنَّ الغنى يورثُ البذخ، وأنَّ البذخ يورثُ الشُّح، وأنَّ الشُّحَّ يقدحُ زنادَ الهلاك، وهذا ما أنبأَ بهِ المصطفى عليهِ الصّلاةُ والسّلام، وتكثر الفتن. وها أنتم تشاهدون.. ﴿وينتشرُ الهرجُ والمرج﴾، وها أنتم تشاهدون..

ألم يقلِ المصطفى عليهِ الصّلاةُ والسّلام: ﴿ويلكم﴾، وفي روايةٍ: ﴿ويحكم.. انظروا، لا ترجعوا بعدي كفّاراً يضربُ بعضُكم رقابَ بعض﴾. ألا تسألونَ أنفسكم: لماذا يقولُ رسولُ اللهِ ﴿ويلكم انظروا﴾؟ أصحابُ رسولِ اللهِ عليهِ الصّلاةُ والسّلام الذينَ كانوا من حولهِ لم يكن يخطرُ ببالِ أحدٍ منهم أن يرتدَّ كافراً وأن يسلَّ سيفهُ ويضربَ بهِ عنقَ صاحبه. بل لقد علمَ رسولُ اللهِ أنَّ هؤلاءِ الصّحابةَ لن يفعلوا ذلك. ولكنّهُ مع ذلكَ قالَ لهم: ﴿ويلكم﴾ أو ﴿ويحكم.. انظروا، لا ترجعوا بعدي كفّاراً يضربُ بعضُكم رقابَ بعض﴾. ما معنى هذا؟

إنّه يخاطبُ الأجيالَ الآتيةَ من خلالِ أولئكَ الصَّحابة. أي إنّهُ يخاطبُ تلكَ الأجيالَ وقد أراهُ اللهُ المهاويَ التي ستنحطُّ فيها. أراهُ اللهُ عزَّ وجلَّ بمرآةِ النّبوّةِ كيفَ سيتهارجونَ وكيفَ سيخلعونَ ربقة هذا الشرف العظيم الذي أكرمهمُ اللهُ عزَّ وجلَّ به. ولذلكَ فهوَ يناديهم عبرَ الأجيال: ﴿ويلكم.. ويحكم انظروا، لا ترجعوا بعدي كفّاراً يضربُ بعضكم رقابَ بعض﴾. وواللهِ إنّي لأتخيّلُ المصطفى عليهِ الصّلاةُ والسّلامَ وهوَ يقولُ هذا الكلامَ كما لو كانَ أباً شفوقاً ينظرُ من النّافذةِ إلى ولدٍ من أولادهِ عن بعد وهوَ يركضُ في مهوىً خطيرٍ ومنزلقٍ مميت، فهوَ يناديهِ قائلاً: ويلك، ويحك، انظر، قف، لا تجز في هذهِ المهلكة. ينظرُ إليهِ من بعيدٍ عبرَ هذهِ النّافذةِ ولكنّها نافذةُ النّبوّة، نافذةُ الوحيِ الرّبّانيّ.

ألا ترونَ إلى هذهِ الكلماتِ العجيبةِ التي ينطقُ بها رسولُ الله؟ أترونَ أنّها أقلُّ في فهم معنى الإعجازِ فيها من تلكَ المعجزاتِ التي رآها الصّحابةُ بأمِّ أعينهم؟ تلكَ معجزاتٌ لهم وهذهِ معجزاتٌ لنا. نحنُ نراها ونزدادُ يقيناً بنبوَّةِ رسولِ الله، بل نتخيّلُ أنَّ رسولَ اللهِ يعيشُ فيما بيننا وأنّهُ يرانا تماماً، بل إنّهُ ليحلِّلُ ما يرانا عليهِ تحليلاً علميّاً دقيقاً عجيباً. أ لم يقل رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم: ﴿من ثم يبزغُ قرنُ الشّيطان﴾؟ وكم تساءلَ النّاس: أيُّ قرنٍ هذا الذي سيبزُغ؟ وكيفَ سيبزُغ؟ ولماذا سيبزُغ؟ وجاءَ الزّمنُ يشرحُ ويحلّلُ ويجسد. يجسد ذلكَ كلَّه.

أ لم يقل المصطفى عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ كلماتٍ عجيبة تقشعرُّ لها القلوبُ ويعودُ المرتدُّ فيها إلى الإيمان؟ ويتطايرُ من هذهِ الكلماتِ كلُّ مظاهرِ الشُّبُهاتِ والشّكوكِ التي قد تطوفُ بقلبٍ أو بعقلٍ من العقول. ومع هذا، فإنَّ كثيراً منّا لا يزالونَ سائرين في غيّهم، الكثيرونَ منّا لا يزالونَ يخوضون في ظلماتِ أنظارهم وأوضاعهم الجاهليّة التي عدنا إليها بعدَ تحذيرِ رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لنا من العودةِ إليها.

فياللعجبِ من أن نسمعَ تحذيرَ المصطفى عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ يصكُّ آذاننا، بل يلمسُ أفئدَتنا كأنّهُ صوتُ أبٍ شفوق، بل أمٌّ رؤوف. ومع ذلكَ فالعاكفُ على غيِّهِ لا يزالُ عاكفاً، والعاكفُ على انحرافهِ لا يزالُ عاكفاً، دونَ أن نرعوي من هذهِ الكلمات.

كثيرونَ منّا يكتبونَ عن سيرةِ رسولِ الله، ويتحدّثونَ عن حياتهِ وبطولاتِه، تلكَ دعاوي. ولكن أينَ العمل؟ هؤلاءِ الكاتبونَ ينقلبونَ في الليالي إلى حياةٍ تستثيرُ غضبَ اللهِ سبحانهُ وتعالى، إلى حياةٍ من البذخ، والانحراف، ورسولُ اللهِ يقولُ: ﴿ويلكم، لا ترجعوا بعدي كفّاراً﴾. ويقولُ رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم: ﴿اتّقوا الظّلمَ فإنَّ الظّلمَ ظلماتٌ يومَ القيامة، واتّقوا الشُّحَّ فإنّهُ أهلكَ من كانَ قبلكم، حملهم على أن يسفكوا دماءهم ويستحلّوا محارمهم﴾.

رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقول: ﴿أكرِموا جوارَ نعمِ اللهِ فإنّها إن ذهبت لن تعود﴾. ومع ذلكَ فإنَّ نعمِ اللهِ تجاورُنا، لا، بل نحتضِنُها احتضاناً. ورزقُ اللهِ يتهاوى إلينا من السّماءِ ويتفجّرُ إلينا من الأرض. فإذا أقبلنا إلى هذهِ النّعمِ أقبلنا إليها بغطرسةٍ وكبرياءٍ. وألقينا الطّعامَ شَذَرَ ومَذَرَ بعدَ أن نشعرَ بالشِّبَعِ

الذي يكرمنا اللهُ عزَّ وجلَّ به. تخيّلوا كم هيَ بقاياَ الطّعامِ التي تُلقى بينَ الأقذارِ في الفنادقِ وفي البيوتِ المسلمة. تخيّلوا وتصوّروا ما هيَ ضريبةُ الغنى التي نطالبُ ربَّنا بها بدلاً من أن يطالبنا بها ربُّنا، لأنَّ اللهَ أعطانا المالَ الوفير. نطالبُ اللهَ بضريبةٍ تتمثّلُ في أن نلقيَ بقايا الطّعامِ بينَ القاذوراتِ وفي طوايا التراب.

تساءَلوا أيُّها الإخوة عن بقايا الطّعامِ في الطّبق الذي يوضَعُ بينَ يديِ الآن، يُشتَرَطُ أن لا يأتيَ على الطّعامِ كلّهِ حتّى لا يَذِلَّ بينَ النّاس، وحتّى لا تُجرَحَ كبرياؤه. وإذا قامَ عن المائدةِ وهذهِ الأطباقُ لا تزالُ الأطعمةُ المتنوّعةُ فيها. تساءَلوا: ما مصيرُ هذهِ الأطعمة؟ مصيرُها أنّها تُلقى بينَ مواطئِ الأقدام. والرّبُّ يرى، والمنعمُ المتفضّلُ يراقب، ورسولُ اللهِ يقول: ﴿أكرموا جوارَ نعمِ اللهِ فإنّها إن ذهبت لن تعود﴾. ﴿إن ذهبت لن تعود﴾. وهيَ موشكةٌ واللهِ أن تذهب، بعدما غارت مياهُنا ولا ندري هل تعودُ هذهِ المياهُ مرّةً أخرى تبرقُ بريقها في أنهُرِ الشّامِ أم لا؟ وما أظنُّها ستعودُ إن لم نعُد إلى اللهِ بتوبةٍ نصوحة..

ماذا تتصوّرونَ لو أنّنا استقبلنا شتاءً في هذا العامِ كالشّتاءِ الذي أدبرنا عنهُ في عامِنا الماضي، ماذا تتصوّرونَ أن يكونَ حالُنا؟ وإلامَ ستؤولُ حالُ هذهِ الغوطةِ التي كم تغنّينا بها؟ والتي كم تباهينا بها؟ إلامَ سيتحوّلُ حالُها؟ هؤلاءِ الذينَ يعيشونَ على الآبارِ لشربهم وحاجاتِهم الأخرى، فإذا استمرّت غائرةً من أينَ يأتون بالماءِ النمير؟ نحنُ نفتحُ الماءَ هكذا، نتصوّروهُ شيئاً تافهاً وما جاءت تفاهتُهُ إلا من كرمِ الله. فإذا قطعَ اللهُ عنّا رزقه، وحبسَ عنّا قطره، هل بوسعكم أن تفتحوا الماءَ بغطرسةٍ كما كنتم تفعلون؟ ألا يتحوّلُ حالُنا إلى أناسي يلهثون بألسنتهم يميناً وشمالاً بحثاً عن جرعةِ طعام؟ أيبقى ثمّةَ وقتٌ لبرمجةِ ليالٍ ساهرةٍ في حياتِنا؟ أيبقى ثمّةَ وقتٌ لتشكيلِ موائدَ عامرة أمامنا نأكلُ منها لقيماتٍ ثمَّ نلقي البواقي تحتَ مواطئِ الأقدام؟ أنا لا أتكلّمُ عن أناسٍ آخرين، ولو صوّرتُ حالَهم لسمعتم شيئاً يَندى لهُ الجبينُ وتقشعرُّ لهُ الأفئدة.

لكن أريدُ أن نستفيقَ من هذا الانحرافِ لأنفسِنا نحن. نحنُ نسيرُ على النّهجِ ذاته، قد تكونَ بيننا وبينَ تلكَ النّهايةِ مسافةٌ. لكنَّ الطّريقَ واحدةٌ والكلُّ يسيرونَ على هذا الطّريقِ.

أيّها الإخوة: رسولُ اللهِ كأنّهُ يعيشُ بيننا، ما من ظاهرةٍ نراها إلا وريشةُ النّبوّةِ صوّرتها أدقَّ تصويرٍ على لسانِ رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم. فهل عسيتم أن تجدّدوا إيمانكم بنبوّةِ رسولِ الله؟ وهل لكم

بعدَ هذا الإيمانِ أن تجدّدوا بيعتكم لرسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم؟ وهل لكم بعدَ هذا أن تتوبوا إلى اللهِ توبةً نصوحاً؟ وأن تستنطقوا أهليكم وأولادكم بهذهِ التّوبةِ حتّى يرفعَ اللهُ سبحانهُ وتعالى عنّا هذهِ الفتن؟ وحتّى يكرمنا بالرّعايةِ والحماية ولا يقطعَ عنا رحمتهُ ورزقه؟ أقولُ قولي هذا وأستغفرُ اللهَ العظيم...



٤٠١- السبيل لاستمطار السماء والتحصّن ضد ما استشرى من الأدواء |

١٩٩٥/١٢/٠١

إن الله سبحانه وتعالى جلّت حكمته يربي عباده دائماً بمزيجٍ من الخوف والرجاء، وما مظهرٌ من مظاهر خلقه وإبداعه إلا وفيه ما يُذكِّر بالرجاء من الله سبحانه وتعالى والخوف منه، فلن تجد مظهراً من مظاهر رحمته خالياً من خطر الإهلاك والعذاب، ولن تجد مظهراً من مظاهر إهلاكه وسطوته خالياً من مظهر الرجاء والرحمة، لكي يكون الناس دائماً مهما التفتوا ومهما رأوا من خلق الله سبحانه وتعالى وإبداعه؛ لكي يجدوا في ذلك كله ما يشدهم إلى الرجاء وما يجذبهم إلى الخوف منه سبحانه وتعالى.

جعل الله سبحانه وتعالى الماء سبب الحياة فقال عز من قائل: ﴿وَجَعَلْنَامِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾. ولكن الله سبحانه وتعالى في الوقت ذاته، جعل الماء سبباً للحياة والنبات والرزق، وجعله عندما يشاء سبباً للهلاك والدمار.

خلق الله سبحانه وتعالى الرياح الهابّة عن يمين الإنسان ويساره وأمامه ومن خلفه، وجعل له من هذه الرياح سر بقاء حياته وسر تصاعد أنفاسه وراء صدره، ولكنه عز وجل جعل هذه الرياح سبباً للإنعاش والحياة آناً، وجعله عندما يشاء سبباً للإهلاك والدمار آناً آخر.

جعل الله سبحانه وتعالى من الشمس التي تنشر أشعتها في جهات الأرض سراً من أسرار الحياة كما تعلمون، ولكنه جل جلاله جعل حرارة الشمس أمام الإنسان سلاحين اثنين، آناً هو سلاح خيرٍ ومتعةٍ للإنسان وآناً آخر هو سلاح إهلاك ودمارٍ له، ما الحكمة من هذا أيها الأخوة؟

الحكمة من هذا أن لا يتعلق الإنسان بعين المادة، لا يتعلق الإنسان بجوهر الماء ويتصور أنه سر الحياة، ما ينبغي أن يتعلق الإنسان بالرياح التي تنتشر ما بين السماء والأرض ويتصورها سبباً لحياة أو سبباً دائماً لدمار. ما ينبغي أن يعلق إنسان نفسه بالأرض وحركتها واستقرارها ويتصور أنها السبب المادي لحياة الإنسان فوقها واستقراره في جنباتها، بل ينبغي أن يتبين له من هذا الذي قلناه أن كل هذه المكونات

جنودٌ بيد الله سبحانه وتعالى، فالمطر الهاطل والرياح الهابّة والأرض التي تدور والشمس التي ترسل أشعتها هي بحد ذاتها لا تعطي ولا تأخذ، لا تفيد ولا تضر، ولكنها جنودٌ بيد الله سبحانه وتعالى.

ومن الغباء أن ينظر الإنسان إلى حركة الجندي ولا يلتفت إلى قيادة من يأمر الجندي وينهاه، وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر. الإنسان المغفل المادي يحبس نظره - كما يحبس صاحب الدابة نظرها أمامها — في هذه المادة وحدها فيعطيها إما سر الإنعاش والحياة أو يعطيها سبب الإهلاك والدمار.

ومن هو هذا الذي يتصور ذلك الأمر ليس هكذا السبب الذي يجعله الله سر حياتك في اللحظة الثانية يجعلها سر هلاك إن شاء، ومن ثم فإن ما ينبغي أن يكون تعلقك بهذا الذي يدير المكونات ويجعلها آناً سبب إنعاشك وآناً سبب إهلاكك. تعلّق بالله، ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾

انظروا إلى قول الله عز وجل وهو يُحدث عن السبيل الذي أهلك الله به قوم نوح، ماذا قال؟ ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ الماء سر الحياة ﴿وَجَعَلْنَامِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾، ولكن الله لما وجه أمره إلى هذا الماء فطغى تجاوز الحد، تجاوز الحد الذي تكون به الحياة، تحول من سبب حياةٍ إلى سبب دمار، ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾، عندما يطغى الماء يتحول إلى سبب دمار، وعندما يشح الماء يتحول أيضاً إلى سبب دمار، وعندما يكون الأمر عدلاً تظهر موجبات الرحمة والحياة، فمن الذي يُمسك الموازين؟ من الذي يجعل الماء الذي يهوي من السماء إلى الأرض يسير بنسقٍ معتدل حتى لا يطغى فيهلكك وحتى لا يشح فيهلكك أيضاً؟

انظر إلى من بيده هذا الميزان ففر إليه والتجئ إليه. بالأمس طغى الماء في جهةٍ من جهات الخليج فماذا صنع الماء هناك؟ أهلك من أهلك، ودمر ما دمر. أما الماء هنا فقد شاء الله عز وجل أن يشح، وها نحن نقف من هذا الذي ابتلانا الله عز وجل على شفير هلاك، والهلاك الذي ينبثق من شح الماء ليس من نوع واحد وإنما هو من أنواعٍ شتى، والحديث عن هذه الأنواع يطول.. فعدوى الأمراض سببٌ من أسباب ذلك، وقلة الرزق سببٌ من أسباب ذلك، وآثار ذلك يطول الحديث عنها، كل ذلك سببٌ من أسباب ذلك...

إذاً الماء جُند يجعل الله سبحانه وتعالى من طغيان الماء سلاح إهلاك لمن يشاء، ويجعل من شحه أيضاً سلاح إهلاك عندما يشاء.

أقول هذا أيها الأخوة وأنا أتلمس إيماننا بالله عز وجل أو بقايا إيماننا بالله سبحانه وتعالى بين الجوانح، ولا أتصور أنّ فينا من لا يتمتع ببقايا إيمان، لا أشك أن هذه البلدة إنما تحتضن أناساً يتمتعون بإيمانٍ كاملٍ أو ببقايا إيمان، ما أتصور أن الإيمان الضعيف يقوى ويستيقظ في مرحلةٍ كهذه المرحلة التي نجتازها الآن.

ها هي ذي بلدنا كما تلاحظون تسير السحب من غربٍ إلى شرق ومن شرقٍ إلى غرب، وتتكاثف هذه السحب حتى إن المتخصصين بالأرصاد وشؤونها كثيراً ما قالوا: إنهم يتوقعون ويتأملون أمطاراً تهطل خلال الساعات القادمة من غيومٍ تأتي من هنا ومن هناك، ولكن الغيوم تمر وموجبات الإمطار تتحقق ثم إن المطر يُحجب، وانظروا إلى الحالة التي نمر بها من جرّاء ذلك تكفي هذه الظاهرة التي تسمعونها، تكفي الظاهرة التي تتمثل في الجراثيم المتنوعة للأدواء المختلفة التي تنشط وتتنامى وتتكاثر عادةً في مثل هذه الأجواء. ترى إلى من نلجأ؟

سلو أولئك الذين يعبدون المادة ما السبيل الذي نستمطر السماء كي تمطرنا؟ ما السبيل الذي نلجئ إليه كي نحصن أنفسنا ضد الأدواء المستشرية فينا؟ والتي نحن مهددون بها من بعد أيضاً؟ ما السبيل؟ سلوهم؟

لا جواب لا جواب المادة هي هذه المادة، ولكنها تتطغى فتهلك وتشح فتهلك. من الذي يجعل المادة خاضعةً لميزان اعتدال سواء كانت ريح هابّة أو كانت مطراً تهطل أو كانت أرضاً وحركتها؟ كيف تكون حركة الأرض بشكلٍ متناسق تتفق مع استقرار الإنسان فوقها؟ وكيف تكون بحالةٍ تجعل الإنسان معرضاً للخسف والزلازل المختلفة؟ سلو عُبَّاد المادة ما الجواب؟ لا جواب أبداً.. والجواب العلمي الذي يجلجل على سمع الدهر كله هو قول الله عز وجل: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾

ولله سبحانه وتعالى سبلٌ في تربية عباده، من هذه السبل أنه يأخذهم بالشدائد يأخذهم بأسباب الخوف ترى هل سيعودون؟ ترى هل سيتيقظ النائمون؟ ترى هل سيتنبه الغافلون؟ ترى هل سيستقيم

المنحرفون؟ ترى هل سيتوب العصاة والفاسقون؟ أم سيظلون يركبون رؤوسهم؟ فإن هم عادوا إلى الله أعاد الله سبحانه وتعالى إليهم النعمة، وإن لم يعودوا ابتلاهم ثم ظل يبتليهم. فإن أعلنوا أنهم قد قطعوا السبيل بينهم وبين الله عز وجل، فلله في هذه الحالة عادتان اثنتان: إما أن يُهلك كما أهلك كثيراً من الأمم، وإما أن يفتح عليهم النعم كلها دون حدٍ ولا حصر، ولكنه قد شطب على آخر سبيلٍ بينهم وبين رحمة الله سبحانه وتعالى به.

وليت أننا نتأمل في سنن الله في كتابه، انظروا إلى قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ، فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ، فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾. هذا كلام الله عز وجل، ونحن اليوم مُعرضون لهذا، بل نحن نسير في مرحلة من مراحل هذه السنة الربانية التي يخاطبنا الله عز وجل بها.

وددت وأنا أعيش هذه الأيام الخطيرة وأنا أسمع إلى وكالات الأنباء وهي تتحدث عن الأوبئة التي تتهدد مجتمعنا، وددت لو أن أفواهً في مجتمعاتٍ عامة نطقت وذكّرت ودعت إلى اللجوء إلى الله سبحانه وتعالى والتوبة بين يدي الله والاصطلاح مع الله سبحانه وتعالى، ولكني لم أسمع. وأنظر إلى بيوت له وهي لا تزال عامرةً بروادها، وأنظر إلى اللاهين والساهين وإذا هم لا يزالون عاكفين على لهوهم وسهوهم، وأنظر إلى الذين يُنشدون أناشيد الفسوق والعصيان والفجور والبعد عن الله وإذا هم لا يزالون عاكفين على غيهم وهم يرون الهلاك، وهم يرون هذه الحال التي يمرون بها، وهم يسمعون قول الله عز وجل: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ هلّا تضرعوا والتفتوا واصطلحوا مع الله عندما رأوا البأس آتياً إليهم من بعيد.

أيها الأخوة: من سنن الله سبحانه وتعالى، بل من شرائع الله سبحانه وتعالى في عباده أنه يدعوهم إلى التضرع بين يديه كلما حبست عنهم الأمطار، أن يخرجوا جماعات متآلفة متعاونة على صعيد واحد فيبتهلون إلى الله عز وجل ويصلون صلاة الإستسقاء التي نقرؤها في كتب الفقه؛ بابٌ خاص اسمه باب صلاة الاستسقاء، هذا الشيء معروفٌ لكل من درس شيئاً من دين الله عز وجل، ولكن كأن هذه الشرعة نُسِخَت من الأذهان وكأنها ألقيت دبر الأذان ووراء الظهور.

أنا ألفت النظر إلى الدواء الأمثل بل الدواء الذي لا دواء ثاني أمامه، أمام هذه المصيبة التي نعاني منها ألا وهو دواء الالتجاء إلى الله عن طريق السنة التي أنبأنا عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم، عن طريق الخروج إلى صلاة الاستسقاء. ولعلكم تسألون فمن الذي يدعو؟ وكيف يمكن أن يتم التنبيه إلى هذا؟ نعم... الذي يُكلف بالدعوة موجود، وأقولها لكم بصراحة وزارة الأوقاف هي المسؤولة عن هذا وهي المخولة لهذا وهي التي أناطت بها الدولة هذا الأمر وأمثاله. وكن ترى ما السبب في أن وزارة الأوقاف راقدةٌ في هذه الأيام؟ لا أعرف.

أنا باسمي وباسم كل مسلم أدعوا وأُذكر هذه الوزارة التي تتحمل مسؤولية رعاية الإسلام وشؤون الإسلام، أحملها هذه المهمة ينبغي أن تُصدر بياناً تدعو فيه الناس في هذه البلدة في ميقاتٍ محدد للخروج إلى ساحة واسعة، لنصلي هناك صلاة الاستسقاء، ونتضرع إلى الله عز وجل ونعلن توبتنا بين يدي الله ونعلن اصطلاحنا مع الله ورجوعنا إلى الله ونجدد بيعتنا له وإيماننا به أنه الله الفعّال لما يريد، وأن كل ما في الكون جنود بيد الله سبحانه وتعالى.

وأنا موقنٌ أننا إن قمنا بهذا الذي علمنا إياه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلسوف يكرمنا الله برحمته، ولسوف يرفع عنا مقته، وإلا إن بقينا هكذا سائرين مكابرين نعكف على لهونا وسوئنا ومعاصينا كما تعلمون، فإني أخشى أن يكون وراء هذا السوء أضعافٌ مضاعفة.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم فاستغفروه.

٤٠٢- نعمة أم سبب هلاك | ١٩٩٢/٠١/٠٣

إنَّ الإنسانَ الذي حُجِبَ عن المكوِّنِ للأكوان، وحُجِبَ عن الخالقِ العظيمِ المدبّرِ للمخلوقاتِ المتناثرةِ التي يراها من حوله: من شأنِهِ أن يربطَ أملهُ بها عندما يجدُ فيها بوارقَ الآمال، ومن شأنِهِ أن يضطربَ ويتفجّرَ في كيانهِ اليأسُ عندما يرى فيها مخاوفَ الإهلاكِ والوعيدِ والإنذار، فهو لا يرى الخيرَ إلا من هذهِ الأكوان، ولا يرى الشَّرَّ إلّا منها. وذلكَ هو شأنُ الإنسانِ الذي حُجِبَ عن رؤيةِ خالقهِ ومولاهُ عزَّ وجلّ، فأخذَ يُؤَلِّهُ هذهِ المُكَوَّناتِ والمخلوقاتِ وما يسمّونها بالطّبيعةِ التي من حوله.

وأمّا الإنسانُ المتبصِّرُ المدركُ بأنَّ هذهِ الأكوانَ إنّما تتحرَّكُ بيدِ مكوِّنها، وبأنَّ هذه المخلوقاتِ إنّما هيَ مسخّرةٌ بيدِ خالقِها سبحانهُ وتعالى، فهوَ لا يربطُ كيانهُ بها لا على وجهِ الأملِ ولا على وجهِ الخوفِ والوعيد، مثلُ هذا الإنسان لا يقفُ عندَ هذهِ المكوَّناتِ بأيِّ تأثّر، فإن رأى فيها بوارقَ الخيرِ لم تخدعهُ هذهِ البوارقُ عن مخافةِ اللهِ عزَّ وجلّ، وإن رأى فيها بوادرَ الشّرِّ لم تحجزهُ هذهِ البوارقُ عن التّأمُّلِ برحمةِ اللهِ سبحانهُ وتعالى وفضله.

كثيرونَ هم الذينَ إذا نظروا إلى كرمِ اللهِ سبحانهُ وتعالى الفيّاضِ من السّماء المتمثِّلِ في هذهِ الأمطارِ السّخيّةِ الوافدةِ ركنَ إلى السّرور، وركنَ إلى الأمل، وركنَ إلى يقينٍ لأنّهُ قد أصبحَ محفوفاً بالرّعاية وأنَّ أمامهُ خيراً كبيراً يقبلُ إليه، ونسيَ فاعليّةَ اللهِ سبحانهُ وتعالى، مع أنَّ هذا الإنسانَ لو تأمَّلَ وتدبَّرَ لعلمَ أنَّ المخافةَ من اللهِ عزَّ وجلَّ تكمنُ في كلِّ شيء، ولعلمَ أنَّ هذا الإلهَ القاهرَ الذي بيدهِ كلُّ شيءٍ وبيدهِ تصريفُ كلِّ أمرٍ يستطيعُ أن يجعلَ من أسبابِ الرّحمةِ أسباباً للهلاكِ والدّمار، ويستطيعُ أن يجعلَ من أسبابِ الدّمارِ التي تبدو لنا كذلكَ أسباباً للرّحمةِ والسّعادة، والأمرُ عائدٌ إلى اللهِ سبحانهُ وتعالى.

فمنِ الذي جعلَ الرّياحَ السّاريةَ أداةً لتجديدِ الحياةِ في كيانِ الإنسان؟ إنّما هو اللهُ عزَّ وجلَّ، ومن الذي إذا شاءَ جعلها سبباً للدّمارِ والهلاك؟ إنّما هو اللهُ عزَّ وجلّ.

ومن الذي جعلَ الأرضَ مهاداً تحتَ أقدامِنا؛ ترعَانا بمزيدٍ من رحمةِ اللهِ سبحانهُ وتعالى وفضلهِ عن طريقِ ما في داخلِها من ذُخرٍ وما يتفجَّرُ على ظاهرِها من خير؟ إنّما هو اللهُ سبحانهُ وتعالى.

ولكن من الذي يجعلُها أداةً للهلاكِ إذا شاءَ عندما تتحرَّكُ وتضطربُ تحتَ أقدامِنا، بل عندما تتحوَّلُ إلى أفواهٍ فاغرةٍ تبتلعُنا؟ إنّما هو اللهُ عزَّ وجلّ.

ومن الذي جعلَ من الماءِ أداةً للحياةِ كما قالَ عزَّ وجلَّ في محكمِ كتابه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾؟ إنّما هو اللهُ عزَّ وجلّ.

ولكن من الذي يجعلُ إذا شاءَ من الماءِ أداةً للإغراقِ والإهلاكِ والطّوفان؟ هو اللهُ عزَّ وجلّ.

فيا عجباً لإنسانٍ يقفُ أمامَ جنودِ اللهِ عزَّ وجلَّ يتأمّلُ فيها الخيرَ أو يخافُ منها الشَّرَّ ولا ينظرُ إلى ربِّ هذهِ الجنودِ وإلى مسخِّرِ هذهِ الجنود، وهو اللهُ سبحانهُ وتعالى.

انظروا وتأمّلوا يا عبادَ اللهِ في الأسبابِ التي أهلكَ اللهُ عزَّ وجلَّ بها أمماً سابقةً من قبلِنا: هل كانت تلكَ الأسبابُ إلا أسبابَ السّعادةِ والخيرِ فيما نتصوّرهُ اليومَ في حياتِنا وفيما يتصوّرهُ سائرُ النّاس؟ وسائل الطّبيعةِ كما يقولون، التي هيَ مناطُ آمالِ النّاسِ فوقَ هذهِ الأرض، هي التي جعلها اللهُ عزَّ وجلَّ عندما شاءَ أسبابَ هلاكٍ لتلكَ الأمم. انظروا إلى قولِ اللهِ عزَّ وجلّ: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾، هكذا يقولُ اللهُ سبحانهُ وتعالى.

يرينا وينبِّهُنا أنَّ الوسائلَ التي هيَ في أصلِها وسائلُ الحياةِ الإنسانِ ورغدِ عيشه، جعلها اللهُ عندما شاءَ وسائلَ لإهلاكِ من شاءَ اللهُ عزَّ وجلَّ أن يهلكهم. الصّيحةُ التي تطرب هي ذاتها الصّيحةُ التي تهلك، والأمرُ لا يحتاجُ إلا إلى أمرٍ من اللهِ عزَّ وجلَّ يصدرُ لهذا الذي خلَقَهُ وبثَّهُ في المكوَّناتِ التي من حولِنا. وعندما خُدِعَ قومُ عادٍ بمظاهرِ الطّبيعةِ كما يُخدَعُ كثيرٌ من النّاسِ اليومَ نبّههمُ اللهُ سبحانهُ وتعالى إلى هذهِ الحقيقةِ التي أقولُها، ولكنّهم لم يتنبَّهوا إلا بعدَ فواتِ الأوان، رأوا سُحُباً عارضةً تستقبلُ أوديتهم، فظنّوا فيها الخيرَ لأنّها هي السنّةُ الربّانيّة في الكون: إذا رأى النّاسُ سحابةً وافدةً بعدَ طولِ محل وبعدَ طولِ جدبٍ تأمّلوا فيها الخير، ولكنَّ اللهَ نبّههم إلى أنَّ الأمرَ ليسَ بيدِ السّحاب، ولكنَ الأمرَ بيدِ مسيِّرِ السّحاب، وانظروا إلى قولِ اللهِ عزَّ وجلّ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ، تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾.

هذا المعنى الذي نبّهنا اللهُ عزَّ وجلَّ إليهِ على سبيلِ العِظة، وهذا المعنى الذي يتجسَّدُ في واقعِ أممٍ قد خلت من قبلٍ، يجبُ أن نعتبرَ بهِ يا عبادَ الله، ويجبُ ألا نُخدَعَ بظواهرِ الطّبيعةِ عن مسيِّرِها وعن خالِقِها وعن مجندها لإرادتهِ في مكوَّناتِهِ وفي عباده.

كثيرونَ هم الذينَ ينظرونَ إلى هذهِ الأمطارِ السّخيّةِ المتسلسلةِ المتواصلةِ فينتعشونَ بآمالٍ عظيمةٍ في تصوّرهم، ويتصوّرونها رحمةً وافدةً إليهم، هذا في بابِ الأملِ برحمةِ اللهِ حسنٌ وعظيم. ولكنَّهُ في تصوّرِ الطّبيعةِ وأحكامِها أمرٌ مهلك. على الإنسانِ إذا رأى أيَّ بارقةٍ من بوارقِ الطّبيعةِ أن يقدِّرَ أنَّ فيها خيراً إذا شاءهُ اللهُ، وفيها سببٌ للدّمارِ إذا شاءهُ اللهُ عزَّ وجلّ.

والعبدُ الحقيقيُّ للمولى والخالق، هوَ ذلكَ الذي إذا رأى نعمةَ اللهِ تهوي من سمائهِ شكرَ اللهَ بلسانهِ وسألَ اللهَ سبحانهُ وتعالى أن يصرفَ عنهُ السّوء. سوءَ هذهِ المطرِ بلسانهِ أيضاً.

الإنسانُ الذي وحَّدَ اللهَ بعقلهِ وعواطفهِ ومشاعرهِ: هو ذلكَ الذي إذا رأى جنودَ اللهِ سبحانهُ وتعالى المتمثّلةِ في هذهِ السّننِ الكونيّةِ التي نراها، رمقَ بطرفهِ إلى المكوِّنِ وتساءَلَ في نفسه: ترى أهوَ استدراجٌ يستدرجُنا بهِ اللهُ عزَّ وجلَّ أم هيَ رحمة؟ ترى ما هيَ عاقبةُ هذهِ الأمطارِ والرّياح؟ أهيَ خيرٌ لهذهِ الأمّةِ ساقتهُ رحمةٌ من اللهِ عزَّ وجلَّ أم هو هلاكٌ وتدمير؟ هذا ممكنٌ وهذا ممكن..

والعبد: ذلكَ الذي يلجأُ إلى اللهِ سبحانهُ وتعالى رَغَباً ورهباً. ألم تسمعوا قولَ اللهِ سبحانهُ وتعالى في محكمِ كتابه: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ ؟، هكذا يقولُ اللهُ سبحانهُ وتعالى، فالبرقُ ظاهرةٌ من الظّواهرِ الكونيّةِ لكَ أن تتصوَّرَ فيها الخيرَ هيَ فعلاً أداةُ خير، ولكَ أن تتصوَّرَ فيها الشّرَّ هيَ فعلاً أداةُ شرّ، ولكن من الذي يوجّهُ هذهِ البوارقَ وهذهِ الصّواعقَ وهذهِ الأمطار؟ من الذي يوجّهُها للخيرِ إن شاءَ أو للشَّرِّ إن شاء؟ هو اللهُ سبحانهُ وتعالى.

نسألُ اللهَ سبحانهُ وتعالى أن يرزقَنا الإيمانَ بهِ في حالةِ السّرّاءِ والضّرّاء، وأن يجعلَنا نعيشُ في توحيدهِ في عقولِنا ومشاعرِنا في كلِّ الأحوال، ونسألهُ سبحانهُ وتعالى أن يملأَ أفئدَتَنا يقيناً بأنَّ الخيرَ لا يفدُ إلا من عندهِ وبأنَّ الشَّرَّ لا يفدُ إلا من عندهِ أيضاً، ونسألُ اللهَ سبحانهُ وتعالى العفوَ والعافيةَ دائماً، أقولُ قولي هذا وأستغفرُ اللهَ العظيم...

٤٠٣- اخترقوا عالم الأسباب | ١٩٩٨/٠٨/٠٧

دأب كثيرٌ من الناس في هذا العصر على ربط تقلبات الكون أو ما يسمونه بالطبيعة بأحداثٍ كونية مثلها.

فإذا وجدوا أن موجةً من الحرار غير مألوفةٍ قد داهمتهم، قالوا: إنها موجةٌ آتيةٌ من الهند أو من جهة من جهات آسيا مثلاً.

وإذا وجدوا أن وضعاً غير مألوفٍ داهمهم للظواهر الكونية تأملوا ثم قالوا: إن ذلك نتيجة لخرق قد وقع في طبقة الأوزون.

وإذا فوجئ الناس بموجةٍ باردة أو صقيع قالوا: إنها كتلة هوائية باردة آتية من جهة أقصى الشرق.

وإذا مر بهم موسم لم يكرمهم الله سبحانه وتعالى فيه بنتاج الأرض كما اعتادوا قالوا: إنها حشرة انتشرت في الأرض فكان من نتيجة وجودها ما قد حصل.

وهكذا دأب هؤلاء الناس أن يربطوا تقلبات الكون أو الطبيعة كما يقول البعض بأسباب كونية مثلها.

هذا التصور أيها الإخوة أولاً: مظهر من مظاهر الجهل، بل الجهالة البالغة، ثم إنه بعد ذلك مزلقٌ إلى الكفر بالله سبحانه وتعالى، والإيمان بالله عز وجل كان ولا يزال توأم العلم، والكفر بالله سبحانه وتعالى كان ولا يزال توأم الجهل، فكلما كان الإنسان معتزاً بالعلم وحقائقه قاده العلم إلى الإيمان بالله سبحانه وتعالى إيماناً حقيقياً غير تقليدي، وكلما ركن الإنسان إلى الجهالة أو إلى المواقف التقليدية قادته هذه المواقف إلى الكفر بالله سبحانه وتعالى.

هؤلاء الذين ينسبون ما نفاجئ به من تقلبات الكون إلى ظواهر كونية مثلها لم يحلوا المشكلة حلاً علمياً قط، كما أن موجة الحرارة هذه تحتاج إلى سبب نطّلع عليه ونكتشفه، فإن تلك الموجة الآتية من الهند أيضاً بحاجة مثلها إلى سبب نكتشفه ونستبينه، ما الفرق بين الظاهرة التي نراها أمامنا وتلك الكتلة

الحرارية التي نربط هذه بها نجعل من تلك سبباً ونجعل من هذه مسبباً؟ وكلاهما سواء، كل منهما يحتاج إلى معرفة السبب.

عندما نقول: إن خرقاً قد وقع في طبقة الأوزون فكان من نتيجة ذلك هذا الذي يجري، كما أن هذا الذي قد وقع نحتاج إلى معرفة سببه، فكذلكم الخرق المزعوم في طبقة الأوزون يحتاج أيضاً إلى معرفة سببه. لماذا تبحث عن سببٍ لحادثة وقعت على الأرض من حولك ولا تبحث لسبب لهذا الذي تسميه الخرق في السماء، لماذا؟ وما الفرق بينهما؟

لماذا تبحث عن سببٍ لهذه الموجة الباردة التي مدت طبقة من الصقيع على الأرض – مثلاً – تبحث عن سبب لها، ولا تبحث عن سبب لتلك الموجة أو لتلك الكتلة الهوائية الباردة الآتية من أقصى الشرق أو الجنوب أو من أي جهة أخرى؟

لماذا تحتاج الظاهرة التي أمامك إلى سبب ولا تحتاج تلك الظاهرة البعيد عنك إلى سبب؟

أرأيتم إلى هذه الجهالة البالغة أيها الإخوة التي يقع فيها من يحجبون أنفسهم عن رؤية الله سبحانه وتعالى! ولذلك أقول إن كل من أسلم نفسه إلى الجهل أو إلى مظهر من مظاهر العلوم التقليدية التي لا ترتبط بجذور من الحقائق العلمية لا بد أن يزجه هذا الوضع في تيه من العقائب وأن يبعده عن حقيقة الإيمان بالله سبحانه وتعالى.

الأسباب التي نراها في هذا الكون موجودة لا شك في هذا. وقد قالوا وحقاً ما قالوا: إذا أراد الله شيئاً هيء أسبابه، ولكن ينبغي أن نعلم أن هذه الأسباب التي تفور بها الدنيا من حولنا جنودٌ لحكم الله عز وجل وقضائه، فالله سبحانه وتعالى يقضي في ملكه ما يشاء ويتصرف في ملكوته بما يريد، ثم إن الله عز وجل قضى أن يجعل لكل شيء سبباً، هو الذي يشبعك، وجعل للشبع سبباً شكلياً هو الطعام. هو الذي يرويك، وجعل للري سبباً شكلياً هو الماء، الله سبحانه وتعالى هو الذي يرزقك من خيرات السماء ومن نبات الأرض وقضى أن يجعل لذلك سبباً، فالله عز وجل هو خالق الأسباب وهو مبدع المسببات، ينبغي أن نعلم هذه الحقيقة وإنها لحقيقةٌ يقودنا إليها العلم، العلم بحقائق الأشياء كلها.

كم سمعت تعليقاً على هذه الموجة الحرارية الداهمة إلينا، كم سمعت تعليقاً يدل على أن هؤلاء الناس الذين ينطقون بهذا الكلام تائهون عن وجود الله.

ربنا عز وجل يقول: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ ولا شك أننا نعلم أن الله عز وجل عندما يتجه أمره إلى المياه الجوفية المنبثة في باطن الرض أن تغور، تستجيب هذه المياه لأمر الله، ولكن من عادة الله عز وجل أن يجعل لذلك سبباً، فما ينبغي أن نسجن أنفسنا بالأسباب ونحجب أنفسنا بها عن رؤية المسبب الذي هو الله سبحانه وتعالى. ولقد صح عن المصطفى صلى الله عليه وسلم أنه روى عن ربه حديثاً قدسياً يقول فيه: ﴿أصبح من الناسِ مؤمنٌ بي وكافرٌ بي، أما المؤمن فهو ذاك الذي يقول مطرنا بفضل الله وكرمه، وأما الكافر فهو ذاك الذي يقول مطرنا بنوء كذا﴾ كما يقول اليوم كثيرٌ من الناس عندما يربطون الأشياء بأشياء مثلها.

ويا عجباً لهؤلاء كيف يغرقون في شبرٍ من الجهالة؟! يربطون أشياء بحاجةٍ إلى سبب بأشياء أخرى هي الثانية بحاجة إلى سبب، ثم يقفون عند هذه النقطة ولا يتجاوزونها. ينبغي أن نحيل هذه الظواهر كلها إلى الله عز وجل وهذه نقطة هامة من نقاط العقيدة التي ينبغي أن يكون كلاً منا على تنبهٍ لها وذكر بها، أجل، فإذا أكرمنا الله عز وجل واخترقنا ظواهر الأسباب التي يقف عندها السخفاء من الجهال رأينا أنفسنا دائماً أمام الله. وإذا رأينا أنفسنا ببصائرنا طبعاً لا بأبصارنا اليوم أمام الله عز وجل فلسوف تكون أفئدتنا دائماً مليئة دائماً إما بالخوف من الله وتعظيمه وإما بمحبة الله سبحانه وتعالى والتعلق به، ذلك لأنك عندما تربط تقلبات الكون كلها بالله عز وجل وتخترق الأسباب التي تراها أمامك، فأنت إما أمام ظاهرة من نعم الله تقودك هذه الظاهرة إلى محبة الله كما يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم: ﴿أحبوا الله لما يغذوكم من نعمه﴾، وإما أن تجد نفسك أمام مظهر من جبروت الله عز وجل ونذره وتهديداته، ولا بد أن يقود هذا إلى المخافة من الله سبحانه وتعالى.

وهكذا فالمؤمن دائماً بفضل عقيدته السليمة وبفضل اختراقه لعالم الأسباب الشكلية كلها ووقوفه ببصيرته أمام الله عز وجل دائماً يقف بين دافعين اثنين: دافع الرجاء ودافع الخوف، لأنك إما أن تجد نفسك أمام مظاهر لألطاف الله وكرمه ونعمه، وهذا يقودك إلى الرجاء والحب، وإما أن تجد نفسك أمام

نقيض ذلك مما ترون اليوم، وهذا يقود الإنسان إلى الخوف وتعظيم الله سبحانه وتعالى وللالتجاء إلى فضله ومغفرته وجوده.

فاخترقوا عالم الأسباب أيها الإخوة ولا تغرنكم شعبذة هؤلاء الناس الذين أعموا أبصارهم وبصائرهم بكلمات جوفاء تقليدية ولم يحاولوا أن يطلعوا على ما وراء ذلك.

نسأل الله عز وجل أن يلطف بنا ونسأل الله سبحانه وتعالى أن يغفر لنا ما قدمنا وما أخرنا وأن يعاملنا بلطفه ولا يعاملنا بما نستحق.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.



٤٠٤- تحذير متجدد.. من خطر محدق | ١٩٩٨/١١/٢٠

إن من سنة الله سبحانه وتعالى في عباده أن يأخذهم بالسراء والضراء، يبتليهم بالنعم آناً، ويبتليهم بالمصائب آناً آخر، والحكمة من ذلك أن الإنسان مهما ادعى عبوديته لله عز وجل ومهما أعلن عن انقياده لأمر الله سبحانه وتعالى، فإن حقيقة هذه العبودية لا تتلجى إلا من خلال شكر العبد لربه عند النعم، والتجائه إلى الله سبحانه وتعالى عند النقم. فإذا كان العبد كثير الشكر لله أمام نعمه وكثير الالتجاء إلى الله سبحانه وتعالى بين يدي نقمه، فذلك هو الإنسان الذي برهن على صدق عبوديته لله سبحانه وتعالى، ولو أن الإنسان كان دائماً يتقلب في الرخاء وأسبابه لما ظهرت دلائل صدق عبوديته، وكذلك لو أن الإنسان كان دائماً يتقلب في أتون المصائب والآلام لما ظهرت أيضاً دلائل عبوديته كاملةً، لا بد أن يكون العبد ذا هوية تتمثل في الشكر عند النعم وفي الالتجاء إلى الله عز وجل عند المصائب والنقم.

أما الإنسان الذي تمر به النعم فلا يذكر معها المنعم جل جلاله، ثم تختفي النعم ويأتي دور المصائب والنقم فلا يذكر معها الله عز وجل أيضاً؛ لا عند النعم شاكر ولا عند المصائب لائذٌ بالله سبحانه وتعالى وملتجئ، فهذا الإنسان إن استمر على هذه الحال لابد أن تتخطفه مظاهر غضب الله سبحانه وتعالى ومقته. وما يصدق على الإنسان يصدق على المجتمع ويصدق على الأمة.

هذه أشهر خلت من الأشهر التي كان الباري عز وجل قد عودنا فيها من كرم السماء ما تعرفون، ولكننا ننظر وأظن أنكم جميعاً لم تعهدوا مثل هذه العام في أيامكم وسنواتكم التي خلت، وننظر وإذا بنا لا نزال نمر في أيام الصيف اللاهبة، تلك نقمة وإنها لمصيبة من المصائب التي يأخذ الله عز وجل عباده بها عادة مع النعم التي يكرمهم بها. فهل التجأنا إلى الله عز وجل؟ هل أيقظتنا هذه المصيبة التي تحوم من حولنا وربما وقعت بنا قريباً؟ هل ساقتنا هذه المصيبة إلى الالتجاء الصادق إلى الله إلى الإعلان عن ذل عبوديتنا لله سبحانه وتعالى؟ وكلكم يعلم الجواب أيها الإخوة.

أنا لا أشك أن في هذه الأمة وفي هذه البلدة أناس صالحين، ولا أشك أن في بلدتنا قلة من الناس يتقربون دائماً إلى الله، وواقعهم دائماً لا يخلو من شكر لله على نعمه أو التجاء إلى الله عز وجل أمام

مصائبه. ولكنني أسأل عن السواد الأعظم أسأل عن الكثرة الكاثرة في هذه البلدة، وكلكم يقرأ في كتاب الله قوله: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ انظروا إلى السواد الأعظم الساهي الغافل، لا عند النعم التي كانت تتراقص حولهم بالأمس كانوا يشكرون ولا أمام هذه المصيبة السوداء المخيفة يستيقظون ويجأرون إلى الله سبحانه وتعالى بالشكوى. والمصيبة الكبرى تكمن في هذه الحالة عندما نعكف على الإعراض عن الله سبحانه وتعالى، فلا نقف بين يدي ربوبيته مستغفرين منكسرين آيبين أذلاء متضرعين، كما كنا عند نعمه تائهين سادرين أيضاً. لأن استمر بنا الحال على هذه الشاكلة فإن الأمر لخطير جداً.

وانظروا إلى قول الله وهو يصك أسماعنا إذ يقول: ﴿فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾وكم هي رقيقةٌ هذه الكلمة وكم هو رقيق هذا العتاب! ﴿فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾، هلا تضرعوا ورجعوا إلينا أي إلى الله عندما جاءهم بأسنا ﴿وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. هذا واقعنا ولكن انظروا ما الذي يتهددنا أمام هذا الواقع ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ أي إذا هم هالكون.

هل ننتظر هذه النهاية التي ترسمها سنة ربنا سبحانه وتعالى في كتابه؟ أيها الإخوة سلوا قساة القلوب هؤلاء، سلوا هؤلاء الذين لا يعرفون مولاهم أمام نعمه التي تهمي عليهم، ولا يرجعون إليه أمام المصائب والنقم التي تحيط بهم، سلوهم ماذا سيصنعون غداً، إن أطبق الكرب وإن عضت عليهم المصيبة وإن وجدوا آثار ذلك سغباً وجوعاً وهلاكاً، ماذا يصنعون؟ إلام يلتجئون؟

هنالك يظهر الضعف وهنالك تظهر الكينونة الحقيقية للإنسان، غداً بعد أيام أو أسابيع سيضطر الفلاحون إلى أن يزرعوا إلى أن يقبلوا إلى الأرض ليزرعوها براً كما كانت العادة، أي أرضٍ تستقبل بذورهم أي أرضٍ استحجرت تستقبل مشاريعهم؟ تقول بلسان الحال: لن أصلح لكم ولن أصلح لبذاركم قط، ما النتيجة التي تأتي بعدها لا على الماء النمير نحصل ولا على الرزق الذي لا تستقيم حياتنا إلا به نحصل، هنالك ماذا يصنع الإنسان، ماذا تغنيه عجرفته، ماذا يغنيه كبرياؤه، بل أي الأبواب يطرق في تلك الحالة؟

سلوهم أيها الإخوة إن كنتم ترونهم.. أبلغوهم سؤالي هذا، ما هي الأبواب التي يمكن أن يطرقوها من دون الله فتستجيب لهم؟ من هو الذي يرزقهم من دون الله إن أمسك الله رزقه؟ كما يقول الله سبحانه وتعالى.

من هو الذي ينجدهم بشربة ماء تروي أكبادهم إذا أمر الله سبحانه وتعالى سماءه أن تستمر فتمسك، وإذا أمر الله الينابيع أن تغور؟

من هو الإنسان العظيم المخترع الكبير العالم الفذ الذي يستطيع أن ينجدهم من دون الله سبحانه وتعالى؟

لماذا يستكبر الإنسان على قمامة ضعفه، وهو الذي يعلم أنه شيء تافه ذليل في قبضة الله سبحانه وتعالى، لماذا؟

دعوت ودعوت ودعوت كل من في هذه البلدة إلى أن يرحلوا إلى الله سبحانه وتعالى بالاستسقاء كما ندبنا فأكد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبلغت كلمتي وصوتي إلى من يملك أن يدعو الناس إلى هذا، نلتقي على صعيد واحد، في مكان ما بكل فئاتنا وأشكالنا من عصاة من فسقة من منحرفين من تائهين، الكل إذا أقبلوا إلى الله قبلهم، الكل إذا اصطلحوا مع الله لباهم. الله سبحانه وتعالى يغفر الذنوب جميعا ًولكن الله يطلب من عباده أن يتحققوا بمعنى عبوديتهم له فيتضرعوا بين يديه عند الشدائد. نلتقي عند صعيد واحد بكل فئاتنا ونمد أكف الضراعة إلى مولانا سبحانه وتعالى ونعلن عن ذلنا لله وحاجتنا إلى كرمه، ونعلن عن ضعفنا إن ارتكبنا المعاصي والأوزار، ونعلن أننا لم نرتكب شيئاً من ذلك كله استكباراً على أمره أو استهانةً بحكمه، ولكن لسابقة سبق بها قضاؤه وندعو ونستغفر ونجأر إلى الله عز وجل، لماذا؟ ما الذي يمنعنا ما الذي يحجبنا عن هذا الأمر؟ أهو كبرياؤنا؟ وماذا عسى أن تفيدنا كبرياؤنا؟ كبرياؤنا تهلكنا أيها الإخوة.

أرأيتم لو استمر الأمر على هذا النحو الذي ترون، هل يستطيع المستكبرون أن يثبتوا عند كبريائهم؟ إذا انتصف الشتاء وكاد أن يمر الشتاء وحالنا على هذه الشاكلة والأخطار تحدق بنا والمصيبة تأخذ منا بالحلوق، ماذا عسى أن تفيدنا كبرياؤنا في تلك الساعة؟

أجل عندما يجد الإنسان نفسه بين براثن الهلاك ينسى كبريائه، لماذا لا ننسى كبرياءنا الآن، الآن!!

وأنا أقول أيها الإخوة لو كنا نتعامل مع ربٍ لا يتعامل مع عباده بالرحمة وبالرأفة لكان للشيطان أن يسيطر على أفكار هؤلاء الناس، ولكننا جميعاً نعلم أن الله يغفر الذنوب جميعاً وأنه هو القائل في الحديث القدسي: ﴿يا عبادي لو لم تذنبوا لذهبت بكم فجئت بقومٍ يذنبون ثم يستغفروني فأغفر لهم﴾، ونحن نقف أمام كلمة: ﴿ثم يستغفروني﴾ لماذا لا نستغفر؟

لم يقل الله عز وجل لا تذنبوا، ولكن قال لنا: إذا أذنبتم فاستغفروا، وإذا هزتكم المصائب فارجعوا، نذنب هذا واقع، لماذا لا نرجع لماذا لا نستغفر لماذا لا نؤوب إلى الله سبحانه وتعالى؟

إله يرحمنا بلفتة صادقةٍ منا إليه، إله يرحمنا ويتفضل علينا بعودٍ صادقٍ إلى الله عز وجل، فيم نستكبر عليه؟ فيم يقول قائلنا: لا داعي إلى صلاة الاستسقاء! كيف هذا أيها الإخوة؟ نعم عندما أنظر إلى رحمة الله هذه أجد أن الناس كلهم مرحومون إلا من أبى. ومن هو الذي يأبى؟ العاصي داخل في رحمة الله، المذنب داخل في رحمة الله، المنحرف داخل في رحمة الله بشرط أن يتذلل وأن ينكسر وأن يعود إلى رحاب الله سبحانه وتعالى، ولكن الذي يستكبر يقول في لسان الحال: أنا غني عن رحمة الله أنا لست بحاجة، الذي يستكبر على الله ونحن نمر بهذه الحالة التي ترون يقول بلسان حاله: لسنا بحاجة إلى ذلك من هو هذا الذي يملك أن يقول هذا ويصبر على قراره هذا إلا أن تأخذ المصيبة منه بالغلاصم؟ من؟.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن لا يهلكنا بقبائح ذنوبنا وأن يتوب علينا وأن يلهم هذه الأمة عوداً حميداً إلى دينه، فاستغفروه يغفر لكم.

٤٠٥- وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا | ١٩٩٩/٠٢/٠٥

روى الشيخان من حديث زيدٍ بن خالد الجهني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ﴿أتدرون ماذا قال ربكم الليلة؟ قالوا الله ورسوله أعلم، قال: قال الله تعالى: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فمن قال مُطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب، ومن قال مُطرنا بفضل الله وكرمه فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب﴾.

وإنا لنشهد الله سبحانه وتعالى أننا نؤمن بأننا قد مطرنا بفضل الله سبحانه وتعالى لا بالكواكب ولا بنوئها، وإنا لنشهد الله سبحانه وتعالى على أننا نقول بألسنتنا ما تؤمن به أفئدتنا، فنحن نؤمن أن الله سبحانه وتعالى هو خالق الكواكب وأنوائها، وهو خالق السحب ونظمها، وهو الخالق للرياح وما تحمله. نؤمن بأن الله سبحانه وتعالى خالق كل شيء ونستيقن بذلك ونقر بذلك، فاللهم اجعلنا من المؤمنين بك وثبتنا على هذا الإيمان وأتم علينا فضلك ولا تقطع عنا رفدك يا أكرم الأكرمين. وصدق الله القائل في محكم تبيانه: ﴿وهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ ۚ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾

ولله سبحانه وتعالى حكمة باهرة أيها الإخوة عندما يقدر في الرزق وعندما يعطي الرزق، لله سبحانه وتعالى حكمة باهرة عندما يبتلي عباده بشيء من الجدب ثم يكرمهم بعد ذلك بالعطاء، ومن أجلّ مظاهر الحكمة لهذه الظاهرة أن الله عز وجل يريد من عباده أن يشعروا دائماً أنهم بحاجةٍ إليه، حتى لا يحيدوا عن بابه ولا يشردوا عن أعتابه، وحتى تبقى أيديهم مبسوطة دائماً إلى كرمه يطلبون ويسألون ويلحفون بالدعاء، فلو أن الله سبحانه وتعالى لم يقطع رزقه ولم يقطع رفده إطلاقاً عن عباده، ولو أن عطاؤه كان ممتداً دائماً دون انقطاع لغفل الناس شيئاً فشيئاً عن المعطي، ولذهلوا بالكرم عن المتكرم، ولكن الله سبحانه وتعالى يريد - وذلك مظهر من مظاهر تأديبه وفضله على عباده - يريد أن يعلموا دائماً أنهم بحاجة إلى الله سبحانه وتعالى، وأنهم دائماً الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد، فكيف تكون هذه الفكرة حاضرة دائماً في أذهانهم إذا ابتلاهم الله عز وجل بالشدة آناً وبالرخاء آناً آخر. يستمر الرخاء ثم ينقطع، فإذا انقطع تنبه الغافل واستيقظ السادر إلى أن الله سبحانه وتعالى قد قطع رفده، ومن ثم فلا بد للالتجاء إليه،

ولا بد من الدعاء والالحاف في الطلب، تلك هي الحكمة الباهرة، وهنالك حكم أخرى من أجل أن يستغفر العاصي ومن أجل أن يستقيم الشارد والمنصرف عن صراط الله سبحانه وتعالى، ومن أجل أن يعود الناس التائهون إلى رحاب الله سبحانه وتعالى فيستغفروه ويتوبوا إليه.

أيها الإخوة استنزلوا رحمة الله سبحانه وتعالى بتجديد الإيمان به سبحانه وتعالى، فالإيمان يَخلَق كما يَخلَق الثوب على البدن كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولذلك أسباب كثيرة لا نريد أن نطيل فيها، والمهم أن الإنسان ينبغي عليه أن يجدد إيمانه كلما تقادم، ينبغي أن يعود إلى مكمن يقينه وثقته وإيمانه بالله عز وجل فيراقب نفسه ويراقب إيمانه، يجدد ذلك كله كلما تقادم عليه العهد.

وكلما علا شيء من ذلك غبار جددوا إيمانكم بالله سبحانه وتعالى، الشهوات من شأنها أن تجعل الإيمان الجديد يتقادم ويهترئ، والانصراف إلى الغفلات وأسبابها من شأنه أن يجعل الإيمان المتجدد يهترأ ويتقادم، والابتلاءات الدنيوية الكثيرة التي يأخذ الله سبحانه وتعالى عباده بها كل ذلك من شأنه أن يحجب الإنسان عن الله، والمطلوب من الإنسان أن يخترق هذه الحجب، وأن يخترق هذه الحواجز، وأن ينفض الغبار عن إيمانه بالله سبحانه وتعالى ويجدده، يجدده في الفكر يجدده بالذكر يجدده بالإنابة إلى الله عز وجل يجدده باستغفار الله سبحانه وتعالى يجدده بكثرة الإنابة إلى الله عز وجل.

نحن نسأل الله سبحانه وتعالى أن لا يجعلنا محبوسين في مظاهر مخلوقاته التي قد يبتلي الله سبحانه وتعالى عباده بها، نسأله عز وجل أن يحررنا من المظاهر التي يُخدع بها كثير من الناس وينقلنا إلى الإله الذي أبدع والإله الذي نظّم والإله الذي سخّر، وأن يضعنا بعقولٍ متبصرة أمام قوله عز وجل: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾، نسأله عز وجل أن يجعلنا ندرك ونستيقن أن كل هذه النظم الكونية جنود لله سبحانه وتعالى، وأن لا يبتلينا بما قد ابتلى به طائفة من المغفلين من عباد الله سبحانه وتعالى عندما تتيه محاجر أعينهم في الظواهر ثم لا يتجاوزونها إلى الإله الذي أبدعها، ينبغي أن نحمد الله عز وجل على نعمة الإيمان وينبغي أن نذكّر السادرين من إخواننا والتائهين إلى أن يعودوا إلى رحاب الله سبحانه وتعالى.

اللهم إنا نسألك وقد أكرمتنا بوابلٍ من رحمتك أن تجعلها رحمة ممتدة، وأن لا تقطع رفدك عنا يا ذا الجلال والإكرام، وإنا نسألك باسمك الأعظم الذي إذا دُعيت به أجبت أن تجعل إيماننا موصولاً بلطفك وكرمك وجودك، وأن تجعلنا نخترق الحواجز والحجب التي يتيه في غمارها كثير من الغافلين والسادرين حتى لا نرى في هذا الكون سلطاناً غير سلطانك، ولا نرى كرماً غير كرمك، وإنا لنسألك اللهم أن توقظ إخواننا إلى هذه الحقيقة وأن تعيد التائهين من إخواننا إلى صراطك، وأن تذيقهم لذة الإيمان بك وأن تحررهم من سجون ما قد تبصره أعينهم ولا تراه بصائرهم ولا أريد أن أطيل في هذا اليوم، ولا أريد أن أحرج إخواننا الذين هم واقفون حول هذا المسجد وفي هذا القدر كفاية وأستغفر الله العظيم لي ولكم فاستغفروه.





٤٠٦- أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً | ١٩٩٩/٠٣/١٢

يقول الله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دارَ الْبَوارِ (28) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرارُ﴾.

هل تأملتم وتدبرتم هذا الكلام الرباني الذي يخاطب الله عز وجل به عباده ليعتبروا بالأمم التي تاهت وانحرفت واستكبرت على الله سبحانه وتعالى، فحاق بها من الهلاك في الدنيا ثم في الآخرة ما قد حاق، كي لا يسلكوا مسالكهم ولكي لا يقعوا في التيه الذي وقعت فيه تلك الأمم وأولئك الجماعات؟

هل تدبرتم كلام الله سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا)؟ ألم تر إلى أولئك الناس الذين أكرمهم الله سبحانه وتعالى بالنعم ألواناً وأصنافاً وأشكالاً﴾.

أكرمهم الله سبحانه وتعالى بنعمة العافية فاستكبروا بها وزُهوا بنعمة العافية واتخذوا منها حجاباً أقصاهم عن الله سبحانه وتعالى.

أكرمهم الله سبحانه وتعالى بنعمة الرزق الواسع الوفير، فتاهوا وفاضت في أنفسهم مشاعر المرح والكبرياء من هذه النعمة التي أغدقها عليهم، ورقصوا على تلك النعمة وتاهوا عن أوامر الله سبحانه وتعالى، وقال قائلهم كما قال ذلك الطاغية من قبل: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾. ولقد قص علينا كتاب الله قصة قارون هذا.

أكرمهم الله سبحانه وتعالى بالماء النمير هطل عليهم من السماء، ثم جعل الله سبحانه وتعالى له مستقراً في تجاويف الأرض.

أكرمهم بالينابيع الثرة هنا وهناك.. وأكرمهم بالنبات الذي متع الله سبحانه وتعالى به أعينهم به جمالاً، ومتع به أفواههم رغداً ورزقاً فاستكبروا وجعلوا هذه النعمة وسيلةً لمحاربة الله سبحانه وتعالى

والاستكبار على أوامره وأحكامه. ما من معين ماءٍ فاضت به أرض في جهة من الجهات إلا وأقاموا من حولها ما يُغضب الله سبحانه وتعالى، أقاموا من حول هذا المعين من أسباب اللهو المحرم ومن أسباب الفسوق الذي يُغضب الله سبحانه وتعالى ما استطاعوا أن يتفننوا فيه وأن يبدعوا منه ما شاؤوا أن يُبدعوا منه ما شاؤوا أن يُبدعوا.

أكرمهم الله سبحانه وتعالى بالأمن والطمأنينة في أوطانهم التي حماهم الله سبحانه وتعالى فيها من الأعداء والمتسلطين، فاتخذوا من هذه الطمأنينة سلماً للبغي والطغيان سلماً إلى الجحود والكفران.

أكرمهم الله سبحانه وتعالى بكل ما يمكن أن تتصوروه من النعم الظاهرة والباطنة، ولكنهم بدلاً من أن يتخذوا من هذه النعم سبيلاً إلى مرضاة الله عز وجل وسبيلاً إلى غرس محبة الله عز وجل في أفئدتهم وقلوبهم جعلوا من هذه النعم كلها حجاباً حجبوا أنفسهم به عن الله سبحانه وتعالى.

يذكرهم المذكرون فيشيحون بوجوههم ويشيحون بأسماعهم.

يُنبههم المنبهون إلى عظات الله وإلى بليغ أوامر الله سبحانه وتعالى فيشمئزون من التبليغ والمبلغين ويرون أن الزمن قد عف على هذا كله، وأن القديم أصبح بالياً ما ينبغي أن يحفل العقلاء به.

وينبههم المنبهون ويحذرهم المحذرون وتتلى آيات الله سبحانه وتعالى عليهم في المناسبات وآناء الليل وأطراف النهار، ولكنهم قد اتخذوا من نعمة الله سبحانه وتعالى عوامل سدت منافذ آذانهم، وغشت على بصائرهم، ولفت الران على أفئدتهم وقلوبهم.

وما أتصور أن في أنواع اللؤم لؤماً أشد وأسوء من أن يتخذ الإنسان من النعم والمكرمات التي يسديها أي منعم وأي متفضلٍ عليه، يتخذ منها أداةً لحرب هذا المتفضل المنعم، فكيف عندما يكون المنعم رب العالمين؟! وكيف عندما يكون المنعم مالك الملك كله؟!

هؤلاء الذين خلوا مع الزمن يلفت بيان الله عز وجل أنظارنا إليهم وينبهنا إلى مكان العبرة في مصيرهم ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ بدلاً من أن يجعلوا من هذه النعم التي ذكرت جزءاً

يسيراً جداً جداً منها، بدلاً من أن يجعلوا من هذه النعم سبيل عودة إلى الله وإصطلاح مع الله والتزامٍ لأوامر الله عز وجل، جعلوا من هذه النعم سلاحاً بل أسلحة ليقابلوا المنعم المتفضل بالكفران: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾.

ماذا كانت العاقبة؟ كانت العاقبة أن أحلوا قومهم دار البوار، أحلوا قومهم دار الهلاك.

ولعل فينا من يقول فما ذنب سائر القوم؟ وهم الذين جحدوا وهم الذين استكبروا وطغوا؟ ألم يقل الله عز وجل: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ سنة من سنن الله سبحانه وتعالى، هم عليّة القوم وهم قادتهم وهم الزعماء والرؤساء فيهم، وهم المتبوعون ومن دونهم التابعون، فلما استكبروا استكبارهم وأغدق الله عز وجل النعم من السماء، وفجّر لهم النعم من الأرض، وأغدق عليهم نعم العافية في أجسامهم، وحماهم بنعمة الطمأنينة من حولهم، لما أكرمهم الله سبحانه وتعالى بهذه النعم كلها فاستقبلوا المنعم بالكفران والنسيان وازدراء الأوامر وخلع ربقة العبودية لله سبحانه وتعالى، استبدل الله سبحانه وتعالى بتلك النعم نقائضها، فأصابت النقائض أولئك المتبوعين والتابعين، أصابت نقم بعد تلك النعم أصابت الجميع، فهذا معنى كلام الله عز وجل ﴿وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾.

وليس هذا بدعاً ولا بعيداً عن سنة الله سبحانه وتعالى في عباده أيها الإخوة، هذا الدين الاسلامي العظيم دين اجتماعي، دين مسؤولية، دين يمثل شبكة تعاونية بين فئات الناس كلهم من أعلى القمة إلى أسفل القاعدة، عندما تصطبغ هذه المجموعة بدين الله عز وجل، فلتعلم أن هذه المجموعة أصبحت فئة من الناس المتعاونين، كل مسلمٍ يغدوا مسؤولاً عن نفسه ومسؤولاً عن جاره ومسؤولاً عن أسرته ومسؤولاً عن مجتمعه... فلا يجوز لي أن أسكت إذا رأيتك عاكف على محرم، ولا يجوز لك أن تسكت إذا رأيتني عاكفاً على ما لا يرضي الله سبحانه وتعالى، أذكرك وتذكرني، آمرك وتأمرني، أنهاك وتنهاني.. ويكون الدافع إلى ذلك كله الحب والشفقة والشعور بأن هذه الجماعة إن هي إلا أسرة إنسانية تقف تحت مظلة معنى العبودية لله سبحانه وتعالى، ومن ثم تقف تحت مظلة هذه الإخوة الراشدة وكونوا عباد الله إخوانا.

فعندما يتحول هذا المجتمع إلى أنكاث، وتغيض وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في المجتمع، وتغيض التذكرة التي يندفع إليها الإنسان بسائق غيرة بسائق من التزام أمر الله عز وجل، بسائق شفقة وحب، فإن الله سبحانه وتعالى يضرب فئة من هذه الجماعة بالفئة الأخرى، ويحيق بهم قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾.

ماذا أفادهم الكبرياء؟ ماذا أفادهم الطغيان؟ ماذا أفادهم أن يستخدموا النعم التي أغدقها الله عز وجل عليهم بالعكوف على المعاصي، فرحوا أياماً عندما أقاموا حول هذه الينابيع مجتمعاتٍ لإثارة غضب الله عز وجل وللتفنن بأنواع اللهو الذي حرمه الله سبحانه وتعالى، وجعلوا من هذا الذي يزدان ويبرق ويتألق أمام أبصارهم إطاراً يزين مجالسهم، ومظهراً يتوج لهوهم وأفراحهم، ماذا أفادهم ذلك؟ إن هي إلا أيام ثم إن المياه نضبت، وعاد ذلك المكان الذي استراحوا إليه ومتعوا أعينهم بألقه، عاد مكان قاحلاً كلما تنظر إليه تبعث في نفسك الأسى وتبعث في نفسك الكرب والضيق، تلك هي العاقبة وتلك هي النتيجة وهذا معنى من معاني البوار بل هو مقدمة البوار.

انظروا أيها الإخوة لتعتبروا إلى أماكن كانت إلى الأمس القريب مجتمع قصف ولهو وعكوف على المحرمات جهراً لا سراً بتحد للمنعم المتفضل.

انظروا إلى تلك الأماكن إلام آلت؟ تجدون الرائحة البشعة التي تزكم الأنوف، تجدون المنظر الذي لا تكاد العين تستطيع أن تصبر عليه دقائق، ثم تحولوا من ذلك المكان إلى مثيله فمثيله فمثيله... أجل ماذا ستجدون صوحت الواحة، وأقفر المكان، وأجدبت الأرض، وغاضت المياه، تعالوا قولوا لأولئك السامرين واللاهين، تعالوا إلى قصفكم، تعالوا إلى مجونكم، تعالوا تلك هي الأرض ما تزال كما كانت لماذا؟

ما قيمة هذا الاستكبار الذي يتحطم ويذل ويهون عندما يقضي الله عز وجل قضاءه؟

ألا تتدبرون هذا الكلام الرباني؟ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دارَ الْبَوار﴾. تلك هي مقدمة الهلاك، أما النتائج فأعتى وأشد ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرارُ﴾.

أيها الإخوة إن المعاصي كثيرة ومتنوعة، ولكن أشد أنواع المعاصي تسبباً لغضب الله عز وجل هو أن يقبل الإنسان إلى نعمة أنعم الله عز وجل بها عليه فيجعل منها أداة للتكبر على الله، ويجعل منها أداةً لمجاهرة الله ومجابهته للمعاصي التي حذره الله عز وجل منها.

لن تجد في المعاصي أشد من هذه المعصية، لأن هذه المعصية ثمرة استكبار، ثمرة عناد وعتو على الله سبحانه وتعالى وها نحن نرى.. وغداً سيحيق بالذين لا يزالون يرفعون رؤوسهم عالياً وقد عاهدوا الشيطان على أن يثبتوا على استكبارهم، عاهدوه على أن لا يطأطئوا الرأس إذعاناً لعبوديتهم لله ورجوعاً إلى حماه واستغفاراً على أعتابه. ترى هل سيصبرون هل سيصبرون على هذا العهد؟ عندما تأخذ المصائب والمآسي بالحلوق وعندما تحيق عوامل اليأس بالإنسان عندئذٍ يتبين حال المستكبرين أصحاب الكبرياء الزائفة وعندئذٍ يندم الإنسان ولات ساعة مندم كما قالت العرب.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.



٤٠٧- مفتاح القضاء على مظاهر الفقر | ١٩٩٩/٠٥/١٤

ورد في الصحيح أن أموالاً وردت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من البحرين، فهرعت طائفة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه مستبشرين فرحين. فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مطمئناً: ﴿أبشروا وأمنوا خيراً فوالله ما الفقر أخشى عليكم ولكني أخشى عليكم الدنيا أن تفتح عليكم كما قد فتحت على من قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم﴾، صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولقد نظرنا إلى حال المسلمين بعد رحيل المصطفى صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى والأوضاع التي تقلبوا فيها إلى يومنا هذا، فعلمنا بيقين وبدليل التجربة والمشاهدة أن هذه الأمة لم تهلك بسبب فقر وإنما الذي أهلكها هو التنافس على المال الذي أورثها الله سبحانه وتعالى إياه كما قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

وها نحن نرى في كل صقع من أصقاع عالمنا العربي والإسلامي مصداق ما قاله المصطفى عليه الصلاة والسلام، فتحت علينا الدنيا وبدلاً من أن نتعامل معها بعقولنا، وبدلاً من أن نحتكم بهذه النعمة إلى ميزان العدل الذي أرساه الله عز وجل بيننا، أقبلنا إلى هذه الدنيا بنفوسنا المتعشقة وسال لعابنا عليها سيلان الإنسان العاكف على سكره، وأخذنا نتنافس ونتزاحم، فكان الأقوياء هم الذين وصلوا إلى المقدمة، وأمسكوا بزمام المال وينابيعه، وكان الضعفاء هم الذين خلفوا في المؤخرة فكانوا مثال الفقر، ومن ثم قام التناقض الخطير في مجتمعاتنا العربية والإسلامية، وانقدحت سموم الهلاك جراء ذلك، وهذا هو معنى كلام رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

بعض الناس يظنون أنه صلى الله عليه وسلم إنما يدفعنا بهذا الذي يقول إلى أن نزهد في الدنيا بالمعنى الموروث لا بالمعنى الذي عناه رسول الله، يظنون أن الإسلام يقضي أن ننفض أيدينا عن الدنيا وأن نوليها ظهورنا، ولا والله ما قصد المصطفى إلى ذلك وكيف يقصد هذا وهو الذي قال فيما رواه الترمذي وابن ماجه من حديث أبي ذرٍ الغفاري: ﴿ليست الزهادة في المال بتحريم الحلال ولا بإضاعة المال ولكن الزهادة

في الدنيا بأن تكون فيما يد الله أوثق مما في يدك﴾. هذا معنى الزهد الذي رسمه لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

إن المصيبة التي تعاني منها مجتمعاتنا ولا أستثني أي مجتمعٍ قرب أو بعد ومجتمعنا واحد منها، إن المصيبة التي تعاني منها مجتمعاتنا أننا نقبل على الدنيا بدافعٍ من نفوسنا المتعشقة لا بدافعٍ من عقولنا المدبرة، تلك هي المصيبة، وهذا هو الذي يجعلنا نتنافس كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم على المال، ما هي نتيجة التنافس؟ نتيجة التنافس أن الذين يملكون مزيداً من وسائل القوة، والذين يملكون مزيداً من وسائل القرب، والذين يملكون مقادة القوانين المختلفة هم الذين يستطيعون أن يوصلوا أنفسهم إلى ينابيع الثروات، هم الذين يستطيعون أن يضعوا أيديهم على مقاليد المال، وأما الضعفاء والمستضعفون الذين لا سبيل لهم إلى اختراق هذه الصفوف، فلا شك أنهم يظلون في المؤخرة ويتجمع المال ويتكاثر ثم يتكاثر في كفة واحدة في جهة واحدة، وتنظروا إلى الجهات الأخرى فتنعتها بالفقر وليس ثمة فقر، وتنعتها بالحاجة والضرورة وليست ثمة حاجة ولا ضرورة، ولكن هذا هو الشأن عندما يغيب الاعتدال عن كفتي الميزان، هذا هو الشأن عندما تتثاقل إحدى الكفتين بالأثقال الكثيرة والكثيرة. المآل أن تطيش الكفة الأخرى وأن تخف، مجتمعنا آل إلى كفتين كفة تراكمت فيها أثقال المال وكفة أخرى تعاني من خفة الفقر تعاني من العدم، وهذا الواقع لا يمكن إلا أن تنقدح عنه شرارة الهلاك كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم.

كلكم يسمع أنباء الفساد المختلفة، كلكم يسمع ما تذهل له العقول من السرقات العجيبة الكثيرة المتنوعة، وكلكم يسمع من خلال ذلك الأرقام المذهلة العجيبة التي تؤكد أننا ولله الحمد نعيش في بلدٍ لا يعاني من فقر في مجموعه، وفي الوقت نفسه تنظر وإذا بالفقر قد ضرب أطنابه وإذا بالعدم يسري ويتسرب ليزداد كماً من حيث الانتشار، وكيفاً من حيث العمق.

هذا الذي نراه ما سببه أيها الإخوة؟ سببه أننا نتعامل مع المال بدافعٍ من اللعاب الذي يسيل من أشداقنا، نتعامل مع المال بدافعٍ من النهم والعشق والتعلق به لا بدافعٍ من التدبير العقلي، والإسلام أمرنا بأن نتعامل بالمال أليس ربنا هو القائل: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾. أليس هو القائل: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا كُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾

لكن الله عندما أمرنا أن نقبل على الدنيا أمرنا أن نتعامل معها بعقولنا المدبرة، وأن نضعها من حياتنا حيث ينبغي أن توضع، وأن تمتد سائر الأيدي إليها بالعدل والنصفة، لا أن تتقطع عنها بعض الأيدي وأن تمتد أيدي طويلة أخرى إليها تمارسها كما تشاء وتبتلع منها الملايين والملايين كما تحب. هذا هو دين لله سبحانه وتعالى.

والذي أريد أن أنتهي إليه من هذا الواقع المؤلم العبرة التي ينبغي أن نقتطفها بعقولنا المدركة، من خلال هذا الواقع، ما الدواء؟ ما العلاج الذي يجعل هؤلاء السكارى بالمال يصحون من سكرهم؟ ما العلاج الذي يجعل هذا المجتمع يتعامل مع المال ولكن بواسطة عقله لا بواسطة تعشقه وتعلقه النفسي؟

العلاج واحد لا ثاني له هو أن يصطبغ أفراد هذا المجتمع كلهم بمعنى العبودية لله عز وجل، هو أن يزدهر الإيمان بالله لا تقليداً بل واقعاً قيادياً في حياة المجتمع، هو أن يزدهر هذا الإيمان في قلوب أفراد هذه الأمة بعد أن يغرس يقيناً في عقولها. هذا هو العلاج الوحيد ولا علاج غيره.

أيها الإخوة مصيبتنا في الفساد الذي يستشري أن هؤلاء الناس الذين يركنون إلى تيار هذا الفساد لا يقيمون وزناً للآخرة التي هم مقبلون عليها، لا يقيمون وزناً لهوياتهم التي اصطبغوا بها آمنوا أم لم يؤمنوا، لا يقيمون وزناً لرقابة الله سبحانه وتعالى عليهم، ومن ثم فإن الجشع المستشري هو الذي يقود، وجشع الإنسان ليت أنه كان كجشع الحيوان؛ جشع الحيوان يقوده الجوع، فإذا وجد شبع غاب الجشع، أما جشع الإنسان فتقوده النفس المستشرية التي لا تعلم حداً لرغباتها بشكلٍ من الأشكال، ولا يمكن لهذا الجشع أن يقلم أظافره إلا الخوف من الله عز وجل إلا رقابة الله سبحانه وتعالى. ألم تسمعوا قول رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ﴿لو كان لابن آدم وادٍ من مال لابتغى إليه ثانياً﴾ وادٍ واد ﴿ولو كان له واديان لابتغى إليه ثالثاً ولا يملئ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب﴾ قفوا أمام هذه الجملة الأخيرة: ولا يملئ جوف ابن آدم جوف ابن آدم إلا التراب ما معنى هذا الكلام؟

أي إن الجشع الذي يعاني منه ابن آدم جشع واسع لا حدود له لا يمكن أن تتغلب عليه الأرقام، بل هو لابد أن يتغلب على الأرقام لا يقف عند حدود الملايين بل ولا المليارات بشكلٍ من الأشكال. ما الذي يحد من جشعه؟ شيء واحد هو أن يعلم مصيره، هو أن يعلم أنه راحل بعد عشر سنوات، بعد

عشرين عاماً أو أكثر أو أقل، وعندما يرحل سينفض يديه وجيوبه من الدنيا التي لهث ورائها وجمعها، وسيمتد في حفرته ليس بينه وبين التراب أي حاجز. هذا هو مآله.

عندما أعلم أن هذا هو مصيري وأدرك أن مردي إلى الله وأني سأقف بين يدي الله عز وجل ليقول لي ألم أقل لك ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ، أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ ماذا فعلت بالميزان فيما بينكم الذي وضعته فيما بينكم؟ ألم آمركم بأن تحتكموا في النعم التي أسديتها إليكم إلى هذا الميزان؟ ألم آمركم بأن تتقاسموا النعمة التي أعطيتكم إليها فيما بينكم بالعدل والنصفا ماذا صنعت بالميزان؟

عندما أعلم هذا المصير وأعلم هذا الموقف الذي أقفه بين يدي الله وأعلم كيف أنني سأوسد في التراب، ولسوف لن أتمتع بشيءٍ من هذه الملايين ولا المليارات، عندما أعلم ذلك تتقاصر أطماعي وينتهي جشعي وأعود إلى الاعتدال الذي أمر الله عز وجل به، إذاً مجتمعنا أيها الإخوة الذي كسائر المجتمعات الذي يعاني مما يعاني من هذا الجشع أن يجعل المال يستشري ويتعاظم في جانب ويغيب وينتهي وينعدم من جانب آخر، لا علاج له لا بالتدبيرات الإقتصادية ولا بالنظم الإجتماعية ولا بالرقابة السياسية اطلاقاً، إنما الذي يصلحه رقابة الله سبحانه وتعالى، ولا تغرس رقابة الله في النفوس إلا بالتربية الإيمانية الحقيقية التي لابد أن يعود المجتمع فينظر إلى أهميتها بعد كثير إعراضٍ عنها، عندما تكون رقابة الله هي القائد وعندما تكون الرقابة هي الحافز ولا يكون ذلك كما قلت إلا من خلال التربية الإيمانية التي ينبغي أن يؤخذ أفراد هذا المجتمع بها على كل المستويات، عندما يتحقق هذا يغيب الجشع وتظهر العدالة ويتبين أننا أغنياء، وأننا أغنى أمةٍ على وجه هذه الأرض، وأن الله عز وجل الأرض التي نسير فوقها صندوقاً لكنوزٍ لا تنتهي ولا تأكلها النيران أبداً.

لكن الغنى لا يظهر إلا من خلال التعامل مع ميزان الله سبحانه وتعالى، وميزان الله لا يتحكم إلا بعد أن تفيض قلوبنا إيماناً بالله وتعاملاً مع الله واصطباغاً بمعنى العبودية لله سبحانه وتعالى.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

٤٠٨- ما هي الضرورة التي لا تستقيم حياة الإنسان إلا بها؟ | ١٩٩٩/٠٥/٢١

خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان وأحوجه إلى طهورين اثنين، أحدهما يؤدي مهمة تطهير جسده وجسمه وقد أكرمه من أجل ذلك بالماء الذي امتن الله سبحانه وتعالى به عليه. فقال سبحانه وتعالى ممتناً على عباده بهذه المادة التي أنجده الله سبحانه وتعالى بها لتطهير جسمه ولتنظيفه كلما ألمت به الشوائب والأدران، قال عز من قائل: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا، لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾.

ثم إن الله سبحانه وتعالى أحوج الإنسان إلى طهور آخر لروحه ولكيانه ولعلاقة ما بينه وبين أنداده وأقرانه، وأكرمه في سبيل ذلك ومن أجل تحقيق هذا الطهور بهذا الدين الذي متعه الله سبحانه وتعالى تعليماً وهدياً وتشريعاً. فقال سبحانه وتعالى منبهاً إلى هذا الطهور الثاني: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

فانظروا أيها الإخوة كيف ينبه بيان الله سبحانه وتعالى الإنسان إلى أن حياته لا تستقيم إطلاقاً إلا إذا أكرمه الله بطهورين اثنين: أحدهما الماء الذي ينظف جسمه وينقيه من الشوائب والأدران، والطهور الثاني الذي هو الدين الذي يطهر روحه وكيانه القلبي وينظف علاقة ما بينه وبين أقرانه الآخرين من سائر الأحقاد والأضغان والشوائب.

ولو عقل الإنسان لعلم أنه كما يحتاج في كل دقيقة إلى هذا الماء الذي أكرم الله سبحانه وتعالى به الإنسان من أجل أن ينظف به جسده وجسمه، فهو بحاجةٍ مثلها تماماً إلى هذا الدين أكرمنا الله سبحانه وتعالى به من أجل أن ينظف بهذا الدين قلبه، ومن أجل أن يطهر به علاقة ما بينه وبين إخوانه وأقرانه؛ وكما لو أن الإنسان لو حُرم نعمة هذا الماء لتفسخت حياته ولآل - وهو حي - إلى ما يشبه الرميم، فكذلك الإنسان إذا تخلى عن الطهور الثاني ألا وهو الدين مدةً من الزمن، فإن حياته الاجتماعية تتفسخ، وإن هذا الإنسان يتحول إلى ما يشبه الوحوش التي تتصارع في الغابات. ولكن هل عقل المسلمون هذا المعنى الكبير والجليل؟

نحن ننظر في هذا العصر فنجد أن هنالك قوى تجتمع كلها وتتظافر من أجل فصل الناس عن هذا الطهور الثاني الذي لا تستقيم حياة الإنسان إلا به، ننظر فنجد أن هنالك من يحاولون أن يفصلوا عباد الله سبحانه وتعالى المسلمين عن طهور هذا الدين، وهو أهم من الماء الذي جعله الله شرطاً للحياة، يسعون سعيهم اللاهث إلى فصل عباد الله سبحانه وتعالى عن الدين مرةً لتشويه عقائده والتلاعب بقيمه ومبادئه الاعتقادية بالوسائل الكثيرة التي يضيق الوقت عن ذكرها وشرحها، ومرة أخرى بتحطيم سياج الأخلاق الذي هو الثمرة الأولى لهذا الدين الذي ابتعث الله سبحانه وتعالى به الرسل والأنبياء، ومرةً أخرى سعياً إلى التبديل والتغيير والتطوير بأسماء متنوعةً شتى؛ ربما أملاً منهم يكون ذلك سبيلاً إلى تبخيره وتبديده ومظاهر عليه. ولو تأملنا لوجدنا قوى الشر هذه مندلقةً إلينا من كل حدبٍ وصوب، ولو تأملنا لوجدنا لهذه القوى التي تتسرب إلينا خدماً وحشماً من أبناء جلدتنا يمعنون تطبيقاً وتنفيذاً لتلك الخطط التي رسمها ساداتهم.

هذا هو واقع المسلمين اليوم، وتلك هي الضرورة التي أوضحتها لهذا الدين الذي لا يمكن للإنسان أن يستغني عنه إلا إذا أمكن للإنسان أن يستغني عن الماء الذي جعله الله سبحانه وتعالى سر حياة الإنسان، فإذا استطعتم أن تتصوروا أن يستغني الإنسان عن الماء مدةً ولو يسيرة من الزمن، فبوسعكم أن تتصوروا استغناء الإنسان عن طهور هذا الدين ومائه النقي الذي أنزله الله عز وجل وحياً إلينا من السماء.

هذه هي المشكلة... وكم تحدثنا عنها وأفضنا الحديث فيها، ولكن الأهم من الحديث عن المشكلة وعن تصويرها والتفكير بها أن نتسائل عن واجبنا: ما هو الواجب الذي ينبغي أن ينهض به المسلمون لدرء هذا الخطر عن دينهم ومن ثم لدرء هذا الخطر عن وجودهم؟ فإن الخطر إذا اتجه إلى الدين فلا بد أن يتجه بعد ذلك إلى أصحاب هذا الدين، ولا يمعن أعداء الدين سعياً لتمزيق هذا الدين العظيم إلا طمعاً في تمزيق هذا المجتمع الإنساني والقضاء عليه، لأنهم يعلمون أن هذا المجتمع محصنٌ بحصنٍ واحد، ألا وهو الدين.

فإذا أرادوا أن يهيمنوا على هذا المجتمع ويشلوا فعاليته، فليس لهم من سبيل إلى ذلك إلا أن يهدموا هذا الحصن الذي يتحصنون به.

ما السبيل الذي ينبغي أن يسلكه المسلمون من أجل إبعاد هذه القوى المتربصة بدين الله ومن ثم هذه القوى المتربصة بنا نحن المسلمين؟

سبيل ذلك أن ينهض كلٌ منا بالواجب الذي أناطه الله به، وأن لا يني وأن لا يُقصر في تنفيذ الأوامر التي خاطبه الله عز وجل بها بحق نفسه وبحق من يلوذ به. هذا هو الدواء القريب والبسيط والواضح والذي لا يحتاج لفلسفة طويلةٍ أو تعقيد في الكلام.

هل يقوم كلٌ منكم بالواجب الذي أناطه الله عز وجل به؟ لو كنا نقوم بذلك لدرء الله عنا هذه الأخطار، ونظراً إلى أننا ننظر فنجد أن هذه الأخطار متسربةٌ إلينا وأنها تفعل فعلها ولو بشكلٍ جزئي، فمعنى ذلك أننا نائمون عن أداء واجباتنا الشخصية التي كلفنا الله سبحانه وتعالى بها.

وما هي الواجبات الشخصية؟

هي أولاً: أن يقوم كلٌ منكم بتنفيذ ما قد كلفه الله به في حق نفسه، وأن يبتعد عن المحرمات والمناهي التي حذره الله عز وجل منها أيضاً في حق نفسه.

ثانياً: أن ينهض بمسؤوليته التي علقها الله سبحانه وتعالى بعنقه اتجاه أهله اتجاه أولاده وذريته.

هذان هما الواجبان ولا ثالث لهما. ولا شك ولا ريب أن المسلمين لو نهض كل فرد فرد منهم بهذا الواجب في حق نفسه وفي حق أسرته، وصدق مع الله سبحانه وتعالى في نهوضه بهذا الواجب، إذاً لرأينا أن هذه الأخطار تلتصق بنا ثم ترتد عنا، ولرأينا أن هذه الأخطار لا تستطيع أن تتسرب بأي فعالية إلى مجتمعاتنا.

ولكن هما شرطان اثنان: أن ينهض كل مسلم بالتبعة التي كلفه الله عز وجل بها في حق نفسه، ثانياً أن ينهض بهذه التبعة التي كلفه الله عز وجل بها بحق أسرته وأولاده ومن يلوذ به.

وما معنى أن يكون صادقاً مع الله في ذلك؟ معنى هذا أنه إذا وجد نفسه أمام اختيارين إما أن يضحي بدنياه وماله وما يسميه المستقبل لأولاده وبناته، أو أن يضحي بأمر الله سبحانه وتعالى الذي كلفه به. الصدق يتمثل في أن يقول لا بل أضحي بدنياي وأضحي بما أتخيله المستقبل لي ولأولادي في

سبيل أن يبقى الدين مكلوءاً محفوظاً في كياني، في سبيل أن تبقى هذه الأمانة التي استودعها الله عز وجل عندي مكلوءةً كما أراد الله سبحانه وتعالى. هذا هو دليل الصدق.

ولا شك أن الإنسان إن لم يبرهن على صدقه فلا قيمة لمن يقول إنني قيوم على أهلي إنني أرعى واجبات الله سبحانه وتعالى في تربيتهم، لا قيمة لهذا الكلام لأن الإنسان طالما يسير على أرضٍ معبدة مفروشةٍ بالرياحين ما ينبغي أن يمتن على الله بأنه يسير على صراطه، ولكن عندما يضع الله في طريقه القتات والأشواك والمنغصات والعقبات فيتجاوزها راضياً صابراً فذلك هو الصادق مع الله سبحانه وتعالى، وفي هذه الحالة فإن الله عز وجل قد أخذ على نفسه العلية – ولا مجبر له – أن يعوضه عن الدنيا التي فاتته أضعافاً، وأن يعوضه عن المستقبل الخيالي الذي تصوره، وأن يحصنه في حصن من كلائته وحمايته، ومن ثم فإن هذا الإنسان يزداد ثقةً بالله سبحانه وتعالى.

هذا هو الدواء وقد وصفه الله سبحانه وتعالى لنا في محكم تبيانه: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾، وهي كلمة عامة. ما أوسع وأكثر الوسائل التي بها تقي نفسك وتقي أهلك نار الشقاء في الدنيا ونار العذاب الواصب يوم القيامة.

هذا بيان الله وقد وصف لنا الدواء، ماذا بقي أيها المسلمون؟ بقي أن ننفذ، بقي أن نطبق بقي أن نقول بألسنة حالنا لبيك اللهم لبيك وأن نسير على صراط الله سبحانه وتعالى بصدق وقد عرفتم معنى الصدق، الصدق ليست كلمة يدعيها الإنسان بلسانه، إنما الصدق هو أن يضحي الإنسان بدنياه في سبيل أوامر مولاه وخالقه. إن أنتم فعلتم هذا هان الخطب ورد الله كيد الكائدين عنكم مشردين ومغربين، ولكن إن لم تفعلوا وإن لم تصدقوا مع الله سبحانه وتعالى في هذا، وإن أنتم ركبتم رؤوسكم في سبيل دنياكم، وجعلتم حظ الله من حياتكم حظاً هامشياً عندما لا يكلفكم شيئاً، عندما لا يكلفكم تضحيةً، عندما لا يكلفكم أي خسارة.. فإني أخشى أخشى أن الله سبحانه وتعالى سيكلكم إلى خطط الأعداء وتلك هي سنة الله سبحانه وتعالى في عباده.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يقينا من سوء أنفسنا وأسأله عز وجل أن يقينا من سوء عباده وأن يجمع شملنا على ما يرضيه. أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

٤٠٩- بين يدي صلاة الاستسقاء شروط | ١٩٩٩/١٠/٠٨

لقد قرأت كتاب الله سبحانه وتعالى بتأمل من أوله إلى آخره، فلم أجد سبيلاً يصل منه العبد إلى مرضاة الله سبحانه وتعالى أقرب وأقصر من سبيل التذلل بين يديه والتبتل والتضرع على أعتابه، ولم أجد سبباً يقطع العبد من ربه ويحجبه عنه ويبعث غضب الله سبحانه وتعالى عليه كالاستكبار على الله سبحانه وتعالى، وتأملت ما في كتاب الله عز وجل من نذر ومن تهديدات فلم أجده في آية من الآيات يهدد عاصياً أو ينذر إنساناً زلت به القدم في ارتكاب مُحرم، ولكنه وجدت يهدد ويبالغ في تهديد المستكبرين في هذه الحياة الدنيا.

تأملوا مثلاً في قول الله سبحانه وتعالى: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ وتأملوا في قول الله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾.

وانظروا إلى قوله عز وجل: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾.

وانظروا إلى قوله عز وجل: ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ وكم يكرر: ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

وتأملت فوجدت أن الذي ينجرف إلى المعصية بسائقٍ من اهتياج غرائزه بين جوانحه، لابد أن تدفعه خطيئته إلى الألم والندم والتذلل، يتوب الله عز وجل عليه والله عز وجل تواب. أجل هكذا وعد الله سبحانه وتعالى ومن يغفر الذنوب إلا الله. أما المتكبر فمن هو؟ هو إنسانٌ أقبل إلى نعم الله سبحانه وتعالى التي أكرمه الله عز وجل بها، فجعل منها سبباً لتكبره على المنعم سبحانه وتعالى.

أكرمه الله عز وجل بالعافية فجعل من عافيته سبباً إلى تكبره على من أعطاه هذه العافية.

أكرمه الله سبحانه وتعالى بمال فجعل من نعمة المال التي أكرمه الله عز وجل بها سبباً لتكبره على الله عز وجل وإعراضه عنه.

أكرمه الله عز وجل بقوة فجعل من القوة التي هي قوة الله متعه الله عز وجل بها سبباً لعتوه واستكباره على الله وإعراضه عن وصاياه وأوامره ونواهيه.

ولا أتصور أن في جرائم الكون كله جريمة أشنع من هذه الجريمة، أن تصلني حظوة من الله سبحانه وتعالى لم أكن أملكها ولا أملكها، وبدلاً من أن تكون هذه الحظوة سبب تقربي إلى الله سبباً شكرٍ مني إلى لله عز وجل، أجعل من هذه الحظوة سبباً لإعراضي عن الله عز وجل وسبباً لاستكباري عليه، فإذا نصحني الناصحون سخرت بنصائحهم، وإذا ذكرني المذكرون أعرضت عن تذكرهم، ومهما طافت بي النذر في حياتي الدنيا آتية من عند الله توقظني.. تنبهني.. تحذرني.. أُعرض عن هذه النذر كلها، ما أتصور أن في الكون جريمةً أشنع وأسقط من هذه الجريمة.

هذا الذي أقوله لكم أيها الإخوة ينبغي أن يكون ماثلاً في بصائرنا وأمام أبصارنا دائماً، وينبغي أن نعلم من ذلك سنة إلهية ماضيةً في عباده، بل إن في ذلك سنناً لا سنة واحدة من أبرزها وأهمها: أن المجتمع الذي يشيع فيه المستكبرون على الله سبحانه وتعالى الذين هذا شأنهم، فلا شك أن غضب الله عز وجل سيحيق بذلك المكان الذي يشيع فيه أولئك الناس، وحتى لو وجد بين ظهرانيهم البعيدون عن نهجهم السائرون على صراط الله المنضبطون بأوامره عز وجل، فلا بد أن يصيبهم في الدنيا رشاش من غضب الله سبحانه وتعالى على أولئك المستكبرين، فإذا ابتلى الله سبحانه وتعالى تلك البقعة ببعض المصائب، فلا بد أن تتسع هذه المصائب لتشمل الصالحين أيضاً الذين يعيشون بين ظهرانيهم. إذا ابتلى الله سبحانه وتعالى تلك البقعة بشيء من الشدائد فلا بد أن تمتد آثار الشدائد حتى إلى كثير من الصالحين الذين يعيشون بين ظهرانيهم. ألم يقل ربنا سبحانه وتعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾.

ومن سنة الله سبحانه وتعالى أو من سننه أنه يربي عباده، فيبعث عليهم عندما يستكبر فيهم من يستكبر سياط تربية، وسياط التربية من شأنها أن توقظ الإنسان إلى شأنه وأن توقفه عند حده، ذلك لأن

المصيبة إذا استحكمت بالإنسان تنبه منها إلى حدود قدراته واستيقظ بسببها من سكرته، فالمأمول أنه يرعوي في هذه الحالة، والمأمول أنه ينزل عن برج كبريائه الزائف ليقف مع عباد الله سبحانه وتعالى موقف التبتل، وموقف التبرء مما كان يعتز به من حول وقوة، هذا هو المأمول ولكن عندما تترى السياط الإلهية لطيفةً تنذر تحذر ثم تعود فتنذر فتحذر ولا من مستجيب لهذه النذر، ولا من ملتفت إلى هذا البيان المحذر، فإن النذير لا بد أن يتحول إلى مصائب مهلكة، وإلى شدائد مرعبة. وأقول لكم:

إن هذه الشدائد لا تلتقط هؤلاء المستكبرين وحدهم من تلك البقعة بل تجتاحهم وتجتاح معهم من كانوا يتقلبون بين ظهرانيهم. هذا في دار الدنيا، أما في الآخرة فإن الله تعالى يحشر الله كلاً على نيته وطبق النهج الذي كان يسير عليه.

أقول هذا بين يدي الشدة التي ذقنا قدراً كبيراً من آثارها ونتائجها في العام الماضي، وها هي تطل علينا في هذا العام أيضاً، هذه الشدة أثر من آثار السنن الإلهية وكلكم يقرأ قول الله عز وجل: ﴿فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ هلا تضرعوا ومزقوا كبريائهم الزائف عندما رأوا بأسنا، ولكن مر العام الماضي ولم نجد أثراً لنزول المستكبرين عن كبريائهم، لم نجد ظاهرة تدل على أن المستكبرين أعلنوا أنهم كانوا مخطئين كانوا تائهين وقد آن لهم أن يرعوا وأن يتوبوا، لم نجد أثراً لذلك الشيء الذي يخيف أن يتلو النذير وأن تمتد المصيبة وتتضاعف وأن تشتد الشدة وأن يعم أثرها، فهل من متأمل في النتائج؟ هل من متدبر له؟

والعقل يخاطب الكبر، يقول العقل للكبرياء الزائفة: إنها سكرة وإن السكرة تعمي البصر إن السكرة تجعل الرجل الهزيل الضعيف يخيل إليه أنه قويٌ يناطح الدهر بقوته، هكذا يقول العقل لكبرياء المتكبر، وما أظن إلا أن العقل يخاطب كبرياء المتكبرين الآن وما أظن إلا أنه يسائلهم قائلاً: أرأيتم لو أنكم ركبتم رؤوسكم بكبريائكم هذه فلم تعترفوا جهراً بأن عليكم أن تمتثلوا في محراب العبودية لله وأن تصطلحوا مع الله عز وجل من جديد، إن أردتم أن تركبوا رؤوسكم في هذا ماذا عسى أن تفيدكم كبريائكم إن استبد بكم الظمأ وأصبح ماؤكم غوراً، إذا استبدت بكم الحاجة الماسة إلى لقمة تأكلونها، إلى جرعة شراب تبتلعونه ثم لم تجدوا في الأرض ما يسوغ لكم هذه اللقمة من نبات، ولم تجدوا لا في باطن الأرض ولا ظاهرها كأساً من الماء النمير يرويكم من الظمأ؟ ماذا عسى أن تصنع بكم كبرياؤكم؟

إذا كانت هذه الكبرياء تحل المشكلة فلا بأس أن يبقى المتكبر يمتطي كبرياؤه إلى تلك الغاية المنشودة، وها نحن نتبعهم في ذلك، ولكن هل هنالك من سبيل إلى هذه الغاية. هكذا يقول العقل للجاحد وللمؤمن وللمتكبر وللتائه وللفاسق وللعاصي وللطائع: وهذا معنى كلام الله عز وجل: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾.

حدثني أناسٌ مسؤولون يباشرون هندسة الري عن البقايا القليلة القليلة الباقية من هذا الماء العذب النمير الذي تشربونه هذا الماء الذي تسمونه الفيجة، بقية لا تكاد تصل إلى الربع، ترى ما الذي سيحدث إذا جاء هذا العام تكراراً للعام الماضي؟ أنا أقول وأقول من منطلق عقل هو الجامع المشترك بين الناس جميعاً، إذا كان هنالك سبيل يغنينا عن الالتجاء إلى الله، ويبقي لنا هذه البقية من الماء، ويجعلنا نطمئن أن مزروعاتنا ستمتد رحمة الله عز وجل بنا في حاجتنا إليها، وأن المياه التي نحتاج إليها لشربنا سيبقى القدر الضروري لذلك مستمر لنا، فنحن نعرض عن كل شيء ونسكت، ولكن هذا الماضي مر وقد طرق المستكبرون كل الأبواب فلم يسعفهم ولا باب من تلك الأبواب، طرقوا باب الوسائل الاستمطارية الاصطناعية العلمانية فماذا أجدتهم تلك السبل؟ طرقوا فيما أعلم وسائل كثيرة أخرى، فما اجدتهم تلك السبل شيئاً.

ولقد علمت أن هنالك تفكيراً في أن يعمد الخبراء إلى مياه الصرف الصحي ثم يكرروها ثم يكرروها لتصبح صالحة لسقي الزروع، بل لشرب الإنسان. أنا أعجب أيهما اقرب وأيهما أكثر اتفاقاً مع العقل أن نعمد فنبدأ مشروع تكرار ثم نكررها استعانة بالخبراء من الشرق والغرب وهنا وهناك، ثم نعود فنزدردها ونشربها ونحن نتخيل القذارة التي فيها أم أن نلتجئ إلى الله سبحانه وتعالى ونستنزل وعده الذي وعد: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا. يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا. وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ أيهما أقرب؟

كلنا يعلم الجواب إلا أن شيئاً واحداً يبعد هذا الطريق الثاني هو حجاب الكبرياء، كيف ترضى كبرياؤنا أن نعمد إلى مياه الصرف الصحي ونفكر في أن نكرر هذه المياه ثم نعود فنشربها كيف ترضى كبرياؤنا بذلك؟ ثم لا ترضى كبرياؤنا أن نذل لمولانا ولربنا وخالقنا ومالكنا الذي نحن عبيده؟! أمرٌ لا

يمكن تصوره بشكل من الأشكال أيها الإخوة ومن الذي ينبغي أن يستغفر؟ الذين ينبغي أن يستغفروا هم المتنطعون هم التائهون هم الذين كانوا إلى الأمس القريب مستكبرين على الله عز وجل.

قيل لي في العام الماضي: فليقم الشيوخ والمصلون صلاة الاستسقاء في مساجدهم، وتأملت وكأني بملائكة الله تسخر من هذا الكلام العجيب. قلت: إن هذه الشدة لم تنزل بنا بسبب هؤلاء الذين يسمون الشيوخ أو المصلين أو الراكعين، لو كان المجتمع مليئاً بهم وحدهم لما وقعت هذه الشدة، إن سبب الشدة يتمثل في استكبار المستكبرين على الله، في مجاهرة العصاة في معصية الله، في الليالي الكثيرة المتطاولة هنا وهنا وهناك، ولو أن العاصي استتر بمعصيته لوجد رباً كريماً غفوراً، لكن المجاهرة بالمعصية والمجللة بالكبرياء هي سبب هذه الشدة هؤلاء الذين يجب أن يستغفروا ربهم.

أما أن يتوسط المستكبرون على الله إلى الله بالمتدينين المهتدين فهذا أمر عجيب جداً، اذهبوا يا أيها المتدينون المتبتلون فاطرقوا لنا أبواب الله أن يغدق علينا نعمه وأن يكرمنا بالري، أما نحن فإننا مجتمعون في أبراجنا العاجية لا نستطيع أن نتخلى عن كبريائنا. إذهبوا أنتم فاستغفروا ربكم وخاطبوه كما هي عادتكم في مساجدكم لكي نجني ثمرات استغفاركم نحن. أهذا منطق أيها الإخوة؟ هذا ليس منطق صلاة الاستسقاء كما شرعها الله، وكما علمنا إياها رسول الله، ينبغي أن تكون على مستوى البلدة كلها ينهض بها كل من في تلك البلدة، ولها مقدمات، لعل سر نتائجها أن يصوم أهل تلك البلدة أربعة أيام وأن يتوبوا جميعاً إلى الله، وأن يردوا المظالم، ثم يخرجوا أذلة متبتلين متضرعين.

وأنا قلت وأقول أنا أضمن أن الله سبحانه وتعالى سيبدل هذا العسر يسرا أنا أضمن لأنني واثق بأن الله صادق في وعده.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

٤١٠- لهذا أصابنا القحط | ١٩٩٩/١٠/٢٢

كلما حانت مناسبةٌ ذكرنا فيها إخوة لنا هنا في هذه البلاد العربية والإسلامية بأن يعودوا فيتوبوا إلى ربهم، وأن يرجعوا من الشرود إلى الاستقامة على صراط الله، وأن يستغفروه ويجددوا الاصطلاح معه والبيعة له حتى يرفع عنهم هذه المصائب ويبعد عنهم الرزايا، قامت فئة من الناس فقالوا: ها هم أولاء البعيدون عن دين الله الشاردون عن صراط الله في أقصى بلاد الغرب والشرق منعمون مترفون لا يعانون من شيء من هذه المصائب.

والمصيبة بالنسبة لهذه الفئة أنها تعلم كيف تطيل لسانها بالنقاش والجدل، ولكنها لا تعلم كيف تفتح عقلها للدراسة ولمعرفة حقيقة الإسلام وسنن الله سبحانه وتعالى في عباده، وتلك هي مصيبة المصائب، أن تجد إنساناً خبيراً بالجدل يعلم كيف يطاول العلماء بالنقاش والجدال حتى إذا حان وقت الدراسة، حتى إذا دُعي إلى أن يدرس هذا الإسلام الذي يناقش فيه انصرف عنه وأعرض.

وأنا أقول في الجواب عن هؤلاء الإخوة – وكنت أتمنى لو أن هؤلاء المسلمين المستشكلين وجدوا في بيوت الله سبحانه وتعالى حتى يسمعوا الجواب الشافي عن أسئلتهم هذه. أقول في الجواب:

أولاً باختصار وإيجاز: الأمة التي ليست مدينة في رقيها وحضارتها الدنيوية للإسلام، فإن الله سبحانه وتعالى لن يعاقبها بشرودها عن دين الله سبحانه وتعالى في أن يقطع عنها رفدها، أو أن يبعدها عن حظوظها الدنيوية، لأن هذه الأمم إنما ارتقت سلم الحضارة والمدنية في هذه الدنيا العاجلة بعرق جبينها وبقدراتها وبحيلها، ولم ترق إلى ذلك عن طريق الإسلام، أما الأمة التي كانت ولا تزال مدينة في رقيها في حضارتها للإسلام فلا شك أنها عندما تتنكر لهذا الدين لابد أن ترجع إلى الحالة التي كانت عليها. هذا هو الجواب باختصار وينبغي أن يدركه كل عاقل.

الله سبحانه وتعالى لم يصد في هذه الحياة الدنيا الناس أياً كانوا عن سبل معايشهم وعن الطرق التي يصعدون فيها إلى رقيهم. أليس هو القائل: ﴿كُلا نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ سبأ كانت رمزاً لحضارة، وقد أعلن كتاب الله سبحانه وتعالى عن ملكة سبأ أنها أوتيت من كل

شيء ولها عرش عظيم. فهل وصلت إلى ذلك عن طريق الدين؟ لا، وصلت مملكة سبأ إلى ما وصلت إليه بجهودها البشرية، بالأبواب الفطرية الطبيعية التي فتحها الله عز وجل لهؤلاء وهؤلاء للناس جميعاً، ومن ثم فإن من حقها أن تتبوأ حضارتها وأن تتقلب في نعيمها مهما كانت حالها، لأنها ليست مدينة في ذلك للإسلام. هذا بالنسبة إلى الحياة العاجلة الحياة الدنيا.

أما العرب فماذا كانوا قبل الإسلام؟ كانوا كما تعرفون مثال التفرق، مثال الجهل، مثال التخلف، مثال الهرج والمرج، كانوا مهمشين على أطراف العالم كما تعلمون. ما الذي قفز بهم إلى هذه السدة العجيبة من الحضارة من الرقي من المدنية البازخة من القوة بعد الضعف من الغنى بعد الفقر من الاتحاد بعد التفرق والتشرد ما هو؟ ما السلم الذي ارتقوا به درجةً درجةً حتى وصلوا به إلى هذه السدة؟ أليس هو الإسلام!

وهل في الناس من يستطيع أن يقول إن العرب الذين كانوا يخبون في ظلمات تخلفهم وجاهليتهم إنما وصلوا إلى الحضارة بعلومٍ ابتدعوها كما هو الحال عند الغرب، بقدرات مادية بذلوا في سبيل ذلك الجهد الجهيد من الذي يقول هذا؟

العالم كله يعلم أن العرب لم ينالوا هذا الذي نالوه إلا بواسطة هذا الإسلام، إذاً العرب مدينون في رقيهم للإسلام. ينبغي أن نعلم هذا من دون الغرب والشرق الذي يضرب إخوة لنا من الجهال المثل بهم يوماً بعد يوم. لولا الإسلام الذي ارتدى العرب جلبابه لما رأيت لهم حديثاً يُذكر، ولتحولوا من الشتات إلى التمزق والتمزق ثم لرأيتهم تبددوا ولم يعد لهم ذكر اليوم في التاريخ. إذاً إذا تنكر المدين للإسلام بعد أن أعزه الإسلام ورب الإسلام مراقب ما النتيجة؟

النتيجة أن يعود هذه الإنسان إلى الحالة التي كان عليها، فالإنسان الذي أعزه دين الله عز وجل وكان قبل ذلك مثال الفقر والتخلف والضعف والجهالة، ثم إن الكبرياء دارت نشوتها في رأسه ثم إن الكبرياء طفحت في كيانه فركل هذا الإسلام الذي أعزه ما الذي يقتضيه المنطق؟ الذي يقتضيه المنطق، بل الذي يقتضيه سنة الله أن يُقال له: ارجع إلى ما كنت عليه من قبل، إنك لم تنل هذا الذي نلته بعرق

جبينك، ولا نلت هذا الذي نلته بجهد بذلته كالآخرين، كنت راقداً في حمأة سباتك، كنت جاهلاً.. جاء الإسلام فأعزك يوم أخلصت له، الآن وقد تنكرت له ينبغي أن تعود إلى ما كنت عليه.

رجلٌ يملك داراً بناها بجهده بعرق جبينه، له الحق كل الحق أن يتمتع بداره وأن يعتز بامتلاكه لها، رجلٌ آخر أخلص الخدمة لغني من الأغنياء أخلص الود لغني من الأغنياء، فأكرمه هذا الغني وأسكنه في دارٍ له، وما هو إلا أن استقر المقام لذاك الإنسان في دار ذلك الغني حتى طافت النشوة برأسه طافت نشوة الكبرياء برأسه وعقله، وإذا به يتبجح على ذلك الغني الذي أكرمه وأحسن وفادته، قال له: يا هذا تذكر تذكر النعمة واشكر اليد التي اسدت إليك هذه النعمة ازداد كبراً ازداد عتواً، ما النتيجة التي يفرضها المنطق؟ النتيجة أن يقول له صاحب الدار اخرج من داري وارحل إلى المقام الذي كنت عليه من قبل، لا بد أن يطرد من هذه الدار وإذا طرد إلى أي حال يعود؟ يعود إلى الحالة التي كان عليها.

هل أدركتم هذا المعنى أيها الإخوة؟ قولوا ذلك لهؤلاء الذين يتبجحون، لا يخجلون من جهلهم بالإسلام ومن جهلهم بسنن الله المقروءة في قرآنه وكتابه، ولكنهم يطيلون ألسنتهم بالجدل بالنقاش، وهذا شيء ممجوج ثقيل على الطبع وثقيل على العقل، أجل قولوا لهم هذا الكلام الذي أقوله لكم.

ربنا سبحانه وتعالى لم يأخذ على نفسه أن يأخذ الناس كلهم فقراء متخلفين متفرقين في دار الدنيا، لأنهم لم يسيروا على صراط الله عز وجل. قال لهم: أما في دار الدنيا فهذا مبدأي، ﴿كُلا نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾ الكسول لابد أن يعاني من نتائج كسله والخامل لابد أن يعاني ويجتر نتائج خموله، والعامل الذي يبذل الجهد والعرق في سبيل دنيا لا بد أن يصل إلى دنيا، أما حساب الله للناس غداً فمرده إلى قانون آخر، هكذا نقرأ في كتاب الله، وهنالك أمم أكرمها الله عز وجل بالحضارة بالرقي لأنها طرقت أبواب ذلك فحق لها أو عليها قول الله سبحانه وتعالى: ﴿كُلا نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾. هنالك أمم وفي مقدمتها العرب كانت مثال الخمول مثال الجهل مثال الكسل مثال الدعة مثال التهارج والبغي، ثم إن الله سبحانه وتعالى أكرمها فأوحى إليها عن طريق رسولها محمد صلى الله عليه وسلم فاستيقظوا على الإسلام وأخلصوا لله سبحانه وتعالى، قفز الإسلام بهم من أدنى دركات الجهل إلى أعلى درجات الحضارة كما تعرفون وكما يقول التاريخ.

واليوم عندما نجد كيف أن معظم هؤلاء الذين كان أجدادهم يعتزون بدين الله عز وجل يستكبرون على هذا الدين، يتأففون من الالتزام به، يتأففون من التمسك بمبادئه، يتأففون من عبوديتهم لله سبحانه وتعالى ويسيل لعابهم على ما عند الآخرين. فإذا أرادت هذه الأمة أن تخلع رداء هذا الدين الذي أعزها إذاً لابد أن تعود إلى النقطة التي كانت فيها، لا بد أن يكون الحساب ناطقاً بهذه النتيجة هل لك على الله سبحانه وتعالى من حقٍ وراء ذلك؟ لا.. أنت لم تبذل أي جهد لكي تنال ما نالته الأمم الأخرى، نقلت من أقصى درجات الخمول والكسل والتهارج إلى أعلى درجات الحضارة بفضل إخلاص آباءك وأجدادك لدين الله عز وجل، فإذا خلف ﴿فَخَلَفَ مِنْبَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ هذا كلام الله سبحانه وتعالى، وهذا القرار لا يمكن أن يناقش فيه العقل بشكل من الأشكال، وهذا هو المعنى الذي تنبه إليه أسلافنا أصحاب رسول الله ومن جاء بعدهم أيضاً، وهي الحقيقة التي نطق فيها سيدنا عمر فوعاها من وعاها وظل يجهلها الأغبياء الذين يظلون يجهلونها يوم قال لأبي عبيدة: (نحن قومٌ أعزنا الله بالإسلام فمهما طلبنا العزة بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله) منطق ليت أن هؤلاء الشاردين عن دين الله الذين يبحثون لأنفسهم عن منافسات أخرى لأولئك الحضاريين، ليت أنهم يعلمون هذه الحقيقة.

العرب لن يرتقوا صعداً إلا بسلم الإسلام، لا يمكن إذا أخلصوا للإسلام سيعودون إلى العزة القعساء ذاتها التي أعزهم الله عز وجل بها، وإذا استكبروا عليه ورفضوه وتبرموا منه كما هو الحال عند أكثر أو جل المسلمين، فلا بد أن يعيدهم الله إلى ما كانوا عليه من قبل، هل لهم عند الله جهد بذلوه؟ لا. هل لهم عند الله إمكانات عرقت جباههم في سبيلها؟ لا إطلاقاً. الإسلام هو الذي انتشلهم والإسلام هو الذي حملهم والإسلام هو الذي بوأهم هذا العرش، يرفضون الإسلام إذاً ينبغي أن يعودوا إلى ما كانوا عليه.

وانظروا إلى ما يقوله ابن خلدون في مقدمته: العرب لا يمكن أن يوحدها إلا الإسلام، العرب لا يمكن أن يحافظ على قوتها إلا الإسلام، العرب لا يمكن أن يعزها إلا الإسلام. ابن خلدون يقول هذا من منطلق علمي، وهو الإنسان المؤرخ الذي وعى سنن الله للأمم في التاريخ. لماذا؟ لأن هذه الأمة قبل أن تعتنز بالإسلام كانت مثال التهارج الاختلاف التقاتل الخصام، قبل الإسلام كانت مثال الفقر، قبل

الإسلام كانت مثال الجهل، فإذا تركت الإسلام ينبغي أن يستيقظ فيها طبعها من جديد، لا بد أن تتهارج كما يتهارجون اليوم، لا بد أن تعود للخصام كما يعود اليوم، لا بد أن تستيقظ فيها صفاتها السابقة على الإسلام، فقر تفرق خصام تهارج...

انظروا كيف تتحقق سنة الله سبحانه وتعالى في عباده، ترى أليس هنالك فرصة لأن يعكف هؤلاء الإخوة على سنة الله سبحانه وتعالى التي نقرأها في قرآنه؟ أليست هنالك فرصة لأن يضيفوا إلى جدالهم الثقيل الممجوج شيئاً من المعرفة شيئاً من الدراسة لدين الله عز وجل؟ أجل ينبغي أن نعلم هذا الفارق، عندما نتنكر لديننا ونخون إسلامنا الذي أعزنا لا بد أن يصيبنا هذا القحط. ولا يقولن قائل: ها هي ذي أوروبا دائماً منعمة في الخضرة والثلوج لا تبارح أرضها وجبالها، والأمطار لا تكاد تنفصل عنها لا يقولن قائل هذا الكلام.

أوروبا عندما اعتزت وتقدمت نسجت لنفسها التقدم الحضاري بعقلها بفكرها بقدراتها الدنيوية وقال لها الله سبحانه وتعالى: ﴿كُلا نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾ ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ متاع الدنيا هذا هو قانونه وهذا هو قراره أما نحن متى تعبنا؟ متى نسجنا لأنفسنا حضارة من وراء الإسلام؟ قولوا أيها الإخوة..سلوا هؤلاء الذين يريدون أن يعتزوا بأخيلةٍ وأوهام في رؤوسهم من دون الإسلام؟ متى عكفت هذه الأمة في يوم من الأيام فنسجت لنفسها هي الأخرى سبيلاً لحضارة سبيلاً لفلسفة سبيلاً لتقدم؟ متى؟

إطلاقاً لم يتحقق هذا إلا في ظل الإسلام لم يتحقق ما نسميه العصور الذهبية في صدر الإسلام إلا بوحيٍ من دين الله الذي كنا أمناء عليه وكنا مخلصين له قادةً وشعوباً، عندئذٍ تفجرت عوامل النهضة لا من جهودٍ خاصة بنا، ولكن من الإسلام الذي كنا أمناء عليه وأوفياء له.

أقول قولي هذا وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يلهمنا الرشد وأن يوقظنا لهذه الحقيقة فاستغفروه يغفر لكم.

٤١١- بل.. (مطرنا بفضل الله وبرحمته) | ٢٠٠٠/٠١/١٤

روى البخاري في صحيحه في باب الاستسقاء من حديث زيد بن خالد الجهني، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى الصبح في حديبية على إثر سماءٍ في تلك الليلة أي على إثر مطرٍ هطلت في تلك الليلة فلما انصرف من صلاته أقبل إلى الناس فقال: ﴿هل علمتم ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: قال الله تعالى: أصبح الليلة مؤمنٌ بي وكافر. فمن قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمنٌ بي كافر بالكواكب، ومن قال: مطرنا بنوء كذا فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب﴾.

أيها الإخوة عندما نسمع كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يروي هذا الحديث القدسي عن ربه، نعلم أن الكفر كان مرضاً وبيلاً منذ أقدم العصور إلى يومنا هذا، وكان ولا يزال يتسلل إلى العقول تسلل الجرثومة إلى الجسد السوي، وفي كل عصر يتسرب الكفر تحت غطاء، وهو هو ذاته، في عصر المصطفى صلى الله عليه وسلم كان المشركون والكافرون ينسبون الأمطار إلى الأنواء إلى حركة الكواكب والأفلاك، ولو أن سائلاً من الناس جادلهم في ذلك لاعتزوا بأنهم إنما يستندون في ذلك إلى علم، فكان غطاء كفرهم وهم في ذلك العصر يتمثل في المعرفة والعلم، مطرنا بنوء كذا. ثم استمر الأمر على هذه الشاكلة واستمرت جرثومة الكفر تسري وتتسرب إلى العقول الهزيلة وإلى الأفكار الضعيفة إلى يومنا هذا، ولسوف تستمر جرثومة الكفر هذه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها... وذلك لأن سنة الله سبحانه وتعالى كانت ولا تزال ماضية، هنالك مؤمن وهنالك كافر، أصبح الليلة مؤمن بي وكافر.

ولكن الأمر الذي يلفت النظر أن أحدنا لو نخر عباب القرون إلى أقصى الأزمنة البعيدة، وسأل الكافرين عن سبب كفرهم، لرفعوا الرؤوس بكفرهم عالياً وزعموا أنهم مع العلم، وأن علمهم هو الذي دلهم على هذا الكفران، مع أننا نعلم أن الجاهلية التي كانت قبل بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت مضرب المثل في الجهالة، وحسبك أنها تسمى الجاهلية. ومع ذلك فكفر الكافرين كان يُغطى بحجة من العلم المزيف طبعاً وظلت الأمور على هذا النحو وعلى هذه الشاكلة.

أما الإنسان المؤمن بالله عز وجل منذ أقدم العصور إلى يومنا هذا فهو ذاك الذي وقف على العلم الحقيقي وتجاوز صور العلم المزيفة، هو ذاك الذي تعامل مع الحقيقة وتجاوز الدجل، هو ذاك الذي وقف على الظواهر ثم نسب الظواهر إلى خالقها ومسببها ومبدعها جل جلاله.

هذان الخطان منذ أقدم العصور مستمران على هذا النهج إلى اليوم، الكفر منذ أقدم العصور كان يصطنع ويتبجح بألفاظ العلم منذ أقدم العصور، ألم تقرأوا قول الله سبحانه وتعالى عن أمم قديمةٍ أرسل الله سبحانه وتعالى الرسل و الأنبياء ماذا قال عنهم؟ ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾، إذاً الأمم القديمة التي خلت من قبل كانت هي الأخرى تتباهى بخداعات العلم وتتباهى بالعلم المزيف، وليس صحيحاً ما يزعمه الجهلة اليوم من أن الناس الذين كانوا في التاريخ القصي والقديم كانوا محرومين من العلم، وكانوا محرومين من المعرفة، وأن الله إنما تحيز فقط لعباده الذين يعيشون في هذا العصر فأقامهم من العلم على مائدة عامرة، في حين أنه ترك الأجيال القديمة القديمة وهي تحتاج إلى لمعة بسيطة من العلم ولا تنالها، من قال هذا؟ أي خرافة أشنع من هذه الخرافة!

الأمم التي خلت من قبل هي الأخرى عوملت مع كرم الله سبحانه وتعالى وعطائه، وهي الأخرى دعيت إلى مائدة العلم والمعرفة. فمن الناس من استعمل مائدة العلم سلماً للوصول به إلى معرفة الله عز وجل، ومن الناس من راوحوا في أماكنهم ولم يبارحوا الدرجة الأولى من سلم العلم، اعتزوا برائحة العلم وسكروا من العلم برائحته البسيطة، ثم إنهم استكبروا على الله سبحانه وتعالى، أمم قديمة تماماً ككثيرٍ من الكفرة الذين تنتفخ أوداجهم انتفاخاً مضحكاً بألفاظ العلم واصطلاحاته وهم عن معاني هذه الاصطلاحات تائهون.

ها هو ذا يقول الله عز وجل عنهم: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾، أي قالوا: إن العلم أغنانا عن الإيمان بالله عز وجل، نحن نعيش في عصر العلم والعلم يرفض هذا الذي بعثت به. أفكانوا حقاً علماء؟ لو كانوا علماء لهداهم علمهم إلى الله عز وجل ولكنهم كانوا ممن قال الله عز وجل عنهم: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا (أي عقول) وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾

تلك هي قصة الإنسان مع الرسل والأنبياء ومع حقيقة العلم. فئة تعاملت مع العلم الحقيقي واتخذت منه سلماً فوصلت من خلال اجتياز درجات هذا السلم إلى الله، وفئة خدعت بالدرجة الأولى من سلم هذا العلم فراوحت في مكانها وهي تظن أنها ترقى صعداً فوق درجات هذا السلم، شمت رائحة هذا العلم ولم تدرك حقيقته. أمم كانت على هذه الشاكلة بالأمس وكانت في التاريخ القصي والبعيد. وها نحن نرى أمماً أيضاً في عصرنا اليوم على هذه الشاكلة.

فماذا نقول نحن اللذين عانقنا العلم بحقيقته لا بألفاظه واصطلاحاته ولا بأشكاله المزيفة؟ فهدانا العلم إلى الله، هدانا العلم إلى معرفته قيوماً أوحد لهذا الكون كله، هدانا العلم إلى عبوديتنا لله عز وجل، هدانا العلم إلى ربانية الله سبحانه وتعالى، هدانا العلم إلى أن لنا مولاً واحداً لا مولى لنا سواه ألا هو الله عز وجل ورأينا أنفسنا وقد انطبق علينا ولله الحمد قول الله عز وجل القائل: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾، نحن الذين تعاملنا مع العلم بحقيقته فأوصلنا العلم إلى ساحة الإيمان بالله وإلى محراب العبودية لله. ماذا نقول؟ مطرنا بفضل الله وبرحمته، ونقول وقد رأينا بأم أعيننا استجابة الله وفضله نقول له: اللهم إنا قد سألناك فأعطيت، وإنا قد دعوناك فاستجبت، وإنا قد التجأنا إليك فلبيت، وأنزلت علينا من غيثك وكرمك وجودك فاللهم إنا نسألك بتوحيدنا لك وبإيماننا بك أن تزيدنا من عطائك وأن تزيدنا من غيثك وكرمك وأن لا تقطع عنا رفدك وأن لا تقطع عنا عطاءك.

ولكن كما وجد في ذلك العصر الجاهلي من أصبحوا فقالوا: مطرنا بنوء كذا أي بحركة أفلاك – وإنما قالوا ذلك باسم العلم – كذلك هنالك أحفاد لهم في هذا العصر سرت إليهم ظلمات الجاهلية أيضاً كما عششت تلك الظلمات في أدمغة أجدادهم آنذاك، قالوا كلاماً آخر.

نبرأ إلى الله سبحانه وتعالى منه نبرأ إلى الله منه، صمتوا ثم صمتوا ثم صمتوا خلال العام المنصرم كله عام الشدة، ثم صمتوا في أوائل هذا الشتاء الشديد أيضاً، حتى إذا هرع المسلمون في هذه البلدة بأمرٍ من قائدهم ورئيسهم إلى الاستغاثة إلى صلاة الاستسقاء فاستجاب الله سبحانه وتعالى لهم، خرج الصامتون عن صمتهم بعد عام ونيف، خرجوا.. ظننا أنهم ليقولوا: آمنا بالله، ظننا أنهم خرجوا عن صمتهم ليقولوا: أجل لقد استجاب الله دعاء الداعين وها نحن نؤوب إلى إيماننا بالله ونتوب عن شرودنا عن صراط الله عز وجل، ولكنهم خرجوا عن صمتهم ليقولوا: ليس المطر الذي هطل وليست الثلوج التي هطلت وغطت

مدن سوريا كلها بل أضافت إليها حواشي من هنا وهناك، ليس هذا الخير الذي هطل عن طريق الاستسقاء واستجابة الله للداعين، إنما هو لطائرات صعدت ثم طلعت الطلعة الأولى فالثانية فالثالثة فالرابعة، وهكذا بفضل تلك الطائرات هطلت كل هذه الثلوج وهطلت هذه الأمطار كلها!

ما الذي جعل كل أولئك الصامتون ولا كصمت المدينة المسحورة يخرجون عن صمتهم. لماذا لم يظلوا صامتين وقد بقوا صامتين خلال تحديات الله في العام المنصرم كله؟ إذ كانت تأتي الغيوم داكنة سوداء مثقلة بالأمطار إذ تبعث رذاذها إلى الأرض والشروط العلمية كلها موفورة لهطول الأمطار منها لماذا؟ لم يطلقوا طائراتهم؟ لماذا لم يخرجوا عن صمتهم؟ لماذا لم يقولوا كلمة واحدة جواباً عن تحديات الله عز وجل لهم لماذا؟ لماذا انتظروا أن يهرع مئات الآلاف من الناس إلى الاستسقاء وإلى طلب السقيا من مولاهم الأوحد جل جلاله ثم صمتوا أيضاً إلى أن جاءت الإجابة وطاب لهم عندئذٍ أن يسرقوا عطاء الله سبحانه وتعالى وينسبوه إلى أنفسهم لماذا؟ لماذا لم يبشروا هذه الأمة قبل هطول هذه الأمطار الغزيرة عندما خططوا لإرسال طائراتهم؟ لماذا لم يبشروا الأمة قائلين: مكانكم لا داعي إلى دعاء ولا إلى استسقاء ها نحن نبشركم اليوم تصعد الطائرات في طلعاتها مستمطرة وغداً ستأتي الأمطار تهمي؟ لماذا سكتوا؟ لماذا لم يقولوا قبل يومين أو ثلاثة أيام حتى لا يلتبس علينا عطاء طائراتهم بعطاء الله سبحانه وتعالى لماذا؟

كلكم يعلم الجواب، كلكم يعلم معنى الصمت الذليل الذي لا مجال له إطلاقاً أن ينبس ببنت شفة أمام تحدي المولى الأجل مولانا سبحانه وتعالى، ولكن أ لم يكن أولى بهؤلاء الناس وقد ظهر أمر الله وحكمه أنه صاحب الخلق والأمر أنه الإله الذي قال في محكم تبيانه: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ، أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ﴾

أ لم يأن لهم وقد وجدوا هذه الظاهرة وجدوا الشدة التي استمرت ثم وجدوا الرخاء الذي أقبل بعد الاستسقاء وبعد مد الأكف إلى الله بالرجاء أ لم يكن الأولى بهم أن يعودوا عوداً رشيداً إلى حمى العبودية لله؟

أ لم يكن أولى بهم أن تخنع منهم الرؤوس مطأطأة ذليلة لا للسماء بل لرب السماء سبحانه وتعالى؟

يا عجباً أيها الإخوة لمن يذل ويهون ثم يهون للمخلوق الذي يسميه السماء، ولا يذل ويهون لمن كانت السماء في قبضته سبحانه وتعالى. نعمة السماء هكذا قالوا: نعمة السماء، سألت وأسأل من هو هذا المخلوق الذي يسمى السماء؟ ما وظيفته؟ ما عمله؟ أهو ضابطٌ في جيش؟ أم هو قائدٌ في مملكة أم هو ماذا أهو مخترع يقبع في غرفة عملياته؟ من يكون هذا الذي اسمه السماء؟ نحن نعلم فيما عرفناه من حقائق العلم أن السماء هباءة في مملكة الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ أنا أطأطأ الرأس ذلاً لما اسميه السماء وأستكبر على خالق السماء!؟ فلا أقول نعمة الله.

أيها الإخوة ما أشبه الليلة بالبارحة، صدق رسول الله إذ يروي عن ربه عز وجل: ﴿أصبح الليلة مؤمنٌ بي وكافر فمن قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمنٌ بي كافر بالكواكب﴾ ونحن نقول جميعاً ولله الحمد: مطرنا بفضل الله وبرحمته، لم نمطر لا بنوء كواكب ولا باستمطارات ولا بأي وسيلة من الوسائل.

نحن نعلم أن ما يسمى بالعلوم كلها جنودٌ بيد الله نحن نعلم أن ما يسمى بالقوانين الكونية أو الطبيعية كما يقولون كلها جنودٌ مجندة تحت سلطان الله سبحانه وتعالى، فنحن ولله الحمد نقولها أقولها باسمي واسمكم جميعاً وباسم الملايين ممن يسكنون هذه الأرض المقدسة المباركة: مطرنا بفضل الله وبرحمته، ومعاذ الله أن نشرك مع الله سبحانه وتعالى أحداً، وعندما نتحدث عن النعمة وننسبها إلى مصدرها فإننا ننسبها إلى الله الذي يسخر سماءه ويسخر أرضه ويسخر سحابه ويسخر ما يشاء لما يشاء، ونحن ولله الحمد لسنا يتامى لسنا تائهين عن مصدرنا الذي ننتمي إليه مولانا الله لنا مولى نحن الذين قال الله عنهم: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾، لسنا كأولئك اليتامى الذين يتطوحون في صحراء الضياع في صحراء التيه، مولانا الله نحن منسوبون إليه نحن عبيده لن يتخلى عنا، فنسألك اللهم أن تزيدنا ارتباطاً بك وحباً لك وإيماناً بك ومخافة منك وتفويضاً إليك واتكالاً عليك ونسألك اللهم أن تهدي التائهين من إخواننا ونسألك اللهم أن توقظهم قبل فوات الأوان وأن تلفت نظرهم إلى وحدانيتك قبل أن يتنبهوا إلى ذلك وقد فات الأوان.

٤١٢- ولكن يُنزل بقدرٍ ما يشاءُ إنه بعبادهِ خبيرٌ بصيرٌ (١) | ٢٠٠٧/١٠/٢٦

ورد عن المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: ﴿إن من علامات قرب قيام الساعة تناقص الأمطار﴾. أي أن تناقص الأمطار عاماً بعد عامٍ بعد عام. وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم أن من أشراط الساعة كثرة الظلم وهدر حقوق الناس، وقد ربط علماء الشريعة الإسلامية هذا الحديث بذاك، وبيّنوا أن سبب تناقص الأمطار عند قرب قيام الساعة شيوع الظلم وضياع حقوق الناس، واستخفاف الناس بحقوق الآخرين، يشيع هذا الظلم فيما بينهم فتتقلص الرحمة الإلهية، وتناقص الأمطار التي هي مظهرٌ من أجلِّ مظاهر رحمة الله سبحانه وتعالى بعباده، وصدق المصطفى صلى الله عليه وسلم إذ يقول فيما اتفق الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: ﴿مَنْ لا يَرْحَمْ لا يُرْحَمْ﴾.

وأصرح مِنْ ذلك في هذا المعنى ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم أيضاً فيما اتفق عليه الشيخان من حديث جرير بن عبد الله: ﴿مَنْ لا يَرْحَمْ لا يُرْحَمْ﴾ عندما تدنو المدة التي لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى لقيام الساعة لا بد أن تتجلى العلامات التي حدَّث عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم، من هذه العلامات – وهي علامات صغرى – انتشار الظلم، وتضييع الناس بعضهم لحقوق بعض، ومن ثَمَّ تظهر العلامة الأخرى التي هي أيضاً من علامات قرب قيام الساعة، تناقص الأمطار عاماً إثر عام.

تنقص الأمطار في هذا العام، ويشكو الناس من القلة، فإذا جاء العام الذي يليه تناقصت أكثر أيضاً، كلما انتشر الظلم تقلصت رحمة الله سبحانه وتعالى عن عباده في الأرض، الرحمة المتمثلة في الأمطار، ومن هنا قرر علماء الشريعة الإسلامية، ولا أعلم في ذلك خلافاً، أن من شروط الاستسقاء التي ندب إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأداها مع أصحابه، من شروط الاستسقاء رد المظالم، ذلك لأن الأمطار لم تحبس إلا لهذا السبب، أو لأسباب عدة، إلا أن هذا يقف في مقدمة الأسباب. لا بد لكي يستجيب الله عز وجل دعاء المستسقين والمتضرعين، أن يبدؤوا قبل كل شيء فيردوا المظالم، يردوا الحقوق إلى أصحابها، إن لم يتحقق هذا الشرط لا فائدة من صلاة الاستسقاء، هي عبادة يتقرب بها الإنسان إلى الله عز وجل لكنها لا تثمر هذه الفائدة الدنيوية إلا إذا تحقق فيها هذا الشرط.

أقول هذا اليوم، أُذَكِّرُ نفسي وأُذَكِّرُكم بهذه السنة الربانية التي نبهنا إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل أكدها لنا في أكثر من مناسبة، وفي أكثر من حديث، وبأكثر من أسلوب ﴿من لا يرحم الناس لا يرحمه الله سبحانه وتعالى﴾. وهذا في دار الدنيا بقطع النظر عن المآل الذي ينتهي إليه الناس غداً إذا قاموا لرب العالمين.

إذا كنا، ونحن في أوائل هذا الشتاء المقبل، نريد أن نقرع باب الرحمة الإلهية، وإذا كنا نُصرّ على أن نتلقى الجواب إكراماً من الله سبحانه وتعالى ورحمة فينبغي أن نعلم الطريق المؤدي إلى ذلك، ها أنتم ترون مصداق كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم، كلما أقبلت سنة رأينا أن السنة الماضية كانت خيراً من هذه، وإذا جاءت الأخرى رأينا أن التي قبلها خيرٌ من تلك أيضاً، وهذا هو كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ينبهنا إلى شرط من أشراط قرب قيام الساعة.

إذا أردنا أن نطرق باب الرحمة الإلهية فلنطرق هذا الباب بيد الرحمة، بيد التراحم، فلنطرق باب الرحمة الإلهية عن طريق إعادة الحقوق إلى أصحابها، عن طريق مكافحة الظلم، وأنتم تعلمون أنواع الظلم التي تستشري في مجتمعاتنا هذه، لا أخص فئة من الفئات، ولا طبقة من الطبقات، كلما موغلون في هذا الظلم إلا من رحم ربك، الأغذية التي تقدم إلى عباد الله عز وجل فيها من الإهدار لحقوق الناس ما فيها، فيها من تسبب الكوارث والأمراض ما فيها، في سبيل ماذا؟ في سبيل الجشع، في سبيل الوصول إلى مزيد من الربح، الأغذية الهرمونية، وما أدراك ما هذه الأغذية، وما أدراك ما السموم الناقعة في داخلها، وما أكثر ما تستعمل هذه الأغذية الهرمونية لها، لا، لا أقول من الدواجن فقط بل الأنعام أيضاً، هذا إلى جانب كثير من السموم الناقعة في النباتات المختلفة.

من الذين يمارسون هذا الظلم؟ أناس كانوا بالأمس الدابر أناساً يتقربون إلى الله عز وجل بالفلاحة والزراعة وخدمة عباد الله، واليوم يتقربون إلى الشيطان بما تعلمون. الظلم اليوم لا يمكن أن نخصصه في فئة أو طبقة من الناس، بمقدار ما كان الناس في الأمس الدابر متراحمين متآلفين متوادّين يشيع فيما بينهم الإيثار، إيثار الإنسان أخاه على نفسه، يشيع اليوم نقيض ذلك، تشبع الأَثَرَة، يحاول الإنسان أن يمتصّ حياة الآخرين من أجل أن يملأ صندوقه، من أجل أن يملأ جيبه.

ومرة أخرى أقول لكم: هذا الظلم الذي ينتشر اليوم، لا أشير فيه إلى فئة معينة، بل الفئات كلها في ذلك سواء، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فيما اتفق عليه الشيخان: ﴿من لا يرحم الناس لا يرحمه الله سبحانه وتعالى﴾. ولقد قلت بالأمس، وأقولها جواباً يوسوس الشيطان إليه قائلاً: ها هي ذي دول البغي تتقلب في رحمة إلهية غامرة، فما من شتاء يأتي إلا والأمطار فيه وافرة، والثلوج فيه عامرة.

ولعلي أجبت عن هذا وذَكَّرْتُكُم بكلام نقرأه في كتاب الله سبحانه وتعالى، وخلاصة ما ينبغي أن نعلمه مأخوذ من صريح كلام الله عز وجل أن الناس الذين يتراحمون في دار الدنيا، أن الناس الذين تشيع فيما بينهم الألفة هم رقباء بعضهم على بعض، هؤلاء إن كانوا مؤمنين يفعلون هذا ابتغاء مرضاة الله، أكرمهم الله بثوابي الدنيا والآخرة، أما إن كانوا غير مؤمنين بالله عز وجل، يبتغون من ذلك إصلاح حالهم الدنيوي، يتعاملون مع فطرتهم الإنسانية، فإن الله عز وجل يثيبهم على ذلك في الدنيا، وليس لهم في الآخرة من أجر ولا ثواب، هذا كلام الله عز وجل: ﴿مَنْ كانَ يُرِيدُ الْحَياةَ الدُّنْيا وَزِينَتَها نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمالَهُمْ فِيها﴾ [هود: ١٥] أي نعطيهم جزاء أعمالهم الصالحة فيها ثم يقول: {أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاّ النّارُ وَحَبِطَ ما صَنَعُوا فِيها وَباطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٦].

فالأمة التي يتراحم فيها أفرادها، الأمة التي يكون فيها رقباء، ألا يشيع ظلم، ألا تشيع إساءة إلى الآخرين، التي فيها رقباء يرقبون الأغذية، يرقبون حقوق الآخرين ألا تهدر، الأمة التي تعامل أفرادها كما تعامل الأم الرؤوم أطفالها يرحمها الله عز وجل في دار الدنيا، ولكن إن كانت بعيدة عن الأمل في الآخرة ولا تتعامل مع الآخرين بهذه المعاملة الإنسانية إلا بدافع من الفطرة الإنسانية، فإن الله عز وجل يثيبهم في دنياهم، يكرمهم بالأمطار السخية، يكرمهم بالثلوج، يكرمهم بالعطاء ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاّ النّارُ﴾ [هود: ١٦]

هذا القانون لا فرق فيه بين مسلم وجاحد، الأمة المسلمة إذا شاع فيها الظلم، وشاع فيها إهدار الحقوق، وتخلى الناس بعضهم عن بعض لا بد أن يواجههم الله سبحانه وتعالى بنقيض ذلك، لا بد أن يقابل العمل بمثله، ﴿من لا يرحم الناس لا يرحمه الله سبحانه وتعالى﴾ وهؤلاء حسابهم عند الله أيضاً عسير؛ لأن الذين يسيئون إلى إخوانهم في دار الدنيا ظلماً وإهداراً لحقوقهم إنما يسيئون إلى الله، إنما يهدرون قبل ذلك حقوق الله عز وجل، ثم إنهم يهدرون حقوق أخوانهم في الإنسانية، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ

لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاّ النّارُ وَحَبِطَ ما صَنَعُوا فِيها وَباطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٦]، ﴿مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعاجِلَةَ عَجَّلْنا لَهُ فِيها ما نَشاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاها مَذْمُوماً مَدْحُوراً﴾ [الإسراء: ١٧/١٨]

يا عباد الله ليكن كل واحد منكم رقيباً على نفسه ألا يظلم أخاه، ألا يظلم جيرانه، إن كان موظفاً إلا يستعمل وظيفته في هدر حقوق الآخرين وظلمهم، إن كان صانعاً لا يتخذن من صنعته خيانة للذين شاء الله عز وجل أن يكون عاملاً عندهم، إن كان فلاحاً ينبغي أن يتقيَ الله عز وجل فيما يفلح ويزرع، إن كان ذا مدجنة ينبغي أن يتقيَ الله سبحانه وتعالى في الأإذية التي يقدمها لدواجنه أو لأنعامه، وإن كان مسؤولاً في هذه الأمة ينبغي أن ينظر إلى الأمة نظر الأم إلى أطفالها، عندئذٍ يرحمنا الله، عندئذٍ يكرمنا الله عز وجل بالأمطار السخية والثلوج الوافرة.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم.

٤١٣- ولكن يُنزل بقدرٍ ما يشاءُ إنه بعبادهِ خبيرٌ بصيرٌ (٢) | ٢٠٠٧/١١/٠٩

يقول ربُّنا جلَّ جلاله في محكم تبيانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ ما قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الشورى: ٢٨]. يصف الله سبحانه وتعالى في هذه الآية حال أناس تلبث عليهم رزق السماء، وطال انتظارهم للفرج وللقطر الذي يكرم الله عز وجل عباده رزقاً من السماء، طال انتظارهم ولما، فوقعوا من جراء ذلك في القنوط واليأس، ولكن الله سبحانه وتعالى تداركهم بلطفه، وأنزل عليهم الغيث من بعد ما قنطوا.

ونحن ممن تلبث وتأخر عنهم رزق الله سبحانه وتعالى الذي يهمي من سمائه، ولكنا نريد ألا نقع في القنوط الذي وقع فيه أناس، نريد أن نقف أمام هذا البيان الإلهي ونحن في حالة الانتظار لرزق الله، ونحن في الحالة التي يبتلي الله عز وجل بها عباده بالحرمان لأسباب وحكم سأذكرها.

تعالوا نتمثل هذه الحالة قبل أن يستبد بنا القنوط، وقبل أن يستبد بنا اليأس،؛ وقبل أن يزول القنوط واليأس بسبب نزول الرحمة الإلهية، قبل أن يكرمنا الله عز وجل برحمته، وهذا هو ظننا بالله عز وجل، قبل ذلك ينبغي أن نتذكر هذه السنة التي يعامل الله عز وجل بهاعباده، لن نيأس في انتظار أن يأتينا الرزق من السماء، ولن نكون – بحمد الله عز وجل وتوفيقه – من أولئك الناس الذين هيمن عليهم القنوط، ثم لم يُزايْلهم هذا القنوط إلا بعد أن أدركهم الله سبحانه وتعالى برحمته ورزقه، نحن – حتى في حالة الشدة – لن نقنط من رحمة الله عز وجل وفضله وإحسانه، ولسوف نظل أعيناً ترقب قطر السماء، وتنتظر رحمة الله سبحانه وتعالى.

وقبل هذه الآية يمهد الله عز وجل لهذه السنة بقوله: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ ما يَشاءُ إِنَّهُ بِعِبادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٧]. {وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ﴾ إن كان هابطاً من السماء أو نابتاً من الأرض ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ﴾، والبغي هو تجاوز الحدّ، والبغي في الأرض يعني الإفساد في الأرض عن طريق الظلم، عن طريق هدر الحقوق، عن طريق الاستكبار على الله سبحانه وتعالى وعلى عباد الله عز وجل، ومن شأن النعم إذا تكاثرت وأتت من كل حَدَب وصوب، ولم يكن لدى الذين ينعم الله عز وجل عليهم بها من الإيمان ومراقبة الله عز وجل ما يقاوم سكر هذه النعم، فإن من شأن هذه النعم أن تطغي، وأن تسكر، وأن تبعث هؤلاء الذين أغدق الله عز وجل عليهم من رزقه، من شأنها أن تزجهم في الطغيان والبغي، فمن أجل هذا يقول الله عز وجل:

﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ ما يَشاءُ﴾ هذا تمهيد لقوله سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ ما قَنَطُوا﴾.

حبس عنهم الغيث تأديباً، حبس عنهم الغيث إيقاظاً لهوياتهم عبيداً لله عز وجل، تقليماً لأظافر البغي والعدوان على الآخرين، صرفاً لهم عن الإفساد في الأرض، ثم إن الله عز وجل يتداركهم بلطفه، وينزل عليهم من رزق السماء، ويخرج لهم من أرزاق الأرض ما يزيل هذا اليأس الذي ران على نفوسهم.

هذا بيان الله عز وجل نقرؤوه ونستبينه من خلال هاتين الآيتين، والسؤال يخطر في البال – يا عباد الله – ترى ما حال مَنْ استمرؤوا البغي حتى قبل أن ينزل عليهم قطر السماء؟ كلام الله عز وجل هذا يحدثنا عن البغي عندما يكون سببه تكاثر النعم، عندما يكون سببه الرزق الواسع يهطله الله عز وجل عليهم من سمائه، وينتبه لهم من أرضه، وعندئذٍ يكون البغي من جراء هذه النعم التي تتوالى، لكن ما شأن وحال أناس استمرؤوا البغي وركنوا إليه حتى وهم في حالة القنوط، حتى وهم في حالة الحرمان؟ كيف تكون معاملة الله سبحانه وتعالى لأناس يأخذهم بالشدة، يحبس عنهم قطر السماء إلى حين من أجل أن يستيقظوا إلى هوياتهم، ومن أجل أن يتعاملوا مع عبوديتهم لله عز وجل، ولكنهم حتى في مرحلة الحرمان هذه يركنون إلى البغي، يركنون إلى الطغيان، وقد شرحت لكم معنى البغي، البغي هو أن يتجاوز الإنسان حدّ بشريته، حدّ إنسانيته، حدّ عبوديته ومملوكيته لله سبحانه وتعالى، ويحاول أن يلتقط الفوائد والمغانم أنى لاحت له، وكيفما امتدت يمينه إليها، دون نظر إلى جائز وغير جائز، دون نظر إلى مُحَرَّمٍ وغير محرَّم، البغي في الأرض هو أن ينسى العبد حقوق الرب سبحانه وتعالى، هو أن ينسى العبد الواجبات التي خاطبه الله عز وجل بها وحمله إياها، هو أن ينسى العبادات التي ما أمره الله عز وجل بها إلا لتصلح له شأنه، إلا لتربيَه إلى مستوى الإنسانية الباسق.

نعم. ينسى السجود لله عز وجل، ينسى أن يجعل جذعه الذي امتن الله عز وجل به والذي حدث عنه قائلاً: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ ما شاءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٨]. ينسى واجب إخضاع هذا الكيان، هذا الجذع لركوع، للسجود، للعبادة، للصلاة، للتوجه إلى الله عز وجل قانطاً ملتجئاً متبتلاً منكسراً، ينسى ذلك. هذا هو البغي، أن ينسى حقوق الرب، وأن ينسى حقوق العباد، فلا هو يلتفت إلى ضريبة العبودية التي ينبغي أن يؤديها لله عز وجل، ولا هو يلتفت إلى حقوق العباد الذين من حوله، إنما أسكرته نفسه،

أسكرته حظوظه، حسناً حتى في حالة الحرمان عندما تكون النعمة موفورة فيسكر بها من يتمتع بها يجعل الله سبحانه وتعالى مما ذكرته لكم علاجاً ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ ما يَشاءُ﴾ [الشورى: ٢٧]

ولكن ماذا عمن يستمرئ البغي ونسيان الله عز وجل، ونسيان حقوقه وواجباته حتى في حالة الشدة، حتى في حالة الحرمان؟ لا جواب لي على هذا السؤال، وأنا عندما أستشرف المستقبل، وأنا أنظر إلى حال أناس نسوا حقوق الله عز وجل، ومن ثَمَّ نسوا حقوق عباد الله عز وجل أيضاً، وشاع الفساد بأشكاله وأنواعه في الأرض، وهم يعيشون في حالة حرمان، وهم يعيشون في مرحلة ضنك، في مرحلة مخيفة، الماء يتناقص من ينابيعه في الأرض، ومن الرزق الذي يهمي علينا من سماء الله عز وجل، يتناقص عاماً بعد عام، وكلنا يعلم أن مصدر ذلك إنما هو سلطان الله عز وجل وتربيته لعباده

هنا، موضوع القنوط له معنى ينبغي أن نضعه نصب أعيننا، مرحلة التربية تستمر ثم تستمر، ولكنها أخيراً تنتهي بغضبٍ إلهي، تنتهي بقطع الرزق، بقطع النعمة، هذه الحالة ينبغي أن نكون على بينة منها في العام الماضي قلَّ الرزق الرباني الذي يهمي إلينا من سمائه أكثر من العام الذي مرَّ، وفي العام الذي قبله تناقص هذا الرزق أكثر من العام الذي قبله، فماذا عسى أن يكون عامنا هذا؟ وكيف ستكون هذه السَّنة التي نحن في أول الموسم الشتوي منها؟ الدلائل المخيفة تقول – ونسأل الله عز وجل أن نكون مخطئين فيما نسمع وفيما نعي – تقول: إن هذا الذي يكرمكم الله عز وجل به لا بد أن يكون في تناقص ما دام البعد عن الله في تزايد، وما دام إهدار حقوق الله ومن ثَمَّ إهدار حقوق العباد أيضاً في تزايد

هذه الحقيقة ينبغي أن نكون على ذِكْرٍ منها إن لم نصلح أحوالنا فصلاة الاستسقاء لا معنى لها، لا أقول: لا فائدة منها، بل أقول: لا معنى لها. هكذا قال علماء الشريعة الإسلامية، وهكذا قال فقهاؤنا اعتماداً على الصحيح الوارد من رسول الله صلى الله عليه وسلم، أول شرط من شروط الاستسقاء التوبة إلى الله عز وجل، ردّ المظالم، وعندما نقول التوبة فهو واجب يخاطب الله عز وجل به الأمة جمعاء، لا يخاطب به ثلة من الناس يُهْرَعون إلى أعتاب الله، ويبسطون أكف الرجاء إلى الله عز وجل، لا. المطلوب أن تُقبِل الأمةُ كلُّها إلى الله عز وجل بالتوبة، وأن تُقبلَ الأمةُ كلُّها إلى الله عز وجل بردّ المظالم إلى أهلها، ومن ثَمَّ فإن صلاة الاستسقاء يكون لها معنى، وعندما يكون لها معنى تكون لها الثمرة المرجوة. ومرة أخرى

أُردِّدُ هذا البيان الإلهي المخيف والمبشر ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ ما يَشاءُ إِنَّهُ بِعِبادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ، وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ ما قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الشورى: ٢٧-٢٨]

اللهم إنا لم نقنط من رحمتك على الرغم من أننا نسير في مرحلة قد تبعث أناساً على القنوط، نعيش في مرحلة الشدة، نعيش في مرحلة الحرمان، ولكننا لن نقنط من رحمتك، لأنك ما زلت تعامل عبادك بما أنت له أهل، ولا تعاملهم بما هم له أهل، إنك أهل التقوى وأهل المغفرة، أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم.



٤١٤- صلاة الاستسقاء: بين يديها شروط هامة | ٢٠٠٨/٠١/١٨

شاء الله سبحانه وتعالى أن يكون الإنسان في هذه الحياة الدنيا مَحَلاًّ للابتلاء والمصائب المختلفة، فهو إما أن يكون معانياً منها، وإما أن يكون متعرضاً لها، وهو في كل الأحوال لا يخلو عن هذين الواقعين، إما أن يكون معانياً من ابتلاء أو مصيبة من المصائب الكثيرة المتنوعة، وإما أن يكون متعرِّضاً لها يمكن أن تتنابه في كل لحظة، وهذا الحال هو من معاني قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً﴾ [النساء: ٢٨]، أي إنه لا يستطيع أن يحصِّن نفسه ضد المصائب مهما صنع، ولا يستطيع أن يجعل نفسه_ بأي حيلة من الحيل_ في مأمن منها، هو إما أن يكون متقلباً في هذه المصائب أو بعض منها، وإما أن يكون متعرضاً لها في كل لحظة، فما الحكمة من ذلك؟ الحكمة من ذلك، أن يفر الإنسان من هذه الحال إلى الله عز وجل، وأن يتمثل قوله سبحانه: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الذريات: ٥٠]، ثم يعود إلى نفسه ويكتشفَ فيها هذه الحال وينفذ قوله سبحانه: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾.

تلك هي الحكمة في مجمل القول، أما إن أردنا أن نركن إلى شيء من التفصيل فينبغي أن نعلم أن الإنسان مفطور على العبودية لله سبحانه وتعالى أياً كان مذهبه وأياً كان دينه، هو عبد شاء أم أبى، والمطلوب منه أن يضع عبوديته لله موضع التنفيذ، أي أن يمارس عبوديته لله عز وجل بسلوكه الاختياري، كما أنه مفطور على العبودية لله عز وجل بواقعه الاضطراري، ولكن كيف السبيل إلى أن يمارس الإنسان عبوديته لله؟ سبيل ذلك، أن يقف دائماً بباب الله متذلِّلاً متبتلاً منكسراً، وأن يعرض حاجاته كلَّها إلى الله عز وجل معلناً عن فقره، معلناً عن منتهى ضعفه، ولكن ما الذي يقوده إلى باب الله عز وجل منكسراً متضرعاً إن كان يتقلب في طمأنينة دائمة من العيش وإن كان مطمئناً إلى أن المصائب لا تطوف به ولا تنوشه؟ فيم يلتجئ إلى الله وهو يعيش في مأمن وطمأنينة من رغد عيشه؟

كانت الحكمة الربانية تقتضي أن يكون الإنسان معرَّضاً للمصائب دائماً، إما أن يكون مُعَانياً منها، وإما أن يكون متعرِّضاً لها، إذا علم الإنسان من نفسه هذه الحال لا بد أن يلتجئ إلى مفرٍّ، وإذا آمن بالله عز وجل وعلم أن الله بيده كل شيء علم أن المفر إلى الله، وأنه لا ملاذَ له من مخاوفه إلا الله سبحانه

وتعالى، فهو في كل الأحوال يحتاج إلى أن يكون واقفاً على باب الله سبحانه وتعالى، إن كان معافى يلجأ إلى الله عز وجل يسأله أن يديم عليه عافيتَه، وألا يبتليه بشيء من المصائب التي توشك أن تنتابه في لحظة واحدة، وإن كان يعاني من بعضٍ منها التجأ إلى الله سبحانه وتعالى لكي يعافيَه منها، فهو في كل الأحوال بحاجة إلى أن يفر إلى الله، وهكذا يمارس هذا الإنسان عبوديته لله عز وجل.

ويخطئ من يرى نفسه مُنْعَماً يتفيأ ظلال الأمن والرخاء، يعود إلى نفسه فيرى أنه ممتَّع بتمام الصحة والعافية فيطمئن بالاً ويحجب نفسه عن الله، هذا غبي من الناس ومغفل، صحيح أنه في تلك اللحظات التي تمر به معافىً عن الأسقام والآلام والمصائب، لكنه مُعرَّض لها، ليس بينه وبين أن يبتلى بها إلا أمر الله سبحانه وتعالى وحكمه، وانظروا في هذا إلى قول الله عز وجل كيف ينبهنا إلى هذا المعنى ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْأِنْسَانُ كَفُوراً، أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً، أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفاً مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً﴾ [الاسراء: ٦٧-٦٨-٦٩]

ما معنى هذا الكلام؟ معناه أن الإنسان يخطئ خطأً فادحاً عندما يجد أن المصيبة قد ابتعدت عنه، وأنه قد أصبح في مأمن ورخاء،إذن فليحجب نفسه عن الله، وليبتعد عن السؤال والمسألة والتضرع والدعاء، هو في كل لحظة مُعرَّض لعذاب الله عز وجل وللمصائب المختلفة المتنوعة التي تطوف به من بعيد أو من قريب.

هذه الحقيقة ينبغي أن ندركها جميعاً، وإذا عرفناها وأدركناها فلا شك أن من مقتضى إدراكنا لها أن نظل في كل الأحوال ملتجئين إلى الله عز وجل، في حال العافية، في حال الرخاء، في حال الغنى، في حال القوة، ذلك، لأننا مُعرَّضون لأن تغيب عنا هذه النعم ولأن نفاجَأ بنقائضها، فما بالك عندما يكون أحدنا مبتلى بمصيبة من هذه المصائب؟! ما بالك عندما يكون الإنسان أو المجتمع يعاني فعلاً من بعض هذه المصائب والرزايا، كيف يكون غافلاً عمن بيده عافيته؟! كيف يكون غافلاً عمن بيده إسعاده وإنقاذه من هذا البلاء الذي هو فيه؟!

تلك هي حالنا يا عباد الله في هذه المرحلة التي نمر بها، نحن لا أقول: مُعَرَّضون للمصائب، بل نحن نعاني من المصائب، وإنها لمصائب متنوعة مختلفة وكثيرة، ولعل من أبرزها وأوضحها لكل منا هذه المصيبة التي نمر بها في هذه الأيام، احتباس القطر عنا، البرد القارص وهي لازمة من لوازم الشتاء نعاني منه، ثمرة هذا البرد القارص مبتعدة عنها محجوبة عنا، نعاني من غرم الشتاء ولا نتمتع بشيء من مغانمه، كل منا يلاحظ هذه الظاهرة، أما برد الشتاء فواقع، بل واقع وشديد،وأما نعيم الشتاء المتمثل في أمطاره فبعيد ومحجوب عنا، على الرغم من بشائر الأرصاد الجوية التي تلقيتموها قبل عشرة أيام تقريباً، أرصاد،، وشأنها الكذب، وشأنها التوقّع، ولكنْ في الناس من يأبى أن يتلقى هذه التوقعات إلا على أنها حقائق علمية، وهذه مصيبة أخرى، ونظرْنا فوجدنا خيبة هؤلاء الذين أنبؤوا عن توقعاتهم، قالوا: إن دمشق سترتدي ثوباً أبيض من الثلوج في يوم كذا؛ وجاء ذلك اليوم وإذا هو يوم هارب من أيام الصيف، وها أنتم ترون النتائج، هذه الحالة التي نمر بها هي ليست حالة التعرُّض للبلاء، بل هي حالة المعاناة من المصائب والبلاء، فكيف يكون حال المسلمين عندما يكونون محجوبين عن الله، وعن الالتجاء إليه، وعن التضرع بين يديه، وعن الانكسار في الدعاء له حتى عندما يعانون من هذه المصيبة وأمثالها؟ في هذه الحالة تكون المخاوف من عقاب الله عز وجل العاجل مخاوف آنية وشديدة يا عباد الله، ينبغي أن نعلم ذلك.

في صُقع من أصقاع عالمنا العربي شَعَر أهله بحاجتهم إلى الأمطار فتداعوا إلى صلاة الاستسقاء وخرجوا في كل صُقع من أصقاع هذه الدولة إلى المصليات لأداء صلاة الاستسقاء، وكانت هذه الصلوات المتعددة في أماكن مختلفة بقيادة أولي الأمر فيها، كان ألو الأمر في الصفوف الأولى، وكان التضرع مهيمناً على الجميع، وكان الانكسار وارتفاع الأيدي المرتجفة بالدعاء إلى الله أيديَ الجميع، فماذا كانت النتيجة؟ قال الله لهم: لبيك، هطلت في تلك المناطق أمطار ما رأوا مثلها منذ سنوات طويلة، ولقد شهدت هذه الأمطار بعيني، هذه الحقيقة لم تعد محل ريب ولا محل شك يا عباد الله.

ولعل فينا من يقول: فلنتداعَ نحن أيضاً إلى صلاة الاستسقاء، نعم ينبغي أن نتداعى إليها، لكن أرأيتم إلى إنسان أقبل إلى المسجد ليصلي وهو غير متوضئ أفتُقبَل صلاته إن هو أسرع فوقف متجهاً إلى القبلة وكبر وركع وسجد دون أن يتوضأ؟ هذه صلاة في الشكل ولكنها عند الله ليست صلاة مقبولة، كذلكم صلاة الاستسقاء بين يديها شروط هامة، من أهم شروطها ردُّ المظالم، التوبة إلى الله بصدق، ثم

من أهم شروطها أن يكون القادة هم في مقدمة المصلين، وأن تكون الإمامة لهم، وأن يكون الناس جميعاً مقتدين بهم، فما ينبغي أن يغيب قادة الأمة عن باب الالتجاء إلى الله عز وجل، أما عندما تكون الصلاة شكلية، مظهراً من ركعاتٍ أو ركعتين يركعونها وكلمات يلقيها الخطيب ثم إنهم يتفرقون وقد وقر في نفوسهم أنهم أدوا صلاة الاستسقاء فما هي بصلاة الاستسقاء عند الله، لا بد من أن تُنَفَّذَ شروطها، نعم هكذا قال أئمتنا، وعندما صُلِّيَتْ صلاة الاستسقاء في عهد رسول الله كان الإمام فيهم رئيسَ الدولة، إمامَ المسلمين، وهو رسول الله، وعندما صلى عمر بن الخطاب، عندما دعا الناس إلى صلاة الاستسقاء كانت الصلاة بقيادة وإمامة أمير المؤمنين رئيس الدولة وهو عمر بن الخطاب، وما من عهد من العهود صُلِّيَتْ فيه صلاة الاستسقاء في تاريخنا الإسلامي الأغرّ إلا وكانت صلاة الاستسقاء بقيادة أئمة المسلمين وخلفائهم.

نعم، وقد حدَّثتكم عن عبد الرحمن الناصر، وهو خليفة المسلمين في الأندلس، عندما دعا إلى صلاة الاستسقاء ونظر القاضي وهو يلتفت يميناً وشمالاً فلم يره، طلب من مدير مكتبه أن يذهب وأن يقول له: إن القوم ينتظرونك ولن يصلوا حتى تأتي، فقال له: يا سيدي إن أمير المؤمنين مُنْتَبِذٌ في مكان متطرف هنا، وأشار له إلى المكان، فذهب وإذا هو يلبَس ثياباً رِثّة، وإذا هو يمرِّغ وجهه في التراب ويناجي الله قائلاً: يا رب،أتريد أن تهلك الرعية بسببي؟ هاأنذا ماثل بين يديك، تائب إليك، يا رب لا تهلك الرعية بسببي، لَمَّا رأى حالَه هذه رجع يقول إلى القوم: لقد سُقيتم، إذا خضع جبار الأرض رحم جبار السماء، هذه الحقيقة ليت أننا جميعاً نعلمها، ليت أننا جميعاً نتفاعل معها، وعندما ندرك هذه الحقيقة ونتقرب إلى الله عز وجل بقضِّنا وقضيضِنا متجهين إلى بابه، واقفين على أعتابه بانكسار وذل سيكرمنا الله عز وجل بالغيث النَّمير. أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

٤١٥- مقدمات صلاة الاستسقاء | ٢٠٠٩/١٠/٢٣

في الناس من يلّح على ضرورة التداعي إلى صلاة الاستسقاء، ولا شك أن صلاة الاستسقاء سنة ماضية إلى يوم القيامة دعا إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلاها، وصلاها كثير من الخلفاء عندما اقتضت الحاجة وفُتِحَ السبيل إلى ذلك، ولكن صلاة الاستسقاء كالصلوات المفروضة الأخرى لها مقدمات لا بد منها، هذه المقدمات بالنسبة لصلاة الاستسقاء كالروح من الجسد، فإذا لم تتحقق مقدماتها كانت صلاة الاستسقاء كجسد انفصلت عنه روحه.

صلاة الاستسقاء كالصلوات الأخرى، أرأيت إلى رجل أقبل يصلي قبل أن يتطهر، قبل أن يطهر ثيابه، قبل أن يتأكد من طهارة المكان الذي يقف عليه، قبل أن يتحرى القبلة فيتجه إليها، كذلكم صلاة الاستسقاء لا بد لقبول الله لها من أن تسري فيها روحها، وروحها هي الشروط التي أخبرنا عنها كتاب الله عز وجل، وبيَّنَها لنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، لا بد بين يديها من التوبة إلى الله عز وجل، ومن الاستغفار بين يدي الله سبحانه، ولا بد أن يعبّر المسلمون عن صدق توبتهم بالعود والاصطلاح مع الله سبحانه وتعالى، لا بد من أن يعيدوا الحقوق إلى أصحابها، حقوق الله عز وجل الضائعة ينبغي أن يتوب الإنسان منها، ويجدد البيعة مع الله عز وجل أنه لن يضيعها بعد اليوم، حقوق العباد ينبغي أن يعيدها إليهم كاملة غير منقوصة، وباختصار لا بد بين يدي صلاة الاستسقاء من الاصطلاح مجدداً مع الله سبحانه وتعالى، ومن تجديد البيعة مع الله عز وجل على كل المستويات، وعلى تفاوت الناس واختلافهم في الرتب.

هذه الحقيقة ينبغي أن نهتم بها قبل الاهتمام بالتداعي إلى صلاة الاستسقاء، وعجبي الذي لا ينتهي من أناس يلّحون ويلحفون في الدعوة إلى صلاة الاستسقاء ممثلة في ركعتين تصلى، وفي خطبة تلقى، أما الحديث عن الأسباب التي اقتضت احتباس المطر، أما التأمّل في الأسباب التي ينذرُنا الله سبحانه وتعالى بسببها بسنة من الجفاف لم يسبق لها ربما نظير، فهؤلاء عن ذلك كله معرضون، كل ما في الأمر أنهم

يتداعون إلى صلاة الاستسقاء، ولكن أعتقد أنا جميعاً نقرأ القرآن، فإن لم نكن ممن نقرؤه فنحن في أقل المراتب ممن يصغي إليه.

لقد قرأنا أو استمعنا إلى قول الله عز وجل: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً، يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً، وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً﴾ [نوح: ١٢]، لاحظوا الربط أيها الإخو ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً﴾ [نوح: ١٢]، لا بد من توفر الشرط كي ننتظر توفر الجزاء، ألم نقرأ أو نصغي إلى قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ﴾ [طه: ٨٢] ولكن لمن، يقول الله عز وجل: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: ٨٢]، لاحظوا الرابط بين المقدمة والنتيجة، لم يقل: وإني لغفار، وأطلق ولم يقيِّد، وإنما قال: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: ٨٢].

كثيرون هم الذين ينتظرون استجابة الدعاء بمجرد أن يرفع أحدهم كفيه إلى السماء ويسأل الله سبحانه وتعالى حاجاته ومتطلباته، ولكن قليلون هم الذين يتأملون في الشرط الذي نبَّهَنا إليه بيان الله عز وجل، تريد من الله عز وجل أن يستجيب دعاءك، إذن فاستجب طلبه يستجب الله عز وجل دعاءك ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦]. تريدون أن يستجيب ربكم الدعاء الذي تتوجهون به إليه، إذن فما عليكم إلا أن تستجيبوا أنتم أيضاً لما قد طلبه منكم، أما أن يطلب الله عز وجل مني أوامر يذكرني بضرورة تنفيذها فأعرض عنها، ويذكرني بها المرة تلو المرة وأعرض عنها، ويذكرني ويحذرني وأظل معرضاً عنها، ثم إنه تأتي ضائقة كهذه الضائقة التي نتحدث عنها، ونسمع أن الله عز وجل قد وعد عباده أن يتسجيب دعاءهم، فيرفع يديه إلى السماء يدعو الله سبحانه وتعالى، ثم إنه إن لم يجد الاستجابة، شكا وانتقد وقال: أين الاستجابة التي وعدنا بها الله عز وجل.

يا أيها الناس تأملوا في خطاب الله الذي أرسله الله عز وجل إلينا وتتدبروه ونفذوا أوامره ينفذ الله سبحانه وتعالى لكم ما قد وعدكم به ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾

[البقرة: ١٨٦] لكن ماذا قال بعد ذلك ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾ يستجيبوا لأوامري، دعوتهم إلى عبادات ما ينبغي أن يعرضوا عنها، دعوتهم إلى طاعاتٍ ودعوتهم إلى احترام شعائرها ما ينبغي أن يتساهلوا وأن يستخفوا فيها، دعوتهم إلى اتباع أحكام هي في مصالحهم، ولكنهم أعرضوا عن هذا وهذا وذاك، ثم راحوا يطالبون بحقوقهم.

لم يبتعد عهد رمضان عنا – أيها الإخوة – ولعلكم تذكرون الكثرة الكاثرة من الذين كانوا يتحدَّون شعيرة رمضان في الأسواق، في المقاهي، في المطاعم المفتحة الأبواب، في كثيرٍ من الدوائر، كلكم يذكر ذلك، هذه الحقيقة ينبغي – أيها الإخوة – أن نعلمها جيداً، وذكَّرْتُكُمْ في الأسبوع الماضي بقول الله عز وجل، وهو ليس خطاباً لبني إسرائيل فقط، وإنما هو خطاب لعباده جميعاً: ﴿أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠]، لي عليكم عهد بايعتموني عليه، وعدتموني بتنفيذه، متى؟ عندما قلتم: نحن مسلمون، نحن مؤمنون، عندما شهدتم أن لا إله لكم إلا هذا الإله الواحد، ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار: ٧]، إذن ما لكم لا توفون هذا العهد الذي طُوِّقَ في أعناقكم؟ إذن يوف الله سبحانه وتعالى عهدكم.

خرج المصطفى صلى الله عليه وسلم إلى الاستسقاء، وإنما حُبِسَتِ الأمطار في عهده تبييناً لنا، من أجل أن يعرفنا الباري عز وجل على سنته في معاملة عباده، بيّنها لنا في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، جعل من رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيلة إيضاح، وإلا فلم يكن في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الصحابة من أوغل في الإعراض عن حقوق الله، لكنها سنة أنبأَنا الله عز وجل بها بطريقة عملية، خرج صلى الله عليه وسلم يستسقي، جدد التوبة، وأمر أصحابه بذلك، استغفر الله، وأمر أصحابه بذلك، تذلل تذللاً عجيباً وهو يرفع يديه يبسطهما إلى سماء الله عز وجل، فاستجاب الله، وأصبح يدعو يقول: ﴿اللهم إلى الآكام والظراب وبطون الأودية، اللهم حوالينا ولا علينا﴾ أجل، وفي عهد عمر في عام الرمادة خرج عمر يستسقي، لكن بعد التوبة، وبعد الاستغفار، وبعد أن ذكَّرَ عمر المسلمين بأن يعودوا فيؤوبوا إلى الله، يؤدوا حقوق الله، يؤدوا حقوق عباد الله سبحانه وتعالى، وخرج عمر

يستسقي، وما أدراكم بالمنهج والشكل الذي كان عليه عمر وهو يستسقي، كم تذلّل، وكم كان في حالة انكسار ومسكنة وهو يدعو الله سبحانه وتعالى، استجاب الله دعاءه، وتحقق الأمل، وما من عهد من العهود آبَ فيه المسلمون إلى الله حقاً، وأصلحوا الفساد، وقوموا الاعوجاج، وآبوا وتابوا إلى الله عز وجل، ثم طرقوا باب الله عز وجل عن طريق الاستسقاء إلا أجابهم الله سبحانه وتعالى.

واليوم أيها الإخوة عندما يُطلب مني أن أقوم فأدعو أن نتداعى إلى صلاة الاستسقاء دون التفات إلى شروطها وإلى مقدماتها ما الذي أخشاه أيها الإخوة؟ أشد ما أخشاه أن ندعو الله دعاءً لم تتوفر شروط الاستجابة فيه، وعندئذٍ نتفرق دون أن نجد استجابة، وما أقرب أن يستغلها الشاردون عن دين الله، البعيدون عن الإيمان بالله، فيعلِّقون التعليقات التي تعرفون، يقول أحدهم: ها هم المشايخ قد اجتمعوا ودعوا، وها هي ذي السماء لا تزال كما هي.

لا نريد – أيها الإخوة – أن تكون صلاتنا بطريقة تثمر نقيض ما نريد، نريد إذا تداعينا إلى صلاة الاستسقاء أن تكون قيودها كلها وافرة، قال الفقهاء: يدعو إليها إمام المسلمين، ويأمرهم بالتوبة، وإعادة الحقوق إلى أصحابها، والرجوع إلى الله، والاصطلاح معه، الذي كان شارداً عن صلاته يعود فيتوب إلى الله ويبدأ فيصلي، الذي كان شارداً عن صيامه يؤوب إلى الله، الذي كان عاكفاً على فواحش أو على منكرات يؤوب ويعود إلى الله، كلٌّ يعاهد ربه عز وجل على التوبة والإنابة، ثم إنهم يجتمعون ويدعون دعاء العبد المنكسر الأواب إلى الله سبحانه وتعالى، ما أسرع ما يجد هؤلاء المسلمون الاستجابة.

أيها الإخوة هذه الحقيقة ينبغي أن نعلمها، المسكنة على باب الله عبادة وأي عبادة، انظروا إلى كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿اللهم أحييني مسكيناً، وتوفني مسكيناً، واحشرني في زمرة المساكين﴾، من المسكين؟ ليس المسكين هو الذي يطرق أبواب الناس، ويمد يد المسألة إليهم، لا أيها الإخوة، المسكين هو ذلك الذي يقف موقف انكسار ومسكنة وذل، لكن بين يدي خالقه عز وجل، المسكين هو ذاك الذي يقف موقف المضطر يسأل الله سبحانه وتعالى التوبة والإنابة، يعفِّر وجهه بالتراب تعبيراً عن ذله

وعبوديته لله عز وجل، هكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهكذا كان مظهره دائماً. ألسنا أتباع المصطفى عليه الصلاة والسلام؟

قلتها أكثر من مرة وأنا أقولها مرة أخرى: أيها الإخوة مشهدان اثنان كلٌّ منهما يبعث في نفسي نشوة ما مثلها نشوة، وسروراً ما بعده سرور، بل طرباً ما بعده من طرب، المشهد الأول مشهد إنسان أعرفه موغلاً في المعاصي، شارداً عن صراط الله عز وجل، متقلباً في حمأة الفواحش المختلفة ألواناً وأشكالاً، وأنظر إليه ذات يوم وإذا هو متبدّل متذلّل، يجلس في الصف الأول مع المصلين في مسجد من المساجد، أنظر إليه فلا تكاد عيناي تصدقان ما تريان، وإذا به قد آبَ وعاد إلى الله، هذا المنظر، هذا الذل الذي يتبدّى على كيان هذا الرجل، هذا الانكسار، هذه المسكنة التي يتوجه بها إلى الله عز وجل تبعث في نفسي نشوة ما مثلها نشوة، وأعتقد أنها تبعث في نفس كل منكم، المشهد الثاني مشهد إنسان أوتي بسطة من المال، وأوتي عزاً، وملّكه الله عز وجل ناصية حكم، إذا أمر نُفِّذَ أمره، وإذا حكم أُبْرِمَ حكمه، له السلطة المطلقة، وله القوة التي لا تقف عند حد، أنظر إليه في ساعةٍ كهذه الساعة، وإذا هو خاشع متبتل قد خلع من كيانه عوارض قوته وعزته وحكمه وما إلى ذلك، وتعرّى إلا من ذلِّ عبوديته لله عز وجل، أنظر إلى هذا المشهد فأطرب منه أيما طرب، ولا أريد أن أشبه هذا الطرب بشيءٍ ما ينبغي أن أقوله.

أيها الإخوة ما أحوجنا إلى هذا الذلِّ، ما أحوجنا إلى مسكنتنا بين يدي الله عز وجل، أقول لكم شيئاً: إن ربنا يغفر الذنوب كلها، يغفر الذنوب كلها على اختلافها، لكن بشرط واحد، أن يذيبها الإنسان بالمسكنة والذل الحقيقيين على باب الله عز وجل، أن يذيب الإنسان معاصيه بالألم من انحرافه عن الجادة التي أمره الله بالتزامها، أن يؤوب إلى الله وهو يقول إن بلسان حاله أو بلسان قوله: يا ربي أنا ضعيف، أنا لا أملك من أمر نفسي شيئاً، ما عصيتك حين عصيتك استكباراً على أمرك، ولكن لسابقة سبق بها قضاؤك، ها أنا ذا بين يديك، تبت إليك، لكن أعني يا رب العالمين، أُبْتُ إليك، لكن خذني إليك يا رب العالمين، خذني من نفسي يا رب العالمين، إن نفسي الأمارة تغلبت علي، وفقني اللهم للتغلب

عليها، كلنا بحاجة إلى هذا التذلل، نحن عبيد أيها الإخوة، قوانا عزتنا أموالنا كل ذلك عوارض ستمحى وتزول، وُجدنا في ضعف، وسنرحل إلى الله في ضعف، أما القوة التي بين ضعفين فإنها لعوارض، لا تغرنكم هذه العوارض أياً كنتم، إن أُبنا إلى الله بهذا الشكل سقانا الله، إن تبنا إلى الله، إن اصطلحنا مع الله عز وجل سقانا الله عز وجل، وتحول هذا الخوف الذي نراه من شتاء جافٍّ إلى بشائر.



٤١٦- مُطِرنَا بفضل الله وإحسانه | ٢٠٠٩/١٠/٣٠

روى البخاري في صحيحه من حديث زيد بن خالد الجهني قال: ﴿صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الفجر في الحديبية، فلما انصرف قال: هل تدرون ما قال ربكم الليلة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: قال الله عز وجل: أصبح الليلة من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مُطِرْنَا بفضل الله وإحسانه فهو مؤمن بي كافر بالكواكب، وأما من قال: مُطِرْنَا بنوء كذا ونوء كذا فهو كافر بي مؤمن بالكواكب﴾.

وأقول: أما نحن وقد أكرمنا الله عز وجل بفيض من رحمته وبمطر غامر من إحسانه، أما نحن فنقول: اللهم إنا مُطِرْنَا بفضلك وإحسانك وجودك، أكرمتنا بالعطاء ولسنا أهلاً له، أكرمتنا بالرزق الوفير ولم نؤدِّ شيئاً من حقوق ذلك في أعناقنا، استجبتَ الدعاء ولم نتحقق بعد بالشروط التي ينبغي أن تتوفر لاستجابة الدعاء، فأسألك اللهم أن تؤيِّدَنا عندك من المؤمنين الثابتين على إيمانهم، المستزيدين من دلائل قربهم منك، ومن مقومات رضاك عنهم، وإنا نعاهدك على أن نشكر نعمك الشكر الذي يرضيك عنا ولكنا في الوقت ذاته نعلن عن عجزنا الكلي، نعلن ألا حول لنا ولا قوة إلا بك، فنسألك اللهم يا أرحم من سُئِل ويا أكرم من أعطى أن تمدنا بمددك من عندك، وبتوفيق من لدنك حتى نشكرك دائماً ولا نبدل نعمك كفراً.

عباد الله، هذا الذي أقوله لا أقوله خطاباً لله عز وجل من نفسي أنا، أعتقد أنه ما منكم من أحدٍ إلا وهو يقول هذا الكلام خطاباً لربه إن بلسان حاله أو بلسان قوله، ما من مؤمن إلا ويَعِدُ الله عز وجل وهو يرى نعمه الغامرة بالشكر، ولكن ينبغي أن ألفت نظري وأنظاركم جميعاً إلى أن شكر الله عز وجل ليس كما يظنه بعض الناس كلمات تتردد على الألسن، ويعتاد الناس في تردادها مساء صباح في المناسبات المختلفة، حتى أصبحت هذه الألفاظ كلمات تقليدية اعتادت عليها الألسن دون أن تكون بينها وبين القلوب وبين الوعي أي صلة، لو كان الشكر هكذا لكان الناس كلُّهم أو جلُّهم شاكرين لله عز وجل، ولما قال الله سبحانه وتعالى في محكم تبيانه: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]، الشكر الذي

ينبغي أن نعاهد الله عز وجل عليه هو أن نجند النعم التي يغدقها علينا، وأن نسخرها لما يرضي الله سبحانه وتعالى، وألا نستعمل شيئاً منها فيما يغضب الله عز وجل وفيما يناقض أوامره ووصاياه التي يخاطبنا بها

هذه هي حقيقة الشكر يا عباد الله، تعالوا إذاً نعاهد الله عز وجل وقد أرانا من ذاته العلية صفحة الإكرام، صفحة الإنعام والصفح، أرانا الله عز وجل من ذاته العلية هذا المظهر، تعالوا نبادر إلى شكره، ولن نستطيع أن نؤدي حقوق هذا الشكر، ولكنا نعاهده ونتوّج عهدنا هذا بالاستعانة به، نستعينه، نلجأ إليه أن يُحيل ضعفنا قوة وعجزنا إرادة، تعالوا نكرر ونردد ما نقوله بين يدي مولانا في كل صلاة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، ظني الذي لا يخيب هو أننا إن عاهدنا الله عز وجل على شكر نعمه الشكر الذي يرضيه بالمعنى الذي ذكرته لكم، إن شكرنا الله عز وجل على نعمه، فلسوف تمتد سلسلة هذا العطاء ولن تنقطع، لسوف تمتد سلسلة هذه الأمطار سخية تهمي كرماً من سماء الله سبحانه وتعالى وفضله، ولسوف تتجاوب معه الأرض المعطاءة، ولسوف تتفجر الينابيع، ولسوف تعود الأنهار متألقة، ولسوف يعود ماضي بردى الأغر الذي كم وكم تغزل به الشعراء، لسوف يعود بردى عقداً يتألق في جيد دمشق، ولسوف تعود الأنهار المتفرعة منه معطاءة مغدقة تتسرب في بقايا غوطة دمشق، هذا هو ظني بالله عز وجل، ولن يَخِيب ظن العبد بالله، كيف وهو القائل في حديثه القدسي الصحيح: «أنا عند ظن عبدي بي»

ولكن يا عباد الله هل عسيتم إن أكرمنا الله عز وجل بذلك كله، واستمرت سلسلة العطاء، واستمرت سلسلة هذه الأمطار سخية، ورأينا الأنهر كيف عادت إلى أَلَقِها، ورأينا الينابيع كيف عادت فتفجرت من هنا وهناك، هل عسيتم أن تستيقظ بين جوانحكم المطامع، وأن يسيل اللعاب على الآمال والمطامع الدنيوية المختلفة، وأن تستجيبوا لوساوس الشياطين، سواء كانت شياطين إنس أو جن، وننظر فنجد من يعود فيبني على جوانب هذه الأنهر الأعشاش التي تستثير غضب الله سبحانه وتعالى، الأعشاش التي تتحدى نِعَمَ الله سبحانه وتعالى بالكفر، الأعشاش المحشوة بكل ما قد حرم الله سبحانه وتعالى ونهى عنه مما تعرفون ومما لا داعي إلى دخول في تفاصيله، هل عسيتم أن تكونوا ممن قال الله عز وجل عنهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ، جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ [ابراهيم:

٢٩]، أفترض هذا وأسأل الله عز وجل أن يجعلنا فوق هذا الاحتمال، وأن يجعلنا في نجوة من هذا الذي قد توسوس به إلينا شياطين الإنس والجن، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾

أي قابلوا نعمة الله التي أغدقها الله عليهم بالإعراض عن أوامره، بالجحود لنعمه، فاستغرقوا في حمأة الرذيلة، وتقلبوا في دنيا الشهوات والأهواء المحرمة. لا، أسأل الله سبحانه وتعالى ألا يجعلنا ممن عاهد الله ثم نكص على عقبه، أسأله عز وجل ألا يجعلنا ممن عاد فجدد البيعة مع الله، ثم كَذَبَ على الله سبحانه وتعالى، أسأل الله عز وجل ألا يجعل فينا من ينهج هذا المنهج، بل أسأله سبحانه أن يجعلنا ممن استجاب لقوله: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً، يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً، وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً﴾ [نوح: ١٢].

هذا أملي أيها الإخوة، بل أعتقد أن هذا هو أمل كل واحدٍ منا، قد نشكو العجز، ولكنا بوسعنا أن نتوّج عجزنا بالالتجاء إلى الله أن يبدل عجزنا قوة، وأن يبدل ضعف إرادتنا عزيمة، والله عز وجل يستجيب الدعاء.

يا عجباً أيها الإخوة لأناس - كما قلت - يسيل لعابهم على المطامع عندما يجدون نعم الله عز وجل تترى، إن هبوطاً من سمائه، أو تفجراً من أرضه، يسيل لعابهم على المطامع والآمال، فيحوّلون هذه النعم إلى أداة لما حرم الله، أداة للبغي، أداة للطغيان أملاً في رزقٍ ينالونه، أملاً في عطاءٍ يستثمرونه من الدخول في الأبواب التي حرمها الله سبحانه وتعالى، أغاب عنهم أن الرزاق واحد هو الله سبحانه؟! أغاب عنهم قول الله عز وجل: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ [العنكبوت: ١٧]؟! أغاب عنهم قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه:١٣٢]؟

قد طمع أناس فغامروا ودخلوا فيما حرم الله سبحانه وتعالى لأنهم رأوا نِعَم الله تتألق أمام أبصارهم، لأنهم رأوا الينابيع تتفجر، ولأنهم رأوا بردى يتألق ويفيض بمائه الغامر، طمعوا فماذا كانت النتيجة؟ بنوا أعشاشهم وفعلوا ما فعلوا فكانت عاقبة ما فعلوا خسراناً لهم ولأمتهم، غارت المياه، وجفت الينابيع، وانتهينا إلى الخسارة الفادحة التي تعرفون، وأصبح الإنسان ينظر إلى هذا النهر الغمر التاريخي إلى بردى

وقد تحول إلى كتل من الوحل منتنة، وتحول إلى مثابة للجرذان، هذه هي نتيجة البغي، هذه هي نتيجة من بدل نعمة الله سبحانه وتعالى كفراً.

أذكّركم يا عباد الله بما قاله الله عز وجل لبني إسرائيل، وإنما أخبرنا بما قاله لهم عبرة لنا: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾ [طه: ٨١]

هوى إلى الشقاء في الدنيا وفي الآخرة، لماذا نطمع في الرزق الوفير من بابٍ غير بابه وندع الباب الذي فتحه الله عز وجل لنا برزق لا ينفد؟! سلوا – يا عباد الله – الذين كانوا عاكفين على محرمات في مطاعمهم أو في مقاهيهم ثم تابوا وآبوا إلى الله عز وجل، سلوهم كيف ضاعف الله لهم الربح؟ سلوهم كيف أكرمهم الله عز وجل بأكثر مما توقعوه من الرزق؟ لعلي حدَّثْتُ مرةً عن بعض الفنادق ذات النجوم الخمسة في تركية هدى الله سبحانه وتعالى أربابها إلى الالتفات إلى الله، وإلى التوبة إليه، وإلى تجديد البيعة معه، طهَّرَ كلٌّ منهم فندقه هذا من المحرمات، طهروها من الخمور، جعلوا أحواض السباحة منفصلة ما بين الرجل والمرأة، فتحوا في فنادقهم هذه مُصَلَّيَاتٍ حضارية لكل من يريد أن يُقْبِلَ فيؤدي حقوق الله عز وجل في ليلٍ أو نهار، فماذا كانت النتيجة؟ كان هناك مَنْ حذَّر أنهم سيخسرون، وأنهم سيقعون في حمأة الإفلاس، ولكن الله عز وجل أكرمهم بأضعاف أضعاف ما توقعوه، جاءهم الجواب من عند الله القائل: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ [العنكبوت: ١٧]

وها هي ذي هذه الحقيقة تنطق على رؤوس الأشهاد، بوسع كل منكم أن يتبين تفاصيلها، أقول هذا كله لنزداد إيماناً بالله، ولنزداد ثقة بعطائه، ثم لنزداد تمسكاً بأوامره وابتعاداً عن نواهيه، مستعينين بالله، ملتجئين إليه، إن نحن فعلنا هذا وثبتنا على هذا المنوال فلا ريب أيها الإخوة أن قطر السماء لن ينقطع، وأن نعم الله ستهمي من سمائه، وتتفجر من أرضه، وأن نعمتين سيلتقيان على غدقٍ من الرزق لهذه الأمة، ولكن إن اتخذنا من نِعَم الله سَكَرَاً، وإن جعلنا من نعم الله سبباً لبطر، سبباً لعكوفٍ على البغي والطغيان والمعاصي، فلنعلم أن العطاء سيتحول إلى نقيضه.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يتمم فضله، اللهم كما رزقتنا النعمة من سمائك، فنسألك اللهم أن تقدرنا على شكرك، نسألك اللهم أن تبدل عجزنا قوة، وأن تغرس في كيان كلٍّ منا قوة الإرادة، وأن تملأ

قلوبنا حباً لك، وتعظيماً لذاتك العلية، وخوفاً مما تهدد به عبادك الجانحين عن دينك وصراطك، أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم.



٤١٧- المعاصي التي تُرْتَكَب في المجتمع بدافع الاستكبار: مشكلة وعلاج | ٢٠١٠/١١/٠٥

إن المعاصي التي يتورط فيها المسلمون تنقسم إلى قسمين اثنين:

أما القسم الأول منهما فمعاصي فردية يتورط فيها المسلم بسائق من ضعفه وبدافع من تغلب نفسه الأمارة عليه، يرتكب هذه المعاصي وهو شاعر بالألم وشاعر بالندم والخجل من الله عز وجل، والغالب أن هذه المعاصي تُغْتَفَرُ لأصحابها، وفي هذا النوع من المعاصي يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]

هذا ما لم يكن في هذا النوع من المعاصي ما يتضمن إهداراً لحقٍّ من حقوق الآخرين فالمغفرة في هذه الحال منوطة بإعادة الحقوق إلى أصحابها

وأما القسم الثاني من المعاصي التي قد يتورط فيها المسلمون فهي تلك المعاصي التي تُرْتَكَبُ مع التبرير لها ومع التباهي بها ومع الإصرار عليها دون الالتفات إلى نصيحة الناصحين أو إنذار المنذرين أو تخويف النذر الآتية من عند الله سبحانه وتعالى. هذا النوع من المعاصي إن استحر بالمجتمع وتكاثر واستمر يحمل في داخله نذيراً لعقابٍ مخيفٍ وشديد، وعن هذا النوع من المعاصي يقول ربنا سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ. وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ. لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٦٥-٦٧]

عباد الله: إننا نعاني في هذا العصر من كثير من المعاصي التي تدخل في هذا النوع الثاني، إننا نعاني من معاصٍ تُرتكب مع التباهي بها ومع الإصرار عليها ومع التبرير لها دون الالتفات إلى النذر التي تأتي

من عند رب العالمين، دون الالتفات إلى نصيحة ناصحين أو إنكار منكرين. إن هذا اللون من المعاصي يحمل في داخله أخطاراً كبيرة، أخطاراً ماحقة لعل هذا الجفاف الذي نعانيه اليوم بعضٌ – لا كل – من نتائج وآثار هذا اللون من المعاصي التي تُرتكب. ومثل هذه المعاصي – يا عباد الله – إذا استحر في المجتمع بهذا الشكل لا تنفع فيه آنذاك دعاء الأفراد مهما ابتهلوا إلى الله ومهما تضرعوا، ولقد ذكَّرْتُكُم في الأسبوع الماضي بالأثر القائل: يأتي على الناس زمان يدعو فيه الرجل لخاصة نفسه فيستجاب له ويدعو لعامة المسلمين فلا يستجاب له، ذلك لأن المعاصي التي ترتكب في المجتمع ولا تكون بسائق من ضعف ولا تكون بدافع من تغلب النفس ورعوناتها وإنما تكون بدافع من الاستكبار ومن التبرير ومن التباهي بها لا يقبل الله عز وجل فيها دعاء الأفراد من الناس، تلك هي سنة من سنن رب العالمين أنبأنا عنها في محكم تبيانه.

ولقد ذُكِّرْتُ كما ذُكِّرَ كثيرٌ من أمثالي بضرورة اللجوء إلى الاستسقاء في سبيل رفع هذا البلاء، في سبيل أن يُحَوِّلَ الله عز وجل جفافنا الخطير هذا إلى رزقٍ يهمي من السماء وينبع من الأرض ولكني قلت وأقول – يا عباد الله – إن الاستسقاء له شروطه التي أمر بها الله ولا يُقْبَلُ الاستسقاء من دون وفرةٍ لشروطه، أرأيتم إلى الذي يصلي أيكفي أن يستقبل القبلة ثم يكبر تكبيرة الإحرام وإذا بصلاته قد قُبِلَتْ دون أن يلتفت إلى شرائط الصلاة التي تعرفون فالاستسقاء كذلك.

يذكر الفقهاء – وأنا أوضح لكم بهذه المناسبة – أن الاستسقاء يتم بالشكل التالي

يدعو ولي أمر المسلمين – أو من ينوب منابه – يدعو الناس إلى التوبة أولاً من سائر المعاصي بقسميها ويدعوهم إلى رد المظالم لأصحابها، يدعوهم إلى صيام أربعة أيام والخروج في اليوم الرابع إلى المصلى في الأرض العراء أو إلى المسجد الجامع فيستجيب الناس منضبطين بهذه الشروط ويبتهلون ويتضرعون ولابد أن تتحقق الاستجابة ونحن إذا عدنا إلى التاريخ نجد أنفسنا أمام عشرات الصور لأقوامٍ من أمثالنا ابتلوا بمثل هذا الجدب والقحط فطرقوا باب الرحمة الإلهية عن طريق صلاة الاستسقاء ملتزمين

بشروطها التامة، سرعان ما أنجدهم الله، سرعان ما جاء الجواب فعلاً يقول بلسان الحال لبيك، نعم، وإليكم هذه الصورة من عشرات الصور الإيجابية.

عبد الرحمن الناصر – خليفة المسلمين في دولة بني أمية في الأندلس في أوائل القرن الرابع – مُنِيَ المسلمون تحت سلطانه بجفاف كهذا الجفاف وبقحطٍ مثل هذا القحط فأمر قاضيه المنذرَ بنَ سعيد أن يدعو الناس باسمه إلى صلاة الاستسقاء بالشروط التي ذكرتها لكم. ونفَّذَ قاضيه المنذرُ بنُ سعيد ما طُلِبَ منه. واجتمع الناس في الأرض العراء في ثياب بذلة يلتجئون إلى الله. والتفت المنذرُ بنُ سعيد يميناً وشمالاً فلم يجد أميرَ المؤمنين عبدَ الرحمن الناصر فقال لنائبه اذهب وقل لأمير المؤمنين إن القوم ينتظرونك ولن يصلوا حتى تأتي فتكون معهم. قال له: يا سيدي إن أمير المؤمنين هاهنا منعزل في مكان فمضى المنذر بن سعيد إلى حيث أشار نائبه وإذا بأمير المؤمنين منتبذاً أرضاً بعيدة قد افترش التراب ومرَّغ رأسه ولحيته بالأرض وتربتها يبكي ويقول: أي رب هذه ناصيتي بين يديك، أتراك تهلك الرعية بسببي وأنا عبدك البائس العاصي، هاأنذا تائبٌ إليك هاأنذا مقبل إليك. وقف المنذر بن سعيد ينظر إلى خشيته وبكائه وقد ارتدى ثياباً بذلة، عاد إلى القوم وقد استبطؤوه، قال لهم: انصرفوا أيها الناس فقد أُذِنْتُم بالسقيا، إذا خضع جبار الأرض رَحِمَ جبار السماء. وما كان الناس ينصرفون حتى أذن الله عز وجل لسمائه بأن تهمي أمطاراً ساعاتٍ طوال وأذن الله عز وجل لأرضه أن تعود فتنبت. صورة واحدة من عشرات الصور.

تعالوا ننفذ هذه الشروط ولسوف تجدون أن هذا الجفاف تحول إلى رزقٍ وفير من السماء أمطاراً ومن الأرض رزقاً ونباتاً، ولكن هل شعرتم بالخطر المحدق بنا اليوم؟ هل علمتم أن أكبر الينابيع التي يكرمنا الله عز وجل بها يتناقص بسرعة مذهلة؟ هل تعلمون إل ما سيؤول حال هذا الينبوع الكبير الكبير الذي يسقي دمشق بفضل من الله ورحمةٍ وإحسان هل تعلمون إلى ما سيؤول أمره إذا بقي الجفاف عشرين يوماً أو شهراً كاملاً آخر.

ينبغي أن نستيقظ وينبغي أن نعود فنتلمَّس حقائق هوياتنا عبيداً لله، ينبغي أن نضع هويتنا هذه موضع التنفيذ قبل فوات الأوان، ينبغي أن نتوب ونؤوب، ينبغي أن نلتجئ إلى الله، ينبغي أن نقلع عن

المعاصي بنوعيها؛ المعاصي الفردية التي تقع بسائق من ضعف نفوسنا والتي قد تُرْتَكَبُ جهراً ومع التباهي بها ومع الدفاع عنها فإن نحن أُبْنَا إلى الله وتبنا إليه أصلح الله أمرنا وتحولت هذه الحال المخيفة إلى حالٍ أخرى يبرز فيها إحسان الله عز وجل وفضله.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم فاستغفروه يغفر لكم.





مناسبات متفرقة

٤١٨- [رأس السنة الميلادية] عندما يكون الفرح بالأنبياء سبباً لسخط الله | ١٩٨٧/١٢/١٨

ما من ريب أن الله عز وجل أنزل على عباده ديناً واحداً منذ أن خلق سيدنا آدم عليه الصلاة والسلام وجعله أول نبي يوحى إليه إلى أن ختم النبوات والرسالات ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم وكيف لا يكون الأمر كذلك وربنا عز وجل هو القائل في محكم كتابه: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾.

بل كيف لا يكون الأمر كذلك وربنا عز وجل هو القائل: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ﴾ وهو القائل ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا﴾، ومن ثمَّ فقد كان حقاً على كلِ من آمنَ باللهِ عز وجل أن يؤمنْ بنبوةِ سائرِ الرسلِ والأنبياء، وأن يعلمَ ما قالهُ اللهُ عز وجل ويوقنَ به من مثل قوله عز وجل: ﴿لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾. وكان حقاً على كل مؤمنٍ بالله عز وجل أن يحتفيَ ببعثة سائر الرسل والأنبياء، وأن يعرف لكلٍ مكانته ومنزلته عند الله سبحانه وتعالى.

وإذا كان الأمرُ كذلك فكيفَ لا يفرحُ الإنسانُ المؤمن بالله ورسوله بل رسله، عندما يمر بمناسبة يتذكر فيها ولادة سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام، ويتذكر فيها رحمة الله سبحانه وتعالى المهداة إلى عباده في مرحلةٍ من مراحل الحياة هذه وعلى فترة من الرسل، إذ أكرم الله هذه الخليقة ببعثة نبي جعل الله سبحانه وتعالى، من ولادته برهاناً ساطعاً من البراهين الدالة على ألوهية الله سبحانه وتعالى ووحدانيته؛ بل كيف لا يشعر المؤمن بالله ورسوله بالسرور والفرح، وبتجدد هذه المحبة لسيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام ولسائر الرسل والأنبياء وقد أشربنا القرآن حب هؤلاء الرسل جميعاً بعد حب رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم، ولقد ذكرت لكم من قبل بمناسبة أن رسولنا صلى الله عليه وسلم عندما هاجر إلى المدينة وسمع أن اليهود يصومون يوم عاشوراء، وسأل لماذا يصومون هذا اليوم قيل له: لأنه يوم أنجى موسى من فرعون، فقال عليه الصلاة والسلام: ﴿نحن أحق بموسى منهم﴾ وأمر رسول الله منادياً ينادي بين الناس ﴿ألا من

لم يكن قد صام هذا اليوم فليمسك بقيت النهار ومن كان قد صام فليتم صومه﴾ ومضت تلك سنة من سنن المصطفى صلى الله عليه وسلم بصوم يوم عاشوراء.

ولكن يا عباد الله ما أبعد ما ابتدعه كثيرٌ من الناس – لاسيما من أهل الغرب والبلاد البعيدة عن الدين كله إجمالاً – ما أبعد ما ابتدعه أولئك الناس في يوم مولد سيدنا عيسى عليه الصلاة السلام، ولدى استقبال عام وتوديع عامٍ آخر من الأعوام الميلادية هذه، ما أبعد ما ابتدعوه واخترعوه عما يحبه عيسى عليه الصلاة والسلام، وعما جاء به عيسى عليه الصلاة والسلام.

كل ما يرضي سيدنا عيسى موضوع على العين والرأس، وكل ما يتقرب به الإنسان إلى الله في يوم من أيام الدهر يذكر ببعثة نبي من الأنبياء أياً كان موضوعٌ على العين والرأس، ولو أن هؤلاء الذين يتظاهرون باتباعهم لعيسى عليه الصلاة والسلام عادوا في هذا اليوم إلى عبادة يعبدون الله عز وجل فيه إلى ذكرٍ لله عز وجل لقلنا كما قال رسولنا الحبيب المصطفى عليه الصلاة والسلام لما سمع عن صوم يوم عاشوراء إذ يصومه اليهود، لقلنا نحن أحق بعيسى منهم وتسابقنا معهم إلى مرضاة الله في مرضاة عيسى عليه الصلاة والسلام، ولكن ما علاقة هذا الذي بُعث به الرسل والأنبياء جميعاً – فضلاً عن سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام – بل ما علاقة ما شرعه الله عز وجل وحياً أنزله على أيٍ من الرسل والأنبياء بما قد يتم من تقاليد ومظاهر تعرفونها في ذلك اليوم؟ أين هو وجه العبودية لله في ذلك؟ أين هو وجه طواعية الله سبحانه وتعالى في ذلك؟

وكلكم يعرف هذه التقاليد الآسنة، وكلكم يعرف هذه العادات التي لا فائدة فيها إلا للنفس وغرائزها وشهواتها، وليس لها من فائدة تعود إلى دين الله أبداً، وليس لها من فائدة تعود إلى شيءٍ مما بعث به عيسى عليه الصلاة والسلام أبداً، وإذا كان هذا الأمر واضحاً وإننا لنكرر هذا الكلام بشكل أو بآخر في كل عام في مثل هذه المناسبة، فما أحرى أن نعود فنعلم أن التقليد بمعناه الذي تعرفون شيءٌ جاء الدين بإبطاله، وعلّمنا الله سبحانه وتعالى أن نتحرر منه، وما الدين الإسلامي؛ بل أقول ما الدين الذي ابتعث الله به الرسل والأنبياء جميعاً – وهو الإسلام ولا شيء غير الإسلام – ما الدين الذي ابتعث الله به رسله وأنبياءه في جملته وتفصيله إلا تحرير للعقول من التقاليد والقيود التي تصفد العقول في الأغلال. وقديماً عندما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم المشركين يعكفون على تقاليد لهم بعيداً عن تحكيم

العقل والفكر، ناقشهم الرسول صلى الله عليه وسلم في هذه التقاليد وأنزل الله سبحانه وتعالى عليه قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾.

هذا هو دين الله دين يحرر الإنسان من الأصفاد والأغلال ويدعوه إلى أن يرتفع ويرتقي إلى مستوى العقل الذي متعه الله به، فجعله بذلك ممتازاً على الخليقة كلها، هذه التقاليد هي نفسها التقاليد التي يجنح إليها أولئك الناس يوم عيد الميلاد أو ليلة رأس السنة الميلادية، وما أغرب وما أعجب موقف مسلمين تجدهم ينصاعون انصياع الذليل، ويتسابقون مسابقة النعاج إلى هذه التقاليد الآسنة التي لا معنى لها، لو أن نسباً كان موصولاً بينها وبين عيسى عليه الصلاة والسلام لتسابقنا جميعاً إلى ذلك، ولكن جميعنا نعلم، وأهل الغرب يعلم والشرق يعلمون أن هذه عادات تقليدية درج عليها الناس في بيوتهم، مظاهر وكلكم يعلم هذه المظاهر، ما لنا ومالها؟ ما شأننا بها؟ ولقد قال ربنا سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء﴾ وقال الله سبحانه وتعالى في محكم كتابه: ﴿لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً﴾.

لماذا يمرُّ أحدنا في الأسواق في مثل هذه الأيام ويلتفت يميناً وشمالاً إلى واجهة المحالّ المختلفة المتنوعة فيتخيل إليه أنه يسير في شارع من شوارع أوربة، الشعارات ذاتها والكلمات التقليدية ذاتها والقطن ذاته والمظاهر ذاتها، فيم؟ ولماذا؟ أليس هذا دليلاً على مكمن الذل في حياتنا؟ أليس هذا دليلاً كما يقول ابن خلدون: (على أن المغلوب المقهور ذليل يشعر دائماً في السعادة في إتباعه لغالبه)؟ لماذا نحب أن نسم جباهنا بميسم الذل؟ هذا بعد أن بين الله سبحانه وتعالى لنا وشرح.

يقول لي قائل: (إنه ارتزاق واكتساب) باب رزق، باب الرزق أُغلق أمامك فلم تجد سبيلاً تتأمله من عند ربك ولم تجد من سبيل تتأمله إلا في اتباع وتقليد من نهاك الله عن تقليدهم!! أيُّ باب رزق هذا؟! أين بقي الإيمان إذاً؟ أين بقي من معناً للتوكل على الله الذي قال في محكم كتابه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ، مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾، وليت أن الأمر وقف عند هذه المظاهر والزخارف، مع أنها أمور خطيرة كما قرر علماء الشريعة الإسلامية

في ذلك، ولكن مع ذلك فإن الأمور لا تقف عند هذا الحد، انظروا وتأملوا وتصوروا ما الذي يجري في البيوت وفي الشوارع وفي الأماكن العامة في ليلة رأس السنة الميلادية.

في الغرب يتطوحون ويسكرون إذاً ينبغي أن يكون هنا التطوح ذاته، هنالك يضيعون كذلك ينبغي أن يكون الضياع ذاته. هنالك يبكي الواحد منهم على عمرٍ سنة كاملة مضت، ويشم رائحة الموت في العمر الآتي فلا يجد سبيل ليغالب الموت الذي يغالب رائحته إلا أن يغرق نفسه في مزيد من الإباحية، ومزيد من التقلب في الشهوات الآسنة إذاً كذلك نحن هنا ينبغي أن نصنع الأمر ذاته، كذلك نودع العام الماضي بالحسرة والأسى ونستقبل العام المقبل بمزيد من التمرغ ومزيد من الاختناق في الشهوات الآسنة، أيُّ تقليد هذا؟ ما هو الموقف الذي يقفه أولئك إن في أقصى الغرب أو في أي مكان آخر، ما هو الموقف الذي يقفونه منا عندما يجدوننا ذيليين لهم، أتباعاً أذلةً لهم، مهما صنعوا فعلنا مثلهم، مهما أخطأوا كررنا أخطاءهم، أيَّ صورة يرونها فينا، وكيف يزدروننا؟

هذا إن لم نكن نخشى من عقاب الله، هذا إن لم يكن لدينا من الاعتزاز بدين الله الذي ابتعث الله به موسى وعيسى و إبراهيم والأنبياء جميعاً، وتوجهم بخاتمة الرسل والأنبياء محمد عليه الصلاة والسلام، إن لم نكن نعتز بشرف هذا الدين الذي رفعنا الله عز وجل إلى سدته فلنعد إلى مكان العزة في كياننا كيف تمزق؟ بل كيف مزقناه نحن بأيدينا؟! لا يمكن لأمة ترانا نتبعها إتباع الذليل الأعمى وننقاد لها وراء دون أي بصيرة لا يمكن أن تحترمنا، لا يمكن أن تقدرنا وما أكثرَ ما قرأنا لهم كتاباتٍ نشرت تعبر عن ازدراءٍ عجيبٍ لنا، وقديماً قال المثل العربي: (المرء حيث يضع نفسه)، فإن وضع الإنسان نفسه موضع المتبوع اتبعه الناس، وإن وضع نفسه موضع التابع قاده الناس، ففي أي مكان ينبغي أن نضع أنفسنا فيه وقد رفعنا الله عز وجل وجعلنا خير أمة أخرجت للناس وأكرمنا بكل مقومات الإعزاز؟

فلئن وضعنا أنفسنا في المكانة التي وضعنا الله فيها فلسوف ترون كيف تتحول الأمم المحيطة بنا لتكون أتباعاً لكم، أما إن أردنا أن ننكص على أعقابنا ونلوي رؤوسنا ذلاً وننصاع وراء أولئك الآخرين في مثل هذه المناسبات إمعاناً في التقليد، أي تقليد؟ التقليد السخيف الذي لا يقره عقل لا يقره منطق لا يقره خُلق، إن هو إلا الضياع، نعم إن أردنا أن نمعن في هذا الموقف الذليل المهين، فإننا بهذا نضع في

أعناقنا الزمام، ونعطي طرف الزمام لأولئك الناس ليقودونا إلى حيث يشاؤون، وذل الدنيا لا قيمة له أمام ذل الآخرة، وذل الدنيا عرض زائل أمام ذلٍ أشد وأبقى.



٤١٩- [الكوارث] الزلازل.. لتنبه الغافل ويتوب العاصي | ١٩٩٧/٠٣/٢٨

إن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان ضعيفاً، وأعلن عن ذلك في محكم تبيانه عندما قال: ﴿وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾، والضعف الذي يعنيه بيان الله عز وجل ليس ضعفاً جسمانياً فقط، لكنه الضعف الشامل للكيان كله، بما فيه ما حمل من غرائز وأهواء وشهوات، ومن ثم فليس الغريب أن ينحرف الإنسان المسلم بين الحين والآخر إلى معصية أو أن ينسى فيرتكب موبقة أو أن تجمح به أهواؤه وغرائزه فينحرف عن جادة الاستقامة. ولقد قال المصطفى صلى الله عليه وسلم: ﴿كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون﴾. ولكن العجيب في حال الإنسان إذا عصى الله سبحانه وتعالى وذُكر بآيات الله عز وجل مرة إثر أخرى أن لا يتأثر لهذه المذكرات، وأن لا يرعوي وأن لا يهتز منه الشعور ولا الفؤاد، هذا هو الأمر الغريب في حال الإنسان.

أي ليس العجيب أن يعصي الإنسان ربه بين الحين والآخر، ولكن العجيب من حاله أن تدرك فؤاده القسوة، حتى يصبح وكأنه جلمود من صخر، لا يتأثر لتذكرة ولا يرعوي لآية من آيات الله سبحانه وتعالى، ويصدق على هذا الإنسان عندئذٍ قول الله عز وجل: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عمّا تعملون﴾ وهذا يعني أن الإنسان يتحول في مثل هذه الأحوال إلى وضعٍ يكون فؤاده أقسى حتى من الحجارة كما هو واضح من كلام الله سبحانه وتعالى.

هذه الظاهرة المؤلمة نتذكرها عندما تترى آيات الله سبحانه وتعالى المخيفة والمنبهة، وننظر ونلتفت فقلَّ ما نجد من يتنبه ويتذكر، هذه الزلازل المتلاحقة التي رأيناها وشعرنا بها ماذا تركت من آثار العودة إلى الله عز وجل، وماذا فعلت في أفئدتنا من واجب الإرعواء والعودة إلى الله عز وجل والشعور بالمخافة من عقابه والتبتل بين يديه والتوبة إليه، لن تفعل هذه الظاهرة شيئاً إلا ما ندر.

رأينا وسمعنا من ينصح وينبه الناس عندما تفاجئهم هذه الحالة المخيفة كيف يصنعون وكيف يلجؤون وكيف يفرون، وإلى أي دعامة يلتجؤون، وكيف يتعدون عن الأماكن المعينة، وكيف يتركون حمل الأشياء الثقيلة... كلام غريب مضحك.

أهذا هو كل ما نبهتكم إليه هذه الآية الربانية المخيفة؟!

أفهذا هو كل ما قد تنبهت إليه عقولكم من الأمور التي ينبغي أن تثمرها هذه العظة الربانية؟! وشر البلية كما قالوا، تلك البلية التي تضحك.

وأعتقد أنه ما من إنسانٍ سمع هذه النصائح التي لا يمكن أن يلتفت إليها أحدٌ في هذه الحالة الداهمة التي لا تبقى أكثر من ثوانٍ، ما أتصور أن إنساناً سمع هذا إلا وقهقه من الضحك. وهل هنالك فرصة عندما تحيق بالإنسان هذه الآية الربانية المخيفة؟! هل هنالك فرصة ليخطط الإنسان من خلالها السعي إلى هذه النصائح الذهبية الثمينة؟

عندما يقضي الله عز وجل قضاؤه المبرم في حق آلاف مؤلفة من عباده، فإن المسألة لا تتحمل أكثر من بضعة ثوان. من الذي يستطيع خلال هذه الثواني أن يعود إلى وصفة النصائح الثمينة هذه ليطبقها؟ !

ألم يكن خيراً من هذه النصائح التي أضحكت كثيراً من الناس فعلاً، ألم يكن خيراً من ذلك أن يتجه هؤلاء الناصحون إلى أنفسهم وإلى إخوانهم جميعاً يُذكرونهم بالله الذي يُحذر ويُنذر بمثل هذه الآيات؟! يخيفونهم من عقاب الله يدعونهم إلى الإنابة يدعونهم إلى التوبة والرجوع إلى الله سبحانه وتعالى يدعونهم إلى ساعةٍ قدسية من نقد الذات.

كيف كانت حالنا وكيف يصبح أمرنا الآن؟ وكيف ينبغي أن نتوب إلى الله ونصطلح معه؟ أليس خيراً من تلك النصائح التي لا يمكن أن يتبينها وأن يتنبه إليها أحدٌ عندما يحيق ذلك الخطر ألم يكن خير من ذلك هذا التنبيه الذي ما أنزل الله هذه الآية إلا من أجل أن نرعوي إليه .

أيها الإخوة كم وكم سمعنا من يتباهون بالعلم، بل كم رأينا من أسكرهم اليسير اليسير عن الحقيقة الكبيرة المتمثلة في قيومية الله سبحانه وتعالى لهذا الكون، وكم سمعنا كلام هؤلاء السكارى المكرر:

إن العلم لم يعد بحاجة إلى دينٍ وإيمان، إن العلم هو الذي يتحكم في حياة الإنسان، كان الناس فيما مضى يلجؤون إلى الغيب لأنهم كانوا جاهلين ولم يكونوا قد هيمنوا على الطبيعة كما نهيمن اليوم نحن.

لعل السكارى لا يقولون مثل هذا الكلام أبداً، ولعل ألسنتهم لا تنطق بمثل هذا الهذيان أبداً، ها هي ذي هذه الزلازل، ماذا فعل العلم لتحصين الإنسانية ضدها؟ سلو الأرصاد في العالم كله من هم الذين يستطيعون مستعينين بكل الوسائل وبكل الأجهزة وبكل الأرصاد التي تتحسس الأنباء قبل وقوعها. من هو هذا الذي يستطيع أن يتنبأ بزلزال سيقع؟ إطلاقاً، لم يستطع إلى الآن أحد مستعيناً بالعالم كله أن يشم رائحة واقع من هذا القبيل قبل حدوثه. وكم عقدت مؤتمرات في شرق العالم الغربي وغربه كم عقدت مؤتمرات للبحث في مصدر هذه الزلازل وفي سبيلٍ ما يمكن أن يتبينه الإنسان ليتبين هذه الزلازل قبل وقوعها، أو ليقف على بعض الإشارات أو بعض الدلائل عليها قبل مجيئها، فلم يصلوا من بحوثهم إلى أي شيء .

وها هي ذي العلوم تتنامى، وها هي ذي تسكر أصحابها، ولكنهم لم يستطيعوا أن يفيدوا من علومهم شيئاً، بل بقيت الحيوانات العجماوات أكثر علم بهذه القضية. ولعلكم تعلمون أن الله سبحانه وتعالى يُطلع الحيوانات أو كثيراً من الحيوانات على هذه الأحداث قبل وقوعها. فالحيوانات تتطلع بإطلاع الله عز وجل إياها على ما سيقع من زلازل قبل أن تقع هذه الزلازل.

وقد حدثني بعض الإخوة عن ذلك الزلزال الذي وقع قبل حين في القاهرة، قال: كنت أنا وزمرةً من الأصدقاء نجوب في حديقة الحيوانات، وبينما نحن نجوب فيها في نزهة نمضي نهارنا في تلك الحديقة إذا بأصوات غريبة ترتفع من تلك الوحوش في سائر تلك الجهات، كل تلك الوحوش على اختلافها تصيح صيحات منكرة غريبة وعجيبة مما جعل المتنزهين بين تلك الحيوانات لا يعجبون فقط بل يخافون أيضاً، وما هي إلا دقائق مرت حتى وقع ذلك الزلزال المخيف الذي سمعتم به في القاهرة، لا الأرصاد شعرت ولا العلماء استطاعوا أن يعلموا شيئاً من ذلك بعلومهم، ولا المتنبئون المنجمون استطاعوا أن يعلموا هذا بالغيب الذي يزعمون أنهم يعرفونه، ولا الذين يزعمون أن بينهم وبين طائفة من الجان صلات، وأنهم يستطيعون أن يعلموا الحقائق قبل وقوعها، لا يستطيع أحد من هؤلاء الناس أن يدرك ما الذي سيقع بعد حين، ولكن الحيوانات العجماوات أطلعها الله سبحانه وتعالى على هذا الأمر.

ألم يكن من الواجب أيها الإخوة وقد رأيتم سلسلة هذه الزلازل التي مرت بنا مر الكرام، مرت بنا لتذكرنا دون أن تعطبنا، مرت بنا لتوقظنا دون أن ترعبنا، وكم هو مظهر للطف العظيم من الله سبحانه وتعالى أن يمر بنا الأمر على هذه الشاكلة اللطيفة.

ألم يكن من مقتضى الإنسانية بل من مقتضى ما يتمتع به الإنسان من شعور ومن قلبٍ رقيق، نضرب الأمثلة برقة الفؤاد عادة، ألم يكن من مقتضى ذلك أن تهب هذه الأمة من رقدتها، وأن تعود إلى بارئها، وأن تتوب وتأوب إلى الله سبحانه وتعالى فيستقيم المنحرفون، ويقلع العاصون، ويعودون فيتوبون إلى الله سبحانه وتعالى جهد الإستطاعة.

ولكن هذا هو العجب العجاب.. نلتفت يميناً وشمالاً ونصغي بأسماعنا إلى الأصداء التي نجمت عن هذه الأحداث المخيفة فلا نقع على أي أثر لإلتفاتة إلى الله سبحانه وتعالى.

اقرأوا الجرائد واسمعوا تعليقات الإذاعات واسمعوا ما يقوله الناس بعضهم لبعض الأمور كلها بعيدة كل البعد عن هذا الذي من أجله يرينا الله سبحانه وتعالى هذه الآيات، والعجب بعد هذا كله هو ما قد قلته لكم أن يشيع بين الناس تلك الوصايا الباردة السخيفة! ماذا ينبغي أن تصنع عندما يداهمك هذا الزلزال إلى أي عضادة ينبغي أن تلتجئ، وما هو الشيء الذي ينبغي أن تدعه من يدك إن كنت تحمله وكيف ينبغي أن تتصرف.

من هو هذا الذي يضع هذه النصائح في موضع الجد من عقله، وكما قلت لكم: المسألة عمرها ثوانٍ فقط، هل يمكن لأمر يداهم الإنسان ويقضي قضاؤه المبرم خلال ثوانٍ أن يكون ساحةً متسعةً لإدراك هذه النصائح ثم لتنفيذها؟!

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يوقظنا من سباتنا وأن يرقق أفئدتنا وأن لا يبتليها بالقسوة كما ابتلي بذلك أناس حدثنا الله عز وجل عنهم. أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

٤٢٠- [يوم الإيدز العالمي] من أسخف السخافات الاحتفال بيوم للإيدز.. لماذا؟ | ١٩٩٧/١٢/٠٥

لقد احتفى العالم في الأسبوع الماضي كما تعلمون، بما سماه اليوم العالمي للإيدز، ولتمنيت لو أن العالم احتفى بيومٍ عالميٍ بضرورة الرجوع والإنابة إلى الله سبحانه وتعالى.

كم يروق للنفس وكم ينسجم مع العقل، والعالم يتنبه إلى الرزايا والمصائب التي تحيط به وتطوف من حوله. كم ينسجم مع العقل أن يتنبه العالم إلى يوم عالمي يتداعى فيه ويتواصى أفراده فيه، بضرورة الإنابة والرجوع إلى الله سبحانه وتعالى. وما لم يتنبه العالم إلى هذا فإن ما يسمى باليوم العالمي للإيدز ونحوه ليس إلا سخافةً من السخافات وعملاً يستثير الضحك بل يستثير الاشمئزاز.

أليس عجيباً أن يحتفل العالم بيومٍ عالمي لسوط من سياط الله سبحانه وتعالى التي يربي بها عباده، ثم لا يتنبه أفراد هذا العالم إلى اليد التي تهوي بهذا الصوت على ظهور الناس!

أليس شيئاً مثيراً للضحك.. وأليس من أسخف السخافات أن نحتفل باليوم العالمي لمعالجة هذا السوط دون أن نتنبه إلى اليد التي تحرك هذا السوط؟

وماذا يصنع العالم بل ماذا صنع عندما احتفل واحتفى من أقصاه إلى أقصاه بيومه العالمي لمعالجة هذا المرض الفتاك ماذا صنع؟ هل تنبه إلى اليد التي تحرك؟ هل تنبه العالم إلى الإله الذي يبتلي ويتوعد ويُنذر؟

هل أخذ العالم عدته للوقاية من هذا البلاء المهلك بالطريقة الفعالة الصحيحة؟

كلكم يعلم أن العالم لا يزال يراوح في مكانه، وأن المتعة التي تسوق أفراد هذا العالم إلا من رحم ربك ما تزال تحركهم وتدفعهم إلى الانتحار، الانتحار السريع أو الانتحار البطيء، لم يتغير من هذا الأمر شيء، ولم يحول العالم وجهته عن هذا الهلاك شروى نقير إلا من رحم ربك وقليلٌ ما هم.

ما هو الإيدز أيها الإخوة؟ وقد سُئلت وأجبت بالأمس، إنه المرض الذي لا يعلم أحد سره، إلا الله سبحانه وتعالى. قالوا: إنه نقص أو فقد المناعة.

قلنا: ما هي المناعة؟ قالوا هي المناعة، ما هي المناعة؟ ومن هو الذي نسج حصن المناعة للإنسان؟ ومن هو الطبيب العبقري الذي اخترع ما يسمى بالمناعة؟

لا أحد يعلم ذلك، لأن المناعة إنما هي الحماية الربانية للإنسان من كل الأخطار الجرثومية والفيروسات وغير ذلك التي تحيط وتطوف به بكل لحظة، لا أحد يعلم حقيقة هذه المناعة، ذلك لأن صاحبها هو الله سبحانه وتعالى. فإذا شاء الله عز وجل أن يبتلي عباده بالضراء بعد السراء وإذا شاء الله عز وجل أن يُنزل مصيبةً ما ماحقة أو غير ماحقةٍ بعباده، سلب منهم هذه النعمة التي أكرمهم بها. فمن ذا الذي بعد ذلك يملك من يعيدها لهم؟ من ذا الذي يستطيع أن يغرس في كيان الإنسان هذا السر الذي لا يعلمه الإنسان؟

سلوا الذين يخترعون المخترعات العجيبة.. سلوا الذين ينصبون السلالم إلى أجواز الفضاء.. سلوا الذين يتباهون بعقولهم الآلية التي يبدعونها وينثرونها وينشرونها.. سلوا سلوا كل هؤلاء المخترعين عن المناعة ما هي وهل لهم أن يوجدوها بأي وسيلة من الوسائل بعد أن يحرم الله سبحانه وتعالى الإنسان من نعمتها؟ سلوهم.

لن يكون الجواب على مستوى العالم كله إلا العجز والعجز وحده.

فإذا كان الأمر كذلك أيها الإخوة، فما هو معنى احتفال العالم بما يسمى اليوم العالمي للإيدز ما هو معناه؟

ليس له أي معنى إلا أن يرعوي العالم ويستقيم بعد الانحراف، ويستيقظ بعد طول الرقاد، ليس لهذا الاحتفال من معنى إلا أن يتنبه إلى ضرورة الرجوع والإنابة إلى الله الذي حصّن الإنسان في حصن المناعة هذه، ليس لهذا الاحتفال من معنى إلا أن يعود العالم فيما يتساءل:

لماذا ابتلانا الله بهذا من حيث لا نستطيع أن نرفع هذا الابتلاء لا بأجهزةٍ علمية ولا باختراعات ولا بتقنيةٍ ولا بأي وسيلة من الوسائل؟ لماذا ابتلانا الله بهذا الابتلاء؟

والجواب ماثل والجواب واضح: الانحراف عن صراط الله عز وجل.. الانحطاط في طريق الخطيئة.. التحلل والتحرر من الضوابط الإنسانية التي أمرنا الله سبحانه وتعالى بها.. الانحطاط في أودي الإباحية التي لا حد لها.

هذا هو السبب الذي جعل الله عز وجل يبتلي عباده هؤلاء بهذا السوط الغريب في أمره، هذا السوط يتحدى علم العلماء، ويتحدى اختراع المخترعين، ويتحدى عبقرية العباقرة والمبدعين.

إذا أدرك الذين يحتفلون باليوم العالمي للإيدز هذه الحقيقة، ثم تناصح أفراد العالم وتداعوا إلى اليقظة، وإلى الالتزام بأوامر الله والتوبة والإنابة إلى الله عز وجل فهذا معنىً سليم للاحتفال بيوم الإيدز.

أما والأمر كما تعلمون، مر هذا اليوم والعاكفون عاكفون على إباحيتهم، والمنصرفون إلى أنواع الشذوذات التي تعرفونها منصرفون إلى شذوذهم، والمجاهرون باختراق حدود الله عز وجل لا يزالون يجاهرون.. ليت شعري ما معنى الاحتفال إذاً باليوم العالمي للإيدز!؟

رسول الله صلى الله عليه وسلم حذر وأنذر – لا أقول في حديث بل في أحاديث كثيرة – شرح فيها بيان الله سبحانه وتعالى. أين هم الذين يقفون في هذا اليوم العالمي ليتبينوا معنى كلام رسول الله وليجعلوا من كلام رسول الله علاجاً لأمراضهم ومرهماً لجراحاتهم.

ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه ابن ماجه والبيهقي من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ﴿يا معشر المهاجرين خصالٌ خمس إن ابتليتم بهن ونزلن بكم وأعوذ بالله أن تدركوهن، ما ظهرت الفاحشة في قومٍ فاعلنوا بها إلا ظهرت فيهم الأوجاع –أي الأمراض– التي لم تكن في أسلافهم، وما نقصوا المكيال والميزان إلا أخذهم الله بالسنين وشدة المأونة وجور السلطان، وما منعوا زكاة أموالهم إلا حبسوا أو منعوا قطر السماء، ولولا البهائم لم يمطروا. ولا نقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط الله عليهم عدواً من غيرهم حتى يأخذ بعض ما بأيدهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله سبحانه وتعالى إلا جعل الله بأسهم بينهم﴾.

هذا كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديثٍ صحيح، وأول هذه الخصال هذا البلاء الذي قيل أن العالم يحتفي بيوم عالمي في خلال العام، ولا والله إن الاحتفال فيه لاحتفالٌ سخيف مضحك،

إلا تلك البقايا الهامشية التي غدت اليوم جزءاً مما يسمى العالم الثالث، ربما كان فيهم من التفت إلى الله، ومن اتخذ سبيلاً للإنابة إلى الله سبحانه وتعالى.

ولكن تعالوا فانظروا إلى العالم من مجموعه، أين هم أولئك الذين يتنبهون إلى جذور هذه المصيبة ممن قالوا أنهم يقودون العالم؟ إنهم يقودون العالم إلى الهلاك، إن هؤلاء الذين يتباهون بما يسمى النظام العالمي الجديد إنما يقودون العالم – إن أمكنتهم الفرصة، ونسأل الله سبحانه وتعالى أن لا يمكنهم من ذلك، وهو على ما يشاء قدير نعم – من خلال نظامهم العالمي هذا إلى الهلاك وإلى الدمار. وما مسألة هذا المرض الذي يجتاح العالم إلا ظاهرةً من ظاهرة قيادة هذا العالم للآخرين إلى سبل الغواية والهلاك. هذه الحقيقة ينبغي أن نعلمها أيها الإخوة.

أما ما ينبغي أن ندركه في حق أنفسنا نحن، نحن الذين نمثل جزءاً من هذا العالم، نحن المسلمين، فينبغي أن ندرك أن العالم الغربي يحقد على المسلمين اليوم حقداً ما حقد عليه مثله من قبل ولن يحقد عليه مثله من بعد أيضاً. لماذا؟.. ما هو مصدر هذا الحقد؟

العالم الغربي بمقدار ما يتباهى ويسكر بقيادته وبقدراته وبقوته وبعلمه واختراعاته وحضارته التي تُدّعى له، بمقدار ما يتباهى بذلك يشعر أنه يسير إلى الهلاك. الغرب يعلم هاتين الحقيقتين يعلم أنه وهو في أعلى قمم القوة والقيادة والحضارة والعلم، يعلم أن الخط البياني لمجتمعه يسير إلى الهاوية. وحسبكم من ذلك عاملان اثنان:

العامل الأول: ذوبان الأسرة ونهايتها وقد أعلن العالم أن الأسرة انمحقت.

العامل الثاني: أن الجيل الصاعد الجديد جيلٌ قد أتلفته المخدرات وأتلفته الأمراض النفسية.

ثم جاء هذا البلاء الآخر ليجتاح، ومن ثم فإن الجيل الجديد الصاعد لن يستطيع أن يرث هذه القيادة التي يقود بقاياها اليوم العالم الغربي.

إذاً العالم الغربي يعلم أنه يهوي إلى الاضمحلال والزوال على الرغم من أنه لا يزال يمسك بقيادة العالم علماً وقوةً وثقافةً وحضارة.

وينظر إلى العالم الإسلامي وإذا هو على العكس تماماً، فالعالم الإسلامي بمقدار ما هو بعيدٌ في العلم وبمقدار ما فقيرٌ في الغنى وبمقدار ما متفرق وبمقدار ما متخلف كما يقولون، الخط البياني في حياته يدل على أنه يسير صعوداً، ذلك لأن الأسرة ما تزال في هذه المجتمعات متماسكة، ووجود الأسرة إنما هو النواة للمجتمع الصالح. وينظرون فيجدون أن هذه المصائب التي تتمثل في المخدرات والتي تتمثل في الأمراض النفسية المختلفة والتي تتمثل في هذا الوباء الذي يجتاح، نجد أن العالم الإسلامي نسبياً في مأمن من ذلك كله.

إذاً العالم الإسلامي صاعد على الرغم من تخلفه، والعالم الغربي هابط على الرغم من سموه علمياً، هذا هو مبعث حقد الغرب على العالم الإسلامي.

الرجال هناك.. والصحفيون والقادة هناك يتهامسون أن عليهم وهم يعانون من هذه الأمراض الفتاكة أن يجعلوا عزائهم أن يجدوا العالم الإسلامي أسرع منهم إلى هذا الفتك، أسرع منهم إلى هذا البلاء، ولذلك فخططهم المكشوفة كانت بالأمس خفية، وهي اليوم مكشوفة ترمي إلى إهلاك الأسرة الإسلامية، ترمي إلى غزو العالم الإسلامي بأسباب الأمراض النفسية المختلفة، ترمي إلى حرب وغزو العالم الإسلامي بفيروس الإيدز علم ذلك من علم وجهل ذلك من جهل.

هذا كله مظهرٌ لحقد الغرب على العالم الإسلامي اليوم، وإذا كان الأمر كذلك وأظن أن ما أعلمه من هذا يعلم حكامنا المسلمون أضعاف ذلك، فما عندهم من علوم ووثائق دالة على هذا أضعاف ما لدي، وإذا كان الأمر كذلك، فما النهج الذي ينبغي أن نسلكه؟ وما السبيل الذي ينبغي أن ننهجه؟ وما الحبل الذي ينبغي أن نتمسك به؟

الغرب يحتفل باليوم العالمي للإيدز وهو يراوح في مكانه، أما نحن فنحتفل لنعود إلى الله، لنتوب إلى الله عز وجل، لنجدد البيعة مع الله قادةً وشعباً وفئاتٍ على اختلافها، أن نعود إلى الله عوداً حميداً، أن نصلح حالنا، وأن نتوب إلى الله عز وجل حتى لا يتمكن الغرب أن يصل إلى نفاثة حقده في حقنا، حتى تبقى أسرنا آمنة، ولن تبقى أسرنا آمنة إلا في حمى الأخلاق، إلا في حمى الفضيلة، إلا في حمى العلاقة

الزوجية المقدسة، ولا يمكن للأسرة أن تبقى في مأمنٍ من خطط أعدائنا مشرقين ومغربين اليوم، إلا إذا كانت الأخلاق الإسلامية هي الحمى الأوحد لحماية هذه الأسرة.

ينبغي أن نعلم أن كل السبل التي تودي إلى فتح السبل الخلفية إلى أي متعة ينبغي أن تسد، وينبغي أن ننظر إلى كل الفئات وكل الوسائل وكل الأنشطة التي من شأنها أن تفتح السبل الخلفية فتجعل الغرب يتسرب من هذه السبل الخلفية إلينا؛ لبذر بذور الهلاك فيما بيننا، ينبغي أن تسد هذه السبل الخلفية كلها، ينبغي أن نتعاون جميعاً على كل المستويات لعودٍ حميدٍ إلى الله سبحانه وتعالى، كل الفئات ينبغي أن تنهج هذا النهج.

وما أعتقد إلى أننا جميعاً ندرك هذه الحقيقة، فمن آب إلى الله والتزم هذا النهج فقد برهن على أنه يقف في وجه الغرب ويضع المتاريس الحقيقية في سبيل أن لا يصل الغرب بأحقاده إلينا، ومن أعرض عن هذا وسار ولا يزال يسير في طريق التحلل والإباحية بأي اسم من الأسماء، وتجاهل الخلق والفضيلة، فلنعلم أنه مشترك مع الغرب في الكيد لأمته.

أقول قولي هذا وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يهدينا سواء صراطه المستقيم فاستغفروه يغفر لكم.



٤٢١- [عيد الجلاء] متى يطيب الاحتفال بذكرى جلاء المستعمر؟! |

١٩٩٨/٠٤/١٧

ليس خطأً أن يحتفل الناسُ بهذه الذكرى المباركة، بل ليس خطأً أن يتخذوا لأنفسهم من هذا اليوم عيداً. ولكن ينبغي عندما نتذكر أهمية هذه النعمة أن نعود فنتذكر حجم تلك المصيبة التي حاقت في يومٍ من الأيام في بلدتنا هذه، ثم إن الله عز وجل جلى هذه المصيبة ورفعها عنا.

ما هو حجم هذه المصيبة؟ هل تتمثل في احتلال أناسٍ غرباء عن بلدنا لبقعة من هذه الأرض؟

إن كانت هذه المصيبة، فأهون بها وذلك لأن العدو مهما طال أمده في احتلال بقعةٍ من البقاع لابد أن يرحل عنها. يجب أن نعلم أن المصيبة التي حاقت آن ذاك لم تكن تهدف إلى أرضٍ تُأخذ ولا إلى حقوقٍ مادية تُستلب، وإنما كان الهدف إفساد نفوس أهل هذه الأمة، كان الهدف إفراغ عقولها وأفئدتها من القيم والمبادئ التي شرفها الله سبحانه وتعالى بها وملءُ الأفئدة والقلوب بأمورٍ أخرى وبعادات وبطبائع وبقيمٍ هابطةٍ أخرى. كان أثر هذه المصيبة الخطير هو هذا الحجم الذي ينبغي أن لا يغيب عن بالنا قط، وإذا أدركنا أن مصيبة أمةٍ وقعت في نير الاستعمار إنما تتمثل في عمل ذلك المستعمر على تغيير نفوس أصحاب تلك الأرض وتغيير أفكارهم وسلب القيم التي يعتزون بها منهم.

إذا أدركنا ذلك فلنعلم أن كمال النعمة لا يتمثل في أن تعود الأرض إلى أصحابها، ولا تتمثل في أن تعود الحقوق المادية إلى أربابها، وإنما النعمة تتم وتتكامل عندما تعود هذه الأمة إلى نفسها فتجد أن قيمها لا تزال ثابتةً، وأن ما قد شرفها الله عز وجل به من مبادئ الإيمان والانضباط بالرشد الذي شرفنا الله عز وجل به والسير على الصراط الذي أكرمنا به ودعانا إليه.

عندما نجد أن تلك السحابة قد مرت بعد أن جثمت فيما بيننا ردحاً من الزمن مرت ونحن لا نزال بحمد الله على العهد، لم نرجع إلى الوراء، لم ننحرف يمنة ولا يسرة، لم نخن العهد الذي عاهدنا الله عز وجل عليه، ما فسدت أخلاقنا ولا ذممنا، ولم يتسرب إلى عقولنا ريبٌ بعد إيمان ولا شكٌ بعد إسلام. عندما نجد أن تلك السحابة قد مرت وذهبت ونحن ولله الحمد سالمون من هذه الجوانب كلها، قد سلم

لنا ديننا وسلم لنا إسلامنا وسلمت لنا أخلاقنا وقيمنا، عندئذ يحلو الابتهاج ويحلو الاحتفال والابتهال إلى الله سبحانه وتعالى بالشكر.

إنني أتمنى لو أن الناس الذين يحتفلون بهذه الذكرى وحق لهم أن يحتفلوا كما قلت لكم أتمنى أن يتحسسوا مكان القيم في حياة هذه الأمة وأن يتساءلوا هل ما زلنا أمناء على هذه القيم؟ هل مازلنا أمناء على هذا العهد؟ هل ما زلنا متمسكين بكتاب الله سبحانه وتعالى نظاماً دستوراً شرعةً ومنهاجاً عندئذٍ نعلم أننا قد تحررنا فعلاً من الاستعمار الذي هبط ذات يوم بكلكله على هذه الأرض؟

أما إذا تساءلنا وانتهينا بعد التساؤل إلى أن جيوباً من الفساد الأخلاقي قد استشرت فيما بيننا، وأننا لم نعد مثابرين على ذلك العهد كما كنا من قبل، وأن الفساد قد توغل واستشرى فيما بيننا، الفساد أشكالاً وألواناً. عندما نتساءل ونقف على هذا الجواب، فلنعلم أن المستعمر لم يرحل في حقيقته عنا، رحل شخصه ولكن ظله لم يرحل بعد.

ولعلكم سمعتم عن ما يسمى اليوم بالاستعمار الجديد الاستعمار القديم انتهى أمده، ذلك لأن الظروف لم تعد صالحة لذلك اللون من الاستعمار القديم، وإنما حل محله ما يسمى بالاستعمار الجديد، والاستعمار الجديد يعني أن يكون المستعمر بعيداً بعيداً في شخصه لا تراه ولا تشعر به، ولكنه يفرض عليك سلطانه من بعيد، يفرض عليك سياسته من بعيد، يشل فاعليتك الاقتصادية دون أن تراه، يشل وحدتك التي أكرمك الله سبحانه وتعالى بها وجعل منها مبعث قوتك ومبعث عزتك وفخارك على الآخرين، يمزق هذه الوحدة التي أكرمك الله بها وهو بعيد عنك، يبعث عبر الأقنية الخفية بالشكوك وبالريب بإيمانك الذي كان حصن عزتك وسر وحدتك، وإذا بهذا الإيمان قد بدأ يدخل إليه الفساد، وبدأت حقائقه الجاثمة في الذهن تتبخر، وإذا الناس مختلفون حول الدين والإيمان بالله عز وجل، وإذا الناس بعد أن كانوا يجتمعون من الإسلام على حبلٍ واحد إذا بهم يتفرقون منه إلى حبالٍ متنوعةٍ ومختلفة شتى. ننظر وإذا الإسلام الواحد قد تحول إلى إسلامات متناقضة متصارعة...

إذا نظرنا فوجدنا أننا قد ابتلينا بهذا كله فلنعلم أن الاستعمار لا يزال جاثماً على أرضنا، ولكنه استعمارٌ حديث بشكلٍ أخبث وأسوء وليس هو الاستعمار القديم الذي مضى أوانه وزال سلطانه، عندما نحتفل بهذه الذكرى المباركة ينبغي أن نطرح فيما بيننا هذا التساؤل.

هنالك مقولةٌ قالها كثيرٌ من العلماء والمفكرين وهي مقولة صائبة: ليست المصيبة في استعمارٍ يلتصق بأرض ولكن المصيبة أن تكون العقول قابلةً للاستعمار أي تلتصق بهذه العقول قابلية الاستعمار، المصيبة أن تكون هذه الأمة المسلمة المؤمنة التي ذاقت عبر القرون نشوة العز من وراء إيمانها، نشوة الفخار من وراء إسلامها، هذه الأمة التي ما تزال يطوف برأسها الطرب من تلك الوحدة التي لم تأتي من وراء فلسفة من الفلسفات ولا من وراء زعامة من الزعامات، ولكنها جاءت من وراء هذا الدين، هذا الإسلام. أجل إن المصيبة أن تكون هنالك عقول قد خرجت من هذا الحصن وابتليت بقابلية الاستعمار، ابتليت بحب تقليد أولئك المستعمرين، ما من عادةٍ تنشئ عندهم وما من فكرة تجوب فيما بينهم وما من فلسفة تظهر في بلادهم وما من مذهب من المذاهب الفكرية يتألق عندهم إلا وتجد هنا من يدلل على البضاعة ومن يسيل لعابه عليها، تلك هي المصيبة قابلية الاستعمار، أي قابلية الإنسان الحر لأن يكون عبداً ذليلاً.

عندما يتحرر الفرد المسلم في هذه البلدة أو في غير هذه البلدة من هذه العبودية، فلنعلم أن الاستعمار بظله وبكل آثاره قد رحل، ولكن عندما نجد – وهذا ما نجده اليوم – أن الأمة قد أخذت تسيح فيما بينها هرجاً ومرجاً خلافات مستشرية أفكار متناقضة خصومات مستمرة متسلسلة وهذا هو النهج الذي خُطط له. عندما تجد الأمة مستسلمة لهذا الواقع فما ينبغي أن نتصور أن الاستعمار في واقعه الحقيقي قد رحل.

ولعلكم سمعتم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يقول فيه: ﴿ستتبعون سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخل أحدهم جحر ضبٍ لدخلتموه. قال أحد الصحابة آالروم تعني يا رسول الله؟ قال: فمن إذاً﴾، أي إذا لم يكن هؤلاء هم الذين أعنيهم من عسى يكونون، والروم هؤلاء، هؤلاء الذين فعلاً يسيل لعاب كثيرٍ من أفراد هذه الأمة لاتباعهم، لتقليدهم للسير ورائهم في كل ما تسمعون من أُحدوثات جديدة تظهر في حياتنا.

لا يمكن لهذه الأمة أن تعد نفسها مستقلةً حرةً أبيةً إلا إذا رجعت إلى مقياس في العقل لا مقياس على الأرض، ألا وهو مقياس العقل المتحرر عن سلطان تلك الدول، العقل المتحرر عن الفساد المستشري هناك والمخبوء تحت أوراق متألقة خداعة وبراقة، عندما تتحرر عقولنا عن التبعية عندئذٍ نعلم أن الاستعمار الذي ولى قد ولت ظلاله أيضاً معه. هذا المعنى ينبغي أن يقال في مثل هذه المناسبات وفي مثل هذه الذكرى.

أجل هي نعمة كبرى أن رحّل الله سبحانه وتعالى ذلك الذي جثم فوق هذه الأرض، ولكن الله الذي أنعم علينا بهذه النعمة ينتظر منا أن نتمم هذه النعمة بعمل نقوم به نحن، وكأنه يقول أما العدو في شخصه فقد رحّلته عنكم وبقي أن ترحلوا أفكاره من عقولكم، أنتم أحرار وهذا ما لا أتدخل في شؤونكم فيه، فأنا لم أكلفكم أن تدخلوا في ديني جبراً وكرهاً ولكني دعوتكم إلى ذلك طواعيةً ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾، أما الجزاء فلسوف يكون يوم القيامة، أكرمنا الله عز وجل بترحيل ذلك الذي كان جاثماً على هذه الأرض ثم قال لنا: والآن ادفعوا قيمة هذه النعمة بأن تُطهروا عقولكم مما تركه زرعةً فيما بينكم، مما تركه أفكاراً ووساوس تسري وتتنامى في عقولكم ونفوسكم وقلوبكم.

ما قيمة أن يرحل المستعمر مشرقاً أو مغرباً إذا كنا نجد في عقر دورنا من ينتقص دين الله سبحانه وتعالى من يتأفف من الارتباط بأوامر الله سبحانه وتعالى؟

ما قيمة أن يرحل عنا المستعمر إذا كانت هذه الأمة التي شرفها الله خلال أربعة عشر قرناً بعزة ما مثلها عزة وقوة ما مثلها قوة، تتأفف اليوم لأنها تشكي من التحديات التي تواجه الإسلام؟ تحديات لا قبل لنا بالوقوف في وجهها.

كلام مكرور مكرور كل ذلك مقدمة بين يدي إعلانٍ يوشك أن يظهر: هو أن علينا أن نترك هذا الإسلام لأن التحديات التي تواجهنا أثقل من أن نتغلب عليها.

أهذه أمة تحررت عن رقة الاستعمار؟! التحديات التي يواجهها المسلمون اليوم أشد ثقلاً أم التحديات التي واجهها أصحاب رسول الله كانت أشد ثقلاً!؟

أناسٌ كانت العادات الجاهلية جاثمة على صدورهم تطوقهم وتكاد تخنقهم من سائر الأنحاء، الحضارة الفارسية والحضارة الرومانية واليونانية كل ذلك كان يُطبق على الجزيرة العربية، كل ذلك كان عبارةً عن

تيارات من التحديات تواجه حفنةً من عرب الجزيرة العربية، تلك التحديات كانت أشد وأثقل أم التحديات التي يشعر بها المسلمون المتدللون على الله اليوم؟

كانت تلك التحديات أضعاف أضعاف أضعاف ما يشعر به المسلمون من تحديات أكثرها تخيلات وأكثرها أحلام لأمانٍ نفسية، إسلامنا اليوم ورثناه كابراً عن كابر، تيار الإسلام اليوم يسير عبر خمسة عشر قرناً إلى يومنا هذا، إسلامنا اليوم تكامل بنياناً حضارياً، إسلامنا اليوم تكامل مدنيةً إنسانية باسقة، إسلامنا اليوم تكامل شرعةً تنغض الأمم كلها لها الرؤوس... ومع ذلك يشكو المسلمون اليوم الذين يملكون كل هذا من أن التحديات التي ترسل إلينا عبر رياح الغرب أو الشرق تحديات مؤلمة لا نكاد نستطيع صبراً عليها.

عندما تجد هذه الأمة أنها اخترقت هذه التحديات الوهمية وجعلتها تحت أقدامها واعتزت بإسلامها وإيمانها كما اعتز بهذا الإسلام والإيمان أسلافها من قبل، عندئذٍ يطيب الاحتفال بزوال الاستعمار لأن معنى ذلك أن الاستعمار قد ذهب وأن ظله قد لحق به أيضاً. نسأل الله سبحانه وتعالى أن يعيد هذه الأمة إلى سابغ عزها .أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

٤٢٢- [عيد الشهداء] عيد الشهداء وسبل الغرب في تشويه معنى الجهاد | ١٩٩٨/٠٥/٠٨

منذ يومين احتفلت هذه الأمة بما يسمى بعيد الشهداء، أو يوم الشهداء وإنه لاحتفاء جميل، وإنه لقيامٌ بجزءٍ من الواجب تجاه هذه الثلة من الناس التي يكفي ثناء الله سبحانه وتعالى عليها في محكم تبيانه، ولو لم يكن هنالك ما ينوه بعلو مكانة الشهداء عند ربهم سبحانه وتعالى، إلا قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ، فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ لو لم يكن من التنويه بعلو شأن الشهادة والشهداء إلا هذا الكلام الرباني لكفى، لا سيما عندما يكون الحديث في هذه المناسبة موصولاً بما يُرضي الله سبحانه وتعالى، وتعريفاً بمعنى الشهادة وقيودها وضوابطها ودفعاً للمسلمين إلى أن يتحرروا من التعلق بزهرة الحياة الدنيا، وأن يستخفوا ويستهينوا باقتحام أبواب الموت وصولاً إلى مرضاة الله سبحانه وتعالى. أنعم بمثل هذه المناسبة عندما يُتاح أن تُملأ هذه المناسبة بالكلم الطيب وبالكلام الذي يدفع المسلمين إلى أن يتحرروا من التعلق بحمأة هذه الدنيا وشهواتها وأهوائها.

ولكن الذي أريد أن أقوله هو أن الشهادة فرعٌ عن الجهاد في سبيل الله سبحانه وتعالى، فلا تتحقق الشهادة من دون الجهاد في سبيل الله. المناخ الذي لا بد منه لتتكون فيه الشهادة إنما هو مناخ الجهاد، ومن أكبر الدلائل على هذا أن الله سبحانه وتعالى الذي وصف مكانة الشهداء كما قد ذكرت لكم وتلوت عليكم، تحدث قبل ذلك عن الجهاد والمجاهدين وربط بين الحديثين فقال سبحانه وتعالى قبل ذلك: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ، وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾. إذاً كان مقتضى السياق المنطقي وترتيب ما بين المقدمات والنتائج أن يكون هناك احتفاءٌ بيوم الجهاد في سبيل الله أو يوم المجاهدين في سبيل الله خلال العام، ثم يأتي الاحتفاء بيوم الشهداء على أعقاب ذلك كما تأتي النتيجة بعد المقدمة.

أقول هذا وأن آمل وأنتظر ان يأتي اليوم القريب الذي يرتفع فيه لواء الجهاد واسمه كما ارتفع لواء الشهادة واسمها، لا يمكن لمن يقع صريعاً في حلبة الدفاع عن الأرض أو القيم أن يُسمى شهيداً إلا إذا وقع صريعا ًتحت لواء الجهاد في سبيل الله سبحانه وتعالى، ولكن يا ترى هل يتسنى ذلك؟ هل يتسنى لهذه الأمة أن تجعل في العام كله يوماً باسم الجهاد في سبيل الله أو يوماً يسمى عيد المجاهدين في سبيل الله سبحانه وتعالى؟

هل يمكن أن يتم هذا دون أن يضج العالم الغربي ودون أن يدخل الخوف والهلع في قلوب أولئك الذين يزعمون أنهم يقودون العالم وأنهم يُمسكون بزمام القوة وأنهم يتحكمون بالقدرات كلها؟

أغلب الظن أيها الإخوة أنه عندما تقوم دولة أو تقوم هذه الأمة باتخاذ يومٍ من أيام العام شعاراً للجهاد في سبيل الله تكريماً للمجاهدين في سبيل الله، أغلب الظن أن العالم الغربي الذي يصنع التطرف ويقوده ويسوقه إلى العالم كله، أغلب الظن أن هذا العالم سيضج وسيأخذ منه الهلع مأخذه.

ولقد حصل هذا ولعلكم تذكرون عندما صرّح أحد الملوك أو الرؤساء في دولة من دولنا العربية والإسلامية بأن فلسطين والقدس لا يمكن أن تُسترد إلى أصحابها إلا عن طريق الجهاد، هاج العالم الغربي وماج، وظهرت الاحتجاجات وسرى الضغط تلو الضغط تلو الضغط على ذلك المسؤول الكبير الذي صرّح بتلك الكلمة، مما اضطره بعد ذلك بعد أيام إلى أن يتراجع عن تصريحه وإلى أن يؤول كلامه وإلى أن يؤكد أنه لم يكن يبتغي بالجهاد ما يفهمه المسلمون أو ما يعنيه كتاب الله سبحانه وتعالى، اضطر إلى أن يمسخ كلمته مسخاً. إن كان هنالك ما يمنع من أن يتخذ العالم العربي والإسلامي في العام يوماً يمثل قيمة الجهاد والمجاهدين في سبيل الله تماماً كما أنه هنالك يوماً يُمثل قيمة الشهداء والشهادة في سبيل الله، إن كان ثمة ما يمنع فهذا هو.

ولكني أقول أيها الإخوة شيئاً ينبغي أن يعرفه كل واحد منكم، أولئك الناس الذين يملكون القدارت كلها ويملكون الأسلحة العجيبة الفتاكة المتنوعة التي يخيل إلى بعض الناس أن القيامة لن تقوم إلا باستعمال تلك الأسلحة، أولئك الذين يملكون زمام تلك القدرات ويملكون زمام هذه القوة ثم ينظرون إلينا إلى هذا العالم الذي يُسمى العالم المتخلف أو الذي يسمى مجاملة ومداهنة بالعالم النامي، فيجدون أنه مفكك

الأوصال أنه مقطع الصلات ما بين الأخ وأخيه، وأن الضعف قد انتهى به إلى آخر النهايات، ما الذي يخيفهم من أن يرتفع لواءٌ كتب عليه الجهاد في سبيل الله؟ ما الذي يخيفهم من أن يقول قائلهم: إن استرداد الحقوق المغصوبة لا يمكن أن يتم إلا بروحٍ تسري في الدفاع عن هذه الحقوق ألا وهي روح الجهاد، ما الذي يخيفهم؟ أولئك الناس لا يؤمنون إلا بالمادة، ولا يثقون إلا بما تراه أعينهم أو تلتقطه حواسهم، وأمر الجهاد وروحانية الجهاد من الأمور الميتافيزيقية الغيبية. فلماذا يخافون من ما لا يجدون ولا يحسون به؟

الجواب أيها الإخوة أن ألسنتهم تقول شيئاً يتنافى مع ما تعتقده قلوبهم، هم يعلمون أن قوة هذه الأمة العربية والإسلامية إنما تكمن برجوعها إلى استعمال الأداة والسلاح الذي كانت تستعمله من قبل، هم يعلمون أن سر قوة هذه الأمة لا يكمن في الأمور الظاهرة والأسلحة العادية المحسوسة، وإنما تكمن قوتهم فيما لا يُرى ولا يُحس، ألا وهو الجهاد الذي أمرهم الله سبحانه وتعالى به عندما ينهضون بهذا الواجب ابتغاء مرضاة الله سبحانه وتعالى. أولئك الغربيون يعرفون أن قيمة الأسلحة المادية والقدرات المادية إنما كقيمة الجندي عندما يتحرك تحت لواء ضابطه وقائده الأعلى يجب أن يكون هنالك جنود، ولكن لا قيمة للجندي إلا إذا كان منضبطاً بالقيادة الراشدة التي تنطلق من القيادة العليا. القيادة العليا في هذه الأمة كانت ولا تزال قيادة الجهاد في سبيل الله. يأتي بعد ذلك دور القدرات المادية منفذةً لأوامر هذا الجهاد الرباني العظيم.

فماذا يفعل الغرب اليوم أيها الإخوة من أجل أن يصد هذه الأمة عن رفع لواء الجهاد؟ من أجل أن لا يُخطأ حاكم أو ملك كما أخطأ ذلك المسؤول الكبير من قبل فقال إن القدس لا يمكن إرجاعها إلا عن طريق الجهاد في سبيل الله، ما السبيل الذي ينبغي أن يسلكه الغرب ليبتعد المسلمون عن اسم الجهاد وعن مسماه؟ السبيل إلى ذلك أن يُزيف الجهاد وأن يُشوه، وأن يرتبط معناه بأقذر الأمور التي لا يقرها الشرع ولا تقرها الإنسانية، فإذا ارتبط الجهاد بنقيض معناه، وإذا ارتبط الجهاد الرباني العظيم الجليل بما تشمئز منه النفس الإنسانية وبما لا يتفق مع موازين شريعة الله عز وجل واستمر الأمر على هذا ردحاً من الزمن، فإن المسلمين سيشمئزون من الجهاد قادةً وشعوباً.

كل ما ذُكر الجهاد تصوروا معناه المزيف، كلما ذكر ضرورة الرجوع إلى الجهاد في سبيل الله عز وجل تصوروا الصورة الشوهاء ونحن نحارب اليوم بأسلحة نفسية أسمعتم بمسألة الفعل الشرطي؟ هذا هو الذي

يتم فعله من أجل أن يخلع المسلمون آخر ما تبقى من أردية الجهاد في سبيل الله سبحانه وتعالى، خوفاً من أن تعيش جذوة الجهاد بمعناه الإيجابي بمعناه المشرف، بمعناه الإنساني، بمعناه الحضاري المتفق مع كتاب الله المتفق مع تعليمات رسول الله صلى الله عليه وسلم، خوفاً من أن يعود المسلمون إلى ذلك المعين الطاهر النقي بمعنى الجهاد، وعندئذٍ مهما استعمل الغرب قواه المادية ومهما استعمل سلطان قوته فلن يقف ذلك كله في وجه الجهاد الحقيقي في سبيل الله سبحانه وتعالى، لأن أرضية الجهاد في سبيل الله إنما يكمن في اتفاق المجاهدين تحت لواء قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾.

ترى هل سيصحو المسلمون من أجل أن يتخلصوا من هذه الحرب النفسية التي يمارسها العدو الغربي تشويهاً لمعنى الجهاد؛ كي لا يلجئ المسلمون في انتصارهم لأنفسهم واستعادة حقوقهم إلى هذا السلاح الأوحد؟ ترى هل سيتنبه المسلمون إلى أن ما يجري في الأفغان ليس جهاداً في سبيل الله سبحانه وتعالى وإنما هو واقع يُمثل نقيض ذلك، يمثل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار»؟ ترى هل سيصحو المسلمون إلى أن التناقض الهائج الذي تستثار عوامله الخارجية بين فئات المسلمين بعضهم مع بعض بين المسلمين وحكامهم، بين حكام المسلمين وشعوبهم هل سيتحرر المسلمون من هذا وهل سيتنبهون إلى أنها مكيدة مكيدة نصبت لهم من أجل أن ينتهي المسلمون إلى حالة يشمئزون فيها من اسم الجهاد كلما ذكر.

المأمول من فضل الله عز وجل وكرمه ووجود بقية من الصالحين في عالمنا العربي والإسلامي أن يُكرمنا الله بهذا التحرر. أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

٤٢٣- [الكسوف] سنريهم آياتنا في الآفاق | ١٩٩٩/٠٨/١٣

مثل المؤمن الذي وجد نفسه يعيش في هذه الحياة الدنيا فوق هذه الأرض، كمثل إنسان مسافر مضت به راحلته أو أداة سفره إلى بيداء واسعةٍ لا يتراءى لها أفق، ولكن بيده خارطة توضح له معالم الطريق، وتبين له المنطلق والمنتهى. يعلم متى يقف ليستريح، ويعلم إلى أين يتجه ليجد في ذلك المكان مأمنه إذا تعب وطعامه إذا جاع وشرابه إذا ظمئ، ثم إنه يسير في مأمن من كل اضطراب وخوف إلى أن يصل طبق الخارطة التي يراها أمامه إلى النهاية المنشودة التي يسير إليها.

ومثل الإنسان الذي وجد نفسه في هذه الحياة الدنيا فوق هذه الأرض منفصلاً عن معرفة الله سبحانه وتعالى، منبتّاً عن إيمانه بهويته وإيمانه بالله سبحانه وتعالى ورسالاته، مثل هذا الإنسان كمثل رجلٍ رأى نفسه فوق هذه البيداء المتسعة البعيدة الآفاق، وليست بيده خارطةٌ تدله على الطريق، ولا يعلم الأماكن التي يتجه إليها من أجل راحته إذا تعب، ومن أجل أن يتناول طعاماً إذا جاع، أو يتناول شراباً إذا ظمئ، يضرب في بطن هذا المنقطع في بطن هذه الآفاق يميناً وشمالاً على غير هدى، لا يعلم المنطلق الذي بدأ منه ولا النهاية التي ينتهي إليها، فهو في كل خطوة يخطوها مضطرب خائف، ومهما تخيل ومهما حاول أن يعلم فإن معارفه لا تُطمأنه ولا تضعه في رأس طريق لا يعرفها.

تلك هي صورة الإنسان الذي يعيش فوق هذه الحياة الدنيا مؤمناً بالله عز وجل عرف نفسه وعرف ربه وأصغى إلى رسالات الله سبحانه وتعالى التي يخاطب الله عز وجل بها عباده، وهذه الصورة الثانية هي صورة الإنسان الذي لم يعلم ربه ولم يعلم هويته ولم يصغي إلى خطاب الله سبحانه وتعالى له، واستعاض عن ذلك بما تخيله علماً يغنيه عن هويته ومعرفة هذه الدنيا التي يعيش بها.

بالأمس تجلت هذه الحقيقة كأنصع ما يمكن أن تتجلى.

بالأمس ظهر فرق ما بين المؤمن إيماناً حقيقياً لا تقليدياً بالله سبحانه وتعالى والإنسان التائه عن ربه، المعرض عن مولاه وخالقه، الذي لا يصغي إلى شيءٍ من المعارف التي يخاطب الله سبحانه وتعالى بها عباده.

بالأمس تجسدت حقيقة قول الله سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾. شهد العالم كله لا أقول في بلادنا، شهد العالم الغربي هذا الحدث الذي يعرف المؤمنون جميعاً أنه آية من آيات الله سبحانه وتعالى التي يشير إليها قول الله عز وجل: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾.

فأما المؤمنون بالله عز وجل المتعاملون فعلاً وحقيقة مع خطاب الله سبحانه وتعالى، الواقفون عند حدود عبودياتهم لله سبحانه وتعالى فلم يزجهم هذا الواقع في أي اضطراب، ولم ينقله إلى حالة من القلق، وإنما ازدادوا إقبالاً على مولاهم وخالقهم، اتجهوا جميعاً إلى بيوت الله سبحانه وتعالى يركعون ويسجدون يخاطبونه يجددون ولائهم لله سبحانه وتعالى، يجددون بيعته لمولاهم وخالقهم عز وجل، لم يسر من ذلك أي اضطراب أو وجل أو قلق إلى نفوسهم، أمرٌ طبيعي أنبأ الله عز وجل به وأخبرنا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، رحبوا به دليلاً جديداً على عظمة الله وخالقيته وقيادته لهذا الكون وعلى عبودية الإنسان لله عز وجل.

وأما التائهون عن هذه المعرفة أما الذين حُجبوا عن الله سبحانه وتعالى إن بشهواتهم وأهوائهم وإن بأوهام علومهم ومعارفهم، فماذا كان وقع هذه الحادثة عليهم؟ اجتاحهم الاضطراب، اجتاحتهم مشاعر القلق والخوف وكان الرائي إليهم – كما تتنقل وكالات الأنباء – بين باكٍ وبين إنسان أخذ الهلع منه كل مأخذ وبين متخيلٍ أن القيامة قد آن لها أن تقوم، وأن الحياة طُويت بكل ما فيها من متع ولذائذ، وانتحر من انتحر، وقتل أيضاً بدون موجبٍ وبدون سبب من قتل، ومرت هذه الحادثة على أولئك الناس الذين شردوا عن صراط الله عز وجل وتاهوا في بيداء التيه والضلال عن هوياتهم وعن خالقهم سبحانه وتعالى، فلم يجدوا الأمن لا في ظلال العلوم والمعارف، ولا في ظلال الاختراعات والابتداعات، ولا في ظلال الحضارة التي تتألق، بل اجتاحهم القلق والاضطراب بشكل عجيب تعجب له العالم، نعم.. ولعلكم سمعتم إن لم تشاهدوا الكثير مما استطاعت وكالات الأنباء أن تصفه وما لم تستطع أن تصفه أكثر وأكثر.

إذاً نحن أمام مصداق قول الله عز وجل: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾. وكلمة أولئك لهم الأمن فيها حصرٌ كما يقول علماء العربية أي أولئك لا غيرهم لهم

الأمن في الحياة الدنيا وفي الآخرة وهم مهتدون. أما الآخرون فهل أغنتهم علومهم عن الإيمان بالله شيئاً؟ هل أغنتهم معارفهم وثقافاتهم عن معرفة الله سبحانه وتعالى؟ العلم ما هو أيها الإخوة؟

العلم مظهرٌ من مظاهر سنن الله سبحانه وتعالى في الكون. لله سبحانه وتعالى سنن يعني قوانين نظم يأخذ الله بها عباده وينظم بها مملكته وكونه. هذا هو العلم.

فالعلم هو مجموعة هذه القوانين التي أرساها الله سبحانه وتعالى في هذا الكون، علم الإنسان منها أن النذر اليسير اليسير، وجهل الكثير الكثير. لكن ما قيمة أن أعلم قانوناً من قوانين الله عز وجل منقطعاً ومنفصلاً عن مقننه؟ ما قيمة أن أعلم قاعدةً من قواعد الفلك أو الكيمياء أو الفيزياء أو أي قاعدة من القواعد الطبيعية منفصلةً عن من قعدها، منفصلة عن من أرساها ورسخها؟ هذا لا يسمى علم هذا خيالٌ لعلم، وهذا يوقع صاحبه في الاضطراب والحيرة أكثر مما يصعد ويرقى به إلى مستوى الأمن والطمأنينة.

كل عاقل يعلم هذه الحقيقة لو أن إنساناً كان يسيح بين غابات ورأى جداولاً من المياه تنبعث يميناً ويساراً، يلتفت يسرة ويمنة فيرى بريق هذا الماء ولا يتتبع هذه الجداول لينتهي إلى ينبوعها ومصدرها، ترى هل يستطيع أن يستفيد من هذا الماء؟ ترى هل يستطيع أن يطمأن إلى نظافة هذا الماء لكي يستطيع أن يطمأن إلى نوع التعامل مع هذا الماء، ينبغي أن يعلم مصدر هذا الماء، ينبغي أن يعلم الينبوع الذي يتفجر منه الماء وتتفجر وتسري منه هذه الجداول المتعرجة؟

المؤمن يسير مع هذه الجداول إلى أن يصل إلى الينبوع، فيقف عند النبع وينهل من هذا الماء الصافي ما طاب له أن ينهل وهو مطمئن البال يعلم الحقيقة.

أما التائه عن الله، الشارد عن صراط الله سبحانه وتعالى، البعيد عن معرفة ذاته ومن ثم عن معرفة ربه سبحانه وتعالى، فهو يستوحش من هذا الجو الذي هو فيه أكثر من أن يطمئن إليه، لأنه لا يبصر شيئاً إلا ويجد إشارة استفهام قد رسمت أمامه، فهو لا يستطيع أن يتعامل معه، لا يعلم المصدر، لا يعلم المنبع. وهكذا فإن إيمان المؤمن – الإيمان الحقيقي لا الإيمان التقليدي، الإيمان الذي يجثم يقيناً في العقل ويهيمن وجداناً في الفؤاد، هذا المؤمن لا يمكن أن يعيش في الظلام، لا يمكن أن يعيش في التيه، لا بد أن

ينتشله مولاه وخالقه إلى مستوى النور فهو يرى كل شيءٍ وقد استضاء بنور معرفة الله سبحانه وتعالى. وصدق الله القائل: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾.

أما التائه عن الله، البعيد عن معرفة الله الذي لا يصغي بسمعه إلى خطاب الله سبحانه وتعالى، فإن معارفه مهما تراكمت في عقله تزجه في مزيد من الاستيحاش ومن القلق والاضطراب تجاه هذا الكون، ولابد أن تنقله معارفه المبتورة عن مصادرها من وحشة إلى وحشة إلى وحشة، وما من حادث كهذا الحادث يمر إلا ويجعله يرتعد ويجعله في خوف واستغراب لا يعلم ما النهاية وما السبب؟ العلم المبتور عن مصدره مجموعة اشارات استفهام لا جواب عنها. وصدق الله القائل: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾.

نحمد الله سبحانه وتعالى أننا لا نعيش في بيداء مجهلة، لدينا الخارطة نعلم منطلقنا ونعلم نهايتنا ونعلم النهج الذي ينبغي أن نسير عليه، ونحمد الله على أن عافانا مما قد ابتلى كثيراً من خلقه.

بالأمس كنت اسمع إلى ما تقوله الصحف الأجنبية وما تقوله وكالات الأنباء عن الآلاف المؤلفة الذين اجتمعوا في الحدائق وغير الحدائق ذكوراً وإناثاً وقد اجتاحهم البكاء واجتاحهم القلق والاضطراب، من هم؟

هل فيهم واحدٌ مسلم عرف ربه وعرف حقيقة هذا الأمر؟

هل فيهم واحد مؤمنٌ شد نسبه بالإيمان الحقيقي إلى رسول الله القائل: ﴿إن الشمس والقمر آيتان من آيات لا يخسفان لموت أحدٍ ولا لولادة أحد فإذا رأيتموها أي هذه الآية فافزعوا إلى الصلاة والصدقة﴾؟

هل هنالك مسلمٌ مؤمن آمن بالله وآمن برسوله كان قد اجتاحه هو الآخر هذا القلق؟ لا..

هؤلاءِ كلهم هم التائهون هم الشاردون، أما الآخرون فأين كنت تراهم؟ في المساجد يصلون ويبتهلون إلى الله سبحانه وتعالى؛ لا لخوف جديد ساورهم بعد أمن لا، ولكن لأن عبوديتهم لله سبحانه وتعالى تقتضيهم أن يقبلوا إلى الله في كل حالة، في كل حال من الأحوال. وما من حالة تمر بالإنسان إلا وهي تنادي العبد أن أقبل إلى الله سبحانه وتعالى، ناجه مناجاة المحب، مناجاة الآمن المطمئن، مناجاة من يعلم أنه يعيش في مملكةٍ ليس غريباً عنها، هو مشدود إلى الله سبحانه وتعالى بالولاء ﴿إنما وليكم الله﴾

أجل.. لعل أولئك الغربيين لاحظوا هذا الفرق، ولعل هذه الملاحظة توقظ أولئك الناس من رقاد، ولعل هذه الملاحظة توقظ ذيول أيضاً من الناس في بلادنا التائهين التابعين لأولئك الناس الذين يسيل لعابهم على أوهامٍ لا حقيقة لها، لعل هذا الحدث ولعل هذه الظاهرة التي تبين فرق ما بين واقع المؤمن وغير المؤمن توقظ ذيول أيضاً عندنا كما توقظ أولئك الذاهلين في المجتمعات الغربية وصدق الله القائل: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.



٤٢٤- [عيد الحب] رسالة الحب... ليوم الحب | ٢٠٠٨/٠٢/١٥

في الناس من سهروا الليلة الماضية مع الحب، يحتفلون به، ويهتفون باسمه، ويتغنون بمشاعره، والحب حقيقة فَطَرَ الله سبحانه وتعالى الناس جميعاً عليها، بل إنه لحقيقة فطر الله سبحانه وتعالى الأحياء كلها على اختلاف أنواعها عليه، لولا الحب لتناثرت العلاقات الاجتماعية، ولولا الحب لما وجد في الكون تعاون ولا تلاقٍ على طريق، ولكن المهم بل الأهم البحث عن المحبوب، عندما يكون هنالك حب لا بد أن يوجد المحبوب، كما أنه عندما تكون هنالك الكراهية لا بد أن يكون هنالك مكروه، فمن المحبوب الذي فُطِرَ الإنسان على حبه؟

الجواب عن هذا السؤاليا عباد الله. إنه واحد من أمور ثلاثة لا رابع لها؛ إما أن يكون المحبوب جمالاً يستولي على الفؤاد، أو أن يكون إحساناً يأخذ بمجامع النفس، أو أن يكون عظمةً تبهر البصائر والأبصار، لا يمكن للحب أن يتجاوز هذه الأمور الثلاثة قط، فمن هو صاحب هذه الصفات أجمع؟ من هو الجميل الذي صدرت عنه لوحات الجمال أجمع؟ من هو المحسن الذي تفرعت عن إحسانه سبل الإحسان كلها؟ من هو العظيم الذي بهر بعظمته البصائر والأبصار؟ هل هنالك ريبة أو شك لدى من عرف الله سبحانه وتعالى أن الجميل الأوحد هو الله، وأن المحسن الأوحد في الكون هو الله، وأن العظيم الذي هيمنت عظمته على البصائر والأبصار هو الله سبحانه وتعالى؟

الجميل يا عباد الله هو ذاك الذي أبدع هذه اللوحات التي جعلها متعة للعين إذ ترى، وجعل منها متعة للآذان إذ تسمع، وجعل منها متعة للأنوف إذ تشم، وجعل منها متعة للأفواه إذ تتذوق، هذا هو الجميل الأوحد في الكون يا عباد الله، والمحسن واحد لا ثاني له يا عباد الله، ويخطئ ويضل من يتيه في عالم الأسباب فيقف عند الأسباب ويرى أنها هي معين الإحسان ومنبعه، العاقل الذي عرف الله عز وجل هو ذاك الذي يتجاوز الجداول والسواقي ليقف على المعين، المحسن الأوحد هو الله، من الذي ينيمك عندما تتمدد على سريرك ابتغاء الرقاد؟ من الذي يوقظك عندما تنتهي حاجتك إلى الرقاد؟ من الذي يطهرك من السموم المختلفة القاتلة إذ تدخل إلى حمامك ثم تخرج منه؟ من الذي أكرمك بالماء

النمير تتطهر به وتتخلص به مما يجعلك تشمئز من نفسك؟ من الذي إذا جلست إلى مائدة الطعام رأيت ألواناً وأشكالاً من الأطعمة قد توفرت لديك؟ هل هي إلا ثمرة سماء أمطرت وأرضٍ أنبتت وأنعام سخرها لك ألباناً ولحوما؟ من العظيم الذي بهرت عظمته البصائر والأبصار؟ ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧].

ذلكم هو الجميل، ذلكم هو المحسن الأوحد، ذلكم هو العظيم، إذاً من هو المحبوب الذي ينبغي أن نبحث عنه عندما نهتف بألفاظ الحب؟ من هو المحبوب الذي نلتفت يميناً وشمالاً بحثاً عنه عندما نحتفل بالحب أياً كانت المناسبة؟ إنه الله سبحانه وتعالى، ربما ضلَّ الإنسانُ وتاه وهو يبحث عن الجميل الذي ينبغي أن يقف عنده لِيَهَبَهُ حبه، ربما وقف، وهو يسير في رحلته بحثاً عن المحبوب، ربما وقف أمام صورٍ من الجمال تستثير الغرائز، تستثير الشهوات والأهواء، وربما وقف هذا الباحث ملياً عند هذه اللوحات يُخَيَّلُ إليه أنه قد وصل إلى مبتغاه، لكن الحقيقة تقول له سِر فإن مبتغاك أمامك، لا تقف عند هذه الاستراحات، ذاك الذي ينبض قلبك حباً له وبحثاً عنه، ذلك المجهول الذي تريد أن تصل إليه لتمنحه حبك إنه أمامك بعد، اخترق الصور، اخترق هذه الأشكال، لا تستجب لغرائزك، لا تستجب لأهوائك، على أن محبوبك الحقيقي لم يحرمك منها، لم يحرمك من غرائزك، لكنه أراد أن يجعل من رغائبك وشهواتك استراحات على الطريق الموصل إلى الله سبحانه وتعالى، من الذي يحب هذا الباحث عن الله عز وجل، ذاك الذي يقول: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ [الاسراء: ٧٠]؟ هل تجدون ترجمة تنطق بحب الخالق لعبده أبلغ من هذه الترجمة.

يا عباد الله؟ ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾؟ هو ربك القائل: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩]، إذا سويت هذا المخلوق الذي يتمثل فيه هذا المجتمع الإنساني كله ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ أي تكريم أجل من أن ينسب الله عز وجل روحنا التي تخفق بين جوانحنا إلى ذاته العلية؟ هل هنالك ما يترجم حب الله عز وجل لهذا المخلوق أبلغ من هذا الكلام وأبين؟ يا ابن آدم ألا تبادل خالقك حباً بحب؟ يحبك ألا تحبه؟ يكرمك ألا تدين بالولاء له؟ يعطيك، يرعاك،

يربيك بتحنان وود ولا تحنان الأم لوليدها، ألا تبادل هذا الإله حباً بحب؟ تعرض عنه ثم تجعل من غرائزك بديلاً عن هذا الإله الذي أحبك؟ تعرض عنه ثم تجعل من ما قد حرمه الله عز وجل عليك، لأنه يشقيك ولا يسعدك، تجعل من ذلك بديلاً عن الاصطلاح مع مولاك وخالقك سبحانه وتعالى؟

يا عباد الله، بلغوا هؤلاء الإخوة الذين ساهروا الليل بالأمس مع الحب، يهتفون به ويحتفلون به ثم إنهم فَسَّرُوا محبوبهم بغير المحبوب الحقيقي، بلغوهم ألا يتيهوا في المنعرجات، حذروهم ألا يقفوا أمام اللوحات التي يروها مشروعة أمامهم على يمين الطريق ويساره، بلغوهم أن يواصلوا السير ليصلوا إلى المحبوب الحقيقي الذي فُطِرَ الإنسان على حبه، قولوا لهم إن هذه الأشكال الجميلة التي تنجذب إليها قلوبهم إنما أضفى الجمال عليها خالق الجمال، ذاك الذي قال في محكم تبيانه: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩]

المحبوب الذي تَجْمُلُ مرآه وصورته أمام الأبصار من الذي أضفى عليه هذه السمة؟ إنه أجمل جميل في الكون، إنه الله سبحانه وتعالى، قولوا لإخوانكم هؤلاء أن يصطلحوا مع الجميل الأوحد في الكون، أن يصطلحوا مع المحسن الأوحد في الكون، أن يصطلحوا مع العظيم الذي بهرت عظمته البصائر والأبصار، ليصطلحوا معه ولينتهوا عند محراب المحبة له عندئذٍ سيذوقون ألد طعم لمعنى الحب يمكن أن يشعر به إنسان في هذه الحياة، لئن طالت رحلة الإنسان في فجاج الصور والأشكال التي تجعلنا الغرائز نتخيل أنها كل شيء في الكون، مهما طالت هذه الرحلة فإن كل منا يوشك أن يصل إلى المحبوب الحقيقي، كل منا يوشك أن يصل إلى المراد ولكن المطلوب أن نصل قبل فوات الأوان، كم وكم رأيت.

يا عباد الله، أناساً أمضوا الشطر الأكبر من حياتهم في منعرجات هذه الدنيا تائهين ضالين، يقفون أمام الصور الزائفة للجمال مخدوعين ولكنهم ساروا وإذا بهم وقفوا أمام الينبوع الحقيقي، كم رأيت من أخذ يستغفر من أيامه السالفة ويبكي عمره الذي مضى ويتغنى بمحبوبه الذي عرفه بعد طول تيه وضلال، تعالوا نتعرف على محبوبنا هذا ونحن في أول الطريق، تعالوا نتعرف على مولانا الأجل قبل أن ينتهي العمر وتحين ساعة الارتحال من هذه الدنيا إلى تلك الحياة البرزخية التي تنتظرنا، إذا تعرفنا على مولانا وخالقنا الأجل فلا شك أننا سنصطلح معه، وإذا اصطلحنا معه التزمنا النهج الذي أمرنا به وابتعدنا عن المنعرجات التي حذرنا منها ووقفنا ملبين لقوله سبحانه: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ

بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، كلنا ندين للحب، ولولا الحب لما عرفنا مولانا وخالقنا، لكن الأهم أن نعرف من المحبوب وألا نتيه في المنعرجات، وألا نجعل من غرائزنا وأهوائنا ما يخدعنا ويضعنا أمام الزيف ويقصينا عن الحقائق، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم فاستغفروه يغفر لكم فيا فوز المستغفرين

من الخطبة الثاني عباد الله، قفوا معي أمام هذه الآية التي يتحبب الله عز وجل فيها إلى ثلة من عباده وابسطوا أكفكم ضارعين أن يجعلنا منهم، إذ يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]، لاحظوا هذا التحبب يا عباد الله كيف بدأ البيان الإلهي فوضع مرتبة حبه لهم قبل مرتبة حبهم له، ربنا سبحانه وتعالى هو السباق إلى عباده بالحب، أسألك اللهم أن تجعلنا من هؤلاء الذين أحببتهم فأحبوك، أسألك اللهم ألا تحبسنا في اللوحات الكونية التي ملأت بها رحاب كونك هذا وأسألك اللهم أن تعيننا على اختراق هذه اللوحات لنقف أمام مصورها، لنقف أمام مبدعها، لنقف أمام الجميل الأوحد تحت مظلة قولك: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]، اجعلنا اللهم ممن أحببتهم فأحبوك.

٤٢٥- [عيد الجيش] خير الخطائين التوابون | ٢٠١٢/٠٨/٠٣

هل علمتم أن أمريكا ومعها الصهيونية العالمية قد أعلنت الجهاد الإسلامي المقدس؟ نعم، لقد أعلنت ذلك على ألسنة عملائها وذيولها في هذه المنطقة، ولكن ما هو الجيش الذي اعتمدت عليه أمريكا في هذا الجهاد الإسلامي المقدس الذي أعلنته من خلال ألسنة عملائها وذيولها في منطقتنا كما قلت لكم؟ إنه عبارة عن أمشاج وأخلاط من مرتزقة الآفاق سيقوا وجُمِّعُوا بأزمَّةٍ من الشهوات الآسنة التي يسيل لعابهم عليها، هذا هو الجيش الذي اعتمدته أمريكا وصهيونيتها العالمية.

بقي أن نتساءل ما الغاية الإسلامية التي ينبغي أن تتحقق من وراء هذا الجهاد الأمثل الذي تعلنه أمريكا؟ الغاية هي يا عباد الله القضاء على الناس الذين شهد لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخيرية في هذه البقعة المباركة وذلك عندما تحدث عن الشام قائلاً في حديث صحيح: ﴿عليكم بالشام فإنها خيرة الله من أرضه يجتبي إليها خيرته من عباده﴾، هي شهادة يعتز بها كل من رأى أن الله عز وجل قد أقامه من عالمه الواسع العريض هذا في هذه البقعة المباركة.

فالغاية القدسية الأولى من هذا الجهاد الإسلامي هو القضاء على هؤلاء الذين أثنى عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وشهد لهم بالخيرية.

الغاية الثانية تقطيع هذه الدولة وتحويلها إلى أمشاج لا حراك فيها ولا حياة من أجل أن تسرح إسرائيل وتمرح ومن أجل أن تتبين الأماكن المحددة لمشاريعها التي طال انتظارها للبدء بها ولتحقيقها، مشاريع في جنوب سوريا، مشاريع في البادية، مشاريع أخرى في الساحل، أجل.

هذه هي الغاية المقدسة من وراء إعلان أمريكا للجهاد الإسلامي في سبيل الله ولكن على ألسنة عملائها وذيولها الذين يعيشون فيما بيننا. هذا ما ينبغي أن نعلمه، فمال الموقف الذي ينبغي أن نتبينه ونقفه يا عباد الله؟ هذا يدعونا إلى أن نتذكر دعوة أخرى إلى الجهاد ولكن لم تنبثق من أمريكا ولا أوروبا ولا الصهيونية العالمية وإنما انبثقت من فم حبيبنا المصطفى الذي بعث رحمة للعالمين، فإلى أي دعوتين نستجيب؟ أنستجيب للدعوة التي انطلقت من فم أمريكا وذيولها وأتباعها أن نستجيب للدعوة التي نطق

بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وحياً من عند الله؟! القول الفصل في هذا، القول الفصل الذي لا محيد عنه هو كلام الله عز وجل، فتعالوا نصغي إلى ما يقوله الله عز وجل لنا حلاً لهذه المعضلة في هذا الصدد: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: ١].

هذا كلام ربنا لا ريب في هذا قط، وهذا هو القول الفصل، إذاً فلا بد أن نتجه بالإصغاء ثم بالتنفيذ إلى دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى إعلانه، لقد أعلنها منذ أن بعث، وسرى هذا الإعلان ولا يزال يسري إلى يومنا، تسمعه كل أذن ويستقر حقيقة في حنايا كل قلب ﴿من قُتِلَ دون دمه في شهيد، من قُتِلَ دون ماله فهو شهيد، من قتل دون دينه فهو شهيد، من قتل دون أهله – وفي رواية عرضه – فهو شهيد﴾ وهذا حديث صحيح يرويه الترمذي والنسائي وأبو داود ويرويه الإمام أحمد في مسنده نعم. وأنتم تعلمون يا عباد الله أن الذي يتضرج بدمائه قتيلاً في معركة من المعارك لا يسمى شهيداً إلا إذا كانت هذه المعركة معركة جهاد في سبيل الله، فإذا وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم ذاك الذي قتل في سبيل ماله أو دمه أو دينه أو أهله وعرضه بالشهادة فمعنى ذلك أنه الجهاد في سبيل الله وأنه إنما وقع صريعاً وشهيداً في ساحة الجهاد في سبيل الله سبحانه وتعالى.

إلى أي دعوتين نستجيب؟ الجواب واضح يا عباد الله إن كنا لا نزال نعلم أننا ننتمي بنسب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ننتمي إليه مرتين، الأولى أننا من أمته، المرة الثانية أننا من أتباعه، أننا المؤمنون بالدين الذي بُعِثَ به وبُعِثَ به من قبل سائر الرسل والأنبياء، نعم، إذاً جهادنا هو هذا الذي قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولكني أعود فأسأل كما سألت قبل قليل فما هو الجيش الذي ينبغي أن ينهض بهذا الجهاد المبرور في سبيل الله سبحانه وتعالى؟ الجواب: إنه ذلك الجيش الذي تم الاحتفال بالأمس بذكرى ميلاده، أجل هذا هو الجيش الذي يجب أن ينهض بمهام الاستجابة لدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم أليس كذلك؟ ولعل فيكم هنا من يتساءل في نفسه لقد وُصِفَ – وما أكثر ما وُصِفَ هذا الجيش – بالجيش العقائدي، هل لنا أن نعلم ما معنى أنه جيش عقائدي؟ عباد الله: ليس لذلك إلا معنى واحد – وما ينبغي أن يكون له إلا معنى واحداً – أولاً: معنى أنه جيش عقائدي أن يتمتع بعقيدة إيمانية بالله سبحانه

وتعالى الواحد الأحد، يتمتع بالإيمان الجازم بأن الله سبحانه وتعالى هو قيوم السموات والأرض، هو النافع فلا نافع من دونه، وهو الضار فلا ضار من دونه، وهو الولي فليس ثمة ولي من بعد ولا من قبل.

والمعنى الثاني لوصفه بالجيش العقائدي أنه يتمتع أو ينبغي أن يتمتع بالاعتقاد الجازم بأن واجبه الذي أناطه الله عز وجل به وشرفه به حراسة القيم كلها، حراسة كل شبر وشبر من هذا الوطن المقدس، حماية الحقوق المادية والمعنوية، هذا هو المعنى الثاني لوصف الجيش بالعقائدي.

المعنى الثالث أن هذا الواجب الذي يجب أن يستقر في كيان كل فرد فرد منه ما ينبغي أن يخضع لمساومة ما مهما علا الثمن فيما يتصور ومهما كثرت المغريات فيما قد يتصور، هذا هو باختصار معنى كون هذا الجيش جيشاً عقائدياً، أول معانيه أنه يتمتع بالعقيدة الجازمة أن الله حق وبأنه هو وحده قيوم السموات والأرض وأنه المستغاث وأنه المستعان، أجل.

وأقول هذا ولكني في الوقت ذاته أستدرك وأبين أن هذا الجيش ليس إلا جزءاً من هذه الأمة أمتنا هذه الإسلامية، ولقد كانت أمتنا ولا تزال مرحومة كما بشر وأنبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكنها أمة لا تزال غير معصومة، ليس في الناس من هو معصوم حاشى الرسل والأنبياء، أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكونوا معصومين، كان فيهم منافقون، كان فيهم من تورط فارتكب محرماً، والناس من بعد إلى يوم القيامة هكذا، فإذا تحدثنا عن جيشنا وأنه جيش عقائدي فهذا لا يعني أنه معصوم، بل إن ما ينطبق على الناس ينطبق عليه «كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون» ولكن الواقع الذي شاءه الله عز وجل شيء والتربية التي ينبغي أن نأخذ أنفسنا وإخواننا وجيلنا وجيشنا بها شيء آخر، هنالك واجبات كثيرة إذا نفذت تحقق المطلوب وسدت الثغرات المتنوعة كلها.

على أنني أقول: وما أدراك لعل فاسق اليوم يصبح ناسك الغد ولعل مستهتَر اليوم يصبح أول المهديين والملتزمين بدين الله غداً، ولعل التائه عن صراط الله – بل المرتاب في دين الله سبحانه وتعالى – يصبح غداً من أكثر الناس ربانية والتزاماً بأوامر الله عز وجل، هذه حقيقة ينبغي أن نعلمها، وما أكثر الذي ندرس حياتهم ونتأثر بكلماتهم من العلماء الربانيين وقد كانوا قبل ذلك من التائهين عن صراط الله، كانوا قبل ذلك من المرتكبين لكثير من الموبقات فلا يتألَّين أحد على الله عز وجل إن رأى إنساناً عاصياً ليجزم

أنه حشو جهنم ولا يتألَّين أحد على الله عز وجل إن سمع عن إنسان أو فئة من الناس، سمع عن لوثة في الفكر، في العقيدة، في الرأي، في المذهب لا يتألَّين على الله سبحانه وتعالى ويجعل من نفسه شريكاً لله ثم يجزم ثم يحكم ثم يقضي بما يشاء أن يقضي به، هذه حقيقة ينبغي أن نتبينها يا عباد الله.

ولكني أختم هذا الذي ذكرته لكم بصفوة القول. نعم. الاستجابة تكون إنما لرسول الله لا لأعداء الله عز وجل، والجهاد في سبيل الله سبحانه وتعالى معناه وحقيقته مودعة بيد المصطفى صلى الله عليه وسلم نتلقى ذلك منه، وجيشنا هو الذي يُعْتَمَد للقيام بواجبه ويُنصح للقيام بواجبه ويُنشَّأ على كل ما ينبغي أن ينشَّأ عليه من واجبات للنهوض بواجبه.

ولكني أعود فأقول: إن مناط النصر ليس هنا، مناط النصر ما بين أفئدتنا المؤمنة وبين مولانا وخالقنا الأجل، فإذا كنا نتمتع بإيمان بالله وثقة راسخة بالله عز وجل وإذا كنا نؤدي حقوق الله وحقوق عباد الله جهد الاستطاعة ثم توجنا ذلك كله بالالتجاء إلى الله بالتضرع إلى الله كما قلت لكم في الأسبوع الماضي، باستنزال النصر من سماء الرحمة الربانية فلنعلم أن ذلك هو مناط النصر والتأييد، فلنعلم أن ذلك هو مفتاح النصر، أما إذا شُغِلنا بالأسباب الظاهرة – وهي ضرورية – إذا شُغِلنا بالعدد – وهي أمر لابد منه – ولكن إذا حُجِبْنَا بذلك عن مسبب الأسباب، إذا حُجبنا بذلك عن مولانا الأجل الذي بيده كل شيء فلنعلم أن الأسباب لا تجدي وأن الوسائل لا تفيد وأن الجيوش أيضاً لا تفيد، هذه حقيقة بل سنة من سنن رب العالمين ألزم الله عز وجل بها ذاته العلية تجاه المسلمين، أقول لكم تجاه عباده المؤمنين ولست أتحدث عمن شردوا ففتح الله عز وجل عليهم الدنيا عن يمين وشمال، لا، سنة الله عز وجل في عباده المسلمين هكذا.

ألا فلنصطلح مع الله عز وجل على كل المستويات ولنكثر من الالتجاء الصادق لا التقليدي إلى الله سبحانه وتعالى، ولنعلم أن مصيرنا إن قرب أو بعد العهد هو الوقوف بين يديه، فإن فعلنا ذلك وصَفَتْ أفئدتنا من الشوائب فاعلموا أن الله عز وجل سيكرمنا بسلسلة من خوارق النصر والتأييد، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.


الفتن والابتلاءات



التحذير من الفتن

٤٢٦- الفتن التي تحدث عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم | ١٩٨٢/٠٢/٢٦

نبقى مع جملة المظاهر المؤكدة لنبوة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام والدالة على عظيم رحمته بأمته، أنك إذا عدت إلى أمة المصطفى هذه ونظرت إلى الواقع الذي نعيش فيه رأيت سنته صلى الله عليه وسلم تعيش معنا في كل حال ورأيت وصاياه الجميلة الرحيمة تلاحقنا في كل تقلباتنا وأحوالنا. لقد كان عليه أفضل الصلاة والسلام – وهو محدث أصحابه من حوله – لم يكن يعيش معهم فقط ولم يكن يخاطبهم وحدهم فقط بل كان يخاطبنا معهم وكان يوصينا إذا أوصاهم ويحذِّرنا إذا حذَّرهم ويصف لنا الفتن والوقائع وكل ما يمكن أن نراه أمامنا ليجنبنا المنزلقات وليحذرنا من المتاهات.

الفتن، كم حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها وكم أوضح لنا سبيل الفرار منها وكم بيَّنَ لنا سبل المعالجة لها، وما كان أصحابه رضوان الله عليهم بحاجة مباشِرة إلى ذلك ولكنها الرحمة النبوية إذ كان يشعر بها المصطفى عليه الصلاة والسلام لتلك الأجيال الآتية من بعده فلم يكن يدخر لتلك الأجيال من وصاياه شيئاً ولم يكن يألو جهداً في أن ينبهها ويحذرها ويرفدها. تعالوا بنا نصغي إلى طائفة من وصاياه صلى الله عليه وسلم التي تتعلق بالواقع الذي نعيش فيه مما لم يكن موجوداً في عصره عليه الصلاة والسلام.

يروي البخاري في صحيحه وغيره عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه يقول: ﴿كان الناس يسألون رسول الله عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني يومه، فقلت له يا رسول الله لقد كنا في جاهلية فأكرمنا الله عز وجل بهذا الخير فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: نعم، قال: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: نعم وفيه دخن، قال: وما دخنه؟ قال: قوم يهتدون بغير هديي ويستنون بغير سنتي، قال: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: نعم، دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها، قال حذيفة رضي الله عنه: صفهم لنا يا رسول الله، قال: هم من أبناء جلدتنا، يتكلمون بألسنتنا، قال: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال عليه الصلاة والسلام جواباً لسؤال حذيفة رضي الله عنه: تلزم جماعة المسلمين

وإمامهم، قال: فإن لم يكن ثمة جماعة ولا إماماً؟ فقال: تلزم عقر دارك وتعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض على أصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك﴾.

وقال عليه الصلاة والسلام في موقف طويل آخر فيما يرويه البخاري ومسلم وغيرهما: ﴿يوشك أن يكون خير مال الرجل غنم يتبع بها شعاب جبال﴾ أي يعتزل بها عن الناس.

ويروي البخاري رضي الله عنه عن أبي بكرة رضي الله تعالى عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال: ﴿إنها ستكون فتن، ألا ثم ستكون فتن القاعد فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي إليها، ألا فإذا وقعت فليلزم أحدكم عقر داره ألا هل بلغت، ألا هل بلغت، ألا هل بلغت قال رجل من الناس: فكيف أصنع يا رسول الله إن أدركني ذلك؟ قال: تعمد إلى حد سيفك فتضربه بحجر – كناية عن أن لا يخوض غمار تلك الفتن هاهنا أو هاهنا، فقال رجل من أصحابه رضوان الله تعالى عليهم: أرأيت يا رسول الله إن طلبني رجل بسيفه – أي جاءني سهم فقتلني؟ قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذاً يبوء بإثمك وإثمه، وفي رواية أكثر تفصيلاً يرويها البخاري أيضاً أنه صلى الله عليه وسلم قال: ألا إنها ستكون فتن ثم ستكون فتن القاعد فيها خير من الماشي والماشي فيها خير من الساعي إليها، ألا فإذا وقعت فمن كان له إبلٌ فليحلق بإبله ومن كانت له غنم فليحلق بغنمه ومن كانت له أرض فليلحق بأرضه فقال رجل ممن حوله: أرأيت يا رسول الله لو أن رجلاً ليست له إبل ولا غنم ولا أرض؟ فقال: يعمد إلى حد سيفه فيضربه ويثلمه بحجر، ألا هل بلغت، ألا هل بلغت، ألا هل بلغت﴾.

وصح عن البخاري ومسلم أنه صلى الله عليه وسلم قال: ﴿إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخاصة نفسك ودع عنك أمر العامة﴾.

هذه طائفة يسيرة أيها الناس من وصايا رسول الله صلى الله عليه وسلم التي أسداها بسائق من حبه ورحمته لهذه الأمة يعلمنا فيها السبيل والمخلص من الفتن المختلفة التي شاء الله عز وجل أن يبتلى الناس بها لاسيما إذا قربت الساعة. ولماذا يوصي رسول الله بذلك؟ ولماذا يسميها رسول الله فتناً؟ ولماذا لم تكن هذه الوصية من حظ أصحابه؟ لماذا لم يأمر أصحابه أن يثلموا سيوفهم ويكسروا حدها؟ لماذا؟ لأن النبي

عليه الصلاة والسلام يتحدث عن نوع من المصائب والفتن هي التي يسميها رسول الله فتناً بالمعنى الدقيق، إذا شاء الرجل أن يتخلص منها بسبيل زجه السبيل إلى شرٍّ منه، وإذا شاء أن يلقى سبيلاً أخرى ليتخلص من تلك الفتن زُجَّ به إلى شرٍّ منه، يريد أن يتخلص من الفتنة فلا يرى سبيلاً مصفى سائغاً يرضي الله ورسوله ولا يرى طريقاً يستطيع أن يطمئن أنه طريق آمن سالك يرضي الله عز وجل إن وضع ميزان الله فقط نصب عينيه، فماذا يصنع وقد ادلهمت السبل وتعقدت الأسباب وتداخل بعضها ببعض ولا يمكن أن تتداخل ولا أن تتعقد إلا للأسباب التي وصفها رسول الله ﴿إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه﴾ هنا تتشابك السبل وهنا تتداخل الوسائل فلا يحاول الإنسان أن يفر من بلاء إلا ويقع في شرٍّ منه مع أنه لم يفر من بلائه الأول فما السبيل؟ السبيل ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ومن عجب أن بعض الناس إذا ذُكِّرُوا بهذه الأحاديث الصحيحة التي بلغ مجموعها مبلغ التواتر المعنوي، فهي ليست أحاديث آحاد لم يرض أن يسمعها بل ربما اشمأز من ذكرها ووصف الذاكرين لها والداعين إليها بالسلبية، من؟ رسول الله يدعو إلى سلبية! هذا كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم، كانت هذه الوصايا سلبية لو أنها كانت موجهة إلى فرد معين أو كانت موجهة إلى عشرة من بين المئات، أي إلى قلة، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يرسلها وصية إلى كل فرد فردٍ فرد فردٍ من المسلمين جميعاً، فتصوروا لو أن كل فرد فردٍ من المسلمين التزم خاصة نفسه وكان حارساً أميناً على سيفه وكان قواماً لحدود الله عز وجل على زوجه وأولاده ومن يلوذون به وكان آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر حيثما ارتحل وحيثما حل، لو أن المسلمين جميعاً كانوا هكذا إذاً لذابت الفتنة في خير نارٍ لا يمكن أن تذيبها نارٌ أخرى، لو أن المسلمين جميعاً كانوا بهذا الشكل لاضمحلت العقد ولاستبانت السبل، وقلت لكم مرة: إن هذا أحدث طريقة تربوية يتحدث عنها المربون بالنسبة للمعلمين في مدارسهم، يقول أحدهم: إذا دخل المعلم قاعة الدرس فوجد أن الطلاب جميعاً في صياح وفي ضجيج لا يمكن أن تستبين فيها كلمات متكلم، هذا يصيح من هنا وذاك يصيح من هنا حتى إن العرفاء عندما يريدون يصيحون فيهم يزيدون إلى الضجيج ضجيجاً، ما هو أحسن سبيل سريع من أجل إعادة هذه القاعة إلى الهدوء والطمأنينة؟

أن ينبههم المعلم إلى النقطة التالية، يدعو كل واحد منهم إلى أن يسكت نفسه وأن لا يكون أحد مسئولاً عن الآخر، لأن الضجة ما قامت إلا لأن كل فرد يتحمل المسئولية عن الآخرين فضجت القاعة كلها بصياح الموجهين، ولكن إذا طُبِّقَ هذا المبدأ التربوي الذي دعانا إليه معلمنا وحبيبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأسكت كل واحد نفسه في اللحظة الواحدة ترى أن القاعة عادت إلى هدوئها وأمنها.

أيها الناس: رسول الله مرة أخرى قال: ﴿ألا إنها ستكون فتناً كقطع الليل المظلم، قال سيدنا علي رضي الله عنه: ما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: كتاب الله وسنتي﴾ فالزموا سنة رسول الله والزموا كتاب الله سبحانه وتعالى يخرجنا الله عز وجل من مأزق هذه الفتن، هذا مع الرضا والتسليم بأن قضاء الله عز وجل جارٍ لا ريب فيه ومع ضرورة أن نقول في كل صباح إذا أصبحنا وفي كل مساء إذا أمسينا: رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً ورسولاً.

وأخيراً كان المصطفى عليه الصلاة والسلام يتق المصائب بشيءٍ طالما أوصى به وطالما ذَكَّرَ به أصحابه ألا وهو الصدقات والمبرات، كان يوصي بذلك أمهات المؤمنين وكان يوصي بذلك أصحابه دائماً، وكم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وبيَّن بأساليب شتى أن الصدقة تدفع البلاء.

أيها الناس نحن بأمس الحاجة إلى فيضٍ من رحمة الله وإن كنا لا نستأله، أفتعلمون كيف تستنزلون هذه الرحمة؟ تستنزلوها برحمة تبدونها فيما بينكم، تستنزلوها بالبحث عن الفقراء تكرمونهم بالصدقات الوفيرة، استنزلوا رحمة الله عز وجل بأن تكون يد كل واحد منكم قائمة بخير سبيل لإطفاء شر الفتنة، وكيف تفعل اليد ذلك؟ بأن تمتد بالإحسان إلى المحتاجين، بأن تمتد بالصدقة إلى الفقراء، وابتغوا بذلك وجه الله وحده، وابتغوا بذلك مرضاة الله وحده، افعلوا هذا دون حساب، افعلوا هذا دون خوف من الفقر، افعلوا هذا وأنتم على يقين بأن كنوز الله مفتحة وبأن ما أنفقه الله لوجه الله لا ريب أن يُعَوَّض.

أيها الناس: حاولوا أن ترتفع عنكم مظاهر غضب الله وأن ينزل الله عز وجل عليكم شآبيب رحمته بأن تتراحموا، والتراحم لا يكون بالكلام وإنما يكون بالفعل والقول، فابذلوا جهدكم على كل المستويات وفي كل الأحوال لتحقيق هذه الوصية التي أوصانا بها رسول الله وأذَكِّرُكم اليوم بهذا. ألا وعلى كلٍّ منكم

أن يُذَكِّرَ بهذا إخوانه وأن يُذَكِّر بها أحبابه وأصحابه، إذا شئتم أن يكرمنا الله فليكرم بعضكم بعضاً، وليكرم الأغنياء الفقراء، انظروا إلى المحتاجين تحروا أحوالهم، لا يقولن قائل: أنا لا أعلم الفقراء هل تعلم أحداً منهم؟ كلفك الله بأن تبحث عنهم، ابحث عنهم في أصقاعهم وأحيائهم الضيقة فهم كثير، ولك من الأجر في البحث عنهم قدر ما لك من الأجر على الإعطاء لهم، اللهم إنا نسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى، وأختم كلامي بقول الله عز وجل: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ، وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾. ويقول الله سبحانه وتعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَذًى كَثِيراً وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾.

أستغفر الله العظيم فاستغفروه يغفر لكم.

٤٢٧- واقع المسلمين والفتن | ١٩٨٢/٠٣/١٢

إنه لا يمكن إذا نزلت الفتن وادلهمت المحن لا يمكن للإنسان الخلاص منها إلا أن يعكف بهدوء على معرفة قانون الله عز وجل في الكون ونظامه المتبع في عباده، لا يجزي إلا أن يبدأ الإنسان أولاً فيجدد يقينه بأنه عبدٌ ذليل لمالكه ومولاه وأن مالكه يتصرف به كيفما يشاء. ثانياً أن يعلم نظام الله عز وجل في عباده، فإذا علم ذلك أراح واستراح. وما هو نظام الله عز وجل في عباده؟ بعد يقيننا أننا عبيدٌ لله عز وجل نظام الله سبحانه وتعالى أو أنظمته عز وجل في عباده أنه يعاقب الناس في الدنيا على أساس جماعي وإن كان المذنبون والمستحقون للعقاب بعضاً منهم ويقينهم إذا حشرهم يوم القيامة حشرهم على نياتهم، ألم تسمعوا قول الله سبحانه وتعالى وهو يقول في محكم كتابه: ﴿وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾.

أولم تسمعوا قول سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام لزينب وقد سألته: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال لها: ﴿نعم إذا كَثُرَ الخبث﴾.

أولم تسمعوا قوله فيما يرويه مسلم عن عبد الله بن عمر أنه صلى الله عليه وسلم قال: ﴿إذا أراد الله بقومٍ عذاباً عمَّهَم بالعذاب ثم حشرهم على نياتهم﴾.

إذاً هذا هو قانون الله عز وجل، ولن تجد لنظام الله عز وجل من تبديل في عصر من العصور، بدءاً من عصر الرسل والأنبياء إلى يومنا هذا إلى أن تقوم الساعة. ألا تذكرون يوم أحد، يوم قاتل رسول الله ومعه صحابته الكرام فلول المشركين، خطيئة صغيرة وقع فيها فلول من الصحابة لا يزيدون على خمسين من أصل ما يقارب الألفين فماذا كانت نتيجة خطيئة مساحتها لا تزيد على خمسين جندياً من أصحاب رسول الله؟ عمَّتْ آثار هذه الخطيئة وعقابها الرباني عموم الجند بما فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، قُتِلَ من خيرة الصحابة ما يزيد على سبعين، وألقي رسول الله في كمين وشُجَّ وجهه وكُسِرَت رباعيته، وأصاب المسلمين زلزال شديد ما أصيبوا به من قبل ولا من بعد، فهل شفع لأولئك الصحابة ضد هذا القانون الذي لا يتغير أن رسول الله كان فيهم؟ لا. إذاً فهذا القانون ساري المفعول دائماً. وهنا يتساءل بعض الناس وهل فينا اليوم خبث كثير حتى يعمنا الله بهذا العذاب، أوليس المسلمون بخير، أوليس المصلون

يملئون المساجد، هذا ما يقوله كثيرٌ من الناس، ولكن كم قلت يا عباد الله وكم أعدت القول وسأعيده اليوم بأننا ننظر إلى القلة وتغيب أذهاننا عن الكثرة، ولو نظرت إلى الكثرة لرأيت الفساد هو المستشري وهو الغلاب ويجب علينا أن نعلم ذلك وأن لا نغتر ببعض الصور أبداً. وأحب اليوم أن أضع النقاط على الحروف حتى لا تكثر الأسئلة بعد اليوم في هذا وحتى تعلموا أن وراء هذه الأسباب الظاهرة للمحن جذورٌ من إرادة الله عز وجل وقانونه في عباده فلا تقفوا عند الأسباب الظاهرة وارجعوا إلى الجذور الراسخة الخفية. هذه الأمة استشرى فيها الفساد سواء من الناحية الأخلاقية والتفسخ الطغياني بسبب المادة، وسواء من حيث ظلم الناس بعضهم لبعض وتربصهم ببعض، وسواء من حيث تمزيق حقوق الله عز وجل وتضييعها، وكأني بكم تطلبون الشواهد، وما جئت قبل اليوم بشواهد ولكني سآتي اليوم بشواهد نماذج، ولو شئت لألفت من هذه النماذج الواقعية كتاباً.

أما فيما يتعلق بطغيان المادة وأثر ذلك على التفسخ الأخلاقي فإليكم هذا النموذج، رجل من أغنياء هذه الأمة في هذه البلدة، مصلٍّ، يركض إلى الحج، وحج إلى بيت الله أكثر من مرة، قال له بعض أصحابه مذكراً: إن ابنك يرتكب الفواحش وإنه يستعمل مالك في ارتكاب كثيرٍ من المحرمات والانحرافات الجنسية، فقال الوالد: لقد رأيت على وجه ابني الغنى ولذلك فلم أعاتبه على فعل يفعله ولا أسمح بمن يتحدث على ابني بسوء فقد رأيت على وجهه الغنى، نعم هكذا قال هذا الرجل الذي يركض إلى الحج إلى بيت الله الحرام فماذا عسى أن يقول من لا يعلم صلاة ولا حجاً وهم كثيرون؟ نعم، لا يرى أن من واجب الشاب في هذه الدنيا إلا أن يكدح من أجل الرزق فإذا وجد أبوه أنه استغنى على وجهه أو من قفاه فهذا هو المطلوب ولا يراد منه بعد ذلك شيء آخر.

وإليكم هذا النموذج الثاني فيما يتعلق بتربص الناس بعضهم ببعض وأكل بعضهم حقوق بعض، رجل له دار يكسوها وهو يسكن خلال ذلك في دارٍ بالأجرة وجاء صاحب الدار المستأجَرَة يطلب داره لظروف اضطرارية، ووقع الرجل في مأزق، جاءه صديق لهم شهم قال له يا هذا، لماذا تتألم، لي دار مغلقة تعال فاسكن فيها ريثما تتم دارك التي تكسوها، وشكره هذا الإنسان، فانتقل من داره المستأجرة إلى دار

صديقه وأصر صديقه ألا يأخذ منه درهماً ولا ديناراً لأنه يسكن في هذه الدار ريثما تتم داره المملوكة، لبث صاحب الدار الرجل الثاني ينتظر سنة وسنتين وسمع أن داره قد انتهت وما يريد أن يخرج منها وأرسل إليه بلطف يسأله متى سيترك له داره، أرسل إليه الرجل المصلي الحاج إلى بيت الله الحرام يقول له كم تدفع لي من الفروغ من أجل أن أدع دارك، وأبى الرجل أن يخرج حتى دفع له الرجل آلافاً معينة لا أذكر عددها. لست أتخيل يا عباد الله وإنما أضع أمامكم وقائع ونماذج.

نموذج آخر فيما يتعلق بتضييع حقوق الله، قال لي تاجر من تجار هذه البلدة ثقة صدوق، قال لي: أتعلم كم هي نسبة الذين يدفعون زكاة أموالهم كما أمر الله من هؤلاء التجار؟ قدرت وقلت: إنهم قلة ولا أتصور أن يكونوا أكثر من خمسة وعشرين بالمئة فضحك الرجل ضحك ألم وقال والله ما أبالغ إنهم لا يزيدون على خمسة بالمئة فقط، والرجل يعلم وهو يعيش في السوق ويعلم الحقائق، وأقسمت عليه بالله أنه لا يبالغ، قال: والله لست مبالغ وهم أصحاب نعمة وأصحاب ثروة وأصحاب غنى.

نعم. أتريدون نماذج أخرى من كفران النعمة، من البطر والأشر، كم أسر كانت فقيرة فاستغنت فلما أمدها الله بالنعمة والعطاء تكبرت وتحولت دورها في المساء إلى سهرات ماجنة بل إلى حانات، وهؤلاء الناس كانوا فيما مضى يركعون ويسجدون ويسبحون ويحمدون فلما أكرمهم الله بالنعمة قابلوا إكرامه بهذا البطر والأشر ثم لما زادهم الله من العطاء لم يرتضوا أن تكون سهراتهم في تلك البيوت الضيقة بل جعلوا يقيمون سهراتهم في أندية الفنادق الفخمة، نعم، إن بحثت عنهم أين يوجدون من كان يسمى الحاج فلاناً والحاجة فلانة ولم تعثر عليهم في بيوتهم من بعد التاسعة مساء تبحث عنهم في ردهات تلك الفنادق. هل تريدون نماذج أخرى في هذا المكان يا عباد الله؟ هذه نماذج، وفي الذهن صور كثيرة، وقلت لكم لو شئت أن أجمع هذه الصور وأبينها لأخرجت من ذلك كتاباً أسوداً. إذا علمتم هذا يا عباد الله فاذكروا قول ربنا: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

هذا كلام الله، هذا كلام قيوم السموات والأرض: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ والله يغفر الكثير ويعاقب على البعض أو القليل لعلهم يرجعون، والبلاء كل البلاء أن تتمطر المحن علينا كما يقول الله ثم لا نرجع، المصيبة كل المصيبة أن يجعل الله بأسنا بيننا ثم أن نقف أمام الأسباب الظاهرة ولا نصل إلى الجذور، الجذور الخفية التي تجدونها في قوانين كتاب ربنا سبحانه وتعالى. نعم، إن الذي غضب على من ذكره بفجور ابنه ما قال هذا قبل سنوات، قال هذا في هذه الأيام حيث كان ينبغي أن يرعوي وحيث كان ينبغي أن يقف أمام قول الله: ﴿وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾.

في هذا الوقت بالذات حيث كان ينبغي أن يعتبر وأن يتوب ويرجع يغضبُ على من يقول إن ابنك يفجر، بل يجيب وهو رافع الرأس: لقد وجدت على وجه ابني الغنى فليفعل ما يشاء ولن أسمح أن يقول عنه قائل شيئاً.

يا رب: اللهم إنا نسألك أن لا تهلكنا بما فعل الظالمون. أنا أسأل مَن الذي أمر أن يقول هذا الكلام، من الذي جره جراً إلى هذا الفسوق، هل أمره بهذا آمر، هل جره إلى الفسوق جارّ؟ هذا سؤال، سؤال آخر تتحرق من ورائه نفسي، أريد أن أسأل كل من يحلم بمجتمع إسلامي صحيح، أريد أن أسأل كل من يتحرق على الجهاد في سبيل الله عز وجل: ترى ما هي قيمة دار تبنيها على سبيل من الرمال، ماذا عسى أن يكون مآل هذه الدار وما أقمتها إلا على كثيب متحرك من الرمال يا عباد الله؟ المجتمع الإسلامي يتكون من هؤلاء الناس، من صنوفهم، من أطيافهم، من واقعهم، فمن أراد أن يجاهد فليبدأ جهاده بإصلاح هؤلاء الناس، إصلاح هذه البيوت، إدخال حقيقة قوانين الله عز وجل في العقول، علينا إذا أردنا أن نكون قوامين على حدود الله عز وجل أن نقطع ألسنة فجاراً يقولون هذا الكلام، ويحك ربك رزقك، حقوقه عليك كثيرة ثم تقول ما يقوله اليهود وهل اليهود أكثر من هذا دنياهم وآخرتهم وقوانينهم ومبادئهم وأخلاقهم تنحصر في جمع المال وهذا ما قال أكثر من ذلك: لقد رأيت على وجه ابني الغنى

وحظي منه ذلك، نعم، لاشك أنه لا فرق بين أن يأتيه الغنى على رأسه من قفاه. اللهم إنا نسألك أن تهدينا فيمن هديت ونسألك الله أن تبصرنا جميعاً بالطرق من أوائلها وكيف ينبغي على المسلم أن يطهر الأرض عن طريق إصلاح الأفراد وعن طريق إصلاح الناس فإن الله عز وجل يقول: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ وما قال رسول الله: ﴿كما يُوَلَّى عليكم تكونون﴾ ولكنه قال عكس ذلك تماماً يا عباد الله، نعم إننا لو أردنا أن نطبق قوانين الإسلام كما كانت مطبقة في عهد رسول الله وأردنا أن نطبقها على هؤلاء الناس على هذه الفترة فلا ريب أن هذه القوانين ستمزق خلال بضعة أشهر، ذلك لأن الناس لا يريدون ذلك لأنهم انفصلوا عن دين الله، لا تنظروا إلى قلة، لا تنظروا إلى من حولكم يصلون ويركعون ويسجدون ويتبتلون فإن الخبث أكثر، أسأل الله عز وجل أن يهدينا وأن يوفقنا وأن يعمنا برحمته إنه خير مسئول.

٤٢٨- فتن خطيرة بين يدي قيام الساعة [أسبابها.. وسبل الوقاية منها] | ١٩٨٨/٠٢/٢٦

إنَّ اللهَ سبحانهُ وتعالى أخفى ميقاتَ السّاعةِ عن عبادهِ جميعاً بل عن المخلوقاتِ كلّهم، واستأثرَ بعلمهِ وحده، ولكنَّ اللهَ سبحانهُ وتعالى أوحى إلى نبيّهِ محمّدٍ عليهِ الصّلاةُ والسّلام دلائلَ قربِ السّاعة، وأنبأهُ بعلاماتها وأشراطها. ونبّهنا رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلّم إلى كثيرٍ من هذه الأشراط، ولا شكَّ أنَّ إخبارَ المصطفى صلى اللهُ عليهِ وسلّم بهذه الأشراطِ والعلامات التي ظهرَ كثيرٌ منها دليلٌ من أبهرِ الأدلّةِ على نبوّةِ سيّدنا رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم، وعلى أنّهُ إنّما كانَ يُخبِرُ بوحيٍ من اللهِ سبحانهُ وتعالى، لا بإلهامٍ ولا بفراسةٍ ولا غيرِ ذلك.

فلقد أنبأَنا المصطفى عليهِ الصّلاةُ والسّلام أنَّ من أشراطِ السّاعةِ أن يكثُرَ الهرجُ والمرج، أي أن يقلَّ الأمنُ ويزولَ الطّمأنينة، وأن يتهارجَ النّاسُ ويتخاصموا ثمَّ يتقاتلوا، وتصبحَ الدّماءُ دماءُ المسلمينَ رخيصة. وأنبأنا صلّى اللهُ عليهِ وسلّم أنَّ من أشراطِ السّاعةِ أن تَكثُرَ الفِتَن، الفِتَنُ المختلفة، لا سيّما الفِتَنُ التي تدورُ رحاها على دينِ الإنسانِ المسلم، فهوَ ينظر إلى الحصنِ الذي يحصّنُ بهِ ذاتهُ ضدَّ شياطينِ الإنسِ والجنّ، فلا يرى هذه الحصونَ إلّا مهشّمةً مثقوبة، لا يستطيعُ الإنسانُ المسلمُ أن يحصِّنَ نفسهُ فيها، إن بحثَ عن لقمةِ طعامٍ طاهرةٍ من دَنَسِ الحرمة، ومن دَنَسِ ما نهى اللهُ سبحانهُ وتعالى عنه لم يكد يعثرُ عليها، وإن أرادَ أن يتّقيَ الشُّبُهات لا بلِ المحرّمات لم يكد يجدُ سبيلاً للتوقّي منها، وإن أرادَ أن يبتعدَ عن الرّبا وفرَّ عنهُ يميناً أو شمالاً لم يكد يجدُ مخلصاً من الرّبا، وصدقَ رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ إذ يقول: ﴿يأتي على النّاسِ زمنٌ يأكلُ النّاسُ فيهِ الرّبا أجمع، فمن لم يأكل منهُ أصابهُ من غباره﴾. ما أعجبَ هذا الكلامَ الذي يقولهُ رسولُ الله عليهِ الصّلاةُ والسّلام، ولكأنّهُ موجودٌ بينَ ظهرانينا، ولكأنّهُ يرى كيفَ أنَّ الرّبا قد تسلّلَ بأشكالهِ المختلفةِ إلى كلِّ دار، وإلى كلِّ منزل، وإلى كلِّ جيبٍ، وإلى كلِّ قرشٍ يملكهُ إنسان.

هذا بعضٌ من الفتنِ التي حدّثَ عنها رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم، ومنها الفتنُ التي تتسلّلُ إلى الأسرةِ وإلى المنزلِ والدّار، فلا يكادُ يستطيعُ الرّجلُ أن يكونَ قوّاماً على بيته، ما يكادُ يستطيعُ الرّجلُ أن يكونَ رقيباً على زوجهِ وأهلهِ وأسرتهِ وأولادهِ وبناته، ذلك لأنَّ شياطينَ الإنسِ والجنّ تتخبّطُ المثلَ الذي يريدُ أن يحميَ نفسهُ فيها، وتبدّدُ الحصونَ الدّينيّةَ التي يريدُ أن يحصّنَ نفسهُ وذرّيّتهُ وأسرتهُ فيها.

هذه الفتن التي أنبأَ عنها رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلّم هي بعضٌ من أشراطِ السّاعة، والحديثُ عنها طويل، وأحاديثُ هذه الفتنِ كثيرةٌ جدّاً، من بحثَ عنها رآها ووقفَ منها على العَجَبِ العُجابِ الذي يخبرُ بهِ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلّم، وليسَ محطُّ نظري في هذه الكلمة أن أسلّيكم وأمتّعكم بشيءٍ من هذه الأحاديث لأستثيرَ عجبكم، ولكنّي أريدُ أن أنبّه إلى سؤالٍ يطرحهُ السّائلُ ربّما، إذ يقولُ أحدنا: من أيِّ نافذةٍ تندلقُ هذه الفتن، على النّاسِ عامّةً وعلى المسلمينَ خاصّة؟ وما هو سببُ انتشارها بينَ النّاسِ كما ينتشرُ الوباء؟ والجواب: إنَّ هذه الفتن إنما تتسلّلُ من بابٍ واحدٍ بعدَ أن ينكسرَ ويتحطّم. هذا الباب: هو بابُ رقابةِ المسلمين لدينهم، ولأوامرِ ربّهم سبحانهُ وتعالى، فطالما كانَ المسلمونَ بكلِّ فئاتهم رقباءَ على أوامرِ اللهِ عزَّ وجلّ ينفّذونها، حرّاساً على وصايا ربِّ العالمين لعبادهِ يطبّقونها، فإنَّ هذه الفتن تكونَ بعيدةً عنهم، لا يشيعُ بينهم هرجٌ ولا مرج، ولا ينتشرُ وباءُ أيِّ فتنةٍ من الفتن لأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ ما جعلَ دينهُ الذي اختارهُ لعبادهِ إلا ليحصّنهُم ضدَّ كلِّ شقاء، وضدَّ كلِّ وباء، وضدَّ كلِّ فتنةٍ مهما كانَ مظهرها ومهما كانَ نوعها.

وعندما تدنو السّاعةُ رويداً رويداً، وعندما تأذن الدّنيا بأن تستجيبَ إلى أمرِ ربّها في أن تنطويَ وأن تقفَ عن مسيرتها طبقاً للمنهاجِ الذي رسمهُ اللهُ سبحانهُ وتعالى، فإنَّ النّاس يفتنونَ عن الدّينِ بالدّنيا، يفتنونَ عن أوامرِ اللهِ بأوامرِ الشّيطان، ويستدبرونَ وصايا الله بعدَ أن كانوا مقبلينَ إليها متمسّكينَ بها، فإذا أعرضوا عن وصيّةِ ربّهم وأعرضوا عن أوامرِ مولاهم وخالقهم الذي هو أرحمُ من كلِّ شيءٍ بهم، اندلقت إليهم الفتن، وتتابعت عليهمُ المشكلاتُ التي لا حلَّ لها، هذا هو السّببُ أيها الإخوة، كلُّ فتنةٍ من الفتن التي يتطوّحُ فيها الإنسان ويبحثُ عن مخلصٍ لها فلا يجد، إنما جاءتهُ من نافذةٍ واحدة، هي

نافذةُ: تركِ وصيّةِ اللهِ عزَّ وجلّ، والابتعادِ عن أمرهِ سبحانه والابتعادِ عن النّصائحِ والأوامرِ التي وجّها اللهُ سبحانهُ وتعالى إلى عباده.

وما أعلمُ أنَّ الإنسانَ يملكُ أن يجدَ دليلاً على أنَّ أعظمَ دواءٍ للإنسانيّة، وأروعَ علاجٍ لأدوائها وأمراضها إنّما يتمثّلُ باتّباعِ أمرِ الله واتّباعِ كتابِ الله. ما أعلمُ برهاناً يتّضحُ للعاقلِ على هذا، يتمثّلُ في أكثرَ من الفتن التي يراها الإنسانُ في هذا العصرِ من حوله، هذه الفِتَنُ وحدها دليلٌ على أنَّ الإنسانَ لا يصلحهُ إلا دينُ الله، ولا يسعدهُ إلا اتّباعُ أمرِ اللهِ عزَّ وجلّ، فإن شقيَ فلأنّهُ أعرضَ عن أمرِ ربّه، ولأنّهُ ابتعدَ عن منهاجِ مولاهُ وخالقه سبحانهُ وتعالى.

وإذا سألَ سائلٌ ما المخلصُ من هذه الفتن؟ وكيفَ الفرارُ منها؟ وكيفَ أتّقي من وبائها؟ فالجوابُ أيضاً واضح! ولقد سُئلَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلّم وهو يتحدّثُ عن هذه الفتنِ ويحذّرُ منها ويعلنُ أنّها علامةٌ من علاماتِ قربِ قيام السّاعة، قالَ لهُ قائلٌ: ما المخلصُ منها يا رسولَ الله؟ قالَ: ﴿كتابُ اللهِ سبحانهُ وتعالى﴾. ومعنى قولهِ كتابُ الله أي الانصياعُ لأمرِ الله، وليسَ معنى قولهِ كتابُ الله أي أن تشتروا نسخاً كثيرةً من كتابِ الله فتضعوها في جيوبكم أو تملؤوا بها زوايا بيوتكم، أو تجمّلوا بها أسواقكم ومكتباتكم. ليسَ هذا معنى كلامِ المصطفى عليهِ الصّلاةُ والسّلام، بل إنَّ نسخةً واحدةً من القرآن يمكن أن يهديَ اللهُ عزَّ وجلَّ بها أمّةً واحدة حتّى وإن لم تضف إليها نسخٌ أخرى، وملايينُ بل بلايينُ النّسخِ من القرآن يمكنُ أن لا تقوى على انتشالِ أمّةٍ من حمأةِ الضّلالةِ والضّياع عندما يكونُ اتّباعُ هذه الأمّةِ لهذه النّسخِ اتّباعاً شكليّاً، وعندما يكونُ اعتزازهم بهذه النّسخ اعتزازاً مظهريّاً، وإنّما المعنى الذي أمرَ بهِ رسولُ الله هو المعنى الذي أمرَ بهِ اللهُ عزَّ وجلّ، وماذا يقولُ الله: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنْ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ، يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾. قفوا معي أمامَ كلمةِ يهدي بِهِ اللهُ من اتّبعَ رضوانه، لم يقل: يهدي بِهِ الله من جمَّلَ طباعته، يهدي بهِ اللهِ من استكثرَ وجوده، يهدي بِهِ الله من تاجرَ بهِ مشترياً بائعاً، ما قالَ هذا، وإنّما قال: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ﴾.

أينَ المتّبعونَ لرضوانِ كتابِ اللهِ عزَّ وجلّ؟ أينَ الّذينَ يحرّمونَ حرامه؟ ويخضعونَ لواجباته؟ ويبتعدونَ عن منهيّاته؟

أينَ الذينَ إذا سمعوا قولَ اللهِ عزَّ وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْجَلابِيبِهِنَّ﴾. إذا سمعوا هذا الأمر قالوا سمعاً وطاعة ونفّذوا الأمرَ كما أمَرَ اللهُ سبحانهُ وتعالى؟

أينَ الذينَ إذا سمعوا قولَ اللهِ سبحانهُ وتعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾. قالوا: لبّيكَ اللهمَّ لبّيك، ها لقد طهّرنا بيوتنا وجيوبنا من الرّبا؟

أينَ الّذينَ إذا سمعوا قولَ اللهِ عزَّ وجلّ: ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾.

أينَ الذينَ إن سمعوا هذا الكلام أخضعوا حياتهم كلّها بكلِّ أنشطتهم التّجاريّةِ والماليّةِ لهذا الكلام؟

أينَ الذينَ إذا سمعوا قولَ اللهِ عزَّ وجلّ: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾. قالوا لبّيكَ اللهمَّ لبّيك ها نحنُ قوّامونُ على أسرنا وأولادنا؟

أينَ الّذينَ إذا سمعوا قولَ اللهِ عزَّ وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾. وجفت قلوبهم، وذابت نفوسهم خشيةً وخوفاً من الله؟ وارتعدت فرائصهم وقالوا يا ربّ ها نحنُ أولاءِ حرّاسٌ على بيوتنا، أهلينا، بناتنا، أولادنا، ضدَّ كلِّ موبقةٍ وانحراف؟

اتّباعُنا لكتابِ اللهِ نُسِخْ، ليتحوّلَ إلى تجارةٍ بالمصاحف، اتّباعنا لكتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ مُسِخ ليتحوَّلَ إلى تهادٍ بنسخِ هذه المصاحفِ شكلاً، وكلّكم يعلمُ معنى هذا المسخ وما فيهِ من تلاعبٍ بدينِ اللهِ وخداعٍ لأمرِ اللهِ عزَّ وجلّ.

فيما مضى كانَ الواحدُ من أصحابِ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلّم يمرُّ عليهِ عامٌ بل عامان حتّى يحفظَ سورتينِ من كتابِ الله، ويقولُ قائلنا: عامانِ ليحفظَ سورتينِ كالبقرة وآلِ عمران؟ ما هذا التّقصير؟ نحنُ نحفظهُ في أشهر! ولكن ما معنى حفظهم لكتابِ الله؟ ما من آيةٍ يمرُّ عليها أحدهم إلا طبّقها على نفسه وروّضَ كيانهُ على تطبيقِ أوامرِ هذه الآية، ثمَّ ينتقلُ منها إلى الأخرى فالّتي تليها فالّتي تليها. وإنّما كانَ معنى حفظِ أحدهم لكتابِ الله أو لسورٍ من كتابِ الله: حفظُ معاني هذه الآياتِ أن تضيّع، حفظُ

أوامرِ اللهِ عزَّ وجلَّ أن تُهدَر. فكانوا يُهَنّؤونَ بهذا الحفظ لأنّهُ حفظٌ دقيق، حفظُ رعاية، أمّا نحنُ فنحفظ وهذا في أحسنِ الأحوال، هذا بالنّسبةِ لمن يحفظُ كتابَ اللهِ عزَّ وجلّ، وقليلٌ ما هم وهم أحسنُ النّاسِ في عصرنا اليوم نسبيّاً، إلا أنَّ هذا الحفظ لا يعدو أن يكونَ حفظاً لفظيّاً، وما هذا هو الاتّباعُ الذي أمرَ اللهُ عزَّ وجلَّ به؟

تعظيمُ حُرُماتِ الله شيءٌ ضيّعناه، تعظيمُ معنى كلامِ الله شيءٌ أعرضنا عنه، إنّي لأذكر قصّةَ ذلكَ الخليفةِ العظيم أوّلُ خلفاءِ بني عثمان عثمان بن أرطغل نزلَ ضيفاً عندَ صاحبٍ له، ولما جاءت ساعةُ الرّقاد أدخلهُ إلى الغرفةِ التي هيّأها له لينامَ فيها، ولمّا أرادَ هذا الخليفةُ العظيمُ أن يرقد انخفضَ بصرهُ إلى شيءٍ معلّقٍ في جدارِ الغرفة ونظر وإذا هو كتابُ الله، وقفَ أمامَ هذا الكتاب خاشعاً معظّماً وتساءلَ في نفسهِ: كيفَ أضطجعُ وأتمدَّدُ لأرقدَ في غرفةٍ فيها كتابُ الله؟ لم يستطع هذا الإنسانُ أن يتمدّد، ولم يستطع هذا الإنسانُ أن يغمضَ عينه، وهيمنت عظمةُ كتابِ اللهِ على مجامعِ قلبه فبقيَ واقفاً إلى لمعةِ الفجر، واقفاً هكذا خاشعاً أمامَ كتابِ اللهِ عزَّ وجلّ هذا الإنسانُ بهذه الخشية عصمَ نفسهُ من الفتن. لا بل أكثر من هذا، فتحَ اللهُ أمامهُ معارجَ الصّعود وأعطاهُ اللهُ مفتاحَ خلافةٍ إسلاميّةٍ راشدةٍ امتدّت قروناً من الزّمن، هو الجَدُّ الأوّل لخلفاءِ بني عثمان، لكن كيفَ كانَ هذا؟ وبأيِّ ثمنٍ أولاهُ اللهُ عزَّ وجلَّ ذلك؟ بتعظيمهِ لحرماتِ اللهِ عزَّ وجلّ، ذلكَ ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾.

عبادَ الله: هذه الفتنُ التي يتطوّحُ فيها كثيرٌ من المسلمينَ اليوم: علامةٌ من علاماتِ قربِ قيامِ السّاعة، والمخلصُ منها: التّحصّنُ بدينِ اللهِ عزَّ وجلّ، فمن تحصّنَ منها بدينِ الله، وتمسّكَ بأوامرِ الله، واعتصمَ بمنهجِ كتابِ اللهِ وسنّةِ رسولِ الله: فإنَّ اللهَ يعصمه، وإنَّ اللهَ يبعدهُ عن عواصفِ هذه الفتن. أمّا من استشرفَ إليها فإنّها تُطوِّحُ به وتهلكه. أقولُ قولي هذا وأستغفرُ اللهَ العظيم، فاستغفروهُ يغفر لكم..

٤٢٩- الإمام الشهيد متحدثاً عن مصيبتا اليوم | ١٩٩٠/٠٩/١٤

إنَّ مصائبَ المسلمينَ اليومَ كثيرة، وقد تكاثرت النبال على الإسلامِ والمسلمينَ من كلِّ حدبٍ وصوب. ولكنَّ هنالكَ مصيبةً أفدحُ من سائرِ المصائب، وأبعدُ تأثيراً من سائرِ الفتن. هذه المصيبة: هي ما انتهى إليهِ الإسلامُ على ألسنةِ كثيرٍ من المسلمين. لقد انتهى الإسلام على ألسنةِ كثيرٍ من المسلمينَ وعلمائهم ودُعاتهم إلى ما يشبهُ منبراً يستعملهُ صاحبُ كلِّ منهج، وصاحبُ كلِّ رأي. لقد تحوّلَ الإسلامُ بفعلِ كثيرٍ من المسلمين إلى ذيلٍ من الذّيولِ يمكنُ أن يكونَ خادماً لأيِّ اتّجاه، ويمكنُ أن يكونَ خادماً لأيِّ رأيٍ من الآراءِ بل ربّما لأيِّ محنةٍ من المِحن. والمصيبةُ الفادحة، والمصيبةُ الكبرى من وراءِ ذلك: هي أنَّ عوامَّ المسلمين الذينَ لم يُتَح لهم أن يتزوّدوا بزادٍ عميقٍ من الثّقافةِ الإسلاميّة، يلتفتونَ إلى الإسلامِ عن يمينٍ ويلتفتونَ إلى الإسلام الذي يُدَّعى أنّهُ إسلامٌ عن شمائلهم، ويلتفتونَ إلى ما يُعَدُّ أنّهُ طوق الإسلامِ من أمامِهم أو من ورائهم. وإذا بهذا الإسلامِ آراءٌ متناقضة، وإذا بهِ مجموعةُ فتاوى متعارضة. وإذا بالإسلامِ أشبهُ ما يكونُ بوعاء، يَصلُحُ أن يُملَأَ بأيِّ شيء، من أيِّ صنف، ومن أيِّ نوع. هؤلاءِ العوام كيفَ يفهمونَ الإسلام؟ وبأيِّ حصيلةٍ يرجعونَ من هذه الصّورِ المتناقضةِ المتعارضةِ التي تسمّى جميعاً إسلاماً؟

لَئِن استخفَّ هؤلاءِ النّاسُ العوامُّ بالإسلامِ فلا عجب، بل لَئِن اشمأزُّوا منهُ فلا عجب، إذا تصوّروا أنَّ هذا هو الإسلام. الإسلامُ صوت يمكنُ أن تملأهُ بأيِّ لغة، وهو لغةٌ يمكنُ أن تملئها بأيِّ اتجاه وبأيِّ رأيٍ وبأيِّ مذهبٍ من المذاهب. وهكذا تتبخّرُ حقيقةُ الإسلامِ في أذهانِ كثيرٍ من المسلمين، ويرجعونَ بصورةٍ مزيّفةٍ مشوّهةٍ عن دينِ اللهِ سبحانهُ وتعالى، وإذا آلَ اختلافُ المسلمينَ إلى أن يختلفَ إسلامهم، وإذا آلَ تمزّقُ المسلمينَ إلى أن يمزّقوا فيما بينهم أيضاً إسلامهم، تحدّثْ عن هذه المصيبةِ ولا حرج.

أن يتمزّقَ المسلمون، يمكنُ هذا.. ولكنَّ الإسلامَ يعيدهم في يومٍ ما إلى الوفاقِ والوئام. ولكن إذا أبى المسلمونَ إلا أن ينقلوا تمزّقهم إلى الإسلامِ، فيمزّقوا الإسلامَ أيضاً ويجعلوهُ قطعاً ومزقاً متعارضةً

متخاصمة، فأيُّ رأسِ مالٍ بقيَ للمسلمين حتّى يمكنُ أن يعودوا إليهِ فيعيدَهم يوماً ما إلى سابقِ عزهم وإلى سابقِ وحدتهم وتضامنهم.

إنّنا لنذكرُ أنَّ كلمةَ الفتوى كانت في يومٍ ما من أرهبِ الكلماتِ التي تطرقُ الآذان، إذا قيلَ: هذهِ الفتوى، أو إذا قيلَ لعالمٍ من العلماءِ: أعطِنا الفتوى في هذا الأمر. ارتعدت فرائصُه، ونظرَ إلى الكلمةِ وماذا تعني الكلمة؟ تعني: أن ينطقَ باسمِ الله، وأن يتكلَّمَ عن الله، وأن يحدّثَ النّاسَ عن حكمِ اللهِ سبحانهُ وتعالى.

إننا لنذكرُ يوماً كانَ المسلمونَ ينظرونَ فيهِ إلى هذهِ الكلمةِ على أنّها أخطرُ ما يمكنُ أن يخرجَ من الفم، وأرهبُ ما يمكنُ أن يدخلَ في القلب، وأخوفُ ما يمكنُ أن يسريَ في النّفسِ والأعضاءِ والجوارح، ذلكَ لأنَّ المفتي إنّما يتكلّمُ كما قلتُ لكم باسمِ اللهِ وعنِ الله.

ولقد عرفَ التّاريخُ هذا النوع من سائرِ أئمّتِنا الأعلام، ولقد جاءَ رجلٌ من أقصى المغربِ في يومٍ ما يحملُ رسالةً إلى إمامِ دارِ الهجرة، إلى الإمامِ مالكٍ رحمهُ اللهُ تعالى ورضيَ اللهُ عنه. ونثرَ رسالتهُ بينَ يديه، وإذا فيها ما يقاربُ أربعينَ سؤالاً أجابَ على النّذرِ اليسيرِ منها، ثمَّ قالَ في حقِّ سائرِ الأجوبةِ الأخرى -وهي تزيدُ على الثّلاثين-، قالَ لهُ: لا أدري. قالَ صاحبُ الرّسالة: لقد أُرسِلتُ إليكَ من أقصى المغرب، وجئت إليكَ خلالَ أشهر، فماذا أقولُ لمن أرسلوني إذا عدت؟ قالَ لهُ الإمامُ مالك: قل لهم: يقولُ لكم مالك: إنّهُ لا يدري. هذا دين، مالكٌ عندما يريدُ أن يفتي إنّما ينطقُ باسمِ الله، إنّما يتكلّمُ عن الله. وأيُّ أرضٍ تقله؟ وأيُّ سماءٍ تظله إن هو لغا في دين الله؟ وإن هو تكلَّمَ بما لا يرضي اللهَ سبحانهُ وتعالى؟

وكما قلتُ لكم، فإنَّ مردَّ هذهِ المصيبةِ إلى ماذا؟ إلى صورةِ الإسلامِ في أذهانِ عامّةِ المسلمين، بل إلى صورةِ الإسلامِ في أذهانِ كثيرٍ من الفسقة والضالين والتّائهين. مطلوبٌ منّي أن أفتحَ السُّبُلَ أمامَ التّائهينَ والضالين والفسقة لكي يتفهّموا الإسلامَ ولكي ينجذبوا حبّاً إلى دينِ اللهِ سبحانهُ وتعالى. ولكنَّ اتّخاذَ الإسلامِ لغةً لكلِّ صاحبِ رأي، وأداةً لكلِّ من يريدُ أن يحصِّنَ رأيَهُ بحجّة، يجعلُ الإسلامَ بعيداً عن هؤلاءِ النّاس، يجعلُني أحجبُ هؤلاءِ النّاسَ عن الإسلام. وكم من هؤلاءِ الإخوةُ الفسقة الضّالّونَ التّائهونَ عن

الإسلامِ والذينَ لم يُتَح لهم أن يفهموه، عندما يفتحونَ آذانَهم ليسمعوا فتوىً إسلاميّةً من هنا، وفتوىً إسلاميّةً من هناك، وفتوىً إسلاميّةً من هناك، كلُّها متعارضة، والكلُّ يتعلّقُ بموضوعٍ واحد. هذا الإنسانُ الضّائعُ التّائهُ الذي يُطلبُ منّي أن أهديهُ إلى صراطِ اللهِ وأن أحبِّبَ إليهِ الإسلام، إلامَ آلَ حالهُ؟ لقد انصرفَ عن الإسلامِ انصرافاً كلياً، وأدارَ إليهِ ظهرهُ فقد اشمأزَّ منه، وتصوَّرَ أنَّ الإسلامَ مجموعةُ آراءٍ ابتدعَها شيوخ الإسلام، ابتدعوها كما شاؤوا، أو ابتدعوا كما شاءها لهم رؤساؤُهم وكبراؤهم.

ولكن هل وقفتم عندَ قولهِ سبحانهُ وتعالى وهوَ يصوّرُ وقفةَ هؤلاءِ الذينَ يمزّقونَ الإسلامَ بألسنتهم أيّما تمزيق، عندما يقفونَ بينَ يديِ اللهِ ويحاسبُهُمُ اللهُ على هذا العمل، ماذا يقولون؟ ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا، رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيراً﴾. هكذا يقولون، ولكنَّ لعنةَ اللهِ تحيقُ بالتّابعِ والمتبوعِ معاً. ولكنَّ لعنةَ اللهِ تحيقُ بالطّرفينِ معاً. ذلكَ لأنَّ أولئك، لن يهمّهم من الإسلامِ إلا أن يتّخذوهُ مطية لأهوائهم، وهؤلاءِ لن يهمّهم من الإسلامِ إلا أن يتقرّبوا بواسطتهِ إلى رؤسائهم وكبرائهم. أمّا سلطانُ اللهِ سبحانهُ وتعالى فلم يلتفت إليهِ لا هؤلاءِ ولا أولئك.

إنّها مصيبةٌ كبرى أيّها الإخوة، أن نلقيَ بآذاننا إلى من كانَ إلى الأمسِ القريبِ يحاربُ دينَ الله، ويغلقُ مساجدَ الله، ويكمّمُ أفواهَ من يتكلَّمُ باسمِ الله. إذا بهِ اليومَ يتكلَّمُ باسمِ الإسلام، ويبرّرُ أعمالهُ باسمِ الإسلام، ويستنصح المسلمين ليسبّحوا بحمدهِ لأنّهُ يسيرُ على صراطِ الإسلامِ.

إنّها لمصيبةٌ فادحةٌ أن نلتفتَ إلى الشّرق، ونلتفتَ إلى الغرب، وإلى ما بينهما وإلى جنوبٍ وشمالٍ لنصغيَ إلى حقيقةِ الإسلام، فنجدَ الإسلامَ ممزّقاً بينَ الآراءِ المختلفة، ممزّقاً بينَ المذاهبِ المتقارعةِ المتعارضة. تُرى: هل يمكنُ للإنسانِ أن يخادعَ حتّى ربَّ العالمين؟ بوسعي أن أخادعَ أخي وزميلي بل بوسعي أن أخادعَ رئيسي. لكن أَفَيُخدَعُ اللهُ سبحانهُ وتعالى؟ المحامونَ كثيراً ما يخادعونَ القوانين، ومن السّهلِ جدّاً أن يعمدَ الإنسانُ إلى جملةِ ألفاظ كُتِبت على ورقة فيتلاعبَ بها ويتأولها، وتلكَ هيَ سرُّ صنعةِ المحامينَ الذينَ لا يتّقونَ اللهَ ولا يلتزمونَ مبدأً أخلاقيّاً في حياتهم. الأمرُ يسير، والقانونُ يمكنُ أن يُخدَع، بل إنَّ واضعينَ القوانينَ ربّما يمكنُ أن يُخدَعوا.

لكن عندما يكونُ القانونُ قانونَ اللهِ، وعندما تكونُ الشّريعةُ شريعةَ اللهِ، وعندما أعلمُ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ مطَّلِعٌ عَلَيّ، لا تخفى عليهِ منّي خافية: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾. كيفَ يمكنُ أن أتصوَّرَ أنّني نجحتُ في هذا الخداع؟ أو أنّني نجحتُ في هذا التّضليل؟ ولقد قالَ الشّاطبيُّ رحمهُ اللهُ تعالى في كتابهِ الموافقات في بابِ النّصوصِ وتأويلِها، قال: إنَّ صناعةَ التّلاعبِ في النّصوصِ صناعةٌ قديمة، أتقنها بنو إسرائيلَ ذاتَ يومٍ، وهم الذينَ قالَ اللهُ عنهم: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ هذا كلامُ الله.

يقولُ الشّاطبيّ: (صناعةُ التّلاعبِ بالنّصوصِ صناعةٌ قديمةٌ سهلةٌ أتقنها بنو إسرائيل)، ويتقنُها اليومَ من يسيرونَ على نهجهم ويتّبعونَ دربهم، من هم؟ هم الذين استهانوا بحُرُماتِ الله، هم الذينَ لم يروا للإسلامِ قداسة، همُ الذينَ كانَ إيمانُهُم إيماناً ظاهريّاً اصطبغت بهِ ألسنتهم، أمّا قلوبهم ففارغةٌ عن مهابةِ الله، فارغةٌ عن الخوفِ من الله، فارغةٌ عن تصوّرِ يومٍ سيقفونَ فيهِ عراةً حفاةً غرلاً بينَ يدي اللهِ سبحانهُ وتعالى، ولذلكَ هانَ عليهم أن يتلاعبوا بالنّصوص، هانَ عليهم أن يتلاعبوا بكلامِ اللهِ سبحانهُ وتعالى.

والعوامُّ المساكينُ من المسلمين، من الذي سيحملُ أوزارهم؟ هؤلاءِ العوامُّ الذين انتظروا أن يفهموا الإسلامَ من علماءِ الإسلامِ أو من رؤساءِ الإسلام. ولكنّهم تاهوا بينَ هذه الفتاوى الضّالّةِ المضلّةِ، تاهوا بينَ هذهِ الفتاوى المتناقضةِ المتصارعةِ العجيبة، فعادوا وقد اشمأزّوا من هذا الإسلام، عادوا وقد استخفّوا بهذا الإسلام. منذا الذي سيحملُ أوزارَ هؤلاءِ النّاسِ غداً؟ تلكَ هي المصيبةُ الفادحةُ الكبرى، وهي المصيبةُ التي تقفُ في أُولى درجاتِ قائمة المصائب. أقولُ قولي هذا وأستغفرُ اللهَ العظيم، فاستغفروهُ يغفر لكم...

٤٣٠- منهجية نبوية في مواجهة الفتن | ١٩٩٤/١١/١١

حيثما التفت المسلم في هذا العصر يجد من حوله فتناً تتفجر في داخل المجتمعات الإسلامية، وحيثما ألقى بنظره إلى البعيد البعيد وجد أمامه خططاً ترسم لمزيدٍ من العدوان، يبيتُ ضد المسلمين حيثما كانوا، وعندما يلتفت المسلم فيرى هذه الفتن المتفجرة المتلاحقة في داخل المجتمعات الإسلامية، لا بد أن يتذكر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال عليه الصلاة والسلام: ﴿يوشك أن يكون خير مال المسلم غنمٌ يتبع به شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن﴾.

لا يتأتى للمسلم أن ينظر إلى ما يجري من حوله داخل مجتمعات إسلامية وبين فئاتٍ من المسلمين من هذه الفتن التي تتدجى، لا يتأتى للمسلم وهو يرى هذا إلا أن يتذكر حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا، ولأن دلّ كلام رسول الله على شيء فإنما يدل بصريح القول وبواضح العبارة إلى الدواء المنجي من هذه الفتن، وإلى الماء الذي يطفئ نيرانها، وما أظن أن هنالك دواءً آخر أشفى وأبعد للإنسان المسلم من الفتن يضن بذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم لو كان ثمة دواءٌ غير هذا الدواء.

ولكن المصيبة الكبرى لا تتمثل في أن المسلمين تائهون عن وصايا رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل المصيبة الكبرى تتمثل في أن في الناس المسلمين من يضيقون ذرعاً بهذا الكلام النبوي؛ فيهم من يحرك لسانه بالانتقاد على هذا الكلام النبوي الثابت في الصحيح من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم.

كم قيل وقيل إنها سلبية ينبغي أن لا ننحط فيها. وهل تأملنا في معنى كلام رسول الله هذا؟ وهل تدبرنا دلائله والبعد التربوي الذي في هذا الكلام؟ لو تدبرنا أيها الأخوة لوجدنا في هذا الحديث النبوي الجامع الدواء الشافي لكثيرٍ من مصائبنا ومشكلاتنا.

إن المصطفى عليه الصلاة والسلام عندما قال هذا الكلام لم يهمس به في أذن ثلاثة أو أربعةٍ من المسلمين، أو في آذان فئة قليلة من المسلمين دون غيرهم طلب منهم العزلة والخروج من مجتمعاتهم، لا. وإنما وجهها نصيحةً إلى المسلمين جميعاً بمن فيهم الذين وقعوا في براثن تلك الفتن، فتصوروا كيف يضع رسول الله صلى الله عليه وسلم أمام المسلمين جميعاً هذا الدواء، ويهيب بالمسلمين جميعاً أن يجنحوا إلى هذه الوسيلة، وأن يلجأوا إلى هذه الطريقة. ترى لو أنهم جميعاً انصاعوا إلى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ما الذي كان يجري؟

عندما ينصاع المسلمون جميعاً فلن يقع هؤلاء المسلمون من جراء انصياعهم الكلي لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم في عزلة، الذي يقع في عزلة واحد أو اثنان أو ثلاثة، ولكن عندما يصغي المسلمون كلهم في سائر المواقع التي انحطوا فيها، ومن خلال سائر الوظائف التي يؤدونها، ثم ينصاعون لوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه، فإنهم لن يقعوا من جرّاء ذلك في عزلة قط؛ ذلك أنها استجابةٌ جماعية تربوية مثلى لأمر المصطفى عليه الصلاة والسلام.

وإذا تاه الإنسان أمام هذا المعنى الدقيق الذي يدل عليه هذا الحديث النبوي الشريف، فليقف أمام الحديث الآخر الذي يشرحه ويزيده بياناً وجلاء. عندما قال المصطفى صلى الله عليه وسلم فيما رواه الترمذي والنسائي وأبو داوود وابن ماجه: ﴿بل تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر﴾ بعد كلامٍ وحوار ﴿حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوىً متبعاً ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأيٍ برأيه فعليك بخاصة نفسك ودع عنك أمر العامة﴾.

إلى من يتجه رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا النصح أفيتجه به إليَّ دون غيري!؟ أم يتجه به إليك دون أخيك! إنه يخاطب بهذه النصيحة المسلمين جميعاً يقول لكل فردٍ فردٍ منهم ﴿إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوىً متبعاً ودنيا مؤثرةً وإعجاب كل ذي رأيٍ برأيه فعليك بخاصة نفسك﴾ أي عليك بأسرتك، بمن يلوذ بك، بمن تستطيع أن تهيمن عليهم إذا أمرت، وتستطيع أن تمضي نصائحك فيهم إذا نصحت. هذا معنى قوله عليه الصلاة والسلام: ﴿فعليك بخاصة نفسك﴾.

نصيحةٌ همس بها رسول الله صلى الله عليه وسلم في أذن كل مسلم، فما تتوقعون وما تتصورون لو أن المسلمين عندما رأوا هذه الحالات – وقد وقعنا فيها، فلا والله لا يستطيع مسلمٌ أن ينكر أننا رأينا الشح المطاع والهوى المتبع والدنيا المؤثرة وإعجاب كل ذي رأيٍ برأيه، رأينا ذلك حيثما نظرنا وحيثما قلّبنا وجوهنا. أرأيتم لو أننا جميعاً طبقنا أمر رسول الله هذا؟ لو عاد كل واحدٍ منا إلى أسرته يرعى شأنه ويحرس دينه ويضحي بكل شيء في سبيل أن تبقى هذه الأسرة في حصنٍ حصين من التمسك بأوامر الله والانصياع لشرع الله. ما الذي كان يتم في المجتمع؟ إذاً لذابت التضاريسُ كلها، ولذابت العوائق أجمع، ولفلت الأسلحة الماضية كلها التي تشهر من قبل أعداء الله سبحانه وتعالى ضد دين الله.

ولكن المسلمين لا يَعون نصائح المصطفى عليه الصلاة والسلام، وإن تعجب لشيءٍ فأعجب لمسلمٍ يقول إنه داعٍ إلى الله يوصي بأن لا نذكر هذا الحديث وأمثاله في هذا العصر لأنه يعلم المسلمين معنىً من معاني السلبية. تعلم معنى كلام رسول الله ثم قله. هذا الكلام خطابٌ تربوي أخاذ يخاطب به المسلمين جميعاً.

وأذكر أنني قلت مرةً مثالاً مصغراً لهذا المعنى التربوي الجليل لو أنك نظرت إلى قاعة الدرس، فوجدت الطلاب في همس وفي حالة من الفوضى، وعرفاء هذا الفصل يزيدون الفوضى فوضى إلى جانبهم، ويزيدون الضجيج ضجيجاً من حيث يريدون أن يُسكتوا هؤلاء الطلاب في تلك القاعة. ما السبيل الأمثل للقضاء على هذا الضجيج ولإنهاء هذه الفوضى؟ السبيل أن يقول قائلٌ منهم: ليسكت كل واحد منكم نفسه، إذا أسكت كل واحد منهم نفسه – أي إذا عاد إلى خاصة شأنه وترك من حوله زملائه وإخوانه – فإن القاعة في اللحظة التي تليها تتحول إلى نظام وتتحول إلى هدوء.

هذا ما يقوله سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما أكثر الأمثلة التي تجسد معنى هذه النصيحة التي يوصينا بها المصطفى عليه الصلاة والسلام، ولكني أضعكم من هذه الأمثلة كلها أمام مثالٍ عمليٍ واقعي واحد:

أرأيتم لو أننا اليوم وقفنا أمام قوله عليه الصلاة والسلام ﴿فعليك بخاصة نفسك ودع عنك أمر العامة﴾ فقال كل منا بلسان حاله إن لم يكن بلسان مقاله لبيك يا رسول الله ها أنا ذا أعود إلى أسرتي وخاصة بيتي لأرعى شأنها ولأحرس دين أولادي وبناتي، فأنا أستطيع أن أفعل ما أشاء في بيتي وداخل أسرتي، وها أنا ذا أضحي بكل شيء في سبيل أن أُنشئ أولادي وبناتي سائرين على صراط الله ملتزمين أوامر الله، مصطبغين بالفضيلة بكل مظاهرها ومعانيها وأنفذ هذا وتنفذ أنت الأمر ذاته وينفذ كل مسلمٍ في داره هذه الوصية النبوية الغالية، فيشرف على خاصة دينه في بيته في أسرته.

إلام كانت ستأول أحوال تلك الموجات التي تعارض دين الله عز وجل والتي تحاد الفضيلة إن في الشوارع أو في بعض المدارس إلام سيأول هذه الحال؟ إذاً لرأيتم أن رجوع كل إنسانٍ إلى خاصة نفسه هو الذي يقضي على هذه المشكلة التي يظل كل واحد منكم في كل يوم يسأل عنها. كيف أصنع ببناتي وبالحجاب؟ كيف أصنع بمسألة التوفيق بين الفضيلة وبين ما تدعو إليه الشبيبة كيف أصنع بهذا وذاك؟

رسول الله صلى الله عليه وسلم يريك الدواء من خلال أقصر طريق، ومن خلال أيسر سبيل، لكنه ليس الدواء الذي آخذ أنا نفسي به فقط، ولا الدواء الذي تأخذ أنت نفسك به، ولكنه الدواء الذي يأخذ كل المسلمين أنفسهم به. يقول لنا عليه الصلاة والسلام: العلاج هذا ﴿عليك بخاصة نفسك﴾ كن حارساً على دين أسرتك بناتك أولادك، تستطيع أن تفعل ما تشاء في بيتك، تستطيع أن تسير ابنتك على النهج الذي تشاء، أنت وليها وهي من خاصتك. فإذا أقبل كل مسلم يرعى وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن ذلك التيار الخارجي يذوب، ثم يذوب، ثم يتلاشى.

ولكن عندما ينسى كلٌ منا هذه الخاصة التي أمرنا الله عز وجل بها، ثم يضع المناظير على عينيه لينظر بها بعيداً بعيداً قفزاً فوق واقع بيته، قفزاً فوق واجب رعاية أسرته، قفزاً فوق واجب التضحية بكل شيء في سبيل الفضيلة التي شرّف الله سبحانه وتعالى بها هذه الأمة، فإن هؤلاء المسلمين يراوحون عندئذٍ في مكانهم، ولن يستطيعوا أن يأتوا بأي نتيجة قط. هذا معنى كلام رسول الله إن في الحديث الأول أو في الحديث الثاني.

فانظروا إلى واقع المسلمين كيف يتيهون عن هذا النهج التربوي الأخّاذ الهادئ البعيد عن الفتن، والبعيد عن الضجيج، والبعيد عن أي إثارة.

وانظروا أيها الأخوة إلى هذا المعنى كيف يجتمع ثم يجتمع في كلمات قدسية يسيرة من بيان الله عز وجل: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ فروا إلى الله فروا إلى الله من ماذا؟ من كل شيء يتعارض مع النهج الذي يرضي الله سبحانه وتعالى، من كل شيء يتعارض مع الأوامر الرّبانية التي خاطبكم الله عز وجل بها، فروا إلى الله من الفتن، فروا إلى الله من الضوضاء، فروا إلى الله من القال والقيل الذين لا رصيد لهما، فروا إلى الله

سبحانه وتعالى من أعمال وحركاتٍ لا تنقل الإنسان خطوة إلى الأمام، فروا إلى الله التزموا بأوامر الله سبحانه وتعالى، وليكن كل منكم قائماً بأمر نفسه، وليكن كلٌّ منكم حارساً على دينه، وعندما يكون حارساً على نفسه فلا بد أن يكون حارساً على خاصة بيته أيضاً.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يبصرنا بمعانِ كلام سيدنا وحبيبنا محمدٍ عليه الصلاة والسلام وأسأله عز وجل أن ينبهنا إلى الأدوية التي تشفي جروحنا وتنهي آلامنا وتقضي على مصائبنا لو تنبهنا إليها ولو عدنا إليها بتأمل وتدبر. أقول قولي هذا وأستغفر الله.



٤٣١- الفتنة هي الباب الذي يدخل منه العدو إلى ديار المسلمين | ٢٠٠٥/٠٣/١١

لا شك أن احتلال العدو المشترك لأرض إسلامية من أكبر المصائب التي تحيق بالمسلمين، ولكن هذه المصيبة لا يمكن أن تتسرب إلى أرض من بلاد الإسلام إلا من خلال بوابة واحدة لا ثاني لها، هذه البوابة هي الفتنة التي حذر منها رسول الله صلى الله عليه وسلم. فمن خلال هذه البوابة يتسرب العدو إلى أرض المسلمين، ويبسط يده عليهم، ويغتصب حقوقهم.وما هو المعنى الملخص للفتنة التي تحدث عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثًا ضافيًا؟هي تتلخص في عدوان المسلمين بعضهم على بعض، كل ما حدثنا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم من الفتن وأنواعها يتلخص في هذا الشيء، عدوان المسلمين بعضهم على بعض، وأحاديث الفتنة كثيرة جدًا، وكلها يدور على هذا المعنى. تأملوا مثلاً في قوله صلى الله عليه وآله وسلم، فيما يرويه الترمذي وابن ماجه بسند صحيح من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ﴿ويرث دنياكم شراركم﴾.

انظروا إلى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيما يرويه الترمذي وأبو داود بسند صحيح، من حديث حذيفة بن اليمان، بيت سرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنه صلى الله عليه وسلم قال: ﴿أما والذي نفسي بيده ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي﴾ قال حذيفة: أرأيت يا رسول الله إن دخل داري وشهر سيفه علي وبسط يديه ليقتلني؟ قال: كن كخير ابْنَيْ آدم. أي كن كما قال خير ابْنَيْ آدم: ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي ما أَنا بِباسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ﴾ [المائدة: ٥/٢٨].

وسائر أحاديث الفتن تدور على هذا المحور أيها الإخوة! إنها تتمثل في عدوان المسلمين بعضهم على بعض بذرائع مختلفة يبررها الشيطان ويحذر منها الرحمن سبحانه وتعالى.

وإني لأذكر ولعلكم جميعًا تذكرون يوم كانت تنثر بذور هذه الفتنة التي نشهد ثمارها اليوم، يوم كانت تنتشر بذورها متمثلة في كتب توزع مجانًا في مشارق الأرض ومغاربها، تنطوي على تكفير المسلمين، على تبديع المسلمين، على تحليل دماء المسلمين. وكنا نقول: أيها الناس! إنها بذور لفتن، وإن هذه البذور إذا استنبتت لن تنبت إلا الحناظل، وإنها ستتفجر بالفتن التي حذر منها رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولكن لم يكن الذين ينثرون وينشرون هذه البذور، لم يكونوا يسمعون هذا التحذير قط، كانت هنالك قوىً ولا شك تدعم هذا العمل، تدعم هذا النثر والنشر؛ من أجل أن تتفتح بوابة الفتنة، فيتسرب العدوان من خلال هذه البوابة.

أيها الإخوة. وها أنتم ترون حصاد تلك البذور، اليوم القتل يستحر بمن؟ لا بالعدو المحتل، وإنما يستحر كل يوم بعشرات من إخوانكم المسلمين المؤمنين الذين لم يقتلوا نفسًا بغير نفس، ولم يشركوا بالله، ولم يرتكبوا الزنا، وهذه هي الأسباب التي أباح الإسلام من أجلها قتل المسلم، لم يرتكبوا شيئًا من ذلك، ومع هذا فها نحن في كل يوم نفتح أعيننا على صباح جديد من الفتن لا تتمثل في قتال العدوّ المحتل، وإنما تتمثل – كما قلت لكم – في القتل الذي يستحر بمسلمين.

ما المبرر أيها الإخوة؟ ارجعوا إلى بذور الفتن، البذور التي كانت تتمثل في الكتب المكفرة: إنهم أعوان سلطة، إذن فهم كفرة، إذن ينبغي أن يقتلوا.

أي دين قالها؟ أي آية قالها الله عز وجل نصت على حكم بإطلاقه؟ أي حديث نبوي صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تضمن هذا؟

الذي يعرفه المسلمون أن الإسلام يتضمن نقيض ذلك، لا أعلم أن هنالك من كان عونًا لأعداء المسلمين مثل حاطب بن أبي بلتعة، هذا الرجل المسلم الذي أرسل كتابًا سرًّا إلى أهل مكة المشركين، ينبئهم بأن محمدًا صلى الله عليه وسلم قد جهز جيشًا؛ وهو يوشك أن يتجه إليهم لفتح مكة، فخذوا حذركم. ومع ذلك فهل أهدر رسول الله صلى الله عليه وسلم دمه؟ هل قتله؟ جاء من يفكر في ذلك فقال المصطفى صلى الله عليه وسلم: ﴿وما أدراك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: افعلوا ما شئتم فقد غفرت لكم﴾.

وما من مسلم إلا وقد تقرب إلى الله بعمل، بما يجعله الله شفيعًا للذنب الذي ارتكبه عند الله سبحانه وتعالى، وأدل من هذا وذلك خطاب الله عز وجل الذي تنزل بهذه المناسبة تحذيرًا لهذه الغلطة التي وقع فيها حاطب ماذا قال الله تعالى: ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِياءَ﴾ [الممتحنة: ١/٦٠] خاطب الله حاطب بن أبي بلتعة وأمثاله بوصف الإيمان: ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِياءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: ١/٦٠].

ما هو المبرر أيها الإخوة لهذا الذي يجري اليوم؟ متحديًا تحذير رسول الله صلى الله عليه وسلم، معرضًا عن أخباره المتكررة المنذرة المحذرة: «والذي نفسي بيده لا تقوم الساعة حتى تقتلوا أئمتكم – حكامكم – وتعتلجوا بسيوفكم». أي تتقاتلون – أنتم المسلمين – بأسلحتكم، والسيوفُ كناية عن السلاح الموجود لكل عصر.

رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول هذا ولكننا نسمع ما يجري في كل يوم من دوران رحى القتل على مسلمين أمثالكم، وننظر إلى العدو الجاثم على الصدر، ننظر إلى العدو المستحل للأرض، الغاصب للحقوق، وإذا هو يصفق، وإذا هو لا يبيع فرحته لأحد، أأنتم مجاهدون؟ أهذا هو الجهاد الذي تزرعون الفرحة في قلوب أعدائكم؟ أيها الإخوة، ما هكذا يكون الجهاد في سبيل الله سبحانه وتعالى، ومهما تاه مسلم عن مبادئ دين الله، ومهما تاه مسلم عن كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما ينبغي أن يغيب عن بيان الله سبحانه وتعالى المخبر والمحذر والمنذر ﴿قُلْ هُوَ الْقادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآياتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ، وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ [الأنعام: ٦/٦٥-٦٦]. ها هو ذلّ ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾. هذا هو الذي يجري اليوم، يذوق المسلمون بأس المسلمين، ما في المسلمون من عدوان المسلمين بعضهم على بعض، أهذا هو الدين الذي بعث به رسول الله صلى الله عليه وسلم؟


الفتن ... أسباب وعلاج

٤٣٢- من الذي يجب عليَّ اتباعه في مثل هذه الأيام | ١٩٨٣/٠٤/٠١

مرة أخرى نعود للحديث عن العزلة، وعن واجب المسلم في هذا العصر، وأمام هذه الفتن المتجلية، وإني لأرجوا أن يكون في هذا الحديث الذي أقوله للمرة الثالثة أو الرابعة ما يغني عن العودة إليه، وما يغني عن أي نقاش خاص فيه، يسأل المسلم اليوم ماذا أصنع؟ وبمن اتصل؟ وكيف أقيم الإسلام الذي أمرني الله عز وجل بإقامته؟ وكيف أقيم دولة الإسلام؟ يسأل هذه الأسئلة الكثيرة، ويفسر في أرق وهم كبير لمعرفة الإجابة عليها والجواب واضح، والإجابة بدهية، ورسول الله صلى الله عليه وسلم تركنا على ﴿بيضاء نقية ظاهرها كباطنها، لا يزيغ عنها إلا هالك﴾، كما قال عليه الصلاة والسلام، ماذا تصنع وبمن تستعين ؟ ومع من تضع يدك؟ تسأل نفسك هذا السؤال، وأنت تعيش في هذا المجتمع الذي أنت فيه وكأنك تعيش في قاعة كبيرة، في حفلة من هذه الحفلات التنكرية، لا تكاد ترى وجهاً على حقيقته، وإنما ترى أقنعة مختلفة اختفت تحتها الوجوه الحقيقية، أنت تعيش في مجتمع هذا شأنه.

ثم تسأل بمن اتصل؟ ومع من أضع يدي؟ ما أكثر ما ترى من يحدثك عن ضرورة العمل في الإسلام، والعمل الجماعي من أجل إقامة حكمه ومنهاجه، وتتأمله جيداً وإذا هو رجل من هواة المناصب، ومن هواة المكانة فهو يريد أن يتخذ من بضعة أشخاص سلماً لمنصب يهواه، وما أكثر ما ترى رجلاً آخر يتحدث عن الأفكار المختلفة، التي تتحدث عن الإسلام ويقول لك كما قال لي أحدهم: إنه استخار الله عز وجل فرأى الخير في أن يسير في الاتجاه الفلاني، وأن يصل آصرته ونشاطه بفئة من الفئات التي يراها إسلامية، وهي فئة من الفئات الهدامة التي سخرها الاستعمار الأجنبي منذ سنوات طويلة من أجل إفساد الدين، ومن أجل إشاعة الاضطراب في عقول المسلمين، فهذا رجل ثان مقنع بقناع آخر، وما أكثر ما ترى رجلاً ثالثاً، أو شاباً ثالثاً قد أرخى اللحية، وأظهر الإسلام وحمل السبحة، وتظاهر بالحماسة لدين الله، كما رأيت ذلك في بعض البلاد الإسلامية، يستنكر المنكرات الصغيرة ويخلق من أجلها فتناً، ويهيب بالناس أن يقارعوا النظم والمجتمعات من أجل تفتيت دستور الإسلام ومنهجه، وبعد قليل تتأمله

وإذا هو إنسان ملحد لا يؤمن بالله ولا يؤمن بالإسلام، ولكنه يريد أن يثير فتنة هوجاء، ويريد أن يخرج المسلمين من الطريق الذي يسيرون فيه إلى الله، لعله يسخرهم لفتنة، لعله يسخرهم لبلاء، لعله يجهض دعوة إسلامية تنتشر بطبيعتها في المساجد وهنا وهناك، فهذا قناع ثالث، وما أكثر الأقنعة، ما أكثر الذين يتظاهرون بالحماس للدين وهم يضمرون اتجاهاً سياسياً، ما أكثر من يتظاهرون بضرورة خلق جماعة تستعيد للدين قوته وهم من هواة المناصب، ما أكثر الذين ينقلون هذا الكلام نفسه، وإن أحدهم لينتسب إلى فئة قاديانية أو فئة مادية أخرى.

وهكذا فأنت يا أخي المسلم، تعيش في عصر لا تطمئن فيه على الحقائق، فالألسن تتكلم بشكل والوقائع تتكلم بشكل، أكثر النفوس متعمقة بالدنيا بالسراب بالأهواء، بالمناصب ولكن ألسنتهم تستعمل السلعة الرائجة، والسلعة الرائجة بين الناس اليوم هي الإسلام والحديث عن الإسلام، وخداع البسطاء باسم الإسلام، في هذا الجو ماذا ينبغي أن تصنع؟ يجيبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، أجوبة واضحة صريحة قاطعة يقول فيما يرويه النسائي وأبو داوود عن ابن عمرو بن العاص رضي الله عنه يقول: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿إذا رأيت الناس ملجت عهدوهم وقلت أماناتهم وأصبحوا هكذا – وشبك رسول الله في يديه – قال فماذا تأمرني: قال: الزم بيتك، وأمسك عليك لسانك وخذ ما تعرف ودع ما تنكر، والزم أمر الخاصة، ودع عنك أمر العامة﴾ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في ما رواه الترمذي والنسائي وأبو داوود وابن ماجه في أسانيد صحيحة عن رسول الله صلى الله عيه وسلم: ﴿إذا رأيت شحاً مطاعاً، وهواً متبعاً، ودنيا مأثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فدع عنك أمر العامة، وعليك بخاصة نفسك، فإن أمامكم أياماً الصبر فيهن مثل القبض على الجمر للرجل منهم أجر خمسين، قال أحد الصحابة منا أم منهم يا رسول الله؟ قال: بل منكم، لأنكم تجدون على الحق أعواناً، ولا يجدون﴾ ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم أيضاً: فيما يرويه البخاري عن حذيفة بن اليمان أنه قال كان الناس يسألون رسول الله عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة الوقوع فيه والحديث طويل يقول رسول الله في آخره جواباً على سؤال حذيفة أبعد ذلك الخير شر؟ قال: ﴿نعم، أناس يقفون على أبواب جهنم، فمن استجاب لدعوتهم قذفوه فيها، قال صفهم لنا يا رسول الله: قال هم من أبناء جلدتنا

يتكلمون بألسنتنا، قال فماذا تأمرني يا رسول الله أن أصنع؟ قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم، قال: فإن لم تكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: فاعتزل تلك الفرق والجماعات كلها ولو تعض على أصل شجرة حتى يأتيك الموت وأنت عل ذلك﴾ هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يجيب الحائرين، وينهي اضطراب المضطربين، ويعلم الجاهلين، ويضع النقاط على الحروف، وقد قال ربنا جل جلاله: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾، ويقول: ﴿مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ﴾.

والله سبحانه وتعالى أرسل رسوله مبيناً والرسول هو الذي يقول لقد أوتيت القرآن ومثله معه، فمن لم يقنعه هذا الكلام فلا أقنعه الله، ومن أردا من بعد هذا الكلام، كلاماً أوضح فلا رأى عقله ما يوضح له السبل، ومن لم يجد في هذا البيان الموضح الناصع الذي ينبض بالرحمة والشفقة والحب لأمته، من لم يجد في هذا الكلام غذائه المشبع فلا أشبعه الله له عقلاً ولا فكراً، هكذا يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلا داعي لبحث بعد هذا ولكن قد نحتاج إلى شيء من التفسير لكلامه ﴿عليك بخاصة نفسك﴾ قال علماء الحديث: ما معنى خاصة النفس؟ هل معنى ذلك أن لا يلزم إلا ذاته، فلا يأمر بمعروف ولا ينهى عن منكر، لا ﴿عليك بخاصة نفسك﴾ أي كن رقيباً على نفسك أولاً وعلى أهل بيتك ثانياً فهم من خاصتك، أقم بيتك على أساس إسلامي سليم، كن آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر فيه، ثم إنك ينبغي أن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، أصدقائك وأصحابك وذوي رحمك، وكل من ترى لنفسك عليهم سلطاناً، فهم أيضاً من خاصة نفسك هذا معنى كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿عليك بخاصة نفسك﴾

ومن عجب أنا نرى أناساً يحارون ويضطربون ويموج أمرهم، ماذا نصنع؟ والبلاء في بيوتهم ولا يمضون شيئاً من وقتهم العزيز، لإصلاح مفاسد بيوتهم، لإصلاح الجدل القائم بين جوانح أسرهم وأهليهم وأولادهم، إن هذا من الأمر الذي يضحك وشر البلية ما يضحك، ولكم رأيت أناساً أيها الإخوة وضرب الأمثلة في هذا المجال يفيد يتحدثون ويظهرون أنفسهم، عن الإسلام وكيف ينبغي أن يحكم الإسلام؟

وكيف ينبغي أن تكون قوانين الأمة قوانين إسلامية وهو يقول بمناسبة وربما بدون مناسبة إنه قد استقدم أخيراً جهازاً تلفزيونياً آخر ملوناً، فجهازه الذي عنده غير ملون، وقال له واحد من أصدقائه، وما فعلت بالجهاز الأول؟ قال وضعت واحداً في غرفة النوم، ووضعت الآخر في غرفة الجلوس، ويتحدث عن المجتمع الإسلامي، وكيف ينبغي أن يشاد وعلى أي الدعائم ينبغي أن تنهض عملية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وآخر أرى له بنات كبار وصلن مبلغ البلوغ، لو أننا لا حظنا أمر الشرع فيهن لكان على الواحدة منهن أن تحتجب من فرقها إلى قدمها، وهي تتخطر في الشوارع بمظهر لا والله ربما التبس على الإنسان أنها فتاة مسلمة أم غير مسلمة، ووالدها يتحدث كيف نقيم المجتمع الإسلامي؟ وكيف نبني الإسلام؟

أمثلة أكثر من هذا حدثتكم عن طرف منها، البذخ الذي تراه في بيوت المسمين، العهر الذي تتسم به أفرح المسلمين، الفسوق والفجور، الذي عشش في بيوت المسلمين، ألا تتصور هذا البلاء، ألا تتصور الطوفان وتدع الشيطان يلعب بعقلك لتتسائل عن الإطار، ضع الصورة السليمة قبل كل شيء ثم تسائل عن الإطار الذي ينبغي أن تضعه.

أسأل الله سبحانه وتعالى، أن يجمع أمرنا على بالحق وأن يرزقنا اتباع المصطفى صلى الله عليه وسلم، وأن يجعلنا ممن تهمهم خصائصنا وذوو قرابتنا، وأرحامنا حتى يصلح الله أمرنا خاصة وعامة، فاستغفروا الله يغفر لكم.

٤٣٣- سد باب فتنة.. أولى من حقوقك التي متعك الله بها | ١٩٩٠/٠٢/٢٣

إنَّ اللهَ سبحانهُ وتعالى أتمَّ على العبادِ نعمتهُ العظمى عندما توّجَ لهم هذه النّعمَ بالإسلام، وقد وضحَ ذلكَ جليّاً في قولهِ عزَّ وجلّ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً﴾. فقد ربطَ اللهُ سبحانهُ وتعالى برباطِ التلازم بينَ تمامِ النّعمةِ وتمامِ الدّين، ولولا الإسلامِ لما استقرّتْ للإنسانِ نعمةٌ على وجهِ الأرض. وحسبُنا في هذا قولُ اللهِ عزَّ وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾. وصفَ اللهُ سبحانهُ وتعالى الإسلامَ بأخصِّ صفاتهِ وأبرزِ ما فيهِ من نعمٍ عظيمةٍ للإنسان، ألا وهو الحياة. فالإسلامُ هو معينُ الحياةِ السّعيدةِ الرّغيدة، وبدونِ الإسلام لن يسعدَ الإنسانُ قَطْ. والمصلحةُ التي أكرمنا اللهُ عزَّ وجلّ بها من خلالِ هذا الدّين مصلحتان: أولاهما دنيويّة، والثّانيةُ أخرويّة.

المصلحةُ الدّنيويّةُ وهي الأولى منهما بالنّسبةِ للتّنفيذِ الزّمنيّ تتجمّعُ في مصلحةٍ أساسيّةٍ واحدة: هي توحيدُ الأسرةِ الإنسانيّة، ولمّ شملِ النّاس، وربطهم برباطِ الألفةِ والمودّةِ والتّضامن. ولا أعلمُ أنَّ هنالكَ ثمرةً أجلَّ وأعظم من ثمارِ المصالحِ الدّنيويّةِ التي حقّقها الإسلام، لا أعلمُ أنَّ هنالكَ ثمرةً أجلَّ وأعظم من ثمرةِ توحيدِ الإسلامِ للمسلمين، ونقلهم من الشّتاتِ والتّفرّقِ والتّدابرِ إلى التّضامنِ والتّكافلِ والتّوادِّ والتّحابُب. ولا أعلمُ منّةً امتنَّ اللهُ عزَّ وجلَّ بها على عباده، وذكّرهم بعظمها وخطورتها وأهمّيّةِ شأنها كنعمةِ توحيدِ اللهِ سبحانهُ وتعالى إيّاهم عن طريقِ الإسلام، وتأليفهِ لقلوبهم عن طريقِ الدّخول في دينِ اللهِ سبحانهُ وتعالى، وكلّكم يقرأُ في هذا قولَ اللهِ عزَّ وجلّ: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ . انظروا إلى هذا الأسلوبِ من التّمنّن، يمتنُّ اللهُ عزَّ وجلَّ بهذا الكلامِ على عباده، بنعمته. ونعمُ اللهِ كثيرة. ولكن ما رأيتُ نعمةً يذكّرُ الله عباده بفضله عليهم بها كما يذكرهم بفضله عليهم بهذا التأليف وهذا الجمع وهذا التوحيد بعد شتات وفساد.

إذاً فأجل ثمرة من أجل المصالح الانسانية الدنيوية التي يحققها الإسلام للناس، إنما هو التوحيد بعد الشتات، والود بعد التدابرِ والعدوان. وكل المصالح الأخرى تتفرع عن هذه المصلحة، فالقوّة إنما هي فرع لوحدة الأمة، والعزة إنما هي ثمرة لوحدة الأمة، والعزة إنما هي ثمرة لتآلف الأمة، وغناها إنما هي ثمرة لوحدتها وتضامنها وتآلفها. وإذا تحولت وحدة الأمة الى انكاث وضياع وشتات، فلن تجد لهذه الأمة بعد ذلك غنى ولا قوةً ولا عزةً ولا هيبةً في قلوب الأعداء. فهل يمكن أيها الناس أن تحقق الأسرة الإنسانية لنفسها هذه الوحدة إلا من خلال هذا الدين؟ هل يمكن للأسرة الإنسانية أن تذيب عداواتها وخلافاتها وتتحول فعلاً إلى أسرة إنسانية يشيع فيما بين أعضائها الود، إلا إن دخلت في بوابة العبودية لله عز وجل واصطبغت في دين الله سبحانه وتعالى.

أظن أنا إن تأملنا يسيراً عرفنا أن لا سبيلاً قط أياً كان نوع هذا السبيل إلى لمِّ شعثِ الناس إلا من خلال رجوعهم إلى الله، ومن خلال اصطباغهم بدين الله سبحانه وتعالى. إذا عرفنا هذه الحقيقة تبين لنا السر والسبب في أننا نجد أن الشريعة الإلهية كثيراً ما تأمر الناس أن يتجاوزوا كثيراً من الأحكام، وكثيراً من المبادئ، وكثيراً من المصالح، حفظاً لوحدة الأمة، رعايةً لتآلفها، إبعاداً للأمة عن الفتنة وأسبابها.

كثيرةً هي الأحكام الشرعية، الثابتة في دين الله عز وجل، والتي أمرنا الله عز وجل أن نرعاها، ولكن الله عز وجل يأمرنا، إذا وجدنا تعارضاً وقع بينها وبين مصلحة الوحدة الإنسانية للأمة، إذا رأينا تعارضاً بينها وبين الأُلفة اللتي ينبغي أن تشيع بين أفراد الناس، فإن الله عز وجل يأمرنا أن نضحي في كثيراً من حقوقه في سبيل أن لا تتسرب فتنة الى الأمة وكيانها، في سبيل أن لا تهدد وحدة الأمة، أيُّ مخافةٍ أو أيُّ ضررٍ أو أيُّ مفسدةٍ من المفاسد، وهذه الأحكام كثيرةً في شريعة الله سبحانه وتعالى، ويضيق الوقت عن ضرب الأمثلةِ لذلك، إن الله عز وجل جعل وحدة الأمة أعظم حكمة لهذا الدين الذي أنزله، ولنا في الأسرة الإنسانية خير مثال؟ لماذا يأمر الله عز وجل أعضاء الأسرة ذكوراً وإناثاً صغاراً وكباراً بالخضوع لرب الأسرة؟ لماذا يأمرهم الله عز وجل بالبرِ لرب الأسرة و أيُّ برِ، برٌ مقرونٌ دائماً ببرِ الله عز وجل؟ لماذا؟ لأن الله عز وجل يريد أن تكون هذه الأسرة أسرةً متآلفة، متضامنة، وأن يكون أعضائها ذكوراً

وإناثاً صغيراً وكباراً متآلفين. كيف يتم هذا؟ سبيل ذلك أن يدين الكلُّ بالولاء لرب هذه الأسرة، وأن يدين الجميع بالبرِّ والخضوع لرب هذه الأسرة. فإذا اجتمعوا تحت مظلة البِّر لرب الأسرة، تآلفوا وذابت من بينهم أسباب الخصام وأسباب الفتنة والشِّقاق.

الأمر تماماً بالنسبة للأسرة الإنسانية الكبرى، سبيل توحيد الأسرة الإنسانية الكبرى، هو ذاته سبيل وحدة الأسرة الإنسانية الصغرى، وكما أن للأسرة الإنسانية الصغيرة رباً، ربُّ أسرة، تطلق هذه الكلمة عليهم مجازاً. فكذلكم لهذه الأسرة الإنسانية المنتشرةِ فوق هذه الأرض رباً، وكما أن أسرة بيت واحد، لا يمكن أن نصلح شأنها، إلا أن تقف جميعاً تحت جناح البِّر لرب هذه الأسرة، فكذلكم الأسرة الإنسانية الكبيرة الواسعة لا يفلح أمرها ولا يجمع شأنها، ولا يسعدها إلا أن تدين جميعاً بالولاءِ لرب هذه الأسرة الحقيقيّ، وهو الله عز وجل، هو رب هذه الأسرة الإنسانية ورب الأرض والسماوات ورب كلِّ شيء. ومن هنا لا نعجب إن رأينا الله سبحانه وتعالى يلفت أنظارنا الى مدى أهمية الرحم الإنسانية، بل كثيراً ما يقسم البيان الإلهيُّ بها. ألم نقرأ قول الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾. أيُ الرحم الإنسانية المطلقة كما ذكر كثيرٌ من العلماء. ألم نقرأ في قول الله عز وجل: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾. لاحظوا كيف قرن البيان الإلهيّ بين الإسلام في الأرض وبين تقطيع الرحم. كأنه يقول لنا إن منبع الفساد والفتنة في الأرض إنما هو تقطيعكم لأرحامكم، ومنبع المصالح كلها إنما هو التآلف والتوادد إذّ يشيع بين هذه الأسرةِ الإنسانية. لكن كيف السبيل الى ذلك؟ واللهِ لا سبيل إلى جمع هذا الشّمل ولمّ هذا الشّعب وضبط الأفراد على قلب واحد إلا إذا دانوا جميعاً بالولاء لله واصطبغوا جميعاً بالعبودية لله سبحانه وتعالى.

من أجل هذا يأمرنا الله سبحانه وتعالى بأن تكون للمسلمين جماعة، وأن تكون لهم على رأس الجماعة قاضٍ، ومن أجل هذا يأمر الله سبحانه وتعالى الناس بالولاء لمن بيده الأمر حتى ولو طلبوا منهم شيئاً من حقوقهم التي أعطاهم الله عز وجل. يقول المصطفى صل الله عليه وسلم: ﴿أعطوهم ما سئلوا

وسلوا الله سبحانه وتعالى ما لكم﴾. وقد قال له حذيفة بن اليمان: يا رسول الله أرأيت لو أنه ضربني. قال الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿اسمع واطع ولو أخذ مالك ولو ضرب ظهرك﴾. كثيرٌ من الناس يتعجبون، ويستغربون، من أن يقول هذا الكلام رسول الله صل الله عليه وسلم. كثيراً ما جاء من يظهر لي تعجبه علناً، لكن هؤلاء الإخوة لم يدركوا فيما يبدو بر الإسلام وحكمته الأولى التي أكرمنا الله بالإسلام من أجلها. مطمح نظر الشَّارع تحقيق أسباب الوئام تحقيق أسباب التآلف، فإذا رأيت أنك إما ان تضحيَّ بحقك ومالك، ولكنك بهذا تسد باب الفتنة، وإما أن تضحيَّ بوحدة الأمة في سبيل الحفاظ على حقوقك فإن الله يقول: ضحي بحقوقك في سبيل أن تسد ثغرةً تتسرب منها فتنة الى الأمة. حتى إذا أمرك هذا الإنسان بمعصية أمرك بما نهاك الله عنه أو نهاك عما أمرك الله عز وجل به جاء القانون الربانيُّ المنّزل: ﴿لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق﴾.

فلنعلم يا عباد الله مدى أهمية هذه المصلحة التي تنزل من أجلها دين الله عز وجل. وحيثما رأيتم المسلمين يتوحدون بواسطة إسلامهم فاعلموا أنهم يسيرون على هدى وعلى صراطٍ مستقيمٍ في تطبيقهم لهذا الإسلام. وحيث ما رأيتموهم باسم الإسلام يتفرقون، وباسم الإسلام يتدابرون ويتعادون فاعلموا أنهم قد تنكبوا الطريق واعلموا انهم قد تاهوا عن المحجة لأن الإسلام الحقيقيّ أول ثمراته توحيد الأمة، وإزالة أسباب الفتنة والخصام فيما بينها.

أقول قولي هذا واستغفر الله العظيم فاستغفروه يغفر لكم.

٤٣٤- واقعنا الحالي وخطأ الحكام والمحكومين والحل لهذه الأزمة |

١٩٩١/٠٢/١٥

أيها الإخوة ما الذي ينبغي أن نفعله في مواجهة هذه الفتن المدلهمة، وما هو السبيل الذي إن سلكناه وقانا الله سبحانه وتعالى بذلك من شرور هذه الفتن وما الموقف الذي ينبغي أن نتخذه، يسأل كثيرٌ من الإخوة هذا السؤال وكأنهم يتصورون أن هذه الفتن المدلهمة التي أنبئنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يحمل كل مسلم بيده على انفراده مفتاح الحل لها، ومفتاح السبيل إلى التخلص منها. والأمر ليس كذلك.

إن هذه الفتن التي ابتلى الله سبحانه وتعالى المسلمين بها، إنما جاءت نتيجة أخطاء جماعية، لا أخطاء فردية، أخطأ المسلمون أخطاء جماعية، وانحرفوا انحرافات جماعية، وسلكوا بشكل جماعي سبلاً بعيدة عما أوصاهم الله سبحانه وتعالى بها فأقبلت إليهم هذه الفتن ﴿كقطع الليل المظلم﴾ كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصفها.

كانت جماعة المسلمين من قبل تتولى الله ورسوله ثم تحولت هذه الجماعة بل هذه الجماعات من ولايتها لله ورسوله وأخذت توالي عباد الله سبحانه وتعالى، بل توالي أعداء الله من عباده، تلك هي الخطيئة الأولى، كانت جماعة المسلمين تعتز بأخوتها الإيمانية والإسلامية وترعى ولا تزال شبكة هذه الأخوة من أقصاها إلى أقصاها فكل ما اهتز طرف منها اهتز مجموع هذه الشبكة ذلك لأن كل مسلم كان يعي معنى الأخوة الإسلامية التي عبر البيان الإلهي عنها أيما تعبير فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾.

كان كل مسلم حارساً على هذه الأخوة يصلحها إن تسرب إليها خوف، يرعاها إن تربص بها عدو ولكن المسلمين فيما بعد أو إن جماعة المسلمين فيما بعد عمدوا إلى هذه الأخوة فأخذوا يمزقونها بأيديهم شر ممزق، أمرهم الله برعايتها فمزقوها، أمرهم الله سبحانه وتعالى بإصلاح هذه الأخوة فأعرضوا عنها

وتركوها للأعداء المتربصين بها، كانت جماعة المسلمين من قبل تستعمل النعم التي أنعم الله بها عليهم من رزق وفير ومال كثير ورغد في العيش، كانت جماعة المسلمين من قبل تستعمل هذه النعم فيما يرضي الله سبحانه وتعالى وتجنِّدها في سبيل السعي إلى مرضاة الله عز وجل، فخلف من بعدهم خلف أخذوا يستعملون هذه النعم وسيلة حرب لله عزو جل وأداة سكر وطغيان وإعراض عن الله سبحانه وتعالى، فتحول شكرهم كفران وتحول اتخاذهم لهذه النعم سبيلاً إلى مرضاة الله تحول حجاباً حاجزاً يبعدهم عن الله سبحانه وتعالى، وهي كما ترون أخطاء جماعية تعاون الكل في الوقوع فيها وليست أخطاء فردية، فلما ارتكبوا هذه الأخطاء لما تقلصت أيديهم عن مبايعة الله وعن موالاتهم لله سبحانه وتعالى ونسوا أو تناسَوا قول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ﴾، ونسوا أو تناسوا قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾، وأعرضوا عن موالاتهم لله لتمتد أيديهم إلى موالاة أعداء الله سبحانه وتعالى وعمد هذا الخلق من بعدهم إلى النعم الكثيرة التي أكرمهم الله عز وجل بها، فجعلوا منها أداة تنافس فيما بينهم وهدف تسابق، فأغرى ذلك ما بينهم العداوة والبغضاء بعد الأخوة التي نسجها الله سبحانه وتعالى فيما بينهم، وتحولوا إلى أعداء متنافسين يتسابقون إلى المغانم وهي كثيرة، ويتخوفون عن المغارم، وهي بعيدة. فلما آل أمر تلك الجماعة إلى هذه الحال أقبلت إليهم الفتن من كل حدب وصوب، كان حال هؤلاء المسلمين كما وصف الله في محكم كتابه: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ﴾.

وهذا بعد أن قال الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾، حذر وأنذر ثم نبه إلى فريق من المسلمين يسارعون إلى موالاة هؤلاء الذين حذر الله من موالاتهم وقال: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُواْ عَلَى مَا أَسَرُّواْ فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾، تلك هي حالنا وهذا هو واقعنا.. وكما وقع الخطأ جماعياً فلا بد أن يكون الإصلاح أيضاً جماعياً، ماذا يغني أن يقوم الفرد فيسأل أي موقف أتخذ وإلى أي علاج أهرع من أجل أن أقاوم هذه الفتن والبلاء، لا بد أن يتم الإصلاح على مستوى جماعي كما وقع الخطأ على مستوى جماعي، لا بد أن يصحوا المسلمون ولا بد أن يستيقظوا

جميعاً أو أن تستيقظ الفئة الكثيرة الكبيرة منهم فيتأوبوا إلى رشدهم بعد هذا التيه، ويتبينوا الصراط الذي تاهوا وضلوا عنه ثم يعودوا فيصطلحوا جماعياً مع الله سبحانه وتعالى، ويقطعوا سبل هذه الموالاة المزيفة بينهم وبين أعداء الله، ويعلموا أن هؤلاء الناس لا يمكن أن يفيدوهم في شيء.

مظهرهم مظهر غنى وحقيقتهم أحط وأدنى من الفقر المدقع، مظهرهم مظهر قوة وحقيقتهم أحط وأدنى من منتهى الضعف، مظهرهم مظهر عزة ولكنهم أذل من كل ذليل، فيما نمد أيدينا إليهم فيما نرى أنفسنا تبعاً لهم وقد أكرمنا الله بموالاته، وقد رفع شأننا إلى مستوى من العزة لا يرام، ولا يمكن أن يناله أحد في ملكوت الله سبحانه وتعالى حتى الملائكة فيما قرره جمهور المسلمين.

لماذا نريق هذا العز وندبر عن هذا المجد ونوالي بعد أن والانا الله وواليناه، نوالي أعداء الله سبحانه وتعالى. لماذا وما الحاجة وما الضرورة إذا أدبنا إلى الله عز وجل بشكل جماعي وعدنا فاصطلحنا مع الله عز وجل ولملمنا شؤننا وأحوالنا بشكل جماعي، وأعدناها على النهج القويم سيراً على صراط الله سبحانه وتعالى.

فالمشكلة محلولة والبلاء ذاهب والفتن مضمحلة، ويعيد الله عز وجل عباده إلى أعلى مستويات النصر والسعادة، المشكلة محلولة إن أردنا بشكل جماعي حلها، وإلا فلنعلم أن الدنيا التي أقامنا الله فيها هي عبارة عن كفَّتي ميزان إن رجحت الواحدة منهما طاشت الأخرى والعكس صحيح، فإما أن ترجح كفة المسلمين وعندئذ لا بد أن تطيش كفة أعداء الله عز وجل. وأما إن طاشت كفة المسلمين بإعراضهم عن ربهم وبعكوفهم على هذه الأخطاء التي نتحدث عنها إذاً لا بد أن ترجح الكِفة الأخرى، لأن الحياة ستستمر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ولا يمكن إذا فسد حال المسلمين أن يطوي الله الأرض وهذه الحياة لسواد عيون المسلمين الذين لم يعودوا أهلاً لقيادة الإسلام والمجتمع الإنساني.

فهل عسيتم أن تعودوا إلى ربكم سبحانه وتعالى عوداً جماعياً وأن تستيقظوا على أصوات هذه السياط التي يريبنا الله عز وجل بها لنعود إلى أخوّتنا الإيمانية، ولنعود إلى وحدتنا الإسلامية، ولنمد أيدينا من جديد

إلى الله عز وجل نبايعه ونجلس تحت مظلة الولاء له. إن فعلنا هذا حلت المشكلة كلها؛ وإلا فاعلموا أن الأمم الأخرى تحيط بكم، واعلموا أن دول البغي تجتمع من كل حدب وصوب ضدكم.

وما أشبه الليلة بالبارحة، ما أشبه اليوم بذلك اليوم البعيد البعيد إذ كان ينادي منادي الحروب الصليبية وهو يتحول من سقع في أوروبا إلى سقع، حاملاً صليبه يدعو دول البغي إلى محاربة الإسلام وإلى القضاء عليه، ولكنهم لم يستطيعوا آن ذاك أن يصلوا إلى بغيتهم التي هتفوا في سبيل الوصول إليها؛ ذلك لأن المسلمين عادوا فاصطلحوا مع الله عز وجل آن ذاك، ولأن المسلمين توحدوا على صراط الله بعد أن شردوا عنه شروداً ما آن ذاك. فلما آبوا أوبة الحق إلى الحق طرد الله سبحانه وتعالى من ديارهم أعداءهم، أما اليوم فيبدوا أننا لا نزال عاكفين على غينا منتشرين في ساحات شرودنا تائهين عن أنفسنا وعن ولينا الواحد الأحد سبحانه وتعالى؛ إذاً فليس بدعاً وليس غريباً أن تعود المصيبة التي حمانا الله بها في عصر من العصور وأن تجدوا دول البغي تتنادى وها هي ذي قد تنادت وتحيط بنا، وها هي ذي محيطة هدفها في الظاهر وهو هدف يخاطب به الأغبياء والسذج فقط ما تعلمون من الأسباب الشكلية، أما هدفها الحقيقي المرسوم في أذهانهم والمنشور في صحفهم والمعلن عنه في إذاعاتهم، فهو عبارة عن حملة صليبية يعلنون في تبجحٍ أنها ستكون الحملة الصليبية الآخرة الناجحة، هذا ما يقولون ولكن الله من ورائهم محيط، ولكن الله من ورائهم محيط، وهو ناظر إلى عباده. فإن آبوا إليه أوبة الحق وإن اصطلحوا معه ولو بعد شرود طويل وإن جمعوا أمرهم تحت مظلة العبودية له، فإن الله سيخلق لهم معجزات النصر والتأييد ولسوف يعيد إليهم كل ما سمعتم من خوارق الأمور. ومعجزات الرب التي أكرم الله بها عباداً له من قبل.

فأسأل الله سبحانه وتعالى أن يلهم عباده الرشد وأن يعيدهم إلى صراطه العزيز الحميد. أقول قولي هذا واستغفر الله العظيم.

٤٣٥- المستهدف من هذه الفتن.. والطريقة المثلى لمواجهتها | ١٩٩١/٠٤/٠٥

نعودُ مرّةً أخرى إلى الحديثِ عن الفتنِ التي وصفها رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم، ووصفَ خطورتَها وبيَّنَ أنّها كقطعِ الليلِ المظلم، تجعلُ الرّجلَ يصبحُ مسلماً ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً ويصبحُ كافراً، بل تجعلهُ يبيعُ دينَهُ بعَرَضٍ من الدّنيا قليل.

هذهِ الفتنُ تستهدفُ المسلمينَ ولا ريب، ولكنّها إنّما تستهدفُ الإسلامَ من خلالِ المسلمين. فمهما تنوّعت هذهِ الفتن، ومهما تشكّلت، ومهما ظهرت في أساليبَ شتّى، فإنّها تهدفُ إلى غايةٍ واحدة، ألا وهيَ تقويضُ هذا الدّينِ الإسلاميِّ وإطفاءُ شعلته.

فلئن استهدفَ أصحابُ هذهِ الفتنِ المسلمينَ فإنّما يستهدفونَ الإسلامَ من خلالهم. ولئن طمِعوا بأرضٍ لهم أو وطنٍ أو مال، فإنّما يطمعونَ من خلالِ ذلكَ بإسلامهم. وقد أوضحَ البيانُ الإلهيُّ هذهِ الحقيقةَ، وأثبتها لنا في محكم كتابه من خلالِ آياتٍ كثيرةٍ من مثلِ قولهِ اللهِ عزَّ وجلّ: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾. ومن مثلِ قولهِ عزَّ وجلّ: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ﴾. ومن مثلِ قولهِ عزَّ وجلّ: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾.

وهذهِ الحقيقةُ تجلّيها هذهِ العصورُ كما جلّتها عصورٌ سابقة، وكما تؤكّدُها عصورٌ لاحقة. والمهمُّ أنَّ على كلِّ مسلمٍ أن يعلمَ أنَّ هذهِ الأممَ التي حدّثَ عنها رسولُ اللهِ صلّى اللّهُ عليهِ وسلَّم، وأخبرَ أنّها ستداعى علينا كما تداعى الأكلةُ إلى قصعتها. لن يكونَ ذلكَ من جرّاءِ طمعٍ في أشخاصنا، ولا في أوطانِنا أو أموالنا. ولكنَّ ذلكَ إنّما يضمرُ طمعاً في ديننا، ويضمرُ سعياً إلى تقويضِ أركانهِ كما قلتُ لكم. وإنّكم لتلاحظونَ مظاهرَ هذهِ الفتنةِ في كثيرٍ من الكتاباتِ التي تُكتَب، والمنشوراتِ التي تُرَوَّج. بل إنّكم لتلاحظونَ هذا في أنَّ أجهزةَ الإعلامِ في أكثرِ البلاد العربيّةِ معرضةٌ عن هذهِ النّيرانِ التي تلتهمُ الإسلامَ وتحاولُ القضاءَ عليه، وساكتةٌ عنهُ سكوتَ تجاهلٍ أو سكوتَ لا مبالاة.

ما العملُ الذي ينبغي على المسلمينَ أن يفعلوهُ تجاهَ هذهِ الفتنةِ التي تستهدفُ إسلامهم؟ ينبغي أن نعلمَ أيّها الإخوة قبلَ كلِّ شيء: أنَّ النّاسَ الذينَ يعيشونَ في العالمِ العربيِّ والإسلاميّ أحدُ فريقين. الفريقُ الأوّل: واقفٌ ومنحازٌ إلى الصّفِّ الذي يثيرُ هذهِ الحربَ الشّعواءَ ضدَّ الإسلامِ وضدَّ المسلمين. الفريقُ الثّاني: واقفٌ في الطّرفِ الآخرِ المستَهدَف، وهم بينَ عالمٍ بالإسلامِ فهوَ متبصّرٌ بالأمرِ مدركٌ لأبعادهِ عالمٌ بحقيقتهِ ولا يمكنُ أن يذهبَ ضحيّةَ أيِّ تجهيلٌ يرادُ به، وإنسانٌ آخرُ جاهلٌ بالإسلامِ ولكنّهُ متعاطفٌ معه.

هذا هوَ واقعُ المسلمينَ اليوم: قسمٌ منهم منحازٌ وواقفٌ مع أبطالِ هذهِ الفتنة، مع الذينَ يثيرونَها، ومعَ الذينَ يخططونَ للكيدِ للإسلامِ وإن كانوا مسلمينَ بالانتماء، وإن كانوا مسلمينَ بالانتساب. هؤلاءِ باعوا أنفسهم بعَرَضٍ من الدّنيا رخيص، بل باعوا أنفسهم لأعداءِ اللهِ سبحانهُ وتعالى وأعداءِ هذهِ الأمّة بعَرَضٍ من الدّنيا قليلٍ كما قالَ اللهُ سبحانهُ وتعالى وكما أكّدَ المصطفى عليهِ الصّلاةُ والسّلام. فهؤلاءِ لا داعيَ للحديثِ عنهم، بل لا داعي إلى أن نثيرَ الهمَّ والحزنَ والأسى من أجلهم، فقد حكموا على أنفسهم أن يكونوا في معسكرِ أعداءِ اللهِ سبحانهُ وتعالى. إن بالأقلامِ التي يكتبونَ بها، وإن بالصّيحاتِ والنّداءاتِ التي تتعالى من حلوقهم، وإن بالتّصرّفاتِ الأخرى التي تبدرُ منهم.

ولكنَّ الحديثَ ينبغي أن يكونَ محصوراً في الفريقِ الثّاني، المسلمينَ الذينَ يضمّونَ فئتين: فئةٌ عرفت حقيقةَ الإسلام، وتزوّدت بزادٍ ثقافيٍّ كافٍ منه، هؤلاءِ مهما طافت برؤوسهم عواصفُ الكيدِ وعواصفُ الفتنِ فإنّها لن تزعزعَ من يقينهمُ الإسلاميِّ شيئاً لأنَّ الحقَّ الإسلاميَّ لا يمكنُ أن يقفَ في وجههِ أيُّ باطلٍ مهما تراكمَ وتكاشف. ولكنَّ المشكلةَ تتمثّلُ في الفئةِ الثّانيةِ منَ المسلمينَ المتعاطفينَ معَ الإسلامِ بوجداناتهم، والجاهلينَ للإسلامِ بعقولهم. هؤلاءِ همُ الذينَ يمكنُ أن يذهبوا ضحيّةَ أمثالِ هذهِ الصّيحة، هؤلاءِ همُ الذينَ يمكنُ أن يُغَرَّرَ بهم، ويمكنُ أن يُخدَعوا.

فما العمل؟ وما الطّريقةُ التي ينبغي أن نسلكها في سبيلِ أن نحصّنَ هذهِ الفئةَ ضدَّ كيدِ الكائدينَ وهم كثيرون؟

الجوابُ أيّها الإخوة: أنَّ التقاطَ جزئيّاتِ ما يستغلّهُ أربابُ وأبطالُ هذهِ الفتن، أمرٌ لا طائلَ منهُ ولا نهايةَ له. فلا فائدةَ من ملاحقةِ هؤلاءِ المفتئتِينَ على اللهِ وعلى الإسلام، أن نمسكَ بجزئيّاتِ ما يقولونَ لنردَّ عليها. لن يكفيَ لذلكَ زمنٌ مهما طال، ولن يتّسعَ لذلكَ وقتٌ مهما كانت أوقاتُنا فارغة، بل ليسَ هذا هوَ المنهج العقلانيّ والمنطقيّ الذي ينبغي أن يسلكَهُ عاقلٌ ضدَّ مجنون.

الطّريقةُ المثلى: هي أن يتثقّفَ هؤلاءِ المسلمونَ ثقافةً إسلاميّةً راشدةً بقطعِ النّظرِ عن كلِّ شيء.

الطّريقةُ المثلى: هيَ أن يعمدَ هؤلاءِ المسلمونَ إسلاماً عاطفيّاً فيلجموا عواطفهم الإسلاميّة، ويتوّجوها ويقيّدوها بالثّقافةِ الإسلاميّةِ الصّحيحة، بل بالعلومِ الإسلاميّةِ التي يفيضُ بها كتابُ اللهِ عزَّ وجلّ، وتفيضُ بها سنّةُ المصطفى صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم. فإذا وعى هؤلاءِ الإخوةُ إسلامهم عرفوا العقيدةَ الإسلاميّةَ ومنطلقاتها، عرفوا كتابَ اللهِ عزَّ وجلَّ والمنهجَ العلميَّ لدراستهِ وفهمهِ وتفسيره، وعرفوا الاجتهادَ الإسلاميَّ في فهمِ نصوصِ القرآنِ والسّنّة، وأيقنوا كيفيةَ وصولِ الإسلامِ إلينا عبرَ تاريخهِ المعروف، وأخذوا من كلِّ شيءٍ زاداً خفيفاً جهدَ استطاعتهم، فإنَّ ذلكَ يجعلهم في حصنٍ حصينٍ ضدَّ لغوِ اللاغينَ وضدَّ كيدِ الكائدين. هذا هوَ السّبيلُ الذي ينبغي أن يُسلَك.

ونقول: إنَّ السُّبُلَ إلى هذا مفتّحةٌ في بلادنا والحمدُ لله، وإنَّ التّقصيرَ ممّن لا يريدُ أن يلجأَ هذهِ السُّبُلَ من أبوابِها.

وينبغي ألا ننسى، بل ينبغي أن نحمدَ اللهَ إذا ما ذكرنا أنَّ بلادَنا هذهِ تمتازُ على كثيرٍ من البلادِ الإسلاميّةِ بما فيها من معاهدٍ مفتّحةٍ للعلومِ الشّرعيّةِ لم تتوافر في أيِّ بلدةٍ أخرى. ينبغي أن نذكرَ أنَّ بلادَنا هذهِ تمتازُ بحلقاتٍ للعلومِ الإسلاميّةِ تفيضُ بها كثيرٌ من المساجد، وهيَ مزيّةٌ لم يكرم بها اللهُ سبحانهُ وتعالى كثيراً من البلادِ الأخرى.

الأبوابُ مُفَتَّحةٌ إذاً إلى نيلِ الثّقافةِ الإسلاميّةِ الرّاشدةِ عن طريقِ المعاهدِ الشّرعيّةِ الكثيرة، وعن طريقِ الحلقاتِ العلميّةِ المتوافرة، وعن طريقِ الجلوسِ كمستمعينَ في جامعاتِنا وكلّياتِنا الإسلاميّة. ولكنَّ الذّنبَ ذنبُ من يُؤثر الكسلَ ولا يريدُ أن يَنشُطَ لمعرفةِ إسلامهِ في الوقتِ الذي يمسكُ فيهُ كثيرٌ من النّاسِ بألسنةِ

اللهبِ من أجلِ أن يحرقوا البنيانَ الإسلاميَّ كلَّه.. بدءاً من أقصى الشّرقِ الملحد، إلى أقصى الغربِ الصّليبيِّ المفتئتِ والمتربّصِ بالإسلام.

نحنُ الذينَ يُكادُ لنا ونحنُ الذينَ تطوفُ من حولنا الفتنُ لا بأشخاصنا، ولكن من حيثُ عقائدنا، ومن حيثُ هذا الإسلامِ الذي ارتضيناهُ تاجاً لعقولِنا وصراطاً لسلوكِنا.

فلماذا؟ لماذا ونحنُ نتعاطفُ مع الإسلام؟ لماذا لا نلهبُ عواطِفَنا ليدفَعنا هذا اللهبُ إلى تعلّمِ دينِنا؟ إلى معرفةِ إسلامنا؟ وعندئذٍ لن تجدوا لأيِّ فتنةٍ داهمةٍ مهما أوغلت ومهما اعتصفت ومهما كادَ بها الكائدون، لن تجدوا لها منفذاً إلى عقلِ إنسانٍ مسلم.

ولا شكَّ أنَّ هنالكَ وسائلَ أخرى غيرَ هذهِ الوسيلةِ الفعّالةِ المباشرة، ألا وهيَ وسيلةُ العكوفِ على فهمِ الإسلام. هنالكَ وسائلُ أخرى، كتجنيدِ أجهزةِ الإعلامِ المقروءةِ والمرئيّةِ والمسموعةِ لكبحِ جماحِ هذهِ الفتنة. ولردِّ هذهِ الغائلة.

ولا شكَّ أنّهُ تقصيرٌ ما بعدهُ تقصيرٌ أن تكونَ هذهِ الصّحف، وهذهِ الأجهزة، بعيدةٌ كلَّ البعدِ عن هذهِ النّيرانِ المتسعّرةِ التي تستهدفُ عقولَنا، والتي تستهدفُ عقائدَنا. ومن ثمَّ تستهدفُ كياناتِنا ثمَّ القضاءَ علينا جملةً وتفصيلاً.

ما مهمّةُ هذهِ الأجهزةِ إن لم تكن رعايةَ العقولِ من كيدِ الكائدين؟ ما مهمّتُها إن لم تكن رعايةَ الأمّةِ من تربّصِ المتربَّصين؟ ولا أعلمُ غايةً أقدسَ لهذهِ الأجهزةِ من هذهِ الغاية. والمأمولُ ونحنُ نحسنُ الظّنَّ دائماً، ونحنُ نفتحُ القلوبَ للتعاونِ دائماً: أن تكونَ، بل أن تصبحَ هذهِ الأجهزةُ على مستوى هذا الخطرِ المحدقِ بهذهِ الأمّة. المأمول، وأنا أعلمُ أنّنا جميعاً نعتزُّ بالإسلام. وأنّنا جميعاً نعتزُّ به إن تراثاً ورثناهُ من الآباءِ والأجداد، وإن مبدأً من المبادئِ التي أوحى اللهُ عزَّ وجلَّ بها إلى هذهِ الصّفوةِ المختارةِ من عباده، وهذا ما نلقى اللهَ عزَّ وجلَّ عليه.

أنا أعلمُ أنَّ كلَّ من في البلدةِ على شتّى المستوياتِ يعتزّونَ بهذا الإسلامِ أيّاً كانَ منطَلَقُ هذا الاعتزاز. فمالنا لا ندافعُ عن هذا الذي نعتزُّ به؟ مالَنا لا نحمي حوزةَ هذا الدّينِ الذي نعتزُّ به؟ لماذا ونحنُ نرى بأمِّ أعيننا كيفَ يُخَطَّطُ لهذا الدّينِ بليل، وكيفَ تتضافرُ الخططُ كما قلتُ لكم من أقصى الشّرقِ إلى أقصى الغرب؟

وها هوَ شهرُ رمضانَ على الأبواب، والمأمول: -إن نسينا الدّفاعَ عن الإسلام وإنْ نسينا تثقيفَ شبابِنا وجيلِنا بالثّقافةِ الإسلاميّةِ الرّاشدة – أن يذكِّرنا بهذا المبدأِ هذا الشّهر. أن يذكِّرَنا بهذا الواجبِ هذا الشّهرُ المبارك، هذا الشّهرُ الذي يدعونا بلطفٍ وبرقّةٍ ما بعدها رقّة، يدعونا على شتّى المستوياتِ وبواسطةِ كلِّ السُّبلِ التي نملكُها وكلِّ الأجهزةِ التي نعتزُّ بها. يدعونا هذا الشّهرُ إلى اصطلاحٍ قدسيٍّ معَ اللهِ عزَّ وجلّ، وإلى رجوعٍ مباركٍ إلى رحابِ اللهِ سبحانهُ وتعالى. هذا الشّهرُ يدعونا إلى أن نجعلَ صفحاتِ منشوراتِنا وجرائدَنا متوّجةً بالتّذكرةِ النّابضةِ بالحبِّ لهذا الدّين، والغيرةِ على الثّقافةِ الإسلاميّةِ لهؤلاءِ الشّبابِ بل لهذا الجيلِ أجمع.

هذا الشّهرُ يهيبُ بنا جميعاً مع كلِّ ما نملكُ من وسائلَ وسُبُلٍ أن نجنّدها، ثمَّ نقفَ صفّاً واحداً في وجهِ هؤلاءِ المتربّصينَ بدينِنا. ولو شئتُ أيُّها الإخوةُ لوضعتُ لكم كثيراً من النّقاطِ على كثيرٍ من الحروفِ في توثيقِ فتنٍ تأتينا من أقصى الغرب، واللهِ لا تهدفُ أشخاصاً، ولا تهدفُ أرضاً ولا وطناً ولا مالاً. ولكنّها تستهدفُ هذا الدّين...

أقولُ قولي هذا وأستغفرُ اللهَ العظيم، فاستغفروهُ يغفر لكم...

٤٣٦- دواء المحنة الذي ذهل عنه الكثيرون | ١٩٩٢/٠٨/٢٨

كلنا نرى محنة المسلمين اليوم، وكلنا نبصر الذل الذي حاق بهم، والمهانة التي أحاطت بهم من حولهم، وكلنا قادرٌ على أن يحلل مظاهر هذه المهانة أبدع تحليل وأن يذهب في تصويرها وفي إيضاح أسبابها بكل دقةٍ وبكل بيانٍ كامل، وهذا ما يفعله كثير من الناس اليوم، وهم يتوهمون أنهم بهذا الكلام يعالجون هذا الذل الذي حاق بهم، وهذه المهانة التي ضربها الله سبحانه وتعالى عليهم. فكأننا إذا صوّرناها أمام الأخيلة والأذهان بشكلٍ بليغٍ بَيِّن، وكأننا إذا استثرنا لواعج النفوس وهَيَّجنا حماسة القلوب نكون بذلك قد ارتفعنا عن المشكلة وتحررنا من وهدة هذا الذل.

ولكن ألا تلاحظون أن هذا كلام لا فائدة منه، وأن هذا اجترارٌ لشيءٍ لا ثمرة من ورائه، ماذا يفيدني أن أجلس فأصف الدواء؟ وأن أعود فأكرر وصفه كلما مللت من تكراره؟ وأن أعود فأبين خطورة الداء؟ وأن أبين آثاره الجسيمة الفتاكة في الجسم؟ ما فائدة هذا العمل وأنا لا أقدم من وراء ذلك دواءً لهذا الداء؟

هذا هو واقع المسلمين اليوم.. فأنا أعلم أن هنالك خطب طنانة رنانة، يتحدث أربابها من خلال هذه الخطب عن محنة الإسلام في كثيرٍ من بقاع الأرض، وعن المآسي التي تفتت القلوب فعلاً، ولكن الناس يصغون ثم يصغون ثم يصغون فلا يجدون حصيلة لهذا الكلام سوى أن يتحول السامع في أحسن الأحوال إلى شواظٍ ولهب، وتخرج هذه الشعل من المسجد دون أن تعلم ماذا تصنع، وما الذي ينبغي أن تفعل؟

بوسعي أن أرسم لكم الدواء كما يرسمون، بوسعي أن أرسم لكم الداء كما يرسمون، وأن أصفه لكم بأبلغ مما يصفون، ولكني مهما فعلت ومهما فعلوا، لن أستطيع ولن يستطيعوا أن يأتوا بوصفٍ لذلك أبلغ مما وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكلكم يعلم ماذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح وهو يصف الداء.

الداء: ﴿ستداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلةُ إلى قصعتها. قالوا: أمن قلةٍ نحنُ يا رسول الله يومئذ. قال: لا بل أنتم كثير ولكنكم غثاءٌ كغثاءِ السيل -هذا هو الداء- وسينزِعَنَّ اللهُ الرهبة من قلوبِ أعدائكم وسيقذِفَنَّ في قلوبكم الوهن وهذا استمرارٌ أيضاً لبيان الداء، قال أحد الصحابة: ما الوهن يا رسول الله؟ قال: حبُ الدنيا وكراهيةُ الموت﴾.

مهما أردنا أن نصف أدوائنا التي تَحكمت بنا وبنفوسنا فلن نستطيع أن نقر كلاماً أبلغ مما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم، هذا هو الداء. أفلا ينبغي أن نبحث عن الدواء؟ والدواء مرسومٌ في كتابِ الله عز وجل لِمَن أرادَ أن يتأمل ولِمَن أراد أن يَتدبر. الدواءُ موصوفٌ ومكرر ولكن الإنسان الذي يمر على الألفاظ دون أن يتدبرها بفكره لن يشعر بأنه من هذه الآيات أمام دواءٍ ناجح يصفه الله سبحانه وتعالى لهؤلاء الناس.

اقرأوا مثلاً قول الله عز وجل في هذه الآية القصيرة الوجيزة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾. فاثبتوا. كأن قائلاً يقول: ما دواء الثبَات وكيف نستطيع أن نثبت؟ يأتي بيان الدواء جواباً على هذا السؤال في بيان الله قائلاً: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، ما أكثر الناس الذين يمرّون على هذا الكلام مرّ الكرام؛ ببلاهة وبدون أي وعي، لا تستوقفهم هذه الكلمة أبداً ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾.

بل إنني أقول لكم شيئاً آخر: ما أكثر الذين إذا ذُكِّروا بهذا الدواء استخفوا به واستهانوا به وأعرضوا عنه وعمن يصفه لهم، فإذا أرادوا أن يناقشوا وأن يُعَبِّروا عن ما في أنفسهم قالوا: إن هذا الدواء إنما تستعمله العامة، أما الخاصة من المسلمين الذين ينبغي أن يُخَطِطوا وينشطوا ويفعلوا ويتحركوا فإنما يبحثون عن دواءٍ آخر، ولا عجب أنهم يقفون كثيراً عند قول الله عز وجل: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ ويتفننون في تحليل هذا الكلام وفي ملاحقة أبعاده، ولكني ما رأيت واحداً وقف أمام هذا الكلام الآخر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾. فكانت العاقبة أنهم لا جمعوا العدة الكافية التي أمر الله بجمعها، ولم يجتمعوا حولها، ولا ذكروا الله سبحانه وتعالى كما أمر في الآية الأخرى، أعرضوا عن الدواءين معاً. لماذا؟

لأن إعداد العدة إنما هي ثمرةٌ ونتيجةٌ للإكثارِ من ذكر الله سبحانه وتعالى، فالقلب الخالي عن ذكر الله هذا القلب لا بد أن يُصبح خالياً عن الخوف من الله، ومن ثَم لابد أن يصبح خالياً عن تعظيم حرمات الله، ومن ثَم لابد أن يصبح خالياً عن محبة الله عز وجل، وإذا خلا القلب عن هذا كله فقد أصبح وعاءً فارغاً ليستقبل حب الدنيا حب الشهوات حب الأهواء حب الزعامة حب الرئاسة حب المنافسة على طريق الحكم وكراسيّه، وإذا أصبح وعاء القلب مليئاً بهذه الأشياء فماذا عسى أن تجدي العدة؟! وماذا عسى أن يجدي العدد؟ وماذا عسى أن تجدي الخطب النارية أيها الأخوة؟

أصلُ المسألة تبدأ من هنا، تبدأ من القلب، من ذكر الله عز وجل، والباري عز وجل حكيم وكلكم يعلم أن من صفات الله سبحانه وتعالى دقةُ حِكمته. لماذا ربط بين مواجهة الفئة المعادية لنا والمتربصة بنا وبين الإكثار من ذكر الله عز وجل؟ ذلك لأن هذا العدو يعتمد على سلاحين اثنين سلاحٌ منظور هو ثانويٌ جداً، وسلاح خفي هو الأساسي الذي يعتمد عليه.

هذا السلاح الخفي الذي يعتمد عليه هو البحثُ عن ثغراتٍ في صفوف المسلمين، هو البحث عن شهوات المسلمين المتجهة إلى الأرض، المتجهة إلى المال، المتجهة إلى الزعامات المتجهة إلى الأهواء والغرائز ونحو ذلك.. عندئذٍ يُقبِل هذا العدو ليستغلَّ هذه الثغرات وليستثمرها، عن طريق هذه الغرائز يُقَسِّم المسلمين بضعاً وفئات متناحرة متخاصمة، يُقسِّم المسلمين فئاتٍ متدابرة. وما أيسر أن يتقسموا عندما يجد أن مهوى قلوبهم المال، عندما يجد أن مهوى قلوبهم الزعامة.. الاستكبار.. الشهوات الخفية، عدونا درس هذا كله هذا هو السلاح الخفي الأول الذي يعتمد عليه العدو.

فإذا استعمل هذا السلاح، ونظر إلينا فرأى كيف أنّا قد أصبحنا فئات متناحرة متخاصمة، ورأى أن ذلك المعنى الوحدوي الجامع لأشتات هذه الأمة قد زال يوم زال الدواء الذي أمرنا الله عز وجل به، عاد فاستعمل السلاح الثانوي الثاني. فماذا عسى أن يستفيد المسلمون بعد هذا مهما تداعوا؟

إنهم يتنادون وهم متباعدون في أوديةٍ قَصيّة كل وادٍ بعيد عن الواد الآخر، وبين الواد الواحد والثاني حواجز من الشهوات من الأنانيات من الحزازات من حب الدنيا إلى آخر ما تعلمون من هذه الأمور..

من هنا رسم الله سبحانه وتعالى لعباده الدواء، ذكر الله عز وجل، وأعيذكم أن تفهموا كلمة الذكر التي أقولها بالمعنى التقليدي المعروف لا. المراد بذكرالله عز وجل أن يظل القلب ذاكراً مولاه وخالقه، أن يظل هذا القلب دائماً متّجهاً إلى مراقبة قيّوم السموات والأرض؛ يُراقبه من خلال أنه الحي القيوم، يُراقبه من خلال أنه الرازق الذي لا رازق سواه، وأنه النافع الذي لا نافع سواه، وأنه الضار الذي لا ضار سواه، وأنه المدبِّر الذي لا مُدبّر سواه، وأنه الخالق الذي لا خالق سواه، وأنه الناصر الذي لا ناصر سواه. هذا ما أعنيه بذكر الله عز وجل.

فإذا أهَّلت الأمة نفسها بهذا الذكر المستمر، وربط كل واحد منهم أحداث الكون بِمُحدِثها، تقلبات الدنيا بمقلبها، ربط النعمة بمنعمها، فإن هذا القلب سرعان ما يتجه بالحب إلى هذا الإله الواحد الأحد، فإذا اتجه القلب بالحب إليه، نبع من هذا الحب التعظيم، وأثمر هذا الحب وهذا التعظيم الرهبة والمخافة من الله، وعندئذٍ تتساقط من هذا القلب محبة الأغيار، محبة الدنيا محبة الشهوات التنافس على الزعامة التنافس على الرئاسة كل هذا يتساقط. وإذا تم هذا الأمر تحقق الدواء، واتحد المسلمون وتهيئوا عندئذٍ لمجابهة عدوهم الذي يأمر الله سبحانه وتعالى المسلمين بالثبات أمامه إذا جابههم. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا﴾. لكن لا والله لا نستطيع أن نثبت وإن قلوبنا مشدودة إلى أهوائنا، إنما يكون الثبات بعد هذا الدواء الذي أقوله لكم.

ولقد قلت البارحة: إنني دُعيت في بلدة من هذه البلاد الأجنبية البعيدة النائية إلى إلقاء محاضرة وفاجأتُ القوم عندما قلت لهم: سيكون موضوع محاضرتي "ذكرَ الله ذلك الجانب المنسي من حياة المسلمين".

كانت هذه الكلمة وهذا العنوان مفاجئة لهؤلاء الناس. فلماذا كان هذا العنوان مفاجئةً؟ لأنه لم يكونوا يتصورون أن أحدثهم وهم المثقفون وهم الفكريون وهم الحركيون عن موضوعٍ كهذا الموضوع، ذكر

الله الجانب المنسي في حياة المسلمين اليوم. ورأيت وقع المفاجأة على النفوس. قلتُ لهم: هذا هو الدواء الذي أنتم بأمسِّ الحاجة إليه، والدليل على ذلك تُعجُبكم من هذا الموضوع، والدليل على ذلك هذه المفاجأة التي رأيتُها في نفوسِكم. ألا تقرؤون كتاب الله؟! ألا تلاحظون كم يدعوكم الله إلى أن تعالجوا أدوائكم وأمراضكم وكل ما قد يحيق بكم من مهانة وذل بهذا الذكر؟ هذا هو الدواءُ أيها الأخوة.

فإن عزَّ عليكم أن تفهموا هذا الكلام أو أن تستوعبوه، فانظروا إلى ما قد أحاط بنا اليوم، هذا الذي أحاط بنا اليوم يتمثل في بلاءين اثنين.

البلاء الأول: وهو البلاء الأعظم هو تصدع المسلمين، وتحولهم إلى شيعٍ وفئات متناكرة متخاصمة، وإن لم تكن متخاصمة في الظاهر فهي متخاصمة في الباطن. هذا البلاء الأعظم يتمثل بعد هذا في أننا بمقدار ما تناكرنا وبمقدار ما أصبحنا شيعاً وفئات متخاصمة، بمقدار ما امتدت منا الأيدي والقلوب لموالاة أولئك الأعداء، ألا تعلمون الأدلة ألا تعلمون الشوارع الجديدة وأسمائها، ألا تعلمون المواليد الجديدة، ألا تعلمون العواطف التي لا يمكن أن يُخمدها أي قرار أو أي كلام أو أي تذكرة، هذا في الوقت الذي نلاحظ فنجد أن هذه الأمة المسلمة بالنسبة لنفسها قد تحولت إلى فئاتٍ متخاصمةٍ متهارجة متباعدة، وكلكم يقرأ كلام الله وكلكم يقرأ قوله: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ هذا كلام الله سبحانه وتعالى. فهذا هو البلاءُ الأول.

البلاء الثاني: تلك النيران التي تشتعل هناك، هذا البلاء الثاني جاء فرعاً عن البلاء الأول، فمن أراد أن يتألم للفرع، عليه قبل كل شيء أن يتألم للأصل، ومن أراد أن يتساءل ماذا نصنع لأخوة لنا مسلمين يُذَبّحون هناك وهناك. فليتساءل من الذي يبارك ذلك التذبيح من الذي يصفق لذلك التذبيح، أو من الذين يناورون من أجل ذلك التذبيح، إنهم أولئك الذين ظننا أنهم انتصروا لنا هنا، هم أنفسهم. أفلا نعي أفلا ندرك الأمور وأبعادها؟

وأعود فأقول هذا هو الداء، ولا أريد أن أسير وراء الناس لأصف الداء وأضع في القلوب ناراً لا تُخمد، إنما الذي يعنيني أن أضع أمامكم الدواء أيها الأخوة، الدواء هو توجيه القلب إلى الرب، تطهير القلب من شوائب الدنيا، ولا والله يكون ذلك إلا بالإكثار من ذكر الله عز وجل على المستويات كلها.

والمعاصي نوعان اثنان أيها الأخوة: معاصٍ قلبية ومعاصٍ تبتلى بها الجوارح، أهون بمعاصي الجوارح أمام معاصي القلب، معاصي القلب المتمثلة في الكبر المتمثلة في الأنا المتمثلة في الهوى المتمثلة في التنافس ابتغاء الانتصار للذات، تلك هي المعاصي المهلكة.

وانظروا.. إنّ آدم عصا ربه إذ أكل من الشجرة ولكن سرعان ما تاب الله عز وجل عليه، ولكن معصية إبليس لا تزال إلى اليوم معصيةً أغضبت الرب عليه؛ ذلك لأن معصية آدم – إن اعتبرناها معصية وهي معصية لغوية آنذاك – هي معصية جوارح معصية إرادةٍ ضَعُفَت عن الثبات أمام شهوةٍ من الشهوات، أما معصية إبليس فهي معصية استكبار؛ معصية قلب. تلك هي المعصية التي لم تجد باباً مفتحاً للتوبة أمامها.

نحن ابتلينا أيها الأخوة بمعاصي القلوب.. زُرِعت محبة الدنيا في قلوبنا بدلاً من محبة الله، زُرِعت مهابة الناس – وأي ناس – في أفئدتنا بدلاً من مهابة الله سبحانه وتعالى، فإذا وجدنا نتائج ما قد وقعنا فيه فما ينبغي أن نَتعجّب، وإذا وجدنا آثار أخطائِنا القلبية فما ينبغي أن نَندُب إسلامنا. ولماذا لا ينتصر لنا إسلامنا؟ متى كان الإسلام ينتصر لأعدائه متى كان الإسلام ينتصر لمن يستغله مطايا؟

٤٣٧- أمران يمتحنكم الله بهما.. أيهما ستختارون | عام ١٩٩٣



قلت لكم في الأسبوع الماضي إن الله سبحانه وتعالى قد تكفل أن يكون هذا الدين الذي شَرّف به عباده هو المتغلب دائماً، وهو المنتصر دائماً، وذكّرتكم في هذا بقول الله سبحانه وتعالى ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ اللّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ، هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ وأفضنا القول في بيان ذلك في الأسبوع الماضي ولعل كثيراً منكم أو بعضاً منكم يتصور من هذا الذي قلناه، أنه ما على المسلمين اليوم إلا أن يطمئنوا وأن يركنوا إلى الدعة والكسل موقنين أن الله سبحانه وتعالى حافظ لدينه منتصرٌ لشرعته، مهما تقاعس المسلمون عن أداء ما قد افترضه الله سبحانه وتعالى عليهم.

ولا شك أن هذا الفهم من الكلام الذي قلته رعونة خطيرة، وانحراف كبير عن جادة الله سبحانه وتعالى، فهما أمران اثنان كل منهما منفصل عن الآخر.

الأمر الأول: تكفل الله سبحانه وتعالى بأن يبقى دينه في سائر العصور والأزمنة متلألئاً متغلباً ذا قوة مهيمنة. الأمر الثاني: أن هنالك واجباً أناطه الله سبحانه وتعالى بأعناق عباده الذين آمنوا به، والذين بايعوا الله سبحانه وتعالى وعاهدوه على السير على صراطه هذا الواجب، الذي أخذه الله علينا والذي أناطه الله بأعناقنا لا علاقة له بما قد تكفل الله به من المحافظة على دينه عبر الأزمنة والدهور، ذلك قرارٌ اتخذه الله سبحانه وتعالى اتجاه دينه وهذه وظيفة كلفنا الله سبحانه وتعالى بها، أرأيتم إلى الدعاء وعلاقته بالأمور التي يطلبها الانسان عادةً.

أما الدعاء فواجب، ذلك لأنه مظهر من مظاهر عبودية الانسان لله سبحانه وتعالى، ولن تفوح رائحة عبوديتك لله من خلال شيءٍ كما تفوح هذه الرائحة من خلال ضراعتك وتذللك بالدعاء بين يدي الله في البكور والآصال. وأما رزق الله سبحانه وتعالى لعباده وإمداده إياهم بما قد تكفل به من طعام وشراب ورزق ونِعَم، فذلك شيء آخر، لو دعوت أو لم تدعو فإن سنة الله ماضية في أنه يأمر سماؤه فتمطر، ويأمر أرضه فتنبت، ويأمر العباد والحيوانات التي سخرها الله لما قد سخرها من أجله تقوم بالمهام التي كلفت به.

هذه سنة الله وتلك وظيفة أناطها الله بأعناقنا، فما ينبغي للإنسان أن يقول: إن الله هو الرزاق التي تكفل لنا بالرزق ففيم الدعاء؟ دعاؤك إعلان عن عبوديتك وإعلان عن حاجتك إلى الله سبحانه وتعالى أعطى أو لم يعطي، وعطاؤه نتيجة صفة من صفات الله عز وجل، نتيجة صفته الرزاق، نتيجة صفته المعطي نتيجة صفته الكريم، أرأيتم إلى هذين الأمرين المنفصلين؟ كذلكم الدين في واقعه الذي تكفل الله به؟ والوظيفة التي أمر الله عز وجل بها عباده. ما ينبغي أن نسند ظهورنا إلى جدران الكسل لأن الله أعلن أنه متكفلٌ بحفظ دينه، هذه رعونة ما مثلها رعونة، ومن قال: إن عمل المسلمين هو الذي يجعل الدين مكلوئاً ومحفوظاً؟! ومن قال: إن جهودنا كدعاة إلى الله أو كقائمين بحدود الله أو كحراس على تربية أولادنا في بيوتنا من قال: إن هذا كله هو مصدر فاعلية حفظ الله لهذا الدين؟! هذا لا علاقة له بذلك. نحن عبيد لله، فهذه واحدة ثم إننا موظفون عند الله بحكم أننا عبيد له في عمل معين ينبغي أن نقوم به، وهذه الثانية. وظيفتنا أن نؤدي حقوق الله المترتبة علينا في أعناقنا كلاً على حدة، ثم وظيفتنا أن نرعى الواجب الذي أناطه الله بأعناقنا في بيوتنا تجاه أولادنا وبناتنا في كل وقت وفي كل ساعة، هذه ثانية. وظيفتنا أن نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر وأن نكون قائمين بحدود الله سبحانه وتعالى جهد استطاعتنا، وهذه ثالثة. لا علاقة لنا قط بما قد تكفل الله سبحانه وتعالى به. تلك وظيفة أقام الله ذاته العلية عليها، وهذه وظيفة كلّفنا الله سبحانه وتعالى بها.

ومعنى هذا الكلام أن المسلمين إذا اعتمدوا على قول الله سبحانه وتعالى ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ واطمئنوا لهذا الكلام، ثم تركوا وظائفه وأهملوا واجباتهم أملاً بهذه الآية، فلتعلموا أن نتيجة هذا الموقف أن الله سبحانه وتعالى يطرد هؤلاء الذين تقاعسوا عن وظائفهم عن ساحة رحمته، وعن شرف المكانة التي بوأهم إياها، ويستبدل بهم آخرين. دين الله يبقى مكلوءً، ولكن الذي يحصل أنه يوجد جنداً آخر غير هؤلاء المسلمين الذين تقاعسوا عن الواجب وأهملوا وظائفهم ولقد أعلن الله ذلك في صريح تبيانه عندما قال: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾.

فمن تقاعس عن الواجب الذي كلفه الله عز وجل به فقد عرض نفسه لطرد الله سبحانه وتعالى إياه، من شرف هذه الوظيفة التي رفعه إلى سدتها، من شرف هذه المكانة التي بوأه الله عز وجل إياها، أما الدين فلسوف يبقى مكلوءً، ولكن الفرق أنه إما أن يجعلنا نحن المشرفين برعايته وحمايته في الظاهر من خلال الوظائف التي نؤديها، وإما أن يطردنا الله سبحانه وتعالى من فضله وجوده ويهيء آخرين يحلون في أماكننا فيتبوؤن ذلك الشرف. ما ينبغي أيها الأخوة إذا تحدثنا بين الحين والآخر عن الدلائل الناصعة على أن هذا الدين ليس صنعة بشر، ليس اختراع أمة، ولو كان كذلك لاختلق هذا الدين منذ أحقاب طويلة، ولكن هذا الدين إنما نزّله الله من علياء سماواته، وهو المتكفل بحفظه. أفإن قلنا هذا الكلام الذي يزيدنا إيماناً بأن هذا الدين لم يخترعه مخترع، وليس صنعة بشر وإنما هو تنزيل رب العالمين كما قال الله سبحانه وتعالى، أفتكون ثمرة ذلك أن ننفض أيدينا عن المهام التي كلفنا الله بها، وأن نزداد إلى تقاعسنا تقاعساً.

علينا واجبات أيها الأخوة ينبغي أن نؤديها فإن لم نؤدها ركبنا الذل وركبتنا المهانة، وهذا لا يعني أن الذل سيحيق بالإسلام ولا يعني أن المهانة ستلحق دين الله، دين الله دائماً معلق بالثريا، ولن تنال منه أي يد أي منال، لكن معنى ذلك أننا نحن بعد أن خلعنا ربقة الواجبات التي كلفنا الله بها، سنصطبغ بالمهانة وسنصطبغ بالذل ولسوف نصطبغ بالفقر، ولسوف تصبح حالتنا حالة أولئك الذين يضرب بهم المثل في التمزق والفرقة والشتات والضعف، تلك هي النتيجة التي ستحيق بنا إن نحن مضينا في تقاعسنا عن أداء واجباتنا وواجباتنا كما قلت لكم هي:

أولاً: أن نؤدي حق الله في أنفسنا، أن نعود إلى أنفسنا بين الحين والآخر فنتبين مركز عبودية الله بين جوانحنا، ونتسائل عن مدى تطبيقنا لحقوق هذه العبودية.

ثانياً: أن يكون كلٌ منا قواماً على بيته رعايةً وسهراً على تربية أسرته تربية أولاده، ولقد قلت لكم مراراً: إن الله يبتلينا وهو ناظر إلينا، يضعنا أمام خيارين إما أن نضحي بدين الله في بيوتنا في سبيل أوهام من ضمانات رزقٍ ونحو ذلك، وإما أن نضحي بهذه الأوهام في سبيل ديننا.

لابد أن يمتحننا الله سبحانه وتعالى كما قد ألزم ذاته بذلك في محكم كتابه، كم وكم أعاد الله سبحانه وتعالى هذا البيان، فكونوا موطّنين أنفسكم أن تؤدوا حقوق الله سبحانه وتعالى في أنفسكم، وفي أهليكم، كما أن شياطين الإنس من حولكم، قد وطنوا أنفسهم على أن يتخطفوكم وأن يتصيّدوا أولادكم وبناتكم من ساحة السير على صراط الله سبحانه وتعالى؛ ليجعلوهم جنداً لشياطين الإنس والجن في سبيل محاربة دين الله سبحانه وتعالى، كما أن أولئك الأوغاد أولئك الناس يسعون سعيهم صباح مساء من أجل إبعادكم عن دين الله سبحانه وتعالى، ومن أجل إبعاد أولادكم وبناتكم عن السير على صراط الله سبحانه وتعالى.

وظيفة يقومون بها تجاه من وظفهم بذلك، وهم شياطينهم من الإنس والجن. فكونوا أنتم وقد شرّفكم الله بوظيفته القدسية قائمين في مقابل ذلك بالوظيفة التي كلفكم الله بها، ليكن لسان حالكم متجهاً إلى أولئك الناس الذين باعوا أنفسهم لشياطين الإنس والجن، وأصبحوا يسهرون لياليهم ويقطعون أيامهم على درب التربص بدين الله، وظيفة يقومون بها، قولوا لهم بلسان الحال نحن بالمقابل قائمون بوظيفة رب العالمين. أنتم تؤدون وظيفة من جعلوكم عملاء لهم وخدماً وحشماً لهم من شياطين الانس والجن، أما نحن فقد شرفنا الله بأن نكون موظفين عنده، نحن نؤدي وظائفنا وأنتم أدوا وظائفكم ولسوف تكشف الأيام من هم الذين ينتصرون؟ عندئذٍ ينتصر لكم الله سبحانه وتعالى، وعندئذٍ تكونون مظهراً لدين الله انتصاركم يكون انتصاراً لدين الله، وانتصار دين الله يكون انتصاراً لدينكم.

أيها الأخوة كلكم أصبح يعلم كلكم أصبح يعلم أن الدين اليوم لا يحارب من خلال العلم، كان هذا قبل سنوات طويلة عندما كانت تصدر المؤلفات والنشرات ويتكلم المتكلمون عن تخلف المسلمين وأن الإسلام دين رجعي ودين متأخر، وكان هنالك من يزرع الوساوس في أذهان الناس عن حقائق دين الله، طوي ذلك العهد. الآن كونوا على يقين أن دين الله يحارب عن طريق محاربة الأخلاق، عن طريق بث عوامل الرذيلة في المجتمعات الاسلامية وفي البيوت الاسلامية، ذلك لأن هؤلاء المتربصين بدين الله درسوا وعلموا أن نقطة الضعف اليوم في حياة المسلمين إنما هي النقطة الأخلاقية، نقطة الضعف في

حياتهم رجالاً ونساءً إنما هي انجذاب المسلمين بدافع الغرائز إلى الشهوات والأهواء، هذا العمل إذا هيج فإن فاعلية العقل تشل، هذه حقيقة قرأتها وسمعتها. هؤلاء الناس ينطلقون من هذا المنطلق، ويسعون سعيهم إلى أن يتصيدوا بناتكم بالوسائل المختلفة، وغداً ستفاجؤون غداً، ستسمعون من يدعون؟ يدعون بناتكم إلى مادة تربوية لا عهد لكم بها اسمها التربية الجنسية اسمها الثقافة الجنسية، وليت أن الذين يكلفون بهذا هم أساتذة الدين، ليت أن الذين يكلفون بهذا هم هؤلاء، إذاً سيكون تسيير الجيل إلى هذا المنهج عبر الفضيلة وعبر الترفع عن مستوى هذا المعنى البهيمي الذي نستدرج إليه في وسائل كثيرة شتى.

لا لن يكون الهدف هذا، وإنما الهدف هو الجمع بين المراهقين والمراهقات المزج بين هؤلاء وأولئك، وتهييج العوامل الغريزية المختلفة بالوسائل المختلفة الكثيرة، وفي جو لاهب لا يكون فيه حجاب لا تكون فيه حشمة لا تكون فيه وازع ديني، ومن ثم تهتاج الغرائز كما هو الشأن، وتلك هي الطبيعة التي فطر الله سبحانه وتعالى الإنسان عليها ويأتي دور من يريد أن يبصر بالثقافة الجنسية، ما هو دور الثقافة الجنسية؟ الواقيات التي ينبغي أن تستعمل، لا مانع لا مانع من أن يغامر الشباب والفتيات، وأن يهتاج البعض منهم على بعض الواقيات موجودة والواقيات هي التي تمنع المغبات، وهي التي تمنع الأمراض وهي التي تمنع الحمل، ومن ثم بوسع المرأة أن تخون زوجها بواسطة هذه الواقيات. وما أدراك ما هي هذه الواقيات؟

وظيفتكم أيها المسلمون ما هي؟ هي أن تعلموا أن إسرائيل – لا والله – لا تحاربنا بادئ ذي بدء بالسياسة، ولا تحاربنا بادئ ذي بدء بالقوة العسكرية، وإنما تحاربنا قبل كل ذلك ببث عوامل التمييع بالوسائل التي تحطم الأخلاق، التي تحطم سدود الفضيلة في المجتمع، إسرائيل تعلم هذا وتسخّر أمريكا لهذا، وأمريكا تنفذ اليوم هذا، وهنالك جمعيات عميلة تسعى لتحقيق ذلك أيها الأخوة، وما يجري في سبيل هذا الهدف سراً أكثر بكثير مما يستعمل جهراً. فما موقفكم أنتم أيها المسلمون وأنتم المستهدفون أولادكم المستهدفون.

إذا سمعتم اليوم بمن يحارب الحجاب في المدارس فاعلموا أن ذلك دهليز إلى هذا الهدف، واعلموا أن ذلك مقدمة إلى تلك الغاية.

أيها الأخوة أمران اثنان يمتحنكم بهما الله سبحانه وتعالى واجباتكم المعلقة في أعناقنا، والمناقضات التي يبتليكم الله بها، خياران يضعهما الله أمامكم ويضعكم أمامها. ترى ما الذي ستختارون؟

قد يرى الرجل أنه إن حافظ على دينه في إلزامه ابنته وابنه بالسير على صراط الله سيضحي بالمستقبل، ووالله إنه لمستقبل وهمي. ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ وإما أن يضحي بالمستقبل الوهمي في سبيل أمر الله، وعندئذ يكون قد أحرز لنفسه الدين والدنيا معاً. فما أنتم فاعلون؟

قوموا بالواجب الذي كلفكم الله به، ووالله الذي لا إله إلا هو لو أن هذه الأمة في بلدة مقدسة كهذه البلدة أعرضت عن دين الله لينقلن الله شرف هذا الدين إلى مكان آخر، ولسوف نبوء بعد ذلك بخزي الدنيا والآخرة معاً أقول قولي هذا وأستغفر الله.

٤٣٨- تفرق الأمة وتشرذمها.. أسباب وعلاج | ١٩٩٤/٠٩/١٦

ما أعتقد أن العالم الإسلامي والعالم العربي قلبه، مُني في عصر من العصور بمصيبة استنزفت حيويته وكادت أن تقضي على وجوده كالمصيبة التي مني بها العالم الإسلامي والعربي في هذا العصر؛ تلك المصيبة التي تتمثل في التفرق والتشرذم الذين قضيا عليه.

ومهما تصورنا المصائب وأهميتها ومهما تصورنا النكبات التي مرت بهذه الأمة على جسامتها، فلن نجد أجسم ولا أخطر من المصيبة الكبرى التي حاطت بهذا العصر، والتي تتمثل في التدابر الذي حاط بجماعاتها وبدولها وبأقطارها حتى غدا كل منها محوراً ضد المحور الآخر تقريباً، وهذه المصيبة الكبرى تتفرع عنها – كما قلت – أكثر من مرة مصائب متنوعة ومتعددة لا مجال للحديث عنها، بل ربما لا مجال لإحصائها.

وأنتم تعلمون أيها الأخوة أن الله عز وجل ما امتن على عباده بنعمة من النعم التي جاءت ثمرة للإسلام كنعمة الوحدة التي أكرم الله هذه الأمة بها، وما أعلم أن الله حذر هذه الأمة من أن تتنكب فتقع في مصيبة من أخطر المصائب كما حذرها من التنازع والشقاق، وكلكم يقرأ قول الله عز وجل: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾، وكلكم يقرأ قول الله عز وجل: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ وإنا لنرى بأم أعيننا السبب في أن الله عز وجل امتن على عباده بهذه النعمة الكبرى، ونرى السبب في أن الله حذر عباده المسلمين من أن يقعوا في نقيض هذه النعمة من التنازع والتدابر، نرى سبب ذلك فيما قد حاق بنا؛ عندما تفرقت هذه الأمة سهل على العدو أن ينال منها كل منال، وأن يصل منها إلى كل ما يبتغي، وأن يحيل عزها إلى ذل، وأن يحيل قوتها إلى ضعف، وأن يحيل غناها إلى فقر، ولا داعي إلى أن أُفَصل وأفسر.

ولكن من أين جاء هذا التدابر؟ وكيف تسرب إلينا هذا التنازع؟ وكيف أصبحنا محاور متدابرة محاور متنازعة بعد أن شاء الله عز وجل لنا أن نكون أمة واحدة؟

هنالك عوامل كثيرة.. ولكن من أخطر هذه العوامل عوامل ينسجها المسلمون بأيديهم، بل يسعى إليها المسلمون الملتزمون بالإسلام باختيارهم، وهذا هو البلاء الأطم؛ أن يكون المسلمون هم الأداة لهذا التفرق الذي حاق بهم، وعن طريق إسلامهم في ما يبدو، هذا العامل الذي أريد أن ألفت النظر إليه بكلمات وجيزة وبكلام مكثف، نلاحظه أيها الأخوة إن التفتنا يميناً أو شمالاً.

أنّا التفتنا نجد كيف أن المسلمين بأيديهم يمزقون وحدتهم، وبمساعيهم يقضون على التضامن الذي أكرمهم الله سبحانه وتعالى به:

التطرف: التطرف هو الذي يخلق ردود فعل، وردود الفعل تنتهي إلى هذا التمزق الذي أحدثكم عنه، والتطرف نراه في سلوك، ونراه في معتقدات، ونراه في مخترعات تخترع باسم الدين، كل هذه الأمور وغيرها يدخل تحت عنوان التطرف أو التكلف أو التقعر. وقديماً نهانا رسول الله وحذرنا من التكلف، وحذرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من التنطع والتكلف والتقعر والتطرف... كل ذلك كلمات لها مدلول واحد. ألم يقل المصطفى عليه الصلاة والسلام: ﴿هلك المتنطعون﴾ قالها ثلاث، والحديث صحيح: ﴿هلك المتنطعون، هلك المتنطعون، هلك المتنطعون﴾.

ويضيق المجال أيها الأخوة عن رسم هذا التنطع الذي يخوض به المسلمون سيراً باتجاهٍ مناقض لما أوصانا به رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكن فلأضعكم أمام نماذج ولأوضح لكم كيف أننا نصنع بأيدينا أسباب الفرقة والتدابر.

هنالك من يتنطع ومن يتطرف في التصور والاعتقاد، فيذهب مذهبا يرى في حب رسول الله صلى الله عليه وسلم بدعة جانحة، ولعلكم لا تصدقون أن في المسلمين اليوم من ذهب هذا المذهب ونادى بهذا النداء، سمعت ذلك أذني في موسم من مواسم الحج، من إنسان قام يدعو إلى الله عز وجل وله مظهر الداعي إلى الله والعالم بشريعة الله يقول لهم: إياكم والغلو في حب محمدٍ رسول الله صلى الله عليه وسلم سمعت أذني هذه الكلمة. أقول ذلك لأنه ما من مسلم إلا ويشمئز ويعجب من هذا الكلام، هذا تطرف عجيب! ما الموجب لأن يقال هذا الكلام؟! لو أن الذي قال هذا الكلام نظر فرأى نفسه بين ثلة من

المجاذيب الذين جذبوا عن الدنيا بمحبة رسول الله، فغابوا عن أنفسهم وعن تجاراتهم ودنياهم، إذاً لقلنا في هذا بعض العذر. ولكننا ننظر أنا كنا وحيث ما وجدنا فلا نجد إلا أناس معرضين عن حب الله وعن حب رسول الله، وأكثرنا حباً لله هو ذاك الذي يشطر قلبه قسمين اثنين: جزء يتجه به إلى حب دنياه وشهواته وأهوائه، وجزء يتجه به إلى حب الله وحب رسوله. أين هو المغال؟ أين هو الإنسان الذي سكر بحب رسول الله حتى لم يعد يستطيع أن ينظر إلى شؤؤونه الدنيوية؟

هذا التطرف في القول إلى ما يدفع يدفع إلى ردود فعل، يدفع إلى نقيد هذا الكلام يدفع إلى أن يقوم أناس من هنا وهنا وهناك وقد اندفعوا باشمئزاز من هذا القول، فيقوم الجدل وتشيع الفرقة؛ ذلك لأن التطرف من شأنه أن يولد التطرف، وذلك لأن التكلف من شأنه أن يولد ردود فعل مختلفة، وهذا هو العامل الأكبر في القضاء على التضامن والوحدة أينما وجدوا.

هذا مثال للتطرف في طرف معين، ولكن انظروا إلى التطرف الآخر في الطرف الثاني، سمعت أذني أيضاً شيخاً من الشيوخ يقول لمريديه: إن حب الشيخ أهم وأجل من حب الله ورسوله، هذا ما سمعته أذني، والرجل أيضاً داعٍ ومربٍ ومعدودٌ في العلماء. ثم قال الرجل: لعلكم ترون في هذا مبالغة، فلأشرح لكم: إن حب الله عز وجل شيء كبير وكبير جداً لا يتسع له قلب الإنسان الذي عاش حياته الدنيوية هذه متقلباً في فجاجها كعامة الناس، لا بد لصاحب هذا القلب الصغير من مربٍ يهيأ هذا القلب لحب الله عز وجل، وهذا المرب هو الشيخ. ولكي يستطيع المربي أن يهيمن على قلب هذا المريد لا بد أن يتجه هذا المريد بكل مشاعره إلى حب الشيخ، ومن ثمّ ينتقل إلى حب الله عز وجل.

لولم أسمع أيها الأخوة هذا الكلام بأذني لأنكرته، ولكنني سمعته وتأملت في ذلك الإفراط وهذا التفرط، وتأملت في ذلك التكلف الذي يسير إلى أقصى الغرب، وهذا التكلف الذي يسير إلى أقصى الشرق، والأمة الواحدة هي التي تتمزق بين هذا وذاك.

المسلمون عباد الله عز وجل الذين يريدون أن يعرفوا الحق، فيتبعوه يريدون أن يتبينوا صراط الله عز وجل فيتلاقوا عليه يتمزقون بين هذا التكلف وذاك، وبين ذلك التنطع وهذا، فماذا يصنع هذا القول

الأرعن الثاني؟ لابد أن يقوم اللناس فيثوروا ولابد أن تقوم ردود فعل ولابد أن تتحول وحدة الأمة الإسلامية إلى نثار متمزقة هذا شيء طبيعي، بين ذلك التطرف وله نماذج شتى ويضيق الوقت عن ذكرها، وهذا التطرف وله نماذج شتى تظهر فقاقيع الخلافات، وتظهر فقاقيع الأفكار المتناقضة المتصارعة وكل ذلك يصب في أمر واحد ما هو؟ وحدة هذه الأمة هي التي تذهب ضحية ذلك.

حب الشيخ أهم وأجل من حب الله!! كيف هذا؟ هل هنالك إنسان لم يفطر على حب الله ورسوله! أليس هذا الإسلام دين الفطرة؟ أليست هذه العقيدة التي جاءت بها الرسل والأنبياء انعكاساً لشعاع ينبثق من فطرة الانسان. كل إنسانٍ إذا عرف الله أحبه، ولا داعي لوساطة شيخ ما، إنما يحتاج الإنسان إلى وساطة عقل مفكر، ثم إلى وساطة فكر يذكر الله، جبلت النفوس على حب من أحسن إليها. هل هذا القانون يحتاج إلى شيخ؟ كل من أحسن إليك لا بد أن تحبه، ليكن جارك ليكن أستاذك ليكن تلميذك ليكن القائد الذي تسير في ركابه ليكن أي زيد من الناس. فكيف عندما يكون المحسن رب المحسنين؟ كيف عندما تذكر أن الله هو الذي أكرمك بالنطق والفكر وأكرمك بالعافية والصحة وأكرمك برغد العيش وأكرمك بالقدرة على إزدراد الطعام وأكرمك بالقدرة على الشراب وأكرمك بالقدرة على الركوب وأكرمك فستر معايبك وأظهر محاسنك؟ عندما تتفكر وتتأمل في هذه الآلاء أتحتاج إلى من يتوسط ليملئ قلبك بحب الله عز وجل؟!

لو أن أي رجل من الشارع تفكر في آلاء الله عز وجل لعشق الله سبحانه وتعالى، هذه الحقيقة ينبغي أن نعلمها جميعاً، وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم مهما بلغ، أفيصل إلى درجة اسمها الغلو؟ وهل في الناس من غال أكثر مما فعل أصحاب رسول الله؟ أفأضعكم أمام نماذج من حب أصحاب رسول الله لرسول الله صلى الله عليه وسلم؟ أأذكركم بقول أبي سفيان: ويحكم ما رأيت قوماً أشد حباً لشخص من حب أصحاب محمدٍ لمحمد. ومهما غالى المغال أفيصل في حبه إلى أبلغ من الدرجة التي وصل إليها زيد بن الدثنة الذي جيء به ليقتل في ضاحية من ضواحي مكة. فقال له أبو سفيان: أنشدك الله يا زيد أتحب أنك في أهلك آمن مطمئن وأن محمداً في مكانك هنا فقال: والله لا أحب أن أكون في بيتي آمناً

مطمئناً ويشاك رسول الله بشوكة؛ أي أنا مستعد أن أضحي بحياتي كلها في سبيل أن لا يشاك رسول الله بشوكة. مهما بلغ الانسان في حبه لسيدنا رسول الله أفيبلغ هذه الدرجة.

كيف يمكن أن يقبل العقل كلمة من هذا القبيل؟ هذا هو واقعنا أيها الأخوة العا لم العربي والاسلامي – هذه الكتلة – يضحى بها بسبب هذا التنطع الذي يجر الأمة آناً إلى أقصى هذا الطرف، ويجر الأمة آناً إلى أقصى هذا الطرف، ويجرها أصلاً إلى أطراف أخرى كثيرة وكثيرة. وانظروا إلى النتائج، انظروا إلى الخلافات، انظروا إلى الخصومات انظروا إلى الشقاق.

من الذي يستفيد منه من الذي يبني عليه ساتر فوق ساتر من البنيان العدو؟ العدو هو الذي ينفث في نيران هذه الخلافات. ترى أنحن متجانون أم إن مصالحنا أودت بنا إلى هذا الحد من اتخاذ الدين أشبه ما يكون من كرة تقذف، إن بالعقول المتنطعة كما قال رسول الله، أو بالأقدام الدافعة، كلا الأمرين سواء، وأمامي صور كثيرة من هذا التنطع. ويضيق الوقت عن ذلك.

ولكني أحب أن أعود إلى صدر حديثي، هذه الأمة منيت بأعظم مصيبة حاقت بها منذ فجر الإسلام إلى يومنا هذا، مصيبة التفكك مصيبة التشتت، ولذلك أسباب متنوعة. ولكن هذا من أخطر الأسباب، ولم أتحدث عن خطر يأتينا من عدو، وهذا شيء طبيعي، لن أتحدث عن سبب ندفع إليه دفعاً، ربما كان هذا أمراً طبيعياً، لكن الأمر العجيب الذي يشكل مصيبة دائمة أخرى، أن يكون المسلمون هم العامل الأول في هذا التشرذم، وبسلاح الإسلام. فأنا أسأل الله سبحانه وتعالى أن يقينا شر التطرف.

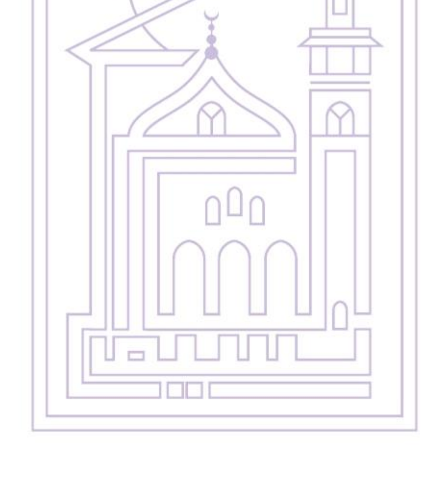
أيها الأخوة أنتم المقصودون بهذا التطرف وأنتم الذين تعانون من الانجذاب إلى هنا آناً وإلى هنا آناً ما العاصم؟ العاصم أن تدرسوا دين الله وأن تتبينوا شريعة الله، وأن تخلصوا عملكم لله عز وجل عندئذ سيكرمكم الله عز وجل بالتوفيق، لا يمكن لمن يجذبكم إلى تنطع ذات اليمين أن يوثر عليكم، ولا يمكن لمن يريد أن يجذبكم ذات الشمال أن يوثر عليكم بشكل من الأشكال.

نحن نؤمن بالتصوف، ولكنا والله ننكر التصوف عندما يكون دعاء لبدع كاذبة، ننكر التصوف عندما يكون سلماً لشهرة أشخاص، ننكر التصوف عندما تتحول العبودية لله إلى العبودية للأشخاص،

ننكر التصوف عندما يدفع أصحابه إلى إذا مات لهم شيخ أن يقيموا له نصباً تذكارياً وكأنه يعبد من دون لله سبحانه وتعالى.

ما كفرنا بالتصوف الذي هو لب الإسلام، ولكنا نجحد بالتصوف الذي يتخذ وعاء لأمثال هذه البدع، ونحن لا يمكن أن نبتعد عن إسلامنا الحقيقي عن طريق الشعارات اسمها محاربة البدع، ثم إننا نجد أن هذه الشعارات في واد وأن الواقع في واد آخر، وأن الذي يحارب في الواقع هو دين الله وليست البدع، عن طريق محاربة البدع يقال إياكم والغلو في حب رسول الله، عن طريق محاربة البدع يقال أين الله ولن تكون مسلماً إلا إذا أشرت باصبعك هكذا وقلت بالأعلى، أيضاً هذا ننكره ونسأل الله عز وجل أن يلهمنا الرشد وأن يجعلنا ممن قال الله عز وجل عنهم: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾.

أقول قولي هذا وأستغفر الله.



٤٣٩- السفينة التي تنجينا من أمواج الفتن المدلهمة | ١٩٩٤/١٢/٠٩

لقد أنبأنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في أحاديث كثيرة شتى بلغت كما قال العلماء مبلغ التواتر المعنوي، حذرنا فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم من الفتن التي ستتكاثر من بعده وأنبأنا عنها مكرراً ومؤكداً، فمن ذلك ما ورد في الصحيح أنه صلى الله عليه وسلم قال: ﴿ستكون فتنٌ من بعدي كقطع الليل المظلم يمسي فيها الرجل مؤمناً ويصبح كافراً، ويصبح مؤمناً ويمسي كافراً، يبيع دينه بعرض من الدنيا قليل﴾. ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه علي رضي الله تعالى عنه: ﴿ستكون فتنٌ من بعدي﴾ قال: فما المخلص منها يا رسول الله. قال: ﴿كتاب الله فيه نبأ من قبلكم وخبر ما بعدكم﴾ والحديث طويل..، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم لأبي مويهبة خادمه –وقد خرج لزيارة البقيع في ليلة من الليالي قبيل وفاته– وأخرج معه خادمه أبا مويهبة، فلما دخل البقيع وسلّم على أهله. قال: ﴿أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم تتبع أخراها أولاها وأخراها شرٌ من الأولى﴾. والأحاديث في ذلك كثيرة.

وها نحن أيها الأخوة نرى هذه الفتن بأم أعيننا، نرى مصداق كلام سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونلتفت إلى الماضي فنرى أيضاً بعضاً من حلقات هذه الفتن، ولكنا نقارن بينها وبين ما نراه اليوم فنجد فيها مصداق كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم، والآخرة شرٌ من الأولى. كلما امتد الزمن بالانسان تطورت هذه الفتن إلى شكلٍ أخطر.

وليس حديثي الآن عن هذه الفتن وطبيعتها، وإنما الحديث الذي يفيدنا هو التساؤل عن المخلص وعن السفينة التي إن تعلقنا بها أنجتنا من أمواج هذه الفتن المدلهمة، التي تأتينا من كل حدب وصوب لقد أجاب عن هذا السؤال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما أكد فقال جواباً لسؤال علي رضي الله عنه ما المخلص يا رسول الله؟ قال: كتاب الله، وأكد هذا فيما ذكره في خطبته في حجة الوداع: ﴿وقد تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا من بعدي كتاب الله وسنتي﴾، وما يذكر كتاب الله إلا

ويتضمن الأمر باتباع كتابِ الله اتباعَ سنته، وما تذكر سنة رسول الله إلا ويتضمن الأمر باتباع سنته اتباع كتابه. فهما متلازمان كما تعلمون، فهيهات أن يتسنى لإنسان أن يتمسك بكتاب الله دون أن يتمسك بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم. كيف وقد قال الله عز وجل: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّه﴾ وهو القائل: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ والآيات التي يأمرنا الله سبحانه وتعالى فيها باتباع المصطفى صلى الله عليه وسلم، وبجعل سنته بياناً وشرحاً لكلام الله عز وجل آيات كثيرة جداً. وحسبكم منها قول الله عز وجل: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾.

فكل من يرى أمواج الفتن من حوله وقد أحاطت به من كل الجهات، فليعلم أن السفينة التي تنجيه ماثلة أمامه، هذه السفينة متمثلة بالتمسك بكتاب الله ومن ثَمّ في التمسك بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ما كنا نتصور أيها الأخوة أن نعيش في عصرٍ نسمع فيه من يتظاهر بالتقرب إلى الله بسب أصحاب رسول الله، ما كنا نتصور أننا نعيش في زمنٍ يأتي فيه من يحاول أن يفرغ أفكار المسلمين وأدمغتهم من احترام أصحاب المصطفى صلى الله عليه وسلم ليحشو هذه الأدمغة في مكان ذلك بالحقد عليه وبقالة السوء في حقه، ولكنا نرى هذه الظاهرة اليوم، ونتذكر حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم عن الفتن. بالأمس بلغني أن هنالك شباباً فتنوا في دينهم بالمال وبالوسائل المختلفة، وكانت عاقبة ذلك أو كان الهدف من هذه الفتنة التي استهدفوا من أجلها أنهم أخذوا يمقتون أصحاب المصطفى صلى الله عليه وسلم، ويمدون ألسنتهم كثعابين بقالة السوء في حقهم، فالتجريح ما أيسر أن تسمعه منهم في حق أبي بكر، وما أيسر أن تسمعه منهم في حق عمر، وما أيسر أن تسمعه منهم في حق عثمان. كيف هذا؟ ولكن لا داعي لأن نسأل كيف وقد أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الفتن الكثيرة وشرحها شرحاً عجيباً ودقيقاً، لكأنه يعيش معنا في هذه الأوضاع. ما المخلص من فتنة تتجه إلى شباب كانوا إلى الأمس القريب دروعاً لدين الله عز وجل، وإذا بهم اليوم تحولوا لهباً في نيران هذه الفتنة ما المخلص؟

المخلص كما يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم التمسك بكتاب الله والتمسك بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم. هل يمكن لإنسان وعى كلام الله، ومن ثم اتخذ من سنة المصطفى الصحيحة بياناً لما يقوله الله عز وجل، أن يمد لسانه بقالة سوء في حق أيٍ من أصحاب رسول الله، فضلاً عن الخلفاء الراشدين؟! هل يمكن أن يمد لسانه بقالة سوء في حق آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما يتحصّن بكتاب الله سبحانه وتعالى معرفةً ووعياً، وعندما يضيء معالم كتاب الله أمام عقله بمصابيح السنة النبوية المطهرة؟

لا يمكن لا يمكن لأحد أن يخدعه، ولا يمكن لأحدٍ أن يمزق عقله، ولا يمكن لأحدٍ أن يشتري دينه بعرض من الدنيا لا قليل ولا كثير، عندما أتبين سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم وعندما أصغي إليه وهو يقول: الله الله في أصحابي، لا تتخذوهم غرضاً من بعدي، وعندما أتبين مدى محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه أياً كانوا، فضلاً عن هذه النخبة التي نتحدث عنها. وعندما أستعرض سيرة المصطفى عليه الصلاة والسلام هل يمكن وأنا مسلم أن أمد لساني بقالة سوء في حق أي من أصحابه رضوان الله عليهم، ثم عندما أتبين عن طريق رشدٍ إسلامي يأتيني بواسطة المعرفة والثقافة الإسلامية، عندما أتبين أن احترام الصحابة ليس رهناً بعصمتهم من الأخطاء كما قد يتوهم البعض من المخادعين والمدجلين. لا.. الاحترام الذي أملاه رسول الله علينا لأصحابه ليس دليلاً على أنهم معصمون إطلاقاً، نعم كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون ما عدا الرسل والأنبياء، ومع ذلك فأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم هم الدّرة في جبين التاريخ الإسلامي كله، ولو أن احترام الانسان لأخيه الانسان المسلم مشروط فيه أن يكون ذلك الشخص معصوماً، إذاً لرأيت أن الدين الإسلامي يأمر المسلمين بأن ينهش بعضهم بعضاً، وبأن يتألب كل واحد منهم ليكون عدوا للآخر، ذلك لأنك مخطأ وأستطيع أن ألتقط أخطاءً في حياتك، وأنا مخطيء وتستطيع أن تلتقط أخطاء في حياتي، والثالث والرابع والعاشر كذلك.. فإذا كان شأن المسلم ووظيفته الإسلامية أن يلتقط لدى أخيه من الهفوات ما يبرر له هجومه عليه وانتقاصه له وحقده عليه، فمعنى ذلك أن هذا الدين جاء ليجعل من المسلمين شرائح متخاصمة متعادية، ولم يأتِ أبداً ليجعل من المسلمين إخوة متآلفين متحابين.

ثم إن الذي يعلمني الإساءة وقالة السوء في حق أصحاب رسول الله، ينبغي أن يعلمني كيف أمد لساني بقالة السوء في حقه هو قبل أي شخص آخر، لأنه هو الآخر ليس معصوماً، ولو أنني نظرت إليه بعين النقد لرأيت فيه من الهفوات ما يجعلني في شغل شاغل عن الآخرين، وما يجعلني أتقرب إلى الله بالحديث عنه وبالهجوم عليه، ويملأ قلبي حقد عليه.

عندما يعي الإنسان المسلم إسلامه ويدرس حقيقة كتاب الله وسنة رسوله يعتصم بهذه الحقائق، فلا يستطيع إنسان بواسطة عصبية رعناء، وبواسطة حقد تفوح عفونته من قلبه، لا يستطيع أن يستجرّني أو أن يستجر أي مسلم إلى ساحة المتاهات وإلى ساحة الفتن إطلاقاً بشكل من الأشكال.

أبو بكر الصديق الذي نعته كتاب الله بالصحبة، وما أجل ذلك من نعت، نعته بالصحبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم يمتد لسان المسلم بقالة السوء في حقه، وكيف يكون مسلماً. لن يفعل هذا إلا من باع دينه بعرض من المال، وهنالك من يفعل ذلك. أهنالك مسلم يمد لسانه بقالة سوء في حق عمر بن الخطاب وما أكثر ما نعته المصطفى صلى الله عليه وسلم بالثناء، وما أكثر ما رفع من قدره في أحاديث صحيحة..

عمر بن الخطاب الذي بنى دولة الإسلام، والذي مد الفتوحات إلى أن وصلت إلى أقصى بلاد الفرس، أجل.. هل هذا خير فعله عمر أم شر فعله عمر، لعل أصحاب الأحقاد والضغائن يتصورون أن عمر قد قوض الحضارة الساسانية، هل يمكن لانسان مسلم أن يمد لسانه بقالة السوء في حق عمر، هذا الذي اعتصر حياته كلها آلاماً وأتعاباً ممضة في سبيل دين الله عز وجل، الذي كان كتلة تحرك وإخلاص على دين الله سبحانه وتعالى.

وعثمان هل يمكن لإنسان أحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يشعر بأي ضغينة على صهره مرتين سيدنا عثمان؟! هل يمكن عثمان الذي زوجه رسول الله من ابنته الأولى فتوفيت، ثم زوجه من الثانية فتوفيت، ثم قال له: والله يا عثمان لو كانت عندنا ثالثة لأعطيناكها. هل يمكن لإنسان أحب رسول الله أن يقول بعد هذا كلمة سوء في حق عثمان.! أي مجنون هذا الذي لا يدرك الجواب عن هذا السؤال؟

أنا أشهد لو أن قلبي انطوى على شيء من الضغينة لعثمان فمعنى ذلك أنني لا أحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أبداً إطلاقاً.

وعليٌ رضي الله تعالى عنه ابن عم رسول الله، الذي ربي في بيت رسول الله، الذي قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا ترضى أن تكون مني كهارون من موسى، من ذا الذي يشعر بأي انتقاص له في جانبه، من ذا الذي لا يراه درة في جبين أصحاب رسول صلى الله عليه وسلم، وعليٌ هذا كيف كان فؤاده اتجاه أبي بكر؟ كيف كان فؤاده اتجاه عمر؟ كيف كان قلبه اتجاه عثمان؟ أليس هو علي رضي الله عنه الذي أمسك بخطام دابة أبي بكر وقد جعل من نفسه قائداً لجيش يتجه به إلى سرغ لمقاتلة المرتدين عقب وفاة رسول الله. فقال له علي: – وانظروا إلى المراجع – أقول لك يا أمير المؤمنين بهذه الصيغة ارجع كما قال لك رسول الله يوم أحد، لم سيفك وعد إلى دارك، فو الله فإن نكب المسلمون بك لم تقوم لهم قائمة من بعدك، حبي لعلي يقتضيني أن أتأدب مع أبي بكر وأحبه. حبي لعلي يقتضيني أن أتأدب مع عمر الذي كان مستشار سيدنا علي، وكان علي رضي الله عنه مستشاره، حبي لعلي يقتضيني أن أتأدب مع عثمان وأحبه. فمن زاغ عن هذا الطريق فإن ينبوع زيغه يتمثل في شروده عن هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ونحن أيها الأخوة ندعو دائماً في كل مناسبة هذه الأمة إلى أن تتجاوز خلافاتها، وأن تتجاوز اجتهاداتها التي ينبغي أن تقدّر من قبل كل المسلمين، وندعو إلى أن يتقاربوا وأن يعودوا إلى الجزء الواحد والموحد، ونحن دائماً ندعو إلى أن يتقارب المسلمون لكن كيف يكون سبيل التقارب؟ سبيل التقارب هو أن ننظر إلى أن المسلمين الذين اتفقوا في جذور الإسلام، ثم اختلفوا في حواشيه الاجتهادية ندعوهم إلى أن يحترم كل مجتهدٍ اجتهاد أخيه، وأن نعلم كلام المصطفى عليه الصلاة والسلام الذي يقول فيه: ﴿إذا اجتهد الحاكم أو المجتهد فأصاب فله أجران وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر واحد﴾، ونكل صواب المصيب وخطأ المخطأ إلى الله سبحانه وتعالى، ونقول تعالوا نترك هذه القضايا الاجتهادية التي اختلفنا فيها وهي من حواشي الإسلام ونتمسك بالجزء الواحد، والجزء الموحِد. هذا هو سبيل التقارب ليس سبيل التقارب

أن أعطيك مخدراً من هذه الكلمات، حتى إذا تطوحت من كلمات التقارب والتلاقي والتصافي أخذت في السر أحطم عقيدتك، وأخذت في السر أقتنص إيمان المؤمنين من الشباب المسلم، وأخذت في السر أحقن أفئدة المسلمين بالبغضاء لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

نحن ينبغي لكي نتجاوز ونقفز فوق هذه الفتن أن نجتمع على الجزع، ثم أن نصدق بألستنا وبقلوبنا في احترام المجتهدين، وفي ترك كل اجتهاد لصاحبه، وعند الله تجتمع الخصوم ويتبين في الغد القريب الحق من الباطل، لا أسيء إلى اجتهادك ولا أنتقص من مكانتك كمسلم، ولا تسيء إلى اجتهادي، أكون أمين معك في ظاهري وفي سري، وتكون أمين معي في ظاهرك وسرك. الذي يدعو إلى التقريب هكذا يسلك.





٤٤٠- لهذا غدت العروبة في مهب الريح | ١٩٩٧/٠٦/١٣

إن الله سبحانه وتعالى قد حمّل عباده مهمةً عظيمة شرّفه الله سبحانه وتعالى بها ورفعه بها إلى أعلى من رتبة الملائكة، وقد أشار إلى هذه المهمة بيان الله سبحانه وتعالى في أوائل كتابه المحكم المبين في قوله سبحانه وتعالى خطاباً للملائكة: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، فكلمة الخليفة هذه تعبيرٌ عن الرسالة التي شرّف الله سبحانه وتعالى الإنسان بها، وهي رسالةٌ شرحها الله عز وجل له من خلال الكتب التي أنزلها على رسله، ومن خلال الوحي الذي بينه الله سبحانه وتعالى شرحاً وإيضاحاً وتفصيلاً.

وما أعلم أنّ هنالك مهمة شرّف الله عز وجل بها أيَّ من خليقته أجَلّ وأعلى من شرف هذه المهمة التي تجعل من الإنسان خليفة عن الله سبحانه وتعالى فوق هذه الأرض، ومعنى كونه خليفة عن الله فوق هذه الأرض أي مُكلّفاً بأن ينفذ المبادئ التي تُبرز عدالة الله سبحانه وتعالى في الأرض، مُكلّفاً بأن يُنفذ المبادئ التي توضح حكمة الله سبحانه وتعالى ورحمته بين عباده، وكان من اليسير أن يُبرز الله عز وجل هذه الصفات لذاته العليّة من خلال غريزة يضطر عباده إليها، من خلال طبيعةٍ يحمل الله سبحانه وتعالى البشر على اتباعها، وإذا بهم مظهرٌ لعدالة الله عز وجل ولرحمته ولحكمته.

ولكنه سبحانه وتعالى شاء أن يسمو بالإنسان فوق مستوى الحيوانات الأخرى، وشاء أن يضع أمامه هذه المبادئ التي إن نُفذت تجلت من خلالها صفات الله عز وجل عدلاً وحكمةً ورحمةً وإحساناً، شاء الله عز وجل أن يضع هذه المبادئ بين يدي عباده ليُنفِّذوها باختيارٍ منهم، وليسعوا إلى تطبيقها بإرادة حرة منهم، فبوسعهم أن يُنفذوا وأن لا يُنفذوا، ولكن الله سبحانه وتعالى كلفهم بذلك وشرفهم بحمل هذه المهمة وهذه المسؤولية.

فعندما ينهض هؤلاء الناس بتنفيذ هذه المبادئ، وهي كثيرة ومتنوعة، فتتجلى من خلال هذه المبادئ صفة العدالة الإلهية صفة الحكمة الربانية، صفة الرحمة والاحسان في ذات الله عز وجل، فإن الإنسان

يكون بهذا قد قام بوظيفة الخلافة عن الله سبحانه وتعالى، إنها ليست خلافة الحاضر عن الغائب كما قد يتوهم الإنسان، ولكنها خلافة من شرّفهم الله عز وجل بتنفيذ مبادئه باختيار منهم وإرادة.

تُرى هل كان الإنسان على مستوى هذا الشرف؟ هل حمل الإنسان هذه الأمانة فنفذها كما كُلِّف بها؟

وجل الإله القائل: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولا﴾، حملها الإنسان لأن الله قضى عليه أن يحملها تشريفاً له وتكريماً. ولكن هل كان الإنسان على مستوى هذا الشرف؟ ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولا﴾.

ولا يعنيني أن أتحدث عن فئات الناس فيما مضى، من منهم كانوا على مستوى هذه الخلافة عن الله عز وجل فنَفّذوا المبادئ التي وظفهم الله وكلّفهم بتطبيقها، ومَن مِن الناس نكص على عقبه وأعرض عن هذا الشرف الذي شرّفه الله به؟ لا يعنيني أن أتحدث عن تلك الأمم الخوالي، فإن الأمر كما قال الله عز وجل ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ إنما الأهم من ذلك أن نسأل عن أنفسنا، هل عرفنا هذه الرسالة التي طوق الله أعناقنا بها والتي شرفنا بها وحمَّلنا مسؤولياتها؟

عندما أبحث عن جوابٍ عن هذا السؤال أشعر بالخجل الذي يُذيب الإنسان أمام مولاه وخالقه عز وجل، وعندما أنظر إلى فئات الناس والكثرة الكاثرة منهم وهم يتسائلون عن هوياتهم وعن وظائفهم التي ينبغي أن ينهضوا بها، فلا يهتدي منهم واحد إلى هذا الشرف الذي طوّق الله عز وجل به أعناق عباده، ولا يستبين واحد منهم هذه الرسالة التي سما الله عز وجل بعباده صُعُداً بسببها إلى أعلى من درجة الملائكة، لا أجد في هؤلاء الكثرة الكاثرة مَن يُنبه أو يتنبه إلى هذه الخلافة التي هي أعظم رسالة وظفنا الله سبحانه وتعالى بها عن الله عز وجل، بل يتطوح الكل في كلامٍ يشمئز منه المنطق ويشمئز منه العقل كلام غريب عن هوية الإنسان المسلم.

هذا الشرف الذي سما الله عز وجل بنا إلى مكانته الباسقة، كلكم يقرأه في كتاب الله عز وجل، كلكم يعلم ما مهمة الإنسان فوق هذه الأرض، وما وظيفته التي كُلف بها اليوم والتي سيُسأل عنها غداً،

وقد تجمعت الآيات الكثيرة التي تعبر عن هذه الرسالة التي شرّف الله بها الإنسان في هذه الكلمة: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ هي الخلافة عن الله، كلمة واحدة، هي الجواب عن من يريد أن يسأل: ما هي الهوية العربية التي ينبغي أن نبحث عنها ونتمسك بها؟

مهمة العرب كمهمة سائر البشر، أن يعلموا أنهم عبيدٌ لله عز وجل: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آَتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾، ثانياً: على هؤلاء العبيد أن يتبينوا المبادئ التي أوحى الله عز وجل بها إليهم عن طريق رسله وأنبيائه؛ فينفذوها فوق الأرض، ويطبقوها على أنفسهم وذويهم ومجتمعاتهم، وإذا بهم غرسوا واستنبتوا عدالة الله فوق هذه الأرض ورحمته وحكمته وإحسانه.

تلك هي مهمة الإنسان التي شرّف الله سبحانه وتعالى هذه الخليقة المتميزة بها.

فمن عجبٍ أننا نقرأ كتاب الله عز وجل صباح مساء، أو نُقرِؤه إذاعاتنا، أو نسمعه في مناسباتنا، ثم إننا نتطوح ذاهلين جاهلين مضطربين حول الإجابة عن سؤال يقول: من هو الإنسان العربي؟ وما هي هويته؟

هذا الكلام كان ينبغي أقل المراتب أن يقودنا إلى المعرفة حتى ولو قصرنا في التطبيق، كان ينبغي أن يعلم الكل أن هويتنا أننا عبيد لله عز وجل، وأن رسالتنا تتمثل في أن نضع عبوديتنا لله موضع التنفيذ، فننُفذ الأوامر التي خاطبنا الله سبحانه وتعالى بها، إن نفذنا ذلك أو لم ننفذ على أقل المراتب ينبغي أن نعلم أن هذه هي هويتنا، أما أن ندور في دائرة مفرغة ونقول: إن هوية الإنسان العربي هي أنه ينطق بالعربية، ويعيش فوق أرضٍ عربية، ويتفاعل مع الأهداف العربية، فهذا كلامٌ لو حفظته كما يحفظه التلامذة الصغار في مدارسهم، وأخذت تكرره في كل يومٍ ألف مرة إلى أن يُصبح عمرك مئة عام لن يُقدم هذا الكلام ولن يؤخر من حياتك شيئاً.

ها نحن ننطق باللغة العربية، ونعيش فوق أرض عربية، وكلٌ منا يتفاعل لكن يتفاعل بالأماني والأهداف التي يؤمن بها والتي يتصورها، فهذا هدفه أن يكون لصاً يسرق الأموال، وذلك هدفه أن يكون لصاً يسرق الشرف ويخترق حواجز العفاف، وذلك أمنيته أن يجمع المال من حيثما أمكن بالرشاوي وغير الرشاوي ليبني لنفسه مجداً باذخاً وغنىً لا تألكه النيران. كل هذه أمان عندما لا يكون هنالك سلطانٌ ممن

هم فوق البشر يقود البشر إلى رسالة. من الذي يحملني الرسالة؟ من يستطيع أن يكلفني بمهمة أو يُكلفك بمهمة؟ مادام البشر كلهم يتحركون على مستوىً من الإنسانية الواحدة.

متى كان العربي له شأنه في العالم أيها الإخوة؟ وُلد شأنه في العالم عندما وعى رسالته التي قال الله عز وجل عنها للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾. عندئذٍ تحول الإنسان العربي من رجلٍ تافه يعيش على هامش التاريخ ويعيش على هامش الحياة لا قيمة له في المجتمعات ولا اسم له بين الحضارات، تألق اسمه صُعداً. ولكن كيف تألق؟

عندما خضع وذل لمعنى العبودية لله وحده، ثم أصغى السمع إلى بيان الله عز وجل والرسالة التي حمّله الله إياها، فقال هذا الرجل العربي بلسان الحال وبلسان المقال لبيك اللهم لبيك، وانقذف إلى شرق العالم وغربه يدعو إلى الله سبحانه وتعالى، ويعرف الناس برسالة الله، ويقيم من نفسه خليفة عن الله سبحانه وتعالى لينفذ مبادئ العدالة الإلهية فوق الأرض، عندئذٍ وُلدت للعرب قيمة، عندئذ وُجد من يسمونهم اليوم بالإنسان العربي، ونحن اليوم إنما نتباهى بصدى ذلك المجد، ومن أين انبثق ذلك المجد؟

لم ينبثق ذلك المجد إلا من جراء شيء واحد ألا وهو أن أولئك العرب أصغوا السمع إلى رسالتهم التي ينبغي أن ينهضوا بها؛ رسالة الخلافة عن الله فوق هذه الأرض في تنفيذ أوامره وتطبيق تعليماته، فجعل الله سبحانه وتعالى منهم خير أمة أخرجت للناس.

هذه حقيقةٌ يعرفها كل أحد، فمالنا نتطوح؟! قصرنا في التطبيق فهل نقصر حتى في العقيدة والعلم! فلا نعلم ما هي هويتنا ونقف عند الفرع وننسى الأصل الذي إليه الفضل؟

الرجل العربي.. والأرض العربية.. والتفاعل مع الأهداف العربية، لا قيمة لهذا الكلام كله إن لم تربطه بالأصل، العروبة من الذي استولدها؟ الإسلام. ولم يكن قبل الإسلام للعروبة ظل إطلاقاً، بل إن تذكر المتذكرون العرب والعروبة فإنما يتذكرون من ذلك ما تشمئز منه التصورات من عادات وأوضاع وجهالة وتخلف ونحو ذلك.

تمنيت لو أن هؤلاء الذين يتطوحون في التساؤل عن الهوية العربية، تمنيت لو أنهم تذكروا الكلمة التي قالها رئيس هذه الأمة رئيس هذه الدولة وكنت شاهد عيان، تمنيت لو أنهم جعلوا منها نقطة نقاش: إن

العروبة ليست هي التي أوجدت الإسلام، ولكن الإسلام هو الذي أوجد العروبة، هذه كلمة مختصرة جامعة، أي لم يكن للعرب شأنٌ يُذكر لولا تمسكهم بالإسلام، وهيهات هيهات أن نقول أن الحضارة الإسلامية من معطيات العروبة إطلاقاً، فليس الفضل للعروبة في إيجاده الحضارة الإسلامية، ولكن الفضل كل الفضل للإسلام في أنه أوجد الحضارة العربية، فإذا كان هذا الكلام واضحاً،

إذاً.. رسالتنا تنبع من إسلامنا الذي هو الأصل والموجد؟ أم إن رسالتنا تنبعُ من العروبة التي هي ثمرةٌ وفسيلة جاءت ثمرة للإسلام؟ الجواب واضحٌ أيها الإخوة.

أقول هذا الكلام لكي أُحذركم من أن تضيعوا في المتاهات، مهمتنا واضحة ورسالتنا جلية مقروءة ألا وهي: أن نضع عبوديتنا لله موضع التنفيذ. فنقول: اللهم إنا عبيد لك بالقصر والاضطرار، وها نحن نسير سيرة العبيد لك بالإرادة والاختيار. كيف نمارس عبوديتنا لله بالإرادة والاختيار؟

بأن نصغي إلى أوامره فننفذها، بأن نصغي إلى نواهيه فنبتعد عنها، بأن نكون حراساً على مبادئه ونجاهد في سبيل حراسة هذه المبادئ ورعايتها بأنفسنا أولاً وفي أسرنا وأهلينا ثانياً وفي المجتمع ثالثاً، عندئذٍ ستجدون كيف يجمع الله شملكم، وكيف يُوحد كلمتكم، وكيف يفجر مرة أخرى قوتكم من داخل الأرض التي تعيشون فيها، وكيف يُذل الآخرين مرة أخرى كما أذلّهم من قبل.. كل ذلك بيد الله سبحانه وتعالى، لا تعرضوا عن الرسالة التي شرفكم الله بها وانهضوا بها نهوض إنسانٍ كرمه الله سبحانه وتعالى وسما به فوق رتبة الملائكة.

ولقد قلت لكم قبل أيام: إن الصيف من كل عام ساحة للمزيد من كيد المتربصين بدين الله لمبادئ دين الله سبحانه وتعالى، وما من صيف عامٍ من الأعوام إلا ويستغل الكائدون لدين الله عز وجل ليجعلوا منه سبيلاً إلى تمزيق الأخلاق، تمزيق الفضيلة ومن ثم تمزيق الأسرة.

وقد علموا أن المبادئ الإسلامية التي شرفنا الله عز وجل بها تُحقق الأهداف التالية: توجد الإنسان المتخلق بأسمى الخلق الإنساني السامي ومن ثم تُوجد هذه المبادئ الأسرة الإنسانية المتماسكة الراسخة ولا تتماسك الأسرة إلا بطوق الفضيلة والأخلاق، ومن ثم فإن المبادئ الإسلامية توجد شبكة المجتمع الإنساني المتماسك، هكذا الفرد أولاً الأسرة ثانياً المجتمع ثالثاً.. ومن ثم فإن أعدائكم وإن أعداء هذا الدين يسيرون

قدماً لتقويض هذا كله، يسيرون في سبيل إفساد الفرد وزجه في طرق الرذيلة بأنواعها، ومن ثم يتجهون إلى الأسرة لتقويضها وتحويلها إلى أنقاض، والذي يُصغي جيداً سيتبين الخطط التي تهدف إلى نسف الأسرة، ولا يمكن للأسرة أن تتماسك إلا بواسطة واحدة، ألا وهي واسطة الخلق الإسلامي الراسخ والفضيلة والعفة، فإذا انهارت أخلاقية الفرد، ومن ثم انهارت الأسرة وتحولت إلى أنقاض ما الذي سيحدث بعد ذلك؟ ينهار المجتمع كله، وإذا انهار المجتمع كله وضاعت البقية الباقية مما يتمتع به من قوةٍ ومهمة وغنىً وما إلى ذلك، فإن الوُرّاث الذين يتربصون بهذا المجتمع سوءً يتكالبون لتقسيم ميراث هذه الأمة، أرضاً وحقوقاً وغنىً وثروات، كل ذلك سيتم عندئذٍ، ومن ثم فإن على كل منكم أن يكون عيناً ساهرة على أسرته وأولاده وبناته، وإذا كانت لكم الأعين الساهرة على هذا فينبغي أن تتضاعف هذه الأعين في كل صيفٍ من كل عام.

تبينوا هذه الحقيقة أيها الإخوة أولئك الكائدون يجعلون من هذا الصيف سلاحاً وأداةً لكي ينشطوا النشاط المضاعف في سبيل نسف الأسرة وفي سبيل القضاء عليها، وفي سبيل تحويل الشاب الملتزم والثائر طبق فطرته الإيمانية إلى صراط الله عز وجل، لِيُبعدوه عن هذا الصراط وليزجوه من حياته في متاهاتٍ لا عودة منها إلى الحق إطلاقاً.

فمن اتبع هذا النهج وفقه الله سبحانه وتعالى، والاستعانة بالله والقوة كلها من الله سبحانه وتعالى، وصدق رسول الله إذ يقول: ﴿المؤمن القوي خيرٌ من المؤمن الضعيف وفي كلٍ خير استعن بالله ولا تعجز﴾.

كونوا قوّامين على أسركم، كونوا قوامين على أخلاق أولادكم، كونوا قوامين على أخلاق بناتكم.

قرأت بياناً صدر من جهة ما يقول: إن الشباب الذين يعيشون ما بين الخامسة عشر والخامسة والعشرين من العمر في سوريا يبلغون مليونين ونصف تقريباً، وهؤلاء ينبغي أن يكون الهدف ينبغي أن يكون هؤلاء الشباب الهدف الذي ينبغي أن نستغلهم لتطبيق الذي ما نريد أن ننفذه في حقهم.

٤٤١- عبادة في الهرج كهجرة إليَّ | ١٩٩٩/١١/١٩

لقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في أحاديث كثيرة أن من أشراط الساعة أن يكثر الهرج، والهرج هو الفتن التي تبعث على الظلم وعلى القتل بدون حق، وقد قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض هذه الأحاديث: ما الهرج يا رسول الله؟ قال: ﴿أن يستحر القتل﴾ أي أن يكثر القتل. وهذه العلامة التي أنبأ عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرٌ واقعٌ كما نرى، وهو علامة من العلامات التي حدث عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ووقعت كما أنبأ عليه الصلاة والسلام. والفتن التي تدور رحاها على العالم والمصائب والرزايا التي تتسبب عن ظلم الإنسان لأخيه الإنسان، والقتل الذي يتزايد في أطراف العالم كله هو مصداق قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿إن من أشراط الساعة أن يكثر الهرج﴾.

ولكن ما من مصيبةٍ أنبأ عنها الله عز وجل في كتابه أو تحدث عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما صح من سننه، إلا وقد جعل الله سبحانه وتعالى إلى جانب ذلك علاجاً لهذه المصيبة ووسيلةً للتخلص منها والابتعاد عنها، فالمصائب كالأمراض أو الأدواء التي يبتلي الله سبحانه وتعالى بها عباده، وقد أنبأنا المصطفى صلى الله عليه وسلم ﴿أن الله ما أنزل داءً إلا وأنزل له دواءً، إلا السام﴾ – يعني إلا الموت، فبمقدار ما يوجد في الكون من أدواء وأمراض، أوجد الله في مقابلها العلاجات التي تشفي من تلك الأمراض، كذلكم المصائب مهما كثرت المصائب وتعرض لها الإنسان، فإن الله عز وجل جعل أمام الإنسان وسيلة يستطيع أن يتخلص بها من وقع تلك المصائب وشدتها.

ومن أهم العلاجات التي أنبأ بها رسول الله صلى الله عليه وسلم للتوقي من الهرج الذي تحدث عنه والابتعاد عنه، الإقبال إلى العبادة، كثرة التبتل والعبودية لله سبحانه وتعالى.

ولقد صح عن النبي عليه الصلاة والسلام فيما رواه مسلم في صحيحه وأحمد وغيرهما أنه صلى الله عليه وسلم قال: ﴿عبادة في الهرج كهجرة إلي أو العبادة في الهرج كهجرة إلي﴾، أي إذا كثر القتل وكثرت الفتن التي هي من أشراط الساعة، ولاذ الإنسان منها بكثرة العبادة والتبتل والإقبال على الله سبحانه

وتعالى، فإن الله يجعل له من ذلك منجاة من وقع تلك المصائب، بل إن هذه العبادة في مثل هذه الحال يتضاعف أجرها ويزداد ثوابها، حتى إن ثواب هذه العبادة يصبح كهجرة إلى المصطفى صلى الله عليه وسلم، عندما كانت الهجرة واجبة وقبل أن يقول: ﴿لا هجرة بعد الفتح ولكن عبادةً ونية أو جهادٌ ونية﴾.

أيها الإخوة بمقدار ما تتكاثر هذه الفتن من حولنا اليوم ونسأل الله سبحانه وتعالى أن يعافينا منها بمقدار ما يكثر الإعراض عن هذا الدواء الذي تحدث عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، بمقدار ما يكثر الإعراض عن التبتل والعبادة لله سبحانه وتعالى، وليس المراد بالعبادة طقوساً تعوّد الإنسان عليها في حياته، وإنما المراد بالعبادة صدق العبودية لله عز وجل والتبتل والتضرع لله عز وجل، وإنما مرد ذلك إلى أن تصطبغ المشاعر لا أن يصطبغ اللسان أو أن تصطبغ الأعضاء بمظاهر هذه العبادة أو العبودية.

الإسلام غدا مجموعة مظاهر مجموعة نظم مجموعة حركات وأنشطة، أما الجذور التي تتصل بالفؤاد فالقلب فارغٌ عن معنى العبودية والتبتل والتذلل لله سبحانه وتعالى، وإذا كان الإقبال على صدق العبودية الواجفة لله عز وجل من الضروريات التي لابد منها في الأزمنة الخالية، فإن ضرورة الإقبال إلى هذه العبادة تتضاعف اليوم ذلك لأننا نعيش الفترة التي أنبأ عنها رسول الله.

نحن نعيش الأيام القريبة بل المجاورة لقيام الساعة، وهذه هي أنباء الهرج والمرج تسمعونها وكثيراً ما ترونها بوسائلكم المختلفة المتنوعة، تمر المناسبات تلو المناسبات وجل المسلمين غافلون عن هذه المناسبات، والزمن كله في هذه الأعصر الأخيرة مناسبة هذه الفترة التي نجد بها مصداق كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم مناسبة تدعو إلى صدق التبتل وإلى صدق الإنابة والتوبة إلى الله عز وجل وصدق الإلتجاء والتضرع لله سبحانه وتعالى، ومع ذلك فما أكثر المسلمين التائهين والغافلين عن هذه المناسبات التي تمر.

ودعوني أقول لكم عن مناسبة صغيرة تمر ضمن هذه المناسبة الكبيرة: هذا الشهر الذي نمر به أو يمر بنا شهر شعبان من هو الأولى بمثل هذه فرصة هذا الشهر والإقبال فيه على الله، نحن أم رسول الله صلى الله عليه وسلم. رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي قال له الله عز وجل: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾، وهو الذي قال له الله عز وجل: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ ولا ذنب له – أما نحن فمرهقون بالمعاصي والأوزار، ثم إننا نعيش عصر هذا الاختناق الذي ترون، كل ما حولنا ينبهنا

ويدعونا إلى كثرة الإلتجاء إلى الله وإلى الإسراع للتوبة إلى الله عز وجل، وننظر فنجد أن السادرين على غيهم لايزالون سادرين، وأن المنكبين على لهوهم ومعاصيهم لا يزالون مستغرقين في ذلك، ومهما ارتفعت أصوات النذر، ومهما تجلت آيات الله عز وجل فننظر فإذا بهؤلاء التائهين لا يزدادون إلا تيهاً.

شهر شعبان، سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سبب كثرة الصيام فيه، قال: ﴿ذلك شهرٌ يغفل عنه كثيرٌ من الناس بين رجب ورمضان وهو شهر ترتفع فيه الأعمال إلى الله ون إلا تيهاً ع إلى ناسبة صغيرة تمر ضمن هذه المناسبة الكبيرة هذا الفأحب أن يرتفع عملي إلى الله وأنا صائم﴾.

وقد ورد بسند ضعيف فيما رواه ابن ماجه عن علي رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال: ﴿إذا كانت ليلة النصف من شعبان فقوموا ليلها وصوموا نهارها، فإن الله ينزل في كل ليلة من هذا الشهر إلى السماء الدنيا فيقول: ألا هل من مستغفر فأغفر له ألا هل من داع فأستجيب له﴾.

وقد روى البيهقي بسند صحيح من حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة فصلى، فأطال السجود، فظننت أنه قد قبض فقمت فحركت اصبعه فتحرك، فرجعت – أي اطمأننت ورجعت، فسمعته يقول في سجوده: ﴿اللهم إني أعوذ بعفوك من عقوبتك وأعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بك منك لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك﴾، فلما قام من سجوده وأتم صلاته. قال: ﴿يا عائشة أظننت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد خاس بكي ؟ قالت: لا والله يا رسول الله ولكني خشيت أو ظننت أنك قد قبضت فقال أتعلمين أي ليلة هذه؟ قالت الله ورسوله أعلم، قال لها: هذه ليلة النصف من شعبان يطلع الله سبحانه وتعالى فيها على عباده فيقول ألا من داعٍ فأستجيب له ألا هل من مستغفر فأغفر له ويؤخر أهل القطيعة والأحقاد فيما هم فيه﴾.

هذه الفرصة تمر بنا ولسوف تأتي بعدها فرصة أخرى، وفرص الرحمة الإلهية سلسلة لا تنقطع. لكن أين هم الذين ينتهزون فرص هذه الأبواب المفتحة التي ينادي الله عز وجل فيها عباده أن يتوبوا إليه حتى يتوب عليهم؟ وأن يستغفروه حتى يغفر لهم؟ لا نجد!

نجد التيه لا يزال مطبقاً، ونجد القلوب القاسية لا تزال تستمر وتزداد قسوة، ولا يقولن قائل وهاهي ذي المساجد تفيض بالمصلين فيها. وهل المصلون إلا هؤلاء التائبون العابدون الحامدون؟ هؤلاء قلة أيها

الإخوة، تجاوزوا صور هذه المساجد ومن فيها وانظروا إلى الكثرة الكاثرة هناك في الفنادق في كل ليلة، في أماكن اللهو من كل ليلة، بل إلى البيوتات في كل ليلة، انظروا إلى الأسواق وما فيها من مظاهر اللهو وما فيها من انغماس في الدنيا ونسيان الله عز وجل ونسيان اليوم الآخر، تلك هي الكثرة الكاثرة، وهذه هي المصيبة الكبرى.

نحن نقول ونكرر القول ... وأحسب أن ما أقوله يصك أسماع هؤلاء الإخوة الشاردين وما أكثرهم، وكلامي وكلام غيري يلاحقهم، ولكن هل سمعتم أن واحداً منهم أقلع عن غيه؟ استيقظ من غفلاته؟ تاب إلى الله سبحانه وتعالى من شروده ومعاصيه وأهوائه؟ أنا أسأل عن أولئك الناس.

الصورة التي نراها لا تدل على شيء من ذلك، هي صورة قاتمة لا تبعث على اليأس، لكنها تبعث على الخوف الشديد من مقت الله سبحانه وتعالى وسخطه.

والمصائب التي يرسلها الله على عباده قسمان:

قسم منها يأتي مظهر انتقام لأولئك الذين انبتت صلتهم عن الله عز وجل، ولا تأتي إلا بعد أن فتح الله عز وجل عليهم الأبواب على مصارعها ردحاً طويلاً من الزمن.

القسم الثاني مصائب هي أشبه بسياط التأديب يبعثها الله عز وجل بين الحين والآخر على عباده المؤمنين به والتائهين عنه المنتمين إليه والشاردين عن صراطه، كما هي الحال بالنسبة لنا، يبعث الله عز وجل عليهم المصائب لتوقظهم فأين هم الذين يستيقظون؟

المصائب التي نراها اليوم مصائب نراها مخيفة فوق رؤوسنا ونراها من حولنا ونرى أخطارها تحت أقدامنا، نراها فوقنا في مظهر هذا الصيف اللاهب الذي استمر واخترق أشهر الشتاء كما ترون، نرى هذه االمصائب من حولنا فيما تعلمون وتسمعون ويوشك أن تتسرب هذه المصائب إلينا، نرى خطر هذه المصائب في الأرض التي نمشي فوقها، من الذي يطمأن إلى أن البقعة التي تمشي فوقها لن تتزلزل بك ولن تبتلعك وتجعلك أثراً بعد عين؟ أليس الله هو القائل ﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾.

هذا هو الإنسان محور تدور عليه المصائب من كل جانب، ومع ذلك ننظر فنجد أن القلة المقبلة إلى الله عز وجل مقبلة جهد استطاعتها وليت أنها كانت أحسن حالاً مما هي عليه الآن.

أما الكثرة الكاثرة فأناس أضافوا إلى المعاصي الاستكبار على الله، أضافوا إلى المعاصي العناد، وقد يخيل إلي أنه قد صدق عليهم قول الله عز وجل: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُون َ* لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ هؤلاء أيها الإخوة ينبغي أن يتوبوا ينبغي أن يرعووا، فإن لم يتوبوا إلى الله وإن لم يلجأوا إلى صدق العبودية لله في أزمنة الهرج هذه، فإن القلة التي تلجأ إلى الله لا جدوى من لجوئها إليه.

ألم يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم سألته زينب: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: {نعم إذا كثر الخبث}. لابد لهذا الخبث أن يعود فيطهر نفسه، لابد أن يعود إلى الله عز وجل، وكم أقول ولكن كلامي لا يرسخ في الأذهان: إن التجاء القلة اليسيرة إلى الله مع بقاء الكثرة الكاثرة في طريق انحرافها عن الله لا يجدي. وقد ضربت بالأمس مثلاً وأعيده: لو أن رجلاً أساء الأدب في حق ملك من الملوك، وتصرف تصرفات غير لائقة وجاوه بعض من بينهم وبين الملك صحبة وخلة وحب فقالوا لهذا الإنسان تعال بنا نمضي إلى الملك الذي أسأت إليه لنتوسط لك في أن يسامحك ويصفح عنك، فقال هذا الإنسان الذي أساء: اذهبوا وتوسطوا لي، أما أنا فلن أذهب معك ولن أجرح كرامتي بالوقوف بين يديه. قالوا له: تعال قل كلمة واحدة اعتذر وأره حسن نيتك ونحن سنتكفل بأن يصفح عنك، قال: لا ليست لي حاجة إلى ذلك، لكن أنتم اذهبوا فاستصفحوا وتوسطوا لي بأن يصفح عني. هل يمكن لهذه الوساطة أن تنجح؟ هل يمكن لهذه الوساطة أن تثمر؟

هذه هي حالنا أيها الإخوة ولا داعي إلى أن أطيل. أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

٤٤٢- الهرج والمرج سببه وعلاجه | ٢٠١٠/١٠/٢٢

إن الشأن بنا أننا جميعاً نتجه بين الحين والآخر لنستطلع آخر أنباء العالم الإسلامي بل آخر أنباء العالم كله فما الذي نسمعه ونحن نتنقل بين المصادر السمعية والبصرية لأخبار العالم هذه.

إننا — كما تعلمون — لا نطلع إلا على أنباء القتل والانفجارات وأخبار السلب النهب والعدوان على الحقوق واغتصاب الأوطان والممتلكات والخطط الكائدة الرامية إلى الإيقاع بين الأشقاء. أعتقد أننا لا نكاد نطلع على شيء غيرِ هذا من أنباء العالم عندما نحاول أن نتبين ذلك.

والعجيب حقاً — يا عباد الله — أن أبطال هذه الفتن وهذه الخطط المختلفة، هؤلاء الذين ينفخون في نيران الفتن والقتال والانفجارات ونحوها كلهم يدعي أنه يمارس من خلال عمله العدلَ والانضباط بالحق، كلهم ينعتون أنفسهم باتباع العدل وليس فيهم من يزعم أو يعترف بأنه إنما يبغي ويتجاوز العدل إلى الظلم، هذه ظاهرة كلنا نتبينها ونعلمها.

إنكم لتعلمون أن نسبة عشرة بالمئة من سكان العالم يسعون جاهدين إلى أن يتحكموا ببقية سكانه، يسعون جاهدين إلى أن يجعلوا من بقية الناس جنوداً لتحقيق مآربهم ولتنفيذ خططهم، يحاولون جاهدين أن يجعلوا من بلاد العالم أسواقاً استهلاكية لمنتجاتهم، وصدق الله عز وجل القائل في محكم تبيانه ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم: ٤١].

فما السبب — يا عباد الله — لهذا الهرج والمرج الذي يسود العالم والذي لا تكاد تعود به أخبار الأجهزة المرئية والمسموعة بغيره.

السر في ذلك أن الإنسان في كينونته الأصلية عندما يكون متحرراً من المبادئ والقيم، هذا الإنسان أضرى وحشٍ في العالم كله، لا من حيث قوته التي يسخرها لمآربه بل من حيث قواه الفكرية التي يسخرها لابتداع الوسائل ولاختراع السبل لأفكاره التي يحاول أن يهيمن بها على الآخرين، وأنتم تعلمون أن وحوش الغابات تتمتع بقوتها الذاتية ولكنها لا تتمتع بما يتمتع به الإنسان من مدراك يسخرها لاختراع مزيدٍ من القوى ومزيدٍ من وسائل الهيمنة على الآخرين.

ولذا فإن الإنسان أياً كان لا يصلحه إلا لجام محكم من الدين الحق يلجمه عندئذٍ تستيقظ الإنسانية بين جوانحه وعندئذٍ يتحول هذا المخلوق من وحشٍ شرس إنسان يتمتع بكل ما نعرفه من معاني الإنسانية.

الدين الحق هو اللجام الوحيد الذي يصلح حال الإنسان ويخضعه للعدالة الحقيقية. ذلك لأن الدين الحق إنما يعني أولاً أن يتعرف الإنسان على هويته، يقف أمام مرآة ذاته فيبصِّرُهُ الدين بهويته عبداً مملوكاً ضعيفاً لله عز وجل، يبصِّرُهُ الدين بعد ذلك بألوهية الله عز وجل له ورقابته الدائمة له، يبصِّرُهُ الدين بأن مآله على الله وبأن وقوفه لا يمكن إلا أن يكون بين يدي الله ومن ثم يتطامن لقرار الله عز وجل ويرمق بطرفه إلى السماء ليتلقى موازين العدل من الله، ولا يخترع هذه الموازين انطلاقاً من مصالحه الذاتية المختلفة، وصدق الله القائل﴿ وَالسَّمَاء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ. أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ. وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧-٩].

الميزان الذي يعنيه بيان الله سبحانه وتعالى إنما هو العدل. والفرق بين العدالة التي تهبط من علياء الربوبية أمانةً مستودَعَةً بين يدي الإنسان والعدالة الزائفة التي يدعيها الإنسان ويخترعها انطلاقاً من رعوناته ورغائبه وقوته التي يتمتع بها أن العدالة التي تنزل من علياء الربوبية لا تفرق بين الناس لأي موجبٍ من الموجبات، عدالة الله عز وجل لا تفرق بين الأديان والمذاهب، عدالة الله عز وجل لا يمكن أن تفرق بين قوي وضعيف، لا تفرق بين عربي وأعجمي، عدالة الله سبحانه وتعالى ميزان يتسامى على هذه الاعتبارات كلها.

أما الإنسان عندما يريد أن يستخرج موازين العدالة من كيانه فإن منطلق هذا الميزان إنما هو قوته أو ضعفه، منطلق هذا الميزان مصالحه، منطلق هذا الميزان رعوناته، وما أعظم وأوضح الفرق بين هذا وذاك

اسمعوا قرار الله عز وجل بل أمره القائل: ﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٨] ﴿لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ لا يحملنكم ﴿شَنَآنُ قَوْمٍ﴾ بغضكم لأعدائكم ﴿عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ﴾ وأنصفوهم ﴿هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾

وانظروا – أيها الإخوة – يا عباد الله إلى هذه الحادثة التي تجسد العدالة الربانية التي كم وكم نحن بحاجة إليها لاسيما في هذا العصر.

أسرة مكونة من عدد من الأشخاص في عصر رسول الله (، مؤمنون لكن إيمانهم ضعيف. سرقوا أمتعة باهظة الثمن من عند إنسان من أصحاب رسول الله رضوان الله عليهم، وطاب لهم أن يلصقوا هذه الجريمة بجارٍ يهودي يعيش بلصق هذا الإنسان الذي سرق متاعه. حبكوا التهمة وأحكموها أيما إحكام بوسائل يضيق الزمن الآن عن ذكرها وبيانها. ثم إن المسروق بحث واتهم فيمن اتهم جاره اليهودي واتهم أيضاً السارق الحقيقي. واستدعى رسول الله السارق الحقيقي فاستنكر وأظهر غضبه قائلاً يا رسول الله أنتهم ونحن أهل بيت مسلم ألا فلينظر هذا المسروق جاره الذي بلصقه وليتبين دلائل الجريمة التي ارتكبها هو. وحامت التهمة حول اليهودي الجار وضاقت سبل التهمة عليه وكاد رسول الله أن يحكم عليه وأن يقاضيه بجريمة السرقة وإذا بعشر آيات من كتاب الله عز وجل تنزل دفاعاً عن اليهودي البريء وتجريماً للسارق المسلم الحقيقي، واسمعوا بيان الله ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيماً. وَاسْتَغْفِرِ اللّهَ إِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً. وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً. يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً. هَاأَنتُمْ هَؤُلاء جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً﴾ [النساء: ١٠٥-١٠٩] إلى أن نزل في آخر الآيات العشر ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً﴾ [النساء: ١١٢]

تلك هي عدالة الله، وذلك هو الفارق الكبير بين العدالة الربانية التي شرَّفَنَا الله عز وجل بها منزلة من سماء كرمه وإحسانه وبين العدالة الزائفة التي تنبع من هنا وهنا وهناك منطلقة من الرعونات البشرية، منطلقة من مشاعر القوة التي يتمتع بها عشر بالمئة من سكان هذا العا لم، منطلقة من الرغائب والمصالح الشخصية الزائفة والعابرة.

ما العبرة التي ينبغي أن نقطفها يا عباد الله من هذا الكلام الذي أقوله لكم؟

العبرة التي ما أظن أنها تخفى على أيٍّ منا هي أن من أراد أن يحقق المجتمع الذي يعيش فيه بالعدالة الحقيقية فليعلم أن هذه العدالة لا يمكن أن تنبع إلا في تربة الدين ولا يمكن أن تُسْتَنْبَتْ إلا في تربة الإيمان بالله، إلا في تربة مراقبة الله سبحانه وتعالى، فمن تصور أن بوسعه أن يقتطع العدالة عن مصدرها الحقيقي ألا وهو الدين الحق وتصور أنه يستطيع أن يحقق العدالة الحقيقية بين الناس دون أن تكون هذه العدالة

موصولة بجذورها، دون أن تكون موصولة بالإيمان بالله، بالخوف من الله سبحانه وتعالى فقد أبعد النجعة ولن يقع إلا على هذه الصورة التي ذكرتها لكم من صور العدالة الزائفة ذات الألق الشكلي والمضمون الذي ذكرته لكم، قتل وقتال، تفجير وانفجارات، تكفير لأسباب وأنواع شتى، تربص بحقوق الناس، خطط ترمي إلى الإيقاع بين الأشقاء، تلك هي صورة العدالة عندما تَنْبَتُّ العدالة من رقابة الله عز وجل وعندما تكون هذه العدالة نابعة من الأرض ولا تكون نازلة من سماء الله عز وجل.

ومرة أخرى أذكِّرُ نفسي وأذكِّرُكُم بقرار الله القائل﴿وَالسَّمَاء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ. أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ. وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧-٩].

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم فاستغفروه يغفر لي ولكم.





الحكمة من الفتن

٤٤٣- أناس جاءتهم من الله الابتلاءات تأديباً فلم يتنبهوا | ١٩٨٧/٠٩/٢٥

فاتحتان لسورتين في كتاب الله عزَّ وجل ما قرأتهما مرة إلا وتنبهت إلى أن فيها شحنة عظيمة من التهديد والتخويف والإنذار والوعيد، ما لو تنبه إليه الضالون لاهتدوا، وما لو مرت على أسماع الساهرون لاستيقظوا، وما لو التفت إليها المنحرفون لاستقاموا.

الفاتحة الأولى هي قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ألر، تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ، رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ، ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾، أما الفاتحة الثانية في السورة الأخرى، فهي قول الله عزَّ وجل: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ، مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ، لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾، ولكن العجب الذي لا ينتهي هو أننا نجد كثيرٌ من القلوب تمر عليها هذه الآيات المخيفة المنبهة المتوعدة فلا تتحرك لها، ولا يتحرك فيها ساكنٌ لشيءٍ من هذه المعاني العجيبة المخيفة التي تصورناها، العجب الذي لا ينتهي أن في الناس من يتمتعون بإحساس ومن يتمتعون بعقول مفكرة وبألباب مدبرة ويسمعون بمناسبات أو بأخرى يستمعون إلى هذه الآيات فلا يتغير من واقعهم السيئ شيء، ولا يتحركون من مسيرتهم إلى الانحدار ومزيد من الضلال والتيه شيء.

ولا عجب.. فقديماً أوضح الله سبحانه وتعالى أنَّ في قلوب الناس ما هو أقسى من الحجارة والصخور الصماء، ألم يقل الله سبحانه وتعالى في محكم تبيانه: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾، ولكن في قلوب الناس ما لا يتحرك لتنبيه منبه، ولا إيقاظ ذي عقل - مالا يتحرك لأي كلام ولو كان من رب العالمين سبحانه وتعالى.

كثيرون هم الذين تمر بهم قوارع الدهر وسياط التأديب الرباني من ابتلاءات فلا يتنبهون ولا يستيقظون، وكثيرون هم الذين يمدهم الله سبحانه وتعالى بوارفِ النعم وجزيلِ العطاء فلا يخجلون ولا

يستحيون، وكثيرون هم الذين تطوفُ من حولهم عبرُ الدهر ودلائل عظمة الله، وأن الله يأخذُ بالنواصي والأقدام، وأنه هو المتصرفُ في عبادهِ كيفَ يشاء، فلا تتحرك عقولهم لشيء من هذه الدلائل أو العبر قط، فبأي حديث بعد الله يؤمنون؟! بأي حديث بعد الله يؤمنون، بأي عبرة بأي تأديب بأي قارعة من القوارع؟! بأي نعمة تأتي من قِبَل الله عزَّ وجل يمكن لهم أن ينتشلوا أنفسهم من وادي ضلالتهم السحيق، كلُّ الطرق سدت وكل الأبواب غُلقت؛ ذلك لأن الأمر كما قال الله عزَّ وجل: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾.

استمعت عَرَضاً من قريب إلى حوار يجري بين شخصين، أحدهما ينتمي إلى هذه البلدة المجاورة لنا التي بلزقنا، والتي ابتلاها الله عزَّ وجل منذ أكثر من عشر أعوام بسياط الفتن بسياط التأديب والتأنيب، بطريقةٍ لو أن الذين تتهاوى عليهم هذه السياط كانوا من الحيوانات العَجْمَاوات لتَنَبَهوا ولَارْعَوَوا، كان أحدهم منتسباً إلى تلك البلدة وسمعته يقول لصاحبه معتزاً متباهياً متفاخراً يقول: (أتتصور مدى هذه الحرب التي أناخت بكَلْكَلِهَا على صدورنا، هذه الفتن وهذه المصائب التي ادلهمَّ ظلامها فيما بيننا مع هذا كلِّه فإن مسارحنا عامرة، وإنَّ لياليَ لهونا مستمرة، وإنَّ الفنَّ في حياتنا في تصاعد، وإنَّ الناس الذين يقبلون على هذا اللهو يتزايدون ولا ينقصون)، لقد كذّبت أذني بادئ ذي بَدء، ما هذا الكلام! أعاقلٌ هذا الذي يقول هذا الكلام! أيتمتع فعلاً بإحساسٍ ووجدان؟! يتباهى الرجل أنه على الرغم من سياط الفتن التي تتهاوى منذ سنوات على ظهور الناس هناك، على الرغم من التأديب الإلهي الذي تَتَمَطَّر مظاهره عليهم، على الرغم من هذا يتباهى الرجل أن الأسباب التي فجّرت هذه المصائب في تزايد، وأنهم لا يزالون يغزون هذه الأسباب ليستمطروا بها مزيداً من غضب الله سبحانه وتعالى، مع أن الله سبحانه وتعالى يقول وكلامه يتكرر ويتردد على مسامعنا ليل نهار: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾.

هذا ليس كلام بشر ليس كلام مؤرخ، ولو أنَّ الإنسان تنبه بشيءٍ من عقل إلى هذه الصياغةِ العجيبة، إلى هذا الأسلوبِ الفريد من نوعه إلى هذه المعاني العُلْوِيَةِ ذَاتِ الزَّخم الجَلاليّ؛ لعلم أنه كلام من

استقل بإيجادنا ومن استقل بإمدادنا، كلام من بيده إيجادنا وإعدامنا، بيده نفعنا وضرنا، هذا كلام الله سبحانه وتعالى.

نحن نصغي صباحَ مساء إلى قوله سبحانه وتعالى وهو يقول: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى، وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ أيُّ مجنونٍ هذا الذي أُوتي حظاً بسيطاً من العقل يستطيعُ أن يزعُم أنَّ هذا ليس كلام رب العالمين.

﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ المخلوق لا يقول هذا الكلام ولا يستطيع أن يقول هذا الكلام، إنه كلام من بيده الأمر كله وبيده الحكم كله منه المبدأ وإليه المنتهى، نسمع هذا الكلام ويسمع الناس هذا الكلام الأخّاذ الذي هو كلام ربِّ العالمين، ولو أنك سألت الواحد منهم أمؤمنٌ أنت بالله؟ قال لك: نعم طبعاً أنا مؤمنٌ بالله عزَّ وجل، وهذه أعجوبة أُخرى تؤمن بالله ولا تؤمن بحَاكِمِيّته عليك، تؤمن بالله ولا تؤمن بعبوديتك له، تؤمن بالله ولا تؤمن بأنَّ عليك ضريبةً من معاني هذه العبودية لمولاك وخالقك، كيف هذا؟ كيف يتم هذا التناقض؟ تؤمن بالله عزَّ وجل ثم تزيد طغيانك طغياناً! وتزيد الأسباب التي بها غضب الله عليك تزيدها عمقاً وتزيدها استثارةً لغضب الله سبحانه وتعالى! كيف يكون الإنسان عاقلاً وهو يفكر بهذه الطريقة المتناقضة من التفكير؟ كيف يتم ذلك؟

أنا عندما أعلم أني عبدُ مملوك لله عزَّ وجل أعلم أني مقيدٌ بسلطانه، وإذا علمت أني مقيد بسلطانه أعلم أنني مكلف بسلوك منهج معين، بالسير في طريق محدد إرضاءً لمن بيده أمري، إرضاءً لمن يأخذ بناصيتي، أنا أعلم هكذا، ومن ثَمَّ فلابدَّ أن أتبع صراطه وألتزم منهجه، قد أزيغ وقد أرتكبُ معصية؛ لكن لا بسائقِ تبرير لا مع فلسفةٍ وتباهٍ وغطرسة وإنما بسائق ضعف، وعندما تزل بيَ القدم بهذا الدافع فإن ضعفي سيعيدني إلى حمى ربي، ضعفي سيلجئني إلى التوبة والإنابة إلى الله وسرعان ما يتوب الله علي وسرعان ما يغفر ذنبي وإن كان من الكثرة كزبد البحر، ولكن لا يمكن لمن علم أنه عبد أن يرفع الرأس عالياً بمعصيته، لا يمكن أن يرفع الرأس عالياً بمحاربته لأمر الله سبحانه وتعالى يقول: (على الرغم من هذه

المصائب على الرغم من هذه الفتن التي نعاني منها؛ فإن ليالينا اللاهيَة على ما هي عليه، ولا يزال الزبائن والرواد يتكاثرون، ولا تزال مظاهر الفن في ازدهارٍ وتقدم على الرغم من كل ما نعاني منه) والله إني لأتصور أن هذا الكلام لينطوي على ما يستدعي غضباً متضاعفاً من الله سبحانه وتعالى على هؤلاء الناس، ولربما أصابنا من رشاشهم، ولربما أصابنا من طفح غضب الله المتنزل عليهم، أين الذين إذا أدبوا تأدبوا؟ أين الذين رُبُوا تَرَبوا؟ أين الذين إذا ذُكِّروا بالله تعالى تذكروا؟

وأنا أقول هذا الكلام أيها الأخوة بعيداً عن أولئك الذين ابتلاهم الله فلم يتأدبوا، إنما أقول هذا عبرةً لنا، أقول هذا لأعود إلى نفسي وليعود كلٌ منكم إلى نفسه فيسأل الله العفو والعافية، أقول هذا الكلام حتى يتمسك كل منا بمعاني عبوديته لله ويزداد انصياعاً جهدَ استطاعته لأمر الله سبحانه وتعالى، وحتى يدعوَ كلٌ منا من شغاف قلبه وبذل وضراعة يقول يا رب: (لا تجعلنا مع هؤلاء الذين تاهوا عن سبيلك وضلوا عن صراطك وطغوا وبغوا فأنزلت عليه سياط تأديبك وتربيتك، اللهم إنا نسألك العفو والعافية).

أقول من هذا الكلام لنجعل من هذا الواقع الذي نشاهده - ليس تاريخاً بعيداً ولا قصصاً قديمة إنما هو واقعاً نراه — أقول هذا الكلام لنجعل هذا الواقع درساً لنا؛ كي يزيدنا إيماناً بالله ويزيدنا مخافة من الله و يزيدنا حباً لله عزَّ وجل، كي نتمثل المعنى العظيم الذي يقوله ابن عطاء الله السكندري - رحمه الله -: **تحقق من معاني عبوديتك وتعلق بمعاني ربوبيتك** وما أجدرنا أن نتحقق بهذا الكلام الذي يقوله ابن عطاء الله بمثل هذا الزمن ونحن نرى هذه المظاهر؛ أن نتحقق بمعاني عبوديتنا ونلتصق بأودية العبودية والذل والانكسار لله، ولا نرفع الرأس استكباراً على الله عزَّ وجل، ثم نتعلق بأذيال ربوبية الله لنا، نتعلق بقوته ليقوينا، نتعلق بغناه ليغنينا نتعلق برحمته ليرأف بنا، نتعلق بمظاهر ربوبيته لكي نسعد بفيض هذه المظاهر في حياتنا، أقول هذا الكلام عسى أن نكون ممن يعتبرون، ولكي لا نكون ممن يجرفهم التيار. أقول قولي هذا واستغفر الله العظيم.

٤٤٤- الحكمة من المصائب والآلام التي يتأفف منها الناس | ١٩٩١/٠٨/٣٠

إذا نظرنا إلى الدنيا في ظواهرها، رأيناها مليئةً بمزيدٍ منَ الخيرِ والشر، وذلكَ هوَ مصداقُ قولِ اللهِ سبحانهُ وتعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾، وهوَ مصداقُ قولِ اللهِ عزَّ وجلَّ أيضاً: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾.

ولكنَّا إذا دققنا النَّظر، وسبرنا أغوارَ مظاهرِ هذهِ الحياةِ الدنيا، وانتهينا إلى رصيدها ونتائجها، رأينا أنَّ هذهِ الدنيا ليسَ فيها إلّا الخيرُ المصفّى عنِ الشوائب، وليسَ فيها إلّا النِّعم، إلّا أنَّ هذهِ النَّعمَ منها ما هوَ ظاهرٌ جليّ، ومنها ما هوَ باطنٌ خفيّ. وصدقَ اللهُ عزَّ وجلَّ القائلُ في محكمِ كتابه وهوَ يتحدثُ عن نفسه و ذاتهِ العليَّة: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾.

وقبلَ أن نقرأَ هذا الكلامُ الربانيَّ يمكننا أن نصنِّفَ الدنيا إلى خيرٍ وشر، وإلى نعمٍ ومصائب، ولكننا عندما نقرأُ هذهِ الآيةَ الجليلة، ونقفُ على ما وصفَ اللهُ عزَّ وجلَّ بهِ ذاتهُ العليَّة: أنهُ أسبغَ علينا النِّعم، ولكنها إما أن تكونَ نعماً ظاهرة، وإما أن تكونَ نعماً باطنة، عندئذٍ ندركُ أنَّ كلَّ ما نراهُ في هذا الكونِ مما يحلو مذاقهُ ويطيبُ التمتعُ به، وممّا لهُ في تصوّرنا مذاقٌ مرٌّ تعافهُ النّفس، كلُّ ذلكَ داخلٌ في النِّعَم، ولكنّها إمّا أن تكونَ نعماً ظاهرةً يدركُها الإنسانُ بمقاييسِ حياتِهِ الطّبيعيّة، وإمّا أن تكونَ نعماً خفيّةً باطنةً يدركُها الإنسانُ من خلالِ معرفتهِ لسننِ اللهِ في عباده، ومن خلال معرفةِ اللهَ بصفةِ الحكمة، في ذاتهِ العليةِ سبحانهُ وتعالى.

ولقد وجهَ إليَّ بعضُ الأخوةِ سؤالاً منذُ أيامٍ يسألونني فيهِ عن الحكمةِ التي تكمنُ وراءَ كثيرٍ منَ المصائبِ والآلامِ والتشوهاتِ وما إلى ذلكَ مما يتأفَّفُ منهُ الناسُ وهيَ صورٌ وأنواعٌ شتَّى، ويكادُ هؤلاءِ السائلونَ يرتابونَ في حكمةِ اللهِ بل في عدالةِ اللهِ سبحانهُ وتعالى.

والحقيقةُ أيها الإخوة: أنها نظرةٌ سطحيةٌ ساذجةٌ من هؤلاءِ الناسِ وأمثالهم إلى الكون. ومصدرُ هذا التصورِ: عدم تدبرِ هؤلاءِ الناسِ لهذهِ المرحلةِ الدنيويةِ التي نعيشُها والتي هي طريقٌ إلى مقر، ولو أنَّ هؤلاءِ

الإخوةَ أدركوا قصّةَ هذهِ الدّنيا ومنهاجَ الرحلةِ التي يقفُ الإنسانُ تحتَ سلطانِها ويسيرُ طبقاً لخطّتها الدّقيقة، لما تصورَ هذا التصورَ الخاطئَ ولما سألَ مثلَ هذا السؤالِ أبداً.

هلِ الحياةُ الدنيا التي نعيشها دارُ خلودٍ أيها الإخوة، أم هيَ ممرٌّ كما قلتُ لكم إلى مقر؟ لئن كانت دارَ خلودٍ فإنَّ الحكمةَ تقتضي أن يكونَ كلُّ شيءٍ فيها حسبما يحتاجُ إليهِ الإنسانُ وحسبَ ما يتشهّى. لأنَّ الإنسانَ إذا اتخذَ إلى نفسهِ مقراً دائماً يحاولُ أن لا يتصورَ وسيلةً من وسائلِ راحتهِ، وأداةً من أداةِ استقرارهِ وطمأنينته إلَّا ويحشو بهِ هذا المقرَّ الذي يعلمُ أنهُ لن يتحولَ عنهُ إلى مكانٍ آخر.

فهلِ الدنيا التي نعيشها دارُ خلود؟ لو كانت دارَ خلودٍ لكانَ لنا أن نحتجَّ على اللهِ عزَّ وجل كلما رأينا فيها شيئاً منَ المنغّصاتِ والآلامِ والأكدار.

ولكنَّكم تعلمونَ أيها الإخوةُ أنَّ هذهِ الدنيا ممر، إنما هيَ طريقٌ إلى المستقرِّ الأبديِّ النهائيّ، ولا داعيَ إلى أن ندلِّلَ أو نبرهنَ على ذلك، فتعالوا لنفترض: لو جعلَ اللهُ هذا الممرُّ مليئاً بالمتع، مليئاً بأسبابِ السرور، بعيداً عن سائرِ المنغصات، وما يشتهي الإنسانُ شيئاً في هذا الممرِّ إلَّا ورآه، وما يتقزّزُ وتشمئزُّ نفسهُ من شيءٍ في هذهِ الدنيا إلَّا وأبعدهُ اللهُ عزَّ وجلَّ عنه. إذاً كيفَ يكونُ لكَ حالٌ تقبلُ بها على ذلكَ المقرِّ الذي ستتجاوزُ هذا الممرَّ إليه؟ كيفَ تقتلعُ نفسكَ من هذا الممرِّ الذي طابَ لكَ كلُّ شيءٍ فيه، وتراقصتِ المتعُ الصَّافيةُ منَ الأكدارِ جميعاً عن يمينكَ وشمالكَ ومن فوقكَ وتحتك؟

إذا دعاكَ الداعي إلى الرحيل، أليسَ هذا الرحيلُ من هذهِ المتعِ الصافيةِ هيَ قمةُ المصائب؟ أليسَ هذا الرَّحيل منَ الدنيا التي جعلها اللهُ عزَّ وجلَّ متعةً صافيةً عنِ الشوائبِ والأكدارِ أعظمَ مصيبةٍ منَ المصائبِ التي يبتلي اللهُ عزَّ وجلَّ بها الإنسان؟ وما قيمةُ تزهيدِ اللهِ عزَّ وجلَّ لكَ في الدنيا إذا كانَ يربطكَ بها من حيثُ النعم ومن حيثُ المتع التي يربطكَ اللهُ سبحانهُ وتعالى بها؟ ما معنى قولُ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿لا يغرنَّكَ تقلبُ الذينَ كفروا في البلاد متاعٌ قليلٌ ثمَّ مأواهم جهنمَ وبئس المهاد﴾؟ بل كيفَ تنسِّقُ بينَ هذا الذي يقولهُ اللهُ لك وبينَ ما يحشو به الدنيا من لذائذكَ وشهواتكَ ومتعكَ بعيداً عن سائرِ الأكدارِ؟

إن اللهَ عزَّ وجلَّ حكيم، إن الله عزَّ وجلَّ رحيمٌ بكَ لمّا قضى أن تكونَ هذه الدنيا طريقاً تتجاوزهُ إلى ذلك المقرِّ الأبديّ، أودعَ في هذا الطريق معناه تزهيداً لكَ في هذا الطريق، تزهيداً لك في هذه الدنيا،

واسمع ما يقوله ابن عطاءِ اللهِ السكندريّ في حكمهِ: **إنما جعلها مقراً للأغيار، ومنبعاً للأكدار، تزهيداً لكَ فيها**. جعل اللهُ سبحانهُ وتعالى هذه الدار مليئة بالأغيارِ التي لا تتفقُ مع رغائبك، بل منبعاً للأكدارِ التي لا تروق لكَ من أجلِ أن يكونَ لك عوناً على زهدكَ فيها، من أجلِ أن يرى نداؤهُ لكَ –إذا حانَ رحيلكَ عن هذهِ الدنيا– من أجلِ أن يرى هذا النِّداءُ استجابةً بينَ جوانحكَ.

لما قضى اللهُ سبحانهُ وتعالى أن تكونَ هذه الحياةُ مزيجاً من الأكدارِ، ومن الصفاءِ، من المتعِ، ومن المصائبِ، ولما جعلَ اللهُ عزَّ وجلَّ منهاجَ الحياةِ يبدأُ بطفولةٍ لا تعي شيئاً، ثم بطفولةٍ لاهيةٍ ترى المتعةَ كلَّ المتعة، والحياة كلَّ الحياة في هذه اللعبِ الصغيرةِ التي يَرَكَنُ إليها الطفل، ثم جعلَ الشبابَ مزداناً بمتعٍ أخرى يَرَكَنُ إليها الإنسان، كان من حكمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ إذا دنا الرحيلُ وإذا دنت ساعةُ التجاوزِ من هذهِ الدنيا إلى ذلك المقرّ كانت حكمةُ اللهِ، بل كانت رحمةُ الله عزَّ وجلَّ تقتضي أن يتقلَّصَ عنكَ الشباب، وأن يتسلَّلَ إليكَ المشيب، وأن يتسلَّلَ إليكَ معَ المشيبِ كثيرٌ منَ الأمراضِ وكثيرٌ منَ الآلامِ حتى تتبرَّمَ من هذهِ الدنيا، وحتَّى تشعرَ أنكَ قد مللتَ منها، وحتى يصفوَ لكَ الاتجاه إلى ذلكَ المقرَّ الذي آنَ أو أوشكَ أن يناديكَ إليهِ الباري سبحانهُ وتعالى.

أترى إذاً أن هذهِ الأكدارِ التي تفيضُ بها هذهِ الدنيا مظهرُ رحمةٍ منَ اللهِ عزَّ وجلَّ بك، أم هوَ مظهرُ انتقامٍ منَ اللهِ سبحانهُ وتعالى ينتقمُ بهِ منك؟ كلنا يعلمُ الجواب، لوِ انطلقنا من إيمانٍ باللهِ عزَّ وجل، ومن معرفةٍ لقصةِ هذهِ الرحلةِ الدنيوية، ذلكَ مظهرٌ من مظاهرِ رحمةِ الله، مظهرٌ من مظاهرِ حكمةِ اللهِ سبحانهُ وتعالى.

عندما يدعو الداعي إلى مفارقتكَ لهذهِ الدنيا، منَ الرحمةِ الإلهية أن تنظرَ إليها وأنتَ تعافها، أن تنظرَ إليها وأنتَ تقولُ لها بلسانِ حالك: ها إني سأفارقكِ إلى غيرِ عودةٍ؛ لأتمتعَ بالنعيمِ الصافي، لأتمتعَ بالسعادةِ التي ليست فيها مكدَّرات. من ذا الذي يجهلُ هذهِ الحقيقةَ التي أقولها أيها الإخوة؟

لقد رأيتُ بعيني إنسانةً وقد تمددت على فراشِ الموتِ، ولقد كانت تعيشُ أيامَ صحتها وعافيتها تعيشُ في متع، تعيشُ في نعيم، ولكنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ بحكمتهِ شاءَ أن يبتليها ببعضِ المصائبِ حتى يكونَ لها من هذهِ المصائبِ حجابٌ يبعدها عن ذكرياتِ تلكَ الملاذ، يبعدها عن ذكريات تلكَ المتع، كانت

تجلسُ إليها قريباتها وفيهنَّ من يقولُ لها: غداً ستعودُ إليكِ العافية، غداً ستعودُ إليكِ الصحة، غداً سنعودُ إلى بهجتنا التي كنا نتقلبُ فيها. هكذا كنَّ يقلنَ لها، فماذا كانَ جوابُ هذهِ الفتاة؟ ماذا كانَ جوابُ هذهِ الإنسانةِ التي قلَّبها اللهُ من مظاهرِ هذا البؤس في نعيمٍ بل في نعمةٍ خفية؟ كانت تقولُ لهن: ما قيمةُ هذهِ الدنيا؟ إنَّ المتعةَ هناك، إنَّ السعادةَ هناك، إنَّ الخيرَ هناك، فليُمَنِّ بعضنا بعضاً بذلكَ النعيم، لا بهذا النعيمِ الفاني الذي لا معنى له. تُرى لو أنَّ هذهِ الإنسانةَ وأمثالها وكلنا أمثالٌ لها، لو شاءَ اللهُ أن يقتلعنا من دنيانا هذهِ وتربتها كلها نِعم، وكلها مُتع، وكلها صفاءٌ لا كدورةَ فيها، هل يمكنُ أن يدورَ في خيالنا هذا المعنى؟ هل يمكن أن ننظرَ إلى هذه الحياةِ نظرةَ تبرمٍ واشمئزاز؟ لا يمكن، بشكلٍ منَ الأشكال، اللهمَّ إنَّ نعمكَ ظاهرةٌ وباطنة، ولقد أيقنّا وعلمنا أنكَ لا تعاملُ عبادكَ إلا بالنعم، ولكنها إما أن تكونَ نعماً ظاهرة، وإما أن تكونَ نعماً خفية. اللهمَّ أوزعنا أن نشكرَ نعمكَ الظاهرةَ والخفية، شكراً يرضيكَ عنا يا ربَّ العالمين. أقولُ قولي هذا وأستغفرَ اللهَ العظيم...

٤٤٥- أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون | ١٩٩٦/١١/٠٨

ما أقرب توفيق الله سبحانه وتعالى ونصره من عباده مهما طالت الطرق وتعقدت السبل إلى ذلك..

وما أبعد هذا التوفيق وهذا النصر عنهم أيضاً مهما تيسرت السبل وتقاربت بينهم وبين ذلك الطرق أيضاً.

الأمر بعيد وقريب بآن واحد ومرد ذلك إلى شرطٍ أساسي لا بديل له:

كلما كان المسلمون صادقين مع الله سبحانه وتعالى دنى إليهم النصر وطويت السبل الطويلة بينهم وبينه، وكلما اختفت دلائل الصدق في حياتهم مع الله سبحانه وتعالى تعقدت السبل بينهم وبين النصر مهما لاحت لهم أنها معبدة، وطال الطريق وتعرج إلى ذلك مهما لاحت لهم أن الطريق إلى ذلك قصير.

الصدق الصدق مع الله سبحانه وتعالى هو ثمن النصر، ولا تسألوا عن السبل ولا تسألوا عن إمكانيات الأمر أو عدم إمكانياته، ولكن إذا غاضت دلائل الصدق عن حياة المسلمين فإن الأمور اليسيرة تغدو عليهم عسيرةً بل مستحيلةً ربما.

كم وكم أيها الإخوة وقفت أمام آية في كتاب الله سبحانه وتعالى لأتبين فيها هذا الامتحان العظيم الذي لا يراد منه إلا شيء واحد، إبراز الصدق أو عدم الصدق لدى عباد الله سبحانه وتعالى الذين يدعون الإيمان به والتمسك بحبله.

آية في كتاب الله عز وجل في غمار القصة التي تبدأ بقول الله سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إلى أن يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ إلى آخر الآيات.

ما أكثر ما وقفت أمام هذا الامتحان.. ما علاقة نهر وجده جندٌ من جنود الله سبحانه وتعالى في طريقهم إلى مقاتلة عدو؟ ما علاقة هذا النهر إن شربوا منه أو لم يشربوا بالتوفيق أو عدم التوفيق؟ بالنصر أو بعدم النصر؟ ولكن الأمر أيها الإخوة واضح.. إن المسألة لا تكمن في سرٍ يكمن في هذا النهر، ولكن

المسألة تكمن في سرٍ وراء صدور هؤلاء الذين يزعمون أنهم مؤمنون بالله، ومستمسكون بحبل الله سبحانه وتعالى، ويبتغون الانتصار لأنفسهم ولدين الله سبحانه وتعالى.

ولكي يتجلى الصدق لا بد من امتحان، ومادة الامتحان - أياً كانت - ليست هي المهم، إنما المهم أن هذا الامتحان أياً كانت أداته لابد أن يكشف أخيراً عن الصدق أو عدم الصدق لدى هؤلاء الناس.

ابتلاهم الله - كما قال ذلك الذي كان يقودهم إلى معركة — بنهر، ولاشك أنهم كانوا على ظمأ، وقال لهم: إن من شرب من هذا النهر ليس مني، ومن لم يطعمه فإنه مني، أي هو الذي اعتبره جنداً عندي، واعتمد عليهم في الهدف الذي أسعى إليه إلا من اغترف غرفةً بيده لكي يتوقى بذلك المهلكة.

هذا الامتحان أيها الإخوة هو سنة رب العالمين في عباده، في كل عصرٍ لابد أن يمتحن الله عباده إن بنهر كهذا النهر، أو بأي أمرٍ آخر من الأمور التي تتعلق بها النفوس وتتشهاها الغرائز، لا بد.

أنا أدعي أنني صادقٌ مع الله، محبٌ لله، منتصرٌ لدين الله، هذه دعوة ولابد أن يتجلى إما الدليل على صدق هذه الدعوة، وإما أن يتجلى الدليل على كذب هذه الدعوة، والله يعلم سلفاً إن كنت صادقاً أم لست بصادق، ولكن الله لا يعامل عباده بناءً على علمه الغيبي بهم، إنما يعاملهم بناءً على مصداق علم الله به، يعاملهم بناءً على ما وقع في سلوكهم متفقاً مع علم الله سبحانه وتعالى به. تلك هي سنة الله عز وجل في عباده دائماً.

ترى هل وقفتم عند هذا الابتلاء البسيط في مظهره، ولكن الذي ينطوي على سرٍ كبيرٍ وهائلٍ في داخله؟

هل ربطتم بين هذا الابتلاء لتلك الأمة أو لتلك الجماعة، والابتلاءات التي يمتحننا الله سبحانه وتعالى بها اليوم؟

هل ربطتم بين هذا وذاك، لتعلموا هل كنتم من أولئك القلة الذين لم يشربوا من ذلك النهر؟ أم إنكم من الكثرة التي أوغلت في نهي الله سبحانه وتعالى وأغمضت العين عن ابتلائه وأمره، وغاصت في حمأة ما قد نهى الله سبحانه وتعالى عنه؟

هل قارنتم بين أنفسكم وبين أولئك الناس، لتعلموا أنكم من أي الفريقين؟

لو فعلتم ولو تصورتم لما عتبتم على الله سبحانه وتعالى، عندما ترون أن الذل قد حاق بكم من الأطراف كلها، عندما ترون أن المهانة قد أصبحت صبغةً لكم، عندما ترون أن الله سبحانه وتعالى قد استبدل بغناكم فقراً، عندما تتصورون وترون أن الله سبحانه وتعالى قد استبدل بوحدتكم فرقةً وشتاتاً.

نحن أيها الإخوة من تلك الكثرة التي أعرضت عن ابتلاء الله سبحانه وتعالى ولم تبالي، وأخذت تغرف وتغرف من ذلك النهر وتشرب تروي بذلك غريزتها ورغبتها، نحن من هذا الفريق، ولسنا من القلة، ولو كنا من القلة إذاً لوجدتم أن نصر الله أصبح قاب قوسين أو أدنى، ولرأيتم أن التضاريس والعقبات كلها قد انمحت مما بينكم وبين أعلى قمم النصر.

ولكن الواقع أن الطريق ليس هو البعيد بينكم وبين النصر، وأن التضاريس والعقبات التي ترونها ليس هي الحائل بينكم وبين الوصول إلى النصر، إنما الحائل أن الله ابتلاكم فأخفقتم في الامتحان، ابتلاكم الله سبحانه وتعالى بأمورٍ كثيرة، ولكن للأسف أعرضنا عن أمر الله في ذلك كله، ابتلانا الله بخيارين:

أحدهما: أن نضحي بأهدافنا الدنيوية وضماناتنا المستقبلية أن نضحي بذلك في سبيل تنفيذ أوامر الله التي أخذها علينا.

الخيار الثاني: أن نضحي بأوامر الله وأن نضحي بأحكامه في سبيل أن نضمن لأنفسنا وهماً، مستقبلنا الدنيوي أو مستقبل أولادنا وبناتنا الدنيوي.

هذا ابتلاء كذلك الابتلاء الذي وضعه الله أمام طائفة من عباده عندما نهاهم وهم على ظمأ أن يشربوا من ذلك النهر.

فساءلوا أنفسكم هل نجحتم في هذا الاختبار أم لم تنجحوا؟ كم وكم من الأسر المسلمة التي يزعم كلٌ من الأبوين فيها أنهما مسلمان خاضعان لله يهرعان إلى الصلاة في الأوقات الخمسة كلها، وإذا جاء موسم الحج تسابق أرباب هذه الأسر متجهين إلى بيت الله الحرام، ولكن الامتحان ليس هنا.

الامتحان يكمن في أنك إما أن تغضي الطرف عن دينك وتقول لابنتك:

لا بأس أن تنفصلي عن الحشمة التي أمرك الله بها..

ولا بأس أن تكشطي عن رأسكِ الحجاب الذي شرفك الله سبحانه وتعالى به..

ولا بأس أن تلقي أمر الله وراءك ظهرياً ضمانةً للمستقبل الذي لابد منه..

وإما أن تقول لها: بل تمسكي يا ابنتي بما أمر الله فهو الرزاق وهو المغني وهو المحي وهو المميت وهو المعطي وهو القوي وهو المعز وهو المذل، تمسكي بأمر الله في كل تقلباتك وأحوالك، وإن اقتضى الأمر أن تضحي في سبيل ذلك بالمستقبل الوهمي الذي يخوفنا منه الشيطان أو شياطين الإنس والجن، فضعي ذلك المستقبل الوهمي تحت قدميك وعودي إلى دارك.

ماذا صنعنا أمام هذا الخيار أيها الإخوة؟ هذا هو النهر الذي ابتلانا الله عز وجل به، بل هذا نهرٌ من الأنهر التي ابتلانا الله سبحانه وتعالى بها، النتيجة تعرفونها جميعاً أيها الإخوة، كلكم يعلمها.

ووالله الذي لا إله إلا هو لو كنا كتلك القلة التي تسامت فوق ذلك النهر، واحتسبت ظمأها عند الله سبحانه وتعالى إذاً لأكرمكم الله بالمستقبل، ولغمركم بالنعم والرزق، ولنصركم، ولأيدكم أعظم تأييد، ولرفعكم من حضيض المهانة إلى مستوى العزة والكرامة، والله الذي لا إله إلا هو لو أنكم أخذتم الخيار الذي يرضي الله سبحانه وتعالى لرأيتم أن الذين يحرجونكم ويلجؤونكم إلى مخالفة شرع الله يلحقونكم ويقبلون الأيدي لكي تعودوا وتعيدوا أولادكم وبناتكم إلى حيث يرضي الله سبحانه وتعالى، ولكن أمرنا الله ووسوست إلينا الشياطين فلم نثق بأمر الله ووثقنا بوساوس الشياطين.

ما قيمة إيمانٍ هذا شأنه؟ ما قيمة تصديقٍ بالله سبحانه وتعالى هذا هو مآله؟ لا سيما إن علمتم أن هذا الذي تحمل عليه بناتكم في كثيرٍ من الأحوال والحالات - والله أيها الإخوة - إن هو إلا رعونةٌ لا يغطيها أي قانون بشكلٍ من الأشكال، وهنالك تجاوزات على نظام الدولة لا تعالجها إلا مواقف الأمة، اعرفوها هذه الحقيقة.

هنالك تجاوزات إن وقعت لا يقضي عليها ولا يذيبها إلا موقف الشعب أو موقف الأمة، وعندما تتخذ الأمة الموقف الذي يرضي الله سبحانه وتعالى فإن هذه الأمة تتلقى بعد ذلك لا شكر الله وحده فقط، بل شكر الدولة أيضاً.

أقول لكم هذا لتعلموا الحقيقة التي ينبغي أن تستقر في أذهانكم، ولكن الحكمة كل الحكمة في أن الله سبحانه وتعالى ما كان ليدعكم لدعاويكم التي لا يظهر صدقها من كذبها. ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ ﴿آلم، أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ، وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ وهو يعلم - كما قلت لكم قبل أن يمتحننا - لكن الله من سيرته وسنته في عباده، أنه لا يأخذهم بعلمه الغيبي في حقهم، لا بد أن يريهم أن واقعهم سيكون مطابقاً لعلمه، وعندئذٍ يحاسبهم على الواقع الذي صدر منهم، لا على العلم الغيبي الذي كان يعلمهم عنه سلفاً.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يلهم المسلمين الاعتزاز بهذا الدين وأن يجعلهم من القلة التي ترفعت فوق ذلك النهر وأنهر الابتلاء مستمرة وممتدة إلى قيام الساعة.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

٤٤٦- ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد | ١٩٩٩/٠١/٢٩

إن مما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديثٍ طويل قوله عليه الصلاة والسلام: ﴿فإن وراءكم أياماً القابض فيه على دينه كالقابض على الجمر للرجل منهم أجر خمسين منكم، قالوا منا أم منهم يا رسول الله؟ قال: بل منكم لأنكم تجدون على الحق أعواناً ولا يجدون﴾.

ولعلنا نلاحظ في هذا العصر مصداق كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ونستبين الحقيقة التي تؤيد بدقةٍ عجيبة كلام المصطفى صلى الله عليه وسلم، فاستمساك الانسان المؤمن في هذا العصر بدينه أمر عسيرٌ جداً وإن كان يسيراً جداً بتوفيق الله سبحانه وتعالى، وهو يسيرٌ على من يسره الله سبحانه وتعالى له، والشدة التي تنتاب الانسان المسلم لدى تمسكه بالإسلام تأتي من جوانب شتى لا من جانب واحد. فبالإضافة إلى غربة الاسلام في هذا العصر عن العادات والأعراف والتيارات والأفكار وكثير من الفلسفات السائدة بالإضافة إلى هذا يوجد عاملٌ آخر وهو: كثرة الشبهات التي تلاحق فكر الإنسان المسلم، كثرة الوساوس التي تعشش في ذهن الإنسان المسلم إلا من وقى الله سبحانه وتعالى.

فالمسلم أينما اتجه يجد أمامه ما قد يثير في نفسه شكوكاً وريباً، فإن هو استسلم لهذه الشكوك والريب زجته هذه الشكوك في بيداء بعيدة عن عقائد الإسلام ودينه، وإن هو صبر وإن هو التجأ إلى مزيد من الدراية والعلم والبحث وقاه الله سبحانه وتعالى.

هذه الشكوك والريب كثيرة ٌأيها الأخوة وهي تتكاثر في هذا العصر، ويخيل إلي أن الإنسان كلما أراد أن يفتح كتاب الله سبحانه وتعالى ويتلو شيء من آياته لابد أن يعترضه الإنسان بطائفة من هذه الريب والشكوك، عندما يقرأ كتاب الله ثم يلاحظ الواقع الذي يحيط به من حوله، وربما كانت هذه الشكوك والريب من الآثار أو من الأسباب الكثيرة التي تشرد بكثيرٍ من الكثير من المسلمين في هذا العصر عن صراط الله عز وجل وتزج بهم في اجتهادات باطلة، يخيل إلى أحدهم أنه يجاهد وأنه يتبين وأنه يجتهد، ولكنه إنما يتعامل مع شكوكه وريبه هذه.

هنالك من يستشكل قول الله سبحانه وتعالى في ميزان الواقع الذي يراه، يستشكل قول الله في محكم تبيانه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ

الظَّالِمِينَ، وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ، وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾. هنالك من يسأل – لا مستفهماً بل مرتاباً – كيف يمكن أن يطبق هذا الكلام الرباني على هذا الواقع المرئي في هذا العصر؟

يقول الله عز وجل: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ هذا هو منطق الكفر عندما يتجبر ويطغى، فبماذا تعهد الله عز وجل جواباً عن هذا الطغيان؟ ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ، وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ﴾ يقول قائلهم: ها هم الكفرة يتجبرون اليوم فوق أرض الله الواسعة فلماذا لا يهلكهم الله ؟ ولماذا لا يسكن المؤمنين به والمسلمين له في مكانهم وهو وعد قد قطعه الله سبحانه وتعالى على ذاته العلية ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ، وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ﴾.

هذا الريب أيها الإخوة من مظاهر الفتنة التي تجعل القابض على دينه كالقابض على الجمر كما قال المصطفى صلى الله عليه وسلم. ولكن الإنسان الذي جعل عمدته في السير على صراط الله سبحانه وتعالى معرفة دين الله والرجوع إلى ما يقوله الربانيون في تفسير كلام الله سبحانه وتعالى والالتزام بما كان عليه السلف الصالح. الإنسان الذي يجعل عمدته في التمسك بالدين هذه المعارف، لن يقع في تيه ولن يقع في شبهات ولا في مشكلات. من هم الذين خاطبهم الله بهذا؟ الرسل ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ﴾، أي إلى أولئك الرسل ﴿لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ، وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ﴾ كونوا في التزامكم بدين الله كأولئك الرسل يكن الله سبحانه وتعالى محققاً لكم هذا العهد الذي التزمه، بل لا ينبغي أن يرقى الإنسان إلى مستوى الرسل في العصمة فلا قبل لأحدنا في ذلك، ولكن يكفي أن يكون الإنسان صادقاً مع الله مخلصاً دينه لله لا يبتغي من وراء تمسكه بهذا الدين غرضاً دنيوياً أو مصلحةً من مصالحه الشخصية أو زعامةً أو مالاً يتاجر به، لا يبتغي من وراء ذلك إلا الوصول إلى مرضاة الله، ويندفع إلى هذه الغاية بدافعٍ من مخافة الله سبحانه وتعالى كما قال بعد ذلك: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾.

عندما يتبصّر الإنسان المسلم بهذه الحقيقة تزايله وساوس الشياطين، لا يستطيع لا شيطان من شياطين الإنس ولا شيطانٌ من شياطين الجن أن يدخل الريبة إلى قلبه وعقله قط. أين نحن من تنفيذ هذا الذي اشترطه الله سبحانه وتعالى؟

أين هم الناس الذين يسيرون على قدم أولئك الرسل والأنبياء وخاتمهم وآخرهم محمدٌ صلى الله عليه وعلى آله وسلم؟ أين هم الصادقون مع الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾؟.

أين هم المخلصون في أعمالهم لله سبحانه وتعالى؟

عندما يكون المسلمون صادقين مع الله مخلصين لله فلسوف تجدون هذا العهد قد تنفذ بأيسر السبل، وكل الوسائل التي يلجئ إليها الطغاة فوق هذه الأرض، وكل القوى التي تتباهى بها الجبابرة فوق هذه الأرض كل ذلك يذهب أدراج الرياح، لكن الآن في سبيل ماذا يُذهب الله قوى أولئك الجبابرة أدراج الرياح؟ في سبيل ماذا يهلك الله سبحانه وتعالى تدبير أولئك المدبرين؟ من أجل من؟ من أجل أناسٍ جعلوا من الإسلام مطايا ذلولة لأغراضهم!؟ من أجل أناسٍ جعلوا من الإسلام وسائل يستحلبون منها الرزق لأنفسهم!؟ من أجل أناسٍ عز عليهم أن يجدوا سلماً يمتطوه إلى مكانة باسقة إلى زعامة فلم يجدوا خيراً من الإسلام يمتطونه ويجعلونه سلماً لهذا!؟ من أجل هذا يهلك الله جبابرة الأرض؟!! ومتى كان هؤلاء الناس مدللين إلى هذا الحد عند الله؟ أين هم الذين يصدق عليهم قول الله عز وجل: ﴿ذلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾؟ أرني هؤلاء الذين يندفعون إلى طاعاتهم قرباتهم أعمالهم جهاداتهم بدافعٍ يرتكز على أفئدتهم وبين جوانحهم مخافةً من الله، مخافة من وقوفهم غداً بين يدي الله سبحانه وتعالى أريك كيف يكون هلاك الجبابرة، أريك كيف يكون هلاك هؤلاء الطغاة. أجل يا عباد الله، نطالب الله سبحانه وتعالى بما تعهد به ولا نطالب أنفسنا بما ادعينا أننا نتمسك به. ﴿ذلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾

ولعمري إنها لدقة بالغة في بيان الله عز وجل إذ لم يقل ذلك لمن كان يؤدي وظائف الدين على وجهها، ذلك لمن كان ينشط هنا وهناك داعياً إلى الله سبحانه وتعالى آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، لم

يقل ذلك. قد تمتلئ الأرض من هؤلاء الناس ولكنك تخترق هذه الصورة وإذا بالدوافع رغبات دنيوية، شهوات آسنة شخصية، ليس هذا هو المقصود، المقصود أن تنظر إلى ما قد استقر في القلب فإن كان الذي استقر في القلب خوفاً يأخذ بمجامع القلب خوفاً من وعيد الله اليوم وخوفاً من الوقوف بين يديه غداً، عندئذٍ الصور تكون مطابقةً للواقع الحقيقي. العبرة بهذا الذي بينه لنا الله سبحانه وتعالى.

قولوا لهؤلاء الإخوة الذين ينشدون نصر الله للمسلمين: عندما يكثر المسلمون الصادقون مع الله المخلصون دينهم لله، لا بد أن يتحدوا وعندما يتحدون ستجد الوعد الذي قطعه الله عز وجل على نفسه نافذاً.

أما اليوم تنظر فماذا تجد؟ تجد أن قوى الشر لم تعد تستعمل أسلحةً كالأسلحة التطبيقية السابقة لتحارب بها دين الله لا، بل هي اليوم تتخذ من الإسلام نفسه أسلحةً تحارب بها دين الله عز وجل كيف؟ كيف نفتح أبصارنا اليوم لنجد أن دول البغي التي كانت إلى الأمس القريب تحارب دين الله عز وجل بالوسائل التقليدية التي تعرفونها، قد ألقت اليوم وسائلها ظهرياً وراءها وراحت تقاتل المسلمين بالمسلمين، راحت تقاتل المسلمين بالإسلام، ألا ترون ذلك؟ ألا تنظرون إلى بريطانيا وأنتم تعلمون طرقها التقليدية بالأمس القريب والبعيد للكيد للإسلام ولعداوة الإسلام ولمحاربته اليوم بريطانيا كيف تحارب الإسلام وبماذا تحاربه؟ تحاربه بالمسلمين تحاربه بالإسلام مجسداً بجنودٍ في بلادها، وهذا شيء يجعل الإنسان يشيب وهو في شرخ الشباب.

المسلمون أصبحوا جنوداً اليوم ليكونوا أسلحة حديثة وجديدة بعد الأسلحة التقليدية القديمة لمحاربة دين الله سبحانه وتعالى، والمسلمون يصبحون اليوم جنوداً للكيد للإسلام باسم الإسلام ذاته؟! كيف هذا؟ عندما ننظر فنجد أن الإسلام قد تصدع وتشظى كما يقول أحدهم إلى شظايا متناثرة هنا وهناك، وعندما تنظر فتجد أن الذين لا يزالون على العهد ولا يزالون يسيرون على صراط الله عز وجل أقل من القليل، أقل من القليل جداً. أما الكثرة الكاثرة هنا وهناك فشيعٌ وفئات وأحزاب وتنظر إلى قوى الشر وقد أقامت لنفسها عرساً من هذا التشرذم الذي تراه، إذ جعلت من هذا التشرذم من هذا التناقض القائم

بين المسلمين سلاحاً فتاكاً، وبريطانيا كانت ولا تزال أم الخبث والخبائث في هذا العالم، أجل وجدت الطريق معبداً إلى عملٍ بسيطٍ جداً تضرب فلولاً من المسلمين بفلول من المسلمين، تضرب فئات من المسلمين بفئات من المسلمين وإذا برحى الهلاك يدور عليهم جميعاً. عندما يكون حال المسلمين هكذا بأي حجة تريد أن تحتج على الله وتقول أين هو تنفيذ وعده؟

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ﴾ إلى الرسل، أجعلتم أنفسكم في محل أولئك الرسل، كونوا لا كأولئك الرسل كونوا سائرين على قدمهم ينجز لكم الله ما وعد ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ، وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ﴾ ذلك تأكيد حتى لا يحتج إنسان على الله كما يحتج بعض الناس اليوم ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾.

ولا والله أيها الإخوة لن تجد ثلة من المسلمين فاضت أفئدتها مخافة من وعد الله اليوم ومخافة ًمن وقوفها بين يديه غداً إلا وتجد أول ثمرة من ثمار هذا الخوف، الاتحاد الذي يجمع شملنا ومن ثم يسقط حواجز الفرقة مما بينهم، أول أثر من آثارها أول ثمرة من ثمار هذا الصدق الذي اشترطه الله عز وجل هو هذا، فأين هو هذا التلاقي؟

فئات من المسلمين شتى كل فئة تكيد للفئة الأخرى، أسماء حركية غريبة عجيبة تتحرك في أحضان دولٍ تكيد للإسلام وتجد المظلة الواقية الكافية لها هناك، كيف يكون ذلك؟

مرةً أخرى أقول أيها الإخوة صدق الله وكذب المدعون في هذا العصر والله لا يخلف وعده، أجل صدق الله إذ يقول: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ خيبة الجبارين واقعة ولكنها لا تتبدى إلى على شكل، والشكل الذي تتبدى عليه خيبة الجبابرة شكلٌ واحد لا ثاني له هو إيمان المؤمنين، صدق الصادقين إخلاصهم لله سبحانه وتعالى، أجل أرأيتك إلى أشعة الشمس مهما تلألأت هل تجد العين صورة لهذه الأشعة إلى بعد أن تنعكس على جدر؟ لا يمكن إذا لم يوجد هذا الجدار الذي تنعكس عليه أشعة الشمس لن تجد حقيقة لهذه الأشعة. وكذلكم الخيبة التي وعد الله بها أو توعد بها الجبابرة موجودة ولكن هذه الخيبة الموجودة لا يمكن أن ترى إلا إذا انعكست على حقيقة، والحقيقة التي إذا انعكست عليها هذه

الخيبة تراها الأعين شيء واحد، صدق المسلمين مع الله عز وجل، وأول معنى لصدق المسلمين هو هذا أجل ﴿ذلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾.

أنا أعلم أن أفئدة كثير وكثير من المسلمين الذين يرفعون لواء الحركة والدعوة الإسلامية أفئدتهم خالية فارغة من شيء اسمه الخوف من مقام الله، من شيء اسمه الخوف من وعيد الله عز وجل، أولئك الذين كانت تفيض قلوبهم بهذه المخافة هم الرعيل الأول، هم أولئك الناس الذين قد لا ترى لهم هذه الحركة بفورتها العجيبة اليوم، ولكنك تنظر إلى أفئدتهم فإذا هي كالمرجل خوفاً من الله سبحانه وتعالى. عندما يكون المسلمون صادقين مع الله يتحدون وعندما يتحدون يتلألأ على واقعهم مظاهر خيبة الجبابرة وصدق الله القائل ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

٤٤٧- وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً | ١٩٩٩/٠٣/٠٥

يقول الله عز وجل في محكم كتابه ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾. هذه الآية القصيرة في مبناها تشكل الدستور الأعظم والمبدأ الجامع لكثيرٍ من سنن الله عز وجل في عباده، يقول الله سبحانه وتعالى في هذه الآية إن من سنن الله في عباده أنه يأخذكم آنة بالشدة ثم يذهب بالشدة، ويأتي بعد ذلك بالرخاء، لكي يكون في ذلك كله امتحانٌ للعباد في الشدة التي تأتي بعد الرخاء، والرخاء الذي يأتي بعد الشدة. ترى هل يلتجئ الناس إلى الله سبحانه وتعالى عندما تعروهم الشدة وعندما تُطبق عليهم المصائب؟ هل تظهر حقيقة عبوديتهم لله عز وجل بالسلوك الاختياري، فيجأرون إلى الله بالتوبة ويلتجئون إلى الله بالدعاء الواجف، ويسألونه أن يرفع عنهم هذه المصيبة، متبرئين من حولهم وقوتهم، أم إن الكبرياء ستمنعهم عن ذلك؟

ثم إن الله عز وجل يذهب بالشدة ويأتي بالرخاء، ترى هل سيشكرون الله سبحانه وتعالى على هذا الرخاء؟ هل سيعلنون مرة أخرى عن عبوديتهم لله عز وجل من خلال شكرهم له على نعمه باللسان قولاً وبالجوارح فعلاً وعملاً؟

وإنما خُلق الإنسان في هذه الحياة الدنيا ليؤدي هذه المهمة ليشكر عند النعماء، وليلتجئ إلى الله سبحانه وتعالى متبتلاً ضارعاً عند الضراء عند المصائب. فإذا كان الإنسان شاكراً عند نعم الله عز وجل ملتجأً إليه متبتلاً إليه عند المصائب، فهو الإنسان الذي أدى ضريبة عبوديته لله سبحانه وتعالى، والعبادات كلها مهما كثرت إما أن تكون إلتجاءً إلى الله عز وجل وصبراً عند الشدائد، وإما أن تكون حمداً وشكراً لله سبحانه وتعالى عند النعم والرغائب.

إذا عرفنا هذا المعنى الذي تدل عليه هذه الآية القصيرة في ألفاظها كما قلت: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً، وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ فلنعد إلى واقع حالنا، هل نحن ممن يلتجئ إلى الله عز وجل عند المصائب ويشكر الله عز وجل الشكر الذي أمر عند النعم والرغائب؟

لو تأملنا أيها الإخوة لوجدنا أن موقفنا من الله عز وجل خطير وأن قوله سبحانه: ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ ينطوي بالنسبة إلينا على تهديدٍ بالغ فكأنه يقول: وإلينا ترجعون لنحاسبكم على التقصير في الالتجاء إلى الله عند المصائب والشكر لله سبحانه وتعالى عند النعم والآلاء.

لونٌ من ألوان هذه المصائب امتد ثم امتد كما ترون إلى أواخر هذا الشتاء، وما منكم إلا قد علم خطورة هذه المصيبة، والخطورة التي تأتي من ورائها أشد بكثير من الخطورة التي تبدو أثناءها؛ المؤمن والفاسق المستقيم والمنحرف المتعبد والفاجر الكل يتهامسون ويعلمون مدى خطورة هذه الحال التي نمر بها، وما من مجتمع يتم بين فئات أياً كانت إلا ويدور حديثهم عن المأساة التي تمر بها هذه البلدة، الموسم قد ضرب، هذه كلمة أحدهم لا أزيد منها ولا أنقص.

البلاء خطير، والصيف اللاهب الذي سيأتي ليبخر البقية الباقية من الماء أخطر وأشد، إذاً الكل يعلم أننا نمر من هذه المشكلة بمصيبة، قد قرأنا الساعة كلام الله سبحانه وتعالى، تلك هي سننه يأخذ بهذه السنن عباده جميعاً إن كانوا صالحين أو طالحين، لا بد أن تهزهم المصائب ليتجلى التجاؤهم إلى الله الذي هو معنى من معاني عبوديتهم لله، ولا بد أن تمر بهم النعم أيضاً ليتجلى من خلال ذلك شكرهم لله، وهو لونٌ آخر من ألوان عبوديتهم لله عز وجل، تمر بنا هذه المصيبة وقد تلبثت فينا مدة طويلة فأين هم الملتجؤون إلى الله؟ أين هم المتبتلون بين يدي الله؟ أين هم الذين يقولون بألسنتهم وبقلوبهم: لقد تبرأنا من كل حولٍ وقوةٍ إلا من قوة الله سبحانه وتعالى. وآمنا أن الذي يسقينا هو الله وأن الذي يطعمنا هو الله وأن الذي يحيينا هو الله والذي يميتنا هو الله.

وإذا أمسك الله عز وجل رزقه عن عباده فهيهات أن يكون في الكون كله بعد الله من يقوم مقامه في إسداء هذه النعمة إلى الناس. أين هم الذين يرفعون أصواتهم بهذا الاعتراف وبهذا الالتجاء إلى الله عز وجل، حتى يرى الله فيهم الالتجاء والصبر؟ فيبدل شدتهم رخاءً كما هي عادته وكما هي سنته.

أما الضجر من هذه المصيبة فموجود، وأما الاعتراف بأن لا بد من الالتجاء إلى الله فمفقود، وأنا لا أعني بضرورة الاعتراف باللجوء إلى الله والتضرع إليه وبسط أكف الضراعة بين يديه لا أعني بهذا قلةً

من المتعبدين في بيوتهم أو مساجدهم، لا أعني قلةٍ من الذين يُذكرون بالله ويُذكرون بسنن الله عز وجل لا، إنما أعني ما قد يتطلبه الله عز وجل، الذي أعنيه أن تنهض هذه الأمة بقدها وقديدها وفي مقدمتها المسؤولون فيها، وفي مقدمتها الذين يمسكون بزمام القيادة فيها، وفي مقدمتها القادة الذين يخططون ويسوسون أمرها، أين هؤلاء؟

خلال هذه الأشهر التي مرت.. أين هؤلاء يلتجؤون إلى الله ويعلنون عن تبرأهم عن كل حول وقوة إلى قوة الله وحوله؟ أين هي الكبرياء التي ينبغي أن تتحطم وأن تذوب في ضرام هذه المصيبة لا نجد أثراً لذلك أبداً؟ وهذا الأمر الذي نلاحظه أكبر بكثير من المصيبة التي تمر بنا؛ ذلك لأن الشدائد تمر على كل الناس، حتى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مرت بهم من هذا القبيل، والذين جاؤوا من بعدهم كذلك، لأنها سنة ولأن الحكمة منها كما قال الله عز وجل أن يتجلى التجاء الناس إلى الله عز وجل، ومتى يلتجئ الإنسان إلى الله؟ عند المخاوف.

إذا كانت دنيانا هذه صافية عن الكدرات، صافيةً عن المصائب والآلام، ليس فيها ما يبهج ويبعث على السرور. ففيم نلتجئ إلى الله؟ وأين هي الحاجة التي تسوقنا إلى الله؟ كانت الحكمة الربانية دقيقة لابد من سبب يسوق الناس إلى رحاب التذلل بين يدي الله. والسبب هو الحاجة، والحاجة تأتي من الخوف، والخوف يأتي من وراء المصائب.

سنةٌ ماضيةٌ يبتلي الله عز وجل عباده جميعاً لتفوح من خلالها رائحة التذلل على أعتاب الله، رائحة الإيمان بوحدانية الله سبحانه وتعالى وصدق الالتجاء إليه، لكن المصيبة الأدهى والأمَر أن تمر سحائب هذه المصيبة وأن تتلبث وأن يأتي النذير تلو النذير للناس أن يلتجئوا فلا يلتجئوا، أن يعود المستكبرون عن استكبارهم فلا يعودوا، أن يتداعى الرسميون وغير الرسميين إلى ما ندبنا إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يفعلون، الكبرياء التي تأتي على أعقاب المصائب مصيبة أدهى وأمر. هكذا ينذر كتاب الله سبحانه وتعالى وهكذا بيّن لنا كتاب الله وأوضح لنا أن المتكبرين لا تتفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط وكم وكم يوضح بيان الله سبحانه وتعالى هذه الحقيقة.

أيها الإخوة لونٌ من أشد ألوان الكبرياء تمقته الناس ويشمئز منه الذوق الإنساني، أن يرى المستكبر مقدمات المصائب بل أن يراها وهي تدنو وتدنو لتأخذ بالخناق، ولكن المستكبرين لا يريدون أن ينزلوا عن سدة استكبارهم ويشعرون بالخوف من المصائب التي تدنو إليهم فيثيرون غمزاً أو لمزاً أو إعلاناً إلى المتعبدين في مساجدهم وإلى المشايخ الذين يدعون إلى الله عز وجل أن يصلوا لهم صلاة الاستسقاء، أن يدعو الله عز وجل بدلاً عنهم، أن يلتجئوا إلى الله سبحانه وتعالى أما هم فلا. لماذا؟ ولو أن هذه الحفنة من الصالحين من الأتقياء دعوا الله عز وجل وظل المستكبرون في أبراج كبريائهم لم يتحركوا ظلوا متجاهلين، هل سيستجيب الله الدعاء؟ إن استجاب فخارقة من خوارق رحمته، وكم وكم في الدنيا مظاهر من مظاهر خوارق رحمة الله عز وجل، أما قانونه فيقتضي أن لا يُستجاب، لأن المطلوب هو أن ينزل المستكبر عن علياء كبريائه وأن يخلع جلباب عناده وأن يتوب مع التائبين وأن يلوذ مع اللائذين وأن يستغفر مع المستغفرين، هذا هو المطلوب.

ولذا فإن تلك الدعوات التي سرت سراً إلى بعض المساجد لصلاة الاستسقاء لم تغني شروى نقيرٍ أبداً، ذلك لأن الله عز وجل يريد من المستكبر أن يحطم كبرياءه، هو القائل: ﴿فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أولئك الآخرون لم تقسو قلوبهم ولا مشكلة لهم أجل أيها الإخوة.

هذه المصيبة مصيبة من المصائب، ولكن الأخطر والأدهى منها والتي تهدد بعذابٍ وبيل من الله عز وجل أن فينا من لا يزال يتقلب على عرش كبريائه، لا يريد أن يعترف بأنه لا بد من التذلل بين يدي الله سبحانه وتعالى.

ووالله الذي لا إله إلا هو لو أن هذه البلدة خرجت برؤسائها وقادتها وبقية الطبقات والفئات التي فيها أو خرجت الغالبية العظمى منها كما علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مستغفرةً تائبة معلنة عن إيمانها معلنة عن توحيدها معلنة عن أن لا حول ولا قوة إلا بالله سبحانه وتعالى، إذن لوجدتم أن الله سبحانه وتعالى أبدل هذه الشدة رخاءً، ولوجدتم أن المياه الهاطلة من السماء قد غمرت أرضكم هذه من شرقها إلى غربها ومن شمالها إلى جنوبها.

وأمامي شاهد على هذا قلت لكم إن المغرب كان يعاني من محلٍ وشدةٍ كهذه الشدة وصادف أن كنت هناك، فتداعى الرسميون في أجهزة الإعلام كلها إلى الخروج إلى صلاة الاستسقاء طبقاً لما أمر به رسول الله بكل آدابها وقيودها، وخرج الجميع على كل المستويات خرج القادة، خرج الوزراء، فاض المكان بضباط الجيش بملابسهم، فاض المكان بكل الفئات صغاراً وكباراً رجالاً ونساءً، ودعو الله واستغاثوا وتضرعوا وأعلنوا عن التوبة والندامة، وكم هو جميل أيها الإخوة أن ترى المسؤول الكبير الكبير وقد ذل لله في هذا المكان، كم هو جميل هذا المنظر، وكم هو تاج عظيم جليل على رأس القائد أو المسؤول عندما يقف هذا الموقف متبتلاً بين يدي الله عز وجل؟ ما الذي حصل بعد ذلك، لعلكم تسمعون وكالات الأنباء التي تتحدث عن الأمطار في العالم العربي منذ ذلك اليوم وإلى الآن لم ينقطع رفد الله سبحانه وتعالى عن تلك البلدة.

أما نحن فعلى استحياء وخجل طلب من بعض المشايخ أقولها بهذا التعبير أن يصلوا للجميع صلاة الاستسقاء، ومالكم لا تخرجون، أنتم ما الذي يمنعكم ما الذي يمنعكم؟ ما الذي يصدكم عن الالتجاء إلى الله سبحانه وتعالى، هل المصيبة مصيبة المشايخ فقط؟ هل الشدة تطوف من حولهم فقط؟ أم هي شدة تعروا هذه الأمة كلها؟ أما آن أن نتفاعل مع سنة الله في عباده، جاءت الشدة صداها ينبغي أن تكون في حياتنا الالتجاء إلى الله الاستغفار التبتل، التذلل لله سبحانه وتعالى، إعلان الإيمان بالله سبحانه وتعالى وطلب الصفح عن الذنوب والمعاصي، والله يغفر الذنوب كلها، وجاء بعد ذلك الرخاء صدى الرخاء في حياتنا أن نشكر الله، أن نحمد الله عز وجل بألسنتنا وبأعضائنا وبسلوكنا، وهذا هو قرار الله عز وجل فقلت وهذا كلام سيدنا نوح لقومه بأمر من الله أن يقول لهم ذلك ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا، يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ هذا ضمانة الله للعباد ﴿وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا، مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا، وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾.

أسأل الله عز وجل أن يصلح حالنا وأن يطهرنا من كبرياء أنفسنا تلك هي المصيبة العظمى إذا انزاحت عن نفوسنا هذه المصيبة فالمصائب كلها ستنقشع.



الجهاد والفتن

٤٤٩- واقعنا اليوم.. هرج وفتن أم جهاد واستشهاد؟! | ١٩٩٧/٠٩/١٩

إن من العلامات الصغرى لقيام الساعة التي أنبأ عنها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكثر الهرج والمرج، أي أن تكثر الفوضى التي تجر إلى الخصام والاقتتال وإلى استثارة الفتن لأتفه الأسباب، ولقد دل على هذا ما أنبأ عنه كتاب الله سبحانه وتعالى، ثم جاءت السنة النبوية فوضعت النقاط فيه على الحروف.

أما بيان الله سبحانه وتعالى فهو قوله عز وجل: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ، وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ، لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

وأما السنة التي وضعت هذا البيان الرباني في موضع البيان والشرح والتفصيل، ووضعت النقاط فيه على الحروف، فذلك عندما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم ربه كما ورد في الصحيح: أن لا يُهلك الله أمته بسنة عامة فاستجاب الله دعاءه، ودعا ربه أن لا يسلط عليهم عدواً من غيرهم فيجتث شأفتهم فاستجاب الله سبحانه وتعالى دعاءه هذا، ثم دعا الله عز وجل أن لا يجعل بأس أمته فيما بينهم فلم يستجب الله سبحانه وتعالى هذا الدعاء من نبيه محمدٍ صلى الله عليه وسلم، وأعلمه أن التأديب الذي ستناله أمة محمدٍ صلى الله عليه وسلم لدى انحرافها أو لدى وقوعها فيما قد حذر الله عز وجل منه، لن يكون هلاكاً بسنة عامة، ولن يكون عن طريق تسليط عدوٍ عليهم يجتث شأفتهم بعامة، ولكن إذا أراد الله عز وجل أن يؤدبهم فإنما يكون ذلك بأن يجعل بأسهم فيما بينهم. فهذا بيان الله سبحانه وتعالى، وتلك هي دلائل سنة المصطفى صلى الله عليه وسلم، وكل ذلك لخصه المصطفى عليه الصلاة والسلام عندما أوضح أن من أشراط الساعة أن يكثر الهرج والمرج.

وقد سمعت من سأل مستشكلاً: فلماذا يبتلي الله سبحانه وتعالى هذه الأمة بعضها ببعض؟ ولماذا يجعل بأسها فيما بينها؟ والجواب ينبغي أن لا يكون غائباً عن بال أي إنسانٍ مؤمن يقرأ كتاب الله سبحانه وتعالى ويتدبره.

هل من سنة الله في خليقته أن يبتلي فئة من عباده بمصيبة دون سبب؟ وهل تتهاوى عصي التأديب على عباد الله عز وجل من قِبل الله إلا لموبقة ارتكبوها، أو لجنوح بدر منهم، أو لمعصية شاعت فيما بينهم، ثم لم تجد هذه المعصية من ينهى عنها ومن يُذكر بالله سبحانه وتعالى باللسان والبيان؟

إن الله عز وجل عندما تهدد عباده بقوله: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ لم يُحدث الباري سبحانه وتعالى عباده عن هذه القدرة الربانية لمجرد أنه يحب أن يبتليهم بشيء من هذا، ولكنه إنذارٌ لمن يُعرض نفسه إليه، فكل من ابتعد عن النذر التي يخوف الله بها عباده لن يصيبه منها أي جائحة، وإذا كان في المسلمين اليوم من يتسائلون عن سر هذا البلاء الذي أصابهم الله به تصديقاً لقول الله سبحانه وتعالى، أو تصديقاً لقول المصطفى صلى الله عليه وسلم، أو تصديقاً للوحي الذي تنزّل على رسول الله؛ والذي تضمن أن الله عز وجل لم يستجب لرسوله الدعاء الأخير أن لا يجعل بأس أمته فيما بين أفراده، فإنما ذلك من أجل معاصٍ شاعت فيما بينهم، ومن أجل سوءٍ تسرّب إلى صفوفهم، ومن أجل موبقاتٍ حلت فيما بينهم ثم لم تجد هذه الموبقات من ينهى عنها ومن يُذكر بضرورة التعاون في سبيل امتلاخها.

لما آل أمر هذه الأمة إلى هذه الحال ابتلى الله سبحانه وتعالى من شاء من أفرادها بهذا البلاء الذي توعد الله سبحانه وتعالى به.

وعد الله سبحانه وتعالى أن لا يهلك هذه الأمة بعذابٍ يهوي عليها من فوق كما أهلك أمم سابقة، ووعد الله هذه الأمة إذا تعرضت للبلاء أن لا يُهلكها بعذابٍ يتفجر من الأرض التي تمشي عليها كما فعل بأمم سابقة، ولكنها إن تعرضت لموجبات الهلاك فإن العذاب الذي توعدها الله عز وجل به هو أن يجعل بأسها فيما بينها، فإذا رأيتم اليوم صوراً لهذا البأس الذي يسري بين صفوف المسلمين، والذي يدور

داخل ساحة المسلمين وفيما بينهم في أي بقعة من بقاع العالم الإسلامي أو العالم العربي، فلتربطوا بين هذا الذي ترون وبين كلام الله سبحانه وتعالى وكلام سيدنا رسول الله عليه وسلم ودعائه الذي دعى به ربه سبحانه وتعالى، أي فلتعلموا أن البأس الذي يسري فيما بين المسلمين وأن الهرج والمرج الذي يدور رحاه في صفوف المسلمين إنما هو لسوءٍ قد صدر منهم، وإنما هو لموبقاتٍ تزايدت وتكاثرت فيما بينهم، ثم لم تجد هذه الموبقات من يحذر منها أو من ينهى عنها.

والمؤلم أيها الإخوة أن كثيرين هم الذين يرون ظاهرة هذا الهرج والمرج ظاهرة هذا البأس الذي تدور رحاه على المسلمين وبأيدي المسلمين، يرون هذا ثم لا يدركون الجذور الموصولة بها، يرون هذا ثم لايربطون بين هذه الظاهرة وبين كلام الله عز وجل وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم، لماذا لا نشم رائحة أكفنا؟ لماذا لا نتهم أنفسنا؟ لماذا نتصور أن يكون هذا البأس الذي تدور رحاه إنما تدور بين طرفين، طرف مجاهد يؤدي رسالة الله وطرف ينبغي أن تَنْبَّت جذوره وأن تُستأصل شأفته من الوجود الإسلامي لماذا؟ لماذا هذا التصور البعيد كل البعد عن كتاب الله وعن كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم.

إذا كانت هذه الفتن التي تسمعون عنها والتي آلت إلى حالٍ تُشيب الرؤوس، إذا كانت هذه الفتن التي تتفاقم يوماً بعد يوم، إذا كانت عبارة عن أمر يتم بين طرفين طرف يؤدي الواجب جهاداً فهو ينال الأجر بذلك من عند الله، وطرفٍ آخر ينبغي أن يُقَتّل وينبغي أن تراق دماؤهم لأنهم خارجون عن الدين وعن الملة، إذاً فهذا الواقع ليس داخلاً في الهرج والمرج الذي حدث عنه رسول الله، إذاً فهذا الذي نراه ليس داخلاً فيما توعد الله به هذه الأمة عندما توعدها أن يجعل بأسها فيما بينها، لأن معنى صدور البأس فيما بين المسلمين أن يكون كلا الطرفين مسلماً، وإلا فلا يمكن أن يصدق معنى كلام الله سبحانه وتعالى فيما يتصوره كثير من الناس اليوم.

لو أن هذه الفتن التي تسمعون عنها إن في الجزائر وإن في غير الجزائر، لو أنها كانت مبررة كما يتصور إلى اليوم بعض أصحاب الرعونات من الناس، لو كانت عبارة عن أمور مبررة لأن الذين يقومون بها إنما

يفعلون ذلك جهاداً، ولأن الذين تدور رحى الهلاك عليهم إنما هم أناسٌ خارجون عن الدين وعن الملة. إذاً فما معنى كلام الله ومعنى كلام رسول الله أن من علامات الساعة أن يجعل المسلمين فيما بينهم؟!

صدق رسول الله ولم تصدق الرعونات التي تطوف بأذهان كثيرٍ من الناس، هذا من البأس الذي تدور رحاه بين المسلمين، وهذا معنى الهرج والمرج الذي تحدث عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنبأ أنه شرطٌ وعلامة من علامات قيام الساعة.

ولو وقفنا عند هذا الكلام الذي يقوله الله عز وجل ويؤكده رسول الله صلى الله عليه وسلم، لعلمنا أن هذه الفتن التي تُقبل كإقبال سواد الليل المظلم المهلك، لعلمنا أن هذا ليس من الجهاد في شيء، وأن هذه الأطراف التي تدور عليها رحى هذه البأساء إن هي في مجموعها إلا مظهرٌ لكلام الله عز وجل: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾. وها هنا محل الشاهد: ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾، والخطاب للمسلمين هؤلاء مسلمون وأولئك مسلمون.

هذا المعنى أيها الإخوة يجب أن نتمثله جميعاً وإلا فإن المصيبة مزدوجة، المصيبة الأولى هي الرعونة في التفكير، وهي الإقبال على فقه هذا الدين وشرائع الله سبحانه وتعالى إقبال من يريد أن يلهو بها، وأن يعبث، وأن يجعل من هذه الشرائع كرة يقذفها حيث يتجه إليه هواه، ويبعدها عن المكان الذي لا يروق له ولا يروق لهواه، وعندما نحاول أن نجعل من شرعة الله سبحانه وتعالى لعبة في الأيدي فما أيسر لمن جعل من هواه إله له، ما أيسر أن يتلاعب بدين الله كما يشاء وأن يستنطق النصوص كما يحب، وهي مما يستنطقها بها بريئة.

في كل أسبوعٍ أو ثلاثة أسابيع يأتي من يسألني قائلاً: لماذا هذا السكوت الذي أطبق على أفواه علماء الدين تجاه هذه الفتن التي ضج لها العالم بأسره وما الجزائر إلا مثالاً أول، وفي صبيحة هذا اليوم جاء من يسألني ويكرر هذا السؤال على سمعي. أتدرون ماذا قلت أيها الإخوة؟ قلت: الذين ينبغي أن تستنطقوهم وأن تسألوهم الجواب ليس هؤلاء الذين يقولون صباح مساء – وأنا واحدٌ ممن قلت وكتبت وحذرت من هذا الذي يضج له العالم اليوم، حذرت من هذا الذي يبرأ منه دين الله أي دين كان، بل

تبرأ منه الإنسانية مهما كانت لغة هذه الإنسانية – ولكن إذا أردتم أن تستنطقوا الصامتين، فاستنطقوا الجماعات الإسلامية التي لا تزال صامتة إلى اليوم بدءً من كبرى هذه الجماعات إلى الجماعات الأخرى التي لها نظام ولها رئاسة، وتصدر عندما تشاء البيانات التي تعبر عن رأيها في مشاكل المسلمين وأوضاعهم وفي الحلول المطروحة لذلك.

لماذا تصمت هذه الجماعات اتجاه هذا الهرج والمرج كما قال رسول الله صمت الموت؟!

لماذا لا يصدر بيان لا أقول في الجزائر، لا بل في العالم العربي والإسلامي أجمع، لهم أفواه ناطقة، ولهم جرائد تتكلم بأسمائهم، ولهم منظمات دولية ذات شبكة تصل أنحاء العالم بعضها ببعض. فلماذا هذا الصمت؟ استنطقوا أولئك الصامتين. يُمكن أن يكون هنالك بيان وأياً كان البيان هو في الشكل متفق مع الإسلام، المهم أن يكون هنالك بيان، إما أن يضم هذا البيان قرار استنكار يقول هذا ليس من الدين في شيء فضلاً عن أن يكون من الجهاد، وإما أن يقولوا هذا من الدين. حسناً، فليصدر بياناً بهذا، إن كان هذا الذي يجري جهاداً في سبيل الله أي إن كان ذبح البرءاء الآمنين الأطفال الراقدين في حجور آبائهم وأمهاتهم من الجهاد، فليصدر بيان بهذا من الجماعات الإسلامية الرسمية حتى نعلم، وربما كان أكثر المسلمين جاهلين بهذا الأمر، والجاهل ينبغي أن يعلم. وإن كان هذا الأمر مخالفاً لدين الله. فلماذا لا نُصدر على أقل ما يجب نهي عن منكر. والمسلم الذي ينهض بما أمر الله عز وجل لابد أن تكون خطوته الأولى في عمله الإسلامي أمراً بمعروف ونهياً عن منكر. فلماذا لا تتحرك تلك الألسن بالنهي عن هذا المنكر؟ أما الصمت فما معناه في دين الله عز وجل؟

عندما أجد مشكلةً أمامي تستصرخني في بيان حكم الله عز وجل، وأنا الناطق باسم الله، وأنا الناطق باسم الدين، ثم أصمت. فمعنى ذلك أنني أصدر عن خيانة ما مثلها خيانة في دين الله سبحانه وتعالى. قل إما هذا الأمر جائز ودليل جوازه كذا وكذا وكذا، أو قل إن هذا الأمر غير مبرر وهو زيف متسرب إلى ضياء دين الله عز وجل ليلطخ صفحته الناصعة البيضاء بالسواد. أما الصمت المطبق الذي لا يزال مستمراً إلى هذا اليوم فتلك هي الأعجوبة التي لا يمكن أن تُبرر بحالٍ من الأحوال.

العالم يضج من أقصاه إلى أقصاه، وفيهم من يضج لهدف ولاستغلال حادثةٍ أو ظرف، وفيهم من يضج بدافعٍ من الشعور الإنساني، وفيهم من يعجب ويذهل كيف يتم هذا باسم دين الله سبحانه وتعالى، كل العالم يضج ضجيجاً ذا ألوانٍ متعددة، أما الجماعات الإسلامية التي ينبغي أن تكون هي أول من ينطق في بيان حكم الله في هذا الأمر، فإن الصمت المطبق عليها أمرٌ غريبٌ وعجيبٌ جداً.

وأعتقد أن بياناً لو صدر من الرسميين من هؤلاء الإسلاميين في أنحاء العالم العربي أجمع، إذاً لسارت هذه المشكلة في طريق الحل، ولاجتمعت الأمة إما على تصور أن هذا عمل إسلامي وإن كان تذبيحاً للبرءاء وربما كنا جاهلين، وإما أن يتبين من خلال البيان المطبق الجامع أن هذا الأمر لا يمكن أن يتفق مع دين الله، وعندئذٍ فإن الذين يتقنعون بقناع الإسلام تمزق أقنعتهم، وعندئذٍ يزول الغطاء الذي يتحركون تحت اسمه، ولكن لا يمكن أن يزول هذا الغطاء إلا ببيان، ولا يمكن أن يفيد البيان إن صدر من أفراد، وإنما يفيد البيان عندما يصدر من الجماعات التي تتحرك في خدمة الإسلام، والتي لها أنظمةٌ متشعبة متشابكة تفرض نفسها في العالم العربي والإسلامي كله.

أجل عندئذٍ سيزول الغطاء، ويتمزق القناع، ويتبين أن هؤلاء الذين يمارسون هذا العمل ليسوا من دين الله في شيء، وليسوا من الإسلام في شيءٍ أبداً، وإنما هم أناسٌ ينفذون خطة قرأناها منذ سنوات، وصدرت من قبل مجلس الأمن القومي الأمريكي منذ سنوات، هذا البيان الذي ينص ويهيب بأصدقاء أمريكا أن تستثار عوامل التناقض فيما بين المسلمين وأن تستثار عوامل الهرج والمرج فيما بينهم.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يتوب علينا حتى يعيدنا الله سبحانه وتعالى إلى ظلال الأمن والطمأنينة، وأسأله سبحانه أن يرفع عنا هذا البأس وأن يتوب علينا، وأن يجمع كلمتنا على ما يرضيه بدافعٍ من الإخلاص لدين الله سبحانه وتعالى، وأن لا نتأبط ونحن نمتطي دين الله سبحانه وتعالى أهدافاً لأنفسنا وأغراضاً لحياتنا الدنيوية، فلا والله لا يكون من يفعل ذلك إلا خائناً لكتاب الله سبحانه وتعالى ولسنة رسوله.

أقول قولي هذا واستغفر الله العظيم لي ولكم

٤٥٠- الجهاد الواجب على كل المسلمين | ١٩٩٧/١٠/٠٣

هنالك أنواعٌ كثيرة من الجهاد الذي أمر الله سبحانه وتعالى به، وهذه الأنواع المتعددة متفاوتةٌ في الاتساع ومتفاوتةٌ في الصلاحيات، أشمل أنواع هذه الجهاد كلها وأكثرها اتساعاً وارتباطاً بمسؤولية كل فردٍ فردٍ على حدة، جهاد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل هو القاعدة الجهادية العظمى التي يجب الانطلاق منها إلى سائر الأنواع الأخرى، وهو النوع الذي لا تتوقف شرعته على ولي أمر ولا على مسؤولٍ كبير وإنما ترتبط مسؤوليته بكل فردٍ فردٍ فردٍ من المسلمين على حدة.

وعلى الرغم من ظهور هذه الحقيقة وجلائها، فإن كثيراً من المسلمين تاهوا عن هذا المنطلق الأول وأعرضوا عنه في غمار تطلعهم إلى أنواعٍ أُخرى لا قبل لهم بها، ولا صلاحية لهم في معاناتها. وكأن الشيطان أراد أن يشغلهم عن هذا الواجب الجهادي المنوط بأعناق المسلمين كلهم، والذي منه تنقدح شرارة الإصلاح في المجتمع، كأن الشيطان أراد أن يجعلهم يُعرِضون هذه القاعدة أو ينسونها أو يتناسونها، فشغلهم بالنظر إلى البعيد البعيد الذي لا قبل لهم به ولا سبيل لوصولهم إليه، فقعد جُل المسلمين أو كلهم عن هذا الواجب الجهادي الأقدس ألا وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وكأنهم، لم يسمعوا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿الدين النصيحة قلنا لمن قال لكتاب الله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم﴾. وما النصيحة إلا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

أو كأنهم لم يسمعوا قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

وعندما نُذكر بعض الناس أو كلهم بهذا الواجب الجهادي الكبير يعتذر البعض منهم بعذرٍ يعجب منه العقل وتستغرب منه النُهى، يقول أحدهم: إننا لا نتمكن من القيام بهذا الواجب؛ فأفواهنا مكممة وإن أمرنا أو ذكرنا عوقبنا. يقولون هذا الكلام ويسعون سعيهم إلى ذلك العمل الجهادي الخطير الكبير جداً الذي دونه خرق القتاد، كأن ذلك العمل الجهادي مفتّحة أبوابه، وكأنه يُقال لهم: تعالوا فمرحباً

بكم، واحملوا أسلحتكم وافعلوا ما تشاؤون، فهذا النوع من الجهاد هو النوع المسموح به لكم، أما أن تُذكروا الناس بالمعروف وتنهوهم عن المنكر بكلامٍ مسالم وبحكمة متناهية وأن تصدعوا للحق فهذا ما لا قبل لكم به. أي عاقل يقبل هذا الكلام؟

الذي يغامر بحياته ولا يسأل: هل أُمكن من فعلي الذي سأقبل عليه أم لا؟ من باب أولى ينبغي أن يغامر بلسانه فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، أما أن يكون جباناً في النطق بكلمة حق مغموسة بالحكمة، ثم يكون جريئاً بالمغامرة بروحه، فأشهد ويشهد كل عاقل أن هذا ليس من الجهاد في شيء، وإنما هي رقية شيطان.

هذا التخبط الذي وقع فيه كثير من المسلمين هو الذي أفسد عليهم سلوكهم، وهو الذي نقلهم من حالةٍ من النظام والرؤية السليمة الدقيقة لميزان شرعة الله عز وجل، والفرق بين ما أمر به ونهى عنه إلى حالة من الفوضى والاضطراب نتيجة هذا الأمر الذي أقوله لكم.

هكذا يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿لتأمرن بالمعروف أو لتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم عذاباً من فوقكم لا ينتزعه منكم إلا أن تعودوا إلى الله سبحانه وتعالى﴾.

أيها الإخوة واجب الأمر بالمعروف والنهي واجب مقدس يتحمل مسؤوليته كل فرد مهما كانت ظروفه ومهما كانت قواه وقدرته، أقل الدوائر التي ينبغي عليه أن يمارس فيها هذا الواجب دائرة أهله وأسرته، ثم تليه بعد ذلك دائرة أصحابه وإخوانه ومن يلوذون به، وما منا إلا من هو قادرٌ على أن يتحرك ضمن هاتين الدائرتين، تليها الدائرة الثالثة ألا وهو توجيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لعامة المسلمين ولحكامهم وقادتهم، وإنما يتعلق هذا الواجب أولاً بمن علموا أحكام الشريعة الإسلامية في المسائل التي ينهضون للقيام بواجب الأمر بالمعروف فيها والنهي عن المنكر، ومن استطاعوا أن ينطقوا بهذا العمل الجهادي أمام عامة الناس أو أمام قادة المسلمين.

وقد لا يكون كل المسلمين قادرين على هذا، ولكن كثيراً من المسلمين يملكون ألسنةً ناطقةً بهذا الواجب، ومع ذلك فهم ساكتون، ويحلمون بذلك النوع الجهادي الآخر، وهذا شيءٌ عجيب جداً، وكأني

بالشيطان الذي يخطط هذا التخطيط يقهقه قهقهة شماته وقهقهة استهزاءٍ وسخرية من مسلمين آل بهم الغباء بل آل بهم التخبط إلى مثل هذه الحال.

أما أولئك الذين يقولون: إننا لو أمرنا بالمعروف ونهينا عن المنكر، ما هي إلا أيام ثم يحال بيننا وبين ذلك. فأحسب أن هذا التصور تصور خاطئ.

عندما يكون الإنسان منضبطاً بالحكمة بكلامه، فهذا هو الشرط الذي لابد منه، وعندما يكون منطلقاً من دافعٍ واحد هو دافع الحرقة على دين الله ودافع الوصول إلى رضى الله سبحانه وتعالى أي الإخلاص لوجه الله سبحانه وتعالى، وهذا هو الشرط الثاني. وعندما يتبين لعامة المسلمين أو لقادتهم أن هذا الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر لا يستخدم ذلك لحلم يحلم به، لا يُسخّر ذلك لرغبة من رغباته الدنيوية لزعامة يطرق بابها، لمال يبتغيه، لحكمٍ يسيل لعابه عليه، عندما يرى عامة المسلمين وقادتهم جزءٌ من عامتهم أن هذا الإنسان ينطلق بأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر من رغبة صافية في أن ينفذ أمر الله وأن يؤدي حق الله سبحانه وتعالى المستقر في عنقه، فلن تقع هذه الظنة التي يتصورها بعض الناس، لسوف تُقبل كلمات هؤلاء الآمرين والناهين ما دامت الحكمة موجودة، وما دام الإخلاص متوفراً، وما دامت الخلفيات مفقودة، أي الهدف واحد المتكلم زاهد في الحكم، زاهدٌ في الدنيا، زاهدٌ في كل الأهواء والشهوات والزعامات، كل ما هنالك أنه غيور على دين الله أن لا يختفي بريقه وسلطانه في المجتمع، شفوق على عباد الله أن لا يتيهوا عن صراط الله سبحانه وتعالى، سيجد الآذان الصاغية، وسيجد القلوب المتفتحة إن قُبل كلامه أم لم يُقبل، أقل مراتب القبول أن كلامه سيكون مسموعاً.

ولكن متى تكون الأخطار محدقةً بي عندما آمر بالمعروف أو أنهى عن المنكر؟ عندما أكون بعيداً عن الحكمة التي أمرني الله سبحانه وتعالى بها، عندما لا أكون مخلصاً لله وإنما أبتغي أن أُري الناس بطولتي كيف أنني قلت، وكيف أنني هددت وكيف أنني كنت جريئاً في الكلام، وكيف أنني كنت متهجماً على المسؤولين، أخرج من المسجد بعد هذا وأُصغي إلى إعجاب الناس بكلامي، وأصغي إلى مديحهم لي، فتتطوف النشوة في رأسي وأقول في نفسي: سأقول الأسبوع القادم كلاماً أقوى، وكلاماً يزيد اليقين ببطولتي

أكثر، عندما يكون هذا الهدف. الناس يشمون رائحة هدفي، ومن ثم لن يكون هنالك قبول، ومن ثم ربما أجد من يعارض ومن يعاقب.

ولكن عندما تكون الحكمة متوفرة وعندما يكون الإخلاص لله هو الدافع ولا دافع ثاني، وعندما لا أكون منطلقاً من خلفيات من رغبة في زعامة، من رغبة في حكم، من رغبة في مال، من رغبة في وجاهة... من أي ذلك. من هو الذي سيعارض؟ ومن هو هذا الذي لن يقبل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ لا سيما عندما يُقبل هذا إلى آذان الناس وإلى قلوبهم مضمخاً بلوعة الحب، مضمخاً بمعنى الشفقة على عباد الله، مضمخاً بمعنى الغيرة على دين الله سبحانه وتعالى.

أيها الإخوة في هذا العصر ينبغي أن يعلم المسلمون أن أوسع قاعدة جهادية ينطلقون منها – ولا أقول يحبسون أنفسهم بها – إنما هو جهاد الكلمة؛ جهاد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للبيت والأسرة وللأصدقاء والجيران والأتباع ولعامة الناس وقادتهم.

ولو أن هؤلاء الذين يتحركون هنا وهنا وهناك يطرقون باب أعلى نوعٍ من أنواع الجهاد؛ يريدون أن يصلوا إلى قمة الهرم دون أن يتحركوا من قاعدته إلى أعلاه، لو أن هؤلاء الناس تحركوا من قاعدة الهرم وقاموا بواجبهم فحققوا الدرجة الأولى منه، ثم انطلقوا إلى الدرجة الثانية عندما يدعوا الداعي، ثم إلى الدرجة الثالثة وهكذا.. لرأيت أن حال المسلمين كانت على أتم حال، ولرأيت أن سدى ولُحمة هذه الأمة كل ذلك لرأيته متماسكاً. ولكن ما السبب الذي جعل الناس يتيهون عن أحكامٍ بسيطة؟

كلنا يقرأ كلام الله عز وجل: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ فلماذا نُغمض العين عن هذا الكلام ونصم آذاننا عن فهمه؟ السبب أيها الإخوة أن معنى الإخلاص لوجه الله سبحانه وتعالى قد أُجتث من أفئدتنا، أصبحت هنالك أهداف أخرى، هذا يسعى من أجل زعامة، هذا يحلم بحكم وهذا يحلم بمال، أمنيات كثيرة... كلٌ يغني على ليلاه، ولكن كلٌ يعلم أن خير مطية تُمطى للوصول إلى هدفه إنما هي مطية الدين، هذه المطية غدت مطية ذلولة لكل أصحاب

الأهواء لكل أصحاب الشهوات لكل أصحاب الرعونات المختلفة، ومن ثم كثرت التحركات الإسلامية وتنظر إلى النتائج فلا ترى أي نتيجة تنتظر.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يوقظنا إلى هذه الحقيقة التي أقولها، وما الصحوة الإسلامية أن يفتح الإنسان عينيه إلى أمورٍ حركية تتعلق بالإسلام، وإنما الصحوة الحقيقية أن يعود الإنسان فيتلمس مكان الإخلاص لله سبحانه وتعالى بين جوانحه فيغرس جذوة الإخلاص هذه، وإذا بقلبه يتحرق على دين الله، وإذا بفؤاده يرتبط بالله حباً وخوفاً مهابة تبجيلاً تعظيماً، وعندئذٍ ينطلق فيتحقق بأول وأقدس وأوسع أنواع الجهاد كلما رأى منكراً نهى عنه بالحكمة والموعظة الحسنة، ومخلصاً لله سبحانه وتعالى، ولسوف يجد أن الله عز وجل يسكب في قلوب الناس بدءاً من أعلى القمم إلى القاعدة الشعبية؛ يسكب معنى الرضى بكلامه ومعنى التأثر بأمره أو نهيه عرف هذا من عرف وجهله من جهل.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.


الشام والفتن

٤٥١- الشّام محصّنةٌ ضدَّ الفتن بطلبةِ العلم الشّرعيّ | ٢٠٠٤/٠٢/٢٠

لقد شاءَ اللهُ سبحانهُ وتعالى ببالغِ حكمته أن يفاوتَ بينَ الأزمنةِ في الفضل، كما شاءَ أن يفاوتَ بينَ الأمكنةِ أيضاً في الفضل. وللهِ عزَّ وجلَّ في ذلكَ حكمةٌ بالغة، هذا معَ العلم بأنَّ الأزمنة بحدِّ ذاتها لا تختلف، وبأنَّ الأمكنةَ أيضاً بحدِّ ذاتها لا تتفاوت، ولكنّهُ تجلٍّ من تجلّياتِ اللهِ سبحانهُ وتعالى، يتّجهُ إلى بعضِ الأزمنة فتعلوا وتمتازُ عن غيرها، ويتّجهُ إلى بعضِ الأمكنة فتعلوا وتمتازُ هذه الأمكنةُ عمّا سواها.

ومن أفضلِ البقاع التي ميّزها اللهُ سبحانهُ وتعالى عن سائرِ بقاعِ الدنيا، أرضُ الشام. تلكَ التي نوّهَ البيانُ الإلهيُّ بفضلها، إذ قال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾.

تحدَّثَ البيانُ الإلهيُّ عنِ الأرضِ المحيطة بالمسجدِ الأقصى، ونبّهَ إلى البركة التي ميّزها اللهُ سبحانه وتعالى بها عمّا سواها، تلكَ هي الأرض التي قالَ اللهُ سبحانهُ وتعالى عن سيّدنا إبراهيم: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾، هيَ أرضُ الشّامِ هذه.

وانظروا أيها الإخوة إلى قولهِ: ﴿بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾، فهيَ ليست بركةً محصورةً لأهلها، وإنما هي بركةٌ متعدّيةٌ متجاوزة تشعّ بنورِ الهدايةِ والعرفان لسائرِ الوافدينَ إليها، ولا شكَّ أنَّ المصطفى صلى اللهُ عليهِ وسلّم نوّهَ بأحاديثَ كثيرة عن فضلِ الشّام، بل تحدّثَ عن فضلِ دمشقَ هذه التي هي قلبُ الشام، ومن أصح ما وردَ في فضلِ الشّامِ قولُ المصطفى صلى اللهُ عليهِ وسلّم: ﴿بينا أنا نائم إذ استلبَ عمودُ الإسلامِ من تحتِ رأسي، فأتبعتهُ بصري فإذا هو نورٌ ساطعٌ في بلادِ الشام، ألا إنَّ الأمنَ والأمانَ عندما تكونُ الفتن: في الشام﴾، ولقد صحَّ عن المصطفى صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ قوله: ﴿فسطاطُ المسلمينَ يومَ الملحمةِ الكبرى على أرضٍ يقالُ لها الغوطة، إلى جانبها مدينةٌ اسمها دمشق، هي خيرُ منازلِ المسلمين يومَئذٍ﴾.

ومن مظاهرِ هذه البركة التي نوّهَ بها كتابُ اللهِ عزَّ وجل، ونبّهَ إليها سيّدنا رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلّم، أنَّ اللهَ عزَّ وجلّ جعلَ البلدَ الحرامَ مهوى قلوبِ المسلمين، وجعلَ الشّام مهوى عقولِ المسلمين، فإذا كانت عواطفُ المسلمين تتجه من مشارقِ الأرض ومغاربها إلى بيتِ اللهِ الحرام، لتكتحل بمرأى بيتِ اللهِ الحرام، فإنَّ عقولَ المسلمين مشرّقةً ومغرّبة، تتجهُ إلى بلادِ الشام لتنهلَ من علومِ الشريعة. لتنهلَ من معاني كتابِ الله سبحانهُ وتعالى، وجعلَ هذا معنىً من معاني قولِ اللهِ تعالى: ﴿بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾.

فهي ليست بركةً كما قلتُ لكم محصورة في أهل الشّام، وإنما هي بركةٌ تشعُّ بالعلم والعرفان، تشعُّ إلى العالَمِ شرقهِ وغربه وشمالهِ وجنوبه.

وإنَّ من مظاهرِ هذه البركة، بل من مظاهرِ هذه المزيّة التي ميّزَ اللهُ عزَّ وجلَّ بها شامنا هذه، بل هذه البلدة بذاتها: ما ترونهُ جميعاً، من أنَّ هذه الأرض غدتْ ملتقىً للمسلمينَ من أقطارِ الأرضِ جمعاء، تجدُ فيها من جاءَ من الصّين، من جاءَ من مختلفِ بقاعِ جنوبِ شرقيّ آسيا، تجد فيها من جاءَ من مختلف بقاع أفريقيا، تجد فيها من جاء من شمالِ أفريقيا، تجد فيها الوافدين إليها من أوروبا، ومن أمريكا، كلّهم جاؤوا لغرضٍ واحد، جاؤوا ينهلونَ علوم الشريعة، جاؤوا يتعرّفونَ على دينِ الله سبحانهُ وتعالى، ولماذا إلى الشامِ دونَ غيرها؟ ولماذا ننظر فنجد أنَّ أرضَ الشّامِ غدت وعاءً لهذه العقول الجائعة، المتعطّشة لمعرفةِ دينِ اللهِ عزَّ وجل؟ هنالكَ السّر، جذبهم إلى هذه الأرض، إنّهُ البركة التي نوّهَ بها بيانُ اللهِ تباركَ وتعالى، إنّهُ المعنى الذي أوضحهُ لنا المصطفى صلى اللهُ عليهِ وعلى آلهِ وسلّم.

أقولُ هذا أيها الإخوة، لأهنئَ نفسي، وأهنئَ أهل الشام بهذه المزيّة، التي ميّزَ اللهُ سبحانهُ وتعالى بها هذه الأرض، وكرّرَ التّنبيهَ إلى ذلك في محكم تبيانه، ولا شكّ أنَّ السّبب الذي جعلَ الأمنَ والأمان يكونان موفورين في أرضِ الشام عندما تدلهمُّ الفتن، إنما سببُ ذلكَ هذا الذي أقولهُ لكم، كيف يمكن لأرضٍ تحتضنُ الوافدين الذينَ جاؤوا ينتجعون معرفةَ الدّين؟ جاؤوا عطاشاً ظامئين يريدونَ أن يتعرّفوا على كتابِ الله، يريدوا أن يدرسوا شريعةَ الله سبحانهُ وتعالى، كيفَ يمكنُ لهذه الأرض إذ تستقبلهم بتكريم، وإذ

تحتضنهم، وإذ تهيّءُ لهم سبلَ المعرفة، وإذ تهيّءُ لهم طمأنينةَ العيش، كيفَ يمكنُ لهذه الأرض أن تغدوَ مكاناً للفتن؟ لا، إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ أرحمُ بأهلِ الشّامِ من ذلك.

هذا هو السّبب، أرأيتم إلى الأرض التي قضى اللهُ عزَّ وجلَّ أن يربّى فيها حبيبنا المصطفى رضيعاً، كيفَ غدت تلكَ الأرض التي احتضنت حبيبنا المصطفى صلى الله عليه وسلّم مخضرَّةً يانعةً ممرعة بعدَ أن كانت قاحلة، لأنها حنت على المصطفى صلّى اللهُ عليه وسلّم، أرضُ الشّام هذه، التي شاءَ اللهُ سبحانهُ وتعالى أن تكونَ ملتقىً للوافدينَ لطلبِ العلم الشّرعيّ المقرِّب إلى الله عزَّ وجل، لا بدَّ أن يكافئَ اللهُ أهلها بهذا الذي قالهُ المصطفى صلى اللهُ عليه وسلّم: ﴿ألا إنَّ الأمنَ والأمان عندما تكونُ الفتن: في الشّام﴾.

وانظروا أيها الإخوة إلى أهميّةِ طلبِ العلم، وإلى فضيلةِ طالبِ العلم، وإلى النّورِ الذي يشعُّ معهُ أينما وُجد وحيثما ارتحل. يروي أبو الدرداء عن حبيبنا المصطفى صلى الله عليه وعلى آله وسلّم أنّهُ قالَ فيما رواهُ الترمذيُّ وابنُ ماجه وأبو داوود والبيهقيّ بأسانيدَ صحيحة: ﴿من سلكَ طريقاً إلى العلم، سهَّلَ اللهُ بهِ طريقاً إلى الجنّة، وإنَّ الملائكة لتضعُ أجنحتها لطالبِ العلم رضاً بما يصنع﴾.

وانظر إلى موقفِ المصطفى صلى اللهُ عليه وسلّم ممّن جاءَ وافداً يطلبُ العلم، وانظروا كيفَ كان يوصي حبيبنا المصطفى صلى الله عليه وسلّم باستقبالِ طالبِ العلمِ خيرَ استقبال، يقولُ صفوانُ بنُ عسّال رضي اللهُ عنه فيما رواهُ الإمامُ أحمد وابنُ حِبّان والحاكمُ في مستدركه: ﴿جئتُ إلى رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم وكانَ متكئاً على بردٍ لهُ أحمر، فقلتُ لهُ: يا رسولَ الله جئتُ أطلبُ العلم، فقال: مرحباً بطالبِ العلم، مرحباً بطالبِ العلم، إنَّ الملائكةَ لتحفُّ بأجنحتها طالبَ العلم﴾.

وانظروا أيها الإخوة إلى هذا الذي يقولهُ المصطفى صلى اللهُ عليه وسلّم مؤكّداً لهذه الحقيقة فيما يرويهِ أبو أمامة عن المصطفى صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنّهُ قال: ﴿فضلُ العالمِ على العابد، كفضلي على أدناكم، وإنَّ الملائكةَ وأهلَ السّماواتِ وأهلَ الأرض، حتّى النّملةَ في جحرها، وحتّى الحيتان، لتصلّي على معلِّمِ النّاسِ الخير﴾.

فليهنأ أهلُ الشّام، الذينَ شاءَ اللهُ عزَّ وجلّ أن يوفِدَ لهم أو إليهم هؤلاء الظّامئونَ لدراسةِ الدّين، هؤلاء الظامئون لدراسةِ الشّريعة، ليهنؤوا باستقبالهم لهم، وبتعليمهم الخير الذي جاءَ بهِ كتابُ اللهِ سبحانهُ وتعالى، والذي جاءت بهِ سنّةُ المصطفى صلّى اللهُ عليه وسلّم.

بلادُ الشّامِ هذه، كانت ولا تزالُ إن شاءَ الله وبحمدِ الله تستقبلُ هؤلاءِ الوافدين، على ثلاثِ درجاتٍ من التأكيد، تقدّمُ لهُم المعونةَ المادّيّة، ليعيشوا مطمئنينَ آمنين، لا يهمهم إلا أن يتّجهوا بأفكارهم إلى الشّريعةِ التي جاؤوا ليتعلّموها، وتتفتَّحُ لهم أبوابُ المعاهدِ الشّرعيّة لتقولَ لهم مرحباً كما قال المصطفى صلى اللهُ عليهِ وسلّم: ﴿مرحباً بطالبِ العلم﴾، وتيسّرُ لهم الدّولة الإقامةَ الآمنةَ المطمئنّة، كلٌّ يعبّرُ بهذا عن ترحابهِ سيراً وراءَ حبيبنا المصطفى، واتّباعاً لترحيبِ المصطفى صلى اللهُ عليه وسلّم بهؤلاء الذين شاءَ اللهُ أن يميّزَ أهل الشّامِ بهم.

وهنا أقولُ لكم شيئاً: أعلمهُ وأعلمُ دلائله، عرفَ ذلكَ من عرف وجهلَ ذلكَ من جهل، إنَّ هذه الشّام محصّنةٌ ضدَّ الفتن، وضدَّ كلِّ الخطط التي يرمي بها أعداءُ اللهِ سبحانهُ وتعالى إلى الإساءةِ لأهلها، شامُنا هذه محصّنةٌ بحصنٍ غيرِ مرئيّ، وهوَ أجلُّ وأهمُّ بكثيرٍ من كثيرٍ من الحصونِ المرئيّة، أتعلمونَ ما هو هذا الحصن؟

إنّهُ الحصنُ الذي يتمثّلُ في هذا الذي قلتهُ لكم، عندما شاءَ اللهُ عزَّ وجلّ أن تكونَ هذه الأرضُ مباركةً، وعندما جاءَ تفسيرُ البركةِ هذه بهذا الذي قلتهُ لكم، جعلها اللهُ منتجعاً لطلبِ العلم، جعلها اللهُ معيناً للظامئينَ لدراسةِ الشّريعة، جعلها اللهُ معيناً للوافدينَ المتشوّقين إلى معرفةِ اللهِ سبحانهُ وتعالى، ثمَّ إنَّ هذه البلدةَ أخذت تفيضُ وتفيضُ وتفيض، بهؤلاءِ الشّباب الذينَ رحلوا تاركينَ أوطانهم، تاركينَ أهليهم، تاركينَ ربّما زوجاتهم، تاركينَ دنياهم، ليعانقوا دينَ الله متعلّمين، وليجدوا الأملَ المزدهر في هذه البلدة.

بلدةٌ تستقبلُ هؤلاءِ الوافدين، وتعطيهم الحقائقَ التي جاؤوا من أجلها، لا يمكن أن تتسرّبَ إليها الفتن، هذا هو الحصن الغيرُ المرئيّ، وإنّي لأسألُ اللهَ عزَّ وجلّ أن يبقى هذا الحصنُ قائماً، وإنّي لأحذّر من أن يُزهَقَ هذا الحصن فتتسرَّبَ الفتن، ولقد كانت شامنا هذه ولا تزالُ بحمدِ الله سبحانهُ وفضله

مكلوءةً بعينٍ متميّزة من عنايةِ الله عزَّ وجلّ، وأقولُ باسمي وباسمِ أهلِ الشّامِ جميعاً على جميعِ المستويات، ما قالهُ المصطفى صلى الله عليه وسلّمَ لصفوانَ بنِ عسّال رضي اللهُ عنه، أقولُ لخلفائه مرحباً بطلبةِ العلم، مرحباً بطلبةِ العلم، مرحباً بطلبةِ العلم الشّرعيّ. أقولُ قولي هذا وأستغفرُ اللهَ العظيم.



٤٥٢- الشام فسطاط المسلمين يوم الملحمة الكبرى | ٢٠١٠/٠٩/١٠

سيكون محور حديثي اليوم إليكم كلمة قالها رئيس جمهوريتنا الغالية في موقف من المواقف فذهبت كلمته مثلاً. قال: الشام الله حاميها. هذه الكلمة ترجمة دقيقة لآياتٍ في كتاب الله عز وجل وأحاديث صحيحة ثبتت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

أما الآيات فمنها قول الله سبحانه وتعالى عن سيدنا إبراهيم بعد أن ابتلاه الله عز وجل بنيران نمرود، قال: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١] إنها الشام باتفاق المفسرين.

وأما الأحاديث فكثيرة منها ما رواه أبو داود وابن حبان والحاكم على شرط الشيخين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سُئِل عن خير منزل يلجأ إليه الإنسان عندما تدلهم الفتن فقال صلى الله عليه وسلم عليك بالشام فإنها خيرة الله من أرضه يجتبي إليها – أي يصطفي إليها – خيرته من عباده وإن الله تكفَّل لي بالشام وأهله.

وقد صح أيضاً أن حذيفة بن اليمان ومعاذ بن جبل سألا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الملاذ الذي يمكن يلجأ إليه إذا اشتدت الفتن واتسع أوارها فأومأ إلى الشام، عادا يسألانه فأومأ إلى الشام وقال: عليكما بالشام فإنها خير أرض الله عز وجل وإن الله يسكنها خير عباده.

وقد صح أيضاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه الحاكم بسندٍ صحيح أنه صلى الله عليه وسلم قال: ﴿بينا أنا نائم إذ استُلِبَ عمود الكتاب من تحت وسادتي فأتبعته بصري فإذا هو نور ساطع عُهِدَ به إلى الشام، ألا إن الأمن والأمان عندما تكون الفتن في الشام﴾.

ولقد علمنا أن قلب الشام إنما هو دمشق وما حولها فقد قال المصطفى صلى الله عليه وسلم فيما صح عنه: ﴿فسطاط المسلمين يوم الملحمة الكبرى على أرضٍ يُقَالُ لها الغوطة إلى جانبها مدينة اسمها دمشق هي خير منازل المسلمين﴾.

عباد الله: ينبغي أن تلاحظوا أن الأفضلية التي يعلنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليست لأرض الشام من حيث أنها تربة، من حيث أنها حجارة وصخور فتراب الأرض شيء واحد، لا تختلف حجارة الأرض وأتربتها ما بين مكان ومكان قط وإنما الخيرية لمن يجتبيهم الله سبحانه وتعالى إليها، يجتبي إليها خيرته من عباده، هذا ما يعنيه كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا كانت هنالك أفضلية للشام أو لدمشق فلأن الله عز وجل يُسْكِنُ فيها خير عباده. ومن ثم فإن الناس إذا تحدثوا عن الإرهاب الذي ترفضه شريعة الله عز وجل والذي لا يتفق مع موازين القيم الإنسانية فإن الشام أبعد ما تكون عن الإرهاب، وإذا تحدَّث الناس عن الإفراط والتفريط والغلو فلنعلم أن هذه الشام التي تحدث عنها رسول صلى الله عليه وسلم ما سمعتم أبعد البلاد كلها عن الغلو وعن الإفراط والتفريط في فهم الإسلام أو في السلوك الإسلامي

وعندما نتحدث عن التربية النسائية والتزام المرأة بشريعة الله عز وجل باعتدال دون إفراط ولا تفريط، بعيداً عن الغلو وبعيداً عن الانحراف فلنعلم أن المرأة التي جباها الله عز وجل في أرض الشام لاسيما في قلب الشام دمشق هي مضرب المثل لهذه الاستقامة ولهذه التربية ولهذا السير على صراط الله عز وجل.

وإذا أردنا أن نبحث عن النفاق الذي يتجلى ظاهره بشكل ويستبطن شكلاً آخر ومعنى آخر فلنعلم – كما أوضح المصطفى صلى الله عليه وسلم – أن شامنا هذه أبعد ما تكون عن أولئك الناس الذين يضمرون بين جوانحهم معنى ويُظْهِرُون للناس معنى خلافه.

أليس هذا من مقتضى كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذا كان الذين يعيشون في هذه الأرض المباركة قد اجتباهم الله عز وجل إليها ومن ثم فهم خيرة الله من عباده إذاً فهم مضرب المثل في البعد عن الإرهاب الذي يُحَذِّرُ الإسلام وتُحَذِّرُ منه شريعة الله عز وجل، وهم مضرب المثل في الالتزام الواعي البعيد عن الغلو والبعيد عن الإفراط والتفريط، وهنَّ مضرب المثل في الأخلاق الإسلامية الرضية وفي السلوك الإسلامي السليم وفي المظهر الإسلامي السليم، هذا معنى كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك هو مضمون شهادة المصطفى صلى الله عليه وسلم لأهل الشام ولأهل دمشق بالذات.

عباد الله: إن الزمن الذي انطوى ومرَّ من التاريخ القصي إلى يومنا الحاضر خير شاهد على كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمن طاف في بلاد الله سبحانه وتعالى مشرقاً ومغرباً ثم عاد إلى هنا وجد أن الوعي الإسلامي يُسْتَنْبَتُ هنا وأن الالتزام الإسلامي السليم إنما يستقر هنا وأن التربية المثلى التي تُنَشَّأُ في ظلالها الأجيال ذكوراً وإناثاً إنما هي هنا نعم.

هذه الحقيقة ينبغي أن نتبينها، وينبغي أن أقول لكم شيئاً نرفع الرأس به عالياً، الزمان يرفع الرأس به عالياً، والمكان – الذي هو سورية – يرفع الرأس به عالياً.

لا يعهد التاريخ العربي الإسلامي منذ بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نسوة أو امرأة حفظت صحيح البخاري كله بأسانيده وصحيح مسلم كله بأسانيده وبعضاً من السنن الأخرى، لا يعي التاريخ أن هذا تم لا في عصر الصحابة ولا التابعين ولا من بعدهم ولكن التاريخ أن هذا تم من حيث الزمان في هذا العصر ومن حيث المكان في سورية، فلنعلم أن هنالك فتياتٍ شاء الله عز وجل أن يكرمهن بهذا التوفيق العجيب، صحيح البخاري كله من ظهر قلب سنداً ومتناً، صحيح مسلم كله من ظهر قلب سنداً ومتناً، وأنا واحدٌ ممن كان لا يُصَدِّق ولكني أخضعت هؤلاء اللائي وفقهن الله سبحانه وتعالى للهم العجيب، أخضعتهن للامتحان وإذا بالأعجوبة التي أكرم الله بها شامنا قد تحققت.

هذه الحقيقة التي أقولها لكم هي ترجمة مفصلة نوعاً ما لكلمة قالها الرئيس في موقف من المواقف فذهبت فعلاً مثلاً وحكمة.

والعبرة التي ينبغي أن نقطفها من هذا الكلام أيها الإخوة هي أنه ينبغي أن نعتز بهذه النخبة التي أقامها الله سبحانه وتعالى في شامنا، بهذه النخبة التي اجتباها الله عز وجل في شامنا، ينبغي أن نرفع الرأس بها عالياً، قارنوا وتجدون صدق ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما ينبغي أن نحاول أن نجتث الثقة بالناس الذين اجتباهم الله عز وجل في بلدنا هذا بأي وسيلة من الوسائل.

مرَّةً أخرى أقول أيها الإخوة ليهنأ كل من أقامه الله عز وجل من أرضه الواسعة في شامنا هذه، ليهنأ لأنه من المجتبين الذين تحدث عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، أما من هم أقل من القليل بل هم أقل من القليل القليل فأسأل الله سبحانه وتعالى أن يهدينا وأن يهديهم إلى سواء صراطه المستقيم.

هذه نعمة من النعم التي أكرمنا الله بها، ومن ثم فأنا أقول إن المكائد التي تُحاكُ ضدنا آتيةً من الغرب أو من الشرق أو من أي جهةٍ أخرى لن يكون لها أي أثر ولن تكون نتيجتها إلا أن تتحول إلى سهام ترتد إلى صدور من يحيكون هذه المؤامرة ضد أمن هذه البلدة، ضد اجتماع هذه الأمة على كلمة سواء، ضد اللحمة الوطنية التي تتمتع هذه الأمة في هذه البلدة.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.



٤٥٣- لن يغلبَ منافقو الشّامِ صالِحيها

حديثٌ معروفٌ مرويٌّ عن رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كثيراً ما وقفتُ عندهُ متسائلاً، هو قولهُ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم: ﴿لن يغلِبَ منافقو الشّامِ صالحِيها، وحرامٌ على منافقِيها أن يموتوا إلّا همّاً وغمّاً وكمداً﴾.

كثيراً ما تساءَلت: ولماذا كانَ المنافقونَ في الشّام؟ ولم نعلم أنَّ النّبيَّ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ تحدَّثَ عن صراعٍ يجري بينَ المنافقينَ وغيرِهم كما تحدَّثَ عن ذلكَ في الشّام، وهذا يعني –على الرّغم من ثناءِ رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ على الشّام–، هوَ يعني أنَّ في الشّامِ منافقينَ كثيرين.

ولكم تساءَلت: أينَ هم هؤلاءِ المنافقون؟ ولماذا حذَّرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في الوقتِ الذي بشَّرَ أنَّ هؤلاءِ المنافقينَ لن يغلبوا الصّادقينَ والصّالحين؟ ولكنّي أنظرُ أيُّها الإخوة كما ينظرُ كلُّ إنسانٍ إلى الوقائعِ التي تجري في شامِنا هذه، فنجدُ يوماً بعدَ يومٍ مصداقَ كلامِ رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يتجلّى بل ويزدادُ جلاءً، بل إنَّ هذهِ الحقيقةَ لتزدادُ وضوحاً في المناسبات، وكلُّكم يعلمُ أنّهُ ما من فترةٍ تمرُّ في العامِ إلّا وتجدُّ فيهِ مناسبةٌ تتعالى فيها الأصواتُ تدّعي الوطنيّة، تدّعي التّحرُّقَ على المبادئِ والقيَم، تدّعي التّحرُّقَ على الحقوق، وآخرُ مناسبةٍ مرّت هيَ هذهِ المناسبةُ المباركةُ التي لا نزالُ بصددِها: مناسبةُ الحركةِ التّصحيحيّة.

عندما نصغي إلى الكلماتِ التي تقالُ والتي تُدَبَّجُ في مثلِ هذهِ المناسبةِ يخيَّلُ إلينا أنَّ الشّامَ تفورُ بالصّالحين، بالمضحّين، بالمستنكرينَ لذواتهم، يخيَّلُ إليكَ وأنت تصغي لهذهِ الكلماتِ المتوهّجةِ المتوقّدةِ الضّخمةِ الكبيرة، يخيَّلُ إليكَ أنَّ شامنا هذهِ تفورُ بكلِّ إنسانٍ وضعَ حياتَهُ على كفِّهِ مضحّياً بها في سبيلِ القِيَمِ وفي سبيلِ الحقِّ وفي سبيلِ الوطنِ وفي سبيلِ الأرض، بل يخيَّلُ إليكَ أنَّ كلَّ واحدٍ من هؤلاءِ النّاسِ قد تجرَّدَ من مالهِ وتجرَّدَ من كلِّ ممتلكاتهِ ووضعَ ذلكَ كلَّهُ فداءً لهذهِ المبادئِ والقيَم، فداءً للحقِّ الذي يأبى إلّا أن يحرسَهُ ليلَ نهار. هكذا يبدو، وهكذا تنطقُ الكلماتُ التي تقالُ في مثلِ هذهِ المناسبات.

حتّى إذا طويَ ملفُّ الحديثِ وانتهتِ الاحتفالاتُ والاحتفاءات، وذهبَ دورُ الكلامِ وجاءَ دورُ العملِ والتّنفيذِ نظرتَ فوجدتَ أمراً مناقضاً: وجدتَ أنَّ الحقوقَ تُغدَرُ مقبلَ عَرَضٍ منَ الدّنيا قليل، بل وجدتَ أنَّ القوانينَ التي ينبغي أن تنفَّذَ وأن تكونَ سياجاً للعدالة، تجدُ أنَّ القوانينَ تذوَّبُ وتذوَّبُ من أجلِ عَرَضٍ منَ الدّنيا يسيلُ عليهِ اللُعاب، ولم يعُد هنالكَ قانونٌ يُقَدَّسُ ولا شِرعةٌ تُستَعلى، كلُّ ذلكَ يمكنُ أن يذوبَ ويزولَ في سبيلِ عَرَضٍ منَ المالِ في سائرِ المناسباتِ وعلى كلِّ المستويات.

وتقابلُ وتقارنُ في ذهنِكَ بينَ ذلكَ الكلامِ الذي يعبِّرُ عن التّضحية، ويعبِّرُ عنِ الفداء، ويعبِّرُ عن أنَّ أصحابَ هذهِ الكلماتِ متجرِّدونَ عن أرواحِهم وعن أموالهم في سبيلِ الحقِّ المتمثِّلِ في المبادئِ والمتمثِّلِ بالقيمِ والمتمثِّلِ في الأرضِ والوطن.. ثمَّ إنّكَ تنظرُ إلى السّلوكِ وإلى الواقعِ وإذا بالحقوقِ ميتّمة، وإذا بالمبادئِ والقيَمِ غريبةٌ لا يتعرَّفُ عليها في ساحةِ التّسابقِ إلى الأموال، إلى الشّهوات، لا يتعرَّفُ عليها أحد. كانَ ذلكَ على منابرِ الحديث، أمّا عندَ الواقعِ والسّلوكِ فكلُّ ذلكَ يُضحي غريباً، وكلُّ ذلكَ يصبحُ يتيماً، والكعبةُ الوحيدةُ التي يطوفُ الكلُّ -إلا من رحمَ ربُّكَ- حولَها إنّما هيَ كعبةُ الأموالِ بأيِّ طريقةٍ جاءت، إنّما هيَ كعبةُ الشّهوات، إنّما هيَ كعبةُ الأمزجةِ والأهواء، هنا أتذكَّرُ كلامَ رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم: ﴿لن يغلبَ منافقو الشّامِ صالحيها، وحرامٌ على منافقيها أن يموتوا إلا همّاً وغمّاً وكمداً﴾.

إنَّ الإنسانَ الصّالحَ – وهيَ الكلمةُ التي يستعملُها رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ- هوَ الإنسانُ الصّادق، هوَ الإنسانُ الذي يوافقُ لسانُهُ فؤادَه، فإذا وقفَ يقولُ: نحنُ نضعُ أرواحنا على أكُفِّنا ونضعُ أموالَنا أيضاً فداءً للقيَمِ والمبادئِ والحقوقِ التي ينبغي أن نكونَ حرّاساً عليها، الإنسانُ الصّالحُ في اصطلاحِ سيِّدِنا رسولِ اللهِ هوَ ذلكَ الذي يوافقُ قلبُهُ لسانَه، ومن ثمَّ فلا بدَّ أن يوافقَ سلوكهُ حديثه.

وإذا نظرنا فوجدنا أنَّ الحقوق، أنَّ القوانين، أنَّ مبادئَ العدالةِ تمزَّقُ وتغدَرُ في سبيلِ من يقدِّمُ الأكثرَ منَ المال، وجدنا أنفسَنا أمامَ الفريقِ الأوَّلِ الذي تحدَّثَ عنهُ رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم: ﴿لن يغلبَ منافقو الشّامِ صالحِيها﴾. ولكن عزاؤنا أيُّها الإخوةُ هوَ الشِّقُّ الثّاني من كلامِ رسولِ الله، نعم هنالكَ منافقونَ ولكن كلامُ رسولِ اللهِ صدقٌ وحقٌّ ولا بدَّ أن ينفَّذْ، لا بدَّ أن يتغلَّبَ الصّالحونَ في الشّامِ على

المنافقين، لا بدَّ أن يتغلَّبَ الصّالحونَ الذينَ يضحّونَ فعلاً في سبيلِ المبادئِ والقيَمِ بأرواحهم وأموالهم عندما يقتضي الأمر وبكلِّ ما يملكون، لأنَّ هؤلاءِ الصّالحينَ يعلمونَ أنَّ الرّوحَ لا وجودَ لها في حالةٍ منَ الطّمأنينةِ التّامّة، وأنَّ المالَ والغنى لا وجودَ لهما محصَّنَينِ ملكاً لهذا الإنسانِ إلّا إذا كانت ثمَّةَ تضحيةٌ بالرّوحِ وبالمالِ نفسهِ في سبيلِ المبادئِ والقيَمِ وفي سبيلِ الحقّ. هؤلاءِ الصّالحونَ يعلمونَ هذهِ الحقيقة، وهؤلاءِ الصّالحونَ إذا تكلَّمَ أحدهم وتحدَّثَ في مناسبةٍ منَ المناسباتِ كمناسبةِ الحركةِ التّصحيحيّةِ التي كانت ولا تزالُ بحمدِ اللهِ مباركةً فإنّهم يعلمونَ كيفَ يضعونَ النّقاطَ على الحروف، يعلمونَ كيفَ يجعلونَ من الفعلِ تصديقاً للكلام، يقولونَ هذا على منبرِ الحديث.

ثمَّ إذا تحوَّلوا إلى العملِ والسّلوكِ وجاءتهُمُ الأموالُ من هنا وهناكَ في سبيلِ أن يغضّوا النّظرَ عنِ القوانينِ قوانينِ العدالة، وفي سبيلِ أن يغضّوا النّظرَ عنِ المبادئِ والقيَم، ركلوا المالَ بأقدامهم، وتعشَّقوا المبادئَ والقيَمَ التي أقاموا أنفسَهم وأقامهمُ اللهُ سبحانهُ وتعالى حرّاساً عليها، من هم؟ وأينَ هم هؤلاء؟ نحنُ مطمئنّونَ إلى أنّهم موجودون، ألم يقل رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: ﴿لن يغلبَ منافقو الشّامِ صالحيها﴾؟ إذاً في الشّامِ صالحون، وفي الشّامِ أناسٌ متحرّقونَ على الحقِّ بسلوك، لا بكلماتٍ وأقوالٍ مدبَّجة، لا.. هؤلاءِ موجودونَ قلّوا أو كثُروا، وربّما لم تكن للكمِّ قيمة وفي كثيرٍ منَ الأحيانِ تكونُ القيمةُ للكَيف، تكونُ القيمةُ للأهمّيّة، ولا تكونُ القيمةُ للعدد، للغثاءِ الذي شبَّهَهُ رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بـِ ﴿غُثاءِ السّيل﴾.

أقولُ هذا أيُّها الإخوة حتّى تعرفوا مواقعَكم على ضوءِ حديثِ رسولِ للهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ هذا، هنالكَ منافقونَ وهنالكَ صالحونَ فاعرِفوا موقعكم: كونوا من هؤلاءِ الصّالحين، كونوا إذا تكلَّمتم في مناسبةٍ من المناسبات، أو إذا وجدتم أنفسكم أمامَ ضرورةِ قيامٍ بواجب، واجبِ تضحيةٍ في سبيلِ المبادئ، في سبيلِ القيَم، في سبيلِ الحقوق. كونوا معَ الصّادقينَ ولا تكونوا معَ الطّرفِ الآخر، كونوا معَ الصّادقينَ على كلِّ المستويات، على مستوى قيامكم بالسَّهَرِ الدّائبِ على تربيتكم لأولادكم وبناتكم.

وكم قلتُ وكرَّرتُ القولَ في هذا الصَّدد ولا أريدُ أن أعيد، عرفتم وحفظتم دروسكم: كونوا صادقين، كونوا عندَ حسنِ ظنِّ رسولكم صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم، احرصوا على أن تكونوا من هؤلاءِ الصّالحين وبشرى رسولِ اللهِ لكم أنَّكم أنتمُ الغالبون. كونوا على هذا المستوى حرصاً على الحقوقِ التي متَّعكمُ اللهُ عزَّ وجلَّ بها، ومفاتيحُ الحقوقِ هيَ المبادئ، هيَ القيَم، هيَ الأخلاق، هيَ الفضيلة.

بهذهِ المعاني والحقائقِ تحصَّنُ الحقوق، كونوا حرّاساً على القيَمِ والمبادئِ والأخلاقِ الرّاشدةِ وعلى الفضيلة، كونوا صالحينَ على المستوى الثّالثِ وهوَ أن تكونوا فعلاً متفاعلينَ معَ مناسباتٍ نرفعُ بها رؤوسَنا فعلاً، فلقد قلتُ مرّةً وأقولُها دائماً: إنَّ حركةَ التّصحيحِ كانت كما أعلمُ -وأنا شاهدُ عيانٍ في هذا- كانت من أجلِ درءِ أخطارِ الإلحادِ عن هذهِ البلدة، كانت من أجلِ درءِ أخطارِ الطّامعينَ البعيدينَ هناكَ في مشرقِ العالمِ حيثُ تهاوى ذلكَ المعسكر، كانت في سبيلِ درءِ هذهِ البلدةِ عن أطماعِ أولئكَ الطّامعين، كانت في سبيلِ الإبقاءِ على مبادئِ هذهِ البلدةِ وقيَمها، أجل..

كونوا على رشدٍ في هذا وتفاعلوا مع هذا الدّافعِ لكي نصلَ بهِ إلى مداه، نحنُ لم نصل بعدُ إلى مداه، أجل هذا هوَ الهدف، ولكن هل تحقَّقَ هذا الهدفُ كاملاً؟ هنالكَ صراعٌ كما قالَ رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم، هنالكَ من يريدُ أن يخنُقَ القيَمَ والمبادئَ والعقائدَ الحقّة ولكن بطريقةٍ أخرى.

ولكن هنالكَ الحرّاسُ على دينِ الله، وهنالكَ السّاهرونَ على المبادئِ والقيَم، كونوا منَ الجندِ الذي استبشرَ بهِ رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم، كونوا منَ الصّالحينَ الذينَ أنبأَ عنهم رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ على مستوى التّضحيةِ الفعليّة لا مستوى التّضحيةِ القوليّة، لا تكتفوا بتلكَ الشّعاراتِ القائلة: نحنُ جميعاً فداء، كلُّنا كذا وكذا ممّا ترونهُ مكتوباً وممّا تسمعونهُ مقولاً، صحِّحوا هذا بالتّنفيذ. عندما يقولُ أناسٌ هذا الكلامَ قولوا: أمّا نحنُ فقد لا نقول، وقد لا نكثرُ القول، ولكنّنا آلَينا وعاهدنا ربَّنا سبحانهُ وتعالى أن نضعَ أرواحَنا في يدِنا اليمنى وأموالَنا في يدِنا اليسرى ونضحّيَ بذلكَ كلِّهِ إذا دعا الدّاعي في سبيلِ إبقاءِ الحقّ، وفي سبيلِ الدّفاعِ عنِ المبادئِ والقيَم، هكذا ينبغي أيُّها الإخوةُ أن نفعَلَ حتّى يكتبَنا اللهُ منَ الصّالحينَ الذينَ تحدَّثَ عنهم رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم. فإن شعرنا ونحنُ نسيرُ في هذا الطّريقِ

بوعورةِ الطّريق، شعَرنا بالتّضاريسِ التي لا تمكِّنُنا منَ السّيرِ على هذا الطّريق، فَيَسِّروا العسيرَ بصدقِ الالتجاءِ إلى الله، يسِّروا كلَّ عسيرٍ بالدّعاءِ الواجفِ بينَ يدي اللهِ عزَّ وجلّ، فلا واللهِ ما سارَ إنسانٌ على الدّربِ الذي أمرَ اللهُ بهِ مستعيناً باللهِ عزَّ وجلَّ في ضراعةٍ واجفةٍ ودعاءٍ دائمٍ مستمرٍّ نابعٍ منَ الأعماقِ إلّا يسَّرَ اللهُ لهُ العسير، وإلّا عبَّدَ اللهُ سبحانهُ وتعالى لهُ الطّريق.

اذكروا أيُّها الإخوة أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لم يصف عبادَهُ الصّالحينَ فقط بالعمل، وإنّما وصفهم قبلَ ذلكَ بكثرةِ الالتجاءِ إلى الله، ألم تسمعوا قولهُ عزَّ وجلَّ وهوَ يصفُ النّخبةَ الصّالحةَ من عبادهِ قائلاً: ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُون، وَبِالأسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ ؟ ألم تقرؤوا قولهُ سبحانهُ وتعالى وهوَ يصفُ هؤلاءِ النّاس: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾؟ وكَم وكم في كتابِ اللهِ سبحانهُ وتعالى آيات تصفُ عبادهُ المسلمينَ المتحرِّكينَ السّائرينَ على صراطِ اللهِ سبحانهُ وتعالى بكثرةِ الالتجاءِ إلى الله، يسِّروا العسيرَ الذي تشكونه، وما أكثرَ ما تشكونَ بصددِ من يذكِّركم بتربيةِ الأولادِ والبنات، بصددِ من يذكّركم بالتّرفُّعِ عنِ المغرياتِ والشّهوات، ما أكثرَ من يشكو صعوبةَ ووعورةَ الطّريق. حطّموا ذلكَ كلَّهُ بكثرةِ الالتجاء، كثرةِ الالتجاءِ إلى الله.

أنتم أم رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم؟ أيُّنا: نحنُ أم رسولُ اللهِ أولى بكثرةِ التّضرُّعِ على أعتابِ اللهِ والدّعاءِ الواجفِ بينَ يديه؟ رسولُ اللهِ لم يعصِ ربَّه، رسولُ اللهِ لم يفعل ما يقتضيهِ الاستغفار، نحنُ الذينَ ارتكبنا كلَّ موبقة. ومعَ ذلك فما كانَ رسولُ اللهِ يسيرُ في طريقٍ إلى غايةٍ من غاياتِ استرضاءِ اللهِ عزَّ وجلَّ إلّا ويتوِّجُ عملهُ بالضّراعة، بالضّراعةِ الواجفةِ بينَ يديِ الله، كانَ ذلكَ شأنَهُ يومَ بدر، كانَ ذلكَ شأنهُ يومَ الخندق، كانَ ذلكَ شأنهُ يومَ خيبر، كانَ ذلكَ شأنهُ يومَ فتحِ مكّة. ما وقفَ رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أمامَ طريقٍ يسلكهُ إلى مرضاةِ اللهِ إلّا وأعلنَ عن ضعفه، وأعلنَ عن عجزه، وأنّهُ لا شيء، ولكنّهُ يستنزلُ القوّةَ كلَّها منَ اللهِ سبحانهُ وتعالى، استنزِلُوا القوّةَ منَ اللهِ إن رأيتم أنَّ السُّبُلَ قد تقطَّعت بكم إلى هذهِ الغايات، صراعٌ فيما يتعلَّقُ بتربيةِ الأولادِ والبنات، وصراعٌ فيما يتعلَّقُ بالتّحرُّرِ منَ الشّهواتِ والأهواءِ فالتجؤوا إلى الله، وبابُ اللهِ مفتوح، بابُ اللهِ مفتوحٌ للعاصي وللطّائع، لكلِّ من يريدُ أن يلتجأَ

إليهِ سبحانهُ وتعالى، ثمَّ ضعوا في اعتباركم أن تكونوا منَ النّخبةِ الصّالحة، وأن لا نكونَ منَ المنافقين الذينَ يتجمّلونَ بالكلماتِ والشّعاراتِ ويستخذونَ عندَ العملِ والسّلوك، كونوا منَ النّخبةِ الصّالحةِ التي تبرهنُ أمامَ اللهِ ثمَّ أمامَ عبادِ اللهِ عزَّ وجلَّ أنّنا إن قلنا فعلنا، بل إنّنا نفعلُ ولا داعيَ إلى القول، أقولُ قولي هذا وأستغفرُ اللهَ العظيم...





فتنة التكفير

٤٥٤- الإسلام التبشيري في القرآن والإسلام التكفيري عند خصومه | ٢٠١٢/١٠/١٢

إليكم هذه الصورة التي تجعل الإسلام مهيمناً على مشاعر الناس وعواطفه، هذه الصورة التي تجعل قلب الإنسان السوي وقفاً على محبة الله وتعظيمه، صورة مأخوذة كما هي من مرآة كتاب الله القرآن ومن الصحيح الثابت من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم، تعالوا فلنصغ إلى بيان الله سبحانه وتعالى، يقول ربنا عز وجل: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

ويقول: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

ويقول لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

ويقول عز وجل خطاباً لرسوله أيضاً: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

هذه طائفة من آي كتاب الله عز وجل، وتعالوا نصغ الآن السمع من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم الثابت في الصحيح:

يروي الشيخان من حديث أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ﴿من لقي الله لا يشرك به شيئاً حُرِّمَتْ عليه النار﴾.

ويقول صلى الله عليه وسلم فيما رواه أبو داود والحاكم في مستدركه من حديث معاذ رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ﴿من مات لا يشرك بالله شيئاً لم تمسه النار﴾ وفي رواية: ﴿من كان آخر كلامه لا إله إلا الله نطق مخلصاً بها لم تمسه النار﴾.

وروى النسائي من حديث أبي عمرة الأنصاري بسندٍ صحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ﴿أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أني رسول الله، لا يلقى اللهَ عبدٌ يوم القيامة مؤمناً بهما إلا حُجِبَتْ عنه النار﴾.

وروى الشيخان من حديث أبي ذر رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ﴿عَرَضَ لي جبريل من جانب الحَرَّة – والحرة ضاحية من ضواحي المدينة – فقال: أبشر أمتك بأن من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة، قلت: وإن زنا وإن سرق؟ قال: نعم وإن زنا وإن سرق، قلت: وإن زنا وإن سرق؟ قال: نعم وإن زنا وإن سرق﴾.

وروى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ﴿إن لله عز وجل مئة رحمة أنزل واحدة منها بين الجن والإنس والطيور والبهائم والهوام فبها يتعاطفون وبها يتراحمون وأخَّرَ تسعاً وتسعين من رحمته لعباده يرحمهم يوم القيامة بها﴾.

وروى الشيخان أيضاً من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: أُتِيَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بأسرى في أعقاب غزوة من الغزوات ونظرنا وإذا امرأة تسعى لاهثة بين الأسرى تبحث عن شيء، فوقعت على طفل حملته وألصقته بصدرها وراحت ترضعه فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿أترون إلى هذه المرأة أطارحة وليدها في النار﴾ قلنا: لا يا رسول الله، قال: ﴿لله أرحم بعباده من رحمة هذه بابنها﴾.

ويروي مسلم من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ﴿يدني الله عز وجل أحدكم يوم القيامة منه فيضع عليه كنفه – أي ستره يستره عن الآخرين – ويقول له: أتذكر إذ عملت كذا وكذا، يقول: نعم يا رب، يقول: أتذكر إذ عملت كذا وكذا، يقول: نعم يا رب، يذكره الله عز وجل بمعاصٍ كان قد اقترفها في دنياه، ثم يقول له: فلقد سترتها عليك في دار الدنيا وها أنا أغفرها لك اليوم﴾.

روى الحاكم وأبو داود والطبراني والبيهقي من حديث أنس ومن حديث أبي موسى الأشعري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ﴿أمتي هذه أمة مرحومة، مغفور لها، متاب عليها﴾.

عباد الله: أرأيتم إلى هذه الصورة التي هي مأخوذة بدقة من مرآة كتاب الله عز وجل كما سمعتم ومن مرآة الصحيح الثابت من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم كما سمعتم، أرأيتم إلى هذه الصورة كيف توقظ الفطرة الإيمانية الكامنة في كيان كل إنسان؟

نعم. أرأيتم إلى هذه الصورة إنها تجعل القلب – قلب الإنسان – يتلظى بمحبة الله أياً كان صاحب هذا القلب ما لم يكن مستكبراً على الله، ما لم يكن معانداً، ما لم يكن من الناس الذين حجزوا أنفسهم عن العقلانية وحبسوا أنفسهم في سجون الاستكبار، أما ما عدا هؤلاء فما من قلب يقف أمام هذه الصورة المستلة المأخوذة من مرآة كلام الله ومرآة كلام حبيبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا ويتلظى بحب الله عز وجل وتعظيمه ومهابته، ومن ثم فإن الإسلام يغدو مهواً لقلوب الناس، ومن ثم فإن هذه الصورة تحبب الإسلام على عقول الناس وإلى أفئدتهم وإلى مشاعرهم وتقرب المسافة ما بين الفكر الإنساني وما بين حقائق هذا الإسلام العظيم، ومن ثم فإن هذه الصورة التي هي تجسيد لحقيقة الإسلام كما رأيتم تقرب ما بين الفئات والفرق الإيمانية المختلفة مهما تباعدت، تجمعها جميعاً تحت راية وحدانية الله سبحانه وتعالى، تجمعها جميعاً تحت راية وحدانية الخالق الذي لا شريك له، الرازق الذي لا شريك له، المحيي المميت الذي لا شريك له، ومن ثم فهيهات لمن يريد أن ينفخ في نيران الاحتكاكات الطائفية ومن ثم الحروب أو العداوات والبغضاء الطائفية، هيهات لمن يريد أن ينفخ في ذلك أن ينال شيئاً من مراده من وراء هذا الكيد، تلك هي الصورة التي لم نضف إليها شروى نقير، لم نحط منها شيئاً ولم نضف إليها شيئاً آخر، صورة أمينة كما رأيتم مأخوذة من نسيج كلام الله ونسيج حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم الصحيح الثابت عن لسانه.

ولكن تعالوا فانظروا إلى الصورة الأخرى، الصورة السوداء القاتمة، الصورة التي هي ركام من الأحقاد المتقادمة المتطاولة، أحقاد تفوح رائحتها، يفوح النتن منها، صورة من السواد القاتم أجل لهذه الأحقاد المتقادمة، أي صلة ترى يوجد بينها وبين دين الله؟ أنا أسأل وعلى العاقل أن يجيب، أي صلة توجد بينها وبين كتاب الله الذي سمعتم قبسات منه؟ أي علاقة توجد بينها وبين ما سمعتم من كلام حبيبنا المصطفى

صلى الله عليه وسلم، صورة من الأحقاد والضغائن المستكنة التي تقادم عليها الدهر، تعبر عن ذاتها بالنهم إلى منظر الدماء، تعبر عن ذاتها بالبحث عن مبررات القتل، تبحث عما يمكن أن يشفي غليلها عن طريق العثور على مبررات الكيد، على مبررات القتل والتخريب والإفساد، صورة يمكن أن تُنْسَج من أفئدة وعقول، صورة يمكن أن تتألف من أفكار أناس شذَّت إنسانيتهم عن قوانين الإنسانية جمعاء فتحولوا إلى وحوش ضارية تمارس همجية ما مثلها ولكن أن تلصق هذه الصورة بالقرآن!

هذا أمر جلل وغريب، أن تلصق هذه الصورة بحبيبنا محمد صلى الله عليه وسلم صاحب هذا الكلام! هذا أمر غريب وعجيب، أن تلصق هذه الصورة بالإسلام! أمر غريب وما أعهد في التاريخ أن آذاناً إنسانية قد طرق سمعها مثل هذا التصور قط. أن يدعوا أصحاب هذا التصور الأسود القاتم أن يدعوا إلى القتل الذي ينبغي أن يستحر، إلى الإفساد الذي ينبغي أن يستمر، إلى التخريب والعدوان الكيفيين باسم الجهاد في سبيل الله! إنه لأمر غريب وعجيب، نعم يا عباد الله، الله يقول لرسوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

ويقول قائل هذا التصور: لا بل الغلظة هي سبيلنا والفظاظة هي طريقنا ورأس مالنا، والقتل والتخريب الكيفيان هما الهدف المرسوم أمام أبصارنا. رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤكد مثنى وثلاث ورباع أن من مات وهو لا يشرك بالله شيئاً حُرِّمَتْ عليه النار، لم تمسه النار، لن تحجب عنه الجنة، ويقول قائلهم: لا، هذا الكلام مردود، إن لم يكن على شاكلتنا ولم يكن ينهج نهجنا ولم يكن يصطبغ بأمزجتنا فهو كافر ومن ثم فهو يستحق القتل ومن ثم فإن إعلان الجهاد بالنسبة له ولأمثاله مرفوع، نعم، هذا شيء غريب يا عباد الله، فما الحكمة من ذلك، من هم الذين يدعمون هذا النهج اللا قرآني، هذا النهج اللا نبوي، هذا النهج المضاد بكل ما تركَنا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، إنها قوى معادية للإسلام عداوة تاريخية تقليدية هي التي تدعم وهي التي تقدم وهي التي تدفع، كيف؟

دعوني أقل لكم كلمات لابد أن أقولها والتفصيل ربما سيأتي فيما بعد: أعداء دين الله عز وجل في أمريكا وأوربا وتقودهم الصهيونية العالمية كانوا يضعون أمام أبصارهم خططاً تقليدية لمحاربة الإسلام، كتابات، ادعاءات، اتهامات للقرآن، لرسول الله، مؤلفات كانت تنشر فيما بينهم، مظهر من مظاهر العداوة والبغضاء لدين الله، ظنوا أن هذه الطريقة هي التي تخنق دين الله سبحانه وتعالى، ولكن تبين لهم أن الأمر على النقيض من ذلك، في أوروبا مثقفون وفي أمريكا كذلك مثقفون شأنهم أن يلتفتوا إلى أي أحدوثة من هذا القبيل فيلاحقوها، رأوا الكلام الذي يتعالى من أفواه غير المسلمين هجوماً على الإسلام، اتهاماً لنبي الإسلام، اتهاماً للقرآن فما كان منهم إلا أن أقبلوا إلى دراسته، كانت النتيجة لهذا الأمر أن دخل في الإسلام من جراء هذه الطريقة أكثر بكثير ممن تصيدوه للابتعاد عن الإسلام وإنني لأذكر من هؤلاء موريس بوكاي، وإنني لأذكر من هؤلاء روجيه غارودي، وإنني لأذكر من هؤلاء كثيرين، قادة الفكر في أوروبا كان الفضل في توجههم للإسلام هجوم الأوروبيين وثلة من الأمريكيين إلى الإسلام، عشرات الناس بهذا الشكل.

نظروا، وجدوا أن هذا الطريق يخدم الإسلام، قال قائلهم ومنهم المستشار للرئيس الأمريكي الأسبق كلينتون، قال قائلهم: لا ليست هذه الطريقة، الكيد للإسلام ينبغي أن ينبع من المسلمين أنفسهم، لكن من المسلمين الذين طلقوا الإسلام بسرائرهم وما يزالون يدعون انتساباً إليه بألسنتهم، هذا هو الشرط الأول، الشرط الثاني ينبغي أن يبرز الإسلام في سلوك هؤلاء – هذا الطابور من المسلمين في الظاهر – بمظهر تقشعر منه النفوس، تشمئز منه الفطرة الإنسانية، ينبغي أن يبرز هؤلاء الإسلام على أنه من الفظاظة بمكان على أنه يعشق الدماء، يعشق لون الدماء أينما وجد وأينما طفح، ينبغي أن يكون منهج هؤلاء إلى الكشف عن حقيقة الإسلام إظهار إسلام ترتعد منه الفرائص، إظهار إسلام لا يعلم للرحمة معنى، إظهار إسلام يتربص بالإنسانية الدوائر، نعم، وعثروا على الطابور الذي يخدمهم في هذا، والأدلة كثيرة، وأنطون الليك المستشار للرئيس الأمريكي الأسبق كلينتون واحد ممن خطط وواحد ممن وضع الخطة، نعم.

إذاً هذا الذي ترونه أيها الإخوة في حاضر عالمنا الإسلامي هنا وهنا وهناك من المظهر الذي يتناقض مع ما سمعتم من كلام الله، يتناقض مع ما سمعتم من كلام رسول الله، إنه عمل يمارسه جنود والقيادة هناك، إنه عمل يمارسه جنود والقيادة هنا في إسرائيل وهناك في أمريكا، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

عباد الله: يقول الله عز وجل: ﴿وَالْفَجْرِ، وَلَيَالٍ عَشْرٍ، وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ، وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ، هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾ [الفجر: ١ – ٥]. أجمع علماء التفسير أن المراد بالليالي العشر التي أقسم بها ربنا عز وجل إنما هي الليالي العشر الأولى من شهر ذي الحجة، ولقد أوضح ذلك حبيبنا المصطفى صلى الله عليه وسلم وقال فيما اتفق عليه الشيخان: ﴿ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله عز وجل فيها منه في هذه الأيام – الأيام العشر من أوائل ذي الحجة – قالوا: يا رسول الله ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: ولا الجهاد في سبيل الله إلا رجلاً خرج بنفسه وماله فلم يعد منهما بشيء﴾ أقول: ترى هل يلتفت رافعو لواء الجهاد في القتل الذي يستحر منهم إلى هذا الذي يقوله الله وإلى هذا الذي يؤكده رسول الله؟ ترى هل يلتفتون – وهم رسل الجهاد – هل يلتفتون إلى هذا الذي يقوله رسول الله فيغمدون أسلحتهم ويمدون جسور الوفاق والود مع إخوانهم كما أوصى الله رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم إذا قال: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

هل تستيقظ بين جوانحهم فطرة الإيمان بالله، فطرة دين الله سبحانه وتعالى، هل يعود أحدهم إلى نفسه ليقول ماذا نصنع، نحن في العشر الأول من شهر ذي الحجة وهذا ما يقوله المصطفى صلى الله عليه وسلم فلنغمد أسلحتنا التي ننشرها في وجوه بل في أعناق إخواننا المؤمنين المسلمين، تعالوا نعد إلى الله، نصطلح إلى الله ترى، أسأل الله عز وجل أن تفيض أفئدتهم بهذه الفطرة، أسأل الله أن يوقظ بين جوانحهم هذه الفطرة إن لم تكن قد ماتت بعد، وإني لأسأل أيها الإخوة هؤلاء الذين لا يعلمون سبيلاً للتعامل مع الآخر إلا سبيل الفظاظة، سبيل الغلظة، سبيل الاتهام، سبيل الاشتياق إلى الدماء.

أقول للواحد من هؤلاء: أإذا رأيت نفسك قد تمددت على فراش الموت وطرق ملك الموت بابك ورأيت نفسك بين يدي الله أتتعامل معه بالمنهج ذاته الذي تتعامل مع إخوانك، أتقابله بهذه الغلظة والفظاظة آنذاك، أم تنسى غلظتك وفظاظتك، تضؤل ثم تضؤل ثم تضؤل لكي تستنجد الرحمة من الله آنذاك؟ يا هذا لماذا لا تسأل نفسك هذا السؤال؟ لماذا لا تسأل نفسك كيف سيكون موقفك وأنت الإنسان الذي لا يعلم للرحمة صورة وأنت الإنسان الذي لا يضع نصب عينيه أمام إخوانه إلا الاتهام بالكفر والإبداع وموجبات القتل، سائل نفسك: أقادر أنت أن تتعامل مع هذا المنهج عندما تجد أن ملك الموت يستل روحك؟



٤٥٥- شرُّ أنواع القذف | ٢٠٠٨/١٠/١٠

يقول ربنا عز وجل في محكم تبيانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ [الحجرات: ١١]، هذه الآية كما تلاحظون يحذر الله عز وجل فيها عباده من أن يواجهوا بعضهم بعضاً بالتنابز بالشتائم والسباب والقذف بأنواعه المختلفة وقد أجمع العلماء على أن شر أنواع القذف إنما هو أن يتوجه الإنسان إلى أخيه الإنسان باتهام الكفر دون تثبت أو تأكد، أجمع العلماء على أن هذا الاتهام هو شرُّ أنواع التنابز بالألقاب، ولقد حذر المصطفى صلى الله عليه وسلم في أحاديث كثيرة من هذا النوع من القذف فقال فيما رواه الشيخان من حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ﴿إذا قال الرجل لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما إن كان كما قال وإلا رجعت عليه﴾، وروى الشيخان أيضاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: ﴿إذا رمى الرجل أخاه بالكفر فهو كقتله﴾، وفي رواية ﴿فهو كمن قد قتل﴾، والأحاديث في هذا كثيرة ولا داعي إلى استقصائها.

ومن هنا فقد ألزم السلف الصالح متمثلاً في أصحاب رسول الله وفي التابعين وفي من بعدهم بالإمساك عن الاتهام بالكفر، بل إن المصطفى صلى الله عليه وسلم هو القدوة لنا في ذلك، كان بين الصحابة رضوان الله عليهم منافقون مردوا على النفاق ولكن المصطفى صلى الله عليه وسلم لم يتهمهم بالكفر ولم يعاملهم إلا معاملة المسلمين ولقد كان رأس المنافقين كما تعلمون عبدَ الله بن أبي بن سلول لم يعامله المصطفى على الرغم من سوء فعاله إلا على أنه مسلم، ولما مات أرسل إليه رسول الله ثوبَه الذي يرتديه على جسده تنفيذاً لرغبة ابنه ليكفن به ولما جيء به ليُصَلَّى عليه كان رسول الله في مقدمة من صلى عليه، وكان في المدينة من قد ارتكب جريمةً تسمى اليوم بالخيانة العظمى ومع ذلك فإن سمة الإسلام لم تنقطع عنه وعن أمثاله قط، حاطب بن أبي بلتعة واحد من هؤلاء أرسل سراً إلى مشركي قريش في مكة يخبرهم بما قد عزم عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من التوجه إلى مكة فاتحاً وقال لهم خذوا حذركم، واطلع المصطفى صلى الله عليه وسلم على رسالته الخفية التي أرسلها فلم يتهمه بالكفر بل إن الله عز

وجل شهد له بالإيمان في عتاب رقيق وجهه إليه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: ١] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾

لن يقطع البيان الإلهي سمة الإيمان عنه، كل هذا لما عرفوه من أن الاتهام بالكفر شرُّ أنواع القذف الذي حرمه الله سبحانه وتعالى، بل إنكم لتعلمون يا عباد الله أن فرقاً ذرَّ قرنها في أواخر عهد الصحابة كالمعتزلة والجهمية والمرجئة والخوارج ولقد شردوا شروداً كبيراً عن صراط الله سبحانه وتعالى وبحثنا ونقبنا فلم نجد في الصحابة والتابعين من اتهمهم بكفر، لم نجد من اتهم الخوارج أو المعتزلة أو المرجئة أو غيرهم بكفر، ولما سُئِلَ عليٌّ كرم الله وجهه عن هؤلاء الذين خرجوا عليه وأرادوا قتله أمسلمون هم أم لا؟ قال إخواننا بغوا علينا.

أقول بعد هذا يا عباد الله إن في هذا العصر الذي نعيش فيه أناساً استمرؤوا الاتهام بالكفر ووجهوا هذا الاتهام إلى عباد الله جملة لا تفصيلاً، رشاً لا دراكاً، ترى ما هي الحجة التي دفعتهم إلى ذلك إن في كتاب الله أو سنة رسول الله، وما رأينا في كتاب الله وسنة رسول الله إلا ما يحذر، إلا ما يهدد من هذا الأمر، بعد البحث تبين أنهم يحتجون بفهم خاطئ عجيب للحديث الذي رواه أصحاب السنن عن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه قال: افترقت اليهود إلى إحدى وسبعين فرقة وافترقت النصارى إلى اثنتين وسبعين فرقة وستفترق أمتي إلى ثلاثٍ وسبعين فرقة، زاد الترمذي وأبو داود هذه الجملة التالية: كلها في النار إلا ملة واحدة، قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما هي قال ما أنا عليه وأصحابي، هؤلاء التكفيريون يعتمدون على هذا الحديث بل على هذه الزيادة؛ كلها في النار إلا أمة واحدة، احتكروا الفئة الناجية وسماتها في أنفسهم، احتكروها لذواتهم، فإذا سُئِلَ الواحد منهم من أين أنت يقول أنا من الفرقة الناجية، أي إن كل الفرق الأخرى التي تختلف عن مزاجه وقناعاته كفرة فجرة ومن ثم فيحل له أن يقتل وأن يسفك الدماء إلى آخر ما هنالك، قلت لكم إن سبب هذا الولوغ في الباطل والضلال فهم خاطئ وعجيب لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم.

لاحظوا أيها الإخوة ودققوا النظر إنها مسألة أكاديمية ولكن لابد من بيانها، يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم افترقت اليهود ويقول افترقت النصارى، كانت المقابلة تقتضي أن يقول وسيفترق المسلمون ولكنه صلى الله عليه وسلم لم يقل وسيفترق المسلمون وإنما قال وستفترق أمتي إلا ثلاث وسبعين فرق،

والمراد بالأمة هنا أمة الدعوة وليس المراد أمة الاستجابة، كل الذين أرسل إليهم رسول الله من يوم بعثته إلى قيام الساعة مشرقين ومغربين من أمة المصطفى سواء استجابوا أم لم يستجيبوا، إنهم من أمة الدعوة، والواقع أن أمة الدعوة هذه تفرقت في سبل عقائدية شتى، هذا ما يعنيه المصطفى صلى الله عليه وسلم، ودليل آخر في هذه الزيادة التي زادها الترمذي قال: كلها في النار إلا ملة واحد، لم يقل إلا فرقة واحدة كما يهوى التكفيريون، لم يقل إلا فرقة وإنما قال: إلا ملة واحدة وكلمة الأمة تطلق على الدين أي إلا دين واحد هو دين الإسلام بكل فرقه وبكل فئاته، هل هنالك دليل آخر على هذا يا عباد الله؟

نعم، الأحاديث الكثيرة التي بلغت مبلغ التواتر المعنوي والتي تمتاز جميعاً بالصحة أن كل من مات وهو يشهد لا إله إلا الله دخل الجنة، يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم فيما رواه الشيخان من حديث أنس رضي الله عنه: من لقي الله لا يشرك به شيئاً حُرِّمَتْ عليه النا، ويقول المصطفى صلى الله عليه وسلم فيما رواه الشيخان أيضاً: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أني رسول الله ما يلقى عبد بهما الله سبحانه وتعالى إلا حُجِبَتْ عنه النا، والأحاديث في هذا كثيرة جداً، هذه البشارة التي يبشر بها المصطفى صلى الله عليه وسلم تنطبق على المسلمين جميعاً بشتى فرقهم القديمة وعلى اختلاف مذاهبهم الجديدة، فما من واحد من هؤلاء الناس رحل إلى الله إلا ويحمل بيمناه بل بقلبه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، كيف يمكن أن نجمع بين ذلك الفهم الخاطئ لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول كلها في النار إلا ملة واحدة وبين الأحاديث الكثيرة الكثيرة التي بلغت مبلغ التواتر والتي تؤكد أن كل من رحل إلى الله سبحانه وتعالى وهو يؤمن أن لا إلا الله وأن محمداً رسول الله لابد أن يكرمه الله برضوانه ومغفرته وجنانه! أقول هذا آملاً أن يكون هؤلاء التكفيريون الذين يتسربون إلى بلاد الله الإسلامية الواسعة، أن يكون هؤلاء التكفيريون ينطلقون من اجتهادات قلبية وألا يكونون مخالب لأعداء لهذه الأمة على اختلافها، لعلهم إن كانوا كذلك يرعوون، لعلهم إن كانوا كذلك يرجعون إلى ما كان عليه السلف إن كانت لهم نسبة حقيقية إلى السلف الصالح، أصغيت السمع جيداً يا عباد الله وأنا الذي درس سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم وكتب فيها، هل هنالك صحابي كَفَّرَ إنساناً في عصره؟ لم أعثر على واحدٍ فعل ذلك، أصغيت السمع جيداً إلى عهد التابعين هل فيهم من كَفَّرَ معتزلياً، هل فيهم من كَفَّر جهمياً، هل فيهم من كَفَّرَ خارجياً، إلى آخر ما هنالك من الفرق؟ لم أعثر إطلاقاً على شيء من هذا، أين هو اتباع السلف

من أناس استمرؤوا كلمة الكفر والتكفير، اتخذوا هذه الكلمة المتكررة كالتسبيح الذي يتقرب به الإنسان إلى مولاه وخالقه سبحانه وتعالى.

عباد الله، هذا العصر الذي نعيشه هو العصر الذي أشار إليه المصطفى صلى الله عليه وسلم عندما سُئِلَ عن أشراط الساعة فقال إذا كَثُرَ الهر – القتل- لا يدري القاتل فيما قَتَلَ ولا المقتول فيما قُتِل، أجل لا يدري القاتل فيما قَتَلَ لأنه مدفوع إلى ذلك، لأنه مخلب لمن قد حمله على ذلك ومن ثم فهو لا يعلم فيما قَتَلَ ولا يدري المقتول فيما قُتِلَ، بريء لم يفعل شيئاً يستوجب القتل، إنني أقول هذا الكلام بهذا الشكل المختصر آملاً أن يبلغ هذا الكلام سمع هؤلاء الذين تاهوا في هذه الطرق الضلالية الموحشة لعلهم يعودون، لعلهم يؤوبون ويرجعون، العمر الذي يمتع الله به الإنسان في هذه الدنيا قصير يا عباد الله والأوبة إلى الله قريبة والموقف بين يدي الله خطير فلنتب إلى الله وليرجع هؤلاء الإخوة إلى كتاب الله وإلى سنة رسول الله وليمدوا جسور الألفة ثانية بينهم وبين عباد الله سبحانه وتعالى، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم فاستغفروه يغفر لكم.



٤٥٦- من هي الملة الناجية ؟؟! | ٢٠٠٩/٠٦/٠٢

إن الأمة التي تتمتع بسلاح الوحدة والتضامن لن ينال البغي منها أي منال مهما استشرى ومهما استعان به من أسلحة الفتك والدمار، وإن الأمة التي تركن إلى عوامل الخصومة والشقاق والتي تصدعت إلى فِرَقٍ وفئات متخاصمة متعادية لا يمكن أن يُكْتَبَ لها النصر مهما تمتعت واستعانت به من الأسلحة الفتاكة المتنوعة، بهذا نطق بيان الله وبهذا شهد التاريخ القريب والبعيد ولولا هذه الحقيقة ما قرأنا في كتاب الله سبحانه وتعالى الدعوة الملحة والمتكررة إلى التضامن، إلى الوحدة، إلى نبذ الشقاق والتفرق، وكلنا يقرأ في كتاب الله سبحانه وتعالى هذه الدعوة المتكررة بأساليب شتى، يقول آناً: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، ويقول: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]، ويقول: ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، ويقول: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣] أي لا تتفرقوا بين المذاهب المتطاحنة ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:١٥٣].

وإني لأقولها يا عباد الله ولا أتحفظ كل مجتمع يركن أفراده إلى عوامل الفرقة والتشاحن ويضحي أفراده بواجب الوحدة التي أمرنا الله عز وجل بها في سبيل الانتصار للرأي وللمذهب وللاجتهاد ليسوا صادقين في إسلامهم وليسوا مخلصين في التمسك بأوامر مولاهم وخالقهم سبحانه وتعالى، هذه حقيقة ينبغي أن نقولها وينبغي أن نتأمل في هذا الذي يقرره التاريخ وينطق به بيان الله وتشهد به وقائع الأحداث قريبة كانت أو بعيدة.

عباد الله إن عوامل الفرقة والشقاق كثيرة ومتنوعة ولكن أخطر هذه العوامل تلك التي تفعل فعلها باسم الدين نفسه. عندما أجد من يحاول أن يحيل وحدة أمتي إلى شتات وفرقة وهو لا يؤمن بالله، وهو

يرفع لواء الإلحاد ما أيسر أن أنبذ دعوته وما أيسر أن أتجه إلى النقيض مما يدعو إليه ولكن عندما أجد من يدعو إلى الشقاق والفرقة وهو يرفع فوق رأسه شعار الدين، شعار الإسلام، كم وكم من أناس يُخْدَعُون بدعوته ومن ثم كم من الناس يضحون بالوحدة التي أمر الله بها ويقعون فيما حذَّر الله عز وجل منه من التشظي والتصدع والتحول إلى فئات متفرقة شتى. ولعل من أخطر هذه العوامل التي تتحرك باسم الدين فهم مقلوب منكس لحديث صحيح رواه أصحاب السنن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: ﴿افترق اليهود إلى إحدى وسبعين فرقة وتفرقت النصارى إلى اثنتين وسبعين فرقة وستفترق أمتي إلى ثلاثٍ وسبعين فرقة﴾، زاد الإمام الترمذي على ذلك هذه الزيادة على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلاً: كلها في النار إلا ملة واحدة، قيل له ما هي يا رسول الله قال: ما أنا عليه وأصحابي، فهذا الحديث حديث صحيح وله معنى يزيد الأمة إلى الاجتماع والألفة ولكن في الناس اليوم كثرة ذهبت في تفسير هذا الحديث مذهباً باطلاً، مذهباً منكساً تحول بذلك هذا الحديث إلى عامل من أخطر عوامل الفرقة بين المسلمين، كثيراً ما يرى الرجل صاحبه من هؤلاء الذي فهموا هذا الحديث فهماً باطلاً، يقول له صاحبه سائلاً: من أي البلاد أنت، يسأله عن مسقط رأسه، يسأله عن وطنه فيجيبه أنا من الفرقة الناجية ومعنى هذا الكلام بصريح القول أن الذين يسيرون على خلاف مذهبه ومنهجه ليسوا من الفرق الناجية بل هي ممن قال رسول الله عنهم كلها في النار. من هنا انتشرت عوامل التكفير والتبديع والتضليل وما إلى ذلك.

وها أنا أضعكم يا عباد الله أمام المعنى الدقيق الذي عناه رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن كان كلامي هذا يتحول إلى حديث أكاديمي علمي ولكن لا حرج تأملوا لتعلموا فنحن في هذا العصر بل في هذا المنعطف الخطير بأمس الحاجة إلى أن نُقَيِّدَ ضوابط العظة في كلماتنا وخطبنا بالعلم.

وردت أحاديث كثيرة بلغت مبلغ التواتر المعنوي تفيد أن من مات وهو يشهد أن لا إله إلا الله دخل الجنة، من هذه الأحاديث ما رواه الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: ﴿من لقي الله لا يشرك به شيئاً حرَّم الله عليه النار﴾، ومن ذلك ما رواه النسائي من حديث أبي عمرة الأنصاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ﴿أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أني عبده ورسوله لا يلقى اللهَ عبدٌ يؤمن بهما إلا حُجِبَتْ عنه النار يوم القيامة﴾، وروى أبو داود والحاكم من حديث معاذ رضي الله عنه: ﴿من كان آخر كلامه لا إله إلا الله لم تمسه النار﴾، وصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: ﴿من قال

لا إله إلا الله مخلصاً بها دخل الجنة﴾، وأنتم تعلمون أن هؤلاء الذين يقولون لا إله إلا الله ويموتون وهم مستمسكون بها فيهم كثيرٌ ممن تبنى فرقة من الفرق، تبنى مذهباً من المذاهب، اجتهد في إتباع فئة من الفئات وها هو رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلن في أحاديث بلغت مبلغ التواتر المعنوي أن لا حرج، كلهم ناجون وكلهم يكرمهم الله بالجنة، أفيمكن أن يناقض رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه فيقول في هذا الحديث ما يناقض مناقضة حادة هذه التأكيدات التي ذَكَرْتُ لكم طائفة يسيرة منها فيقول وستفترق أمتي إلى ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا ملة واحدة ويعني بذلك الفرق الإسلامية والمذاهب الإسلامية المتنوعة إذاً فرسول الله يناقض نفسه! وحاشاه. إذاً فما معنى الحديث؟

تأملوا يا عباد الله فيما أقوله لكم، يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم افترقت اليهود إلى إحدى وسبعين فرقة وافترقت النصارى إلى اثنتين وسبعين فرقة، مقتضى بلاغة المصطفى وكونه حجة في البيان والفصاحة وكونه أوتِيَ جوامع الكلم أن يقابل كلمة اليهود والنصارى بكلمة المسلمين فيقول وسيفترق المسلمون إلى ثلاثٍ وسبعين فرقة لكنه عَدَلَ عن كلمة المسلمين وإنما قال وستفترق أمتي إلى ثلاثٍ وسبعين فرقة والمراد بالأمة هنا أمة الدعوة لا أمة الاستجابة، كل من وُجِدَ في عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم وكل من وُجِدَ فيما بعد إلى قيام الساعة من أمة رسول الله صلى الله عليه وسلم لكنه من أمة الدعوة ومن آمن منهم أصبح من أمة الاستجابة، يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم: ﴿وستفترق أمتي –أي أمة الدعوة– إلى ثلاثٍ وسبعين فرقة﴾، أي إلى أديان مختلفة متناقضة شتى، والدليل الناطق على هذا أنه قال بعد ذلك: كلها في النار إلا ملة واحدة ولم يقل إلا فرقة واحدة، كلها في النار إلا ملة واحدة هي ملة الإسلام بكل فئاتها، بكل مذاهبها، بكل أقوامها، الجامع المشترك بينها والذي يجعل لها هوية الرحمة من الله سبحانه وتعالى ويجعلها تدخل إلى بوابة الرحمة الإلهية والواسعة أنها جميعاً لَقِيَت الله عز وجل وهي تؤمن أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبد الله ورسوله، هذا هو المعنى الذي قصده المصطفى صلى الله عليه وسلم.

وهيهات هيهات أن نفسر هذا الحديث بما يروق لنا وبما يبرر المذهبية التي نتعصب لها أو بما يبرر الفرقة التي نتعصب لها والتي نرى أن غيرنا ممن لا يتبناها آيلٌ إلى النار وآيلٌ إلى الدمار، هيهات أن يكون

قصد رسول الله ذلك إذاً لناقض نفسه وإذاً لوقعنا أمام مشكلة تجاه هذه الأحاديث الكثيرةِ الكثيرة التي بلغت مبلغ التواتر والتي حدثتكم عن بعضٍ منها.

إذا عرفنا هذا الذي نقول أيها الإخوة فالمسلمون اليوم بكل مذاهبهم، بكل فرقهم، ولا أريد أن أذكر الأسماء، كلهم يستظلون بظل الإيمان بالله، كلهم لهم هوياتهم التي يدخلون بها غداً في رحمة الله عز وجل ألا وهي شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، إذاً لا يجوز لي وقد اتبعت أنا مذهب أهل السنة والجماعة الكثرةَ الكاثرة التي كانت في عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يجوز لي أن أقول أنا وحدي من الفرقة الناجية والآخرون ليسوا ناجين إذا هم كفرة، هل يجوز لي أن أقول هذا؟ هل يجوز لي أن أُكَفِّرَ أخاً بيني وبينه رحم شهادةِ أن لا إله إلا الله؟ هل يجوز لي أن أقطع صلة ما بيني وبينه وقد مدَّ الله عز وجل صلة ما بيني وبينه بصلة الأخوة في الله إذ قال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠]؟ أرجو وآمل من كل مسلم أن يتشبع بهذا المعنى الذي ذكرته لكم من معنى حديث رسول الله حتى تفوتوا الفرصة على من يريد أن يُحَوِّلَ معنى هذا الحديث وأن يفرغه من مضمونه ثم يجعل منه قنبلة موقوتة تُصَدِّعُ أمتنا هذه وتحيلها إلى مزيد من الشظايا وكأن ما قد منينا به لا يكفي. أسأل الله سبحانه وتعالى أن يرزقنا نعمة الإخلاص لوجهه وأسأله عز وجل أن يعيننا على أن تذيب حرقةَ الإخلاص لله معاني العصبية التي قد تكون بين جوانحنا، العصبية للذات، العصبية للمذهب مهلكة وأي مهلكة يا عباد الله.

غداً إذا امتد أحدنا على فراش الموت وشم رائحته وطرق ملك الموت بابه ماذا عسى أن تفيده العصبية؟ ماذا عسى أن تفيده دعوى أنه من الفرقة الناجية وأن إخوانه جميعاً إلى النار؟ لا بل ينبغي أن أرحل إلى الله عز وجل وكلي أمل أن جميع عباد الله الذين آلوا إليه مؤمنين به هم في ظل رحمته وفي كنفه ولطفه وجوده أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم

عباد الله ورد في الأثر أنه سيأتي على الناس زمان يدعو فيه الرجل لخاصة نفسه فيستجاب له ويدعو لعامة المسلمين فلا يستجاب له، هذا الأثر يتضمن معنى سليماً صحيحاً نراه في كتاب الله ونراه أيضاً في الصحيح من كلام رسول الله ومعناه أن لاستجابة الله الدعاء شروطاً. إذا دعا الإنسان في وقت السحر أو في أي وقت من أوقاته الخاصة بإمكانه أن يُقَدِّمَ بين يدي دعائه شروط الاستجابة فيتوب إلى الله

ويصلح ما أفسد ويُقَوِّم ما اعوج ويعيد للناس حقوقهم ثم يدعو وإذا بالاستجابة تحققت لكنه عندما يدعو لعامة الناس كأن ملكاً يقول له هل ضمنت أن يتحقق هؤلاء الذين تدعو لهم بتنفيذ شروط الدعوة، أنت تدعو الله لهم فهل ردوا المظالم، هل أصلحوا الفساد، هل قَوَّمُوا الاعوجاج، هل تابوا وأنابوا إلى الله عز وجل، ادع لنفسك فإذا أصلح هؤلاء الناس أنفسهم وتحققوا بشروط الدعوة حانت الاستجابة لدعائهم أيضاً.

هذا الذي أقوله لكم أيها الإخوة يشكل الغصة التي لا نستطيع أن نردها ولا أن نبتلعها بين يدي رغبة ملحة في الاجتماع إلى صلاة الاستسقاء. لصلاة الاستسقاء شروط لابد منها، لابد لكي يكرمنا الله عز وجل بالغيث السخي من سمائه وبالنبات يتفجر من أرضه لابد أن يتوب هؤلاء الناس إلى الله أو أكثرهم، لابد أن يردوا المظالم، لابد أن يؤدوا حقوق الآخرين إليهم أو يستسمحوهم، ما العمل؟ أسأل الله سبحانه وتعالى أن يهيئ عما قريب سبل التداعي على أعلى مستوى إلى صلاة الاستسقاء بشروطها وآدابها وقيودها وإنا لنرجو الله عز وجل أن يحقق ذلك ببركة شامنا هذه التي أكد رسول الله صلى الله عليه وسلم رعاية الله وحمايته لها، انتظروا عما قريب دعوةً تتجه بإذن الله عز وجل من أعلى المستويات إلى هذه الأمة، إلى هذه البلدة لصلاة الاستسقاء نجتمع عليها في ذل وخشوع وضراعة وانكسار وقد هُرِعْنَا إلى هذا المسجد تائبين آيبين وقد رددنا المظالم وعاهدنا الله عز وجل على أن نلزم خط الاستقامة وأن نسير على صراطه إلى أن نلقى وجهه.

٤٥٧- حذار حذار من بدعة التكفير | ٢٠١١/٠٧/٠١

كلكم يعلم كم يهيب كتاب الله سبحانه وتعالى المسلمين بأن يتحدوا وبأن يتضامنوا وبأن لا يتفرقوا وبأن لا يتنازعوا ويتخاصموا، وما منكم إلا من قرأ أو سمع كثيراً من الآيات التي يهيب فيها البيان الإلهي المسلمين بالانقياد لهذا الأمر، من مثل قول الله عز وجل: ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: ١٠٣]. وقوله: ﴿وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦]. وقوله: ﴿وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

ولكن ما هي الضمانة التي شرعها البيان الإلهي لكي يستطيع المسلمون أن ينفذوا هذا الأمر القدسي الذي يكرره بيان الله عز وجل على أسماعهم؟ ما هي الآليات التي بها يمكن أن تتحقق هذه الوحدة وأن يتخلص المسلمون من المنازعات وأسباب التفرق؟

هنالك ضمانات شرعها الله سبحانه وتعالى، تعالوا أحدثكم عن طائفة منها:

الضمانة الأولى: دعوة الله عباده أن يتلاقوا على جامع مشترك من هوية العبودية لله سبحانه وتعالى. ولعلكم جميعاً تقرؤون قوله: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً﴾ [مريم: ٩٣-٩٤].

وما أعلم – يا عباد الله – غذاءً تتنامى به وشيجة الأخوة الإنسانية كغذاء العبودية لله إذ تسري مشاعره بين عباد الله جميعاً فتحولهم مشاعر العبودية لله إلى ما يشبه أفراداً من أسرة واحدة يتلاقون بمشاعر الحب والوئام والتعاون، فهذه هي الضمانة الأولى.

أما الضمانة الثانية فتتمثل في القرار التي أرسته الشريعة الإسلامية بناء على مصدريها القرآن والسنة، ألا يتعامل الناس في دنياهم إلا بالظواهر التي تتبدى عليهم وألا يقتحم أحدٌ بواطن الآخرين في هذه الدنيا، فلا الحاكم الأعلى ولا القاضي ولا المفتي حتى الرسل والأنبياء لا يملك أحد منهم إذا أراد أن يحكم أو إذا أراد أن يتبين الخير والشر من شخصية إنسان ما لا يملك إلا أن يقف عند الأدلة الظاهرة، فإذا

أراد أن يقتحم ذلك إلى الباطن جاء التحذير من لدن رب العالمين لينبهه إلى أن المحكمة الباطنة موكولة إلى الله سبحانه وتعالى، فهذه هي الضمانة الثانية. لا يجوز للإنسان أن يحكم على الآخرين إلا بظاهر ما يتبدى له.

أما الضمانة الثالثة فهي ما يقرره بيان الله عز وجل من أنك إذا رأيت احتمالين يتجاذبان شعورك تجاه أخٍ لك أحدهما حسن الظن والآخر سوء الظن، يأتي بيان الله عز وجل ليأمرك بأن تنبذ سوء الظن وتلقيه ظهرياً وراءك وأن تعتمد على حسن الظن: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

هذه الضمانات الثلاث هي التي تضمن يا عباد الله أن تتحقق الوحدة المنشودة بين المسلمين في أي عصر من العصور. هي الضمانة ألا يتسرب إليهم الشقاق وأسبابه.

تعالوا الآن يا عباد الله لنجد تطبيقات هذه الضمانات التي أرستها شريعة الله سبحانه وتعالى فيما بيننا.

من أهم تطبيقات ذلك ما قرره علماء المسلمين بالإجماع من أن زيداً من الناس إذا طافت به احتمالات الكفر وكانت احتمالات كثيرة ولم يبق إلا احتمال واحد في المائة لاعتبار أنه لا يزال مسلماً فإن هذه الضمانات الثلاث التي حدثتكم عنها تجبرنا بأن نتمسك بالاحتمال الباقي الواحد وأن نطوي دلائل كفره، هكذا بيَّنَ لنا المصطفى صلى الله عليه وسلم، انظروا إلى مصداق هذا الكلام. روى الشيخان في صحيحيهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ﴿يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان﴾.

فذرة الإيمان هذه هي التي تساوي أقل من واحد في المائة، ولقد أعلن المصطفى صلى الله عليه وسلم أن هذه الذرة تبقيه مسلماً ولا يجوز لنا أن نلتفت إلى الاحتمالات الكثيرة الأخرى. أرأيتم إلى هذه الدلالة في هذا الحديث الذي اتفق عليه الشيخان.

تعالوا إلى هذا الدليل الثاني: ﴿روى الشيخان أيضاً أن النبي صلى الله عليه وسلم كان جالساً مع أصحابه إذ دخل رجل فَسَارَّهُ في أذنه، يقول راوي الحديث: فلم ندر ما سارَّه حتى أجابه رسول الله صلى

الله عليه وسلم رافعاً صوته وإذا به يستشيره في قتل شخصٍ يرى أنه غير مسلم، قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألا يشهد أن لا إله إلا الله؟ قال: بلى ولا شهادة له، قال: فأولئك الذي منعني الله سبحانه وتعالى منهم﴾.

تعالوا أيها الإخوة إلى مزيدٍ من الأدلة على هذا المعنى الذي تتمثل فيه الضمانات الثلاثة التي حدثتكم عنها، أحاديث صحيحة كثيرة وصلت إلى درجة التواتر المعنوي كلها تتضمن معنى واحداً: ﴿من قال لا إله إلا الله مخلصاً بها دخل الجنة﴾ ﴿من عاش لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة﴾ ﴿من كان آخر كلامه في الدنيا لا إله إلا الله دخل الجنة﴾

وأحاديث كثيرة أخرى بلغت كما أقول لكم مبلغ التواتر المعنوي.

تعالوا إلى عملية تطبيقية مارسها رسول الله. عباد الله: لو كان في المسلمين من يستأهل أن يُكَفَّرَ لذنب ما، لدليل ما لكان أولى الناس بأن يُكَفَّرَ هو عبد الله بن أبي بن سلول، ذاك الذي أمعن إيذاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ذاك الذي قال بملء صوته أثناء رجوع رسول الله صلى الله عليه وسلم من إحدى الغزوات: ما أرانا وجلابيب قريش – أي رعاع قريش يقصد رسول الله وأصحابه – ما أُرانا وجلابيب قريش إلا كما قال المثل سمِّنْ كلبك يأكلك والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخْرِجن الأعزُ منها الأذلَّ، ولكنه كان يشهد أن لا إله إلا الله وكان في ظاهره ملتزماً بالإسلام ومبادئه وأركانه.

إن فتحنا باب التكفير لسبب ما فليس أولى في الناس جميعاً من عبد الله ابن أبي بن سلول أن يُكَفَّرَ، وإذا كان في الحكام وفي القضاة وفي العلماء والمفتين من يحق لهم أن يُكَفِّرُوا فليس فيهم أولى من رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يُكَفِّرَ ولكنه لم يُكَفِّرْ عبدَالله بن أبي بن سلول. ولما مات كان رسول الله في مقدمة من صلى عليه.

عباد الله: عندما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وكاد أن ينطوي عهد الصحابة وجاء عهد التابعين تنامت فرق إسلامية شاردة عن منهج الإسلام، تكاثرت في كيان الدولة الإسلامية كما تتكاثر الثآليل على الجسد السوي من أمثال المرجئة والجهمية والحشوية والمجِّسَدة والخوارج وما إلى ذلك، هل كَفَّرَ المسلمون أي فرقة من هذه الفرق؟ نهائياً. أصغينا السمع إلى مواقف بقايا الصحابة، إلى مواقف التابعين

– وهؤلاء هم السلف الصالح – لم نسمع قط أن فيهم من كَفَّرَ خارجياً أو كَفَّرَ مرجئياً أو كَفَّرَ أيّاً من هذه الفئات أو الفرق التي شذَّتْ وشردت عن صراط الله سبحانه وتعالى. ويذكرني هذا بالإمام أحمد الذي يزعم اليوم بعضُ المتطرفين أنهم يسيرون وراءه وأنهم يتبعون نهجه. أحمد بن حنبل هو الذي أوذِيَ أشد أنواع الإيذاء عن طريق المعتزلة القائلين بأن القرآن مخلوق، لم يكن كلام الله ثم وجد، أوذِيَ وحُبِسَ وضُرِبَ مدة طويلة في عهد المأمون، ثم إن الله عز وجل شاء أن ترتفع عنه المحنة في عهد المتوكل. جاء بعض أصحابه يقولون له يا سيدي ادع الله على ابن أبي دُؤات رأس المعتزلة، قال له: وما يفيدك أن يعذب الله عز وجل يوم القيامة أخاً من أجلك، لا بل أدعو الله سبحانه وتعالى له.

عباد الله: هذا هو نهج السلف، وهذا هو المبدأ الذي أرساه ربنا في محكم تبيانه وطبقَّه حبيبنا محمد صلى الله عليه وسلم في حياته.

تعالوا الآن إلى هذا الفجور الذي يأبى بعضٌ من الناس إلا أن يركنوا إليه بدافع من ماذا؟ لا والله لا بدافع من آيٍ في كتاب الله ولا بدافع من كلام أوصى به رسول الله ولكن بدافع من أحقاد هيمنت على مشاعرهم وكياناتهم، تتنامى في نفس أحدهم مشاعر الحقد، يبحث يميناً وشمالاً عن متنفس فلا يعثر لذلك إلى على سلاح التكفير، سلاح التكفير هو الذي يشفي غليله، هو الذي يحقق تنفساً عن حقده، ومن هنا يتركون كلام الله عز وجل وبياناته التي لخصتها لكم وراءهم ظهرياً ثم إنهم يتبعون بدلاً عن ذلك مشاعر أحقادهم، مشاعر الضغائن التي تهيمن على كياناتهم.

أيها الإخوة: شريعة الله تقول إذا طافت احتمالات أكثر من مائة بالإنسان دالَّةً على كفره بقي احتمال واحد فوق المائة يدل على أنه لا يزال مسلماً، رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: تلك هي الذرة التي ستنجيه يوم القيامة من عذاب الله عز وجل، ﴿يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان﴾.

عباد الله: نحن نتداعى إلى الوئام وهذا ما يأمرنا به الله، نتداعى إلى الحب وهذا ما يأمرنا به كتاب الله، نتداعى إلى الوحدة وهذا ما نسمعه ونقرأه في كتاب الله لكن يا عجباً لمن يمسك بالمعاول ليهدم ما يأمر به كتاب الله، هذا هو الإشكال الذي نعيشه ورحم الله من قال:

متى يبلغ البنيان يوماً تمامه إذا كنت تبنيه وآخر يهدم

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.




قضايا الساعة



الفتنة في سوريا

٤٥٨- اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ | ٢٠١١/٠٢/٢٥

آية في كتاب الله عز وجل استوقفتني قبل قليل طويلاً وبعثت في كياني شعوراً غامراً من الأمن والطمأنينة والاعتزاز والنشوة، تلك هي قول الله سبحانه وتعالى: ﴿اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

ثم إن مزيداً من النشوة طاف برأسي عندما وقفت عند الآية الأخرى التي تؤكد وتزيد من معنى هذه الآية التي استوقفتني، تلك التي يقول الله فيها: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد: ١١]

إذاً فأنا عبد الله المدلل المقيم في أكنافه، أنا عبده المكلوء بولايته وبرعايته لأنني ممن آمن به وممن عرفه رباً واحداً فرداً صمداً منه الابتداء وإليه الانتهاء. أجل، أنا لست مضيعاً في جنبات الأرض، أنا لست يتيماً ولا مُيَتَّماً في صحاري الدنيا، لن تتخطفني الاضطرابات النفسية، لن تتخطفني أمراض الكآبة، لن تتصيدني أفخاخ الطغاة وقوى الشر في العالم لأنني مكلوء بولاية الله، لأنني من أولئك الذين قال الله عنهم: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [محمد: ١١].

حقاً — أيها الإخوة — إن نشوة غامرة طافت بكياني وروحاً من الاعتزاز هيمنت على شعوري. أنا! من أنا؟! أنا عبد الله المدلل كما قلت لكم في أكنافه وأعتقد أن هذا الشعور الذي طاف بكياني عندما استوقفتني هذه الآية في كتاب الله عزّ وجلّ لابد أن يطوف برأس كل واحد منكم، لابد لكلّ واحد منكم إن أوقفته هذه الآية وأخذ يتأمل فيها: ﴿اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

لابدّ أن تطوف بكم هذه النشوة الغامرة، لابد أن تطمئنوا إلى أنكم لستم مضيَّعين فعلاً في جنبات الأرض، لستم اليتامى أو الميَتَّمين في صحاري الدنيا، أجل، لن تتخطفكم الاضطرابات النفسية ولا أمراض

الكآبة، لن تقودكم الاضطرابات النفسية المختلفة إلى المخدرات والمسكرات ونحوها ذلك لأنكم تعيشون في كلاءة من ولاية الله، تعيشون في كلاءة من حماية الله، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد: ١١].

لابد أن ينشد كل واحد منكم وقد طافت النشوة بكيانه النشيد الذي لقَّنَنَا الله عز وجل إياه إذ خاطبنا ملقناً قائلاً: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف:١٩٦]. أجل، أجل يا ربي ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾.

بل إني لأعتقد أن هذا الشعور ينبغي أن يطوف برؤوس المسلمين جميعاً، ينبغي أن يطوف بكيان العالم الإسلامي كلِّه ممثلاً في شعوبه وقياداته. مادمنا قد شَرُفْنَا بالإيمان بالله إيماناً حقيقياً، مادمنا قد شَرُفْنَا بمعرفة أننا عبيده المملوكون له وبأننا موصولوا النسب إلى ولايته – ولايته لنا وحمايته إيانا – ذلك هو خالق الكون كلِّه، ذلك هو مدير العالم أجمع، لابد أن تطوف هذه المشاعر بكيان العالم الإسلامي كلِّه أينما كان ممثلاً – كما قلت لكم – في شعوبه وفي قياداته.

يا عجباً يا عباد الله، يا عجباً لمن عرف الله وعرف كيف أنه مكلوء بولاية الله له وعرف كيف أنه مكلوء بكنفه وحمايته ثم إنه يصر على أن يهبط من عرش ولاية الله له ليستسلم للطغيان وقوى الشر ثم ليجعل من نفسه سجيناً بين أيديهم، سجيناً لطغيانه، يا عجباً لمن يستبدل بولاية الله ولاية الطغاة من عباد الله سبحانه وتعالى.

قوى الشر هذه التي تتقاذف المسلمين من يسار إلى يمين ومن يمين إلى يسار تعبث بهم كعَبَثِ الأقدام بالكرة. تنادي بالديمقراطية وتدعو إليها وتهدد الذين لم يأخذوا أنفسهم بها مادامت المركب الذي تستطيع أن تمتطيه لتصل إلى مصالحها وما دامت الخادم الأمين الذي تستطيع أن تسوقه إلى مغانمها ومغتصباتها، فإذا رأت أن الديمقراطية لا تخدم إلا أصحابها وأن الديمقراطية إنما تهدي أصحابها إلى الحق فيتمسكون به وتصرفهم عن الباطل فيعرضون عنه إذاً سرعان ما تروغ قوى الشر هذه إلى المناداة بالاستبداد، إلى الدعوة إلى الاستبداد، إلى حماية الاستبداد والمستبدّين إلى آخر قطرة. إنها ليست ديمقراطية ولا استبداداً وإنما هي

المصالح الرعناء تبتغي قوى الشر أن تجنّدها لها، تبتغي قوى الشر أن تمتطينا رَكُوباً لبلوغ مغانمها ولبلوغ أهدافها.

يا عجباً لمن يستبدل بولاية الله وكنفه فيصرُّ على أن يهبط من عرش هذه الولاية الربانية له ثم يستسلم لسجن هذا الطغيان أو يستسلم لقوى الشر يا عباد الله.

أما نحن، فنحن عباد الله المؤمنون به، نحن عباد الله الذين عرفناه ربّاً واحداً لنا لا شريك له وعرفنا أنفسنا عباداً له، عاهدناه على أن نكون عند النهج الذي أمرنا بالسير فيه جهد استطاعتنا، عاهدناه على أن نُعرض عن كل ما حذَّرَنَا اللهُ عز وجل منه جُهد استطاعتنا، إذاً فولينا هو الله سبحانه وتعالى، تلك هي هويتنا يا عباد الله، تلك هي حقيقتنا، لن نهبط من عرش ولاية الله لنا أبداً، لن نولي وجوهنا شطر أي جهة من جهات العالم التي تجتذبنا إليها لمصالحها، لمغانمها ابتغاء الهيمنة علينا وعلى حقوقنا، وكيف؟ كيف نستبدل بالسعادة شقاء! كيف نترك السعادة التي طمأننا الله عز وجل فيها ليسيل لعابنا على الشقاء! ومن ذا الذي يسيل لعابه على الشقاء يجتذبه لنفسه يا عباد الله!

هذه خلاصة ذكرتها لكم من وحي النشوة التي طافت بكياني. والحقّ أقول: عندما كنت أقف قبل فترة من هذا اليوم أمام هذه الآية الحبيبة المحبّبة إلينا ﴿اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وإنني أقول لكم بحقّ مبشراً وأقول لنفسي: مادمنا نعيش داخل كلاءة الله عزّ وجلّ، مادمنا نعتز بولاية الله لنا، مادمنا صادقين في معاهدة الله عز وجل أننا لن نتخذ من دونه ولياً فإنني أبشر نفسي وأبشركم بأن الأمن لن يغادرنا وبأن الطمأنينة ستظل الظلّ الملازم لنا وبأن نشوة السعادة ستظلّ تطوف بنا، ومن ذا الذي يشكّ في أنَّ حماية الله سبحانه وتعالى إذا تابعت أمَّة فإنَّ هذه الأمة تنال كل معنى من معاني السعادة.

عباد الله: الشيء الأخير الذي أريد أن أقول لكم: جواب عن سؤال ربما يطوف بذهن كثيرٍ من منكم؛ ترى هل لهذه الفتن التي تتدجّى من حولنا في مشارق الأرض ومغاربها أن يصل شيء من عدواها

إلينا؟ أقول لكم في الجواب: اسمعوا كلام الله سبحانه وتعالى، إنه يجيبكم ولكأنه نزل البارحة، إنه الجواب الذي يحمل في طياته البشرى لكم: ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]. أسمعتم؟! أتدبرتم هذا الكلام؟! ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

إنني أعلن باسمي وباسمكم وباسم أمتنا في شامنا هذه أننا مؤمنون بالله وأننا واثقون بأننا سنلتزم بعهد الله عز وجل ما وَسِعَنَا ذلك، إذاً فلسوف يكون الأمن حليفنا ولسوف لن يغادرنا الأمن أبداً، تلك هي بشارة ربّ العالمين لنا. ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

اللهم إنا نشهدك أننا مؤمنون بك فاجعلنا اللهم جميعاً – قادة وشعباً – اجعلنا اللهم جميعاً من ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ حتى نكون من الآمنين في دنيانا وعقبانا. أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

٤٥٩- المخرج من المصائب عندما تحدق بنا | ٢٠١١/٠٦/٠٣

إن المصائب التي يبتلي الله عز وجل بها عباده آتيةٌ بقضاء من عنده وبحكم من حكمته وهي عصي تأديب هابطة إلى العبد من لدن قيوم السموات والأرض، فما ينبغي أن نُحْجَبَ عن هذه الحقيقة بما يجند الله سبحانه وتعالى لقضائه من أسباب، ما ينبغي أن نُحْجَبَ عن رؤية المسَبِّب بالأسباب المادية الجزئية التي كثيراً ما نحبس أنفسنا داخل أقطارها. تعالوا يا عباد الله نتجاوز أقطار هذه الجنود التي يجندها الله عز وجل لحكمه لقضائه النافذ، تعالوا نقف أمام الحاكم الأوحد الذي يقضي في عباده بما يشاء.

ألا فلنصغ السمع أولاً إلى بعضٍ من الآيات التي يؤكد لنا فيها بيان الله عز وجل أن المصائب والابتلاءات التي يُبْتَلَى بها العباد إنما تأتي من لدن رب العالمين مباشرة.

تعالوا نصغي إلى قوله عز وجل: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]. ما أظن أني بحاجة إلى أن ألفت نظري وأنظاركم إلى الربط.

تعالوا نصغ السمع إلى قوله عز وجل: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

تعالوا نتدبر قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

إذاً المصائب أياً كانت إنما هي عصي تأديب هابطة إلى العباد من لدن رب العباد سبحانه وتعالى، أما الأسباب الظاهرة فجنود لله عز وجل: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٣١].

ولكن تعالوا نتساءل يا عباد الله: ما المخرج من هذه المصائب عندما تحدق بنا وما السبيل إلى أن تبتعد عنا؟

أولاً لابد أن نصغي السمع إلى ما يقوله المنطق:

الذي يرفع البلاء إنما هو الذي أرسله، والذي يكشف الغماء إنما هو ذاك الذي بعثه، هذه حقيقة لا يجهلها أحد، فإذا كانت المصائب آتية بقضاء وحكم من مولانا وخالقنا عز وجل فلنعلم يقيناً بما يجزم به المنطق أنها لا ترتفع إلا عن طريق من قد أنزلها ألا وهو الله سبحانه وتعالى، تعالوا نصغي السمع في هذا إلى ما يبينه لنا الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ يُصَيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧]. هذا هو قرار الله. ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ﴾ لهذا الضر ﴿إِلاَّ هُوَ﴾ إلا الله سبحانه وتعالى.

حسناً تعالوا نسأل مولانا وخالقنا: كيف السبيل يا ربي إلى أن ترفع عنا هذا البلاء؟ لقد مسنا الضر وقد علمنا أنه لم يمسنا إلا بقضاء من لدنك فكيف السبيل إلى أن تكشف عنا هذا الذي مسنا بحكم من لدنك؟ ويأتي الجواب من لدن مولانا الذي نتوجه إليه بهذا السؤال: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود: ٣].

هذا هو الجواب. ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعاً حَسَناً﴾ تنقشع الغمة ويرتفع البلاء ويأتي دور التمتيع بالنعم ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾. وها هنا النقطة التي ينبغي أن نقف عندها، ها هنا الدواء الذي يبصرنا به بيان الله عز وجل.

وأنا يا عباد الله إنما أخاطب نفسي مؤمناً بأني عبد من عباده وأنه يراني الساعة ويسمع كلامي وأن مصيري إليه، وأقول هذا لكم مؤمناً بأنكم جميعاً موقنون بعبوديتنا لله وبأننا نتحرك في قبضة الله وأن مصيرنا إلى وقفة لا ريب فيها بين يدي الله عز وجل.

ما العلاج الذي به تنكشف الغمة والذي به تعود المتعة بل سلسلة المتع التي يكرم الله عز وجل بها عباده؟ إنما هي التوبة والإنابة إلى الله عز وجل، هكذا يقول الله، وهذا هو الدواء الذي يشير لنا إليه: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ﴾ [هود: ٣].

عباد الله: أنا أدعو نفسي أولاً وأدعوكم جميعاً وأدعو كل من يصغي السمع إلى كلامي الساعة، أدعو أنفسنا جميعاً وإخواننا جميعاً وقد آمنا بالله عز وجل أن نعود إليه، أن نصطلح معه، أن نتوب إليه، أن نعلن بين يديه بصدق أننا قد انقطعنا عن الأوزار التي خضنا فيها خوضاً طويلاً وأننا قد أُبْنَا إليه وعدنا إليه وتبنا إليه فاقبل اللهم توبة التائبين إليك.

تعالوا يا عباد الله نتوجه إلى الله بقلوب نابضة بصدق الإنابة إليه، إن نحن فعلنا هذا الذي أمرنا الله عز وجل به إذ قال: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعاً حَسَناً﴾ [هود: ٣].

إن نحن صدقنا في التوبة إلى الله وأصلحنا ما أوغلنا فيه من الفساد وقَوَّمْنَا ما خضنا فيه من الاعوجاج فأنا أضمن بضمانة الله أن البلاء سيرتفع وأن الغمة ستنقشع ولكن أين هم الذين يستجيبون لنداء الله؟! ألتفت يميناً وشمالاً فأجد أن القوم أو جلهم يخوضون في متاهات متنوعة من المعاصي والأوزار، ترى هل أيقظ هذا البلاء الذي يطوف بنا أو نطوف به هل أيقظ بعضاً من هؤلاء الناس إلى توبة؟ هل نبههم من غفلة؟ هل أعادهم للنظر إلى هوياتهم؟

عباد الله: كم وكم في مجتمعاتنا من أناس يقتنصون أموال الآخرين بالرشاوي وبالمعاملات الباطلة الفاسدة وأنتم تعلمون ذلك. هل يوجد فيهم عشرة فقط تابوا إلى الله عز وجل ورجعوا إليه وأعلنوا أنهم عائدون تائبون وأنهم سيبتعدون عن الظلم ولسوف يعيدون الحقوق إلى أصحابها؟ إنكم لتعلمون أن كثرة كثيرة كبرى من عباد الله عز وجل ذكوراً وإناثاً لا يعرفون شيئاً من معنى الصلاح ولا يتوجهون في يومٍ من الأيام إلى قبلة الله، تمر السنة تلو السنة ولا يقرؤون آية في كتاب الله، ترى هل فيهم عشرة استيقظوا بسبب هذه العصي التي تنتابنا من عند الله فتابوا وآبوا إلى الله وتوجهوا إلى قبلة الله وتوجهوا ساجدين لعظمة الله وأقبلوا إلى كتاب الله يتلونه أو يصغون إليه؟ إنكم لتعلمون أن ليالي بلادنا هذه تحتضن الكثير والكثير من العاكفين على الغي، من العاكفين على الفسوق والطغيان واللهو المحرم، ترى هل فيهم عشرة أيقظتهم عصي التأديب الإلهي فأقلعوا عن هذا الغي، عادوا وتابوا وآبوا إلى الله عز وجل؟ هل فيهم عشرة استجابوا لنداء الله القائل: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]

هذا سؤال أطرحه على نفسي وأطرحه عليكم جميعاً. فإذا مرَّ هذا البلاء الموقظ المنبه، وإذا كنا نعلم أنه آتٍ من عند الله عز وجل ولم نكن نسجن أنفسنا في الأسباب المادية الجزئية التي نراها فلنعلم إذاً أن هذه المحن إذا بقيت وبقينا معها سادرين في الغي، إذا بقيت وبقينا معها عاكفين على الظلم وعلى الفساد، إذا بقيت وبقينا معها معرضين عن دعوة قيوم السموات والأرض فلنعلم أن الأمر جد خطير، وليست خطورة هذا الأمر بتصور أو بتخيل من عندي وإنما هو قرار من الله القائل: ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود: ٣]. هذا الكلام يتحدث عن هذا الوضع الذي نحن فيه ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ أي وإن تتولوا وتعرضوا عن دعوتي لكم إلى التوبة، إلى العودة إلى الله عز وجل فإني أحذركم من عذاب كبير قادم.

وحصيلة القول يا عباد الله أننا — وقد آمنا بالله، وقد آمنا بهوياتنا عبيداً مملوكين أذلاء لسلطان الله — أدعو نفسي وأدعوكم جميعاً على اختلاف الفئات والرتب إلى التوبة والإنابة إلى الله عز وجل، نقول كما كان يكرر رسول الله صلى الله عليه وسلم: «آيبون، تائبون، لربنا حامدون». قولوها يا عباد الله في أسراركم قبل أن تقولوها بجهر فيما بينكم، قوموا في الأسحار واطرقوا باب الملك الجبار واستنزلوا الرحمة بالتوبة والإنابة إلى الله عز وجل، إن نحن فعلنا هذا انحسرت الغمة وأنا الضامن بهذا بقرار أنقله إليكم من لدن رب العالمين، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

٤٦٠- وصايا رسول الله صلى الله عليه وسلم لنا في الهرج والمرج | ٢٠١١/٠٤/٢٩

إنه لأمر يلفت النظر ويثير العجب والاستغراب هذا الذي سأضعكم أمامه وأحدثكم عنه.

نصغي إلى الأحاديث الصحيحة الكثيرة التي يحدثنا فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الفتن التي تستشري في هذا العصر ونتأمل فيما أطلعه الله عز وجل عليه من الغيب المكنون المتعلق بالمستقبل البعيد البعيد، ونتأمل في مشاعر الشفقة التي تستبين من خلال حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الفتن ونصائحه التي يرسلها إلينا من وراء القرون، نتدبر ونتأمل ذلك، ثم إننا نعود إلى أنفسنا – وها هنا يستبين وجه الغرابة والعجب – هل نبادل رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الاهتمام الذي يتوجه به إلينا؟ هل نصغي السمع إلى نصائحه التي تنبثق من شفقته العارمة علينا؟ هل – ونحن نعلم أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلينا ونعلم ما أخبرنا به من أنه معنا في حياته وموته، أليس هو القائل فيما صح عنه: ﴿حياتي خير لكم ومماتي خير لكم، تُحْدِثُون ويُحْدَثُ لكم، ما وجدت من خير حمدت الله عليه وما وجدت من شر استغفرت الله لكم﴾، هذا هو اهتمامه بنا من وراء القرون، فكيف هي حالنا ونحن من أمته؟

نتأمل – يا عباد الله – وإذا بنا أو بأكثرنا معرضون عن الشفقة التي يلاحقنا بها، تائهون منشغلون عن النصائح التي يزجيها إلينا، أليس هذا أمراً عجيباً يا عباد الله؟ أطلعه الله على دقائق ما نراه اليوم وأخبر به ودونكم فاقرؤوا أحاديث الفتن، ثم إنه عبَّرَ عن شفقته المتناهية علينا وحبه لنا ومن ثم أزجى إلينا نصائحه والسبل التي ينبغي أن نسلكها للتخلص من عقابيل هذه الفتن، فما هو موقفنا كما تعلمون؟ إنه موقف الإعراض عن هذا الذي ينصحنا به، إنه موقف التجاهل لهذه الشفقة المتناهية التي يعبِّرُ عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم بنصائحه.

نَصَحَنَا المصطفى صلى الله عليه وسلم ألا ننقاد لمجهول وألا نسير وراء عاصفة آتية من حيث لا نعلم وحذَّر من ذلك أيما تحذير في أكثر من مناسبةٍ وفي أكثر من حديث، قال عليه الصلاة والسلام فيما يرويه مسلم والنسائي وآخرون: ﴿من قُتِلَ تحت راية عُمِّيَّة – أي راية لا يُعْلَمُ غايتها ولا يُعْلَمُ مصدرها – أو غضب لعصبة أو انتصر لعصبة فَقُتِلَ فَقِتْلَتُهُ جاهلية﴾، هكذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتحدث عن الفتن، وهو يقدم لنا نصائحه كما قلت لكم من وراء القرون. ونظرنا إلى أنفسنا وإذا بنا – أو بكثير منا – ينقاد للراية العُمِّيَّة التي حذَّر منها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ينقاد للمجهول، والمجهول – الذي حذرنا منه رسول الله صلى الله عليه وسلم بل نبَّهَنَا إلى العقابيل التي سنراها من ورائه – إن يوردنا إلى ما يبتغي ولكنه لا يُصْدِرُنا بعد ذلك إلى ما نريد، هكذا يوضح لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، أليس عجيباً يا عباد الله ونحن المؤمنون بِنُبُوَّتِهِ ونحن المعتزون بأننا من أمته أن نعرض عن نصائحه المشفقة وعن دلائل حبه ورأفته ورحمته بنا في هذا الذي يصف ثم في هذا الذي ينصح.

أوصانا رسول صلى الله عليه وسلم في غمار هذه الفتن التي يصفها أدق وصف، يأمرنا إذا نصحنا أو أَمَرْنَا أو نَهَيْنَا أو دَعَوْنَا ألا نبتغي بذلك إلا مرضاة الله، لا نبتغي بذلك استرضاء حاكم ولا محكوم، لا نبتغي بذلك تصفيق أناس من العامة ولا التقرب إلى القادة من الخاصة، يأمرنا المصطفى صلى الله عليه وسلم أن نبتغي فيما ننصح وفيما نقول وجه الله ذاته، فهو يقول لنا: ﴿من استرضى الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس ومن أسخط الناس برضا الله سبحانه وتعالى كفاه الله مؤونة الناس﴾.

اسمعوا نصيحة المصطفى صلى الله عليه وسلم البليغة أرسلها إلينا من وراء ما يقارب خمسة عشر قرناً ﴿من استرضى الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس ومن أسخط الناس برضا الله سبحانه وتعالى كفاه الله عز وجل مؤونة الناس﴾.

فماذا كان موقفنا بعد هذا الذي بَلَغَنَا من نصيحة رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ ننظر إلى حالنا وإذا بنا – أو بأكثرنا – إذا نصح فهو إما أن يبتغي من وراء ذلك التغلب إلى الدهماء والعامة من الناس وإن أسخط بذلك القادة والحكام أو يتوجَّهُ بذلك إلى استرضاء القادة والحكام وإن أسخط بذلك الناس،

وتبحث عمن لا يبالي بهؤلاء ولا بهؤلاء وإنما يستنزل رضا الله فلا تعثر من ذلك إلا على النذر اليسير. هذه هي حالنا يا عباد الله.

أعود فأقول لكم كما بدأت حديثي إليكم: أليس هذا الواقع أمراً يلفت النظر ويثير العجب والاستغراب؟ أفحيل بيننا وبين محمد صلى الله عليه وسلم من خلال الرعونات التي هيمنت ثم هيمنت ثم هيمنت علينا؟ أفنسينا أننا من أتباعه وأمته؟ أفنسينا قول الله عز وجل: ﴿مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً﴾ [النساء: ٨٠].

أبلغ آيةٍ في كتاب الله تحذر من الإعراض عن وصايا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

عباد الله: حكمة بالغة اعتصرها لنا رسول الله من نصائحه، إنها تقول: إن إتباعنا للمجهول يوردنا إلى ما يريد ولكنه لا يصدرنا بعد ذلك إلى ما نريد نحن، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.



٤٦١- بشارة شهر رمضان وضمانة تحققها | ٢٠١١/٠٨/٠٥

أنقل إليكم بشارة هذا الشهر المعظم، شهر الله سبحانه وتعالى، الذي يتجلى فيه ربنا على عباده بنفحاته الرحمانية، أنقل إليكم بشارته بأن هذه الفتنة، بدأت تدبر كما أقبلت بالأمس فإنها ستنحسر وتدبر بإذن الله اليوم، ولكن ضمانة ذلك إنما تتمثل في التوبة النصوح، في التوبة إلى الله عز وجل والأوبة إليه وتجديد البيعة معه والاصطلاح معه على كل المستويات وبالنسبة لسائر الفئات.

ولعلكم تقولون: أليست هي بشارة هذا الشهر؟! وكأنها لم تعد بحاجة إلى شرط. نعم إنها بشارة الشهر ولكن هذا الشهر يلفظ من لم يقبل إلى الله عز وجل بالتوبة. ولقد رسول الله قائلاً: ﴿بَعْد ثم بعد، بعد من دخل عليه رمضان فلم يغْفَر له﴾ ومن هو الذي يدخل عليه شهر رمضان فلا يُغْفَر له؟ هو الذي يظل عاكفاً على غيه، هو ذاك الذي يظل عاكفاً على المحرمات التي حذره الله ونهاه عنها، فلابد لمن يتلقى هذه البشارة أن يمد أولاً يداً إلى الله بالتوبة ثم إنه يمد يده إلى هذه البشارة ليتناولها.

ولقد ارتكبنا يا عباد الله كثيراً من الموبقات، ولقد عكفنا على كثيرٍ من الأوزار، وصدق ربنا القائل: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

وأرجو أن تكون هذه الفتنة بل هذا الابتلاء الذي أقبل إلينا بإرادة من الله عز وجل وبلون من التربية تتمثل فيها نعمة من نعمه الباطنة، أرجو أن تكون هذه الفتنة قد أيقظتنا إلى الاعتبار وقد نبهتنا إلى العودة إلى الله والتوبة بين يديه، ولئن كانت قلوبنا قد بلغت من القسوة بحيث تمر هذه الابتلاءات متوالية متتابعة آتية من عند الله ثم لا تستيقظ قلوبنا وتبقى على حالها من اليأس ومن القسوة فإنها لمصيبة أخرى أطم وأخطر، ولكني أحسب أن الكثرة الكاثرة منا قد آبوا إلى الله وقد أعادتهم المحنة إلى الله عز وجل، هذا ما أحسبه وأرجوا ألا أكون مخطئاً في ذلك.

إلا أن هنالك معاصيَ خطيرة ربما كانت أخطر من تلك التي كنا نعكف عليها فيما مضى قبل أن تواجهنا هذه الفتنة، وأظن أن من أبرز مظاهر خطورتها أن في المسلمين من لا يأبهون بها ولا يلتفتون إليها، أرجو أن ينتبه المسلمون إلى أن يتوبوا إلى الله من هذه المعصية التي أحدثكم عنها.

رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثنا عن هذه الفتن ووصفها بل وصف هذا الذي مررنا به بأدق وصف ثم إنه أمَرَ أَمْرَ حَتْمٍ بالابتعاد عنها وحذر تحذير تحريم من الدخول فيها والولوغ إليها وكرر ثم كرر ثم كرر، وأنظر وإذا بكثرة كاثرة من المسلمين يستخفون بهذا الذي حذر منه رسول الله، بل نظرت فرأيت أن في المسلمين من يستهزئون بهذا الذي أمر به رسول الله ومن يقولون بملء أفواههم إن هذا ما لا يقبل في هذا العصر.

إن الولوغ في هذه المعصية مخالفة لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أعتقد أنه أخطر من الفتنة التي نعاني منها الآن، وها أنا أعيد على مسامعكم بعضاً – لا كلاً – من الأحاديث التي تحدث رسول الله فيها عن هذه الفتنة وأمثالها وحذر من الاشتراك فيها والولوغ إليها.

قال في حديث طويل وصف فيه هذه الحالة ثم قال لكل فردٍ فردٍ فردٍ من المسلمين: ﴿عليك بخاصة نفسك ودع عنك أمر العامة﴾.

وقال في حديث آخر اتفق عليه الشيخان: ﴿ستكون بعدي فتن من استشرف لها تستشرفه ومن وجد ملجأً أو معاذاً منها فليعذ به﴾.

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما صح عنه حكايةً عن مثل هذه الفتنة وعلاجاً لها: ﴿أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك﴾.

ويقول في حديث آخر متفق عليه، يصف هذه الفتنة وأمثالها، يقول له حذيفة رضي الله عنه: ماذا تأمرنا إن أدركنا ذلك؟ يقول في الجواب: ﴿اعمد إلى حجر فدق عليه حد سيفك واترك كل تلك الفئات والجماعات ولو أن تعض على أصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك﴾.

وهكذا يوضح لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن خمود هذه الفتن إنما هو في الاعتزال منها، في الاعتزال عنها ويؤكد هذا مثنى وثلاث ورباع، وأنظر وإذا بكثرة كاثرة من الناس أذَكِّرُها بهذا الذي يقوله رسول الله فتفر من سماع كلامه وتلقي بهذه الوصايا وراءها ظهرياً، نعم هذا ما يتم الآن، فماذا إن قلت لكم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قبل وفاته بأشهر وقد زار البقيع في حديث طويل أذكر محل الشاهد منه: ﴿ألا ليذادنَّ رجال عن حوضي – أي ليطردن رجال عن حوضي – فأقول: ألا هلم ألا هلم فيقال إن لا تدري كم بدلوا من بعدك﴾.

يا ناس لماذا نعرض أنفسنا لهذا التبديل الذي يحذر منه رسول الله، هل قطعنا صلة ما بيننا وبين حبيبنا محمد؟! هل عدنا لا نعترف بنسبتنا إليه ناساً من أمته ونسبته إلينا آخر الرسل والأنبياء المبعوثين من قبل الله؟!

يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم وهو هذه الحالة التي نحن فيها: ﴿من قاتل تحت راية عمية فقُتِل فقتلته جاهلية﴾. ما الراية العمية؟ هي تلك القيادة التي لا تعلم أصحابها ولا تعلم الغاية منها ولا تعلم النهاية التي توردك إليها، هذه هي الراية العمية. ونحن إذا أردنا أن نبحث سنجد أن في الناس الذين يمسكون بهذه الراية الموساد الإسرائيلي والمخابرات المركزية الأمريكية ولسوف تأتيكم قريباً أنباء تفصيلية تضع النقاط على الحروف في هذا الأمر، فئات تلتقي قبل أيام وتتواصى بتأجيج ضرام الفتنة في الشام، في سورية من أجل الوصول إلى الغاية التي لم نرسمها نحن ولكن أولئك الناس هم الذين رسموها، وأعود فأتساءل أمؤمنون نحن بقرآن الله؟! أمؤمنون نحن بأن هذا القرآن كلام الله؟! لا أدري!

كلام الله عز وجل يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاء مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ١١٨].

كلام من هذا يا ناس؟! هذا كلام ربنا وأنتم تعلمون أنه لم يكن في الصحابة من اتخذوا بطانة من غيرهم، لم يكن في التابعين من اتخذوا بطانة من غيرهم، لكن هذا كلام موجه إلينا نحن.

قلت لواحد من هؤلاء الشباب الذين يخرجون في الأمسيات: ما الهدف من خروجكم، سكت، قلت: أحب أن أعلم، قال: تسلية. يا عجباً، أفي الناس العقلاء من يهدم بيته لتسلية.

وقلت لبعض من استحر الجدل والنقاش بيني وبينه أنا سأمد يدي إلى بيعة حقيقية معكم لكن على أن تضعوني أمام النظام البديل الذي تقرر أن يكون هو النظام الساري في هذه البلدة وأكتفي بأن يكون في السوء والحسن مثل هذا النظام، ألا يكون أكثر سوءاً منه، أرني النظام البديل الذي سيتم، عند النقاش تبين أن المسؤول أجهل من السائل أجل في هذا الموضوع، ليس المسؤول بهذا أعلم من السائل قط، قلت: ولكني أعلم النظام ليس نحن الذين نضعه وإنما وضع هناك.

من؟ أعود فأقول يا عباد الله من هو هذا العاقل الذي يعمد فيهدم داره وإن كانت داراً عتيقة تافهة ثم يذكر أن يبحث عن مأوى آخر يأوي إليه؟ أي عاقل يفعل هذا؟!

ألم يأن لنا جميعاً أن نتبصر وأن يستيقظ منا العقل؟ أولاً: إنكار المنكر، أن نلغي كلام رسول الله وأن نجعل وصيته الحارة ملقاة وراءنا ظهرياً وأن نستخف بها وأن نتفوه بالكلام العجيب بشأنها معصية كبرى أظن أنها أخطر من البلاء الذي يمر بنا، أرجو وآمل أن نعود إلى رسول الله.

يا ناس، أحد شيئين، إما أن هؤلاء الإخوة تبرموا بوصايا رسول الله فليعلنوها وإما أنهم موقنون بنبوته فليتبعوا كلامه، أنا لا أتقول على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ينبغي أن نعلم أن الإصلاح أمر لا ريب فيه ولابد منه، وأنا مع الذين يدعون إلى الإصلاح ولكن عندما ندعوا إلى أن نستبدل نظاماً بنظام ونضع النظام البديل الآتي ونطمئن إليه ونتبين رسوخه على أرضنا بشكل سليم عندئذٍ لا حرج، وهذا ما لا يمكن أن يرفضه عقل عاقل بشكل من الأشكال.

أعود فأقول وأنا أتحدث عن شهر رمضان وعما يخاطبنا به رمضان: إن شهر الله هذا يحمل بشارة وأي بشارة إلينا جميعاً ولكن هذه البشارة منوطة بالتوبة إلى الله، دعك من هذه الفتنة، حتى ولو لم تكن، أما ينبغي لمن استقبل شهر الله أن يستقبله بتوبة من الذنوب؟! أما ينبغي أن يستقبله بتوبة من المعاصي

والآثام؟! أما ينبغي أن يجدد العهد بينه وبين حبيبه محمد صلى الله عليه وسلم؟! دعك من هذه الفتنة، فما بالك والفتنة مستحرة ورمضان ينادي أن عودوا إلى نبيكم، اصطلحوا مع رسولكم، لا تستخفوا بوصاياه، لا تلقوا بوصاياه بل بأوامره ونواهيه وراءكم ظهرياً.

إن نحن تبنا إلى الله، وإن نحن عدنا إلى الله، وإن نحن ملأنا مساجدنا ركعاً سجداً ملتجئين إلى الله عز وجل، وإن نحن تلونا كتاب الله عز وجل معبرين عن رجوعنا من خلال تلاوتنا له إلى حمى هذا الدين العظيم فأنا أعود فأؤكد لكم أن هذه الفتنة قد ولت وأدبرت ولسوف تجدون خوارق إعجاز الله عز وجل، لكن لا تنسوا هذا الشرط، وأنا عندما أقول هذا أدعو نفسي وأدعو الأمة كلها إلى التوبة بدءاً من القادة إلى القاعدة إلى الفئات كلها، كلنا مكلفون بأن نؤوب ونتوب إلى الله عز وجل.

أيها الإخوة نحن اليوم نتحرك فوق هذه الأرض وغداً ستحتضننا في باطنها، لماذا نتعامل مع أي شيء غير الله؟ لماذا نتعامل مع عصبياتنا؟ لماذا نتعامل مع أهوائنا؟ لماذا نتعامل مع أمور واتفاقات فيما بيننا وبين آخرين أياً كانوا؟ لماذا؟! الموقف بين يدي الله والرجوع إلى الله وأعوذ بالله من ساعة تزجني في ندم محرق أولا وهي ساعة سكرة الموت عندما أرحل من هذه الدنيا خاوي الوفاق. أقول قولي هذا وأستغفر الله.

٤٦٢- وجه النعمة في هذا الابتلاء الذي نعاني منه |١٣/٠٥/٢٠١١

إن العبد المؤمن لا يتلقى من الله سبحانه وتعالى في كل أحواله وظروفه إلا الخير والنعمة، ولكنها إما أن تكون نعمة ظاهرة جلية أو أن تكون نعمة باطنة مقَنَّعَةً بشيء من الابتلاء والشدة، وصدق الله عز وجل القائل: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠].

فمهما تقلَّب الإنسان في ظروف وأحوال لا يمكن أن يتلقى من الله – إن كان مؤمناً – إلا الخير، إلا النعمة، ولكنها كما قلت لكم قد تكون مقَنَّعةً بظاهر من الابتلاء، بظاهر من الشدة.

وما كانت هذه الهزة التي ابتلانا الله سبحانه وتعالى بها إلا محنة في الظاهر فقط، أما في الباطن فهي نعمة من النعم المقَنَّعة بالشدة والمقَنَّعة بالخوف وبما قد علمتم من الابتلاء.

ولعلكم تسألون ما وجه النعمة في هذه الهزة التي عانينا ولربما ما زلنا نعاني منها؟

وجه النعمة – يا عباد الله – أنها عصا من عصي التأديب يؤدب الله سبحانه وتعالى بها عباده ويربيهم بها. وهل في الناس من يرتاب في أن التأديب نعمة من أجل النعم مهما كان الطريق إليها؟ هل في الناس من يرتاب في أن التربية من أجلِّ النعم التي يأخذ الله عز وجل بها عباده؟

ولكنا نعود فنتساءل: ما وجه هذه النعمة في هذا الابتلاء الذي نعاني منه؟

وجه النعمة في ذلك أيها الإخوة أنها توقظ من غفلة وأنها تُقَوِّمُ الاعوجاج وأنها تدعو الإنسان المؤمن إلى تجديد الاصطلاح مع الله والتوبة والإنابة إلى الله سبحانه وتعالى. وجه النعمة ووجه الخير في هذا الابتلاء أنه يدعو المؤمنين إلى أن يجتثوا الفساد مما بينهم وأن يعودوا فيمدوا آصرة الحب وآصرة الوداد والأخوة فيما بينهم على الاختلاف وعلى التفاوت أياً كان نوعه.

وأرجوا ألا نتصور أن الفساد إنما يستشري في جانب أو في جهة واحدة فقط كما هو شأن بعض المتصورين أو المتخيلين. إننا جميعاً على اختلاف فئاتنا نعاني من الغفلة التي ينبغي أن تنتهي إلى يقظة، نعاني من فساد ينبغي أن نتعاون جميعاً على اجتثاثه.

ما أكثر البيوت التي يشيع فيها الفساد والظلم والوقت لا يتسع للشرح والبيان.

ما أكثر الأسواق التي يشيع فيها الفساد بل يشيع فيها الظلم، وحسبكم من الظلم أنواع الغش والخديعة التي حذر منها رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلاً: ﴿من غش فليس منا﴾.

ما أكثر الفساد الذي يستشري في المعامل والمصانع متمثلاً في الظلم الذي ينحط على عماله وعلى كثير من الموجودين فيه.

ما أكثر أنواع الفساد والظلم التي تستشري في علاقات الناس والمؤسسات بعضها مع بعض.

عندما نقول: إن هذا الابتلاء يوقظ من غفلة ينبغي أن نعلم أنه يوقظ الجميع، وعندما نقول: إن من شأنه أن يدعو إلى اجتثاث الفساد فإنما نعني أن يتعاون الجميع على اختلاف فئاتهم لاجتثاث الفساد بكل أنواعه.

هذا هو وجه النعمة – يا عباد الله – في هذا الابتلاء الذي قد نراه نقمة في الظاهر ولكنه نعمة من أجلِّ النعم في الباطن. أجل فالشأن فيه أن يوقظنا، والشأن فيه أن يدعونا إلى تجديد التوبة والإنابة إلى الله سبحانه وتعالى.

على أن هذا الابتلاء أو هذه المحنة قد هبَّتْ اليوم لتدبر، أجل يا عباد الله، هذا ما نعتقده ونتصوره. فإن الله عز وجل لم يرسل إلينا هذه المحنة لتستقر وتبقى، ولكنه أرسلها إلينا وهو اللطيف الرحيم والودود، أرسلها لكي تمر فتوقظ السادر وتنبه الغافل وتدعو الأمة إلى أن تهب لإصلاح شأنها.

ولقد كنت – وينبغي أن أقولها صراحة – ولقد كنت أُرِيْتُ هذه المحنة قبل أشهر وأُرِيْتُ كيف تقبل وأُرِيْتَ كيف ستدبر. وها هي ذي أقبلت كما قد رأيت وكما قد حذرت وكان الناس آنذاك بين ساخر ومكذب ومتعجب، ولكنني أُرِيْتُ أيضاً كيف تهب لتدبر، وهي اليوم في مرحلة الإدبار.

ما هي العبرة التي نبغي أن تقتطفها يا عباد الله من هذه المحنة سواء في إقبالها أو في إدبارها؟ ما الدرس الذي ينبغي أن نعود به؟

الدرس الذي ينبغي أن نعود به – وأقولها لنفسي أولاً ولكم جميعاً ولأمتنا على اختلاف فئاتها ودرجاتها ثانياً – ينبغي أن نجدد العودة إلى الله، ينبغي أن نتوب إلى الله سبحانه وتعالى، ينبغي أن نصلح ما بيننا وبين الله عز وجل، ثم إنا علينا أن نتعاون جميعاً – جميعاً أقول – من أجل اجتثاث الفساد بأنواعه ومن أجل زرع مبادئ الإصلاح بكل أنواعه وبكل متطلباتها، ولا يمكن يا عباد الله أن يتم الإصلاح عندما يوكل أمره إلى فئة واحدة من الناس أيّاً كانت، وإنما يتم الإصلاح عندما تتم حقيقة التعاون بين الأمة على اختلاف فئاتها وعلى تنوع قدراتها. هذه هي الحقيقة. وسدى ولحمة النجاح في هذا الأمر هو الإخلاص لله سبحانه وتعالى.

الدرس الذي ينبغي أن نقتطفه من هذه المحنة التي أقبلت وها هي ذي الآن في طريقها إلى الإدبار هي أن نمد آصرة الحب فيما بين فئات هذه الأمة، كلنا مسؤولون عن مد هذه الوشيجة، كلنا مسؤولون عن مد وشيجة الحب فيما بين أفراد هذه الأمة على اختلافها، على تنوعها أيّاً كانت صورتها، هكذا يأمرنا ديَّانُنَا مولانا سبحانه وتعالى. أجل الحب هو الذي يكون رقيباً على الصلاح أن يستمر، الحب هو الذي يكون سبباً لاجتثاث الفساد وحراسة ألا يعود.

ما الغذاء الذي ينبغي أن نغذي به هذه الآصرة – آصرة الحب فيما بين فئات هذه الأمة –؟

الغذاء هو الإصغاء إلى نصيحة رسول الله، هو الإصغاء إلى وصية رسول الله توجَّهَ بها إلى القادة، إلى الأمة، إلى مختلف مؤسساتها وفئاتها: ﴿لا تباغضوا، لا تحاسدوا، لا تدابروا، لا تحسسوا، لا تجسسوا، كونوا عباد الله إخوانا﴾، وألفت نظركم إلى أن كلمة (عباد الله) منادى، أي كونوا يا عباد الله إخوانا.

نحن عندما نغيب عن حقيقة هويتنا عبيداً مملوكين لله ننسى هذا الغذاء أن نغذي به أنفسنا وإخواننا، ولكن عندما نستيقظ لهذه الهوية، عندما يوقظنا إليها رسول الله قائلاً: كونوا يا عباد الله إخواناً، فعندئذٍ – وقد علمنا أننا عباد الله – إذاً آصرة الأخوة ممتدة بين عباد الله جميعاً.

كيف يمكن أن يستشري الظلم بين أناس علموا أنهم عبادٌ لله؟ كيف يمكن أن تستشري الأنانية بين أناس علموا أنهم مملوكون أرقاء بيد الله سبحانه وتعالى؟ كيف يمكن أن يستغل أناس الأمة أو فئة من الأمة ليعتصر منها الخير لنفسه، ليعتصر منها الغنى لنفسه وقد علم أنه عبد مملوك لله عز وجل، ﴿كونوا يا عباد الله إخوانا﴾.

أجل، أجل مولاي يا رب العالمين: ها قد عدنا إليكن ها قد تبنا إليك، سنكون ونحن عبادك إخواناً متآلفين، إخواناً متحابين يحرس كلٌّ منا سعادة الآخر، لن تكون سعادتنا وقفاً على فئة بل ستكون قسمة عادلة بين عبادك جميعاً، كيف لا نفعل ونحن الذين نسمع ونقرأ قول الله عز وجل: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً. لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً. وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً﴾. [مريم – ٩٣-٩٥].

٤٦٣- التباس الهرج بالجهاد | ٢٠١١/٠٥/٢٧

أن يلتبس على الإنسان العاقل الشبيهُ بالشبيه فذلك شيء يقع، وهو من الأمور التي قد يقع فيها العقلاء كلهم من الناس، أما أن يلتبس على الإنسان العاقل النقيضُ بالنقيض، أن يلتبس عليه الأسود القاتم بالأبيض الناصع، أن يلتبس عليه الموجود الذي يراه بالمعدوم الذي لا يراه، أن يلتبس عليه الكبير الكبير الذي يسدُّ منظره الآفاق بالصغير الصغير الذي لا تكاد العين المجردة تراه، أما أن تجد عاقلاً يلتبس عليه النقيضُ بالنقيض من مثل هذه الأمثلة التي أحدثكم عنها فذلك شيء لا علم للعقلاء به قط.

لقد فرَّق الله سبحانه وتعالى في محكم تبيانه وبيَّنَ رسول الله صلى الله عليه وسلم الفرق جلياً في سنته الثابتة بين الجهاد المبرور الماضية شرعته إلى يوم القيامة والهرج الذي حذر منه رسول الله صلى الله عليه وسلم وحذر منه كتاب الله سبحانه وتعالى. بيَّنَ الله وبيَّنَ رسول الله الفرق بينهما فرقاً جلياً كبيراً لا يترك بينهما مجالاً لِلَبْسٍ. أنبأنا المصطفى صلى الله عليه وسلم أن الجهاد إنما هو مقاتلة الكافرين الذين أعلنوا الكيد للإسلام والمسلمين واستمرؤوا السير إلى اغتصاب حقوقهم والنيل من مبادئهم وقيمهم، وهو ما قد بيَّنَه كتاب الله بعبارة صريحةٍ واضحةٍ لا تقبل تأويلاً ولا التباساً عندما قال: ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٩].

هذا هو الجهاد وهؤلاء هم المجاهدون بيَّن ذلك كتاب الله بنصٍّ صريح قاطع، وبيَّنه لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بعبارات شارحة لا تدع مجالاً لِلَبْس.

ثم إنه صلى الله عليه وسلم بيَّنَ لنا الهرج وميز بينه وبين الجهاد وأوضح لنا أن الهرج هو أن يتصادم المسلمون فيما بينهم بقتال انتصاراً لعصبة أو غضباً لعصبة أو سيراً تحت رايةٍ عُمِّيَّة – أي سيراً تحت رايةٍ لا تعلم من يحملها وإلى أي غايةٍ يسير بها – هذا هو الهرج الذي بيَّنَه لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم

ثم حذر منه أيما تحذير فقال فيما رواه مسلم في صحيحه وغيره: ﴿من خرج من أمتي على أمتي يضرب برها وفاجرها ولا يتحاشى مؤمنها ولا يفي بذي عهدها فليس مني﴾.

إذاً قد أوضح الكتاب المبين – كتاب ربينا جل جلاله – ومن ثم شرح لنا رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم الفرق بين الجهاد المبرور الماضي إلى يوم القيامة وبين الهرج الذي هو علامة من علامات قيام الساعة والذي هو أخطر بابٍ وأوسع بابٍ إلى الفتنة الدهماء، ومع ذلك فإننا لنسمع ونرى ما لا يصدقه العقل، نرى أناساً يزعمون أن الجهاد قد التبس عليهم بالهرج، يدعون إلى الهرج ويرفعون لواءه ويزعمون أنه الجهاد في سبيل الله، يأمرون بما نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه، يأمرون بما حذر منه كتاب الله عز وجل ويقولون إنه الجهاد، ويعرضون عن الجهاد الذي أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ويخذِّلون منه، ونحن نرى أمامنا الكفرة الذين أعلنوا حقدهم وعدوانهم على الإسلام ومن ثم على المسلمين، نرى أمامنا ومن حولنا الكفرة الذين تصتك أسنانهم كيداً على الإسلام، يستلبون الحقوق ويستمرئون القتل ويغتصبون الدور من أصحابها ويسرحون ويمرحون مهددين المسلمين بإسلامهم ومهددين المسلمين بقيمهم وحقوقهم، يخذِّلون عن الجهاد مع هؤلاء الذين أمرنا الله عز وجل أن نقاتلهم ويأمرون بما نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه إذ قال: ﴿من خرج من أمتي على أمتي يضرب برها وفاجرها ولا يتحاشى مؤمنها ولا يفي بذي عهدها فليس مني﴾.

عباد الله: أصحيح أن في العقلاء الذين آمنوا بكتاب الله وقرؤوه وآمنوا بنبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصغوا السمع إلى تعاليمه، أتتصورون أن في العقلاء من يلتبس عليه الهرج الذي حذر منه الله وحذر منه رسوله بالجهاد الذي أمر الله سبحانه وتعالى به؟ أعتقد يا عباد الله أن العقل لا يمكن أن يتصور مثل هذا اللبس أبداً، وإنما هو اصطناع لِلَّبْس من أناس يعرفون الحقيقة لأهداف لا نريد أن نستبطنها ولا أن نتحدث عنها.

ثم إننا ينبغي أن نتساءل عن النتيجة التي يحققها الجهاد الذي أمر به الله عز وجل والنتيجة التي يستثمرها الهرج الذي نهى عنه رسول الله بل نهى عنه كتاب الله عز وجل.

أما الجهاد المبرور الذي أعلن عنه بيان الله قائلاً: ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٩].

تنفيذ هذا الأمر الإلهي والسير إلى ما أمر الله به بالجهاد يرفع رأس الأمة عالياً، يجعلها تتفيأ ظلال الأمن والسلم الحقيقيين، يجعلها تمتلك حقوقها المادية والمعنوية، يجعلها عزيزة في نفسها منيعة في أعين أعدائها، هذه هي ثمرة الجهاد الذي أمر به كتاب الله عز وجل وأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم، الجهاد الذي يخذِّل منه الذين يصرون على الدعوة إلى الهرج.

أما الهرج – وهي تسمية اختارها رسول الله صلى الله عليه وسلم – فما هي عاقبة الهرج يا عباد الله، ما هي عاقبة تصادم المسلمين بالقتال؟ لا يدري كما قال رسول الله القاتل فيما قَتَل ولا يدري المقتول فيما قُتِل. عاقبة ذلك أن تتسع دائرة الأحقاد السائرة بين المسلمين بعضهم مع بعض، وأن تتحول الأحقاد إلى ثأر يهيمن على النفوس والقلوب، ومن ثم فإن الوطن يهلك ويتمزق تحت سنابك هؤلاء المتقاتلين، الأغنياء يتحولون إلى فقراء مدقعين والفقراء يتحولون إلى جائعين يهلكهم الجوع ويشيع فيما بينهم البؤس والهلاك، يتحول الوطن الواحد إلى قطع مُبَضَّعَةٍ ويتحول إلى فئات متقاتلة متخاصمة، فئات تغرق في بحار من الدماء فيما بينها، والإصلاح الذي يتحدث عنه المسلم أين مكانه؟ ليس له مكان إطلاقاً أمام هذا البلاء الماحق، أمام هذا الهلاك الذي يحيق بالأمة وبالوطن. الديار تتهاوى والقتل يستحر والدماء تتحول إلى أنهر، ومتى يمكن لهذه الأمة أن تنهض من كبوتها، لسوف يمر العقد والعقدان وثلاثة عقود ولا تستطيع هذه الأمة أن تستيقظ من البلاء الماحق الذي أحاط بها، لا يمكن للخراب أن يتحول إلى عمران خلال هذه المدة، وما السبب؟ السبب هو الهرج.

أرأيتم إلى النتيجة التي يحققها الجهاد بالمعنى الذي شرعه الله وبالمعنى الذي بيَّنَه لنا رسول الله، أرأيتم إلى الأثر المهلك المرعب الذي يثمره الهرج الذي هو علامة كما قال رسول الله من أقسى وأخطر العلامات الدالة على قرب قيام الساعة.

هذا الذي أقوله لكم أيها الإخوة من شأنه أو يوقظ السادر وأن ينبه الغافل وأن يُقَوِّمَ صاحب الاعوجاج في سيره.

تعالوا يا عباد الله – ونحن ولله الحمد المؤمنون بكتاب الله المنتمون إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، نحن من أمته، نحن من أمة الاستجابة بحمد الله عز وجل – تعالوا نحصن أنفسنا وعقولنا بحصن الحماية والرعاية، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يناشدنا القربى، ألا نَهْلَك وألا نُهْلِك إخواننا. أقول هذه الكلمة لي ولكم جميعاً ولكل من قد تبلغه.

أما إخواننا أولئك الذي ينقادون لأمر الغريب في خارج هذا الوطن لأسباب لا أريد أن أتحدث عنها، أما أولئك الإخوة الذين ينفخون وهم متسترون في نيران هذه الفتنة، في نيران هذا الهرج، كلما خَبَتْ يحاولون أن يعيدوها إلى الوقود، أقول لهؤلاء – وليت أن كلامي يبلغهم – أيها الإخوة، أيها الأحبة والله إني لأقولها لكم من منطلق شفقة، والله إني أقولها لكم من منطلق حب، لاحظوا النتيجة التي ستؤولون بها بعد سنوات طالت أو قصرت إلى الله، ستحمل أعناقكم الضعيفة أثقالاً وأثقالاً وأثقالاً مما يحيق بهذه البلدة وبهذه الأمة بسبب هذا النفخ الذي تمارسونه، بسبب هذا التهييج الذي لا تلبثون تسيرون في طريقه، لماذا؟ انقياداً لأمر آمِر، استفادة من مالٍ يسير يوضع في الجيب، غداً إذا رحلتم من دنياكم إلى الله وشعرتم بالثقل الكبير الكبير الذي تحملونه في أعناقكم لسوف تتلظى مشاعر الندامة بين جوانحكم يا عباد الله ولسوف تتمنون أن لو رجعتم إلى هذه الدنيا لتُكَفِّرُوا عن هذا العمل الذي فعلتموه، لِتُكَفِّرُوا عن هذا التخريب الذي أوغلتم أنفسكم فيه ولسوف تجدون العاقبة السوداء، العاقبة الخطيرة، شقاء لا سعادة بعده، شقاء لا بارقة أمل في أن تجدوا أنفسكم أمام سعادة أو أمن أو طمأنينة إنما هو الشقاء الأبدي. فيا أيها الإخوة لا تزال الفرصة كامنة ولا تزال أيام العودة إلى الله والإنابة إلى الله والانقياد لأمر الله بدلاً من الانقياد لأمر المجهول لا تزال الفرصة سانحة، فهلا رجعتم، هلا تبتم، هلا أُبْتُمْ إلى الله سبحانه وتعالى. وما دام الإنسان يعيش فوق هذه الأرض في هذه الحياة الدنيا فإن باب الإنابة إلى الله مفتوح، باب التوبة إلى الله سبحانه وتعالى مفتوح.

أيها الإخوة أياً كنتم ومهما كان ماضيكم سواء كان فيكم من خرجوا بالأمس من السجون لجرائم ارتكبوها أو كان فيكم من يحقدون على أناس لأسباب لا أريد أن أذكرها، أياً كانت أحوالكم فإن الله يتوب عليكم، فإن الله يقبل توبة التائبين، عودوا فاصطلحوا مع الله سبحانه وتعالى فذلك خير لكم من أن تنقادوا للمجهول، انقادوا لمولاكم، استجيبوا دعوة ربكم سبحانه وتعالى. الإصلاح إنما ينبع من الداخل ولا يمكن أن يُسْتَجَرَّ من الخارج. أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجمعنا وإخواننا وأحباءنا على ما يرضيه، وأسأله سبحانه وتعالى أن يقي هذه البلدة مكر الماكرين وكيد الكائدين وأن يعيدنا جميعاً إلى حظيرة دينه. أقول قولي هذا وأستغفر الله.



٤٦٤- لكل مقام مقال | ٢٠١١/٠٦/١٧

إن المجتمع الإنساني كل لا يتجزأ، وهو يتألف دائماً – أو في الغالب – من شطرين اثنين، أما الشطر الأول فالقادة وأولو الأمر في ذلك المجتمع، وأما الشطر الثاني فعامة الناس أو من يُنْعَتُون بالمواطنين أو الشعب. هذه حقيقة معروفة لا مِرْيَةَ فيها. فإذا عرفنا ذلك فلنعلم أن كلا الشطرين من المجتمع أيَّاً كان معرض لارتكاب المفاسد ومطالَبٌ بالصلاح والإصلاح، وما ينبغي أن نتصور أن شطراً واحداً من المجتمع هو الذي يلاحقه الفساد ومن ثم فهو الذي يطالَب بالصلاح أو الإصلاح. المعِين هو الأمة ومن ثم فكلا الشطرين ينطبق عليه كلام رسول الله: ﴿كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون﴾.

بل ينبغي أن نعلم أن الفساد إذ يستشري إنما ينتشر أولاً في القاعدة ثم يتسامى ويتعالى إلى أن يصل رذاذه إلى القمة. كذلكم الصلاح والإصلاح إنما ينتشر أولاً في القاعدة ثم إنه ينعكس إلى القمة وقد أوضح لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا في الحديث الذي يرويه الحسن البصري رضي الله عنه: ﴿عُمَّالُكم أعمالكم، كما تكونوا يولَّى عليكم﴾. هذه حقيقة ثانية إذاً ينبغي أن نعلمها وأن نتبيَّنَها.

أما الحقيقة الثالثة فهي أن علينا إذا عرفنا ذلك أن نتوجه بالنصح إلى كلا هذين الشطرين، إذا عرفنا هذه الحقيقة فإن علينا أن نحذِّر كلا شطري المجتمع من الفساد والركون إلى الفساد. إن الالتفات إلى شطر واحد – وليكن شطر القاعدة الشعبية أو القمة – مع الإعراض عن الشطر الثاني شأنه كمن يتعامل مع كفة واحدة من الميزان معرضاً عن الكفة الأخرى. هذه حقيقة أخرى ينبغي أن نتبيَّنَهَا يا عباد الله.

تعالوا إذاً إلى مرحلة التطبيق التي يلاحقنا بها بيان الله عز وجل في كثيرٍ من آي كتابه المبين من مثل قوله: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

تقول الحكمة الصائبة المعروفة: (لكل مقام مقال)، ينبغي أيها الإخوة أن نضع هذه الحكمة إماماً نصب أعيننا عندما نريد أن نتوجه إلى شطري هذه الأمة بالدعوة إلى الله، بالتذكير بأوامر الله، بالنهي عن الفساد والإفساد، بالأمر بالصلاح والإصلاح، القاعدة تقول: (لكل مقام مقال).

أنا الآن واحد – أيها الإخوة – ممن شرَّفَه الله عز وجل بالوقوف على منبر رسول الله – وأنا أعلم أنني لست أهلاً لذلك، ولكنها وظيفة أقامني الله عز وجل فيها – أنظر إلى الناس الذين أمامي وإذا هم من الشطر الثاني، وإذا هم من دهماء الناس وعامتهم، إذاً ينبغي أن أتوجه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إليهم، ينبغي أن أُذَكِّرَهُم هم بالإقلاع عن الفساد والإفساد والسير في طريق الصلاح والإصلاح، فإن أنا أعرضت عن الناس الذين هم أمامي وأخذت أتحدث عن الشطر الثاني آمرهم وأنهاهم وأذكِّرهم وأحذِّرهم فقد خالفت المنطق وسلكت مسلك العابث في أمره ونهيه، الناس الذين أمامي أعرضت عنهم والناس الذين لا يسمعون كلامي وهم بعيدون عني لاحقتهم بالتذكرة والأمر والنهي.

ولكن إذا وجدت أن فرصة سانحة قد تهيأت أمامي ونظرت فوجدت أن قادة الأمة والقائمين على شؤونها هم الذين أراهم أمامي إذن ينبغي أن أتوجه بالنصح إليهم وينبغي أن أتحدث عن دورهم هم في التسامي عن الفساد وفي العكوف على الصلاح وعلى الإصلاح. أليس هذا معنى المثل المنطقي القائل: لكل مقامٍ مقال أيها الإخوة؟ تعالوا نطبق ذلك.

إنني الآن أَشْرُف بأنني أقف أمام ثلة من عباد الله عز وجل ممن يسَمَّون دهماء الناس وعامتهم أو المواطنين أو الشعب إذاً فيجب أن أحملهم مسؤولية الإصلاح والصلاح المنوطة بهم، وهذا ما سأفعله الآن معتمداً على التلخيص والإجمال سائلاً الله عز وجل أن يرزقني وإياكم نعمة الإخلاص لوجهه.

أولاً أناشد إخواننا الفنانين الذين يعكفون اليوم على تحضير البرامج الفنية لرمضان المقبل، أناشدهم أن يأخذوا العبرة مما تم في رمضان العام الماضي، أناشدهم وأنا أقدر رسالة الفن، وأنا واحد ممن يعلم قيمة الفن، أناشدهم أن يستخدموا الفن رسالةً لإصلاح الحال، لرفع المستوى، لشد الأمة إلى مزيد من الانضباط بالقيم، إلى مزيد من الانضباط بالأخلاق الإنسانية الرضية، إلى مزيد من الانضباط بأخلاق الأسرة، بالود

الذي ينبغي أن يشيع داخل أفراد الأسرة، أبواب كثيرة مفتحة أمام الذين يمارسون هذا الفن، ما لهم يغلقون على أنفسهم هذه الأبواب كلها ثم يصرون على أن يسلكوا باباً واحداً لا ثاني له هو باب إثارة الغرائز؟ لا يا أيها الإخوة، لا أيها الإخوة، خذوا العبرة من العام الماضي وإياكم أن تدفعوا أمتكم إلى الوقوع في مصيبة أو فتنة أخرى.

رجال المال، رجال الأعمال أناشدهم الله ألا يجعلوا من النعمة التي أغدقها الله عليهم سكراً، أناشدهم الله ألا يجعلوا من الرشاوى سبيلاً للقفز فوق ضوابط الشريعة في المعاملة، فوق ضوابط القانونين المرعية في المعاملة، أناشدهم الله أن يؤدوا حقوق الله كاملة في أموالهم، المال يذهب والقيم والإيمان يبقى، إيمانك هو الذي ينجيك غداً، وفاؤك لحقوق الله في عنقك هو الذي يسعدك غداً.

الناس العاكفون على غيهم الذين يقطعون الليالي سهارى عاكفين على تغذية غرائزهم، شهواتهم، لا يعرفون معنى لأركان الإسلام وفي مقدمتها الصلاة، تمر السنة تلو السنة ولا يلتفت الواحد منهم إلى كتاب الله يمسكه يقرأ فيه آية، غريب عن كتابِ الله وكتابُ الله عز وجل غريب عنه.

أناشد هؤلاء الإخوة جميعاً – وأولهم كما قلت لكم الإخوة الأعزة الذين يعكفون على الفن وتحضير البرامج الفنية لرمضان – أناشدهم الله ألا يجعلوا من أنفسهم مصداق قول الله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [لقمان: ٦].

رجال المال والأعمال أناشدهم الله ألا يجعلوا من أنفسهم مصداق قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقاً مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨].

إخواننا الذين يعكفون على سهراتهم التي تحجبهم عن هوياتهم وهم لا يعلمون متى يحين الحَيْنُ ويتخطفهم الموت، أناشدهم الله ألا يكونوا ممن قال الله عز وجل عنهم: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً﴾ [مريم: ٥٩].

أيها الإخوة: هذا هو المنهج الذي بصَّرَنَا به كتاب الله وعلَّمَنَا إياه رسول الله.

عندما أكون أمام هؤلاء الإخوة ينبغي أن أذكرهم بالأمانة التي حُمِّلُوهَا، ينبغي أن أحدثهم عن الإصلاح المنوط بأعناقهم وأن أحذرهم من الفساد الذي يمكن أو يوقعوا أنفسهم فيه.

فإذا حانت الفرصة ويسَّرَ الله سبحانه وتعالى أن أرى نفسي أمام ثلة من إخواننا الذين ملَّكهم الله عز وجل قيادة هذه الأمة فلذلك حديث آخر، عندئذٍ ينبغي أن أحدثهم عن الأمانة المنوطة في أعناقهم، ينبغي أن أحدثهم عن الصلاح والإصلاح المنوطين بهم، ولكن معاكسة الأمر إن هي إلا عبثٌ ينبغي أن نتنزه عنه. أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم فاستغفروه يغفر لكم.



٤٦٥- إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم | ٢٠١١/٠٦/٢٤

إن مما وعيناه وحفظناه ونحن على رَحال المكاتب وفي مقاعد الدرس حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم المشهور والمعروف والذي اتفق على روايته الشيخان الذي يقول فيه صلى الله عليه وسلم ﴿مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد، إن اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمى﴾.

في ظل هذا الحديث تنامت تربيتنا الإنسانية، وفي ظل هذا الحديث شعرنا بقدسية الإنسان وأدركنا سمو حياته، ثم إن ذلك كله تُوِّجَ بقرار الله سبحانه وتعالى الذي طالما غُذِّيْنَا به: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً﴾ [المائدة: ٣٢]. هذه تربيتنا التي تلقيناها من كتاب ربنا ومن هدي نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

عباد الله: لقد شاء الله عز وجل أن يمتد بي العمر إلى هذا الشأو الذي ترون أو تعرفون، وما كنت أتصور أن يأتي من يخطئ رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الذي قرر وفي هذا المبدأ الذي رُبِّيَتْ عليه الأجيال منذ بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هذا اليوم، إلى أن فوجئت منذ بضعة أسابيع بمن يقرر أن لا حرج في أن يستحر القتل بالمسلمين وأن يسطو البعض منهم على البعض، لا حرج في أن يخرج المسلمون إلى الشوارع فيستثيروا ويحرضوا ثم يستثيروا ويحرضوا على القتل. قال قائلهم: وليحدث القتل، وليسقط العشرات في سبيل التغيير من المسلمين فهذا جائز.. وهذا أيها الإخوة يتضمن تخطئة واضحة لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وسعياً إلى وسعياً إلى تصحيح موقفه. ما كنت أتصور أن أعيش وأن أرى بعيني من يخطئ المصطفى فيما يكتب أو يخطئه فيما يقول ويُسْمِع. وربما قال قائلهم: إن الذي يبرر هذا إنما يبرر التسبب والحرج على المباشر وليس الحرج على المتسبب. وهذا تلاعب آخر بشريعة الله التي لا أعلم فيها – في هذه المسألة – خلافاً قط. المتسبب لارتكاب الجريمة شريك ولكن مسؤولية

المتسبب أعتى وأشد، إذا كانت الجريمة قتلاً فالمتسبب يُكلَّفُ بالدية، يُكَلَّف بالكفارة، من الذي قال: لك أن تنفخ في نيران الفتنة كما تشاء، لك أن تحرض وأن تستثير فإذا استثير فلان وفلان واهتاج فلان وفلان فمن باشر القتل أو باشر الإجرام تكون أنت البريء وهو المرتكب وأنت الذي تنفخ في نيرانها! يا عجباً لهذا التلاعب الغث بشريعة الله سبحانه وتعالى.

عباد الله: يقول حبيبنا المصطفى في خطبة الوداع كلاماً يرسله إلينا نحن من وراء الأجيال، يخاطب من خلال أصحابه الأجيال المتتابعة التالية إلى يومنا هذا، يقول: ﴿ألا لا تعودوا بعدي ضُلاَّلاً يضرب بعضكم رقاب بعض، ألا هل بلَّغت، ألا هل بلَّغت، ألا هل بلَّغت اللهم فاشهد﴾ وفي رواية ﴿ألا لا تعودوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض﴾ إيذاناً منه صلى الله عليه وسلم بأن من فعل هذا فقد وقع في مزلق الكفر.

يقول رسول الله مخاطباً لنا في خطابه الوداعي في حجة الوداع: ﴿ألا لا تعودوا بعدي ضُلاَّلاً يضرب بعضكم رقاب بعض﴾ ويأتي من يقول: لا أنت مخطئ، بل سيضرب بعضنا رقاب بعض في سبيل الهدف الذي نسعى إليه، بل يسمى ذلك أيضاً جهاداً، كيف!

كيف يُسَلَّطُ المؤمن على المؤمن، إن عن طريق التسبب أو عن طريق المباشرة ثم يرفع فوق عمله هذا لواء الجهاد واسم الجهاد. أعود فأقول يا عباد الله: إنني في حيرة عجيبة من هذا الأمر المفاجئ الذي كنت أتصور أن الموت الذي أنا على ميعاد معه أقرب إلي من أن أفاجَئ بهذا الكلام الذي يتضمن تخطئة رسول الله فيما أوصى وفيما قرر وحكم.

كيف؟ متى تسربت إلينا هذه اللوثة؟

وأخيراً علمت إن اللوثة تسربت إلينا من خلال عجوز أمريكية حُمِّلَتْ ذات يومٍ مهمة، اخترعت تنفيذاً لأحقادها ما سمته (الفوضى الخلاقة) وتعني بهذه الكلمة الفوضى التي تتمثل بالقتل المستحر من أين جاء وكيف جاء، الفوضى المتمثلة في الإحراق والتخريب والتقتيل وما إلى ذلك بطريقة عشوائية لا ترسمها القوانين، بشرط أن تكون هذه الفوضى المتمثلة في القتل والإحراق والتخريب وفنون الإفساد ضامنة

للنتيجة التي تسعى إليها عجوز أمريكا. هذه الفوضى الخلاقة أُرْسَلَتْ سلاحاً متطوراً حديثاً إلى المجتمعات الإسلامية التي تريد أن تتمرد على سياسة القطب الأمريكي الواحد، ولعل فيكم من عرف هذا الذي أعرفه، ولعل فيكم من وضع يده على وثائق في هذا الأمر.

(الفوضى الخلاقة) سلاحٌ جديد تجاوز أسلحة الإرهاب تجاوزاً كبيراً جداً جداً. من الذي يصدره؟ أمريكا هي التي تصدره. ومن الذي يتناوله؟ عملاء أمريكا. من هنا جاء هذا القراء القائل: وليكن هنالك قتل، وليستحر القتل بالعشرات بل ربما بالأكثر – ولا أريد أن أبالغ في النقل – وليكونوا مؤمنين من المسلمين مادام ذلك ضماناً للهدف المرسوم، إنها (الفوضى الخلاقة) التي رسمتها أمريكا من خلال عجوزها التي ذكرتها لكم والتي تُبَثُّ ويعمل عاملون على تنفيذها فيما بيننا.

هذه حقيقة أيها الإخوة – وما عشت في حياتي أزجي الأخيلة والأوهام لأجعل منها حقائق، معاذ الله، معاذ الله – هذه حقيقة أرويها لكم بعد أن عرفتها وتحققت منها.

حسناً، ما العلاج؟ نحن الضحايا يا عباد الله، أو نحن الذي يُرَادُ منا أن نكون الضحايا.

عهدي بأهل الشام إلى هذا اليوم أنهم يمتازون عن سائر البلاد العربية والإسلامية الأخرى التي زرتها أنهم يتمتعون بمعرفة بشريعة الله عز وجل تجعلهم يقفون بين قرار العقل وحوافز العاطفة، تجعلهم يسيرون على النهج الأوسط بين جواذب العقل وجواذب العاطفة. لم أعرف في يوم من الأيام أن المسلمين العلماء طبعاً في سوريا كانوا ضحايا لعواطفهم الهوجاء، وما أعلم أنهم في يوم من الأيام كانوا ضحايا لعقلانيتهم الجافة أيضاً، هذه المزية أعرفها.

ما الذي ينبغي أن تتوَّج به هذه المزية؟ الوعي. والوعي هو سيد حوافز السلوك في حياة الإنسان. لا يكفي – عباد الله – أن نتمتع بدراية كافية بشريعة الله مع عاطفة حارة تسير بنا على صراط الله، لا. لابد من أن نتمتع بالوعي حتى نعلم ما الذي يُرَادُ بنا، حتى نشم رائحة المخططات التي تُطَبَخُ وتُنْضَجُ في ليالٍ سود ثم إنها تُرْسَلُ إلينا، لابد من الوعي أيها الإخوة، أجل هذا الوعي هو الدواء وهو العلاج.

الدعوات التي نتلقاها، نتلقاها من مجهول، وحاولتُ جاهداً أن أعرف هذا المجهول ولو كانت معرفة شخصية ولكني لم أتمكن من ذلك. هذه المحاولة ينبغي أن لا نكون ضحايا لها، ينبغي أن يكون الإنسان المؤمن المسلم في هذه البلدة المباركة أسمى من أن يكون ضحية لها.

من أنت يا من تقودني إلى ما تشاء؟ والنتيجة التي ستصل إليها إن نجحتَ ما هي؟ أرني النتيجة، أرني المنهاج المرسوم، أرني الفئات التي تريد أن تجعلهم يحلُّون محلَّ الآخرين، أرني وعندئذٍ يمكن أن أنقاد لك. أما أن تقول لي: سِرْ ولا تسأل، امش ولا تسأل، نفِّذْ، لا، لقد كان الإنسان أكرم من هذا. حتى ربنا لم يلزم الإنسان بأن ينقاد بعين مغمضة، حتى ربنا لم يلزم الإنسان أبداً بأن ينقاد للمجهول: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ [الإسراء: ٣٦].

هذا هو الدواء، ولا أزال إلى هذه اللحظة أرفع رأسي عالياً بالمزية التي أكرم الله بها نقابة العلماء في هذه البلدة، العلم الذي يجعلهم يقفون بين العقل والعاطفة والوعي. أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم، فاستغفروه يغفر لكم.

٤٦٦- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً | ٢٠١١/٠١/٠٧

لقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان عندما يرسل أصحابه في سرية من السرايا لرد عدوان ما يوصي أصحابه ألا يتعرضوا بأي عدوان على الرهبان في أديرتهم ولا على المتعبدين العاكفين في كنائسهم. وقد صح أيضاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه استقبل وفد نصارى نجران ضيوفاً أنزلهم في مسجده وأذِنَ لهم أن يُصَلُّوا صلواتهم في مسجده صلى الله عليه وسلم. وصح أيضاً أنه صلى الله عليه وسلم اكتتب في الوثيقة – وثيقة المدينة – التي تتضمن تنظيم الحياة السارية ما بين المسلمين واليهود نصت الوثيقة على أن اليهود والمسلمين يتعايشون في ظل أمنٍ وسلام وأن للمسلمين دينهم ولليهود دينهم.

ولقد علم الناس جميعاً أن النصارى كانوا منذ أقدم العصور يحتفلون بيوم الميلاد ويحتفلون بما يسمونه عيد رأس السنة الميلادية. ولم نسمع أبداً، ولم يسمع أحد أن في الصحابة من توجَّهَ بأي عدوان على النصارى وهم آمنون في مساكنهم أو وهم يحتفلون في أنديتهم أو وهم يعبدون الله على طريقتهم في أديرتهم وكنائسهم. لم يسمع أحدٌ أن في الصحابة أو في التابعين أو في من تبعهم قام بشيء من هذا العدوان أبداً.

وإنما تفرَّع هذا كله من قول الله سبحانه وتعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة:٨]. ويتفرع من قوله عز وجل: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً﴾ [الحج: ٤٠].

وعندما ركبت الرعونة شخص واحدٍ من أولاد عمرو بن العاص فاتح مصر فضرب بعصاه شاباً من أقباط مصر قائلاً: خذها وأنا ابن الأكرمين، استقدم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضوان الله عليه كلاًّ من ابن عمرو بن العاص والشاب القبطي إلى المدينة المنورة وأعطى عصاه للقبطي قائلاً: اضرب بها ابن

الأكرمين، قصاصاً. ولما استجاب الشاب لأمر أمير المؤمنين قال له: أَجِلْهَا – أي أَجِل العصا – على صلعة عمرو بن العاص فإنما فعل ذلك اعتماداً على مكانة أبيه.

عباد الله: إن كنا نجد اليوم من يخالف هذا الذي قاله الله وهذا الذي قاله رسول الله وهذا الذي فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم كالذي سمعناه بالأمس فإنما الذي أقدم على ذلك زنديق تقنَّع بقناع الإسلام ينطوي كشحه على حقد بالغ لا على النصارى أو أهل الكتاب وإنما ينطوي على حقدٍ دفين على الإسلام والمسلمين ومن ثم فهو يريد أن ينفث كيداً من كيده على الإسلام ذاته، بل إنه ليعلن من خلال ذلك الحرب كما يتوهم على الذات الإلهية القائل في محكم تبيانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

وعندما نعود إلى التاريخ، إلى أنواع الأذى الذي تسرب إلى المجتمعات الإسلامية بدءاً من عصر الصحابة فإن التاريخ ليحدثنا أن جُلَّ أنواع الأذى إنما تسرب إلى المسلمين من أولئك الزنادقة الذين كانوا يتقنعون بقناع الإسلام ثم إنهم يوسعون في المجتمع الإسلامي أنواعاً وأنواعاً من الأذية والعدوان، والوقت يضيق عن ذكر شواهد كثيرة لهذا الذي كان يفعله أولئك الزنادقة بالأمس.

إن سلسلة الزندقة مستمرة ولن تنقطع قط، وكيف تنقطع وإن خصوم الإسلام تجمعوا في هذا العصر على اختلاف فئاتهم في فئة واحدة تتمثل في الصهيونية العالمية ثم تتمثل في الدولة المزيفة التي تمثلها ألا وهي إسرائيل.

إن زنادقة اليوم الذين يمارسون مثل هذا الطغيان ما بين حين وآخر إنما هم مخالب للصهيونية العالمية يا عباد الله. ولقد تساءلت بالأمس أفيمكن أن تكون هذه المخالب بمنأىً عن البيت الأبيض؟ أفيمكن أن يمارسوا عدوانهم هذا دون إذنٍ ينالونه من كبرى الدول التي تريد أن تحكم حكمها الظالم الطاغي بحق العالم بأسره؟ لا يمكن، ولكنا لا ندري أيهما السبع الضاري وأيهما المخلب. هذه حقيقة ينبغي أن نعلمها يا عباد الله.

ولكن لماذا اختير هذا الوقت بالذات لهذه الجريمة النكراء التي تتمزق منها كبد الإنسانية؟ لماذا اختير لها هذا الوقت بالذات؟

إن هنالك تقارباً — يا عباد الله — يتم اليوم بين العالم الإسلامي وبين النصارى متمثلاً – هذا التقارب — في أعلى المستويات بعيداً عن الشوائب السياسية التي كانت توحي بشيء من مثل هذا بالأمس، إنه تقارب يتم اليوم فعالاً وجاداً دون أن يكون له أي خلفية كتلك الخلفيات السابقة التي تعهدون. إن هذا التقارب تم من خلال ندوات عقدت بالأمس القريب، وهنالك ندوة أخرى ستتم ويتم الإعداد لها عما قريب، والمأمول أن الدوافع إلى هذا التقارب دوافع صافية عن الشوائب. إن الصهيونية العالمية عندما ترى نذير هذا التقارب الذي يهددها هي بالذات وعندما ترى ربيبتُها إسرائيل هذا النذير الذي يطوف بها لا يمكن أن تصمت أو أن تسكت، ومن ثم فإن هذه الجريمة النكراء — وربما تتبعها جرائم مثلها — إنما خُطِّطَ لها من أجل أن يتحول التقارب إلى عدوان وخصام، من أجل أن يتحول الحوار المخلص الفعال إلى كيدٍ وقتال. هذه حقيقة لا أكشف حجاباً لأضعكم منها أمام سرٍّ غير معروف إنها حقيقة ينبغي أن تكون جلية ناصعة.

فما العلاج الذي ينبغي أن يتحصن العالم الإسلامي والنصارى بل جميع أهل الكتاب ضد هذه الخطط الصهيونية وذيولها من هذه المخالب الذليلة الأجيرة الماكرة؟ ما الحصن الذي يقي الأمة بمسلميها وغيرهم من مثل هذا الإجرام؟

إنه شيء واحد — يا عباد الله — الوعي العقلاني والمشاعر الإنسانية. إن الحصن الذي يقي هذه الأمة من عقابيل هذه الخطط وأمثالها أن يعلم أهل الكتاب الذين نتعايش معهم على مستوى من الإنسانية المتكافئة سعداء بررة، ينبغي أن يعلموا حقيقة الإسلام وينبغي أن يعلموا أن الإسلام يتسامى فوق هذا الكيد الهابط، ينبغي أن يعلموا أن الإسلام منذ أن ابتعث الله عز وجل به الرسل والأنبياء ومنذ أن ختم الله سبحانه وتعالى رسالته بمحمد عليه الصلاة والسلام، هذا الإسلام ينأى عن هذه الجرائم، ينأى عن هذه الموبقات ومن ثم فإن هذا الحصن المتمثل في الوعي الذي أقوله لكم، وعيٌ يتبادله المسلمون مع

الآخرين هو الذي يقي الأمة من عقابيل هذه الخطط أيّاً كانت، ينبغي أن يعلموا – وأن نعلم جميعاً – أنها الزندقة أيها الإخوة هي التي تفعل فعلها. ما ينبغي أن نقف أمام شعارات – شعارات قاعدة، قائمة، أياً كان – الشعار الذي تسمعون ما ينبغي أن يمتص وَعْيَنَا، ما ينبغي أن يمتص ثقافتنا الدينية، وعندما أقول ثقافتنا الدينية إنما أعبر عن جامع مشترك يأوي إليه المسلمون وسائر أهل الكتاب.

إذا وعى أهل الديانات الصادقون في ارتباطهم بالدين، الصادقون في تعاملهم مع الله سبحانه وتعالى فإن كيد هؤلاء الكائدين سيتمزق القناع الإسلامي الكاذب الممتد فوقه، ولا أظن أن هنالك وسيلة فعالة أخرى غير هذه الوسيلة التي قيَّضَها الله عز وجل قوَّةً في عقولنا ونبراساً في أفئدتنا يا عباد الله.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يكرم المسلمين أولاً بصدق انتمائهم إلى الإسلام، وأسأل الله عز وجل أن يكرم المسلمين ثانياً بتنفيذ العقود التي التزموا بها تجاه مولاهم وخالقهم عز وجل بحيث ينفِّذون قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١].

مسلمون ينتمون إلى الإسلام ومعرضون عن العقد الذي بينهم وبين الله عز وجل أكاد أن أقول إنه ربما كان إسلاماً كاذباً. بيننا وبين رب العالمين عقودٌ التزمنا بها أُثْقِلَتْ أعناقنا بها، أن نحرم الحرام فنبتعد عنه وأن نخضع للواجب فنطبقه وأنه نعلن من خلال ذلك صدق انتمائنا إلى الله وصدق التزامنا بالعقود التي التزمنا بها تجاه الله سبحانه وتعالى وعندئذٍ ننظر إلى مجتمعاتنا فنجد أنها طاهرة مطهرة من شوائب المعاصي والآفات، وإن كانت هنالك معاصي تقع في السر والخفاء، ولقد علمنا أن المطلوب منا أن ننفذ الوصية القائلة: إذا ابتليتم بالمعاصي فاستتروا. لن تجد مجتمعاً طاهراً من الشوائب أبداً. الإنسان كان ولا يزال غير معصوم لكن الإله الرحيم الرحمن يأمرنا في مثل هذه الحالة أن نستتر، ولكن عندما يأبى المجتمع الإسلامي إلا أن يستعلن بالمعاصي، إلا أن يستعلن بما يغضب الله عز وجل وكأنه يقول – هذا المجتمع متمثلاً في أهليه أياً كانوا – كأنه يقول: إننا لا نبالي بهذا العقد الذي أُثْبِتَ في أعناقنا، لا نبالي بهذه المعاصي التي حذَّرْتَنَا منها فإن الأمر عندئذٍ يختلف وإن الزنادقة عندئذٍ يوغلون أيما إيغال في مجتمعاتنا ويفسدون علاقة ما بيننا وبين إخوةٍ لنا من أهل الكتاب.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يبصرنا بالدواء وأن يبعدنا عن الداء، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.



٤٦٧- حافظوا على شعائر الله في رمضان | ٢٠١١/٠٧/٢٢

إن هي إلا أيام يسيرة ويقبل علينا شهر الله المعظم، شهر رمضان، هذا الشهر الذي شاء الله عز وجل أن يجعله بريد حب ورسالة رحمة وإعلاناً عن مغفرة، هذا الشهر الذي أعلن عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم في خطبة قال في افتتاحها: ﴿أيها الناس قد أقبل عليكم شهر عظيم فرض الله عليكم صيامه وسَنَنْتُ لكم قيامه﴾ ثم مضى يتحدث عن هذا الشهر ووصَفَهُ بأنه شهر المواساة، أي شهر الإحسان ومَدُّ يد المساعدة إلى الآخرين، وشهر التراحم، أي شهر الذي تمتد فيه مشاعر الأخوة ومشاعر الود والتآلف بين عباد الله جميعاً، يتصالح فيه المتخاصمون ويتواصل فيه المتقاطعون، هكذا وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الشهر وما يتضمنه.

ولقد جعل المصطفى صلى الله عليه وسلم شعاره معلناً ذلك بلسانه، جعل شعاره قوله: ﴿يا باغي الخير أقبل ويا باغي الشر أقصر﴾. ﴿يا باغي الخير أقبل﴾ مُدَّ رواق الأخوة والود وآصرة الرحمة بينك وبين عباد الله جميعاً، ﴿ويا باغي الشر أقصر﴾ أقصر أذاك عن عباد الله سبحانه وتعالى، لا توغل في الأذية والإساءة، أقصر من الأذى لعباد الله سبحانه وتعالى، لا تحاول أن تمد براثن أذيتك وبغيك إلى الناس، إلى عباد الله عز وجل أياً كانوا، هذا معنى قوله الذي ذكره بل أعلنه شعاراً لشهر رمضان ﴿يا باغي الخير أقبل ويا باغي الشر أقصر﴾.

هذا الرسول الذي قال هذا الكلام هو ذاته الذي قال في حديث صحيح متفق عليه: ﴿من لا يرحم الناس لا يرحمهم الله﴾.

ترى ما هو مصير من حاول أن يُفْرِغَ هذا الشهر المعظم من المضمون الذي أحبه الله عز وجل له، حاول أن يفرغه من الرحمة التي أرسلها من خلاله إلى عباده، حاول أن يجتث الرحمة التي في أجواء هذا الشهر وأن ينشر في مكان ذلك الرعب والخوف، حاول أن يجتث المواساة التي جعلها الله سبحانه وتعالى معلمة هذا الشهر وأن ينثر وأن ينشر في مكان ذلك المخاوف والفتن وأسباب القتل والتخريب. ما مصير

هذا الإنسان إذ يقف من الشهر هذا الموقف، يفرغه من مضامينه ويحاول أن يملأه بنقيض ما أحبه الله سبحانه وتعالى لعباده في هذا الشهر. ما مصير هذا الذي يقبل إلى مساجد الله عز وجل في أمسيات رمضان ثم لا يدبر عنها إلا وهي خاوية من روادها، إلا وهي مقفرة من الركع والسجد الذين يغشونها ذكوراً وإناثاً. ما مصير هذا الذي يقبل في كل أمسية من أمسيات رمضان إلى الشوارع والساحات ثم إنه لا يغادرها إلا وهي موحشة، إلا وهي بلقع بعد أن كانت تفيض بالساعين ذكوراً وإناثاً إلى بيوت الله عز وجل ولسان حال كلٍّ منهم يقول: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ [طه: ٨٤].

ما مصير هؤلاء الذين أقبلوا إلى مساجد الله عز وجل في ليالي رمضان ثم لم يدعوها إلا وهي بلقع فارغة من أولئك الذين كانت تزدهر بهم.

ما مصير هؤلاء الذين لم يدعوا شوارع الليالي – ليالي رمضان المؤنسة المحببة – إلا وهي موحشة ليس فيها داعٍ ولا مجيب، أين هم أولئك الذين كانوا يتسابقون إلى المساجد لقيام رمضان ذكوراً وإناثاً.

هل يمكن يا عباد الله أن يُحَارَبَ شهر رمضان بأعتى من هذه الحرب بهذه الصورة؟ ترى هل هذا هو الأمر المبيت لشهر الله عز وجل عندما سيقبل عما قريب؟

أنا أتساءل، أنا أتصور ما قد بلغني وأرجوا أن ما قد بلغني خطأً وليس صحيحاً، ولكني أفترض أن يكون الأمر صحيحاً، أفيمكن لشامنا هذه أن يكون هذا شأنها مع رمضان لأول مرة في تاريخها؟ أجل لأول مرة في تاريخها. حتى في أيام الحروب الصليبية كان القوم يهابون هذا الشهر وكانوا يعرفون له قيمته، نعم، أفيعقل هذا يا عباد الله، أن يأتي رمضان ولسان حال الأمة تعتذر له بأن المساجد غير مؤهلة لاستقباله وبأن الشوارع غير مؤهلة لأن تزدان بجماله، أفيعقل أن ننظر فنجد الناس الذين كانوا يهرعون إلى بيوت الله ذكوراً وإناثاً راكعين ساجدين أن نجدهم اليوم وقد حُبِسُوا في بيوتهم وحيل بينهم وبين الإقبال على الله وأخذت ألسنتهم تتوهج وتتوجه بالدعاء على من كان السبب في الحيلولة بينهم وبين الاستجابة لنداء الله سبحانه وتعالى، يدعون من قلوب مكلومة مجروحة على من منعوهم من الاستجابة لأمر رسول الله القائل: «يا باغي الخير أقبل».

أرجو أن يكون هذا التصور الذي نسَجَتْه أخبار وأخبار في ذهني تصوراً باطلاً، ولكني على كل حالٍ يا عباد الله هاأنذا أتوجه من هذا المكان إلى إخوةٍ لنا سواء كانوا في داخل هذا البلد المبارك أو كانوا في خارجه، أتوجه إليهم وأنا أعلم وأنا على يقين من أننا بيننا وبينهم خيطاً بل حبلاً لا يزال ممتداً، إنه حبل الإيمان بالله، إنه حبل الانتماء بالعبودية إلى الله عز وجل، هاأنذا أناشدهم بسم هذا الحبل الجامع بيننا وبينهم، هاأنذا أناشدهم بقول الله عز وجل القائل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

أناشدهم بهذا القرار الذي أعلنه بيان الله عز وجل ألا يحاربوه، وألا يستبدلوا بهذا القرار نقيضه، ألا يستبدلوا بالأخوة التي قررها بيان الله عز وجل بيننا العداوةَ والبغضاء والتربص والمخاوف والرعب بكل أشكاله لاسيما في ليالي وأيام رمضان، أناشدهم القربى، أناشدهم هذا الحبلَ الجامع بيننا وبينهم، أناشدهم الجامع المشترك من عبوديتنا جميعاً لله عز وجل ألا يمزقوا أمر الله عز وجل القائل بعد قراره: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠].

أناشدهم إيمانهم بالله عز وجل ألا يستبدلوا بالصلاح الفساد وكأنهم يقولون: لا بل إن شأننا أن نحيل الصلاح الذي أمرت به إلى فساد سنوغل فيه.

هذا ما أقوله بين يدي شهر الله عز وجل، بين يدي شهر رمضان المعظم.

أنا لا أتوجه بهذه المناشدة إلى من وراءهم، إلى الملقنين داخل المسرح كما قلت بالأمس، هؤلاء ليسوا منا في شيء ولسنا منهم في شيء، أولئك الملقنون لا يقيمون وزناً لا لرمضاننا ولا لقرآننا ولا لنبينا. متى كان داود ليفي يهتم بهذا الذي أقول؟ هذا الذي يمسك – أيها الإخوة – بملف سوريا وقد راهن على أن كل ما قد قرره سَيُنَفَّذ، لا أتوجه إليه ولا إلى صحبه الغادين والرائحين ما بين إسرائيل وباريس صباح مساء من أجل أن ينضجوا الخطة ومن أن أجل يقفزوا من رسمها إلى تنفيذها، ليسوا منا في شيء، ولكني أتوجه إلى إخوة أعزة لنا، أتوجه إلى من يجمعنا بهم نسب الإيمان بالله، أتوجه إلى من يجمعنا بهم نسب العبودية لله، أتوجه إلى من يجمعنا بهم الإيمان بقدسية شهر رمضان والإيمان بوصايا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

أيها الإخوة لا تكونوا سبباً في أن تقفر المساجد لأول مرة في رمضاننا المقبل عن روادها، لا تكونوا سبباً لأن تقفر شوارع الشام لأول مرة عن المتسابقين رجالاً ونساءً إلى بيوت الله عز وجل، لا تكونوا سبباً في أن تخفت أصوات التالين لكتاب الله عز وجل، لا تكونوا سبباً في أن ننظر إلى الشام يمنة ويسرة أثناء شهر رمضان المبارك وكأن الشام تعتذر لرمضان تقول له: لسنا منك هذا العام من شيء ولست منا في شيء.

أيعقل أن يكون مسلم سبباً لهذا؟ ثم ماذا؟ يفعل هذا كله بسم الجهاد؟ أرأيتم إلى جهاد يحارب شعارات رمضان؟ أرأيتم إلى جهاد يحارب شعار المصطفى القائل عن هذا الشهر المبارك: ﴿يا باغي الخير أقبل ويا باغي الشر أقصر﴾؟ أرأيتم إلى جهاد يدور رحاه على المسلمين، على الآمنين المطمئنين؟ أرأيتم إلى جهاد يعرض أصحابه – بل يستخف أصحابه بقول رسول الله في الصحيح: ﴿من خرج من أمتي على أمتي لا يتحاشى مؤمنها ولا يفرق بين برها وفاجرها ولا يفي بذي عهدها فليس مني ولست منه﴾.

مرة أخرى أقول: أنا أتصور وهو خيال نسجته أخبار وصلت إلي ولكني إلى هذه اللحظة لا أضع هذه الأخبار من ذهني موضع اليقين. إخواننا المؤمنون بالله أسمى من أن يكونوا على هذه الحال، إخواننا المؤمنون بالله سيستيقظون ولسوف يقطعون صلة ما بينهم وبين ليفي، ولسوف يقولون: لسنا منك في شيء، لسنا جنوداً لك على باب الشيطان، لسنا جنوداً لك مهما وصفتنا بأننا أصدقاء مغفلون. أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم

٤٦٨- إِنَّ وَلِيِّيَ اللّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ | ٢٠١١/٠٩/١٦

آيات في كتاب الله سبحانه وتعالى يخاطب فيها الله عز وجل عباده المؤمنين محذراً من أن يتخذوا لأنفسهم ولياً من دونه، محذراً من أن يستنجدوا بعدوٍّ لهم وعدوٍّ لمولاهم وخالقهم، آيات كثيرة يؤكد ويكرر بأساليب شتى بيانُ الله عز وجل هذا التحذير على مسامع عباده المؤمنين، تعالوا فأصغوا السمع إلى بعض منها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاء مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ١١٨].

اسمعوا قوله وهو يحذر من الأمر الخطير نفسه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءكُم مِّنَ الْحَقِّ﴾ [الممتحنة: ١].

أصغوا السمع أيها الإخوة إلى هذا الكلام الآخر بهذا الأسلوب المختلف: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً، الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ العِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً﴾ [النساء: ١٣٨-١٣٩].

اسمعوا هذا الذي يقول الله عز وجل: ﴿لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨].

أأزيدكم يا عباد الله؟! إنها تسع آيات، البعض منها يفي ويكفي. هذا ما قاله لنا الله عز وجل وهذا ما يصك مسامعنا وينبغي أن يسرى إلى قلوبنا صباح مساء.

ولكن ثُلَّةً متنكرة التي ترسل تعليماتها من أقبية الظلام أرسلت في الأسبوع الماضي تأمر بأن يُتَّخَذَ من يوم الجمعة بل من شعار الصلاة يوم الجمعة يوم تمرد على هذا الذي أعلنه الله، يوم تمرد على الذي حذَّر الله عز وجل منه. أرسلت هذه الفئة المتنكرة من أقبية ظلامها تقول: اجعلوا ذلك اليوم – يوم

الجمعة، أقدس يوم من أيام الأسبوع – يوم حماية دولية تُستدعَى للمسلمين في هذه البلدة. يا عجباً، يا عجباً، أمؤمنون هؤلاء أم ملاحدة هؤلاء! أحاقدون على كتاب الله هؤلاء! أم ماذا هؤلاء! لا جواب لأنهم متنكرون، عاشوا في الحفلات التنكرية على ما يبدو أعمارهم كلها ومن ثم فإنهم يرسلون أوامرهم وتعليماتهم من جوف الظلام ويرسلونها من أفواه الظلام أيضاً. من هذا الذي يمكن أن يصغي السمع إلى من يأمرنا بأن نتمرد على تعليمات الله المتكررة تسع مرات، من يا عباد الله؟!

ولكن ليس العجب كامناً في هذا الذي أقوله لكم، إنما العجب يسري متفاقماً إلى شيء آخر، العجب أننا اكتشفنا أن في المشايخِ مشايخَ للبيت الأبيض وأن في المفاتي مفتين للموساد الإسرائيلي، هؤلاء المفتون وأولئك المشايخ اجتمعت كلمتهم على فتوى أصدروها بأنه ينبغي الاستعانة بالعدو، ينبغي الاستعانة بالدول الأخرى، ينبغي الاستنجاد بها، وما هي الدول الأخرى يا عباد الله؟ إنها أمريكا وذيولها الخادمة وإسرائيل المستخدِمة، تلك هي الدول التي صدرت فتوى من أولئك وهؤلاء بضرورة الاستعانة بهم وضرورة الاستنجاد بهم.

بحثْتُ عن قرآن غير هذا القرآن الذي أوحى الله به إلى رسوله يخاطبنا به فلم أجد، بحثْتُ عن سنة أخرى غير السنة التي تركها لنا محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الرسل والأنبياء فلم أجد، بحثْتُ عن علماء الشريعة في علماء الشريعة لعلي ألتقط من أصدر فتوى من هذا القبيل فلم أعثر. أهو دينٌ آخر نُدعَى إلى الخضوع له! هذا هو الأمر العجب، وهذا هو الشيء الذي لا تكاد الأذن تصدق أنها قد سمعته.

نعم لقد صدر مثل هذا الفتوى التي تناقض وتغالب قرآن الله عز وجل، وهيهات، هيهات أن تغلب هذه الفتوى كتاب الله وقرآنه، لا يمكن، ماذا نقول يا عباد الله؟ ولقد سمعتم بالأمس هذا الذي ذكرت، ولعلكم سمعتم بعد ذلك هذه الفتوى التي صدرت من مشايخ البيت الأبيض ومن مفتي الموساد الإسرائيلي. نحن المسلمين، نحن الذين أقامنا الله عز وجل فوق هذه الأرض المباركة، نحن المؤمنين بالله عز وجل ورسله وكتبه أجمع نعلنها صباح مساء في كل يوم جمعة أن ولينا هو الله عز وجل، وإننا لنردد ما يلقّننا إياه ربنا

في محكم تبيانه، لنردد قوله الذي يلقننا إياه: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦].

يوم الجمعة، لن يكون يوم تمرد على كتاب الله. يوم الجمعة، ليكونن يوم تجديد للبيعة مع الله. يوم الجمعة، ليكونن تجديداً للخضوع لولاية الله علينا وللخضوع لسلطان الله سبحانه وتعالى علينا، أجل. نحن نتحرك تحت ولاية الله وسلطانه، تحت هذه الولاية تشيع بيننا الأخوة، الأخوة الإنسانية، الأخوة الإيمانية، نتناصر تحت سلطان هذه الولاية، نتعاون تحت سلطان هذه الولاية، نحرس قِيَمَنَا وأوطاننا وبلادنا تحت سلطان هذه الولاية، قد نخطئ ولكنا نتناصح فيما بعد، قد ننسى ولكنا نتذاكر من بعد، نأمر بالمعروف، ننهى عن المنكر، كلنا آمر بمعروف وكلنا ناهٍ عن منكر، هكذا أحب لنا الله وهكذا عَلَّمَنَا، ألم يقل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠].

أما أن نطأطئ الرأس ذلاً لذاك العدو الذي سيقبل إلينا منجداً من وراء البحار فهيهات. للأسرى الذين يرون أنفسهم خاضعين لسلطان الأسر، قابعين في جدران السجود لهم أن يذلوا ويهونوا ما شاؤوا ولكن ليس لهم أن يأمروا الأحرار بما ابتلوا به هم أنفسهم، نعم. هذا شأننا، جباهنا لا تزال بحمد الله ناصعة، رؤوسنا لا تزال بحمد الله مرتفعة، لا تزال الحرية الحقيقية تسري في دمائنا وذلك منذ أن أعلنا عن عبوديتنا لله عز وجل وحده. وأنا أسأل هل في هذا التاريخ الأغر من استجاب لفتوى مشايخ البيت الأبيض وفتوى الموساد الإسرائيلي؟ أبداً. تاريخنا الأغر لا يعلم ذلك، نعم، هنالك يومٌ أسود لا تزال الأمة تلتقط منه العبرة تلو العبرة والدرس تلو الدرس، إنها خيانة ملوك بني الأحمر الذين قُضِيَ على أعظم دولة حضارية إسلامية في الأندلس بسبب خيانتهم. ماذا فعلوا؟ استجابوا لفتوى مشيخة البيت الأبيض، استجابوا لفتوى الموساد الإسرائيلي. تخاصموا، ولما اشتد الخصام فيما بينهم استنجد كل طرف منهم بجناح من أجنحة الأسبان. أنجدوهم، ثم إنهم طردوهم من القرطبة ثم إنهم طردوهم من غرناطة، وهكذا أُسْدِلَ الستار على دولة إسلامية حضارية ظلت شمسها تتألق في ربوع الغرب قرابة سبعة قرون، ولما خرج آخر ملك من ملوك بني الأحمر طريداً يبكي قال له التاريخ – ولسان التاريخ لسان الدهر يا عباد الله –

قال له التاريخ: يحق لك أن تبكي على ملك ضيَّعتَه كبكاء النساء لأنك لم تحافظ عليه محافظة الرجال. أما نحن فلن تدنوَ إلينا لطمة التاريخ هذه قط، أما نحن لن نستبدل بعبوديتنا لله عز وجل أي عبودية أخرى، أما نحن فلن نعيد سيرة ملوك بني الأحمر في التاريخ. هكذا نحن، وهكذا سنعيش، وهكذا سنموت، وهكذا سنلقى الله عز وجل.

﴿رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦] .أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.



٤٦٩- نصيحة لأهل الشام |٢٠١١/٠٩/٣٠

تعالوا بنا مرة أخرى نصغي السمع إلى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مستقبل الشام وأهله والأحداث التي سيمر بها. ولن نجد عزاءً عندما تمر بنا النكبات أو تطوف بنا المحن، لن نجد عزاءً أمامها خيراً من الإصغاء إلى هذا الكلام العجيب الذي ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الشام ومستقبله، تعالوا نصغي السمع إلى طائفة يسيرة من هذه الأحاديث.

يروي أبو داود وابن حبان والحاكم بأسانيد صحيحة من حديث عبد الله بن حوالة والعرباض رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ﴿إنها ستصير إلى أن تكونوا أجناداً مجندة؛ جندٌ باليمن وجندٌ بالشام وجندٌ بالعراق، قال عبد الله بن حوالة اختر لي يا رسول الله إن أدركت ذلك، أي أين تحب أن أكون، قال: عليك بالشام إنها خيرة الله من أرضه يجتبي إليها خيرته من عباده وإن الله تكفَّلَ لي بالشام وأهله﴾.

روى الحاكم في مستدركه والطبراني من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أنه صلى الله عليه وسلم قال: ﴿إن رأيت كأن عمود الكتاب استُلِبَ من تحت وسادتي فأتبعته بصري فإذا هو نور ساطع عُهِدَ به إلى الشام، ألا إن الأمن والأمان عندما تقع الفتن في الشام﴾.

روى الترمذي وابن حبان والطبراني من حديث زيد بن ثابت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ﴿طوبى للشام، إن ملائكة الرحمة تبسط أجنحتها عليه﴾.

روى الحاكم في مستدركه على شرط الشيخين من حديث أبي الدرداء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ﴿فسطاط المسلمين يوم الملحمة الكبرى في أرض يقال لها الغوطة، فيها مدينة يقال لها دمشق هي خير منازل المسلمين يومئذٍ﴾.

روى الإمام أحمد في مسنده والطبراني من حديث علي رضي الله عنه وعوفٍ بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ﴿الأبدال في الشام وهم أربعون رجلاً كلما مات منهم رجل أبدل الله به رجلاً آخر، بهم تُسْقَوْن وبهم تُنْصَرُون وبهم يُرَدُّ عنكم العذاب﴾.

هذه يا عباد الله طائفة من الأحاديث الصحيحة التي يتحدث فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الشام وأهله، وقد علمنا جميعاً أن محمداً رسولٌ من عند الله عز وجل لم يفتئت على الله وحياً ولم يكذب على الله فيما نقل عنه كلاماً، وها أنتم ترون أن دلائل نبوته وصدقه تتزايد بل تغزو عقول العالم الغربي أجمع، إذاً فهو الصادق المصدوق فيما قال. فإذا علمنا ذلك فدعوني أولاً أتوجه إلى أهل الشام وأبشرهم بهذه الشهادة التي شهد لهم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصدق رسول الله فيما شهد وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أخبر، لكم البشرى يا أهل الشام إذ اجتباكم الله عز وجل للسكنى فوق أرضه المباركة. وأنا أعلم أن فينا من يقول: ولكن أين أنا من هذا الاجتباء، وأنا الإنسان المقصر في جنب الله، كم ارتكبت وكم جنحت وكم تُهْتُ عن الطريق. لا يا عباد الله، الأمر أهون من ذلك. إذا اجتبى الله عز وجل العبد ذابت سيئاته في ضرام اجتباء الله سبحانه وتعالى له، الأمر يحتاج فقط إلى أن نستبشر بهذا الذي قاله رسول الله وأن ننهض فنكون على مستوى هذا الشرف وأن ننهض فنكون على مستوى هذه البشارة.

عباد الله: إنكم تعلمون أن من سنن الله عز وجل في كونه أنه إذا أراد شيئاً قَيَّضَ له أسبابه، تلك هي عادة رب العالمين، والله لا يحتاج إلى أن يُوَسِّطَ أسبابه لما يشاء ولكنه القانون الذي ألزم به ذاته العلية في هذه الدنيا التي نعيشها، وقد علمتم مما أخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الشام ستبقى دار إيمان وأمن إلى قيام الساعة، هكذا شاء الله عز وجل. فما السبب وما الوسيلة التي شاء الله سبحانه وتعالى أن تكون أداةً لهذا القرار الذي أنبأ به رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ ما هي العين التي تستر الأمن والإيمان فوق هذه الأرض المباركة؟

يا عباد الله، يا أهل الشام: إن هذه العين هي أنتم، إن هذه العين التي شرفها الله عز وجل بهذه الرسالة — رسالة السهر على أمن هذه الأرض وعلى إيمان هذه الأرض — العين التي قَيَّضَ الله عز وجل منها حارساً أميناً هي أنتم يا عباد الله، فاهنؤوا واستبشروا مرة أخرى بهذه الرسالة التي شرفكم الله سبحانه وتعالى بها. كونوا أينما كنتم أعيناً ساهرة على الأمن الذي قضى به الله سبحانه وتعالى سبحانه وتعالى لهذه الأرض المباركة. لا تَنُوا ولا تتناسوا رسالتكم القدسية هذه، واعلموا أن ترجمة الاجتباء الذي أعْلَنَ رسول صلى الله عليه وسلم من خلال أحاديثه الكثيرة لكم، ترجمة ذلك تكمن في نهوضكم بهذه الرسالة، تكمن في نهوضكم بهذه الرسالة يا عباد الله.

أما أولئك الذين يصرون من بعيد أو من قريب على أن ينفخوا في نيران الفتنة فوق هذه الأرض المباركة، أما هؤلاء الذين يصرون على أن يواصلوا سعيهم إلى هذا فأقول لهم: إنهم إنما يتحدون بهذا رسول الله، لا يتحدون غيره، وهيهات هيهات أن يتحدى كائنٌ ما في هذا الكون رسولَ الله المجتَبَى ثم تكون له النصرة على رسول الله، هيهات.

لابد أن يبوء من يتحدى رسول الله في قوله: ﴿ألا وإن الشام دار الأمن والأمان عندما تقع الفتن﴾ إن من يتحدى رسول الله في هذا لابد أن يبوء بالخزي ولابد أن يبوء بالهوان، ولكني أقول لهؤلاء الإخوة — بَعُدُوا أو قَرُبُوا — أقول للذين عرفوا رسول الله وآمنوا برسول الله نبياً أقول: لهم أيها الإخوة فيم تحكمون على أنفسكم بالشقاء الأبدي؟! فيم تحكمون على أنفسكم يوم يقوم الناس للحساب وقد حُشِرْتُمْ إلى الله وأنتم تحملون أثقالكم من الموبقات فيم قضيتم على أنفسكم اليوم بأن تقطعوا صلة القربى بينكم وبين رسول الله حتى لا تجدوا من يعينكم على وضع هذه الأثقال عن كواهلكم، ألا تحبون إذا حشرتم مع الناس في اليوم الأعظم، عند الوقوف بين يدي الله، ألا تحبون أن تجدوا في رسول الله شفيعاً لكم؟! ألا تحبون أن تجدوا في رسول الله المحب، الشفوق، الرحيم الودود الذي ما زال يفتأ وهو حيٌّ يدعو لأمته كلها، ألا تحبون أن توضع عنكم الأثقال آنذاك؟! ألا تحبون أن تُحْشَروا وإن بينكم وبين رسول الله خيطاً من الصلة؟!

لماذا تقطعون هذا الخيط؟ أيها الإخوة كم أنا شفوق على من يقضي على نفسه بالشقاء. هذه الدنيا أياماً قصيرة ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء: ٧٧].

هكذا يقول الله عز وجل، وعما قريب ستتمدد جميعاً على فراش الموت وسيطرق بابنا ملكُ الموت ولسوف نراه بأبصارنا وبصائرنا، ولسوف تحيق الندامة بمن أصر على أن يجنح إلى طريق الباطل . لا أيها الإخوة لا، لا تسلكوا طريقاً تزجون به أنفسكم فيما بعد في ندامة لا خلاص لكم من نيران وقودها، لا يا عباد الله. كلنا عاصون، وكلنا مقصرون، لكننا جميعاً نأمل بشفاعة رسول الله لأننا نحب رسول الله ولأنه يحبنا.

اجعلوا من صلة القربى بينكم وبين رسول الله سبباً لمغفرة الله إذا أُبْنَا إليه يوم يقوم الناس لرب العالمين، اجعلوا ثمن ذلك صلةَ القربى بينكم وبين هذه الأمة، اجعلوا سبب ذلك الانتصار والحماية لهذا الذي قرره رسول الله صلى الله عليه وسلم .كونوا كإخوانكم أعيناً ساهرة على الأمن والسلام والطمأنينة لهذه البلدة ولمن يعيش فوق هذه البلدة.

وأعود فأقول لمن اجتباهم الله عز وجل وبشرهم رسول الله بهذا الاجتباء فوق أرض الشام هذه، أقول لهم: إن الرسالة التي خولتكم هذا الاجتباء هي أن تكونوا حراساً لدولة الإسلام فوق هذه الأرض، كونوا حراساً لدولة الإسلام فوق هذه الأرض ألا تكون متطرفة، ألا تكون واقعة في غلوٍّ ذات اليمين أو ذات الشمال، كونوا قائمين على هذا الذي وظفكم الله سبحانه وتعالى به، وغداً سيرى القاصي والداني كيف أن هذه الدولة الإسلامية المسلمة قد لبست من دستورها الجديد ثوباً قشيباً، سيكون أكثر تعبيراً عن عقيدة هذه الأمة ولسوف يكون أكثر ترجمة عن ارتباطها بمولاها وخالقها سبحانه وتعالى، ولسوف تجدون هذا الدستور يعلو ثم يعلو إلى أن يصل إلى ذروة ذل العبودية لله وحده، لله وحده لا لأي كائن أياً كان في حياة هذه الأمة يميناً أو شمالاً، جنوباً أو شرقاً يا عباد الله. هذه وصيتي لنفسي، وهذه وصيتي لكل أخٍ مؤمن، وموعدنا في معرفة جدوى هذه الوصية وفي جدوى هذه القيمة، موعدنا يوم يقوم الناس لرب العالمين، وإنه ليوم قريب ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً، وَنَرَاهُ قَرِيباً﴾ [المعارج: ٦-٧].

عباد الله: إن ربنا عز وجل يقول: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤]. ويقول: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢]. ومن مقتضى هذا الذي يقوله بيان الله عز وجل أن أؤكد لكم أن نهوض هذه الأمة بواجبها الذي ذكرت وبحراسة دولة الإسلام فوق هذه الأرض وبرعايتها لهذه الدولة أن تكون بعيدة عن الإفراط والتفريط، بعيدة عن الغلو والتطرف، هذا كله يقتضي أن أقول باسم كل مسلم رعاة ورعية:

إن هذه البلدة مفتحة الأبواب لكل من يريد أن يأتي فيتعاون مع أهلها للقيام بما يرضي الله لإحقاق الحق وإزهاق الباطل، هذه البلدة مفتحة الأبواب لكل غيورٍ على دين الله، يبتغي خدمة دين الله ورعاية دين الله عز وجل لذات الله، لمرضاة الله عز وجل، لا يستخدم دين الله سبحانه وتعالى ركوباً ومطية لغاية، شامنا هذه مفتحة الأبواب لكل من يريد أن يأتي فيمد يد العون، تستقبله الشام بكل ترحاب، تستقبله الشام بكل شكر، بل الشاكر هو الله والمؤجر هو الله سبحانه وتعالى. أما من أراد أن يمزج الحق بالباطل وأن يجعل من الباطل قائداً للحق إلى ما يريد فالشأن فيه عائدٌ إلى ما اختاره، ونسأل الله سبحانه وتعالى لنا ولإخواننا جميعاً الهداية قبل فوات الأوان.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم فاستغفروه يغفر لكم فيا فوز المستغفرين ويا نجاة التائبين.



٤٧٠- وصايا المصطفى تعاني من الغربة في الشام | ٢٠١١/٠٦/١٠

رسول الله صلى الله عليه وسلم مشدود العاطفة إلينا، شديد الاهتمام بشؤوننا، كثير الاستغفار لنا، كثير التحنان والشوق إلينا، أجل بهذا وردت أحاديث صحيحة كثيرة.

وننظر إلى حال المسلمين اليوم فنجد أن قدراً كبيراً من المسلمين معرضون عن هذا الرسول الذي يتشوق إليهم ويهتم بهم ويستغفر لهم ويلاحقهم بالوصايا والنصائح، تلك هي المأساة الكبرى من وراء المآسي التي نشعر بها أو نتحدث عنها، نعم تلك هي المأساة الكبرى.

يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم مرسلاً خطابه لهذه الأجيال من وراء أسوار القرون، يقول مخاطباً في حجة الوداع: ﴿ألا لا ترجعوا بعدي ضُلاَّلاً يضرب بعضكم رقاب بعض، ألا هل بلغت، اللهم فاشهد﴾، وننظر فنجد القتل اليوم يستحر بالمسلمين على أيدي المسلمين، ونتأمل في حال من ينسبون أنفسهم إلى رسول الله وإلى الإسلام وإذا بلسان حالهم يقول: لسنا من وصية رسول الله في شيء، لقد أُمِرْنَا، لابد أن ننفذ، ولقد اتجهت إلينا المتطلبات من هنا أو هناك ولابد لنا أن نحقق. وتنظر وإذا بالسلوكات الشائنة هذه قد قطَّعَت أوهى الخيوط الواصلة بيننا وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم.

يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم فيما صح عنه: ﴿من خرج من أمتي على أمتي يضرب برها وفاجرها ولا يتحاشى مؤمنها ولا يفي بذي عهدها فليس مني﴾ ونقول هذا ونبلِّغ كما أمر رسول الله: ﴿ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب فرب مُبَلَّغٍ أوعى له من سامع﴾ هكذا قال رسول الله، نبلِّغ هذا الذي قاله رسول الله وإذ بالوجوه تشيح عن هذه الوصية النبوية، وإذا بالكلمات تستخف بهذا الأمر النبوي بل بهذا التحذير النبوي إذ يقول: ﴿من خرج من أمتي على أمتي يضرب برها وفاجرها ولا يتحاشى مؤمنها ولا يفي بذي عهدها فليس مني﴾ كم رأينا من يسخر من هذا التحذير النبوي وننظر فنجد أو نسمع أن عشرات المسلمين قد قُتِّلُوا بأيدي المسلمين، لم يُقَتَّلُوا بأيدي أعدائهم على النقيض مما أوصى به رسول الله، على النقيض مما حذر منه رسول الله.

رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ويحذر: ﴿من قاتل تحت راية عمية فَقُتِل فَقِتْلَتُه جاهلية﴾ أي من سار وراء قيادة لا يعلمها ولا يعلم الغاية التي تسير به إليها فليعلم أنه إن قُتِلَ فإن قتله سيرمي به إلى ما وراء سور الإسلام ﴿فَقِتْلَتُهُ جاهليه﴾ وننظر وننقل هذا الكلام ونعيده ونبلغ هذا الذي أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتبليغه وإذ بنا نسمع من يقول: بل لابد أن ننفذ الأمر الذي وُجِّهَ إلينا من غرب أو من شرق أو من هنا وهناك، لابد أن نعرض عن هذا الذي قاله محمد رسول الله ونفضل عليه تنفيذ ما يُتَطَلَّبُ تنفيذه منا من خطط خارجية، ما ندري ما يراد بنا من ورائها، وكم نقول ولكن رسول الله حذَّرَ فلا نجد إلا الإعراض والاستخفاف.

عباد الله: يقول لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿إنها ستكون فتن من بعدي، قال سيدنا علي: فما المخرج منها؟ قال: المخرج منها كتاب الله﴾ أي الانضباط به وتنفيذ أوامره.

واليوم وإن هذه الفتنة لتمر بنا – أقول تمر ولا أقول تلبث، وهذا هو يقيني ولله الحمد – ننظر فنجد مولانا وربنا أرسى أمراً خاطب به عباده تنبثق من خلال هذا الأمر قاعدة هامة تسمى قاعدة سد الذرائع، يقول: ﴿وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ فَيَسُبُّواْ اللّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨] أي إذا كان الأمر المشروع – بل الأمر المطلوب والمسنون وربما كان الواجب – يكون ذريعة إلى جريمة أو محرم أكثر خطورة من الواجب الذي تنفذه فيجب أن تترك هذا الأمر المشروع لأنه يتحول إلى محرم بل يتحول إلى جريمة.

ولقد ضرب البيان الإلهي لذلك بمثل بسيط بالنسبة لما نرى، قال: ﴿وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ أي لا تسبوا أصنامهم فَيَسُبُّواْ اللّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ لأن هذا الذي تفعلون يكون ذريعة إلى أن يسبوا إلهكم الحقيقي وهو الله عز وجل، إذاً لم يعد سب الأصنام مشروعاً لأنه يودي إلى سب الإله، سب الله عز وجل، فكيف إذا أودى إلى قتل النفوس البريئة؟ فكيف إذا تسبب عن فعلٍ وليكن مشروعاً، إذا تسبب عنه قتل البرآء، إزهاق حياة البرآء، يصبح هذا الأمر – حتى ولو كان مشروعاً في أصله ولو كان مسنوناً بل لو كان واجباً من درجة دنيا يصبح ذلك محرماً، وننظر فنجد كثيراً من المسلمين الذين قطعوا مما بينهم

وبين رسول الله ونصائحه أوهى الخيوط نجد أنهم يوغلون في ارتكاب الذرائع التي توصل إلى جرائم محرمة، تصرفات قد تكون في أصلها جائزة مشروعة ولكنها تستثير إلى فتن، يتذرع بها الفاعل إلى محرم، تُزْهَقُ من ورائها أرواح، يصبح هذا العمل جريمة أيها الإخوة والمتسبب عن ذلك يصبح في شرع الله قاتلاً يكلَّفُ بدفع الدية ويحاسَبُ يوم القيامة على أنه قاتل حتى وإن لم يكن يشعر بذلك لأنه لم يحمل سلاحاً ولم يقتل بريئاً ولكنه خرج يهتف، خرج يتحدى، خرج يمارس فعلاً وردود فعل فكانت العاقبة هذا الذي أقوله لكم، وخطاب الله عز وجل يقول: إن المباح يتحول إلى محرم بل إلى جريمة إذا أصبح ذريعة إلى محرماً، ننظر فنجد كثيراً من المسلمين يوغلون في ارتكاب الذرائع إلى جنايات، وأنا لا أفرِّقُ يا عباد الله بين فئة وأخرى، لا أفرِّقُ بين طرفٍ وطرفٍ آخر، كل من يوغل في ارتكاب ما يعد ذريعة إلى محرم، ما يعد أو يكون ذريعة إلى جريمة قتل تكون هذه الذريعة بحكم القتل ذاته.

عباد الله، أحب أن أتساءل ما هي علاقتنا اليوم بمحمدٍ رسول الله؟ أنحن موقنون بأنه نبينا وأننا منتسبون إليه نصغي إلى أوامره إذاً لماذا هذا الإعراض عن وصايا رسول الله؟! يلاحقنا المصطفى بحبه، بشوقه، بتحنانه، بوصاياه، يلهث رحمةً وإشفاقاً علينا، يسرع لحاقاً بنا: لا تفعلوا، لا تفعلوا، إياكم، إياكم، أحذركم، ستقعون في عقابيل هذا البلاء إذاً، ونحن معرضون.

إن كانت نسبتنا إلى رسول الله باقية فتعالوا نبايع رسول الله على السمع والطاعة، تعالوا ننفذ وصاياه، هو رسول إلينا كما كان رسولاً إلى العرب في عصره. أما إن كان فينا من قد قرر أن يقطع نسبته إلى رسول الله ومن ثم فهو يسير في النقيض مما أوصى رسول الله مطمئن البال، واثقاً من هذا النهج فليعلن ذلك حتى تتميز الفئات بعضها عن بعض.

أما نحن فإننا نعلن في كل يوم لاسيما في هذه المناسبة بأننا لا نزال من أمة رسول الله، لسنا — ولله الحمد — من أمة الدعوة فقط بل نحن من أمة الدعوة والاستجابة معاً، إننا لا نزال نعلن بأننا نتمسك بوصايا رسول الله التي أرسلها إلينا من وراء القرون، نعلن بأننا حريصون على أن لا نخرج عن أمره، الأوامر

التي ننفذها هي التي تأتينا من لدنه، أما الأوامر التي تأتينا من ظلمات ما وراء البحار، من المجهول فمعاذ الله وحاشى أن نفضلها على أوامر رسول الله صلى الله عليه وسلم.

أنا أدعوكم وأدعو كل من يسمع كلامي وأدعو نفسي: ما دمنا معتزين بنسبتنا إلى رسول الله أن نجدد البيعة له، أن نصغي السمع إلى وصاياه، أن نطبق أوامره، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم فاستغفروه يغفر لكم.



٤٧١- وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ | ٢٠١١/٠٣/١١

لقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه أحمد وأبو داود والحاكم في مستدركه والطبراني في معجمه من حديث ثوبان رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ﴿ستداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها قالوا: أمن قِلّةٍ نحن يا رسول الله يومئذ؟ قال:﴿بل أنتم كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل، وسيخرجن الله عز وجل من قلوب أعدائكم الرهبة منكم، وسيقذفن في قلوبكم الوهن قال قائل منهم: ما الوهن يا رسول الله؟ قال: حب الحياة وكراهية الموت﴾.

لعلكم تعلمون أو سمعتم هذا الحديث يا عباد الله، وهو حديث صحيح. والغثاء عبارة عن الزبد الطافي والفقاقيع التي تظهر على وجه السيل عند اشتداده، هذا هو معنى الغثاء. يُشَبِّهُ المصطفى صلى الله عليه وسلم المسلمين في هذا العصر بهذا الذي يربو على وجه السيل، يملأ مرآه العين، فإذا مَسَسْتَهُ زال وغاب.

ترى لماذا يحيق بالمسلمين هذا الذي أخبر عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد تم ذلك كما ترون. آل حال المسلمين في مشارقهم ومغاربهم إلى ما يشبه المائدة من الطعام يتحلَّقُ حولها الآكلون، تشبيه دقيق واقع ماثل أمام أبصارنا وبصائرنا.

ولكن لماذا حاق بهم هذا الذي أخبر عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم؟

الجواب: حاق بالمسلمين هذا لأنهم حكموا على أنفسهم بذلك، هذا هو الجواب باختصار، أما تفصيل الحديث عن ذلك فهو ما ينبغي أن أقول لكم وما ينبغي أن تسمعوه.

وصف الله سبحانه وتعالى عباده المسلمين بأنهم: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]. وأهاب بهم أن يكونوا دائماً كذلك، فقال المسلمون اليوم: بل قرارنا الذي اتخذناه أن نكون أعزة

على المؤمنين أذلة على الكافرين، يأمروننا فنطيع يستخدموننا فنخدمهم، يغتصبون حقوقنا فننغض الرأس لاغتصابهم.

قال لنا الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦]. وأهاب بنا أن نكون كذلك دائماً، فقال المسلمون في هذا العصر: بل لابد أن نتنازع على الفتات ولابد أن نتخاصم على الدون من البضائع والمال وإن تبددت كرامتنا من وراء ذلك وإن ضاعت وحدتنا من وراء ذلك. ولعل هذا قرره المسلمون إن بلسان القول أو بلسان الحال يجعلهم مصداق قول الشاعر:

**دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد		فإنك أنت الطاعم الكاسي**

خاطب الله المسلمين قائلاً: ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ﴾ [آل عمران: ١٠٣]. أي بشرع الله وأوامره، فقال المسلمون – أو جلُّهم اليوم: بل إنه حبل تطاول أمده وتقادم بنا عهده، لقد مَلَلْنَاهُ وتبرمنا به، وقرارنا أن نتركه وأن نبحث يميناً وشمالاً عن الحداثة، عن أمورٍ جديدة، لسوف نلتقط الحبلَ الذي سنتمسك به شرعة ومنهاجاً من هنا وهنا وهناك. هكذا يقول المسلمون اليوم أو جلهم إن بلسان القول أو بلسان الحال.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً﴾ [مريم: ٥٩]. وأهاب بنا البيان الإلهي ألا نكون كذلك، فقال قائلون من المسلمين: بل سنعرض عن ذلك كله ولسوف نكون هذا الخَلْف. ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً﴾ [مريم: ٥٩]. ونظرنا فوجدنا الكثرةَ الكاثرةَ من المسلمين في هذا العصر وجدنا فيهم من لا يعرف جِذْعُهُ الركوع ولا يعرف جبينه السجود، قد أوغلوا في الشهوات والأهواء.

قال الله سبحانه وتعالى لنا: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢]. أهاب بنا ألا نكون كأولئك الناس، أعرضوا عن الالتجاء إلى الله وأمرنا عن الضيق وعندما تطوف بنا المحن وتتهددنا الفتن أن نفر منها إلى الله، طلب منا أن نلتجئ بضراعة ومسكنة

إلى الله عز وجل، قلنا بلسان الحال أو بلسان القول: لا، بل سنقبل إلى العلم، سنعبد العلم الذي حفظناه برؤوسنا ولن نلتجئ إلى الله سبحانه وتعالى.

أليس هذا مصداق ما أقول لكم يا عباد الله؟ أن المسلمين في هذا العصر هم الذين حكموا على أنفسهم بأن يكونوا ﴿غثاء كغثاء السيل﴾، وإنما كان دور المصطفى صلى الله عليه وسلم أن أخبرنا بهذا الذي سيؤول إليه أمرنا، وإنما أخبرنا رسول الله عن ذلك وهو لم يره وبينه وبين هذا الواقع جدار يبلغ غِلْظُهُ القرون المتطاولة ولكنه الوحي الرباني أوحى به الباري إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

أقول لكم هذا يا عباد الله حتى لا يعترض معترض ولا يتساءل سائل: ألسنا مسلمين بعد؟ ألسنا مؤمنين بالله عز وجل؟ أليست مساجدنا عامرة؟ أليست قبابنا ومآذنا باسقة صاعدة؟

الجواب: كل ذلك شعائر، كل ذلك تقاليد ومظاهر، ولكن الواقع هو هذا الذي ذكرته لكم. أمَرَنَا الله عز وجل فأعرضنا ووصانا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فاجتنبنا وصاياه.

نعم، لا يزال في المسلمين قلة باقين على العهد، ثابرين على مبايعة الله عز وجل، صابرين متصابرين، نعم، ولكنكم تعلمون سنة من سنن الله عز وجل، تلك السنة التي قالها رسول الله صلى الله عليه وسلم لزينب رضي الله عنها، قالت: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: ﴿نعم إذا كَثُرَ الخبث﴾. ﴿وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥]. هكذا يقول ربنا سبحانه وتعالى، وهكذا بَيَّنَ لنا رسول صلى الله عليه وسلم. حَكَمَ المسلمون على أنفسهم بهذا الذي ذكرته لكم، وها أنتم ترون مصداق ما أقول.

تنازعنا وقد أمرنا الله عز وجل بالاتحاد وأمرنا الله عز جل بالتضامن.

أمرنا الله عز وجل أن نضحي بالفتات والتافه من المال في سبيل أن نتضامن فَعَكَسْنَا ما أمرنا الله عز وجل به. ضحينا بالاتحاد والتضامن في سبيل الفتات، في سبيل التافه من البضاعة والمال، تخاصمنا وتقارعنا وإذا بالأمة الواحدة أصبحت جذاذاً وأصبحت فئات كما ترون متقارعة متخاصمة.

ننظر ونتأمل – من بعيد أو من قريب – وإذا بولاء المسلمين الذي كان لله إذا به قد تحوَّل وأصبح ولاءً للعدو المشترك، أصبح ولاءً للعدو المغتصب، بل أصبح خدمة مُعْلَنَة للعدو الذي تقاسمنا ولا يزال يتقاسمنا، نعم. وننظر إلى خداع هذا العدو المشترك ومع ذلك فنحن نغمض العين عن خداعه وعن دجله من أجل أن نترامى على خدمته.

ألا ترون إلى هذا العدو المشترك يعانق ويدعو في الظاهر واللسان والصراخ يدعو إلى الديمقراطية وإلى رعاية حقوق الإنسان ولكنه يدافع دفاع المستميت عن الاستبداد وعن الظلم والطغيان، في سلوكه الأرعن الصامت يغذي الاستبداد، نعم، وفي أقواله وشعاراته يخادعنا بكلمات الديمقراطية وحقوق الإنسان، ومع فالمسلمون إلا من رحمهم الله عز وجل مصرون على أن يكونوا خدماً لهذا العدو المشترك، مصرون على أن يعرضوا عن نداء الله سبحانه وتعالى، مصرون على أن يعرضوا عن الوعد الذي قطعه الله عز وجل على ذاته عندما قال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٥].

ونحن نعلم أن هذا كلام الله ونعلم أن وعد الله لا يحلقه خُلْف، وهذا شيء يتجلى في حياة الرعيل الأول الذي سبقنا من قبل، ومع ذلك فقد أعرضنا عن الإكرام الذي وعدنا الله به، أعرضنا عن الاستخلاف الذي وعدنا الله عز وجل به في الأرض، أعرضنا عن ذلك كله في سبيل أن نكون خدماً للمغتصبين، في سبيل أن نكون خدماً للعدو المشترك. هذا معنى كلام رسول وهذا هو السبب فيما قد حاق بنا عندما رأينا ونظرنا فوجدنا فعلاً أننا قد أصبحنا كما وصف رسول الله بدقة، أصبحنا غثاءً كغثاء السيل، وليت أننا شُبِّهْنَا بالسيل، السيل يفعل الأفاعيل، السيل يفعل أفاعيل كثيرة، لكننا لسنا السيل، نحن الغثاء الذي يربو على هذا السيل.

ومع ذلك فنحن لسنا من المتشائمين ولسنا من اليائسين. نحن نظل من المتفائلين بتوفيق الله وكرمه، ولسوف نلتجئ إلى الله تنفيذاً لأمره وتحقيقاً لوصاياه. لن نلتجئ إلى شرق ولا إلى غرب، لن نخضع الرأس إلا لمن خلق هذا الرأس. أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

٤٧٢- لا تنسوا فلسطين ... عدونا واحد | ٢٠١١/١٢/١٦

حقيقة إنسانية وإسلامية وشرعية ينبغي أن أعود فأحدثكم عنها وينبغي أن تكونوا دائماً على ذُكْرٍ منها، إنها قضية فلسطين هذه. إنها ليست كما قد يتصور البعض قضية إقليمية تعود إلى بقعة من أرض ويُسْأَلُ عنها جماعة من الناس، لا يا عباد الله، إنها قضية الأمة الإسلامية جمعاء قادة وشعوباً، وإن المسؤولية فيها ملقاة على أعناقنا نحن المسلمين قاطبة، ولسوف يوقفنا الله عز وجل غداً بين يديه، ولسوف يحاسبنا على هذه المسؤولية إن حساباً عسيراً أو يسيراً.

والتأصيل الفقهي يا عباد الله لهذه المسألة التي يجب أن نعود فنتذكرها هو أن نعلم أن الفتح الإسلامي عندما امتد إلى بلاد الشام وتحررت الشام من الاستعمار الروماني – وقد دخلت هذه البقعة منذ ذلك اليوم في الإسلام وأصبحت جزءاً من دار الإسلام – والقرار الفقهي المتفق عليه هو أن دار الإسلام تبقى دار إسلام إلى أن تقوم الساعة، لا يمكن أن تتحول بعد ذلك فتعود إلى ما كانت عليه قبل الفتح، وإذا اعتدى على شبر من هذه الدار معتدون مغتصبون آثمون فإن على المسلمين قاطبة أن يحرروا ذلك الشبر من عدوان المعتدين ومن ظلم الظالمين، وإن هم لم يفعلوا ذلك وأعرضوا عن هذه المسؤولية فالجميع – فيما أعلم من شرع الله عز وجل – آثمون عاصون متلبسون بمسؤوليةٍ يحاسبهم الله سبحانه وتعالى عليها، هذا من جانب.

ومن جانب آخر ينبغي أن نعلم يا عباد الله أن هذه المؤامرة عندما نُفِّذَتْ منذ أن امتدت يد بريطانيا إلى تطبيقها وتنفيذها وإلى هذا اليوم لم يكن المراد آنذاك ولا اليوم أن يجد اليهود مستقراً لهم من هذه البقعة وأن يتقاسموا العيش وأسبابه مع جيران لهم، لا، لم يكن هذا هو المقصود، وإنما كان المقصود ولا يزال أن تُتَّخَذَ هذه المسألة سرطاناً يستقر في أدق جزءٍ من أجزاء جسم الأمة الإسلامية. الخطة المرسومة هي أن يُتَّخَذَ من هذا الذي أقوله لكم ورماً خطيراً سرطانياً يستقر في القلب المقدس من جسم هذه الأمة الإسلامية، هذا هو المراد. وإذا كان هذا – وهو الشيء الذي ينبغي أن نعلمه جميعاً هو الواقع – إذاً

ينبغي أن نعلم أن المصيبة ليست مصيبة إقليم، وليست مصيبة فئة من الناس وإنما هي مصيبة هذه الأمة جمعاء، هذه حقيقة ينبغي أن نعلمها.

وينبغي أن نعلم أن المجتمع الغربي بشطريه الأوروبي والأمريكي يغذي هذا الورم السرطاني من أجل أن تكون المشكلة التي تشل فاعلية الأمة الإسلامية مشكلة حاضرة كي لا تغيب قط، وأمريكا هي التي تقود اليوم هذه الخطة وهي التي ترعى هذه الغاية. صحيح أنها خرجت اليوم من العراق – وهي تحمل أثقالاً من الخسارة في الأرواح وفي المال وفي غير ذلك – ولكن عزائها أنها نفَّذَتْ الأمر الصادر إليها من إسرائيل أن تزيل الخطر الوهمي المتمثل في أسلحة دمار، في أسلحة نووية تتحين العراق الزمان المناسب لاستعمالها ضد إسرائيل، عزاء أمريكا التي خرجت بخفي حنين – وهي تحمل أثقالاً من الخسارة في الروح والمال وغير ذلك – عزاؤها هذا الذي أقوله لكم.

واليوم ننظر فنجد أن الجريمة قد استشرت لدى هذا الورم السرطاني الذي أحدثكم عنه كما لم يستشر في عهد من العهود الغابرة قط.

إن إسرائيل اليوم تنتعل القانون الدولي لصالحها كما لم تنتعله قبل اليوم قط. وإن إسرائيل اليوم تستعبد الأسرة الإنسانية متمثلة في مؤسساتها العالمية والدولية كما لم تستعبدها من قبل قط. وإنكم لتجدون دلائل ذلك واضحة ولا عجب أيها الإخوة، لا عجب، ذلك لأن أمريكا أولاً قد أعلنت أكثر من مرة أنها على استعدادٍ لأن تدمر الجنس البشري أجمع في سبيل المحافظة على أمن هذا الورم السرطاني، في سبيل المحافظة على أمن إسرائيل، وذلك لأننا نفتح أعيننا ونلتفت يميناً وشمالاً إلى مَنْ حولنا من أمتنا وإخواننا العرب والمسلمين فننظر إلى أولئك الذين كانوا قبل حينٍ من الزمن يتسابقون إلى مقاطعة إسرائيل ويلتقطون أنفاسهم بحثاً عن الساعة الملائمة للانقضاض لإعادة الحق المسلوب ولاستعادة الأوطان المغتصبة، ننظر إلى هؤلاء وإذا بهم اليوم يتسابقون لمد جسور التآلف والتعاون والتعايش ما بينهم وبين هذا الورم السرطاني الذي غُرِسَ من أجل القضاء على وجودهم، من أجل القضاء على كينونتهم الإنسانية والحضارية.

لا، بل نظرنا فوجدنا هنالك من العرب المسلمين من ينادي بضرورة التعامل مع إسرائيل بالحكمة المتناهية، أجل، سمعنا ما لم تصدقه آذاننا كلاماً ينبثق من أفواه عرب مسلمين: ينبغي أن نتعامل مع إسرائيل بمنتهى الحكمة، ولكأن العرب والمسلمين قد أخذوا منها بالخناق فهي تكاد تلفظ أنفاسها ولذلك فإننا نستجدي الرحمة وننادي الإنسانية رأفةً بهذا الذي نأخذ منه بالخناق والذي يكاد يلفظ أنفاسه.

من أجل ذلك تمرد هذا العدو تمرداً لا عهد لنا به من قبل فيما أحسب. ها هو ذا بالأمس قد أحرق مسجداً بكامله أتى النيران على كله في القطاع، ورُسِمَتْ عليه شعارات لا أريد أن أحدثكم عنها. وها هو ذا باب المغاربة في بيت المقدس قد أُغلِق مقدمة بين يدي كارثة تتهدد الأمة العربية والإسلامية بها.

هذا هو واقعنا نحن العرب والمسلمين فلماذا لا تتمرد إسرائيل، لماذا لا تركل القانون الدولي بقدميها، لماذا لا تبصق على القرارات التي تريد أن تأخذ منها بالعناق، القرارات التي تريد أن تجردها، لماذا وقد أصبح الذين يتربصون بها الدوائر بالأمس أصبحوا المدافعين عنها اليوم، أصبح أولئك الذين كانوا يدعون إلى الجهاد ضد هذا العدو الذي استلب الأرض والعرض أصبحوا يدعون العالم الإسلامي إلى أن يتعامل مع إسرائيل بالحكمة واللين، نعم.

ألا ولتعلموا يا عباد الله أن هذه الأسلحة التي تندلق إلينا من يمين وشمال وهؤلاء المسلحين الذين يمعنون تقتيلاً وتخريباً وتحريقاً إنما يتم ذلك كله من أجل قرة عين إسرائيل، علم ذلك من علم وجهله من جهل.

عباد الله: ذلك هو الولي الذي يحمي الظالم، الذي يحمي المجرم المتربع – لا أقول على عرش فلسطين – بل المتربع على صدور الأمة الإسلامية جمعاء. فمن هو ولي المظلوم؟ من هو وَلِيُّنَا نحن يا عباد الله؟

وَلِيُّنَا الله ﴿اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وَلِيُّنَا الله، ولكن هذا الولي، ولكن ربنا عز وجل يريد منا شيئاً واحداً تجدونه في هذا الذي يقول خطاباً لنا: ﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

هذا ما يطلبه الله عز وجل منا. يطلب الله عز وجل منا أن نكون مؤمنين بصدق، لا أن نكون مؤمنين إيماناً تقليدياً. وعندما نكون مؤمنين بصدق بقضنا وقضيضنا على شتى المستويات فإن أول معنى من معاني إيماننا الصادق أن نعود فنتوب إلى الله، ينبغي أن نتوب إلى الله أيها الإخوة. ما أكثر ما شردنا عن صراطه، ما أكثر ما أمر فلم ننفذ أمره، ما أكثر ما نهى فارتكبنا ما نهى. أجل، أول معنى من معاني إيماننا الحقيقي أن نعود فنجدد البيعة مع الله من خلال توبة نصوحة، ذلك لأنه ما من مصيبة تحل بالمسلمين إلا وهي جزاء معصية بل معاصٍ ارتكبوها، وصدق الله القائل: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]

وصدق الله القائل: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

نتوب إلى الله. ولا يقولن قائل: أما أنا فلا أعلم أنني قد ارتكبت وزراً. عباد الله: ليس فينا من لم يقصر، أنا الذي أحدثكم بهذا الحديث أول المقصرين. كلنا عبيد مملوكون لله، وكلنا مقصرون في جنب الله عز وجل، والله يدعو المؤمنين جميعاً إلى التوبة فيقول: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

المعنى الثاني لهذا الإيمان الذي ينبغي أن نجدده بين جوانحنا وفي سلوكنا هو أن نتضرع على أعتاب الله، هو أن نذل خاشعين ملتجئين إلى ساحة فضل الله عز وجل، هكذا يقول الله عز وجل وهكذا يذكرنا: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٩]. ربط الرب سبحانه وتعالى بين الاستغاثة بالله عز وجل وبين الاستجابة. ربنا عز وجل يقول: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ، فَلَوْلا إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢ – ٤٣].

ما ينبغي أن نكون من هؤلاء الذين قست قلوبهم، لاسيما ونحن نرى المصيبة التي أرسلها الله عز وجل إلينا للإيقاظ، ووالله إنها ستدبر كما أقبلت، ولقد رأيتها في إقبالها ورأيتها في إدبارها، ولسوف تدبر ولكن الله ينتظر منا صدق الأوبة إليه، ينتظر منا صدق التوبة بين يديه.

أيها الإخوة: إن التوكيل في كل الأعمال سائغ ومشروع، وباب المعاملات في الشريعة الإسلامية ينص على ذلك. لا حرج في أن أوكلك أن تشتري لي عقاراً أو أن تبيع لي داراً، أما التوكيل في الالتجاء إلى الله فغير وارد، لا يقولن قائل لأخيه أو صاحبه أو رجل ممن يظن فيه الصلاح: ادع الله لنا، التجئ إلى الله بدلاً عني، لا يا أيها الإخوة. كلنا عبيد لله عز وجل، لا توكيل في طرق باب الله عز وجل. ينبغي أيها الإخوة أن نلتجئ جميعاً إلى الله، وينبغي أن نتضرع على أعتاب الله عز وجل متمسكنين، أذلاء، بائسين، فقراء نعلن على كل المستويات أننا عبيد لمولانا وخالقنا، لا ندين لأحدٍ بالعبودية إلا له، لا نستنزل النصر إلا من لدنه، نناديه بالأسحار، في الأوقات الخاصة، نبكي، نتضرع، وكلما كان الإنسان يتبوَّأ مركزاً أعلى يكون تضرعه أقرب إلى الاستجابة، يكون تضرعه ذا معنى أهم وذا حقيقة أقرب، هذا هو دواؤنا أيها الإخوة.

نعم، إذا كان الظالم تتولاه أمريكا فهي وليُّ ذلك الظالم، نحن يتولانا الله، وَلِيُّنَا الله عز وجل ﴿اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

لكن لابد أن نجدد إيماننا، ولابد أن نتوب إلى الله عز وجل من آثامنا التي اقترفناها في جنب الله، وكلنا أيها الإخوة آثمون، كلنا مقصرون. من هو الذي لم يقصر في جنب الله سبحانه وتعالى، ثم ينبغي أن نتضرع ونذل لله سبحانه وتعالى. الذل للمولى فوق هذه الأرض أعلى درجة يتبوؤها الإنسان في الرضا عند الله سبحانه وتعالى، وأيسر سبيل وأغلى ثمن يقدمه الإنسان لاستنزال النصر من عند الله.

على أني لا أقول لكم إن الالتجاء إلى الله هو الدواء الأوحد وهو البديل عن التدبير، لا، بل إن شرعنا أمرنا بأن نتخذ كل الأسباب المادية الظاهرة ولكنه أنبأنا أن هذه الأسباب لا فاعلية لها، كل ما في الأمر أننا نستجيب في ذلك لأمر الله عز وجل، أما الفاعلية فإنما تكمن بأن نطرق بأيدي الذل باب الله

سبحانه وتعالى، الفاعلية تكمن في البكاء في الأسحار. النصر الذي وعدنا الله عز وجل به يكمن في أن نعلن عن عبوديتنا لمولانا وخالقنا.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم فاستغفروه يغفر لكم.



٤٧٣- قصة الطابور المستأجَر لتشويه الإسلام | ٢٠١٢/١١/٠٢

سؤال يتطارحه اليوم كثيرٌ من الناس: ما هي العوامل التي تلاقت من شتى الجهات فأعلنت حرباً عالميةً على سوريا، بل ما هي الجريمة التي اقترفتها سوريا في حق بقاع العالم أجمع مما جعلها تقذف سوريةَ بسهامها من قوس واحد؟ هذا سؤال يتكرر كما تعلمون على كثيرٍ من الأفواه وينبغي أن أجيب عن هذا السؤال بشيء من التفصيل الذي تسمح به الدقائق التي أملكها في مثل هذا الموقف.

عباد الله: إن عداوة الغرب للإسلام من خلال المسلمين حقيقة تاريخية لا تُنْكَر ولا ريب فيها وقد تنقلت في أطوار شتى، ولا شأن لنا بالحديث عن تلك الأطوار التي خلت، ولكن الذي يهمنا أن نتحدث عن عداوة الغرب بشطريه الأوروبي والأمريكي للإسلام في هذا العصر.

أيام الاتحاد السوفييتي كانت الصيغة التي تبدو أنها علمية في تبني الإلحاد والوقوف في وجه الإسلام القائم على دعائم العلم، كانت هذه الصيغة متمثلة في الفلسفة الماركسية كما تعلمون، ومن ثم فإن الغرب – لاسيما الغرب الأمريكي – كان سعيداً بذلك وكان يرى أن هنالك من يحارب الإسلام بالوكالة عن الغرب متمثلاً في الجدلية الماركسية، ولعلكم تذكرون أو تعلمون أن في تلك الأيام شيئاً كان يعرفه الناس يسمى الشيوعية الأمريكية – أي التي تتبناها أمريكا – لم تكن تتبناها لمزاياها الاقتصادية والاشتراكية ولكنها كانت تتبناها لأنها كانت تملك مظهراً للصيغة العلمية التي تستطيع بها أن تقف في وجه الإسلام.

انهار الاتحاد السوفييتي ونظر الغرب بشطريه الأوروبي والأمريكي وإذا بالأداة التي كانت تحارب الإسلام فيما يتصورون بالنيابة عنهم قد غابت فاستعلنوا بمناسبات شتى عن أهمية الوقوف في وجه الإسلام وعن ضرورة الوقوف في وجه هذا العدو الأخير الوحيد الباقي، وكان تصريح رئيس الوزراء في حكومة بريطانيا – تصريح تاتشر – أول إعلان عن هذه الحقيقة التي أقولها لكم، وها أنا أنقل هذا التصريح بنصه يا عباد الله، في اليوم الثالث من شباط من عام تسعين وتسعمائة وألف بثَّتْ لندن في برنامجها العربي هذا التصريح لتاتشر، تقول ما نصه: كان أمام الغرب عدوّان اثنان، الشيوعية والإسلام، وقد تم القضاء على

العدو الأول دون أن يقدم الغرب في سبيل ذلك خسائر تذكر، ويقف الغرب اليوم كله في خندق واحد لمجابهة العدو الباقي وهو الإسلام.

هذا ما قالته تاتشر، ولعل هذا التصريح أول تعبير عن ضرورة الوقوف في وجه الإسلام بعد أن انهار الوكيل الوحيد الذي كان يقف وقفة علمية فيما يتصورون في وجه الإسلام، وعلى الرغم من أن بعض المسؤولين في بريطانيا آنذاك لم تعجبهم تلك الصراحة الفاقعة الذي تمتع بها تصريح تاتشر ولكن الغرب كله أيَّدَها في ذلك، وفي مقدمة من أيَّدَها في ذلك الغرب الأمريكي، لماذا الغرب الأمريكي أيها الإخوة؟ لأن الإدارة الأمريكية متمثلة في الكونغرس وغيره كانت تعتقد أن أمريكا هي المناخ الأول لتقبل الإسلام وأن الذين يقبلون على الإسلام في أمريكا ربما كان ضعف من يتقبل الإسلام ويستأنس به في أوروبا.

وإليكم هذا التصريح الآخر من طبي أمريكي مرموق نشر مقالاً في مجلة الفيكارو الفرنسية في يوم الثالث عشر من حزيران من عام اثنين وتسعين وتسعمائة وألف، يقول فيه ما نصه: إن الإسلام دين تسامح، وإن الحكومة الأمريكية تجابه الإسلام في كل مكان من العالم لأنها الديانة التي تُقْنِعُ الفرد بسرعة كما تحارب توجه المسلمين إلى أي اتحاد فيما بينهم لأنه إذا اتحد المسلمون فلن تكون هنالك ولايات متحدة أمريكية في العالم، هذا كلام طبيب أمريكي مرموق وليس كلامي، نعم.

بناءً على ذلك كان لابد أن ينهض الغرب بالوقوف في وجه الإسلام بعد أن كان مطمئناً إلى أن الجدلية الماركسية تنوب عنه في ذلك، اقتضى الأمر في هذه المرحلة أن يتطور السبيل إلى محاربة الإسلام بعد أن كان سبيلاً بل سبلاً تقليدية لا داعي إلى الحديث عنها. تطورت السبيل إلى محاربة الإسلام عبر نقطتين اثنتين؛ هدف وخطة، أما الهدف المرسوم فهو أن يقضي الإسلام نفسه على نفسه بذاته وأن يحرق الإسلام ذاته وذلك عن طريق تألُّب المسلمين بعضهم على بعض بكل الوسائل الممكنة، ومن تتبع وقائع مؤتمر كالورادو الذي عُقِدَ في أمريكا في هذه الولاية يتبين تفصيل هذا الذي أقوله لكم.

هذا هو الهدف، أما الخطة فتتكون من عنصرين – وأنا ألخص حقيقة – العنصر الأول يتمثل في ضرورة محاربة الإسلام بسلاح من مظاهر الإسلام ذاته، وهو يقصدون في هذا السلاح الذي هو من

مظاهر الإسلام ذاته تجميع طابور من الخليقة البشرية ذات طباع وأخلاق شاذة عن هذه الخليقة كلها تثير الرعب في أخلاقياتها وفي سلوكها، مهوى أفئدتها البطش والقتل وارتكاب المجازر، أمتع ما تمتع به أعينها مظهر الدماء الزكية المتفجرة من جسوم ومذابح البرآء من عباد الله سبحانه وتعالى، أبرد ما يشفي غليلها الجسوم التي تقطع إلى أوصال والأوصال التي تقطع إلى أشلاء، ولابد أن يكون لهذا كله غطاء من المبررات الإسلامية، وماذا عسى أن يكون هنالك مبرر لذلك إلا التكفير؟!

إذاً ينبغي أن يغطى ذلك كله بمبرر التكفير، أي أن التكفير إنما أتي به من أجل تبرير هذا القتل المرعب المهلك وليس العكس، هذا جزء من الخطة التي رسمت، قلت لكم إن الخطة تتكون من عنصرين اثنين، هذا هو العنصر الأول، أما العنصر الثاني فيتمثل في ضرورة أن يُمَرَّرَ هذا كله من وراء ستار كثيف من العناوين الإسلامية، عناوين المؤسسات، عناوين الاهتمامات الإسلامية، عناوين متألقة براقة على ألا يكون لها أي مضمون، على ألا يكون لها مضمون أكثر مما يتضمنه الطبل، ليس فيه إلا الهواء الذي يسري في داخله، منظمة التعاون الإسلامي، رابطة العالم الإسلامي، الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين، عناوين ندوات ومؤتمرات ضخمة كبيرة وكثيرة تعقد هنا وهناك باسم الإسلام، أقنية خاصة لخدمة القرآن ولتلاوة القرآن وما إلى ذلك، ينبغي أن توجد هذه العناوين من أجل أن يمرر من وراء سترها العنصر الأول في الخطة التي ذكرتها لكم.

عباد الله: هل أنا آتي بهذا الكلام من خيالٍ يحوكه ذهني؟ معاذ الله، ارجعوا إلى وقائع مؤتمر كالورادوا تجدون ما أقول مفصلاً، ارجعوا إلى أكثر من تقرير أصدره مجلس الأمن القومي الأمريكي تجدون مصداق ما أقول، إذاً فالخطة المرسومة الجديدة لحرب الإسلام هي تلك التي تجتث مشاعر الاستئناس بالإسلام في أمريكا، هي التي تقتلع مشاعر الركون والإصغاء إلى حقيقة الإسلام، عقائد، حضارة، أحكام، كيف السبيل إلى اجتثاثها؟ أن توضع هذه الصورة أمام الشارع الغربي في مظهريه الأمريكي والأوروبي. إذا وجد الغرب هذه الصورة للإسلام لابد أن يشمئز منها ولابد أن يتصور أن الإسلام هو البعبع، هو الشبح

الذي لابد للإنسانية أن تستعيذ بالله عز وجل منه، هذا هو الذي يجري اليوم، وهذا هو الجواب عن هذا السؤال مختصراً.

بقي أن فينا من قد يسأل: فلماذا حصر هذا العدوان أو حصر هذه الحرب في سوريا بالذات والعالم العربي والإسلامي واسع الأرجاء؟ والجواب عن هذا يا عباد الله أن سوريا تمثل عقدة التماس، هذا شيء، وأن معظم الذين يعيشون حول سوريا هنا وهناك خاضعون، مستسلمون، ولعل فيهم من يمثلون جزءاً من هذا الطابور الذي صاغه العدوان الأمريكي ضد دين الله سبحانه وتعالى، من أجل هذا يتمركز العدوان على الإسلام من خلال العدوان على هذه الأرض المقدسة، من خلال العدوان على المسلمين في هذه الأرض المقدسة.

في الناس من ينظر إلى هذه البلدة نظرة سطحية عجلى فيقول أين هو الإسلام، أين هو الخوف من الإسلام في سوريا؟ يقول هذا نتيجة لنظرته العجلى، ولكن الغرب أدهى من أيقف هذا موقف السطحي الساذج. الغرب لا ينظر إلى الوقائع عندنا نظرة سطحية عجلى ولكنه يمخر إلى اللباب، الغرب يرى الوعي الإسلامي المتألق في هذه البلدة، الغرب يعلم أن المسلمين يمثلون في سوريا الإسلام الصافي عن الشوائب الذي يتمثل في كتاب الله والذي يتجسد في هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، يعلمون أن الإسلام الذي يعتنقه جل المسلمين في سوريا إنما هو ذاك الذي يجسد خطاب الله عز وجل لرسوله القائل: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

يعلمون أن الوعي الإسلامي يدرك أن الإسلام في سوريا منبثقاً من كتاب الله ومنبثقاً من سنة رسول الله أبعد ما يكون من أن يخضع لما يسمى حرب طائفية، لما يسمى احتكاكات طائفية، يعلم الغرب هذا، وكم وكم قرر هذه الحقيقة رسل جاؤوا فأقاموا في سوريا واحتكوا بكثير من الناس واحتكوا بأمثالي ورأوا المعاهد ورأوا الحقائق الإسلامية التي يعتنقها ويدركها المسلمون، يعلمون ذلك، أما السطحيون فأرجو أن

يستفيدوا من نظرة الغربيين وأن يعلموا أن الإسلام في سوريا، وإن لم يكن في مظهره ذا دلالة على حقيقته ولكنه في مخبره كما أقول لكم.

فيكم من قد يسأل: فما العلاج؟ هذا هو العدوان وذلك هو الهدف وهذه هي الخطة فما العلاج؟ أقول لكم اليوم يا عباد الله: إن إدراك المشكلة يساوي نصف الطريق إلى حلها، إذا أدركنا حقيقة هذه المشكلة وأدركنا السبب في هذا العدوان الذي يتمركز من العالم كله على سوريا بالذات، إذا أدركنا السبب فلنعلم أننا ملكنا نصف العلاج إلى حل المشكلة، أما النصف الثاني فأرجو أن يوفقنا الله لبيانه ولشرحه مع شيء من التفصيل في المواقف القادمة إن شاء الله، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

عباد الله: كلمات موجزة ألفت أنظاركم وأنظار بعض إخوة ربما وقعوا في خطأ سببه سبق لسان، أحدهم عبَّرَ عن هذه الكارثة التي فاجأت أمريكا بغضب الطبيعة أو بهياج الطبيعة، هذه الكلمة أيها الإخوة شاذة لا مكان لها في بصيرة الإنسان المسلم ولا مكان لها في بصيرة الإنسان الذي يتعامل مع العلم. طبيعة، كلمة طبيعة هذه على وزن فعلية بمعنى المفعول أي مطبوع، والطبيعة التي ينطقون بها أو يتكلمون بها يعبرون بها عن هذه المكوَّنات، هذه المكوَّنات مطبوعة أي وُجِدَ من طبعها بنظامها القائمة عليه، وُجِدَ من طبعها بقانونها، بسننها السائرة على منهاجها، فمن هو الطابع ومن هو المنظم ومن هو الواضع لسلسلة هذه القوانين الكونية، جل الإله الذي أمر موسى أن يقول لعدو الله فرعون: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠].

ربنا من؟ باختصار هو ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ مظهراً ثم هداه إلى قانونه، إلى العكوف على نظامه، إلى العكوف على سننه التي أقام الله هذه المكوَّنَات عليها. الطبيعة! أنى للطبيعة أن تقرر وأنى لها أن تصول عندما تريد أن تصول وأن تهمد وتخمد عندما تريد أن تفعل ذلك،لا. جل الإله الذي جعل من الماء سرَّاً للحياة عندما يشاء وجعله سبباً للهلاك عندما يريد، جل الإله الواحد الأحد الذي جعل الرياح الهابَّة سبباً لانتعاش الروح، سبباً لتجدد الحياة عندما يشاء وجعلها سبباً للهلاك والدمار عندما يشاء، جل الإله الذي يسخر ما يشاء من خلقه لما يشاء. لا يا أخي، إياك أن تلوث لسانك بهذه

الكلمة، قل: إنها قضاء الله وحكمه، قل: إنها إيقاظ لأولئك الناس لعلهم يستيقظون، ﴿وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِّن دَارِهِمْ﴾ [الرعد: ٣١].

هذا ما وقع. عندما ابتلع غضب الله عز وجل جزيرة كاملة في إزميت في تركيا بعد منتصف الليل أفكانت الطبيعة هي التي قررت ذلك؟! ابتلعتها بكل من فيها من الأوغاد، من الذين كانوا يتحدون الله بطريقة عجيبة حتى الطغاة من قبل لم يفعلوا ذلك، عندما ابتلع قضاء الله عز وجل تلك الجزيرة الكبيرة التي كانت قد استأجرتها أمريكا من بريطانيا بكل ما فيها من عتاد وبكل ما فيها من أناسي أكان ذلك قرارً قررته الطبيعة؟! لا، لا أيها الإخوة، إنه إيقاظ إلى قضاء الله عز وجل وحكمه، إنه بيان من الله عز وجل يذكرنا بقول الله عز وجل: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧].

تلك هي الحقيقة، فلنستغفر الله من هذه الكلمة الباطلة.

٤٧٤- وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ | ٢٠١٢/٠٢/٢٤

إن حبيبنا المصطفى محمداً صلى الله عليه وسلم شبَّه أمته قادةً وشعوباً بالجسد الواحد كما تعلمون، وانطلاقاً من هذا التشبيه الذي اعتمده حبيبنا المصطفى صلى الله عليه وسلم أقول لكم: إن جسد هذه الأمة يعاني اليوم من أمراضٍ خطيرة مستقرة في كيانه، يعاني من أمراض لم تفد إليه من الخارج بسبب هواءٍ فاسد أو بسبب جراثيم أقبلت إليه من هنا وهناك لا، وإنما هي أمراض انبثقت من داخل كيانه، هو المسؤول عنها وهو الذي يتحمل وزرها، ولولا هذه الأمراض التي أحدثكم عنها لما استطاعت العداوات المستشرية المختلفة أن تنال من هذا الجسم منالاً قط، ولولا هذه الأمراض المستشرية في كيان هذا الجسد لما أصاب شيء من شؤم أصدقاء إسرائيل ومؤتمرهم الذي يُعْقَدُ في هذا اليوم.

أقولها لكم باختصار أيها الإخوة: إن أسباب العداوات والبغضاء التي تحيط بنا والأسى الذي يُمَارَسُ ضدنا، أسباب ذلك أمراضنا الداخلية. وليست أمراضنا الداخلية متسببة عن تلك المآسي وتلك الأنواع من البغضاء والعداوات المستشرية. ولقد قال العرب في أمثالهم: إن قطعة فأس وقعت في غابة بين الأشجار الكثيرة والكثيفة فذعرت الأشجار من هذا العدو المداهم المفاجئ، ولكن شجرة هرمة أتت عليها السنوات الطوال اتجهت إليها نادتها قائلة: لا تُذْعَروا ولا تخافوا ولا يهولنكم أمر قطعة هذا الفأس، فلو بقيت هذه القطعة فيما بينكم دهراً طويلاً لن تستطيع أن تنال منكم منالاً إلا أن تبرع غصنٌ منكم بأن يكون مقبضاً لها.

وإنكم لتعلمون أن كثيرة من الأغصان تتسابق من أجل تكون مقابض لفأس العدوان الذي يستشري ضدنا. هذه الأغصان منا وهي جزء لا يتجزأ من أمتنا، وهذا ما أريد أن تعلموه. أمراضنا منبثقة من داخلنا، والعداوات التي تستشري من حولنا من آثار هذه الأمراض التي نعاني منها. دعوني أضعكم أمام نموذج يجسد هذه الحقيقة التي أقولها لكم. آيةٌ في كتاب الله سبحانه وتعالى غدت اليوم غريبة كل الغرابة عن عالمنا الإسلامي والعربي غربة لا عهد للتاريخ بمثلها قط، آيةٌ ما أكثر ما افتتحت بها الحفلات

والندوات، آيةٌ ما أكثر ما صقلتها الأسماع من كثرة تردادها، آيةٌ يرددها العلماء والجهال بكل مناسبة، أفتعلمون ما هي هذه الآية أيها الإخوة؟ إنها قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

يقول الله عز وجل ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ﴾ ولكن جمهرة المسلمين والعرب من حولنا يقولون: بل نعتصم بحبل برنارد ليفي، نعتصم بحبل ذلك الذي شفا غليله إذ توجه إلى ليبيا فأحالها إلى نارٍ تضطرم وإلى أطلال تتهاوى، ثم إنه اليوم يروغ ليتجه إلى سوريا ويراهن أصدقاءه في إسرائيل أنه سيفعل في سوريا مثل الذي قد فعل بليبيا. إذاً يقول الله عز وجل لنا: ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ﴾ وجمهرة من المسلمين قادةً وشعوباً بل نعتصم بحبل برنارد ليفي.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلاَ تَفَرَّقُواْ﴾ ونصغي إلى إخوانٍ لنا من حولنا وهم جمهرة المسلمين اليوم وإذا بهم يقولون: بل قرارنا الذي اتخذناه هو أن نتفرق فنتخاصم فنتعادى فنجعل من الأحقاد الشخصية – أجل الشخصية – الحكم فيما بيننا.

وتذكرنا الآية فتقول: ﴿وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾، ولكن جمهرة المسلمين من حولنا يقولون: بل ننسى هذا الوفاق الذي طُوِيَ عهده وانقضت أيامه ولم نعد اليوم بحاجة إليه وإنما سبيلنا اليوم أن ننفخ في نيران الحروب المستعرة فنصدرها ناراً تضطرم إلى جيران لنا وإخوة في الله لنا نحكم فيما بينهم منجل الموت يتحكم برقابهم. أليس هذا تحقيقاً لما قد ذكرته لكم الآن؟ أليس هذا الذي أقوله لكم واقعاً لا مبالغة فيه؟ أليس هذا معنى قولنا: إن هذه الآية تعاني من غربة ما مثلها في تاريخ المسلمين قط؟ هذه هي الحقيقة أيها الإخوة التي ينبغي أن نعلمها.

إذا كان هذا هو الواقع فما أظن أن فينا من يستطيع أن يناقش في هذا الواقع، فدعوني أعود فأقول لكم: إننا نحن المسؤولون عما يستشري اليوم من حولنا من عداوات ومن مآسٍ ومن ظلم ينحط علينا، نحن المسؤولون عن ذلك، لماذا؟ لأن أمراضنا المنحطة في مجتمعاتنا والتي ذكرتها لكم بل ذكرت نموذجاً

عنها يتمثل في موقفنا من هذه الآية القرآنية يجعلنا نتحمل نحن أوزارنا، يجعلنا نحن نتحمل مآسينا. والله الذي لا إله إلا هو لولا هذه الأمراض المستقرة في جسد هذه الأمة كما قال المصطفى صلى الله عليه وسلم لما استطاع عدو من الخارج أن ينال منا منالاً قط ولكن كما قال المثل العربي: هي العصي التي هي جزء لا يتجزأ منا نحن تتسابق متبرعة لتكون مقبضاً للفأس الذي يتربص بنا الدوائر. وإنه ليخيل إلينا أننا لو توجهنا إلى هؤلاء الذي يخططون ضدنا سبل العداوة والبغضاء لو احتججنا عليهم لقالوا كما سيقول الشيطان لأوليائه يوم القيام: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُم مَّا أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

هكذا يقول الشيطان يوم القيامة لأوليائه. ولو أردنا أن نعلن بالحجة على من يخططون سبل العداوة والبغضاء ضدنا لقالوا هذه الحجة التي سيحتج بها الشيطان على أوليائه يوم القيامة.

ما العبرة التي أريد أن نتذكرها وأن نأخذ أنفسنا بها يا عباد الله؟

العبرة مما قد ذكرته لكم باختصار أن نعلم أن الضرورة المنطقية والعقلية والشرعية والإيمانية تقتضي أن نعود إلى دارنا فنصلح من شأنها، تقتضينا أن نعود أن أنفسنا فنطببها، نعالج الأمراض المستشرية فينا، العبرة تقتضي أن نترك ما يجري حولنا في الخارج هنا وهناك وأن نعود إلى ساعة قدسية نحاسب فيها أنفسنا، نصلح فيها أحوالنا على ضوء المصير الذي ينتظرنا، نصلح مجتمعنا، نصلح ديارنا، نصلح علاقة ما بيننا، نقيم سبل الود والحب سخية حارة موصولة فيما بيننا.

وإني لأقول بهذه المناسبة: إن مشروع الدستور هذا الذي طُرِحَ منذ أيام فيما بيننا خطوة من أهم خطوات هذا الذي تدعونا إليه العبرة، خطوة من أهم الخطوات التي نعود من خلالها إلى أنفسنا فنصلح ذاتنا ونعالج أمراضنا ونمد جسور الود والألفة فيما بيننا، وأقول لكم بحق يا عباد الله – ولا تعنيني في هذه الساعة ولا في غيرها المقاييس السياسية فما كنت معنياً بها يوماً ما، ولا تعنيني المقاييس الاجتماعية أيضاً في هذه الحالة وفي هذا الموقف الذي أقفه بينكم، إنما يعنيني أن أضعكم أمام شرع الله وأمام ما يخاطبنا به دين الله عز وجل – مشروع هذا المرسوم صِيْغَ باسمي وباسمكم جميعاً، صيغ تعبيراً عن رغباتنا وآمالنا

وأحلامنا، لم تتم صياغته باسم حكومة، باسم سلطة، باسم دولة، لا يا عباد الله، تمت صياغته باسم هؤلاء الناس الذين شرفهم الله عز وجل بالمقام في هذه الأرض المباركة سوريا، نعم، واللجنة التي اختيرت إنما اختيرت لتجتهد فتعلم رغبة هؤلاء الناس، إذاً هذا المشروع يعبر عن رغباتنا باجتهاد من وضعوه.

ما الذي يقوله لنا الشرع؟ الشرع يأمرنا بأن نلتفت إلى هذا المشروع فنتبينه بدقة ثم أن نعلن إما عن موافقتنا عليه أو عن إعراضنا عنه، ولا يجوز لإنسان أن يقول بل يكفي أن أصمت والصمت يغنيني، تقول القاعدة الشرعية المتفق عليها: لا ينسب إلى ساكت قول، الساكت لا يخرج عن المسؤولية، قيل لي: إن هذا البيان صِيْغَ باسمك، قيل لي إن هذا البيان صيغ تعبيراً عن رغبتك إذاً ينبغي أن أتبينه ثم أن أعلن عن ما تكنه سريرتي تجاه هذا البيان فإما أن أقول نعم إنه يعبر فعلاً عن رغبتي أو أقول إنني آسف لأنه لا يعبر عن رغبتي، أما الصمت فلا يتأتى لي شرعاً في هذه الحالة.

ولعلكم أيها الإخوة تسألونني في هذه المناسبة فما رأيك فيه وما الذي ينبغي نقوله إن درسناه ووعيناه، أقول باختصار أيها الإخوة: إن في مشروع هذا الدستور ضمانتين اثنتين، إذا نفذ هذا الدستور تنفيذاً حقيقياً فإن هاتين الضمانتين تسيران بنا بإذن الله عز وجل إلى مستوى السعادة والأمن والطمأنينة ورغد العيش.

أما الضمانة الأولى فتتمثل في أن هذا الدستور لم يهمل هوية الأمة — وأنتم تعلمون هوية هذه الأمة، وأنتم تعلمون أن سوريا دولة إسلامية — ومن ثم فإن مشروع هذا الدستور وضعنا أمام مرآة دقيقة أمينة تعبر عن هوية هذه الأمة وذلك في مادتها الثالثة ببنديها الأول المعبر عن دين رئيس الجمهورية الإسلام والبند الثاني المعبر عن أن الشريعة الإسلامية أو الفقه الإسلامي هو مصدر التشريع، هذه هي الضمانة الأولى. هذه الهوية ستكون لها الهيمنة على كل ما يلي بعد ذلك من بنود ومواد هذا الدستور.

الضمانة الثانية تتمثل في أن سوريا اليوم بصدد تجاوز العهد الذي كان للحزب الواحد هيمنة عليه وحكم راسخ عليه يقوده. وكم وكم جادلنا وحاولنا وجاهدنا وأنا واحد ممن فعل من أجل أن يتحرر الشعب، أن تتحرر الأمة من سلطان الحزب الواحد أو الفئة الواحدة، لقد تجاوزت الأمة هذا الحاجز بين

الشعب وبين الدولة، بين الشعب وبين القائمين على الأمر. بوسع الشعب اليوم أن يدلي برأيه، لا بل أن يحكم بما يشاء طبق الأنظمة المرعية. هذه هي الضمانة الشرعية يا عباد الله.

وأنا من هذا المنطلق أقول: ليس في الإمكان –كما قال الإمام الغزالي– أبدع مما كان، لاحظوا الوضع الذي نمر به، لاحظوا الحالة التي تستشري من حولنا – وأعود فأقول لكم إن الحالة التي تستشري من حولنا إنما هي غيوم تجمعت من أمراضنا، أمراضنا الداخلية التي نعاني منها – أمام هذا الواقع أعتقد أنه لا يتأتى وضع دستور يعبر عن هوية الأمة كما يرضي الله سبحانه وتعالى ويعبر عن فاعليتها الإيجابية مع الدولة وسلطانها فيما يتعلق بالتشريع – وسلطانها في التشريع شكلي والواقع أن السلطة إنما هي لله عز وجل ولكن عندما تكون الأمة أمةً تعلن عن عبوديتها لله وتسكها بأهداب شريعة الله عز وجل فإننا نقول إنما تعلنه في ذلك إنما هو شرع لها لأن شرعها إنما هو شرع الله عز وجل.

هذه خلاصة ما ينبغي أن نعلمه. أمراضنا مستشرية من داخلنا نحن، وعندما نشفى من هذه الأمراض تزول كل تلك الخطط وتتمزق شر ممزق. فيا أيها الإخوة الذين تسمعون كلامي من قريب أو من بعيد هلا رجعتم في ساعة قدسية إلى مرآة هوياتكم إذاً ستطالعكم هذه المرآة على أنكم عبيدٌ مملوكون لله مهما أسكرتكم الشهوات والأهواء ومهما نالت منكم الأحقاد والضغائن ومهما أسكركم الترف المالي الكثير والوفير، كل ذلك يذهب، كل ذلك يضمحل، كل ذلك يذوي ولن نرحل إلى الله إلا ونحن عرايا لا نملك إلا ما قدمنا، أجل هكذا يقول كتاب الله وهكذا يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم، صدق رسول الله القائل: ﴿لو كان لابن آدم وادٍ من مال لابتغى إليه ثانياً ولو كان له اثنان لابتغى إليهما ثالثاً ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب﴾

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

٤٧٥- خلافة الإنسان في الأرض تستوجب الإصلاح لا الإفساد | ٢٠١٢/٠٤/٠٦

إن من أجلى مظاهر تكريم الله سبحانه وتعالى للإنسان أن قضى بالعدل في التعامل مع أبناء جنسه بل مع الأحياء أجمع، كلفه بأن يتخلق بصفة الحكمة، بأن يتخلق بصفة الرحمة وبصفة الصفح والوداد، هذه صفات من صفات الله سبحانه وتعالى.

وقد شرَّف اللهُ الإنسانَ إذ أقامه خليفة عنه ليقيم مجتمع العدالة بل مجتمع الرحمة، مجتمع التآلف والود فوق هذه الأرض. وما الدين الذي شرف الله عز وجل به عباده إذ كلفهم بالدينونة لشرائع الله سبحانه وتعالى وأحكامه إلا أداة وسبيل للنهوض بهذا الاستخلاف الذي شرف الله سبحانه وتعالى به الإنسان.

وما أعلم صفة يثني بها الله سبحانه وتعالى على عباده في محكم تبيانه أسمى من صفات التخلق بصفات الله سبحانه وتعالى. ولقد تأملت في الكثير والكثير من آي كتاب الله عز وجل التي تتضمن مصدر الثناء وأسبابه، المدح من الله سبحانه وتعالى لعباده فلم أجد صفات أسمى من هذه الصفات التي حدثتكم عن طائفة منها يثني بها الله سبحانه وتعالى على عباده، تأملوا معي في بعض هذه الآيات، يقول الله عز وجل: ﴿وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

وأقول هنا: من هم المتقون يا مولاي. ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]. أرأيتم إلى هذه الصفات التي يثني بها الله عز وجل على الخليقة المتميزة من عباده، تأملوا في قوله سبحانه: ﴿لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتَغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾ [النساء: ١١٤].

لم يحدثنا الله عز وجل بصدد الثناء على هذه الثلة من عباده عن أكثر من هذه الصفات ﴿لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ ووجوه المعروف كثيرة لا حصر لها تشملها القيم الإنسانية جمعاء ﴿إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾.

يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم في الصحيح من حديث أبي أيوب الأنصاري: ﴿ألا أدلك على ما يحبه الله ورسوله، تصلح بين المتفاسدين وتقرب المتباعدين﴾، ألا أدلك على صدقة يحبها الله ورسوله، تصلح بين المتفاسدين وتقرب بين المتباعدين، لم يزد رسول الله صلى الله عليه وسلم على هاتين الخصلتين اللتين هما ضمانة محبة الله ورسوله لمن اتصف بهما.

ويقول المصطفى صلى الله عليه وسلم فيما صح عنه أيضاً: ﴿الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق﴾. أي أن الأعمال الإنسانية والوظائف الجلة التي أقام الله الإنسان خليفة عنه بها في هذه الحياة الدنيا كثيرة جداً وهي مجتمعة بين ما يشبه الغلافين، أما الغلاف الأول فالمعتقد الذي تنبع منه إمكانية تطبيق القيم الإنسانية جمعاء، هذا هو الغلاف الأول، قول لا إله إلا الله، ثم ينتهي حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم مجملاً مستعرضاً كل الأعمال الإنسانية المبرورة التي تجمع ولا تفرق، تبني ولا تهدم، تحقق الحب ولا تستثير مشاعر البغضاء، يستعرضها كلها إلى أن يصل إلى الغلاف الأخير الذي يتمثل في أبسط عمل إنساني ألا وهو إماطة الأذى عن الطريق.

أرأيتم إلى هذه الخلافة التي شرف اللهُ عز وجل الإنسانَ بها والتي بها يثني الله عز وجل على هذه الخليقة المتميزة من عباده. ثم إني أقول لكم: ما حاق غضب الله عز وجل على قومٍ من الناس لسبب من الأسباب إلا لهذه الأسباب التي ستسمعونها من خلال بيان الله عز وجل. لقد استعرضت كتاب الله وحاولت أن ألتقط أخطر ما يثير غضب الله عز وجل على الإنسان فلم أجد إلا هذا الذي أحدثكم عن نموذج منه. اسمعوا الحيثيات التي بموجبها قضى الله عز وجل بإهلاك فرعون وملئه وقومه، يقول: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤].

تلك هي الحيثية التي بموجبها أهلك الله سبحانه وتعالى فرعون وملأه. حدثنا عن قارون وبين لنا السبب ذاته في غضب الله عز وجل عليه الذي اقتضى أن يخسف به وبداره الأرض: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ، وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٦-٧٧]. ولكن الاستكبار طاف برأسه، ولكن العناد والصلف حجباه عن هويته فحاق به قرار الله القائل: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾ [القصص: ٨١].

عباد الله: إن في الناس كثرة تتوهم أن الدين الذي يقربها إلى الله عز وجل إنما يتمثل في مظاهر وقشور –إن جاز التعبير– يغطون أنفسهم بها، ثم إنهم يبيحون لأنفسهم أن يتحركوا تحت الغطاء كما يشاؤون إيغالاً في الفساد، إمعاناً في الظلم، عكوفاً على الإهلاك والتقتيل، ولكنهم يسترون أنفسهم بماذا؟ بمظاهر الدين، وأنا لا أدري أهم مخدوعون بأنفسهم يتصورون أن الله عز وجل يُخْدَع وأنه يكتفي من انقيادهم لدينه واستجابتهم لحكمه بهذه المظاهر التي ربما يتصورون أنهم يحجبون الله عما وراءها؟! أهكذا يقودهم الغباء؟! أم إنهم يخادعون الله إذ يخادعون الناس؟! يتسابقون في المظاهر، يتسابقون في بناء المساجد الفخمة، يتسابقون في المآذن الباسقة الصاعدة إلى جو السماء، يتسابقون ربما في ذرع الطريق ما بينهم وبين بيت الله الحرام جيئة وذهاباً، يتسابقون فيما بينهم في ركيعات، واخترق هذه الظاهرة لتجد بعد ذلك أن نفسك مع خليفة من خلفاء قارون في الوصف الذي وصفه الله سبحانه وتعالى به، يفسد في الأرض ويمعن في الظلم وينقاد لدوافع أحقاده وضغائنه ومشاعر عدوانه، يستجيب لهذه المشاعر منصرفاً عن الاستجابة لأمر الله عز وجل ولكأنه يقول: إذا سُئِلْتُ أقول: انظر كم بنيت من المساجد، تأمل كم كانت مرتفعة تلك المآذن.

ولكن أحب – أيها الإخوة – لنفسي ولكم ولهؤلاء الإخوة أيضاً أن يتأملوا كتاب الله فيتبينوا مثلين لشجرتين إحداهما تمثل الإنسان الذي استجاب لأمر الله ظاهراً وباطناً، غرس عقيدة الإيمان بين جوانحه،

غذَّى هذه العقيدة بالاستجابة لأمر الله عز وجل فأثمرت شجرة الإيمان بين جوانحه شتى أنواع الثمار الإنسانية، تحول إلى خادم كما أمر الله لرقابة العدل، تحول إلى خادم لتحقيق الحكمة، تحول إلى خادم لمد مشاعر الألفة والرحمة بينه وبين سائر عباد الله سبحانه وتعالى، سمع رسول الله يقول: ﴿المسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه﴾ فطأطأ الرأس وانقاد لهذا الأمر فكان في سلوكه مظهراً لهذا الذي وصف رسول الله ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاء، تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٥].

هذا هو المثل الذي يضربه الله للإنسان لمن تشرف بالخلافة عن الله فاصطبغ بالأخلاق الذي يتصف الله عز وجل بها، ثم يقول: ﴿وَمَثلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: ٢٦].

تأملوا في دقة البلاغة القرآنية، تأملوا في دقة الوصف، إنها كلمة لم تكن في الأصل خبيثة ولكنها استحالت إلى كلمة خبيثة عندما لم يكن لها قرار في القلب، عندما اجتثت من داخل الفؤاد فلم تكن لها جذور خفية تتلقى الغذاء لتتنامى، تحولت من الطهر إلى الخبث، تحولت من الفائدة إلى الضرر، تنامت هذه الشجرة التي اجتثت جذورها من فوق الأرض لكن لتصبح أشواكاً ولتينع بالسموم والحناظل، لتينع بالحناظل المهلكة والسموم المبيدة.

يا عجباً لمن يمر بهاتين الصورتين في كتاب الله عز وجل فلا يعيد ثم لا يعيد ولا يسجد لهذا البيان الرباني إذ يصف حال فئتين من الناس، الفئة التي غرست عقيدة الإيمان بين الجوانح ثم غذت هذه الجذور من هذه الشجرة حتى أينعت الشجرة أغصاناً تدلى منها ثمار الإنسانية جمعاء، الرحمة، العدل، الإحسان، الألفة، الود، البناء، الجمع بدلاً من التفريق. ويا عجباً لمن يمر بالصورة الأخرى فيقفز فوقها أو يمر بها مر إنسان غبي أحمق لا يستبين لها أي معنى.

بقي أن أقول أيها الإخوة لهؤلاء الإخوة الذين آثروا أن يكونوا من البيان الإلهي كالمثل الثاني، كالشجرة الخبيثة التي اجتثت من فوق الأرض فأينعت الحناظل وأينعت السموم، عاشوا ليستجيبوا لأحقادهم

وضغائنهم لا لشيء آخر، جعلوا رسالتهم التي كُلِّفُوا بها الإفساد بدلاً من الإصلاح وإن كان الله عز وجل يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾، جعلوا رسالتهم التهديم بدلاً من البناء، جعلوا رسالتهم الإحراق والإتلاف بدلاً من مد جسور الألفة والود. أقول لهؤلاء الإخوة: إن هذا الحجاب الذي يحجبكم عن الشرف الذي شرفكم الله به، هذا الحجاب الذي يحجبكم عن هوياتكم عبيداً أذلاء لله عز وجل، هذا الحجاب سيتمزق عما قريب، ولعلكم ترونه بعيداً ولكنه أراه قريباً، أجل، نعم سيتمزق هذا الحجاب عندما يتراجع منكم الخلق، وصدق الله القائل: ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٦٨].

سيتراجع منكم الخلق ولسوف تذبل الرعونات ولسوف تتراجع الشهوات والأهواء ولسوف تقفون أمام هوياتكم وقد تمزق الحجاب الذي كان يحجبكم عن الرؤيا، ألم يقل الله عز وجل في محكم تبيانه، وها أنا أقرأ البيان من أول السورة لكي نتبينها كاملة: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ، إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ، مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ، وَجَاءتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ، وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ، وَجَاءتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ، لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ١٦-٢٢].

هذا وصف يضعنا الله منه أمام حدث سنلقاه جميعاً يوم القيامة لكني أقول لكم عن مقدماته، مقدماته ستتحقق في دار الدنيا، أجل، أقول لنفسي ولكم ولأولئك الإخوة الذين يسعدون إذ يمعنون في الإتلاف والحرق والظلم بدلاً مما وظفهم الله عز وجل به، أقول لهم هذه الحجب ستتمزق في دار الدنيا قبل أن ترحلوا منها، وهذه الرعونات التي تقودكم وسترة الضغائن والأحقاد التي تهيمن عليكم كل ذلك سينجاب، ستنجاب سحبه ولن يبقى إلا الندم الذي يأكل أفئدتكم ولات ساعة ندم، نعم تلك هي الساعة التي يمتد كل واحد منكم على فراش الموت ويتمنى أنه لو عاد ليصلح ما أفسد، يتمنى لو أنه عاد ليقوِّمَ ما اعوج، يتمنى لو أنه عاد ليستسمح المظلومين ولكن أنى له العود، والمعاصي كلها تغتفر إلا معصية يرحل بها الإنسان إلى الله تحمل الظلم فوق الأعناق، تحمل الظلم الذي مارسه وهو ينتشي به في حياته

الدنيا، لن يستطيع أن يرجع مهما قال. ﴿حَتَّى إِذَا جَاء أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ، لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩ – ١٠٠] لكنه لن يعود.

أيها الإخوة ما أكثر ما قضى الله عز وجل أن أحاور ملاحدة وأن أناقشهم وأحاورهم، ولقد أكرمني الله عز وجل بحب الحجاج تحت مظلة المنطق والعلم ليس إلا، قلت في نهاية كل حجاج لهؤلاء الإخوة، قلت لكل واحد منهم: لك أن تستمر على هذا النهج الذي تؤمن وتتمسك به لكن بشرط واحد أن تضمن عدم الندامة، أن تضمن بقاءك مؤمناً سعيداً بهذا المبدأ إلى أن ترحل من هذه الدنيا، إن كنت تضمن أنك ستبقى كذلك فأنا أهنئك من الآن، أما إن كنت تعلم أنك ستندم وأن الحوافز التي تحملك على التمسك بهذا الذي تتصوره كل ذلك سينجاب عنك، كل ذلك سيبتعد ولن يبقى أمامك من صديق، صديقك الذي ينبغي أن تتخذه من الآن تجهالته، تنكرت له، إن كنت تعلم أنك لن تندم فابق على مبدئك هذا كما جئت وأنا أهنئك، لكن موعد ما بيننا سيذكرك بأنك ستندم وبأن هذه المشاعر ستنجاب سحبها ولسوف تستبين هويتك عبداً مملوكاً لله ولكنك لن تستطيع أن تستفيد من ندمك، وصدق الله القائل: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً، لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً، وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً﴾ [مريم: ٩٣–٩٥]. أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

٤٧٦- مشكلة المزاج المسيطر على كثير من المسلمين | ٢٠١٢/٠٦/١٥

نزلت تعليقاً على مكرمة الإسراء بالمصطفى صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى آيةٌ واحدة ولكن تلتها بضع آيات ما أكثر ما تساءل المفسرون عن وجه العلاقة بين الأولى منها وبين تلك التي تلتها. الآيات التي جاءت بعد الحديث عن مكرمة الإسراء التي أكرم الله بها رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم تتحدث عن بني إسرائيل وعن جولتين من الطغيان والبغي قضى الله سبحانه وتعالى بأن تخوض غمارها، أما الجولة الأولى فقد انقضت وأما الجولة الثانية فهي آتية كما يقول بيان الله عز وجل. ترى ما وجه العلاقة بين الآية التي افتتحت بها السورة وبضع آيات جاءت من بعدها؟ تعالوا نقرأ هذه الآيات أولاً، يقول الله عز وجل: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

ثم يقول مباشرة: ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلاً * ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً، وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً، فَإِذَا جَاء وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَّفْعُولاً، ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً، إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُواْ وُجُوهَكُمْ –الخطاب للمسلمين– وَلِيَدْخُلُواْ الْمَسْجِدَ –أي بنو إسرائيل– كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيراً﴾ [الإسراء: ٢-٧].

العلاقة بين الآية الأولى التي افتتحت بها السورة وبين هذه الآيات الأخرى التي تلتها أصبحت بيِّنَةً واضحة في هذا العصر يا عباد الله. الرابطة التي يلفت البيان الإلهي نظرنا إليها بين المكرمة التي أكرم الله بها رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم إذا سرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وبين هذا الذي يذكره بيان الله عز وجل عن الطغيان الذي يمارسه بنو إسرائيل في دولتين سجل التاريخ القصي أولاهما وها هو ذا يسجل اليوم الثانية منهما، العلاقة واضحة، ها نحن نرى أيها الإخوة هذه الجولة الثانية التي

تمارسها إسرائيل منذ ما يقارب سبعين عاماً، ها هي ذي تمارس كل أنواع الطغيان والبغي، ها هي ذي تغتصب الأرض والمال والعرض، وها هي ذي تطرد الناس من بيوتها، تهدم بيوتهم وتستلب مساكنهم ومزارعهم على مرأى منهم، تمارس ذلك كله وأكثر دون أن يتحرك لسان بإنكار لهذا الطغيان الثاني الذي أخبر عنه بيان الله سبحانه وتعالى. هذه الرابطة لئن لم تكن جلية في العصور السابقة فإنها اليوم قد أصبحت جلية ﴿فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيراً﴾ [الإسراء: ٧].

قتلاً فتكاً إهلاكاً، فما موقفنا نحن؟ ما الموقف الذي ينبغي أن يتخذه المسلمون؟ هذا ما يسألنا عنه بيان الله سبحانه وتعالى.

عباد الله: أقولها لكم باختصار، ليس عجيباً أن نرى أن أمريكا قد جندت كل قوتها وسائر سلطانها المادي والمعنوي على المؤسسات الدولية لخدمة هذا العدو الذي أخبر البيان الإلهي عن جولته الثانية في الطغيان والبغي، فنحن نعلم جميعاً أن أمريكا اليوم إنما هي مستعمرة إسرائيلية كبيرة، هذه حقيقة ينبغي أن نعلمها، وأنها لا تبالي في خدمة هذا العدو أن تمزق سائر النظم وسائر القوانين والمبادئ الإنسانية والدولية في سبيل ذلك، وها هي ذي تظهر علاقتها مع إسرائيل كعلاقة العبد الخادم مع السيد والمطاع، ولكن الأمر الغريب الذي لا يستطيع العقل أن يستبين له سبباً أن نجد إخوة لنا من حولنا قد جعلوا من أنفسهم أدوات يتقاذفها السيد المخدوم والعبد الخادم كما يتقاذف الناس الكرة بين أقدامهم، هذا هو المر العجيب يا عباد الله.

فيم وكيف صمتت الأصوات التي كانت إلى عهد قريب قد بحت وهي تنادي بضرورة الجهاد في سبيل الله لتطهير الأرض المقدسة من رجس اليهود وإعادتها إلى ملاكها وأصحابها الشرعيين؟ فيم خفتت تلك الأصوات التي كنا نسمعها إلى فترة قريبة وهي تدعو أقول إلى الجهاد في سبيل الله ضد العدو الإسرائيلي المغتصب الذي يمارس جولته الثانية كما يقول بيان الله سبحانه وتعالى طغياناً وبغياً واستلاباً للأرض والأوطان والحقوق؟ لماذا سكتت تلك الأصوات ولماذا أصغينا إليها وإذا هي تنطق بنقيض ما

كانت تنطق به بالأمس؟ سلوا شيوخ الدين وشيوخ الحكم في قطر لماذا رفعت عقيرتها الكل عام ثمانية وتسعين وتسعمائة وألف وهي تدعو إلى الجهاد في سبيل الله وتدعو إلى الوقوف في وجه هذا العدو الغاصب، تدعو الجميع العرب والمسلمين إلى أن ينهضوا ويؤدوا حق الله عز وجل في أعناقهم جهاداً في سبيل الله تطهيراً لهذه الأرض المقدسة من الغاصب، كان ذلك بمناسبة تكريم ذلك المفكر المسلم روجيه غارودي في ذلك المكان، نعم يطيب لي أن أوجه هذا السؤال لشيوخ الدين وشيوخ الحكم كيف كانوا يدعون آنذاك إلى الجهاد وأصغي السمع اليوم وإذا بذلك الصوت قد خفت، وإذا بالحديث الذي أسمعه نقيض ذلك الحديث تماماً، وإذا بالكلام في مجمله يقول إن بني إسرائيل دولة وإن الإسرائيليين إخوة وإنهم أصحاب حق وإن الأمور ينبغي أن تسير على نحو إيجابي بناء فيما بينهم.

أنا أسأل يا عباد الله، وليتني أسمع الجواب: أَوَحْيٌ جديد هبط من سماء الله عز وجل إلى الأرض ينسخ شرعة ويضع في مكانها شرعة أخرى؟! أرسل وأنبياء بعد خاتم الرسل والأنبياء قد بُعِثُوا ليوضحوا أن فلسطين حق شرعي سائغ لهؤلاء الذين يسرحون ويمرحون ويتبرون كما قال الله عز وجل ما علوا تتبيراً؟! هل بُعِثَ رسل وأنبياء بشرعة جديدة تقول: بل الإسرائيليون هم الناس البرآء المظلومون أصحاب الحق وأن الفلسطينيين هم الظالمون، هم العتاة وهم الباغون وهم الذين يتبرون اليوم ما علوا تتبيراً؟! كيف؟ كيف؟!

أريد أن أسمع الجواب، وإلى أن أسمع الجواب أقول لكم متبرعاً باختصار شديد الجواب: الجواب يا عباد الله يتمثل في فرق ما بين تعامل المسلمين اليوم مع الإسلام وتعامل سلفهم الصالح مع الإسلام، نحن اليوم، أو كثيرون من المسلمين اليوم يتعاملون مع ما يسمى اليوم الإسلام السياسي أي الإسلام الخاضع للرؤى السياسية المختلفة، أما المسلمون الصادقون مع الله وكتابه ورسوله بالأمس فقد كانوا يتعاملون مع ما يسمونه السياسة الإسلامية أي السياسة الخاضعة للإسلام وانظروا إلى فرق ما بين المبدأين، انظروا إلى سلفنا الصالح الذين نشرف بأننا نسير على أقدامهم، نسير على نهجهم، نتمسك بالقيم التي تمسكوها معتصرة من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، مبدؤهم إتباع السياسة الإسلامية أي الخاضعة

للإسلام المتفقة مع أوامر الله عز وجل، أما اليوم فقد آل الأمر إلى النقيض تماماً، الإسلام نعم ولكن على أن يخضع للسياسة، الإسلام نعم ولكن على أن يخضع للرؤى المزاجية، الإسلام نعم ولكن على أن يخضع لمحالفة ما بيننا وبين العدو، عدو الله وعدو الدين وعدو الأمة، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.



٤٧٧- فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ | ٢٠١٢/٠٦/٢٢

أرأيتم إلى سفينة عملاقة تمخر بركابها الكثيرين المتنوعين عباب بحر هائج متلاطم الأمواج مما يجعلها تميد آناً ذات اليمن وآناً ذات الشمال مما يجعل مقدمتها تتنكس آناً لتغيب في مياه البحر وترتفع آناً آخر لتدنو إلى الوضع العمودي بكل من فيها، وهكذا تنقطع آمال الجميع عن أسباب الحياة والنجاة وتتقطع عنهم السبل الكونية والمادية كلها ويدنو منهم شبح الموت المخيف المرعب، عندئذٍ تستيقظ مشاعر الفطرة الإيمانية بين جوانح كل منهم أياً كانت العقائد التي كانوا يعتنقونها، وعندئذٍ يتجه الجميع إلى إلههم الذي تذكروه بعد نسيان وعندئذٍ يتعاملون مع حقيقة عبوديتهم لله سبحانه وتعالى بعد طول إهمال، هذه حقيقة نعرفها، وصدق الله القائل: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧].

أيها الناس، يا عباد الله: تلك هي حالنا اليوم، تلك هي حالنا التي نمر بها اليوم. أما السفينة فهي هذه الأرض المقدسة التي أقامنا الله عز وجل عليها، وأما الأمواج المتلاطمة عن يمين وشمال فإنما هي الفتن التي تُصَدَّرُ إلينا أسبابها من كل حدب وصوب دون أن نرتكب جريمة اقترفناها ودون أن نرتكب موبقة اقتطفناها، وأما الانقطاع عن الآمال، وأما السبل التي تقطعت بنا عن الأسباب المادية المختلفة التي كنا نمارسها فتتمثل في إخوة لنا كنا نحسب أنهم يمارسون الأخوة في سبيل الله عز وجل بيننا وبينهم ويمارسون في سبيل ذلك الإصلاح ولكنا نظرنا فوجدنا أنهم يمارسون بدلاً من هذه الأخوة في سبيل الله العداوة والبغضاء في سبيل الشيطان، ورأيناهم بدلاً من أن ينفذوا أمر الله القائل: ﴿وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١] رأيناهم يؤثرون أن يفسدوا بدلاً من أن يصلحوا، وأن يرسلوا صواعق الإفساد ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، ونظرنا إلى جيرانٍ لنا حسبنا أنهم أو كبيرهم سمع ووعى قول رسول الله «مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه» والحديث متفق عليه، ونظرنا وإذا بهؤلاء الجيران لا يفتؤون يرسلون إلينا أسباب الدمار وأسباب الهلاك دون أي جريمة كما قلت لكم اقترفناها، دون أي موبقة ارتكبناها، وننظر إلى العالم البعيد البعيد وإذا بالجميع يكيدون لنا، وإذا بالجميع يرسلون سهام عداوتهم من قوسٍ

واحدة، وهكذا فأنا نجد السبل المادية التي يمكن أن نتمسك بواحد منها، ها هي ذي السبل كلها تقطعت، وها هي ذي الأسباب المادية كلها تحولت إلى بلاء وإلى نكال ضدنا بدلاً من أن تكون عوناً لنا.

إذاً فها نحن ننظر يميناً وشمالاً، ننظر إلى كل حدب وصوب وإذا بالكون كله قد تحول إلى عدو، وإذا بالأسباب المادية العلمية المتنوعة التي كنا نستأنس بها ونعتمد عليها قد انمحت وزالت. من هو الصاحب الذي بقي لنا؟ إنه واحد لا ثاني له يا أيها الناس، إنه الصاحب الذي لا يتركنا سواء أقبلنا إليه أو أعرضنا عنه، إنه صاحبنا الذي سنرحل عن هذه الحياة الدنيا ونخوض غمار الإقبال على الآخرة وهو يظل معنا، إنه الله سبحانه وتعالى، إنه الإله الذي يقول لنا لاسيما في مثل هذه الحال: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات: ٥٠].

يقول لنا: ﴿بَلِ اللّهُ مَوْلاَكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٠].

يقول لنا: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [العنكبوت: ٢٢].

يقول لنا: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٩].

يقول لنا: ﴿فَلَوْلا إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنعام: ٤٣].

هذا هو الصاحب الذي بقي لنا في هذه الحالة المدلهمة التي قضاها الله سبحانه وتعالى لنا ولا أقول علينا. ولكن الله عز وجل وهو صاحبنا في كل حال يريد منا أن نعلن الطلب الذي نحتاج إليه، يريد منا صاحبنا هذا – مولانا وخالقنا – أن نعلن عن احتياجنا إليه كما كنا نعلن عن احتياجنا إلى عباده، كما كنا نُهْرَع إلى الأسباب التي جندها الله عز وجل كما شاء، ينتظر الله عز وجل منا أن نلتفت إليه فنعلن عن طلب حاجتنا، ينتظر الله عز وجل منا أن نلجأ إليه فهل فعلنا؟ هل وقفنا أذلاء على بابه؟ هل مددنا يد الحاجة إلى بابه؟ هل أقبلنا إليه قائلين: ها نحن نجدد العهد معك، ها نحن نعود تائبين إليك، ها نحن مقرون بذل عبوديتنا لك وبإعراضنا الذي تطاول أمده عنك؟ لا يا أيها الإخوة، على الرغم من أن السبل كلها قد سُدَّتْ وأن الوسائل كلها قد تقطعت مما بيننا وبين ما نأمله وننتظره ولم يبق أمامنا إلا مسبب الأسباب، لم يبق أمامنا إلا ذاك الذي قلوب العباد بين إصبعيه يقلبها كما يشاء فلماذا لا نقبل إليه؟ ألم يقل: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ لماذا لا نفر إليه؟ وما معنى ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ التجئوا إليه،

فروا من المصائب التي تلاحقكم فروا من الفتن التي تحيط بكم، فروا منها إليَّ ولسوف تجدون مني خير ملاذ. أين هم الذين يفرون إلى الله.

ألم يقل ﴿بَلِ اللّهُ مَوْلاَكُمْ﴾ لا غيره ﴿وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾.

أين هم الذين قالوا بملء أفواههم بعد أن أيقنوا بذلك بملء قلوبهم أنت مولانا يا رب لا مولى لنا سواك، أين؟ أين؟

أيها الناس، يا عباد الله مسافة ما بيننا وبين الفرج خطوة واحدة، إنها تتمثل في صدق الالتفات إلى الله، إنها تتمثل في صدق الرجوع إلى الله، في صدق التوبة إلى الله سبحانه وتعالى. ما الفرق بين حالنا التي أصفها وبين هؤلاء الذين أبحروا فاهتاج البحر عن يمينهم وشمالهم واهتاجت الأمواج عن يمين وشمال وعرفوا أن الأمل بالحياة قد انقطع وأن أسباب الخلاص والنجاة قد غابت ماذا يكون حالهم لو كانوا ملاحدة، لو كانوا فلاسفة، لو كانوا موابذة، لو كانوا فسقة؟ الكل يقبلون إلى الله آنذاك، ينشدون نشيداً واحداً بلغة واحدة، نعم. أقول ما الفرق بين أولئك الذين أبحروا فطافت بهم عادية الموت وبيننا نحن الذين أبحرنا داخل هذه الفتن التي وصفتها لكم ووصفت مبعثها إليكم؟ لماذا لا نعود إلى الله كما يعود أولئك؟ أولئك الذين يقول الله عنهم: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧].

ها نحن قد أحيط بنا، ها هي الدنيا كلها قد أعلنت عن عداوتها لنا دون أن نرتكب موبقة، وبقي لنا صاحب، هذا الصاحب هو من يملكنا، هذا الصاحب هو من سيؤول إليه أمرنا، هذا الصاحب هو الذي وسعت رحمته السموات والأرض والدنيا والآخرة، ولكن هذا الإله ينتظر منا أن نطلب، أن نستغيث وكأنه يقول: أنا الموجود فاطلبني تجدني لكن إن رمت السواء فلن تجدني.

أقولها لنفسي ولكم يا عباد الله قادةً وشعباً على كل المستويات، على كل الفئات: آن لنا أن نصطلح مع ربنا، آن لنا أن نجدد التوبة بين يديه، آن لنا أن نستجيب لقوله: ﴿أَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠].

هل وفينا بعهد؟ لا، تأملوا وتصوروا، يقول الله عز وجل: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥].

يقولها للجنود، يقولها للذين يقفون على الثغور، يقولها لأولئك الذين يواجهون الأعداء، يقول: إذا لقيتم فئة من الأعداء فاثبتوا واستعينوا على الثبات بالذكر، بذكري.

وذكرك لله أو ذكرهم لله يكون بالتوبة أولاً وبالاصطباغ بذل العبودية ثانياً وبالانضباط بأوامر الله جهد الاستطاعة ثالثاً. ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤].

لكي تظل ذاكراً لي، لكي تظل العلاقة بيني وبينك عامرة.

يا عباد الله: آن لنا أن نلتفت إلى الله، ليس من فرق بيننا اليوم وبين أولئك الذين أبحروا فرأوا الموت قد أحاط بهم ورأوا أسباب الهلاك قد نُسِجَتْ كلها لتأخذ منهم بالخناق فصاحوا مقتنعين بنشيد واحد: اللهم أنت ربنا، ها نحن قد عدنا إليك، ها نحن تائبون إليك، ها نحن نعاهدك على أن ننفذ الأوامر وننتهي عن النواهي، هلا فعلنا مثل ما يفعل أولئك؟

أقولها ثانية: مسافة ما بيننا وبين الفرج والله الذي لا إله إلا هو خطوة واحدة، هذه الخطوة هي لفتة إلى الله، لفتة صادقة إلى الله على كل المستويات، نتوب إليه، نعود إليه، نعم، نقف على بابه، نستجدي الفرج من جنابه، نفذوا وانظروا، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

٤٧٨- لكي لا تعود المحنة إذا غابت ... | ٢٠١٢/٠٩/٠٧

إني لأرجو أن يكون الزمن المتبقي لزوال هذه المحنة أياماً قليلة معدودة، ولكني أؤكد لكم أنني لا أنطلق إلى هذا الرجاء من رؤية أسباب مادية وأنشطة سياسية ونحوها تتحرك على الأرض، وما كنت معتمداً على هذه الأسباب أيضاً يوم تحدثت عن مقدم هذه المحنة قبل سنتين أو أكثر تقريباً، وإنما هي رؤيا أُرِيْتُها عند قدوم هذه المحنة ولدى زوالها، وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يحقق ما قد أرانيه في إقبالها بالأمس وفي إدبارها اليوم.

ذكرت لكم هذا مقدمة بين يدي تذكرة أتوجه بها إلى نفسي أولاً وإليكم ثانياً أن ننفذ جملة من الأوامر بل الواجبات التي يخاطبنا الله عز وجل بها على أعقاب زوال هذه المحنة التي ستنقضي قريباً بإذن الله عز وجل.

هنالك عدة واجبات ما ينبغي أن نعرض عنها وما ينبغي أن نستهين بها، أول هذه الواجبات أن علينا أن نعلم أن الله عز وجل أقامنا في كونه هذا في عالم اسمه عالم الأسباب، لاشك في هذا ولا ريب، فما من قضاءٍ يقضيه الله عز وجل إلا ويجعل بين يديه سبباً.

إن هذه المحنة كان لها أسبابها يوم أقبلت ولسوف نجد أن لها أسبابها يوم تدبر، ولكن يجب أن نعلم جميعاً أن هذه الأسباب شكلية لا فاعلية لها وإنما الفاعلية لمسببها، ينبغي ألا تحجبنا الأسباب ولا يحجبنا عالم الأسباب عن المسبب الأوحد وهو الله سبحانه وتعالى، ينبغي ألا تحجبنا اليد التي تمتد إلينا بالعطاء أو تمسنا ببأساء ينبغي ألا تحجبنا هذه اليد عن صاحبها الذي هو الذي يفيد ويضر، يأمر وينفذ، يجب ألا يحجبنا تحرك الجنود عن القائد الذي يأمر والذي ينهى والذي إليه التنفيذ، هذا الواجب ينبغي أن نعلمه جيداً يا عباد الله، وعندما نتدبر كتاب الله نجده مليئاً بهذه التذكرة، تأملوا في حديث القرآن عن بني إسرائيل والمحنة التي أرسلها الله عز وجل إليهم، تأملوا في السبب وتأملوا في المسَبِّبِ: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً، فَإِذَا جَاء وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً

لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَّفْعُولاً﴾ [الإسراء: ٤-٥] الرائي إلى الوضع يظن أن بختنصر هو الذي فعل وهو الذي نفذ وهو الذي قضى ولكن تأملوا في قوله تعالى: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾جنود بيد الله – وما يعلم جنوده إلا هو. تأملوا في هذه الحقيقة كيف تتجلى في هذه الآية التي تمس واقعنا اليوم بشكل مباشر: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥].

هل هذا الذي نراه محبوس ومسجون في عا لم الأسباب المادية؟ معاذ الله، يجب أن نعلم أنها أشكال يحركها الله عز وجل، والمحرك هو الله، والمسير هو الله، فهذا هو أول واجب ينبغي أن نتبينه دائماً.

الواجب الثاني: قد نتساءل فما هو السبب الذي جعل هذه المحنة تقبل وما السبب الذي جعلها اليوم تدبر؟ ينبغي أن نعلم أيها الإخوة انطلاقاً من الواجب الأول الذي ذكرته لكم أن السبب في قدوم هذه المحنة أو في إرسال الله عز وجل لها إلينا معاصٍ ارتكبناها، تجاوزات تجاوزناها، تجاوزنا الخطوط الحمراء التي بين لنا كتاب الله عز وجل أن على المؤمن ألا يتجاوزها، تجاوزناها، ولعلكم تذكرون، ولم يُتَح لكثير ممن كان يعيشون في هذه البلدة أن يُذَكِّروا وأن ينبهوا وهذه مشكلة أخرى، وقوع المنكر مصيبة والسكوت على المنكر مصيبة أخرى، فهذا هو سبب إقدام هذه المحنة، ولعلي أوضحت ذلك في مناسبة مرت، أما سبب زوال هذه المحنة التي ستذهب عما قريب جداً فإنما هو الضراعة التي يتضرعها عبادٌ لله عز وجل فوق هذه الأرض المباركة، التجاءات، دعاء، ابتهال، وقوف كثير من عباد الله عز وجل الذين قد لا نعرفهم ولكنهم أصفياء، ولكنهم أولياء لله عز وجل وفيهم الأبدال، هذا التضرع الدائب، هذا الالتجاء المستمر لاسيما في الهزيع الأخير من الليل هو السبب في زوال هذه المحنة.

لعل فيكم من يقول: ولكننا نلتفت يميناً وشمالاً فلا نرى مظهراً لهذا الالتجاء! أنت لا ترى نعم، رأيت شيئاً وغابت عنك أشياء، صحيح أنت لا ترى ولكنك لو حكمت عقلك لبصرك عقلك بهذه الحقيقة، الأبدال الذين أخبر عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم موجودون نعم، والأصفياء الذين يستجيب الله عز وجل دعاءهم موجودون، والذين وصفهم رسول الله قائلاً: ﴿رب أشعث أغبر ذي

طمرين باليين مدفوعٍ بالأبواب لو أقسم على الله لأبرَّ قسمة﴾ موجودون، ومن شأن رحمة الله عز وجل أنه يرحم الطالح بالصالح، نحن في كثير من الأحيان نركب رؤوسنا في ارتكاب المحرمات ولكن الله عز وجل سيرحمنا نحن الطالحين ببركة هؤلاء الصالحين، فهذا هو الواجب الثاني الذي يجب أن نعلمه. إذا علمنا هذا فلننتقل إلى الواجب الثالث الذي يجب أنبه نفسي وأنبهكم إليه.

رُبَّ قائل يقول غداً: إذا غربت هذه المحنة وغدت حديثاً من أحاديث التاريخ والتفت يميناً وشمالاً وإذا بالأمن والطمأنينة عادا إلى ربوع شامنا هذه لعله يقول: لم يعد ثمة حاجة إلى الالتجاء إلى الله، لقد نفّذ الله ما قد التجأنا إليه من أجله، لم تعد ثمة حاجة إلى الضراعة، بل لربما قال: لم تعد ثمة حاجة إلى الاستقامة أيضاً على أوامر الله عز وجل.

لا لا يا عباد الله، هذه خطيئة قاتلة يضعها الشيطان في طريقنا. الإنسان في كل الأحوال بأشد الحاجة إلى أن يضرع ويلتصق بأعتاب الله عز وجل، إن كان يمر بمحنة، يمر بابتلاء – وما أكثر أصناف الابتلاءات – فحاجته إلى الضراعة واضحة، يلتجئ إلى الله عز وجل ليرفع عنه هذا البلاء، وإذا عافاه الله سبحانه وتعالى عن البلاء أياً كان فحاجته مستمرة يدعو لله عز وجل أن يبقي له نعمة هذه العافية، يدعو الله سبحانه وتعالى أن يبقي له هذه النعمة ولا يستبدلها بنقمة، إذاً فالإنسان في كل الأحوال محتاج إلى الله عز وجل، والحصن الذي يقي أمن هذه البلدة والذي يضمن ألا تعود هذه المحنة – ولسوف تذهب إن شاء الله – هذه الضراعة، وانظروا إلى كتاب الله كيف يذكّر وكيف ينبه: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٩]. جعل الاستغاثة سبباً للاستجابة. ﴿فَلَوْلا إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ﴾ [الأنعام: ٤٣]. أي هلا ﴿إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنعام: ٤٣]. ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ [الفرقان: ٧٧] لاحظوا هذا الكلام العجيب ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ الدعاء نعم. ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

ينبغي أن نعلم هذه الحقيقة أيها الإخوة، الالتجاء إلى الله وظيفة العبد في كل الأحوال، عندما أكون مبتلى أدعوه كي يرفع عني البلاء، وعندما يرفع عني البلاء أدعوه أن يبقي هذه العافية، أن يبقي هذه

النعمة ولا يرسل على أعقابها النقمة، إذاً فالعبد دائماً دائماً مضطر إلى أن يكون ملتصقاً بأعتاب المولى سبحانه وتعالى.

الواجب الأخير الذي أذكر نفسي وأذكركم به، إذا أكرمنا الله عز وجل عما قريب وغابت هذه المحنة وتنفسنا الصعداء بعدها فإياكم أن تنسوا شكر الله عز وجل على ذلك، لعل فيكم من قد يظن أن شكر الله هو أن يحرك لسانه بكلمة الحمد لله، الشكر لله، لا يا أخي، هذا شكر تقليدي لا قيمة له عند الله عز وجل.

شكر الله عز وجل على زوال هذه النقمة ومجيء النعمة بعدها أن ننقذ أوامر الله عز وجل وأن نعاهد الله ألا نعكف على لغو لا يرضاه لنا، ألا نعكف على محرم لا يحبه الله لنا، ألا نشرد عن صراطه إلى نهجٍ لا يحبه لنا، شكر الله أن نعلن اصطلاحنا مع الله على كل المستويات أيها الإخوة، هذا هو الشكر العملي وإنما يكون اللسان غطاءً لهذا الشكر العملي، وهل رأيتم غطاءً بدون وعاء؟ نعم يا عباد الله، لابد من أن نشكر الله عز وجل عندما تغيب هذه المحنة عنا، نشكره على مستوى القيادة، نشكره على مستوى جيشنا الباسل نعم، نشكره على مستوى وظائفنا وعمّالنا ونشكره على مستوى الشعب كله، نعم ينبغي أن نكون جميعاً ألسنة عهد لله وألسنة توثيق منا مع الله سبحانه وتعالى أننا سنشكره بعد زوال هذه المحنة وقبل زوالها أيضاً، نشكره الشكر الذي يرضيه.

هذه واجبات ذكرتها ملخصة، أبدأ بنفسي نعم، أذكر نفسي بها ثم أتوجه بها إلى أحبابي جميعاً، أتوجه بها إلى إخواني، أتوجه بها إلى قيادة هذه الأمة، أتوجه بها إلى جيشنا الذي هو أولى الناس بأن يشم رائحة الاستشهاد هو أولى الناس بأن تقر عينه برؤية الله عز وجل عما قريب، أخاطب به كل فئات هذه الأمة، إذا عاهدنا الله عز وجل على ذلك فإن نعمة الأمن ستحصن، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

٤٧٩- أوامر إلهية يمارس منها النقيض | ٢٠١٢/٠٨/٣١

منذ عشرات السنين يتم التحضير للحملة الصليبية التاسعة، ولعلكم تعلمون أن الغزو الصليبي كان عبارة عن سلسلة حملات متتالية انتهت بالحملة الثامنة، ولعلكم تعلمون أيضاً أن لم يكن لاسم الصليب ولا لمضمونه أي دور في الدفع إلى تلك الحرب أو تلك الحملات وإنما كان الدافع الطمع بالخيرات التي كانت تتمتع بها الأمة العربية والإسلامية آنذاك والطمع بخنق الحضارة الإسلامية التي كانت تغزو بنورها ظلمات المجتمعات الأوروبية آنذاك، ولكن أمريكا تصر أن تكون القيادة في هذه الحملة التاسعة لها، ومنذ عقدين من الزمن أستطيع أن أأكد أن هذا المشروع دخلت مقدماته في طور التنفيذ، ولكن أمريكا أصرت على أن تستأجر من ينوب عنها في هذه الحملة وفي التوجه إلى قتال المسلمين، وعجمت أمريكا سهامها وعيدانها واستعرضت خدمها وأعوانها فلم تجد خيراً من أن تستأجر المسلمين لقتال المسلمين في هذه الحملة الصليبية التاسعة، هذه حقيقة يستطيع أن يتبينها كل من يتتبع الأحداث.

والذي يجري يا عباد الله اليوم إنما هو السعي الحثيث إلى تنفيذ هذه الحملة الصليبية التاسعة بقيادة أمريكا ولكنها تقف في الظل بعد أن استأجرت من وجدت أنهم قادرون على أن ينفذوا ما تراه دون أن تراق قطرة دم لجندي أمريكي، ها أنتم ترون هذه الحرب أو هذه الحملة التاسعة كيف بدأت ولكنها غُطِّيَتْ بعنوان آخر، الشرق الأوسط الكبير – وكلمة كبير هنا من الأضداد اللغوية كما قالت العرب – فالمراد بالكبير هنا نقيض الكلمة أي الشرق الأوسط المتفتت، وسموا هذه الحملة التاسعة مرة أخرى بالربيع العربي، والكلمة من خداع العناوين، ومعنى الربيع العربي الإعصار العربي المدمر، وها أنتم ترون يا عباد الله كيف غطيت أو تغطى اليوم هذه الحملة التاسعة أو هذه الحرب الصليبية التاسعة بكل أغلفة الإسلام، بكل عناوينه، بكل مبادئه من أجل أن يتسنى أن يقال إنها الجهاد الإسلامي المقدس.

ولكن كيف السبيل وكيف استطاعت أمريكا أن تتخذ من المسلمين جنداً لها تستأجرهم في هذه الحرب؟ كيف يمكن للجسد الواحد أن ينقسم إلى شطرين فيكون الواحد منهما حرباً على الآخر؟ أم

كيف يمكن للأعضاء المتآلفة المتعاونة أن تنقسم هي الأخرى إلى شطرين فتتعادى وتتخاصم وتتهارج؟ شعرت أمريكا بهذه المشكلة فاستعانت بمجلس الأمن القومي الأمريكي، كان ذلك عام واحد وتسعين وتسعمائة وألف وتحدث أعضاء هذا المجلس وبحثوا عن الحل وانتهوا إلى الحل وأودعوا حلهم هذا تقريراً صدر آنذاك، بقي هذا التقرير خفياً في الأدراج لعدة سنوات، ثم إن الله عز وجل شاء أن تلتقطه الصحافة الأمريكية، ثم أن تلتقطه الصحافة الأوروبية، ثم أن يتسرب إلى الصحافة العربية، فماذا يقول هذا التقرير في حل هذه المشكلة؟

يقول بعد المقدمة: هنالك عدة بنود ينبغي العمل عليها من أجل تقسيم المسلمين إلى فئتين، فئة تستأجرها أمريكا لتحارب المسلمين الآخرين.

البند الأول: ضرورة إثارة التناقضات في الفكر والمعتقدات الإسلامية.

البند الثاني يقول: ضرورة تأليب المسلمين بعضهم على بعض بناءً على هذه التناقضات التي يجب استثارتها أو اختلاقها.

البند الثالث: ضرورة الإيقاع بين المسلمين وغير المسلمين. إلى آخر البنود الثمانية فيما أحسب.

نعم هكذا حُلَّتْ المعضلة، إثارة التناقضات في المعتقدات الإسلامية ومن ثم جعل المسلمين يتألّب بعضهم على بعض انتصاراً لهذه التناقضات التي يجب العثور عليها. ها أنتم ترون مصداق هذا الذي يجري اليوم، إنها في الحقيقة حملة صليبية تاسعة، ولقد قلت لكم: لا الصليب ولا مضمون الصليب لم يكن له دور في هذه الحرب لا بالأمس ولا اليوم، وها أنتم ترون كيف تغطى هذه الحرب بكل الأغلفة الإسلامية، بكل العناوين الإسلامية، بكل المبادئ الإسلامية، في حين أنها في الحقيقة تمزق الإسلامَ – معتقداته، شرائعه – شر ممزق ولكن تحت غطاء الجهاد الإسلامي، والجهاد الإسلامي إذا ارتفعت رايته لابد أن يكون أمام المجاهدين من ينبغي أن يُقَتَّلُوا، وفيم يُقَتَّلون؟ لابد من اتهام الكفر، إذاً فلكي تكون هذه الحرب جهاداً إسلامياً مقدساً ينبغي أن يوجد من يُكَفَّر من أجل أن تدور رحى هذا الجهاد المقدس على هؤلاء الناس، والواقع أنه تمزيق عجيب لا عهد للتاريخ به للشريعة الإسلامية ومشرعها، يقول بيان

الله سبحانه وتعالى: ﴿مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً﴾ [المائدة: ٣٢]. ويقول المستأجَرون لهذه الحرب: بل سنتقل ونسفك دماء ونذبح وباسم الله نذبح.

ويقول البيان الإلهي: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً﴾ [النساء: ٩٣]. ويقول قائلهم: لابأس، سنذبح البرآء متعمدين وباسم الإله الذي منع نذبح.

ويقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]. ويتحدث عن أناس، يتحدث عن نموذجهم قائلاً: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيِهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]. ويقول قائلهم: أما نحن فنحب الفساد، ها نحن نجتث الأجشار والخضرة من الحدائق والبساتين ونعيد الأرض الخضراء الممرعة إلى أرض قاحلة يباب، وها نحن نفجر أنابيب المياه وأنابيب الغاز وأنابيب البترول وننسف السكك ونهدم البيوت ونحرقها، لئن كان الله لا يحب الفساد أما نحن فنحبه. هذا هو لسان الحال إن لم يكن هو اللسان الذي يُهْمَسُ به في الخلوات، أجل.

ويقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [النساء: ٩٤] تبتغون الدولاء تملؤون به جيوبكم ﴿لاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِناً﴾ ويقول قائلهم: بل سنكفر ونقول له لست مؤمناً، وها نحن نُكَفِّر رشاً لا دراكاً، ها نحن نُكَفِّر.

عباد الله: قرأت في التاريخ، قرأت كثيراً فلم أجد فيمن ناصبوا العداء لدين الله من سخروا منه سخرية أوقح وأغرب من هذه السخرية التي تجري اليوم لدين الله سبحانه وتعالى، لشريعته بل بالمشرع، هذا ما يتم، وكل هذا يتم بالنيابة عن البيت الأبيض إن جاز التعبير، يتم بالنيابة عنه، هنالك عقد استئجار، أما نحن فماذا نقول يا عباد الله: إن كانت هنالك نسبة ما لهؤلاء الذين استؤجِروا لإيقاد الحملة التاسعة من الحملات الصليبية، إن كانت هنالك علاقة ما تتمثل في خيط واهٍ دقيق بينابيع الإسلام المتمثلة في القرآن، في سيرة رسول الله، في سيرة أصحاب رسول الله فها أنا أقول لكم ولهم: هل كَفَّرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد الناس سوءاً إليه؟ لو كان مكفِّراً لأحد لكان أولى من ينبغي أن يكفِّره ذاك الذي قال

عنه وعن أصحابه: ما أرانا وجلابيب قريش إلا كما قال المثل سَمِّنْ كلبك يأكل، فهل كفَّره؟ لم يكفِّره، صلى عليه عندما مات.

في عصر الصحابة تكاثرت الفرق الإسلامية الشاردة عن منهج أهل السنة والجماعة، الجهمية، المرجئة، الحشوية، القدرية، الخوارج، إلى آخر ما هنالك، هل سمع أحد منهم أو أحد منكم أن في أصحاب رسول الله من كَفَّر فرقة من هذه الفرق؟ معاذ الله، إن كان هنالك من سمع فليأت بشاهده وليحدثنا عمن كَفَّرَ ومن كُفِّرَ. علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم الله وجهه، ذاك الذي مُنِيَ من الإيذاء ما مُنِيَ به عن طريق الخوارج، سأله بعض أصحابه عن هؤلاء الخوارج من هم فقال لهم: هم إخواننا بغوا علينا، لو جاز لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه أن يُكَفِّر أحداً لكَفَّر أولئك الذين قتلوه.

أحمد بن حنبل ذاك الإمام المبجل الذي يزعم كثير ممن استأجرتهم أمريكا أنهم أتباع له هل كفَّرَ أولئك الذين كانوا سبباً في المحنة التي دارت رحاها عليه؟ كم وكم أوذي. الإمام أحمد رضي الله تعالى عنه ورحمه الله عندما ارتفعت عنه المحنة وعاد إلى سدة المجد واعتذر له من اعتذر له وكان ذلك في عهد المتوكل قال له بعض أصحابه: ألا تدعو الله على ابن أبي دؤات – وهو رأس من رؤوس الاعتزال – قال: ماذا ينفعك أن يعذب أخوك في النار من أجلك؟ ورفع يديه يسأل الله سبحانه وتعالى الصفح والمغفرة والعفو لأولئك الناس.

إسلامنا الذي ورثناه من قرآننا ومن نبينا وحبيبنا محمد ومن أصحابه البررة الكرام ومن أتباعهم هذا هو. أما إن كانت هنالك أمور مناقضة مختلفة فإنما طُبِخَتْ في مجلس الأمن القومي عام واحد وتسعين، نعم طُبِخَ ذلك كله في تلك البنود، البند القائل: يجب إثارة تناقضات – التناقضات الفكرية والعقائدية – داخل العقيدة الإسلامية، البند الثاني: يجب تأليب المسلمين بعضهم على بعض عن طريق هذا التناقض، البند الثالث: يجب توغير صدور المسلمين على الآخرين على غير المسلمين، بينما يقول ربنا: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

عباد الله: الناس مشرقون أو مغربون يستطيعون أن يتلاعبوا لأناس من الناس بالإسلام، أما نحن في هذه البلدة المقدسة التي أقامنا الله عز وجل فيها فإسلامنا محصن بالوعي، إسلامنا محصن بالإخلاص لدين الله، إسلامنا محصن بما بيننا وبين هذه الأرض المقدسة ومولانا وخالقنا الذي اجتبانا للإقامة فوق هذه الأرض المقدسة، لا يمكن، عندما يُخدع الناس عن حقيقة الإسلام فتنزلق منهم الأقدام ذات اليمين وذات الشمال نحن نظل محصنين في كتاب الله، نظل محصنين في سنة رسول الله، نظل محصنين فيما كان عليه السلف الصالح، نحن السلفيون الذين لا نخرج عن نصوص كتاب الله، لا نخرج عن هدي رسول الله، لا نخرج عن هدي أصحاب رسول الله، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.



٤٨٠- إلى من يوظفون محنة الفقراء ليجعلوها منحة لهم | ٢٠١٢/٠٣/٠٩

تعالوا نتأمل في هذه الآيات من كتاب الله سبحانه وتعالى، يقول الله عز وجل: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ، وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٦-٧٧].

تلك هي وصايا خوطب بها قارون من قبل الله سبحانه وتعالى، وهو ذاك الذي تحدث البيان الإلهي عن الكنوز المالية الكثيرة التي متعه الله عز وجل بها والتي بلغت مبلغاً تَنُوءُ الْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ بحمل مفاتيحها، مفاتيح تلك الكنوز، ولكنه لم يلتفت إلى هذه النصائح ولم يرعو عن استكباره فأخذه الله أخذ عزيز مقتدر، وصدق الله القائل: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾ [القصص: ٨١].

ثم إن هذه الآيات البينات خُلِّدَتْ في كتاب الله عز وجل خطاباً للناس جميعاً لاسيما لأولئك الذين أعمتهم النعمة عن المنعم ولأولئك الذين أسكرهم المال الكثير أو القليل عن الوقوف أمام حقيقة مملوكيتهم وعبوديتهم لله سبحانه وتعالى، يقول لهم، لكل واحد واحد منهم: ﴿وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾. والإحسان إلى الله عز وجل إنما يقصد به الإحسان إلى عباده كما تعلمون، والله هو الغني، يقول الله عز وجل لكل واحد من هؤلاء الذين كان لهم حظ من النعمة التي أوتيها قارون ﴿أَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾، لا تنس أن هذه النعمة لم تخلقها أنت بقدرتك ولكنها تنزلت عليك بفضل من الله سبحانه وتعالى لك، ﴿أَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾. هذا الخطاب ورثه بعد قارون كل من أعمته النعمة —كما قلت لكم— عن المنعم وأسكره المال عن يقين عبوديته ومملوكيته لله.

عباد الله: كما أن في الناس من تسكره الجرعة الواحدة من الشراب المسكر فإن في الناس من يطغيهم المال القليل حتى عندما يجدون كيف يتزايد في جيوبهم أو في صناديقهم، هذه حقيقة نراها ونلمسها.

ولقد قلت بالأمس في موقف كهذا الموقف: إن هنالك أقواتاً أنبتتها أراضينا بفضل من الله سبحانه وتعالى وإنعامه أو حاكتها أو أبدعتها أيدي أناس من أمتنا في هذه البلدة، لم تستقدم من الخارج ولم تُسْتَجَرْ من بلدٍ عدو ومع ذلك – وقد رأينا من يحمل هذه الأقوات وهذه السلع الإتاوات والضرائب والجمارك نفسها التي حملتها تلك البضائع التي تفد إلينا من الخارج.

قلت هذا وحذرت وأعدت وأكدت وقلت: إن المصطفى صلى الله عليه وسلم أكد أن الذي ﴿لا يَرحم لا يُرحم﴾ وأن التراحم إنما هو سدى ولحمة سعادة الأمة، هكذا قضى الله وهكذا يشهد التاريخ.

وتأملت أن أجد استجابة ولو جزئية لهذا التحذير لهذا البيان ولكني أنظر وإذا بهذه المصيبة لا تزال مستمرة ولكن أضيف إليها شيء آخر. أنظر وإذا بكثير – ولا أقول بكل – بكثير من التجار يلملمون الأقوات من الأسواق كلها ويبتاعونها من تجار الجملة حيثما وجدوا من أجل أن يدخروها، من أجل أن يتربصوا بها الغلاء، ما من سلعة يتأملونها فيجدون أنها تصَّاعد فلي سُلَّمِ الغلاء تدريجاً إلا ويحاولون أن يلملموها كما قلت لكم ويجمعوها من أيدي تجار الجملة، لا لكي ينثروها وينشروها بين أيدي المحتاجين وإنما لكي يحتكروها ويتربصوا بها الغلاء.

ولقد حُدِّثْتُ من قبل بعض التجار الذين يخافون الله والذين يلتزمون بشرع الله – وهم قلة – يسأل ماذا أصنع؟ كيف أصنع وأنا أعلم أن بضاعتي تُشْتَرَى لتُحْتَكَرْ لا لكي تنثر، بدلاً من أن نجد استجابة لهذا التحذير الذي ذكرت وجدت نقيضه، ولكي تطوف المحنة بالفقراء الذين ابتلانا الله بهم وابتلاهم بنا وبصغار الكسبة، ولكي تكون المحنة خانقة لهم من سائر الأطراف ننظر فنجد أن القطع أو النقد الأجنبي يُخْتَفَى بإحدى طريقتين؛ إما بالتهريب إلى أولئك الذين ينفخون في نيران الحرب والعداوة والبغضاء ضدنا ليتمتعوا بها أرصدة في بلادهم أو بوسيلة أخرى هي أن يختفى هذا القطع، يختفى في الأدراج، يختفى في أي جهة من الجهات، وأنظر وإذا بهذا النقد قد فُقِدَ تقريباً ومن ثم يرتفع سعره ثم يرتفع لا بشكل طبيعي بسائق العرض والطلب ولكن بسائق هذا التخطيط الإجرامي.

نعم هذا ما يتم اليوم. ما النتيجة التي لابد أن نحصدها من هذا الواقع؟ تنهار القوة الشرائية، وننظر إلى الفقراء وإذا بهم يختنقون بحبال هذه المحنة، هي محنة بالنسبة لهم ولكنها منحة بالنسبة لهؤلاء الآخرين الذين يوظفون المحن وأيام الشدة لاستجرار المزيد من المال إلى جيوبهم أو صناديقهم.

والعجب المضحك المبكي أن كثيراً من هؤلاء يذرعون الطريق إلى مكة والمدينة ذاهبين آيبين لا أقول في كل عام مرة بل في كل عام مرات وربما كرات، في هؤلاء من يصلون ومن يصومون ولكنهم لعلهم لا يعلمون أن الدين إنما هو المعاملة ولعلهم لا يعلمون أن حقوق الله مبنية على المسامحة أما حقوق العباد فمبنية على المشاحة.

أعود فأقول لهؤلاء الإخوة – وأرجو أن يبلغهم كلامي – أيها الإخوة لكم أن تجمعوا من المال ما تمتلكون به الدار الواسعة الرائعة وقد امتلكتموها، لكم الحق أن تجمعوا من المال ما تحققون به الفرش والأثاث الفخمين الرائعين ولقد تحققتم بذلك، لكم الحق أن تمتلكوا المركب بل المراكب الفارهة الكثيرة ولقد حققتم ذلك، لكم الحق أن تضمنوا لأولادكم المستقبل الفاره ولقد حققتم، ما الحاجة بعد هذا إلى المزيد، ما الحاجة بعد هذا إلى أن تُحْبَسَ أعينكم في الأرقام كيف تتزايد؟ عجبي لأناس يكادون أن يعبدوا الأرقام لا لشيء إلا لأنه يسعد بأن المال ارتفع من مليون إلى مليونين فـ فـ فـ وهكذا.

أيها الإخوة: المال إنما يكرمنا الله عز وجل به لحوائجنا، ومرحباً بالمال عندما تقضى به الحوائج، ولكن عندما نستزيد من المال من وراء ما نحتاج إليه فذلك ينطبق عليه قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى، أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى﴾ [العلق: ٦–٧]. وإن عاقبة الطغيان وخيمة يا عباد الله، عاقبة الطغيان وخيمة في الدنيا وفي الآخرة.

أقول هذا وأنا أعلم أن في هؤلاء الناس من يضيقون ذرعاً بكلامي كما ضاقوا ذرعاً من قبل في يوم من الأيام، ولعل الواحد منهم يتمنى أن لو أطربته بدلاً من هذا الكلام بالحديث عن أخطاء الدولة بنقد المسؤولين، بالحديث عن انحرافاتهم، لعلهم يتمنون أن لو أطربتهم بهذا بدلاً من الحديث عن نقائصهم والحديث عن هذا الذي أذكركم به، وإن القلب ليُعْتَصَر ألماً من هذا أيها الإخوة.

ولعلي لو فعلت ذلك لعددت في نظرهم من الأبطال ولعددت في نظرهم ممن حقق الجهاد الأعظم الذي يتمثل في كلمة حق عند سلطان جائر، لكني أقول أيها الإخوة إن كلاً من المنطق والشرع يقول لنا: لكل مقامٍ مقال. عندما أجد نفسي واقفاً أمام إخوة كهؤلاء الإخوة الذين أراهم، فيهم العامل، فيهم الفلاح، فيهم صغار الكسبة، فيهم التجار، فيهم أصحاب رؤوس الأموال، إذاً ينبغي ان يكون حديثي لهم، إذاً ينبغي أن أذكرهم بنقائصهم، إذاً ينبغي أن أذكرهم بالأخطاء التي يقعون فيها، فإذا تحققت لي فرصة بعد ذلك ووجدتني في مجلس أمامي فيه بعض المسؤولين، بعض الممثلين للدولة أياً كانوا وأياً كانت مستوياتهم إذاً يجب علي في هذه الحال أن أتوجه بالنصح إليهم، يجب علي في هذه الحال أن آمرهم بالمعروف وأن أنهاهم عن المنكر، يجب علي في هذه الحال أن أذكرهم بالانحراف إن كان هنالك انحراف وبالتوبة التي ينبغي أن يعودوا بها إلى الله عز وجل، فإذا خرجت لا يجوز لي أن أتكلم بما قد وفقني الله عز وجل له أمام الناس، لا يجوز لي أن أجلس هنا وهنا وهناك لأحدثهم عما قد فعلت وعن الجهاد الذي قد وفقت إليه لا، يجب أن أسكت، يجب أن أدخر هذا الذي وفقني الله عز وجل إليه ليوم الحسرة، ليوم الفزع، يوم يقوم الناس لرب العالمين، أقدم هذا بين يدي آثامي والمعاصي التي حملتها لعل الله يشفع لي بهذا الموقف، هذا ما أقوله لهؤلاء الإخوة، إذاً لكل مقام مقال أيها الإخوة.

وأنا أقول أخيراً: إن هذه المحنة ما وفدت إلينا إلا وفي داخلها نعمة، كل ما يأتي من عند الله عز وجل خير لكنه إما أن يكون خيراً ظاهراً وإما أن يكون خيراً مقنعاً، وإن من مظاهر الخير الكامل في هذه المحنة التي هبت لتدبر أن الله عز وجل أيقظ كثيراً من الناس إلى الحق بعد الضياع، أن الله عز وجل ألهم كثيراً من التائهين إلى التوبة بعد شرود، أن الله عز وجل قد أصلح كثيراً من أمورنا بعد انحراف، أجل. ولكن أرأيتم إن بقي هذا الظلم، أرأيتم إن كانت أمتنا قد انقسمت إلى قسمين، قسمٍ يمثله الأغنياء المترفون دأبهم أن يستجروا المال من جيوب الفقراء الذين يجمعون قروشهم وليراتهم بعرق جبينهم، يجمعون هذه الأموال ليدخروا المزين ثم المزيد ثم المزيد، ليس لهم بطن يشبع وليست لهم آمال تتحقق من وراء الآمال المشروعة، أرأيتم إن بقي هذا الأمر هكذا فإن هذه المحنة قد تذهب ولكن لتقبل إلينا محنة أخرى. أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

٤٨١- إسلامنا كما أمر القرآن لا كما تهوى أمريكا | ٢٠١٢/١١/٠٩

حدثتكم في الأسبوع الماضي عن مشكلة تتمثل في هذا الإسلام الأمريكي الذي يُراد فرضه على منطقتنا الإسلامية هذه، ذلك الإسلام الذي لا يستبين فيه حكم من أحكام الله المنزلة في كتابه ولا شيء من هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي صح عنه، ذلك الإسلام الأمريكي الذي لا تستبين فيه معنى من معاني الإنسانية ولا يتجلى فيه أثر من آثار الرحمة ولا تجد فيه معنى من معاني القيم الفطرية التي فطر الله عز وجل الإنسان عليها، وأرجأت الحديث عن الحل إلى هذا اللقاء، ووفاءً بما قد وعدتكم به أختصر الحل بالقدر الذي يسمح به هذا الوقت.

حل هذه المشكلة المنوط بنا نحن يتمثل في ثلاثة أركان لهذه المعالجة أو لهذا الحل، أولها – وهو الركن التأسيسي للعلاج – يتمثل في أن نتجه جميعاً إلى الله عز وجل بالاستغفار أولاً والتوبة ثانياً والتضرع إلى الله عز وجل وإعلان أننا مجددون لبيعتنا مع الله واصطلاحنا مع حكمه وشرعه، ولعلكم تقرؤون كتاب الله وتجدون الدليل على ما أقول مكرراً في محكم تبيانه، أليس يوجه ربنا بخطابه إلى الناس جميعاً على اختلاف فئاتهم وعلى اختلاف عصورهم أليس يوجه إليهم خطابه قائلاً: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ [هود: ٣].

ضمانة عودة المتعة الإنسانية والسلم والأمن تتمثل في هذا الذي أناط الله عز وجل به هذه المتعة الاستغفار؟! الاستغفار أي أن نستنزل مغفرة الله عز وجل علينا مقابل ما ارتكبنا من أوزار، مقابل أنواع الجنوح التي تورطنا فيها على اختلاف فئاتنا وعلى اختلاف درجات هذه الفئات، ثم يلي الاستغفار التوبة أي الإعلان بين يدي الله أننا لن نعود وأننا ها قد جددنا البيعة سنسير على صراطه ولن نحيد عن نهجه ولسوف نظل نتمسك بشرعته ما وسعنا ذلك، هذا هو معنى التوبة، والله عز وجل يعدنا إن نحن فعلنا ذلك أن تعود إلينا متعة السلام وأن يؤتي الله عز وجل كل ذي فضل فضله.

لماذا أقول إن هذا الركن هو الركن التأسيسي في العلاج يا عباد الله؟ لأن هذه المصيبة التي وفدت إلينا من شتى الجهات إنما وفدت إلينا بسبب سوء ارتكبناه بل بسبب أنواع من السوء عكفنا عليها، ألا تقرؤون في كتاب الله عز وجل قوله: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]. أو ما تقرؤون قوله: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥]. ولعلي حدثتكم عن بعض الانحرافات التي تورطنا فيها قبل أن تطرق هذه المصيبة أبوابنا وقبل أن تتسرب وتتسلل إلينا؟ إذن هذا هو الركن الأول.

الركن الثاني يا عباد الله هو أن ننفذ أوامر الله المتكررة والمتكررة في محكم تبيانه ألا نتفرق، ألا نتنازع وأنتم تقرؤون أيضاً كتاب الله عز وجل، والآية المشهورة والمعروف التي كم وكم رأيناها مثبتة على الجدران: ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: ١٠٣]. قرأتم قوله: ﴿وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦].

أقول هنا: إن الناس الذين يشدون أنفسهم إلى هذه الأرض المباركة باسم المواطنة عليهم أن يتناسوا الفوارق بين الأديان، عليهم أن يتناسوا فارق ما بين الإسلام والمسيحية وأن يحيلوا خصام ما يمكن أن يثور بين المنتصرين لهذا والمنتصرين لذاك إلى محكمة الله عز وجل يوم القيامة وأن يستبدلوا بالخصام والشقاق الحوار والتناصح، الحوار الندي الذي يتجه من هذا الطرف إلى هذا على نهج سواء، أما الذين يشدون أنفسهم إلى هذه الأرض المباركة بالانتماء الإسلامي فإن عليهم أن يتناسوا فارق ما بين من ينعتون أنفسهم بالسنة ومن ينعتون أنفسهم بالشيعة، عليهم أن يتناسوا فارق ما بين ينعتون أنفسهم بالسلفية والذين ينعتون أنفسهم بالتصوف، عليهم أن يتناسوا فارق ما بين الفرق الإسلامية المختلفة المتنوعة، والأمر في هذا كالأمر بالنسبة لمن يشد نفسه إلى هذه الأرض باسم المواطنة، نحيل الخصام بين فئات المسلمين ومذاهبهم إلى محكمة الديان، نحيل الخصام بين الفرق الإسلامية والحكم لها أو عليها إلى محكمة الديان، ونستبدل بالخصام الحوار، التناصح، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يأتي من قبلي إليك ويأتي من قبلك إليّ، ألا ترون إلى الآيتين المتجاورتين، الأولى قوله عز وجل: ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ﴾ [آل

عمران: ١٠٣] والثانية: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]. أي إياكم أن تلجؤوا إلى خصام بين أطراف مختلفة، سُدُّوا ثغرات الخصام واستبدلوا بالخصام الدعوة إلى الخير، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. نعم هذا هو الركن الثاني الذي ينبغي أن نتذكره وأن نتبينه جيداً.

ولكي نزداد يقيناً بأهمية هذا الركن يا عباد الله ينبغي أن نعلم جميعاً أن العدو الذي حدثتكم عنه في الأسبوع الماضي، أن عدو الدين من خلال عداوته لهذه الأمة لا يصطفي مذهباً ضد مذهب، لا يصطفي ديناً ضد دين بل إنه يسعى إلى اقتلاع شجرة الدين من حيث هي، هذا ما يسعى إليه، وهذا ما تنطق به تقاريرهم فلا يتصورن أحد من الناس أن الغرب يريد أن ينتصر لنصرانية ضد إسلام أو لإسلام ضد نصرانية أو لفئة من المسلمين ضد فئة أخرى، لا يا عباد الله، إنه يسعى إلى أن يضرب هؤلاء بأولئك وألئك بهؤلاء لكي يتحطم الجميع ويصبحوا جذاذاً وأثراً بعد عين.

ينبغي أن نعلم هذه الحقيقة، إذاً ينبغي أن يكون قرارنا الفعلي والعملي الذي يرضي الله قبل أن يرضي أنفسنا أو ينجينا من خصومنا وأعدائنا هو أن نتلاقى جميعاً في خندق واحد لكي نقف في وجه هذه المؤامرة القذرة التي يراد منها كما قلت لكم اختلاق إسلام أمريكي لا شأن له بكتاب الله ولا بسنة رسول الله، والغريب أن المطلوب أن يتجلى هذا الإسلام الأمريكي الذي يثير الاشمئزاز على المسرح السوري قبل كل شيء.

أما الركن الثالث فيتمثل يا عباد الله في أن نعاهد الله عز وجل أن ننفذ الإسلام المنبثق من كتاب الله ومن سنة رسول الله والحاكمة على أمزجتنا وعلى سياساتنا وعلى سياسة الدول والفئات والجماعات الأخرى كلها أيّاً كانت، أي علينا أن نعلن بين يدي الله قرارنا الذي يجب أن نتخذه هو أن يكون الإسلام الذي نتمسك به حاكماً على السياسات المختلفة لا أن نتبع الآخرين من حولنا إذ أصروا إصرارهم على أن يجعلوا من الإسلام تابعاً للسياسات، يتلون الإسلام حسب تلون السياسة، وها هو الإسلام الأمريكي انظروا إليه إنه ملون بلون الراية الأمريكية، ملون بلون السياسة الأمريكية، لا، يريد الله عز وجل منا أن

يكون الإسلام حاكماً لا محكوماً، يريد الله عز وجل منا أن يكون الإسلام متبوعاً لا تابعاً، هذه هي الأركان الثلاثة التي لابد منها لتحقيق الحل للمشكلة أو المعضلة التي حدثتكم عنها يا عباد الله، ولكن بقيت بقية تتعلق بالمشكلة التي حدثتكم عنها وبالحل الذي أحدثكم عنه فلنرجئ ذلك إلى ميقات قريب، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

عباد الله: منذ عقدين من الزمن أو يزيد ظهرت في أمريكا جماعة تدعى بالمسيحية المتهودة أو المسيحية المتصهينة، والغريب أن هذه الجماعة سرعان ما تكاثرت ثم تكاثرت ثم ترسخت لها جذور وننظر وإذا هي اليوم تدير قيادة الأمور وتمسك بزمام القيادة في أمريكا من وراء ستار، فما هي هذه الجماعة التي سمت نفسها بالمسيحية المتهودة؟ هي التي تعلن بأنها تمثل طلائع المسيح الدجال الذي حدثنا عنه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ووصفه لنا وحذَّرَنَا من فتنته ونصحنا آمراً بأن نستعيذ من فتنته من خلال أحاديث صحيحة كثيرة بلغت مبلغ التواتر المعنوي، فهؤلاء يعدون أنفسهم من طلائع المسيح الدجال، وهم يعتقدون اعتقاداً جازماً بأن مسيحهم هذا لن يظهر إلا على أعقاب مقتلة كبرى وحروب عظيمة خطيرة ترتعد لها القلوب ولن يُقْدِم إلا سابحاً في خضم من الدماء ولن يقيم عرشه إلى على جماجم من الناس البرآء، هكذا يعتقدون، ومن ثم فإنهم يستعجلون ظهوره بنفخ نيران الحروب وبنفخ نيران القتال الكيفي الذي لا يقف عند قوانين، أصول إنسانية، القتل للقتل، يستعجلون أسباب ظهور مسيحهم هذا، نعم يا عباد الله، وفي الناس من رأى ببعض ساحات أمريكا الكبرى في بعض بلدانها الشهيرة لوحة إعلانية ضخمة ثابتة لا تتبدل كتب عليها: عندما يحكم الملك ذو العين الواحدة العا لم، والملك ذو العين الواحدة هو الدجال كما وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم. إن هذه الظاهرة التي ترون والتي يتعجب لها أول الأبصار والبصائر مقتلة تستحر بالناس جميعاً على اختلافهم صغاراً، كباراً، مظلومين، أياً كانوا، القتل للقتل، والهدف من ذلك أن يتكاثر سيل الدماء وأن تتكاثر الجماجم التي يمكن أن يتخذ منها دجالهم أو مسيحهم عرشاً لنفسه.

وليس سراً ما تعلمون من أن سوداء أمريكا تلك التي أطلقت ذلك الشعار القائل الفوضى الخلاقة هي واحدة من أعضاء هذه الجماعة، هي ترجمة لهذا الذي أقول لكم، الفوضى الخلاقة، الفوضى تعبير عن القتل المستحر، القتل للقتل، الخلاقة أي التي تستعجل مقدم مسيحهم الدجال، إنهم هكذا يتصورون، يجب أن يُعَبَّدَ له الطريق ولكي يعبد الطريق ينبغي اكتساح حياة البرآء من على وجه هذا الطريق أياً كانوا، هذه الحقيقة أيها الإخوة جزء مما قد ذكرته لكم في الأسبوع الماضي، والشيء العجيب – ولعله ليس عجيباً عند الدقيق – أن الإدارة الأمريكية اليوم إنما تدار بيد هذه الجماعة لكن من وراء ستار، فهل لنا أن ندرك الحقائق، هل لنا أن نعلم ما الذي يجري من حولنا؟! أما المنفذون لهذه الخطة التي تستعجل بها هذه الجماعة مقدم مسيحهم هذا فهم إخواننا وأبناء عمومتنا وجيران لنا.

يا عجباً عجباً لا ينتهي، مستأجَرون لتنفيذ هذه الخطة، لتنفيذ هذا الاستعجال، لتعبيد الطريق أمام مسيحهم الدجال، مستأجَرون لتنفيذ هذا الأمر، إذا من الذي ينبغي أن يأخذ الأجر؟ الأجير! لكن يا عجباً، الأجير يقوم بالعمل ويكدح ويعرق ثم إنه يدفع الأجر أيضاً للمستأجِر، هذا ما يتم اليوم، وينبغي أن تعلموا هذه الحقائق وينبغي أن تدخروها في أذهانكم لعل يوماً قريباً يأتي نجني فيه العبرة، نجني فيه الدرس، بقي أن أقول لماذا تدور هذه الخطط كلها حول هذه الأرض المباركة ذاتها، ما لهم لا يتحولون يميناً ويساراً؟ ذلك لأن الأمر كما قد قلت لكم، سوريا مطموع بها لأنها قلب الشام، ونظراً إلى ذلك فهم يتصورون أن الفساد إلى استشرى في قلب الشام فلسوف ينتشر في البقاع الأخرى أيضاً ولكننا أعتقد جميعاً سنجني من هذه المصيبة بل من هذه المحنة التي هي منحة في باطنها العبرة، لسوف نجدد العهد مع الله على المستوى الرسمي والشعبي، ولسوف نقود دولة الإسلام كما أمر الله لا كما أوصت به أمريكا.

أقول قولي هذا واستغفر الله العظيم لي ولكم.

٤٨٢- نحن مع عدالة الله لا مع ديمقراطية النفاق | ٢٠١٢/١٠/١٩

إن الإسلام الذي شرَّفَ اللهُ عز وجل به الأسرةَ الإنسانية منذ فجر وجودها يقوم على أساسين اثنين لا ثالث لهما، أولهما معرفة الحق، ثانيهما ممارسة العدل. أما معرفة الحق فإنما يراد منها أن يعلم الإنسان مكون هذه المكونات التي يعيش في رحابها ومبدأها ومنتهاها وأن يعلم هوية نفسه عبداً مملوكاً لله عز وجل، منه الابتداء وإليه الانتهاء، وأما ممارسة العدل فخلاصة ما تعنيه هذه الكلمة أو هذا الأساس الثاني أن يتلاقى أفراد المجتمع الإنساني على التنسيق فيما بينهم بين الحقوق والواجبات، فلا يضحَّى بواجب في سبيل التمتع بحق ولا يضحَّى بحق في سبيل التمسك بواجب، بل يجب إعطاء كلٍّ من هذا الجانبين حقه كاملاً غير منقوص، تلك هي العدالة في كل ما يتصوره ويتلمس بحثه عنها العقلاء جميعاً أياً كانت نحلتهم وأياً كان مذهبهم.

غير أن العدالة التي رسمتها الشريعة الإسلامية إنما شاءها الله عز وجل ثوباً سابغاً فُصِّلَ على قدر الإنسانية في أوسع معانيها، فلا يضيق من هذه العدالة اختلاف في دين، لا يضيق منها اختلاف في عرق، اختلاف في لغة، اختلاف في مذهب، لا يضيق من حدود هذه العدالة الإنساني المطلقة المصالح الجانبية التي قد تدفع أصحابها إلى التضحية في وقت ما بجانب من جوانب العدالة، بمعنى من معانيها.

وتأملوا في هذا الذي أقول لكم، تأملوا في مصداق هذا الذي أقوله لكم من خلال ما يقوله الله عز وجل. يقول: ﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٨]. أي لا يحملنكم بغضكم لأقوام على أن تنسوا العدالة فلا تعدلوا ما بينكم وبينهم.

ويقول: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللّهِ أَوْفُواْ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

ويقول: ﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ﴾ [النساء: ٥٨].

ويقول: ﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ﴾ [النحل: ٩٠].

تلك هي عدالة الإسلام التي شرف الله بها عباده المسلمين فيما مضى، وتلك هي عدالة الإسلام التي شرفنا الله عز وجل بها في هذا العصر. هكذا كنا وهكذا نحن ولا نزال، فكيف كان الغرب وإلام آل حاله اليوم؟ تعالوا نقارن يا عباد الله مقارنة سريعة.

فيما مضى استعمر الغرب بلاد الشام وبلاد مصر وبلاداً كثيرة أخرى، كانت الشام مستعمرة رومانية وكان الحكم الروماني يظل يوقع بين النصارى وبين اليهود وينفخ في نيرات البغضاء والعداوة بينهم من أجل أن يستغل الحكم الروماني الفرصة لمزيد من الاستقرار فوق هذه الأرض، لمزيد من البقاء فوقها.

وفي مصر تظاهر الحكم الروماني بالدخول في المسيحية، اختارت الإمبراطورية الرومانية مذهباً من مذاهبها وراحت تلزم بقية المذاهب بالانخراط في مذهبها بحسب الظاهر بدافع من القناعة الدينية والواقع أنها من أجل فوائد سياسية، وكم وكم قُهِرَ المسيحيون وأوذوا وقُتِّلُوا من خلال هذه السياسة، في يوم واحد يا عباد الله في مذبحة بيزنطية واحدة قُتِلَ ما لا يقل عم مائتي ألف من اليعاقبة المسيحيين، ذلك هو مثال للعدالة – أو قل الديمقراطية – التي كان يمارسها الغرب آنذاك، فكيف كان الإسلام يمارس العدالة آنذاك؟

فُتِحَتْ بلاد الشام كما تعلمون وأصر المسيحيون لا سيما رجال الدين فيهم على أن يأتي أمير المؤمنين عمر فيتشرفوا بلقائه ومعرفته ويخطُّوا كتاب الصلح معه. وجاء عمر فبدأ أن اتجه إلى الصخرة المقدسة التي كان يبجلها اليهود وإذا بها مثابة لأتربة وأوساخ وأقذار، كان النصارى يُدْفَعُون إلى ذلك بأمر من الحكم الروماني لاستثارة البغضاء بينهم وبين اليهود، سرعان ما خلع أمير المؤمنين عمر رداءه وراح ينظف ذلك المكان من الأقذار بردائه، وسرعان ما أقبل كل من كان حوله فأعانوه أو أخذوا عنه هذه المهمة، ثم إنه اتجه إلى المكان الذي يقدسه المسيحيون والذي يعتقدون أن صُلِبَ فيه ونظر فوجد فيه أقذاراً أو أتربة قد جُمِّعَتْ هناك وكانت تسمى القمامة ثم لما بُنِيَتْ الكنيسة أصبح الاسم كنيسة القيامة، نعم، ذلك لأن اليهود كانوا يُدْفَعُون بدورهم إلى تقذير ذلك المكان الذي يقدره ويقدسه المسيحيون لنفخ مزيد من البغضاء

بين هؤلاء وأولئك بسياسة من الحكم البيزنطي، خلع أمير المؤمنين عمر رداءه وراح ينظف ذلك المكان وأقبل الجميع يساعدونه في هذا العمل.

عباد الله: إن عمر لم يفعل هذا بسائق من رقته ورحمته وبعد نظره، لا، وإنما فعل ذلك بسائق من تربيته الإسلامية، فعل ذلك لأنه يعلم أن دين الله يأمره بذلك. هكذا كانوا وهكذا كنا، وفتح الشام خير مثال على ذلك.

فُتِحَتْ مصر، وقد المصطفى صلى الله عليه وسلم عنها فيما صح عنه: ﴿استوصوا بالأقباط خيراً فإن لهم ذمة ورحما﴾ قال ذلك في حياته وقبل أن تفتح مصر وقبل أن تفتح بلاد الشام، فكيف كان فتح مصر؟ أفكان فتح مصر تضييقاً على المصريين؟ أفكان فتح المصريين إيذاءً وقتلاً للمصريين؟ لا يا عباد الله، كان فتح مصر عملاً فرح به المصريون أيما فرح، فرح به الأقباط أيما فرح، كان عمل المسلمين تحرير مصر من براثن الحكم الروماني. وتأملوا في المعاملة التي كانت بين المسلمين وبين الأقباط، لم يكن هنالك فيما يتعلق بتنفيذ شرعة الإسلام أي تفاوت – وأنا الذي أزعم هذا الكلام وأتكفل به وأنا المسؤول عن تحقيقه – نهائياً. ولقد كان عدد الأقباط كبيراً وكثيراً جداً لم يلجئ المسلمون بعد الفتح أياً منهم إلى أن يغير دينه، نعم، بل كانت الشرعة التي تهيمن على الجميع ﴿ألا لا يُفْتَنَنَّ نصراني عن نصرانيته ولا يهودي عن يهوديته﴾ ولعلكم تعلمون جميعاً قصة اقتصاص عمر بن الخطاب من ابن عمر بن العاص لشاب قبطي أوذي من قبل واحد من أولاد عمر بن العاص، والقصة معروفة ولا أريد أن أطيل الحديث فيها.

النصارى في بلاد الشام ظلوا يساوون عدد المسلمين بل يزيدون إلى أن كان الغزو الصليبي، عندئذٍ وبسائق من ردة الفعل ضد الغزو الصليبي زاد عدد المسلمين ودخل من دخل من النصارى في الإسلام.

هكذا كان أولئك الذين هم أجداد وسلف الغربيين بالشطرين الغربي والأوروبي وهكذا كنا، أولئك يعتزون بما يسمونه ديمقراطية ونحن نعتز بما سماه الله عز وجل العدل والعدالة، وكيف أصبحنا وكيف أصبحوا. أما نحن المسلمين فلا نزال نحن أمناء على شرع الله سبحانه وتعالى وعلى دينه وعلى موازين العدالة، ها نحن ما نزال نعلن تمسكنا بما أمرنا الله أن نتمسك به من موازين العدل، لا يمكن أن نضيق

شيئاً من حدود العدالة الإنسانية من أجل اختلاف دين، من أجل اختلاف مذهب، من أجل اختلاف عرق، إننا لا نسمي هذه ديمقراطية، لكننا نسميها الاسم الذي سماها الله سبحانه وتعالى به العدل: ﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٨].

واليوم يحاول يا عباد الله الغربيون فيما يحاولون أن يزرعوا اختلاقاً مشاعر الكراهية، مشاعر الخوف، مشاعر الرعب، مشاعر البغضاء بين المسلمين وغير المسلمين لاسيما المسيحيين، إن عن طريق النصح الذي يهمسون به إلى آذانهم أن اخرجوا من هذا البلد الظالم أهله أو عن طريق التقتيل والتفخيخ والاغتيال وما إلى ذلك، قصارى ما يطمحون إليه أن تقع الظنة ثم تتحول الظنة إلى عداوة وبغضاء ثم يصفق الغرب للنتيجة التي تعبوا في سبيل تحقيقها، ولكن هيهات، الحصن الذي يمنع الغرب من النجاح في مسعاه إنما هو حصن الإسلام، الحصن الذي لا يمكن أن يُخْتَرَق لتنفيذ هذه الخطة إنما هو كتاب الله ونحن كنا ولا نزال أمناء على كتاب الله.

وأقول: نحن متمثلين في شعب هذه البلدة المقدسة ومتمثلين في قيادتها وفي جندها لابد أن يكون مبدؤنا الذي نقدسه ونبراسنا الذي نستضيء به ودستورنا الذي نسير عليه هو كتاب الله سبحانه وتعالى، فليفعل الغرب ما يشاء، وليحاول أن يدخل عوامل البغضاء بين الفرق الإسلامية، وليحاول أن يدخل عوامل البغضاء بين المذاهب الإسلامية، وليحاول أن يدخل عوامل البغضاء والظنة والعداوة بين المسلمين وغيرهم، لا، لن ينالوا منا منالاً، ولن يصلوا إلى ما يبتغون قط.

إسلامنا أيها الإخوة دين ودولة ولكن فلتعلموا أن هذه الدولة هي التي تحتضن العدالة، وإذا أراد المسيحيون أو اليهود أو أي فئة من الفئات أن تستظل بظل العدالة الحقيقية فلا والله لن تجد مثابة تأوي إليها إلا ظل هذا الدين، لن تجد مثابة تأوي إليها لتطمئن على أنها تتحرك في أحضان العدالة إلا عندما تجد نفسها تحت سلطان الدولة الإسلامية، الدولة الإسلامية ما كانت يوماً ما لتفعل ما فعله الرومان من قبل وما يفعله الغربيون اليوم، الدولة الإسلامية تعتبر نفسها بأمر من الله خير خادم لوحدة الأمة، خير خادم لوحدة الإنسانية، هذه هي الحقيقة التي ينبغي أن نعلمها، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

عباد الله: باسمي وباسمكم جميعاً أهنئ الإخوة الذين نسجوا لباس هذه الهدنة، سداها ولحمتها، باسمي وباسمكم جميعاً أهنئهم على هذا التوفيق وأشكرهم متمثلين في جيشنا العزيز، متمثلين في المسلحين سواء الذين غُرِّرَ بهم أو الذين خُدِعُوا ولُبِّسَتْ عليهم هذه المدينة بغيرها، أو الذين أغراهم المال، أهنئهم جميعاً على هذا التوفيق الذي شاءه الله عز وجل لهذه الهدنة، وأسأل الله عز وجل أن يوفقهم جميعاً لأن يغذوها بروح الاستمرار، لأن يغذوها بروح الدوام، في ظل هذه الهدنة يستيقظ العقل، في ظل هذه الهدنة ترقد بل تمحي مشاعر العداوة، مشاعر البغضاء، تستيقظ الفطرة الإنسانية، نعم، هذا هو الشأن الذي عرفناه في التاريخ وهو الشأن الذي نرجو أن يتحقق اليوم، وأقول للجميع أقول لهم: يقول لكم رسول الله صلى الله عليه وسلم نعم يقول لكم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه فيما رواه مسلم وفيما رواه النسائي وما رواه أحمد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ﴿من خرج من أمتي على أمتي يضرب برها وفاجرها ولا يتحاشى مؤمنها ولا يفي بذي عهدها فليس مني﴾.

يقول لكم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه الشيخان: ﴿من قاتل تحت راية عمية – أي راية لا يعلم من هو المتمسك بها حقيقة وإلى أين تساق وإلى أي غاية تنتهي، تلك هي الراية العمية – من قاتل تحت راية عمية فقُتِلْ فقتلته جاهلية﴾.

يقول لكم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخاري والترمذي من حديث هشام بن عامر: ﴿من رمى مؤمناً بكفر فهو كقتله﴾ أي فهو كما لو قتله.

يقول لكم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه الشيخان البخاري ومسلم: ﴿لا ترجعوا بعدي ضلالاً يضرب بعضكم رقاب بعض﴾.

يقول لكم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخاري وغيره من حديث عمر: ﴿المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده﴾.

أيها الإخوة أنا لا أشك في أنكم تعتزون باتباعكم لمحمد صلى الله عليه وسلم، أنا لا أشك أنكم تعتزون بأنكم تمثلون بعضاً من أمته – أمة الاستجابة – أيهون عليكم أن يطردكم رسول الله إذا قام الناس

لرب العالمين من حوله، لا، لا يهون عليكم ذلك، اسمعوا، يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم فيما رواه مالك في موطئه وآخرون بأسانيد كثيرة صحيحة وقد زار البقيع قال: ﴿ألا ليذادن رجال عن حوضي – أي ليطردن رجال عن حوضي – كما يذاد البعير الضال، أقول: ألا هلم ألا هلم فيقال: إنك لا تدري كم بدلوا من بعدك فأقول: فسحقاً فسحقاً فسحقاً﴾.

لا أيها الإخوة أياً كنتم ومن أي صقع جئتم ومهما غُدِرَ بكم ومهما قيل لكم عن هذا البلد إنه إسرائيل أو إنه كذا، ومهما كانت المغريات المالية، لا، لا يمكن نهائياً أن تقبلوا أن تكونوا واحداً ممن يطردكم غداً رسول قائلاً: فسحقاً فسحقاً فسحقاً. أنا أعلم أنه لا يهون عليكم ذلك، ليس بينكم وبين الأمر سوى أن تعلنوا العودة إلى الحق، ليس بينكم وبين الاصطلاح مع الله ومع عباد الله سوى أن تعلنوا التوبة النصوح بين وبين يدي الله عز وجل لاسيما في ظل هذه الهدنة، لا، بل لاسيما في ظل هذه الأيام المباركة، لاسيما في ظل هذا اليوم الأغر، أنا لا أتصور أبداً أن إخوة لنا أياً كانوا، سواء كانوا أفراداً من الجيش أو من هؤلاء الذين يُسَمَّون الإرهابيين أو المسلحين، لا يمكن أن يقبلوا أن يكونوا غداً ممن يطردهم رسول الله بملء فمه قائلاً سحقاً سحقاً سحقاً.

٤٨٣- أيهما أسوأ المبالغة في حب رسول الله أم المبالغة في العصبية للذات | ٢٠١٢/١٢/٢١

إن الله عز وجل قد ابتعث محمداً صلى الله عليه وعلى آله وسلم بالهدى ودين الحق كما تعلمون وجعل من أخلاقه السامية وسلوكه المقدس قدوة لأمته في كل عصر وفي كل زمان فقال جل جلاله: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾ [الأحزاب: ٢١]. وقال: ﴿مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

ولا أعلم أن في القرآن آيةً أشد من هذه الآية في الأمر بطاعة المصطفى صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ولكن فرقة نشأت منذ أكثر من قرن من الزمن تصر على أن تجعل من قناعاتها الفكرية وسلوكها بديلاً عن كثيرٍ مما جاء به رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم. والعجيب أن هذه الفرقة تنهج في الدعوة إلى قناعاتها الفكرية والسلوكية أشبه ما يكون بمنهج من يصحح أخطاء وقع فيها رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ودعوني أضرب لكم أمثلة لنماذج من هذا الذي يجسد ويبرز هذه الحقيقة العجيبة.

يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم فيما اتفق عليه الشيخان وغيرهما: ﴿لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين﴾ وفي رواية صحيحة بزيادة: ﴿ونفسه التي بين جنبيه﴾، ويقول قادة هذه الفرقة البدعية الناشئة: لا، بل لا تجوز المبالغة في محبة رسول الله، سمعت هذا الكلام بأذني ورأيت قائلها بعيني، لاحظوا عملية التصحيح.

وقد ورد من حديث الترمذي وأبي داود وابن ماجه وغيرهم من حديث عثمان بن حنيف أن قتادة وكان ضريراً أقبل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يشكو إليه حاله وعجزه عن المجيء إلى مسجد رسول الله لحضور صلوات الجماعة وسأله أن يدعو الله له بالشفاء وبأن تعود إليه عيناه البصيرتان، فقال له المصطفى صلى الله عليه وسلم: ﴿أسبغ الوضوء وصل ركعتين ثم قل اللهم إني أتوجه إليك بجاه نبيك

محمد نبي الرحمة، يا محمد إني توجهت بك إلى ربك في حاجتي لتقضى اللهم فشفعه فيَّ واذكر حاجتك بعد ذلك﴾ ذهب الرجل ففعل ما ذكره رسول الله وأكرمه الله فعادت إليه عيناه بصيرتان، ولكن قادة هذه الفرقة يقولون لا يجوز هذا الكلام، لا يجوز التوسل برسول الله أو رجاء رسول الله، ومن فعل ذلك فقد أشرك.

روى الشيخان البخاري ومسلم وغيرهما أحاديث كثيرة بلغت مبلغ التواتر المعنوي أن أصحاب رسول الله رضوان الله عليهم كانوا يتباركون بعرق رسول الله وكانوا يتباركون بما دونه أي الماء الذي يتقاطر من وجهه ويديه أثناء الوضوء وكانوا يتباركون بالشعرات التي تتساقط من لحيته أو رأسه، ولكن هذه الفرقة الناشئة البدعية تقول لا، هذا غير جائز ومن تبرك بشيء من هذه الفضلات وغيرها فقد أشرك.

وقد صح فيما رواه الإمام أحمد في مسنده أنه عليه الصلاة والسلام لما ابتعث معاذ بن جبل إلى اليمن قال له مودعاً: ﴿لعلك يا معاذ إن عدت لن تراني بعد هذا العام ولعلك إن عدت إلى المدينة أن تمر بمسجدي هذا وقبري﴾ وعاد معاذ من اليمن فعلاً وقد حصل ما قد قال له رسول الله، علم أن المصطفى صلى الله عليه وسلم لحق بالرفيق الأعلى فما لبث حتى توجه للتو إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ووقف على قبره الشريف يسلم عليه، ولكن هذه الفرقة صححت اليوم وقالت لا يجوز القصد إلى زيارة قبر رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم. أأزيدكم؟

صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه الإمام أحمد بسند صحيح وغيره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ﴿أمتي هذه أمة مرحومة، متاب عليها مغفور لها﴾ وصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال أيضاً: ﴿أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أني رسول الله، ما يلقى الله فيهما عبدٌ فتحجب عنه الجنة﴾ ولكن هذه الفرقة تصر على أنها هي وحدها الفرقة الناجية يوم القيامة، أي أن الناس الذين كانوا قبل وجود هذه الفرقة شركيون ضالون وأن الناس الذين لا يتبعون هذه الفرقة كلهم شركيون كافرون، وإن سأل أحدُ الناس واحداً من هؤلاء ما هو مذهبك أشافعي أنت أم حنفي مثلاً؟ يقول أنا

من الفرقة الناجية، أي إن كنت على النهج الذي أنا فيه فأنت ناجٍ مثلي وإلا فاعلم أنك ضالٌّ حشو جهنم يوم القيامة.

يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم فيما رواه كثيرٌ من أصحاب السنن: ﴿إن ربكم حييٌّ كريم يستحي من عباده إذا بسطوا أكفهم إليه أن يردها خائبة﴾ ويقول هؤلاء: لا، ما ينبغي أن يبسط الإنسان كفه بالدعاء قط. ما هو تفسير هذه المواقف يا عباد الله، إنه يكاد أن يكون تصحيحاً لمواقف وأوامر ووصايا من رسول الله صلى الله عليه وسلم، أليس كذلك؟! الأمر خطير جداً ولكن المسألة تتعلق بمصدر أساسي لا بديل عنه هو الحب، والحب يا عباد الله انفعال قسري ما كان يوماً فعلاً اختيارياً قط ومن ثم فلا معنى لقول قائلهم ما ينبغي أن نبالغ في محبة رسول الله، أهي مسألة اختيارية أو هو قدر معياري تأخذ منه ما تشاء وتدع منه ما تشاء؟! الحب انفعال قسري وليس أمراً اختيارياً، من عرف الله حق معرفته وعرف محمداً صلى الله عليه وسلم معرفة حقيقية لابد أن يحب الله وأن يحب رسول الله شاء أم أبى.

والروح التي أهبطت إلينا من الملأ الأعلى كانت ولا تزال تحن حنين شوق وحب إلى بارئها، إلى العالم الذي أهبطت منه. صحيح أننا قد نقصر فيما قد طلبه الله عز وجل منا – وكلنا مقصرون – ولكننا والله نحبه وإننا نقول كما قال ذلك الأعرابي لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد جاء يسأله قائلاً: متى الساعة؟ قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم:﴿ما أعددت لها؟ قال: ما أعددت لها كثير صوم ولا صلاة ولكني أحب الله ورسوله، قال له رسول الله: أنت مع من أحببت﴾، وإننا لنقول هذا الذي قاله الأعرابي: ليست لنا طاعات كثيرة نرحل بها إلى الله مطمئنين، ليس لنا كثير صلاة ولا صوم ولا نسك ولكننا والله نحب الله ورسوله وليس ثمة حدٌّ لهذا الحب وليس ثمة معيار اختياري لهذا الحب، هذا هو النهج الذي نسير عليه في حياتنا وبهذا نلقى الله عز وجل يوم يقوم الناس ليوم الحساب وللوقوف بين يدي رب العالمين سبحانه وتعالى، وهل لنا يا أيها الإخوة من بضاعة نأمل بها العفو والمغفرة والشفاعة غير بضاعة الحب، ليس لنا شيء غير ذلك، ولكن ما أسوأ عاقبة من عاش وقلبه فارغ من محبة رب العالمين ومن محبة رسوله، والحب شيء والقناعة العقلية شيء آخر أيها الإخوة، القناعة العقلية لا تجدي إن كان القلب

فارغاً من الحب عندئذٍ يهجم على القلب حب الأشياء الأخرى، حب الذات، حب الدنيا، حب المكانة، حب الزعامة، حب الرئاسة، وما أكثر الأمور الثانية التي تهجم على القلب عندما يبعد القلب من محبة الله، حدِّثْ عندئذٍ عن أنواع الانحرافات ولا حرج، الله إنا نسألك أن تجعل قلوبنا أوعية لحبك أنت، ثم لحب رسولك محمد صلى الله عليه وسلم حباً لا حدَّ له، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم فاستغفروه يغفر لكم.

إن من شأن الاغتيالات الغدرية أن تنال الأفراد والآحاد فيما بينهم، أما الحروب التي تهتاج وتقوم بين الدول والشعوب فالشأن فيها أن تقوم بين جهات متقابلة مستعلنة بشرف الإعلان، بشرف المواجهة المعلنة فيما بين الفرقاء والأطراف، هكذا يقول التاريخ وهكذا يعلم المؤرخون ولا أعتقد أن في الأمر شذوذ.

أما اليوم فإن التاريخ يرى شيئاً آخر، يرى شيئاً مخالفاً لهذه القاعدة الماضية التي طواها الدهر الماضي، اليوم نرى سوريا وكيف تواجه المشاعل الاغتيالية الغدرية الخفية دون أي مواجهة شريفة، سوريا طرف اليوم حرب حقيقية شاملة كبرى ولكن من الطرف الآخر فيها؟ الطرف الآخر إنما هو الاغتيالات الغدرية الخفية التي تأبى أن تقف موقف الشرف في الإعلان عن ذاتها، وهكذا فإن سوريا اليوم تعاني من حرب شاملة حقيقية كبرى والطرف الآخر هو هذا الذي ذكرته لكم ومن حق سوريا كدولة أن تقدم على ما ينبغي أن تقدم عليه أي دولة تحارَب في مثل هذه الحال، من حقها أن تستدعي الاحتياط، من حقها أن تستعين بالقدرات المتنوعة من الأوساط الداخلية لأن سوريا دولة، شخصية اعتبارية تمثلها الفئة الحاكمة ويمثلها الشعب بكل فئاته وقدراته واختصاصاته، ومن هنا فإن الشريعة الإسلامية تنص على أن التسلل خارج هذه البلدة في مثل هذه الحال دون ضرورة تدعو إلى ذلك فرار من الزحف، والفرار من الزحف لا أقول أمر محرم بل هو كبيرة من الكبائر بنصٍّ تقرؤونه في كتاب الله سبحانه وتعالى.

لا شك أن لكل قاعدة فقهها، الناس الذين شُرِّدُوا عن بيوتهم التي هدِّمَت أو التي اغتصبت عنهم ووجدوا أنفسهم أصبحوا في العراء وكانت لهم أرحام، أقارب في بلاد مجاورة أخرى فلهم الحق أن يغادروا إلى حيث يبتعدون عن الهلاك وأسبابه، هذه حالة استثنائية يستثنيها علماء الشريعة الإسلامية، أما

العكس، الذين أكرمهم الله لا أقول بالضروري من الرزق بل بالحاجي من الرزق وأكرمهم الله بمنزل فاره وأكرمهم الله بالأمن حولهم وفيما يحيط بهم هل لهم أن يغادروا هذه الأرض لأن خطر حرب من النوع الذي ذكرته لكم قد داهمهم، هل لهم أن يذهبوا فينتجعوا في أقطار الدنيا مزيداً من الرزق، هل لهم أن يخرجوا من هذه الأرض فينتجعوا مكاناً أكثر أمناً وطمأنينة لهم؟

لا يا عباد الله، هذا ما ينهى عنه ربنا في محكم تبيانه وهذا ما حذر منه رسول الله صلى الله عليه وسلم في أكثر من مناسبة. أمني جزء من أمنك وأمنك يا أخي جزء من أمني، نتعاون معاً من أجل إيجاد نسيج الأمن على النحو الذي أمر الله سبحانه وتعالى منه. أسمع وأنظر وإذا بكثير من الناس قد غابوا يميناً وشمالاً، شرقاً وغرباً، لماذا؟ هل أصابهم ضيم؟ لا، هل أصابهم ضرٌّ دخل دورهم؟ لا ولكنهم فضلوا الأمن لأنفسهم، فضلوا أن ينتجعوا مزيداً من ضمانات لحياتهم، أفهكذا يكون تنفيذ قول الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠].

أفهكذا يكون تنفيذ ما شبَّه رسول الله به المسلمين إذا قال: ﴿كالجسد الواحد إن اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى﴾، هذا كله في كفة وكلام رسول الله عن الشام في كفة أخرى عندما قال: ﴿يجتبي إليها – أي إلى الشام – خيرته من عباده، من خرج منها فبسخط الله ومن دخل إليها فبرحمة الله سبحانه وتعالى﴾. ينبغي أن نقول هذا الكلام أيها الإخوة. المضطرون يدخلون تحت قاعدة الضرورات تبيح المحظورات، أما الذين لا يدخلون في دائرة هذه الضرورة فليتقوا الله، فليعودوا إلى دورهم وليتعاونوا مع إخوانهم في درء هذا الخطر ولسوف يدرؤه الله عز وجل.

نحن مكلفون قادة وجيشاً وشعباً أن نكون في خندق واحد وأن تكون لخلُقِنَا الإنسانية سدى ولحمة واحدة متصلة وأن يكون أساس ذلك كله الانضباط بأوامر الله والانتهاء عما نهى الله والتوبة نكررها ونعيدها في كل صباح ومساء، هذا ما ينبغي أن تكون عليه حال قادة الأمة وهذا ما ينبغي أن تكون عليه حال جيشنا القائم ولله الحمد على تنفيذ ما ينبغي أن ينفَّذ وإننا لنخجل من الله أن نكون جالسين في بيوتنا ننظر إلى جهود هؤلاء الأبطال ونحن جالسون لا نفعل شيئاً. أسأل الله عز وجل لنا جميعاً ولهم

التوفيق والسداد. والله ليس بين أفراد هذا الجيش وبين أن يكونوا في رتبة أصحاب رسول الله إلا أن يرعوا حق الله في أنفسهم وأن يقبلوا إلى الله وهم تائبون وهم ملتزمون بأمر الله جهد استطاعتهم لا أقول أكثر.



٤٨٤- كونوا ممن سيشهد لهم التاريخ ولا تكونوا ممن يلعنهم التاريخ | ٢٠١٣/٠٣/٠١

قول المؤرخون في كل ما كتبوه ودونوه: إن رأيت في جنبات الأرض آثار دمار وتخريب، مظاهر حرق وقتل، مظاهر إفساد هنا وهناك فاعلم أن ذلك كله إنما تم على يد الإنسان، وإن رأيت في جنبات الأرض مظاهر بناء وعمران واخضرار للجنان ومظاهر حضارة تتألق ومدنية إنسانية باسقة فاعلم أن ذلك أيضاً إنما تم على يد الإنسان، فكيف يجتمع هذان النقيضان في تصرفات الإنسان وعمله؟ كيف يتأتى ليده أن تبني وتهدم، أن تصلح وتفسد؟ كيف يتأتى ليد هذا الإنسان أن تستنبت غراس السلام وأغصانه في الأرض وفي الوقت ذاته تدمر وتفسد وتقتل وتحرق؟ كيف يتأتى هذان النقيضان في تصرفات الإنسان وعمله.

حديثي إليكم اليوم يا عباد الله يتضمن إجابة عن هذا السؤال. إنكم لتعملون أن الله عز وجل قد كرَّم الإنسان وفضله على كثيرٍ ممن خلق، وإنكم لتعلمون أيضاً أن الله عز وجل جعل من الإنسان خليفة عنه في أرضه يقيم فيها المجتمع الإنسان طبق موازين العدل التي شاءها الله سبحانه وتعالى، وتعلمون أيضاً أن الله سبحانه وتعالى كلَّفَ الإنسان بعمارة الأرض بمعنييها الحضاري والمادي، ألم يقل عز من قائل: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٠].

ألم يقل جل جلاله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

ألم يقل جل جلاله عن ذاته العلية: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١].

أي كلَّفكَم بعمارتها؟ ثم إن الله عز وجل بحكمته الباهرة علم أن الإنسان لا يستطيع النهوض بهذه المهام التي كُلِّفَ بها إلا إن تحققت له الأجهزة والوسائل التي لابد أن يسخرها في هذا المضمار ولتحقيق هذه الوظيفة، فأكرمه الله سبحانه وتعالى بمدارك العقل وما يتفرع عنها من العلم والمعرفة الإبداع، متعه الله عز وجل بالقدرة ألواناً وسيلة لتحقيق هذه الوظيفة التي أنيطت به، بسط الله عز وجل يده على كثيرٍ من

الممتلكات من الأموال وغيرها وأشعره بمعنى الذات والاعتداد بها بمعنى الأنانية، متعه الله عز وجل بالحرية والقدرة على اتخاذ القرار، حرره من أسر قانون الغرائز الذي قيد البهائم والحيوانات الأخرى بها، هذه هي الأجهزة التي متع الله سبحانه وتعالى الإنسان بها لينهض من وراء ذلك بالوظيفة التي قد أنيطت به.

ولكن فلتعلموا يا عباد الله أن هذه الأجهزة أو أن هذه الصفات إنما هي من صفات الربوبية، فالعلم من صفات الله، والقدرة صفة خاصة بالله عز وجل والإرادة المطلقة صفة لله سبحانه وتعالى وإنما أكرم الإنسان بظلال من هذه الصفات ليستطيع أن يسخرها في النهوض بعمارة الأرض على النحو الذي أمر الله سبحانه وتعالى به. هذه الصفات من الصعوبة بمكان إن استعمله في وجهها الصالح حققت سعادة على وجه الأرض ما مثلها، وإن استعملت هذه الأجهزة أو هذه الصفات أو هذه الأسلحة من وجهها الثاني دمرت وأفسدت وأشقت، ومن هنا سماها الله سبحانه وتعالى الأمانة، أليس هو القائل: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾ [الأحزاب: ٧٢].

لكي لا تُسْتَعْمَلَ هذه الأسلحة أو هذه الأجهزة من حده المهلك الضال أنزل البيان الإلهي بل أنزل الله سبحانه وتعالى عن طريق رسله وأنبيائه إلى هذا الإنسان الذي كرمه الله عز وجل وميزه عن سائر الخلائق بياناً يلجمه ويحجزه عن استعمال هذه الأجهزة من حدها الضار، أنزل إليه بياناً يعرفه أولاً على ذاته أنه مملوك لله وليس مالكاً، أنه عبدٌ لله عز وجل لا يتصرف ولا يتحرك إلا في قبضة الله، ثم إن الله سبحانه وتعالى بيَّنَ له أن هذه الصفات التي متعه بها، العلم وما يتبعه، القدرة وما يتفرع عنها، الامتلاك، الحرية بيَّنَ له أن الإنسان ينفعل بها قسراً ولا يفعل شيئاً منها باختيار، بيَّنَ البيان الإلهي للإنسان بنصوص واضحة قاطعة صريحة أن الإنسان يفد إلى هذه الحياة الدنيا جاهلاً لا يعلم شيئاً وإذا بالقدرة بدأت تسري في كيانه من حيث لا يعلم، تبقى هذه القدرة أمانة بين جوانحه وفي كيانه إلى حين وإذا هي بعد حين تتملص منه وتعود من حيث جاءت، ينظر الإنسان إلى ذاته وقد ولد جاهلاً لا يعي شيئاً وإذا بالعلم سرى إلى كيانه من حيث لا يدري، تبقى هذه الأمانة لديه إلى حين ثم إنها تودعه إلى غير رجعة ويغدو

هذه الإنسان جاهلاً بعد علم، وهكذا، أليس هو القائل: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ [الروم: ٥٤]. أليس هو القائل: ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ﴾ [يس: ٦٨].

فمن الناس من أصغى السمع إلى هذا البيان الإلهي الذي يعرف الإنسان أولاً على ذاته، ثم أصغى السمع إلى التعريف بكيفية استعماله لهذه الأجهزة، أصغى السمع إلى ذلك كشأن الذي يبتاع جهازاً من السوق فلا يستعمله إلا بعد أن ينظر إلى صفحة التعليمات، كيف يستعمل، كيف يصان، نعم. فهؤلاء الذين أصغوا السمع إلى بيان الله عز وجل قاموا بالوظيفة التي أمرهم الله عز وجل بها، قاموا بعمارة الأرض على النحو الذي شاءه الله، طبقوا موازين العدالة التي أنزلها الله عز وجل إليهم ووضعها بين أيديهم فكانت صورة هذا العمران الذي يذكره التاريخ ويشهده ثمرة أعمال هؤلاء، أما فئة أخرى وقد رأت هذه المزايا التي مُتِّعَتْ بها، شعر الواحد منهم بالعلم الذي يتمتع به، بالقدرات المتنوعة التي يمتاز بها، بالامتلاك، بالحرية، وقد قلت لكم إنها جميعاً من صفات الربوبية، لم يصغ السمع إلى بيان الله، لم يتلفت إلى صفحة البيانات المقرونة بالجهاز فإلى ما آل أمر هؤلاء؟

أسكرتهم هذه الصفات يا عباد الله، تنظر إلى الواحد منهم وقد امتطى صهوة هذه الصفات التي متعه الله عز وجل بها ليشد نفسه بها إلى أعلى درجات البغي، إلى أعلى درجات الطغيان، لماذا؟ لأنه لم يصغ السمع إلى صفحة التعليمات، ظن أن العلم علمه وظن أن القدرة قدرته، وظن أنه هو الذي يملك كل ما بسطه الله عز وجل تحت سلطان بل بسط يده عليه، ومن ثم سكر ومن ثم اتخذ من هذا السكر مركباً ويصَّاعد به إلى قمة البغي، إلى قمة الطغيان، وهكذا فقد آل حال الواحد منهم إلى بركان من البغي يتحرك وينتقل من مكان إلى مكان يقذف ما حوله أياً كان بالشواظ، يغلي داخله بمرجل من الحقد الذي لا نهاية له، وهكذا، وإياكم أيها الإخوة إياكم أن تنعتوا حال هذا الإنسان بالوحشية فتظلموا الوحوش، لا، إنه بركان بشري يتنقل ويتحرك من مكان إلى آخر يقذف كما قلت لكم بالشواظ أياً كان ويغلي داخله بمرجل من الأحقاد الخفية لكل من خالفه الرأي.

الوحوش ملتزمة أدق قوانين من قوانين الغرائز التي ضبط الله سبحانه وتعالى عالم البهائم بها، حياة هذه البهائم لا تتحرك إلا طبق قانون، نعم، أما هؤلاء فإن الواحد منهم كما قلت لكم عبارة بركان بشري يتحرك لماذا؟ لأنه لم يصغ إلى بيان الله، لم يصغ إلى صفحة التعليمات التي تبين له هذه الأجهزة التي مُتِّعَ بها، لم يصغ السمع إلى من يقول له ويحك إنك منفعل بصفة القدرة ولست فاعلاً لها، جاءتك من حيث لا تدري ولسوف تتحول عنك إلى ما لا تدري، ويحك إن العلم الذي تتمتع به ليس علمك، لقد تسرب إلى كيانك من حيث لا تعلم وقد كنت جاهلاً وغداً سيتحول هذا العلم إلى جهل وإلى نسيان، سيأتي يوم لا تعرف فيه اسمك، لم يتأت له أن يعرف هذه الحقيقة.

والسؤال الذي يقفز إلى الذهن يا عباد الله من وراء هذا الذي أقوله لكم هو لماذا لا يعاقب الله عز وجل هؤلاء الذين سكروا بنعمة الله عز وجل، سكروا بالأجهزة التي متعهم بها إلى حين وهو القائل في محكم تبيانه في أكثر من مرة عن كثيرٍ من الطغاة الذين خلوا من قبل: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

لماذا لا يأخذهم؟ لماذا يتركهم يسرحون ويلعبون؟ لماذا يتركهم وقد آل أمرهم إلى ما قد ذكرنا، براكين بشرية تتحرك، يأنس الواحد منهم أمام منظر الأطلال الباقية والأبنية الخربة، ينتعش الواحد منهم لرائحة الدماء البريئة الزكية، يطرب الواحد منهم لأنين القتلى وهو يجودون بالأرواح، أجل، لماذا لا يأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر؟ أتدرون الجواب يا عباد الله؟

إن الله سبحانه وتعالى لم يهلك الطغاة الذين خلوا من قبل إلا بعد أن امتطوا من طغيانهم صهوة سموا بها ثم سموا إلى أن وصلوا إلى أعلى درجات الطغيان حيث التأله، حيث تصوروا أنهم غدوا آلهة من دون الله سبحانه وتعالى ومن ثم رماهم الله من حالق، حكمة الله عز وجل تقول إن الإنسان لا يسقط عندما يسقطه الله من الحصير وإنما يسقط من على العرش أو السرير، إن هؤلاء الذين ركبهم الطغيان والبغي ظنوا العلم علماً لهم من دون الله سبحانه وتعالى، وظنوا القوة قوة امتلكوا ناصيتها فلن تتحول عنهم قط، ظنوا المال الذي بسط الله عز وجل أيديهم عليه مالهم ولم يعلموا أنه لا توجد في كتاب

الله آية واحدة تعلن عن امتلاك الإنسان للمال، يقول: ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧]. يقول: ﴿وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ [النور: ٣٣]. نعم، يقول الله عز وجل: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ، وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [القلم: ٤٤-٤٥].

لماذا يستدرجهم؟ لهذا الذي ذكرته لكم، وإذ يرميه إنما يرميه من حالق، ولكي يرميه من حالق لابد أن يسمو إلى أعلى درجات الطغيان، لأن الإنسان كما قلت لكم إذا سقط لا يسقط من على الحصير، هذه حقيقة.

بقي أن أقول لكم شيئاً: إن قضاء الله عز وجل نافذٌ يا عباد الله، وإن سنن الله سبحانه وتعالى لا يلحقها خُلْف ولا يحلقها شذوذ، فكل من ركب رأسه واتجه في طريق البغي والطغيان مخالفاً أمر الله سبحانه وتعالى الذي يحذر من الفساد والإفساد مكرراً ومتوعداً ومكرراً ومتوعداً لابد أن يحيق به قضاء الله، ولكأني أرى مصرع هؤلاء الذين تألهوا عن طريق البغي والطغيان والفساد والإفساد، لكأني أرى مصارعهم الواحد تلو الآخر، وإنما أقول ذلك يقيناً مني بسنة الله عز وجل في كونه، بقي أن أتوجه إلى إخوة لنا ربما تاهوا وربما أخطأوا الطريق فركبوا هم أيضاً هذه المطية وتاهوا بها عن صراط الله سبحانه وتعالى، تاهوا عن هوياتهم عبيداً أذلاء لله عز وجل، تاهوا عن المصير الذي لن يفلتوا منه، تاهوا عن الساعة التي سيذل الواحد منهم فيها منكسراً مهيناً معلناً عن عبوديته لله وقد تجسد في كيانه قول الله: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً، لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً﴾ [مريم: ٩٣-٩٤].

أناشدهم الله، أسألهم بآيات الله، أسألهم بالكتب المنزلة من عند الله أحقٌّ هذا الذي يفعلونه من التدمير، من التخريب، من القتل، من الذبح، من اغتصاب الفتيات، أحقٌّ هذا يمارسونه، أسأله الواحد منهم أناشده بكل آية أنزلها الله عز وجل على رسوله، أناشده بالكتب السماوية كلها، أسأله بيقينه إن بقيت لديه بقية يقين بالله عز وجل أحق هذا الذي يمارسونه أم إنه حرب معلنة أو غير معلنة على الله عز وجل، يحذر الله من قتل البرآء فيصرون على أن يقتلوا البرآء أيما كانوا، يحذر الله عز وجل من التخريب

والفساد ويعلن قائلاً إنه: ﴿لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤] ولكنه يصر على أن يركب رأسه في فعل ما لا يحبه الله سبحانه وتعالى.

أليس هذا حرباً على الله معلنة أو غير معلنة؟ ما لكم أيها الإخوة؟ أين أنتم من شرع الله عز وجل؟ أين أنتم من هوياتكم عبيداً لله سبحانه وتعالى؟ ما لكم لا ترجعون؟ ما لكم لا تعودون؟ والإنسان يخطئ ولكن الإنسان الذي بقيت بين جوانحه بقايا من إيمانه بالله وارتباطه بالله يعود، يصلح الفساد، يصطلح مع الله سبحانه وتعالى، ها أنتم تُدْعَوْنَ إلى الاصطلاح، ها أنتم تُدْعَون إلى تغميد الأسلحة دون شرط ولا قيد لماذا لا تستجيبون؟ لماذا لا تعودون عن الغي، عن هذا الذي حرمه الله سبحانه وتعالى؟ لماذا؟ ألم تقرؤوا كتاب الله وأنتم تعلنون الجهاد، تقولون إنكم ترفعون لواء الجهاد، ألم تقرؤوا قوله: ﴿لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتَغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾ [النساء: ١١٤].

الإصلاح بين الناس، هذا ما يقول الله عنه وهذا هو الأجر الذي يدخره له، أآل بكم الأمر إلى أن تستغنوا عن الله، أآل بكم الأمر إلى أن تديروا ظهوركم لتعليمات الله؟ لا أيها الإخوة، لم يصل الأمر بكم إلى هذا الحد، عودوا فاصطلحوا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨]. أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

٤٨٥- ادخلوا في السلم كافة .. تلك هي رسالة الله إلى المسلحين |

٢٠١٣/٠١/١١

إن من الحقائق القرآنية التي تزداد جلاءً مع الزمن وتزداد رسوخاً مع الأحداث التي تتجدد هنا وهناك ما هو ثابت من أن القرآن لم يتنزل خطاباً لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللناس الذين كانوا من حوله فقط ولا للجيل الذي من بعده أو الذي من بعده فقط وإنما تنزل القرآن خطاباً للناس كلهم على اختلاف أمكنتهم واختلاف عصورهم، يرافقهم في أحداثهم وتقلباتهم ويظل يقدم لهم النصائح لحل مشكلاتهم المختلفة المتنوعة، ها نحن نجد المزيد والمزيد من الأدلة على هذه الحقيقة التي هي مظهر من المظاهر العلمية الناطقة بأن القرآن كلام الله، كلام الخالق وليس كلام المخلوقين.

تعالوا نصغ السمع بتدبر وتأمل إلى هذه الآيات التي تصف الأحداث المؤلمة، الجرائم المنكرة التي تُرْتَكَبْ في هذه الفترة التي تمر بنا، وتأملوا في التحذير الكبير والخطير الذي يوجهه بيان الله سبحانه وتعالى للمتورطين في هذه الجرائم المنكرة ثم تأملوا كيف يأمر بيان الله عز وجل الجميع، كيف يأمر الجاني والمجني عليه، يأمر الأطراف جميعاً بالتلاقي في مظلة الأمن والسلم، تأملوا في هذا الذي يقوله الله عز وجل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ، وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ، وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [البقرة: ٢٠٤-٢٠٦].

ثم يقول بعد ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨] ﴿فَإِن زَلَلْتُمْ﴾ - أي ركبتم رؤوسكم في الاستمرار على الزلل والإجرام - ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٠٩].

أرأيتم إلى هذه الآيات، أهي تحل مشكلة كانت في عصر رسول الله؟! أفكان في عصر رسول الله أو في عصر التابعين أو تابعيهم من يتصفون بهذا الذي ذكره بيان الله، يشهدون الله على أنفسهم أنهم مؤمنون ومجاهدون ثم إنهم ينحطون في إفساد الحرث والنسل والإهلاك والقتل وما إلى ذلك، أفكان في ذلك العصر من يفعل هذا؟! لم يكن هنالك قط من ينطبق عليه هذا الوصف الذي يذكره بيان الله ولذلك فإن المفسرين أجمعوا على أن هذا الحديث الرباني إنما يخاطب الله عز وجل به من قد يتصفون بهذه الصفة من الناس الذين سيأتون من بعد.

إذاً فلابد أن أتوجه أيها الإخوة باسمي وباسمكم جميعاً إلى هؤلاء الذين يشهدون فعلاً مولاهم وخالقهم الذي يعلم السر وأخفى، يشهدونه على أنفسهم أنهم مؤمنون بل مجاهدون وأنهم يتقربون إلى الله عز وجل بما يفعلون ثم إنهم ينحطون في نقيض ما أمر الله به، ثم إنهم يتحدون بيان الله عز وجل في الإمعان بارتكاب ما يحذرهم به، بارتكاب ما يمنعهم منه. ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾ نعم بدلاً من أن يرعوي عن الإفساد انقياداً لأمر الله وتهديده، يقول إن بلسان حاله أو بلسان مقاله: بل شأننا في جهادنا الذي نسير فيه أن نمعن في الأرض فساداً وإن كنت تنهى عن ذلك ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ﴾، يقول قائلهم: نحن مجاهدون وجهادنا يتمثل في مناقضة ما يقوله بيان الله سبحانه وتعالى، جهادنا يتمثل في أن نقتلع الزرع ونهلك الضرع ونحرق النبات ونسرق الأقوات ونحطم ونهدم البيوت ونذبح البرآء، هذا هو جهادنا وليقل بيان الله بعد ذلك ما يشاء.

لابد أن نقول لهؤلاء الإخوة: لماذا تمعنون في أن تخالف ألسنتكم سلوكاتكم؟ لماذا تمعنون في أن تشهدوا الله على ما في قلوبكم وأنتم تمارسون نقيض هذا الذي تشهدون الله عليه؟ لماذا؟ لابد أن أسألكم باسم المنطق قبل الدين، باسم العقلانية قبل الدين أأنتم صادقون في إيمانكم بالله عز وجل رباً خالقاً لكم وبأنكم عبيدٌ مملوكون لله عز وجل لابد لكم من وقفة بين يديه يوم يقوم الناس جميعاً لرب العالمين؟ إذا

كنتم كذلك – وهذا هو المظنون بكم – فلماذا تخالفون أمر إلهكم الذي تشهدونه على ما في قلوبكم؟ لماذا تمعنون في نقيض ما أمر الله عز وجل به؟

وأنا إنما أخاطب الذين يتسلحون ويعلنون الجهاد على إخوانهم وأبناء جلدتهم ووطنهم وهم جزء من هذا الوطن بل من هذه الدولة، ولا أتكلم الآن عن أولئك الوافدين الذين يقفزون من مكان إلى مكان، فإن دارت عليهم الدائرة رجعوا إلى جحورهم، إلى أوكارهم البعيدة، إنما أتحدث مع هؤلاء الإخوة الذين هم جزء من هذا الوطن، أقول لهم: ها هي ذي فرصة سانحة قد فُتِحَتْ أمامكم، فُتِحَتْ أبواب هذه الفرصة على مصارعها، فتحها أول مسؤول عن هذه الدولة في هذه البلدة، يدعوكم بصدق وجد إلى ماذا، لا على أن ينصحكم فتصغوا السمع إلى نصيحته بل يدعوكم إلى أن تنصحوه وتنصحوا القائمين بهذا الأمر ليصغوا هم السمع إلى نصائحكم مادامت هذه النصائح تجعل لهذا الوطن الذي يطمع فيه الكثير والكثير من أعداء الله عز وجل يجعل لهذا الوطن سياجاً من الحماية، يجعل له ضمانات من القوة، يجعل له سبلاً من الوحدة الآمنة، يجعل له ضمانات للسير على الصراط الذي يرضي الله عز وجل، ها هي ذي الأبواب قد فُتِّحَتْ بمصاريعها كما قلت لكم، وها أنتم تدعون – وأقولها مرة أخرى – لا لكي تسمعوا النصح فتتقبلوه لا، بل لكي تقدموا النصح فيتقبله المسؤولون منكم، وليس لذلك من شرط إلا أن تكون هذه النصائح نصائح فعلاً، وقديماً قال رسولنا صلى الله عليه وسلم ﴿الدين النصيحة﴾، وقديماً قال رسولنا صلى الله عليه وسلم: ﴿إن أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر﴾.

ها أنتم تُدعَون إلى أن تنطقوا بلكمة الحق هذه، فما موقفكم ونحن نظل نحسن الظن، إنما تندفعون إلى هذا الذي تندفعون به غيرة منكم على مصالح الأمة، غيرة منكم على مكانة هذه البلدة بل هذا الوطن الشريف، فإذا كان الأمر كذلك فهلا تبتم وعدتم إلى الله لتجعلوا جهادكم متناغماً مع شرع الله، لتجعلوا جهادكم مفسَّراً بالإصلاح بدلاً من الإفساد، بالإحياء بدلاً من القتل، هلا فسرتم جهادكم بالنصح تقدمونه لولي الأمر أي هلا فسرتم جهادكم بكلمة حق ولتكن نعم عند سلطان جائر، تعالوا فانطقوا بكلمة الحق هذه.

أما إن كان الهدف – وإننا لنرجوا أن نكون مخطئين – أما إن كان الهدف يتمثل في إعدام هذه الأرض، في القضاء على هذه الدولة، في محو ما اسمه سوريا من هذه الخريطة فإنني أنصحكم لا من قبيل أن الدين النصيحة فلعلكم لا تصغون إلى النصيحة عندما يكون معينها الدين ولكني أقوله لكم من منطلق عقلاني: إذا تم هذا الذي تسعون إليه فلسوف تكونون أول من يتقد في نيران هذا المصير، إذا قضي على هذه البلدة، على هذه الدولة فلسوف ينمحي اسمها من الخارطة، ولسوف تتحول لا أقول إلى دويلات بل إلى جماعات وفئات متناحرة متقاتلة يشتد الأوار بينها ولا يهدأ، أجل يتقد اللظى ولا ينطفئ، ولسوف تكونون أول من يتقد بهذه النيران.

ألا فلتعلموا أيها الإخوة أن العيدان التي تتقد بها النيران العظيمة هي أول ما يحترق في مشروع هذه النيران، اسمعوا هذا الذي أقوله لكم جيداً. أما الدولارات التي فرحتم بها أو تفرحون بها حيناً من الزمن إذ تتجمع في جيوبكم فاعلموا أنها ستنمحي ولسوف تذوب كما يذوب هذا الثلج تحت أشعة الشمس، ولسوف تفتحون أيديكم وتنظرون وتفتشون في جيوبكم فلا تجدون إلا العدم ولسوف تجدون أمنكم أول من يحترق في هذا الذي سُخِّرْتُمْ به، فهلا رجعتم إلى الفكر العقلاني الذي ينبغي أن تحاكموا به تصرفاتكم وعلاقاتكم في هذا الذي يتم، أنا أقولها لأبناء جلدتنا، أقولها لإخواننا، أقولها لمن هو جزء لا يتجزأ من هذه البلدة، من هذا الوطن، وأنا لا أوجِّه كلامي إلى أناس أُرْسِلُوا من وراء البحار ربما، أُرْسِلُوا من أماكن بعيدة لا يعلمون إلى أين يتجهون وإنما يعلمون أن هنالك مراوضة وقعوا عليها، يعلمون أن هنالك عقداً ألزموا أنفسهم به، أنا لا أكلمهم، ومصيرهم إلى الله عز وجل، وإنما أكلم أبناء جلدتنا.

نعم، لماذا تضعون نصب أعينكم ما يضعه العدو القريب أو البعيد بدافع من الأحقاء التي عاملوا معها، لماذا تتناغم أهدافكم مع أهدافه؟ وإذا تم الأمر كما يشاء أما هو فلسوف يتربع على كرسيه ويرقص الليل ويسكر في النهار فرحاً بما تم ولكن مصيركم ما هو؟ مصيركم الهلاك. ينبغي أن تعلموا هذه الحقيقة. نحن نقول الوطن، وأنا أقول الدين، أقول الانقياد لأمر الله، لا على أنني أنكر قيمة الأوطان ولكن فلتعلموا ولنعلم جميعاً أن الأوطان كلها ملك لله، لمن خلقها ولمن أقامنا عليها، ولكننا مستخلفون على هذه

الأوطان، نحن مستخلفون على هذه الأرض المباركة التي هي أرض الله، مستأمنون عليها، ألم تعلموا أن القرآن ينص في أكثر من موضع على الإنسان خليفة الله؟! خليفة الله في ماذا؟ خليفة الله في حماية الأرض التي أقامهم عليها، خليفة الله في حماية الأقوات والأرزاق التي أكرمهم بها إن على ظاهر الأرض أو في باطنه، مستخلفون برعاية ميزان العدل الذي أقامه فيما بينهم: ﴿وَالسَّمَاء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ، أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ، وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧-٩]. إن تعظيمنا للوطن إنما هو انقياد لأمر الله في المحافظة على ما استأمننا الله عز وجل عليه، اعلموا هذا جيداً.

أما إذا أصر إخوتنا أن يولوا ظهورهم إلى بيان الله هذا وأن يعرضوا عن أمره ونهيه وأن يجعلوا ولاءهم لأعداء الله عز وجل بدلاً من أن يجعلوا ولاءهم لله، أما إن أصروا إصرارهم على أن يخدموا أعداء الله وهو في الحقيقة أعداؤهم أيضاً بدلاً من أن يخدموا دين الله فإنني أذكرهم بهذه الآية من كتاب الله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [المجادلة: ١٤]. ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ﴾ يا أيها الذين يتم الاعتداء عليهم، ﴿وَلَا مِنْهُمْ﴾ من هؤلاء المعتدين. أترون أن هذا الكلام خوطب به أصحاب رسول الله، أترون أن هذا الكلام خوطب به المنافقون في عصر رسول الله، أترون أن هذا الكلام خوطب به التابعون ومن بعدهم. ارعووا، عودوا، والعود إلى الحق أحمد، أجل، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له، وفرح الله بتوبة عباده لا تعدلها فرحة كما قلت لكم في الأسبوع المنصرم، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

٤٨٦- دعوة ملحّة للتوبة واستنزال الفرج | ٢٠١٣/٠١/١٨

لا ريب أن الله سبحانه وتعالى قد أقامنا من كونه هذا في عالم الأسباب، أمرنا أن نتخذها وأن نتعامل معها، وإنها لسنة ماضية من سنن الله عز وجل في كونه ومن ثم في عباده. ولقد كنا وما نزال بحمد الله عز وجل نتعامل مع الأسباب الكونية التي وضعها الله عز وجل في طريقنا لمعالجة هذه الأزمة بل هذه المحنة التي تمر بنا، ها نحن نتعامل مع الأسباب المادية والأسباب الكونية المختلفة المتنوعة، مستجيبين في ذلك لقرار الله وأمره وسنته، ولكن ماذا عن التعامل مع مسبب الأسباب سبحانه وتعالى، وقد تعاملنا مع الجنود بكل أوجه التعامل، ولكن ماذا عن القائد الأعلى لهذه الجنود؟

إنني أخشى أن أقول يا عباد الله إننا استغرقنا استغراقاً كبيراً وطويلاً في أغصان الأسباب المتنوعة التي أقامها الله عز وجل إلى درجة أننا قد حُجِبْنَا عن الجذع الذي إليه مرجع هذه الأغصان وهذه الأسباب كلها، تقلبنا بل سبحنا في عالم الأسباب الكثيرة الكونية المادية العلمية المتنوعة إلى درجة أننا رأينا أنفسنا مسجونين في عالم الأسباب ومن ثم محجوبين عن المسبب وهو الله سبحانه وتعالى، ينبغي في مثل هذه الحال أن نتذكر الحقيقة، وإنني لأقولها باختصار وبكلمات موجزة، صحيح أن الله عز وجل أقامنا من كونه في عالم الأسباب وأمرنا أن نتخذها وأن نتعامل معها ولكنه في الوقت ذاته أعلن أنها جنود بيد الله ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٣١].

الأسباب لابد أن نتعامل معها، لكن شأنها كشأن الجسد من الروح، لا تستقر الروح إلا في جسد ولكن ماذا عسى أن يغني الجسد بدون روح، لقد حُجِبْنَا عن التعامل مع المسبب، بل كدنا أن نُحْجَبَ عن التعامل مع المسبب وهو مولانا خالق الكون وخالق الأسباب كلها، ولعلكم تقولون يا عباد الله: ها نحن نؤمن بوجود المسبب وهو الله وها نحن نتعامل معه من منطلق الإيمان به وبمعنى التعرف عليه فهل من شيء آخر يُطْلَبُ منا بعد ذلك؟

نعم، المطلوب منا عندما نمر بهذه المحنة أو تمر بنا بل في سائر الأحوال فضلاً عن هذه الحالة التي نحن بها، المطلوب منا أن نعود فنصطلح مع الله وأن نجدد التوبة إلى الله وأن نمد يد البيعة من جديد مع الله وأن نجأر إليه بالضراعة وبالذل والبؤس والمسكنة، نطرق بابه – باب مسبب الأسباب كلها – قائلين له إن بلسان الحال أو بلسان المقال: أي رب، ها نحن قد فرغنا من التعامل مع الأسباب التي أمرتنا أن نتعامل معها، ها نحن قد أدينا الواجب الذي قد فرضته علينا، وها نحن عدنا إليك، ها نحن نطرق باب كرمك وجودك، أنت مسبب الأسباب كلها، أنت قائد هذه الجنود الكونية التي تملأ رحاب كونك هذا، فيا ذا الجلال والإكرام لقد وضعنا الأسباب التي تعاملنا معها الآن وراءنا ظهرياً، وها نحن نستمطر من سماء رحمتك التوفيق والنصر والفرج، هكذا ينبغي أن نتعامل مع المسبب، وهل من دليل على هذا أجلى وأوضح من دليل كتاب الله عز وجل أيها الإخوة؟ اسمعوا إلى طائفة من هذه الآيات التي تذكرنا بهذه الوظيفة: ﴿ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥]. ﴿وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

ويحدثنا البيان الإلهي عن أناس من أمثالنا مرَّ بهم مثل هذه المحنة، هزتهم هزاً ليتذكروا الالتجاء إلى الله فما تذكروه، يقول عنهم: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ [المؤمنون:٧٦].

ويقول عن أمثالهم: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ، فَلَوْلا إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢-٤٣].

يقول الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾ أي من الأعداء في عادية حرب كهذه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللّهَ﴾ قرن الباري سبحانه وتعالى بين الوضع الذي نخوضه اليوم وبين ذكر الله عز وجل ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥].

هذا ما يقوله بيان الله وها هي ذي المحنة التي طال أمدها تقرع على آذاننا الدعوة إلى الالتجاء إلى مسبب الأسباب بعد أن فرغنا من التمسك بالأسباب والتعامل معها، فأين هم الذين استجابوا يا عباد الله، أين هم الذين استجابوا لدعوة الله، أين هم الذين يفرون من المحنة إلى الذي ابتلانا بها؟ ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات: ٥٠].

أنظر إلى واقعنا، إلى مجتمعنا ونحن نخوض هذه المحنة فما الذي أراه؟ أرى فئات من الناس ممن يعانون من هذا البلاء يوظفون هذه المحنة لترسيخ اللادينية في مجتمعنا، لترسيخ شعار العلمانية أي اللادينية في مجتمعنا، إنهم يتلاقون صباح مساء، إنهم يخططون صباح مساء في سبيل أن يعتصروا من هذه المحنة وسيلة لفرض هذه اللادينية علينا، وما الحجة؟ الحجة أن المصيبة لم تقرع أبوابنا إلا بأيدي المتدينين، لم تقرع أبوابنا ولم تزجنا في هذه المصيبة إلا بشعارات الذين يريدون أن يبنوا عروشهم على الإمارات الدينية والإسلامية، إذاً فينبغي أن نتخلص من هذا السبب بإعلان اللادينية والعلمانية، تلك هي حال فئة، ولا أدري كم نسبتها من مجتمعنا السوري هذا.

أنظر إلى فئات أخرى وإذا هم يحاولون جاهدين أن يوظفوا هذه المصيبة بل أن يوظفوا حال الذين شُرِّدُوا من بيوتهم، شردوا من دورهم، يريدون أن يوظفوا حال من زجتهم هذه المصيبة في المجاعة، مجاعة ما مثلها، يُهرعون ليوظفوا هذه الحال كوسيلة يصلون بها إلى أمنية أستطيع أن أقول إنها من القذارة بمكان، حلمهم أن تمتلئ جيوبهم على حساب الشاردين من بيوتهم، يعمد الواحد منهم – ودعوني أصف الواقع – يعمد الواحد منهم إلى دارٍ زائدة عن حاجته فيقسمها إلى قطعٍ قطع، يقسم البيت إلى بيوتات ثم إنه يؤجر كل قطعة من هذه القطع بأغلى الأثمان أو الآجار، فإذا قال له المسكين الذي يبحث عن مكان يأوي إليه هو وأولاده، قال له: ألا تخفف الرقم قليلاً ؟ يقول: لقد دُفِعَ لي فيه أكثر، وأنا أطلب منك أجرة ستة أشهر كاملات، ويمضي الرجل ليستقبله العراء، لترحمه الحدائق، ألستم تعلمون هذا.

آخرون، يخرج الرجل زوجه وأولاده وكامل أفراد أسرته من البيت ليقفوا على المخبز وكأن كل واحد منهم لا يعلم الآخر، ليشتري كل منهم ما استطاع من ربطات الخبز، فإذا نجحوا في هذا عاد أفراد الأسرة

بأربعين أو خمسين أو ستين ربطة يبيعونها بأضعاف أضعاف ثمنها في السوق السوداء، ألا ترون ذلك؟ من هؤلاء الذين يفعلون هذا؟ أخوتهم.

والآخرون الذين يجدون أن الناس يتسابقون إلى شيء من الوقود، إلى شيء من المازوت لينجوا فيه أولادهم من المرض، وإذا بثلة من الناس ينتهزونها فرصة ليسرقوا هذا الوقود ثم ليبيعوه في السوق السوداء بأثمان باهظة، إن شاؤوا اشتروا بالثمن الذي يفرض عليهم وإن شاؤوا فليذهبوا وليمت أطفالهم من البرد كما يشاؤون. هذه هي حالنا اليوم. أنا لا أستطيع أن أقول كم هي نسبة أولئك الذين يوظفون هذه المحنة لفرض اللادينية على مجتمعنا، أنا لا أستطيع أن أقول كم هي نسبة الذين يسعون لاهثين لملئ جيوبهم على حساب الجياع، على حساب العراة، على حساب الشاردين من بيوتهم لكنهم موجودون يا عباد الله.

كيف السبيل إلى أن نستدفع هذه المصيبة؟ كيف السبيل إلى أن نستنزل من علياء الرحمة الإلهية الرحمة التي تعيد الأمن والسلام إلى ربوع شامنا؟ السبيل هو أن نستقيم على صراط الله أولاً، ﴿من لا يَرْحَم لا يُرْحَم﴾ هكذا يقول رسول الله في الحديث الصحيح. ونحن ما هي هويتنا يا عباد الله؟ بأي هوية نرحل إلى الله؟ أنا أقول هذا سائلاً الإخوة الذين يسعون جاهدين ليل نهار لفرض اللادينية على مجتمعنا، من أنتم أيها الإخوة؟ إذا طرق ملك الموت باب أي واحد منكم، بأي عقيدة، بأي فكرة، بأي مذهب سترحلون إلى الله، والله لن ترحلوا إلا بهوية واحدة هي العبودية الحقة لله عز وجل: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً، لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً، وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً﴾ [مريم: ٩٣-٩٥].

كيف يا عباد الله نتجاهل هويتنا بل نسعى إلى تمزيقها وربنا سبحانه وتعالى هو الذي يوقظنا عن طريق هذه المحنة لنعود إليه وكأننا نقول له: إن المحنة التي طافت بنا من جراء قضائك وقدرك ستجعلنا نثور عليك، تجعلنا نثور على هويتنا وعبوديتنا لك، ها نحن مصرون على أن نغرس اللادينية في مجتمعاتنا، لا يا عباد الله، لا يمكن للعاقل أن يفر من الحمى إلى الطاعون، لا يمكن للعاقل أن يفر من المرض إلى أسباب

الهلاك، لا. شامنا هذا، سوريا هذه دولة إسلامية مدنية، أو قل دولة مدنية إسلامية، لسوف نصر إصرارنا على هذه الحقيقة، تلك هي هويتنا، بهذه الهوية نستدفع البلاء، نعم يا عباد الله.

إذاً لابد من علاج الالتجاء إلى الله، سِرْنَا طويلاً في طريق التعامل مع الأسباب ووصلنا إلى المسبب، إذاً ينبغي أن نقف هنا، ينبغي أن نطرق باب الله، بل باب الله لا يُغلق دون أحد، ينبغي أن نلج هذا الباب ملتجئين متضرعين، عباد الله، كثيرون منا يتصورون أن الالتجاء إلى الله إنما ينبغي أن يتداعى الناس إليه بمناسبة الاستسقاء، عندما تحبس الأمطار ويمتد أجل ذلك يتداعى الإخوة بل يأمر المسؤولون عامة الناس أن يتداعوا إلى صلاة الاستسقاء، ولقد شهد هذا المسجد أكثر من مرة اجتماع الناس لصلاة الاستسقاء، وأذكر قبل عقد بل يزيد من الزمن كيف أنا التجأنا إلى الله لاستنزال الغيث من السماء وكيف أن بعض الصالحين بل بعض الأولياء وقفوا في هذا المحراب يدعون الله عز وجل فأكرمنا الله في اليوم الثاني أو الثالث مع الأمطار بالثلوج، أذكر ذلك ولا أنساه، لكن من قال إن المصيبة التي تجعلنا نلجأ إلى الله فقط هي مصيبة احتباس المطر.

المصائب كثيرة، وكل مصيبة يبتلى بها الإنسان إنما هي عصا تسوق الإنسان إلى رحاب الله، إنما هي عصا توقظ الإنسان أولاً ثم تسوقه إلى الالتجاء إلى باب الله سبحانه وتعالى، فلنتداعى لاستسقاء آخر نستسقي به من الله سبحانه وتعالى الرحمة التي تنجينا من هذه المحنة، وكله استسقاء، بالأمس استسقينا الله عز وجل أن ينزل علينا الغيث فاستجاب، واليوم ينبغي أن نتداعى لنصلي صلاة الحاجة المشروعة ولكي نستمطر من الله سبحانه وتعالى رحماته التي هي الكفيل الأوحد لإنهاء هذه المحنة يا عباد الله.

أقول هذا لكم ولا أريد أن أزج نفسي أو أزجكم في اليأس لعل فيكم من يقول: أين هم الذين يلتجئون إلى الله، نحن حفنة من الناس سمعنا وأصغينا والتجأنا لكن الكثرة الكاثرة تائهة، ولكن الكثرة الكاثرة زائغة، لعل فيكم من يقول: إذاً فالمحنة باقية. لا يا عباد الله، المحنة زائلة، والإله الذي أراني هذه المحنة في إقبالها كما قلت لكم بالأمس أراني هذه المحنة في إدبارها، وأنا على يقين بأنها ستدبر، لكن الإله الذي يبشرنا بإدبارها يأمرنا بأن نسلك السبيل إلى إدبارها، الالتجاء إلى الله.

أدعو نفسي وأدعو قادة الأمة بكل فئاتها وبكل درجاتها وأدعو الناس جميعاً إلى التوبة النصوح، إلى تجديد البيعة مع مولانا وخالقنا الذي سنرحل إليه عبيداً لا غير، الملحد والتائه والفاسق والفاجر كلهم سيرحلون إلى الله بهوية واحدة عبيد لله مقرين بعبوديتهم لله عز وجل، أدعو نفسي وأدعوهم جميعاً إلى صدق الالتجاء إلى الله، أدعو نفسي وأدعوهم جميعاً إلى أن نتداعى إلى مثل عملية الاستسقاء مع مقدمة من الصيام، مع مقدمة من إعطاء كل ذي حق حقه، مع مقدمة من التوبة وأنا ضامن وأنا ضامن وأنا ضامن بأن الفرج آتٍ وبخارقة، بخارقة من الخوارق التي سيكرمنا بها رب العالمين، أقول قولي هذا وأستغفر الله رب العالمين.



٤٨٧- بين من يخدع بالخلافة ومن يصر على اللادينية | ٢٠١٣/٠٢/٢٢

حادثةٌ سأفتتح بها حديثي إليكم في هذا اليوم، جرت عند عودتي من اللاذقية إلى دمشق في يوم شاتٍ من شتاء السبعينات في القرن المنصرم الماضي. كانت الحافلة التي عدت بها إلى دمشق مليئة بالشباب الذين تطوف برؤوسهم مشاعر المرح المجوني تهيمن على نفوسهم أهواء الشباب، وكانت الحافلة مليئة بضحكاتهم الصارخة ونكاتهم المتنوعة.

ما إن انطلقت الحافلة بنا حتى تلاقت الغيوم من شتى أنحاء السماء وما هي إلا أطبقت وتكاثفت وغطت زرقة السماء أجمع، وما هي إلا دقائق حتى أخذت الأمطار الشديدة تهمي من حولنا، ثم إنها لم تكن إلا دقائق حتى غابت الأمطار وتحولت إلى عاصفة ثلجية اشتدت وما تزال تشتد ولم تتراجع. حتى إذا وصلنا إلى النبك كان ظلام الليل قد اشتد ولم يعد يتراءى تحت ظلام الليل إلا بياض الثلج يعم الآفاق جمعاء، كان قرار سائق الحافلة أن نبيت في ذلك المكان تلك الليلة وأن يلازم كل واحد منا مقعده من الحافلة.

وفي ضحى اليوم الثاني كانت الدنيا التي من حولنا تحولت إلى كرة كبيرة بيضاء لا يستبين فيها سماء من أرض ولا يستبين فيها يمين من يسار ولا يتجلى فيها شيء من معنى الطريق وأثره، ولكن السائق أصرّ على أن يغامر بنا اعتماداً على ذاكرته في معرفة الطريق تعاريجه واستقامته والتواءاته. سارت بنا هذه الحافلة مترنحة تترنح ذات اليمين وذات الشمال في بطءٍ شديد وكأنها شارب ثمل يترنح ويكاد أن يسقط أرضاً، شعرنا جميعاً بأننا بين شقَّي الهلاك، ونظرت – وهذه هي نقطة العبرة – إلى هؤلاء الشباب – الذين كانوا كما قلت لكم مثال المرح المجوني – نظرت إليهم وهم كثرة وإذا بهم ما بين مستغفر ومسبح وداع، ونظرت إلى واحد منهم وكان أشدهم عبثاً ولعله أشدهم مجوناً، وقف وسط الحافلة يخاطب من فيها قائلاً: أيها الأخوة نحن أكثر من أربعين راكب وإني لأعتقد أن أربعين دعاءً يتجه منا إلى الله لا يمكن أن تردّ كلها خائبة.

أصدقكم أيها الأخوة أني نظرت إلى نفسي فوجدتني تلميذاً في مجال التبتل والانقياد إلى الله أمام هؤلاء الأخوة الذين خلقوا خلقاً آخر – لا أقول تحولوا من مجون إلى التزام بل خلقوا خلقاً آخر – إن هي إلا دقائق حتى بدأت السحب تتفرق وإذا بزرقة السماء تستبين هنا وهناك، وما هي إلا دقائق حتى تجلت الشمس وأخذت ترسل أشعتها إلينا من هنا وهناك، وتفرقت السحب وعادت مشاعر الأمن والطمأنينة تسري إلى قلوبنا جميعاً.

هذه الحادثة التي وقعت في تلك الحافلة سنّة من سنن الله في عباده يا أيها الناس، ولكن هذه السنة تتسع ثم تتسع، قد تقع في حافلة وقد تقع في قرية وقد تقع سنة الله هذه في دولة كما هي الحال بالنسبة إلينا اليوم، هي سنة من سنن الله سبحانه وتعالى الماضية، المعنى واحد والحقيقة واحدة والفرق لا يستبين إلا ما بين صغر الدائرة واتساعها.

إنكم لترون يا عباد الله أننا نمر في الأزمة ذاتها التي مر بها أصحاب تلك الحافلة وإنكم تعلمون أننا طرقنا أبواب المؤسسات التي ترعى حقوق الإنسان نستثيرها لرعاية الحقوق المذبحة المبددة المظلومة فلم يلتفت إلينا أحد بل أي من تلك المؤسسات أبداً، شكونا إلى مجلس الأمن إلى هيئة الأمم إلى الجمعية العمومية وعرضنا الحال ولكن الجميع اتخذوا موقفاً يقول إن سوريا ليست موجودة في قائمة تلك الدول التي تكلف هذه المؤسسات الإنسانية الدولية برعايتها، سوريا ليست واحدة ممن ينبغي أن ينظر في شأنها، لماذا؟! كل شيء يمكن أن يقال إلا الجواب عن سؤال لماذا، والتفتنا إلى الجوار المحيط بنا نستثيرهم باسم الجوار الإنساني، نهتف بهم باسم الأخوة الإسلامية، نناديهم باسم المروءة، ونسائلهم عن ظلم اقترفناه، عن سوء جنيناه، عن بادرة ارتكبناها في حق غيرنا لنتوب ولنؤوب، لكن الجوار أجمع تجاهل النداءات الإنسانية، ومزق الأخوة الإسلامية،

أجل. والتفتنا إليهم جميعاً نسائلهم عن السبب في أنهم فاجؤونا بشيء مفاجئ، يمدون أيديهم إلى العدو الذي كنا إلى الأمس القريب متفقين على أن علينا أن نحاربهم في خندق واحد لنعيد الوطن إلى أصحابه ولنعيد الحقوق إلى ملاكها، ما لكم أيها الأخوة تحولتم إلى نقيض واتخذتم من العدو الأرعن

صديقاً مخلصاً؟! واتخذتم من الأخوة - الصادقين المخلصين لكم - اتخذتموهم أعداء وأي أعداء؟! ما السبب؟! ذكرناهم بقول الله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ، أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً إِنَّهُمْ سَاء مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

ذكرناهم، فماذا كانت النتيجة وماذا كان الموقف من هذه التذكرة؟ لم يكن الموقف إلا الهزء والسخرية، أجل مسلمون في الظاهر، أين ذهب الإسلام الذي كان خفياً في الباطن؟! ما الذي استوجب أن يصبح الأخوة الذين عقد الله عز وجل بيننا وبينهم رباط الأخوة؟! ما الذي اقتضى أن تمزق هذه الأخوة وأن تلقى دبر الآذان أو تحت الأقدام؟! ما الذي جعلكم تصطفون أعداء الله عز وجل - أولئك الذين غضب الله عليهم وأكد ذلك مرة ومثنى وثلاث - ما الذي جعلكم تصطفونهم أصدقاء مناقضين بل محادّين قرار الله سبحانه وتعالى؟!

أعود فأقول التفتنا يميناً وشمالاً وإذا الأبواب كلها موصدة وإذا السبل كلها مقطعة، تأملنا فلم نجد أمامنا إلا سبيلاً واحداً هو السبيل المفتَّح، لم نجد أمامنا إلا باباً واحداً لا بديل عنه ولا ثاني له ألا وهو باب التعرف على الله، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، هذا هو الباب المفتح أمامنا، هل من ريب في ذلك؟ طرقنا سائر الأبواب والتفتنا إلى القريب إلى الصديق إلى الأخ وإذا الجميع مدبرون، وإذا الجميع يناصبون العداوة ويرسلون إلينا البلاء الماحق من سهم واحد، من قوس واحد، باب واحد بقي مفتَّحاً أمامنا هو باب الإلتجاء إلى الله، باب التعرف على الله سبحانه وتعالى، وإنكم لتعلمون أن نداء الله عز وجل يهتف بنا ويصك أسماعنا، ألا ترونه يقول: ﴿ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢]. ﴿فَلَوْلا إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣].

ألا ترونه يقول: ﴿وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

أذاقها الله هذا اللباس في انتظار أن تلتجئ إلى الله، في انتظار أن تعود إلى الله سبحانه وتعالى.

نحن الآن أيها الأخوة من هذه المصيبة أمام هذه المرحلة، إنها مرحلة نهائية مرة ثانية وثالثة أقولها لكم، لكن هذه المرحلة النهائية تستبطن دعوة متكررة من الله تخاطب كل واحدٍ واحدٍ فينا، بدءاً من القيادة بدءاً من القائد الأعلى إلى القيادة فما دونها فما دونها إلى القاعدة الشعبية العامة أن عودوا إلى الله بالالتجاء الصادق، عودوا إلى الله فاستعلنوا عبوديتكم لله عز وجل، تحققوا بهوياتكم.

ها هي ذي الدنيا كلها تجاهلتكم، رحمن واحد هو الذي ينجيكم هو الذي ينتشلكم من هذا العذاب، والأمر الآن يحتاج إلى جهد كبير تبذلونه لكنه يحتاج إلى قلب صادق نابض بهوية العبودية لله ولسان شاهد على هذا الذي يجول في القلب وينبض به الفؤاد، ما الفرق بيننا أيها الأخوة – ونحن الذي أقامنا الله فوق هذه الأرض المباركة – وبين تلك الثلة من الشباب الماجن؟! ما الفرق؟! ما الذي حولهم من المجون الشديد إلى التبتل إلى الضراعة؟! ما الذي جعلهم ألسناً ما بين مستغفر وما بين مسبح وما بين داعٍ ومبتل إلى الله عز وجل؟! أليست القصة واحدة؟! أليست السنّة هي هي؟! وهل من فرق إلا فرق ما بينها نموذج صغير وما بين الحالي الذي يغطي الدولة كلها؟! لماذا؟! لماذا لا نعود إلى الله كعودة أولئك الشباب؟! لماذا لا نلتجئ إلى الله كالتجاء أولئك الشباب؟! جيراننا تنكروا لنا، إخواننا في الله مزقوا الأخوة الربانية وألقوها لا أقول وراءهم ظهرياً بل ألقوها تحت الأقدام، أما نحن أما نحن فلا نزال نعلن عن ولاءنا لله، نعلن عن عبوديتنا لله سبحانه وتعالى.

قلنا وكررنا القول أنكم تحاربون النظام لسبب ما تستبطنه أفئدتكم، فما بال الأسر القابعة في بيوتها؟! ما بال الأطفال في مدارسهم؟! ما بال العمال في معاملهم؟! ما بال الناس الذين يسعون يبتغون أن يعودوا برزقهم إلى أهليهم وأولادهم؟! ما بال هؤلاء ترسلون إليهم حمم الموت؟! عداءكم لنظام ولعل حقدكم يتجه إلى شخص، حسناً، فما بالكم تعزمون عزماً لا عودة عنه – فيما يبدو – على محق هذه الأرض المباركة بكل من فيها وبكل ما فيها، سؤالٌ طرحناه ولكن ما من مجيب، الجواب يأتي من عند الله سبحانه وتعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]. ألم يقل الله عز وجل هذا الكلام؟!

﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦] ﴿فَلَوْلا إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ﴾ [الأنعام: ٤٣].

أيها الأخوة أنا أبحث عن الناس الذين شرفهم الله عز وجل في المقام فوق هذه الأرض المباركة، أبحث عمّن يحقق مسيرة أولئك الشباب في الحافلة، كم هم الذين تابوا إلى الله بعد شرود؟ كم هم أولئك الذين يستغفرون الله بعد مجون؟ أيبلغون عشرة في المئة؟! أيبلغون خمس عشر في المئة؟! ما أظن. البقية الكل يركب رأسه، الكل عاكف على غيه، الكل عاكف على شهواته وأهوائه، نعم وأرجو أن أكون مخطئاً في هذا، ألم يئن لنا جميعاً أن نتوب إلى الله؟! ألم يئن لنا جميعاً أن نحرك ألسنتنا بعد قلوبنا بالاستغفار نتجه به إلى الله سبحانه وتعالى؟! أين؟ أين هم هؤلاء؟!

أنظر وأتأمل فأجد أمامي أناس يفكرون، بماذا؟ أن هذه الأزمة إذا انتهت وأن هذه المصيبة إذا انطوت ينبغي أن نستعلن دولة لا دينية، ينبغي أن نستعلن الدولة البعيدة عن الهيمنة الإسلامية والدينية بكل معنى الكلمة، لماذا؟ ليكون ذلك ردة فعل تجاه أولئك المرتزقة الذين يعلنون أنهم فيما يزعمون يريدون أن يقيموا خلافة، إنهم لون جديد من أخطر ألوان محاربة الإسلام، يحاربون الإسلام باسمه، أجل. يعدمون الإسلام بحباله، والشر ما يمكن أن تتصوروه من حرب كائدة للإسلام، تلك الحرب المقنعة باسم الإسلام، وردة الفعل وردة الفعل تقول على ألسن كثير من الناس – ولا أريد أن أقول من هم – تقول ينبغي أن نرجع بهم إلى اللادينية، وربنا سبحانه وتعالى يهيب بنا أن نعود إليه، أن نتضرع إليه، ولسوف يكشف عنا هذا الغم وسحابة هذا البلاء كما كشف عن تلك الحافلة سحابة الخطر المدلهم الذي كاد أن يودي بحياة جميع من فيها، أجل. أين هم؟ أين هم الذين يعلنون توبة نصوحاً إلى الله عز وجل؟!

تمنيت أن لو شممت رائحة هذه التوبة، تمنيت أن لو شممت عبير هذه التوبة تستعلن كما رأيتها في مظهر أولئك الشباب، صورة رأيتها ولا أنساها ما بين ساعات وساعات. مظهر من المجون الشابي – وإنكم لتعلمون هذه المرحلة التي يمر بها الإنسان – وإذا بهؤلاء الناس يُخلقون خلقاً آخر عندما طافت المحنة وعندما أحيط بهم، إذا بهم من أقرب الناس عبودية لله، إذا بهم من أقرب الناس التجاءاً وضراعةً إلى

الله، وإذا بهم يقودون كل من في الحافلة إلى الله ليتوبوا إلى الله وليؤوبوا إليه. يا أيها الأخوة ما الفرق لماذا لا نجد أولئك التائهين في الأمس تعود فتصطلح مع الله اليوم؟ لماذا؟!

أسأل الله عز وجل أن يرينا من هذه المصيبة فجاءة الخير، وأسأل الله عز وجل أن يبدد سحابة هذه الفتنة كما بددها بالأمس استجابةً لحال أولئك الذين كانوا ماجنين بالأمس ثم أصبحوا عبيداً متبتلين لله من بعد. أقول قولي هذا واستغفر الله.



٤٨٨- إنهم يصرّون على خنق الإسلام بحبال الجهاد | ٢٠١٣/٠١/٠٤

لا يشك أحد في أن هذه الفتنة التي تمر بها سورية تنطوي على مصائب شنيعة مرعبة ليس في دنيا الإنسانية جمعاء من يقرها، من الذي يصدق أنه سيأتي يومٌ على سورية يُهَجَّرُ فيه الناس من بيوتهم ومساكنهم أو تُحَرَّقُ بهم وتُهَدَّمُ عليهم؟! من الذي يصدق أنه سيأتي يوم من أيام الزمن تتلاقى فيه أيدي الإجرام آتيةً من جنبات الأرض جمعاء لتجتث كل نعمة ولتزرع كل مفسدة ولتقضي على كل صلاح ولتحرق النسل والزرع ولتتعقب أنابيب الغاز والنفط فتفجر هذه وهذه وتلك وتتعقب مولدات النور والكهرباء فتدمرها جهد الاستطاعة، من الذي كان يصدق أن يمر مثل هذا اليوم على هذه البلدة؟! من الذي يصدق أن يوماً سيأتي تُحْمَلُ فيه الأعين المبصرة على أن ترى من المرعبات ما لم تُخْلَق الأعينُ لرؤيتها، تُحْمَلُ على رؤية الأطفال الذي يُقَتَّلون في أحضان أهليهم أو في مدارسهم، تُحْمَل على رؤية البرآء الذين يُذَبَّحون ذبح النعاج، تُحمَل هذه الأعين على رؤية الناس الذين يُقذَف بهم من قمم الأبنية الباسقة، تُحمل هذه الأعين على رؤية النساء اللاتي يُغتصبن ثم يُقتَّلْن ويبضَّعَن، من الذي كان يتصور أن سوريا هذه البلدة الآمنة التي توزع الأمن والسلم على جيرانها يمر بها مثل هذا اليوم العاصف، وفيم ولماذا وتحت أي غطاء قانوني يجري كل ذلك؟! كل ذلك يجري ويتم تحت غطاء قانون واحد لا ثاني له ألا وهو قانون الحقد الذي من شأنه أن يشرعن كل ممكن في سبيل تحقيق كل مطلوب، هذه هي الحقيقة التي ينبغي أن نعلمها أولاً.

ولكني أريد يا عباد الله أن ألفت أنظاركم إلى مصيبة أدهى وأعتى وأخطر من هذه المصائب التي استعرضت جانباً منها لكم، إنها مصيبة محاربة الإسلام بطريقة حديثة لا عهد للتاريخ بها من قبل قط، إنها الصورة التي بوسع كلٍّ منا أن يراها إذ يُحمل الإسلام على أن ينحر نفسه بيده، يُحمل الإسلام بهذه الطريقة العجيبة على أن ينحر ذاته بيده، يُحارب الإسلام بسلاحه، بسلاح الإسلام ذاته، ألا ترون كيف

أن كل تلك الجرائم تُنتهك وتُرتكب تحت اسم الجهاد، تحت اسم طرق باب الجنة للدخول إليها من وراء هذه الجنايات.

ألا ترون يا عباد الله إلى هؤلاء الذين تجمعوا فوق هذه الأرض المباركة من أطراف الدنيا كلها كيف يضعون كتاب الله وشرائعه تحت أقدامهم – ومعذرة لشعائر الدين إن قلت هذا الكلام تعبيراً عن الواقع – أجل يضعون كتاب الله وشرائعه تحت أقدامهم ثم إنهم يرسمون شهادة الإسلام استخفافاً على جباههم.

ألا ترون هذا يا عباد الله، هل من فرق بين هذه الظاهرة التي نراها وبين من يعكف على شرب الخمرة يحتسي منها الكأس إثر الكأس مصراً على ألا يزدرد الشربة الواحدة منها إلا ذاكراً اسم الله بالتكبير والحمد والبسملة، هل من فرق بين هذه الظاهرة التي يُستخف بها الإسلام ويُستهزأ بطريقة ما مثلها، هل من فرق بينها وبين من يقدم على الفاحشة جهاراً نهاراً ثم يصر على ألا يرتكبها إلا مكبراً، إذا ذاكراً اسم الله سبحانه وتعالى.

لقد مرَّ بخاطري الشيء الكبير والكثير وأنا أقرأ في تاريخ العالم مرَّ الكثير من صور الهزء، من صور السخرية ولكني لم أعهد مثل هذه الصورة قط يا عباد الله. باسم الإسلام يمزق الإسلام، باسم الجهاد في سبيل الله تُمزق شرعة الجهاد التي نقرؤها في كتاب الله سبحانه وتعالى. باسم تحقيق الإسلام والسعي إلى تنفيذه يُخلق أسباب الكراهية، أسباب التذمر من الإسلام عند كثير من الناس.

ها هي ذي النتائج الأولى تبدو أمام أبصارنا جلية، ها هم أولاء الذين كانوا إلى الأمس القريب يبحثون عن حججٍ لعلمانيتهم التي يصرون على رفع لوائها، كانوا إلى الأمس القريب يبحثون عن الحجج لرفع لواء لا دينيتهم التي يسعون إلى تنفيذها فما كانوا يعثرون، إنهم اليوم يفرحون ولا فرح من عثر على كنز كان قد افتقده ثم رآه على حين غرة، نعم لقد اتسعت أمامهم ميادين الأنشطة المختلفة سعياً إلى فرض اللادينية في مجتمعاتنا الإسلامية، لقد أمسكوا بالمبرر إثر المبرر من أجل أن يجدوا المبررات لغرس راية العلمانية في مجتمعاتنا الإسلامية، أفكان يعثرون على شيء من ذلك لولا هؤلاء الذي وفدوا إلينا أو أوفِدوا إلينا من أقطار العالم ووقفوا على مسرح الأحداث على مرأى من العالم كله يحكمون على الإسلام بأن

ينحر نفسه بيده، يحكمون على الإسلام بأن ينحر ذاته بسلاحه، ألا ترون، أليس هذا هو الذي يجري يا عباد الله؟!

الجهاد في الإسلام، قرأنا في كتب الشريعة الإسلامية وأصغينا لإدراكه ومعرفته إلى كتاب الله وتدبرنا بعد ذلك ما يقوله رسول الله فلا والله لم نجد الجهاد الذي شرعه الله عز وجل إلا سعياً بالإسلام المسلم إلى قمة العمل الإنساني، لم نجد فيه إلا السُّلَّم الذي يرقى بالإنسان إلى قمة العدالة، لا بل إلى قمة الرحمة بالإنسانية جمعاء. الجهاد الإسلامي يبيح ارتكاب الفاحشة! الجهاد الإسلامي يبرر نهب الأرزاق والثروات من البرآء المسلمين الآمنين المؤمنين! الجهاد في الإسلام يبرر استلاب اللقمة من أفواه أصحابها الجائعين! الجهاد يبرر تفجير كل منابع الرزق الذي سخره الله عز وجل لعباده فوق هذه الأرض! الجهاد يبرر السعي إلى نقيض ما يأمر به الله عز وجل إذ يقول: ﴿وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦].

الجهاد يقول على لسان أصحابه: لا بل سنفسد كل ما هو صالح ونقضي على كل ما هو صالح! من الذي يقول هذا؟! ولكن ها هم أولاء الذين ينشدون اللادينية يعقدون لقاءاتهم هنا وهنا وكأن لسان الحال يقول لهم: هذه هي الفرصة التي قد لا تعود، لقد فُسِحَ أمامنا الطريق ولقد تلقينا الإشارة التي تعلن أن ساعة الصفر قد جاءت لمحاربة الإسلام ولفرض اللادينية في هذه المجتمعات، ألا ترون؟! ولكن هل هنالك ما يجعل الإنسان العاقل المتدبر وإن الإسلام ليدعو إلى العقلانية قبل العلم، كم عا لم أحمق أوداه علمه إلى سوء المصير.

الإسلام يربينا على أن نعقل الأشياء ثم نتوجها بالعلم. ما من عاقل إلا ويعلم أن الطريق إلى الإسلام لا يمر عبر البيت الأمريكي، ما من عاقل إلا ويعلم أن السير إلى الإسلام لا يمر عبر تل أبيب، ما من عاقل إلا ويعلم أن نظام السعي إلى الإسلام لا يخططه برنارد ليفي، ما من عاقل إلا ويعلم هذا وإسلامنا يربينا على العقلانية، إسلامنا يربينا على أن نعلم الحقائق ومصادرها، إسلامنا يربينا على ألا نُخْدَعَ ولا نَخْدَعَ، إسلامنا يقول لنا ما كان يقوله عمر: لست بالخب ولا الخب يخدعني. نعم، كل هذا الذي نراه

من المصائب المتنوعة المختلفة يهدف إلى شيء أساسي واحد لا ثاني له ألا وهو امتلاخ الإسلام من تربة الإسلام بعد مكة والمدينة، نعم، هذه هي الحقيقة التي ينبغي أن نعلمها يا عباد الله.

أقول هذا ولكني لا أخفي ما جعله الله عز وجل بشرى راسخة ثابتة بين جوانحي ولا يمكن أن يأتي يوم أو تأتي ساعة أشك فيها بهذه البشارة التي أكرمني الله عز وجل بها: إن هذه الفتنة ستمر وتنتهي عما قريب، ولسوف تتحول إلى أثر بعد عين، ولسوف يلهج الناس بذكرياتها من أجل أن يلتقطوا منها العبرة والدرس.

فحذار حذار يا عباد الله أن تحملكم فرحة الخروج من هذه المصيبة إلى سكرة النفس، إلى سكرة تحجبكم عن نعمة الله، تحجبكم عن الشكر لله سبحانه وتعالى، حذار، أقولها لنفسي، وأقولها لقيادة هذه الأمة، وأقولها لسائر القائمين بأمرها، وأقولها للجيش الذي ينهض بما أمر الله عز وجل به، حذار أن تسكركم النعمة فتنسوا شكر المنعم، عاهدوا الله، جددوا البيعة معه على أن تكونوا عبيداً سائرين على صراطه ملتزمين بأمره على النهج الذي رسم لا على النهج الذي يمر بتل أبيب، عاهدوا الله سبحانه وتعالى على أن تكونوا رقباء على بيوتكم، على أسواقكم، على مجتمعاتكم ألا يشرد هذا المجتمع يوماً واحداً عن صراط الله سبحانه وتعالى، عاهدوا الله من الآن، قولوا له بألسنة أحوالكم وبألسنة أفواهكم، قولوا: ها نحن منذ الآن نعاهدك على أن نسير على الصراط الذي أمرت، وها نحن من الآن نستغفرك من الشرود الذي وقعنا فيه، نحن عبادك الضعفاء ولكننا اليوم نعود إلى صراطك وها نحن نعود إلى هديك، هذا ما ينبغي أن تعاهدوا الله عليه، ولسوف نتلاقى لنتذكر هذه الحقيقة، المصيبة ستمر والذين حاولوا أن يصطادوا عن طريقها بالماء العكر لن ينالوا من وراء ذلك شيئاً. أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.


منظمة التعاون الإسلامي

٤٨٩- مؤسسات العالم الإسلامي تغط في رقاد سمج ثقيل | ١٩٩٩/٠٤/٠٩

يزدان العا لم الإسلامي اليوم بمؤسسات إسلامية كثيرة وكبيرة، لم يكن يحظى بها العا لم الإسلامي من قبل. ولو عددنا هذه المؤسسات لطال بنا الحديث؛ وكلها أسماء ضخمة ومؤسساتٌ تبعث على الأمل المزدهر الكبير.

هنالك منظمة المؤتمر الإسلامي وما يتفرع عنها من فروع ومجامع.

وهنالك المؤسسات الثقافية الإسلامية المنتشرة في أرجاء العا لم العربي والإسلامي.

وهنالك المؤتمرات الإسلامية المنبثقة عن هذه المنظمات والمؤسسات.

وهنالك الجامعات الإسلامية التي تتكاثر ولا تنقص بحمد الله.

وهنالك الاحتفالات الضخمة التي تُقام بالمناسبات الإسلامية الكثيرة التي تمر خلال كل عام.

وهنالك الكلمات الرنانة التي تتجاوب زوايا العا لم الإسلامي بأصدائها. كل هذا موجودٌ بحمد الله عز وجل في عالمنا الإسلامي اليوم.

ولكننا ننظر ونبحث عن الثمرات التي تقدمها هذه المنظمات فلا نجد شيئاً، نبحث عن الأعمال التي تنهض بها هذه المؤسسات في سبيل الإسلام ولإرضاء الله عز وجل فلا نعثر على شيء. بل إننا لننظر فنجد أن همجية القرن العشرين تجتث حقوق الإنسان أجمع بما فيها الإنسان المسلم وغير المسلم. وتقتلع دعائم العدالة من كل صقع من أصقاع هذا العا لم العربي والإسلامي.

وننظر وإذا بأيد أولئك الذين قد آلوا على أنفسهم أن يجتثوا شأفة الإسلام من كل صقع من أصقاع العا لم سواء العا لم الإسلامي أو غير العا لم الإسلامي، ننظر فنجد أن هؤلاء الناس يفعلون فعلهم ويدأبون على تنفيذ خططهم وليس ثمة من ينكر، وليس ثمة من يقف في وجه هؤلاء الناس إطلاقاً. وكل عاقل من المسلمين يقف أمام هذه الظاهرة محتاراً...

أين هي أصوات منظمة المؤتمر الإسلامي؟ أين هي أصوات ما تفرع عنها من مؤسسات ومجامع؟ أين هي أصوات الجامعات الإسلامية المتنوعة؟ أين هي أصوات قادة الإسلام والمسلمين في بلادهم؟ أين

هي ثمرات هذه المؤسسات الضخمة؟ أين هي أصوات الذين يجلجلون خلال العام بكلماتهم الطنانة في احتفالاتهم الضخمة بالمناسبات الإسلامية المختلفة؟ مالهذه الأصوات قد خفتت الآن؟ ومالمنظمة المؤتمر الإسلامي قد اختبأت في الظلام؟ ومالها لا تنبس ببنت شفة؟ ومال هذه المؤسسات والقائمين عليها لا يقولون كلمة ولا يرفعون صوتهم بأي استنكار؟

بل أقول: مالنا ننظر فنجد أن الغرب الذي يفعل ما يفعل بهمجيته التي لا مثيل لها في تاريخ العالم كله نجد فننظر هو الذي في الوقت ذاته يتظاهر بالرحمة التي يرسلها لهؤلاء الذين يهجرون من بلادهم وديارهم وأوطانهم؟ هؤلاء الذين يرتكبون جرائمهم المنكرة بشكل مباشر أو بشكل غير مباشر، هم أنفسهم الذين يقومون قياماً مزيفاً طبعاً بواجب الرحمة بأولئك الذين يُهجرون ويُقتلون ويُشردون، بينما ننظر إلى المؤسسات العظيمة الضخمة في العالم الإسلامي وإذا هي صامتة تتقلب في رقادها السمج الثقيل. ما السبب؟

السبب هو التالي أيها الإخوة: الإسلام يبدأ من القلب ثم يفعل فعله بعد ذلك في الأعضاء وبالمجتمع، الإسلام يبدأ عبوديةً لله عز وجل في القلب يُطهر القلب من سائر الأدران ومن سائر الأغيار ويجعل الفؤاد مليئاً بحبٍ ولكن لله وحده، بخوفٍ ولكن من الله وحده. ثم إن الإسلام بعد هذا يتجاوز من الباطن إلى الظاهر فتنهض الأعضاء بالوظيفة التي وكل إليها ومن ثم ينهض المجتمع الإسلامي بالوظائف التي وكلت إليه، وهذا هو الإسلام في حقيقته.

ألم تقرأوا قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ عبر البيان الإلهي عن الإسلام بالعبودية لله عز وجل ثم قيّد هذه العبودية بالإخلاص التام عن الشوائب.

ألم تقرأوا قول الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

انظروا كيف بنى التقوى على العبادة والعبودية: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾، والعبادة إنما تكون في القلب معينها القلب، العبادة سرٌ لا يهيمن إلا على الفؤاد ولا وجود له إلا في حناياه، وإذا لم توجد مشاعر العبودية لله لم يوجد التقوى، ذلك لأن التقوى ثمرة العبادة والعبودية والتقوى هي البوتقة الفعالة في المجتمع، بالتقوى

يتحقق الجهاد، بالتقوى يقف المسلمون درعاً لحماية حقوقهم وأنفسهم من أعداء الله وأعدائهم، بالتقوى تهون الدنيا وتغلو وتعلو الآخرة. أجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي فإن لم تكن العبادة هي المهيمنة على القلب لن يوجد التقوى.

الإسلام له أصوات لا صوت واحد يجلجل في أنحاء العالم العربي والإسلامي اليوم، والإسلام له مؤسساته الكبيرة والضخمة هنا وهنا وهناك، والإسلام له الذين يتكلمون باسمه شعراً ونثراً في المناسبات التي تمر، لكن انظر إلى هؤلاء الذين يمارسون هذا الإسلام تجد أنهم يستغلونه لمصالحهم، تجد أنهم يمتطونهم لسياساتهم، تجد أنهم يجعلون منه ترساً لكي يتقوا بأنفسهم من سهام الماكرين وسهام الذين يتربصون بمصالحهم.

انظروا أيها الإخوة إلى الإسلام الذي يمارس اليوم تجدون أنه يمارس استغلالاً له، يمارس كما يمارس الرجل مطيته يركبها عند الحاجة إليها ثم يُعرض عنها عندما لا يكون محتاجاً إليها. منظمة المؤتمر الإسلامي، منظمة سياسية أجل، ولكنها تستغل الإسلام وتعتمد على الإسلام وتبتز مشاعر المسلمين من أجل مصالح لا أكثر من ذلك، وقد رأينا كثيراً ممن يتحملون مسؤولية العمل في منظمة المؤتمر الإسلامي وحاولنا أن نبحث عن مكانٍ لمشاعر العبودية لله في قلوبهم فلم نجد، حاولنا أن نبحث عن معنى من معاني الأداء الذي ينبغي أن ينهض به المسلم بحقوق الله، عباداتٍ ولم نجد، وكلهم يدورون في فلك مؤسسة اسمها منظمة المؤتمر الإسلامي. كم وكم أصغينا إلى احتفالات تقام بمناسبات شتى من المناسبات التي تعرفونها خلال العام، ورأينا التسابق، التسابق في مضمار البلاغات الكلامية، التسابق في مضمار القصائد الشعرية، التسابق في مضمار التمثيليات الفنية، التسابق في مضمار هذه الكلمات وبحثنا عن أبطال هذه الكلمات لوجدناهم ولا زلنا نجدهم شاردين عن صراط الله، لا تجد حظاً في أفئدتهم لمعنى العبودية لله سبحانه وتعالى.

هذه الظاهرة التي يراها كلٌ منا، علام تدل؟ تدل على أن هنالك مصالح شتى متنوعة كلٌ يسعى إليها، وكثير ما تكون الوسيلة التي لابد منها لبلوغ هذه المصالح امتطاء الإسلام. كثيراً ما تكون الأداة التي لا بد منها للوصول إلى المبتغيات الدنيوية والمصالح الشهوانية متمثلةً في الإسلام يُتخذ ترساً. والإسلام

الذي ابتغاه الله لنا إنما هو حقيقةٌ تهيمن على القلب، الإسلام الذي شرفنا الله عز وجل به هو عبارة عن العبودية الصافية التامة لله عز وجل تهيمن على عرش الفؤاد.

أرني هؤلاء الذين هيمن الإسلام على أفئدتهم فاستهانوا بالدنيا في سبيل الله، واستهانوا بحظوظهم في سبيل أوامر الله، واستهانوا بمصالحهم في سبيل أن يغذوا مشاعر عبوديتهم لله عز وجل ممن يقودون هذه المؤسسات أُرك كيف يجعل الله سبحانه وتعالى سلطان الدنيا إليه، أريك كيف يجعل الله سبحانه وتعالى هيبتهم تغزو أفئدة هؤلاء الماكرين والأوغاد الذين يتربصون بحياة البرءاء من المسلمين، أجل.

فإن شك شاكٌ في هذه الحقيقة التي أقولها فلينظر إلى أول ثمرة تتحقق لدى هيمنة الإسلام على أفئدة ثلاثة من المسلمين: هي التضامن والتآلف، يجعلهم الإسلام بمثابة رجل واحد، فإن تحول هؤلاء الثلاثة إلى ثلاثمئة وكان الإسلام مهيمناً حقاً على أفئدتهم رأيت هؤلاء الثلاثمئة قد حولهم الإسلام إلى رجل واحد إلى قلب واحد. فإن تحول هؤلاء الثلاثمئة إلى الآلاف أو الملايين وكان الإسلام حقاً يهيمن على قلوبهم بعد أن هيمن على عقولهم واصطبغت أفئدتهم بحقيقة العبودية لله سبحانه وتعالى، تنظر فتجد أن هذه الملايين قد تساقطت الفوارق مما بينهم، وأن فوارق ما بين دولة ودولة قد تهاوت مما بينها، وأن الإسلام قد جمعهم في بوتقةٍ واحدةٍ خرّجت منهم أمة واحدةً يظهر منها ويتجلى فيها مصداق قول الله عز وجل: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾.

ولكنك تنظر فتجد أن المسلمين اليوم مثال التفرق، بل مثال التدابر ومثال التخاصم، ولو كان الإسلام حاضراً لما وقع شيء من هذا، الإسلام غائب عن القلوب، ولكنه حاضر عند اللزوم على الألسن، الإسلام غائب عن المشاعر والأفئدة لأن المصالح الدنيوية المختلفة هي التي هيمنت عليها ولكنه يحضر عند الحاجة إليه يحضر عند لزومه، يحضر عند استدعاءه، أرأيتم إلى مسلمين يستدعون إسلامهم عند الحاجة إليه ويصرفونه عند زوال الحاجة إليه، ومتى يكون الإنسان مستغنياً عن ربه ليستغني عن إسلامه؟ متى؟

أيها الإخوة كان لابد أن أقول هذا الكلام لأن في الناس من ينظر إلى العالم الإسلامي نظرةً سطحية فيعتب من خلال نظرته السطحية هذه على الله يقول: العالم الإسلامي اليوم مليء بالأنشطة الإسلامية

التي لم تكن موجودة من قبل منظمة المؤتمر الإسلامي، المجامع الإسلامية المتنوعة الموجودة، الجامعات الإسلامية الكلمات والشعارات الإسلامية، الكتب الإسلامية الدعوات الإسلامية إلى الله عز وجل عالمنا الإسلامي يفور بهذا كله، ومع ذلك يدعنا الله عز وجل لقمة سائغة لهمجية القرن العشرين ولوحوش القرن العشرين من أقصى أمريكا إلى اوروبا!

الجواب أيها الإخوة: الله لا يظلم أحداً، لو كان هؤلاء الناس انطلق الإسلام عبوديةً لله في أفئدتهم وصدقوا الله عز وجل وطبقوا على أنفسهم معنى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ إذاً لرأيت ما يسرك ولرأيت أن أعداء الإسلام ليسوا إلا حشرات تظهر في الظلام ثم تغيب لدى ظهور أشعة الشمس الإسلامية الضاهجة.

أقول قولي هذا وأستغفر الله.



٤٩٠- إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ |٢٠١١/٠٩/٢٣

فآية في كتاب الله سبحانه وتعالى تتضمن قراراً قضى به وحكماً أمر به، الآية قول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠]. والقرار الذي تضمنته هذه الآية هو قوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾. أما الحكم الذي أمر به بعد ذلك فهو قوله: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾.

وقد شرح وبين لنا كلٌّ من كتاب الله عز وجل وسنة رسوله وجوه هذا الإصلاح الذي أمر به الله سبحانه وتعالى. حسبكم من ذلك قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ والعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

وقوله عز وجل: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

أما بيان المصطفى صلى الله عليه وسلم فيما أودع في سنته فحسبكم من ذلك قوله: ﴿المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يسلمه، التقوى هاهنا – وأشار إلى قلبه – بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام؛ دمه وماله وعرضه﴾.

وحسبكم من ذلك أيها الإخوة قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿المؤمنون في توادهم وتحابهم كالجسد الواحد، إن اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى﴾.

فذلك هو قرار الله عز وجل الذي قضى به وهذا هو الحكم الذي بينه لنا كل من كتاب الله عز وجل وسنة رسوله. نحن المحملون مسؤوليات هذا الحكم الذي أرمنا به إذ قال: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾.

عباد الله: إن عالمنا الذي يحيط بنا والذي نحن جزء منه يسمى العالم العربي الإسلامي، وما سمي عربياً إلا لأن العروبة سُلَّمُ الإسلام. هو عالم يعتز ولا يزال بانتمائه إلى الإسلام قادة وشعوباً، هو عالم لا

يزال يعلن أنه ينتمي إلى دين الله عز وجل، من لم يكن ينتمي إلى ذلك بالاعتقاد ينتمي إلى ذلك ويعلنه مراراً من الجانب الحضاري، هو مسلم حضاري، هذه حقيقة نعلمها، ولكن تعالوا نتساءل أين هو التنفيذ للحكم الذي أمر الله عز وجل به إذ قال: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾، أين هي مظاهر الإصلاح التي بينها كتاب الله إذ قال: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى﴾؟ أين هي مظاهر الإصلاح التي بينها المصطفى صلى الله عليه وسلم إذ قال: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه، لا يخذله، لا يسلمه، كل المسلم على المسلم حرام؛ دمه وماله وعرضه». أنظر وتنظرون فلا نجد إلا انصرافاً عن تنفيذ هذا الحكم الذي شرفنا الله عز وجل به، وإنه لغطاء شرَّف به قراره إذ قال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾.

أنظر إلى الألقاب والأسماء الضخمة فأجد فيها ما يثلج الصدر وما يبشر: منظمة المؤتمر الإسلامي التي آل اسمها إلى منظمة التعاون الإسلامي، تعاون! شيء رائع. جامعة الدول العربية، هي تجمع، أمر رائع وإنه لجزء لا يتجزأ من الحكم الذي قضى الله عز وجل به. اتحاد البرلمانات العربية الإسلامية.

عناوين رائعة مبشرة، ولكني أهبط عن مستوى العناوين لأنظر إلى ما دون العناوين فلا أجد شيئاً، بل دعوني أكون أكثر صراحة أجد ما يؤلم، أجد ما يخيب الآمال، بدلاً من أن تكون مضامين هذه الألقاب قائمة بالعمل على توحيد الأمة أنظر فأجد أنها ممعنة في تفريقها، أتأمل في هيكلية الجسد الإسلامي كما وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال: «كالجسد الواحد إن اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى». فأجد أن عالمنا العربي والإسلامي بمختلف ألقابه الكبرى يمعن بتفكيك أوصال هذا الجسد وتحويله إلى قطع متنافرة متنابذة يشمت كل عضو منها بالأسى الذي يمارسه العضو الآخر، هذا ما أجده يا عباد الله، وإنه لشيء مؤلم وشيء مؤسف.

وإنني فكرْتُ ملياً ترى كيف يتم التناقض في عالمٍ نحن نعلم جميعاً أن شعائر الإسلام تبرق وتلتمع فيه، مساجد هذا العالم ما تزال عامرة، مآذنه لا تزال باسقة، أصوات قرَّاء كتاب الله عز وجل ترتفع أصدؤها إلى عنان السماء، ولا يزال اسم الإسلام متردداً هناك، حسناً، كيف يكون المظهر هكذا والمخْبَرُ نقيضه؟ كيف!؟ لم أجد جواباً عن هذا السؤال إلا أن عالمنا العربي والإسلامي قد استخذى اليوم يا عباد

الله وأصبح مستسلماً لما يسميه بالوحي الدولي والرغبات الدولية أو رغبات الدول العالمية، ولقد قلت لكم بالأمس إن هذه الدول ليست أكثر من أمريكا وذيولها الخادمة وإسرائيلها المستخدمة، كيف، كيف هذا! يمكن أنا إنسان أعتز بإنسانيته، إن لم أقل بإسلامه – وأنا أعتز بإسلامي قبل إنسانيتي –كيف أتصور أن يؤول الأمر بعالمنا العربي والإسلامي إلى أن يستخذي تحت سلطان هذا الذي ذكرته لكم، هذا الثلاثي، وينسى أمر الله وقراره، ينسى الالتزام بينه وبين مولاه وخالقه سبحانه وتعالى.

دعوني يا عباد الله أتوجه باسمي وباسمكم إلى هذا العالم العربي الإسلامي المحيط بنا متمثلاً في قادته ولا أقول في شعوبه، دعوني أتوجه إلى هذا العالم المتمثل في قادته الذين يصرون على أن يعيدوا في عالمنا الإسلامي سيرة ملوك بني الأحمر في الأندلس يوم تضامنوا وتعاونوا ولكن على حفر قبر صغيرٍ صغير دفنوا فيه دولة إسلامية كبيرةً كبيرة عاشت ما لا يقل عن سبعة قرون، دفنوها فيه ثم إنهم تحولوا إلى العالم وأصبحوا شذر مذر، أقول لإخواننا هؤلاء الذين يصرون على أن يعيدوا سيرة ملوك بني الأحمر في مجتمعاتنا الإسلامية هنا أولاً: لا يمكن أن تُعاد هذه السيرة هنا أبداً، بلادنا هذه إنما هي القلب النابض للإسلام، عرف ذلك من عرف وجهله من جهل، ولكن المهم أنني أتوجه إليهم قائلاً: لكم أن توجهوا النقد الذي تشاؤون إلى جارتكم سورية هذه، لكم ذلك، بل لعل هذا هو الواجب الذي ينبغي أن تنهضوا به ولكن بدافع من الغيرة الإسلامية التي شرفكم الله بها، بدافع من الشعور بالوحدة الإسلامية التي متعنا الله سبحانه وتعالى بها، لا استجابة لإيحاء عدوٍّ مشترك، لا استجابة لإيحاء مواقف دولية كما تقولون، لا. ابعثوا انتقاداتكم ولكن من خلال أبصاركم الإسلامية أو إن شئتم أبصاركم الإنسانية، لا تستعينوا بمناظير إسرائيلية مكبرة تلمحون وتحللون واقع بلدنا هذا من خلال ذلك، لا. لا تنظروا إلى واقع بدلنا وأمتنا هذه من خلال عينين زرقاوتين هما قناتان عُرِفَا بدجلهما وافترائهما وكذبهما وأنا أول من يعلم مَنْشَؤهما ومِنْشِؤهما، لا، لا. انظروا بأعينكم المجرد، أعينكم الإنسانية، بل ينبغي أن أقول لكم بأعينكم الإسلامية. لكم أن تنتقدوا كما تشاؤون، سمعتم ورددتم أن في سوريا قتلاً كثيراً يستحر ورددتم ما سمعتموه، نعم، ولكن من القاتل ومن المقتول، تعالوا فانظروا لتعلموا الجواب، ولست أنا الذي أجيب، لماذا لا تأتون، لماذا لا ترسلون وفوداً منكم كأولئك الذين أرسلوا وفوداً مشرقين ومغربين، دخلوا فنظروا ووجدوا وقال قائلهم – وقد جاء

من أمريكا: إني لأخشى على نفسي من السير في شوارع شيكاغو أكثر بكثير من السير في هذه البلاد الآمنة التي رأيت. تعالوا فانظروا من هم أولئك الذين يزرعون ميادين بلادنا بالمتفجرات الضخمة الثقيلة التي يُقْصَدُ منها أن تتفجر في ميقات معين فتقضي على مئات — لا أقول عشرات — البرآء، تعالوا لتعلموا من الذين يفعلون ذلك، من هو القاتل ومن هو المقتول.

تعالوا فانظروا من هم الذين يرسلون بالأسلحة الفتاكة المتطورة، بأثقال بل بأطنان من المتفجرات تأتي من نوافذ من الشرق ومن الغرب ومن الشمال ومن الجنوب، ماذا فعلت سورية حتى تُرْسَلَ إليها هذه الأثقال بل هذه الأطنان، من القاتل ومن المقتول؟ أجيبوا، أجيبوا أيها الإخوة.

وشيء أخير ينبغي أن أقوله: نحن نعترف بما وصفنا الله عز وجل به: ﴿وَخُلِقَ الإنسَانُ ضَعِيفاً﴾ [النساء: ٢٨]. لسنا معصومين في جنبات الأرض هذه، نحن مسلمون ومؤمنون ولكنا لسنا بمعصومين، قد تند منا الأخطاء وقد نرتكب المعاصي وقد نركن إلى بعض المنكرات ولكن هل نرفض نصيحة الناصحين، هل رفضنا من يأتي ليأمرنا بالمعروف وينهانا عن المنكر كما أمر الله عز وجل إذ قال: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾!؟ لا يا أيها الإخوة. أقول لهؤلاء الإخوة قادة عالمنا العربي والإسلامي: تعالوا فمرونا بالمعروف ولسوف تجدون من يستجيب، وأنا فرد لا أتحمل أية مسؤولية وليست لي أية صفة غير كوني واحداً من هذه الأمة، لقد رأيت منكرات فحذرت منها فتحققت الاستجابة، بحثت عن معروف غائب طلبت أن يتحقق فوجدت الاستجابة، والتقصير لا يزال، نحن مقصرون ﴿كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون﴾ ولكن فرق بين من يقصر ويعترف أنه مقصر ويقول تعالوا لنتعاون في سبيل أن نتفادى تقصيرنا ونتسامى فوقه وبين من يقصر ويعد تقصيره عملاً مبروراً، لا. نحن لا يمكن أن نستجيب لمن يطلب منا أن نستبدل بآي القرآن غيره. لا، يمكن أن نستجيب لمن يطلب منا أن نشطح أو أن نقفز فوق بعض الآيات عندما نتلوا كتاب الله على ملأ أو في محفل، لا، لن يتحقق ذلك وإن أصغى السمع إلى هذا من أصغى السمع ممن حولنا، هذا هو واقعنا.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن لا يخلي أمتنا من الشرف الذي متَّعَهَا به، وأي شرف أجل وأعظم من شرف قرار وحكم: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ ثم ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾. أقول لمولانا الذي يسمع الساعة كلامنا ويرى قلوبنا ويعلم أسرارنا أقول: عهدٌ ألزمنا به أنفسنا تجاهك يا مولانا يا ذا الجلال والإكرام أنت ولينا من دون الناس جميعاً ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦].

هي أنشودتنا نرددها صباح مساء، أقولها يا رب العالمين: نحن ملتزمون بالأمر الذي وجهته إلينا أن نصلح إخواننا، سنكون آمرين بالمعروف، سنكون ناهين عن المنكر لكن بدافع من الغيرة على أنفسنا وعلى إخواننا، بدافع من الحب، لا أن نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ونحن نحمل معاول التهديم ومعاول التخريب، بيعة أجددها باسمي وباسمكم جميعاً يا عباد الله لمولانا جل جلاله، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

٤٩١- وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى | ٢٠١١/١١/١٨

تعالوا أضعكم مرة أخرى أمام هذه الآية من كتاب الله سبحانه وتعالى التي غدت غريبة عن أكثر مجتمعاتنا الإسلامية والتي غدا أكثر مجتمعاتنا غريبة عنها، إنها قول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠].

وإنكم لتلاحظون يا عباد الله أن الشطر الأول من هذه الآية تقرير وبيان، وأن الشطر الثاني منها أمر وتوجيه، أما التقرير فهو قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ وصدق الله فيما قال وقرر، وأما الأمر والإعلام، وأما الأمر والتوجيه فهو قول الله سبحانه وتعالى: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾.

ولكن كيف يتم هذا الإصلاح الذي أُمِرْنَا به من خلال هذا النص الصريح الجلي في كتاب الله عز وجل؟ لقد أحالنا بيان الله عز وجل في الجواب عن هذا السؤال إلى آية أخرى جامعة، قصيرة الألفاظ لكنها جامعة لمنهاج الإصلاح أجمع، إنه قول الله عز وجل: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

هما أمران اثنان، في الانقياد لهما يتحقق الإصلاح ما بين الإخوة. هذا الذي أمر به الله سبحانه وتعالى هو الجواب عن هذا السؤال القائل كيف يكون الإصلاح؟ الجواب ﴿تَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾.

يا عباد الله: تعالوا أضعكم أمام التفسير الدقيق العجيب لهذا الكلام الرباني الذي فُصِّلَ على قدر منعطفنا الذي نمر به في هذا العصر. ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى﴾ خطاب للمؤمنين عامة يدعوهم الله عز وجل فيه إلى التعاون بالبر أي بفعل الخير والتقوى أي الابتعاد عن المنكرات والشرور بأنواعها، في كل الأحوال؟ نعم في كل الأحوال، حتى عندما يكون الأخ المجاور لك منحطاً في المعاصي والأوزار، حتى

عندما يكون متورطاً في الظلم والقتل، في كل الأحوال ينبغي أن تكون علاقة ما بين هؤلاء الإخوة التناصح فيما بينهم.

ويحذر الله عز وجل من الشرود إلى خارج دائرة هذه الأخوة التي ينبغي أن يكون التناصح محصوراً في داخلها، يحذر من ذلك قائلاً: ﴿وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾. إياكم أن تحملكم تورطات إخوة لكم، وقوعهم في خطأ أو في انحرافهم أياً كان نوعه، إياكم أن يدفعكم ذلك إلى استعداء أعدائكم وأعدائهم عليهم، ينبغي أن يكون الأمر فيما بينكم بكل الأحوال وفي كل الظروف تعاوناً على البر والتقوى. ولقد سُئِلَ المصطفى صلى الله عليه وسلم عن هذا فشرح وأجاب وقال: ﴿انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً، قيل له: هذا نصرته مظلوماً فكيف أنصره ظالماً؟ فقال: تمنعه من ظلمه فذلك هو انتصارك له﴾.

أرأيتم إلى هذا الذي يقوله رسول الله، إذا رأيته مظلوماً واجبك أن تعينه وإذا رأيته ظالماً واجبك أن تعينه، إذا رأيته سائراً على النهج السليم ملتزماً بالقيم والمبادئ الإنسانية الرفيعة ادعمه، أعنه، عَبِّدْ الطريق بينه وبين هذه الغاية، وإن رأيته متنكباً عن هذا النهج، متورطاً في محرم أياً كان فليكن أمرك معه على النهج ذاته، أعنه على البر، كيف؟ بأن تنصحه وأن تمنعه من هذا الذي تورط فيه، وفي كل الأحوال العلاقة ينبغي أن تكون محصورة ما بينك وبين أخيك، ما بينك وبين جارك، إن أحسن تدعمه في إحسانه، وإن أساء تغار عليه وتنصحه لكي يقلع عن إساءته. ولقد روى الحاكم في مستدركه بشرط الشيخين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ﴿من أعان ظالماً على أخيه ليدحض به الحق فقد برئت منه ذمة الله ورسوله﴾.

عباد الله: أرأيتم إلى هذا الكلام؟ أليس هذا الذي يقول الله مشروحاً ببيان رسول الله ثوباً مفصلاً على قدر واقعنا ومنعطفنا الذي نمر به يا عباد الله؟

أقول بعد هذا: أين هو مصداق هذا الذي يقوله بيان الله والذي شرحه وأوضحه لنا حبيبنا رسول الله، أين مصداق هذا من الشعار الكبير الكبير الذي يملأ الآفاق طولاً وعرضاً، شعار (منظمة التعاون الإسلامي) وكان اسمها من قبل (منظمة المؤتمر الإسلامي)؟ أين هو مصداق الكلام الرباني من واقع هذا

الشعار، إنه شعار يلتمع وإنه ليملأ كما قد قلت لكم، وإنها لدائرة كبيرة كبيرة تحتضن الدائرة الصغيرة التي يقال منها (جامعة الدول العربية)، هذه الجامعة هي الدائرة الصغرى التي تحتضنها دائرة ما يُقَال عنها: (منظمة التعاون الإسلامي)، أين هو هذا العنوان من الانقياد لقول الله عز وجل: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

هاهم أولاء الذين يمثلون الشخصية الاعتبارية لمنظمة التعاون الإسلامي ولجامعة الدول العربية يديرون ظهورهم إلى بيان الله ونصحه، ويمعنون في العمل على النقيض مما أمر الله عز وجل به إذ حذر قائلاً: ﴿وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾، لا تنقلوا مشكلاتكم إلى أعدائكم وأعداء مولاكم وأعداء عباد الله. يمعنون في تنفيذ النقيض، ويعرضون عن التعاون الذي أمر به الله والذي أهاب به رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يظل ميثاقاً التزمنا به، والباري عز وجل يقول: ﴿وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [المائدة: ٧].

هاهم أولاء يضعون المشكلة أمام أعداء دين الله وأعداء دينه وأعداء عباده، إنهم يضعون مشكلاتنا – ولنفرض أنها أخطاء ارتكبناها، أنها إساءات وقعنا فيها – يرفعونها إلى برنارد ليفي، يرفعونها إلى أمريكا التي آلت على نفسها أن تخدم الصهيونية والتي قررت من قبل أنها مستعدة أن تهلك البشرية التي تعيش فوق هذه الأرض أجمع في سبيل أن تحيا إسرائيل، أين هو تنفيذ هؤلاء الإخوة على المستويين والدائرتين الكبرى والصغرى، أين هو تنفيذ قول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠].

أين هو تنفيذ الشرح القرآني للإصلاح عندما قال مولانا: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢]. أين هو الالتزام بما أوصانا به رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال: ﴿المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ولا يخذله﴾ نعم.

عباد الله: إنني إذ أقول هذا الكلام لا أحابي ناساً على حساب ناس ولكني أُأَصِّلُ حكما شرعياً ينبغي أن يعلمه القاصي والداني ولا أعلم خلافاً فيه، وما كان لشرع الله في يوم من الأيام ليتحيز لأناس

على حساب أناس، شرع الله ميزان، شرع الله هو الميزان المتسامي المتسامي على كل معاني الانجذاب والتحيز، شرع الله هو الميزان الذي يحصن القسط والعدل، وصدق الله القائل: ﴿وَالسَّمَاء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ، أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ، وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧-٩]. هذا ما أقوله، وهذا ما ينبغي أن نعلمه.

إنني أعود فأقول لنفسي أولاً: من أنا؟ ينبغي أن أعلم هويتي وأستمسك بها، ينبغي أن أتبين ذاتيتي وأن أفتخر بها، ثم إنني أقول لإخواني جميعاً، أباعد وأقارب: من أنتم أيها الإخوة؟ ألستم أولئك الذين واثقوا الله وعاهدوه؟ ألستم أولئك الذين خاطبهم الله إذ قال: ﴿وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [المائدة: ٧]. ألستم الذين شرفكم الله بالخطاب عندما قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١].

أيها الإخوة – أياً كنتم وأينما كنتم – عقد بيننا وبين الله لابد أن يحاسبنا به الله عز وجل لماذا التنكر لهذا العهد؟ لماذا نؤثر أن نكون ممن قال الله سبحانه وتعالى عنهم: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَؤُلاء وَلاَ إِلَى هَؤُلاء﴾ [النساء: ١٤٣]. مشكلة عصفت بمجتمعاتنا أيا كانت، قد يكون سبب هذه المشكلة أخطاءً تورطنا فيها، قد يكون سبب هذه المشكلة ظلماً تورطنا فيه، لسنا معصومين، ولكن ما العمل في هذه الحالة؟ العمل هو أن يتداعى الإخوة فيتناصحوا، العمل هو أن يتداعى الإخوة فيتذاكروا، العمل هو أن ننفذ وصايا كتاب الله وأمر رسول الله ﴿انصر أخاك ظالماً أو مظلوما﴾، انصره مظلوماً بأن تدافع عنه، انصره ظالماً بأن تنتشله من ظلمه، لكن العلاقة بينك وبينه حصراً هكذا يقول لك رسول الله صلى الله عليه وسلم.

أيها الإخوة: المحاباة – إن جاز أن تكون – ينبغي أن تكون لمحبوبنا الأول، وقد قلت لكم في الأسبوع الماضي: إن محبوبي الأول هو الله والفضل في ذلك له، هو الذي غرس بين جوانحي حبه، وإذا هيمنت محبة الله على القلب لابد أن أحب عباده الذين كرمهم الله، فكيف بإخواني الذين تشد بيني

وبينهم آصرة الإيمان بالله، آصرة الاجتماع على كلمة الله، قد نخطئ، قد يشرد بنا الطريق ولكن الله عز وجل يقول: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠].

إنني قد أحابي لكن الله يعلم أني لا أحابي إلا مولاي، لا أحابي غيره ولسوف أتخذ من ذلك زاداً أحتفظ به إلى يوم اللقاء، لسوف أجعل من حبي له وتحيزي إليه زاداً أستفيد منه يوم أن أقف بين يديه، وإنها لوقفة آتية طال العهد أو قصر، سأقف بين يدي الله ولسوف نقف جميعاً، ولسوف يطلعنا الله على ما مضى من أعمالنا، ولسوف نجد أن كل جزئية من جزئيات حياتنا تمثل مسجلة نقية واضحة أمام الأبصار، ما العمل آنذاك، ما الذي يشفع لي آنذاك؟ لن يشفع لي إلا صدق التمسك بهديه، لن يشفع لي إلا صدق التمسك بميزانه، وها أنا أقول ميزاننا في هذه البلدة شرع الله، هو مرجعنا ولن نعدل عنه إلى أي شرع آخر، لا يمكن لأرضنا هذه أن تدنسها اللادينية قط، سيرنا إلى الله طال الطريق أو قصر وما أحسب إلا أنه قد قصر، ومرة أخرى أقول: أظن أن ليس بيني وبين لقاء الله إلا زمناً قصيراً من أيام أو ساعات أو سنوات، ماذا أصنع بمدح المادحين إن كالوا لي المديح؟ ماذا أصنع يا عباد الله بقدح القادحين إن رموني بقدحهم؟ لن يفيدني ولن يضرني كل ذلك شيئاً، إنما المآل هو الأساس.

فيا عباد الله أدعوكم إلى ما أدع إليه نفسي، اصطلحوا مع الله، لا تخرجوا عن دائرة الشرف التي متعكم الله عز وجل بها، دائرة الأخوة الإيمانية، دائرة الأخوة الإسلامية، أصلحوا مشكلاتكم فيما بينكم، أصلحوا أموركم، أعيدوا إخوانكم وأنفسكم إلى جادة النهج القويم عن طريق هذا الحوار الذي أمرنا به الله، أجل: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢]. أي لا تجعلوا من قضاياكم مسألة ترمون بها إلى أعدائكم لتجعلوا من ذلك حجة لكم على إخوانكم بين يدي أعدائكم، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

٤٩٢- التعاون .. عنوان غريب في مجتمعاتنا الإسلامية | ٢٠١٢/٠٣/٠٢

سلسلة من الآيات القرآنية لو سمعها منكم أحدٌ لأول مرة لما ارتاب في أنها نزلت للتو خطاباً لمن شرفهم الله عز وجل بالإقامة فوق هذه الأرض المباركة، تعليقاً على المحنة التي يمرون بها وتبصيراً بالسبل التي يترفعون بها فوقها، تعالوا نتلوا بعضاً من هذه الآيات وتأملوا في الآية البيانية التي افتتحت بها هذه السلسلة، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ، وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ، إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ، وَلِيُمَحِّصَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ إلى آخر الآيات، أرأيتم إلى هذا الخطاب الرباني الذي يبدو وكأنه نزل للتو؟ خطاباً يشرفنا الله عزّ وجلّ به تبصيراً بالسبل التي ينبغي أن نتخذها للتسامي بها فوق هذه المحنة، وتبصيراً للحكمة التي تكمن وراء هذه المحنة التي هي منحةٌ في حقيقتها الباطنة.

تعالوا نقف اليوم أمام الآية الثانية من سلسلة هذه الآيات البيانية، تعالوا نتأمل في قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]. لا تضعفوا، لا تيأسوا، لا تملوا، لأنكم الأعلون من حيث القوة ولأنكم الأعلون من حيث النصر ولأنكم الأعلون من حيث الغنى، ولكن بشرط واحد هو أن تكونوا مؤمنين. ﴿وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

وكلمة الإيمان أو المؤمنين كلمةٌ هينةٌ في هذا العصر لدى كثير من الناس على الألسن، كلمةٌ سهلةٌ بينةٌ في مدلولها على الأذهان، ولكن البيان الإلهي ما حدثنا مرة عن الإيمان والمؤمنين إلا وقيّده بالعمل الصالح، وما ذكر مرةً العمل الصالح إلا وقيّد جدواه بالإيمان، ألا ترون إلى قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً﴾ [الكهف: ١٠٧]

ألا ترون إلى قوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧].

يوضح البيان الإلهي أنّ بين الإيمان بالله عز وجل والعمل الصالح تلازماً دائماً بيناً غير قابلٍ للانفكاك، ولكن ما هو العمل الصالح؟

هذه الكلمة تعبّر عن جنس لا تكاد تجد حدوداً له للأعمال الصالحة الكثيرة المتنوعة، تدخل جميعاً فيما يعبر عنه الإسلام أو يعبر عنه الشريعة الإسلامية بمصالح العباد، فكلّما كان مصلحةً للإنسان فرداً أو مجتمعاً فهو من العمل الصالح بدءاً من العبادات التي يمارسها الإنسان بينه وبين ربه إلى شتى الأعمال الاجتماعية المختلفة المتنوعة التي تدخل تحت عنوان كبير، عنوان مصلحة الإنسانية. ولكن أهم هذه المصالح يا عباد الله، تلك التي يلفت البيان الإلهي أنظارنا إليها، إنّه التعاون الاجتماعي على البر والتقوى والتناهي عن المنكر والعدوان، ألم يقل: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

هذا الذي لفت البيان الإلهي أنظارنا إليه، أهم ما يدخل تحت اسم العمل الصالح، أهم ما يدخل تحت اسم المصلحة الإنسانية، ولو أن مبدأ التعاون على البر والتقوى والتناهي عن المنكر والعدوان كان حياً موجوداً مطبقاً في مجتمعاتنا الإسلامية إذاً لحُصّنت هذه المجتمعات ضد المؤامرات كلها، ولحُصّنت ضد الخطط العدوانية جمعاء، ولارتدت أسهم الاعداء إذ تصطدم بهذا الحصن، حصن التعاون الإسلامي عائدةً إلى صدور أصحابها، ولكن أين هو التعاون الإسلامي الذي أمر الله سبحانه وتعالى به يا عباد الله؟

لقد تحولت حقائق الإسلام في أكثر مجتمعاتنا إلى عناوين فارغة، إلى أشكالٍ ومظاهر ميتة، إلى مؤسسات إسلامية في ظاهرها ولكنها سياسيةٌ في حقائقها ومبتغياتها، وبالجملة وقد أصبح الإسلام اليوم يُستخدم في كثيرٍ من المجتمعات – ولا أقول في سائر المجتمعات – أصبح يُستخدم للسياسة، وليت أنّ حقائق الإسلام كانت تُستخدم للمصالح السياسية، لا بل إنها تُستخدم للأهواء السياسية.

منظمة التعاون الإسلامي عنوان فوسفوري متألق وكبير، كان من المأمول أن يُعبّر هذا العنوان عن الشخصية الاعتبارية لمليار ونصف مليار مسلم يعيشون في هذا العالم اليوم، كان المأمول أن يكون هذا العنوان تعبيراً عن الشخصية الاعتبارية الفعالة باسم هذا المليار ونصف المليار مسلم في العالم، ولقد هُرِع

المنكوبون، المنكوبون وفيهم الأطفال الذين يُتموا، والنساء اللائي رُمّلن، والبرئاء الذين قُطِّعوا وشُوهوا، اتجهوا إلى هذا العنوان الكبير تسوقهم مآسيهم، تحنوا بهم دموعهم وآلامهم وآمالهم، لائذين بهذا العنوان، منظمة التعاون الإسلامي، لكنهم لم يعثروا على شيء، لم يعثروا على شيءٍ يا عباد الله، ولتمنيت أن يكون هذا العنوان حيّاً، معبراً فعلاً عن الشخصية الاعتبارية الفعالة للمسلمين في العالم كما هو المفروض، إذاً لجعلنا إليهم القضاء المبرم في الحقائق التي شُبِّهت علينا في مجتمعاتنا اليوم بفعل كثيرٍ من الفضائيات العدوانية، حقائق كثيرة شُبهت اليوم، منذا الذي يقضي بالحق فيها ؟! أنا أول من يعود في هذا إلى المسلمين الذين يكمل عددهم تقريباً مليار ونصف مليار مسلم، وإنما تمثلهم هذه المنظمة، أقول لها وللقائمين على شؤونها: تعالوا فانظروا وتأملوا وقرروا ونحن معكم، تعالوا فحدثونا من القاتل ومن المقتول؟! من الظالم ومن المظلوم ؟! من هم الذين يرتكبون الجنايات والجرائم ومن هم أصحاب الأيدي التي يمسكون بميزان القصاص العدل ؟!

نحن مع المظلوم أياً كان ونحن ضد الظالم أياً كان، نحن مع المقتول ظلماً أياً كان ونحن ضد القاتل أياً كان، ونحن مع سرعة القصاص ونحن ضد العاكفين على الجرائم أياً كان هؤلاء العاكفون عليها، لكن تعالوا فقرروا، تعالوا فادلوا بقراركم متحرراً من الأسبقيات، متحرراً من وحي التقارير، متحرراً من فارق ما بين القارات، متحرراً من السياسات الرعناء، ونحن معكم، وأنا أول من يعلن أني تابع لقرار الأمة الإسلامية متمثلةً في هذه المنظمة، لكن أين هو مضمون هذا العنوان ؟! لقد هُرِع هؤلاء المنكوبون تقودهم مننهم، لائذين بهذا العنوان، لكنهم لم يجدوا شيئاً.

وإذا جاز لي يا عباد الله أن أستعين بفن الكاريكاتير الذي يلجأ إليه أولئك الذين تخونهم اللغة بحقائقها ومجازها عندما يريدون أن يعبروا عن مشاعر دقيقة جداً فإنني أقول: لقد هرع هؤلاء الباكون المظلومون بحثاً عم مضمون هذا العنوان، ساحوا وذهبوا يميناً وشمالاً فلم يعثروا إلا على قبرٍ كبير مسنم تعلوه شهادةٌ رخاميةٌ كتب عليها هذا قبر منظمة التعاون الإسلامي ماتت في اليوم الأغر الذي ولدت فيه، ولكن كل منا يسأل أليس ثمة من وريث؟ ألم يُخلِّف هذا الميت وريثاً من بعده ؟! ويأتي الجواب الذي

يقوله التاريخ متعجباً مستغرباً قد شابت ذؤابته من الغرابة، أجل هنالك وريث، إنّ الوريث هو روسيا والصين، ذلك هو الوريث.

وأنا أيها الأخوة أريد أن أقول لكم شيئاً سمعته أذناي ووعاه عقلي، ولكني إلى الآن أعجب وأعجب لهذا الذي سمعته أذناي ووعاه عقلي، مسؤولٌ كبير في وزارة الخارجية الروسية وجه منذ أيام نصيحةً إلى جيراننا المسلمين يقول لهم: ويحكم عودوا فتعاملوا مع إسلامكم، حققوا النصائح التي يأمركم بها إسلامكم من الود والتآلف والتعاون، سمعت أذناي هذا وكاد عقلي ألا يصدق، لكن إذا كان التاريخ الذي قد شابت ذؤابته قد صدق فلماذا لا أصدق!

نعم إذا كان هنالك من يسأل من هو الوريث لمنظمة التعاون الإسلامي الذي شهد هؤلاء المنكوبون قبرها يأتي الجواب عن الوريث الفعال اليوم، إنما هو روسيا والصين والله عز وجل له خرق العوائد. أقول قولي هذا وأستغفر الله.



الإسلام والسياسة

٤٩٣- الإسلام والسياسة وعلاقة ما بينهما | ٢٠١١/١٢/٠٢

دعوني أبدأ حديثي إليكم اليوم بتعريف لكلٍّ من الإسلام والسياسة وعلاقة ما بينهما. أما الإسلام فهو الدينونة الكاملة بالعبودية لله عز وجل مع الخضوع لسلطانه وتطبيق شرعه. وأما السياسة فهي إدارة الأمور أياً كانت بمنتهى ما يمكن تحقيقه من الحكمة. ذلكم هو الإسلام وهذه هي السياسة، فأيهما التابع وأيهما المتبوع؟ أيهما الخادم وأيهما السيد المطاع؟

ليس في المسلمين يا عباد الله – سواء كان فرداً في جماعة أو حاكماً في دولة – من يشك في أن الإسلام هو الحاكم المطاع وهو القائد المتَّبع، وأما السياسة التي هي إدارة الأمور بحكمة فقد كانت ولا تزال هي الخادم، كانت ولا تزال هي الجندي الذي يخضع لسلطان الله سبحانه وتعالى وحكمه ومن ثم يخضع لسلطان الإسلام وشرعه.

أتساءل بعد هذا: أفقادة العالم العربي الذين تتألف منهم الجامعة العربية، تلك التي يحتضنها ما يسمى بمنظمة التعاون الإسلامي، أفقادة البلاد العربية هؤلاء مسلمون متلزمون بهذه الحقيقة يجعلون من إسلامهم في سائر تصرفاتهم الحاكم الأول ثم يجعلون من سياساتهم الخادم المطاع لأمر الله عز وجل وسلطانه وشرعه؟ إن كان الأمر كذلك – ونحن كُلِّفْنَا بحسن الظن – إن كان الأمر كذلك وإن كان هؤلاء الإخوة لا يزالون على العهد، مسلمين يجعلون من الإسلام حاكماً على السياسة وسلطانها فلماذا لا يستجيبون لأمر الله عز وجل القائل: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢]. لماذا لا يستجيبون لأمر الله القائل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠].

لماذا لا يستجيبون لأمر الله القائل: ﴿لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتَغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾ [النساء: ١١٤]

ما لهم لا ينفذون قول الله عز وجل: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩].

لماذا ننظر فنجد انصرافاً من هؤلاء القادة الذين تمثلهم الجامعة العربية انصرافاً عن هذا البيان الإلهي كله؟ لماذا ننظر فنجدهم يتولون عدو الله عز وجل وعدو المؤمنين قاطبة بدلاً من أن يتولوا مولاهم وخالقهم سبحانه وتعالى؟ لماذا يجعلون من عدوهم الأرعن ولياً لهم من دون الله سبحانه وتعالى؟

لماذا يتخذون من الرشوة الحَكَمَ العدل بدلاً من شرع الله سبحانه وتعالى فينقادون لسلطان هذه الرشوة ثم يتوجهون تحت هذا السلطان إلى إخوانهم في الإنسانية وفي الإسلام، يرسمون العقوبات التي تمنعهم رزقهم، التي تمنعهم من أسباب عيشهم، يمعنون في قطع روافد الحياة، روافد الرزق والمعيشة عن إخوانهم في الإنسانية وفي الإسلام خضوعاً تحت سلطان الرشوة — نعم — أقولها: خضوعاً تحت سلطان الرشوة كَبُرَتْ أو صَغُرَتْ؟

لماذا — وهم مسلمون — يلقون بيان رسول الله صلى الله عليه وسلم ووصاياه وراء ظهورهم — إن لم أقل كلمة أخطر — إذ يقول صلى الله عليه وسلم: ﴿المسلم أخو المسلم لا يظلمه، لا يُسلمه، لا يخذله، كل المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه﴾.

أقول — وأنا أوثر حسن الظن —: إنهم لا يزالون مسلمين، إذاً لماذا أداروا ظهورهم إلى الإسلام واتخذوا من السياسة التي رأوها والتي لُقِّنُوا أبجديتها، جعلوا من ذلك حاكماً على الإسلام، جعلوا من ذلك قائداً يقود الإسلام؟

وما لهذه الشقيقة الإسلامية الأخرى المجاورة لنا قد قلبت لنا ظهر المجن، قاطعتنا بعد وصال، خاصمتنا بعد وفاق؟ وما لرئيسها الذي ما عهدناه إلا مصلياً صائماً ما له قد نسي دروس الدين التي تلقاها يوم كان يدرس دين الله؟ ما له نسي الوصية النبوية الشريفة التي أسمعنا إياها بفمه والتي توصي المسلمين بأن يكونوا محتفين رحماء بعضهم ببعض؟ ما له نسي كل هذا؟ ما له يواصل اليوم تل أبيب وما أكثر ما أعرض عنه؟ ما له اليوم يحج إلى واشنطن ليستبدل هناك ميثاقاً بميثاق — ولنعم الميثاق الذي ترك ولبئس الميثاق

الذي أخذ —؟ لماذا وفي سبيل أي غرض وأي سياسة رعناء يدير ظهره لإخوانه المسلمين الذين أوصى الله وأوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بإصلاح ما بينهم؟

عباد الله: بوسعكم أن تقرؤوا في سورة الحجرات وغيرها من كتاب الله عز وجل ما يبين أن الله عز وجل يجعل من عبده المؤمن قاضياً عندما يجد إخواناً له — وقد وقع بينهم الشقاق أو وقعوا في أخطاء وأغلاط — يجعله القرآن قاضياً، يدخل فيما بينهم ويحقق في أمرهم، اعتماداً على قرائن الأحوال والبينات وشهادة الشهود، فإن رأى خطأً أصلح الخطأ بلسانه، بنصحه، بوده، بغيرته.

إن رأى انحرافاً نبَّه إلى ذلك الانحراف طبقاً لما أمر الله سبحانه وتعالى، نقرأ في سورة الحجرات، نقرأ في بقية ما نقرأه من كتاب الله عز وجل هذه الحقيقة، وأبوابنا مفتحة يا عباد الله لكل من يغار على هذه الأمة أو على هذه البلدة فيأتي ليصلح خطأً وَقَعَتْ فيه — والخطأ موجود — ليقبل بدافع من الغيرة فيُقَوِّمَ اعوجاجاً تمَّ.

الأبواب مفتحة والسبل ميسرة، ألا ترون إلى الوفود الآتية من هنا وهناك، الكل يلقى الترحيب والكل ينظر ويبحث وينتقل من صقع إلى صقع ومن بلد إلى بلد ليرى بعينه الواقع وليرى ببصيرته خلفيات الأمور، فما لهؤلاء الإخوة لا يتخذون هذا المنهج الذي أمر الله به، ما لهم لا يُقْبِلُون إلينا ليصلحوا الأخطاء التي وقع فيها النظام — ونحن لا نبرئ أحداً ونحن نقول كل من اتُّهِمْ يجب أن يوضع في قفص الاتهام ويُحَقَّقَ بشأنه — ولكن فرق بين المسلم الذي يغار على إخوانه فينقاد إليهم ليصلح الخطأ وليُقَوِّمَ الاعوجاج بدافع من غيرته وحبه وبين من ينتهز هذه الفرصة ليطرق باب العدو وليقول للعدو: تفضل فتحكم.

أقول لرئيس هذه الدولة الشقيقة: ألست أنت الذي درست دين الله؟ ألست أنت الذي ذكَّرْتَنَا بآيةٍ بل بحديث من كلام رسول الله؟ فما لك أعرضت عن هذا الذي درسته وتعلمته في سبيل رشوة بلغت المليارات؟ أئن طُرِقَ بابك برشوة بلغت المليارات جعلت منها الحَكَمَ الأول لتقضي بموجب هذا الحَكَم على إخوانك بالعقوبات المختلفة، بالعقوبة في أرزاقهم، بالعقوبة في قطع أسباب معايشهم دون جريرة

ارتكبوها، دون موجب يقتضي ذلك إلا اللهم شيء واحد هو أن هذه الرشوة أحرجتك وجعلك تنقاد لمن أمرك ونهاك.

هذه حصيلة ما ينبغي أن نعلم من علاقة ما بين الإسلام والسياسة أيها الإخوة. وهذه الأسئلة التي تساءلت عنها في حق جامعة الدول العربية وفي حق الدولة المجاورة الشقيقة لا أجد من خلال هذا الذي فوجِئَتْ به أمتنا الإسلامية من أقصى الدنيا إلى أقصاها إلا جواباً واحداً يتنزل من علياء الربوبية، لا أجد إلا هذا الجواب، إنه قول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً مُّبِيناً، إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً﴾ [النساء: ١٤٤-١٤٥].

وبعد فإنا لسنا ممن يغمضوا أبصارهم عن الخطأ بل كنا ولا نزال نراقب أنفسنا ألا نخطئ، وكنا ولا نزال ننبه إخواننا وقادتنا إلى الخطأ ولكن الخطأ الذي نراه لا يبرر أن نضع على أعيننا أقنعة تعمينا عن رؤية المؤامرة القذرة التي أطبق على تحقيقها والتخطيط لها والتنفيذ لها أعداء الله عز وجل وأعداء دينه في العالم أجمع، هذه الأغلاط مهما كَبُرَتْ لا تبرر أن نتعامى عن مؤامرة ما أعلم في العالم كله، في تاريخ العالم الإسلامي كله مؤامرة أخطر من هذه التي تطرق اليوم بابنا، نعم، وُجِدَتْ مصيبة الصليبيين لكن هذه المصيبة لم تدع رؤوس المسلمين تتطأطأ، نعم دخل المغول إلى عالمنا هذا ولكن دخولهم لم يدع المسلمين يذلوا ويهونوا على أنفسهم قط.

قرأت التاريخ وأعدت النظر فيه، ما وجدت أبداً أن فتنة داهمت المسلمين جعلتهم يذلون ويهونون ويطأطئون الرأس لأعداء الله وأعدائهم إلا مرتين؛ هذه هي المرة الثانية، أما المرة الأولى فتلك المصيبة التي سقطت على أعقابها غرناطة وقرطبة، والوقت يضيق عن الحديث عن ذلك، وما سقطت غرناطة وقرطبة بسبب كيد ولكنها سقطت بسبب الرؤوس التي ذلَّتْ وهانت للعدو، ذلكم هو عبد الله الصغير واليوم نُبْتَلَى بصغراءَ آخرين، أقول قولي هذا وحسبي الله العظيم.

وبعد، عباد الله: إن إخوانكم في بلادنا العربية الإسلامية المجاورة شاؤوا أن يضربوا المثل الأدنى والأحط لخذل المسلمين بمناقضة كلام رسول الله بفرض العقوبات التي تحرم إخوانهم المسلمين من لقمة عيشهم، من رزقهم، من أسباب معايشهم، هكذا شاؤوا وهكذا اقتضت الحِطَّة أن يضربوا المثل المنحط هذا، أما أنتم فيا أيها الإخوة المواطنون علِّموا إخوانكم أولئك، علِّموا القريب والبعيد كيف يكون التراحم، كيف يكون التناصر، ابسطوا الرزق الذي أكرمكم الله عز وجل به تجاراً، بائعين، متعاملين، ابسطوا الرزق أمام المحتاجين، لا تتدخروا شيئاً يحتاج إليه إخوانكم، لا تستغلوا هذا المنعطف الذي شاءه أولئك الناس.

أقول لنفسي وللتجار ولأصحاب الأموال: اليوم بوسعكم أن تتقربوا إلى رسول الله القائل: ﴿الراحمون يرحمهم الرحمن﴾، إياكم أن تتلاعبوا بالأسعار لأن إخواناً لكم شاؤوا أن يقطعوا لقمة العيش وأسباب الحياة عن إخوانهم، اضربوا المثل بالنقيض لذلك يا أيها الإخوة.

لا يَرَيَنَّ فقير اليوم إخواناً لهم أغنياء وقد منعوهم من رفدهم. ألا فلتشعروا أن البرد الذي يلف أجسام هؤلاء الفقراء إنما يلسع ظهوركم، ألا فتشعروا أن الجوع الذي يعض على أمعاء الفقراء إنما يعض عليكم أنتم، ألا فلتشعروا اليوم وتتذكروا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً﴾ ﴿المؤمنون في توادهم وتحابهم كمثل الجسد الواحد إن اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى﴾.

نحن هنا في شامنا المكرمة التي كرمها الله عز وجل سنضرب المثل بالتراحم، بالتواصل، سنضرب المثل بالتضحية بالنفس في سبيل الغير، سنضرب المثل بنقيض هذا الذي شاء إخوة لنا — بعدوا أم قربوا — أن يضربوا المثل به، خذلان، مقاطعة، إساءة، عمل على أن يشقوا إخوانهم بإبعادهم وفطمهم عن لقمة عيشهم. لا، لا يا أيها الإخوة، أثبتوا للعالم كله أنكم لستم كذلك، ولتجعلوا من ذلك درساً تنثرونه وتنشرونه في العالم كله.

٤٩٤- الإسلام ليس طيفاً من أطياف الحوار في الشام | ٢٠١١/٠٧/١٥

ما من إنسان يعيش فوق هذه الأرض إلا وهو في واقعه عبد مملوك لله سبحانه وتعالى، علم ذلك أو جهل، اعترف بذلك أو استكبر عليه، وصدق الله عز وجل القائل: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً، لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً، وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً﴾ [مريم: ٩٣-٩٥].

ولقد علمت الدنيا كلها أننا نحن الذين شرفنا الله عز وجل بالاستيطان في هذه الشام المباركة في مقدمة من دانوا لحقيقة العبودية لله سبحانه وتعالى، وأنغضوا الرأس وأخضعوا العقل واستسلموا بشراشرهم لمالكية الله سبحانه وتعالى لهم، لا أدل على ذلك من شهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل الشام بذلك، يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم فيما صح عنه: ﴿الشام خيرة الله من أرضه يجتبي إليها خيرته من عباده﴾.

ولقد دان أهل الشام – وهم في مقدمة من دانوا – لحقيقة العبودية لله عز وجل، دانوا للعبودية لله عز وجل عقداً ألزموه بأنفسهم وعهداً بايعوا الله سبحانه وتعالى عليه، هذه حقيقة يَشْرُفُ بها أهل الشام يا عباد الله، وإننا لنسأل الله أن تبقى هذه الشهادة التي شهد بها رسول الله صلى الله عليه وسلم للشام وأهلها إلى أن تقوم الساعة، إلى أن يقوم الناس لرب العالمين سبحانه وتعالى.

ومن هنا فإن الإسلام الذي اختاره الله عز وجل لنا واستسلمنا بطواعية لتشريف الله عز وجل لنا به، هذا الإسلام عقد – كما قلت لكم – مبرم في أعناقنا للذي دُنَّا له بديننا وإسلامنا. هذا الإسلام بيعة بايعنا الله سبحانه وتعالى عليه. ألم يقل خطاباً شرَّفنا به: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾ [المائدة: ٣].

هذه صيغة العقد. خاطبَنَا الله عز وجل ولكنه لم يكن عقداً من طرف واحد، خاطبَنَا الله تشريفاً وقبلناه وأذعنا له شرفاً نلناه وعهداً وضعناه في أعناقنا إلى يوم الدين.

عباد الله: هذا الإسلام الذي ارتضاه الله عز وجل لنا والذي ينبثق من حقيقة عبودية الإنسان لله عز وجل هو ذلك الإسلام الحق، ذلك الإسلام الحقيقي الذي ينبثق من صريح كتاب الله عز وجل وصحيح سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

لئن كان العالم الإسلامي مترامي الأطراف ولئن كان الناس الذين يصطبغون بالإسلام ديناً ويعتزون به عقداً بينهم وبين الله عز وجل فلقد علمت الدنيا كلها أن الإسلام الذي أذعنت له أهل الشام عقداً بينهم وبين الله عز وجل هو ذلك الإسلام الحقيقي المنبثق من صريح كتاب الله كما قلت ومن صحيح كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم، هو ذلك الإسلام الذي يجمع ولا يفرق، يبني ولا يحطم، هو ذلك الإسلام الذي يحتضن الإيمان المطلق بالله سبحانه وتعالى ومن ثم فإنه يأتلف مع سائر المؤمنين بالله سبحانه وتعالى من مسلمين وكتابيين على السواء، هذا هو إسلامنا الذي يتمتع به أهل الشام، إسلام لا إفراط فيه ولا تفريط لأنه المنبثق من القرآن والسنة، إسلام لا غُلُوَّ فيه ولا عوج، إسلام لا ابتداع فيه، لا نسوقه إلى ما تحكم به أمزجتنا ولا نبدله حسب ما تقتضيه مصالحنا الزائفة السريعة الذاهبة. هذا الإسلام يا عباد الله من أجلِّ الثوابت التي لا يمكن أن تخضع لتبديل ولا حوار قط.

نحن نعلم أن في حياتنا كثيراً من المصالح التي تخضع للتطوير ومن ثم فهي تخضع للحوار وللنقاش ولكن هنالك ثوابت لا يمكن أن تخضع لا لحوار ولا لجدل أو نقاش، أرأيتم إلى وحدة الوطن أتخضع للحوار والنقاش؟! أرأيتم إلى الحقوق المادية أو الذاتية الكامنة في كيان الإنسان أفتخضع هذه الحقوق للمناقشة والحوار، كذلكم هوية هذه الأمة، كذلكم العقد المبرم بين هذه الأمة وبين بارئها سبحانه وتعالى حقيقة ثابتة لا يمكن أن تخضع للحوار قط بشكل من الأشكال.

ولئن كان سقف الوطن هو المدى التي لا يمكن أن تتحرك مسائل الحوار إلا في داخله فكذلكم المهاد الإسلامي هو التربة التي لا يمكن أن تتحرك مسائل الحوار إلا على مرأى من هذا المهاد وإلا على رقابة من هذا المهاد، أعتقد أن هذه حقيقة نعلمها جميعاً ومن ثم فإننا ندين بها جميعاً.

قيل لي: ما رأينا في مسائل الحوار أو أيام الحوار التي انطلقت من هذه البلدة طيفاً يمثل الإسلام وأهله فلماذا؟

قلت: ومن الذي قال لك: إن الإسلام وأهله إنما هو طيفٌ من هذه الطيوف المتحاورة المتناقشة. الإسلام هو المصدر الذي تنبثق منه هذه الأطياف كله، من قال لك: إن الإسلام إصبع من الأصابع الكثيرة التي تتحرك في ساحة الحوار والنقاش لمسائل هذه الأمة، من قال: إن الإسلام إصبع من هذه الأصابع، إن الإسلام هو المعصم الذي تنبثق منه هذه الأصابع كلها.

الإسلام أجلُّ ثابت من الثوابت، عمره مديد فيما يتعلق بالقدم وعمره قدسي مديد فيما يتعلق بالمستقبل، هذه حقيقة لئن جهلها الناس يميناً وشمالاً فإن شامنا هذه لن تنكرها ولن تجهلها قط.

والدستور – يا عباد الله – هل الدستور إلا مرآة لهوية الأمة؟! هذه حقيقة لا يجهلها أحد بشكل من الأشكال. دستورنا الذي نعتز به إنما هو مرآة لهوية هذه الأمة، وقد علمتم أن هذه الأمة التي شرفها الله عز وجل بأن تستوطن في شامه المقدس كانت ولا تزال مصطبغة بذل العبودية لله عز وجل، تعتز أيما اعتزاز بهذا الذل، تعلم الأدلة الناطقة بذلك، من أجلِّ هذه الأدلة المصدر الذي انطلقنا منه والنهاية التي سنصير إليها والطاقات التي بثها الله في كياننا ننفعل بها ولا نفعل باختيار شيئاً منها. نحن كنا ولا نزال الناس الذين عقدوا مع الله عز وجل صفقة العبودية له، صفقة الالتزام بأمره، صفقة الالتزام بهديه على النحو الذي ربَّانا عليه كتاب الله، لا إفراط فيه ولا تفريط، لا بغي فيه ولا انحراف، يبني إسلامنا ويعلمنا البناء، يعلمنا الائتلاف. الدين بشطريه الإسلامي والكتابي متعانقان متآلفان، وصدق الله القائل: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة : ٨].

هذا الواقع لا يمكن إلا أن يتجلى في المرآة، ومرآتنا إنما هو دستورنا، فمن أراد أن يتخذ من حريته الفردية – وهي حرية متَّع الله كل فردٍ فردٍ بها – من أراد أن يجعل من حريته الفردية سلاحاً يمتلخ به حرية الأمة فقد أبعد النُّجْعَة وحاول أن ينكس حقيقة الحرية وأن يمسخها، أن يختار الإنسان المعتقد الذي يشاء هذا ما ملَّكَهُ الله إياه في دار الدنيا ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

أما أن تجعل من حريتك هذه التي متعك الله بها سلاحاً تحاول أن تقتضي به على حرية الأمة وأن تنهي ميقات هذا العقد المبرم بين هذه الأمة وبين مولاها وخالقها عز وجل فهذا شيء ليس إليك وهذا إنما هو إجرام في حق الحرية وإساءة لها.

هذه – يا عباد الله – الحقيقة التي قد يغص بها أناس من حولنا عن يمين وشمال لكن شامنا المشرَّفة لا يمكن أن تغص بها، شامنا التي شهد لها رسول الله وشهد لنا فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال: ﴿هي خيرة الله من أرضه يجتبي إليها خيرته من عباده﴾ لا يمكن أن تخضع لهذا الحلم ولا يمكن أن تخضع لهذه الأمزجة قط، أجل يا عباد الله. أقولي قولي هذا وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يثبتنا بقوله الثابت وأن يكرمنا بالاعتزاز بشرعه ودينه إلى أن نلقاه وهو عنا راضٍ، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.



٤٩٥- علاج ظاهرة اتباع الهوى | ٢٠١١/١١/١١

إن كتاب الله سبحانه وتعالى يقرر مؤكداً ومكرراً أن الفساد الذي يترتب على تأليه الشهوات والرعونات النفسية والعصبية للذات والجماعة أو المذهب أشد وأخطر من الفساد الذي يتسبب عن الشرك بالله سبحانه وتعالى وعبادة الأصنام والحجارة الصماء، هكذا يؤكد بيان الله سبحانه وتعالى ويقرر، فتعالوا نصغي السمع إلى هذا الذي يؤكده بيان الله سبحانه وتعالى، يقول عز وجل: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١].

ويقول: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

ويقول: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾ [الكهف: ٢٨].

ويكرر البيان الإلهي هذا المعنى الذي ألفت نظري وأنظاركم إليه، يقول: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦].

إنكم لتلاحظون أن هذه المعاني؛ رعونات النفس، الشهوات، العصبية للذات، العصبية للجماعة، للمذهب يجمعها البيان الإلهي كلها في كلمة معبرة عنها جميعاً هي الهوى أو الأهواء.

وينبغي أن نعلم يا عباد الله أن هؤلاء الناس الذين يؤلهون أهواءهم — حسب التعبير القرآني — فريقان اثنان، فريق لم يعرفوا الله عز وجل فلم يؤمنوا به ولم يجدوا أمامهم ما يتبعونه ويؤلهونه إلا هذه الأهواء فعقدوا معها رباط العبودية لها، ومعذرة هؤلاء إن ناقشتهم أنهم لا يعرفون من يتبعونه ومن يدينون له بالولاء غير هذه الأهواء المهيمنة عليهم، فسبيل مناقشتك لهم أن تذكرهم بالله وأن تذكرهم بكلام الله وأن تذكرهم بدلائل عبوديتهم لله عز وجل، وما أكثر من يتجاوبون بسرعة، يصغون السمع وما هي إلا أيام أو مدة من الزمن طالت أو كَثُرَتْ وإذا بهم تحرروا من أسر أهوائهم ودانوا لمنطق عبوديتهم لله سبحانه وتعالى، الخطب مع هؤلاء فيما أعتقد يسير.

وأما الفريق الثاني فأناس عرفوا الله وآمنوا به وقرؤوا كتابه ودانوا له وعرفوا نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم، وأيقنوا أنه جاء بالهدى ودين الحق، ولكن صراعاً قام بين هذا الذي آمنوا به وصدقوه وبين رعوناتهم وأهوائهم وعصبياتهم التي عبر عنها البيان الإلهي بالأهواء، قام صراع بين هذه الأهواء وبين ما صدقوه وآمنوا به من حقيقة هذا الدين الذي شرفنا الله به، فكانت الغلبة – ويا للأسف – لهذه الأهواء، كيف انعقد الصلح عند هؤلاء الناس بين حقائق الإيمان التي دخلت شغاف عقولهم وبين أهوائهم التي هيمن سلطانها عليهم؟ انعقد الصلح بالطريقة التالية.

جعلوا من الدين الذي آمنوا به خادماً لأهوائهم ورعوناتهم، جعلوا من حقائق هذا الإسلام مطية لأهوائهم ومبتغياتهم، هكذا انعقد الصلح، إن صح أنه صلح، بهذه الطريقة تم الأمر. وإننا لننظر إلى جنبات مجتمعنا بل مجتمعاتنا المترامية الأطراف فما أكثر ما نجد من هذا الفريق. ناسٌ مؤمنون بالله، إن ذكرتهم بالله سبقوق إلى هذا الذي تذكرهم به، وإن حدثتهم عن مخاوف يوم القيامة ذكروا لك الأدلة الباهرة التي لا تعرفها مما يدل على ذلك، ولكنك تنظر فتجد أنهم كلما وجدوا حكماً من أحكام الشريعة الإسلامية يتناقض وأهواءهم – حسب التعبير القرآني – يغضون الطرف عن ذلك الحكم، يتأولونه، يضعفونه، يبطلونه لينتصروا للعصبية التي آلوا مع أنفسهم على ألا يتنازلوا عنها وأن يصروا إصرارهم على إتباعها، فما علاج هذه الظاهرة؟

علاج ذلك، الفريق الأول يسير كما قلت لكم، أما هؤلاء إن ذكرتهم بالحقيقة رأيت أنهم يعرفونها وإن ذكرتهم بضرورة الالتزام بأمر الله رأيت أنهم يسكتونك بالأدلة تلو الأدلة على ما تذكرهم به، فما السبيل إلى أن نحرر هؤلاء الناس من التبعية لأهوائهم ومن هذا الوضع الذي حكموا على أنفسهم أو لأنفسهم به من أن يجعلوا من أهوائهم الحاكم وأن يجعلوا من الدين خادماً لأهوائهم، وها أنا أيها الإخوة أضرب لكم المثل بنفسي لأجسد هذه المشكلة التي لن نجد حلاً لها إلا باللجوء إلى الله.

أنا الآن – وأفرض نفسي والعياذ بالله أنني ممن دان لأهوائه واتخذ من الدين مطية له – وقفت على حديث في الصحيح يقول فيه المصطفى صلى الله عليه وسلم محذراً من الخروج بالقوة على الحاكم إلا أن

نرى كفراً بواحاً لنا عليه من الله سلطان، أنظر إلى هذا الحديث وأتأمله وإذا هو يخالف العصبية التي جعلت منها حاكماً عليَّ في حياتي، نظرت وإذا بهذا الحديث يتعارض مع مبتغياتي، مع عصبيتي للجماعة أو للمذهب أو للفئة، يتعارض مع مصالحي الآنية التي أحلم بها ليل نهار، فماذا أصنع؟ ما أيسر أن أقول: الحديث غير ثابت، الحديث ضعيف، وأنا أعلم أن الحديث ليس ضعيفاً ولكني وقد أوتيت علماً من علوم هذا الدين أُسَخِّرُ ما قد عرفته للانتصار لعصبيتي ولأهوائي، ويأتي أخٌ مخلص لي ومخلص لدين الله سبحانه وتعالى فيقول لي: ولكن هذا الذي رأيته ضعيفاً هو مما اتفق عليه الشيخان البخاري ومسلم، ألم تسمع عبادة بن الصامت فيما يرويه الشيخان يقول: دعانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فبايعناه فكان مما بايعنا أن أخذ علينا أن ندين بمنشطنا ومكرهنا ويسرنا وعسرنا وأثرة علينا وأن لا ننازع الأمر أهله قال — أي رسول الله –: إلا أن تروا كفراً بواحاً لكم عليه من الله برهان.

يقول لي هذا الأخ الودود المخلص: وفي الصحيحين حديث آخر متفق عليه يقول فيه المصطفى صلى الله عليه وسلم ﴿من كره من أميره شيئاً فليصبر، فإنه من خرج على السلطان قيد شبر فمات مات ميتة جاهلية﴾ يقول لي هذا الكلام من منطلق الغيرة عليَّ والإخلاص لي ولكني أقول له — وما أيسر ما أرى الجواب في خزانة معلوماتي التي جمعتها إذ كنت طالب علم — أقول له: تتغير الأحكام بتغير الأزمان، ذلك حكم أبرمه رسول الله صلى الله عليه وسلم آنذاك، واليوم لابد أن يتغير هذا الحكم تحت سلطان القاعدة القائلة: تتبدل الأحكام بتبدل الأزمان. فماذا أصنع أو ماذا يصنع هذا الأخ الذي يأتي وقد دفعته الغيرة عليَّ، كلما نبهني إلى الحق في جانب استخرجت له من مخزونات علمي شيئاً أسكته به، وأنا أعلم أنني إنما أتبع فيما أقول عصبيتي، وأنا أعلم أنني إنما أتبع فيما أقول أهوائي حسب التعبير القرآني. منذ سنوات استشهدت بهذا الحديث الذي أضعفه اليوم، نعم.

هذه الصورة ضربت من نفسي مثالاً عليها وأسأل الله العفو والعافية يا عباد الله، أسأل الله سبحانه وتعالى ألا يجعل من عصبياتنا وأهوائنا سلطاناً على ديننا، سلطاناً على معتقداتنا.

هذا الذي أصفه لكم هو فعلاً كما بين كتاب الله عز وجل، الفساد الذي يستشري من تأليه الأهواء أشد من الفساد الذي يستشري من عبادة حجر أصم أو من الإشراك بالله أو عبادة الأصنام. عابد الصنم ليس بينه وبين أن يرعوي إلا أن تذكره من جهل وأن تنتشله من نسيان، أما هؤلاء الذين عرفوا الله وعرفوا الحق وعرفوا كتاب الله لكنهم عاهدوا أنفسهم أن يجعلوا من كتاب الله وحقائقه وسنة رسول الله وهديه خادماً لعصبياتهم، خادماً لأمزجتهم، كيف السبيل إلى أن تقنعهم، كيف السبيل إلى أن تهديهم؟ أتذكرهم بالمرجع الذي يمكن أن يعودوا فيه لمعرفة هذا الحق؟ هم يعرفوه، أتذكرهم بأن الأصل في الكلام الحقيقة ولا يجوز أن نفر من الحقيقة التي يخاطبنا بها الله في قرآنه إلى مجاز إلا بعد تعذر الحقيقة؟ هو يعلم ذلك.

إذاً ما السبيل؟ كم من آية في كتاب الله عز وجل صريحة أُوِّلَتْ وتم التلاعب بها من أجل ألا يتغير هؤلاء الناس عن الناس الذين عاهدوهم أن يسيروا على نهج معين وأن ينادوا بأفكار معينة، هذه مشكلة أعتقد أن قلَّ من ينبهنا إليها، لكن القرآن مليء بالآيات التي تذكرنا بها، فما الملاذ؟ ليس المهم أن أصور لكم مشكلة، إنما المهم أن أقود نفسي وإياكم إلى الحل.

والله الذي لا إله إلا هو لا أجد حلاً أمامي لهذه المشكلة وأمثالها إلا حلاً واحداً، هو صدق الالتجاء والضراعة إلى الله، أقول صدق الالتجاء والضراعة إلى الله أي لا أعني الالتجاء التقليدي، لا أعني ما يُهْرَعُ إليه أناس إذ يحفظون بعض الأحاديث التي قيلت إنها تتضمن أدعية مستجابة إن دعا الإنسان بها فيحفظها ثم إنه يكررها بلسانه ثم إنه يقول ها أنا قد دعوت الله، هذا يسمى دعاءً تقليدياً، أنا أنشد صدق التضرع إلى الله، أنا أعني أن نبحث عن ساعة قدسية في الأربع وعشرين ساعة المتكررة في حياتك يا أيها المسلم، ولن تجد أقدس من ساعة السحر تقوم فيها جهد استطاعتك، إن استطعت أن تقوم ساعة فذلك خير وإن لم تستطع فقم الدقائق التي تستطيع أن تقوم فيها، أسبغ الوضوء، صل لربك وليس بينك وبينه أحدٌ يشغلك عنه، في سجودك خاطب الله، التجأ إلى الله بالكلام الذي تريد، باللهجة التي تحب، بعاميتك التي تهيمن على لسانك كما تحب بشرط واحد، أن يكون قلبك هو الذي يحرك لسانك، ناج الله وأنت تتجلبب بذل العبودية له، خاطبه، استنزل رحمته لنفسك، لإخوانك، لبلدك، لعباد الله جميعاً،

المؤمنين أن يصحوا إلى الحق والتائهين أن يهديهم الله عز وجل إلى الحق، وأطل، أطل هذه المناجاة ما طابت لك الإطالة، ناج الله عز وجل واجعل من ذلك ورداً لك، أنا أولاً أخاطب نفسي وآمر نفسي بهذا وأخاطبكم جميعاً، أذكركم بهذا، هذا هو الدواء، هذا هو العلاج، وقسماً لو أننا التجأنا إلى هذا العلاج — لا أقول الأفضل بل الأوحد — لوجدنا أن ربنا يقول — وإننا لنسمعه ببصيرتنا، بسمع بصائرنا — يقول: لبيك لبيك، التضرع إلى الله: ﴿فَلَوْلا إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣].

أيها الإخوة: يا عجباً، أنا أتحدث عن نفسي، بيني وبين الحفرة التي سأُغَيَّبُ فيها أيام، ساعات، شهور لا أدري وقد بلغت من العمر إلى هذا الحد، كيف أعكر صلة ما بيني وبين الله لأعبِّدَ الصلة ما بيني وبين أهوائي وشهواتي كيف يا عباد الله؟! غداً سأقف بين يدي الله ولسوف يحاسبني، ماذا أقول له، ماذا أقول له أجل، أنا أحاور نفسي وأسأل نفسي أيها الإخوة.

إن نحن أدركنا هذه الحقيقة وفررنا من أنفسنا، من رعوناتنا، من عصبياتنا إلى باب الله عز وجل والتجأنا إليه ضارعين، استنزلنا رحمته واستدفعنا نقمته، وما أكثر أنواع النقم التي تطوف بنا من بعيد أو قريب، والله الذي لا إله إلا هو لنجدن الجواب سريعا، لكن أين هم الملتجئون إلى الله، أين هم الذين يقومون في الأسحار بل أين هم الذين يتبوءون مراكز الدعوة إلى الله وبينهم وبين الله عهود ومواعيد في ساحات السحر، سهام الأسحار أيها الإخوة لا تخطئ، هذا هو العلاج، ذلكم هو الإشكال الكبير وهذا هو العلاج الوحيد، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

٤٩٦- الطريق إلى الحرية | ٢٠١١/١٢/٣٠

إن حرية الإنسان واحدة من أقدس ما فطر الله سبحانه وتعالى الإنسان عليه. حرية الإنسان هي المرقاة التي يتم البلوغ بها إلى الشأو الحضاري الإنساني الأمثل. حرية الإنسان هي السبيل الذي لابد منه لنسيج التعاون الإنساني ولنسيج الود والتعايش فيما بين أفراده على النهج الذي يتفق مع العدالة الإنسانية المثلى.

ولقد كانت كلمة الحرية هذه واحدة من الشعارات التي تم الهتاف بها عندما فُتحت الأبواب إلى هذه الفتنة التي أوصلتنا منها إلى هذا المنحدر. ولقد كان في الناس من حلموا وهم يسمعون تلك الهتافات بسم الحرية أن حرية قريبة ستتفتح أبوابها وأن المجتمع الإنساني سيزداد سعادة في ظلها، ولكن سرعان ما استيقظوا من هذا الحلم على سراب وسرعان ما نظروا فوجدوا أن الحرية تُذَبَّح كما تُذَبَّح الشاة تحت هتاف التكبير لله. ولكن تعالوا نتحدث عن الحرية؛ حقيقتها والسبيل إليها وثمراتها التي لابد أن تجنيها الإنسانية.

الحرية الحقيقية يا عباد الله هي أن ينعتق الإنسان من كل سلطان داخلي في نفسه وخارجي في مجتمعه إلا سلطان ذلك الذي خلقه فسواه فعدله في أي صورة ما شاء ركبه، تلك هي الحرية الحقيقية المطلقة، وإذا ما تمتع بها الإنسان ونال حظوتها فإنه ينعتق بذلك من أسر نفسه — وما أخطر أسر النفس وأهوائها — وينعتق من أسر مجتمعه بشتى صنوفه وأضرابه.

ولكن كيف تتم الرحلة القدسية إلى التحقق بهذه الحرية يا عباد الله؟

إن الخطوة الأولى في السير إليها إنما تتمثل في أن يعلم الإنسان هويته وأن يدرك أنه عبدٌ مملوك لخالقه الذي أبدعه وصوره والذي إليه هو تدبيره والذي منه انطلق وجوده وإليه يتم رجوعه وأنه إنما يتحرك في قبضته وأنه يسير طبق إرادته وقضائه. وإنما يتشبع الإنسان بهذه الحقيقة عندما يصغي ملياً وبتدبر وتأمل

إلى مرآة هذه الهوية إذ يطالعه عليها بيان الله سبحانه وتعالى، يصغي إلى قوله: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ [النحل: ٥٣].

يتأمل في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس: ١٠٧].

يتأمل في قوله عز وجل: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً حَتَّىَ إِذَا جَاء أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١].

يصغي إلى قوله: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ، أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ [الملك: ٢٠-٢١].

يصغي الإنسان إلى هذا الخطاب الرباني ويتأمل من خلاله هويته عبداً مملوكاً ذليلاً في قبضة الله سبحانه وتعالى.

ما الخطوة الثانية التي لابد أن ينتهي إليها بعد هذه يا عباد الله؟ الخطوة الثانية أن يعلم يقيناً أن أمره كله بيد الله وحده، وأنه هو الذي يضحكه إن شاء ويبكيه عندما يشاء، هو الذي يسعد وهو الذي يشقي، بيده ملكوت أمره، يعلم ذلك تماماً، وإذا أدرك هذا فاض قلبه – شاء أم أبى – تعظيماً لهذا الإله الخالق، فاض قلبه مهابة لهذا الإله الخالق وفاض قلبه حباً لهذا الإله الخالق. إلام ينتهي حاله بعد هذا؟ ينعتق من أسر نفسه وشهواته وأهوائه، لم يبق لمزاجه النفسي سلطان عليه، لم يبق لعصبيته – أياً كان نوعها – سلطان عليه، لم يبق لأهوائه التي ترده وتصده أي سلطان عليه، فهذا هو الانعتاق الأول وهو الانعتاق الأخطر والأمثل.

ثم إنه ينعتق بعد ذلك من أسر الخلائق أجمع، لن يخيفه تهديد مخيف ولن يطمعه تطميع مطمع، ومن هم؟ إن هم إلا عبيد أمثاله، إن هم إلا عبيد مملوكون مثله لهذا الإله الذي خلق، لهذا الإله الذي بيده كل شيء وإليه مصير كل شيء. أفيمكن أن يطأطئ الرأس – هذا الذي عرف مملوكيته لله، وهذا الذي فاض قلبه من ثم تعظيماً لله – أفيمكن أن يطأطئ الرأس لمخلوق؟! أفيمكن أن يمد يد الذل والهوان

إلى مخلوق؟! أفيمكن أن يخيفه مخلوق مهما أزبد وأرغى ومهما هدد وأنذر؟! أفيمكن أن يطمع في غير مطمع؟! أن يطمع من يد مخلوف؟! لا يا عباد الله.

وهكذا فلتعلموا أن الحرية الحقيقية المطلقة إنما هي الوجه الثاني لعبودية الإنسان ومملوكيته لله عز وجل. كن عبداً حقيقياً لمولاك وانظر كيف تكون حراً الحرية المطلقة، الحرية التي تعتقك من أهواء نفسك، الحرية التي تعتقك من سلطان مجتمعك. ولن تكون مصغياً في هذه الحالة إلا إلى الأمر الصادر إليك من الواحد الذي لا ثاني له وهو مولاك الأوحد سبحانه.

صورتان أضعكم أمامهما يا عباد الله تجسيداً لهذه الحقيقة:

الصورة الأولى في كتاب الله عز وجل: سحرة فرعون كانوا أشباحاً تتحرك في ظلال آمرية فرعون وحكمه وسلطانه، وكانوا إذا مارسوا أعمالهم السحرية قال أحدهم: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ [الشعراء: ٤٤]، وهكذا.

فلما عرفوا هوياتهم، ولما أدرك كلٌّ منهم هويته عبداً مملوكاً لله لا لغير الله عز وجل خُلِقُوا خَلْقَاً آخر، واسمعوا وتبينوا الصورة: ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى، قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى﴾ [طه: ٧٠-٧١].

فماذا كان جواب أولئك الذين كانوا يقولون: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾، ما الذي قالوه بعد أن عثروا على هوياتهم الحقيقية؟ ﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا، إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: ٧٢-٧٣]. تلك هي ثمرة عبودية الإنسان لله عز وجل، لا تأتي إلا من خلال هذا السبيل.

الصورة الثانية صورة تكاد تكون معاصرة، رجل معروف لدى من يبحثون عن الدعاة الصادقين المستقيمين المخلصين لله عز وجل، إنه سعيدٌ النورسي ذاك الذي لُقِّبَ ببديع الزمان، اشترك في الحرب

العالمية الأولى وقِيْدَ أسيراً تحت يد القياصرة الروس آنذاك، وذات يوم دخل ضابط من الضباط الروس إلى معسكر الأسرى يتفقدهم، ومرَّ أثناء تجواله ببديع الزمان هذا –كان الجميع يقومون عندما يصل إليهم – ولكن بديع الزمان هذا لم يتحرك من مكانه، لفت ذلك نظره وأقبل إليه قائلاً: لعلك لا تعرفني، قال: بل أنا أعرفك، أنت ذاك الذي يُسمى نيقولا، قال: فأنت إذاً تستهين بعظمة القياصرة الروس؟ قال: لا، ولكن الإله الذي أنا عبده يمنعني من أن أذل وأَهُوْنَ لغيره. سرعان ما أحيل إلى المحكمة الميدانية وحُكِمَ عليه بالإعدام، ولما جيء به إلى ساحة التنفيذ أقبل إليه القائد الروسي يتأمله ثم رَبَتَ على كتفه قائلاً: إنني معجب بهذا الدين الذي أعزَّك إلى هذا الحد وعفا عنه.

صورتان ما أظن أننا بحاجة إلى مزيد. نهتف بالحرية، لنا ذلك، أما أن نتنكب عن طريق الحرية فذلك زيف أي زيف.

الطريق القدسي إلى الحرية هو هذا يا عباد الله، أن نعلم هوياتنا وأن ندرك أننا مملوكون لواحد لا ثاني له وأن نعاهده على السير في الطريق الذي شرع، عندئذٍ سنعلم أي معجزة ستتحقق بين جوانحنا، إنها المعجزة التي هي أقوى من كل قوة، إنها المعجزة الخارقة التي تتسامى على كل أنواع الأسلحة، إنها المعجزة الخارقة لأنها تأخذ سلطانها من لدن مولانا عز وجل، من شَدَّ صِلَتَهُ بالله عبداً أكرمه الله سبحانه وتعالى بصفاته رَبّاً.

هذه هي الحقيقة التي ينبغي أن نتبيَّنها، وكم أود وأود لو بلغت كلماتي هذه أسماع الذين كانوا بالأمس القريب يهتفون بالحرية الحرية ليعلموا إن كانوا صادقين في البحث عنها فهذا هو الطريق إلى الحرية، ستجمعنا من نثار وستؤلِّفُ سبيلنا بالود ولسوف تصعد بنا من خلال مرقاة العز إلى الشأو الحضاري الأمثل، أما إن كانوا يتاجرون بهذه الكلمة ويخلصون لنقيضها فذلك شيء آخر.

أما نحن فتعالوا أقولها لنفسي ولكم ولكل من يسمع كلامي، تعالوا نجدد البيعة مع الله عبيداً له، عبيداً حقيقيين له ومن ثم فلسوف يكرمنا الله عز وجل بخوارق النصر وخوارق التأييد والسلم، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

وبعد: فإن العالم كله قد احتفل بالأمس بولادة المسيح سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام، ولقد أحسن رجال الدين إخواننا في بلدتنا المباركة هذه صنعاً إذ وقفوا مضمون هذا الاحتفال بهذه المناسبة العظمى على الالتجاء إلى الله وعلى التضرع على أعتاب الله وعلى صلوات أن ينزل الله سبحانه وتعالى علينا من شآبيب رحمته وكرمه وغفرانه.

وما أظن إلا أننا جميعاً في هذه البلدة المباركة – في سورية الإسلامية المباركة – سائرون على هذا النهج، وما أظن إلا أن احتفالات سورية برأس السنة الميلادية ما أظن إلا أنها ستكون امتداداً لاحتفالنا بميلاد سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام، كما كان ذلك الاحتفال وقفاً على الالتجاء إلى الله والتضرع على أعتاب الله، فلسوف تكون ليلة السنة الميلادية الجديدة كذلك فيما أحسب. ولئن كان رجال الدين المسيحي أعلنوا ذلك فما أحرانا جميعاً أن نعلن أيضاً ذلك.

إن احتفاء الفنادق وغير الفنادق والملاهي في مثل هذه الليلة وعالمنا منكوب بما تعلمون وسورية تمر بالفتنة التي تعلمون شيء لا يتفق لا مع الذوق ولا مع الشرف ولا مع الكرامة. أرأيتم إلى بيوتاتنا التي دخلها الكرب، أرأيتم إلى القلوب التي هيمن عليها الحزن أفيتفق ذلك مع برنامج ساعات لَهْوٍ يُعْلَنُ عنها على رؤوس الأشهاد وفي الشوارع رقصاً ولهواً وعربدة ونحو ذلك. من هذا الذي يتهيأ لاستقبال مثل هذا الأمر؟! إنه نشاز – وليت أنه كان من النشاز المعهود، إنه من أحط أنواع النشاز.

٤٩٧- رسول الله يوصينا بالتوجه إلى المسجد الأقصى والصلاة فيه | ٢٠١٢/٠٤/٢٠

إن مما أجمع عليه علماء المسلمين أن أي بقعة من بقاع الأرض امتد إليها الفتح الإسلامي تصبح بذلك دار إسلام، كما أجمع علماء المسلمين أن البقعة التي اتصفت بهذه الصفة لا تنحسر عنها هذه الصفة إلى يوم القيامة، أي تظل دار إسلام مهما امتد إليها العدوان ومهما تطاول عليها أمد البغي والاحتلال، ومن هنا – ولهذا السبب – أعلن المصطفى صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح قائلاً: ﴿الجهاد ماضٍ فيَّ وفي أمتي إلى يوم القيامة﴾ أي الجهاد القتالي، لماذا؟ لأن البقاع التي شاء الله عز وجل أن تفتح فتحاً إسلامياً دخلت تحت اسم دار الإسلام، ولابد أن هنالك من يحاول أن يطغى وأن يبغي وأن يحتل دور الإسلام هذه، ولابد في هذه الحالة من حراسة هذه البقاع الإسلامية، ولابد عندئذٍ من مجاهدة كل من يريد أن يطغى أو أن يبغي عليها.

والسؤال الذي ينبغي أن يقفز إلى أذهاننا جميعاً يا عباد الله هل يتسبب عن احتلال فئة ما لبقعة من بقاع الإسلام أن يُنسَخ بسبب ذلك حكم شرعي يتعلق بجهة ما من جهات هذه البقعة؟ وبعبارة أوضح نقول: أئن احتلت القدس واحتل مسجدها أو – إن افترضنا – أن بغياً ما اعتدى على مثوى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحتله واعتدى على بيت الله الحرام فاحتله أفيكون هذا الاحتلال موجباً لتغيير حكم ثابت مستقر في شريعة الله عز وجل؟ أفيكون ذلك موجباً لنسخ حكم أعلنه بيان الله في قرآنه أو أعلنه محمد صلى الله عليه وسلم في تبيانه النبوي؟

لقد احتلت القدس واحتل المسجد الأقصى ونفرض أن بقاعاً أخرى قد تُحتَل أفيكون ذلك مبرراً لنسخ ما ندبنا إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من زيارة المسجد الأقصى والصلاة فيه أم أيكون احتلال مثوى رسول الله صلى الله عليه وسلم مبرراً لنسخ ما ندبنا إليه من زيارة مسجده والصلاة فيه وبيان الأجر العظيم الذي يناله المصلي فيه؟ أفإن احتل بيت الله الحرام أيكون ذلك مبرراً لنسخ فريضة

الحج التي نص عليها بيان الله القائل: ﴿وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ [آل عمران: ٩٧].

أفيكون ذلك نسخاً للتوجه إلى بيت الله الحرام للصلاة فيه وقد ندبنا عليه الصلاة والسلام إلى ذلك؟ والغريب أيها الإخوة أن المصطفى صلى الله عليه وسلم عندما تحدث عن الصلاة في مسجده وفي المسجد الحرام لم يزد على أن ندبنا إلى ذلك مبيناً فضيلة الصلاة في كل منهما ولكن لما تحدث عن المسجد الأقصى وجَّهَ إلينا الأمر للصلاة فيه فقال فيما رواه ابن ماجه والبيهقي بسند جيد صحيح قال: ﴿إيتوه – أي المسجد الأقصى – فصلوا فيه فإن صلاة فيه تعدل ألف صلاة﴾ ومرة أخرى أعود فأقول: أفي المسلمين من يجرؤ أن يقول لنا أن ننسخ ما قد نص عليه بيان الله في محكم تبيانه وما قد ندبنا إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم في أحاديثه الصحيحة، لنا أن ننسخ ذلك بسبب الاحتلال الذي قد تم وهيمن على المسجد الأقصى وما حوله لماذا؟ قالوا: لأن غشيان هذا المكان من المسلمين والصلاة في المسجد الأقصى اعتراف بأحقية هذا الاحتلال واعتراف بأن هؤلاء المحتلين أن يطمئنوا أن عملهم مبرور وموافق عليه. أفي العقلاء من يتصور ذلك؟!

إذاً لماذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم متحدثاً عن المسجد الأقصى: ﴿إيتوه فصلوا فيه﴾ وقد كان المسجد الأقصى آنذاك يرزح تحت احتلال الإمبراطورية الرومانية كما تعلمون. ولقد توجه كثير من أصحاب رسول الله في عهد أبي بكر وفي عهد عمر قبل الفتح، توجهوا إلى المسجد الأقصى الذي كان يعاني من الاحتلال الروماني فصلوا فيه، ولم نسمع فيهم من يقول إن هذا اعتراف بالاحتلال، ولقد رأينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوجه مع ثلة كثيرة من أصحابه إلى مكة وهي دار كفر، وكل من فيها كانوا محارِبين ومحارَبين، هم الذين حاربوا رسول الله يوم أحد، هم الذين حاربوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الخندق، ويوم الذين حاربوا رسول الله يوم بدر ومع ذلك فقد توجه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة ليعلن لأهلها المحارِبين والمحارَبين أنه جاء ليعتمر، أنه جاء ليطوف بالبيت آمناً مؤمناً ولم يخطر منه على بال أن ذلك سيكون اعترافاً بمحاربة المشركين له وإعلاناً للصلح بينه وبينهم، معاذ الله.

سار الأمر على هذا المنوال قروناً متطاولة من الزمن حتى جاء عهد الاحتلال الصليبي لبيت المقدس وما حوله وتطاول ذلك الاحتلال وامتد أجله إلى ما يقارب ثلاثة قرون وما أكثر الناس والعلماء والصالحين الذين توجهوا أثناء هذه المحنة وفي ظل ذلك الاحتلال توجهوا إلى زيارة المسجد الأقصى منفذين أمر رسول الله القائل: ﴿إيتوه فصلوا فيه فإن صلاة فيه تعدل ألف صلاة في غيره﴾.

أيها الإخوة لم نسمع بهذه الفتوى العجيبة التي طرقت أسماعنا إلا – لا أقول في هذا العصر – إلا في هذه السنوات، أما ما قبل ذلك فكل العلماء، كل الأئمة، كل المجتهدين انقادوا لتطبيق أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، والأمر الذي نطق به رسول الله أمر مطلق، والمطلق يجري على إطلاقه ما لم يكن هنالك قيد على مستوى المطلق ذاته، ونحن لا نعلم أن هنالك قيداً قُيِّدَ به كلام رسول الله القائل: ﴿إيتوه فصلوا فيه﴾ من كلامه أو من إجماع أصحابه أو من بيان الله سبحانه وتعالى.

لقد كانوا إبان الاحتلال الصليبي يزورون المسجد الأقصى ولكنهم لم يكونوا يتصورون أن زيارتهم لهم اعتراف لهؤلاء الصليبيين بأن عملهم حق ولكنهم كانوا يعلمون ويتصورون أن زيارتهم للمسجد الأقصى تحدٍّ لوجودهم ومواصلة وتجديد لعهد الله عز وجل الذي أبرموه في حق أنفسهم أن يصدوا ذلك العدوان.

فيا عجباً من أين انبثقت هذه الفتوى الغريبة العجيبة وأنا أيها الإخوة كنت ولا أزال ممن يحتاط في أمور دينهم وهذا من فضل الله عليَّ، نبشت وبحثت واتهمت علمي، اتهمت إدراكي ولكن لم أجد في الأئمة السالفين من قال هذا، لم أجد في أصحاب رسول الله من انقطع عن زيارة بيت المقدس أثناء احتلال الرومان له، لم أجد هذا نهائياً.

ثم إني أنظر فأجد العجب الذي لا تفسير له، أنظر إلى الذين يروجون هذه الفتوى ويتبنونها، أتأمل فيهم وإذا هم يغدون ويروحون مع القوى التي احتلت فلسطين والمسجد الأقصى، مجالسهم على موائد مستديرة معروفة وموثقة ومصورة ثم إنهم بعد هذا يقولون ما ينبغي أن نزور المسجد الأقصى لأن ذلك اعتراف بأحقية الاحتلال. كيف نوفق بين هذا الإخاء الغريب العجيب الذي لا عهد لنا به بينهم وبين قوى إسرائيل وبين هذه الفتوى الغريبة والعجيبة؟ أسمعتم قصة ذاك الذي اخترق شرع الله واتجه إلى ارتكاب

الفاحشة ولكنه أصر على أن لا يباشرها إلا بحائل كي لا ينتقض وضوؤه، أيمكن أن نتصور هذا أيها الإخوة؟ لكن كأني بكم تسألون فما الحكمة من هذا الأمر؟ الحكمة لم تعد خفية، العالم الذي من حولنا قد تضافر واجتمعت كلمته تحت لواء القوى الصهيونية العالمية وتحت لواء إسرائيل التي تعيش إلى جانبنا، اجتمعت كلمتهم على اجتثاث كل ما اسمه مقاومة وتخويف لأم هذا العدو الذي جاء يعلن حربه على الإسلام والمسلمين جميعاً، هذه هي القصة. وقد شاء الله – وهذا شرف كبير لنا – أن تتمركز العداوة وأن يتمركز الحرب من هذه القوى المتضافرة على هذه الأرض المباركة، على هذه الأرض المقدسة وعلى شرفهم الله بالمقام فيها، لكن ما المستقبل؟ وكيف ينبغي أن نتحاشى هذا العدوان؟ أقولها بكلمات موجزة مختصرة نابعة من بيان الله القائل: ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

أسمعتم؟ أيها الإخوة الذين يرونني ويسمعونني، أيها الإخوة الذين يسمعونني من بعيد: أرجوا أن نتدبر هذا البيان الإلهي الهابط إلينا من الملأ الأعلى ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾

تعالوا نعاهد الله في ظل هذا الكلام قادة، وشعباً وجيشاً وأمناً على اختلاف الفئات، تعالوا أيها الإخوة – وأنا أول من يعاهد الله الآن – تعالوا نعاهد الله عز وجل على أن نرسخ إيماننا بمولانا، هل لنا مولى غيره؟ معاذ الله، تعالوا نرسخ عهدنا مع الله على أن نتحاشى الظلم، والظلم نوعان أخطرهما ظلم الإنسان لنفسه، تعالوا نعاهد الله عز وجل على ألا نظلم أنفسنا، نتوب إلى الله من سائر الأدران، من سائر المعاصي كبارها وصغارها، فإن زلت بنا القدم نعود فنتوب إلى الله والله يقبل التوبة، تعالوا نعاهد الله على التوبة، نعاهد الله على ألا نظلم أنفسنا بالمعاصي وبالعكوف على ما يغضب الله، ثم تعالوا نعاهد الله عز وجل على ألا يظلم بعضنا بعضاً، إن الله عز وجل يكره الظلم، يبغض الظلم وأهله، تعالوا نعاهد الله على أن نكون حراساً للعدالة، على أن نتسامى عن الظلم، أقولها لنفسي وأدعو إلى هذا العهد مع الله قادتنا، وأسأل الله لهم التوفيق والسير على صراطه، جيشنا، وأسأل الله عز وجل له التوفيق وأن يجعله

من حراس مبادئه وقيمه، شعبنا على اختلاف فئاته واختلاف مستوياته، أدعو نفسي وأدعو هؤلاء الإخوة جميعاً الذين تحتضنهم هذه الأرض المباركة، الذين شرفهم الله بالمقام فوق هذه الأرض، وإنه لشرف كبير نلناه جميعاً أن نكون مصداق هذه الآية الكريمة في كتابه المبين ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ إذاً ﴿أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ﴾ نعم ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

والله الذي لا إله إلا هو إنه لكلام حق ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾، إن صدقنا فعاهدنا الله عز وجل على هذا فلسوف تظلنا سحابة رحمانية من الأمن الآتي من قبل الله سبحانه وتعالى، ولن يستطيع عدو أن يتغشانا بسوء، ولن تستطيع عداوة العالم أجمع أن تنال من الأرض المباركة منالاً وأن تنال من أمة المصطفى صلى الله عليه وسلم منالاً، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.



٤٩٨- مَنْ لا يَرْحَم لا يُرْحَم | ٢٠١١/١٠/٠٧

لا أعرف في كتاب الله تعالى صفة يثني بها الله عز وجل على عباده كصفة الرحمة إذ يمتد نسيجها فيما بين أفراد عباده. تأملوا في هذا الذي يقوله الله سبحانه وتعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]. ﴿أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ﴾ أي الذين يناصبونهم العداء من الجاحدين، ﴿رُحَمَاء بَيْنَهُمْ﴾ تلك هي الصفة العليا التي وصفهم بها وشهد لهم بها.

تأملوا في قوله عز وجل وهو يتحدث عن العقبة الكؤود التي ينبغي لعباد الله المسلمين أن يتجاوزوها وأن يبذلوا الجهد كله في اقتحامها وتجاوزها، ما هي الأداة الوحيدة التي بها يقتحمون هذه العقبة؟ إنها التراحم، تأملوا في قوله سبحانه: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ، فَكُّ رَقَبَةٍ، أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ، يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ، أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ، ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ، أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ [البلد: ١١-١٨].

وما أعلم يا عباد الله أن شفيعاً يحجز العبد يوم القيامة من سخط الله وعذابه كالرحمة التي كان يعامل بها عباد الله في دنياه، تأتي هذه الرحمة فتحول بينه وبين سخط الله وتحول بينه وبين عذاب الله، وإنما شفيع الإنسان في المآل عمله.

وما أعلم يا عباد الله سلاحاً أمضى في التوفيق الذي قَيَّضَهُ الله لرسوله، أمضى أداةَ فَتْحٍ حققه الله سبحانه وتعالى لرسوله كسلاح الرحمة، ألا تتأملون في قوله سبحانه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وإنما الفتح المعتبر فتح القلوب، أما فتح البلاد والبقاع فذلك شيء يأتي على أعقاب فتح القلوب، افتتح رسولُ الله القلوبَ بالرحمة، ذلك هو السلاح الأمضى.

وتأملوا في تأكيدات رسول الله صلى الله عليه وسلم لهذه الحقيقة التي بيَّنها كتابُ الله سبحانه وتعالى. يقول صلى الله عليه وسلم فيما اتفق عليه الشيخان: ﴿من لا يَرْحَمُ الناس لا يرحمه الله﴾. تأملوا في قوله فيما رواه الإمام أحمد والترمذي وأبو داود والحاكم في مستدركه من حديث عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ﴿الراحمون يرحمهم الله الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء﴾.

عباد الله: أنا أبحث اليوم على ضوء هذا الذي ذكرته لكم عن الرحمة يسري نسيجها بين عباد الله المؤمنين في هذه البلدة فلم أعثر على هذه الرحمة تجيش بها صدور أكثر الناس اليوم، نعم بحثت فوجدت أن صدور كثيرٍ من الناس خاليةٌ عن هذه الرحمة التي هي أساس محبة الله سبحانه وتعالى للعبد لاسيما صَدْر أولئك الذين أتخمتهم النعمة، أولئك الذين يستغرقون في نعم الله عز وجل فأورثتهم تلك النعم التي أسداها الله سبحانه وتعالى إليهم قسوة في القلب، غَيَّبَتْهُم عن الرحمة، غَيَّبَتْهُم عن هذه المشاعر التي يثني الله سبحانه وتعالى على عباده بسببها، ولعلي لست مبالغاً في هذا الذي أقوله لكم.

لَفَتَ نظري إلى هذه المحنة التي أعدها محنة خطيرة كبيرة ذلك الإجراء الاقتصادي الجزئي — بل الشكلي — الذي اتُّخِذَ حماية لمدخرات الأمة ألا تتبدد وألا تنالها أيدي الأعداء، إن هي إلا ساعات — لا أقول أيام — إن هي إلا ساعات مرت بعد انتشار خبر هذا الإجراء وإذا بأصحاب الأموال الوفيرة والتجارات الكبيرة والمصانع الفخمة يتسارعون إلى شد الأسعار إلى الأعلى جهد الاستطاعة، إذا بهم يسطون سلطان الغلاء على الأسواق جهد الاستطاعة بدون موجب أو بموجب، بل قبل أن يوضع هذا الإجراء من الناس موضع التنفيذ. هذه الظاهر هي التي جعلتني أتساءل عن الرحمة التي هي أول ما ينعت الله عز وجل به عباده المؤمنين.

عباد الله: إن المثل العربي يقول: مصائب قوم عند قوم فوائد. وإنه لمثل منطقي وواقعي ومقبول عندما تكون مصيبة قومٍ من الأقوام فائدة لأعدائهم أو عندما تكون نعمة قومٍ من الأقوام مصيبة لأعدائهم، أما عندما تكون مصيبة أناسٍ فائدة لأشقائهم فحدث عن شدة هذه المأساة ولا حرج، حدِّثْ عن الألم الممض الذي يجتاح الإنسانية من هذه الظاهرة ولا حرج.

سيما وإن الجميع ليعلم أن هؤلاء الإخوة المتخمون بالنعم، هؤلاء الذين تسارعوا إلى ما فعلوا وملؤوا جيوبهم بالعلاوة التي طمحوا إليها وطمعوا بها إنما سرت إلى جيوبهم من استنزاف أولئك الذين يعيشون بالكفاف من الرزق، استُنْزِفَتْ هذه العلاوة من جيوبهم، استُنْزِفَتْ هذه العلاوة نعم من جيوب أولئك الذين لا يتمتعون من الرزق الذي متعهم الله عز وجل به إلا بالكفاف.

وأنا أقول ناصحاً ومذكراً: هذا المقدار الذي استُلِبَ أو استُنْزِفَ من جيوب هؤلاء ذوي الدخل المحدود أصحاب الكفاف في الرزق ألا يعلمون أنه بمقدار ما كان في جيوب أصحابه سبباً للعافية، سبباً للصحة، تحول إذ سرى إلى جيوب أولئك المتخمين سرى إليهم وهي جراثيم، وهي عبارة عن أسباب لأدواء علم الله أنواعها وعلم الله كيف تغزو أجسام أناس فقدوا الرحمة التي ميز الله عباده الصالحين بها، أقول لهؤلاء الذين أسرعوا فشدوا الأسعار إلى أغلى ما استطاعوا وبسطوا سلطان الغلاء في الأسواق المختلفة جهد استطاعتهم أقول لهم: ما قيمة المليارات وأضعافها إذا انتابك صداع اشتد عليك، أفقدك راحة يومك وأفقدك منام ليلك وأفقدك الاستقرار في حياتك؟ قل لي أي قيمة تبقى لملياراتك أو لأضعافها لديك؟ قل لي يا أخي إذا جاءك من يقول ليس لك إلا أحد الأمرين إما أن تُسْلَبَ ضياء عينيك وتبقى لك ملياراتك أو يبقى لك ضياء هاتين العينين وتُسْلَبَ فضول أموالك، ماذا تقول؟ إنني لأعلم – وكلنا يعلم – أنك ستنفض اليد عن فضول مالك كلها من أجل أن يبقي الله عز وجل في عينيك ضياءهما.

ماذا تقول لمن يخيرك بين الصمم الكلي تبتلى به وبين بقاء ملياراتك هذه؟ أنا لا أشك أنك ستستغني عن فضول مالك في سبيل أن يبقي الله لك هاتين الأذنين تسمع بهما.

ماذا تقول لمن يخيرك بين المليارات التي تمتلكها وبين بقاء الذاكرة في كيانك ودماغك، إما أن تصبح غداً وقد نسيت حتى اسم نفسك، نسيت ذاتك والدنيا التي من حولك ولك ملياراتك وإما أن تستغني عن فضولها في سبيل أن يبقي الله لك هذه النعمة. هل هنالك خلاف في الجواب المعروف عن هذا السؤال؟! ﴿الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك: ٢٣]. ﴿قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾.

العافية يا عباد الله هي أغلى كنزٍ متعك الله به، فإذا عرفت ذلك فاشكر الله – لا بلسانك – اشكر الله بالرحمة تسديها لإخوانك من حولك أياً كانوا.

استسقى أمير المؤمنين هارون الرشيد بعض خدمه ماءً وكان في المجلس ذلك العالم الرباني الفقيه المحدث طاووس بن كيسان اليماني، جيء بالماء إلى هارون الرشيد، قال له طاووس: مه يا أمير المؤمنين – انتظر – أصغى السمعَ هارون إليه، قال له طاووس: يا أمير المؤمنين أرأيت لو أنك حُرِمْتَ هذه الكأس على ظمأ بم كنت تشتريها؟ قال: بكل ما أملك. قال: فاشرب هنيئاً، ولما شرب فارتوى قال: يا أمير المؤمنين أرأيت لو حُرِمْتَ خروج هذا الماء من جسدك بم تشتري إخراجها؟ قال: بكل ما أملك. قال: يا أمير المؤمنين اتق الله في ملك لا يساوي جرعة ماء.

أقول هذا الكلام لنفسي، وأقول هذا الكلام لكل أخٍ في الإنسانية وفي الله: ماذا أصنع، ماذا تصنعون بالمزيد من المال جعلتُ من هذا المال حجاباً بيني وبين هذا الرحمة تسري من قلبي إلى عباد الله عز وجل الذين ابتلاني الله عز وجل بهم وابتلاهم بي؟ ماذا يفيدني فضل المال، ماذا تفيدني فضوله إذا أُبْتُ غداً إلى الله وقد نفضتُّ يدي عن الزائد من وراء ما أكلت ومن وراء ما لبست ومن وراء ما سكنت فيه ثم ذهبت إلى الله عز وجل أبحث عن الشفيع الذي يحط عني أوزاري فلم أجد هذا الشفيع لأنني لم أدخره لذلك اليوم، وصلى الله وسلم على من قال: «يقول الإنسان مالي، مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ولبست فأبليت وتصدقت فأبقيت».

هذا الذي أقوله أيها الإخوة دفعتني إلى ذلك حرقة إلى أن أقوله آملاً أن يسري كلامي لا إلى آذان هؤلاء الإخوة بل إلى قلوبهم، دفعني إلى ذلك هذا المنعطف الذي نمر به الآن، هذه العصي التي تتهاوى علينا من لدن رب السموات والأرض لتوقظنا من سبات، لتعيدنا إلى صراطه العزيز الحميد، لتوقظنا إلى التوبة، لتجعلنا نؤوب ونتوب عن الانحراف وما أكثره وعن الشرود وما أدومه، أجل نحن نمر بهذه المحنة ولا توقظنا هذه المحنة إلى التراحم؟! ووالله الذي لا إله إلا هو إن أول دواء وأول وسيلة ناجحة تنجينا من هذه المحنة وتنهي هذه العصي التي تتهاوى علينا من لدن رب العالمين، أنجع دواء لذلك إنما هو التراحم يسري

بين قلوب عباد الله عز وجل. أمر لم أكن أتوقعه، لم أكد أصدق أذني عندما قيل لي إن الأسعار قد هبَّتْ وإن الغلاء قد بسط سلطانه، لا بالنسبة للأمور التي يمكن أن يجري فيها النقاش بل في كل شيء. أهكذا يكون المؤمن؟! أهكذا يكون التراحم؟! أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم فاستغفروه يغفر لكم.



٤٩٩- ساعة في نقد الذات ضرورة للأمة وقادتها | ٢٠١١/٠٩/٠٩

إذا تذكرنا الحقيقة القائلة بأن الأمة بشطريها القادة والشعب إن هي إلا شخصية اعتبارية واحدة، إذا تذكرنا هذه الحقيقة فلنعلم أن على هذه الشخصية متمثلة في سائر أفرادها أن تعكف على ساعة قدسية من نقد الذات وأن تعيد تنسيق المسؤوليات فيما بين أجزائها وأعضائها، فما أكثر ما ترامت هذه الأعضاء مسؤولياتها بعضها على بعض. هذه الحقيقة يذكرنا بها دائماً كتاب الله عز وجل، وتأملوا يا عباد الله في هذه الآيات التي تأمرنا بهذه الساعة القدسية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨]. تأملوا في قوله سبحانه وتعالى: ﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ، وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾ [القيامة: ١٤-١٥].

بوسعه أن يعلم نقائصه وأراد أن يقف أمام هوية ذاته، تأملوا في قوله سبحانه وتعالى في محكم تبيانه وهو يقول: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار: ٥]. وهذا العلم إنما هو في دار الدنيا كما قال العلماء.

عباد الله: إن لم تنطلق الأمة أفراداً من العكوف على هذه الساعة القدسية – نقد الذات، محاسبة النفس – فإن القوانين مهما رُصِفَتْ لا تصلح فاسداً ولا تقوِّمُ اعوجاجاً، وإن موادها مهما تناسقت أيضاً هي الأخرى لا تصلح فاسداً ولا تقوِّمُ اعوجاجاً، المنطلق هو الفرد، المنطلق إنما يتمثل في نقد الذات. تعالوا نضرب بعض الأمثلة التي تجسد هذه الحقيقة التي يضعنا أمامها بيان الله سبحانه وتعالى.

ما أكثر ما تظا لم أفراد الأسرة الواحدة، ما أكثر ما يتظا لم الزوجان لأن الزوج قد أهدر حقوق الزوجة فيما يتعلق بحقها بالمهر ونحوه، وما أكثر ما أهدر حق الزوج من قبل الزوجة في كثير مما شرع الله وأمر لأن أياً منهما لم يعكف على ساعة قدسية من نقد الذات، ما أكثر ما يتظا لم الأولاد ذكوراً وإناثاً لأن الإناث حرمن من حقهن في الميراث لأنهن إناث، ولعلكم تعلمون هذه الظاهرة الجاهلية التي لا تزال تسري إلى كثيرٍ من البيوت، ومن ثم فإن الأحقاد والضغائن هي التي تتوضع في مكان المحبة والوئام.

تعالوا ننظر إلى أسواق التعامل، ما أكثر ما يتظا لم رجال المال والأعمال مع الناس المستهلكين الذين يغشون أسواق العمل وأسواق الاقتصاد، ذلك لأن التجار ورجال الأعمال منصرفون إلى أبواب الرشاوي التي تجعلهم يفرون من القوانين والشرائع وتجعلهم يتملصون منها ذات اليمين آناً وذات الشمال آناً، أو يعكفون على ابتداع وسائل الغش والخداع والغرر وما أكثر هذه الأنواع وما أكثر ما يُبتَدَعُ منها اليوم، ومن ثم فإن علاقة ما بين هؤلاء الناس بعضهم مع بعض تتحول إلى أحقادٍ وضغائن بدلاً من أن يمتد فيما بينها نسيج الأخوة، نسيج التعاون والوئام، ترى ماذا عسى أن تصنع الشرائع المكتوبة وماذا عسى أن تفعل القوانين المرسومة عندما تغيب هذه الساعة القدسية، ساعة العكوف على النقد، ساعة العكوف على نقد الذات ومحاسبة النفس، وصدق من قال: ﴿حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا﴾.

عباد الله: تعالوا نتأمل في الليالي وما تُحشى بها هذه الليالي وساعاتها، تعالوا نتأمل في العمر الثمين الذي لا أقول ملكنا الله عز وجل إياه بل ائتمننا عليه، فيم تزهق هذه الساعات، فيم تتبدد بل هذه الدقائق وهي أمانة وضعت في أعناقنا ونحن نعلم أيها الإخوة مما سمعنا الآن من بيان الله عز وجل أن الإنسان مدفوع إلى هذه الساعة القدسية من محاسبة النفس ونقد الذات، مدفوع إلى ذلك من اليقين بالحقيقة التي لا ريب فيها وهي أننا نعيش من حياتنا هذه في ممر نعبره إلى مقر، من لم يؤمن بذلك اليوم طوعاً فلا بد أن يستيقنه غداً قسراً واضطراراً، هذه هي الحقيقة ينبغي أن نتبينها.

أما ثالثة بل رابعة الأثافي فتتمثل في هذه الصورة التي لا يكاد يصدقها العقل، صور إنسان – أجل يسمى إنسان – يعمل إلى تخريب بلده وإحراق بنيانها في سبيل أن تعمر جيبه ببضعة آلاف، نعم، يعمد إلى تخريب بلده، يعمد إلى تحريق بنيانه من أجل أن تعمر جيبه ببضعة آلاف من المال وهو يعلم لو عكف على ساعة من نقد الذات أن هذه الآلاف لن تبقى حبيسة في جيبه بل ستسري بأخبث الأمراض إلى جسده ولسوف تستقر ناراً كاوية من الندامة في قلبه وبين طوايا جوانحه ولسوف تقيمه الندامة ثم لا تقعده ولسوف يذيبه ضرام هذه الندامة شيئاً فشيئاً كما يذوب الدهن فوق نار كاوية، يعلم هذا لو أنه عكف على ساعة قدسية من نقد الذات.

يا عباد الله، يا ناس هل سمعتم عاقلاً يخرب داره من أجل أن يُفْرِحَ عدوه؟! هل سمعتم عاقلاً يزهق نفوس إخوانٍ برآء في سبيل أن يضمن أمن عدوه؟! هل سمعتم بهذا؟! مهما كان الذل مهيمناً على كيان الإنسان، مهما كانت المهانة آخذة منه بالعنق فإن إنسانيته ستجمح به دون الإقدام على هذا الأمر، لكن هذا يتم اليوم، لماذا؟ لأن هذا حيل بينه وبين إنسانيته لأنه لم يقف لحظة واحدة أمام مرآة ذاته وقفة نقد، وقفة محاسبة. قالوا: إن العاقل في الناس هو من لا يفعل فعلاً يعلم أنه سيندم عليه — وحقاً ما قالوا — هذه الحقيقة لا ريب فيها ولا شك يا عباد الله. لقد رؤي بعض من هؤلاء الناس وإن الواحد منهم يلطم وجهه، وإن الواحد منهم يسب ذاته، ولقد آل الأمر ببعض منهم إلى الانتحار ليتخلص من عقابيل هذه الندامة. أرأيتم يا عباد الله إلى ما أمر الله عز وجل به وذكَّر ونبَّه إليه من ضرورة الوقوف أمام ساعة قدسية من نقد الذات هذه الحقيقة يخاطب بها القادة وتخاطب بها الأمة جمعاء يا عباد الله.

نعم يجب أن نتذكر إلى جانب هذا المعنى الذي قلته لكم الحقيقة القائلة: إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن. صحيح أن القوانين تُشَلُّ إذا لم يقف الإنسان الفرد ساعة قدسية لنقد ذاته ولكن الحقيقة هكذا تقول: إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن. لئن تاهت الأمة عن هذا العلاج الذي ذكَّر به الله سبحانه وتعالى فإن علاجاً آخر لا يزال موجوداً، هو العلاج الذي أمكن الله عز وجل السلطان منه، سلطان التربية، التربية التي تعلو بالأمة صُعُداً شيئاً فشيئاً إلى أن يعانق كل فردٍ منها هذه الساعة القدسية، إلى أن يصبح كل واحدٍ منهم يعكف كل واحد منهم على محاسبة نفسه وعلى نقد ذاته على ضوء المقر الذي هو آيلٌ إليه بعد هذا الممر الذي هو فيه.

التربية؛ من الذي يملك أمرها؟ السلطان، أي قادة الأمة. التربية التي تقوم على القيم قبل أن تقوم على العلوم، وما أفادت العلوم شيئاً إن أصبحت مكنة أو سلاحاً في أيدي من لم يُرَبَّ هذه التربية التي يتحدث عنها بيان الله سبحانه وتعالى. إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن عن طريق المراقبة، عن طريق المحاسبة، عن طريق العقاب.

أجل. ولقد قلت لكم: إن القانون لا يوجد شيئاً معدوماً مهما كان دقيقاً ومهما صَلُحَ أمره ولكنه يحرس ما هو موجود، القوانين كلها في العالم أجمع بما فيها شرائع الله سبحانه وتعالى لا توجد شيئاً معدوماً وإنما تحرس ما هو موجود، أوجد المعدوم أولاً، المعدوم الذي لابد أن يوجد عن طريق العقيدة السلمية، عن طريق الإيمان بالله عز وجل، ثم عن طريق محاسبة النفس عن طريق الوقوف على هذه الساعة القدسية من محاسبة الذات ومن نقد النفس والذات، أجل، هذا هو المنطلق. إذا وجدت هذه الحقيقة جاء دور القانون ليحرس هذه الحقيقة أيما حراسة. التربية هي الغذاء الذي ينمي ويغذي ويرسخ جذور هذه الحقيقة المثلى، حقيقة الإيمان بالله، حقيقة التربية على هذا الأساس، وأنتم تعلمون أين تقع المؤسسات التربوية وكيف ينبغي أن تمارِس وكيف ينبغي للأمة أن تمارَس من خلال هذا الواجب.

مرة أخرى أقول أيها الإخوة كلنا بحاجة إلى أن نقف وقفة قدسية مع نقد الذات وأهم هؤلاء الذين يجب عليهم أن يقفوا هذه الوقفة القدسية هؤلاء الإخوة الذين أشفق عليهم أكثر مما أحقد أو أنتقد عليهم، هؤلاء الذين عمدوا إلى إحراق بلادهم وإتلافها وتخريب دورهم من أجل بضعة آلاف توضع في جيوبهم، يا هذا والله إن لن تستمتع بهذه الآلاف، والله إنها ستسري بأخبث الأمراض إلى كيانك، والله الذي لا إله إلا هو إنها ستوقد ضراماً من نار الندامة بين جوانحك ثم إنها لا يمكن أن تخمد بشكل من الأشكال حتى تذيبك، أنا أشفق على هؤلاء الأخوة وأرجو أن يبلغهم كلامي ونصحي. يا ناس كلكم — وأبدأ بنفسي — تعالوا نقف ساعة قدسية أمام نقد الذات، نحن اليوم نتحرك فوق هذه الأرض وغداً سيحتضننا باطن هذه الأرض، أجل، يا من يبحثون لنفسهم عن قصور فوق هذا الركام ابحثوا عن قصوركم في باطن الأرض، أقول لكم كما قلت قبل أيام: قصورنا قبورنا فاجهدوا جهدكم أن يبني كل واحد لنفسه قصراً في باطن الأرض.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

٥٠٠- حرية الرأي | ٢٠٠٠/٠٥/١٢

يشهد العالم في هذه الأيام مفارقات عجيبة يذهل لها عقل الإنسان اللبيب وتناقضات بهلوانية غريبة، يحار لها الإنسان الذي يبحث عن مقاييس العقل ومقاييس الإنسانية والرشد . ولا أشك أن هذه التناقضات البهلوانية الغريبة وإن كانت في ظاهرها شراً تشمئز منه النفوس وتتسامى فوقه الألباب والعقول، إلا أنه في باطنه خيرٌ للإسلام والمسلمين ولعله من مظاهر قول الله عز وجل (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ) .

منذ قرابة شهر أصدرت محكمةٌ بريطانيةٌ حكماً بمعاقبة كل من يشكك من خلال أي بحث أو تحقيقٍ علمي بما يسمى المحرقة الألمانية التي يقوم ويقعد بها دعاة الصهيونية في العالم وانتشر خبر هذا الحكم الذي أصدرته المحكمة البريطانية في العالم . وبالأمس اهتاجت ثلة من المسلمين الصادقين في إسلامهم مع ربهم في القاهرة استنكاراً لروايةٍ تستهين بالإسلام وتنال منه لا بنقاشٍ علمي بل بسخريةٍ وشتائم من خلال روايةٍ يقال إنها أدبية ونظرنا وإذا بريطانيا التي أصدرت ذلك الحكم تعرض كل من يشكك بالبحث العلمي تعرض كل من يشكك بالتحقيق الوثائقي بمدى أحقية تلك المحرقة أو كميتها الحقيقية إذا ببريطانيا هذه تستنكر هؤلاء الذين قاموا يدافعون عن دينهم، وتقف منهم في إذاعتها موقف الخصم وتُذكر بحرية الرأي وبحرية القول وتُذكر بضرورة أن تكون الأقلام وأصحابها أحراراً فيما يقولون وفيما يرتأون أليست هذه المفارقة العجيبة من نوع التناقض البهلواني الذي تشمئز منه النفوس وتتسامى فوقه العقول أياً كانت تلك العقول ؟ أن يبحث إنسانٌ بحثاً وثائقياً من خلال براهين علمية عن حجم تلك المحرقة وكمها أو كيفيتها هذا ما ينبغي أن تنطق به الألسن وما لا ينبغي أن تتحرك به الأفواه وأين هي الحرية تُنوسيت الحرية كلها، أما أن ينال إنسانٌ لا عن طريق بحثٍ علمي ولا عن طريق استحضار دلائل وثائقية بل أن ينال الإسلام بسباب والشتائم والسخرية كما فعل الآيات الشيطانية الذي يلقى الحماية والرعاية التامة اليوم في بريطانيا فتلك جريمةٌ ينبغي أن تذهب ضحية للحرية .

غدت الصهيونية ديناً مقدساً يُضحى بالحرية ويُضحى بالبحث العلمي في سبيلها أما الإسلام والدفاع عن الإسلام وحماية حقائق الإسلام فغدا كل ذلك جريمة ينبغي أن يُضحى بها في سبيل الحرية في سبيل أن يكون الناس أحرارا، ينطقون كما يشاؤون . أتلاحظون أيها الإخوة هذا التناقض البهلواني الغريب العجيب! وصدقت القاعدة القائلة إذا لم تستح فاصنع ما شئت. وكم وكم هنالك فئات على مسرح هذه الحياة ممن خلعوا آخر كسوة الحياء ومن ثم فلا يبالون بأن يضعوا العقول تحت أقدامهم آناً وأن يمثلوا من أنفسهم الدفاع عن هذه العقول آناً آخر آناً آخر.

عندما سمعت منذ شهر أنباء تلك المحكمة التي قضت بما قضت به من معاقبة كل من يحرك فمه اعتماداً على دليلٍ علمي أو وسائل وثائقية بمسألة المحرقة أو يبث أي نوع فيها أو في حجمها فإنه يُعرض لذلك عقاب صارم قلت في نفسي لابد أن سلمان رشدي سيبحث بعد اليوم عن مقرٍ آخر له ولابد أنه سيعلم أن بريطانيا صحت إلى أن الحرية لها حدود وأن القيم الإنسانية ما ينبغي أن يُنال منها ولعلها تعد ما فعلته ألمانيا النازية باليهود أمراً مخالفاً للقيم الإنسانية والقيم الإنسانية وحدةٌ لا تتجزأ وكلٌ لا يتناقض، قلت في نفسي لابد أن صاحب الآيات الشيطانية سيجمع أمتعته ويبحث لنفسه عن مستقرٍ آخر له لأنه لم يمزق القيم الإنسانية بوسائل وثائقية وليته فعل ذلك، لم يمزق قيم الإسلام بمناقشات علمية وليته فعل ذلك وإنما مزق القيم الإسلامية بسبابه المرذولة وشتائمه السوقية التي يخجل السوقة من أن ينطقوا بها، أجل وقد قرأت روايته ووقفت على الفكر الذي يقال ينبغي أن يكون حراً لم أعثر على سطرٍ واحد فيه فكر وإنما عثرت على سباب على شتائم كما قلت لكم يخجل السوقة الذين تعودت ألسنتهم على الشتائم المستقذرة يخجلون من التطق بها . هذا الإنسان لم يمزق القيم الإنسانية بتحقيقات علمية وإنما بسباب وشتائم وكلامٍ ساقط قلت في نفسي لابد أنه سيجمع أمتعته وسيضطر بحكم هذا الحكم الذي صدر إلى الخروج من بريطانيا، لكن المحكمة التي أصدرت هذا الحكم طمأنت المجرم أن يبقى إنك لم تتطاول على الصهيونية وإنما سببت الإسلام فلا جريمة لك إنك لم تتطاول على المحرقة ولكنك فيما قد كتبت سببت الإسلام فأبقى فإنك مكلوء بالعناية والرعاية أجل ثم إن بريطانيا أصرت على أن تُأكد موقفها هذا الغريب والعجيب بل الساقط عندما دافعت عن الروائي الذي كتب روايةً وسرب من خلالها ما سرب من السخرية بالإسلام أنكرت احتجاج المحتجين أنكرت المواقف التي يحق للإنسانية أن تقفها

إلى جانب اليهود الذين يدافعون عن الظلم الذي نالهم وأصابهم أنكرت موقف هؤلاء من حيث أيدت موقف أولئك الآخرين ولقد سمعت كيف يدافع المذيع عن رواية صاحب الرواية وكيف يسفه المسلمين الذين اهتاجوا بالكلام وأعلنوا عن طريق الحرية الفكرية عن استنكارهم لهذا الموقف ولهذا الأمر وسمعت من يقول إنها رواية خيالية وهذا الراوي من حقه أن ينسج على قلمه أخيلةً وحوارات يستقيها من صور واقعية ولا يُشترط أن تكون هذه الصور حقيقية ومهما قال ومهما نال من الإسلام من خلال ذلك فالذي يشفع له أنه كتب رواية ولكن المسلمين لا يتقنون قراءة الروايات، هل بلغت السخرية بدين الله والمدافعين من دين الله إلى هذه الدرجة ؟!

لو أن كاتباً روائياً كتب روايةً يتخيل فيها ويستنطق فيها الأحداث ويسلسل من خلال استنطاقه الأحداث حوارات ثم سرب من خلال هذا الحوار سخرية بملك من ملوك العالم العربي اليوم أو برئيسٍ من رؤساء العالم اليوم أفكان يشفع له أن سخريته جاءت تحت مظلة روايةٍ أدبية ؟ أفكان يشفع له أن الناس لا يتقنون قراءة الأدب وقراءة الروايات الأدبية ؟ أما بريطانيا فتقول نعم ينبغي للناس وللمسلمين بالذات أن يتقنوا قراءة الأدب ولن يتقنوا قراءة الأدب إلا إذا نامت مشاعرهم وإلا إذا تنكروا لانتسابهم إلى دين الله سبحانه وتعالى فتقبلوا السخرية ثم تقبلوها دون أي استنكار عندئذٍ يكونون قد أتقنوا فن قراءة الرواية. من ذا الذي يسمع هذا الكلام ولا يشعر بالقرف من هذا الكلام التافه ؟

أيها الإخوة قلت لكم رب ضارة نافعة أعتقد أن هذا الذي يجري في العالم اليوم من هذه المكاييل المتناقضة التي تلتقي على جامع مشترك واحد ألا وهو انتقاص العالم الغربي من الإسلام واتفاقه من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب على الوقوف في وجهه وعلى القضاء عليه جهد الاستطاعة هذه الظاهرة التي غدت حقيقة واضحة هي في الظاهر ضرر ولكنها تستبطن في باطنها خيراً للإسلام والمسلمين . مثل هذا الأمر لابد أن يوقظ المسلمين مثل هذا الأمر لابد أن يُعيد الشاردين إلى صراط الله مثل هذا الأمر لابد أن يُعيد الضالين ليصطلحوا مع الله سبحانه ذلك لأنهم إن لم يصطلحوا مع الله للجذوة الإيمانية التي ربما لم تكن حارةً بين جوانحهم فلا بد أن يصطلحوا معه بدافعٍ من الشعور الوطني إن كانت لديهم بقايا من هذا الشعور وإذا لم تكن بين جوانحهم جذوةٌ من هذا الشعور الوطني فلابد أن يصطلحوا مع الله سبحانه وتعالى إذاً بدافعٍ من الكرامة التي تجعل من الإسلام هوية وحيدةً للمسلمين في مسرح العالم اليوم فإن لم

تكن بين جوانحهم جذوةٌ حارة بالشعور بالكرامة فلابد أن يصطلحوا مع الله سبحانه وتعالى بدافعٍ من العقلانية التي تشمئز من هذا الموقف المتناقض الأرعن.

رب قائل يقول وما موقف الإسلام من الحرية ؟ أما ينبغي في عصر الحرية أن نطلق للناس سبيلاً ممارستهم لهذه الحرية المقدسة ؟ وأقول في الجواب أختم به حديثي هذا كلاماً أختم به حديثي هذا : ليس هنالك من يرعى الحرية الحقيقية كما رعاها الإسلام دين الله عز وجل عندما يأتي من يريد أن يكتب عن الإسلام منتقضاً لكن من خلال فكره الذي لم يعتقد بواسطته بدين الله عز وجل من خلال المشكلات التي تطوف بذهنه لا أحد يمنعه من أن يقول ما يقول لا أحد يمنعه من أن يعبر عن شبهاته في كتاب أو ينطق لسانه بها أمام أناس آخرين وكم وكم في تاريخ الإسلام والمسلمين من قاموا بهذا فاحتضنهم المجتمع الإسلامي من خلال حوار من خلال نقاش، لم تكمم أفواه المرجئة لم تكمم أفواه الخوارج لم تكمم أفواه الحشوية وإنما نوقشوا وجودلوا . أما عندما يكون الحوار تعبيراً عن أن يمد لساناً قذراً بالسب عندما تكون الحرية تعبيراً عن أن يحرك لسانه القذر بالشتائم بالسخرية من خلال استنطاقٍ لأبطال رواية فمن ذا الذي قال إنها حرية مقدسة!؟ أي مجنون هذا الذي يقول عن إنسانٍ قد سكر فهذى فسب وشتم دعوه لأنه يمارس حريةً مقدسة في التعبير عن الرأي!؟ التعبير عن الرأي خيط ما بين اللسان والعقل الرائد في استنطاق الحر هو العقل وعندما يكون اللسان الحر يتحرك بدافعٍ من قناعات فمرحباً والإسلام في هذه الحالة يدعو إلى الحوار ويقول:

(ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) أما إذا كانت الحرية عبارة عن ترديدٍ وأقل كلمة من هذه الكلمات التي تقدسها بريطانيا عندما تكون الحرية ترديداً لمثل كلمة القحبة أو القحبات ولا أريد عن من يتحدث فمن ذا الذي خرج من البيمارستان فاراً وقال إنها الحرية التي ينبغي أن تقدس ثم رأى مجانين أمثاله قالوا نعم ينبغي أن تكون هذه هي الحرية ؟! إسلامنا علم العالم الحرية من حيث علّم العالم ما هي الحرية أما الغرب اليوم فإننا نشهد كيف ينسخ هذه الحرية وكيف يحيل الحرية المقدسة إلى حرية سباب إلى حرية سخرية إلى حرية شتائم .

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم .

الحمد لله حمداً كثيراً كما أمر وأشهد أن لا إله إلا الله إقراراً بربويته وإرغاماً لمن جحد به وكفر وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله وصفيّه وخليله خير نبي أرسله ، أرسله الله إلى العالم كله بشيراً ونذيراً اللهم صلِّ وسلِّم وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد صلاة وسلاماً دائمين متلازمين إلى يوم الدين . عباد الله اتقوا الله فيما أمر وانتهوا عما نهى عنه وزجر وأخرجوا حبَّ الدنيا من قلوبكم فإنه إذا استولى أسر ، وأعلموا أن الله أمركم بأمر بدأ فيه بنفسه وثنى بملائكة قدسه فقال عز من قائل عليماً إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما صليت على سيدنا ابراهيم وآل سيدنا ابراهيم وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما باركت على سيدنا ابراهيم وآل سيدنا إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد ورضي الله عن الخلفاء الراشدين ذو الفخر العلي أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وعن سائر الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين